جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

موسوعة

التاريخ الإسلامي

الجزء الأول

تقديم

الأستاذ الدكتور / محمد مختار جمعة
وزير الأوقاف
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

إشراف

أ.د / أحمد علي عجيبة
أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م



جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

موسوعة التاريخ الإسلامي

الجزء الأول

تقديم

الأستاذ الدكتور / **محمد مختار جمعة**

وزير الأوقاف

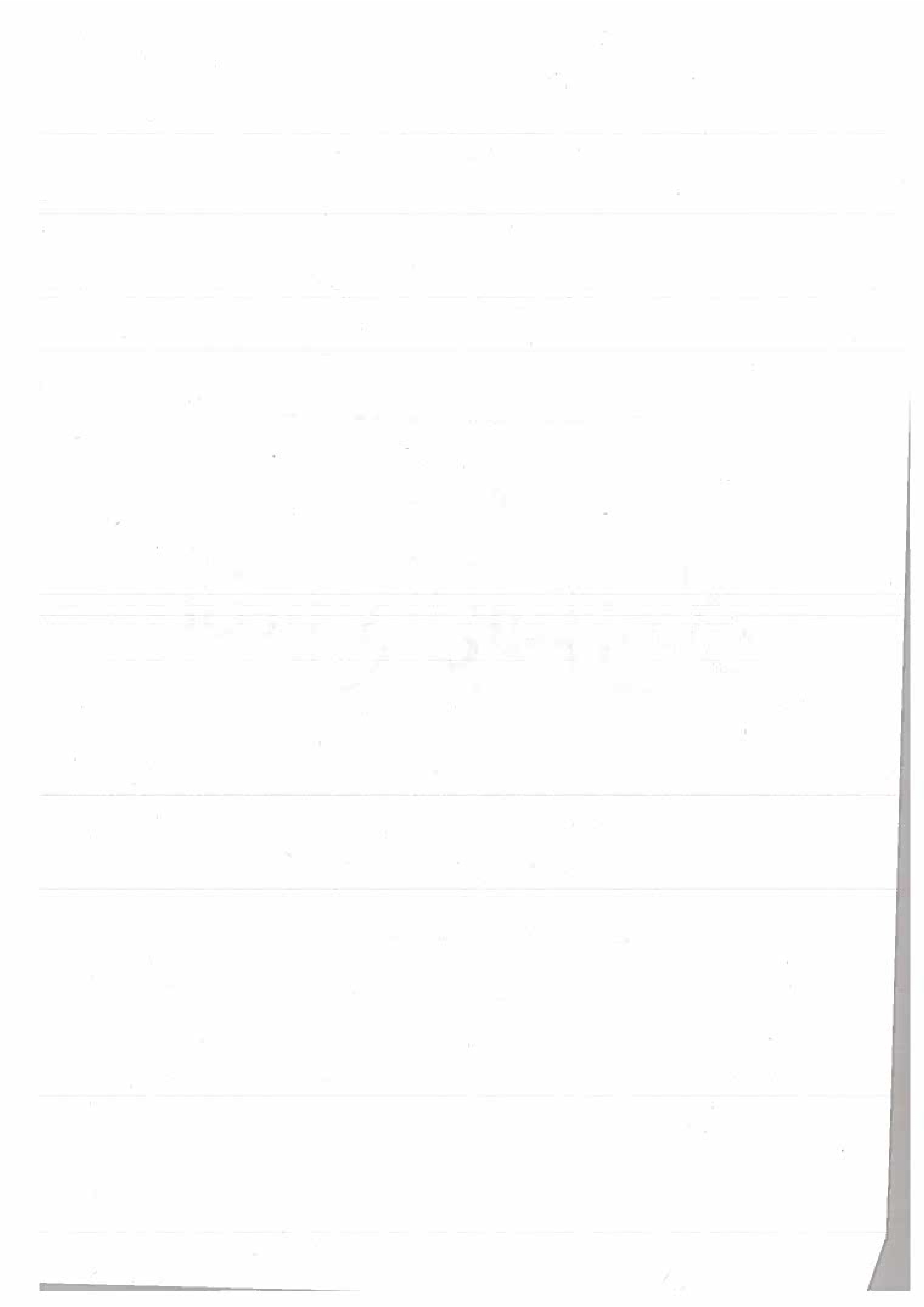
رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

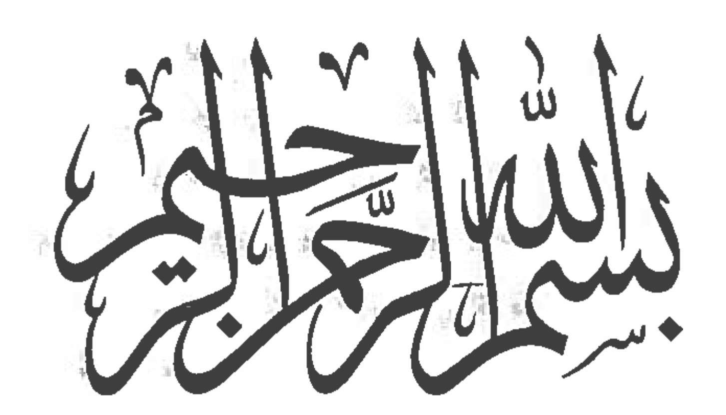
إشراف

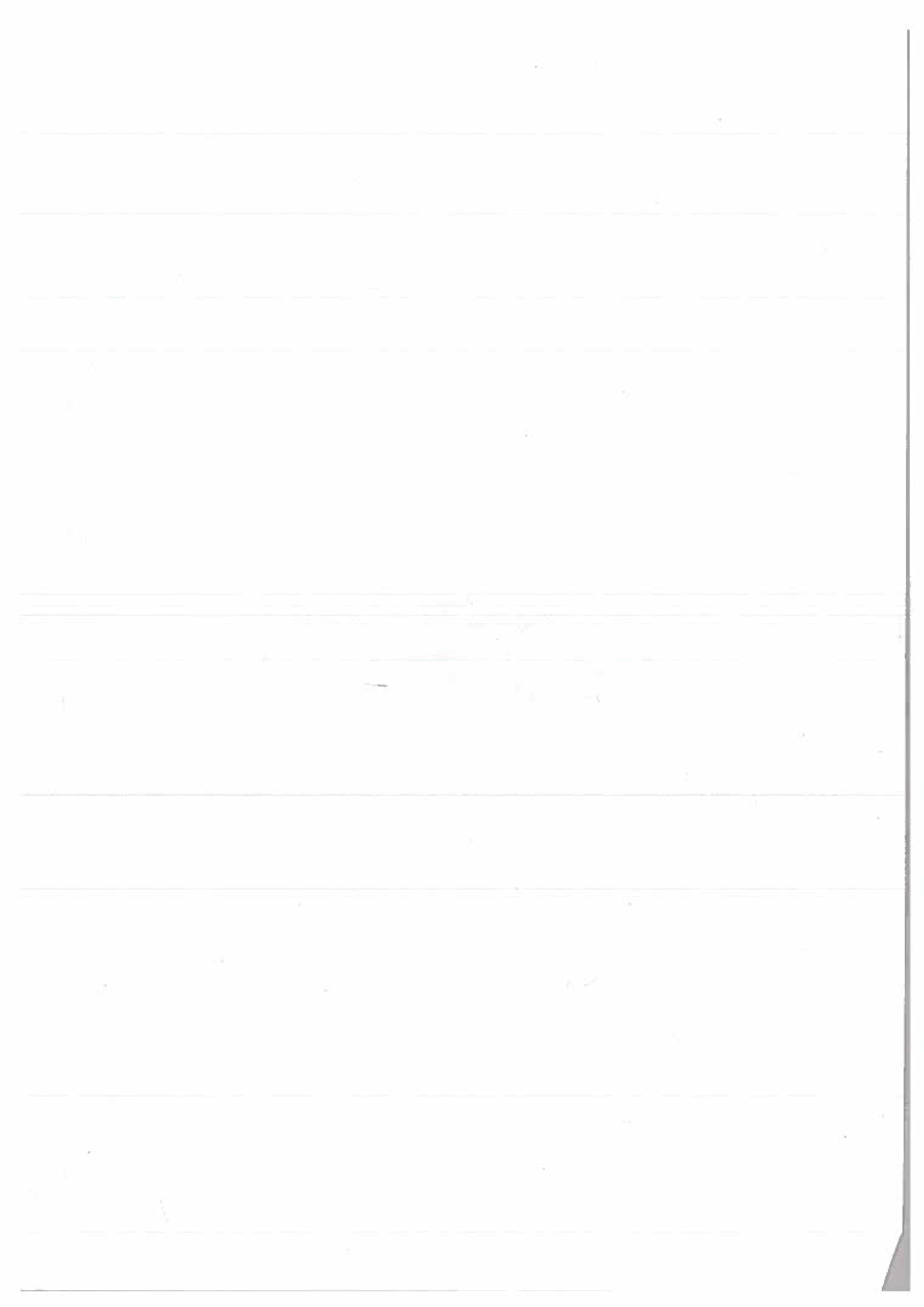
أ.د / **أحمد على عجيبة**

أمين عام المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

القاهرة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م




بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه ورسله، سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الحضارة والثقافة أمر تراكمى لا يمكن القفز به فوق الزمن ، وإذا كان بعض علماء النفس يقولون: إن المعلومات الحديثة تفسر فى ضوء المخزون الثقافى لدى المتلقي ، فكلما كان هذا المخزون وافرًا كان استيعاب الجديد والحديث أسهل وأيسر ، وكلما كان المخزون شحيحًا أو ضئيلاً أو ناقصًا حدث تعثر فى النهج بقدر هذا الشح والنضوب وتلك الضآلة.

وإذا كان هذا على مستوى الأفراد فى فهمهم واستيعابهم وقدرتهم على التعامل مع المستجدات، فإن أحوال الأمم لا تختلف كثيرًا ، وإذا كان بعض الحكماء يقولون: من لا ماضي له فلا حاضر له ولا مستقبل ، فإن تدقق العبارة فتقول: من لا ماضي له فلا حاضر له ولا مستقبل إلا بجهد جهيد ، ففرق شاسع بين من يبني على أساس صلب متين ، وبين من يبنى فى الهواء الطلق: ولله در الشاعر العربي حيث يقول:

وما بك من مجد أتوه تباعًا   توارثه آباء آبائهم قبل

ويقول نبينا - صلى الله عليه وسلم -: " الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا " . فالعاقل من يأخذ من ماضيه العبر والعظات والنافع والمفيد ؛ ليبني عليه فى الحاضر ، وينطلق منه للمستقبل.

ولا شك أننا نملك حضارة عظيمة حكمت العالم وسادت ربوعه قرونًا طويلة، وكان لها يد السبق فى السلطة والحكم ، والعلوم والمعارف، وتميزت بأنها حضارة بناء لا هدم ، فلم يعرف التاريخ حضارة كانت أكثر استيعابًا وتقديرًا للحضارات الأخرى وعلومها ومعارفها، والعمل على ترجمتها والإفادة منها ، دون تحقير أو تهوين،

مثل حضارة الإسلام السمحة التي فتحت الباب واسعًا أمام غير المسلمين لتقلد مناصب هامة فى الدولة الإسلامية، وبخاصة فى مجال الدواوين، والكتابة، والمال، ناهيك عن إفساح المجال العلمي لهم فى الطب والصيدلة والفلك والرياضيات وسائر العلوم التي حرص حكام المسلمين وولاتهم على العناية بها حِرْصَهم على العلوم الشرعية.

ولا شك أن هذه الأمة ولادة، وأنها وإن مرضت يومًا فلن تموت بإذن الله أبدًا، ولن يجف معينها، ولا معين أبنائها، ولا تزال طائفة من أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم إلى أن تقوم الساعة. وإن أبناء هذه الأمة لقادرون على النهوض بها مرة أخرى لو أن الله عز وجل هيأ لهم من أمرهم رشدًا. وأخذوا بأسباب الحضارة والرقى من العلم والعمل معًا، وما ذلك على الله بعزيز ولا ببعيد. وإننا لعلى أمل فى أن يحدث أبناء جيلنا نقلة نوعية ليس فى تاريخ الحضارة الإسلامية فحسب، وإنما فى تاريخ الحضارة الإنسانية، شريطة أن ندرك عظم المسئولية، ودقة المرحلة، مع التفاني فى العمل وإخلاص النية لله عز وجل، وتقديم مصلحة الوطن على أى مصالح شخصية، أو فئوية، أو حزبية، وصدق الله - عز وجل - إذ يقول فى كتابه العزيز: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ (الرعد: ١٧).

وفى إطار هذا النافع المفيد يسرنا أن نقدم للمثقف العربي وغير العربي تلك الموسوعة الرائدة فى التاريخ الإسلامي، لتلقي مزيدًا من الضوء على بعض الجوانب والصفات الناصعة المشرفة من هذا التاريخ العظيم، وتشكل مفاتيح هامة لكثير من موضوعاته وقضاياه.

والله الموفق والمستعان..

تحريرًا في:

٢٩ رمضان ١٤٣٥هـ

٢٧ يوليه ٢٠١٤م

وزير الأوقاف

رئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

أ. د. محمد مختار جمعة

هذه الموسوعة

تَنْضمُّ موسوعة التاريخ الإسلامى إلى زميلاتها فى سلسلة الموسوعات المتخصصة التى يتولى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة إصدارها فى مجال علوم الإسلام وفكره وحضارته منذ أن بدأ هذا المشروع على يد الأستاذ الدكتور /محمود حمدى زقزوق . وقد شاء الله العلى القدير أن تصدر هذه الموسوعة برعاية الأستاذ الدكتور/ محمد مختار جمعة.

وهذه الموسوعة تمثل الإصدار الثانى عشر بعد موسوعة " الأخلاق " وتقع فى مجلدين كبيرين وتَضمُّ ما يزيد على مائة وثمانين مدخلاً . وقد استغرق إعدادها أربع سنوات وبضعة أشهر نظرًا لتَشَعُّب موضوعاتها التاريخية التى تطلَّبَت البحث عن المؤهَّلين للكتابة فيها من العلماء والباحثين .

وقد كان من الممكن أن تكون أكبر حَجْمًا ممّا عليه الآن لولا أننا رأينا إحالة بعض المداخل الفرعية إلى المداخل الأكثر شمولاً مع الإشارة إلى ذلك فى فهرس الموضوعات.

وقد تحرينا أن تكون المادة العلمية فى مداخل الموسوعة موثقة من مصادرها المعتمدة، ثم حَرِصْنا على أن يكون كلُّ مَدْخَل مُذيَّلاً ببعض المصادر والمراجع المهمة لمن يريد الاستزادة من المُتَخَصِّصين.

ولم يقتصر اهتمامُنا فى هذه الموسوعة على الجوانب السياسية والحربية من تاريخ هذه الأمة؛ بل اتسع هذا الاهتمام ليشمل الجوانب الاقتصادية والثقافية والاجتماعية والمعمارية والحضارية بصفة عامة ، كما كُنّا حريصين على أن تكون موضوعات هذه الموسوعة مرآةً صادقة أمينة تعكس أحوالَ أمتنا الإسلامية المترامية الأطراف فى فتراتِ انتصاراتها وانكساراتها؛ فالتاريخ لا يكُفُّ عن تقديمِ دروسه النافعة فى حالات الشدة والرخاء.

ولا يمكننا الادِّعاءُ بأننا استوعَبْنَا كلَّ موضوعات التاريخ الإسلامى فى هذه الموسوعة، ولكنا نستطيع القول إننا غطَّينا أهمَّ جوانبِ هذه الموضوعات. ولجنة

الموسوعة - إذْ يُسعِدُها أن تُقدِّم هذا العمل - تُهيبُ بالسادة القُرَّاء الأعزَّاء أن يبعثوا إليها بملاحظاتهم وتعليقاتهم حتى يمكن تداركُ أيِّ نقصٍ أو تقصير فى الطبعات التالية بمشيئة الله.

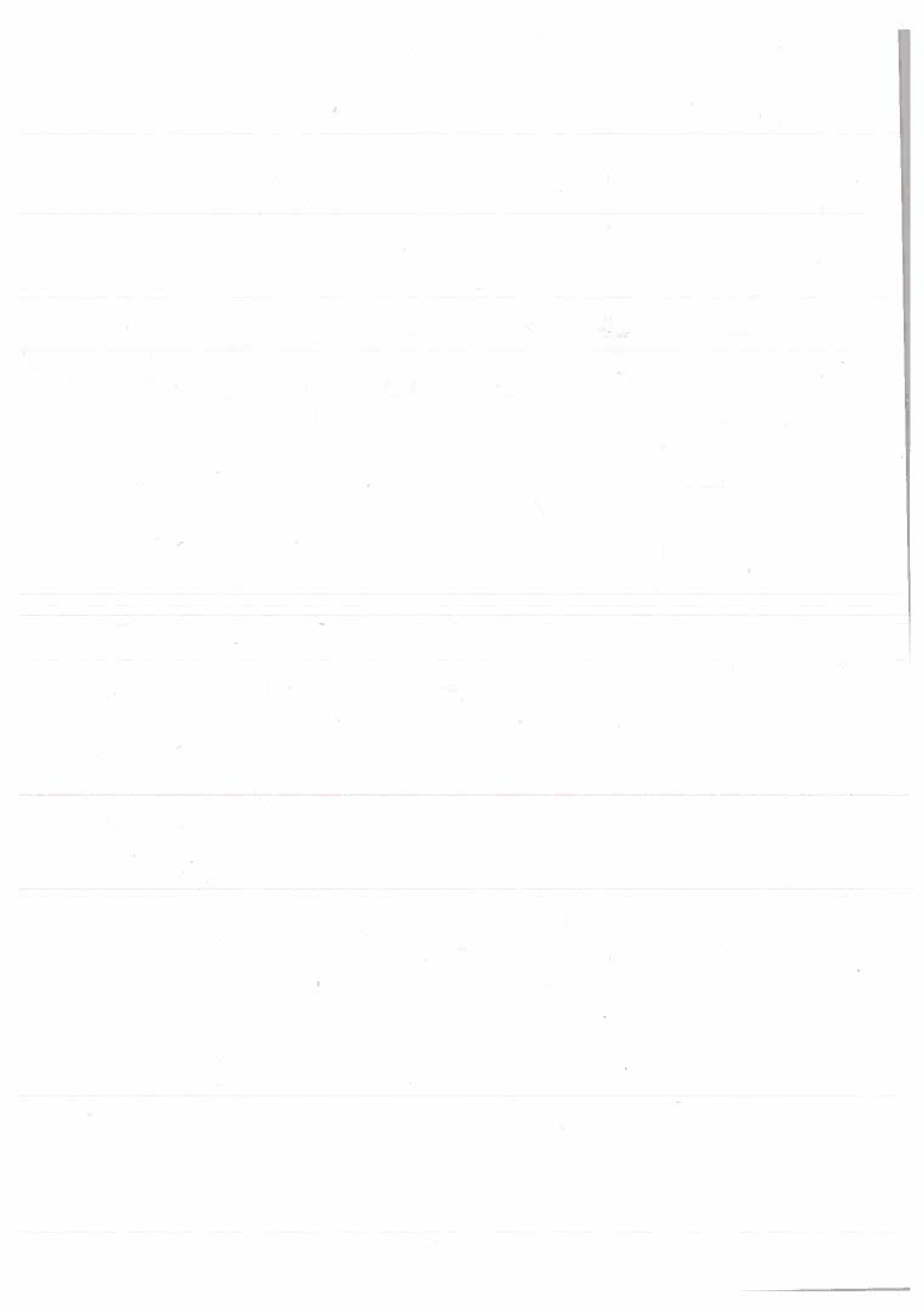
بقيت كلمة شكرٍ لا يفوت اللجنة أن تتقدم بها للأستاذ عادل عبد الحافظ مدير عام اللجان، فالحق أنه لَم يدخر جُهدًا فى سبيل تذليل كلِّ ما كان يمكن أن يصادف اللجنة من عقبات. فجزاه الله خير الجزاء .

ونحمده - سبحانه - على ما وفّق وأعان،

هيئة التحرير

هيئة تحرير الموسوعة

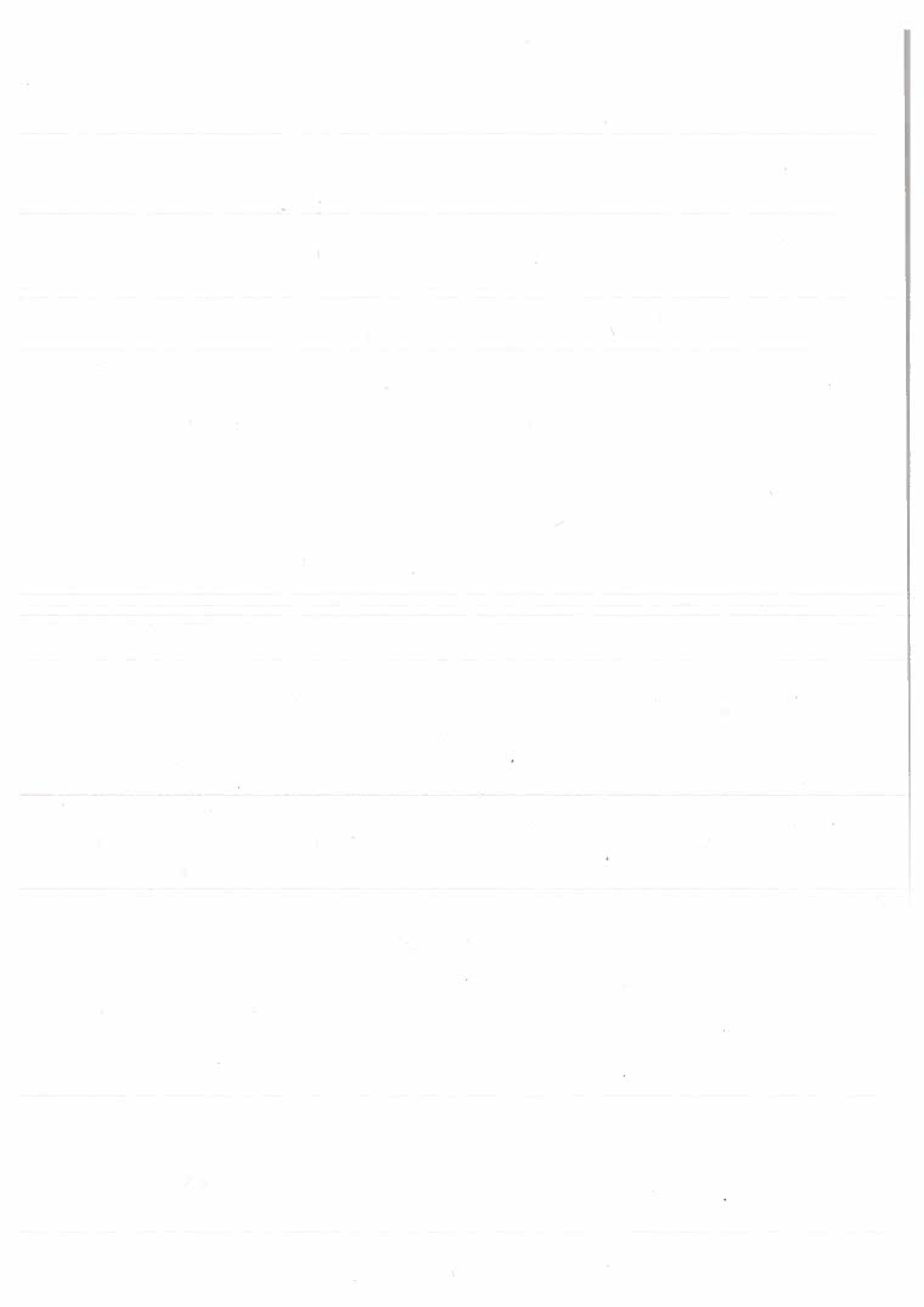
****



أسماء السادة المشاركين

حسب الترتيب الهجائي

١. أ. أبو مسلم عبد العزيز عطا
٢. أ.د. أحمد الخولي
٣. أ.د. أحمد عبد القادر الشاذلي
٤. د. أحمد محمد عبد الحميد
٥. د. أحمد محمود إبراهيم
٦. أ. إسماعيل رجب أحمد
٧. أ.د. أنس هارون نصر
٨. أ.د. أيمن فؤاد سيد
٩. أ.د. ثريا محمد علي
١٠. أ.د. حاتم محمد رشاد
١١. أ.د. حسام محمود الحملاوي
١٢. أ.د. حسن سيد عبد الله مراد
١٣. أ.د. حسن علي حسن
١٤. د. داليا عبد الهادي طلبه
١٥. أ. رجب عبد المنصف
١٦. د. سامية عبد العزيز منيسي
١٧. أ.د. السباعي محمد السباعي
١٨. أ.د. سحر السيد عبد العزيز سالم
١٩. أ.د. سعد بدير الحلواني
٢٠. أ.د. سيد عبد الفتاح بلاط
٢١. أ. صاحب عالم الأعظمي الندوي
٢٢. أ.د. صبري عبد اللطيف سليم
٢٣. أ.د. صلاح عاشور
٢٤. أ.د. طاهر راغب حسين
٢٥. أ. د. طلعت إسماعيل رمضان
٢٦. د. طه عبد المقصود عبد الحميد
٢٧. أ.د. عبد الحليم عويس
٢٨. أ.د. عبد الرازق الطنطاوي القرموط
٢٩. أ.د. عبد الرحمن سالم.
٣٠. أ.د. عبد الشافي محمد عبد اللطيف
٣١. أ.د. عبد الفتاح فتحي عبد الفتاح
٣٢. أ.د. عبد اللطيف محمد عامر
٣٣. أ.د. عبد الله إبراهيم راجح
٣٤. أ.د. عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٣٥. أ.د. عبد الله محمد جمال الدين
٣٦. د. عبد المجيد أبو الفتوح بدوي
٣٧. أ.د. عبد المقصود عبد الحميد باشا
٣٨. د. عزت إبراهيم دسوقي
٣٩. أ.د. عطية القوصي
٤٠. أ.د. عفاف سيد صبرة
٤١. أ.د. فتحي أبو سيف
٤٢. أ.د. فتحية النبراوي
٤٣. أ.د. فوزي عارف إبراهيم
٤٤. أ.د. محمد جبر أبو سعده
٤٥. أ.د. محمد حمزة الحداد
٤٦. أ.د. محمد السعيد جمال الدين
٤٧. أ.د. محمد صالح توفيق
٤٨. أ.د. محمد عبد الحميد الرفاعي
٤٩. د. محمد عبد القادر
٥٠. أ.د. محمد علي حلة
٥١. أ.د. محمد عيسى الحريري
٥٢. أ.د. محمد مرسي الشيخ
٥٣. أ.د. منى حسن محمود
٥٤. أ.د. نادية حسني صقر
٥٥. أ.د. وفاء محمود عبد الحليم
٥٦. أ.د. يسري أحمد زيدان



الجزء الأول

من حرف (الألف ـــ الخاء)



آل زريع فى اليمن

ينتسب بنو زريع أو بنو الكرم إلى همدان بن جشم بن يام بن أصبا[١]، ويعرفون بآل الذئب، وهم من أعظم القبائل العربية فى اليمن بعد الصليحيين. وتعد قبيلة همدان ويام من أهم القبائل والأسر التى عاشت فى كنف الدولة الصليحية والفكر الشيعى الإسماعيلى فى اليمن[٢].

وتعد الدولة الزريعية إحدى الدويلات الشيعية التى قامت على أرض اليمن خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (التاسع والعاشر الميلاديين)، كنواب للصليحيين فى عدن خلال الفترة الممتدة من ٤٦٨-٥٣٢هـ/١٠٧٥- ١١٣٨م، ثم استقلوا عنهم وورثوا العديد من أملاكهم فى اليمن الأسفل، وكانت عدن العاصمة السياسية للزريعيين فى اليمن، ومقرً الدعوة الفاطمية فى اليمن بعد الصليحيين فى الفترة الممتدة من ٥٣٢- ٥٦٩هـ ١١٣٨- ١١٧٤م، ومن هذا المنطلق سيدور الحديث عن عصر الدولة الزريعية من خلال محورين:

المحور الأول: بنو زريع نُوَّابا للصليحيين فى عدن:

عَيَّن المكرم الصليحى كُلاً من العباس والمسعود ابنى الكرم اليامى نوابا له على عدن بعد صراع مرير بين المكرم وبنى معن حكام عدن وحضرموت السابقين[٣]، فولى العباس جباية الأموال القادمة من البر وجعل حصن تَعْكُر (جبل حديد) مقرا له[٤]، والمسعود جعل إليه جباية الأموال القادمة من البحر وجعل حصن الخضراء (حقات) مقرا له وجعله متوليا لأمور عدن[٥]، وألزمهما التعهد بتسليم مالية عدن إلى السيدة الحرة وقدرها مائة ألف دينار سنويا مناصفة بينهما[٦].

استمر بنو زريع فى تقاسم السلطة وجباية الأموال وتوريثها لابنائهما، فكانت جباية الأموال التجارية البرية لأبناء العباس، وجباية الأموال التجارية البحرية وولاية أمور عدن لأبناء المسعود، وظلوا مستمرين فى أداء مالية عدن إلى السيدة الحرة فى



عهد كل من المكرم وسبأ بن أحمد الصليحى.

حاول بنو زريع الامتناع عن دفع المخصصات المالية للسيدة الحرة مرات عدة، وذلك بسبب ضعف النشاط التجارى آنذاك وقلة الواردات المالية نتيجة الصراع العسكرى الدائر بين النجاحيين والصليحيين، والذى أثر على الحركة التجارية، إضافة إلى الرغبة الكامنة فى نفوس الزريعيين فى الاستقلال عن التبعية الصليحية.

فبعد وفاة العباس بن الكرم اليامى عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م ورثة فى السلطة ابنه زريع بن العباس وكان معاصرا لعمه المسعود فى حكم عدن(٧)، ولما مات سبأ بن أحمد الصليحى عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م امتنع كل من زريع بن العباس و المسعود اليامى عن دفع المقرارت المالية (مالية عدن البرية والبحرية) للسيدة الحرة فأرسلت إليهما جيشًا بقيادة المفضل ابن أبى البركات فحاربهما ثم اصطلحا على دفع مبلغ خمسين ألف دينار مناصفة بينهما(٨).

وفى عام ٥٠٣هـ/ ١١٠٩م وقعت الحرب بين الصليحيين والنجاحيين فى زبيد، فكتبت السيدة الحرة إلى زريع ابن العباس وعمه المسعود اليامى تطلب منهما مشاركتهما بجيشهما للمفضل ابن أبى البركات لمحاربة النجاحيين، وبالفعل لقيا القائد المفضل دليلا على طاعتهما للحرة، وقاتلا قتالاً شديداً أدى فى النهاية إلى مقتلهم على باب زبيد فى ذات العام(٩).

تولى السلطة فى عدن أولاد الزريعيين، فتولى أبو السعود بن زريع وأبو الغارات بن المسعود، وحاولا الامتناع عن دفع مالية عدن للسيدة، فأرسلت إليهما قائدها أسعد بن أبى الفتوح الحميرى فحاربهما، ثم اصطلحا على دفع مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار(١٠).

ظلت الأسرة الزريعية فى حكم عدن نيابة عن الصليحيين، فبعد وفاة أبى السعود بن زريع تولى ابنه سبأ بن أبى السعود حكم التعكر وجباية ما يدخل إليها من الأموال التجارية البرية، وبعد وفاة أبى الغارات بن المسعود ولى ابنه محمد بن أبى الغارات السلطة فى عدن وجباية الأموال التجارية البحرية(١١)، وأثناء فترة حكمهما توسعا فى مناطق

جديدة في الجَنَد والمغافر ولُحْج وأبْين[١٢].

المحور الثاني:استقلال بنو زريع عن الصليحيين:

تضافرت عدة عوامل لاستقلال الزريعيين عن الصليحيين، منها: الضعف الذي أصاب الدولة الصليحية، وكثرة الضربات التي وجهت إليها من أعدائها، سواء من النجاحيين وبني الزر الخولاني أم من غيرهم[١٣]، كما كان لهزيمة ابن نجيب الدولة قائد الجيش الصليحي أمام الزريعيين أثره البالغ[١٤]، إضافة إلى موقف السيدة الحرة من الدعوة الفاطمية الحافظية في القاهرة ومعارضتها لها وتأييدها للدعوة الطيبية[١٥]، فما كان من الفاطميين في مصر إلا تأييد مناصرهم وهو الداعي سبأ بن أبي السعود الزريعي الذي تولى أمر الدعوة الحافظية في اليمن وألقت عليه الخلافة الفاطمية بظلها ولقبته "بالداعي الأوحد المظفر مجد الملك وشرف الخلافة..." [١٦].

كان من أهم مظاهر الاستقلال عن الصليحيين، الامتناع عن دفع المقرارت المالية للسيدة الحرة، وانفراد الزريعيين في حكم عدن، والتوسع في المناطق المجاورة لهم على حساب الصليحيين، ثم الصراع الدائر بين سبأ بن أبي السعود وعلي بن أبي الغارات على السلطة من عام ٥٣٠ - ٥٣٢هـ/١١٣٦-١١٣٨م، حيث أراد سبأ التوسع في مدينة عدن، وذلك لإشباع رغبته وطموحة ومكانته، خاصة بعد أن أصبح الداعي الأوحد للفاطميين فلا يليق بالدُمْلُوَة أن تكون حاضرة له، فأراد أن تكون عدن هي مركز نفوذه[١٧].

بعد تحقيق الداعي سبأ بن أبي السعود النصر على ابن عمه علي بن أبي الغارات، انفرد بالحكم واتخذ من عدن عاصمة له، لكنه لم يعمر طويلا حيث وافته المنية بعد انتصاره بسبعة أشهر عام ٥٣٣هـ/١١٣٩م، فتولى ابنه الأعز علي بن سبأ الحكم بعده، لكن حكمه لم يستمر طويلا بسبب وفاته عام ٥٣٤هـ/ ١١٤٠م[١٨].

تولى الحكم بعد الأعز عليّ أخوه محمد بن سبأ بناءً على دعم من الوزير بلال بن جرير المحمدي، وذلك بسبب صغر سن أولاد الأعز الذي أوصى بالحكم لهم من بعده،

فاستدعى بلال محمد بن سبأ من ذى جبلة - التى كان هارباً فيها مستنجداً بالأمير منصور بن المفضل الحميرى - من بطش أخيه الأعز على- فحضر فأحسن بلال استقباله ثم أخذه إلى قصر المنظر وجمع الناس والعسكر لمبايعته فبايعوه، وبذلك تولى السلطة[19]، كما قضى محمد ابن سبأ على أولاد أخيه وأوصيائهم فى الدَّمْلُوَة، وخَصْمَىْ أبيه : على بن أبى الغارات وابن منيع بن المسعود اللذين تَحصَّنا فى لَحْج، وبذلك خلت الساحة أمامه من وجود معارضين فى الحكم[20]، كما تقلد أمر الدعوة الإسماعيلية فى اليمن من خلال مبعوث الفاطميين القادم الى اليمن الرشيد بن الزبير الأسوانى ونعته "بالمعظم المتوج الأمين"[21]، كما قام محمد بن سبأ بتوسيع نطاق دولته بشرائه جميع المعاقل والحصون والمدن التابعة للأمير منصور بن المفضل الحميرى بمبلغ مائة ألف دينار وعددها ثمانية وعشرون حصناً، وبذلك وصلت الدولة الزريعية أقصى اتساع فانتقل محمد بن سبأ إلى ذى جبلة –التى شتراها من منصور بن المفضل - للإقامة بها عام ٥٤٨هـ/١١٥٣م[22]، وبعد أن استولى محمد بن سبأ على أملاك الصليحيين فى اليمن الأسفل وافته المنية عام ٥٥٠هـ/١١٥٥م[23].

وخلفه فى الحكم ابنه عمران بن محمد بن سبأ الذى اقتفى أثر والده وأخلاقه القويمة[24]، ولكنه مُنى فى أواخر حياته بتوسع دولة ابن مهدى على مناطق نفوذه وذلك فى عام ٥٥٨هـ/١١٦٣م[25]، وما لبث أن توفى عمران سنه٥٦٠هـ/١١٦٤م تاركاً وراءه ثلاثة من الأطفال فى كفالة الأستاذ أبى الدر جوهر المعظمى فى حصن الدَّمْلُوَة، وكان الوزير ياسر بن بلال القائم على أمور عدن وظل الوضع على هذا الحال حتى قدوم السلطان توران شاة الأيوبى عام ٥٦٩هـ/١١٧٤م فاستولى على عدن ثم الدملوة ثم تعز ، وبذلك انتهى الحكم الزريعى فى اليمن[26].

أ . د/أحمد محمد عبد الحميد

الهوامش:

(١) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن المسمى المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد وشعرائها وملوكها وأعيانها وأدبائها، تحقيق محمد بن على الأكوع، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ص ١٧٢؛ ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى بتاريخ المستبصر، اعتنى به وصححه ووضع هوامشه أوسكر لو فغرين، دار التنوير، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص ١٢١

(٢) عمارة: المصدر السابق، ص ١٧٧؛ محمد كريم إبراهيم: عدن- دراسة فى أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦-٦٢٦هـ/١٠٨٣- ١٢٢٨م، منشورات مركز العلوم الاجتماعية، ١٩٨٥م، ص ٩٦- ٩٧.

(٣) عمارة: المصدر السابق، ص ١٧٣.

(٤) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص ص ١٢١- ١٢٤؛ ابن الديبع: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار بساط، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص ٣٠٤- ٣٠٥؛ الحمزى: كنز الأخبار فى معرفة السير والأخبار، دراسة وتحقيق عبد المحسن مدعج المدعج، مؤسسة الشراع العربى، الكويت، ١٩٩٢م، ص ٨٤.

(٥) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، تحقيق أوسكر لوفغرين، منشورات المدينة، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص ١١٩؛ محمد الحداد: تاريخ اليمن السياسى، النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م، ص ٢٩٥.

(٦) الجندى: السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ١٩٨٩م.، ص ٥٠١.

(٧) الوصابى: تاريخ وصاب المسمى "الاعتبار فى التواريخ والآثار" تحقيق عبد الله بن محمد الحبشى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.، ص ٦٤؛ عمارة: المفيد، ص ١٧٤؛ ابن المجاور: المصدر السابق، ص ١٢٢.

(٨) الجندى: المصدر السابق، ج٢، ص٥٠١؛ ابن الديبع: المصدر السابق، ص ٣٠٥.

(٩) عمارة: المفيد ص ١٧٥؛ابن المجاور: صفة بلاد اليمن، ص ١٢٢؛ ابن الديبع: قرة العيون،ص ٣٠٥؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ١١٩

(١٠) الوصابى: الاعتبار، ص ٦٤؛ الجندى: السلوك، ج٢، ص ٤٩٣- ٤٩٤.

(١١) الجندى: المصدر السابق،ج٢، ص ٥٠١؛ ابن الديبع: المصدر السابق، ص ٣٠٥- ٣٠٦.

(١٢) عمارة: المصدر السابق، ص ١٧٧؛ابن عبد المجيد: تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن من تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشى وأحمد محمد السنباتى، دار الكلمة اليمانية، صنعاء، ١٩٨٨م، ص ٨٢؛ الخزرجى: العسجد، ص ٤٨.

(١٣) عمارة: المصدر السابق، ص ١٧٤- ١٧٥.

(١٤) نفس المصدر، ص ١٦٥؛ محمد كريم: عدن، ص ١١٢.

(١٥) عمارة: المصدر السابق، ص ٢٣٩.

(١٦) الجندى: السلوك، ج٢، ص ٤٩٤؛ أيمن فؤاد سيد: تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨م، ص ١٨٦.

(١٧) عمارة: المصدر السابق، ص ١٧٨؛ الحمزى: كنز الأخبار، ص ٨٤؛ الجندى: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠١؛ حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى، بغداد، الطبعة الاولى، ١٩٦٩م، ص ٢٢٤- ٢٢٥.

(١٨) الجندى: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠٢؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٠٩.

(١٩) عمارة: المصدر السابق، ص ١٨٣- ١٨٤؛ الحداد: تاريخ اليمن، ص ٣٠٠.

(٢٠) عمارة: المفيد، ص ١٨٢- ١٨٣؛ الوصابى: الاعتبار، ص ٦٦؛ الجندى: السلوك، ج٢، ص ٥٠٣؛ الحداد: تاريخ اليمن، ص ٣٠٠.

(٢١) ابن عبد المجيد: بهجة الزمن، ص ٨٤؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣٠٩- ٣١٠؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب، القاهرة، د.ت.، ص ٢٩٧- ٢٩٨.

(٢٢) ابن الديبع: قرة العيون، ص ٣١٤؛ بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، ص ٢٨٤، حسن سليمان محمود: تاريخ اليمن، ٢٢٧

(٢٣) عمارة: المصدر السابق، ص ١٨٩

(٢٤) ابن الديبع: المصدر السابق، ص ٣١٤؛ الحداد: المرجع السابق، ص ٣٠٥.

(٢٥) الجندى: المصدر السابق، ج٢، ص ٥٠٤

(٢٦) عمارة: المصدر السابق، ص ١٩٠؛ الخزرجى: المصدر السابق، ص ٩٥-٩٦.

مصادر ومراجع للاستزادة

أولا: المصادر :

بامخرمه: عفيف الدين أبو محمد الطيب بن عبد الله بن أحمد(ت٩٤٧هـ/١٥٤٠م):
تاريخ ثغر عدن، تحقيق أوسكر لوفغرين، منشورات المدينة، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
الجندى: بهاء الدين محمد بن يوسف بن يعقوب (ت بعد ٧٣٢هـ/ ١٣٣٢م):
_ السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، ١٩٨٩م.
الحمزى: عماد الدين إدريس بن على (ت٧١٤هـ/١٣١٤م):
_ كنز الأخبار فى معرفة السير والأخبار، دراسة وتحقيق عبد المحسن مدعج المدعج، مؤسسة الشراع العربى، الكويت، ١٩٩٢م.
ابن الديبع: وجيه الدين أبو الضياء عبد الرحمن بن على الشيبانى (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م):
_ قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار بساط، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
ابن عبد المجيد: تاج الدين عبد الباقى اليمانى (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م):
_ تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن من تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشى وأحمد محمد السنباتى، دار الكلمة اليمانية، صنعاء، ١٩٨٨م.
ابن المجاور: جمال الدين أبو الفتح يوسف بن يعقوب بن محمد (ت بعد ٦٩٠هـ/١٢٩١م):
_ صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى بتاريخ المستبصر، اعتنى به وصححه ووضع هوامشه أوسكر لو فغرين. دار التنوير، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م.
الوصابى: وجيه الدين الحبشى (ت ق٨هـ/١٤م):
_ تاريخ وصاب المسمى "الاعتبار فى التواريخ والآثار" تحقيق عبد الله بن محمد الحبشى، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.
يحيى بن الحسين بن المنصور بالله بن القاسم بن محمد (ت١١٠٠هـ/١٦٨٨م):
_ غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب، القاهرة، د.ت.
اليمنى: نجم الدين عمارة بن على (ت٥٦٩هـ/١١٧٣م):
_ تاريخ اليمن المسمى المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد وشعرائها وملوكها وأعيانها وأدبائها، تحقيق محمد بن على الأكوع، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.

ثانياً: المراجع العربية:

أيمن فؤاد سيد:
تاريخ المذاهب الدينية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجرى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٨م.
حسن سليمان محمود:
تاريخ اليمن السياسى فى العصر الإسلامى، بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٩م.
محمد كريم إبراهيم:
عدن- دراسة فى أحوالها السياسية والاقتصادية ٤٧٦- ٦٢٦هـ/١٠٨٣- ١٢٢٨م، منشورات مركز العلوم الاجتماعية، ١٩٨٥م.
محمد يحيى الحداد:
_ تاريخ اليمن السياسى، النهضة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م.

آل سعـود

ينتمى البيت السعودى إلى صلب ربيعة ابن نزار بن معد بن عدنان ، وينسب آل سعود إلى عشيرة عنزة من ضبيعة (أحد أبناء نزار)، وقد سكن آل ربيعة بن نزار فى أماكن مختلفة أهمها وادى اليمامة، وغبير قرب الدرعية والقرنية وما حولها كما سكنوا أيضًا: هجر والقطيف .

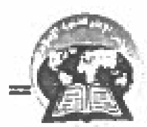
ونظرا لعلاقة حميمة ونسب جمعت بين المريدى الذى سكن بلدة الدروع التابعة للقطيف، وبين ابن درع (رئيس حجر اليمامة) دعا الأخير الأمير مانع إلى الجوار، فأقطعه أرضا (قرب الدرعية) بمنطقة نجد حيث استقر بها مانع وعشيرته نحو سنه ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م .

وقد تعاقب أبناء مانع فكان من بعده ابنه ربيعة ثم ولده موسى فإبراهيم فمرخان ، ثم تعاقب أبناؤه على الزعامة ، وكان أشدهم ولده الأمير مقرن (جد آل سعود الأكبر) الذى اختار الدرعية مقرًا وعاصمة له فى سنة ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م .

وظلت الدرعية عاصمة الإمارة فى عهد سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان حيث أخذت طورًا جديدًا لا سيما بعد أن تولى الحكم فيها ولده محمد بن سعود (١١٣٨- ١١٧٩هـ) (١٧٢٥- ١٧٦٥م)، هذا الأمير الذى عاصر وآزر إمام الدعاة فى العصر الحديث : الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى دعوته [1].

ويرجع نسب محمد بن عبد الوهاب إلى نزار بن معد بن عدنان، كان جده قاضياً فى العُيَيْنَة ، وأبوه من علماء عصره فحمل محمد العلم من صغره وطاف بالحجاز ، وبعض البلدان المحيطة حيث رأى ما عليه البعض من ترهات وأباطيل ممن اتجهوا نحو الأضرحة وما شابهها فأعلن الرجل دعوة إصلاحية للعودة إلى ما كان عليه السلف الصالح (أولهم محمد ﷺ) .

حينئذ ذاع صيت الرجل لا سيما بعد مؤازرة أمير الدرعية : محمد بن سعود بن مقرن له حيث بدأت الدولة السعودية خطواتها فى النشاط ونشر دعوة الشيخ فى ربوع نجد. وقد اصطدمت الدولة السعودية الأولى بخصمين عتيدين أولهما : حاكم العيينة عثمان بن معمر وولده مشارى من بعده، والثانى: دهام بن دواس حاكم الرياض، الأمر الذى أعاق دعوة الشيخ والأمير محمد بن سعود ما يقرب



من ثلاثين عاما حتى انتهى الأمر بسيطرة السعوديين على المدينتين ودخول أهلهما فى طاعة الدولة الناشئة مما أتاح لها التقدم نحو توحيد بلاد نجد تحت راية واحدة[٢] . وقد شملت جهودهم توحيد منطقة الدلم بعد الانتصار على الدواسر، ثم الخرج، والقصيم، والروضة ، وقرى بريدة ثم بلاد شمر التى امتازت بثرواتها الزراعية فتمت السيطرة عليها فى ١٢٠٧ هـ / ١٧٩٢ م وبذلك دانت بلاد نجد كلها لحكم الدولة السعودية الأولى .

أتاح هذا الإنجاز للسعوديين فرصة التطلع لإقليم الأحساء الذى فرّت إليه بعض العناصر المعارضة للحكم السعودى.

وقد كان إقليم الأحساء يمثل أهمية اقتصادية واستراتيجية للدولة الجديدة بسبب تمتعها بحركة تجارية رائجة ومصايد ثرية وموارد زراعية، والأكثر أهمية إطلالته على (الخليج العربى) الذى كانت ترنو إليه الدول الكبرى ببصرها مثل : إنجلترا بسفنها ، والدولة العثمانية المتواجدة فى البصرة على مقربة منه بالإضافة إلى الأطماع المحلية فى المنطقة.

تحرك السعوديون بقيادة سعود بن عبد العزيز فى اتجاه الأحساء بعد موت أميرها عريعر بن دجين واختلاف وتنازع أبنائه من بنى خالد على الحكم ، واستمرت عملياتهم فى سبيل السيطرة على الأحساء حتى ١٢٠٧ هـ - ١٧٩٢ م عندما هزموا أهلها فاضطر أمير الأحساء إلى الرضوخ للحكم السعودى .

واستكمل السعوديون استيلاءهم على المنطقة بالاتجاه نحو القطيف وضمه لأملاكهم ، وتأمينه من محاولات العثمانيين الذين أرسلوا حملتين عسكريتين للمنطقة من جانب والى بغداد والثالثة للقصيم، وقد باءت جميعها بالفشل ، فابتعد العثمانيون عن الصدام مع القوات السعودية إلى حين.

تمكنت الدولة الناشئة بهذا النجاح من السيطرة على منطقة الأحساء وأطلوا بذلك على مياه الخليج وكسبوا ثرواتٍ احتاجت الدولة إليها للانطلاق نحو مناطق ساحل الخليج الأخرى ونشر دعوتهم فيها من جهة، ثم الاتجاه نحو الحجاز من جهة أخرى .

أما الحجاز فقد ظل فترات طويلة تحت حكم الأشراف يتبع سياسياً الدولة الكبرى التى تفرض سلطانها على مصر (منذ سيطرة الفاطميين عليها ٣٥٨ هـ / ٩٦٩ م) ، وفى العصر الحديث سيطر

العثمانيون على الحجاز .

وعندما استقر السعوديون فى نجد والأحساء اتجهوا صوب الحجاز ، وكان لا بد من الصدام مع (الأشراف والعثمانيين) ، وقد سبقته اتصالات ومناظرات علمية ودينية لم تسفر فى النهاية عن اتفاق، حتى كان الصدام الذى انتهى بتمكن الأمير سعود بن عبد العزيز بمساعدة عثمان المضايفى (أحد قادة الأشراف) من دخول مكة المكرمة بعد تخلى الشريف غالب عنها واتجاهه إلى جدة ، ولم يتمكن سعود حينئذ من السيطرة عليها فتركها وعاد إلى الدرعية ليتولى أمر الدولة بعد اغتيال والده ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣م، وتمكن رجاله بعد ذلك من السيطرة عليها وعلى باقى الحجاز .

أدت سيطرة السعوديين على الحجاز إلى بروز قوتهم ، واعتناق الكثيرين فى شبه الجزيرة العربية لدعوتهم لا سيما أهالى عسير والمخلاف السليمانى ابتداء من ١٢١٠ هـ / ١٧٩٥م وبادروا بتقديم زكاتهم للدولة السعودية [٣].

كما دانت بعض قبائل الشام بالولاء للسعوديين ، أما ساحل الخليج العربى فقد اتجه السعوديون لنشر دعوتهم فيه بدءاً من قطر التى دانت معظم قبائلها لهم ابتداءً من ١٢٠٧ هـ/١٧٩٢م ، ثم جزيرة البحرين ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٨ م ، وفى عُمَان أدت المحاولات السعودية فى النهاية إلى إعلان القواسم تبعيتهم للدعوة .

نهاية الدولة السعودية الأولى :

أدى استيلاء السعوديين على الحجاز إلى فقدان العثمانيين لنفوذهم الروحى على المسلمين من خلال سيطرتهم على المدينتين المقدستين، لذلك بادروا بإرسال الحملات من الشام والعراق لإخراج السعوديين من الحجاز وإعادته للعثمانيين، ولكنهم فشلوا ، فاتجهوا إلى محمد على باشا بأوامر صارمة لإعداد العدة للغرض نفسه، ولكن محمد على راوغ وأبطأ بحجة ضعف الإمكانات المتاحة وطلب المدد من الأخشاب والمدفعية وبعض المعدات اللازمة لبناء السفن فأجيب إلى طلبه طوال السنوات الخمس السابقة على تحركه صوب بلاد الحجاز[٤].

وبالفعل تحركت حملة محمد على فى صفر ١٢٢٦ هـ / فبراير ١٨١١ م بقيادة ولده طوسون باشا مع ثمانية آلاف من الجنود والقادة ،وقد استولت الحملة على المويلح وينبع نتيجة إغراء طوسون لبعض

القبائل الأخرى في طريقه إلى المدينة المنورة ؛ ولكن حملة طوسون قد منيت بهزيمة شنيعة في معركة ممر الصفراء في أواخر ١٢٢٦هـ/١٨١١ م على يد السعوديين وقد خسرت الحملة ما يقرب من خمسة آلاف جندي ، وغنم السعوديون عتادهم وعدتهم [٥].

ولكن الإمدادات التي وصلت طوسون من والده في الشهور التالية ساعدته على التقدم نحو المدينة المنورة وحصارها حتى استولى عليها سنة ١٢٢٧ هـ/١٨١٢م، وتمكن بعدها من الاستيلاء على مكة وجدة والطائف وتخليصها من يد السعوديين، ولكن الحملة صادفت صعوبات عديدة بعد ذلك اضطر معها محمد على أن يشخص بنفسه إلى الحجاز، ثم قام بتعيين ولده إبراهيم باشا قائدًا للحملة وقد تمكن في النهاية من محاصرة الدرعية التي تم تدميرها في ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨ م، وقد نقل محمد على العديد من أفراد الأسرة السعودية وأسرة آل الشيخ إلى مصر، حيث انخرط العديد منهم في المجال العلمي ، كما انتهزوا فرصة مجاورتهم للأزهر الشريف في نشر الفكر السلفي.

الدولة السعودية الثانية :

لم تهنأ قوات محمد على التي سيطرت على نجد كثيرا فقد قامت ثورات السعوديين وتابعيهم على قواته حتى تمكن تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود من إخراجها وتوحيد نجد تحت لواء الدولة السعودية الثانية ١٢٣٩ هـ/ ١٨٢٣م.

وقد اغتيل الإمام تركي بن عبد الله في ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣م وتولى ابنه فيصل قيادة بلاده، فعمل على ترتيب الأمور واستكمال سيطرته على المنطقة الشرقية، الأمر الذي لم يستمر طويلاً إذ بادر محمد على بإرسال قواته التي تمكنت من الإحاطة بفيصل بن تركي ورجاله وسيطرت على العاصمة الرياض، ثم نقل فيصل وبعض أهله إلى السويس بمصر وسجن فيها ، و ساعدته الإدارة المصرية ليكون لها حليفا في نجد [٦] فعاد ليجدد ملك آبائه في نجد والمنطقة الشرقية دون أن يثير المنازعات مع العثمانيين أو الإنجليز أو مصر.

وقد استمر حكم فيصل ثلاثة وعشرين عاما ، وبوفاته ١٢٨٢ هـ/ ١٨٦٥م تنازع خلفاؤه من بعده، الأمر الذي أضعف من شأن دولتهم ، وانتهى بتغلب ابن الرشيد على بلادهم ، واضطر

عبد الرحمن بن فيصل (والد الملك عبد العزيز) للرحيل إلى الكويت التى شهدت انطلاقة الأمير عبد العزيز ليؤسس :

الدولة السعودية الثالثة :

خاطر الفتى الذى لم يتجاوز الحادية والعشرين من عمره، عبد العزيز آل سعود، [٧] بحياته عندما خرج من الكويت فى مسيرة طويلة ،واقتحم الرياض فى نفر قليل ليقضى على عامل ابن الرشيد ويعيد ملك آبائه فى صبيحة ٥ من شوال ١٣١٩ هـ/ ١٩٠٢م ، وأعاد سيطرته على نجد، ثم المنطقة الشرقية حيث خلص بلاد الأحساء من يد العثمانيين وبذل جهودا مضنية فى سبيل تسكين القبائل وإخضاعها لسلطانه ، كما اتجه إلى التعامل بحذر وحكمة مع جيرانه فى شبه الجزيرة العربية ، ومع الأجانب المحيطين به بالإضافة إلى مرونة منقطعة النظير فى علاقاته الدبلوماسية .

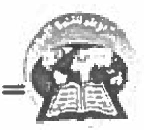
فقد أدرك ابن سعود مدى قوة بريطانيا ومصالحها فى المنطقة ولم يتعرض لتلك المصالح بسوء ، وكذلك فعل مع الأمراء الذين تربطهم علاقات ومعاهدات معها .

وبسبب الحرب العالمية الأولى عقدت بريطانيا معه معاهدة سنة ١٣٣٣ هـ / ١٩١٥ م ، ووعدت بحمايته، مع رسم للحدود تم التوصل إليه فى اتفاقيات العقير وجدة وبحرة ،وقد اشتملت على رسم أملاكه وحدود بلاده مع الكويت والعراق وشرق الأردن. وبتلك السياسة الحكيمة المرنة استطاع عبد العزيز تحييد الإنجليز عندما اشتعلت الحرب بينه وبين أشراف الحجاز[٨].

وعلى الرغم من صدامه مع العثمانيين فى منطقة الأحساء فقد ظل يهادنهم ويخاطبهم بالحسنى حتى أنه كان يختتم رسائله للدولة وولاتها بتوقيعه : " خادم الدولة والملة والوطن عبد العزيز "[٩].

كذلك كانت المراسلات إبان الحرب العالمية الأولى متبادلة بينه وبين العثمانيين لا سيما بعد إعلان الشريف حسين نفسه ملكاً على الحجاز عشية الثورة العربية سنة ١٣٣٤ هـ/ ١٩١٦م ، وتضمنت الرسائل محاولات القائد العثمانى للحجاز استمالة عبد العزيز فى جانب الدولة العثمانية [١٠].

أما علاقة عبد العزيز بأشراف الحجاز فقد تراوحت بين الود والمهادنة والصدام حتى تمكن فى الخامس من صفر ١٣٤٣ هـ / ٦ من سبتمبر سنة ١٩٢٤م من الاستيلاء على الطائف ، مما شكل ضغطاً على الملك حسين شريف مكة



فاضطر إلى الفرار منها فدخلها السعوديون محرمين للعمرة دون إراقة للدماء فى ١٧ من ربيع الأول ١٣٤٣هـ/أكتوبر١٩٢٤م [١١]، واضطر الملك الحسين إلى التنازل لولده / "على"، والفرار إلى جدة فالعقبة فقبرص.

ورغم محاولات الصلح بين الملك على بن الحسين، وبين السعوديين فإنها لم تسفر عن نتيجة تذكر.

وقد بادر قناصل الدول الأجنبية الذين يمثلون انجلترا وإيطاليا وفرنسا وهولندا وإيران إلى إرسال توضيح لموقف بلادهم أكدوا فيه أنهم على الحياد من الصراع الدائر بين السعوديين والأشراف [١٢]، ولم يكن ابن سعود يحلم بأكثر من ذلك إذ خلوا بينه وبين الأشراف. وقد دارت المعارك بين الطرفين بعد حصار طويل، ومحاولات متتالية من شتى الدول الصديقة، والأشخاص ذوى الشأن، وانتهى الأمر بتسليم جدة للسلطان عبد العزيز ورحيل الملك "على" إلى عدن ومنها إلى العراق (فى٤ جمادى الثانية ١٣٤٤ هـ/٢٠ديسمبر ١٩٢٥م).

حينئذ تمت مبايعة عبد العزيز ملكا على الحجاز فى سنة ١٣٤٥هـ / ١٩٢٦م الأمر الذى تطور ليوحد الحجاز ونجد وكل البلدان السعودية تحت مسمى: "المملكة العربية السعودية" فى ١٢ من جمادى الأولى ١٣٥١ هـ / ١٤ من سبتمبر ١٩٣٢ م.

وقد عاش الملك عبد العزيز آل سعود يوطد دعائم المملكة حتى لقى ربه فى ١٣٧٠هـ / ١٩٥٣م وتوالى أبناؤه من بعده على الحكم: سعود ثم فيصل، فخالد، ثم فهد(خادم الحرمين الشريفين)، وفى الوقت الحاضر يحكم البلاد السعودية الملك عبد الله.[١٣]

أ.د / سعد بدير الحلوانى

الهوامش :

١- د/ سعد بدير الحلوانى- التاريخ السعودى الحديث والمعاصر حتى نهاية القرن العشرين - ط٢ - أبها السعودية - ٢٠٠٠ م - ص ٣١ ، ٣٢ .

٢- حسين بن غنام - تاريخ نجد - تحقيق د / ناصر الأسد - القاهره - ١٣٨١ هـ ، ص ٦٤ . ج ٦، وانظر Philby - J- B- Saudia Arbaia - London 1955 - P..

٣- انظر : عثمان بن بشر - عنوان المجد فى تاريخ نجد - مكتبة الرياض الحديثة - الرياض - ١٢٧٠هـ - ص ٢٤ وما بعدها. و : أحمد بن زينى دحلان - خلاصة الكلام - مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة - ١٣٩٧ هـ - ص ١٧٣ و: د/ عبد الرحيم عبد الرحمن - الدولة السعودية الأولى - ط ٦ - دار الكتاب الجامعى - القاهرة - ١٩٩٧ م . ص١٥ .

٤- دار الوثائق القومية بالقاهرة - وثيقة ٤ - دفتر ١- معية تركى - من محمد على إلى الباب العالى - ذو الحجة ١٢٢٢ هـ / ديسمبر ١٨٠٧ م . وعبد الرحمن الجبرتى - عجائب الآثار فى التراجم والأخبار -جـ ٤ - مطبعة الأنوار المحمدية - القاهرة - ص ١١١ .

٥- انظر تفاصيل ذلك فى : دار الوثائق القومية بالقاهرة - وثيقة ٧٨ - دفتر ١ - معية تركى - من محمد على إلى الباب العالى - ٥ ذى القعدة ١٢٢٦ هـ / ٢١ نوفمبر ١٨١١ م . وانظر : الجبرتى - عجائب الآثار - جـ ٤ - ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

٦- تشير وثيقة مرسلة من الخديوى إسماعيل إلى الأمير / فيصل عن ود سابق مع الإدارة المصرية : " ومن القديم مؤكد ومثبوت انتسابكم لمحبة الجهة المصرية ".

انظر : دار الوثائق القومية بالقاهرة - وثيقة ٤١ صـ٨١ أوامر عربى دفتر ١٩٠٧، أمر الى الأمير فيصل امير ولايات نجد ، ٢٥ ذى الحجة ١٢٨٠ هـ وانظر : . R . Bayly Winder, Saudia Arabia in the Nineteenth Century. New Yourk 1965 .P. 179 - 180

٧- هو عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل بن تركى بن عبدالله بن محمد بن سعود بن محمد بن مقرن بن مرخان بن إبراهيم بن موسى بن ربيعة بن مانع المريدى ، ولد بالرياض ، وتلقى بعض علومه فيها ، ثم تنقل مع والده بين البحرين وقطر ثم الكويت التى شهدت انطلاقته نحو عاصمة بلاده التى شكلت نواة الدولة السعودية الثالثة .

انظر : د/ سعد الحلوانى - التاريخ السعودى - ص ١٢٩ .

٨- Document N.. File No 900, Subject : Effect of the Deposed Sultan Counsul to the Turkey on p11 the Jedjaz from Raymond Davis , the American Secretary of State . Washington D.C . Aden Arabia in may ج 1923- وانظر : جارى ترويللر - بريطانيا وظهور آل سعود- عرض أحمد عبد الرحيم مصطفى - مجلة العربى - كتاب الشهر - العدد ٢٣٠ - فبراير ١٩٧٧ - ص ١٧٠ ، ١٧١ .

٩- دارة الملك عبد العزيز بالرياض- وثيقة بدون رقم - مجموعة ١٠٥٦ - من عبد العزيز السعود أمير نجد ورئيس عشائره إلى صاحب الدولة والى ولاية الحجاز - ١٣٢٥ هـ .

١٠- دارة الملك عبد العزيز بالرياض - وثيقة ٨٦١ - من قائد الحملة الحجازية (فريق) إلى والى نجد وقائدها الأمير عبد العزيز باشا بن السعود - المدينة المنورة - صفر ١٣٣٧ هـ .

١١- دارة الملك عبد العزيز بالرياض - وثيقة ١٧٨٦ - وارد البحرين - من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إلى الشيخ عيسى بن على الخليفة - فى ٢٨ من ربيع الأول ١٣٤٣ هـ .

١٢- دارة الملك عبد العزيز بالرياض - وثيقة ١١٤ - المجموعة ١٤٢٦ - من عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل إل سعود إلى حضرات قناصل الدول العظام فى جدة - السلطنة النجدية وملحقاتها - ٢٤ من ربيع الثانى ١٣٤٣ هـ /٢٢ من نوفمبر ١٩٢٤ م .

١٣- انظر تفاصيل الأحداث للدول السعودية الثلاث فى كتابنا : د/ سعد الحلوانى - التاريخ السعودى الحديث والمعاصر حتى نهاية القرن العشرين .

مراجع للاستزادة:

١- تاريخ نجد، تأليف حسين غنام، تحقيق الدكتور ناصر الدين الأسد، القاهرة ١٣٨١هـ.
٢- الدولة السعودية الأولى، تأليف الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتاب الجامعى، القاهرة ١٩٩٧م.
٣- التاريخ السعودى الحديث والمعاصر حتى نهاية القرن العشرين تأليف د. سعد الحلوانى، أبها ، السعودية ٢٠٠٠م.

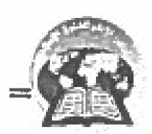
آل يَعْفِر الحواليين

فى صنعاء ٢٥٧-٣٩٣هـ/٨٧٠-١٠٠٢م

شهد اليمن فى العصر العباسى كثيراً من الاضطرابات والقلاقل بسبب تعسف الولاة وعدم درايتهم بشئون البلاد، مما أدى إلى تطلع عدد من الزعامات القبلية لتأسيس دويلات خاصة بها، ومن هؤلاء أسرة حِميرية هى آل يَعْفِر نسبة إلى يعفر ابن عبد الرحمن بن كريب بن عوسجة ذى الأحول الأصغر، التى كانت تقيم فى شِبَام[١]، وصارت بحكم موضعها الحصين تهدد عمال الخلافة فى صنعاء.

وقد ظهر اسم يعفر فى المصادر التاريخية منذ عام (٢٢١هـ /٨٣٦م) عندما حارب عبد الرحيم بن جعفر الهاشمى(٢٢١-٢٢٥هـ/٨٣٦-٨٣٩م) والى اليمن من قبل الخليفة العباسى المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ/٨٣٣-٨٤١م)، وقد ظل آل يعفر مناوئين للخلافة العباسية التى استمرت فى محاربتهم تارة ومهادنتهم تارة أخرى بسبب ضعف مركزها فى اليمن حتى عهد الخليفة العباسى المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ/٨٧٠-٨٩٢م) إلى محمد بن يعفر المستقل بحكم صنعاء ومخاليفها، وبذلك اكتسب محمد بن يعفر الشرعية لحكمه واستطاع أن يؤسس دولة اليعافرة، ويسك عملة عرفت بالدينار اليعفرى، وأقام الخطبة للخليفة العباسى، وأظهر ولاءه لابن زياد فى تهامة لأنه رأى أنه لا قبل له به، وحمل له الخراج.

وقد ظل محمد بن يعفر يحكم صنعاء ومخاليفها حتى عزم على الحج عام(٢٦٢هـ/٨٧٥م) واستخلف مكانه ابنه إبراهيم الذى أساء السيرة وسفك الدماء، فعاد الاضطراب إلى دولته وكثرت الفتن وخرج عليه الفضل بن يعيش المرادى بالجوف[٢] ومولاه طريف بن ثابت بيَحْصِب[٣] وإبراهيم بن عبد الله الدعام زعيم أرْحَب[٤]، وفشل إبراهيم فى القضاء على الثوار الذين نجحوا فى اقتطاع بعض أجزاء دولته وامتد نفوذ الدعام إلى صنعاء نفسها، وانتهى الأمر باعتزال إبراهيم الحُكْمُ بعد فشله فى ضبط أمور دولته، فأرسل الخليفة العباسى تقليدًا إلى ابنه يعفر عام(٢٦٢هـ/٨٧٥م) بحكم دولة أبيه واتخذ من مدينة شبام كوكبان مقرًا له، لأن صنعاء لم تعد موالية تمامًا



لآل يعفر، وقد ثار أهل صنعاء على اليعافرة وأحرقوا دار ابن يعفر في صنعاء، كما ثار أهل شبام على يعفر وقتلوه عام(٢٧٩هـ/٨٩٢م) وخلفه ابن عمه عبد القاهر بن أحمد بن يعفر.

وأمام عجز آل يعفر عن السيطرة على صنعاء وتنازعهم مع الدعَّام أرسل الخليفة العباسى المعتمد علىَّ بن الحسين المعروف بجُفْتُم من العراق والياً على صنعاء فدخلها عام (٢٧٩ هـ/٨٩٢م) وهزم الدعام وحكمها باسم الخليفة العباسى حتى عام (٢٨٢هـ/٨٩٥م) ونجح فى إعادة الأمن وألقى ببنى يعفر فى سجون شبام وصنعاء، ثم تركها وعاد إلى العراق فسار الدعام إلى صنعاء مرة أخرى ودخلها إلا انه ما لبث أن هرب منها وعادت مرة أخرى إلى حكم اليعافرة تحت حكم أسعد بن يعفر(٢٨٢-٣٣١هـ/٨٩٦-٩٤٣م).

ولقد شجعت الأمور المضطربة فى صنعاء الدولة الزيدية فى صعدة على الاستيلاء عليها فدخلها الإمام الهادى عام(٢٨٨هـ/٩٠١م) بمساعدة واليها أبى العتاهية من قبل آل يعفر واستطاع أن يستولى على شبام ويزج بزعماء بنى يعفر فى السجن ، لكن أهل صنعاء ثاروا عليه وتطلعوا إلى عودة آل يعفر"فكسروا أبواب السجن وأخرجوا آل يعفر ومواليهم آل طريف، فعاد الإمام الهادى إلى صنعاء لإخضاعها ودارت بينهم حروبُ لم تؤد إلى نتيجة حاسمة. واضطربت أحوال البلاد وساءت الأحوال الاقتصادية، وعندما رأى الإمام الهادى عدم جدوى هذه الحروب عاد إلى صعدة عام (٢٨٩هـ/٩٠١م) ممهداً بذلك السبيل لعودة آل يعفر إلى صنعاء.

ولما تولى الخليفة العباسى المكتفى الخلافة(٢٨٩- ٢٩٥هـ/٩٠٢- ٩٠٧م) أعاد جفتم إلى حكم صنعاء مما أثار آل يعفر، لأن عودة جفتم تعنى زوال حكمهم فاحتالوا وقبضوا عليه وضموا جيشه إلى جيشهم ، ولكنه استطاع الفرار من سجنه وعاد إلى صنعاء ودار قتال بين جفتم وأسعد انتهى بهزيمة جفتم ومقتله وبذلك أَمَّن أسعد بن يعفر ولايته .

وقد تعرضت صنعاء لخطر آخر عندما غزاها على بن الفضل من قبل الدولة الإسماعيلية عام (٢٩٣هـ/ ٩٠٥م) ودار بينه وبين أسعد بن يعفر قتال عنيف وتمكن ابن الفضل من دخول صنعاء، وعندما أيقن أسعد أنه لن يقدر على صد ابن الفضل وجنوده خرج من صنعاء إلى شبام، ودخل ابن الفضل صنعاء واستباحها وهتكت جيوشه المحارم

وفعلت الفظائع وقتلت ونهبت، ثم أرسل جنده إلى شبام وطرد منها آل يعفر ، وبذلك فقد اليعافرة ملكهم مرة أخرى.

واستنجد أهل صنعاء بالإمام الهادى لينقذهم من ابن الفضل فاستجاب لهم وتوجه بجيش يعاونه بنو يعفر والدعام واستعاد صنعاء ،لكن ابن الفضل عاد مرة أخرى واستعاد صنعاء ونكل بأهلها وظل بها هو وأنصاره ثلاث سنين ، لم يأل خلالها أسعد بن يعفر جهداً فى سبيل استعادة دولته حتى استعاد شبام عام (٢٩٧هـ/٩٠٩م) واستمرت الحروب حتى تم عقد صلح بين الطرفين يقضى بأن يحكم أسعد إمارته نيابة عن الفضل ويخلع طاعة العباسيين.

ولقد كان ولاء أسعد بن يعفر لعلى ابن الفضل مجرد حيلة حتى يأمن جانبه وعندما حانت له الفرصة هاجم المذيخرة[٥] سنة (٣٠٤هـ/٩١٦م) مقر ابن الفضل ودخلها وأسر بناته وضم ملك ابن الفضل إلى آل يعفر واتسعت دولته.

ويعد أسعد بن يعفر أطول حكام اليعافرة مدة، وفى عهده قويت الدولة واشتد ساعدها بعد الأخطار التى تعرضت لها. وتطلع إلى السيطرة على بلاد الدولة الزيدية بعد ضعفها ونجح فى ضم صعدة إلى إمارته ، وبوفاته (٣٣١هـ/٩٤٣م) عادت الدولة إلى الضعف والتدهور من جديد، وطمع فيها الطامعون .

خلف أسعدَ عبدُ الله بن قحطان(٣٣١ـ٣٨٧هـ/٩٤٣ـ ٩٩٧م). وقد سلك هذا الأمير سياسة مغايرة لسابقيه تجاه الخلافة العباسية فتطلع إلى الاستقلال النهائى عنها ،حيث خلع طاعة العباسيين وحذف اسم الخليفة من الخطبة، وأعلن ولاءه للخليفة الفاطمى بمصر حتى يكتسب الشرعية لحكمه ويضمن دفاع الفاطميين عنه حال تعرضه لهجوم العباسيين، ثم انقلب على الفاطميين وأعلن الولاء للإمام الزيدى ، ثم خلع طاعته. وكان عبد الله بن قحطان متطلعاً لتوسيع دولته، لذلك قام بعدة غزوات حيث غزا زبيد ودخلها ثم تركها ودخل أب عاصمة مخلاف جعفر، لكن غزواته هذه لم تستمر طويلا وعاد إلى مقره فى كحلان[٦] .

وخلف عبدَ الله بنَ قحطان ابنُه أسعد (٣٨٧ـ٣٩٣هـ/٩٩٧ـ١٠٠٢م) وهو آخر أمراء آل يعفر حيث حكم فترة من الوقت وتوفى عام (٣٩٣هـ/١٠٠٢م).

وبذلك انقضت دولة آل يعفر التى

حكمت باسم الخلافة العباسية ونشأت بسبب ما شهده اليمن من الاضطرابات والفتن وطمع المتطلعين إلـى السلطـة والحكم ، وهى نفس الأسباب التى قادت هذه الدولة نحو نهايتها.

د / داليا عبد الهادى طلبة

الهوامش :

(١) بكسر أوله جبل عظيم بصنعاء فيه شجر وعيون ، بينه وبينها يوم وليلة. وباليمن أربعة مواضع اسمها شبام شبام كوكبان غربى صنعاء وبينهما يوم وهى فى الجبل المذكور، وشبام سخيم قبلى صنعاء، وشبام حراز غربى صنعاء نحو الجنوب، وشبام حضرموت وهى إحدى مدينتى حضرموت(ياقوت الحموى : معجم البلدان، دار صادر، بيروت، جـ٣، ص٣١٨).

(٢) الجوف بين جبل نهم الشمالى ويفضى إلى أربعة أودية كبار(الهمدانى: صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد بن على الأكوع الحوالى، مكتبة الإرشاد/ صنعاء، ١٩٩٠م، ص١٥٤-١٥٥).

(٣) يَحْصِب مخلاف فيه قصر ريدان "(ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٥،٤٣١)

(٤) أرحب قبيلة تقيم بين همدان وبكيل(عصام الدين عبد الرؤف الفقى :اليمن فى ظل الإسلام، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٢، ص٩٨ هامش٤).

(٥) المذيخرة من بلدان العدين (محمد عيسى الحريرى :الاتجاهات المذهبية فى بلاد اليمن ، عالم الكتب ، ١٩٩٧م، ص٥٥)

(٦) كحَلان وكُحلان بالضم من أشهر مخاليف اليمن ، وفيه قصر بينون ورعين وبينه وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخًا(الفرسخ ثلاثة أميال) (ياقوت الحموى: معجم البلدان، جـ٤، ص ٤٣٩).

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- الرازى (أحمد بن عبد الله الرازى ت٤٦٠هـ/١٠٦٨) :

٢- تاريخ مدينة صنعاء ، وبذيله كتاب الاختصاص للعرشانى، تحقيق د.حسين عبد الله العمرى، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر ، دمشق، ط٣، ١٩٨٩م

٣- ابن عبد المجيد(تاج الدين عبد الباقى بن عبد المجيد اليمانى ت٧٤٣هـ/١٣٤٢م):

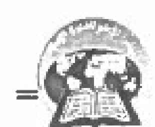
٤- تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازى، دار الكلمة صنعاء، ط٢، ١٩٨٥م

٥- الهمدانى (لسان اليمن الحسن بن أحمد بن يعقوب توفى بعد٣٤٤هـ/ ٩٥٥م):
صفة جزيرة العرب ، تحقيق، محمد بن على الأكوع الحوالى، مكتبة الإرشاد/ صنعاء، ١٩٩٠م.

٦- ياقوت الحموى (شهاب الدين أبى عبد الله ، ت ٦٢٠هـ/١٢٢٨م): معجم البلدان ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٤م.

٧- حسن خضيرى أحمد (دكتور) :قيام الدولة الزيدية فى اليمن(٢٨٠-٢٩٨هـ/٨٩٣-٩١١م)، مكتبة مدبولى، القاهرة، ١٩٩٦م.

٨- عصام الدين عبد الرؤف الفقى (دكتور):اليمن فى ظل الإسلام، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٢.



الأتابكية

أتابك: لفظ تركى يتكون من مقطعين: " أتا" أو" أطا" بمعنى أب، و"بك" بمعنى أمير. فالمعنى - إذًا - هو " الأب الأمير" .

وأول من لقب بالأتابك هو نظام الملك أبو على الحسن بن على الطوسى (ت ٤٨٥هـ - ١٠٩٢م) وزير السلطان السلجوقى ألب أرسلان (ت ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) ووزير ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان (ت ٤٨٥هـ/١٠٩٢م) الذى فوض إليه سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م) تدبير مملكة السلاجقة، ولقبه بألقاب منها الأتابك أى الأمير الوالد أكبر الأمراء فى الدولة السلجوقية بعد النائب الكافل الذى يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان، ويعلّم فى التقاليد والتواقيع وغير ذلك مما يؤشر به السلطان نفسه [1].

فالأتابكية ظهرت مع السلاجقة، وكان صاحبها مسئولاً عن قيادة الجيش وتربية أولاد الملك حربيًا، وتلقينه أسس وقواعد إدارة شئون الدولة.

وبفضل ما كان للأتابك من سلطة أبوية على الأمير السلجوقى غدا من النفوذ والسلطان ما جعله أكثر من مجرد قائد.

يضاف إلى ذلك ما درج عليه الأتابكة من أن يتزوج الواحد منهم والدة الأمير السلجوقى المتوفى أو أن يتزوج الأمير السلجوقى من ابنة الأتابك[2].

وكان آل سلجوق فى بعض الأحيان إذا امتاز أحد قادتهم وأرادوا تشريفه أضافوا إليه هذا اللقب (الأتابك) إمعانًا فى تكريمه والإشادة به، مع إقطاعه مدينة أو قلعة يحكمها؛ لكونه من المقربين[3].

ومن أشهر تلك الأتابكيات: أتابكية دمشق التى أسسها ظهير الدين طغتكين (ت ٥٢٢هـ/١١٢٨م) الذى كان مملوك الملك السلجوقى تتش بن ألب أرسلان، ثم قائدا له وأتابكا لابنه دقاق صاحب دمشق. ووصف هذا الأتابك طغتكين بأنه كان عاقلا، خيرًا، كثير الغزو والجهاد للصليبيين، حسن السيرة فى رعيته بدمشق، مؤثرًا للعدل فيهم [4]،

والأتابك طغتكين اشترك مع أمير دمشق دقاق فى التصدى للصليبيين عند أنطاكية سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٧م مع أمير الموصل كربوقا والسلطان السلجوقى فى فارس بركيارق وغيرهما، لكن أنطاكية وقعت فى أيدى الصليبيين فى

السنة السابقة[٥]، وقام أتابك دمشق طغتكين بجهاد الصليبيين سنة ٥٠٣هـ/١١٠٩م. وأسهم مع أمير الموصل مودود وغيره فى هزيمة الصليبيين عند نهر الفرات [٦].

وأبرز انتصار تحقق مع الأتابك طغتكين، وإيلغازى صاحب ماردين وغيرهما على الصليبيين حدث سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م عند أرتاح القريبة من حلب فى معركة البلاط (معركة ساحة الدم) لكثرة قتلى الصليبيين فيها [٧].

وقد تم القضاء على أتابكية دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، باستيلاء نور الدين محمود على دمشق التى كانت تابعة لحفيد طغتكين وهو مجير الدين آبق الذى كان صاحب دمشق الفعلى، بينما الأمور تدار عن طريق الأتابك معين الدين أنر[٨]. وهكذا كانت الأتابكية تتحول فى نهاية الأمر إلى ملك وإمارة يحكمها الأتابك السابق، ويتلقب بلقب الأمير، ويتخذ له أتابكا أيضًا.

ومن أظهر الأتابكيات أيضًا: أتابكية الموصل التى صنف ابن الأثير كتابًا يتناول تاريخها هو " التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية " بالموصل. ومؤسس دولة أتابكية الموصل هو : عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آقسنقر الحاجب الذى ولاه السلطان السلجوقى مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه (ت ٥٢٥هـ/١١٣٠م) الموصل سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م ، وتلقب بلقب " أتابك " لأنه تولى تربية ابن السلطان السلجوقى محمود وهو ألب أرسلان، المعروف بالخفاجى، فزنكى تولى إعداد وتهيئة السلطان ألب أرسلان بأمر من أبيه السلطان السلجوقى محمود. ولما توفى السلطان محمود سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م كان زنكى يُظْهِر أمام الخلفاء العباسيين : المسترشد (ت٥٢٩هـ/ ١١٣٤م) ثم الراشد (ت ٥٣٠هـ / ١١٣٥م) والمقتفى (ت ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) وغيرهم من حكام الأقاليم المختلفة أنه نائب عن السطان ألب أرسلان، فكان إذا أرسل رسولاً أو أجاب عن رسالة، فإنما يقول : قال الملك : كذا وكذا [٩].

والأتابك عماد الدين زنكى صاحب جهاد طويل للصليبيين فى الفترة ما بين سنوات (٥٢١- ٥٤١هـ/ ١١٢٧- ١١٤٦م) . وقد سجل له التاريخ بحروف من نور دوره فى توحيد منطقة الموصل والجزيرة وشمال الشام، ودوره فى فتح الرها (أورفة الحالية بتركيا) سنة ٥٣٩هـ/ ١١٤٤م أولى الإمارات الصليبية

قيامًا فى الشرق الإسلامى، وأولاها فتحا وتحررًا[10].

وتولى أتابكية الموصل بعد وفاة زنكى ابنه الأتابك سيف الدين غازى بن زنكى (ت ٥٤٤هـ - ١١٤٩م) ثم أخوه قطب الدين مودود بن زنكى الذى ملك أولاده الموصل بعد وفاته. وكان الملك مسعود بن محمد بن ملكشاه (ت ٥٤٧هـ - ١١٥٢م) هو السلطان السلجوقى الذى يحكم باسمه أولاد زنكى : غازى ومودود[11]، وهذا السلطان كان له العراق وغرب إيران.

وقد برزت الأتابكة بوضوح بعد وفاة الملك مسعود سنة ٥٤٧هـ/ ١١٥٢م، فما إن مات إلا ظهر هؤلاء الأتابكية على المسرح السياسى بقوة، فأخذوا يقومون بالأدوار الرئيسة. وبرزت شخصياتهم وأسماؤهم، وصار سلاطين السلاجقة أدوات فى أيديهم، يأتمرون بأمرهم، وينفذون رغباتهم، دون أن يكون لهم نفوذ أو شخصية واضحة. وقد سقطت دولة السلاجقة بالمشرق سنة ٥٥٢هـ ١١٥٧م على أيدى الغز الأتراك، وسقطت دولة السلاجقة بالعراق سنة ٥٩٠هـ/١١٩٣م على أيدى حكام الدولة الخوارزمية. وكان هذا إيذانًا بظهور أتابكية جديدة بآذربيجان، هى" أتابكية" آذربيجان "[12].

وأتابكية آذربيجان أسسها عبد مملوك يدعى ايلدكز كان مملوكًا للسميرى وزير السلطان مسعود، ثم ساعدته شخصيته المرحة على الوصول إلى حضرة السلطان فى صورة مضحك ونديم له، ثم صار ضابطًا، ثم عهد إليه بتربية الطفل أرسلان ابن طغرل الثانى فصار فى درجة أتابك، ثم لم يلبث أن تزوج أرملة السلطان طغرل الثانى، فعينه السلطان مسعود واليا على منطقة آذربيجان فى عام ٥٣١هـ، ١١٣٦م فأسس فيها أتابكية عرفت بأتابكية آذربيجان، أصبح الحكم فيها متوارثًا بين أبناء إيلدكز وأحفاده من بعده، وكان الواحد منهم يتخذ لقب (أتابك آذربيجان) .

وظلت أتابكية آذربيجان قائمة أكثر من تسعين عامًا إلى أن سقطت فى عام ٦٢٢هـ- ١٢٢٥م. وكان تدخل أتابكية آذربيجان فى توجيه سير الأمور فى دولة سلاجقة العراق عاملاً من عوامل إسقاط دولة سلاجقة العراق[13] .

وقضى على أتابكية آذربيجان على يد جلال الدين خوارزم شاه الذى دخل آذربيجان سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م منهيا

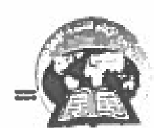
حكم أتابكية آذربيجان وحكم آخر أتابك بها وهو مظفر الدين أزبك بن البهلوان [١٤] .

وعرف الأيوبيون نظام الأتابكية أيضًا؛ فلقد كان الأتابك شهاب الدين طغريل الخادم أتابكا للملك العزيز بن الملك الظاهر غازى صاحب حلب، بعد وفاة الأخير سنة ٦١٣هـ - ١٢١٦م، وكانت الأمور كلها مفوضة إلى هذا الأتابك شهاب الدين طغريل، فهو القائم بتدبير أمر المملكة فى جميع أمورها من تفريق الأموال والإقطاع، وإقامة الحصون والقلاع، وترتيب كافة الأمور [١٥] ،

كما كان بهاء الدين قراقوش أتابكا للملك المنصور ابن الملك العزيز الذى توفى سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م فاتفقت كلمة الأمراء بالديار المصرية على إقامة ابن الملك العزيز فى الملك، وقيام بهاء الدين قراقوش بأتابكيته، وطمع بعض الأيوبيين فى أتابكية الملك المنصور الذى كان فى التاسعة من عمره، ووقع الاختلاف بين أمراء الدولة . واتفقت كلمة الأمراء على مكاتبة الملك الأفضل أكبر أولاد صلاح الدين الأيوبى وصاحب دمشق على أن يكون أتابكا لابن أخيه المنصور سبع سنين ، فإذا انتهى هذا الأجل سلم الأمر إليه والتدبير، ولا يذكر اسم الأفضل فى خطبة ولا سكة.[١٦] وقد أصبح الملك العادل الأيوبى أخو صلاح الدين الأيوبى أتابكًا للمنصور سنة ٥٩٦هـ - ١١٩٩م إلى أن يكبر ويسلم مصر إليه ، إلا أنه طمع فى مصر وقال للأمراء: " إنه قبيح أن أكون أتابكًا لصبى مع الشيخوخة والتقدم، مع أن الملك ليس هو الميراث، وإنما هو لمن غلب " وإنه يخشى الفتن ؛ وإن الصبى المنصور عليه أن يمضى إلى الكُتَّاب، ويقام من يؤدبه ويعلمه، فاستقل العادل بمصر وعزل المنصور [١٧]

كان سيف الدين سنقر مملوك الملك المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين الدين بن أيوب (ت ٥٩٨- ١٢٠٢م) أتابكًا لابنه الملك الناصر بعد وفاة والده، وتزوج الأتابك سنقر من أم الملك الناصر ، ثم قام بالأتابكية بعده غازى ابن جبريل [١٨] ،وتزوج من أم الملك الناصر وأنجبت منه ذكرًا ، وقام غازى بن جبريل بأتابكية الملك باليمن، ثم سم الملك الناصر، وأصبح متملكا للبلاد وحده مدة من الزمن، إلى أن قتلته جماعة من عرب اليمن، وبقيت اليمن خالية من أى سلطان حتى سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥م وفيها استولى الملك المسعود بن الملك الكامل على اليمن [١٩] .

أ.د/ يسرى أحمد زيدان



الهوامش :

(١) راجع القلقشندى: صبح الأعشى ج ٢ ، ص ١٨ ، وراجع ص ١٦ – ١٧ . طبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومى (تراثنا) .

(٢) د. السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية . ج ١، ص ٢١ . طبعة دار النهضة العربية .

(٣) د . سعيد عبد الفتاح عاشور : الحركة الصليبية ج١ ، ص ١١٢- ١١٣ . طبعة مكتبة الأنجلو المصرية . ودكتورة علية عبد السميع الجنزورى: الحروب الصليبية (المقدمات السياسية) ص ٢٤١. طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب . تاريخ المصريين (١٥٣) .

(٤) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٢١٩. طبعة مكتبة المتنبى . القاهرة .

(٥) ابن القلانسى : السابق ص ١٣٤ ، وابن العديم : زبدة الحلب ج ٢ ، ص ١٣١ – ١٣٢ طبعة دمشق .

(٦) ابن القلانسى : السابق ص ١٦٩- ١٧١ ، وابن العديم : السابق ج ٢ ، ص ١٥٤ – ١٥٥.

(٧) ابن العديم : السابق ج ٢ ، ص ١٨٧- ١٩٤ ، وابن الأثير : الكامل ج١٠ ، ص ٥٣٩- ٥٤٤. طبعة دار صادر . بيروت.

(٨) ابن الأثير : السابق ج ١١، ص ١٩٧- ١٩٨. وابن العديم : السابق ص ٣٠٣ – ٣٠٥، وابن واصل : مفرج الكروب ج ١، ص ١٢٥- ١٢٧.

(٩) ابن الأثير : الباهر ص ٢٠، ٣٤، ٤٢، ٧١، ٧٢ طبعة دار الكتب الحديثة بالقاهرة . .

(١٠) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ٢٧٩ وابن الأثير : الباهر ص ٦٦- ٧٠ .

(١١) ابن الأثير : الباهر ص ٨٤، ٨٦، ٩٢، ٩٤، ٩٧، ٩٨، ١٠٥ .

(١٢) د . عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة ص ١١٧- ١٢١. طبعة مكتبة الأنجلو المصرية .

(١٣) د. عبد النعيم محمد حسنين: السابق، ص ١٢١- ١٢٢.

(١٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج ٤ ص ١٤٨- ١٥٢. و ٤٧، ٤٨، ٥٢ ، ٩٠، ١١١، ١١٥، ١٣٣ ، ١٣٥، ٣١٧ .

(١٥) ابن واصل مفرج الكروب ج ٣، ص ٢٣٧، ٣٨، ٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٦، ٤٨، ٤٩، ٥١، ٥٢، ٦٣، ٦٤، ٦٨، ٦٩.

(١٦) ابن واصل : السابق ص ٨٧، ٨٨- ٩٠ .

(١٧) ابن واصل : السابق ص ١٠٩- ١٠٢ .

(١٨) ابن واصل : السابق ص ١٣٥- ١٣٨ .

(١٩) ابن واصل : مفرج الكروب : ج ٣، ص ١٣٧- ١٣٨، ٢٢٧ .

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. ابن الأثير : (على بن أبى الكرم) : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية. دار الكتب الحديثة بالقاهرة .

٢ـ الأصفهانى (محمد بن محمد بن حامد) : تاريخ دولة آل سلجوق . اختصار الشيخ الإمام الفتح بن على بن محمد البندارى الأصفهانى. تحقيق لجنة إحياء التراث العربى فى دار الآفاق الجديدة . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت.

٣. الحسينى(صدر الدين بن على) كتاب أخبار الدولة السلجوقية . اعتنى بتصحيحه محمد إقبال . منشورات دار الآفاق الجديدة . بيروت .

٤. ابن النظام (محمد بن محمد بن عبد الله) العراضة فى الحكاية السلجوقية . ترجمة وتحقيق د . عبد النعيم محمد حسنين ود حسين أمين . مطبعة جامعة بغداد ١٩٧٩م.

٥. الراوندى (محمد بن على بن سليمان) راحة الصدور وآية السرور . ترجمة د . إبراهيم الشواربى ود . عبد النعيم حسنين وفؤاد عبد المعطى الصياد دار القلم بالقاهرة .

٦- ابن واصل : (محمد بن سالم) : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

٧. د حسين أمين : تاريخ العراق فى العصر السلجوقى .

٨- عبد النعيم محمد حسنين : دولة السلاجقة . مكتبة الأنجلو المصرية.

الأتـــراك

الأتـراك هـم المجموعـة العرقيـة التـى تـتكلم اللغـة التركيـة كلغـة آم ويبلـغ عددهم حوالى ٧٠ مليون يوجد أغلبهم فى تركيا ومنهم عدد فى المهجر وخاصة فى ألمانيا التى يوجد بها حوالى ٢٫٧ مليون من الجاليـة التركيـة ويعتنـق معظـم الأتـراك ديـن الإسـلام بغالبيـة سُنية يتبعـون الفقـه الحنفى وأقلية علمانية[١]

ولقد وُجد الأتراك فى منطقة ما وراء النهـر التـى نـسميها اليـوم (تركـستان)[٢] والتـى تمتـد مـن هـضبة منغوليـا وشمـال الصين شرقًا إلى بحر الخزر (بحـر قزوين) غربًـا، ومـن الـسهول الـسيبيرية شمالًا إلى شـبه القـارة الهنديـة وفـارس جنوبًـا. وقـد اسـتوطنت عناصـر (الغُـز)[٣] وقبائلـها الكـبرى تلـك المـضايق وعرفـوا بـالترك أو الأتـراك ثم تحركـت هـذه القبائـل فـى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى للانتقـال مـن موطنهـا الأصلـى نحـو آسـيا الـصغرى فـى هجـرات ضـخمة. وذكـر المؤرخـون[٤] مجموعـة مـن الأسـباب التـى سـاهمت فـى هجـرتهم: فـالبعض يـرى أن ذلـك بـسبب عوامـل اقتـصادية فالجـدب الشديد وكثرة النسل جعلت هذه القبائل تضيق ذرعًا بمواطنها الأصلية فهاجرت بحثًا عن المراعى والعيش الرغيد والبعض الآخر يعزو تلك الهجرات لأسباب سياسية حيـث تعرضـت تلـك القبائـل لـضغوط كبيرة من قبائل أخرى أكثر منها عددًا وعـدة وقـوة وهـى القبائـل المغوليـة التـى أجبرتها على الرحيل من مواطنها لتبحث عـن مـواطن أخـرى وتـترك أراضيها بحثًا عن نعمة الأمن والاستقرار[٥].

ولقد اضطرت تلك القبائل المهاجرة أن تتجه غربًا ونزلت بالقرب من شواطئ نهر جيحـون، ثـم اسـتقرت بعـض الوقـت فـى طبرستان وجرجان فأصبحوا بالقرب من الأراضى الإسلامية التى فتحها المسلمون بعـد معركـة «نهاونـد» وسـقوط الدولـة الـساسانية الفارسـية فـى فـارس سـنة ٢١ هـ/ ٦٤١م[٦]

وفـى عـام ٢٢ هـ/ ٦٤٢م تحركـت الجيـوش الإسـلامية إلى بـلاد «البـاب» لفتحها، وكان الأتـراك قد سـكنوا تلك الـبلاد وهنـاك التقـى قائـد الجـيش الإسـلامى «عبدالرحمن بن ربيعة» بملك الترك «شـهريار» فطلب مـن عبدالرحمن الصلح وأظهر استعداده للمشاركة فى



الجيش الإسلامى لمحاربة الأرمن فأرسله عبدالرحمن إلى القائد العام «سراقة بن عمرو». وقد قام شهريار بمقابلة سراقة فقبل منه ذلك وكتب للخليفة عمر بن الخطاب يعلمه بالأمر فوافق على ما فعل[٧]. وعلى أثر ذلك عقد الصلح ولم يقع بين الأتراك والمسلمين أى قتال، بل سار الجميع إلى بلاد الأرمن لفتحها ونشر الإسلام بها.

وتقدمت الجيوش الإسلامية لفتح البلدان فى شمال شرق بلاد فارس بعد سقوط دولة الفرس أمام الجيوش الإسلامية وهى التى كانت تقف حاجزًا منيعًا أمام الجيوش الإسلامية فى تلك البلدان.. فتم فتح بخارى فى عهد «معاوية بن أبى سفيان» ثم توغلت حتى سمرقند وبذلك فتحت كل بلاد ما وراء النهر[٨].

وبزوال تلك العوائق ونتيجة للفتوحات الإسلامية أصبح الباب مفتوحًا أمام تحركات شعوب تلك البلدان والأقاليم ومنهم الأتراك فتم الاتصال بالشعوب الإسلامية واعتنق الأتراك الإسلام[٩].

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان[١٠] تم فتح بلاد طبرستان ثم عبر المسلمون نهر جيحون ونزلوا بلاد ما وراء النهر، فدخل كثير من الترك فى دين الإسلام وصارت بلاد ما وراء النهر جميعها تحت الحكم الإسلامى[١١].

وازداد عدد الأتراك فى بلاط الخلفاء والأمراء المسلمين وشرعوا فى تولى المناصب القيادية والإدارية فى الدولة وقد التزموا بالهدوء والطاعة حتى نالوا أعلى المراتب.

ولمَّا تولى «المعتصم بالله»[١٢] الخليفة العباسى الخلافة فتحت الأبواب أمام النفوذ التركى وأسندت إليهم مناصب الدولة القيادية وأصبحوا بذلك يشاركون فى تصريف شئون الدولة. وكانت سياسة المعتصم تهدف إلى تقليص النفوذ الفارسى الذى كان له اليد المطلقة فى إدارة الدولة العباسية فى العصر العباسى الأول منذ عهد الخليفة «المأمون بن الرشيد».

ولقد تسبب اهتمام المعتصم بالعنصر التركى فى حالة سخط شديدة بين الناس والجند[١٣]، فبنى (سامراء)[١٤] وسكنها هو وحده وأنصاره وجنوده الأتراك. وهكذا بدأ الأتراك منذ ذلك التاريخ فى الظهور فى أدوار هامة على مسرح التاريخ الإسلامى حتى أسسوا لهم دولة إسلامية كبيرة كانت على صلة بخلفاء الدولة العباسية عُرفت بالدولة

السلجوقية[15].

وكان لظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث فى المشرق العربى الإسلامى أثر كبير فى تغير الأوضاع السياسية فى تلك المنطقة التى كانت تتنازعها الخلافة العباسية السُنية من جهة والخلافة الفاطمية الشيعية من جهة أخرى[16].

وينتمى أصل الأتراك السلاجقة إلى قبيلة «قنق»[17] إحدى قبائل الأتراك الغز، التى نجحت فى تكوين امبراطورية عظيمة. وسُميت بهذا الاسم نسبة إلى جدهم سلجوق بن دقاق، الذى كان يعمل قائدًا فى جيش بيغو (الغزال) ملك الترك. ولقد حدثت خلافات بين بيغو ودقاق اضطر على أثرها سلجوق - الذى تولى إمارة الجيش خلفًا لأبيه وأسرته - إلى ترك ديارهم إلى نواحى "جند" ببلاد ما وراء النهر[18]، ومعه ألف فارس وألف بعير وخمسون ألف رأس من الماشية، بعد أن أضمر له بيغو السوء بسبب حب الناس له، كذلك كان فقر المراعى سببًا فى هجرة الأتراك السلاجقة جنوبًا ناحية بخارى. وهناك اعتنق سلجوق وأسرته ورجاله الإسلام. وأصبح لهؤلاء الأتراك نشاط فى الجهات التى هاجروا إليها، فقاموا بالذود عنها ضد خطر الكفار الترك. واستطاع سلجوق تأسيس إمارة واسعة فى بلاد ما وراء النهر[19]. وكان له من الأولاد آرسلان إسرائيل وميكائيل وموسى ويوسف. وكان ميكائيل أكبر أبنائه قد مات أثناء حياة أبيه وله من الأبناء طغرلبك محمد[20] وجغرى بك.

وقد أسس السلاجقة دولة تركية كبرى ظهرت فى القرن الخامس الهجرى بعد أن توسعت على حساب الدولة الغزنوية، وخاصة بعد انتصار السلاجقة على الغزنويين فى معركة "داندنقان" سنة ٤٣١هـ/١٠٤٩م، لتشمل بلاد خراسان وما وراء النهر وإيران والعراق وبلاد الشام وآسيا الصغرى، وكانت مدينة الرى فى إيران ثم بغداد فى العراق مقر السلطنة السلجوقية، بينما قامت دويلات سلجوقية أخرى فى خراسان وما وراء النهر وفى كرمان وبلاد الشام (سلاجقة الشام) وآسيا الصغرى (سلاجقة الروم) وكانت تتبع السلطان السلجوقى فى إيران والعراق[21].

وقد ساند السلاجقة الخلافة العباسية ونصروا مذهبهم السنى، بعد أن كادت تنهار على يد النفوذ الشيعى فى إيران والعراق والنفوذ الفاطمى فى مصر



والشام، فقضى السلاجقة على النفوذ البويهى تمامًا وتصدوا للخلافة الفاطمية الشيعية[٢٢].

واستطاع طغرليك، الزعيم السلجوقى أن يسقط الدولة البويهية فى بغداد سنة ٤٤٧هـ ، وأن يقضى على الفتن وقد فرح الخليفة العباسى بانتصار السلاجقة على البويهيين فقرب إليه طغرليك وأمر بنقش اسمه على العملة ولقبه بالسلطان ركن الدين طغرليك.

وزاد نفوذ السلاجقة فى الدولة العباسية وحلوا محل البويهيين وسيطروا على بغداد وعملوا على توطيد علاقتهم بالعباسيين. فتزوج الخليفة العباسى من ابنة (جغرى بك) الأخ الأكبر لطغرلبك وتزوج طغرلبك ابنة الخليفة العباسى "القائم بأمر الله" .

وتوفى طغرلبك بعد عام من زواجه، وتولى ألب أرسلان[٢٣] السلطة فى البلاد بعد وفاة عمه طغرلبك، وكان ألب أرسلان متلهفًا للجهاد فى سبيل الله ونشر دعوة الإسلام فى بلاد الأرمن والروم. وقام ألب أرسلان بفتح جورجيا من بلاد الأرمن وضمها لمملكته. وأغار على شمال الشام وحاصر الدولة المرداسية الشيعية فى حلب[٢٤]، وأرسل قائده "أتسز الخوارزمى" فى حملة لجنوب الشام فاستولى على الرملة والقدس وخلصها من يد الفاطميين[٢٥]. وانتصر ألب أرسلان على امبراطور الروم فى معركة «ملازكرد» (٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠م) [٢٦].

ولقد كان نصر ألب أرسلان على جيش امبراطور الروم حدثًا كبيرًا ونقطة تحول فى التاريخ الإسلامى لأنها ساعدت على إضعاف نفوذ الروم فى معظم أقاليم آسيا الصغرى وهذا ساعد تدريجيًا على قضاء الأتراك العثمانيين على الدولة البيزنطية[٢٧].

وفى عام ٤٦٥هـ/١٠٧٢م قتل السلطان ألب أرسلان على يد أحد الثائرين يدعى يوسف الخوارزمى، ودفن فى مرو بجوار قبر أبيه وخلفه إبنة ملكشاه [٢٨].

واتسعت دولة الأتراك السلاجقة فى عهد ملكشاه لتبلغ أقصى امتدادٍ لها من أفغانستان شرقًا إلى آسيا الصغرى غربًا وبلاد الشام جنوبًا وذلك بعد أن سقطت دمشق على يد قائده أتسز وأقيمت الدعوة للخليفة العباسى[٢٩].

ولقد أسند ملكشاه المناطق التي سيطر عليها فى بلاد الشام لأخيه «تاج الدولة تُتُش»[٣٠] عام ٤٧٠هـ وذلك من أجل متابعة الفتح فأسس تتش دولة "سلاجقة الشام" [٣١]، كما أسند ملكشاه حكم

بلاد آسيا الصغرى لأحد أقاربه ويُدعى «سليمان بن قتلمش»[٣٢] فأسس سليمان دولة «سلاجقة الروم»[٣٣]. وقد استمرت هذه الدولة ٢٢٤ سنة ليتعاقب عليها أربعة عشر من سلالة قتلمش، وكان أولهم سليمان الذى يعتبر المؤسس الأول وقد تمكن من فتح أنطاكية (٤٤٧هـ/ ١٠٨٤م)[٣٤] كما تمكن ابنه من السيطرة على قونية سنة ٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧م ليتخذها عاصمة له. وقد سقطت هذه الدولة على يد المغول (٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠م) ثم أصبحت من أملاك الدولة العثمانية.

ولقد حرص سلاجقة الروم على تتريك آسيا الصغرى ونشر الإسلام على المذهب السنى، وكانوا سببًا فى نقل الحضارة الإسلامية إلى تلك البلاد وأسقطوا الخط الدفاعى الذى كان يحمى المسيحية فى أوربا المسيحية مما يأتيها من هجمات من جهة المشرق[٣٥].

وعندما توفى السلطان ملكشاه وانتهى دور القوة والمجد الذى عرفته الدولة السلجوقية فى عهد السلاطين الثلاثة الكبار (طغرلبك وألب أرسلان وملكشاه) بدأت مرحلة الضعف والصراع[٣٦]. وقد ظهر فى عهدىْ ألب أرسلان وملكشاه الوزير الكبير «نظام الملك» مؤسس المدرسة النظامية الكبرى ببغداد وأخرى بنيسابور وثالثة بطوس[٣٧].

ويقول المؤرخ أبو شامة عنه: «إنه أعاد الناموس للدولة والهيبة لها إلى أحسن حالاتها»[٣٨] وذكر ابن الأثير عنه «أنه ظهر من كفايته وشجاعته وحسن سيرته ما أثلج صدور الناس»[٣٩].

ثم توالى الضعف على ملوك السلاجقة أبناء ملكشاه: بركياروق ومحمد وسنجر ومحمود[٤٠]، وكان محمود طفلا صغيرًا فبايعوه على تولى السلطنة لأن أمه كانت ذات شأن كبير أيام ملكشاه، واستمر حكمه مدة عامين ثم توفى بعدهما هو وأمه[٤١]. ثم جاء بركياروق واستمر حكمه فى عام ٤٩٨هـ/١١٠٥م[٤٢]، ثم تلاه ركن الدين ابن ملكشاه الثانى، وفى نفس العام تولى أبو شجاع محمد السلطنة واستمر حكمه حتى عام ٥١١هـ/١١٣٨م. وكان آخر حكام دولة الأتراك السلاجقة. وقد انقرضت دولتهم سنة ٥٢٢هـ/١١٢٨م.

وبسقوط دولة الأتراك السلاجقة تكونت الإمارات الأتابكية[٤٣]، إلى أن ظهرت على المسرح دولة الأتراك العثمانيين التى كانت امتدادًا لدولة الأتراك السلاجقة. وينحدر الأتراك

العثمانيون من القبائل التركمانية الذين دخلوا الأناضول فى القرن الحادى عشر الميلادى كجنود مرتزقة للسلاجقة. وقامت دولة الأتراك العثمانيين فى شمال غربى الأناضول (آسيا الصغرى)، وهم ورثة الأتراك السلاجقة، وينتسبون إلى عشيرة قابى إحدى قبائل الغز الأتراك، التى سكنت التركستان ووفدوا إلى بلاد الأناضول بقيادة زعيمهم عثمان بن أرطغرل[٤٤]، الذى جاء إلى تلك البلاد طالبًا مبايعته خليفة أوائل القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى. وكانت تلك القبيلة تسكن ضمن قبائل الغز الأخرى شمال بحر قزوين، الذى كان يسمى ببحر الخزر.

وعندما استولى المغول على بلاد التركستان فى القرن السابع الهجرى هاجرت القبائل التركية إلى أذربيجان وهناك استقروا وتكاثروا فى العدد. وبعد وفاة سليمان شاه، زعيم القبيلة، خلفه ابنه أورخان: أبو الأتراك العثمانيين، ولكن الدولة تُنسب إلى ابن أخيه عثمان ابن أرطغرل الذى يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة العثمانيين الذين هاجروا من وسط آسيا هربًا من فظائع المغول واستقروا فى آسيا الصغرى: ودخل الأتراك العثمانيون فى الصراع الذى كان دائرًا بين سلاجقة الروم والبيزنطيين إلى جانب السلاجقة. وتمكن عثمان بن أرطغرل من الاستيلاء على بعض القلاع والحصون البيزنطية فى وسط آسيا فكافأه السلطان السلجوقى علاء الدين ورفعه إلى مرتبة الأمراء وترك له التوسع فى إمارته على حساب الممتلكات البيزنطية[٤٥]. وبعد قتل السلطان علاء الدين السلجوقى وسقوط دولته استقل عثمان بإمارته وما تحت يده من أملاك السلاجقة ثم أعلن الجهاد فاستولى على بروسة (على ساحل بحر مرمرة) ثم نظَّم بداية تأسيس الدولة[٤٦].

وتُعد دولة الأتراك العثمانيين أكبر الدول فى الفتوحات الإسلامية بعد الدولة الأموية، فقد أعاد الأتراك العثمانيون الدعوة للجهاد والغزو وانطلقوا فى فتوحات داخل أوربا وأجزاء من آسيا الصغرى، وعلى رأس هذه الفتوحات فتح القسطنطينية عاصمة دولة الروم الشرقية، على يد السلطان محمد الفاتح عام٨٥٧هـ/١٤٥٣م[٤٧]، الذى حول كنيستها الشهيرة (أيا صوفيا) إلى جامع[٤٨]، ثم فتح بلغراد والبوسنة والهرسك ودخل أهلها فى الإسلام فى عهد محمد الفاتح أيضًا، كما استولى

الأتراك العثمانيون على بلاد اليونان وقبرص ورومانيا وألبانيا وجنوب أوربا حتى نهر الدانوب فى القرن الخامس عشر الميلادى.

كذلك انتصر الأتراك العثمانيون على الدولة الصفوية الإيرانية وهزموا الشاه إسماعيل الصفوى عام ٩٢٠هـ/١٥١٤م فى معركة جالديران[٤٩]، ثم قضوا على دولة المماليك فى مصر والشام بعد معركتى مرج دابق٩٢٢هـ / ١٥١٦م فى الشام والريدانية فى مصر عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م على يد السلطان سليم الأول[٥٠].

وبالرغم من أن بداية تأسيس دولة الأتراك العثمانيين كان عام ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، إلا أن الميلاد الحقيقى لها وبداية ازدهارها وتوسعها كان عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م، بعد أن تم فتح القسطنطينية التى أصبحت عاصمة الدولة وأُطلق عليها اسم (إسلام بول)، أى مدينة الإسلام، وهى اسطنبول حاليًا.

وفى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م، بعد سقوط دولة المماليك فى مصر والشام وسقوط الخلافة العباسية معها، أعلنت الدولة العثمانية تحول الخلافة إلى سلاطينها، فصار سلاطينها حكامًا وخلفاء وتحول مركز الخلافة من بغداد والقاهرة إلى اسطنبول. وحكمت هذه الدولة التركية أجزاء واسعة من العالم الإسلامى حتى سقوط ونهاية خلافتها عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م[٥١].

ويقسم المؤرخون تاريخ الأتراك العثمانيين إلى دورين أساسيين هما: دور القوة، وهو يبدأ من تأسيس الدولة حتى نهاية حكم السلطان سليمان القانونى عام ٩٧٤ هـ/١٥٦٦م.

ودور الضعف، وجاء بعد عهد سليمان القانونى وتولية ابنه سليمان الثانى حتى سقوط الخلافة.

وعن التشييد والجوانب الحضارية فقد كان السلاطين العثمانيون حريصين على البناء والمعمار، فقد اهتموا بالبناء فى كل بلد فتحوها، بناء مساجد ومدارس وخانقاوات وحصون وقلاع. وكان أول مسجد بنوه فى عهد السلطان أرطغرل والد عثمان عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، قبل إعلان الدولة رسميا. وفى عهد السلطان أورخان تم تشييد مسجد (بورصة) وألحق به بناء كبير ليكون مدرسة للعلوم الشرعية، وفى عام ٧٣٧ هـ/١٣٣٦م تم بناء مسجد أزمير الكبير وبناء مدرسة ضخمة إلى جواره لتدريس شتى العلوم، وقد اعتبرها البعض أول جامعة عثمانية[٥٢].

وفى عهد السلطان بابزيد بن مراد بنى الأتراك العثمانيون مركزًا ضخمًا لبناء



السفن وإصلاحها فى مدينة (غاليبولى)، وفى عهد السلطان محمد الفاتح تم اختراع مدفع ضخم استخدم فى معركة فتح القسطنطينية. وتم اختراع نوع جديد من القنابل المتفجرة التى تنفجر إذا اصطدمت بجسم صلب لأول مرة فى تاريخ الحروب.

وبعد فتح القسطنطينية بنى فيها السلطان محمد الفاتح مسجدًا ضخمًا وألحق به مستشفى يضمُّ سبعين سريرًا يتدرب فيه الطلاب الذين يدرسون الطب وأطلق على هذا المستشفى اسم «دار الشفاء»(٥٣).

وفى عهد السلطان أحمد خان الثالث أمر هذا السلطان بتأسيس دار للطباعة فى إسلامبول وزودت هذه الدار بمطبعة حديثة، ويذكر بعض المؤرخين أن عدد المكتبات فى إسلامبول بلغ ٤٥ مكتبة ضمت ما يزيد على ٦٥٠ ألف مجلد، أكثرها بخط اليد.

ومن كبار المعماريين الذين ظهروا فى عهد دولة الأتراك العثمانيين المعمارى (سنان باشا) الذى يعتبر من أبرز المعماريين فى التاريخ الإسلامى وليس فى تاريخ الدولة العثمانية وحدها، وكان سنان باشا مسئولا عن الأعمال المعمارية فى إسلامبول وهى الأعمال التى لا تزال آثارها باقية إلى اليوم، كما ساهم فى بناء الأسطول العثمانى الكبير.

وقد بدأ دور الضعف فى دولة الأتراك العثمانيين حين اختل نظام (الانكشارية) وتوالت على الدولة الهزائم العسكرية وظهور قوى جديدة كانت من أسباب ضعف الدولة إلى جانب انتشار الفساد والرشوة فى عهد السلاطين الضعاف الذين توالوا على حكم الدولة.

ولقد ظل حكم دولة الأتراك العثمانيين فى العالم العربى مدة أربعة قرون، وهى مدة طويلة، لا شك فى أنها صعبت من استمرارية إحكام قبضة العثمانيين على ممتلكاتهم طوال هذه المدة. وبصفة عامة عانت الولايات العربية التى كانت تتبع الدولة من تدهور أحوال الزراعة والصناعة والتجارة إلى جانب تعصب الأتراك لجنسهم وتفضيله على العنصر العربى، تغذيهم فى ذلك بعض العناصر اليهودية التى كان لها نفوذ واسع فى جمعية «الاتحاد والترقى»، فقامت الحركات الانفصالية عن الدولة ومنها الحركة الوهابية والسنوسية والمهدية وحركة محمد على التوسعية فى مصر(٥٤).

ولمَّا شعرت الدولة العثمانية بضعفها فرضت على العالم العربى العزلة وقطعته عن الاتصال بالعالم الخارجى، فانتشرت

الأمية واقتصر التعليم على الكتاتيب الملحقة بالمساجد التى كانت تدرس العلوم الدينية والفقهية فقط، كما كانت مدة حكم الولاة العثمانيين تقتصر على عام أو عامين: الأمر الذى أدى إلى طمع الولاة ومحاولة استقلالهم عن الدولة. كذلك كانت الامتيازات الأجنبية التى منحتها دولة الأتراك العثمانيين لرعايا الدول الأجنبية فى ولاياتها سببًا من أسباب هذا الانهيار. فقد أساء رعايا هذه الدول فهم هذه الامتيازات واعتبروها حقوقًا مكتسبة لهم على حساب الرعايا، فتهربوا من دفع الضرائب ولم يخضعوا أنفسهم لقوانين الدولة(٥٥).

كذلك ظهرت أطماع الدول الاستعمارية فى ممتلكات الدولة، ودخلت روسيا الحرب ضد الأتراك العثمانيين، فيما عُرف «بحرب القرم» سنة ١٢٧٠هـ/١٨٥٣م، وقد انتهت هذه الحرب بمعاهدة «سان استيفانوس» التى فضت النزاع بينهما ، وحظيت النمسا وبريطانيا بمقتضى هذه المعاهدة على أجزاء من ممتلكات الدولة، وكذلك عقب مؤتمر برلين عام ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م(٥٦).

وبدأ اليهود فى رسم مخططاتهم التى توجوها بالهجرة إلى فلسطين بعدما حاولوا رشوة السلطان عبد الحميد وفشلوا فى ذلك، فلجأوا إلى بريطانيا التى وجدت فيهم سندًا لمصالحها فى الشرق. وقد احتلت فرنسا فى حملتها مصر والشام عام١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م، ثم قامت فرنسا باحتلال الجزائر عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م.

كما أعلن الجبل الأسود الحرب على دولة الأتراك العثمانيين وتحالف مع صربيا وبلغاريا واليونان، وتمكنوا من إحراز النصر عليها، ففقد الأتراك معظم أراضيهم فى أوربا، وظهر ما عُرف باسم «المسألة الشرقية» و«رجل أوربا المريض». ومع ذلك استمرت دولة الخلافة العثمانية حتى جاء مصطفى كمال أتاتورك وأسقطها عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، لتقوم دولة تركيا الحالية الحديثة العلمانية التى اعترفت بقيامها معاهدة لوزان(٥٧)

أ . د / عطية القوصى

الهوامش:

(١) هذا العدد حسب إحصاءات عام ٢٠٠٥ التركية السكانية .

(٢) كانت تلك البلاد تُعرف عند المسلمين باسم بلاد ما وراء النهر، أى وراء نهر جيحون وهى البلاد التى نُسبت إلى الترك فعُرفت ببلاد التركستان، أى أرض الترك (أرمنيوس فاميرى: تاريخ بخارى منذ أقدم العصور، القاهرة ١٩٦٨، ص ١٣٥).

(٣) الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، جـ٦، بيروت ١٩٦٧، ص ١٠٥.

(٤) الطبرى: المصدر السابق والجزء، ص ١٠٦.

ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية.

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، طبعة بيروت ١٩٩٥، جـ٢، ص ٤١١- ٤١٢.

(٥) عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الفكر الاسلامى، دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٩٧، ص ٨٠.

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ. جـ٢، ص ٤١١- ٤١٨.

(٧) ابن الأثير: الكامل، جـ٢، ص ٤٣٠- ٤٣٢.

(٨) عطية القوصى: الدولة العربية الإسلامية، القاهرة ١٩٩٤، ص ١٥٩.

(٩) ذكر ياقوت الحموى أن قبائل الترك التى اعتنقت الإسلام هى: الغز، والتغزغز، والقبجاق، والقرغيز (معجم البلدان. جـ٢، ص ٣).

(١٠) هو الخليفة الراشد الثالث حكم الدولة الإسلامية من سنة ٢٤ - ٣٥هـ.

(١١) ابن الأثير: الكامل. جـ٣، ص ٦، ٧.

(١٢) هو الخليفة العباسى الثامن، الذى عُرف بالمثمن، وقد تعصب للأتراك بسبب أنَّ أمه تركية.

(١٣) سخط عليه جنود الفرس والعرب بسبب إسقاطهم من ديوان الجند، وإحلال الأتراك مكانهم.

(١٤) الطبرى: جـ٩. ص ١٧.

(١٥) ابن الأثير: الكامل، جـ٦، ص ١٨٤.

(١٦) سُميت أول الأمر بسُرمن رأى، ثم اختصرت إلى سامراء، ولمَّا خُربت عُرفت بساء من رأى.

(١٧) السلاجقة فرع من قبائل الغز الأتراك وعرفوا باسم السلاجقة نسبةً إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق الذين دخلوا الإسلام فى عهده (Bosworth: The Ghaznavids in Afghanistan, p. 219).

(١٨) بارتولد: تاريخ الترك، ص ٥٨، ٥٩.

(١٩) تمكن السلاجقة من اقتطاع خراسان من السلطان مسعود الغزنوى، وأقام طغرلبك، أول سلاطين السلاجقة دولته لنفسه فيها سنة ٤٢٩ هـ ولم تفلح جهود مسعود الغزنوى فى التصدى للسلاجقة الذين هزموه هزيمة ساحقة عند داندنقان سنة ٤٣١ هـ /١٠٣٩م (محمد بركات البيلى: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٦، ص ١٦٠).

(٢٠) هو أبو طالب محمد، وشهرته طغرلبك. وهو اسم تركى مركب بمعنى الأمير الطائر.

(٢١) ابن الأثير: الكامل. جـ٩، ص ١٧٩.

(٢٢) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية، القاهرة ١٩٦٧، ص ٢٠٨.

(٢٣) كان يطلق على ألب أرسلان لقب الأسد الشجاع.

(٢٤) المرداسيون فرع من عرب بنى كلاب، انتقلوا بعد الإسلام إلى اليمامة، وأسسوا دولة بها، ثم انتقلوا إلى الجزيرة الفراتية وأقاموا لهم دولة هناك (عطية القوصى: تاريخ الدولة المستقلة، القاهرة ١٩٩٣، ص ٢٧).

(٢٥) ياقوت: معجم البلدان. جـ٥ ص ٢٠٢ .

(٢٦) ابن الأثير: الكامل، ج١٠، أحداث سنة ٤٦٣هـ.

(٢٧) نفس المصدر، ج١٠، ص٧ .

(٢٨) البيلى: دراسات فى تاريخ الدولة العباسية، ص ١٨٥.

(٢٩) البيلى: دراسات، ص ١٩٠.

(٣٠) البيلي: دراسات. ص ١٨٧.

(٣١) محمد جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين الخارجية. ص ١٥١ وما بعدها.

(٣٢) البيلي: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص ١٧٩.

(٣٣) البيلي: نفس المرجع السابق، ص ١٨٨.

(٣٤) ابن الأثير: الكامل، جـ١٠، ص ٥٠.

(٣٥) حسنين ربيع: دراسات في تاريخ الدولة البيزنطية، القاهرة ١٩٨٣، ص ١٨٥.

(٣٦) البيلي: دراسات في تاريخ الدولة العباسية، ص ١٧٩.

(٣٧) قال عنه الذهبي: «إنه رغب في العلم وأدرّ على الطلبة الهبات وأملى الحديث وبعُد صيته (سير أعمال النبلاء. ص ١٩. ٩٤).

(٣٨) الروضتين في أخبار الدولتين. جـ١. ص ٣١.

(٣٩) الكامل في التاريخ. جـ٢ .ص ٢٥٦ (قتله شاب من شباب الباطنية الإسماعيلية (الحشاشين) الذين جمعهم الحسن بن الصباح في قلعة ألموت.

(٤٠) البيلي: دراسات، ص ١٩٦.

(٤١) البيلي: نفس المرجع السابق، ص ١٩٣، ١٩٤.

(٤٢) ليلى عبدالجواد إسماعيل: تاريخ الأيوبيين والمماليك، القاهرة ٢٠٠٢، ص ٢٥٩- ٢٦١.

(٤٣) الأتابكية: إمارة يقطعها السلطان السلجوقي لأحد المقربين، ومن أشهر هذه الأتابكيات: أتابكية الموصل ومؤسسها عماد الدين زنكي (أحمد الشريف وحسن محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، بيروت ١٩٦٠، ص ٣٦٠).

(44) Lexicon Universal Encyclopeadia. London 1987, v. 14, p. 348.

(45) Cook, M: A History of Ottoman Empire, London 1976, p. 120.

(46) Lexicon: op. cit., p. 404.

(٤٧) يُعد ذلك الفتح العظيم للمسلمين. وقد كانت نهاية الدولة البيزنطية بهذا الفتح، حتى أن المؤرخين يعتبرون عام ١٤٥٣ ميلادية نهايةً للتاريخ الوسيط وبداية للتاريخ الحديث.

(٤٨) حدث التغيير في هذه الكنيسة التي بنتها أم الإمبراطور جستنيان الروماني، وهي الآن متحف إسلامي كبير، رُفعت الصلبان من جدرانها وحلت مكانها أسماء: محمد وأبو بكر وعمر وعلي.

(49) Lexicon: op. cit., p. 464.

(٥٠) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطوير نظام الحكم في مصر، جـ١. القاهرة ١٩٨١، ص ٢٧.

(51) Lexicon: op. cit., v. 14, p. 466.

(٥٢) ليلى عبد الجواد: تاريخ الأيوبيين والمماليك، ص ٢٦١.

(٥٣) بنى السلاطين العثمانيون مساجد ضخمة فخمة لا تزال قائمة حتى الآن تنطق بجمال المعمار العثماني وعظيم بنيانه. من هذه الجوامع: الجامع الأزرق، وجامع السلطان أحمد باستانبول. وقد قام بناء هذه الجوامع على يد المعماري الكبير المعاصر لتلك الفترة (سنان باشا).

(٥٤) قامت الحركة الانفصالية الوهابية بالجزيرة العربية، والحركة السنوسية بليبيا والحركة المهدية بالسودان، وحركة محمد علي باشا في مصر، حيث نجح في إقامة دولة له ولأسرته حَظيتْ بالاستقلال الذاتي.

(٥٥) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية. جـ١. ص ٥٤- ٥٩.

(٥٦) اجتمعت دول بريطانيا وفرنسا وألمانيا وإيطاليا في هذا المؤتمر لتقسيم أملاك رجل أوربا المريض (السلطان العثماني) وأعطت كل دولة من هذه الدول لنفسها الحق في احتلال الجزء المناسب لها، فرمت بريطانيا بعينها على مصر وفلسطين والعراق. كما رمت فرنسا بنظرها على بلاد الشام وبلاد المغرب. أما ألمانيا فطمعت في بلاد أفريقيا الوسطى. وإيطاليا في ليبيا والصومال.

(57) Lexicon: op. cit., p. 466.

مصادر ومراجع للاستزادة :

ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، طبعة بيروت ١٩٩٥.

أحمد جودت باشا: تاريخ جودت، ترجمة عبد القادر الدنا، تحقيق عبد اللطيف بن محمد الحميد، دمشق ١٩٤٥.

إسماعيل ياغى: الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى، الكويت ١٩٧٧.

ابن كثير: البداية والنهاية، بيروت ١٩٦٦.

بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى غزو المغول، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت ١٩٨١.

بارتولد: تاريخ الترك فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ١٩٥٨.

الراوندى: راحة الصدور وآية السرور، ترجمة إبراهيم الشواربى، القاهرة ١٩٦٠.

الگرديزى: زين الأخبار، ترجمة عفاف زيدان، القاهرة ١٩٨٢.

حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، القاهرة ١٩٩٨.

عبد الفتاح أبو علية: الدولة العثمانية والوطن العربى، القاهرة ١٩٩٩.

عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الإسلام فى جنوب غرب آسيا فى العصر التركى، القاهرة ١٩٧٤.

- الحضارة الإسلامية. القاهرة ١٩٨٥.

على محمد محمد الصلابى: الدولة العثمانية، دمشق ١٩٧٨.

كى ليسترينج: بلدان الخلافة الشرقية، تعريب كوركيس عواد، بغداد ١٩٨٤.

ياقوت الحموى: معجم البلدان. بيروت ١٩٨٥.

Anon: The Regions of the World, Oxford 1937.
Barthold, W.: An Historical Geography of Islam, New Jersy, 1984.
_ : Turkistan Down to the Mongol Invasion, London, 1968.
Bosworth, C: The Ghaznavids, Beirut 1937.
Cook, M: A History of Ottoman Empire, London 1967.
Czaplicka, M: The Turks of Central Asia in History and at the Present Day, London 1973.
Shaw, S: A History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, London, 1977.

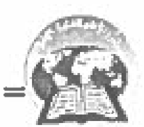
أجنادين (معركة)

أجنادين - بفتح الدال أو كسرها كما ضبطها ياقوت - " موضع معروف بالشام من نواحى فلسطين " [1] . ورغم أن الباحثين المحدثين يختلفون حول تحديد الموضع الدقيق لأجنادين فإن الذى لا خلاف حوله أن أجنادين تقع فى فلسطين[2]، والراجح أنها فى جنوب فلسطين. وقد اكتسبت أجنادين شهرتها فى التاريخ الإسلامى نتيجة أنها كانت المسرح الذى دارت عليه تلك الموقعة الخطيرة بين المسلمين والروم فى أواخر خلافة أبى بكر الصديق .

ومن اللازم هنا أن نتحدث - باختصار- عن الأوضاع التى سبقت هذه المعركة وأدت إليها. فقد كانت العلاقات بين المسلمين والروم متوترة عند وفاة الرسول ﷺ؛ ولم يدخر هرقل امبراطور الروم وسعًا فى التعبير عن عدائه للدولة الإسلامية. وذلك منذ انضمامه إلى أحلافه من الغساسنة وغيرهم من نصارى العرب فى معركة مؤته فى سنة ٨هـ (٦٢٩م) . وعندما ما تولى أبو بكر الخلافة سنة١١هـ (٦٣٢م) شغلته حركة الردة عن توجيه اهتمامه إلى الجبهة الخارجية التى كانت مصدر تهديد مزدوج للدولة الإسلامية؛ هو تهديد الفرس(الساسانيين)والروم (البيزنطيين).

وعندما تمكن أبو بكر من القضاء على حركة الردة فى العام الثانى من خلافته (١٢هـ/٦٣٣م) بدأ يوجه اهتمامه إلى العدو الخارجى. وكان الروم يمثلون التهديد الأخطر للمسلمين. فوجَّه فى أوائل سنة ١٣هـ (٦٣٤م) جيوشًا أربعة إلى الشام وعيّن عليها أربعة من الأمراء: فأرسل عمرو بن العاص إلى فلسطين، وأبا عبيدة بن الجراح إلى حمص، ويزيد ابن أبى سفيان إلى دمشق، وشرحبيل بن حسنة إلى الأردن[3] .

وقد حدثت بعض المناوشات، أو المعارك المحدودة، بين المسلمين والروم فى الشام قبل حدوث المواجهة الشهيرة بينهما فى أجنادين فى أواخر عصر أبى بكر. وتحتل معركة العَرَبة والدَّاثن مكانًا بارزًا فى هذه المناوشات الأولى. ففى شهر ربيع الآخر سنة ١٣هـ (مايو ٦٣٤م) - فى مكان يقال له " وادى عربة". بين البحر الميت وخليج العقبة- التقت فرقة إسلامية تحت قيادة الصحابى أبى أمامة الباهلى[4] . بفرقة من الروم تحت قيادة البطريق



سرجيوس Sergius حاكم غزة. وقد تقهقر الروم أمام المسلمين وانحازوا إلى قرية من قرى غزة يقال لها" الداثن" أو الداثنة"[٥] ، فتعقبهم المسلمون وأنزلوا بهم هزيمة فادحة فى " الداثن" وقتلوا قائدهم سرجيوس وثلاثمائة من جنوده وعادوا بالأسرى والغنائم[٦] .

ورغم أن معركة "العربة والداثن"، كانت ذات طبيعة محدودة- كما أشرنا- فإن من أهم نتائجها أنها وجهت اهتمام هرقل إلى ما تمثله الجبهة الإسلامية من خطورة على استقرار دولته، ومن هنا كان عليه أن يستعد للتعامل معها بالشكل الملائم، فأدى ذلك إلى حدوث أولى المواجهات الفاصلة بين المسلمين والروم فى أجنادين.

حشد هرقل جيشًا هائلاً لمواجهة الحشود الإسلامية فى الشام. وتختلف مصادرنا العربية فى تقديرها للعدد الذى تكون منه جيش الروم، حيث يتروواح هذا العدد بين مائة ألف ومائتين وأربعين ألفًا[٧]. وتختلف رواية ميخائيل السريانى عن رواية مصادرنا العربية؛ فهو يقدِّر جيش الروم بخمسين ألف مقاتل[٨] . أما العدد الذى تكونت منه القوات الإسلامية فإنه يدور فى مصادرنا العربية بين عشرين ألف مقاتل، أو أربعة وعشرين ألفًا أو ستة وثلاثين ألفًا. أما ميخائيل السريانى فإنه يقدر هنا العدد بخمسة وعشرين ألف مقاتل[٩] . والواضح أن مصادرنا العربية تبالغ فى تضخيم جيش الروم. ولعل الرواية التى يقدمها ميخائيل السريانى أقرب إلى الواقع.

أسند هرقل مهمة قيادة جيش الروم إلى أخيه الشقيق ثيودور Theodorus الذى يعرف فى مصادرنا العربية باسم " تذارق". وهذا ما يتفق فيه المؤرخ البيزنطى ثيوفانس مع كثير من مصادرنا العربية[١٠] ولكن بعض مصادرنا تذكر أن قائد جيش الروم كان يُدْعَى " وردان" وكان حاكم حمص. وهذا الاسم لا يذكره ثيوفانس، وقد يكشف عن الأصل الأرمينى لحامله كما يقول المؤرخ البريطانى جيبون[١١] . وتذكر مصادر عربية أخرى أن القائد كان يُدْعَى " القُبُقْلار" ، وهذه الكلمة تحريف للكلمة اليونانية cubiculorius التى تطلق على الحاجب أو الحارس الشخصى للإمبراطور أو لأحد النبلاء[١٢] . ويرد اسم " باهان" أيضًا فى بعض مصادرنا على أنه قائد جيش الروم فى هذه المواجهة[١٣] . على أن ما نستنتجه من خلال هذه

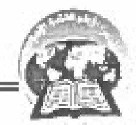
الروايات المختلفة أن القائد الأعلى أو القائد العام لجيش الروم حينذاك كان ثيودور (تذارق) نظرًا لاتفاق الرواية البيزنطية مع المصادر العربية التى تذكر ذلك. أما " وردان" فقد كان القائد الميدانى، وكان "القُبُقْلار" يقوم بدور نائبه.

ولكن السؤال الذى يطرح نفسه الآن هو: من الذى تولى قيادة القوات الإسلامية فى تلك المواجهة؟

رغم تعدد الروايات فى هذا الصدد فإن الرأى الذى نطمئن إليه هو ما رواه اليعقوبى حين ذكر أن أبا بكر عندما عيَّن قادة الجيوش المتوجهة إلى الشام "دعا يزيد بن أبى سفيان وأبا عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص فعقد لهم وقال: إذا اجتمعتم فأمير الناس أبو عبيدة"(١٤) . أى إذا جمعكم قتال مشترك ضد العدو فالقائد الأعلى هو أبو عبيدة. ويؤكد الأزدى هذه الرواية(١٥) .

ولكن تطور الأحداث بعد ذلك أدى إلى إسناد مسئولية القيادة العامة إلى خالد ابن الوليد بدلا من أبى عبيدة بن الجراح. فقد تحدثنا منذ قليل عن العدد الهائل من المحاربين الذين استطاع هرقل أن يحشدهم استعدادًا لهذه المواجهة. وقد فوجئ المسلمون بضخامة جيش العدو وأدركوا أن التفاوت العددى الكبير بين جيشهم وبين جيش العدو قد يجعل نتيجة المعركة فى غير صالحهم. ومن هنا وجدوا من الضرورى طلب تعزيزات من الخليفة. وأرْجَحُ الآراء أن أبا عبيدة- بوصفه القائد الأعلى- هو الذى استمد أبا بكر .

استجاب الخليفة لطلب أبى عبيدة دون إبطاء. ويؤثر عنه أنه قال فى هذا الصدد: " والله لأُنسِيَنَّ الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد"(١٦) . وهكذا أرسل إلى خالد بن الوليد- وكان فى ذلك الوقت مشغولاً بإدارة العمليات العسكرية على الجبهة الفارسية فى العراق- أرسل إليه يأمره أن يُسنِد إدارة هذه العلميات إلى المثنى بن حارثة الشيبانى وأن يتوجه من فورِه على رأس قوة مختارة من جنده لنجدة المسلمين بالشام. كما ذكر له فى نفس الخطاب أنه عند انضمامه إلى المسلمين بالشام سيصبح هو "أمير الجماعة" أى القائد العام لجيش المسلمين. وقد كتب أبو بكر فى نفس الوقت كتابًا إلى أبى عبيدة يقول فيه: " أما بعد؛ فإنى قد وليت خالدًا قتال الروم بالشام،



فلا تخالفه، واسمع له، وأطع أمره؛ فإنى قد وليته عليك وأنا أعلم أنك خير منه، ولكن ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك". وقد كان خالد حريصًا كل الحرص على أن يرعى لأبى عبيدة مكانته؛ فقد كتب إليه عندما غادر الحيرة متوجهًا إلى الشام: " ... لأبى عبيدة ابن الجراح من خالد بن الوليد، سلام عليك .. لقد أتانى كتاب خليفة رسول الله ﷺ يأمرنى بالمسير إلى الشام، وبالمقام على جندها والتولى لأمرها. ووالله ما طلبت ذلك ولا أردته ولا كتبت إليه فيه. وأنت- رحمك الله ! –على حالك التى كنت بها، لا يُعْصَى أمرُك، ولا يُخالفُ رأيك، ولا يقطع أمرُ دونك؛ فأنت سيد من سادات المسلمين، لا يُنْكَر فضلُك ولا يُسْتَغْنَى عن رأيك". وعندما تسلم أبو عبيدة خطاب خالد قال:" بارك الله خليفة رسول الله ﷺ فيما رأى، وحيا الله خالدًا "[١٧].

وتختلف مصادرنا فى تقديرها لعدد الجند الذين توجَّه بهم خالد من العراق إلى الشام. ويتراوح هذا التقدير ما بين بضع مئات إلى عشرة آلاف[١٨] . ونحن نميل إلى أن الرقم بلغ بضعة آلاف لا بضع مئات؛ لأن ذلك أكثر اتساقا مع طبيعة المهمة التى أُرْسِل خالد من أجلها وهى تعزيز موقف القوات الإسلامية التى كانت تواجه حشود الروم الضخمة بالشام.

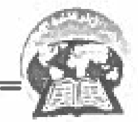
وقد كانت المهمة العاجلة أمام خالد هى اختيار الطريق الذى يسلكه من العراق إلى الشام لينضم إلى قوات المسلمين هناك فى أقصر وقت ممكن. وقد آثر ألاّ يأخذ الطريق الجنوبى السهل الذى تسلكه القوافل المتجهة إلى الشام، وهو طريق دُومة الجَنْدَل، نظرًا لبعده. أما الطريق الشمالى المتد عبر الفرات فقد آثر أن يتجنبه أيضًا لما به من حاميات عديدة للروم قد تتسبب فى تأخير نجدته للمسلمين فى حال اشتباكه معها. ومن هنا سأل مستشاريه: " كيف لى بطريق أخرج فيه من وراء جموع الروم ؛ فإنى إن استقبلتها حبستنى عن غياث المسلمين؟"[١٩]. فأشاروا عليه بطريق بديل لكنه محفوف بالأخطار، يمر عبر بادية السماوة، ممتدًا من مكان يقال له " قُراقِر" إلى مكان يقال له " سُوى"، وهو " على جانبها الآخر مما يلى الشام"[٢٠] . فلم يجد خالد بُدًّا من اقتحام هذه المخاطرة . وبعد أن انتهى من هذه الرحلة التى يعدُّها " البعض" أكبر مأثرة

عسكرية فى التاريخ"[٢١] دخل حدود الشام ويمَّم شطر القوات الإسلامية بها. وقد دانت له أثناء مسيره عدة مدن ومستوطنات شامية من بينها " أرك" التى صالحه أهلها، وتدمر (Palmyra) ، تلك المدينة القديمة ذات الشهرة التاريخية الواسعة. وقد استأمنه أهلها فأمَّنهم على أن يكونوا ذمة . وهكذا استمر خالد فى مسيره المظفر حتى أتى " مرج راهط" بالقرب من دمشق، وبها جمع من الغساسنة المتحالفين مع الروم، فلقى منهم مقاومة يسيرة، ثم صالحه عامتهم وأسلموا [٢٢].

وتشير معظم مصادرنا إلى أن المكان الذى التقى فيه خالد بالقوات الأساسية من الجيش الإسلامى بالشام هو مدينة بُصْرَى (Bostra) عاصمة إقليم حوران، وكانت تتمتع بحصانة كبيرة، وبها حشود من قوات الروم وأحلافهم من نصارى العرب. وكان يرابط عليها أبو عبيدة ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة. وقد استعصى عليهم فتحها. ولكن " لما قدم خالد بن الوليد على المسلمين بُصْرَى اجتمعوا عليه وأمرّوا خالدا فى حربها"[٢٣] . ورغم أن بُصْرَى قاومت بعناد فإنها لم تفلح فى دفع الجيش الإسلامى عنها، فاستسلم أهلها فى رجب ١٣هـ (مايو ٦٣٤م) وعقدوا مع المسلمين صلحًا تعهدوا بمقتضاه أن يدفعوا الجزية مقابل تأمينهم " على دمائهم وأموالهم وأولادهم "[٢٤].

وقد كانت بُصْرَى مدينة بالغة الأهمية بالنسبة للروم؛ فقد كانت تمثل ثغر سورية الشرقى؛ ولهذا أحكم الروم تحصينها. وقد ترتب على الاستيلاء عليها الاستيلاء على جميع إقليم حوران. ومن هنا كان خضوعها لسلطة الخلافة صدمة حقيقية للروم.

كان هرقل فى حمص عند استيلاء المسلمين على بصرى، فأخذ يُعِد العدة لجولة حاسمة مع المسلمين بهدف استئصال شأفتهم تمامًا من بلاد الشام. والجدير بالملاحظة أن القوات الإسلامية التى انضم إليها خالد بن الوليد بجيشه عند بصرى كانت تتكون من جيش أبى عبيدة وجيش يزيد بن أبى سفيان وجيش شرحبيل بن حسنة. أما عمرو بن العاص فقد كان يعسكر بجيشه فى وادى عربة بفلسطين، غير بعيد من حشود الروم. ثم توجه خالد على رأس القوات الإسلامية من بصرى إلى فلسطين وانضم إليه عمرو بجيشه، واحتشد الجميع فى سهل



أجنادين تحت القيادة العليا لخالد بن الوليد.

تقدم الروم إلى أجنادين فى حشودهم الهائلة التى كان هرقل قد وجهها إلى الشام تحت القيادة العليا لشقيقه ثيودور (تذارق) - كما سبقت الإشارة - للقضاء المبرم على الجيش الإسلامى بالشام .

وقد رتب خالد جيشه ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين؛ فجعل فى القلب معاذ بن جبل، وفى الميمنة عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق، وفى الميسرة سعيد بن عامر، وفى الجناح الأيسر شرحبيل بن حسنة، وفى الساقة (أو مؤخرة الجيش) يزيد بن أبى سفيان فى أربعة آلاف فارس حول الحريم والأولاد، وعلى الخيل سعيد ابن زيد بن عمرو بن نفيل.

وفى أجنادين دارت رحى معركة طاحنة بين الجانبين، وهى - كما يرى الأزدى - " أول وقعة عظيمة كانت بالشام" [٢٥]. وبدأ القتال بالمبارزات، فأبلى المسلمون فى ذلك بلاء حسنًا، وخاصة ضرار بن الأزور الذى تروى بعض مصادرنا أنه قتل وحده من العدو ثلاثين فارسًا[٢٦] .

ثم حمل الروم على ميمنة المسلمين وميسرتهم، فلم يتزحزح منهم أحد، وهنا صاح خالد فى فرسان المسلمين:" احملوا - رحمكم الله - على اسم الله"، فحملوا على الروم حملة صادقة بددت شملهم، فانهزموا هزيمة نكراء، " وقتلهم المسلمون كيف شاؤوا وأصابوا عسكرهم وما فيه "[٢٧]. ولعل مما أضعف الروح المعنوية لدى الروم وعجل بهزيمتهم مقتل اثنين من قادتهم البارزين وهما: "وردان" و "القبقلار"، فولوا الأدبار، وقد طاردهم المسلمون أثناء فرارهم وقتلوا منهم فى المطاردة أعدادًا غفيرة، وتحصن من نجا منهم ببيت المقدس وقيسارية ودمشق وحمص[٢٨] .

وقد قتل من الروم أثناء المعركة ثلاثة آلاف طبقًا للتقديرات المعتدلة، بالإضافة إلى من قتلوا أثناء هروبهم من الميدان. وترفع بعض مصادرنا عدد قتلى الروم إلى خمسين ألفًا [٢٩] . وهو رقم يتضح فيه طابع المبالغة. فالجيش الإسلامى كله لم يصل إلى هذا الرقم كما سبقت الإشارة . أما قتلى المسلمين فقد كانوا زهاء أربعمائة وخمسين رجلاً، وقد كان من بينهم عكرمة بن أبى جهل وهشام بن العاص بن وائل (أخو عمرو بن العاص) والحارث بن هشام بن المغيرة وعمرو بن سعيد بن العاص بن أمية وأخوه أبان [٣٠] .

وقد كان لهزيمة الروم فى أجنادين

تأثير نفسى هائل عليهم. يذكر البلاذرى أن الامبراطور هرقل لما انتهى إليه خبر هذه الهزيمة " نُخِب قلبه وسُقِط فى يده ومُلئ رعبا، فهرب من حمص إلى أنطاكية" [٣١] . ذلك أن هذه المعركة كانت أول مواجهة خطيرة بين الروم والمسلمين، وكانت كما يصفها بعض المؤرخين - " إحدى ملاحم الروم التى أبيدوا فيها" [٣٢] . أما تأثير هذه المعركة على المسلمين فقد كان عكس ذلك تماماً؛ فقد منحتهم مزيدا من الثقة فى قدراتهم وأقنعتهم أن بإمكانهم التصدى لتلك القوة العظمى وهى قوة الروم وإحراز النصر عليهم فى مواجهات أخرى لاحقة، ومن ثم فتحت الطريق أمامهم لإتمام فتح الشام فى عصر عمر بن الخطاب .

انتهت موقعة أجنادين فى الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ١٣هـ (٣٠ من يوليو سنة ٦٣٤م)، وتوفى أبو بكر فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ (٦٣٤م)، أى بعد انتهاء الموقعة بأربعة وعشرين يوما.

بقيت ملاحظة أخيرة ينبغى أن نختم بها حديثنا عن أجنادين وهى أن بعض مصادرنا تخلط بين هذه المعركة ومعركة اليرموك، فتضع هذه مكان تلك . وتعتمد هذه المصادر على الرواية التى يقدمها الأخبارى الشهير سيف بن عمر ومؤداها أن المعركة التى حدثت فى أواخر عصر أبى بكر هى معركة اليرموك وأن تاريخ حدوثها هو جمادى الآخرة (لا جمادى الأولى) سنة ١٣ هـ (أغسطس ٦٣٤م). ويقبل الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ هذه الرواية فى تاريخه الشهير، ويتابعه فى هذا عدد من المؤرخين، من بينهم ابن مسكويه فى كتابه " تجارب الأمم " وابن الأثير فى " الكامل " وابن خلدون فى " العبر " وغيرهم.

على أن الرواية الأكثر وثاقةً - وهى التى اعتمدنا عليها فى هذا العرض - هى التى يقدمها محمد بن عمر الواقدى (ت ٢٠٧هـ)، وتظهر بوضوح فى كتابات عدد من المؤرخين اللاحقين، ومن أبرزهم محمد بن سعد فى " الطبقات الكبرى" ومحمد بن عبد الله الأزدى فى " تاريخ فتوح الشام" وخليفة بن خياط فى "تاريخه" والبلاذرى فى "فتوح البلدان" واليعقوبى فى " تاريخه" . والأسباب التى تدعونا إلى الاعتماد على هذه الرواية تتلخص أولاً فى أن المصادر التى أشرنا إليها الآن هى من أقدم المصادر وأوثقها.



ثم إن رواية سيف بن عمر التى يرددها الطبرى وغيره تتضمن ما يفيد أن معركة اليرموك كانت نهاية المعارك الإسلامية الكبرى ضد الروم . فابن الأثير - مثلا - خلال تناوله لأحداث سنة ١٣هـ - يقول بعد حديثه عن استعدادات الروم الهائلة لهذه المعركة: " ثم خرجوا إلى القتال الذى لم يكن بعده قتال فى جمادى الآخرة" (٣٣) .

والحقيقة أن حروب المسلمين ضد الروم فى الشام استمرت، بل وصلت إلى ذروتها، فى عصر الخليفة الثانى عمر. ومن هنا فمعركة اليرموك التى تتحدث عنها هذه الرواية - وهى المعركة الفاصلة فى تاريخ الصراع بين المسلمين والروم - كانت فى عصر عمر لا فى عصر أبى بكر. ونضيف إلى ذلك أن القضاء على أعتى امبراطورية فى العالم حينذاك - وهى دولة الروم - كان يتطلب جهودًا هائلة واستعدادات قد تستغرق زمنا ليس بالقصير؛ ولم يكن من اليسير ولا من المتصور أن يتم ذلك فى بضعة أشهر.

ولا يسعنا فى هذا السياق أن نتجاهل الشهادة المستقلة التى يقدمها المؤرخ البيزنطى ثيوفانس ؛ فهو يذكر ما يفيد أن معركة اليرموك حدثت فى عصر عمر لا فى عصر أبى بكر . صحيح أن ثيوفانس لم يذكر اليرموك بالتحديد بل ذكر " الجابية " (٣٤) . ولكن اسم " الجابية " - كما يذكر لا منس أطلق على وقعة اليرموك، " فقد حدثت بها مناوشات مع الروم ، كما جمعت بها الغنائم بعد الوقعة " (٣٥).

يتبين لنا مما سبق أن المواجهة الأساسية بين المسلمين والروم فى أواخر عصر أبى بكر حدثت فى أجنادين فى جنوب فلسطين - أما كبرى المعارك بين المسلمين والروم فقد حدثت فى اليرموك فى عصر عمر، وهى المعركة التى لم تقم للروم بعدها قائمة.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش

(١) ياقوت الحموى : معجم البلدان . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠م، ص ١٢٩.

(٢) انظر : جب H.A.R. Gibb مادة " اجنادين" فى دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية ، دار الشعب بالقاهرة ، ج ٢ ، ص ٢٤٣.

(٣) انظر : الطبرى ، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٩م، ج ٣، ص ٣٨٧ ، ٣٩٤؛ خليفة بن خياط، تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار. دار الفكر ، دمشق ١٩٩٣، ص ٧٩..

(٤) أبو أمامة الباهلى هو صُدَىّ بن عجلان بن الحارث ؛ صحابى من رواة الأحاديث ، وهو ممن اشتهر بكنيته . سكن فى البداية مصر، ثم انتقل إلى حمص بالشام فاستقر بها، وتوفى سنى ٨١هـ، فهو من المعمرين. انظر ترجمته فى : أسد الغابة لابن الأثير ، طبعة الشعب، القاهرة ، ج ٣ ، ص ١٦.

(٥) انظر : الطبرى ، مصدر سابق ، ج ٣، ص ٤٠٦؛ ياقوت، مصدر سابق ، ج ٢، ص ٤٧٦.

(٦) Theophanes, Chronographia, translated From the Greek by C.Mango& R.scott. Oxford .1997,p. 467.

(٧) انظر : ابن كثير ، البداية والنهاية، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م، ج٧، ص ٥؛ ابن عساكر : تاريخ مدينة دمشق ، ج ١، تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٥١م، ص ٤٨٢؛ ابن شاكر الكتبى: عيون التواريخ، جـ ١، تحقيق حسام الدين القدسى. مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٨٠م، ص ٥١٠.

(٨) Michel le Syrien, Chronique de Michel le Syrien,ed. & tans .J.B.Chalot Paris, 1899- .1904, Vol. 2,P.421.

(٩) انظر : ابن كثير، مصدر سابق ، ٧، ص ٥؛ ابن عساكر، مصدر سابق ، ج ١، ص ٤٨٢؛ ابن شاكر الكتبى، مصدر سابق، ج١، ص ٥١٠. وانظر أيضًا : Michel le Syrien, loc . cit. .

(١٠) انظر : الطبرى ، مصدر سابق ، ج٣، ص ٤٠٥ ، ٤١٧. وانظر ايضًا : Theophanes,Chronographia, p.468.

(١١) انظر : الأزدى، تاريخ فتوح الشام . تحقيق عبد المنعم عامر . مؤسسة سجل العرب، القاهرة ١٩٧٠، ص ٨٤، ص ٨٩. وانظر أيضًا: Gibbon ,The Decline and Fall of the Roman Empire , New York 1910, vol. 5,p.314, note 1.

(١٢) See : Donner, The Early Islamic Coquests, Princeton 1981.pp.120 -121 .

(١٣) ابن عساكر ، مصدر سابق ، ج ١، ص ٤٦٠- ٤٦١.

(١٤) تاريخ اليعقوبى، دار صادر ، بيروت ١٩٩٢، ج ٢، ص ١٣٣.

(١٥) الأزدى، مصدر سابق، ص ٤٨.

(١٦) الطبرى ، مصر سابق ، ج ٣، ص ٤٠٨.

(١٧) تراجع التفاصيل فى : تاريخ فتوح الشام للأزدى، مصدر سابق ، من صفحة ٦٨ إلى صفحة ٨٦..

(١٨) انظر على سبيل المثال : البلاذرى ، مصدر سابق، ص ١١٨، ابن عساكر ، مصدر سابق ، ص ٤٦٠، وص ٤٩٨؛ ابن الطقطقى، الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، المطبعة الرحمانية ، القاهرة ١٣٣٩هـ ، ص ٥٢.

(١٩) الطبرى ، مصدر سابق ، ج ٣، ص ٤٠٨- ٤٠٩ .

(٢٠) ابن عساكر ، مصدر سابق، ج ١، ص ٤٦٥.

(٢١) مصطفى طلاس ، سيف الله خالد بن الوليد . دمشق ١٩٧٨م، ص ٢٨٥.

(٢٢) الأزدى، مصدر سابق ، ص ٨٢.

(٢٣) البلاذرى، مصدر سابق ، ص ١٢٠.

(٢٤) نفس المصدر والصفحة.

(٢٥) الأزدى ، مصدر سابق، ص ٩٣.

(٢٦) الواقدى: فتوح الشام، مراجعة طه عبد الرؤوف سعد، دار ابن خلدون ، الإسكندرية (د . ت) ج ١، ص ٨٠، (هذا الكتاب ينسب للواقدى، ولكن الواضح من لغته وطريقة عرضه أن صاحبه مؤلف متأخر اعتمد كثيرًا على روايات الواقدى) .

(٢٧) الأزدى، مصدر سابق، ص ٩١.

(٢٨) نفس المصدر، ص ٩٢. وانظر أيضًا: الطبرى، مصدر سابق ، ج ٣، ص ٤١٨.

(٢٩) الأزدى ، مصدر سابق، نفس الصفحة. وحول المبالغة فى عدد القتلى انظر الواقدى ، مصدر سابق ، ج ١، ص ٩٠.

(٣٠) انظر : الواقدى ، مصدر سابق، نفس الصفحة .

(٣١) فتوح البلدان، ص ١٢١.

(٣٢) ابن عساكر ، مصدر سابق ، ج ١، ص ٤٨٣.

(٣٣) الكامل فى التاريخ ، دار صادر، بيروت ١٩٨٢م، ج ٢، ص ٤١٠. وانظر أيضًا: الطبرى ، مصدر سابق، ج ٣، ص ٣٩٥.

(٣٤) Theophanes, op. cit., p. 468 .

(٣٥) لا منس: مادة " الجابية" فى دائرة المعارف الإسلامية ، الطبعة العربية، دار الشعب القاهرة، ج ١٠، ص ٢٧٣. وانظر أيضًا: Theophanes, op. cit., p. 469, note 3 .

مصادر ومراجع للاستزادة:

- الأزدى (محمد بن عبد الله) : تاريخ فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر . مؤسسة سجل العرب ، القاهرة ١٩٧٠م.
- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر) : فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١.
- الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبرى)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف القاهرة ١٩٧٩م .
- ابن عساكر (الحافظ على بن الحسن) : تاريخ مدينة دمشق ، الجزء الأول بتحقيق صلاح الدين المنجد. دمشق ١٩٥١.
- مصطفى طلاس: سيف الله خالد بن الوليد . دمشق ١٩٧٨م .

- Donner,F,The Early Islamic Conquests, Princeton 1981.
- Glubb,T.B, The Great Arab Conquests.London 1963.
- Hitti,Ph.K., History of Syria,London 1957.

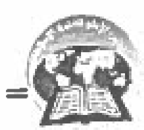
أُحُـــد

فى الخامس عشر من شوال عام ثلاثة للهجرة (مارس ٦٢٥م)، كانت غزوة أحد، وإنما سميت بذلك، لوقوع حوادثها إلى جوار ذلك الجبل الأحمر الكبير، الذى يطل اليوم على المدينة النبوية (المنورة)، من الجهة الشمالية، أما فى عصر النبوة فكان يبعد عنها بضعة كيلو مترات. ومما لا ريب فيه أن غزوة أحد، كانت إحدى المعارك المشهورة فى صدر الإسلام، لما ترتب عليها من نتائج بالغة فى مسيرة الدعوة الإسلامية ومستقبلها.

وكان هناك سببان مباشران لوقوعها: أما: أولهما وأشدهما إلحاحًا: فهو أن قريشًا - بعد هزيمتها النكراء فى غزوة بدر الكبرى (رمضان ٢هـ/ فبراير ٦٢٤م)- كانت تريد أن تثأر من المسلمين الذين ألحقوا بها تلك الهزيمة المدوية، وقتلوا من صناديدهم ورجالاتهم سبعين، وأسروا مثلهم، وإذا تحقق ذلك، فيمكن أن تستعيد هيبتها ونفوذها اللذين ضاعا فوق تراب بدر.

وأما السبب الثانى- وقد لا يقل إلحاحًا عن سابقه - فهو: تجارة قريش التى تمثل أساس حياتها الاقتصادية، والتى أصيبت فى مقتل عندما أصبح المسلمون حائلاً بين قوافلهم التجارية الذاهبة إلى الشام والعائدة منها، وقد حاولت سلوك طرق أخرى إلى بلاد الشام فلم تنجح. وهكذا وجد زعماء مكة أنه لا مفر من خوض غمار الحرب ضد المسلمين! فكيف استعدوا لذلك؟.

لقد رأى القوم أن تُخَصَّص أموال القافلة التى كانت سببًا فى وقوع الحرب يوم بدر - وهى القافلة التى نجح أبو سفيان بن حرب بن أمية فى الإفلات بها من أيدى المسلمين - فى الإعداد مبكرًا لمعركة الثأر وتحرير التجارة، فتمكنوا بعد جهود حثيثة من حشد وتجهيز جيش كبير، بلغ عدده ثلاثة آلاف مقاتل، من قريش وحلفائها من قبائل كنانة وتهامة، ومن أجل مزيد من حمية الرجال وإثارة حماستهم للقتال ومنع فرارهم من ميدان المعركة، اصطحب كبار القوم نساءهم معهم يحملن الدفوف، ويُنْشِدْن الأشعار، وكان عددهم خمس عشرة امرأة، وبلغ الفرسان يومئذ سبعمائة يقودهم خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبى جهل ، وانطلق



هذا الجيش من مكة يقوده أبو سفيان بن حرب بن أمية، فوصلوا إلى أحد يوم الأربعاء الثانى عشر من شوال، وأطلقوا دوابهم ترعى زروع المدينة.

على أن ثمة أمرًا يجدر التنبه له؛ وهو أن قريشًا حرصت فى أثناء استعدادها لتلك الحرب على كتمان أمرها وسِرِّيَّة تحركاتها، حتى تفاجئ المسلمين فى عقر دارهم وتهاجمهم على غرة، غير أن العباس بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ وكان يومئذ يقيم فى مكة ولم يعلن إسلامه – قد أرسل إلى ابن أخيه محمد، عليه الصلاة والسلام، رسالة عاجلة، يطلعه فيها على ما صنعت قريش، وما أعدت لحربه.

عندئذ اجتمع النبى ﷺ بأصحابه فى المسجد للتشاور فى مواجهة هذا الموقف الخطير، واستهل رسول الله ﷺ الحديث فقال: « إنى قد رأيت (يعنى فى المنام) بقرًا فأولتها خيرًا، ورأيت فى ذباب سيفى ثلمًا (كسرًا)، ورأيت أنى أدخلت يدى فى درع حصينة، فأولتها المدينة، فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة، وتَدَعوهم حيث نزلوا؛ فإن أقاموا أقاموا بشر مقام، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها » . وهكذا كان رأى النبى ﷺ: أن يعد المسلمون أنفسهم للقاء العدو داخل المدينة، وأن يقاتلوهم فى الشوارع والسكك، وأن يشارك النساء والصبية فى القتال بقذف العدو بالحجارة من فوق أسطح المنازل، وكان هذا أيضًا رأى كبار الصحابة، وهو كذلك رأى عبد الله بن أُبَىّ بن سلول. بينما رأى أكثر الحاضرين الخروج لقتال المشركين عند جبل أحد حيث نصبوا معسكرهم، وكان جل هؤلاء ممن لم يشهدوا غزوة بدر، ولسان حالهم يقول : نخرج للقاء عدونا حتى لا يقال: «جَبُنَ المسلمون عن قتال عدوهم فاقتحم عليهم مدينتهم ». فاستقر الرأى على الخروج احترامًا لرغبة أغلب المجتمعين!

وعقب صلاة الجمعة يوم الرابع عشر من شوال، تحرك جيش المسلمين باتجاه أحد، فى نحو ألف رجل، وفى أثناء الطريق نجم النفاق، وكشف المنافقون عن عداوتهم الدفينة للرسول ﷺ والمسلمين، فانسحب زعيمهم عبد الله بن أُبَىّ بن سلول بثلاثمائة رجل من أتباعه، وهو يقول : « عصانى واتبع الولدان» ! وهو تبرير لا معنى له لتلك الخيانة السافرة! فلا يعقل أن يأخذ النبى ﷺ برأيه، ويتجاهل رأى الأغلبية. ومضى رسول الله ﷺ بمن بقى معه من المؤمنين - وهم

سبعمائة رجل- حتى وصلوا إلى أحد، فعسكروا فى السفح المواجه للمدينة، جاعلين ظهورهم إلى جبل عينين فى مواجهة العدو.

وقد أعد النبى عليه الصلاة والسلام خطة حربية محكمة من شأنها تحقيق النصر بإذن الله؛ فقد رتب أصحابه صفوفًا، واطمأن إلى استعدادهم المعنوى التام لمنازلة أعدائهم، واصطفى منهم خمسين راميًا بقيادة عبد الله بن جبير الأنصارى، وأوقفهم فوق تل عينين المقابل للجبل، وحدد لهم مهمتهم القتالية، وهى أن يمنعوا فرسان المشركين من الانقضاض على المسلمين وتطويقهم من خلف ظهروهم، وكان أمره الصريح لهم: « انضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إن كانت الدائرة لنا أو علينا، فالزموا أماكنكم لا نؤتين من قبلكم». وأصدر النبى ﷺ أمرًا عامًا بألا يبدأ أحد القتال إلا بإذنه، واختار أكفأ الرجال ووضعهم فى مقدمة الصفوف، لتكون الضربة الأولى بهم قاصمة لغرور العدو، وحتى يعوض الفارق الهائل بين أعداد الجيشين.

وأصبح موقف الفريقين هكذا: المسلمون يسندون ظهورهم إلى الجبل، ويسيطرون على المرتفعات، على حين كان جيش المشركين فى الوادى يواجه الجبل، وظهورهم مكشوفة ناحية المدينة.

وما هو إلا أن تقاربت صفوف الفريقين ونشب القتال فصدق المسلمون الهجمة على عدوهم، وانثالت ضرباتهم تحصد هامات المشركين فتطيح بها، وسقط لواء قريش المرة بعد الأخرى حتى لم يجد من يرفعه إلا إحدى النساء، وتمزق شمل المشركين، بعد أن شد المسلمون الكرة عليهم، فلاذوا بالفرار لا يلوون على شىء، ولم يكن لصيحات نسائهم ولا صراخهنَّ أثر يذكر حتى يثبتوا فى الميدان، وهكذا تمسك المسلمون بخطة النبى البارعة، فأنزل الله نصره عليهم فى جولة واحدة، قال ابن إسحاق فى السيرة النبوية: « ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده، فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لا شك فيها ».

قال تعالى عن هذه الجولة من معركة أحد: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ﴾ (آل عمران: ١٥٢).

وأسفرت هذه الجولة عن تغير موقف الفريقين؛ فقد سيطر جيش المسلمين على ميدان المعركة تمامًا، بعد أن فر معظم



المشركين منه تاركين ما كان معهم من متاع، وهنا شغل الجند بجمع ما تركه أعداؤهم، فلما رأى الرماة فرار المشركين وهزيمتهم، ورأوا إخوانهم يجمعون الغنائم والأسلاب، قال بعضهم لبعض: الغنيمة، الغنيمة! فذكَّرهم قائدهم " ابن جبير" بأمر النبى ﷺ لهم بلزوم موقعهم، وحذرهم عاقبة مخالفة أمره! فلم يستجيبوا له، ولم يلتفتوا لنصحه، وأسرع نحو أربعين منهم تاركين موقعهم الخطير ليصيبوا من الغنائم!

وهنا حدث التغير الثانى فى مجريات غزوة أحد، وكان تغيرًا حاسمًا لصالح المشركين، وذلك أن خالد بن الوليد قائد فرسان قريش، رأى أكثر الرماة قد غادروا موقعهم من الجبل ، وأصبح ظهر المسلمين مكشوفًا ، فانطلق بخيله نحو البقية القليلة من الرماة، لا يعبأون بنبالهم، فأجهزوا عليهم، وانقضوا على المسلمين المشغولين بجمع الغنائم، وصاحوا بإخوانهم الفارين من الميدان، فعادوا مسرعين فأحاط العدو بالمسلمين من كل جانب، فاختل نظامهم واضطرب أمرهم، وتركوا الغنائم، وعادوا إلى أسلحتهم، يقاتلون على غير هدى، حتى قتل بعضهم بعضًا خطأ! وأخطر ما حدث ساعتئذ: أنهم فقدوا اتصالهم برسول الله ﷺ، بل أشيع أنه قتل فزاد الأمر سوءًا، وأسقط فى أيديهم، فلم يدروا ماذا يفعلون.

لقد غادر بعضهم أرض المعركة واتجهوا نحو المدينة، وقعد البعض الآخر دون قتال يسيطر عليهم الذهول، لكن فريقًا ثالثًا استبسل فى قتال المشركين حتى قتل، ثم كانت مجموعة أخرى أحاطوا برسول الله ﷺ يمنعونه بسيوفهم، ويحمونه بأجسادهم، ويفدونه بأرواحهم، حتى سقط بعضهم شهيدًا، وصمد الآخرون، فلم يصل العدو إلى النبى ﷺ، وإن كان قد أصيب قبل ذلك، فكسرت رَبَاعِيَتُه[1]، وشُجَّ وجهه الشريف، وسال دمه ﷺ.

وهكذا تحطمت محاولات قريش قتل رسول الله ﷺ، وباءت جهودهم بالفشل، ولم يعد هناك مجال لمحاولات أخرى، وبعد أن بلغ التعب من الفريقين مداه، ولم يبق فى وُسْع كليهما أى جُهْد يُبذل ! توقف القتال بعد أن رضيت قريش بما أصابت من المسلمين ثأرها، وشفت غليلها، فقتل من المسلمين سبعون شهيدًا، وقتل من المشركين اثنان وعشرون رجلاً.

إن الذى لا ريب فيه أن المسلمين قد

ضاع منهم نصر كبير كانوا منه قاب قوسين أو أدنى فى الجولة الأولى من تلك المعركة، لكنهم حين التفتوا إلى الغنائم واهتموا بجمعها، وصُرِفوا عن قتال عدوهم حتى يقضوا عليه وينتهوا من أمره، وصار همهم متاع الحياة الدنيا، وارتكب الرماة خطأهم الفادح، وعصوا أمر نبيهم من أجل الغنائم أيضًا، انقلب حالهم واضطرب أمرهم، فرجحت كفة العدو عليهم، فكانت خسارتهم الفادحة يومئذ خسارتين، أما الأولى فهى ضياع ذلك النصر الوشيك من أيديهم، وأما الثانية فهى سقوط هذا العدد الضخم من الشهداء الأبرار، وبخاصة إذا علمنا أنهم يمثلون عشر الجيش كله، وفوق ذلك، فإنه لولا لُطفُ الله وحفظه وصيانته لنبيه ﷺ، ولمن ثبت معه من المؤمنين، لكانت المصيبة أفدح من ذلك بكثير!!

لقد كانت غزوة أحد منعطفًا مهمًا جدًا فى مسيرة الدعوة الإسلامية، وحركة الجهاد فى سبيل نشرها، وكانت درسًا بليغًا وعاه المسلمون واستوعبوه طوال تاريخهم ، وآية ذلك ما سجله القرآن الكريم عن وقائع تلك الغزوة ومشاهدها، وما ارتبط بها، وما انطوت عليه من مواقف وعظات وعبر، وكل ذلك فى نحو ستين آية من سورة آل عمران، لكن المقام لا يتسع لتفصيل القول فى ذلك.

بقيت كلمة أخيرة لا بد منها لتصويب فكرة شائعة يرددها كثير من الكتاب والمتحدثين، وهى أن المسلمين قد هزموا- تحت قيادة النبى ﷺ- فى غزوة أحد!! وهذا خطأ ولا شك . لماذا؟!

أولاً : لأن المسلمين لم يستسلموا للعدو يؤمئذ، بل ظلوا يقاتلونه، حتى يئس، وتوقف هو عن القتال.

ثانيًا : لأن المسلمين لم يفروا أمام عدوهم، بل صمدوا فى وجهه بكل صلابة واستبسال حتى أعياه القتال، فانصرف خائبًا.

ثالثًا : لم يتمكن المشركون من فرض سيطرتهم وإرادتهم على المسلمين فى الميدان بالقضاء عليهم أو أسرهم، بل لم يستطع العدو أسر رجل واحد من المسلمين.

فأين هى إذًا مظاهر تلك الهزيمة التى يلصقونها بالمسلمين فى غزوة أحد؟!

أ.د / محمد جبر أبو سعدة

الهوامش

(١) الرباعية: هى السن التى بين الثنية والناب، وفى الفك الأعلى رباعيتان، وفى الفك الأسفل مثلهما .

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- القرآن الكريم ، سورة آل عمران.

٢- الجامع الصحيح- للبخارى (محمد بن إسماعيل الجعفى ت ٢٥٦هـ) ط دار الفكر، بيروت ١٤٢١هـ/ ١٩٩٠م.

٣- معجم المعالم الجغرافية فى السيرة النبوية- عاتق بن غيث البلادى- ط دار مكة للنشر بمكة ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٤- الطبقات الكبرى، ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع ت ٢٣٠هـ)، دار صادر ، بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨.

٥- تاريخ الرسل والملوك، الطبرى (محمد بن جرير بن يزيد ، ت ٣١٠هـ) بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . طبع دار المعارف بالقاهرة ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

٦- زاد المعاد فى هدى خير العباد، ابن قيم الجوزية (محمد بن أبى بكر ٧٥١هـ) بتحقيق شعيب الأرناؤوط وزميله، ط مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٠٠هـ/١٩٩٠م.

٧- السيرة النبوية ، ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب ، ت ٢١٨هـ) بتحقيق مصطفى السقا وآخرين ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م.

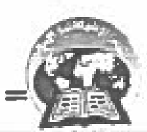
٨ - كتاب المغازى، الواقدى (محمد بن عمر ٢٠٧هـ) بتحقيق مارسدن جونز- ط دار المعارف بمصر ١٣٨٥هـ/١٩٦٥م.

الأحـــزاب (غزوة)

وقعت حوادث هذه الغزوة فى شهر شوال من سنة خمس للهجرة (مارس٦٢٧م)، وهى إحدى حلقات الصراع المسلح بين المسلمين وقريش، غير أن كفار قريش لم يكونوا وحدهم فى تلك الجولة، بل تحالفوا مع يهود بنى النضير، أولئك الذين طردهم المسلمون من المدينة فى السنة الرابعة الهجرية٦٢٥م، لنقضهم عهدهم مع المسلمين ، فذهب أكثرهم إلى خيبر فأقاموا بها مع إخوانهم يهود خيبر، لكن هؤلاء النضيريين لم ينسوا أبدًا ما أصابهم من الذلة والانكسار بإخراجهم من المدينة على أيدى رسول الله ﷺ وأصحابه، وذلك بعد أن كانوا – قبل الهجرة النبوية- من سراتها وسادتها ، فتعاهد زعماؤهم (حُيَىُّ بن أخطب، وعبد الله بن سلام بن أبى الحقيق، وسلام بن مِشكم، وكنانة بن الربيع وغيرهم من رجال بنى النضير) مع زعماء قريش على قتال رسول الله وأصحابه، وقالوا لهم: نكون معكم حتى نستأصله، فأجابوهم إلى ذلك.

كذلك انضم إلى هذا الحلف المعادى للإسلام والمسلمين قبائل: غَطَفان، وفَزارة، ومُرّة وسليم، وأسد ، وأشجع، فتجمع من هؤلاء وأولئك جيش ضخم لم يُسمع بمثله بين العرب من قبل، وزحفوا نحو المدينة ، يقودهم زعيم قريش أبو سفيان بن حرب بن أمية ، وهدفهم القضاء على محمد ﷺ وأصحابه ودعوته، واقتسام أموال المسلمين من الأوس والخزرج .

وفور أن علم رسول الله - عليه الصلاة والسلام- بأمر هؤلاء الأحزاب، جمع أصحابه ليستشيرهم فيما ينبغى عمله لمواجهة هذا الموقف الخطير؟ فأشار عليه سلمان الفارسى بفكرة استوحاها من أساليب الفرس فى قتال أعدائهم، فقال: (يا رسول الله إنا كنا بفارس إذا حوصرنا خندقنا علينا)، أى أن ما ينبغى القيام به الآن، هو أن يحفر المسلمون خندقًا فى المنطقة المكشوفة التى يمكن للعدو أن يقتحم المدينة منها ، وهى المنطقة الواقعة بين طرفى حرة واقم [1]، وحرة الوبرة (اللابة الشرقية ، واللابة الغربية) شمال المدينة ، أما جهات المدينة الأخرى، فكانت كالحصن، تتصل فيها الدُّور وتتشابك النخيل، وتحيط بها الحرات



التى يتعذر على المشاة والدواب السير فيها.

وقد وافق النبى ﷺ على تلك الفكرة الجديدة على العرب، وتم على الفور تقسيم الرجال إلى مجموعات عمل، كل مجموعة عشرة رجال، ومهمتهم حفر أربعين ذراعًا من الخندق؛ روى الطبرى بإسناده إلى عمرو بن عوف المزنى، قال: " خط رسول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب.. ثم قطعه أربعين ذراعًا بين كل عشرة".

وبدأ الصحابة - رضى الله عنهم أجمعين- عملهم الكبير فى حفر هذا الخندق الذى به يكمل تحصين المدينة، فلا يتمكن العدو من اقتحامها أو النفاذ إليها من أى جهاتها الأربع، ولأن الفرصة الزمنية المتاحة للمسلمين ضيقة جدًا، فقد انخرطوا فى إنجاز تلك المهمة دون كلل أو ملل، وكانوا تحت قيادة النبى - عليه الصلاة والسلام- يستعينون على تحمل عناء هذا العمل المضنى بإنشاد الأرجاز التى تهون عليهم التعب وترفع معنوياتهم.

وإذا علمنا أن طول هذا الخندق ٥٥٤٤مترًا، وعرضه ٤,٦٢ متر تقريبًا، وعمقه٣,٢٣٤ متر تقريبًا- كما حدد ذلك الدكتور / شوقى أبو خليل- إذا علمنا ذلك تبين لنا مدى الجهد الفائق الذى بذله رسول الله وصحابته فى إتمام هذا العمل الضخم قبل أن يصل جيش الأحزاب إلى مشارف المدينة، وكان ذلك من توفيق الله ورحمته بالمسلمين، ومن أجل هذا الخندق أطلق على تلك الغزوة اسم" غزوة الخندق"، ومن تتمة القول فى أمر الخندق: أن المسلمين قد أقاموا من الأتربة والرمال التى أنتجها الحفر ساترًا ترابيًا عاليًا فوق الحافة الجنوبية للخندق- ناحية المدينة- فأضافوا بذلك حصانة أخرى للمدينة، فزادت به أيضًا صعوبة اجتيازه على الأحزاب.

لما وصلت جموع الأحزاب إلى مشارف المدينة، وانسالوا فملأوا السهل الذى بين جبل أحد وبين المدينة، فوجئوا بهذا الخندق يحول بينهم وبين تحقيق هدفهم وهو اجتياح عاصمة الإسلام، واستئصال النبى وأصحابه، فوقعوا أمامه فى حيرة وذهول، وقالوا: هذه مكيدة لم يعرفها العرب من قبل!.

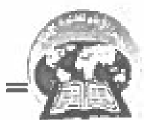
وكان الجند المسلمون يومئذ نحو ٣٠٠٠ رجل قد اصطفوا على الناحية الأخرى من الخندق فى مواقعهم القتالية، ليمنعوا أى محاولة قد يقوم بها المشركون لعبور الخندق، كذلك أمر النبى ﷺ بجمع النساء والولدان والشيوخ

الذين لا يستطيعون القتال فى مكان أمين بوسط المدينة، وكلف بضع مئات من الرجال بحراستهم، ولم يكن أمام الأحزاب فى هذا الموقف إلا أن يفرضوا الحصار المحكم حول الخندق ومن وراءه، وينتظروا ما تتمخض عنه الأيام!

وعلى الرغم من طول أمد هذا الحصار(نحو عشرين يومًا) فلم يقع التحام بين الفريقين، إلا ما كان من بعض محاولات المشركين اقتحام الخندق، غير أنهم كانوا يصطدمون بيقظة المسلمين وصلابتهم فى ردهم على أعقابهم مهزومين، فظل موقف المعسكرين على ما هو عليه، وكان ذلك يزيد من ثقة المؤمنين فى نصر الله إياهم فى نهاية الأمر، على حين يستبد القلق والحسرة بالأحزاب الذين اعتقدوا - آنفًا - أنهم قادرون على استئصال المسلمين فى يوم أو بعض يوم! وكان زعماء يهود بنى النضير خاصة أشدهم قلقًا وهلعًا من فوات هذه الفرصة التى لن تتكرر أبدًا دون تحقيق أهدافهم!

لذلك تسلل حُيَىّ بن أخطب النضرى إلى حصن كعب بن أسد زعيم يهود بنى قريظة - الذين تربطهم بالمسلمين معاهدة حسن جوار وتعايش سلمى بالمدينة - وظل حُيَىّ يغرى كعبًا بالانضمام إلى الأحزاب، ونقض العهد مع المسلمين، حتى أقنعه بالغدر وخيانة جيرانه وحلفائه المسلمين وهم فى تلك الظروف الحرجة، وفى لحظة واحدة تحول بنو قريظة من جيران مسالمين، وحلفاء يؤمن جانبهم إلى أعداء محاربين للنبى ﷺ وأصحابه! فاشتد الأمر حينئذ وعظم الخطب على المسلمين، إذ أصبحوا محصورين بين عدوين يطبقان عليهم من أمامهم ومن ورائهم كما صور القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ (الأحزاب:١٠- ١١).

فى أثناء هذه الشدة المطبقة على المسلمين، والمعاناة الجسدية والنفسية، كان الصحابة يلوذون برسول الله ﷺ، فهو موئلهم الذى يجدون لديه الطمأنينة وهدوء النفس، فقد سألوه يومئذ: أما من شىء تقوله، فقد بلغت القلوب الحناجر؟! قال:« **بلى، اللهم منزل الكتاب، مجرى السحاب ، هازم الأحزاب، سريع**



الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم».

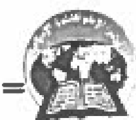
ولم يكن جهاد المسلمين يومئذ هو الدعاء وحده، بل لقد فكر النبى فى تخفيف حدة هذا الحصار الشديد الوطأة على المسلمين فبعث إلى (عيينة بن حصن، والحارث بن عوف قائدى غطفان) يفاوضهما على تخلى غطفان عن حصار المدينة وعودتهم إلى بلادهم فى مقابل ثلث ثمار المدينة، فقبلا هذا العرض، ولم يبق إلا أن يكتب الاتفاق ويتم الأمر، وكان لابد من معرفة موقف زعيمى الأوس والخزرج (سعد بن معاذ وسعد بن عبادة) أولاً: فسألهما رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله؛ شىء تحب أن تصنعه، أم شىء أمرك الله به، أو شىء تصنعه لنا؟ قال: « بل شىء أصنعه لكم، إنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة فأردت أن اكسر عنكم شوكتهم» فقال سعد ابن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، ولا يطمعون أن يأكلوا منا تمرةً إلا قِرىً أو بيعًا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام نعطيهم أموالنا !؟ ما نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، فلم يتم الأمر.

ومن عجيب صنع الله جل وعلا أن يوافق هذا السلوكَ من زعماء غطفان إسلام(نعيم بن مسعود الغطفانى) الذى كان له دور مشهود فى هذه المعركة الكبرى، وفى بيان هذا الدور قال ابن إسحاق: " ثم إن نعيم بن مسعود أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ، إنى قد أسلمت ، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى فمرنى بما شئت . فقال رسول الله ﷺ : « إنما أنت فينا رجل واحد؛ فخذِّلْ عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة»، فخرج نعيم حتى اتى بنى قريظة - وكان لهم نديمًا فى الجاهلية - فقال لهم : قد عرفتم ودى إياكم ، وخاصة ما بينى وبينكم، قالوا : صدقت، لست عندنا بمتهم. فقال لهم : إن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد، وقد ظاهرتموهم عليه ، وإن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم ؛ البلد بلدكم، به أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشًا وغطفان أموالهم وأبناؤهم ونساؤهم وبلدهم بغيره، فليسوا كأنتم، إن رأو نُهزة وغنيمة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به إن خلا

بكم ؛ فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن يقاتلوا معكم محمدًا، فقالوا : لقد أشرت برأى ونُصْح ! ثم خرج حتى أتى قريشًا، فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه : يا معشر قريش ؛ قد عرفتم ودى إياكم، وفراقى محمدًا. وإنه قد بلغنى أمر رأيت حقًا علىَّ أن أبلغكموه نصحًا لكم فاكتموا عنى. قالوا : نفعل. قال: « فاعلموا أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا مع محمد، وقد أرسلوا إليه أن قد ندمنا على ما فعلنا، فهل يرضيك عنا أن نأخذ من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم، ثم نكون معك على من بقى منهم؟ فأرسل إليهم: أن نعم ؛ فإن بَعَثَتْ إليكم يهود يلتمسون منكم رُهُنًا من رجالكم فلا تدفعوا إليهم رجلاً واحدًا. ثم خرج حتى أتى غطفان، فقال لهم: أنتم أصلى وعشيرتى، وأحب الناس إلىَّ، ولا أراكم تتهموننى ! قالوا: صدقت ... فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم.!

قال المؤرخون : فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، وكان من فضل الله على رسوله وعلى المسلمين أن أرسل أبو سفيان وزعماء غطفان وفدًا من قبلهم إلى بنى قريظة يطلبون منهم إنشاب القتال غدًا مع المسلمين، وقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر (أى نفد ما كان معنا من طعام) فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه! فأجابهم يهود قريظة: إن اليوم يوم السبت، وهو يوم لا نعمل فيه شيئًا، ولسنا مع ذلك نقاتل معكم محمدًا حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فإنا نخشى أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا والرجل فى بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه ومن أصحابه.. فلما رجع الوفد وابلغوهم رد بنى قريظة، قالت قريش وغطفان: والله لقد صدق نعيم بن مسعود ! فأرسلوا إلى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحدًا منا، فإن كنتم تريدون القتال، فاخرجوا فقاتلوا. فقالت بنو قريظة عند ذلك : إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق! ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين محمد فى بلدكم .. هكذا انصدع ذلك الحلف الغادر بين اليهود والمشركين.

وما هو إلا أن أرسل الله جنوده - وما يعلم جنود ربك إلا هو - فى الليلة التالية



تفعل بالمشركين أفاعيلها، فقد أطبق عليهم الظلام الدامس، وانهمر عليهم المطر الشديد، وعصفت الريح بهم حتى اقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم؛ فأمسوا وهم لا يتمالكون أطرافهم من قسوة البرد، وقصف الريح، وغلظة المطر، فكان شر مساء عرفه المشركون منذ جاءوا قبل أكثر من عشرين ليلة، فقام أبو سفيان وقال: يا معشر قريش، والله لقد هلك الخف والحافز، وأخلفتنا قريظة، ولقينا من هذه الريح ما ترون، فارتحلوا فإنى مرتحل. وسمعت غطفان وسائر الأحزاب بما صنعت قريش، فرجعوا - جميعًا - إلى بلادهم، لم يربحوا من عدوانهم إلا الخزى والخسران المبين .

وفى هذا المعنى يقول القرآن الكريم:

﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (الأحزاب:٢٥).

وهكذا انتهت تلك الملحمة الهائلة، وانزاح عن ظاهر المدينة ذلك الكابوس الذى جثم عليه بضعًا وعشرين ليلة طويلة، وكسب المؤمنون الجولة، فهتف النبى ﷺ قائلاً : « لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، فلا شىء بعده».

وخسر المشركون المعركة التى حشدوا لها أقصى ما يملكون من أموال ورجال وأحلاف وعدة وعتاد، وكان عليهم أن يخسروا معارك المستقبل أيضًا، لذلك قال عليه الصلاة والسلام ، فى ثقة واطمئنان : « الآن نغزوهم ولا يغزوننا» . فلم يعد فى قدرة قريش بعد هذا الفشل المخجل أن تغير مرة أخرى على المدينة، وأصبح زمام المبادأة بيد المسلمين منذ ذلك اليوم .

أ.د / محمد جبر أبو سعده

الهوامش :

(١) الحرة: الأرض البركانية التى يكسو سطحها الحجارة المدببة السوداء، وهى منتشرة حول المدينة .

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- القرآن الكريم، سورة الأحزاب.

٢- أطلس السيرة النبوية ، للدكتور شوقى أبى خليل- ط٤ ، دار الفكر- دمشق ٢٠٠٥م.

٣- الجامع الصحيح: البخارى: (محمد بن إسماعيل، ت ٢٥٦هـ) ط. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت١٤١١هـ، ١٩٩١م.

٤- الطبقات الكبرى : ابن سعد : (محمد بن سعد بن منيع ت ٢٣٠هـ)، دار صادر، بيروت ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٥- تاريخ الرسل والملوك، الطبرى: (محمد بن جرير بن يزيد ت ٣١٠هـ)، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

٦- زاد المعاد فى هدى خير العباد : (ابن قيم الجوزية: محمد بن ابى بكر ت ٧٥١هـ) بتحقيق شعيب الأرناؤوط وآخر، مؤسسة الرسالة - بيروت١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٧- السيرة النبوية : ابن هشام: (عبد الملك بن هشام بن أيوب ت ٢١٨هـ)، بتحقيق مصطفى السقا، وآخرين - مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٨- كتاب المغازى: الواقدى (محمد بن عمر بن واقد ، ت ٢٠٧هـ)، بتحقيق مارسدن جونز، مطبعة دار المعارف بمصر ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥.

الإخشيديون (دولة)

(٣٢٣هـ-٣٥٨هـ/٩٣٥م-٩٦٩م)

عادت مصر إلى سلطان العباسيين، وذلك بعد سقوط الحكم الطولونى، وأرسل العباسيون ولاتهم لحكم مصر؛ وهؤلاء الولاة لم يكونوا بمثل كفاءة الطولونيين بل كانوا على درجة كبيرة من الضعف ولم يستطيعوا إحكام قبضتهم على مقاليد الأمور، ويشير أحد المؤرخين إلى حالة الضعف التى أصابت مصر بقوله: "وظلت البلاد فى اضطراب شامل طوال ثلاثين عامًا كانت الحكومة الفعلية فيها فى أيدى ولاتها الأتراك؛ وكانت الجيوش التى يرسلها الخلفاء العباسيون إلى مصر لدعم أركان السلام فيها وحمايتها من الغزو الخارجى تملى مشيئتها على هؤلاء الولاة، وكان كل واحد منهم فى حاجة إلى أن يكون مقبولاً فى نظر هؤلاء المتطلعين دائمًا إلى زيادة الأرزاق"[١].

يضاف إلى سوء الأوضاع الداخلية فى مصر؛ أن تعرضت لخطر شديد قادم من ناحية الغرب حيث بذل الفاطميون حكام المغرب محاولاتهم المتكررة من أجل الاستيلاء على مصر؛ وذلك بعد أن استقر حكمهم فى بلاد المغرب وقضائهم على الدويلات التى كانت قائمة فى المنطقة لذا نراهم يحتلون الإسكندرية سنة ٣٠٢هـ/٩١٤م دون أن يلقوا مقاومة تذكر؛ ثم تابع الفاطميون سيرهم جنوبًا إلى الفيوم فبعث الخليفة العباسى إليهم جيشًا تعاون مع المصريين فى طردهم من البلاد.

وكرر الفاطميون هجومهم على مصر بعد ذلك بخمس سنوات ، ونجحوا فى دخول مدينة الإسكندرية، وزحفوا فى تحركاتهم حتى وصلوا الأشمونين؛ وجرت عدة وقائع تراجع الفاطميون بعدها عن مصر التى أصابها من جراء تلك الحروب الدمار والخراب. ومما زاد فى معاناة المصريين سوء معاملة الجند العباسيين لهم؛ إذ صاروا ينهبون الأمتعة ويعتدون على الناس ويتقاتلون فيما بينهم؛ وقد جرّ ذلك على البلاد أفدح الخسائر وعظيم النكبات؛ وفى وسط تلك الفوضى الشاملة عهد الخليفة العباسى الراضى إلى أبى بكر محمد بن طُغْج بولاية مصر ، فأعاد إلى البلاد هدوءها ،

وأقام فيها أسرة ظلت تقوم بالأمر فيها أكثر من ثلاثين عامًا[٢].

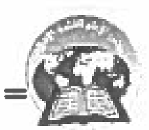
محمد بن طغج الإخشيد (٣٢٣هـ-٣٣٤هـ/ ٩٣٥م- ٩٤٥م):

تتسبب هذه الدولة إلى مؤسسها محمد ابن طغج الإخشيد، والإخشيد لقب يعنى "ملك الملوك" بلغة الأتراك، وكان جد محمد بن طغج أحد الضباط الأتراك الذين جلبهم الخليفة العباسى المعتصم، أما والده "طغج" فقد خدم أحمد بن طولون وابنه خمارويه الذى استخدمه، فأحرز له عدة انتصارات ضد الروم مما جعله يوليه على دمشق نيابة عنه.

أما محمد بن طغج فقد اتصل بوالى مصر "تكين" وتولى له بعض الأعمال، ثم ولاه الخليفة العباسى على دمشق سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، ثم واليًا على مصر سنة ٣٢١هـ/٩٣٣م. وفى هذه المرة لم يستطع المجىء إلى مصر فأناب غيره عنه، وفى المرة الثانية حين تولى إمرة مصر، جاء إليها سنة ٣٢٣هـ/٩٣٥م، وأسس بها دولته.

سياسة الإخشيديين: واجه الإخشيد فى بداية حكمه فى مصر مقاومة عنيفة من جانب الماذرائيين، وهم الذين أداروا البلاد، وجمعوا الكثير من ثرواتها؛ ويشير بعض المؤرخين إلى أن هذه الأسرة عارضت ظهور أية قوة فى مصر، شأنها أن تهدد كيانها ومصالحها، وكان لموقف الماذرائيين من الإخشيد أثره فى إحداث صدام بين الطرفين؛ وفى هذا الصدام حظى الإخشيد بتأيد الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات بسبب العداء المتحكم بين الماذرائيين من ناحية وأسرة ذلك الوزير من ناحية أخرى، ولم يتردد الفضل بن جعفر فى الحضور إلى مصر للإشراف بنفسه على تصفية نفوذ الماذرائيين وأموالهم، وبذلك تخلص الإخشيد من عدو داخلى فضلاً عن حصول الإخشيد على أموال ضخمة نتيجة مصادرة أموالهم؛ ولا شك أن هذه الأموال أفادت الإخشيد فى بداية عهده ومكنته من تثبيت مركزه بسرعة فائقة[٣].

وبعد مغادرة الوزير العباسى الفضل بن جعفر بن الفرات مصر؛ أصبحت مصر تخضع لسلطة الإخشيد السياسية والمالية، حيث صار هو المسئول عن تسيير الحرب والصلاة وإدارة أمر الخراج وجميع الأمور المالية؛ ومنذ هذه اللحظة عمل الإخشيد على بسط لواء الأمن، فاستقرت الأمور، ثم نراه يهتم بتقوية مصر ماديًا حتى تستطيع الاحتفاظ بكيانها؛ فأعد جيشًا قويًا استطاع به



صد الفاطميين القادمين من بلاد المغرب عن مصر والاحتفاظ بالشام بعد أن رأى حكام الولايات المختلفة قد استقلوا بإدارة ما تحت أيديهم من أعمال وخاصة بعد تردّى الأوضاع فى الدولة العباسية، وصارت بغداد، وهى عاصمة الخلافة العباسية، موضع نزاع وتقاتل بين الطامعين فيها من أمراء الأتراك؛ هذه الأوضاع المتردية أدركها الإخشيد؛ ومن ثم بذل كل جهده لدفع أطماع هؤلاء الأمراء عما تحت يده من أعمال مصر والشام.

وفاته :

أدركت المنية الإخشيد فى الشام، وذلك بعد أن عقد الإخشيد صلحًا مع سيف الدولة الحمدانى، وعاد الإخشيد إلى دمشق حيث بقى بها إلى أن توفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م عن إحدى وستين سنة حكم منها إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر، ثم دفن فى القدس، وقد أجمع المؤرخون على وصف الإخشيد بأنه كان رجلاً عظيمًا فى حياته الخاصة والعامة، فوصفه أبو المحاسن" بأنه كان ملكًا شجاعًا مقدامًا حازمًا متيقظًا حسن التدبير عارفًا بالحروب مكرّمًا للجند شديد البطش ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجرّ قوسه، وله هيبة عظيمة فى قلوب الرعية، وكان متجملاً فى مركبه وملبسه وكان موكبه يضاهى موكب الخلافة، وبلغت عدة مماليكه ثمانية آلاف مملوك، وكان عدد جنده أربعمائة ألف، وكان قوى التحرز على نفسه وكانت مماليكه تحرسه بالنوبة عندما ينام كل يوم ألف مملوك"(٤).

خلفاء الإخشيد :

زاد نفوذ محمد الإخشيد بعد نجاحه فى استرداد الشام واستقرار الأوضاع بمصر، ومن ثم وجدنا الخليفة العباسى يضيف إلى سلطانه ولاية الحجاز، وجعل مصر ولاية له ولأبنائه من بعده ثلاثين سنة، وأصبح من حق أولاد الإخشيد أن يتوارثوا حكم مصر؛ ومن ثم أخذ الإخشيد البيعة لابنه أنوجور على قادة الجند وأعيان البلاد وقد أقّر الخليفة العباسى ذلك العهد؛ فلما توفى الإخشيد تولى ابنه أنوجور خلفًا له؛ ونظرًا لصغر سنه إذ كان يبلغ خمسة عشر عامًا فقد أمكن التغلب على ذلك بفضل ظهور رجل قوى أمين فى بلاط محمد الإخشيد وهو أبو المسك كافور.

أما أبو المسك كافور فقد بدأ حياته مملوكًا بسيطًا، وكُنّى بأبى المسك من

باب التلميح، وقيل إن الإخشيد اشتراه، وقيل : إن كافور أُهدى إليه فتوسم فيه الذكاء واحتفظ به، واختصه من بين عبيدة وأعتقه، وأولاه ثقته ، وعهد إليه بتربية ولديه[٥].

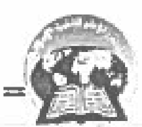
لم يلبث كافور أن استغل صغر سن أنوجور واستأثر هو بالسلطة الفعلية، وقبض على زمام الأمور وصار أنوجور معزولاً عن أى تصرف، مكتفيًا براتب قدره أربعمائة ألف دينار سنويًا، كما هيأ لأخيه حياة الترف واللهو.

استمر كافور يدبر شئون البلاد حتى كانت سنة ٣٤٣هـ/٩٥٤م ، وعندئذ أحس أنوجور بأنه بلغ سن الرشد، وآن الأوان ليدير بنفسه شئون الحكم، ويتخلص من قبضة كافور؛ ويشير بعض المؤرخين أن بعض الحاقدين حرّضوا أنوجور ضد كافور المستأثر بكل السلطات والأموال، ومن ثم تباعد أنوجور عن كافور مضمرًا الخلاف والشقاق؛ لكن أم أنوجور تدخلت خوفًا على ابنها من كافور وانتهت الأزمة بأن اصطلحا ودام الأمر على حاله حتى توفى أنوجور سنة٣٤٩هـ/ ٩٦٠م، وكانت ولايته على مصر أربعة عشر عامًا وعشرة أيام.

تولى خلفًا لأنوجور أخوه على بن الإخشيد الملّقب بأبى الحسن وأقر الخليفة العباسى المطيع لله ذلك، وكان مدة حكم أبى الحسن خمس سنين وشهرين، وكان عمره يناهز الثالثة والعشرين، وخلال هذه المدة ظل كافور هو صاحب السلطة الفعلية فى البلاد، وقد حرص كافور على عزل أبى الحسن عن التصرف فى أى أمر من أمور البلاد، مما دفع أبا المحاسن إلى القول: "ودام على هذا فى الملك له الاسم والمعنى لكافور "[٦].

لقد اتصفت مدة حكم أبى الحسن بكثرة الاضطرابات وسوء الأوضاع الداخلية، ففى الداخل انخفض النيل سنة٣٥١هـ/ ٩٦٢م، فاشتد الغلاء وارتفعت الأسعار وساءت أحوال الناس؛ ومن جهة أخرى اشتدت هجمات الفاطميين من غرب مصر والنوبيين من الجنوب، كما اشتد عبث القرامطة ببلاد الشام، ثم زادت الأمور سوءًا نتيجة انشقاق بين كافور وعلى بن الإخشيد ثم استطاع كافور أن ينهى النزاع لصالحه، حيث أحكم قبضته على أبى الحسن الذى مرض وتوفى سنة ٣٥٥هـ/٩٦٦م.

ترك أبو الحسن على بن الإخشيد ولده الصغير أحمد الذى كان فى التاسعة من



عمره؛ ورأى كافور تعارض مصلحته مع مبدأ حصر العرش فى أولاد الإخشيد، فاستغل فرصته صغر الأمير، واستصدر من الخليفة العباسى قرارًا بتوليته على مصر وما كان يتبعها من أعمال، وخطب له على المنابر بعد الخليفة (٧).

استمر كافور فى الحكم سنتين وأربعة أشهر وهو الحاكم الفعلى للبلاد منذ وفاة سيده محمد الإخشيد؛ وقد أثبت خلال هذه المدة أنه سياسى ماهر وقد وصفه أبو المحاسن بقوله: "كان خبيرًا بالسياسة فطنًا ذكيًا جيد العقل داهية، ولا أدل على كياسته وطول باعة فى السياسة من أنه أدرك صعوبة موقفه بين قوتين كبيرتين متعاديتين هما الخلافة العباسية فى الشرق والخلافة الفاطمية الشيعية فى الغرب، فأمسك بالعصا من الوسط، ولم يتورط فى معاداة إحدى القوتين، فكان يهادى المعز الفاطمى صاحب المغرب ويظهر ميله إليه؛ كذا يذعن بالطاعة لبنى العباس ويدارى ويخدع هؤلاء وهؤلاء، وتم له الأمر" (٨).

توفى كافور سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م، وخلفه فى حكم مصر أبو الفوارس أحمد بن على ابن محمد الإخشيد، وكان فى الحادية عشرة من عمره مما جعله ألعوبه فى أيدى كبار رجال الدولة وخاصة الوزير أبا الفضل جعفر بن الفرات الذى أساء السيرة، وقبض على جماعة من رجال الدولة، وصادر أموالهم ومنهم يعقوب بن كلس؛ وهو يهودى اعتنق الإسلام، واستطاع يعقوب الفرار إلى المغرب لاجئًا إلى المعز لدين الله خليفة الفاطميين وهذا بدوره أرسل جيشًا كبيرًا بقيادة جوهر الصقلى الذى نجح فى دخول مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م مما أدى إلى سقوط الدولة الإخشيدية.

العلاقات الخارجية :

تعددت العلاقات بين الإخشيديين والقوى القائمة فى المنطقة فى ذلك الوقت كالعباسيين والحمدانيين والفاطميين، وربما كان أخطر هذه العلاقات هى علاقة الإخشيديين بالفاطميين؛ إذ أسفرت هذه العلاقة فى النهاية عن القضاء على الدولة الإخشيدية واستيلاء الفاطميين على مصر وما ترتب على ذلك من نتائج شهدتها المنطقة؛ لذلك سوف نقتصر على الإشارة إلى طبيعة هذه العلاقات ومحاولات الفاطميين المتكررة فى الاستيلاء على مصر حتى نجحوا فى ذلك سنة سنة٣٥٨هـ/ ٩٦٩م.

يمثل استيلاء الفاطميين على مصر

نقطة تحوّل فى تاريخها بل وتاريخ المنطقة المحيطة بها فى القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وما تلاه من سنوات طويلة؛ كما أمتد تأثير هذا الفتح ليس على النواحى السياسية فقط وإنما امتد ليشمل النواحى الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؛ كما يمثّل هذا الفتح نجاحًا كبيرًا حققه الشيعة فى نضالهم ضد العباسيين.

لقد تعددت دوافع وأهداف الفاطميين فى الاستيلاء على مصر وذلك منذ اللحظات الأولى لقيام دولتهم فى بلاد المغرب ومبايعة عبيد الله المهدى سنة ٢٩٦هـ/٩٠٩م كأول خليفة فاطمى؛ ويمكن تلخيص أهداف الفاطميين فى نقاط محددة فى مقدمتها تحقيق أهداف مذهبية؛ وهو نشر المذهب الشيعى فى البلاد الإسلامية، ثم تحقيق الأمن والاستقرار للوجود الفاطمى، وهذا الأمن لم يتوفر فى بلاد المغرب؛ نظرًا لكثرة المعارضة والثورات التى اندلعت على أرض المغرب ضد الوجود الفاطمى؛ كذلك تحقيق أهداف سياسية واقتصادية؛ وخاصة أن مصر تتمتع بمركز جغرافى ممتاز، وهذا يمكّن الفاطميين من القضاء على العباسيين العدو اللدود لهم، كما أن مصر تتمتع بكثرة ثرواتها وخيراتها الطبيعية وإمكاناتها المادية؛ وذلك بالقياس لإقليم المغرب كثير الثورات والحروب [٩].

لقد تعددت الحملات العسكرية الفاطمية ضد مصر وكانت الأولى سنة ٣٠١هـ/٩١٣م، والثانية سنة ٣٠٦هـ/٩١٨م، والثالثة سنة ٣٢٤هـ/٩٣٦م، والرابعة ٣٥٥ه/٩٦٦م - وهذه الحملات تشير إلى حرص الفاطميين على الاستيلاء على مصر؛ وذلك منذ قيام دولتهم فى بلاد المغرب، ولا يتسع المجال لتناول هذه الحملات بالتفصيل؛ ولكن هذه الحملات كلّفت الخلافة الفاطمية نفقات باهظة فضلاً عن فقدها الكثير من جنودها ما بين قتيل وأسير، وهذا يدل على إصرار وإلحاح القيادة الفاطمية على الاستيلاء على مصر ، حتى تكون مرتكزًا وقاعدة لتحقيق آمال وأهداف الخلافة الفاطمية؛ ولم يتحقق هذا الحلم إلا فى عهد المعز لدين الله الذى اتخذ من النشاط السلمى والعسكرى وسيلة لتحقيق الاستيلاء على مصر [١٠].

كان فتح مصر على يد القائد جوهر الصقلى سنة٣٥٨هـ/ ٩٦٩م، أملاً كبيرًا



سعى إليه الخلفاء الفاطميون، وقد تتحقق هذا الأمل فى عهد المعز لدين الله الفاطمى الذى تولى الخلافة فى بلاد المغرب سنة ٣٤١هـ/ سنة٩٥٢م، ولقد تضافرت عدة عوامل على نجاح جوهر الصقلى، ومن هذه العوامل الظروف التى كانت تمر بها مصر داخليًا وخارجيًا فى أخريات أيام الحكم الإخشيدى؛ وكذلك ضعف الخلافة العباسية وعدم قدرتها على الدفاع عن مصر، يضاف إلى ذلك تلك الدعاية الفاطمية الذكية التى استخدمها المعز لدين الله الفاطمى فى مصر وتهيئة الأذهان والأعوان للمساعدة فى تحقيق النجاح، وأخيرًا استقرار الأوضاع ببلاد المغرب وذلك بفرض النفوذ الفاطمى فى ربوعه مما أمّن خلفية الجيش الفاطمى فى انطلاقه صوب مصر.

وكان وجود كافور الإخشيدى فى حكم مصر وسياسة المراوغة التى اتبعها فى معاملة الفاطميين حائلاً دون تحقيق أطماع الفاطميين فى مصر حتى أن الشيعة فى مصر كتبوا إلى المعز لدين الله الفاطمى قائلين له: "إن زال الحجر الأسود ملك مولانا المعز لدين الله الدنيا كلها" ويعنون بالحجر الأسود كافور الإخشيدى؛ وبموت كافور عمت الفوضى جنبات مصر، وساد الانشقاق والاضطراب صفوف الجنود المصريين المطالبين بأرزاقهم [١١].

أعدّ المعز لدين الله حملة كبيرة سنة٣٥٥هـ/٩٦٦م، بقيادة جوهر الصقلى وزوّدها بالأموال الكثيرة، وكانت فى جملتها أربعة وعشرين مليون دينار وثلاثمائة ألف أنفقها أجمع على العساكر التى سيرها إلى مصر، ويقول ابن تغرى بردى: **«إن الأموال لا تحصى عددًا لكثرتها»** [١٢]. وأما الجيش الفاطمى فقد بلغ تعداده مائة ألف مقاتل ينتمون إلى قبائل متعددة، وقد خرجت هذه الحملة الضخمة من بلاد المغرب يوم السبت فى الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م، ووصلت الإسكندرية واستولت عليها؛ وحين وصلت أنباء الحملة إلى الفسطاط أرسل المصريون وفدًا على رأسه الشريف أبو جعفر مسلم الحسينى وأبو إسماعيل الرسى لمقابلة جوهر الصقلى وتسليمه البلاد دون قتال بعد أن أخذ شروط الأمان، وقد رحب جوهر بهم، وتم عقد الشروط إلا أنه حدثت بعض المناوشات بالقرب من الجيزة غير أنها فشلت، وبذلك دخل جوهر الصقلى الفسطاط فى

شعبان سنة٣٥٨هـ/٩٦٩م، وهذا يعنى إنهاء الحكم الإخشيدى فى مصر.

بعض الملامح الحضارية فى الدولة الإخشيدية:

كانت السلطة العليا فى الدولة الإخشيدية فى يد الأمير مؤسس الدولة محمد بن طغج الإخشيد فلما مات تولى ابنه أنوجور السلطة ونظرًا لصغر سنه فقد تولى كافور الإخشيدى الوصاية عليه والسيطرة على أمور البلاد حتى نهاية الدولة. ويشير أحد المؤرخين إلى وجود معاونين للأمير يساعدونه فى تصريف شئونه الخاصة ومصالح دولته الواسعة، وانقسم هؤلاء الموظفون إلى قسمين: الأول موظفو البلاط والثانى موظفو الدولة؛ أما القسم الأول فيرأسهم الحاجب الذى كان ينظم تعاملات الأمير ومعه الخازن المشرف على الأموال الخاصة بالأمير، وبجانب ذلك الطبيب الخاص بالأمير، وأخيرًا حرسه الخاص الذى يقوم على حمايته، والقسم الثانى موظفو الدولة وعلى رأسهم الوزراء الذين اتخذهم الإخشيديون معاونين لهم، فالوزير هو المسئول عن تصريف الأمور ومعاونة حاكم البلاد وشئون الحكم، ويشترك معه فى الإدارة الكاتب الذى يُشرف على ديوان الإنشاء؛

وبالنسبة للشئون المالية فالمشرف عليها هو عامل الخراج وهو الموظف المكلف بجمع الأموال اللازمة للدولة عن طريق الخراج والضرائب وغيرها؛ ويشترك مع عامل الخراج فى الشئون المالية متولى دار الضرب وهو المشرف على سك النقود وأحيانًا يتولاها بعض القضاة؛ وهذه الوظيفة لها أهميتها من حيث ضبط عيار العملة وحفظها من التزييف [١٣].

وبجانب هذه الفئة من الموظفين هناك صاحب الشرطة ومهمته إقرار الأمن والنظام؛ يضاف إلى هؤلاء وظائف دينية لها خطورتها ووضعها الخاص فى المجتمع وهى وظائف القضاء والمظالم والحسبة، وجميعها ترتبط بالدين وأحكامه؛ وذلك لتحقيق العدالة فى المجتمع.

وفى الجانب الاقتصادى فقد ظل النشاط الزراعى طوال تاريخ مصر هو المحور الأساسى للحياة الاقتصادية ومصدر الرزق للسواد الأعظم من أهل البلاد، ويشير أحد المؤرخين إلى أن الخراج وهو ضريبة الأرض شكلّ المورد الأساسى لخزينة الدولة. وقد تنوعت الحاصلات الزراعية ويأتى فى مقدمتها الكتان والخضراوات والفواكه.

أما الصناعة فقد اقتصرت على

صناعة المنسوجات وبعض الصناعات الخشبية والمعدنية؛ ومن ناحية أخرى فقد لعبت التجارة دورًا هامًا في اقتصاد مصر، نظرًا لموقع مصر المتميز. وبصفة عامة فإن الحياة الاقتصادية في عهد الإخشيديين كانت مضطربة بسبب بخل الإخشيد وحرصه على جمع الأموال دون الإنفاق على المرافق العامة مع كثرة الضرائب ومصادرة الأموال؛ كل هذا أدى إلى ضعف النشاط الاقتصادي [١٤].

وأما في المجال الثقافي فقد واصلت الحركة الثقافية التي ازدهرت في العهد الطولوني مسيرتها ونشاطها؛ ومن الثابت أن العصر الإخشيدي شهد نشاطًا كبيرًا في ميادين العلوم والآداب والفنون، وكان العلماء والأدباء يلقون تشجيعًا من الأمراء وعلية القوم؛ وفي مجالس الأمراء كان يلتقي الفقهاء والأدباء فيسامرونهم ويشجعونهم ماديًا وأدبيًا.

وكانت الدروس المختلفة تلقى في المساجد الكبيرة كمسجدي عمرو بن العاص وابن طولون؛ كما كانت هناك سوق الوراقين لبيع الكتب فضلاً عن المناظرات التي كانت تعقد فيها، وهناك مجالس أخرى في بيوت الأمراء ورجال الإدارة العليا، وكان الفقه والحديث من أهم العلوم الدينية. ويشير أحد الباحثين إلى أن تنافسًا شديدًا كان بين أنصار المذهب الشافعي والمذهب المالكي. وعلى رأس فقهاء الشافعية في ذلك العصر أبو بكر بن الحداد (ت٣٤٤هـ/٩٥٥م) الذي تولى القضاء للإخشيد؛ وكان يدرّس بجامع عمرو بن العاص، واشتهر بسعة العلم في القرآن والحديث والفقه والنحو واللغة؛ أما فقهاء المالكية فقد برز منهم في العصر الإخشيدي هارون ابن محمد الأسواني (ت٣٢٧هـ/٩٣٨م) وعلي بن عبد الله بن أبي مطر الإسكندراني (ت٣٣٠هـ/٩٤١م) وغيرهما.

على أن النشاط الواسع الذي ظهر في مصر في عصر الإخشيديين إنما كان بوجه خاص في ميدان النحو والتاريخ، وممن بلغ القمة في علوم اللغة والنحو ابن ولاد أحمد وأبو جعفر النحاس؛ ومن مشاهير المؤرخين في العصر الإخشيدي ابن يونس والكندي وابن زولاق وكذلك ابن البطريق (ت٣٢٨هـ/٩٣٩م)؛ كما أنه في هذه الفترة وَفَد على مصر المؤرخ المشهور المسعودي وأقام فيها نحو سنتين حتى وفاته سنة٣٤٦هـ/٩٥٧م.

وفي مجال الأدب في العصر

الإخشيدى يلاحظ أن النثر كان أوفر حظًا من الشعر وقد تزعم الأدباء فى ميدان النثر فى العصر الإخشيدى إبراهيم ابن عبد الله بن محمد النجيرمى زعيم كتاب الإخشيديين، ويتصف أسلوبه بالميل إلى السجع والمزاوجة والإطناب فى اللفظ وتكرار المعنى، كما اشتهر من أدباء العصر الإخشيدى أبو بكر محمد المعروف بسيبويه المصرى (٢٨٤هـ- ٣٥٨هـ/ ٨٩٧م- ٩٦٩م).

أما شعراء العصر الإخشيدى فمنهم أحمد بن محمد القاسم بن أحمد الرسى ومحمد بن الحسن بن زكريا وغيرهم، ولكن شعرهم ليس فيه من المتانة والعمق وجمال التصوير ما يجعله على مستوى الشعر الممتاز؛ ويبقى أن نشير إلى مجىء المتبى الشاعر المشهور إلى مصر؛ وقد مدح كافور، فلما لم يحقق هدفه من هذه الزيارة هجاه فى قصيدة مشهورة.

أ.د / حسن على حسن

الهوامش:

(١)حسن على حسن تاريخ مصر الإسلامية، ص١٦٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٦٧ .
(٣) المرجع السابق، ص١٦٩.
(٤) النجوم الزاهرة، ج٣، ص٢٥٦.
(٥) تاريخ مصر الإسلامية، ص١٧١.
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٣، ٣٢٦.
(٧) تاريخ مصر الإسلامية، ص١٧٢.
(٨) أبو المحاسن: النجوم، ج٤، ص٦.
(٩) تاريخ مصر الإسلامية، ص١٧٤.
(١٠) المرجع السابق، ص١٧٨.
(١١) تاريخ مصر الإسلامية، ص١٧٨.
(١٢) النجوم الزاهرة، ج٤، ص٢٧.
(١٣) تاريخ مصر الإسلامية، ص١٨٠.
(١٤) المرجع السابق، ص١٨١.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.
٢. ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب.
٣. الكندى: كتاب الولاة والقضاة.
٤. أبو المحاسن: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.
٥. سيده إسماعيل كاشف: مصر فى عصر الإخشيديين.
٦. عبد الرحمن الرافعى ،. سعيد عاشور: مصر فى العصور الوسطى.
٧. حسن على حسن: تاريخ مصر الإسلامية.

الأدارسة

شهدت منطقة المغرب الأقصى فى ١٧٢هـ/ ٧٨٩م قيام دولة علوية وهى دولة الأدارسة نسبة إلى مؤسسها الإمام إدريس ابن عبد الله؛ وكانت عاصمتها فى بداية الأمر مدينة وليلى" ثم صارت مدينة فاس التى بناها الأدارسة؛ تلك المدينة التى لعبت دورًا حضاريًا مهمًا منذ تأسيسها حتى يومنا الحاضر.

ومؤسس الدولة هو الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، ووالده هو عبد الله بن الحسن وكان عالمًا جليلاً وهو شيخ العلويين ورئيسهم فى زمانه؛ أما أمه فهى عاتكة بنت عبد الملك بن الحرث وكانت من ربات الفصاحة والبلاغة ينتهى نسبها إلى بنى مخزوم، وقد نشأ إدريس مؤسس الدولة فى المدينة المنورة فى بيئة علمية فدرس الفقه وعلوم الشريعة منذ صغره .

والعلويون منذ مقتل الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه يرون أنهم أحق بالخلافة من الأمويين والعباسيين من بعدهم. ومن ثَمَّ حاولوا استردادها واعتبروا ذلك واجبًا مقدسًا؛ وفى سبيل ذلك قاموا بالدعوة السرية والثورات المسلحة. وبقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م اكتشف العلويون الخدعة الكبرى التى قام بها دعاة العباسيين تحت شعار الرضا لآل محمد .

وحين تولى أبو العباس عبد الله بن محمد ١٣٢هـ منصب الخلافة العباسية؛ نشط العلويون سرًا وقاموا بعدة ثورات منها ثورة النفس الزكية ١٤٥هـ/٧٦٢م ثم ثورة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب المعروف بالحسين بن على المثلث ١٦٩هـ/٧٨٦م فى المدينة واشترك فيها إدريس بن عبد الله. وقد نجح الثوار فى القضاء على المقاومة العباسية فى المدينة وأعلنوا خلع طاعة الخليفة العباسى الهادى؛ ثم خرج الثوار إلى فخ وهى تبعد عن مكة بثلاثة أميال أملاً فى الالتقاء بالقادمين للحج من أنصار البيت العلوى.

أرسل العباسيون جيشًا التقى بهؤلاء الثوار فى منطقة "فخ" يوم التروية من ذى الحجة سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٦م وكانت الهزيمة مصير الثوار العلويين ومقتل قائدهم الحسين بن على المثلث ومائة ونيف من أهل البيت والاتباع؛ أما إدريس

ابن عبد الله فقد اختفى فى زحام موسم الحج؛ حتى إذا انتهى الموسم فرّ إلى مصر ومعه مولاه راشد ومنها اتجه صوب المغرب الأقصى نجاة بحياته من بطش الخلافة العباسية ونزل بمدينة "وليلى" وهناك التقى بزعيم قبيلة أوربه إسحاق بن عبد الحميد الأدربى حيث عرَّفه بنفسه وبما نزل به وأسرته.

وكان ردّ الفعل الترحيب به ومبايعته هو وقبيلته أورية تلك القبيلة التى كانت تفرض نفوذها وسيطرتها على مدينة "وليلى" وما حولها وكان ذلك ١٧٢هـ/٧٨٩م، ولم يكتف إسحاق بذلك وانما بعث برسله إلى القبائل الأخرى لمبايعة إدريس بن عبد الله وتمت المبايعة فى رمضان ١٧٢هـ/ ٧٨٩م.

نجح الإمام إدريس فى تجنيد أبناء قبيلة أوربه وأبناء القبائل الأخرى من زناتة وصنهاجة وهوارة وبذلك أمنّ الوجود لدولته الناشئة.

والمتأمل فى الأحداث السابقة يلمس إسراع البربر إلى مبايعة الإمام إدريس بن عبد الله وذلك لعدة أسباب منها معرفة البربر بأحداث المشرق المتمثل فى الصراع المرير بين الخلافة العباسية والبيت العلوى ومقتل الكثير منهم؛ ومنها تطلع قبائل البربر إلى زعامة دينية وسياسية تجمع قبائلهم فى ظل دولة واحدة؛ يضاف إلى ذلك عدة مميزات فى شخصية إدريس باعتباره من آل البيت وأول أفراده اللاجئين إلى المغرب الأقصى فضلاً عن اتصافه بعدة صفات طيبة كالشجاعة والصبر والحلم والزهد؛ هذه العوامل وغيرها ساهمت بشكل كبير فى قيام دولة الأدارسة بزعامة الإمام إدريس بن عبد الله.

بعد إتمام ١٧٢هـ/٧٨٩م دخلت دولة الأدراسة فى مرحلة جديدة من مراحل حياتها وهى مرحلة الانطلاق والتوسع حيث جهز الإمام إدريس جيشًا من أبناء القبائل انطلق به فى عدة حملات عسكرية لإخضاع بقية القبائل لدولته الجديدة ونجح فى بسط سيطرته على عدة مناطق، وآخر الحملات كانت فى اتجاه الشرق حيث مدينة تلمسان واخضاعها لسلطانه.

موقف الخلافة العباسية من الأدارسة:

أدرك الخليفة العباسى الرشيد خطورة قيام دولة الأدراسة باعتبار أن مؤسسها ينتمى إلى البيت العلوى ومدى التفاف الناس حوله؛ كذلك نجاح الإمام إدريس

فى إخضاع مدينة تلمسان لسلطانه وتطلعه إلى غزو بقية بلاد المغرب والتهديد بالانطلاق صوب أراضى الخلافة العباسية وكل هذا يشكل خطرًا كبيرًا على الوجود العباسى.

ولم تجد الخلافة العباسية وسيلة ناجعة للتخلص من هذا الخطر سوى اغتيال إدريس مؤسس الدولة؛ ومن ثم تمَّ الاتفاق مع أحد الفصحاء المشهود لهم بالدهاء والإقدام وهو سليمان بن جرير المعروف بالشماخ على أداء هذه المهمة. وقد نجح الشماخ فى مهمته بعد أن وضع السم للإمام إدريس فى الطعام وقضى عليه ثم كر راجعًا مسرعًا إلى المشرق لينال مكافأته.

الدولة بعد اغتيال مؤسسها:

جمع راشد مولى الإمام إدريس بن عبد الله زعماء القبائل وشرح لهم الموقف وخطورته واقترح عليهم انتظار مولود لجارية الإمام إدريس بن عبد الله وتدعى كنزة وذلك لمبايعته خلفًا لوالده، وقام هو بإدارة شئون البلاد مع جماعة من زعماء القبائل؛ حتى إذا وضعت الجارية مولودها وكان ذكرًا لقب بإدريس بن إدريس، بايعته القبائل خلفًا لوالده ثم تمت مبايعته مرة أخرى ١٨٧هـ/ ٨٠٣م.

ومن ناحية أخرى أدركت الخلافة العباسية استمرار خطر الأدارسة المتمثل فى راشد مولى إدريس الأكبر وإشرافه على تربية إدريس بن إدريس ومن ثم أوعزت إلى إبراهيم بن الأغلب أمير إفريقية والتابع للخلافة العباسية باغتيال راشد ونجحت المؤامرة ١٨٦هـ - ٨٠٢م.

الإمام إدريس بن إدريس وخلفاؤه:

انتهج الإمام إدريس بن إدريس سياسة طيبة فى إدارة الدولة سعيًا وراء توطيد أركان ملكه وتثبيت دعائم حكمه فاستمال زعماء القبائل ببذل الصلات والأموال وإقرار العدل ونشره بين أفراد رعيته.

وقد أثمرت هذه السياسة فى إقبال أعداد كبيرة من العرب من القيروان والأندلس للإقامة فى دولة الأدارسة، وهذه الوفود ساهمت بشكل كبير فى نشر الثقافة الإسلامية والحضارة العربية فى ربوع البلاد، واتخذ الإمام إدريس بن إدريس منهم إدارته وحاشيته وعين منهم الوزراء والقضاة والكتاب.

وبعد أن نجح الإمام إدريس بن إدريس فى توطيد أركان ملكه خرج فى عدة حملات عسكرية لبسط سلطانه السياسى ونفوذه على المناطق المحيطة بدولته.



ولم يستمر الإمام إدريس بن إدريس فى الحكم طويلا إذ توفى ٢١٣هـ/ ٨٢٨م وتُعّد فترة حكمه من أعظم فترات الحكم فى دولة الأدارسة إذ تمَّ فى عهده العديد من الإنجازات السياسية والحضارية أبرزها بناء مدينة فاس العاصمة الجديدة لدولة الأدارسة، وقبيل وفاته عهد الإمام إدريس بن إدريس إلى ابنه محمد بالحكم فى ٢١٣/٨٢٨م.

بايع البربر الإمام محمد بن إدريس إماما للدولة خلفًا لوالده إدريس؛ وبانتهاء مراسم البيعة عمد الإمام محمد بن إدريس إلى تقسيم الدولة إلى عدة ولايات كل ولاية يحكمها أحد إخوته وكان هذا العمل بمشورة جدته كنزة.

وهذا التقسيم يمكننا أن نطلق عليه نظام اللامركزية فى الحكم حيث إن كل وال مستقل بإدارة عمله وجباية الخراج وإشهار الحرب وإنما يمتاز الإمام بذكر اسمه فى السكة والخطبة. وكان عدد إخوته الذين شملهم التقسيم ثمانية والهدف من هذا التقسيم إحكام السيطرة على مناطق الدولة المختلفة؛ إلا أن هذا التقسيم حمل فى طياته بذور الخلاف والتفكك والتصدع فى كيان الدولة.

وبمعنى آخر كان هذا التقسيم مشجعًا لبعضهم على تحقيق أطماعه، ومن ثم نشبت عدة حروب بين الإخوة ودخل أفراد الأسرة فى عدة صراعات أدت بها فى النهاية إلى سقوطها وساعد على ذلك مجىء الفاطميين واستيلاؤهم على المغربين الأدنى والأوسط ثم كانت ضرباتهم الأخيرة لدولة الأدارسة ٣٤٧هـ/ ٩٥٨م وبذلك أحكم الفاطميون سيطرتهم على المنطقة .

بعض المظاهر الحضارية:

إن من أبرز أعمال الأدارسة بالمغرب هو تأسيس مدينة جديدة لدولتهم وهى مدينة فاس ١٩٢هـ/٨٠٨م؛ ذلك العمل الهام الذى ارتبط باسمهم مع مّر العصور والذى خّلد فى التاريخ ذكراهم؛ ذلك العمل الفريد بين مدن المغرب، وبتأسيسها استطاع الأدارسة تدعيم سلطتهم فى المغرب الأقصى؛ إذ كان لمدينة فاس آثار دينية واقتصادية فى البلاد افتقدتها المنطقة منذ انقضاء العصر الرومانى.

وترمز مدينة فاس إلى الناحية الحضارية التى قامت عليها دولة الأدراسة وذلك بالقياس لمثيلاتها من بعض المدن التى نشأت على أرض المغرب كمدينة تاهرت وغيرها. فما زالت مدينة فاس

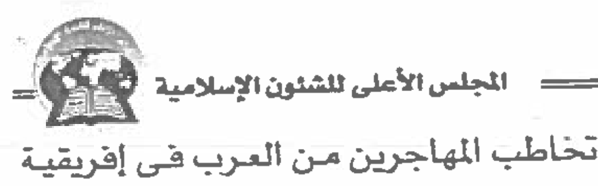
تحتفظ بدورها الحضارى منذ أن تأسست فى عهد الأدارسة إلى الآن وما زالت تحتفظ بلونها الحضارى الأصيل بعد أكثر من ألف عام وكانت الثقافة التى سادتها وانتشرت فيها هى الثقافة النابعة من الدين الإسلامى والتى تدور فى فلك العقيدة الإسلامية.

لقد واجه الإمام إدريس بن عبد الله حين أقبل إلى المغرب الأقصى مجتمعًا تسوده النزعات الخارجية والعقائد المضطربة، تلك العقائد التى اختلطت بالبدع والأباطيل وأصبحت بمنأى عن تعاليم الإسلام الحنيف؛ لذلك اتخذ الأدارسة عدة خطوات لتهيئة التربة الصالحة للعقيدة الإسلامية وتثبيتها فى نفوس أهل البلاد ونشرها فى الأماكن التى لم تكن وصلت إليها بعد ذلك، ومن هذه الخطوات القيام بحركة جهاد مقدسة فى أنحاء متفرقة من البلاد وذلك للقضاء على الوثنية والمذاهب الخارجية التى استشرى خطرها فى البلاد.

كذلك عمد الأدارسة إلى تثبيت أركان الإسلام وإرساء قواعده الصحيحة فى البلاد بعد أن تعرَّض لكثير من الهزات والارتداد من جانب البربر، كذلك ما قام به الأدارسة من دعوة القبائل المختلفة إلى الدخول فى طاعتهم وما ترتب على ذلك من معرفتهم بقواعد الإسلام الصحيح.

ومن ناحية أخرى لم تكن دولة الأدارسة دولة شيعية بالمفهوم الذى ظهرت فيه بعد ذلك الدولة الفاطمية، وانما كانت دولة علوية حكامها من البيت العلوى أما أحكامها وقوانينها فهى على مذهب أهل السنة والجماعة وبخاصة المذهب المالكى؛ ذلك المذهب الذى كان له أثر كبير فى توجيه النواحى الثقافية والاجتماعية؛ ليس فى المغرب الأقصى مهد الأدارسة فقط بل فى المغرب كله والأندلس فى العصر الوسيط حيث انتشر من مدرسة القيروان وتفشى فى القسم الغربى من العالم الإسلامى ثم عبر إلى غرب إفريقية حيث لايزال إلى اليوم المذهب الغالب على المسلمين فى هذه البلاد والعامل الموجه لثقافتهم وحضارتهم الاجتماعية.

وقد تضافرت عدة عوامل فى تثبيت أركان مذهب الإمام مالك فى دولة الأدارسة، منها تشجيع الإدارة لهذا المذهب وذلك نتيجة للتقارب الذى حدث بين الإمام مالك وبين محمد النفس الزكية الأخ الأكبر لإدريس بن عبد الله، كما أن الإدارة التى شكلها الإمام إدريس بن إدريس لتساعده فى إدارة



البلاد من المالكية وبخاصة قاضيه عامر ابن محمد بن سعيد القيسى من علماء المالكية؛ كذلك كانت الأحكام والفتاوى وغيرها من شئون القضاء تصدر وفقًا لأحكام المذهب المالكى؛ يضاف إلى ذلك التيار الذى ساد المغرب عامة منذ دخول المذهب المالكى وذلك عن طريق الحجاج وطالبى العلم الأفارقة والعرب. وأخيرًا فإن الدولة الأموية بالأندلس والمواجهة فى أراضيها لدولة الأدارسة أخذت بالمذهب المالكى فى أحكامها.

ومن ناحية أخرى فقد كان لتشجيع الأدارسة وتأييدهم للثقافة العربية الأثر الواضح فى انتشار اللغة العربية التى دونت بها هذه الدراسات والتى كانت لغة تخاطب المهاجرين من العرب فى إفريقية والأندلس؛ أما لغة البربر وهى اللغة السائدة فى المنطقة فكانت لغة فقيرة لا تكاد تعدو حياة البربر اليومية الضيقة إلى شىء وراءها من الثقافة والفكر..

وكانت جهود الأدارسة فى نشر اللغة العربية واضحة فى المجتمع إذ إن مؤسس الدولة وأبناءه من بعده كانوا عربًا كما اتخذ هؤلاء الأمراء إدارة عربية تمثل الحضارة العربية؛ ومثَّلتْ مدينة فاس العاصمة العربية مركزًا حضاريًا عربيًا وإسلاميًا، يضاف إلى ذلك تلك الهجرات العربية القادمة من القيروان والأندلس. كل ذلك ساهم بشكل كبير فى تعريب البلاد ونشر اللغة العربية.

أ.د / حسن على حسن

مصادر ومراجع للاستزادة

1. الإدريسى: محمد بن عبد العزيز الشريف : صفة المغرب والأندلس. ليدن ١٨٦٦م.
2. البكرى أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ) :المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب باريس ١٩١١م.
3. الجزنائى: أبو الحسن على: زهرة الآس فى بناء مدينة فاس. الجزائر ١٩٢٢م
5. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨ هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر بيروت ١٩٧٠م.
6. الدباغ: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت٦٩٦هـ) معالم الإيمان فى معرفة أهل القيروان تحقيق إبراهيم شبوح. الخانجى ١٩٦٩م.
7. ابن أبى زرع: الحسن على بن محمد بن عبد الله (ت ٧٢٤هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس تحقيق محمد الهاشمى الرباط ١٩٣٦م.

أذربيجان

أذربيجان تتكون من مقطعين: "أذر" ، اسم النار بالفارسية، و"بايكان" ومعناه الحافظ أو الخازن، فيكون معناها "خازن النار" أو "بيت النار" لانتشار بيوت النار فى هذه الناحية، وذلك كما يرجح "ياقوت الحموى".[1] لكن فريقًا من الباحثين يعتقد أن أذربيجان اسم لإحدى المناطق التى خضعت لمملكة الأهامانيين الفارسية، وهى منطقة أطروبات جنوب أذربيجان التى تطور اسمها مع الزمن إلى أطروباتينة وأطروباتاغان، وهكذا حتى صار يلفظ أذربيجان.[2]

تقع دولة أذربيجان فى الجزء الشرقى من منطقة ما وراء جبال القوقاز، جنوبى شرق بلاد القفقاس، وتبلغ مساحتها ٨٦٦٣٠ كيلو مترًا مربعًا، وتَحُدُّ أذربيجان من الشمال جمهورية داغستان ومن الشمال الغربى جمهورية جورجستان، ومن الجنوب الغربى جمهورية أرمينيا، ومن الجنوب جمهورية إيران، وحدودها معها ٦١١ كيلو مترًا، وكذلك تتصل بالجمهورية التركية بحدود ١١ كيلو مترًا، وتطل من الشرق على بحر الخزر بسواحل يصل طولها إلى ٨٢٥ كيلو مترًا. وعاصمتها "باكو" الواقعة على بحر قزوين فى مناطق البترول ، ويرجع إنشاؤها إلى القرن الثالث الميلادى، وتنقسم إلى قسمين: قسم حديث وقسم قديم محتفظ بطابعه الإسلامى يضم مساجدها ومحلاتها التجارية التقليدية.[3] وقد ذكر "ياقوت" حدودها فترة الحكم الإسلامى من "برذعة" شرقًا إلى "أرزنجان" غربًا ، ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد " الديلم" و"الجيل" و"الطرم".[4]

لقد حبا الله أذربيجان بموقع متميز بوقوعها بين قارتى آسيا وأوربا ، مما جعلها حلقة الوصل بين الشرق والغرب والشمال والجنوب، كما كانت ممرًا متميزًا للتجارة والهجرات والغزوات، وقد أسهم هذا الأمر فى تشكيل تاريخ أذربيجان، وجعلها حلقة فى صراعات عديدة ، فلم تنعم بالسلام إلا فترات قليلة. وقد وقعت أذربيجان تحت سيطرة العديد من السلالات المختلفة التى حكمت أجزاء منها قبل الفتح الإسلامى لها، من أهمهم السوماريون واللوبيون والآخاديون والقوطيون والقاديسيون والقاسبيان



والزامون والمانيان والميديون والساسانيون والأرمن والآلان. ودخول الإسلام أذربيجان يعد نهاية لفترة حكم الألبانيين، ونتيجة لذلك تم دمج الكنيسة الألبانية فى الكنيسة الأرمينية.(٥) وقد بنيت أول أسقفية فى أذربيجان سنة ٢٢٤م فى الديلم، وقد واجهت المسيحية فيها صراعًا شديدًا مع الزرادشتية المنتشرة بها، كما لقيت اضطهادًا من حكام البلد الساسانيين.(٦)

وقد فتحت أذربيجان سنة ٢٢هـ/٦٤٢م فى عهد الخليفة "عمر بن الخطاب" الذى عهد بفتحها إلى "بكير بن عبد الله" الذى استطاع هزيمة الاسفنديار وأسره، وأمده "عمر" بجيش بقيادة "سماك ابن خرشة"، فأتما فتح أذربيجان، وولى "عمر" عليها "عتبة بن فرقد"، وأرسل بكتاب الصلح إليها(٧)، وقد صالح أذربيجان على ثمانمائة ألف درهم وزنًا وذلك على ألا يقتل أو يسبى منهم أحد، ولا يُتَعرَّضَ لبيوت النار ولا لعبادتهم وأعيادهم.(٨)

وقد انتشر الإسلام بها وخاصة بعد أن عمل "الأشعث بن قيس" على توطين المسلمين فى "أردبيل"، فنزحت إليها عشائر من مصر والشام واستوطنتها قبائل من الأزد، وتحولت أذربيجان إلى مركز إسلامى عصر الخليفة "عثمان بن عفان"، وبنى مسجدها الجامع سنة ٣٦هـ/٦٥٦م، وعمها الإسلام عصر الأمويين، وخاصة على يد "الجراح بن عبد الله الحكمي" الذى قام بغزو الخزر شمال أذربيجان، وانتشرت اللغة العربية بها. واتخذت فى عهد الخليفة العباسى "أبى جعفر المنصور" قاعدة لمد الإسلام إلى الشمال.(٩)

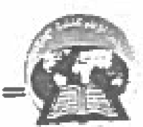
واستمرت أذربيجان على طاعتها للخلفاء، وكان الوالى على أرمينيا وأذربيجان يجبى الخراج ويرسله إلى الخليفة.(١٠) واستمر حكم الخلافة لها من القرن الأول للهجرة / السابع الميلادى إلى القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى، ولم يحكم العرب أذربيجان حكمًا مباشرًا، وإنما تركوا حكمها إلى الخانات، وقسموها إلى عدة خانات. ومن أهم الآثار الإسلامية التى ترجع لهذه الفترة منارة "قيز قلاسي".(١١)

وبضعف الخلافة العباسية انتهز الإقطاعيون فى أذربيجان الفرصة وظهر بها عدد من الدول المستقلة أهمها شاكى وموغانية وشيروان، ودولة الشدادين التى حكمت فى الشمال، أما الجنوب

فحكمه عدة أسر هى الساجيون ثم السلاريون ثم الرواديون. وقد استولى السلاجقة على أذربيجان فى منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادي، وبضعف السلاجقة قامت فى أذربيجان وإيران دولة الأتابكة. وقد اجتاحتها جيوش جنكيز خان وخربتها، وبعد ضعف حكم المغول قامت دولة شيروان فى الشمال بالاستقلال. وقد سكنت طوائف قراقويونلو وأغ قويونلو جنوب أذربيجان منذ القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادي، وأسست دولة القراقويونلو الأذربيجانية سنة ٧٨٢هـ/١٣٨٠م، وقامت بعدها دولة أغ قويونلو، وذلك حتى وقوعها تحت الحكم الصفوى.[١٢]

اشتهرت أذربيجان بطيب مناخها، وكثرة خيراتها وثمارها وأنعامها ووفرة معادنها، وقد وصف "ياقوت" كثرة بساتينها وأنهارها بقوله: "ما رأيت ناحية أكثر بساتين منها ولا أغزر مياهًا وعيونًا ". ووصف أهلها بالجمال، ووجوهم صافية مُشْرَبة بالاحمرار، وبشرتهم رقيقة، ويغلب على طباعهم حسن العشرة وسهولة التعامل، إلا أنه عاب عليهم بخلهم. ولغتهم آنذاك الأذرية. ومن أشهر مدنها فى العصر الإسلامى "أردبيل" و"تبريز" و"خوى" و"سلماس" و"أرمية" و"مَرند".[١٣] وكانت "أردبيل" عاصمة إقليم أذربيجان فى العصر الإسلامي. وبها مدينة "موغان" وهى كثيرة الحدائق، وقد وصف المقدسى "تبريز" و"موغان" بأنهما بمثابة الروضتين. ومن مدنها الصغيرة مدينة "بَرْوَنْد"، ومدينة "ميانة" الواقعة فى سهل، وهى كثيرة الخيرات[١٤].

وقد تكوَّنَ سكان أذربيجان من خليط من القوقازيين والإيرانيين والأتراك بالإضافة إلى الأذربيجانيين، وقد حمل الإيرانيون إلى أذربيجان اللغة والثقافة الفارسية التى ظلت مهيمنة على الثقافة فى أذربيجان لعدة قرون، وظهر العديد من العلماء والشعراء الأذربيجانيين من أشهرهم "نظامى جانجيفى" الذى كتب شعره بالفارسية. ويرجح دخول قبائل الأتراك "أوغوز" أذربيجان إلى ما قبل الفتح الإسلامى لها، وظهر الأتراك على مسرح الأحداث فى أذربيجان منذ القرن الثالث الهجرى /التاسع الميلادى. وفى العصر السلجوقى أصبحت أذربيجان مسرح الصراع السلجوقى البيزنطى وتجاذبت السيطرة عليها كلا الدولتين.



وقد ظهر تأثير الأتراك فى الثقافة الأذربيجانية، فاللغة الأذربيجانية الحالية هى نتيجة تطور اللغة العامية التركية فى أذربيجان، وهى قريبة من اللغة التركية، إلا إنها خضعت لتأثير اللغة الفارسية التى دخل كثير من مفرداتها فى اللغة الأذربيجانية. وقد تطورت اللغة الأذربيجانية فى العصر الصفوى كلغة للأدب حتى أصبحت قريبة من اللغة المستخدمة حاليًا، ويستدل على ذلك من الكتابات المميزة للشاعر والأديب "محمد فضيلى"، وقد ظلت لغة البلاط فى أوائل العصر الصفوى، وقد استخدمها "شاه إسماعيل الصفوى" فى كتابة أشعاره.(١٥)

وقد أنجبت أذربيجان كثيرًا من العلماء المسلمين فى شتى مجالات العلوم والفنون والآداب أشهرهم الشاعر نظامى الكنجوى وخاقانى وفلكى شيروانى ومجير الدين البيلاقانى وماهساتى هانم. ومن أهم أدباء العصر الصفوى حبيبى وخطائى ومحمد فضيلى، والفنان كمال الدين بهزاد.

وكانت أذربيجان مسرحًا للصراع بين الدولتين الصفوية والعثمانية، وبضعف الدولة الصفوية تعرضت أذربيجان لهجمات الروس الضارية.(١٦)

وقد دخل جنود روسيا القيصرية أذربيجان سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م. ولما قامت الثورة الشيوعية احتل الحلفاء "باكو" سنة ١٣٣٧هـ / ١٩١٨م، واعترفوا بحكومة حزب المساواة التى قامت بأذربيجان، ثم انسحب الحلفاء وأعلن السوفيت قيام نظامهم فى "باكو" سنة ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م، ودخلت الاتحاد سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م. وتحت حكم الاحتلال السوفيتى تقلص عدد المساجد من الآلاف إلى ستة عشر مسجدًا فقط، ونقص عدد المدارس الإسلامية، وكان يرأس الإدارة الدينية الإسلامية لأذربيجان مُفْتٍ شيعى ونائبه سنى، ولم تتمتع الإدارة إلا بنفوذ محدود (١٧). وقد حصلت على استقلالها سنة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

ويعتمد اقتصاد أذربيجان على مصدرين رئيسين هما: إنتاج القطن وإنتاج النفط والغاز، وأهم منتجاتها الزراعية بعد القطن القمح والأرز والفواكه والخضراوات والشاى والتبغ، وأهم ثرواتها الحيوانية الأغنام. أما الصناعات الأذربيجانية فتتركز فى إنتاج النفط والغاز الطبيعى والمنتجات البترولية ومعدات آلات النفط والحديد الخام والأسمنت والمنتجات

البتروكيماوية.[١٨]

وأذربيجان دولة إسلامية تبلغ نسبة المسلمين فيها ٩٥٪ من السكان، ويشكل الشيعة ٧٠٪ منهم، وغالبيتهم من الشيعة الاثنا عشرية، ويتمركز الشيعة في العاصمة "باكو" وفى وسط وجنوب البلاد. ويشكل السنة ٢٥٪ من المسلمين، وغالبيتهم من أتباع المذهبين الحنفى والشافعى، ويتمركزون فى الشمال[١٩].

أ . د/ وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش:

(١) ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، ج١، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص١٢٨.

(٢) محمود إسماعيل: مختصر تاريخ أذربيجان، ترجمه عن الأذربيجانية رفيق عليوف ورامز مرسالوف، مركز الدراسات الإسلامية، باكو، ١٩٩٥م، ص١٠، ١١.

(٢) جميل عبد الله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، دار أم القري، عمان، الأردن، ط٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص٤٩٦.

(٤) ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج١، ص١٢٨.

(5) Svante E. Cornell, Azerbaijan since Independence, New York, 2011, P. 4,5.

(6) Charles Van der Leeuw, Azerbaijan a Quest for Identity, S T. Martine Press, 1998, P. 41.

(٧) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، مج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٢٩.

(٨) ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج١، ص١٣١.

(٩) جميل عبد الله محمد المصري: المرجع نفسه، ص٤٩٦، ٤٩٧.

(١٠) أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفى: الفتوح، مج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٩م، ص٣٤٦.

(11) Libarman, Sherri ,A Historical Atlas of Azerbaijan, New York, 2004, pp. 23,24.

(١٢) محمود إسماعيل: المرجع نفسه، ص٣١: ٣٦.

(١٣) ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج١، ص١٢٨.

(١٤)المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، بريل، ليدن، ١٩٠٦م، ص٣٧٧، ٣٧٨.

(15) Svante E. Cornell, op.cit., P.6,7.

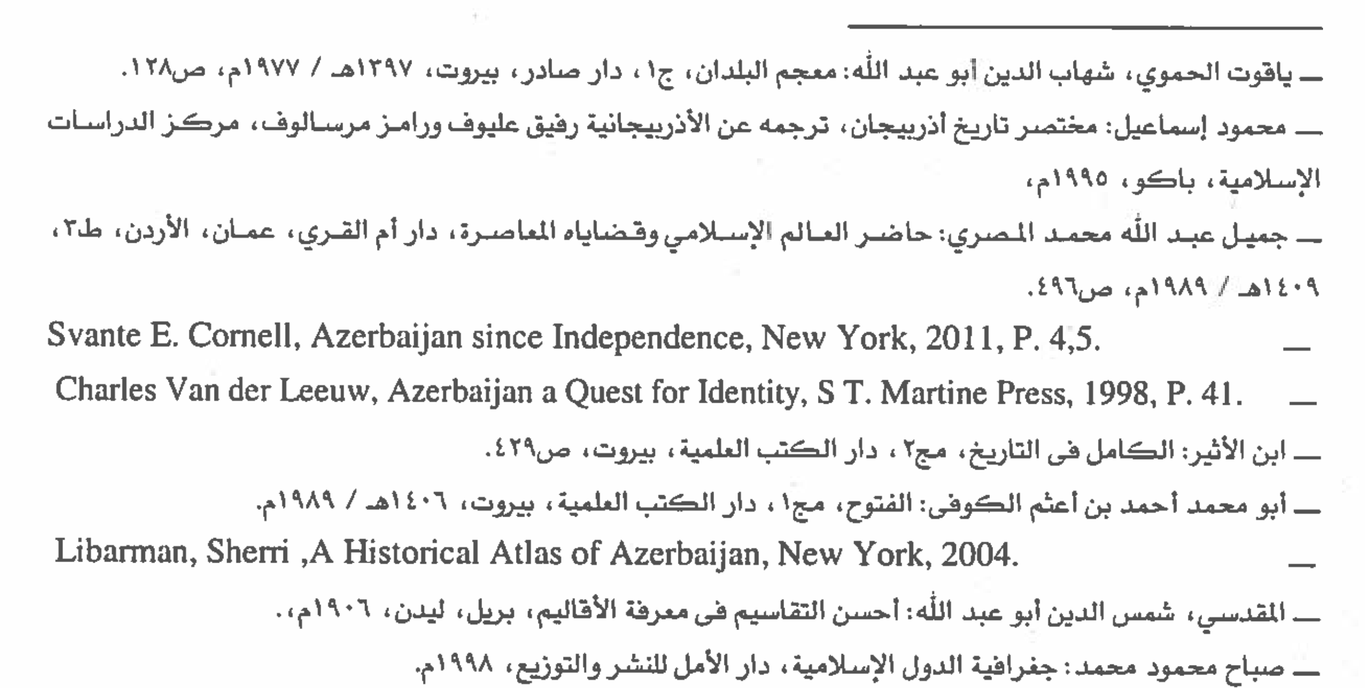
(١٦) محمود إسماعيل: المرجع نفسه، ص٣٢، ٣٩، ٤٠، ٤١.

(١٧) جميل عبد الله محمد المصري: المصدر نفسه، ص٥١٥.

(١٨) صباح محمود محمد: جغرافية الدول الإسلامية، دار الأمل للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م، ص٢١٩.

(19) Svante E. Cornell, op.cit., P.21.

مصادر ومراجع للاستزادة:



ـ ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله: معجم البلدان، ج١، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص١٢٨.

ـ محمود إسماعيل: مختصر تاريخ أذربيجان، ترجمه عن الأذربيجانية رفيق عليوف ورامز مرسالوف، مركز الدراسات الإسلامية، باكو، ١٩٩٥م،

ـ جميل عبد الله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، دار أم القري، عمان، الأردن، ط٢، ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص٤٩٦.

ـ Svante E. Cornell, Azerbaijan since Independence, New York, 2011, P. 4,5.

ـ Charles Van der Leeuw, Azerbaijan a Quest for Identity, S T. Martine Press, 1998, P. 41.

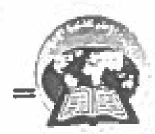
ـ ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، مج٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٢٩.

ـ أبو محمد أحمد بن أعثم الكوفى: الفتوح، مج١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٩م.

ـ Libarman, Sherri ,A Historical Atlas of Azerbaijan, New York, 2004.

ـ المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، بريل، ليدن، ١٩٠٦م،.

ـ صباح محمود محمد: جغرافية الدول الإسلامية، دار الأمل للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م.



الأراتقة (دولة)

(٤٩٥ - ٨١٢هـ - ١١٠١ - ١٤٠٩م)

تنسب الأسرة الأرتقية إلى مؤسسها أرتق بن أسكب الذى ينتمى بدوره إلى التركمان[١].

وقد أتيح لهذه الأسرة أن تؤسس دولة فى جهات ديار بكر وماردين وحصن كيفا وغيرها من الجزر الفراتية، وقد أمتد سلطانها فى بعض الوقت حتى شمل حلب، كما عمرت أكثر من ثلاثة قرون من أواخر القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى إلى أوائل القرن التاسع. الخامس عشر الميلادى. وانقسمت إلى دولتين: واحدة كانت قاعدتها ماردين[٢]، والأخرى كانت حصن كيفا[٣].

وقد كان مؤسس هذه الدولة أحد قادة السلاجقة ثم انفصل عنهم، وسبب انفصاله يرجع إلى مساعدة أرتق لشرف الدولة مسلم بن قريش المحصور فى ديار بكر فخاف على نفسه وراسل الأمير أرتق، وبذل له مالا، وسأله أن يمن عليه بنفسه ويمكنه من الخروج من (آمد)، وكان أرتق على حفظ الطرق والحصار، فلما سمع أرتق بما بذله شرف الدولة أذن له فى الخروج[٤] وكان ذلك عام ٤٧٧هـ/١٠٨٤م، فأنهى ذلك ابن جهير إلى السلطان ملكشاه فخاف أرتق، واتجه إلى دمشق والتحق بخدمه صاحبها تاج الدولة تتش وعاونه فى الاستيلاء على حلب فأقطعه فلسطين[٥] وظلت فى حكمهم ثلاث عشرة سنة[٦].

الأراتقة وتأسيس الدولة:

كانت فلسطين هى القاعدة الأولى لدولة الأراتقة بفضل إقطاعها لهم من قبل تاج الدولة تتش صاحب دمشق على ما مر، ومن هنا أصبحت القدس مركز تجمعهم وحجر الزاوية السياسى والعسكرى لبناء دولتهم.

وعندما توفى أرتق عام ٤٨٤هـ/١٠٩١م تابع ولداه إيلغازى، وسقمان تنظيم الدولة حتى قيام الفاطميين بالاستيلاء على القدس عام ٤٩١هـ/١٠٩٨م. وبعد أحد عشر شهرا من استيلائهم على القدس سقطت فى أيدى الصليبيين.

ويبدو أن الأراتقة شعروا بعدم جدوى مقاومة الفاطميين نتيجة للفارق الكبير بين قواتهم العسكرية مقارنة بما فى أيدى الفاطميين، فوافقوا بعد لأى على

التسليم ومغادرة المدينة، وقد سمح لهم الأفضل بن بدر الدين الجمالى بالخروج من القدس، (فتوجها إلى بلاد الجزيرة الفراتية فملك سقمان ديار بكر، وملك إيلغازى ماردين) ومنذ ذلك الحين انقسمت الدولة إلى قاعدتين على ما سبق.

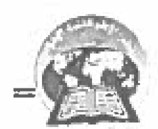
٢ـ الأراتقة وحروبهم مع الأتابكة والأيوبيين:

كان القرن الخامس الهجرى الحادى عشر الميلادى هو عصر الدويلات والإمارات المتعددة التى أثرت بالسلب على جسم الدولة الإسلامية فضلا عن منازعة الدولة الفاطمية للخلافة العباسية، من هنا فقد دخلت هذه الدول والإمارات العشائرية فى صراع عنيف سهل للصليبيين احتلال الشام قرابة القرن، بل كان هذا النزاع والصراع سببا لدخول التتار والقضاء على الخلافة العباسية، ونعرض هنا لبعض النماذج من المعارك التى دارت بين الأراتقة وغيرهم من المسلمين كالأتابكة سواء فى عهد عماد الدين زنكى أو أبنائه من بعده (٧).

حروب عماد الدين زنكى:

ويلاحظ بادئ ذى بدء أن دولة الأتابك كانت هى الوريث القوى لدولة السلاجقة، ومن ثمة سعت لتكوين دولتها الفتية بمحاربة جيرانها لتوحيد الصف الإسلامى حتى يتمكنوا من صد الصليبيين وإغلاق الطريق أمام أصحاب الأطماع الشخصية من أرباب الزعامات الهابطة، من هنا كان عماد الدين وابنه نور الدين من بعده إذا ما حاصر حصنا أو مدينة من هذه المدن وانتصر عليها اكتفى بمجرد ولائها له وتركها للقائمين عليها، كما كان يصالحهم عليها تفرغًا لغرضه الأساسى وهو طرد الصليبيين وتطهير البلاد منهم (٨).

كما كان عماد الدين فى حروبه هذه صاحب فروسية فلا يغير على الأهلين، ولا يسمح لجنوده أن يحيفوا عليهم بحال من الأحوال، يظهر هذا جليا فى تعليق لحسام الدين صاحب ماردين وقد حاصرها سيف الدين عام ٥٤٤هـ/١١٥٠م وتفرقت جنوده فيها وصنعوا مثل ما يصنع الجنود فى مثل هذه المواقف، فنظر حسام الدين إليهم وقال: (كنا نشكو من أتابك الشهير، وأين أيامه؟ فلقد كانت أعيادا، وقد حصرنا غيرمرة، فلم يتعد هو وعسكره حاصل السلطان، ولا أخذوا كفا من التبن بغير ثمن) (٩). على أننا نلاحظ أن هذه الحروب على ما كان فيها من إضعاف للمسلمين وتقوية



لأعدائهم وتمكين لهم فى بلاد الإسلام كان إيقافها ورأب صدعها كثيرا ما يكون بأوهن الأسباب فيتصافى المتحاربان بل وتقام بينهما أواصر المصاهرة والنسب. ومن طرائف المعركة السابقة أن صاحب ماردين – حسام الدين تمرتاش- زوّج ابنته الخاتون لسيف الدين بن زنكى غير أنه قد توفى من قبل أن تصل إليه فتزوجها أخوه قطب الدين مودود، وأنجب منها عددًا كبيرًا من ملوك الأتابكة.

كما قامت الدولة الأيوبية كذلك بمحاربة الأراتقة وحصارهم والتضييق عليهم على نحو ما وقع مع الدولة النورية، فعلى الرغم من أن الطابع العام لصلاح الدين هو العمل على توحيد الأمة الإسلامية للوقوف أمام أطماع الصليبيين، ثم العمل على طردهم والتخلص منهم، الأمر الذى جعل الأراتقة فى كثير من الأحيان يظاهرون صلاح الدين ويخضعون له، إلا أن تضارب مصالح الأمراء واختلاف مشاربهم دعاهم أحيانا إلى الوقوف فى وجه الأيوبيين فحاصروهم وضيقوا عليهم الخناق، حتى انتهى الأمر إلى سقوط الأراتقة واستيلاء الأيوبيين على دولتهم.

٣- الأراتقة وجهاد الصليبيين:

كان الأراتقة فى غالب أمرهم حريصين على دفع الصليبيين من خلال الانضمام إلى الدول القوية مثل الأتابكة أو الأيوبيين أو غيرهم من أصحاب الهمم العالية من الأمراء والقواد، ويكفى فى هذا الصدد أن نستعرض سير بعض أمراء الأراتقة لنرى مدى اهتمامهم بالجهاد وصد الصليبيين.

ومن أبرز هذه المواقف الدالة على رغبة الأراتقة فى الجهاد موقف سقمان من أرتق[(١٠)] الذى ما أن كاتبه فخر الملك ابن عمار صاحب طرابلس (يستدعيه إلى نصرته على الفرنج) وهى الدعوة التى صادفت دعوة أخرى من طغتكين صاحب دمشق للغرض نفسه، حتى قام على الفور مستجيبا لهما عازما على نجدتهما ومقاتلة الصليبيين، ومع أنه قد مرض فى الطريق وأشار عليه أصحابه بالرجوع إلى مدينة (حصن كيفا) إلا أنه رفض ذلك قائلاً: "بل أسير فإن عوفيت تممت ما عزمت عليه، ولا يرانى الله تثاقلت عن قتال الكفار خوفا من الموت، وإن أدركنى أجلى كنت شهيدا سائرا فى جهاد"، فمات فى الطريق.

هناك أيضًا موقف من المواقف

المشهودة فى هذا الصدد وقت اتساع دولة الأراتقة وضمهم مدينة حلب عقب مقتل لؤلؤ الخادم صاحب حلب وتسليم أهلها الأمر لنجم الدين إيلغازى، وكانت حلب تعانى نقصا شديدا فى المال والسلاح [١١] فقد عمل إيلغازى على مصانعة الصليبيين حتى يتمكن من جمع الجنود وتسليحهم فذهب إلى قاعدة ملكه ماردين وعاد ومعه عشرون ألفا فصبحوا الصليبيين عند موقع (تل عفرين) وكان ذلك عام ٥١١هـ/١١١٧م[١٢].

كما شارك الأرانق كذلك فى فتح (عام ٥٨٥هـ/١١٨٩م) حيث قام السلطان صلاح الدين الأيوبى باستدعاء صاحب (آمد) قطب الدين سليمان فجاء فى (أعداده وإعداده)[١٣].

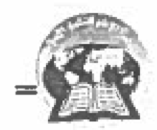
كما شارك كذلك قطب الدين بن سكمان فى فتح عكا حيث كان المتولى على عسكر ديار بكر [١٤] فضلا عن مشاركة فخر الدين قرا أرسلان ونجم الدين ألبى مع نور الدين عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م[١٥].

٤- الأراتقة واهتمامهم بالحضارة:

على الرغم من الأصل شبه البدوى للأراتقة، إلا أنهم تميزوا بالحس الحضارى، الذى تمثل فى كثرة الإنشاءات العمرانية مثل بناء الجسور والحصون فضلا عن تأسيس المساجد والمدارس [١٦]، وهو ما أشار إليه ياقوت فى قوله عن مدينة ماردين: ((وقدامها ربَضٌ عظيم، فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس، وربط، وخانقاهات، ودورهم كالدرج كل دار فوق الأخرى))[١٧].

فضلا عن القنطرة التى وصفها ياقوت عندما تحدث عن حصن كيفا فقال: (وعلى دجلتها قنطرة لم أر فى البلاد التى رأيتها أعظم منها وهى طاق واحد يكتنفه طاقان صغيران)[١٨].

كما اهتموا كذلك بالثقافة على تعدد ألوانها واختلاف ميادينها فكانت مدنهم حافلة بالعلماء، والأدباء يسجلون انتصاراتهم على نحو ما رأينا من العظيمى، بل أن لصفى الدين الحلى العديد من القصائد فى نجم الدين غازى كانت على عدد حروف المعجم. وهو من الأدباء الكبار الذين حلوا بهذه الديار. أما عن الأدباء الذين نبغوا فى هذه البلاد من أهلها فمن أشهرهم : أبو الفضل يحيى بن سلامة بن محمد الحصكفى، وصفه السمعانى بأنه أحد أفاضل الدنيا ، وكان



إمامًا بارعًا فى قول الشعر، واشتهر ذكره بالآفاق فى النظم والنثر والخطابة[١٩].

وفى مجال العلوم الرياضية نبغ سبط الماردينى، بدر الدين محمد بن أحمد الغزالى، وقد تعددّت مؤلفاته مجال الرياضيات إلى اللغة والفلك ثم الفقه ومنها:

١ـ حاوى المختصرات فى العمل بربع المقنطرات (فى الفلك).

٢ـ تعليق مختصر على لامية ابن الهائم (فى الرياضيات).

٣ـ شرح النذور (شرح القطر فى النحو).

٤ـ المواهب السنية فى أحكام الوصية (فى الفقه). وغير ذلك من أعمال.

وهو ينتسب إلى جده لأمه خليل الماردينى، وهو فلكى توفى عام ٨٠٩هـ/١٤٠٦م.

كما نبغ فى مجال الفلسفة عدد من الفلاسفة أشهرهم:

١ـ أبو الحسن بن إبراهيم المعروف بابن مرحومة الماردينى.

٢ـ الشيخ زين الدين بن محمد الملطفى ثم الماردينى.

وقد قام كلاهما بالرد على الفيلسوف اليهودى ابن كمونة.

وبجانب العلوم النظرية المختلفة اهتم الأراتقة بالصنائع العملية حيث اهتموا بالزراعة خاصة وأن بلادهم كانت تتميز بخصوبة الأرض ووفرة مياهها. وكانت هناك من قبل الأراتقة سياسة زراعية ناجعة يدل عليها ذلك الحوار الذى تم بين حسام الدين تمرتاش صاحب ماردين وبين عماد الدين زنكى زعيم الأتابك فى معرض هروب بعض فلاحى الموصل إلى ماردين وحينئذ أرسل عماد الدين يطلب إرجاع هؤلاء الفلاحين إلى الموصل، فرد عليه صاحب ماردين قائلا: ((إنا نحسن إلى الفلاحين ونخفض عنهم، ونأخذ منهم فى القسمة من الغلال العشر فلو فعلتم أنتم مثل فعلنا لم يفارقوكم))[٢٠].

كما نشطت التجارة أيضا لدى الأراتقة وتم اكتشاف عددٍ من العملات البيزنطية فى منطقة ماردين وحصن كيفا يظهر من خلالها على المسكوكات وجوه هلنستية أو بيزنطية المظهر وعلى عملات أخرى يظهر فيها التأثيرات المحلية التقليدية، وأحيانا بعض المؤثرات التركية[٢١].

فضلاً عن اهتمامهم بالزخرفة التى ميزت مبانيهم ودورهم؛ الأمر الذى يدل على مبلغ ما توصل إليه الأراتقة من حضارة شملت معظم مجالات الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية والسياسية.

أ.د / عبد المقصود عبد الحميد باشا

الهوامش:

(١) كان أحد مماليك السلطان السلجوقي ملك شاه (ملكشاه) بن ألب أرسلان، وقد قدم مساعدات كبيرة أغنت الدولة وجنبتها الكثير من العنت، وكان له دور مهم فى الاستيلاء على الموصل، كما سبق له التغلب على حلوان والجبال قبل ذلك، ويظهر نصحه السلاجقة فى تسلميه الموصل، فقد ذكر ابن الأثير أنه لما وصل الموصل (أرسل أرتق إلى من بها يشير عليهم بالدخول فى طاعة السلطان، وترك العصيان عليه وخوفهم عاقبه فعلهم إن امتنعوا وأصروا على الخلاف، فقبلوا نصحه وأذعنوا له، وأطاعوا وسلموا البلد). كما كان مشهورا بالعقل والدين (أنظر الباهر فى دولة الأتابك، ص٥ دار الكتب الحديثة). كما وصفه ابن خلكان بانه (كان رجلا شهما ذا عزمة وسعادة وجد واجتهاد)، وفيات الأعيان ط دار صادر، ص ١٩١. أما عن مقدرته العسكرية فكان كما يقول عنه المؤرخون (منصورا لا يشهد حربا إلا كان الظفر له) خطط الشام كرد على ص٢٤٦ط النورى دمشق.

(٢) تقع ماردين فى تركيا اليوم فى مواجهة مدينة الفاشلى السورية.

(٣) النسبة إليه حصكف وتقع قريبا من ديار بكر.

(٤) الباهر فى دولة الأتابك، جـ٥، دار الكتب الحديثة، القاهرة .

(٥) انظر الكامل لابن الأثير ص ١٣٥ ط دار الفكر سوريا.

(٦) أنظر وفيات الأعيان، مصدر سابق.

(٧) وفيات الأعيان مصدر سابق ١٩١.

(٨) الباهر، مصدر سابق ص٩٠.

(٩) نفس المصدر.

(١٠) الكامل جـ٨، ص٢٢٧، مصدر سابق.

(١١) الكامل، جـ٨، ص٢٢٨ .

(١٢) الكامل، مصدر سابق ٢٨٩ وانظر الصفحات ص٢١١، ٢١٢ وما بعدها

(١٣) الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة المقدسى ص٤، ص٦٩ ط الرسالة.

(١٤) المصدر السابق ص٨٧.

(١٥) نفسه جـ١، ص٤٦٠.

(١٦) انظر معجم العالم الإسلامى، نخبة من المستشرقين ط المؤسسة الجامعية للدراسات العربية، بيروت.

(١٧) معجم البلدان جـ٥، ص٤٦ ط دار الكتب العلمية .

(١٨) نفس المصدر.

(١٩) الأنساب جـ٢ ٢٢٧ط دار الكتب العلمية، بيروت.

(٢٠) وقد رد عليه زنكى مبينا اختلاف طبيعة الدولتين بالنظر إلى غايتهما قائلا: "إذا أخذت انت من كل مائة منهم سهمًا واحدًا كان كثيرا لأنك مشغول بلذتك فى رأس ماردين، وأما أنا إذا أخذت الثلثين كان قليلا، لما أنا بصدده من قصد الأعداء والجهاد" (الباهر ص٧٩).

(٢١) معجم العالم الإسلامى، مصدر سابق.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. الكامل لابن الأثير ط دار الفكر سوريا.

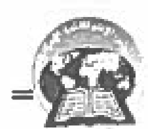
٢. الباهر فى دولة الأتابكة، ابن الأثير ط دار الكتب الحديثة مصر.

٣. الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة المقدسى ط الرسالة .

٤. معجم البلدان، ياقوت ط دار الكتب العلمية، بيروت.

٥. الأنساب للسمعانى ط، دار الكتب العلمية.

٦. وفيات الأعيان لابن خلكان ط دار صادر، بيروت.



الأزهــر

نشأة الأزهر في العصر الفاطمي٣٥٨/٥٦٧هـ - ٩٦٩/١١٧١م

بعد جهود مضنية استطاع الفاطميون- الذين ينسبون أنفسهم إلى السيدة فاطمة الزهراء بنت الرسول ﷺ - أن يقيموا لهم دولة فى شمال إفريقيا سنة٢٩٧هـ ٩٠٩م؛ ولكن هدفهم الرئيسى كان حكم مصر والشرق الإسلامى، وقد تحقق لهم هذا الهدف فى عهد خليفتهم الرابع المعز لدين الله ٣٤١/٣٦٥هـ٩٥٢/٩٧٥م، الذى أرسل قائده الشهير جوهر الصقلى على رأس جيش كثيف إلى مصر فاستولى عليها سنة٣٥٨هـ - ٩٦٩م، وفى نفس اليوم الذى دخل فيه جوهر مصر، وهو السادس من شهر يوليو ٣٥٩هـ/ ٩٦٩م شرع فى تأسيس عاصمة للدولة الجديدة هى مدينة القاهرة، التى أطلق عليها جوهر فى البداية المنصورية نسبة إلى الخليفة المنصور والد الخليفة المعز، ولكن المعز نفسه عندما حضر إلى مصر سنة ٣٦٢هـ- ٩٧٣م، غير اسمها إلى مدينة القاهرة، تفاؤلاً بأنها ستقهر غيرها، حسب ما يروى بعض المؤرخين فى سبب تلك التسمية [١].

إنشاء الجامع الأزهر

من التقاليد الإسلامية الثابتة أن كل مدينة جديدة لابد أن يقام بها مسجد جامع. وتمشيًا مع هذه التقاليد شرع جوهر الصقلى فى بناء الجامع الأزهر فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ. الموافق للسابع من مايو ٩٧٠م. واستغرق البناء نحو عامين. وفى السابع من شهر رمضان سنة ٣٦١هـ الموافق للثالث والعشرين من يونيو سنة ٩٧٢م أقيمت فيه أول صلاة جمعة [٢].

وأطلق عليه فى البداية جامع القاهرة، ثم غلب عليه الاسم الذى أعطاه شهرة عالمية، قلما حظى بها مسجد آخر فى العالم الإسلامى وهوالجامع الأزهر، وأرجح أقوال المؤرخين أن هذه التسمية جاءت تيمنًا باسم السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها [٣].

من السمات الرئيسية للإسلام أن المساجد فيه لم تكن مقصورة على أداء الصلوات، بل كانت تقوم بوظائف أخرى كثيرة ولا زالت؛ من أهمها التعليم. ولما كانت الدولة الفاطمية دولة مذهبية تعتمد المذهب الشيعى الإسماعيلى فى

نظامها كله، وفى نظامها السياسى، فقد جعلت الجامع الأزهر منبرًا لنشر وترويج ذلك المذهب فى مصر، وفى الوقت نفسه كانت تدرك صعوبة ذلك لأنها تعلم مدى تمسك المصريين بمذهب أهل السنة والجماعة، فلم تلجأ إلى العنف فى نشر مذهبها؛ ولكنها مضت قدمًا فى نشره بوسائل سلمية، وتحقق لها غرضها على المدى البعيد، فبدأت بتغيير صيغة الأذان السنى إلى صيغة الأذان الشيعى المعروفة. وشيئًا فشيئًا أدخلت كل الطقوس والمراسم الشيعية فى الاحتفالات والأعياد.

والجامع الأزهر منذ تأسيسه أصبح معروفًا بأنه المسجد الرسمى للدولة الفاطمية. فهو مقر لقاضى القضاة، وداعى الدعاة، والمحتسب الذى كان يتبعه جهاز كبير من الموظفين فى كل الاختصاصات، وكان له نواب فى أنحاء البلاد، وهذا كله أضفى على الجامع الأزهر الطابع الرسمى [٤].

الدراسة فى الجامع الأزهر

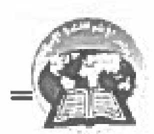
بدأت الدراسة فى الجامع الأزهر بعد مضى نحو ثلاث سنوات ونصف على إنشائه، على شكل حلقات على النحو الذى كان متبعًا فى كل المساجد فى العالم الإسلامى فى ذلك الزمان.

وكان أول شيخ جلس للتدريس فى الجامع الأزهر هو قاضى القضاة: أبو الحسن على بن محمد النعمان القيروانى، وأول الدروس التى ألقاها كانت من كتاب الاختصار فى الفقة الشيعى وهو من تأليف والده، وظل بنو النعمان يتصدرون الحلقات الدراسية فى الجامع الأزهر. ثم انضم إليهم غيرهم من شيوخ المذهب.

دور الوزير يعقوب بن كلس فى تطوير الدراسة فى الجامع الأزهر.

يعقوب بن يوسف الملقب بابن كلس وكنيته أبو الفرج، يقال إنه يهودى من أصل عراقى، ثم هاجر إلى الشام، ثم إلى مصر، ثم إلى المغرب، ليلتحق بخدمة الدولة الفاطمية، وقد اعتنق الإسلام وتفقه فى المذهب الشيعى الإسماعيلى، وبدأ يلقى الدروس بنفسه فى ذلك المذهب، وكان يحضر دروسه حشد كبير من القضاة والفقهاء ورجال الحكومة، مما يدل على أهمية الرجل، التى لم تقتصر على إلقاء الدروس فى الجامع الأزهر، بل خَطَابِهِ خطوات هائلة لتحويله إلى جامعة إسلامية لنشر المذهب الشيعى الإسماعيلى.

ولما كان الخليفة العزيز بالله الفاطمى



٣٦٥/٣٨٦هـ- ٩٧٥/٩٩٦م قد اختار ابن كلس ليكون وزيره الأول والمنفذ فى دولته، فقد أعد الرجل للأزهر ما عرف بمشروع ابن كلس [٥]؛ الذى عرضه على الخليفة ووافقه عليه، وملخصه أن يختار الشيوخ الذين يُدَرِّسون والطلبة الذين يُدْرُسون لترسيخ المذهب وأن تشملهم الدولة برعايتها، فترتب لهم مرتبات شهرية، وسكنًا لائقًا.. بالقرب من الأزهر وكان هذا كله أعطى دفعة هائلة للجامع الأزهر بفضل يعقوب بن كلس.

العلوم التى كانت تدرس فى الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى

إضافة إلى علوم أصول المذهب الشيعى التى كان يقوم بتدريسها بنو النعمان والوزير ابن كلس نشأت علوم أخرى لغوية وأدبية، بل إن بعض المتخصصين فى تاريخ الجامع الأزهر [٦] يذكرون أن الدراسة فيه تجاوزت العلوم الدينية واللغوية وشملت علومًا أخرى كثيرة، مثل المنطق والطب والفلسفة والرياضيات ولكن على نطاق ضيق.

تخصيص دروس للنساء فى الجامع الأزهر

لم تقتصر الدراسة فى الجامع الأزهر على الذكور، بل شملت النساء؛ فطلب العلم فى الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة. وكان تعليم النساء فى الجامع الأزهر لنساء عامة الشعب، أما نساء القصر وكبار رجال الدولة فكن يتلقين الدروس فى قصر الخليفة [٧].

أبرز العلماء الذين درسوا فى الأزهر فى العصر الفاطمى

إن عدد العلماء الذين تولوا التدريس فى الجامع الأزهر فى العصر الفاطمى يفوق الحصر، بالإضافة إلى المؤسسين، وهم بنو النعمان والوزير ابن كلس، فقد اضطلع بمهنة التدريس علماء كبار، مثل عز الملك بن عبد الله المشهور بالمسبحى، وهو من كبار المؤرخين، ومثل أبى الحسن على بن إبراهيم المعروف بالنحوى ت ٤٣٠هـ - ١٠٣٩م ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى ت ٤٤٥هـ - ١٠٥٤م. ومنهم محمد بن سلامة بن جعفر القضاعى المتوفى ٤٥٤هـ- ١٠٦٣م. وغيرهم كثيرون يطول الحديث بذكرهم [٨].

الموارد المالية الأزهر

كانت الدولة الفاطمية التى أنشأت الجامع الأزهر دولة غنية جدًا، ولذلك أنفقت على الجامع الأزهر وشيوخه وطلابه الكثير من الأموال ليقوم بالدور الذى أناطته به وهو نشر المذهب الشيعى

الإسماعيلى. بالإضافة إلى الأوقاف الكثيرة التى أوقفتها الدولة كانت هناك أموال يدفعها بعض الدارسين طواعية، ثم هبات وتبرعات الأغنياء . كل هذا جعل الأزهر يتمتع بقدرة مالية كبيرة للنهوض بمسئوليته العلمية.

الجامع الأزهر فى العصر الأيوبى ٦٤٨/٥٦٧هـ- ١٢٥٠/١١٧١م

فى سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م سقطت الدولة الفاطمية [٩]، وقامت الدولة الأيوبية، التى أسسها صلاح الدين. واسمه يوسف بن نجم الدين بن أيوب، كردى الأصل، ولقد سطع اسمه فى سماء العالم الإسلامى لدوره البطولى فى تحطيم آمال الصليبيين فى البقاء فى الشرق الإسلامى، عندما ضربهم ضربته القاصمة فى معركة حطين سنة ٥٨٣هـ- ١١٨٧م [١٠]. لم يقض صلاح الدين الأيوبى على الدولة الفاطمية فحسب، بل قضى على مذهبها الشيعى الإسماعيلى، الذى كان هو شخصيًا يمقته أشد المقت، فقد كان على مذهب أهل السنة، يعتمد المذهب الشافعى فى الفروع ومذهب الإمام الأشعرى فى الأصول.

كان أول إجراء اتخذه صلاح الدين الأيوبى للقضاء على المذهب الشيعى فى مصر هو منع خطبة الجمعة فى الجامع الأزهر وقصرها على جامع الحاكم بأمر الله وجامع عمرو بن العاص، وجامع أحمد بن طولون . وتبع ذلك إلغاء الشعارات الشيعية مثل عبارة (حى على خير العمل) التى كانت تقال فى الأذان ، ثم أتبع ذلك بتوقف الدراسة تقريبًا فى الجامع الأزهر ليصرف الناس عنه، وأقام هو وأسرته مدارس أخرى كثيرة لتحل محل الأزهر فى التعليم. والحقيقة أنه لم تكن هناك خصومة بين صلاح الدين، وبين الأزهر كجامع، ولا حتى كجامعة للعلوم، وإنما خصومته كانت مع المذهب الشيعى الإسماعيلى الذى صمم على القضاء عليه، وقد تم له ما أراد. والحق أنه لم يكن صلاح الدين وحده الذى يمقت المذهب الشيعى، بل غالبية الشعب المصرى كانت كذلك، ولو كان للمذهب الشيعى جذور فى مصر لصعب على صلاح الدين القضاء عليه.

الأزهر فى عصر المماليك ٩٢٣/٦٤٨هـ- ١٥١٧/١٢٥٠م

فى سنة ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م سقطت دولة الأيوبيين فى مصر، وحلَّ محلهم مماليكهم؛ الذين كانوا قد اشتروهم

من بلاد القوقاز وما وراء النهر، ولقد استمرت دولة المماليك بفرعيها التركى والشركسى. نحو قرنين وثلثى القرن، ولسنا بصدد التأريخ لدولة المماليك بإيجابياتها وسلبياتها هنا، وإنما الذى يعنينا دورهم فى بعث الأزهر من جديد وإحداث نهضة علمية كبيرة فيه، فلا شك أن الجامع الأزهر عاش أزهى عصوره ونهضته العلمية فى العصور الوسطى فى عهد المماليك. فقد أولوه عنايتهم، وصمموا على إحياء دوره العلمى، ولم يبخلوا فى سبيل ذلك بالأموال، وكان أول من اهتم من سلاطين المماليك بالجامع الأزهر، السلطان الظاهر بيبرس. فقد راعه ما وصل إليه حاله من إهمال وتصدع مبانيه، فقرر تجديده والعناية به وأوكل تلك المهمة لنائبه الأمير عز الدين أيدو الخلى.

وكانت البداية لإعادة الاعتبار إلى الأزهر، إعادة صلاة وخطبة الجمعة فيه بعد تعطلها نحو قرن من الزمان، حيث أقيمت من جديد سنة٦٦٥هـ - ١٢٦٦م. كما تقرر إعادة أوقاف الأزهر التى كان الأيوبيون قد استولوا عليها، بل أضيفت إليها أوقاف كثيرة من سلاطين المماليك وأغنياء البلاد، حتى صار كما يقول المقريزى أرفع الجوامع قدرًا بالقاهرة (١١).

لقد تهيأت ظروف كثيرة للجامع الأزهر ليتألق ويصبح معهدًا علميًا إسلاميًا عالميًا فى عصر المماليك، منها اهتمام السلاطين أنفسهم طوال تاريخهم به، ومنها الثراء الكبير الذى تحققت به دولتهم. ومنها موقع الجامع الأزهر فى القاهرة حيث يتوسط العالم الإسلامى تقريبًا من الناحية الجغرافية، وهذا سهل لكثير من العلماء وطلبة العلم من أنحاء العالم الإسلامى الوصول إلى مصر التى كانت تستقبلهم بكل حب وحفاوة وكرم، كما أن الأحداث العالمية التى ألمت بالعالم الإسلامى فى عصر المماليك جعلت مصر والأزهر بصفة خاصة الموئل الآمن لكل علماء المسلمين من المشرق والمغرب، فعندما اجتاح المغول العالم الإسلامى من الشرق وأسقطوا الخلافة العباسية فى بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. ودمروا مكتباتها وشردوا علماءها لجأوا إلى القاهرة فوجدوا الملاذ والأمان والعلم، نفس الشىء حدث لعلماء الأندلس عندما ضغط الأسبان وقهروا المسلمين هناك وطردوهم لجأوا إلى مصر والأزهر. وهكذا أصبح الجامع الأزهر هو أمل المسلمين. ولقد هيأت له الأوقاف الكثيرة

التى أوقفها الأغنياء النهوض بهذه المسئولية الكبيرة وجعلت للأزهر الزعامة العلمية فى العالم الإسلامى فى عصر المماليك، حيث ضمن لطلاب العلم من كل أنحاء العالم الإسلامى الإقامة والإعاشة الكاملة فى الأروقة الكثيرة التى أقيمت لسكناهم والتى تُعد أول إسكان جامعى لطلاب العلم فى العالم [١٢]. وكانت أكثر من ثلاثين رواقًا .

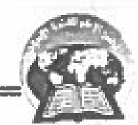
هذا الازدهار المالى والعلمى الذى تحقق للجامع الأزهر فى عصر المماليك بدأ يجذب العلماء من المدارس التى أسسها الأيوبيون لصرف طلاب العلم من الأزهر، بدأ يجذبهم إليه لينالوا أشرف الدروس والجلوس فى الجامع الأزهر، كما أصبح مقصد كبار العلماء الذين بدأوا يفدون إلى مصر من العالم الإسلامى، وكان من أشهر هؤلاء العلماء العلامة والفقية والفيلسوف والمؤرخ عبد الرحمن بن خلدون ت٨٠٨هـ - ١٤٠٦م الذى خص الأزهر بالقسط الأكبر من نشاطه العلمى فى مصر، كما وفد إلى مصر العلامة محمد الفاسى، الذى تصدر الحلقات الدراسية فى الأزهر، وغير هذين العلمين كثيرون وفدوا إلى مصر يضيق المقام بذكرهم. كما حفل الأزهر فى عصر المماليك بكوكبة من علماء مصر الكبار، أمثال أبى العباس القلقشندى ت٨٢١هـ - ١٤١٨م وتقى الدين المقريزى ت٨٤٥هـ- ١٤٤١م وابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ- ١٤٤٨م وبدر الدين العينى، وسراج الدين البلقينى، وشرف الدين المناوى، وأبى المحاسن ابن تغرى يردى وغيرهم كثيرون [١٣].

عناية المماليك بعمارة الأزهر

لم تقتصر عناية سلاطين المماليك بالأزهر الشريف على العلماء وطلبة العلم وإنما شملت الناحية المعمارية، ولقد أصدرت وزارة الأوقاف وشئون الأزهر كتابًا مهمًا عن تاريخ الأزهر وتطوره [١٤]. وكتب الأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب فصلاً قيما فى ذلك الكتاب عن عمارة الأزهر عبر العصور شغل أكثر من مائة صفحة من ص ٨٩ إلى ص ١٩٦ يحسن الرجوع إليه، ففيه معلومات نفيسة عن التطور المعمارى للأزهر .

الأزهر فى العصر العثمانى.

فى سنة ٩٢٣هـ - ١٥١٧م أنهى العثمانيون حكم المماليك فى مصر وضموها إلى إمبراطوريتهم الكبيرة، واستمر حكمهم لمصر حكمًا مباشرًا



نحو ثلاثة قرون، ولقد كانت نظرة المؤرخين العرب فى الشرق العربى إلى تاريخ الدولة العثمانية نظرة سلبية وعلقوا عليها كل التخلف الذى عاناه العرب والمسلمون، ولكن النظرة الآن تغيرت إلى التاريخ العثمانى خصوصًا منذ ألف الأستاذ الدكتور عبد العزيز محمد الشناوى موسوعته الضخمة بعنوان (الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها) فى أربعة مجلدات كبار وبدأ أساتذة التاريخ يعيدون النظر فى مواقفهم السابقة لرد الاعتبار لتلك الدولة، والذى يهمنا فى هذه العجالة هو موقف العثمانيين من الأزهر الشريف، فقد عرفوا له مكانته. وطوال المدة التى أقامها السلطان سليم الأول فى مصر –نحو ثمانية شهور– بعد الاستيلاء عليها، حرص على أداء الصلوات فى الجامع الأزهر، والتقرب إلى علمائه واحترامهم، فظل محتفظًا بمكانته وزعامته العلمية، وكعبة يحج إليها طلاب العلم من كل الولايات العثمانية، والأزهر لم يكن مجهولاً لطلاب العلم العثمانيين.

«وقد وفد عليه ودرس فيه جمهرة من أكابر العلماء العثمانيين، مثل شمس الدين الفنارى؛ الذى وفد على مصر فى أواخر القرن الثامن الهجرى الرابع عشر الميلادى، وكان تلميذًا وزميلا للحافظ ابن حجر، ويعقوب ابن إدريس.. والعلامة الأشهر محى الدين الكافيجى المتوفى سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م، وقد درس ثم تولى التدريس فى الجامع الأزهر وغيره من المعاهد، وكان شيخًا للسيوطى وغيره من الأعلام المصريين»[١٥].

ولقد حافظت الدولة العثمانية على عدم التدخل فى شئون الأزهر العلمية، وحققت له الاستقرار المالى فظل يؤدى رسالته العلمية محافظًا على الطابع العربى الإسلامى للعلوم. ولقد أمدنا مؤرخ مصر الكبير عبد الرحمن الجبرتى بمعلومات وافره فى كتابه الشهير (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار)[١٦]. عن علماء الأزهر وجهودهم العلمية، ومواقفهم الوطنية. مما يعد أبلغ رد على الذين يتهمون العثمانيين بأنهم كانوا سببًا فى التخلف الذى يعانيه العرب والمسلمون.

وباختصار شديد يمكن القول من خلال المصادر التاريخية الأصيلة إنّ نمو الحركة العلمية فى الأزهر لم يتوقف طوال فترة الحكم العثمانى لمصر، بل استمر يحمل راية الريادة العلمية فى العالم الإسلامى كله محافظًا على

عروبة مصر وإسلامها.

الأزهر في عصر الأسرة العلوية ١٢١٣هـ/١٣٧٢هـ- ١٨٠٥/١٩٥٢م.

في شهر يوليو سنة ١٧٩٨م داهم نابليون بونابرت مصر بحملته الاستعمارية المعروفة، واستطاع الاستيلاء عليها بسهولة بسبب ضعف مقاومة المماليك، ولقد بالغ نابليون مبالغة شديدة في أساليب المكر والكذب والخداع، وأصدر بيانات كثيرة أذاعها على الشعب المصري يَدَّعِي فيها أنه صديق للمسلمين وأنه يحترم الإسلام والقرآن والرسول محمدًا ﷺ. وإمعانًا في هذا الخداع أنشأ ديوانًا وطنيا لإدارة شئون البلاد، كان جل أعضائه من علماء الأزهر ويرأسه شيخ الأزهر، الشيخ عبد الله الشرقاوي، ولكن كل هذه الأساليب والألاعيب لم تنطل على الشعب المصري بصفة عامة، وعلى علماء الأزهر بصفة خاصة، فقاد الأزهريون ثورتين عارمتين ضد الوجود الفرنسي في مصر: الأولى كانت في أكتوبر ١٧٩٨م والثانية في مارس ١٨٠٠م وهنا ظهر الوجه الحقيقي القبيح للاستعمار الفرنسي، حيث دمرت مدافع الفرنسيين الأزهر الشريف، ودخلت خيولهم إلى ساحاته، وداسوا على كل المقدسات بأقدامهم، وأعدموا كثيرًا من العلماء، ولكن كل هذه التضحيات لم تذهب هباء، فقد تحقق الهدف وأخرج الفرنسيون من مصر بعد أكثر من ثلاث سنوات ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م[١٧].

والذي أتوخاه من هذه السطور أن الحملة الفرنسية على مصر كان من نتائجها ظهور محمد علي باشا ليقوم بدور هام في تاريخها، والذين أوصلوا محمد علي باشا إلى حكم مصر هم علماء الأزهر ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م[١٨].

وعلى الرغم من النزعة الاستبدادية التي حكم بها مصر وتنكره لمن أوصلوه إلى الحكم من علماء الأزهر، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف والمذبحة التي أحدثها بالمماليك في القلعة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م[١٩]. فإن أغلب المؤرخين يعدونه مؤسس الدولة الحديثة في مصر. أما عن موقف محمد علي باشا من الأزهر والذي سار على هداه الحاكمون من أبنائه وأحفاده من بعده فقد عمل على إبعاد الأزهر عن السياسة، لأنه أدرك مدى نفوذ علماء الأزهر في البلاد؛ فهم الذين أوصلوه إلى الحكم وهم الذين يعزلونه إذا شاءوا فأضعف نفوذهم إلى حد بعيد ووضع حدًا لتدخلهم في السياسة والإدارة



والحكم؛ هذا من ناحية . أما من الناحية العلمية فقد اعتمد محمد على باشا على علماء الأزهر فى إحداث نهضة علمية فى البلاد، فهم الذين تولوا التدريس فى المدارس التى أنشأها، واعتمد على النابهين منهم لمصاحبة البعثات العلمية التى أرسلها إلى أوروبا، مثل رفاعة الطهطاوى، وإبراهيم النبرواى.

والحق أن محمد على باشا بدأ البداية الصحيحة لتحديث مصر عن طريق التعليم، فأنشأ الكثير من المدارس العليا للطب والهندسة والزراعة والإدارة. إلخ، تلك المدارس التى مهدت لظهور الجامعة المصرية التى عرفت بعد ذلك بجامعة فؤاد الأول ثم جامعة القاهرة الآن فى بداية القرن العشرين.

أما الأزهر الشريف فقد واصل رسالته فى دراسة علوم الشريعة والعقيدة الإسلامية واللغة العربية وآدابها والتاريخ والحضارة الإسلامية، وتوالت محاولات إصلاح وتحديث الأزهر وإدخال علوم حديثة فيه على أيدى زعمائه، أمثال الإمام الشيخ/محمد عبده، والشيخ/ الأحمدى الظواهرى، والشيخ/ محمد مصطفى المراغى. وتلاحقت القوانين للنهوض بذلك المعهد العتيد، وخصوصًا فى عهد الملك فؤاد الأول مثل قانون ١٩٢٧، ١٩٣٠، ١٩٣٣، ١٩٣٦، وكان قمة نتائج تلك القوانين إنشاء ثلاث كليات، وهى الشريعة، واللغة العربية، وأصول الدين[٢٠].

وعلى وجه الإجمال يمكن القول إن سياسة الأسرة العلوية نحو الأزهر لم تكن سلبية، فقد استمر فى أداء رسالته وكان علماؤه يحظون باحترامهم، وآية ذلك أن أمير الشعراء أحمد شوقى -وهو ربيب الأسرة العلوية - أشاد بالأزهر وعلمائه بل رفع أقدارهم فوق أقدار الملوك فى قصيدته المشهورة التى أنشدها فى عهد الملك فؤاد فى سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، والتى قال فيها[٢١].

قم فى فم الدنيا وحى الأزهرا
وانثر على سمع الزمان الجوهرا
واذكره بعد المسجدين معظما
لمساجد الله الثلاثة مكبرا
واخشع مليًا واقْضِ حق أئمة
طلعوا به زهرا وماجوا أبحرا
كانوا أجل من الملوك جلالة
وأعز سلطانًا وأفخم مظهرا

الأزهر منذ قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م حتى الآن.

لقد حدثت طفرة هائلة فى التعليم

الأزهرى على كل مستوياته بعد قيام الثورة حيث كان عدد المعاهد الأزهرية فى كل القطر المصرى خمسة وعشرين معهدًا، ما بين ابتدائى وثانوى نظامى وحُر ولكن فى عام ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م اقترب عدد المعاهد الأزهرية من التسعة آلاف ابتدائى، إعدادى - ثانوى - انخرط للدراسة فيها نحو مليونى طالبة، أما جامعة الأزهر التى كانت تتكون من ثلاث كليات، فقد ازداد عددها بعد صدور القانون (١٠٣ السنة ١٩٦١م) لتصبح سبعًا وستين كلية وفرعا، تشمل جميع التخصصات الشرعية والعربية، والعملية من طب وصيدلة وعلوم وهندسة وزراعة وتجارة ولغات وترجمة وتربية. إلخ. وبلغ عدد طلاب وطالبات هذه الكليات نحو أربعمائة ألف، أكثر من ثلثهم من الطالبات. وهذه الأرقام مصدرها سجلات الأزهر الشريف وجامعته .

البعوث الإسلامية:

نظرًا للمكانة العلمية الرفيعة والسمعة الطيبة التى تمتع بها الأزهر الشريف على مستوى العالم، لوسطيته المعروفة فى دراسة علوم الدين والدنيا، فقد هرع إليه أبناء وبنات العالم الإسلامى ليتزودوا بالعلم ليرجعوا إلى بلادهم ليعلموا أهلهم، وقد تقبل الأزهر الشريف وجامعته هؤلاء الوافدين بحب وحنو ويتكفل بإعاشتهم وعلاجهم، وقبل ثورة يوليو ١٩٥٢م كان هؤلاء الوافدون يقيمون فى أروقة الأزهر التى بدأ إنشاؤها منذ عهد المماليك — كما سبقت الإشارة..

ولكن بعد الثورة ظهرت الحاجة إلى تطوير هذا النظام فأنشئت (مدينة البعوث الإسلامية) فى الدرَّاسة بالقرب من الجامع الأزهر ١٩٥٤م وتوالى بعدها إنشاء المدن الجامعية لكل الطلاب، وافدين وغير وافدين. حتى بلغ عددها الآن أربعا وعشرين مدينة فى القاهرة والفروع تستوعب نحو ثلاثين ألف طالب وطالبة.

القانون١٠٣ لسنة١٩٦١م

إن محاولات إصلاح الأزهر والقوانين التى صدرت لتحقيق ذلك الإصلاح طوال القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الميلادى قد حققت نجاحًا كبيرًا وحولت الدراسة فى الأزهر من نظام الحلقات أمام الشيوخ حول الأعمدة إلى نظام الفصول الدراسية فى مبانٍ مخصصة لذلك، كما وضعت نظامًا للامتحانات أَوْصَلَ الأزهر وجامعته مع آخر قانون صدر فى سنة ١٩٣٦م إلى نوع متطور من التعليم المنظم المنضبط. ولما



كان التطور من سنن الحياة فقد طفرت حكومة الثورة بالأزهر الشريف طفرة هائلة، لأنها أدركت أهميته لمصر وللعالمين العربى والإسلامى، وأن نهوضه ورقيَّه يمثل لمصر رصيدًا هائلاً فى العالم. فَأَوْلَتْه عنايتها، وضاعفت ميزانيته، وكان صدور قرار مجلس الوزراء فى سنة ١٩٥٤م بإنشاء (مدينة البعوث الإسلامية) بالدرَّاسة للإسكان الجامعى للطلاب الوافدين من العالم الإسلامى بدلاً من الأروقة القديمة- كان ذلك دليلاً عمليًا على اهتمام النظام الجديد بالأزهر وطلابه لخدمة الإسلام والمسلمين فى العالم بأَسْرِه. وفى سنة ١٩٦١م، أصدرت الحكومة المصرية أخطر وأهم قانون فى تاريخ الأزهر وهو القانون(١٠٣) لأنه - إضافة إلى ما تضمنه من إنشاء كليات جديدة للعلوم الحديثة، كالطب، والصيدلة، والعلوم، والهندسة، والزراعة، والتجارة، واللغات الأجنبية- فقد فتح الباب واسعًا لتعليم البنات، بدأ بإنشاء كلية للبنات تجمع الدراسات العربية والإسلامية والإدارة والمعاملات، وتطورت لتصبح فرعًا كبيرًا أشبه بجامعة مستقلة يدرس فيها الفتيات جميع العلوم الشرعية والحديثة. ولقد ارتكز ذلك القانون، الذى عُرِفَ بقانون إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها على المبادىء الآتية:

أولاً: أن يدعم الأزهر ليظل أكبر جامعة إسلامية فى العالم.

ثانيًا: أن يظل الأزهر كما كان منذ إنشائه حصنًا للدين والعروبة يرتقى به الإسلام ويتجلى فى جوهره الأصيل المتسامح ويتسع نطاق العلم به على كل المستويات ليشمل كل علوم الدين والدنيا.

ثالثًا: أن يتخرج فيه علماء حصلوا على كل ما يمكن من علوم الدين والدنيا ليسهموا فى نهضة مصر والعالم الإسلامى.

رابعًا: أن يتحقق قدر مشترك من المعرفة والخبرة بين المتخرجين فى المعاهد والجامعة الأزهرية وبين أقرانهم فى الجامعات الأخرى فى الوطن، مع الحرص على الدراسات الدينية والعربية التى يمتاز بها الأزهر منذ إنشائه.

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن ذلك القانون الخطير بالتفصيل. ومن يريد المزيد يمكنه الرجوع إلى نص القانون فهو موجود فى مطبوعات الحكومة ويكفى الإشارة هنا إلى الهيئات التى نص عليها وهى أربع:

أولاً : المجلس الأعلى للأزهر، ويتكون من الإمام الأكبر/ شيخ الأزهر . وتكون له رئاسته، ووكيل الأزهر، ومدير جامعة الأزهر. (تغير اللقب حاليًا فأصبح رئيس جامعة الأزهر) وعمداء كليات الجامعة وأربعة أعضاء من مجمع البحوث الإسلامية، ووكيل وزارة من كل من وزارة الأوقاف والتربية والتعليم والعدل والمالية، ومدير الثقافة والبعوث الإسلامية، ومدير المعاهد الأزهرية وثلاثة أعضاء على الأكثر من ذوى الخبرة فى الشئون الجامعية من خارجه.

وللمجلس الأعلى للأزهر اختصاصات كثيرة أهمها :

١- التخطيط ورسم السياسة العامة لكل ما يحقق الأغراض التى يقوم عليها الأزهر، ويعمل لها فى خدمة الفكرة الإسلامية العامة.

٢- رسم السياسة التعليمية التى تسير عليها جامعة الأزهر والمعاهد الأزهرية

٣- النظر فى مشروع ميزانية هيئات الأزهر

٤- اقتراح إنشاء الكليات والمعاهد الأزهرية والأقسام العلمية

ثانيًا : مجمع البحوث الإسلامية، وهو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية، ويقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث.

ثالثًا : إدارة الثقافة والبعوث الإسلامية، وتختص بكل ما يتصل بالنشر والترجمة والعلاقات الإسلامية، من البعوث والدعاة واستقبال طلاب المنح وغيرهم من ذوى العلاقة فى نطاق أغراض الأزهر.

رابعاً : جامعة الأزهر:

نصت المادة ٣٣ من القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م على ما يأتى تحت عنوان.

جامعة الأزهر

(تختص جامعة الأزهر بكل ما يتعلق بالتعليم العالى فى الأزهر)

خامسًا : المعاهد الأزهرية:

نصت المادة ٨٣ من القانون على ما يلى:

تلحق بالأزهر المعاهد الأزهرية المذكورة فى اللائحة التنفيذية، ويجوز إنشاء معاهد أخرى بقرار من الوزير المختص بعد موافقة المجلس الأعلى للأزهر، وتسمى الأقسام الابتدائية فيها المعاهد الإعدادية الأزهرية، وتسمى الأقسام الثانوية المعاهد الثانوية الأزهرية. **معاهد البعوث الإسلامية**

يوجد فى الأزهر ثلاثة معاهد لطلبة وطالبات البعوث الإسلامية الوافدين من مختلف البلاد الإسلامية للتعليم قبل الجامعى بالأزهر.



١- معهد البعوث بالقاهرة للبنين.

٢- معهد البعوث بالقاهرة للفتيات.

٣- معهد البعوث بالإسكندرية للبنين، ومجموع الطلاب في هذه المعاهد أربعة آلاف وخمسمائة طالب وطالبة .

أما عدد الطلاب الوافدين من البلاد الإسلامية الذين يدرسون في مختلف كليات جامعة الأزهر فيصل إلى نحو عشرين ألف طالب وطالبة تقوم الجامعة بإسكانهم وإعاشتهم إعاشة كاملة مجانًا.

هذا ولم يكتف الأزهر الشريف باستقبال أبناء المسلمين وبناتهم من العالم الإسلامى، لتلقى العلم فى مصر على حسابه بل ذهب الأزهر إلى أبناء المسلمين وبناتهم فى بلادهم حيث أقام الأزهر عددًا من المعاهد الأزهرية على نفقته الخاصة، متحملاً كل التكاليف من مرتبات المدرسين والكتب وأعمال الامتحانات .. إلخ فى البلاد الإسلامية بل وفى البلاد غير الإسلامية التى يوجد بها أقلية مسلمة، وبلغ عدد هذه المعاهد طبقًا لإحصائيات البعوث الإسلامية تسعة عشر معهدا.

لا يتسع المجال هنا للحديث عن المراكز البحثية التى تتبع الأزهر الشريف وجامعته فهى كثيرة، ولا عن المدن الجامعية لإسكان الطلبة والطالبات والتى بلغ عددها أربعًا وعشرين مدينة، تستوعب نحو ثلاثين ألف طالب وطالبة، وقد سبقت الإشارة إلى ذلك.

الدور الوطنى للأزهر الشريف:

لم يصبح الأزهر الشريف منذ إنشائه سنة ٣٦١هـ- ٩٧٢م منارة علمية لعلوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية وآدابها فحسب..بل أصبح حصنًا وقلعة من قلاع الإسلام، وملاذًا لكل من يحس بالظلم من أبناء الشعب من جانب الحكام والمماليك وولاة العثمانيين، الذين كانوا يجنحون إلى الظلم. ولم يخيب شيوخ الأزهر وعلماؤه أمل الناس فيهم، وكان تدخلهم السريع يمنع الظلم الواقع على الشعب من الحكام، المستبدين، وهؤلاء الحكام كانوا يستجيبون لشفاعة علماء الأزهر، ولا يستطيعون مخالفتهم لما كانوا يتمتعون به من هيبة واحترام عند الحكام والمحكومين على السواء، لأن غالبيتهم كانوا فوق مستوى الشبهات، ولم يكونوا يسعون لمنافع شخصية ولم يكن يغريهم التدخل فى السياسة وشئون الحكم إلا بالقدر الذى تدعو إليه الضرورة واستجابة لاستغاثة

المظلومين [٢٢].

كما كان الأزهر الشريف فى طليعة القوى المدافعة عن استقلال الوطن وكرامته ضد كل المحتلين الأجانب، فدور الأزهر فى القضاء على الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨ـ ١٨٠١م، ثم القضاء على حملة فريزر الإنجليزية سنة ١٢٢٢هـ/ ١٨٠٧م، ثم كان علماء الأزهر يتصدون ويؤيدون ويشاركون فى كل الثورات التى كانت تنادى بحقوق الشعب، فقد كان لهم دور بارز فى ثورة أحمد عرابى سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م [٢٣]. وقائد الثورة نفسه كان أزهريًا، وكان للأزهر دور بارز أيضًا فى ثورة سنة ١٣٣٨هـ/١٩١٩م ضد الاحتلال الإنجليزى، تلك الثورة العظيمة الفريدة التى قادها أحد أبناء الأزهر وهو (سعد زغلول)، ومن فوق منبر الأزهر انطلقت أصوات الشيوخ والقسس، وتعانق الهلال مع الصليب للتنديد بالاحتلال، وتأكيدًا للوحدة الوطنية بين أبناء مصر، من المسلمين والمسيحيين، وصفحات التاريخ ملأى بالدور المشرف للأزهر وعلمائه [٢٤].

الرئيس جمال عبد الناصر يخطب من فوق منبر الأزهر سنة ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م. اعترافًا بمكانة الأزهر وأثره فى مصر والعالمين العربى والإسلامى وأن الكلمة التى تنطلق من فوق منبره يكون لها تأثير ودَوِىٌّ هائل فى العالم كله.

اختار الرئيس جمال عبد الناصر أن تكون كلمته إلى الشعب المصرى وإلى الأمتين العربية والإسلامية، بل وإلى العالم أجمع من فوق منبر الأزهر الشريف أثناء العدوان الثلاثى الإنجليزى الفرنسى الإسرائيلى على مصر سنة ١٩٥٦م.

هذه الكلمة التى أعلن فيها تصميم الشعب المصرى ومن ورائه الأمتين العربية والإسلامية على الدفاع عن أرض الوطن، وقال عبارته المشهورة (سنقاتل سنقاتل ولن نستسلم). وقد تجاوب معه الشعب تجاوبًا كاملاً وكذلك الشعوب العربية والإسلامية بل ومحبو السلام فى العالم كله هذا - باختصار شديد - هو الأزهر فى الحياة العامة فى مصر.

انفتاح الأزهر وجامعته على جامعات العالم

رسالة الأزهر الشريف وجامعته هى رسالة الإسلام وحضارته، والإسلام دين عالمى طبقًا لنصوص القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة والواقع التاريخى، فعدد المسلمين فى العالم اليوم يفوق المليار ونصف المليار نسمة طبقًا

لإحصائيات دولية.

والإسلام موجود فى كل قارات الدنيا، والإقبال على اعتناقه يزداد يومًا بعد يوم، وعالمية الإسلام لا تعنى فرضه على الناس بالقوة لأنه ﴿لا إكراه فى الدين﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]، وإنما معنى عالمية الإسلام أنه دين مفتوح لكل البشر دون قيود أو شروط، وفى نفس الوقت يحترم عقائد ومقدسات الآخرين، ويحقق الحرية الدينية لكل أصحاب دين يعيشون على أرض الإسلام، وفى المجال العلمى والحضارى كان الإسلام حريصًا منذ البداية على الانفتاح على الحضارات والاستفادة منها لأقصى حد، فقد أخذ المسلمون دون تحرج من كل الحضارات التى كانت سائدة قبل الإسلام. فأخذوا من الحضارات المصرية والإغريقية والرومانية والفارسية والهندية والصينية. وهذا مجال كبير كتب فيه الكثيرون ممن أرخوا الحضارة الإسلامية من المسلمين ومن غيرهم. والأزهر الشريف سار على هذا المنهج الانفتاحى البصير على حضارات العالم.

فمع أن الأزهر أقدم وأكبر جامعة فى العالم الإسلامى فقد كان حريصًا على الاستفادة من الحضارة الحديثة، ولم يجد غضاضة فى أن يبعث بعدد من أنبغ أبنائه ليتعلموا فى الجامعات الأوروبية والأمريكية، فمنذ مطلع النهضة الحديثة التى بدأها محمد على باشا فى مصر فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، كان اعتماده على أبناء الأزهر، وبعث بعضهم إلى أوروبا، وفى طليعة هؤلاء رفاعة رافع الطهطاوى الذى رافق أول بعثة علمية إلى فرنسا، والذى أصبح له شأن كبير فى النهضة الحديثة وعُدَّ إمامها بحق(٢٥).

ولقد استمر هذا التواصل بعد الطهطاوى بين الأزهر وجامعات العالم المتقدم، فذهب كثير من أبنائه النابغين لتلقى العلم فى الغرب.

وفى طليعة هؤلاء الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور/ مصطفى عبد الرازق الذى تولى مشيخة الأزهر بين سنتى ١٩٤٥/١٩٤٧ والذى حصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة الإسلامية من جامعة السوربون فى باريس. وكذلك الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور/ عبد الرحمن تاج الذى درس الفلسفة الإسلامية، فى نفس الجامعة، والإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور/عبد الحليم محمود والذى حصل أيضًا على

الدكتوراه فى الفلسفة الإسلامية من السوربون. والإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور/ محمد الفحام الذى حصل على الدكتوراه من السوربون فى اللغة العربية، وكان موضوع رسالته (إعداد معجم عربى فرنسى للمصطلحات العربية فى علمى النحو والصرف)، وقد نال برسالته إعجاب وتقدير أساتذته من المستشرقين، وقال له أحدهم: ما أظن أنه وطئت أرض فرنسا قدم رَجُلٍ أعلم منك باللغة العربية.

ومن هؤلاء العلماء الأزهريين الذين درسوا فى جامعات الغرب وعادوا ليتناوبوا منصب الإمام الأكبر شيخ الأزهر الدكتور/ محمد عبد الرحمن بيصار، الذى حصل على الدكتوراه فى الفلسفة الإسلامية من جامعة إدبنره فى انجلترا(٢٦). والدكتور محمد البهى الذى حصل على الدكتوراه فى الفلسفة الإسلامية من ألمانيا وكان أول رئيس لجامعة الأزهر فى تنظيمها الجديد الذى أحدثه القانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١، ثم أصبح وزير الأوقاف وشئون الأزهر. والدكتور بدوى عبد اللطيف عوض الذى حصل على الدكتوراه فى التاريخ الإسلامى من جامعة إدنبره بانجلترا وأصبح رئيسًا لجامعة الأزهر والدكتور/ محمود حمدى زقزوق وزير الأوقاف الأسبق فى مصر والذى حصل على الدكتوراه فى الفلسفة من ألمانيا، والإمام الأكبر شيخ الأزهر الحالى الدكتور أحمد محمد الطيب درس أيضًا الفلسفة فى باريس وهو يجيد اللغة الفرنسية.

ولا ينبغى هنا أن نغفل واحدًا من أكابر علماء الأزهر الذين درسوا فى فرنسا وكان له حضور عظيم فى مجال الفكر الإسلامى ذلك هو الدكتور/ محمد عبد الله دراز رحمه الله.

هذه مجرد نماذج وأمثلة لتوضيح التواصل بين الأزهر وجامعته وجامعات العالم، والقائمة طويلة، وهناك حاليًا المئات من أعضاء هيئة التدريس فى الكليات العملية فى جامعة الأزهر، مثل الطب والصيدلة وطب الأسنان والهندسة والعلوم والزراعة واللغات والترجمة.. إلخ الذين حصلوا على الدكتوراه من الجامعات الأوروبية والأمريكية والكندية واليابانية وغيرها، بل حتى فى الكليات الشرعية والعربية، هناك عدد كبير حصلوا على الدكتوراه من الجامعات الأجنبية، كل هذا يدل على أن الأزهر الشريف وجامعته منفتحتان

على الحضارات الأخرى يأخذون ويعطون دون حرج.

وطبقًا لسجلات الإدارة العامة للعلاقات الثقافية بجامعة الأزهر يوجد الآن أكثر من أربعمائة طالب وطالبة يحضرون للحصول على درجتى الماجستير والدكتوراه فى مختلف العلوم فى كثير من جامعات العالم.

هذا هو باختصار شديد دور الأزهر الشريف جامعًا وجامعة وأثره فى الحفاظ على التراث الإسلامى وإثراء الفكر الإسلامى على مدى أكثر من ألف عام من عمر الزمن.

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) انظر محمد عبد الله عنان. تاريخ الجامع الأزهر. الطبعة الثانية ، مؤسسة الخانجي. القاهرة ص ١٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٨.

(٣) المرجع السابق ص ١٩.

(٤) انظر د/عبد العزيز محمد الشناوى. الأزهر جامعًا وجامعة ، الطبعة الأولى، مكتبة الأنجلو المصرية. القاهرة ١٩٨٣ ج ١، ص٤٦. ٤٧.

(٥) د/ عبد العزيز محمد الشناوى مرجع سابق ج١ ، ص ٥٣.

(٦) محمد عبد الله عنان. مرجع سابق ص ٩٠.

(٧) د/ عبد العزيز محمد الشناوى. مرجع سابق ج١ ص ٦٨.

(٨) انظر محمد عبد الله عنان . مرجع سابق ص ٨٦ وما بعدها.

(٩) انظر ابن الأثير – الكامل فى التاريخ ج ١ ص ١١ ص ٣٦٨.

(١٠) المصدر السابق ج١١ ص ٥٣٤.

(١١) انظر تاريخ إنشاء وتطور الجامع الأزهر فى الخطط المقريزية ج٢ ص ٢٧٣ ، وما بعدها ، مكتبة دار الثقافة. الطبعة الثانية. القاهرة ١٩٨٧م.

(١٢) انظر اجتياح المغول لأراضى المسلمين واسقاط الخلافة فى بغداد فى البداية والنهاية لابن كثير ج١٣ ص ٢٠٠ وما بعدها.

(١٣) من يريد المزيد من المعرفة عن هؤلاء العلماء يمكنه الرجوع إلى كتب التراجم والطبقات، مثل كتاب الدرر الكامنة لابن حجر العسقلانى .

(١٤) طبعت الوزارة هذا الكتاب سنة ١٩٦٤م- ١٣٨٣هـ. بأقلام نخبة من العلماء.

(١٥) محمد عبد الله عنان. مرجع سبق ص ١٤٠- ١٤١.

(١٦) قامت مكتبة الأسرة بطبع كتاب الجبرتى طبعة جديدة بتحقيق الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، فى ثمان مجلدات سنة ٢٠٠٣م.

(١٧) راجع عن أخبار حملة نابليون على مصر كتاب (بونابرت فى مصر) تأليف كريستوفر هيرولد. ترجمة فؤاد أندراوس – نشر دار الكتاب العربى للطباعة والنشر. القاهرة بدون تاريخ ص ٥٧ ، وما بعدها .

(١٨) انظر التاريخ الحربى لعصر محمد على باشا تأليف عبد الرحمن زكى دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٥٠ ،ص١٩ ، وما بعدها.

(١٩) انظر المرجع السابق ، ص ٢٣.

(٢٠) انظر الأزهر فى ألف عام، تأليف الدكتور/أحمد محمد عوف مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٠م/١٩٧٠م/ص٩٠- ٩١.

(٢١) قال أمير الشعراء أحمد شوقى هذه القصيدة سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م بمناسبة بدء الإصلاح فى الأزهر. طالعها فى الشوقيات جـ١ ص ١٥١ ، وما بعدها .

(٢٢) انظر دور علماء الأزهر فى الوقوف مع الشعب ضد ظلم الحكام للدكتور/ عبد العزيز محمد الشناوى: الأزهر جامعًا وجامعة ج١. ص ٣١١ وما بعدها ، الطبعة الأولى مكتبة النهضة المصرية ١٩٨٣ القاهرة .

(٢٣) انظر المرجع السابق ج٢ ، ص ٣٤١ وما بعدها ، ٦٠١ وما بعدها .

(٢٤) المرجع السابق بجزئية يعد أعظم مرجع فى إبراز الدور السياسى والوطنى للأزهر الشريف عبر التاريخ .

(٢٥) انظر ترجمة رفاعة رافع الطهطاوى فى الأعلام لخير الدين الزركلى، ج٣، ص٢٩ الطبعة السادسة. دار العلم للملايين. بيروت ١٩٨٤.

(٢٦) انظر أخبار هؤلاء الشيوخ فى كتاب مشيخة الأزهر. تأليف على عبد العظيم طبع المطابع الأميرية بالقاهرة ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار اربعة اجزاء المعروف بالخطط المقريزية. مكتبة الثقافة الدينية . القاهرة الطبعة الثانية سنة ١٩٨٧م .

٢. محمد عبد الله عنان – تاريخ الجامع الأزهر ، ط٢ القاهرة .

٣. د/ عبد العزيز الشناوى، الأزهر جامعًا وجامعة- مكتبة الأنجلو ، القاهرة ١٩٨٢م.

الأسطول

كلمة أسطول يونانية الأصل Stolos.

ويرى غالبية المؤرخين أن هذه الكلمة تعنى مجموع السفن المشتركة تحت قيادة لواء واحد وقيادة واحدة.

ومن الحقائق التاريخية المعروفة أن معاوية بن أبى سفيان، الوالى على بلاد الشام هو أول من تنبه إلى أن الدولة الإسلامية الناشئة لابد أن تكون لها قوة بحرية، وقد أدرك أهمية الأسطول فى حماية ثغور البلاد، خاصة والروم قريبون منه فى حمص، وفى القيام بعمليات بحرية هجومية ضد الدولة الرومانية الشرقية، صاحبة السيادة على شرقى البحر الأبيض المتوسط آنئذ.

وقد وافق الخليفة عثمان ﷺ على فكرة ضرورة ركوب البحر؛ ولكنه اشترط ألا يعمل فيه إلا المتطوعة، وبفضل هذا الأسطول نجح معاوية فى ضم جزيرتى "قبرص ورودس"، كما غزا صقلية وأرواد وكريت" بل ومضايق القسطنطينية سنة ٣٣هـ/٦٥٣م.

وقد تواصلت هجمات الروم البحرية على مصر، ووصل عدد سفنهم فى بعض الهجمات إلى ما يقرب من ألف مركب لقيتها مائتا مركب للمسلمين ومع ذلك انتصر المسلمون فى موقعة "ذات الصوارى"، لكثرة صوارى المراكب المجتمعة، وهذه يطلق عليها فى المراجع الأوروبية "موقعة فونيكه" غربى الإسكندرية المواجهة لساحل ليبيا القريب من فونيكس" [(١)].

وقد أوعز الخليفة عبد الملك بن مروان إلى حسان بن النعمان عامل إفريقية باتخاذ دار الصناعة بتونس لإنشاء الآلات البحرية حرصًا على مراسم الجهاد، ومنها كان فتح صقلية أيام زيادة الأول ابن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا فى أيامه، وفتح قوصرة أيضًا فى أيامه.

وبرغم ذلك توالت مهاجمة الروم بحريًا، وكان أخطرها الهجوم على (أشتون) بالقريب من (تنيس)، مما جعل الخليفة العباسى المتوكل يأمر ببناء الحصون فى دمياط وتنيس والفرما وأنفق على ذلك أموالا عظيمة، ومن هذه اللحظة أصبح الاهتمام عظيمًا بأمر الأسطول وتم إعداد السفن برسمه، وجُعِلت مرتبات

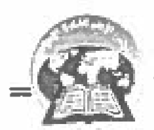
غزاة البحر كمرتبات غزاة البر، وانتُدب له مجيدو الرمى، واختير له القواد من العارفين بمحاربة العدو، واجتهد الناس فى تعليم أولادهم ألوان القتال البحرى، وكان لخدام الأسطول مكانتهم ومنزلتهم، وكان من غزو الأسطول بلاد العدو ما قد شحنت به كتب التاريخ، وقد قام المسلمون بحملات بحرية انطلاقًا من السواحل الشامية والمصرية، وتحول البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرة إسلامية.

لقد كانت أساطيل إفريقية والأندلس تتعاقب على بلاد النصارى فى دولتى الفاطميين والأمويين، وانتهى أسطول الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر إلى مائتى مركب أو نحوها وأسطول إفريقية كان قريبًا من ذلك، وكان قائد الأساطيل بالأندلس ابن (رما حس) ومرفؤها للحط والإقلاع (بجاية فألمرية)، وكان يرجع أمر الأساطيل إلى قائد من النواتية يدبر أمر حرب الأسطول وسلاحه ومقاتلته، ورئيس يدبر أمر جريه بالريح والمجاديف وأمر إرسائه فى مرفئه، وكان هناك أمير واحد من أعلى طبقات أهل المملكة يرجعون كلهم إليه ثم يسرحهم لوجهتهم وينتظر إيابهم..

واشتهر سكان مصر بالمقدرة على بناء السفن، كما تم إنشاء دور لصناعتها فى مصر وبلاد الشام وتونس، وقامت مصر بتزويد الخلافة بالعمال والملاحين وخبراء البحر وبما تحتاج إليه من سفن تم تصنيعها فيها.

لقد أنشئت أول دار صناعة لبناء السفن بمصر سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م فى جزيرة الروضة التى أصبحت تدعى جزيرة الصناعة أو جزيرة مصر، كذلك ازدهرت تلك الصناعة فى القلزم (السويس) وفى الإسكندرية، وحرص المسئولون على توفير وحماية أشجار السنط والقرظ أى ثمر نفس الشجرة التى تحتاج إليها صناعة السفن.

وتذكر المصادر أن الوالى كان يدفع أجور العمال والملاحين مقدمًا، كما كان يفرض على الكور توفير قسم مما تحتاج إليه صناعة وتنظيف السفن والإسهام فى توفير نفقات الملاحين الذين يقومون بإعداد الأسطول، بل وعمل والى مصر على إرسال ملاحين وخبراء للعمل فى أسطول المغرب وأسطول المشرق، وهكذا كان أسطول مصر مزدهرًا من حيث العمليات والتنظيم والبناء فى العصرين الأموى والعباسى.



وعندما استقل أحمد بن طولون بمصر وتوسع فى بلاد الشام، اضطر إلى حماية شواطئه ومواجهة الهجوم البيزنطى والمحافظة على الاتصالات البحرية بين مصر وبلاد الشام، فبنى حصن الجزيرة، وأكثر من بناء السفن، وعنى بدور الصناعة خاصة، وعين لها مشرفين.

وقد قدم المؤرخ المصرى (البلوى) معلومات عن الأسطول وأنواع السفن التى شملت مائة مركب كبار ومائة مركب حربية سوى (العلابيات والحمائم والعشاريات والصنادل وقوارب الخدمة).

ورغم هذا الاهتمام الطولونى، فإن السيادة البحرية كانت للأغالبة فى بلاد الشمال الإفريقى، فقد تمكنوا من هزيمة أسطول بيزنطى واستولوا على (صقلية ومالطة)، وأغاروا على السواحل الإيطالية، ووصلوا حتى إلى (أوروبا).

وقد امتدت العناية الطولونية بالأسطول لتشمل الأسطول التجارى، وأصبحت مصر من أهم مراكز التجارة العالمية وعلت أهمية برزخ السويس، وأصبحت مدينتا الفرما والقلزم (السويس) أكثر الموانى أهمية فى ميدان التجارة العالمية.

وعندما جاء الإخشيد مصر، جاءها من ناحية دمياط بصحبة أسطول واصل مسيرته إلى جزيرة الروضة، ولكنه أنشأ صناعة السفن فى ساحل الفسطاط فى (دار الصناعة الكبرى) واستمرت الصناعة أيضًا فى جزيرة الروضة.

وفى العصر الفاطمى بلغ الاهتمام بالأسطول شوطًا واسعًا منذ النشأة ببلاد المغرب، وتضاعف عند انتقال الفاطميين إلى مصر حيث تم تأسيس ديوان الجهاد أو العماير، كما أقيمت دارٌ للصناعة فى (المقس)، وتم توفير الأخشاب اللازمة لبناء الأسطول، الأمر الذى مكّن ذلك الأسطول من القيام بمعارك ناجحة شرقى البحر الأبيض المتوسط، وفى الشام ضد القرامطة وفى إخماد حركات الثوار بمصر والشام وفى المعارك البحرية ضد البيزنطيين، كذلك كان للأسطول الفاطمى دور مشكور فى إنقاذ الثغور الشامية من هجمات الصليبيين وفى إمدادها بالمؤن والأقوات، وتميزت التنظيمات البحرية وبرزت فى عهد خلفاء تلك الدولة.

وواصل الفاطميون مسيرة الاهتمام بالأسطول التجارى، فعنوا بالطرق البحرية والنهرية داخل البلاد، وأسسوا مراكز للتجارة، ومنحوا اهتمامًا للتجارة الخارجية بينهم وبين الدولة البيزنطية

وبين المدن الإيطالية، وللتجارة مع الأقطار الإسلامية، ومع الشرق الأقصى والصين وبلاد ما وراء النهر.

ويتضح من سجلات الأسطول أن قادته كانوا عشرة يعين أحدهم رئيسًا للأسطول ويساعده المقدم والقاوش. وكانت عدة الأسطول فى زمن المعز لدين الله تزيد على ستمائة قطعة، وفى آخر الدولة الفاطمية صارت نحو ٨٠ شونة وعشرة مسطحات وعشر حمالات، وكان الرجال يحضرون إلى الأسطول بواسطة النقباء، وتقرر لهم المرتبات الشهرية والجرايات.

أما فى الدولة الأيوبية فقد عنى (صلاح الدين الأيوبى) بأمر الأسطول عناية لم يسبق إليها ولم يلحق بها - اللهم إلا ما كان من أمر الظاهر بيبرس- فكان فى القاهرة دور لصناعة السفن، وكان بناء الشوانى والمراكب النيلية يتم فى (دار خديجة) وفى دار الزبيب، وكان إنشاء الحربيات والشلنديات يتم بدار صناعة الجزيرة، وكان بها دهليز بمصاطب مفروشة بالحصر؛ وتمثل ديوان الجهاد، وقد ظلت هذه الصناعة عامرة بمصر إلى ما بعد سنة سبعمائة هجرية/ ١٣٠٠م.

ويؤكد (على مبارك) أن دار صناعة السفن كانت من العمارات الفاخرة، وأن محلها تجاه قنطرة السد الموصلة على قصر العينى، وقد أقيم مكانها (بستان ابن كيسان) الذى يقع أوله عند زواية الحبيبى.

وقد خصص (صلاح الدين) إيراد الفيوم بمصر لهذه الصناعة، وهيأ لها أخشاب الغابات فى البهنسا وفايد وصفط رشين والأسيوطية والأخميمية والقوصية حيث كانت أخشاب لا تحصى من شجر السنط التى خصص حراس لحمايتها، فلا يؤخذ منها إلا لصناعة المراكب، وبلغ ثمن العود الواحد منها مائة دينار، وكان الديوان هو المتصرف الوحيد فى القرظ الذى هو ثمر شجر السنط، كذلك أفرد صلاح الدين لديوان الأسطول ما يتم تحصيله من أموال التركات فى مصر والحبس الجيوشى بالبرين والنطرون والخراج وساحل السنط واشناى وطندى وكلتاهما قرية بالصعيد، كما وجدت فى بعض المناطق غابات كانت مصدر أخشاب بناء السفن والقلاع، كذلك خُصّص له إيراد النطرون الذى بلغ ثمانية آلاف دينار، ولم يكتف الملك الناصر بإصدار أوامره، بل



باشر بنفسه العناية بالأسطول والموانى وترتيب المقاتلة بها فى الإسكندرية وفى غيرها، وكان يحمل من الإسكندرية إلى دور الصناعة بمصر الخشب والحديد وما يلزم لعمارة الأسطول.

وفى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م كتب صلاح إلى دمياط بترتيب المقاتلة على برجى دمياط والسلسلة بينهما، كما أنفق على سور تنيس شمال بحيرة المنزلة قرب بورسعيد الآن، وأكمل بناء برج بالسويس يسع عشرين قاربًا، ورتب فيه الفرسان، وشرع فى بناء سور دمياط وبرج بها، وبنى أربعة حراريق بمصر برسم بلاد اليمن، كما أمر بتكسير أربعمائة عمود فى الإسكندرية، وأن يلقى بها على شاطئ البحر؛ حتى يمنع تأثير الموج على سور المدينة، وحتى لا يستخدم مرسى لسفن العدو.

ويقرر ابن خلدون أن صلاح الدين لما استرد ثغور الشام من النصارى تتابعت أساطيلهم بصورة عجز عن مواجهتها، واضطر إلى طلب نجدة بحرية من أمير الموحدين الذى رفض طلبه؛ لأنه لم يخاطبه بلقب (أمير المؤمنين)، وهذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل.

ومن المقرر أن المسلمين فى عهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على البحر الأبيض المتوسط من جميع جوانبه وفتحوا سائر الجزائر مثل ميورقه ومنورقه ويابسه وسردانيه وصقلية وقوصره ومالطة وإقريطش وقبرص، وافتتح مجاهد العامرى صاحب دانيه جزيرة سردانيه سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م، وملأت الأساطيل الإسلامية أكثر مناطق البحر الأبيض المتوسط عدة وعددًا، وتقلص الوجود النصرانى.

والواقع أن صلاح الدين أدرك جيدًا أن سلامة مصر تعتمد إلى حد كبير على قوتها البحرية.

وقد أهمل الأيوبيون بعد صلاح الدين أمر الأسطول وحدث نفس الشىء زمن المماليك حتى عهد الظاهر بيبرس، فلم يكن للمماليك نشاط بحرى مع استثناءات قليلة، وكان موقفهم من البحر سلبيًا لأقصى حد، وذلك متوقع من مجتمع قوامه الفرسان خصوصًا بعد هزيمة أسطول بيبرس تجاه شواطئ (ليماسول) سنة ٦٧٠هـ/١٢٧١م. حيث كانت عدة المراكب من الفلاحين والعوام، بل إن لقب (الأسطولى) كان سبة فى أيام الأيوبيين بعد صلاح الدين. لقد تلاشت صناعة السفن بسبب قلة

وجود الأخشاب والمعادن.

وقد أزال المماليك حصون سواحل الشام، وقد دمرت (تنيس) من الموانى المصرية، وخربت (دمياط) ثم أعيد بناؤها، وإن حدث شىء من العناية بالإسكندرية.

لقد أصبح للدول النصرانية السيادة فى المائة الخامسة، وضعف شأن الأساطيل بمصر والشام، وفى المائة السادسة قويت دولة الموحدين واهتموا بالأسطول لأقصى درجة، وكان قائد أسطولهم أحمد الصقلى، ثم ابنه الذى وصلت الأساطيل الإسلامية على يديه من حيث الكثرة والجودة درجة متميزة.

وفى الدولة العثمانية شعر مواطنوها بحاجتهم إلى أسطول بحرى، واطرد تقدم البحرية وأستولى العثمانيون على بعض الجزر والموانى، والتحق بخدمتهم (خير الدين بربروسه) أمير الجزائر فوصل بالبحرية العثمانية إلى القمة، وتحققت انتصارات جعلت للعثمانيين السيادة على البحر الأبيض المتوسط، ولكن الضعف ما لبث أن لحق بالأسطول العثمانى فى نهاية القرن الحادى عشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى بسبب تولية القيادة لأناس ليست لهم خبرة بحرية. وتوالى الضعف حتى قضى على الأسطول العثمانى، وجرت محاولات لاستعادة مجده، لكن شأن الأسطول أهمل تمامًا فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى ١٢٩٥- ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٨- ١٩٠٩م، وجرت تطورات إلى أن ألغيت وزارة البحرية ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٧م، وأصبح وزير الدفاع مسئولاً عن المسائل البحرية.

أ.د/عبد الله محمد جمال الدين

هوامش:

(١) مقدمة ابن خلدون، ج٢، ص٥٦٥، من طبعة على عبد الواحد وافى .

مصادر ومراجع للاستزادة:

_ دائرة المعارف الإسلامية، مادتا (سفينة)و (بحرية).
- عبد الله محمد جمال الدين: السفن والأسطول فى عهد الملك الناصر صلاح الدين الأيوبى، القاهرة، ١٩٩١م.
- السيد الباز العرينى (الأستاذ الدكتور): مصر فى عصر الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٠م.
- الأمير شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط، القاهرة، ١٣٢٥هـ.
- محمد ياسين الحموى: تاريخ الأسطول العربى، دمشق ١٩٥٤م.
- حسنين محمد ربيع (الأستاذ الدكتور): النظم المالية فى مصر زمن الأيوبيين، القاهرة، ١٩٦٤م.
- تاريخ البحرية المصرية- مجموعة من أساتذة جامعة الإسكندرية، الإسكندرية ١٩٧٣م.
- إبراهيم أحمد العدوى: الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط، القاهرة، ١٩٥٧م.

وعن أنواع السفن ومواصفاتها يمكن مراجعة:

- درويش النخيلى: السفن الإسلامية على حروف المعجم، الإسكندرية ١٩٧٤م.
- وكذلك عبد الفتاح عبادة: سفن الأسطول الإسلامى .

مراجع أوروبية للاستزادة:

- **Dozy R.P.A**: Supplment aux Dictinnaires Arabes. Leyden 1881
- **Zoc olden Bourg**: Les croisades.
- Las cruzadas, Barcelona, Espana 1994. تحت عنوان: Margarita Aguya ترجمه للأسبانية

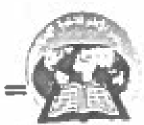
الإسماعيلية

إحدى فرق الشيعة. ظهرت منذ أواسط القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى. وترى -شأنها شأن الشيعة الاثنا عشرية- أن الإمامة من أصول الإيمان وأنها تقررت بالنص، وهى وراثية. وتتفق الإسماعيلية مع الاثنا عشرية على صحة إمامة الأئمة الستة الأول ابتداء من على بن أبى طالب إلى جعفر الصادق - رضى الله عنهم- لكن الخلاف وقع بين الفريقين حول أى من أبناء جعفر الصادق أحق من أخيه بالإمامة : إسماعيل أم موسى؟ وقد تبع أغلب الشيعة - بعد جعفر- موسى، بينما تبع آخرون محمد بن إسماعيل لأنه ينبغى أن يكون الإمام بعد أبيه (إسماعيل) الذى كان جعفر قد نصّ عليه ولكنه توفى فى حياة أبيه، ومن ثم لابد - فى معتقدهم -أن تنتقل الإمامة إلى أكبر أبناء إسماعيل (محمد)، فسميت هذه الفرقة بالإسماعيلية.

وزعموا أن محمد بن إسماعيل قائم حىّ وأنه مستتر، لن يلبث طويلاً حتى يظهر لكى يملأ الأرض عدلاً، وظلّوا على هذا المعتقد حتى ظهر عبيد الله المهدى الفاطمى بالمغرب وادّعى لنفسه الإمامة، كما سيأتى .

وقد ضمت فرقة الإسماعيلية منذ نشأتها عددًا كبيرًا من القيادات المتطرفة فى التشيع وغدت استمرارًا لحركات الغلوّ فيه، وظهر هذا الغلّو فى حركة القرامطة الإسماعيلية، التى سنتحدث عنها بعد قليل.

ويعدّ الإمام هو المحور الذى تدور حوله عقائد الإسماعيلية، فالدين أمر مكتوم لا يعرف إلا عن طريق إمام مختار عنده علم التأويل وتفسير ظواهر الأمور والنصوص. والإمام قد يكون مستورًا وقد يكون ظاهرًا، فإن كان مستورًا فدُعاته ظاهرون، وإن كان ظاهرًا فدعاته مستورون. وهناك أدوار لستر الأئمة وظهورهم، فدور الستر يبدأ بمحمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق، وظل الأئمة فيه مستورين حتى جاء دور آخر بظهور الإمام عبيد الله المهدى فى بلاد المغرب (٢٩٦هـ/٩٠٩م) حيث أنشأ الدولة الفاطمية التى سيطرت بعد ذلك على مصر فى سنة(٣٥٨هـ=٩٦٩م) فى خلافة المعز لدين الله وغدت بذلك منافسًا عنيدًا للخلافة العباسية.



ويبدو تاريخ الإسماعيلية فى مبتدأ أمرهم وحتى ظهور الدولة الفاطمية فى المغرب غامضًا إلى حد كبير فى المصادر التاريخية المعتمدة، فقد نقلت تلك المصادر أخبار الإسماعيلية من خصومهم، وكان " النديم" فى الفهرست (ص ١٨٦- ١٨٨) أول من نقل عن واحد من ألدّ أعدائهم وهو عبد الله بن رزام فى كتابه " النقض على الباطنية"، وتبعه المسعودى فى "التنبيه والإشراف " (ص ٢٩٥- ٣٩٦) ثم جاء الدور بعد ذلك على رجل من أشدّ خصومهم هو الشريف " أخو محسّن" الذى ألف كتابًا مفصلاً اعتمد فيه على ما أورده " ابن رزام " حتى منتصف القرن القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، ثم أضاف الشريف أخو محسن الأحداث التى توالت بعد ذلك بنحو خمس وعشرين سنة (توفى الشريف أخو محسن فى دمشق حوالى ٣٧٥هـ/٩٨٥م).

ولا زال كتاب ابن رزام وكذلك كتاب الشريف أخى محسن مفقودين، لكن ثلاثة من كبار المؤرخين المصريين نقلوا عن كتاب أخى محسن أجزاء كاملة تتعلق بتاريخ الإسماعيلية وأصول عقائدهم، وهم : النويرى فى كتابه " نهاية الأرب" (٢٥: ١٨٧- ٣١٧)، وابن الدوادارى فى كتابه " كنز الدرر (٦- ٦ وما بعدها، ١٧- ٢١: ٤٤- ١٥٧) والمقريزى (اتعاظ الحنفا ١: ٢٢- ٢٩، ١٥١- ٢٠١، الخطط ٣٩١/١- ٣٩٧).

ويمكننا وفقًا لرواية تلك المصادر إجمال تطور الدعوة الإسماعيلية على النحو التالى : تمحض نشاط دعاة الإسماعيلية فى أواخر القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى عن أحداث ووقائع مريرة للخلافة العباسية كان من أهمها حركة، " القرامطة" التى بدأت فى " البحرين" القديمة التى تمثل فى الوقت الحالى جزءًا من المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، فقد أصابت دعوة الإسماعيلية نجاحًا ملحوظًا فى " القطيف" عاصمة البحرين وأعظم مدنها فى الإسلام (ياقوت ، " معجم البلدان). وهناك برز زعيمهم " أبو سعيد الحسين ابن بهرام الجنابى" فالتفوا حوله وأغاروا على المناطق المجاورة حتى قرب بعضهم من " البصرة" فى سنة ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م.

ويُعَدُّ قرامطة البحرين امتدادًا لحركة الدعوة الإسماعيلية التى قادها " حمدان قرمط بن الأشعث" فى المناطق المحيطة بالكوفة وجنوب العراق حوالى سنة

٢٦١هـ/ ٨٧٥حيث قبل كثير من الناس الانضواء تحت راية الإسماعيلية فعرفوا بالقرامطة نسبة إلى زعيمهم حمدان قرمط الذى ما لبث أن أنشأ مركزًا قويًا أسماه "دار الهجرة" بالقرب من الكوفة تنبهت معه الخلافة العباسية إلى خطورة ما يجرى هناك.

وتواصلت غارات القرامطة على قوافل الحاج حتى هاجموا مكة نفسها فى موسم الحج سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، وأمرهم زعيمهم فى ذلك الوقت " أبو طاهر سليمان بن أبى سعيد الجنابى" فقتلوا من الحجاج نحو ثلاثين ألفًا ثم خلعوا باب الكعبة وسلبوا كسوتها واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه، وحملوه معهم إلى الأحساء فبقى عندهم نحو اثنين وعشرين سنة ثم أعادوه إلى مكة[١].

كانت اليمن بدورها قاعدة مهمة من قواعد الدعوة الإسماعيلية تولى أمرها منذ البداية داعيهم ابن حوشب المعروف بمنصور اليمن وأخذ فى الترويج لها علانية منذ سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م وأقام لها مراكز فى الجبال فانتشرت الدعوة بين القبائل اليمنية المهمة وتم لها السيطرة على صنعاء وبالتالى أغلب مناطق اليمن فى سنة ٢٩٣هـ/ ٩٠٦م. غير أن إسماعيلية اليمن عجزوا فى العقود التالية عن الحفاظ على إنجازاتهم العسكرية فسلموا أجزاء مهمة من المناطق التى سيطروا عليها إلى الزيدية التى كانت قد أنشأت حكومة مستقلة فى اليمن فى سنة ٢٨٠هـ/ ٨٩٣م[٢].

وانتقلت الدعوة من اليمن إلى نواح مختلفة من شبه الجزيرة العربية وإلى " السند" فى شبه القارة الهندية (فى سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م) ومن ثمَّ إلى مناطق أخرى من الهند .

وفى سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. بعث ابن حوشب من اليمن بالداعى" أبى عبد الله الشيعى " إلى المغرب فاستطاع أن يمهد لتأسيس الدولة الفاطمية هناك[٣].

الدعوة الإسماعيلية فى عهد الخلافة الفاطمية :

ظل الإسماعيلية حتى نشأة الخلافة الفاطمية فى المغرب يعتقدون بأن محمد ابن إسماعيل لم يمت وأنه سيظهر ليملأ الأرض عدلاً، لكن قيام الخلافة الفاطمية أحدث انشقاقًا فى صفوف الإسماعيلية إذ بقى بعضهم محافظًا على عقيدته فى محمد بن إسماعيل وبالتالى لم يعترف بالخلفاء الفاطميين باعتبارهم أئمة، بينما اعتقد آخرون فى إمامتهم

وفى أن هناك أئمة من أبناء محمد بن إسماعيل انتقلت الإمامة فيهم بالتتابع من الأب إلى الابن الأكبر فى دور الستر حتى ظهر الإمام عبيد الله المهدى مؤسس الخلافة الفاطمية وبدأ به دور الظهور.

كان القرامطة من بين المنكرين للأئمة الفاطميين، الأمر الذى دفع هؤلاء الأئمة إلى تأسيس جهاز محكم للدعوة الفاطمية فى كل أنحاء الأرض وبخاصة فى الشرق الذى ظل الإسماعيلية فيه مترددين بين التمسك بعقيدتهم القديمة فى محمد بن إسماعيل والاعتراف بالفاطميين كأئمة لهم، ولهذا نشطت الدعوة هناك وحققت أول نجاح لها فى عهد الخليفة الفاطمى المعز لدين الله حين تمكن الدّعاة من إنشاء دولة إسماعيلية (فاطمية) فى الملتان فى سنة ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م، ولكن السلطان محمود الغزنوى قضى عليها فى سنة ٤٠١/١٠١٠م.

وكان الوزير "نظام الملك الطوسى" أهم من عنى بتاريخ الدعوة الإسماعيلية وانتشارها فى الشرق، فقد تتبع - فى كتابه "سياستنامه" (أى كتاب السياسة) - دعاتهم الذين نشطوا فى أواخر القرن الثانى وأوائل القرن الثالث الهجريين / الثامن والتاسع الميلاديين فى الشمال الغربى.[٤]

واستطاع الحسن بن الصباح - أحد دعاة الإسماعيلية الفاطمية ودهاتهم - فى سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م - أن يؤسس دولة قوية فى المنطقة الجبلية الواقعة فى جنوب بحر قزوين ويجعل من قلعة "ألموت" المنيعة عاصمة لها، وأنشأ منظمة إرهابية أطلق على أعضائها اسم "الفداوية" كان نشاطها قائمًا على اغتيال المناوئين من الشخصيات البارزة حتى إنهم اغتالوا عددا من الخلفاء والسلاطين والوزراء، وكان الوزير الكبير: نظام الملك الطوسى "أول ضحاياهم، فقد قتلوه غيلة فى سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢. وألقى الفداوية الرعب فى المنطقة طيلة الفترة التى عاشتها دولة الإسماعيلية فى إيران حتى قضى عليها المغول بقيادة هولاكو سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م.

انقسام الإسماعيلية الفاطمية

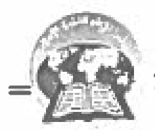
أصيبت وحدة الحركة الإسماعيلية بعد وفاة الخليفة الفاطمى المستنصر سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م بالتصدع والانشقاق. وكان المستنصر قد أوصى قبل موته بتولى ابنه الأكبر "نزار"، ولكن ابنه الآخر "المستعلى" نازع نزارًا على الإمامة والعرش وقاتله وهزمه وتربع مكانه،

وتبعه أغلب الإسماعيلية فى مصر وفى كل من اليمن والسند وإيران التى قطع الإسماعيلية فيها علاقتهم المذهبية بالخلافة الفاطمية فى القاهرة بعد رفضهم إمامة المستعلى وقولهم إن نزارًا هو الأولى بالإمامة، فعرفوا منذ ذلك الحين بالنزارية وبدا أن إسماعيلية الشرق أصبحوا نزاريه بينما أصبح إسماعيلية الغرب مستعلوية. وتفرقت بهم السبل فى الأحكام المذهبية، ونشأت الخصومة بينهم.

وحين توفى الإمام المستعلى ولى الإمامة ابنه الآمر بأحكام الله، وله من العمر خمس سنوات، فكان فى كفالة الوزير الأفضل بن بدر الجمالى ثم كفالة أحمد ابن الأفضل فاستبدًا بالسلطان فى البلاد، ثم تولى الوزير مأمون البطائحى فاستبد بالسلطة كلها. وكان الآمر قد شبّ وكثر عبثه، وفى يوم من أيام سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م بينما كان الآمر يعبر الجسر المؤدى إلى جزيرة الروضة بالقاهرة هاجمه بعض فداوية الإسماعيلية وقتلوه.

كان مقتل الإمام الآمر بداية صفحة جديدة فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية، ذلك أنه لم يخلف ولدًا يتولى الإمامة من بعده، فعُيِّن عمه الحافظ عبد المجيد بن المستنصر إمامًا بالنيابة أو إمامًا "مستودعا" على حسب اصطلاح الإسماعيلية، ولكن سرعان ما دعا الحافظ لنفسه بالإمامة الكاملة، على الرغم من مخالفة ذلك للعقيدة الإسماعيلية، وكان ضعف الخلافة الفاطمية قد بلغ مداه فى عهد الحافظ ومن جاء بعده حتى تمكن صلاح الدين الأيوبى من تقويض أركان دولتهم فى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وإعادة الخطبة فى مصر للخليفة العباسى، وبذلك انقرض هذا الفرع - أعنى المستعلوية من مصر ولم يعد له وجود [٥].

لكن كان هناك فرع آخر من المستعلوية باليمن سموا " الطيبية " نسبة إلى الإمام " الطيب بن الآمر" الذى قالوا إنه ولد قبل مقتل أبيه الآمر ببضعة أشهر[٦] ، فخاف عليه أحد الدعاة فأرسله إلى اليمن لكى يكون فى كفالة الملكة التى تحكم البلاد هناك. فالإمامة إذن لهذا الطفل. وقد ساعدت الملكة أروى بنت أحمد - التى تولت حكم الدولة الصليحية فى اليمن- على تدعيم الدعوة الطيبية هناك حين أعلنت - بصفة رسمية - أن الطيب بن الآمر بأحكام الله هو الإمام الحادى والعشرون للإسماعيلية



المستعلوية.

كانت التجارة التقليدية بين اليمن والهند وقِدَمُ وجود الإسماعيلية هناك هى التى هيأت الفرصة لنشر دعوة الإسماعيلية الطيبية فى الهند ولا سيما فى ولاية "كجرات" جنوب" مومباى"، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى صار لها كثير من الأتباع هناك، وعرفت الدعوة باسم "البُهْرة" وهى كلمة هندية معناها "التاجر".

ولم تسلم الجماعة الطيبية نفسها من الانقسام فلم يلبث أن دب الخلاف بين أنصارها عقب وفاة الداعى المطلق داود ابن عجب شاه فى سنة ٩٩٩هـ/ ١٥٩١م الذى كان يتمتع. بحكم موقعة كداع مطلق . بسلطة روحيه تامة على أتباع الدعوة ؛ وهى مرتبة وراثية تنتقل من أب إلى ابن ، وصاحبها يتمتع بالصفات نفسها التى يتمتع بها الأئمة، ولكنها صفات غير وراثية".

انقسمت الطيبية إلى فرقتين: الداوودية والسليمانية، فقبل أكثر البهرة الطيبية فى الهند داود بن برهان الدين (ولد سنة ١٠٢١هـ/ ١٦١٢م) داعية خليفة لداود بن عجب شاه فعرفوا منذ ذلك الوقت بالداوودية بينما اعترف أغلب الطيبية فى اليمن وبعض البهرة بسليمان بن حسن الهندى (ولد سنة ١٠٠٥هـ/ ١٥٩٧م) داعيًا مطلقًا فعرفوا بالسليمانية.

وقد تمسك " البهرة " بالتقاليد التى ورثوها منذ عهد الصليحيين وتمكنوا من الحفاظ على شطر كبير من المؤلفات الدينية والأدبية التى وضعها العلماء والدعاة فى مصر فى العصر الفاطمى، بينما ضاعت هذه الكتب فى مصر نفسها، كما حافظوا على الكتب التى وضعها دعاة الإسماعيلية فى إيران واليمن فى العصر الفاطمى وأطلقوا عليها اسم " الخزانة المكنونة" ولكنهم مع ذلك قلّما يسمحون لأحد : حتى من أتباع المذهب . بالاطلاع عليها . وقد نشرت فى مصر وسوريا والعراق منذ منتصف القرن العشرين أعداد لا بأس بها من هذه الكتب قام على تحقيقها مجموعة من كبار العلماء العرب وغيرهم (٧). فلما تم نشر هذه الكتب بدا أن دورًا جديدًا فى دراسة حقيقة الدعوة الإسماعيلية قد بدأ بالفعل وذلك اعتمادًا على المؤلفات التى ألفوها بأنفسهم عن تاريخهم ومعتقداتهم لا على ما كتبه خصومهم.

ويقدَّر عدد أتباع الداوودية فى العالم

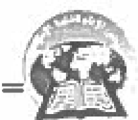
بنحو نصف مليون نسمة حسب إحصاء ١٤١٩هـ/١٩٩٨م [٨] . ويعيش أغلبهم فى الهند ، وتوجد أعداد متفرقة منهم فى باكستان واليمن ودول الشرق الأقصى . وكان البهرة الداوودية- شأنهم فى ذلك شأن الإسماعيلية النزارية من الهنود (خوجه) . من بين الطوائف الأسيوية التى هاجرت إلى " زنجبار " والساحل الشرقى لإفريقيا فى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى. غير أن جماعات من الإسماعيلية الهنود (البهرة والخوجة) غادرت مهجرها القديم فى شرق إفريقيا وخاصة كينيا وتنزانيا وبدأت منذ بضعة عقود فى الهجرة بالتدريج إلى أوروبا وأمريكا الشمالية [٩].

الإسماعيلية النزارية فى ألموت .

كان الإسماعيلية فى إيران قد قطعوا علاقتهم المذهبية بالخلافة الفاطمية بمصر بعد أن نادى الفاطميون فيها بالمستعلى إمامًا بدلاً من نزار الذى تمسك بإمامته إسماعيلية " ألموت " فعرفوا منذ ذلك الحين بالنزارية ومضوا شوطًا بعيدًا فى الأخذ بتأويل الشريعة تأويلاً بلغ أقصى درجاته عندهم فى عهد ملكهم الحسن بن محمد ، وذلك برفع التكاليف الشرعية كلها عن الناس وإنزال العقوبات الصارمة بمن يواظب على أداء العبادات.

وكان إسماعيلية ألموت قد تزعموا فرقة النزارية ونشروا مبادئها فى أرجاء مختلفة من إيران والعراق والشام التى أرسل إليها الحسن بن الصباح دعاته منذ سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م بعد أن أستتب له الأمر وأسس للإسماعيلية دولة تعتمد على مجموعة من القلاع المنيعة حاضرتها قلعة "ألموت". وتتابع حكام تلك الدولة التى استمرت مدة تبلغ ١٧١عامًا حتى قضى عليها هولاكو فى سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م [١٠] .

وبعد انقضاء دولة الإسماعيلية فى ألموت دخل أئمة الإسماعيلية النزارية فى دور الستر. ثم إنهم انقسموا بعد ذلك إلى فرقتين بعد وفاة شمس الدين محمد- الإمام النزارى الثامن والعشرين فى سنة ٧١٠هـ - ١٣١٠م؛ كل فرقة منهما تدعى إمامة واحد من ابنى شمس الدين : مؤمن شاه وقاسم شاه، فأطلق على الأولى "مؤمن شاهين " (أو محمد شاهية) وعلى الثانية " قاسم شاهية ". ويوجد أتباع النزارية المؤمن شاهية الآن فى سوريا فى نواحى مصياف وقدموس ، ويعرفون بالجعفرية وهم ينتظرون ظهور إمامهم



المستور ويتبعون الأحكام الشرعية لمذهب الإمام الشافعى.

أما فرع النزارية القاسم شاهيه" فقد التزم أتباعه - وبخاصة فى إيران - بمبدأ التقية خلال انخراطهم فى التصوف وتشبَّه أئمتهم بأقطاب الصوفية واستخدموا مصطلحات المرشد والشيخ وبير(أى الشيخ بالفارسية). وقد حققت دعوة القاسم شاهية نجاحًا ملحوظًا فى الهند، حيث قبل كثير من الهندوس مذهبهم ولقبوا بـ" خوجه".

وكان بعض أئمة القاسم شاهية قد شاركوا فى الحياة السياسية فى إيران فى القرن الثامن عشر وأطلق عليهم منذ ذلك الحين لقب " أغاخان ". وظلوا طيلة الوقت يحضون أتباعهم على سداد التزاماتهم المالية التى يقررها عليهم مذهبهم إلى الإمام كدليل على طاعتهم له وإيمانهم به.

وكان أغاخان الأول قد غادر إيران إلى أفغانستان ثم إلى الهند حيث اتخذ من مدينة مومباى مقرًا دائمًا له فى سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م. وأقام علاقات طيبة مع الإدارة الإمبراطورية البريطانية فى الهند.

ويبلغ عدد الإسماعيلية النزارية القاسم شاهية بضعة ملايين يعيشون فى بعض الدول الآسيوية كالهند وباكستان وبنجلاديش والصين وأفغانستان وإيران وسوريا وتاجيكستان. بينما تعيش مجموعات متفرقة منهم فى بعض الدول الإفريقية، وقد بدأت أعداد كبيرة من خوجه الهند وباكستان وإفريقيا فى الهجرة إلى أمريكا الشمالية وإنجلترا منذ حوالى سنة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

أ.د/محمد السعيد جمال الدين

الهوامش

(١) ابن الاثير، الكامل ٨ حوادث السنة المذكورة؛ وثابت بن سنان، تاريخ أخبار القرامطة، وعطا ملك الجوينى، جها نكشاى ٣: ١٥٣ .

(٢) القاضى النعمان ، افتتاح الدّعوة ٣٢- ٣٧ .

(٣) البيان المغرب ١: ١٢٤- ١٢٩، ١٣٧- ١٦٥ طبع بروفنسال، وابن الأثير فى حوادث سنة ٢٩٦ ، وابن خلكان فى حرف الحاء، الحسين بن أحمد ، الجزء الأول.

(٤) سياستنامه، ص ٢٧٩ وما بعدها .

(٥) محمد كامل حسين، طائفة الإسماعيلية ، ص ٤٨ .

(٦) ابن ميسر، ١٠٩- ١١٠.

(٧) راجع : محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ٥٥- ٥٧ .

(٨) دفترى ، إسماعيلية، دائرة المعارف الإسلامية الإيرانية ٨: ٦٨١ - ٧٠٢ .

(٩) دفترى أيضًا..

(١٠) راجع : محمد السعيد جمال الدين ، دولة الإسماعيلية فى إيران ص ١٦٣هـ- ٢١٨ .

مصادر ومراجع للاستزادة :

- ابن الأثير ، عز الدين أبو حسن على، الكامل فى التاريخ، الجزء الثامن، طبع بيروت عن مطبعة ليدن ١٨٥٣م.
- ثابت بن سنان ، تاريخ اخبار القرامطة ، تحقيق سهيل زكار، دمشق ١٩٨٢م.
- الجوينى، عطا ملك، تاريخ جهانكشاى، المجلد الثالث ، تحقيق محمد بن عبد الوهاب القزوينى (بالفارسية)، ليدن ١٩٣٧.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨.
- دفترى، فرهاد، إسماعيلية، مقال بدائرة المعارف الإسلامية الإيرانية " بالفارسية " المجلد الثامن ص ٦٨١- ٧٠٢ طهران ١٣٧٧.
- ابن الدوادارى، أبو بكر ، كنز الدرر ، الجزء السادس ، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١.
- الطبرى ، محمد بن جرير ، تاريخ الرسل والملوك، الجزء العاشر، طبع مصر.
- ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، باهتمام ليفى بروفينسال ، ليدن ١٨٤٨.
- القاضى النعمان ، افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، بيروت ١٩٧٠.
- محمد السعيد جمال الدين . دولة الإسماعيلية فى إيران ، الطبعة الثانية، الدار الثقافية للنشر مصر ١٩٩٩م.
- المسعودى، على ، التنبية والإشراف ، طبع دى خويه، ليدن ١٨٩٣م.
- المقريزى، تقى الدين احمد، اتعاظ الحنفا، تحقيق جمال الدين الشيال، مصر ١٩٤٨م. ايضًا ، الخطط ، مصر ١٣٢٤هـ.
- محمد كامل حسين ، طائفة الإسماعيلية ، مصر ١٩٥٩.
- ابن ميسر ، محمد بن على ، اخبار مصر. باهتمام هنرى ماسيه، مصر ١٩١٩.
- النديم ، محمد بن إسحاق ، الفهرست ، ليبزج ١٨٧١.
- نظام الملك ، سياستنامه ، طهران ١٣٣٤هـ.
- النويرى ، أحمد ، نهاية الأرب، ، تحقيق محمد جابر عبد العال، القاهرة ١٩٨٤.

الإسماعيلية فى اليمن (دولة)

شهدت بلاد اليمن خلال النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى نشاطاً ملحوظاً للدعوة الإسماعيلية؛ تلك الدعوة التى تُنسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق المتوفى سنة (١٤٥ هـ / ٧٦٢م) . وكان نشاط هذه الدعوة على يد الداعيين الإسماعيليين أبى القاسم رستم بن الحسين ابن حوشب، وعلى بن الفضل اليمانى ، حيث التقى الاثنان بالإمام الإسماعيلى المستور الحسين بن أحمد فى الكوفة ، وكلفهما بنشر المذهب الإسماعيلى فى اليمن ، وبعد مرحلة من التلقى لتعاليم الدعوة وأسرارها ، ذهبا إلى اليمن فى سنة (٢٦٨ هـ / ٨٨١). وتذكر بعض المصادر اليمنية أنهما اتصلا بميمون القداح ، وليس بالإمام المستور الحسين ابن أحمد .

فإذا علمنا أن ميمون القداح كان حجة للإمام الحسين بن أحمد . أمكننا التوفيق بين هذه الروايات ، فلا يصبح هناك تناقض بينهما ، فلعل ابن حوشب وعلى بن الفضل بعد صدور التكليف إليهما من الإمام المستور الحسين بن أحمد ، قد جلسا إلى ميمون القداح حجة الإمام ، وفيلسوف الدعوة ليحفظا عنه أسراره وطرق تلقينها للمستجيبين إليهم من أهل اليمن ، وواضح من المستوى الفكرى الذى بلغه ابن حوشب ، أنه خضع لتدريب كبير ، وتلقن الكثير من أسرار الدعوة ، ودقائق مذهبها ، وقد أهّله هذا المستوى الفكرى الرفيع فى مجالات الدعوة إلى أن يؤسس فى اليمن مدرسة للدعاة وتتلمذ فيها أبو عبد الله الشيعى، الذى قام بنشر المذهب الإسماعيلى فى بلاد المغرب، يدل على ذلك ما ذكر فى عيون الأخبار ، من أن الإمام فى سَلَمْية أرسل أبا عبد الله الشيعى إلى اليمن ، وأمره " أن يحذو حذو ابن حوشب، ويتبع سيرته، ويأتمر بأمره فى جميع أحواله " .

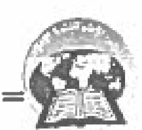
اتجه ابن حوشب بعد وصوله إلى اليمن إلى "عدن لاعة "، التى كانت تضم أعداداً كبيرة من الشيعة فبايعوه ، وأخذ عليهم العهد بمناصرته ، وكانوا خمسمائة رجل ، قوى بهم أمره ، وابتنى بما جمعه منهم من زكاة وصدقات ، حصناً كبيراً فى موضع بجبل لاعة يقال له (عبر محرم) .

اتسع نفوذ ابن حوشب ، ونجح فى ضم جهات كثيرة من اليمن فى غرب صنعاء إليه، فاستولى على جبل الحميمة ، ورأس مسور ، وبلاد عيبان ، وبنى شاور ، وحملان ، وفاذر وشبام حمير ، وجبل كوكبان، ودورم" ومازال يحوز المعاقل ، ويملك مدن اليمن الجلائل ، وأقبل الناس إليه طوعاً وكرهاً ... وقويت فى أرض اليمن دعوته وعلت كلمته " . ولم يكتف ابن حوشب بذلك بل جعل من اليمن – كما ذكرنا – مدرسة كبرى لتدريب الدعاة ، وتوجيههم إلى جهات العالم الإسلامى ينشرون فى أنحائه المذهب الإسماعيلى ، فأرسل داعياً يعرف بالهيثم إلى بلاد السند، وأرسل إلى مصر الداعى أبا القاسم محمد بن عبد الله بن العباس، وبعث إلى بلاد المغرب أبا عبد الله الداعى الشيعى .

أما على بن الفضل فنزل "سرو يافع" ، وهناك أظهر التنسك ، وتظاهر بكثرة العبادة ، حتى افتتن به الناس وقلدوه أمرهم وجعلوا حكمهم إليه فسألوه أن ينزل من ذلك الجبل ، ويسكن بينهم فقال : " لا أفعل هذا ولست أسكن بين قوم جهال ضُلال إلا أن يعطونى العهود والمواثيق ألا يشربوا الخمر ففعلوا له ذلك، وأنهم ينكرون المنكر وينكرون على أهل المعاصى بأجمعهم ، فلم يزل يخدعهم حتى بلغ إلى إرادته ، وأمرهم ببناء حصن فى ناحية سرو يافع فأطاعوه وسمعوا لأمره " .

قدر للحركة الإسماعيلية أن تزدهر وتنشط ، فلاقى على بن الفضل كثيراً من النجاح على خصومه السنيين آل يعفر الحواليين فى صنعاء ، فاستولى عليها ، وضمها إلى مناطق نفوذه سنة (٢٩٧ هـ / ٩٠٩م) . وأضاف إليها جهات أخرى تابعة لبنى زياد ، امتد إليها سلطانه كالمهْجم والكدراء وزبيد . كما أحرز انتصارات أخرى عديدة على الزيدية الذين حاولوا بقيادة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين – مؤسس دولة الأئمة الزيدية فى اليمن – زحزحته دون جدوى عن صنعاء، ولكنه تمكن من التصدى لهم . واتخذ على بن الفضل من مدينة "المديخرة" التى كانت تقع على المرتفعات العليا المطلة على وادى زبيد عاصمة للدولة الإسماعيلية الوليدة .

وأمام هذه الانتصارات الكبرى التى أحرزها الاتجاه الشيعى الإسماعيلى ، أرسل ابن حوشب – الذى لقبه الإسماعيلية فى هذه الآونة (منصور



اليمن) - إلى عبيد الله المهدى الإمام المستور فى سلمية بالشام يخبره بأن بلاد اليمن أصبحت مستعدة ومهيئة لاستقباله لإقامة دولة المهدى فيها ، وكانت المخاطر فى ذلك الوقت كثيرة تحيط بالمهدى من كل جانب فى سلمية ، والعباسيون يجدُّون فى طلبه ، وبات محتماً عليه أن يرحل عن الشام . وفى نفس الوقت ، كانت الدعوة الإسماعيلية فى بلاد المغرب تلاقى نجاحاً كبيراً ، حيث نجح أبو عبد الله الداعى فى القضاء على مجموعة الدول الإقليمية فى بلاد المغرب ، ويلح هو الآخر فى استدعاء المهدى إلى بلاد المغرب ، حيث القوة والأمن والأمان .

كان على عبيد الله المهدى أن يختار بين اليمن أو بلاد المغرب لإقامة دولته، والذى يبدو أن عبيد الله المهدى فضل بلاد المغرب على اليمن ، وأنه أظهر أنه يريد اليمن عند خروجه سراً من سلمية . إن بلاد المغرب كانت أكثر أماناً لإقامة الدولة الإسماعيلية بها ، فأبو عبد الله الداعى قضى على الأغالبة ممثلى الخلافة العباسية فى بلاد المغرب . ولم يكتف بذلك بل قضى أيضاً على الدولة الرستمية الأباضية الخارجية سنة (٢٩٦هـ/ ٩٠٨م) . واستولى على دولة الخوارج الصفرية فى سجلماسة . وضم إليه دولة الأدارسة العلوية وعاصمتها فاس. يضاف إلى ذلك أن بلاد المغرب كانت بعيدة عن مركز الخلافة العباسية فى بغداد ، كما أن بلاد الأندلس كانت مقراً للدولة الأموية الثانية وهؤلاء بينهم وبين العباسيين عداء متأصل، وعلى ذلك فليست هناك أية قوة محلية يمكن أن تتعاون مع العباسيين ضد الإسماعيلية هناك ، وتسمح بالقيام بأدنى حد من المقاومة ضد هذه الدعوة الجديدة الوافدة إلى بلاد المغرب .

أما بلاد اليمن، فعلى الرغم من النجاحات الكبيرة التى حققها ابن حوشب وعلى بن الفضل فى ضم أجزاء كبيرة من اليمن إليهما إلا أن عبيد الله المهدى كان يرى أن بلاد اليمن قريبة من بغداد، وأن العباسيين يبسطون نفوذهم على الجزيرة العربية، ولهم ممثلون شرعيون يحكمون أجزاء كبيرة من بلاد اليمن ، ويمثلون فى نفس الوقت الاتجاه السنى القوى الذى يعتنقه الغالبية العظمى من أهل اليمن، وهم بنوزياد فى عاصمتهم زبيد فى تهامه . وآل يعفر الحواليين فلى عاصمتهم صنعاء . وهؤلاء يمكن بسهولة

ان يتعاونوا مع العباسيين للقضاء على دولة عبيد الله المهدى إن هو حاول إقامتها فى اليمن .

يضاف إلى ذلك السبب أن عبيد الله المهدى عمد إلى تحقيق رغبته فى إقامة دولته بالمغرب ، والذى كان قد قال حين بلغه نجاح ابن حوشب وعلى بن الفضل فى نشر الدعوة إلى المهدى فى اليمن : " هذه دولتك قد قامت ، لكن لا أحب ظهورها إلا من المغرب " . وهذا يؤكد وجهة النظر السابقة، والتى تشير إلى أن زعماء الحركة الإسماعيلية فى سلمية كانوا يفضلون بلاد المغرب على اليمن للأسباب التى ذكرناها .

وليس هناك من أدلة صحيحة حول ما ذكره البعض من أن عبيد الله المهدى توجه إلى بلاد المغرب ، وعدل عن إقامة دولته فى اليمن ، بسبب ما بلغه عن انحراف على بن الفضل عن الدعوة الإسماعيلية ، وإساءته السيرة فى بلاد اليمن ، وذلك لأن خروج على بن الفضل ومناهضته للدعوة الإسماعيلية ، كان بعد وصول عبيدالله المهدى إلى بلاد المغرب واستقراره هناك .

وجد على بن الفضل فى اتجاه عبيد الله المهدى إلى بلاد المغرب فرصة كبيرة للاستقلال بملك اليمن والسيطرة عليه ، وعاونه فى ذلك أحد الدعاة المنشقين على عبيدالله المهدى ويسمى فيروز ، وكان هو أيضًا قد سجل اعتراضه على ذهاب المهدى إلى المغرب ، وتخلف عن السير معه، ومضى إلى اليمن ليجد بغيته هناك مع على بن الفضل ، بينما فطن ابن حوشب إلى موقف فيروز عن طريق رسالة أرسلها عبيدالله المهدى إلى ابن حوشب أوضح له فيها موقف الداعى فيروز وعصيانه له ، وكان لهذه الرسالة الأخيرة أثرها الكبير فى مسارعة على بن الفضل إلى إعلانه خلع طاعة عبيد الله المهدى الخليفة الفاطمى فى بلاد المغرب .

على أثر هذه التطورات الأخيرة تردى دعاة الدعوة الإسماعيلية فى اليمن فى صرا ع دموى عنيف ، فقد حاول ابن حوشب أن يعيد على بن الفضل إلى صفوف الدعوة ، وإلى سابق طاعته للإمام المهدى ، فكتب إليه يعاتبه ويقول له : كيف تخلع من لم تنل خيراً إلا به وبركة الدعاء إليه ، أما تذكر ما بينك وبينه من عهود ، وما أخذ علينا جميعاً من الوصية على الاتفاق وعدم الافتراق "؟.

فرد عليه ابن الفضل رافضاً ذلك منه وقال له : " إن لى بأبى سعيد الجنابى



أسوة ، إذ قد دعا إلى نفسه ، وأنت (ابن حوشب) إذا لم تنزل إلى طاعتى وتدخل بإجابتى نابذتك الحرب " .

وتذكر روايات المؤرخين أن ابن الفضل جهز جيشاً من عشرة آلاف رجل من بين الرجال المعدودين فى جيشه حاصر بهم ابن حوشب فى جبل فائش – بالقرب من جبل مسور – ثمانية أشهر ، ولم يفك الحصار عنه إلا بعد أن قدم ابن حوشب ولداً من أولاده ليكون رهينة عند على بن الفضل دلالة على خضوعه واستكانته ، كان ذلك فى سنة (٢٩٩هـ/ ٩١١م) .

وهناك العديد من الروايات التاريخية التى تشير إلى إنحرافات ابن الفضل ومنها ما ذكره الداعى الإسماعيلى المطلق إدريس عماد الدين القرشى فى كتابه عيون الأخبار – فى السبع الخامس – عن ابن الفضل وأنه " فارق الدعوة ، وخرج من الملة ، وباين المتوجهين إلى القبلة ، وادعى النبوة ، وافترى على الله وعلى أوليائه مقتدياً بالمضلين من قبله ، فكانوا له شر أسوة ، واستمال الجهال والرعاع، فكانوا له من الأنصار والأتباع، فارتكب المحارم وأتى بالعظائم، ومال إلى الإباحات ، وترك الأعمال الصالحات ، وكفر بعد إيمانه ، وباء بلعنة الله بكفره وعدوانه مقتدياً بالمغيرة وأبى الخطاب " .

ولذلك شهدت نهاية القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، والسنوات الأولى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى أفول نجم الحركة الإسماعيلية بشقيها الإسماعيلى والقرمطى ، وانطوائها فى دور جديد من أدوار الستر التى كانت تلجأ إليها كلما كانت الأمور حولها تجرى فى غير صالحها . ذلك أن القوى السياسية والشعبية فى اليمن وجهت همتها نحو التخلص من على بن الفضل فتمكن أسعد بن جعفر الحوالى من تجنيد أحد الأشراف الذى كان قد قدم من بغداد وكان طبيباً حاذقاً للطب وصناعة الدواء، فتسلل إلى المذيخرة عاصمة ابن الفضل وذاعت شهرته هناك، فاستدعاه على بن الفضل ليفصده ، ففصده بمبضع مسموم فقتله السم فى الحال ، وكان ذلك فى سنة (٣٠٣هـ/ ٩١٥م) وهرب هذا الشريف ولكن أعوان ابن الفضل أدركوه وقتلوه . وعلى أثر ذلك عمت الفرحة أرجاء اليمن ، ابتهاجاً بتخليصهم من جور ابن الفضل وتطرفه، وأقام أهل اليمن مسجداً فى وادى

السحول فى الموضع الذى دفن فيه الشريف البغدادى وكانوا يزورون هذا المسجد ويتبركون به .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمد اليعفريون، يعاونهم أهل اليمن من صنعاء والجند والمعافرة، إلى التخلص من أعوان على بن الفضل وبقاياه ، وكانت هناك رغبة أكيدة فى استئصالهم من الحياة اليمنية التى رأوا أنهم دنسوها بأفكارهم ومعتقداتهم الخبيثة ، فحاصر أسعد ومن معه مدينة المذيخرة عاماً كاملاً هدم خلاله أكثر دور المدينة بالمنجنيقات ، وفى النهاية سقطت المدينة وقتل أسعد فيها ابناً لعلى ابن الفضل يدعى الفأفاء ، وقتل خواص على بن الفضل وأهله ومن دخل فى مذهبه، وسبى بناته . وطوى اليعفريون وأهل اليمن بذلك صفحة الدولة الإسماعيلية الأولى فى اليمن التى لم تجد بداً من الانتقال من جديد إلى مرحلة الستر ، حيث كان ابن حوشب قد توفى هو الآخر قبل ذلك بعام واحد فى سنة (٣٠٢ هـ /٩١٤م) بعد أن سلّم مقاليد الدعوة إلى الداعى عبدالله بن العباس الشاورى ليمضى بها فى دور جديد من أدوار التقية والتستر.

أ.د / محمد عيسى الحريرى

مصادر ومراجع للاستزادة

١- ابن الأثير : أبوالحسن على بن أحمد بن أبى الكرم محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى (٦٣٠هـ) .

- الكامل فى التاريخ ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥ ، الجزء الخامس ، والجزء التاسع .

٢- الخزرجى : أبوالحسن على بن الحسن الخزرجى (ت : ٨١٢هـ) . العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، نسخة مصورة عن المخطوط الأصلى للمرة الثانية ، طبعة وزارة الإعلام والثقافة اليمنية (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ، دار الفكر ، دمشق .

٣- ابن خلدون : عبدالرحمن (ت : ٨٠٨ هـ) . العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨ ، المجلد الأول ، المجلد الرابع .

٤- ابن الديبع : أبوالضيا عبد الرحمن بن على الديبع الشيبانى الزبيدى (ت : ٩٤٣هـ) ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق : محمد بن على الأكوع الحوالى .

٥- بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق : عبدالله الحبشى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩.

٦- عصام الدين عبدالرءوف : اليمن فى ظل الإسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة، ١٩٨٢ .

٧- محمد عيسى الحريرى : الاتجاهات المذهبية فى بلاد اليمن حتى نهاية القرن الثالث الهجرى ، عالم الكتب ، بيروت، ١٩٩٧

الأغالبة

(١٨٤هـ - ٢٩٦هـ/ - ٨٠٠م/٩٠٨م)

شهد المغرب الإسلامى عدة تطورات سياسية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين/ الثامن والتاسع الميلاديين. وأسفرت هذه التطورات عن قيام عدة دول؛ ففى شرق البلاد أى فى المغرب الأدنى (ليبيا وتونس) قامت دولة الأغالبة، وفى المغرب الأوسط قامت الدولة الرستمية أما فى المغرب الأقصى فقد قامت فى شماله دولة الأدارسة وفى جنوبه دولة بنى مدرار.

وقد شهد المغرب الأدنى التابع لسلطة الخلافة العباسية الكثير من الثورات والقلاقل وخاصة فى عهد الوالى العباسى محمد بن مقاتل العكى الذى تولى زمام الأمور فى المغرب الأدنى ١٨١هـ/ ٧٩٧م؛ إلا أن هذا الوالى لم يستفد من أخطاء الولاة السابقين ولم يدرك حقيقة الأوضاع فى المنطقة، ومن ثم وقع فى العديد من الأخطاء إذ أنه قطع بعض أرزاق الجند ولم يستجب لمطالبهم. فضلا عن إساءته إلى بعض طوائف الشعب، وبذلك أصبحت النفوس مهيأة للعصيان والتمرد والخروج على طاعة العكى للتخلص منه؛ واندلعت عدة ثورات أخطرها ثورة تمام بن تميم التميمى واليه على تونس الذى سار بجنده ونجح فى دخول القيروان وعزل العكى.

وهنا يظهر على مسرح الأحداث إبراهيم بن الأغلب الوالى على إقليم الزاب بالمغرب والذى كان يرقب الأحداث ويتحين الفرصة المواتية لتحقيق أهدافه وأغراضه؛ ومن ثم أسرع بقواته لإعادة العكى إلى منصبه وبذلك ينال رضا الوالى فضلا عن رضا الخلافة العباسية وقد نجح فى ذلك.

ثم استمر إبراهيم بن الأغلب فى سياسته المرسومة من التقرب إلى الرعية وظهوره بمظهر المدافع عن سلطة الخلافة العباسية والحامى لمتلكاتها؛ ومن ثم طالبت عدة طوائف إبراهيم بمكاتبة الرشيد فى تولى الأمور فى إفريقية وعزل العكى؛ وقد استجاب إبراهيم بن الأغلب لهذا المطلب الشعبى وكاتب الرشيد شارحًا الظروف فى ولاية إفريقية وأضاف إلى ذلك شرطًا مشجعًا وهو استغناؤه عن



المعونة المالية التى كانت تقدمها الخلافة العباسية لوالى القيروان وتبلغ مائة ألف دينار سنويًا، وفى نفس الوقت يتعهد بإرسال أربعين ألف دينار سنويًا لخزانة الخلافة كخراج لإقليم إفريقية. وقد استجابت الخلافة لهذه المبادرة وعزلت العكى عن إفريقية وعينت بدلا منه إبراهيم بن الأغلب على المغرب الأدنى ١٨٤هـ/ ٨٠٠م.

وتولية إبراهيم بن الأغلب إدارة المغرب الأدنى يعنى تغييرًا فى الوضع السياسى للمنطقة إذ ينتهى عصر الولاة بالمغرب الأدنى ويبدأ عصر الاستقلال الذاتى؛ إذ استقل إبراهيم بن الأغلب بحكم المنطقة وأورثها من بعده أبناءه وأصبحت المنطقة لا تربطها بالخلافة سوى الخطبة والدعاء للخليفة على المنابر؛ أما السلطة الحقيقية وإدارة البلاد فانحصرت فى أسرة بنى الأغلب؛ وقد نجحت هذه الأسرة فى توجيه الأمور بالبلاد طيلة قرن من الزمان حتى سقطت تحت ضربات الفاطميين ٢٩٦هـ / ٩٠٨م.

أما مؤسس دولة الأغالبة فهو إبراهيم ابن الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمى، وكان والده من جند خُراسان، وكان قد وفد مع القوات العباسية إلى مصر وأصبح من جندها ثم دخل الأغلب إفريقية فى قوات محمد بن الأشعث ١٤٤هـ/٧٦١م. وحين بلغ إبراهيم مبلغ الشباب دخل فى جند مصر وكان عليه أن يسير إلى المغرب مثل والده. ولم تشر المصادر إلى تاريخ دخوله المغرب؛ وهناك فى منطقة الزاب احتل إبراهيم مكانة مرموقة بين الجند بما اتصف به من صفات، فقد كان فقيهًا عالما خطيبًا شاعرًا ذا رأى وعلم بالحروب ومكائدها جرئ الجنان حسن السيرة.

دخل إبراهيم بن الأغلب القيروان واليًا عليها بعد أن جاءه أمر الولاية من الرشيد الخليفة العباسى فى ١٢ جمادى الآخرة ١٨٤هـ/ ٩ يوليو ٨٠٠م.

اتخذ الأمير إبراهيم بن الأغلب عدة خطوات فى سبيل تثبيت دعائم ملكه وتوطيد أركان حكمه فكون قوة عسكرية كبيرة من سكان البلاد وهؤلاء عملوا كجند فى جيش الأغالبة؛ كذلك استكثر إبراهيم بن الأغلب من عنصر الصقالبه والسودان، يضاف إلى ذلك تشكيل الأمير إبراهيم قوة بحرية كبيرة مكنت الأغالبة فيما بعد من غزوصقلية والاستيلاء عليها وعلى غيرها من الجزر فى البحر المتوسط.

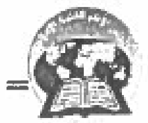
وقد أقام إبراهيم بن الأغلب على المنابر الخطبة لبنى العباس ودفع الخراج المقرر عليه وهو أربعون ألف دينار ونقش اسم الخليفة العباسى على السكة.

أدرك الأمير إبراهيم أن القيروان عاصمة الإقليم وما فيها من تيارات متعارضة وفئات متناحرة ليست بالعاصمة المثالية ومن ثم اختار أرضًا جديدة تبعد عن القيروان بثلاثة أميال فى الجنوب الشرقى منها وسماها العباسية وشرع فى التخطيط لها وبناء المؤسسات الحكومية واشتملت العاصمة الجديدة على قصر الأمير وما يلحق به من دواوين ودارسك للنقود ومساكن للحاشية ومعسكرات الحرس والمسجد الجامع وكذلك الأسوار التى تحيط بالمدينة واشتملت هذه الأسوار على خمسة أبواب.

وكان آخر أمراء دولة الأغالبة زيادة الله بن أبى العباس عبد الله بن إبراهيم (٢٩٠ - ٢٩٦هـ) حيث شهد عهده أفول نجم الأغالبة وسقوطها فى أيدى الشيعة بقيادة أبى عبد الله الشيعى، ولم يكن النشاط العسكرى الشيعى وحده هو الذى عجَّل بسقوط دولة الأغالبة وإنما سياسة الأمير الأغلبى الغاشمة وإسرافه فى القتل من العوامل الهدامة فى انصراف الناس عن تأييد الدولة ومناصرتها إذ بدأ الأمير الأغلبى عهده بقتل الكثير من أعمامه وأقاربه حتى لا ينافسه أحد فى مقعد الحكم.

وهكذا شهدت البلاد صفحة دموية ساهمت بشكل كبير فى تقويض أركان الدولة، يضاف إلى ذلك سلوك الأمير الشخصى وانصرافه إلى اللهو والملذات وعدم إدراكه خطورة الزحف الشيعى على المدن المغربية.

وقد دارت عدة معارك بين الجيش الأغلبى والجيش الفاطمى وأبرز هذه المعارك معركة "كينونة" التى كانت من المعارك الفاصلة فى الصراع بين الأغالبة والشيعة إذ أباح انتصار الشيعة مدن الأغالبة التى بدأت تتساقط واحدة تلو الأخرى وأخيرًا معركة "الأربس" ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م لتعلن النهاية الحزينة لزوال دولة الأغالبة، ومن ثم شرع الأمير الأغلبى فى الرحيل إلى مصر وحمل معه ما استطاع من الأموال والمتاع وترك عاصمته "رقادة" نهبًا للعامة. وهكذا طويت صفحة الأغالبة بفرار آخر أمرائهم زيادة الله الأغلبى وتركه لملك آبائه وأجداده.



بعض مظاهر الحضارة:

لقد شهدت البلاد خلال حكم أمراء الأغالبة عدة تطورات فى مجال الحضارة والرقى منها.

فى مجال الحياة الاقتصادية:

مارس سكان البلاد ألوانًا مختلفة من النشاط الاقتصادى واشتغلوا بالعديد من المهن والحرف واشتغل بعضهم بالزراعة كما احترف بعضهم مهنة الصناعة فضلاً عن اتخاذ بعضهم التجارة حرفة وعملاً.

ففى مجال الزراعة: اشتغلت طوائف كثيرة من السكان بها وقد ساعدهم على ذلك طبيعة البلاد نفسها من سهول ساحلية وسهول داخلية تجرى فيها عدة أنهار وكل هذا دفع كثيرًا من القبائل إلى امتهان الزراعة واستثمار الأرض، وهذا النشاط الزراعى أثمر العديد من الحاصلات والفواكه على اختلاف أنواعها، وحيث تتوافر المراعى وما بها من أعشاب وحشائش اشتغل السكان برعى الماشية والأغنام والخيول.

وفى مجال الصناعة: اشتغلت طائفة من أهل البلاد ببعض الصناعات اليدوية التى تتطلبها ضرورات الحياة اليومية وساعد على قيام هذه الصناعات توفر المواد الخام فى أنحاء متفرقة من البلاد كالحديد والنحاس والفضة والذهب.

وقد برع السكان فى صناعة الملابس الحريرية وصناعة الأوانى الخزفية وصناعة السفن وصناعة السكر وغيرها من الصناعات.

وفى مجال التجارة :

شاركت التجارة الداخلية والخارجية فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد وخاصة فى الفترات التى نعمت فيها البلاد بالهدوء والاستقرار؛ وقد ارتكزت التجارة بنوعيها على ما تنتجه البلاد من حاصلات زراعية ومواد مصنعة فضلاً عما يرد إلى أسواقها من منتجات البلدان الأخرى وما تصدره مدن المغرب من فائض إنتاجها.

ومما يرتبط بالتجارة الداخلية نظام الأسواق فى مدن المغرب المختلفة إذ انتظمت الأسواق بطريقة تبدو متشابهة حيث انفردت كل صناعة بناحية معينة من السوق؛ ومن صادرات البلاد الزيت والأغنام والصوف والعسل و القمح وغير ذلك من الصادرات؛ أما ما كانت تستورده البلاد فكانت المنسوجات القطنية والعطر الهندى وبعض الأدوات المنزلية.

وتشير المصادر إلى أن فترة حكم إبراهيم بن الأغلب وابنه زيادة الله

(١٨٤هـ/٨٠٠م إلى ٢١٠هـ/٨١٦م) من أزهى فترات دولة الأغالبة حيث ساد الرخاء الاقتصادى فى عهدهما وضربت الدنانير والدراهم على نمط الطراز العباسى كما دونت الدواوين مثل ديوان الخراج وديوان الطراز وغيرهما من الدواوين، وكان بلاط الأغالبة صورة مصغرة للبلاط العباسى.

ومن أعظم انجازات الأغالبة المعمارية تجديد مسجدى القيران وتونس وهما: مسجد عقبة بن نافع ومسجد الزيتونة؛ فقد أدخل زيادة الله بن الأغلب(٢٠١هـ ٨١٦م - ٢٢٣هـ/٨٣٧م) عدة تجديدات على مسجد القيروان ورفع قبته ومئذنته وأنفق فى سبيل ذلك أموالاً كثيرة؛ كذلك قام زيادة الله بتجديد وتوسيع جامع تونس ولكن المنية أدركته قبل أن يكملها، فتولى إبراهيم بن أحمد سادس أمراء الأغالبة بناء قبابه المضلعة ووضع فيه أعمدة الرخام وزيّنه بالزخارف والنقوش والكتابات الكوفية الجميلة.

وإذا كان بنو الأغلب قد اعتنوا بالمنشآت الدينية فإنهم أيضًا اهتموا بالمنشآت العسكرية والمدنية، فبنوا الكثير من الأسوار والأبراج للمدن وخاصة تلك المدن التى تقع على الساحل وذلك لصد غارات السفن المعادية، كما بنوا دارا لصناعة السفن ودارًا لصناعة الأسلحة يُضاف إلى ذلك اهتمام الأغالبة ببناء الرباطات التى شارك فى بنائها السكان فضلاً عن الأغالبة.

ومن أبرز هذه الأربطة رباط سوسة ورباط المنستير؛ والرباط عبارة عن طابقين يخصص الأول منهما للمسجد وقاعات الدرس والاجتماع والطعام، ويخصص الثانى للحراسة والعبادة والخَلوة، ويتولى الإشراف على هذا الرباط شيخ من أهل التقوى والورع والصلاح وذلك لتنظيم أموره.

كما وجه الأغالبة عنايتهم لبناء صهاريج المياه، والصهريج عبارة عن خزان ماء فوق الأرض وذلك لتوفير المياه اللازمة لسكان البلاد؛ يضاف إلى ذلك اهتمامهم ببناء المواجل وهى عبارة عن أحواض مياه واسعة وعميقة يتجمع فيها ماء المطر وتعتبر مواجل القيروان وسوسة وتونس من الآثار الجميلة.

ومما يتصل بالنشاط العسكرى أن وجه الأغالبة اهتمامهم إلى الأسطول وبناء دور لصناعة السفن العسكرية والتجارية حيث شرع عبد الله بن إبراهيم ومن بعده زيادة الله الأول فى بناء أسطول قوى؛

فبالإضافة إلى دار صناعة السفن فى تونس، أنشئت دارٌ أخرى فى مدينة سوسة وترتب على ذلك أن وجه الأغالبة نشاطهم العسكرى إلى البحر المتوسط، وتوجوا ذلك النشاط بالاستيلاء على جزيرة صقلية فى عهد زيادة الله بن الأغلب والحد من غارات الأسطول البيزنطى الذى اتخذ من صقلية قاعدة له للإغارة على سواحل المغرب؛ ومن ثم قرر زيادة الله فتح صقلية (٢١٢هـ /٨٢٧م) وأسند قيادة الأسطول إلى أسد بن الفرات.

كان الأسطول يتكون من نحو مائة مركب حربية، أما جنود الحملة فقد بلغ عددهم نحو سبعمائة فارس بخيولهم وعشرة آلاف راجل ودارت عدة معارك كان النصر فيها فى ركاب المسلمين واستولوا على الجزيرة وفى نفس الوقت حرص أمراء الأغالبة بعد زيادة الله على توطيد نفوذهم وحكمهم لجزيرة صقلية.

ومن ناحية أخرى فقد تطورت الحياة الفكرية فى أيام الأغالبة وازدهرت العلوم الدينية والعقلية بصفة خاصة وانتشر التعليم وكثر عدد الطلبة الأفارقة فى القيروان العاصمة الأولى للأغالبة؛ واتجه كثير من علماء القيروان للدراسة فى المدينة المنورة والفسطاط وبغداد، وخلال هذه الفترة نشأ المذهبان اللذان عرفتهما إفريقية آنذاك: المذهب المالكى والمذهب الحنفى وبدأت بينهما كثير من مجالس المناظرات.

وكان أسد بن الفرات من زعماء المدرسة المالكية فى القيراون معتمدا فى ذلك على موطأ الإمام مالك وهو أول من وضع أسس المدرسة المالكية بكتابه "الأسدية" إلى أن ألف الإمام سحنون كتاب المدونة فى المذهب المالكى وفرضه على فقهاء إفريقية وخاصة بعد وفاة أسد بن الفرات وصار الإمام سحنون زعيمًا للمدرسة المالكية فى البلاد.

وقد اشتغل الإمام سحنون بجانب منصب القضاء بالتعليم وتخرج على يديه الكثير من الطلاب المغاربة والأندلسيين، وهناك علماء آخرون شاركوا فى الحياة الدينية والفكرية منهم أبو عثمان سعيد ابن الحداد وإبراهيم بن محمد الضبى، وعبد الله بن طالب وغير هؤلاء.

وبجانب المدرسة المالكية كانت هناك المدرسة العراقية أى مدرسة المذهب الحنفى وقد برز منها مجموعة من العلماء منهم معمر بن منصور وسليمان بن عمران وعبد الله بن الأشج وغيرهم. وقد امتاز نظام الدولة الأغلبية بترك الحرية

للمدارس الفكرية ولم يحاول بنو الأغلب القضاء على أى مذهب بالقوة كما فعل الفاطميون فيما بعد؛ وإن كان الأغالبة قد أظهروا كثيرًا من العطف على المدرسة المالكية بسبب تمتع المذهب المالكى فى بلاد المغرب بشعبية كبيرة.

أ . د / حسن على حسن

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الآبار : الحلة السيراء تحقيق د. حسين مؤنس ١٩٦٣م.
٢. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ دار صادر بيروت ١٩٦٥م
٣. الباجى: الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية تحقيق محمد بيرم ١٨٩٧م
٤. البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب باريس ١٩١١م
٥. ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر القاهرة ١٣٨٤هـ.
٦. ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس تحقيق محمد شمام ١٩٦٧م.
٧ـ المالكى: رياض النفوس تحقيق د. حسين مؤنس القاهرة ١٩٤٩م

الأفشارية (دولة)

كم من دول ظهرت فى الوجود دون أى أثر أو بصمة على صفحات الزمان؛ ودول -رغم قصر فترة وجودها- تركت أثرًا بالغ الوضوح.

ودولتنا التى نحن بصدد الحديث عنها هى بلد إسلامى عرف عنه تشدده وتعصبه للمذهب الشيعى .. لكن بظهور نجم الدولة (الأفشارية) عمل مؤسسها جاهدًا من أجل حل هذه المشكلة التى كانت سببًا رئيسيًا فى دخول إيران حروبا ومعارك وصراعات مع جيرانها السنيين.

فالدولة (الأفشارية) تأسست على يد (نادربيك قلى) الذى حكم فى الفترة من (١١٤٨- ١١٦٠هـ/ ١٧٣٥- ١٧٤٧م).

وينحدر (نادرقلى) من قبيلة "أفشار" التركمانية التى كانت تقطن شمال بلاد فارس، حيث أسكنهم الشاه (إسماعيل الصفوى) فى مناطق "أبيورد" و"دره جز" و"باخرز" حتى حدود "مرو"، وقد نشأ (نادرقلى) فى اسرة متواضعة، حيث كان أبوه يعمل بالزراعة ورعى الجمال، وقد تكبد الكثير من المشاق فى صباه، وعندما صار شابًا التحق بخدمة حاكم "أبيورد" (باب على بيك كوسه أحمدلو)، وتدرج فى المناصب حتى صار رئيسًا لحرسه، ثم تزوج ابنته الكبرى، وبعد وفاتها تزوج من أختها، وبعد وفاة (باب على بيك) قبض على أزمة الأمور، إلا أن (نادرقلى) لم يتمكن من أن يكون رئيسًا لأفشار «أبيورد»، فاتجه إلى «مشهد» والتحق بخدمة الملك (محمود السجستانى) الذى جعله أحد قواده، ونظرًا لمهارته العسكرية تمكن من صد هجمات (الأوزبك) أعداء الملك (محمود)، فكافأه بتوليته حاكمًا على «خراسان».

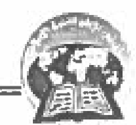
فى تلك الفترة كانت الدولة (الصفوية) تحتضر على يد الشاه (سلطان حسين)، نظرًا لما كان يتسم به من عدم مبالاة بأمور الدولة، لذا فقد استطاع الملك (محمود) الاستيلاء على العاصمة (الصفوية) «أصفهان»، وجلس على العرش بتفويض من الشاه (سلطان حسين)، وفى نفس الوقت هرب ولى عهد الشاه (طهماسب ميرزا) إلى «قزوين» وجلس على العرش هناك، ولقب بالشاه (طهماسب الثانى)، فأرسل إليه الملك (محمود) جيشًا لمحاربته، فاتجه (طهماسب) إلى «تبريز»، واتجه الملك (محمود) إلى «مشهد»،

وهناك حدث خلاف بينه وبين (نادرقلى) خرج على أثره من خدمته، واتجه إلى «كلات» واتخذها مقرًا له.

ما أن وصلت أنباء الخلاف الذى دب بين الملك (محمود) و (نادرقلى) إلى الشاه (طهماسب) حتى أمر (حسن على بيك معير الممالك) بالإسراع إلى (نادرقلى) ليعرض عليه الدخول فى خدمته، فانتهز (نادرقلى) هذه الفرصة وانضم للجيش الصفوى ب «خراسان» ليكون مع الشرعية، واصطحب معه ألفى جندى كردى وأفشارى، ثم تحرك الجيش الصفوى وعلى رأسه قائدان هما (فتح على خان القاجارى و (نادرقلى بيك الأفشارى)، واتجه إلى «مشهد» لملاقاة جيش الملك (محمود) . وفى البداية تولى (فتح على خان) المهمة القتالية الأولى، لكنه فشل فى مهمته مما جعل الشاه (طهماسب) يأمر بقتله لشكه فى كونه خائنًا، فامتلك (نادرقلى) زمام الأمور، وتمكن من هزيمة الملك (محمود) هزيمة نكراء، ودخل «مشهد» مما جعل الشاه (طهماسب) ينعم عليه بمنصب وزير التشريفات، وتلقب بلقب (طهماسب قلى) أى غلام طهماسب.

على الرغم من كل ما فعله (نادرقلى) فى سبيل القضاء على الملك (محمود)، واسترجاع ما أغتصبه من ولايات صفوية، فإنه لم يسلم من وشاية الوشاة الذين نجحوا فى إيهام الشاه (طهماسب) بأن (نادرقلى) خائن ولابد من القضاء عليه، فطلب الشاه (طهماسب) من حكام «مازندران» و«استراباد» وقبائل «كرايلى» مساعدته فى حربه ضد (نادرقلى) الذى أسرع إلى «خبوشان» وحاصرها، وانضم إليه (الأكراد) هناك لكراهيتهم للشاه (طهماسب) الذى اعتذر ل (نادرقلى) وعادا معًا إلى «مشهد» للاحتفال بيوم النيروز.

دخلت الجيوش الصفوية فى حروب كثيرة تحت قيادة (نادرقلى) ضد الأفغان لاسترجاع دار السلطنة (الصفوية)، ثم اتجه إلى «أذربيجان» وطرد العثمانيين، وحاصر «ايروان»، ثم اتجه إلى «خراسان» وقضى على الاضطرابات، واستعاد «هرات»، ووسط كل هذه الانتصارات التى حققها، أراد الشاه (طهماسب) أن يقلده، فهاجم (العثمانيين) وهزمهم فى بدء الأمر، إلا أنه هزم فى الجولة الثانية، وعقد معاهدة مخزية مع (العثمانيين)، استولى بمقتضاها (العثمانيون) على معظم أراضى الدولة



(الصفوية)، وما أن وصلت هذه الأنباء إلى نادرقلى) حتى أسرع إلى الشاه (طهماسب)، وعنفه، وخلعه من العرش، وولى ابنه- الذى كان عمره وقتئذ سبع سنوات- ولقبه بالشاه (عباس الثالث)، وتخلى (نادرقلى) عن لقبه (طهماسب قلى) وتلقب بوكيل الدولة ونائب السلطنة، وهكذا نجد (نادرقلى) قد واتته الفرصة التى انتظرها طويلا، واستغل الخطأ الجسيم الذى وقع فيه الشاه (طهماسب)، واستطاع استرداد الأراضى التى اغتصبتها الدولة (العثمانية) بموجب المعاهدة الظالمة المبرمة من قبل الشاه المخلوع. كما أن (نادرقلى) عقد معاهدة «رشت» مع القيصرية الروسية تمكن بموجبها من استعادة الأراضى الإيرانية التى استولى عليها (الروس) إبَّانَ حكم قيصر «روسيا» (بطرس الكبير)، وتم استعادة كل من «كيلان» و «مازندران» و«استراباد»، وكان ذلك عام (١١٤٥هـ/١٧٣٢م) وتمكن (نادرقلى) من استعادة «باكو» و«دربند» عام (١١٤٨هـ/١٧٣٥م).

بعد خَلْع (نادرقلى) الشاه (طهماسب الثانى)، وتولية ابنه الرضيع (عباس الثالث) خلفا له على عرش «إيران»، نصب نفسه وكيلا للدولة ونائبًا للسلطنة، وبعد أن حقق لإيران من الإنجازات ما هو كثير، وأعاد لها هيبتها المفقودة، رأى أن هذا هو أنسب الأوقات ليتوج نفسه ملكًا على «إيران»، لذا فقد وجه (نادرقلى) الدعوة إلى حكام الولايات والقضاة والعلماء والأشراف والأعيان ورجال الدين لحضور مجلس فى صحراء «مغان» فى عام (١١٤٧هـ/١٧٣٥م).

بعد ذلك ترك (نادر) الحاضرين يستريحون لمدة أربعة أيام، ثم اجتمعوا ثانية وخرج عليهم (طهماسب خان الجلائر) زعيمهم قائلا:

كان هناك ثلاثة شروط لـ(نادرقلى)، حتى يقبل عرش «إيران» وهى:

١ـ ألا يتخلى أحد عن (نادر)، ولا يساعد أحدًا من أبناء الشاه المخلوع..

٢ـ أن يتخلى أهالى «إيران» عن التشيع وسب الخلفاء، وأن يتحولوا إلى المذهب السنى واعتناق مذهب الإمام (جعفر الصادق) وجعله المذهب السنى الخامس.

٣ـ ألا يقترف أحد جريمة الخيانة ضد (نادر) وأبنائه، وأن يخضعوا لأوامره..

قبل الحضورُ هذه الشروط، ووقعوا على محضر الاجتماع بالموافقة، غير أن

الزعيم الشيعى (ملا باش ميرزا عبد المحسن) أعلن عدم رضائه عن البند الخاص بتحول «إيران» إلى المذهب السنى، وبقى على ميله إلى الأسرة (الصفوية)، فنقل جواسيس (نادر) إليه ذلك. فكان أن عاقبه بالشنق فى صبيحة اليوم التالى.

بعد انتهاء مراسم التتويج، أرسل (نادر شاه) (الشاه عباس الثالث) إلى والده (الشاه طهماسب الثانى) المخلوع فى «خراسان»، كما أرسل السفراء إلى «استانبول» و«سان بطرس برج» لإطلاع العثمانيين والروس على أنه ملك إيران ونصب ابنه (رضا قلى ميرزا) وليًا للعهد وحاكمًا لـ «خراسان» كما عين (طهماسب خان الجلائر) وزيرًا له، وعين أخاه (إبراهيم خان ظهير الدولة) حاكمًا على «أذربيجان».

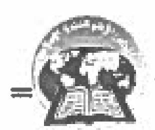
فى الوقت الذى تربع فيه (نادر شاه) على عرش إيران، كان يحكم «الهند» (محمد شاه) منذ سبعة عشر عامًا، وقد تعرضت سلطنة سلالة ملوك مغول «الهند» فى عصره إلى الانحطاط.

فكر (نادر شاه) فى القيام بحملة على أفغانستان لتأديبها، واستعادة ما نهبه (الأفغان) من أموال «إيران» فى الغارات التى شنوها عليها أثناء حكم الشاه (سلطان حسين) وابنه الشاه (طهماسب الثالث)، وقد أطلع (نادر شاه) البلاط الهندى على حملته على «أفغانستان»، وقد أرسل عدة رسل للإمبراطور الهندى لمنع الأفغان من دخول بلاده، لكن الإمبراطور لم يبال برسل (نادر شاه).

وقد تمكن (نادر شاه) من احتلال «قراباغ» و«غزنين»، أما كابول فقد قاومت قليلا ثم استسلمت، ثم تحرك إلى «كندمك» لتأديب رؤوس العصاه، وبعد ذلك تقابل مع ابنه (رضا قلى ميرزا) فى مكان يسمى «بهار سفلى» وذلك بعد أن أخمد ثورة «بلخ وبخارا»، واختار ابنه ليكون نائبًا له فى «إيران» أثناء تواجده فى الهند.

بدأ (نادر شاه) يعد العدة لفتح «الهند»ـ رغم معرفته بضخامة الجيش الهندى الذى كان يتألف من ٣٠٠ ألف جندى – إلا أنه بسبب كونه قائدًا محنكًا وشجاعًا ومقدامًا، تمكن من إحراز نصر مُؤَزَّر على الجيش الهندى فى معركة «كرنال»، وأظهر محمد شاه إمبراطور الهند خنوعًا وخضوعًا لـ(نادر شاه) فاتح دهلى، وسلم له مفاتيح خزانة أجداده.

تسرب خبر من القصر الإمبراطورى بأن



نادر شاه قد قتل مما دفع أهالى الهند للهجوم على الجنود الإيرانيين وقتلوا منهم سبعة آلاف جندى فأمر نادر شاه جنوده بقتل كل من يقابلونهم من الهنود، حتى أنهم قتلوا حوالى مائة ألف هندى من الصباح حتى الظهيرة. ولكى يُنْشِئ نادر شاه جوًا من الود والألفة بين إيران والهند فقد زوج ابنه نصر الله ميرزا من ابنه محمد شاه إمبراطور الهند. ووضع التاج الهندى على مفرق محمد شاه وشكر له عطاياه.

وكان قدر نادر شاه أن يعيش طيلة حياته فى حروب دائمه. فقد دخل فى حروب كثيرة حيث فكر فى أنه لو سرح جيشه فربما يعيث فسادًا فى الأرض ويشق عليه عصا الطاعة. ورغم كونه شخصية عسكرية فذة إلا أنه كان له جوانب سيئه فى شخصيته، فقد جعلته الأسلاب والغنائم إنسانًا جشعًا بخيلا بدلا من أن يكون جوادًا كريما، كما أن موقفه من ابنه رضا قلى ميرزا، وشكه فى ولائه له جعله يفقأ عينه.

كل هذه الأمور وأكثر من ذلك جعلت جماعة من المناهضين له تتكون وتتسع دائرتها، حيث كانت تضم ابن أخيه وجماعة من قواد جيشه وأئمة رجال الدين. ورغم تغييره لقائد حرسه، إلا أن القدر كان له بالمرصاد فقد تجمعت كل ألوان الخيانة وأعدت العدة لتنفيذ ما خططوا له بالقضاء عليه.

وهكذا بدأت الدولة الأفشارية فى الانهيار، حيث طالب الأمراء بالعرش وتلا ذلك مجموعة من الاغتيالات، وقضى على أبنائه وأحفاده ولم يبق سوى شاهرخ، الذى كان يتصف باللطف والرحمة، وقد سُملت عيناه بعد اعتلائه العرش بقليل، فتقهقر ليحكم «خراسان» وبدأ شمس الأسرة (الأفشارية) فى الزوال.

كان لـ(نادرشاه) رأى فى الأمور الدينية، حيث إنه جعل المذهب الجعفرى الشيعى خامس المذاهب السنية، وكان يهدف بذلك إلى فكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية، كما كان يهدف إلى ميثاق للتعايش بين الشيعة والسنة، فبعد أن غضب علماء الدين الشيعى من (نادر شاه) -حيث إنه بعد أن أجلس أحد أحفاد الصفويين على كرسى العرش ما لبث أن عزله وورث حكم الصفويين، فحاول (نادر شاه) التقرب إليهم، فشيد بابا كبيرا من الذهب لمرقد الإمام الرضا، كما أن سياسة التقريب بين السنة والشيعة أدت إلى ارتياح الباب

العالى مما أدى إلى إعادة الدولة العثمانية جميع المناطق المحتلة فى عهد الشاه طهماسب.

إلا أن نادر شاه فشل فى ميثاق التعايش للأسباب الآتية:

١. عدم وجود رغبة لدى العلماء السنيين بالدولة العثمانية فى هذا التقارب، حيث إنهم كانوا يسيطرون على قرار السلطان العثمانى.

٢. وجود متطرفين (خوارج) تحت عباءة أهل السنة والجماعة لم يعجبهم هذا التقارب وأعتقد أن الأسباب التى أدت إلى فشل مشروع (نادر شاه) مازالت قائمة، وأن كل ميثاق سيقوم دون حل أسباب هذا الفشل سيكون مصيره سلبيًا ولن يُحْدِث توافقًا بين السنة والشيعة.

أ . د / حاتم محمد رشاد

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. جهاز نكشاى نادرى – تأليف ميرزا مهدى خان. طهران ١٣٤١هـ. ش تحقيق سيد عبد الله الأنوار.

٢. عالم آراى نادرى- تألف محمد كاظم. موسكو ١٩٦٠م.

٣. نادر فاتح دهلى- تألف صنقى زاده كرمانى. طهران ١٣٤٠هـ.

٤. نادر شاه در نظر خاورشنا سان. تألف رضا زاده سفق، ترجمة، د. أحمد الخولى القاهرة، ٢٠١٠م.

5- James Fraser, the Hiotory of Nader Shah. Lonon 1742



أفغانستان

كلمة " أفغانستان" مقتبسة من القبائل الأفغانية التى تتحدث لغة البشتو، ولم تكن هذه المنطقة معروفة بهذا الاسم فى تاريخ ما قبل الإسلام، كما لم يكن لها وحدة سياسية أو هوية قومية قبل تأسيس حكم الأفغان فى أواسط القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى، وكانت هذه المنطقة تتكون من مدن أشهرها " كابل"، و"غزنة"، و" هراة"، و "بدخشان"، و "سجستان"، و"قندهار" و غيرها، وقد لعبت هذه المدن عبر التاريخ دورًا مهمًا فى مجال التجارة، خصوصًا كابل وقندهار لأنهما تقعان فى ملتقى الطرق بين الصين والهند وخراسان [1].

أما من حيث الموقع فإن أفغانستان تقع شمال شرق هضبة إيران إلى الجنوب من جبال هندوكوش، أما التضاريس فهى تشتمل على الهضاب العالية والمرتفعات والممرات مثل ممر خيبر، وتخترقها الجبال والغابات والصحارى والأنهار العديدة، أما مناخها فشتاؤها قارس البرودة، وصيفها شديدة الحرارة، والخريف والربيع فصلا الاعتدال.

ولما كانت أفغانستان دائمًا معبرًا للغزاة وبناة الإمبراطوريات فإن لها إسهامًا كبيرًا فى تطوير ونقل حضارة العالم القديم، فهى ذات تاريخ أصيل منذ القدم، وقد مرت عليها عصور تاريخية وجعلت منها منطقة استراتيجية مهمة، فلها كيان حضارى يضاهى الهند والصين وإيران واليونان، وبسبب الاحتكاك مع هذه الدول سياسيًا وعسكريًا وتجاريًا ظهرت فى أفغانستان الفنون الصينية واليونانية والهندية والبوذية [2].

أفغانستان فى عصر الخلفاء الراشدين ١١- ٤٠هـ/٦٣٢- ٦٦٠م:

بدأت صلات العرب بمناطق أفغانستان منذ العهد الراشدى؛ لأن الفتوحات الإسلامية قد اتجهت نحو الشرق بعد فتح فارس، وفى عهد ثالث الخلفاء الراشدين عثمان رضى الله عنه(٢٤- ٣٥هـ/ ٦٤٤- ٦٥٥م) توجهت إليها القوات الإسلامية تحت قيادة الأمير عبد الله بن عامر(٢٩- ٣٦هـ/ ٦٤٩- ٦٥٦م) والى البصرة، الذى أرسل جيوشًا أحدها بقيادة الصحابى عبد الرحمن بن سمرة القرشى (ت٥١هـ/ ٦٧٠م) الذى استطاع فتح سجستان وإقرار الأمور

السياسية فيها فى عام ٣١هـ/ ٦٥٠م، وهى تقع جغرافيًا بين خراسان ومُكران القريبة من مدينة كابل، ثم توغلت القوات الإسلامية داخل حدود كابل، وسيطرت عليها وعلى ما يجاورها، وقد وافق ملك كابلشان على دفع الخراج، وبعد الفتح الإسلامى لها بفترة وجيزة استشهد الخليفة عثمان بن عفان، وحدثت الفتنة الكبرى بين المسلمين، وهو الأمر الذى دفع أهالى أفغانستان إلى الاستمرار فى المقاومة العسكرية ضد الخلافة الإسلامية إلى أن قامت الدولة الأموية.

فى عصر الأمويين (٤١- ١٣٢هـ- ٦٦١- ٧٥٠م):

اشتدت الحروب فى هذه المنطقة فى عصر الأمويين، لا سيما بعد ما وَلّى الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ/ ٧٠٦- ٧١٦م) القائد البطل قتيبة بن مسلم الباهلى (٤٦- ٩٦هـ/ ٦٦٩- ٧١٥م) على خراسان، وقد حارب قوات كابلشاه مرارًا وتكرارًا إلى أن تمت الهدنة بين الجانبين على أن يدفع ملك كابلشاه الخراج للمسلمين، وقد لعبت قوات قتيبة بن مسلم دورًا كبيرًا فى تثبيت دعائم الإسلام بهذه المنطقة، ومع أن الحروب قد توقفت بين الجانبين إلا أنها استؤنفت مرة ثانية مع قواد آخرين أمويين.

وجملة القول أن علاقة الدولة الإسلامية بملوك كابل كانت دائمًا علاقات حربية؛ حيث إن هؤلاء الملوك قد قاوموا المسلمين لمدة قرن من الزمان تقريبًا منذ الفتح الإسلامى لها.

فى عصر العباسيين (١٣٢- ٩٢٣هـ/ ٧٥٠- ١٥١٧م):

استمر عداء ملوك كابل للعباسيين، كما كان أيام الأمويين، تارة يقبلون دفع الخراج وأخرى يمنعونه؛ فكانت الخلافة العباسية دائمًا لهم بالمرصاد. وقد أسند الخليفة هارون الرشيد (ت١٩٣هـ/ ٨٠٩م) ولاية خراسان إلى وزيره الفضل بن يحيى البرمكى عام ١٧٦هـ/ ٧٩٦م، الذى ينتمى إلى بلخ؛ فقام بإصلاح شئون هذه المنطقة سياسيًا واقتصاديًا، كما قام بفتوحات جديدة فى كابل وما يجاورها، وفى عهد الخليفة المأمون (ت ٢١٨هـ- ٨٣٣م) خضع ملك كابل للدولة العباسية ودخل فى الإسلام، وأرسل الهدايا القيمة من الذهب والفضة إلى المأمون، وقد استمرت هذه المنطقة تابعة للدولة العباسية إلى أن ضعفت الأخيرة، مما دفع

المناطق الشرقية الإسلامية إلى الاستقلال عن الدولة العباسية، كما سيأتى.

ومما سبق اتضح أن أفغانستان كانت موضع اهتمام خلفاء الدولة العباسية، وذلك لأنها كانت تلعب دورًا استراتيجيًا مهمًا، وقد استطاعت الدولة الإسلامية إخضاعها بالحروب أحيانًا وبالصلح أخرى، وكانت دائمًا موضع اهتمام الخلفاء المسلمين[٣].

فى عصر الطاهريين (٢٠٥-٢٥٩هـ/٨٢١- ٨٧٣م):

تنتمى هذه الأسرة إلى قرية "فوشَنْج" الواقعة بمنطقة هرات من مدن خراسان. بدأت هذه الأسرة تظهر على الساحة السياسية والعسكرية بقيادة مؤسسها طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن هامان الذى كافأه الخليفة العباسى المأمون بالإمارة على خراسان، نظير خدماته السياسية والعسكرية ضد أخيه الأمين، وقد استقل هذا الأمير عن الدولة العباسية بعد توسيع إمارته على حساب الخلافة فى عام ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م، وقد حكم أولاد طاهر أفغانستان مع اعتراف الخلافة العباسية بهم، وهم: طلحة ابن طاهر (ت٢١٣هـ- ٨٢٨م)، وعبد الله ابن طاهر (ت٢٣٠هـ/٨٤٤م)، وطاهر بن عبد الله(ت٢٤٨هـ/- ٨٦٢م)، ومحمد بن طاهر(ت ٢٥٩هـ/٨٧٣م)، الذى قضى عليه يعقوب بن الليث الصفارى.

وقد استطاعت هذه الدولة تحقيق الأمور السياسية وإقرارها فى غرب وشرق وشمال أفغانستان بالقضاء على حركات التمرد والعصيان التى كانت تثور ضد الدولة العباسية، كما تمكنت من القضاء على الجماعات الزرداشتية الباقية فى هذه المنطقة، وكانت اللغة العربية لغة الإدارة والثقافة لهذه الدولة.

فى عصر الصفاريين(٢٤٧-٣٩٣هـ/٨٦١- ١٠٠٣م):

مؤسس هذه الدولة هو يعقوب بن الليث الصفار (ت٢٦٥هـ/٨٧٨م)، الذى كان ينتسب إلى قرية " قرنين" الواقعة فى سيستان، وبعد أن قضى على الدولة الطاهرية، تمكن من الاستيلاء على كل من خراسان، وملتان، والسند، ومُكران، وغيرها، وقد اعتبره المؤرخ المسعودى من العظماء، وكتب كثيرًا عن حنكته السياسية والإدارية والعسكرية، وبعد وفاته خلفه أخوه عمرو بن الليث (ت٢٧٨هـ/٨٩١م) الذى اعترف الخليفة العباسى بإمارته على خراسان،

وسيستان، وإيران، وكرمان، والسند وما وراء النهر، وكان عمرو بن الليث يتمتع بمقدرة سياسية وإدارية فائقة، وقد عمر دولته المترامية بإنشاء ألف رباط، وخمسمائه مسجد مع تعبيد الطرق وبناء الجسور حسب تقريرات بعض المصادر العربية، ومع أن الضعف والانحطاط قد دب فى جسم الدولة الصفارية بعد موت عمرو بن الليث، إلا أنها استمرت بقيادة خلفاء عمرو إلى عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م، وكان الصفاريون محبين للعلم والثقافة، وتعتبر هذه الأسرة الحاكمة أول دولة إسلامية فى أفغانستان استطاعت توحيد أفغانستان سياسيًا ودينيًا، وكذلك أصبحت ولأول مرة اللغة الفارسية لغة الإدارة والثقافة، كما استقلت بعض مناطق أفغانستان الشمالية عن الإمارات الهندوسية والبوذية(٤).

فى عصر السامانيين (٢٧٩-٣٨٩هـ/ ٨٩٢- ٩٩٩م):

مؤسس هذه الدولة هو سامان خداة الذى أسلم على يد الخليفة المأمون فى مرو عام ١٩٧هـ/ ٨١٢م)، وقد انخرط أبناؤه فى بلاط الدولة العباسية، وحصلوا على المناصب العليا، ويعتبر ابنه إسماعيل المؤسس الحقيقى لهذه الدولة، فقد استولى على مناطق ما وراء النهر وخراسان، وفى عام ٢٨٧هـ/ ٩٠٠م استطاع توسيع مملكته على حساب الدولة العباسية. ودخلت فى حوزة ملكه كل بلاد ما وراء النهر وأفغانستان الغربية، وقد وقعت صراعات سياسية بين أحفاد إسماعيل، مما أدى إلى ضعف الدولة وسقوطها فى عهد آخر ملوكها إسماعيل بن نوح السامانى الملقب بالمنتصر وذلك فى عام ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م.

وقد تغلغل الإسلام فى عهد هذه الدولة فى منطقة أفغانستان بجانب انتشار اللغة الفارسية وآدابها حيث نبغ بعض الوزراء فى تأليف الكتب الجغرافية، ومنهم محمد بن أحمد جيهان الذى ألف كتابًا فى الجغرافية وهو من الكتب المفقودة، أما الوزير محمد بن محمد البلعى فقام بنقل كتاب تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية(٥).

فى عصر الفريغونيين (٢٥٠-٤١٠هـ/ ٨٦٤- ١٠١٩م):

تنتمى هذه الأسرة إلى ملوك أفغانستان القديمة، وقد حكمت منطقة كَوركَانا الواقعة فى جوار غزنة، وعاصرت هذه الدولة كُلاً من الدولة السامانية والغزنوية ثم تم إلحاقها بالأخيرة عام



٤٠٨هـ/ ١٠١٧م، ويعرف عن ملوك هذه الدولة أنهم أسهموا فى تطوير ورعاية العلوم والفنون، حيث ظهرت ثلة من العلماء والأدباء من أشهرهم بديع الزمان الهمذانى، وأبو الفتح البستى، صاحب مفاتيح العلوم.

فى عصر اللودهيين (٣٧٠-٤٠١هـ/ ٩٨٠- ١٠١٠م):

وفى منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى استولى الأمير ألبتكين التركى على غزنة وأسس لنفسه إمارة تتكون من غزنة وطخارستان، وبلخ، وهراة، وغيرها، أما منطقة لاهور وخيبر فكانتا تابعتين لملك هندوسى اسمه "جيبال" وقد خاض حروبًا عديدة ضد الدولة الغزنوية التى استعانت بالدولة اللودهية ضد الهندوسية لا سيما فى عام ٣٨٢هـ/ ٩٩٢م، مما أدى إلى توطيد العلاقات السياسية والدينية بين الأسرتين، وقد لعبت الدولة اللودهية دورًا بارزًا فى نشر الإسلام فى غور وشرق أفغانستان، مما جعلها إحدى الدول المؤسسة للحضارة الإسلامية الأفغانية فى شبه القارة الهندية، وقد استطاعت هذه الأسرة فى عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م تأسيس الدولة اللودهية فى الهند تحت قيادة بهلول لودهى[٦].

فى عصر الغزنويين (٣٥١-٥٨٣هـ/٩٦٢- ١١٨٧م):

من المعلوم تاريخيًا أن أفغانستان قاومت التأثر بالإسلام مدة أطول من سائر المدن الشرقية الأخرى، ولذلك لم تتحقق لها وحدة سياسية وعسكرية إلا فى عهد الدولة الغزنوية؛ فقد استطاع الأمير سبكتكين بحنكته السياسية والعسكرية توحيد الولايات الأفغانية المنقسمة، حتى إنه مد حدود دولته إلى السند والبنجاب، وفى عام ٣٨٨هـ/ ٩٩٨م وصل محمود الغزنوى بن سبكتكين إلى الحكم، فنجح فى مد سلطانه على كل أفغانستان الحالية، كما سيطر على المدن الهندية، ووصلت حملاته إلى قلب الهند، وأصبحت غزنة مدينة مزدهرة، ولم يكن محمود الغزنوى قائدًا كبيرًا ورجل سياسة فحسب، وإنما كان كذلك راعيًا وحاميًا للعلوم والفنون والصناعات، ويرجع إليه الفضل الكبير فى ترسيخ دعائم الدولة الغزنوية وتوسيع نطاق سيادتها فى أفغانستان وما يجاورها، وضم بلاطه علماء وشعراء وأدباء كبارًا كالبيرونى، وابن سينا والعسجدى . والفردوسى، والبستى،

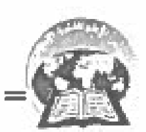
والعتبى صاحب كتاب (اليمينى)، وتميزت غزنة فى ذلك القرن بالإدارة الناجحة، وبالقصور والمساجد والمبانى الراقية وجداول المياه مما لا يضاهيها فيه بلد آخر فى ذلك الوقت[٧].

فى عصر السلجوقيين (٤٢٩-٦٣٢هـ/ ١٠٣٧- ١٢٣٤م):

لم يكن أحد من خلفاء محمود يتمتع بمثل قوته واقتداره، فبدأت الدولة بعد عهده فى الضعف والتدهور إلى أن تمكن ركن الدين طغرل بيك بن سلجوق(ت٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) مؤسس دولة السلاجقة من السيطرة على الأراضى الغزنوية، وفى عهود خلفائه توسعت حدود دولة السلاجقة حتى سيستان وفى الشمال إلى بلخ وطخارستان، وأشهر ملوك السلاجقة هم: ألب أرسلان (٤٥٥- ٤٦٥هـ/ ١٠٦٣- ١٠٧٢م)، وابنه ملك شاه (٤٦٥- ٤٨٥هـ/ ١٠٧٢- ١٠٩٢م)، الذى استطاع توسيع رقعة دولته إلى مناطق كابل ولاهور[٨].

فى عصر الغزنويين (٤٠٥-٦١٢هـ/ ١٠١٤- ١٢١٥م):

كانت قبيلة " سورى" تحكم منطقة طخارستان وغور وهرات قرب خراسان، وذلك قبل مجى الإسلام إلى هذه المنطقة، وكانت هذه الأسرة تلقب بلقب " غرشاه" وغر معناها " الجبل" أى ملك الجبل وكان شنسب بن خزنك (٤٠- ٨٠هـ/ ٦٦٠- ٦٩٩م) أول مسلم حاكم من هذه الأسرة، وكان قد أسلم على يد الخليفة الراشد على بن أبى طالب رضى الله عنه، وقد قام أبناء الملك عز الدين حسين (ت٥١٠هـ/ ١١١٦م) السبعة بتوطيد دعائم هذه الدولة سياسيًا وعسكريًا؛ فبجهود كل من غياث الدين محمد سام الغورى (ت٥٩٩هـ /١٢٠٣م) وأخيه معز الدين محمد بن سام الغورى الملقب بـ "شهاب الدين" والمتوفى ٦٠٢هـ/١٢٠٤م وقد توسعت رقعة الدولة الغورية من الهند إلى العراق ومن نهر جيجون إلى خليج هُرمز، وكذلك دعمت هذه الدولة الآليات المعنية بنشر الإسلام والثقافة الإسلامية فى الهند على نطاق واسع، وفى عصر هذه الدولة ازدهرت الحضارة الإسلامية، كما وصلت الآداب الفارسية من خلال القوات الغورية إلى دلهى، وأصبحت لغة "البشتو" لغة الشعر والأدب، وانتشر الإسلام فى منطقة أفغانستان كلها، ولعبت هذه الدولة دورًا كبيرًا فى تطوير الفنون والعمارة بجانب الرعاية الكاملة للعلماء والأدباء. وبعد وفاة السلطان محمد بن سام الغورى



(ت ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م) انهارت إمبراطورية الغوريين، حيث قضت عليها نهائيًا الدولة الخوارزمية عام ٦١٢هـ/ ١٢١٥م، ومنها سيطرت على المناطق الشمالية الأفغانية غور وهرات[٩].

فى عصر فتنة التتار (٦١٦-٦٤٠هـ/ ١٢١٩- ١٢٤٢م):

تعرضت بلاد الأفغان بدورها لمحنة الغزو المغولى التى نزلت بالعالم الإسلامى على أيدى جنكيز خان وأولاده؛ فقد قضت القوات المغولية على الدولة الخوارزمية وبسطت نفوذها إلى حدود البنجاب، مما أعطى الفرصة للقضاء على الحضارة الإسلامية، بجانب قتل الأبرياء ونهب هذه المنطقة برمتها، وبذلك امتزج العنصر المغولى بالحضارة العربية والإسلامية، وأثرت عادات وتقاليد منغولية على الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية فى هذه المنطقة، بجانب ترك بصماتها على النظم السياسية والإدارية. وأشهر من حكم أفغانستان من المغول آنذاك : جنكيز خان (٦١٦-٦١٨هـ/١٢١٩- ١٢٢١م)، وكجائى بن جنكيز خان (٦١٨هـ/١٢٢١م) وجغتائى ابن جنكيز خان (٦١٨-٦٣٩هـ/١٢٢١- ١٢٤١م)، وقراهولاكو (٦٣٩- ٦٤٤هـ/١٢٤١- ١٢٤٦م)، وأرغون بن أباقا(٦٤٣هـ/١٢٤٥م)، وتولى ابن جنكيز خان (٦٢٠هـ/١٢٢٣م)، وظلت بلاد الأفغان تخضع لأبناء جنكيز خان الذين أسلموا وكانوا يحكمون فى فارس باسم الإيلخانيين حتى ظهور تيمور لنك، وفى عهد الإيلخانيين المسلمين حانت الفرصة للحضارة الإسلامية أن تنتعش من جديد، ويمثل عهد الإيلخانيين الحقبة الذهبية لمنطقة أفغانستان بسبب الإصلاحات التى تمت فى مجالات الإدارة والمال والاقتصاد والعمران [١٠].

فى عصر تيموريان هرات (٧٧١-٩٢٠هـ/ ١٣٦٩- ١٥١٤م):

مؤسس هذه الدولة هو تيمور لنك طرغاى برلاس (ت٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م)، وقد امتدت دولته بين نهر الفرات غربًا وإلى ما وراء نهر سيحون فى الشمال الشرقى. وينتمى تيمور لنك إلى قبيلة "برلاس" التى رافقت الغزو المغولى بقيادة جنكيز خان، وقد نزلت حول بلدة " كيش" فى جنوب سمرقند، وقد هاجم تيمور لنك قسمًا كبيرًا من بلاد أفغانستان حتى عبر نهر السند واجتاح المدن الواقعة على نهر كنكا فى الهند، ثم اتجه إلى العاصمة دلهى واقتحمها، ثم عاد إلى أفغانستان

سالمًا غانمًا، وتوفى تيمور لنك وهو فى الحادية والسبعين من العمر، وقد خسر ابناؤه التيموريون معظم مناطق إمبراطوريتهم بعد أربعة سنوات فقط من وفاته، ولكنهم كانوا يتنافسون على تشجيع العلماء والأدباء، ومن أشهر الملوك التيموريين الذين حكموا أفغانستان: شاه رخ(٧٧٩- ٨٥٠هـ/ ١٣٧٧- ١٤٤٧م)، ألغ بيك (٧٩٦- ٨٥٣هـ/ ١٣٩٤- ١٤٤٩م)، أبو سعيد (٨٣٠- ٨٧٣هـ/ ١٤٢٦- ١٤٦٩م)، حسين بايقرا (٨٤٢- ٩١٣هـ/ ١٤٣٨- ١٥٠٦م)، وقد تمتعت أفغانستان فى أثناء حكمهم بالهدوء والازدهار، وكانوا حماة للثقافة والفنون[11].

فى عصر كل من الدولة الأزبكية والصفوية والمغولية:

فى أوائل القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، قوى أمر الأزبك وهم من الشعوب التركية فى آسيا الوسطى بقيادة محمد خان شيبانى الذى تمكن من السيطرة على كل من هراة وسمرقند خلال عام ٩٠٥- ٩١٦هـ/ ١٥٠٠- ١٥١٠م، وكان بابر المتوفى ٩٣٧هـ/ ١٥٣٠م مؤسس الدولة المغولية فى الهند يحكم كابل آنذاك، فلما هاجم إسماعيل الصفوى فى عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م محمد خان الشيبانى وحاصره فى مرو وقتله، واستولى على هرات، استغل بابر هذه الفرصة ليوطد سلطانه فى آسيا الوسطى، ولكنه انهزم أمام القوات الصفوية، وتراجع إلى كابل التى جعلها مركزًا عسكريًا، تنطلق منها حملاته العسكرية نحو الشرق والغرب، فاستولى على قندهار عام ٩٢٩ هـ/ ١٥٢٢م، ثم وجه اهتمامه نحو الهند، حيث استطاع بعد سلسلة من الحملات الاستيلاء على البنجاب، ثم توجه نحو دلهى وهزم السلطان إبراهيم اللودهى آخر ملوك الأفغان فى عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٦م، وبذلك تمكن من تأسيس الدولة المغولية فى شبه القارة، هذا وقد تمتعت منطقة أفغانستان تحت رعاية كل من الدولة المغولية والصفوية بالأمن والسلام نسبيًا فقد استولت الدولة المغولية على المناطق الجنوبية بما فيها كابل، بينما سيطرت الدولة الصفوية على هرات وسيستان، أما قندهار فبقيت موضع نزاع وحرب بين الطرفين فى عهد كل من السلطان أكبر (٩٦٣- ١٠١٤هـ/ ١٥٥٥- ١٦٠٥م)، وجها نكير (١٠١٤- ١٠٣٧هـ/ ١٦٠٥- ١٦٢٧م)، وشاهجهان (١٠٣٧- ١٠٦٩هـ/ ١٦٢٧- ١٦٥٨م)، وأورنك زيب عالمكير



(١٠٦٩- ١١١٨هـ/ ١٦٥٩- ١٧٠٧م)، وبعد وفاة الأخير تمكنت الدولة الصفوية من السيطرة عليها نهائيًا[١٢].

تاريخ أفغانستان الحديث:

يبدأ تاريخ أفغانستان الحديث مع ازدياد المقاومة الأفغانية ضد الدولة الصفوية، خصوصًا بعد قيام ميرويس خان بتأسيس دولة هوتيكة- وكان ينتمى إلى قبيلة غلجى أو غلزى، فى عام ١١١٩هـ/ ١٧٠٧م فى قندهار، وقد قاد ثورة عنيفة على حاكم قندهار التابعة للدولة الصفوية وقتل كل الفرس الموجودين فيها، واستطاع الاستيلاء على أفغانستان كلها، وبعد وفاته عام ١١٢٧هـ/ ١٧١٥م خضع أخوه عبد العزيز للدولة الصفوية مرة ثانية، ولكن ثار ابن أخيه محمود بن ميروس خان، وقاد جيشًا كبيرًا ضد الصفويين، ولم تستطع الدولة الصفوية المقاومة، فاستسلمت بعد حصار دام ستة أشهر، وذلك فى عام ١١٣٥هـ/١٧٢٢م، وعمد محمود مباشرة إلى تنظيم الإدارة والاقتصاد، ولكنه توفى فى ١٢ شعبان عام ١١٣٧هـ/ الموافق ٢٥ أبريل عام ١٧٢٥م، وخلفه ابن عمه شاه أشرف بن عبد العزيز الذى واجه صعوبات عديدة فى إيران من قبل العثمانيين والروس. ومما زاد الأمور تعقيدًا، الصراعات الداخلية بين الزعماء الأفغان وقد قاومت قوات أشرف بنجاح القوات الروسية، ولكنها لم تستطع أن تقف فى وجه الزعيم نادر شاه أفشار الذى هزم أشرف هزيمة نكراء، واضطر الأخير إلى اللجوء إلى أفغانستان، ثم لم يلبث أن اغتاله زعيم بلوجى هو إبراهيم ابن عبد الله خان فى أثناء رجوعه فى أواخر عام ١١٤٢هـ/ ١٧٢٩م.

يعتبر عصر الهوتكيين عصرًا مهمًا للغاية فى تاريخ أفغانستان، فمن ناحية تَمَّ تأسيس دولة أفغانية خالصة مثلتها القبائل الأفغانية من خلال الممارسات العسكرية الناجحة ضد الدولة الصفوية، ومن ناحية أخرى سنحت الفرصة للغة البشتو وآدابها أن تزدهر فى المنطقة [١٣].

لقد انتخب نادر شاه قلى بيك الملقب بأفشار شاهًا لإيران عام ١١٤٨هـ/١٧٣٥م، ذلك بعد ما استولى على إيران وهراة، ثم توجه فى السنة التالية نحو قندهار التى استولى عليها بعد حصار دام سنة، وغيَّر سياسته حيال الأفغان، وصالحهم فدخلوا فى جيشه أفواجًا، ثم تمكن من الاستيلاء على غزنة وكابل عام ١١٥١ هـ/ ١٧٣٨م، ومن

ثم اصطدم مع الدولة المغولية فى الهند، وجعل منطقة أفغانستان قاعدة عسكرية له لمهاجمة الهند، ثم توجه إلى الهند، وانتصر على المغول عام ١١٥٢هـ/ ١٧٣٩م، وفى أثناء عودته عبر أفغانستان إلى إيران، واغتيل فى عام ١١٦٠هـ/ ١٧٤٧م[١٤].

إثر وفاة نادر شاه، وصل أحمد خان الأبدالى، الذى كان يشغل رتبة عالية فى القوات النادرية، مع فرقته العسكرية المكونة من الأفغان إلى قندهار، واختاره المجلس القبلى ملكًا، وجعل أحمد "قندهار" عاصمة ملكه وغير اسمها إلى أحمد شاهى، كما لقب نفسه " دُرِّدُران" وعرف قومه منذ ذلك الوقت بلقب دُرّانى" بدلاً من "أبدالى"، وقد تفوق أحمد شاه الدرانى على نادر شاه فى توسيع مملكته، وبرهن بسرعة على أنه حاكم قدير استطاع أن يحظى بمحبة شعب أفغانستان، وجعلهم أمة قوية، وهاجم الهند مرارًا وتكرارًا، وسيطر عليها، وتمكن من إلحاق الهزيمة التاريخية بقوم "مرهتا" فى الهند عام ١١٧٤هـ/ ١٧٦١م، وقام بإنجازات هائلة فى مجال النظم والإدارة، ومن ثم حظى، نتيجة لشمائله الطيبة ومزاياه الأخرى إضافة إلى شجاعته الخارقة، بلقب " بابا" أى والد الأمة الأفغانية. وقد توفى فى قندهار عام ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م، وترك لأولاده إمبراطورية واسعة مترامية الأطراف ولكنها غير مستقرة[١٥].

بعد وفاة أحمد شاه خلفه ابنه تيمور الذى عاش طول حياته فى قمع الثورات والفتن، وكان غير مرغوب لدى قومه، وبعد موته عام ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٣م، وقع الخلاف والتنافس بين أبنائه: زمان شاه ومحمود شاه وشاه شجاع الملك، مما أدى إلى اضطراب الأوضاع وازدياد نفوذ أسرة البارك زئى، حتى استطاع دوست محمد خان قائد هذه الأسرة الاستيلاء على كثير من المناطق الأفغانية بما فيها كابل وبيشاور، ثم قضى على أسرة أحمد شاه درانى، ووزعت أفغانستان بين الإخوة من آل البارك زئى، وعانت أفغانستان كثيرًا فى تلك الأثناء بسبب الفوضى التى أعقبت النزاعات والصراعات الداخلية، مما أعطى الفرصة للعناصر الخارجية للتدخل فى شئون أفغانستان الداخلية، ومنها الروس والفرس والإنجليز، فقد طلب الأمير دوست محمد المساعدة السياسية والعسكرية من الحكومة الإنجليزية المحتلة ضد أخيه وضد السيخ،

فلبى الإنجليز نداءه، وجاءته بعثة بريطانية تحت قيادة السير الكسندر برنس (sir Alexander Burns) ولكن البعثة أخفقت فى مهمتها عندما رفض برنس إعطاء دوست محمد الإمدادات العسكرية الكاملة لاستعاده بيشاور، وبدلا من ذلك قامت البعثة الإنجليزية بعقد الاتفاقيات مع شاه شجاع بهدف إعادته إلى عرش أفغانستان، وفتح كابل، مقابل فتح السفارة الدائمة فى كابل ، وعدم إيجاد أيه علاقات خارجية دون موافقة الحكومة الإنجليزية، والتنازل عن منطقة كشمير والسند لصالح الحكومة الإنجليزية، فوافق شاه شجاع الملك على ذلك، ومن هنا أمر حاكم الهند البريطانى بشن هجوم على أفغانستان بهدف إعادة شجاع الملك إلى العرش، وتم كل ذلك بنجاح، ولكن الأفغانيين لم يكن لديهم الاستعداد لتحمل احتلال أجنبى، أو قبول ملك مفروض عليهم؛ لذلك اندلعت الثورات الأفغانية ضد الحكومة الإنجليزية، وتمكن دوست محمد خان من أن يهرب من سجنه ويعود إلى أفغانستان ليقود الثورة ضد الحكومة الإنجليزية، ومع أنه انتصر عليهم إلا أنه اضطر فيما بعد إلى تسليم نفسه للبريطانيين فى كابل حيث عاملوه باحترام ونقلوه إلى الهند ، ولكنهم سمحوا له بالعودة بعد مقتل شجاع الملك، واستمر دوست محمد فى الحكم حتى وافته منيته عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦٢م، واستطاع فى سنوات حكمه أن يستعيد بلخ، وخلم، وقندز وبدخشان، كما تمكن من طرد الفرس من هراة(١٦).

جلس شير على الابن الثالث "لدوست محمد" على" عرش أفغانستان بعد وفاة أبيه، وقد اعترفت الحكومة الإنجليزية بإمارته على أفغانستان كلها، وفى عام ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م تبودلت السفارات بين الجانبين إلا أن هذه العلاقات تكدرت فيما بعد، بسبب بعض المصالح السياسية والعسكرية، وقد بادر شير فأقام العلاقات الخارجية مع روسيا مما أدى إلى حرب عام ١٢٩٥- ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٨-١٨٨٠م بين الجانبين، وانتهى الأمر باستيلاء الحكومة الإنجليزية على كابل وقندهار.

وبعد أن توفى شير على فى عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٨م، اعترفت الحكومة الإنجليزية بموجب المعاهدة بيعقوب خان ابن شير على أميرًا على أفغانستان، وتم الاتفاق على وجود سفارة دائمة للحكومة

الإنجليزية في كابل، وأن تكون علاقاته الخارجية مع الدول الأخرى على حسب رغبات الحكومة الإنجليزية ومصالحها، ومقابل هذه الامتيازات وعدت الحكومة الإنجليزية بمنحه المساعدة لمواجهة أي اعتداء خارجي على أفغانستان، ولكن انتصار الحكومة الإنجليزية كان قصير الأمد؛ ففي عام ١٢٩٦هـ/ ١٨٧٩م اغتيل المندوب البريطاني السير لويس كواغنري: (Sir Louis Cavagnari) مع مرافقه في كابل، وأرسلت الحكومة الإنجليزية قواتها التي احتلت كابل مرة ثانية، وأجبر يعقوب خان على التنازل، واعترفت الحكومة الإنجليزية بمحمد عبد الرحمن خان، حفيد دوست محمد أميرًا على كابل، فلما توفي عام ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م خلفه ابنه الأكبر حبيب الله خان، وفي عهده ازدهرت الأوضاع الثقافية والاجتماعية، كما اتخذت الإجراءات اللازمة لإدخال الآليات والوسائل الحضارية الحديثة، وظهرت الصحف والجرائد القومية باللغة الفارسية وبلغة "البشتو"، وقد اغتيل حبيب الله في عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م في معسكره في قلعة كوش قرب جلال آباد.

وقد استولى ابنه أمان الله خان على الحكم، وأعلن نفسه ملكًا، ثم أعلن استقلال أفغانستان عن الاحتلال الإنجليزي مما أدى إلى نشوب الحرب مع الحكومة الإنجليزية، ثم وقعت معاهدة روالبندي عام ١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م، وقد اعتُرِف فيها باستقلال أفغانستان، وقام أمان الله بإنشاء علاقات دبلوماسية مع العالم الخارجي، كما تابع منهاج والده الإصلاحي، ولكنه اضطر إلى مغادرة أفغانستان للإقامة الدائمة في إيطاليا[١٧].

وفي عهد نادر خان، الذي أخرج البلاد من الفوضى العارمة بعد مغادرة عمه أمان الله، تم ترميم المدارس القديمة مع إنشاء الأكاديميات والكليات الحربية باسم دار الفنون وكذلك الكليات الطبية، كما أرسل بعض الطلاب الأفغان إلى الخارج للحصول على الدراسات العليا في المجالات العديدة. وحينما اغتيل نادر خان في أثناء توزيعه الجوائز على طلاب المدارس في ٢٠ رجب عام ١٣٥٢هـ/ الموافق ٨ نوفمبر عام ١٩٣٣م، خلفه ابنه الأوحد محمد ظاهر الذي تابع سياسة والده في تثبيت كيان أفغانستان القومي.

وفي عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٤م أعلن



الدستور الجديد الذى وافق عليه مجلس أعلى يضم كل الزعماء والأشراف، وبموجب هذا الدستور، أصبحت الملكية فى أفغانستان دستورية وأضحى هناك فصل كامل وواضح بين السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية.

استمر الحكم ملكيًا دستوريًا حتى عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م حينما أعلن النظام الجمهورى فى أفغانستان نتيجة انقلاب غير دموى، قاده الجنرال محمد داود خان، بينما كان الملك محمد ظاهر شاه يقوم بزيارة إلى إيطاليا، وأصبح داود خان رئيسًا للجمهورية ورئيسًا للوزراء. ثم فى عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م أصبحت أفغانستان جمهورية ديمقراطية، ولكن سرعان ما دخلت فى الحرب الدامية مع القوات السوفيتية فى عام ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، وكان هدف روسيا الاستيلاء على أفغانستان وعلى مواردها الطبيعية وثرواتها وخيرها، وقد استمرت تلك الحروب نحو تسع سنوات فقد خلالها نحو ١٥ ألف قتيل. وفى عام ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، تم التوقيع فى جنيف وبإشراف الأمم المتحدة على انسحاب القوات السوفيتية وإقامة حكومة أفغانية محايدة وإعادة اللاجئين، بيد أن المجاهدين رفضوا الاتفاق وصمموا على متابعة القتال فى حين تابع السوفييت الانسحاب من جانب واحد وأتموه فى عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، وظل الصراع محتدمًا بين فصائل المجاهدين بزعامة صبغة الله مجددى رئيس مجلس الشورى والحكومة المؤقتة من جهة وقوات الحكومة بزعامة محمد نجيب الله من جهة أخرى.

وبعد محاولة انقلاب غير ناجحة فى عام ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، وتخلى نجيب الله عن منصبه ولجوئه إلى الأمم المتحدة، خلا الجو لفصائل المجاهدين للسيطرة على كامل البلاد، لكن الأمور ساءت من جديد وتجدد الصراع بين المجاهدين أنفسهم من أجل السلطة وما زال مستمرًا على الرغم من المحاولات الجادة التى تبذل لإعادة الهدوء والاستقرار إلى البلاد [١٨].

أ . صاحب عالم الأعظمى الندوى

الهوامش:

(١) See H.W. Bellew: Races of Afghanistan , P. Culcutta 1880.

(٢) حول جغرافيتها راجع الكتب التالية: ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م): صورة الأرض، ط: مكتبة الحياة، بيروت ١٩٣٩م/ المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط: ليدن ١٩٠٦م/ القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، ط: بيروت ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م/ الإصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى ت. ٣٤٠/ ٩٥٢م: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، ط: مكتبة الذخائر بالقاهرة عام ٢٠٠٤م. وحول علاقتها السياسية والتجارية مع جيرانها، راجع المسعودى(على بن الحسين بن على المسعودى(ت٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، ط: دار الأندلس، بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م/ غوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة عادل زعيتر، ط: عيسى البابى الحلبى، ط: القاهرة، ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م/ محمد إسماعيل الندوى: الهند القديمة حضارتها ودياناتها، ط: دار الشعب بالقاهرة، دون تاريخ/ ول ديوارنت: قصة الحضارة، ترجمة محمد بدران وزكى نجيب محمود، ط: مكتبة الأسرة بالقاهرة ٢٠٠١م .

(٣) راجع المصادر التالية: البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ت٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) : فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ط: مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م/ الطبرى (أبو جعفر محمد بن حرير ت. ٣١هـ/ ٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، عشرة أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢: دار المعارف بمصر دون تاريخ/ ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦هـ/ ٨٩٠): عيون الأخبار، تحقيق منذر أبو شعر، أربعة مجلدات، ط: المكتب الإسلامى، بيروت ١٤٢٩م/ اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م): تاريخ اليعقوبى، ط: ١٣٥٨م/ المسعودى/ مروج الذهب، جـ٢/ H . A . R . GLBB: The Arab conquests in Central Asia, P. London 1923.

(٤) لمزيد من المعلومات حول هاتين الدولتين راجع الكتب التالية: ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، سبعة مجلدات، ط: دار صادر بيروت/ المسعودى: مروج الذهب/ ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢مم): الكامل فى التاريخ، عدة أجزاء، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م/ أحمد الخولى: سجستان بين العرب والفرس منذ دخول الإسلام حتى ظهور الصفاريين، ط: دار حراء ١٩٨٦م/ حول سير ملوك هاتين الدولتين راجع: الكرديزى (أبو سعيد عبد الحى ابن الضحاك ت٤٤٣هـ/ ١٠٥١م: زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، ط: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.

(٥) راجع الاصطخرى: المسالك والممالك/ المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم / أبو النصر العتبى: تاريخ يمينى، ط: مصر ١٢٩٠هـ/ ابن الضحاك الكرديزى: زين الأخبار.

(٦) راجع محمد عبد السلام خان عمر خليل: نسب نامته أفغانية، ط: الهند ١٩١٤م/ E. Thomas: Chronicles of the Pathan Kings Of Delhi, P. London 1971.

(٧) راجع الكتب التالية: العتبى: تاريخ يمينى/ الكرديزى: زين الأخبار/ نظام الملك (أبو على الحسن بن على الطوسى ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م): سياست نامه، ترجمة السيد محمد الغزاوى، ط: القاهرة ١٩٧٥/ منهاج سراج: طبقات ناصرى، ط: باكستان ١٩٤٩م/ محمد ناظم: السلطان محمود الغزنوى، حياته وعصره، ترجمة عبد الله سالم الزليتنى، ط: دار المدار الإسلامى ٢٠٠٧م بيروت.

(٨) راجع أردو دائرة معارف إسلامية، ط٢: زير اهتمام دانش كاه ينجاب، لاهور ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣م، ماده سلحوق/ صدر الدين الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال، ط: ينجاب، لاهور ١٩٣٣.

(٩) راجع قاضى منهاج سراج: طبقات ناصرى/ J. Bidulph; Tribes of the Hindoo Koosh, P. Culcutta 1880 W.M. McGovern: Early Empires of Central Asia, P. India 1939.

(١٠) راجع رشيد الدين فضل الله الهمداني: جامع التواريخ، ترجمة وتحقيق محمد نشأت، ط: دار النهضة العربية، مصر/ Howorth , History of the Mongols, P. Lodon 1888.

(١١) راجع محمد حسين خان: أفغان بادشاه، ط: لاهور ١٣٤٦م/ أردو دائرة معارف إسلامية، مادة تيموريان هرات.

(١٢) لمزيد من التفاصيل حول ذلك راجع الكتب التالية: بابر: تزك بابر، ترجمة عبد الرحيم خانخانان، ط: الهند ١٣٠٨م/ أبو الفضل: أكبر نامه، ط: كلكتا، الهند ١٨٨٦م/ جهانكيرى، ط: ميرزا هادى، لكهنو ١٣٢٧م/ محمد صالح كنبوه: شاهجهان نامه، ط: كلكتا، الهند ١٩٣٩م/ منشى محمد كاظم: عالمكير نامه، ط: كلكتا، الهند ١٨٦٨م/ محمد ساقى مستعد خان: مآثر عالمكيرى، تحقيق مولوى أغا محمد على، ط: الجمعية الآسوية بنكال عام ١٨٧١م. / للاطلاع على تاريخ الأسرات الحاكمة راجع المستشرق زمباور معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ط: دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

(١٣) See G.P. Tate: Kingdom of Afghanistan- a Historical Sketch, P. Culcutta 1911- H.A. Ross: A Glossary of Tribes and Castes of the Punjab and frontier provinces, P. Lahor 1911- 1919.

(١٤) حول حياته السياسية والعسكرية راجع رضا زاده شفق: نادر شاه أفشار، مؤسس الأفشارية، فى نظر المستشرقين ترجمة أحمد الخولى، ط: المركز القومى للترجمة، القاهرة ٢٠١٠م.

(١٥ حول سيرته راجع سيد غلام محمد غبار: أحمد شاه باب، ط: كابل ١٩٤٤م.

(1616) راجع شاه شجاع سدوزنى: واقعات شاه شجاع، ط: كابل ١٩٥٣م/ الله بخشى يوسفى: تاريخ آزاد يتهان، لاهور ١٩٥٩م/ يوسف زئى افغان، ط: لاهور ١٩٦٠م.

(١٧) حول حياته السياسية والعسكرية راجع عزيز هندى : زوال غازى أمان الله خان، ط: امرتسر باكستان ١٩٣٤م.

(١٨) For more details see: Mohan Lal: Life Of Dost Mohomed, P. Culcutta 1846- W. K. Fraser- Tytler: Afghanistan-A Study of Political Developments, P. London 1953- C.C. Davies: Problem of the North West frontier, 1890- 1908, p. London 1937- Derand: Causes of the First Afghan War, P. London 1879-J.W. Kaye: History of Afghan War, P. 1874- The Second Afghan War, 1878- 1880, Abridged official account, P.London 1908 - Afghan War of 1879- 80, P.London 1881 - The Third Afghan War 1919, official account, Culcutta 1926.

مصادر ومراجع للاستزادة:

أولاً: مصادر ومراجع عربية

١. ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م): الكامل فى التاريخ، عدة أجزاء، ط: دار الكتب العلمية؛ بيروت، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٢. ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى ت ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م): صورة الأرض؛ ط: مكتبة الحياة، بيروت ١٩٣٩م.

٣. ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس؛ سبعة مجلدات، ط: دار صادر بيروت.

٤. ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦هـ/ ٨٩٠): عيون الأخبار، تحقيق منذر أبو شعر أربعة مجلدات، ط: المكتب الإسلامى، بيروت ١٤٢٩هـ.

٥. أبو النصر العتبى: تاريخ يمبينى، ط: مصر ١٢٩٠هـ.

٦. أحمد الخولى: سجستان بين العرب والفرس منذ دخول الإسلام حتى ظهور الصفاريين، ط: دار حراء ١٩٨٦م.

٧. الإصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى ت، ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، ط: مكتبة الذخائر بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

٨. البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م) : فتوح البلدان، تحقيق، عبد الله أنيس الطباع، ط: مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٩. رشيد الدين فضل الله الهمدانى: جامع التواريخ، ترجمة وتحقيق، محمد نشأت، ط: دار النهضة العربية، مصر.

١٠. رضا زاده شفق : نادر شاه أفشار، مؤسس الدولة الأفشارية فى نظر المستشرقين، ترجمة أحمد خولى، ط: المركز القومى للترجمة، القاهرة ٢٠١٠م.

١١. زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، دار الرائد العربى، بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٢. صدر الدين الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية، تصحيح محمد إقبال، ط: بنجاب، لاهور ١٩٣٣م.

١٣. الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ت٣١٠هـ/ ٩٢٢م) : تاريخ الرسل والملوك، عشرة أجزاء، تحقيق، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢: دار المعارف بمصر دون تاريخ.

١٤. غوستاف لوبون: حضارات الهند، ترجمة عادل زعيتر، ط: عيسى البابى الحلبى، ط: القاهرة، ١٣٦٧هـ /١٩٤٨م.

١٥. القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد ت ٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، ط: بيروت ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

١٦. الكرديزى) أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك ت ٤٣٣ هـ/ ١٠٥١م: زين الأخبار، ترجمة عفاف السيدزيدان، ط: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م.

١٧. محمد إسماعيل الندوى: الهند القديمة حضارتها ودياناتها، ط: دار الشعب بالقاهرة، دون تاريخ.

١٨. محمد ناظم: السلطان محمود الغزنوى، حياته وعصره، ترجمة عد الله سالم الزليتنى، ط: دار المدار الإسلامى ٢٠٠٧م بيروت.

١٩. المسعودى (على بن الحسين بن على المسعودى (ت ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، ط: دار الأندلس، بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٢٠. المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط: ليدن ١٩٠٦م.

٢١. نظام الملك (أبو على الحسن بن على الطوسى ت ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م): سياست نامه، ترجمة السيد محمد الغزاوى، ط: القاهرة ١٩٧٥م.

٢٢. ول ديورانت: قصة الحضارة عدة أجزاء ترجمة محمد بدران وزكى نجيب محمود، ط: مكتبة الأسرة بالقاهرة ٢٠٠١م.

٢٣. اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن واضح ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م): تاريخ اليعقوبى، ط: بغداد ١٣٥٨م.

ثانيًا: مصادر ومراجع فارسية:

١. أبو الفضل: أكبر نامه، ط: كلكتا، الهند ١٨٨٦م.

٢. بابر: تزك بابر، ترجمة عبد الرحيم خانخانان، ط: الهند ١٣٠٨هـ .

٣. جهانكير: تزك جهانكيرى، ط: ميرزا هادي، لكهنو ١٣٢٧هـ.

٤. محمد ساقى مستعد خان: مآثر عالمكيرى، تحقيق مولوى أغا أحمد على، ط: الجمعية الآسوية بنكال عام ١٨٧١م.

٥. محمد صالح كنبوه: شاهجهان نامه، ط: كلكتا، الهند ١٩٣٩م.

٦. منشى محمد كاظم: عالمكير نامه، ط: كلكتا، الهند ١٨٦٨م.

٧. منهاج سراج: طبقات ناصرى، ط: باكستان ١٩٤٩م.

ثالثًا: مصادر ومراجع أردية:

١. سيد غلام محمد غيار: أحمد شاه بابا، ط: كابل ١٩٤٤م.

٢. شاه شجاع سدوزتى: واقعات شاه شجاع، ط: كابل ١٩٥٣م.

٣. عزيز هندى: زوال غازى أمان الله خان، ط: امرتسر باكستان ١٩٣٤م.

٤. الله بخشى يوسفى: تاريخ آزاد بتهان، ط: لاهور ١٩٥٩م.

٥. الله يخشى يوسفى: يوسف زئى أفغان، ط: لاهور ١٩٦٠م.

٦. محمد حسين خان: أفغان بادشاه، ط: لاهور ١٣٤٦هـ.

٧. محمد عبد السلام خان عمر خليل: نسب نام أفغانة، ط: الهند ١٩١٤م.

دوائر معارف:

١. أردو دائرة معارف إسلامية، ط٢: زير اهتمام دانش كاه بنجاب، لاهور ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

مصادر ومراجع إنجليزية :

1- C.C. Davies : Problem of the North West Frontier, 1890-1908, P. London 1937.
2- Durand: Causes of the, First Afghan War, P. London 1979.
3- E, Thomas: Chronicles of the pathan Kings of Delhi, p. London 1871.
4- G. P. Tate: Kingdom of Afghqnistan – a historical sketch, P. Culcutta 1911.
5- H.A.R. R. GIBB: The Arab conquests in Central Asisa,
6- H.A. Ross: A Glossary of Tribes and Castes of the Punjab and frontier provinces, P. Laor 1911- 1919.
7- H.W. Bellew: Races of Afghanistan, P. Culcutta 1990 .
8- Heusman: Afghan War Of 1979- 80, P.London 1881.
9- H oworth: History of the Mongols, P . London 1888.
10- J.Bidulph: Tribes of the Hindoo Koosh,p.Culcutta 1880.
11- J. W. kaye:History of Afghan War, P.1874.
12- Mohan Lal: Life of Dost Mohomed,p.Culcutta 1846.
13- The second Afghan war,1878-1880,Abridged official account, p.London 19080
14- The third Afghan war 1919, offical account, p.Culcutta 1926.
15- W.k Fraser-Tytler: Afghanistan-A study of Political Developments, p
16- W.M. McGovern: Early Empires of Central Asia, p.India 1929.

الأكراد

الجنس الكردى وبلاد الأكراد

الحديث عن الأصل العرقى الذى تنحدر إليه الأمة الكردية حديث متشعب، والروايات المأثورة عن أنساب الأكراد والقبائل التى انقسموا إليها كثيرة متضاربة، لا يصمد معظمها أمام النقد والمناقشة، فبعضها يتسم بنزعة أسطورية واضحة، وبعضها الآخر موضوع مخترع[1]. والراجح ـ كما يذكر المقريزى ـ أن الأكراد جنس من العجم، وأنهم قبائل عديدة: كورانية وهذبانية وبشتوية مهرانية وهكارية وحميدية... إلخ[2]. ويوافق هذا ا لرأى ما انتهى إليه طائفة من علماء الأجناس البشرية حديثًا من أن الكرد قبائل آرية استوطنت منذ فجر التاريخ إقليم كابدوكيا[3] (منطقة وان- بدليس)، واعتصمت بالجبال المطلة على مدينة آشور القديمة[4]؛ استجابة لما جُبلُوا عليه من الأنفة وحب الحرية والميل إلى الاستقلال[5].

والشعب الكردى أربعة فروع كبيرة بينها شىء غير قليل من التباين فى اللغة والآداب والتاريخ، وهم: كرمانج، واللر، والكهلر، وكوران[6].

وقد كانت مواطن الأكراد إجمالا تمتد من الخليج الفارسى إلى بحر قزوين؛ بحيث تشمل الجزيرة، والعراق، والجبال، وأذربيجان، وأران، وأرمينية، وجزءا من بلاد الروم، لا على أنها كانت خالصة للأكراد، بل على أنها كانت المحيط الجغرافى الذى استقروا به مختلطين بأصحاب القوميات الأخرى[7].

أما "كردستان": فلقب أطلقه السلاجقة علمًا على المناطق الآهلة بالأكراد[8]. ويدل إما على المنطقة الواقعة بين أذربيجان ولورستان[9]، وإما على البلاد الواقعة غربى جبال زاجروس[10]؛ يقول لسترنج: "أما ما يقال فى أصل إقليم كردستان، فيروى أنه فى نحو منتصف المائة السادسة للهجرة/ القرن الثانى عشر للميلاد اقتطع السلطان السلجوقى سنجر القسم الغربى من إقليم الجبال، أى ما كان منه من أعمال كرمانشاه وسماه كردستان، وولى عليه ابن أخيه سليمان شاه"[11]. وثمة دلالة عامة لكلمة "كردستان"، وهى أنها تشير إلى جملة المواطن والبقاع التى يقطنها الأكراد وإن

كانت خارج الحدود المذكورة آنفا، مثل إطلاق الفرس لقب "كردستان الخراساني" على المناطق التي يقطنها الأكراد بإقليم خراسان[١٢].

وللأستاذ المحقق محمد علي عوني جهد مشكور في بيان الحدود القومية التي ينتهي إليها إقليم كردستان، حيث ذهب إلى أن هذا الإقليم يحيط به من الشمال أرمينية ومقاطعات أرضروم وطرابزون التابعة لتركيا، ومن الشرق أذربيجان والعراق العجمي وفارس ومن الجنوب خوزستان والعراق العربي وبادية الشام، ومن الغرب نهر الفرات وبعض الولايات الشرقية من الأناضول. ويتنازع السيادة على إقليم كردستان حاليًا ثلاث دول، حيث يقع الجزء الأكبر منه في تركيا، وتضم إيران قسما آخر، وثمة قسم ثالث محدود المساحة يقع شمال العراق[١٣].

ويورد بوريس جيمس Boris James أسماء أبرز المدن أو المناطق التي نصَّ الجغرافيون العرب على أنها آهلة بالأكراد إبان العصور الوسطى، والواقعة ضمن إقليم كردستان وفق التحديد المذكور، وهي : إربل، وتلّ حفصون، وشَهْرَزُور، وقَيْمُر- بين الموصل وخِلاط - وفنك[١٤]، ونصيبين، وجزيرة ابن عمر، وحصن طالب بالقرب من حصن كيفا، والموصل[١٥].

وتجدر الإشارة إلى أن ثمة قبائل كردية تعيش خارج كردستان في صورة جماعات منعزلة، فهناك جماعات كردية في سوريا الشمالية بين الإسكندرونة وحلب بسهل عمق الخصيب، كما توجد قرى كردية بحتة شرقي حلب، وتوجد أيضًا في جهات كثيرة من الأناضول جماعات كردية كبيرة في سهول قونية وهضبة سيواس وسهول أضنة، كما أن الولايات الجنوبية من القوقاز تسكنها جماعات كبيرة من الأكراد، وكذلك فإن الغالب على سكان خراسان وسجستان شرق إيران العنصر الكردي[١٦].

تاريخ الأكراد قبل الفتح الإسلامي:

عاش الأكراد معظم تاريخهم - بحكم الموقع الجغرافي لكردستان - تحت السيطرة الأجنبية التي بدأت مبكرًا في القرن الخامس قبل الميلاد، حين نجح الأخمينيون[١٧] سنة(٥٥٠ق. م) في تدمير مملكة ميديا[١٨] التي يعدها الأكراد موطنهم الأصلي. ثم خضع الأكراد لحكم الإسكندر الكبير الذي قضى



علـى الأخمينيين بين عامى ٣٣٤- ٣٢٨ ق.م، ثـم خضعوا للأرمن الأرسانيين خلال القرنين الثانى والأول قبل الميلاد، ثم خضعوا للدولة الرومانية إلى القرن الثالث الميلادى، ثم عادوا إلى التبعية للأرمن مرة أخرى، ثم تعاقب على حكمهم الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية عدة مرات تخللتها فترات من السيطرة الأرمنية. وأخيرًا تبادل السيطرة على كردستان الإمبراطوريتان البيزنطية والساسانية من القرن الثالث إلى القرن السابع الميلادى [١٩].

وتجدر الإشارة إلى أن العقيدة الزرادشتية كانت منذ القرن السادس قبل الميلاد هى المذهب السائد بين الأكراد، ورغم أن المسيحية عرفت طريقها إلى أرمينيا وكردستان منذ القرن الأول الميلادى وانتشرت انتشارًا ملحوظا فى صفوف الأرمن، فقد ظل الأكراد على ولائهم للزرادشتية ولم يستجب للدعاية المسيحية المكثفة التى قام بها القسس والمبشرون سوى عدد ضئيل [٢٠].

الفتح الإسلامى: كان أول اتصال للأكراد بالإسلام سنة ١٦هـ/٦٣٧م أى بعد فتح "حلوان" [٢١] و"تكريت" [٢٢]، و"الموصل"، وهو الأمر الذى ترتب عليه فتح جميع معاقل الأكراد بتلك النواحى [٢٣]. وقد واصل المسلمون التوغل فى بلاد الجزيرة، حيث أرسل سعد بن أبى وقاص فى السنة المذكورة ثلاثة جيوش: توجه الجيش الأول بقيادة سهيل بن عدى إلى الرقة، وتوجه الجيش الثانى بقيادة عبد الله بن عتبان إلى نصيبين، وتوجه الجيش الثالث بقيادة عقبة بن الوليد لقتال عرب الجزيرة [٢٤]. وفى سنة ٢٢هـ/ ٦٤٢م تمكن عتبة بن فرقد من الاستيلاء على شَهْرَزُور [٢٥]- المدينة الكردية الشهيرة - بعد معركة دامية استشهد فيها كثير من المسلمين [٢٦].

والحق أن الأكراد منذ فتح بلادهم ظلوا ولعدة قرون تالية عنصرًا يتأبى على الانضواء تحت لواء السلطة المركزية الجامعة التى تمثلها الخلافة؛ ومن هنا فقد ارتبط ذكرهم فى الغالب بالثورات الدامية، فمن ذلك مثلا: تلك الثورة التى قاموا بها سنة ٢٥هـ/ ٦٤٦م فى الأهواز وفارس. وفى سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م انضم أكراد فارس إلى عبد الرحمن بن الأشعث فى ثورته على الخليفة عبد الملك ابن مروان (٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٤- ٧٠٥م)، فنكل بهم الحجاج بن يوسف الثقفى وانتقم منهم أبشع انتقام [٢٧].

وفى أثناء الدعوة العباسية: أرسل القائد العباسى قحطبة بن شبيب أباعون عبد الملك بن يزيد ومالك بن طريف فى أربعة آلاف للاستيلاء على إقليم "شهرزور"، فالتقى هناك بجيوش الأمويين بقيادة عثمان بن سفيان، فقاتله قتالا عنيفًا أسفر عن سقوط الإقليم فى أيدى العباسيين سنة ١٣١هـ/٧٤٨م، وكان قد استولى قبل ذلك على حلوان بعد هزيمة يزيد بن عمر بن هبيرة قائد الجيش الأموى[٢٨].

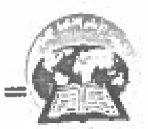
وكما شارك الأكراد فى عدد من الثورات التى نشبت ضد الأمويين، فقد شاركوا كذلك فى جُلِّ الثورات والقلاقل التى اندلعت ضد السيادة العباسية فى كردستان وهمذان منذ خلافة أبى جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م)[٢٩].

البويهيون والأكراد:

حرص بنو بويه على فرض سيادتهم على إقليم كردستان، وقمع أى نزوع كردى إلى التمرد والاستقلال، فلا عجب أصبح الإقليم مسرحًا لفتن متصلة وحروب متواترة طوال عصر السيادة البويهية؛ ففى سنة ٣٤٣هـ/ ٩٥٤م وجه معز الدولة البويهى الحاجب سبكتكين على رأس جيش كبير لفتح شهرزور، غير أنه لم يتيسر له ذلك، إذ اضطر للرحيل إلى الرى لنجدة ركن الدولة البويهى[٣٠].

وفى سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م أرسل عضد الدولة البويهى جيشًا كبيرًا لغزو شهرزور، لضرب التحالف السياسى بين الأكراد وقبيلة بنى شيبان العربية، "وكان بنو شيبان قد أكثروا الغارات على البلاد، وعجز الملوك عن طلبهم، وكانوا قد عقدوا بينهم وبين أكراد شهرزور مصاهرات، وكانت شهرزور ممتنعة على الملوك، فأمر عضد الدولة بمنازلتها؛ لينقطع طمع بنى شيبان عن التحصن بها، فاستولى أصحابه عليها وملكوها، فهرب بنو شيبان، وسار العسكر فى طلبهم وأوقعوا بهم وقعة عظيمة قتل من بنى شيبان فيها خلق كثير، ونهبت أموالهم ونساؤهم، وأسر منهم ثمانمائة أسير حُمِلُوا إلى بغداد "[٣١].

كما أرسل عضد الدولة فى السنة نفسها جيشًا آخر للإغارة على الأكراد الهكارية من أعمال الموصل، "فأوقع بهم وحصر قلاعهم. فأرسلوا يطلبون الأمان، فأجيبوا إلى ذلك وسلموا قلاعهم... فغدر بهم مقدم الجيش البويهى وصلبهم على جانبى الطريق"[٣٢].



ومن ناحية أخرى فقد استعان بنو بويه بالأكراد فيما خاضوه من حروب فى إقليمى فارس وخوزستان[٣٣]. فمن ذلك مثلا أن شمس الدولة بن فخر الدولة صاحب همذان لم يستطع إخماد الثورة العسكرية التركية التى قامت ضده سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م إلا بدعم الأكراد ومساندتهم[٣٤].

الإمارات الكردية المستقلة

شهد إقليم كردستان منذ منتصف القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ظهور عدد من الإمارات أو الدول الكردية المستقلة، كان ظهورها يمثل منعطفا بارزًا فى تاريخ الأمة الكردية، ومن أشهر تلك الإمارات:

بنو شداد فى (أران وشرق أرمينية) (٣٤٠- ٥٧٠هـ/ ٩٥١- ١١٧٤م)

ظهرت دولة بنى شداد فى شرق أرمينية سنة ٣٤٠هـ/ ٩٥١م. وفى القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى اجتاح السلاجقة أرمينية، واستولى ألب أرسلان سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م على مدينة "آنى"، فاشترتها منه أسرة بنى شداد فى العام التالى ، لتنقسم الأسرة الشدادية منذ ذلك التاريخ إلى شعبتين متمايزتين : الأولى فى "كنجة" أو "جنزة،والثانية فى "آنى"، وانقرضتا جميعًا فى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى وآلت السيادة على الأراضى التى كانت خاضعة لحكمهما إلى السلاجقة[٣٥].

بنو حَسْنَويه حكام دينور وشهرزور (٣٤٨- ٤٠٦هـ/٩٥٩- ١٠١٥م)

كان حسنويه بن الحسن البرزكانى (ت ٣٦٩هـ/٩٧٩م) رئيسًا لإحدى العشائر الكردية، وإليه يرجع الفضل فى تأسيس دولة كردية حملت اسمه، وظلت قائمة زهاء نصف قرن تقريبا. وقد نجح حسنويه فى الاستيلاء على جانب كبير من إقليم كردستان الذى يضم همذان والدينور ونهاوند وقلعة سرماج وشهرزور، فلما توفى سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩هـ بادر عضد الدولة البويهى (٣٦٧- ٣٧٢هـ/ ٩٧٧- ٩٨٢م) بتجهيز جيش تمكن من الاستيلاء على بلاده، غير أنه نصب ابنه بدر الدين ابن حسنويه حاكما على ولاياته القديمة. وكان بدر الدين قائدا عسكريا محنكا معروفا بعلو الهمة وسعة الطموح، فاستطاع أن يخضع لنفوذه المناطق الممتدة من دينور إلى الأهواز وخوزستان وبروجرد وأسد آباد ونهاوند وما فيها من قلاع وجبال وصحارى، كما نجح سنة ٣٧٧هـ/٩٨٧م فى إلحاق الهزيمة بشرف

الدولة بن عضد الدولة البويهى (٣٧٦-٣٧٩هـ/٩٨٦- ٩٨٩م) واستولى على ولاية الجبال، فعلا نجمه وغدا من أقوى أمراء زمانه، حتى لقد منحه الخليفة العباسى سنة ٣٨٨هـ/٩٩٨م لقب " ناصر الدولة والدين". وفى سنة ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م قتل بدر الدين على يد أحد رجاله، وكان ابنه هلال بن بدر قد قتل فى العام نفسه، فآل الحكم إلى حفيده طاهر بن هلال، غير أنه عجز عن المحافظة على عرشه، فطرده شمس الدولة البويهى من بلاده ولم يلبث أن قتل سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م فآل حكم بلاده إلى البويهيين[٣٦].

بنو مروان (فى ديار بكر) (٣٨٠-٤٨٩هـ/١٠٩٦م):

إحدى الأسر الكردية الحاكمة التى ظهرت ببلاد الجزيرة باسطة نفوذها على منطقة ديار بكر. ومن المعلوم أن آمد (قاعدة ديار بكر) كانت جزءًا من بلاد الحمدانيين منذ سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م، حتى إذا كانت سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٨م استولى عليها بنو بويه، ثم استولى عليها سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م أمير كردى ينتمى إلى " العشيرة الحميدية" يدعى : أبو عبد الله الحسين بن دوستك، وكان يكنى" بأبى شجاع باد". وقد بذل جهودا كبيرة لتوسيع رقعة إمارته، فاستولى على أرمينية وأرجيش وحصن كيفا وميافارقين، وأخذ يزحف صوب الموصل سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، غير أن الحمدانيين تصدوا له وأحبطوا محاولته، ثم انتهى الأمر بقتله على يد أحد الأعراب، فخلفه فى حكم آمد ابن أخته" أبو على حسن"، وهو ابن أمير كردى يدعى مروان، وإلى هذا الأخير نسبت الدولة التى امتد وجودها إلى سنة ٤٨٩هـ/١٠٩٦م حيث أسقطها السلاجقة واستولوا على الأقاليم التابعة لها[٣٧].

أسرة بنى عيار(أو بنى عياز، أو بنى عناز) :

ظهر حكم تلك الأسرة الكردية سنة ٣٨٠هـ/٩٩٠م، ودام حكمها إلى الربع الأول من القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى كانت خلالها مستقلة تارة وخاضعة لغيرها من الدول الكبرى تارة أخرى . وتنسب تلك الدولة إلى الأمير أبى الفتح محمد بن عيار أمير عشيرة باذنجان الكردية، وأحد الأمراء البارزين فى دولة ناصر الدولة بدر الدين الحسنويهى (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م)، وكان يتولى شهرزور وقومش وكرمنشاه، كما تولى حكم حلوان سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، ولبث فى

الحكم إلى أن توفى سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م. وقد تعاقب على كرسى الحكم بعده ستة أمراء آخرهم أبو منصور بن سرخاب بن بدر مهلهل الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م فأدار شئون شَهْرَزُور نحو عشرين عاما بذل خلالها جهودا مضنية للنهوض باقتصادها وعمرانها(٣٨).

السلاجقة والأكراد:

تمكن السلاجقة بعد انتصارهم الشهير على البيزنطيين فى ملازكرد(أو مانزكرت) سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م من إخضاع أرمينية وكردستان لسيادتهم تدريجيًا، وهو الأمر الذى ترتب عليه أن زالت من الوجود كل الحكومات والإمارات الكردية المستقلة التى كانت قائمة فى تلك الأنحاء؛ يقول محمد أمين زكى:" إن بلاد كردستان نظرا لموقعها الجغرافى ووقوعها على طريق الإغارات التركية المدمرة أصيبت بنكبات جمة ومصائب عديدة؛ لأن عوامل الشقاق والفرقة، وأسباب التخاذل والنفور التى كان الشعب الكردى ولا يزال يتسم بها ،منعهتم من توحيد الكلمة للوقوف ضد هؤلاء المغيرين، وإيجاد جبهة مشتركة للدفاع عن بلادهم، ولذا لم يجدهم نفعا تلك المحاولات المنفردة والمتقطعة التى كانوا يقومون بها للدفاع عن أوطانهم بين آن وآخر، بل على العكس أفضى ذلك إلى زيادة خسائرهم ونكباتهم بصورة هائلة لم يسجل التاريخ مثلها"(٣٩).

على أن سلاطين السلاجقة عملوا على الإفادة من المواهب العسكرية والكفاءة القتالية التى كان يتمتع بها الأكراد فى حروبهم المتواصلة، فمن ذلك أن السلطان ملكشاه اعتمد على القوى الكردية فى حروبه ضد عمه " قاوورت" حاكم إقليم كرمان، وأقطعهم لقاء دعمهم ومساندتهم له أراضى واسعة فى الإقليم المذكور(٤٠). وكذلك فقد خرج صحبة الجيش السلجوقى فى زحفه على الشام لقتال الفرنجة سنة ٥٠٥هـ/١١١١م عدد من أمراء الأكراد بجيوشهم الخاصة؛ مثل : رئيس العشيرة الروادية الكردية، والأمير أحمديل بن إبراهيم حاكم مراغة، والأمير أبو الهيجاء حاكم إربل(٤١).

أتابكة شبانكاره(٤٤٨-٦٨٨هـ/١٠٥٦- ١٢٨٩م)

فى منتصف القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى ظهرت

حكومة كردية مستقلة فى فارس عرفت بـ " أتابكة شبانكاره" ، وكانت أعظم مدنها هى مدينة دارا بجرد، وقد روى أن فضلويه بن حسنويه الجد الأكبر لأتابكة شبانكاره كردى الأصل، وفى رواية أخرى أنه ينحدر إلى الساسانيين، وقد أسره السلطان السلجوقى سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م بعد أن تمرد عليه. وقد ظلت تلك الحكومة الكردية قائمة إلى سنة ٦٨٨هـ حيث استولى عليها المظفريون الذين حكموا فارس[٤٢].

الهزارسبيون أو بنو فضلويه (أتابكة بلاد اللور الكبير)[٤٣] (٥٤٣-٨٢٧هـ/١١٤٨- ١٤٢٤م):

يرجع الفضل فى تأسيس " الدولة الهزارسبية" إلى أبى طاهر بن محمد أحد قادة السلغوريين أو أتابكة فارس (٥٤٢- ٦٨٥هـ/١١٤٧- ١٢٨٦م)؛ إذ أرسله سنقر أتابك الدولة السلغرية سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م لفتح إقليم لورستان الكبير، فأسس به تلك الدولة التى جلس على كرسى حكمها إلى أن وافته المنية سنة٦٠٠هـ/١٢٠٣م، فخلفه ابنه نصرة الدين هزارسب (٦٠٠- ٦٥٠هـ/ ١٢٠٣- ١٢٥٢م) وإليه نسبت الدولة فقيل : الهزارسبيون، كما نسبت أيضًا إلى جدهم الأكبر أبى الحسن فضلويه، فقيل: الأتابكة الفضلوية أو بنو فضلويه. وقد نجا الهزارسبيون من الغزو المغولى المدمر، وأضحوا أتباعا للمغول الإيلخانيين فى إيران (٦٥٤-٧٥٤هـ/١٢٥٦- ١٣٥٣م).

وقد اتسعت أرجاء دولتهم بعد أن أعطاهم الإيلخان المغولى أباقا خان (٦٦٣- ٦٨٠هـ/١٢٦٥- ١٢٨٢م) ولاية خوزستان. وقد امتد تاريخ تلك الدولة الكردية إلى الربع الأول من القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى، وسقطت سنة ٨٢٧هـ/١٤٢٤م على يد التيموريين، حيث قام إبراهيم بن شاه رُخْ التيمورى بطرد آخر حكامها ويدعى غياث الدين[٤٤].

الأكراد فى عهد دويلات الأتابكة بكردستان:

من المعلوم أن الأتابك : لفظ تركى كان يمنح لفرسان المماليك الذين يناط بهم أمر حراسة الأمراء السلاجقة حكام الولايات، وبمرور الوقت استأثر أولئك الفرسان بالسلطة وبدا أنهم أصحاب النفوذ الحقيقى دون أمرائهم، بعد أن ضعفت دولة السلاجقة وآذنت شمسها بالمغيب، وأضحى لفظ " أتابك" فى



القرنين السادس والسابع الهجريين/ الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين يعنى الأمير الحاكم. وقد أسس الأتابكة لأنفسهم دولا أو حكومات مستقلة عرفت بالأتابكيات كانت لها صلات وثيقة بتاريخ الكرد وكردستان. ولعل أشهر تلك الأتابكيات وأعظمها تأثيرًا فى تاريخ الأكراد:

(أ) (آل زنكى : أتابكة الجزيرة وسوريا): ويرجع الفضل فى تأسيسها بالموصل سنة ٥٢١هـ/ ١١٢٧م إلى الأتابك عماد الدين زنكى بن أقسنقر الحاجب أحد مماليك السلطان ملكشاه، وقد تفرعت تلك الأتابكية إلى عدة حكومات فرعية على النحو الآتى: أتابكة الموصل (٥٢١- ٦٦٠هـ/ ١١٢٧- ١٢٦٢م)، وقضى عليهم المغول. أتابكة حلب (٥٤١- ٥٧٧هـ/ ١١٤٦- ١١٨١م) وقضى عليهم الأيوبيون. أتابكة سنجار (٥٦٦- ٦١٧هـ/١١٧٠- ١٢٢٠م) وقضى عليهم الأيوبيون. أتابكة الجزيرة (٥٧٦- ٦٢٤هـ/١١٨٠- ١٢٢٧م) وقضى عليهم الأيوبيون. أتابكة إربل (٥٣٩- ٦٣٠هـ- /١١٤٤- ١٢٣٣م) وتولى الحكم بعدهم العباسيون ثم المغول[٤٥].

(ب) بنو أرتق فى ديار بكر : وقد أسس تلك الدولة الأمير أرتق بن أكسك أحد قادة الجيش السلجوقى سنة ٤٩٥هـ/١١٠١م، وقد تشعبت منذ سنة ٥٠٢هـ/١١٠٨م إلى شعبتين: شعبة حصن كيفا وآمد، وشعبة ماردين، وقد قضى الأيوبيون على الشعبة الأولى سنة ٦٢٩هـ/١٢٣١م، فى حين قضى التركمان القراقيونلية على الثانية سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م[٤٦].

(ج) الأرمن شاهات فى خلاط، أو شاهات خلاط(٤٩٣- ٦٠٤هـ/١١٠٠- ١٢٠٧م):

وقد أسس تلك الدولة الأمير سكمان القطبى، وكان مملوكا تركيا للأمير قطب الدين إسماعيل والى السلاجقة على أذربيجان . وقد انقرضت تلك الدولة باستيلاء الأيوبيين على بلادهم سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م[٤٧].

ومن الشواهد الدالة على تأثر تاريخ الأكراد بقيام تلك الدول المستقلة التى خرجت من رحم دولة السلاجقة ما دأب عليه عماد الدين زنكى (٥٢١- ٥٤١هـ/ ١١٢٧- ١١٤٦م) من الإغارة على بلاد كردستان والعمل على السيطرة على الحصون والقلاع الكردية بغية تأمين عاصمة دولته (الموصل)، فمن ذلك مثلاً: أنه استولى سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٣م على

جميع قلاع الأكراد الحميدية[٤٨]، كما استولى فى السنة نفسها على قلاع الأكراد الهكارية[٤٩]. وفى سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م استولى على مدينة شهرزور وأعمالها وما يجاورها من الحصون والقلاع[٥٠]. وفى سنة ٥٣٧هـ/ ١١٤٢م استولى على قلعة " أشب" أو آشيب" أعظم حصون الأكراد الهكارية وأمر بإخرابها، وبنى عوضا عنها القلعة المعروفة بالعمادية[٥١]. وفى سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م أغار على ديار بكر وافتتح عددًا من مدنها وحصونها المهمة، مثل : مدينة طنزة ومدينة أسعرد ومدينة حيزان، وحصن الدوق وحصن مطليس وحصن ذى القرنين، كما زحف صوب مدينة آمد وفرض عليها الحصار[٥٢].

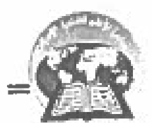
وكذلك فقد انتهج زنكى سياسة جديدة فى تكوين جيشه تقوم على تجنيد الأكراد والاستفادة من خبراتهم القتالية ، وهو الأمر الذى أسفر عن تدفق أعداد كبيرة منهم إلى الشام، وكان لهم جهد مشكور فى مكافحة الصليبيين[٥٣].

الدولة الأيوبية(الأكراد بمصر والشام):

ومن رحم البيت الزنكى خرجت إلى الوجود أعظم دولة كردية فى تاريخ الأكراد، وهى الدولة الأيوبية التى يرجع الفضل فى تأسيسها إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب ابن شاذى الذى ينتمى إلى قبيلة الروادية وأحد بطون الأكراد الهذبانية. وكان أبوه ايوب - الذى تنسب إليه الدولة - وعمه أسد الدين شيركوه قد نشآ بدوين إحدى مدن أذربيجان، ثم هاجرا إلى بغداد ،حيث التحقا بخدمة مجاهد الدين بهروز شحنة بغداد ، فبعث أيوب واليا على قلعة تكريت ومعه أخوه شيركوه،ثم التحقا بخدمة الأمير عماد الدين زنكى بالموصل، ومن بعده ولده نور الدين محمود، وصارا من الأمراء المبرزين فى دولته[٥٤].

وقد استطاعت الأسرة الأيوبية الكردية تحت زعامة صلاح الدين – أول من حكم مصر من الأكراد (٥٦٤هـ/١١٦٨م) – أن تؤسس لنفسها إمبراطورية مترامية كانت تشمل من بلاد الشرق الأدنى مصر وسوريا والجزيرة ، بالإضافة إلى كردستان وأرمينية [٥٥].

وخلال الحقبة الأيوبية زادت أعداد الطائفة الكردية بمصر والشام زيادة كبيرة؛ بحكم انتماء الأيوبيين إلى



العنصر الكردى. وكان من الطبيعى أن تكون القوة الرئيسية للجيش الأيوبى من الأكراد، فحين أسقط الملك الناصر صلاح الدين الدولة الفاطمية، " أزال جند مصر من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم، واستجد عسكرا من الأكراد والترك خاصة"[٥٦]. وكان أولئك الأكراد ينتمون إلى عشائر كردية متنوعة؛ مثل: الهكارية والمهرانية والسهرانية والحميدية والزرزارية، اشتركوا جميعا- جنودا وأمراء- فى حركة الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين[٥٧].

وفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣هـ توفى صلاح الدين بدمشق، فاقتسم أبناؤه وإخوته وأبناؤهم ولايات إمبراطوريته، وهو الأمر الذى أفضى إلى ظهور فروع مستقلة لتلك الدولة فى مصر ودمشق وحلب وحماة وحمص وميارفارقين وحصن كيفا واليمن وبعلبك والكرك[٥٨].

وتجدر الإشارة إلى أنه قد نشأت فى ذلك الدور من تاريخ الأكراد ظاهرة جديدة عليهم، وهى الاندماج فى المجتمع، والمشاركة فى نواحى الحياة المدنية على تشعبها واختلافها، فشغلوا الوظائف العليا فى مجالات الإدارة والقضاء، وظلوا يشغلونها إلى السنوات الأولى من التاريخ المملوكى[٥٩]. وكان لهم أحياء وحارات خاصة تعكس كثافة أعدادهم فى معظم المدن الكبيرة بمصر والشام[٦٠].

على أن السنوات الأخيرة من العصر الأيوبى قد شهدت اهتزاز مكانة الأكراد وانكماش نفوذهم السياسى بسبب تضاؤل أعدادهم فى الجيش، حيث توسع الملك الصالح نجم الدين أيوب فى الاعتماد على المماليك الترك، فى حين ضيق على الأكراد وأبعدهم وصادر إقطاعاتهم وأنعم بها على مماليكه الجدد؛ " مجازاة لهم على ثباتهم فى خدمته، ولزومهم له حين فارقه الناس وخذلوه، فأمَّرهم واحدا بعد واحد..... حتى صار أكثر الأمراء من مماليكه"[٦١].

وبقيام دولة المماليك زاد تراجع الوجود الكردى فى البلاد؛ إذ اقتصر المماليك فى بناء الجيش "على الأتراك والأكراد"[٦٢]، كما يذكر المقريزى، والمفهوم من هذه العبارة أن الأكراد ظلوا يمثلون طائفة من الطوائف العرقية المكونة للجيش المملوكى[٦٣]. ولكنها أصبحت طائفة قليلة العدد محدودة التأثير بالقياس إلى العقود الأولى من التاريخ الأيوبى.

الأكراد بين مطرقة الخورازميين وسندان المغول:

تعرض إقليم كردستان - وخاصة فى أطرافه الشمالية والجنوبية- منذ مطلع القرن السابع الهجرى / الحادى عشر الميلادى لغارات متلاحقة من قبل الخوارزميين[٦٤] ثم المغول، راح ضحيتها الآلاف من الأكراد، فضلا عمن شُرِّد منهم وآثر الهجرة إلى بلاد أخرى أوفر أمنا وأكثر استقرارًا.

ولقد اجتاحت جيوش السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه (٥٩٦- ٦١٧هـ/ ١١٩٩- ١٢٢٠م) وابنه جلال الدين منكبرتى (٦١٧- ٦٢٨هـ/ ١٢٢٠- ١٢٣١م) كثيرًا من أنحاء كردستان مثل: جبال زاجروس وهمذان وإربل وخلاط وديار بكر وميافارقين وأسعرد وماردين ونصيبين، خلال سنوات ٦١٤هـ- ١٢١٧م، ٦٢١هـ/١٢٢٤م، ٦٢٣هـ/١٢٢٦م، ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م، ٦٢٧هـ/ ١٢٣٠م، ٦٢٨هـ/١٢٣١م. وانتهى الأمر بمقتل جلال الدين منكبرتى على يد أحد الأكراد سنة ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م[٦٥].

يقول الأستاذ المؤرخ محمد أمين زكى: " ولو لم يكن جلال الدين هذا جائرًا وسفاكا للدماء، لكان فى إمكانه أن يكتسب صداقة الشعب الكردى وثقته، فيستفيد من القوى الكردية ضد التتر. المطاردين له، ويسترد حقه المهضوم وحريته المسلوبة، ولكن أخلاقه الحادة وطباعه الشاذة وميله المفرط إلى سفك الدماء أدى إلى القضاء عليه القضاء الأخير، فضلا عن تدمير البلاد وإفناء العباد ولا سيما فى كردستان"[٦٦].

وبسقوط الدولة الخوارزمية أصبح الطريق ممهدًا أمام المغول لتحقيق مزيد من الغزو والتوسع فى الأقاليم الإسلامية ومنها إقليم كردستان؛ ذلك أن تلك الدولة كانت سدًا منيعًا يحول دون امتداد النفوذ المغولى إلى إيران وما وراءها، فلما سقطت لم يعد بالمشرق الإسلامى قوة ذات شأن يمكن أن تتصدى لأمواج المغول الهادرة.

لقد قام المغول عقب مقتل جلال الدين منكبرتى بتقسيم قواتهم إلى ثلاثة جيوش رئيسية :

الجيش الأول: تولى غزو ديار بكر وأرزن الروم وميافارقين وماردين ونصيبين وسنجار، وأخذ يتوغل فى أراضى الجزيرة حتى وصل إلى حدود الفرات، **الجيش الثانى:** قام بالاستيلاء على بدليس وبعض القلاع المحيطة

بخلاط، الجيش الثالث: نجح في فتح أذربيجان والاستيلاء على المدن التابعة لها، ثم دخل تبريز عاصمة الإقليم دون مقاومة ٦٢٩هـ/ ١٢٣٢م[٦٧].

وكذلك فقد شن المغول بعض الحملات التخريبية على سنجار واربل سنة (٦٣٣- ٦٣٤هـ/ ١٢٣٥- ١٢٣٦م)، وهاجموا العراق سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م حتى وصلوا إلى تخوم بغداد وسامراء، كما هاجموا جورجيا وأسقطوا معظم مدنها وعلى رأسها تقليس، واجتاحوا أرمينية الكبرى[٦٨]، ثم زحفوا صوب آسيا الصغرى، فاستولوا على أرزن الروم (٦٣٩هـ/ ١٢٤١م)، قبل أن يُلْحِقوا بالسلطان السلجوقى غياث الدين كيخسرو بن علاء كيقباذ هزيمة ساحقة عند "كوسه طاغ" (Kosadagh) من نواحى أرزنجان سنة ٦٤٠هـ/ ١٢٤٢م[٦٩].

وفى مطلع النصف الثانى من القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى استأنف المغول تهديدهم للمشرق الإسلامى وسعوا إلى تقويض أركان المدنية الإسلامية فى إيران والعراق وكردستان، وذلك على يد "هولاكو" الذى نجح فى القضاء على الدولة الإسماعيلية الشيعية فى إيران والاستيلاء على قلاعها أواخر سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م[٧٠]، ثم أسقط الخلافة العباسية فى العراق واستباح حاضرتها بغداد أربعين يومًا[٧١]. وواصل هولاكو زحفه فخرج على رأس جيوشه فى رمضان سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م من أذربيجان فاستولى على نصيبين واستسلمت له حران والرها واستولى على سروج وقتل أهلها لأنهم قاوموه ثم استولى على البيرة سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م[٧٢]، وعلى ميارفاقين سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م بعد حصار دام سنتين[٧٣]، وبسط نفوذه على ماردين، ثم عبر نهر الفرات وأغار على منبج وقتل كثيرًا من أهلها، واجتاح بلاد الشام فاستولى على حلب ودمشق (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م)[٧٤]، قبل أن ينزل المماليك بجيوشه هزيمة ساحقة فى عين جالوت فى السنة نفسها.

وقد ترتب على تلك الغزوة المغولية الضارية التى قادها هولاكو خضوع معظم إقليم كردستان خضوعًا مباشرًا للدولة المغولية الإيلخانية التى أسسها هولاكو فى إيران (٦٥٤- ٧٥٤هـ/ ١٢٥٦- ١٣٥٣م) وامتد نفوذها وسلطانها ليشمل العراق وجنوب الأناضول، كما ترتب عليها هجرة عدد من القبائل

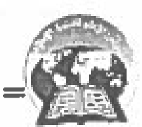
الكردية إلى مصر والشام؛ بحثًا عن الأمن والاستقرار فى ظل دولة المماليك.

ولعل أشهر تلك الهجرات: هجرة الأكراد الشهرزورية سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م[٧٥]. وكانت شهرزور[٧٦] إحدى النواحى التى استوطنها الأكراد فنسبوا إليها، وقد سكنها منهم طائفتان، إحداهما يقال لها: اللوسة، والأخرى يقال لها: الباسرية، وهم بحسب عبارة القلقشندى: "رجال حرب وأقيال طعن وضرب"[٧٧].

ففى سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م هاجر إلى الشام ثلاثة آلاف من الأكراد الشهرزورية بنسائهم وأولادهم فقدموا دمشق أولا، حيث احتفى بهم الناصر يوسف الأيوبى وضمهم إلى جيشه، غير أنهم ما لبثوا أن التحقوا بخدمة الملك المغيث عمر صاحب الكرك، فوجد فيهم نصيرًا قويًّا، وخاصة أنه كان يتطلع للاستيلاء على دمشق التى زحف إليها سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م، فأنزل به الملك الناصر يوسف هزيمة فادحة عند أريحا فر على إثرها إلى الكرك، وتوجه الملك الناصر إلى القدس، وبعد سلسلة من المفاوضات وقع الاتفاق بينهما، على "أن الناصر يتسلم من المغيث المماليك البحرية جميعهم، وأن المغيث يبعد عنه الشهرزورية، فسارت الشهرزورية من بلاد الكرك إلى الأعمال الساحلية"[٧٨]. ثم نزح الشهرزورية إلى مصر بدعوة من الملك المظفر قطز، وانضموا إلى الجيش المملوكى وشاركوا فى قتال المغول بعين جالوت مشاركة جادة، وكان لهم وللأكراد عمومًا فى ذلك اليوم "اليد البيضاء والأثر العظيم"[٧٩].

الأكراد العدوية (اليزيدية):

انتحل أكراد الجزيرة -وخاصة أكراد الموصل- طريقة صوفية شهيرة عرفت بالطريقة العدوية، وهى الطريقة التى عرف المنتسبون إليها فيما بعد بأصحاب المذهب اليزيدى[٨٠]. ويرجع الفضل فى تأسيس تلك الطريقة الصوفية إلى الشيخ: عدى بن مسافر بن إسماعيل ابن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكارى مسكنًا[٨١]. ولد بقرية يقال لها: بيت فار من أعمال بعلبك. وقد سلك طريق التصوف على يد طائفة من مشايخ الصوفية وأهل الصلاح[٨٢]، ثم هاجر إلى إقليم الجزيرة حيث انقطع بزاوية أنشأها لنفسه فى جبل الهكارية من أعمال الموصل مكبًّا على الذكر والعبادة والدعوة إلى الله، فاعتقده الأكراد وسلكوا طريقته "ومالوا إليه ميلا لم



يسمع لأرباب الزوايا مثله" على حد تعبير المصادر التى ترجمت له. ولم يزل على تلك الطريقة المحمودة إلى أن توفى بزوايته سنة ٥٥٧هـ/ ١١٦٢م- وقيل: ٥٥٥هـ- ودفن بها وأضحى قبره أحد المشاهد المعدودة التى يؤثرها المسلمون بالزيارة(٨٣).

وما لبثت الطريقة العدوية بعد وفاة مؤسسها أن طرأ عليها ما طرأ على غيرها من ألوان الغلو والانحراف؛ ذلك أن أتباع الشيخ عدى تطرفوا فى اعتقاده تطرفًا مرذولا، ورفعوه إلى مقام من التقديس يأباه الشرع، حتى إنهم " جعلوه قبلتهم التى يصلون إليها، وذخيرتهم فى الآخرة التى يعولون عليها"(٨٤)، ومع ذلك فقد قُدِّر لتلك الطريقة أن تنتشر بين الأكراد وتغلب على مزاجهم الصوفى، حتى غدت كما يذكر أحد الباحثين دينًا قوميًّا وتاريخيًّا لهم(٨٥).

وآلت مشيخة الطريقة بعد وفاة الشيخ عدى إلى ابن أخيه أبى البركات بن صخر ابن مسافر، على القول الراجح؛ إذ هاجر من بيت فار إلى جبل هكار، وصحب عمه عدى بن مسافر ثم خَلَفَه فى مشيخة الزواية، وظل بها إلى أن أدركته الوفاة، فدفن إلى جوار عمه، ليخلفه فى الطريقة ابنه عدى الثانى(٨٦).

وبعد وفاة عدى الثانى آلت مشيخة العدوية إلى ابنه شمس الدين حسن الملقب بتاج العارفين(٨٧). وكان صوفيًا أديبًا ذا رأى ودهاء ونفوذ روحى كبير على أشياعه ومريديه، وهو الأمر الذى أثار قلق الأمير بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فقبض على الشيخ حسن وقتله سنة ٦٤٤هـ/ ١٢٤٦م؛ " خوفًا من الأكراد؛ لأنهم كانوا يشُنُّونَ الغارات على بلاده فخشى أن يأمرهم - أى الشيخ حسن- بأدنى إشارة فيخربوا بلاد الموصل"(٨٨)، والعجب أن الأكراد كانوا يعتقدون أنه لم يقتل وسيرجع يومًا؛ ولذا كانوا يجمعون الزكوات والنذور انتظارًا لخروجه(٨٩). وقد واصل بدر الدين لؤلؤ حربه على الطريقة العدوية والتنكيل بأعضائها، كما أرسل إليهم طائفة من عسكره سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م فقتلوا منهم جماعة كثيرة وأسروا جماعة أخرى، وأمر بدر الدين بقتل أميرهم وأرسل من نبش قبر الشيخ عدى وأحرق عظامه(٩٠).

وعلى هذا النحو يمكن القول: إن الطريقة العدوية منذ حسن شمس الدين تحولت من طريقة صوفية إلى اتجاه سياسى تدعمه قوة الأكراد العسكرية،

وانصرف خلفاء الشيخ عدى منذ ذلك التاريخ إلى تحقيق طموحاتهم السياسية[٩١]؛ ففى سنة ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م طلب السلطان السلجوقى عز الدين كيخسرو العون من أمير العدوية الجديد شرف الدين محمد بن حسن شمس الدين فى حربه ضد أخيه الذى يدعمه المغول، فقبل شرف الدين، وحصل على خرتبرت مكافأة له، ولكنه لم يلبث أن قتل على يد المغول، الذين اجتاحوا الموصل وأعمالها بما فيها هكارى ملاذ الأكراد وأحد مراكز استقرارهم المهمة فى إقليم الجزيرة، كما دمروا سنجار التى كان الأكراد العدوية منتشرين بها، وذلك سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٩م[٩٢].

وبسبب الضربات المتلاحقة التى وجهها بدر الدين لؤلؤ لطائفة الأكراد العدوية، والاجتياح المغولى لإقليم الجزيرة[٩٣]، لم يجد زين الدين أبو المحاسن يوسف بن شرف الدين محمد بن الحسن بن عدى ابن أبى البركات بن صخر بن مسافر (ت ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م) بُدًّا من الهجرة إلى الشام سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م، فاستقر ببيت فار مسقط رأس الشيخ عدى الأول. وقد أحسن المماليك استقباله، وأنعموا عليه بالإمارة وأقطعوه إقطاعًا ضخمًا. والراجح أن عددًا كبيرًا من الأكراد العدوية قد نزحوا فى صحبة شيخهم إلى الشام، ويعزز هذا الترجيح قولُ صاحب تذكرة النبيه فى ترجمة الشيخ زين الدين: "كان كريمًا حسن الأخلاق، لا يبقى على درهم ولا دينار مع وجود الإقطاع الكبير وما يحصل من مريديه الأكراد"[٩٤]. وكذلك فإن المكانة المرموقة التى تبوأها فى دولة المماليك- إلى الحد الذى حمل الأمير الكبير علم الدين سنجر الدوادار على أن يزوره ليأخذ منه البيعة للأشرف خليل بن قلاوون- كانت تستند بغير شك إلى قاعدة ضخمة من مريديه الأكراد[٩٥]. ولسبب غير معلوم نزح الشيخ زين الدين إلى القاهرة حيث أقام بالقرافة وشيد بها الزاوية الشهيرة المعروفة بالزاوية العدوية التى أضحت أحد مراكز استقرار الأكراد النازحين إلى القاهرة، وظل منقطعًا بها إلى أن توفى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٩٧م[٩٦].

وقد ترك زين الدين بهجرته إلى الشام حقوقه فى وراثة الطريقة العدوية لعمه فخر الدين الذى هادن المغول وتحالف معهم، وتزوج إحدى بناتهم. وقد وقع نزاع بينه وبين أخيه شمس الدين، فآثر الأخير الهجرة إلى الشام فى أهله وحاشيته



وكانوا زهاء أربعمائه شخص، وذلك سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م[٩٧]. ولم يلبث فخر الدين نفسه أن هاجر من الموصل إلى الشام لأسباب غير معلومة، ومعه امرأته المغولية وذلك سنة ٦٧٥هـ/ ١٢٧٦م، ثم عاد إلى الموصل بعد فترة وجيزة، فأعدمه المغول[٩٨].

كردستان بعد سقوط الدولة الإيلخانية:

بلغ الحكم الإيلخانى فى إيران والعراق وبلاد الروم نهايته الفعلية بوفاة السلطان أبى سعيد (٧١٦- ٧٣٦هـ/ ١٣١٦- ١٣٣٥م)، آخر الحكام الكبار من تلك السلالة المغولية، فتقاسم الحكم بتلك الأقاليم بعضُ الأسرات المحلية، فاستولى الجلائريون الترك على حكم العراق وأذربيجان (٧٣٧- ٨١٤هـ/ ١٣٣٦- ١٤١١م)[٩٩] ثم خلفهم التركمان القراقيونلية[١٠٠] (٧٨٢- ٨٧٤هـ/ ١٣٨٠- ١٤٦٩م)، ثم التركمان الآق قيونلية (٨٠٦- ٩١٤هـ/ ١٤٠٣- ١٥٠٨م)[١٠١]. وقد خضع إقليم كردستان لتلك الدول الثلاث على الترتيب؛ يقول الأستاذ محمد أمين زكى: " إن الحكومات التركمانية فى آسيا الغربية التى كانت فى خصام دائم مع الحكومة الإيلخانية جعلت تمد سلطانها وتبسط نفوذها على بلاد كردستان تدريجيًا، بعد سقوط تلك الدولة المغولية، فزحفت جيوش حكومة القراقيونلية التركمانية على المناطق الشرقية من كردستان، واشتبكت مع العشائر الكردية فى القتال والنضال السياسى والدينى؛ مما أدى إلى جلاء كثير من السكان والأهالى من تلك الجهات... وبعد أن قضت الحكومة الآق قيونلية على حكومة القراقيونلية، تأسست هذه الحكومة فى ديار بكر، واستقرت أمورها بها نهائيًا، ثم أخذت تحارب ملوك وأمراء كردستان الواحد تلو الآخر، راميةً بذلك إلى القضاء على جميع الحكومات والإمارات الكردية... "[١٠٢].

وتجدر الإشارة إلى أن إقليم كردستان قد تعرض خلال تلك الفترة- كغيره من أقاليم المشرق الإسلامى- لموجة جديدة من الغزو المغولى قادها السفاح "تيمورلنك" الذى استولى على بغداد وتكريت وديار بكر وجزيرة ابن عمر سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، وارتكب بها وبغيرها من ربوع كردستان فظائع وحشية من القتل والتدمير والتخريب، فاضطر كثير من الأهالى إلى الجلاء عن

المدن والقرى والاعتصام برءوس الجبال وأعماق الوديان والأحراش. وقد عهد تيمورلنك إلى ابنه " ميرانشاه" بإدارة كردستان، فقتل من الأهالى مقتلة عظيمة، وأحدث فى حصن كيفا وديار بكر وغيرها من المدن مذابح عامة، وهو الأمر الذى أدى إلى اندلاع ثورة عارمة فى ربوع كردستان، فقام تيمورلنك بغزوها مرة أخرى سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م وانتقم من الأهالى انتقامًا بشعًا، فكان لا يمر بمدينة أو قرية من مدن الإقليم وقراه إلا تركها قاعًا صفصفا، حتى لقد خلت مدن بالكامل من سكانها كإربل والموصل وجزيرة ابن عمر[١٠٣].

الأكراد بين الصفويين والعثمانيين:

جاء قيام الدولتين الصفوية الشيعية فى (إيران - ٩٠٧- ١١٤٨هـ/١٥٠١- ١٧٣٦م) والعثمانية السنية فى آسيا الصغرى (٦٩٩- ١٣٤١هـ/١٢٩٩- ١٩٢٤م) ليمثل منعطفًا حاسمًا فى تاريخ الأمة الكردية التى جعل أملها يتضاءل فى الحصول على ما كانت ترنو إليه من الاستقلال السياسى. فقد استولى الشاه إسماعيل الصفوى (٩٠٧- ٩٣٠هـ/١٥٠١- ١٥٢٤م) على أرمينية وأقاليم العراق العجمى وخوزستان وفارس سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م، ثم اخترق سنة ٩١٠هـ/ ١٥٠٤م كردستان الأوسط، ونجح فى الاستيلاء على ديار بكر[١٠٤].

ونظرًا للخلاف المذهبى العميق بين الأكراد السنة والصفويين الشيعة، فقد عانى الأكراد مزيدًا من الظلم والاضطهاد فى عهد الشاه إسماعيل الذى كان يرمى إلى القضاء على الحكومات والإمارات الكردية المحلية لتقوية النفوذ الشيعى، فمن ذلك مثلا أنه حين وفد إليه أحد عشر أميرًا كرديًّا يقدمون له فروض الطاعة والولاء، لم يتورع عن القبض عليهم والزج بهم فى غيابات السجون، وعين مكانهم فيما كانوا يحكمونه من ولايات بعض رجاله الشيعة[١٠٥].

على أن انتصار العثمانيين على الصفويين فى معركة جالديران الشهيرة سنة ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م أدى- فى بعض نتائجه- إلى تضاؤل النفوذ الصفوى فى كردستان سياسيًّا ودينيًّا، فلم يعد يتجاوز جبال زاجروس، كما ترتب عليه أن تقاسم العثمانيون والصفويون بلاد الأكراد، وإن خضع القسم الأكبر منها للدولة العثمانية التى ارتبط مصير الأكراد بها منذ ذلك التاريخ[١٠٦]. وقد تأكد هذا التقسيم بمقتضى معاهدة



عقدت سنة ١٠٤٩هـ/١٦٣٩م بين العثمانيين والصفويين.[(١٠٧)]

وتجدر الإشارة إلى أن العثمانيين قد انتهجوا في إقليم كردستان سياسة مباينة تمامًا لسياسة الصفويين، فسعوا إلى استرضاء الأكراد وتأليف قلوبهم عن طريق إقرار نظم إدارية عادلة تلبي جانبًا من طموحاتهم، ومن هنا فقد انتدب السلطان العثماني سليم الأول (٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢- ١٥٢٠م) مستشاره الكردي الشيخ حكيم الدين إدريس البدليسي للاتصال بأمراء كردستان ورؤساء العشائر الكردية، وأفضت جهوده إلى صدور فرمان عثماني يقضي بمنح أمراء كردستان حق إدارة ما تحت أيديهم من إمارات فيما يشبه الحكم الذاتي، وليس عليهم سوى دعم الدولة العثمانية بالجيوش والقوات إبان الحروب، وأن يدفعوا للدولة سنويًا مبلغًا من المال. وقد حدد الفرمان تلك الحكومات على النحو الآتي: أربيل (أو إربل)، وكركوك والسليمانية، وحصن كيفا، وجزيرة ابن عمر، وهكاري، وصاصون، والعمادية، وبدليس. وكذلك فقد اعترف الفرمان العثماني لرؤساء تلك الحكومات بحقوق وامتيازات متوارثة في أراضيهم ومناطق نفوذهم، وتعهد العثمانيون بعدم التدخل في شئونهم الداخلية[(١٠٨)]. وعلى هذا النحو " خضع كردستان لسلاطين آل عثمان برضا من أهله من غير إراقة دماء تذكر ومن غير كبير قتال. "ولا شك أن ذلك حادث فذ في التاريخ؛ لأن كردستان لم يخضع قط خضوعًا تامًا لأحد من الفاتحين قبل ذلك"[(١٠٩)].

على أن الدولة العثمانية بمرور الوقت تناست اتفاقية الحكم الذاتي وقضت على أكثر الحكومات الكردية ولم يبق منها نهاية القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي سوى حكومة اليزيديين في سنجار والمليين في ديار بكر والزازا (ظاظا) في درسيم. وقد أعادت الدولة العثمانية في عهد السلطان محمود الثاني (١٢٢٣- ١٢٥٥هـ/ ١٨٠٨- ١٨٣٩م) تنظيم أمور ولايتها، فقسمت المنطقة الكردية إلى ثلاث ولايات: بغداد وديار بكر وأرضروم[(١١٠)].

وقد شهد إقليم كردستان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر عددًا من الانتفاضات والثورات الكردية؛ بسبب إلغاء الامتيازات الإقطاعية الممنوحة لبعض الأمراء الأكراد، أو توسُّع العثمانيين في

فرض مزيد من الضرائب والتكاليف المالية التى أثقلت كاهل الشعب الكردى، أو طلبًا للاستقلال عن السيادة العثمانية[١١١].

الأكراد فى العصر الحديث:

بدأت أصوات الأكراد المطالبة بالاستقلال والحفاظ على الهوية الكردية تعلو منذ السنوات الأولى من القرن الرابع عشر الهجرى / العشرين الميلادى؛ وخاصة بعد خلع السلطان عبد الحميد الثانى (١٢٩٣- ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦- ١٩٠٩م) وتولى جمعية الاتحاد والترقى أمور الحكم سنة ١٩٠٨م ؛ حيث ظهرت بعض الجمعيات والمنظمات الكردية التى تولت إصدار عدد من الصحف لتنمية الوعى القومى والسياسى بين الأكراد ، والتعريف بالقضية الكردية ، والمطالبة بحقوق الشعب الكردى فى الحرية والاستقلال السياسى فى ظل دولة قومية تراعى خصوصيتهم الثقافية والحضارية. وقد اضطرت تلك الجمعيات إلى ممارسة نشاطها فى السر بعد اتجاه حكومة الاتحاد والترقى إلى تتريك شعوب الدولة العثمانية منذ سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، وكان من بين مطالبها: حصول كردستان على الحكم الذاتى، وبناء عدد من المدارس تكون الدراسة فيها باللغة الكردية، وأن يكون جميع الموظفين والضباط العاملين فى كردستان من الأكراد. على أن نشاط تلك الجمعيات والمنظمات قد توقف باندلاع الحرب العالمية الأولى سنة ١٣٣٣هـ/١٩١٤م، حيث أعلنت الدولة العثمانية الجهاد ، وجندت كل الشعوب الخاضعة لسلطانها لخدمة ذلك الجهاد الذى تحمل الشعب الكردى كثيرًا من التضحيات فى سبيله، وتكبد فى سبيل الوفاء بمطالبه خسائر مادية وبشرية فادحة[١١٢].

وحين وضعت الحرب الكبرى أوزارها بانتصار الحلفاء وهزيمة الدولة العثمانية ، أحس الأكراد أن الحلفاء لا يبالون بمطالبهم ولا يؤمنون بعدالة قضيتهم، وخاصة بعد أن قرروا إنشاء دولة أرمنية تمتد حدودها من ساحل بحر قزوين إلى ساحل البحر الأسود وتنحدر غربًا إلى البحر المتوسط، فتشمل بذلك ولايات: طرابزون وأرضروم ووان وبدليس وديار بكر، وهى المناطق التى يمثل الأكراد أغلب سكانها. هنالك بذل الحزب الوطنى الكردى جهدًا كبيرًا فى سبيل إقناع الحلفاء بتوحيد المناطق الكردية ومنح الأكراد حق الحكم الذاتى. كما

تقدم الجنرال شريف باشا السليمانى لتمثيل الجماعات السياسية الكردية فى مؤتمر الصلح بباريس ١٣٣٨هـ - ١٣٣٩هـ/ (٢٢ مارس ١٩١٩م، أول مارس ١٩٢٠م)، وتقدم بمذكرتين يشرح فيهما مطالب الأكراد، ويستدل على حقهم العادل فى استقلال بلادهم ووحدتها السياسية.

وقد فرض ممثلو الحلفاء على الدولة العثمانية فى١٣٣٩هـ/ ١٠ أغسطس ١٩٢٠م ما عرف بمعاهدة سيفر، يجرى بمقتضاها تأليف حكومة أرمنية فى طرابزون وأرضروم ووان وبدليس، بالإضافة إلى إنشاء منطقة حكم ذاتى للأكراد تصوروا حدودها فى شرق الفرات وجنوب أرمينيا تحدها تركيا وسوريا والعراق. غير أن تلك المعاهدة لم تعرف طريقها إلى التطبيق، حيث قضى عليها انتصارات مصطفى كمال أتاتورك الذى دحر اليونانيين وحرر بلاد الأناضول، وتفاهم مع فرنسا وإيطاليا ووقع معاهدة لوزان سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٣م التى وزعت الأكراد بين أربع دول هى: تركيا وإيران والعراق وسوريا، عاشوا فيها ولا يزالون بوصفهم أقليات عرقية وسياسية، فأورثهم ذلك التمزق يأسا عبروا عنه بما أشعلوه من ثورات دامية راح ضحيتها الآلاف منهم[١١٣].

وتجدر الإشارة إلى أن الأكراد -وفقًا لأحدث الإحصاءات السكانية ١٤٣٠هـ/ (٢٠١١م) -يقدر عددهم فى العالم بنحو: ٠٠٠ر٧١٢ر٢٦ نسمة، يقطن الجزء الأكبر منهم تركيا (٥٦٪) وإيران(١٦٪) والعراق(١٥٪) وسوريا(٦٪): فى حين يتوزع باقى الأكراد (ونسبتهم٧٪) فى أنحاء مختلفة من العالم على النحو الآتى:

الكويت- لبنان- البحرين- الأردن- أفغانستان- أرمينيا- كازاخستان- روسيا- جورجيا - أذربيجان- أوزبكستان- ألمانيا- فرنسا- هولندا- بلجيكا- المملكة المتحدة- النمسا- إيطاليا- الدنمارك- السويد- سويسرا- فنلندا- النرويج- أوكرانيا- إسبانيا- البرتغال- بلغاريا- الولايات المتحدة الأمريكية- أستراليا- كندا[١١٤].

د / أحمد محمود إبراهيم

الهوامش

(١) الأمير شرف خان البدليسى، شرفنامة، ترجمة: محمد جميل الملا الروزبيانى، بيروت، دار المدى، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧م، ص ٣٩، ٤٠.

(٢) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، ١٤٣٤هـ/٢٠٠٣م، ٧٥٢/٣.

(٣) كابدوكيا: الاسم القديم للجزء الشرقى من الساحل الشمالى لآسيا الصغرى، ويؤلف اليوم جزءًا من الجمهورية التركية: انظر: ف .. ر تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم عبر العصور، ترجمة وإضافة : أحمد عبد الباسط حسن، القاهرة ، المركز القومى للترجمة ، الطبعة الأولى ٢٠١١م/ ١٥٨/١.

(٤) آشور هى المدينة / الدولة التى كانت عاصمة المملكة الآشورية القديمة، وكانت تقع على بعد ٦٠ ميلا جنوب مدينة الموصل شمال العراق على ضفاف نهر دجلة .

(٥) شرفنامة، مقدمة الأستاذ محمد على عونى ، ص ٧٧.

(٦) السابق ٤١ .

(٧) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان من أقدم العصور التاريخية، ترجمة : محمد على عونى، القاهرة، شركة نوابغ الفكر، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م، ص ١٦ .

(٨) يقول المستشرق الروسى باسى نيكتين المتخصص فى تاريخ الأكراد:" وكردستان منطقة واسعة، لا حدود سياسية لها، ولا وحدة قومية تجمع بين سكانها". باسيل نيكتين، الكرد، بيروت ، بدون تاريخ ، ص ١٢٩.

(٩) لورستان أو بلاد اللور: أحد أقاليم جبال زاجروس غرب إيران ، يتصل بخورستان، ويقطنه خلق عظيم من الأكراد. انظر أبو الفدا، تقويم البلدان، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ، ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٧م، ص ٣٦٢. ر .ف. تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم ١٧٣/١.

(١٠) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وردستان، ١٨. وتمتد سلسلة جبال اجروس من جبال آرارات إلى إقليم خوزستان، وتمثل الآن الحد الفاصل بين تريا وإيران.

(١١) كى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة : بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مطبوعات المجمع العلمى العراقى، بدون تاريخ، ص ٢٢٧. وراجع كذلك:
Boris James,The Tribal Territory of the Kurds through Arabic Medieval Historiography,p.5.

(12) V.Minorsky, Kurds,Kurdistan, The Encyclopedia of Islam,

(١٣) شرفنامة، مقدمة الأستاذ محمد على عونى ، ص ٧٣.

(١٤) فنك : قلعة حصينة شمال جزيرة ابن عمر. تقويم البلدان، ص ٣١٤.

(15) Boris James,The Ttribal Territory of the Kurds through Arabic Medieval Historiography,p.5..

(١٦) شرفنامة، مقدمة الأستاذ محمد على عونى، ص ٧٥ .

(١٧) الأخمينيون أو الهخامانيشيون أولى الأسر الإمبرطورية الحاكمة فى إيران، أسسها هخامانيش ، وكانوا فى الأصل حكامًا لمملكة (فارس) الصغيرة، وفى عام ٥٥٠ق. م. أطاح كوروش الكبير بملك الميديين، وسرعان ما اقام هو وخلفاؤه إمبراطورية متسعة الأرجاء تمتد من مصر وآسيا الصغرى إلى السند، وقد تدهورت الدولة الهاخامابيشية. إبان حكم ملوكها المتأخرين، غير أنها ظلت مترابطة الأجزاء حتى غزاها الإسكندر الأكبر بين عامى ٣٣٤- ٣٢٨ق . م ، انظر ر . ف تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم عبر العصور ٢٠٣/١

(١٨) الميديون شعب هندو ـ أوروبى استقر فى إيران مع قبائل أخرى حوالى عام ١٠٠٠ق. م. وفى القرن السابع قبل الميلاد توحدت تلك القبائل فى دولة قوية ، نجحت فى تدمير الدولة الأشورية، ثم شيد ملوكها إمبراطورية مترامية شملت معظم أنحاء إيران وأرمينيا

وشرق آسيا الصغرى قبل أن يطيح بها كوروش الكبير سنة ٥٥٠ق. م، انظر : انظر : ر . ف . تابيسل، معجم الدول والأسر الحاكمة ١٩٣/١.

(١٩) انظر : باسيل نيكتين، الكرد، ١٣٨. دراسة بعنوان" الأكراد والمشكلة الكردية" على الرابط التالي:
http://www.moqatel.com/opnnshare/Behoth/Siasia21/AKrad/index.htm

(٢٠) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٢٥.

(٢١)حلوان : اسم يطلق على عدة مواضع ، والمقصود بها في هذا السياق : حلوان العراق، وهى كما يذكر ياقوت فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد ، وقد فتحها المسلمون سنة ١٦هـ/٦٣٧م، انظر معجم البلدان ٢٩٠/٢، ٢٩١.

(٢٢ تكريت : بلدة مشهورة بين بغداد والموصل، وهى إلى بغداد أقرب . وقد افتتحها المسلمون سنة ١٦هـ/٦٣٧م إبان خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، إذ أرسل إليها سعد بن أبى وقاص جيشًا بقيادة عبد الله بن المعتصم، ففتحها عنوة انظر : معجم البلدان ٣٨/٢، ٣٩.

(٢٣) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، بيروت ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ٣٦٩/٢.

(٢٤) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٢٨

(٢٥) شهرزور: مدينة كبيرة فى إقليم الجبال بين إربل وهمذان ، وأهلها جميعا من الأكراد (قبائل : الجلالية والباسيان والحكمية والسولية). انظر : معجم البلدان ٣٧٥/٣، لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية ٢٢٥، ٢٢٦.

(٢٦) الكامل ٤٣٧/٢.

(٢٧) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ١٣٠.

(٢٨) ابن الأثير. الكامل فى التاريخ ٥٨/٥.

(٢٩) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٣٢.

(٣٠) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ٧/ ٢٥٠، ٢٥٢ .

(٣١) السابق ٣٨٦/٧.

(٣٢) السابق ٣٩٠/٧.

(٣٣) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ١٣٩ .

(٣٤) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١٣٢/٨ .

(٣٥) لين بول، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة٢/٣٥٨، ر. ف. تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم عبر العصور ١٣٢/١ .

(٣٦) راجع فيما تقدم من أخبار بنى حسنويه: شرف خان البدليسى، شرفنامة١٠٥- ١٠٨، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة٢٨١/١، ر.ف تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم عبر العصور ٩٩/١ .

(٣٧) لين بول، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٢٥١/١، محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ، ص ١٣٨ . ر.ف . تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم ١٨٢/١.

(٣٨) شرف خان البدليسى، شرفنامة، ص ١٠٩، ١١٠، ص ١١٥، حاشية رقم (٤٣)، محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكر د وكردستان ١٣٩ .

(٣٩) خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ١٤٤، ١٤٥.

(٤٠ محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٤٥ .

(٤١) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ١٤٣/٩، محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٤٦.

(٤٢) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة٢٨٠/٢.

(٤٣) لورستان أو بلاد اللور الكبير: سبق التعريف بها .

(٤٤) تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٣٦٧/٢، ر. ف. تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم٢٠٤/١ .

(٤٥) لين بول، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٣٤٥/٢- ٣٤٩، محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ١٤٧ .

(٤٦) لين بول ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٣٥٠/٢- ٣٥٣ .

(٤٧) السابق ٣٥٦/٢ .

(٤٨) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ ٢٧٤/٩ .

(٤٩) السابق ٢٧٥/٩ .

(٥٠) السابق ٣١٤/٩، ٣١٥.

(٥١) السابق ٣٢٦/٩ .

(٥٢) السابق ٣٢٩/٩.

(٥٣) Boris James,The Tribal Territory of the Kurds Through Arabic Medieval Historiography,P.6.

(٥٤) المقريزى، المواعظ والاعتبار ٧٥٢/٣، بهاء الدين بن شداد، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق : جمال الدين الشيال، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٤م، ص ٦ .

(٥٥) نيل دى ماكنزى، القاهرة الأيوبية، ترجمة : عثمان، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م، ٤٥، تاريخ الكرد وكردستان، ١٥٠ .

(٥٦) المواعظ والاعتبار٢٥٤/١ . وراجع كذلك: نيل دى . ماكنزى، القاهرة الأيوبية، ٤٨ .

(٥٧) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان ١٥٠ .

(٥٨) لين بول ، تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ١٣٩/١- ١٥٦ .

(59) v.Minosky, Kurds, Kurdistan,The Encyclopedia of Islam.

(60) Boris James, The Tribal Territory of The Kurds Through Arabic Medieval Historiography, P.6. Ira M. lapidus,Muslim Cities in the Later Middle Ages, London, 2 nded.(1984)P.86.

(٦١) ابن واصل، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق : حسنين ربيع، القاهرة، دار الكتب ١٩٧٧م، ٢٧٧/٥ .

(٦٢) المقريزى ، المواعظ والاعتبار ٢٥٤/١ .

(٦٣) السابق ٦٥٧/٣ .

(٦٤) تنتسب الدولة الخوارزمية إلى مؤسسها أنوشتكين الذى كان مملوكا لأحد أمراء السلاجقة فى إيران، وقد تدرج فى المناصب حتى نصب حاكمًا على إقليم خوارزم، ولقب بـ " خوارزمشاه" سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م . وقد آلت ممتلكات السلاجقة فى فارس وخراسان بعد وفاة السلطان سنجر سنة ٥٥٢هـ/ ١١٥٧م إلى الدولة الخوارزمية التى بلغت ذروة اتساعها فى عهد السلطان علاء الدين محمد خوارزمشاه (٥٩٦- ٦١٧هـ/ ١١٩٩- ١٢٢٠م)، وكان طموحًا شغوفًا بالغزو والتوسع على حساب الدول والأقاليم الإسلامية المجاورة له.

(٦٥) لمزيد من التفاصيل راجع: محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٥٣ ـ ١٥٧.

(٦٦) السابق ١٥٧.

(٦٧).راجع: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة المنسوب لابن الفوطى، تحقيق : بشار عواد، بيروت، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى ١٩٩٧، ص٤٨، النويرى، نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق: سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ ٣٤٣/٢٧، ٣٤٥، ابن دقماق، نزهة الأنام فى تاريخ الإسلام، تحقيق: سمير طبارة، بيروت، المكتبة العصرية، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، ص٥٠، فؤاد الصياد، المغول فى التاريخ، بيروت، دار النهضة العربية ١٧٩/١، ١٨٠.

(٦٨) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول، بيروت، دار المشرق، الطبعة الرابعة ٢٠٠٧م، ص ٢٥٠، ٢٥١، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة المنسوب لابن الفوطى ، ١١٢، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٧، ١٣٨، النويرى، نهاية الأرب ٣٤٥/٢٧، ابن دقماق، نزهة الأنام فى تاريخ

الإسلام ٨١، ٨٣، ٩٠، فؤاد الصياد، المغول فى التاريخ ١٧٩- ١٨٢

(٦٩)ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول ٢٥١، ٢٥٢.

(٧٠) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول ٢٦٤. ٢٦٦، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ٣٢٩، ٣٣٠.

(٧١)راجع فى تفاصيل الاجتياح لمغولى لبغداد وما ارتكبوه فيها من أعمال القتل والتخريب: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ٣٥٩. ٣٦٠، النويرى، نهاية الأرب ٢٧/ ٣٨٠_ ٣٨٢، ابن كثير البداية والنهاية، القاهرة، دار ابن رجب، الطبعة الأولى ٢---٥م ١٣/ ٢٨٧، ٢٨٨.

(٧٢) النويرى، نهاية الارب ٢٧/ ٣٨٥، فؤاد الصياد، المغول فى التاريخ ٢٩٤

(٧٣) الحوادث الجامعة والتجارب النافعة ٣٧٠، النويرى، نهاية الأرب ٢٧/ ٣٨٣، ٣٨٤.

(٧٤) النويرى، نهاية الأرب ٣٨٦/٢٧، ٣٩٢.

(75). Minorsky , Kurds, Kurdistan, The Encyclopedia of Islam .

(٧٦)تقدم التعريف بها.

(٧٧).صبح الأعشى ٣٧٣/٤.

(٧٨) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦م ٤١١/٢/١، ٤١٢، ٤١٤. وراجع كذلك: القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٤م ٣٧٣/٤.

(٧٩) اليونينى، ذيل مرآة الزمان، القاهرة، دار الكتاب الإسلامى، الطبعة الثانية ١٩٩٢، ٢٢٢/٢.

(٨٠) أكثر الأكراد سنة يدينون بالمذهب الشافعى، وكانوا كما يقول البدليسى " يبذلون الجهد فى ترويج الشرائع الإسلامية واتباع سنن النبى وصحبه وخلفائه، والحث على الإذعان لأوامر العلماء وأداء الفرائض الدينية"(٨) شرفنامة ٤٢. وراجع كذلك: محمد الناصر صديقى، تاريخ اليزيدية، سوريا، دار الحوار، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م، ٤٦، ١٩٢.

(٨١) ابن خلكان، وفيات الأعيان، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، بدون تاريخ ٢٥٤/٣. وقد ترجم له ابن الوردى فى تاريخه، فزاد فى نسبته المذكورة بعد مروان الأخير: ابن الحكم بن مروان الأموى. تاريخ ابن الوردى ٩٤/٢، النجف المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية ١٩٦٩م. وعلق العلامة أحمد تيمور على تلك الزيادة قائلاً : وفى هذه الزيادة نظر. أحمد تيمور، اليزيدية ومنشأ نحلتهم، القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، ص ١٦. أما ابن فضل الله العمرى فذكر فى ترجمته للشيخ عدى أنه " من ولد معاوية بن أبى سفيان، مسالك الأبصار ١٨١/٨. وهو قول انفرد به. ويؤكد محمد الناصر صديقى على الأصول الأموية للشيخ عدى بن مسافر، ويصحح تلك الروايات التى تنسبه إلى مروان بن الحكم. انظر: اليزيدية، ١٥٦، ١٥٧.

(٨٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢٥٤/٣.

(٨٣) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢٥٤/٣، اليونينى، ذيل مرآة الزمان ٩٨٦/٢، ٩٧٨، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٩٢. ٩٤، مسالك الأبصار ٨/ ١٨١، ١٨٢، المقريزى، المواعظ والاعتبار ٨٢١/٢/٤، الشعرانى، الطبقات الكبرى، تحقيق: عبد الرحمن حسن محمود، القاهرة، مكتبة الآداب، الطبعة الأولى ٢٠٠١م ٢/ ٣٠٧. ٣٠٩.

(٨٤) ابن خلكان، وفيات الأعيان ٢٥٤/٣. وراجع أيضًا : ابن فضل الله العمرى، مسالك الأبصار ١٨٢/٨.

(٨٥) محمد الناصر صديقى، اليزيدية، ٢٨، ٢٩.

(٨٦) السخاوى، تحفة الأحباب وبغية الطلاب فى الخطط والمزارات والتراجم والبقاع المباركات، ١٦٨، ١٦٩، أحمد تيمور، اليزيدية ومنشأ نحلتهم٢٤.

(٨٧) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، بيروت، دار صادر، الطبعة الأولى ١٩٧٣، ١/ ٣٣٤، الصفدى، الوافى بالوفيات ١٢/ ١٠١.

(٨٨) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات، ٣٣٥/١، الصفدى، الوافى بالوفيات ١٢/ ١٠٢.

(٨٩) ابن شاكر الكتبى، فوات الوفيات ١/ ٣٣٥، الصفدى، الوافى بالوفيات ١٢/ ١٠٢.

(٩٠) كتاب الحوادث المسمى بـ " الحوادث الجامعة والتجارب النافعة " المنسوب لابن الفوطى، ٣١٥، الذهبى، تاريخ الإسلام، تحقيق: بشار عواد، بيروت، دار الغرب الإسلامى، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، ١٤/ ٦٥٩. وراجع كذلك: أحمد تيمور، اليزيدية ومنشأ نحلتهم، ٢٠. ولمزيد من التفاصيل عن علاقة بدر الدين لؤلؤ بأتباع الطريقة العدوية راجع: محمد الناصر صديقى، تاريخ اليزيدية، ٢٤٨ ـ ٢٥٨.

(٩١) روجيه ليسكو، اليزيدية فى سورية وجبل سنجار، ترجمة: أحمد حسن، بيروت، دار المدى، الطبعة الاولى ٢٠٠٧م، ص ١١٢.

(٩٢) ابن العبرى، تارسخ مختصر الدول، ٢٦٦، ٢٦٧، أحمد تيمور، اليزيدية ومنشأ نحلتهم، ٢٥، ٢٦، روجيه ليسكو، اليزيدية فى سوريا وجبل سنجار، ١١٣، محمد الناصر صديقى، تاريخ اليزيدية، ٢٦١، ٢٦٢.

(٩٣) ويؤكد Minorsky أن اجتياح المغول لإقليم الجزيرة قد نجم عنه حرمان شهرزور من سكانها الأكراد الذين أثروا النزوح الى مصر والشام ٠ انظر: V. Minorsky, Kurdistan, The Encyclopedia of Islam.

(٩٤) الحسن بن حبيب، تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، دار الكتب، ١٩٧٦، ٢٠٧/١.

(٩٥) الذهبى، تاريخ الإسلام ٨٥٥/١٥، ١٨٣، الحسن بن حبيب، تذكرة النبيه ١/ ٢٠٧، المقريزى، المواعظ والاعتبار ٨٢٢/٢/٤.

(٩٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار ٨٢١/٢/٤.

(٩٧) ابن العبرى، تاريخ الزمان، بيروت، دار المشرق، ١٩٩١م، ص ٣٣٢.

(٩٨) السابق ٣٣٥. وراجع أيضًا: روجيه ليسكو، اليزيدية فى سوريا وجبل سنجار، ١١٣.

(٩٩) انظر: تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسر الحاكمة ٥٢٢/٢، ٥٢٣.

(١٠٠) نفس المرجع، ٢/ ٥٣٥، ٥٣٦.

(١٠١) انظر: ر.ف. تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم عبر العصور ٤٣/١/١.

(١٠٢) خلاصة: تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦ (بتصرف يسير).

(١٠٣) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكردوكردستان، ص ١٦٣، ١٦٤.

(١٠٤) السابق، ص ١٦٧.

(١٠٥) السابق نفسه.

(١٠٦) باسيل نيكتين، الكرد، ص ١٣٩.

(١٠٧) دراسة بعنوان " الأكراد والمشكلة الكردية" على الرابط التالى:

http:// www. Moqatel. Com/ openshare / Behoeh / Siasia 21/ Akrad/ index/ . htrm.

انظر: أيضًا: محمد أمين زكى، مرجع سابق، ص ٢٠١، ٢٠٢.

(١٠٨) دراسة بعنوان " الأكراد والمشكلة الكردية" على الرابط التالى:

http:// www. Moqatel. Com / openshare / Behoth/ Siasia 21/ Akrad/ index. Htrm

(١٠٩) محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ص ١٨٠.

(١١٠) دارسة بعنوان : الأكراد والمشكلة الكردية" على الرابط:

http: // www. Moqatel, com/ openshare/ Behoth/ Siasia 21/ Akrad/ index. htem.

(١١١) للمزيد من التفاصيل انظر: المرجع السابق .

(١١٢) راجع فيما تقدم: دراسة بعنوان " الأكراد والمشكلة الكردية" على الرابط التالى:

http:// www. moqatel. Com/ openshare / Behoth / Siasia 21/ Akrad / index. htm.

(١١٣) راجع: باسل نيكتين، الكرد، ص ١٦، دراسة بعنوان " الأكراد والمشكلة الكردية" على الرابط التالى:

http:// www. moqatel. Com/ openshare / Behoth / Siasia 21 / Akrad / index . htm .

(١١٤) مقال بعنوان الكرد على الموسوعة الحرة بشبكة الإنترنت على الرابط التالى:

http:// ar, wikipedia . org/ wiki / % D9%83 % D9% 8f % D 8 % B1 % D 8 % A F.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، بيروت ، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- الأمير شرف خان البدليسى، شرفنامة، ترجمة محمد جميل الملا أحمد الروزبيانى، بيروت، دار المدى، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٧م
- ف. ر. تابسيل، معجم الدول والأسر الحاكمة فى العالم عبر العصور، ترجمة وإضافة: أحمد عبد الباسط حسن، القاهرة، المركز القومى للترجمة، الطبعة الأولى ٢٠١١م.
- كى لسترنج، بلدان الخلافة الشرقية، ترجمة: بشير فرنسيس، كوركيس عواد، مطبوعات المجمع العلمى العراقى، بدون تاريخ.
- محمد أمين زكى، خلاصة تاريخ الكرد وكردستان، ترجمة: محمد على عونى، القاهرة، شركة نوابغ الفكر، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
- محمد الناصر صديقى، تاريخ اليزيدية، سوريا، دار الحوار، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- V. Minorsky, Kurdistan, The Encyclopedia of Islam.

ألبانيا

هي إحدى دول البلقان الواقعة في جنوب شرق أوروبا، ويبلغ مجموع مساحتها ٢٨.٧٤٨ كيلو مترًا مربعًا[١].

وألبانيا إقليم جبلي تتخلله أنهار وبحيرات ووديان ذات سهول؛ ومعظم سكانها ينتمون إلى الجنس الآري، وكانوا يعرفون في سائر شبه جزيرة البلقان باسم " arnaut "، ثم أطلق الأوربيون على هذا الشعب تعبير " الألبانيين"، وشاع في أوروبا كلها [٢].

وتظهر الأبحاث الأثرية أن ألبانيا كانت مأهولة بالسكان منذ العصر الحجرى، وبدأ الاستقرار في المناطق ذات الظروف المناخية والجغرافية المواتية[٣].

وكانت ألبانيا محاطة بإمبراطوريات قوية ومتحاربة، مما جعلها شاهدة على أعمال عنف كبيرة، وهدفًا للسيطرة عليها من تلك القوى على امتداد تاريخها؛ فقد اجتاحها الإغريق والرومان والصرب والفينيسيون والعثمانيون. وتركوا بها بصماتهم الثقافية، فضلاً عن أطلالهم[٤].

وكان العثمانيون قد وسعوا فتوحاتهم، فعبرت جيوشهم البحر من الأناضول إلى أوروبا سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م، ومضت في زحفها تكتسح أقاليم مسيحية أوروبية. ثم هيمنوا على معظم شبه جزيرة البلقان في القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى[٥]. ومن تلك الأقاليم ألبانيا، إذ أصبحت تحت السيطرة العثمانية المباشرة في أواخر عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م. وكان العثمانيون قد بسطوا نفوذهم أول الأمر على جنوبها ووسطها، ولكنهم واجهوا في شمالها مقاومة عنيفة، أشدها تلك التي تزعمها أحد الكاثوليك. وهو " إسكندربك"، من سنة ٨٤٧هـ/١٤٤٣م حتى وفاته في سنة ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م. وكانت هذه المقاومة ترجع إلى عدة عوامل أهمها: الطبيعة الجبلية للإقليم التي تجعله لا يصلح إلا لحرب العصابات، لا للحرب النظامية، فضلاً عن المساعدات التي ظفر بها الألبان من جمهورية البندقية عن طريق البحر؛ فقد كانت تدرك خطورة السيطرة العثمانية على ألبانيا بساحلها وموانيها الهامة[٦].

وعقب استيلاء العثمانيين على ألبانيا فر العديد من الذين ناهضوهم إلى الجبال، وهجرت أعداد كبيره منهم إلى دول الجوار كإيطاليا؛ مما أثر على

الكثافة السكانية فى ألبانيا[٧].

وأبقت الحكومة العثمانية السكان على ما ألفوه من قبل فى حياتهم اليومية.وعهدت إلي القبائل التي تسيطر على الممرات الجبلية الهامة بالمساعده فى مهمه الحراسة ، وأعفتهم مقابل ذلك من الضرائب[٨]. كما نهضت الحكومة باقتصاد البلاد ، ومن ذلك: إصلاح نظام الضرائب، وجعل المعاملات الماليه تتم حسب الشريعة الإسلامية[٩]. كما أقامت الحكومة فى إحدى مدن ألبانيا وهي أولونية ، مستعمرة متوسطة المساحة من مهاجرى يهود إسبانيا فى نهاية القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادي، ثم صارت تلك المدينة ميناء دوليا لتبادل التجارة بين الدولة العثمانية وغرب آوروبا[١٠].

ولم تضع الدوله العثمانيه قيودا على انتقال الألبان من بلد إلى آخر والإقامة فيه؛ وبخاصة بين ولاياتها ، ولهذه السياسة تردد كثير منهم على الولايات العثمانية الأخرى لمارسه الأنشطة الاقتصادية[١١]. وهاجرت أعداد كبيرة من الألبانين الأرثوذكس إلى بلاد اليونان على فترات حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى/الثامن عشر الميلادى[١٢]. كما استوطن كثير من الكاثوليك منذ القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى جنوبي إيطاليا وجزيرة صقلية[١٣]. ووفد إلى ألبانيا كثير من الأجناس الأخرى، ومن بينهم البلغار واليونانيون والصرب وسكان الجبل الأسود والبنادقة[١٤].

ومع الفتح العثمانى لألبانيا بدأ الإسلام ينتشر تدريجياً بين الأهالي سواء أكانوامن الكاثوليك فى الشمال، أم من الأرثوذكس فى الجنوب[١٥]. واستمر الإسلام يتسع فى انتشاره، حتى إنه فى بداية القرن الثالث عشر الهجرى /التاسع عشر الميلادي كان دين الغالبيه العظمى من السكان[١٦].

وكان انتشاره فى المدن الألبانية أكثر وأسرع من انتشاره فى المناطق الجبلية[١٧].

وقد ارتبط الإسلام بالأتراك العثمانيين فى أذهان مسيحيى ألبانيا ، كغيرهم من الأوروبيين، حتى إن من اعتنق الإسلام من مواطنيهم نظروا إليهم على أنهم صاروا من الترك[١٨].

وكان من عوامل دخول الألبانيين فى الإسلام، حينذاك، أن السلطات العثمانية قد اهتمت بنشره سلمياً ، فأقامت العديد

من المساجد وغيرها من المؤسسات الدينية، وزودتها بمن يقوم بشئونها. وحافظ العثمانيون أيضًا على الشعائر الإسلامية. وشجعوا الطرق الصوفية، وخصوصًا البكتاشية، وانتمى إليها طائفة كبيرة من المسلمين، ونشطوا فى بناء الكثير من التكايا[19]. وكان السلطان محمد الفاتح قد أنشأ مدينة إيلبصان سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م. وأصبحت مركزًا إسلاميًا منذ البداية لنشر الإسلام وشرح أركانه لحديثى العهد به[20]. كما أتاح العثمانيون الفرصة للراغبين فى الاستزادة من العلوم الإسلامية بالسفر إلى مراكز التعليم فى قلب العالم الإسلامى، حيث التعلم فيها والإقامة بالمجان[21].

والتزم العثمانيون بسياسة التسامح الإسلامى مع غير المسلمين فى ألبانيا ما داموا ملتزمين بالقوانين الإسلامية المنظمة لعلاقتهم بالمسلمين. وتمتعوا بالحرية الدينية فى وقت لم يكن العالم الأوروبى يعرف مثلها[22]. ومارسوا إقامة طقوسهم الدينية. وأسهموا فى مختلف أنواع الأنشطة الاقتصادية، وتحملت الدولة مسئولية حماية أرواحهم وممتلكاتهم. ونتيجة لذلك خالط كثير منهم المسلمين، وتأثروا بهم فى العديد من جوانب حياتهم، حتى إن البلاد التى لم يقطنها إلا المسلمون كانت قليلة، وأدى هذا التأثر إلى اعتناق كثير منهم الإسلام بمحض إرادتهم[23].

وبدأ الألبانيون المسلمون يصيرون جزءًا مهمًا من الطبقة العثمانية الحاكمة، وتولوا مناصب الصدارة العظمى[24]. أى رئاسة الوزراء، وقيادة الجيوش. وحكم الولايات[25].

وعلى الرغم من انتشار الإسلام فى ألبانيا، ومشاركة كثير من الألبانيين فى بناء الدولة العثمانية. فى العاصمة والولايات؛ فإن الحكم العثمانى لم يكن مستقرًا فيها بصفة دائمة، وبخاصة فى المناطق الجبلية الشمالية[26]. فقد كانت هناك أقلية ألبانية كاثوليكية فى الشمال. تتبع الكنيسة البابوية فى روما[27]، وأقلية أرثوذكسية فى الجنوب. تتبع الكنيسة الشرقية فى إسطنبول. وكان هذا الانقسام الدينى والمذهبى[28]. هو الثغرة التى تسللت منها البابوية فى روما وجمهورية البندقية والنمسا للتدخل فى شئون ألبانيا، ومد نفوذها إليها، وذلك بتأييد الكاثوليك فيها، واتخاذهم أداة لإثارة المتاعب فى وجه العثمانيين من



ناحية، والأرثوذكس من ناحية أخرى[٢٩].

ورد العثمانيون على ذلك بمناصرة الأرثوذكس بوصف الدولة العثمانية حامية للكنيسة الشرقية[٣٠].

ومن تلك الأسباب أيضًا أن الأتراك العثمانيين لم يستقروا بأعداد كبيرة فى ألبانيا، وكانوا نوعيات شتى[٣١]. وكانت مهام الحكام منهم من أشق المهام، إذ كان نفوذهم فى كثير من الأحكام لا يتجاوز دُور الحكم إلى خارجها. ولم يعترف بهذا النفوذ إلا المسلمون والمسيحيون من سكان المدن، أما غالبية المسيحيين الذين كانوا يسكنون المناطق الجبلية، فقد كانوا لا يتصلون بالحكام إلا بواسطة مندوبين مسلمين، اقتصرت مهمتهم على جمع الضرائب[٣٢].

واستاء الألبانيون، وبخاصة سكان الجبال، من الحكومة العثمانية لعدة أمور، منها: زيادة الضرائب، ورفع مقدار الجزية: لانخفاض قيمة العملة فى القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى، ثم ما اتخذته الحكومة أيضًا من احتياطات أمنية تمثلت فى حظر حيازة الأسلحة، وجمعها من حائزيها، وخصوصًا فى المناطق الشمالية[٣٣].

وكذلك موقف العثمانيين من اللغة الألبانية[٣٤] فلم يعترفوا بها ولا بالثقافة الألبانية. وكان جميع الألبانيين المسلمين لا يتلقون فى تعليمهم إلا اللغة التركية، وقليلاً من اللغة العربية، بينما كان الألبانيون المسيحيون يتعلمون اللغة اليونانية تحت مراقبة رؤساء المذهب الأرثوذكسى[٣٥]، فضلا عن أن اللغة الألبانية كانت قد تدهورت نتيجة إهمالها منذ عصر الإمبرطوارية الرومانية، وما أعقب هذا العصر حتى الحكم العثمانى، فأصبحت الألفاظ الألبانية الأصلية قليلة، ودخلتها كلمات كثيرة من اللغات الأخرى وبخاصة التركية[٣٦].

وتمثل سخط الألبان فى أكثر من موقف، ومن ذلك تمرد القبائل فى شمالها عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م، إذ شرعت تهاجم سهول الروملى حتى قلبه وتنهبها. وسعى الباب العالى إلى وقف هذا السلب والنهب، فأنفذ عدة جيوش إلى القبائل، وأخمد الفتنة التى قاموا بها. على أنه ما إن ضعفت هيمنة السلطة المركزية فى القرن الحادى عشر الهجرى/السابع عشر الميلادى حتى بدأ أهل الجبال يتغلغلون فى الروملى، بل وفى الأناضول. وقد انضم كثير من الألبان أيضًا إلى عصابات

الجبال فى الروملى، كما تجلى سخط الشماليين فى تعاونهم مع جيوش النمسا والبندقية ضد الدولة العثمانية أثناء حروب سنة (١٠٩٥- ١١١١هـ) ١٦٨٤ . ١٦٩٩م و(١١٢٦- ١١٣١هـ) ١٧١٤. ١٧١٨م و(١١٤٩- ١١٥٢هـ) ١٧٣٦. ١٧٣٩م[٣٧].

ونتيجة لذلك كان الألبانيون من أسرع الشعوب البلقانية رغبة فى الاستقلال عن الدولة العثمانية ومطالبة به، وخصوصًا بعد ظهور الحركات القومية والدستورية فى أوروبا فى القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى وتأثرهم بها[٣٨].

وواجهت هذه الرغبة رفضًا شديدًا من السلطان العثمانى عبد الحميد الثانى الذى خشى أن يخرج مسلمو ألبانيا، وهم الأكثرية بها، عن الحكم العثمانى المباشر؛ مما يعد نكسة لحركة الجامعة الإسلامية التى يدعو إليها، بالإضافة إلى أنه رأى أن القومية الألبانية لم تكن حركة أصلية نبعت من الجماهير، وإنما كانت تقليدًا للقوميات التى نشأت فى البلقان[٣٩].

وأراد قادة الفكر فى الشعب الألبانى أن ينهضوا بالقومية الألبانية، فعملوا فى مجالين: المجال الأدبى وإحياء اللغة الألبانية[٤٠]. بوصفها عنصرًا أساسيًا من عناصر القومية الألبانية: والمجال السياسى بوصفه طريقًا للتحرر السياسى بالحصول على الاستقلال الذاتى داخل الدولة العثمانية، ثم الاستقلال التام حين تتاح لهم الظروف السياسية المناسبة، وبعد نبذ خلافاتهم الدينية والقبلية والإقليمية، وقد أثمرت هذه الجهود[٤١].

وظلت ألبانيا جزءًا من الدولة العثمانية حتى أعلنت استقلالها فى عام ١٣٣١هـ/ ١٩١٣م. ثم نشبت الحرب العالمية الأولى، فاختلت أمور ألبانيا اختلالاً كبيرًا، وأصبحت أرضها نهبا للناهبين. وانجلى الاضطراب الألبانى عن حكومة ألبانية قوية فـــى تيرانا، تمكنت من لم شعث البلاد، ومن إقامة ألبانيا مستقلة. وقد تأيد هذا الاستقلال بقبولها فى عصبة الأمم فى عام ١٣٣٩هـ/١٩٢٠[٤٢].

وأثناء الحرب العالمية الثانية تعرضت ألبانيا للاحتلال الإيطالى ثم الألمانى. وبعد انسحاب الألمان منها عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٤م، قامت بها حركة شيوعية بزعامة " أنور خوجا" الذى حكم البلاد بقبضة من حديد لمدة أربعة عقود، حالف خلالها الاتحاد السوفيتى حتى سنة ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، ثم الصين حتى عام



١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م[٤٣].

وبعد استقلال ألبانيا عن الدولة العثمانية تم فصل الدين عن الحكم والحياة الثقافية، وكذلك تهميش رجال الدين فى جميع الطوائف، ثم إلغاء مناصبهم منذ أن ساد الحكم الشيوعى فى البلاد. وأغلقت المساجد والكنائس والمعابد اليهودية، وكان عددها جميعًا ٢١٦٩. ونص الدستور الألبانى الشيوعى على تجريم النشاط الدينى أيا كان نوعه. وهدمت السلطات عددًا من دور العبادة، واحتفظت بقلة منها كمعالم ثقافية أثرية، بينما أعادت بقيتها كدور للمسارح والسينما أوكمساكن أو مستودعات[٤٤].

وبعد سقوط الشيوعية عادت لألبانيا الحريات السياسية والدينية والثقافية، وولت وجهها شطر الدول الرأسمالية[٤٥].

د / عزت إبراهيم الدسوقى

الهوامش:

(١) س. إ. مان، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة "أرناؤط"، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م، جـ ٣، ص١٣٦.

(٢) ك. سوسيهم، دئرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة" أرناؤط" ص ١٠٩، ١١٢؛ وس.إ. مان المرجع السابق، ص ١١٢. واستعمل الأتراك العثمانيون الصيغتين المشتركتين للدلالة على الألبان، وهما "أرناؤط" و "أرناؤد".خليل إينالجق، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة "أرناؤط"، ص ١٤٣.

(٣) WWW. ar. Wikipedia. Org .

(٤) المرجع نفسه.

(٥) د/عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م، جـ١ ، ص٩.

(٦) د/ عبد العزيز الشناوى: أوربا فى مطلع العصور الحديثة. الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، جـ١، ص٦٢٧، ٦٢٩، وبول كولز: العثمانيون فى أوروبا. ترجمه عن الإنجليزية د/ عبد الرحمن الشيخ. سلسلة الألف كتاب(الثانى)، العدد ١٢٦، القاهرة، ١٩٩٣م، ص ٢١٢، ود/ جلال يحيى :العالم الإسلامى الحديث والمعاصر. المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، د.ت ، ص ٨٧ وما بعدها.

(٧) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٨) المرجع نفسه، ١٣٩.

(٩) يرى فريق من الباحثين والمؤرخين الأوروبيين أن البلاد التى وقعت فى حوزة الدولة العثمانية حظيت بحكم أفضل مما حظيت به تلك البلاد التى كانت ترزح تحت حكم معظم أوروبا المسيحية، وأن السكان فيها تمتعوا بتحسن كبير فى أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية. انظر: جب، هاملتون وبووين، هارلود: المجتمع الإسلامى والغرب، القسم الأول، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ج٢، ص ١٧-١٨.

(١٠) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٥١.

(١١) كانت اسطنبول من أهم المدن التى توجهوا إليها، وعملوا بها فى مختلف المهن والحرف. د/ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ٤، ص ١٨٧١.

(١٢) كانت نسبة جاليتهم خمس السكان تقريباً. ك. سوسهيم، المرجع السابق ١٢٨.

(١٣) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٢٨، وك. سوسهيم، المرجع السابق، ص١١٤.

(١٤) د/ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ ٤، ص ١٨٤٣.

(١٥) بول كولز: المرجع السابق، ص٣٧.

(١٦) ك. سوسهيم، المرجع السابق، ص ١١٤.

(١٧) د/ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج، ص ١٨٦٠.

(١٨) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٤٢.

(١٩) ك. سوسهيم/ المرجع السابق، ص ١١٥.

(٢٠) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٤١.

(٢١) من هذه المراكز الجامع الأزهر بالقاهرة ، وكان به عدة أروقة منها رواق الأتراك، وخصص للطلاب الوافدين من البلاد التى تسمى الآن الجمهورية التركية، ويوغسلافيا (السابقة)، وألبانيا، وكذلك من الاتحاد السوفيتى (السابق)، وتركستان. انظر: د/ عبد العزيز الشناوى: الأزهر جامعًا وجامعة. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣، جـ١، ص ٢٦٢. وذكر على مبارك أن هذا الرواق له مرتبات كثيرة ونقود، وأن إيراد أوقافه يستحقها كل مجاور فيه من بلاد الترك، حتى ولو كان عتيقًا، وأن أهله كثيرون، ولهم دفتر مدونة فيه أسماؤهم. الخطط

التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة. بولاق، القاهرة، ١٣٠٥هـ، جـ٤، ص ٢٣.

(٢٢) د/ عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية، ج١، ص ٩١.

(٢٣) سير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية. ترجمه عن الإنجليزية د/ حسن إبراهيم، وآخران. الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٠٥ وما بعدها.

(٢٤) كان فى الحكومة العثمانية ما لا يقل عن ثلاثين فردًا من أصل ألبانى تولوا منصب الصدارة العظمى. وشغل هذا المنصب خمسة من إرة كوب ريلى فى القرن الحادى عشر والثانى عشر الهجريين / السابع عشر، ومطلع القرن الثامن عشر الميلاديين. خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٥١.

(٢٥) ترجم المؤرخ المصرى " عبد الرحمن الجبرتى" لشخصيات عديدة من الألبان فى مصر، منهم ثلاثة باشوات. وأحد عشر فردًا شغلوا قيادات مختلفة فى الجيش العثمانى بمصر. كما تحدث عن إحدى فرق هذا الجيش، وكانت من الألبانيين الذين وفدوا إلى مصر عام ١٢١٦هـ / ١٨٠١م. واسم قائد هذه الفرقة " محمد على " الذى حكم مصر من سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م. عجائب الآثار فى التراجم والأخبار. دار الجيل، بيروت، د. ت، ثلاثة أجزاء.

(٢٦) د/ عبد العزيز الشناوى: أوروبا، جـ١، ص ٦٢٧.

(٢٧) د/ جلال يحيى: المرجع السابق، ص ٨٧.

(٢٨) حدث هذا الانقسام فى سنة٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م بين الكنائس الغربية والشرقية، ووقعت الكنائس والمسيحيون فى جنوب ألبانيا تحت سلطة بطريرك القسطنطينية، بينما وقعت الكنائس التى فى الشمال تحت إشراف البابا فى روما. خليل اينالجق: الرمجع السابق، ص ١٤١.

(٢٩) د/ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ٤، ص ١٨٤٣ - ١٨٤٤.

(٣٠) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٤١.

(٣١) المرجع نفسه: ص ١٣٩ - ١٤٠.

(٣٢) ك. سوسهيم، المرجع السابق، ص ١١٧. ١١٨.

(٣٣) خليل إينالجق : المرجع السابق. ص ١٥٢. ١٥٣.

(٣٤) كانت تعرف باسم" شكيب " فى ألبانيا، وانقسمت إلى لهجتين رئيستين، هما:الغيغة والتوسق. وسكن الناطقون باللهجة الأولى شمال نهر إشقومبى. بينما قطن أصحاب اللهجة الأخرى جنوب هذا النهر. ك. سوسهيم، المرجع السابق، ص ١١٨، خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٣٨.

(٣٥) د/ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج٤، ص ١٨٧٨ - ١٨٧٩.

(٣٦) س. إ مان: المرجع السابق، ص ١٣٤، ك. سوسهيم، المرجع السابق، ص ١١٩.

(٣٧) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٥٢.

(٣٨) د/ عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، جـ٢، ص ٦٢ - ٦٣.

(٣٩) د/ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج٤، ص ١٨٧٥ - ١٨٧٦.

(٤٠) نتج عن ذلك أن معدل الأمية بين مستخدمى هذه اللغة كان كبيرًا. وقد بذلت الحكومات المتعاقبة جهدًا كبيرًا فى القضاء على الأمية، وقد حققت نجاحًا كبيرًا. WWW. Ar. Wikipedia. Org.

(٤١) د/ عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية، جـ٤، ص ١٨٧٥ - ١٨٨٢.

(٤٢) شفيق غربال: دائرة المعارف الإسلامية. مادة " أرناؤط "، ص ١٣٣.

(٤٣) د/ عبد العظيم رمضان: المرجع السابق. جـ٢، ص ١٠٠، ١١٥، ١٧٧، وجـ٣، ص ٢١٧، ٣٥٤.

(٤٤) د/ عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، جـ ١، ص٣٠، حاشية رقم ١، وخليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٤١.

(٤٥) خليل إينالجق: المرجع السابق، ص ١٤١، وك. سوسهيم، المرجع السابق، ص ١١١.

بعض المراجع للاستزادة

١. دائرة المعارف الإسلامية.

٢. عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، عدة مجلدات، القاهرة ١٩٨٠م.

٣. على مبارك: الخطط التوفيقية لمصر والقاهرة- القاهرة ١٣٠٥هـ

٤. توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، الترجمة العربية، القاهرة عام ١٩٧٠م.

٥. عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، القاهرة عام ١٩٩٧م.

الأمويون

ينتسب الأمويون إلى أمية بن عبد شمس ابن عبد مناف، ويلتقون فى نسبهم مع رسول الله ﷺ فى عبد مناف، فهو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فالبيتان من أقرب بيوت قريش بعضهم لبعض، وتحدثنا كتب التاريخ عن منافسات على الشرف والسؤدد والسيادة بينهم على الرغم من القرابة القريبة، ولكن تلك المنافسات لم تصل أبدا إلى حد الصدام المسلح، بل على العكس تتحدث كتب التاريخ عن صداقة قوية كانت تربط بين زعيم بنى هاشم عبد المطلب وبين زعيم بنى أمية حرب ، تلك الصداقة التى استمرت بين ابنيهما؛ أبى سفيان بن حرب والعباس بن عبد المطلب[1].

كان هذا هو الوضع بين فرعى عبد مناف عندما بعث النبى محمد ﷺ برسالة التوحيد ودعا قومه ليؤمنوا بالله ورسوله، فآمن به عدد لا بأس به من بنى أمية وعُدُّوا من السابقين، وعلى رأسهم عثمان ابن عفان بن أبى العاص بن أمية، وأولاد عمه سعيد بن العاص بن أمية الأربعة؛ الحكم، وعمرو، وخالد، وأبان، وكذلك تبعهم أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس. غير أن الأغلبية من بنى أمية بزعامة أبى سفيان بن حرب رفعت رايه العصيان والمعارضة فى وجه النبى ﷺ. وكتب السيرة حافلة بمواقفهم العدائية ضده ﷺ الأمر الذى اضطره إلى الهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ومع ذلك لم يتركوه وشأنه، بل شنوا عليه حروبًا كثيرة، ولم يلقوا أسلحتهم إلا عندما دخل عليه الصلاة والسلام مكة المكرمة؛ فاتحًا فى شهر رمضان من العام الثامن الهجرى/ السابع الميلادى عندئذ قابل الرسول ﷺ امتناعهم عن الحرب بسماحة ورضى، وعفا عنهم جميعًا، وقال لهم قولته الشهيرة: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»[2].

الحقيقة أن الرسول ﷺ سرورًا عظيمًا بإسلام أهله - أهل مكة- ودخولهم فى دين الله، فهذه اللحظة التى ظل ينتظرها أكثر من عشرين عامًا، لأنه كان يعرف أنهم قادمون لا محالة، وأن دخولهم فى الإسلام سيكون نصرًا عظيمًا لهذا الدين، وهم بدورهم أدركوا خطأهم الجسيم فى معاداتهم له، وبذلوا أقصى طاقتهم لتعويض ما فاتهم من الجهاد معه، فى جهاد عدوه وعدو الإسلام،

وكان لهم دور عظيم فى الفتوحات الإسلامية.

وأفسح ﷺ مكانًا فى دولته لبنى أمية، فعين عتاب بن أسيد بن أبى العيص ابن أمية أميرًا على مكة المكرمة بعد الفتح[٣]. وعين أبا سفيان أميرًا على نجران، بناء على طلبه. وضم معاوية ابنه إلى كتاب الوحى[٤].

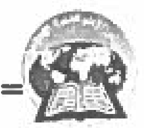
وبعد وفاة الرسول ﷺ استمروا على مكانتهم فى دولة الصديق ﷺ، وأبلوا أعظم البلاء فى حروب الردة، حتى يروى أنه كان لمعاوية بن أبى سفيان دور فى قتل مسيلمة الكذاب مدعى النبوة فى اليمامة.

ولما انطلقت الفتوحات عين أبو بكر ﷺ يزيد بن أبى سفيان قائدًا لأحد جيوشه الرئيسية التى وجهها إلى فتح الشام، وجعل أخاه معاوية ردءًا له، وسطروا فى الفتوحات الإسلامية صفحات ناصعة البياض، واستمروا فى الجهاد عهود الخلفاء الثلاثة الأول؛ أبى بكر، وعمر، وعثمان رضى الله عنهم، حتى إن عمر بن الخطاب، وهو من هو فى شدته فى محاسبة عماله، جعل معاوية واليًا على كل الشام، لكفاءته وحسن سيرته[٥]. وفى منتصف خلافة عثمان ﷺ رزئت الأمة بفتنة كبرى، لعبت فيها أياد أجنبية كثيرة أدوارًا خبيثة[٦]. راح ضحيتها الخليفتان الراشدان، عثمان وعلى - رضى الله عنهما - وعشرات الألوف من المسلمين فى الجمل وصفين، مما لا مجال لتفصيله هنا[٧].

بعد استشهاد على بن أبى طالب ﷺ على يد أحد أشقياء الخوارج - عبد الرحمن بن ملجم - فى شهر رمضان سنة ٤٠هـ / ٦٦١م بايع أنصاره ابنه الحسن بن على رضى الله عنهما، غير أن الحسن مال إلى حقن دماء المسلمين وصالح معاوية بن أبى سفيان وتنازل له عن الخلافة فى مطلع عام ٤١هـ/٦٦١م واستبشر المسلمون خيرًا بصنيع الحسن هذا، وعدّوا ذلك العام عام الجماعة بعد الفتنة التى فرقت كلمتهم سنين طويلة[٨].

معاوية مؤسس الدولة الأموية ٤١-٦٠هـ = ٦٦١-٦٨١م

يجمع المؤرخون على تمتع معاوية بن أبى سفيان ﷺ بصفات عالية فى مجال السياسة والإدارة، إضافة إلى الحلم وسعة الأفق والكرم، وحسن التأتى للأمور، إلخ[٩]. وكان مدركًا لما عانته الأمة من آلام وخسائر فى الأرواح والأموال طوال عشر سنين. فاجتهد فى تضميد الجراح



ورأب الصدع ونجح فى ذلك نجاحًا مشهودًا، ثم خطا بالدولة الإسلامية خطوات كبيرة فى مجال تطوير الأجهزة وإنشاء الدواوين، ولا ينسى التاريخ دوره فى إنشاء الأساطيل البحرية الإسلامية، حتى من قبل أن يصبح خليفة، تلك الأساطيل التى انتزعت سيادة البيزنطيين على البحر المتوسط وصيَّرتْهُ بحرا إسلاميًا، غير أنه ﷺ اتجه بنظام الحكم الإسلامى وجهة أخرى خلاف ما سار عليه فى عهد الخلفاء الراشدين، حيث كانت خلافتهم تتم عن بيعة حرة من أهل الحل والعقد من الصحابة، أما معاوية ﷺ فقد اختار ابنه يزيد ليخلفه، وأخذ له البيعة فى حياته، وهذه الخطوة أحدثت خلافات كبيرة وأصبحت لها تداعيات خطيرة، ظهرًا أثرها جليًا بعد وفاة معاوية نفسه فى شهر رجب سنة ٦٠هـ/٦٨٠م.

على كل حال أصبح يزيد بن معاوية خليفة بعهد من أبيه وجددت له البيعة بعد وفاته، وعلى الرغم من ذلك فقد واجهته معارضة قوية من أبناء وكبار الصحابة.

لقد شهد عهد يزيد بن معاوية ٦٠-٦٤هـ/٦٨٠- ٦٨٣م إنجازات كبيرة، وبصفة خاصة فى مجال الفتوحات، ففى عهده قام عقبة بن نافع ﷺ بغزوته الجريئة المشهورة التى اخترق فيها كل شمال إفريقيا ووصل إلى المحيط الأطلسى، وخاض بفرسه فى مياهه، وقال قولته المشهورة: " اللهم اشهد أنى قد بلغت المجهود، ولولا هذا البحر لمضيت فى البلاد أقاتل من كفر بك حتى لا يعبد أحد دونك"[١٠] ولكن هذا لم يشفع ليزيد فى نظر كثير من الناس، فقد حدثت فى عهده أحداث أليمة أغضبت المسلمين وبغضته إليهم، من أهمها مذبحة آل البيت فى كربلاء وفى مقدمتهم مقتل الحسين ابن على رضى الله عنهما فى العاشر من المحرم سنة ٦١هـ/٦٨٠م، ثم غزوة المدينة المنورة سنة ٦٣هـ، وغزو مكة المكرمة فى مطلع سنة ٦٤هـ/ ٦٨٣م، وهذه الحوادث الخطيرة كان يمكن تفاديها لو كانت هناك حكمة سياسية؛ لأن عواقبها كانت وخيمة على الأمة الإسلامية بصفة عامة وعلى الدولة الأموية بصفة خاصة، ولم يجن أحد من المسلمين منها خيرًا قط.

الدولة الأموية على حافة الزوال :

جريًا على سنة الوراثة فى الحكم التى ابتدعها معاوية ﷺ عهد يزيد لابنه معاوية ليتولى الخلافة بعده، فلما توفى يزيد فى شهر ربيع الأول سنة٦٤هـ/٦٨٣م رفض

ابنه معاوية أن يتولى الحكم، وأعلن ذلك صراحة للناس وأنه لا يستطيع النهوض بتبعات الخلافة[11]. وهنا وضع معاوية بن يزيد الدولة الأموية فى مهب الريح، فانفتح الباب أمام كثيرين لملء الفراغ الذى حدث، فعبد الله بن الزبير ﷺ قد أعلن نفسه خليفة فى مكة المكرمة وأتته البيعة من معظم أقطار الدولة الإسلامية، وفى العراق أعلن المختار بن أبى عبيد الثقفى دولة شيعية فى الكوفة، وأعلن نافع بن الأزرق رأس الخوارج الأزارقة قيام دولة خارجية فى الأهواز، وأعلن نجدة بن عامر الحنفى قيام دولة خارجية اخرى فى اليمامة، وبدا وكأن الدولة الأموية قد ولت الأدبار.

مروان بن الحكم مؤسس أسرة أموية حاكمة جديدة فى الشام: وهى الدولة المروانية فى ذلك الوقت الذى سادت فيه تلك الفوضى وانقسمت الدولة الإسلامية الواحدة إلى عدة دول. تجمعت عناصر بنى أمية فى الشام والتأم شمل أنصارهم وعقدوا مؤتمرا فى الجابية فى ذى القعدة سنة ٦٤هـ/٦٨٤م، ونجحوا فى البيعة لمروان بن الحكم[12]. وبايعته معظم ولايات الشام، ثم توجه إلى مصر وانتزعها من واليها عبد الله بن الزبير، وبعد عشرة شهور قضاها مروان فى الحكم، توفى فى رمضان سنة ٦٥هـ، تاركًا مهمة توحيد الدولة الإسلامية والقضاء على الفرقة والانقسامات التى حدثت إلى ابنه عبد الملك.

عبد الملك بن مروان وإعادة توحيد الدولة الأموية٦٥- ٨٦/٦٨٥- ٧٠٥هـ:

تولى عبد الملك بن مروان الخلافة فى شهر رمضان سنة ٦٥هـ/٦٨٥م، وامتدت خلافته إلى أكثر من عشرين عامًا ٦٥- ٨٦هـ/٦٨٥- ٧٠٥م، وتجمع المصادر التى ترجمت لحياته وأرَّخت لحكمه على أنه كان من عقلاء الرجال ودُهاتهم، ومن أكثرهم حزمًا وشجاعة وإقدامًا[13]. وكان غير هياب يمضى إلى هدفه بعزيمة ثابتة، ولا يعرف اليأس إلى نفسه سبيلاً، ولقد آلى على نفسه أن يعيد الوحدة إلى الدولة الإسلامية، وأن يصفى تلك الدول التى ظهرت- والتى أشرنا إليها فيما سبق- الواحدة تلو الأخرى، وقد حقق هدفه تمامًا ولكن بتضحيات هائلة، وبحلول منتصف سنة ٧٣هـ/٦٩٢م تم القضاء على دولة عبد الله بن الزبير وقُتِل هو نفسُه[14]. وبهذا عادت الوحدة إلى الأمة وعدّ عبد الملك المؤسس الثانى للدولة الأموية فى الفرع المراونى.

لم يكن عبد الملك بن مروان عسكريًا فذًا أو سياسيًا بارعًا فحسب، بل كان إداريًا ممتازًا كرس نفسه لتوطيد أركان الدولة الإسلامية وصبغها بالصبغة العربية الإسلامية، حيث عرّب دواوينها، وعملتها وخطا خطوات هائلة فى النهوض بكل أوجه الحياة فى ربوع الدولة، وترك لابنه وخليفته الوليد دولة قوية غنية مهابة من أعدائها.

الوليد بن عبد الملك ٨٦- ٩٦/٧٠٥- ٧١٥م:

يعد الوليد بن عبد الملك بن مروان من أسعد خلفاء بنى أمية حظًا، فقد ورث دولة موطدة الأركان خزائنها مليئة بالأموال، وقد كسرت شوكة أخطر أعدائها، واستثمر الوليد جهود أبيه أعظم استثمار، فقد شهد عهده أوسع حركة فتوحات إسلامية منذ عهد الخلفاء الراشدين، ففى عهده استكمل المسلمون فتح شمال إفريقيا كله، ثم عبروا مضيق جبل طارق، وفتحوا جزيرة أيبريا - الأندلس- وفى الشرق فتحوا ما يسمى الآن بآسيا الوسطى الإسلامية وبلاد ما وراء النهر، وإقليم السند فى شبه القارة الهندية[(١٥)]، وأصبحت الدولة الإسلامية أكبر وأعظم وأغنى دولة فى العالم تنعم بوحدة كاملة، حيث كانت كلمة دولة إسلامية تعنى العالم الإسلامى، وكلمة العالم الإسلامى تعنى دولة إسلامية واحدة.

ولم يكن عهده عهد فتوحات فحسب، بل كان عهد تعمير وبناء وعدل اجتماعى. يقول الإمام الطبرى: "كان الوليد بن عبد الملك عند أهل الشام أفضل خلفائهم، بنى المساجد؛ مسجد دمشق- والمسجد الأقصى- ومسجد المدينة، ووضع المنابر، وأعطى الناس، وأعطى المجذومين، وقال: لا تسألوا الناس، وأعطى كل مقعد خادمًا، وكل ضرير قائدًا، وفُتِحَ فى ولايته فتوح عظام"[(١٦)].

توفى الوليد بن عبد الملك فى منتصف جمادى الآخرة سنة ٩٦هـ/٧١٥م، فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك ٩٦- ٩٩هـ/٧١٥- ٧١٧م، فسار على نهج الوليد فى الحكم مع تغيرات اقتضتها الظروف حيث عمل على تنحية بعض الولاة الذين اشتهروا بالقسوة فى عهد الوليد نظرًا للظروف الضيقة التى مرت بها الدولة، فرأى سليمان أن هذا الأسلوب يجب أن ينتهى ويبدأ مع الناس صفحة جديدة، يقول الإمام الطبرى: "إن الناس قد استبشروا بخلافة سليمان، وكانوا يرون خلافته مفتاح الخير وقالوا:"

تولى سليمان فأطلق الأسارى وخلّى أهل السجون وأحسن إلى الناس، واستخلف عمر بن العزيز"[١٧].

وفى عهده جرت آخر محاولة لفتح القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، بعد المحاولتين اللتين حدثتا فى عهد معاوية بن أبى سفيان.

لم تطل خلافة سليمان بن عبد الملك ولكن مما يحسب لهذا الرجل أنه عهد بالخلافة إلى من يعد من أعظم خلفاء المسلمين بعد الخلفاء الراشدين وهو :

عمر بن عبد العزيز ٩٩- ١٠١/٧١٧/٧٢٠م:

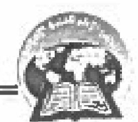
تحفل مصادر التاريخ وكتب التراجم بالثناء على عمر بن عبد العزيز، وعنه يقول الإمام الطبرى: " الإمام الحافظ العلاّمة المجتهد الزاهد، العابد، السيد، أمير المؤمنين حقًا، أبو حفص الأموى، ثم المدنى المصرى، الخليفة الزاهد الراشد أشج بنى أمية"[١٨].

حقًا كان عمر بن عبد العزيز درة فى جبين الخلافة الأموية، بل الخلافة الإسلامية. وهو ممن يفخر بهم المسلمون، بل ممن تفخر بهم البشرية فى كل العصور، وذلك النجم الساطع الذى رفع أعلام الحق خفاقة عالية، وجدد فى نفوس الناس الأمل فى العدل والرحمة والبرّ، والحياة الإنسانية الفاضلة، ذلك الرجل الذى حكم دولة تمتد من الصين شرقًا إلى الأندلس، وجنوب فرنسا غربًا، ومن بحر قزوين شمالاً إلى المحيط الهندى جنوبًا، مدة قصيرة - ثلاثون شهرًا - ساد فيها العدل الاجتماعى إلى الحد الذى كان عمال الصدقات يجمعونها فلا يجدون فقراء يأخذونها[١٩]، لأن الناس أصبحوا فى كفاية، ومن يجد ما يكفيه لا يمد يده .

إن أعظم عبرة يأخذها الناس من سيرة عمر بن عبد العزيز فى الحكم تتلخص فى أنه قد قدم الدليل القاطع على أنه إذا صَحّتْ عزيمة الحاكم المسلم، واستشعر المسئولية عن الأمة أمام الله تعالى، أصبح فى إمكانه أن يقوِّم الأحوال المعوجَّة، وأن يرد المنحرفين إلى سواء السبيل ليسود العدل بين جميع الناس.

الدولة الأموية بعد عمر بن عبد العزيز:

من سوء حظ الأمويين، بل من سوء حظ المسلمين أن تجربة عمر بن عبد العزيز الرائعة فى العدل لم تستمر بعده، حيث كان بعض خلفاء بنى أمية وأبنائهم وأمرائهم قد استمرؤا حياة الترف، فافتتنوا القصور وزينوها، والإسلام لا يحرم الاستمتاع بطيبات الحياة إذا

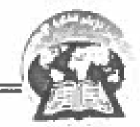
كانت فى الحدود التى تقبلها الشريعة الإسلامية، ولكن عمر بن عبد العزيز رأى أن تيار الترف قد اتسع فخشى من استمراره على حيوية الأمة وفتوتها، فليس أخطر على الأمم من الاستغراق فى حياة الترف، فقصد أن يقف وقفة أمام هذا التيار الجارف، ولكن للأسف لم يكد يغيبه الموت حتى عاد تيار الترف وعدم الاستقامة فى السلوك خاصة من حاشية بعض الخلفاء ومن خلفه المباشر وابن عمه يزيد بن عبد الملك بن مروان ١٠١-١٠٥هـ- ٧٢٠- ٧٢٤م. فبدأت الدولة تسير بخطى ضيقه نحو الانهيار، وعلى الرغم من الكفاءة العالية والرجولة الحقة التى تمتع بها هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٤- ٧٤٣م والتى شهد له بها المورخون[٢٠]. وقدرته على الحفاظ على تماسك الدولة طوال خلافته التى استمرت عشرين عامًا، إلا أنه لما توفى فى السادس من ربيع الأول سنة ١٢٥هـ / ٧٤٣م وآلت الخلافة لابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥- ١٢٦هـ/٧٤٣-٧٤٤م. بدا العد التنازلى للدولة الأموية العملاقة، حيث لقى الوليد حتفه فى ثورة عارمة قادها ضده ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك[٢١]. الذى ولى الخلافة بعده لمدة ٦ شهور ثم توفى وخلفه أخوه إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك لعدة شهور، لينزع منه الخلافة ابن عم أبيه مروان بن محمد ابن مروان بن الحكم ١٢٧-١٣٢هـ/٧٤٥- ٧٥٠م الذى كان يتمتع بصفات كثيرة تؤهله للخلافة ؛ مثل الشجاعة والإقدام وسداد الرأى والصبر والجلد لحد وصفه بالحمار، لصبره وقوة تحمله[٢٢]. إلا أن الأقدار شاءت أن تكتب على يده نهاية الدولة الأموية، وأن يكون عهده هو الفصل الأخير فى تاريخها، وقد لا يكون هو المسئول الأول عن ذلك لأن العوامل التى أدت إلى سقوط الدولة الأموية كانت تعمل عملها منذ زمن بعيد، وقدر له وحده أن يصارع أحداثًا كلها كانت تعمل ضده. وأول وأشد خطر واجهه مروان بن محمد هو انقسام أبناء البيت الأموى على أنفسهم ودخولهم فى حروب داخلية أهلكت قواهم[٢٣]. وكانت فرصة لكل أعداء الدولة من الشيعة والخوارج وغيرهم ليهبوا للقضاء على الدولة، والخطأ الأكبر الذى وقع فيه الأمويون هو غفلتهم عن الدعوة العباسية التى استمرت تعمل فى الخفاء نحو ثلث قرن - من نهاية القرن الأول الهجرى/ أوائل الثامن الميلادى، حتى إذا

استكملت عدتها . انقضَّت قوات العباسيين من خراسان بقيادة أبى مسلم الخراسانى ١٢٩هـ/٧٤٦م لتكتسح القوات الأموية فى إيران والعراق. ورغم الجهود الجبارة التى بذلها مروان إلا أنه لم ينجح فى وقف الزحف العباسى، وتلقى هو هزيمته الساحقة فى معركة الزاب قرب الموصل فى العراق(٢٤).

ويهرب من العراق إلى مصر ليلقى حتفه على أيدى قوات صالح بن على بن عبد الله بن عباس فى نهاية سنة ١٣٢هـ/٧٥٠م، وتكون هذه هى نهاية الدولة الأموية فى المشرق وبداية حكم العباسيين.

والخلاصة:

أن الدولة الأموية حكمت العالم الإسلامى إحدى وتسعين سنة هجرية ٤١- ١٣٢هـ/٦٦٠- ٧٥٠م، وتوالى على الحكم منهم أربعة عشر خليفة، كان أغلبهم رجالاً على مستوى المسئولية، كرسوا كل وقتهم وجهدهم لإدارة الدولة، مثل : معاوية بن أبى سفيان، وعبد الملك بن مروان ، وأبنائه سليمان والوليد وهشام . حتى آخرهم مروان بن محمد، أما عمر بن عبد العزيز فهو نسيج وحده، ومنهم من أساء ولم يكن أهلا لينهض بأعباء الخلافة، مثل: يزيد بن عبد الملك، وابنه الوليد، وولدى الوليد بن عبد الملك: يزيد ، وإبراهيم، الذين أسهموا بسوء صنيعهم فى زوال الدولة، وعلى الرغم من كل الأخطاء التى ارتكبها الأمويون، وكثرة أعدائهم، من الشيعة والخوارج والطامعين فى الحكم من أبناء القبائل الكبرى، مثل: عبد الرحمن بن محمد بن الاشعث بن قيس الكندى، ويزيد بن المهلب الأزدى، وانضمام الموالى من الفرس لكل الثائرين والخارجين على الدولة، على الرغم من كل ذلك فإن مصادر التاريخ الموثوق بها قد سجلت لهم أعمالاً إيجابية عظيمة تأتى الفتوحات الإسلامية على رأسها، التى شملت ثلاث قارات: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا. حيث رفرفت راية الإسلام من الصين شرقًا إلى الأندلس وجنوب فرنسا غربًا، ومن بحر قزوين شمالاً إلى المحيط الهندى جنوبًا، ومما هو جدير بالذكر أن تلك الفتوحات لم تكن فتوحات عسكرية لبسط النفوذ واستغلال خيرات الشعوب . على غرار ما صنع الاستعمار الأوروبى الحديث للعالم، وإنما كانت تلك الفتوحات فتحًا دينيًا وحضاريًا، فقد عمل الأمويون بكل طاقاتهم على نشر



الإسلام سلميًا فى البلاد المفتوحة وطبقوا منهجًا سياسيًا يقوم على التسامح مع أبناء البلاد المفتوحة، حيث عاملوهم معاملة حسنة فى جملتها، واحترموا عهودهم ومواثيقهم معهم، وأشركوهم فى إدارة بلادهم، فأقبلوا على اعتناق الإسلام عن رضا واقتناع[٢٥].

ومن المجالات التى أظهر فيها الأمويون مقدرة فائقة مجال الإدارة وتطوير أجهزة الدولة، فانشأوا كثيرًا من الدواوين التى تقوم بوظائف الوزارات فى الحكومات المعاصرة، وفى هذه المناسبة يذكر لعبد الملك بن مروان تعريب الدواوين والعملة، الذى كان يعد نقلة حضارية هائلة فى الدولة الإسلامية.

ومن الميادين التى اهتم بها الأمويون: ميدان الزراعة، والنهوض بمشروعات الرى مما حقق وفرة فى المنتجات الزراعية فى كل الأقطار.

كذلك شهد العصر الأموى حركة بناء وعمران على نطاق واسع يسرها لهم كثرة الأموال التى كانت تتدفق على خزائن الدولة، فقد كشفت البعثات الأثرية عن كثير من القصور الأموية فى بادية الشام، وكان اهتمامهم بالمنشآت الدينية عظيمًا، وبصفة خاصة المساجد التى انتشرت فى العصر الأموى فى كل الأمصار بحيث يصعب حصرها.

وقد يثير الدهشة أن الرعاية الصحية فى ذلك العهد كانت متطورة جدًا وملبية لحاجات الناس.

وكانت الدولة توفر العلاج المجانى لكل الناس، ومن إيجابيات العصر الأموى: البداية القوية للحركة العلمية، فقد أخذت العلوم الإسلامية الأصيلة، مثل: التفسير والحديث والفقه والتاريخ والسيرة، واللغة العربية وآدابها، أخذت هذه العلوم تتبلور وتصبح لها مدارس فى أمهات الأمصار، مثل مكة المكرمة، والمدينة المنورة، والبصرة، والكوفة، ودمشق، وبيت المقدس، والفسطاط، والقيروان وغيرها.

وإذا كانت حركة الترجمة للعلوم من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، لم يتسع نطاقها إلا فى العصر العباسى إلا أن بداياتها كانت فى نهاية العصر الأموى.

وتتحدث المصادر التاريخية عن جهود الأمير الأموى خالد بن يزيد بن معاوية فى مجال الترجمة فى علم الكيمياء بصفة خاصة[٢٦]. وعن ترجمات كثيرة لكتب فى الطب فى عهد عمر بن عبد العزيز

ومن بعده من خلفاء بنى أمية.

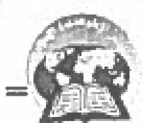
ومن إيجابيات العصر الأموى، العناية بالطرق، حيث تم ربط أجزاء تلك الدولة المترامية الأطراف بشبكة من الطرق المعبدة الآمنة، التى تنتشر عليها الاستراحات والخانات - الفنادق- وآبار المياه، مما يسر للناس حركة التنقل فى سهولة وأمن، ولا شك أن العناية بالطرق من أهم أسباب النهوض الحضارى للأمم فى كل العصور، وسهولة التنقل والترحال للناس أسهم إسهامًا كبيرًا فى النهضة العلمية العظيمة التى حققتها الأمة الإسلامية حيث كان طلبة العلم لا يجدون أية صعوبة فى الانتقال من أى مكان إلى أى مكان فى سبيل طلب العلم، كما أسهمت فريضة الحج فى اهتمام الدولة بالطرق، حيث كل مسلم ترنو نفسه إلى أداء فريضة الحج فى مكة المكرمة وزيارة مسجد الرسول ﷺ، فرأت الدولة أن من واجبها أن تيسر لكل مسلم من كل مكان الوصول إلى بيت الله الحرام، وإلى مسجد الرسول فى أمن وأمان.

ولا يفوتنا فى هذا المجال- وقد نوهنا بخلفاء بنى أمية وإيجابياتهم وسلبياتهم- أن ننوه ببعض الرجال من القادة والأمراء والولاة الذين أسهموا بجهود جبارة فى توطيد أركان الدولة ونشر الأمن والأمان فيها، وكان معظمهم موهوبين فى القيادة العسكرية والسياسية والإدارية وعلى الرغم مما أخذ على بعضهم من مآخذ، وهم بشر أصابوا وأخطأوا وأحسنوا وأساؤا، على الرغم من ذلك فمن الإنصاف لهم وللتاريخ أن ننوه بالنابغين منهم ليعرف شباب الأمة الإسلامية أقدار الرجال الذين أسسوا ذلك الصرح الإسلامى الشامخ فى سنوات قليلة بالقياس إلى غيرهم.

وتطالعنا فى عهد معاوية بن أبى سفيان- رضى الله عنهما- أسماء عمرو ابن العاص، والمغيرة بن شعبة – رضى الله عنه- ، وعتبة بن أبى سفيان، وزياد ابن أبى سفيان، ومروان بن الحكم، ومسلمة بن مخلد الأنصارى، وعقبة بن نافع، ومعاوية بن حديج، وغيرهم كثيرون.

وفى عهد يزيد يظهر عبيد الله بن زياد وإخوته، والوليد بن عتبة بن أبى سفيان والنعمان بن بشير الانصارى.

أما عهد عبد الملك بن مروان فقد حفل بأسماء بارزة قامت بأدوار مهمة فى الحفاظ على سلامة الدولة وأمنها.



ويأتى على رأس هؤلاء جميعًا : الحجاج ابن يوسف الثقفى[٢٧]، ومحمد بن مروان وعبد العزيز بن مروان، والمهلب بن أبى صفرة وأولاده، وزهير بن قيس البلوى، وحسان بن النعمان الغسانى وغيرهم.

وفى عهد الوليد بن عبد الملك يستمر الحجاج على رأس قائمة الرجال الكبار، ويبرز مسلمة بن عبد الملك - فارس بنى مروان - وقتيبة بن مسلم الباهلى، ومحمد بن القاسم الثقفى، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وقرة بن شريك، وغُرَّة بنى مروان : عمر بن عبد العزيز الذى كان أميرًا على المدينة المنورة فى عهد ابن عمه الوليد بن عبد الملك.

وفى عهد سليمان بن عبد الملك يستمر أخوه مسلمة قائدًا لجيوشه، ثم يستعين سليمان بأصلح رجال عصره عمر بن عبد العزيز ورجاء بن حيوة، وأبى بكر ابن حزم، مما كان له أعظم الأثر فى حسن إدارة الدولة فى عهده، وفى عهد عمر بن عبد العزيز يختار الخليفة العادل الورع أفضل وأنزه الرجال ليعاونوه فى إدارة الدولة، منهم : عبد الحميد بن عبد الرحمن، والجراح بن عبد الله الحكمى، وعدى بن أرطاة، وإسماعيل بن عبد الله، والسمح بن مالك الخولانى وغيرهم.

وفى عهد يزيد بن عبد الملك برز عددٌ من الرجال الأفذاذ الذين عوضوا نقص الخليفة وسوء سلوكه وبذلوا جهدهم فى الحفاظ على أمنها وسلامتها، ومن أبرزهم أخوه مسلمة بن عبد الملك، وأولاد إخوته، وأبرزهم العباس بن الوليد بن عبد الملك.

وفى عهد هشام بن عبد الملك تطالعنا أسماء كبيرة فى مجال السياسة والإدارة أمثال خالد بن عبد الله القسرى، وأخيه أسد بن عبد الله، ومروان بن محمد بن مروان، ويوسف بن عمر الثقفى، والجنيد ابن عبد الرحمن .

حتى عهد مروان بن محمد بن مروان لم يخل من القادة الكبار، يأتى على رأسهم : نصر بن سيار، لكن الظروف كانت أقوى منهم جميعًا فلم يستطيعوا منع الدولة من السقوط.

هذه لمحة سريعة عن الأمويين فى المشرق . أما دولة الأمويين فى الأندلس فسيكون الكلام عنها عند الحديث عن دولة الإسلام فى الأندلس.

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) انظر سيرة ابن هشام جـ ٤، ص ٢٠، وما بعدها، فابن إسحاق يروى قصة إسلام أبى سفيان على يدى رسول الله ﷺ قبل دخوله مكة، ودور العباس فى تلك اللحظة الذى يدل على عمق الصداقة بينه وبين أبى سفيان بن حرب.

(٢) المصدر السابق، جـ ٤، ص ٣٢.

(٣) سيرة ابن هشام مصدر سابق جـ ٤، ص ٦٩.

(٤) انظر صحيح مسلم شرح النووى جـ ١٦، ص ٦٢.

(٥) انظر. تاريخ خليفة بن خياط ص ١٥٥، تحقيق. د. أكرم العمرى، مؤسسة الرسالة. بيروت.

(٦) انظر عن الذين أثاروا الفتنة فى عصر عثمان ﷺ: العالم الإسلامى للدكتور / عبد الشافى محمد عبد اللطيف، ص ٣٨، وما بعدها.

(٧) انظر موقعة: الجمل وصفين فى هذه الموسوعة.

(٨) أثنى العلماء ثناءً حسنًا على الحسن بن على ﷺ، أوعدوا ذلك تصديقًا لحديث صحيح قال فيه النبى ﷺ: [ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين] انظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية ج ٢، ص ٢٤٢.

(٩) انظر ترجمته فى البداية والنهاية لابن كثير ج ٨، ص ١٧، وما بعدها. والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى جـ ٩، ص ٢٣١. ٢٣٤.

(١٠) المالكى- رياض النفوس- تحقيق الدكتور/ حسين مؤنس، النهضة المصرية -القاهرة١٩٥١، ج١، ص٢٥.

(١١) انظر تاريخ الطبرى، ج٥، ص ٥٠١، وهذه أرجح الروايات فى الموضوع.

(١٢) تاريخ الطبرى، مصدر سابق، ج٥، ص ٥٣٠، وما بعدها. انظر: مادة الجابية فى الموسوعة..

(١٣) انظر سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى، ج٤، ص٢٤٩، نشر مؤسسة الرسالة، بيروت. والبداية والنهاية للإمام ابن كثير ج٩، ص٦١. وما بعدها.

(١٤) تاريخ الطبرى، مصدر سابق، ج٦، ص ١٨٧. وما بعدها.

(١٥) السند. جزء من دولة باكستان الحالية.

(١٦) تاريخ الطبرى، مصدر سابق، ج٦، ص ٤٩٦، وللمزيد من المعلومات عن عهد الوليد بن عبد الملك. انظر سير أعلام النبلاء للإمام الذهبى، ج٤، ص ٣٤٧. والبداية والنهاية لابن كثير، ج ٩، ص ١١٦.

(١٧) تاريخ الطبرى، مصدر سابق، ج٦، ص ٥٤٦.

(١٨) سير أعلام النبلاء، مصدر سابق ج٥، ص ١١٤.

(١٩) المصدر السابق ج ٥، ص ١٣١.

(٢٠) انظر تاريخ الطبرى، مصدر سابق، ج٧، ص ٢٠٢.

(٢١) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير، ج٥، ص ٢٩١.

(٢٢) انظر ترجمة مروان بن محمد فى تاريخ الطبرى، ج٧، ص٣١١، ٣١٢. والبداية والنهاية لابن كثير، ج١٠، ص ٤٦- ٤٨.

(٢٣) سجلت كتب التاريخ ثورات أبناء البيت الأموى ضد مروان، ويمكن مراجعة ذلك فى الكامل فى التاريخ لابن الأثير، ج ٥، ص ٣٣٠- ٣٣١.

(٢٤) انظر عن معركة الزاب وهزيمة مروان ثم مقتله فى مصر تاريخ الطبرى، ج٥، ص ٤٣٢، ٤٣٧.

(٢٥) من براجع كتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف السير توماس أرنولد، ترجمة الدكتور / حسن إبراهيم حسن وآخرين. طبع مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧٠م، يتأكد من صدق ما نقول، حيث يثبت الرجل - وهو غربى غير مسلم- بكل الأدلة أن الشعوب التى اعتنقت الإسلام اعتنقته عن رضا وإرادة تامة دون أى إكراه من أحد.

(٢٦) انظر: وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان لابن خلكان، ج ٢، ص ٢٢٤. تحقيق د. إحسان عباس. دار الثقافة. بيروت.

(٢٧) كان الحجاج بن يوسف الثقفى، ولا يزال، من أكثر رجالات بنى أمية الذين تعرضوا للتجريح والاتهام بالطغيان، وسفك الدماء، وقد أعد شيخنا المرحوم الدكتور/ محمود محمد زيادة رسالة دكتوراه عنه عنوانها الحجاج بن يوسف الثقفى المفترى عليه". دار السلام، بالقاهرة. فمن يريد أن يعرف ما للحجاج وما عليه. يقرأ هذه الرسالة بأناة وبعدها يحكم بما يراه.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- تاريخ الطبرى.
٢- الكامل فى التاريخ لابن الأثير.
٣- البداية والنهاية لابن كثير.
٤- الدولة الأموية فى المشرق للدكتور/ محمد الطيب النجار. دار الاتحاد العربى للطباعة القاهرة ١٤٠١هـ- ١٩٨١م .
٥- الأمويون والبيزنطيون للدكتور / إبراهيم أحمد العدوى. الطبعة الثانية. الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ـ بدون تاريخ .
٦- العالم الإسلامى فى العصر الأموى للدكتور / عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، دار الوفاء للطباعة . القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م.

أمير الأمراء

تحكم القادة الأتراك فى دولة الخلافة العباسية فى عصرها الثانى (٢٣٢ – ٦٥٦ هـ / ٨٤٧- ١٢٥٨م)، وضعفت سلطة الخليفة العباسى، وصار ليس له من أمر الحكم سوى الاسم والدعاء له من فوق المنابر، وسك اسمه على عملة الدولة، وصار الحل والعقد فى الدولة فى يد هؤلاء القواد. وصار فى يدهم اختيار الخليفة للحكم، وذلك حين نجحوا فى تولية «المتوكل» سنة (٢٣٢ هـ / ٨٤٧م) الخلافة وتولية من جاء بعده من الخلفاء، وأصبح سابقة جرت عليها الأمور من بعد، وأصبح قواد الأتراك هم أصحاب الاختيار ولا أحد دونهم، ولا تتم الخلافة لأحد إلا بموافقتهم ورضاهم عنه.

ولم يقتصر نفوذ قواد الأتراك على اختيار الخليفة فحسب، بل تعداه إلى منصب الوزارة، فضعفت إلى جانبهم شخصيات الوزراء، وكثُر عزلهم ومصادرتهم وحبسهم. واستتبع ذلك انحطاط شخصيات منْ تولى الوزارة؛ إذ لجأ الكثيرون إلى الرشوة والبرطلة وبذل الأموال للوصول إلى منصب الوزير. وبذلك وصل إلى كرسى الوزارة فى العصر العباسى الثانى شخصيات هشة لا وزن ولا فكر لها، كان كل همها جمع أكثر مما أنفقوا من أموال للوصول إلى كرسى الوزارة وبشتى الوسائل والطرق.

وبذلك ضاعت هيبة الوزير وتناقصت قيمته وتضاءل مقامه شيئًا فشيئًا حتى لم يصبح، فى آخر الأمر، إلا مجرد كاتب للخليفة، وأصبحت السلطة الفعلية والفاعلة فى يد قواد الأتراك.

ومن المعلوم تاريخيًا أنَّ خلفاء العباسيين لم يخضعوا للنفوذ التركى ويستسلموا له فى يسر وسهولة، بل صارعوه مصارعة شديدة، ولم يجبرهم على الخضوع لهم إلا افتقارهم للقوة العسكرية التى يستطيعون بها صد هذه القوة العسكرية التركية الفتية، وخاصةً أثناء تواجدهم فى «سامرا» قاعدة النفوذ التركى الحصينة.

ولم يستطع هؤلاء الخلفاء التصدى لهذه القوة التركية الفتية إلا بعد أن عادوا إلى بغداد، واستعانوا بالعناصر العربية والفارسية الموجودة فيها، وخاصةً حين ظهرت قوة الفرس «الديالمة»، الذين أخذوا فى التوافد آنذاك إلى بغداد



والعراق وشاركوا فى أحداثه. وقد ظلت هذه القوة تنمو وتنمو حتى استطاعت فى آخر الأمر أن تقهر النفوذ التركى وتحتل مكانه فى الفترة ما بين سنوات (٣٣٤ و٤٤٧ هـ/ ٩٤٥- ١٠٥٥م).

عصر إمرة الأمراء (٣٢٤ – ٣٣٤ هـ/ ٩٣٦- ٩٤٥م):

تولى الخليفة العباسى «الراضى» الخلافة بعد عزل الخليفة «القاهر»، سنة ٣٢٢ هـ/٩٣٤م، وفى عهده تجلى عجز الوزراء عن إدارة شئون الدولة لضعفهم وقلة كفايتهم من ناحية، ولازدياد نفوذ قواد الأتراك وتدخلهم فى شئونهم من ناحية أخرى. فرأى الراضى أن ينشئ وظيفة جديدة تعلو سلطة صاحبها سلطة الوزير، وأن يكون صاحب هذه الوظيفة رجلاً قويًا حازمًا يستطيع ضبط أمور الدولة وحفظ ميزانها.

وأخذ الخليفة يبحث عن تلك الشخصية المطلوبة، فلم يجد أحسن من «محمد بن رائق»، أمير واسط والبصرة لتولى الوظيفة الجديدة، فهو الرجل المناسب الذى تتوافر فيه الصفات المطلوبة لهذا المنصب. فقام الراضى باستقدام ابن رائق، ووكل إليه الأمر وسلمه مقاليد الأمور فى الدولة وأسبغ عليه لقب «أمير الأمراء»، تمييزًا له عن لقب الوزير وتشريفًا له وإظهاره فى مرتبة أعلى من مرتبة الوزير. وأمر الخليفة بأن يشاركه ابن رائق فى اختصاصاته، وأن يُخطب له من فوق المنابر بعده، وأن يُضرب اسمه على عملة الدولة إلى جوار اسمه، فصار أمير الأمراء «محمد بن رائق»، منذ ذلك الوقت، صاحب السلطة الفعلية فى دولة الخلافة، حتى أنَّ المؤرخ السيوطى قال عنه ما نصه أنه: «حكم على البلاد وبطل أمر الوزارة والدواوين .... وصارت الأموال تُحمل إليه وبطُلت بيوت المال. وبقى الراضى معه صورة وليس له من الخلافة إلا الاسم».

كذلك فقد الوزير سلطانه، ولم يعد له من الوزارة إلا الاسم، واقتصر عمله على الحضور إلى دار الخلافة فى أيام الأعياد والمناسبات مرتديًا السواد. وبقيام منصب إمرة الأمراء تسلط القواد الأتراك تمامًا على كل شىء، وعُرفت هذه السنوات العشر من سنة ٣٢٤ حتى سنة ٣٣٤ هـ/٩٣٦- ٩٤٥م، وهى نفس السنة التى دخل البويهيون فيها بغداد، بعصر إمرة الأمراء.

ولم يستمر استحواذ ابن رائق على السلطة فى الوظيفة الجديدة سوى عامين؛ وذلك لأنه بدأ فى فقد هذه

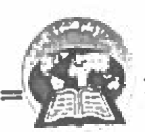
السلطة سنة ٣٢٦ هـ/٩٣٧م، وذلك بسبب حسد قواد الأتراك له على تولى هذا المنصب دونهم، ومنافستهم له فى الحصول عليه والعمل على إقصائه منه. فتصدى له فى ذلك، أول الأمر، «أبو عبدالله البريدى»، وكان قائدًا تركيًا طموحًا وصل إلى درجة عالية من وظائف الديوان بعد أن تدرج من الوظائف الديوانية الصغرى إلى الوظائف الكبرى بسبب دهائه ومكره وحنكته، وتطلع أخيرًا إلى إمرة الأمراء.

كذلك نافس ابن رائق فى منصبه القائد التركى «بَجكم»، وكان من كبار قواد الأتراك، وقد قام بجكم بمحاربة ابن رائق بعد أن اتفق مع البريدى ضده. ونجح القائدان فى هزيمة ابن رائق وعزله عن إمرة الأمراء، وحل بجكم أميرًا للأمراء مكان ابن رائق، واتخذ بجكم البريدى وزيرًا له، وقد أقره الخليفة الراضى على ذلك.

ولقد توفى الخليفة الراضى سنة ٣٢٩ هـ/٩٤٠م، وخلفه فى الخلافة أخوه إبراهيم بن المقتدر، الذى لُقب بلقب «المتقى بالله» (٣٢٩ - ٣٣٣ هـ/٩٤٠-٩٤٤م). هذا ولم يغير المتقى من الأمور شيئًا، فقد أقر بجكم على إمرة الأمراء، كما أقر البريدى فى الوزارة، وترك لهما تدبير أمور الدولة واكتفى من السلطة بالاسم.

ولم يستمر بجكم فى إمرة الأمراء كثيرًا، فقد قامت جماعة من الأكراد، كان قد انتهب أموالهم، بقتله سنة ٣٣٠ هـ/٩٤١م، فولى الخليفة المتقى إمرة الأمراء بعده لقائد من قواد الفرس الديالمة يُعرف باسم: «كورتكين الديلمى»، وكان نفوذ الفرس الديالمة قد أخذ فى الاتساع فى البلاد آنذاك، لكن هذا النفوذ الفارسى الجديد أحدث رد فعل قوى عند الأتراك لتهديده لكيانهم، فنهضت العصبية التركية تبحث لنفسها عن رئيس قوى منهم يستطيع أن يحسم الأمور لصالحهم ويُبعد خطر النفوذ الفارسى الديلمى عنها، فاستدعوا ابن رائق، زعيم الحزب التركى، للمرة الثانية، وكان مقيمًا فى الشام، فاستقدموه من الشام إلى بغداد وولوه إمرة الأمراء للمرة الثانية، دون اعتراض أو مقاومة من أحد.

ولقد تصدى ابن رائق، عند وصوله بغداد، لمحاربة كورتكين وقواته الفارسية، ونجح فى هزيمتهم وتجنب مخاطرهم. لكن ابن رائق لم يهنأ بإمرة



الأمـراء الثانيـة لوقـت طويـل، فـسرعان مـا تـصدى لـه أتبـاع البريـدى وقـاموا بمحاربتـه وهزيمـة قواتـه، فاضـطر إلى الهرب، وهـرب معه الخليفة المتقى أيضًا، إلى الموصـل مـستنجدين بحكامهـا الحمدانيين.

وكـان أمـراء العـرب مـن بنـى حمـدان يحكمـون فـى الموصـل والجزيـرة، وقـد اسـتقلوا بتلـك الـبلاد عـن دولـة الخلافـة، وأقـاموا لهـم إمـارة مـستقلة ودولـة شـبه مـستقلة عُرفـت «بالدولـة الحمدانيـة»، وكـان الحمـدانيون، فـى مواقـع دولـتهم، يقومـون بـدور إسـلامى هـام، وهـو دور مجاهـدة الـروم البيـزنطيين، الـذين يتاخمون حدود دولتهم.

وكـان الحمـدانيون، وهـم يواصـلون الجهاد ضد الـروم، يهتمون بطبيعـة الحال باستقرار الأمور فـى بـلاد العـراق، مركـز الخلافـة العباسـية، حتـى يكـون العـراق سـندًا لظهـورهم؛ لأن اضـطراب الأحـوال فيه يعود بالضرر عليهم لا محالة. كـذلك كـان الحمـدانيون يطمعـون فـى حكـم العـراق، شـأنهم فـى ذلـك شـأن الفـرس والأتـراك، ورأوا أنهـم أحـق بـذلك بـسبب أصولهم العربية.

ولمّا استنجد الخليفة العباسـى «بالحسن ابـن عبدالله بـن حمـدان»، أمـير الموصـل، طمـع ابـن حمـدان فـى تـولى إمـرة الأمـراء والسيطرة من خلالها على دولة الخلافة. وتقـدم ابـن حمـدان بقواتـه إلى بغـداد، لمحاربـة البريـديين، بعـد أن نجـح فـى التخلص من ابن رائق باغتياله. وسار ابن حمـدان إلى بغـداد دون قتـال، فدخلـها ومعـه الخليفـة، الـذى أسـند إليـه إمـرة الأمـراء، وأسـبغ عليـه لقـب «ناصـر الدولة»، كما خلع على أخيه أبى الحسن لقب «سيف الدولـة»، وجعل شرطة بغداد لأمير من أمراء الديالمة يدعى «توزون».

وسـرعان مـا سـاءت العلاقـة بـين الحمدانيين والخليفـة، بسبب اشـتدادهم عليـه نفس اشتداد الأتراك، واستئثارهم بـالحكم دونـه. وقـد أدى اسـتبداد الحمـدانيين وتعنـتهم مـع الخليفـة إلى كراهيـة أهـل بغـداد لهـم، فقـام ناصـر الدولة الحمدانى بمغادرة بغداد بعد عام واحـد مـن دخولـه لها، عائـدًا إلى الموصـل مقـر إمارتـه. فـانتهز والى الـشرطة تـوزون الفرصـة وبـسط سـلطانه سـنة (٣٣١ هـ/ ٩٤٣م) على بغداد، بعد أن هزم البريديين فـى واسـط، فخلـع عليـه الخليفـة المتقـى خلعـةً وولاه إمـرة الأمـراء مكـان ناصـر الدولة الحمدانى.

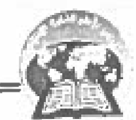
وسرعان ما ساءت أيضًا العلاقة بين الخليفة المتقى وأمير الأمراء توزون، فاستنجد الخليفة بناصر الدولة الحمدانى، ولم يكتف فى ذلك بمكاتبته بل ذهب إليه فى الموصل طالبًا حمايته من توزون. لكن ناصر الدولة لم يتصرف هذه المرة تصرفه الأول مع الخليفة فلم يتوجه مع الخليفة إلى بغداد، كما طلب منه، بل طلب من الخليفة البقاء عنده بالموصل حتى تتضح الأمور.

وكان الخليفة المتقى قد كاتب فى نفس الوقت أمير مصر «محمد بن طغج الإخشيد» طالبًا نجدته، وكان الإخشيد آنذاك قد نجح فى الاستقلال بمصر وإقامة دولة له بها شبه مستقلة عُرفت بالدولة الإخشيدية، نسبةً إلى اسمه، وكان الإخشيد قد جهز لنفسه جيشًا قويًا بمصر استطاع الدفاع به عن دولته المستقلة.

ولم يستجب الإخشيد لطلب الخليفة، وفعل ما فعله ناصر الدولة الحمدانى، بأن طلب من الخليفة المجىء إلى مصر والبقاء بها، وأنه سوف يلقى فيها العون والحماية، لكن المتقى، بعد ذلك، مال إلى مصالحة توزون، بعد أن احتال توزون عليه ومناه بالأمانى وأقسم له بالطاعة والإخلاص والخضوع لأوامره لو عاد إلى بغداد. وانخدع الخليفة بتعهدات توزون، وخاف فى نفس الوقت إذا هو لم يستجب لدعوته، فإنه من المحتمل أن يقوم بعزله عن الخلافة وأن يولى خليفة آخر مكانه، فعاد إلى بغداد ليلقى مصيره المحتوم. وبمجرد وصوله إلى بغداد قام توزون بالقبض عليه وسَمْل عينيه وحبسه بعد أن خلعه من الخلافة، وبايع مكانه أحد أفراد بيت الخلافة الضعاف، وهو عبد الله، ابن المكتفى بن المعتضد، باسم الخليفة «المستكفى بالله»، وكان ذلك سنة ٣٣٣ هـ/٩٤٤م، وقد ظل المتقى فى محبسه حتى وفاته سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م.

تولى المستكفى الخلافة (٣٣٣هـ - ٩٤٤م)، وأقر توزون على إمرة الأمراء التى ظل بها حتى وفاته فى العام التالى، فخلف توزون فى إمرة الأمراء كاتبه «أبو جعفر شيرزاد»، ولم يقِلَّ شيرزاد فى تعسفه مع الخليفة عن سابقيه ممن تولوا منصب إمرة الأمراء.

ولقد اضطربت أحوال البلاد فى عهد شيرزاد الذى عجز عن الإصلاح، واضطر فى النهاية، من جراء المشاكل التى واجهته إلى الهرب والاختفاء من البلاد خوفًا من القتل، وذلك بعد ثلاثة وعشرين



يومًا فقط من توليه منصب إمرة الأمراء.

ولمّا هرب أبو جعفر شيرزاد، وتخلى عن منصب إمرة الأمراء، دعا أعيان بغداد الأمير «أحمد بن بويه»، الذى كان آنذاك فى منطقة الأهواز، وطلبوا منه المجىء إلى بغداد لإنقاذ البلاد من حالة الفوضى التى عمتها على أثر فرار شيرزاد وخلوِّ منصب إمرة الأمراء. فاستجاب أحمد بن بويه لدعوة أهل بغداد له، وتوجه من الأهواز إلى بغداد فدخلها يوم الحادى عشر من شهر جمادى الأولى سنة (٣٣٤ هـ/٩٤٥م) حيث استقبله أعيان بغداد بالحفاوة والترحاب وفى مقدمتهم الخليفة العباسى المستكفى بالله. وقد قام الخليفة المستكفى بإسباغ خلعة عليه، وتقليده وظيفة إمرة الأمراء وتلقيبه بلقب «معز الدولة».

ولقد قام معز الدولة البويهى بدوره بمبايعة الخليفة المستكفى بالخلافة، كذلك أسبغ الخليفة على إخوة أحمد بن بويه الألقاب الفخمة، فمنح على بن بويه لقب «عماد الدولة»، والحسن بن بويه لقب «ركن الدولة».

وكان ذلك فاتحة عهد جديد فى تاريخ الدولة العباسية فى عهدها الثانى، وقد عُرف هذا العهد «بالعصر البويهى»، أى عصر سيطرة البويهيين الديالمة الفرس على دولة الخلافة فى بغداد، وهو عصر امتد لمائة وثلاثة عشر عامًا، أنهى عصر نفوذ القواد الأتراك فى الدولة العباسية مؤقتًا، وأعاد نفوذ الفرس القديم على هذه الدولة.

ويستمر تسلط هؤلاء الفرس الديالمة على الخلفاء العباسيين ويقومون بالاستئثار بالسلطة فى بغداد دون الخليفة، حتى يستعيد قواد الترك نفوذهم من جديد بزعامة عنصر جديد منهم، وهم الأتراك السلاجقة، الذين يتولون السلطة فى بغداد سنة (٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥م)، ويظلون مسيطرين على دولة الخلافة حتى سقوطها سنة (٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨م) على يد المغول.

وهكذا رأينا أن نظام إمرة الأمراء وتولى صاحبها منصب أمير الأمراء، الذى أنشأه الخليفة الراضى العباسى لإقالة الدولة من عثرتها، لم يقم بذلك، بل ألحق بها غاية الضرر ووصل بها إلى هاوية التفكك والاضطراب.

أ.د / عطية القوصى

مصادر ومراجع للاستزادة :

- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.
- السيوطى: تاريخ الخلفاء.
- مسكويه : تجارب الأمم.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا.
- شاكر مصطفى: تاريخ الدولة العباسية.
- محمد جمال الدين منصور: تاريخ الحضارة الإسلامية.
- عصام الدين عبد الرؤوف: تاريخ الدول المستقلة.

* Cambridge History of Islam.
* Encyclopeadia of Islam .

أمير المؤمنين

يطلق هذا المصطلح على خليفة المسلمين أو صاحب الولاية أو الإمامة العظمى، ويستعمل جنبًا إلى جنب مع لقب "الخليفة" أو "الإمام". وقد نشأ هذا اللقب فى عصر ثانى الخلفاء الراشدين عمر بن الخطاب. أما فى عصر أبى بكر الصديق فقد كان لقب "الخليفة" هو اللقب المستعمل دون غيره. فقد كان أبو بكر يُعْرَف بـ "خليفة رسول الله" على أساس أنه الصحابى الذى خلف رسول الله ﷺ فى إدارة شئون الدولة الإسلامية. وهكذا نشأ فى عصر أبى بكر منصب "الخلافة" أى ولاية المسلمين العظمى. فلما توفى أبو بكر فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ (٦٣٤م) خلفه عمر بن الخطاب الذى أصبح فى حقيقة الأمر "خليفة خليفة رسول الله"، أى خليفة أبى بكر.

ولم يكن من اليسير على المسلمين أن ينادوا عمر بقولهم: "يا خليفة خليفة رسول الله". وسوف يصبح الأمر أكثر تعقيدًا عندما يتولى الخلفاء التالون مقاليد الحكم، ومن هنا برزت الحاجة إلى وجود لقب يسهل التعامل به مع الخلفاء فى جميع الأحوال، فظهر لقب "أمير المؤمنين"، فأطلق أول ما أطلق على الخليفة عمر بن الخطاب.

وتتعدد الروايات حول تحديد المناسبة التى استعمل فيها هذا اللقب، وحول أول من استعمله. فمما يروى فى ذلك أن الخليفة عمر بن الخطاب كتب إلى عامل العراق أن ابعث إلىَّ برجلين نبيلين أسألهما عن العراق، فوقع اختيار عامل العراق على لبيد بن ربيعة العامرى (الشاعر المشهور) وعدىّ بن حاتم الطائى، فلما قدما المدينة أناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد، فإذا هما بعمرو بن العاص، فقالا له: استأذن لنا على أمير المؤمنين يا عمرو، فقال عمرو: أنتما والله أصبتما اسمه، نحن المؤمنون وهو أميرنا، فوثب عمرو فدخل على عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال عمر: ما بدالك فى هذا الاسم؟ يعلم الله لتَخْرُجَنَّ مما قلت أو لأفعلَن ! قال: إن لبيد بن ربيعة وعدىّ بن حاتم قدما فأناخا راحلتيهما بفناء المسجد، ثم دخلا المسجد وقالا لى: استأذن لنا على أمير المؤمنين،

فهما – والله- أصابا اسمك، أنت الأمير ونحن المؤمنون. فجرى الأمر على ذلك من يومئذ [1].

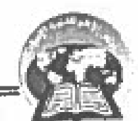
ويروى أيضًا فى هذا السياق أن بريدًا (أى رسولا) " جاء بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر ويقول: أين أمير المؤمنين؟ وسمعها أصحابه فاستحسنوه وقالوا: أصبت والله اسمه! إنه والله أمير المؤمنين حقًا. فدعوه بذلك، وذهب لقبًا له فى الناس، وتوارثه الخلفاء من بعده سِمَة" لا يشاركهم فيها أحد سواهم..." [2].

ويقال إن أول من خاطب عمر بهذا اللقب صحابى يقال له " أبو وبرة " ومعه على بن أبى طالب، فقد بعث خالد بن الوليد أبا وبرة إلى عمر ليسأله عن عقوبة الجلد فى شرب الخمر، وكان أبو بكر وعمر يجلدان فى شرب الخمر أربعين جلدة. فلما ذهب أبو وبرة إلى عمر قال له: يا أمير المؤمنين، إن خالدًا بعثنى إليك. قال عمر: فيم؟ فأخبره أبو وبرة أن الناس قد انهمكوا فى الخمر نتيجة استهانتهم بالعقوبة. فشاور عمر أصحابه فى ذلك: فقال على: " نرى يا أمير المؤمنين ثمانين جلدة. فقبل ذلك عمر. فكان أبو وبرة ثم على بن أبى طالب أول من لقبه بذلك" [3].

ويروى أيضًا أن المغيرة بن شعبة كان أول من خاطب عمر بهذا اللقب، ويقال إنه عبد الله بن جحش. بل إن هناك من الروايات ما يشير إلى أن عمر كان أول من سَمَّى نفسه أمير المؤمنين[4].

ومهما يكن من خلاف حول المناسبة التى استعمل فيها هذا اللقب وأول من لقِّب بأمير المؤمنين، فلا خلاف حول أن الدافع إلى استعمال هذا اللقب هو تجنُّبُ ما يترتب على استعمال لقب " خليفة" من ثقل فى حال النداء بصفة خاصة. وهذا ما يوضحه ابن خلدون بقوله إن عمر لما بويع " كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ . وكأنهم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول إضافته وأنه يتزايد فيما بعد دائمًا إلى أن ينتهى إلى الهُجْنة ويذهب منه التمييز بتعدد الإضافات وكثرتها"[5].

إن هذا يدعونا إلى تأكيد حقيقة مهمة وهى أن ظهور لقب" أمير المؤمنين " لم يقض على استعمال اللقب الأول وهو " خليفة" بل استعمل اللقبان بصورة تكاد تكون متساوية، وإن كان لقب " أمير المؤمنين" هو الذى شاع استعماله فى حال - النداء كما أشرنا إلى ذلك توا- بل قد يكون استعمال لقب " خليفة" فى غير حال النداء أكثر يُسْرًا وقبولاً فى بعض



الأحيان. فنحن نقول مثلاً: عصر الخلفاء الراشدين، ولا نقول: عصر أمراء المؤمنين الراشدين.

والأمير فى اللغة " ذو الأمر، وهو فعيل بمعنى فاعل؛ فيكون أمير بمعنى آمر، سُمِّى بذلك لامتثال قومه أمره"[٦]. وهذا اللقب يشير إلى ما يتمتع به أمير المؤمنين من حق الطاعة على الرعية، ولكنها الطاعة فى المعروف؛ ولهذا جاء ارتباط كلمة " الأمير" بكلمة " المؤمنين"؛ فأمير المؤمنين هو الذى يدير شئونهم فى ضوء مبادئ الإيمان وأصوله.

وتجدر الإشارة إلى أن لقب " أمير المؤمنين" - قبل أن يستعمل مع الخليفة الثانى- كان يستعمل أحيانًا مع قواد البعوث. فقد لقِّب به عبد الله بن جحش فى سريته إلى نخلة فى العام الثانى للهجرة ٦٢٣م[٧]. كما كان الصحابة " يدعون سعد بن أبى وقاص أمير المؤمنين لإمارته على جيش القادسية، وهم معظم المسلمين يومئذ"[٨]. على أن بدء استعمال هذا اللقب مع عمر بن الخطاب كان نهاية استعماله مع غير الخلفاء.

وقد استمر لقب " أمير المؤمنين" يطلق على صاحب الإمامة العظمى أو حاكم الأمة الإسلامية منذ ظهوره فى عصر الخلفاء الراشدين وطوال العصر الأموى فى المشرق، بالإضافة إلى حقبة طويلة من العصر العباسى. فلما تمزقت وحدة الدولة الإسلامية تعدد حاملو هذا اللقب فى العالم الإسلامى، ففى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩م) أسس الفاطميون دولتهم فى الشمال الإفريقى، ثم نقلوا مركز حكمهم إلى مصر سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م). وقد أطلق الحكام الفاطميون على أنفسهم لقب " الخليفة" ولقب " أمير المؤمنين" أيضًا . وبعد أن نشأت الإمارة الأموية فى الأندلس على يد عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام، الذى يعرف بعبد الرحمن الداخل، فى سنة ١٣٨هـ (٧٥٥م). تحولت إلى خلافة على يد عبد الرحمن ابن محمد بن عبد الله، الذى يعرف بعبد الرحمن الثالث أو الناصر (٣٠٠-٣٥٠هـ/ ٩١٢- ٩٦١م). وقد تسمى عبد الرحمن بأمير المؤمنين[٩]. وهكذا وجد هناك ثلاثة حكام متزامنين فى العالم الإسلامى يلقب كل منهم بأمير المؤمنين (أو بالخليفة): واحد فى بغداد، وآخر فى قرطبة بالأندلس، وثالث فى القاهرة. بل إن بعض الحكام الأقل نفوذًا كانوا يطلقون على أنفسهم لقب أمير المؤمنين كحكام بنى مرين فى مراكش فى

القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى)[١٠]. وعندما اتسع نفوذ الدولة العثمانية أصبح سلاطين آل عثمان يتمتعون أيضًا بهذا اللقب بالإضافة إلى لقب " خليفة". وقد ظلوا يحملون اللقبين معًا حتى انهارت خلافتهم فى سنة١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م على يد مصطفى كمال أتاتورك.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) الخزاعى التلمسانى (أبو الحسن على بن محمد): كتاب تخريج الدلالات السمعية، تحقيق أحمد محمد أبو سلامة. طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٥م ص ٣٧؛ ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن بن على): سيرة ومناقب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب. دار الدعوة الإسلامية، القاهرة ٢٠٠١، ص ٥٧.

(٢) مقدمة ابن خلدون، تحقيق د. على عبد الواحد وافى، مكتبة الأسرة، القاهرة، ٢٠٠٦، جـ٢، ص ٦١٣- ٦١٤.

(٣) القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على): صبح الأعشى فى صناعة الإنشا. طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، جـ٥، ٤٧٥.

(٤) ابن الأثير (عز الدين على بن محمد): أسْدُ الغابة فى معرفة الصحابة. دار الشعب، القاهرة، جـ٤، ص١٧٠. وانظر أيضا: ابن الجوزى، مصدر سابق، ص٥٧؛ ابن خلدون، مصدر سابق، ص ٦١٣.

(٥) مقدمة ابن خلدون، جـ٢، ص ٦١٣. والهُجْنة فى الكلام ما يعيبه.

(٦) القلقشندى، مصدر سابق، جـ٥، ص ٦١٣.

(٧) مادة " أمير المؤمنين" فى دائرة المعارف الإسلامية، طبعة دار الشعب بالقاهرة، جـ٤، ص٤٧٧.

(٨) مقدمة ابن خلدون، جـ٢، ص ٦١٣.

(٩) نفس المصدر، ص ٦١٥.

(١٠) مادة " أمير المؤمنين" فى دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سابق، ص٤٤٨.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن الأثير (عز الدين): أسد الغابة فى معرفة الصحابة. طبعة دار الشعب بالقاهرة، جـ٤ (ترجمة عمر بن الخطاب).
- الخزاعى التلمسانى: كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٩٥م.
- ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون - بتحقيق على عبد الواحد وافى، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦، جـ٢.
- سعيد مغاورى محمد: الألقاب وأسماء الحرف والوظائف فى ضوء البرديات العربية. دار الكتب المصرية، القاهرة ٢٠٠٠، جـ١.
- محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية. دار المعارف، القاهرة ١٩٦٩.

الأندلس

هو الاسم العربى لشبه جزيرة" أيبيريا" أى إسبانيا والبرتغال الحاليتين، وأصله مشوب ببعض الغموض، وقد تكون هناك صلة بينه وبين كلمة" الفندال" أو الوندال Vandalucia وهو اسم قبائل الوندال الجرمانية التى اجتاحت إسبانيا فى القرن الخامس الميلادى.

وقد أطلق المسلمون هذا الاسم على شبه الجزيرة الأيبيرية بأسرها بما فى ذلك ولايات فرنسا الجنوبية، ولما بدأ نفوذ العرب فى الاضمحلال بدأ مفهوم كلمة الأندلس يضيق حتى إنه لم يعرف به آخر الأمر إلا مملكة غرناطة التى شملت قرطبة وإشبيليه وغرناطة. أما شرق الأندلس فقد ضم ولايتى بلنسيه ومرسيه.

ومن الناحية التاريخية فقد اصطلح المؤرخون على تقسيم الحكم الإسلامى فى الأندلس إلى المراحل العشر التالية:

(١) مرحلة الفتح من ٩٢ـ ١٣٨هـ (٧١٠هـ/ ٧٥٥م):

وخلال هذه الفترة توغل المسلمون فى شجاعة نادرة حتى وصلوا إلى قلب فرنسا عند مدينتى تور وبواتيه قبل نشوب الفتنه بين العرب وبين البربر، وكانت البلاد خلال هذه الفترة تابعة للخلافة الأموية فى دمشق، وتولى الحكم فيها ٢٣ واليا بمعدل سنتين لكل والٍ.

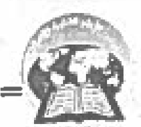
(٢) مرحلة الإمارة الموحدة: وتبدأ بدخول عبد الرحمن الأول (الداخل) وتأسيسه الإمارة الأموية فى الأندلس التى استمرت من ١٣٨هـ حتى ٢٣٨هـ/ ٧٥٥م- ٨٥٢م.

وقد نجح الداخل فى التغلب على أعدائه، واهتم بالعمران فأنشأ مسجد قرطبة وقصر الرصافة واستجلب الصقالبة وعرفت البلاد الاستقرار فى عهده.

وفى عهد ولده هشام بن عبد الرحمن (١٧٣ - ١٨٠هـ /٧٨٩م- ٧٩٧م) انتشر مذهب الإمام مالك فى البلاد عن طريق يحيى بن يحيى الليثى تلميذ الإمام مالك، ونجح المسلمون فى هزيمة الفرنجة بفرنسا.

وفى زمن الحكم بن هشام (١٨١ - ٢٠٦هـ / ٧٩٧- ٨٢١م):

حدثت ثورة " الربض" الشهيرة، تلك الثورة التى قام بها الفقراء والفقهاء فى تلك الضاحية القرطبية، بسبب مجون



الوالى وظلمه، وقد قضى عليها بكل عنف وقسوة. وفى عهد عبد الرحمن الأوسط (٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ/ ٨٢١- ٨٥٢م) بدأت مظاهر الترف وأصبحت قرطبة أجمل مدن أوروبا على الإطلاق وكثرت فيها القصور وعاش الناس فى رخاء، وشهدت تلك الفترة غارات النورمان على الأندلس، ولمواجهتهم تم بناء أول أسطول أندلسى، وفى نفس الفترة كانت ثورة المستعربين.

(٣) مرحلة التدهور الأول وتقسيم البلاد من(٢٣٨ إلى ٣٠٠هـ/٨٥٢-٩١٢م):

وفى هذه الفترة تولى ثلاثة من الأمراء هم محمد الأول بن عبد الرحمن الأوسط، والمنذر وعبد الله، وفيها ظهر بوضوح انقسام العرب والبربر وظهر للعرب دويلة فى اشبيليه وللبربر دولة فى استرامادورا بغرب الأندلس وجنوب البرتغال، وكانت عاصمتها مدينة "جيان"، واشتهرت فى نفس الفترة أسرة ذى النون البربرية واستولى المولدون على الجنوب الغربى من البلاد، واشتد بأس وقوة الثائر ابن حفصون الذى نزل بكورة "رية" وأقام فى حصنه جبل "ببشتر" واقترب نفوذه من قرطبة.

(٤) مرحلة القوة وإعلان الخلافة الأموية الأندلسية (٣٠٠ ـ ٣٦٨ هـ/٨٥٢-٩٧٨م)

فى هذه الفترة ولى عبد الرحمن بن محمد حفيده عبد الرحمن الناصر، فاستعمل سياسة ناجحة فى الداخل والخارج وقضى على حركة ابن حفصون، ودخل فى مواجهات مع الصليبيين النصارى وانتصر عليهم، وأعلن الخلافة الأموية فى الأندلس وبدأ بناء الزهراء على مقربة من قرطبة وكان عصره عصر رخاء وازدهار.

وتولى مقاليد الأمور من بعده ابنه الخليفة الحكم المستنصر وقد تميز عهده بالرقى فى ميادين العلوم والآداب،وقد حرص على إقامة المكتبات فى العاصمة والأقاليم واقتناء الكتب وأنشأ المكاتب والمدارس لتعليم الفقراء مجانًا فى كل أنحاء البلاد، وقد عرف بين المؤرخين بأنه "دودة كتب".

(٥) سيطرة الدولة العامرية أو عصر سيطرة الوزراء (٣٦٦هـ ـ ٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٨م):

بموت الحكم المستنصر انتهت الخلافة الأموية عمليا، وآل الحكم للمنصور بن أبى عامر، أما الخلفاء

فكانوا مجرد أشباح، وقد نجح المنصور فى القضاء على خصومه، وعرف بتنظيماته الدقيقة، وبغزواته المظفرة التى تكررت مرتين كل عام ضد النصارى، ويصفه المؤرخون بأنه أعظم ساسة الأندلس وقوادها، ولقب بلقب "بسمارك" القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى، وأنشأ مدينة الزاهرة وشحنها بالعتاد والسلاح ونقل إليها دواوين الحكومة، وتولى من بعد المنصور ابنه عبد الملك.

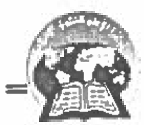
وقد واصل غزوات والده، وكانت أيامه رخاء وهدوءًا فى الداخل، ولمامات خلفه أخوه عبد الرحمن الذى اتَّسَمَ بالاستهتار والخلاعة وطمع فى الخلافة الشرعية وكان سببًا فى بعث العصبية بين المضريين والقحطانيين، وانتهت الفترة العامرية بمقتله.

(٦) الانهيار الثانى ونهاية حكم الأمويين بالأندلس ٣٩٩ - ٤٢٢هـ/ ١٠٠٩- ١٠٣١م):

فى هذه الفترة تولى على الأندلس عدد كبير من الخلفاء الأمويين، وضاعت هيبة الخلافة وانقسمت البلاد وبرزت العصبية المقيتة بشكلها الواضح. وكان كل فريق يستعين على خصمه بنصارى الشمال، وأخيرًا انتهت الخلافة الأموية بموت آخر الخلفاء المعتمد بالله (٤٢٢هـ- ١٠٣١م) وأعلن الوزير أبو محمد بن جهور انتهاء الخلافة لعدم وجود من يستحقها، وأن الدولة سيحكمها جماعة من الوزراء.

(٧) عصر ملوك الطوائف (٤٢٢ – ٤٨٣هـ/١٠٣١- ١٠٩٠م):

ما كادت الخلافة الأموية تنتهى حتى استقل كل بما كان تحت يده، وأصبح لكل مدينة أو مقاطعة أمير مستقل، وقد استأثر البربر بالجنوب والصقالية بالشرق واستقلت نحو عشرين أسرة قديمة بعشرين مقاطعة، وأبرز هؤلاء بنو عباد بإشبيلية وبنو حمود الأدراسة بمالقه والجزيرة الخضراء، وبنو زيرى بغرناطة وبنو هود بسرقسطه وبنو ذى النون بطليطلة، وتنافس هؤلاء وغيرهم فى ميدان الآدب والثقافة والعلم، وغلب على البلاد الطابع الأدبى والشعرى، ولكن ألفونسو السادس (الأذفونش) استغل طلب هؤلاء حمايته، وأخذ يستولى على قلاعهم وحصونهم واحدة إثر أخرى، حتى سقطت "طليطلة" فى يده سنه ٤٨٧هـ/١٠٩٤م ومنها انطلق ينهب ويغير، ويئس كل الطوائف من توحيد بلادهم وبدأوا يتطلعون إلى المرابطين فى إفريقية.



(٨) عهد المرابطين بالأندلس ٤٨٤ - ٥٣٩هـ /١٠٩١- ١١٤٤م):

المرابطون مجموعة من القبائل المغربية عرفوا بهذا اللقب لاشتهارهم بحب الجهاد فى سبيل الله، وقد اختطوا مدينة مراكش وجعلوها عاصمة لدولتهم، وكانت دولتهم أقوى دولة بالمغرب عندما استنجد بهم ملوك الطوائف وعلى رأسهم المعتمد بن عباد، وقد اجتاز هؤلاء الجزيرة فى سفنهم الخضراء وجعلوها قاعدة لجيوشهم، والتقت قوات يوسف ابن تاشفين بجيوش ألفونسو عند موقع يسمى الزلاقة بالقرب من بطليوس ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) وتمكن المسلمون من إفناء خصومهم واستولوا على ما كان تحت أيديهم من غنائم وزعها ابن تاشفين على كل الطوائف وعاد إلى إفريقية.

وفى ٤٨٣هـ (١٠٩٠م)عاد ابن عباد يطلب مساعدة ابن تاشفين ليساعده فى صد غارات النصارى، وقد استجاب يوسف ولكنه هذه المرة وجه هجومه إلى ملوك الطوائف بسبب تشتتهم وتمزقهم، وعلى ملوك النصارى كذلك، وقد استمرت هذه الحملة حتى ٤٩٥هـ (١١٠٢م). وتم فيها القضاء على ملوك الطوائف جميعًا، وأصبحت الأندلس تابعة لسلطة المرابطين فى إفريقية، وفى ٥٣٩هـ (١١٤٤م) . قضى على ملك المرابطين فى إفريقية والأندلس جميعًا.

(٩) عهد الموحدين بالأندلس ٥٣٩ـ ٦٢٠هـ /١١٤٤- ١٢٢٣م):

بعد انتهاء فترة المرابطين عادت الأندلس ليصبح عدد من فيها من الملوك يساوى عدد ما فيها من مدن، أما الموحدون فقد استقر لهم الأمر فى الشمال الإفريقى، وتوجه إليهم حكام الأندلس يطلبون نجدتهم كما طلبوها من المرابطين من قبل، وانتهز عبد المؤمن الفرصة وأرسل جيشًا ٥٣٩هـ(١١٤٤م)، واستطاع جيش الموحدين أن يحقق نصرًا مؤزرًا على النصارى فى موقعة الأرك قرب بطليموس ٥٩٠ هـ (١١٩٤م) وفى ٦٠٩هـ= (١٢١٢م) أعلن النصارى حملة واسعة النطاق جاءها المتطوعون من كل بلدان أوروبا، والتقوا بجيش للموحدين وحققوا نصرًا عليه فى موقعه العقاب، وبعدها بدأت المدن تسقط فى إيديهم واحدة إثر أخرى، وواجه الموحدون مشاكل فى الشمال الإفريقى، وأزيحوا عن الأندلس ٦٣٣هـ (١٢٣٦م).

وأعلن ابن هود نفسه حاكمًا لمعظم بلاد الجنوب، ولما مات تحول حكم

الأنـدلس إلى بنـى نـصر أمـراء غرناطـة ٦٢٠ هـ/ ١٢٣٦م.

(١٠) دولـة بنـى الأحمـر فـى مملكـة غرناطة ٦٢٠ ـ ٨٩٧هـ/١٢٢٣- ١٤٩٢م):

آل حكم الأندلس إلى بنى نصر، وقد نجحوا فى الدفاع عن البلاد بمعاونة بنى مرين فى المغرب، وبقيت البلاد صامدة وتحتـل مكانًـا عاليًـا فـى دنيـا الآداب والفنون والعلوم بسبب احتضانها لمنحازين إليها من أهل الفن والصنعة المسلمين.

ولكن الضعف ما لبث أن تسرب إليها وعـرف أمراؤهـا الـترف، وفقـدوا حلفـاء المغرب فى الوقت الذى بدأ فيه النشاط والقـوة يتجمـع فـى إسـبانيا المسيحية، عنـدما تـزوج فرنانـدو ملـك أراجـون مـــن إيزابيلا ملكة قشتالة واتحدا معًـا ضـد غرناطـة، وعـاونهم تنـازع بنـى الأحمـر وانقـسامهم وتعـاون بعـضهم مـع الإسـبان، كمـا سـاعدهم اسـتخدام البـارود ضـد المسلمين، وهـذا لا يمنـع أن بعـض المسلمين استمر يقاتل حتـى آخـر رمق إلى أن سلمت مفاتيح غرناطة نهائيًا ٨٩٧هـ / ١٤٩٢م.

د / محمد عبد القادر

مصادر ومراجع للاستزادة :

١ـ دائرة المعارف الإسلامية : مجموعة مقالات بقلم مجموعة من المستشرقين.
٢ـ دولة الإسلام فى الأندلس ـ محمد عبد الله عنان ـ عدة مجلدات ـ القاهرة ٢٠٠١م.
٣ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس د. حسين مؤنس ـ القاهرة ٢٠٠٤م.
٤ـ الموسوعة الميسرة فى التاريخ الإسلامى إشراف ـ د. راغب السرجانى ، مجلدان القاهرة ٢٠٠٥م.
٥ـ اندلسيات ـ محمد عبد الله عنان، سلسلة الكتاب العربى ـ الكتاب العشرون ـ الكويت ١٩٨٨م.
٦ـ الصحوة الإسلامية فى الأندلس اليوم ـ جذورها ومسارها ـ د. على المنتصر الكتانى ـ كتاب الأمة ـ دولة قطر ـ طبع أخبار اليوم فى القاهرة ١٩٩٢م.
٧ـ فى تاريخ المغرب والأندلس د . أحمد مختار العبادى ـ الإسكندرية (بدون تاريخ).

إندونيسيا

تعد إندونيسيا أكبر دول العالم الإسلامى من حيث عدد سكانها الذى يتجاوز ٢٠٠،٤٢ مليون نسمة حسب الإحصاء الأخير [١]:

١ـ تسميتها:

عُرفت إندونيسيا فى التراث الإسلامى "بجاوة" نسبة إلى إحدى أهم جزرها المسماة بهذا الاسم، كما عرفت كذلك بالملايو نسبة إلى أرخبيل الملايو الذى تشكل إندونيسيا معظمه.

أما فى التراث الغربى فقد عرفت بجزر الهند الشرقية، وفى العصور المتأخرة وبالتحديد فى عام ١٢٢٠م ـ ١٨٠٥م أطلق عليها المستشرق الإنجليزى (لوجان) إندونيسيا، التى تتركب من كلمتين يونانيتين هما (اندوس، وتعنى الهند، والثانية نيسوس وتعنى الجزيرة، فصارت إندونيسيا [٢].

٢ـ موقعها:

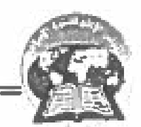
تقع إندونيسيا فى جنوب شرق آسيا، محتلة أكبر أرخبيل جزرى فى العالم، يقع بين المحيطين الهندى والهادى مشتملاً على عدد من الجزر يبلغ عددها ٣٦٧٧ جزيرة، كما تقع فلكيًّا بين دائرتى العرض ٥٦ شمالاً ٥١ جنوبًا، حيث يقطعها خط الاستواء فى نصفها الشمالى ممتدة لمسافة تبلغ ٢٠٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب، وتمتد بين خطى الطول ٥٩٥ ـ ٥١٤ شرق لمسافة تبلغ حوالى ٤٠٠٠ كم بين الشرق والغرب. ومن هنا فهى تعد من أكبر الدول فى جنوب شرق آسيا مساحة حيث تبلغ مساحتها الكلية (يابس وماء) ٦٠٦، ٠٨٥، ٥ كم [٣].

٣ـ السكان:

سكن إندونيسيا سلالة أطلق عليها (الواجاك) ثم قدمت عليها هجرات مغولية اختلطت بالواجاك، وكون هذا الاختلاط السلالة (المالاوية) التى ينتمى إليها معظم سكان إندونيسيا، ثم قدمت عناصر أخرى من الهنود والصينيين والعرب ثم الأوربيي [٤] ليشكلوا الشعب الإندونيسى اليوم.

٤ـ اللغة:

نظرا لعدم وحدة التركيبة السكانية وتعددها على ما مر، فقد اكتسبت كل مجموعة توطنت فى الجزيرة أو فى مجموعة من الجزر سمات عرقية ولغوية معينة، حتى بلغ مجموع هذه الجماعات



أكثر من ٣٠٠ مجموعة عرقية مختلفة تتكلم قرابة ٢٥٠ لغة محلية.

وفى العصر الحديث بعد استقلال إندونيسيا تم تكوين لغة قومية موحدة للبلاد عرفت بـ (باهاسا إندونيسيا) أى لغة إندونيسيا، وقد اشتقت أكثر كلماتها وتراكيبها من اللغة (الملاوية) كما طعمت ببعض الألفاظ من اللغات المحلية، فضلاً عن العربية[٥].

٥- انتشار الإسلام:

كانت الديانة السائدة فى إندونيسيا قبل الإسلام هى الديانة (الهندوسية) البرهمانية وكذا البوذية ومن قبلهما ديانة (الانميم)[٦].

وعندما بزغ فجر الإسلام مد رواقه إلى هذه البلاد منذ القرن الهجرى الأول/ السابع الميلادى، بل إن بعض الدراسات لتحدده بعصر الخليفة الراشد عثمان بن عفان ﷺ وذلك من خلال التبادل التجارى بين العرب وبين أهالى هذه البلاد حيث ((هيأ موقع الملايو والأرخبيل على الطريق الرئيسى للتجارة البحرية بين آسيا الغربية والشرق الأقصى - المنطقة فى مجموعها - لتكون ملتقى للتجارة بين الشرق والغرب منذ أزمنة بعيدة، وقد اعتاد العرب قبل الإسلام القيام بهذا النشاط التجارى مع الشرق، عن طريق سيلان، وموانى جنوب شرق آسيا، وبعد ظهور الإسلام تلقى هذا النشاط دفعة كبيرة"[٧] وهو المعنى الذى أكده المستشرق الإنجليزى السير توماس أرنولد فى قوله: " فى القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى كانت تجارتهم - العرب - مع سيلان فى أيديهم، كما بلغت تجارتهم مع الصين عن طريق سيلان رواجًا عظيمًا"[٨]. وقد نشأ عن هذا التبادل التجارى انتشار الإسلام فى هذه البلاد، ويعقد ذات المستشرق السابق مقارنة أخاذة بين انتشار الإسلام بالطريق السلمى ومن خلال القدوة الحسنى وبين المحاولات الغربية من قبل البرتغال وهولندا، والتى حاولت نشر المسيحية من خلال العنف والإكراه، ولأنها شهادة منصفة تأتى من غير المسلمين فإنا نثبتها هنا خاصة وأنها تشير إلى أمرين:

الأول: كيفية انتشار الإسلام بين سكان إندونيسيا وسائر الملايو، وما فيه من دلالة على كذب مزاعم المستشرقين المغرضين الذين يدَّعون أن الإسلام انتشر بالسيف.

الثانى: بيانه قسوة الأسبان ومن بعدهم الهولنديين الذين حاولوا نشر المسيحية

بالحديد والنار. يقول أرنولد مبيّنا كيفية انتشار الإسلام: "فالذين قدموا إلى إندونيسيا لم يفدوا على هذه البلاد غزاة كما فعل الأسبان فى القرن السادس عشر، ولم يستخدموا السيف أداة لتحويل الناس إلى الإسلام، بل لم يدعوا لأنفسهم حقوق جنس أسمى يتمتع بالغلبة والسيادة، لكى يحطوا بذلك شأن السكان الأصليين، ويسلبوا حقوقهم، بل قدموا فى زى التجار، واستخدموا كل ما لديهم من ذكاء أسمى ومدنية أزهر فى سبيل دينهم، أكثر من أن يكونوا قد استخدموا ذلك وسيلة لتوسيع نفوذهم الشخصى أو لتنمية ثرواتهم"[٩]. هذا من حيث كيفية دخول الإسلام، أما عن زمن دخوله المبكر على ما سبقت الإشارة إليه، فإن أقدم الوثائق الدالة على ذلك تظهر فيما كتبه أحد المسلمين الصينيين ويدعى (مار هيوان) وقد زار جاوة الشرقية فيما بين عامى (٨١٨ - ٨٣٧هـ / ١٤١٥ - ١٤٣٢م)، ولاحظ وجود ثلاث جماعات من الناس: المسلمين، والمهاجرين الصينيين الذين أسلم الكثير منهم، وأهالى البلاد[١٠].

ويذكر توماس أرنولد أن هذا العالم الصينى المسلم كان قد صحب إمبراطور الصين إلى جاوة فى وظيفة مترجم وأنه قد أثنى على المسلمين وأن "زيهم وطعامهم نظيف مناسب")[١١].

أما عن تمسك الإندونيسيين بالإسلام فقد كان شديدًا وهو ما تضافرت عليه المرويات التاريخية ومنها ما ذكره ابن بطوطة الذى زار إندونيسيا عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م؛ ففى معرض حديثة عن سلطان سومطره - وقت زيارته وكيف أنه "شافعى المذهب، محب للفقهاء، وإنهم يحضرون مجلسا للقراءة والمذاكرة، وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتى إلى صلاة الجمعة ماشيًا على قدميه، وأهل بلاده شافعيه، يحبون الجهاد ويخرجون معه تطوعًا"[١٢].

وهو ما يؤكده الدكتور فؤاد فخر الدين بقوله: "غزا الإسلام إندونيسيا بقوة الحجة، وحسن المعاملة، وليونة المعاشرة، وانشرح الشعب لاستقباله ورحب بقدومه والدخول فيه، والانتماء إليه واعتناق عبادته حتى تغلب على الأديان السائدة فى البلاد حينذاك"، وهو ما يتجلى كذلك فى صموده فى وجه الهجمة الاستعمارية الشرسة لهولندا، ولما لم تجد طريقًا لزحزحة هذا الشعب عن دينه لجأت إلى أحد مستشاريها من المبشرين علّه يجد طريقة للتغلب على مقاومة الإندونيسيين

وهو المستشرق (سنوك هور ـ وغونجى) فاستمر مقيمًا بإندونيسيا ثلاث سنوات يدرس ويفكر ويحلل، حتى انتهى به الأمر إلى كتابة تقريره الذى يقول فيه: "إن العقيدة الإسلامية تحتل المكانة الأولى والوحيدة فى قلوب المسلمين وعقولهم فى كل إندونيسيا"(١٣). أما عن الحل الذى افترضه فكان يتلخص فى "الدعوة إلى توريد المفاهيم الهدامة إلى إندونيسيا لمحاربة المتانة الأخلاقية التى تفرضها العقيدة الإسلامية فى أتباعها، وتشجيع الحركات الإلحادية"(١٤). وهذا مما يدل على تمسك هذا الشعب بالإسلام بالإضافة إلى ما نجده من إشارات كثيرة لدى المؤرخين الغربيين وعلى رأسهم توماس أرنولد الذى يقول: "وكانوا شديدى التمسك بفروض دينهم – وهم شديدو التمسك بالمحافظة على صوم رمضان وتأدية فريضة الحج"(١٥).

أشهر المدن الإندونيسية:

تتكون إندونيسيا من عدد كبير جدًا من الجزر إلا أن أهم هذه الجزر هى:

جاوة: وتقع بين خطى عرض ٥ و ١٠ جنوب خط الاستواء وتمتد من الشرق إلى الغرب ويبلغ طولها ٧٦٠ ميلاً، وعرضها ١٢٥ ميلاً، ومساحتها ٥١ مليون ميل مربع، فهى بذلك الجزيرة الثانية عشرة من حيث المساحة بين جزر العالم، والرابعة بين جزر إندونيسيا، وإن كانت الأولى من حيث الأهمية السياسية والاقتصادية(١٦).

وقد وصل الإسلام إليها مبكرًا، وهو ما يظهر من خلال وجود المساجد والمقابر التى ترجع إلى وقت مبكر، ومن أهم هذه الآثار وجود مقبرة لسيدة مسلمة فى شرق جاوة يرجع تاريخها إلى عام ٤٥٥هـ ـ ١٠٨٢م(١٧).

فضلاً عن قيام عدد من الممالك الإسلامية فى هذه الجزيرة أشهرها:

١ـ سلطنة مالقا: التى كان لها باع طويل فى نشر الإسلام فى الجزيرة، فضلاً عن التعريف بالثقافة الإسلامية، وكانت نشأتها على يد أحد الجاويين (بارابسوارا) الذى عمل على التخلص من سيطرة (سيام) على المنطقة، وتم له ذلك بمساعدة التجار المسلمين القاطنين على الساحل الغربى من شبه الجزيرة، كما ساعده كذلك أمير البحر المسلم الحاج (تشنج) الذى كان فى إحدى رحلاته البحرية عام (٨١٤هـ ـ ١٤١١م) حسب ما تذكره المصادر الصينية(١٨).

كما تذكر مصادر أخرى أن نجاح (بارابسوارا) يرجع لمصاهرتة لإحدى الأسر المسلمة، وكان قد اعتنق الإسلام، وتسمى بـ (إسكندر شاه)، وقد خلف بعد ذلك ابنه (مظفر شاه) وفى عهده صار للإسلام قاعدة راسخة فى الملايو خاصة فى عهد ولده (مظفر شاه) عام (٨٦٥ - ٨٨٢ هـ ١٤٥٩ - ١٤٧٧)، ومع نهاية الربع الأخير من هذا القرن كان كل من الساحلين المشرق والمغرب من شبه الجزيرة وما يليهما من أقاليم هى أرض إسلامية[١٩]. وهو الأمر الذى يذكرنا بإسلامية جاوة على ما جاء فى قول السير توماس أرنولد: "إن جميع أهل جاوة مسلمون، ماعدا أقلية ليس لها شأن يذكر" معللاً ذلك بأن "ما أحرزه الدين من تقدم كان معظمه من أعمال الدعاة، أكثر من أن يكون نتيجة إعمال الآراء"[٢٠].

وهو ما يعنى كذلك أن نشأة هذه السلطنة كانت نشأة سلمية فى جوهرها خاصة إذا ما علمنا أن هذه السلطنة قد آثرت الثقافة الإسلامية برعايتها ومن خلال إعداد ترجمات وشروح للكتب الإسلامية المختلفة حتى تمكن شعب الملايو من فهمها واستيعابها[٢١].

وقد استمر هذا النشاط قويًا فى عهد خلفه (علاء الدين شاه) الذى بلغت سلطنة "ملقا" فى عهده شأنًا كبيرًا حتى مجىء الاستعمار البرتغالى الذى وضع حدًا لازدهار هذه السلطنة، ليدخل المسلمون فى صراع عنيف مع البرتغاليين فى عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م ثم مع الاستعمار الهولندى بعد ذلك حتى نالت إندونيسيا استقلالها عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م بعد جهاد كبير استمر قرابة خمسة قرون[٢٢].

وأشهر مدن جزيرة جاوة جاكرتا وتعنى المدينة العظيمة وهى المركز المالى والتجارى لإندونيسيا التى يقطنها ٢٠ مليون نسمة، ثم توجت مكانتها الدينية بإنشاء مسجد الاستقلال الذى استمر بناؤه ١٧ عامًا بدءًا من ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٣م، وافتتح عام ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، وتبلغ مساحته ٩٥ ألف متر مربع ويصل ارتفاعه إلى ٣٣ مترًا، ويتكون من أربعة طوابق[٢٣].

أ.د / عبد المقصود عبد الحميد باشا

الهوامش:

(١) مجلة الحج السعودية السنة الخامسة والستون، العدد السادس، جمادى الآخرة ١٤٣١ ص ٣٥.

(٢) انظر فى ذلك الأدب الإندونيسى. د/ فؤاد فخر الدين ص٢٤ ط جامعة الإمام محمد بن سعود عام ٢٠٠٨

(٣) انظر الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامى. المجلد السابع ص٣٢٩ ط جامعة الإمام محمد بن سعود عام ١٤١٩هـ.

(٤) انظر الموسوعة الجغرافية، مصدر سابق ص٣٢٩ وانظر كذلك تاريخ إندونيسيا الأدبى والتحريرى. د/ فؤاد فخر الدين ص٣٢.

(٥) أنظر تاريخ إندونيسيا، مصدر سابق ص٤٢- ١٠١ حيث عالج الموضوع بتفصيل كبير؛ إذ كان الكتاب جزءاً من أطروحة للدكتوراه فى جامعة كراتشى بباكستان عام ١٩٥٥.

(٦) انظر المصدر السابق ص٢٢.

(٧) الموسوعة الجغرافية مصدر سابق ص١ ص ٢٨٣.

(٨) الدعوة إلى الإسلام ص٤٠١ ط النهضة المصرية .

(٩) نفس المصدر ٤٠١ .

(١٠) انظر الموسوعة الجغرافية، مصدر سابق ٢٩٤.

(١١) الدعوة إلى الإسلام، مصدر سابق ٤١٨ .

(١٢) رحلة ابن بطوطة .

(١٣) تاريخ إندونيسيا، مصدر سابق ص٤٨ .

(١٤) أنظر صفحات من تاريخ إندونيسيا المعاصرة. ص٤٣ وما بعدها، ط دار لبنان، بيروت عام ١٩٧١.

(١٥) الدعوة إلى الإسلام، مصدر سابق ٤١٤ .

(١٦) انظر القاموس الإسلامى للأستاذ/ أحمد عطية الله، ص ٥٦٩هـ النهضة المصرية.

(١٧) انظر الموسوعة الجغرافية، مصدر سابق ط ٢٨٣.

(١٨) انظر المصدر السابق ٢٩٢.

(١٩) الدعوة إلى الإسلام ٤٢٥.

(٢٠) نفس المصدر.

(٢١) الموسوعة الجغرافية ٢٩٢.

(٢٢) مجلة الحج السنة الخامسة والستون العدد السادس، جمادى الآخرة ١٤٣١هـ، ص٣٥.

(٢٣) انظر المصدر السابق.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامى ، ط جامعة الإمام محمد بن سعود.

٢. الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، النهضة المصرية.

٣. تاريخ إندونيسيا الأدبى والتحريرى د/ فاد فخر الدين.

٤. تاريخ الأدب الإندونيسى ، د / فؤاد فخر الدين.

٥. القاموس الإسلامى ، أحمد عطية الله ، النهضة المصرية.

٦. رحلة ابن بطوطة.

٧. صفحات من تاريخ إندونيسيا ، شهادة الدين ، ط بيروت .

ثانيا الدوريات :

❖ مجلة الحج السعودية العدد السادس جمادى الآخرة ١٤٣١هـ.

الأنصــار

الدولة الإسلامية التى أسسها وأقامها النبى ﷺ فى يثرب قامت على جناحين: هما المهاجرون، والأنصار. المهاجرون هم أهل مكة الذين اعتنقوا الإسلام فى الفترة المكية وهاجروا بدينهم وعقيدتهم، تاركين ديارهم وأموالهم فى سبيل الله. إلى يثرب التى سُميت بعد ذلك المدينة المنورة.

أما الأنصار فهم الذين آووا ونصروا رسول الله ﷺ حين هاجر إليهم هو والمسلمون، فنصروا الإسلام وحموا الدعوة حتى اشتد عودها وسادت شبه الجزيرة العربية، ثم انتشرت فى العالم بعد ذلك.

والأنصار قبيلتان عربيتان هما الأوس والخزرج. ويقول أصحاب الأنساب : إن الأوس والخزرج أخوان، وهما أبناء ثعلبة ابن عمرو مزيقياء بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد. فهم بذلك أحد فروع الأزد اليمنية. وأمهما "قَيْلَة" بنت الأرقم بن عمرو بن جفنة بن عمرو مزيقياء. لذلك عرفوا ببنى قيلة نسبة إلى أمهم التى تنتسب إلى الغساسنة ملوك عرب الشام[1].

وقد هاجر الأوس والخزرج من موطنهم فى اليمن فى الهجرة التى قامت بها قبائل الأزد نتيجة لاضطراب أحوال اليمن بسبب التنازع السياسى بين الأقيال، وإلحاح الأحباش عليها بالغزو منذ القرن الثالث الميلادى، مما أدى إلى إهمال أمر الإرواء وتهدم السدود التى كان أهمها سدّ مأرب، وما ترتب على ذلك من سوء الأحوال الاقتصادية لإهمال الزراعة، فأخذت القبائل تهاجر كلما ضاق بها الحال، وكانت الأوس والخزرج ضمن هذه القبائل المهاجرة، والراجح أنهم وصلوا يثرب خلال القرن الرابع الميلادى، وكان اليهود أسبق منهم فى سكنى يثرب.

لبث الأوس والخزرج زمنًا كلمتهم واحدة، ولكن هذا التوافق والتوحد بين القبيلتين العربيتين لم يكن ليستمر طويلاً، فوقع بينهما الخلاف والنزاع، ولما كان من مصلحة اليهود ألا تظل كلمة العرب واحدة، فقد عملوا على الإيقاع بينهما وتشجيع عوامل الفرقة وإذكاء روح التحاسد والتباغض، بدأ التنازع بين الأوس والخزرخ على الرياسة واحتلال مراكز الصدارة فى يثرب حتى تمكنت العداوة بينهما، واستمر الصراع



بينهم مائة عام بدأت بحرب "سمير" وكان آخر حروبهم حرب "بُعاث" قبل الهجرة بخمس سنوات، وقد أحدثت حرب بُعاث بهم ضررًا كبيرًا، مما جعلهم تواقين للسلام، وبدأت المساعى لتكوين حكم جديد برئاسة رجل من الخزرج هو عبد الله بن أُبَىّ بن سلول، وفى هذا التوقيت قدم النبى ﷺ إلى يثرب.

الأوس والخزرج فى بيعتى العقبة [٢]:

حضر بيعة العقبة الأولى عشرة من الخزرج من بينهم أسعد بن زرارة وعبادة ابن الصامت،و اثنان من الأوس هما أبو الهيثم مالك بن التيهان، وعويم بن ساعده [٣].

رجع هؤلاء إلى المدينة لينشروا دعوة الإسلام بين أهلها، ثم عادوا فى العام القادم، والتقوا بالرسول فى العقبة حيث بايعوه بيعة العقبة الثانية أو الكبرى وهم اثنان وسبعون فيهم امرأتان. ثم أخذ المسلمون فى الهجرة إلى يثرب حتى كانت هجرة النبى ﷺ ذاته، فاستقبلوه فرحين ينشدون الأناشيد المرحبة به صلى الله عليه وسلم وظلوا يُناصرون الإسلام حتى ذاع وارتفعت رايته.

بعد فتح مكة وبعد غزوة حُنين وتوزيع غنائمها الكثيرة، أخذ يتألف الرسول قلوب بعض حديثى العهد بالإسلام فيُغْدق عليهم من الغنائم، كعباس بن مرداس وأبى سفيان بن حرب، وقال الأنصار قولتهم الشهيرة: "لقى والله رسول الله قومه"، وبلغت النبى ﷺ المقولة، فجمع صلى الله عليه وسلم الأنصار وتحدث إليهم قائلاً: وجدتم فى أنفسكم يا معشر الأنصار فى شىء من لعاعة الدنيا، تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم... والله لو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسكلت شعب الأنصار. اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار، وأخذ يدعو لهم، فبكوا حتى اخضلّت لحاهم وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا [٤]. فرجع معهم إلى المدينة، وبقى فيها حتى لقى ربه.

أ. د / نادية حسنى صقر

الهوامش :

(١) راجع : ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣، ص ٢٣٢. .

(٢) تطلق كلمة " العقبة " على أكثر من موضع، والعقبة التى بويع فيها النبى ﷺ هى التى بين منى ومكة. انظر : ياقوت : معجم البلدان، دار الكتب العلمية بيروت. ١٩٩٠، ص ٤، ١٥١.

(٣) لمزيد من التفاصيل راجع: تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، القاهرة١٩٧٩، ج٢، ص ٣٥٥، ٣٥٦، وسيرة ابن هشام، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، دار الهداية، القاهرة (دون تاريخ) ج ٢، ص ٤٠. ٤١ .

(٤) الطبرى، مصدر سابق ، ج ٣، ص ٩٣. ٩٤.

مصادر ومراجع للاستزادة :

(١) د . حسين مؤنس : دراسات فى السيرة ج ٢ ، الزهراء ١٩٨٥.

(٢) ابن سعد : محمد بن سعد بن منيع (٢٣٠هـ) طبقات ابن سعد .

(٣) د. صالح أحمد العلى : الدولة الإسلامية فى عهد الرسول مطبعة المجمع العلمى العراقى ١٩٨٨.

(٤) محمد بن يوسف الصالحى الشامى (ت ٩٤٤هـ) سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٩٩٠م.

(٥) د . حسن على حسن : السيرة النبوية : دراسة تحليلية . دار القلم ٢٠٠٥م.

أهل الذمة

الذمة لغة [1]:

الذمة: العهد والأمان والكفالة، وفى الحديث: «المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم» [2].

و(أهل الذمة): هم المستوطنون فى الأقطار الإسلامية من غير المسلمين. وكان هذا المصطلح يشمل -أيضًا- من لا كتاب سماويًا لهم كالمجوس والسامرية والصابئة [3].

أهل الذمة اصطلاحًا [4]:

أهل الذمة -فى الاصطلاح- هم غير المسلمين الذين أُقِرّوا على دينهم وهم فى دار الإسلام، ولكن فرضت عليهم الجزية، وكانوا تحت أحكام الإسلام.

ويتضح من هذا التعريف أن هؤلاء الناس يعيشون فى (ذمة) المسلمين ورعايتهم ما لم يحاربوا، وأن لهم حقوقهم التى يحترمها الإسلام.

ومن ثم فإن هذا المصطلح (أهل الذمة) لم تكن له الأبعاد النفسية المعاصرة، بل إن إيحاءه كان يلقى على المسلمين واجبات تقابل ما يمنح للذميين من حقوق؛ فأهل الذمة هم فى ذمة الله أولا، وفى ذمة رسوله ثانيًا، وفى ذمة المسلمين ثالثًا ما داموا مسالمين لا يعتدون ولا يحاربون.

فإذا لحقوا بدار الحرب، وانضموا إلى المحاربين فحملوا السلاح، ونقضوا العهد الذى بينهم وبين المسلمين، فقد انقلبوا محاربين، وخرجوا من (ذمة) المسلمين وعهدهم ورعايتهم [5].

تاريخية المصطلح:

لم يكن مصطلح (أهل الذمة) من المصطلحات (التوقيفية) التى لا مجال لتغييرها أو التصرف فيها، وإنما كان مصطلحًا صكّه المجاهدون المسلمون حين أرادوا أن يفرقوا بين المقاتلين وغير المقاتلين ممن لم يدخلوا الإسلام.

وكان هذا المصطلح - كما رأينا- يدور مع المسالمة والقتال: فمن سالم المسلمين فهو فى ذمتهم ورعايتهم، ومن حمل عليهم السلاح أُذن لهم بقتالهم.

وإن العقيدة الجديدة التى نشأت فى الجزيرة العربية لم يكن يحرسها ويدافع عنها إلا المؤمنون بها.

وحين بدأ الرسول ﷺ دعوته بدأ بأهله المحيطين به وبذوى قرباه مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤).

وكانت القوى الأساسية فى الجزيرة العربية ثلاثا هى:

- المشركون الذين يعبدون الأصنام.
- اليهود الذين هربوا من ظلم الرومان والبيزنطيين بالشام إلى يثرب (المدينة).
- والنصارى الذين كانوا يشكلون قوة فى الجزيرة، والذين لجأ بعضهم - أيضًا- إلى الجزيرة فرارًا من ظلم الرومان.

أما فى خارج الجزيرة فقد كانت هناك قوتان كبيرتان هما الروم والفرس، وكانت بينهما حلقات من الصراع المتصل [٦].

فى الوقت الذى كان الصراع فى داخل الجزيرة العربية قد نشأ بين حملة الدعوة الجديدة من جهة، والمشركين واليهود من جهة أخرى.

أما النصارى فقد كان لهم وجود غير مؤثر فى الجزيرة العربية، حيث تعلم بعضهم اللغة العربية، وحيث اعتنق بعضهم مذاهب اللخميين أو اليعاقبة [٧].

ولا بد أن يُنتج هذا الصراع الذى نشأ فى الجزيرة خصومًا يناصبون الدعوة الجديدة العداء، ويحملون فى وجوه أتباعها السلاح و(محايدين) لا يحملون سلاحًا، ولا يجاهرون بالعداوة.

فكان لا بد لهؤلاء وهؤلاء من مبدأ للتعامل محكوم بمثل قوله تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة: ١٩٠).

فالمقاتلون المناوئون يواجَهون بالقتال، والذين كفّوا أيديهم عن القتال لا بد أن ينشأ أسلوب آخر للتعامل معهم، حيث لا همْ مسلمون، ولا هم أعداء محاربون، فلا بد أن يحتويهم عهد للموادعة و(ذمة) للرعاية والاحترام؛ ونشأ عن هذا الاتجاه ما سمى (عقد الذمة).

عقد الذمة:

وهو ما يصير به غير المسلم (ذميًا)، وتتعلق به المصالح العامة، كما يجوز عقده لكل من هم فى (ذمة) المسلمين من أهل الكتاب والمجوس؛ لقوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ



صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩). ولقول الرسول ﷺ فى المجوس: «سنُوا بهم سنة أهل الكتاب» (٨).

كما أن الرسول ﷺ قد أخذ الجزية من مجوس هجر (٩).

ويعدّ عقد الذمة إقرارًا لغير المسلم على دينه بشرط قبوله دفع الجزية، والتزامه بعدم رفع السلاح على المسلمين.

ويختلف عقد الذمة - فى طبيعته- عن (عقد الأمان)، حيث إن المستأمَن هو: (من دخل دار الإسلام على أمان مؤقت من قبل الإمام أو أحد المسلمين).

وبناء على ذلك فإن عقد الذمة مؤبد لأهل الذمة، وعقد الأمان مؤقت للمستأمنين (١٠). وإذا كان عقد الذمة لا يصح من غير الإمام أو نائبه، فإن عقد الأمان يصح من كل مسلم بالغ ذكرٍ أو أنثى عاقل مختار (١١).

نشأة العلاقة بين المسلمين و (أهل الذمة):

بعد أن فتح المسلمون بلاد الشام وقّعوا معاهدة مع (أهل الكتاب) تقضى باحترام عقيدتهم والمحافظة على طقوسهم وصلواتهم، ويأتيهم قساوستهم وأساقفتهم من القسطنطينية وأنطاكية، بينما يحرسهم الفاتحون المسلمون الذين كانت لهم (ذمة) وعهد فى المحافظة على غير المحاربين حتى عبر المستشرق الألمانى (ميتز) عن إعجابه بالتزام المسلمين بعهدهم نحو هؤلاء (الذميين) بقوله: "كان النصارى هم الذين يحكمون المسلمين فى بلاد الإسلام" (١٢).

ولقد تبلورت العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب منذ بدء الدعوة الإسلامية؛ فكان للرسول ﷺ جيران من أهل الكتاب، وأنزل نصارى نجران بالمسجد وسمح لهم بإقامة صلاتهم فيه.

وسار على هديه عمر رضي الله عنه فدخل بيت المقدس وأجاب السكان المسيحيين إلى ما اشترطوه.

وكانت للنصارى -فى العصر الأموى- احتفالاتهم العامة يتقدمها رجال الدين بالصلبان.

كما جرت العادة -أيام الرشيد- بأن يخرج النصارى- يوم عيد الفصح- فى موكب كبير وبين أيديهم الصليب.

وإلى جانب هذه الصور من التعايش والتسامح، فإننا نلاحظ أن كثيرًا من (أهل الذمة) قد أسهموا فى مختلف مواقع المسئولية، فقد روى أبو هريرة أن النبى ﷺ قاتل معه قوم من اليهود فى بعض حروبه، فأسهم لهم مع المسلمين،

واستعان بهم فى غزوة خيبر، كما استعان بصفوان بن أمية فى غزوة حنين.

وامتد هذا التعاون فى العصور الإسلامية المختلفة [١٣].

ومن هنا نستطيع القول بأن مصطلح (أهل الذمة) لم يكن إلا وضعًا تنظيميًا للعلاقة السائدة بين المسلمين وغير المسلمين، وأن تلك العلاقة قائمة على أساس صفة المسالمة والمحاربة.

ومن هنا عرّف الشيخ الجليل عبد الوهاب خلاّف دار الإسلام بقوله: "هى الدار التى تجرى عليها أحكام الإسلام، ويؤمّن فيها بأمان المسلمين سواء أكانوا مسلمين أم ذميين" [١٤].

نشأة عقد الذمة فى مصر:

سار عمرو بن العاص إلى مصر ليفتحها، وحين أحس المقوقس (عظيم القبط) أن جيش عمرو يتقدم بنجاح، كتب إليه معبرًا عن استعداده لعقد الصلح بين الطرفين.

ومن ثم فقد تم الصلح بينهما بشروط أوجبت على كل طرف واجبات، كما حددت لكل منهما حقوقًا.

ولقد اشترط المقوقس على عمرو أن يترك للروم حرية الموافقة على هذه الشروط أو رفضها [١٥].

وكان هذا الاتفاق نواة لعقد الذمة فى مصر.

ولقد تم توقيع عقد آخر بين المقوقس وعمرو حين نجح العرب فى فتح الإسكندرية، وسُمى هذا العقد (صلح الإسكندرية).

وكان أول شرط فى هذا الصلح أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد من أهالى الإسكندرية. وهذا الشرط جعل أهالى الإسكندرية (أهل ذمة)، يؤدون الجزية فى مقابل الدفاع عنهم وتأمينهم على أنفسهم ومصالحهم وممتلكاتهم.

ولكن هذا الصلح لم يُرض الأهالى الذين ثاروا على المقوقس وحاولوا رجمه بالحجارة لعقده الصلح مع المسلمين.

غير أنه أقنعهم أن هذا الصلح يحميهم ويحافظ على مصالحهم، فسلّموا الجزية المتفق عليها إلى المقوقس، وحملها المقوقس بنفسه إلى عمرو بن العاص [١٦].

ونود أن نشير هنا إلى أن الجزية ليست من ابتداع المسلمين أو العرب وأن أول من سنّ الجزية هو كسرى ملك الفرس بناء على ما ذكره الطبرى فى تاريخه.

وقد كانت الحيرة ومنازل آل النعمان فى الجزيرة العربية تدين للعجم وتؤدى إليهم الإتاوة والخراج [١٧].

وأما بالنسبة لتاريخ تشريع هذا المبدأ فى الإسلام، فقد قيل إنه سنة ثمان للهجرة [١٨].

ولقد روى أن نصارى بنى تغلب قد أنفوا من اسم (الجزية) وقالوا لعمر بن الخطاب: نحن عرب، فخذ منا كما يأخذ بعضكم من بعض باسم الصدقة، فقال عمر: لا آخذ من مشرك صدقة، فقال له النعمان بن زرعة: خذ منهم الجزية باسم الصدقة، فقبل عمر ذلك وضعّف عليهم، ولم يخالفه أحد من الصحابة، فكان إجماعًا [١٩].

وإذا أردنا أن نعقد موازنة بين رغبة (الاتجاه الإسلامى) فى تحصيل الجزية من غير المسلمين، ورغبته فى دخول هؤلاء فى الإسلام مع إعفائهم من الجزية فإننا نجد أن الاتجاه الثانى أرجح.

فحين ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة رغب فى تشجيع الذميين على الإسلام، وذلك عن طريق إعفائهم من بعض الأعباء المالية، فكتب إلى عماله: "من شهد شهادتنا واستقبل قبلتنا... فلا تأخذوا منه جزية" [٢٠].

وقد نتج عن ذلك ضعف إيرادات مصر، فكتب إليه واليها (حيان بن سريح): "إن الإسلام قد أضرّ بالجزية"، وطلب منه أن يأمر بأخذ الجزية حتى ممن أسلموا من أهل الجزية.

فكتب إليه عمر: "إن الله إنما بعث محمدًا هاديًا، ولم يبعثه جابيًا، ولعمرى لعمر أحقر من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه" [٢١].

وإن جاء بعض الولاة بعد ذلك فمالوا إلى إعادة الجزية على أهل الذمة الذين أسلموا، أو تحصيل الضرائب منهم، وعمل كل والٍ من هؤلاء الولاة برأيه وبصورة تقوم على التعسف وعدم النظام [٢٢].

ولقد كان من ملامح عقد الذمة فى مصر -كما فى سائر الأمصار- حسن التعامل وصدق الوفاء من الحكام، والإحساس بالأمان ودقة الالتزام من أهل الذمة.

فلقد أقر عمر أهل الذمة فى مصر على أراضيهم، وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية عقائدهم، وترك لهم الحرية فى الإقامة بمصر أو الخروج منها [٢٣].

واتبع الخليفة عثمان بن عفان سياسة التسامح مع أهل الذمة فى جميع أرجاء الدولة الإسلامية، وأوصى عماله برعاية شئونهم.

وكذلك أحسن على بن أبى طالب معاملة الذميين، وأمر بمراعاة عهودهم والدفاع عنهم، وقد أوصى عامله محمد ابن أبى بكر بأهل الذمة حين قدم مصر واليًا عليها من قبله سنة ٣٦هـ/٦٥٦م [٢٤].

وكان من نتائج ذلك أن قام أهل الذمة بدور إيجابى فى الحياة السياسية فى عصر ولاة الخلفاء الراشدين، وقد استمروا فى أداء هذا الدور فى عصر الولاة الأمويين والعباسيين.

وكان للعوامل السياسية أكبر الأثر فى حمل العرب على ترك مقاليد الأمور فى أيدى أهل مصر من القبط خاصة. أى أن القبط صاروا يتمتعون بحريتهم الدينية إلى جانب قيامهم بنصيب كبير فى إدارة بلادهم.

وبذلك حل القبط محل الروم الذين غادروا مصر والذين كانوا يتولون إدارة البلاد [٢٥].

وإلى جانب الدور الإيجابى الذى لعبه أهل الذمة فى إدارة البلاد، فقد كان لهم دور آخر فى الحياة الفكرية والثقافية.

فقد وجد الإسلام طريقه إلى قلوب المصريين بعد الفتح، وكان انتشار اللغة العربية مصاحبًا لهذا الفتح، ولكن بعض الأقباط ظلوا محافظين على لغتهم القبطية دون محاولة لمعرفة غيرها، مما ينفى ما روجه بعض الكتاب المعاصرين من محاولة حكام مصر الجدد منع الأقباط من التحدث بلغتهم القبطية.

ولقد كان النشاط الفكرى للقبط بلغتهم يتركز فى الأديرة حيث توجد المكتبات الغنية، وحيث يوجد عدد من الرهبان المثقفين الذين يقومون بترجمة الكتب اليونانية إلى اللغة القبطية.

وترتب على دخول بعض الذميين فى الإسلام عنايتهم بالدراسات الإسلامية والأدبية منذ أواخر عهد الأمراء الإخشيديين وطوال عصر الخلفاء الفاطميين بصفة خاصة [٢٦].

حقوق أهل الذمة وواجباتهم:

الأصل فى إطلاق اصطلاح (أهل الذمة) على قوم بعينهم أن الإسلام يعنى بالحقوق التى يرتبها لهم فى (ذمة) المسلمين أكثر مما يعنى بالواجبات التى يقررها عليهم.

والأصل أنه يجب على (إمام المسلمين) أن ينصرهم وأن ينصفهم ممن يظلمهم؛ لأنهم تحت ولايته ما داموا فى دار الإسلام [٢٧].

وإذا رأينا أن الفقهاء المسلمين يكادون يجمعون على حقوق الذميين [٢٨]، وأن



(لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، وأنه روى عن على بن أبى طالب قوله: (إنما قبلوا الجزية لتكون أموالهم كأموالنا، ودماؤهم كدمائنا).

إذا رأينا ذلك علمنا مدى العناية التى وجهها الإسلام إلى حقوق الذميين وأهمها ما يأتى:

- تأمينهم على حياتهم وأموالهم، وفى هذا المعنى يقول الرسول ﷺ: **«ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه فأنا حجيجه يوم القيامة»** (٢٩).

- يتساوى الذمى بالمسلم فى وجوب الدية فى القتل الخطأ وشبه العمد وشبه الخطأ، وسواء أكان القتيل مسلمًا أم كان من أهل الذمة (٣٠).

- يجب على الإمام مناصرة أهل الذمة كما يناصر المسلمين؛ لأن العقد الذى بينه وبينهم يشترط ذلك و **«المؤمنون عند شروطهم»** (٣١).

- إذا تحاكم مسلم وذمى إلى الحاكم، فإن هذا الحاكم يلزمه الحكم بينهما دون تحيز، لأن إنصاف المسلم والانتصاف منه واجب.

ولقد تقررت هذه الحقوق لأهل مصر بعد الفتح، حيث تحول المصريون من القبط واليهود ومن فى حكمهم (من غير أهل الكتاب) كالمجوس والسامرية والصابئة إلى (أهل ذمة)، وأصبحوا فى ذمة المسلمين بعد إعطائهم العهد والأمان على أنفسهم وأملاكهم وحرياتهم الدينية والمدنية.

وقد نشأت واجبات على أهل الذمة فى مقابلة الحقوق التى تمتعوا بها - وعلى رأس هذه الواجبات- .

- أن من عقدت له الذمة فتمتع بالحقوق السابقة، أخذت منه الجزية، ولم يكن هذا المبدأ من مبتكرات الإسلام.

- إذا كان من حق الذميين أن نتركهم وما يدينون، وأن نقرهم على عقائدهم وأعمالهم التى يعدّونها من أمور دينهم كضرب الناقوس وقراءة التوراة والإنجيل. فإن ذلك الحق يشكّل واجبًا هو ألاّ يجاهروا بأعمالهم التى تعد معصية فى الإسلام كشرب الخمر علانية.

وإذا كان هذا الواجب مما يلتزم به الذميون،فإنما يلتزمون به فى أمصار المسلمين، أما القرى العامة، والقرى التى ينفرد بها أهل الذمة فلا يمنعون فيها من إظهار عباداتهم (٣٢).

وتظل هذه الحقوق والواجبات محل

اعتبار واحترام من الجانبين ما دامت شروط عقد الذمة قائمة، فإذا اختلّت هذه الشروط انتقض العهد، وهو ينتقض بثلاثة أشياء:

١. الامتناع عن بذل الجزية.

٢. التعدى على أحكام الإسلام.

٣. العودة إلى حمل السلاح على المسلمين.

وإذا قاتلوا فقد نقضوا العهد.

أ.د/عبد اللطيف محمد عامر

الهوامش:

(١) المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. مادة (ذم).

(٢) أخرجه البخارى. كتاب الحرية. باب ذمة المسلمين وجوارهم ، جامع المسانيد ٤٩١/٤.

(٣) الماوردى: الأحكام السلطانية /١٢٨ ، جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى، ٤ /١٥٣.

(٤) جواهر الإكليل ١٠٥/١، كشاف القناع ٧٠٤/١.

(٥) الدر المختار ورد المحتار ٢٧٥/٣- ٣٠٣، الشرح الصغير ٣١٦/٢، المغنى ٤٥٨/٨.

(٦) انظر: أحمد أمين، فجر الإسلام، ١٢٥.

(٧) السابق.

(٨) أخرجه البخارى . كتاب الجزية والموادعة. باب الجزية والموادعة مع أهل الذمة والحرب .

(٩) السابق.

(١٠) حاشية ابن عابدين ٢٤٨/٣، جواهر الإكليل ٢٥٨/١، المغنى ٤٣٢/١٠.

(١١) مغنى المحتاج للشربينى، ٢٣٦/٤.

(١٢) انظر: فهمى هويدى. مواطنون لا ذميون. ط. ثالثة ٢٤.

(١٣) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ٨١، ٨٢، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ٨٧ (مواطنون لا ذميون. فهمى هويدى ٦٦- ٧٣).

(١٤) عبد الوهاب خلاف: السياسة الشرعية، ٧١.

(١٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ٦١- ٦٢.

(١٦) انظر: د/فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية ، ٩٢/١- ٩٦.(الهيئة المصرية العامة للكتاب).

(١٧) تاريخ الطبرى ٤٥١/١، تفسير المنار. المجلد الأول /٢٩٢.

(١٨) زاد المعاد. لابن القيم ١٥١/٣.

(١٩) الكافى فى الفقه على مذهب ابن حنبل. موفق الدين ابن قدامة المقدسى، ٢٣٧/٤.

(٢٠) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة ٥٩.

(٢١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١٥٦.

(٢٢) انظر: د/ فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر، ٧/٢- ٥٢.

(٢٣) توفيق الطويل: قصه الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام، ١٦٨.

(٢٤) ابن الأثير: الكامل، ١٠٩/٣، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، ٥٥٦/٣.

(٢٥) سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام /١٨٩.

(٢٦) انظر: د/فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر، جـ٢. الباب الرابع . "دور أهل الذمة فى الحياة الفكرية، ١٧٩- ٢٣٥.

(٢٧) انظر السير الكبير للشيبانى. باب ما يحب من النصرة للمستأمنين وأهل الذمة، ١٨٥٣/٥.

(٢٨) انظر بدائع الصنائع، ١١١/٦، المهذب للشيرازى ٢٥٦/٢، المغنى لابن قدامة، ٤٤٥/٨.

(٢٩) أخرجه أبو داود ٤٣٧/٣. حديث ٣٠٥٢.

(٣٠) بدائع الصنائع ٢٥٢/٧، الخرشى ٤٩/٨، مغنى المحتاج ١٠٧/٤، المغنى لابن قدامة ٩/٨.

(٣١) البخارى. كتاب الإجارة، أبو داود. كتاب الأقضية، وانظر السير الكبير (السابق).

(٣٢) المهذب ٢٥٦/٢، ابن عابدين ٢٧٢/٣، حاشية الدسوقى ٢٠٤/٢، مغنى المحتاج ٢٥٧/٤، كشاف القناع ١٣٣/٣.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. صحيح البخارى.
٢. توماس أرنولد : الدعوة إلى الإسلام.
٣. عبد الوهاب خلاف: السياسة الشرعية.
٤. فاطمة مصطفى عامر: تاريخ أهل الذمة فى مصر الإسلامية.
٥. توفيق الطويل: قصة الاضطهاد الدينى فى المسيحية والإسلام.
٦. سيدة كاشف: مصر فى فجر الإسلام.
٧. فهمى هويدى: مواطنون لا ذميون.

أهل الصُّفَّة

الصفة مكان مسقوف ملحق بمسجد رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة وكان فى الجهة الشمالية منه[1] وقد خصص لإقامة وإعاشة فقراء الصحابة رضى الله عنهم الذين لا بيوت لهم ولا أسر يأوون إليها، ولم نعثر فى المصادر التاريخية على إحصاء دقيق لأهل الصفة يعين أعدادهم بالضبط، لأنهم كانوا يزيدون عندما يرد عليهم وافد جديد، أو ينقصون عندما يتركهم بعضهم، لأنهم تزوجوا وأصبحت لهم بيوت وأسر، أو لأنهم ماتوا. ولقد وجدت أبا نعيم الأصفهانى ـ ت ٤٣٠هـ/ ١٠٣٨م- يترجم لأكثر من ثمانين منهم فى كتابه حلية الأولياء وطبقات الأصفياء[2].

أما عبد الله بن عبد الملك المرجانى فقد ترجم لنحو أربعين منهم فى كتابه "بهجة النفوس والأسرار فى تاريخ دار هجرة المختار"[3].

ولهم ترجمات فى كتب الطبقات؛ مثل كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد ت ٢٣٠هـ /٨٤٤م والإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر العسقلانى ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م وغيرهما. وعنهم يقول أبو نعيم الأصفهانى." ونذكر مستعينين بالله شأن أهل الصفة وأخلاقهم وأحوالهم، وتسمية من سمى لنا اسمه بالأسانيد المشهورة، والشواهد المذكورة، وهم قوم أخلاهم الحق من الركون إلى شىء من العروض، وعصمهم عن الافتتان بها عن الفروض، وجعلهم قدوة للمتجردين من الفقراء، لا يأوون إلى أهل ولا مال، ولا يلهيهم عن ذكر الله تجارة ولا مال، لم يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا، ولا يفرحون إلا بما أيدوابه من العقبى!"[4]. ويقول فى مكان آخر: " والظاهر من أحوالهم والمشهور من أخبارهم غلبة الفقر عليهم وإيثارهم القلة واختيارهم لها فلم يجتمع لهم ثوبان، ولا حضرهم من الطعام لونان"[5].

كان رسول الله ﷺ يخص أهل الصُّفَّة بعنايته ويتردد عليهم كثيرًا لتفقد أحوالهم والسؤال عنهم وحضور مجالسهم، فقد روى أبو نعيم الأصفهانى فى الحلية أن رسول الله ﷺ جاء إلى أهل الصفة فقال: " كيف أصبحتم" قالوا: "بخير"، فقال: "أنتم اليوم خير من يوم يُغْدى على أحدكم بجفنة ويراح عليه بأخرى، ويغدو فى حلة ويروح فى أخرى،

وتسترون بيوتكم كما تستر الكعبة" . يقصد بذلك أنهم صاروا أغنياء مترفين، يزينون بيوتهم بالستائر. فقالوا: يا رسول الله " نصيب ذلك ونحن على ديننا" فقال: « نعم» فقالوا: " فنحن يومئذ خير، تتصدق ونعتق" فقال ﷺ: « لا؛ أنتم اليوم خير، إنكم إذا أحببتموها - أى الدنيا - تحاسدتم وتقاطعتم وتباغضتم»[٦].

وقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المعنى، منها حديث عقبة بن عامر رضى الله عنه، وهو من أهل الصفة ، فقد قال: "خرج إلينا رسول الله ﷺ ونحن فى الصفة، فقال: أيكم يحب أن يغدو كل يوم إلى بطحاء مكة والعقيق فيأتى منه بناقتين كوماوين فى غير إثم ولا قطيعة رحم"؟ فقلنا: كلنا يا رسول الله نحب ذلك، فقال: « أو لا يغدو أحدكم إلى المسجد فيتعلم أو يقرأ آيتين من كتاب الله تعالى خير له من ناقتين وثلاث وأربع... ومن أعدادهن من الإبل»[٧].

ويعلق أبو نعيم الأصفهانى على ذلك بقوله:" فحديث عقبة يصرح بأن النبى ﷺ، كان يردهم عند العوارض الداعية إلى تمنى الدنيا والإقبال عليها إلى ما هو أليق بحالهم وأصلح لبالهم"[٨]. وهذا فقه عظيم، فرسول الله ﷺ يطمئنهم أن حالتهم التى هم عليها من الفقر والحاجة، والتفرغ لعبادة الله والذكر، أصلح لحالهم مما لو صاروا أغنياء، فليس كل إنسان يصلحه الغنى، أو يصلح له الغنى. وكبار مفسرى القرآن الكريم يرون أن قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴾

(الشورى:٢٧) نزل فى أهل الصفة ، فقد روى عن خباب بن الأرتّ - رضى الله عنه - قوله:، وكان منهم : "فينا نزلت هذه الآية، نظرنا إلى أموال بنى النضير وبنى قريظة فتمنيناها فنزلت"[٩].

ويشرح الإمام القرطبى مفردات هذه الآية الكريمة فيقول:﴿ وَلَوْ بَسَطَ ﴾ معناه، وسع، وبسط الشيىء نشره، لبغوا فى الأرض، طغوا وعصوا، وقال ابن عباس: يقيهم طلبهم منزلة بعد منزلة، ودابة بعد دابه، ومركبًا بعد مركب، وملبسًا بعد ملبس، وقيل: لو أعطاهم الكثير لطلبوا ما هو أكثر منه، لقوله ﷺ:" لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثًا" وقيل: لو جعلناهم فى المال سواء لما انقاد بعضهم لبعض ولتعطلت الصنائع، ثم يستطرد الإمام القرطبى فيقول:"قال علماؤنا:

أفعال الرب سبحانه لا تخلوعن مصالح، وإن لم يجب على الله الاستصلاح فقد يعلم من حال العبد أنه لو بسط عليه قاده ذلك إلى الفساد فيزوى عنه الدنيا مصلحة له، فليس ضيق الرزق هَوَانًا ولا سعةُ الرزق فضيلة"[10]. وصنيع أهل الصفة وحالهم كان يعجب رسول الله ﷺ ويجالسهم كثيرًا؛ فقد روى أبو سعيد الخدرى رضي الله عنه وكان منهم فقال: (أتى علينا رسول الله ﷺ، ونحن أناس من ضعفة المسلمين، ورجل يقرأ علينا القرآن ويدعو لنا، ما أظن رسول الله ﷺ يعرف أحدًا منهم، وإن بعضهم ليتوارى من بعض من العرى، فقال رسول الله ﷺ بيده فأدارها شبه الحلقة، فاستدارت له الحلقة فقال ﷺ بما كنتم تراجعون" قالوا: هذا رجل يقرأ علينا القرآن، ويدعو لنا، قال: « فعودوا لما كنتم فيه» ثم قال: « الحمد لله الذى جعل فى أمتى من أمرت أن أصبر نفسى معهم»، يشير ﷺ إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ (الكهف: ٢٨) .

أهل الصفة والتكافل الاجتماعى فى الإسلام :

إن حال أهل الصفة وما كانوا عليه من الفقر والفاقة تظهر لنا صورة رائعة من التكافل الاجتماعى فى الإسلام، فقد كانوا موضع اهتمام ورعاية رسول الله ﷺ ، ولم يكن ينام مطمئنا إلا بعد أن يتأكد أنهم قد تناولوا عشاءهم، فقد روى عن عبد الرحمن بن أبى بكر أنه قال: [إن أصحاب الصفة كانوا أناسًا فقراء، وإن رسول الله ﷺ قال: « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث . أى من أهل الصفة . ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس وسادس، وإن أبا بكر رضي الله عنه جاء إلى بيته بثلاثة، و انطلق رسول الله ﷺ بعشرة][11].

وروى ابن حجر فى ترجمته لسعد ابن عبادة - رضى الله عنه فقال : " وروى ابن أبى الدنيا عن طريق ابن سيرين قال: "كان أهل الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد، والرجل بالاثنين، والرجل بالجماعة، فأما سعد فكان ينطلق بثمانين"[12].

بعض أغنياء الصحابة كانوا يأوون إلى الصفة:

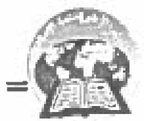
باستعراض أسماء أهل الصفة فى المصادر التى ترجمت لهم نجد بينهم رجالاً من الأغنياء، أو على الأقل من الذين لا ينطبق عليهم وصف الفقر والفاقة، من المهاجرين، أمثال أبى عبيدة بن الجراح، وزيد بن الخطاب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهم جميعًا. ومن الأنصار مثل البراء بن مالك وثابت بن الضحاك وحبيب بن زيد، وحارثة بن النعمان، وحنظلة بن أبى عامر، وأبى سعيد الخدرى وغيرهم، فما الذى جعل هؤلاء الصحابة الكرام الموسرين من المهاجرين والأنصار يأوون إلى الصفة؟ الذى جعل الصحابة الموسرين يأوون إلى الصفة أنهم رأوا أهلها يَحْظَوْنَ بحب واهتمام رسول الله ﷺ وأنه كان يكثر من زيارتهم ومجالستهم والثناء عليهم، فتأسى به هؤلاء الصحابة وأحبوا أن يُنْسبوا إلى أهل الصفة، بل إن آل بيت رسول الله ﷺ ورضى عنهم وأكابر أصحابه ظلوا يداومون على زيارة أهل الصفة والتبُّرك بهم حتى بعد وفاه رسول الله ﷺ.

فقد روى صاحب الحلية أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه خطب من على بن أبى طالب ابنته أم كلثوم، فبحث "على" رضى الله عنه عن أهله ليستشيرهم فى الأمر فعرف أنهم فى الصفة مع أهلها، وهم عمه العباس بن عبد المطلب وأخوه عقيل بن أبى طالب، والحسين بن على رضى الله عنهم جميعًا.

ثم يواصل صاحب الحلية كلامه عمن كانوا يخالطون أهل الصفة من أهل البيت فيذكر منهم الحسن بن على رضى الله عنهما وعبد الله بن جعفر بن أبى طالب ويقول: "ويرون فى صحبتهم إكمال الدين، وفى مجالستهم إتمام الشرف على ما كانوا يرجعون إليه من التشرف برسول الله ﷺ والانتساب إليه"(١٣).

المجاهدون من أهل الصفة:

بعد كل ما تقدم عن أهل الصفة قد يظن البعض أنهم تبوأوا تلك المنزلة العالية التى جعلت رسول الله ﷺ يجالسهم ويشاركهم أذكارهم، وكذلك الأكابر من آل بيت رسول الله وصحابته، قد يظن البعض أنهم لم يكن لهم عمل إلا العبادة وقراءة القرآن وذكر الله تعالى، صحيح أنهم اشتهروا بذلك، ولكن الصحيح أيضًا أن معظمهم كانوا من كبار



أيضًا أن معظمهم كانوا من كبار المجاهدين فى سبيل الله، ولهم فى ميدان الغزو مع رسول الله ﷺ قدم ثابتة، كذلك فى الفتوحات الإسلامية بعد وفاته ﷺ، ومن هؤلاء أبو عبيدة بن الجراح، والمقداد بن عمرو، وعتبة بن غزوان، وزيد بن الخطاب، والقائمة طويلة.

أبو هريرة ؓ عريف أهل الصفة:

ليس من الممكن فى هذا الخير الضيق أن تترجم لكل أهل الصفة، ومن يريد أن يعرف المزيد عنهم فلديه كتب الطبقات والتراجم وهى مليئة بأخبارهم، ولكن لابد من كلمة عن أشهرهم وأكثرهم ملازمة للصفة وهو أبو هريرة ؓ الذى أصبح عميدهم أو عريفهم، فقد كان يعرف كل شىء عنهم لطول إقامته بينهم، وكان مرجع رسول الله ﷺ فى كل أمورهم فقد كان إذا أرادهم لأمر ما طلب منه أن يجمعهم له، فقد روى مجاهد عن أبى هريرة أنه قال: " مَرَّبى رسول الله ﷺ فقال: " يا أبا هر"، فقلت: لبيك يارسول الله، قال: " الحق أهل الصفة، فادعهم". قال:" وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يلون على أهل ولا مال، إذا أتته هدية أرسل إليهم منها وأصاب منها وأشركهم فيها"(١٤).

وأبو هريرة رضى الله عنه عميد أهل الصفة وعريفهم هو أشهر رواة الحديث عن رسول الله ﷺ وأكثرهم رواية؛ فقد روى أكثر من خمسة آلاف حديث. وهذا العدد الكبير جعل بعض الناس يستكثر هذا ويقول : كيف تأتَّى لرجل لم يصحب رسول الله ﷺ إلا نحو ثلاث سنوات أن يروى كل هذه الأحاديث ويحفظها عن ظهر قلب، وهذا لم يتأت لأحد سواه ممن طالت صحبتهم لرسول الله ﷺ، ولكن هؤلاء لو رجعوا إلى المصادر الموثوق بها لزال عجبهم، لأن أبا هريرة رضى الله عنه فرَّغ نفسه من كل مشاغل الدنيا، وكرس حياته مدة صحبته لرسول الله ﷺ لسماع ورواية الحديث ولعله سمع تساؤل الناس عن كثرة روايته للحديث الشريف وهو حى فكان يقول: " إن المهاجرين شغلهم الصَّفق بالأسواق - يعنى بعض التجارة لكسب عيشهم - والأنصار شغلتهم مزارعهم وحقولهم وأنا شغلتهم بجمع أحاديث رسول الله ﷺ، فقد روى ابن سعد بسند جيد عن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص قال: " قالت عائشة رضى الله عنها لأبى هريرة " إنك لتحدث بشىء ما سمعته - أى من رسول الله ﷺ

فقال : يا أمه طلبتها وشغلتك المكحلة والمرآة"[١٥].

لهذا يقول الحافظ ابن حجر: " قد أجمع أهل الحديث على أنه أكثر الصحابة حديثًا، وذكر أبو محمد بن حزم أن مسند بقى بن مخلد احتوى من حديث أبى هريرة على خمسة آلاف وثلثمائة حديث"[١٦].

وكما روى أبو هريرة ﷺ الحديث عن رسول اللهﷺ فقد روى أيضًا عن عدد من الصحابة؛ منهم أبو بكر وعمر بن الخطاب، وعائشة رضى الله عنهم جميعًا.

وقال البخارى رحمه الله تعالى : " روى عنه - أى عن أبى هريرة - نحو الثمانمائة من أهل العلم، وكان أحفظ من روى الحديث فى عصره "[١٧].

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) انظر القاموس الإسلامى . أحمد عطية الله. مكتبة النهضة المصرية ١٣٨٣هـ ـ ١٩٦٣م. جـ ١ ص٢١٠.

(٢) انظر جـ١ ص ٢٣٧ وما بعدها . طبعة دار الفكر العربى بدون تاريخ.

(٣) انظر حـ١ ص ٥١١. ٥١٤. تحقيق د. محمد عبد الوهاب فضل. دار الغرب الإسلامى .

(٤) الحلية : المصدر السابق جـ١ ص ٣٣٨.

(٥) المصدر السابق جـ١ ص ٣٤٠.

(٦) المصدر السابق جـ ١ص ٣٤٠.

(٧) المصدر السابق جـ١ ص ٣٤١.

(٨) المصدر نفسه.

(٩) انظر الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبى جـ٨ ص ٤٤٨٥. طبع دار الفكر بيروت ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م. وانظر كذلك جامع البيان للإمام الطبرى نشر دار السلام بالقاهرة ١٤٢٥ ـ ٢٠٠٥م جـ ٩ ٧٢٤٣.

(١٠) الجامع لأحكام القرآن ـ المصدر السابق جـ ٨ص ٤٤٨٥.

(١١) انظر حلية الأولياء ـ مصدر سابق جـ١ ص ٣٣٨.

(١٢) انظر الإصابة فى تمييز الصحابة جـ٤ ص ١٥٢. ١٥٣.

(١٣) حلية الأولياء ـ مصدر سابق جـ٢ ص ٣٤.

(١٤) حلية الأولياء مصدر سابق جـ١ ص ٣٣٨.

(١٥ انظر الإصابة لابن حجر مصدر سابق جـ ١٢ ص ٧٥.

(١٦) المصدر السابق جـ٢ ص ٦٨.

(١٧) المصدر السابق جـ٢ ص ٦٩.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ تاريخ الطبرى.

٢ـ الكامل فى التاريخ لابن الأثير

٣ـ الأحكام السلطانية للماوَرْدى.

٤ـ مقدمة ابن خلدون.

٥ـ العواصم من القواصم للقاضى أبى بكر بن العربى.

٦ـ منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة والقدرية لابن تيمية.

إيـــــران

الموقع الجغرافى والدين : تقع إيران فى الجنوب الغربى من آسيا، حيث تحدها روسيا ودول الكومنولث وبحر الخزر[١]. (أو بحر قزوين) شمالا والخليج الفارسى أو العربى[٢]. وبحر عمان جنوبًا وتركيا والعراق غربًا، وباكستان وأفغانستان شرقًا.

وحدودها مع الدول المجاورة لها على النحو التالى بالكيلو مترات[٣].

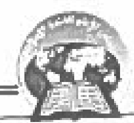
مع العراق ١٢٨٠كم - مع تركيا ٤٧٠كم - دول الكومنولث ١٧٤٠كم - أفغانستان ٨٥٠كم- باكستان ٨٣٠كم- حدود مائية:

فى الشمال ٦٣٠كم- فى الجنوب ١٨٨كم.

وأكبر منطقتين صحراويتين بها تعرفان باسم "دشت لوط"، "ودشت كوير". أما البحار فهناك بحر الخزر وهو أكبر بحر محاط بالأرض فى العالم، ويقع على مستوى ينخفض عن سطح البحر بنحو ٨٥ قدمًا، وهو قليل العمق إلى حد ما، أما الخليج فهو متفرع من المحيط الهندى، مساحته ٢٤٠٠٠٠ (مائتان وأربعون ألف كم مربع) وطوله ٩٩٠كم، ويتراوح عرضه بين ٣٣٠كم و ٥٦كم عند مضيق هرمز[٤]. تحده إيران من الشمال والشمال الشرقى والشرق، والكويت والعراق من الشمال الغربى، كما تحده من الغرب والجنوب الغربى كل من المملكة العربية السعودية والبحرين وقطر، ومن الجنوب والجنوب الشرقى دولة الإمارات العربية المتحدة، وجزء من سلطنة عمان.

وكانت أهمية الخليج قبل اكتشاف النفط عام١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م مقصورة على صيد الأسماك واستخراج اللؤلؤ، وبناء السفن.

والساحل الإيرانى على الخليج الجبلى، ويمتد بطوله واد ساحلى ضيق فيه شواطئ رملية، حيث يتسع السهل الساحلى إلى الشمال من مدينة "بوشهر" على الجانب الشرقى من الخليج ويتصل بالدلتا العريضة التى تتألف من نهرى دجلة والفرات ونهر كارون. ومياهه عميقة كلما اقتربنا من الساحل الإيرانى بينما يقل عمقه فى الساحل العربى بحيث لا يتجاوز ١٢٠ قدمًا بصفة عامة. والمساحة الكلية لإيران حاليًا



١٦٤٨٠٠٠كم مربع تقريبًا[٥]. وتبلغ مساحة الصحراء فيها أكثر من ٥٠٪ من مساحتها الكلية. أى أن إيران بصفة عامة تعادل ١/٢٧ من قارة آسيا ولا تصل إلى مساحة الجزيرة العربية أو الهند، وتعادل خمسة أضعاف انجلترا وإيطاليا.

ويتكون المجتمع الإيرانى من أعراق شتى؛ فهناك الفرس والآذريون واللر[٦] والبختيار والبلوج والأكراد[٧] والعرب[٨] وهؤلاء عمومًا يقطنون جزر الخليج الفارسى وفى خوزستان.

ثم الأرمن وهم من جنس مختلف، يتركزون فى طهران وأصفهان وأذربايجان. وهناك أتراك، وتركمان يقطنون خراسان. ثم يهود وآشوريون، ويتركز وجود اليهود فى المدن الكبيرة بينما يقطن الآشوريون فى الشمال الغربى.

ومع تنوع الأعراق، تتعدد اللغة التى يتم الحديث بها حسب النسب المئوية التالية:[٩].

اللغة	النسبة
الفارسية	٥٠.٢٪
الآذرية	٢٠.٦٪
الكيلانية (تنطق جيم غير معطشة)[١٠].	٦.١٪
اللورية والبختيارى	٥.٧٪
الكردية	٥.٦٪
مازندرانية	٤.٩٪ وهى لهجة قريبة من الفارسية
بلوجية	٢.٣٪
العربية	٢.٠٪
تركمانية	١.٧٪
أرمنية	٠.٦٪
آشورية	٠.٤٪

الدين:

دين الدولة الرسمى هو الإسلام. والغالبية العظمى من الشيعة الاثنى عشرية وهى من الفرق المعتدلة الرئيسية والبعيدة عن الغلو والتطرف، ومعظم الأكراد والتركمان من السنة. والمسيحيون أكبر الأقليات وأكثريتهم من الأرمن الأرثوذوكسيين والآشوريين من النساطرة والبروتستانت والكاثوليك وهناك اليهود والزرادشتيون.

ويمكن تلخيص ذلك بالنسبة المئوية فأقول: إن المسلمين يمثلون ٩٨.٨٪ من السكان فى إيران، ٩١٪ من الشيعة، ٧.٨٪ من أهل السنة، والمسيحيون ٧٪، اليهود ٣٪، والزرادشتيون ١٪ ويمثل أتباع الأديان الأخرى ١٪ [١١].

وهكذا تتنوع الأعراق واللغة والديانة فى إيران.

يوضح موقع إيران أن أرضها جميعًا تقع فى المنطقة المعتدلة من الكرة الأرضية وفى نصف الكرة الشمالى منها بين

٢٥- ٤٠ درجة خط عرض شمالى خط الاستواء، وبين ٤٤- ٦٣,٥ درجة خط طول شرقى خط نصف النهار جرينيتش.

وأثبتت التجارب أن الدولة التى يكون جزء منها مجاورًا أو مطلا على البحار تكون مشكلاتها مع جيرانها قليلة وتكون فى وضع أفضل للمحافظة على استقلالها السياسى والاقتصادى، بالمقابل الدولة التى تكون جميع حدودها من اليابسة، فيتحكم فيها من نواح عديدة علاقاتها مع الدول المجاورة لها.

فيما يتعلق بالناحية الأولى نجد أن إيران بعيدة عن المحيطات والبحار الكبيرة، وإن كانت تطل من الناحية الشمالية والجنوبية على بحر الخزر فى الشمال (وهو بحر مغلق) كما تطل على بحر عمان والخليج فى الجنوب، وعن طريقهما يتم ارتباط إيران بدول العالم بحريًا وهو أمر بالغ الأهمية لتجارة إيران الخارجية مما يوضح بعض أسباب مشكلة الجزر فى الخليج.

والهضبة الإيرانية جسر يربط الأجزاء الشرقية والغربية من آسيا مما أكسب إيران أهمية خاصة عبر التاريخ فكانت الطريق الوحيد التى تربط أجزاء آسيا بعضها ببعض وكذلك تربطها بدول البحر المتوسط وأوروبا.

تتميز إيران بالميزات الآتية:

أولاً: هى إحدى الدول الكبيرة فى المنطقة، ولذا فهى تشارك مصر فى هذه الخاصية- فتعداد سكانها ومشكلاتها السكانية شبيهة بمصر أيضًا[١٢].

ثانيًا: إنها دولة غير عربية حدودها مشتركة مع عدد من الدول العربية.

ثالثًا: هى دولة إسلامية على المذهب الشيعى الإثنى عشرى وهو ثانى المذاهب الإسلامية بعد المذهب السنى السائد فى الدول العربية.

وهناك نسبة من الشيعة فى الدول العربية، تصل فى لبنان مثلا ٣٢٪ تقريبًا وفى الكويت ١٥٪ وسوريا ١٢٪ وفى العراق والبحرين بنسبة كبيرة، ويكثرون فى المنطقة الشرقية بالمملكة العربية السعودية.

رابعًا: إيران لها علاقة بأتباع المذهب الشيعى فى الأقطار العربية المجاورة.

خامسًا: تتبع إيران منذ عهد الشاه سياسة إغراق دول الخليج بجالية إيرانية كبيرة فى أعمال مختلفة ولها تجمعات مختلفة أيضًا فى سوريا ولبنان.

سادسًا: إيران تنتمى إلى العرق الآرى،

بينما تنتمى الشعوب العربية إلى الجنس السامى.

ثانيًا: النظام السياسى الحالى:

منذ صدور ميثاق المواطن من قبل الملك الفارسى كوروش قبل أكثر من ٢٥٠٠ سنة ظل النظام السياسى فى إيران ثابت الأركان من حيث مصادر السلطة ونوعية الحكم.

ولم يتعرض النظام طوال هذه الفترة إلى تغيير جذرى من حيث مصادر السلطة ونفوذ الحاكم ونوعية الحكم إلى أن قامت الثورة الدستورية فى إيران وصدر دستور١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م الذى حدد أسسًا جديدة مستمدة من التجربة الغربية فى الحكم. حيث تغير النظام القائم على سلطة الفرد إلى نظام مكون من ثلاث سلطات نابعة من الشعب باختياره ورقابته.

ورغم أن هذه الثورة معلم رئيسىٌ فى تطوير نظام الحكم فى إيران وسياسته الداخلية والخارجية. فقد تم إجهاض هذه التجربة وتحول البرلمان الذى يراقب الحكم إلى أداة طيعة فى يد الحاكم وحرص عضو البرلمان على إرضاء الحاكم قبل إرضاء الشعب.

وبانضمام الثوار جميعًا للخمينى بدأ الخمينى اتخاذ أولى خطوات النظام السياسى.

النظام السياسى:

أولا: الخلفيات: إيران وفارس اسمان مترادفان يدلان على مسمى واحد هو إيران الحالية أو الجمهورية الإسلامية فى إيران. وقد تلازم الاسمان، وإن طغى اسم فارس منذ التاريخ القديم، وطوال العصور الإسلامية حتى عام١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م حين أصدر رضا شاه الكبير مؤسس الأسرة البهلوية الحديثة أمرًا بأن يكون اسم الدولة الرسمى الذى يتم التعامل به فى الداخل والخارج هو إيران فقط.

أما تسمية إيران فترجع إلى أن الشعب الإيرانى ينتمى فى غالبية سكانه إلى الجنس الآرى الذى هاجر من موطنه الأصلى الذى تراوحت آراء الباحثين حوله: أهو.... وسط آسيا أو نهر الفولجا أو سواحل البلطيق أو إحدى المناطق الشمالية فى أوروبا؟ وهو فرع من مجموعة الشعوب الهندوأوروبية.

استوطن الآريون بعد انفصالهم وسط آسيا ثم نزحوا إلى الجنوب لينقسموا بعد ذلك فيتجه قسم منهم إلى الشرق حيث نهر السند وعرفوا بآريان هند (الهند فى تاريخ إيران القديم يعنى النهر) ومن هنا فإن هندوستان تعنى أرض الأنهار؛ بينما

اتجه القسم الآخر إلى الجنوب الغربى - واستقرت كل قبيلة منهم فى منطقة عرفت باسمها وأطلقوا على تلك الأرض بعامة اسم "إيران واج" أى أرض الآريين وأسموا أنفسهم أيريا أى النجيب والوفى وسميت المنطقة بذلك، ثم تحولت إلى إيران.

أما التسمية الثانية: فترجع إلى قبيلة "بارسًا" إحدى القبائل الآرية الست التى استقرت بتلك الهضبة ، وسميت كل منطقة باسم القبيلة التى استوطنتها ، وتطور مسمى موضع إقامة قبيلة بارسا إلى بارس ثم فارس ومنها خرج كوروش ووحد سائر قبائل الهضبة وأخضع ما حولها وكون أول إمبراطورية فى التاريخ وهى الإمبراطورية الهخمانشية عام ٥٥٠ ق.م.

وعرفت تلك الإمبراطورية باسم الإمبراطورية الفارسية نسبة إلى الإقليم الذى خرج منه من باب إطلاق الجزء على الكل وأضحت لغة هذا الإقليم لغة للدولة كلها وسميت باللغة الفارسية ، وسجلت النقوش التى خلفتها تلك الأسرة اسم الدولة فارس وعُرِفَ ملوكها باسم ملوك فارس، كما ذكرت التوراة كوروش باسم ملك فارس[١٣].

يبدأ التاريخ الفعلى لإيران منذ القرن التاسع قبل الميلاد ، وتأسيس أول دولة قوية فى الهضبة الإيرانية وهى الدولة المعروفة باسم دولة الماديين أواخر القرن الثامن وأوائل القرن السابع ق.م.

يلاحظ من الدراسات التى تمت عن تاريخ هذه الدولة ، التحول فى النظام الاجتماعى من الرعى وسكنى الخيام إلى الزراعة وتربية الدواب مما أفرز ثلاث طبقات هى: طبقة رجال الدين الذين قاموا بإجراء الطقوس الدينية والإشراف عليها ، ثم طبقة النجباء وهم الأمراء ورؤساء القبائل والمحاربون وأهل القرى ملاك الأرض. ثم تأتى بعد ذلك طبقة الحرفيين والتجار. فرجال الدين يمثلون ركنًا أساسيًا من أركان الزرادشتية؛ الدين الرسمى الأساسى عند الإيرانيين. وهم لا يتدخلون فى العلاقة بين الفرد والآلهة فحسب بل يتدخلون بين الأفراد بعضهم مع بعض.

هذا هو التاريخ الأول الذى يمكن ذكره لإيران، أى أن تاريخها يعود إلى ثلاثة آلاف عام تقريبًا. أما التاريخ الثانى فهو تاريخ تأسيس كوروش للإمبراطورية الفارسية الأولى أو الهخمانشية عام ٥٥٠ ق.م. تقريبًا وهو الذى أحتفل به شاه إيران

السابق محمد رضا عام١٣٩١هـ/ ١٩٧١م أى بمرور ٢٥٠٠ عام على قيام تلك الإمبراطورية وإعلان أول وثيقة لحقوق الإنسان.

تلك الإمبراطورية التى غزا كوروش أول ملوكها بابل بعد أن عبر نهر دجلة ٥٣٩ ق.م. ووصل مدينة بابل ٥٣٨ ق.م، فخضعت له وما يتبعها من بلاد من بينها فلسطين وفينيقية. وكانت صور وصيدا من أشهر مدن العالم أنذاك، كما أظهر كوروش مزيدا من العطف تجاه بنى إسرائيل الذى أسروا إبان حكم بختنصر.

ثم اتجه ابنه كمبوجيه (قمبيز) لغزو مصر عام ٥٢٥- ٥٢٩ ق.م إبَّانَ حكم أحمس، ولكن أحمس توفى قبل وصول قمبيز وتولى ابنه مكانه ولم يكن فى مقدرة أبيه. وقد عبر الجيش الفارسى الصحراء من فلسطين إلى مصر، وهزم الجيش المصرى ليواصل زحفه إلى ممفيس عاصمة مصر ويحتلها دون عناء ٥٢٥ ق.م فمكث قمبيز فى مصر حتى عام ٥٢٣ ق.م، وزحف فى تلك الأثناء إلى السودان والحبشة الحالية ولم يوفق ثم عاد إلى فارس.

ويخلفه من بعده فى حكم إيران داريوش الأول أو داريوش الكبير الذى توجه إلى مصر أيضًا عام ٥١٧ ق.م الذى اندلعت فيه الثورات لفساد واليها فأعدمه واستمال قلوب رجال الدين فى مصر وشارك المصريين فى مراسيم التعازى فى وفاة عجل أبيس متلافيًا ما كان كمبوجيه قد فعله . وتوجه إلى معابد المصريين وأظهر الاحترام والتقدير لآلهتهم وشيد معبدًا لآمون وأعاد كاهنهم الأكبر وأصلح الطرق التجارية فى مصر فعادت سيرتها الأولى وأمر بحفر قناة تربط البحر المتوسط (بحر المغرب) بالبحر الأحمر لتصبح التجارة مباشرة بين مصر وبلاد الهند.

ولم يحدث أى تغيير فى أوضاع مصر الداخلية ؛ فقد أبقى الأرض كما كانت فى أيدى النجباء من المصريين ورجال الدين منهم وترك حامية فى ممفيس، وفى مكانين آخرين؛ ولكن الفلاحين فى مصر ثاروا عليه ٤٨٦ ق..م. نتيجة للضرائب الباهظة المفروضة على الأرض(١٤).

استمرت هذه الإمبراطورية قائمة حتى قضى عليها الإسكندر الأكبر عام ٣٣٠ ق.م. وتوفى الإسكندر فجأة عام ٣٢٣ق.م ليخلفه أحد قادته فى حكم تلك البلاد، ثم حكمت أجزاء منها بأسر مختلفة حتى

قامت إمبراطورية ثانية فى تلك الهضبة وهى الإمبراطورية الساسانية، ثم بعد فترة خرج أردشير بن بابك واستطاع أن يؤسس الإمبراطورية الساسانية التى استمرت حتى ٦٥١م حين فتح العرب إيران بعد سلسلة من المعارك بدأت عام ١٢هـ/٦٣٣م بمعركة ذات السلاسل وانتهت بمعركة نهاوند ١٩هـ/٦٤٠م وسبقتها القادسية ١٦هـ/٦٣٧م، وخلال المعارك الخمسة التى خاضها الجيش العربى انتصر العرب فيها جميعًا عدا معركة الجسر ١٤هـ/٦٣٥م

ويستمر الجيش الإسلامى فى دخول تلك البلاد ومطاردة كسرى الفرس يزدجرد الثالث حتى عام ٣١هـ/٦٥١م حين سقطت الإمبراطورية الساسانية نهائيًا وأصبحت فارس كلها عدا المناطق الشمالية المجاورة لبحر الخزر مصرا من الأمصار الإسلامية[١٥].

وسمات تلك الإمبراطورية كثيرة أذكر منها سمة واحدة توضح دور الدين عند الآريين ومنزلة الحاكم فأقتبس نصًا من عهد أردشير الذى كتبه لابنه يوضح له فيه أساس الحكم قال: "واعلموا أن الملك والدين أخوان توأمان، لا قوام لأحدهما إلا بصاحبه، لأن الدين أساس الملك (وعماده). ثم صار الملك بعد حارس الدين، فلابد للملك من أسه، ولابد للدين من حارسه لأن ما لا حارس له ضائع وما لا أس له مهدوم، وإن رأس ما أخاف عليكم مبادرة السفلة إياكم إلى دراسة الدين وتلاوته والتفقه فيه، فتحملكم الثقة بقوة السلطان على التهاون به.. واعلموا أنه لن يجتمع رئيس فى الدين مسر ورئيس فى الملك معلن فى مملكة واحدة إلا انتزع الرئيس فى الدين ما فى يد الرئيس فى الملك، لأن الدين أس والملك عماد، وصاحب الأس أولى بجميع البنيان من صاحب العماد"[١٦].

وكان أردشير يعتقد أنه خليفة الله فى حكم البشر وأن طاعته من طاعة الله فقال حين حضرت الوفود لتهنئته بالملك: "قد أنزل الله الرحمة وجمع الكلمة، وأتم النعمة واستخلفنى على عباده وبلاده لأتدارك أمر الدين والملك اللذين هما أخوان توأمان وأقيم رسول العدل والإحسان".

بدخول الإسلام إلى فارس وانتشاره فيها وإقبال جُلِّ أهلها على الدخول فى دين الله أفواجا والإقبال على تعلم اللغة العربية وترك لغتهم الفارسية (البهلوية) تبدأ مرحلة تاريخية جديدة هى المَعْلَمُ

الثالث من معالم تاريخ إيران الذى يمتد ما يقرب من ١٤٠٠ سنة هو تاريخه الإسلامى وهو تاريخ مشرق ساهم الإيرانيون فيه بدور بارز فى علوم اللغة العربية والعلوم الإسلامية وفى الفكر الإسلامى والحضارة الإسلامية.

بدخول إيران فى الإسلام يكون حكم سبع دول قد انتهى فى إيران وتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ تلك الهضبة، حيث تعاقبت على الحكم فيها حتى قيام الجمهورية الإسلامية ٣٩ تسع وثلاثون دولة وأسرة حاكمة، كان من سيطر منهم على إيران كلها قلة من هذا العدد. وبعد فترة الحكم العربى لإيران والذى امتد ما يزيد على القرنين بدأ ظهور الدويلات الإسلامية فى المشرق منذ عصر الخليفة المأمون بن هارون الرشيد وتوالى على حكمها أسر ودول من أصل فارسى أو تركى.

كان الغزو المغولى لإيران علامة فارقة فى القرن السابع الهجرى -الثالث عشر الميلادى، وقد انتهى بسقوط الخلافة العباسية ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، وقيام دولة المغول فى إيران ثم تصدى المصريون للغزو المغولى وأنزلوا الهزيمة بهم لأول مرة منذ ظهورهم على مسرح الأحداث. مما أتاح الفرصة للعالم الإسلامى لتجميع شتاته مرة أخرى ولكنه لم يستفد منها.

تعاقبت الأسر الحاكمة على إيران إلى أن جاء الصفويون فى القرن العاشر الهجرى السادس عشر الميلادى. وسيطروا على إيران كلها. وأبرز ما تم خلال حكمهم اعتبار المذهب الشيعى الاثنى عشرى مذهبًا رسميًا للدولة وفرضه بالقوة والدخول فى حرب مع العثمانيين؛ فكانت حروب الشاه إسماعيل الصفوى والسلطان سليم العثمانى نموذجًا لفرقة العالم الإسلامى، وطبع الصراع بالصبغة المذهبية رغم أنها لم تكن وحدها السبب فى تلك الحروب.

ثم تعاقبت أسر حاكمة فى مناطق مختلفة من إيران إلى أن قامت الدولة القاجاريـة ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م، حتى١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، وأهم ما تميزت به هذه الدولة:

١ـ أنها سيطرت على إيران أو الهضبة الإيرانية كلها.

٢ـ اندلاع الثورة التى عرفت باسم أزمة التبغ١٣٠٩- ١٣١٠هـ/ ١٨٩١- ١٨٩٢م، حين باع الشاه القاجارى ناصر الدين حق احتكار التبغ للميجور الانجليزى تالبوت مقابل مبالغ زهيدة .

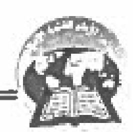
فبدأت الاضطرابات التى قادها رجال الدين وساهم فيها جمال الدين الأفغانى، وسائر فئات المجتمع فأجبر الشاه على إلغاء الامتياز، وانتهى الأمر بمقتل ناصر الدين بعد فترة حكم قاربت الخمسين عاما، عمل خلالها على الانفتاح على أوروبا وحكم البلاد حكمًا مستبدًا.

خلفه ابنه مظفر الدين، فسلك سياسة مغايرة شجعت على إنشاء جمعيات مختلفة وشجعت المعارضة على إنشاء جمعيات شبه سرية من بينها خمس لعبت دورًا رئيسيًا فى الحركة الدستورية التى تمثل معلمًا من معالم تاريخ إيران بعامة وتاريخ الدولة القاجارية بصفة خاصة.

٢ـ الحركة الدستورية التى بدأت إرهاصاتها نتيجة انفتاح إيران على الغرب وسفر البعثات من الدارسين إلى أوروبا لتحديث المجتمع الإيرانى فى قطاعاته المختلفة وإنشاء دار الفنون (الجامعة) وسفر الشاه إلى روسيا وأوروبا مرات عديدة والوقوف على ما كانت عليه من تقدم ومقارنة ذلك بما كانت عليه إيران من وضع مغاير تمامًا.

بدا ذلك واضحًا فى أعمال أئمة الفكر والإصلاح فى إيران.، الذين هاجموا علماء الدين ووصفوهم بالجهل وعدم تقدير قيمة العلم الحديث ودوره فى رقى الأمم.، وتم إنشاء صحيفة مشهورة باسم (القانون) من لندن وصدر منها العدد الأول١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م. واستمرت ثمانى سنوات وكان مجموع ما صدر منها أربعين عددًا كان شعارها (الوحدة - العدالة- التقدم). اعتبرت هذه الصحيفة فيما بعد أحد عوامل اندلاع الحركة الدستورية (الثورة)؛ فقد تناولت موضوعات فى غاية الأهمية مثل أهمية الحرية وضرورة توافرها وما تكفله من نقاش حر لكل ما يتعلق بالصلة بين الشعب والحاكم، وأهمية العلم والعلماء وضرورة التحالف معهم والإفادة منهم، وضرورة إنهاء كل الصراعات المذهبية بين الشيعة والسنة، وإنهاء كل الامتيازات الممنوحة للأجانب المستغلين، وتكوين جمعية وطنية للشورى.

كان ذلك - بالإضافة إلى العديد من المؤسسات الحديثة التى أنشأتها الدولة- عاملا قويًا فى ظهور طبقة واسعة وجديدة من المفكرين المستنيرين ومنابر الفكر، آمنوا بالتقدم الإنسانى وضرورة الأخذ بأسبابه وأنه لابد لتحقيق ذلك من تحطيم القيود الثلاثة:



أولا: الاستبداد الملكى لأنه عدو للحرية.

ثانيًا: سيطرة البرجماتية الاكليريكية، فهم خصم أيديولوجى للمعرفة العلمانية.

ثالثًا: الاستعمار الأجنبى كمستغل اقتصادى للدولة الضعيفة، لذا رأت فى الدستورية والعلمانية والقومية ثلاثة أسس رئيسية من أجل التوصل لإيران الحديثة.

لذا انطلقت حركة مقاومة الوضع القائم منذ عام١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م لتستمر سنوات تخللها إقرار دستور١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م لأول مرة فى إيران وهو ما عرف باسم الحركة الدستورية أو الثورة الدستورية فكانت المرة الأولى فى تاريخ إيران التى تجرى فيها محاولة الحد من سلطة العرش ونقل السلطة إلى هيئة منتخبة.

٤ـ اضطرت الدولة القاجارية تحت ضغط الروس إلى التخلى عن قسم من أراضى أذربيجان الشرقية وجزء من أرمينيا إلى الاتحاد السوفيتي وقتذاك، كما أفسحت المجال للشركة البريطانية شركة الهند الشرقية لاستغلال البلاد.

٥ـ كان التدخل الروسى البريطانى من الأسباب الرئيسية للقضاء على هذه الدولة؛ فمنذ عام ١٣٣٨هـ/١٩١٩م لم تعد فى إيران حكومة مركزية، وتعددت الحركات الانفصالية فى أقاليم مختلفة مثل خراسان وكيلان وغيرها. لذا تحرك رضا خان بفرقة القوزاق الروسية وعددها ٣٠٠٠ ثلاثة آلاف مقاتل من قزوين إلى طهران بتشجيع من انجلترا وروسيا فكان ذلك إرهاصًا بالقضاء على هذه الدولة وخلع آخر سلاطينها عام١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، وتأسيس الأسرة البهلوية ليتوج رضا خان نفسه ملكًا على البلاد عام١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م.

ويبدأ حكم الأسرة البهلوية ١٣٤٤هـ ١٩٢٥م، حتى عام ١٤٠٠هـ/١٩٧٩م، ويتولى الحكم فيها رضا شاه حتى١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م، حيث أخرجته أيضًا نفس القوى الأجنبية فخلفه ابنه محمد رضا منذ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م، حتى ١١ فبراير ١٩٧٩م، أى أن الدولة البهلوية بدأت بمساعدة من قوى أجنبية وأن القوى الأجنبية أيضًا ممثلة فى انجلترا وروسيا هى التى أرغمت رضا شاه على ترك البلاد لابنه محمد رضا.

كان من أبرز ما قام به رضا شاه(١٧):

١ـ القضاء على حركة الانفصال التى اندلعت فى كردستان وآذربيجان

وخراسان وبلوجستان ولورستان وخوزستان وشيخ خزعل، وسحق التمرد فى جميع أنحاء المملكة.

٢ـ أعاد لإيران وحدتها تحت سلطة مركزية واحدة.

٣ـ أقام علاقة طيبة مع جميع دول العالم.

٤. سعى إلى ربط إيران بالعالم الغربى، وتحديث إيران.

٥ـ إدخال البريد والتليفون والراديو، وتحرير المرأة وخلع الحجاب، والعمل على تغيير أنماط الحياة حتى ملابس الرجال والنساء بالزى الأوروبى مع قلنسوة للرجال خاصة بإيران[١٨]. نجم عن حركة تحرير المرأة أن شاركت المرأة فى الحياة العامة مشاركة فعالة.

٦. تكوين جيش قوى وبروز دور إيران كدولة لها دور رئيسى فى أحداث العالم.

٧. ربط سائر أنحاء إيران بشبكة من الطرق والسكك الحديدية.

٨ شجع بناء المصانع الحديثة.

٩. أصدر قانونا بحظر نشاط الأحزاب الشيوعية والاشتراكية

١٠ـ أدى المزيد من إنشاء المصانع إلى زيادة عدد العمال وكوَّنوا نقابات لهم كان لها دورها فيما بعد.

١١ـ أصدر رضا شاه قرارًا بتغيير التاريخ الهجرى القمرى إلى هجرى شمسى[١٩].

١٢. محاولة إخضاع رجال الدين للدولة.

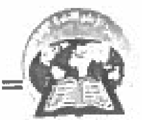
١٣ـ غير اسم عربستان بعد القضاء على ثورة الشيخ "خزعل" إلى خوزستان وعمل على تغيير هوية المناطق العربية. فغير اسم مدينة الناصرية إلى الأهواز، والمحمرة إلى "خرم شهر" كما هجَّر كثيرًا من القبائل العربية إلى خراسان وإلى أواسط وغربى إيران أيضًا.

١٤. قيام عدد من الاتحادات والنقابات وتخفيف الرقابة على الصحف، وتقوية الأحزاب السياسية.

ومع هذا فقد تصاعدت دكتاتورية الشاه، وتصاعدت قوى المعارضة. وانتهى الأمر بنفى رضا شاه عام١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م وتولى ابنه محمد رضا للحكم فى نفس العام.

استمر محمد رضا حتى١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م أى أن فترة حكمه ناهزت سبعة وثلاثين عامًا- فى ظل احتلال انجليزى روسى لإيران، وسيطرة على مقاليد الأمور.

كانت أولى خطواته داخليًا: الإفراج عن ١٢٥٠ معتقلا سياسيًا من المثقفين.



كان من بينهم قدماء النقابيين، ومجموعة من شباب الماركسيين المعروفين باسم المنشقين الثلاثة والخمسين، الذين أسسوا بقيادة مصطفى فاتح حزب توده عام١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م بعد أن رفع الشاه الحظر المفروض من قبل والده عن الترويج للمبادئ الاشتراكية، ضمن مناخ عام من الحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية.

ثانيًا: اقتفاء سياسة والده فى تحديث البنية الاجتماعية والاقتصادية.

ثالثًا: "العمل بدأب ودبلوماسية شديدة على إنهاء السيطرة الأجنبية الموجودة بالبلاد .

وكان للولايات المتحدة فى العام الأخير من وجودها أكثر من ٢٨ ألف جندى[٢٠].

ويمكن القول إن عام١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م، هو نهاية الفترة الأولى من فترات حكم محمد رضا أى من عام ١٣٢٠-١٣٢٥هـ ش .

وفيها خضعت البلاد للسيطرة الأجنبية ونجح الشاه فى تحرير بلاده وإعادة سيطرة الدولة على كل أراضى كردستان وآذربيجان بعد انسحاب الاتحاد السوفيتى منها فتوحدت إيران كلها تحت حكمه لأول مرة.

امتدت المرحلة الثانية من حكم الشاه من ١٣٢٥/١٣٣٢هـ= ١٩٤٦- ١٩٥٣م، وأبرز سمات تلك المرحلة تعاظم منزلة الدكتور محمد مصدق وتكوين الوطنية ذات الدور البارز والأساسى فى الحركة السياسية فى إيران، .التى تصدت لمحاولات الروس للحصول على امتيازات نفطية فى شمال إيران كما تصدت لخطوات الشاه التى بدأ إنجازها منذ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩م لإنشاء دولة أوتوقراطية تخمد فيها كل أنواع المعارضة، وإعلان الأحكام العرفية.

أصدر الشاه أمرًا فى مايو١٣٧٠هـ/ ١٩٥١م بتعيين دكتور محمد مصدق رئيسًا للوزراء كصمام أمان فى وجه الثورة الجماهيرية. حيث قام محمد مصدق بتأميم صناعة النفط وكان مطلبًا جماهيريًا حزبيًا عام١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م وفشلت تلك السياسة لأسباب داخلية وخارجية.

عاد الشاه من الخارج فى أغسطس١٣٧٢هـ ١٩٥٣م ليمسك بيديه كل السلطات ويتم القبض على معظم قادة الجبهة الوطنية بمن فيهم محمد مصدق وأعدم وزير خارجيته وأودع محمد مصدق السجن لمدة ثلاث سنوات، ثم

وضع قيد الإقامة الجبرية حتى وفاته عام ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

استمرت المرحلة الثالثة من حكم الشاه من عام١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م حتى عام١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، تلك المرحلة التى شهدت محاربة الجبهة الوطنية واستعادة الشاه لجميع سلطاته التى سلبتها منه ثورة مصدق وعلا أمر الجيش وطائفة من علماء الدين المتحالفين معه.

أما المرحلة الرابعة والأخيرة من حكم الشاه فقد امتدت (١٩٥٥م- ١٩٧٩م/ ١٣٣٤هـ- ١٣٥٧هـ ش) وقد تميزت تلك المرحلة بما يلى:

أولا: أسرع الشاه الخطى لتحديث إيران وتطويرها، متخذا من النظام الأوروبى نموذجًا يحتذى به، ولم يعط فترة التاريخ الإسلامى الطويل أية عناية.

ثانيًا: فى الثانى من مارس ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ألغى تعدد الأحزاب وأعلن قيام حزب واحد هو حزب رستاخير أى البعث ووعد بإجراء انتخابات حرة وحث كل فرد على المشاركة فى تنظيمات الحزب أداء لواجبهم فى خدمة وطنهم.

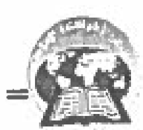
ثالثًا: أضحى الشاه منذ بداية السبعينيات واحدًا من كبار القادة السياسيين فى العالم وبدت نبرة التعالى والغرور تعتريه وانعكست على معاملاته داخليًا وخارجيًا.

فى منتصف ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م وصل نظام الحكم والمعارضة إلى نقطة اللاعودة ولم يستطع أى منهما فرض هدفه على الآخر.

رابعًا: شن هجومًا شديدًا على المؤسسة الدينية المحافظة، وأطلق عليهم اسم الرجعية السوداء، وأن حوزتهم العلمية مياه آسنة، واتهمهم بالحماقة والجهل، وسجن بعضهم وأعدم ونفى آخرين. وامتنع عن التعامل معهم، وضيق الخناق على مدارسهم الدينية وحوزاتهم العلمية.

خامسًا: أصبحت الدولة بجميع مؤسساتها بابا مفتوحًا وأرضًا خصبة للولايات المتحدة ولأوروبا بعامة فكانت مقدرات الدولة فى أواخر حكم محمد رضا مرتبطة بأوروبا والولايات المتحدة بنسبة تقريبية تصل إلى ١٠٠٪ فى مجال التسليح، و٨٠٪ فى المجال الثقافى والعلمى من حيث الارتباط بالجامعات ومراكز البحث العلمى. وفى مجال الزراعة كان الاعتماد على الموارد الأولية بنسبة ٥٠٪.

وفى المجال السياسى كان الارتباط



بأوروبا وأمريكا ومؤسساتها بنسبة ٩٠٪[٢١].

سادسًا: أحاط الشاه نفسه بجماعات كبيرة من المستشارين الأوروبيين والأمريكيين بلغت ستين ألف أمريكى وعشرين ألف إنجليزى، وعدة آلاف من كل من ألمانيا وفرنسا والسويد وسويسرا وعدة آلاف من روسيا ودول أوروبا الشرقية واليابان.

كان الشاه يريد أن يجعل من إيران القوة العسكرية الرابعة فى العالم والقوة الخامسة اقتصاديًا حتى تنافس اليابان فى هذا الصدد.

وبعد منتصف١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م شكل العمال لجنة فى كل مصنع نجم عنها لجنة مركزية للإعداد لإضراب عام. وهكذا شاركت فئات عديدة من الشعب ضد الشاه وظل الجيش بعيدًا.

أ.د/السباعى محمد السباعى

الهوامش:

(١) أسماه الجغرافيون العرب: بحر قزوين والخزر نسبة إلى الأقوام التى استوطنت شماله وشماله الغربى مثل الآراميين، يسميهم الأوروبيون كاسين نسبة إلى سكانه المعروفين باسم كاس سو.

(٢) هذه التسمية أطلقها أحد قادة الإسكندر الأكبر فى أثناء عبور جيشه لهذا الممر المائى وإنزال الهزيمة بالامبراطورية الهخمانشية أى أن التسمية وقت الهزيمة كما أن التسمية لا تعنى الملكية ومن هنا لا أجد غضاضة فى استخدام مسمى الخليج الفارسى أو العربى أو الخليج فقط.

- وحدودها كاملة مع دول الكومنولث وهى ميزة تتفوق بها على تركيا التى لا يربطها بدول الكومنولث سوى ١٢ اثنى عشر ميلا، وربما يكون لها تأثير فى موقف كل من إيران وتركيا من مشكله ناكور نوقرة باغ.

(٣) ربيع بديعى- جغرافياى مفصل إيران ١- ٢- ٣ تهران ١٣٦٧ إيران اليوم ١٤١٠هـ/١٩٩٠م طهران منظمة الإعلام الإسلامى.

(٤) استولى عليه البرتغال عام ٨٨٦هـ/ ١٤٨١م حيث أقاموا به العديد من الإنشاءات والاستحكمات التى استمرت أكثر من قرن حين تم طرد البرتغاليين منه عام ١٠٠١هـ /١٦٢٢م، فى عهد الشاه عباس الصفوى.

(٥) شاهنشاى بهلوى ص١٨٦: جغرافيا مفصلى إيران، جـ١.

(٦) ويعيشون فى الجبال الغربية، بينما يعيش البختيار فى جبال زاجروس إلى الغرب من إصفهان وكانوا يعرفون باسم اللور العظام حتى القرن الخامس عشر الميلادى /التاسع الهجرى، كلاهما يتحدث اللورية وهى متفرعة من اللغة الفارسية مثلهم مثل البلوج.

(٧) يقطنون الجبال الغربية، ولغتهم الكرديه: وأكراد إيران (كردستان) هو ثانى أكبر تجمع سكانى للأكراد بعد تركيا، ففى إيران أكثر من (٦) ستة ملايين كردى تقريبًا، بينما فى تركيا ما يناهز عشرة ملايين تقريبًا، وأربعة ملايين فى العراق تقريبًا.

(٨) إيران اليوم ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٣٩، منظمة الإعلام الإسلامى- طهران الطبعة الأولى ١٤١١هـق/١٩٩١م.

(٩) شاهنشاهى بهلوى، ص١٨٨.

(١٠) هناك حروف فارسية أربعة تضاف إلى الأبجدية العربية لتكون أبجدية اللغة الفارسية هى:

پ: الباء الفارسية أو المعلقة وتنطق مثل حرف P فى اللغات الأوروبية.

چـ: الج الفارسية المثلثة وتنطق مثل ch فى اللغات الأوروبية.

ژ: الزاى الفارسية وتنطق مثل حرف j فى اللغات الأوروبية.

گـ: الفارسية وتنطق مثل حرف ج عند أهل القاهرة.

(١١) إيران اليوم، ٩١.

(١٢) كانت نسبة النمو السكانى فى إيران عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، ٣,١٪ (نسبة الولادة ٣٦ فى الألف والوفيات ٥ خمسة بالألف، مما يدفع وزير الصحة رضا ملك زاده إلى إصدار تصريح جاء فيه أن الحكومة اتخذت قرارًا بحرمان الطفل الرابع الذى يولد اعتبارًا من عام ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م من الكوبونات الخاصة بتقنين الغذاء وحق التأمين.

- وكان عدد السكان عام ١٩٠٠ م ٩,٦ مليون تقريبًا، وفى عام١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م- ١٤,٦ مليون وأخذت الزيادة تترى لترتفع من ١٩٥٦م- ١٣٣٥هـ ش، ٢٠,٧ مليون وفى عام ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م إلى ٥٣ مليون ثم ترتفع عام ١٩٩١م-١٣٧٠هـ إلى ٥٧,٣ بمعدل زيادة قدرها ٢,٩٥٪ ثم انخفض معدل الزيادة حاليًا إلى ٢,٣٦٪ ليصل عدد سكان إيران طبقًا لهذا المعدل عام ١٣٧٧هـ ش أى ٢٠٠٠م إلى ٦٧,٣ مليون نسمة، (فريد هوليداى مقدمات الثورة، ص٢٢) و (كيهان فى ٢٢/١٩٤٤م).

- فى نهاية الثمانينات كانت المجموعة السنية التى تمتد من صفر إلى ٩ سنوات تمثل نسبة ٣٣,٣٪ من عدد السكان فى إيران، لتتخفض هذه النسبة مع التوعية والتنظيم إلى ٣١,٦٪ عام ١٣٧٠هـ ش /١٩٩١م وأشار تصريح لمسئول إيرانى أن

تخفيض نسبة النمو السكانى بنحو تسعة أعشار فى المائة من شأنه زيادة الاستثمارات فى البلاد بما لا يقل عن ٢.٧٪.

- ومن هنا لم يكن مفاجئًا أن تحضر إيران بوفد عال المستوى المؤتمر الدولى للسكان والتنمية الذى عقد بالقاهرة خلال الفترة من ٥ إلى ١٣ من سبتمبر ١٩٩٤م /١٤١٥هـ رغم الحملات الداخلية والأصوات العالية المعارضة التى أعلنت على المنابر فى خطب الجمعة، كما كتب العديد من المقالات فى الصحف وصدرت البيانات مطالبة بمقاطعة المؤتمر، وقد أشار إلى هذا الموقف الأستاذ عباس ملكى رئيس المعهد الدبلوماسى بوزارة الخارجية الإيرانية ووكيل الوزارة بها فى محاضرته التى ألقاها فى مركز البحوث والدراسات السياسية بجامعة القاهرة فى أكتوبر ١٩٩٤م.

(١٣) التوراة -عزرا- الإصحاح الأول ٢- ٤ .

(١٤) حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم. الترجمة العربية محمد نور الدين والسباعى مراجعة يحيى الخشاب، ص٩٦، القاهرة، ١٩٧٩م .

(١٥) دخلت جماعة منهم الإسلام عملا بمبدأ التقية. وحاولوا دراسة اللغة العربية وإعلان الإسلام للنيل منه وبقيت طائفة على دياناتها القديمة .

(١٦) بطروشوفسكى -الإسلام فى إيران- الترجمة العربية- السباعى محمد السباعى ، ص٧٢، وما بعدها. إحسان عباس -عهد أردشير، ص٥٢، بيروت، ١٩٦٧م.

(١٧) جعفر شاهيدى دودمان بهلوى- طهران الطبعة الثانية ١٣٣٢هـ ش .

(١٨) أصدر أمرًا بأن يرتدى الوزراء والمديرون ورؤساء الإدارات وموظفو الدولة ثيابًا موحدة وقلنسوة طويلة وهى المعروفة باسم القلنسوة البهلوية، كما أصدر أمرًا مماثلا بارتداء القلنسوة وزى خاص، وحين عارض الموظفون وكبار رجال البازار عرض هذا الأمر على البرلمان وسن قانونًا بذلك سنة ١٣٠٧هـ /١٨٨٩م ، واستثنى من ذلك فئات ثمانية معظمها خاص بالمؤسسة الدينية.

(١٩) يبدأ هذا التقويم من يوم ٢١ مارس وهو أول السنة الإيرانية المعروف باسم عيد النوروز. صدر قرار العمل به عام ١٣١٤هـ، بعد مذبحة مسجد كوهر شاد .

(٢٠) جعفر شاهيدى دودمان بهلوى، ص٢١٤ .

(٢١) شاهنشاهى بهلوى، ج٣ .

مراجع للاستزادة:

١. إيران اليوم (١٤١٠هـ- ١٩٩٠م): منظمة الإعلام الإسلامى، طهران، طبعة أولى ١٩٩١م.

٢. ربيع بديعى: جغرافيا متص إيران- تهران، ١٣٦٧م.

٣ـ حسن بيرنيا: تاريخ إيران القديم . الترجمة العربية: محمد نور الدين والسباعى محمد السباعى، مراجعة يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٧٩م.

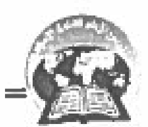
٤. بطروشوفسكى: الإسلام فى إيران: ترجمة السباعى محمد السباعى. القاهرة.

باب الأبواب

ذكر ابن سعيد الأندلسى فى كتابه «كتاب الجغرافيا»، أن مدينة الباب، قاعدة سلطنة الباب، هى ثلاث قطع على نهر أتِل الكبير عند مصبه فى بحر طبرستان، وأن القطعة الجنوبية فيها كانت للمسلمين، والقطعة الشمالية كانت لليهود والنصارى والمجوس، والقطعة فى الجزيرة كانت لخاقان الخزر، وكان يهوديًا، ثم خربها الروس، وأزالوا سلطنة الخزر منها، وعمرت بعد ذلك بالمسلمين، فخربها التتار. وفى شرقيها فى بحر طبرستان جزيرة الباب، وهى كثيرة المروج يرعى فيها أهل الباب مواشيهم. وفى شرقيها جزيرة البركان، فيها جبل لا تبرح النار تتقد فيه بالليل والنهار، ويصعد منه الدخان مثل بركان صقلية وبركان الهند.

ويواصل ابن سعيد حديثه عن موقع الأبواب فيقول بأن الملك الفارسى كسرى أنوشروان الساسانى قد بنى سورًا عند جبال القوقاز بين بحر طبرستان وبحر سينوب، وفى هذا السور بنى (الأبواب) التى قيل إنها كانت سبعة لكل أمة من الأمم التى فى شمال هذا السور وعليه حصن فيه حَفَظَة، كانوا يمنعون تلك الأمة التى تلى ذلك الباب من الدخول عليه إلى بلاد الأكاسرة. وأعظم هذه الأبواب: باب الحديد، وهو يُعرف إلى الآن كذلك. وعلى دور الجبل إلى جانبه (قلعة العلان)، ويسميها الأرمَنْ (تورن الأنات) Tourn Alanat والذى لاتزال آثاره قائمة على الضفة اليسرى لنهر (تيرك) Terk قرب مضيق بين جبلين، وهى إحدى قلاع العالم، وهى ملثمة بالسحاب.... ويُقال إن التتار قاسوا عليها شدة ولم يأخذوها إلا بالحيل بعد مدة. وما فى شمال هذا السور اليوم فهو فى حيز ابن بركة (بركة خان) من التتار المسلمين، وما فى جنوبيه لابن هلاون، سلطان التتر الكفار.

وقاعدة هذه الأبواب وسلطنتها هى مدينة (الباب) . ويقول ابن سعيد، أيضًا، إن الذى وضع هذا الباب الفضل بن يحيى البرمكى فى عهد هارون الرشيد، وضعه فى وجوه الترك الذين كانوا يغيرون من المشرق على بلاد الإسلام. ويقول إن هنالك حائطًا ممتدًا من الشمال إلى الجنوب، شرقى ذلك إقليم تركستان، وهو إقليم طويل عريض له قاعدة غربية وهى (كاشغر)، والثانية شرقية وهى (برسجان). وكانت هذه فى زمن الفضل



ابن يحيى البرمكى لكفار الترك ثم أسلموا بعد ذلك ودخلوا فى طاعة المسلمين وامتد الإسلام بهم إلى أرض التبت.

ولقد تحدث الإصطخرى (أبو اسحق إبراهيم بن محمد الفارسى، المعروف بالكرخى) فى كتابه «المسالك والممالك» عن مدينة «باب الأبواب»، عند حديثه عن بلاد أرمينية وأذربيجان، وذكر بأنها مدينة على البحر، وفى وسطها مرسى للسفن، وبين هذا المرسى وبين البحر قد بُنى على حافتى البحر سدان، حتى ضاق مدخل السفن، وجعل المدخل ملتويًا....، وباب الأبواب، واسمها القديم الأصلى (دربند) على بحر طبرستان هى مدينة أكبر من مدينة (أردبيل)، ولهم زروع كثيرة وثمار قليلة، إلا ما يُحمل إليهم من النواحى، وهى مدينة عليها سور من حجارة وآجر من طين، وهى فرضة بحر الخزر، وهو بحر قزوين، وهى أيضًا فرضة جرجان وطبرستان والديلم. ويرتفع منها ثياب كتان، وليس بالران وأرمينية وأذربيجان كتان إلا هناك، وبها زعفران، ويقع إليها رقيق من سائر دور الكفر، (وتفليس) مدينة دون باب الأبواب فى الكبر، وليس بالران مدينة أكبر من برذعة والباب وتفليس.

ولقد تكلم أهل باب الأبواب بلغة الخزرية وسائر لغات جبالهم، ومعاملاتهم الدراهم، وربما تعاملوا بالدينار، والطريق الموصِّل من بلدة برذعة إلى باب الأبواب، كما أورد الإصطخرى كالتالى: «من برذعة إلى برزنج ١٨ فرسخًا، ومن برزنج إلى معبر الكر إلى الشماخية ١٤ فرسخًا، ومن الشماخية إلى شروان ٣ أيام، ومن شروان إلى الأبخاز يومان، ومن الأبخاز إلى جسر سمور ١٢ فرسخًا، ومن جسر سمور إلى باب الأبواب ٢٠ فرسخًا».

وقد ذكرت المصادر الجغرافية الأخرى، مثل ابن حوقل وياقوت الحموى فى حديثها عن باب الأبواب أنها مدينة على بحر طبرستان، وهى أكبر من أردبيل، محكمة البناء وثيقة الأساس من بناء (أنوشروان)، وهى أحد الثغور الجليلة، كثيرة الأعداء الذين حفوا بها من أمم شتى وألسنة مختلفة وعدد كثير، وإلى جنبها جبل عظيم يُعرف بالذئب، يُجمع منه حطب كثير فى كل سنة ليشعلوا فيه النار إذا احتاجوا إليه، يُنذرون أهل أذربيجان وأرمينية من عدوان دهمهم، وربما أصاب ماء البحر سور المدينة. ويقال إن على هذا الجبل الممتد

الذى عليه باب الأبواب ما يزيد عن سبعين لغة لا يعرف الجار لغة جاره لاختلاف الألسن.

وكانت الأكاسرة (الفرس) يهمهم أمر هذا الثغر لعظم خطره وجلال مقداره، فأقامت لهذا المكان حَفَظَة من ناقلة بلدانهم وثقاتهم لحفظ ذلك. وأُطْلِقَ لهم عمارة ما قدروا عليه بلا كلفة للسلطان وأتيح لهم ذلك حرصًا منهم على عمارة هذا الثغر وصيانته من أصناف الكفرة.

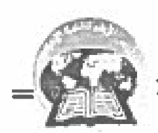
ولقد أشار ابن بطوطة فى كتاب رحلته إلى مدينة الباب، وأسماها مدينة (دربند)، وهو يتحدث عن رحلته إلى تبريز وماردين فذكر بأنها مدينة عتيقة كبيرة المنظر، لها قلعة مشرفة، إلا أنه أضاف بأنها كانت خرابًا حين وصل إليها لا عمارة بها، وقد خربها التتار عند إغارتهم على بلاد العالم الإسلامى. وذكر بأن خارجها توجد قرية معمورة كان نزوله فيها.

ولقد ذكر ابن الأثير فى كتابه الكامل (جـ٢) فتح المسلمين لمدينة الباب عام ٢٢ للهجرة/٦٤٢م ضمن ذكره لفتوح المسلمين لأذربيجان، فذكر أن «نُعَيم بن مُقرّن»، بعد أن افتتح (الرى) بعث سماك ابن خرشة الأنصارى بمدد لبكير بن عبدالله بأذربيجان، أمره الخليفة عمر بن الخطاب بذلك، فسار سماك نحو بكير، فقاتل بكير اسفنديار وقام بهزيمته وأسره. وكتب بكير إلى عمر يستأذنه فى التقدم فأذن له أن يتقدم نحو (الباب).

وفى هذه السنة فُتح الباب، وكان الخليفة عمر قد رد أبا موسى الأشعرى إلى البصرة وبعث سُراقة بن عمرو، وكان يُدعى ذا النور، إلى الباب وجعل على مقدمته عبدالرحمن بن ربيعة، ولما أطل عبدالرحمن على الباب راسله شهريار، ملك الفرس، الذى كان بها، يطلب منه الصلح، فصالحه على الجزية، وأقره الخليفة عمر على ما صالحه عليه.

وفى عام ٧٣ هـ/٦٩٢م، استعمل الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان أخاه محمد ابن مروان على الجزيرة وأرمينية فغزا منها وأثخن.

وفى سنة ١٠٤ هـ/٧٢٢م، دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية وعليهم «تثبيت النهروانى»، فاجتمعت الخزر فى جمع كثير وأعانهم القفجاق وغيرهم من أنواع الترك فلقوا المسلمين فى مكان يُعرف «بمرج الحجارة» فاقتتلوا هنالك قتالاً شديدًا فقُتل من المسلمين بشر كثير



واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه، وبعد هذه الهزيمة طمع الخزر فى البلاد فجمعوا وحشدوا، واستعمل الخليفة الأموى يزيد بن عبد الملك: (الجراح بن عبد الله الحكمى) حينئذ على أرمينية، وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم من الأعداء وبقصد بلادهم، فسار الجراح وتسامع الخزر به فعادوا حتى نزلوا (بالباب والأبواب)، ووصل الجراح إلى برذعة فأقام حتى استراح هو ومن معه وسار نحو الخزر فعبر نهر الكر، فلما كان الليل سار الجراح بجيشه حتى انتهى إلى مدينة (الباب والأبواب) فلم ير الخزر فدخل البلد فبث سراياه فى النهب والغارة على ما يجاوره فغنموا وعادوا من الغد. وسارت الخزر إليه وعليهم ابن ملكهم فالتقوا عند نهر الران واقتتلوا قتالاً شديدًا وظفر المسلمون بالخزر وهزموهم وتبعوهم يقتلونهم ويأسرونهم، ثم عادت جيوشهم إلى مدينة الباب والأبواب.

أ.د / عطية القوصى

مصادر للاستزادة:

١. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.
٢. الإصطخرى: المسالك والممالك
٣. ابن حوقل: صورة الأرض.
٤. ياقوت: معجم البلدان.
٥. ابن سعيد الأندلسى: الجغرافيا.
٦. ابن بطوطة: الرحلة.
٧. البلاذرى: فتوح البلدان.

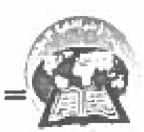
باكستان

كلمة «باكستان» مكونة من كلمتى «باك» ومعناها طاهرة و«ستان» معناها أرض، أى الأرض الطاهرة وهما كلمتان فارسيتان دخلتا اللغة الأردية التى اختارتها دولة باكستان لغة رسمية لدى استقلالها عن الهند فى ٢٧ رمضان عام ١٣٦٦هـ/ الموافق ١٤ أغسطس ١٩٤٧م؛ وذلك عقب انتهاء الاستعمار الإنجليزى الذى لعب دورًا كبيرًا فى التقسيم ،وقد انضمت كل من المناطق الشرقية والغربية إلى باكستان . وتضم الناحية الغربية كلا من كراتشى مركز حكومة باكستان بعد الاستقلال، وإقليم بلوجستان وبيشاور وإقليم الحدود والسند والبنجاب، واتخذت باكستان من مدينة كراتشى عاصمة لها ثم انتقلت منها إلى مدينة راوليندى ثم إلى إسلام آباد عاصمتها الحالية. هذا وقد حدث خلاف سياسى كبير حتى وصل الأمر إلى الحرب بين باكستان الشرقية والغربية وانتهى الحال باستقلال باكستان الشرقية التى أطلق عليها اسم بنجلاديش؛ وكان ذلك فى عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٤م.

جغرافيته باكستان: يمكن تقسيم دولة باكستان إلى ثلاث مناطق جغرافية هى:

١ـ **مناطق جبلية:** حيث تمتد سلسلة من الجبال فى شمال وغرب باكستان ومنها جبال الهند كوش التى تمتد من الشمال حتى البحر جنوبًا، ومنها سلسلة من الجبال الممتدة فى غرب وادى سند والتى تصل إلى بحر العرب شمالاً وجنوبًا، ومن أشهر هذه الجبال «كوه سفيد»، و«كوه سليمان»، و«وكوه كيرته» وغيرها والتى تصل إلى التركستان وأواسط آسيا عبر بلاد الأفغان وإلى إيران عبر بلوجستان، وتوجد فى هذه الجبال ممرات عديدة كانت تساعد الغزاة والمهاجرين على الدخول إلى شبه القارة الهندية، أشهرها «ممر خيبر»، و«كرم» و«كومل»، و«توجى» و«بولان» وغيرها.

٢ـ **مناطق ميدانية:** يطلق على نصف الأراضى الشرقية ميدان السند، ويجرى فيه نهر السند الرئيسى، وروافده الخمسة وهى «ستلج»، «راوى»، «جناب»، «بياس»، «جهلم»، ولها رافد سادس هو نهر كابل الذى ينبع من جبال الهند كوش ويلتقى بالنهر الرئيسى فى ناحية الغرب، ومن أشهر المناطق الزراعية



البنجاب والسند، وبهاول بور.

٣ـ مناطق عالية: تتقسم هذه المناطق إلى: أ. بوتهوهار[١]. التى تقع فى ناحية نهر جهلم، ومن أشهر مدنها راولبندى، كيمل بور، وجهلم، وإلى ب . بلوجستان التى تمتد حدودها إلى إيران.

سكان باكستان ولغتها: من المعروف تاريخيًا أنه قد وردت على باكستان أجناس وقبائل مختلفة من خلال الهجرات المتتابعة، خصوصًا من مناطق آسيا الوسطى وغرب آسيا، وقد استقرت معظم القبائل والأجناس، بعد عبورها حدود باكستان الغربية، فى منطقة السند والبنجاب . وبمرور الوقت اختلطت من خلال اندماجها مع السكان المحليين مما أدى إلى نشأة الجنس الدراورى، وتوالت موجات الأجانب من الآريين واليونانيين والإيرانيين والعرب والأتراك والتورانيين والمنغوليين عبر العصور التاريخية، وعلى كل فإنه ينتمى معظم سكان هذه المنطقة إلى الجنس الآرى، بجانب ذلك هنالك قبائل عديدة تنتمى إلى الجنس الدراورى، هذا وتوجد فى منطقة باكستان لغات عديدة ترجع معظمها إلى الأصل الآرى، من أشهرها اللغة البنجابية، وترد إليها كل من اللغة السرائيكية واليهوتهوهارية بجانب اللغة الهندية والسندية والبشتو والبلوجية، ولكن أعظم لغات باكستان انتشارًا هى اللغة الأردية التى أصبحت لغة رسمية لدولة باكستان بعد استقلالها عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٤م[٢].

تاريخ باكستان القديمة:

أـ الحضارة القديمة: تفيد أمهات المصادر أن منطقة باكستان إحدى أقدم المناطق الحضارية فى العالم إذ تعود حضارة حوض نهر السند إلى ٧٠٠٠ عام تقريبًا، ولكن من الصعب تحديد الفترات التى نشأت فيها أول المجتمعات الإنسانية، لأنه قد تم العثور على بعض الأدوات المصنوعة من الأحجار يرجع تاريخها بحسب خبراء الآثار إلى أربعمائة ألف سنة، وحضارة وادى السند التى تم العثور على بقايا من آثارها فى منطقة «موهنجدارو Mohenjo-daro» الواقعة فى منطقة السند، و«هربًا Harappa» الواقعة فى منطقة البنجاب الغربية، وهى الصورة الأقدم التى بحوزتنا عن حضارة باكستان القديمة، والتى تطورت بواسطة جماعات كانت تمارس الزراعة والرعى وعمل بعضها بالتجارة، وتقريبًا فى عام ٢٥٠٠ ق.م. أصبحت هذه

الجماعات أكثر اتحادًا ، حيث قامت بإنشاء المدن المخططة وترتب على ذلك أن هذه الحضارة استغرقت آلافًا من السنين حتى وصلت إلى ذلك المستوى الحضارى العالى، ولم تكن حضارة وادى السند تضاهى حضارات العالم القديمة من بلاد فارس وما بين النهرين ومصر فحسب؛ بل كانت متواصلة معها من خلال إيجاد العلاقات التجارية عبر المناطق الخليجية العربية الوسيطة، وتشير المصادر- التى أُعدت معتمدة على آثار هذه المنطقة- إلى ازدهار وادى السند حضاريًا معتمدًا على المدن ذات البيوت الكبيرة والأسواق والدكاكين والحمامات والآبار بجانب الأدوات المنزلية والحرفية والزينة، وعند المقارنة بين حضارة وادى السند من جهة والحضارتين المعاصرتين فى كل من بلاد ما بين النهرين ومصر يتأكد تفوق حضارة السند على أقرانها: «إنه يمكن أن تتم المقارنة بين البيوت الكبيرة ذات الطبقتين والتى قوامها الآجر المتين، والحمامات المتقنة لمواطنى «Mohenjo-daro» وبين ما فى مصر وبلاد ما بين النهرين، ففى هذه البلاد كان الكثير من المال والفكر يتم توظيفه لبناء الهياكل الفخمة للآلهة والقصور الكبيرة والمقابر المكلفة للملوك والأمراء، أما باقى الشعب فكان مضطرًا إلى أن يكتفى بالمساكن الطينية البسيطة، أما فى وادى السند فالصورة معكوسة حيث المبانى والمنازل الأكثر روعة وهى تلك التى شيدت لسكنى المواطنين، فهناك حمامات عامة وخاصة بالإضافة إلى وجود نظام صرف المياه الممتازة التى توجد فى هذه المناطق فهى الأولى من نوعها بين ما تم العثور عليه حتى هذا التاريخ فى جميع أنحاء العالم "[٣].

ب - الحضارة الهندوسية والبوذية:

يعتقد المؤرخون أن الهجرات الآرية بدأت بعد حقبة حضارة وادى السند بألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد، واستقرت قبائلها فى غرب باكستان. وتتحدث المصادر عن النظم الاجتماعية والاقتصادية الرائجة فى المجتمع الآرى آنذاك، وكانت عادة إحراق جثث الموتى أو دفنها معروفة فى المجتمع الآرى، وكان الشعب الآرى يعيش على الخضراوات والألبان ومنتجاتها واللحوم، ومظاهر الاجتماع عندهم بسيطة للغاية، حيث كانوا يقطنون فى القرى والأرياف، وكانوا جميعًا مزارعين لأن الزراعة عندهم تعتبر مهنة شريفة دينيًا،

حتى كلمة «آرية» معناها الأصلى الحرث والفلاحة ، ويطلق على ذلك العصر «العصر الفيدى» ، وبعد انتهاء هذا العصر ظهرت التغيرات الكبيرة فى الحياة الاجتماعية والسياسية ، ومن أهمها تطبيق نظام الطبقات الاجتماعية المنغلقة على نفسها ، وقد بدأ هذا التقسيم الاجتماعى عند الآريين وغير الآريين ، كما تم تشكيل الحكومات المحلية ، وتلاشت النظم القبلية ، وتطور العمران ونشأت الحضارة الجديدة ، ومن أهم المدن التى أنشئت آنذاك مدينة «تيكسالا» التى كانت تلعب دورًا اقتصاديًا وثقافيًا فى آن واحد ، هذا وقد تمكن الفرس فى القرن السادس قبل الميلاد من الاستيلاء على معظم مناطق باكستان بما فيها إقليم السند والقسم الشمالى الغربى من هذه البلاد ، واستفاد الفرس من خيراتها وثرواتها زهاء قرنين من الزمان ، ولما ضعفت السيطرة الإيرانية على المناطق الباكستانية فى النصف الثانى من القرن الرابع قبل الميلاد ، أدى ذلك إلى تقسيم هذه المنطقة إلى دويلات صغيرة ، ولما فتح الإسكندر الأكبر إيران فى عام ٣٣١ ق.م ، تواصلت عملياته العسكرية إلى أن تمكن من الاستيلاء على المناطق الشمالية وعلى منطقة السند الجنوبية ، وعلى الرغم من أن الإسكندر عاد مع جيشه إلى حيث أتى ، إلا أن هذه الغارات العسكرية اليونانية تركت تأثيرًا بالغًا على تاريخ هذه المنطقة وحضاراتها ، كما ساعدت على الاتصال بالعالم الخارجى.

وقد حاولت الدولة الهندوسية المورية - التى أسسها جندر كيت موريا - توحيد البلاد ونشر الثقافة الهندوسية بجانب تطوير النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، كذلك قام ملوك موريا بتوطيد العلاقات مع الدول ذات الحضارة المعاصرة لها ، وقد أضاف الملك أشوكا ، حفيد الملك جندر كيت موريا ، بعد ولايته على العرش عام ٢٧٣ ق.م. مآثر حضارية كثيرة لهذه الدولة ، ثم اعتنق البوذية وأسهم عبر القنوات العديدة فى تبليغ الدعوة البوذية التى انتشرت فى مناطق السند والبنجاب وكشمير ، ثم فيما بعد فى البلاد الشمالية المجاورة ، وغدت المؤسسة التعليمية «تيكسلا» السندية مركزًا مهما للديانة البوذية ، وتنعكس مجهودات الملك «أشوكا» الدعوية فى المعابد البوذية والتماثيل التى أقيمت فى مناطق باكستان ، وبعد سقوط الدولة

المورية عمت الفوضى وبدأت الهجمات الخارجية الإيرانية واليونانية مرة ثانية خصوصًا فى المناطق السندية والبنجابية، وفى نهاية القرن الأول الميلادى عبرت قبائل «كوشان» الآتية من آسيا الوسطى، واستولت على هذه المنطقة، وبعد سقوطها انتقل الحكم للقبائل العديدة ثم انتقلت السلطة إلى الأسرة البرهمية تحت قيادة الملك البرهمى داهر، وهو الذى كان حاكمًا على السند عند الفتوحات الإسلامية تحت قيادة محمد بن القاسم الثقفى رحمه الله[٤].

العلاقات العربية الهندية

أ ـ فى عهد ما قبل التاريخ: كانت التجارة هى الخيط الأول الذى ربط الهند من خلال مناطقها الساحلية مثل السند والكَجرات بالعرب، فمن آلاف السنين والتجار العرب يتوافدون إلى سواحل الهند الغربية، خصوصًا الذين كانوا ينتمون إلى منطقة الخليج العربى ذات البيئة الجغرافية المميزة والموقع الإستراتيجى؛ فكانت تلعب دورها الأساسى فى الصلات التجارية بين كل من وادى السند وبلاد الرافدين وفارس ودول إفريقية أخرى، وتفيد المصادر أن السلع التجارية المختلفة قد توفرت فى مناطق العالم القديم نتيجة للتفاوت بين بيئة كل من وادى السند وبلاد الرافدين ومنطقة الخليج، وهو الأمر الذى نتج عنه توافرمواد معينة فى كل بيئة تفتقر إليها البيئات الأخرى مما أدى إلى إيجاد العلاقات التبادلية فى المنتجات المحلية.

ونشأ من ذلك نشاط تجارى تمثل فى العمليات التجارية المباشرة وغير المباشرة، وقد ساعد على بروز النشاط التبادلى للسلع والمنتجات، شبكة جيدة من طرق المواصلات البرية والبحرية على حد سواء، وتجدر الإشارة إلى أن حضارة وادى السند كانت تمتاز آنذاك بتوفير المواد الأولية خصوصًا الأخشاب، والأحجار الكريمة والعاج، والمواد الغذائية، كما تميزت بسهولة الاتصال البحرى، فنشأت تبعًا لذلك المراكز التجارية التى امتدت من «هربا Harappa » الواقعة فى منطقة البنجاب الغربية، و«موهنجدارو - Mohenjo daro» الواقعة فى منطقة السند، كما أنشئت الموانى المهمة قرب سواحل البحر العربى، لنقل السلع إلى المناطق الخليجية، والظاهر أن هذه العلاقات التجارية استمرت لقرون مما ساعد على توطيد الصلات التجارية والاقتصادية بين



الطرفين، وقامت هذه المناطق معًا بمغامراتها الملاحية والبحرية، واكتسبت المعرفة الملاحية والبحرية من خلال التواصل الحضارى.

ومن هنا نستطيع أن نستنتج أن أسس العلاقات التاريخية بين الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية نشأت وتطورت من خلال وادى السند والبنجاب، وقد هيأ هذا الرصيد من العلاقات القديمة الأرضية المناسبة لدخولها مرحلة النضج والاكتمال فى العصر الإسلامى(٥).

ب- فى العهد الإسلامى:

باكستان فى عصر الدولة العربية ٢٢- ٣٩٦هـ/٦٤٢- ١٠١٠م: نستطيع أن نقسم عصر الدولة العربية، التى حكمت فى منطقتى البنجاب ووادى السند أكثر من مائتى عام، إلى ست مراحل متتالية:

المرحلة الأولى: بدأت بالحملات الإسلامية فى عهد الخليفة الثالث عثمان ﷺ، وكان الهدف من تلك الحملات الإعداد لفتح المناطق الشرقية الجنوبية، وتأديب قراصنة السند الذين كانوا يهاجمون السفن التجارية فى الخليج العربى، ولم تكن حملات إسلامية منظمة هدفها الاستقرار السياسى فى هذه المنطقة، إنما هى حملات أولية أسندت إلى فرق استطلاعية هدفها الاستكشاف والتعرف وجمع المعلومات عن هذه البلاد، وقد استمرت هذه الاحتكاكات العسكرية والمناوشات زمن الخلافة الراشدة (١١-٤٠هـ/٦٣٢- ٦٦٠م)، ثم فى عهد إمارة معاوية ﷺ (ت ٦٠هـ/٦٧٩م)، إلى أن قامت الدولة الأموية (٤١-١٣٢هـ/٦٦١- ٧٥٠م) وتولى الحجاج بن يوسف الثقفى (ت ٩٥هـ/٧١٣م) أمر العراق والولايات الشرقية عام ٧٥هـ/٦٩٤م، فى عهد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (ت ٨٦هـ/٦٤٦م).

المرحلة الثانية (٩٢- ٩٦هـ/٧١٠-٧١٤م): وهى مرحلة الفتوحات الإسلامية والاستقرار السياسى وتأسيس الدولة العربية بقيادة الفاتح محمد بن القاسم الثقفى (ت ٩٥هـ/٧١٣م)، الذى تعامل بعد فتح السند مع الأهالى برفق ومحبة، ونفث فيهم روح العدالة الاجتماعية والمساواة، كما سمح لهم بالحرية الدينية والثقافية، واتخذ الإداريين من الهنود المهرة كمعاونين له، وللإدارة الجديدة، وأقام المجتمع الإسلامى من خلال جلب الأسر العربية واستقرارها بين أهالى السند والبنجاب بهدف الاحتكاك

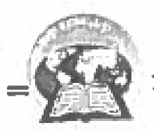
الاجتماعى والثقافى، مما خلق الجو المناسب للأسر العربية للعمل على نشر الإسلام بالحسنى. واستقبل أهالى هذه المناطق هذه التغيرات الديموغرافية وتعلموا اللغة العربية وألموا بالثقافة الإسلامية، وأصبحت اللغة العربية تتداول بجانب اللغة السندية.

المرحلة الثالثة (٩٦- ١٣٢هـ/٧١٤-٧٤٩م): كانت هذه المرحلة فى نظر الباحثين مرحلة تذبذب وانتقال إلا أنها مهمة للغاية فى الاستقرار وترسيخ الصلات الحضارية بين الجزيرة العربية وهذه المناطق الباكستانية، وكانت البلاد خلالها تخضع لوال يعينه الخليفة الأموى ويعزله، وكان ذلك الوالى خاضعًا للخليفة إداريًا وماليًا وسياسيًا.

المرحلة الرابعة (١٣٢- ٢٤٠هـ/٧٤٩-٨٥٤م): وقد نقل فيها الحكم للعباسيين واستقرت الأوضاع السياسية والثقافية وتبلورت نتائجها فى هذه الفترة، وجلبت الخلافة فى بغداد علماء الهند وأطباءها لتطوير العلوم والطب، وكانت الإدارة تابعة للإدارة المركزية فى بغداد مثلما كانت فى العصر الأموى، وقد حدثت بعض الاضطرابات السياسية داخليًا وخارجيًا فى هذه المرحلة.

المرحلة الخامسة (٢٤٠-٣٧٣هـ/٨٥٤- ٩٨٣م): وهى مرحلة الاستقلال الذاتى التى انفرد الولاة خلالها بحكم البلاد وانتشرت فيها العصبية القبلية، والحروب الداخلية، الأمر الذى أدى إلى انقسام هذه المنطقة إلى دولتين عربيتين إحداهما فى المنصورة شرقى نهر السند تحت رياسة بينهبار والأخرى فى الملتان بمنطقة البنجاب غرب نهر السند تحت إمارة بنى المنبه، وكان الحكم فى كلتيهما وراثيًا مع التبعية الدينية والسياسية دون الإدارية والاقتصادية للخليفة العباسى.

المرحلة السادسة والأخيرة (٣٧٣-٤١٦هـ/٩٨٣- ١٠٢٥م): دب فى هذه المرحلة الضعف والاضطراب فى الإدارة العربية بسبب الصراعات السياسية والدينية مما دفع العناصر الشيعية إلى استغلالها سياسيًا ودينيًا، تمكنت هذه القوى من إقامة دولة شيعية فى الملتان عام ٣٧٢هـ/٩٨٣م، ثم فى المنصورة عاصمة السند فى عام ٤١١هـ/١٠٢٠م، ثم عادت هذه الولايات إلى المذهب السنى باستيلاء الغزنويين على الملتان عام ٣٩٦هـ/١٠٠٥م، وعلى المنصورة عام ٤١٦هـ/١٠٢٥م؛ وبذلك انتهى الحكم



العربى لهذه المنطقة وتمكنت السيادة الفارسية من فرض سيطرتها تحت قيادة الدولة الغزنوية.

هذا وتمدنا أمهات المصادر العربية والمحلية بالمعلومات الزاخرة مع رصد النتائج المترتبة على العلاقات التاريخية التى نشأت بين الجزيرة العربية ومنطقة السند والبنجاب طيلة عصر الدولة العربية، وفيما يلى بعض تلك النتائج المهمة:

❖ حملت الفتوحات الإسلامية فى عمقها بذور الاستقرار والتعايش السلمى بجانب هدفها السامى وهو نشر الدين الإسلامى والقضاء على نظام الطبقات من خلال إزالة الفوارق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين طبقات المجتمع.

❖ على المستوى السياسى أصبحت منطقتا السند والبنجاب مرتبطة سياسيًا بالدولة الأموية والعباسية، الأمر الذى أدى إلى أن أصبح التقارب بين الجانبين أكثر وضوحًا منه فى الفترات السابقة.

❖ أما على المستوى الدينى فقد ترتب على الاستقرار السياسى للدولة العربية انتشار الإسلام فى الهند واعتنق كثير من زعماء منطقة البنجاب والسند الإسلام عن طواعية، خصوصًا فى عهد عمر بن عبد العزيز، وكان للمعاملة الحسنة والتسامح الدينى مع الأهالى الهندوس، وحركة بناء المساجد فى أهم المدن الهندية المفتوحة أثر كبير فى تنامى أعداد الداخلين فى الدين الإسلامى.

❖ وعلى الصعيد الاقتصادى والتجارى قويت العلاقات حيث انفتحت أسواق ومراكز تجارية جديدة، بعد الفتوحات الإسلامية واستقرارها، وفتح الطريق أمام الهجرات الجماعية وأمام تجار العرب إلى السواحل الهندية، ومما لا شك فيه أن المصالح التجارية بين المنطقتين أفرزت مناخًا من التسامح والتعايش السلمى بين الطرفين؛ فالتجار العرب استقروا فى منطقة السند فى جو من الأمان، وامتزجوا مع الأهالى.

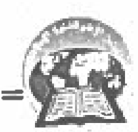
❖ أما بخصوص النتائج الاجتماعية المترتبة على قيام الدولة العربية واستقرارها، فقد تجلت بصورة أوضح، حيث أعطت الإدارة الإسلامية الأمان للأهالى وأبقت البراهمة فى المناصب المالية والإدارية مما جعل معظم الأهالى يطمئنون للفاتحين الجدد، ومن ناحية ثانية كانت الهجرات المتبادلة إحدى قنوات هذا الاندماج الاجتماعى، حيث أصبحت كل من المناطق الباكستانية

وبلاد الجزيرة العربية مواطن لاستقرار العرب والهنود.

❖ ومن البديهى أن يتمخض عن التعايش السلمى بين شعوب المنطقتين التأثير والتأثر فى العادات والتقاليد الاجتماعية، مع توطيد الصلات الثقافية من خلال التبادل الثقافى بين الطرفين(٦).

فى عصر الغزنويين (٣٥١-٥٨٣هـ/٩٦٢-١١٨٦م): لقد بدأت الحملات العسكرية الغزنوية على الملتان والمنصورة وما يجاورها فى بداية القرن الخامس للهجرى /الحادى عشر الميلادى إلا أن السلطان محمود الغزنوى تمكن من الاستيلاء على المناطق المذكورة أعلاه فى عام ٣٩٦هـ/١٠٠٥م، واستطاعت الدولة الغزنوية القضاء على القرامطة بالتعاون مع الدولة السنية الحاكمة على المناطق الباكستانية آنذاك، وسرعان ما تم إلحاق هذه المنطقة بالإدارة الغزنوية ذات الجذور الفارسية، وقد ترتب على هذه التطورات السياسية والعسكرية سقوط الدولة العربية وانقراضها من بلاد السند، مما أدى إلى تغير مسار الدعوة الإسلامية، والقضاء على اللغة العربية وحلت محلها اللغة الفارسية والثقافة الإيرانية، وقد جلب السلطان محمود الغزنوى وخلفاؤه العلماء والفقهاء من خراسان وما وراء النهر ممن غلب عليهم العلوم العقلية والشعر و الفلك والنجوم والفنون الرياضية، مما أدى إلى تقلص الاهتمام بعلوم السنة والقرآن، فكان ذلك سببًا مهمًا فى ضعف دراسة علم الحديث والتفسير فى منطقة السند والبنجاب إبان تلك الفترة.

وقد عبر أحد المفكرين بحق عن ذلك بقوله: «إن من حقائق فلسفة التاريخ الإسلامى أن البلاد التى كانت العرب حملة الإسلام إليها، وإليهم يرجع الفضل فى انتشاره فيها، انتشر فيها علم الحديث الشريف مع انتشار الإسلام وازدهر، إذ إنه كانت هنالك صلة قوية ومناسبة خاصة بين هذا العلم وطبيعة العرب وقوة حفظهم وحياتهم العلمية وواقعيتهم وصلتهم العميقة بشخصية النبى ﷺ، فحيثما حلوا وساروا، حملوا معهم علم الحديث وعلومه، وظهرت العناية به فى عهد سيادتهم وتأثيرهم ونفوذهم فى قوة ووضوح، وكانت حركة تدريسه والتصنيف والتأليف فى مختلف جوانبه قائمة على قدم وساق"(٧)، وكان هذا الوضع قائمًا فى السند والبنجاب والكَجرات أيضًا، إلا أنه



توقف بسقوط الدولة العربية على أيدى الدولة الغزنوية.

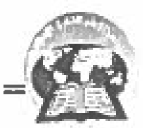
فى عصر سلطنة دهلى (٦٠٢-٩٣٢هـ/ ١٢٠٥- ١٥٢٦م)[٨]: ما إن انهارت الدولة الغزنوية على أيدى السلاجقة والغُز حتى أخذت الاضطرابات والفتن تجتاح غزنة والولايات التابعة لها بما فيها السند والبنجاب، وسرعان ما حل الغوريون (٤٠٥- ٦١٢هـ/١٠١٤- ١٢١٥م) محل الغزنويين بقيادة محمد الغورى (ت ٦٠٣هـ/١٢٠٦م)، حيث استولى الأمير ناصر الدين قباجة أحد قادة محمد الغورى على السند والبنجاب، وبعد وفاة الأخير قام قائده قطب الدين أيبك (ت ٦٠٧هـ/١٢١٠م) بتأسيس الدولة المملوكية التى استمرت ثمانين عامًا، لعبت خلالها مدينة لاهور دورًا بارزًا للاستيلاء على المناطق الشمالية الأخرى، ولما جاء السلطان شمس الدين التتمش (٦٣٣هـ/١٢٣٥م) نقل عاصمة الدولة المملوكية من لاهور إلى دلهى، وجعل كلا من البنجاب والسند مركزًا عسكريًا لحماية الهند من الحملات العسكرية المنغولية، ولعبت مدينة لاهور دورًا بارزًا لمواجهة الحملات المنغولية مما تسبب فى هدمها وتدميرها، ولما تولى السلطان غياث الدين بلبن (ت ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)، قام بتحصين لاهور وما يجاورها تحصينًا منيعًا، كما أنقذ السند من الحملات العسكرية المنغولية، وجعل ولى عهده واليًا على الملتان لحماية الحدود الغربية، وقد دارت فى عهد الأخير الحروب العديدة بين سلطنة دلهى والمنغوليين ولعبت منطقة البنجاب والسند دورًا قياديًا فى الهزائم المتكررة التى ألحقت بالقوات المنغولية على يد سلطنة دهلى[٩].

فى عصر كل من الدولة الخليجية والتغلقية (٦٨٨- ٨١٥هـ/١٢٨٩- ١٤١٣م): بعد سقوط الدولة المملوكية قامت الدولة الخليجية التى قويت شوكتها فى عهد السلطان علاء الدين الخلجى (٦٩٥- ٧١٥هـ/١٢٩٦- ١٣١٦م)، وقد عَرَّب السلطان المذكور النظم الإدارية والمالية كما قام بشن الحملات العسكرية المكثفة لضم الإمارات المستقلة فى شبه القارة الهندية، واهتم بشئون مناطق السند والبنجاب سياسيًا وعسكريًا، وجهز الجيش الخاص لمواجهة القوات المنغولية على الحدود الغربية والتى استقرت فى البنجاب والسند، وقد تمكنت من

كسر شوكة الجيش المنغولى وإجلائه من المنطقة تمامًا، مما أدى إلى نشر الأمن والاستقرار فى المنطقة، وقد ظهرت الأسرة السومرية- كانت خليطًا من العرب والهنود- فى عهد الدولة الخليجية، واستطاعت السيطرة على شئون السند السياسية والعسكرية، واستقلت مع التبعية الاسمية لسلطنة دهلى حيث كان يقيم هناك مندوبٌ من قبل سلطان دلهى، وكان نظام الحكم فى السند تابعًا للملتان أولا ثم دهلى أخيرًا. وبعد سقوط الدولة الخلجية نقلت السلطة المركزية إلى الأسرة التغلقية، وكان مؤسس هذه الأسرة الحاكمة غياث الدين تغلق (٧٢٠- ٧٢٥هـ/١٣٢٠- ١٣٢٥م) وكان واليًا مقيمًا فى «ديبال بور» التابعة للبنجاب، وبعد جلوسه على العرش تمكن من إلحاق الهزائم المتكررة بالقوات المنغولية، كما اهتم بتطوير منطقة البنجاب سياسيًا واقتصاديًا وأمنيًا.

وفى عهد ابنه محمد شاه تغلق (٧٢٥- ٧٥٢هـ/١٣٢٥- ١٣٥١م)، توالت السيادة فى السند بين الأسرات الحاكمة المحلية، كما اندلعت الثورات العديدة فى البنجاب والسند، وقد قامت الدولة بإخمادها بكل قوة حتى إن السلطان محمد تغلق شارك بنفسه فى إخمادها. وفى عام ٧٥٢هـ/١٣٥١م، تم اغتياله فى مدينة «تهته» التابعة لولاية السند، وفى عهد خليفته فيروز شاه تغلق (٧٥٢- ٧٩٠هـ/١٣٥١- ١٣٨٩م)، تمكنت القوات التغلقية من إخماد الثورات، ومن التغلب على الأوضاع السياسية المتمردة ومن نشر الأمن والسلام.

وفى عهد الأخير ظهرت أسرة بـ«سمسه» استولت على مقاليد الحكم فى السند بعد السومريين، وجعلت «تهته» عاصمتها، وقد أطلق عليها العرب «ديبل» التابعة للملتان، وقد كان أهل سمسه يدينون بالإسلام غير أن هناك خلافًا حول ما إذا كانوا مسلمين منذ النشأة أم أنهم قد اعتنقوا الإسلام بعد الوصول إلى الحكم، ولقب زعماء هذه الأسرة الحاكمة بلقب «جام» وكانت تدين بالولاء غالبًا لسلاطين دهلى، وكانت تدفع لهم الخراج، كما كانوا يتمردون عليهم أحيانًا، وهذا ما حدث فى عهد السلطان فيروز شاه تغلق، حيث دارت الحروب العديدة والتى انتهت بإبرام الصلح، وبذلك استطاعت هذه الأسرة أن تحكم فى السند مائة وخمسة وسبعين عامًا[١٠].



في عصر دولة سلالة سيد واللودهية (٨١٦- ٩٣٢هـ/١٤١٤- ١٥٢٦م): بعد وفاة فيروز شاه تغلق ضعفت الدولة التغلقية بسبب عدم وجود السلاطين المؤهلين مما أدى إلى استقلال كل من البنجاب والسند استقلالاً كاملاً، وفي عام ٨٠١هـ/١٣٩٨م، شن تيمور لنك حملاته العسكرية على الهند، ووصل مع قواته عبر ملتان إلى دهلي ودمر المناطق الهندية كما دمر العاصمة دلهي، ولدى عودته من دهلي عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م أسند حكم لاهور وديبال بور وملتان إلى نائبه خضر خان الذي استمر في الحكم على البنجاب والسند لفترة إلى أن تمكن من الاستيلاء على حكم دهلي عام ٨١٧هـ/١٤١٤م، وبذلك أسس الأسرة الساداتية الحاكمة التي قضت معظم فترة حكمها في إخماد الثورات، ومن هذه الثورات ثورة البنجاب التي فشل خضر خان في إخمادها والتغلب عليها مما دفع الزعيم بهلول لودهي الذي ينتمي إلى الأسرة الأفغانية إلى الاستيلاء على منطقة البنجاب والسند، ثم استطاع توسيع نطاق سيادته حتى استولى على دهلي نفسها عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م، وقد استقر الحكم لهذه الأسرة في عهد السلطان "سكندر لودهي" وكان رجلا شجاعًا وسياسيًا محنكًا، وتقيًا، ترك عند وفاته دولة قوية مترامية الأطراف، إلا أن ابنه إبراهيم لودهي لم يستطع الحفاظ على هذا الكيان، كما كان وزراؤه وأمراؤه غير راضين عنه وعن تصرفاته السياسية ولهذا قاموا بمؤامرة سياسية ضده من خلال إقامة العلاقات السرية مع بابر شاه الذي كان يحكم آنذاك على كابل، واستدعوه لشن الحملات العسكرية ضد إبراهيم لودهي، فاستجاب بابر لذلك ووصل إلى دهلي ودارت الحرب بين الطرفين وقد انهزم فيها السلطان إبراهيم لودهي في معركة تاريخية بميدان «باني بست» عام ٩٣٢هـ/١٥٢٦م [١١].

في عصر الدولة المغولية (٩٣٢-١٢٧٤هـ/١٥٢٦- ١٨٥٧م): وفي عهد الأسرة التيمورية، الذي بدأ بدخول ظهير الدين محمد بابر شاه (٨٨٨-٩٣٧هـ/١٤٨٣- ١٥٣٠م) مدينة دهلي بعد انتصاراته في الحروب المتتالية في الهند، شهدت الهند عصرًا ذهبيًا في الجانب الحضاري والثقافي؛ فقد وصلت منطقة البنجاب بسبب اهتمام الإدارة المغولية، إلى أقصى القوة في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة، وكان أكبر نصيب

لهذا الازدهار لكل من لاهور والملتان لأنهما كانتا مركزين مهمين للقنوات التجارية داخليًا وخارجيًا، وأسهم كل من بابر وابنه همايون (ت ٩٦٣هـ/١٥٥٦م) فى توطيد دعائم الدولة، ولما جلس السلطان أكبر على عرش الهند شن الحروب المتتالية ضد الإمارات المستقلة لتوحيدها فى ظل الدولة المغولية، ومنها البنجاب والسند والمناطق التابعة لهما، التى لعبت دورًا محوريًا فى مجابهة الإمارات الواقعة على الحدود الغربية والدول الخارجية فيما وراء النهر. ومنذ تولية السلطان أكبر أصبحت منطقتا البنجاب والسند ساحة للحرب بسبب الصدام المستمر مع الدولة الصفوية حول منطقة قندهار التى بقيت موضع نزاع وحرب بين الطرفين فى عهد كل من السلطان أكبر (٩٦٣-١٠١٤هـ/١٥٥٥- ١٦٠٥م)، وجهانكير (١٠١٤- ١٠٣٧هـ/١٦٠٥- ١٦٢٧م)، وشاهجهان (١٠٣٧- ١٠٦٩هـ/١٦٢٧-١٦٥٨م)، وأورنكزيب عالمكير (١٠٦٩- ١١١٨هـ/١٦٥٩- ١٧٠٧م)، وبعد وفاة الأخير تمكنت الدولة الصفوية من السيطرة عليها نهائيًا.

هذا وقد عمت الفوضى العارمة بعد وفاة السلطان أورنكزيب عالمكير رحمه الله؛ فقد عاش طول حياته يعمل لتوسيع نطاق السيادة الإسلامية وكفل لغير المسلمين حريتهم الدينية، ولكن بسبب عدم وجود الكوادر المؤهلة تفككت الدولة المغولية سياسيًا وعسكريًا، الأمر الذى أدى إلى تكالب الإنجليز على احتلال الهند فتمكنوا من السيطرة على المناطق الهندية واحدة تلو الأخرى، وفى عام ١٢٥٤هـ/١٨٣٨م تمكن الاستعمار من احتلال السند كما استولى على دهلى عام ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م،ثم تم انضمام البنجاب وما يجاورها إلى الإدارة الإنجليزية عام ١٢٦٥هـ/١٨٤٩م، وفى عام ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م، قام الشعب الهندى بالمحاولة الأخيرة لإحياء الدولة المغولية من خلال اندلاع الثورة الوطنية ولكنها فشلت فشلاً ذريعًا، وبذلك غاب شمس الدولة المغولية نهائيًا[١٢].

قيام دولة باكستان: ومنذ بدأ التوغل الاستعمارى الإنكليزى فى الهند مع بداية القرن السابع عشر الميلادى /الحادى عشر الهجرى، اعتمد فى تحقيق أهدافه على سياسية (فَرِّقْ تَسُدْ) فقام بتحريض الأمراء الهنود بعضهم ضد البعض الآخر بهدف إثارة العداء الدينى والتحريض ضد المسلمين وبخاصة بينهم وبين أتباع



الديانة الهندوسية.وكثيرًا ما حدثت معارك دموية بين الهندوس والمسلمين دفعت هؤلاء إلى التفكير فى إنشاء كيان سياسى مستقل.

وقد ظهرت أول فكرة لإقامة دولة خاصة بمسلمى الهند عام ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م على يدى عبيد الله السندى (ت ١٣٦٣هـ/١٩٤٤م)، كما أسهم الفيلسوف والشاعر محمد إقبال (ت ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م) بفكره وعاطفته فى إذكاء فكرة إقامة مثل هذه الدولة. وكانت قد تأسست منذ عام ١٣٢٤هـ/١٩٠٦م، جمعية عُرفت باسم (الرابطة الإسلامية لعموم الهند) ولكن نشاطها السياسى لم يتبلور حتى عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م، فقد برز فى هذا العام حزب المؤتمر الهندى الذى ينادى بالقومية الهندية وكذلك حزب الرابطة الإسلامية بقيادة محمد على جناح (١٣٦٧هـ/١٩٤٨م) الذى نادى بقيام دولة تجمع المسلمين وتضع حدًا للنزاعات الدينية بين المسلمين والهندوس.

وقد نجحت المحاولات فى تحقيق هذا الهدف، خصوصًا بعد أن أصر المسلمون على رفض جميع عروض حزب المؤتمر الهندى، فتم إعلان مولد باكستان فى ٢٧ رمضان عام ١٣٦٦هـ/الموافق ١٤ أغسطس ١٩٤٧م، وقد لعب الاستعمار دورًا سيئًا لدى تقسيم الأراضى بين الهند والباكستان، حيث حصلت باكستان على جزء من أراضيها فى الهند الشرقية التى سميت بعد التقسيم باسم باكستان الشرقية، فقد كان الاستعمار يعلم جيدًا أنه ليس بمقدور زعماء الباكستان أن يخططوا بإحكام لقيام بنية محددة وواضحة المعالم للدولة التى يمكن أن يعيش فيها المسلمون على اختلاف ألوانهم وانتماءاتهم الإقليمية وعاداتهم وثقافتهم ولغاتهم فى سلام ووئام، وهذا ما حدث على أرض الواقع حيث تم انفصال باكستان الشرقية عن باكستان الغربية، التى تعرف الآن باسم «بنجلاديش» بعد صراع من الطرفين.

أ / صاحب عالم الأعظمى الندوى

الهوامش:

(١) أردو دائرة معارف إسلامية، ط٢: زير اهتمام داتش كاه بنجاب، لاهور، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، جـ٥، كلمة «باكستان».

(٢) -See Jane Hill: Pakistan land and People,P.Lahore 1960/E.C. Stamp: First Geography of Pakistan and India, Lahore 1962/Saeed EL-Din Ahmed: AGeography of Pakistan, Karachi 1966.

(٣) -Vere Girdon Childe: What Happened in History, A Pelican book, 1940/ Jawaharlal Nehru: The Discovery of India, Sixth impression 1988, Delhi/ F.E. Pargiter: Ancient Indian Historical Tradition , London 1922/H.C. Raychaudhuri: Political History of Ancient India, Sixth impression, Calcutta 1953.

(٤) V.A. Smith: The Early History of India, Oxford, 1914/Majumdar-Pusalkar: History and Culture of the Indian People, Vedic Age, London 1951/ Budh Parkash: Political and Social Movement in Ancient Punjab, Delhi 1964/ R.C. Mookerji: Chandra Gupta Maury and his Times, Madras 1943/ Rumila Thapar: Ashoka and the Decline of Maurya, Oxford 1963.

(٥) للاستزادة راجع الكتب التالية: مقبول أحمد: العلاقات العربية الهندية، تعريب نقولا زيّادة، ط: بيروت ١٩٧٤م/ حمد محمد بن حراى: العلاقات الحضارية بين منطقة الخليج العربى وشبه القارة الهندية، وجنوبى شرق آسيا، بحوث تاريخية، ط: الجمعية التاريخية السعودية، بالرياض ٢٠٠٦م/ سليمان ندوى: عربون كافن جهاز رانى، أكاديمية شبلى النعمانى، الهند/ Raymond and Bridget Allchin: The Birth of Indian Civilization, London 1968/J. Howkes: The First Great civilization, London 1973/ SRIV ASTAVA, BALRAM: Trade and Commerce in India: From the Earliest Time to C.A.D. 300 Varanasi 1958/ SAXENA, K.K.: Ancient Contacts between India and Countries across the Arabian Sea. Indo- Asian Culture XVII, 1968.

(٦) للاستزادة راجع الكتب التالية: ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل فى التاريخ، عدة أجزاء، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ابن حوقل (أبو القاسم النصيبى، ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م): صورة الأرض، ط: مكتبة الحياة، بيروت ١٩٣٩م، ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى، ت ٢٧٦هـ/٨٩٠م): عيون الأخبار، تحقيق منذر أبو شعر، أربعة مجلدات، ط: المكتب الإسلامى، بيروت ١٤٢٩م، الإصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى، ت ٣٤٠هـ/ ٩٥٢م: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، ط: مكتبة الذخائر بالقاهرة عام ٢٠٠٤م، البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ، ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ط: مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م/ المسعودى (على بن الحسين بن على المسعودى (ت٣٤٦هـ/٩٥٧م): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، ط: دار الأندلس، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م/ المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد، ت ٣٧٨هـ/٩٨٨م): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط: ليدن ١٩٠٦م، الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، عشرة أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢: دار المعارف بمصر دون تاريخ/عبد الله محمد جمال الدين: التاريخ والحضارة الإسلامية فى الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى، ط: دار الصحوة دون تاريخ/ السيد أبو ظفر ندوى: تاريخ سند، ط٣: أكاديمية شبلى النعمانى، الهند ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م/ أعجاز الحق قدوسى: تاريخ سند، ط: مركزى أردو بورد، لاهور ١٩٧٤م.

(٧) راجع أبو الحسن الندوى: رجال الفكر والدعوة، أربعة أجزاء، ط٣: دار القلم الكويت عام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ٤، ص١٤٠. حول الدولة الغزنوية راجع الكتب التالية: أبو النصر العتبى: تاريخ يمينى، ط: مصر ١٢٩٠هـ/ الكرديزى (أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك ت ٤٤٣هـ/١٠٥١م: زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، ط: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٦م/محمد ناظم: السلطان محمود الغزنوى، حياته وعصره، ترجمة عبد الله سالم الزليتى،

ط: دار المدار الإسلامى، ٢٠٠٧م، بيروت .

(٨) سلطنة دلهى دولة إسلامية حكمت معظم الهند (٦٠٢- ٩٣٢هـ/١٢٠٥- ١٥٢٦م) أى خلال العصور الوسطى المتأخرة حيث حكمها العديد من السلالات التركية والأفغانية بمن فيهم المماليك. أسسها محمد الغورى (ت ٦٠٢هـ/١٢٠٥م) القائد الأفغانى الذى استولى على دلهى سنة٦٠٢هـ/١٢٠٥م، وأرسل محمد أحد قواده القديرين واسمه قطب الدين أيبك وهو من الرقيق الأتراك فى جولة لغزو شمال الهند، وفى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م أصبح قطب الدين سلطانًا على دلهى وأسس أسرة حاكمة بها وتعرف أسرته بأسرة المماليك وحكمت ما بين ٦٠٣- ٦٨٨هـ/١٢٠٦- ١٢٩٠م) وخلفت أسرته سلالة الخلجى ٦٨٨- ٧٢١هـ/١٢٩٠- ١٣٢١م) ثم سلالة طغلق (٧٢٠- ٨١٥/١٣٢١- ١٤١٣م) ثم قضى تيمورلنك على تلك الدولة سنة ٨٠٠هـ/١٣٩٨م وعين خضر خان نائبًا له على تلك السلطنة، فأسس فيها سلالة السيد ما بين سنة ٨١٦- ٨٥٤هـ/١٤١٤- ١٤٥١م)، ثم أعقبتها سلالة لودهى (٨٥٤- ٩٣٢هـ/ ١٤٥١- ١٥٢٦م). وفى سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٦م، انضمت تلك السلطنة إلى امبراطورية مغول الهند الفتية تحت قيادة مؤسس الدولة المغولية فى شبه القارة الهندية بابر شاه (٨٨٨- ٩٣٧هـ/١٤٨٣- ١٥٣٠م).

(٩) For mor information see : Uzair Ahmed: Political History and Institutions of the Early Turkish Empire of Delhi, Lahore 1949/Ishtyque Quaraishi: The Administration of Sultanate of Delhi, Karachi 1959.

(١٠) للاستزادة راجع الكتب التالية: عصامى: فتوح السلاطين، تحقيق مهدى حسن، ط: الهند ١٩٣٨م/ ضياء الدين برنى (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٧م): تاريخ فيروز شاهى، تحقيق سيد أحمد خان، ط: الجمعية الآسيوية، بينكَال، ١٨٦٢م/ شمس الدين أبى عبد الله المقلب بابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادى التازى، ستة مجلدات، ط: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م/ حول الأسر الحاكمة على السند من السومريين والسمسيين راجع سليمان الندوى: عرب وهند كى تعلقات، ط: أكاديمية شبلى النعمانى، الهند.

(١١) صدر الدين حسن نظامى: تاج المائر، ط: الهند دون تاريخ محمد حسين خان: أفغان بادشاه، ط: لاهور ١٣٤٦م؛ بابر: تزك بابر، ترجمة عبد الرحيم خانخانان، ط:الهند١٣٠٨م (Abdel Haleem:: History of the Lodi Sultanate, Delhi 1961).

(١٢) للاستزادة راجع الكتب التالية: أبو الفضل العلامى الناكَورى (ت ١٠١٠هـ/١٦٠٢م): آئين أكبرى (قوانين أكبرى)، ثلاثة مجلدات، باللغة الفارسية، طبع الجمعية الآسيوية بينكًا عام ١٨٧٢- ١٨٧٧م/ جهانكير (ت ١٠٢٧هـ /١٦٢٧م): توزك جهانكيرى، تحقيق سيد أحمد، عليكره، ١٨٦٤م/ محمد ساقى مستعد خان (ت ١١٣٦هـ/١٧٢٤م): مآثر عالمكير، تحقيق مولوى أغا أحمد على، ط: الجمعية الاسيوية بينكَال عام ١٨٧١م/ محمد صالح كنبوه (١٠٨٥هـ/١٦٧٥م): شاهجهان نامه أو عمل صالح، ترجمة ناصر حسين زيدى، ط: مركزى أردو بورد لاهور ١٩٨١م/ الهروى: نظام الدين أحمد يخشى الهروى (ت ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م): طبقات أكبرى، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى، ط: القاهرة ١٩٩٥م.

مصادر ومرجع للاستزادة :

المصادر والمراجع العربية:

١. ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ت٦٣٠هـ/١٢٣٢م): الكامل فى التاريخ، عدة أجزاء، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٢. ابن حوقل (أبو القاسم ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م): صورة الأرض، ط: مكتبة الحياة، بيروت.

٣. ابن قتيبة (أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينورى ت ٢٧٦هـ/٨٩٠): عيون الأخبار، تحقيق منذر أبو شعر، أربعة مجلدات، ط: المكتب الإسلامى، بيروت ١٤٢٩م.

٤ـ أبها دكشت: المشاكل القومية والعرقية فى باكستان، دراسات عالمية، ط: مركز الإمارات للدراسة والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبى، دولة الإمارات العربية المتحدة.

٥. أبو النصر العتبى: تاريخ يمينى، ط: مصر ١٢٩٠هـ.

٦. الاصطخرى (أبو إسحاق إبراهيم بن محمد محمد الفارسى ت ٣٤٠هـ/٩٥٢م: المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، ط: مكتبة الذخائر بالقاهرة عام ٢٠٠٤م.

٧. البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ /٨٩٢م): فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ط: مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٨ـ حمد محمد بن حراى: العلاقات الحضارية بين منطقة الخليج العربى وشبه القارة الهندية وجنوبى شرق آسيا، بحوث تاريخية، ط: الجمعية التاريخية السعودية، بالرياض ٢٠٠٦م.

٩. أبو الحسن الندوى: رجال الفكر والدعوة، أربعة أجزاء، ط٣: دار القلم الكويت عام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٠. شمس الدين أبو عبد الله المعروف بابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادى التازى، ستة مجلدات، ط: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

١١ـ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير ت ٣١٠هـ/٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، عشرة أجزاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢: دار المعارف بمصر دون تاريخ.

١٢ـ عبد الله محمد جمال الدين: التاريخ والحضارة الإسلامية فى الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى، ط: دار الصحوة دون تاريخ.

١٣. القزوينى (زكريا بن محمد بن محمد ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م): آثار البلاد وأخبار العباد، ط: بيروت ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.

١٤. الكرديزى (أبو سعيد عبد الحى بن الضحاك ت ٤٤٣هـ/١٠٥١م: زين الأخبار، ترجمة عفاف السيد زيدان، ط: المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٦م.

١٥. محمد ناظم: السلطان محمود الغزنوى، حياته وعصره، ترجمة عبد الله سالم الزليتى، ط: دار المدار الإسلامى ٢٠٠٧م بيروت.

١٦ـ المسعودى (على بن الحسين بن على المسعودى (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧): مروج الذهب ومعادن الجوهر، أربعة أجزاء، ط: دار الأندلس، بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

١٧. مقبول أحمد: العلاقات العربية الهندية، تعريب نقولا زيادة، ط: بيروت ١٩٧٤م

١٨. المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٣٧٨هـ/٩٨٨م): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ط: ليدن ١٩٠٦م.

١٩. الهروى: نظام الدين أحمد بخشى الهروى (ت ١٠٠٣هـ/١٥٩٤م): طبقات أكبرى، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى ، ط: القاهرة ١٩٩٥م.

المصادر والمراجع الفارسية:

١ـ أبو الفضل العلامي الناكوري (ت ١٠١٠هـ/ ١٦٠٢م): آئيين أكبرى (قوانين أكبرى)، ثلاثة مجلدات، طباعة فارسية الجمعية الآسوية ببنكال عام ١٨٧٢- ١٨٧٧م.

٢ـ بابر: تزك بابر، ترجمة عبد الرحيم خانخانان، ط: الهند ١٣٠٨م.

٣ـ جهانكيَر (ت ١٠٣٧هـ/١٦٢٧م): توزك جهانكيرى، تحقيق سيد أحمد، عليكَره، ١٨٦٤م.

٤ـ صدر الدين حسن نظامى: تاج المآثر، ط: الهند دون تاريخ.

٥ـ ضياء الدين برنى (ت ٧٥٧هـ/١٣٥٧م): تاريخ فيروز شاهى، تحقيق سيد أحمد خان، ط: الجمعية الآسيوية، ببنكال، ١٨٦٢م.

٦ـ عصامى: فتوح السلاطين، تحقيق مهدى حسن، ط: الهند ١٩٣٨.

٧ـ محمد ساقى مستعد خان (ت ١١٣٦هـ/١٧٢٤م): مآثر عالمكَيرى، تحقيق مولوى أغا أحمد على، ط: الجمعية الآسيوية ببنكال هام ١٨٧١م.

٨ـ محمد صالح كنبوه (١٠٨٥هـ/١٦٧٥م): شاهجهان نامه أو عمل صالح، ترجمة ناصر حسين زيدى، ط: مركزى أردو بورد لاهور ١٩٨١م.

المصادر والمراجع الأردية:

١ـ أردو دائرة معارف إسلامية، ط٢: زير اهتمام دانش كَاه بنجاب، لاهور ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٢ـ إعجاز الحق قدوسى: تاريخ سند، ط: مركزى أردو بورد، لاهور ١٩٧٤م.

٣ـ بارى عليكَ: كمينى كى حكومت، ط: لاهور/ حميد أنور: باكستان (پس منظر وپيش منظر)، ط: لاهور ١٩٤٩.

٤ـ سليمان الندوى: عرب وهند كى تعلقات، ط: أكاديمية شبلى النعمانى، الهند.

٥ـ سليمان ندوى: عربون كافن جهاز رانى، أكاديمية شبلى النعمانى، الهند.

٦ـ السيد أبو ظفر ندوى: تاريخ سند، ط٢: أكاديمية شبلى النعمانى، الهند ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م.

٧ـ عبد القدوس هاشمى: تشريحات باكستان، ط: حيدر آباد الدكن ١٩٤٦م.

٨ قائد أعظم: تصورات باكستان، ترجمة شاهين فاروقى، ط: حيدر آباد الدكن ١٩٤٦م.

٩ـ محمد حسين خان: أفغان بادشاه ط: لاهور ١٣٤٦م.

١٠ـ محمد ميرزا دهلوى: مسلمانان هند كى حيات سياسى، ط: دهلى ١٩٤٠م.

المصادر والمراجع الإنجليزية:

1- Abdel Haleem: History of the Lodi Sultanate, Delhi 1961.
2 –AXENA, K. K: Ancient Contacts between India and Countries across the Arabian Sea, Indo- Asian Culture XVII, 1968.
3- Budh Parkash: Political and Social Movement in Ancient Punjab, Delhi 1964.
4- E.C.Stamp: First Geography of Pakistan and India, Lahore 1962.
5- F.E. Pargiter: Ancient Indian Historical Tradition, London 1922.
6- H.C. Raychaudhuri: Political History of Ancient India, Sixth impression, Calcutta 1953.
7-Ishtyque Quaraishi: The Administration of Sultanate of Delhi Karachi 1959.
8- J. Howkes: The First Great Civilization, London 1973.

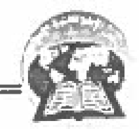
بـــــدر (غزوة)

بدر ماء مشهور بين مكة والمدينة، أسفل وادى الصفراء، بينه وبين الجار - ميناء على ساحل البحر الأحمر الشرقى حاليًا- ليلة [1]. وبدر حاليًا قرية تشبه المدينة وهى عامرة، وتقع إلى الجنوب الغربى من المدينة المنورة بنحو ١٥٥كم، وشمال مكة المكرمة بنحو ٣١٠كم.

ارتبط باسم بدر ثلاث غزوات من غزوات الرسول ﷺ: بدر الأولى، وهى إحدى الغزوات التى قام بها الرسول ﷺ قبل بدر القتال أو بدر الكبرى،أو بدر الثانية، كل هذه أسماؤها؛ لإعلام قريش أن الدعوة الإسلامية والدولة الإسلامية أصبحت قوية بما فيه الكفاية، وتستطيع أن تدافع عن وجودها وحقوقها وعلى قريش أن تعيد النظر فى موقفها المعادى للرسول ﷺ ودعوته؛ لأن قريشًا لم تكتف بأنها أخرجت المسلمين من قلة وطردتهم من ديارهم، وهذا فى حد ذاته بمثابة إعلان حرب بل هو حتى أكبر من إعلان الحرب كما عبر عن ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٧).

لم تكتف قريش بذلك بل طاردت المسلمين فى مهجرهم فى المدينة المنورة، وبذلت جهودًا مستميتة مع مشركى يثرب ويهودها لإخراجهم من المدينة، وخلق المشكلات لهم فيها إن عجزوا عن طردهم.

لذلك كان لابد من تأديبها واسترداد بعض أموال المسلمين التى استولت عليها وصادرتها فى مكة، فقامت سياسة الرسول ﷺ على التلويح بالقوة فى وجهها



وكانت غزواته وسراياه قبل بدر الكبرى، وعددها ثمان، وكانت بدر الأولى إحداها، والتى كانت فى جمادى الآخر سنة ٢هـ. كما يقول ابن إسحاق ولم يحدث فيها قتال [٢]. وتسمى أيضًا غزوة سفوان.

أما بدر الثانية أو بدر الكبرى، أو بدر القتال فوقعت فى السابع عشر من شهر رمضان، سنة ٢هـ، وسببها تصدى الرسول ﷺ لعير قريش والاستيلاء عليها وهذا عدل وقصاص؛ لأنه من غير المعقول أن تفعل قريش بالمسلمين كل ما فعلت، ثم يتركوها تمر أمام أعينهم بدون عقاب وهم قادرون على ذلك، يقول ابن إسحاق: لما سمع الرسول ﷺ بأبى سفيان مقبلاً من الشام ندب المسلمين إليهم وقال: **«هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها»** [٣].

كانت قريش تعرف أن الطريق إلى الشام قد أصبح محفوفًا بالمخاطر، وقائد القافلة القرشية وهو أبو سفيان بن حرب كان رجلاً ذكيًا وحذرًا، واستطاع أن يعرف أن الرسول ﷺ وصحابته قد خرجوا للتصدى له ومصادرة ما معه من أموال تعويضًا عن أموالهم التى صادرتها قريش فى مكة ؛ لذلك اتخذ إجراءين سريعين: الأول تغيير الطريق الطبيعى وسلوك طريق ساحلى بعيدًا عن النظر، والثانى أنه استأجر رجلاً من قبيلة غفار هو ضمضم ابن عمرو الغفارى، وأرسله إلى مكة على عجل ليخبر أهلها أن محمدًا ﷺ قد عرض لتجارتهم [٤].

استطاع أبو سفيان النجاة بتجارته، ولكن رسوله كان قد وصل إلى مكة وأخبرهم بطريقة مفزعة فبدأوا يتهيأون للخروج، فإذا بأبى سفيان يصل سالمًا بتجارته، وكان من رأيه هو وبعض عقلاء مكة مثل عتبة بن ربيعة بن عبد شمس أنه ما دامت تجارتهم قد نجت فلا داعى للخروج للحرب ؛ لأن المسلمين إخوتهم وأبناء عمومتهم، وتقريبًا كل الأسر القرشية منقسمة: بعضها مسلم وبعضها مشرك، فإذا التقوا ودار قتال فالخسارة على الجميع وستؤجج الأحقاد والثارات. لم تُجْدِ دعوة عقلاء مكة أمام حلف أبى جهل بن هشام الذى قرع طبول الحرب، وأرادها أن تكون مظاهرة يتسامع بها العرب، وأقسم بالآلهة أنه لابد من الذهاب إلى بدر، ليشربوا الخمور وينحروا الجُزُور وتعزف عليهم القيان [٥]. ولم يكن يدرى أنه سيلاقى حتفه هناك ويذهب إلى جهنم وبئس المصير.

موقف الرسول ﷺ :

علم الرسول ﷺ بأن القافلة قد نجت، وعلم أن قريشًا قد خرجت بخيلائها وقضها وقضيضها فإذا ترك لها الميدان وعاد إلى المدينة- كما كان يرى بعض أصحابه ؛ لأنهم لم يخرجوا مستعدين للقتال- فإن هذا سيكون له عواقب وخيمة ليس فى نظر قريش وحدها بل فى نظر كثيرين من العرب الذين قد يتجرؤون على الدولة الوليدة. الحق أن الموقف كان حرجًا وصعبا للغاية ولذلك يحتاج إلى حكمة بالغة فى المعالجة، ومَنْ أَحْكَمُ من الرسول ﷺ لمواجهة تلك المواقف الصبعة ؟

لقد قرر صلى الله عليه وسلم أن يواجه الموقف بما يناسبه ، وأخذ يروض أصحابه تدريجيًا على المواجهة ، فأخذ يستشيرهم أولاً فى مبدأ القتال فوجد استجابة سريعة من المهاجرين، ولكنه كان يريد أن يطمئن على موقف الأنصار ؛ لأن بيعة العقبة الثانية، أو بيعة القتال لم تكن تلزمهم بالحرب خارج المدينة، ففطنوا لما يقصده وطمأنوه أنهم معه حتى لو خاض بهم البحر[٦].

المعركـة :

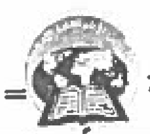
اطمأن الرسول ﷺ إلى صدق إيمان أصحابه جميعًا ومتانة موقفهم وشرع على الفور فى الاستعداد للمواجهة التى أصبحت حتمية ، ونزل عند ماء بدر، بناء على نصيحة الحُبَاب بن المنذر الذى كان خبيرًا بالمكان[٧].

كان عدد المسلمين أكثر قليلاً من ثلاثمائة رجل، وكان عدد المشركين نحو الألف، ودارت معركة بدر الكبرى، المعركة الفارقة فى التاريخ فى يوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٢هـ . واستغرقت بعض ذلك اليوم وانجلت عن نصر ساحق للمسلمين وهزيمة منكرة للمشركين الذين خرّ منهم سبعون قتيلاً فى الميدان وأسر منهم سبعون، وكان عدد شهداء المسلمين أربعة عشر شهيدًا.

نزلت سورة الأنفال بعد المعركة تشرح ما جرى فيها وأثرها فى مستقبل الإسلام، وأوضحت أن بعض المسلمين كان يريد الحصول على العير المحملة بالأمتعة دون قتال وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾

(الأنفال: ٧).

ولكن الله تعالى رأى أن المواجهة وكسر شوكة الشرك وغطرسة قريش



وغرورها هو الأفضل لهم فقال تعالى: ﴿ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾ (الأنفال: ٨).

فانتقل المسلمون بهذا النصر المبين من الذلة إلى العزة ومن الضعف إلى القوة كما عبر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٣). وقوله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (الأنفال: ٢٦). هذه النتيجة أفضل بكثير لكم من العير. إنكم غنمتم من الحرب وفداء الأسرى أكثر بكثير من قيمة العير، يعنى أن الله تعالى اختار لكم الأفضل والأكرم ؛ فقد أصبحت لكم هيبة كبيرة فى عيون كل العرب، بل وفى عيون غير العرب. وعندما نتأمل قول الله تعالى عن هذه المعركة أنها كانت يوم الفرقان كما أخبرت الآية ٤١ من سورة الأنفال، نرى أنها كانت فعلاً يومًا فاصلاً فى تاريخ البشرية فنتائج المعارك لا تقاس بضخامة حجمها أو عدد الجيوش المتقاتلة أو عدد ضحاياها وإنما بنتائجها، فنتائج بدر لم تتوقف عند دحر قريش وكسر غرورها وإنما يمكن أن يقال دون مبالغة إنه فى قليب بدر لم يدفن أبو جهل ورفاقه من أئمة الكفر، وإنما (دفن عصر بكامله) وجاهليته، وفى قليب بدر دفنت غطرسة الفرس والروم وظهرت للدنيا قوة جديدة قائمة على منهج إلهى هو الدعوة الإسلامية التى ستضم معظم العالم القديم فى قاراته الثلاث المعروفة وقتئذ: آسيا وأفريقيا وأوروبا، وسينعم كل من انضوى تحت لواء العروبة الإسلامية بالعدل والحرية والكرامة الإنسانية بصرف النظر عن جيشه ولغته ودينه، وهذه حقيقة اعترف بها طائفة كبيرة من المستشرقين مثل السير توماس أرنولد فى كتابه (الدعوة إلى الإسلام)، والأستاذ جوستاف لوبون فى كتاب (حضارة العرب) وسيجريد هونكه فى كتاب (شمس العرب تسطع على الغرب) وغيرهم كثيرون .

لقد كانت معركة بدر الخالدة حقًا يومًا فاصلاً فى تاريخ البشرية وحظى

كل من حضرها من المسلمين بشرف ما بعده شرف، فأصبحت كلمة بدرى وسامًا إلهيًا على صدورهم، ولعل الله اطلع على أهل بدر فقال: افعلوا ما شئتم فقد غفرت لكم.

هذا عن بدر الثانية أو بدر الكبرى أو بدر القتال، أما غزوة بدر الثالثة التى ارتبط اسمها بهذا المكان، فكانت فى العام الرابع الهجرى بعد معركة أحد بنحو عام؛ لأن أبا سفيان كان قد قال مزهوًا بما ظنه نصرًا فى أُحد : يوم بيوم بدر، وموعدنا بدر العام القادم ، لكن لما جاء العام القادم جبنت قريش عن الخروج للموعد الذى حددته هى بنفسها، ولكن الرسول ﷺ خرج وذهب إلى بدر، فى نفس الموعد فلم يجد قريشًا وظلّ اسبوعا هو وأصحابه الذين تاجروا وكسبوا ؛ لأن بدرًا سوق من أسواق العرب الكثيرة ، وغدت غزوة بدر الثالثة أو بدر الموعد نصرًا منسوبًا للرسول ﷺ وهزيمة مريرة لقريش[٨]. ملأتها غيظًا وحَنَقًا مضاعفًا على رسول الله ﷺ فخرجت عليه بتأليب اليهود فى العام الخامس للقضاء على الإسلام نهائيًا، ولكن الله خيب أملهم . ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ (الأحزاب: ٢٥).

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) انظر معجم البلدان. ياقوت الحموى، ج٥، ص٢٥٧، طبع دار صادر، بيروت، سنة ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م .
(٢) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٢٣٨ .
(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٤ .
(٤) المصدر السابق، ج٢، ص٢٤٤ .
(٥) المصدر السابق، ج٢، ٢٦٣ .
(٦) المصدر السابق، ج٢، ص٢٥٤ .
(٧) المصدر السابق، ج١٦، ص٢٥٩ .
(٨) انظر وقائع غزوة بدر الآخرة فى سيرة ابن هشام، ج٣، ص٢٢١، وما بعدها .

مصادر ومراجع للاستزادة :

(١) سيرة ابن هشام .
(٢) طبقات ابن سعد .
(٣) السيرة النبوية أ . د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

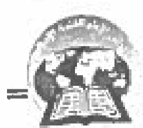
البرامكة

البرامكة أسرة فارسية لعبت دورًا مهمًا على مسرح الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فى العصر العباسى الأول. وأول من برز من أفراد هذه الأسرة خالد بن برمك. وليس من اليسير القول بإسلام برمك[١]، ولكن الواضح أن ابنه خالدًا نشأ نشأة إسلامية. وقد برز دوره السياسى منذ قيام الخلافة العباسية سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م)؛ فقد عينه الخليفة أبو العباس السفاح (١٣٢-١٣٦هـ/٧٤٩-٧٥٤م) عاملاً على ديوان الخراج فى سنة ١٣٢هـ. ولا يلى هذا الديوان إلا من يتمتع بالثقة والخبرة معًا. وقد استمر خالد بن برمك يتولى هذا المنصب الخطير طوال خلافة السفاح[٢]. ومما يشير إلى مكانة خالد لدى العباسيين أنه كان واحدًا من القادة الذين استعانوا بهم فى حربهم ضد الأمويين[٣].

وفى عهد الخليفة المنصور تمتع خالد ابن برمك بمكانة لا تقل عن المكانة التى تمتع بها فى عهد السفاح. ولا يكفى للتعبير عن هذه المكانة أنه كان أحد الذين ولاهم المنصور الوزارة[٤]؛ بل زاد على ذلك أنه كان من بين من يلجأ إليهم الخليفة لحل القضايا المستعصية. ويحدثنا الطبرى عن الدور الذى قام به فى تحويل ولاية العهد من عيسى بن موسى ولى عهد المنصور إلى ابنه محمد المهدى[٥].

وقد كان المهدى يعرف ذلك له ويصفه بجزالة الرأى، وقد استعمله فى إحدى غاراته ضد دولة الروم فى سنة ١٦٣هـ (٧٧٩)[٦]، رغم شيخوخته فى ذلك الوقت؛ فقد توفى سنة ١٦٥هـ (٧٨١م) عن خمسة وسبعين عامًا[٧]. ويصفه المسعودى بقوله: **"لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده فى جودة رأيه وبأسه وجميع خلاله"**[٨].

على أن يحيى بن خالد بن برمك احتل فى بلاط العباسيين مكانة زادت فى خطورتها وأهميتها عن المكانة التى كانت لوالده خالد. وقد كان يحيى يتمتع أيضًا بصفات خلقية رفيعة؛ فقد **"كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال"**، كما يقول ابن خلكان[٩]. ولا شك أن هذه الصفات النادرة هى التى أهلته لأن يحظى لدى الخليفة محمد المهدى (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٥-٧٨٥م) بثقته المطلقة. ولعل أقوى مظاهر



هذه الثقة أنه عهد إليه برعاية ولده هارون الرشيد والإشراف على تربيته وتهذيبه(١٠).

والواضح أن تأثير يحيى بن خالد على هارون كان بالغ العمق، ولا أدلّ على ذلك من أن هارون قال له بعد أن تولى الخلافة: "يا أبت، أنت أجلستنى فى هذا المجلس ببركتك ويُمْنك وحسن تدبيرك"(١١). ولعل هارون هنا يشير إلى دور يحيى بن خالد فى إحباط المحاولة التى قام بها الخليفة موسى الهادى لكى يحوّل ولاية العهد إلى ابنه الطفل جعفر بدلاً من هارون. وقد تضافرت جهود الخيزران والدة الهادى وهارون مع جهود يحيى بن خالد فى هذا الأمر. وقد استوزره هارون بعد توليه الخلافة وقال له: "قد قلدتك أمر الرعية وأخرجته من عنقى إليك، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب، واستعمل من رأيت واعزل من رأيت، وأَمْضِ الأمور على ما ترى"(١٢)، ودفع إليه خاتمه. وقد كانت وزارة يحيى بن خالد أول وزارة تفويض فى العصر العباسى، وكانت الوزارة قبل ذلك وزارة تنفيذ(١٣).

كان ليحيى بن خالد أربعة أولاد هم الفضل وجعفر وموسى ومحمد. أما الفضل - وهو أكبر أولاد يحيى - فقد كان أخا الرشيد من الرضاعة؛ ذلك أن أم الفضل أرضعت الرشيد؛ وأم الرشيد - وهى الخيزران - أرضعت الفضل. وبالرغم من أن البرامكة جميعًا كانوا يتصفون بالكرم فقد كان الفضل بن يحيى "من أكثرهم كرمًا"(١٤). ومما يروى من مآثره فى هذا الصدد أن شاعرًا يقال له "أبو الهول الحِمْيرى" هجاه، "ثم أتاه راغبًا إليه، فقال له: ويلك! بأى وجه تلقانى؟ فقال: بالوجه الذى ألقى به الله عز وجل وذنوبى إليه أكثر من ذنوبى إليك، فضحك ووصله"(١٥).

وقد كان الرشيد يثق فى كفاءة الفضل ويلجأ إليه فى المواقف الصعبة. فمن ذلك أنه أرسله إلى بلاد الديلم سنة ١٧٦هـ (٧٩٢م) لإخماد الثورة التى قام بها يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علىّ بن أبى طالب الذى هرب إلى هناك بعد موقعة "فخ" فى عهد الخليفة الهادى. وقد استطاع يحيى بن عبد الله أن يظفر بتأييد ساحق من أهل تلك البلاد وأن يهدد سلامة الدولة العباسية، فولّى الرشيدُ الفضل بن يحيى بلاد جرجان وطبرستان والرى، ووجهه فى خمسين ألف مقاتل لمحاربة يحيى. ولكن الفضل آثر أن يسلك مع يحيى أسلوب المفاوضات وتمكن من أن يعقد معه صلحًا بعد أن

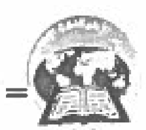
سأل الرشيد أن يكتب له كتاب أمان فأجابه إلى ذلك. وهكذا نجح الفضل فى القضاء على هذه الثورة دون إراقة دماء[١٦].

وقد ارتفعت مكانة الفضل عند الرشيد بعد قضائه على ثورة يحيى بن عبد الله، فولاه خراسان سنة ١٧٨هـ (٧٩٤م) فمهد بها الأمور[١٧]. هذا؛ وقد عهد الرشيد إلى الفضل بمهمة الإشراف على تربية ابنه محمد الأمين[١٨].

على أن أرفع البرامكة منزلة عند الرشيد وأخصَّهم به وأدناهم منه كان جعفر بن يحيى دون منازع. وهذا ما يعبر عنه ابن خلكان بقوله: "كان من علو القدر ونفاذ الأمر وبعد الهمة وعظم المحل وجلالة المنزلة عند هارون الرشيد بحالة انفرد بها ولم يُشارك فيها"[١٩]. ولم تأت مكانته هذه من فراغ؛ فقد كان يتسم بسماحة الخلق وطلاقة الوجه ولين الجانب، بالإضافة إلى لباقته وفصاحته النادرة وسخائه الذى تفرَّد به. وقد ولاه الرشيد مصر سنة ١٧٦هـ (٧٩٣م) فكان جعفر ينيب عنه من يتولى حكمها حتى يظل هو بجانب الرشيد[٢٠]. وكان الرشيد يستعين بجعفر فى جلائل الأمور؛ ففى سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م) أرسله إلى بلاد الشام للقضاء على القلاقل بها فقام بمهمته على خير وجه[٢١]. وقد عهد إليه الرشيد - فوق ذلك - بمهمة الإشراف على تربية ابنه عبد الله المأمون[٢٢].

أما موسى بن يحيى فقد كان مشهورًا بالبأس والشجاعة والكفاية. وقد ولاه الرشيد الشام سنة ١٧٦هـ (٧٩٣م) عندما هاجت الفتنة بها بين النزاية واليمانية (أو العدنانيين والقحطانيين)، فأصلح موسى أمرها وسكَّن الفتنة بها[٢٣]. وأما محمد بن يحيى فقد اشتهر ببعد همته، وكانت له مكانته الاجتماعية الموفورة، ولكنه لم يتقلد مناصب مهمة كتلك التى تقلدها إخوته.

يتبين لنا مما ذكرنا أن الأركان الأساسية لأسرة البرامكة فى عهد الرشيد هم يحيى بن خالد وابناه الفضل وجعفر. ومما يعبر عن مدى النفوذ الذى تمتع به هؤلاء الثلاثة فى تلك الفترة قول اليعقوبى: "وكان الغالب على الرشيد يحيى بن خالد بن برمك وجعفر والفضل ابناه صَدْرًا من خلافته حتى ما كان له معهم أمر ولا نهى. فأقاموا على تلك الحال وأمور المملكة إليهم سبع عشرة سنة"[٢٤]. ومن هنا فليس من الغريب أن يصل النفوذ الفارسى على أيديهم إلى أقصى مدى له فى دولة العباسيين.



وبالرغم من هذه المكانة المتفرِّدة التى تمتع بها البرامكة فى بلاط الرشيد فقد تعرضوا على يديه لنكبة مروِّعة حار المؤرخون فى تفسيرها. ففى أول صفر سنة ١٨٧هـ (٨٠٣م) أمر الرشيد بقتل جعفر بن يحيى بن خالد وصلْب جثته. ثم قبض على يحيى بن خالد وأولاده وحبسهم بالرَّقة واستصفى أموالهم واستولى على ضياعهم. وقد رفض تقديم أى سبب لما فعل، بل يُروَى عنه أنه قال: "لو علمتْ يمينى بالسبب الذى له فعلتُ هذا لقطعتُها!"[٢٥].

وقد حاول المؤرخون أن يقدِّموا الأسباب المحتملة لهذه النكبة. وفيما يلى مجمل هذه الأسباب:

١ـ قصة العباسة: كان الرشيد شديد الولع بأخته العباسة، فلم يكن يصبر على فراقها، كما كان فى الوقت نفسه شديد التعلق بجعفر البرمكى. وحتى يستطيع الجمع بينهما فى مجلسه جعل جعفرًا يتزوج من العباسة ولكنه اشترط عليه ألا يمسها. ويضيف أصحاب هذه الرواية أن العباسة تحايلت على جعفر حتى التقت به وحملت منه دون علم الرشيد وولدت غلامًا، ولكنها خافت أن يطّلع الرشيد على الأمر، فأرسلت الغلام إلى مكة مع حواضن له. ثم وقع بين العباسة وبين إحدى جواريها شر فأذاعت الجارية سرَّها للرشيد فقتل جعفرًا ونكَّل بأهله[٢٦].

٢ـ قصة يحيى بن عبد الله العلوى: تحدثنا منذ قليل عن الثورة التى قام بها يحيى بن عبد الله فى بلاد الديلم بعد هروبه إلى هناك إثر هزيمة العلويين فى معركة "فخ" فى عهد الخليفة موسى الهادى، وأشرنا إلى أن الرشيد أرسل إليه الفضل بن يحيى البرمكى لإخماد ثورته، ولكن الفضل استطاع أن يعقد صلحًا مع يحيى بن عبد الله وأن يضمن له أمان الرشيد. واستكمالاً لهذه القصة نذكر هنا أن الرشيد دفع يحيى إلى جعفر البرمكى فحبسه. ولكن يحيى استعطف جعفرًا فرقَّ له وأطلق سراحه ووجَّه معه من سهَّل له سبيل الهَرَب إلى بلاد الديلم. ولكن الرشيد علم بذلك عن طريق أحد كبار حاشيته وهو الفضل بن الربيع الذى يُعْرف بأنه ألد أعداء البرامكة فى بلاط الخليفة. ومن ثَمَّ طلب الرشيد جعفرًا وسأله عن يحيى فقال له: "هو بحاله فى الحبس". فقال الرشيد: "بحياتى؟" ففطن جعفر وقال: "لا وحياتك"! وقص عليه أمره. فقال الرشيد: "نعم ما فعلتَ! ما عدوتَ ما فى

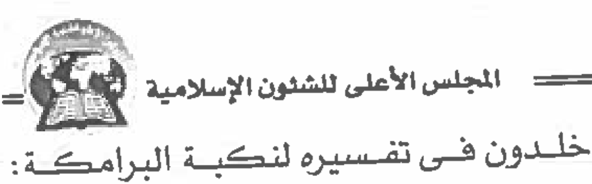
نفسى"! فلما قام جعفر قال الرشيد: **"قتلنى الله إن لم أقتلك"!** ونكب البرامكة[٢٧].

٣ـ دسائس الفضل بن الربيع وغيره من أعداء البرامكة: يذكر بعض المؤرخين أن أعداء البرامكة مثل الفضل بن الربيع مازالوا يذكرون للرشيد استبدادهم بالملك واحتجانهم للأموال حتى أو غروا صدره فأوقع بهم[٢٨]. ويتصل بذلك ما يُرْوَى من أن جعفر بن يحيى ابتنى دارًا بلغت نفقاتها عشرين مليون درهم، فقيل للرشيد: هذه غرامته على دار؛ فما ظنك بنفقاته؟![٢٩].

٤ـ ما ظهر من جعفر والفضل ابنى يحيى من تيه وإدلال: وهذا ما يوضحه ابن خلكان فى معرض حديثه عن الأسباب المحتملة لنكبة البرامكة حيث يقول: **"وقع منهم بعض الإدلال، خاصة جعفر والفضل، دون يحيى، فإنه كان أحكم خبرة وأكثر ممارسة للأمور"**[٣٠].

مناقشة هذه الأسباب:

الواضح أن السبب الأول المتمثل فى قصة العباسة شديد التهافت بعيد عن الإقناع. وقد رفض ابن خلدون قبول هذه القصة من أساسها وقال فى تبريره لهذا الرفض: "كيف يسوغ من الرشيد أن يُصْهِر إلى موالى الأعاجم على بعد همته وعِظَم آبائه؟ ولو نظر المتأمل فى ذلك نظر المنصف وقاس العباسة بابنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى دولتها. وأين قدر العباسة والرشيد من الناس؟"[٣١]. ثم إننا نضيف إلى ما ذكره ابن خلدون ما يبدو فى نظرنا أدعى إلى التشكيك فى وثاقة هذه القصة، وهو ما تنطوى عليه من تناقض داخلى بيِّن. فالقصة تذكر أن الرشيد لم يكن يطيق فراق العباسة، ثم تمضى قائلة إن العباسة حملت ووضعت دون أن يعلم الرشيد بذلك إلا من بعض الوشاة. فهل غابت العباسة عن نظره طوال هذه الفترة؟ ويبقى أمامنا تساؤل آخر ذو دلالة وهو: ماذا كان رد فعل الرشيد إزاء العباسة فى هذا الأمر؟ هل نجت من العقاب؟ إن القصة لا تشير إلى شىء من هذا رغم أن العباسة طرف أصيل فيها. هذه القصة بيِّنَةُ التهافت إذن، واضحة البطلان؛ ومع ذلك فقد وجدنا من المستشرقين والعرب من يثق تمام الثقة فى صحتها، ومن هؤلاء السير وليم موير[٣٢]، وجرجى زيدان الذى ألف رواية تاريخية عنوانها "العباسة أخت الرشيد" سلم فيها بصحة هذه القصة.



أما الأسباب الأخرى فلعلها لا تجاوز الحقيقة فى مجملها، وإن كنا لا نستطيع أن نقول إن سببًا معينًا منها كان هو الدافع الوحيد وراء هذه النكبة، لكننا نتوقف عند قصة يحيى بن عبد الله العلوى لنذكر أن هناك رواية تشير إلى أن الرشيد نقض أمانه وقتله بعد أن سعى عنده بعض الوشاة[٣٣]. فلو صحت هذه الرواية لاستلزمت أن يكون رجال هارون قد نجحوا فى القبض على يحيى وتسليمه إلى الخليفة قبل أن يكمل تنفيذ مخططه.

وخلاصة تحليلنا هنا أن نكبة البرامكة كانت - فيما يبدو - نتاج مجموعة من العوامل المتداخلة لعل أهمها هو ازدياد نفوذ هذه الأسرة بصورة تضاءل معها نفوذ الخليفة ذاته. ومن ثم فإننا نستطيع القول إن قرار الرشيد بالقضاء على البرامكة لم يحدث فجأة[٣٤]، بل تشكل بالتدريج ونما فى خط متواز مع نمو نفوذ البرامكة، ثم حينما بلغ هذا النفوذ مداه اكتملت ملامح القرار. وقد يكون هناك سبب مباشر وراء تنفيذ القرار بشكل يبدو مفاجئًا، ولكن الذى لا شك فيه أن القرار ذاته كان موجودًا قبل تنفيذه بفترة قد لا تكون قصيرة. ومن المفيد هنا أن نقتبس بعض ما قاله ابن خلدون فى تفسيره لنكبة البرامكة:

"إنما نَكَبَ البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره، وشاركوه فى سلطانه، ولم يكن له معهم تصرف فى أمور ملكه، فعظمت آثارهم وبَعُدَ صيتهم"[٣٥].

هذا؛ وقد انتهت بنهاية نفوذ البرامكة مرحلة متميزة فى خلافة هارون الرشيد لتبدأ مرحلة أخرى كان النفوذ الغالب فيها هو نفوذ وزيره الفضل بن الربيع.

وقد ظل يحيى بن خالد فى محبسه بالرافقة (وهى بلد متصل البناء بالرقة)[٣٦] إلى أن مات فى الثالث من المحرم سنة ١٩٠هـ (آخر نوفمبر ٨٠٥م) فجأة من غير علة، وهو ابن سبعين سنة، وقيل: أربع وسبعين، .وصلى عليه ابنه الفضل، ووجد فى جيبه رقعة مكتوب فيها بخطه: **"قد تقدم الخصم، والمدَّعَى عليه فى الأثر، والقاضى هو الحكم العدل الذى لا يجور ولا يحتاج إلى بينة. فحملت الرقعة إلى الرشيد، فلم يزل يبكى يومه كله وبقى أيامًا يُتَبَيَّنُ الأسى فى وجهه"**[٣٧]. أما الفضل فقد توفى فى محبسه بعد أبيه بثلاث سنين، وذلك فى المحرم سنة

١٩٣هـ (٨٠٨م).

فى نهاية حديثنا عن البرامكة ينبغى أن نشير باختصار إلى دورهم السياسى والاجتماعى والثقافى فى العصر العباسى الأول.

أما دورهم السياسى فلعله اتضح تمامًا من خلال عرضنا السابق، وقد بدأ هذا الدور منذ بداية الخلافة العباسية، وذلك على يد رأس هذه الأسرة خالد بن برمك الذى لعب دورًا سياسيًا بارزًا فى خلافة السفاح والمنصور والشطر الأول من خلافة المهدى. أما يحيى بن خالد فهو القطب السياسى لهذه الأسرة دون منازع. فقد ذكرنا أن الرشيد أعطاه خاتمه وفوَّض إليه الأمور، فكانت وزارته وزارة تفويض كما أشرنا، واشترك معه ولداه الفضل وجعفر، وكان لهما دورهما السياسى البارز. وهكذا يمكن القول إن النفوذ السياسى فى دولة الخلافة العباسية بلغ مداه فى تلك الفترة على يد يحيى البرمكى وأولاده، وبخاصة الفضل وجعفر.

أما الدور الاجتماعى للبرامكة فيتضح تمامًا مما تحفل به مصادرنا من روايات تدور حول مظاهر الرعاية ووجوه البر والإحسان التى كانوا يسبغونها على كل من يلوذ بهم. وقد كان الجود طبيعة متأصلة فيهم، ابتداءً من خالد بن برمك وانتهاءً بأولاد يحيى بن خالد. وكان يحيى يقول: "**إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تَفْنَى، وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى**"[٣٨]. ومما يروى فى هذا السياق أن يحيى بن خالد كان له ابن يسمى إبراهيم توفى وسِنُّهُ تسع عشرة سنة. وكان قد أحضر له المؤدبين الذين يتولون رعايته وتهذيبه، فسألهم يومًا عن حاله، فقالوا: بلغ من الأدب كذا، ونظر فى كذا واتخذنا له من الضياع كذا. فقال: ما عن هذا سألت، هل اتخذتم له فى أعناق الرجال مِنَنًا؟ فسكتوا، فقال يحيى: لقد قصَّرتم؛ هو إلى هذا أحوج، وأمر بحمل خمسمائة ألف درهم وتفريقها باسمه فى الناس[٣٩]. ويتأكد هذا الدور الاجتماعى للبرامكة من القصائد العديدة المؤثرة التى كتبها الشعراء تعبيرًا عن أساهم العميق للنكبة التى حلت بهذه الأسرة، وتقديرًا لعطائهم وأريحيتهم ودورهم الاجتماعى النادر. فمن ذلك ما قاله أحد الشعراء:

اندب بنى برمك لدنيا
تبكى عليهم بكل واد
كانت بهم بُرْهة عروسًا
فأضحت اليوم فى حداد



وقال آخر:

كأن أيامهم من حسن بهجتها

مواسم الحج والأعياد والجمع[٤٠].

ويبقى أن نشير إلى الدور الثقافى البارز الذى مارسته هذه الأسرة فى العصر العباسى الأول؛ فقد أسبغوا رعايتهم على العلماء والكتَّاب والشعراء؛ فمن هؤلاء اللغوى الشهير الأصمعى (عبد الملك بن قريب)[٤١]، والمحدِّث الثقة سفيان بن عيينة[٤٢]، والمؤرخ الذائع الصيت محمد بن عمر الواقدى[٤٣]، والشاعر المرموق مسلم ابن الوليد[٤٤]، ومروان بن أبى حفصة[٤٥]. وكل شعراء العصر تقريبًا، ومن هنا يقول ابن خلكان: "قد مدح البرامكة جميع شعراء عصرهم"[٤٦].

على أننا فى هذا السياق لا ينبغى أن نهمل دورًا ثقافيًا بارزًا قام به البرامكة، وهو إسهامهم فى رعاية حركة الترجمة التى بدأت فى العصر العباسى الأول. لقد نهضت هذه الحركة بنقل عيون التراث العالمى إلى اللغة العربية، وقام الخلفاء برعايتها، ولكن البرامكة ساندوها بكل ما استطاعوا. يذكر ابن القفطى فى ترجمته لعمر بن حفص بن الفرُّخان أنه "أحد رؤساء التراجمة والمتحققين بعلم حركات النجوم وأحكامها.. وكان منقطعًا إلى يحيى بن خالد بن برمك"[٤٧].

وحين يتحدث ابن النديم عن كتاب "المجسطى" لبطليموس يذكر أن "أول من عُنى بتفسيره وإخراجه إلى العربية يحيى ابن خالد بن برمك"[٤٨]. وممن يذكرهم ابن النديم فى هذا الصدد "سلام الأبرشى" الذى يصفه بأنه "من النقلة القدماء فى أيام البرامكة"[٤٩]. ويذكر ابن النديم أيضًا أن اثنين من علماء التراث اليونانى يقال لهما: أيوب وسمعان "فسَّرا زيج بطليموس لمحمد بن يحيى بن خالد ابن برمك، وغير ذلك من الكتب القيمة"[٥٠].

ونضيف إلى الدور الثقافى للبرامكة ما كانوا يعقدونه من مجالس علمية. ويبرز فى هذا المجال يحيى بن خالد الذى يقول عنه المسعودى: "وقد كان يحيى بن خالد ذا علم ومعرفة وبحث ونظر، وله مجلس يجتمع فيه أهل الكلام من أهل الإسلام وغيرهم من أهل الآراء والنِّحَل"[٥١].

هكذا تعددت الأدوار التى مارسها البرامكة فى العصر العباسى الأول بكفاءة واقتدار، وهى أدوار ضمنت لهم مكانًا شديد التميُّز فى التاريخ الإسلامى.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ج ٦، ص ٢١٩.

(٢) الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك (المشهور بتاريخ الطبرى). تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧، ج ٧، ص ٤٥٨.

(٣) نفس المصدر ، ص ٤١٩. وأنظر أيضًا: ابن خلكان، مصدر سابق ، ج ٦، ص ٢٢٠.

(٤) المسعودى : التنبيه والإشراف، طبعة ليدن ١٨٩٣. ص ٣٤٢.

(٥) الطبرى، مصدر سابق، ج ٨، ص ١٩- ٢٠.

(٦) نفس المصدر والجزء، ص ١٤٦.

(٧) ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب. دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ)، ج ١، ص ٢٦١.

(٨) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٤٨، ج ٣، ص ٢٧٧.

(٩) ابن خلكان، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٢١.

(١٠) نفس المصدر والصفحة.

(١١) نفس المصدر والصفحة .

(١٢) الطبرى، مصدر سابق ، ج ٨، ص ٢٣٣.

(١٣) د. محمد حلمى محمد أحمد: الخلافة والدولة فى العصر العباسى . مكتبة الشباب ، القاهرة ١٨٧٢، ص ٦٢.

(١٤) ابن خلكان، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٧.

(١٥) نفس المصدر والجزء، ص ٢٩ - ٣٠.

(١٦) الطبرى، ج ٨، ص ٢٤٢ وما بعدها.

(١٧) نفس المصدر والجزء، ص ٢٥٧.

١٨) ابن خلكان، مصدر سابق، ج ٤، ص ٢٨.

(١٩) نفس المصدر، ج١، ص ٣٢٨.

(٢٠) الطبرى، ج ٨، ص ٢٥٢.

(٢١) نفس المصدر والجزء، ص ٢٦٢.

(٢٢) ابن خلكان، ج٤ ، ص ٢٨.

(٢٣) الطبرى، ج ٨، ص ٢٥١.

(٢٤) اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت ١٩٩٢، ج٢، ص ٤٢٩.

(٢٥) نفس المصدر والجزء، ص ٤٢٢.

(٢٦) الطبرى ، ج ٨، ص ٢٩٤؛ والمسعودى: مروج الذهب، ج ٣، ص ٣٨٤ - ٣٨٩.

(٢٧) الطبرى، ج ٨، ص ٢٨٩.

(٢٨) ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، شركة طبع الكتب العربية بمصر، القاهرة ١٣١٧هـ، ص ١٩١.

(٢٩) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٩٦٣، ج ٢، ١١٥.

(٣٠) ابن خلكان، مصدر سابق، ج١، ص ٣٣٥.

(٢١) ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى، مكتبة الأسرة، القاهرة ٢٠٠٦، ج ١، ص ٣٠١- ٣٠٢.

(٢٢) Sir W.Muir,The Cailiphate: its Rise,Decline and Fall, Edinburgh,1924,p.481

(٢٣) أبو الفرج الأصفهانى : مقاتل الطالبيين، تحقيق سيد أحمد صقر، الهيئة العامة لتصور الثقافة ، القاهرة ٢٠٠٣، ج ٢، ص ٤٧٩- ٤٨٢.

(٢٤) د. محمد حلمى محمد أحمد: مرجع سابق، ص ٦٢- ٦٣.

(٢٥) ابن خلدون، مصدر سابق ، ج١، ص ٣٣٥.

(٢٦) ياقوت الحموى، معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، ج ٣، ص ١٧.

(٢٧) ابن خلكان، مصدر سابق، ج ٦، ص ٢٢٨.

(٢٨) نفس المصدر والجزء، ص ٢٦٦.

(٢٩) انظر المزيد عن كرم البرامكة ومكانتهم الاجتماعية فى موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٤، ج ٣، ص ٢٨٦ - ٢٩٧.

(٤٠) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٣، ص ٣٩١.

(٤١) ابن خلكان، مصدر سابق ، ج ٦، ص ٢٢٣.

(٤٢) نفس المصدر، ج ١، ص ٢٤٠ .

(٤٣) نفس المصدر، ج ٦، ص ٢٢٤- ٢٢٥.

(٤٤) نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٦.

(٤٥) نفس المصدر، ج ٤، ص ٣٥

(٤٦) نفس المصدر والصفحة.

(٤٧) ابن القطفى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء . مكتبة المتبى ٠ القاهرة (دون تاريخ) ص ١٦١.

(٤٨) ابن النديم : الفهرست . دار المعرفة ، بيروت (دون تاريخ) ، ص ٣٨٤.

(٤٩) نفس المصدر ، ص ٢٤١.

(٥٠) نفس المصدر والصفحة.

(٥١) المسعودى : مروج الذهب ، ج ٣، ص ٣٧٩.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١ـ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٧م، (تراجم البرامكة فى الجزء الأول والثالث والسادس).

٢ـ الطبرى : تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م (الجزآن السابع والثامن) .

٣ـ المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة ١٩٤٨(الجزء الثالث).

٤ـ د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٤م. (الجزء الثالث : الخلافة العباسية).

٥ـ د. محمد حلمى محمد أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى. مكتبة الشباب . القاهرة ١٩٧٢.

البربر

سكان البلاد الأصليون وأصحاب البلاد، عاشوا منذ أحقاب بعيدة على أرض المغرب على شكل قبائل وجماعات؛ أما لفظة بربر التى عرفوا بها، فقد اختلفت المصادر فى تعليلها؛ فبينما نجد السلاوى وغيره من المؤرخين ينسبون كلمة بربر إلى بربن قيس: "وأما تسميتهم بالبربر فإنه لما صار ملك مضر لقيس بن عيلان، كان له ولد اسمه بر فخرج مغاضبًا لأبيه وأخوته إلى جهة المغرب فقال الناس: بربر أى توحش فى البرارى فسموا بربرًا"[1]. نرى ابن خلدون يعلل هذه التسمية تعليلاً آخر حين قال: " إن إفريقش ابن صيفى من ملوك التبابعة لما غزا المغرب وإفريقية، وقتل الملك جرجيس وبنى المدن والأمصار، وباسمه، زعموا، سميت إفريقية، لما رأى هذا الجيل من الأعاجم وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها؛ تعجب من ذلك وقال: ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر؛ والبربرة بلسان العرب هى اختلاط الأصوات غير المفهومة ومنه يقال بربر الأسد إذا زأر بأصوات غير مفهومة"[2]. وهكذا أرجع ابن خلدون التسمية إلى لغة السكان وكيف أن تداخلها وعدم وضوحها دفع إفريقش إلى إطلاق تسمية البربر عليهم.

وهناك تفسير آخر لكلمة بربر أشار إليه "الفرد بل" بقوله: " أطلق الرومان اسم بربياروس على السكان القاطنين فى شمال إفريقيا فى عصرهم فالساكن الأصيل كان فى نظرهم بربياروس أى متأبيًا على حضارة روما، والاسم والمعنى اتخذه العرب فأطلقوا اسم البربر على هؤلاء السكان فى مقابل الروم أى الرومان"[3].

وهذا التفسير هو ما أميل إليه؛ إذ إن المتصفح لتاريخ البربر عبر فترات التاريخ المختلفة يجد مقاومة عنيفة لكل دخيل تطأ أقدامه أرض البلاد، وحين استعمر الرومان المنطقة قوبلوا بمقاومة عنيفة من سكان البلاد؛ لذا اكتفى الرومان بالتمركز فى الأقاليم الساحلية دون التوغل فى الداخل تاركين هذه المناطق لسكانها الأصليين. وربما كان هذا الموقف المعارض من جانب السكان للنفوذ الرومانى دافعًا لهم على إطلاق هذه اللفظة " بربياروس" كرمز لرفض السكان الحضارة الرومانية؛ فلما أقبل



العرب وجدوا البيزنطيين يستخدمونه فاستخدموه هم أيضًا مع شيء من التبسيط والتيسير فصار بربر"[٤].

كذلك اختلف المؤرخون في أصل البربر فنجد ابن حزم الأندلسي يذكر أقوالاً مختلفة في نسبهم " قال قوم إنهم بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام، وادعت طوائف منهم نسبتهم إلى اليمن إلى حمير وبعضهم إلى برين قيس عيلان ". " أما ابن الفقيه فيذكر أن فلسطين كانت موطنهم الأول: " وكانت دار البرابرة فلسطين وملكهم جالوت فلما قتله داود انتقلت البربر إلى المغرب ثم انتشرت إلى السوس الأدنى خلف طنجة والسوس الأقصى وهي من مدينة قمونية من موضع القيروان على ألفين وخمسين ميلا وكرهت البربر نزول المدائن فنزلوا الجبال والرمال"[٥]. ويشارك ابن الفقيه الكثير من المؤرخين[٦].

وقد برر السلاوي سبب نزوحهم من الشام بقوله: " إن بني حام تنازعوا مع بني سام؛ فانهزم بنوحام إلى المغرب وتناسلوا به واتصلت شعوبهم من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان، وكان بسواحل المغرب الأفارقة والإفرنج؛ فكانت ذرية حام في المداشر والخيام والأعاجم الأول في البلدان، وبقي أكثر أولاد حام في بلاد فلسطين من أرض الشام إلى زمن داود عليه السلام وكان ملكهم يسمى جالوت، فلما قتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء، أمر بإجلائهم من بلاد كنعان وفلسطين إلى المغرب فساروا نحو إفريقية والزاب وانتشروا هنالك حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال"[٧].

والواقع أنه لا يمكن التسليم بهذه الآراء التي أوردها المؤرخون بشأن الموطن الأصلي للبربر وهو فلسطين إذ لا توجد نقوش أو آثار أو وثائق تشير إلى ذلك؛ وقد بحث أحد الباحثين هذه المشكلة وخرج بالنتيجة التالية: " إن البربر نتاج ثبت منذ زمن بعيد ويمكن إدراكه لدى بعض الجماعات الواضحة العرقية، نقول إنهم نتاج لتقاطع بين شعوب قادمة من أوروبا وآسيا في عصور مختلفة كل الاختلاف والأساس الأول يمكن أن يُعْزَى إلى هجرات تمت في عصر ما قبل التاريخ وهجرات لناس طوال الجماجم وعراضها"[٨].

وبعبارة أخرى يمكننا أن نستخلص أن جيل البربر كغيره من الأجيال التي

عمرت الأرض والتى انساحت فى أرجائها طلبًا للرزق؛ وأنها اتخذت لها موطنًا فى أرض المغرب عامة حيث تناسلت وتكاثرت وتكونت منها تلك المجاميع الهائلة من السكان التى اتخذت شكل قبائل نتيجة لتنوع البيئة بالإضافة إلى الأحداث التى مرَّت بها المنطقة.

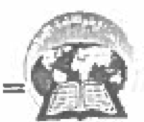
ومما يتصل بأصل البربر؛ ما أشار إليه بعض المؤرخين من انتسابهم للعرب وفى ذلك يقول ابن خلدون: " نسابة البربر يزعمون فى بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواته يزعمون أنهم من حمير ومثل هوارة يزعمون أنهم من كندة من السكاسك، ومثل زنانة تزعم نَسَّابتهم أنهم من العمالقة فرُّوا أمام بنى إسرائيل وربما يزعم فى هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير"[٩].

والواقع أن موضوع انتساب البربر للعرب لم يظهر إلا بعد اتصال العرب بالبربر مع تشابههم فى أوجه كثيرة، حيث إن البربر كانوا مثل العرب يحبون الاستقلال وكان الكثير منهم يشتغل بالرعى ولكلا الفريقين ميول واحدة وعواطف واحدة فهم شركاء فى حب الفخر وتعشق الحرية واحترام الضيف؛ هذا التشابه والاندماج فى حياة إسلامية واحدة جعل البربر يتشبهون بالعرب فى كثير من أفعالهم كافتخارهم بالعشيرة والقبيلة التى يحرص عليها العربى أينما حلّ.

وإذا أضفنا إلى ذلك تلك الأعمال الباهرة التى قام بها أبطال العرب فى صدر الإسلام وأثارت إعجاب كل من اتصل بهم؛ من فتوحات بلغت حَدَّ الصين شرقًا إلى المحيط الأطلسى غرباً ومن علوم وثقافات حملوا مشاعلها إلى المناطق التى فتحوها؛ كل هذا جعل نَسّابة البربر يدعون صلة الدم والقربى بين العرب وبين شعوبهم كنوع من الانتساب إلى هذا الشعب العظيم صانع الحضارة الإسلامية.

ومما يعزز هذا الرأى أن نسابة البربر لم يحاولوا أن ينسبوا قبيلة من قبائل البربر إلى الجنس الرومانى أو الوندالى وإنما نسبوها إلى القبائل العربية؛ ومن ناحية أخرى محاولة انتساب البربر للعرب ترجع إلى رغبتهم فى المساواة بالفاتحين الجدد وبذلك يمكنهم المشاركة بصورة فعالة فى الحياة السياسية التى أظلت المنطقة بمجىء الفاتحين العرب.

ولم يكتف النسابون بربط نسب البربر بالنسب العربى وإنما قَسَّموا البربر إلى شعبين كبيرين على غرار التقسيم



القبلي لعرب شبه الجزيرة إلى عرب الجنوب أو العرب القحطانية وإلى عرب الشمال أو العرب العدنانية، وكذلك وجدنا النسابين يقسمون البربر إلى شعبين كبيرين هما: البتر والبرانس. يقول ابن خلدون": وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم فإن علماء النسب متفقون على أنهم يجمعهم جذمان عظيمان وهما: برنس ومادغيس ويلقب ماذغيس بالأبتر فلذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معا أبناء برنس"[١٠].

على أن هذا التقسيم حدث أيضًا بعد مجيء العرب إذ إن الرومان والبيزنطيين لم يهتموا بهذا النظام القبلى الذى كان سائدًا ببلاد المغرب وإنما كانوا يطلقون على أهل البلاد اسم البربر.

وقد اختلف المؤرخون فى تعليل انقسام البربر إلى هذين القسمين وربما كان مرجع ذلك أن قبائل البتر تغلب عليها صفة البداوة فمواطنهم الوديان العالية أو الوطيئة وكذلك المناطق الرعوية وشبه الرعوية التى تمتد امتدادًا متصلاً من طرابلس إلى تازا؛ وكذلك ينتشرون فى أقاليم النخيل الممتدة من غدامس إلى السوس الأقصى وهم بذلك يكونون غالبية سكان القرى الصحراوية[١١].

أما قبائل البرانس فتغلب عليها صفة الحضارة؛ إذ تنتشر الغالبية منها فى مناطق السهول التى تحيط بالساحل وكذلك فى المناطق الجبلية التى تمتد عبر المغرب؛ وهذه المناطق تتوفر أمطارها وتجود تربتها وبذلك يسهل زراعتها.

وأعتقد أن السبب فى هذا التقسيم يرجع إلى الاختلاف فى الأحوال الاجتماعية لكلا الفريقين؛ فبينما نجد غالبية قبائل البتر تسكن المناطق الصحراوية وتتنقل من مكان إلى آخر طلبًا للكلأ نجد غالبية قبائل البرانس تعيش بالقرب من المدن والمناطق الساحلية، وتشتغل بالزراعة وتتأثر بمن اختلطت به من الروم وغيرهم.

وبعبارة أخرى فإن قبائل البرانس هم فريق البربر الذين توثقت الصلة بينهم وبين المستعمرين من رومان وبيزنطيين وبذلك كانوا على صلة بتلك الحضارات الوافدة؛ وتَقَبُّلهم لها بقدر ما يكون من تقبّل قوم لحضارة غريبة عنهم، وكان هؤلاء البربر يسكنون قريبًا من هؤلاء المستعمرين ويجاورونهم ويعيشون معهم؛ أما الفريق الآخر فهم قبائل البتر الذين كانوا يعيشون فى الداخل ويمارسون ألوانًا من الحياة أقرب ما تكون إلى

البداوة وأدنى إلى القبلية.

على أن هـذا التقـسيم الاجتمـاعى لم يقـف سـدًا منيعًـا فـى وجـه الفـريقين فـإن بعـض قبائـل البتر قـد أخـذت بأسـباب الحـضارة؛ مثـال ذلـك قبائـل زناتـة التـى انتقلـت إلى المغـرب الأقـصى واسـتقرت هنـاك واشـتغلت بالزراعـة؛ فـى حـين أن بعض قبائل البرانس اتصفت بصفة البداوة وعاشـت فـى بـوادى المغـرب وهـؤلاء هـم الملثمون[١٢].

أما أشهر قبائل البتر فهى: زداغة وزواوة ولواتـة ومزاتـة ونفوسـة ومغيلـة ومطماطـة ومطغـرة ومديونـه وصـديئة[١٣]، وأشـهر قبائـل البرانس: المـصامدة و غُمَـارة وأوربـة وكتامـة وأوريغـة وأزداجـه وعجيـسه وصـنهاجة ولمطـة وهكـسورة وكزولـة ومسطاطة وهوارة[١٤].

وقد اتصف البربر- سواء أكانوا من البتر أم مـن البرانس - بعـدة صفات فـى أحوالهم المعيشية أجملها ابن خلدون بقوله: " يتخذون البيوت من الحجارة والطين ومن الخوص والـشجر والـشعر والـوبر، ويظعـن أهـل العـز منهم والغلبـة لانتجـاع المراعـى فيمـا قـرب مـن الرحلـة لا يجـاوزون فيهـا الريـف إلى الـصحراء والقفـر الأملـس ومكاسـبهم الـشاءُ والبقـر والخيـل فـى الغالـب للركـوب والنتـاج؛ وربمـا كانـت الإبل من مكاسب أهل النجعة منهم شـأن العرب، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجـن الـسائمة. ومعـاش المعتـزين أهـل الانتجاع والأظعان فى نتاج الإبل وظلال الرماح وقطع الـسابلة، ولباسـهم وأكثـر أثـاثهم مـن الـصوف يـشتملون الـصماء بالأكسية المعلمة ويفرغون عليها البرانس الكحـل ورؤوسـهم فـى الغالـب حاسـرة وربما يتعاهدونها بالحلق"[١٥].

أما أخلاقهم فهى إلى حد كبير تشبه أخـلاق العـرب كالاتـصاف بالـسخاء والشجاعة والشفقة والاستماته فى الدفاع عـن معتقـداتهم وقـد وصفها ابن خلـدون بقولـه:" وأمـا تخلقهـم بالفضائل الإنسانية وتنافسهم فى الأخلاق الحميدة وما جُبلوا عليـه مـن الخلـق الكـريم مرقـاة الـشرف والرفعة بين الأمم ومَدْعاة المدح والثناء من الخلق من عزّ الجوار وحماية النزيل ورعى الأذمـة والوسـائل والوفـاء بـالقول والعهـد والصبر على المكاره والثبات فى الشدائد وحـسن الملكـة والإغـضاء عـن العيـوب والتجـافى عـن الانتقـام ورحمـة المسكين وبـر الكـبير وتـوقير أهـل العلـم وحمـل الكَـلِّ وكـسب المعـدوم وقِـرى الـضيف والإعانة على النوائب وعُلو الهمة ومشاقة

الدول ومقارعة الخطوب وغلاب الملك وبيع النفوس من الله فى نصر دينه فلهم فى ذلك آثار نقلها الخلف عن السلف، ولو كانت مسطورة لحفظ منها ما يكون أسوة لمتبعيه من الأمم"[١٦].

وبالنسبة لمعتقداتهم الدينية، فقد وجد المسلمون حين أقبلوا فاتحين للمنطقة اعتناق البربر عدة معتقدات دينية ؛ فكان بعضهم على دين المجوسية . يقول ابن خلدون: "وكان دينهم دين المجوسية شأن الأعاجم كلهم بالمشرق والمغرب إلا فى بعض الأحايين بدينون بدين من غلب عليهم من الأمم"[١٧].

وقد اختلفت مواطن هؤلاء البربر المعتنقين للمجوسيه؛ أشار إلى ذلك ابن خلدون: "إن يليان دلّ عقبة على بلد البربر وراءه المغرب، مثل وليلى، وبلاد المصامدة وبلاد السوس وكانوا على دين المجوسية"[١٨]. وكذلك كانت قبائل بنى يازغة وبنى برغس وزناتة الحبايية ومغراوة وبنى يفرن على دين المجوسية، وهذه القبائل ظلت على وثنيتها الأولى فلم يعتنق أصحابها دينا من الأديان السماوية التى دخلت المنطقة حتى دخل الإسلام البلاد.

كما اعتنقت طائفة من السكان الديانة اليهودية ومن هذه القبائل قبيلة جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة، وقبائل نفوسة وقندلاوه ومديونة وجلولة وغبائة وبنو قازاز فى المغرب الأقصى، كما اشتهرت مدينتا جادوا وكلماشة بكثرة اليهود فيهما.

وهناك طائفة أخرى من السكان اعتنقت الديانة المسيحية، تلك الديانة التى دخلت المغرب عن طريق رهبان مصر فى القرن الثانى الميلادى؛ ويبدو أن المسيحية لم تنتشر داخل البلاد ولم تحقق نجاحًا هناك وإنما تمركزت فى المدن الساحلية والسهل الساحلى. وربما كان السبب فى ذلك هو أن النفوذ البيزنطى لم يكن يتجاوز هذا النطاق، كما أن البربر سكان البلاد الأصليين لم يقبلوا على اعتناقها باعتبارها مذهب الطبقة الحاكمة والمستعمرة للبلاد، وقد استقر المسيحيون فى عدة أماكن من أرض المغرب؛ فعلى أطراف مدينة طرابلس وجُدت جالية مسيحية، كذلك فى مدينة تلمسان ومدينة نفيس؛ وهذه الطوائف والجاليات التى اعتنقت معتقدات وأديانا مختلفة حين استقر الفتح الإسلامى وبنيت مدينة القيروان واختلطوا بالمسلمين دخل كثير منهم الإسلام وحملوا لواءه إلى المناطق الأخرى.

النشاط السياسى للبربر:

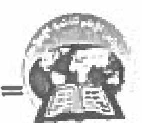
واجه المسلمون الفاتحون لإقليم المغرب مقاومة شديدة من البربر سكان البلاد سواء أكانوا من قبائل البتر أم البرانس فى مرحلتى الفتح وعصر الولاة. ففى مرحلة الفتح (٢١هـ - ٩٢هـ / ٦٤١ - ٧١٠م) وجدنا قبيلة جراوة وهذه من قبائل البتر تساند الحاكم البيزنطى جرجير بمدينة سبيطلة ضد عبد الله ابن سعد بن أبى سرح ٣٦هـ/٦٥٦م، وأسفرت المعركة عن هزيمة البيزنطيين ومقتل جرجير واستيلاء المسلمين على المدينة، كما استعانت الكاهنة وتدعى داهيا بقومها من جراوة وهى قبيلة بترية وهزمت حسان بن النعمان ٧٣هـ / ٦٩٢م فى الجولة الأولى ثم هُزِمَت وقُتِلتْ فى الجولة الثانية .

فإذا انتقلنا إلى عصر الولاة (٩٢هـ - ١٨٤هـ/٧١٠- ٨٠٠م) وجدنا قبائل البتر تسهم بنصيب كبير فى الثورة ضد الولاة العرب، ومن أخطر الثورات فى تاريخ المنطقة ثورة ميسرة المدغرى زعيم قبيلة مضغرة وهى من قبائل البتر، وكانت مواطنها قريبًا من تلمسان ومنطقة تازا، وقد نجحت هذه الثورة وترتب عليها انفصال المغرب الأقصى عن طاعة الأمويين ولم يدخل فى طاعة العباسيين.

كذلك لعبت قبائل بنى يفرن ومغلية وهما من قبائل البتر دورهما بزعامة أبى قرة اليفرنى الذى تلقب بلقب الخلافة سنة ١٤٨هـ/٧٦٥م وكانت مواطن هذه القبائل بالمغرب الأوسط وحول مدينة تلمسان واستقلت بالمنطقة.

وأيضًا شاركت قبائل البرانس بالثورة فى مرحلة الفتح وعصر الولاة ضد العرب والمثال على ذلك قبيلة أوربه وهى من قبائل البرانس بقيادة كسيله بن لمزم ونجاحها فى القضاء على عقبة وجيشه، كما شاركت قبائل البرانس فى الثورة ضد والى المغرب حنظلة بن صفوان الكلبى سنة ١٢٤هـ/٦٤١م حين قامت قبيلة هوارة بالثورة ضد الوالى حنظلة بن صفوان الذى هزم الثوار وقضى عليهم، وهناك ثورات أخرى، وهذا يعنى اشتراك البتر والبرانس فى الأحداث السياسية التى مرت بها البلاد فى مرحلة الفتح وعصر الولاة على اختلاف فى الدوافع والأسباب.

ومن ناحية أخرى ظهر واضحًا مشاركة قبائل البربر فى تأسيس العديد من الدول على أرض المغرب ومساهمتها فى نشر الإسلام وبناء الحضارة



الإسلامية، ومن هذه القبائل قبيلة أوربه وهى من البرانس ودورها البارز فى تأسيس دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى سنة ١٧٢هـ وقد أشارت المصادر إلى الدور المؤثر والفعال فى احتضان الإمام إدريس ابن عبد الله العلوى ومبايعته ودعوة القبائل الأخرى لنصرته وبذلك تأسست دولة الأدارسة سنة ١٧٢هـ/٧٨٨م.

أما قبيلة كتامة إحدى قبائل البرانس فعلى أكتافها قامت الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٦هـ/٩٠٨م، وقد هيأ الموقع لقبيلة كتامة منعة وقوة فضلاً عن كثرة عددية، وقد نجح أبو عبد الله الشيعى بعد مجيئه إلى مضارب كتامة سنة ٢٨٩هـ/٩٠١م فى استمالتهم للمذهب الشيعى والسيطرة على عقولهم وتلقينهم قواعد المذهب الشيعى واتخذ منهم جندًا غزا بهم مناطق المغرب المختلفة وحقق العديد من الانتصارات؛ وبمجىء عبيد الله المهدى إلى المنطقة أُعلنت الدولة الفاطمية ونجحت فى بسط نفوذها على معظم أرجاء المغرب .

وكذلك قبائل صنهاجه وهى من البرانس وقد ضمت العديد من القبائل وعلى أكتافها قامت دولة المرابطين فى المغرب الأقصى، وقد أشار ابن خلدون إلى كثرة أعدادهم بقوله:" لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أول البربر"[١٩]. ومن أبرز القبائل المؤسسة لدولة المرابطين قبيلة لمتونة التى احتلت مكانة مرموقة بين قبائل صنهاجة وكانت لها الزعامة والرئاسة وكذلك قبيلة جداله وقبيلة سوفة ولمطة .

أما قبائل المصامدة التى تنتمى إلى فرع البرانس فعلى أكتافهم تأسست دولة الموحدين فى المغرب الأقصى سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م. ومواطنهم ما بين وادى ملوية من جهة الشرق إلى آسفى وجبال درن من جهة الغرب وكانت أعدادهم كثيرة مما دفع ابن خلدون إلى القول: وقبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم وتضم قبائل المصامدة مجموعة كبيرة من القبائل منها هزغة وهنتاته وأهل تلينملل وغيرهم من القبائل.

مما سبق نلمس دور قبائل البربر فى تأسيس الدول المختلفة على أرض المغرب، تلك الدول التى لعبت دورًا كبيرًا فى المجال السياسى والحضارى، وكان لهذه القبائل الدور الفعال والمؤثر فى نشاط هذه الدول.

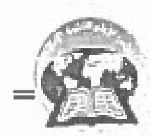
أ . د / حسن على حسن

الهوامش:

(١) الاستقصا جـ١ ص٥٤.
(٢) العبر جـ٦ ص٨٩.
(٣) الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى ص٤٨.
(٤) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ص٤٦١..
(٥) مختصر كتاب البلدان ص ٨٣
(٦).الجزنائى : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، ص ٦ ، ابن زيدان: اتحاف أعلام الناس جـ ١ ص ٦٢ ، الصفاقسى: نزهة أنظار جـ١ ص٩.
(٧) السلاوى: الاستقصا جـ١ ص٥٣.
(٨).الفرق الإسلامية فى الشمال الإفريقى ص٤٥
(٩)العبر جـ٦ ص٩٧
(١٠)العبر جـ٦ ص٩.
(١١) قيام دولة المرابطين ص٣٣.
(١٢) قيام دولة المرابطين ص٣٠.
(١٣) العبر جـ٦ ص٩٠.
(١٤) المصدر السابق جـ١ ص٩٠.
(١٥) العبر جـ٦ ص٨٩.
(١٦) المصدر السابق جـ٦ ص١٤٠.
(١٧) المصدر السابق جـ٦ ص١٠٦.
(١٨) نفس المصدر جـ٤ ص١٨٦.
(١٩) العبر جـ٦ ص١٥٣.

مصادر ومراجع الاستزادة :

١. الباجى المسعودى: الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية تونس سنة ١٢٨٣ هـ.
٢. البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب باريس سنة ١٩١١م .
٣. ابن حزم الأندلسى: جمهرة أنساب العرب تحقيق بروفنسال دار المعارف، القاهرة .
٤. د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين النهضة المصرية ١٩٥٧م.
٥. د. حسن على حسن: المغرب العربى فى عصر الولاة مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٧م.
٦. د. حسن على حسن: محاضرات فى تاريخ المغرب والأندلس مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٨٦م.



البـــــردة

البُرْدة – كما جاء فى لسان العرب - «كِساءٌ يُلْتَحفُ به» أو ما يشبه العباءة فى عصرنا. وقد ذاعت هذه الكلمة فى مصادر السيرة والتاريخ الإسلامى لارتباطها بالبُرْدة التى أهداها الرسول ﷺ للشاعر المخضرم كعب بن زُهير بن أبى سُلْمى فى أواخر العام الثامن للهجرة. ذلك أن كعب بن زهير كتب أبياتًا من الشعر يؤنب فيها أخاه بُجَيْرًا على اعتناقه الإسلام واتِّباعه محمدا ﷺ؛ ومما جاء فيها قوله:

وخالفتَ أسباب الهدى واتَّبعْتَه
على أى شىء- ويب غيرك[1]- دَلَّكا؟
على خلق لم تُلْفِ أمًا ولا أبًا
عليه ولم تُدْرِكْ عليه أخًا لكا[2]

فبلغت أبياته رسول الله ﷺ، فأهدر دمه، وقال لأصحابه: «من لقى منكم كعب ابن زهير فليقتله»[3] وعندما علم كعب بذلك تملكه الفزع وضاقت به الأرض وأشفق على نفسه، ولكن أخاه «بجيرًا» كتب إليه كتابًا يذكر له فيه «أن رسول الله ﷺ لا يأتيه أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله إلا قبل منه، وأسقط ما كان قبل ذلك، فإذا أتاك كتابى هذا فأقبل وأسلم»[4] فامتثل كعب لنصيحة أخيه وتوجه إلى المدينة ليقر بالإسلام أمام رسول الله ﷺ، فدخل مسجد المدينة وصلى الصبح مع الرسول والمسلمين، ثم قام إلى الرسول « حتى جلس إليه فوضع يده فى يده - وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه- فقال: يا رسول الله، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائبًا مسلمًا؛ فهل أنت قابلٌ منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم. قال: أنا – يا رسول الله- كعب بن زهير!». وهنا «وثب عليه رجل من الأنصار فقال: يا رسول الله، دعنى وعدوَّ الله أضربْ عنقه! فقال رسول الله ﷺ: «دعه عنك فقد جاء تائبًا نازعًا»[5]. ثم أنشد كعب أمام الرسول ﷺ قصيدة يمدحه فيها بلغ عددُ أبياتها تسعة وخمسين بيتا طبقًا لرواية ابن هشام[6]، وهى القصيدة التى اشتهرت باسم «بانت سعاد» لأن الشاعر استهلها بقوله:

بانت سُعادُ فقلبى اليوم متبول
متيمٌ إثرها لم يُفْدَ مكبول

وفيها يقول:

نُبِّئْتُ أن رسول الله أوعدنى

والعفو عند رسول الله مأمول

وعندما فرغ كعب من إنشاد قصيدته أثابه الرسول ﷺ، «وأعطاه بردة له، وهى التى عند الخلفاء إلى الآن» كما يقول ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠هـ (١٢٣٣م) [٧].

وقد اشترى معاوية بن أبى سفيان هذه البردة من ابن كعب بن زهير، ثم آلت إلى الخلفاء العباسيين. وعندما احتل المغول بغداد أمر هولاكو بإحراقها. ولكن يقال إن بردة الرسول الحقيقية لم تحرق ولا تزال موجودة فى اسطنبول بتركيا [٨].

وإذا كانت شهرة «البردة» فى التاريخ الإسلامى ترجع فى بدايتها إلى قصة إسلام كعب بن زهير وما ارتبط بها فإن هذه الشهرة قد ازدادت اتساعًا واكتسبت أبعادًا جديدة نتيجة ارتباطها بالقصيدة المشهورة التى قالها الإمام البوصيرى فى مدح الرسول ﷺ بعد ذلك بعدة قرون. والبوصيرى هو اللقب الذى اشتهر به الشاعر المصرى شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن الذى ولد فى «دلاص» فى سنة ٦٠٨هـ (١٢١٣م)، ولكنه نشأ فى «أبو صير» فنسب إليها. ودلاص وأبو صير قريتان من قرى محافظة بنى سويف بصعيد مصر. وتوفى البوصيرى فى الإسكندرية فى حدود سنة ٦٩٥هـ (١٢٩٥م) [٩].

أما قصيدة البوصيرى التى اشتهرت باسم «البردة» فإن عنوانها الأصلى هو: «الكواكب الدرية فى مدح خير البرية». ولكن هذا العنوان الأصلى كاد يختفى تمامًا ليحل محله العنوان الذى اشتهرت به القصيدة وهو «البردة». وسبب شهرة هذا العنوان الأخير أن البوصيرى تعرض لمحنة صحية قاسية نتيجة إصابته بالفالج وهو الشلل النصفى. ولم يجد البوصيرى فى محنته هذه إلا أن يلجأ إلى الله مستغيثًا به، مادحًا لرسوله ﷺ متشفعًا به، فنظم قصيدته التى مطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جيران بذى سَلَم

مزجت دمعًا جرى من مقلة بدم؟

وفيها يقول متضرِّعا بين يدى رسول الله:

يا أكرم الخلق مالى مَنْ أَلُوذُ به

سواك عند حلول الحادث العَمَم

ويذكر البوصيرى أنه بعد أن فرغ من نظم قصيدته هذه كرر إنشادها وألح فى التوسل بها إلى الله تعالى بغية أن يرد إليه عافيته، ثم نام فرأى رسول الله ﷺ فى منامه فمسح وجهه بيده المباركة، وألقى

عليه بردته، فاستيقظ وقد استردَّ عافيته[١٠]. وذاعت شهرة هذه القصيدة، وعرفت باسم «البردة»، وأصبحت لا تدانيها فى شهرتها وذيوعها قصيدة أخرى من القصائد التى مُدح بها رسولُ الله ﷺ. وتقع البردة فى واحد وستين ومائة بيت طبقًا للنسخة التى شرحها الشيخ إبراهيم الباجورى (١٢٧٦هـ/١٨٦٠م) وهناك نسخ أخرى تقل أو تزيد قليلا عن ذلك.

وقد أصبحت «بردة البوصيرى» مثالا يحتذى فى المديح النبوى، وحاول أن يعارضها غير واحد من الشعراء. ويمكن القول -كما يقول الدكتور زكى مبارك- «بأن جميع المدائح النبوية التى قيلت بعد البوصيرى على الوزن والقافية كان أصحابها مسوقين بالروح البوصيرية»[١١]. ومن بين من عارضوها فى العصر الحديث محمود سامى البارودى الذى عَنْوَنَ قصيدته: «كشف الغمة فى مدح سيد الأمة»؛ وهى تقع فى سبعة وأربعين وأربعمائة بيت[١٢]، ومطلعها:

يا رائد البرق يمِّمْ دارة العلم
واحْد الغمام إلى حىٍّ بذى سلم

على أن أبرز من عارضوها بلا منازع أمير الشعراء أحمد شوقى فى قصيدته التى سماها «نهج البردة»، وهى تقع فى تسعين ومائة بيت. ويعترف شوقى فى قصيدته بأنه لا يستطيع أن ينافس البوصيرى صاحب البردة فى مجال المديح النبوى، فهو وغيره من المادحين تابعون لهذا المادح الأعظم. يقول شوقى ذلك:

المادحون وأرباب الهوى تَبَعٌ
لصاحب البردة الفيحاء ذى القَدَم

مديحه فيك حبٌّ خالصٌ وهوى
وصادق الحبِّ يملى صادق الكلم

الله يشهد أنى لا أعارضه
من ذا يعارض صوب العارض العرم؟

وإنما أنا بعض الغابطين ومن
يغبط وليك لا يُذْمَمْ ولا يُلَم[١٣]

بقى أن نشير إلى أن بردة البوصيرى تركت أثرًا هائلا فى التراث الإسلامى على المستوى التاريخى والأدبى واللغوى والصوفى؛ فقد تعددت شروحها منذ ظهورها حتى الآن وتنوعت، واهتم شارحوها بتفصيل ما فيها من إشارات تاريخية تتعلق بحياة الرسول ﷺ وحياة صحابته رضوان الله عليهم، كما اهتموا بإلقاء الضوء على ما يتجلى فيها من روعة البيان وقوة التأثير، وأفاضوا كذلك فى تحليلها من الناحية اللغوية والأسلوبية. أما الصوفية فقد وجدوا فى ملابسات

كتابتها وفى جوانبها الروحية العميقة التى تعكس تصوُّف كاتبها - وجدوا فى كل ذلك ما جعلهم يحرصون على أن يجعلوها وردًا من أورادهم، يردِّدونها ويلتمسون بركاتها فى مجالسهم الصوفية والمناسبات الدينية المختلفة[١٤]، كل هذا أعطى لبردة البوصيرى مكانتها المتميزة فى تراثنا العربى والإسلامى حتى يومنا هذا.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) ويب: كلمة مثل ويل. تقول: ويبك، أى ويلك. وعبارة: ويب غيرك، أى ويل غيرك؛ فهى دعاء بالهلاك يقصد به شدة التأنيب انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة "ويب".

(٢) سيرة ابن هشام، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. دار الهداية. القاهرة (دون تاريخ)، جـ٤، صـ١٥١.

(٣) الأصفهانى (أبو الفرج): كتاب الأغانى، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٧٠م، جـ١٧، صـ٨٦ .

(٤) ابن الأثير (عز الدين على): أسد الغابة فى معرفة الصحابة، دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٠م، جـ٤، صـ٤٧٥- ٤٧٦ .

(٥) ابن قيم الجوزية (أبو عبد الله محمد): زاد المعاد فى هدى خير العباد، المكتبة التوفيقية بالقاهرة، ١٩٨٠م، جـ٢، صـ٢٠٦ .

(٦) ابن هشام، مصدر سابق، صـ١٥٢- ١٦٦ .

(٧) ابن الأثير، مصدر سابق، صـ٤٧٧ .

(٨) انظر حول ذلك: باسيه، مادة البردة فى دائرة المعارف الإسلامية، طبعة دار الشعب بالقاهرة (دون تاريخ)، جـ٧، صـ٣٠.

(٩) انظر: السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن): حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٩٨م، جـ١، صـ٤٩٢. وحول اختلاف الروايات فى تاريخ وفاة البوصيرى، راجع: باسيه: مادة البوصيرى فى دائرة المعارف الإسلامية، مرجع سابق، جـ٨، صـ٤١٩- ٤٢٠ .

(١٠) راجع ترجمة البوصيرى فى: فوات الوفيات لابن شاكر الكبتى، بولاق ١٢٩٩هـ، جـ٢، صـ٢٠٤. وانظر أيضًا: زكى مبارك: المدائح النبوية فى الأدب العربى، طبعة الشعب، القاهرة (دون تاريخ)، صـ١٩٦- ١٩٧ .

(١١) زكى مبارك: مرجع سابق، صـ٢٢٢.

(١٢) نفس المرجع، صـ٢٢٣ .

(١٣) ديوان الشوقيات، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ١٩٥٥م، جـ١، صـ١٩٩- ٢٠٠ .

(١٤) للمزيد انظر: زكى مبارك: مرجع سابق، صـ٢١٥ وما بعدها .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير (عز الدين على): أسد الغابة فى معرفة الصحابة (دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٠م)، جـ٤ ترجمة كعب بن زهير.

٢. الأصفهانى (أبو الفرج): كتاب الأغانى (الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر. القاهرة ١٩٨٠م، جـ١٧، أخبار كعب بن زهير.

٣. ابن هشام (أبو محمد عبد الملك): سيرة النبى ﷺ، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد (دار الهداية القاهرة)، جـ٤، أحداث العام الثامن للهجرة.

٤. ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات (طبعة بولاق ١٢٩٩هـ، جـ٢) ترجمة البوصيرى.

٥. زكى مبارك: المدائح النبوية فى الأدب العربى (طبعة الشعب. القاهرة).

بغداد

بغداد هى عاصمة العراق فى الوقت الحاضر. وقد أسسها الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور فى سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) لتكون العاصمة الدائمة للدولة العباسية الناشئة. ولم يكن اختيار موقع هذه العاصمة بالأمر السهل؛ فقد قضى العباسيون ثلاثة عشر عامًا (منذ قيام دولتهم فى سنة ١٣٢هـ/ ٧٤٩م حتى تأسيس بغداد) فى البحث عن عاصمة تصلح مستقرًا دائمًا لدولتهم. وقد استهل أبو العباس السفاح، أول الخلفاء العباسيين، حكمه فى مدينة الكوفة. وبعد قليل أسس بضاحية الكوفة مركزًا لإدارة الدولة الجديدة سماه " الهاشمية" . ثم انتقل من الهاشمية إلى " الحيرة" بالقرب من الكوفة، ومنها انتقل إلى " الأنبار" على الشاطئ الشرقى من الفرات، إلى الشمال من الكوفة، وبها توفى فى سنة ١٣٦هـ (٧٥٤م) .

وعندما تولى أبو جعفر المنصور الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح رجع إلى هاشمية الكوفة، ومنها انتقل إلى " المدائن"، وهى تقع إلى الشمال الشرقى من الكوفة، وكانت عاصمة الدولة الساسانية قبل الإسلام. ثم عاد المنصور مرة أخرى إلى هاشمية الكوفة فظل بها حتى وقع اختياره على بغداد لتكون عاصمة الدولة الجديدة.

من هذا يتبين أن المدن التى حلَّ بها العباسيون قبل أن يختاروا بغداد مركزًا دائمًا لهم لم تكن إلا عواصم تجريبية (أو عواصم تحت الاختبار)، ولم يبرهن أىٌّ من هذه الأماكن على صلاحيته ليكون العاصمة التى ينشدها العباسيون. وقد وقع عبء اختيار العاصمة الدائمة على الخليفة المنصور.

وقد كان المنصور يضع فى اعتباره عددًا من المتطلبات الأساسية التى يرى ضرورة تحقُّقها فى العاصمة المنشودة؛ وهى متطلبات عسكرية وسياسية وتجارية. وقد كان موقع " بغداد" قادرًا على تلبية هذه المتطلبات جميعًا.

فمن الناحية العسكرية مثَّلت بغداد بموقعها المتميز مركزًا يصعب الهجوم عليه ويسهل الدفاع عنه. فهى تقع من دجلة على نقطة هى أقرب ما تكون إلى نهر الفرات الذى يقع إلى الغرب منها. وقد أحاطت بها - بالإضافة إلى دجلة



والفرات- مجموعة من القنوات والأنهار الفرعية التى تجعل وصول العدو إليها أمرًا شاقًا[1].

وقد كان المنصور حريصًا على أن يستطلع آراء من كانوا يعيشون فى بغداد فى ذلك الوقت من أصحاب الأديرة وغيرهم، فكان مما قاله له أحدهم: "التدبير فى المدن أن تُتَّخذ لها الأسوار والخنادق والحصون. ودجلة والفرات خنادق لمدينة أمير المؤمنين"[2] وقد أضاف موقع بغداد فى وسط العراق بُعْدًا آخر إلى مركزها العسكرى. والجدير بالذكر هنا أن المنصور حين اختار موقع بغداد قال: "هذا موضع معسكر صالح"[3]. فالاعتبارات العسكرية إذن كانت لها أهميتها الخاصة عند المنصور وهو يختار موقع عاصمته.

ومن الناحية السياسية كانت بغداد مكانًا مناسبًا لتوطين العناصر السكانية ذات الصبغة العباسية الخالصة. ومن هنا استطاع المنصور أن يعتمد على هذه العناصر نتيجة ثقته فى ولائها السياسى لدولته. لقد كانت بغداد فى ذلك الوقت مجرد قرية صغيرة توجد بها بضعة أديرة لبعض الرهبان النساطرة[4]، فأسكن المنصور بها أهم العناصر التى قامت على أكتافها الدولة الجديدة. وقد جاء على رأس هذه العناصر أفراد البيت العباسى، والقادة العسكريون، والجنود، وشيعة العباسيين من الموالى. وبهذا الأسلوب تجنّب الخليفة المشاكل التى كان من الممكن أن تثيرها عناصر غير مأمونة الجانب كالراوندية[5] وشيعة العلويين.

ومن الناحية التجارية هيأ الفرات ودجلة لبغداد ما كانت تحتاج إليه فى تعاملها التجارى على المستويين الداخلى والخارجى. فقد أتاح لها الفرات أن تتعامل مع الشام ومصر والمغرب، كما أتاح لها دجلة أن تتعامل مع الجزيرة والموصل وبلاد الروم والهند. وهكذا كان تأسيس بغداد بداية للازدهار التجارى والاقتصادى فى دولة العباسيين؛ وهو ما سوف تظهر آثاره بوضوح فى عهد المهدى والرشيد.

نأتى الآن إلى مناقشة التاريخ الذى أسِّسَتْ فيه بغداد. ورغم تعدد الروايات فى هذا الصدد فإن ما نستطيع استنتاجه أن المنصور وضع الخطة العامة لإنشاء بغداد فى سنة ١٤١ هـ/ (٧٥٨م)، وبدأ فى عملية البناء الفعلى فى سنة ١٤٥هـ / (٧٦٢م)، ثم اضطر إلى أن يوقف البناء مؤقتًا عندما اندلعت ثورة النفس الزكية

(محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب) وأخيه إبراهيم[٦]. وبعد نجاحه فى القضاء على هذه الثورة فى نفس العام (١٤٥هـ) استأنف البناء. وفى العام التالى (١٤٦هـ/ ٧٦٣م) أكمل بناء المنشآت الأساسية فاستطاع أن ينقل جهازه الإدارى إلى العاصمة الجديدة فى نفس العام، أما اللمسات الأخيرة فى بغداد، بما فى ذلك بناء سورها، فقد تم الفراغ منها فى سنة ١٤٩هـ/(٧٦٦م).

وقد جعل أساس مدينته مدوَّرًا، ولهذا كانت بغداد تعرف بـ " المدينة المدوَّرة" وبنى قصره والمسجد الجامع فى وسطها، وقد عُرف قصره باسم " القبة الخضراء" أو " باب الذهب" . وبنى المنصور حول بغداد سورًا محكمًا وجعل لها أربعة أبواب: باب خراسان ويدخل منه القاصد إليها من الشرق؛ وباب الكوفة ويدخل منه القاصد إليها من الحجاز؛ وباب الشام ويدخل منه القاصد إليها من المغرب؛ وباب البصرة ويدخل منه القاصد إليها من فارس والأهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين[٧] .

وفى سنة ١٥٧هـ/ (٧٧٣م) بنى المنصور قصرًا آخر له على نهر دجلة، أسفل باب خراسان فى منطقة طيبة الهواء عامرة بالحدائق الغنَّاء، وسماه " قصر الخلد" تفاؤلاً بجنة الخلد التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم: ﴿ قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ﴾[٨].

وهو نفس الدافع الذى جعله يطلق على عاصمة الخلافة اسم " مدينة السلام" كما سنشير بعد قليل.

وقد اتسعت بغداد اتساعًا كبيرًا فى السنوات الأخيرة من عهد المنصور وامتدت إلى الجانب الشرقى من دجله. ففى سنة ١٥١هـ /(٧٦٨م) أمر المنصور ببناء ضاحية على الجانب الشرقى من النهر عُرفت فى البداية باسم " عسكر المهدى" حيث خصصها لإقامة ابنه محمد المهدى وجيشه. ذلك أن المهدى عسكر فى هذه المنطقة وهو فى طريقه إلى خراسان سنة ١٤١هـ/(٧٥٨م) لقمع التمُرد الذى قام به عبد الجبار بن عبد الرحمن حاكم خراسان[٩] . ثم عرفت هذه المنطقة بعد ذلك باسم " الرُصافة" . ولم يمض وقت طويل حتى اتسعت الرصافة وازدهرت وتحولت إليها أجهزة الدولة " وانتقل اسم الخلافة إلى الجانب الشرقى" كما يقول ابن حوقل[١٠]، وطغت بذلك على مدينة المنصور التى أطلق عليها فيما بعد " جانب الكرخ". والكرخ هى المنطقة التى



خصصها المنصور سنة ١٥٧هـ/ (٧٧٤م) لتكون مقرا لأسواق بغداد [١١]. ولا يسعنا فى هذا السياق أن نتجاهل مناقشة الاسم الذى أطلقه المنصور على العاصمة الجديدة. والحقيقة أن المنصور لم يقبل أن يطلق على عاصمة الخلافة اسم "بغداد" وهى القرية الصغيرة التى جعلها موقعًا لعاصمته؛ وذلك لما يتضمنه هذا الاسم فى بعض تفسيراته من دلالات وثنية. فبغداد كلمة فارسية مركبة من جزأين هما: "بَغْ" و "داد". وتختلف المصادر فيما يعنيه كلٌّ من هذين الجزأين؛ فيقال إن "بغ" اسم لصنم أو بستان، و"داد" تعنى العطاء أو هى اسم لرجل. وعلى هذا فكلمة "بغداد" قد يقصد بها "عطية الصنم" أو "بستان رجل" [١٢]. ويستبعد لى سترانج le Strange التفسير الثانى للكلمة، ويرى أنها تعنى "المدينة التى أسسها الرب" [١٣]. وأيًّا ما كان المعنى المقصود بهذا الاسم فإن المنصور استبدل به اسمًا آخر عربىّ الصياغة، إسلامىّ الدلالة هو "مدينة السلام". وكلمة "السلام" لها دلالاتها الإسلامية الواضحة. فالسلام أحد أسماء الله الحسنى، وهو من أسماء الجنة، ثم هو أيضًا تحية المسلمين فيما بينهم وتحية أهل الجنة. وقد أطلق البعض على المدينة الجديدة اسم "مدينة المنصور".

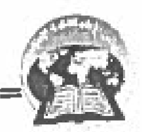
واللافت للنظر أن الاسم الذى اختاره المنصور لعاصمته، وهو مدينة السلام، لم يصمد لاختبار الزمن، بل طواه النسيان تقريبًا بعد فترة وجيزة. أما اسم "بغداد" فقد فرض نفسه على الأقلام والألسنة، وانتزع حق الحياة من الاسم الرسمى حتى يومنا هذا.

بغداد وسامرا: ظلت بغداد منذ نشأتها سنة ١٤٥هـ/ (٧٦٢م) عاصمة الخلافة العباسية حتى اجتياح المغول لها وإسقاط الخلافة سنة ٦٥٦هـ/ (١٢٥٨م)، وذلك باستثناء فترة محددة خلال القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) بدأت فى سنة ٢٢١هـ (٨٣٦م) فى خلافة المعتصم بالله (٢١٨- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣- ٨٤٢م)، وانتهت فى خلافة المعتضد بالله (٢٧٩- ٢٨٩هـ/ ٨٩٢- ٩٠٢م). فقد اتسع نفوذ الأتراك فى عهد المعتصم وتزايدت أعدادهم بصورة كبيرة، وبدأ الخليفة يعتمد عليهم فى تكوين جيشه حتى يستغنى بهم عن الفرس والعرب معًا. وقد بلغ عدد الأتراك فى جيشه بضعة عشر ألفًا كما يقول السيوطى [١٤]. وكان من الطبيعى أن يثير وجود هذا العدد الضخم من الأتراك فى

بغداد ضيق أهالى المدينة؛ ذلك أن بعض هؤلاء الأتراك كانوا يتراكضون بدوابهم فى شوارع المدينة فيرعبون الأهالى، وربما تسببوا فى قتل بعضهم. فاشتكى هؤلاء إلى المعتصم ما يعانونه من وجود الأتراك داخل بغداد؛ ومن هنا قرر الخليفة أن ينقل مقر حكمه إلى سامرا، وهى مدينة قديمة تقع شرقى دجلة وتبعد عن بغداد حوالى ستين ميلا نحو الشمال. ولم يرد المعتصم أن يحتفظ لسامرًا باسمها الآرامى القديم، فسماها "سُرَّ من رأى"، ولكن هذا الاسم اختفى كما اختفى اسم "مدينة السلام" وحلَّ محله اسم "بغداد". وقد ظلت سامرا عاصمة الخلافة العباسية مدة تقرب من ستين عامًا إلى أن قرر الخليفة المعتضد بالله فى بداية خلافته أن يعود بجهازه الحكومى إلى بغداد[١٥] التى استمرت حاضرة العباسيين حتى سقوط الخلافة.

والواضح أن بغداد فقدت الكثير من أهميتها ومكانتها بعد اجتياح المغول لها سنة ٦٥٦هـ /(١٢٥٨م). وقد تعاقب على حكمها المغول الإيلخانيون والمغول الجلايريون[١٦] والتيموريون والتركمان والصفويون والعثمانيون، ثم سقطت فى يد البريطانيين سنة ١٩١٧م. وفى سنة ١٩٢٠ أصبحت عاصمة المملكة العراقية الناشئة. ولكن ثورة ١٩٥٨م نجحت فى إسقاط النظام الملكى وأسست جمهورية العراق الحديثة التى كانت بغداد ومازالت عاصمة لها.

العصر الذهبى لبغداد: لم يمض على بغداد وقت طويل بعد إنشائها حتى أصبحت أهم حواضر الدنيا. ففى عهد المنصور ومحمد المهدى وموسى الهادى كانت بغداد تمر بمرحلة التكوين وإرساء الأسس التى تضمن لها القوة والنمو. وعندما بدأ هارون الرشيد حكمه سنة ١٧٠هـ/ (٧٨٦م) بدأت بغداد تدخل فى عصرها الذهبى الذى استمر حتى انتقال الخليفة المعتصم بجهاز حكمه إلى سامرا سنة ٢٢١هـ/ (٨٣٦م) كما سبقت الإشارة. صحيح أن بغداد تعرضت لمحنة قاسية ودمار بالغ إبان الحرب الأهلية التى عرفت بفتنة الأمين والمأمون، وهى التى بدأت فى سنة ١٩٤هـ/ (٨١٠م) حين أعلن الأمين خلع المأمون من ولاية العهد وتعيين ابنه الطفل موسى بدلا منه، وانتهت فى سنة ١٩٨هـ/(٨١٣م) حين اقتحمت قوات المأمون بغداد وأخضعتها لسلطة المأمون الذى أصبح خليفة المسلمين دون منازع فى ذلك التاريخ. وقد وصف أحد الشعراء ما



حلَّ ببغداد من دمار فى قصيدة طويلة معبرة مطلعها:

من ذا أصابك يا بغداد بالعين؟

ألم تكونى زمانًا قرة العين؟![١٧]

ولكن المثير للدهشة والإعجاب معًا أن بغداد تمكنت بعد هذه المحنة بوقت قصير من أن تستردَّ عافيتها وحيويتها وأن تزداد ازدهارًا وتألقًا لتصبح فى طليعة عواصم العالم وتنافس مدينة القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية فى العظمة والبهاء.

لقد كان للازدهار الذى شهدته بغداد فى عصرها الذهبى مظاهره الثقافية والاقتصادية والمعمارية. فعلى المستوى الثقافى ازدهرت حركة التدوين فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية. ففى مجال الفقه - على سبيل المثال - ظهر القاضى أبو يوسف تلميذ الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان. وقد كان أبو يوسف موفور المكانة لدى هارون الرشيد الذى عينه قاضيًا للقضاة، ولم يكن هذا المنصب موجودًا قبل ذلك. وأبو يوسف هو صاحب "كتاب الخراج" الذى كتبه بناء على طلب الرشيد ليسترْشدَ به فى إدارة الشئون المالية لدولته. وما زال هذا الكتاب حتى يومنا هذا هو المصدر الأول للباحثين فى النظم المالية فى الدولة الإسلامية[١٨]. كما برز فى هذا المجال محمد بن الحسن الشيبانى تلميذ أبى حنيفة أيضًا. وكان الرشيد يجله ويعظمه، وله العديد من المؤلفات فى فقه الإمام أبى حنيفة ومن بينها الجامع الكبير والجامع الصغير. ومن أهم كتبه كتاب " السير الكبير" الذى تناول قضايا الحرب والعلاقات الدولية فى الإسلام، وهو من أهم المصادر فى هذا الباب[١٩]. ومن أئمة الفقه فى بغداد فى عصرها الذهبى، ممن اشتهروا أيضًا برواية الحديث، أحمد بن حنبل الذى ينسب إليه المذهب الحنبلى، وهو صاحب موسوعة "المسند" التى تُعَدُّ من أهم مصادر الحديث النبوى.

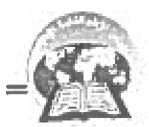
وقد ازدهرت علوم العربية أيضًا فى بغداد فى ذلك العصر الذهبى. ويكفينا فى هذا المقام أن نشير إلى عالمين من أبرز علماء العربية وهما سيبويه والكسائى، وقد كانا يحضران مجلس هارون الرشيد ويتناقشان أمامه فى قضايا اللغة والنحو، وتوفيا فى عصره. وقد صنف سيبويه فى النحو الكتاب المشهور باسم "الكتاب" وهو الذى يعده العلماء أكمل كتاب فى بابه، ويصفه المبرِّد بقوله: "لم

يعمل كتاب فى علم من العلوم مثل كتاب سيبويه"[٢٠]. أما الكسائى فقد كان -إلى جانب تبحره فى العلوم اللغوية- عالمًا متمكنًا فى علم القراءات، وهو أحد أصحاب القراءات السبعة المشهورة.

وقد ازدهرت الحركة الأدبية أيضًا فى تلك الفترة، وكان للشعر نصيب وافر فى هذا الازدهار حيث لمع فى بغداد شعراء عديدون، من بينهم مروان بن أبى حفصة شاعر الرشيد المشهور، ومن بينهم أبو العتاهية ومسلم بن الوليد ودعبل الخزاعى والعباس بن الأحنف وغيرهم. أما النثر الفنى فقد كان له فرسانه أيضًا، وفى مقدمتهم عمرو بن بحر الجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات.

ومن أبرز معالم الازدهار الثقافى فى بغداد فى تلك الفترة نشاط حركة الترجمة من التراث العالمى إلى اللغة العربية. ورغم أن هذه الحركة ظهرت فى عصر الخليفة أبى جعفر المنصور فقد بلغت أوج نشاطها فى عصر الرشيد والمأمون. وقد كان لبيت الحكمة، الذى وضع نواته الرشيد وطوّره المأمون، دور بارز فى رعاية حركة الترجمة؛ فقد احتوى على مكتبة ضمت نفائس كتب التراث العالمى، وبخاصة التراث اليونانى، كما احتوى على دائرة للترجمة وعلى أكاديمية تضم صفوة الباحثين (راجع مادة بيت الحكمة). ولا شك أن حركة الترجمة كان لها أثر لا ينكر فى نمو الحياة الفكرية فى بغداد وفى دولة الخلافة بصفة عامة. وقد ظهر هذا الأثر واضحًا فى المدارس الكلامية التى ترعرعت فى تلك الفترة، وكان على رأسها المعتزلة الذى اطلعوا على الفلسفة اليونانية واستوعبوا أفكارها ولكنهم لم يقبلوا منها إلا ما لا يتصادم مع أصول الإسلام. والجدير بالذكر أن الخليفة المأمون نفسه كان من أكبر أنصار المعتزلة؛ فقد كان يتبنى أفكارهم ويدافع عنها. وكان مجلسه مع ذلك حافلاً بالمناظرات التى تتسع للأفكار المتباينة وكان يرحب باختلاف وجهات النظر ويقول: " لا نزهة ألذ من النظر فى عقول الرجال" [٢١].

هذه لمحة خاطفة عن ازدهار الحياة الثقافية فى بغداد فى عصرها الذهبى. أما الحياة الاقتصادية فى تلك الفترة فقد كانت لا تقل ازدهارًا عن الحياة الثقافية. كان بيت المال فى عهد الرشيد والمأمون عامرًا بإجماع المؤرخين، وانتعش النشاط التجارى والصناعى والزراعى. والملاحظ



أن الرشيد كان يحرص على أن يكون ما يدخل بيت مال المسلمين طيب المصدر لا تخالطه شبهة. وقد أشرنا منذ قليل إلى أن الفقيه الجليل أبا يوسف كتب له "كتاب الخراج" ليلقى الضوء على كل ما يتعلق بمالية الدولة من الوجهة الشرعية.

وقد كان عصر المأمون امتدادًا لعصر أبيه الرشيد فى الازدهار الاقتصادى، وكان للنشاط التجارى بصفة خاصة دور ملحوظ فيما بلغته بغداد من مكانة اقتصادية فى تلك الفترة؛ فقد حفلت أسواقها بسلع من الصين مثل الخزف والحرير والمسك؛ وبسلع من الهند وأرخبيل الملايو مثل التوابل والمعادن ومواد الصباغة؛ وبسلع من بلاد الترك فى آسيا الوسطى مثل الياقوت واللازَوَرْد والمنسوجات؛ وبسلع من الدول الإسكندنافية وروسيا مثل عسل النحل والشمع والفِرَاء؛ وبسلع من شرق إفريقيا مثل العاج. وقد كان للبضائع الصينية سوق خاص فى بغداد. أما أقاليم الدولة الإسلامية مثل مصر والشام وشبه الجزيرة العربية وفارس فقد كانت ترسل إلى بغداد منتجاتها المحلية كالحبوب واللآلى والعطور والزجاج والفاكهة. ولم تكتف بغداد باستقبال هذه السلع من مختلف البقاع بل إن تجارها أسهموا إسهامًا كبيرًا فى حركة التجارة العالمية بما كانوا يحملونه من السلع المطروحة فى بغداد وغيرها من دولة الخلافة إلى الشرق الأقصى وأوروبا وإفريقيا[٢٢]. ولا شك أن ذلك كله كان له أعظم الأثر فى تحويل بغداد إلى مركز من أهم مراكز التجارة فى العالم، بالإضافة إلى إنعاش اقتصادها بشكل غير مسبوق.

وقد كان من الطبيعى أن ينعكس هذا الرخاء الاقتصادى على عمارة بغداد؛ فاتسعت المدينة فى تلك الفترة اتساعًا هائلاً، ونمت ضاحية الرصافة فى الجانب الشرقى من بغداد نموًا كبيرًا وأصبحت تمثل الجزء الأساسى من المدينة، وازدانت بالقصور الضخمة والمبانى الأنيقة والحدائق الغنَّاء، والمساجد والحمامات. وقد أقبل الناس على البناء فى الرصافة بعد أن انتقلت إليها إدارة الدولة، وكان للبرامكة حى خاص فى الرصافة شيَّدوا فيه قصورهم الفاخرة، وخاصة قصر يحيى بن خالد وابنه جعفرًا. وقد عُرف قصر جعفر بـ "الجعفرى" وكان بالغ الفخامة، واختاره المأمون مقرًا لإقامته. وشيَّد المعتصم أيضًا قصره الفاخر بالرصافة قبل أن ينتقل إلى

سامرا[٢٣]. واتسعت الكرخ أيضًا فى تلك الفترة، وهى الجانب الغربى من بغداد، ونظمت أسواقها، وجعل لكل تجارة سوقها الخاص بها؛ فكان هناك - على سبيل المثال - سوق القطن وسوق الورّاقين وسوق القماش وسوق الصيارفة. وكانت هناك أسواق للتجّار الأجانب أيضًا[٢٤].

هذا الازدهار الذى تمتعت به بغداد فى عصرها الذهبى لم ينته تمامًا بانتهاء هذا العصر. صحيح أن بغداد بدأت تفقد أهميتها السياسية تدريجيًا بعد تلك الفترة، ولكن أهميتها الحضارية ظلت قائمة بشكل أو بآخر حتى سقوط الخلافة. ففى عهد الخليفة المقتدر (٢٩٥- ٣٢٠هـ/ ٩٠٨- ٩٣٢م) -على سبيل المثال -ازدهرت بغداد معماريًا إلى حد كبير؛ فقد أضاف المقتدر مبانى جديدة إلى القصور الملكية فبلغت فى عهده ثلاثة وثلاثين قصرًا، وبنى البيمارستان المنسوب إليه، واتسع حى الرُصافة فى عهده اتساعًا غير مسبوق[٢٥]. وفى العصر البويهى تمتعت بغداد بعناية معمارية خاصة على يد عضد الدولة الذى توفى سنة ٣٧٢هـ /(٩٨٣م)؛ قد لاحظ أن بغداد تدهورت معماريًا فأمر بتجديد بيوتها وأسواقها ومساجدها، وَرَمَّمَ أرصفتها وأمر الأثرياء بترميم بيوتهم، وغرس البساتين فى الأراضى الخالية، وبنى البيمارستان العضدى على أرفع مستوى[٢٦]. ولكن بغداد لم تظفر من غيره من البويهيين بمثل تلك الرعاية المعمارية، ففقدت كثيرًا من أبهتها. ثم إن بغداد لم تتنكر تمامًا لدورها الثقافى بعد انتهاء العصر الذهبى؛ فقد استمرت حركة الترجمة زهاء قرن بعد تلك الفترة، ونتج عنها ازدهار الحياة العقلية. كما استمرت حركة التأليف فى فروع المعرفة المختلفة، وأنشئت المدارس النظامية فى العصر السلجوقى على يد الوزير المشهور نظام الملك المتوفى سنة ٤٨٥هـ/ (١٠٩٢م)، وعلى رأس هذه المدارس" نظامية بغداد" التى كان من ألمع أساتذتها حجة الإسلام أبو حامد الغزالى المتوفى سنة ٥٠٥هـ (١١١١م)[٢٧]. وقد استمر بناء المدارس فى بغداد بعد انتهاء العصر السلجوقى فى سنة ٥٩٠هـ/ (١١٩٤م). ومن أشهر هذه المدارس المدرسة المستنصرية المنسوبة إلى الخليفة العباسى المستنصر بالله (٦٢٣- ٦٤٠هـ/ ١٢٢٦- ١٢٤٢م)، وهو الخليفة قبل الأخير فى سلسلة الخلفاء العباسيين



بالعراق. ويروى السيوطى أن المستنصر "بنى على دجلة من الجانب الشرقى مدرسة ما بنُى على وجه الأرض أحسن منها ولا أكثر منها وقوفا، وهى بأربعة مدرسين على المذاهب الأربعة، وعمل فيها مارستانا، ورتب فيها مطبخًا للفقهاء..... ورتَّب لبيوت الفقهاء الحُصرَ والبُسُطَ والزيت والورق والحبر وغير ذلك.... ورتَّب لهم حمامًا، وهو أمر لم يسبق إليه"[٢٨].

هكذا يتبين أن بغداد استمرت فى ممارسة دورها الحضارى على درجات متفاوتة بعد انتهاء فترة المجد والقوة فى العصر العباسى الأول. أما على المستوى السياسى فإن أهميتها أخذت فى التضاؤل حتى أصبح نفوذها لا يكاد يتجاوز حدودها الجغرافية بعد أن كانت مركزًا تدار منه شئون دولة مترامية الأطراف.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) لمزيد من التفصيل حول هذه القنوات والأنهار ارجع إلى:
Le Strange,Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford 1924, chapters 17 & 71.

(٢) تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف ـ القاهرة، ١٩٧٧، جـ٧، ص٦١٧.

(٣) نفس المصدر، ص ٦١٤.

(٤) نفس المصدر، ص ٦١٨.

(٥) الراوندية قوم من أهل خراسان ينتسبون إلى مدينة راوند بالقرب من أصفهان، وكانوا يؤمنون بتناسخ الأرواح ومذهب الحلول ويتطلعون إلى إحياء المجد الفارسى الداثر رغم تظاهرهم بالولاء للخليفة المنصور. وكانوا يريدون الانتقام لمقتل أبى مسلم الخراسانى على يد المنصور. وقد ثاروا عليه ثورة عارمة فى سنة ١٤١ هـ (٧٥٨م) وكادوا يقتلونه وهو فى الهاشمية، فكان ذلك من بين الأسباب التى يطرحها الباحثون وراء تفكير المنصور فى البحث عن عاصمة أكثر أمنًا. حول ثورة الراوندية انظر: تاريخ الطبرى، جـ٧، ص ٥٠٥- ٥٠٨.

(٦) انظر: ياقوت الحموى، معجم البلدان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م، جـ١، ٥٤٤. وانظر أيضًا: تاريخ الطبرى، جـ٧، ص ٦٢١ وما بعدها.

(٧) ياقوت الحموى ـ مصدر سابق ٥٤٤- ٥٤٥.

(٨) سورة الفرقان: الآية١٥ . انظر: تاريخ الطبرى، جـ٨، ص٥٢، وانظر أيضًا: مادة " بغداد" فى دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية. دار الشعب بالقاهرة، جـ٧، ص ٣٩٤.

(٩) انظر : تاريخ الطبرى، جـ٧، ص ٥٠٨- ٥٠٩، والكامل فى التاريخ لابن الأثير، طبعة دار صادر، بيروت، ١٩٧٩- ١٩٨٢، جـ٥، ص ٥٠٦- ٦٠٢.

(١٠) ابن حوقل: كتاب صورة الأرض، طبعة ليدن ١٩٣٩، ص ٢٣٩.

(١١) انظر: تاريخ الطبرى، جـ٨ ، ص٥٢.

(١٢) انظر: ياقوت الحموى، مصدر سابق، ص ٥٤١.

(١٣) Le Strange, op. cit., pp. 10- 11.

(١٤) السيوطى: تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار الفكر العربى، القاهرة ١٩٨٨ ص ٢٨٦.

(١٥) انظر: ياقوت الحموى، مصدر سابق، ج٣، ص ١٩٨.

(١٦) المغول الجلايريون ينتسبون إلى قبيلة مغولية تعرف باسم " جلاير"، وقد أسسوا أسرة حاكمة فى بغداد بزعامة "حسن بزرك" سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) استمرت زهاء قرن من الزمان. حول تاريخ هذه الأسرة انظر: عباس إقبال أشتيانى: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمه عن الفارسية د. محمد علاء الدين منصور، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٩م، ص ٥٥٣- ٥٦٠.

(١٧) تاريخ الطبرى، جـ٨، ص ٤٤٧.

(١٨) انظر ترجمة أبى يوسف فى كتاب " وفيات الأعيان" لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٧٧ جـ٦، ص ٣٧٨ وما بعدها.

(١٩) راجع ترجمة محمد بن الحسن الشيبانى فى ابن خلكان، مصدر سابق، جـ٤، ص ١٨٤- ١٨٥. وحول مؤلفات هذا الفقيه راجع: كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربى، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، دار المعارف، القاهرة ١٩٩١، جـ٣، ص ٢٤٧- ٢٥٧.

(٢٠) حول سيبويه وجهوده العلمية راجع: كارل بروكلمان، مرجع سابق، جـ٢، ص ١٢٤ وما بعدها.

(٢١) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٣٧٨.

(٢٢) Philip Hitti, History of the Arabs, London 1970, p. 305.

(٢٣) انظر مادة بغداد فى دائرة المعارف الإسلامية ، مرجع سابق، ص ٣٩٤- ٣٩٥.

(٢٤) نفس المرجع، ص ٣٩٨ .

(٢٥) نفس المرجع، ص ٣٩٧- ٤٠١.

(٢٦) نفس المرجع، ص ٤٠٢- ٤٠٣.

(٢٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان، مصدر سابق، جـ٤، ص ٢١٦- ٢١٨. وانظر أيضًا: ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب . دار الكتب العلمية، بيروت (دون تاريخ)، جـ٤، ص ١٠.

(٢٨) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص ٥٣٢.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن جبير: رحلة ابن جبير. دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٨١م.
- الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد. مكتبة الخانجى، القاهرة ١٩٣١م.
- الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، المعروف بتاريخ الطبرى. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م.
- عبد العزيز الدورى: مادة "بغداد" فى دائرة المعارف الإسلامية، الطبعة العربية، دار الشعب - القاهرة (دون تاريخ)، جـ٧، ص ٣٨٥- ٤٣٣.
- المقدسى (شمس الدين محمد بن أحمد): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦م.
- ياقوت الحموى : معجم البلدان، الجزء الأول والثالث. دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٠م

Le Strange, G., Baghdad during the Abbasid Caliphate. Oxford 1924 .

البقيع

البقيع فى اللغة هو: المكان المتسع فيه أشجار مختلفة، والبقيع المقصود هنا هو «بقيع الغرقد»، مقبرة أهل المدينة المنورة. ولقد قام الرحالة المسلمون- الذين أدوا فريضة الحج وزاروا قبر رسول الله ﷺ- بالحديث عن هذا البقيع، وقاموا بذكر أشهر من دُفن فيه من الصحابة وآل البيت رضوان الله عليهم، والذين كانت قبورهم قائمة ومعروفة أيام زيارتهم للبقيع فى العصور الوسطى الإسلامية، ومن هؤلاء: الرحالة محمد بن جبير، والرحالة الشهير ابن بطوطة.

والرحالة ابن جبير هو أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير، الكنانى الأندلسى البلنسى صاحب كتاب: **«تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار»**، المعروف برحلة ابن جبير وقد ألفه قبل وفاته سنة ٦١٤ هـ/ ١٢١٧م.

وقد قام ابن جبير برحلات ثلاث من الأندلس إلى المشرق، وأدى فريضة الحج فى كل واحدة منها، وقام بوصف مسجد رسول الله ﷺ وذكر روضته المقدسة المطهرة. وخلال حديثه عن المسجد النبوى أورد فصلاً تحت عنوان: «**ذكر المشاهد المكرمة التى ببقيع الغرقد وسفح جبل أُحد**».

ونص ما أورده ابن جبير عن ذلك قوله: «فأول ما نذكر من ذلك: مسجد حمزة ﷺ، وهو بقبلى جبل أُحد، والجبل جوفى المدينة، وهو على مقدار ثلاثة أميال، وعلى قبره ﷺ مسجد مبنى، والقبر برحبة جوفى المسجد، والشهداء رضى الله عنهم بإزائه، والغار الذى أوى إليه النبى ﷺ (يقصد غار ثور) أسفل الجبل، وحول الشهداء تربة حمراء هى التربة التى تُنسب إلى حمزة، ويتبرك الناس بها.

وبقيع الغرقد شرقى المدينة، تخرج إليه على باب يُعرف بباب البقيع. وأول ما تلقى عن يسارك- عند خروجك من الباب المذكور- مشهد صفية عمة النبى ﷺ، أم الزبير بن العوام ﷺ.

وأمام هذه التربة قبر مالك بن أنس الإمام المدنى، ﷺ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء. وأمامه قبر السلالة الطاهرة: إبراهيم ابن النبى ﷺ، وعليه قبة بيضاء. وعلى اليمين منها تربة ابن لعمر بن الخطاب ﷺ، اسمه عبد الرحمن الأوسط، وهو المعروف بأبى شحمة، وهو



الذى جلده أبوه فى الحد، فمرض ومات- رضى الله عنهما.

وبإزائه قبر عقيل بن أبى طالب ﷺ، وعبد الله بن جعفر الطيار ﷺ، وبإزائهم روضة فيها مدفن أزواج النبى ﷺ، وبإزائها روضة صغيرة دُفن فيها ثلاثة من أولاد النبى ﷺ.

ويليها روضة العباس بن عبد المطلب، والحسن بن على رضى الله عنهما، وهى قبة مرتفعة فى الهواء، على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رِجلَىْ العباس - رضى الله عنهما. وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان مُغَشَّيان بألواح ملصقة أبدع إلصاق، مرصعة بصفائح الصُفر (النحاس)، ومكوكبة بمساميره على أبدع صفة وأجمل منظر. وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم، ابن النبى ﷺ.

ويلى هذه القبة العباسية بيت يُنسب لفاطمة بنت الرسول ﷺ، ويُعرف ببيت الحزن، يُقال: إنه الذى أوت إليه والتزمت فيه الحزن على موت أبيها المصطفى ﷺ.

وفى آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذى النورين ﷺ، وعليه قبة صغيرة مختصرة، وعلى مقربة منه مشهد فاطمة بنت أسد، أم على بن أبى طالب- رضى الله عنها وعن بنيها.

ومشاهد هذا البقيع أكثر من أن تُحصى لأنه مدفن الجمهور الأعظم من الصحابة المهاجرين والأنصار- رضى الله عنهم أجمعين. وعلى قبر فاطمة بنت أسد مكتوب: «ما ضم قبرٌ أحدًا كفاطمة بنت أسد - ضى الله عنها وعن بنيها».

كذلك تحدث عن بقيع الغرقد الرحالة ابن بطوطة، فى كتاب رحلته الشهير، وهو: أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى، وابن بطوطة اسم اشتهر به هو وعائلته التى اشتهرت بتولى القضاء فى مدينة طنجة التى تقع على مضيق جبل طارق بشمال المغرب.

ولقد قام ابن بطوطة بعدة رحلات لمختلف بلاد العالم أدى خلالها ثلاث حجات، وقام بوصف المدينتين المقدستين: مكة والمدينة، وأورد هذا الوصف فى كتابه الشهير، الذى جعل عنوانه: «**تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**»، المعروف برحلة ابن بطوطة.

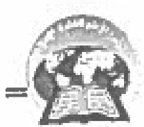
وكانت بداية رحلة ابن بطوطة، حين خرج من دياره يوم الخميس الثانى من شهر رجب عام ٧٢٥ هجرية/١٣٢٥م، وكانت عودته إلى فاس من هذه

الرحلات سنة ٧٥٤ هجرية/ ١٣٥٣م وعمره إحدى وخمسون سنة. وقد أمره السلطان أبو عنان فارس المرينى آنذاك بالعودة إلى فاس، وأمر السلطان الأديب الفقيه محمد بن محمد بن جزى الكلبى بكتابة رحلة ابن بطوطة التى أملى أخبارها عليه. وبعد كتابة هذه الرحلة انقطع خبر ابن بطوطة، وكل ما عُرف عنه بعد ذلك أنه ولى القضاء فى بعض مدن المغرب.

ولقد تحدث ابن بطوطة فى الجزء الأول من كتاب رحلته عن المدينة المنورة والحرم الشريف، وفى هذا الجزء أورد فصلاً عن الأماكن المقدسة بالمدينة المنورة وخارجها، وتحدث عن البقيع تحت عنوان: بعض المشاهد الكريمة خارج المدينة الشريفة فأورد ما نصه: «ومن بعض المشاهد الكريمة بخارج المدينة الشريفة بقيع الغرقد، وهو بشرقى المدينة المكرمة، ويخرج إليه على باب يُعرف بباب البقيع. فأول ما يلقى الخارج إليه على يساره عند خروجه من الباب، قبر صفية بنت عبد المطلب - رضى الله عنها، وهى عمة رسول الله ﷺ، وأم الزبير بن العوام ﷺ، وأمامها قبر إمام المدينة أبى عبدالله مالك بن أنس ﷺ، وعليه قبة صغيرة مختصرة البناء. وأمامه قبر السلالة الطاهرة المقدسة النبوية الكريم إبراهيم بن رسول الله ﷺ، وعليه قبة بيضاء، وعن يمينها تربة عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب - رضى الله عنهما، وهو المعروف بأبى شحمة، وبإزائه قبر عقيل بن أبى طالب ﷺ، وقبر عبد الله ابن ذى الجناحين جعفر بن أبى طالب - رضى الله عنهما. وبإزائهم روضة قبور أمهات المؤمنين بها - رضى الله عنهن- ويليها روضة فيها قبر العباس بن عبد المطلب ﷺ، عم رسول الله ﷺ، وقبر الحسن بن على بن أبى طالب عليهم السلام، وهى قبة ذاهبة فى الهواء بديعة الإحكام عن يمين الخارج من باب البقيع، ورأس الحسن إلى رجلىْ العباس عليهما السلام، وقبراهما مرتفعان عن الأرض متسعان ومغشيان بألواح بديعة الالتصاق مرصعة بصفائح الصُفر البديعة العمل.

وبالبقيع قبور المهاجرين والأنصار وسائر الصحابة ﷺ، إلا أنها لا يُعرف أكثرها. وفى آخر البقيع قبر أمير المؤمنين أبى عمر عثمان بن عفان ﷺ، وعليه قبة كبيرة. وعلى مقربة منه قبر فاطمة بنت أسد بن هاشم أم على بن أبى طالب - رضى الله عنها وعن ابنها".

ولقد ورد فى كتاب (الأوائل) لأبى



هلال العسكرى: أنَّ أولَ من دُفن بالبقيع من المسلمين فى الإسلام عثمان بن مظعون ﷺ، وقال ما نصه: «أخبرنا أبو أحمد عن عبد الله بن الفضل، عن الواقدى عن رجاله. وعن الجوهرى عن أبى زيد عن شيوخه قالوا: أول من مات فى المدينة من المهاجرين، وأول من دُفن بالبقيع عثمان بن مظعون، فدخل رسول الله ﷺ، وقد مات وجُعِل فى أثوابه، فقالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، إنى شاهدة أنَّ الله قد أكرمك، فقال رسول الله ﷺ: "ما يدريك"؟ فقالت: يا رسول الله لا أدرى، فمَه؟ فقال: "إنى لأرجو له الجنة، ولا أدرى ما يُفعل بى وأنا رسول الله". قالت: فوالله لا أُزكى بعده أحدًا أبدًا، ثم لحَد له رسول الله ﷺ، وفصَل حجرًا مِنْ حجارة لحده فوضعه عند رجليه. فمر مروان بن الحكم حين وُلى المدينة فأمر به فنُحِّى، وقال: والله لا يكون على قبر عثمان بن مظعون حجر يُعرف به وليس على قبر عثمان بن عفان حجر يُعرف به. فلامته بنو أمية وقالوا: «عمدت إلى حجر وضعه رسول الله ﷺ فأزلته»، وأمروا به أن يُرد، فقال: «والله إذ رميت به لا يُرد».

ولقد ورد فى سيرة رسول الله ﷺ، أنه عليه الصلاة والسلام حين بدأ بشكواه من مرضه الذى تُوفى به- وهى الحمى فى رأسه - فى أول شهر ربيع الأول، أول ما ابتدأ به أنه خرج إلى بقيع الغرقد - مدفن أهل المدينة- من جوف الليل فاستغفر لهم، ثم رجع إلى أهله، فلمَّا أصبح ابتُدئ بوجعه من يومه ذلك.

قال ابن إسحاق: إنَّ رسول الله ﷺ خرج من جوف الليل مع مولاه أبى مويهبة، وقال له: "يا أبا مويهبة إنى قد أُمرت أن أستغفر لأهل البقيع فانطلق معى". قال أبو مويهبة: فانطلقت معه، فلمَّا وقف بين أظهرهم قال: «السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى». وواصل أبو مويهبة حديثه بقوله: ثم أقبل علىَّ فقال: "**يا أبا مويهبة، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة، فخُيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة**»، ثم قال: «**لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربى والجنة**» قال: ثم استغفر لأهل البقيع ثم انصرف، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذى قبضه الله فيه.

ومن المعلوم أن البقيع- بقيع الغرقد- كان مدفنًا لأهل المدينة فى

الجاهلية، وأيضًا فى الإسلام، وتأكيد ذلك ما أورده ابن الأثير فى كتابه (الكامل فى التاريخ)الجزء الأول- عند حديثه عن أيام العرب، والحروب بين الأوس والخزرج بذكر يوم من أيامهم عُرف بيوم البقيع. وقد ذكر فى هذا الخصوص أن الأوس والخزرج التقتا ببقيع الغرقد، قبل الإسلام، فاقتتلوا اقتتالاً شديدًا، فكان الظفر يومئذ للأوس. وقد أنشد فى تلك المناسبة عبيد بن ناقد الأوسى شعرًا يمدح فيه قبيلته ويهنئهم بهذا النصر، وقد أورد ابن الأثير أبياتًا من هذا الشعر.

ولقد أوردت كتب السيرة وكتب الصِّحَاح أسماء من دُفن فى البقيع من أزواج رسول الله ﷺ وآل بيته وكبار صحابته، وكانت أول من دُفن فى البقيع من زوجات رسول الله ﷺ: زينب بنت خزيمة، المعروفة بأم المساكين العامرية من بنى هلال، وكان رسول الله ﷺ قد تزوجها فى شهر رمضان سنة ٣ هجرية، بعد أن طلقت من الطفيل بن الحارث. ولم تلبث زينب عند رسول الله شهرين أو ثلاثة حتى توفيت فى حياة النبى ﷺ وهى فى الثلاثين من عمرها، وصلى عليها النبى ﷺ ودفنها بالبقيع، فكانت أول من دفن بالبقيع من أمهات المؤمنين- رضى الله عنهن.

كذلك دفنت فى البقيع السيدة زينب بنت جحش بن رئاب، وهى أول من ماتت من نساء النبى بعده، وأسرعهن لحاقًا به سنة ٢٠ هجرية/٦٤٠م. وقد شيعها أهل المدينة إلى البقيع ودفنوها هناك.

ودفنت بالبقيع مارية القبطية سنة ٢١ هجرية/٦٤١م فى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وقد أخذ الخليفة عمر يحشد الناس لجنازتها، ثم صلى عليها ودفنها بالبقيع. وكان ابنها إبراهيم، ابن رسول الله ﷺ، قد توفى بعد مرضه فى حياة أبيه ودُفن بالبقيع، وهو لم يبلغ عامين من عمره، وحُمل على سرير صغير وصلى عليه أبوه وكبرَّ أربعًا، ثم سوى عليه التراب وندَّاه بالماء ودفنه بيديه فى لحده ﷺ.

وكانت السيدة مارية تزور قبر ولدها الذى دُفن بالبقيع سنة ١٦ هجرية/٦٣٧م، وتداوم على زيارة البقيع حتى وفاتها ودفنها هناك إلى جواره.

ودفنت بالبقيع أم حبيبة رملة بنت أبى سفيان أم المؤمنين سنة ٤٤ هـ/٦٦٤م، ثم تبعتها فى سنة ٤٧ هجرية/٦٦٧م السيدة حفصة بنت عمر بن الخطاب، وقد شيعتها المدينة إلى مثواها

بالبقيع مع أمهات المؤمنين- رضى الله عنهن- ثم تبعتهما السيدة صفية بنت حيى ابن أخطب سنة ٥٠ هجرية/٦٧٠م، ودفنت بالبقيع مع أمهات المؤمنين - رضوان الله عليهن أجمعين.

ودفنت بالبقيع السيدة جويرية بنت الحارث، سيدة بنى المصطلق- رضوان الله عليها، توفيت بالمدينة المنورة سنة ٥٦هـ/٦٧٥م، وقد صلى عليها مروان بن الحكم، أمير المدينة، وقد بلغت من العمر سبعين عامًا.

ودفنت بالبقيع السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق- رضى الله عنهما- وكانت وفاتها ليلة الثلاثاء السابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٧ هجرية/٦٧٦م، وصلى عليها الصحابى الجليل أبو هريرة ﷺ، ثم شيعت جنازتها فى غسق الليل إلى البقيع على أضواء مشاعل جريد مغموس فى الزيت. وكانت السيدة عائشة قد أوصت عبد الله بن الزبير ابن أختها أسماء بنت أبى بكر - رضوان الله عليهم أجمعين - أن يدفنها مع صواحبها بالبقيع. ولقد وصف قبرها وموضعه بالبقيع المؤرخ «السمهودى» فى كتابه (وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى).

ومن بنات الرسول اللائى دُفِنَّ بالبقيع: زينب الكبرى بنت رسول الله ﷺ، وكانت قد توفيت فى السنة الثانية من الهجرة، وصلى عليها أبوها فى مسجده ثم شيعها إلى مرقدها بالبقيع.

كذلك ابنة رسول الله ﷺ رقية، التى توفيت يوم عودة رسول الله من غزوة بدر سنة ٢ هجرية، ودُفنت بالبقيع.

ودُفنت بالبقيع أم كلثوم ابنة رسول الله ﷺ بعد وفاتها فى بيت عثمان ابن عفان ﷺ، فى شهر شعبان سنة تسع للهجرة، دفنت بجوار أختها رقية. كذلك دفنت فاطمة الزهراء بالبقيع، بعد وفاتها يوم الاثنين الثانى من رمضان سنة ١١ هجرية/٦٣٢م، بعد وفاة أبيها بستة أشهر، وكانت أول أهله لحاقًا به ﷺ.

ومن أقارب رسول الله ﷺ الذين دفنوا بالبقيع، صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، وقد توفيت سنة ٢٠ هجرية/٦٤٠م ولها بضع وسبعون سنة.

ومنهن أيضًا فاطمة بنت أسد، أُم على ابن أبى طالب - رضى الله عنهما- وكانت ترعى رسول الله ﷺ فى صغره، توفيت بالمدينة ودُفنت بالبقيع، وقد نزل رسول الله ﷺ فى قبرها ليدفنها تكريما لها .

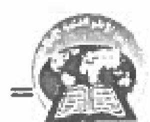
كذلك دفنت بالبقيع أمه من الرضاعة حليمة السعدية، التى توفيت فى المدينة المنورة، بعد أن عاشت بها فى أواخر عمرها.

ولا زال البقيع- وهو مدفن أهل المدينة الطيب- يضم بين ثراه أشرف خلق الله، ويسكنه رواد الجنة والسابقون إلى الإسلام- رضوان الله عليهم أجمعين.

أ.د / عطية القوصى

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- ابن جبير: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار.
٢- ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار.
٣- ابن شبه: تاريخ المدينة المنورة.
٤- ابن هشام: السيرة النبوية.
٥- ناصر خسرو: سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب.
٦- ياقوت: معجم البلدان.



بلاد ما وراء النهر

التحديد الجغرافى:

ما وراء النهر مصطلح جغرافى أطلقه العرب المسلمون على الولايات الواقعة شمالى مجرى نهر جيجون. ويشتمل على أقاليم هامة مثل: «الصغد»، «وفرغانه»، و«الشاش»، و «طشقند»، «وأشروسنة»، و«الختل» وغيرها من الولايات والمدن. وهى جزء من التركستان الغربية، ومع ذلك لم يتفق الجغرافيون المسلمون على تحديد جغرافى دقيق لهذا الإقليم: فبعضهم توسع فيه فضم إليه بعض الأقاليم الموجودة خارجة مثل ابن حوقل: الذى رأى أن إقليم خوارزم يقع ضمن إقليم ما وراء النهر لأنه أقرب إليه من قربه إلى خراسان، حيث ينحدر نهر جيحون إلى هذا الإقليم قبل أن يصب فى البحيرة المنسوبة إليه (بحيرة خوارزم) (بحر أورال).

أما ياقوت الحموى: فاعتبر إقليم خوارزم إقليمًا قائمًا بذاته لا هو تابع لما وراء النهر ولا إلى خراسان. ورأى أن إقليم ما وراء النهر يشمل المناطق الواقعة فى شرقى نهر جيحون فى الجنوب حتى حوض نهر «سيحون» فى الشمال. وقد كان هذا الإقليم يطلق عليه قبل الفتح الإسلامى «إقليم الهياطلة».

ويتضح مما أوردناه أن الجغرافيين المسلمين لم يتفقوا على تحديد جغرافى دقيق لهذا المصطلح، فبعضهم توسع فيه حتى أدخل فيه بعض البلدان التى تقع فى إقليم خراسان لكنها موجودة على الشاطئ الغربى لنهر جيحون أو قريبًا منه وبعضهم قصره على المنطقة المحصورة بين النهرين: جيحون وسيحون.

ويبدو أن التقسيمات الإدارية والتوسعات فى المناطق المجاورة من جانب حكام هذا الإقليم قد حكمت تصورات بعض الجغرافيين فى رسم حدود هذه المنطقة. وهى المشكلة التى واجهت المستشرق المجرى «أرمنيوس فامبرى» فى كتابه عن تاريخ الإقليم فآثر أن يختار له عنوانًا يخرجه من كل هذه الإشكالات فسماه «تاريخ بخارى» باعتبار أن بخارى غالبًا ما كانت حاضرة هذا الإقليم وعاصمته.

وأبسط تحديد جغرافى لهذا الإقليم وجدناه عند المستشرق الروسى: «بارتولد» فى كتابه «التركستان»

فيقول: ما وراء النهر هو الاسم الذى أطلقه العرب على المنطقة المتحضرة الواقعة بين حوضى نهر أموداريا «جيحون» وسيرداريا «سيحون» ولم تكن هذه المنطقة وفقًا لمفهوم الجغرافيين المسلمين تدخل ضمن مصطلح «التركستان»، لأن هذا المصطلح الأخير كان يقصد به بلاد الترك عامة، وهى منطقة مترامية الأطراف تمتد بين الصين وبلاد الإسلام، ويقطنها بدو رحل من الترك والمغول.

وبناءً على ذلك كله نستطيع أن نحدد إقليم ما وراء النهر: بأنه الإقليم الذى يقع بين حوضى: نهر جيحون جنوبًا ونهر سيحون شمالا. وهذا الإقليم هو الجزء المتحضِّر المستقر من منطقة التركستان عامة، وعرف فيما بعد باسم: تركستان الغربية فى مقابل الجزء الشرقى الذى تحتله الصين.

وأشهر مدن هذا الإقليم : بخارى وسمرقند، ولأن هذا الإقليم يقع شمالى الدولة الفارسية فإن معظم سكانه قبيل القرن السادس الميلادى، كانوا من الفرس، ثم بدأت هجرات العناصر التركية تنحدر إليه من الشرق منذ القرن السادس الميلادى وما بعده حتى غلب العنصر التركى على العنصر الفارسى.

ومع ذلك فقد ظلت اللغة الفارسية لغة الكتابة والثقافة والعلم والأدب فترة من الزمان، وبقيت اللغة التركية لغة التخاطب والتعامل اليومى بين الناس.

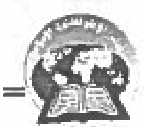
الديانات التى كانت موجودة فى الإقليم قبل الفتح الإسلامى:

انتشرت عبادة النار فى إقليمى «الصغد» «وخوارزم» إلى جانب الديانة «الزرادشتية» وذلك بين العناصر الفارسية. أما الديانة «البوذية» فكانت شائعة بين العناصر التركية، وقد انتقلت إليهم من الصين، وبالإضافة إلى ذلك فقد وجد المبشرون المسيحيون من «النساطرة» فرصة لنشر مذهبهم فى هذا الإقليم، وذلك قبل الفتح الإسلامى بقرنين أو ثلاثة.

مراحل الفتح الإسلامى وانتشار الإسلام:

المرحلة الأولى:

بدأت المناوشات العسكرية بين المسلمين والقوى السياسية فى منطقة ما وراء النهر فى عهد الخليفة: عمر بن الخطاب. وقد تمت هذه المناوشات على الحدود فى إقليم «طخارستان» الواقع إلى الجنوب الغربى لنهر جيحون وعاصمته مدينة «بلخ» وذلك أثناء مطاردة القوات



الإسلامية «ليزدجرد» آخر ملوك الفرس وكانت بقيادة «الأحنف بن قيس»؛ فقد عبر يزجرد نهر جيحون واستنجد بملوك الترك الذين أنجدوه، وتمكنوا بالفعل من استعادة إقليم طخارستان، إلا أنهم هزموا بعد ذلك، وفروا إلى داخل ما وراء النهر. وتجددت الاشتباكات فى عهد سيدنا عثمان بن عفان، فواصل الأحنف قتاله مع الترك إلى أن أجبرهم على توقيع صلح معه، ثم واصل الفتوحات حتى وصل إلى إقليم «خوارزم» الذى يقع جزء منه غربى نهر جيحون. وكانت هذه الجهود بمثابة المرحلة الأولى من جهود المسلمين فى محاولة فتح هذا الإقليم.

المرحلة الثانية:

قامت هذه المرحلة على شن العديد من الغارات الإسلامية على أمهات المدن فى هذا الإقليم مثل: بخارى، وسمرقند وغيرها، وشملت هذه المرحلة فترة حكم معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان، إذ كان من الطبيعى أن تتوقف هذه المواجهات أثناء الفتنة بين الإمام على ومعاوية. وما أن استقرت الأمور لمعاوية حتى واصل حركة الفتوحات فى هذا الإقليم عن طريق ولاة إقليم خراسان. هذا الإقليم الذى أصبح ثغرًا تنطلق منه الجيوش الإسلامية إلى منطقة ما وراء النهر. وظهر فى هذه المرحلة ولاةٌ أكفاء من أمثال: عبيد الله بن زياد، وسعيد بن عثمان بن عفان، ومسلم بن زياد.

استطاع عبيد الله بن زياد أن يصل إلى بخارى ويفتح بعض أجزائها عام ٤٥هـ/٦٦٥م، وخضعت المدينة نفسها للنفوذ الإسلامى حين وقّع عبيد الله صلحًا مع ملكة بخارى تدفع بمقتضاه مليون درهم سنويًا للمسلمين. أما سعيد ابن عثمان فقد غزا سمرقند عام ستة وخمسين/٦٧٥م واستسلمت له المدينة صلحًا على أن تدفع سنويًا سبعمائة ألف درهم. ودخل بخارى وجدد الصلح مع ملكتها، وفتح مدينة ترمذ صلحًا لكنها نقضت الصلح بعد ذلك إلى أن فتحها قتيبة بن مسلم. أما مسلم بن زياد فقد تولى خراسان فى عهد يزيد بن معاوية وواجه فى عام إحدى وستين/٦٨٠م جيوش بخارى والصغد، وقوات من تركستان الشرقية فانتصر عليهم وجدد الصلح مع بخارى وسمرقند، واستمرت حملاته على المنطقة حتى وفاة يزيد، وصراع الأمويين مع ابن الزبير إلى أن استقرت الأمور لعبد الملك بن مروان (٧٥- ٨٦هـ/٦٩٤-

٧٠٥م) فعين على خراسان أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموى فقام بغزو ما وراء النهر فصالحه أهل بخارى ثم فتح مدينة: الختل للمرة الثانية بعد أن نقضت الصلح الذى سبق أن أبرمته مع سعيد بن عثمان.

وعندما ولى عبد الملك الحجاج بن يوسف الثقفى على العراق وخراسان أسند ولاية خراسان إلى "المهلب بن أبى صفرة" ففتح بعض المناطق فيما وراء النهر التى نقضت صلحها مع المسلمين، ثم فتح "خجندة" وغزا "كش"، و"نسف" وأدى إقليم الصغد الجزْيةَ المقررة. ثم مات المهلب بمدينة مرو بعد أن استخلف ابنه "يزيد" فأرسل بعض قواده إلى ما وراء النهر وحقق المسلمون انتصارات كثيرة، وفتحوا العديد من المدن من بينها مدينة "ترمذ" التى سبق أن فتحها المسلمون فى عهد سعيد بن عثمان ثم انقضت عليهم.

والملاحظ أن هذه المرحلة الثانية من الفتوحات التى امتدت من عهد معاوية حتى نهاية حكم عبد الملك لم تشهد استقرارًا لفتوحات المسلمين فى منطقة ما وراء النهر. وكانت هذه الجهود العسكرية غالبًا ما تنتهى بالصلح، ثم ينتهز ملوك ما وراء النهر فرصة أى اضطرابات فى داخل الدولة الإسلامية لينقضوا هذا الصلح حتى جاءت المرحلة الثالثة التى تبدأ بعهد الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦ هـ/٧٠٥- ٧١٤م) وولاية "قتيبة ابن مسلم" على خراسان عام ست وثمانين للهجرة /٧٠٤م . وهذه المرحلة هى مرحلة الفتوحات المستقرة بعد أن تكونت لدى المسلمين الخبرة الكاملة بشئون هذا الإقليم: جغرافيًا وبشريًا.

المرحلة الثالثة:

تبدأ هذه المرحلة بولاية قتيبة بن مسلم الباهلى على خراسان من قبل الحجاج بن يوسف (والى المشرق) وقد استهل فتوحاته فيما وراء النهر بعبور نهر جيحون بعد أن دخل مدينة "بلخ" وعبر معه أمراؤها. فأتاه بعض ملوك المنطقة يجددون الطاعة، فعاد إلى خراسان تاركًا مهمة متابعة الفتوح فى هذا الإقليم لأخيه: صالح بن مسلم ففتح العديد من المدن ثم أستأنف قتيبة بنفسه جهوده العسكرية فى عام (٨٧- ٨٨هـ/ ٧٠٦- ٧٠٧م) وكان من أهم فتوحاته فى هذه الفترة: فتح "بخارى"، "وسمرقند" "وبيكند" وهى أقرب مدن بخارى إلى نهر جيحون. ثم هزم الترك فى إقليم "الصغد" وافتتح "كش"، و"نسف" ثم اتخذ مسجدًا بسمرقندوعين

عليها أميرًا من قبله هو "الضحاك بن مزاحم" ثم تمكن من فتح جميع إقليم الشاش (طشقند) وحصن أسبيجاب. ثم قتل قتيبة فى عام ٩٦هـ/٧١٤م) بعد وفاة الوليد بن عبد الملك وتوجس خلفه سليمان خيفه من غدره، لأنه سبق له أن وافق الخليفة الوليد على نقل ولاية العهد من سليمان إلى ابنه عبد العزيز، فاضطربت الأمور بين القبائل العربية فى خراسان، وقتل قتيبة فى هذه الأضطرابات وقد بلغ من العمر خمسة وخمسين عامًا.

وجاء سليمان بعد الوليد (٩٦- ٩٩هـ/ ٧١٤- ٧١٧م) فولى أمر خراسان الجراح ابن عبد الله الحكمى، فواصل هو وجنده الفتوحات فيما وراء النهر، وأوغل فى فتوحاته حتى وصل إلى حدود الصين شرقًا.

وبعد موت سليمان ومجئ عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ/ ٧١٧- ٧١٩م) كانت أمور المسلمين قد استقرت إلى حد كبير فى منطقة ما وراء النهر، وبدأ الإسلام يمتد امتدادًا طبيعيًا، ومن ثم آثر عمر الثانى أن ينهج منهجًا سلميًا لإيصال كلمة الله إلى الناس، فرفع الجزية والخراج عن كل من أسلم، وفرض العطاء لمن أسلم منهم، واهتم بإصلاح الطرق وعمارتها، وبناء الخانات عليها.

وتوفى عمر وجاء من بعده يزيد بن عبد الملك (١٠١- ١٠٥هـ/ ٧١٩- ٧٢٣م) فولى أخاه "مسلمة" شئون خراسان فعين عليها هذا الأخير سعيد بن الحارث الأموى فأرسل سعيد أحد قواده إلى منطقة ما وراء النهر فالتقى بقبائل الترك المتمردة وتبادل معهم النصر والهزيمة إلى أن عزل وتولى مكانه سعيد بن عمر الجرش فافتتح جميع حصون منطقة "الصغد".

وعندما مات يزيد خلفه أخوه هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ/٧٢٣- ٧٤٢م) وقد حظيت خراسان فى عهده بعدد من الولاة الأكفاء مثل: مسلم بن سعيد، وخالد بن عبد الله القسرى، وأخيه أسد، ونصر بن سيار وكان لهم جميعًا دور بارز فى استكمال فتح الإقليم وفى صد غارات الأتراك الشرقيين عليه، وفى التصدى لبعض ملوك ما وراء النهر الذين تمردوا أحيانًا على حكم الدولة الإسلامية.

وفى العصر العباسى وأثناء إقامة الخليفة المأمون بخراسان (١٩٨- ٢٠٤هـ/٨١٣- ٨١٩م) توالى زحف الجيوش العباسية على منطقة ما وراء النهر وتزايد مع ذلك التركيز على

الجهود السلمية فى محاولة نشر الإسلام فكان المأمون يكاتب ملوك المنطقة يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، والترغيب فيهما فأسلم ملك "أشروسنة" والد القائد المشهور: "حيدر الأفشين" وفرض المأمون لمن أسلم منهم عطاء فى بيت المال. وإذا ورد على بابه بعض قادتهم شَرّفهم، واسنى صلاتهم، وما أن جاء المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ/٨٣٣- ٨٤١م) حتى كان الاستقرار السياسى قد تم وانتشار الإسلام قد تمكن، وأصبح معظم جند الخلافة من هذه المنطقة، وحضر ملوكها إلى بابه، وصاروا حماة لحدود الدولة الإسلامية يغزون مَنْ خلفهم مِن الترك الوثنيين.

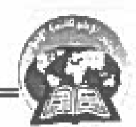
عوامل انتشار الإسلام فيما وراء النهر:

لقد تعاونت عدة أسباب أدت إلى انتشار الإسلام فى هذه المنطقة ومنها:

١ــ سياسة قتيبة التى اتبعها بعد استقرار الفتوحات فى هذا الإقليم حيث عمل على دمج العناصر التى تولت شئون الفتح من القبائل العربية مع عناصر السكان الأصليين، وذلك من خلال تبنى سياسة توطين بعض القبائل فى المنطقة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك عندما جعل بعض أفراد هذه القبائل يشاركون السكان الأصليين فى سكنى منازلهم. فكان هذا الاختلاط سببًا فى الانصهار بين العنصرين وتعرُّف كل منهما على الآخر، وبالتالى أدى حسن المعاشرة بينهم وبين المسلمين إلى إقبال بعضهم على الإسلام.

ثم جاءت الخطوة الثانية التى تمثلت فى بناء المساجد فى أمهات المدن التى فتحت وبخاصة مسجد قتيبة فى بخارى، ومسجد سمرقند، وكان قتيبة يدعو الذين أسلموا إلى أداء صلاة الجمعة فى المسجدين. ويعتبر من أسلم منهم حديثًا من المؤلفة قلوبهم فكان يأمر مناديًا يوم الجمعة بأن من يأتى للصلاة فله درهمان. كما عنى قتيبة بإلزام من أسلم بتنفيذ أحكام الشريعة الإسلامية، وعمل على إزالة رسوم الوثنية والمجوسية من البلاد التى فتحت. وكان من الطبيعى أن تقوم هذه المساجد التى أسست بدورها فى تعريف أهل البلاد بتعاليم الإسلام وآدابه ونشره بينهم.

٢ـ ثم جاء دور عمر بن عبد العزيز الذى اهتم بإرساء قواعد العدل فى المنطقة، ورفع الظلم عن أهلها: فأسقط الجزية عمن أسلم، وعزل الولاة الجائرين وتحرى العدل والعفاف والتقى بولاته الجدد الذين



عينهم على أقاليم الدولة ومنها خراسان وما وراء النهر، وألقى الرجل بكل ثقله فى تفعيل الدعوة السلمية إلى الإسلام.

٣ـ وكانت سياسة العباسيين فى هذا الإقليم لها أجمل الأثر فى جذب المزيد من أهله إلى الإسلام؛ فقد أنفتح العباسيون على الأعاجم بصفة عامة، واهتموا بالعنصر التركى بصفة خاصة فأشركوهم فى الجيش منذ عهد الرشيد، ثم نمت هذه الظاهرة فى عهد المأمون، ثم تطورت ووصلت إلى قمتها فى عهد الخليفة المعتصم فأصبح جل عسكره من الأتراك سواء كانوا من منطقة ما وراء النهر أو أتراكا شرقيين جئ بهم من إقليم التركستان الشرقى، وبالإضافة إلى ذلك استمر العباسيون فى نشر الدعوة سلميًا بين الأتراك، وفرضوا العطاء لمن أسلم منهم، وحسنوا نظم الإدارة فى المنطقة حتى شهد عهد المعتصم رسوخ قدم الإسلام فيما وراء النهر، وأخذ أهله على عاتقهم مهمة توصيل هذا الدين إلى إخوانهم من الترك الشرقيين المتواجدين خلف نهر سيحون.

٤ـ هجرة كثير من علماء العراق والشام ومصر إلى ما وراء النهر باعتبارها منطقة ثغر يجب الرباط فيها للجهاد ونشر الإسلام. وقد أشار الجغرافيون المسلمون إلى انتشار "الأربطة" فى جميع أنحاء الإقليم حتى إن الإصطرخى ذكر أنها كانت تزيد على العشرة آلاف وكلها معدة ومجهزة لاستقبال المرابطين، ولها أوقاف واسعة تفى بالنفقة عليها. ويبدو أن العلماء الغزاة المرابطين كان لهم شأن بارز فى المنطقة أثناء ولاية الطاهريين عليها فقد أصبحت لهم طائفة (نقابة)، تنظم شئونهم وكان لهم قائد يتمتع بنفوذ واسع.

ولم يقتصر الدور على العلماء والفقهاء، بل سرعان ما شاركهم فى هذه الجهود نفر غير قليل من المتصوفة الذين هاجروا إلى الإقليم وبذلوا جهودًا مشكورة فى دعوة الناس إلى هذا الدين فأكملوا دور العلماء، لأن العلماء كانوا يعتمدون على العقل والمنطق والحجة فى إيصال العقيدة الجديدة إلى عقول المخالفين، أما الصوفية فقد خاطبوا قلوب المخالفين ومشاعرهم عن طريق سلوكهم الزاهد فى متع الحياة الدنيا وانصرافهم عنها فاستطاعوا أن يؤثروا فيهم تأثيرًا قويًا وكانت الثمرة يانعة نتيجة لجهود هؤلاء وأولئك.

٥ـ يضاف إلى ما سبق الهجرات

المستمرة من قبل أتراك ما وراء النهر إلى مواطن إخوانهم من الأتراك الشرقيين واحتكاكهم بهم ومصاهرتهم وحسن التعامل معهم فكان لذلك كله دور هام فى جذب كثير من إخوانهم إلى الإسلام خاصة أنهم كانوا يتحدثون لغتهم ويشتركون معهم فى كثير من الخصائص العرقية والحضارية.

تطورات الإقليم السياسية:

١- الخضوع المباشر للخلافة:

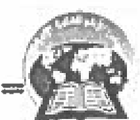
قبيل الفتح الإسلامى كانت منطقة ما وراء النهر تحكم من قبل أمراء محليين. ولكن من غير المعلوم ما إذا كانوا يحكمون مناطقهم على سبيل الاستقلال أم كانوا خاضعين لنفوذ "خاقان الترك" فى تركستان الشرقية. حيث شهد القرن السادس الميلادى تمكن خانات الترك من إقامة دولة لهم امتدت من حدود الصين حتى حوض نهر جيحون. ولكن هذه الدولة سرعان ما انقسمت إلى قسمين: تركستان الشرقية، ومملكة ما وراء النهر الغربية التى توزعت بدورها إلى إمارات متناثرة.

وأيًا ما كان الأمر فالثابت أن هذا الإقليم قد تعرض فى القرنين الأول والثانى الهجريين (السادس والسابع الميلاديين) لهجرات واسعة من قبل العناصر التركية التى دخلته من السهوب الشمالية حتى طغى نفوذ المهاجرين على نفوذ السكان الأصليين من الفرس.

وبعد استقرار الفتوحات السلامية ظل هؤلاء الأمراء المحليون يحكمون مع اعترافهم بنفوذ دولة الخلافة عليهم، أى أن المنطقة حكمت حكمًا لا مركزيًا. وكان إلى جانب هؤلاء الأمراء المحليين عامل من قبل الخلافة يتولى جباية الخراج، وقادة عسكريون مسلمون يتولون حماية الإقليم، ثم تناوب على حكمها فى عصر الدويلات المستقلة: السامانيون والإيلكخانيون والسلاجقة، والأويغور، والخوارزميون، والمغول، والتيموريون والأوزبك، ثم الروس.

٢- الدولة السامانية:

واستمر هذا الوضع حتى بعد مجئ العباسيين فترة من الزمن إلى أن أصبح الوالى الذى يعين من قبل الخلافة العباسية هو المتصرف الحقيقى فى شئون الإقليم، ولم تقم حكومة مستقلة فيه إلا بقيام الدولة السامانية (٢٦٠- ٣٨٩هـ/ ٨٧٣- ٩٩٨م) فاستطاعت أن ترعى شئون هذا الإقليم رعاية كاملة فى كافة المجالات وقامت بواجب الدفاع عن



حدوده ونشر الإسلام بين جيرانه من الأتراك الشرقيين إلى أن دخلت هذه الدولة فى مرحلة الضعف الذى تعددت أسبابه.

٣- القراخانيون:

انتهى حكم السامانين على يد الدولة القراخانية (الإيلكخانيون) وهم مجموعة من قبائل الترك الشرقيين الذين اعتنقوا الإسلام فى أواخر النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) وأقاموا لهم دولة فى تركستان الشرقية عاصمتها مدينة "كاشغر" وعندما قضوا على الدولة السامانية خضعت منطقة ما وراء النهر لنفوذهم ولكنهم لم يسيطروا على الإقليم سيطرة كاملة فنشأت على أنقاض الدولة السامانية إمارات إسلامية متناثرة تمتعت باستقلال ذاتى لكنها خضعت نظريًا لحكم إيلخانات كاشغر.

٤- السلاجقة:

واستمر الوضع السياسى على هذا النحو إلى أن ظهر الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث فى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الهجريين / العاشر والحادى عشر الميلاديين فى منطقة ما وراء النهر، واستطاعوا السيطرة على أجزاء منها، ثم عبروا نهر جيحون إلى خراسان، واصطدموا بالدولة الغزنوية، وأوقعوا بها هزيمة فاصلة عام (٤٣١هـ/١٠٢٨م) ومن ثم اعترفت الخلافة بنفوذهم على المناطق التى سيطروا عليها فى خراسان وإيران، ثم واصلوا زحفهم غربًا باتجاه العراق حتى دخلوا بغداد عام (٤٤٧هـ/١٠٥٥م).

٥- الأويغور والخوارزميون:

وفى عهد السلطانين السلجوقيين: ألب أرسلان (٤٥٥- ٤٦٥هـ/١٠٥٣- ١٠٧٢م) وابنه ملكشاه (٤٦٥- ٤٨٥هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م) تطلع السلاجقة إلى إقليم ما وراء النهر، واستطاعوا إخضاعه لنفوذهم السياسى مع الإبقاء على الأمراء المحليين من الإيلكخانيين. وعندما قسم ملكشاه مملكته بين أبنائه كانت منطقة ما وراء النهر من نصيب ابنه "سنجر" فاستمر أمراء المنطقة يعترفون بنفوذه الاسمى عليهم. لكن السلاجقة سرعان ما فقدوا كل نفوذ سياسى لهم فى هذا الإقليم بعد أن تعرض لغزو الترك الشرقيين بزعامة "كرخان". وهذه القبائل عرفت تاريخيًا باسم (الأويغور) أو قبائل "الخطا" وهى قبائل وثنية استطاعت أن توقع الهزيمة بالسلطان سنجر فى منطقة ما وراء النهر عام (٥٣٦هـ/١١٤٢م) وسيطروا على

الإقليم سيطرة كاملة ثم امتد نفوذهم على بعض المناطق فى خراسان. وبعد سقوط السلاجقة عام (٥٩٠هـ- ١١٩٤م) وسيطرة الخوارزميين على ممتلكاتهم نشب الصراع بين الخوارزميين وقبائل "الخطا" حتى اضطر الخوارزميون إلى توقيع صلح معهم، مقابل دفع إتاوة مالية سنوية لهم. واستمر الخوارزميون فى دفع هذه الإتاوة حتى عهد آخر سلاطينهم: علاء الدين محمد الذى استطاع أن يوقع بالخطا هزيمة كبرى أبعدتهم عن خراسان ومنطقة ما وراء النهر وذلك فى (٦٠٦ أو ٦٠٧هـ/١٢٠٩ أو ١٢١٠م) وبقى نفوذ الخوارزميين على المنطقة قائمًا حتى تعرضت للغزو المغولى عام (٦١٦هـ/١٢١٩م) فدخلت ما وراء النهر ضمن نفوذهم.

٦- المغول:

وقبيل وفاة "جنكيز خان" زعيم المغول فى عام (٦٢٤هـ/١٢٢٧م) قسم مملكته بين أبنائه، فكانت منطقة ما وراء النهر من نصيب ابنه "جغتاى" الذى ظلت أسرته تحكم المنطقة حتى عام (٧٦٥هـ/١٣٦٣م) أى حتى ظهور الإمبراطور تيمورلنك" باستثناء فترة يسيرة.

٧- التيموريون والأوزبك:

خضعت ما وراء النهر لحكم تيمورلنك وخلفائه من عام (٧٦٥- ٩٠٦هـ/١٣٦٣-١٥٠٠م) ثم جاءت نهاية حكمهم على يد قبائل: (الأوزبك) وهم من حفدة جنكيزخان. وقد توزعوا على قبائل متعددة، لكنهم ينتسبون فى الأصل إلى "أوزبك" تاسع الحكام الذين حكموا بلاده وهم خليط من المغول والترك كانوا يسكنون المنطقة الواقعة بين نهر الفولجا شمالا وبحيرة خوارزم (بحر أورال) جنوبًا، وكانت أولى قبائلهم التى أنهت حكم التيموريين " الشيبانيون" وقد أمتد نشاط هذه الأسرة العسكرى إلى خراسان ولم يوقف تقدمها باتجاه الغرب سوى ظهور الشاه إسماعيل الصفوى فى إيران حيث تمكن من قتل زعيمهم عام (٩١٦هـ-١٥١٠م) وبعد مقتله احتدم الصراع بين الشيبانيين والقوى السياسية المجاورة حتى عام (١٠٠٦هـ/١٥٩٧م) الأمر الذى أدى إلى سقوطهم وظهور قبيلة أوزبكية أخرى هى "الاشتراخانيون) فحكموا المنطقة حتى عام (١٠٩٩هـ/١٦٨٧م) . وقد بدأت المنطقة فى عهدهم تفقد أهميتها السياسية ويتضاءل نفوذها حتى عرفت فى عهدهم باسم "خانية بخارى" وسرعان



ما خضعت هذا القبيلة لنفوذ الدولة الصفوية فى عام (١١٥٣هـ/١٧٤٠م) فى عهد السلطان نادر شاه الصفوى ثم انتهت دولتهم وجاءت على إثرهم قبيلة أخرى من أبناء عمومتهم وهم: (المنغيتيون)، (١١٩٩- ١٢٤٢هـ/١٧٨٤- ١٨٢٦م).

وفى عهد هذه الأسرة تحولت أمور المنطقة تحولا سريعًا حيث بدأت تتعرض لمطامع الأوروبيين الاستعمارية هى وغيرها من مناطق آسيا الإسلامية، فانطلقت روسيا باتجاه الجنوب حتى وصلت إلى شواطئ نهر سيحون، وزحف البريطانيون على بلاد الأفغان ولم يعد يفصلهم عن شواطئ "جيحون" سوى مسافات قليلة، وقد سبق لهم أن سيطروا على شبه القارة الهندية، وسرعان ما احتدم الصراع بين الروس والإنجليز على مناطق النفوذ فيما وراء النهر، إلى أن حدث التدخل الروسى السافر فى شئون المنطقة وطالبوا حكامها بامتيازات خاصة لهم فى الإقليم يتعلق معظمها بأمن روسيا ورعاياها وتجارتها.

٨ الروس:

شهدت هذه الفترة أيضًا تقدم الروس نحو شواطئ جيحون وأكملوا استيلاءهم على كامل وادى نهر سيحون فى أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن التاسع عشر، فخضعت لهم ولاية "فرغانة" ثم سقطت سمرقند فى أيديهم فى عام (١٢٨٥هـ/١٨٦٨م) ولم يبق للأوزبكيين إلا نفوذ هش فى منطقة بخارى حتى عام (١٢٨٧هـ/١٨٧٠م) وفى هذا التاريخ سيطر الروس على بخارى ودخلت المنطقة كلها فى نطاق النفوذ الروسى وإن بقى للأمراء المحليين نفوذ شكلى على بعض المناطق؛ هذا النفوذ الذى انتهى بقيام الثورة البلشفية عام (١٣٣٦هـ/١٩١٧م) ثم ظهور اتحاد الجمهوريات السوفيتية فقامت فى آسيا الوسطى على إثر ذلك خمس جمهوريات فى الفترة من عام (١٣٤٣-١٣٥٥هـ/١٩٢٤- ١٩٣٦م) ثلاث منها كانت تشكل معظم بلاد ما وراء النهر التاريخية وهى: أوزبكستان، وطاجكستان، وتركمانستان، ثم جمهوريتان فى آسيا الوسطى هى: كازاخستان وقيرغزستان، هذه الجمهوريات التى ظلت تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى حتى انهار نفوذه فى عام (١٤١١هـ/١٩٩١م) فتحررت هذه الدول الإسلامية من تلك السيطرة ونالت استقلالها.

إسهامات هذا الإقليم فى الحضارة الإسلامية:

أسهم هذا الإقليم فى الحضارة الإسلامية والإنسانية إسهامًا رائعًا شمل الجانبين المادى والفكرى: ففى هذا الإقليم ازدهرت مصادر الحياة المادية: من زراعة وتجارة وصناعة، كما ازدهرت الحياة الثقافية والفكرية ازدهارًا رائعًا، وأشعت بنور معارفها على أقطار العالم الإسلامى إلى ما هو أرحب وأوسع من بقاع العالم الأخرى.

ففى الجانب المادى ازدهرت الزراعة حيث حبا الله هذا الإقليم بشبكة من الأنهار المتدفقة ذات الروافد المتعددة فازدهرت على ضفافها المزارع والبساتين والفواكه والرياحين لدرجة أذهلت الكثيرين من جغرافيينا ورحالينا الذين زاروا هذه المنطقة كالإصطخرى والمقدسى وياقوت وابن بطوطة. فالإصطخرى يشير إلى أن سكان هذا الإقليم يملكون كل شئ بوفرة، وأنهم لا يحتاجون إلى أى سلع من الأقطار الأخرى. والمقدسى يقول عنه إنه أخصب بلاد الله وأكثرها خيرًا. ومعظمهم أشار إلى ما يحويه هذا الإقليم من منتجات زراعية مثل: القمح، والقطن، والجوز واللوز، والبندق، والسفرجل، والزعفران، والريحان، وأنواع الفواكه المتعددة كالعنب، والبطيخ، والمشمش، والتفاح. ويشير الإصطخرى وياقوت إلى أنهم كانوا يصدرون إلى الغرب الإسلامى وخاصة: العراق والشام ومصر ما يزيد عن حاجتهم من هذه المنتجات.

وإلى جانب الزراعة ازدهرت الصناعة أيضًا بفضل ما توفر فى هذا الإقليم من مواد خام وصناع مهرة فعندهم: القطن والحرير والصوف؛ ولذلك ازدهرت صناعة النسيج فى بخارى وسمرقند واشتهرت بعض بلدان هذا الإقليم بإنتاج المنسوجات المتناهية فى الرقة ومنها إقليم الشاش. كما يتوفر فى هذا الإقليم من المعادن: الذهب والفضة والحديد والنحاس والزئبق، ولذلك ازدهرت صناعة الأسلحة والآلات المعدنية فى إقليم "فرغانة" وازدهرت صناعة الورق بصفة خاصة فى سمرقند وكان لازدهار هذه الصناعة أثرها الخطير فى انتشار الثقافة والمعرفة على أوسع نطاق فى العالم الإسلامى. كما ازدهرت صناعة الصابون فى مدينة "ترمذ"، ويشير بعض الرحالة إلى أن صناعات هذا الإقليم فاقت مثيلاتها الصينية فى الجودة إلى حد كبير.



التجارة الخارجية والداخلية:

نشطت التجارة بنوعيها بفضل وقوع هذا الإقليم على طريق الحرير الذى يبدأ من الصين، وينتهى عند سواحل البحر الأسود مرورًا بإقليم ما وراء النهر وبمعظم البلدان فى غربى العالم الإسلامى، ولذلك أصبحت مدينة سمرقند مركز تجمع هام للتجار الوافدين عليها من الهند والصين حاملين معهم النفيس والطريف من الحرير والمسك والخزف والأحجار الكريمة والعطور.. تلك الطرائف التى كان يعاد تصديرها إلى أنحاء العالم الإسلامى وأوروبا. كذلك اشتهرت تجارة الصادرات بين بخارى والعراق فكان يصل إلى العراق منها: البسط، والثياب، والجلود، والأوانى النحاسية. كما كانت بخارى سوقًا رئيسة تعرض فيها: البضائع الصينية، ومنتجات آسيا الصغرى ثم يعاد تصديرها إلى البلاد الأخرى.

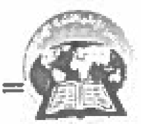
ويشير النرشخى فى كتابه: تاريخ بخارى إلى أن بخارى كان بها بيت للطراز حتى عصر النرشخى (٣٤٨هـ/٩٥٩م) وكان بها دار صناعة تنسج بها البسط والسرادقات وأنواع من الأقمشة الفاخرة من أجل الخليفة وأنه كان يأتى فى كل عام عامل من قبل الخلافة يأخذ من هذه المنتجات ما يقابل ما تدفعه بخارى من خراجها لدار الخلافة. وكان التجار يأتون من الولايات الإسلامية المختلفة فيحملون من تلك الثياب ما يصدرونه إلى مصر والشام وبلاد الروم، ولم يكن هناك صاحب منصب ليس عنده شئ منها.

أما الحياة العلمية والثقافية فى هذا الإقليم فكان رواد نهضتها الأولون أمراء الدولة الطاهرية، فهم الذين أشاعوا روح الحياة الثقافية فى الإقليم عندما كان خاضعًا لنفوذهم. وقد سار خلفاؤهم السامانيون على دربهم لكن بخطى أوسع، فانتشرت المدارس انتشارًا كبيرًا وبخاصة فى بخارى وسمرقند. واستطاعت هذه المدارس أن تؤدى دورها على خير وجه بفضل العلماء الذين وفدوا على هذا الإقليم من أنحاء العالم الإسلامى فى العهد السامانى، بالإضافة إلى جهود السامانيين فى توفير الإمكانات اللازمة لهذه المدارس، ورعايتهم للعلماء، وتوقيرهم، وتوفير المكتبات العامة والخاصة فلعبت هذه المدارس بفضل هذه الإمكانات دورًا رائعًا فى نشر العلم وانتشار الإسلام.

وقد تميز العهد التيمورى بظهور حضارة إسلامية مزدهرة فى هذا الإقليم لم تعرف لها الشعوب الإسلامية مثيلاً إلا فى بغداد والأندلس فى عصر ازدهار النهضة الإسلامية. لقد اهتم التيموريون بحركة العلوم والآداب والفنون والعمارة، ولعل هذا كان بمثابة رد اعتبار لهذا الإقليم الذى شهد تدميرًا لحضارته على يد غزاة المغول فلم يتيسر لبخارى وسمرقند أن تستعيدا دورهما الثقافى والحضارى إلا فى العهد التيمورى.

ومن ثم لم يكن غريبًا أن نجد هذا الإقليم يقدم للعالم الإسلامى بل للحضارة الإنسانية عامة أفذاذ العلماء فى علوم القرآن والسنة والفقه وعلم الكلام والفلسفة والتصوف والطب والرياضيات والفلك والموسيقى . ومن نماذج هؤلاء العلماء: الإمام أبو حفص البخارى شيخ المحدث الكبير أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، وأبو بكر القفال أبرز فقهاء الشافعية فى هذا الإقليم، والإمام النسفى صاحب كتاب: العقائد النسفية وغيرها وأبو منصور: محمد بن محمد الماتريدى مؤسس مذهب الماتريدية فى علم الكلام وهو أحد أقطاب الفكر السنى وكان معاصرًا للأشعرى فى العراق، وكلا المذهبين يشكلان مذهب أهل السنة والجماعة والإمام البخارى أبو عبد الله محمد بن إسماعيل إمام أهل الحديث، ولد بمدينة بخارى من أب محدث، قضى ستة عشر عامًا متنقلا بين المراكز العلمية فى العالم الإسلامى، فزار العراق والشام ومصر والحجاز وجمع كتابه: الصحيح فى ست عشرة سنة بمنهج جديد حاول أن يركز على جمع الأحاديث الصحيحة، ولذا يعتبر هو الواضع الحقيقى لأسس علم مصطلح الحديث، وكتابه الجامع هو العمدة حتى الآن فيما يتعلق بأحاديث رسول الله ﷺ فى جميع أنحاء العالم الإسلامى. وكذلك أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى ولد ضريرًا فى مدينة "ترمذ" لكنه نبغ فى علم الحديث بعد أن تتلمذ على يد الإمام أحمد بن حنبل. وكتابه "السنن" أحد كتب الصحاح الستة المشهورة.

وهناك فى العلوم العقلية يأتى الفارابى أبو نصر محمد، نسبه إلى مدينة فاراب فى حوض نهر سيحون وهو فيلسوف مشهور شرح كتب أرسطو فلقب بالمعلم الثانى وله مؤلفات كثيرة من أهمها: "المدينة الفاضلة" وإحصاء العلوم وله



كتاب "الموسيقى الكبير" الذى يعد أهم مؤلف عربى فى علم الموسيقى وقد ترجم إلى الفرنسية فى العصر الحديث إلى جانب كثير من مؤلفاته التى ترجمت إلى اللغة اللاتينية فى العصور الوسطى.

ويأتى أبو على الحسين بن سينا أشهر أطباء العالم فى العصور الوسطى وهو فيلسوف أيضًا ولد فى قرية من أعمال بخارى. درس العلوم الشرعية والعقلية، وأصبح حجة فى الطب والرياضة والفلك والفلسفة. وقد عاصر الدولة السامانية وتوفى فى همذان، وتجاوزت مصنفاته المائتين من أهمها: الشفاء، والنجاه، والإشارات والتنبيهات، والقانون فى الطب وإلى هذا الكتاب ترجع شهرة ابن سينا فى العالم كله. فقد ترجم إلى اللاتينية فى العصور الوسطى وظل العمدة فى تدريس الطب فى أوروبا حتى القرن السادس عشر.

ومن علماء هذا الإقليم أيضًا: أبو العباس أحمد الفرغانى نسبة إلى إقليم "فرغانة" على حوض نهر سيحون. عاش فى عصر المأمون ويُعَدُّ من أكبر علماء زمانه فى علم الفلك له كتاب "الحركات السماوية" وجوامع علم النجوم الذى ترجم إلى اللاتينية وكان له أثره فى نهضة علم الفلك بأوروبا. وقد قام الفرغانى بتعيين أبعاد وأقطار الكواكب وأشرف على تركيب مقياس النيل بالفسطاط فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

د / عبد المجيد أبو الفتوح بدوى

مصادر ومراجع للاستزادة:

أولاً: المصادر:

- الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق.
- الإصطخرى: المسالك والممالك.
- البلاذرى: فتوح البلدان.
- ابن حوقل : صورة الأرض.
- الحسينى: أخبار الدولة السلجوقية.
- العماد الأصفهانى: تاريخ آل سلجوق.
- القزوينى: أثار البلاد وأخبار العباد.
- المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم.
- النرشخى: تاريخ بخارى.
- ياقوت: معجم البلدان.

ثانيًا: المراجع:

- أرمنيوس فامبرى: تاريخ بخارى.
- بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى.
- التركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى.
- حسن أحمد محمود: الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين: العربى والتركى.

بلاط الشهداء

تعد موقعة بلاط الشهداء التى انهزمت فيها جيوش المسلمين أمام الفرنجة فى أواخر شعبان سنة ١١٤هـ/ أكتوبر ٧٣٢م، إحدى مراحل الفتوحات الإسلامية التى بدأت فى عهد الخليفة الراشد أبى بكر الصديق، بدافع من مبدأ الجهاد، لنشر الدين الإسلامى، على أسس من العدالة الإنسانية، فقد كان المسلمون المجاهدون يخيرون أهالى الأقطار التى يفتحونها بين الإسلام [1] أو الجزية أو القتال، فى عصور لم يعرف من تسيدوا فيها من قبل كالفرس والرومان ومن بعدهم روم بيزنطة، إلا مفاهيم التسيد والتسلط واستعباد الشعوب.

وكان المسلمون قد نجحوا بعد فتح العراق فى القضاء على الكسروية الفارسية، ومحوها من الوجود، وهى إحدى أعظم قوتين كانتا تتحكمان فى العالم وقت بزوغ فجر الإسلام، فى حين نجحوا فى انتزاع أهم الولايات التابعة للإمبراطورية البيزنطية، التى مثلت القوة العظمى الثانية فى العالم ، حيث جاء فتح الشام بمثابة الضربة الأولى لهذه الإمبراطورية، ثم حرص المسلمون بعد ذلك على فتح مصر لتأمين فتوحاتهم فى الشام. وكان فتح مصر بمثابة الضربة الثانية للبيزنطيين فقد كانت مصر بمثابة سلة الغلال للعالم القديم.

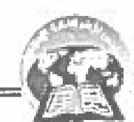
وواصل المسلمون فى أعقاب فتحهم لمصر، حركة الفتوحات بفتحهم لكل من برقة وطرابلس [2]، فى عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، لنفس الدافع وهو تأمين فتوحاتهم فى مصر [3]. واستمر اتجاه الفاتحين غربًا فى عصر الخليفة عثمان بن عفان، ثالث الراشدين إلى أن تم فتح بلاد المغرب بأكملها فى العصر الأموى، بل إنهم واصلوا مسيرة الجهاد فى هذا العصر فنجحوا فى فتح الأندلس فى عام ٩٢هـ/٧١٠م فى عهد الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك [4].

وتقدم بعض النظريات التاريخية رأيًا مفاده، أن إمعان المسلمين فى التوجه بفتوحاتهم باتجاه الغرب، إنما كان يهدف إلى تطويق القسطنطينية من الغرب [5]، حيث كانت المحاولات الإسلامية لفتح هذه المدينة من الشرق قد بدأت منذ عصر الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان.

وسواء صح هذا التفسير والتحليل التاريخى، خاصة بعد أن امتدت النشاطات الجهادية الإسلامية باتجاه بلاد الغال، أم لم يصح باعتبار أن المسلمين لم يهملوا أيضًا الفتوحات بالاتجاه الشرقى، حيث وصلوا إلى حدود أرمينية وآذربيجان فى عصر الخليفة عثمان، واتسعت حدود الإمبراطورية الإسلامية لتصل إلى الصين شرقًا وحدود شبه القارة الهندية جنوبًا فى العصر الأموى، فإن ما يهم ذكره، أن موقعة بلاط الشهداء التى جرت وقائعها وأحداثها جنوبى باريس بين مدينتى تور وبواتييه إنما تعد إحدى أهم المراحل النهائية لحركة الفتوحات الإسلامية الغربية.

وقد استفتح الوالى الأموى الحر بن عبد الرحمن الثقفى الذى تولى على الأندلس فى سنة ٩٧هـ/٧١٥م فتوحات المسلمين من الأندلس باتجاه جنوب غالة[٦]، ووصل إلى أربونة، إحدى أهم مدن ولاية سبتمانيا .

ولم يتابع الحُر، الفتح فى غالة لتمرد البشكنس فى شمال أسبانيا مما اضطره إلى العودة السريعة للأندلس من ناحية، ولعزله بعد هذه المحاولة الجهادية من ناحية أخرى. وعيّن الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز، السمح بن مالك الخولانى على الأندلس فى عام ١٠٠هـ/٦١٨م وتابع السمح الفتوحات فى بلاد الغال، فعاود مهاجمة أربونة وجعلها قاعدة لعملياته الحربية فى هذه البلاد، كما فتح عددًا من المدن أهمها بيزيه وماجلون وقرقشونه فى ولاية سبتمانيا، وحاصر طولونية فى أكيتانيا. ولكن السمح أصيب فى معركة بالقرب من طولوشة فى منطقة طرسونة أو طرسكونة Tarascone بطعنة قضت عليه، واستشهد فى يوم عرفة من عام ١٠٢هـ/٧٢١م، مما أسفر عن ارتداد المسلمين عن هذه المنطقة إلى سبتمانيا[٧]، ولكنهم على الرغم من استشهاد قائدهم فإنهم تمكنوا من الاحتفاظ بأربونة. وتمثل موقعة طرسونة بالقرب من طولوشة أول انتكاسة للمسلمين فى بلاد الغال[٨]. وتأتى بعد ذلك محاولات الوالى عنبسة بن سحيم الكلبى[٩] فى مواصلة حركة الفتوحات الإسلامية فى غالة[١٠]، وقد سار فى اتجاه جديد على الساحل حتى وصل إلى نهر ردونه Rhodonus (الرون) . واسترجع المدن التى ثارت على السلطة الإسلامية، وفتح قرقشونة وصالح أهلها الذين تعهدوا بدفع الجزية ورد أسرى المسلمين . ثم زحف عنبسة بعد ذلك حتى وصل إلى مقاطعات نيم وبوى puy



وكليرمونت Clermont، وواصل السير حتى وصل إلى نهر الساءون ودخل إقليم برجنديا، واستولى على أوتون Autun فى عام ١١٢هـ/٧٣٠م، وتابع سيره حتى وصل إلى مدينتى أوزه Uyes وشالون Challon،. ووصلت الجيوش الإسلامية حتى نهر اللوار ومن بعدها اقتربوا من بلدة سانس جنوبى باريس وعلى بعد ٣٠ كلم منها[١١]. واكتفى عنبسة بما وصل إليه المسلمون فى هذه المرحلة من الفتوحات وقرر العودة إلى الأندلس خاصة بعد اندلاع الخلافات هناك بين العرب والبربر، ولكنه هوجم فى إحدى ممرات البرانس الجبلية مما أسفر عن استشهاده فى شعبان من ١٠٧هـ/٧٢٥م. وكان عنبسة قد تجنب مهاجمة أكيتانيا، لصداقته لحاكمها الدوق أودو الذى كان على خلاف مع شارل دى بين دى هرستال، حاجب ملوك الدولة الميروفنجيه، كما أن الدوق أودو كان قد صاهر أحد أبرز القادة المسلمين وهو مونوسة البربرى الذى تزوج من ابنته منين Minine[١٢].

وتولى على حكم الأندلس بعد استشهاد عنبسة، الوالى عُذْرة بن عبد الله الفهرى، وإليه تنسب أعمال العنف والتدمير التى لحقت ببعض كنائس إقليم ليون وبورجونى مثل كنيسة فيين وسان مارتان[١٣]، وأن كان فريق من الباحثين يستبعد ذلك لقصر فترة ولايته[١٤]، إذ سرعان ما عزل عن الأندلس، وتولاها بعده عدة ولاة[١٥] لم يَغْزُ أحدهم فى بلاد غالة حتى ولاية عبد الرحمن الغافقى ١١٣هـ/٧٣١م، الذى سيتولى مواصلة حركة الفتوحات فيما وراء البرانس وهو قائد موقعة بلاط الشهداء.

ظروف الأندلس عشية معركة بلاط الشهداء:

لم تكن أحوال الأندلس مستقرة عشية اندلاع معركة بلاط الشهداء؛ فقد كانت هذه البلاد فريسة للصراعات العِرْقية وللعصبيات القبلية منذ اللحظات الأولى للفتح الإسلامى لها. وقد أشارت بعض الكتابات التاريخية إلى نشوب خلاف بين كل من العرب والبربر الذين شكلوا جُل جيش طارق بن زياد بعد عبوره إلى الأندلس؛ مما أدى إلى قيامه بإحراق المراكب التى عبروا فيها جميعًا، لإجبار كليهما، أى العرب والبربر، على الجهاد ومواجهة العدو الإسبانى[١٦]. كما شهدت بدايات عصر الولاة حادثة اغتيال سياسى كبيرة ألقت بظلالها على الأوضاع السياسية بالأندلس، وهى التى

قتل خلالها القائد عبد العزيز بن موسى ابن نصير فاتح شرق الأندلس فى عام ٩٨هـ/٧١٦م على يد كبار قادة المسلمين ومن بينهم ابن عمته القائد أيوب بن حبيب اللَّخْمى، وكذلك القائد حبيب بن أبى عبيدة، وزياد بن عذرة البلوى، لاتهامه بالتنصر[١٧] من جهة ولشك هؤلاء القادة فى نوايا عبد العزيز بالاستقلال والانفصال عن الخلافة الأموية من جهة أخرى[١٨].

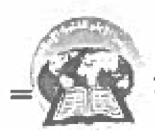
وقد واكب هذه الأحداث، بداية ظهور حالة من التطاحن بين العرب اليمنية، والقيسية، فضلاً عن ظهور إرهاصات تمرد حل بالبربر بالأندلس، الذين تصوروا أن العرب قد اختصوا أنفسهم فى أعقاب الفتح، بالأماكن الخصبة فى الجنوب الأندلسى فاستقروا بها وبدأوا يكونون ما يشبه الأرستقراطية العربية هناك، فى حين أقصوا البربر فى المناطق الشمالية الجبلية الوعرة مما أثار إحساسهم بالظلم، وكان ذلك صدى وامتدادًا لشعور بربر المغرب بعدم المساواة مما أسفر عن قيامهم بالثورات بالشمال الإفريقى[١٩].

وسوف تتطور هذه الصراعات سواء بين العرب اليمنية والقيسية أو بين العرب والبربر فى أعقاب موقعة بلاط الشهداء لا سيما فى الفترة الزمنية الممتدة ما بين عامى ١٣١ إلى ١٣٦هـ/٧٤٨- ٧٥٣م.

وقد شهدت أيام معركة بلاط الشهداء نفسها، والتى امتدت إلى ثمانية أيام، بعض المظاهر التى تجسدت خلالها نماذج من هذه الصراعات المختلفة، حيث كان جيش المسلمين فى هذه المعركة يتألف من أعداد هائلة من العرب اليمنية والقيسية التى مزقتهم العصبية القبلية، فضلاً عما روته بعض الكتابات التاريخية من قيام الغافقى، بقتل مونوسة البربرى عامل شرطانية cerdana، وزوج ابنة دوق أكيتانيا، مما أسفر عن غضب البربر الذين شكلوا الغالبية العظمى من جيش عبد الرحمن، إلى جانب سريان حالة من الغضب الشديد فى نفس الدوق أودو صهر مونوسة[٢٠].

وقائع المعركة وتفاصيلها:

مقدمات المعركة: واجه عبد الرحمن الغافقى حالة الغضب العارم التى أصابت الدوق أودو، دوق أكيتانيا، الذى أعد جيشًا لمواجهة المسلمين، والتقى الجيشان فى معركة شرسة بعد تدفق جيوش المسلمين على ولايته، وأسفر هذا اللقاء عن هزيمة الدوق أودو فى معركة بين نهرى الجاروت والدوردون، وسرعان ما



تناسى هذا الدوق خلافاته السياسية مع شارل مارتل، وأرسل إليه يستغيث به ويستمده ويطلب العون العسكرى منه. واستجاب شارل مارتل لندائه بسرعة، فأنهى حروبه مع الفريزيين والسكسون، والبافاريين، واستعان باللمبارديين فى إيطاليا، وحشد حشدًا كبيرًا من الفرنج وتوجه به إلى حيث وصل عبد الرحمن الغافقى وجيشه الإسلامى.

موضع المعركة:

جرت أحداث المعركة فى سهل يقع إلى الشمال من مدينة بواتييه، بينها وبين مدينة تور، على الطريق الرومانى القديم.

وهذا الموضع قريب مما يطلق عليه اليوم : Moussais la bataille

وقد عرفت هذه المعركة فى التاريخ الإسلامى ببلاط الشهداء، حيث كان الطريق الرومانى الذى جرت فيه المعركة مرصوفًا بالبلاطات، فى حين أن مسمى الشهداء إنما يرجع لكثرة القتلى من جند المسلمين[٢١].

تفاصيل المعركة:

اقتحم عبد الرحمن الغافقى بلادًا تختلف كثيرًا عن الأندلس مناخًا وسكانًا. وكان قد توجه إلى دوقية أكيتانيا بهدف الاستيلاء على عاصمتها برديل، ونجح فى هزيمة دوقها "أودو" كما سبق أن أشرنا، مما أدى إلى تحالف أودو مع شارل مارتل الذى توجه بالفعل لمواجهة جيوش المسلمين فى سهل بواتييه.

ولم يكن شارل مارتل وحده الذى عزم على صد المد الإسلامى، وإنما قامت جميع إمارات غالة بالتكتل والتجمع معًا بهدف إحباط وصد ومقاومة الفتح الإسلامى.

وفى هذه الأثناء كان المسلمون يثقلون كواهلهم بما غنموه من غنائم لا حصر لها، فكانوا يحملونها معهم أينما حلوا، مما حولها فى حقيقة الأمر إلى عبء كبير عليهم، وكانت رغبتهم فى حمايتها أحد أهم أسباب هزيمتهم فى هذه المعركة.

وقد وقع اللقاء بين الجيوش الإسلامية والفرنجية فى أواخر شهر شعبان ١١٤هـ/٧٣٢م. وبدأت المعركة فى أول يومين على هيئة مناوشات خفيفة ثم سرعان ما تحولت إلى صدام مميت. ورغم اختلاف المناخ ونوعية الأسلحة، والمدارس القتالية المتبعة لدى كل من المسلمين والفرنجة، إلا أن كفة المسلمين قد رجحت فى بداية المعركة، حتى قام الدوق أودو الذى كان يتفهم نفسية

الجنود المسلمين تمامًا من حيث الحرص على الغنائم، قام بالالتفاف مع فرقة من جيشه لمهاجمة مؤخرة الجيش الإسلامى حيث يحتفظ المسلمون بغنائمهم. وعلى الرغم من إصدار الغافقى أوامر لجنده بعدم الاهتمام بالغنائم والالتفات إليها، فقد تراجع المسلمون لحمايتها، مما أخَلَّ بنظام الجيش.

ولما أدرك الغافقى خطورة الموقف، حاول إعادة تنظيم الجيش، ولكنه أصيب بسهم قاتل، استشهد على أثره، مما تسبب فى اضطراب الجيش الإسلامى، وارتباك صفوف المسلمين، فراح الفرنجة يحصدون أرواحهم حصدًا حتى حل الليل، فاحتمى المسلمون بالظلام وأخذوا ينسحبون تاركين معسكراتهم وغنائمهم، حتى وصلوا إلى أربونة فى سبتمانيا، مدمرين فى طريقهم ما صادفوه من كنائس وأديرة.

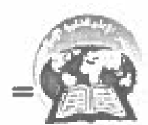
وعندما حل الصباح، أراد الفرنجة مطاردة المسلمين المنسحبين، ولكنهم خشوا أن يكون فى انسحابهم خدعة، فاكتفوا بما حققوه من نصر وتراجعوا إلى الشمال[٢٢].

وتقهقر المسلمون بعد هزيمتهم فى بلاط الشهداء، من بروفانس إلى أربونة وتمركزوا فيها. وانشغل شارل مارتل بعد هذه المعركة بإخضاع الفريزون أهل الراين الأدنى. وحاول المسلمون مهاجمة إقليم بروفانس ونجحوا فى ذلك كما قاموا بسلسلة من الغارات على المناطق الجنوبية من بلاد غالة. ولكن انهماكهم فى القضاء على ثورة البربر التى اندلعت فى الأندلس عاقهم عن الاستمرار فى فتوحاتهم فى غالة خاصة بعد أن تحطمت معنوياتهم فى أعقاب هزيمة بلاط الشهداء.

وتجددت اشتباكات المسلمين مع الفرنجة فى عهد شارلمان وولده لونس، ولكن نفوذهم أخذ ينحسر شيئًا فشيئًا فى هذه البلاد، واقتصرت جهودهم بمرور الوقت فى عصر الإمارة الأموية (١٣٨ - ٣١٦هـ/٧٥٥ - ٩٢٨م) على الإغارة على أربونة وما يليها.

ورغم جميع المحاولات الإسلامية لاسترداد ما فقدوه فى غالة، وخاصة مدينة أربونة[٢٣]، فقد امتنعت عليهم، واستعصت، ولم تمض فترة قصيرة حتى انقطعت هذه الغزوات تمامًا.

أ. د / سحر عبد العزيز سالم



الهوامش:

(١) السيد عبد العزيز سالم؛ تاريخ الدولة العربية، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٩، ص ١٨٨.

(٢) عن مراحل فتح العرب لبلاد المغرب ارجع إلى (ابن أبى دينار القيروانى، المؤنس فى تاريخ إفريقية وتونس، تونس، ١٢٨٦هـ، جـ١ ص٢٢ وما يليها- ابن عذارى المراكشى، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، نشره الأستاذ ليفى بروفنسال وكولان، ليدن، ١٩٤٨، جـ١، ص٨ وما يليها- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ٢٠١١، ص٥٥ وما يليها)..

(٣) وعن فتح العرب لبرقة وطرابلس على وجه التحديد ارجع إلى (ابن عبد الحكم، فتوح إفريقية والأندلس، نشره مع الترجمة الفرنسية البيرجاتو، تحت عنوان conquete De l'Afrique du nord de l'Espagne، الجزائر، ١٩٤٧، ص٣٤ وما يليها- البلاذرى، فتوح البلدان، نشر صلاح المنجد، لقاهرة، ١٩٥٦، ص ٢٦٣ وما يليها –أبو عبيد الله البكرى، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دى سلان ، الجزائر، ١٩١١، ص٤ وما يليها- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، طبعة بولاق، ١٢٩٠، جـ٣، ص١٠ وما يليها).

(٤) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الإسكندرية بدون تاريخ، ص١٣٤.

(٥) عن هذا الرأى ارجع إلى (أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ٢٠٠٥م، ص٣٥، ٥٣).

(٦) انقسمت بلاد غالة أو فرنسا الحالية عقب سقوط الامبراطورية الرومانية إلى عدة ولايات، من أهمها ولاية سبتمانيا التى اشتملت على سبعة مدن هى أربونة Narbonne ونيمة Nimes، وآجد Agde، وبيزييه Beziers، ولوديف Lodeve ، وقرقشونة corcassonne، ومجلون Maguelone . وهناك دوقية أكيتانيا التى كانت تقع إلى الشمال الغربى من سبتمانيا وكانت عاصمتها مدينة برديه Bordeau.

أما إقليم بروفانس فكان يقع إلى الشمال الشرقى من سبتمانيا وكانت عاصمته مدينة أبنيون Avignon ، وأما إقليم برغندية فكانت عاصمته لودون أو ليون، فى حين خضعت المنطقة الممتدة شمال نهر اللوار حتى ألمانيا الحالية، للدولة الميروفنجية (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم، ص ١٣٧).

(٧) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، نشر كوديره ، مدريد ١٨٩١، ترجمة رقم ٥٨٤- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٣٨و Codera, Narbona, Geronay Barcelona, bajo la dominacion Musulmana, en Estudios Criticos de la historia arabe espanole, VIll, Madrid, 1917, p 307.

(٨) منى حسن محمود، المسلمون فى الأندلس وعلاقاتهم بالفرنجة (٩٢- ٢٠٦هـ/ ٧١٤- ٨١٥م)، دار الفكر العربى القاهرة، ص ١٤٤.

(٩) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص١٣٩، ١٤٠.

(١٠) تولى عبد الرحمن الغافقى قيادة جند المسلمين بعد استشهاد السمح، وانسحب بهم إلى الأندلس التى تولى حكمها لعدة أشهر، وسرعان ما عزل عن ولايته لها ليتولاها عنبسة بن سحيم الذى تابع حركة الفتوحات.

(١١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص ١٣٨.

(١٢) تختلف الروايات التاريخية حول شخصية مونوسة البربرى حيث يرى بعض المستشرقين أن اسم مونوسة محرفٌ من عثمان بن أبى نسعة، فى حين يرى فريق آخر أن شخصية مونوسة تختلف تمامًا عن شخصية عثمان بن أبى تسعة الذى كان عربيًا لخميًا فى حين كان مونوسة بربريًا (لمزيد من التفاصيل عن هذه الشخصية ودورها التاريخى ارجع إلى شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، بدون تاريخ، ص ٨٩ –حسين مؤنس، فجر الأندلس، القاهرة، ١٩٥٩، ص ٢٥٢).

(١٣) المرجع السابق، ص ٢٥٨- ٢٦٠.

(١٤) ينسب المؤرخ سيد أمير على هذه الأعمال التخريبية إلى الهيثم بن عبيد الكنانى. (سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، ترجمة عفيفى البعلبكى ، بيروت، ١٩٦٠، ص ١٤٦، وارجع كذلك إلى السيد عبد العزيز سالم،

تاريخ المسلمين، ص ١٤٠).

(١٥) وهؤلاء الولاة هم على التوالى: يحيى بن سلمة الكلبى، وحذيفة بن الأحوص، وعثمان بن أبى نسعة الخثعمى والهيثم ابن عبيد الكنانى، ومحمد بن عبد الله الأشجعى.

(١٦) أحمد مختار العبادى، فى تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٥- ٥٣.

(١٧) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، نشر دون لافونتى القنطرة، مدريد، ١٨٦٧، ص٢٠- ابن عذارى البيان، جـ٢، طبعة بيروت، ١٩٥٠، ص٣١- المقري، نفح الطيب من عصن الأندلس الطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، جـ١ ص٢٦٣.

(١٨) لمزيد من التفاصيل عن ظروف قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص١١٣ وما يليها).

(١٩) حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٨٤ وما يليها.

Levi Provencal,Historia de l,Espagne Musulmane, Leiden, 1950, vol I, P.88.

(٢٠) يذكر الأمير شكيب أرسلان نقلاً عن بعض الكتابات الغربية أن الغافقى قام بأسر الأميرة الأكتيانية زوجة مونوسة وابنة دوق أودو، وأرسلها إلى البلاط الأموى حيث ضُمت إلى حرم الخليفة مما أثار والدها الدوق أودو الذى عزم على الثأر لابنته وزوجها(شكيب أرسلان، تاريخ غزوات، ص٩٨- سيد أمير على، مختصر تاريخ العرب، ص١٤٧ وما يليها) .

(٢١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص١٤٦.

(٢٢) المرجع السابق، ص١٤٦، ١٤٧.

(٢٣) شكيب أرسلان، تاريخ غزوات العرب، ص١٠١ وما يليها. حسين مؤنس، فجر الأندلس، ص٢٧٥- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين، ص١٤٧.

مصادر ومراجع للاستزادة:

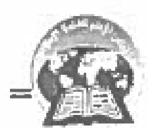
(١) السيد عبد العزيز سالم؛ تاريخ الدولة العربية، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٩م.

(٢) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، الإسكندرية بدون تاريخ .

(٣) ابن الفرضى، تاريخ علماء الأندلس، نشر كوديره ، مدريد ١٨٩١م،

(٤) منى حسن محمود، المسلمون فى الأندلس وعلاقاتهم بالفرنجة (٩٢- ٢٠٦هـ/ ٧١٤- ٨١٥م)، دار الفكر العربى القاهرة.

(٥) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس، نشر دون لافونتى القنطرة، مدريد، ١٨٦٧م .



البنجاب (إقليم)

تاريخ إقليم البنجاب عبر العصور

كلمة " بنجاب" مركبة من كلمتى "بنج" أى خمسة ،و"آب" أى نهر،وتعنى إقليم الأنهار الخمسة ، وهذا الإقليم يقع بين الأنهار الخمسة المعروفة وهى "ستلج"، و"بياس"، "وراوى"، و" جناب"، وجهلموبين فى منطقة السند التابعة لباكستان الحالية. والبنجاب إقليم شاسع، اختلفت حدوده الطبيعية باختلاف الأزمنة، وحاليًا يقع جزؤه الغربى جهة البنجاب الباكستانية، أما الجزء الشمالى من هذا الإقليم فينقسم إلى ثلاث جهات هندية ألا وهى صوبى " هماجل برديش"، و"بنجاب"، و"هريانه". فإقليم البنجاب أرض مقسمة بين دولتى الباكستان والهند، ومساحة الإقليم العامة ٢٥٧٧٢٣كم٢، منها ٢٠٧٤٢٠كم٢ فى الباكستان والباقى ٥٠٣٠٣كم٢ يتبع الهند.

وتجدر الإشارة إلى أن هناك اختلافًا كبيرًا حول حدود هذا الإقليم ووجه تسميته فيما قبل التاريخ وفى عصر التاريخ الإسلامى، وتشير المصادر المعاصرة للدولة الغزنوية وسلطنة دهلى إلى أن المناطق المختلفة لصوبه بنجاب كانت تعرف بمدنها المعروفة ولا تطلق عليها كلمة "بنجاب" مع أنها كانت تنتمى إلى الأخيرة، ومنها على سبيل المثال "سرهند"، و"جالندهر"، "ولاهور"، "وديبالبور"، و"ملتان" [١]. وفى نهاية عصر سلطنة دهلى ومنذ بداية تأسيس الدولة المغولية كان يطلق على هذا الإقليم كلمتا صوبى" ملتان "ولاهور"، ولكن بدأ ينتشر اسم " البنجاب" منذ عهد السلطان أكبر؛ فعلى حسب تقرير المحرر والمؤرخ الدربارى أطلق السلطان أكبر على هذا الإقليم " منطقة دوآب" ومنحه أسماء عديدة وهى:

١ـ بيت (بست) جالندهر دوآب وهى: الأراضى الواقعة بين نهرى " بياسو"ستلج".

٢ـ بارى دوآب وهى : الأراضى الواقعة بين نهرى " راوى" و"بياس".

٣ـ رجنا دوآب: وهى الأراضى الواقعة بين نهرى"راوى"و"جناب".

٤ـ جنهت (= جج) دوآب: وهى الأراضى الواقعة بين نهرى" جناب"، و"جهلم".

٥ـ سنده ساكر دوآب : وهى الأراضى الواقعة بين نهر: جهلم"، ومنطقة السند[٢].

وقد استمر هذا التقسيم إلى نهاية الدولة المغولية ثم جاء الاستعمار الإنجليزى فقسمه إلى :

١- انباله: (ابناله ، شمله ، حصار، رهتك، كرنال، كوركانوه).

٢- جالندهر: (جالندهر، هوشيار بور، كانكره بور ، لدهيانه).

٣- لاهور : (لاهور، شيخوبوره، كوجرانواله، سيالكوت، كورداسبور).

٤- ملتان : (ملتان، ساهيوال، لائل بور، جنهك، مظفر كره ،ديره غازى خان).

٥- راولبندى: (راولبندى، جهلم، كجرات، سركودها، اتك، ميانوالى)[٣].

التضاريس : معظم إقليم البنجاب ذو مناخ جاف وشبه مدارى، لوقوعه بين خطى العرض ٢٧ - ٣٣ شمال خط الاستواء. والشتاء فيه قارس البرودة، خصوصًا فى المناطق الجبلية، والصيف حار جدًا، وتصل درجة الحرارة فى شهر يونيو إلى ٥٠ درجة مئوية. وتهطل الأمطار فى فصل الأمطار الموسمية منذ نهاية شهر يوليو إلى سبتمبر. غير أن الأجزاء الشمالية والوسطى من البنجاب تتلقى أمطارًا تسببها المنخفضات الوسطى القادمة من الغرب، التى تؤدى إلى هطول نحو ١٥٪ من الأمطار السنوية فى موسم الشتاء. وكمية الأمطار السنوية لا يمكن الاعتماد عليها فى الزراعة لذا اتجهت الزراعة نحو الرى.

وتتمثل مصادر الثروة الطبيعية فى البنجاب فى : التربة الخصبة، ومياه الأنهار الكبيرة واستثمارتها المتنوعة، والقليل من النفط والفحم والحجر الكلسى والجص والملح الصخرى والبوكسيت والفخار الصينى[٤].

تاريخ البنجاب القديم:

تاريخ البنجاب جزء من تاريخ وادى السند وحضارته أى حضارة" موهنجدارو" الواقعة فى منطقة السند، و"هربا" الواقعة فى منطقة البنجاب الغربية، وهى الصورة الأقدم التى بحوزتنا عن حضارة البنجاب القديمة، التى تآلفت وازدهرت فيما بين ٢٥٠٠- ١٨٠٠ق.م، وهى تمثل بواكير الحضارات الهندية التى تدل عليها آثار أكثر من ١٠٠ مدينة وقرية قديمة، وكانت تتميز بنظام مائى وزراعى متطور بجانب النظم السياسية والحضارية. وتشير المصادر إلى أن سكان هذه المنطقة جاءوا من العراق الحالية واستقروا فى هذه



المنطقة وكان يطلق عليها قوم "دراودى".

وقد مر هذا الإقليم بمراحل تاريخية كثيرة قبل التاريخ الإسلامى. ونستطيع أن نلخص أهمها فى النقاط التالية ونظرًا لضيق المكان نذكر بعض الأحداث السياسية والحضارية :

١- وصول الآرية من آسيا الوسطى إلى إقليم البنجاب والسند واستقرارها بها مع السيطرة على الأقوام القاطنة فيها، والقيام بإنشاء الإمارات المستقلة العديدة على امتداد الأنهار الخمسة وغيرها من الأنهار الهندية، من أهم هذه الإمارات المستقلة إمارة "كندهار" وكانت "تيكسلا" عاصمتها.

٢- قيام ملوك الفرس ومن أهمهم الملك فريدون الذى هاجم الهند فى عام ٧٥٠ قبل الميلاد، ثم الملك الفارسى "سائرس"، و"افراسياب"، و"دارا"، وفى عهد "داريوش الأول" (٥٤١- ٤٨٥ قبل الميلاد) أصبح إقليم البنجاب كله مع الأقاليم الهندية الأخرى جزءًا مهما فى دولة فارس.

٣- صار إقليم البنجاب عند غزوات الإسكندر الأكبر فى عام ٣٢٦ قبل الميلاد جزءًا من الممتلكات اليونانية.

٤- بعد مغادرة القوات اليونانية انضم إقليم البنجاب إلى ممتلكات الدولة المورية فى المدة بين ٣٢٤و ١٨٤ ق.م، ولعب هذا الإقليم (٢٢٧- ٣٢٦ق.م)، خصوصًا فى عهد الملك أشوكا الذى اعتنق الديانة البوذية وجعلها دينًا رسميًا للدولة المورية _ دورًا كبيرًا فى الحياة الدينية والحضارية والاجتماعية.

٥- مر هذا الإقليم بمراحل سياسية عديدة قبل قيام ملك كشمير" للتاديتا" بفتح إقليم البنجاب وإلحاقه بدولته فى القرن الثامن الميلادى، مما أدى إلى قيام دولة قوية فى القرن العاشر للميلاد فى هذا الإقليم، الذى واجه الحملات العسكرية الغزنوية التى قادها القائد محمود الغزنوى[٥].

إقليم البنجاب فى العصر الإسلامى:

لقد بدأ العصر الإسلامى فى إقليم البنجاب منذ الفتوحات الإسلامية بقيادة الفاتح محمد بن القاسم الثقفى (ت ٩٥هـ/ ٧١٣م)، ولم تتجاوز الفتوحات فى عصر الدولة العربية (٢٢- ٣٩٦هـ/٦٤٢- ١٠١٠م) إقليم الملتان فى الشرق، و"بنج ند" فى الشمال. وقد دخل المسلمون بصورة كاملة إقليم البنجاب فى عصر الدولة الغزنوية التى قضت على الدولة العربية بصورة كاملة بين عامى

(٢٩٦- ٤١٦هـ/ ١٠٠٥- ١٠٢٥م)، واستطاعت الدولة الغزنوية القضاء على القرامطة والباطنية كما قضت على الدولة السنية الحاكمة فى المناطق الباكستانية آنذاك، وسرعان ما تم إلحاق هذه المنطقة بالإدارة الغزنوية ذات الجذور الفارسية. وقد تمخض عن هذه التطورات السياسية والعسكرية سقوط الدولة العربية وانقراضها من بلاد السند والملتان، مما أدى إلى تغيير مسار الحياة السياسية والحضارية والثقافية برمتها.

وقد تمكن السلطان محمود الغزنوى من إلحاق إقليم البنجاب بدولته فى عام ٤١٣هـ/١٠٢٢م، وجعل مدينة " لوهور أولها دور لاهور" عاصمة هذا الإقليم. وولى غلامه " أياز" على ذلك الإقليم . وفى العهود الغزنوية التالية توسعت العمليات العسكرية وضُمَّت كل من "جالندهر" و"جهلم" و"الملتان"، و"السند" إلى الدولة الغزنوية، ثم أصبحت لاهور، عاصمة إقليم البنجاب، مدينة ثقافية، واستطاعت جمع خيرة العلماء والفضلاء والصوفية الذين لعبوا دورًا كبيرًا فى نشر الثقافة الإسلامية ذات الجذور الفارسية[٦].

وقام السلطان معز الدين بن سام (شهاب الدين محمد الغورى) بفتح لاهور فى عام ٥٨٢هـ/١١٨٦م). فنقل حكم إقليم البنجاب من يد الدولة الغزنوية إلى الدولة الغورية (٤٠٥- ٦١٢هـ/ ١٠١٤- ١٢١٥م). ولما تولى السلطان أيبك نائب السلطان محمد الغورى فى عام ٦٠٢هـ / ١٢٠٦م ، مؤسس سلطنة دهلى، مقاليد حكم الهند ، نقل الإدارة المركزية من لاهور إلى دهلى وجعلها عاصمة لسطنة دهلى (٦٠٢- ٩٣٢هـ/ ١٢٠٥- ١٥٢٦م)، ولكنه قضى معظم حياته السياسية والعسكرية فى لاهور لمواجهة أعدائه، حتى توفى فى لا هور عام ٦٠٧هـ/١٢١٠م. وقد لعب إقليم البنجاب دورًا محوريًا فى كل من عصر الدولة الخلجية (٦٨٨- ٧٢١هـ / ١٢٩٠- ١٣٢١م) والتغلقية (٧٢٠- ٨١٥هـ/ ١٣٢١- ١٤١٣م) واللودهية (٨٥٤- ٩٣٢هـ/١٤٥١- ١٥٢٦م)، وفى حياتها السياسية والعسكرية والثقافية، كما وقف هذا الإقليم فى وجه الحملات المغولية من خلال تحصين بعض المدن الاستراتيجية المهمة مثل لاهور وديبال بور، والملتان، مما دفع سلاطين دهلى إلى الاهتمام بهذا الإقليم. ومن ناحية أخرى ساعد هذا الإقليم سلاطين دهلى، خصوصًا فى عهد الدولة التغلقية، فى



القضاء على الفتن والثورات واستقرار دهلى سياسيًا واقتصاديًا، خاصة فى عهد مؤسسها غازى ملك فى عام ٨١٧هـ / ١٤١٤م[٧]،

وقد أصبح هذا الإقليم مركزًا مهمًا لتطوير الحياة الثقافية، وظهرت فيه خلال فترة سلطنة دهلى شخصيات دينية وعلمية عديدة، من أهمها : ملك عين الدين عليشه كوه جودى، وملك تاج الدين كهرامى، وملك نصير الدين كهرامى، والسيد معين الدين، وقاضى ركن الدين ومولانا ضياء الدين ، ومولانا سراج الدين، والشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى (ت ٦٦١هـ/١٢٦٢م) ، والشيخ فريد الدين مسعود شكر كنج (ت ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م) [٨] إلى غير هؤلاء.

ويعتبر عصر الدولة المغولية (٩٣٢-١٢٧٤هـ / ١٥٢٦- ١٨٥٧م) عصرًا ذهبيًا فى الازدهار الحضارى والثقافى؛ فقد وصل إقليم البنجاب بسبب اهتمام الإدارة المغولية إلى أَوْج قوته فى الزراعة والتجارة والصناعة والثقافة ، وكان النصيب الأكبر لهذا الازدهار لكل من لاهور والملتان لأنهما كانا مركزين مهمين لإدارة القنوات التجارية داخليًا وخارجيًا، وأسهم كل من بابر شاه (٨٨٨-٩٣٧هـ/١٤٨٣- ١٥٣٠م) وابنه همايون (ت ٩٦٣هـ / ١٥٥٦م) فى توطيد دعائم الدولة. ولما جلس السلطان أكبر على عرش الهند شن الحروب المتتالية ضد الإمارات المستقلة لتوحيدها فى ظل الدولة المغولية، ومنها إقليم البنجاب الذى كان منقسمًا إلى قسمين؛ يتبع القسم الأول مباشرة الإدارة المغولية، والثانى كان تابعًا للإمارات الإسلامية والهندوسية الصغيرة التى تم انضمامها إلى الدولة المغولية فى عهد السلطان أكبر الذى قضى فى لاهور عاصمة إقليم البنجاب أربعة عشر عامًا من عام ٩٩٢-١٠٠٦هـ/١٥٨٤- ١٥٩٨م، كما قضى فيها أيامه الأخيرة من حياته.

ومنذ تولية السطان أكبر (٩٦٣-١٠١٤هـ/١٥٥٥- ١٦٠٥م) أصبح إقليم البنجاب ساحة الحرب والسياسة بسبب الصدام المستمر مع الدولة الصفوية حول منطقة قندهار التى بقيت موضع نزاع وحرب بين الطرفين فى عهد كل من السلطان أكبر، وجها نكير (١٠١٤- ١٠٣٧هـ/١٦٠٥- ١٦٢٧م)) ، وشاهجهان (١٠٣٧- ١٠٦٩هـ/١٦٢٧-١٦٥٨م) وأورنك زيب عالمكير (١٠٦٩- ١١١٨هـ/١٦٥٩- ١٧٠٧م) ،

وبعد وفاة الأخير تمكنت الدولة الصفوية من السيطرة عليه نهائيًا.

وكان سلاطين الدولة المغولية يهتمون بهذا الإقليم سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا مما أدى إلى نبوغ كثير من العلماء والأدباء والشعراء والصوفية الذين قاموا بإنشاء المدارس والمؤسسات التعليمية والخانقاوات والزوايا فى هذا الإقليم، ومن أشهر هؤلاء العلماء والأدباء والشيوخ: ملا عبد الحكيم سيالكوتى، والشيخ أحمد السرهندى الملقب بمجدد الألف الثانى، وملا محمد يوسف، وملا جمال لاهورى ، ومحمد أكرم لاهورى وأبو البركات منير لاهورى، وملا صالح كنبوه، وسعد الله جنيوتى، وجندربهان برهمن، وآنندرام مخلص، وارسته سيالكوتى، وغنيمت كنجاهى، وآفرين لاهورى، وعبد الحكيم حاكم لاهورى وغيرهم.

هذا؛ وقد عمت الفوضى العارمة بعد وفاة السلطان أورنك زيب عالمكير رحمه الله الذى عاش طول حياته عاملا على توسيع نطاق الدولة الإسلامية قلبًا وقالبًا وكفل لغير المسلمين حريتهم الدينية والعقائدية، ولكن بسبب عدم وجود الكوادر المؤهلة دب فى الدولة الضعف والهوان مما أدى إلى تفكيكها سياسيًا وعسكريًا، ودفع الطائفة السيخية الموجودة فى إقليم البنجاب إلى القضاء على الإدارة الإسلامية والثقافة الإسلامية حتى استطاعت تأسيس الدولة السيخية تحت زعامة الزعيم رانجيت سينكه فى عام ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م وهى التى استمرت إلى عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م بعد قيام الإنجليز بالسيطرة عليها حيث تكالبوا على استعمار القارة الهندية منذ أمد بعيد فبدأوا ببسط سيطرتهم على المناطق الهندية واحدة تلو الأخرى، حتى نجحوا فى إخضاع إقليم البنجاب لاستعمار الدولة البريطانية عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م.

وقد لعب هذا الإقليم خلال فترة الاستعمار الإنجليزى دورًا كبيرًا فى توحيد المسلمين والهندوس تحت مظلة واحدة ضد الاستعمار ، وفى عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، نالت شبه القارة الهندية استقلالها، ثم استقلت الباكستان فى العام نفسه، مما أدى إلى تقسيم هذا الإقليم إلى قسمين، البنجاب الشرقية التابعة لدولة الهند والبنجاب الغربية التابعة لدولة الباكستان ، فكان للهند الجزء الذى يسكنه الهندوس وغالبية



السيخ، وللباكستان الجزء الذى غالبية سكانه مسلمون. وترك هذا التقسيم أقلية مسلمة (٣٥٪) فى البنجاب الشرقية وأقلية هندوسية وسيخية (٢٥٪) فى البنجاب الغربية [٩].

أ . صاحب عالم الأعظمى الندوى

الهوامش :

(١) راجع جوينى: تاريخ جهان كشاى، فى مجلدين، ط: ليدن عام ١٩٠٦م، جـ ٢، ص ١٠٨/ منهاج سراج : طبقات ناصرى ، فى مجلدين . طبع عبد الحى حبيبى، باكستان ١٩٤٩. ١٩٥٤م، ج١، ص ٤٨٤.

(٢) راجع أبا الفضل الناكورى: آئين أكبرى، أردو فدا على خان، فى مجلدين، ط، جامعة عثمانية حيدر آباد الدكن، ج٢، ص ١٠١٩.

(٣) أردو دائرة المعارف الإسلامية ، مجلدات ط٢ : زير اهتمام دانش كاه بنجاب، لاهور ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٥، كلمة "بنجاب"، ص ٦٥٠

(٤) للاستزادة راجع دائرة المعارف الإسلامية، ج ٥، كلمتى " بنجاب " ، و"باكستان ".

(٥) John Marshall: Mohenjoand the Indus Civiliztion, London 1931./V.A. Smith : The Early History of India. Oxfird 1924/Majumdar – Pusalkar: History and Culture of the Indian People, Vedic Age, London 1951/Budh Parkash: Political and Social Movment in Ancient Punjab,Delhi 1964/R.C Mookerji: Chandra Gupta Maury and his Times, Madras 1943/Rumila Thapar : Ashoka and the decline of Maurya, Oxford 1963 .

(٦) للاستزادة راجع الكتب التالية: البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/ ٩٨٢م): فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ط. مؤسسة المعارف ، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م ؛ عبد الله محمد جمال الدين: التاريخ والحضارة الإسلامية فى الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى، ط : دار الصحوة دون تاريخ ؛ محمد ناظم: السلطان محمود الغزنوى، حياته وعصره، ترجمة عبد الله سالم الزليتنى، ط: دار المدار الإسلامى ٢٠٠٧م بيروت ؛ سيد لطيف : تاريخ بنجاب مع حالات شهر لاهور ، ط : لاهور ١٨٨٨م.

(٧) للاستزادة راجع الكتب التالية : عصامى : فتوح السلاطين، تحقيق مهدى حسن ، ط: الهند ١٩٣٨م؛ ضياء الدين برنى (ت ٧٥٧هـ / ١٣٥٧م) : تاريخ فيروز شاهى، تحقيق سيد أحمد خان ، ط : الجمعية الآسيوية ، بينكال، ١٨٦٢م؛ شمس الدين أبو عبد الله المقلب بابن بطوطه : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادى التازى، ستة مجلدات، ط : أكاديمية المملكة المغربية الرباط ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

(٨) حول تراجمهم راجع عبد الحق المحدث الدهلوى: أخبار الأخبار ، ترجمة مولانا سبحان محمود ورفقائه، ط : الهند ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٩) للاستزادة راجع الكتب التالية: كنهيا لال: تاريخ بنجاب ، ط : لاهور ١٣٩٨هـ؛ مفتى غلام سرور : تاريخ مخزن بنجاب . ط : مطبع نولكشور ١٨٧٧م ؛عباد الله كيلانى : سكه عهد إسلامى مين ، ط : لاهور ١٩٤٨م؛ عبد الله جغتائى : لاهور سكهونى كى عهد مين ، ط: لاهور ١٩٦٤م ؛ هاشمى فريد آبادى : تاريخ باكستان وبهارت : ط : كراتشى ١٩٥٣م؛ محمود شيرانى: بنجاب مين أردو.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م): فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، ط . مؤسسة المعارف، بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

٢. شمس الدين أبو عبد الله الملقب بابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق عبد الهادى التازى، ستة مجلدات ، ط: أكاديمية المملكة المغربية، الرباط ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٣. عبد الله محمد جمال الدين : التاريخ والحضارة الإسلامية فى الباكستان أو السند والبنجاب إلى آخر فترة الحكم العربى، دار الصحوة دون تاريخ .

٤. محمد ناظم : السلطان محمود الغزنوى، حياته وعصره ، ترجمة عبد الله سالم الزليتنى، ط : دار المدار الإسلامى ٢٠٠٧م بيروت .

المصادر الفارسية :

١. جوينى : تاريخ جهان كشائ، فى مجلدين ، ط : ليدن عام ١٩٠٦م.

٢. منهاج سراج : طبقات ناصرى، مجلدان طبع عبد الحى حبيبى ، باكستان ١٩٤٩- ١٩٥٤م.

٣. أبو الفضل الناكورى : آئين أكبرى + أردو ترجمة فدا على خان، فى مجلدين، ط : جامعة عثمانية حيدر آباد الدكن ، ١٩٣٩م.

٤. عصامى : فتوح السلاطين ، تحقيق مهدى حسن ، ط : الهند ١٩٣٨.

٥. ضياء الدين برنى (٧٥٧هـ ١٣٥٧م) : تاريخ فيروز شاهى، تحقيق سيد أحمد خان ، ط : الجمعية الآسيوية، بنكال ، ١٨٦٢م.

المصادر والمراجع الأردية :

١. سيد لطيف : تاريخ بنجاب مع حالات شهر لاهور ، ط : لاهور ١٨٨٨م.

٢. عبد الحق المحدث الدهلوى: أخبار الأخيار، ترجمة مولانا سبحانه محمود ورفقائه، ط : الهند ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

٣. كنهيا لال : تاريخ بنجاب ، ط : لاهور ١٣٩٨هـ.

٤. مفتى غلام سرور: تاريخ مخزن بنجاب، ط : مطبع نولكشور ١٨٧٧م.

٥. عباد الله كيلانى : سكه عهد إسلامى مين، ط : لاهور ١٩٤٨م.

٦. عبد الله جغتائى: لاهور سكهون كى عهد مين، ط : لاهور ١٩٦٤م.

٧. هاشمى فريد آبادى: تاريخ باكستان وبهارت، ط : كراتشى ١٩٥٣م .

٨. محمود شيرانى : بنجاب مين أردو.

المعاجم والقواميس :

١. أردو دائرة معارف إسلامية، مجلدات ط ٣ : زير اهتمام دانش كاه بنجاب ، لاهور ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

English References:

1- John Marshall: Mohenjo-Daro and Indus Civilization, London 1931.
2- V.A. Smith: The Early History of India, Oxford 1924.
3-Majumdar-Pusalkar: History and Culture of the Indian People, Vadic Age, London 1951.
4- Budh Parkash: Political and social movement in Ancient Punjab Delhi 1964.
5- R.C . Mookerji : Chandra Gupta Maury and hks times, Madras 1943.
6- Rumila Thapar: Ashoka and the decline of Maurya, Oxford 1963.

بنو حفص

مدخل:

كانت الدولة الموحدية هى آخر الدول الكبرى التى امتد سلطانها على المغرب كله أو على جزء كبير منه، ولم تشهد المنطقة دولة كبرى مثلها حتى الآن.

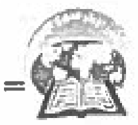
وفى أوائل القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، ومع بداية شيخوخة الدولة الموحدية بدأ فى الظهور فى المنطقة، ظاهرة قيام أسر حاكمة أو دويلات، إما بموافقة الدولة الموحدية نفسها وإما نتيجة لعوامل التدهور والضعف، وظهور تكتلات قبلية كبيرة.

والدول التى قامت فى تلك الفترة (أعنى من بدايات القرن السابع الهجرى إلى منتصفه تقريبًا) هى الدولة الحفصية فى المغرب الأدنى، والدولة الزيانية (أو دولة بنى عبد الواد) فى المغرب الأوسط، والدولة المرينية فى المغرب الأقصى، بدأ أصحاب الدولة الأولى منها كولاة للموحدين فى إفريقية، ثم سرعان ما أحسوا بقوتهم، فأعلنوا انفصالهم فى كيان سياسى مستقل، وبدأت الدولتان الأخريان كتجمعات قبلية، كلٌ فى منطقته، لكن بنى مرين كانوا أكثر تنظيمًا وتوحدًا وقوة، فمثلوا كيانًا سياسيًا متحدًا، فى حين لم تنجح الدولة الزيانية فى الابتعاد التام عن الشكل القبلى، وظلت الخلافات القبلية فيها، بالإضافة إلى عوامل أخرى، عائقًا لها عن ظهورها بمظهر مماثل للقوتين المجاورتين لها: الدولة الحفصية شرقيها، والمرينية غربيها. وقد استمرت هذه الدول إلى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، ووقعت خلالها إما تحت النفوذ العثمانى، وإما تحت الاحتلال الأسبانى. وفيما يلى كلمة موجزة عن الدولة الحفصية .

الدولة الحفصية[1]:

تنسب هذه الدولة إلى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتانى، أحد عشيرة المهدى ابن تومرت، وكانت له مكانة كبرى عند ابن تومرت كما كانت له مكانة مماثلة فى دولة عبد المؤمن بن علي، وظل لأبنائه مثل هذه المكانة فى الدولة الموحدية بعد ذلك.

وعندما تولى الناصر الموحدى وجد أن منطقة المغرب الأدنى كثيرة المشاكل، لبعدها عن مركز الدولة فى المغرب



الأقصى، فواصل إرسال الجيوش إليها لتمهيدها، ثم اضطر للتوجه إليها بنفسه مع أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص ولما هدأها ومهدها، وأقام بها سنة، رأى ضرورة إبقاء أحد رجال الدولة المهمين، من ذوى الخبرة، ومن أهل الثقة، فى الوقت نفسه، فلم يجد أحدًا أقدر على ذلك من أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص، فطلب إليه البقاء فى المغرب الأدنى لحفظه وحمايته، فأبى وامتنع؛ لأنه بذلك سيبتعد عن مركز الدولة، وموقع الأهمية فيها، باعتباره أحد أهم مشيخة الموحدين فى ذلك الوقت، فألح عليه الخليفة الناصر، وأخيرًا اضطر أبو محمد إلى الموافقة بعد شروط اشترطها على الناصر، بادر الناصر إلى الموافقة عليها جميعًا [٢] وهكذا تولى أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص ولاية إفريقية، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٦٠٣ هـ/١٢٠٧م واستمر عبد الواحد فى إفريقية حوالى خمسة عشر عامًا (رغم اشتراطه على الناصر ألا يمكث أكثر من ثلاثة أعوام) أظهر فيها مزيدًا من المهارة والكفاية، إلى أن توفى أول أيام سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م بتونس.

لقد أوجد عبد الواحد البذرة الحفصية فى إفريقية، ثم جاء بعده مؤسس الدولة الحفصية، وهو ابنه أبو زكريا يحيى وذلك فى رجب سنة ٦٢٥هـ/١٢٢٨م واليًا على الإقليم من قبل الموحدين لكنه سرعان ما مال إلى الاستقلال، واستغل فرصة الخلاف الداخلى فى الأسرة المؤمنية فى مراكش، وتصارع فردين منها هما المأمون، ويحيى بن الناصر، فوُجد خليفتان فى وقت واحد، فأسرع أبو زكريا يحيى بإسقاط بيعة المأمون، وبويع لأبى زكريا فى تونس أميرًا على إفريقية سنة ٦٢٧هـ/١٢٢٩م ثم تكررت هذه البيعة مع تأكد قوته وسيطرته على الإقليم.

ومد أبو زكريا سلطانه إلى بعض بلدان المغرب الأوسط فأخذ قسنطينة سنة ٦٢٨هـ/١٢٣٠م، فأسرع أخوه والى بجاية بالانضمام إليه، واشتهرت الدولة الحفصية، وجاءته البيعات من جهات متعددة، واستغاثت به بلنسية الأندلسية سنة ٦٣٦هـ/١٢٣٨م [٣] واستولى أبو زكريا على الجزائر فى هذه السنة أيضًا، وافتتح تلمسان سنة ٦٣٩هـ/١٢٤١م، وعين عليها صاحبها يغمراسن بن زيان.

وقوى أمر أبى زكريا، وشجعه بعض

الشعراء على التلقُّب بأمير المؤمنين (لقب الخلافة)[٤] لكنه رفض مكتفيًا بلقب (الأمير) تأدبًا مع خلفاء الدولة الموحدية الذين لم يفقدوا، وقتها، كامل قوتهم.

وهكذا أنشأ الأمير أبو زكريا يحيى للحفصيين دولة فى المغرب الأدنى، ضم إليها بعض مدن المغرب الأوسط، كما هيمن على بقية ممتلكات بنى عبد الواد فى المغرب الأوسط، حيث دان بنو عبد الواد بالطاعة للحفصيين وخطبوا لهم، وتوفى الأمير أبو زكريا أول أمراء الدولة فى سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، فكانت مدة إمارته حوالى عشرين سنة (غير الفترة التى قضاها قبلها واليا على الإقليم من قبل الموحدين).

والجدير بالذكر هنا أن بعض مؤرخى الدولة الحفصية من المعاصرين لأوائل عهدها، لم يُظْهِر نشأةَ الدولة على أنه انفصال عن الدولة الموحدية، بل على أنه اقتسامٌ لِحَقٍّ كان لبنى حفص من قديم، نالوه وقتها، فبينوا أن الكلمة الموحدية انقسمت منذ إمارة أبى زكريا قسمين: مؤمنية (فى أبناء عبد المؤمن بن على) وحفصية (فى أولاد أبى حفص عمر الهنتاتى)[٥].

ومن منظور التطور السياسى للمغرب، خطا محمد بن أبى زكريا خطوة أخرى فى سبيل توطيد الدولة وتوسيع حدودها، وتطوير شكل رئاستها، وقد تولى الإمارة بعد وفاة أبيه سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م، ووصلته عدة بيعات فى المغرب الأقصى، كما يشير مؤرخو الدولة إلى ورود بيعة أهل مكة، وهنا يطور محمد بن أبى زكريا شكل الحكم من الإمارة إلى الخلافة وتلقب بالمستنصر: "وفى يوم الإثنين الرابع والعشرين لذى الحجة من سنة خمسين وستمائة رأى المولى المستنصر الاقتصار على لفظ الأمير قصورًا فسمى بأمير المؤمنين، وأمر أن يذكر ذلك فى الخطبة ويطبع فى الذهب وفى ذلك اليوم تلقب بالمستنصر"[٦].

وتوفى المستنصر بعد أن تولى ثمانية وعشرين عاما ونصفًا تقريبًا، ومنها حوالى ستة وعشرين عاما تلقب فيها بلقب خليفة.

ومن الأحداث المهمة التى وقعت فى عهد المستنصر الحفصى، مَقْدَمُ حملة صليبية إلى تونس، يقودها الملك الفرنسى لويس التاسع، تلك الحملة التى اشتهرت باسم الحملة الصليبية الثامنة (مكملة سبع الحملات الكبرى التى وجهها الصليبيون ضد المشرق الإسلامي). وقد

اختلف المؤرخون حول سبب هذه الحملة من بين قائل إن بعض التجار الفرنسيين زعم أن أحد رجال الدولة الحفصية اقترض منهم ثلاثمائة ألف دينار، فأبى المستنصر أن يصدقهم، وردهم؛ أو أن حديثًا جرى فى حضرة المستنصر جاء ذكر الفرنسيين فيه، فقال: «هم الذين أسر هؤلاء طاغيتهم ثم أطلقوه، يشير إلى الأتراك الذين بين يديه»(٧)

. هذا السبب أو ذلك إنما هى أسباب مباشرة واهية، والحقيقة التى يمكن استخلاصها من حوادث التاريخ، ومن شخصية لويس المتعصبة جدًا دينيًا، ومن الحشود الأوربية التى استنفرت وحشدت، ومن الإمكانات المادية المقدمة، تؤكد أن هذه الحملة هى استمرار لشن حملات صليبية على المغرب، تستهدف مد النفوذ الأوربى إلى هذه المنطقة.

ويؤرخ لهذه الحملة بسنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، أى بعد حملة لويس التاسع على دمياط (٦٤٧هـ/١٢٤٩م) بثنتين وعشرين سنة.

وقد تمكن الصليبيون من النزول على شواطئ تونس فى ذى القعدة بالقرب من قرطاجنة القديمة، وتحصنوا بها، ووقف جند الحفصيين إزاءهم، ولم يتمكن الصليبيون من دخول تونس، كما لم يتمكن الحفصيون من القضاء عليهم، أو طردهم، ثم أصاب الصليبيين وباء الطاعون، ومات لويس التاسع فى المحرم سنة ٦٦٩هـ/١٢٧٠م، وجرت المفاوضات للصلح وتم الاتفاق على جلاء الصليبيين فى مقابل أن يأخذوا ١١١٠قنطار فضة خالصة، وكان نزولهم على تونس سببًا فى إتلاف الأموال التى تركها الأمير أبو زكريا.

ثم مرت الدولة الحفصية بعد المستنصر (٦٧٥هـ/١٢٧٦م) بفترة ليست بالقصيرة ترددت فيها بين القوة والضعف، فظهر النزاع والاضطراب داخل الأسرة الحاكمة، وتعدى بعضهم على بعض بالقتل أو بالخلع، وظهر من ادعى أنه من الأسرة، واستولى على الحكم حوالى سنة ونصف (فسمى بالدعي)، واختلفت الدولة بين الانقسام والعودة إلى الوحدة، حيث انقسمت قسمين أولهما شرقي، ضم ممتلكات الدولة فى المغرب الأوسط: وغربى فيما عدا ذلك.

واستغل بنو مرين الداخلين فى طاعة الحفصيين هذا الانقسام وهذا الضعف، فدخلوا تونس مسيطرين على الدول الحفصية، ودخلت الجيوش المرينية تونس

بعد أن قبضوا على الأمير أبى حفص عمر وقتلوه فى جمادى الأولى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧هـ[٨].

، ودخل أبو الحسن المرينى تونس فبايعه فى يوم واحد خمسون من الأسر الحاكمة الحفصية والزيانية وبعض الأمراء الأندلسيين. ثم اضطر أبو الحسن للعودة إلى مراكش بعد أن بلغه خبر استيلاء أبيه على السلطة هناك، وترك أبو الحسن ولده فى تونس، فانتهز الأمير الحفصى أبو العباس الفضل الفرصة، وأخرج بنى مرين منها فى آخر ذى القعدة سنة ٧٥٠هـ/١٣٥٠م، فكانت مدة السيطرة المرينية على ممتلكات الدولة الحفصية حوالى عامين ونصف.

ثم مرت الدولة بفترة من القوة بدأت فى عهد أحمد بن المستنصر (٧٧٢-٧٩٦هـ/١٣٧٠- ١٣٩٣م) ثم ولده أبى فارس عبد العزيز (٧٩٦-٨٣٣هـ/١٣٩٣- ١٤٢٩م) ثم ولده أبى عبد الله محمد المنتصر (٨٣٣-٨٣٩هـ/١٤٢٩- ١٤٣٥م) ثم ولده أبى عمرو عثمان (٨٣٩- ٨٩٣هـ/١٤٣٥-١٤٨٨م) وتمثل هذه الحقبة فترة القوة الثانية والأخيرة فى الدولة حيث آل أمر الدولة بعده إلى الضعف فالسقوط، ويمثل عهد أبى فارس عبد العزيز وحفيده أبى عمرو عثمان واسطة عقد الدولة الحفصية فالأول: «واسطة بنى أبى حفص، وإذا ذكرت خلافة الحفصيين بدونه يظهر فى خلافتهم النقص، والثانى هو «ختام الدولة الحفصية: ونظام المحاسن الفاخرة فى البلاد الإفريقية»، واستمرت الدولة بعد هذه فترة قصيرة بقوة الدفعة، إلى أن انتهى عهد الأمير أبى عبد الله محمد الحسن حفيد أبى عمرو عثمان سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٥م، ومع هذا فقد شهد عهده عدة متغيرات خطيرة، فقد بدأ عهده بداية حسنة، ثم حدث اضطراب سياسي، وظهرت قوة العثمانيين الأتراك، فأخذوا منه قسنطينة، وتمكن خير الدين من أخذ تونس، ففر منها الحسن، وفتح على مدينة تونس «الباب الذى أعجز سده، وكان السبب للقضاء الذى لم يمكن لهم رده»: إذ لجأ الحسن - شأن فترات الضعف فى التاريخ الإسلامى- إلى النصارى فاستغاث بالأسبان المتلهفين والمتوثبين لأخذ الإقليم، فمكنهم من حصن حلق الواد، وغلظ أمر الأسبان حتى شاركوا الحسن فى إدارة الدولة، حيث شاركه فى ذلك خوان جاكمو قائد جيش النصارى، فاضطر أحمد



ابن الحسن إلى الثورة على أبيه، فعزله وسمل عينيه، وأخذ يحاول إصلاح ما خرج عن حد الإصلاح، «وأحمد هذا لو سلم من ترادف المحن، لم يرض بما رضى به غيره، ولما التفت لما يقوم به من مصالح البلاد وجد الخزائن خالية لما كان أتلفها أبوه الحسن» فترادف على أحمد بن الحسن الوجود النصرانى الأسبانى فى البلاد، وقلة الأموال، وعيث الأعراب، وصراع العثمانيين. ولما وصل إليه العثمانيون سنة ٩٧٧هـ/١٥٦٩م، رأى أنه لا قبل له بهم، فخرج من القصبة بأمواله فأخذها منه الأعراب، فلم يجد ملجأ إلا الحصن الذى بناه الأسبان فى حلق الوادى، «ودق باب الحصار (الحصن) ليلا، فلما عرفوه رثوا له وقبلوه».

ووقع أحمد فيما وقع فيه أبوه وارتمى فى أحضان الأسبان وطلب منهم أسطولا يحميه، لكنهم اشترطوا على أحمد أن يوقع على اتفاق بمقاسمة البلاد مالاً وحكمًا، فوافق على مقاسمة الأموال فقط دون مقاسمة الحكم، فرفض الأسبان فقال له القائد الأسبانى: «فإن قبلت وإلا عندى تحت يدى من يقبل الشروط وهو أخوك محمد». فأفاق أحمد ورفع يده عن الأسر، واتجه إلى صقلية، وبقى هنالك إلى أن مات ولما تولى محمد بن الحسن، قسمت المدينة قسمين أحدهما للمسلمين والآخر للنصارى، وارتكب الأسبان عدة فظائع، ولكن أهل باب السويقة انحازوا إلى ناحية، ومنعوا أنفسهم من الإهانة، وأما أهل باب الجزيرة والمدينة فكانوا تحت رمية المدافع، فلم يجدوا بدًا من المساعدة».

وقد تمكن الأسبان من طرد الأتراك وسكن قبطان النصارى بالقصبة مع الأمير محمد، يجلسان معًا فى السقيفة للحكم، وقوى أمر الأسبان فى تونس وضاق الأمر بحيدر باشا التركى بالقيروان «وتحركت عند حيدر باشا الحرارة الإيمانية، ورأى الإقامة فى حياة بلا جهاد مما لا يرتضى عند الله ولا عند العباد، فتحرك بمن معه لتونس ونزلوها «فوافاهم على حصار تونس بمدد بحرى عثمانى قاده سنان باشا سر دار العسكر وقلج على قبطان، فتمكنوا من تونس وطردوا الأسبان سنة ٩٨١هـ/١٥٧٣م، ولم يلبث فى السنة التالية أن أعلنت نهاية الدولة الحفصية التى عاشت مدة طويلة وصلت حوالى ثلاثة قرون ونصف القرن.

أ.د/ طاهر راغب حسين

الهوامش:

(١) من المصادر الرئيسة للدولة الحفصية: العبر لابن خلدون الجزء السادس، والأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية لابن الشماع. والفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية لابن القنفد، وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشي، وغيرها..

(٢) من أهم هذه الشروط، التى اشترطها عبد الواحد بن أبى حفص على الناصر الموحدى والتى يظهر فيها علو مكانة عبد الواحد، أن يختار من رجال الموحدين من يجلس معه ويكون عونًا له فى جميع ضرورياته، وألا يتعقب عليه فى أموره فى تولية ولا عزل.

(٣) وفد ابن الأبار إلى أبى زكريا مستغيثًا به من تطاول النصارى على بلنسية وأنشده قصيدة طويلة أولها:

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا

إن السبيل إلى منجاتها درسا

(٤) قال شاعرهم:

ألاَ صِلْ بالأمير المؤمنينا

فأنت بها أحق العالمينا

(٥) انظر: ابن القنفذ: الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية، ص١٠٨.

(٦)انظر: الزركشي: تاريخ الدولتين ص ٢٩.

(٧)انظر: ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية ص٦٥.

(٨)انظر: الوزير الحلل السندسية جـ١، ق٤، ١١٠٤- ١١٠٧.



مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن الأبار: الحلة السيراء جـ. جـ٢، حققه وعلق حواشيه د. حسين مؤنس، دار المعارف، الطبعة الثانية، سنة ١٩٨٥م.
- ابن أبي الدينا: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق محمد شمام، المكتبة العتيقة، تونس، سنة ١٩٦٧م.
- ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس. دار المنصور. الرباط. ١٩٧٣م.
- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٢، ٣، ٤، ٥، ٦، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٧م (والجزء الثالث من طبعة دار صادر).
- دكتور أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، جـ٢. جـ٣. جـ٤. جـ٦.
- جوليان (شارل أندريه): تاريخ إفريقيا الشمالية. تعريب محمد مزالى وزميله، تونس ١٩٧٨م.
- ابن خلدون: العبر، وديوان المبتدأ والخبر... جـ١، جـ٢، جـ٤، (طبعة بولاق)، جـ٦، (طبعة بولاق، وطبعة بيروت أيضًا)، جـ٧.
- الزركشي: تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية دكتور السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامي. مؤسسة شباب الجامعة بالإسكندرية.
- ابن الشماع: الأدلة البينة النورانية على مفاخر الدولة الحفصية، تونس، لجنة الطلبة للنشر والتعريب.
- ابن القنفذ: الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية تقديم وتحقيق: محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركي، الدار التونسية للنشر ١٩٦٨م.
- محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (قسمان) ط١، ١٩٦٤م.
- دكتور محمد عيسى الحريري: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربي.
- الوزير السراج: الحلل السندسية فى الأخبار التونسية. جـ١ (٤أقسام). تحقيق: محمد الحبيب هيلة. تونس ١٩٧٠م.

المراجع الأجنبية:

Brunchvig, R.
La Berbrie Orientale Sous Les Hafsides, Des Origines A La Fin Du XVe siecle, Deux Tomes, Paris.1947.
Marcais
: La Berbrie Musulman et L'orient an Moyen Age paris 1946.
Fage:
J.D. An Introduction to the History of West Africa. Cambridge 1965.

بنو حماد

٤٠٥- ٥٤٧هـ/١٠١٤-١١٥٢م

ينتمى بنو حماد إلى البربر، والبربر جذمان كبيران هما البرانس والبتر. فأما شعوب البرانس فعند النسابين أنهم يجمعهم سبعة أجذام وهى: أزداجة، ومصمودة، وأوربة، وعجيبة، وكتامة، وصنهاجة، وأوريغة. وقد زاد "سابق بن سليم" وأصحابه قبائل لمطة وهسكورة وكزولة[١].

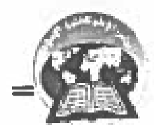
وأما البتر، فقبائلهم المشهورة أربع: أداسة، ونفوسة، وضرية[٢]، وبنولوا الأكبر (بنو لواتة)[٣].

والخلاف بين البرانس والبتر خلاف جنسى محض، هذا الخلاف الجنسى باق إلى اليوم، والقرية المغربية لا زال فيها عنصران متباغضان أبدًا.. هذا التفسير.. يحمل شيئًا من المبالغة، فإن البرانس والبتر قد امتزجوا عبر التاريخ- على نحو تمازج القبائل العربية- على أنهما فرعان لشجرة واحدة.

ظهور الدول البربرية المستقلة:

لم يُقَدَّر للبربر أن يظهروا على مسرح التاريخ المغربى كدول ذات كيانات سياسية مستقلة إلا فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى، وإن كانت النزعة القومية قد أبرزت وجودها فى غير موقف قبل هذا التاريخ .. فإلى جانب الثورات المستمرة التى لم يكفّوا عن القيام بها ضد سياسة الولاة العرب الذين جعلوا من أنفسهم أرستقراطية عسكرية[٤]، إلى جانب هذا فقد دعمت النزعة البربرية حركات فكرية يتبناها دعاة بربريون، حتى بلغ الأمر أن ألف مدّع للنبوة منهم هو"صالح البرغواطى" الذى ينتمى إلى برغواطة إحدى قبائل مصمودة، قرآنًا بالبربرية دعا إليه الناس[٥].

والشىء الجلى أن انتقال الفاطميين إلى القاهرة سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م[٦]، كان هو الحدث الذى أدّى إلى انتهاء الحكم العربى فى بلدان المغرب، وحلت محله دول بربرية عربية المنزع[٧]، وكان فاتحة هذا العهد البربرى بلقين (بلكين) ابن زيرى بن مناد - الصنهاجى بعد انتقاله حين استخلفه المعز لدين الله الفاطمى على إفريقية والمغرب (المغربين الأوسط والأدنى) وجعل خاتمه فى يده[٨].



ويصور لنا غير واحد من المؤرخين هذا الحدث الضخم بأسلوب يكاد يكون مكرورًا؛ فابن خلدون، وابن الخطيب، وابن الأثير وابن العبرى، وابن خلكان، وابن ظافر، وغيرهم من المتأخرين والمتقدمين.. يكادون يتفقون على أن زيرى وولده بلكين كانت لهما يد كبيرة فى تثبيت دعائم الفاطميين فى المغرب، وفى القضاء على الثائرين فى المغرب الأقصى، وفى مسيلة من الأمويين والخارجيين والبرابرة الموالين لهؤلاء أو أولئك. فلما صرف المعزّ اهتمامه إلى الرحلة للمشرق وإلى مَنْ يخلفه وراء ظهره فى المغرب، فاز بلكين بن زيرى زعيم صنهاجة باختياره لهذه الخلافة (٩)، وكان استخلافه على إفريقية يوم الأربعاء لسبع بقين من ذى الحجة سنة ٣٦١هـ/٩٧٢م (١٠).

وبعد أن عقد المعز لزيرى، ومنحه أعطيات سخية، أوصاه بثلاث: "ألا يرفع الجباية عن أهل البادية، ولا السيف عن البربر، وألا يولى أحدًا من إخوانه وبنى عمه". وكان هذا آخر عهد المعز والفاطميين بالمغرب، وسار المعز يريد الديار المصرية فاستوسق ليوسف أبى الفتوح - (بلكين) بن زيرى مُلك كبير، وكان هذا الحدث بداية قيام الدولة البربرية المستقلة.

لقد نجح بلكين بن زيرى الموالى للفاطميين النازحين إلى مصر فى القضاء على محاولة زناتة بالمغرب الأقصى بقيادة زيرى بن عطية المغراوى الزناتى، تكوين دولة فى فارس وما حولها تابعة للأمويين بالأندلس، كما أنه قد تمكن من الاستيلاء على فاس وسجلماسة الجنوبية وما جاورهما وطرد عمال بنى أمية؛ كما أن بلكين هذا قد نجح سنة ٣٦٩هـ/٩٧٩م فى طرد أمراء مغراوة كمحمد بن الخير، ومقاتل وزيرى ابنى عطية وخزرون ابن فلفول من المغرب الأوسط و(الجزائر) كذلك (١١).

ولقد ولّى بعد ذلك ابنه "المنصور". وسلم له فيه إخوته حماد وأبو البهار ويطوفت. وبويع بالإمارة فى مسجد القيروان، وكانت بينه وبين زناتة حروب عظيمة، وكان أخواه حماد ويطوفت يتداولان عمل أشير، وعمه أبى البهار بتاهرت، لكن فى عهد المنصور هذا ظهرت جلية بوادر الانشقاق الداخلى لدولة بنى زيرى - فقد خالف أبو البهار بن زيرى والى تاهرت أخاه المنصور سنة ٣٩٧هـ/٩٩٩م (١٢). ولئن كان المنصور قد نجح فى القضاء على حركة أخيه ونجح فى احتوائه بإحسانه

ومعروفه [١٣]، فإن زناتة كانت لا تزال ترقب الأحداث منتظرة أية فرصة مواتية، وقد اضطر المنصور إلى الدخول معها فى صراع طويل استعان فيه بأخيه ذى الخبرة والشجاعة والجرأة على سفك الدماء "حماد بن بلكين بن زيرى".

ومن خلال الحروب مع زناتة استطاع حماد أن يبرز نفسه كقائد لا تستغنى عنه دولة صنهاجة الزيرية التى نجحت فى عهد المنصور فى أن تستولى على فاس وسجلماسة عام ٣٦٩هـ/٩٧٩م من زناتة [١٤]، ولذا كان حماد أبرز الأسماء التى وجدها أمامه باديس الذى تولى الأمر بعد فاة أبيه المنصور سنة ٣٨٦هـ/٩٩٦م ليستعين بها فى حروبه التى أصبحت - وكأنها ميراث تقليدى- مع زناتة البتر الموالين لبنى أميه فى الأندلس . على أن باديس بن المنصور قد واجه أيضًا خروج أعمام أبيه عليه زاوى وجلالة وماكسن [١٥]، وتكدست الأطماع فيه لصغر سنه، فذهب بعض أعمام أبيه إلى استضعافه.

وقد كان حماد داهية فاستثمر كل هذه الظروف لحسابه، وعندما أراد باديس- إنهاضه لحرب زناتة "اشترط عليه شروطًا كثيرة تشطط فيها حماد" [١٦]. تتلخَّص فى : السماح له بإقامة دولة شبه مستقلة فى المغرب الأوسط (الجزائر) وتم الاتفاق بينهما على ذلك.

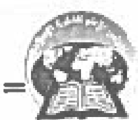
وبهذا العقد السياسى بين باديس وعمه حماد.. تم التوصل إلى البناء القانونى النظرى للدولة الحمادية (٣٩٥- ٥٤٧هـ)، (١٠٠٤- ١١٥٢م)، وتغيرت الوضعية السياسية للمغرب العربى - فى هذه الفترة من تاريخه - على هذا النحو المذكور.

ويعد التاريخ الرسمى والعملى لقيام الدولة الحمادية هو عام ٤٠٥هـ/١٠١٤م. لكن الفترة الممتدة من سنة ٣٩٥ إلى ٤٠٥هـ (١٠٠١- ١٠١٥م) كانت الفترة الحاسمة التى تمخض عنها قيام الدولة.

نسب حماد:

يرجع نسب حماد بن بلكين- مؤسس الدولة الحمادية - إلى زيرى بن مناد بن منقوش بن (صنهاج) الأصغر بن صنهاج الأكبر.

وقبيلة صنهاجة [١٧] نسبة إلى صنهاج، وهو أحد أبناء برنس بن برّ بن مازيغ بن كنعا بن حام بن نوح [١٨]. وقد نشأ خلاف كبير بين المؤرخين والنسابة حول أصل صنهاجة، وهل هى عربية من حمير كما



يرى ابن الكلبى والطبرى [١٩]، وابن خلكان [٢٠]، وابن الأثير [٢١]، وابن تغزى بردى [٢٢] وغيرهم من المتأخرين [٢٣].

وعند هؤلاء أن صنهاجة - بهذا - ترجع إلى صنهاج بن المثنى بن المنصور بن مصباح بن عصيان بن مالك بن عامر ابن حمير الأصغر، من سبأ [٢٤]. ويرى بعضهم أنها قبيلة عربية لكنها ترجع إلى قيس عيلان [٢٥].. ويرى فريق آخر كابن حزم [٢٦] وابن خلدون [٢٧].. وغيرهما من المتأخرين [٢٨] أنها قبيلة بربرية وليست عربية.. وابن حزم يعلل رفضه لنسبتها العربية بأن النسابين لم يعلموا لقيس عيلان ابنًا اسمه برّ أصلاً، وبأنه لم يكن لحمير طريق إلى بلاد البربر [٢٩].

وأكاد أميل إلى الرأى الأخير على الرغم من وجود هجرات فينيقية سامية دخلت بلاد البربر قبل الإسلام.. لكن الشىء الذى لم يمكن إثباته بعد، هو: لماذا نفترض أن صنهاجة وكتامة هما اللذان وفدا إلى المغرب؟ ولماذا لا تكون هذه الهجرات جماعات سامية متناثرة اختلطت بالدم البربرى كله، ولم تحتفظ لنفسها باستقلال جنسى معين؟ وهو الشىء الذى نراه . ويرى الدكتور حسن أحمد محمود- بحق- فى هذه النسبة العربية التى كانت صنهاجة تشيعها حول نفسها، رغبة من صنهاجة فى أن تقف على قدم المساواة مع القبائل العربية حتى تستطيع المشاركة فى الحياة السياسية الجديدة، التى أظلت المغرب بمجىء العرب [٣٠].

ويؤكد الدكتور قوله بما ذهب إليه " جوتيه وفورنل " من أن هذه النسبة لا تحمل إلا ظلال تأثيرات فينيقية سامية خضعت لها صنهاجة قبل الإسلام، وتهيأت بها لتلعب دورها الزاهر الذى اضطلعت به فى تاريخ البلاد [٣١].

فصنهاجة - فى حقيقتها - بربرية، ترجع إلى صنهاج بن برنس بن بر.

فمن صنهاجة هذه.. انحدرت الدولة الزيرية التى كانت الأسرة الحمادية أحد ضلعى الحكم فيها. وقد أطلق على صنهاجة الزيرية صنهاجة الشرقية أو صنهاجة الشمال ويسميها ابن خلدون بالطبقة الأولى أو الجنس الأول [٣٢]، وكان حماد بن بلقين واحدًا من أحفاد زيرى أشهر أمراء صنهاجة.

شخصية حماد :

امتاز حماد - مؤسس الدولة الحمادية - بمجموعة من الصفات التى يرجع بعضها إلى العامل البيئى، وبعضها إلى العامل

الوراثى، وبعضها لا يمكن القول فيه إلا أنه اضطرته إليه ظروفه كمؤسس دولة.

وحماد من خلال هذه الصفات يكوّن شخصية طموحة عنيفة، لا يصدها عن غايتها عاطفة أو قانون أخلاقى أو دين، فهو لا يعرف- فيها- رحمة.

وفى الحق فإن هذه الخلّة من خلال حماد، كانت سمة كثير من ملوك صنهاجة الزيريين، فهكذا كان عمه زاوى بن زيرى [٣٣]، وهكذا كان حبوس ابن ماكس بن زيرى، وباديس بن حبوس [٣٤].

ولعل جو الانقسام والصراع على السلطة والحروب المستمرة والعصبية كان أحد العوامل التى شكلت نفسية كثير من زعماء هذه القبيلة.

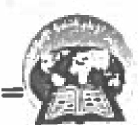
ونحن لم نعرف من تفصيلات حياة حماد قبل ظهوره على مسرح التاريخ ما يعيننا على تفسير أخلاقياته تفسيرًا كاملاً ودقيقًا، وكل ما وصلنا عن هذه الحياة هو أنه "قرأ الفقه فى القيروان ونظر فى كتب الجدل" [٣٥]. ونحن لم نعرف كذلك متى ولد، لكنا نعرف على وجه الترجيح أنه توفى فى شهر رجب سنة ٤١٩هـ/١٠٢٨م [٣٦].

ولقد تواترت المصادر التى تحدثت عن أخلاقه، فقد وصفه ابن الخطيب "بأنه كان نسيج وحده وفريد دهره، وفحل قومه، ملكًا كبيرًا وشجاعًا ثبتًا وداهية حصيفًا" [٣٧]، ووصفه صاحب (الاستبصار) بأنه " كان ذا دهاء وفطنة وتجربة فى الحروب، وكانت له فراسة وذكاء" [٣٨].

وأكدت المصادر التى تحدثت عن أخلاقه الحربية، وعن فراسته وذكائه، رأيها فيه بحكايات تكاد تكون مكرورة فى كل ما بين أيدينا من مصادر. فمن المحفوظ عن ذكائه أن رجلاً شيخًا خرج مع امرأته من بعض البلاد (قلعة بنى حماد) عاصمتهم الكبرى، وفى الطريق تواطأت المرأة مع شاب على الزعم بأنها زوج الشاب- حين تصل القلعة- وبأنها لا علاقة لها بالشيخ، وقد استطاع حماد كشف الحقيقة حين رفع إليه الأمر بواسطة الكلب الذى يصحبهم، اعتمادًا على إلفة الكلب للشيخ دون الشاب.

الدور العملى فى بناء الدولة:

لقد أمضى حماد عشر سنوات كاملة (٣٩٥- ٤٠٥هـ/١٠٠٤- ١٠١٤م) وهو يعمل على تحقيق شخصية دولته. وإذا كان حماد قد نجح فى زحزحة زناتة وفى بعثرتها، بحيث لم تقم لها قائمة فى



المغرب الأوسط، باستثناء ناحيتى ما بعد تاهرت والمسيلة شرقًا، فإن هذا كان تحقيقًا - من جانبه - للأساس المهم الذى قام عليه العقد السياسى بينه وبين باديس، وبالتالى فقد بدأ حماد يشعر بأن من حقه أن يبدأ فى تدعيم شخصية دولة مستقلة -فى إطار الزيريين -له ولأبنائه. وكانت أولى خطواته فى هذا المجال بناء القلعة وتمصيرها، وكان حماد يتردد بين أشير (عاصمة حماد الأولى) والقلعة (العاصمة الثانية)، وقد نجح خلال هذه الفترة فى أن يكون أقوى شخصية فى الزاب والمغرب الأوسط كله.

ومن الملاحظ أنه فى مرحلة تالية - وهى مرحلة التحضر والانفتاح والاتساع- سيتكون للدولة الحمادية عاصمة ثالثة مشهورة وهى مدينة بجاية التى أسسها الأمير الحمادى الخامس (الناصر بن علناس) حوالى سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٧م، وستصبح هذه العاصمة الثالثة من أشهر مدن الجزائر وبها تعرف الدولة الحمادية ، بناءً على الازدهار الحضارى الذى تمتعت به بجاية.

الحماديون الأندلسيون:

نستطيع القول: إنه لم تكن هناك صلات مباشرة بين الحماديين والأندلسيين؛ ومع ذلك فإن الحماديين قد مثلوا - بالنسبة للأندلسيين - لا سيما فى فترة الازدهار الحمادى - ملجأ سياسيًا مهمًا ؛ وقد بقيت الجزائر وحدها تمثل لهم المرفأ الحنون فى المغرب العربى؛ فالمغرب الأقصى كان تابعًا للمرابطين؛ ودولة بنى زيرى كانت منهمكة بمشاكلها مع العرب ومع النورمان .

ونحن نلمح هنا وهناك من الأحداث ما يؤكد هذه الحقيقة.. فابن خلدون يروى لنا أن "على بن مجاهد العامرى" صاحب دانية؛ عندما فر أمام "ابن الحاج" قائد يوسف بن تاشفين؛ لم يجد أمامه ملجأ إلا بجاية. ونزل على "الناصر بن علناس" فأكرمه؛ كما يحدثنا غير واحد من المؤرخين؛ على رأسهم "عبد الله بن بلكين" آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة؛ عن لجوء معز الدولة بن المعتصم بن صمادح -حاكم المرية- إلى بجاية بإشارة أبيه عليه أن ينجو بنفسه إلى القلعة؛ إذا استولى يوسف بن تاشفين على المرية، وعندما وصل معز الدولة هذا إلى الجزائر أكرمه صاحب القلعة " المنصور"؛ وأمنه فى ذخائره؛ وأكرم ضيافته؛ وخيره حيث يحب السكنى؛ فاختار "تدلس" على

البحر وكان ذلك فى رمضان سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١م.

ولقد كانت بجاية - على وجه الخصوص- بموقعها الساحلى والمركز الممتاز الذى احتلته فى الدولة الحمادية؛ بابًا لإيجاد علاقات مع أسبانيا؛ لا سيما فى مجالى الاقتصاد والعمران. وبديهى أنه من الصعب أن نفرق تفرقة حاسمة بين العلاقات الاقتصادية والسياسية؛ فلكل منهما بالآخر كبير صلة.

وجدير بالذكر أن العنصر البربرى - الذى رحل إلى الأندلس مع بروز الحكم البربرى للمغرب الأوسط وإفريقية بقيادة صنهاجة؛ هذا العنصر - الذى كان حماد مؤسس الدولة نفسه- سببًا فى هجرته تلك؛ كان أحد طرائق الاتصال بين الجانبين.

الحماديون والمسيحيون:

تعاونت عدة عوامل على تحديد نوعية علاقة الحماديين بالمسيحيين؛ وكان موقع الدولة الحمادية وسط الدول الموجودة فى المغرب؛ وكحاجز بين المرابطين والنورمان؛ أبرز العوامل فى تحديد نوعية السياسة الحمادية المسيحية. وبما أن العلاقات المغربية الداخلية القائمة بين دول المغرب؛ كانت علاقات تفكك وصراع فى أغلب أحايينها؛ لذا لم يحاول الحماديون فتح باب جديد من أبواب الصراع على أنفسهم؛ حتى ولو كان هذا الباب جهادًا مقدسًا ضد المسيحيين. وقد استغل الغزو المسيحى هذه النقطة؛ فحاول جهده تعميق علاقات الودّ بينه وبين الحماديين؛ وعدم تهييجهم.

لقد أقام "الناصر بن علناس" علاقات ودية مع البابا "جريجورى السابع" ومدن الساحل الإيطالى؛ وكان مما توصل إليه جريجورى والناصر إقامة أسقفية فى بونة (عنابة)؛ وترك للنصارى الموجودين فى بونة حرية انتخاب أسقفهم؛ وقد انتخبوا أسقفًا يدعى "سرفاند" صادَقَ الناصرُ على تعيينه.

وكان الحماديون أكثر إيجابية من المسيحيين فى هذا السبيل، فإن المسيحيين غدروا بهم وعاملوهم بقسوة.

الملامح العامة لحدود الدولة:

تعرضت حدود الدولة الحمادية - على امتداد تاريخها- لعديد من التغيرات المتتابعة. فقد وُضِعتْ حدودها - فى المرحلة الأولى- على أساس ملكية مشاعة قابلة للتعديل بحسب جهود منشئها؛ كما نصّ على ذلك العقد السياسى والصلح؛ حين ذكر كل منهما



أن لحماد- مؤسس الدولة- ما يفتحه من بلاد المغرب. كما أن طبيعة العلاقات السياسية كانت تخضع- فى ذلك الحين- لمستوى الدولة نفسها ولمقدرتها على حماية حدودها.

ووفقًا لهذين العاملين كانت الدولة الحمادية تتذبذب إنْ جزرًا وإن مدًا.

على أن السمة الغالبة على هذه الحدود هى أنها جزء مما يعرف الآن ببلاد الجزائر (المغرب الأوسط)؛ ولم تتعدّ حدود الدولة الحمادية الجزائر إلا فى فترات قليلة من أيامها؛ حين امتدت شرقًا فحكمت تونس والقيروان وصفاقس والجريد وجزيرة جربة من تونس؛ ولم يتح لها أن تحكم هذا الجزء المضاف إليها حكمًا حقيقيًا. كما أن الدولة كانت توشك- فى أثناء هذه الفترة- على الدخول فى مرحلة الأفول.

عمر الدولة وحكامها:

دام عمر الدولة الحمادية ما يقرب من قرن ونصف القرن منذ اختطّ حماد القلعة إلى سقوط الدولة بيد عبد المؤمن ابن على، الزعيم الدينى المغشوش الفكر للمهدى بن تومرت الذى بطريقة دموية همجية قضى على المرابطين السنّة الذين قدموا خدمات جليلة للإسلام فى المغرب والأندلس.

وكان هذا المهدى يدّعى علم الغيب وأنه المهدى ويعتمد على شعوذة وحيل كثيرة فى جذب الناس إليه.

بيد أن العمر الذى استقرت فيه الدولة، كدولة ذات كيان سياسى محدد معترف به فى المغرب العربى وغيره، يمتد من سنة (٤٠٥- ٥٤٧هـ) (١٠١٥- ١١٥٢م)، إذ إن الفترة الممتدة من (٣٩٥- ٤٠٨هـ) كانت فترة صراع من أجل إرساء دعائم مشروعية قيام الدولة وانفصالها كدولة مستقلة.

وقد حكم الدولة على امتداد هذه الفترة تسعة أمراء اختلفوا قوة وضعفًا وأسلوب حكم، وقد كان حماد مؤسس الدولة هو أول أمرائها، ثم خلفته ذريته من بعده إلى أن جاء يحيى بن العزيز الحمادى(٥١٥- ٥٤٧هـ/١١٢١- ١١٥٢م) فكان تاسع وآخر أمراء هذه الدولة.

ومن البديهى أن حماد بن بلقين (مؤسس الدولة) يتحمل أكبر قسط فى مرحلة الصراع سواء مع الزيريين أو مع زناتة التى امتدت- دون أن تدخل الدولة فى مرحلة الاستقرار النسبى الذى سمح لها بشىء من "الإبداع الحضارى" فى بجاية- ما يزيد على ستين سنة

(٣٩٨- ٤٦٠هـ/١٠٠٧- ١٠٦٧م).

وفى هذه المرحلة حكم أربعة من أمراء الدولة الحمادية هم : "حماد، والقائد بن حماد، ومحسن بن القائد، وبلقين بن محمد بن حماد"، كما أن "الناصر بن علناس" الأمير الحمادى قد استقر فى الحكم مدة ست سنوات فى القلعة.

ثم انتقلت العاصمة إلى بجاية .. وقد حكم فى هذا الدور الحضارى أربعة أمراء من الدولة الحمادية (٤٦٩- ٥١٥هـ/١٠٧٦- ١١٢١م) هم : " الناصر بن علناس، والمنصور بن الناصر، وباديس بن المنصور، والعزيز بن المنصور". وقد تألق الناصر والمنصور، أما باديس فلم يعمر فى الحكم إلا ثمانية أشهر وأيامًا، أما العزيز فقد كانت أيامه امتدادًا للناصر والمنصور، وإن كانا قد اشتهرا أكثر منه لدى جمهرة المؤرخين على أنهما الممثلان لهذا الدور الحضارى. مع أنه فى حقيقة الأمر لا يقلّ عن سابقيه جهدًا وأثرًا.

وبوفاة العزيز سنة (٥١٥هـ/١١٢١م) وتولى ابنه يحيى بن العزيز مقاليد الأمور كانت الدولة – نتيجة عوامل كثيرة محيطة بها – ونتيجة سلوك يحيى نفسه- تدخل فى مرحلة القابلية للانهيار إلى أن سقطت سنة ٥٤٧هـ/١١٥٢م بيد الموحدين.

الحضارة الحمادية:

الزراعة:

تعددت ألوان النشاط الزراعى فى المجتمع الحمادى؛ وتعددت المحاصيل التى ينتجها، وقد تحقق فى كثير منها الاكتفاء الذاتى، كما تمكن من تصدير بعض المحصولات، وبعض الحيوانات التى تعيش حول الزراعة، وكانت الأرض المحيطة بالمدن، والقرى الحمادية مجالاً للنشاط الزراعى.

ففى القلعة الحمادية - التى مثلت دور العاصمة الأولى لفترة كبيرة- "فواكه ونعم يلحقها الإنسان بالثمن اليسير، وبلادها وجميع ما يضاف إليها تصلح فيها السوائم والدواب؛ لأنها بلاد زرع وخصب، وفلاحتهم إذا كثرت أغنت وإذا قلت كفت".

وفى الدور الثانى - الذى برزت فيه بجاية- بقيت القلعة أرضًا زراعية جيدة الإنتاج، وإن كان العرب يقومون على جباية أموالها، وتنظيم أمورها، كعمال للدولة الحمادية.

أما بجاية التى احتلت المكانة الأولى لأكثر من نصف عمر الدولة، فقد كان

بها واد ومزارع، وكانت الحنطة والشعير كثيرين بها، وكذلك التّين كان بها منه ما يكفى لكثير من البلاد " وهى كثيرة الفواكه والثمار وجميع الخيرات" – كما يحدثنا صاحب الاستبصار.

وقد لخص القلقشندى النبات والمحاصيل الموجودة فى مملكة بجاية – نقلاً عن ابن فضل الله العمرى، صاحب (مسالك الأبصار)، وأبى الفدا صاحب (تقويم البلدان) - فذكر أن بمملكة بجاية " الحبوب والقمح والشعير والفول والعدس والحمص والذرة والبسلا، ومن الفواكه العنب والتين والرمان والسفرجل والتفاح الكمثرى والزعرور والخوخ والمشمش والتوت والقراصيا والزيتون والأترج والليمون والنارنج واللوبيا واللفت والباذنجان، ومن الزهور الرياحين والياسمين والنرجس".

وليس فيما يقوله القلقشندى مبالغة، فالأموال التى حملها المعز لدين الله معه إلى مصر تدلنا على مدى الوفرة الاقتصادية التى كان يتمتع بها المغرب.

ويؤكد "أرشبالد لويس" هذه الظاهرة حين يتحدث عن المغرب على عهد الدولة الحمادية بقوله: "ففى تلك الأثناء ظل شمال إفريقيا إقليمًا وفير الإنتاج من الناحية الزراعية. وكانت الحبوب هى المحصول الأساسى هناك. وانتشرت زراعتها حول باجة. كما غطت أشجار الزيتون أرض الوديان الواقعة غرب القيروان بين صفاقس وتونس، وكانت القيروان ذاتها فى وسط هذه الزراعات. وصار التمر وقصب السكر من أهم حاصلات الواحات بإقليم الجريد فى الجنوب، وزرع الموز وقصب السكر فى قابس، والقطن فى الحضنة والمسيلة وجهات أخرى غيرها".

ونحن نجد فيما يسوقه الرحالة العبدرى فى رحلته، ما يدعم هذه الصورة الاقتصادية، وإن كنا نستأنس بقوله أكثر من سوقنا إياه كحقيقة تاريخية لرسم معالم الفترة التى نتناولها من الناحية الاقتصادية.

الصناعة:

توافرت لدى الدولة الحمادية أسباب قيام صناعات متعددة. فهناك ثروة زراعية وأخرى حيوانية، وهناك معادن متعددة فى المدن الحمادية، كما أن الشاطئ الساحلى الذى تتمتع به الدولة، كان بدوره عاملاً من عوامل قيام بعض الصناعات.

لقد وجد الخشب فى بجاية كما وجد الحديد بها أيضًا، وفى مرسى الخرز

توفر المرجان وقد توفر الخشب والحديد ببونة وتوفر الملح ببسكرة عاصمة الجنوب. كما وجد البرونز والفضة اللذان أمكن استغلالهما فى صناعات كثيرة.

ووجد القطن وقصب السكر والكتان وغيرها من المحصولات الزراعية القابلة للتصنيع.

لقد وجدت فى المدن الحمادية المختلفة ألوان من النشاط الصناعى، وكان للقلعة وبجاية دورهما الكبير فى الحركة الصناعية.

ولقد كان بالقلعة أنواع من الصناعات، ففيها لبابيد الطيلقان جيدة غاية الجودة، وبها معامل لنسج الأكسية القلعية الصفيقة النسج الحسنة المطرزة بالذهب والسجاجيد والملابس، ومن الأجزاء التى وجدت أثناء حفر حديث فى القلعة يتضح أن صناعة الخزف والقيشانى والبلاط والتحف الفنية، كانت موجودة فيها .

وفى بجاية، شهدت الحركة الاقتصادية - لا سيما بعد ترويض القبائل العربية- ازدهارًا فاق رقى القلعة بلا شك .

لقد كانت بجاية نشيطة صناعيًا، لا سيما فى الصناعات التى تتعلق بالبحر، نظرًا لكونها أهم مرفأ حمادى، ويحدثنا عن صناعاتها الإدريسى الذى انتهت حياته، بعيد نهاية الدولة الحمادية بقليل - فيذكر أنه كان ببجاية دار صناعة لإنشاء الأساطيل والمراكب والسفن والحرابى، كما قامت صناعة السفن أيضًا بمرسى الخرز.

وبواسطة الفضة والبرونز قامت صناعات كثيرة، كالمصابيح وحاملات الشموع والأباريق ودلال القهوة وزينات الأبواب والأثاث ومقابض الأبواب ومطارقها.

ونتيجة لوجود الخشب الذى تمتلئ بأشجاره جبال بجاية والمدن التى تحيط بها، كانت توجد صناعة النجارة، يدلنا على هذا ذلك الصندوق الخشبى المحفور ذو القفل البرونزى الذى يمثل تقليدًا شائعًا فى كل أنحاء بلاد القبائل، والذى يعود إلى أقدم صفحات التاريخ، ولا شك أن ثمة صناعات أخرى متناثرة كانت تقوم فى العاصمتين الحماديتين من نوع تلك الصناعات اليدوية الخفيفة التى تسد حاجات أساسية للناس، والتى لا زال لها صدى فى المدن المغربية.

التجارة:

كانت التجارة أبرز الأنشطة الاقتصادية فى الدولة الحمادية على الإطلاق. ولقد

ساعدت ظروف سياسية وجغرافية واقتصادية على أن تزدهر التجارة الحمادية، فالظروف السياسية المحيطة بالدول المجاورة لهم كالزيريين والمرابطين، وسياستهم فى المسالمة سواء مع العرب أو المسيحيين والموقع الذى يتمتعون به والشاطئ الطويل على البحر الأبيض، والمرافئ والأسواق والاتصالات التجارية التى نشطوا فيها .. كل هذه العوامل مكنتهم من مزاولة تجارة ناضجة، سواء فى داخل المغرب أو خارجه.

الحياة الاجتماعية:

كان المجتمع الحمادى مجتمعًا مفتوحًا، يهضم فى جسمه نماذج مختلفة الجنس والفكر، وبصرف النظر عن أن هذه الحقيقة تكاد تكون سمة عامة فى المجتمعات الإسلامية فى هذه القرون، فإنها كانت سمة بارزة، على نحو خاص، بالنسبة للدولة الحمادية ، فطبيعة سياستها، وموقعها فى المغرب العربى والملمات التى ألمت بالمغرب والأندلس فى القرنين الخامس والسادس للهجرة/الحادى عشر والثانى عشر للميلاد، كل هذا ساعد على أن يكون المجتمع مفتوحًا على نحو بارز.

والذى لا شك فيه أن صنهاجة - لا سيما صنهاجة الحمادية - كانت تقف فى قمة الهرم الاجتماعى فى الدولة، وإذا علمنا أن صنهاجة إنما تشكل شعبًا كبيرًا، وليست مجرد دول حاكمة، لتأكدَّ لدينا أن هذه الميزة تنحصر فى الطائفة الحاكمة، إذ من الصعب تحويل طبقة كبيرة كصنهاجة إلى طبقة ممتازة، وإن كان من الطبيعى أن تكون كثير من المراكز ذات الأهمية بأيديهم، نتيجة انتمائهم الأكثر ولاء للدولة التى تحمل اسمهم وتدافع عن سيطرتهم على هذه البقعة من الأرض.

إننا نستطيع القول بأن صنهاجة الحمادية، كانت تحتل المكان الذى تحتله بعض الأسر الكبيرة التى مارست الحكم ، كالأمويين ، والمرابطين والعباسيين.

وإذا كان من الطبيعى أن يكون من هذه الأسر من يمارسون أعمالاً يمارسها كثير من طبقات الشعب، فالذى لا شك فيه أن شعورًا بالفوقية يسود هذه الأسر، يدعمه النفوذ السياسى والاجتماعى الذى تتمتع به.

على أن طبقات مختلفة من القبائل البربرية المتعددة كانت تعيش فى حماية الدولة الحمادية.

وفى ظل النظام التى تمتعت به الدولة، أخذت هذه الطبقات تتعارف وتمتزج على تنوع أجناسها من الغرب إلى الشرق ومن الشمال إلى الجنوب.. فاختلطت صنهاجة بكتامة وكتامة بزناتة. وفى غير موضع يحدثنا صاحب (الاستبصار) عن وجود عديد من القبائل البربرية تعيش فى المدن الحمادية الكبرى مثل عجيسة وهوارة وبنى برزال فى المسيلة وقبائل بربرية أخرى كثيرة فى جيجل .

ولعل هذا الاختلاط كان بتأثير القضاء النسبى على الصراع القبائلى فى ظل قيام دولة المرابطين الجامعة، وبتأثير زحف القبائل العربية، الذى جعل البربر يشعرون بخطر جماعى، وبالتالى خفّت على المستوى الشعبى حدة الشعور القبلى.

ومنذ المنتصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كان هناك عنصرٌ بدأ يأخذ مكانه بطريقة أكثر وضوحًا ورسوخًا فى المجتمع الحمادى، وهو العنصر العربى ممثلاً فى قبائل بنى هلال التى كان لها النصيب الأكبر من الوجود فى أرض الدولة الحمادية، وكان لهذا الوجود العربى أثره الكبير على الحياة الاجتماعية للعنصرين البربرى والعربى، وإذا كان من أهم النتائج التى أسفرت عنها الحملة الهلالية على الجزائر تغيير اللسان البربرى، حيث أثرت لغة التخاطب العربية لقبائل بنى هلال فى اللسان البربرى الذى كان من قبل طاغيًا على اللسان العربى فى الأرياف والمدن.

إذا كان هذا، فمن البديهى أن هذا التأثير الحضارى لم يكن ليتم إلا بالاحتكاك والاختلاط بكل الوسائل المعروفة، بحيث إننا نستطيع القول بأن العنصر العربى الممثل فى القبائل الهلالية يشكل منذ دخوله الجزائر طبقة متميزة من طبقات المجتمع الحمادى ، لها شخصيتها الثقافية والاجتماعية المتميزة من لغة وعادات وفكر، ويعتبر دخول هؤلاء الهلاليين- فى الحقيقة - فتحًا اجتماعيًا جنسيًا، نجح أصحابه فى فرض عاداتهم وتقاليدهم ولغتهم على البربر بعد بضعة أجيال .

وفى المجتمع الحمادى كانت هناك طوائف أخرى لاجئة إليه لجوء الاستقرار والاندماج، فعندما ضعف سلطان المسلمين فى الأندلس وصقلية ومالطة وغيرها من الأماكن التى تعرضت لعمليات إبادة وإزعاج من جانب الزحف الصليبى كان الحماديون هم الملجأ الذى

يأوى إليه هؤلاء [٣٩]، وقد استقر الأندلسيون بالسواحل – بخاصة- كما رأينا فى المعتصم بن صمادح، حين اختار "تنس" مقرا لإقامته، فإن تنس فى الحقيقة كانت مقرًا لكثير من النازحين الأندلسيين، ولهم بها صلة كبيرة، ولم تخل بجاية من العنصر الأسبانى، بل إنه احتل فيها مكانة مرموقة إلى جانب البربر البيجاويين، لا سيما أهل ميورقة.

الحياة الثقافية:

كانت الدولة الحمادية مملكة بربرية، بل هى أول دولة بربرية مستقلة بالجزائر الإسلامية.

ومن البديهى أن العنصر البربرى بكل خلفيته الثقافية يمثل واحدا من أبرز المكونات الثقافية للدولة.

على أنه لا يمكن – مع وجود هذا العنصر- إهمال الخلفيات الثقافية العربية التى استقرت فى المغرب كله، منذ الفتح العربى، وعلى امتداد الدولتين اللتين حكمتا الجزائر قبل العنصر البربرى الصنهاجى: دولة بنى رستم فى تيهارت ودولة الفاطميين فى المهدية [٤٠].

بالإضافة إلى الجهد الذى بذله البربر أنفسهم فى تعلم العربية وعلوم الدين، حتى إن القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى، لم يكد يبزغ، حتى صار كثير من البربر يزاحمون العرب فى لغة الضاد، وأصبح علماء البربر يناظرون فقهاء العرب فى قواعد الأصول وتفاريع الفقه ومبادئ علم الكلام.

لقد كان الطابع العربى قد بدأ يغلب على الثقافة منذ مطلع القرن الرابع الهجرى، وقد ساعد على ذلك أن الثقافة العربية جزء من الإسلام الذى هو عقيدة الأمة.

ومن عناصر التكوين الثقافى التى لا يمكن تجاهلها فى هذا الطور زحف مذهب مالك بدءًا من مدرسة القيروان، وانتشارًا فى القسم الغربى للعالم الإسلامى كله، بما فيه الأندلس، وعبوره إلى غرب إفريقيا حيث لا يزال المذهب الغالب فى هذه البلاد.

كما أن احتكاك الجزائر بالأندلس وإفريقية وهجرة بعض الأندلسيين والأفارقة والصقليين وغيرهم إليه، وإعانتهم للحركة الثقافية فيها بما حملوه من علوم وآداب [٤١]، كل هذه العناصر قد كونت الملامح الأساسية للشخصية الثقافية الحمادية، وساعدت على إبرازها فى صورة خاصة، كما ساعدت على رقيها وازدهارها.

أمراء بنى حماد فى الجزائر (٤٠٥-٥٤٧هـ):

١. حماد بن بلكين ٤١٩هـ /١٠٢٨م.

٢. القائد بن حماد ٤٤٦هـ/١٠٥٤م.

٣. محسن بن القائد ٤٤٧هـ/١٠٥٥م.

٤. بلكين بن محمد بن حماد ٤٥٤هـ/١٠٦٢م.

٥. الناصر بن علناس ٤٨١هـ/١٠٨٨م.

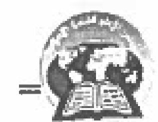
٦. المنصور بن الناصر ٤٩٨هـ/١١٠٤م.

٧. باديس بن المنصور ٥٠٠هـ/١١٠٦م.

٨. العزيز بن منصور ٥١٥هـ/١١٢١م.

٩. يحيى بن العزيز ٥٤٧هـ وهو (تاريخ وقوع الحماديين تحت سيطرة الموحدين).

أ. د / عبد الحليم عويس



الهوامش:

(١) العبر، ج٦، ص١٧٧.

(٢) وردت صنبرة وضربة وضريسة .

(٣) جمهرة أنساب العرب، ٤٩٧، والعبر، ج٦، ص١٧٨ .

(٤) مقدمة رياض النفوس للمالكى دكتور حسين مؤنس، ص٧ .

(٥) جمهرة أنساب العرب، ٥٠، والاستبصار، ص١٩٧، وما بعدها، وأعمال الأعلام، ١٩٧/٢، وكتاب البربر للكعاك، ص٨٨ .

(٦) ذكرت دائرة المعارف الإسلامية (ج١١، ص٢١- ٢٢، مادة زيرى) أن المعز غادر إفريقية، سنة ٣٦٣هـ، والصحيح الذى أشارت إليه المصادر التى وقعت فى أيدينا أنه غادرها أواخر ذى الحجة سنة ٣٦١هـ، ووصل مصر، سنة٣٦٢، لم نجد التاريخ الذى ذكرته الدائرة، غير أن ناصر خسرو ذكر أن جيش المعز عبر النيل، سنة٣٦٣. لكنه تناقض مع نفسه فذكر عرضًا أن دخول المعز كان سنة ٣٦١هـ، والصحيح أن جيوش المعز دخلت القاهرة، سنة٣٥٨هـ، وأن المعز دخلها سنة ٣٦٢ (٤٧٦ سفر نامة)، وانظر : وفيات الأعيان: ٣١٤/٤ .

(٧) مراكز الثقافة فى المغرب للكعاك، ص٢٥، ومقدمة رياض النفوس، ص٧، والإسلام لهنرى ماسيه، ص٨٢ .

(٨) أعمال الأعلام: ٥٩/٢، والحلة السيراء٣٩٣/٢، ومقدمة رياض النفوس، ص١٩، والجزائر فى مرآة التاريخ، عبد الله شريط، ٦٦، وانظر كتاب الجزائر أحمد توفيق المدنى، ص٢٧ .

(٩) العبر، ج٦، ص٢١٧، والإحاطة من ٤٣٩، وخطط المقريزى ١٦٥/٢، ومقدمة رياض النفوس، والجزائر فى مرآة التاريخ للأستاذ عبد الله شريط، ص٦٦، وغيرها .

(١٠) وفيات الأعيان، ج١، ص٢٥٧ .

(١١) صبح الأعشى، ج٥، ص١٨٥ .

(١٢) العبر، ج٦، ص٣٢١ .

(١٣) العبر، ج٦، ص٣٢١ .

(١٤) دائرة المعارف، ١١٤/٤، مادة بلكين .

(١٥) العبر، ٣٢٢/٦، والإحاطة ٤٣٩، وقد ذكر ابن الخطيب فى أعمال الأعلام ٧٨/٢ أن هؤلاء أعمام المنصور وأنهم خالفوا عليه، والحق أنهم- كما ذكر ابن الخطيب نفسه فى الإحاطة- أنهم إخوة للمنصور ولحماد، وأنهم إنما خرجوا على باديس بن المنصور .

(١٦) أعمال الأعمال، ج٢، ص٦٩- ٧٠، وانظر : العبر، ج٦، ص٣٤٩ .

(١٧) تنطق بضم الصاد، وكسرها وسكون النون وفتح الهاء وبعد الألف جيم نسبة إلى صنهاج، قال ابن دريد: هى بضم الصاد (وفيات الأعيان، ج١، ص٢٤١- وقد أخذ ذلك صاحب شذرات الذهب، ج٣، ص١٧٩) .

(١٨) جمهرة أنساب العرب، ٤٩٨، العبر، ج٦، ص١٠٩ .

(١٩) انظر: العبر، ٣٠٩/٦ .

(٢٠) وفيات الأعيان، ج٢٤٠/١- ٢٧١ .

(٢١) الكامل، ٦٢٣/٨ (حيث ذكر أن بلكين بن زيرى حميرى) .

(٢٢) النجوم الزاهرة، ج، ص٤٥٤، فقد جعل المعز بن باديس حميريا .

(٢٣) دكتور حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسى، ج٤، ص٢٩، ١١٥ .

(٢٤) العبر، ٣١٠/٦ .

(٢٥) حكى هذا ابن حزم فى الجمهرة، ص٤٩٥، وابن خلدون فى العبر، ٣١٠/٦، وانظر المؤنس، ص٧٣ .

(٢٦) الجمهرة، ٤٩٥ .

(٢٧) العبر، ١٩٢/٦- ٣١٠، ومن الغريب أن ينسب الدكتور حسن إبراهم على ابن خلدون أنه أيد حميرية صنهاجة مع أن ابن خلدون يقول صراحة بعد أن تحدث عن الخلاف فى نسب صنهاجة وكتامة: (وعندى أنهم من إخوانهم أى من البربر) انظر: العبر، ١٩٢/٦، وكتعليقه على الذين نسبوا صنهاجة إلى حمير بقوله: (وليس كما ذكر) انظر: العبر ٣١٠/٦، وقد اضطربت عبارة الدكتور سعد زغلول عبد الحميد(تاريخ المغرب العربى ٣١) فرأى أولاً أن ابن خلدون يكاد يميل إلى اعتبار صنهاجة من اليمن، ثم عاد ثانية فرأى أنه يتمسك بكونها من البربر، وقد استعمل الدكتوران حسن إبراهيم وسعد زغلول عبارة (يكاد النسابة يتفقون على أنها من حمير) والحق أن أكثر النسابة يرون أنها من البربر .

(٢٨) السلاوى: الاستقصا، ٣/٢، وإقبال موسى: المغرب الإسلامى، ١٧، والدكتور حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ٣٧، ودائرة المعارف الإسلامية، ٣٥٩/١٤ .

(٢٩) الجمهرة، ٤٩٥، وقد ذهب إلى مثل هذا البلاذرى فى فتوح البلدان، ٢٦٥ .

(٣٠) قيام دولة المرابطين، ص٣٧ .

(٣١) نقلاً عن قيام دولة المرابطين، ص٣٨ .

(٣٢) العبر، ٣١٢/٦ .

(٣٣) انظر الذخيرة لابن بسام، القسم الأول المجلد الثانى، ٩٩، وانظر الإحاطة ٤٤٤، والمغرب فى حلى المغرب، ١٠٦/٦ .

(٣٤) انظر : المغرب فى حلى المغرب ١٠٧/٢ .

(٣٥) أعمال الأعلام، ج٣، ص٧١- ٨٥ .

(٣٦) المرجع السابق، ٨٦/٣، والعبر ٣٥٢/٦، والمغرب العربى رابح بونار ٢٠٨، وقد ذكر ابن الأثير فى الكامل فى حوادث، سنة ٤١٧، أن فيها توفى حماد، كما ذكر الجيلانى فى تاريخ الجزائر العام، ج٢٦٤/١- أن حمادًا حوصر من المعز سنة ٤٣٢هـ، وإن كان فى مكان آخر من كتابه ذكر أنه مات سنة ٤١٩هـ(٣٦٦)، انظر: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ص١١٠ .

(٣٧) أعمال الأعلام ٨٥/٣ .

(٣٨) الاستبصار، ص١٦٨، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، مطبعة جامعة الإسكندرية، ١٩٥٨م .

(٣٩) انظر : موجز التاريخ العام للجزار، ص٢٨٨ .

(٤٠) انظر : كتاب الجزائر للمدنى، ص٦٩، ٧٨، المغرب العربى بونار، ٢١٦ .

(٤١) المغرب العربى، بونار، ص٢٨٣، وكتاب الجزائر للمدنى، ص٧٩، ٨٠ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ابن خلدون.
٢. جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم.
٣. رياض النفوس للمالكى ومقدمته للدكتور حسين مؤنس.
٤. أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام ، لابن الخطيب.
٥. الحلة السيراء ، لابن الأبار.
٦. مركز الثقافة فى المغرب، لعثمان الكعاك.
٧. الإحاطة فى أخبار غرناطة ، لابن الخطيب.
٨- صبح الأعشى ، للقلقشندى.
٩. الكامل فى التاريخ، لابن الأثير.
١٠. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، لابن تغرى بردى.
١١. تاريخ المغرب العربى ، سعد زغلول عبد الحميد.
١٢. الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى ، للسلاوى.
١٣. قيام دولة المرابطين، د. حسن أحمد محمود.
١٤. الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، لابن بسام.
١٥. المغرب فى حلى المغرب ، لابن عذارى المراكشى.

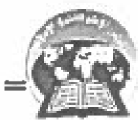
بنو زنكى

شهدت منطقة الشرق الأدنى، أواخر العصر الفاطمى، تحولا خطيرًا نتيجة لنجاح الصليبيين فى الاستقرار فى قلب تلك المنطقة. ولقد كانت الدولة الفاطمية آنذاك فى خريف عمرها عندما ظهر الخطر الصليبى، وفشلت تلك الدولة فى صد هذا الخطر وفى حماية نفسها منه. وكان عليها أن تتنحى عن قيادة تلك المنطقة وتفسح المجال لقوة فتية أخرى تحل محلها وتستطيع أن تنهض بأمانة الجهاد ضد هذا الخطر العدوانى السافر.

ولقد ازداد الموقف سوءًا بالنسبة للمسلمين فى الشرق الأدنى فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى بتفكك دولة الأتراك السلاجقة بعد وفاة آخر أقوى سلاطينهم السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢م، وهى الدولة التى سبق أن نفخت فى العالم الإسلامى فى الشرق الأدنى روحًا جديدة مكنت المسلمين من الصمود فى وجه الروم (البيزنطيين) بل مهاجمتهم فى عقر دارهم.

وكان أكبر مظهر لانحلال سلطان السلاجقة - وخاصةً فى بلاد الشام والعراق- ظهور عدد كبير من البيوت الحاكمة لا تجمعها رابطة إلا الانتساب إلى البيت السلجوقى الكبير. ومن تلك البيوت ظهرت وحدات سياسية أُطلق عليها إسم (الأتابكيات)، وعلى أصحابها اسم أتابكة. وبعض هذه الوحدات صغيرة للغاية لا تتعدى حدودها أسوار مدينة أو قلعة واحدة. ولفظ أتابك هو لفظ تركى مركب يتكون من شِقَّيْن: «أتا» بمعنى أب و«بك» بمعنى الأمير، وعلى هذا النحو فكلمة أتابك تعنى: الأب الأمير أو الوالد الأمير، وتعنى أيضًا: الوصى والمربى لسلطان صغير أو أمير قاصر. فقد اعتاد سلاطين السلاجقة أن يعينوا أتابكًا أى وصيا أو مربيا لأبنائهم الصغار يتولى تربيتهم وإعدادهم عسكريًا وسياسيًا.

ولقد مال السلاجقة إلى إسناد حكم الأقاليم المختلفة فى سلطنتهم إلى أتباعهم وأفراد أسرتهم حتى ولو كانوا صغارًا، وكان طبيعيًا أن يصاحب الأتابك الأمير السلجوقى الصغير إلى ولايته الجديدة باعتباره وصيًا عليه؛ ومن ثم كان الأتابك يتولى جميع أمور الولاية نيابةً عن الأمير



القاصر. وفى كثير من الأحيان كان الأتابك يتزوج من أم الأمير القاصر الذى يتولى الوصاية عليه فتصبح العلاقة بينهما شبه أبوية، ويقوى مركز الأتابك الأدبى ويضمن الاستمرار فى منصبه حتى لو بلغ الأمير سن الرشد،. ونتيجة لذلك أصبح على رأس الولايات السلجوقية عدد من الأتابكة لا يدينون للسلطان السلجوقى بأكثر من ولاء اسمى، ويتحينون الفرصة المناسبة للاستقلال بولاياتهم. ومن هنا ظهرت الأتابكيات ومن أشهرها أتابكية عماد الدين زنكى فى الموصل، التى استمرت عشرين عامًا (من ٥٢١ هـ - ٥٤١ هـ/ ١١٢٧ - ١١٤٦م).

ولقد تولى عماد الدين زنكى حكم الموصل فى عام ٥٢١ هـ/ ١١٢٧م، وسرعان ما تزايد نفوذه فاستولى على حلب عام ٥٢٢ هـ/ ١١٢٨م، ثم استولى على حمص وبعلبك إلى جانب الموصل، ومن موقعه هذا بدأ يشعر بخطورة الوجود الصليبى فى بلاد الشام، لذلك بدأ حركة الجهاد ضدهم، ونجح بالفعل فى إسقاط إمارة الرها، إحدى الإمارات الصليبية التى أسسها الصليبيون فى بلاد الشام وذلك فى عام ٥٣٩ هـ/ ١١٤٤م.

وعماد الدين زنكى، هو أبو المظفر عماد الدين زنكى، ابن الأتابك آقسنقر البروسلى، وكان أبوه يُكنى (بقسيم الدولة)، وكان آقسنقر من خواص السلطان ملكشاه السلجوقى، وكان قد ولاه حلب وحمص وبعلبك وغيرها من البلاد الشامية.

ولما توفى آقسنقر ورث ابنه عماد الدين زنكى جميع هذه البلاد، وزاد مملكته حتى ملك الشام كله من (محمد بن يورى بن طغتكين) بعد حروب.

وفى سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٣٠م، لمَّا فرغ عماد الدين زنكى من أمر البلاد الشامية، حلب وأعمالها وما ملكه وقرر قواعده؛ عاد إلى الموصل وديار الجزيرة ليستريح عسكره ثم أمرهم بالتجهيز للغزاة فتجهزوا وأعدوا واستعدوا، وعاد إلى الشام فقصد حلب وقوى عزمه على قصد (حصن الأتارب) ومحاصرته لشدة ضرره على المسلمين. ويبعد هذا الحصن عن حلب تسعة كيلو مترات وكان بيد الصليبيين. ونجح زنكى فى هزيمة الصليبيين هزيمة ساحقة، ووقع كثير من فرسانهم فى الأسر وقُتل منهم خلق كثير، وتسلم المسلمون الحصن عنوة، وقام عماد الدين بتخريبه.

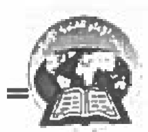
وسار عماد الدين بعد ذلك إلى (قلعة حارم) الواقعة بالقرب من أنطاكية، وكانت للفرنج أيضًا وقام بحصارها، ولَمَّا طال حصاره لها بذل أهلها نصف دخل بلدة حارم وهادنوه فأجابهم إلى ذلك.ثم ملَك زنكى، بعد ذلك، بلدتىْ (سرجى) و(دارا).

وفى سنة ٥٢٨هـ/ ١١٣٤م استولى زنكى على مدينتىْ (آمد) و(صور)، وقلاع الأكراد الحميدية، وهى: قلعة العقر وقلعة شوش وغيرهما. وفى سنة ٥٢٩ هـ/ ١١٣٥م، قام زنكى بحصار دمشق دون أن يستولى عليها. وفى سنة ٥٣١ هـ/ ١١٣٧م، حاصر مدينة (حمص) واستولى عليها، كذلك استولى على قلعة (بعرين)، وكانت للفرنج، وكانت من أمنع حصونهم، وقتل عددًا كبيرًا من الفرنج المتحصنين بها.

وفى سنة ٥٣٢ هـ/ ١١٣٨م، استولى زنكى على (حماة) و(بعلبك)، وفى سنة ٥٣٤ هـ/ ١١٤٠م استولى على دمشق، ثم توجه زنكى إلى (قلعة جعبر)، على الفرات بين بالس والرقة، قرب صفين، فقاتل صاحبها (شهاب الدين سالم بن فاتك العقيلى) ونصب عليها المجانيق، ونجح فى الاستيلاء عليها. وامتلك زنكى قلعة (الحديثة) على الفرات سنة ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢م، ونقل من كان من (أهل مُهارش) إلى الموصل، ورتب فيها نوابه. وفى هذه السنة خُطب لزنكى بمدينة (آمد)، وصار صاحبها فى طاعته.

وتوفى عماد الدين زنكى مقتولا فى ربيع الآخر سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦م، وعن وفاة زنكى يحدثنا (ابن الأثير)، فى كتابه الكامل وهو يتعرض لسيرته قائلاً: «قُتل فى هذه السنة الأتابك الشهيد عماد الدين زنكى، ابن آقسنقر صاحب الموصل والشام، وهو يحاصر قلعة جعبر، قتله جماعة من مماليكه ليلا، غيلةً، وهربوا إلى قلعة جعبر؛ فصاحوا على مَنْ بها من أهلها من العسكر يعلمونهم بقتله، وأظهروا الفرح، فدخل أصحابه فأدركوه وبه رمق».

ويواصل ابن الأثير حديثه بقوله: «حدثنى والدى عن بعض خواصه قال: دخلت إليه فى الحال، وهو حى، فحين رآنى ظن أنى أريد قتله، فأشار إلىَّ بإصبعه السبابة يستعطفنى، فوقعت من هيبته، فقلت: يا مولاى مَنْ فعل هذا؟ فلم يقدر على الكلام وفاضت نفسه رحمه الله. قال: وكان حسن الصورة، أسمر اللون، مليح العينين، قد وخطه الشيب



وكان قد زاد عمره على ستين سنة. وكان شديد الهيبة على عسكره ورعيته، عظيم السياسة، لا يقدر القوى على ظلم الضعيف. وكانت البلاد قبل أن يملكها خرابًا من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج، فعمَّرها وامتلأت أهلا وسكانًا».

ولمَّا قتل عماد الدين زنكى، انقسمت مملكته بين ولديه (سيف الدين غازى)، الذى اتخذ من الموصل مقرًا له، (ونور الدين محمود)، الذى اتخذ من حلب مقرًا له. وقد أخذ نور الدين خاتم أبيه من يده، وكان حاضرًا معه. وكان نور الدين قد وُلد فى مدينة حلب سنة ٥١١ هـ/ ١١١٧م، أيام حكم والده لها.

ولقد اشتُهر السلطان نور الدين بحسن سيرته وعدله، وقد امتدحه المؤرخ الشهير «ابن الأثير» فى كتابه الكامل بقوله عنه ما نُصه: «لقد طالعت سيرة الملوك المتقدمين فلم أرَ فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز أحسن من سيرته ولا أكثر تحريًا منه للعدل. وقد تميز هذا السلطان بالزهد والعبادة والعلم، وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف إلا فيما يخصه ويمتلكه من الغنيمة. ولقد شكت له زوجته من الضائقة المالية يومًا فأعطاها أجر ثلاث دكاكين فى حمص كانت له، يحصل له منها فى السنة عشرون دينارًا؛ فلما استقلتها، قال لها: ليس لى إلا هذا وجميع ما بيدى أنا فيه خازنٌ للمسلمين لا أخونهم فيه ولا أخوض نار جهنم لأجلك». وكان كثير الصلاة والتهجد بالليل، وكان عارفًا بالفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة. وكان يعظِم الشريعة ويقف عند أحكامها، وبنى دار العدل فى بلاده، وكان يجلس هو والقاضى فيها ينصف المظلوم حتى ولو كان يهوديًا من الظالم، وحتى لو أنه ولده أو أكبر أمير عنده، وأما شجاعته فإليها النهاية. وكان فى الحرب يأخذ بسيفين فيقاتل بهما، وقد قال له أحد الفقهاء: «بالله عليك، لا تخاطر بنفسك وبالإسلام، فإن أُصبت فى معركة لا يبقى بعدك من المسلمين أحدٌ إلا أخذه السيف». فقال له نور الدين: «ومنْ محمود حتى يُقال له هذا؟ مِن قبْلى من حفظ البلاد والإسلام؟ ذلك الله الذى لا إله إلا هو والله هو الحى القيوم».

وقد كان نور الدين يُكرم العلماء وأهل الدين ويعظمهم ويقوم إليهم إجلالا واحترامًا لهم ولا يرد لهم قولًا. وكان وقورًا مهيبًا مع تواضعه، وبالجملة فإن حسناته كثيرة ومناقبه غزيره.

ولقد حمل نور الدين محمود لواء الجهاد بعد وفاة أبيه، وقضى حياته من أجل تحقيق هدف أسمى وهو تطهير بلاد الشام من أيدى الصليبيين، فقام من أجل تحقيق ذلك سنة ٥٤٢ هـ/ ١١٤٧م، قام بالإغارة على عدة حصون للفرنج فأسر وقتل عددًا كبيرًا ممن كانوا يتحصنون فيها وكان أكبر تلك الحصون التى استولى عليها حصن (أرتاح)، وهو من أعمال حلب. وفى سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م، واقع نور الدين الفرنج وكسرهم الكسرة المشهورة عند (كفر لاثا)، بالقرب من حلب، وقتل منهم ألفًا وخمسمائة وأسر مثلهم، وعاد إلى حلب بالغنائم العظيمة والأسارى، وقد بعث ببعضها إلى أخيه (مودود).

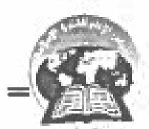
وفى نفس هذا العام افتتح نور الدين حصن (فامية)، وبلدة (سنجار). وفى سنة ٥٤٩ هـ/ ١١٥٤م ملك نور الدين دمشق من الأمير (مجير الدين أنر) وساعده فى ذلك بعض أهل دمشق ضد مجير الدين لزيادة ظلمه ومصادراته للناس، فلما تحرك نور الدين لطلب دمشق وافقه أهلها لما فى نفوسهم من مجير الدين.

وفى هذه السنة أيضًا تملك نور الدين (تل باشر) شمالى حلب، وهى من أمنع القلاع، وكانت بيد الفرنج.

وفى سنة ٥٥١ هـ/ ١١٥٦م، حاصر نور الدين (قلعة حارم)، وتقع شرق أنطاكية، وهى للفرنج أيضًا. وقد طلب أهلها الصلح فصالحهم على أن يعطوه نصف أعمال حارم. وفى السنة التالية مَلك نور الدين (حصن شيزر)، بالقرب من حماه، كذلك مَلك بعلبك وقلعتها.

ولقد أيقن نور الدين محمود بأن مشروعه لتطهير بلاد الشام من الصليبيين لن يتم وأن حلمه لن يتحقق إلا بالاستيلاء على مصر، والقضاء على الخلافة الفاطمية الشيعية فيها، والتى أتاح ضعفها الفرصة للصليبيين بالتواجد والتمركز فى بلاد الشام وإقامة أربع إمارات صليبية فيها هى: أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس، وتدنيس أرض الشام بأقدامهم الدنسة. واستيلاء نور الدين على مصر يجعل له الإطباق على الصليبيين من الشمال والجنوب الشرقى، ووضعهم بين شقىْ الرحى؛ الأمر الذى يُسهِل القضاء عليهم ومحو وجودهم من بلاد الشام.

ولقد أدت الأحداث التى وقعت فى مصر فى العصر الفاطمى الثانى إلى ضعف البلاد، هذا العصر الذى عُرف بعصر نفوذ الوزراء، ذلك لأنَّ الوزراء



أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد دون الخلفاء؛ بل أصبحوا يتدخلون فى تعيين الخلفاء وفى عزلهم. ولقد تلقب الوزراء كذلك بألقاب الخلفاء، فاتخذ الوزير (طلائع بن رزيك) على سبيل المثال، لقب (الملك الصالح).

ونظرًا لأهمية منصب الوزير فى العصر الفاطمى الثانى، وما تمتع به الوزراء من مكانة سامية، وازدياد نفوذهم، وتنافسهم على هذا اللقب ؛ غرقت البلاد فى حالة من الفوضى، كما أدى ذلك إلى استعانة الطامعين فى هذا المنصب بالقوى الخارجية، مما ترتب عليه تطلع هذه القوى بدورها لبسط سلطانها على مصر.

وفى عام ٥٥٨ هـ/ ١١٦٢م، حدث أن نشب صراع بين كل من (شاور)، والى الصعيد، الذى نجح فى انتزاع منصب الوزارة من (العادل بن طلائع بن رزيك) وبين (أبى الأشبال ضرغام بن عامر)، أحد قادة الجيش الفاطمى، حول منصب الوزارة، وذلك بعد تسعة أشهر فقط من توليه هذا المنصب. وتمكن ضرغام من هزيمة شاور، وأجبره على الفرار من بلاد الشام وتولى الوزارة بدلا منه، وفى بلاد الشام حاول شاور الاستعانة بنور الدين محمود، صاحب دمشق وطلب إمداده بحملة أو بجيش يستعين به على استعادة منصبه المغتصب وتعهد شاور لنور الدين محمود فى مقابل ذلك: أن يدفع تكاليف الحملة كاملة، وأن يدفع لنور الدين ثلث دخل مصر كجزية سنوية، وأن يدين لنور الدين محمود بالطاعة والولاء ويحكم مصر باسمه.

وفى الوقت الذى اشتد فيه الصراع على الوزارة بين شاور وضرغام، كان ملك بيت المقدس الصليبى «عمورى الأول» أمالريك، يستعد لغزو مصر، وقام بالفعل بغزوها فى ذلك العام (٥٥٨ هـ/١١٦٢م)، فوصل إلى مدينة (بلبيس)، وقام بحصارها. ولكن قوات ضرغام أرغمته على الانسحاب فى الوقت الذى هرب فيه شاور إلى الشام مستنجدًا بنور الدين. ووجد نور الدين الفرصة التى كان يترقبها لتحقيق حلمه بالاستيلاء على مصر وضمها إلى حكمه وبذلك يكون حاكمًا لمصر والشام من أجل إتمام مشروعه فى حصر الصليبيين بين هاتين الجبهتين.

ولقد قام نور الدين زنكى بتجهيز جيش يخرج مع شاور لمساعدته فى استعادة الوزارة، وقد جعل نور الدين قيادة هذا الجيش لأحد قواده الشجعان

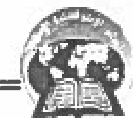
وهو «أسد الدين شيركوه»، الذى اصطحب معه ابن أخيه «صلاح الدين يوسف بن أيوب» الذى كان فى السابعة والعشرين من عمره. والتقى جيش شيركوه بجيش ضرغام على مقربة من القاهرة، ووقعت معركة بينهما انتهت لصالح شيركوه بهزيمة جيش ضرغام ومقتله عند محاولته للهرب من ميدان المعركة سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م.

وعاد شاور يتولى الوزارة، وأقام شيركوه بجنده خارج مدينة القاهرة وانتظر شاور للوفاء بتعهداته للسلطان نور الدين؛ لكن شاور نكث بعهده للسلطان وأرسل لشيركوه يطلب منه الجلاء بقواته عن أرض مصر، فرفض شيركوه طلبه وامتنع، ورد على إخلاله بعهده، باحتلاله مدينة بلبيس بالشرقية. فما كان من شاور إلا أن استنجد بالملك عمورى ودعا الصليبيين بأن يأتوا بقواتهم إلى دمياط برًا وبحرًا لتخليص البلاد من قوات نور الدين.

وما كان من ملك بيت المقدس إلا أن سارع بالمجئ إلى مصر، بناءً على طلب شاور، حتى لا تفوته مثل هذه الفرصة الذهبية التى لم يكن يتوقعها. وعند بلبيس وقف الجيشان النورى والصليبى وجهًا لوجه، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على أن يغادر الطرفان مصر. وكانت تلك مؤامرة من الملك عمورى يتم له من خلالها انسحاب قوات نور الدين، ومتى تأكد هو من ذلك سارع بالعودة بقواته لاحتلال مصر بحجة نجدة شاور. لكن عمورى، قبل أن يتم مؤامرته؛ سارع بالعودة إلى بلاده بسبب ما قام به نور الدين من إرسال جيش يهدد مملكته فى القدس.

ولقد أرسل الخليفة الفاطمى «العاضد» إلى نور الدين يشكو إليه استبداد شاور وتعسفه، فما كان من نور الدين إلا أن أمر شيركوه بالتوجه ثانيةً إلى مصر على رأس حملة كبرى بصحبة صلاح الدين. ووصلت هذه الحملة إلى مصر سنة ٥٦٢ هـ/ ١١٦٧م، واستقرت تلك القوات خارج الفسطاط.

ولمجئ هذه القوات النورية استنجد شاور بالملك الصليبى عمورى، الذى سارع، وللمرة الثالثة، بالمجئ بقواته إلى مصر، ووقعت بين الفريقين النورى والصليبى معركة حاسمة عند (البابين) قرب مدينة المنيا بصعيد مصر، وانتهت بانتصار جيش نور الدين. وعلى أثر الهزيمة ارتحلت القوات الصليبية إلى مدينة الإسكندرية، وقامت بحصار صلاح الدين، الذى كان نائبًا عن عمه



بها. ولمّا اشتد الحصار على صلاح الدين سارع عمه شيركوه بقواته لنجدته وفك ذلك الحصار. وانتهى الأمر بين المسلمين والصليبيين بالصلح على أن يغادر الطرفان مصر وعلى أن يتبادلا الأسرى فيما بينهما. لكن عمورى، كعادته فى نقض تعهداته، نقض الصلح مع شيركوه، وقام بالهجوم على مصر سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م. وقد قام الخليفة الفاطمى العاضد بطلب النجدة من نور الدين، فبعث إليه بملابس نسائه مستغيثًا لحماية شرف الخليفة من دنس الصليبيين، فما كان من نور الدين إلا أن كلَّف شيركوه وصلاح الدين بالقيام بحملة ثالثة على مصر، وطلب منهما أن تكون حملة فاصلة تقضى على خطر شاور وعلى دابر الصليبيين. فوصلت الحملة إلى مصر، ولمّا رأى عمورى كثرة أعداد جيش شيركوه آثر العودة إلى بلاده. ودخل شيركوه القاهرة، واستقبله الناس والخليفة الفاطمى استقبال الفاتحين. واستدعى الخليفة الفاطمى شيركوه وخلع عليه خلعة الوزارة ولقبه (بالمنصور).

وأرسل شاور للصليبيين، مرة أخرى، يطلب منهم مساعدته عن طريق دمياط، ودبر مؤامرة كان هدفها اغتيال شيركوه ورجاله، ولمّا انكشف أمره اجتمع رأى أعيان مصر لدى شيركوه أن يقتل شاور، لأنه رأس كل المصائب والنكبات التى حلت بالبلاد، فقام شيركوه بقتل شاور هو وابنه (الكامل) سنة ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م.

ولقد توفى شيركوه بعد خمسين يومًا من توليه الوزارة (٢٢ جمادى الثانى ٥٦٤ هـ/ ١١٦٩م) فخلفه فيها ابن أخيه صلاح الدين، الذى لُقب بلقب «الملك الناصر».

ولقد أرسل السلطان نور الدين إلى صلاح الدين يأمره بإلغاء الخلافة الفاطمية من مصر وإعادة تبعية مصر إلى الخلافة العباسية والمذهب السُنى. ولقد تم هذا الأمر حين أُلقيت أول خطبة جمعة دُعى فيها للخليفة العباسى (المستضئ بالله) فوق منابر مصر، وكان ذلك يوم أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧ هـ/ ١٠ سبتمبر ١١٧١م. وكان الخليفة الفاطمى العاضد قد اشتد به المرض فلم يدر بشىء عما حدث، وتوفى بعد هذا الإعلان بثلاثة أيام. وانقضت بذلك أيام دولة الفاطميين بمصر، وكان العاضد آخرهم، بعد أن حكموا مائتين وثمان سنوات.

ولقد استطاع صلاح الدين أن يتخلص من المصاعب والمؤامرات التى واجهها بعد إلغائه الخلافة الفاطمية من مصر، الأمر

الذى أدى إلى تثبيت مركزه فى مصر كتابع للخليفة العباسى ولسيده نور الدين محمود. لكن صلاح الدين طمع فى الاستقلال بحكم مصر وعدم تبعيته للسلطان نور الدين.

ولقد أحس السلطان نور الدين برغبة صلاح الدين فى الاستقلال بحكم مصر حين أرسل صلاح الدين رسولا من طرفه إلى الخليفة العباسى يحمل له البشارة بإلغاء الخلافة الفاطمية دون أخذ الإذن فى ذلك من سيده نور الدين. كذلك حين أمر نور الدين صلاح الدين بملاقاته عند حصن (الكرك) لمقابلة الصليبيين بجيشهما معًا ونكوص صلاح الدين عن ذلك خوفًا من أن يغدر به نور الدين هناك والقبض عليه أو قتله.

وعندما ازدادت شكوك نور الدين فى تصرفات صلاح الدين صمم على أن يخرج بجيشه لمصر لإزاحة صلاح الدين عنها. وأرسل نور الدين فى سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م موظفًا من عنده ليحاسب صلاح الدين بأن يقدم له كشف حساب عن إيرادات مصر ومصروفاتها. وكادت الحرب أن تقع بين العاهلين الكبيرين لولا أنَّ القدر كان رحيمًا بصلاح الدين ففاجأ الموت نور الدين بغتة يوم الأربعاء ١١ شوال عام ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣م عن عمر ٥٨ سنة فأنقذه من خطر محقق هدد وجوده فى مصر. وقد دفن نور الدين بقلعة دمشق، ثم نُقل جثمانه إلى مدرسته التى أنشأها بجوار الخواصين وكانت سلطنته ثمانية وعشرين عاما وستة أشهر. ومن أجل وحدة الصف الإسلامى، كان لزامًا على صلاح الدين حكم الشام والاستيلاء على ممتلكات نور الدين فى الشام بعد أن آلت إلى ابنه الطفل (الصالح إسماعيل)؛ فخرج فى نفس العام لفتح الشام، وصفت له كل بلاد الشام بعد معركة (تل السلطان) سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦م.

أ. د / عطية القوصى

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن الأثير : عز الدين على بن أحمد أبى الكرم : الكامل فى التاريخ ، دار صادر - بيروت ، ١٩٨٢.
- حسن حبشى : نور الدين والصليبيون - القاهرة ١٩٤٨م.
- سعيد عاشور : الحركة الصليبية - صفحة مشرقة فى تاريخ الجهاد الإسلامى فى العصور الوسطى - القاهرة ١٩٩٧م .
- ليلى عبد الجواد : تاريخ الأيوبيين والمماليك فى مصر والشام - القاهرة بدون بيان نشر.

بنـــو زهـــر

أسرة إشبيلية أندلسية شهيرة، نبغت فى الطب والكيمياء والصيدلة، دراسة وممارسة، وهؤلاء هم:

١- أبو مروان عبد الملك بن الفقيه محمد بن مروان بن زهر الإيادى:

كان فاضلا فى صناعة الطب خبيرًا بأعمالها وحاذقًا فى أمورها، وكان والده من جملة الفقهاء والمتميزين فى علم الحديث بإشبيلية.

وقد رحل أبو مروان إلى المشرق ودخل القيروان ومصر وتطبب هناك زمانًا طويلاً ثم رجع إلى الأندلس وقصد مدينة "دانية" أيام مجاهد العامرى الذى أكرمه كثيرًا وأقام عنده واشتهر بالتقدم فى صناعة الطب وشاع ذكره، لكن كانت له آراء شاذة منها مَنْعُه من الحمّام وخالف فى ذلك الأوائل والأواخر، وقد توفى فى إشبيلية وخلف أموالا جزيلة.

٢- أبو العلاء بن زهر:

ابن أبى مروان عبد الملك، مشهور بالحذق والمعرفة، وله علاجات تدل على قوته فى صناعة الطب واطلاعه على دقائقها، وكانت له نوادر فى مداواة المرضى ومعرفة أحوالهم وما يجدونه من الآلام، يَعْرف ذلك بمجرد النظر إلى قواريرهم أو عندما يجس نبضهم.

وكان فى دولة المرابطين، وحظى فى أيامهم بالمنزلة الرفيعة والذكر الجميل، وقد اشتغل بالطب وهو صغير فى أيام المعتضد بالله أبى عمرو عباد بن عباد صاحب إشبيلية، واشتغل أيضًا بعلم الأدب، وهو حسن التصنيف جيد التأليف، وقد وقع له كتاب القانون لابن سينا، فلما تأمله ذمّه ولم يدخله خزانة كتبه وجعل يقطع من طرزه ما يكتب فيه نسخ الأدوية لمن يستفتيه من المرضى.

يقول عنه بعض العلماء : إنه لم يزل يطالع كتب الأوائل متفهمًا ويلقى الشيوخ مستعلمًا حتى برز فى الطب إلى غاية عجز الطب عن مراميها.. وكان يفوق الكل سماحة ونَدَى لولا بذاءة لسان وعجلة إنسان، وأى الرجال تكمل خصاله؟ وله تلاميذ مشهورون فى الطب، وكان الرجل شاعرًا أيضًا، وقد توفى ودفن بإشبيلية، وله كتب منها :

كتاب الخواص- كتاب الأدوية المفردة- مجرِّبات - كتاب النكت الطبية . كتب بها إلى ابنه أبى مروان.

وقد أمر على بن يوسف بن تاشفين بجمع مجرياته، فجمعت بعد وفاة أبى العلاء فى مراكش وانتشرت فى سائر بلاد العدوة والأندلس، وكان ذلك سنة ٥٢٦هـ/١١٣١م.

٣ـ أبو مروان بن أبى العلاء بن زهر:

لحق بأبيه فى صناعة الطب، وكان جيد الاستقصاء فى الأدوية المفردة والمركبة، شاع ذكره فى الأندلس وغيرها واشتغل الأطباء بمصنفاته ومداواتها بصورة لم يسبق إليها.

وقد خدم الملثمين (المرابطين)، ونال منهم ثروة وأموالاً كثيرة، ثم خدم المهدى ابن تومرت، وكان اعتماده فى الطب عليه. وكان عالى القدر عنده ونال من عطاياه فوق ما تمنى، وألف أبو مروان له كتاب "الترياق"، وله حكايات فى معالجة المرضى وتتلمذ على يديه الكثيرون.

وللرجل كتب منها:

- كتاب التيسير فى المداواة والتدبير، وألفه للقاضى أبى الوليد بن رشد شيخ المالكية فى قرطبة.
- كتاب الأغذية ألفه لأبى محمد عبد المؤمن بن على.
- مقالة فى علل الكلى.
- رسالة كتبها إلى بعض الأطباء فى إشبيلية فى علتى البرص والبَهَق.

وقد توفى سنة سبع وخمسمائة هجرية، ١١١٣م ودفن بإشبيلية خارج باب الفتح.

٤ـ الحفيد أبو بكر بن زهر:

هو الشيخ الوزير الحكيم، ولد ونشأ فى إشبيلية وتميز فى العلوم وأخذ الطب عن أبيه أبى مروان ابن أبى العلاء بن زهر، وكان حافظًا للقرآن، ولم تغير الشيخوخة من نضارة وجهه وقوة حركته، وقد سمع الحديث ولم يكن فى زمانه أعلم منه باللغة، ولا بصناعة الطب التى أكمل صناعتها مع الأدب، وقد عالج الشعر وله شعر جيد كثير، وله موشحات يتغنى بها، وكان متين الدين محبًا للخير مع عقل وهيبة وجرأة فى الكلام، وقد اشتهر فى الأندلس وفى غيرها، وكان من أعظم أطباء الأندلس فى القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى)، وكان تلميذًا لعبد الملك الباجى فى الفقه المالكى والحديث، وكان جيد اللعب بالشطرنج، خدم الملثمين (المرابطين) والموحدين، وقد مات سنة ٥٩٦هـ/١١٩٩م فى مراكش

عن عمر يناهز التسعين ودفن فى مقابر الشيوخ.

وألف أبو بكر "الترياق" السبعينى والخمسينى للمنصور بن أبى يوسف يعقوب الموحدى، وله تلاميذ كثيرون.

٥- أبو محمد بن الحفيد أبى بكر بن زهر:

كان حسن الرأى جميل الصورة مفرط الذكاء محبًا للبس الفاخر، وكان كثير الاعتناء بصناعة الطب وتتلمذ على والده الذى أوقفه على كثير من أسرار هذه الصناعة .

وكذلك قرأ على والده كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى، وكان الخليفة الموحدى أبو عبد الله محمد بن الناصر بن المنصور أبى يعقوب يحترمه ويقدر علمه ويكرمه ويدنيه منه. تعلم النحو على أبى موسى عيسى ابن عبد العزيز الجزولى صاحب "المقدمة الجزولية".

وكان مولده سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م بمدينة إشبيلية، وتوفى مسمومًا فى مدينة "سلا" بالمغرب الأقصى سنة اثنتين وستمائة هـ/١٢٠٥م، وحمل جثمانه إلى إشبيلية حيث دفن هناك مع آبائه وأجداده، وكانت مدة حياته خمسًا وعشرين سنة.

وقد ترك ولدين أحدهما- وهو أبو العلاء- اهتم بصناعة الطب، وله نظر جيد فى كتب "جالينوس".

هؤلاء هم بنو زهر الذين شاع ذكرهم فى مجال الطب زمن المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ولهم فيه بحوث وريادات، ولهم تلاميذ كثيرون كما شفى على أيديهم الكثيرون.

أ.د / عبد الله محمد جمال الدين

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ عيون الأنباء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة (موفق الدين أبى العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدى الخزرجى) الجزء الثالث، تحقيق عامر النجار، القاهرة سنة ٢٠٠٠م.

٢ـ وفيات الأعيان لابن خلكان (شمس الدين أبى العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى)- أربعة أجزاء- الجزء الرابع تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، القاهرة سنة ١٣١٠هـ.

٣ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب للمقرى (شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى التلمسانى) القاهرة ١٨٦٢م.

٤ـ تاريخ الفكر الأندلسى، انخل جونثالث بالنثينا، ترجمه عن الأسبانية حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥٥م.

٥ـ سير أعلام النبلاء، للذهبى الحافظ شمس الدين أبى عبد الله محمد بن أحمد، عدة مجلدات.

٦ـ شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلى (أبى الفلاح عبد الحى)، عدة مجلدات- القاهرة، ١٣٥٠-١٣٥٣هـ.

"بنو زيري"

٣٦٢ – ٤٥٤هـ/٩٧٢-١٠٦٢م

بعد انتقال الفاطميين إلى مصر تركوا أمور إفريقية والمغرب فى أيدي بني زيري الصنهاجيين للحفاظ على النفوذ السياسي والديني للخلافة الفاطمية هناك. ولكن بعد استقرار المذهب الشيعي فى المغرب طيلة قرن ونصف من الزمان، تعرض هذا المذهب لفترة من الضعف مما حفز السُّنِّيين فى إفريقية على الثورة عليه بالقيروان والمهدية، حتى وصل الأمر إلى مقتل عدد كبير من أصحاب هذا المذهب وسالت الدماء بغزارة فى القيروان حتى وصل الأمر إلى أن سميت هذه المنطقة باسم "بركة الدم" أو محنة الشيعة.

فما الأمور التي استجدت، وما هى بواعث هذه الثورة وما هي أهم النتائج التي ترتبت على ذلك؟ إنها عدة جوانب تحمل بعض الاحتمالات نستعرضها خلال الدراسة نخلص منها إلى الدوافع والأسباب التي أدت إلى محنة الشيعة فى هذه الفترة بالذات ٤٠٦ – ٤٥٤هـ/١٠١٥- ١٠٦٢م فى عهد المعز بن باديس.

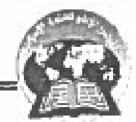
فيبدو أن طبيعة بلاد إفريقية تركت بصمتها على تاريخ هذه المنطقة فى عدم استقرار أحوالها السياسية أو المذهبية لأن هذه البلاد قد شهدت طوال فترة تاريخها الإسلامي تفرقا فى العصبية وتنوعاً فى المذاهب وتضاداً فى الانتماءات ولم تستقر أحوالها حتى بمجئ الفاطميين ولا حتى بعد رحيلهم إلى مصر (٣٦٢هـ/٩٧٣م) وقيام بني زيري بمهام الحفاظ على ممتلكاتهم ومذهبهم فى المغرب. وهذا ما سنحاول أن نجيب عنه.

نشأت النواة الأولي للدولة الفاطمية بإفريقية والمغرب[1]، وتولي الخلافة عبيد الله المهدي وهو آخر إمام مستور وأول خليفة ظاهر، واستطاعت هذه الدولة الجديدة أن تمكن لنفسها وتفرض المذهب الشيعي فى البلاد، بل بدأت تتجه بالدعوة الشيعية اتجاهاً عالمياً وتسعي إلى منافسة العباسيين والسيطرة على العالم الإسلامى فى الشرق والغرب، اعتقاداً منهم بأنهم الأحق بالرئاسة فى هذا العالم، لذلك اتجهوا إلى المشرق منذ اللحظة الأولى فى خلافة المهدى فبدءوا بنشر الدعوة الإسماعيلية فى مصر، وفى نفس الوقت كانت حملاتهم موجهة نحو المغرب والأندلس.

ولكن بالرغم من استقرار الفاطميين ببلاد المغرب إلا إنها ظلت أرضاً غير طيعة فى يد الفاطميين وواجهوا متاعب جمة، وثورات كان أشدها خطراً ثورة أبى يزيدبن مخلد بن كيداد وهو من قبيلة زناته وذلك فى سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م[٢]، فى عهد الخليفة القائم بأمر الله. وخطورة هذه الثورة أنها اتخذت طابع المعارضة القومية ضد أي سيادة تفرض على البربر كالسيادة العنصرية أو المذهبية. لذلك كانت هذه الثورة ذات صبغة قومية ضد السيادة الفاطمية وحليفتها القبائل الصنهاجية التى انضمت إليها بقيادة رئيسها زيرى بن مناد الصنهاجى ؛ وذلك للعداء التقليدي القديم بين صنهاجة وزناته. ونجح الخليفة المنصور الفاطمي فى القضاء على هذه الثورة فرأوا أن هذه البلاد لا تصلح أن تكون مركزاً لدولتهم إذ كان يسودها الاضطراب من حين لآخر؛ لذلك اتجهت أنظارهم إلى مصر لوفرة ثروتها وقربها من بلاد المشرق، الأمر الذى يجعلها صالحة لإقامة دولة مستقلة تنافس العباسيين.

وقد تكللت هذه الجهود الفاطمية بالنجاح فى عهد الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٣٤١هـ- ٣٦٢هـ/ ٩٥٠م - ٩٧٢م)، يقول ابن الخطيب: "وهو أعظم ملوكهم قدراً، وأجلهم خطراً وكان بعيد الصيت عظيم الجبروت وقوراً كثير التأنى ذهب بنفسه كل مذهب"[٣]، وقد انتقل إلى مصر لتصبح مقراً لدعوتهم ومستقراً لدولتهم[٤]. ليتمكنوا بها وبمواردها وموقعها الجغرافى من أن يقوموا بالدور الأكبر فى الحياة الإسلامية المعاصرة.

وكان المعز لدين الله قبل رحيله إلى مصر قد استدعي بلكين بن زيري ابن مناد الصنهاجي وكان من أكابر رجال صنهاجة الذين كان لهم دور فعال فى القضاء على الثورات التي قامت ضد الفاطميين، فهذه الأسرة وقفت بجوارهم فى أحلك الأوقات، وعرض عليه ولاية إفريقية . يقول ابن عذارى: "لما خرج أبو تميم المعز لدين الله من إفريقية إلى المشرق استخلف يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي، وأمر الكتاب أن يكتبوا إلى العمال وولاة الأشغال بالسمع والطاعة لأبي الفتوح.. وبقي أبو الفتوح أميراً على إفريقية والمغرب كله". وقد لقب المعز لدين الله بلكين باسم يوسف وكناه أبا الفتوح وأضاف إلى ألقابه "سيف العزيز بالله"- يعني ابنه نزار بن معد"[٥].



قبل يوسف بلكين بن زيرى الولاية بشروط المعز[٦]: وهي أن يبقي تابعاً للفاطميين تماماً والحكم باسمهم والمحافظة على المذهب الشيعي مذهباً رسمياً فى إفريقية والمغرب، ويبدو أن يوسف بلكين استعظم المهمة وقال للمعز: "يا مولانا، أنت وآباؤك الأئمة من ولد الرسول – صلي الله عليه وسلم – ما صفا لكم المغرب، فكيف يصفولي وأنا صنهاجي بربري؟!، قتلتني يا مولاي بغير سيف ولا رمح!" [٧]، ويريد بذلك أنه ينوء بحمل المسئولية التي عهد إليه المعز بها، فالمهمة كانت ثقيلة بالنسبة لبلكين لأنه أصبح مسئولاً عن المغربين الأدنى والأوسط بكل مشاكلهما.

وهكذا أصبح أبو الفتوح يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجى واليًا وأميراً شبه مستقل لكل بلاد إفريقية بأقسامها الثلاثة: طرابلس وإفريقية وبلاد الزاب لأن الخليفة المعز أضاف إلى ولاية يوسف بن بلكين طرابلس وسرت وأجدابية وذلك فى سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م، "واستوسق ليوسف بن زيري ملك كبير" [٨]. وقام بالمهمة التى عهد إليه الفاطميون بها خير قيام، يقول ابن الخطيب: "وتحرك يوسف إلى المغرب أول حركاته فهزم زناته واستأصل شأفتهم وفتح معاقلهم وسبى أموالهم وذراريهم، ففر جعفر بن على أمامه إلى الأندلس مستجيراً بملكها وانتهي يوسف إلى سجلماسة لا يدافعه أحد إلا حطمه، متبعاً أمير زناته المنتسب إلى (خزر) فأسره وتملك سجلماسة، ثم عاد إلى أشير فبني مدينة أشير، وعاني حروباً عظيمة ذكرها الناس ثم توفى فى بعض حركاته بين تلمسان وسجلماسة سنة أثنين وسبعين وثلاثمائة ٣٧٢هـ٩٨٢م" [٩].

وعلى هذا النحو تمكن يوسف بلكين ابن زيري من إقامة أول دولة بربرية مستعربة كبيرة إسلامية فى المغرب، ولكن الخلافة الفاطمية لم تتخلَّ عن سياستها التقليدية التي اتبعتها دائماً مع البربر طوال فترة وجودها بالمغرب والتى كانت قائمة على مبدأ المنافسة بين القبائل[١٠]. وإثارتها بعضها على بعض، فهل سيكون لهذه السياسة أثر ورد فعل تجاه ولاء بنى زيرى للفاطميين ولمذهبهم الشيعى؟

يبدو أن يوسف بلكين بن زيري لما قبل الولاية لم يكن فى الحقيقة يخدم الخلافة الفاطمية فقط بل كان يهدف إلى تثبيت أركان ملكه ويمهد أيضًا

للاستقلال بالمغرب كله وطَرْدِ الزناتيين من المغرب الأوسط كله إلى المغرب الأقصى، وقد نجح فى ذلك، يقول ابن الخطيب: "وكان زيرى مواليا للملوك الشيعة استظهاراً بهم على عدوه من زناته وبتحريضه وإجلابه دوخت جيوش الشيعة المغرب الأقصى"(١١). ومهد لنفسه بأن تقرب إلى الرعية وإلى فقهاء المالكية الذين كانوا ما زالوا ينظرون إلى بني زيري على أنهم مارقون ضالون مثل الشيعة فتواصلت مقاومتهم للنظام الفاطمي الذي تبنوه وساروا عليه فقاموا هذه الأسرة منذ البداية وتحدوهم واستضعفوا المشارقة من يوم ارتحل عنهم ممثلوهم الحقيقيون.

وقد حرص يوسف بلكين على التمسك فى البداية بحفظ المذهب ونشره بإفريقية والمغرب لأنه ما زال رجل الفاطميين، ولكن هذا الأمر قد تغير بعض الشيء لأن السياسة التى اتبعتها الخلافة الفاطمية تجاه بني زيري بعد رحيلهم بإثارة قبائل زناته وكتامه عليهم هى التى كانت من وراء هذا التغيير الذي سيظهر على سطح الحياة السياسية والدينية منذ عهد الخليفة العزيز بالله بعد أن أوى إليه أخوا بلكين وهما كباب ومغنين ابنا زيري بعد هروبهما من قصر أخيهما والتجآ إليه، وقد أمره العزيز بالله أن يعفو عنهما ولا يعرض لهما(١٢).

لذلك تأثرت العلاقة بين العزيز بالله وبلكين بن زيري وساد بينهما الفتور وأدى إلى شيء من التقارب مع أهل السنة باتباعه أسلوب المهادنة مع أهل إفريقية، وتعصباً لبنى جلدته؛ فنراه قد خفف من وطأة المذهب على إفريقية بل وأزاح عن كاهلهم الأعباء المالية التى أرهقتهم لأن المعز الفاطمى كان قد أوصى يوسف بلكين قبل الرحيل يوم أن ودعه: "لا ترفع الجباية عن أهل البادية ولا ترفع السيف عن البربر" (١٣). لذلك لم يكن يهم يوسف بلكين بعد رحيل الفاطميين مواصلة دعم المذهب بقدر اهتمامه بالمحافظة على ملكه والعمل على توسيع رقعته، فأصحاب المذهب الحقيقيون قد رحلوا إلى مصر، وكان هذا الرحيل من المغرب يعد كأول مسمار فى نعش المذهب الفاطمى، لذلك بدأ يوسف بلكين فى إضعاف وطأة المذهب الشيعى على إفريقية بالتقرب إلى فقهاء المالكية حتى يغيِّروا من نظرتهم إلى بنى زيرى(١٤)، لما لهؤلاء الفقهاء من تأثير كبير على عامة الشعب، وضح ذلك عند وفاه الفقيه أبى

سعيد خلف بن عمر المالكي الذي توفى سنة ٣٧٣هـ/٩٨٣م وصُلّي عليه فى مسجد القيروان وحضر الصلاة بلكين بن زيرى وجميع عسكره وأهل القيروان[١٥] وجميع أهل المذهبين من الموافقوالمخالف[١٦].

فسياسية المهادنة التى اتبعها بلكين مع أهل إفريقية وتقريبه إلى فقهاء المالكية عقب رحيل الفاطميين دعت بعض المؤرخين إلى القول بأن بلكين سُنِّيٌّ مستتر[١٧]وأنه كان لا يستطيع فى هذه المرحلة مخالفة الفاطميين من أول وهلة، والبعض الآخر رأي أنه فاطمي معتدل [١٨]. لأن أصحاب المذهب الحقيقي قد رحلوا إلى مصر، فمن الطبيعي أن يكون نوابهم أقل إخلاصاً لهذا المذهب لكنهم لا يستطيعون الجهر به. يقول ابن الخطيب عن بلكين: "كان حسن السياسة بالرعية"[١٩] فلم يتشدد فى فرض المذهب الإسماعيلي.

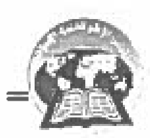
وسياسة الفاطميين التي اتبعوها مع بلكين بن زيري بإثارة زناته وكتامة قد آتت ثمارها فى عهد ابنه المنصور وخلفائه من بعده الذين أخذوا منهج يوسف فى الملاينة مع أهل إفريقية [٢٠]، فالمنصور بدأ يتحدي الخلافة الفاطمية، وقد ظهر هذا الأمر عندما أتاه الناس للتهنئة بتوليه الإمارة[٢١]بعد وفاة أبيه. يقول ابن عذاري: "إن ابي وجدي أَخَذَا الناس بالسيف قهرا وأنا لا آخذهم إلا بالإحسان، وما أنا فى هذ الملك ممن يُولَّى بكتاب ويُعْزَل بكتاب لأني ورثته عن آبائي حمير"[٢٢].

ويبدو أن هذه الرسالة كانت موجهة للخلافة الفاطمية فى عهد العزيز بالله؛ أي أنه لا يستطيع عزله وأنه قد صار ندا له مما يدل على توتر العلاقات بينهما لأن الخليفة العزيز بالله بعد أن رأي جنوح المنصور نحو الاستقلال ارسل له الداعي أبا الفهم الخراساني سنة (٣٧٦هـ، ٩٨٦م) من مصر[٢٣] وأمره بالتوجه إلى كتامة ودعا أهلها إلى طاعة العزيز بالله فأجابوه والتفوا حوله، ولكن المنصور استطاع القضاء عليه وعلى ثورته. وتوالت الثورات عليه من كتامه وذلك بإيعاز من الخليفة العزيز بالله. وبينما كانت علاقة المنصور بالفاطميين آخذةً فى التدهور كانت علاقته بأهل السنة آخذة فى التحسن. فلما لمس أهل إفريقية المالكية نزعته الاستقلالية أطاعوه؛ والدليل على ذلك ما ذكره ابن عذارى أنه لما رفع إليه أن عبداً من عبيده سب بعض الصحابة أمر بقتله والمناداة على رأسه بالقيروان [٢٤].

وكانت لسياسة المنصور بن بلكين

المعتدلة مع الجميع وإحسانه إلى جميع مخالفيه السياسيين الأثر البالغ فى هدوء الأحوال الداخلية بإفريقية وضبط أمورها حتى إنّ أهلها خرجوا للقائه فى جموع غفيرة حينما قدم إلى المنصورية القريبة من مدينتهم سنة ٣٨١هـ/٩٩١م. يقول صاحب الحلل السندسية: "كان رجلا عاقلا عفيفا جوادا جبلت القلوب على حب طاعته مما أحسن إليهم بكرمه، وورد عليه أهل القيروان للتهنئة ففرق عليهم عشرة آلاف دينار" بل أسقط عنهم الجبايات التى كانوا يدفعونها، ويضيف ابن الأثير "أنه أسقط البقايا عن أهل إفريقية وكانت مالاً جليلاً" [٢٥]. وانتهز أهل إفريقية من المالكية عطف المنصور عليهم والرفق بهم. "وفى خامس يوم من وصولهم من القيروان- أى القضاة والأمناء ووجوه الناس- دخلوا عليه فلاطفهم" فأظهروا كرههم للمذهب الشيعي وثبتوا فى الميدان وبدأوا يستجمعون قوتهم حتى وجدوا أنفسهم فى عهد باديس بن المنصور[٢٦] قوة مكتملة العدة وافرة العزم والحزم منتظرين اللحظة الحاسمة لإعلان ثورتهم إذ ليس من شك فى أن المذهب الذى يُضْطَهَدُ أتباعُه يَكْثُرُ أنصارُه ويزداد عدد مؤيديه سراً، ويسمو دعاته فى نفوس العامة إلى مراتب الشهداء فى سبيل الله[٢٧]. يقول السلاوى: "والمعروف أن مذهب مالك ظهر بإفريقية ظهوراً بينا قبل استيلاء صنهاجة والعبيديين على المغرب وذلك على يد أسد ابن الفرات، وعبد السلام التنوخى المعروف بسحنون، وغيرهما من أئمة المغاربة، فلما ظهرت دولة الشيعة بإفريقية حاولوا محوه فلم يتيسر لهم ذلك. وكان فقهاء المالكية فى ذلك العصر معهم فى محنة عظيمة منهم ابن أبي زيد والقابس وأبو عمران الفاسي وطبقتهم.."[٢٨].

وبدأ مالكية إفريقية فى أواخر عهد باديس يَتَحَدَّوْنَ المذهب الشيعي بإعادة ما أبطل الفاطميون من السنن المتعلقة بالصلوات والأذان والصيام كما جهروا بالتعليم السنى بمقتضي مذهب مالك[٢٩]. وظفروا بنوع أوفر من الحرية. وليس أدل على ذلك من أن مربي ولي العهد المعز بن باديس كان أبا الحسن بن على الرجال وهو سُنِّيٌّ مالكي المذهب. يقول ابن عذارى: "كان المعز بن باديس صغيراً إذ ولى وهو ابن ثمانية أعوام وقيل ابن سبعة أعوام، ربي فى حجر الوزير أبي الحسن ابن أبى الرجال وكان ورعا زاهداً، فحرض ابن أبى الرجال المعز بن باديس



وأدبه ودله على مذهب مالك وعلى السنة والجماعة، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان" [٣٠].

وهنا لنا تساؤل: هل باديس بن المنصور كان لا يعلم هذا الأمر؛ أى أن مربي ولده سُنّي المذهب وأن هذا الوزير قد طوى النفس على المذهب الذي كان يعتنقه حتى يستطيع أن يحقق غايته ويؤدى رسالته وهو الفوز بالمعز بن باديس وجذب قلبه ناحية أهل السنة وتنشئته على كره المذهب الإسماعيلى، وبغض الخلفاء الفاطميين؟، والحقيقية أن باديس قد سار على نهج أبيه من العطف على أهل إفريقية وخاصة التقرب إلى المالكيين. يقول صاحب الحلل السندسية: "وكان باديس محسناً جواداً، وذا أخلاق جميلة وسيرة حسنة"[٣١] ولكنه مازال لا يستطيع الجهر بما تعتريه النفس؛ فهو مازال رجل الفاطميين فى إفريقية بالرغم من محاولات الفاطميين إثارة القبائل الزناتية عليه في طرابلس بقيادة أميرها فلفل بن سعيد الذي استولى عليها؛ فيقول ابن دينار: "وقام فى أيامه فلفل الزناتى وعاث فى جميع أعمال باديس وكانت له مع فلفل وقعات عديدة وخرج عليه بعض الثوار بطرابلس فخرج بنفسه إليه واستنقذ طرابلس وولى عليها من قبله.. وكانت أيامه كثيرة الحروب والثوار عليه من أعمامه ومن الزناتيين وكان منصوراً عليهم فى أيامه"[٣٢].

لذلك أصبحت العلاقات بينهما زائفة تخفي وراءها ما كان قائماً بالفعل بين الحاكم بأمر الله وباديس من حقد وعداء؛ فقد كان الحاكم يضمر فى نفسه سوءاً لباديس لاتجاهه إلى الاستقلال فأخذ يحيك له المؤامرات [٣٣]. وبعد أن تمكن باديس من قهر كل محاولات الزناتية ومؤامرات الحاكم بأمر الله ضده لم يجد الحاكم بأمر الله بدّا من العودة إلى السياسة القديمة وهي سياسة التودد فأخذ يعمل على التماس مودة باديس بأن أرسل له الهدايا والسجلات ولولده المنصور، ولما مات باديس بن المنصور فجأة سنة ٤٠٦هـ/١٠١٦م بويع لابنه المعز. يقول ابن الخطيب: "ولما مات باديس فجأة بالمحلة تفاوض مدبرو الدولة ثم اتفقوا على القيام لولده المعز بن باديس؛ وبويع له يوم الاثنين لثلاث خلون من ذي الحجة من السنة المذكورة وعمره يومئذ ثمانية أعوام ووصله كتاب صاحب مصر فلقبه شرف الدولة"[٣٤]، ويبدو أن أبا الرجال كان له

دور فى هذا الاختيار برغم صغر سن الأمير. وقد تم هذا الفوز بعد أخذ البيعة للأمير المعز ؛ فقد كان أهل السنة وأنصارهم يعلمون علم اليقين أن الحسن بن أبي الرجال قد أدي مهمته كما يؤديها السني المخلص وأن المعز قد نشأ على مذهب أهل السنة[٣٥]. وقد ظهر أثر ذلك فى فجر ولاية الأمير المعز بن باديس؛ فقد كانت الأمور بإفريقية على وشك الانفجار، وضح هذا اثناء خروج الأمير بعد مبايعته بالإمارة فقد سار فى موكب حافل فدخل القيروان فى طريقه إلى المسجد يحف به الجند الصنهاجيون والسودان ورجال الدولة والقضاة والفقهاء وخرج أهل المدينة إلى الطرقات ليروا موكب الأمير الجديد؛ يقول ابن عذاري: "فخرج المعز.. فى زينته وحشوده وهو غلام فكبا به فرسه فقال عند ذلك :"أبو بكر وعمر" ، فسمعته الشيعة التي كانت فى عسكره فبادروا عليه ليقتلوه، فجاءه عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان، ووُضِعَ السيفُ فى الشيعة فقُتِل منهم ما ينيف على الثلاثة آلاف فسمى ذلك الموضع بركة الدم الآن"[٣٦]. فما كادت العامة تسمع ذلك من الأمير حتى انفجر غيظهم المكبوت وانصرفوا إلى المشارقة أي الشيعة ينتقمون منهم ومضوا إلى الحي الذي ينزلون به فى القيروان فقتلوا الرجال والنساء والأطفال وجرى الدم غزيراً حتى غطي بقعة كبيرة من الأرض أطلق عليها فيما بعد اسم بركة الدم.

ويبدو أن أهل السنة قد استغلوا هذه الظروف التى حدثت أثناء سير الموكب فرأوها مناسبة للانتقام من الشيعة فهي بمثابة الشرارة الأولي التي فجرت براكين الثورة فى نفوس السنيين عامة والمالكيين خاصة، أو قد تكون بسبب حدوث نزاع أثناء سير الموكب بين الفرق الصنهاجية والفرق السودانية؛فقد كانت صنهاجة تكره هؤلاء العبيد الذين كان استكثر منهم باديس وتري فيهم منافسا خطيراً ، ولا يبعد أن يكون بعض هؤلاء الجند السودان قد انتهز الفرصة السانحة وحاول أن يسلب وينهب فحدث اشتباك بين الجند والعامة، ورأى أهل السنة أن الفرصة ملائمة للانتقام من الشيعة فحرضوا العامة فانحدروا إلى حيهم فنهبوا وقتلوا[٣٧]، بل انتقلت هذه الثورة السنية إلى تونس أيضاً وأصبحت ثورة جامحة فى تونس فى نفس هذا العام سنة ٤٠٦هـ/١٠١٦م فقد قام أحد الأئمة



السنين ويدعي محرز بن مخلوف بدور رئيسى فى تلك الأحداث فأمر بقتل المشارقة ونهب مخازن الغلال[٣٨].

ونستخلص من هذا أن فتنة الشيعة هذه، لم تكن أمراً مبيتاً وفق خطة مرسومة وأن ما حدث من تطورات سريعة أثناء سير موكب الأمير كان فرصة مواتية للانتقام من الشيعة لأن أهل السنة قد كُبتوا طوال العهد الفاطمى، وقد جاءتهم الفرصة السانحة فى هذه اللحظة من شغب الجند فحرضوا العامة على الشيعة وأخذوا يتنفسون الصعداء ويتطلعون إلى الخلاص من وطأة المذهب الشيعى وأن هذه الحادثة قد تكون بمثابة المناورة ، التي ساعد بها المعز ، بقصد أو بلا قصد ، القوى الخفية المستعدة للقيام بالأعمال التي أعطاها إشارة الانطلاق عندما تلفظ باسم الشيخين. وقد روى المؤرخون[٣٩]. أن أغلب مدن إفريقية قد قلدت القيروان وهنا يعلق د. حسن محمود[٤٠]. على هذا فيقول: "يجب أن نلاحظ أن هؤلاء الرواة من أهل السنة الذين يكرهون المشارقة كرها عظيما أدى إلى مبالغتهم فى التقدير، إذ مما لا شك فيه أن أهل القيروان أو المهدية أو المنصورية أو تونس ليسوا غالبية الشعب الزيري لأن أهل المدن قلة إذا قيسوا ببقية الشعب النازلين فى السهول والضاربين فى الوديان الجبلية والمناطق الرعوية، كما أن قبيلة صنهاجة وعشائرها وبطونها المختلفة كانت بلا شك تكوِّن نسبة كبيرة جدًا من السكان، وكانت صنهاجة تدين بمذهب الدولة الرسمى وتحمى ذمار المشارقة فليس من المقبول أن نصدق ما رواه المؤرخون من القضاء على الشيعة قضاء مبرمًا؛ فمن الطبيعي أن الدولة الزيرية ما زالت إسماعيلية المذهب وظلت الخطبة تقام للفاطميين وتضرب السكة بأسمائهم "ولو ظاهريا حتى ذلك الوقت" .

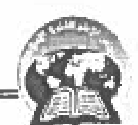
ويبدو أن تعاليم أبي الحسن على بن أبي الرجال مربي المعز بدأت تؤتي أكلها وتمشر ثمراتها ؛فالمعز كان كلما اشتد عوده وتقدمت به السن تقرب من أهل السنة وانحرف عن المذهب الشيعي، يقول ابن أبي دينار: "والمعز هذا لما اشتدت سلطته خرج عن طاعة بني عبيد وخطب لبني العباس"[٤١].، رغم أن العلاقات بين البيتين الفاطمي والزيرى كانت لا تزال تجري وفق التقاليد الموروثة، فقد روي المؤرخون أن مذهب أبى حنيفة بالقيروان قد ضعفت كلمته وعلا صوت مذهب

مالك [٤٢]. وظفر من تأييد المعز بما رفع شأنه؛ فليس غريباً أن تضعف الشيعة ويشتد أزر أهل السنة.

يقول ابن أبى دينار: "والمعز هو الذي طهر الله تعالى على يديه إفريقية من مذهب الشيعة وإن كان من عمالهم، إلا أنه كان لا يتمذهب بمذهبهم وحمل الناس فى أيامه على مذاهب مالك رضي الله تعالى عنه وقطع ما عداه، وكانت بإفريقية مذاهب الصفرية والشيعة والإباضية والنكارية والمعتزلة، ومن مذاهب أهل السنة الحنفية والمالكية فلم يبق فى ايامه إلا مذهب الإمام مالك" [٤٣].

وبدأ المعز ينحرف بسياسته علانية، وتعاطف مع أهل السنة، وبدأ يأخذ برايهم فى بعض الأمور، ويذكر ابن عذارى أن الأمر تمادى حتى قطع أهل القيروان "صلاة الجمع فرارًا من دعوتهم، وتبديعا لإقامتها بأسمائهم" [٤٤].

هذا الموقف من جانب المعز بن باديس ضد المذهب الإسماعيلي لم يكن مرتبطا فى هذه الفترة بالذات بأنه تربى تربية سنية فقط وإنما كان يومئذ يقدم مصلحته السياسية على ميوله المذهبية خصوصاً أن المذهب الفاطمى بصفة عامة قد أصابه الضعف فى عهد الخليفة المستنصر بالله بظهور السلاجقة الأتراك الذين بدأوا يعيدون المذهب السني إلى سالف عهده فى شرق البلاد الإسلامية، وفى الغرب الإسلامي بدأت تظهر دعوة جديدة هي دعوة عبد الله بن ياسين ثم بدأ يوسف بن تاشفين فى التوسع وإعادة المغرب الأقصى إلى السنة والجماعة. وأما المغرب الأوسط فكان قد أظهر المذهب السنى والطاعة للعباسيين وبذلك أصبح المذهب الشيعي مطوقاً ومحصوراً بين جناحي السنة فى الشرق والغرب مما مهد السبيل للمعز ليسهل عليه خلع طاعة الفاطميين ونبذ مذهبهم، فاجتمعت هذه الظروف السابقة كلها فى عهد المعز بن باديس ومهدت له بأن يقطع الخطبة للفاطميين [٤٥]، وانتهج فى ذلك السبيل أسلوب التدرج إلى حين التحول الرسمي لبني زيري عن المذهب الشيعي [٤٦]. وبدأ المعز يستجيب لميوله السنية ولعله أحس بخطورة عداء المالكية على مستقبله السياسي خاصة وأنه يعلم أن الإسلام السني لم يكن مقصورًا على القيروان وغيرها من الحواضر وإنما كان قريبا من قلوب كل سكان الأرياف إن لم يكن فى سويدائها، فأصبح الطريق ممهداً أمام التحولات المذهبية والسياسية



الرسمية التي فكر المعز بن باديس فى الإقدام عليها، ومما ساعده على هذا التحول التدريجي فى الجهر بميوله المذهبية اتصاله بحماد بن بلكين الذي أعلن انفصاله عن الخلافة الفاطمية ونبذ المذهب الشيعي، فلما تصالح معه أوجد حلا لمشكلته السياسية فلم يعد فى احتياج لتأييد الفاطميين الذين انشغلوا وقتئذ بمشاكلهم الداخلية كما سبقت الإشارة، وبالأحداث فى جبهتهم الشرقية عن الاهتمام بشئون المغرب مما فت فى عضد الشيعة بالمغرب.

وبداية هذا التحول كانت فى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م بإفساح المجال فى أروقه القيروان لتدور فيها مناقشات حول القضاء على الشيعة، وكان المعز يستطلع آراء الفقهاء المالكية وانطباعاتهم حول سياسته لأن المعز كان يعلم بتدابير الدولة الفاطمية الخفية فى إضعاف بني زيري بتقوية الزناتية عليهم، وقد اعتمد فى هذه الفترة على فقهاء السنة الصنهاجيين الذين دعموا له الموقف العام، لظهور السنة على الشيعة مثل محرز بن خلف وعلى ابن خلدون وشجعوه على ذلك(٤٧)، وكان المعز يميل إلى التريث فى قطع علاقته بالفاطميين، غير أن ضعف المستنصر بالله العبيدي من ناحية، ورغبة المعز فى تدعيم مكانته بين أهل السنة من ناحية أخري جعله يظهر فى سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م الميل للدولة العباسية، يقول ابن ابي دينار: "وفى سنة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر الدعوة لبني العباس وورد عليه عهد من الإمام القائم بأمر الله العباسي"(٤٨)، دون أن يقطع المعز علاقته بالفاطميين، ويبدو أن هذه الخطوة قد سبقتها مراسلات بينه وبين العباسيين، ومع ذلك لم يعلن المعز ابن باديس عن قطع الخطبة وتحويلها للعباسيين إلا فى سنة ٤٤٠هـ/ ١٠٤٨م "وفى سنة أربعين وأربعمائة قطع خطبة بني عبيد وقطع بنودهم وأحرقها بالنار"(٤٩).

وبدأت المراسلات بين المستنصر والمعز تأخذ لغة جادة يرد عليها المعز بالقدح فى شرعية الفاطميين، وكان يحاول فى هذه المراسلات أن يستميل الجرجانى وزير المستنصر بالله الفاطمي بالتحزب معه ضد الفاطميين. يقول ابن ابي دينار: "كان المعز يسب بني عبيد سراً إلى أن صرح به على المنابر وكان يكاتب وزير المستنصر ويستميله ويعرض له بالتحريض عليهم وإنما يكتب له تلويحاً لا تصريحاً، وكتب إليه قطعة بخط يده وتمثل فيها

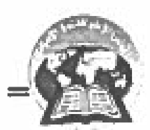
بيت من الشعر وهو:

وفيك صاحبت قوماً لا خلاق لهم

لولاك ما كنت أدري أنهم خلقوا[٥٠].

وقد أراد المعز أن يوقع بين الوزير وخليفته الشر، فقال الوزير لبعض أصحابه: "ألا تعجبون من صبي بربري مغربي يحب أن يخدع شيخاً عربياً"؟![٥١].

فلما بلغه ما أظهره المعز بن باديس من التودد إلى الخلافة العباسية واضطهاد الشيعة والدعوة للمذهب السني خاطبه محذراً وهو يراجعه بالتحريض على خلفائه والقدح فيهم. يقول ابن خلدون: "حتى أظلم الجو بينه وبينهم إلى أن انقطع الدعاء لهم". ويبدو أن الدولة الفاطمية أرادت أن تنتقم من المعز بإثارة الزناتية عليه قاموا بثورات عديدة فى أماكن مختلفة بإفريقية فما كان من المعز إلا أن استكمل خطواته للانفصال عن الفاطميين، يقول ابن عذاري: "وفى سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م، قطعت الخطبة لصاحب مصر وأحرقت بنوده، وأمر بأن يدعى على منابر إفريقية للعباس بن عبد المطلب وبقطع دعوة الشيعة العبيديين، فدعا الخطيب للخلفاء الأربعة وللعباس، ولبقية العشرة، وتمادى الأمر على ذلك حتى قطع أهل القيروان صلاة الجمعة فراراً من دعوتهم وتبديعاً لإقامتها بأسمائهم فكان بعضهم إذا بلغ إلى المسجد قال سرًا: "اللهم اشهد اللهم اشهد"، ثم ينصرف فيصلي ظهرًا أربعًا، إلى أن تناهى الحال حتى لم يحضر الجمعة من أهل القيروان أحد، فتعطلت الجمعة دهرًا وأقام ذلك مدة إلى أن رأي المعز بن باديس قطع دعوتهم، فكان بالقيروان لذلك سرور عظيم"[٥٢]. ولم يكتف المعز بذلك بل أمر بلعنهم فى الخطب وسبهم على منبر القيروان. ويبدو أن هذا السبّ أرضي ضمائر أهل السنة، ثم تلاحقت الخطوات لاستكمال الانفصال بأن أمر بتبديل العملة "وأمر بضرب دينار جديد عرف "بالدينار التجاري" وقد نقش على الأزواج فى الوجه الواحد: "ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين". وفى الوجه الثاني: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وضرب منها دنانير كثيرة، بل أمر بصهر ما كان عنده من الدنانير التي عليها أسماء بني عبيد وأمر بإزالة أسمائهم من الدراهم أيضاً ومن الرايات والبنود، يقول ابن عذاري: "إنه من تصرف بمال عليه أسماء بني عبيد نالته العقوبة الشديدة، فضاقت الحال بالفقراء والضعفاء وغلت الأسعار



بالقيروان وكان الدينار القديم بأربعة دنانير ودرهمين وكان صرف الدينار الجديد خمسة وثلاثين درهماً" (٥٣).

ثم جاءت الخطوة الأخيرة فى الانفصال الرسمي عن الفاطميين بأن أصبح لباس السوداء بالقيروان، وأمر القضاة والفقهاء وجميع المؤذنين والخطباء بلبس السواد تأييداً للعباسيين، وساد هذا الأمر أيضاً ببرقة؛ فقد "أعلن صاحبها السمع والطاعة للمعز بن باديس وأخبره أنه وأهل برقة قد أحرقوا المنابر التي كان يدعى عليها للعبيدية وأحرقوا راياتهم وتبرؤوا منهم ولعنوهم على منابرهم" (٥٤).

وعلى هذا النحو عم الخروج على طاعة الفاطميين بلاد المغرب كله من برقة حتى المحيط. ويبدو أن هذه الإجراءات السابقة التي اتخذها المعز بن باديس ضد الخلافة الفاطمية لم تأت من فراغ فهي إن دلت على شيء فإنما تدل على مدى قوة المعز ابن باديس ونضوجه السياسي.

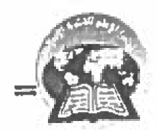
فقد ازداد موقفه ثباتاً بعد أن أمن جبهته الغربية بتصالحه مع القائد ابن حماد بن بلكين وأصبح بنو حماد هم المسئولين عن حماية هذه الجبهة الغربية من أي عدوان زناتي. يقول النويري: "وفى سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة/١٠٣٤م خرج المعز بجيوشه إلى قلعة حماد، وحاصرها مدة سنتين وضيق عليهم لرجوعهم إلى ما كانوا عليه من النفاق" (٥٥). وانتهى هذا الأمر بالصلح وتم تعزيزه بعدد من المصاهرات؛ فقد زوج المعز أخته لعبد الله ابن حماد ودعم هذه الجبهة الغربية واستفاد من خبرة حماد واعتبره كحاجز قوي يفصل بينه وبين زناته ويجعله يتفرغ للحرب ضد جبهة واحدة (٥٦).

وضحت قوة المعز عندما بدأ بالتدخل فى شئون جزيرة صقلية التابعة للفاطميين وذلك اعتماداً على قوته البحرية لأن الدولة الزيرية قد ورثت عن الفاطميين قوة بحرية هائلة تمثلت فى الأسطول البحري الضخم وعدد من الموانئ الهامة مثل المهدية وتونس وصفاقس وبونة "عنابة". وقد واتت المعز الفرصة ليقيم علاقات ودية مع الأسرة الكلبية التي كانت تحكم صقلية باسم الفاطميين (٥٧). وبدأ التعاون البحري مع مسلمي صقلية فى فجر إمارته أي منذ سنة ٤٠٦هـ/١٠١٥م حتى سنة ٤٢٤هـ/١٠٣٢م. فى شن الغارات البحرية على ممتلكات البيزنطيين فى جنوب إيطاليا (٥٨). وحاصروا مدينة سالرنة وهددوا ضواحي بارة وهاجموها سنة

٤١٤هـ/١٠٢٣م، يقول ابن الأثير فى أحداث سنة ٤١٦هـ: "وفى هذه السنة خرج الروم إلى جزيرة صقلية فى جَمْعٍ كثير وملكوا ما كان للمسلمين فى جزيرة قلورية وهي مجاورة لجزيرة صقلية وشرعوا فى بناء المساكن ينتظرون وصول مراكبهم وجموعهم من ابن أخت الملك، فبلغ ذلك المعز بن باديس فجهز أسطولاً كبيراً، أربعمائة قطعة، وحشد فيها وجمع خلقاً كثيراً وتطوع جمع كثير بالجهاد رغبة فى الأجر فسار الأسطول فى كانون الثاني فلما قرب من جزيرة قوصرة وهي قريبة من بر إفريقية خرج عليهم ريح شديدة ونوء عظيم فغرق أكثرهم ولم ينج إلا اليسير"[٥٩].

وبالرغم من ذلك لم تتوقف هجمات الأسطول الزيري والصقلى البحرية على أراضي الدولة البيزنطية بما فيها مقاطعة الليريةIllyria على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي وعلى بعض الجزر اليونانية وحتى ساحل تراقية وذلك فى سنة ٤٢٢هـ/١٠٣٠م - وهذه الإغارات التي شارك فيها الأسطول الزيري مسلمي صقلية تدل على مدى تعاظم قوة المعز بن باديس العسكرية . وأصبح من أشهر ملوك المغرب فى هذه الفترة مما دعا الإمبراطور البيزنطي إلى أن يخطب ود المعز . يقول ابن عذاري: "وفى ٤٢٦هـ وصلت إلى المعز بن باديس من ملك الروم هدية لم ير مثلها فى كثرة ما اشتملت عليه من أمتعه الديباج الفاخر وغير ذلك"[٦٠]. وعقدت معاهدة الصلح بينه وبين الإمبراطور البيزنطي حتى لا يقوم بشن غارات بحرية على ممتلكات البيزنطيين فى البحر المتوسط وحتى لا تتوقف التجارة بينهما.

وكان المعز بن باديس قد أرسل ابنه عبد الله إلى صقلية لمساعدة الكلبيين فى التصدي للغارات البيزنطية، ولكن بعد أن تعرضت صقلية لاضطراب فى أحوالها السياسية سنة ٤٣٢هـ سنة ١٠٤٠م وبدأت الحروب الأهلية بين ولاتها، انهار التحالف الزيري الكلبي بعد أن استعان أبو حفص زعيم ثورة نشبت فى صقلية بالزيريين، فأرسل المعز حملة لمساندة ابنه عبد الله والثائرين بها الذين ثاروا على أحمد الأكحل، وانتهت هذه الثورة بقتل الأكحل وتولي من بعد أخوه يوسف الملقب بصمام الدولة فطرد عبد الله بن المعز من الجزيرة، ولما بدأ تدخل النورمان فى الجزيرة استنجد أهل صقلية بالمعز فأرسل لهم نجدة ثانية بقوة بحرية



لمساندتهم [٦١].

وكانت قوة المعز الاقتصادية أيضاً من أهم الدوافع التي دعمت موقفه ضد الفاطميين؛ فهذا الأسطول الزيري لم يكتف بشن غارات بحرية على ممتلكات البيزنطيين فى جنوب إيطاليا، بل شارك فى نقل التجارة عبر البحر المتوسط وأصبح الأسطول الزيري والصقلي وأسطول البليار يجوبون البحر المتوسط ويقومون بنقل بضائع الشرق إلى غرب أوربا. لذلك تدخل المعز فى شئون صقلية لأن جزيرة صقلية كانت تمده بالأخشاب اللازمة لصناعة السفن بل كان قمحها ينقذ إفريقية فى فترات القحط التي تمر بها، ولعل أروج تجارة قام بها الزيريون هي تجارة العبيد التي كانت تدر عليهم دخلاً كبيراً بل أصبحوا هم الوكلاء والمصدرين لهذه التجارة فى حوض البحر المتوسط [٦٢]. لذلك نشطت الدولة الزيرية فى نقل هذه التجارة لأوربا والمدن الإيطالية- كل هذه الأسباب السابقة جعلت المعز بن باديس - كما يقول ابن خلدون- : "أهم ملك عرف للبربر بإفريقية وأترفه وأبذخه" [٦٣]؛ ساعده على ذلك النشاط التجاري واسع المجال فى حوض البحر المتوسط.

فما هي أهم النتائج التي ترتبت على سياسة المعز بن باديس تجاه الفاطميين؟

عندما أعلن المعز انفصاله عن الفاطميين كان فى أوج قوته وثرائه. وبتصرفه هذا كان قد أصاب الفاطميين فى مقتل لأن مصر فى هذه الفترة بالذات؛ أي فى خلافه المستنصر بالله الفاطمي (٤٢٧هـ- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥ سنة ١٠٩٤م)، كانت تعاني من أزمة اقتصادية طاحنة وأوضاع سياسية متردية وخصوصاً بعد مقتل وزيره التستري اليهودي سنة ٤٤٠هـ/١٠٠٩م [٦٤]. وتولى من بعده الوزير أبو محمد اليازورى، وحدثت فى عهده أزمة الغلال التى وصلت إلى مداها سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م. لذلك لم تقف الخلافة الفاطمية إزاء هذه الأحداث مكتوفة الأيدى بعد ضياع ملكها وثرواتها بإفريقية والمغرب. وأخذ الخليفة المستنصر بالله برأى الوزير اليازورى باصطناع قبائل بنى هلال وبنى سليم واستخدام مشايخهم وتوليتهم أعمال إفريقية ودفعهم إلى محاربة بني زيري فإذا انتصروا عليهم أصبحوا أعواناً للدولة الفاطمية وتتخلص من عنصر مدمر فى مصر، وبذلك يكون الانتقام من الزيريين بطريقة فذة

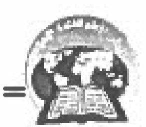
لا تكلف الدولة الفاطمية شيئًا[٦٥] .

فما أن اقتنع المستنصر بالله حتى بعث اليازوري رسوله مكين الدولة أبا على الحسن بن على بن ملهم العقيلي أمير أمراء الدولة يدور بأمر المستنصر على الهلالية، فبدأ بإصلاح ما بين زغبة ورياح وحمل إلى مشايخهم الأموال والخلع السنية وتولىَّ دفع ما عليها من ديات وأنعم على سائرهم ببعير ودينار لكل واحد منهم ووعدهم بالمدد والعدد وأذن لهم بالمسير إلى إفريقية فجاء منهم عدد كبير[٦٦].

وقد حققت الهجرة الهلالية نجاحاً كبيراً إذ سرعان ما اجتاحت مدينة برقة سنة ٤٤٣هـ/ ١٠٥١م حيث وجدوها بلاداً طيبة كثيرة المراعي خالية من سكانها بسبب هجرة سكانها منها أمام ضغط المعز بن باديس فاستقر العرب ببرقة واحتقر المعز شأنهم واستكثر من شراء العبيد حتى كون منهم فرقة يبلغ عددها ثلاثين ألف مملوك. وما لبث الهلاليون أن كتبوا لإخوانهم العرب في مصر يرغبونهم في البلاد واستغلت الخلافة الفاطمية هذه الفرصة؛ فبعد أن كانت الدولة تدفع لكل رجل يعبر النيل إلى المغرب ديناراً صارت تأخذ من كل واحد منهم دينارين فاستعادت ما كان أخذ منها أضعافاً[٦٧].

وبذلك اقتسم العرب المغرب الأدنى، فاستقر بنو سليم في برقة وطرابلس وخربوا المدينة الحمراء وأجدابية وأسمرا وسرت، وسار بنو هلال وجميع بطونها إلى إفريقية. يقول المقريزي: "كانوا كالجراد المنتشر لا يمرون بشيء إلا أتوا عليه"[٦٨]، ولم يتجه بنو هلال إلى إفريقية رأساً بل أوفدوا إلى القيروان جماعة منهم على رأسها مؤنس الرياحى وأعجب المعز بمؤنس، وفكر في الاستفادة من العرب الهلالية في تقوية مركزه في مواجهة منافسيه من بني حماد أصحاب القلعة فنصحه مؤنس بعدم التفكير في ذلك وعرَّفه بقلة اجتماعهم على الكلمة وعدم انقيادهم إلى الطاعة فألح عليه في ذلك إلى أن قال له المعز: "إنما تريد انفرادك حسداً منك لقومك" فعزم مؤنس على الخروج إليهم بعد ما أشهد بعض رجال المعز ثم رحل متوجهاً نحوهم ودعاهم ووصف لهم كرم المعز وإحسانه[٦٩].

فما كاد بنو هلال يصلون إلى نواحي إفريقية حتى عاثوا فيها فساداً فغضب المعز بن باديس وظن أن مؤنسًا إنما دفعهم انتقاماً فأمر بالقبض على أخي مؤنس،



فلما بلغ مؤنساً ما فعله المعز بأهله وولده، اشتدت نكايته وعظم بلاؤه "وقال: قدمت النصيحة، فحاق الأمر بي ونُسِبَت الخطيئة إليَّ. فكان أشد إضراراً من القوم وكان قد علم عورات القيروان، وعزم العرب من بني رماح والأثبج وبني عدي على الوصول إلى القيروان فقال لهم مؤنس: "ليس هذا عندي برأي وهذا يحتاج إلى تدبير" وأمرهم أن يملكوا بلاد المغرب شيئاً فشيئاً حتى يصلوا إلى القيروان، فقال له رافع بن حماد: "صدقت يا مؤنس. والله إنك لشيخ العرب وأميرها فقد قدمناك على أنفسنا فلسنا نقطع أمراً دونك"[٧٠].

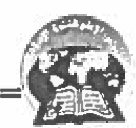
ثم قدم أمراء العرب إلى المعز فأكرمهم وبذل شيئاً كثيراً فلما خرجوا من عنده لم يجازوه بما فعل من الإحسان بل شنوا الغارات وقطعوا الطريق وأفسدوا الزروع وقطعوا الثمار وحاصروا المدن فضاق بالناس الأمر وساءت أحوالهم وانقطعت أسفارهم ونزل بإفريقية بلاء عظيم، وعزم المعز بن باديس على المبادرة بمحاربة العرب قبل أن يستفحل خطرهم، فجمع المعز قواته، واستنجد بابن عمه صاحب قلعة ابن حماد الذي بعث إليه كتيبة من ألف فارس، كما استصرخ المعز قبيلة زناته فقدم إليه المستنصر بن خزرون المغراوي فى ألف فارس، ثم خرج المعز بجيوشه من صنهاجة وزناته والبربر والعبيد وبقايا عرب الفتح فبلغ عدد جيوشه ثلاثين ألفاً[٧١]، أما عن معسكر العرب الهلالية فقد حوى جماعات من قبائل رياح وزغبة وعدى الذين أقبلوا من جهة قابس مروراً بجبل حيدران تحت قيادة مؤنس الرياحي. وعندما زحف المعز إليهم كان اللقاء فى منتصف النهار فى منطقة وعرة اختارها المعز، فلما رأت العرب عساكر المعز وهم مدججون بالسلاح وقد لبسوا الكزغندات[٧٢]، والمغامز هالهم ذلك ولكن مؤنساً نجح فى تهدئة روعهم ورفع معنوياتهم فقرروا الثبات فى مواجهة جيوش المعز، كما أشار عليهم مؤنس أن يطعنوا خصومهم المثقلين بالعتاد فى العيون[٧٣]. وهو ما أدى إلى تسمية هذه المعركة بيوم العيون، ولكن ما كادت المعركة تبدأ حتى ظهرت علامات الفشل فى المعسكر الصنهاجي، حيث بدأ العرب البلديون الذين كانوا فى جيش المعز بالانضمام إلى إخوانهم العرب الهلاليين. أما زناته وصنهاجة فقد خذلوا وفروا وتركوا المعز "مع العبيد حتى يرى فعلهم ويقتل

أكثرهم فثبت العبيد مع المعز فكثر القتل فيهم حيث قتل منهم خلق كثير وأرادت صنهاجة الرجوع على العرب فلم يمكنهم ذلك واستمرت الهزيمة وانسحب المعز في بعض خاصته نحو القيروان"[٧٤].

وكان النصر مؤزراً بالنسبة للعرب كما كانت الهزيمة قاسية بالنسبة لصنهاجة ؛ فلقد انتهبت العرب جميع ما كان بالمحلة من المال والعتاد، يقول ابن الأثير: "واشتعلت نيران الحرب وكانت العرب سبعة آلاف فارس فانهزمت صنهاجة وولى كل رجل منهم على منزله، وانهزمت زناته وثبت المعز فيمن معه من عبيده ثباتاً عظيماً لم يسمع بمثله، ثم انهزم وعاد إلى المنصورية، وأحصى من قتل من صنهاجة ذلك اليوم فكانوا ثلاثة آلاف وثلاثمائة . ثم أقبلت العرب حتى نزلت بمصلى القيروان ووقعت الحرب فقتل من المنصورية ورقادة خلق كثير، فلما رأى ذلك المعز أباح لهم دخول القيروان سنة ٤٤٤هـ/١٠٥٢م لما يحتاجون إليه من بيع وشراء"، فلما دخلوا استطالت عليهم العامة "ووقعت بينهم حرب كان سببها فتنة بين إنسان عربي وآخر عامي، وكانت الغلبة للعرب . وفى أربع وأربعين بني سور زويلة والقيروان"[٧٥]، وانتقل المعز إلى المهدية فى شعبان ٤٤٩هـ/ سبتمبر سنة ١٠٥٧م .

وكان لخروج المعز بن باديس من القيروان ردود فعل سيئة هناك إذ دخل العرب القيروان واستباحوها وخربوا عمرانها ومبانيها وعاثوا فى محاسنها وطمسوا معالمها وجردوا قصورها مما كانت تحتويه من روائع وتحف وشملوا بالعبث والنهب كل من بقي فيها من أهلها فتفرق الناس فى الأقطار وأصبحت إفريقية كلها تحت رحمتهم فانطلقوا فى أنحاء البلاد يستولون على مدنها وقراها ويقتسمونها فيما بينهم؛ ففى المرة الأولى كان لزغبة طرابلس وما يليها ولمرداس ابن رياح باجة وما يليها وذلك سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ثم اقتسموا البلاد ثانية فكان لبني هلال من قابس إلى المغرب وهم رياح وزغبة والمعقل وجشم وترنجه والأسبيح وشداد والخلط وسفيان.

وقد أحدث هذا الأمر تصدعاً لوحدة البلاد السياسية وانقسم هذا الكيان العظيم إلى مدن وإمارات متصارعة، وقد أصبحت القبائل العربية منذ ذلك الحين



إحدى القوى المؤثرة والمحركة للأحداث فى المغربين الأدنى والأوسط واستمر عداؤها للمعز بن باديس بالرغم من ارتباطه معهم برباط المصاهرة فقد لجأ إلى مصالحة أولئك العرب فصاهر بثلاث من بناته ثلاثة من شيوخ العرب من بني هلال هم فارس بن أبي الغيث وأخوه عائذ والفضل بن أبي على المرادي . وبفضل أصهاره هؤلاء تمكن المعز من الانتقال من القيروان إلى المهدية بسلام[٧٦].

وهذا الانتقال كان بداية انحلال الدولة الزيرية وتصدع وحدتها السياسية وانقسمت بلاد إفريقية والمغرب إلى دول للطوائف على نحو ما حدث فى الأندلس عقب سقوط الخلافة الأموية بقرطبة[٧٧]؛ ومن أهم هذه الدول دولة بنى زيرى وبنى هلال وبنى حماد، فقد ظل بنو زيري يحتفظون بالمهدية وأحوازها سفاقس وجزيرة جربة، واستولى بنو هلال على المناطق الممتدة فى الداخل من قابس إلى المغرب، واستقر بنو حماد فى بجاية .

وقد واجهت هذه الإمارات أخطاراً شاملة وصراعات دائمة على البقاء ولم ينقذها منها إلا ظهور دولة الموحدين فى المغرب الأقصى، التى استطاعت أن توحد المغرب بأكمله وتقضي على هذه الإمارات المتناثرة فى المغرب الأدنى وبذلك عادت الوحدة من جديد للمغرب الإسلامى.

ومجمل القول أن حادثه الأمير المعز بن باديس حيث كبت به الفرس فاستغاث متلفظاً باسمي الخليفتين "أبي بكر وعمر- " وهى التى بدت كإعلان لمناصرته للمذهب السني- هذه الحادثة وأن لم تكن سبباً مباشراً لتقويض المذهب الشيعي بإفريقية فإننا لا يمكننا أن نغفل شأنها؛ فقد كانت بمثابة الشرارة التي فجرت ما في نفوس أهل السنة حيث سجلها التاريخ ضمن الأسباب التي أدت إلى القضاء على مذهب الشيعة.

ولكننا نضيف عوامل أخري أدت جميعها إلى انحسار المذهب الشيعي عن إفريقية وتقوقعه فى مصر إزاء ازدياد نفوذ المذهب السني شرقاً وغرباً من العالم الإسلامي إلى جانب ازدياد قوة المعز السياسية والاقتصادية. ويبدو أن من أهم النتائج التي ترتبت على تقسيم بلاد المغرب على هذا النحو أن اهتم الصنهاجيون بشئون البحر ليعوضهم عما فقدوه من تقسيم ممتلكاتهم بين العرب الهلالية وبنى سليم وأصبحت الدولة منذ

ذلك الحين دولة بحرية واهتموا بدار صناعة الأساطيل بالمهدية وأصبح لديهم أسطول كبير ووجهوا جل اهتمامهم إلى التجارة وواصلوا نشاطهم التجاري السابق، بل والتعاون مع المرابطين في صد الحملات الصليبية في حوض البحر المتوسط وتخفيف وطأة الحملات الصليبية المتجهة إلى بلاد الشام.[٧٨]

أ.د / منى حسن محمود

الهوامش :

---

(١) انظر: ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية، صـ٦٩- ٧٠، وابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، صـ٢٠٦- ٢٠٧، والسراج: الحلل السندسية فى الأخبار التونسية، ص٩٣٦.

(٢) ابن أبى دينار: المؤنس، ص٧٣- ٧٥، ٧٨؛ السراج: الحلل السندسية، ص٩٠٢- ٩٠٣.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٦٥.

(٤) وذلك فى أواخر شوال سنة إحدى وستين وثلاثمائة (٩٧٢م)، واستعمل على إفريقية عاملا يسمى بلكين بن زيرى بن مناد الصنهاجى، انظر: السراج: الحلل السندسية، جـ١، ص٩١٦، وابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية، ص٧٩.

(٥) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص٢٢٨.

(٦) نفس المصدر، جـ١، ص٢٢٨- ٢٢٩. وانظر أيضًا: ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية. ص٩٦، وابن خلدون: العبر، جـ٦، ص١٨١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٦٥.

(٧) السراج: الحلل السندسية، ص٩٣٧.

(٨) المقريزى: اتعاظ الحنفا، جـ٢، ص١٤٣؛ الخطط، جـ٢، صـ١٥، وابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية، ص١٠٤، والسراج: الحلل السندسية، ص٩٣٧، وحسين مؤنس: تاريخ المغرب، ص١٣، وعبد العزيز سالم: المغرب الكبير، جـ٢، ص٦٥١.

(٩) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٦٧.

(١٠) حسين مؤنس: تاريخ المغرب (ط١)، ص١٣٧.

(١١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام: القسم الثالث، ص٦٧.

(١٢) ابن عذارى: البيان المغرب، جـ١، ص٢٣٧- ٢٣٨.

(١٣) ابن الأثير: الكامل، جـ٧،ص٤٧، وابن عذارى: البيان، ج١، ص٣٣١.

(١٤) ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية، ص١٠٤، وابن عذارى: البيان، جـ١، ص٣٣١.

(١٥) القاضى عياض: ترتيب المدارك، جـ١، ص٢٣٧- ٢٣٨ .

(١٦) نفس المصدر، جـ٣، صـ٤١٩ .

(١٧) على الشابى: الصراع المذهبى بإفريقية، ص٢٢٢، ومحمد أحمد عبد المولى: القوى السُنِّيَّة فى المغرب، ج٢، ص٧١٤.

(١٨) على الشابي: الصراع المذهبى، ص٢٢٢.

(١٩) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ، ص٦٧.

(٢٠) السراج: الحلل السندسية، ص٩٣٨، وابن الخطيب، ص٦٧، وابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٧.

(٢١) ابن عذارى: البيان، جـ١، ص٢٤١.

(٢٢) نفس المصدر، ج١، ص٢٤٠، وابن الأثير: الكامل، ج٧، ص١٧٢.

(٢٣) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص١٧٢.

(٢٤) ابن عذارى: البيان، جـ١، ص١٠٠.

(٢٥) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص١٧٢.

(٢٦) ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠١.

(٢٧) حسن محمود: محنة الشيعة فى إفريقية فى القرن الخامس، ص٩٣ – مقال بمجلة كلمة الآداب بجامعة القاهرة، المجلد الثانى عشر، جـ٢، ١٩٥٠م؛ محمد أحمد عبد المولى: القوى السنية فى المغرب من قيام الدولة الفاطمية إلى قيام

الدولة الزيرية، ج٢، دار المعرفة، الإسكندرية، ص٧١٤.

(٢٨) السلاوى: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج١، ص١٧، وانظر أيضًا: أبو إسحاق الشيرازى: طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، ص١٤٦، وأحمد بن سعيد الدرجينى: طبقات المشايخ بالمغرب، ص٢٢٨.

(٢٩) على الشابى: الصراع المذهبى بإفريقية، ص٢٢٢؛ الهادى روجى: الدولة الصنهاجية، ج٢، ص٢٠٧- ٢٠٨؛ رابح بونار: المغرب العربى: تاريخ وثقافته، ص١٩٠- ١٩١.

(٣٠) ابن عذارى : البيان، ج١، ص٢٧٧.

(٣١) السراج: الحلل السندسية، ص٩٣٩.

(٣٢) ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠٢.

(٣٣) السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج٢، ص٦٥٥- ٦٥٦.

(٣٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٧٣.

(٣٥) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٤، ٢٧٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٢٧٧- ٢٧٨؛ حسن محمود: محنة الشيعة، ص٩٤ .

(٣٦) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٣- ٢٧٤ .

(٣٧) المصدر السابق، ج١، ص٢٧٤ . وانظر أيضًا: حسن محمود: مرجع سابق، ص٩٧ .

(٣٨) الهادى روجى إدريس: الدولة الصنهاجية، ج٢، ص١٦٥- ١٦٦.

(٣٩) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٦٨- ٢٦٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٢٩٤- ٢٩٥؛ ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠٢ .

(٤٠) حسن محمود: محنة الشيعة بإفريقية فى القرن الخامس الهجرى، ص٩٥- ٩٦ .

(٤١) ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠٣ .

(٤٢) السراج: الحلل السندسية، ص٩٤٠؛ ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٤ وما بعدها؛ ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٢٧٩، ج٨، ص٣٩ .

(٤٣) ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠٢.

(٤٤) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٧ .

(٤٥) نفس المصدر، ج١، ص٢٧١، ٢٧٥؛ ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٢٩ .

(٤٦) الهادى روجى إدريس: الدولة الصنهاجية، ج١، ص١٥٤- ١٥٥، ١٨٢، ١٨٤- ١٨٥ ؛ محمد البيلى: التشيع فى بلاد المغرب، ص١٥٨ .

(٤٧) عياض: ج٤،ص٦٢٤، ٧١٣ ؛ السراج: الحلل، ص٩٤٧؛ الهادى روجى إدريس ، جـ١، ص١٥٤- ١٥٥ .

(٤٨) ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠٥.

(٤٩) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٦- ٢٧٧؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٣٩ .

(٥٠) ابن أبى دينار: ص١٠٥. وانظر أيضًا: السراج: الحلل السندسية، ص٩٤٠ .

(٥١) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٨٨.

(٥٢) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٨ .

(٥٣) نفس المصدر، ج١، ص٢٧٨- ٢٨٠.

(٥٤) نفس المصدر والموضع.

(٥٥) النويرى: نهاية الأرب، ج٢٤، ص٢٠٩ .

(٥٦) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٨٧؛ عبد الحليم عويس: دولة بنى حماد، ص٦٩- ٧٠ .
Marcais "Georges": La Berberie Musulmane et L,orient Au Moyen Age, Paris, 1949,PP.168-170 .

(٥٧) ابن عذارى: البيان، ج١، ص١٠٣- ١٠٤؛ السراج: الحلل السندسية، ص٧٠٤- ٧٠٥ .

(٥٨) عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، نقله للعربية توفيق الطيبى، ص٤٠، ٤٢ .

(٥٩) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٣٢٢، ج٨، ص٤٦ .

(٦٠) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٧٥.

(٦١) نفس المصدر والصفحة؛ الهادى روجى: الدولة الصنهاجية، ص١٥٩- ٢٦١.

(٦٢) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٢٧٨؛ حسين مؤنس: تاريخ المسلمين فى البحر المتوسط، ص٦٩.

(٦٣) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٨٧.

(٦٤) السيوطى: حسن المحاضرة، ج٢، ص١٥٣؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٥٠ .

(٦٥) لمزيد من التفاصيل راجع: ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٠٥؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٥٥ .

(٦٦) ابن خلدون : العبر، ج٦، ص١٨٧- ١٨٨؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٥٥-٥٦.

(٦٧) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٥٦؛ ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٨٩- ٢٩٠.

(٦٨) المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج٢، ص٢١٧.

(٦٩) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٥٦؛ ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٨٨- ٢٨٩.

(٧٠) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٨٩؛ ابن الأثير: الكامل، ج٨ ، ص ٥٦.

(٧١) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٩٠؛ السراج: الحلل، ص٩١٤ .

(٧٢) الكزاغندات: أردية محشوة بالقطن أو الحرير يستعملها الجنود فى الحرب. ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص٥٦ .

(٧٣) نفس المصدر والصفحة. ابن عذارى، ج١، ص٢٩٢. النويرى: نهاية الأرب، ج٤، ص٢١٣- ٢١٤ .

(٧٤) ابن عذارى: البيان، ج١، ص٢٩٢؛ وابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٥٦ .

(٧٥) ابن الأثير: نفس المصدر والموضع.

(٧٦) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٨٨؛ النويرى: نهاية الأرب، ج٢٤، ص٢١٧ .

(٧٧) حسين مؤنس: تاريخ المغرب، ج١، ص٦٠٤- ٦٠٥؛ السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ج٢، ص٦٧٣ .

(٧٨) ابن خلدون: العبر، ج٦، ص١٩٩؛ حسين مؤنس: تاريخ المغرب، ج١، ٦٠٥ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية.
- حسين مؤنس : تاريخ المغرب، ط١.
- السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير.
- ابن عذارى: البيان المغرب.
- المقريزى: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا.
- الهادى روجى إدريس: الدولة الصنهاجية.

-Marcais "Geonges" : La Berberie Musulmane et L,Oeient Au Moyen Age, Paris, 1949 .

بنو مدرار

أتم المسلمون فتح بلاد المغرب حوالى سنة ٩٠هـ /٧٠٨م وذلك بعد أن شارك فى أعمال الفتح مجموعة من القادة المسلمين، وكان آخرهم القائد موسى بن نصير الذى أتم فتح بلاد المغرب الأقصى، وبذلك صار المغرب بأقاليمه الثلاثة: المغرب الأدنى والأوسط والأقصى خاضعًا للخلافة الأموية فى دمشق التى كانت ترسل الولاة إلى القيروان عاصمة المغرب لإدارة شئون البلاد.

وقد مرّت الخلافة الأموية بظروف سياسية سيئة نتيجة المعارضة الشديدة من أصحاب الدعوات والمذاهب الأخرى كالشيعة والخوارج؛ وبطبيعة الحال تأثر المغرب الإسلامى كغيره من الأقاليم الإسلامية بهذه المعارضة التى اتخذت فى أحيان كثيرة الثورات المسلحة وسيلة لتحقيق أهدافها. وقد وجد دعاة المذاهب الخارجية (إباضية وصفرية) فى أرض المغرب مرتعًا خصبًا لبث أفكارهم ونشر مبادئهم بعيدًا عن قبضة الخلافة؛ وإذا كان دعاة المذاهب الأخرى من سنة ومعتزلة وغيرهما قد اكتفوا بنشر منهاجهم الدينى ومارسوا المعارضة النظرية، إلا أن دعاة المذاهب الخارجية أتخذوا من الثورات والكفاح المسلح طريقًا لتحقيق وجودهم وكيانهم وكثرت ثوراتهم بشكل خاص فى بلاد المغرب.

والواقع أن أصحاب هذه الدعوات الخارجية من إباضية وصفرية وجدوا ضالتهم المنشودة فى أرض المغرب، إذ إن بعد المنطقة عن قبضة الخلافة هيأ لهؤلاء الدعاة حرية الحركة فى نشر مبادئهم؛ تلك المبادئ التى كانت تعادى فى جوهرها السلطة الحاكمة؛ وفى نفس الوقت وجد هؤلاء الدعاة نفوسًا متطلعة لمعرفة الإسلام وأحكامه ومن ثم مارس الدعاة نشاطهم؛ فإذا ما وضعنا فى الاعتبار ما كان يعانيه السكان من ظلم وعسف بعض الولاة الأمويين من أمثال يزيد بن أبى مسلم وعبيد الله ابن الحبحاب، أدركنا لماذا أقبل كثير من سكان البلاد على اعتناق هذه المبادئ إذ فيها مخرج من الظلم الواقع على كواهلهم والتخلص من الأوضاع السيئة التى عاشوها؛ ويؤكد ذلك ما أشار إليه ابن خلدون بقوله: ثم نبضت فيهم عروق

الخارجية فدانوا بها ولقنوها من العرب الناقلة ممن سمعها بالعراق وتعددت طوائفهم وتشعبت طرقها من الإباضية والصفرية وفشت هذه البدعة وعقدها رءوس النفاق من العرب، وجرت إليهم الفتنة من البربر ذريعة الانتزاء على الأمراء، فاختلفوا فى كل جهة ودعوا إلى قائدهم طغام البربر يتلون عليهم مذهب كفرها ويلبسون الحق بالباطل فيها إلى أن رسخت فيهم عروق من غرائها[1].

وكانت الشرارة التى أشعلت نيران الثورة فى إقليم المغرب الأقصى سياسة الوالى عبيد الله بن الحبحاب الذى تولى ولاية المغرب من قبل الأمويين ١١٦هـ/٧٣٤م وكان مقرّه القيروان؛ إذ انتهج هذا الوالى سياسة عامة فى المغرب كان لها أوخم العواقب، حيث سار على نفس السياسة التى سار عليها بعض ولاة المغرب قبله من أمثال يزيد بن أبى مسلم ١٠١هـ / ٧٢٠م وهى سياسة الحرص على جمع الأموال من الهدايا؛ غير أن الوالى عبيد الله بن الحبحاب أسرف فى ذلك إسرافًا شديدًا واستخدم القسوة فى جمعها متقربًا بذلك إلى الخليفة هشام بن عبد الملك.

وقد أشعلت سياستة هذه نيران الثورة وحركت نفوس البربر بالعصيان، ونتج عن ذلك قيام ثورات مدمرة شهدها المغرب بشكل عام والمغرب الأقصى بوجه خاص، ودخل البربر فى صراع مسلح مع الخلافة وولاتها فى المغرب استمر فترة طويلة، وكان من نتائجه نجاح هذه الثورات ثم انفصال المغرب الأقصى عن سلطة الخلافة الأموية؛ وترتب على هذا الانفصال قيام دول مستقلة على أرضه، ففى شمال المغرب الأقصى قامت دولة الأدارسة ١٧٢هـ/٧٨٨م، وفى جنوبه قامت دولة بنى مدرار ١٤٠هـ/٧٥٧م فى سجلماسة.

ونشير فى إيجاز إلى هذه الثورة وهى ثورة ميسرة المضغرى الصفرى ١٢٢هـ/٧٣٩م وهو من قبيلة مصغرة التى اعتنقت المذهب الصفرى، واندلعت فى طنجة بالمغرب الأقصى، وقتل الثوار والى طنجة عمر بن عبد الله المرادى، ثم توجهوا إلى إقليم السوس وقاتلوا عامل الوالى ويدعى إسماعيل بن عبيد الله ابن الحبحاب؛ وبقتل هذين العاملين تخلص المغرب الأقصى من سلطة عمال بنى أمية وأصبح مستقلاً يحكمه ميسرة المضغرى.

ومن نتائج هذه الثورة أن الذى قام بها



لقب نفسه بلقب خليفة وبايعته قبائل البربر على ذلك، وهذا يعنى عدم اعتراف البربر بالسلطة الدينية للخليفة فى دمشق، وكان ذلك نتيجة انتشار مذهب الخوارج الصفرية بينهم وهو الذى ينادى بأن الإمامة ليست مقصورة على العرب بل يشترك فيها المسلمون جميعًا، وبذلك كانت ثورة على الإمامة القرشية مع إسراع البربر فى الالتفاف حول داعى الثورة مما يصور مدى ما انطوت عليه نفوسهم من كره لولاتهم.

الأوضاع السياسية فى سجلماسة:

تشير الروايات التاريخية إلى البدايات الأولى لنشأة إمارة سجلماسة حين تجمع عدد من البربر حول أحد زعمائهم ويدعى عيسى بن يزيد الأسود المكناسى وكان على المذهب الصفرى وصاحب ماشية ينتجع بها المراعى بجنوب بلاد المغرب، وكثيرًا ما كان ينتجع أرض سجلماسة ويتردد عليها، ويتصف هذا الموضع بأنه أرض واسعة يجتمع الناس فيها من قبائل البربر المحيطين به يتسوقون فيها، فنزل عيسى فى أرض سجلماسة سنة ١٣٨هـ/٧٥٥م حيث اجتمع إليه كثيرون من زناتة الصفرية وسكنوا معه فى خيام[٢]. وكان عددهم يتجاوز أربعة آلاف.

وقد بايعه كبير زناتة أبو القاسم سمكو بن داسول المكناسى الزناتى، وحمل قومه على طاعته فولوه عليهم؛ ولم تُعَرِّف المصادر بعيسى بن يزيد سوى أنه من موالى العرب ويدين بالمذهب الصفرى وأن شيخ مكناسة أبا القاسم بن داسول بايعه وحمل قومه على طاعته.

ويبدو أن أهل سجلماسة أخذوا على عيسى بعض المآخذ التى أنكروها عليه، فقبضوا عليه وشدوا وثاقه إلى أصل شجرة فى سفح الجبل بعد أن طلوه بالعسل وتركوه حتى قتلته الزنابير والنحل سنة ١٥٥هـ/٧٧١م[٣].

تولى خلفا لعيسى بن يزيد: أبو القاسم سمعون بن داسول المكناسى الملقب بمدرار (١٥٥ - ١٦٧هـ) (٧٧١- ٧٨٣م)، وكان حدادًا من الأندلس ووفد على المنطقة وأقام بمنطقة سجلماسة وكان يدين بالمذهب الصفرى وبايعه البربر إمامًا لمنطقة سجلماسة.

ولما توفى أبو القاسم سنة١٦٧هـ/٧٨٣م خلفه ابنه إلياس الملقب بالوزير ولكن أهل سجلماسة ثاروا عليه فى سنة ١٧٤هـ/٧٩٠م ولم تشر المصادر إلى سبب ثورتهم وخلعوه وأقاموا مكانه أخاه إليسع بن أبى القاسم الملقب بأبى منصور

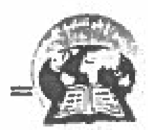
(١٧٤- ٢٠٨هـ/٧٩٠- ٨٢٣م) ويعتبر اليسع بن أبى القاسم المؤسس الحقيقى لدولة بنى واسول المعروفة بدولة بنى مدرار؛ ففى عهده استفحل مُلْك بنى مدرار فى سجلماسة وهو الذى أتم بناءها وتشييدها واختط بها المصانع والقصور وانتقل إليها فى ١٩٩هـ/٨١٤م[٤].

يقول ابن عذارى فى وصف إليسع: " وكان جبارًا عنيدًا فظفر بمن عانده من قبائل البربر وقهرهم وأذلهم وأظهر الصفرية وأخذ معادن درعه وعظم قدره فى ذلك الوقت؛ وكان موضع سجلماسة قد عمر بالديار دون سور ثم زاد ملك اليسع المذكور وأمر ببناء السور أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب، فقيل إن بناءه كان من ماله لم يشاركه فيه أحد فسكن سجلماسة وتوفى ٢٠٨هـ/٨٢٣م فكانت مدته بها نحو أربع وثلاثين سنة "[٥].

تولى مدرار الملقب بالمنتصر خلفا لوالده اليسع، وكان مدرار قد تزوج من ابنة عبد الرحمن بن رستم مؤسس الدولة الرستمية فى المغرب الأوسط وكان على المذهب الإباضى، تزوج ابنته وتدعى أروى وأنجب منها ابنه ميمون وحين كبر دخل فى صراع على الحكم مع أخ له وهو ابن مدرار وانتصر ابن الرستمية ولم يستمر طويلا فى الحكم نظرًا لاستبداده وإساءته السيرة فخلعه أهل سجلماسة ثم تولى ميمون بن تقية الذى استمر فى الحكم حتى ٢٦٣هـ/٨٧٦م.

ويشير أحد الباحثين إلى أن الدولة المدرارية لم تمر بأزمات سياسية كبرى أو تعرف أحداثًا عسكرية هددت عاصمتها قبل أن يدخلها الجيش الفاطمى عنوة وكل ما واجهته هو الصراع السياسى فى صفوف بنى واسول من أجل وراثة الحكم كما وقع بين إلياس بن أبى القاسم وأخيه أبى المنتصر؛ أو بين ولدى مدرار المنتصر بن اليسع (٢٠٨هـ-٢٥٣هـ/٨٢٣- ٨٦٧م)، وكذلك المعارضة من بعض القبائل كما حدث فى عهد اليسع بن أبى القاسم الملقب بأبى المنتصر لكنه نجح فى إخمادها[٦].

ومن الأحداث السياسية البارزة وصول عبيد الله المهدى وابنه أبى القاسم إلى مدينة سجلماسة هربًا من السلطة العباسية وكان ذلك فى عهد اليسع بن مدرار(٢٧٠هـ/٨٨٣م) إلا أن اليسع أمر بحبسهما إلى أن زحف أبو عبد الله الشيعى بجنوده ودخل سجلماسة وأطلق سراحهما وقتل اليسع ٢٩٧هـ/٩٠٩م،



وأقام أحد زعماء كتامة واليا على المدينة؛ إلا أن أهل سجلماسة ثاروا عليه وقتلوه وقدموا عليهم الفتح بن ميمون بن مدرار الملقب بالرسول سنة ٢٩٨هـ/٩١٠م حتى توفى سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م، ثم خلفه أخوه أبو العباس أحمد على إمارة سجلماسة.

ثم أرسل المهدى الخليفة الفاطمى جيشًا بقيادة وصالة بن حبوش استولى على سجلماسة وقتل أبا العباس سنة ٣٠٩هـ/٩٢١م؛ ورأى وصالة تولية أحد أبناء بنى مدرار الحكم باعتباره تابعًا للفاطميين فأقام المعتز بن محمد بن سادر ابن مدرار الذى تتابع أبناؤه فى الحكم من بعده.

وحين تولى محمد بن الفتح بن ميمون ابن مدرار الحكم سنة ٣٣٢هـ/٩٤٣م أمر بقطع دعوة الفاطميين ودعا إلى نفسه وتسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالشاكر لله[٧]. وأخذ بمذهب أهل السنة وطبع السكة باسمه ولقبه وكانت تسمى الدراهم الشاكرية، وظل فى مقعد الحكم حتى زحف إليه جوهر الصقلى فى خلافة المعز لدين الله الفاطمى سنة ٣٤٧هـ/٩٥٨م مما اضطر معه الشاكر لله إلى الفرار فى بعض خاصّته إلا أنه وقع فى الأسر حيث قبض عليه وحمل إلى القيروان ثم سجن برقادة إلى أن توفى سنة ٣٥٤هـ/٩٦٥م، وبوفاته انقرض آل مدرار أمراء سجلماسة[٨].

بعض المظاهر الحضارية:

تقع سجلماسة فى شمال وادى درعة فى المغرب الأقصى على طرف الصحراء جنوبًا وتليها المغارة الكبرى التى تؤدى إلى غانة من بلاد السودان وكان يسكن فى تلك المفازة قبائل الملثمين الصنهاجية من مسوفة ولمتونة؛ ومنطقة سجلماسة تعرف الآن باسم تافللت، أما المدينة القديمة فلم يبق لها إلا الذكر.

والمعروف أن مدينة سجلماسة مدينة محدثة إذ يشير كثير من المؤرخين إلى أن بناءها كان فى سنة ١٤٠هـ/ ٧٥٧م وأن بناتها كانوا من الصفرية من قبيلة مكناسة[٩]؛ هذه القبيلة التى أيدت ثورة ميسرة المصغرى حول طنجة سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م ضد الخلافة الأموية حيث نجح ميسرة فى الاستقلال بالمنطقة واتخذ لقب خليفة.

وينسب ابن عذارى بناء المدينة إلى أبى القاسم سمعون بن واسول المكناسى وكان صاحب ماشية كثيرة وكان ينتجع موضع سجلماسة [١٠]. والحقيقة أن

ابن واسول هو مؤسس الأسرة التى ستسود سجلماسة حتى قيام الدولة الفاطمية فى بلاد المغرب نظرًا لغناه ولأنه كان يرتاد المنطقة التى كانت سوقًا يجتمع فيه برير النواحى[11].

وتبعد مدينة سجلماسة عن مدينة فاس فى اتجاه الجنوب الشرقى ٣١٥ ك.م وتعد آخر مرحلة فى اتجاه الطريق الصحراوى نحو بلاد السودان؛ وقد أسست على وادى زيز وهو مصدر حياة الواحة . يقول ياقوت: مدينة فى جنوبى المغرب فى طرف بلاد السودان؛ بينها وين فاس عشرة أيام تلقاء الجنوب وهى فى منقطع جبل دَرَن فى وسط الرمال، يمر بها نهر كبير يُخَاضُ قد غرسوا عليه بساتين ونخيلاً مد البصر، وعلى أربعة فراسخ منها رستاق يقال له تيومتين على نهرها الجارى فيه من الأعناب الشديدة الحلاوة ما لا يُحَدّ[12].

ويشير البكرى إلى مسالك سجلماسة نحو الجنوب بقوله: ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان إلى غانة وبينها وبين مدينة غانة مسيرة شهرين فى الصحراء غير عامرة إلا بقوم ظاعنين ولا يطمئن بهم منزل وهم بنو مسوفة من صنهاجة ... وبين سجلماسة ووادى درعة مسيرة خمسة أيام[13]. ونلاحظ وجود عدد من الحصون ومن القلاع قرب سجلماسة، وهذه الحصون والقلاع بها مياه ونخل كثير ويشرف عليها جبل فيه معدن فضة معلوم هناك.

وهذه الحصون والقرى تثبت - إلى جانب قرى وادى درعة الكثيرة والمعروفة بإنتاجها الزراعى- أن سجلماسة محاطة من الشمال ومن الشمال الغربى بمنطقة عمرانية ولا تبدأ المغارة الحقيقية إلا فى اتجاه الجنوب، إن غزارة ينابيع وادى زيز جعلت القبائل الرحل والمسافرين يستطيعون الإقامة فى ذلك البراح الذى تحيط به السهول والسياخ وهى مرعى ثرى للإبل وقد انقلب البراح مع المكناسيين إلى قرية صحراوية اتخذ سكانها الخيام فى بداية الأمر منازل لهم وجعل الاستقرار السياسى القائم على عصبية قبيلة مكناسة والقبائل الحليفة لها والنشاط التجارى الذى بدأ يعيشه المغرب الإسلامى فى نهاية القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى، جعل القرية تتحول إلى مدينة متطورة[14].

وقد شرع الأمير أبو منصور اليسع بن أبى القاسم فى سنة ١٩٩هـ/٨١٤م فى بناء سور للمدينة من ماله الخاص يصون به سكانها وأموالهم من الغارات وشيد



أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب وجعل له اثنى عشر بابًا وقد انتقل إليها فى سنة ٢٠٠هـ/٨١٥م وقسمها على القبائل؛ ولم يقتصر عمله على بناء السور بل بنى جامعًا متقن البناء تحيط به القصور[١٥]. ويشير البكرى إلى أن مدينة سجلماسة أضحت فى مطلع القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى مدينة متسعة الأرجاء ذات أحياء مختلفة يحيط بها سور. وأنشأ كذلك فى ضواحيها أرباضا كثيرة وبساتين نخل شاسعة كما بنى أمراء بنى مدرار مقرًا لحكمهم أطلقوا عليه القصبة[١٦].

وفى المجال الاقتصادى:

ففى الزراعة: وهى تنحصر فى مجالين: الزراعة فى بساتين الواحة وتربية الماشية؛ ويقسم الفلاحون الأراضى إلى أحواض ترويها مياه الوادى بفرعيه الشرقى والغربى وهى التى تمد سكان المدينة بأنواع الخضر والثمار وقد تنوعت المحاصيل ومنها العنب والقطن والكمون والكراوية والحناء والتمور. ويقول أحد الباحثين عن كثرة التمور وتنوعها: وفيه ستة عشر صنفا من التمر ما بين عجوة ودقل وأكثر أقوات أهل سجلماسة من التمر، وتمثل أنواع التمور هذه أبرز صادراتها الفلاحية إلى جانب الحناء والماشية[١٧].

وفى مجال الصناعة: إن التطور الذى عاشته سجلماسة ابتداء من نهاية القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى ساهم فى نشوء أنواع من الحرف وازدهارها . ومن أبرز هذه الصناعات اليدوية: صناعة النسيج المعتمد على قطن الواحة وعلى الصوف المأخوذ من ماشيتها، وهناك حرف أخرى كصناعة الأوانى النحاسية والصناعة القائمة على معدن الذهب المجلوب إلى سجلماسة من السودان[١٨].

وفى مجال التجارة: ومدينة سجلماسة مدينة تجارية نظرًا لهجرة كثير من الناس للإقامة بها فضلاً عن مركزها الحساس فى مفترق مسالك تجارية شهيرة فى تاريخ التجارة المغربية فى العصور الوسطى . وكانت التجارة مصدر الثروة الكبيرة التى تجمعت بالمدينة ولا سيما الثروة الذهبية التى كانت بأيدى سكانها وخاصة فئات التجار منهم، يقول عنهم ياقوت:" أهل هذه المدينة من أغنى الناس وأكثرهم أموالا لأنها على طريق من بريد غانة التى هى معدن الذهب ولأهلها جرأة على دخولها"[١٩].

وقد أصبحت مهنة خفارة القوافل التجارية من سجلماسة نحو فاس وأغمات

والسوس ثم نحو الجنوب فى اتجاه أودغشت وغانه عملا يدر على قبائل البربر المقيمة بالقرب من المسالك التجارية أرباحًا طائلة فهم يفرضون عليها ضريبة فى مقابل حراسة القوافل[٢٠].

وأما صادرات سجلماسة المتجهة إلى أودغشت وغانة وتكرور فأهمها القمح وأنواع التمور والثمار من المنسوجات والنحاس المصنوع والملح؛ وأما وارداتها فالذهب والرقيق والعنبر وأشجار الصمغ.

الحياة الفكرية:

تأسست إمارة سجلماسة على أسس وقواعد المذهب الصفرى الذى أقبل عليه البربر واعتنقوه نتيجة لظروف سياسية كانت تمر بها بلاد المغرب فضلا عن الخلافة الأموية التى عانت الكثير من المعارضة المذهبية سواء من الشيعة أو من الخوارج. وقد أقبل البربر على اعتناق مذهب الخوارج بشقيه الإباضى والصفرى لأنه يدعو إلى المساواة المطلقة بين المسلمين وأن الإمامة حق لكل مسلم؛ فبديهى أن يلقى ذلك المذهب قبولا لدى البربر الذين طال حرمانهم من المساواة مع العنصر العربى ومن الطبيعى أن تتولد لديهم نزعة قومية مغربية لإزاحة نفوذ الأقلية العربية من مكان الصدارة والحكم فى إطار شرعى يكفله الدين[٢١].

ويهمنا فى هذا المجال الإشارة إلى المذهب الصفرى الذى انتشر فى بلاد المغرب واعتنقه العديد من أبناء القبائل؛ وخير دليل على نجاح المذهب الصفرى وانتشاره أن أول ثورة خارجية اندلعت على أرض المغرب كانت بزعامة ميسرة المضغرى وقبيلة مضغرة التى اعتنقت المذهب الصفرى؛ وقد أدى هذا النجاح الذى حققه ميسرة سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م بمجموعة الصفرية إلى تتابع الحركات الصفرية على أرض المغرب متخذة النشاط المسلح وسيلة لتحقيق أهدافها.

وأما الصفرية فهم أصحاب زياد بن الأصفر وقيل اصفروا بما نهكتهم العبادة. وقولهم فى الجملة كقول الأزارقة من أن أصحاب الذنوب مشركون غير أن الصفرية لا يرون قتل مخالفيهم ونسائهم، وكل الصفرية يقولون بموالاة عبد الله بن وهب الراسبى وحَرْقوص بن زهير وأتباعهما من المحكمة الأولى ويقولون بإمامة أبى بلال مرداس الخارجى بعدهم وبإمامة عمران بن حطان السدوسى بعد أبى بلال[٢٢].



ومن آرائهم: لم يحكموا بقتل أطفال المشركين وتكفيرهم وتخليدهم فى

النار، وقالوا: التقية جائزة فى القول دون العمل وفى قضية الإيمان والشرك من البراءة فقالوا: نحن مؤمنون عند أنفسنا ولا ندرى لعلنا خرجنا من الإيمان عند الله، والشرك: شركان : شرك هو طاعة الشيطان، وشرك هو عبادة الأوثان . والكفر كفران: كفر بإنكار النعمة، وكفر بإنكار الربوبية. والبراءة براءتان: براءة من أهل الحدود سُنَّة، وبراءة من أهل الجحود فريضة[٢٣].

وكانت البدايات الأولى للمذهب الصفرى فى بلاد المغرب على يد عكرمة مولى ابن عباس . وأصل عكرمة من البربر؛ كان لحسين بن الحر العنبرى فوهبه لابن عباس رضى الله عنهما حين ولى البصرة للإمام على بن طالب رضى الله عنه . واجتهد ابن عباس فى تعليمه القرآن والسنة، وسماه بأسماء العرب. أما عن دراسته وثقافته فقد تلقاها على أيدى جماعة من صحابة رسول الله ﷺ يأتى فى مقدمتهم ابن عباس وعبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة وأبو سعيد الخدرى وغيرهم، وبذلك صار أحد فقهاء مكة وتابعيها.

لقد طّوف عكرمة فى العديد من البلدان ونسبت إليه بعض آراء الخوارج، وتولى عكرمة مهمة نشر المذهب الصفرى وفى القيروان اتصل سمكو بن واسول المكناسى بعكرمة ومنه تلقى أصول المذهب الصفرى، وفى رواية أخرى أن سمكو بن واسول ارتحل إلى المدينة فأدرك التابعين وأخذ عن عكرمة [٢٤].

ويبدو أن سمكو بن واسول أخلص فى اقباله على دراسة المذهب وقواعده حتى وصف بأنه من مشاهير حملة العلم، وبعد وفاة عكرمة سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م حمل سمكو مهمة نشر المذهب الصفرى بين قبائل البربر وخاصة قبيلة مكناسة؛ وحتى يكتب لدعوته النجاح اتجه إلى المناطق الصحراوية جنوب المغرب الأقصى، وفى واحة تافيلت حيث ملتقى القبائل الرعوية تظاهر بتربية الماشية واتخذ من ذلك وسيلة لنشر مهمته الأصلية وهى نشر المذهب الصفرى بين الرعاة وأفراد القبائل وواصل ذلك العمل حتى صارت خيمته ملتقى لأتباع المذهب الصفرى[٢٥].

وامتدت دعوة الصفرية إلى العديد من القبائل وفى مقدمتها قبائل مكناسة ومطغرة وبرغواصة، واستغل أنصار الدعوة الجديدة البعد المكانى عن القيروان فضلاً عن انشغال الولاة بالأحداث المحيطة بهم من ثورات البربر

واضطراب الأوضاع وأعلنوا عن أول إمامة صفرية سنة ١٤٠هـ/٧٥٧م حين بايعوا عيسى بن يزيد إمامًا لهم، ثم شرعوا فى تأسيس مدينة سجلماسة لتكون عاصمة لهم وملتقى لجموع الصفرية التى أقبلت من كل مكان.

استمر عيسى بن يزيد فى إمامته للصفرية حتى نقموا عليه بعض التصرفات فقتلوه وولوا مكانه أبا القاسم سمكو بن واسول مؤسس الدولة المدرارية وابناءه من بعده حاملين المذهب الصفرى فى المنطقة،

ولم تمض فترة طويلة على بناء العاصمة الجديدة حتى صارت قبلة للخوارج الصفرية من كل مكان، وبخاصة أولئك الذين يعانون من تَعّقب ولاة بنى العباس فى القيروان فضلاً عن الازدهار الاقتصادى الذى حققته العاصمة الناشئة؛ كل ذلك شجع على تجمع الصفرية والتفافهم حول زعمائهم وظلت دولة سجلماسة الصفرية تمارس دورها حتى قيام الدولة الفاطمية بالمغرب واستيلائها على العاصمة سجلماسة.

أ.د / حسن على حسن

الهوامش:

(١) العبر جـ٦ ص ١١٠.
(٢) البيان المغرب جـ١ ص٢١٥.
(٣) ابن خلدون جـ٦ ص١٦٧.
(٤) المصدر السابق جـ٦ ص ١٦٨.
(٥) البيان المغرب جـ١ ص٢١٥.
(٦) المغرب الإسلامي ص ١٦٦.
(٧) المغرب الكبير ص ٥٨٩.
(٨) المرجع السابق ص ٥٨٩.
(٩) تاريخ المغرب العربي جـ٢ ص٤٠١.
(١٠) ابن عذارى: جـ١ ص٥٦.
(١١) المصدر السابق جـ١ ص٥٦.
(١٢) معجم البلدان جـ٢ ص ١٩٢.
(١٣) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص ١٤٩.
(١٤) المغرب الإسلامي ص ١٥٤.
(١٥) المرجع السابق ص١٥٥.
(١٦) البكرى: المغرب ص ١٥٦.
(١٧) المغرب الإسلامى ص١٧٢.
(١٨) المرجع السابق ص ١٧٥.
(١٩) معجم البلدان جـ١ ص١٩٢.
(٢٠) المغرب الإسلامى ص ١٧٧.
(٢١) الخوارج فى المغرب الإسلامى ص ٢٤.
(٢٢) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٢٧.
(٢٣) المرجع السابق ص ١٢٨.
(٢٤) العبر جـ ٢ ص٢٦٧.
(٢٥) الحياة الدينية فى المغرب ص ١٢٩.

مراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير : الكامل فى التاريخ بيروت ١٩٦٢.
٢. الإدريسى أبو عبد الله محمد بن عبد الله : نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق روما ١٩٧٢.
٣. البكرى أبو عبيد الله بن عبد العزيز : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ـ الجزائر.
٤. ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ليفى بروفنسال ـ بيروت .
٥. د/ الحبيب الجنجانى: المغرب الإسلامى: الحياة الاقتصادية والاجتماعية .الجزائر.
٦. أ. د/ حسن على حسن: الحياة الدينية فى المغرب فى القرن الثالث الهجرى، مكتبة الشباب ١٩٨٥.

بنو مَرين[١]

(١) التاريخ السياسى:

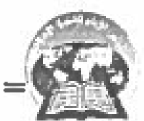
دولة بنى مرين فى المغرب والأندلس، تلك الدولة قامت فى المغرب الأقصى، فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، وظلت حتى سقوطها سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٥م) تقدم للعالم الإسلامى فى جناحه الغربى عطاءها السياسى والحضارى، متأثرة ومؤثرة فى شعوب المغرب الإسلامى وبصفة خاصة فى بلاد الأندلس؛ حيث حمل المرينيون على أكتافهم مسئولية الدفاع عن الجناح الغربى للعالم الإسلامى ضد الزحف الأسبانى على ممتلكات المسلمين فى الأندلس. فقد نذر المرينيون قوتهم لخدمة الإسلام فى هذا الميدان الأندلسى، دون سائر القوى الإسلامية الأخرى التى كانت موجودة آنذاك فى بلاد المغرب كالحفصيين، وبنى عبد الواد؛ ولذلك حاول المرينيون فى حياتهم السياسية التوفيق بين العمل لتحقيق الوحدة المغربية، والجهاد فى الميدان الأندلسى.

والمرينيون فخذ قوى من قبيلة زناتة البترية، فجد المرينيين الأعلى الذى ينتسبون إليه هو: "مرين بن ورتاجن بن ماخوخ بن جديج بن فاتن بن بدر بن نجفت ابن عبد الله بن تبيص بن المعز بن إبراهيم ابن رجيك بن واشين بن بصلتن بن مشد ابن إكيا بن ورسيك بن بدت بن جانا وهوزناتة"[٢].

وكان بنو مرين هؤلاء يمثلون قسمًا قويًّا له عراقته وسطوته بين قبائل زناتة فهم: أعلى قبائل زناتة حسبًا، وأشرفها نسبًا، وأغزرها كرمًا وأحسنها شممًا وأرعاها ذماما وأرجحها أحلاماً وأشدها فى الحروب بأسًا وإقدامًا "[٣].

وقد تعددت منازل بنى مرين - قبل دخولهم إلى بلاد المغرب الأقصى- نتيجة لأسلوب الحياة الذى درجوا على اتباعه فى معيشتهم، وهو أسلوب البداوة الذى غلب على كل شىء فى حياتهم، فقد نزلوا بأنعامهم التى يمتلكونها فى القفار والصحارى فى نظام عظيم، يمتد من جنوب مدينة القيروان إلى صحراء بلاد السودان[٤]. وهم فى هذا الامتداد العظيم يتمتعون بما يتمتع به المجتمع البدوى الذى يحيا حياة الصحراء.

ولم يفكر المرينيون فى الدخول إلى بلاد المغرب الأقصى والاستقرار فيها بصفة نهائية إلا فى سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م)



فى أعقاب الهزيمة الكبرى التى لحقت بالموحدين فى معركة العقاب بالأندلس سنة (٦٠٩هـ/١٢١٢م)[٥]، إذ غيرت هذه المعركة وجه التاريخ فى بلاد المغرب، فكانت أهم العوامل التى شجعت بنى مرين على الدخول إلى المغرب الأقصى، وعلى وجه التحديد سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) ومنذ هذا التاريخ، وحتى سنة (٦٦٨هـ/١٢٦٩م) عمل المرينيون على تأسيس دولتهم، وأتموا ذلك على مراحل ثلاث: فى الأولى استولوا على مناطق تلول المغرب الأقصى وأريافه، وفى الثانية: استولوا على المدن الكبرى فى المغرب الأقصى، وفى الثالثة: تمكنوا من إسقاط عاصمة الموحدين (مُرَّاكُش) فى أيديهم، وأعلنوا قيام دولتهم الجديدة. ثم مضوا بعد ذلك فى استكمال تأسيس دولتهم فى الميدان المغربى والميدان الأندلسى وفى هذا الميدان الأخير حقق السلطان يعقوب بن عبد الحق انتصارات كبرى خلال المرات الأربع التى عبر فيها إلى بلاد الأندلس، وتمكن خلالها من إيقاف حركة الاسترداد المسيحى لبلاد الأندلس.

كما جرت سياسة بنى مرين – منذ تولى السلطان أبو الحسن مقاليد الأمور فى الدولة المرينية سنة (٧٣١هـ/١٣٣١م)- على التوسع فى بلاد المغرب الأوسط، وإفريقية، وكان ذلك التوسع رغبة منه فى تحقيق الوحدة المغربية التى كانت قائمة أيام المرابطين والموحدين، ويبدو أن أمر الوحدة كان حلمًا يراود القوى الثلاث التى كانت موجودة فى بلاد المغرب فى ذلك الوقت؛ وهى قوة المرينيين وبنى عبد الواد، والحفصيين، ومن ثم بدأت كل قوة تعمل لهذا الهدف بالتوسع على حساب القوى الأخرى، ولكن المرينيين من ناحيتهم كانوا يشعرون بهذه الرغبة أكثر من غيرهم باعتبارهم ورثة الموحدين، ومن منطلق أنهم هم الوحيدون من بين سائر القوى فى بلاد المغرب الذين حملوا العبء الأكبر فى سبيل القضاء على دولة الموحدين.

وانتقل المرينيون إلى مرحلة التوسع هذه بفضل ما وصلت إليه دولتهم من القوة والاستقرار، وما حققته من ألوان الازدهار والعظمة فى تلك الآونة؛ حتى إن مؤرخًا كالسلاوى يصف السلطان أبا الحسن الذى بدأ عهد التوسع بقوله: "وهو أفخم ملوك بنى مرين دولة، وأضخمهم ملكًا وأبعدهم صيتًا، وأعظمهم أبهة،

وأكثرهم آثارًا بالمغربين والأندلس"[٦].

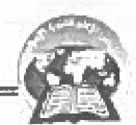
وقد أمضى المرينيون قرابة الثلاثين عامًا فى تنفيذ هذه السياسة التى استغرقت عهد اثنين من عظماء سلاطين بنى مرين، وهما السلطان أبو الحسن على ابن عثمان، وأبو عنان فارس بن أبى الحسن. أما جهود المرينيين التى شهدها مسرح السياسة العسكرية فى المغرب الأوسط - قبل هذه الفترة- فلم تكن أكثر من عمليات تأديبية لبنى عبد الواد، وكان أكثرها لتأمين الأراضى المرينية فى أثناء العمليات العسكرية التى قام بها المرينيون فى الميدان الأندلسى.

ومما ساعد المرينيين على نجاحهم فى بسط سلطانهم، أن حركتهم كانت حركة سياسية محضة، لم تتشح بثوب الدين كما فعل الموحدون من قبلهم[٧]، فلم يتخذ المرينيون من الدين وسيلة لإثارة مشاعر الجماهير وتوجيههم الوجهة التى يريدونها، وإنما كان شعار المرينيين- الذى رفعوه ولاقى كثيرًا من مظاهر التأييد- هو إقامة حكم سياسى يراعى مصلحة البلاد، ويحافظ عليها من مخاطر الانحرافات، ويبعث فى المواطنين الشعور بالأمن على أنفسهم وأموالهم.

فأطلقوا للناس الحرية الكاملة فى الانتماء إلى المذهب الذى يريدونه[٨]. وعلى هذا فلم يصبح السلطان المرينى مصدرًا للسلطات الدينية، وإنما أصبح هذا السلطان مصدرا للسلطات السياسية فقط، خلافا لما كان عليه الموحدون؛ إذ كان الخليفة الموحدى مصدرا للسلطات الدينية والسياسية معًا[٩].

وعلى الرغم مما اشتملت عليه دولة بنى مرين فى بلاد المغرب الأقصى، والمغرب الأوسط، وإفريقية، وأجزاء أخرى من بلاد الأندلس، إلا أن مشاريع التوسع هذه منيت بانتكاسة كبرى، أثرت تأثيرًا كبيرا فى دولة بنى مرين، فكانت هزيمة السلطان أبى الحسن فى طريف بالأندلس سنة (٧٤١هـ/١٣٤٠م)، لا تقل فى مضاعفاتها عن هزيمة الموحدين فى معركة العقاب، فهذه المعركة بددت قوة بنى مرين وأنهكتها، ولذلك كان توسعهم فى إفريقية بعد ذلك هشًا، لم يقو على مواجهة تطورات الأحداث التى خلفتها القبائل العربية، عندما أحست بالخطر يقترب من مصالحها هناك. ولم تمض سنوات قليلة حتى تدهور هذا التوسع، لتعود دولة بنى مرين أخيرًا إلى حجمها الحقيقى فى بلاد المغرب الأقصى.

الأمر الذى قاد الدولة إلى مرحلة



التفكك والانحلال، التى تولى فيها حكم بنى مرين مجموعة من السلاطين الضعاف، إما صغار السن، أو ضعاف العقول أو ضعاف الشخصية، وهؤلاء جميعًا عجزوا عن مواجهة نفوذ الوزراء، الذين سيطروا على السلطة، ومقاليد الأمور فى الدولة، واقترن ذلك بتدخل بنى الأحمر فى الشئون الداخلية لبنى مرين، وشجعهم على ذلك احتفاظهم، بعدد من الشخصيات الهامة من أبناء البيت المرينى الحاكم، وكثيرًا ما استخدموا هذه الشخصيات للتأثير على الأوضاع السياسية فى العدوة المغربية، الأمر الذى أضعف دولة بنى مرين تمامًا، وأدى إلى سقوطها سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٥م).

(٢) حضارة بنى مرين:

ارتكز نظام الحكم المرينى على نظام السلطنة الذى اختاره المرينيون بدلاً من نظام الخلافة الذى كان فى عهد الموحدين، كما كان نظام الحكم وراثيًا فى أبناء البيت المرينى؛ ولذلك كان لمنصب ولى العهد أهمية كبيرة فى أيام بنى مرين، واتخذ سلاطين بنى مرين الوظائف المعاونة لهم فى الحكم وإدارة الدولة، كالوزارة والكتابة والحجابة. وجرت الإدارة المرينية فى الدولة وفق نظام دقيق، فقسمت الدولة تقسيمًا إداريا، إلى أقاليم، وعلى كل إقليم والٍ يمثل السلطة المركزية فى فاس، وإلى جانب ذلك كله كانت هناك الدواوين، وإلى جانب الدواوين كانت هناك فى الدولة المرينية بعض النظارات المحلية، كنظارة الأحباس والأوقاف، وهذه مرؤوسة للقاضى، وقد تُجْمَعُ مع الحسبة(١٠). ومن الذين تولوا هذه النظارة الفقيه أبو عبد الله بن أبى الصبر؛ ونظارة المارستان، وهذه للإشراف على النواحى الصحية؛ ونظارة المبانى، وصاحبها يتولى الإشراف على مبانى الدولة والنفقة عليها.

كما اهتم المرينيون كثيرًا بالنظم القضائية، لما لها من أهمية كبرى فى تحقيق العدالة واستقرار بقية النظم الإدارية الأخرى فى الدولة؛ إذ إن هذه النظم القضائية هى صمام الأمن والأمان للمواطنين، وكافة عناصر الإدارة الأخرى، وهذه النظم هى القضاء، وما يتبعه من مؤسسات قضائية أخرى كالنظر فى المظالم والشرطة، والحسبة(١١).

أما بالنسبة للنظام المالى فقد عاشت دولة بنى مرين فترات كبيرة من حياتها فى بلاد المغرب فى ظل الرخاء والازدهار،

ومرجع ذلك إلى التنظيم الدقيق الذى سار عليه المرينيون فى سياستهم المالية وإشرافهم عليها، فضلاً عمَّا كان لدى هذه الدولة من موارد اقتصادية هائلة، دعمتها الأنشطة الرئيسية فى الدولة المتمثلة فى الإنتاج الزراعى والصناعى وسائر الأنشطة التجارية الأخرى.

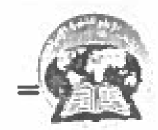
وقد أقام المرينيون نظامهم المالى فى الجباية والإنفاق على أساس أن والى كل إقليم من أقاليم الدولة مسئول مسئولية كاملة عن الجباية والإنفاق فى ولايته أمام الوزير المختص بالإشراف على خطة الجباية أو المتولى لها[١٢].

ووفقًا للتقسيم الإدارى للدولة المرينية، كانت هناك تسع ولايات تخضع من ناحية الإشراف المالى لإشراف دقيق، وفى بعض الأحيان أسند الإشراف على ديوان الخراج إلى شخص دون الوزير، وفى أحيان أخرى أسند إلى الوزراء، وكلاهما كان يخضع مباشرة للسلطان المرينى سواء كان وزيرًا، أو أقل من الوزير، وهذا الشخص هو الذى يتولى بنفسه التدقيق والتوقيع بصحة الحسابات سواء فى الخراج أو العطاء[١٣]. وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك بقوله: "وأما دولة بنى مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع لواحد، وصاحب هذه الرتبة هو الذى يصحح الحسبانات كلها ويرجع إلى ديوانه، ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير، وخطه معتبر فى صحة الحسبان فى الخراج والعطاء"[١٤].

وازدهرت الزراعة فى العصر المرينى بفضل ما تمتع به المغرب الأقصى من دعائم لازمة للزراعة، وأهمها وفرة مصادر المياه، وجودة التربة، وتنوع المناخ، الذى كان له أثره فى تنوع المحاصيل والثمار[١٥].

وإلى جانب العوامل السابقة التى ساهمت فى ازدهار الزراعة فى العصر المرينى، اهتم سلاطين بنى مرين بالزراعة، فأقطعوا كبار رجال الدولة الإقطاعات الزراعية، كالقضاة[١٦]، وقادة الجيش، وهم كبار الأشياخ الذين منحوا الإقطاعات الجارية[١٧].

أيضًا مثلت الصناعة بالدولة المرينية نشاطًا من الأنشطة الاقتصادية الهامة، التى يعتمد عليها المواطنون فى الدولة المرينية؛ إذ أمدت هذه الصناعات المواطنين باحتياجاتهم ولوازمهم، ومما ساعد على قوة هذا اللون من النشاط الاقتصادى، أن الموحدين خلَّفوا للمرينيين قاعدة صناعية كبيرة تحدثت عنها بعض



مصادر التاريخ، فالجزنائى يذكر أن مدينة فاس- قاعدة الصناعة الرئيسية فى المغرب الأقصى - كان بها فى أواخر العصر الموحدى ثلاثة آلاف وأربعة وتسعون داراً لصناعة الأطرزة، وسبعة وأربعون داراً لصناعة الصابون، وستة وثمانون داراً للدباغة، ومائة وستة عشر داراً للصباغة، واثنا عشر داراً لسباكة الحديد والنحاس، وأحد عشر داراً لصناعة الزجاج، ومن كَوشْ الجير مائة وخمس وثلاثون، وألف ومائة وسبعون فرناً لصناعة الخبز، وأربعمائة من أحجار صناعة الكاغد (الجلد)، عدا ما فى خارج المدينة من دورٍ لصناعة الفخار، تصل إلى مائة وثمانين داراً[١٨].

ويذكر الجزنائى أن الصناعة قد ازدهرت فى العصر المرينى أكثر مما كانت عليه فى أيام الموحدين، بسبب اتساع العمران حول فاس القديمة، ببناء فاس الجديدة أو المدينة البيضاء وحى الملاح[١٩]. ويؤكد ذلك الجزنائى، فبعد أن استعرض أنواع الصناعات السابقة التى ورثها المرينيون عن العهد الموحدى قال: "ولو مر المار بالمدينة البيضاء والملاح وما هو إلى ذلك من الكهوف مقيم الآن بفاس فكانت المصانع تنتهى لأكثر من ذلك"[٢٠].

ومن الجدير بالذكر أن حالة الأمن والاستقرار التى سادت الدولة المرينية انعكست على نشاطها التجارى، وقد حرص سلاطين بنى مرين على توفير الأمن، وكان ذلك هدفًا رئيسيًا لهم منذ اضطلاعهم بقيادة زمام الأمور فى بلاد المغرب الأقصى، بعد أن عجز الموحدون عن توفير ذلك الأمن، فأصاب البلاد ما أصابها من التدهور والاضطراب[٢١]. ودأب سلاطين بنى مرين على الضرب على أيدى كل من تسول له نفسه الاعتداء على الأموال ، ففى سنة (٦٦٩هـ/١٢٧٠م)، بعد إعلان قيام الدولة بعام واحد توجه السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق إلى منطقة درعة لتأديب بعض القبائل العربية التى كانت تثير الشغب، وتعتدى على الناس والأموال، ونقل هؤلاء العرب إلى مراكش؛ ليكونوا تحت رقابة دقيقة من عمال الدولة هناك[٢٢].

كما سهر المرينيون على تأمين طرق المواصلات بين مدن الدولة ، فاستحدثوا تنظيمات جديدة على طول الطرق التى تربط بين العاصمة فاس والمدن الأخرى، كمراكش، وتلمسان، وسبتة، وسميت هذه التنظيمات (بالرتب) وهى عبارة عن

خيام تقام على مسافات متساوية تقدر باثنى عشر ميلا، يسكنها أهل المنطقة التى تقام بها، ويمنحون إقطاعًا من الأرض على قدر كفايتهم، وتلزمهم الإدارة المرينية ببيع الشعير والطعام، وما يحتاج إليه المسافرون من الأدم والمرافق على أن يقوم أهل المنطقة بحراسة المسافرين وأمتعتهم، فإن ضاع منهم شىء كانوا الضامنين له[٢٣]. يقول ابن مرزوق: "فلا يزال المسافر كأنه فى بيته وبين أهله فى ذهابه وإقباله"[٢٤].

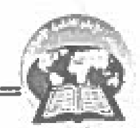
علاوة على ذلك نظمت الدولة فرقًا أطلقت عليها اسم (الغرباء)، وهذه الفرق مهمتها حراسة الطرق وخدمتها، كما كانت هذه الفرق جهازًا للسهر على أمن الدولة؛ إذ كان هؤلاء (الغرباء) عيونًا وجواسيس يراقبون أى خطر يهدد الأمن أو سلامة البلاد، فيبادرون بإبلاغه للسلطات المسئولة[٢٥].

وإلى جانب استقرار حالة الأمن، توفرت للنشاط التجارى الأسواق الداخلية والخارجية، وهى الميادين التى تدور فيها السلع بيعًا وشراءً، كما توفر الإنتاج الزراعى والصناعى، وهما الأساس القوى لازدهار أى نشاط تجارى.

وفى مجال العمران حرص المرينيون على تنشيط حركة البناء والتعمير فى دولتهم، باعتبارها مظهرًا لحياتهم الاجتماعية الراقية المتقدمة، وقد شملت حركة البناء والتعمير جميع جوانب الحياة فى المجتمع المرينى، من مدن جديدة، ومنشآت عامة كالمساجد، والمدارس، والمستشفيات، والفنادق، والقناطر علاوة على المنشآت العسكرية.

حيث شعر المرينيون دائمًا بحاجتهم إلى إقامة المدن الجديدة، فبنوا خلال عهدهم عددًا كبيرًا من المدن الجديدة، وكانت هذه المدن آية من آيات الفن والعمارة فى ذلك الوقت، وأصبحت هذه المدن ظاهرة تميز فن العمارة المرينى عن غيره من فنون العمارة الحفصية، والعبد الوادية، والأندلسية[٢٦]، ومن تلك المدن فاس الجديدة، والمنصورة، وتطاوين.

كما اهتم المرينيون ببناء المساجد الجديدة، فاحتوت كل مدينة من المدن الجديدة التى سبق ذكرها على مسجد كبير، كالمسجد الجامع بفاس الجديدة الذى بنى سنة (٦٧٧هـ/١٢٧٨م)، وقد علقت بهذا المسجد ثرياه التى كان وزنها سبعة قناطير وخمسة عشر رطلاً، وعدد كؤوسها مائتان وسبعة وثمانون كأسًا[٢٧]. وغير هذه المساجد فى المدن



الجديدة، مساجد أخرى لا تقع تحت الحصر بنيت فى سائر جهات الدولة، وفى الزوايا والأربطة[٢٨]. نذكر منها على سبيل المثال بناء مساجد العباد، وسيدى الخلوى، إضافة إلى الاهتمام بترميم المساجد القديمة مثل مسجد الأندلس بالعدوة الأندلسية.

وتعتبر المدارس المرينية أبلغ دليل على روعة العمارة المرينية، حيث اهتم المرينيون باستكمال كافة لوازم هذه المدارس ومتطلباتها، حيث كان الطلبة يقيمون فيها على نفقة السلطان المرينى، وجاء اهتمام سلاطين بنى مرين بالمدارس؛ لأنهم اتخذوا منها ميدانًا لتدريس الفقه المالكى. ويبدو أن ذلك عجل برحيل مذهب الموحدين الذى سيطر على بلاد المغرب أمدًا طويلاً.

وقد أنشأ المرينيون مدارسهم بمفهوم جديد، حيث لم تكن هناك فى المغرب قبل العصر المرينى مدارس للتعليم العالى المتخصص، وأماكن لسكنى الطلبة، وإنما كان العلماء المدرسون يلقون دروسهم فى المساجد، وبصفة خاصة فى جامع القرويين، وقد ابتنى المرينيون مدارسهم فى العاصمة فاس وفى غيرها من مدن المغرب الأقصى[٢٩].

وكانت مدرسة الصفارين أولى المدارس التى بناها سلاطين بنى مرين فى دولتهم، بناها السلطان يعقوب بن عبد الحق، وسميت بهذا الاسم؛ لأنها أقيمت بالقرب من السوق الذى تصنع فيه أوانى النحاس الأصفر، ولما تم بناؤها عين لها السلطان المدرسين، وأجرى على طلبتها النفقة، وزود المدرسة بخزانة كتب وردت إليه من الأندلس[٣٠]. وجاءت مدرسة الصفارين بسيطة فى فنها المعمارى، حيث يحتوى صحنها فى الوسط على بركة مستطيلة الشكل اصطفت على جوانبها غرف الطلبة، وألحق بها مصلى صغير تؤدى فيه الصلوات[٣١]، كما ابتنى أبو يوسف يعقوب مدرسة أخرى بمراكش[٣٢].

وجاء السلطان أبو سعيد المرينى، فاهتم ببناء المدارس، فأسس فى فاس وحدها مدرسة العطارين، ومدرسة المدينة البيضاء، ومدرسة الصهريج، والمدرسة الكبرى مدرسة الوادى، والمدرسة المصباحية، نسبة إلى الإمام مصباح بن عبد الله الياصلوتى، وهو أول من عين للتدريس بها[٣٣]، وتحتوى هذه المدرسة على مائة وسبع عشرة غرفة، وتحتفظ بظلة جميلة من الخشب المنقوش، كما

تمتاز بأناقة دهليزها ومدخل مصلاها[٣٤]. وقد جلب السلطان أبو الحسن المرينى لهذه المدرسة من الأندلس: بيلة من الرخام الأبيض، وزنها مائة وثلاثة وأربعون قنطارا[٣٥].

ولم يقف سلاطين بنى مرين عند الاهتمام ببناء المدارس فى عاصمتهم فاس، وإنما أنشأوا المدارس فى سائر بلاد المغرب، فأنشأ أبو الحسن المرينى فى كل بلد من بلاد المغرب الأقصى وبلاد المغرب الأوسط مدرسة؛ فأنشأ بمدينة تازى قديمًا مدرستها الحسنة وببلد مكناسة وسلا .

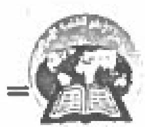
أما فى المجال الفكرى فقد شهد المغرب الأقصى فى عهد المرينيين حصاد قرنين من المجهودات العلمية، بفضل جهود المرابطين والموحدين فى مجالات الثقافة والعلم والأدب، وما أن جاء المرينيون حتى انطلقت الحياة الفكرية فى عهدهم إلى آفاق أرحب وأوسع، أتاحت للعقلية المغربية مزيدًا من النضوج[٣٦]. وقد دعم سلاطين بنى مرين انطلاق الحياة الفكرية فى عهدهم بدعائم أهمها:

١- أن سلاطين بنى مرين لم يقيموا دولتهم على أساس أفكار دينية[٣٧]، وعلى هذا الأساس لم يفرضوا على العلماء فى دولتهم أن يتقيدوا بوجهة نظر معينة.

٢- احتضن سلاطين بنى مرين فى مجالسهم العلماء على اختلاف مستوياتهم وآرائهم وأفكارهم، بل لقد سمح المرينيون فى كثير من الأحيان بتدريس آراء الموحدين فى مدارسهم احترامًا منهم لحرية الفكر[٣٨].

٣- أن المرينيين أوجدوا فى المغرب الأقصى أكبر قاعدة فكرية وثقافية قامت فى بلاد المغرب منذ الفتح الإسلامى، وتمثلت هذه القاعدة فى ذلك العدد الضخم من المدارس العالية المتخصصة التى انتشرت فى أنحاء المغرب الأقصى على نحو لم يسبق له مثيل، دون تمييز بين المدن الصغرى، والمدن الكبرى، بل امتدت هذه المدارس إلى مناطق أخرى من بلاد المغرب، فى المغرب الأوسط حين كان تحت سلطة المرينيين.

٤- لم يضع سلاطين بنى مرين أمام العلماء المغاربة وغيرهم من علماء الأندلس وأدبائها المهاجرين إلى المغرب الأقصى - تحت وطأة الزحف النصرانى على ممتلكات المسلمين فى الأندلس- أى عوائق، تعوق إقامتهم فى ربوع الدولة



المرينيـة، والتمتـع بكـل المميـزات التـى يتمتع بها أقرانهم من العلماء المرينيين، بل لقـد انـضم كـثير مـن هـؤلاء العلمـاء إلى مجـالس سـلاطين بنـى مـرين العلميـة، وشغل بعضهم مناصب كبرى فى الدولة المرينية كابن خلدون، وابـن الخطيـب، وابن الأحمر، وابن رضوان، وابن مـرزوق، وابـن جـزى والمقّـرى، وغيرهـم مـن العلمـاء الـذين تفيـأوا ظـلال بنـى مـرين. وقـد أدى ذلـك بطبيعـة الحـال إلى تطعـيم الحركـة الفكرية فى العصر المرينـى برصيد هائل وضخم من الثقافة الأندلسية المتنوعة.

أ. د / محمد عيسى الحريرى

الهوامش:

(١) ضبط ابن مرزوق الاسم (مَرين) بفح الميم وكسر الراء، المسند الصحيح الحسن، مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية، برقم ١٨٥ تاريخ، ورقة ١٦.

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى، طبعة المطبعة الأميرية ١٩١٥، ج٥، ص١٩٤.

(٣) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، دار المنصور بالرباط ١٩٧٣، ص١٩٤.

(٤) مجهول: الذخيرة السنية، تحقيق محمد بن أبى شنب، الجزائر ١٩٢٠، ج٢٣ (القيروان وهى بساط من الأرض مديد من الجوف منها إلى بحر تونس، وفى الشرق بحر سوسه والمهدية، وفى القبلة بحر سفاقس وقابس، بينها وبينه مسيرة يوم)، البكرى : المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى، بغداد، ص٢٢٤.

(٥) ابن أبى دينار: المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، المكتبة العتيقة، تونس ١٢٨٧هـ، ص١٤٦؛ ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص٢٠٢.

(٦) السلاوى : الاستقصا، طبعة مصر ١٣١٢هـ، ج٢، ص٥٧.

(٧) حكمة على: الأدب الأندلسى فى عصر الموحدين، ص٢٣؛ محمد الفاسى : نشأة الدولة المرينية، مجلة البينة بالمغرب، العدد الثامن ١٩٦٢، ص١٧.

(٨) الفرد بل: الفرق الإسلامية، ترجمة عبد الرحمن بدوى، بنغازى ١٩٦٩م، ص٣٢٥.

(٩) عنان: عصر المرابطين والموحدين فى الأندلس، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٦٤م، ص٦١٦.

(١٠) الجزنائى : زهرة الآس، تحقيق الفرد بل، الجزائر ١٩٢٢م، ص٦٥؛ عمر رضا كحالة: مباحث اجتماعية فى عالمى العرب والإسلام، مطبعة الحجاز بدمشق ١٩٧٤م، ص٢٠٦.

(١١) أحمد شلبى : تاريخ التشريع والنظم القضائية فى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٦م، ص٢١٧.

(١٢) ابن مرزوق : المسند، ورقة ٢٣٩.

(١٣) مجهول : الذخيرة السنية، ص٩٥.

(١٤) حسن على حسن: الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية فى المغرب الأقصى، رسالة دكتوراه بدار العلوم ١٩٧٣م، ص٢٦٢.

(١٥) القلقشندى : صبح الأعشى، ج٥، ص٢٠٥.

(١٦) المصدر السابق، ج٥، ص٢٠٤.

(١٧) الجزنائى : زهر الآس، ص٢٣؛ ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص٦٥.

(١٨) الجزنائى : زهر الآس، ص٢٤.

(١٩) المصدر السابق ، نفس الصفحة.

(٢٠) المصدر السابق ، نفس الصفحة؛ مجهول: الذخيرة السنية، ص٧٩.

(٢١) مجهول : الذخيرة السنية، ص١٣٨؛ ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص٣٠٧؛ ابن خلدون: العبر، طبعة مؤسسة الأعلمى، بيروت ١٩٧١م، ج٧، ص١٨٢.

(٢٢) ابن مرزوق : المسند، ورقة ٢٨٦- ٢٨٧.

(٢٣) المصدر السابق، ورقة ٢٨٧.

(٢٤) المصدر السابق، ورقة ١٦٢.

(٢٥) عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة، مجلة البينة بالمغرب، السنة الأولى ١٩٦٢م، ص٥٥- ٥٦.

(٢٦) مجهول: الحلل الموشيه، ص١٤٧.

(٢٧) نفس المصدر والصفحة.

(٢٨) ابن مرزوق: المسند، ورقة ٢٧٣؛ محمد الفاسى : التعريف بالمغرب، المغرب طبعة ١٩٦١، ص٤٧؛ روجيه لوتورنو: فاس فى عهد بنى مرين، ص٢٨.

(٢٩) ابن خلدون: العبر، ج٧، ص٢١٠؛ السلاوى : الاستقصا، ج٢، ص٥٤؛ لوتورنو: فاس فى عصر بنى مرين، ص٢٨.

(٣٠) جوليان: إفريقيا الشمالية، الدار التونسية ١٩٧٨، ج٢، ص٢٤١.

(٣١) محمد الفاسى : نشأة الدولة المرينية، ص٢٨- ٢٩.

(٣٢) ابن مرزوق: المسند، ورقة ٢٧٢، السلاوى الاستقصا، ج٢، ص٥٤؛ الكتانى : سلوة الأنفاس، طبع حجر بفاس ١٣١٦هـ، ج٢، ص٥٦- ٥٧.

(٣٣) جوليان: إفريقيا الشمالية، ج٢، ص٢٤١.

(٣٤) الجزنائى : زهرة الآس، ص٢٧؛ ابن القاضى : جذوة الاقتباس، ص٢٣- ٢٤.

(٣٥) محمد الفاسى : نشأة الدولة المرينية، ص٢٢- ٢٣.

(٣٦) عبد الله كنون : النبوغ المغربى ، ج١، ص١٨٥.

(٣٧) الفرد بل : الفرق الإسلامية، ص٣٢٦.

(٣٨) عبد الله كنون: النبوغ المغربى ، ج١، ص٨٥.

مصادر ومراجع للاستزادة:

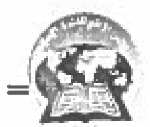
- ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم- ت٧٧٦هـ): تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، مطبعة التقدم.
- الجزنائى (أبو الحسن على) : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس، تحقيق الفرد بل، الجزائر، ١٩٢٢.
- ابن الخطيب (لسان الدين – ت٧٧٦هـ): كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق محمد كمال شبانة، ١٩٦٦.
- الإحاطة فى أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبد الله عنان، الخانجى، القاهرة .
- ابن خلدون (عبد الرحمن – ت٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، بيروت، ١٩٧١.
- ابن أبى زرع (على بن محمد بن أحمد- ت٧٢٧هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس، نشر دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢.
- السلاوى (أحمد بن خالد الناصرى : الاستقصا فى أخبار المغرب الأقصى، القاهرة ، ١٣١٢هـ.
- إبراهيم أحمد العدوى (دكتور): التاريخ الإسلامى آفاقه السياسية وأبعاده الحضارية، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٦.
- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار السلمى، الدار البيضاء.
- عبد العزيز بن عبد الله: مظاهر الحضارة المغربية، الدار البيضاء، ١٩٥٧.
- محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة ١٩٦١.
- محمد عيسى الحريرى: تاريخ المغرب والأندلس فى العصر المرينى، دار القلم، الكويت، ١٩٨٧.
- محمد الفاسى: التعريف بالمغرب، القاهرة، ١٩٦١.

بنو نجاح

ارتبط قيام الدولة النجاحية باليمن سنة (٤١٢ هـ /١٠٢١م - ٥٥٤ هـ / ١٥٥٩هـ) بعبيد الدولة الزيادية الأحباش الذين كانت لهم مكانة كبيرة حيث كان كبيرهم يحمل لقب أستاذ وكانت الدولة الزيادية فى نهايتها تحت حكم طفل يسمى زياد أو عبدالله ، وكانت الوصية عليه عمته هند أخت الأمير الزيادى أبى الجيش إسحاق ، وكان العبد نجاح الذى تُسند إلى اسمه هذه الدولة يتولى إدارة أعمال المدن الشمالية من الدولة وأهمها الكدراء والمهجم ومور والواديين ، وقد أشتد التنافس بين نجاح هذا وعبد آخر يدعى نفيس كان يتولى أعمال الوزارة ، وكان الناس يلتفون حول نجاح لعدله ويخشون ظلم نفيس ، وكانت الأميرة هند الوصية على الأمير الزيادى تميل إلى نجاح أكثر من نفيس وتكاتبه . فخشى نفيس أن يتآمر عليه نجاح وهند ويتخلصا منه فقبض على هند والأمير الزيادى وقتلهما .

وعلى إثر هذا الحادث الذى أطاح نهائياً ببنى زياد اندلع الصراع قوياً عنيفاً بين نفيس ونجاح الذى كان يرى أن ذلك التصرف من جانب نفيس يعد غدراً أو خيانة . ولأن نفيسا بعد ذلك بسط نفوذه على ما بيديه من البلاد وركب المظلة وضرب السكة باسمه استنفر نجاح الأحمرَ والأسودَ من الناس، كما يروى الخزرجى ، استعداداً لحرب نفيس . واحتدمت المعارك بينهما خلال خمس سنوات ، ذكر المؤرخون منها أربع معارك دارت جميعها بالقرب من زبيد ، استطاع نفيس أن ينتصر فى اثنتين منها وهما يوم رمع ، ويوم فشال ، وتمكن نجاح من نفيس وانتصر عليه فى المعركتين الأخيرتين: معركة يوم العقدة ومعركة يوم العرق ، وفى هذه الأخيرة تمكن نجاح من قتل نفيس على باب زبيد ، وبلغ عدد القتلى من الفريقين خمسة آلاف . كان ذلك فى شهر ذى القعدة سنة (٤١٢ هـ / ١٠٢٢م) . وعلى هذا فلا صحة لما ذكره اليمانى فى بهجة الزمن مخالفاً لغيره من المؤرخين من أن نجاحاً استولى على زبيد بعد هذا الحادث فى سنة (٤٢٢ هـ / ١٠٣٠ - ١٠٣١م) .

بدأ نجاح على الفور فى القضاء على القوى الداخلية المناوئة له التى كان



على رأسها سيده مرجان فقبض عليه .

ويبدو أن محاكمة عاجلة عقدت له فى نفس المكان الذى فيه الجدار الذى قتل فيه طفل بنى زياد وعمته . وقد وجه نجاح إلى سيده فى هذه المحاكمة سؤالاً كانت الإجابة عليه هى الحكم الذى حكم به مرجان على نفسه حيث قال نجاح لمرجان : " ما فعلت بمواليك وموالينا؟ قال مرجان : هما فى هذا المكان ، فأخرجهما نجاح وجهزهما وصلى عليهما وبنى عليهما فى العرق ، وجعل مرجان موضعهما ، فبنى عليه حيا ، وأمر من أحضر جثة نفيس فجعلت عند مرجان وبنى عليهما ذلك الجدار حتى ختمه " .

مهَّد اختفاء مرجان ونفيس من افق الحياة السياسية فى اليمن لظهور شخصية نجاح . والمصادرُ التى بين أيدينا لا تمدنا بمعلومات وفيرة عن ماضى نجاح ، فهى لا تذكر إلا انه كان عبداً حبشياً ملفوظاً من جنس يقال له الجزل نسبة إلى جزلى . وبعض المصادر الأخرى ترى أن بنى نجاح ينتمون إلى بطن من بطون الحبشة يقال لهم السحرتيون .

غير أن أمامنا قرينة تاريخية يمكن أن نفهم منها أن الموطن الأول لنجاح كان جزيرة دهلك ، التى كانت تصاقب سواحل الدولة الزيادية ؛ حيث تذكر رواية الخزرجى التى تحدثت عن الموارد المالية للدولة الزيادية فى سنة (٣٦٦ هـ / ٩٧٦م) ، أن الأمير أبا الجيش إسحاق الزيادى كان يحصل ضرائبه من جزيرة دهلك – فى نفس السنة – وهى عبارة عن خمسمائة وصيف وخمسمائة وصيفة من النوبة والحبش . وأغلب الظن أن هؤلاء كان يجرى توزيع بعضهم على بنى زياد ومواليهم للخدمة فى قصورهم ، بعد أن يخضعوا لنظام خاص من التربية والتعليم والتدريب ، وقد رأينا أن بعضهم ارتقى فى مناصب الخدمة فى قصور بنى زياد حتى أصبح أستاذاً .

هذا شطر من القرينة؛ أما شطرها الآخر فيكمن فى تصرفات أبناء نجاح ؛ فبعد مقتله سنة (٤٥٢ / ١٠٦٠م) على يد على بن محمد الصليحى لاذ أبناؤه الأربعة بالفرار إلى جزيرة دهلك واتخذوا منها مقاماً لهم ومن أهلها جنوداً وأعواناً وبفضلها تمكنوا من استعادة ملكهم الذى سلبه منهم على بن محمد الصليحى. وقد كان جياش بن نجاح يتحدث دائماً عنهم ببنى عمنا .

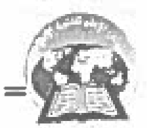
وبلاد اليمن بهذه الظاهرة – ظاهرة استجلاب الموالى من الأجناس الأخرى غير

العربية وتنميتها فى بلاط حكامها ، ووصول هؤلاء الموالى إلى قمة السلطة — تتجاوب مع انتشار هذه الظاهرة فى جهات العالم الإسلامى الأخرى ؛ ففى بلاط العباسيين كان هناك الأتراك، وفى بلاط الفاطميين ظهر هؤلاء الموالى من الجنسيات المختلفة وكان منهم الأساتذة بدرجات متفاوته، وفى بلاط الأمويين فى قرطبة كان هناك الصقالبة وغيرهم . وتكاد الظاهرة تتشابه فى مناطق اخرى من العالم الإسلامى . وهى هنا فى اليمن تجربة متميزة فريدة بعض الشىء ، لأن الموالى هنا فى اليمن من الأحباش فى ظل الزياديين لم يكتفوا بالنفوذ والسلطة وإنما تطلعوا إلى الملك نفسه وصنعوا من الظروف ما ساعدهم على تحقيق مآربهم فحازوا الملك وتوارثه أبناؤهم خالفا عن سالف .

استولى نجاح على ممتلكات بنى زياد التى كان يسيطر عليها مرجان ونفيس واتخذ لنفسه رسوم الملك ، فركب المظلة وضرب السكة باسمه . وأعلن طاعته لبنى العباس ، وجرت الاتصالات بينه وبين ديوان الخلافة فى بغداد . " فكاتبوه بالاستنابة ولقبوه بالمؤيد ، ولقبوه بنصير الدين وفوضوا إليه تولية القضاء لمن رآه أهلا " . وعلى المستوى الرسمى والشعبى خوطب وكوتب بالملك وبمولانا " . كما تضمن كتاب الاستنابة الذى وصل إليه من ديوان الخلافة ببغداد تفويضاً عاماً بالنظر العام فى الجزيرة اليمنية . وهذا يعنى أن نجاحاً أصبح الممثل الشرعى للخلافة العباسية فى بلاد اليمن .

ولكن الذى يبدو من خلال المعلومات المستمدة من المصادر اليمنية أن نجاحاً لم يتمكن من بسط نفوذ حقيقى له باسم العباسيين إلا على تهامة فقط ، أما الجهات الجبلية الأخرى فى اليمن فقد اكتفت بعض المصادر بقولها بأن نجاحاً كان قاهراً لأهل الجبال . بينما ذكرت بعض المصادر الأخرى : أن أهل الحصون والجبال تغلبوا على ما بأيديهم . وهذا يشير إلى خروج المناطق الجبلية من دائرة نفوذ بنى نجاح ، ولا نكاد نجد تفسيراً لذلك فى المصادر التى بين أيدينا غير أن رواية نعثر عليها عند اليمانى فى بهجة الزمن ، تذكر : أنه " حين توفى الحسين ابن سلامة — وزير بنى زياد — واختلف عبيده ، هرب ملوك الجبال من سجنه ولحقوا ببلادهم .

والمعلومات شحيحة جداً فى المصادر اليمنة وغيرها عن الفترة التى حكم فيها



نجاح مؤسس الدولة النجاحية – فهى لا تذكر إلا أنه حكم مدة بلغت أربعين سنة امتدت من سنة (٤١٢ هـ / ١٠٢١م) – (٤٥٢ هـ / ١٠٦٠م) ، اهتم خلالها بإحياء أعمال من تقدمه .

وقد دار صراع طويل بين الصليحيين وبنى نجاح انتهى فى عهد جياش . وبعد انتهاء ذلك الصراع بدأت الدولة النجاحية تتمتع بحالة من الاستقرار السياسى ... والاقتصادى والاجتماعى والمذهبى وتلقب جياش بن نجاح بالملك المكين وبالملك العادل . وأقام الخطبة للعباسيين وتوقفت الحروب بين بنى نجاح والصليحيين لانشغال الصليحيين بمشاكلهم الداخلية وانتعشت البلاد اقتصادياً لوفرة الأموال التى كانت تنفق فى الحروب وأصبحت زبيد وتهامة تتعامل مع السلطة الشرعية التى كانت تحكمها قبل ذلك ، وهى سلطة سنية تتسق مذهبياً مع مذهب عامة الدولة بعد أن عانى أبناؤها طويلاً من الازدواج المذهبى بازدواج السلطة بين الصليحيين الإسماعيلية والنجاحيين السنة. وقد أتاح هذا الاتساق للفقهاء والعلماء حرية فكرية فانعكس ذلك على الأوضاع العلمية والثقافية ، ونال العلماء والفقهاء والشعراء مكانة عظيمة فى الدولة بعد أن كانوا فى طيات النسيان فى ظل الإسماعيلية .

ودخلت الدولة النجاحية بعد وفاة جياش بن نجاح إلى مرحلة جديدة من مراحل تطورها السياسى ، حيث انتقلت الدولة من عصر سلطة الملوك المطلقة – الذى استمر من سنة (٤١٢هـ / ١٠٢١م) حتى سنة (٤٩٨ هـ / ١١٠٤م – ١١٠٥م) – إلى عصر نفوذ الوزراء العظماء ، الذى بدأ منذ هذا التاريخ الأخير حتى سقوط الدولة فى سنة (٥٥٣ هـ / ١١٥٨م) . وتميزت هذه الفترة بضعف ملوك بنى نجاح لصغر سنهم أو حداثتهم ، ولذلك تركوا تدبير أمور الدولة وتوجيهها إلى وزرائهم .

من أهم سمات عصر نفوذ الوزراء العظماء سيطرة هؤلاء الوزراء على مقاليد الحكم والسلطة فى الدولة ، وتحرك عوامل الصراع والتنافس بينهم على مواقع السلطة ، وهذا ما أضعف الدولة ، وجعلها تنهار أمام قوة على بن مهدى ، الذى ظهر فى العنبرة – من قرى تهامة – وتبنى أفكاراً خارجية متطرفة ، أثبتت الدراسة أنها كانت وراء تحركه للقضاء على بنى نجاح .

ورغم هذه الظروف السياسية المتوترة،

فقد كانت الحياة العامة فى دولة بنى نجاح فى أيامها الأخيرة – خلال عصر نفوذ الوزراء – تمضى هادئة ، والعلماء والفقهاء يمارسون عوائدهم العلمية ، وينالون قسطاً كبيراً من رعاية الدولة ، ومكانة سامية مرموقة من قادتها ، حيث قدمت لهم هذه القيادات الأموال الجزيلة للإنفاق على أنفسهم وعلى مدارسهم ومشروعاتهم العلمية .

أ.د / محمد عيسى الحريرى

مصادر للاستزادة :

- البغدادى : صفى الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق ، (ت : ٧٣٩هـ) : مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، طبعة : دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٤م .
- الخزرجى : أبوالحسن على بن الحسن الخزرجى (ت : ٨١٢هـ) : العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، نسخة مصورة عن المخطوط الأصلى للمرة الثانية ، طبعة وزارة الإعلام والثقافة اليمنية (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ، دار الفكر ، دمشق .
- ابن خلدون : عبدالرحمن (ت : ٨٠٨هـ) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨م ، المجلد الأول ، المجلد الرابع .
- ابن الديبع : أبو الضبا عبدالرحمن بن على الديبع الشيبانى الزبيدى (ت : ٩٤٣هـ) ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تحقيق : محمد بن على الأكوع الحوالى ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ١٩٧١م .
- بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق : عبد الله الحبشى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩م .
- عمارة : نجم الدين بن أبى الحسن على الحكمى اليمنى ، (ت : ٥٦٩هـ) ، تاريخ اليمن ، تحقيق : د. حسن سليمان محمود ، نشر مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
- ابن المجاور : جمال الدين أبو الفتوح يوسف بن يعقوب ، صفة بلاد اليمن، تحقيق : أوسكر لوففريين ، طبعة ليدن ، ١٩٥١م .

بنو نصر

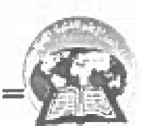
هزم المسلمون هزيمة قاصمة فى موقعه " العقاب" التى جرت بين الموحدين والنصارى فى الأندلس فى ١٥ صفر سنة ٦٠٩هـ/ ١٦ يوليو ١٢١٢م، وقتل عشرات الألوف من المسلمين، معظمهم من المجاهدين الأندلسيين المتطوعة، وقد انسحبت قوات الموحدين عائدة إلى المغرب بعد أن حصدت هذه المعركة زهرة مقاتليهم، الشىء الذى جعل ابن عذارى المراكشى يحدثنا أن الإنسان كان يجول فى المغرب بعد تلك الموقعة فلا يصادف شابًا قادرًا على القتال. ويقول صاحب روض القرطاس:

" إن المتطوعة لبثوا يقاتلون حتى استشهدوا عن آخرهم " (ص ١٥٨)، ويقول صاحب الذخيرة السنية (ص٢٤): " إن المغرب قد باد أهله ورجاله وحتى خيله وحماته وأبطاله وقتلت قبائله وأقياله، وقد استشهد الجميع فى غزوة العقاب".

وكان من نتائجها سقوط مدن كبرى فى يد النصارى: قرطبة سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٦م ومرسية سنة ٦٤١ هـ ودانية ٦٤٤ هـ وإشبيلية سنة ٦٤٦هـ.... وأصبح للنصارى الإشراف على هذه الحواضر وغيرها[١] .

فى هذه الآونة برز فى صفوف المسلمين نفر من الرؤساء يحاول كل منهم أن يتزعم ما بقى من المقاتلين فى الأندلس ليقيم لنفسه دولة، ويأتى على رأس هؤلاء بنو مردنيش أصحاب بلنسية وسيف الدولة محمد بن يوسف بن هود المتوكل ... وغيرهما.

لكن بلنسية سقطت فى يد خايمة الأول ملك أرغون سنة ٦٣٦هـ / ١٢٣٨م كما سقطت مرسية فى يد فرناندو الثالث الملقب بالقديس، وبقى فى الميدان محمد بن يوسف بن هود المتوكل الذى أمكنه أن يُدْخِل فى طاعته بعضَ العواصم وبعض المدن والحصون لفترة قصيرة، ونجح فى تكوين جيش قوى بلغت عدته ثلاثين ألفًا ودانت له البلاد من قرطبة إلى الجزيرة الخضراء، ولكن فرناندو الثالث تمكن من حصار قرطبة ومن اختراقها، واستنجد أهلها بابن هود فلم ينجدهم وعجز سكانها وحاميتها عن الدفاع عنها فسقطت فى أيدى النصارى كما أشرنا سنة ٦٣٣هـ /



١٢٣٦م. أما ابن هود فقد قتله عامله على ألمرية.

قيام دولة غرناطة:

فى هذه الظروف ظهر زعيم جديد هو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر الملقب بابن الأحمر وبالشيخ، المنتمى إلى سعد بن عبادة زعيم الخزرج من الأنصار، وقومه فى الأصل سادة حصن أرجونة، وقد أعلن الرجل نفسه رئيسًا وتوافد الناس عليه فى "جيان" حيث كان يقيم، وأعلن نفسه أميرًا فدخل فى طاعته بلاد الجنوب الأندلسى، وكان يتسم بالحكمة والجد وحسن التدبير فنجح فى جمع مجموعة من كبار رجالات الأندلس حوله، وفى سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م انتقل إلى غرناطة، لأنها تقع عند سفح جبل الثلج "سيرانيفادا"، وعمَّر حصنًا هناك وسكنه، ويقال إن هؤلاء لقبوا ببنى الأحمر بسبب نضارة واحمرار شعر محمد بن يوسف أو بسبب حمرة فى الأبراج الشاهقة فى قصر ابن الأحمر أو بسبب الآجر الأحمر الذى بنيت به الأسوار الخارجية، أو أن ذلك يشير إلى لون المشاعل الحمراء التى كان البناء يتم ليلاً على ضوئها، لكن الراجح أن اسم الحمراء يرجع إلى بناء ابن الأحمر قصره فوق أطلال قلعة الحمراء القديمة التى كانت قلعة متواضعة موجودة فى القرن الرابع الهجرى= العاشر الميلادى، وكانت تربتها حمراء اللون، وليس هناك صلة بين اسم الحمراء وبنى الأحمر، وعلى أية حال، فقد صار بنو الأحمر والحمراء شيئًا واحدًا، واتخذ بنو الأحمر اللون الأحمر شعارًا لهم. ويلقب ابن الأحمر أيضًا بلقب- الغالب بالله- وهو شعار مملكة بنى نصر.

وقد فرضت الظروف على ابن الأحمر أن يعقد معاهدة مع ملك قشتالة بعد سقوط قرطبة، بل وعاونه عسكريًا فى الاستيلاء على بعض الحصون وعلى إشبيلية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م، وعلى غيرها من القواعد، وكان يرى أنه من الضرورى عقد هذه المعاهدة والاشتراك مع ملك النصارى فى حملاته ضد بنى قومه ودينه إلى حين، أى إلى أن تتاح له فرصة تمكنه من المقدرة على مواجهة هؤلاء الأعداء، وقد سيطر على الجزيرة الخضراء وعلى جبل طارق بمعاونة بنى مرين الذين وفدوا من العدوة المغربية لمعاونة الأندلس وبمعاونة بعض الذين وفدوا من العدوة المغربية وبمعاونة بعض المتطوعة الذين جاءوا من المغرب الأقصى.

وقد استمر ضغط القشتاليين على البلاد الأندلسية وضاعت معظم القواعد فى نحو ثلاثين عامًا من ٦٢٧ هـ/١٢٢٩م حتى ٦٥٥هـ/١٢٥٧م، ولم يبق إلا مملكة غرناطة، وهذا هو الذى جعل ابن الأحمر يبعث إلى أمير المسلمين أبى يوسف المرينى ملك المغرب يخبره بعدوان النصارى ونيتهم القضاء على ما تبقى من الممالك الإسلامية فى الأندلس، ويطلب غوثه ونجدته.

وقد شاء الله أن يتوفى محمد بن الأحمر بعد حكم دام فترة طويلة من (٦٢٩- ٦٧١هـ/ ١٢٣٢- ١٢٧٣م) ازدهرت البلاد خلالها، وقد وصفه ابن الخطيب فقال عنه:

"إنه كان آية من آيات الله فى الشدة والسلام والجمهورية (أى حب الناس له)، وكان جنديًا ثغريًا شهمًا عظيم التجلد رافضًا للدعة والراحة مؤثرًا للتقشف مباشرًا للحروب بنفسه يلبس الخشن ويؤثر البداوة".

وقد قضى فترة حكمه فى تثبيت ملكه وأضاف إلى غرناطة مالقة والمرية ولوقة، أى أن مملكة غرناطة اشتملت على ثلاث ولايات كبيرة هى غرناطة فى الوسط وولاية المرية الممتدة حتى البحر وولاية مالقة على البحر غربى غرناطة.

وتولى أمر المملكة من بعده ابنه وولى عهده أبو عبد الله الذى كان والده قد أخذ له البيعة فى حياته وهو محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر المعروف بالفقيه لعلمه وتقواه ٦٧١- ٧٠١هـ/ ١٢٧٣- ١٣٠٢م. وقد تمتع بكثير من الصفات الحسنة، وإذا كان الأب هو المؤسس، فالابن هو المنظم. فقد رتب رسوم الملك للدولة الملوكية المنظمة، كما كان بعيد الهمة واسع الأفق بارع السياسة، ومن العلم والأدب والشعر بمكان. ولكن ساءت الأمور فى عهده، واضطر أن يستهل ولايته بطلب معونة عسكرية من أمير بنى مرين المنصور أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق، فأعانه على تثبيت ملكه، وهزم النصارى سنة ٦٧٤هـ/١٢٧٥م، وبقيت قوة مرينية فى الأندلس يرأسها قائد من بنى مرين- وهم فى الأصل بطن من بطون زناتة البربرية -أسند إليه ابن الأحمر مهمة الدفاع عن الأندلس، وحمل لقب "شيخ الغزاة".

ومن هنا كان دخول بنى مرين الصراع على مصير الأندلس، وقد اشترط هؤلاء للاشتراك فى القتال أن تكون لهم

السيطرة على رندة وطريف والجزيرة الخضراء ومالقة وجبل طارق، لتكون معبرًا لهم.

ومن هنا بدأت مشكلة جبل طارق تأخذ شكلها الحازم ودخلت فيه ممالك غرناطة وقشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرجون بل والجمهوريات الإيطالية، كل يريد أن تكون له السيطرة عليه بسبب موقعه الاستراتيجى.

وفى ١٥ من ربيع الأول سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م تمكنت القوات الإسلامية من الانتصار على النصارى فى موقعة "استجه" وتقدموا لمحاصرة إشبيلية فاضطر "ألفونسو العاشر" لطلب الصلح فأجيب إليه.

وهنا لا بد من الإشارة إلى أمر خطير هو تخوف ملوك غرناطة من بنى مرين ومحاولة الانضمام إلى ملك قشتالة ضدهم، فكان خلاف المسلمين بعضهم ضد البعض أشد وطأة على مصير الأندلس من أى خطر آخر.

وعندما توفى أبو عبد الله الفقيه تولى الأمر من بعده ولده أبو عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ٧٠١- ٧٠٨هـ/١٣٠٢- ١٣٠٩م، وكان ضريرًا عالمًا شاعرًا يحب العمران، وكانت فترته فترة اضطرابات خاصة فى العلاقات مع المرينيين، وقد ثارت البلاد عليه وأرغموه على التنازل عن الملك، لأنه لم يكن يحسن تدبير الملك، ولهذا لقب بالمخلوع.

ومن بعده تربع على عرش غرناطة أخوه أبو الجيوش نصر ٧٠٨- ٧١٣هـ/ ١٣٠٩- ١٣١٣م. وكان فتى ولوعًا بالأبهة والمظاهر الملوكية، كما كان فلكيًا عالمًا رياضيًا لكنه كان مثل أخيه فى سوء الحكم، وخلال فترته استمرت العلاقات السيئة مع المرينيين، وقد انتهز النصارى الفرصة وهاجموا الأندلس، وسقط ثغر جبل طارق فى أيديهم سنة ٧٠٩هـ/ ١٣١٠م وهو صلة الوصل بين المملكتين، ولهذا ثارت البلاد عليه وتم عزله وتولى مكانه أبو الوليد إسماعيل الأول بن فرج ٧١٣- ٧٢٥هـ/ ١٣١٤- ١٣٢٥م، وقد استقرت الأمور فى عهده، وأحيا فريضة الجهاد، وحرص على إقامة الحدود ومحاربة الفساد الأخلاقى، ويذكر له أنه تخلص من التبعية لقشتالة واستقل بنفسه معتمدًا على قوات بنى مرين الذين استمرت إقامتهم فى غرناطة تحت مسمى "مشيخة الغزاة" كما أشرنا.

وفى عهد هذا الأمير تم عزل ألفونسو

العاشر عن ملكه، فاشتغل بالبحث والترجمة من العربية إلى القشتالية وحمل لقب " ألفونسو العالم" وكانت له اتصالات وثيقة بعلماء الأندلس، وقد تأثر بهم فى الفكر والدرس، وله جداول فلكية شهيرة عنوانها " الجداول الألفونسية" وضعها بالتعاون مع جماعة من علماء المسلمين واليهود والنصارى، وله مؤلف عنوانه " تاريخ أسبانيا العام"، اعتمد فيه على مصادر عربية، وفى عهده أيضًا تحالفت القوات الصليبية من الفرنجة والانجليز مع ملوك النصارى، وزحفوا إلى غرناطة بهدف الاستيلاء عليها، ولكنهم منوا بهزيمة ثقيلة فى ٢٠ ربيع الثانى سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م، وتمكنت مملكة غرناطة من استعادة بعض البلاد والحصون التى كانت قد فقدتها من قبل، ثم اغتيل السلطان الذى يذكر أن له الفضل فى إقامة الكثير من منشآت الحمراء كما سنذكر.

تولى الأمر من بعده أبو عبد الله بن أبى الوليد ٧٢٥هـ ٧٣٣هـ/ ١٣٢٥- ١٣٣٢م، وفى عهده تجددت معاهدة الصداقة مع ملك أراجون، ووقع خلاف بينه وبين شيوخ المغاربة (شيوخ الغزاة)، واشتدت وطأة النصارى، فعبر البحر مستنجدًا بالسلطان المرينى الذى أكرم وفادته وأجابه إلى ما طلب، وتمكن المسلمون من استعادة جبل طارق، ثم اغتيل السلطان على يد بعض المتآمرين عليه، وتولى من بعده أخوه أبو الحجاج يوسف الأول بن أبى الوليد إسماعيل ٧٣٣- ٧٥٥هـ/١٣٣٢- ١٣٥٤م.

وقد بذل هذا قصارى جهده للمحافظة على مملكته، لكن الضغط النصرانى المتزايد بالإضافة إلى اختلاف البيت النصرى، واستعانة بعضهم على بعض بملوك قشتالة وتدهور علاقاتهم بمشيخة الغزاة من بنى مرين، كل هذا كان له أبلغ الأثر فى التوجه بدولتهم نحو الهاوية.

ومع ذلك فقد كان أبو الحجاج من أعظم ملوك بنى نصر وأبعدهم همة، وكان عالمًا شاعرًا فلكيًا يحمى العلوم والآداب والعلماء، وهو الذى أسس المدرسة النصرية، كما حسن الأجنحة والزخارف، وبنى أجمل ما فى قصر الحمراء من أبنية، وقد ساد السلام والأمن آخر أيامه، ولكنه قتل غيلة سنة ٧٥٥هـ- ١٣٥٤م بعد أن شهد عصره مواقف متناقضة فى العلاقات مع بنى مرين، وخلفه فى الحكم ولده الملقب الغنى بالله محمد الخامس بن يوسف ٧٥٥- ٧٦٠هـ/ ١٣٥٤- ١٣٥٩م.



وفى عهده شغلت قشتالة بنزاعاتها الداخلية، فأمنت غرناطة شر العدوان إلى حين، ولكن حدثت ثورة داخلية قامت فى عهده وألجأته إلى النفى، وتولى العرش من بعده أخوه أبو الوليد إسماعيل الثانى بن يوسف ٧٦٠- ٧٦١هـ/ ١٣٥٩- ١٣٦٠م، ثم أبو سعيد محمود السادس بن إسماعيل ٧٦١- ١٣٦٠/٧٦٣- ١٣٦٢م.

وبعد فترة من الصراع تمكن الغنى بالله بمعاونة بنى مرين الذين كان قد لجأ إليهم فى فاس من العودة إلى العرش للمرة الثانية ٧٦٣هـ/ ١٣٦٢م.

وفى هذه الفترة ألغيت "مشيخة الغزاة" فى الأندلس وصار أمر المجاهدين إلى السلطان، بعد أن تولى المرينيون هذه الخطة نحو قرن من الزمان، وكان الغنى بالله حازمًا عادلاً عمر مشاريع منها المارستان الأعظم، وبث روح الجهاد بمعاونة وزيره ابن الخطيب وبمعاونة ابن خلدون، وقد أقام المشاريع العمرانية وحصن الثغور وأقام علاقات مع بلاط القاهرة المملوكية، وصد غارات للنصارى، فكان عصره ذهبيًا.

لقد برز اسم ابن الخطيب فى عهد ذلك السلطان كما أشرنا، وتولى الوزارة له وواجها محنًا خطيرة، واضطر للهروب إلى المغرب للاستنجاد ببنى مرين، ثم عاد إلى الأندلس، واسترد الغنى بالله عرشه، ودخل فى صراع مع بنى سراج- وهى من أكبر الأسر الأندلسية العربية فى مملكة غرناطة- وقد اغتيل السلطان فى سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م. ويذكر له أنه بنى القسم الأكبر من منشآت قصور الحمراء: باب الشريعة ومدرسة غرناطة، وهو الذى عنى بحدائق جنة العريف.

وفى عهد الغنى بالله توثقت عرى الصداقة بين غرناطة والقاهرة واتصلت بينهما السفارات والمكاتبات، وكانت أيامه أيام سؤدد ورخاء، اشتغلت فيها قشتالة بحروبها الداخلية وأمن المسلمون شرورها.

مشيخة الغزاة:

إنها قوة مرينية اتفق بنو نصر مع بنى مرين على استمرارهم فى الأندلس وإشراكهم فى الدفاع عن البلاد، وتنازل بنو نصر عن الجزيرة الخضراء ومالقة وبعض المراكز لتكون لهم معابر إلى الأندلس، حتى يتمكنوا من أداء واجبهم الدينى.

ومع ذلك فقد حدث نوع من النفور بين هؤلاء وبين بعض ملوك غرناطة وانضمت إليهم مملكة قشتالة وليون وأرجون

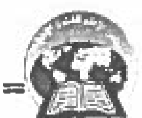
والجمهوريات الإيطالية، وكان الصراع بينهم من أشد الأخطار التى أضعفت مملكة غرناطة، وقد تجلى هذا فى موقعة " طريف" التى كانت بين الإسلام ممثلاً فى أبى الحجاج يوسف وأبى الحسن ابن عثمان بن أبى يعقوب المرينى، وبين قوات نصرانية ضخمة من القشتاليين والأراجونيين والبرتغاليين وبمباركة من البابا، وقد توجه هؤلاء جميعًا للاستيلاء على " طريف" لفصل المغرب عن الأندلس، وقد هزم المسلمون فى هذه الموقعة وسقطت " طريف" وتمهد الطريق لغزو جبل طارق، وفى سن ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م سقط ثغر جبل طارق أيام عبد الله محمد ابن يوسف، وأصبحت مملكة غرناطة محاصرة بقوات نصرانية لا قبل لها بها ولا سبيل لمقاومتها.

بداية تدهور مملكة غرناطة:

عندما تولى يوسف الثانى ولد أبى الحجاج ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م، لفترة قصيرة هادن قشتالة وتخلص من المتآمرين عليه، ولما توفى سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٥م، تولى العرش من بعده ولده محمد السابع المستعين بن يوسف الثانى سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٥م- ٨١١هـ/ ١٤٠٨م، وكان مستبدًا مسرفًا فى الدماء، ووزر له ابن زمرك تلميذ ابن الخطيب، كما كان بعيد العنف والجرأة، حرص على تجديد المهادنة والمودة مع ملوك قشتالة، ثم جرت منازعات بينهم وبينه انتهت بعقد هدنة معهم، ولما توفى هذا تولى الحكم من بعده:

أخوه أبو يوسف الحجاج الثالث الناصر ابن يوسف الثانى ٨١١- ٨٢٠هـ/ ١٤٠٧- ١٤١٧م، وفى عهده حدثت بعض الاضطرابات فى العلاقات مع ملوك قشتالة، كما جرت حروب بين ابن الأحمر والمرينيين عند جبل طارق انتصر فيها ملوك غرناطة، وكان أبو يوسف هذا بارع السياسة عظيم الفروسية والنجدة، وقد تبادل مع فرسان النصارى الزيارات وحفلات المبارزة والأعياد المشهورة، وقد توفى بعد فترة قصيرة ولكنها زاهية، وتولى من بعده عدد من الأمراء الضعاف أولهم ولده:

أبو عبد الله محمد الثامن الملقب بالأيسر ٨٢٠- ٨٢٢هـ/ ١٤١٧- ١٤١٩م وكان صارمًا متعاليًا، استبد بالأمر فى زمنه يوسف بن سراج- رأس بنى سراج الذين ترجع أصولهم إلى قبيلة طىء، وكانت فترته فترة اضطراب، ولم يفلح فى صد النصارى عن غرناطة فقامت ثورة



ضده وتم عزله ونفيه إلى تونس وعُيِّنَ مكانه:

محمد التاسع بن محمد بن يوسف الثالث الملقب بالزغل، وهو ابن أو ابن أخ للأيسر، وكان يلقب أحيانًا بأبى عبد الله الصغير ٨٢٢- ٨٣١هـ/ ١٤١٩- ١٤٢٧م وكان محبًا للآداب والفنون، فارسًا، وخلال فترة حكمه لم يوفق فى إخماد الفتن، فقامت ثورة ضده بتحريض من بنى سراج وسلطان تونس، وأعيد الأيسر للحكم، واسترد بنو سراج مكانتهم التى كانوا قد فقدوها، ولكن ملك قشتالة عاث فى الأراضى الأندلسية سنة ٨٣٤هـ/ ١٤٣١م حتى وصل إلى مشارف غرناطة، وعادت الفتن الداخلية والتمزقات والتف خصوم الأيسر حول أمير يدعى الحجاج يوسف بن المول وأمه ابنة السلطان محمد بن يوسف بن الغنى بالله، وأبوه من وزراء الدولة النصرية، وقد عقد يوسف هذا معاهدة مع ملك قشتالة وقبل أن يكون من رعاياه وأن يدفع له جزية (٢٠ ألف دينار)، ودخل فى معارك ضد الأيسر، وانتهى الأمر بتربعه على عرش غرناطة بمعاونة ملك قشتالة سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م بعد موافقته على كل شروطه، ولكنه توفى بعد ستة أشهر، واتفقت كلمة الأحزاب على رد العرش للأيسر للمرة الثالثة، واستمر النزاع بين المسلمين والنصارى لعدة أعوام، وكانت نتيجته سجالا، ولأول مرة يتوجه الأيسر إلى سلطان مصر يطلب نجدته وغوثه، ولكن لم تسفر سفارته عن نتيجة وواجه ثورات جديدة عليه لسوء سيرته، وبعد سلسلة من الولاة انتهى الأمر بتولية محمد التاسع بن نصر بن محمد الغنى للمرة الثالثة سنة ٨٣٥- ٨٤٨هـ/ ١٤٣٢- ١٤٤٤م، وقد عصفت الحروب الأهلية وغزوات النصارى معًا بقوى غرناطة. ونتيجة للصراع تولى السلطان يوسف الخامس بن إسماعيل للمرة الأولى سنة ٨٤٩هـ/ ١٤٤٦م ثم أعيد للمرة الثانية بعد أن تولى آخرون سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م، وكان هذا السلطان حازمًا محبًا للإصلاح، وجرت فى عهده معارك عنيفة مع النصارى وكانت نتيجتها سجالاً وسقط ثغر جبل طارق فى أيديهم سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م كما أشرنا، وكانت تلك خطوة مهمة فى سبيل قطع علاقات غرناطة بعدوة المغرب، مما اضطر غرناطة إلى عقد معاهدة مع ملك قشتالة أخذ الملك النصرانى بمقتضاها كل ما أراد.

ولكن الأمير سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر هاجم الحمراء وانتزع العرش لنفسه سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م أكثر من مرة، ثم خلص العرش لابنه أبى الحسن بعد صراع بين الأب وابنه، ثم حدث صراع ومنازعات بين أبى الحسن هذا وأخيه يوسف انتهى بوفاة الأخير بعد قليل.

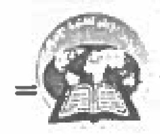
وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أسبانيا المسيحية فى هذه الآونة قد شهدت نهضة حربية وسياسية تُوِّجَتْ بزواج فرناندو الثالث ملك أراجون بإزابيلا ملكة قشتالة سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م، وقد اتحدا بعد نزاع وحروب مستمرة، وكان هذا يعنى بداية نهاية مملكة غرناطة الإسلامية، وذلك أن بقاءها كان يعتمد إلى حد كبير على استغلال النزاع بين قشتالة وأراجون. وبدأ الملكان الكاثوليكيان يعملان على إنهاء الوجود الإسلامى فى شبه الجزيرة نهائيًا، ولما شعرت غرناطة بذلك امتنعت عن دفع الجزية لقشتالة، وبدأت المناوشات بين الجانبين، وزاد من سوء موقف غرناطة اشتعال الحروب الأهلية بين أبنائها.

وكان على عرش غرناطة للمرة الأولى ٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م على أبو الحسن الملقب الغالب بالله وهو ابن سعد بن محمد، ولم يستخلص العرش لنفسه إلا بعد قتال عنيف ضد منافسيه، وعلى رأسهم أخواه يوسف أبو الحجاج والسيد أبو عبد الله محمد المعروف بالزغل، وقد توفى يوسف بعد قليل ونفى الزغل.

وكان أبو الحسن وافر الشجاعة؛ قام بحملات موفقة ضد النصارى أيام أبيه، ولما تولى تمكن من استرداد بعض القواعد والحصون التى كان النصارى قد استولوا عليها.

وكان الزغل على مالقة عندما خرج على أخيه أبى الحسن وطلب معونة ملك قشتالة ولكن أبا الحسن هاجم قشتالة وانتزع بعض المواقع منها ثم جرت حروب كانت سجالاً مع النصارى، ثم أعلنت مالقة خروجها عن طاعة أبى الحسن وقامت ثورة استدعت الزغل الذى كان فى قشتالة، وانقسمت بذلك المملكة الصغيرة شطرين، ثم انتهى الأمر بصلح بين الأخوين على أن يستقل الزغل (الشجاع) بمالقة وأحوازها، ويستقل أبو الحسن بغرناطة وما إليها، كذلك عقدت هدنة مؤقتة بين المسلمين والنصارى.

كان أبو الحسن هذا قد اقترن بعائشة



ابنة عمه السلطان الأيسر، وأنجب منها ولدين: أبا عبد الله محمد وأبا الحجاج يوسف، ولكن هذا السلطان فى أخريات أيامه تزوج فتاة داهية جميلة من أصل نصرانى اسمها ثريا، وقد أنجب منها ولدين أيضًا هما سعد ونصر، وقد حاكت المؤامرات والدسائس لدى السلطان حتى انتهى الأمر باعتقال عائشة وولديها ومعاملتهم بقسوة، وانقسم الزعماء والقادة فريقين: فريق يؤيد عائشة الحرة، والآخر مع ثريا الأسيرة فى الأصل، وقد رغبت الأخيرة أن يؤول الحكم لأحد ولديها، ولكن عائشة لم تستسلم ونجحت فى كسر الحصار الذى كان مضروبًا حولها بالقصر وفرت مع ولديها.

ثم ظهر ابنها أبو عبد الله محمد فى منطقة وادى آش التى تجمع بها أنصاره، أما أبو الحسن فقد دخل فى حروب مع النصارى، وواجه ثورة فى غرناطة ولم يتحمل ذلك ففر إلى مالقة حيث أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل. وجاء عبد الله محمد وجلس على عرش غرناطة سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م وأطاعته مع وادى آش التى كان قد لجأ إليها كما ذكرنا آنفًا، وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه أبى الحسن.

كان النصارى قد تعرضوا لعدة هزائم، وأراد السلطان الجديد أبو عبد الله محمد انتهاز فرصة ضعفهم، لكنه تعرض للهزيمة على أيديهم، وأسر الكثيرون من المسلمين ومنهم السلطان نفسه، وقد ارتاعت غرناطة لهذه النكبة واجتمع الكبراء والقادة وقرروا استدعاء أبى الحسن للعودة إلى ملكه، لكنه تنازل لأخيه الزغل حاكم مالقة ثم توفى أبو الحسن سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م.

أما السلطان الأسير فقد رأت قشتالة أن تستفيد من مكانته، وبنت سياستها على إطلاق سراحه حتى يلتف حوله البعض وتزداد فرقة المسلمين، وقد رفض ملك قشتالة افتداءه بمال، وعقد معه معاهدة سرية أصبح بمقتضاها تابعًا له يدفع له جزية، واشترط شروطًا وأخذ المواثيق التى تكفل القضاء على مملكة غرناطة، وكان ذلك سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م، بل إن عبد الله محمد أخذ ينشر بين المسلمين بعد إطلاق سراحه أن الصلح مع ملك قشتالة خير وأبقى، بينما اشتد الأخير فى مهاجمة الحصون والقواعد التى أخذت تسقط تباعًا بين يديه مستخدمًا القذائف النارية (الأنفاط)،

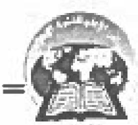
كل هذا والحرب الأهلية يشتد أوارها بين قادة المسلمين وبين الزغل وابن أخيه أبى عبد الله محمد، وانتهى الأمر بتقسيم مملكة غرناطة الصغيرة شطرين: شطر غرناطة وأعمالها ويحكمه أبو عبد الله محمد بن السلطان أبى الحسن؛ وقسم وادى آش وأعماله ويحكمه عمه الأمير أبو عبد الله الزغل، الذى استولى على الكثير من القواعد والحصون الداخلية.

أحاطت الحلقة بالزغل فقرر طلب النجدة من أمراء إفريقية ومن القسطنطينية ومن سلطان مصر الأشرف قايتباى، ولم يترتب على ذلك نتائج فعالة بسبب الظروف الداخلية فى هذه الدول، وكل ما حدث إرسال سفارة مصرية إلى البابا وإلى ملوك النصارى، وكلها عتاب على ما يحدث للمسلمين فى غرناطة وأن سلطان مصر مضطر أن يعامل رعاياه من النصارى بنفس الأسلوب.

أما "فرناندو" ملك أراجون فقد قرر البدء بالقضاء على الأماكن التى تخضع لأبى عبد الله الزغل، وانتهى الأمر بمعاهدة سرية خضع بمقتضاها الزغل وسائر قادته للملك النصرانى لأن الزغل رغم شجاعته لم يستطع مواجهة الظروف، ثم تقاضى مبلغًا من المال وعبر إلى وهران ثم إلى تلمسان بالجزائر.

بقيت غرناطة وأحوازها، وقد أرسل "فرناندو" إلى أبى عبد الله محمد يطلب تسليمها إليه وفقًا لمعاهدة سرية بينهما، لكن حدث عكس ما توقعه الملك النصرانى، فقد رفض أبو عبد الله فى سنة ٨٩٠هـ/ ١٤٩٠م الخضوع لطلبه واستؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى، وتحول أبو عبد الله الذى كان ضعيفًا مستكينًا إلى مُتحَدٍّ عنده عزة وكرامة، وبدأت سرايا المسلمين تعبث فى الأراضى القريبة الخاضعة للنصارى، بينما بدأ ملكة قشتالة وهى تضطرم سخطًا الهجوم مخرِّبةً الضياع والقرى، ونجح المسلمون فى رد القوات المعادية عن مدينة غرناطة، وتم ترتيب حاميات عن بعض المدن، وكانت المعارك سجالاً فى العام المشار إليه، وفى العام التالى رأى ملك قشتالة أنه لا بد من إرغام الحاضرة الإسلامية على التسليم، فأعد ما بين خمسين إلى ثمانين ألفًا، وجهزهم بأحدث الأسلحة والذخائر ووافر الأقوات.

ورغم قسوة الظروف وشعور غرناطة بأنها تواجه القدر المحتوم، فإنها قامت بدفاع من أمجد ما عرف فى تاريخ المدن



المحاصرة والقواعد الذاهبة، وتمثلت روح الكفاح فى فارس من أصول عربية، وافر العزم والبراعة والشجاعة هو موسى بن أبى غسان، وله كلمات رائعة فى هذا الصدد منها: "ليعلم ملك النصارى أن العربى قد ولد للجواد والرمح، فإذا طمع إلى سيوفنا فليكسبها، أما أنا فخير لى قبر تحت أنقاض غرناطة فى المكان الذى أموت مدافعًا عنه، خير من أفخم قصور نغنمها بالخضوع لأعداء الدين".

وقد قاد الجموع وتم تقسيم الدفاع عن المدينة بين زعماء الجيش والأسر، ولكن ملك قشتالة لم يترك وسيلة لإحكام الحصار وإرغام المدينة على التسليم، وقد قطع كل علائقها مع الخارج برًا وبحرًا، وهجم الشتاء فازداد تأزم الموقف واقتربت النهاية، ودب اليأس فى قلوب الناس بعد أن بذلوا فوق ما يستطيعون، واضطر أبو عبد الله أن يدعو مجلسًا من كبار الفقهاء والجند والأعيان، واتفقت كلمتهم على وجوب التسليم باستثناء صوت أبى موسى الذى دوى فى أركان القاعة: "إنه لخير لى أن أُحْصَى بين الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة من أن أُحْصَى بين الذين شهدوا تسليمها"، وانتهى الأمر بعقد معاهدة سرية أخرى خاصة بأبى عبد الله محمد وأفراد أسرته ووزرائه فى ٢١ محرم سنة ٨٩٧هـ الموافق نوفمبر سنة ١٤٩١م [٢]، ورغم اعتراض وأصوات أبى موسى، فقد تم تسليم غرناطة ومدينة الحمراء فى ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ/ يناير سنة ١٤٩٢م، فى منظر بالغ التأثير، وقد أجهش أبو عبد الله بالبكاء وهو يلقى نظرة الوداع على مملكته الذاهبة، وهنا قالت أمه عائشة: "أجل فلتبك كالنساء ملكًا لم تستطع الدفاع عنه كالرجال".

وبعد أن حيا فرناندو وزوجته إيزابيلا ملكة قشتالة، أبا عبد الله توجه إلى حصن "أندرش" الذى اختاره للبقاء فيه، ولكن فرناندو المعروف بالغدر لم يدعه يستقر فى موطنه الجديد، ولم يهنأ له بال إلا بعد أن خطط بالتآمر مع بعض وزراء أبى عبد الله –وتم منحه مبلغًا من المال كما تم تدبير خروجه إلى المغرب سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٣م حيث قصد إلى "فاس" وبقى عقبه فيها، وبلغ الأمر أن أصبحوا معدمين يعيشون من أموال الصدقات.

أما موسى بن أبى الغسان فقد ترك غرناطة وخرج مغضبًا وحده ليلقى سرية

من النصارى تتكون من ١٥ فارسًا أفنى معظمهم، وواصل نضاله حتى أصيب جواده فجثا على ركبتيه وواصل ضرباته ورفض أن يقع أسيرًا ثم تراجع للخلف حتى ألقى نفسه فى نهر قريب، فبلعته مياهه من فوره.

وهكذا يحمل الأواخر من ملوك غرناطة تبعة وقوع المأساة، فقد مزقتهم الحروب الأهلية بينما العدو يرقب الفرص ليثب، وخبا شأن بنى الأحمر ولاسيما منذ أوائل القرن التاسع الهجرى/ الرابع عشر الميلادى، لقد تعاقب على عرشها خلال هذه الفترة أكثر من ١٢ سلطانًا.

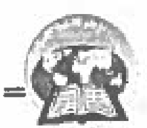
ونتيجة للانقلابات المتوالية شهدت غرناطة اعتلاء هؤلاء السلاطين أكثر من عشرين مرة، بسبب عودة بعضهم إلى العرش أكثر من مرة، ومنذ عهد الأمير على أبى الحسن بلغت مأساة الانقسامات والحروب ذروتها وأصبح مصير المملكة الإسلامية محتومًا.

بعض مظاهر الحضارة فى مملكة بنى نصر

الشعب الغرناطى[٢] :

لقد أصبحت غرناطة موئلاً لكل الشعوب المسلمة التى فقدت ممالكها. ومما يلفت النظر أن كثيرًا من المعاهدات مع النصارى كان ينص فيها على السماح للمدجنين- وهم المسلمون فى منطقة أو مدينة سقطت وحكمها النصارى- بالهجرة إلى غرناطة، فأصبح يضمها سيل من المهاجرين، خاصة وقد حرم عليهم فقهاؤهم البقاء فى هذه البلاد، بالإضافة إلى ذلك كان هناك البربر الذين وفدوا لمعاونة غرناطة فى حربها ضد النصارى، وكان هناك سودانيون لهم رابطة خارج مالقة، كما جاءت جالية من المتصوفة من الهند وبلاد الفرس وخراسان للمرابطة فى سبيل الله، وهناك جماعات من الأفارقة السود كانوا مع الجيش الإسلامى منذ حركة الفتوح الأولى، وفوق هذا كانت القبائل الأرستوقراطية العربية الذين تغلغلوا فى المجتمع الأندلسى وتناسلت أجيالهم، وقد قدر بعض الباحثين عدد سكان مملكة بنى نصر ما بين أربعة إلى خمسة ملايين نسمة.

وهكذا كانت مملكة بنى نصر من أغنى القواعد الأندلسية وأكثرها ازدحامًا بالسكان، ويصف ابن الخطيب هؤلاء السكان فيقول إنهم تمتعوا بصفات أخلاقية طيبة، وبالصور الحسنة والألسنة والأنساب العربية، وكثير من



البربـر والمهـاجرين، وتميـزت النسـاء بالجمال ونبل الكلام وحسن المحاورة مع الإسراف فى التزين بنفيس الحلى، وكان أهل الأندلس مضرب الأمثال فى النظافة، يعيشون فى سعة ورخاء ويحرصون على الاحتفال بالأعياد العامة فى اعتدال واقتصاد.

الثروات الطبيعية:

كانت مملكة بنى نصر تضم ثروات من الموارد الطبيعية، وفى وديانها الخصبة جاءت زراعة الحبوب والكروم والزيتون والفواكه وغيرها، وأهل غرناطة من أبرع الناس فى فلاحة الأرض وتربية الماشية وغرس الحدائق وتنظيم طرق الرى، وقد عمر السكان بلادهم واستغلوها أحسن استغلال.

لقد استخرج سكان غرناطة من جبالها الوعرة الكثير من الثروات المعدنية من الذهب والفضة، وبنوا المستشفيات والمدارس، وكانت مصانع المملكة تنتج الأقمشة المختلفة، منها الموشى بالذهب فى مرسية ومالقة والملبد فى غرناطة وبسطة، كما اتخذوا الفراء من بعض الحيوانات، كذلك استخدموا الرخام فى المصليات التى ترتكز على الأعمدة، وجملوا صحون المساجد بحدائق الفاكهة.

لقد كانت ثغور ملكة غرناطة خاصة مالقة والمرية من أغنى الثغور الأسبانية وأحفلها بالحركة التجارية بسبب توسطها بين أوروبا وأفريقية وانتظام اتصالاتها مع الثغور الأخرى وكانت ولاية غرناطة وحدها تضم من القرى العامرة ما تجاوز المائة قرية ذكرها ابن الخطيب فى (الإحاطة)[٤].

نظام الحكم:

كان ملوك بنى نصر يدينون بالحكم المطلق، لكن فى وقت الأحداث الخطيرة كان السلطان يستعين برأى الزعماء وأصحاب النفوذ، وفى فترات قليلة وجد مع السلطان وزير قوى كما حدث فى عهد السلطان أبى عبد الله محمد الملقب بالمخلوع ٧٠١- ٧٠٨هـ/ ١٣٠٢- ١٣٠٨م والسلطان أبى عبد الله محمد بن إسماعيل ٧٢٥- ٧٣٣هـ/ ١٣٢٥- ١٣٣٣م وفى عهد أخيه السلطان أبى الحجاج يوسف ٧٣٣- ٧٥٥هـ/ ١٣٣٣- ١٣٥٤م ثم عهد السلطان الغنى بالله ٧٥٥- ٧٩٣هـ/ ١٣٥٤- ١٣٩١م.

وكانت مناصب الحكم الرئيسية تنحصر فى الوزارة التنفيذية وقيادة الجيوش والقضاء، وكانت الوزارة تسند إلى واحد من أعلام القلم، وكان الوزير

يستعين بطائفة من الكتاب، وكان للسلطان كاتب سره أو أمينه الخاص.

أما الجيش فقد تولت قيادته لفترة طويلة أسرة بنى العلاء- أحد بطون بنى مرين- ابتداء من القرن السابع الهجرى، وكان متوليه يلقب بشيخ الغزاة، كما أسلفنا، وكان الجيش يضم فرقًا من أبرع الرماة من البربر وغيرهم، ويضم فرقًا من الفرسان المتمكنين، كما كان يتقن حرب العصابات مستفيدًا من الطبيعة الجبلية لغرناطة.

كما عرفوا سر البارود واستخدموه فى حروبهم، وكانت هناك القوى البحرية والأساطيل التى من شأنها حماية الشواطئ وتأمين الاتصال بعدوة المغرب، كل هذا مكن بنى نصر من إثبات وجودهم والدفاع عن كيانهم فترة زادت على قرنين ونصف من الزمان. برغم إحاطة الأعداء بهم من كل جانب.

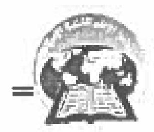
أما القضاء فكان منصب قاضى الجماعة هو أرفع المناصب ، ويختار من كبار فقهاء المالكية، وهو أيضًا قاضى الحضرة- أى غرناطة- وهو خطيب الحمراء أو الجامع الأعظم، وتتبع الحسبة وظيفة القضاء ومهمتها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراقبة الأسواق ومنع الغش. الخ.

أما حفظ الأمن والنظام وتنفيذ الأحكام فيتولاه صاحب الشرطة بمعاونة جماعات من الحراس.

الحركة الفكرية:

لقد احتلت مملكة بنى نصر مكانة مرموقة فى مجال الآداب والعلوم والفنون رغم ظروف القتال والحروب المستمرة، وبلغت الحركة الفكرية ذروة ازدهارها فى عصر السلطان أبى الحجاج يوسف بن إسماعيل ٧٣٣- ٧٥٥هـ/١٣٣٣- ١٣٥٤م وكان هو نفسه شاعرًا، وفى عصر ولده السلطان الغنى بالله ٧٥٥- ٧٩٣هـ/ ١٣٥٤- ١٣٩١م وكان أديبًا ألف كتابًا عنوانه " نثر الجمان فيمن ضمنى وإياهم الزمان "، وترجم فيه لأعلام عصره فى الشعر والأدب، ومن أدباء وشعراء الفترة ابن الحكيم الرَّنْدى وأبو عبد الله محمد ابن خميس التلمسانى وابن الحباب أستاذ ابن الخطيب وابن زمرك تلميذه والشريف العقيلى، خاتمة أدباء الأندلس ووزرائها. وإذا كانت غرناطة قد حفلت بهؤلاء وأمثالهم، فإن العلوم العقلية قد أصابها الركود، وقلما نجد عالمًا فى الطب أو الفلسفة أو العلوم الرياضية.

وقد برع فى نفس الفترة عدد من النحويين واللغويين، وعدد من علماء



الدين والفقه، واشتهر بعض المتصوفة، وظهر من المؤرخين محمد بن يحيى بن أبى بكر بن سعيد، ومنهم ابن فرحون برهان الدين إبراهيم بن على اليعمرى الأندلسى ت ٧٩٩هـ/ ١٣٩٧م صاحب كتاب "الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب" وهو تراجم فى طبقات المالكية، ومنهم أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد الجذامى الملقى النباهى صاحب "نزهة البصائر" الذى يضم نبذة عن تاريخ الدولة النصرية، وله المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا"، وقد نشره ليفى بروفنسال فى القاهرة سنة ١٩٤٨م بعنوان "تاريخ قضاة الأندلس".

هذا وقد فصل الدكتور شاكر مصطفى الحديث عن رجال الدولة فى العصر الغرناطى وعن رجال الدين والفقه والزهد، وعن المؤرخين والشعراء ورجال العلوم والفلسفة والطب، وعن النحاة ورجال الأدب واللغة والقراء، كل ذلك فى المجلد الثانى من موسوعة "دول العالم الإسلامى ورجالها" من ص ١٣٠٨- إلى ص١٣٢٣.

العمارة فى مملكة غرناطة:

كانت غرناطة بقصورها وميادينها الفسيحة من أجمل مدن العصور الوسطى، وأبرز هذه القصور قصر الحمراء، أخلد هذه القصور.

وقد بدأ محمد بن الأحمر بناء هذا القصر على الجانب الأيسر لنهر حيدرة شمال شرقى مدينة غرناطة فوق أطلال قلعة كانت موجودة سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٨م، وجاء ابنه محمد الفقيه فأنشأ الحصن والقصر الملكى أواخر القرن السابع الهجرى= الثالث عشر الميلادى، وأنشأ حفيده محمد إلى جانب القصر مسجدًا رائعًا.

وبنيت معظم أجنحة الحمراء الملكية فى عهد السلطان أبى الوليد إسماعيل وولده الشاعر والفنان الموهوب أبى الحجاج ثم ابنه محمد الغنى بالله، ويحيط بالحمراء سور ضخم يتخلله ١٣ برجًا بقى بعضها حتى اليوم.

وتنقسم أبنية الحمراء إلى جناحين كبيرين: **الأول:** قصر قمارش - المقر الرسمى لملوك غرناطة- **والثانى:** قصر السباع تتوسطه السباع أو الأسود وقد أنشأه محمد الغنى بالله.

وقد نقش شعار "لا غالب إلا الله" — وهو شعار بنى نصر —فى كل ركن من أركانه.

وعلى مقربة من قصر الحمراء وجد

أثر إسلامى آخر هو " جنة العريف" الذى شيد على ربوة عالية أوائل القرن السابع الهجرى/ أوائل القرن ١٣م وجدده السلطان أبو الوليد إسماعيل، وكان بمثابة منتزه لسلاطين غرناطة يقصدونه للاستجمام، وقد ضاعت معظم معالمه.

وهناك قصر يسمى قصر " شنيل" ومجموعة أخرى من القصور والمدارس والمستشفيات لا تزال آثار بعضها باقية حتى اليوم.

أ.د / عبد الله محمد جمال الدين

ملوك بنى نصر (أو بنى الأحمر)

٦٢٧-٨٩٨ هـ/ ١٢٣٠-١٤٩٢م فى غرناطة

١. أبو عبد الله محمد (الأول) الغالب بن يوسف بن نصر	٦٢٩هـ/١٢٣٢م
٢. أبو عبد الله محمد (الثانى) الفقيه بن محمد (الأول)	٦٧١هـ/ ١٢٣٧م
٣. أبو عبد الله محمد (الثالث) الأعمى المخلوع ابن محمد (الثانى	٧٠١هـ/ ١٣٠٢م
٤. أبو الجيوش نصر محمد (الثانى)	٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م
٥. أبو الوليد إسماعيل (الأول) بن فرج	٧١٣هـ/ ١٣١٣م
٦. محمد (الرابع) بن إسماعيل	٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م
٧. أبو الحجاج يوسف (الأول) النيار بن إسماعيل	٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م
٨. محمد (الخامس) الغنى (بالله) بن يوسف	٧٥٥هـ/ ١٣٥١م
٩. أبو الوليد إسماعيل (الثانى) بن يوسف	٧٦٠هـ/ ١٣٦٠م
١٠. أبو سعيد محمود (السادس) بن إسماعيل .	٧٦١هـ/ ١٣٦٠م
١١. محمد (الخامس)، (للمرة الثانية)	٧٦٣هـ / ١٣٦٢م
١٢. أبو الحجاج يوسف (الثانى) بن محمد (الخامس)	٧٩٣هـ / ١٣٩١م
١٣ . محمد (السابع) المستعين بن يوسف (الثانى)	٧٩٧هـ/١٣٩٥م
١٤. أبو الحجاج يوسف (الثالث)، الناصر بن يوسف (الثانى)	٨١٠هـ/ ١٤٠٧م
١٥. محمد(الثامن) المتمسك بن يوسف (الثالث).	٨٢٠هـ/ ١٤١٧م
١٦. محمد(التاسع) الصغير بن نصر (للمرة الأولى)	٨٢٢هـ/ ١٤١٩م.
١٧. محمد (الثامن)، (للمرة الثانية)	٨٣١هـ/ ١٤٢٧م
١٨. محمد (التاسع)، (للمرة الثانية)	٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م
١٩. أبو الحجاج يوسف (الرابع) بن محمد (السادس)	٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م
٢٠. محمد (التاسع)، (للمرة الثالثة)	٨٣٥هـ/ ١٤٣٢م
٢١. محمد (العاشر) الأحنف بن عثمان	٨٤٨هـ/ ١٤٤٥م
٢٢. يوسف (الخامس) (للمرة الأولى)	٨٤٩هـ/ ١٤٤٦م
٢٣. محمد (العاشر)، (للمرة الثانية)	٨٤٩هـ/ ١٤٤٦م
٢٤. محمد (التاسع)، (للمرة الرابعة)	٨٥١هـ/١٤٤٧م
٢٥. بالاشتراك مع محمد الحادى عشر فيما بين ٨٥٤- ٨٥٥هـ	١٤٥١/١٤٥٢م

٢٦. سعد (المستعين بالله)، (للمرة الأولى)	٨٥٧هـ/١٤٥٣م
٢٧. يوسف (الخامس)، (للمرة الثانية) .	٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م
٢٨. سعد المستعين بالله (للمرة لثانية).	٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م
٢٩. أبو الحسن على (للمرة الأولى)	٨٦٨هـ/ ١٤٦٤م
٣٠. أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) بن على (أبو عبديل) (للمرة الأولى) كحاكم وحيد	٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م
٣١. أبو الحسن على (للمرة الثانية)	٨٨٨هـ/ ١٤٨٣م
٣٢. محمد (الثانى عشر) بن سعد الزغل .	٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م
٣٣. أبو عبد الله محمد (الحادى عشر) المعروف بالصغير (للمرة الثانية)	٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م

الهوامش:

(١) للأستاذ محمد عبد الله عنان سجل كامل بهذه المدن وغيرها وسقوطها فى أيدى النصارى: الآثار الأندلسية الباقية جـ٨ ص ٤٤٥ وما بعدها.

(٢) راجع بعض نصوص هذه المعاهدة فى مادة : المورسكيون .

(٣) (M . La Fuentealcantra : Historia de Grenada lll P.99).

(٤) جـ١ ص ١٠٤- ١٢٨ من طبعة القاهرة.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ اللمحة البدرية فى الدولة النصرية ـ لسان الدين بن الخطيب، بيروت ١٩٨٠م.

٢ـ الإحاطة فى مملكة غرناطة ـ لسان الدين بن الخطيب ـ تحقيق محمد عبد الله عنان ـ القاهرة ١٩٧٤م.

٣ـ نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ـ المقرى التلمسانى شهاب الدين، تحقيق إحسان عباس ـ بيروت ١٩٦٨م.

٤ـ مملكة بنى نصر فى غرناطة ـ أحمد الطوخى، رسالة دكتوراه قدمت لكلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية فى السبعينات من القرن العشرين الميلادى.

٥ـ دولة الإسلام فى الأندلس ـ محمد عبد الله عنان، وهو المجلد السابع من موسوعته وعنوانه: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ـ القاهرة ٢٠٠١م، أما المجلد الثامن فعنوانه: الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، القاهرة ٢٠٠١م.

٦ـ معالم تاريخ المغرب والأندلس ـ حسين مؤنس ـ القاهرة ٢٠٠٤م.

٧ـ موسوعة دول العالم الإسلامى ورجالها ـ شاكر مصطفى ـ أربعة أجزاء فى أربعة مجلدات ـ بيروت ١٩٩٣م.

٨ـ M . Lafuente Alcantra : Historia de Granda . Granda 1845.

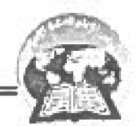
البوسنة والهرسك

تقع جمهورية "البوسنة والهرسك" فى البلقان جنوب شرق أوروبا، وتبلغ مساحتها ٥١,١٢٩ كيلو مترًا مربعًا. وتشمل البوسنة الجزء الأكبر الشمالى، بينما تقع مقاطعة الهرسك إلى الجنوب من الجمهورية[١].

وتعتبر البوسنة والهرسك موطنًا لثلاث عرقيات أساسية، وهى: البوشناق- وهم الأكثر عددًا- يليها الصرب، ثم الكروات. ويطلق على مواطنيها "بوسنيون"[٢].

وكانت البوسنة والهرسك جزءًا من الإمبراطورية الرومانية، حتى انقسامها فى أواخر القرن الرابع الميلادى، وعرفت المسيحية طريقها حينذاك إلى تلك البلاد[٣].

وكان الصرب يدينون بالمذهب الأرثوذكسى، والكروات يعتنقون المذهب الكاثوليكى، بينما لم تتأثر القبائل البوشناقية- وهم السواد الأعظم- بهذين المذهبين، واعتنقت المذهب البوجوميلى "Bogomiles"[٤]. وهو مذهب يخالف المذهبين السابقين وكان أتباعه أقرب للإسلام؛ فقد رفضوا الأسرار المقدسة والطقوس بوصفها أعمالاً مكرسة لمغزى غيبى، مثل عبادة السيدة مريم، والقول بأن عيسى ابن الله، كما كانوا يرفضون القول بالثالوث أى اتخاذ الأب والابن والروح القدس، وأبوا نظام التعميد، وعابوا حفلات الكنيسة ورؤساءها، وكذلك رفضوا فكرة العشاء الربانى، وأنكروا الصليب رمزًا دينيًا، واعتبروا تقديس الصور الدينية والأيقونات وآثار القديسين الباقية ضربًا من الوثنية، وكرهوا نواقيس الكنائس، وأطلقوا عليها أبواق الشياطين، وآمنوا بضرورة الصلاة. وكانت دور صلاتهم بسيطة وبعيدة عن الزينة والزخارف على عكس الكنائس الكاثوليكية التى تميزت بالزخارف الزاهية. وبالإضافة إلى هذا، كان أصحاب هذا المذهب يعتقدون أن المسيح لم يصلب ولكن حل محله شيخ آخر. وهم يتفقون فى هذا الصدد مع ما جاء فى القرآن الكريم. وكانوا يحرمون على أنفسهم شرب الخمور، ويحرصون على أن يكون سلوكهم الخارجى وعلاقاتهم الاجتماعية مبرأة من العيوب التى حفلت



بها المجتمعات المسيحية فى أوروبا ذلك الوقت[٥].

وكان من الطبيعى أن تنظر الكنيستان: الكاثوليكية والأرثوذكسية شزرًا إلى هذه الطائفة وتتهماها بالهرطقة، ودعت البابوية إلى شن حملات صليبية عليها. وقد تعرضوا لموجات من اضطهاد الكاثوليك العنيف على يد ملوك البوسنة الذين كانوا يستجيبون إلى توجيهات البابوية فى روما[٦]. وكان آخر هؤلاء الملوك "ستيفان توماشى" (١٤٤٣- ١٤٦١م) الذى اشترط عليه البابا أن يعتنق المذهب الكاثوليكى، وطالبه بقمع هذه الطائفة بوصفهم زنادقة- ونفذ الملك ما أمر به؛ ولذا التجأ كثير منهم إلى النواحى التى يحكمها الأتراك العثمانيون[٧].

وكان تاريخ البوسنة قد اتسم بالصراع على السلطة حتى أوائل القرن الثامن الهجرى /الرابع عشر الميلادى، وبعد سنة ٧٩٤هـ - ١٣٩١م بدأ الضعف يدب فيها، وفى المقابل كانت الدولة العثمانية آخذة فى الصعود، واستولت على كثير من الأراضى الأوروبية ابتداءً من النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى، حتى تم استيلاؤها على البوسنة فى عام٨٦٨هـ ١٤٦٣م، بعد أن مزقتها الصراعات الداخلية، وأوهنتها الحروب الدينية، ثم استولى العثمانيون على الهرسك فى سنة ٨٨٧هـ- ١٤٨٢م[٨].

وكانت البوسنة تحت الحكم العثمانى إحدى صناجق الدولة، وأصبحت فى سنة٩١٤هـ - ١٥٠٨م، إيالة تضم مساحة أكبر من مساحتها فى الوقت الحالى[٩] وأبقى العثمانيون على اسمها التاريخى وسلامة أراضيها. واحتفظ السكان بقوميتهم، وظل السواد الأعظم منهم يحملون أسماء محلية، ويتكلمون لغتهم الوطنية[١٠].

وتشير كثير من الدراسات إلى أن حكم العثمانيين للبوسنة والهرسك نتج عنه تحسن كبير فى أحوال السكان الاقتصادية والاجتماعية فى الريف والمدن على السواء، وتحول الكثيرون من مربى أغنام إلى فلاحين بعدما استوطنوا الأراضى الخصبة، وتوفرت بذلك قوة بشرية لإصلاح مساحات من الأراضى التى خربت، وعادت الجهات التى خوت من أصحابها آهلة بهم من جديد[١١].

وشهد النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى نموًا سريعًا وتطورًا فى بعض مدن البوسنة،

كما ظهرت مدن جديدة كسراييفو، وموستار، التى أضحت من أكبر المراكز التجارية والحضارية فى المنطقة. وأعقب ذلك زيادة مطردة فى حجم التجارة مع المدن الإيطالية، كما تدفق وافدون جدد للعمل ضمن الطوائف المهنية[١٢]. وشَيَّد داخل تلك المدن العديد من السلاطين والحكام المحليين الكثير من الأبنية الدينية مما أدى إلى ازدهارها ثقافيًا وحضاريًا[١٣].

وفى القرنين الأول والثانى من الحكم العثمانى للبوسنة والهرسك حصل تطور سريع فى الصناعات اليدوية والحرف ذات الطابع الشرقى، وتقدمت سريعًا الصناعات المتصلة بإنتاج الجلود وصياغة الذهب والمهن المتصلة بإنتاج المعدات الحربية، ومستلزمات أهل المدن، وكذلك الحرف والصناعات المتعلقة بصناعات التعدين[١٤].

ومع الحكم العثمانى للبوسنة والهرسك بدأ الإسلام ينتشر سريعًا، وأخذت الحضارة الإسلامية تعم البلاد؛ بحيث صار المسلمون كثرة عددية، وأخذوا كثيرًا من حياة الأتراك وطبائعهم؛ إذ كان الأتراك هم أول من احتكوا بهم من المسلمين، وعرفوا عن طريقهم الإسلام. ولم يقتصر تأثير الأتراك على المسلمين، بل امتد إلى المسيحيين فى كثير من مظاهر حياتهم[١٥].

وقد تجمعت عدة عوامل أدت إلى اعتناق كثير من البوسنيين الإسلام، منها:

ما كان ينتهجه العثمانيون من سياسة لنشر الإسلام، وبخاصة فى البلقان؛ إذ كان يصحب قوات الجيش القضاة والمفتون ومن إليهم من رجال الهيئة الإسلامية، وغيرهم من أتباع الطرق الصوفية ورجال الفكر، وأسهم الجميع فى غرس بذور الإسلام فيها[١٦].

وكذلك أدى الاضطهاد الدينى الذى تعرض له البوجوميليون على أيدى الكاثوليك إلى استغاثتهم بالأتراك العثمانيين لتخليصهم مما هم فيه من بؤس وشقاء، وخصوصًا فى عام٨٦٧هـ/١٤٦٢م[١٧]. ولذلك رحبوا بهم لما جاءوا فاتحين، ودخل كثير منهم فى دين الله بمحض إرادتهم؛ إذ وجدوا الفروق ضئيلة جدًا بين مذهبهم وبين تعاليم الإسلام. أما البقية من أفراد هذه الطائفة فقد أسلموا تدريجيًا[١٨].

وسمح العثمانيون لمن يعتنق الإسلام بأن

يحتفظ بأراضيه وممتلكاته، وأن يتمتع بالإعفاء الضريبى الكامل؛ ليقتدى بهم غيرهم. وقد آتت هذه السياسة أكلها فدخل أكثر الطبقات الغنية من السكان، وأغلب ملاك الأراضى فى الإسلام، وحسن إسلامهم[١٩].

كما التزم العثمانيون بسياسة التسامح الدينى مع غير المسلمين، فاعترفت الحكومة العثمانية بالكنيسة الصربية الأرثوذكسية، وتمتعت الكنيسة بموجب براءة سلطانية بحقوق وامتيازات كثيرة[٢٠]. ويذكر محمد فؤاد كوبريلى: " أن من أسباب اعتناق كثير من الأرثوذكس الإسلام أن الكنيسة الأرثوذكسية فقدت سلطانها على الجماهير التابعين لها منذ القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى؛ مما أدى إلى خلق حالة وجدانية تبرر - مع المصالح الاقتصادية - الدخول فى الإسلام"[٢١].

وكذلك الكاثوليك منحوا امتيازات عديدة بفرمان من الباب العالى، وأيضًا من لم يدخل فى الإسلام من طائفة البوجوميل، ثم لم يلبث هذا المذهب أن اختفى تمامًا بدخول أصحابه الإسلام[٢٢].

ومن مظاهر ذلك التسامح أيضًا السماح لليهود الذين أتوا خلال القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى بعد طردهم من أسبانيا، بالإقامة وممارسة سائر الأنشطة الاقتصادية[٢٣].

ومن تلك العوامل أيضًا أن المدن التى بنيت فى العهد العثمانى تطورت إلى مراكز للإسلام، وهاجر إليها المسلمون من أماكن شتى حاملين معهم عادات وأساليب شرقية فى الحياة[٢٤]، وامتد تأثير تلك المدن على القرى المجاورة؛ مما أدى إلى انتشار الإسلام باطراد بين الفلاحين[٢٥].

وبرهن من أسلم من البوسنة والهرسك على غيرة متدفقة على الإسلام، وأثروا فى الثقافة العثمانية وأَثْرَوْها، وتبوأ الكثير منهم مراكز قيادية سواء فى الحكومة المحلية، أو المركزية، أو فى الولايات الأخرى[٢٦].

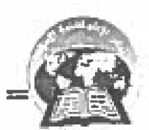
وظلت البوسنة والهرسك تحت الحكم العثمانى مستقرة أحوالها حتى النصف الثانى من القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، فظهرت أمارات أزمة فى الكيان الإدارى العثمانى العام وازدادت ظهورًا فى مالية البلاد، وكان من نتائجها إضعاف كبير للقوة الحربية التركية، وظهر أثر الأزمة فى البوسنة أيضًا[٢٧].

وبدأت المشاكل تحاصر الجيوش العثمانية حتى الحدود أواخر القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى، وصار صنجق البوسنة مقاطعة على الحدود الغربية للدولة، ثم شهد القرن التالى المزيد من الهزائم العسكرية، وتفشّى الطاعون، واندلاع الثورات داخل البوسنة، لتغلغل المذاهب القومية بين الشعوب المتباينة التى تألفت منها الدولة[٢٨].

وانعكست الأزمة الاقتصادية والمالية للدولة العثمانية، والضعف الذى أصاب الكيان العثمانى على الأحوال السائدة فى البوسنة أيضًا، حيث توالت الاضطرابات فيها[٢٩].

وقوبلت محاولات الباب العالى لتحديث الدولة وتطويرها بعداء شديد فى البوسنة، حيث وقفت الأسر الأرستقراطية حائلاً دون حدوث الإصلاحات المقترحة خوفًا من فقد امتيازاتهم. ومن أشهر هذه التمردات ما كان بقوة السلاح عام ١٢٤٦هـ - ١٨٣٠م، وفشل فى السنة ذاتها. ولم تمض سنة١٢٦٨هـ- ١٨٥١م حتى تم إخماد باقى الثورات الأخرى. ولكن الوضع استمر فى التدهور، فاندلعت اضطرابات المزارعين النصارى التى اشتعلت فى مقاطعة الهرسك عام١٢٩٥هـ - ١٨٧٥م، وامتدت إلى الصرب الأرثوذكس فى البوسنة. وسرعان ما تطور هذا النزاع، وفر عدد كبير من نصارى البوسنة إلى النمسا وطلبوا تدخلها فى الأمر. وبالفعل تدخل العديد من دول البلقان والقوى العظمى[٣٠]. مما أجبر العثمانيين فى نهاية المطاف على التنازل عن إدارة البلد إلى الإمبراطورية النمساوية المجرية عن طريق معاهدة برلين سنة ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م، على أن تحتفظ الدولة العثمانية بسيادتها على هاتين الولايتين. وأن يظل المسلمون فيهما تحت السيادة الروحية للسلطان العثمانى كسلطان للإسلام وخليفة للمسلمين[٣١].

ولقيت الجيوش النمساوية التى أرسلت لاحتلال البلاد مقاومة شديدة من مسلمى البوسنة وكان على رأس الثوار رجال الطبقة الدنيا، بعد انسحاب السلطات التركية والجيش، اللذين حرضًا الشعب على الثورة ضد الغزاة. وابتدأ الاحتلال فى آخر يوليو، وتم فى أكتوبر سنة ١٢٩٥هـ - ١٨٧٨م. واتخذت إجراءات صارمة لتحطيم المقاومة، وبخاصة حول سراييفو وفى



داخلها[٣٢].

وقد دلت الأحداث على أن هذا الاحتلال المؤقت كان مقدمة لعملية ضم نهائى إلى ممتلكات النمسا والمجر بصفة رسمية فى سنة١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م[٣٣].

وبعد انتهاء الاحتلال فى الحرب العالمية الأولى أصبحت البوسنة والهرسك تحمل اسم مملكة "الصرب والكروات والسلوفيين"، ثم أعيدت تسمية هذه المملكة عام ١٣٤٨هـ- ١٩٢٩م، حيث أصبح اسمها يوغوسلافيا[٣٤].

وفى أثناء الحرب العالمية الثانية احتلت دول المحور يوغوسلافيا. وسرعان ما بدأت أعمال العنف ضد المسلمين، وأبدى سكان البوسنة والهرسك مقاومة ضد هذه الأعمال الإرهابية. وقاد "تيتو" - زعيم الحزب الشيوعى- حركة المقاومة ابتداءً من يونيو عام١٣٦٠هـ- ١٩٤١م، ونجح فى أن يجمع حوله كل العناصر ذات العرقيات والطوائف والاتجاهات والميول المختلفة، وتحرك فى اتجاه مضاد ضد الاحتلال النازى. وعلى الرغم من المعاناة التى تعرض لها مسلمو البوسنة والهرسك، وتأييدهم الرئيس "تيتو" إبان حرب التحرير، أملاً فى الاعتراف بكيانهم وهويتهم فإنه نكل بهم، واضطهدهم لكونهم مسلمين[٣٥].

وكانت البوسنة تمثل دائمًا نقطة يشتد حولها النزاع بسبب اختلافها الثقافى والدينى عن بقية الجماعات السكانية الأخرى التى تعيش فى يوغوسلافيا. وفى عام١٤١١هـ- ١٩٩٠م تنازل الشيوعيون عن انفرادهم بالسلطة فبدأت تتكون أحزاب سياسية فى البلاد، وفى تلك السنة عقدت البوسنة والهرسك انتخابات لأول مرة، وفازت الأحزاب غير الشيوعية بجل المقاعد فى المجلس التشريعى، واندلع العنف بين المسلمين والصرب، ثم اختير "على عزت بيجوفتش" رئيسًا[٣٦].

وفى عام ١٤١٢هـ - ١٩٩١م بدأت يوغوسلافيا فى الانقسام على نفسها، بعد أن أعلنت كل من كرواتيا وسلوفينيا استقلالهما، ثم تم الإعلان عن استقلال البوسنة والهرسك عام ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م إثر استفتاء عام؛ فعارض عدد كبير من الصرب الذين يعيشون فى البوسنة والهرسك إعلان الاستقلال. وبدأ الصرب الذين كان يساندهم الجيش اليوغوسلافى القومى حربًا ضد كل من لم يكن صربيًا، وانتهجوا سياسة التطهير العرقى، فعذبوا

وقتلوا كثيرًا من مسلمى البوسنة والكروات[٣٧].

ومنع مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة توصيل الإمدادات إلى مسلمى البوسنة من الدول الإسلامية. سوى الغذاء والدواء ولم يفد الحصار الذى فرضه على الصرب لوقف القتال، ولا هجمات حلف شمال الأطلسى على المواقع الصربية. وعلى الرغم من تعاون المسلمين والكروات، وشنهم هجومًا كبيرًا على الصرب استعادوا به مساحات واسعة من أيديهم فإن حرب الإبادة ظلت قائمة، ولم تضع أوزارها إلا فى سنة١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، بعد دخول القوات الدولية إلى البوسنة والهرسك[٣٨].

د / عزت إبراهيم دسوقى

الهوامش:

(١) مصطفى دسوقى كسبه: المسلمون فى أوروبا، كتاب الأزهر، القاهرة، ذو الحجة ١٤١٧هـ، ص١٢.

(٢) www. Ar. Wikipedia-org .

(٣) كرسماريك: البوسنة والهرسك، بحث منشور فى "موجز دائرة المعارف الإسلامية"، ترجمة إبراهيم زكى خورشيد وآخرين، مركز الشارقة للإبداع الفكرى، ١٩٩٦م، ج٥، ص١٤٨٠، ١٤٨١.

(٤) تشكلت تلك الحركة فى بلغاريا فى القرن العاشر الميلادى، على يد مؤسسها الكاهن بوجوميل، ومن هنا جاءت التسمية. وفى القرن الحادى عشر انتشرت هذه الحركة فى الصرب وكرواتيا وبلدان أخرى. وقد طرح البوجوميليون فكرة شيوعية الملكية بنفس الروح التى طرحوا بها شيوعية الاستهلاك. وبالإضافة إلى رفضهم كثيرًا من الطقوس المسيحية وغيرها مما يتصل بصلب العقيدة المسيحية، شارك كثير منهم فى انتفاضات الفلاحين، وحركة التحرر الوطنى ضد الحكم البيزنطى، بينما رفض بعضهم العنف ودافعوا عن الإنسانية. وفى القرن الرابع عشر الميلادى، تحول البوجوميليون إلى طائفة تضم فى صفوفها قسمًا من رجال الدين وبعضًا من سكان المدن. وقد أثرت هذه الحركة على الطوائف الخارجة على الكنيسة الكاثوليكية فى غرب أوروبا بعد ذلك. "المعجم العلمى للمعتقدات الدينية" ترجمة سعد الفيشاوى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٩١.

(٥) أرنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د/حسن إبراهيم، وآخرين، الطبعة الثالثة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص٢٢٨، ٢٢٩، و د/ جلال يحيى: العالم الإسلامى الحديث والمعاصر، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، د.ت.، ص٨٥، وكرسماريك: المرجع السابق، ص١٤٨٢- ١٤٨٣م.

(٦) محمد فؤاد كوبريلى: قيام الدولة العثمانية، ترجمة د/ أحمد السعيد سليمان، الطبعة الثانية، سلسلة الألف كتاب (الثانى)، العدد ١١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م، ص١٣٦، ١٧٠، ود/سالم الرشيدى: محمد الفاتح، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٦م، ص١٣٢٠. وممن دعا إلى هذه الحملات من باباوات الكنيسة الغربية: هونوريوس Honorius الثالث فى سنة ١٢٢١م، وجريجوار Gregoire التاسع فى سنة ١٢٢٨م، وإنوسنت Ennocent الرابع فى سنة ١٢٤٣م، وبندكت Bendict الثانى عشر فى سنة ١٣٣٧م. د/عبد العزيز الشناوى: أوروبا فى مطلع العصور الحديثة، الطبعة الأولى، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١، ص٦٥٧- ٦٥٨.

(٧) جورجف: البوسنة والهرسك، بحث منشور فى "موجز دائرة المعارف الإسلامية"، ج٥، ص١٥٢٥، ١٥٣٣- ١٥٣٤.

(٨) د/عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، ص٦٥٨، وأرنولد: المرجع السابق، ص٢٢٧، وبول كولز: العثمانيون فى أوروبا. ترجمة د/عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب (الثانى)، العدد ١٢٦، القاهرة ١٩٩٣م، ص٢١١، ٢١٢.

(٩) جورجف: المرجع السابق، ص١٥١٧.

(١٠) د/عبد العزيز الشناوى: المرجع السابق، ص٥٥٧.

(١١) جورجف: المرجع السابق، ص١٥٢٧- ١٥٢٨.

(١٢) المرجع نفسه، ص١٥٣٥.

(١٣) www. Ar. Wikipedia. Org .

(١٤) جورجف: المرجع السابق، ص١٥٣١- ١٥٣٢.

(١٥) المرجع نفسه، ص١٥٢٠، ١٥٢٣، ١٥٥٠.

(١٦) د/عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠م، ج١، ص٩.

(١٧) أرنولد: المرجع السابق، ص٢٢٧، ٢٢٨.

(١٨) د/عبد العزيز الشناوى: أوروبا، ج١، ص٦٥٨، ود/سالم الرشيدى: المرجع السابق، ص١٣٢، ١٣٣، ويذكر "جورجف" أن الرأى القائل بإسلام البوجوميليين جماعات لا فرادى وأنهم كانوا منضمين للفاتحين العثمانيين قد تعرض للطعن بعد الحرب العالمية الثانية. المرجع السابق، ص١٥٢٨.

(١٩) كرسماريك: المرجع السابق، ص١٤٨٨، وبول كولز المرجع السابق، ص٣٦.

(٢٠) جورجف: المرجع السابق، ص١٥٣٤.

(٢١) قيام الدولة العثمانية، ص١٣٦.

(٢٢) د/جلال يحيى: المرجع السابق، ص٨٥.

(٢٣) www. Ar. Wikipedia. org .

(٢٤) جورجف: المرجع السابق، ص١٥٣٢، ١٥٥٦- ١٥٥٧.

(٢٥) د/جلال يحيى: المرجع السابق، ٨٥.

(٢٦) أرنولد: المرجع السابق، ص٢٢٩. ومن هؤلاء تسعة من رجال السياسة من أصل بوسنوى شغلوا منصب كبير الوزراء بين سنتى ١٥٤٤و ١٦١١م، منهم ثلاثة من أسرة صوقولوفتش من بلدة كرازدة. كرسماريك: المرجع السابق، ص١٤٨٨، ١٥٣٠. وترجم عبد الرحمن الجبرتى فى تاريخه لستة قواد من البوسنيين منهم "أحمد باشا الجزار". جاستون فييت: فهرس عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٤م.

(٢٧) جورجف: المرجع السابق، ص١٥٣٥.

(٢٨) د/ عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٠م، ج٢، ص٦٢.

(٢٩) جورجف: المرجع السابق، ص١٥٣٦.

(٣٠) كرسماريك: المرجع السابق، ص١٤٩٠- ١٤٩١م.

(٣١) د/عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج٢، ص١٠٩٣، ومحمد فريد: تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧م، ص٣٩٧، ٤٠٥.

(٣٢) جورجف: المرجع السابق، ص١٥٤٦.

(٣٣) د/عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية، ج٢، ص١١٠١، ود/عبد العظيم رمضان: المرجع السابق، ج٢، ٦٢.

(٣٤) جورجف: المرجع السابق، ص١٥١٧- ١٥١٨.

(٣٥) د/عبد العظيم رمضان: المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٨، ٢١٧- ٢١٨، ٣٤٩.

(٣٦) www. Ar. Wikipedia . org .

(٣٧) مصطفى دسوقى كسبه: المرجع السابق، ص٣٠ .

(٣٨) www. Ar. wikipedia. org .

مصادر ومراجع للاستزادة:

- رنولد، توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة د. حسن إبراهيم وآخرين. الطبعة الثالثة. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة ٢٠٠٧م.
- د. جلال يحيى: العالم الإسلامى الحديث والمعاصر، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية (د.ت) .
- بول كولز: العثمانيون فى أوروبا ، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، سلسلة الألف كتاب (الثانى)، العدد ١٢٦، القاهرة ١٩٩٣م.
- د. عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٠م.
- ولمزيد من المعلومات انظر شبكة الإنترنت، مادة: البوسنة والهرسك.

البويهيون

ينتسب البويهيون أو بنو بويه إلى أبى شجاع بويه، وهو رجل جيلانى كان يصطاد السمك، وكان له ثلاثة أبناء إخوة، وقد أسس هؤلاء الثلاثة الدولة التى عرفت باسمهم، وهى دولة بنى بويه[1]. وكان الأخ الأكبر هو على والأوسط هو الحسن، والأصغر أحمد [2]. ولقد كانت الأسرة البويهية فى حقيقتها فى أول أمرها أسرة فقيرة كانت تسكن بلاد الديلم [3]. وكان أبوهم من عامة الناس، يتعيش مما يصطاده من أسماك، ويعينه أولاده على الحياة، بالقيام بأعمال بسيطة يتكسبون منها. وقد كان أحمد ابن بويه، بعد أن ملك البلاد وازداد سلطانه وتولى إمرة الأمراء للخليفة العباسى ببغداد، يتحدث بنعمة الله عليه ويقول:"كنت أحتطب الحطب على رأسى" [4]. لكن هذه الأسرة الفقيرة سرعان ما عظم أمرها واستقلت بحكم جزء كبير من ممتلكات الدولة العباسية؛ بل شاركوا دولة الخلافة فى حكم العراق إلى حدود الجزيرة العربية، وعظم أمر هذه الأسرة حتى سمى باسمها عصر من عصور الخلافة العباسية (من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٤٤٧هـ/٩٤٥م-١٠٥٥م) [5].

ولقد جاء ارتفاع أمر هذه الأسرة على يد الأخ الأكبر من الإخوة البويهيين الثلاثة وهو على بن بويه، فإنه كان جندياً قديراً استطاع بشجاعته أن يكون قائد جماعة مهاجرة من الديالمة بعد أن انفتح أمامهم خط ثغر طبرستان [6]، وكانوا قد اتخذوا لأنفسهم قائداً يتبعونه، وكان هذا القائد ينتقل من خدمة ملك إلى خدمة ملك آخر حسب مصالح جماعته وحسب من يحتاج لخدمته ومن يدفع له ولأصحابه أكبر عطاء ممكن. ولقد اتخذت الهجرة الفارسية الديلمية طريقها من جنوب بحر قزوين من عند مدينة الرى إلى جنوب شرق بلاد فارس؛ حيث كانت قبضة الخلافة والدولة السامانية ضعيفة على هذه المنطقة ولم تقف الخلافة مكتوفة الأيدى أمام التقدم الديلمى؛ فقد حاولت بكل وسيلة أن تمنع الهجرة الديلمية وأن تصد تيارها، ولكن هذا التيار كان قوياً بحيث إنه اجتاح أمامه كل شئ. وأول محاولة قامت بها الخلافة لإيقاف

هذا التيار هى تفويض السامانيين أمر المنطقة التى تخرج منها الهجرة الديلمية، فضمت هذه المنطقة مع إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر إلى السامانيون. وقد أفادت هذه الطريقة بعض الشئ وأدت إلى نتائج مؤقته. فقد نجح السامانييون فى تقويض أركان الدولة الطبرية العلوية [٧] بعد حكم الحسن بن زيد وأخيه محمد، وانقطعت سلسلة حكم الأئمة الزيديين ابتداءً من عام ٢٢٧ هـ/٨٤١م [٨]، وفى هذه الفترة استطاع السامانيون أن يتحالفوا مع زعماء الديلم فوقفت الهجرة الديلمية مقابل أموال دفعها السامانيون لهم.

لكن الهجرة الديلمية ما لبثت أن استؤنفت فى أوائل القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى مرة أخرى وقوى تيارها نتيجة لكثرة دخول الديلم فى الإسلام؛ حتى ظهرت دولة ديلمية أخرى أخذت مكان الدولة العلوية، وهى الدولة الزيارية فى إقليم الجبل وطبرستان برئاسة مرداويج بن زيار الديلمى [٩]. وهنا أيضاً حاولت دولة الخلافة بطريقة أخرى أن توقف تيار هذه الهجرة فاتفقت مع مرداويج على أن تقره على ما فى يده وأن تمنحه التقليد بحكم هذه البلاد مقابل وقف الهجرة الديلمية. لكن مرداويج، ما كاد يستقر فى إقليمه وينال اعتراف الخلافة، حتى قصده الديلم من كل ناحية وملأوا عليه البلاد وتمردوا عليه، وكانت الطائفة الديلمية التى تمردت عليه بقيادة على بن بويه.

وكان على بن بويه، وقتها قائداً صغيراً من قواد زعيم ديلمى هو "ماكان ابن كالى"، ولما ضعف أمر ماكان وعجز عن ضمان الأرزاق للجند تفرق عنه على بن بويه بجماعته ولجأ إلى مرداويج عدو ابن كالى؛ فولاه مرداويج ولاية الكرج [١٠]، ومن هذه المنطقة بدأت الهجرة البويهية الكبيرة [١١].

ولقد ارتاب مرداويج فى أمر على بن بويه بعد أن ولاه ولاية الكرج فأمر بأن يحال بينه وبين الوصول إلى الكرج؛ لكن مصادفة وقعت حالت دون تنفيذ هذا الأمر، تلك المصادفة أن علياً حين مر بمدينة الرى أتيح له أن يكرم الوزير أبا عبد الله الحسين بن محمد، الملقب بابن العميد [١٢]؛ فسهل له هذا الوصول إلى ولايته. ثم حاول مرداويج بعد هذا أن يضعف موقف على بن بويه فأرسل إليه جنداً من المهاجرين يتقاضون أرزاقهم من

دخل الولاية. لكن علياً استفاد من هذا فإنه لم يكن طالب مال وإنما كان طالب رجال، ولما كان قد تعود أن يعطى كل ما يغنمه الجند فإنه أكرم الوافدين عليه حتى صاروا أتباعاً له. وفكر على ابن بويه أن يفر إلى مكان لا تصل إليه يد مرداويج وأن يدخل فى طاعة الخلافة ويكون من خدامها بدلاً من أن يخدم مرداويج. فلما علم مرداويج بمقصده استعد وخرج من الكرج إلى أصفهان واستولى عليها سنة ٣٣١ هـ/٩٤٢م، بعد أن انتصر على واليها محمد بن ياقوت فى معركة بظاهر أصفهان [١٣].

ومن أصفهان تقدم ابن بويه بقواته جنوباً إلى مدينة أرجان [١٤]. فاستولى عليها بدون قتال لفرار واليها أمام قوات بنى بويه. ثم انسحب على بن بويه بعد ذلك بجماعته إلى الجنوب حتى وصل إلى مدينة (النوبيندجان) [١٥] فدخلها دون قتال كبير (فى ربيع الآخر سنة ٣٣١ هـ/٩٤٢م) ثم تقدم بقواته إلى شيراز والتقى هناك بجيش هذه المدينة عند قنطرة شيراز، ووقعت موقعة كبيرة عام ٣٣٢ هـ/٩٤٣م، انتصر فيها ابن بويه واستسلمت له شيراز فدخلها واستقر بها واتخذها قاعدة له [١٦].

وفى سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥م اتجه أحمد بن بويه إلى فتح إقليم كرمان، الواقع خلف إقليم فارس من ناحية الشرق. كذلك فتح الأهواز، ثم اتجهت جهود على بن بويه نحو أملاك الدولة الزيارية فى الشمال، فأرسل أخاه الحسن لكى يحتل البلاد التى كانت تحت يد مرداويج بن زيار، فاستولى على إقليم الجبل. وصارت أملاك الزياريين جميعها تحت سلطان البويهيين وحكم الحسن بن بويه بلاد الجبل [١٧].

أما العراق، فلم يحاول على بن بويه أن يوجه إليه أحداً إلا حين وصله أن أهل العراق لا يرون خَلاصًا لهم من حالة التدهور التى تعيشها البلاد إلا على يد ابن بويه. وكان البويهيون، بعد أن استقروا فى شيراز، راسلوا الخليفة العباسى القاهر. يطلبون منه تقليدهم بشرعية ولايتهم على البلاد التى تحت أيديهم، فسارع الخليفة بإرسال التقليد لهم، فصاروا بمقتضى هذا التقليد ولاة شرعيين على ما تحت أيديهم.

وإذا ما نظرنا إلى حالة الخلافة العباسية، فى الوقت الذى ظهرت فيه القوة البويهية وتزايد هجرة الديالمة إلى الجنوب. نجد أن دولة الخلافة فى عصرها الثانى [١٨] كانت واقعة تحت نفوذ القواد الأتراك ولم تكن للخليفة أى

سلطة فى البلاد سوى السلطة الروحية [١٩]. وكانت الأحوال المالية والاقتصادية للدولة سيئة للغاية. ونتيجة لهذه الظروف؛ استدعى الخليفة الراضى بالله العباسى [٢٠] والى واسط "محمد بن رائق" وقلده منصباً جديداً هو منصب "أمير الأمراء" على أمل أن يصلح صاحب هذا المنصب، الذى حل محل منصب الوزير، أحوال البلاد بعد أن أفسدها الوزراء واستشرى تحكم كبار قواد الأتراك فى الدولة. لكن هذا النظام الإدارى الجديد عجز عن إقرار الأمور فى بلاد العراق، وعجز عن حل المشكلة التى كانت تواجه الخلافة لوقوعه فى نفس الموقف الذى كان قبله وهو تنازع القواد الأتراك وتحديات الجند.

ولما أحس الناس فى العراق بفشل إمرة الأمراء فى علاج أحوال البلاد المتردية، تطلعوا إلى قوة البويهيين المطلة على بلادهم والتى أثبتت كفاءتها وجدارتها. فكاتب القواد فى بغداد أحمد بن بويه الذى كان يحكم الأهواز منذ أن فتحها سنة ٣٢٦ هـ/٩٣٧م، وطلبوا منه المسير إليهم والاستيلاء على بغداد.

وتقدم أحمد بن بويه بقواته إلى بغداد، واستقبله الخليفة المستكفى بالله، واحتفى به، وخلع عليه لقب "معز الدولة"، كما خلع على أخيه على لقب "عماد الدولة"، وعلى أخيه الحسن بلقب "ركن الدولة"، وأمر بأن تضرب ألقابهم وكنياتهم على الدنانير والدراهم [٢١].

وبدخول أحمد بن بويه بغداد وتوليه منصب أمير الأمراء سنة ٣٣٤ هـ/٩٤٥م ابتدأ ما عرف فى التاريخ بالعصر البويهي فى حكم العراق والسيطرة البويهية الديلمية على دولة الخلافة حتى عام ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وهو طور يدخل فى نطاق دراسة الدولة العباسية فى عصرها الثانى [٢٢].

ولقد عاصر حكم البويهيين للعراق خمسُ خلفاء عباسيون هم: المستكفى، والمطيع، والطائع [٢٣]، والقادر، والقائم [٢٤]، قرابة مائة وثلاثة عشر عاماً (من ٣٣٤ - ٤٤٧هـ/٩٤٥م- ١٠٥٥م). ولقد كان الخلفاء طوال تلك المدة رمزاً غير مسئول عن شئ، وكان الأمراء البويهيون يتحملون مسئولية الدولة كاملة. ولذلك لم يتسَمَّ أمراء البويهيين بلقب أمراء الأمراء، ولكنهم تلقب كل منهم بلقب الملك ولقب شاهنشاه (ملك الملوك) [٢٥].

وإذا كان المؤرخون قد ذكروا أن

الأمراء البويهيين قد أذلوا الخلفاء بسبب مذهبهم المختلف، وأنهم سلبوهم سلطانهم وجعلوهم ألعوبة فى أيديهم، ففى الحقيقة أن بنى بويه ورثوا وضعاً كان قائماً قبلهم، ولم يكن لهم يد فى هذا التطور الذى صارت إليه أمور الخلافة من الضعف فى بغداد [٢٦].

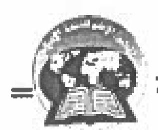
وبرغم أن البويهيين كانوا شيعة على المذهب الزيدي فإنهم لم يحولوا الخلافة إلى العلويين وظلوا يدينون بالولاء للخلافة العباسية تحت راية مذهب الدولة السنى الرسمى [٢٧].

ملوك بنى بويه:

تغير مركز الدولة البويهية مرات عديدة، فكان مركزها، أول الأمر، فى شيراز طوال حياة عماد الدولة على بن بويه مؤسس الأسرة حتى وفاته سنة ٣٣٨هـ/٩٤٩م، ثم انتقلت رياسة البيت وانتقل معها مركز الدولة إلى الرى حيث كان يحكم ركن الدولة الأخ الثانى الذى يلى عماد الدولة فى السن. وقد ظل مركزها فى الرى حتى وفاة ركن الدولة سنة ٣٦٦ هـ/٩٧٦م . ثم انتقل مركز القوة إلى بغداد عندما آلت رئاسة البيت البويهى إلى عضد الدولة وظلت بغداد مركزاً للبويهيين من سنة ٣٦٧ هـ/٩٧٧م إلى عهد ابنه الثالث بهاء الدولة، إلى أن نقل هذا المركز مرة أخرى إلى شيراز.

ولقد كان عماد الدولة على بن بويه هو مؤسس الدولة البويهية وكانت الأمور مستقرة أيامه [٢٨]، ولكن لسوء حظ هذه الدولة أنه لم يعمر أكثر من أربع سنوات بعد الاستيلاء على بغداد فلم يتح لبنى بويه الوقت الكافى لتنظيم أمورهم فى الوضع الجديد تنظيماً تاماً. ولما توفى عماد الدولة عام ٣٣٨ هـ/٩٤٩م، آل أمر الدولة إلى ركن الدولة الحسن بن بويه، ولم يكن ركن الدولة فى قوة أخيه وسطوته. وعند موت ركن الدولة آلت الرياسة إلى عضد الدولة [٢٩].

ولقد قويت الدولة البويهية فى عهد عضد الدولة وأوتيت مدة طويلة من الثبات، حوالى ٣٨ عاماً [٣٠]، إلى أن توفى عضد الدولة سنة ٣٧٢ هـ/٩٨٢م [٣١]. وبعد وفاة عضد الدولة آل الأمر من بعده إلى أبنائه الثلاثة: صمصام الدولة، وشرف الدولة، وبهاء الدولة (مات سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م) بمرض الصرع مثل أبيه بأرجان ودفن بالنجف، وتداولوا الرئاسة واحداً بعد الآخر، وأقاموا فى بغداد جميعاً ماعدا بهاء الدولة الذى تحول بعد عشر سنين من ولايته، إلى شيراز، بعد أن



أدرك قوة الدولة بعودة مركزها إلى شيراز [٣٢].

وبعد وفاة بهاء الدولة تولى الحكم من بعده أبناؤه الثلاثة: سلطان الدولة (أبو شجاع)، وشرف الدولة وجلال الدولة. وانتقلت الرياسة فى الدولة البويهية بعد جلال الدولة إلى أبى كاليجار، ابن سلطان الدولة، وكان فى شيراز. وظل أبو كاليجار وريثاً للبيت البويهى خمس سنين، ثم خلفه آخر خلفاء الأسرة البويهية، وهو أبو نصر خسروفيروز، الملقب بالملك الرحيم، وفى عهده دخل السلاجقة العراق عام ٤٤٧ هـ/ ١٠٥٥م [٣٣].

أ.د / عطية القوصى

الهوامش:

(١) يرجع بعض المؤرخين القدامى نسب بنى بويه إلى بهرام جوبين، قائد هرمز الرابع الذى اعتلى عرش الساسانيين عام ٥٧٩ م، فى قول، أو إلى يزدجرد الثالث الساسانى، وهو آخر كسرى ساسانى الذى اعتلى عرش إيران عام ٦٣٢ م فى قول آخر (عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين منصور، القاهرة ١٩٩٠، صفحة ٥٧).

(٢) حسن أحمد محمود. العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٧٧، صفحة ٤٩٩.

(٣) بلاد الديلم هى منطقة بحر قزوين والبلاد التى تقع جنوب بحر قزوين.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، القاهرة ١٣١٠ هـ، ج ١، صفحة ٥٦.

(٥) عطية القوصى: تاريخ الدول المستقلة فى المشرق عن الخلافة العباسية، القاهرة ١٩٩٣، صفحة ٦٣.

(٦) طبرستان إحدى مناطق إيران الجغرافية وتقع جنوب بحر قزوين، وقد جاء وصفها باستفاضة فى كتاب معجم البلدان لياقوت الحموى (ياقوت: معجم البلدان، صفحة ١٣، طبعة بيروت، صفحة ١٣- ١٦)

(٧) الشهرستانى: الملل والنحل، القاهرة ١٩٦١، صفحة ١٥٦.

(٨) ابن الأثير: الكامل، بولاق ١٢٤٧ هـ، ج ٧، صفحة ٤٣ و٤٧، القوصى: نفس المرجع السابق، صفحة ٦٤.

(٩) تفرعت عن الدولة الطبرية دولة أخرى ديلمية هى الدولة الزيارية المنسوبة إلى مرداويج بن زيار (ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٧)

(١٠)ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٧، ص ٨٩.

(١١) هى ولاية صغيرة فى أقصى الجنوب من ممتلكات ابن كالى، وهى تقع بين همذان وأصفهان (ياقوت: معجم البلدان، القاهرة ١٩٠٦، ص ٣٤٠)

(١٢) وهو والد أبى الفضل ابن العميد، الأديب الكبير، الذى صار فيما بعد وزيراً لركن الدولة بن بويه (مسكويه: تجارب الأمم، ج ١، ليدن ١٩٠٦، ص ٢٧٨)

(١٣)القوصى: نفس المرجع السابق، ص ٦٦.

(١٤) تقع مدينة أرجان بين مدينتى أصفهان وشيراز الإيرانيتين، وكانت بيد أبى بكر بن ياقوت(ابن الأثير الكامل ج ٧، ص٩٠).

(١٥) وهى مدينة كبيرة تقع فى منتصف المسافة بين أرجان وشيراز.

(١٦)ابن الأثير: نفس المصدر، ج ٧، صفحة ٩٤ و٩٥.

(١٧)القوصى: نفس المرجع، ص ٦٦.

(١٨) يقسم المؤرخون العصر العباسى إلى عصرين: العصر العباسى الأول من سنة ١٣٢ إلى سنة ٢٣٢ هـ، والعصر العباسى الثانى من ٢٣٢ ـ ٦٥٦ هـ، وهى السنة التى سقطت فيها دولة الخلافة على يد المغول.

(١٩) تمثلت هذه السلطة الروحية فى الدعاء للخليفة من فوق المنابر فى صلاة الجمعة، وسك اسمه على عملة الدولة.

(٢٠)حكم الراضى العباسى دولة الخلافة من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٢٩ هـ (القوصى: الدولة العباسية، ص ١٤٦)

(٢١) ابن طباطبا: الفخرى فى الآداب السلطانية، بيروت ١٩٦٠، ص ٢٨٧.

(٢٢) القوصى: نفس المرجع ص ٦٧ و٦٨.

(٢٣) ذكر صاحب الفخرى، ص ٢٩٠ أن فى أيام الطائع قويت شوكة آل بويه ووصل عضد الدولة إلى بغداد وانتشر حكم البويهيين، ثم قبض البويهيون على الطائع فى سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة وبويع بعده للقادر.

(٢٤) ذكر صاحب الفخرى (ص ٢٩٢) أن هذا الخليفة كان من أفاضل خلفاء العباسيين وصلحائهم وفى أيامه انقرضت دولة بنى بويه وظهرت دولة بنى سلجوق.

(٢٥) ابن العميد: تاريخ المسلمين، لندن ١٩٢٥، ص ٢٤١. ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج ١، ص ٤١٦.

(٢٦) ذكر صاحب الفخرى ابن طباطبا (الفخرى فى الآداب السلطانية، بيروت ١٩٦٠، ص ٢٨٧) إهانة معز الدولة البويهى للخليفة المستكفى حين ركب يوماً إلى دار الخلافة، واعتقاله للخليفة وخلعه عن الخلافة، وسمل عينيه ونهب داره وبقاءه فى السجن معتقلاً حتى وفاته عام ٣٣٨ هـ.

(٢٧)عباس إقبال، نفس المصدر السابق، ص ٦٧.

(٢٨)حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٧٧، ص ٥٣٣.

(٢٩)عباس إقبال: نفس المصدر السابق، ص ٧٠.

(٣٠)٣٨ عاماً من سنة ٣٣٤ إلى ٣٧٢ هـ.

(٣١)توفى عضد الدولة فى شوال ٣٧٢ هـ فى سن السابعة والأربعين بمرض الصرع، ودفن فى النجف، وكانت مدة إمارته على بغداد خمسة أعوام ونصف (إقبال، نفس المصدر، ص ٧٥) ابن الأثير، ج ٧، ص ٤٠٤.

(٣٢) القوصى: تاريخ الدول المستقلة، ص ٧٣ و٧٤.

(٣٣) وقع الملك الرحيم أسيراً فى يد طغرلبك السلجوقى عند دخوله بغداد، وكانت إمارته ستة أعوام وعشرة أيام (إقبال، نفس المصدر، ص ٨٤، ابن الأثير، ج ٨، ص ٣٢٢ – ٣٢٤).

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٧و٨، طبعه بولاق ١٢٤٧هـ.
- آدم متز: الحضاره الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادى أبوريده، القاهره ١٩٥٧.
- حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهره ١٩٧٧.
- عبد العزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسيه المتأخره، بغداد ١٩٤٥.
- عصام الدين عبد الرؤوف: الدوله العباسيه، القاهره ١٩٨٧.
- عطيه القوصى: تاريخ الدول المستقله فى المشرق عن الخلافه العباسيه، القاهره ١٩٩٣، تاريخ الدوله العباسيه، القاهره ١٩٨٥.
- الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، القاهره ١٩٦٠.
- Barthold: History of Central Asia, Leiden 1956.
- Brown: Literary History of Persia, V.I, London 1909.
- Le Strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate, Oxford 1924.

بيت الحكمة

يشير مصطلح " بيت الحكمة "الى تلك المؤسسة العلمية التى تكاملت وظائفها فى عصر الخليفة العباسى عبد الله المأمون (١٩٨ ــ ٢١٨هـ/ ٨١٣ - ٨٣٣م)، مع أن النواة الأولى لهذه المؤسسة وضعت فى عصرالخليفة هارون الرشيد والد المأمون .

وترتبط نشأة هذه المؤسسة بحركة الترجمة من التراث الإنسانى إلى اللغة العربية ، تلك التى بدأها الخليفة العباسى الثانى أبو جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/ ٧٥٤- ٧٧٥م) ولكنها بلغت قمة ازدهارها فى عصر الرشيد والمأمون .

فقد استدعت حركة الترجمة تحصيل كتب التراث الإنسانى فى لغاتها المختلفة لنقلها إلى اللغة العربية .

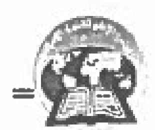
وعندما تزايدت أعداد هذه الكتب خصص الرشيد لها دارًا عرفت باسم "خزانة كتب الحكمة " وخصص لها خازنًا أو مديرا حتى لاتمتد إليها يد العبث أو الضياع .

وتشير مصادرنا إلى أن الرشيد أسند هذه المهمة إلى الفضل بن نوبخت ،وهو فارسى الأصل .

وكان يطلق على خزانة كتب الحكمة أحيانا فى عصر الرشيد "بيت الحكمة"[١] .

وقد اختار الرشيد لهذه الخزانة مشرفا على الترجمة وهو يوحنا بن ماسويه [٢] المسيحى السريانى الذى كان أحد أعلام مدرسة جند يسابور الطبية ،وهى المدرسة التى مثلت المركز الأساسى لدراسة الطب اليونانى والفلسفة اليونانية فى بلاد فارس.

وكان الإمبراطور البيزنطى جستنيان الأول (٥٢٧- ٥٦٥م) قد قرر فى سنة ٥٢٩م أن يغلق مدرسة أثينا الفلسفية التى كانت تمثل معقل الوثنية فى الامبراطورية البيزنطية حينذاك ،فرحب معاصره، الإمبراطور الفارسى كسرى أنوشروان (٥٣١- ٥٧٩م) ،بأساتذه هذه المدرسة وأنشألهم فى جنديسابور المدرسة التى أشرنا إليها الآن .[٣] وكان تلاميذ هذه المدرسة يتكونون أساسا من المسيحيين السريان . وقد أتقنو اللغة اليونانية بالإضافة إلى السريانية والفارسية . وعندما صارت بلاد فارس جزءا من دولة الإسلام أتقن هؤلاء اللغة العربية أيضا



وكان لهم دور فاعل فى حركة الترجمة التى ارتبط بها إنشاء بيت الحكمة كما أشرنا .

وقد أصبح "بيت الحكمة" مؤسسة علمية متكاملة فى عصر المأمون ،فقد اتسعت حركة الترجمة فى تلك الفترة اتساعا غير مسبوق، وكثر طلاب العلم الذين أقبلوا على الكتب المترجمة فى موضوعات معرفية متنوعة ينهلون منها ما شاء وا٠

ومن هنا قرر المأمون أن يطور وظائف بيت الحكمة وأن يضيف إليها ،فقسم هذه المؤسسة العلميه إلى ثلاثة أقسام أساسية:

أولها : مكتبة ضخمة كانت تتغذى دائما بما يرد إليها من الكتب من مختلف البقاع فتزداد ثراء وتنوعا٠ والجدير بالذكر هنا أن المأمون كان أول من أدرج مصادر الفلسفة اليونانية والمنطق اليونانى بين الكتب التى يتولى المترجمون نقلها إلى اللغة العربية [٤] . وقد كان الخلفاء قبل المأمون يحجمون عن ترجمة هذه الكتب لما قد تنطوى عليه من فكر لا يتفق مع الإسلام ٠ ولكن المأمون كان شغوفا بالاطلاع على مختلف الأفكار حتى لو تباينت مع فكره، وكان يرى أن الإسلام أقوى من أن يتأثر برأى مخالف ٠

وهكذا حفل بيت الحكمة فى تلك الفترة بأمهات الكتب الفلسفية لأفلاطون وأرسطو وغيرهما من فلاسفة اليونان وأتيح للطلاب المسلمين أن يطلعوا على ترجماتها العربية ٠

أما القسم الثانى الذى اشتمل عليه بيت الحكمة فى عصر المأمون فيتمثل فى دائرة الترجمة التى أسند المأمون مهمة الإشراف عليها إلى يوحنا بن ماسويه الذى اختاره الرشيد أيضا لنفس المهمة كما سبقت الإشارة ٠

ولكن دائرة الترجمة فى عصر المأمون أصبحت أقوى نشاطا وأكثر ثراء نتيجة إمدادها بالمزيد ممن حذقوا الترجمة وأحكموا أصولها ،وعلى رأسهم حنين بن إسحاق الذى بدأ نجمه يلمع فى عصر المأمون ، وقربه الخليفة إليه وأعلى محله،وتذكر بعض الروايات أنه كان يعطيه زنة ما يترجمه ذهبا [٥] . وكان حنين يتقن أربع لغات هى اليونانية والفارسية والسريانية والعربية[٦]،وأصبح رائد مدرسة فى الترجمة حرص تلاميذها على الالتزام بمنهجه فبلغوا الغاية فى فنهم .

ثم يأتى القسم الثالث والأخير فى بيت الحكمة ، ويتمثل فى مرصد فلكى تولى إدارته سند بن على اليهودى (وقد أسلم على يد المأمون) [٧] . وقد ضم هذا المرصد عددا من كبار رجال الفلك كمحمد بن موسى الخوارزمى ويحيى بن أبى منصور[٨] .

ولاشك فى أن هذه الأقسام الثلاثة كانت تتضافر فيما بينها ويخدم بعضها بعضا .

فالمكتبة الضخمة تقدم للباحثين المادة العلمية اللازمة ، ودائرة الترجمة تتيح لهم الاطلاع على هذه المادة العلمية باللغة العربية . أما المرصد فهو يمثل الجانب العلمى التطبيقى ويعتمد على تلك المكتبة الغنية المتاحة للباحثين فى العلوم المختلفة ومن بينها علم الفلك .

يمكن القول إذن فى ضوء ذلك إن بيت الحكمة مثَّل جامعة كبرى يعدُّها بعض الباحثين أهم مؤسسة تعليمية منذ إنشاء جامعة الإسكندرية فى النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد[٩] . وقد كانت الترجمة قبل هذا التطور العظيم فى بيت الحكمة تقوم على جهود مبعثرة وغير منظمة ، أما بعد تطور بيت الحكمة على هذا النحو فإن الترجمه ضبطت ونظمت وخضعت لإشراف فنى دقيق وتركزت فى بيت الحكمة .

ويرجع إلى الخليفة المتوكل (٢٣٢-٢٤٧هـ/٨٤٧- ٨٦١م)الفضل فى إجراء المزيد من ضبط العمل وتنظيمه فى بيت الحكمة ، وخاصة فيما يتعلق بالترجمة ؛ فقد اختار لمهمة الإشراف على الترجمة فى هذه المؤسسة حنين بن إسحاق شيخ المترجمين ، وضم المتوكل إلى حنين نخبة من حُذَّاق المترجمين يعملون تحت إشرافه[١٠] .

وهكذا مثَّل بيت الحكمة فى عهد المأمون وخلفائه مظهرًا مهما من مظاهر التطور الهائل الذى شهدته حركة الترجمة من التراث الإنسانى إلى اللغة العربية خلال تلك الفترة .

أ . د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) ابن النديم:الفهرست . دار المعرفة، بيروت(دون تاريخ)، صـ٣٨٢؛ابن القفطى :إخبار العلماء بأخبار الحكماء، مكتبة المتنبى، القاهرة، (دون تاريخ)، ص١٦٨- ١٦٩.

(٢) ابن القفطى: مصدر سابق ، صـ٢٤٨ - ٢٤٩ ؛ ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء الهيئة المصرية العامه للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م ، حـ٢، صـ١٧٣.

(٣) راجع مادة ((جند يسابور)) فى دائرة المعارف الإسلامية، طبعة دار الشعب بالقاهرة ، حـ١٢، صـ ٣٥٩ ٠وانظرأيضا:
Ostrogorky History of the Byzantine State, Oxford, 1968,p.770

(٤) انظر: ابن النديم: مصدر سابق، صـ٣٣٩ ؛ابن القفطى:مصدر سابق، صـ ٢٢ - ٢٣٠

(٥) انظر:ابن أبى أصيبعة: مصدر سابق ، حـ٢، صـ٢١٠ ٠

(٦) نفس المصدر والجزء، صـ٢٠٨ ٠

(٧) ابن النديم: مصدرسابق، صـ٣٨٣؛ ابن القفطى:مصدر سابق، صـ١٤٠- ١٤١٠

(٨) ابن النديم: مصدر سابق، صـ٣٨٣- ٣٨٤٠

(٩) Philip Hitti, History of the Arabs, London, 1970, p.310

(١٠) انظر: ابن أبى أصيبعة، مصدر، سابق، حـ٢، صـ٢١٧ ٠

مصادر ومراجع للاستزاده

- ابن أبى أصيبعة:عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، الهيئة المصرية العامة للكتاب، حـ٢، القاهرة ٢٠١٠م
- ابن النديم:الفهرست، دارالمعرفة، بيروت(دون تاريخ)
- ديلاسى أوليرى:مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب ،ترجمة الدكتور تمام حسان ، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة١٩٥٧م٠
- Philip Hitti, History of the Arabs, London 197o.-

بيت المال

المقصود بـ«بيت المال»:

هو خزانة الدولة الإسلامية. وهو المسئول عن تلقى موارد الدولة من مصادرها الشرعية، والمسئول كذلك عن صرفها فى مصارفها الصحيحة.

ولم ينشأ بيت المال بمفهومه الاصطلاحى إلا فى عصر عمر بن الخطاب (١٣- ٢٣هـ/٦٣٤- ٦٤٤م). ففى عصر الرسول ﷺ لم تكن هناك حاجة إلى بيتٍ للمال؛ فالمرحلة المكية من ذلك العصر لم يكن للمسلمين خلالها موارد يمكن أن تشكِّل نواة لبيت المال؛ فقد كان المجتمع الإسلامى حينذاك مجتمعًا مضطهدًا محوطًا بأعدائه من كل جانب، وكان يتكون فى معظمه من الفقراء والضعفاء، وخاصة بعد أن هاجر القادرون والأقوياء إلى الحبشة. ولم تكن الزكاة قد فُرضت بعد، ولم تكن هناك مغانم ولا جزية ولا خراج ولا فيئ؛ وهى الموارد الأساسية التى تُغذِّى بيت المال.

أما المرحلة المدنية فقد شهدت تطورًا هائلاً فى حياة المجتمع الإسلامى؛ فقد نشأت الدولة الإسلامية حين تكاملت عناصر نشأتها بوجود الأرض الإسلامية فى المدينة، فضلا عن المجتمع والقيادة. ودخل المسلمون فى مواجهات مسلحة مع القوى التى كانت تتربص بهم، ونتج عن بعض هذه المواجهات غنائم أحرزها المسلمون من أعدائهم، وفرضت الزكاة فى تلك المرحلة، أى ظهرت موارد لم يعرفها المجتمع الإسلامى فى المرحلة المكية. وبالرغم من ذلك فلم تكن هناك حاجة إلى إنشاء بيت للمال فى تلك المرحلة أيضًا؛ فقد كان المال الذى يجمع من الغنائم أو فداء الأسرى يتولى الرسول ﷺ إنفاقه فى وجوهه الشرعية[١]. كما حدث فى غزوة بدر وغزوة حنين، على سبيل المثال لا الحصر. أما الزكوات فقد كانت تُقسَّم بين مستحقيها؛ وإذا فَضَل منها شيئ استبقاه الرسول لحين الحاجة إليه. وكانت بقايا الزكاة من إبل أو ماشية تحبس فى مراع خاصة بها قرب المدينة، وكانت هذه المراعى تعرف باسم «الحِمَى»[٢]. وكان الرسول ﷺ يَسِمُ هذه الإبل والماشية بميسم خاص[٣]. وهكذا يمكن القول إن نواة بيت المال وُجِدتْ فى المرحلة المدنية من حياة

الرسول ﷺ. أما بيت المال بمفهومه الاصطلاحى فلم ينشأ فى عصر النبوة كما سبقت الإشارة.

وقد جرى الأمر فى خلافة أبى بكر على ما كان فى العصر النبوى؛ فكان إذا جاء إلى المدينة مال من بعض البلاد أمر أبو بكر بتقسيمه بين مستحقيه فى مسجد الرسول ﷺ. وتولى هذه المهمة عنه فى بداية خلافته أبو عبيدة بن الجراح[٤]، وذلك قبل أن يرسله ضمن قادة الجيوش التى توجهت لفتح الشام. كما تولى هذه المهمة نيابة عنه أيضًا -طبقًا لبعض الروايات- معيقيب بن أبى فاطمة الدوسى[٥]. ولما توفى أبو بكر جمع عمر بعض الصحابة وذهبوا إلى حيث كان أبو بكر يحتفظ بمال المسلمين، فلم يجدوا هناك إلا دينارًا يبدو أنه بقى دون قصد. «ولم يفرض النبى ﷺ ولا أبو بكر ﷺ للمسلمين عطاءً مقررًا»[٦].

وقد اتبع عمر ﷺ فى السنين الأولى من خلافته نفس أسلوب الرسول ﷺ وأسلوب أبى بكر ﷺ؛ فكان إذا جاءه مال قسمه على مستحقيه دون إبطاء. وقد قال له قائل فى تلك المرحلة المبكرة: «يا أمير المؤمنين، لو تركت فى بيوت الأموال شيئًا يكون عدة لحادث إذا حدث»، فقال له عمر: «تلك كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقانى الله شرها! وهى فتنة لمن بعدى. إنى لا أُعِدُّ للحادث الذى يحدث سوى طاعة الله ورسوله، وهى عدتنا التى بلغنا بها ما بلغنا»[٧].

ولكن عمر اضطر إلى مراجعة موقفه هذا بعد الاتساع الهائل فى الفتوحات الإسلامية فى عهده. فقد ترتب على هذه الفتوحات تدفق الأموال على الدولة الإسلامية، كما ترتب عليها أيضًا أن الجند كثروا بشكل غير مسبوق ونشأ الجيش النظامى للمرة الأولى فى التاريخ الإسلامى وأصبح أفراده متفرعين لمهامهم القتالية، فأصبح من الضرورى توفير عطاء دورى لهم، فكان هذا سببًا فى أن عمر أمر بإنشاء الديوان أو بيت المال. ويذكر بعض المؤرخين سببًا مباشرًا وراء إنشاء عمر لبيت المال؛ فيروى البلاذرى وغيره أن أبا هريرة قدم على عمر من البحرين بمال كثير، فسأله عمر: ما جئت به؟ فقال: جئت بخمسمائه ألف. قال: هل تدرى ما تقول؟ فأجاب أبو هريرة: جئت بخمسمائة ألف. قال عمر: ماذا تقول؟ قال أبو هريرة: مائة ألف ومائة ألف ومائة ألف ومائة ألف (حتى عدَّ خمسًا)، فقال عمر: إنك ناعس! فارجع

إلى أهلك فنم، فإذا أصبحت فأتنى. فذهب إليه أبو هريرة فى الصباح، فقال له عمر: ما جئت به؟ قال: خمسمائة ألف. قال: أطيِّبٌ؟ فأجابه: نعم لا أعلم إلا ذاك. فجمع عمر الناس فقال: قد جاءنا مال كثير؛ فإن شئتم عددنا لكم عدًا، وإن شئتم كِلْنا لكم كيلا! فقال له رجل: «يا أمير المؤمنين، إنى رأيت هؤلاء الأعاجم يدونون ديوانا يعطون الناس عليه». فدوَّن عمر الديوان[٨]. ويروى ابن الطقطقى أن بعض مرازبة الفرس كان بالمدينة، «فلما رأى حيرة عمر قال له: يا أمير المؤمنين، إن للأكاسرة شيئًا يسمونه ديوانًا، جميع دخلهم وخرجهم مضبوط فيه، لا يشذّ منه شىء، وأهل العطاء مرتبون فيه مراتب لا يتطرق عليها خلل، فتنبه عمر ﷺ وقال: صِفْه لى، فوصفه المرزبان، ففطن عمر لذلك ودوَّن الدواوين وفرض العطاء»[٩].

على أننا لابد من أن نقرر هنا أن هذه الرواية التى يتردد فحواها فى العديد من مصادرنا لا يمكن أن تكون السبب الحقيقى وراء إنشاء عمر لبيت المال؛ فقرار عمر لم يكن قرارًا فجائيًا بكل تأكيد، ولكنه كان نتيجة التطورات المتشابكة والمتلاحقة التى مرت بها الدولة الإسلامية منذ بداية خلافته حتى اتخاذه لهذا القرار، وهى تطورات جعلت من الضرورى إنشاء خزانة عامة للدولة الإسلامية حتى تصب فيها الأموال المتدفقة من الأقاليم المفتوحة، وحتى تُصرَفَ منها هذه الأموال فى مصارفها الشرعية الصحيحة. وهذا لا ينفى أن هذه الرواية بما تنطوى عليه كانت مما أكد عزم عمر على إنشاء بيت المال.

وقد ارتبط بإنشاء عمر لبيت المال ظهور أول ديوانين فى تاريخ الإدارة الإسلامية وهما: ديوان الخراج، وديوان الجند (أو العطاء).

أما ديوان الخراج فهو المؤسسة المسئولة عن تحصيل موارد الدولة الإسلامية بكل أنواعها، وعلى رأسها الزكاة والجزية وخراج الأرض (أو ضريبة الأرض)، والغنيمة والفىء وعشور التجارة. وأما ديوان الجند أو العطاء فهو المسئول عن صرف هذه الموارد فى وجوهها المشروعة، ومن بينها رواتب الجند والقضاة والعمال وما ينفق على الفقراء واليتامى والأرامل، وعلى تحصين ثغور المسلمين إلى غير ذلك من وجوه الإنفاق المشروعة.

ولما كان الجند النظاميون (وهم مَنْ كانوا يعرفون فى ذلك الوقت باسم

المرتزقة) أهم جهة ينفق عليها من بيت المال، فقد عُرف الديوان الذى يقوم بهذه المهمة باسم ديوان الجند، بالإضافة إلى التسمية الأخرى وهى ديوان العطاء. وهكذا اشتهر عمر ﷺ فى التاريخ الإسلامى بأنه أول من دوَّن الدواوين[١٠].

يبقى بعد ذلك أن نناقش التاريخ الذى أمر فيه عمر بتدوين الدواوين أى إنشاء بيت المال؛ فيذكر الطبرى أن ذلك كان فى سنة ١٥هـ (٦٣٦م)[١١]، ويذكر البلاذرى أنه كان فى سنة ٢٠هـ (٦٤١م)[١٢]. ويبدو أن رواية البلاذرى أدق لأن الفتوحات الإسلامية كانت قد اتسعت فى ذلك الوقت وتدفقت أموال الخراج على الدولة الإسلامية والواضح أن عمر فرض عطاء لأهل الفتوح فى سنة ١٥هـ فخلط بعض المؤرخين بين فرض العطاء وإنشاء الديوان. ولعل عمر بدأ التفكير فى إنشاء بيت المال فى سنة ١٥هـ، أما إنشاء بيت المال فعلا وما ارتبط به من وضع الدواوين وتقرير قواعدها فالأرجح أنه كان فى سنة ٢٠هـ/٦٤١م[١٣].

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) الخزاعى التلمسانى: كتاب تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله ﷺ من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية. طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ١٩٩٥م، صـ٥٨٨- ٥٨٩.

(٢) نفس المصدر، صـ٦٥١- ٦٥٢.

(٣) نفس المصدر، صـ٦٤٨.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك (الشهير بتاريخ الطبرى)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م، جـ٣، صـ٤٢٦.

(٥) الخزاعى التلمسانى: مصدر سابق، صـ٥٨٩.

(٦) ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية. شركة طبع الكتب العربية بمصر، ١٣١٧هـ، صـ٧٥.

(٧) نفس المصدر والصفحة.

(٨) البلاذرى: فتوح البلدان. طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، صـ٤٣٩، ٤٤٠.

(٩) ابن الطقطقى: مصدر سابق، صـ٧٥.

(١٠) الطبرى: مصدر سابق، جـ٤، صـ٢٠٩.

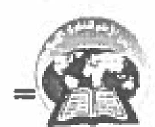
(١١) نفس المصدر، جـ٣، صـ٦١٣.

(١٢) البلاذرى: مصدر سابق، صـ٤٣٦.

(١٣) راجع تحقيق الدكتور محمد ضياء الدين الريس لهذه النقطة فى كتابه: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية. مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٦١م، صـ١٤١، ١٤٢.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- أبو عبيد القاسم بن سلام: كتاب الأموال. تحقيق محمد خليل هراس. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦م.
- أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم): كتاب الخراج. دار المعرفة، بيروت (د.ت).
- الخزاعى التلمسانى: كتاب تخريج الدلالات السمعية، تحقيق أحمد محمد سلامة. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية . القاهرة، ١٩٩٥م
- د. محمد ضياء الدين الريس: الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية. مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م.



البيعة

البيعة فى مصطلح اللغة هى الصفقة على إيجاب البيع والعهد على السمع والطاعة للوالى. والبيع فى الاصطلاح هو مبادلة سلعة بمال، وبايع فلانٌ فلانًا، أى عاهده وعاقده وعقد معه البيع.

ووردت البيعة والمبايعة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ (التوبة: ١١١).

وفى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ ..... فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (الممتحنة: ١٢).

وفى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ (الفتح: ١٠).

وفى قوله عز شأنه ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح: ١٨).

وفى قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

والبيعة فى التاريخ الإسلامى وقعت مرات عديدة، منها بيعة أصحاب النبى ﷺ للنبى عند العقبة، وهما بيعتا العقبة الأولى والثانية، كذلك بيعة الرضوان لرسول الله ﷺ وهى التى عُرفت أيضًا ببيعة الشجرة. وهنالك بيعة السقيفة التى بايع فيها المسلمون، من المهاجرين والأنصار، أبا بكر الصديق فى سقيفة بنى ساعدة، وبيعات أخرى بايع فيها المسلمون فى مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة الخلفاء الراشدين، كل خليفة غداة توليه حكم دولة المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

بيعتا العقبة :

بعد المعاناة التى عاناها النبى ﷺ والمسلمون فى مكة فى سبيل نشر دعوة الإسلام فيها وبين أكبر قبائلها «قريش» والقبائل الأخرى الحليفة لها، ولمَّا أراد الله تعالى أن يُظهر دينه وأن يعز نبيه وينجز له وعده، خرج محمد ﷺ كعادته يعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع فى كل موسم. فالتقى هذه المرة، عند مكان يبعد ميلين عن مكة بينها وبين مِنى يُعرف (بالعقبة)، بستة نفر من

أهل يثرب (المدينة) من الخزرج أراد الله بهم خيرًا؛ فدعاهم إلى الإسلام، فأسلموا وهم: «أبو أمامة أسعد بن زراره»، و«عوف ابن الحارث بن رفاعة»، و«رافع بن مالك ابن زريق»، و«عقبة بن عامر بن حرام»، و«قحطبة بن عامر» من بنى سلمة، و«جابر بن عبد الله بن رئاب السلمى». ومن المحَدِّثين من يُسقط جابرًا ويضع مكانه «عبادة بن الصامت».

وقد قال بعضهم لبعض: «يا قوم، إنكم والله لتعلمون أنه النبى الحق الذى توعدكم به يهود، فلا تضيعوا الفرصة من أيديكم ولا يسبقوكم إليه»؛ فأجابوه إلى ما دعاهم إليه وصدَّقوا دعوته وقبلوا الدخول فى الإسلام على يديه. وبعد أن نطقوا أمامه بالشهادتين وأظهروا إسلامهم له، قالوا له: «يا رسول الله، إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك ونعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك». ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى مدينتهم يضئ قلوبهم نور الإسلام منشرحة صدورهم بعد أن واعدوه. وقبل أن ينصرف هؤلاء النفر تواعدوا مع رسول الله ﷺ على أن يلتقوا به فى مكة فى العام القادم.

ولمَّا عاد هؤلاء الرجال السابقون إلى الإسلام والمبايعون لرسول الله ﷺ إلى قومهم وجدوهم على خلاف ما ذهبوا به؛ وجدوا السماحة على وجوههم والبشر على محياهم والأمان فى عيونهم فسألوهم عن خبرهم وعن سر التغير الذى طرأ عليهم؛ فذكروا لهم رسول الله ﷺ وما كان لهم معه ودعوْهم إلى الدين الجديد الذى اعتنقوه، ففشا أمرهم فى يثرب، ولم تبق دار من دورها إلا وفيها ذكر محمد ﷺ.

وفى العام التالى (سنة ٦٢١م)، وافى الموسم فى مكة من أهل يثرب اثنا عشر رجلاً فالتقوا برسول الله ﷺ عند العقبة وبايعوه بيعة العقبة الأولى، وكان من هؤلاء عشرة رجال من الخزرج واثنان من الأوس، وكان بينهم الرجال الستة المبايعون الأُول، عدا جابر السلمى، وقد بايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء وذلك قبل أن تُفرض عليهم الحرب. وكان نص البيعة بينهم وبين رسول الله ﷺ، على: «ألا يشركوا بالله شيئًا، وألا يسرقوا، ولا يزنون، ولا يقتلون أولادهم، ولا يأتون ببهتان يفترونه من بين أيديهم



وأرجلهم، ولا يعصون الله فى معروف». فقال لهم رسول الله ﷺ: «فإن وفيتم فلكم الجنة، وإن غششتم من ذلك شيئًا فأمركم إلى الله تعالى إن شاء عذَّب وإن شاء غفر».

فلَّما انصرف عنه القوم بعث رسول الله ﷺ (مصعب بن عمير) وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفتيهم فى الدين، فكان يُسمى (المقرئ) بالمدينة، وكان نزوله على أبى أمامة أسعد بن زرارة، وكان يصلى بهم، وذلك لأنَّ الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه بعض. وقد بايع خلق كثير من أهل المدينة مصعبا على الإسلام، وقد باتوا يُعرفون (بالأنصار). وهى تسمية جديدة صارت لهم بعد نصرهم للنبى ودخولهم فى الإسلام. وقد أسلم كبار أهل المدينة وسيدان من سادتهما، وهما: (سعد بن معاذ) و(أسيد ابن حضير)، وأسلم بإسلامهما جميع قومهم من بنى عبد الأشهل فى يوم واحد رجالًا ونساءً. قال ابن إسحق: «ثم إنَّ مصعبَ بن عمير رجع إلى مكة بعد ذلك بعام (٦٢٢ م)، وخرج عدد ممن أسلم من أهل المدينة فى الموسم مع حجاج قومهم الذين لم يسلموا حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله عند العقبة أوسط أيام التشريق من شهر ذى الحجة، حين أراد الله من كرامته والنصر لنبيه وإعزاز الإسلام وأهله وإذلال الشرك وقومه. وتم اللقاء مع رسول الله ﷺ هناك. وكان عدد المجتمعين به ثلاثة وسبعين رجلا وامرأتين من نسائهم لمبايعته. وكانت إحداهن هى: (أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية) من نساء بنى مازن من بنى النجار. وكان عدد الأوس من بينهم أحد عشر رجلا وعدد الخزرج اثنان وستون رجلا. واجتمعوا فى الشِعب، وجاءهم رسول الله ﷺ، وجاء معه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه، إلا أنه أحبَّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويستوثق له. ولمَّا جلس كان العباس أول المتكلمين فقال: «يا معشر الخزرج (وكان العرب تُسمى أهل يثرب جميعًا الخزرج) إنَّ محمدًا فينا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه، فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما وعدتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه فى عز

ومنعة من قومه وبلده». فقالوا له: «سمعنا ما قلت فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أَحْبَبْتَ».

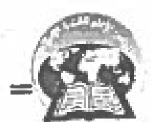
فتكلم رسول الله ﷺ وتلا عليهم القرآن، ودعا إلى الله ورَغّب فى الإسلام، ثم قال: «أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم» فأجابه (البراء بن معرور) بالإيمان والتصديق، فأخذ بيده وقال: «نعم، والذى بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنا، فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحَلْقة ورثناها كابرًا عن كابر».

ويقال إن (أبا الهيثم بن التيهان) كان أول من تكلم، فأجاب إلى ما دعا إليه رسول الله ﷺ وصدَّقه، وقال: «يا رسول الله إنَّ بيننا وبين الرجال حِبالاً (يعنى اليهود) وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: «بل الدم الدم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم».

فتكلم البراء بن معرور، ثم قال: «ابسط يدك يا رسول الله نبايعك» فمد رسول الله ﷺ يده، فكان البراء أول من ضرب على يده ﷺ، ويُقال إنَّ أول من ضرب على يده هو أبو الهيثم بن التيهان، ويُقال: أسعد بن زرارة، ثم ضرب السبعون كلهم على يده وبايعوه. فقال رسول الله ﷺ: «إنَّ موسى أخذ من بنى إسرائيل اثنى عشر نقيبًا، لا يجدَنَّ منكم أحد فى نفسه أن يؤخذ غيره فإنما يختار لى جبريل». فلمَّا تخيرهم قال للنقباء: «أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم وأنا كفيل على قومى» قالوا: «نعم».

وتُعرف هذه البيعة (ببيعة الحرب)، وقد كان من بين النقباء تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وهم من الخزرج: «أسعد بن زرارة»، و«عبد الله ابن رواحة»، و«سعد بن الربيع»، و«رافع ابن مالك»، و«البراء بن معرور»، و«عبد الله بن عمرو بن حرام»، و«عبادة بن الصامت»، و«سعد بن عبادة»، و«المنذر بن عمرو». ومن الأوس: «أسيد بن حضير»، و«سعد بن خيثمة بن الحارث»، و«رفاعة ابن عبد المنذر بن زيد»، وقيل «أبو الهيثم ابن التيهان» مكانه.

فلمَّا بايع القوم صاح الشيطان على العقبة بأبعد صوتٍ سُمِع: «يا أهل الأخاشب (المنازل)، هل لكم فى مُذمم



والصباةُ معه قد اجتمعوا على حربكم»؟ فقال رسول الله ﷺ: هذا أزب العقبة (اسم شيطان)؛ هذا ابن أُزيب». فقال لهم: «انفضوا إلى رِحالكم»، فقال له (العباس ابن عبادة بن نضلة): «والله الذى بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل مِنى غدًا بأسيافنا»، فقال له رسول الله ﷺ : «لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم»، فتفرقوا إلى رحالهم، ورجعوا إلى مضاجعهم وناموا حتى الصباح.

وفى الصباح جاء عدد كبير من أهل قريش إلى منازل الأنصار ليتبينوا حقيقة ما وصلهم بشأن إسلامهم، واتباعهم لدين محمد ﷺ. ولمّا تيقنوا من حقيقة الخبر حاولوا أن يرجعوهم عما بايعوا عليه رسول الله ﷺ، دون جدوى. وسارع الأنصار بالعودة إلى مدينتهم هربًا بدينهم، وخرج القرشيون فى طلبهم، فنجح معظمهم فى الإفلات إلا اثنين من النقباء، هما: سعد بن عبادة والمنذر بن عمرو. فقاتل المنذر القوم حتى غلبهم ونجا بنفسه، أما سعد فنجحوا فى أسره، فقاموا بربط يديه إلى عنقه بحبل راحلته، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه ويشدونه من شعره، وكان غزير الشعر، وكان سعد قد أجار (جبير بن مطعم بن عدى) و(الحارث بن حرب بن أمية) حين خرجا فى تجارة إلى المدينة، فلمّا وصل مكة هتف باسمهما وذكر ما بينه وبينهما، فخرجا له وكانا فى المسجد الحرام عند الكعبة، فقاما بتخليصه من يد آسريه وأطلقوا سراحه؛ ففر هاربًا ناجيًا بنفسه وبدينه ليلحق بقومه من المسلمين إلى المدينة.

بيعة الرضوان:

ما كادت السنة السادسة من بعثة رسول الله ﷺ تنقضى حتى نجحت دولة الإسلام فى المدينة فى القيام بواجب الدفاع الهجومي من خلال المناوشات العسكرية مع قريش وغيرها من القبائل، التى إما كانت لرد عدوان أو لإرهاب عدو ينوى العدوان، وقد أدت هذه المناوشات غرضها على أكمل وجه؛ فإنه ما كادت هذه السنة تنتهى حتى كانت هيبة دولة الإسلام قد استقرت فى نفوس القبائل فيما حول المدينة وفيما وراءها، وأخذ السلام يسود بين المسلمين وجيرانهم، وأخذ الرسول ﷺ يعمل على تنظيم أمور دولته والتطلع إلى توسعتها خارج نطاق المدينة.

وهو فى المدينة، لم ينس محمد رسول الله ﷺ مسقط رأسه مكة؛ فقد كان

بصره دائمًا متجها إليها وقلبه متعلقًا بها وروحه تهفو إليها. وبعد موقعة الخندق ازداد شوقه للذهاب إلى مكة واستوحش البيت الحرام والكعبة وكل شبر وطِئته قدمه على أرضها؛ ولذلك قرر عليه الصلاة والسلام، فى غرة شهر ذى القعدة من العام السادس للهجرة/٦٢٨م أن يخرج إليها معتمرًا، وأن يحمل معه الهدْى، وأن يترك الدعوة مفتوحة لمن يريد من أتباعه أن يصحبه فى هذه الرحلة التى قدَّر خطرها وتحديه لقريش بها، على ألا يحملوا معهم غير السيوف فى أغمادها. وقد قرر رسول الله ﷺ أن تكون المسيرة إلى مكة مسيرة سلمية حتى لا تعده قريش غزوًا لمدينتها وتحديًا لزعامتها ومكانتها فيها.

وكان رسول الله ﷺ يدرك فى قرارة نفسه أنَّ قريشًا لن تسمح له بدخول مكة لأداء العمرة، وبالفعل فقد أخذت قريشًا حمية الجاهلية حين بلغها أمر مسيرة الرسول والمسلمين إلى بلدتهم وصمموا على منعهم من دخولها مهما كلفهم ذلك.

ولمَّا استقر رسول الله ﷺ عند (الحديبية) بعث (عثمان بن عفان) إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم بأنه لم يأتِ لحرب وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظمًا لحرمته. فخرج عثمان إلى مكة فلقيه (أبان بن سعيد بن العاص) حين دخل مكة فحمله بين يديه، ثم أجاره، حتى بلغ رسالة رسول الله فقال له أبان بن سعيد: «إن شئت أن تطوف بالبيت فطفْ »، فقال: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ»، واحتبسته قريش عندها ثلاثة أيام، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنَّ عثمان قد قُتل، فغضب رسول الله ﷺ والمسلمون لهذا الخبر، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا نبرح حتى نناجز القوم»، فدعا الناس إلى البيعة للحرب، فكانت (بيعة الرضوان) تحت الشجرة، بايعه جميع من كانوا معه (بيعة الموت) بايعوه على نصرته والثبات معه وعدم الفرار.

وكان (أبو سنان الأسدى) أول من بايع رسول الله ﷺ بيعة الرضوان. وقد بايع رسول الله ﷺ لعثمان، فضرب إحدى يديه بالأخرى. وقد نزل فى أمر هذه البيعة قوله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ



﴿ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح: ١٨- ١٩) .

ولمَّا تمت البيعة، عاد عثمان بن عفان، وبان كذب الإشاعة التى ترددت عن مقتله فبعثت قريش تطلب الصلح مع رسول الله ﷺ، وأوفدت فى طلبه (سهيل ابن عمرو) أخا بنى عامر بن لؤى إلى رسول الله ﷺ، وهو ما عُرف (بصلح الحديبية) الذى بشَّر به الله تعالى المسلمين بقرب فتح مكة.

بيعة السقيفة:

واجه المسلمون، بعد وفاة الرسول ﷺ، مشكلة نظام الحكم وكيفية تدبير أمر دولة الإسلام، التى وضع الرسول أساسها، ولإيجاد الحل لهذه المشكلة سارع الأنصار لمَّا وصلهم نعى رسول الله لهم، إلى التفكير فى شخص من يخلفه فى تدبير أمورهم وقيادة مسيرتهم؛ فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة والمهاجرون مشغولون بأمر إعداد دفن الرسول، ولمَّا كانوا يرون أنَّ الأمر لهم لأن البلد بلدهم، وهم أنصار الله وكتيبة الإسلام، رأوا أن يكون الأمر فيهم. ولقد رشحوا للرياسة شيخًا من سادة الخزرج هو (سعد بن عبادة) فدعوه ليتحدث باسمهم وليبين موافقته على اختيارهم له رئيسًا لدولة الإسلام وخليفة لرسول الله ﷺ فى حكم دولة المسلمين.

فنهض سعد فيهم خطيبًا وبيَّن فى خطبته فضل الأنصار على دولة الإسلام وسَبْقهم لنصرة الإسلام ورسوله. غير أنَّ الأوس امتعضوا لهذا الاختيار وخافوا أن تؤدى رياسة سعد للمسلمين إلى سيادة الخزرج عليهم وإلى عودة الصراع بين الأوس والخزرج الذى كان قائمًا بينهما قبل هجرة الرسول إلى المدينة.

ولقد وصل خبر اجتماع السقيفة إلى كبار الصحابة من المهاجرين؛ فسارع ثلاثة منهم إلى هذا الاجتماع، وهم: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح، حتى لا يتيحوا للأنصار فرصة الانفراد بالرأى فى أمر الخلافة الخطير دون أن يكون للمهاجرين رأى فيه، ونهض أبو بكر فألقى أول خطبة له فى الأنصار بيَّن فيها فضل المهاجرين على الأنصار. كذلك فعل عمر وأبو عبيدة وانتهى الاجتماع الخطير بأخذ البيعة لأبى بكر الصديق من المهاجرين والأنصار، وعُرفت هذه البيعة التى تمت لأبى بكر الصديق فى السقيفة باسم (البيعة الخاصة)، ثم أُخذت له، بعد ذلك، فى مسجد الرسول (البيعة العامة) وفى هذه البيعة خطب أبو

بكر الناس وبيَّن فى خطبته الخطة التى سوف يسير عليها والالتزام الذى وجب على الحاكم المسلم أن يلتزمه مع نفسه ومع الرعية(انظر مادة سقيفة بن ساعدة).

ولقد صار تقليد البيعتين الخاصة والعامة ملزمًا لكل الخلفاء الذين جاءوا بعد الصديق أبى بكر، لعمر ابن الخطاب، ولعثمان بن عفان، وعلي بن أبى طالب. لكن خلفاء الأمويين والعباسيين لم يلتزموا بالبيعتين وذلك لتحول نظام الحكم الإسلامى عن مبدأ الشورى إلى المبدأ الوراثى الملكى.

أ.د / عطية القوصى

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. القرآن الكريم .

٢. البيهقى (أحمد بن الحسن بن على (ت ٤٥٨هـ) دلائل النبوة .

٣. د . حسين مؤنس : دراسات فى السيرة ط ٢ الزهراء ١٩٨٥م .

٤. صفى الرحمن المباركفورى : الرحيق المختوم مكة المكرمة ١٩٩١م .

٥. د . حسن على حسن : السيرة النبوية دراسة تحليلية دار القلم ٢٠٠٥م .

٦. ابن هشام : أبو محمد عبد الملك، مختصر سيرة ابن هشام . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

تبوك (غزوة)

تبوك : موضع بين وادى القرى وجنوب الشام، وكانت من ديار قضاعة، تحت سلطة الروم، وهى الآن إحدى المدن المهمة فى شمال غرب المملكة العربية السعودية، وتقع شمال المدينة النبوية المنورة بنحو ٧٧٨ كيلو مترا، وترتفع عن سطح البحر (٢٥٤٣) قدمًا = نحو(٧٧٠) مترًا.

وغزوة تبوك هى كبرى غزوات النبى ﷺ، إذ كان الجيش الذى انطلق فيها أكبر الجيوش التى قادها رسول اللهﷺ على الإطلاق؛ حيث بلغ عدد رجاله نحو ثلاثين ألفًا، وهى كذلك آخر غزواته ﷺ، وقد انفردت باسمها الذى اشتهرت به فى تاريخ الإسلام، وهو (غزوة العسرة) ، وجيشها كذلك هو (جيش العسرة)، وقد سجل القرآن الكريم هذه التسمية فى قوله تعالى :

﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ (التوبة ١١٧) .

ولقد كان سبب هذه الغزوة أن الروم- الذين كان سلطانهم ونفوذهم السياسى والدينى يصل إلى الحدود الشمالية للدولة الإسلامية – ما برحوا يتربصون بالمسلمين الدوائر، ويبيتون النية للعدوان عليهم، والقضاء على دولتهم الفتية، وقد غاظهم وآلمهم كثيرًا ما يحققه المسلمون من انتصارات متوالية، ونجاح مطرد فى انتشار الإسلام، حتى صار أكثر العرب مسلمين، يدينون بالولاء والطاعة للنبى ﷺ، وكل ذلك كان عكس ما يؤملون، وما كانوا يتوقعون، فلما استبد بهم الحَنَقُ على الإسلام، والقلق على مستقبل نفوذهم فى المنطقة، قرروا ضرب المسلمين فى عقر دارهم ضربة قوية، إن لم تجهز عليهم، فإنها - على الأقل - سوف توقف امتداد هذا الدين، وتمنع انتشاره فى مناطق نفوذهم بين العرب النصارى الخاضعين لهم فى شمال الحجاز. قال صاحب (الطبقات الكبرى): " بلغ رسول الله ﷺ ، أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رزق أصحابه لسنة (أعطاهم رواتب سنة مقدمًا)، وأجلبت معه لَخْم، وجِذَام، وعاملة، وغسان، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء". وهذا

مشهد يذكر بحشودهم الهائلة فى معركة مؤتة فى العام الماضى (٨هـ) !

لذلك دعا النبى ﷺ المسلمين إلى جهاد الروم وحلفائهم من العرب، وكان ذلك فى صيف عام ٦٣٠م (شهر رجب من السنة التاسعة للهجرة) فى وقت اشتد فيه الحر، وعزت الأموال بسبب الجدب الذى ضرب أطنابه فى البلاد، وكانت ثمار المدينة قد نضجت ، واقترب حصادها، قال ابن إسحاق: " وكانت (تبوك) فى زمن عسرة من الناس، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبون المقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون شخوصهم على تلك الحال" ، وعلى الرغم من كل ذلك سارع المؤمنون إلى تلبية دعوة الجهاد فى سبيل الله، وحض رسول الله ﷺ أصحابه على الإنفاق لتجهيز هذا الجيش، بقوله : « من جهز جيش العسرة فله الجنة" مذكرًا إياهم بأمر الله عز وجل : ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(التوبة: ٤١).

فتسابق الموسرون فى مضمار البذل والتضحية؛ وضرب فريق من الصحابة أمثلة رائعة فى العطاء، ابتغاء مرضاة الله، ورغبة فى مثوبته؛ فجاء أبو بكر الصديق بكل ماله! وأتى عمر الفاروق بنصف ماله أما عثمان ذو النورين، فقدم من الأموال ما لم يقدمه أحد؛ قالوا : أنفق عثمان يومئذ ثلاثمائة بعير بكامل عدتها، وألف دينار نقدًا، حتى قال رسول الله ﷺ: « **ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم**» !.

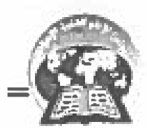
وعلى النقيض من ذلك موقف أهل النفاق –الذين يظهرون الإسلام، ويبطنون الكفر- فقد كان واضحًا منذ بدأ النبى ﷺ يحث الناس على الخروج لقتال الروم تقاعسُهم وتخاذُلهم عن إجابة داعى الجهاد، معتذرين عن ذلك بعلل مكذوبة، وأسباب واهية؛ فهذا الجد بن قيس حين دعاه رسول الله إلى الخروج، فقال له: ائذن لى يا رسول الله ﷺ، ولا تفتنى؛ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل أشد عجبًا بالنساء منى، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر! فأعرض عنه النبى، فنزلت فيه الآية ٤٩ من سورة التوبة : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْ ﴾ وبعضهم لم يكتف بالقعود ،

وإنما مشى فى الناس يحرضهم على عدم الخروج مع الجيش ، ويحذرهم من الحر ! فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ﴾ (التوبة : ٨١).

وينبغى فى هذه المناسبة أن نسلط الضوء على موقف رأس المنافقين (عبد الله بن أُبَىّ بن سلول) وقد بينه الواقدى فى (مغازيه) قائلاً : « فلما سار رسول الله ﷺ تخلف ابن أُبَىّ عن رسول الله ﷺ فيمن تخلف من المنافقين وقال: يغزو محمد بنى الأصفر. مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قبل له به ! يَحْسَب محمد أن قتال بنى الأصفر اللَّعِبُ؟ ونافق معه من هو على مثل رأيه، ثم قال ابن أُبَىّ: والله لكأنى أنظر إلى أصحابه غدًا مقرنين فى الحبال!» ويعيد هذا الموقف من ابن أُبَىّ إلى الذاكرة موقفه المماثل يوم أحد، حيث انسحب يومئذ بثلث الجيش كما انسحب اليوم!

وثمة طائفة منهم خرجوا مع الجيش، لا ليجاهدوا فى سبيل الله، وإنما بقصد الإرجاف والتخذيل والفتنة ! وكل هؤلاء قد فضحهم القرآن الكريم وكشف خبيئتهم فى قوله تعالى: ﴿ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (التوبة : ٩٤).

أما أولئك المؤمنون الراغبون فى الجهاد، ولكنهم لا يجدون ما ينفقون، ولا يملكون ما يحملهم فى تلك السفرة الطويلة، فقد أتوا رسول الله ﷺ يرجونه أن يدبر لهم ذلك، فقال لهم: « لا أجد ما أحملكم عليه » فانهمرت دموعهم ألمًا وأسفًا على فوات فرصة خروجهم للجهاد مع رسول الله ﷺ، فهؤلاء هم البكاؤون الذين سجل القرآن موقفهم ورفع الله عنهم وعن أمثالهم الحرج فقال سبحانه: ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ (التوبة : ٩١- ٩٢) .



ولما اكتمل عقد هذا الجيش الكبير (نحو ثلاثين ألفًا) ، معهم -كما ذكر الواقدى- من الخيل عشرة آلاف فرس ! انطلق بهم رسول الله ﷺ نحو تبوك، وقد أعطى أبا بكر الصديق لواء الجيش، وأعطى راية المهاجرين للزبير بن العوام، وراية الأوس لأسيد بن الحضير، وراية الخزرج للحباب بن المنذر بن الجموح. وقد استخلف النبى ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى، أو سباع بن عرفطة الغفارى .

ولما مضى رسول الله ﷺ من ثنية الوداع سائرًا ، جعل يتخلف عنه بعض الرجال، فيقولون، يا رسول الله، تخلف فلان! فيقول: « دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه !». وقد صدق رسول الله؛ فقد لحق به من أولئك الخيرين أبو ذر الغفارى، وأبو خيثمة السالمى ، وعمير بن وهب الجمحى ، بعد أن أبطاوا فى السير معه أول الأمر، فدعا لهم النبى ﷺ بخير، وسر بانضمامهم إلى الجيش، ولكل واحد من هؤلاء الثلاثة قصة مدهشة فى هذه المناسبة لا يتسع المقام لذكرها.

ولا شك فيما لقى المسلمون فى هذا الزحف من المشقة والعناء؛ فالرحلة بعيدة تقارب ثمانمائة كيلو متر، والحر شديد ، والماء شحيح، والطعام قليل، والدواب غير كافية؛ ولقد صور عمر بن الخطاب ﷺ هذا المشهد من إحدى زواياه فقال: « خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد ، فنزلنا منزلاً وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستتقطع، حتى إن الرجل لينحر بعيره فيعتصر فرثه (كرشه) فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده، فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن الله عوَّدك فى الدعاء خيرًا فادع الله لنا. فقال : « أو تحب ذلك؟» قال : نعم . فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء (آذَنَتْ بمطر) فأطلت ثم سكبت، فملأوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر!! ».

وصل المسلمون إلى تبوك، فلم يجدوا أحدا من الروم، أو حلفائهم من العرب المتنصرة فى انتظارهم، والظاهر أن هؤلاء قد آثروا السلامة، فاختاروا الانسحاب من مواجهة المسلمين، وكان ذلك من فضل الله ورحمته بعباده المؤمنين الذين قطعوا تلك الرحلة الطويلة المضنية، ونال منهم الجهد المبذول، فأراحهم الله عزو وجل، وخفف عنهم، فصرف

أعداءهم عن قتالهم، بل زاد فضل الله على رسول الله وأصحابه، بأن جاءهم صاحب مدينة أَيْلَة (العقبة الحالية) (يوحنا ابن رؤبة) وصالح رسول الله ﷺ على دفع الجزية، وكذلك صالح أهل أَذْرُح، وأهل جرباء على دفع الجزية، وكتب لهم رسول الله ﷺ كتبًا بهذه المصالحات .

ونجحت سرية أرسلها النبى ﷺ بقيادة خالد بن الوليد فى أَسْر أكيدر ابن عبد الملك الكندى صاحب دُومة الجندل - وكان نصرانيًا - وجاءوا به إلى رسول الله ﷺ فعفا عنه، وصالحه على الجزية .

إن لنا هنا وقفة يسيرة لنتساءل عن أسباب انسحاب الروم وحلفائهم من نصارى العرب؛ ما الذى جعلهم يعيدون حساباتهم قبل وصول المسلمين إلى تبوك، وينتهى الأمر بهم إلى صرف النظر عن قتال عدوهم الذى حشدوا لحربه حشودهم وجمعوا جيوشهم !؟

ففى الحديث الصحيح الذى رواه البخارى بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ : « **أعطيت خمسًا لم يعطهن أحدٌ من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لى الأرض مسجدًا وطهورًا..**» إلخ الحديث! وفيما نعتقد –والله أعلم- أن الله جل شأنه قد ألقى الرعب فى قلوب هؤلاء الروم وأتباعهم من عرب الشام، فانفضوا مؤثرين الحياة على الموت، وهذا – ولا ريب – من دلائل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما لا شك فيه أيضًا أن هذه الغزوة التى لم يقع فيها قتال، كانت ذات أثر بالغ فى استقرار الأوضاع، وانتشار الإسلام، وتأكيد سيادة الدولة الإسلامية، وزوال نفوذ إمبراطور الروم فى تلك البلاد والمناطق التى مر بها الجيش الإسلامى إلى مدينة أيلة على رأس خليج العقبة، فلما عاد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة بعد نحو عشرين يومًا قضوها فى تبوك ، كانت عودتهم عودة المنتصرين الظافرين .

ويبقى بعدئذ من حديث (تبوك) أن نقول : إن هذه الغزوة بما كشفت عنه من مواقف متباينة، وتصرفات ظاهرة الدلالة على المشاعر الحقيقية لأصحابها، وما جرى فى أثنائها من حوادث لا يخفى مغزاها على ذوى الألباب، قد سجلها القرآن الكريم فى آيات عديدة من سورة التوبة(براءة) ؛ فأنزلت طائفة من هذه الآيات قبل خروج الجيش من المدينة،

وطائفة ثانية تنزلت فى أثناء الزحف إلى تبوك، والطائفة الأخيرة أنزلت بعد العودة الظافرة إلى المدينة. وقد تناولت تلك الآيات ظروف هذه الغزوة جميعًا وهتكت أستار أهل النفاق، وأشادت بفضل الجهاد والمجاهدين فى سبيل الله بالأموال والأنفس من المؤمنين، وأعلنت توبة الله على أولئك المؤمنين الصادقين، الذين تخلفوا عن ركب الجهاد من أصحاب رسول الله ﷺ..

أ.د/محمد جبر أبو سعده

مصادر ومراجع للاستزادة :

(١) القرآن الكريم : سورة التوبة (براءة) .

(٢) الجامع الصحيح للبخارى (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ) دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

(٣) الطبقات الكبرى لابن سعد (محمد بن سعد بن منيع ت ٢٣٠هـ) دار صادر . بيروت ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م.

(٤) تاريخ الرسل والملوك للطبرى (محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ) تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – ط دار المعارف بمصر ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

(٥) السيرة النبوية لابن هشام (عبد الملك بن هشام ت ٢١٨هـ) بتحقيق مصطفى السقا وآخرين - مطبعة الحلبى بمصر ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

(٦) المغازى للواقدى (محمد بن عمر بن واقد ٢٠٧هـ) بتحقيق مارسدن جونز ، دار المعارف بمصر ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

(٧) زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن قيم الجوزية (محمد بن أبى بكر ت ٧٥١هـ) تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخر ، مؤسسة الرسالة – بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩١م.

(٨) البداية والنهاية لابن كثير (إسماعيل بن عمر ت ٧٧٤هـ) تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركى - دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

(٩) معجم المعالم الجغرافية فى السيرة النبوية – عاتق بن غيث البلادى – دار مكة للطباعة والنشر والتوزيع ١٤٠٢هـ/ ١٩٩١م.

التحكيم

تولى الإمام على بن أبى طالب، كرم الله وجهه، الخلافة يوم الثالث والعشرين من شهر ذى الحجة سنة ٣٥ للهجرة/٦٥٦م، فى ظروف صعبة كانت تمر بها الدولة الإسلامية. فقد تولاها فى أعقاب فتنة أصابت الدولة وانتهت بمقتل خليفة هو علم من أعلام الإسلام وصاحب فضل وسابقة فى الدين وصاحب أيادٍ بيضاء على الدعوة الإسلامية، مظلومًا. كذلك كان قتلته والذين أشعلوا نار الفتنة لا يزالون يرابطون فى المدينة ولم يغادروا إلى أمصارهم حتى يحققوا ما جاءوا من أجله. وما زال المتربصون بالإسلام والمحرضون على الفساد، وعلى رأسهم ابن سبأ، يترصدون للإسلام والمسلمين.

ولقد انقسم الناس آنذاك بين مطالب للخليفة الجديد بالأخذ بالثأر لدم الخليفة المقتول، ومتهم لعدد من الصحابة وعلى رأسهم على، بمسئولية قتل عثمان وعدم قيامهم بالدفاع عنه كما يجب، ومعتزلين للفتنة آثروا إغلاق أبواب بيوتهم عليهم أو ترك المدينة إلى غيرها من البلاد حتى لا تتلوث أيديهم بدماء ضحايا الفتنة، وكلها دماء أناس مسلمين.

ولقد بايع الناس عليًا على الحكم بالحق، وبدأ خلافته بالعمل على إزالة أسباب شكوى الناس، وقد تمثلت فى شكاياتهم من ولاة عثمان، فقام بعزل ولاة عثمان جميعهم وتولية غيرهم، وقد قصد بذلك أن يطوى صفحة سابقة، بخيرها وشرها، بصدد علاقة هؤلاء الولاة مع رعيتهم فى الأمصار، وفتح صفحة جديدة بتولية ولاة جدد قد يرضى عنهم أهل الأمصار. فعزل أبا موسى الأشعرى عن الكوفة، وعبدالله بن عامر عن البصرة، وعبد الله بن أبى السرح عن مصر، ومعاوية بن أبى سفيان عن الشام. ولم يكن لدى الخليفة، فى عزله هؤلاء الولاة عن ولاياتهم، أى شك فى ذممهم أو فى سلوكهم، ولكنه أراد التغيير حتى يقطع الطريق على الثوار والمتمردين ويقيم عليهم الحجة. ولم يستبد برأيه فى هذا الأمر، وإنما جاء بعد مشورة كبار الصحابة ومن بينهم طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام.

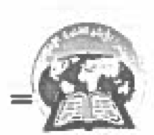
وبينما كان "علىّ" يتدبر الأمر فوجئ بتجمع فى مكة بقيادة طلحة والزبير يطالب الخليفة بالتحقيق فى مقتل عثمان وأخذ الثأر من قاتليه، وقد انضم هذا التجمع حول أم المؤمنين السيدة عائشة

بنت أبى بكر، رضى الله عنها، وكان طلحة والزبير قد استأذنا عليًا فى الخروج إلى مكة، كذلك استأذنه فى الخروج عبد الله بن عمر بن الخطاب. وكانت السيدة عائشة قد ذهبت إلى مكة لأداء فريضة الحج وفرارًا من الفتنة. وقد قيل إنَّ بنى أمية هم الذين حرضوا على تدبير هذا التجمع لإحراج "على" فى بداية خلافته بعد أن عزل ولاتهم عن الأمصار التى كانوا يلون حكمها. وقيل إنَّ المجتمعين تحولوا، بعد ذلك، ومعهم السيدة عائشة، من مكة إلى البصرة.

وخروج هذا التجمع إلى البصرة صحيح ولا شك فيه، لكن لأى شىء خرجوا وتجمعوا؟ هذا هو السؤال. ويُحتمل أنهم خرجوا ليتمكنوا من قتلة عثمان، الذين تجمعوا فى البصرة، وهذا ما كانوا يذكرونه، إلا أنهم يريدون، فى نفس الوقت، أن يتفقوا مع علىّ على الطريقة التى يحققون بها ذلك. ومن الممكن أن يكون خروجهم لجمع طوائف المسلمين وتوحيد كلمتهم حتى لا تضطرب الأمور بينهم فيقتتلوا، وقد علموا أنَّ مدبرى الفتنة قد اتخذوا من البصرة قاعدة لهم، لذلك اتجهوا إليها. ولقد كان خروج السيدة عائشة إلى البصرة اجتهادًا منها لتحقيق غاية طلحة والزبير والتعاون مع علىّ من أجل إطفاء نار الفتنة والقضاء على قتلة عثمان الذين تجمعوا فى البصرة.

ولقد وقع أول صدام بين أصحاب الجمل (وهو الجمل الذى كان عليه هودج السيدة عائشة) وبين قوات عامل البصرة مِنْ قِبل علىّ على المدينة واسمه (عثمان بن حنيف) عند منطقة (الحفير)، على بعد أربعة أميال من البصرة، وكان ابن حنيف قد نادى فى الناس فلبسوا السلاح وخرج بهم لملاقاة أهل الجمل، وخرج معه (حكيم بن جبلة)، وهو من قتلة عثمان، فى ثلاثمائة من أعوانه، فلقوا طلحة والزبير عند مكان يُعرف (بالزابوقة)، وهو المكان الذى وقعت فيه موقعة الجمل الأولى. وقد هُزم فى هذه المعركة أصحاب ابن حنيف وقُتل حكيم ومن معه. ونجح أصحاب الجمل، بعد المعركة، فى الاستيلاء على البصرة. أما ابن حنيف فقد وقع فى أسر الجماهير الذين قاموا بنتف لحيته، ثم أنقذه أصحاب الجمل منهم؛ فانسحب إلى معسكر علىّ عند (ذى قار).

وقدِم علىّ إلى البصرة، فنزل فى مكان منها يُسمى (الزاوية)، وقد نزل



أصحاب الجمل فى مكان يسمى (الفرضة)، وتدانوا ليتراءوا عند موضع قصر عبيدالله بن زياد، وكان ذلك يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦ هجرية/٦٥٦م.

ولقد حاول الصحابى الجليل (القعقاع ابن عمرو التميمى) التوفيق بين الفريقين بالوساطة الحكيمة المعقولة. ونجحت هذه الوساطة واطمأنت النفوس وسكنت وجنح الطرفان للصلح، لكن أهل البغى والنوايا السيئة لم يتركوا فرصة للصلح فوقع القتال بين الطرفين، وقد قتل طلحة والزبير فى المعركة وهُزم فى معركة الجمل الثانية أصحاب الجمل واستخلص علىّ البصرة من أيديهم وصالح أهلها، وبايع له العراق وفارس جميعًا، وانتقل إلى مدينة الكوفة واتخذها عاصمة لخلافته.

وبرغم انتصار علىًّ فى موقعة الجمل الثانية، فإن خلافته كانت تواجه الكثير من الصعوبات بسبب بداية الاقتتال بين المسلمين بعضهم مع بعض يوم الجمل، مما زاد الحقد فى النفوس والرغبة فى الثأر. كذلك لوجود قتلة عثمان فى جيش علىّ، ووجود أنصار (عبدالله بن سبأ) الميالين للفتن واستمرار الشر. كذلك شارك فى جيش على كثيرون من أهل القبائل المتأخرة فى دخول الإسلام، الذين لم يكن يهمهم الوقوف إلى جانب الحق بقدر اهتمامهم بما يحقق مصالحهم ويزيد من مكاسبهم.

وكانت الخطوة الثانية أمام الخليفة، بعد معركة الجمل، المواجهة مع أهل الشام، الذين خرجوا بقيادة (معاوية بن أبى سفيان) يرفعون قميص عثمان، الملطخ بدمائه، ويطالبون بالثأر له من قتلته.

هذا ولم يذكر معاوية وفريقه عليًا فى أمر البغىْ على عثمان إلا لمناسبة انضواء قتلة عثمان إلى معسكره واستعانته بهم فى حربه ووقوفهم معه. فهم لم يتهموه بقتل عثمان اتهامًا مباشرًا لأنهم يعلمون بأن قتلة عثمان هم الذين أساءوا إلى علىّ كما أساءوا إلى عثمان والإسلام.

ولقد سار على بقواته، أواخر ذى القعدة سنة ٣٦ للهجرة/٦٥٧م، إلى حدود الشام، والتقى بجيشه مع جيش معاوية بقرب (الرقة) على شاطئ الفرات، آخر تخوم العراق وأول أرض الشام فى سهل يُعرف (بصِفّين).

ووقعت هنالك بين الطرفين معركة كبيرة أوشك جيش العراق أن يحقق

النصر فيها على جيش الشام. ولمّا أدرك معاوية ومن معه قرب انتهاء المعركة بهزيمة ساحقة لهم، لجأوا إلى (التحكيم)، وهى فكرة (عمرو بن العاص)، الذى كان يحارب فى صف معاوية. ويقضى التحكيم برفع المصاحف فوق الرماح وتحكيم كتاب الله بين المقاتلين وطلب وقف القتال ووقف إراقة دماء المسلمين.

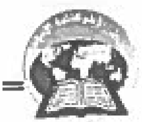
وبالفعل رفع جنود الشام المصاحف على الرماح، ونادوا بقولهم: «كتاب الله حكمٌ بيننا وبينكم». فتوقف القراء الذين كانوا فى جيش على عن القتال، وتوقف معهم بالتالى بقية الجيش عن القتال. ولمّا أراد على أن يستحث رجال جيشه على مواصلة القتال، بقوله إنَّ ما يردده جيش الشام هو قول حق أريد به باطل، لم يستمع جنوده لقوله وأصروا على قبول التحكيم ووقف القتال.

وتوقف القتال، وكُتب كتاب التحكيم يوم الثالث والعشرين من شهر صفر سنة ٣٧ للهجرة/١٢ أغسطس سنة٦٥٧م، على أن يختار كل فريق من الفريقين المتقاتليْن حكمًا له وأن يجتمع هذان الحكمان سويًا فى مكان محدد، ويتشاوروا ويقولا رأيهما فى أمر النزاع بين الطرفين وأمر من يكون صاحب الحق فى رئاسة دولة المسلمين. وقد اتُّفِق أن يتم هذا الاجتماع بيْن الحكمين فى شهر رمضان عند منطقة (أذرح) بدومة الجندل.

ولقد وقع اختيار حزب علىّ على الصحابى الجليل (أبى موسى الأشعرى)، بينما وقع اختيار حزب معاوية على الصحابى الجليل (عمرو بن العاص).

وكان أبو موسى رجلاً تقيًا فقيهًا عالمًا، كان رسول الله ﷺ قد أرسله مع الصحابى الجليل (معاذ بن جبل) إلى اليمن ليفقها الناس فى الإسلام. وكان مقدمًا عند الخليفة (عمر بن الخطاب) وكان يثنى عليه بالفهم ورجاحة العقل. وكان عمرو بن العاص من صحابة رسول الله ﷺ ، وقد قال عليه السلام فى الثناء عليه يوم أسلم: «أسلم الناس وآمن عمرو ابن العاص».

ولقد انتظر المتقاتلون نتيجة التحكيم بعد معركة صفين، تلك المعركة التى كان المسلمون فى غنىً عن وقوعها لو أنهم مالوا إلى العقل والحكمة ولم ينساقوا أمام رأى المتهورين الذين لا تعنيهم مصلحة المسلمين فى شىء. وإذا كانت حرب البصرة ناشئة عن إشعال قتلة عثمان لنارها فقد كان من مصلحة



الإسلام ألا تقع حرب صفين. وقد كان الحسن بن على كارهًا خروج أبيه من المدينة إلى العراق لما كان يخشاه من نشوب الحرب مع أهل الشام. ولو أنَّ عليًا لم يتحرك من الكوفة إلى الشام لمَّا حرَّك معاوية فيها ساكنًا، لأن معاوية لم يكن يختار الحرب ابتداءً.

وأهل السُنَّة المحمدية يدينون لله أن عليًا ومعاوية ومن معهما من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا جميعًا على الحق وكانوا مخلصين فى ذلك، والذى اختلفوا فيه إنما اختلفوا فيه عن اجتهاد كما يختلف المجتهدون فى كل ما يختلفون فيه، وهم لإخلاصهم فى اجتهادهم يثابون عليه فى حالة الإصابة والخطأ، وثواب المصيب أضعاف ثواب المخطئ.

ولقد تم التحكيم فى الموعد والمكان المحدَّدَين لذلك بين أبى موسى الأشعرى وعمرو بن العاص. ولقد روى المغالطون عن حادثة التحكيم أن أبا موسى وعَمْرًا اتفقا فيما بينهما على خلع الرجلين فخلعهما أبو موسى واكتفى عمرو بخلع علىّ دون معاوية، وهذه مغالطة لم تحدث. وأصل المغالطة هنا تجاهل المغالطين بأنَّ معاوية لم يكن يومئذ خليفة ولا هو طالبٌ لخلافة، وبذلك لم يكن فى التحكيم تحكيم بين خليفتين أو أميرين للمؤمنين، وأنَّ الحكميْن اتفقا على خلع الخليفتين معًا، وأن أبا موسى خلع الخليفتين معًا تنفيذًا لاتفاقه مع عمرو بينما قام عمرو بنقض الاتفاق فخلع خليفة وأبقى على الآخر، وهذا كله كذب.

وإنَّ الذى فعله عمرو هو الذى فعله أبو موسى لا يفترق عنه فى شىء. وقد أبقى الاثنان أمر الخلافة معلقًا على نظر أعيان الصحابة ليروا فيه رأيهم متى شاءوا وكيف شاءوا. وقد اتفق أبو موسى وعمرو على أن يعهدا بأمر الخلافة على المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان صحابة رسول الله ﷺ آنذاك، والذين توفى رسول الله وهو عنهم راضٍ.

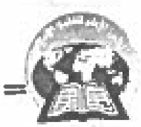
واتفاق الحكمين على ذلك لم يكن يتناول معاوية لأنه لم يكن خليفة ولم يقاتل على الخلافة، وإنما كان يطالب بإقامة الحد الشرعى على الذين شاركوا فى قتل عثمان. فلمَّا وقع التحكيم على إمامة المسلمين اتفق الحكمان على ترك النظر فيها إلى كبار الصحابة وأعيانهم. أمَّا التصرف العملى فى إدارة البلاد فلم يتناوله الحكمان إنما تركا كُلاً من

على ومعاوية يتصرف فى البلاد التى تحت يده. وبذلك فإن التحكيم لم يقع فيه خداع ولا مكر من عمرو بن العاص، ولم تتخلله بلاهة ولا غفلة من أبى موسى، كما يدعى المغرضون. وكان التحكيم يكون محل المكر والغفلة لو أنَّ عَمْرًا أعلن فى نتيجة التحكيم أنه ولّى معاوية إمارة المؤمنين وخلافة المسلمين، وهذا ما لم يعلنه عمرو ولا ادعاه معاوية.

ولم تبدأ خلافة معاوية إلا بعد الصلح مع الحسن ابن على عام ٤١ للهجرة/٦٦١م بمبايعة الحسن لمعاوية وتنازله له عن الخلافة؛ ومن ذلك اليوم فقط تسمى معاوية بأمير المؤمنين. فعمرو بن العاص لم يغالط أبا موسى الأشعرى ولم يخدعه لأنه لم يُعط معاوية شيئًا جديدًا، ولم يُقر فى التحكيم غير ما قرره الصحابى الجليل أبو موسى ولم يخرج عما اتفقا عليه معًا. فبقيت العراق والحجاز وما يتبعهما تحت يد من كانت تحت يده من قبل، وتعلق أمر الإمامة والخلافة بما سيكون من اتفاق أعيان الصحابة متى شاءوا وكيف شاءوا، ولهم أن يُبقوا عليًا فى الخلافة أو أن يخلعوه عنها ويولوا عليها من يرونه أصلح منه.

وإذا كانت هذه الخطوة الثانية لم تتم فليس ذلك تقصيرًا من أبى موسى ولا نشاطًا من عمرو، فهما قد قاما بمهمتهما بحسب اقتناعهما، وبحسب ما أدى إليه اجتهادهما. وواقع الأمر أن التحكيم ذاته قد رفع من منزلة معاوية إلى مقام على وحط من مقام على إلى مستوى منزلة معاوية، إذ إنّ قرار الحكمين قد شكك فى منصب على الفعلى، وهو الخليفة الشرعى، فى حين أنه أقصى معاوية عن ادعاء وهمى لم يكن قد تجاسر على المجاهرة به وهو طلبه الخلافة، والحق أنَّ معاوية لم يجاهر بطلب الخلافة إلا بعد مُضى سنين من التحكيم، وكان "على" آنذاك قد ارتقى إلى الرفيق الأعلى.

وقد رفضت طائفة (القُراء) من قبائل بكر وتميم وطئ، التى كانت ضمن صفوف جيش علىّ، فكرة التحكيم، برغم أنهم هم الذين أرغموا عليًا على قبولها، واتخذوا من صيحة أحد زعمائهم، حين صاح قائلاً «لا حكم إلا لله» اتخذوها شعارًا لهم، أى أنَّ حكم الله فى الأمر واضح لا يحتاج إلى هذا التحكيم الذى وقع. ولمّا جادلهم فى ذلك "على" وذكرَّهم بأنهم هم الذين أجبروه



على التحكيم وقت أن كان نصره وشيكًا على جيش الشام، وطلب منهم الاستمرار معه فى جيشه ومواصلة قتال الشاميين، رفضوا ذلك وخرجوا عن جيشه، وكانوا يشكلون ثُلث جيش على، ورفضوا العودة إلى الكوفة، ونزلوا قريةً بظاهر الكوفة تُدعى (حروراء)، واختاروا من بينهم قائدًا وإمامًا هو: (عبدالله بن وهب الراسبى) من قبيلة راسب من الأزد. وقد أطلق على وجماعة جيشه على هؤلاء المنشقين عنهم اسم (الخوارج) بينما أطلقوا على أنفسهم اسم (الحرورية) نسبة لحروراء، والشُراة، لقولهم إنهم اشتروا أنفسهم بأن باعوها فى سبيل الله.

وقد دخل على فى نقاش مع هؤلاء الخوارج وحاول التفاهم معهم على الرجوع إلى صفه وصف المقاتلين معه، إلا أنهم رفضوا ذلك وأصروا على دعواهم وطالبوا عليًا بإقرار الخطأ على نفسه لقبوله التحكيم وطلبوا منه التوبة إلى الله.

وقد حاول على، أكثر من مرة، التفاهم مع هؤلاء الخوارج، خاصةً بعد انتهاء أمر التحكيم، فرجع إليه جماعة منهم، وبقى نحو أربعة آلاف منهم خارجين. فلم يكن أمام على، بعد أن فرغ صبره منهم وعرف عنادهم وإصرارهم على المخالفة إلا أن يحاربهم؛ فقاتلهم عند قرية (النهروان)، خارج الكوفة، وهزمهم. فانضاف إلى جيش على عدد منهم، بعد الهزيمة، وفر من أمام وجهه بعض من نجا منهم، هاربين بأفكارهم ومبادئهم ينشرونها فى البلاد البعيدة عن قبضة الدولة. وبالفعل نجح هؤلاء الخوارج فى الانتشار فى بلاد فارس واليمن والمغرب، وظهرت جماعتهم كفرقة دينية وسياسية لعبت دورًا هامًا على مسرح أحداث الدولة الإسلامية منذ ذلك الوقت. وقد انقسم هؤلاء الخوارج إلى فرق أهمها: فرقة الأزارقة، وفرقة الصفرية، وفرقة النجدات .

وبعد هزيمة على للخوارج فى النهروان، استنفر رجاله للقتال والخروج لمقاتلة جند الشام الملتفين حول معاوية بن أبى سفيان. لكن جند على العراقيين كانوا قد ملوا القتال لطول مدته وتشوقوا للعودة إلى بلادهم وعوائلهم؛ فتسللت أعداد كبيرة منهم عائدة إلى الكوفة ولم يبق مع على إلا عدد قليل منهم. ولم تفلح محاولات على فى استنهاض هممهم وتشجيعهم وإذكاء الروح القتالية فيهم.

وفى نفس الوقت تزايدت أعداد الملتفين حول معاوية فى الشام وخاصةً بعد أن رأوا تخاذل أهل العراق وانفضاضهم من حول على وعدم رغبتهم فى مواصلة القتال.

وبينما كان علي يستحث جنده على القتال ويعدهم بالنصر إذا هم واصلوا معه، حدثت مؤامرة الخوارج التى دبروها للخلاص من علي ومعاوية وعمرو بن العاص بالقتل والاغتيال فى ليلة واحدة وقد نجحت هذه المؤامرة الخارجية التى دُبرت صباح يوم السابع عشر من شهر رمضان سنة ٤٠ للهجرة/٢٥ يناير سنة ٦٦١م فى قتل علي بن أبى طالب ﷺ على يد الخارجى (عبد الرحمن بن ملجَم) الذى سدد إليه طعنة صائبة بخنجر مسموم وقعت فى جبهته وهو فى طريقه إلى مسجد الكوفة لأداء صلاة الفجر، بينما نجا منها كل من معاوية وعمرو بن العاص.

ولمّا طُعِن على، ذهب إليه جماعة من المسلمين، كانوا قريبين منه، ولم ينتظروا نهاية نتيجة التحكيم، وطلبوا منه أن يستخلف عليهم فقال لهم على: «لا، ما استخلف رسول الله ﷺ فأستخلِف ولكن إن يُرد الله خيرًا فسيجمعكم بعدى على خيركم كما جمعكم بعد نبيكم على خيركم».

ومات علي متأثرًا بجرح السيف المسمم الذى ضُرب به، فلمًّا مات عقد الناس بالبيعة بعده لابنه الحسن بن علي، وهم يرون بأنه أحق بالخلافة من معاوية ومن كثيرين غيره.

وكان معاوية قد أرسل للحسن من يتوسط لإنهاء الحرب واقتتال المسلمين، وانتهت الوساطة بالمصالحة وتنازل الحسن لمعاوية عن الخلافة فى (عام الجماعة)، فى ربيع الأول سنة ٤١ هجرية/يوليو ٦٦١م. وبتولى معاوية الخلافة ينتهى عهد خلافة الراشدين ويبدأ عهد جديد، هو عهد الخلافة الأموية.

أ.د / عطية القوصى

مصادر ومراجع للاستزادة :

(١) الطبرى : أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بمصر ، ١٩٧٩م.

(٢)المسعودى : على بن الحسين بن على : مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت ١٩٧٤م.

(٣) ابن كثير الدمشقى: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية، تحقيق أحمد أبو ملحم وآخرين ، دار الكتب العلمية ـ لبنان ـ بدون تاريخ.

(٤) ابن الأثير : عز الدين على بن أحمد أبى الكرم: الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٧م.

(٥) اليعقوبى : أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح: تاريخ اليعقوبى — النجف بالعرق ١٣٥٨هـ .

(٦) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والاجتماعى ـ القاهرة ١٩٦٤م.

(٧) العواصم من القواصم لابن عربى: القاضى أبى بكر بن العربى المالكى، حققه وعلق عليه الشيخ محب الدين الخطيب، مركز السنة للبحث العلمى ـ القاهرة سنة ٢٠٠٠م .

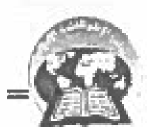
تركستان

تركستان اسم جامع لجميع بلاد الأتراك [١]، وهى موطن الأتراك فى آسيا الوسطي، وتمتد من جنوب سيبريا شمالاً حتى حدود أفغانستان جنوباً، ومن بحر الخزر غربًا إلى حدود التبت ومنغوليا شرقاً. [٢]

تمتد جذور الإسلام فى بلاد التركستان منذ فترات زمنية بعيدة، فقد دخلها الإسلام منذ الفتح العربى لها على أيدى القادة العظام أمثال قتيبة بن مسلم الباهلي ٨٦هـ / ٧٠٥م الذى كلل محاولات المسلمين لفتحها منذ عهد معاوية بن أبى سفيان، (٤١-٦٠هـ/٦٦١- ٦٨٠م) وقام بفتح خراسان وطخارستان وبلاد ما وراء النهر كلها، وعمل على توطيد الإسلام بها وأزال آثار الوثنية وبنى المساجد.[٣] وما أن فرغ قتيبة من توطيد أركان الإسلام فى تركستان الغربية حتى بادر إلى فتح تركستان الشرقية، وفتح أهم مدنها كاشغر سنة ٩٦هـ/٧١٤م ، ومن بعده بدأ انتشار الإسلام بالمنطقة.[٤]

خضعت تركستان لحكم العديد من الدول الإسلامية المستقلة، ومن أهمها الدولة السامانية التى كان لها دور كبير فى تثبيت دعائم الإسلام فيها وخاصة فى التركستان الشرقية، ولم تقتصر جهودها على الفتوحات الإسلامية بها بل امتدت إلى النشاط الدعوى الذى قام به علماؤها، فانتشر الإسلام بها، وظهر فيها الكثير من العلماء الأجلاء من أمثال البخارى ومسلم والترمذى والبيرونى والبيهقى والفارابى والزمخشرى وابن سينا وابن نباته وغيرهم الكثير.[٥]

قسمت تركستان منذ القرن الثالث عشر الهجرى (التاسع عشر الميلادى) إلى قسمين: تركستان الشرقية أو الصينية وتركستان الغربية التى كانت تشتمل فترة الحكم الإسلامى على أقاليم ما وراء النهر وفرغانة والصغد وخوارزم وجزء من خراسان، ويجرى فيها نهران عظيمان هما جيحون (أموداريا) وسيحون (سيرداريا). وكان أهلها يتكلمون اللغتين الجغتائية (التركية القديمة) والفارسية. وقد ساهم التركستانيون فى نشر الدعوة والثقافة الإسلامية بإسهامات علمائها الأجلاء فى بناء التراث الإسلامى.[٦] وأهالى تركستان مسلمون



من القبائل التركية القازاق والأوزبك والتركمان والقرغيز والطاجيك، وغالبيتهم سنة مع وجود أقلية من الشيعة تتركز فى طاجيكستان،ومنهم شيعة إسماعيلية من أتباع الأغاخان يتركزون فى هضبة بامير، وقد دخلها بعد الاحتلال الروسى أقلية روسية.

وبضعف الحكم الإسلامى بتركستان انقسمت إلى ثلاث إمارات متنازعة هى: بخارى وخانية خوقند فى فرغانة وخيوة فى خوارزم جنوب بحر آرال، وقد اكتسح الروس هذه الإمارات فاستولوا عام ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م على طشقند عاصمة إقليم الشاش التابعة لخوقند، ثم استولوا على سمرقند عام ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م، وفرضوا الحماية على إمارة بخاري. وفى سنة ١٢٩٠هـ/١٨٧٣م استولوا على خيوة وفرضوا الحماية عليها، واستولوا على إمارة خوقند سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م، ولما كانت هذه الإمارة الأخيرة من أعدى أعداء روسيا فقد قاموا بدك عاصمتها وأبادوا سكانها واغتصبوا فتياتها المسلمات، وتمت سيطرة روسيا على كل تركستان سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م.(٧)

وقد خضعت تركستان الغربية لاحتلال روسى قاسٍ، فقد قام بمصادرة الأراضى وطرد السكان مع إحلال الروس مكانهم، وتغيير أسماء الأماكن واقيمت القلاع والمدن الروسية بها، وأُضعفت الهوية الإسلامية وعملوا على روسنة تركستان.(٨) ويصف شاهد عيان هو الرحالة التترى "عبد الرشيد إبراهيم" الذى زارها سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م أوضاع المدن الإسلامية تحت الاحتلال الروسى والتى من أهمها طشقند التى أصبحت مركزًا إداريًا للحكم الروسى لتركستان وفرغانة وسيرداريا. وقد وضعت الحكومة الروسية قانونًا خاصًا لإدارة عموم تركستان، وبذلك فصلت إدارتها عن الإدارة داخل روسيا، ولم يكن للشعب التركستانى أى حق فى المواطنة الروسية.

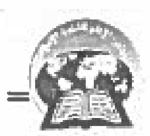
وتنقسم "طشقند" لقسمين: الحى الروسى ويتميز بنظافة شوارعه وجمال مبانيه، والحى الإسلامى ذى الشوارع الضيقة الموحلة المعتمة، وتؤخذ الضرائب من أغلبية السكان المسلمين، لتنفق على الحى الروسي، وهذا حال تركستان كلها. وكانت "طشقند" مركزًا تجاريًا كبيرًا فى تركستان، يقصدها التجار الأوربيون للبيع والشراء، وأغلبية المشتغلين بالتجارة من اليهود المحليين، وبعضهم من

المسلمين. واحتل المسلمون وظائف هامة فى مصانع حلج القطن. ولم تبن روسيا مدرسة واحدة للمسلمين، كما أنهم لم يرسلوا أولادهم للمدارس الروسية خوفًا من خضوعهم للتبشير، ولذلك تفشى الجهل بينهم، ولا يوجد إلا المدارس القديمة والمدارس الابتدائية الصغيرة التى أُنشِئت بجهودهم الخاصة . وشعب "طشقند" من الأوزبك والأتراك، ولغتهم هى التركية الأوزبكية، وكثير منهم يتحدثون الفارسية، وبعضهم يهتم بالأدب الفارسي. و"بطشقند" كثير من المدارس والمساجد الأثرية، كما افتتحت الحكومة متحفًا صغيرًا ومكتبة بسيطة.(٩)

وكانت بخارى تخضع لحكم شبه مستقل، يحكمها جنرال روسى لا يدخلها، ومقره فى قرية "كِرمينة" القريبة منها، ويقوم بإدارة البلاد موظف يسمى "قوش بيي"، ويحكم بموجب العرف والعادات، أما الأمور الشرعية فأوكلت إلى "قاضى كيَلان"، كما وجدت وظيفة "المحتسب" الموكل إليه توقيع العقوبات، ولم تظهر معارضة من الروس فى تطبيق الأحكام الشرعية. وقد ازدهرت الزراعة والتجارة فى "بخارى"، واشتهرت بتجارة جلود الحملان المسماة "قراقول" العالية السعر. وقد غصت "بخارى" بالمدارس لكثرة الأوقاف التى توقف عليها، إلا إن مستواها العلمى ضحل، وكثير منها يعانى من نهب المشرفين عليها. وأهلها كلهم من الطاجيك، ويتحدثون الفارسية، كما أن كثيرًا منهم يعرفون التركية.(١٠)

أما "سمرقند" التى كان يطلق عليها "رونق أهل الأرض" فإنها عاصمة عدد من الدول الإسلامية التى قامت على أرضها ومنبع العلم لفترات طويلة، وقد أصبحت مساجدها ومدارسها ومقابرها الرائعة تحت الاحتلال الروسى أنقاضاً، وسرقت أحجارها المنحوتة بطريقة فنية رائعة من قبل السائحين الأوربيين، ولم تبذل الحكومة الروسية أى جهد فى صيانتها، كما نهب الروس كثيرًا من آثارها وكتبها ومصاحفها الإسلامية، ونقلوها إلى بطرسبرج. وقد أنشأ الأعيان بجهودهم الذاتية مدارس ابتدائية وإعدادية. وأهل "سمرقند" أصلهم من الأوزبك، إلا أن هجرات كثيرة من إيران توافدت إليها، ولذلك يتكلم أهلها اللغتين الفارسية والتركية.(١١)

وقد قسمت بعد الثورة البلشفية إلى



خمس جمهوريات سوفيتية هى : قرغيزستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجيكستان وقزاكستان. [١٢] وقد ظهرت حركات قومية فى تركستان تطالب بالاستقلال والحفاظ على الهوية الثقافية ضد تيارات الروسنة ومن أهمها حركة "آلاش" القومية، وقد تحررت دولها بعد تفكك الاتحاد السوفيتى سنة ١٩٩١م. [١٣].

أما تركستان الشرقية فمساحتها الإجمالية حوالى ١٫٦ مليون كيلو متر مربع، وعدد سكانها فى تعداد عام ٢٠٠٨م يناهز العشرين مليون نسمة أغلبهم من قومية الأويغور المسلمة. وتجاور التركستان ثمانى دول آسيوية فيحدّها من الغرب خمس دول إسلامية هى قزاخستان وطاجكستان وقيرغيزستان وأفغانستان وباكستان، كما تجاور التركستان الشرقية دولتيْن كبيرتين هما روسيا والهند، بالإضافة إلى منغوليا. وقد حباها الله بثروات ضخمة جدًا من الذهب والحديد والبترول والغاز والفحم حيث تنتج سنويًا حوالى ٢٧٫٤ مليون طن بترول ويبلغ إجمالى احتياطيها منه حوالى ٨٫٢ مليار طن، كما يبلغ احتياطى الغاز الطبيعى بها حوالى ١٠٫٨ تريليون متر مكعب ، وبالنسبة للفحم يبلغ الاحتياطى منه ٢٫١٩ تريليون طن ،ويبلغ عدد مناجم اليورانيوم بها ستة مناجم من أجود وأنقى أنواع اليورانيوم. وتمتلك تركستان مساحات زراعية شاسعة من أجود الأراضي، وتجرى بها كثير من الجداول المائية التى تتحد مُشَكِّلَةً نهر تاريم الكبير، ومن أهم بحيراتها العذبة الكبيرة بحيرة بوستينغ. ومعدلات صادراتها عالية للمنتجات الزراعية داخل وخارج الصين، وهى أكبر قاعدة لإنتاج القطن فى المنطقة، ويتميز قطن التركستان بجودة فائقة، وهو قطن طويل التيلة، وإضافةً إلى ذلك تنتج الذرة الشامية والأرز وأفخر أنواع العنب والبطيخ الأصفر والتفاح والكُمّثْرى والمشمش والكَرَز وغيرها كثير [١٤] .

تعرضت التركستان الشرقية على مدار العصور لاعتداءات كثيرة من جيرانها وخصوصًا الصين، إلى أن قامت الصين فى عام ١٩٤٩م باحتلالها وتغيير اسمها إلى إقليم شينغيانغ وعاصمته أورومتشى، ومنذ ذلك التاريخ يعانى المسلمون الأويغور أبشع أنواع العذاب على أيدى الشيوعيين الصينيين، حيث قام "ماو تسى تونج" بقتل ما لا يقل عن مائة

ألف مسلم أويغورى، ومازال مسلسل القتل مستمرًا حتى الآن، وقد قاموا بتهجير المسلمين من مدنهم وقراهم وتفريقهم فى شتى أرجاء الصين لإضعاف القومية الأويغورية وتسكين الهان مكانهم، كما قاموا بترحيل مليونى فتاة مسلمة إلى الصين باسم التدريب المهنى لإعطائهن وظائف، وتُسْجن من تعترض على هذا الأمر. هذا فضلاً عن سجن وقتل علماء الدين، وفرض الرقابة الصارمة عليهم لمنعهم من تدريس الدين الإسلامى إلا فى المعاهد الكبرى الخاضعة لإشراف الحكومة، وأغلقوا المدارس الدينية، وفتحوا مدارس عصرية، وفى عام ٢٠٠٥م ألغيَتْ اللغة التركستانية فى المدارس وحلت اللغة الصينية محلها، هذا فضلاً عن هدم المساجد ومنع ترميم المساجد القديمة، وحولت المساجد الأثرية إلى مزارات للسياحة، ومنعوا النساء من ارتياد المساجد[١٥].

وصدر سنة١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٨م قانون يجرم إطلاق اللحى وارتداء الحجاب، فضلاً عن التضييق على المسلمين بقسوة فى أمور العبادة. وقد استغلوا كل الموارد الطبيعية فى التركستان ولم يتركوا لأهلها الأصليين إلا الكفاف، وأثقلوا كاهلهم بالضرائب الباهظة، مما أدى إلى زيادة معدلات الفقر بينهم. وقد قاموا بانتفاضة سنة ٢٠٠٨م، ولكن للأسف لم تتحرك الدول الإسلامية لنصرتهم[١٦].

د/ وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش :

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ص٢٣.

(٢) النرشخي، ابو بكر محمد بن جعفر: تاريخ بخاري، عربه عن الفارسية أمين عبد المجيد بدوى وعبد الله مبشر الطرازي، ط٣، دار المعارف، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م، ص١٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل، مج٤، ص٢٤١. النرشخي: المصدر نفسه، ص٧٣: ٧٧.

(٤) ابن الأثير: المصدر نفسه ، مج٤، ص٢٨٩.

(٥) ولبر، دونلد: إيران فى ماضيها وحاضرها، ترجمه إلى العربية عبد النعيم محمد حسنين، ط٢، دار الكتاب المصري، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م، ص٥٢، ٥٣.

(٦) Rafis Abazov: Historical Dictionary of Turkmenistan, United State of America, 2005,) p.154.

(٧) جميل عبد الله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، ط٣، دار أم القري، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٥١٧.

(٨) ميثم الجنابي: الإسلام السياسى فى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م، ص٢٥.

(٩) عبد الرشيد إبراهيم: العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين (مسلمو تركستان وسيبريا ومنغوليا ومنشوريا)، ترجمة أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومى للترجمة، ١٩٩٨م، ص ٤٣ : ٤٧.

(١٠) عبد الرشيد إبراهيم: المرجع نفسه، ص ٥١: ٥٣، ٥٩.

(١١) عبد الرشيد إبراهيم: المرجع نفسه، ص ٦٣، ٦٦: ٦٨.

(١٢) . Rafis Abazov: Historical Dictionary of Turkmenistan, p.154

(١٣) ميثم الجنابي: المرجع نفسه، ص١٥: ١٧

(١٤) A. N. Kuropatkin,Kashgaria Eastern or Chinese Turkistan,p.24:26

(١٥) توختى أخون أركين: تركستان الشرقية البلد الإسلامى المنسي، ط١، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م، ص٢٤، ٢٥، ٣٩: ٤٢. محمد على: سياسة التطهير العرقى للشعب التركستانى عند الحكومة الصينية، مجلة تركستان الإسلامية، السنة الأولي، ع٢، ذو القعدة، ١٤٢٩هـ ،ص١٩، ٢٠.

(١٦) محمد على: المرجع نفسه، ص١٩، ٢٠.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م .

٢) النرشخي، أبو بكر محمد بن جعفر: تاريخ بخاري، عربه عن الفارسية أمين عبد المجيد بدوى وعبد الله مبشر الطرازي، ط٣، دار المعارف، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م .

٣) ابن الأثير: الكامل، مج٤ .

٤) ولبر، دونلد: إيران فى ماضيها وحاضرها، ترجمه إلى العربية عبد النعيم محمد حسنين، ط٢، دار الكتاب المصري، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م .

٥) Rafis Abazov: Historical Dictionary of Turkmenistan, United State of America, 2005,)

٦) جميل عبد الله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، ط٣، دار أم القري، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .

٧) ميثم الجنابي: الإسلام السياسى فى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م .

٨) عبد الرشيد إبراهيم: العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين (مسلمو تركستان وسيبريا ومنغوليا ومنشوريا).

٩) توختى أخون أركين: تركستان الشرقية البلد الإسلامى المنسي، ط١، دار الأندلس الخضراء، جدة، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م .



تركمانستان

جمهورية تركمانستان إحدى جمهوريات وسط آسيا الإسلامية، وتشترك تركمانستان بحدودها الجنوبية مع إيران بمسافة ٩٩٢ كيلومترًا ومع أفغانستان بـ ٤٦٢ كيلو مترًا، وتقع أوزبكستان إلى الشمال والشرق منها، وتبلغ حدودها معها ١٦١٩ كيلو مترًا، وتقع قازاخستان إلى الشمال منها، وتبلغ حدودها معها ٢٣٥ كيلو مترًا، وقد أقام هذه الحدود الاحتلال الروسى للبلاد[١].

تبلغ مساحة تركمانستان ٤٤٥٠٠٠ كيلو مترًا مربعًا، وتشغل صحراء قره قورم وحدها أربعة أخماسها، فتركمانستان منطقة صحراوية تقوم الحياة فيها خاصة فى الأجزاء الجنوبية حيث تتوفر الأنهار التى تتدفق من مرتفعات شمال أفغانستان مثل نهرى مورهاب وتادزهن، والأخير يمثل الحدود بينها وبين إيران. كما تدخلها أنهار من شمال إيران، مثل نهر أتراك الذى يصب فى بحر قزوين، ويشكل الحدود بينها وبين إيران. وعلى هذه الأنهار قامت مدن تركمانستان مثل مدينة " آشغابات " (عشق آباد) و"نسا"، كما قامت بعض المدن على بحر قزوين، وغير ذلك واحات صغيرة مبعثرة فى أنحاء البلاد[٢].

عاصمتها "آشغابات" أكبر مدينة فى الجمهورية، تقع جنوب تركمانستان على بعد ثلاثين كيلومترًا من الحدود مع إيران، وهى مركز تجارى هام، وتقع فى جنوب مقاطعة "آخال ولايت" التى تغطى الأجزاء الجنوبية والوسطى من البلد، وبهذه الولاية ٣٠٪ من صناعات البلد، فضلاً عن الزراعة والسياحة وغيرها من الأنشطة الاقتصادية. ومن مدن تركمانستان الهامة "داشوجوس"، وهى عاصمة لإقليم يحمل نفس الاسم، وهى رابع أكبر مدينة فى الجمهورية ، تقع شمال شرق "آشغابات"، وتبعد عنها ٥٣٠ كيلومترًا، وهى مركز هام للمواصلات والتجارة فى شمال تركمانستان[٣] [٤].

ومن مدنها الهامة "مرو" مركز خراسان ومن أشهر المدن الإسلامية، وقد خربها الروس انتقامًا لمقاومتها الشديدة، وأقاموا مكانها مدينة جديدة سميت "بيرام على"[٥].

وقد فتحت فى عهد الخليفة "عثمان بن عفان" على يد "الأحنف بن قيس" الذى

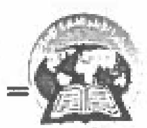
فتح خراسان سنة٢٢هـ/٦٤٢م.[٦] وقد حكمها عدد من الدول المستقلة أهمها الدولة الطاهرية ثم السامانية، وفى عهدهما انتشر الإسلام بها، كما خضعت للدولة الغزنوية والدولة السلجوقية من بعدها، وبعد أن عصف بها الغزو المغولى حكمها المغول الإيلخانيون، وقد خضعت بعد ذلك للحكم التيمورى الذى شهدت خلاله ازدهارًا كبيراً، وأهم الدول التى حكمتها بعد ذلك الدولة الصفوية والدولة القاجارية.[٧]

وقد أخرجت هذه البلاد كثيرًا من العلماء والفقهاء الذين أسهموا فى بناء الحضارة الإسلامية، من أهمهم السمعانى [٨] وأبو بكر المروذى [٩] والرياضى والفلكى عبد الرحمن الخازن[١٠] وناصر خسرو المروذى[١١].

وقد استولى الروس على الجزء الأكبر من تركمانستان إثر الحرب التركمانية (١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م: ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م)، وقد دمر التركمان الجيش الروسى سنة ١٢٩٧هـ / ١٨٧٩م، ولكنهم تعرضوا لمذبحة رهيبة عقب هزيمتهم سنة ١٢٩٩هـ/١٨٨١م. وقد عمل التركمان على مقاومة الروس، واشتركوا مع إخوانهم التركستانيين ضدهم (١٣٣٥هـ/١٩١٦م : ١٣٤٠هـ/١٩٢١م)، كما قاموا بانتفاضة السنوات الخمس(١٣٤٥هـ/١٩٢٦م : ١٣٥٠هـ /١٩٣١م).[١٢]

وضم الروس شرق بحر قزوين إلى تركستان سنة١٣١٥هـ / ١٨٩٧م، واعلنت جمهورية تركمانستان السوفيتية الاشتراكية سنة١٣٤٣هـ / ١٩٢٤م، وذلك حتى أعلن مجلس السوفيت الأعلى استقلال تركمانستان سنة ١٩٩١م، وأعلنت انضمامها إلى اتحاد الدول المستقلة CEI.[١٣]

وتعداد سكان تركمانستان سنة ٢٠٠٤م طبقًا لإحصاءات الحكومة ٦,٣٢٩,٠٠٠ نسمة، وقد استقبلت هجرات فى القرن العشرين من روسيا وأوكرانيا وقزاخستان، ويشكل التركمان الأصليون أكثر من ٧٧٪ من إجمالى السكان مع أقلية أوزبكية ٩,٢٪ وروسية ٦,٧٪ و٢٪ من القزاخس. ويمارس ما يقرب من ٥٠٪ من السكان الزراعة. وأهم حاصلاتها القطن والحبوب وخاصة القمح والذرة والشعير، والخضراوات والفاكهة وتشتهر خاصة بالعنب والتفاح والكمثرى والبندق.[١٤] وتشتهر تركمانستان بالرعى وخاصة تربية الماعز، ففيها أربعة ملايين منها، ومليونان ومائة ألف من الأبقار.[١٥]



كما تشتهر بتربية الخيول والجمال والجديان. وقد قامت فى تركمانستان العديد من الصناعات الاستراتيجية اعتمادًا على مواردها الطبيعية ولتوفر حقول البترول بها، كما اشتهرت بصناعة السجاد.[(١٦)]

وقد كتبت لغتهم الجغتائية بالخط العربى، ومن أشهر من كتب بها "مير على" (ت٩٣٧هـ /١٥٣٠م)، والسلطان "بابر شاه" أول سلاطين المغول على الهند، وقد استبدل بها الروس الحروف الروسية.[(١٧)] وعلى الرغم من ذلك ظل التركمان يستخدمون الخط العربى حتى النصف الأول من القرن الماضى (الرابع عشر الهجرى / القرن العشرون الميلادى)، وهى تكتب حاليًا بالحروف اللاتينية.

د/ وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش :

(١) MaryLee Knowlton: Turkmenistan, China, 2006, P. 7.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامى، ج٢١: المسلمون فى الإمبراطورية الروسية، المكتب الإسلامى، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٢٣٦.

(٣) Rafis Abazov: Historical Dictionary of Turkmenistan,the United States of America, 2005) p.9,18,45,46

(٤) جميل عبد الله محمد المصرى: حاضر العالم الإسلامى، ط٣، دار أم القري، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٥٢٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، مج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ص٤٣٤.

(٦) ولبر، دونلد: إيران فى ماضيها وحاضرها، ترجمه إلى العربية عبد النعيم محمد حسنين، ط٢، دار الكتاب المصري، مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م، ص٥٢، ٥٩، ٦٦، ٨٦، ٩٥.

(٧) نصر الدين محمد بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج١، بغداد، ١٩٦٧م، ص١١.

(٨) الأسنوي: طبقات الشافعية، ج١، بغداد، ١٩٧٠م، ص٤٨٣.

(٩) الزركلي: الأعلام، ج٣، بيروت، (د.ت)، ص٣٠٥.

(١١) الجوزجانى: طبقات ناصرى، ج١، كابل، ١٣٤٢هـ، ٢٦١.

(١٢) Edgar, Adrienne Lynn: Tribal Nation: The Making of Soviet Turkmenistan, P. XVI.

(١٣) Rafis Abazov: OP.Cit.,p.5,129,130.

(١٤) محمود شاكر: المرجع نفسه، ص٢٥٩.

(١٥) Rafis Abazov: OP.Cit.,p.5, 129,130

(١٦) جميل عبد الله محمد المصري: المرجع نفسه، ص٥٢٢.

(١٧) Edgar, Adrienne Lynn Tribal Nation: OP.Cit., P. XVI.

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) MaryLee Knowlton: Turkmenistan, China, 2006 .

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامى، ج٢١: المسلمون فى الإمبراطورية الروسية، المكتب الإسلامى، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٣) Rafis Abazov: Historical Dictionary of Turkmenistan,the United State of America,2005.

(٤) جميل عبد الله محمد المصرى: حاضر العالم الإسلامى،ط٣، دار أم التري، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٥٢٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، مج ٢، دار الكتب العلمية، بيروت .

(٦) ولبر، دونلد: إيران فى ماضيها وحاضرها، ترجمه إلى العربية عبد النعيم محمد حسنين،ط٢، دار الكتاب المصري،مصر، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٥م .

(٧) نصر الدين محمد بن الفرات: تاريخ ابن الفرات، مج٤، ج١، بغداد، ١٩٦٧م.

(٨) ناصر خسرو: سفرنامة، ترجمة يحيى الخشاب،ج١، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، ١٩٤٥م .

(٩) Edgar, Adrienne Lynn: Tribal Nation: The Making of Soviet Turkmenistan .

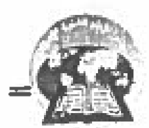
ترمذ

"ترمذ" مدينة مشهورة من أمهات المدن، تقع على الجانب الشرقى لنهر جيحون، وهى متصلة بالصغانيان [1] وتعد "ترمذ" من أهم المدن على نهر جيحون، وهى أُولى المدن من أعلى النهر، تقلع السفن إليها من كل جانب، وقد وصفها المقدسى بالنظافة والعمران. [2]

و"ترمذ" الآن مدينة معروفة تقع جنوب شرق جمهورية أوزبكستان على الحدود مع أفغانستان، وتقع المدينة القديمة على بعد اثنى عشر كيلو مترًا غرب المدينة الجديدة. وهى تبعد عن مدينة "سمرقند" بثلاثمائة كيلو مترًا إلى الجنوب الشرقى منها. وقد احتلتها روسيا القيصرية فى القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادى، ثم ضمها الاتحاد السوفيتى لإمبراطوريته بعد قيام الثورة الشيوعية، وظلت خاضعة له حتى تفككه سنة ١٤١١هـ / ١٩٩٠م. [3] وتتمتع "ترمذ" بموقع تجارى استراتيجي، فهى تمثل حلقة الوصل بين "طشقند" وعاصمة أوزبكستان، كما أنها تقع على مدخل وادى أموداريا (جيحون)، وتقود شمالاً إلى "دوشانب". [4]

وقد دخلها الإسلام فى القرن الأول الهجري/ السابع الميلادى عصر الدولة الأموية، فتحها القائد "موسى بن عبد الله" سنة ٧٠هـ / ٦٨٩م، وقد حكمها كإقطاع خاص حتى سنة ٨٥هـ / ٧٠٤م حيث خضعت للخلافة. وقد وصف الجغرافيون المسلمون المدينة؛ وأهم معالمها القلعة وبها قصر الحاكم، وقلعتها منيعة، وبداخلها مسجد، ومن المعالم الهامة بالمدينة المسجدُ الجامع والمحلات التجارية، وقد زُيِّنت الشوارعُ والميادين والأسواق وحوائط القلعة وأبراجها بالآجر، وكان للمدينة ثلاثة أبواب [5].

ومن أهم آثارها الباقية قصر الحكام المحليين الذين حكموها إبان القرنين الخامس والسادس الهجريين/ الحادى عشر والثانى عشر الميلاديين، ويقع فى الضاحية الشمالية للمدينة، ويتكون من عدة مبانٍ تحيط بفناء، ويقع الإيوان فى الجهة المقابلة ويزينه ثلاثة أعمدة جصية مزدانة بالنقوش. ويقع المسجد فى الضاحية الجنوبية، وتحمل تسعة أعمدة



من الطوب سقفه وقبته. كما تم العثور على منازل للصناع وللحرفيين بالمدينة.

ومن أهم منشآت المدينة الضريح الذى أقامه الحاكم القراخانى أحمد بالقرب من القلعة، وقد أقامه فوق قبر الصوفى الشهير المتوفى فى القرن الثالث الهجرى/ التاسع الميلادى "أبى عبد الله محمد المعروف "بالحكيم الترمذي". وهو ضريح مربع تعلوه قبة، وقد زينت جدرانه الداخلية بنقوش هندسية وورود جميلة. وعلى الرغم من تدميره إبان الغزو المغولى الذى عصف بالمدينة إلا أن الحاكم التيمورى "خليل" (٨٠٨هـ / ١٤٠٥م- ٨١٢هـ / ١٤٠٩م) أعاد بناءه وزوده بخانقاه للصوفية.

وفى الضاحية الجنوبية مسجد يرجع تاريخه إلى القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادي، وقد أقيم رواق معمد يحمل ثلاث قباب مزودة بمقرنصات فى الجهة الشمالية من المسجد، وقد زينت الواجهة بالآجر والزخارف الجصية. وخانقاه كوكليدور التى أُنشئت فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادي، وهى تتكون من إيوان كبير يقود إلى حجرة مقببة تتصل بحجرة أخرى برواق، والخانقاه مزينة بنقوش جصية جميلة. ومن أهم مبانى المدينة مقابر السادات الواقعة شرقها، وترجع للقرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادي، وتتكون من أربع مجموعات من المبانى يكونون شكل مستطيل، أهمها ضريح سلطان السادات.(٦)

وشهدت المدينة عصور ازدهار على مدار تاريخها الإسلامي، وكثرت فيها المساجد والمدارس الإسلامية، وقد أخرجت العديد من العلماء المسلمين فى شتى العلوم والفنون والآداب، ومن أشهر علمائها الإمام "أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة السلمى الترمذي"، ولد سنة ٢١٠هـ / ٨٢٥م فى "بُوغ" من أعمال "ترمذ"، ودرس فى "بخارى"، ثم سافر فى طلب العلم فى خراسان والعراق والحجاز، ويعد "البخاري" أحد شيوخه، وقد أخذ مكانه فى خراسان بعد وفاته، توفى سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م فى ترمذ. وأهم مؤلفاته كتابه "الجامع الصحيح" الذى عد من كتب الأصول المعتمدة (٧)، وقد امتاز فى المقام الأول بملاحظاته النقدية حول الأسانيد، وبذكره الآراء المتباينة للمدارس الفقهية المختلفة. ومن مؤلفاته أيضًا كتاب "الشمائل" الذى يتناول فيه

صفات الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وكتاب "تسمية أصحاب رسول الله" و "العلل"[٨] ومن علمائها أيضًا " أحمد بن الحسن بن جنيدب أبو الحسن الترمذى الحافظ"، وهو ممن روى عنهم "البخاري" فى صحيحه و"الترمذي" فى جامعه و"أبو بكر بن خزيمة" وغيرهم[٩].

د/وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش :

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج٢، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ص٢٦.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بريل، ليدن، ١٩٠٦م، ص٢٩٦.

(3) Jonathan M. Bloom, Sheila Blair: The Grove Encyclopedia of Islamic Art and Architecture, Oxford 2009, p.289

(4) Paul Bergne: The Birth of Tajikistan: National Identity and the
2007,P.88. .Origins of the Republic, New York

(٥) ياقوت الحموي: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٦. المقدسي: المصدر نفسه، ص٢٩٦.

(6) Jonathan M. Bloom, Sheila Blair : oP.cit.,p.289,290.

(٧) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١، ص٦٦، ٦٧.

(٨) سزكين، فؤاد : تاريخ التراث العربي، مج١، ج١: فى علوم القرآن والحديث، نقله إلى العربية محمود فهمى حجازي، المملكة العربيــة السعودية، ١٤١١هـ / ١٩٩١م، ص٢٩٩، ٣٠٤، ٣١٠.

(٩) ياقوت الحموى: المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٧ .

مصادر ومراجع للاستزادة

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٢، دار صادر، بيروت، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، بريل، ليدن، ١٩٠٦م.

(٣) Jonathan M. Bloom, Sheila Blair: The Grove Enc Gcalapedia of Islamic Art (and Architecture Oxford 2009.

(٤) Paul Bergne: The Birth of Tajikistan: National Identity and the Origins of the Republic, New (York 2007.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج١١.

(٧) سزكين، فؤاد : تاريخ التراث العربي، مج١، ج١: فى علوم القرآن والحديث، نقله إلى العربية محمود فهمى حجازي، المملكة العربيــة السعودية، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

التكـــرور

التكرور "بفتح التاء"[1] اسم أطلق على مدينة كبيرة، أوردَ وَصْفها كل من البكرى[2] والقلقشندى[3]، وتقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال. وقد وصف القزوينى هذه المدينة بأنها مدينة طيبة مشهورة[4]. وينقسم أهل التكرور إلى قسمين: قسم حضر يسكن المدن، والقسم الآخر رحالة يسكنون البوادى[5]. كما أطلق اسم التكرور على المملكة التى قامت فى الضفة اليسرى لنهر السنغال، وكانت مدينة التكرور مقر حكامها[6]. كما أطلق اسم التكرور أيضًا على الشعب السودانى الذى سكن حوض نهر السنغال وأقام تلك المملكة. أى أن هذا الاسم أطلق على المدينة والمملكة والشعب.

والجدير بالذكر أن مصطلح التكرور أصبح يطلق مع تعاقب العصور على كل سكان بلاد السودان الغربى، التى تشمل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسى غربًا إلى بحيرة تشاد شرقًا، والتى يطلق عليها الآن غرب أفريقيا. فالعمرى يسجل فى منتصف القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى إن أهل مصر أطلقوا على بلاد السودان الغربى سكان التكرور[7]. وفى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى ألَّف محمد بلو وهو من كُتَّاب غرب أفريقيا كتابًا أسماه "إنفاق الميسور فى ذكر بلاد التكرور"[8]. وكان يقصد ببلاد التكرور كل الغرب الأفريقى. ويخالف هذا التحديد الجغرافى لبلاد التكرور ما ورد عند كل من البكرى والإدريسى[9]. وقد أصاب هذان الجغرافيان حين ذكرا أن مدينة التكرور أو المملكة التى كانت عاصمتها هذه المدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال. وقد تنبه العمرى لهذا الأمر وفرق بين ما يقصده العوام وبين التحديد الجغرافى الصحيح للبكرى والإدريسى، فذكر أن عامة أهل مصر يطلقون بلاد التكرور على كل سكان مملكة مالى التى حكمت السودان الغربى، لكنه يقول أيضًا: إن التكرور إقليم من أقاليم بلاد السودان الغربى "غرب أفريقيا"[10]. أى أن التكرور جزء من تلك البلاد. هكذا أطلق مصطلح التكرور على طائفة من السودان ، وقد أطلق هذا الاسم على المدينة التى هى مقر

حاكمهم، وتقع على الضفة اليسرى لنهر السنغال وعلى المملكة التى قامت فى هذه المنطقة وعلى الشعب الذى سكن هذه المنطقة والنسبة لهذا الاسم تكروري.

أما عن إسلام شعب التكرور فمن الراجح أن سكان التكرور قد تعرفوا على الإسلام بل واعتنقه البعض منهم فى فترة مبكرة قد ترجع إلى القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى عقب الحملة التى قادها حفيد عقبة بن نافع القائد حبيب بن أبى عبيدة الفهرى عام ١١٦هـ/٧٣٤م والتى تجاوزت الصحراء إلى أن وصلت إلى بلاد السودان[١١]. ونعتقد وصولها إلى بلاد التكرور، كما نعتقد أيضًا تسرب الإسلام السلمى إلى تلك البلاد منذ بدايات القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى . يرجح هذا الاعتقاد الحدودُ الجنوبية للصحراء الغربية التى كانت أكثر وضوحًا؛ إذ تتميز بان الحواجز فيها طبيعية وبشرية فى آن واحد، فمن الناحية الجنوبية الغربية فإن نهر السنغال كان يمثل الحدود الفاصلة بين موطن قبيلة جدالة الصنهاجية التى سكنت الضفة اليمنى لهذا النهر وبين موطن سكان التكرور الذين سكنوا الضفة اليسرى لهذا النهر، فمن الراجح أن هذا التقارب كان عاملاً هامًا للتسرب السلمى للإسلام.

كما كان للتجارة والطرق التجارية أكبر الأثر فى انتشار الإسلام فى بلاد التكرور، فقد كانت القوافل تتجه من مدينة نول لمطة فى جنوب المغرب الأقصى على الساحل الأطلسى للمغرب. ثم تتجه جنوبًا لتصل إلى منطقة أوليل المشهورة بمناجم الملح والتى تقع قرب مصب نهر السنغال. وقد استفاد هذا الطريق من ازدهار مملكة التكرور التجارى لعدة قرون. بالإضافة إلى قيام مدن حوض نهر السنغال مثل تكرور وسلى بتوفير سلع مهمة بالنسبة للتجارة ومنها الذهب والرقيق[١٢]. كما تسرب الإسلام إلى التكرور من خلال الطريق التجارى الذى ربطها مع مدينة أودغست[١٣] وعبر هذا الطريق تم نقل ملح منجم أوليل إلى التكرور[١٤]. وقد تحدث الإدريسى عن أوليل التى كانت تقع على المحيط والتى كان يحمل الملح منها إلى مدينة سلى التى كانت تابعة لمملكة التكرور[١٥]. هكذا ارتبطت بلاد التكرور بعلاقات تجارية مع المغرب الأقصى؛ فعبر طرق القوافل كان يسافر أهل المغرب الأقصى إلى بلاد التكرور حاملين الصوف والنحاس

والخرز، ويخرجون منها بالتبر والرقيق[١٦].

لقد أثمرت جهود الدعاة والتجار المسلمين فى انتشار الإسلام بين بعض سكان التكرور. هكذا عرفت التكرور الإسلام قبل اعتناق ملوكها هذا الدين، وقد حدث هذا الأمر فى العديد من الوحدات السياسية فى بلاد السودان الغربى، فقد انتشر الإسلام فى غانا ومالى وصنغى بين السكان قبل اعتناق حكامها له .

ولم يأت الثلث الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى - أى قبل قيام الحركة المرابطية - إلا وأسلم ملك التكرور ورجابى بن رابيس الذى أقام الشريعة، وحمل من لم يعتنق الإسلام من شعبه على اعتناقه. هكذا أصبح الإسلام الدين الرسمى لمملكة التكرور فى عهد هذا الملك الذى توفى عام ٤٣٢هـ/١٠٤٠- ١٠٤١م ويذكر البكرى أن أهل التكرور فى عهده كانوا كلهم مسلمين[١٧].

مما لا ريب فيه أن الفقهاء والدعاة والتجار المسلمين كان لهم دور أساسى فى تهيئة ملك التكرور وشعبه لقبول الإسلام واعتناقه. وكان إسلامهم ذا طابع سلمى، يؤكد ذلك تحمل أهل التكرور جهود نشر الإسلام بين جيرانهم. فلم يقتصر دور ورجابى على نشر الإسلام بين قومه، بل قام بنشره بين مدن حوض نهر السنغال مثل مدينة سلى وغيرها من المدن[١٨]، وفى القرن السادى الهجرى/ الثانى عشر الميلادى أصبحت هذه المدينة وغيرها من مدن السنغال تابعة لملك التكرور[١٩].

ومما يؤكد على عمق الإسلام وشريعته فى التكرور تفكير عبد الله ابن ياسين فى الهجرة إلى التكرور والاستقرار بها لتكوين جماعة المرابطين بعد أن خرج من مواطن قبيلة جدالة. لكنه اتبع رأى يحيى بن إبراهيم بالمرابطة فى الجزيرة التى كون فيها جماعة المرابطين[٢٠].

لقد انفعل ملك التكرور وشعبه المسلم مع أحداث المغرب وخاصه مع الحركة المرابطية، فقد تحالف ملك التكرور" لى ابن ورجابى" مع يحيى بن عمر اللمتونى ضد قبيلة جدالة التى حالفت عبد الله بن ياسين عام ٤٤٨هـ/١٠٥٧م[٢١]. ويشير هذا التحالف إلى عمق الروابط التى جمعت بين تكرور ولمتونة، وإن كنا لا نستبعد بحكم هذه العلاقة أن تكون لمتونة وراء إسلام ملك التكرور كما لا يمكن

إنكار دور جدالة فى هذا الأمر؛ وذلك بالنظر إلى قربها من التكرور وتفاعلها اقتصاديًا وبشريًا.

ويقدم لنا نموذج انتشار الإسلام فى التكرور، ومنه إلى مدينة سلى والمناطق المجاورة لها، صورة حية للطابع السلمى لانتشار الإسلام. فبمجرد انتشار الإسلام فى منطقة معينة تصبح هذه المنطقة مسئولة عن نشره فى المنطقة المجاورة لها[٢٢].

إن مدينة التكرور التى حدثنا عنها البكرى وهو يسجل كتابه سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م كانت فى ذلك الوقت مملكة صغيرة وقد تطورت هذه المملكة كثيرًا، واتسعت فى القرن السادس الهجري/ الثانى عشر الميلادى؛ فمن خلال كتاب الإدريسى أصبحت مملكة إسلامية ذات أهمية من الناحية السياسية فى بلاد السودان؛ إذ امتد نفوذها جنوبًا فى اتجاه مناجم الذهب قرابة أربعمائة كيلو متر (١٢ مرحلة)، وعلى هذا الأساس أصبحت مدينة بريسى خاضعة لسلطانها، وكانت هذه المدينة الأخيرة فى عهد البكرى تابعة لمملكة غانة. أما مدينة سلى فقد أصبحت أيضًا فى القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى من أملاك ملك التكرور[٢٣].

أما عن علاقة مملكة التكرور مع مملكة غانة فى القرن السادس الهجرى فإننا نعتمد على المعطيات التى قدمها الإدريسى، ويتضح من خلالها الصراع والتنافس بين المملكتين على مناجم الذهب والمسالك المؤدية إليها[٢٤]. وقد امتد التنافس بينهما ليشمل الجانب الدينى، وهذا ما نلمسه من خلال انتساب ملك غانة لآل البيت، واتخاذ ملك التكرور لقب سلطان[٢٥].

هكذا عاصرت مملكة التكرور مملكة غانة وكانت المملكة الأولى لا تقل عن المملكة الثانية من الناحية السياسية. لكن يميز المملكة الأولى مملكة التكرور أنها كانت أسبق فى الإسلام من مملكة غانة: فحاكم التكرور أسلم فى الثلث الأول من القرن الخامس الهجري/الحادى عشر الميلادى، أما مملكة غانة فقد تركها البكرى الذى كان يدون كتابه فى الثلث الثانى من القرن الخامس الهجرى وحاكمها كان وثنيًا[٢٦].

وقد شهدت مملكة التكرور تطورًا كبيرًا واتساعًا بعد عصر الإدريسى؛ ففى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر

الميلادى يقدم لنا ابن سعيد صورة رائعة عن حال الإسلام والمسلمين فى مملكة التكرور؛ إذ يشير أنه لا توجد مدينة على شاطئ نهر السنغال من بلاد التكرور إلا وقد دخلها الإسلام، وجميع هذه المدن خاضعة لسلطان التكرور(٢٧).

خضعت مملكة التكرور لسلطان إمبراطورية مالى الإسلامية (٦٢٨-٨٢٠/١٢٣٠- ١٤٣٠م) ومصدرنا فى هذا العمرى الذى أشار إلى أن مملكة مالى كانت تضم أربعة عشر إقليمًا، من بين هذه الأقاليم إقليم التكرور، كما انتقلت تبعية التكرور أيضًا بعد انهيار إمبراطورية مالى إلى مملكة صنغى وريثة مالى فى السودان الغربى؛ إذ كانت التكرور قد أصبحت جزءًا من أملاك مالى ثم صنغى، فإن المصادر المتاحة نصت عن تحديد وضعها فى عهد هاتين المملكتين.

أ.د/حسين سيد مراد

الهوامش :

(١) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية ، دار الكتب المصرية ج٥، ص٢٨٦.

(٢) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٧٢.

(٣) صبح الأعشى، ج٥، ص٢٨٦.

(٤) آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت، بيروت، ١٩٦٩، ص٥٠.

(٥) ابن سعيد: كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربى، منشورات المكتب التجارى للنشر ببيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٠، ص٩١.

(٦) البكرى: مصدر سابق، ص١٧٢، ١٧٣، ابن الوردى: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، طبع ليدن، بدون تاريخ، ص٥٧.

(٧) العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، مركز زايد للتراث، الإمارات ٢٠٠١، ج٤، ص٥٩.

(٨) محمد بلو: إنفاق الميسور فى ذكر بلاد التكرور، تحقيق بهيجة الشاذلى، منشورات معهد البحوث والدراسات الإفريقية، الرباط، ١٩٩٦.

(٩) نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، بدون تاريخ، ج١، ص١٨.

(١٠) العمرى: مصدر سابق، ج٤، ص٥٩.

(١١) ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وبروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٤، ج١، ص٥١.

(١٢) Elalawi, Adel Aziz: Le Meghrib et le commerce trans – saharien (milieu du xle – milieu du xive s) Universite de Bordau III "Institut d' etudes arbes et islamiques, 1983, P.50.

(١٣) عن أودغست انظر دراسة حسين مراد: دولة أوُدغست الإسلامية، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، العدد٤٦، القاهرة، ٢٠٠٨.

(١٤) ابن سعيد: مصدر سابق، ص٩١.

(١٥) نزهة المشتاق، ص١٨.

(١٦) المصدر السابق، ص ١٨، ١٩.

(١٧) البكري: مصدر سابق، ص١٧٢.

(١٨) المصدر السابق، ص١٧٢.

(١٩) الإدريسى: مصدر سابق، ص١٨.

(٢٠) ابن ابى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط ص١٥٧.

(٢١) البكرى: مصدر سابق، ص ١٦٧، ١٦٨.

(٢٢) أحمد الشكرى: الإسلام والمجتمع السودانى إمبراطورية مالى، المجمع الثقافى، دبى، ١٩٩٩م، ص٩٦.

(٢٣) الإدريسى: مصدر سابق، ج١، ص١٨.

(٢٤) المصدر السابق، ج١، ص١٩.

(٢٥) ابن سعيد: مصدر سابق، ص٩١، أحمد الشكرى: مرجع سابق، ص٩٧.

(٢٦) البكرى: مصدر سابق، ص ١٧٢ ، ١٧٥.

(٢٧). مسالك الأبصار، ص٥٩.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، دار الكتب المصرية.

٢. نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة .

٣. العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، تحقيق محمد عبد القادر خريسات وآخرين، مركز زايد للتراث، الإمارات.

٤. عن أودغست انظر دراسة حسين مراد: دولة أودغست الإسلامية، المجلة المصرية للدراسات التاريخية.

٥. ابن عذارى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق كولان وبروفنسال، دار الثقافة،بيروت ١٩٨٤م.

الثغور والعواصم

الثغور جمع ثَغْر، ومعناه فى اللغة: كلُّ فُرْجة فى جبل أو بطن وادٍ أو طريق مسلوك[1]. ومعناه فى الاصطلاح: الموضع الذى يكون حدًا فاصلا بين بلاد المسلمين وغيرهم، "وهو موضع المخافة من أطراف البلاد"[2] ويقول ياقوت: "كل موضع قريب من أرض العدو يسمى ثغرًا، كأنه مأخوذ من الثغرة، وهى الفُرجة فى الحائط"[3].

وأشهر ما يطلق عليه مصطلح "الثغور" فى التاريخ الإسلامى هو تلك الحدود الفاصلة بين الدولة الإسلامية ودولة الروم "البيزنطيين". ويقسم الجغرافيون والمؤرخون المسلمون منطقة الحدود هذه إلى قسمين هما: ثغور الشام وثغور الجزيرة. فثغور الشام (أو الثغور الشامية) هى الحدود الفاصلة بين بلاد الشام وبلاد الروم. وثغور الجزيرة (أو الثغور الجزرية) هى الحدود الفاصلة بين بلاد الجزيرة وبلاد الروم. والمقصود ببلاد الجزيرة أو (Mesopotamia) ذلك الإقليم الواقع فى شمال العراق بين دجلة والفرات، ولهذا عُرف بـ "الجزيرة"[4]، ويسميه المقدسى "إقليم أقور"[5]؛ ويشمل ديار ربيعة وديار مضر وديار بكر. وبعض هذا الإقليم يقع الآن فى العراق، وبعضه الآخر يقع فى تركيا.

وأشهر مدن الثغور الشامية طرسوس وأذنة والمصيصة والهارونية وعين زَرْبة والكنيسة السوداء. أما أشهر مدن الثغور الجَزَرية فهى مَلَطْية وكمخ وشمشاط وزبطرة والحدث وحصن منصور ومَرْعش.

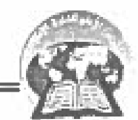
وقد اهتم المسلمون منذ الصدر المبكر بتحصين هذه المدن وشحنها بالعدد والعتاد نظرًا لما كانت تتعرض له من هجمات الروم المتكررة، وقد كانت هذه المدن مسرحًا لما عرف فى تاريخ الصراع بين المسلمين والروم باسم "الصوائف والشواتى"؛ جمع "صائفة" و "شاتية" وهى الغارات التى كان يشنها المسلمون ضد بلاد الروم صيفًا، وهو الغالب؛ وشتاء، وهو الأقل حدوثًا، وذلك بهدف ردع العدو وصد غاراته المحتملة والاحتفاظ بالكفاءة القتالية للمحاربين المسلمين، وكانت ذات طبيعة محدودة ولم تكن تمثل حروبًا على نطاق واسع. والملاحظ أن مدن الثغور كانت كثيرة التعرض لهجمات الروم الخاطفة، وخاصة

فى العصر العباسى، كما كانت تحصيناتها تتعرض للهدم على أيدى الروم، وكان أهلها يتعرضون للأسر أو السبى. ومن هنا اهتم الخلفاء بإعداد قادة تكون مهمتهم حمل عبء الجهاد فى منطقة الثغور، وكانوا يعرفون بولاة الشواتى والصوائف[٦].

ولما كان الصراع بين الدولة الإسلامية ودولة الروم يكاد يجرى دون توقف فإن المدن الواقعة فى إقليم الثغور كانت تبعيتها تنتقل بين الحين والآخر إلى هذه القوة أو تلك، طبقًا لتذبذب ميزان القوى بين الجانبين. وقد اتسم العصر الأموى والعصر العباسى الأول بصفة عامة برجحان كفة الجانب الإسلامى، وقد انعكس هذا بدوره على منطقة الثغور التى امتدت على حساب دولة الروم. فلما انكمشت القوة العسكرية الإسلامية بعد نهاية العصر العباسى الأول وبدأت قوة الروم فى التصاعد أخذ العديد من مدن الثغور الإسلامية يدخل تحت سيطرة الروم، واستمر الوضع كذلك حتى ظهرت قوة الأتراك السلاجقة ثم العثمانيين لتحوّل ميزان القوى تمامًا إلى صالح الجبهة الإسلامية.

وقد أصبحت منطقة الثغور رباطًا للكثير من المسلمين الذين نذروا أنفسهم للجهاد ضد الروم. ولهذا أصبح لقب "الثغرْى" أحد الألقاب الشائعة التى كانت تطلق على من يرابط فى هذه المنطقة بهدف الجهاد[٧].

وتشير مصادرنا إلى أن الخليفة العباسى هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦- ٨٠٩م) وجه عناية خاصة إلى منطقة الثغور، وخصَّ مدينة طرسوس بمزيد من العناية[٨] ؛ ذلك أن هذه المدينة الشامية كانت تسيطر على المدخل الجنوبى للممر الجبلى المعروف باسم: "بوابات قيليقية : Cilician Gates "، وهى المعروفة عند الجغرافيين والمؤرخين العرب باسم " ممر طرسوس"؛ وهو الممر الذى يربط بين شمال الشام وآسيا الصغرى. ولهذا فإن موقع طرسوس كان يمثل نقطة دفاع وهجوم على جانب كبير من الأهمية فى صراع المسلمين ضد الروم. وقد أدرك الخليفة محمد المهدى (١٥٨- ١٦٩هـ/ ٧٧٥- ٧٨٥م) أهمية هذا المكان وفكر فى إعادة بنائه وتحصينه، ولكنه توفى قبل أن يتمكن من تنفيذ هذا المشروع. أما ابنه الهادى (١٦٩- ١٧٠هـ/ ٧٨٥- ٧٨٦م) فقد حالت الفترة القصيرة التى قضاها فى



الحكم، مع ما واجهه خلالها من مشكلات، دون تنفيذ ذلك. وعندما تولى هارون الرشيد جعل هذا المشرع فى صدر اهتماماته، فعهد بالقيام به إلى قائده القدير هرثمة بن أعين، فأحكم بناء طرسوس وتحصينها. وقد تحولت هذه المدينة بعد بنائها إلى قلعة من أهم القلاع الإسلامية فى إقليم الثغور الشامية، وكان لها تاريخ حافل فى نضال المسلمين ضد الروم، استمر عدة قرون.

وقد ارتبط بإعادة الرشيد لبناء طرسوس وتحصينها قيامُه بمشروع آخر لا يقل عن ذلك أهمية؛ وهو:

إنشاء منطقة العواصم: فإذا كان الهدف من بناء وتحصين طرسوس هو تأمين الثغور الشامية ضد هجمات الروم فإن الرشيد أراد أن يجعل هذا الهدف الدفاعى أكثر فاعلية فأنشأ ما عرف باسم " العواصم". فالثغور - كما أشرنا - هى مناطق الحدود التى تفصل بين الأرض الإسلامية وأرض العدو؛ فهى خط المواجهة أو خط النار بالتعبير الحديث. أما " العواصم " فهى المنطقة التى تقع خلف منطقة الثغور لتكون حماية وعاصمًا لها ونقطة إمداد تزودها بحاجاتها القتالية، ومركزًا يتجمع فيه المقاتلون بعد عودتهم من " الثغور ". وغنىّ عن البيان أن هذه المنطقة الجغرافية كانت موجودة قبل الرشيد، فهو - إذن - لم يخرجها إلى حيز الوجود، بل نظمها تحت إدارة واحدة ووجَّه مواردها وإمكاناتها لخدمة منطقة الثغور، أو -بعبارة أخرى- جعلها منطقة هدفها الأساسى حماية منطقة الثغور وتقديم الدعم لها على كل مستوياته. وقد كانت هذه المنطقة تضم المدن والحصون الواقعة بين نهر الفرات وأنطاكية؛ وأهمها - طبقًا لرواية البلاذرى وياقوت- مَنْبج ودُلُوك ورَعْبَان وقُورُس وأنطاكية وتيزين[٩]. وقد اختار الرشيد مدينة مَنْبج لتكون قاعدة هذه المنطقة التى "سماها العواصم لأن المسلمين يعتصمون بها فتعصمهم وتمنعهم إذا انصرفوا من غزوهم وخرجوا من الثغر"، كما يقول البلاذرى[١٠]. وقد أسند الرشيد إدارة إقليم العواصم لواحد من أكفأ القادة العباسيين وأرفعهم مكانة وهو عبد الملك بن صالح بن على ابن عبد الله بن عباس الذى كان مولده فى مدينة مَنْبج وكان صاحب خبرة طويلة فى ميدان الجهاد ضد الروم وتصفه بعض المصادر بأنه " كان أجلَّ قريش ولسان بنى العباس"[١١].

ولعل من المفيد هنا أن نشير إلى أن الرشيد أنشأ منطقة " العواصم " فى سنة ١٧٣هـ (٧٨٩م)[١٢]؛ أى فى السنوات الأولى من خلافته، وذلك بعد انتهائه من بناء وتحصين مدينة طرسوس. وفى هذا دلالة واضحة على أنه جعل تأمين منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية فى صدر أولوياته. والحق أن الرشيد لم يقتصر جهده فى هذا المجال على تحصين طرسوس وإنشاء " العواصم " بل إنه وجه اهتمامًا خاصًا إلى كل ما كان يحتاج إلى إعادة بناء وتحصين من مدن الثغور. وقد جاءت الحدث Adata على رأس هذه المدن[١٣]؛ وهى تُعَدُّ من أهم مدن الثغور الجزرية. والجدير بالذكر أن الرشيد نقل مقر إقامته من بغداد إلى الرقة فى شمال الجزيرة فى سنة ١٨٠هـ (٧٩٦م)[١٤] ولعل الدافع الأكبر وراء ذلك كان رغبته فى أن يشرف إشرافًا مباشرًا على منطقة الحدود الإسلامية البيزنطية من مركز يتيح له ذلك. ولا شك أن موقع الرقة كان يتيح له ذلك أكثر مما تتيحه له بغداد العاصمة.

وقد لا نجاوز الحقيقة إذا قلنا إن إنشاء " العواصم " كان مَعْلَمًا بارزا فى تاريخ الصراع الإسلامى ضد الروم؛ فقد قامت هذه المنطقة بدور أساسى فى حشد القوات المحلية وإعدادها الإعداد الملائم لمواجهة العدو الأكبر للدولة الإسلامية، وهو المتمثل فى دولة الروم. وعندما بدأت الخلافة العباسية تفقد عنفوانها العسكرى بعد انتهاء عصرها الأول ولم تعد قادرة على التصدى لذلك العدو حملت الراية دويلات شبه مستقلة، ووجدت فى تلك القوات المحلية خير سند فى كفاحها البطولى. وأبرز مثال على ذلك دولة الحمدانيين، وخاصة فى عصر سيف الدولة.

أ . د /عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار المعارف، مادة" ثغر"، جـ١، ص ٤٨٦.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) ياقوت الحموى: معجم البلدان. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠، جـ١، ص٩٣.
(٤) نفس المصدر، جـ٢، ص ١٥٦.
(٥) المقدسى (شمس الدين أبو عبد الله محمد): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. ليدن ١٩٠٦، ص١٣٦.
(٦) ياقوت، مصدر سابق، جـ٢، ص٩٣.
(٧) ابن الأثير (عز الدين على بن محمد) : اللباب فى تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت ١٩٨٠، جـ١، ص٢٤٠.
(٨) البلاذرى، (أحمد بن يحيى بن جابر): فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١، ص ١٦٧ و ص١٧٤.
(٩) البلاذرى، مصدر سابق، ص١٣٨؛ ياقوت، مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٦.
(١٠) البلاذرى، نفس المصدر والصفحة.
(١١) ياقوت، مصدر سابق، جـ٥، ص٢٢٨. وانظر أيضًا: ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٣.
(١٢) البلاذرى، مصدر سابق، ص ١٣٨.
(١٣) ياقوت، مصدر سابق، جـ٢، ص ٢٦٣.
(١٤) الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك. دار المعارف: القاهرة ١٩٧٧، جـ ٨، ص ١٨٠.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. البلاذرى: فتوح البلدان، مراجعة وتعليق رضوان محمد رضوان. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١م.
٢. المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن ١٩٠٦م .
٣. ياقوت الحموى: معجم البلدان. تحقيق فريد عبد العزيز الجندى. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠م.
٤. د. فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية . دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ـ القاهرة (دون تاريخ).

ثقيـــف

تعد قبيلة ثقيف من القبائل العربية الكبيرة في الحياة العربية خاصة في العصر الأموي، ويكفي أن نذكر في هذا الصدد أسماء كالمختار الثقفي والحجاج بن يوسف ومن قبلهما المغيرة بن شعبة أحد مشاهير الصحابة رضوان الله عليهم ، لنعرف مكانة هذا القبيلة ودورها الذي لعبته سواء في صدر الإسلام، أو في العهد الأموي .

ونعرض في ما يلي لبعض خصائص وسمات هذه القبيلة.

١ - نسب ثقيف :

اختلف المؤرخون في تحديد أصل هذا الجد الأعلى (ثقيف) اختلافًا كبيرًا ، فمنهم من ينسبه إلى مضر، ومنهم من ينسبه إلى قحطان، ومنهم من يرجعه إلى العماليق وآخرون يرونه من القوم الذين نجوا من ثمود، قوم صالح عليه السلام، وكثير من هذه المرويات التاريخية وضعت لكي تنال من الحجاج بن يوسف الذي عرف بقسوته وشدته، وجعلوا من جده الأعلى (ثقيف) رجلاً مقامرًا من الصعاليك الذين جابوا الآفاق حتى استقر به الأمر أخيرًا في الطائف، ومازال يعمل الحيلة حتى قوى وساد ونما فرعه وكثر، وأخرج من كان بالطائف من قبائل ليتمكن هو وبنوه من السيطرة على المدينة. كما يقسم المؤرخون ثقيف هذه إلى قسمين: قسم يعرف بالأحلاف، وآخر يعرف ببني مالك[١]. ومن أشهر أعلام ثقيف في الجاهلية. وقد أدرك الإسلام- الشاعر أمية ابن أبي الصلت، وقد قيل في شأنه: " لولا النبي ﷺ لادعت ثقيف أن أمية نبي"[٢]، وكان من الحنفاء المتألهين، وقد أكثر في شعره من التوحيد والبعثة[٣] ، وكان يطمع أن يبعث نبيًا ، فلما بعث النبي ﷺ حسده ورثى قتلى بدر من المشركين .

كما كان منهم كذلك الأخنس بن شريق، وقد اختلف المفسرون في تحديد الرجل الذي عناه المشركون بقولهم في ما حكاه القرآن الكريم عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف :٣١) .

فقيل إنه الأخنس بن شريق وقيل إنه عروة بن مسعود الذي اسلم إثر انصراف



الرسول ﷺ من حصار الطائف.

أيضًا من صناديد ثقيف أبو محجن الثقفى الذى أبلى بلاء حسنا يوم القادسية، وغيرهم كثير.

٢ - عبادة ثقيف الأصنام :

كانت ثقيف، شأنها شأن مشركى مكة، يعبدون الأصنام، وقد اشتهر لديهم صنم (اللات)، وكانوا يعظمونه ويتبركون به. ويذكر أن اللات كانت صخرة مربعة يلتّ يهودى عندها السَّويق. وكان سدنته بنى عتاب بن مالك، وهم من ثقيف. وقد بنوا له بناء ضخمًا. وكانت العرب، ومنها قريش، تعظمه، وتحج إليه وتطوف به. وقد هُدم فى الإسلام، عند فتح الطائف ودخول أهلها فيه. وقد هَدم الصنمَ : المغيرةُ بن شعبة، وأحرقه بالنار. ويقع موضعه تحت منارة المسجد الذى بنى على أنقاض ذلك المعبد، وهو مسجد المدينة . فمسجد الطائف إذن هو معبد اللات القديم، وهو فى الطائف نفسها [٤].

٣ - موطن ثقيف :

تعد مدينة الطائف موطن قبيلة ثقيف؛ فقيل: (طائف ثقيف) وكان يسمى فى القديم (وجّ) ويقال له أيضًا بلاد ثقيف[٥] فى سلسلة جبال الحجاز التى تشكل مع منطقة عسير الجبلية حافة سلسلة الجبال الغربية لشبه الجزيرة العربية والتى تهبط منحدرة إلى الأرض المنخفضة عند البحر الأحمر. وتعلو مدينة الطائف ١٦٨٠ مترًا[٦] عن سطح البحر مما يجعلها تتمتع بطقس جبلى بارد نسبيًا. الأمر الذى جعل من الطائف مصيفًا ومنتجعًا لمدن الحجاز الأقل ارتفاعًا.

كما يوجد لموقع الطائف فى سلسلة جبال الحجاز مزايا أخرى. فالسلسلة هنا ضيقة نسبيًا ومتفرعة مما يتيح نشوء انتقال ملائم من هضبة وسط الجزيرة العربية إلى ساحل البحر الأحمر وإلى مراكز المدن فى الحجاز. والموقع المتميز على نقطة الوصل هذه بين الشرق والغرب كان له أثره الهام، ويبعد عن مكة بتسع وتسعين (٩٩) كم ويتصل بها من خلال طريقين، أحدهما يأخذ من مكة على عرفة، فوادى نعمان، فجبل كسرا؛ والثانى يأخذ طريق حنين، فنخلة اليمنية، فالسيل الكبير، فالسيل الصغير، وهو الطريق الذى سلكه النبى ﷺ فى حصار الطائف[٧] .

ومن أشهر وديانه وجّ، والعقيق، ووادى المحرم، ووادى ليه، ويسكن هذه الأودية

فى الغالب قبيلتان هما عتيبة فى شماله وشرقه وجنوبه، و ثقيف فى جنوبه وغربه [٨].

أما عن ثروته الزراعية فتظهر فى قول ياقوت: " والطائف ذات مزارع ونخل وأعناب ... وسائر الفواكه، ومياه جارية وأودية ... وهى طيبة الهواء شمالية ربما جمد فيها الماء شتاء، وفواكه أهل مكة منها "[٩].

يضاف إلى ذلك أن الطائف لا تشكل فقط بوابة الحجاز إلى داخل البلاد بل أيضًا البوابة إلى الجهة الجنوبية الشرقية، أى إلى منطقة عسير الجبلية .

٤ - حياة ثقيف :

تميزت ثقيف بحياة أقرب إلى الحضارة والاستقرار، فقد مالوا إلى الزراعة من حيث اشتغالهم بها وعنايتهم بغرس الأشجار. وقد عرفت الطائف بكثرة زبيبها وعنبها واشتهرت بأثمارها. وقد كان أهلها يُعنون بزراعة الأشجار المثمرة، ويسعون لتحسين أنواعها وجلب أنواع جديدة لها، فقد استوردوا أشجارًا من بلاد الشام ومن أماكن أخرى وغرسوها، حتى صارت الطائف تموّن مكة وغيرها بالأثمار والخضر[١٠] .

وقد استفادوا من الماء فائدة كبيرة، وأحاطوا المدينة ببساتين مثمرة، كما تفوقوا فى البناء؛ فبيوتهم جيدة منظمة، وكان لهم حذق ومهارة فى الأمور العسكرية. وقد تجلى ذلك فى دفاعهم عن مدينتهم يوم حاصرها الرسول ﷺ وتحصنهم بسورها.

كما تميزوا عن غيرهم من أهل الحجاز فى ميلهم إلى الحرف اليدوية مثل الدباغة والنجارة والحدادة، وهى حرف مستهجنة فى نظر العربى، ويأنف من الاشتغال بها. ولكن أهل الطائف احترفوها، وربحوا منها، وشغّلوا رقيقهم بها. وقد استفادوا من خبرة الرقيق، فتعلموا منهم ما لم يكن معروفًا عندهم من أساليب الزراعة وأعمال الحرف، فجددوا وأضافوا إلى خبرتهم خبرة جديدة [١١] .

٥ - ثقيف وموقفها من البعثة النبوية:

اتجه النبى ﷺ إلى ثقيف مرتين :

الأولى فى عام الحزن عندما توفى عمه أبو طالب ونالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه فى حياته، خرج الرسول ﷺ إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف، ورجاء أن يقبلوا منه الإسلام، فقد روى ابن اسحاق أن الرسول ﷺ عندما ذهب إلى الطائف التقى



بسادة ثقيف يومذاك، أبناء عمرو بن عمير الثلاثة : عبد ياليل ومسعود وحبيب، وعرض عليهم الإسلام، فلم يقبلوه منه، وسخروا منه، وعندما يئس من خير في ثقيف طلب منهم أن يكتموا عنه ما دار بينهم حتى لا يثيروا عليه الناس. ولكنهم لم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، فأخذوا في سبه والصياح به، حتى اجتمع عليه الناس، وألجأوه إلى حائط لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، ورجع عنه من كان يتبعه من سفهاء ثقيف، وجلس في ظل شجرة عنب، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء الطائف.

فلما اطمأن في جلوسه، قال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك ».

وعندما رآه ابنا ربيعة على هذه الحال، تحركت فيهما عاطفة الرحم، فأمرا غلامًا نصرانيًا يدعى عداسًا أن يقدم له عنبًا. وتعجب عداس من قول الرسول ﷺ: « بسم الله » قبل أن يأكل. وزال عجبه عندما أعلمه الرسول ﷺ بأنه نبي، فأخذ يقبل رأس النبي ﷺ ويديه وقدميه. وحاول ابنا ربيعة أن يصداه عن النبي ﷺ قائلين له: " لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه ".

وفي رواية موسى بن عقبة أن سفهاء الطائف قعدوا للرسول ﷺ صفين على طريقه، فلما مر بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة، وكانوا أعدوها، حتى أدموا رجليه. وكان ذلك من أشد ما لقي الرسول ﷺ في جهاده [١٢].

أما المرة الثانية فكانت في العام الثامن من الهجرة بعد فتح مكة، حيث تحالفت ثقيف مع هوازن على محاربة النبي ﷺ في يوم حنين. حيث أمطروا جيش المسلمين بوابل من النبل فتفرق الناس، غير أن النبي ﷺ استعاد النصر عليهم على نحو ما اخبر به القرآن الكريم [١٣]. وتعقب المسلمون فلول الهاربين من هوازن في (أوطاس) و(نخلة)

ثم توجهوا للقضاء على ثقيف التى فرت من حنين وتحصنت بحصونها المنيعة فى الطائف وأغلقت أبوابها بعد أن جمعت ما يكفيها من المؤن الغذائية للصمود لمدة عام، واتخذت وسائل دفاعية تمكنها من الصمود مدة طويلة، ورممت حصونها وأوفدت عروة بن مسعود وغيْلان بن سلمة إلى (جُرَش) ليتعلما صنعة الدبابات[١٤] والمجانيق[١٥]، ولذا لم يحضرا حنينا مع قومهما.

ووصل المسلمون إلى حصون الطائف فى شوال من العام الثامن للهجرة/٦٣٠م، ونزلوا قريبًا من حصونهم ثم تحولوا إلى منطقة أكثر بعدا من مدى سهام ثقيف التى تسببت فى استشهاد اثنى عشر مسلما وجرح عدد منهم، و بنوا فيها مسجدًا، يعرف اليوم بمسجد عبد الله بن عباس، وكانت الطائف آنذاك جنوبى غربى المسجد.

ولما كان القتال تراشقًا بالسهام على بعد، استخدم المسلمون (الدبابة) ليحتموا بها من السهام، حتى يصلوا إلى الحصن فينقبوه، وعندما رأتهم ثقيف، ألقت عليهم قطعا من حديد محماة فأحرقت (الدبابة)، فخرج أصحابها من تحتها فأصابوهم بالسهام، فقتلوا منهم رجالاً[١٦].

واستخدم المسلمون المجانيق فى رمى أهل الطائف، وهم أول من رمى فى الإسلام المجانيق. وقد تباينت الروايات فى من جلب المجانيق أو صنعها، فهناك من يذكر أنه خالد بن سعيد، ومن يذكر أنه سلمان الفارسي، ومن يذكر أنه الطفيل بن عمرو[١٧].

وفى محاولة لإضعاف معنويات ثقيف، شرع المسلمون فى حرق بساتين نخيلهم وعنبهم، فناشدوهم أن يدعوها لله وللرحم، فاستجاب لهم الرسول ﷺ، بعد أن حققت المحاولة أهدافها[١٨].

ونادى منادى رسول الله ﷺ: " أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر"، فنزل إليهم ثلاثة وعشرون، منهم أبو بكرة – نُفيع بن مَسْرُوح- الثقفى، فأسلموا، فأعتقهم النبى ﷺ ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم[١٩].

وعندما استعصى الحصن على المسلمين، دعا رسول الله ﷺ إلى فك الحصار، فثقل ذلك على المسلمين واستنكروه، وعندما كثرت فيهم الجراحات، ودعاهم الرسول ﷺ إلى فك الحصار مرة أخرى، أعجبهم ذلك، فتبسم الرسول ﷺ، فارتحلوا، والرسول ﷺ

يطمع فى هدايتهم ويرفض طلب بعض المسلمين فى الدعاء عليهم ويدعو لهم قائلا: «اللهم اهد ثقيفا»، ويروى أن الله لم يأذن له فى أهل الطائف[٢٠].

٦ - إسلام ثقيف :

يعد عروة بن مسعود من أوائل من أسلم من ثقيف فى هذه الغزوة، حيث تبع الرسول ﷺ إثر انصرافه من الطائف حتى أدركه قبل أن يصل إلى المدينة فأسلم ثم سأل النبى ﷺ أن يأذن له فى دعوة قومه إلى الإسلام؛ لأنه كان سيدًا مطاعًا فيهم، غير أنهم لم يستجيبوا له، وصعد على سطح بيته ونادى بالأذان أو التوحيد، فرموه بالنبل حتى قتل، ويذكر المفسرون أنه المقصود بقول قريش على ما حكاه عنهم القرآن الكريم : ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف :٣١). كما ذكر المؤرخون انه" أحد أربعة اتصل سؤددهم فى الجاهلية والإسلام"[٢١] وعندما كسر المغيرة صنم اللات وجاء إلى النبى ﷺ بما كان فيه من حلى وأموال، أمرﷺ بأن يقضى منه دين عروة بن مسعود، كما شبهه النبى ﷺ بصاحب (يس)[٢٢].

وهكذا كان عروة بن مسعود أول شهيد من ثقيف فى الإسلام[٢٣].

ثم أقامت ثقيف بعد مقتل عروة أشهرا، ثم إنهم ائتمروا بينهم ألا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فأرسلوا وفدًا إلى المدينة لمفاوضة الرسول على الدخول فى الإسلام. فلما دخلوا عليه أبوا أن يحيّوه إلا بتحية الجاهلية، ثم سألوه أن يدع لهم (الطاغية)، وهى اللات لا يهدمها إلى أجل . فأبى رسول الله ﷺ إلا أن يبعث أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فى هدمها . وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يعفيهم من الصلاة، وأن يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فقال رسول الله : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه. وأما الصلاة ، فلا خير فى دين لا صلاة فيه . فقالوا : يا محمد، أما هذه فسنؤتيكها وإن كانت دناءة)[٢٤].

فلما وصل الوفد ومعه أبو سفيان والمغيرة بن شعبة، إلى الطائف، وأرادا هدم الصنم ، " أراد المغيرة أن يقدم أبا سفيان ، فأبى ذلك أبو سفيان عليه، وقال: ادخل أنت على قومك، فلما دخل المغيرة ابن شعبة، علاها بضربها بالمعول، وقام قوم دونه – بنو مُعتب – خشية أن يرمى

أو يصاب ... وخرجت نساء ثقيف حسرا يبكين" ، " ويقول أبو سفيان والمغيرة يضربها بالفأس: واهًا لك. فلما هدمها المغيرة، وأخذ مالها وحليها أرسل إلى أبى سفيان وحليها مجموع، ومالها من الذهب والجزع، وكان رسول الله ﷺ أمر أبا سفيان أن يقضى من مال اللات دين عروة والأسود ابنى مسعود ، فقضى منه دينهما " [٢٥]. فظهر الحق وزهق الباطل، ودخلت ثقيف فى الإسلام؛ بل وأسهمت فى نشره.

٧ـ دور ثقيف فى الفتوحات الإسلامية:

لعبت ثقيف دورا هاما فى تثبيت إسلام أهل الطائف، إذ كانت الطائف إحدى المدن الثلاث التي حافظت على إسلامها كالمدينة ومكة ، ثم قامت بعد ذلك بالمشاركة الفعالة فى الفتوحات الإسلامية والقضاء على دولة الفرس، وتحجيم دولة الروم وتحرير الأراضي العربية من السيطرة والاحتلال البيزنطي، فكان من أبرز الثقفيين الذين شاركوا فى هذه الفتوحات المغيرة ابن شعبة.

أ - المغيرة بن شعبة :

أسلم المغيرة بن شعبة فى السنة الخامسة للهجرة بعد معركة الخندق ، وعندما بعثت قريش عروة بن مسعود عم المغيرة بن شعبة ليفاوض النبى ﷺ وجد من إخلاص المسلمين للنبي ما أدهشه ، ولما عاد لقريش قال لهم : " يا معشر قريش ، إنى جئت كسرى فى ملكه ، وقيصر فى ملكه ، والنجاشى فى ملكه ، وإني والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، وإنهم لن يسلموه لشىء أبدا [٢٦].

وقد شارك المغيرة بعد صلح الحديبية فى جميع الغزوات التى قادها النبي محمد ﷺ؛ فكان معه فى غزوة حنين، وفى حصار الطائف مدينة المغيرة، وقد دلل المغيرة بن شعبة فى قتاله لقومه (ثقيف) على عمق إيمانه وإخلاصه.

جهاده :

عندما توفى النبى محمد ﷺ ارتدت بعض القبائل العربية فى جنوب الجزيرة العربية ، فأرسل أبو بكر الصديق جيشًا بقيادة خالد بن الوليد لإعادتهم إلى حظيرة الإسلام ، وقد أرسل أبو بكر مع خالد المغيرة بن شعبة فقاتل تحت لواء خالد فى موقعة اليمامة ، ضد مسيلمة الكذاب ، ومن هناك توجه مع خالد إلى

العراق وقاتل معه فى جميع المعارك التى خاضها خالد فى العراق ، ولما سافر خالد إلى بلاد الشام كان المغيرة معه فاشترك فى معركة (اليرموك) ، كما اشترك فى بعض فتوح بلاد الشام.

ثم رجع المغيرة إلى المدينة ، وبقي فيها زمنًا ، ثم أرسله الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ إلى العراق على رأس أربعمائة رجل مددا من المدينة بعدما طلب سعد بن أبى وقاص مددا من الخليفة عمر قبل معركة القادسية ، فلما وصل العراق بعثه سعد إلى منطقة الأبلة ، ومعه خمسمائة فارس لحماية جيش المسلمين من هجوم قد يأتي من هذه المنطقة ، وقبيل معركة القادسية سحب سعد المغيرة وقوته وأضافها إلى جيش المسلمين وقاتل المغيرة فى معركة القادسية وقد استفاد سعد من عقلية المغيرة الراجحة وتفكيره السليم فى مفاوضة كسرى وقادته قبل نشوب المعركة التي أعطت للمسلمين نصرًا معنويًا كبيرا كان له الأثر البعيد فى تحقيق النصر العسكري.

لقد أرسل سعد المغيرة مع وفد من ذوي المهابة والرأى إلى كسرى، ولما عاد هذا الوفد أرسله سعد وحده إلى رستم القائد العام لقوات الفرس ، فأقبل المغيرة وجلس مع رستم على سريره ، فوثب عليه رجال رستم وأنزلوه فقال لهم :" قد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قومًا أسفه منكم ، إنا معشر العرب لا نستعبد بعضنا بعضا فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى ، فكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض " ، فقال العامة من الفرس : " صدق والله العربى" وقال رؤساؤهم : " والله لقد رمى بكلام لا زال عبيدنا ينزعون إليه " وبذلك ألب المغيرة العامة من الناس على الخاصة ، وأثار مشاكل ونعرات فرقت كلمتهم وفتت وحدتهم ، وكان هذا سلاحا رهيبا ساعد المسلمين على تعجيل النصر الحاسم(٢٧).

وقبل نشوب معركة القادسية أرسل سعد فى طلب مجموعة من ذوي الرأي منهم المغيرة وقال لهم سعد :" انطلقوا فقوموا بالناس بما يحق عليكم ويحق عليهم ... فإنكم من العرب بالمكان الذى أنتم به، وأنتم شعراء العرب وخطباؤهم وذوو رأيهم ونجدتهم وسادتهم ، فسيروا فى الناس ذكروهم وحرضوهم على القتال". وهكذا ساهم المغيرة فى تشجيع المسلمين وحثهم على البذل والعطاء والاستبسال فى سبيل الله (٢٨).

وعندما تولى عتبة بن غزوان إمارة البصرة أراد أن يحرر المنطقة كلها فجهز جيشًا وضع المغيرة على رأسه وقاتل لواؤه فى جميع المعارك التي وقعت لتحرير جنوب العراق من الفرس ، فاشترك فى معركة (الأبلة) و (ميسان) و (دستميسان) و(ابزقباذ) [٢٩].

وقد ولىَّ الخليفة عمر بن الخطاب المغيرة ولاية البصرة ، فانتهز فرس الأحواز الفرصة وأعلنوا الثورة فخرج إليهم المغيرة وتغلب عليهم .

وبعد عزل المغيرة بن شعبة عن ولاية البصرة ، ذهب إلى المدينة ، ولم يلبث بها طويلا حتى أرسله عمر بن الخطاب مددا للنعمان بن مقرن المزني قبيل موقعة نهاوند . وقبل اشتباك الطرفين طلب قائد الفرس من النعمان أن يرسلوا أحد قادتهم للمفاوضة ، فأرسل النعمان إليه المغيرة بن شعبة فهدده وأنذره بالرجوع من حيث أتوا وإلا سيكون مصيرهم الدمار. ودارت بين الرجلين مناقشة حادة ، ختمها المغيرة بقوله : " والله مازلنا منذ جاءنا رسول الله نتعرف من ربنا الفتح والنصر حتى أتيناكم ، وإنا والله لا نرجع إلى ذلك الشتاء أبدا حتى نغلبكم على ما بأيديكم أو نفتك بأرضكم" [٣٠].

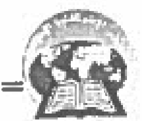
ثم عاد المغيرة فأخبر النعمان بما جرى بينه وبين الفى روزان ، وتولى المغيرة يوم نهاوند قيادة الميسرة.

وعندما شاهد المغيرة كثرة جموع الفرس والناس قال :"لم أر مثل هذا اليوم، إن عدونا يتململ ولا يتعجل القتال، أما والله لو أن الأمر لي لأعجلتهم القتال ". وعندما دارت المعركة قاتل المغيرة ورجاله بشجاعة وجلد حتى انتصر فيها المسلمون [٣١].

ب ـ عثمان بن أبى العاص الثقفى ﷺ:

ويعد واحدا من أشهر وأهم رجالات ثقيف الذين ثبتوا إسلامها منذ أن أسلم فى السنة التاسعة عند مقدم وفد رسول الله ﷺ فى السنة التاسعة للهجرة بعد مقدمه من غزوة تبوك ، وكان عثمان أحد رجالات هذا الوفد [٣٢] ، وقد قدر له أن يلعب دورا هاما فى تثبيت إسلام ثقيف، وقد وصفه المغيرة بن شعبة قائلاً: " فدخلوا الإسلام ، فلا أعلم قوما من العرب بني أب ولا قبيلة كانوا أصح إسلامًا ولا أبعد أن يوجد فيهم غش لله ولكتابه منهم" [٣٣].

ولما أسلم وفد ثقيف وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم ، أمَّر عليهم عثمان ابن



أبي العاص – وكان من أحدثهم سنًا ، وذلك أنه كان أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن ، فقال أبو بكر الصديق للنبي ﷺ : " يا رسول الله ! إني قد رأيت هذا الغلام منهم ، من أحرصهم على التفقه فى الإسلام وتعلم القرآن " [٣٤].

كان عثمان أصغر الوفد سنًا ، وكان يأتي رسول الله ﷺ ويسأله عن الدين ويستقرئه القرآن ، فقرأ سورًا على رسول الله ؛ وكان إذا وجد النبى ﷺ نائمًا عمد إلى أبى بكر الصديق فسأله واستقرأه ، وإلى أبي بن كعب فسأله واستقرأه ؛ فأعجب به الرسول ﷺ وأحبه وأمَّره على ثقيف لما رأى من حرصه على الإسلام[٣٥].

وأمر النبى ﷺ عثمان بتعليم قومه شرائع الإسلام ، ومما أمره به : أن يصلي بهم ، وأن يقتدي بأضعفهم – أى لا يطول عليهم إلا على قدر قوة أضعف من يصلى وراءه- وأمره أيضًا أن يتخذ مؤذنًا لا يأخذ على أذانه أجرا [٣٦].

ولم يزل عثمان على (الطائف) حتى قُبض رسول الله ﷺ وخلافة أبي بكر وخلافة عمر بن الخطاب ، حتى إذا أراد عمر أن يستعمل على (البحرين) سَمَّوْا له عثمان بن أبى العاص ، فقال عمر: " ذاك أمير أمَّره رسول الله ﷺ على الطائف فلا أعزله " ، فقالوا : " يا أمير المؤمنين ! تأمره يستخلف على عمله من أحب وتستعين به ، فكأنك لم تعزله ! فقال عمر: " أما هذا فنعم " [٣٧].

وارتدت العرب بعد موت النبى ﷺ ، فوقف عثمان فى قومه موقفًا حازمًا لا يُنسى أبدا ، فقد همت ثقيف أن ترتد ، فقام عثمان عامل النبي عليهم فقال : " يا أبناء ثقيف ! كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد " [٣٨] ، وبذلك استطاع تثبيتهم على الإسلام بينما ارتدت كل قبيلة إما عامة أو خاصة إلا قريشا وثقيفا [٣٩] ، وكان لعثمان أثر حاسم فى ثبات ثقيف على الإسلام.

كما كان له أثره الهام فى الفتوحات الإسلامية فى أرمينيا وفى بلاد فارس، ولكن عمر تحرج من عزل عثمان، فأشار عليه الناس أن يطلب إلى عثمان أن يستخلف هو على عمله بالطائف من أحب ويذهب إلى عمله الجديد ، فاستخلف عثمان على الطائف أخاه الحكم بن أبي العاص ، وفى بعض الروايات أنه وجَّه أخاه الحكم إلى البحرين وسار هو إلى عُمان ففتح كثيرًا من البلاد الفارسية .

وقد فتح أرمينية الرابعة ، وذلك فى سنة تسع عشرة للهجرة/٦٤٠م ، وقد صالح عثمان أهلها على الجزية ، على كل أهل بيت دينار[٤٠].

وبعد معركة (نهاوند) الحاسمة ، قرر عمر بن الخطاب ﷺ أن يتغلغل بقواته فى سائر ولايات الفرس؛ لذلك عقد بنفسه ألوية عهد إلى أصحابها بالانسياح فى أرض فارس كلها ، فجعل لواء (إصطخر) إلى عثمان بن أبى العاص الثقفى، فأرسل عثمان بعثًا من الرجال إلى ساحل فارس فقاتلوا هناك ، ويمكن اعتبار هذا البعث غزوة استطلاعية لها ما بعدها ، إذ اندفع المسلمون من البحرين لغزو ولاية فارس ، فركب عثمان السفن عابرًا الخليج العربي إلى جزيرة (بركاوان) ففتحها وتخطاها إلى أرض فارس ، فسار بجنوده إلى مدينة (توج) الحصينة وحاصرها حصارًا طويلاً حتى استسلمت للمسلمين .

ومن أهم هذه المعارك معركة (إصطخر) عاصمة اقليم فارس وأكبر مدينة فيه ، فالتقى الطرفان فى ضواحى مدينة (جور) ، وبعد قتال عنيف ارتدت القوات الفارسية إلى (إصطخر) ، ففتح المسلمون (جور) ثم استسلمت (إصطخر) على الجزية والذمة ؛ وبعد المعركة خطب عثمان الناس وحثهم على المحافظة على أمانتهم"[٤١].

بل إن عثمان كان أول من حاول فتح (السند) من قادة المسلمين ، ثم لم تزل (السند) تُغْزَى إلى زمان زياد بن أبيه وإلى زمن الحجاج بن يوسف الثقفى الذى افتتح باقى السند [٤٢].

أيضًا من الثقفيين الذين شاركوا فى هذه الفتوحات وأبلوا فى ها بلاء حسنا الحكم بن أبي العاص الثقفى الذي شارك أخاه عثمان فى كثير من هذه الفتوحات [٤٣].

كما يُعَدُّ كذلك السائب بن الأقرع واحدا من هؤلاء الثقفيين الذين شاركوا فى فتح (نهاوند) و(الدينور) و(الشيروان) و(الصيمرة) فضلا عن (أصفهان) [٤٤]. وقد وصف بالحكمة والاتزان فقال عنه عبد الله بن عباس : "لم يكن للعرب أمرد ولا أشيب أشد عقلا من السائب بن الأقرع"[٤٥].

وبجانب هؤلاء الصحابة ظهرت طبقة أخرى كان لها دورها البارز والخطير فى مجريات الأحداث ، ولعل

أشهرهم فى هذا الصدد هو الحجـــاج ابـن يوسـف الثقفـى الـذى فتحـت بـلاد (السند) وغيرها من الأمصار فى عهده . وهـكذا كان لقبيلة ثقيف دور هـام وبـارز فى الفتوحات الإسلامية.

أ. د/عبد المقصود عبد الحميد باشا

الهوامش

(١) لمزيد من التفصيل حول نسب ثقيف انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، جواد على، ج (١) (١٤٣- ١٧٢)، ط بغداد .

(٢) المصدر السابق، ص (١٥٦).

(٣) انظر ديوانه .

(٤) المصدر السابق، ص(١٤٥) .

(٥) انظر : معجم البلدان،ج .

(٦) وقيل ١٦٣٠ (معالم الحجاز، عاتق البلادي، ص(٢١٩)، ط دار مكة.

(٧) انظر : معجم معالم الحجاز، لعاتق غيث البلادي، ص(٢١٩)، ط دار مكة، مكة المكرمة .

(٨) نفس المصدر، ص(٢١).

(٩) معجم البلدان .

(١٠) انظر : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص(١٥٠ - ١٥٣) .

(١١) معجم البلدان .

(١٢) انظر : سيرة ابن هشام (٢/٧٠- ٧٢) . ودلائل النبوة للبيهقى (٢/٤١٣- ٤١٧).

(١٣) انظر : الآيات (٢٦- ٢٩) من سورة التوبة.

(١٤) آلة من الخشب السميك المغلف بالجلود مركبة على عجلات مستديرة، يدخل فيها الرجال، فيدبون بها الأسوار لينقبوها.

(١٥) آلة ترمى بها الحجارة.

(١٦) انظر : سيرة ابن هشام (٤/١٧٦-١٧٧).

(١٧) انظر : المغازى للواقدى (٣/٧٢٩).

(١٨) انظر : سيرة ابن هشام (٤/١٧٧).

(١٩) انظر : المغازى للواقدى (٣/٩٣٢).

(٢٠) الطبقات الكبرى لابن سعد ، (٢/١٩٥) . وانظر : دلائل النبوة للبيهقى (٥/١٥٧).

(٢١) انظر فى ترجمته الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج(١) . وانظر أيضًا : الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر.

(٢٢) انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج(١) ، ص(١٥٦).

(٢٣) انظر : ترجمته فى الطبقات الكبرى لابن سعد. وانظر أيضًا : الإصابة فى معرفة الصحابة لابن حجر.

(٢٤) الطبرى (٣/٩٩ وما بعدها) . وانظر: تاريخ العرب قبل الإسلام، ج (١)، ص (١٥٥).

(٢٥) الطبرى (٣/٩٩ وما بعدها).

(٢٦) انظر : سيرة ابن هشام (٣/٣٦٣).

(٢٧) انظر : تاريخ الطبري (٣/٩٣).

(٢٨) انظر : فتوح البلدان (٢٣٨).

(٢٩) فتوح البلدان، ص(٣٠٥).

(٣٠) المصدر السابق.

(٣١) نفسه.

(٣٢) انظر : سيرة ابن هشام (١٩٤/٤) ، الطبقات الكبرى لابن سعد (٣١٢/١).

(٣٣) طبقات ابن سعد (٣١٣/١).

(٣٤) سيرة ابن هشام (١٩٧/٤).

(٣٥) طبقات ابن سعد (٤٠/٧). وانظر: جمهرة أنساب العرب (٢٥٤) حول توليه الطائف.

(٣٦) جوامع السيرة لابن حزم ، ص (٢٥٧).

(٣٧) المصدر السابق.

(٣٨) الإصابة (٢٢١/٤).

(٣٩) ابن الأثير (١٣٠/٢).

(٤٠) الطبري (١٥٦/٣) . وابن الأثير (٢٠٦/٢) . وأسد الغابة (٢٦/٣) . والاستيعاب (٧٢٥/٢).

(٤١) انظر : تاريخ الطبري (٢٥٣/٣).

وانظر أيضا : قادة فتح فارس، محمود شيت خطاب، ص (٢٦٦)، ط دار الفكر، بيروت.

(٤٢) المصدر السابق.

(٤٣) انظر : قادة فارس، ص(٢٧٠) .

(٤٤) انظر : الطبري (٢٠٥/٣) . وفتوح البلدان للبلاذري، ص(٣٠٢). فضلا عن قادة فارس ، ص(١٢٠).

(٤٥) الإصابة لابن حجر (٥٨/٤).

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ط بغداد .

٢. ياقوت الحموى : معجم البلدان .

٣. عاتق غيث البلادى : معجم معالم الحجاز ط دار مكة المكرمة .

٤. ابن هشام : سيرة ابن هشام .

٥. الواقدى : المغازى .

٦. ابن سعد : الطبقات الكبرى .

٧. الطبرى : تاريخ الطبرى .

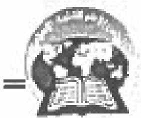
الجابية

يقول ياقوت الحموى عن الجابية: " وهى قرية من أعمال دمشق ... من ناحية الجولان قرب مَرْج الصفَّر فى شمال حوران... وبالقرب منها تل يسمى تل الجابية، وفى هذا الموضع خطب عمر بن الخطاب ﷺ خطبته المشهورة، وباب الجابية بدمشق منسوب إلى هذا الموضع، ويقال لها جابية الجولان أيضًا"[١] .

اكتسب هذا المكان أهمية كبيرة فى التاريخ الإسلامى بسبب عدد من المؤتمرات والقرارات الخطيرة والأحداث المهمة التى حدثت فيه.

الحدث الأول: أن المسلمين لما حاصروا بيت المقدس بعد أن أتموا فتح معظم الشام عرض أهله أن يصالحهم المسلمون بشرط أن يكون الذى يتولى عقد الصلح وتسلم المدينة هو الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ بنفسه وقد حدث. يروى الطبرى عن عدى بن سهل قال: "لما استمد أهل الشام عمر على أهل فلسطين استخلف علىَّ بن أبى طالب على المدينة ، وخرج مُمِدًّا لهم فقال على: " أين تخرج بنفسك، إنك تريد عدوا كَلِبًا ، فقال: " إنى أبادر بجهاد العدو موتَ العباس بن عبد المطلب؛ إنكم لو قد فقدتم العباس لا نتقض بكم الشر كما ينتقض أول الحَبْل "[٢].

جاء عمرﷺ من المدينة إلى الشام - وتروى كتب التاريخ أنه زار الشام أربع مرات فى خلافته، هذه إحداها، ونزل أول الأمر الجابية وهذا هو الذى أعطى المكان تلك الأهمية الكبيرة، وهناك التقى بكبار القادة الفاتحين العظام، أميرهم وقائدهم العام أبو عبيدة بن الجراح ويريد بن أبى سفيان وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة وخالد بن الوليد ومعاوية بن سفيان، وتدارس الموقف فى الشام من جميع جوانبه، ثم استقبل وفد أهل إيلياء - بيت المقدس - وصالحهم على الجزية وأمر عليها علقمة ابن مجزّر ومن الجابية أرسل أمانًا لأهل الرملة، وأمر عليها علقمة بن حكيم. وفى الجابية كتب كتابه المشهور بالأمان لأهل إيلياء[٣]. ثم توجه إليها لتسلمها من البطريرك صفرونيوس، والأمر مشهور ويملأ كتب التاريخ، وفى الجابية اتخذ أيضًا واحدا من أهم القرارات فى تاريخ الفتوحات الإسلامية وهو فتح مصر،



وصاحب الفكرة هو القائد الفاتح الكبير الصحابى الجليل عمرو بن العاص، الذى أدرك أن فتوحات المسلمين فى الشام والعراق وربما وجودهم فى شبه جزيرة العرب نفسه سيكون مهددًا إذا بقيت مصر فى أيدى دولة الروم العدو اللدود والخطير، وهذه رؤية استراتيجية هائلة كان يتمتع بها عمرو بن العاص لأن كثرة الارتباط الأمنى بين مصر والشام فكرة قديمة منذ حروب الفرعون العظيم تحتمس الثالث حيث طرد أمراء البلاد ثم رفع العلم المصرى فى أقصى شمال شرق سوريا وقال: هنا يبدأ أمن مصر القومى.

والارتباط الأمنى بين مصر والشام فكرة صائبة وثابته طوال التاريخ القديم والوسيط والحديث وخير دليل على ذلك ما حدث فى الحروب الصليبية وفى غزوات المغول مما لا محال لتفصيله هنا. على كل حال أدرك ابن العاص بعبقريته الفذة أن فتح مصر أصبح ضرورة عسكرية واستراتيجيه للدولة الإسلامية فلابد من طرد الروم نهائيًا وتحرير البلاد منهم ولذلك شرح وجهة نظره بإسهاب وأقنع بها الخليفة عمر بن الخطاب، يقول ابن عبد الحكم: " فلما قدم عمر ابن الخطاب الجابية قام إليه عمرو فخلابه، وقال: " يا أمير المؤمنين ائذن لى أسير إلى مصر، وحرضه عليها وقال: إنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونًا لهم، وهى أكثر الأرض أموالاً، وأعجزها عن القتال والحرب، فتخوف عمر بن الخطاب على المسلمين أو كره ذلك، فلم يزل عمرو يعظم أمرها عند عمر بن الخطاب ويخبره بحالها ويهون عليه فتحها، حتى ركن لذلك عمر فعقد له على أربعة آلاف كلهم من عَك "[٤].

وهنا يبدر سؤال لابد منه وهو: من أين أتت عمرو بن العاص ﷺ الجرأة ليقدم على فتح بلد كبير كمصر بهذا العدد القليل أربعة آلاف وزيدت مرتين ليصل العدد إلى اثنى عشر ألفًا ؟ وكيف تسنى له أن يتم هذا الفتح العظيم فى خلال ثلاث سنوات وينتزع مصر من الروم الذين كانوا يضطهدون أهلها ويرهقونهم بالضرائب الباهظة؟ إن عمرو ابن العاص ﷺ أعاد مصر للمصريين ولم يأخذها منهم وأمن لهم حريتهم الدينية والاجتماعية، وهذه حقائق بعترف بها كبار المستشرقين أمثال السير توماس أرنولد[٥].

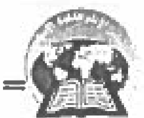
أما إجابة السؤال فإن الذى جرأ عَمْرًا على الإقدام على فتح مصر بمن معه من

عدد قليل وهو يعلم أن بمصر قوات بيزنطية مرابطة عددها نحو مائة ألف كما يروى ابن عبد الحكم(٦)، سوى الفارين من جنود الروم من الشام إلى مصر، عندما جاء ابن العاص إلى مصر فاتحاً فى أواخر عام ١٨هـ/٦٣٩م(٧)- إن الذى جرأه على ذلك أنه كان موجوداً بالشام قبلها بنحو ست سنوات، ومصر والشام كانتا تحت الحكم البيزنطى والأخبار تترى بين القطرين فأصبح لديه معلومات كافية عن القوات البيزنطية سواء المرابطة فى مصر أو الهاربة إليها من الشام وإن هذه القوات قد فقدت روح القتال وملأ الفزع والرعب قلوبها من الانتصارات المتلاحقة التى حققها المسلمون على الروم فى الشام، تلك الانتصارات التى جعلت الإمبراطور البيزنطى نفسه يقول: عليك يا سوريا السلام ونعم البلد هذا للعدو(٨). قال هرقل هذه المقولة وقلبه يحترق حزناً على جهوده التى بذلها فى استرداد الشام من الفرس فجاء العرب وحرروها منه. نوهت هنا - بهذا الإيجاز - بفتح مصر وأهميته لأن قرار الفتح قد اتخذه الخليفة العظيم عمر بن الخطاب بناء على مشورة ونصيحة واحد من نجوم كبار الفاتحين وهو عمرو ابن العاص، هذا القرار قد اتخذ فى الجابية وأعطاها أهمية كبيرة فى التاريخ.

مؤتمر الأمويين فى الجابية:

من الأحداث المهمة والخطيرة التى حدثت فى الجابية والتى كان لها أثر كبير فى التاريخ الإسلامى فى القرن الأول الهجرى/ السابع الميلادى ذلك المؤتمر الذى عقده بنو أمية وأنصارهم فى شهر ذى العقدة سنة ٦٤هـ/يونيو سنة ٦٨٤م.

وقصة هذا المؤتمر الخطير أنه بعد وفاة يزيد بن معاوية بن أبى سفيان فى الرابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٤هـ/ ١٢ نوفمبر سنة ٦٨٣م دخلت دولة بنى أمية فى منعطف خطير، وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من الزوال، لأن ولى العهد معاوية ابن يزيد رفض الخلافة التى كان أبوه قد عهد إليه بها، وأعلن عجزه عن تحمل مسئولياتها وكان واضحاً وصريحاً مع نفسه ومع الناس(٩). فى ذلك الوقت كان عبد الله بن الزبير قد أعلن نفسه خليفةً للمسلمين فى مكة المكرمة، ونظراً لمكانته ومكانة أبيه وأمه فقد توالت عليه البيعة من كل أنحاء الدولة الإسلامية، عدا إقليم الإردن الذى



سيطرت عليه قبيلة كلب أخوال يزيد بن معاوية والموالية لبنى أمية.

وبدا كأن الأمور قد استوت لابن الزبير وأن دولة بنى أمية قد ولت الأدبار. غير أن الأمور بدأت تتبدل بسرعة عجيبة فبعد أن يئس بنوأميه من استمرار دولتهم حتى إن أكبر شخصية فيهم وهو مروان ابن الحكم همَّ أن يذهب إلى مكة ليبايع ابن الزبير، تجمع ولاة وأنصار بنى أمية البارزين أمثال عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير فى الشام حول مروان وصرفوه عن عزمه بالذهاب إلى مكة لمبايعة عبد الله بن الزبير، ورشحوه هو نفسه للخلافة وعقدوا لذلك مؤتمرهم الشهير والخطير فى الجابية. وفى هذا المؤتمر بدا الانقسام واضحًا فى جبهة بنى أمية، الأمر الذى كان يهدد مستقبلهم جميعًا. ذلك أن فريقًا منهم يتزعمه حسان ابن مالك بن بحدل الكلبى - خال الخليفة يزيد بن معاوية - كان يرشح خالد بن يزيد للخلافة لتبقى الخلافة فى الفرع السفيانى من بنى أمية.

والفريق الآخر بزعامة عبيد الله بن زياد والحصين بن نمير وروح بن زنباع الجذامى كانوا يرون أن خالد بن يزيد لا يزال طفلاً صغيرًا وليس كفؤا للخلافة وليس ندا لابن الزبير، وقالوا لمناقشهم: "لا والله لاياتينا العرب بشيخ - يقصدون عبد الله ابن الزبير - ونأتيهم بصبى"[١٠]. بعد نقاش طويل وساخن فى مؤتمر الجابية اتفق المؤتمرون على رأى يرضى عنه الجميع وهو أن تكون البيعة آنئذ لمروان لسنه وتجربته ثم بعده تكون لخالد بن يزيد، وبهذا الاتفاق أمكن إنقاذ دولة بنى أمية من الزوال، وبدأ مروان جهوده لانتزاع البلاد التى كانت قد بايعت لعبد الله بن الزبير وقد نجح هو وابنه عبد الملك بعده فى ذلك وأسسوا فرعا حاكمًا جديدًا من بنى أمية هو الفرع المروانى الذى سيحكم الدولة حتى سقوطها ١٣٢هـ/ ٧٤٩م. هذه هى أهم الاحداث التى شهدتها الجابية فى القرن الهجرى الأول والتى أهلَّتها ليكون لها مكان فى التاريخ الإسلامى.

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) معجم البلدان جـ١ ص٩١.

(٢) تاريخ الطبرى، ج٣، ص٦٠٨ .

(٣) نص الكتاب فى تاريخ الطبرى جـ ٣ ص ٦٠٩.

(٤) انظر فتوح مصر وأخبارها. تحقيق محمد صبيح. نشر مؤسسة دار التعاون ١٩٦٨ ص ٤٧.

(٥) انظر الدعوة إلى الإسلام. ترجمة د. حسن إبراهيم حسن وآخرين . مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٧٠ ص ٢٢٣.

(٦) فتوح مصر وأخبارها . مصدر سابق ص٥٦.

(٧) صلى عمرو بن العاص وجيشه عيد الأضحى فى العام الثامن الهجرى فى العريش ثم دخل مصر.

(٨) فتوح البلدان للبلاذرى.

(٩) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير. دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م جـ٤ ص ١٣٠.

(١٠) انظر ابن الأثير مصدر سابق جـ ٤ ص ١٤٥.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. معجم البلدان لياقوت الحموى.
٢. تاريخ الطبرى.
٣. الكامل فى التاريخ لابن الأثير.
٤. فتوح مصر وأخبارها لابن عبد الحكم.
٥. فتوح البلدان للبلاذرى.
٦. العالم الإسلامى فى العصر الأموى للدكتور / عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

جامع أحمد بن طولون (*)

يعد ثالث المساجد الجامعة التى عمرت فى مصر الإسلامية بعد جامعى الفسطاط (مسجد عمرو بن العاص الذى مازال فى موضعه حتى الآن مع زيادات وتجديدات وتغييرات متلاحقة) والعسكر (الذى لم يعد باقيًا). أما المسجد الطولونى فمازال قائمًا إلى اليوم بمنطقة الصليبة، جنوب القاهرة فيما بين ميدان صلاح الدين (ميدان الرميلة) أسفل القلعة وميدان السيدة زينب وهو الأثر الوحيد الباقى من مدينة القطائع الطولونية (وهى العاصمة الثالثة لمصر الإسلامية بعد الفسطاط والعسكر).

وتبلغ مساحة المسجد ١٧٢٤٤م٢ ، ولو أضفنا إليها مساحة الزيادات التى تحيط به وتقدر بـ ٩٠٣٧م٢ تبلغ مساحته الإجمالية ٢٦٢٨١م٢ أى ما يعادل ستة أفدنة وقيراطا ونصفا . وقد حددت المصادر التاريخية موضعه قديمًا بقولها: « هذا الجامع على جبل يقال له جبل يشكر (نسبه إلى يشكر بن جزيلة من لخم) فيما بين القاهرة ومصر وهو مكان مشهور بإجابة الدعاء»[1].

وقد أمر بعمارة هذا المسجد المبارك الأمير أحمد بن طولون فيما بين عامى (٢٦٣- ٢٦٥هـ/ ٨٧٦- ٨٧٩م) وذلك لاستكمال المعالم الرئيسية ومظاهر الحكم فى عاصمته الجديدة التى اختطها المعروفة باسم القطائع بعد أن استقل بحكم مصر استقلالا اسميًا عن الخلافة العباسية وأصبح الحكم وراثيًا فى أسرته فيما بين عامى ٢٥٤- ٢٩٢هـ/ ٨٦٨- ٩٠٤م.

ويقال إن أهل مصر قد شكوا لابن طولون ضيق المسجد الجامع يوم الجمعة بسبب جنده وسودانه؛ ولذلك أمر بعمارة هذا المسجد الجديد بما أفاء الله عليه من المال الذى وجده فوق الجبل فى الموضع المعروف بتنور فرعون ومنه بنى العين (أى القناطر أو مجرى العيون الذى مازال باقيًا أجزاء منه بالبساتين ويعرف باسم بئر أم السلطان أو مجرى الإمام) المعروفة بعين أبى خليد[2].

وتضيف المصادر أن ابن طولون قال: « أريد أن أبنى بناءً إن احترقت مصر بقى وإن غرقت بقى، فقيل له: يبنى بالجير والرماد والآجر الأحمر القوى النار إلى السقف ولا يجعل فيه أساطين (أعمدة)

رخام فإنه لا صبر لها على النار ، فبناه هذا البناء وعمل فى مؤخره ميضأة وخزانة شراب (صيدلية) فيها جميع الشرابات والأدوية وعليها خدم وفيها طبيب جالس يوم الجمعة لحادث يحدث للحاضرين للصلاة وبناه على بناء جامع سامرًا وكذلك المنارة»[٣].

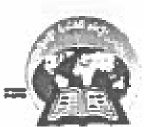
ويقال أيضًا إن مهندس الجامع قام بتصويره أولاً لابن طولون على الجلد (أى رسم مخططه له على الجلد) فأعجب به واستحسنه فخلع عليه وأطلق له النفقة فكان المهندس ينشر من الجبل ويسطح ويعمله جيرًا ويبنى إلى أن فرغ منه جميعه وبيَّضه وخلقه وفرش فيه الحصر (العبدانية والسامانية) وعلق القناديل والسلاسل الطوال الغلاظ الحسان وحمل إليه صناديق المصاحف ونقل إليه الفقهاء والقراء[٤].

وقد بلغت النفقة على هذا الجامع مائة وعشرين ألف دينار ذهبًا ، أما عن سبب خلو الجامع من الأعمدة فتذكر الروايات التاريخية أن الجامع كان يحتاج إلى ٣٠٠ عمود وخشى ابن طولون أن يأخذها من الكنائس فوصل الخبر إلى أحد المهندسين النصارى وكان مسجونًا فعرض أن يبنيه للأمير كما يحب ويختار بلا عمود إلا عمودى القبلة.

أما عن اتخاذ مئذنة الجامع هذا الشكل المميز والمعروف بالملوية (بعد ملويتى جامعى سامرًا وأبى دلف بالعراق) فتشير بعض الروايات التاريخية إلى أن ابن طولون كان « لا يعبث بشىء قط فاتفق أنه أخذ درجًا أبيض بيده وأخرجه ومده كالحلزون واستيقظ لنفسه وعلم أنه قد فطن به وأخذ عليه لكونه لم تكن تلك عادته فطلب المعمارى على الجامع وقال له: تبنى المنارة التى للتأذين هكذا فبنيت على تلك الصورة»[٥].

وكان لهذا المسجد الجامع أثره الكبير فى تطور عمران المنطقة المحيطة به والقريبة منه، وليس أدل على ذلك مما ورد بالمصادر التاريخية من أنه كان يوجد خلف الجامع " مسطبة ذراع فى ذراع أجرتها فى كل يوم اثنا عشر درهمًا فى بكرة النهار لشخص يبيع الغزل ويشتريه والظهر لخباز والعصر لشخص يبيع الحمص والفول"[٦].

والمسجد الطولونى مازال محتفظًا بحدوده القديمة ومعظم معالمه الأصيلة: الميضأة التى كانت فى عهد أحمد بن طولون بجوار المئذنة خارج الجامع للحفاظ على طهارته. وقد عملت بالجامع



تجديدات وإضافات مختلفة لم يتبق منها إلا بعض المحاريب الجصية من العصر الفاطمى وعصر المماليك البحرية بالإضافة إلى القبة الحجرية للميضأة فى مكان الفوارة الأصلية بوسط الصحن وهى من عمارة السلطان الملك المنصور لاجين عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م. ومن الراجح أنه أضاف لبناء المئذنة محتفظا بالملوية التى كانت عليها المئذنة الأصلية، وهى شبيهة بملويتى جامع سامراء الكبير ومسجد أبى دلف شمالى سامراء وإن لم تكن مئذنة ابن طولون مستديرة بكاملها مثلهما حيث إن ثلث ارتفاعها متعامد الأضلاع يعلوه جزء اسطوانى وهى مبينة من الحجر.

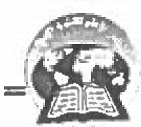
ويتكون المسجد من صحن أوسط مكشوف ومقدم ومؤخر ومجنبتين، وحول المسجد زيادات عبارة عن ثلاثة أروقة مكشوفة تحيط به من ثلاث جهات عدا جهة القبلة. وكانت دار الإمارة تقع فى هذه الجهة الأخيرة، بينما تقع الملوية فى الزيادة الخلفية مثل جامع سامراء وإن لم تكن على محور الجامع مثلها، والزيادات مستواها منخفض عن مستوى الجامع وربما يرجع ذلك لطبيعة الموقع.

ويتكون مقدم المسجد بالضلع القبلى (الجنوبى الشرقى) من خمس بائكات بينها خمسة أروقة موازية لجدار القبلة وتتكون كل بائكة من خمس عشرة دعامة مستطيلة، عليها زخارف من الطراز الثانى والثالث من زخارف سامراء ويعلوها سقف خشبى. وتوجد فى قوصرات العقود طاقات معقودة بعقود مدببة، ويعلو مستوى العقود إفريز من زخارف جصية يعلوه إزار خشبى به آيات قرآنية. ويتوسط المحراب المجوف صدر مقدم المسجد وطاقيته مكسوة بالخشب أسفلها شريط من الفسيفساء وباقى المحراب مزخرف بأشرطة رخامية، وواجهة الحراب جصية. وتعلو المحراب قبة خشبية. والراجح أن الأعمال السابقة الخاصة بالمحراب من عمارة السلطان لاجين. وعن يسار المحراب يوجد محراب جصى مسطح. كما توجد أربعة محاريب جصية مسطحة أخرى بالدعامات الثامنة والتاسعة بالبوائك الثانية والرابعة. ويوجد نقش الإنشاء للمسجد بالدعامة الثامنة من البائكة الثالثة ويوجد المنبر عن يمين المحراب المجوف وهو منبر مملوكى يعود لعام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م أيضًا. وتقع دكة المبلغ الخشبية بين الدعامتين الثامنة والتاسعة من البائكة الثانية وهى مواجهة

للمحراب مباشرة وترتفع فوق أربعة أعمدة رخامية مستديرة ويصعد إليها من سلم داخلها.

ويتكون المؤخر من بائكتين موازيتين لجدار القبلة، أما المجنبتان فتتكون كل منهما من بائكتين تسير عقودهما متعامدة على جدار القبلة. وتطل على الصحن أربع واجهات كل منها تتكون من ثلاثة عشر عقدًا مدببًا محمولا على أربع عشرة دعامة. ويبلغ عدد شبابيك الجامع ١٢٨ شباكًا من الجص المفرغ. وللجامع اثنان وأربعون بابًا، واحد وعشرون بالمسجد وواحد وعشرون بالزيادات سُدَّ أحدها. ويلاحظ وجود أربعة أبواب فى صدر مقدم المسجد يرجح أنها كانت تستخدم فى دخول الأمير وحاشيته؛ ويؤيد هذا الرأى أن دار الإمارة كانت من هذه الجهة. ويعلو الجدران صف أفقى من الشرافات الفريدة وقد شكلت بشكل رمزى على هيئة صفوف المصلين خلف الإمام فى الصلاة الجامعة، وتعرف لدى البعض بالعرائس، وهناك من يرى أنها كانت طلسمًا وهذا غير صحيح.

وعند تحليل مسقط المسجد نجد أنه مستطيل لكنه يصبح مربعًا تقريبًا بعد إضافة الزيادات، وأبعاده ١٦٢×١٦٢ مترًا وتبلغ نسبة مسطح الصحن إلى مسطح الجامع بدون الزيادات ١:٢ تقريبًا، وتكون النسبة بعد إضافة الزيادات ١:٣ وتبلغ نسبة عرض مقدم المسجد إلى طولها ١:٦ر٣ وهى تقريبًا نفس النسبة لمقدم المسجد الأموى بدمشق. والدعامات والعقود موازية لجدار القبلة فى المقدم والمؤخر مما يؤكد صفوف المصلين إلا أنها موازية للحوائط الخارجية فى المجنبتين مما يفصلها فراغيًا عن المقدم. وبتحليل الواجهات الداخلية وجد أن الطاقات التى عملت بقوصرات العقود لتخفيف الأوزان عنها، شكلت مع أطر الزخارف الجصية والنباتية والهندسية وحدة فى التشكيل الفراغى الداخلى. وقد اتسم الفراغ الداخلى عمومًا بالغنى فى الزخارف والنقوش الجصية. وقد عملت النوافذ العالية بجدار المسجد على المساعدة فى الإضاءة وتحريك الهواء بالجامع دون تشتيت ذهن المصلى كما ساعدت على تشكيل الواجهات الخارجية، هذا إلى جانب الشرافات التى تعلو الجامع، وبتحليل هذه الواجهات تبين عدم وجود ارتباطات بين موقع النوافذ ومواقع الأبواب ومحاور العقود والفراغات الداخلية بشكل عام، مما يعكس عدم



ارتباط التشكيل الخارجي بالتكوين الفراغي الداخلي. وقد تميز الجامع بتعدد أبوابه والتي لم تتسم بأي معالجة خاصة تؤكد مواقعها وكانت تؤدي مباشرة للصحن عبر الأروقة.

ويلاحظ أن المسجد به تأثر واضح بعمارة سامراء - موطن أحمد بن طولون - سواء في الملوية أو في استخدام الآجر (الطوب الأحمر) في البناء وهو مادة البناء المستخدمة في العراق أو الزيادات التي حول المسجد، أو في الزخارف الجصية من الطراز الثاني والثالث من زخارف سامراء. وقد لوحظ أيضًا أن الوحدة العضوية بين العمارة والنقوش الكتابية لم يتم تحقيقها كما هو الحال في عمارة أواخر القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، ولوحظ وجود علاقة بين تصميمات وأنماط الزخارف بالشبابيك الجصية والزخارف في بواطن العقود بالمسجد والشمسيات الرخامية بالمسجد الأموي.

وبتقويم مبنى المسجد يلاحظ انعكاس البيئة عليه لاستخدام مواد البيئة المحلية فيه من طوب أحمر (الآجر) للحوائط وأسقف خشبية، بما يعكس الارتباط البيئي حيث لم تجلب مواد من الخارج أو من مبان أخرى واستخدمت اليد العاملة المحلية. وقد استخدم أسلوب الإنشاء بالحوائط الحاملة والأسقف الخشبية، وظهر التأثر بأسلوب الإنشاء بجذوع النخيل في تشكيل القطاعات الخشبية الحاملة للأسقف وفي أعتاب الأبواب مما يعكس الصدق في التعبير، كذلك يلاحظ أنه حقق الغرض منه كمسجد جامع وكدليل على قوة حكم ابن طولون. وربما كان ذلك أحد أسباب اتساع مساحة المسجد وزخرفته وبناء ملويته بشكل مشابه لمسجد سامراء حاضرة الخلافة في ذلك الوقت. كما يلاحظ استخدام الصحن في المسجد وهو ملائم لمناخ المنطقة كما أنه يساعد على إضاءة الأروقة[٧].

هذا وقد وصف المسجد خلال العصر الفاطمي الرحالة الفارسي ناصر خسرو قرب منتصف ٥هـ/ ١١م بقوله: « **وفي طرف المدينة جامع ابن طولون وهو مشيد على ربوة (يقصد جبل يشكر) وله جداران محكمان ولم أر أعظم منهما غير جدار آمد وميافارقين....**» [٨].

أما الرحالة الأندلسي ابن جبير فقد وصفه عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م بقوله: « **وبين مصر والقاهرة المسجد الكبير المنسوب**

إلى أبى العباس أحمد بن طولون وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الوثيقة البنيان....»[9].

أما عن دور الجامع الطولونى فى الحركة العلمية فإن ابن طولون عقب فراغه من بناء الجامع أمر بنقل القراء والفقهاء إليه وأملى فيه الحديثَ الربيعُ بن سليمان تلميذ الإمام الشافعى[10].

وفى العصر الأيوبى جعله السلطان صلاح الدين مأوى للغرباء من المغاربة يسكنونه ويحلقون فيه (أى إقامة الحلقات العلمية)، وأجرى عليهم الأرزاق فى كل شهر على حد قول ابن جبير فى رحلته[11].

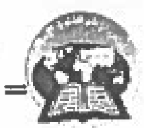
وفى عصر المماليك البحرية وتحديدًا فى عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م قام السلطان حسام الدين لاجين عقب الفراغ من عمارته للجامع بترتيب الدروس فيه ومنها دروس للفقه على المذاهب الأربعة ودرس لتفسير القرآن الكريم ودرس للحديث النبوى الشريف، كما أمر بترتيب درس للطب واشترط فيمن يقوم به أن يكون رجلاً عارفًا بطب الأبدان مشهور المعرفة للأمراض والأدوية ورتب معه ١٠ من الطلبة لدراسة الطب[12].

ويذكر المقريزى أن السلطان لاجين قرر للخطيب معلومًا وجعل للمسجد إمامًا راتبًا ومؤذنين وفراشين وعمل بجواره مكتبًا لإقراء أيتام المسلمين كتاب الله عز وجل وغير ذلك من أنواع القربات ووجوه البر فبلغت النفقة على عمارة الجامع وثمن مستغلاته عشرين ألف دينار[13].

وفى عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م جدد الأمير يَلْبُغا العمرى الخاصكى درسًا بالجامع فيه سبعة مدرسين للحنفية وقرر لكل فقيه من الطلبة فى الشهر أربعين درهمًا وإردب قمح فانتقل جماعة من الشافعية إلى مذهب الحنفية[14].

وفى القرن ١٢هـ/ ١٨م كان الجامع مهملاً فأُنْشئ فيه مصنع لعمل الأحرمة الصوفية وظل على إهماله حتى عام ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م فتحول إلى ملجأ للعجزة والطاعنين فى السن تحت إشراف الطبيب كلوت بك فلحق بالجامع تلف كبير.

وعقب تشكيل لجنة حفظ الآثار العربية ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م امتدت يد العناية والاهتمام إلى هذا الجامع وبدأ يعود إلى رونقه وسابق عهده بعد إزالة الأبنية المستحدثة والأتربة والأنقاض وتخلية جوانبه وتتميم إصلاحه ونزع ملكية الدور وغير ذلك من أعمال



الصيانة والترميم فى عهد كل من الملك فؤاد والملك فاروق[١٥].

وعقب انتهاء عهد أسرة محمد على عام١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م وتأسيس النظام الجمهورى بمصر توالت أعمال الإصلاح والصيانة والترميم على هذا الجامع من قبل الجهة المسئولة عن آثار مصر وهى مصلحة الآثار ثم هيئة الآثار المصرية ثم المجلس الأعلى للآثار التابع لوزارة الثقافة وأخيرًا عقب ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١م . وزارة الدولة لشئون الآثار.

أ.د / محمد حمزة الحداد

الهوامش:

(*) يصعب فى هذا المقام أن نقدم دراسة وصفية وتحليلية مفصلة ومطولة للمسجد الطولونى فهذا يخرج عن إطار الخطة الموضوعة لهذا المصطلح ولذلك حسبنا أن نركز على وصف موجز للمسجد وأهم الخصائص المعمارية والسمات الفنية له. أما من أراد التوسع والزيادة فليرجع إلى العديد من الكتب والدراسات العربية وغير العربية ومن بينها: عكوش، محمود، تاريخ ووصف الجامع الطولونى، القاهرة (١٩٢٧م)؛ أحمد، محمود، بيان تاريخى عن الجامع الطولونى وشرح مميزاته الفنية، القاهرة (١٩٣٥م)؛ حسن، زكى محمد، الفن الإسلامى فى مصر، ط٢، بيروت (١٩٨٢م)، ص ٣٧- ٤٧؛ مرزوق، مساجد القاهرة قبل عصر المماليك، القاهرة (١٩٤٢م)، ص ٢٧- ٥٢؛ عبد الوهاب حسن حسين، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص ٣٢- ٤٦؛ فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، ص ١٠١- ١٣٦؛ شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية، ص ٤٦٣- ٤٩٥؛ الباشا، القاهرة تاريخها، فنونها، آثارها، ص٤٣٤- ٤٥٢؛ مدخل إلى الآثار الإسلامية، ص ١١٨- ١٢٠؛ ماهر، سعاد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ١، ١٣٥- ١٥١؛ عبد الرازق، العمارة الإسلامية، ص ١٠٢- ١١٨؛ تاريخ وآثار مصر، ص ١١٧- ١٣١؛ رزق، عاصم محمد، أطلس العمارة الإسلامية، جـ١، ص ٥٧- ٩٦؛ (فضلا عن الدراسات الأجنبية المتعددة ومن بينها دراسات كوريت ووليامز وبريجز وهوتكير وفيبت وزكى حسن (بالفرنسية) وبوتى وكريزول ودوريس أبو سيف وطارق سويلم (رسالته للدكتوراه من جامعة هارفارد ١٩٩٤م)وأيمن فؤاد سيد (رسالته للدكتوراه عن تطور العاصمة المصرية ص ٤٢- ٥٥ وهى بالفرنسية) و Fattel وغيرهم .

(١) ابن عبد الظاهر، الروضة البهية، ص ٨١؛ المقريزى، الخطط، ج٤، ص٩٥.

(٢) البلوى، سيرة أحمد بن طولون، ص٥٦؛ المقريزى، الخطط ج٤، ص٦٤.

(٣) ابن دقماق، الانتصار، جـ٤، ص ١٢٢- ١٢٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٤، ص٦٤.

(٤) البلوى، سيرة أحمد بن طولون ، ص١٨٢- ١٨٣؛ المقريزى، الخطط، جـ٤، ص٦٤.

(٥) ابن عبد الظاهر، الروضة، ص ٨٠؛ المقريزى، الخطط، جـ٤ ،ص٧٢.

(٦) المقريزى، الخطط، جـ٤، ص٧٢؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ٣، ص١١.

(٧) الحداد وآخرون، أسس التصميم المعمارى والتخطيط الحضرى فى العصور الإسلامية المختلفة، دراسة تحليلية على العاصمة القاهرة، جده (١٩٩٠م)، ص ١٩- ٢٤.

(٨) ناصر خسرو علوى، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، ط٢، (١٩٩٣م)، ص١١٦.

(٩) ابن جبير، رحلة ابن جبير ، ص٤٨- ٤٩.

(١٠) صفى على محمد، الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط، ص ٧١.

(١١) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤٨- ٤٩.

(١٢) المقريزى، الخطط، جـ٤، ص٧٨؛ حجة وقف السلطان لاجين رقم ١٨ محفظة ٢ بدار الوثائق القومية (محكمة)؛ عبد الغنى عبد العاطى، التعليم فى مصر زمن الأيوبيين والمماليك، القاهرة، ١٩٤٨م، ص ٢٢٧- ٢٣١.

(١٣) المقريزى، الخطط، جـ٤، ص٧٨ .

(١٤) المقريزى، الخطط، جـ٤ ص ٧٨ .

(١٥) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ١، ص٤٥- ٤٦ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

أولاً: المصادر

١. ابن جبير، رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، القاهرة، ١٩٩٢م .

٢. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء .

٣. البلوى، أبى محمد عبد الله بن محمد المدينى، سيرة أحمد بن طولون، حققها وعلق عليها محمد كرد على، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٤. القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء، ١٤ جزء .

٥. المقريزى، المواعظ والإعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية: مجلدات، تحقيق أيمن فؤاد سيد - لندن ٢٠٠٢- ٢٠٠٥م.

ثانيًا: المراجع :

١. أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة، ١٩٦٢م .

٢. حسن حسنى عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية .

٣. حسن أحمد محمود، حضارة مصر الإسلامية العصر الطولونى، القاهرة ١٩٦٠م .

٤ . زكى محمد حسن، الفن الإسلامى فى مصر .

٥. سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ٥ أجزاء. القاهرة .

٦. على باشا مبارك، الخطط التوفيقية الجديدة، ٢٠ جزءًا. القاهرة .

٧. محمد حمزة وآخرون، أسس التصميم المعمارى والتخطيط الحضرى فى العصور الإسلامية المختلفة، دراسة تحليلية على العاصمة القاهرة، جده (١٩٩٠م) .

٨ . محمد مرزوق، مساجد القاهرة قبل عصر المماليك، القاهرة ١٩٤٢م .

٩ . محمود أحمد، بيان تاريخى عن الجامع الطولونى وشرح مميزاته الفنية، القاهرة ١٩٣٥م .

١٠. محمود عكوش، تاريخ ووصف الجامع الطولونى، القاهرة ١٩٢٧م .

جامع الزيتونة

شيد جامع الزيتونة بتونس، وهو يعد من أقدم مساجد إفريقية على الإطلاق. ويرجع الفضل إلى حسان بن النعمان الغسانى فى بناء تونس التى تقع على بعد نحو ١٢ ميلاً شرقى قرطاجنة القديمة على البحر.

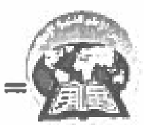
وكان يصل تونس بقرطاجنة طريق رومانى قديم. وبنى حسان مدينة تونس فى موضع مدينة ترشيش القديمة التى لم تكن عند اختياره لها سوى قرية صغيرة، ولكن حسان بن النعمان حولها إلى مدينة كبيرة، وقاعدة بحرية، لها دارٌ لصناعة السفن، التى ساهم أهالى مصر فى بنائها[١]. وشيد حسان بتونس مسجدًا جامعًا[٢]، ودارًا للإمارة.

وفى عهد الوالى الأموى عبيد الله بن الحَبْحَاب نمت مدينة تونس وازدهرت، واتسع عمرانها، وأنشأ ابن الحبحاب بها مسجدًا جامعًا فى سنة ١١٤هـ/٧٢٢م، عرف بجامع الزيتونة، وقيل إن اسمه، نسبة إلى القديسة زيتونة التى عاشت فى عصر الوندال[٣].

وقُدِّر لجامع الزيتونة أن يشتهر، وأن يبرز كجامعة علمية إسلامية لها وزنها الدينى والعلمى عبر العصور الإسلامية المختلفة.

ويكتنف تاريخ هذا المسجد الجامع الكثيرُ من الغموض. وتُعَدُّ كل من الدراسة القيمة التى قدمها الدكتور أحمد فكرى[٤] وكذلك ما أوضحه الدكتور السيد عبد العزيز سالم عنه، فى كتاباته[٥]، بمثابة أهم الدراسات العلمية التى تناولت هذا المعلم الإسلامى الجليل.

ويعتبر جامع الزيتونة بما توالى عليه من إصلاحات بمثابة معرض ومتحف للفنون المعمارية الإسلامية المغربية المختلفة، نظرًا لما طرأ عليه من إضافات وتطوير فى العصور الإسلامية المتأخرة عن تاريخ بنائه فى العصر الأموى، ولذلك فإن الدارس فى مجال الآثار والعمارة الإسلامية فى بلاد المغرب، سيجد فيه وفى ملامحه الفنية مجالاً لدراسة مظاهر التطور فى فن العمارة الإسلامية فى هذا العصر، كما أننا نجد أن مسجد الزيتونة بما يحتويه من نقوش كتابية عديدة، إنما يعد من أهم السجلات التاريخية الموثوق بها، إذ تعد هذه النقوش



نصوصًا تاريخية هامة، تؤرخ لكثير من الأحداث السياسية لبلاد المغرب في العصر الإسلامي[٦].

كذلك تشير هذه النقوش إلى أسماء الصناع الذين ساهموا في التجديدات والإنشاءات التي أجريت بالمسجد الجامع[٧].

وتعد أهم الإصلاحات التي لحقت بالجامع، تلك التي حدثت في عصر الأغالبة، حيث إن إبراهيم بن الأغلب قد شرع في إعادة بناء المسجد الجامع بتونس في سنة ٢٤٨هـ/٨٦٢م، ولكنه توفي قبل أن ينتهي مما بدأ فيه، فأتمه أخوه زيادة الله الثاني، الذي خلفه على حكم الأغالبة. ولم يسجل أي من اسمي هذين الأخيرين لوفاة زيادة الله في سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م، بعد عام واحد من توليه الحكم. ولم تزد مساحة المسجد بعد هذه الإصلاحات الأغلبية عما كانت عليه منذ إنشائه سنة ١١٤هـ زمن عبيد الله بن الحبحاب إلا بثلاثة أساكيب، زيدت في بيت الصلاة، كما أقيم بالمسجد قبة أمام المحراب في هذه الزيادة[٨].

وأهم ما يميز مسجد الزيتونة الجامع، أنه مربع في غير انتظام، يغطي مساحة من الأرض طولها ٧٦ مترًا، وعرضها ٦١ مترًا في حين يبلغ طول جدار المحراب ٦١ مترًا، والجدار الشرقي ٦٥ مترًا والغربي ٧٦ مترًا، والشمالي ٥٧ مترًا.

ويشتمل بيت الصلاة على سبعة أساكيب موازية لجدار القبلة طول كل منها ٥٤٫٥ مترًا تخترقها ١٥ بلاطة طول الواحدة ٢٥ مترًا تقريبًا.

وتتجه عقود المسجد اتجاهين في آن واحد، عمودية على جدار القبلة، وموازية لهذا الجدار.

تتسم عقود جامع الزيتونة بأنها عقود مستقلة، ومرتكزة على أعمدة، وهي تتشابه في ذلك مع عقود جامع القيروان[٩].

وتجمع أعمدة جامع الزيتونة بين الأعمدة القديمة، التي جلبت من آثار قديمة ترجع إلى العصور الرومانية والبيزنطية، وأعيد استخدامها، وفي نفس الوقت فإننا نجد في الجامع تيجانًا إسلامية ترجع إلى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي[١٠].

وفيما يتعلق بجدران الجامع فقد بنيت من الحجر الجيري المصقول ويبلغ ارتفاعها حوالي تسعة أمتار. ويتميز جامع الزيتونة بأنه يشتمل على مئذنتين، الأولى منهما أمام المحراب في حين تقع الثانية على مدخل البلاط الأوسط فيما

يلى الصحن.

أما صحن مسجد الزيتونة الجامع، فهو مربع غير منتظم الأضلاع ، شأنه فى ذلك شأن شكل المسجد بوجه عام.

غير أن أهم ما يميز جامع الزيتونة هو ظهور تناوب اللونين الأبيض والرمادى فى كتل الحجارة التى تؤلف سنج العقود داخل قبة المحراب. وقد ظهر هذا العنصر الزخرفى، الذى يرى بعض المؤرخين والأثريين أنه تأثير أندلسى على العمارة المغربية ، أول ظهوره فى قبة المحراب من الداخل، ثم فاض إلى الخارج، وامتد هذا العنصر الزخرفى الرائع ليغطى العقود والجدران نفسها[١١].

ولجامع الزيتونة منبر، يرجع تاريخه إلى سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م، ويتشابه مع منبر جامع القيروان وإنْ كان أصغر حجمًا[١٢].

ويتميز هذا المنبر بأنه يحتوى على زخارف هندسية ونباتية رائعة؛ فالزخارف النباتية التى تزوق حشوات المنبر، تتحول بالتدريج مع استمرار الزخرفة إلى زخارف هندسية، لا تذكرنا بأصلها النباتى إلا بعض العروق والقنوات التى تخترق خطوطها المنتظمة.

وفى زمن الحفصيين، عاد جامع الزيتونة ليصبح محور اهتمام سلاطين هذه الدولة. ولعل أهم الأعمال الإصلاحية التى لحقت بالجامع تلك التى حدثت فى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، عندما أضيف للمسجد أبوابٌ خشبية[١٣].

أ.د / سحر عبد العزيز سالم

الهوامش :

(١) المالكى (أبو بكر عبد الله)، كتاب رياض النفوس، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١، ص ٣٨ . ويذكر البكرى أن عبد العزيز بن مروان والى مصر أرسل إلى حسان بن النعمان ألف مصرى بأسرهم إلى ترشيش ليساعدوه فى بناء الأسطول لخبرتهم فى هذا المجال . وكان حسان بن النعمان فى أشد الاحتياج لبناء أسطول إسلامى بتونس لمواجهة البيزنطيين . (البكرى (أبو عبيد الله عبد الله بن عبد العزيز) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دى سلان Description De l' Afrique Septentrionah ، الجزائر، ١٩١١، ص ٣٨.

(٢) المالكى، رياض النفوس، ص ٣٧.

(٣) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ٢٠١١، ص١٦٣.

(٤) Fikry (Ahmed), La Mosque'e Az- Zaytouna Tunes: reches arche'o logigues dans .Egyptian Society of Historical Studies, le Caire, 1952, 11, p 29.

(٥) السيد عبد العزيز سالم، جامع الزيتونة بتونس، مقال بكتاب بيوت الله مساجد ومعاهد، القاهرة، ١٩٦٠ كتاب الشعب، عدد ٧٨، ص ١٦٤- ١٦٨- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، ص ٣٥٠ وما يليها.

(٦) تعد النقوش الكتابية إحدى مصادر المؤرخ الهامة التى لا يرقى إليها الشك . وعن المصادر الأثرية بوجه عام وأهميتها للمؤرخ ارجع إلى : السيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، طبعة الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠١٠، ص .

(٧) أحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، الإسكندرية، ١٩٦١، ص ٢٥٥ وما يليها.

(٨) المرجع السابق، ص ٢٥٥ ، السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص ٣٥١ .

(٩) المرجع السابق، ٣٥٢ .

(١٠) .Fikry, op.cit, pp 40, 41

(١١) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب،ص ٣٥٥.

وفيما يتعلق بتناوب اللونين الأبيض والرمادى فى العقود فإننا نجد أن عقود الجامع الكبير بقرطبة قد تناوبت فيها قطع الحجارة البيضاء مع قطع الآجر، مما يوحى بتأثر فنى متبادل فيما يتعلق بفكرة تناوب اللونين.

(١٢) Fikry, op.cit, p 58- 63 - السيد عبد العزيز سلم، تاريخ المغرب، ص ٣٥٦.

(١٣) المرجع السابق، ص ٣٥١.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- المالكى : كتاب رياض النفوس.
- أ.د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى .
- ا.د. أحمد فكرى مساجد القاهرة ومدارسها .

جامع عمرو بن العاص[1].

يعد مسجد عمرو بن العاص من أشهر المساجد الجامعة فى الحضارة الإسلامية فهو أول المساجد الجامعة التى عمرت بمصر وأفريقيا، كما أنه أقدم جامعة إسلامية قامت بدور كبير فى نهضة وتطوير الحركة العلمية قبل الجامع الأزهر بالقاهرة وجامع القرويين بفاس وجامع الزيتونة بتونس.

وكان موضع هذا المسجد جنانًا (بساتين) شمال حصن بابيلون وقد حازها وملكها قيسبة بن كلثوم التجيبى وعقب فتح الاسكندرية وعودة عمرو بن العاص إلى موضع فسطاطه شمال حصن بابيلون قرر عمارة المسجد فاستقر الرأى بعد المشورة على أن يكون منزل قيسبة، فسأله عمرو فيه وقال له: " أنا أختط لك يا أبا عبد الرحمن حيث أحببت، " فقال قيسبة : لقد علمتم يا معشر المسلمين أنى حزت هذا المنزل وملكته وإنى أتصدق به على المسلمين وارتحل فنزل مع قومه بنى سوم واختط فيهم[2].

ويصف المقريزى هذا المسجد بقوله: "هذا الجامع بمدينة فسطاط مصر (مصر القديمة حاليًا) ويقال له تاج الجوامع وجامع عمرو بن العاص وهو أول مسجد أسس بديار مصر فى الملة الإسلامية بعد الفتح . . "[3].

وكانت مساحة المسجد فى أول أمره ٥٠ ذراعا فى ٣٠ ذراعًا أى ٢٥X ١٥مترا وكان سقفه مطاطا جدًا (أى منخفضًا) ولا صحن له، فإذا كان الصيف جلس الناس بفنائه من كل ناحية، وبينه وبين دار عمرو سبعة أذرع وجعل الطريق يطيف به من كل جهه وجعل له بابان يقابلان دار عمرو بن العاص وجعل له بابان فى بحريه وبابان فى غربيه[4].

وهذا يعنى أن تخطيط مسجد عمرو بن العاص فى هذه المرحلة الأولى من بنائه كان يتبع التخطيط الذى اصطلحنا على تسميته بالتخطيط غير التقليدى؛ وهذا النوع من التخطيط له أنماط متعددة ولكن السمة الرئيسة فيه هو أنه لا يحتوى على صحن أوسط مكشوف مثل التخطيط التقليدى المعروف[5].

وتوالت بعد ذلك أعمال الزيادة والتجديد والإضافة بدءًا من العصر الأموى ومرورًا بالعصر العباسى فالعصور التاريخية المتعاقبة حتى العصر الحديث[6].

ومن بين هذه وتلك حسبنا أن نشير إلى زيادة الأمير مسلمة بن مخلد الأنصارى ٥٣هـ/ ٦٧٣م وكانت من شرقيه ومن بحريه، وزخرف جدرانه وسقوفه كما جعل له أربع صوامع فى أركانه الأربعة وهو أول من جعلها فيه وفرشه بالحصر بعد أن كان مفروشا بالحصباء.

وفى سنة ٧٩هـ/ ٦٩٨م هدمه وزاد فيه الأمير عبد العزيز بن مروان، وفى سنة ٨٩هـ/٧٠٧م أمر الأمير عبد الله بن عبد الملك برفع سقف المسجد وكان مطاطاً.

وفيما بين عامي ٩٢- ٩٣هـ/٧١٠-٧١١م هدمه الأمير قرة بن شريك العبسى ثم زاد فى مساحته وأحدث فيه محرابًا مجوفا ونصب فيه منبرًا خشبيًا سنة ٩٤هـ/٧١٢م وأحدث المقصورة وذهّب تيجان الأعمدة الأربعة تجاه المحراب وصار للجامع أربعة أبواب فى شرقيه ومثلها فى غربية وثلاثة فى بحريه.

وفى سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م بنى أسامة بن زيد التنوخى متولى الخراج بمصر فى عهد ولاية أمير مصر يومئذ عبد الملك بن رفاعة الفهمى بيت المال أعلى الفوارة بالجامع وكان مال المسلمين فيه[٧].

وفى العصر العباسى زاد فيه كل من الأمير صالح بن على ١٣٣هـ/٧٥٠م والأمير موسى بن عيسى ١٧٥هـ/٧٩١م إلا أن أهم الزيادات فى المسجد وخاتمتها كانت بأمر الأمير عبد الله بن طاهر بن الحسين من قبل الخليفة عبد الله المأمون وذلك عام ٢١٢هـ/ ٨٢٧م فزاد فى المسجد مثله من غربيّه أى أنه أضاف إلى أرض المسجد مساحة جديدة من الجهة الجنوبية الغربية تعادل مساحته السابقة وبذلك بلغت مساحة المسجد ١١٢٫٥٠م X ١٢٠٫٥٠ وهى مساحته الحالية غير أن جدرانه ليست متعامدة على بعضها تماما فكأن مسقطه الأفقى أقرب إلى شبه منحرف منه إلى مستطيل. ويرى بعض العلماء أنه لا يزال توجد بالمسجد بعض المعالم الأثرية الباقية من عمارة عبد الله بن طاهر وتتمثل هذه المعالم فى بعض العناصر المعمارية والزخرفية والأساليب البنائية وذلك بالواجهتين الجنوبية الشرقية والجنوبية الغربية؛ فضلاً عن داخل مقدم المسجد من الجهة الجنوبية الغربية ومنها:

١- طريقة بناء العقود بجنزير – أى حلقة- من صنجات من قوالب الأجر تتجه بطولها نحو مركز قوس العقد أو ما يسمى فى الاصطلاح المعمارى الدارج فى مصر بجنزير من طوب على سيفه محصور بين جنزيرين من طوب على بطنه.

٢- العقد المدبب فى النوافذ الصغيرة بجدار القبلة وكذلك الطواقى الزخرفية للحنايا الغائرة بين النوافذ فى أعلى الجدار فى الواجهة الجنوبية الغربية وبالتالى فهو أقدم مثل باق بمصر، ترجيحًا، لهذا النوع من العقود قبل النموذج المؤكد الباقى بمقياس النيل بجزيرة الروضة المؤرخ بعام ٢٤٧هـ/٨٦١م.

٣- الحنايا الغائرة فى النصف العلوى من الجدران الخارجية فى الواجهتين الجنوبية الغربية والشمالية الشرقية وتتوج تلك الحنايا طواقى زخرفية ومحيطها الخارجى من فصوص متتابعة

٤ـ عمل نواصى الحنايا على هيئة أعمدة ملتصقة قطاعها الأفقى من ٣/٤ الدائرة.

٥ـ الأشرطة الخشبية والأفاريز حفرت عليها زخارف نباتية لازالت تحتفظ ببعض الملامح الهيلينستية ولكن تطرق إليها تحوير وتطوير لم يكونا موجودين فى القرون السابقة ولم تكن تقاليد طراز سامرًا الفنى قد نمت وتطورت بعد، وقوام زخرفتها أوراق الأكانتس وأوراق العنب وأغصانه والزخرفة المعروفة بعنصر البيضة والسهم، وتعكس هذه الزخرفة استمرار الأساليب الفنية السابقة على الإسلام فى الفن الإسلامى المبكر عامة والفن المصرى الإسلامى فى الفترة المبكرة خاصة[٨].

وهناك من العلماء من يعتقد أن هذه العناصر المعمارية والزخرفية لا ترجع إلى عمارة عبد الله بن طاهر وإنما تنتمى إلى نهاية العصر الفاطمى[٩].

أما عن أعمال الإصلاح والتجديد والتجميل فى المسجد فكثيرة وهو ما يستدل عليه من خلال ما ورد فى ثنايا المصادر التاريخية، فضلا عن مشاهدات الرحالة والجغرافيين المسلمين، فها هو المقدسى الجغرافى يصفه قبل عام ٣٧٥هـ/٩٨٥م بالفخامة وأنه حسن البناء وفى حيطانه شىء من الفسيفساء على أعمدة رخام أكبر من جامع دمشق وهو أعمر موضع بمصر[١٠].

أما الرحالة الفارسى ناصر خسرو فقد وصفه فى سنة ٥٧٨هـ /١١٨٢م بقوله: "وهذا المسجد قائم على أربعمائة عمود من الرخام، والجدار الذى عليه المحراب مغطى كله بألواح الرخام الأبيض التى كتب القرآن عليها بخط جميل..."[١١].

وفى العصر الأيوبى وصفه الرحالة الأندلسى ابن جبير عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م بقوله: "وبمدينة مصر المسجد الجامع

المنسوب إلى عمرو بن العاص رحمه الله.. وله من الفائدة نحو الثلاثين دينارا مصريًا فى كل يوم تتفرق كلها فى مصالحه ومرتبات قومته وسدنته وأئمته والقراء فيه"[١٢].

وفى العصر المملوكى البحرى وصفه الرحالة ابن بطوطة بقوله: "ومسجد عمرو ابن العاص مسجد شريف كبير القدر شهير الذكر تقام فيه الجمعة وبشرقه الزاوية حيث كان يدرس الإمام أبو عبد الله الشافعى" [١٣].

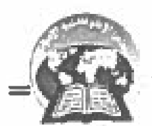
وعلى الرغم من أنه لم يتبق من عمارة المسجد العتيق أية معالم أثرية باستثناء العناصر المعمارية والزخرفية والأساليب البنائية السابق الإشارة إليها إلا أنه اعتمادًا على ما ورد فى المصادر التاريخية وبخاصة كتاب الانتصار لابن دقماق من جهة وما كشفت عنه الحفائر الأثرية من جهة ثانية، فقد قام العلماء بعمل مشاريع تصويرية لتخطيط المسجد الأصلى وتكوينه المعمارى ومنها مشروع محمود أحمد ومشروع أحمد فكرى ومشروع الكابتن كريزول والذى أيده فريد شافعى، وهذا المشروع الأخير عبارة عن صحن أوسط مكشوف ومقدم ومؤخر ومجنبتين، والمقدم (جهة القبلة) يشتمل على ستة بائكات تحصر فيما بينها سبعة أروقة (بلاطات) موازية لجدار القبلة والمؤخر(الجهة المقابلة للمقدم وهى الجهة البحرية) يماثل المقدم فى عدد بائكاته وأورقته (بلاطاته)، والمجنبة اليمنى (الجنوبية الغربية) تشتمل على أربعة بائكات تحصر فيما بينها أربعة أروقة (بلاطات) عمودية على جدار القبلة؛ أما المجنبة اليسرى(الشمالية الشرقية) فتشتمل على سبعة بائكات تحصر فيما بينها ثمانية أروقة موازية لجدار القبلة وليست عمودية على ذلك الجدار، وكان للمسجد أيام عمارة عبد الله بن طاهر ١٣ بابا منها ثلاثة فى الجدار الشمالى الغربى المواجه للميدان وأربعة فى الجدار الجنوبى الغربى وخمسة فى الجدار الشمالى الشرقى وباب واحد فى جدار القبلة[١٤].

وبالركن الشرقى من المسجد توجد قبة تنتسب إلى عبد الله بن عمرو بن العاص(رضى الله عنهما)، وقد شاع أنه دفن بها وهذا غير موثوق به، فهناك اختلاف بين المؤرخين على تاريخ وفاته فقيل ٥٥هـ/٦٧٥م/٦٣هـ/٦٨٢م، و٦٥هـ/٦٨٤م و٦٧هـ/٦٨٦م و٦٨هـ/٦٨٧م و٧٣هـ/٦٩٢م . كذلك اختلفوا فى موضع

دفنه؛ فقيل بمكة أو الطائف أو دفن فى داره الصغرى بالفسطاط، ولكن الأرجح أنه لم يدفن فى المسجد لأن محل القبة كان به مئذنة ولأن من زاره من الرحالة المسلمين لم يذكروه فيه مع أن القباب والمزارات هدفهم الأول فى أغلب الأحوال؛ فها هو النابلسى فى كتابه "الحقيقة والمجاز فى الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز" قد زار المسجد عام ١١٠٥هـ/١٦٩٣م وتجول فى نواحيه ووصف ما شاهده ورآه ولم يشر إلى أن به قبة لعبد الله بن عمرو بن العاص؛ ومن جهة ثانية فإن طراز القبة متأخر وبالتالى فهى مضافة فى تاريخ غير معلوم حتى الآن وربما بعد عمارة الأمير مراد بك عام ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م.[١٥].

هذا؛ وقد كان أكبر أثر خلفه تاريخ مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط (مصر القديمة) هو ما شهدته أروقته وجدرانه وحلقاته من حياة علمية مزدهرة، فقد كان هذا المسجد بؤرة للعلوم والمعارف الإسلامية، كما قامت به نهضة أدبية عميقة الأثر كانت فى بعض الأحيان صدى للحركة العلمية فى الأمصار الإسلامية الأخرى وفى البعض الآخر كانت هذه النهضة فريدة من نوعها يقصدها طلاب العلوم المختلفة من شتى أرجاء دار الإسلام .

كذلك كان هذا المسجد مقرًا لبيت مال المسلمين ومتولى الخراج لمباشرة عمله، وتعقد به مجالس القضاء ومجالس القُصَّاص والمذكِّرين . وكان أول قاضٍ جلس فى مسجد عمرو هو عثمان بن قيس ابن أبى العاص من قبل الخليفة عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) وقد جلس للفصل بين الناس فى خصوماتهم، أما القاضى سليم بن عتر التجيبى الذى عينه الخليفة معاوية بن أبى سفيان فقد جمع له الخليفة بين القضاء والقصص فى المسجد الجامع فكان أول من سجل سجلاً فى المواريث وأشهد فيه شيوخ الجند، وهناك من القضاة من جمع بين القضاء والقصص وبيت المال فى المسجد الجامع ومنهم عبد الرحمن بن حجيرة الخولانى[١٦] عام ٦٩هـ/٦٨٨م . وقد وصف ابن رسته بيت المال فى مسجد عمرو بقوله: " وإن بيت مال مصر فى المسجد الجامع قدام المنبر وهو منفصل من سطوح المسجد لا يتصل بشىء منها وهو مرفوع بأساطين (أعمدة) من حجارة وهى شبه قبة مرتفعة يجلس الناس تحت البيت ويمرون تحته وهناك قنطرة من خشب



وإذا أرادوا دخول ذلك البيت جروا تلك القنطرة بالحبال حتى يستقر طرفها على سطح المسجد، فإذا خرجوا ردوا القنطرة وعليها باب حديد وأقفال "[١٧].

وأما عن مجالس القُصَّاص والمُذَكِّرين فتشير المصادر إلى أن أول من قام بالقص أو الوعظ للجند بالمسجد الجامع كان سليم بن عتر الصحابى فى ولاية عمرو بن العاص، وهناك رواية أخرى تشير إلى أن معاوية بن أبى سفيان كان هو أول من أمر بالقصص فى المسجد بالفسطاط[١٨]. وهناك من القضاة من جمع بين القضاء والقصص كما سبق القول.

أما عن الحلقات العلمية بمسجد عمرو ابن العاص فكانت كثيرة ومتعددة وكانت تعرف باسم الزوايا ومنها زاوية الإمام الشافعى والزاوية المجدية والزاوية الصاحبية والزاوية الكمالية والزاوية التاجية والزاوية المعينية والزاوية العلائية، والزاوية الزينية[١٩].

وظلت الحلقات العلمية فى ازدياد حتى أنها بلغت ٣٣ جلقة سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م (أى فى صدر الدولة الإخشيدية) منها ١٥ حلقة شافعية ومثلها للمالكية وثلاث حلقات للحنفية[٢٠].

ويذكر المقدسى الجغرافى الذى كتب أحسن التقاسيم عام ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م أن الجامع كان يغص بين العشائين بحلق الفقهاء وأئمة القراء وأهل الأدب والحكمة ويضيف أن عدد الحلقات العلمية بالجامع بلغ ١٢٠حلقة "[٢١].

وفى العصر الفاطمى كان يقام بالجامع حلقات درس ووعظ للسيدات تصدرتها حوالى عام ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م أم الخير الحجازية واعظة زمانها[٢٢].

ويزودنا الرحالة الفارسى ناصر خسرو بتفاصيل مهمة فى رحلته إلى مصر (٤٣٩- ٤٤٢/١٠٤٧- ١٠٥٠م) منها أنه لا يقل من فيه (أى الجامع) فى أى وقت عن خمسة آلاف من طلاب العلم والغرباء والكتاب الذين يحررون الصكوك والعقود وغيرها "[٢٣].

وقد سبقت الإشارة إلى ما ذكره ابن جبير عن المسجد فى صدر الدولة الأيوبية وتحديدًا عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م . أما فى أواخر العصر الأيوبى فقد وصف الرحالة ابن سعيد الأندلسى ما شاهده بالمسجد بقوله: " واستحسنت ما أبصرته فيه (يعنى الجامع) من حلق المتصدرين لإقراء القرآن والفقه والنحو .. "[٢٤].

وفى عصر المماليك البحرية وتحديدًا قبل عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م كان بالجامع

بضعٌ وأربعون حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه"[٢٥].

أما عن تفاصيل هذه الحلقات العلمية فهي كثيرة ومتشعبة، وبالمصادر التاريخية وكتابات الرحالة ومشاهداتهم إشارات كثيرة حول هذه الحلقات العلمية، وكل ما يمكن قوله في هذا المقام هو أن هذه الحلقات كانت متنوعة فمنها حلقات حفاظ الحديث ومنها حلقات الفقه ومنها حلقات القراءات.

ومن أشهر الصحابة والمحدثين والفقهاء والقراء الذين تصدروا هذه الحلقات الصحابى الجليل عبد الله بن عمرو بن العاص وصحيفته المعروفة بالصادقة والصحابى عقبة بن كريم الأنصارى والصحابى أبو أيوب الأنصارى. ومن المحدثين يزيد بن حبيب وعبد الله بن لهيعة وعبد الله بن وهب، ومن الفقهاء الإمام الليث بن سعد والإمام الشافعى والرعينى وبكير بن عبد الله الأشج وعبد الرحمن بن القاسم وأصبغ بن الفرج وأشهب وعبد الله بن الحكم والحارث بن مسكين والبويطى والمزنى والربيع بن سليمان بن داود الجيزى تلامذه الشافعى.

أما القراء فمن بينهم أبو ذر الغفارى وعبد الرحمن بن ملجم المرادى وعقبة بن عامر الجهنى وعبد الرحمن بن ميسرة.

أما أشهرهم فهو عثمان بن سعيد المعروف بورش وقد أخذ القراءة عن نافع بالمدينة المنورة وهو الذى لقبه بورش لشدة بياضه وانتهت إلى ورش رئاسة الإقراء وأصبح إمام القراءة المنسوبة إليه وكانت وفاته ١٩٧هـ/ ٨١٢م، ومن مشاهير الأئمة القراء يونس بن عبد الأعلى الذى تصدر للإقراء والفقه فى مسجد عمرو بن العاص.

ولم يقف دور مسجد عمرو بن العاص عند هذا الحد بل عقدت به مجالس أرباب اللغة والنحو والآداب ومجالس الرواة والإخباريين، بل إن هذا المسجد صار قبلة الفقهاء وطلبة العلم من أقطار المغرب والأندلس[٢٦]. وختامًا فإنه لابد من الإشارة إلى أنه كان من التقاليد المهمة المرتبطة بمسجد عمرو بن العاص ذلك التقليد الخاص بالاحتفال بصلاة الجمعة الأخيرة من شهر رمضان المبارك، وقد نشأ هذا التقليد منذ العصر الفاطمى؛ فقد كان الخليفة يركب للاحتفال برؤية شهر رمضان ثم يستريح أول جمعة منه فإذا كانت الجمعة الثانية أداها فى جامع الحاكم، فإذا كانت الجمعة الثالثة أداها فى الجامع الأزهر فإذا كانت الجمعة الرابعة والأخيرة صدرت

الأوامر بأدائها فى جامع عمرو بن العاص فيقوم أهالى القاهرة بعمل الزينات من باب القصر بالنحاسين (شارع المعز لدين الله حاليا فى المنطقة المعروفة ببين القصرين) إلى جامع أحمد بن طولون ويقوم أهالى مصر القديمة بعمل الزينات حتى جامع عمرو وبعد أداء الفريضة يعود الخليفة إلى القصر فيصدر السجل.

ولما أتم مراد بك إصلاح الجامع فى النصف الثانى من شهر رمضان ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م أقيمت فيه آخر جمعه فى رمضان فاتخذت عادة إحياء للعادة القديمة[٢٧].

أ.د / محمد حمزة الحداد

الهوامش

(١) يصعب فى هذا المقام أن تقدم دراسة وصفية وتحليلية مفصلة ومطولة لمسجد عمرو بن العاص فهذا يخرج عن إطار الخطة الموضوعة لهذا المصطلح، ولذلك حسبنا أن نركز على وصف موجز لمراحل عمارة المسجد وتوسعته والزيادة فيه والعناصر المعمارية والزخرفية والأساليب البنائية التى ما تزال باقية من عمارة الأمير عبد الله بن طاهر، أما من أراد التوسع والزيادة والإثراء فى المعلومات والتفاصيل فليرجع إلى العديد من المصادر والمراجع ومن بين المصادر حسبنا أن نشير إلى مؤلفات كل من ابن عبد الحكم والكندى وابن دقماق والمقريزى وابن تغرى بردى والبكرى وناصر خسرو وابن بطوطة وعبد الغنى النابلسى وأوليا جلبى وغيرهم، أما المراجع الحديثة فمنها محمود أحمد، بيان تاريخى عن مسجد عمرو بن العاص وشرح مميزاته الفنية، القاهرة ١٩٣٥م، وجامع عمرو بن العاص من الناحيتين الأثرية والتاريخية، القاهرة ١٩٣٨م، ومحمد عبد العزيز مرزوق، مساجد القاهرة قبل عصر المماليك ص ٩- ٢٦؛ وحسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ ١، ص ٢٣- ٣١، وأحمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، ص ٦٧- ١٠٠، وفريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية، المجلد الأول، ص ٣٦٣- ٣٨٤؛ وسعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ١، ص ٥٥- ٧٤، وحسن الباشا، جامع عمرو ضمن كتاب القاهرة، ص ٤٠٣- ٤٣٣؛ عاصم محمد رزق، أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة، جـ ١، ص ١٧- ٣٤؛ فضلاً عن دراسات كل من كريزول وهوتكير وفييت من العلماء الأجانب.

(٢) المقريزى، الخطط ، ج ٤، ص ٩.

(٣) المقريزى، الخطط ، ج٤، ص ٨.

(٤) ابن دقماق، الانتصار، ج٤، ص٦٢؛ المقريزى، الخطط، ج ٤، ص ١٢، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، ج١، ص ٦٧.

(٥) محمد حمزة الحداد، بحوث ودراسات فى العمارة الإسلامية، الكتاب الأول، القاهرة ٢٠٠٤، ص ١٧٨- ١٨٥.

(٦) لمن أراد أن يتعرف على هذه الأعمال وتفاصيلها أن يرجع إلى المصادر التاريخية والمراجع المشار إليها سابقاً.

(٧) المقريزى ، الخطط ، ج ٤ ، ص ١٣- ١٦.

(٨) فريد شافعى، العمارة العربية فى مصر الإسلامية، المجلد الأول، عصر الولاة، القاهرة (١٩٧٠م)، ص٣٦٦- ٣٦٧، ٣٨١- ٣٨٣.

(٩) محمود أحمد، جامع عمرو، ص٩٢- ٩٣، حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد جـ١، ص٢٩.

(١٠) المقدسى، أحسن التقاسيم، ص١٩٩.

(١١) ناصر خسرو، سفر نامة، ص١١٧.

(١٢) ابن جبير، رحلة ابن جبير، ص٤٦- ٥١.

(١٣) رحلة ابن بطوطة، ص٢٠٢.

(١٤) فريد شافعى، العمارة العربية ، ص ٣٦٧- ٣٧٥.

(١٥) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد، ص ٣١.

(١٦) السيد طه أبو سديرة، الحركة العلمية فى جامع عمرو بن العاص فى عصر الولاة، القاهرة (١٩٩٠م)، ص ٢٣- ٣٥.

(١٧) ابن رسته، الأعلاق النفيسة ، ص ١١٦.

(١٨) السيد طه أبو سديرة، الحركة العلمية، ص ٣١- ٣٥

(١٩) المقريزى، الخطط ، ج ٤، ص ٣٦

(٢٠) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب، جـ ١، ص ١٧٢؛ سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى عصر الإخشيديين، ص٣٢٠ .

(٢١) المقدسى، أحسن التقاسيم ، ص ٢٠٥ .

(٢٢) المقريزى، الخطط، ج٤، ص ٣١.

(٢٣) ناصر خسرو، سفرنامة ، ص ١١٧

(٢٤) ابن سعيد ، المغرب فى حلى المغرب، ج١، ص ٧.

(٢٥) المقريزى، الخطط ، ج٤، ص ٣٧، السيوطى، حسن المحاضرة، ج٢، ص ١٣٦.

(٢٦) عن تفاصيل الحركة العلمية عامة والحلقات العلمية والمساجد بمسجد عمرو خاصة انظر، سيدة إسماعيل كاشف، مصر فى فجر الإسلام من الفتح العربى إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٠م، ص ٢٧٦- ٢٩٠؛ السيد طه أبو سديرة، الحركة العلمية فى جامع عمرو بن العاص فى عصر الولاة، ص ٤٧- ١٨٦؛ صفى على محمد، الحركة العلمية والأدبية فى الفسطاط منذ الفتح العربى إلى نهاية الدولة الإخشيدية، سلسلة تاريخ المصريين العدد ١٦٧، القاهرة ٢٠٠٠م، ص ٦٤- ٦٤٨.

(٢٧) حسن عبد الوهاب، تاريخ المساجد الأثرية، جـ ١، ص ٣١.

مصادر ومراجع للاستزادة

اولا : المصادر:

- ابن دقماق إبراهيم محمد ، ت ٨٩٠هـ/١٤٠٦م الانتصار لواسطة الامصار ،القاهرة،ط٢، ١٩٨٧م.
- ابن سعيد ، أبو الحسن على بن موسى، ت ٦٨٥هـ/١٢٧٥م، المغرب فى حلى المغرب، الجزء الاول من القسم الخاص بمصر، تحقيق زكى محمد حسن وآخرين فى جزئين، القاهرة ١٩٥٢م ط٢٠٠٣،٢م.
- السيوطى، الحافظ جلال الدين عبد الرحمن ، ت ٩١١هـ/١٥٠٥م حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، جزءان، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة١٩٦٨م.
- ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن، ت ٢٥٧هـ/٨٧م فتوح مصر وأخبارها، طبع تورى ليدن ١٩٢٠م مكتبة المثنى ببغداد، وتحقيق محمد صبيح، القاهرة١٩٧٤م.
- المقريزى، تقى الدين احمد بن على، ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، ٥ مجلدات تحقيق ايمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان، لندن – جدة ٢٠٠٢- ٢٠٠٣م.

ثانيا : المراجع العربية :

١ ٠ احمد فكرى، مساجد القاهرة ومدارسها، المدخل، القاهرة ١٩٦١م.

٢.حسن الباشا، جامع عمرو، كتاب القاهرة، مؤسسة الأهرام، ١٩٧٠م.

٣ ٠ سعاد ماهر محمد، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، ٥ أجزاء، القاهرة، ١٩٧٠- ١٩٨٢م.

سيدة إسماعيل كاشف ، مصر في فجر الإسلام من الفتح العربي إلى قيام الدولة الطولونية، القاهرة ،ط٢ ، ١٩٧٠م.

٤ ٠ محمد حمزة إسماعيل الحداد، بحوث ودراسات في العمارة الإسلامية ، الكتاب الأول ، القاهرة، ط٢ ، ٢٠٠٤م.

- المدخل إلي دراسة المصطحات الفنية للعمارة الإسلامية ، القاهرة ،ط٢، ٢٠٠٣م.
- العمارة والفنون فى الحضارة الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٩م.

٥- محمود أحمد، بيان تاريخي عن مسجد عمرو بن العاص وشرح مميزاته الفنية ، القاهرة، ١٩٣٥م

- جامع عمرو بن العاص من الناحيتين الأثرية والتاريخية، القاهرة١٩٣٨م.

جامع القرويين

ثار الحسين بن على بن الحسن الحسنى العلوى على العباسيين ١٦٩هـ=٧٨٥م بالحجاز، لسوء معاملة الوالى عمر بن عبد العزيز بن عبد الله[١]، عامل المدينة من قبل الخليفة العباسى الهادى، للعلويين، وبويع الحسين بالخلافة فى المدينة، وقُدِّر له أن يلتقى بجيوش العباسيين فى موضع وادى فخ على طريق مكة، وانهزم فى هذه المعركة، وقتل. وقد أفلت من هذه المعركة عمه إدريس بن عبد الله بن الحسن[٢]، الذى هرب فى أعقاب هذه الهزيمة إلى مصر ومنها اتخذ طريقه حتى وصل إلى المغرب الأقصى.

ونزل إدريس الحسنى بمدينة "وليلى" فى ربيع الأول من ١٧٢هـ- ٧٨٨م، ضيفًا على إسحق بن عبد الله الأوربى أمير قبيلة أوربة البربرية الذى أجاره وأكرمه. والتفت حول إدريس الكثيرُ من القبائل البربرية، ومن أهمها أوربة ومغيلة وصدينة، والعديد من قبائل زناتة مثل زواوة ونفزة ومكناسة وغمارة.

وبويع إدريس الحسنى بالإمامة، وكوّن جيشًا افتتح به شالة وتامسنا وتادلا، وبلغ ماسة حيث نشر الإسلام فى هذه البقاع التى كان أهلها لا يزالون يدينون بالمجوسية واليهودية والنصرانية. ووصل إدريس فى غزواته حتى تلمسان وحارب قبائلها من الخوارج ثم عاد إلى وليلى، مؤسسًا بذلك إمارة قوية بالمغرب الأقصى نسبت إليه وعرفت بدولة الأدراسة[٣].

وقد أنشأ إدريس بن عبد الله مدينة أسماها فاس فى ١٧٢هـ، وأقامها على الطراز البربرى فى الجزء الواقع شرقى مدينة فاس الحالية وكانت هذه البقعة قبل تشييد إدريس بن عبد الله فاس عليها، مجرد بلدة صغيرة، شأنها فى ذلك شأن القرى المتناثرة فى جنوبى المغرب الأقصى. وعلى الرغم من قيام إدريس بن عبد الله ببناء فاس، فقد آثر أن يقيم فى وليلى بين أنصاره من البربر، حتى توفى مقتولاً بالسم فى ١٧٥هـ/٧٩١م فى قول أو ١٧٧هـ/٧٩٣م فى قول آخر.ودفن أيضًا بوليلى.

وخلف إدريس بن عبد الله على حكم هذه الدولة الناشئة، ولده الذى كان يحمل نفس اسم والده، ولذلك فقد عرف بإدريس الثانى. وفضل إدريس الثانى فى بادىء الأمر، الإقامة فى وليلى وسط

أنصار والده من البربر، غير أنه سرعان ما قرب العرب إليه، وأخذ يجعل منهم حاشيته وبطانته دون البربر. واتخذ من العرب وزيرًا له هو عمير بن مصعب الأزدى، الذى أوحى إليه بتأسيس مدينة جديدة لينتقل للإقامة فيها بدلاً من وليلى[٤].

وتخير إدريس الثانى فى ١٩٢هـ/٨٠٧م، موضعا قبالة مدينة فاس ليؤسس عليه مدينته الجديدة التى ستعرف بمدينة القرويين أو العالية.

وشيد إدريس الثانى فى القرويين مسجدًا جامعًا، وهو الذى عرف تاريخيًا بمسجد الشرفاء، كما أنشأ قيسارية بالقرب من هذا المسجد، وبنى أسوارًا حول المدينة[٥]. وازدهرت القرويين، وامتلأت بساكنيها من العرب الوافدين على إدريس الثانى من القيروان ، الذين أسسوا المتاجر والدور. وأصبح بذلك هناك مدينتان، الأولى هى فاس القديمة التى أنشأها إدريس الأول الأب، والثانية هى القرويين أو العالية التى أنشأها إدريس الثانى الأبن.

وفى ٢٠٢هـ/٨١٧م، قدم على إدريس الثانى جماعة من الأندلسيين المطرودين من الأندلس، زمن أميرها الأموى الحكم بن هشام، بعد أن قاموا بثورة ضده، وهى الثورة المعروفة بثورة ربض شقندة بقرطبة، فما كان من إدريس الثانى، إلا أن وطنهم فى فاس القديمة التى عُرفت بعدوة الأندلسيين الذين ساهموا فى إنهاضها والإعلاء من شأنها، فأصبحت فاس القديمة بذلك فى مصاف المدن الكبرى آنذاك، فى حين عرفت العالية بعدوة القرويين.

ويذكر بعض المؤرخين المحدثين أن اسم فاس أصبح يطلق على هذا النحو على كل من عدوة الأندلسيين، وعدوة القرويين. ولعل ذلك ما أحدث ارتباكًا فى المصادر العربية، وأثار جدلاً تاريخيًا حول تحديد تاريخ بناء مدينة فاس[٦].

ويذكر ابن أبى زرع أن الخطبة بعدوة الأندلسيين كانت تقام فى جامع الأشياخ، فى حين استمرت الخطبة تقام بجامع الشرفاء الذى ابتناه إدريس الثانى، بعدوة القرويين طيلة عصر الأدراسة [٧].

ولما ضاق كل من الجامعين بالمصلين، قامت سيدتان، هما السيدة فاطمة أم البنين، والسيدة مريم، ابنتا الشيخ محمد ابن عبد الله الفهرى، وهو أحد القيروانيين الذى كان قد هاجر إلى عدوة القرويين وعاش بها حتى وفاته،

قامتا بالشروع فى بناء جامع بالقرويين كعمل من أعمال البر والتقوى فى مستهل رمضان من ٢٤٥هـ=٨٦٠م.

وكان موضعَ هذا المسجد الجامع الجديد بالقرويين، حقل يمتلكه رجل ينتمى إلى قبيلة هوارة، فاشترته منه السيدة فاطمة وتطوعت ببناء المسجد من ارثها عن والدها ليصبح بذلك المسجد الجامع الرئيس بالقرويين، والأكثر شهرة بالمغرب باعتباره جامعة علمية إسلامية قديمة يمكن مقارنتها بمكانة جامع الأزهر العلمية بالقاهرة الفاطمية فى المشرق الإسلامى.

ويذكر الجزنائى فى زهرة الآس أن جميع مواد البناء المستخدمة فى تشييد الجامع قد أخذت من أرضه[٨].

وقد قدم المستشرق مارسيه Marcais [٩] وصفًا فنيًا لما كان عليه جامع القرويين وقت بنائه زمن السيدة فاطمة بناء على ما أورده كل من ابن أبى زرع والجزنائى، حيث كان الجامع يتألف من قسمين هما بيت الصلاة، والصحن.

واشتمل بيت الصلاة، على أربع بلاطات عرضيه امتدت من الشرق إلى الغرب، تتوسطها بلاطة وسطى أكثر ارتفاعًا من البلاطات الأخرى. وكان بيت الصلاة يمتد من بداية البلاط الرابع بالصحن حتى نهاية البلاط السابع من المسجد الحالى.

وجُعل المحراب فى موضع الثريا الحالية بالمسجد. أما المئذنة فكانت تقوم على الواجهة الشمالية للمسجد[١٠]فى محور المحراب. وظل جامع القرويين على هذه الصورة حتى نهاية دولة الأدارسة، فلما تولى بنو زناتة حكم البلاد[١١]، زادوا فى جامع القرويين زيادة كبيرة، حيث مد الأمير أحمد بن أبى بكر فى ٣٤٤هـ=٩٥٥م البلاطات العرضية مسافة خمسة عقود شرقًا، وأربعة عقود غربًا، كما أضاف لبيت الصلاة ثلاث بلاطات عرضية جديدة شمالاً، فشغلت هذه البلاطات مكان الصحن القديم[١٢].

وفيما يتعلق بالمئذنة، فقد أقامها فوق منتصف الرواق المطل على الصحن من المجنبة الغربية. وكانت المئذنة مربعة الشكل، طول كل ضلع من أضلاعها نحو خمسة أمتار، وكان ارتفاعها نحو عشرين مترًا.

وانتهت أعمال التشييد التى قام بها الأمير أحمد بالمئذنة فى جامع القرويين فى عام ٣٤٥هـ. وركب عرفاء

البناء على رأس المئذنة تفاحات صغيرة مموهة بالذهب، وكذلك سيف الإمام إدريس الثانى تبركًا به. ويتضح التأثير الأندلسى[١٣] بجلاء فى المئذنة الجديدة .

وفى عصر المرابطين، اتسعت مدينة فاس، وكثر العمران بعدوة القرويين، مما دفع قاضى هذه المدينة إلى استئذان الأمير المرابطى على بن يوسف، بتوسيع جامع القرويين، فأذن له.وشرع القاضى بالفعل فى زيادة المسجد فى ٥٢٨هـ/١١٣٣م، بأن نزع ملكية الدور الملاصقة للجامع، وهدمها. وأقام مكان هذه الدور ثلاث بلاطات عرضية، أضيفت إلى البلاطات القديمة، كما زود الجامع بمحراب جديد ومنبر.

كذلك كُسيت أبواب الجامع بالنحاس الأصفر[١٤]، وأقيمت على كل منها قبة، كما أقيمت على المحراب قبة من الجص المقرنص،وزينت هى والمحراب بنقوش من الذهب واللازورد وأصناف الأصبغة المختلفة.

وقد أقام هذه الزيادات فنانون أندلسيون[١٥]، استقدمهم الأمير المرابطى من الأندلس. وتبدو التأثيرات الأندلسية متعددة فى هذه الأعمال التجديدية لا سيما فيما يتعلق بزخارف المسجد مثل مجموعات المراوح النخيلية المُعَرَّقة التى تشبه أوراق الأكنس التى غمرت القسم الأعلى من البلاطة الوسطى، وأركان القباب وجوفة المحراب من أعلاها. وهى تشبه فى ذلك الزخارف النباتية لقصر الجعفرية بسرقسطة، وقصر قصبة مالقة من عصر الطوائف.

وهذه الزخارف التى ظهرت بجامع القرويين تظهر لنا عنصرًا زخرفيًا جديدًا، ظهر لأول مرة فى فن الزخرفة الإسلامية، وهو [الزخرفة الثعبانية] عند منابت العقود، وهو النظام الزخرفى الذى سينتشر فى العصر الموحدى.

كذلك ظهرت لأول مرة فى هذه الزيادة بجامع القرويين، القباب المقرنصة. أما المنبر المرابطى الجديد فيعد من أجمل منابر الإسلام، وقد صنع من عود الصندل والأبنوس وطُعِّم بالعاج، وهو يشتمل على تسع درجات، ويشبه منبر جامع الكتبية بمراكش، وتظهر التأثيرات الأندلسية واضحة فى زخرفته خاصة فيما يتعلق بحشواته النجمية التى تزدان بتوريقات نخيلية معروقة شبيهة بالأسلوب الذى كان شائعًا بالأندلس[١٦] .

وفى العصر الموحدى، انتقد الموحدون هذا الإسراف فى النقش والزخرفة

والتذهيب بالمحراب والقباب بالجامع فغطوها بالجص، مما أدى إلى اختفاء هذه النقوش ، إلى أن أزيحت هذه الكسوة الجصية ١٣٦٩هـ/١٩٤٩م فعادت النقوش والزخارف إلى الظهور بألوانها الزاهية.

أ. د/سحر عبد العزيز سالم

الهوامش:

(١) محمد بن على بن طباطبا، كتاب الفخرى فى الآداب السلطانية، بيروت، ١٩٦٠، ص١٩٠.
(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ط. بولاق ١٢٩٠، جـ٥، ص٧٥- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى، طبعة مؤسسة شباب الجامعة، ٢٠١١، ص ٣٨٠. وقد لعب واضح متولى البريد بمصر، دورًا فى تهريب إدريس الحسنى ومولاه راشد إلى بلاد المغرب حيث ساعده على الفرار بأن حمله على البريد إلى هناك حيث نزلا بوليلي من أعمال طنجة .
(ابن الأثير، المصدر السابق، جـ٥، ص٧٦- ابن عذارى البيان المغرب فى أخبار المغرب، جـ١، تحقيق ليفى بروفنسال، ١٩٤٨، ص١٠١).
(٣) لمزيد من التفاصيل عن دولة الأدارسة ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص ٤٠١ وما يليها).
(٤) الجزناوى (أبو الحسن على) ، زهرة الآس فى بناء مدينة فاس نشر الفريد بيل، الجزائر، ١٩٠٠، ص١٣.
(٥) ابن أبى زرع (على بن محمد الفاسى)، الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، نشره تورنبرج أوبسال، ١٨٤٣، ص١٩، ٢٠.
(٦) عن الجدل التاريخى حول تحديد تاريخ بناء مدينة فاس ومؤسسها ارجع إلى (ليفى بروفنسال، الإسلام فى المغرب والأندلس، ترجمة الدكتور السيد عبد العزيز سالم، والأستاذ محمد صلاح الدين علمى، القاهرة، ١٩٥٨، ص٢٧ وما يليها- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص٤١١).
(٧) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص٢١.
(٨) الجزناوى، زهرة الآس، ص٣٥.
(٩) Marcais (Georges) ,L'Architecture Musulmane d'Decident, Paris, 1954, p 198.
(١٠) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص٦٦٩ وما يليها .
(١١) عن سيطرة زناتة على فاس وموالاتها لخلفاء بنى أمية بقرطبة ارجع إلى (السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص٤٢٠ وما يليها).
(١٢) الجزناوى، زهرة الآس، ص ٣٦، ٣٧.
(١٣) عن التأثير الأندلسى فى جامع القرويين (ارجع إلى السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص ٦٧٠ ومايليها).
(١٤) ابن أبى زرع، روض القرطاس، ص ٣٣- ٣٥.
(١٥) Terrasse, la reviviscence de L'Acanthe dens l'qrt Hispano –mauresque, Sous les Almoravides, al Andalus, Vol . XXVI, pase, 2, 1961, p 430- 431.
(١٦) السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المغرب، ص ٦٧٣.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ط بولاق ١٢٩٠.
٢. ابن غدارى : البيان المغرب فى أخبار المغرب ت ليفى برفسنال ١٩٤٧.
٣. الجزنائى: أبو الحسن على: زهرة الآس فى بناء مدينة فاس نشر ألفرد بل الجزائر ١٩٠٠.
٤. أ. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب فى العصر الإسلامى مؤسسة شباب الجامعة ٢٠١١.
٥. ابن أبى زرع (على بن محمد الفاسى) الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس نشره تورنبرج أوبسال ١٨٤٢.

جامعة الدول العربية

لم يكن قيام جامعة الدول العربية يمثل حدثا جديدا على صعيد العلاقات العربية/العربية، فالمؤكد أن فكرة الوحدة العربية كانت دومًا تأتى على قائمة الطموحات الكبرى التى تحمس لها الإصلاحيون العرب على اختلاف أفكارهم، ولذلك فليس من قبيل المبالغة التوكيد هنا على حقيقة أن قيام هذه الجامعة إنما عد تتويجا لحركة القومية العربية على امتداد التاريخ، وبخاصة منذ نهايات القرن التاسع عشر الميلادى وبدايات القرن العشرين / الثالث عشر والرابع عشر الهجريين. على أن أحدًا لا يستطيع فى هذا المقام أن ينكر دور المؤثرات الخارجية فى مرحلة التحضير لإنشاء الجامعة العربية وفى إخراجها على نحو معين.

ويمكن القول بأن بريطانيا كانت هى القوة الدولية التى اضطلعت بدور مهم فى مجال الإعداد لإنشاء جامعة الدول العربية، وذلك تحقيقا لأهداف سياستها فى المنطقة، فلم تكن قد انقضت سوى أيام قليلة على قيام الحرب العالمية الثانية، حين وضعت وزارة الخارجية البريطانية مذكرة شاملة عن الوحدة العربية، بدأت برسم خريطة الوطن العربى، بمفهومه القائم وقتئذ، ثم تحولت إلى ما أسمته" الحلم العربى " وأنه ليس ثمة ما يمنع من توحيد البلاد العربية التى يحدها شمالاً الأناضول وشرقًا الهضبة الإيرانية، وإن كان من المحتمل أن تبقى مصر بعيدة عن تلك الوحدة "، وأشارت المذكرة إلى أن الحدود بين تلك البلاد هى حدود سياسية، عدا مصر والعراق صاحبتى الحدود الجغرافية الطبيعية، كما أشارت إلى صعوبة احتفاظ الكيانات الصغيرة باستقلالها فى عالم يشهد بداية الحرب العالمية الثانية، وأن عليها أن تعتمد على مساعدة جار قوي، مما يعنى أن قيام دولة كبيرة سيكفل لها الاستقلال. ثم تضمنت المذكرة فى نهايتها السياسات الواجب على حكومة لندن اتباعها حيال فكرة الوحدة العربية، وإذا ما اتخذ العرب زمام المبادرة لتلك الفكرة فإن حكومة لندن لن تقف من تلك الحركة موقف العداء حتى يتبنى الاتحاد الذى يقترض قيامه سياسة الصداقة مع بريطانيا.

وفى ٢٩ مايو ١٩٤١م/ جمادى الأولى سنة ١٣٦٠هـ، كان إيدن يلقى تصريحه

الشهير أمام مجلس العموم البريطانى، والذى كان بمثابة بداية مرحلة جديدة نحو الوحدة العربية وقتذاك، وقد ورد فى نص التصريح: ".. ويسعى عديد من المفكرين العرب إلى درجة من الوحدة بين الشعوب العربية عما هو قائم الآن ، وهم فى تطلعهم إلى الوحدة يأملون فى الحصول على دعمنا، ويعسر ألا نستجيب لمثل هذا المطلب من أصدقائنا. ويبدو لى أن من الطبيعى والصحيح العمل على تقوية الروابط الثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية، فضلاً عن الروابط السياسية. وأن حكومة جلالته سوف تقدم من جانبها كل تعضيد لأى مشروع من هذا القبيل يلقى تأييد الرأى العام العربى"[١].

وكان هذا التصريح محاولة من جانب بريطانيا لاستيعاب تيارات الحركة العربية المنادية بالاستقلال والوحدة العربية والرد على دعاية المحور التى تشجع هذه التيارات.

لم تهتم الحكومة المصرية، حكومة على ماهر، بتصريح إيدن؛ فقد كان اهتمام مصر بمحاولة تجنيب مصر ويلات الحرب والتطورات العسكرية على حدودها الغربية يطغى على اهتمامها بهذا التصريح . وبعد أن تولى مصطفى النحاس باشا الحكومة فى فبراير١٩٤٢/صفر ١٣٦٠هـ، بدأت مصر من جانبها فى إعطاء اهتمام متزايد للأمور العربية وبدأت بعض خطوات التشاور فى مجال الوحدة العربية تأكيدا لدورها القيادى لكل المجموعة العربية[٢].

وتعبيرا عن معارضة مصر لمشاريع الهاشميين، دعا النحاس باشا فى يونيو ١٩٤٢م/ جمادى الآخرة ١٣٦١هـ كلا من جميل مردم رئيس وزراء سوريا والشيخ بشارة الخورى رئيس الكتلة الوطنية اللبنانية للتباحث معهما بشأن الوحدة العربية، وسارت حكومة النحاس باشا على استحياء فى فكرة الوحدة، وكانت المسألة الثقافية هى البداية، حيث وجهت دعوة إلى سائر الحكومات العربية، للاشتراك فى مكتب ثقافى جديد تنوى إقامته لتدعيم العلاقات الثقافية بين الأقطار العربية، وأكدت الحكومة المصرية أن الأمر لن يزيد عن إرسال مبعوث لحضور اجتماعات المكتب وتبادل المعلومات فى الشئون الثقافية والتعليمية وبحث أسس معاهدة ثقافية يمكن أن تعقد بين البلاد العربية، وجاءت الاستجابة الأولى من العراق وأسفرت عن اتفاق الطرفين المصرى والعراقى على عقد معاهدة ثقافية؛ تنص

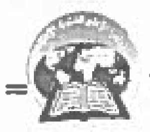
على تبادل الطلاب والمعلمين والإصدارات العلمية والمناهج، وتشجيع أعمال النشر فى العلوم والآداب. وأعقب ذلك تشكيل ما سُمِّيَ بعصبة العروبة فى جامعة فؤاد الأول من الطلاب الوافدين والتى أخذت فى التحضير لانعقاد مؤتمر للطلاب العرب تحت رعاية النحاس باشا، وكان من أهم أغراض هذا المؤتمر الدعوة لفكرة الوحدة العربية، ولم يتوقف الأمر عند العلاقات الثقافية، إذ لم يمض وقت طويل حتى بدا التحرك إلى المسار السياسي، ففى أواخر عام ١٩٤٢، حدث تحول فى ميدان المعارك بين الحلفاء والمحور، وأدى انتصار بريطانيا فى معركة العلمين إلى إبعاد خطر الحرب عن مصر، وإلى استعادة بريطانيا لمكانتها فى المنطقة العربية.

وفى تصريح آخر أدلى به المستر إيدن فى مجلس العموم فى ٢٤ فبراير عام ١٩٤٣م/صفر ١٣٦٢هـ، وكانت ظروف الحرب العالمية هى الدافع لإدراك بريطانيا أنها ستحتاج إلى البلاد العربية فى معاركها التالية. وتخطيطا لما بعد الحرب، أكّد على نفس الشرط الذى جاء فى تصريحه الأول، وهو أنه يجب أن يكون مشروع الوحدة حائزًا على تأييد الرأى العام العربي، ولعل بريطانيا أرادت بذلك أن تحمل الحكام العرب مسئولية عدم التوصل إلى مشروع للوحدة العربية لتأكدها من صعوبة اتفاقهم فى ظل ما يوجد بينهم من صراع على النفوذ"[٣].

وكانت الكلمة من لندن وقتذاك :

" إذا لم تقم جامعةٌ للدول العربية فسوف تقوم جامعة للشعوب العربية وساعتها قد يكون الخطر"، وليس معنى ذلك أن الجامعة العربية هو اختراع بريطانى، ذلك تجنٍّ على الحقيقة غير صحيح. إنما الصحيح أن بريطانيا كانت ترى المشاعر الجياشة التى تموج فى أعصاب الأمة العربية خلال دراما الحرب العالمية الثانية، وأرادت بذكائها أن تسبق التطورات لتقدر على استغلالها، وأن تسايرها لتستطيع تحديد حركتها.

ولكن عبد الرحمن عزام (أول أمين عام للجامعة) رأى أن الوحدة العربية كانت هدفا تسعى الجماهير العربية لتحقيقه، وأنه لا سبيل لتحقيق مطالبها الوطنية بدون التضامن والوحدة بين الشعوب العربية، وكان من رأيه؛ أنه إذا كان الإنجليز قد بادروا بطرح فكرة إنشاء الجامعة العربية، فإن هذه الجامعة



ما كان فى وسعها أن تقوم ما لم يعمل العرب بأنفسهم على إنشائها[٤].

وقد اتخذت المشاورات بين مصر وكل من الدول العربية التى دعتها، طابع المشاورات الاستطلاعية، تقوم فيها مصر بالتعرف على وجهة نظر كل منها فى مشروع الوحدة وإلى أى مدى تستطيع هذه الدولة أن تسير فيه، وذلك دون أن يتم البت فى شيء فى هذه المرحلة، وأعرب مصطفى النحاس باشا عن ذلك بقوله: " إنه سيواصل استطلاع آراء مندوبى الدول العربية.. وذلك دون أن يبت فى شيء لأن الأمر فى طوره الحالى لا يعدو أن يكون مجرد مشاورات للتعرف على الآراء المختلفة".

وقد عكست هذه المشاورات قيادة مصر واعتراف الدول العربية بهذه المكانة لمصر، ففى بداية المشاورات مع سعد الله الجابرى رئيس وزراء سوريا فى ١٦ أكتوبر ١٩٤٣م قال الجابرى: إن دمشق " تعترف وتسلم بزعامة مصر راضية مختارة وهى لا تقول ذلك اعتباطا بل نتيجة تفكير عميق ودراسة للواقع فإن وراء مصر تاريخا من الجهاد القومى". وأما الوفد السعودي، برياسة الشيخ يوسف ياسين، فقد صرح برغبة مليكه عبد العزيز فى العمل لما فيه تأييد الصلات بين السعودية ومصر، ثم أكد أن جَمْع الأمم العربية كلها فى دولة واحدة يتعارض مع الأوضاع القائمة وقد ينشأ عنه صدام ليس لأحد مصلحة فيه، ولذا فإن المملكة السعودية لا تمانع فى التعاون بين البلاد العربية فى المسائل الاقتصادية والثقافية أو أى تعاون ممكن عندما يكون ذلك فى الإمكان ويكون الوقت ملائما، وأن تشترك البلاد العربية على قدم المساواة التامة. وقد رحبت اليمن بفكرة التعاون الثقافى والاقتصادى بين البلدان العربية بحيث تحتفظ كل دولة منها بكامل سيادتها وحقوقها ويكون هذا التعاون قائما على التساوى بين جميع الدول فى الحقوق والمصالح المتبادلة[٥].

ولكننا نرى أن اليمن أيضا استبعدت مسألة التعاون السياسى وهو نفس الموقف الذى اتخذته كل من المملكة العربية السعودية ولبنان. وهى نفس الدول أيضا التى حرصت على تأكيد التعاون على أساس سيادة كل دولة والمساواة بين الدول جميعا، حيث أعرب الوفد اللبنانى عن استعداده للتعاون مع البلاد العربية " التى تتفهم موقفه المتحفظ من الوحدة العربية تفهما جعلها تعترف بكيانه

وحدوده الحالية دولة مستقلة ذات سيادة على أن يكون التعاون بين لبنان والدول العربية الأخرى قائما على أساس السيادة والمساواة"، وكان وفد لبنان يؤثر الانفراد بمسألتى الدفاع والشئون الخارجية(٦).

وبدأت، مع قدوم شهر سبتمبر عام ١٩٤٣، المشاورات لعقد المؤتمر المأمول، ولقد كان هناك ميل واضح فى مصر لأن تحتفظ كل دولة عربية، فى إطار الاتحاد العربي، باستقلالها، وليس من شك فى أن مصر لم توضح آراءها وتصورها لما يجب أن تكون عليه الوحدة بين الدول العربية أثناء المشاورات التى أجرتها مصر بشأن الوحدة العربية نظرًا لأنها قامت بدور المقرب بين الدول العربية ومحاولة التوفيق بينها؛ لتحقيق أكبر قدر من الآمال والقضاء على كل المخاوف والوصول فى النهاية إلى تصور مشترك يجمع البلاد العربية جميعا.

وشهدت العاصمة المصرية إبان شهرى أكتوبر و نوفمبر عام ١٩٤٣، نشاطًا ملحوظًا فى المشاورات الأولية لعقد المؤتمر، ثم فرضت قضية التمثيل الفلسطينى فى المؤتمر نفسها خلال ربيع عام ١٩٤٤، فقد وجه النحاس مذكرة إلى السفير البريطانى فى القاهرة يطالبه فيها أن تعيد حكومته النظر فى موقفها القائم على عدم السماح للقادة العرب الفلسطينيين بالتوجه إلى القاهرة، بيد أن الحكومة البريطانية حذرت النحاس من إثارة مسألة فلسطين فى سياق دعوته للمؤتمر العربى المزمع، وأن يترك فكرة المؤتمر لتمر بسلام . وأخيرًا فرضت قضية التمثيل الفلسطينى فى اللجنة التحضيرية نفسها؛ حيث وقع فى يوم ٢٥ سبتمبر١٩٤٤م/١٣٦٤هـ اختيار زعماء الأحزاب الستة الفلسطينية على موسى العلمى وهو يوم انعقاد تلك اللجنة، وكان حضور العلمى إلى اللجنة بصفة مراقب.

وقد عُرِفت الاتصالات العربية التى جرت فى هذا الشأن بالمباحثات التمهيدية، حيث ترأست مصر اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام، وفى الجلسة الثانية ٢٨ سبتمبر ١٩٤٤م، عرض مصطفى النحاس باشا المسائل المتفق عليها من جانب الدول العربية، وهى الاشتراك فى وجوه التعاون الاقتصادى والثقافى والاجتماعي، وقد تشكلت لجنة فرعية لمعالجة كل هذه المسائل، كما تشكلت لجنة للتنسيق والتحرير لمراقبة عمل تلك اللجان

وترأسها النحاس بنفسه.

وإذا كان الاتفاق بين الدول العربية قد تم بسرعة حول التعاون فى المجالات غير السياسية فإن الأمر كان مختلفا عندما تناولت اللجنة التعاون فى المجال السياسى وإدارته، حيث وافقت الدول العربية على استبعاد فكرة تأليف حكومة مركزية للبلاد العربية لتعذر ذلك ومساسه باستقلال كل بلد من البلاد العربية. وبعد المناقشات عبرت مصر، رسميًا ولأول مرة، عن وجهة نظرها فى صورة متكاملة للتعاون بين الدول العربية، حيث عرض النحاس باشا الصيغة التى وضعها، وأهم ما ورد فيها: "تؤلف لجنة للدول العربية من الدول العربية المستقلة، ويكون لهذه الجامعة مجلس يسمى (مجلس جامعة الدول العربية)، تمثل فيه الدول المشتركة على قدم المساواة، وأن تكون قراراته ملزمة لمن يقبلها، فيما عدا الأحوال التى يقع فيها خلاف بين دولة عربية وأخري، ففى هذه الأحوال تكون قرارات مجلس الجامعة نافذة وملزمة"[٧].

وفى ٧ أكتوبر ١٩٤٤ وافقت اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام؛ بإجماع الوفود السورية والأردنية والعراقية واللبنانية والمصرية، بعد تعديلات طفيفة، على نص البيان والبروتوكول الذى عرف ببروتوكول الإسكندرية، أما وفدا المملكة العربية السعودية واليمن فقد أرجآ إبداء الرأى إلى ما بعد عرض القرارات المذكورة على الملك عبد العزيز آل سعود والإمام يحيى حميد الدين[٨].

وكانت قرارات اللجنة خمسة؛

• **الأول** : خاص بقيام جامعة الدول العربية ولها مجلس يسمى مجلس جامعة الدول العربية تمثل فيه الدول المشتركة فى الجامعة على قدم المساواة وقرارات المجلس ملزمة لمن يقبلها "ولا يجوز اتباع سياسة خارجية تضر بسياسة جامعة الدول العربية أو أية دولة منها".

• **الثانى** : متعلق بالتعاون "فى الشؤون الاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها".

• **الثالث** : عن تدعيم هذه الروابط فى المستقبل.

• **الرابع** : قرار خاص باحترام استقلال لبنان وسيادته بحدوده القائمة.

• **الأخير** : خاص بفلسطين التى طالبت بريطانيا بوقف الهجرة اليهودية إليها والمحافظة على الأراضى العربية والعمل على تحقيق آمال الفلسطينيين المشروعة وحقوقهم العادلة.

وإجمالاً يمكن القول إن بروتوكول الإسكندرية فى مجموعه كان اقتراحا مصريا أدخلت عليه تعديلات قللت من فعالية الجامعة العربية التى أراد هو أن يحققها، وقد ترأس محمود فهمى النقراشي، وزير خارجية مصر، اجتماعات اللجنة الفرعية السياسية التى بدأت فى ١٤ فبراير ١٩٤٥، من أجل إعداد مشروع ميثاق لمجلس جامعة الدول العربية، وقد ارتكزت مباحثات تلك اللجنة على بروتوكول الإسكندرية، واقترح هنرى فرعون، وزير خارجية لبنان، أن تكون مصر هى المقر الدائم لمجلس الجامعة، وأن يكون رئيس الوزراء المصرى هو الداعى لعقد أول اجتماع لمجلس الجامعة؛ وذلك مجاملة لمصر صاحبة الدعوه للجامعة العربية.

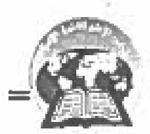
وقد عرض عبد الرحمن عزام تعديلا" للمادة الرابعة" نص على أن: " تكون القاهرة المقر الدائم لجامعة الدول العربية، ولمجلس الجامعة أن يجتمع فى أى مكان آخر يعينه "، وقد وافقت اللجنة على ذلك.

ثم ظهر خلاف فى الرأى حول بعض المسائل ومن أهمها:

• مدى اختصاص مجلس جامعة الدول العربية بنظر الخلاف بين الدول العربية أعضاء الجامعة والفصل فيه، حينذاك اقترحت مصر الأخذ بنص البروتوكول حول هذه المسألة لتفادى هذا الخلاف، ووافقت اللجنة على أن يتوسط المجلس فى الخلاف الذى يخشى منه وقوع حرب بين دولة وأخرى من دول الجامعة أو غيرها للتوفيق بينهما.

ثم وضع عبد الرحمن عزام نص المادة ٢٢ التى تنص على أنه" إلى أن تؤسَّس الأمانة العامة للجامعة تتولى وزارة الخارجية للحكومة المصرية المهام المشار إليها فى المادتين ٢٠، ٢١" . وقد تمت الموافقة على هذه المادة التى بموجبها تقوم وزارة الخارجية المصرية بمهام الأمانة العامة للجامعة حتى يتم تأسيسها.

كان هناك خلاف حول أحقية موسى العلمي، ممثل عرب فلسطين، فى حضور جلسات اللجنة وحقه فى التصويت، وحاولت مصر التوفيق بين الآراء فاقترح النقراشى أن يسير ممثلو الدول العربية المستقلة فى وضع مشروع ميثاق الجامعة على أن يتضمن الميثاق نصا خاصا يشعر باهتمام الدول العربية بقضية فلسطين، وانتهت المناقشات بالاتفاق على دعوة العلمى لحضور الجلسات بصفة



استشارية.[٩].

وبعد الانتهاء من وضع مشروع الميثاق؛ اقترح عبد الرحمن عزام باشا نصا للقرار الخاص بفلسطين وقد وافقت عليه اللجنة، وقد مثل هذا النص الملحق الخاص بفلسطين فى ميثاق جامعة الدول العربية، ويمثل القسم الخاص بفلسطين فى بروتوكول الإسكندرية، وقد عملت مصر على إتاحة الفرصة أمام البلاد العربية" غير المستقلة" لأن تشارك فى نشاط جامعة الدول العربية والتعاون العربى فى المجال غير السياسي؛ نظرا لأن الجامعة العربية تعمل لأمة عربية آتية، وقد اقترح عبد الرحمن عزام نص الملحق الخاص بالبلاد العربية الأخرى وجاء فيه: " يتعاون مجلس الجامعة مع الأقطار العربية غير الممثلة فى الجامعة وأن يسعى بالوسائل الممكنة ليحقق لها الاشتراك فى الجامعة على قدم المساواة مع الدول المؤسسة لها، ويجوز للمجلس أن يدعو من الأقطار العربية للاشتراك فى جلساته كممثلين أو مستشارين أو خبراء من يستعين بهم فى جميع الأمور التى تهم تلك الأقطار" [١٠].

وفى يوم ١٧مارس١٩٤٥م قدم النقراشى باشا للمجتمعين أعمال اللجنة الفرعية التى أقرت الصيغة النهائية لميثاق جامعة الدول العربية بعد أن تؤخذ فى الاعتبار المقترحات والصياغات التى أعدها أستاذ القانون الدولي(المصرى) الدكتور عبد الحميد بدوي. وخرج الميثاق إلى الوجود يوم ١٩ مارس ١٩٤٥م؛ مؤلفا من ديباجة و٢٠ مادة وثلاثة ملاحق، الأول يتعلق بوضع فلسطين. والثانى يتعلق بالتعاون مع الدول العربية غير المشتركة فى الجامعة. وأما ثالثها فكان يختص بتعيين أول أمين عام للجامعة وهو عبد الرحمن عزام.

ووقع على الميثاق مندوبو الدول العربية فى احتفال كبير أقيم لهذا الغرض بقصر الزعفران فى القاهرة يوم ٢٢ مارس ١٩٤٥، وقد صدق على هذا الميثاق الدول السبع الأعضاء المؤسسون، وهى كل من المملكة المصرية والمملكة العراقية وإمارة شرق الأردن والجمهورية السورية والجمهورية اللبنانية ثم المملكة العربية السعودية والمملكة المتوكلية اليمنية، وبذلك ظهرت جامعة الدول العربية إلى الوجود ابتداء من يوم ١١ مايو ١٩٤٥؛ لتصبح أول منظمة عربية جامعة تنشأ فى تاريخ العرب الحديث والمعاصر. وكان هذا بمثابة نهاية مرحلة فى التاريخ العربى وبداية مرحلة جديدة.

وقد توالى بعد ذلك، انضمام بقية الدول العربية وذلك بعد حصول كل دولة منها على الاستقلال وبيانها كما يلى:

فى ٢٨ مارس ١٩٥٣م انضمت المملكة الليبية، وفى ١٩ يناير ١٩٥٦م انضمت جمهورية السودان ، وشهد أكتوبر ١٩٥٨م، انضمام كل من المملكة المغربية فى أوله، وجمهورية تونس فى العاشر منه، وفى ٢٠ يوليو ١٩٦١، تم قبول دولة الكويت، وانضمت جمهورية الجزائر إلى الجامعة فى ١٦ أغسطس ١٩٦٢م، وفى عام ١٩٧١م، انضمت بقية دول الخليج العربى، حيث انضمت قطر، وعُمَان فى شهر سبتمبر ، وفى نوفمبر انضمت دولة البحرين، وفى ديسمبر انضمت دولة الإمارات العربية المتحدة، وفى ٩ سبتمبر ١٩٧٦م، أضحت فلسطين عضوًا كامل العضوية فى الجامعة، وبالرغم من استقلال جمهورية موريتانيا فى نوفمبر ١٩٦٠م إلا أنها أثبتت هويتها العربية وأضحت عضوًا بالجامعة فى ٢٦ نوفمبر ١٩٧٣، وانضمت جمهورية الصومال فى ديسمبر من العام التالى ١٩٧٤م، ثم دولة جيبوتى فى سبتمبر ١٩٧٧م ، وقد أثار انضمامهما إلى الجامعة جدلاً بين الدول العربية، على اعتبار أن لغتهما الرسمية ليست العربية، ولكن مجلس الجامعة رأى أن أصل الشعبين عربى فقبل انضمامهما، وكانت جزر القمر هى آخر دولة تقبل عضوًا فى ٢٠ نوفمبر ١٩٩٣، وبها بلغ عدد الأعضاء بالجامعة اثنتين وعشرين دولة.

وقد تكونت جامعة الدول العربية من ثلاثة فروع رئيسية أنشئت بمقتضى الميثاق وهى:

- مجلس الجامعة، ويعد أعلى سلطة فى الجامعة، ويتألف من ممثلى الدول الأعضاء ، ولكل دولة صوت واحد مهما كان عدد ممثليها.
- الأمانة العامة، ووظيفتها الأساسية تصريف الأمور الإدارية والمالية والسياسية للجامعة.
- أجهزة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى، حيث وافق مجلس الجامعة فى ١٣ إبريل ١٩٥٠ على إبرام معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادى لسد الثغرات التى ظهرت فى الميثاق ، وخاصة فى مجالى الدفاع والاقتصاد، وقد ترتب على هذه المعاهدة ما يلى :

فى مجال الدفاع ؛ إنشاء هيئات جديدة فى نطاق الجامعة العربية، ولكنها

لا تدخل ضمن فروعها الرئيسية ؛ وهى مجلس الدفاع المشترك ويتألف من وزراء الخارجية والدفاع أو من ينوب عنهم، والهيئة الاستشارية العسكرية ؛ وتضم رؤساء أركان جيوش الدول المتعاقدة، واللجنة العسكرية الدائمة ومن مهامها إعداد الخطط العسكرية لمواجهة كل الأخطار المتوقعة أو أى اعتداء مسلح، إلى جانب مهام أخرى تتعلق بالتدريبات المشتركة والمعلومات المتعلقة بإمكانيات كل دولة من الناحية الحربية ومقدرتها فى المجهود الحربى . وفيما يخص القيادة العربية الموحدة تنص المعاهدة على إنشاء قيادة عامة للقوات المشتركة فى الميدان تكون رئاستها للدول التى تكون قواتها المشتركة فى العمليات أكثر عددًا وعدة.

وفى مجال الاقتصاد؛ تأسس المجلس الاقتصادى، ومهمته تسهيل عمليات التبادل التجارى والتعاون الاقتصادى بين الدول الأعضاء ، وفى إطار هذا المجلس وقعت العديد من الاتفاقيات الخاصة بتجارة الترانزيت والوحدة الاقتصادية والسوق العربية المشتركة.

من الآليات التى اتخذتها جامعة الدول العربية لتحقيق أهدافها إنشاء المجالس الوزارية المتخصصة ، مثل مجلس وزراء الصحة، ومجلس وزراء الشباب والرياضة، ومجلس وزارة التعليم العالى، ومجلس وزراء الزراعة ، ومجلس وزراء الإعلام.

كما يوجد بالجامعة العربية العديد من المنظمات المتخصصة التى أنشئت لحاجة بعض اللجان إلى تخصصات بعينها، ومنها اتحاد البريد العربى، والاتحاد العربى للمواصلات السلكية واللاسلكية ، واتحاد الإذاعات العربية. والمنظمة الدولية العربية للدفاع الاجتماعى ضد الجريمة . والمنظمة العربية للعلوم الإدارية، والمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة ، ومنظمة العمل العربية، ومجلس الطيران المدنى للدول العربية، والمنظمة العربية للمواصفات والمقاييس، والمنظمة العربية للتنمية الزراعية، والمنظمة العربية للصحة [11].

وليس من شك أن كل هذه المجالس واللجان والمنظمات قد أنشئت بغرض تدعيم التعاون العربى وتوثيق عرى الأخوة بين الدول والشعوب العربية.

ولا شك أن الجامعة العربية جمعت الدول والشعوب العربية تحت علم واحد،

وحمت هويتها من التنافر والاندثار ، وهى فى هذا ولوجه الحقيقة والتاريخ قادرة على الفعل والتأثير على قيادة حركة تنمية عربية ونهضة حضارية؛ لولا المعوقات التى توضع فى طريقها والشد إلى الخلف الذى تتعرض له.

أ.د / محمد على حلة

الهوامش:

(١) يونان لبيب رزق، موقف بريطانيا من الوحدة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت١٩٩١، ص١٠٢.

(٢) Glubb (L.G.J)Britain and The Arabs = A study of Fifty years 1908-1958, London 1959.p.271.

(٣) عبد الحميد موافى، مصر فى جامعة الدول العربية ١٩٤٥- ١٩٧٠، هيئة الكتاب ١٩٨٣، ص ٧٦.

(٤) جميل عارف، صفحات من المذكرات السرية لأول أمين عام للجامعة العربية عبد الرحمن عزام، القاهرة، المكتب المصرى الحديث ج١ ١٩٧٧، ص٢٦١.

(٥) جامعة الدول العربية ، ملخص محاضر المشاورات مع العراق، شرق الأردن، المملكة العربية السعودية، سوريا، لبنان، اليمن، القاهرة مطبعة فتحى سكر١٩٤٩، ص٥- ٣٢.

(٦) جامعة الدول العربية، ملخص محاضر المشاورات، ص٣٣.

(٧) جامعة الدول العربية، محاضر اجتماعات اللجنة التحضيرية للمؤتمر العربى العام بالإسكندرية، القاهرة ١٩٤٩، ص٣٥- ٣٩.

(٨) يونان لبيب رزق، موقف بريطانيا من الوحدة العربية، ص ١٩٣.

(٩) محاضر جلسات اللجنة الفرعية السياسية لوضع مشروع ميثاق لجامعة الدول العربية الجلسة الثالثة، ص٨- ٣٨.

(١٠) المرجع ذاته، الجلسة الرابعة عشرة، ص٩١،٩٢.

(١١) مفيد محمود شهاب ، جامعة الدول العربية " ميثاقها وإنجازاتها، القاهرة معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٨، ص ١٠٠، ١١٦.

مصادر ومراجع للاستزادة :

• سامى حكيم، الضمان الجماعى العربى ،مكتبة الأنجلو، القاهرة ١٩٦٥.

• محمد على علوبة، مبادئ السياسة المصرية، القاهرة ، دار الكتاب ، يوليو ١٩٤٢.

• سيد نوفل، العمل العربى المشترك، ماضيه ومستقبله، الكتاب الأول، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٨م ..

• طلعت مسلم ، التعاون العسكرى العربى، مركز دارسات الوحدة العربية، بيروت ١٩٩٠م .

الجبل الأسود (Montenegro)

تقع فى جنوب أوروبا، وتبلغ مساحتها ١٣٨١٢كم، وعاصمتها بودغوريتشا. ويحدها من الغرب كرواتيا، ومن الشمال البوسنة والهرسك، ومن الشرق صربيا وكوسوفا، ومن الجنوب ألبانيا. ويقطن الجبل الأسود أقليات من الألبانيين والسلافيين والصربيين، ويشكلون ٣٢ ٪ من السكان . و ينتمى أغلب السكان إلى الكنيسة الأرثوذكسية الصربية، وتبلغ نسبة المسلمين ١٥ ٪ وأغلبهم من الأقلية الألبانية ، فى حين لا يؤمن بعضهم بأى دين [(١)] .

وكانت منطقة الجبل الأسود قد عرفت المسيحية فى أواسط القرن التاسع الميلادى/ الثانى الهجرى، كما انتشرت فيها الثقافة اللاتينية[(٢)]. ثم دخلها الإسلام مع الفتح العثماني لها فى مطلع القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى . و فى القرن التالى ازداد الإسلام انتشارا بين الأهالى، كما هاجر إليها الكثير من المسلمين فى القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى [(٣)]. وفى ظل الحكم العثمانى تطورت منطقة الجبل الأسود - نظرا لطبيعتها الجغرافية الوعرة - إلى دويلة ذات حكم ذاتى داخل الدولة العثمانية. وكان يحكمها أسقف أرثوذكسى ينتخبه الشعب ورجال الدين من تلك البلدة، وقد اتخذ لقب أمير اعتبارا من سنة ٩٢١هـ - ١٥١٥م [(٤)].

وكان سكان الجبل الأسود يدفعون الجزية [(٥)]، و يسهمون فى حروب الدولة العثمانية ضد البندقية ، وفى إخماد الثورات التى تنشب فى البلاد المجاورة . وظلت الأحوال على هذا المنوال حتى سنة ١١٠٠هـ / ١٦٨٨م ؛ إذ نبذ أسقف الجبل الأسود والموالون له ولاءهم للسلطان العثمانى ووضعوا أنفسهم تحت حماية البندقية التى كانت أملاكها متاخمة لأملاك الدولة العثمانية [(٦)]. ثم أيدت روسيا أيضا الجبل الأسود ضد الدولة العثمانية [(٧)].

وقد نشبت بين الجبل الأسود و بين الدولة العثمانية ثلاثة حروب متباعدة فى سنى١٢٧٩هـ/١٨٦٢م، ١٢٩٣هـ/١٨٧٦م، ١٣٣١هـ/١٩١٣م، بالإضافة إلى مناوشات فى الأعوام ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م ، ١٢٨٧هـ/١٨٧٠م ، ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م،

١٢٩١هـ/١٨٧٤م، ١٢٩٢هـ/١٨٧٥م ١٣١٣هـ/١٨٩٥م ، ١٣١٦هـ/١٨٩٨م ، ١٣٢٩هـ/١٩١١م ، ١٣٣١هـ /١٩١٣م [٨].

وقد أدت تلك الاضطرابات المؤيدة من القوى الخارجية إلى استقلال الجبل الأسود عن الدولة العثمانية فى سنة١٢٩٥هـ /١٨٧٨م . وفى السنة التالية أنشئ مجلس دولة تشريعى يتألف من ثمانية أعضاء نصفهم بالتعيين والنصف الآخر بالانتخاب[٩] .

وأثناء الحرب العالمية الثانية تمكن الشيوعيون من السيطرة على يوغوسلافيا، وأصبحت جمهورية الجبل الأسود إحدى جمهورياتها فى سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٦م. وفى عام١٤١١هـ/ ١٩٩٠م أجريت فى يوغسلافيا أول انتخابات متعددة الأحزاب، حدث بعدها أن أعلنت أربع جمهوريات يوغوسلافية استقلالها عام ١٤١٣هـ /١٩٩٢م، وبقى الجبل الأسود إحدى الدولتين المشكلتين لاتحاد صربيا والجبل الأسود .

وفى ٢١ مايو١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م جرى استفتاء الانفصال عن صربيا ، وقد أيد الانفصال ٥٥,٥ ٪ من السكان ، ثم أعلن انفصال دولة الجبل الأسود فى الثالث من يونيو من السنة ذاتها[١٠] .

وينتخب الشعب رئيس حكومته عن طريق هيئة تشريعية مؤلفة من ١٢٥ عضوا، مدتها أربع سنوات . وعلى الرغم من تعدد الأحزاب فى جمهورية الجبل الأسود إلا أن أقوى الأحزاب فيها حزب الاشتراكيين الديموقراطى[١١].

د / عزت إبراهيم دسوقى

الهوامش

(١)http://ar.wikipedia.org..

(٢) . http://ar.wikipedia.org.

(٣) أرنولد ، سير توماس : الدعوة إلى الإسلام ، بحث فى تاريخ نشرالعقيدة الإسلامية . ترجمه عن الإنجليزية د / حسن إبراهيم وآخران . الطبعة الثالثة ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٠ م ، ص ٢٢٦ ، ٣٤٧ ، و ك . باتش ، دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية، مادة "الجبل الأسود"، دار الشعب، القاهرة، ١٩٦٩م، ج١١، ص ٧٩ – ٨٠، ٨٣ – ٨٤ ، و جيلف اينشتاين : الولايات البلقانية (١٦٠٦ – ١٧٧٤ م) بحث منشور فى كتاب " تاريخ الدولة العثمانية "، إشراف مانتران، روبير . ترجمه عن الفرنسية بشير السباعى . دار الفكر ، القاهرة ، ١٩٩٣م، ج ١، ص ٤٤٧.

(٤) اينشتاين: المرجع السابق ، ص ٤٤٧ . وظل حكم الأساقفة حتى سنة ١٨٥٢ م . أرنولد : المرجع السابق ، حاشية ٢ ، ص ٢٢٦ .

(٥) كان الجبل الأسود عام ١٦١٤ م به تسعون قرية تضم ٢٥٢٤ بيتا ، و ٨٠٢٧ رجلا من القادرين على حمل السلاح ، لا يحارب منهم سوى ألف . باتش: المرجع السابق ص ٧٩- ٨٠ .

(٦) المرجع نفسه ص ٧٩- ٨٣ .

(٧)محمد فريد : الدولة العلية العثمانية ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٧٧م ، ص ٣٤١- ٣٤٢ .

(٨) باتش : المرجع السابق ص ٨٣ – ٨٤ ، و محمد فريد: المرجع السابق ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ . .

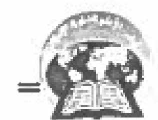
(٩) د/ عبد العظيم رمضان : تاريخ أوروبا و العالم فى العصر الحديث ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٧ م ، ج ٢ ، ص ٦٢ ..

(١٠)http://ar.wikipedia.org ..

(١١)http://ar.wikipedia.org ..

مصادر ومراجع للاستزادة:

- أرنولد، سير توماس: الدعوة إلى الإسلام، ترجمه عن الإنجليزية د. حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية فى القاهرة ١٩٧٠م.
- محمد فريد: الدولة العلية العثمانية: دار الجيل، بيروت، ١٩٧٧م.
- د. عبد العظيم رمضان: تاريخ أوروبا والعالم فى العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٧م.



جبـل طـارق

جبل طارق هو كتلة صخرية طولها ستة كيلومترات وعرضها كيلومتران، وهو يفصل بين المغرب والأندلس (أسبانيا الحالية والبرتغال)، ويرى سكان مدينة سبتة المغربية، وهم فى بيوتهم، قمة هذا الجبل. ويبلغ علو جبل طارق عن سطح البحر ٤٢٥ مترًا. وكان جبل طارق يُعرف، قبل الفتح الإسلامى لشبه جزيرة أيبيريا، بصخرة كالبى أو جبل كالبى Mons Calpe [١]. وكان هذا الجبل مهجورًا حتى أواخر القرن الأول الهجرى (السابع الميلادى) عندما نزل فيه طارق بن زياد الليثى [٢] عام ٩٢ هجرية/ ٧١١م، وقال مقولته الشهيرة لجنوده: «البحر أمامكم والعدو خلفكم»، وكان يومئذ حاكمًا لطنجة [٣]. وكان خروج طارق فى جيش بلغ تعداده سبعة آلاف مقاتل.

ولقد تسمى هذا الجبل مع جبل (أتيلا) المقابل له فى الساحل الأفريقى (بأعمدة هرقل)، وكان الأقدمون يعتبرونهما نهاية العالم من الغرب، ويجاريهم فى ذلك بعض الجغرافيين المسلمين فيسمون ما وراء جبل طارق من مياه المحيط (ببحر الظلمات) ويعتبرونه منطقة غامضة لا نهاية لها [٤].

وقد لعب جبل طارق فى تاريخ الأندلس دورًا عظيمًا، وكان دائمًا معبر الجيوش الإسلامية من المغرب إلى شبه جزيرة أيبيريا، وكان يُعتبر مفتاحها من الجنوب، ولم يكن جبل طارق أيام الدولة الإسلامية سوى قاعدة عسكرية برية وبحرية، وقد أنشأ بها المسلمون، منذ عصر الفتح، حصنًا عظيمًا فوق سطح الصخرة الأوسط من ناحيتها الشمالية الغربية وأسوارًا ضخمة كانت تسمى أسوار العرب.

ولقد تصحف اسم جبل طارق فى اللغات الأوربية حيث يسمى بجبلطار Gibraltar فى الإنجليزية والفرنسية وخبلرطار بالأسبانية. ولقد نُسب المضيق الذى يفصل بين شبه جزيرة أيبيريا شمالًا وشمال أفريقيا جنوبًا ويصل بين مياه البحر المتوسط ومياه المحيط الأطلسى إلى جبل طارق، وكانت «بحر الزقاق» تسميته العربية القديمة [٥]. ويحد المدخل الغربى للمضيق كل من رأس سبارتيل المغربية ورأس الطرف الأغر الأسبانية، ويشرف على المضيق كل من المغرب

وأسبانيا ومنطقة الحكم الذاتى (جبل الطارق) البريطانية. ويبلغ عمق مياه المضيق حوالى ٣٠٠ مترا، وأقصر مسافة بين ضفتيه هى ١٤ كيلومترًا، ويعتبر من أهم المعابر البحرية فى العالم.

ومن المسائل الهامة التى نلاحظها فى كتابات القدامى والمحدثين عن تاريخ المغرب والأندلس هى مسألة عبور جيوش المسلمين من المغرب إلى أسبانيا؛ إذ يُفهم من كلامهم أنَّ الجيوش الإسلامية التى بعث بها الوالى الأموى على أفريقيا موسى ابن نصير، إلى الأندلس، سواء بقيادة (طريف بن مالك) أو (طارق بن زياد)، كانت جيوشًا برية فقط، وأن ابن نصير اعتمد فى نقلها عبر المضيق إما على مراكب الكونت يوليان، وإما على مراكب تجار الروم التى كانت تختلف إلى الأندلس[٦]، وأن الكونت يوليان هو الذى تولى عملية نقلها فى كلتا الحالتين.

والرأى الصائب هو أن موسى بن نصير اعتمد فى فتح أسبانيا على أسطوله العربى الذى كان تحت قيادته على طول الساحل المغربى، والذى قام بنقل سبعة آلاف محارب عدا الخيل والعتاد[٧]. وتدل على ذلك العبارة التى أوردها «ابن الكردبوس»[٨]: «ومضى طارق لسبته وجاز فى مراكبه إلى الجبل فأرسى فيه فسُمى جبل طارق باسمه إلى الآن».

ومن الملاحظات الهامة التى نأخذها على الرواية الإسلامية بصفة عامة أنها لم تهتم بوصف عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق بن زياد على الساحل الأسبانى، فقد أجمع معظمها، وفى اختصار شديد، على أن طارقًا قد حط فى الجبل المنسوب إليه دون أن يلقى مقاومة تذكر. وهذه الرواية تحتاج إلى شىء من التفكير لأنَّ هذا الجبل الذى نُسب إلى طارق كان يمثل موقعًا استراتيجيًا هامًا منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا فهو، فضلًا عن كونه همزة الوصل بين عدوتىْ المغرب والأندلس، فهو المتحكم فى مضيق المجاز ضد أى عدوان على أسبانيا من هذه الناحية الجنوبية[٩].

ولقد أدرك الفينيقيون من قديم أهمية هذا الموقع حينما احتلوا شواطئ عدوتىْ المغرب والأندلس فأقاموا على هذا الجبل أبراجًا للمراقبة ولم يسمحوا لأى دولة أخرى مشاركتهم فى استغلال تلك المناطق الغربية وحددوا الساحل الشرقى الأسبانى كأقصى حد يمكن الوصول إليه، ولم يترددوا فى إغراق كل سفينة تحاول عبور المضيق[١٠].

وقد تداول حكم أسبانيا بعد الفينيقيين أبناؤهم القرطاجنيون، ثم بعد ذلك، الرومان، ثم القوط؛ فحرصوا جميعًا على بسط سيطرتهم على مضيق المجاز واتخذوا من جبل طارق قاعدة حربية لهذا الغرض. ولقد ورد نص تاريخى لابن كردبوس[11] يصف فيه عمليات نزول المسلمين بقيادة طارق بن زياد عند سفح جبل طارق، والمقاومة التى أبداها العدو ليحول دون نزول المسلمين هناك، ثم حركة الالتفاف البارعة التى قام بها طارق وجنوده أثناء الليل حول العدو المرابط فى الجبل والانقضاض عليه فجأة وإبادته عن آخره. ولا شك فى أن هذا الانتصار الأول الذى أحرزه طارق عند نزوله قد مكنه من احتلال هذا الجبل الذى حمل اسمه بعد ذلك عن جدارة واستحقاق.

ولقد كان الموحدون[12] حكام المغرب والأندلس، أول من أدرك الأهمية الكبرى لجبل طارق كموقع حربى هام، ولذلك نرى الخليفة الموحدى الشهير «عبد المؤمن ابن على» وأعظم خلفاء الموحدين، يصدر أوامره ببناء مدينة كبرى فى جبل طارق[13]، وكان قد عبر إلى الجبل فى أواخر عام ٥٥٥ هـ (١١٦٠م) على أثر استرداده لثغر المهدية من الفرنج وافتتاحه لسائر قواعد أفريقية (تونس الحالية) واتجهت نيته لفتح الأندلس، وكان الخليفة يعلم أنَّ الفتح الأول للأندلس كان عن طريق جبل طارق فحتى يطمئن على وجوده فى جنوب أوروبا كان عليه أن يمسك بالمفتاح الذى كان يتجلى فى هذا الجبل الشامخ. وإذا كان طارق قد توَّج هامة الجبل بقلعة صغيرة فإنه لم يلبث أن صرف النظر عنها عندما استولى على منطقة الجزيرة.

ولقد بعث عبدالمؤمن، بعد إيابه من فتح أفريقية رسالتين متواليتين، إحداهما أواخر عام ٥٥٤ هجرية (يناير ١١٥٩م) والثانية فى التاسع من ربيع الأول عام ٥٥٥ هجرية (مارس ١١٦٠م)، وكان الخطاب موجهًا فى الرسالتين إلى إبنيه: والى غرناطة «السيد أبى سعيد عثمان»[14] ووالى أشبيلية «السيد أبى يعقوب».

ووصل كتاب الخليفة يوم التاسع من ربيع الأول عام ٥٥٥ هجرية/ ١١٦٠م، ويتضمن «للأمر العزيز» بإنشاء مدينة كبرى فى جبل طارق، ذلك الجبل الذى يصفه ابن صاحب الصلاة[15]: «بالجبل الميمون القديم البركة على جزيرة الأندلس، السامق، الشاهق، المفتتح منه

دانيها وقاصيها، وطايعها وعاصيها لتكون هذه المدينة منزلًا للأمير عند إجازته بالعساكر ومستقرًا تتقدم منه الرايات المظفرة والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم»[١٦]. وكان الكتاب يتضمن أمرًا مشددًا من الخليفة إلى ولده السيد أبى سعيد عثمان، والى غرناطة، بأن يسير بنفسه من غرناطة مع صحبه وبعض عسكره إلى جبل طارق وأن يجتمع فيه بالطلبة الوافدين من إشبيلية وبالشيخ أبى حفص عمرو أبى اسحق براز بن محمد[١٧] والحاج أبى يعيش المالقى[١٨] والقائد عبد الله بن جيار، وأن يدرس جميع خطط المدينة الجديدة وأين يكون موقعها من الجبل، فصدع السيد أبو سعيد بأمر الخليفة ونهض فى صحبه إلى جبل طارق فعمل على تنفيذ الخطة المطلوبة.

وكان قد طُلب فى كتاب الخليفة إلى السيد أبى يعقوب والى إشبيلية أن يحشد جميع العمال البنائين والجيارين والنجارين والعرفاء من جميع بلاد الأندلس التى تحت نظر الموحدين وأن يعجلوا بالسير إلى الجبل لتنفيذ الأمر الكريم. فنهض السيد أبو يعقوب بما طُلب إليه وسار من إشبيلية العريف أحمد بن باسة ومعه حشد كبير من العمال من بنائين وغيرهم من مختلف الحرف إلى جبل طارق. ووصل إليه فى نفس الوقت جمهرة من القواد والكتاب وأهل الحساب لتنظيم النفقة على الأعمال المطلوبة ورصدها، وتم ذلك كله فى سرعة ونظام وحزم[١٩].

وهكذا شهد جبل طارق لأول مرة اجتماعًا تمهيديًا ضم عددًا مهمًا من المهندسين والعرفاء بالإضافة إلى الطلبة والأجناد الذين وصلوا إلى هناك. ولقد ظل السيد أبو سعيد على صلة بسير الأعمال والأشغال بينما استمر السيد أبو يعقوب بإشبيلية متلقفًا للرغبات التى يبعث بها أخوه أبو سعيد فيما يتعلق بالخبراء والعرفاء[٢٠].

ولقد أمسى الجبل بعد بضعة شهور فقط يتوفر على قصور وديار، واستطاع المهندسون والعرفاء أن يتغلبوا على منحدرات الجبل فيجعلوا منها فسيحًا صالحًا لسكنى الأمراء. وبنوا فى أسس القصور حنايا وكهوفًا ضمنت اعتدال الأرض على ما ينبغى وذلك بالحجر المنجور والجيار، وقد بلغ البناء فى الإتقان والروعة مبلغًا جعل ابن صاحب الصلاة، وهو شاهد عيان[٢١]، يحكم بتفوق البنائين على الذين شيدوا قصور الخورنق[٢٢] والسدير[٢٣]، التى ظلت

مضرب المثل فى الأسطورة العربية.

وبالإضافة إلى هذه البنايات فقد عُهد إلى المختصين فى الغراسة بتشجير ضفة الجبل بمختلف أنواع الفواكه سواء منها فواكه الربيع والصيف والخريف والشتاء، فغُرست أشجار التين والعنب والتفاح والكمثرى والأجاص، المعروف عند المغاربة بعين البقر (البرقوق) والسفرجل[٢٤] والمشمش والبرتقال والموز. وتوجهت العناية لاستخراج الماء من صخور الجبل فنجح المهندسون فى اكتشاف منابع جُمع بعضها إلى بعض حتى تكوَّن منها جدولٌ عم ماؤه المدينة كلها، وكان يصب فى خزان يجرى منه الماء إلى الجنات المغروسة[٢٥].

قال ابن صاحب الصلاة: «وابتدأوا البناء فى الموضع الذى وقع الجميع عليه والاتفاق من نواحيه بسيف البحر مما يلاصقه ويليه، وزادت الآمال بأهل الأندلس إلى ما تقدم إليهم من الأمل وتحققوا اليُمن والسعد والفتح فى بنيان هذا الجبل، وكان من أشغال السيد الأعلى أبى يعقوب بإشبيلية فى إزعاج الفعلة والرجال للبناء المذكور. وأحكم البناؤون فيه بناء من القصور المشيدة والديار واخترعوا فى أسسها طيقانًا وحنايا لتعتدل بها الأرض، مبنية بالحجر المنجور والجيار بما هو عجيب فى الآثار... وهذا شريف البقعة كريم التربة عظيم المنفعة باسق مع أعشار السماء تكاد فى المسامتة إلى الجوزاء. وكل ما استودع فى أرضه من البطحة المنبسطة من بعضه مما زكى وفضل وجل وأثمر من قرب لغرسه وأكمل واستقل من جميع الفواكه كشجر التين والعنب والتفاح والكمثرى والسفرجل والمشموم والأجاص والأترج والجوز وغير ذلك. على ضيق ضفته الممتدة كالجبل وماؤه عذب زلال.

وكان الحاج يعيش المهندس مدة إقامته للبناء على ما ذكرته فيه، فوضع فى أعلاه رحى تطحن الأقوات بالريح... واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح فى الفرجة التى كان يُدخل منها إلى الجبل... واستمر العمل شهورًا مضاعفة والسيد أبو يعقوب والى إشبيلية يشرف على تنفيذ أوامر الخليفة حتى كمل المشروع وتم بناء المدينة الجديدة فى شهر ذى القعدة سنة ٥٥٥ هجرية/١١٦٠م. وابتنى بها جامعًا وقصرًا للخليفة ودورًا لأبنائه وحاشيته، وغرست الحدائق على طولها حذاء البحر وجُلب إليها الماء العذب وجُدد

الحصن والأسوار القديمة وعُنى بتحصين الصخرة أكمل عناية وسُمى الجبل بأمر الخليفة جبل الفتح أو مدينة الفتح»[٢٦].

ولقد استأثر ابن صاحب الصلاة بذكر مظهر من مظاهر التقدم الصناعى على عهد الموحدين مما كان مشاهدًا فى جبل طارق. وذكر أن المهندس المغربى «الحاج يعيش» استغل تيارات الريح المتضاربة على قمة الجبل فاخترع فى الجبل رحى (طاحونة) تطحن الأقوات بالريح.

كذلك أورد ابن صاحب الصلاة بأن الموحدين كانوا حريصين فى معظم المدن الكبيرة التى عرفوها أو شيدوها على بناء الأسوار التى تحيط بتلك المدن، وقد فعلوا ذلك فى مدن الرباط وسلا وفاس وتازه، ولأجل هذا فقد أحاطوا مدينة جبل طارق بسور حصين ظل قائمًا حتى أيام أبى الحسن المرينى على ما يحكى ابن جزى على لسان الرحالة ابن بطوطة.

ولقد ذكر ابن جزى أن ابن بطوطة لمّا نزل بلاد الأندلس ذكر أن أول ما شاهده من البلاد الأندلسية جبل الفتح، أى جبل طارق، وقال ما نصه: «فلقيت به خطيبه الفاضل أبا زكريا يحيى بن السراج الرندى، وقاضيه عيسى البربرى وعنده نزلت وتطوفت معه على الجبل فرأيت عجائب ما بنى به مولانا أبو الحسن (المرينى) ﷺ ، وأعد فيه من العدد وما زاد على ذلك مولانا أيده الله ووددت أن لو كنت ممن رابط به إلى نهاية العمر»[٢٧].

وأضاف ابن بطوطة أنه لمّا أنهى رحلته فى بلاد الأندلس عاد إلى بلاده عن طريق جبل طارق راكبًا البحر[٢٨].

ولمّا كان الموحدون يهدفون بتأسيس مدينة جبل طارق أن يجعلوها نقطة انطلاق نحو جنوب أوربا، فقد التقى طرفا السور إلى باب فى «الفرجة» التى يدخل منها إلى الجبل وسموها «باب الفتوح» على غرار باب الفتوح القائم بقاهرة المعز.

وقد ابتهج الخليفة الموحدى أيما إبتهاج بتأسيس هذه المدينة الجديدة العظيمة ولذلك نراه يخصص فيها استقبالًا رائعًا لأعيان المغرب والأندلس ويأذن للشعراء فى الإنشاد والإشادة بها، ثم يكافئ العمال والخبراء والمهندسين بالهبات السنية والعطايا الجزيلة[٢٩].

وقد تحدث التاريخ عن وجود شكل مجسم (ماكيت) للجبل بما فيه من أسوار وأبراج وحصون وأبواب ومصانع ومخازن ومساجد، وقد أمر بصنع هذا

الشكل أبو عنان العاهل المرينى وكان موصوفا «بالمشوَّر السعيد». ومن المؤكد أن هذا الماكيت يشتمل فى معظمه على عدة مبانٍ موحدية مما أنشئ سنة ٥٥٥ هجرية/١١٦٠م، لكنه ضاع فى جملة ما ضاع أواخر عهد بنى مرين.

ولقد كان هنالك عنصر «الحروف المنقوشة» التى كانت على بعض جهات مبانى هذه المدينة، وبالرغم من اندثار معظم هذه النقوش فإنه لا يزال هنالك نقشان يرجعان إلى زمن الموحدين فى جبل طارق أحدهما سجله الكولونيل «توماس جيمس» فى كتابه تاريخ مضايق هرقل عام١١٨٥هـ ١٧٧١م. وقد أشار إلى هذين النقشين الرحالة «فرانسيس كارتر» سنة١١٩١هـ/ ١٧٧٧م وكذلك المؤرخ الأسبانى «لويس دى أيالا». وإذا كان تاريخ هذه النقوش يرجع لأيام محمد الخامس الملقب «بالغنى بالله» فى مملكة بنى نصر فإن فيها نقشًا يرجع إلى عهد الخليفة عبد المؤمن الموحدى[٣٠].

ولبث جبل طارق، بعد ذلك، أحقابًا أخرى قاعدة الوصل بين الأندلس والمغرب تعبر إليه الجيوش المغربية لنصرة الأندلس كلما دهمها الخطر. ومنذ القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، تتوالى حملات أسبانيا النصرانية لافتتاح هذا المعقل العظيم ويتفانى المسلمون فى الدفاع عنه لشعورهم بأهمية وخطورة موقعه بالنسبة لسلامتهم. وفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م استولى القشتاليون، لأول مرة على جبل طارق، ثم استرده الأندلسيون بمعاونة السلطان أبى الحسن المرينى ملك المغرب فى سنة٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م[٣١]. وجدد السلطان أبو الحسن الحصن ودار الصناعة والأسوار، ثم جددها ولده السلطان «أبو عنان»، واستمر جبل طارق فى يد المسلمين بعد ذلك زهاء قرن وثلث.

وفى سنة٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م استولى الأسبان أخيرًا على جبل طارق، وكان فقده ضربة شديدة للأندلس، وكانت من ممهدات سقوطها الأخير. وبقى جبل طارق من ذلك التاريخ بيد الأسبان حتى استولى عليه الإنجليز والهولنديون خلال حرب وراثة العرش الأسبانى فى سنة١١١٦هـ/ ١٧٠٤م، ثم ضمته انجلترا إلى أملاك التاج البريطانى، ومازالت تقبض عليه حتى اليوم بيد من حديد. ولم تنجح أسبانيا، أيام قوتها، فى استرداده. وكانت أشهر محاولة قامت بها سنة١١٩٣هـ / ١٧٧٩م، حيث استمر

حصارها للصخرة أربعة أعوام ولكنها أخفقت فى النهاية. ولم تقع، منذ ذلك التاريخ، أية محاولة ذات شأن لاسترداد جبل طارق، وهو اليوم، بوضعه الحالى، مستعمرة من مستعمرات بريطانيا يُعين لها حاكمٌ مِنْ قِبلهِا برغم إعطائها الحكم الذاتى[٣٢].

ومدينة جبل طارق الحديثة، مدينة أوربية بمعنى الكلمة، أحسن الإنجليز فى تنسيقها ونظافتها، يمكن الوصول إليها من البر كما يمكن الوصول إليها من البحر، والوصول إليها من البر بالسيارة من البر الأسبانى فى طريق بديع تظلله الأشجار الباسقة، يمتد الخليج تجاه الصخرة وتحف به الجبال من الناحية الأخرى، فى سفوحها المروج اليانعة، ويمر ببلدة لوس باريوس Los Barrios، ثم ببلدة سان روكى San Roque وينتهى بمدينة لالينا LaLinea نهاية الأرض الأسبانية.

وبعد اجتياز هذه المسافة القصيرة نجد أنفسنا إزاء مدينة جبل طارق الحديثة وهى تمتد من المطار فى شكل قوس مفتوح يلاصق الصخرة ويشرف على البحر حتى الجسر الجنوبى بطول يبلغ نحو ٣٠٠ متر.

ويخترق هذه الرقعة شارع طويل يسمى«الشارع الرئيسى»، وهو شارع نظيف يغص بالمتاجر والمقاهى ويزخر بالبضائع وينتهى هذا الشارع بالأبواب الجنوبية، ويمتد الطريق بعد ذلك مسافة ميل وينتهى بالحوض الجاف والفنار، ويزخر جانبا المدينة، الذى يلى البحر، بالمخازن والمصانع والأدوات العسكرية.

ويبلغ عدد سكان جبل طارق اليوم ثلاثين ألفًا من بينهم الحامية البريطانية وعددها سبعة آلاف والباقى من السكان المدنيين، وهم خليط من الأسبان والإنجليز والمالطيين والجنويين الإيطاليين. وإلى جانب سكان جبل طارق المقيمين يفد على المدينة كل يوم نحو خمسة عشر ألفًا من الأسبان ممن يبيعون مختلف المؤن والسلع وممن يعملون فى الميناء والأحواض ثم يعودون فى المساء إلى الأرض الأسبانية[٣٣].

والخلاصة أن مدينة جبل طارق تبدو، برغم ضيق رقعتها المستطيلة، بتخطيطها البديع وشوارعها المنسقة وأحيائها ومنتدياتها الأنيقة كأحسن ما تبدو المدينة الأوربية الرائعة.

أ.د /عطية القوصى

الهوامش:

(١) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٩٢، ص ٢٦٩.

(٢) كان طارق مولى للوالى على المغرب موسى بن نصير مِنْ قِبل الخليفة الأموى الوليد بن عبدالملك. وقيل إنه من سبْىْ البربر، وقيل أيضًا إنه بربرى من بطون قبيلة نفزة (محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، جـ١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٩، ص ٤٠).

(٣) عبر طارق بن زياد سبتة بجيشه تباعًا فى سفن يوليان ونزل بالبقعة الصخرية المقابلة التى مازالت تحمل اسمه إلى اليوم، أعنى جبل طارق، وذلك فى يوم الاثنين الخامس من شهر رجب عام ٩٢ هجرية (٢٧ أبريل ٧١١م) واخترق المنطقة المجاورة غربًا وزحف على ولاية الجزيرة واحتل قلاعها (عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، جـ١، ص ٤١).

(٤) عنان: نفس المرجع، جـ٨، القاهرة ٢٠٠١، ص ٢٨٤.

(٥) مؤلف مجهول: كتاب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق خوليان ريبيرا، مدريد ١٩٩٣، ص ٦.

(٦) ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار المغرب، جـ٢، نشر دوزى، ليدن ١٨٥٠، ص ٨.

(٧) المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، بولاق ١٨٦٢، جـ١، ص ٢٣٨.

(٨) ابن الكردبوس: كتاب الاكتفاء فى أخبار الخلفاء، نشر أحمد مختار العبادى، مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية، مدريد ١٩٦٥، ص ١٢.

(٩) أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٦٨، ص ٦٠، ٦١.

(١٠) Bathide Larsonneur: Historie de Gibraltar, p. 12– .
- Seybold: History of Gibraltar, Ency. Of Islam, I, p. 120.

(١١) ابن كردبوس مؤرخ تونسى عاش فى أواخر القرن السادس الهجرى/ الثانى عشر الميلادى، وهو صاحب كتاب «الاكتفاء فى أخبار الخلفاء».

(١٢) حكمت دولة الموحدين بلاد المغرب والأندلس عقب قضائها على دولة المرابطين وهذه الدولة من أقوى الدول التى حكمت تلك البلاد وأحرزت انتصارات هائلة على الصليبيين الأسبان والبرتغاليين فى معارك شهيرة .

(١٣) ظهر من صفته الكبرى أنه كانت بالجبل مدينة سابقة لكنها كانت صغيرة، وقد ذكر «ابن جزى» مسجل رحلات ابن بطوطة أنه شاهد بقايا السور الذى بناه طارق، وأنها كانت تحمل اسم «سور العرب»، كما ذكر أيضًا أنه كان هنالك برج صغير قبل مبانى أبى الحسن المرينى فى الجبل وأن هذا البرج تهدم بأحجار المجانيق (ابن بطوطة، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٨٥، جـ٢، ص ٧٦٦).

(١٤) هو أبو سعيد عثمان، أحد أجناد عبد المؤمن الثمانى عشرة (: المعجب، ص ١٩).

(١٥) ابن صاحب الصلاة: «كتاب المن بالإمامة»، مخطوط بالمكتبة الملكية المغربية، ولقد كان ابن صاحب الصلاة حاضرًا ضمن العلماء والفقهاء الذين عاصروا أمر بناء مدينة جبل طارق.

(١٦) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، جـ٤، ص ٣٧٩.

(١٧) توفى الشيخ أبو اسحق متأثرًا بعلة النقرس عام ٥٥٩ هـ/١١٦٣م (ليفى بروفنسال: رسائل موحدية، ص ٩٧- ٩٨، نقلًا عن ابن صاحب الصلاة، ص ٦٥).

(١٨) هو الحاج أبو يعيش المالقى كان من ألمع وأشهر المهندسين الذين تألق نجمهم على عهد الموحدين. وهو الذى صنع بمدينة مراكش، بأمر من عبد المؤمن، مقصورة مسجد مراكش الجامع، وهو الذى قام ببناء خزان للماء داخل المدينة كان الماء يتوزع منه على سائر أنحاء المدينة (مؤلف مجهول: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية، تونس ١٩٥٦، ص ١١٩- ١٢٠).

(١٩) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام، جـ٤، ص ٢٨٠، نقلا عن ابن صاحب الصلاة.

(٢٠) عبد الهادى التازى: تحقيق مخطوط الموحدون وجبل طارق، ص ١٧ ورقم ٩ (أ).

(٢١) مخطوط: الموحدون وجبل طارق، ص ٣٨ ورقة ١٩ (ب).

(٢٢) الخورنق: قصر كان بظاهر الحيرة وقد أمر ببنائه النعمان بن المنذر، بناه له المهندس سنمار، الذى قام النعمان بقتله بعد أن أنهى البناء.

(٢٣) السدير: قصر قريب من الخورنق اتخذه النعمان لبعض ملوك العجم (ياقوت: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧، جـ٣، ص ٢٦٦).

(٢٤) ابن العوام: كتاب الفلاحة (د. ت)، جـ١، ص ٢٦٠.

(٢٥) تتحدث بعض المصادر التاريخية عن تزود جبل طارق بالمياه الجارية الكافية (الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، ص ١٧٧، الحميرى: الروض المعطار، ص ١٢١).

(٢٦) محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، جـ٤، ص ٣٨٠، ٣٨١.

(٢٧) ابن بطوطة: الرحلة، جـ٢، ص ٧٦٦.

(٢٨) ابن بطوطة: نفس المصدر والجزء، ص ٧٧٠.

(٢٩) أورد لنا ابن صاحب الصلاة، وقد كان من شهود هذا الحفل، وصفًا ضافيًا لمقدم عبدالمؤمن لجبل طارق وحضور الوفود إليه والقصائد التى ألقيت بين يديه (مخطوط المن بالإمامة، لوحة ١١ وما بعدها).

وكان عبور عبدالمؤمن إلى شبه الجزيرة ونزوله فى جبل طارق فى شهر ذى القعدة عام ٥٥٥ هـ (يناير ١١٦١م) وكان فى استقباله فى الجبل ولداه السيد أبو يعقوب والسيد أبو سعيد ولبث عبدالمؤمن فى جبل طارق زهاء شهرين وسماه جبل الفتح... ولمّا فرغ الخليفة من تنظيم شئون الأندلس عبر البحر إلى سبتة عائدًا إلى المغرب وذلك فى خاتمة عام ٥٥٦ هـ (فبراير ١١٦١م) (عنان: تاريخ الأندلس، جـ٤، ص ٣٨٦).

(٣٠) عنان: نفس المرجع، جـ٤، ص ٣٨٦.

(٣١) عنان: نفس المرجع، جـ٤، ص٢٨٦.

(٣٢) محمد عبد الله عنان: تاريخ الأندلس، جـ٤، ص ٢٨٧.

(٣٣) عنان: نفس المرجع، جـ٨، ص ٢٩٠، ٢٩١.

مصادر ومراجع للاستزادة:

الإدريسى: نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (د. ت).
ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، بيروت ١٩٨٥.
ابن الخطيب: الإحاطة فى تاريخ غرناطة.
ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بولاق ١٨٦٧.
ابن صاحب الصلاة: كتاب المن بالإمامة (مخطوط).
ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب والأندلس، نشر تشارلز تورى (د.ت).
ابن عذارى: البيان المغرب فى أخبار المغرب، نشر دوزى ١٨٥٠.
ابن القوطية (أبو بكر محمد): تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق باسكوال دى جاينجوس، مدريد ١٩٢٦.
أحمد مختار العبادى: فى تاريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية ١٩٦٨.
أحمد مختار العبادى: الصفحات الأولى من تاريخ المرابطين، مجلة كلية الآداب، الإسكندرية ١٩٦٧.
الرازى: كتاب وصف الأندلس، نشر لطفى عبد البديع، القاهرة ١٩٥٥.
حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٩٢.
حسين مؤنس: المسلمون فى حوض البحر المتوسط، الجمعية التاريخية المصرية، مايو ١٩٥١.
سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، الإسكندرية ١٩٥٣.
عبد الملك بن حبيب: كتاب مبتدأ خلق الدنيا، تحقيق محمود مكى، مدريد ١٩٥٧.
عبد الهادى التازى: تحقيق مخطوط: الموحدون وجبل طارق.
محمد عبدالله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس، طبعة الهيئة العامة للكتاب، القاهرة ١٩٦٩.
محمود مكى: تاريخ عبد الملك بن حبيب، القسم الخاص بالأندلس، مدريد ١٩٥٧.
المقرى: نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب، بولاق ١٨٦٢.
مؤلف مجهول: كتاب أخبار مجموعة فى فتح الأندلس وذكر أمرائها، تحقيق خوليان ريبير، مدريد ١٩٣٣.
مؤلف مجهول: الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية، تونس ١٩٣٦.
ياقوت: معجم البلدان، بيروت ١٩٥٧.

Bathide Larsonner: Histoire de Gibraltar, Paris 1890.
Dozy: Histoire des Musulmans d'Espagne, Leiden 1880.
Seybold: History of Gibraltar, Ency. Of Islam.

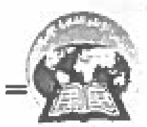
الجراجمة

قوم من نصارى العرب، سكنوا المنطقة الجبلية من شمال سوريا [١] نسبة إلى مدينتهم (جرجومة)، كما عرفوا كذلك فى التاريخ العربى (بالمَرَدَة)[٢].

ويبدو أنهم لم يثيروا مشاكل أثناء الفتح الإسلامى.

لذا لم ينتبه إليهم أبو عبيدة ﷺ فى فتحه للشام أول الأمر فلزموا مدينتهم، وهموا باللحاق بالروم غير أنهم استمروا فى بلادهم، وعندما غزا حبيب بن مسلمة الفهرى جرجومة، لم يقاتله أهلها وبادروا بطلب الصلح، فصالحهم على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعيونًا ومسالح فى جبل اللكّام، وذلك فى مقابل عدم أداء الجزية من ناحية، وأن يُنَفّلُوا أسلاب من يقاتلون من الروم إذا ما شهدوا قتالهم[٣].

وقد اختلفت مواقفهم تجاه كل من الروم والمسلمين، فمرة يكونون للمسلمين على الروم وأخرى يعكسون أدوارهم؛ فهم كما يقول د/ فيليب حتى " ثائرون، مقامرون، محاربون، فقد أدوا خدماتهم لأقوى مساوم" [٤] ويعتبرهم الأستاذ/ كرد على مذبذبين حيث " كانوا يستقيمون للولاة مرة، ويعوجّون أخرى، فيكاتبون الروم ويمالئونهم على المسلمين" [٥] ، فقد صالح الجراجمة المسلمين على أن يكونوا أعوانًا لهم، كما قاموا كذلك بإمداد الروم بالرجال والجنود غير النظاميين، مستفيدين من موطنهم على الحدود العربية البيزنطية، خاصة وقت الفتن ونشوب الأزمات، ففى بداية العصر الأموى اضطر معاوية فى أثناء حربه للإمام على - رضى الله عنهما - إلى مهادنة الروم، ودفع ضريبة سنوية كبيرة فى مقابل كف الروم عن غزو الشام من ناحية، وإقناعهم بالامتناع عن مطالبة الجراجمة بإثارة الفتن والقلاقل للمسلمين على نحو ما حدث عندما أوعز قسطنطين الثانى - قنسطانز - عام ٦٦٦م إلى الجراجمة بإثارة القلاقل والمتاعب للمسلمين، فضلاً عن إعانتهم بأعداد كبيرة من الروم [٦] . ويرى (أرشيبالد لويس) أن أثرهم كان قويًا لدرجة أن معاوية رغب فى السلام، ولو بدفع إتاوة للقسطنطينية[٧]. وإن كان قد تدارك الأمر بعد عام الجماعة (٤١هـ - ٦٦١م) فعمل كما يقول أرشيبالد لويس على السيطرة على شواطئ المتوسط حتى يمكنه القضاء على العراقيل المترتبة على مساعدة الروم للجراجمة فى إثارة



القلاقل والفتن [٨]، وكان من نتيجة ذلك قيام معاوية ﷺ بعد ذلك بنقل جماعة من العراق إلى الساحل البحرى وأنطاكيا عام (٤٩هـ - ٦٦٩م) حتى يقلل من خطر الجراجمة ويصدع جبهتهم. على أن خطر الجراجمة سرعان ما عاد مع بداية خلافة عبد الملك بن مروان ونشوب الحرب الأهلية بينة وبين عبد الله بن الزبير فى مكة، حيث تعاونت الجراجمة مع الروم القادمين إليهم من الإسكندرونة ورودس عن طريق البحر تحت إمرة بطريق لهم واجتمعوا معًا حتى توغلوا بأنطاكيا فى الجبل اللبنانى عام ٦٨ هـ ٦٨٧م " فأعظم ذلك المسلمون بالساحل، حتى لم يكن أحد يخرج من ناحية الساحل إلا بالسلاح، فغلب الجراجمة على الجبال كلها، الأمر الذى جعل عبد الملك بن مروان يهادنهم مقابل إتاوة كبيرة حتى يتفرغ لهم، وقد استطاع قائده على طرابلس سحيم بن المهاجر أن يُعمل الحيلة فى القضاء على هذا الجيش المكون من الروم والجراجمة حتى استطاع القضاء عليهم، فهرب الروم إلى بلادهم ورجعت الجراجمة إلى قراهم [٩].

ويبدو أن بعضًا من هؤلاء الجراجمة قد لحق بالروم، وهو ما يظهر من خلال المعارك التى دارت بين المسلمين بقيادة مسلمة بن عبد الملك وبين الروم فى إحدى غزواته لهم حيث قتل عددًا كبيرًا منهم وكان عدد المستعربين منهم ألفًا غير السبايا [١٠]. وكان ذلك عام (٨٧هـ - ٧٠٦م). خاصة وقد كان اللحاق بأرض الروم يدور فى أذهانهم منذ فتْح أبى عبيدة بن الجراح للشام، وهو الأمر الذى تحقق لكثير منهم عندما كان إبعادهم إلى الروم أحد المطالب التى اشترطها عبد الملك بن مروان على جستنيان على ما سيأتى.

والحقيقة أن أمر الجراجمة مع المسلمين كان يغلب عليه فى أحيان كثيرة المراوغة والذبذبة بين هاتين القوتين: المسلمين والروم.

فعندما نقضت الروم الهدنة مع المسلمين فى عام (٦٩هـ - ٦٨٩م) نتيجة لغفلة المسلمين من ناحية ولانشغالهم بحروبهم الداخلية من ناحية أخرى، عمل عبد الملك على عقد هدنة جديدة وبشروط أكثر إجحافًا مما كانت عليه فى عهد معاوية، إلا أنه أصر على أن يقوم الروم بمنع غارات الجراجمة؛ وذلك مقابل إتاوة ضخمة، وبالفعل أمر ملك الروم بإبعاد اثنى عشر ألفًا من الجراجمة

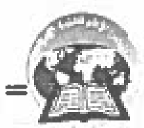
- المردة - من الشام إلى بلاده . ويعلق (ثيوفانيس) المؤرخ البيزنطي على هذه الخطوة وما ترتب عليها من آثار سيئة على الروم بقوله : "وقد أضعفت بذلك قوة المملكة الرومانية؛ لأن جميع المدن المجاورة للبنان كانت ضعيفة وخالية من السكان بسبب غارات المردة - الجراجمة - الذين عينهم الملك، وقد توالت منذ ذلك اليوم المحن والمصائب في المملكة الرومانية بسبب العرب"(١١).

أما عن الطريقة التي أُبعِدت بها الجراجمة عن الشام والتي قامت أيضًا على الحيلة، وإن كانت هذه المرة من جانب الروم، فقد ذكرت مصادرنا أن ملك الروم جهز جيشًا وسيره إلى سوريا، وأشاع أنه حامل على العرب، فقابل الأمير يوحنا قائد الجيش بالترحاب، فاحتال عليه القائد حتى قتله، وقد علل القائد فعلته هذه بتقديم المصلحة البيزنطية العامة على مصلحة حلفائه مبينًا أن " القسطنطينية محفوفة بالمخاطر الشديدة من جراء حملات العرب... وأنه يلزم تقديم المصلحة العامة على الخاصة، ثم حمل الجراجمة على أن يقيموا سمعان ابن أخت الأمير يوحنا قائدًا لهم، ثم مضى بهم إلى أرمينيا" (١٢).

وهناك في بلاد الروم حظي الجراجمة بمكانة خاصة حيث كانت المرتبة السابعة عشرة بعد الملك لكبير الجراجمة؛ (١٣) كما كان لهم وال وقاض يختصان بهم(١٤).

ولم يكن هذا الإبعاد هو نهاية الجراجمة؛ فقد ظلوا مصدر فساد وإرهاب للأهلين، " فكانت الجراجمة إذا غزت الصوائف قطعوا على المتخلف واللاحق أو من قدروا عليه" (١٥).

وظلت مشكلة الجراجمة قائمة كمخلب قط ، كلما ضاق الأمر على الروم من جراء حملات المسلمين وفتوحاتهم أوعزوا للجراجمة بإثارة القلاقل وإمدادهم بالحشود والمؤن على نحو ما حدث في عام ٨٩هـ/ ٧٠٨م وكان المسلمون قد أحرزوا نصرًا كبيرًا على الروم فاجتمعت الجراجمة في مدينتهم وأتاهم مدد من الروم من قبل الإسكندرونة ورودس فوجه إليهم الوليد بن عبد الملك أخاه مسلمة فدهمهم وانتصر عليهم، ثم خيَّرهم على أن ينزلوا بحيث أحبوا من الشام، ويُجرى على كل امرئ منهم ثمانية دنانير فضلاً عن مؤنتهم من الأطعمة(١٦)، مع عدم إكراههم على ترك ديانتهم كما قدم لهم بعض الإغراءات



التى سبق أن قُدِّمت لهم مثل عدم دفع الجزية، كما أباح لهم الغزو مع المسلمين بحيث يأخذون من الغنائم التى يشاركون فى أسبابها، مع الأخذ فى الاعتبار أخذ الخراج والعشور منهم، شأنهم فى ذلك شأن غيرهم. وهكذا فرق الوليد شمل الجراجمة الذين توثقت صلاتهم بالروم وكانوا شوكة فى جنب المسلمين، وأبعدهم عن مراكزهم الحساسة. وصاروا جندًا يشاركون فى الدفاع عن حدود الدولة الإسلامية دون أن يدخلوا فى الإسلام، ويبدو أن هذا كان نهاية تعاملهم مع الروم وأنهم اندمجوا فى الدولة الإسلامية وهو ما يظهر من قول ياقوت: " واستعان المسلمون بالجراجمة فى مواطن كثيرة فى أيام بنى أمية وبنى العباس، وأجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة". وعادوا كما كانوا فى أول أمرهم على ما صالحوا عليه فى أول الفتح حيث طلبوا الأمان فصولحوا على أن يكونوا أعوانًا للمسلمين وعونًا ومسالح فى جبل اللكام وأن لا يؤخذوا بالجزية [١٧]، كما ساهموا كذلك فى عهد يزيد الثانى فى القضاء على الفتن التى نشأت فى العراق، واستمروا فى تأدية دورهم هذا حتى العصر العباسى؛ فقد ذكر البلاذرى أنه فى عهد المتوكل أمر بأخذ الجزية منهم وأن يجرى عليهم الأرزاق إذا كانوا ممن يستعان بهم [١٨].

من هنا يبدو أن الأمر قد انتهى بهم إلى مناصرة المسلمين والكف عن مساعدة الروم، وهو ما يظهر من قول ياقوت: " وهكذا كانت أخراهم كأولاهم فى مساندة المسلمين بعد أن كانوا فى بعض أيامهم شوكة فى جنبهم" [١٩].

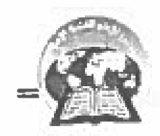
أ.د/عبد المقصود عبد الحميد باشا

الهوامش:

(١) انظر تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، د/ فيليب حتى، ص٢ ، وص٥٢، ط دار الثقافة، بيروت.
(٢) يعلل الأستاذ كرد على هذه التسمية بعصيانهم أمر ملك الروم فى عدم التعرض للعرب (خطط الشام، ص٢٩، ط دار النورى، دمشق) وإن كنا نرجح أن التسمية كانت لشدة عداوتهم للمسلمين فى بعض الأوقات إذ كثيرًا ما قطعوا السبيل وأخافوا المارة.
(٣) انظر فتوح البلدان للبلاذرى، ط. دار الهلال ، بيروت، ص١٥٩- ١٦٣.
(٤) تاريخ سوريا ، مصدر سابق.
(٥) خطط الشام مرجع سابق، وانظر أيضًا معجم البلدان لياقوت.
(٦) القوى البحرية والتجارية ، ارشيبالد. ر. لويس، ص٩٥.
(٧) تاريخ سوريا مصدر سابق وهو ما أيده أيضًا (ارشيبالد لويس) ص٩٥.
(٨) انظر الحدود الإسلامية البيزنطية ، د/ محمد فتحى عثمان ج٢ ص ٦٧ ط دار الكاتب العربى.
(٩) انظر هذه المكيدة فى فتوح البلدان مصدر سابق، وانظر أيضًا خطط الشام، مرجع سابق.
(١٠) انظر الكامل لابن الأثير ج٤ ص١٠٧ ط دار الفكر، سوريا.
(١١) انظر الحدود الإسلامية البيزنطية، مرجع سابق ص ٦٩.
(١٢) نفس المرجع .
(١٣) أنظر المرجع السابق ص٧٠.
(١٤) نفسه، وانظر أيضًا القوى البحرية مصدر سابق ص٩٩.
(١٥) فتوح البلدان ص١٦٣، مصدر سابق.
(١٦) الحدود الإسلامية مرجع سابق ص٧٩ وانظر أيضًا خطط الشام ص١٢٠.
(١٧) فتوح البلدان للبلاذرى ص١٦٠ وما بعدها .
(١٨) نفس المصدر
(١٩) معجم البلدان، مصدر سابق.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. الكامل لابن الأثير ط دار الفكر سوريا.
٢. فتوح البلدان للبلاذرى ط دار الهلال، بيروت.
٣. الحدود الإسلامية البيزنطية ، د/ محمد فتحى عثمان ط دار الكاتب العربى.
٤. خطط الشام، محمد كرد على، مطبعه النورى، دمشق.
٥. تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، د/ فيليب حنى، ط دار الثقافة، بيروت.
٦. معجم البلدان، ياقوت الحموى، ط دار الكتب العلمية، بيروت.
٧. القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط لارشيبالد لويس، ط النهضة المصرية.



الجراكسة

فرقة المماليك الجراكسة:

قصد السلطان المنصور قلاوون (٦٧٨- ٦٨٩هـ/١٢٧٩- ١٢٩٠م) إلى بناء فرقة جديدة من المماليك، ليضمن أن يكون ولاؤها له ولأبنائه من بعده أو ليكونوا بعبارة قلاوون نفسه أسوارًا وحصونا مانعة له ولأولاده وللمسلمين. وقد رأى قلاوون أن تكون تلك الفرقة من غير الأجناس المعروفة آنذاك (كالأتراك والمغول والتركمان)، فوقع اختياره على الجراكسة [١].

وكان الجراكسة يقطنون المناطق الشمالية الغربية من إقليم القوقاز المطلة على البحر الأسود [٢]، مختلطين ببعض القبائل التركية النازحة إلى تلك المناطق، وبمرور الوقت صار للأتراك الغلبة العددية والسياسية، وهو الأمر الذى ترتب عليه صبغ القسم الأكبر من الجراكسة بصبغة تركية، ونشأ لدى الباقين ميل إلى الاعتقاد بأنهم أتراك [٣]، ومن هنا فقد قرر بعض المؤرخين العرب أن الجراكسة جنس من الترك، وأصلهم أربع قبائل كبرى: "جركس- ويقال: شركس - وأذكش، والآص، وكسا، وتتفرغ منهم بطون كثيرة" [٤].

ويبدو أنَّ غلبة الطبيعة الجبلية على شمال القوقاز قد حالت دون قيام حكومة مركزية تنضوى تحت لوائها تلك القبائل التى كانت تعيش حياة أقرب إلى البداوة، وتعانى شظف العيش [٥].، وهو الأمر الذى يسَّر لمغول القبيلة الذهبية الاستيلاء على بلادهم أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، فكانوا من جملة رعايا صاحب مدينة سراى، فإن داروه وهادوه كفَّ عنهم، وإلا غزاهم وحاصرهم، وكم مرة قتلت عساكره منهم خلائق وسبت نساءهم وأولادهم وجلبتهم رقيقا إلى الأقطار" [٦].

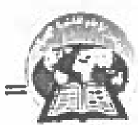
وقد نشأ عن غارات المغول المتوالية على إقليم القوقاز أن امتلأت أسواق الرقيق بأعداد غفيرة من الجراكسة، ويبدو أن رخص أسعارهم بالقياس إلى الرقيق التركى، وما اشتهروا به من القوة والشجاعة والفروسية وجمال الخلقة- قد شجع السلطان المنصور قلاوون على اختيارهم ليكونوا نواة فرقته الجديدة [٧].

وقد بلغ عدد المماليك الجراكسة أواخر عهد المنصور قلاوون ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك أسكنهم بجواره فى أبراج القلعة، ولذا عرفوا بالمماليك البرجية، وأسبغ عليهم رعايته وحباهم بعطفه، وباشر الإشراف على تدريباتهم العسكرية بنفسه، واختصهم بالوظائف المرموقة فى الدولة[٨].

وكانت سياسة المنصور قلاوون تجاه الجراكسة تقوم على منعهم من الاختلاط بغيرهم من طوائف المماليك التى تقاسمتها الميول وتنازعتها الولاءات السياسية، وإبعادهم عن المشاركة فى الحياة العامة؛ ومن هنا فقد ألزمهم بالإقامة فى أبراج القلعة وحظر عليهم مغادرتها . بيد أن هذه السياسة لم تدم طويلاً ؛ إذ سرعان ما سمح لهم الأشرف خليل(٦٨٩ - ٦٩٣ هـ/١٢٩٠ - ١٢٩٣م) بمغادرة القلعة نهارًا مع العودة إليها ليلاً،[٩] فزاد اختلاطهم بالمجتمع واتسعت خبرتهم بدقائق الحياة السياسية.

وكان أول تدخل للجراكسة فى شئون السياسة ومسائل الحكم عقب اغتيال أستاذهم الأشراف خليل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م، حيث ثأروا له ممن تواطأ على قتله من أمراء الترك وعلى رأسهم الأمير بيدرا، ثم نصبوا الناصر محمد بن قلاوون سلطاناً للبلاد خلفاً لأخيه، وهذه هى سلطنته الأولى(٦٩٣ - ٦٩٤هـ/ ١٢٩٣ - ١٢٩٤م)[١٠]. وحين احتدم الصراع بين الأميرين كتبغا وسنجر الشجاعى إبان السلطنة الأولى للناصر محمد، انحاز الترك إلى كتبغا فى حين مال الجراكسة إلى سنجر، ولكنهم سرعان ما انفضوا من حوله حين ساورتهم الشكوك فى ولائه للناصر محمد، فرجحت كفة الأمير كتبغا الذى لم يجد صعوبة فى التخلص من غريمه سنة ٦٩٣هـ /١٢٩٣م بعد أن تخلى عنه الجراكسة[١١].

وكان الأمير كتبغا – ذو الأصل المغولى – يشفق من تضخم نفوذ الجراكسة[١٢]، ويعتقد أنهم بولائهم لبيت قلاوون يمثلون عقبة كبيرة فى سبيل وصوله إلى كرسى السلطنة، فاجتهد فى كسر شوكتهم وتفتيت عصبيتهم؛ حيث شتتهم فى أنحاء متفرقة من القاهرة، وأخضع من سمح له بالمكوث فى القلعة لرقابة صارمة؛ فناصبوه العداء هو ومن معه من المماليك الترك. وقد ضاعف حقدهم عليه اغتصابه للسلطنة من الناصر محمد سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م[١٣].



وقد واصل السلطان" لاجين "(٦٩٦-٦٩٨هـ/١٢٩٦- ١٢٩٨م) سياسة سلفه كتبغا فى إضعاف قوة الجراكسة وتقليص نفوذهم ؛ فلم يجد الأمير الجركسى سيف الدين كرجى بدًا من اغتياله سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م ، وإعادة الناصر محمد إلى السلطنة مرة ثانية (٦٩٨- ٧٠٨هـ /١٢٩٨ – ١٣٠٨م) [١٤]. ولاشك أن إخلاص الجراكسة لأسرة قلاوون التى أحبها المصريون وتعلقوا بها قد أكسبهم تعاطف الناس وتقديرهم ؛ إذ بدوا فى صورة المدافع عن السلطان الشرعى للبلاد ، وهو الأمر الذى أورثهم فى ظل السلطنة الثانية للناصر محمد نفوذاً واسعاً عبر عنه المقريزى قائلاً : "وقويت شوكة البرجية بديار مصر ، وصارت لهم الحمايات الكبيرة ، وتردد الناس إليهم فى الأشغال ، وقام بأمرهم الأمير" بيبرس الجاشنكير" وأمّر منهم عدة" [١٥]. وفى المقابل كان الأمير سلار – ذو الأصل المغولى – يتزعم المماليك الترك، وينازع الأمير بيبرس الجاشنكير رأس الجراكسة النفوذ والسيادة [١٦]. وحين أعلن الناصر "محمد بن قلاوون" تنازله عن منصب السلطنة بسبب ضيقه بتسلط كبار الأمراء واستئثارهم بالسلطة الفعلية من دونه، حل محله الأمير بيبرس الجاشنكيرالجركسى، فكان أول جركسى يصل إلى منصب السلطنة [١٧] غير أنه لم يحتفظ بهذا أكثر من تسعة أشهر لم يستطع خلالها أن يمكّن للعنصر الجركسى، وعاد الناصر محمدبن قلاوون إلى الحكم للمرة الثالثة (٧٠٩- ٧٤١هـ/١٣٠٩- ١٣٤١م) [١٨]، فانتهج سياسة معادية للجراكسة، فكسر شوكتهم ، وعزف عن شرائهم لتقليص أعدادهم .

سقوط دولة المماليك البحرية وقيام دولة الجراكسة (البرجية):

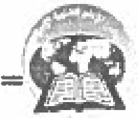
استقبلت دولة المماليك بوفاة الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ/١٣٤١م مرحلة من الفوضى والاضطراب السياسى؛ حيث تراجع نفوذ خلفائه وتقلصت سلطاتهم لصالح طائفة من الأمراء الكبار سيطروا على مقاليد الحكم وانفردوا بتدبير شئون البلاد. وقد حكم الدولة خلال تلك الحقبة المضطربة التى تمتد ثلاثة وأربعين عامًا (٧٤١ - ٧٨٤هـ/١٣٤١- ١٣٨٢م) ثمانية من أبناء الناصر محمد وأربعة من أحفاده [١٩]، كانوا- نظرا لحداثة أسنانهم –ألعوبة فى أيدى كبار الأمراء

يحركونها وفق أهوائهم و مصالحهم ، ويتدخلون فى مصائرهم عزلاً وتعيينا. كما اشتد الصراع بين أمراء المماليك واشتعلت العداوة بين أحزابهم المختلفة ، وغدت شوارع المدن المملوكية مسرحًا لقتال لا يكاد يهدأ بين أصحاب المصالح المتنافرة ، وغرقت البلاد فى حالة عظيمة من الفوضى والاضطراب[٢٠]. وقد اقترن بتلك الحالة : انتشار الوباء الأسود سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م ، الذى ظلت الدولة تعانى آثاره المدمرة فترة طويلة[٢١] ، وتشديد الصليبيين هجماتهم على السفن والموانى الإسلامية فى مصر والشام [٢٢].

وقد استغل الجراكسة تلك الفوضى فاستردوا كثيرًا من نفوذهم ، وكان لهم دور ملموس فى توجيه مسار الحياة السياسية [٢٣]إلى أن برز اسم الأمير برقوق، ذلك المملوك الجركسى الذى جلبه الخواجا "فخر الدين عثمان" بن مسافر (ت٧٨٣هـ /١٣٨١م) أحد كبار تجار الرقيق آنذاك، سنة ٧٦٤هـ/١٣٦٢م، فاشتراه الأمير الكبير "يلبغا العمرى الخاصكى" (ت٧٦٨هـ/١٣٦٦م). وقد مّر برقوق بما يمر به المماليك المجلوبون من مراحل التربية والإعداد له، فأعتقه يلبغا بعد نحو أربع سنوات، وألحقه بجملة مماليكه (اليلبغاوية) . وكان لبرقوق مكانة مرموقة لدى أستاذه يلبغا؛ نظًرا لما كان يمتاز به من جمال الخلقة والتفوق فى فنون الحرب والفروسية . وجعل برقوق يترقى بفضل طموحه وذكائه النادر إلى أن وصل إلى رتبة "أمير مائة مقدم ألف"، وهى أعلى رتب الإمارة ، ثم ولى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م ، وأصبح فى عهد السلطان المنصور علاء الدين على (٧٧٨- ٧٨٣هـ/١٣٧٦-١٣٨١م) واحدًا من أقوى الأمراء وأوسعهم نفوذا [٢٤].

فلما توفى السلطان المنصور على سنة ٧٨٣هـم١٣٨١م، تظاهر برقوق بالزهد فى كرسى الحكم، وأعلن مبايعة أمير حاجى بن الأشرف شعبان بالسلطنة ولقّبه بالملك الصالح ، وكان غلاماً فى الحادية عشرة من عمره ، وظل برقوق على حاله "إليه حَلُّ المملكة وعَقْدُها ، ولم يجسر على السلطنة[٢٥] .

وإذا كان برقوق قد رأى ألا يتعجل الوثوب على الحكم، فقد عمل على إضعاف شوكة الترك وتفتيت عصبيتهم، فتعقبهم قتلاً وسجنًا وتشريدًا ونفياً ،وفى المقابل فقد استغل وصايته



على السلطان حاجى وهيمنته على شئون الحكم، فأنعم بوظائف الدولة الكبرى على مماليكه وأمرائه [٢٦]، وتقرب إلى الرعية بإلغاء بعض الضرائب والعمل على النهوض باقتصاد البلاد وتحسين النقد[٢٧]. وكذلك فقد بذل "برقوق" جهدًا طيبًا فى صد خطر التركمان والتصدى لغاراتهم على حلب سنة ٧٨٣هـ/١٣٨١م، فبدا فى صورة الأمير القوى القادر على حماية حدود الدولة وتوفير الأمان والاستقرار للرعية[٢٨].

وحين وجد برقوق أن الظروف باتت مواتية لإعلان نفسه سلطانًا للبلاد، بادر إلى عقد اجتماع بالقلعة حضره الخليفة العباسى المتوكل على الله والأمراء والقضاة الأربعة وكبار العلماء، وانتهى ذلك الاجتماع إلى "أن الأمور مضطربة لصغر سن السلطان وقلة خبرته، وأن الوقت محتاج لملك عاقل يستبد بأحوال الدولة، ويقوم بأمور الناس، وينهض بأعباء الحروب والتدبير ونحو ذلك."[٢٩] وتقرر خلع الصالح حاجى، ومبايعة برقوق سلطانًا للبلاد حيث لقب بالملك الظاهر، وكان ذلك فى رمضان سنة٧٨٤هـ/١٣٨٢م، وبذلك انقرضت دولة الأتراك فى مصر، وزالت دولة بنى قلاوون" [٣٠] وقامت على أنقاضها دولة المماليك الجراكسة (أو البرجية) ٠

الخصائص العامة لتاريخ دولة المماليك الجراكسة:

حكمت دولة المماليك الجراكسة مصر والشام ١٣٤ سنة (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢- ١٥١٧م) ، تعاقب خلالها على كرسى السلطنة (٢٣) سلطانًا ، كانوا جميعا من الجراكسة، باستثناء خشقدم وتمريغا اللذين ينحدران إلى أصول رومية ٠ ومن هؤلاء تسعة سلاطين حكموا(١٠٣) سنة، فى حين حكم السلاطين الأربعة عشر الآخرون (٩) سنوات فقط٠ ومن هنا فقد ارتبط تاريخ تلك الدولة بأولئك السلاطين التسعة، وهم: الظاهر برقوق، والناصر فرج، والمؤيد شيخ، والأشرف برسباى، والظاهر جقمق، والأشرف إينال، والظاهر خشقدم، والأشرف قايتباى، وقانصوه الغورى [٣١].

ولم يؤمن سلاطين الجراكسة بمبدأ "الحكم الوراثى" الذى حاول سلاطين المماليك البحرية تطبيقه، وكان مثله البارز حكم أسرة المنصور قلاوون الذى امتد لنحو تسعة عقود. ويمكن القول : "إن حكام دولة المماليك الجراكسة

كانوا زعماء أو أمراء كبارًا أكثر من كونهم سلاطين؛ اذ كان نجاح الواحد منهم فى الوصول إلى الحكم والبقاء فيه يتوقف على مدى نجاحه فى توجيه كبار الأمراء وضرب طوائف المماليك بعضها ببعض . فإذا استطاع السلطان الاحتفاظ بمنصبه حتى الوفاة، فإن ابنه كان يخلفه عادة،ولكن لبضعة أشهر فقط، حتى ينجلى الموقف بين كبار الأمراء، ويستطيع أحدهم أن ينفرد بالحكم" [٣٢].

وقد اتسم الحكم الجركسى منذ اللحظة الأولى بنزعة عنصرية واضحة ؛ فالظاهر برقوق على سبيل المثال عمل منذ جلوسه على كرسى السلطنة سنة ٧٨٤هـ/١٣٨٢م على إفناء رجال الدولة من الأتراك وغيرهم، وتوسع جدًا فى جلب الجراكسة [٣٣]. ومن ناحية أخرى فقد تراجع المستوى الأخلاقى والتدريبى للمماليك؛ ذلك أن سلاطين الجراكسة لم يحفلوا كثيرًا بتربيتهم وتدريبهم ذلك التدريب الراقى الذى كانوا يحظون به فى دولة المماليك الأولى، فكانوا لا يقيمون بالطباق غير فترة قصيرة لا يكتسبون خلالها ما يلزم توافره من الصفات الضرورية- عسكريًا وأخلاقيًا- فى الفارس المملوكى المثالى [٣٤].

ومما زاد الأوضاع سوءًا شراء مماليك بالغين، كانوا يجلبون إلى مصر وقد تبلورت أخلاقهم واكتملت شخصياتهم؛ وإلى ذلك يشير المقريزى قائلاً: "وبقى الجُلبُ من المماليك إنما هم الرجال الذين كانوا فى بلادهم مابين ملاح سفينة، ووقَّاد فى تُنُّور خبَّاز، ومحوِّل ماء فى غيط أشجار ونحو ذلك" [٣٥]. ولا معرفة لهم بفنون القتال وآداب الفروسية [٣٦]، فلا عجب كان وجودهم مصدرًا للفوضى والاضطراب، وسببا من أسباب فساد النظام المملوكى وتهاوى أركانه [٣٧].

ويمكن تقسيم تاريخ دولة المماليك الجراكسة إلى ثلاث مراحل متعاقبة على النحو الآتى:

المرحلة الأولى : الاضطراب ومحاولة تثبيت دعائم الحكم الجركسى (٧٨٤-٨١٥هـ/١٣٨٢- ١٤١٢م):

كانت تلك المرحلة امتدادًا للمرحلة السابقة التى حكم فيها أبناء الناصر "محمد بن قلاوون "وأحفاده، من حيث انتشار الفوضى وكثرة الاضطرابات الداخلية التى أدى تزايدها إلى خلع الظاهر برقوق نفسه ونفيه إلى الكرك سنة ٧٩١هـ/١٣٨٩م قبل أن يعود بمساعدة

أمراء الشام إلى السلطنة مرة أخرى سنة (٧٩٢هـ/١٣٩٠م)، مستغلاً اندلاع الصراع بين الأميرين منطاش(ت٧٩٥هـ/١٣٩٣م) ويلبغا الناصرى (ت٧٩٣هـ/١٣٩١م) [٣٨].

وقد لبث برقوق فى الحكم هذه المرة تسع سنوات قضاها فى إرساء قواعد دولة الجراكسة، فتخلص من خصومه، وقضى على نفوذ المماليك الترك بإبعادهم عن وظائفهم ومصادرة إقطاعاتهم، كما نجح فى كسر شوكة العربان وقمع تمردهم ومحاولاتهم الخروج عليه ٠[٣٩].

الناصر فرج بن برقوق (٨٠١-٨١٥هـ/١٣٩٨- ١٤١٢م):

توفى الظاهر برقوق سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، فخلفه فى الحكم ابنه الناصر فرج الذى اتسمت شخصيته بالعجز وعدم الاتزان [٤٠].

ويصف المقريزى سنوات حكمه بأنها كانت "كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء، وطرق بلاد الشام فيها تيمور لنك، فخربها كلها وحرقها، وعمها بالقتل والنهب والسبى والأسر٠٠٠ وتمزق أهلها فى جميع أقطار الأرض، ثم دهمها بعد رحيله عنها جرادٌ لم يترك بها خضراء،فاشتد بها الغلاء على من تراجع إليها من أهلها وشنع موتهم ٠٠٠ وقصر مد النيل بمصر حتى شرقت الأراضى إلا قليلاً، وعظم الغلاء والفناء ٠٠٠وشمل الخراب الشنيع عامة أهل مصر وبلاد الشام من النيل إلى مجرى الفرات٠ وابتلى مع ذلك بكثرة فتن الأميرين نوروز الحافظى وشيخ المحمودى وخروجهما ببلاد الشام عن طاعته، فتردد مرارًا لمحاربتهما حتى هزماه، ثم قتلاه بدمشق سنة خمس عشرة وثمانمائة"[٤١].

وكان من الطبيعى أن تستنزف تلك الاضطرابات موارد الدولة وتؤثر بالسلب على الإنتاج الزراعى والصناعى، وتحد من نشاط المعاهد الدينية والمدنية ٠[٤٢].

المرحلة الثانية: محاولة إعادة النظام والنهضة النسبية (٨١٥- ٨٧٢هـ/١٤١٢- ١٤٦٨م):

شهدت الفترة التى أعقبت مقتل "الناصر فرج بن برقوق" سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م جهودًا طيبة بذلها سلاطين المماليك؛ بغية إعادة النظام والاستقرار إلى ربوع الدولة ومحاولة إحياء مجدها القديم، فأدركوا قدرًا لا بأس به من النجاح حمل بعض الباحثين على نعت هذه الفترة بأنها تمثل "نهضة القرن الخامس عشر "[٤٣].

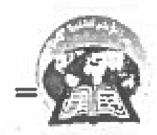
لقد أنهى السلطان المؤيد شيخ (٨١٥-

٨٢٤ هـ/١٤١٢- ١٤٢١ م) الحروب الداخلية وأخمد ثورات المماليك التى كانت أحد الملامح البارزة فى عهد الناصر فرج، وقمع ثورات العربان فلم تظهر بعد ذلك إلا فى ظروف استثنائية ومتقطعة .[٤٤] وكذلك فقد نجح المؤيد شيخ فى إعادة توطيد الأمن على الحدود الشرقية والشمالية للدولة بعد أن أخضع القبائل التركمانية وقضى على محاولاتهم الرامية إلى الخروج عن التبعية للمماليك وامتدت أعماله الحربية فى آسيا الصغرى إلى قونية (٨٢١- ٨٢٢هـ/١٤١٨- ١٤١٩م) [٤٥].

أما الأشرف برسباى (٨٢٥- ٨٤١هـ /١٤٢٢- ١٤٣٨م) الذى نَعَتَهُ ابن تغرى بردى بأنه " أعظم ملوك الجراكسة بعد الملك الظاهر برقوق " فقد امتد عصره نحو ١٦ عامًا امتازت فى الجملة بالهدوء والاستقرار وقلة الاضطرابات الداخلية باستثناء بعض الثورات المحدودة التى لم يجد صعوبة فى إخمادها. ووجه برسباى جانبًا من جهوده لإعادة الهيبة التى فقدها المماليك فى البحر المتوسط؛ فأرسل عدة حملات لغزو جزيرة قبرص التى كانت مركز القرصنة الصيلبية - ضد النشاط البحرى الإسلامى عامة والمملوكى خاصة- فى البحر المتوسط انتهت بإخضاعها سنة ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٥ م [٤٦]. وقد حذا الظاهر جقمق (٨٤٢- ٨٥٧هـ/١٤٣٨- ١٤٥٣ م) حذو سلفة فجرَّد ثلاث حملات ضد رودس فى الأعوام (٨٤٤هـ/٨٤٧، ٨٤٨ هـ/١٤٤٠م)، وإن لم تحقق ما حققته الحملات الموجهة ضد قبرص من نجاح ، وانتهى الأمر بعقد صلح مع الإسبتارية فى رودس، تعهدوا فيه بوقف أعمال القرصنة ضد السفن والموانى الإسلامية [٤٧].

وقد شهدت تلك الفترة من تاريخ دولة الجراكسة عدة محاولات ترمى إلى تقوية الاقتصاد المحلى، وإضفاء شىء من الاستقرار على النظام المالى ولا سيما فى عهد شيخ وبرسباى؛ حيث ضرب الأول عملة جديدة من الدراهم الفضية ، وأصدر الثانى الدينار الأشرفى ليكون العملة الذهبية القياسية للدولة، فاستقرت الأسعار نسبيًا نتيجة ثبات العملة بعد فترة طويلة من التقلب والاضطراب، وانتعش النشاط الاقتصادى فى مجالات الزراعة والصناعة والتجارة[٤٨].

على أن استمرار الضغوط العسكرية واستنزافها جزءًا كبيرًا من ميزانية الدولة؛ لصيانة الأسطول وجلب عناصر جديدة من المماليك لتدارك النقص فى



صفوف الجيش التى أبادها الوباء وأفنتها الحروب- تطلبت وجود مصادر جديدة للدخل فى وقت تراجعت فيه موارد مصر والشام[٤٩]؛ فكانت النتيجة إرهاق الرعية بنظام ضريبى مجحف، وتدخل السلاطين فى النشاط التجارى تدخلاً مباشرًا للتغلب على مشكلة نقص الموارد وتوفير الأموال اللازمة لتغطية نفقات الجيش . وقد تجلى ذلك التدخل فى انتهاج سياسة الاحتكار التى مست أهم جزء فى الاقتصاد التجارى وهو تجارة التوابل، وسياسة فرض المشتريات؛ حيث أجبر التجار والعامة على شراء كميات معينة من السلع بأسعار يحددها السلطان أوممثلوه[٥٠]. بيد أن تلك السياسة الاقتصادية المعتلة لم تنقذ الدولة من أزمتها، بل ظلت مواردها فى تراجع مستمر، وزادت معاناة الناس وارتفعت أصواتهم بالشكوى وخاصة فى أواخر أيام برسباى.

ولا ريب أن التدهور الاقتصادى الذى بدت آثاره واضحة فى نهاية هذه المرحلة وانتشار المظالم الاقتصادية وزيادة معاناة الناس قد نالت من الاستقرار الداخلى للمدن المملوكية، نتيجة كثرة ثورات الجلبان لقلة رواتبهم أو تأخر تقاضيهم لها، حتى لقد ثاروا فى عهد الأشرف إينال (٨٥٧- ٨٦٥ هـ/ ١٤٥٣- ١٤٦٠م) وحده سبع مرات[٥١].

وكان من الطبيعى فى ظل هذا التراجع الاقتصادى أن يتقلص النشاط العمرانى؛ حيث قل الاهتمام بصيانة المبانى والمؤسسات الدينية والمدنية، وتراجعت أعمال الطرق وإنشاء شبكات الرى، واقتصرت أعمال التشييد والبناء على بعض المدارس والزوايا الصغيرة[٥٢].

المرحلة الثالثة: سقوط دولة المماليك (٨٧٢- ٩٢٣ هـ/ ١٤٦٨- ١٥١٧م)

ربما يكون من المفارقات العجيبة أن يؤرخ لبداية تلك المرحلة التى شهدت سقوط دولة المماليك بسلطنة واحد من أهم سلاطين الجراكسة وأطولهم حكمًا وهو الأشرف قايتباى الذى يصفه ابن إياس قائلا: "كان كفؤا للسلطنة، وافر العقل سديد الرأى عارفًا بأحوال المملكة، يضع الأشياء فى محلها، ولم يكن عجولاً فى الأمور، بطىء العزل لأرباب الوظائف، يتروى فى الأمور أيامًا قبل وقوعها. وكان موصوفًا بالشجاعة عارفًا بأنواع الفروسية"[٥٣].

ورغم تلك الصفات المحمودة التى تحلى بها قايتباى، ورغم كثرة ما تركه من آثار ومنشآت دينية ومدنية خلدت اسمه[٥٤]، ورغم الهدوء النسبى الذى ساد

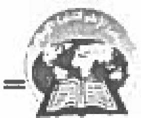
عهده ،فقد عجز عن إصلاح الاقتصاد المتداعى والارتقاء بالنظام المالى الذى اعتراه الخلل والاضطراب، بل إن السياسات الاقتصادية التى انتهجها أفضت إلى مزيد من تدهور المؤسسات المملوكية؛ حيث توسع جدًا فى فرض الضرائب ومصادرة أرباب الأموال من التجار وغيرهم، وأضحى نظام الشراء القسرى سياسة اقتصادية تبنتها الدولة من خلال الأمراء والحكام المحليين والموظفين فى المدن المملوكية المختلفة. وهكذا بلغت الضرائب غير الشرعية درجة الانهيار الاقتصادى، وعرضت بِنْيةَ الحياة الاجتماعية المدنية بأسرها للخطر· وقد انعكست تلك السياسة على مستوى المعيشة؛ فارتفعت الأسعار وقلت السلع والمواد الغذائية، وزاد الطين بلة التلاعب فى أسعار العملة، للاستفادة من فروق سعر الصرف فى إنعاش الخزانة[٥٥].

ولعل السبب الرئيس الذى دفعه إلى انتهاج تلك السياسة المالية الجائرة كثرة ما خاضه من حروب دفاعًا عن حدود الدولة المملوكية من ناحية الشمال، بعد أن تزايدت أخطار التركمان والعثمانيين· وقد أرسل "قايتباى" لمواجهة تلك الأخطار[٥٦].حملة عسكرية، بلغ مجموع ما أنفقه عليها نحو سبعة ملايين دينار[٥٧].

وقد اقترن بذلك التدهور الاقتصادى انتشار الوباء(٨٩٧ هـ/١٤٩٢ م) الذى حصد أرواح ثلث المماليك،وذهب ضحيته فى مصر وحدها نحو ٢٠٠ ألف شخص؛ وهو الأمر الذى كان له تأثير ضار على النمو السكانى والاقتصادى للبلاد[٥٨].

وقد زادت الفوضى و عم الاضطراب بعد وفاة "قايتباى" سنة ٩٠١ هـ/١٤٩٦م، وحسبنا دليلاً على ذلك أنه تعاقب على كرسى السلطنة خمسة سلاطين فى خمس سنوات انتهى أمرهم بالسجن أو القتل؛ ولذلك لم يكن غريبًا أن يزهد الغورى فى منصب السلطنة ولا يقبله إلا بعد ضغط وإلحاح من الأمراء[٥٩].

وقد استقبل السلطان الغورى (٩٠٦-٩٢٢هـ/١٥٠٠- ١٥١٦م) حكمه بالعمل على زيادة موارد الدولة ومحاولة إنعاش الخزانة الخاوية، فاتخذ سياسة مالية لا تقل جورًا وتعسفًا عن سياسة أسلافه ، فتوسع فى الضرائب، وابتدع من المكوس ما لم يسبقه إليه أحد[٦٠]. وقد جمع ضرائب عشرة أشهر مقدمًا لا تقتصر على الأراضى والحوانيت والعقارات فحسب، بل تجاوزت إلى المعديات والسفن ودواب النقل وخدم القصور والأوقاف



الخيرية. وتلاعب فى أسعار العملة لتحقيق فائض تستفيد منه خزانة الدولة، فضلا عن انتشار تزييف العملات والتلاعب بوزنها ونقائها. وكان يستولى على أموال التركات ويغتصب أموال الأيتام. وشاعت ظاهرة بيع الوظائف وانتشرت المصادرات التى لم يسلم منها حتى الخليفة العباسى[٦١].

وفضلاً عما أدى إليه التدهور الاقتصادى والاستغلال المالى من تكدير صفو الاستقرار الداخلى للمدن المملوكية، فقد خسرت مصر مركزها الاقتصادى كطريق رئيسى للتجارة بين الشرق الأقصى والغرب الأوربى باكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، فكان ذلك إيذانًا بتحول زمام التجارة من أيدى المماليك إلى أيدى البرتغاليين؛ فتفاقمت الأزمة الاقتصادية نتيجة ما خسرته مصر من عوائد تجارة العبور[٦٢].

المواجهة بين المماليك والعثمانيين:

تحولت العلاقة بين الدولة العثمانية ودولة المماليك منذ سلطنة الظاهر خشقدم٨٧٢هـ/١٤٦٧م من طور المودة وحسن الجوار إلى طور الصراع والتنازع الذى بلغ حد الصدام العسكرى على الحدود فى بعض الأحيان[٦٣]. ولكن العلاقة بين الدولتين - رغم المناوشات العسكرية بينهما فى عهد "قايتباى"- لم تأخذ شكل الحرب الفاصلة إلا فى عهد السلطان سليم الأول العثمانى من ناحية والسلطان قانصوه الغورى من ناحية أخرى[٦٤]. وقد استقر رأى المماليك فى مصر على ضرورة تجهيز حملة عسكرية تخرج إلى حلب ويكون السلطان الغورى نفسه على رأسها، لوضع حد للتهديدات العثمانية المتزايدة[٦٥]. وفى صباح يوم الأحد الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م وقعت المعركة الفاصلة بين المماليك والعثمانيين عند "مرج دابق" شمالى حلب، فتمكن العثمانيون من إلحاق الهزيمة بالجيش المملوكى، رغم الشجاعة النادرة التى أبداها المماليك، وسقط الغورى صريعًا من فوق صهوة جواده، وضاعت جثته بين آلاف الجثث.

ثم تقدم السلطان سليم العثمانى إلى مصر، واستطاع القضاء على المقاومة المملوكية الباسلة بقيادة طومانباى الذى قبض عليه وشنق على باب زويلة.

وهكذا سقطت دولة المماليك لتستقبل مصر والشام عصرًا جديدًا هو العصر العثمانى.

أ.د / عطية القوصى

(ملحق)

سلاطين دولة المماليك الجراكسة (البرجية)

١	الظاهر سيف الدين برقوق بن آنص.	٧٨٤هـ	١٣٨٢م
٢	الناصر ناصر الدين فرج بن برقوق	٨٠١هـ	١٣٩٩م
٣	المنصور عز الدين عبد العزيز بن برقوق	٨٠٨هـ	١٤٠٥م
٤	الناصر فرج (للمرة الثانية).	٨٠٨هـ	١٤٠٥م
٥	الخليفة المستعين بالله أبو الفضل العباسى.	٨١٥هـ	١٤١٢م
٦	المؤيد سيف الدين شيخ المحمودى.	٨١٥هـ	١٤١٢م
٧	المظفر شهاب الدين أحمد بن المؤيد شيخ.	٨٢٤هـ	١٤٢١م
٨	الظاهر سيف الدين ططر.	٨٢٤هـ	١٤٢١م
٩	الصالح ناصر الدين محمد بن ططر.	٨٢٤هـ	١٤٢١م
١٠	الأشرف سيف الدين برسباى.	٨٢٥هـ	١٤٢٢م
١١	العزيز جمال الدين يوسف بن برسباى.	٨٤١هـ	١٤٣٨م
١٢	الظاهر سيف الدين جقمق.	٨٤٢ هـ	١٤٣٨م
١٣	المنصور فخر الدين عثمان بن جمقمق	٨٥٧ هـ	١٤٥٣م
١٤	الأشرف سيف الدين إينال العلائى الظاهرى.	٨٥٧هـ	١٤٥٣م
١٥	المؤيد شهاب الدين أحمد بن إينال .	٨٦٥ هـ	١٤٦٠م
١٦	الظاهر سيف الدين خشقدم 0	٨٦٥ هـ	١٤٦٠م
١٧	الظاهر سيف الدين يلباى.	٨٧٢ هـ	١٤٦٧م
١٨	الظاهر تمريغا.	٨٧٢ هـ	١٤٦٧م
١٩	الأشرف سيف الدين قايتباى.	٨٧٢ هـ	١٤٦٧م
٢٠	الناصر ناصر الدين محمد بن قايتباى.	٩٠١ هـ	١٤٩٥م
٢١	الظاهر قانصوه.	٩٠٤ هـ	١٤٩٨م
٢٢	الأشرف جانبلاط.	٩٠٥ هـ	١٤٩٩م
٢٣	العادل سيف الدين طومانباى.	٩٠٦ هـ	١٥٠٠م
٢٤	الأشرف قانصوه الغورى.	٩٠٦ هـ	١٥٠٠م
٢٥	الأشرف طومانباى.	٩٢٢ هـ	١٥١٦م
٢٦	الغزو العثمانى وسقوط دولة المماليك	٩٢٣ هـ	١٥١٧م

الهوامش

(١) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الطبعة الأولى، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ٣/٦٩٢ .

(٢) راجع: القلقشندى، صبح الأعشى، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ، ٢٠٠٤م، ٤/٤٦٢، حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، القاهرة ، وزارةالثقافة، ١٩٦٦، ص ١٢، محمد صادق أبه زاو، موسوعة تاريخ القفقاس والجركس، منشورات علاء الدين بدون تاريخ، ص ٤٣..

(٣)محمد جمال صادق أبه زاو، موسوعة تاريخ القفقاس والجركس، ٤٤، ٤٥. .

(٤) العينى، الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق: هانس أرنست، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابى الحلبى)، ١٩٦٢م، السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد شيخ، تحقيق : فهيم شلتوت، القاهرة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م، ص ٢٦.

(٥) صبح الأعشى ٥/٤١٦ .

(٦) المواعظ والاعتبار ٣/٧٧٩، ٧٨٠. وراجع كذلك: حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ١٢ .

(٧) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ١٢ .

(٨) ابن دقماق، الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، تحقيق: محمد كمال الدين عز الدين، الطبعة الأولى، بيروت، عالم الكتب ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م ، ص ٣٢٥، المواعظ والاعتبار ٣/ ٧٨٠ ، وراجع كذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٤م، ص ١٤٣، حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية ١٢ .

(٩) المواعظ والاعتبار ٣/ ٦٩٢.

(١٠) المقريزى، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، بدون تاريخ، ٣/١/٧٩١ -٧٩٤.

(١١)السلوك ٣/١/٨٥٥-٨٧٢ حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية ١٤-١٦.

(١٢) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية ١٧، ١٨.

(١٣)السلوك ٣/١/٨٥٥- ٨٧٢.

(١٤) السابق ١/٨٧٥، ٨٧٦.

(١٥) السابق نفسه .

(١٦) الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ٣٥٥، ٣٥٦، السلوك ٢/١/٤٤- ٤٧.

(١٧) الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ٣٥٦-٣٦٠.

(١٨)حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية ٢٦، ٢٧ .

(١٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، ص ١٣٥ .

(٢٠) السلوك ٣/٢/٧٧٢- ٧٩١ ، أندريه ريمون، القاهرة: تاريخ حاضرة، ترجمة: لطيف فرج، الطبعة الأولى القاهرة، دار الفكر للدراسات والنشر، ١٩٩٤م، ص ١٢٩-١٣٢ .

(٢١) الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ٤٢٦، السلوك ٣/١/١٠٤- ١٠٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

(٢٢) لمزيد من التفاصيل عن الدور السياسى للجراكسة فى عهد أبناء الناصر محمد راجع : حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية،ص٢٧-٣٥ .

(٢٣) السلوك ٣/٢/٤٦٧، ٤٧٧ ، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م، ١١/٢٢٣-٢٢٤ ابن حجر العسقلانى، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق: حسن حبشى، القاهرة، المجلس الأعلى للشئن الإسلامية، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ، ٢/٦٦، حكيم أمين عبد السيد، قيام دلة المماليك الثانية، ص٣٧، ما بعدها.

(٢٤) النجوم الزاهرة ١١/١٨٨ .

(٢٥) السلوك ٣/٣٨٥، إنباء الغمر ١/٢٥٧.

(٢٦) المواعظ والاعتبار ١/٢٨٧، النجوم ١١/ ٢١١،٢١٠. سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، ١٥٦.

(٢٧) السلوك ٣/٣٧٧، ٤٤٠، إنباء الغمر ١/٢٣٥، ٢٣٧، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، ١٥٦، ١٥٧.

(٢٨) السلوك ٣/٢/٤٧٤.

(٢٩) السلوك ٣/٢/٤٧٥، الجوهر الثمين ٤٥٩، ٤٦٠، المواعظ والاعتبار ٣/٧٨١، النجوم الزاهرة ١١/٢٢١.

(٣٠) راجع القائمة الخاصة بسلاطين الجراكسة فى الملحق.

(٣١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٩٨م، ص٢٦٧.

(٣٢) المواعظ والاعتبار ٣/٧٨١.

(٣٣) السيد الباز العرينى، المماليك، بيروت دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص٢٦٠، حكيم عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية ١١٦، أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية: التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى، الطبعة الأولى، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٠، ص ٣٤.

(٣٤) المواعظ والاعتبار ٣/٦٩٤.

(٣٥) السلوك ٤/٢/٨٠٢ –٨٠٥.

(٣٦) السيد الباز العرينى، المماليك، ص ٢٦٠، سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص ٢٥.

(٣٧) ابن دقماق ، الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ٤٦٥– ٤٧٧.

(٣٨) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك الثانية، ٩٣ وما بعدها .

(٣٩) اندريه ريمون، القاهرة: تاريخ حاضرة ١٣٤.

(٤٠) الخطط ٣/ ٧٨٣، ويصف المقريزى سنة ٨٠٦ بأنها " أول سنى الحوادث والمحن التى خربت فيها ديار مصر، وفنى معظم أهلها واتضعت بمها الأحوال، واختلت الأمور خللا آذن بدمار إقليم مصر" . السلوك ٣/٣/١١٢٧ .

(٤١) Ira M. Lapidus, Muslim Cities in The Later Middle Ages, 2 nd ed, Cambridge University Press, 1984, P. 40.

(٤٢) Ira M. lapidus, Muslim Cities in The Later Middle Ages, P. 32.

(٤٣) Ibid . P . 32.

(٤٤) إنباء الغمر ٣/١٥٩، ١٧٣، ١٨٩، ١٩٧، ١٩٨.

(٤٥) المنهل الصافى ٣/٢٥٥.

(٤٦) السلوك ٤/٢/٦٩٤، ٦٩٥، ٧٢٠– ٧٢٦.

(٤٧) النجوم الزاهرة ١٥/ ٣٤٣، ٣٥١، ٣٥٢، ٣٦٠– ٣٦٣، سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك ٢٨٣– ٢٨٥.

(٤٨) Ira M. Lapidus, Muslim Cities in The Later Middle Ages, PP. 32-34.

(٤٩) Ibid. P. 34.

(٥٠) Ibid. PP. 35, 36.

(٥١) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى ١٨٥.

(٥٢) Ira M. lapidus, Muslim Cities in The Later Middle Ages, P. 37.

(٥٣) ابن إياس، بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، القاهرة، الهيئة العامة القصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٣/٣٢٥.

(٥٤) Ira M. lapidus, Muslim Cities in The Later Middle Ages, P, 40.

(٥٥) بدائع الزهور ٣/٣٢٥.

(٥٦) السابق ٣/٢٨٧، ٢٨٩.

(٥٧) السابق ٤/٣، ٤.

(٥٨) السابق ٥/٨٩.

(٥٩) السابق ٥/٨٩-٩١.

(٦٠) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى ١٩٠، ١٩١.

(٦١) سعيد عاشور، مصر فى العصور الوسطى من الفتح العربى حتى الغزو العثمانى، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٩٢م، ص ٥٣١.
وقد ثار بين المماليك والعثمانيين خلاف فى مناطق الحدود بين الدولتين فى طرسوس، وهى المنطقة الواقعة بين الطرف الجنوبى الشرقى وبين شمال الشام، حين حاولت الدولة العثمانية بسط نفوذها على بقية الإمارات التركمانية فى آسيا الصغرى، وكانت أهم هذه الإمارات قرمان ودلغادر، وهما الإمارتان اللتان أسبغت عليهما الدولة المملوكية حمايتها وحاولت الدفاع عنهما ضد أطماع العثمانيين، واتكأت عليهما فى شئون الأمن والدفاع عن مصالحها فى شمال العراق والشام.
Lone poole, A History of Egypt, PP 346, 347.

(٦٢) د/ إسماعيل أحمد ياغى، الدولة العثمانية فى التاريخ الإسلامى الحديث، الرياض، مكتبة العبيكان ٢٠٠٢م، ٢٦ وما بعدها.

(٦٣) ابن إياس، بدائع الزهور (٤/٤٣٥) وما بعدها.

(٦٤) السابق (٥/ ٧١).

(٦٥) ابن إياس، بدائع الزهور (٥/١١٨)، وما بعدها. د/ سعيد عاشور، مصر فى العصور الوسطى (٥٣٦، ٥٣٧) العصر المماليكى فى مصر والشام ص (٢٠٠) وما بعدها.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١ــ المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق أيمن فؤاد سيد.مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، لندن ٢٠٠٢م.

٢ــ القلقشندى: صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر ٢٠٠٤م.

٣ــ حكيم أمين عبد السيد: قيام دولة المماليك الثانية. القاهرة ، وزارة الثقافة ١٩٦٦م.

٤ــ العينى: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر، تحقيق هانس أرنست ، القاهرة ، ط. عيسى البابى الحلبى ١٩٦٢م.

٥ــ سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، مكتبة الأنج المصرية ١٩٩٤م.

6- Ira M.lapidus, Musim Cities in the Later Middle Ages, Cambridge , 1984.

الجمل (موقعة)[1].

(سنة ٣٦هـ/٦٥٦م)

تصدعت الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية بعد استشهاد عثمان بن عفان ﷺ، وتولى على بن أبى طالب ﷺ الخلافة عام ٣٥هـ/٦٥٦م . فقد خرج عليه طلحة ، والزبير ، وأم المؤمنين عائشة – رضى الله عنهم – ومن تبعهم ممن يرون أنه لا يخلصهم مما وقعوا فيه من توانيهم فى نصرة عثمان، إلا أن يقوموا فى الطلب بدمه، والأخذ بثأره من قتلته[2].

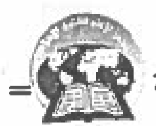
وطلب طلحة والزبير من علىّ أن يسمح لهما بالرحيل إلى مكة لأداء العمرة، فأذن لهما على كره منه[3]. فاتجها إلى مكة وأعلنا أنهما بايعا مكرهين وأنهما فى حل من هذه البيعة[4]. وينفى ابن العربى هذه الرواية، قائلاً: "حاشا لله أن يكرها ، لهما ولمن بايعهما"، فلم يُكرها ، ولم يُكْرِهُما على ﷺ ؛ لأن ذلك لا يؤثر فى بيعته[5].

والتقيا فى مكة بأم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها- وقد كانت غضبت أيضًا لمقتل عثمان ﷺ ، وكانت تقول : "قتل والله مظلومًا والله لأطلبن بدمه"، وأخذت تحث الناس على الثأر له. ونجح طلحة والزبير فى ضمها إلى صفهما[6].

ولا نميل إلى القول بأن خروجها كان كراهية لعلى منذ حديث الإفك حين أشار على الرسول ﷺ بتطليقها قائلاً له: "إن النساء غيرها كثير" ، فلا يعقل أن تظل عائشة - رضى الله عنها- تتحين الفرصة؛ لتثأر لنفسها من علىّ طوال هذه المدة - ثلاثون عامًا - ، خاصة وقد نزل القرآن الكريم ببراءتها.

ولكن الذى وقر فى نفسها أن عثمان ﷺ قتل مظلومًا وقصر أهل المدينة – ومنهم علىّ- فى الدفاع عنه- كما أن الطريقة التى استشهد بها عثمان ﷺ تؤثر فى نفس أى مسلم، فما بالنا بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها؟ مما أحدث عندها تعاطفًا كبيرا مع مَنْ يعلن الخروج للمطالبة بدم عثمان ، واستغل هذا طلحة والزبير، لعلمهما بمكانتها عند المسلمين.

وحاولت أم المؤمنين أم سلمة - رضى الله عنها- أن تثنى عائشة عن الخروج ، وكتبت إليها: " لو علم رسول الله ﷺ أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك،وغدًا تردين على رسول الله ﷺ، وأقسم لو قيل



لى: يا أم سلمة، ادخلى الجنة، لا ستحييت أن ألقى رسول الله ﷺ هاتكة حجابًا ضربه علىّ، فاجعليه سترك، وقاعة البيت حصنك". فردت عليها عائشة- رضى الله عنها - بكتاب موضحة فيه أنه لا مناص من المضى فيما اعتزمته[٧].

ونصح أيضًا عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما- لأم المؤمنين عائشة بعدم الخروج، وأن فى لزومها بيتها المحافظة على كرامتها، والإشفاق على المسلمين من أن تتفرق كلمتهم وتذهب ريحهم.

الخروج إلى البصرة:

وأشار طلحة والزبير على أم المؤمنين عائشة بالخروج إلى البصرة لكثرة أنصارهما بها – والمطالبة بدم عثمان والقصاص ممن اشترك فى قتله، والدعوة إلى أن يُختار الخليفة عن مشورة بين المسلمين. فخرجوا إليها فى ستمائة رجل، ولحق بهم الناس فبلغ عددهم ثلاثة آلاف [٨].

ولما قاربوا البصرة وعلم بأمرهم عثمان ابن حنيف[٩]. عامل "على" عليها – أرسل إليهم رجلين هما أبو الأسود، وعمران؛ ليعلما ما يريده هؤلاء. والتقى المبعوثان بالسيدة عائشة وطلحة والزبير، فعلما منهم أنهم جاءوا للمطالبة بدم عثمان والإصلاح بين الناس، وتأهب عثمان بن حنيف لملاقاتهم[١٠]. وخطب طلحة والزبير فى أشياعهما، فاختلف أهل البصرة على أنفسهم، ففريق يؤيد عليًا وفريق آخر لما استمع إلى طلحة والزبير انحاز إليهما، وزاد من شأن حزب طلحة والزبير تلك الخطبة التى خطبتها أم المؤمنين عائشة فى أهل البصرة؛ إذ قالت : غضبنا لكم من سوط عثمان وعصاه، أفلا نغضب لعثمان من السيف؟ ألا وإن خليفتكم قد قتل مظلومًا، أنكرنا عليه أشياء وعاتبناه فيها فأعتب وتاب، وماذا يطلب من المسلم إن أخطأ أكثر من أن يتوب إلى الله ويعتب الناس. ولكن أعداءه سطوا عليه فقتلوه واستحلوا حرمًا ثلاثة: حرمة الدم، وحرمة الشهر، وحرمة البلد الحرام.. "[١١].

فانضم أكثر أهل البصرة إليهم حتى أصبحوا ثلاثين ألفًا[١٢].

ونشب القتال بين عثمان بن حنيف ومن معه وبين طلحة والزبير ومن انضم إليهما وهاجم طلحة والزبير البصرة وتمكنوا من الاستيلاء عليها، وأخذوا واليها عثمان ابن حنيف، فضربوه، ثم أخلوا سبيله بأمر من أم المؤمنين عائشة، فعاد عثمان إلى علىّ بن أبى طالب، وقتل طلحة والزبير كثيرين من أهل البصرة ممن

اعتقدوا أنهم كانوا مشاركين فى قتل عثمان ﷺ[١٣].

أحداث المعركة :

وكان علىّ بن أبى طالب ﷺ أثناء ذلك يستعد للخروج إلى الشام لملاقاة معاوية، إلا أنه رأى أن يبدأ بالبصرة فسار إليها فى عشرين ألف مقاتل[١٤]، وأصبح الجيشان وجهًا لوجه فى الخريبة[١٥]، وتحفز المسلمون للقتال فيما بينهم .

وفى هذا الموقف المتأزم الخطير أرسل علىّ القعقاع بن عمرو إلى أهل البصرة ، فالتقى بأم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وسألها : أى أمه ، ما أشخصك وما أقدمك على هذه البلدة؟ فقالت : أى بنى ، إصلاح بين الناس . ثم التقى بطلحة والزبير؛ ليعرف رأيهما ، فأخبراه أن مقصدهما كمقصد عائشة ، فقال لهما القعقاع : ما هذا الإصلاح !. وبين لهم خطورة الموقف وتأثيره على تمزيق وحدة المسلمين، قائلاً: فآثروا العافية ترزقوها ، وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تُعَرِّضونا للبلاء ولا تَعَرَّضُوا له فيصرعنا وإياكم..[١٦]. فرضى الناس بذلك واستبشروا أخيرًا. ورجع القعقاع إلى علىّ فأخبره فأعجبه ذلك . وخرج علىّ على فرسه وعليه سلاح إلى طلحة والزبير ودنا منهما حتى اختلفت أعناق دوابهم ، فذكرهم بالله ورسوله والبيعة التى بذلاها له، وتبرأ أمامهما من دم عثمان ﷺ ولعن قاتليه، فرضى الزبير وسكت طلحة، وعاد كل منهما إلى معسكره[١٧]. ففرح الناس وأملوا أن الصلح بات قريبًا.

وأدرك ابن سبأ[١٨] وأتباعه أن هذا الصلح لن يصب فى مصلحتهم وسينقلب عليهم[١٩]. فتسللوا فى الظلام وهاجموا جند البصرة الذين تمكنوا من ردهم على أعقابهم، فلما أصبح الصباح سأل طلحة والزبير: ما هذا ؟ فقيل لهما : طَرَقنا أهل الكوفة ليلاً . فقالا: قد علمنا أن عليًا غير منتهٍ حتى يسفك الدم ويستحل الحرمة وأنه لن يطاوعنا. وسأل علىّ عن الخبر، فقيل له : ما فجئنا إلا وقوم منهم قد بيتونا فرددناهم من حيث جاءوا. فقال علىّ : قد علمت أن طلحة والزبير غير منتهيين حتى يسفكا الدماء ويستحلا الحرمة، وأنهما لن يطاوعانا[٢٠].

فاشتعلت الفتنة واستعرت نار الحرب بين الفريقين فى يوم الجمل- منتصف جمادى الآخرة سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م - واقتتل الفريقان قتالاً شديدًا رجحت فيه كفة علىّ وجنده، حتى وصلوا إلى جمل

أم المؤمنين عائشة وقتل الناس حوله سبعين رجلا[٢١]. فلما رأى علىّ كثرة القتلى حول الجمل أرسل إليه من عقره، واشتد القتال، وكثر القتل بين الفريقين، ولم تتوقف المعركة إلا بعد خسارة كبيرة للمسلمين قدرت بعشرة آلاف قتيل، بينهم طلحة - الذى قتل فى ميدان المعركة - والزبير- الذى قتله ابن جرموز وهو راجع إلى المدنية، وأسرت أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - [٢٢]. وبقيت فى هودجها. إلى الليل، حتى أدخلها أخوها محمد بن أبى بكر إلى البصرة [٢٣]. ونادى علىّ فى جنده: ألا لا تتبعوا مدبرًا، ولا تجهزوا على جريح، ولا تدخلوا الدور[٢٤].

موقف علىّ من أم المؤمنين عائشة:

والتقى علىّ بأم المؤمنين عائشة وسألها: أترتحل إلى المدينة؟ فقالت: أرتحل. فجهزّها بما احتاجت إليه من مركب وزاد ومتاع، واختار لها أربعين امرأة من نساء البصرة المعروفات، وسيّر معها أولاده مسيرة يوم، وشيعها الناس وعلىّ فى مقدمتهم. فقالت السيدة عائشة حينذاك عن علىّ: " إنه والله ما كان بينى وبين علىّ فى القديم إلا ما يكون بين المرأة وأحمائها، وإنه عندى- على معتبتى - من الأخيار".

فرد عليها علىّ بقوله: « أيها الناس: صدقت والله وبرَّت، وإنه ما كان بينى وبينها إلا ذاك، وإنها لزوجة نبيكم ﷺ فى الدنيا والآخرة» [٢٥]. فخرجت إلى المدينة فى غرة رجب سنة ٣٦هـ/ديسمبر سنة ٦٥٦م [٢٦].

تعقيب:

ويعقب بعض المؤرخين على هذه الموقعة، فيقول الذهبى: « ثم إنها – أى أم المؤمنين عائشة – ندمت، وندم علىٌ لأجل ما وقع» [٢٧]. نعم ندما، وإنه لأمر يستحق الندم أن يقتتل المسلمون وجهًا لوجه، وتصبح خسائرهم عشرة آلاف رجل.

ويقول د/ حسن إبراهيم: "على أننا نرى أنه لم يكن هناك مبرر لخروج طلحة والزبير وعائشة، ما دام للأمة إمام ينفذ الأحكام ويقيم الحدود، ولا سيما بعد أن وعدهم علىّ بالنظر فى أمر عثمان والبحث عن قاتليه والقصاص منهم عندما تستقر الأمور وتهدأ نار الفتنة. ونرى من جهة أخرى أن مجرد قبول علىّ فى جيشه أعوان ابن سبأ الذين قتلوا عثمان فى الوقت الذى يطالب فيه الناس بدمه كافٍ لأن تحوم حوله الشبهة التى

تبرز اتهامه بالاشتراك فى دمه "[٢٨]. ويقول الشيخ الخضرى:" وتبعة هذه المعركة يتحملها كل من الفريقين "[٢٩].

ولكن النصيب الأكبر – من وجهة نظرى- من التبعة يقع على طلحة والزبير والسيدة عائشة ؛ لأنهم خرجوا على إمام له بيعة، والله تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ ﴾ (النساء : ٥٩)، وعن أبى هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن أطاع أميرى فقد أطاعنى، ومن عصى أميرى فقد عصانى»[٣٠].

كما أن طلحة والزبير بمكانتهما الكبيرة ،- تعجّلا الخروج للمطالبة بدم عثمان ﷺ مما أثار الكثير من الناس ، ولو تريثا ما تطورت الأمور ووصلت إلى الصدام والاقتتال .

وكان فى جلوس أم المؤمنين عائشة وعدم خروجها تسكين للناس ووأد للفتنة فى مهدها؛ نظرًا لمكانتها الكبيرة عند المسلمين، ولكن غلبتها العاطفة وخرجت مع المطالبين بدم عثمان ﷺ.

النتائــج :

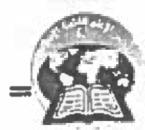
وكان لموقعة الجمل المشئومة نتائج ؛ منها :

ـ أنها كانت بداية الاقتتال بين المسلمين ، مما سهّل عليهم حمل السلاح واستحلال كل منهم دم الآخر بعد أن كان ذلك الأمر فى نظرهم عظيمًا مهيبًا ، ويؤكد هذا ما تلاها من صفين والنهروان .. وغيرهما ، فكانت فتقًا لم يلتئم إلى اليوم !

- الخسارة الكبيرة للمسلمين - عشرة آلاف قتيل - من الشجعان والأبطال، بينهم كثير من أعلامهم مثل : طلحة بن عبيد الله، وابنه محمد ، والزبير ابن العوام، وعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وغيرهم.

- أوضحت دور اليهود الخبيث المناوئ للإسلام وأهله، فبعد أن كادت الأمور تؤول إلى الصلح أشعل ابن سبأ وأعوانه الفتنة وأججوا نارها ووقعت الحرب؛ مما يؤكد عداوتهم المستحكمة للمسلمين عبر عصور التاريخ المختلفة؛ قال تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ ﴾ (المائدة : ٨٢).

- أن الغموض وعدم تحديد الأمور قد يؤدى إلى عواقب وخيمة، كما فى موقف



على ﷺ وموافقته على خروج ابن سبأ وبعض أتباعه معه !. وكما فى عدم إصغاء أم المؤمنين عائشة لنصح من نصح لها كأم سلمة وعبد الله بن عمر !

- أنه يجب فى حال الفتن إحالة الأمور إلى الشرع الذى هو قوام كل شىء ، وليس إلى هوى النفس والعاطفة ، أو الانحياز إلى فئة ما أو شخص ما؛ لأنه - فى الغالب - يؤدى إلى عواقب وخيمة ، ما زال المسلمون يتجرعون كأسها إلى اليوم!

أ.د / سيد عبد الفتاح بلاط

الهوامش:

(١) سميت بهذا ؛ لأن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - شوهدت على جمل يسمى عسكرا ، اقتتل الناس حوله بضراوة الذهبى: تاريخ الإسلام ١٩٥/٢.

(٢) الذهبى : تاريخ الإسلام ١٩٢/٢.

(٣) اليعقوبى : تاريخ ١٨٠/٢ ، ابن الأثير : الكامل ٩٥/٢.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٥٩.

(٥) العواصم من القواصم ، ص ١٢٢.

(٦) الطبرى : تاريخ الرسل الملوك ٤٥٩/٤ ، ابن الاثير: الكامل ١٠٠/٣.

(٧) ابن عبد ربه: العقد الفريد ١٠٢/٢- ١٠٣.

(٨) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤٥١- ٤٥٢.

(٩) عثمان بن حنيف بن وهب الأنصارى الأوسى، من الصحابة . شهد أحدًا وما بعدها ، وولاه عمر ﷺ العراق، ثم ولاه على ﷺ البصرة ، وبعد موقعة الجمل سكن الكوفة وتوفى بها فى خلافة معاوية سنة ٤١هـ ، ابن حجر: الإصابة ٤/ ٥٦٧- ٥٦٨، الزركلى : الأعلام ٢٠٥/٤.

(١٠) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٦٢ ، ابن الأثير: الكامل ٣/ ١٠٤.

(١١) بألفاظ متقاربة: الطبرى : تاريخ الأمم ٤/ ٤٩٠.

(١٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٠٥.

(١٣) المصدر السابق ٤/ ٤٦٦، ٤٦٧.

(١٤) ابن الأثير : الكامل ١٢٩/٣.

(١٥) الخريبة: موضع بالبصرة، كانت مدينة للفرس خربت لتوالى غارات المثنى بن حارثة عليها ، فلما مصرت البصرة ابتنوا إلى جانبها، فسميت الخريبة. ابن عبد الحق مراصد الاطلاع ٤٦٣/١.

(١٦) ابن الأثير : الكامل ١٣٢/٣. ١٣٣.

(١٧) الطبرى: تاريخ الرسل والمماليك ٥٠١/٤- ٥٠٢.

(١٨) عبد الله بن سبأ ، رأس السبئية . أصله من اليمن ، وكان يهوديًا وأظهر الإسلام ، قال بالرجعة ،. وأدخل فى الدولة الإسلامية الكثير من الفتن والاضطراب هو وطائفته . ويعد من غلاة الزنادقة . الزركلى ، الأعلام ٤/ ٨٨.

(١٩) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤٩٤/٤.

(٢٠) المصدر السابق ٥٠٧/٤.

(٢١) ابن الأثير : الكامل ٣/ ١٣٦. الذهبى : تاريخ الإسلام ١٩٥/٢.

(٢٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٥٠٩/٤- ٥١١ ، ابن الأثير : الكامل ١٣١/٣، ١٣٢

(٢٣) ابن الأثير : الكامل ١٤١/٣.

(٢٤) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٤٩٢.

(٢٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٤، ابن الأثير: الكامل ٣/ ١٤٤.

(٢٦) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ٤/ ٥٤٤.

(٢٧ تاريخ الإسلام ٢/ ١٩٥.

(٢٨) تاريخ الإسلام السياسى ٢٧٥/١ ، الثابت تاريخيًا أن عليًا ﷺ رفض الانصياع لمطالب الثوار بعزل عثمان ﷺ، وحذرهم مغبة ما يقدمون عليه، بل ونهرهم لما حاولوا مفاوضته بالخلافة. وكان أولاده الحسن والحسين – رضى الله عنهما – من المدافعين عن عثمان ، ولكنها الفتنة حين تطل برأسها ، لا يسلم منها إلا من رحم ربى.

(٢٩) محاضرات تاريخ الأمم ٢/ ٦٠.

(٣٠) النسائى : السنن ١٣/ ٩٥.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- الطبرى: تاريخ الرسل والمماليك.
٢- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.
٣- الذهبى: تاريخ الإسلام.
٤- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى.

حادثة الإفك(*).

ملخص الحادثة:

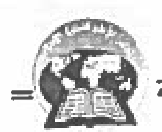
١ـ خرج رسول الله ﷺ إلى غزوة (المُرَيْسيع)[1]. فى شهر شعبان سنة ٥هـ/٦٢٧م[2]، ومعه زوجته السيدة عائشة[3] (رضى الله عنها)، وبعد انتهاء الغزوة سار المسلمون حتى نزلوا فى مكان قريب من المدينة، وذهبت السيدة عائشة لقضاء حاجتها، فلما عادت إلى معسكر الجيش، اكتشفت ضياع عقدها، فراحتْ تبحث عنه حتى عثرت عليه.

٢ـ ظن الرجال الذين يحملون هَوْدَجها[4]. - لخفة وزنها- أنها بداخله، فوضعوه فوق بعيرها، وانطلق الجيش مسرعًا إلى المدينة. لما عادت السيدة عائشة، ولم تجد أحدًا، مكثت فى مكانها ظانّة أن المسلمين سيكشفون غيابها، ويعودون للبحث عنها.

٣ـ قدم الصحابى (صفوان بن المعطِّل)- وكان فى مؤخرة الجيش- فرآها وقد غلبتْها عيناها فنامت[5]، فاسترجع، فاستيقظتْ، فأناخ لها راحلته، وانطلق بها إلى المدينة، حيث رآها المسلمون، وخاض فى عِرْضها المنافقون- وعلى رأسهم: عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول- وردَّد كلامهم- عن غير وعى- بعض المسلمين.

٤ـ انتشرت الشائعات وملأت أرجاء المدينة، والسيدة عائشة مريضة منذ عودتها، ولم يبلغها من الأمر شىء، حتى خرجت -ذات يوم- مع أم الصحابى (مِسْطَح بن أُثاثة)؛ لقضاء الحاجة، فعلمتْ بما يشاع عنها منذ شهر فحزنت حزنًا شديدًا، خاصة أن معاملة الرسول لها تغيرتْ، وعلامات الشك بدتْ عليه، لا سيما أن الوحى لم يفصل فى الأمر طيلة هذه المدة، كما أن أبويها أخفيا عنها كل ما يدور حولها من أقاويل.

٥ـ أخذ النبى يستشير من حوله بشأن عائشة، ثم شكا ابن أُبَىّ لزعماء الأنصار، الذين اختلفوا فما بينهم، وكادت تنشب فتنة عارمة بين الأوس والخزرج. وأخيرًا نزلت براءة السيدة عائشة فى آيات بينات متتابعات[6] على قلب النبى ﷺ من فوق سبع سماوات؛ كى تضع حدًّا لهذه المحنة القاسية.



تحليل الحادثة:

١- الأطراف المباشرون:

أ- عائشة: كانت مثالا للطُّهر والعفة والنقاء فى عدم حديثها مع صفوان، واستعانتها بالله عز وجل، ثم براءتها التامة، حيث ظلت شهرًا كاملا لا تدرى ما يقوله الناس عنها، فهى من المحصنات الغافلات المؤمنات، اللائى أشار إليهن القرآن بقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٧]. فعائشة لم تَهُمَّ بما اتُّهمت به قط، ولا خطر على قلبها، فهى فى غفلة تامة عنه[٨]. أصيبت عائشة بصدمة مروعة لما بلغها كلام أهل الإفك عليها، واستأذنت وذهبت لأبويها لتعرف حقيقة ما يثار حولها، وزادها ألمًا انتشار هذا الأمر بين الناس، ومعرفة الجميع به إلا هى، وظلت تبكى بكاء شديدًا وعاتبت أمها عتابًا مُرًّا أنها لم تدافع عنها، وزادها فجيعةً أن الرسول جاءها واعظًا لا مُبرِّئًا[٩]، فتماسكت، وقالت مقالة يعقوب عليه السلام: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾[١٠]. ومعنى ذلك أنها استمدتْ من استسلامها الكامل لله قوة هائلة وثقة تامة، تواجه بها كل الصعاب، وتستعلى بها على كل الأشخاص والأحداث[١١]. ثم نزل الوحى ببراءتها، فلم تزدد إلا ثقة بربها ثم بنفسها، وكانت لحظة نزول الوحى بهذا الشأن على رسول الله – رابطة الجأش مطمئنة الفؤاد، وبلغت قمة الإيجابية الإيمانية لما شكرت الله وحده على نعمة البراءة، وردّت على أمها لما أمرتها أن تقوم لتشكر رسول الله قائلة: " لا والله لا أقوم إليه؛ فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل "[١٢].

ب- **صفوان بن المعطّل:** صحابى جليل، شهد المغازى مع رسول الله، جعله الرسول على مؤخرة الجيش، يلتقط ما يسقط من متاع المسلمين؛ حتى يأتيهم به[١٣]: وهو الذى جعله يلتقى بعائشة. لقد نفى صفوان التهمة عن نفسه فى قوله: **«سبحان الله! فوالذى نفسى بيده، ما كشفتُ من كنف أنثى قط»**[١٤]. لقد شهد له الرسول بالخلق الرفيع، فقال: **«ولقد ذكروا رجلا ما علمتُ عليه إلا خيرًا، وما يدخل على أهلى إلا معى»**[١٥]. كان صفوان مثالا للشهامة والمروءة والعفاف عندما قابل السيدة عائشة وصحبها إلى المدينة دون أن يصدر منه ما يخدش الحياء، أو يناقض المروءة والإيمان.

جـ . أم رومان (والدة عائشة)، وأبو بكر (والدها):

احتملت الأم آلامها بداخلها، ولم تبلغ عائشة شيئًا، حتى علمت عائشة بما يقال عنها، وحاولت التخفيف عن ابنتها بأن الأمر مجرد حسد بعض ضرائرها لها[١٦]. ولم تستطع أن تجيب رسول الله ﷺ فيما قال بعد أن ألقى موعظته على عائشة[١٧].، وظلت إلى جوار ابنتها حتى ظهرت براءتها[١٨]، ومن فرط شخصيتها الطيبة المهذبة طلبت إلى ابنتها شكر الرسول بعد نزول براءتها من السماء إلا أن عائشة لم تحمد إلا الله (عز وجل)[١٩].

لا يكاد يختلف موقف أبى بكر عن زوجته، فهو يعانى الحزن العميق، ويحاول التخفيف عن ابنته مع التسليم الكامل لقضاء الله، وانتظار فرجه. هذا وقد تحول أبو بكر عن طبيعته اللينة إلى غضبة عمرية فائرة ضد مسْطح بن أُثاثة قريبه، الذى خاض فى عِرض ابنته رغم إحسان أبى بكر إليه من قبل، لكن آية واحدة أنزلت رَدّته إلى صوابه، فقابل الإساءة بالإحسان. قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱلْمُهَـٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٠].

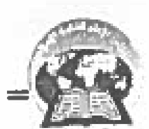
د. زوج عائشة (الرسول ﷺ):

تصرف الرسول كبشر عادى- طوال فترة انقطاع الوحى- فتوقف فى أمر زوجته، وتغيَّر من ناحيتها، وإن كان لا يحدّثها بكلام الناس عنها، ويسأل من حوله عنها، ويستشير بعض أصحابه - كما سنرى - فيزداد معرفة ببراءتها، لكنه ينتظر وحى الله، الذى يبدد كل الشكوك والهواجس ، ويقطع ألسن المنافقين ، حتى نزلت البراءة من الله (عز وجل) فقرّت عينه ، وأثلجت صدور المؤمنين[٢١].

هـ . عبد الله بن أُبَىّ بن سلول:

وهو رأس النفاق، وأساس ترويج الإفك وإشاعته بين الناس، والمعنىُّ بقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٢].

لم يُقَمْ حد القذف عليه لأسباب منها: إثارته الشائعات حول عائشة بين أصحابه المنافقين فلم يشهدوا عليه، كما أن إقامة الحد عليه فى الدنيا تخفيف عنه وكفارة، وقد توَّعده الله بالعذاب الأخروى العظيم، وكذلك لم يُحَدَّ



لمصلحة عليا، تتعلق بعدم إثارة الفتنة بين قومه لو أقام عليه الحد، خاصة أن الأوس والخزرج لم يتخلصا تمامًا من رواسب الجاهلية[٢٣].

٢- **مؤمنون مندفعون**: وهم صحابة زلّتْ ألسنتهم، وجرفهم تيار الخوض فى عرض عائشة، وحُدُّوا، وتابوا :

أ- مسطح بن أثاثة:

وهو ابن بنت خالة أبى بكر الصديق[٢٤]، وكان فقيرًا يحسن إليه أبو بكر، فلما خاض فى عرض ابنته، أقسم ألا يساعده، فلما نزل القرآن بالنهى عن ذلك، كفّر أبو بكر عن يمينه، وعاد إلى الإحسان إليه كما بيّنا من قبل. أما مسطح فجلد حد القذف[٢٥]، وتاب الله عليه.

ب - حَمْنة بنت جحش، وحسان بن ثابت: أما حمنة فقد دفعها للخوض تحيزها لأختها زينب ضَرَّة السيدة عائشة [٢٦]، فجُلدت؛ تطهيرًا وتكفيرًا لها، فهى من المؤمنات الصادقات[٢٧].

وأقيم حد الجلد على شاعر الرسول حسان بن ثابت، الذى استرضى السيدة عائشة بعد ذلك، وكانت عاتبة عليه، ثم سامحته، ولم تقبل أن يسىء إليه أحد؛ فقد كان يدافع بشعره عن رسول الله[٢٨].

٣- شهود متطوعون: وهم الذين لم يسألهم النبى عن عائشة، لكنهم نفوا أن ترمى بما رميت به، ومن هؤلاء:

أ- أبو أيوب الأنصارى وزوجته: حيث سأل أبو أيوب زوجته: أكانت تفعل ذلك؟ فقالت: لا، فقال: إذًا عائشة لا يمكن أن تفعله من باب أولى[٢٩].

ب - أم مسطح برَّأت عائشة، وكانت من أشد الناس على ابنها مسطح المتورط فى قذف عائشة[٣٠]. وكانت تدعو عليه وترفض كلامه، وترددت أكثر من مرة فى مفاتحة عائشة فى أمر الإفك[٣١]؛ رعاية لمشاعرها.

٤- شهود مستشارون: وهؤلاء سألهم الرسول عن رأيهم فى عائشة، فأدوا الشهادة على وجهها، ومنهم: زينب بنت جحش، التى - برغم منافستها عائشة فى حسن المنزلة عند رسول الله- كانت تقية ورعة، لم تشهد إلا بالحق والصدق[٣٢]، وقالت: والله ما علمتُ إلا خيرًا[٣٣].

وكذلك شهدت أم أيمن حاضنة رسول الله لصالح السيدة عائشة، وقالت: ما علمت أوظننتُ بها- قط- إلا خيرًا[٣٤].

أما أسامة بن زيد، فقال: يا رسول الله، هم أهلُك، ولا نعلم إلا خيرًا[٣٥].

وبخصوص علىّ بن أبى طالب، فقال: لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير[٣٦].وواضح أن عليًا نظر إلى ما فيه مصلحة النبى، وأراد إراحته من القلق والتوتر[٣٧]، ولا يعنى تشكيكه فى براءة السيدة عائشة، لكنه عرض حلاً سريعًا يريح خاطر الرسول، فلوّح بتطليقها والزواج بغيرها[٣٨]، ثم يردها ثانية عندما يتبين براءتها، وإلا فعليه تحرى الأمر، وسؤال جارية عائشة، وقد سألها الرسول بالفعل، فأظهرت براءة عائشة التامة[٣٩].

أ.د/عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح

الهوامش:

(*) هو البهتان، وهو أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء، الفخر الرازى: التفسير الكبير، دار الكتب العلمية - بيروت- ١٩٩٠م، ٢٣/١٥٠.

(١) هى عين الماء التى نزل عندها رسول الله ﷺ عند مقاتلة بنى المُصْطَلِق من خزاعة (الواقدى: كتاب المغازى، تحقيق: د.مارسدن جونس، ط٣، عالم الكتب- بيروت، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج٢، ص٤٠٧). وذكر ياقوت: أن المريسيع تقع فى ناحية قُدَيْد على الساحل (معجم البلدان، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، جـ٥، ص١٣٩ (رقم ١١١٨).

(٢) ذكر ابن إسحاق فى شعبان سنة ٦هـ (ابن هشام): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، ط٢، طبع ونشر: مكتبة مصطفى الحلبى، القاهرة ١٩٥٥م، القسم الثانى، ص٢٩٧، والراجح ما ورد بالمتن (الواقدى: المغازى، جـ١، ص٤٠٤).

(٣) هذا هو الصحيح؛ فقد خرجت معه عائشة من دون بقية زوجات الرسول ﷺ فى هذه الغزوة (ابن القيم: زاد المعاد فى هَدْى خير العباد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، وعبد القادر الأرنؤوط، ط٣، مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٩٩٨م، جـ٣، ص٢٣٢). وتوهم الواقدى خروج أم سلمة مع عائشة فى هذه الغزوة (المغازى: ١/٤٠٧).

(٤) هو مركب النساء (الفيروز أبادى: القاموس المحيط، مصور عن الطبعة الثالثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧م، باب الجيم، فصل الهاء، جـ١، ص٢١١).

(٥) ذكر ابن حجر أكثر من تعليل لنومها: لشدة الغم الذى نزل بها، أو لبرودة الجو وقت السحر، أو لصغر سنها، أو أنامها الله؛ لتستريح من وحشة الانفراد فى الصحراء ليلا. (فتح البارى بشرح صحيح البخارى، تصحيح: محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث بالقاهرة، ١٩٨٦م، جـ٨، ص٣١٦).

(٦) نزلت عشر آيات فى براءة السيد عائشة، كما جاء لدى البخارى فى (صحيحه، نشر وتصحيح وتعليق: محمد منير الدمشقى، ط٤، عالم الكتب- بيروت، ١٩٨٥م، كتاب المغازى، باب حديث الإفك، جـ٥، ص٢٥٦، حديث رقم ١٧١، وابن كثير فى: تفسير القرآن العظيم، تصحيح: نخبة من العلماء، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، د.ت، ج٣، ص٢٧٠). وهذه الآيات تبدأ من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور: ١١- ٢٠) .

(٧) النور: ٢٣ .

(٨) السُهَيْلى: الروض الأُنُف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام، تقديم وتعليق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر - بيروت، ١٩٨٩م، جـ٤، ص٢٣.

(٩) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبى الفضل إبراهيم، ط٥، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٨٧م، جـ٢، ص٦١٥- ٦١٦.

(١٠) يوسف: ١٨.

(١١) محمد قطب: دراسات فى النفس الإنسانية، ط٦، دار الشروق (القاهرة- بيروت)، ١٩٨٣م، ص١٥٤، ١٥٥.

(١٢) البخارى: صحيح البخارى، كتاب المغازى، باب حديث الإفك، جـ٥، ص٢٥٦ (رقم ١٧١).

(١٣) السهيلى: الروض الأنف، جـ٤، ص٢٠.

(١٤) البخارى: صحيح البخارى، كتاب المغازى، حديث الإفك، جـ٥، ص١٧١ (رقم ١٧١)، والمعنى: ما اقترفتُ الحرام مع امرأة قط.

(١٥) البخارى: المصدر السابق، ٢٥٤/٥(رقم ١٧١).
(١٦) البخارى: السابق، كتاب التفسير، باب (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة)، جـ٦، ص١٩٦ (رقم ٢٧٨)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص٢٧١.
(١٧) البخارى: صحيح البخارى، كتاب المغازى، باب حديث الإفك، جـ٥، ص٢٥٥ (رقم ١٧١).
(١٨) البخارى: المصدر السابق، كتاب التفسير، باب (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة، جـ٦، ص١٩٦(رقم ٢٧٨).
(١٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، جـ٣، ص٢٧١.
(٢٠) النور: ٢٢.
(٢١) ابن القيم: زاد المعاد، جـ٣، ص٢٣٤- ٢٣٥.
(٢٢) النور: ١١.
(٢٣) وهذا هو منهج رسول الله فى التعامل معه، حيث رفض قتله فى مواقف سابقة؛ كى لا يقال: إن محمدًا يقتل أصحابه، ويرى الترفق به ما بقى مسلمًا. (ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الثانى، ص٢٩٣).
(٢٤) ابن حجر: الإصابة فى تمييز الصحابة، تحقيق: على محمد البجاوى، دار الجيل- بيروت، ١٩٩٢م، جـ٦، ص٩٣ (رقم ٧٩٤١).
(٢٥) ابن عبد البر: الاستيعاب فى معرفة الأصحاب، تحقيق: على محمد البجاوى، نهضة مصر بالفجالة، د.ت: جـ٤، ص١٤٧٢ (رقم ٢٥٥٠).
(٢٦) ابن الأثير: أسد الغابة فى معرفة الصحابة، تحقيق وتعليق: محمد إبراهيم البنا وغيره، دار الشعب بالقاهرة، ١٩٧٠م، جـ٧، ص٦٩ (رقم ٦٨٥٠).
(٢٧) ابن القيم: زاد المعاد، جـ٣، ص٢٣٦.
(٢٨) الواقدى: المغازى، جـ٢، ص٤٣٨.
(٢٩) ابن هشام: السيرة النبوية، جـ٢، ص٣٠٢.
(٣٠) ابن حجر: الإصابة، جـ٨، ص٣٠٢ (رقم١٢٢٤٩).
(٣١) البخارى: صحيح البخارى، كتاب التفسير، باب (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة)، جـ٦، ص١٩٥، ١٩٦ (رقم ٢٧٨).
(٣٢) البخارى: المصدر السابق، كتاب المغازى، حديث الإفك، جـ٥، ص٢٥٦ (رقم ١٧١).
(٣٣) المصدر نفسه.
(٣٤) الواقدى: المغازى، جـ٢، ص٤٣٠، ٤٣١.
(٣٥) البخارى: صحيح البخارى، كتاب المغازى، باب حديث الإفك، جـ٥، ص٢٥٢ (رقم ١٧١).
(٣٦) المصدر نفسه.
(٣٧) النووى: صحيح مسلم بشرح النووى، الدار الثقافية العربية- بيروت، ١٩٣٠م، جـ١٧، ص١٠٨.
(٣٨) ابن القيم: زاد المعاد، جـ٣، ص٢٣٣.
(٣٩) ابن حجر: فتح البارى، ج٨، ص٣٢٤.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، الجزء الثانى، تحقيق: أبى الفدا عبد الله القاضى، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٨٧م.
٢. ابن سعد: الطبقات الكبرى، دراسة وتحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية- بيروت، ١٩٩٠م.
٣. ابن عبد البر القرطبى: الدرر فى اختصار المغازى والسير، تحقيق: د.شوقى ضيف، ط٢، دار المعارف بالقاهرة، ١٩٨٣م.
٤. القرطبى: الجامع لأحكام القرآن، ج٧، ٨، دار الشعب، القاهرة، د.ت.
٥. ابن كثير: البداية والنهاية، جـ٤، تحقيق: د. أحمد أبى ملحم، وآخرين، دار الريان للتراث، القاهرة، ١٩٨٨م.
٦. د. أكرم ضياء العمرى: السيرة النبوية الصحيحة، جـ٢، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، د.ت.
٧. سيد قطب: فى ظلال القرآن، جـ٤، ط١٣، دار الشروق (القاهرة- بيروت)، ١٩٨٧م.
٨. محمد الغزالى: فقه السيرة، دار الكتب الحديثة، القاهرة، ١٩٧٦م.

الحبشـــــة

لفظ أثيوبيا (الحبشة) لفظ يوناني مركب من كلمتين (Opsis) ومعناها الوجه و (Aies) ومعناها الأحمر أي الوجه المحترق ، وقد أطلق الأحباش هذا الاسم على بلادهم أسوة أو تيمنا بذكره في التوراة ، وقد أطلقها قدماء اليونان على البلاد المتاخمة لحدود مصر الجنوبية مما يلي الشلال الأول ، وهو ما أطلق عليه الفراعنة اسم مملكة كوش .

اتسعت التسمية في العصر الروماني فأطلق لفظ أثيوبيا على البلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، وشملت أحيانا بعض المناطق في غرب النيل .

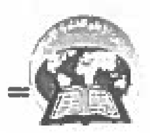
وقد ورد ذكر قبيلة "حبشت " في النقوش اليمنية ، وكانت هذه القبيلة تسكن على الساحل، واتخذت في هجرتها الطريق البحري الذي يصل بين خليج مصوع وهضاب الحبشة .

ولما سكنت قبيلة حبشت في شمال الحبشة فقد نسب الجزء الشمالي إليها وسمي باسمها ، ثم أطلق العرب لفظ الحبشة على جميع البلاد ومنها أخذ الإفرنج لفظ أبسينيا Abyssinia .

والحبشة دولة داخلية غير ساحلية تقع فوق الهضاب في القرن الأفريقي ، وتعد ثاني أكبر الدول من حيث عدد السكان في أفريقيا ، وعاشر أكبر دولة في القارة وعاصمتها أديس أبابا ، وتحدها أرتيريا وجيبوتي في الشمال الشرقي، والصومال شرقا وشمال شرق، وكينيا جنوبا ، والسودان في الغرب والشمال الغربي ، ومساحتها ٢٧٢٤٣٢ ميلا مربعا (١٢٢٣٦٠٠ كيلو متر) ويبلغ عدد سكانها ٥٥ مليون نسمة .

ويمثل المسلمون ٩ر٣٠ والمسيحيون الأرثوذكس ٥ر٤٣ وعبادة أرواح السلف ١٥ – ٢٠٪ وآخرون ممن يمارس المعتقدات التقليدية ٦ر٢٪ ، واللغة الرسمية هي الأمهرية فضلا عن لغات الجالنجا والتنجريت والعربية .

كانت مملكة أكسوم أقدم ممالك الحبشة وقد ظهرت إلى حيز الوجودحوالي ٥٠٠٠ ق.م وذكر بطليموس الجغرافي مواقع بعض المدن الحبشية في القرن الثاني الميلادي لكنها انهارت في العصور الوسطى وسلمت القيادة إلى مملكة شو (Shoo) التي عرفت في أوروبا باسم أرض برسترجون أي القديس يوحنا .



الديانـة :

دخلت الديانة المسيحية إلى الحبشة على يد أحد رجال الدين الإسكندريين ويدعى فرومنتوس فى حوالى ٣٣٠ ميلادية أى فى عهد عيزان الذى اعتنق المسيحية فصارت تعاليم المسيحية هى أساس بناء المجتمع المسيحى فى الحبشة .

لم نسمع عن المسيحية وعن ملوك أكسيوم حتى نهاية القرن الخامس الميلادى إلى أن قدم تسعة من الرهبان السريان الذين أدخلوا الرهبنة فى الحبشة.

قام أبرهة الحبشى بترميم سد مأرب عام ٥٤٢م وبنى كنيسة صنعاء التى تسمى (القلس) وبالغ فى بنائها وزخرفتها حتى تكون قبلة للعرب ، وقام هذا الملك بغزو مكة فيما يعرف بغزوة الفيل من أجل بسط نفوذه على بلاد العرب ، وفشلت هذه المهمة ، وكانت هذه الغزوة عام ٥٧٠م وهو العام الذى ولد فيه المصطفى (محمد صلى الله عليه وسلم).

بعد البعثة هاجر المسلمون الأوائل إلى الحبشة على دفعتين وكانت الأولى تضم أحد عشر فردا وأربع نسوة ومكثوا شهرين أو ثلاثة وعادوا إلى مكة والثانية هاجر فيها عدد كبير من الصحابة .

بلغت العلاقات الحسنة بين الرسول الكريم والنجاشى إلى درجة عظيمة بل وصلت إلى حد تبادل الهدايا حتى أنه عندما مات النجاشى فى العام التاسع من الهجرة وعلم الرسول بالخبر دعا أصحابه وصلى بهم صلاة الغائب عليه .

فى القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى قامت إمارة عربية فى زيلع سمى ملوكها بملوك (عدل) أو ملوك الزيلع ، وهى سبع إمارات صغيرة تأسست فى السهول المحيطة بهضبة الحبشة ، وقامت بينها وبين الحبشة حروب طويلة ودامية .

الأسرة السليمانيـة :

ظهرت الأسرة السليمانية فى القرن الثالث عشر الميلادى والتى أسسها يكونو أملاك (٦٦٩- ٦٨٤هـ/ ١٢٧٠ - ١٢٨٥م) .

من أبرز مظاهر الصراع بين المسلمين والأحباش ما قام به أحمد بن إبراهيم الغازى الذى اشتهر باسم أحمد جران فى الفترة من ٦٥٦هـ/١٢٥٨م حتى عام ٩٥٠هـ/١٥٤٣م ، واستمر أحمد جران يواصل مسيرته لنشر الإسلام فى الحبشة حتى قتله أحد جنود البرتغال فى عام ١٥٤٣ .

منذ القرن الحادى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى/ أخذت الحبشة تتوسع وأقامت عاصمة للبلاد فى جوندار، ولم يتوقف الصراع بين الأحباش والمسلمين حتى مصرع إمبراطور الحبشة يوحنا فى معركة القلابات فى عام١٣٠٧هـ ١٨٨٩م .

عصر منليك الثانى :

عندما تولى منليك الثانى السلطة بعد مصرع يوحنا ، أسس فى عام ١٨٨٧م أسس عاصمة جديدة فى أديس أبابا (الزهرة الجديدة) ، وعندما حاولت إيطاليا فرض سيطرتها على الحبشة نشبت حرب بين الإيطاليين ومنليك الذى انتصر فى معركة عدوة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م ومنيت إيطاليا بخسائر منكرة ، واستطاع منليك أن يحافظ على استقلال بلاده بعد عقد اتفاقية ثلاثية عام ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م بين إيطاليا وبريطانيا والحبشة بهدف المحافظة على الوضع الراهن هناك ، وظل منليك فى السلطة حتى عام ١٣٣٢هـ/١٩١٣م ، وتولى بعده ليج ياسو حتى عام ١٣٣٥هـ/١٩١٦م لكنه عزل لأنه أعلن إسلامه ، وتولت بعده ابنة منليك وتدعى "زوديتو" السلطة وصار الرأس تافارى ابن عم الإمبراطور وريثا للعرش .

عصر الإمبراطور هيلاسلاسى :

بعد وفاة الإمبراطورة زوديتو فى عام ١٣٤٩هـ/١٩٣٠م تولى تافارى السلطة واتخذ لقب هيلاسلاسى ، عندما تولى موسولينى السلطة فى إيطاليا فى عام ١٣٤١هـ/١٩٢٢م قرر الانتقام من الحبشة وغسل عار معركة عدوة ، وقام بغزو الحبشة واكتسح المدن الهامة حتى دخل العاصمة فى عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م وهرب الإمبراطور هيلاسلاسى واضطر إلى اللجوء لإنجلترا .

فى شعبان ١٣٥٨هـ/ سبتمبر ١٩٣٩م قامت الحرب العالمية الثانية وانضمت إيطاليا إلى جانب ألمانيا ، وساعدت انجلترا هيلاسلاسى فى العودة إلى بلاده بعد هزيمة إيطاليا فى عام١٣٦٠هـ/ ١٩٤١م .

بعد عودة هيلاسلاسى أعاد الدستور فى عام ١٣٦١هـ/١٩٤٢م ، واستمر الحال على هذا الوضع حتى عام١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م عندما حدث تعديل دستورى وصار مجلس النواب بالانتخاب لمدة أربع سنوات ويضم ٢٥٠ عضوا ، أما مجلس النبلاء فصار يتكون من ١٢٥ عضوا .

شهدت السنوات العشر الأخيرة من



حكم هيلاسلاسى معارضة قوية ، وقامت عدة حركات انقلابية ضد الإمبراطور .

فى ١٣٩٤هـ/ فبراير ١٩٧٤م بدأت موجة الاضطرابات فى أديس أبابا ، تبعها تمرد فى معظم وحدات الجيش ، وظهرت تنظيمات سياسية حديثة .

وفى ١٣٩٤هـ/ ١٢ سبتمبر ١٩٧٤م تم عزل الإمبراطور هيلاسلاسى واغتيل فى ظروف غامضة بعد أحد عشر شهرا من العزل وتأسست حكومة عسكرية ، وصار الجنرال أمان اندوم رئيسا للدولة ورئيسا للدرج ، وتشكل مجلس عسكرى من ١٢٦ عضوا من الجنود حتى أعلى الرتب العسكرية .

بعد اغتيال اندوم ظهر رئيس جديد هو تافابينتى ، وصار مانجستو هيلا ماريام مساعده .

وفى ذى الحجة ١٣٩٤هـ/ ٢٠ ديسمبر ١٩٧٤م صارت إثيوبيا دولة اشتراكية ، وألغى مانجستو المجلس العسكرى ومنصب الملك وألقاب الأمراء، وصار شعار الدولة يتناسب مع إثيوبيا الاشتراكية التى اعتمدت أساسا على النظام الشمولى الاشتراكى .

وقد ظل مانجستو فى الحكم حتى ذى القعدة سنة ١٤١١هـ/ مايو ١٩٩١م عندما قامت الثورة ضده وهرب إلى زيمبابوى ، وبدأ فى أثيوبيا نظام جديد وتولى الرئيس ميليس زيناوى السلطة فى البلاد.

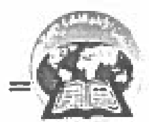
التقسيم الإدارى لأثيوبيا :

قامت الجبهة الشعبية لتحرير أثيوبيا بتقسيمها إلى تسع مناطق حسب الأعراق وهى عفار وأمهرة وبنى سنقول وجامبلا وهررى وأوروميا وأوجادين والأمم الجنوبية وتيجراى .

أ.د/عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مصادر ومراجع للاستزادة:

- شوقى الجمل : الوثائق التاريخية لسياسة مصر فى البحر الأحمر ، القاهرة ١٩٥٨ .
- السيد رجب حراز : التوسع الإيطالى فى شرق أفريقيا ١٩٦٠ .
- جلال يحيى : التنافس الدولى فى شرق أفريقيا ١٩٥٩ .
- عبد الله عبد الرازق ، وشوقى الجمل ، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر ، القاهرة ٢٠١٠ .
- فتحى غيث : الإسلام والحبشة عبر التاريخ (د.ت) .
- عبد المجيد عابدين : بين الحبشة والعرب (د.ت) .
- على أحمد نور : النزاع الصومالى الأثيوبى ، القاهرة ١٩٧٨ .
- Budge, Wallis, History of Ethiopia, London 1929
- Burns Emile : Abyssinia and Italy 1935.
- Jones : History of Ethiopia , London 1960.
- Luther, Ernest : Ethiopia Today , London 1938.



الحجابة

أصل تسمية الحجابة: وهى سدانة الكعبة وخدمتها وتولى مفاتيحها وهى تعنى أن تكون مفاتيح البيت عند واحد بعينه، فلا يدخله أحد إلا بإذنه، يقال حجبه الرجل، أى منعه من الدخول، وفلان يحجب للأمير، أى حاجبه، وإليه الخاتم والحجابة، ـ وهم حجبة البيت، وفى الحديث: "قالت بنو قصى: فينا الحجابة، يعنون حجابة الكعبة وهى سدانتها، وتولىٍّ حفظها، وهم الذين بأيديهم مفاتيحها، والحاجب هو من يتولى الإذن للناس للدخول على السلطان أو الخليفة أو الأمير"[1].

أصل الحجابة قبل الإسلام:

يعود أصل الحجابة إلى قصى بن كلاب الجد الأعلى للنبى ﷺ حيث ولى البيت عقب وفاة والد زوجته حُليل بن حبشية، زعيم قبيلة خُزاعة، فأصبح قصى زعيم مكة وله الشرف فى النظر إلى أمورها من السقاية والحجابة واللواء والرفادة وغيرها، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها، وأصبح أمر قصى فى قومه من قريش سواء فى حياته أو مماته كالدين المتبع لا يعمل بغيره، واتخذ لنفسه دارًا تُسمى دار الندوة يباشر من خلالها أمور مكة كلها"[2]،

فلما كبر قُصى بن كلاب، وكان له من الأولاد الذكور أربعة : عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد، وقيل: نوفل: وكان عبد الدار بكره، بينما كان بقية أولاده قد شرفوا فى زمان أبيهم، ومن هنا عهد بالإشراف على مكة لابنه عبد الدار قائلاً له: أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم، وإن كانوا قد شرفوا عليك: لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له...، ومن ثم آلت الحجابة لعبد الدار بن قصى بن كلاب.

وعقب وفاة قصى بن كلاب وابنيه عبد الدار وعبد مناف، طمع بنو عبد مناف فيما بأيدى بنى عبد الدار مما عهد به قصى لأبيهم عبد الدار، فأجمعوا أن يأخذوا ذلك من أيديهم، وكاد أن يقع بين الفريقين قتال، ثم اصطلحوا على أن تبقى الحجابة واللواء ودار الندوة فى بنى عبد الدار، ويحظى بنو عبد مناف بالسقاية والرفادة، وظل الأمر كذلك

حتى ظهر النبى ﷺ[٣].

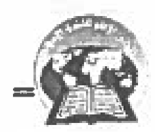
الحجابة فى الإسلام:

عقب ظهور الإسلام،اتسع مفهوم الحجابة لتشمل الحاجب الذى يتولى الإذن للناس فى الدخول على السلطان، بيد أنه فى عصر الخلفاء الراشدين لم يكن للحاجب دور فى حياتهم لكونهم لا يحجبون أحدًا عن أبوابهم، فالخليفة لم يكن يعتبر نفسه إلا واحدًا من المسلمين؛ فالفقير والغنى والضعيف والقوى يجلسون مع الخلفاء، ويكلمونهم فى حوائجهم، ويتحدثون إليهم فى كل ما يريدون.

ولما دان الأمر لبنى أمية عقب قيام دولتهم، اتخذ الخليفة الأموى معاوية بن أبى سفيان، ومن جاء بعده من الخلفاء، الحجاب،خاصة بعد حادثة الخوارج التى استشهد فيها الإمام على بن أبى طالب ﷺ وذلك خوفًا من أن يصيبهم ما أصابه من الاغتيال، فضلاً عن ازدحام الناس على أبوابهم، وشغلهم عن النظر فى مهام الدولة بعد تحول الأمر إلى ملك واتساع دولتهم، ولكنهم كانوا يسمحون لثلاثة بالدخول فى أى وقت شاء: المؤذن للصلاة، وصاحب البريد، وصاحب الطعام، المؤذن للصلاة فإنه داعى الله، وصاحب البريد فأمر ما جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد، ويدل على ذلك ما أوصى به عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز، حين مضى إلى مصر أميرًا عليها فقال له: ".. ابسط بشرك، وألن كنفك، وآثر الرفق فى الأمور، فإنه أبلغ بك، وانظر حاجبك فليكن من خير أهلك فإنه وجهك ولسانك ولا يقفَنَّ أحد ببابك إلا أعلمك مكانه، لتكون أنت الذى تأذن له أو ترده......"[٤].

ولما قامت الدولة العباسية (١٣٢/ ٦٥٦هـ- ٧٤٩/١٢٥٨م)، وقد بلغت ما بلغته من الاتساع والعز والترف، حجبوا العامة عن الخليفة، فأصبح لهم حاجب آخر تكون مهمته أخص من الأول، وهو يفضى إلى مجالس الأولياء، ويحجب دونه من سواهم من العامة، وعلى ذلك صار بباب الخليفة داران: دار الخاصة، ودار العامة، يقابل كل فئة فى مكان بعينه، على ما يراه الحجاب، ثم تطرقوا عند انحطاط دولتهم، ومحاولة الحجر على صاحب الدولة، إلى حاجب ثالث أشد وأخص من الأولين[٥].

وتمخض عن ذلك أن علت منزلة الحاجب فى أيام العباسيين، وقد ساعد على ذلك ارتقاء الحضارة الإسلامية، فكان يؤخذ برأيه فى كثير من أمور



الدولة، وأصبح له نفوذه فى توجيه سياساتها، يؤكد ذلك ما قام به الفضل ابن الربيع وإيقاعه بالبرامكة وقت أن كان حاجبًا للخليفة العباسى هارون الرشيد، فضلاً عن أثره فى إحداث خلاف بين الأمين والمأمون؛ إذ استطاع أن يغرى الأمين ليخلع أخاه من ولاية العهد ويعطيها لابنه، مما يدل على نفوذ الحاجب فى الدولة العباسية[٦].

وفيما يتعلق بالحجابة إبان الدولة الأموية فى الأندلس، فقد كان الحاجب يمنع عن السلطان الخاصة والعامة، كما كان واسطة بين السلطان ووزرائه ومن دونهم، ثم لما جاء الاستبداد لدولتهم اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها، وكان من أشهر الحجاب فى الأندلس الذين يستبدون بالأمر المنصور بن أبى عامر وخلفاؤه من بعده.

وفيما يختص بالحجابة فى إفريقية ومصر، فلم يكن لها ذكر ضمن مراتب السلطان، يقول العلامة ابن خلدون: «لم يكن فى دول الغرب وإفريقية ذكر لهذا الاسم ، للبداوة التى كانت فيهم، وربما يوجد فى دولة العُبيدين بمصر عند استعظامها وحضارتها، إلا أنه قليل»[٧].

وعلى عهد دولة المماليك فى مصر لم تقتصر مهمة الحاجب على إدخال الناس على السلطان، بل تجاوزتها إلى الفصل فيما يحدث بين الأمراء والجنود،ثم اتسعت سلطته تدريجيًا، حتى صار يقضى بين المغول الذين استوطنوا مصر طبقًا لأحكام السياسة التى وضعها جنكيز خان[٨].

أ.د / فوزى عارف إبراهيم

الهوامش:

(١) الزبيدى (السيد محمد مرتضى الحسينى، ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: على هلالى: المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت: الطبعة الثانية: ٢٠٠٤م، ج٢، ص٢٣٩، وابن كثير (عماد الدين أبو الفداء ٧٧٤ هـ): البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركى، مطبعة هجر: القاهرة. الطبعة الأولى: ١٩٩٧م، ج٣، ص٣٧ .

(٢) ابن هشام: (عبد الملك بن هشام الحميرى، ت١٨٣ هـ) السيرة النبوية. تحقيق: مصطفى السقا وزميليه، القسم الأول، ج١، ص١٢٤، والأزرقى (أبو الوليد محمد عبد الله بن أحمد ت ٢٥٠هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تعليق- رشدى الصالح: المطبعة الماجدية مكة المكرمة، السعودية، ١٣٥٢هـ، ج١، ص٦١ .

(٣) تقى الدين الفاسى (محمد بن أحمد المكى ت ٨٣٢هـ): الزهور المقطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق: د/على عمر، مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص٢٤٦- ٢٥١.

(٤) ابن طباطبا (محمد بن على المعروف بابن الطقطقى ت ٧٠٩ هـ): الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، مطبعة محمد على صبيح القاهرة، (د- ت)، ص١٠٠ ، على إبراهيم حسن : التاريخ الإسلامى العام، الجاهلية، الدولة العربية، الدولة العباسية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ، ص٥٢٦- ٥٢٧.

(٥) ابن خلدون: (عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ت ٨٠٨هـ): مقدمة ابن خلدون ، تحقيق: على عبد الواحد وافى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٦م، ج٢، ص٧٠٤- ٧٠٥.

(٦) ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص٦٤.

(٧) المصدر السابق، ج٢، ص٦٤١.

(٨) أبو زيد شلبى: تاريخ الحضارة والفكر الإسلامى، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثامنة: ١٩٩٧م، ص١٠٣.

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) ابن خلدون : المقدمة.

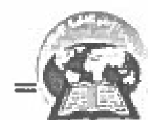
(٢) ابن طباطبا ، الفخرى فى الآداب السلطانية.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا.

(٤) المقريزى ، الخطط.

(٥) حسن إبراهيم حسن ، النظم الإسلامية.

(٦) أبو زيد شلبى، تاريخ الحضارة والفكر الإسلامى.



حجة الوداع

الحج لغةً مطلق القصد، وفى الاصطلاح الفقهى: قصد بيت الله الحرام بمكة المكرمة لأداء المناسك من السعى والطواف حول الكعبة والوقوف بعرفة وهو أحد أركان الإسلام الخمسة[1].

وحجة الوداع هى الحجة الوحيدة التى حجها رسول الله ﷺ، وسميت حجة الوداع لأن الرسول ﷺ انتقل إلى الرفيق الأعلى بعدها بوقت قصير، ولأن خطبته الأشهر يوم عرفة -سنورد نصها وشيكا- تضمنت عبارات فهم منها الناس أنهم لن يلقوه بعدها فى الحج أبدًا، وتُسمَّى كذلك حجة البلاغ؛ لأن الخطبة تضمنت فى آخرها قوله ﷺ : "اللهم بلغت اللهم فاشهد" . وتسمى كذلك حجة الإسلام، لأنها الحجة الوحيدة التى حجها الرسول ﷺ . لأن الحج إلى بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا كان آخر أركان الإسلام فرضًا.

ويختلف الفقهاء فى سَنَة فرضه، فيرى بعضهم أنه فرض فى العام الثامن، وهو عام فتح مكة المكرمة وأن الذى أقام الحج فى ذلك العام هو عتَّاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس نيابة عن النبى ﷺ، لأنه كان أمير مكة المكرمة، وبعض الفقهاء يرى أن فرضية الحج كان سنة ٩هـ، وأن الذى أقام الحج نيابة عن النبى ﷺ فى ذلك العام هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه [2]، لأن الرسول ﷺ لم يتمكن من الحج فى العام التاسع لعدة أسباب، من بينها: أنه شغل باستقبال وفود القبائل العربية التى توالت عليه فى المدينة المنورة بعد عودته من غزوة تبوك سنة ٩هـ تعلن بيعتها وإسلامها، وبذل فى ذلك جهدًا كبيرًا، وكان يرسل مع كل وفد أحد أصحابه الكرام رضوان الله عليهم يعلمهم أمور دينهم ويحفظهم القرآن الكريم وشرائع الإسلام.

ومن الأسباب التى حالت دون حج رسول الله ﷺ أن المشركين حجوا عام ٩هـ على هيئتهم التى كانوا يحجون عليها، وكانوا يطوفون بالبيت الحرام عرايًا. وهذا منظر لا يليق ولا يصح أن يراه رسول الله ﷺ، وكان حج عام ٩هـ. هو آخر عام يسمح للمشركين أن يحجوا فيه، وبعد ذلك حرم عليهم الاقتراب من المسجد الحرام واعتبروا أنجاسا، فى نص

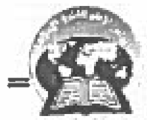
صريح وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ (التوبة: ٢٨) .

فلما تطهر البيت الحرام من بقايا أوضار الجاهلية، واطمأن الرسول ﷺ إلى أن الإسلام قد عم شبه جزيرة العرب، وفاض على ما حولها من بلاد، وأحس بالغبطة والسرور، إذ أتم الله عليه نعمته ووفقه فى أداء رسالته على أكمل وجه وبعد هذا الجهاد الكبير لم يبق إلا أن يذهب لأداء فريضة الحج، وليشكر الله تعالى على عظيم فضله ومَنِّه وكرمه عليه وعلى أمته، ثم يعلم الناس مناسك الحج بطريقة عملية، ويوصيهم وصاياه الأخيرة، ويلخص لهم فى خطبة تعاليم الإسلام وأهدافه ومقاصده وشرائعه، ويأمرهم بترك كل ما بقى من أوزار الجاهلية وبحذرهم أن يعودوا بعده كفارًا يضرب بعضهم رقاب بعض، ويذكرهم بأنهم سيلقون ربهم وسيسألهم عن كل أعمالهم، وبحذرهم من غواية الشيطان.

وتُجْمِع كتب السنة والسيرة أن الرسول ﷺ خرج من المدينة المنورة فى الخامس والعشرين من ذى القعدة من العام العاشر للهجرة مُحْرِمًا بالحج والعمرة معا- أى مقرنًا - من ذى الحليفة[٣]، وخلفه أكثر من مائة ألف من المسلمين الذين سارعوا للسير معه لأداء فريضة الحج ونوال شرف صحبته، وكان مشهدًا مهيبًا ورائعًا وعظيمًا، ينحنى له التاريخ إجلالاً وإكبارًا، فهذا هو الرجل الذى بدأ دعوته وحيدًا، قبل بضعة وعشرين عامًا، والعرب كلهم ضده، ولقى منهم ما لقى من الاضطهاد والتعذيب والتآمر على حياته، مما تحفل به كتب التاريخ،ها هو ذا والعرب كلهم تقريبًا وراءه، وهو يقودهم فى تواضع وبر ورحمة ومودة [٤].

خطب الرسول ﷺ فى هذه الجموع الكبيرة بعد الإحرام ووعظهم وعلمهم مناسك حجهم وقال لهم: « خذوا عنى مناسككم» .

سار موكب الحج النبوى إلى مكة المكرمة فوصلها يوم الرابع من ذى الحجة، فطاف طواف القدوم وسعى بين الصفا والمروة، ويوم الثامن من ذى الحجة- وهو يوم التروية- توجه إلى منى، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء وصبح يوم عرفة، وبعد الصلاة توجه إلى عرفات ليقف هناك وهو الركن الأهم من أركان الحج، فصلى



الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، وعلى جبل الرحمة فى يوم التاسع من ذى الحجة خطب خطبته الأشهر التى رغم طولها نوردها كاملة لأهميتها؛ وقد وردت بصيغ مختلفة ولكنها متحدة المعنى فى كتب السنة والسيرة، والنص الذى نذكره هنا لابن إسحاق(٥). قال ﷺ بعد أن حمد الله تعالى وأثنى عليه: " أيها الناس اسمعوا قولى، فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلغت، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها، وإن كل ربا موضوع، لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لاربا، وإن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله، وإن كل دم كان فى الجاهلية موضوع، وإن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان مسترضعًا فى بنى ليث، فقتلته هذيل، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية.

أما بعد، أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد فى أرضكم هذه أبدًا، ولكنه إن يُطَعْ فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم، أيها الناس، " إن النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا، يحلونه عامًا ويحرمونه عامًا، ليواطئوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله"، وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم ثلاثة متوالية – ذو القعدة وذو الحجة والمحرم- ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان.

أما بعد، أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقًا، ولهن عليكم حقًا، لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربًا غير مبرح- أى ضربًا هينًا غير شديد- فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن عندكم عوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئًا، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله، فاعقلوا أيها الناس قولى، فإنى قد بلغت، وقد تركت فيكم ما إن

اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنة نبيه، أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه، تَعَلَّمُنَّ أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهم هل بلغت؟" يقول ابن إسحاقَ: فذكر لى أن الناس قالوا: اللهم نعم، فقال ﷺ : « اللهم فاشهد » .

بعد غروب شمس يوم عرفة نفر ﷺ إلى مزدلفة وصلى بها المغرب والعشاء قصرًا وجمع تأخير، ثم استراح إلى طلوع الفجر، حيث صلى الصبح، وبعد الصلاة عاد إلى منى وهو يهلل،ويكبر ووصل إلى جمرة العقبة الكبرى فرماه بسبع حصوات، ثم نحر هديه بيديه الشريفتين، ثم قدم إلى البيت الحرام حيث طاف طواف الإفاضة وتحلل من إحرامه، ثم عاد إلى منى لرمى الجمار بقيه أيام التشريق. وهذا هو الهدى النبوى فى الحج .

وفى يوم عرفة نزل على رسول ﷺ قوله تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (المائدة: ٣) يروى الإمام ابن كثير فى تفسيره أنه: لما نزلت ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر ، بكى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . فقال له النبى ﷺ: « ما يبكيك» قال: أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا فأما إذا أكمل فإنه لم يكمل شىء إلا نقص: فقال ﷺ : « صدقت »(٦).

ويروى ابن كثير أيضًا أن سورة النصر ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ نزلت على رسول الله ﷺ فى أوسط أيام التشريق فعرف أنه الوداع.

وروى الحافظ البيهقى عن ابن عباس قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة وقال: "إنه نُعيتْ لى نفسى، فبكت ثم ضحكت وقالت: " أخبرنى أنه نُعيتْ له نفسه فبكيتُ، ثم أخبرنى بأنك أول أهلى لحوقا بى فضحكت" (٧).

بعد أن أدى رسول الله ﷺ مناسك الحج عاد إلى المدينة المنورة فى أواخر ذى الحجة من العام العاشر الهجرى، وفى أواخر شهر صفر أحس بالوجع وفاضت روحه إلى بارئها فى الثانى عشر من ربيع

الأول من العام الحادى عشر الهجرى، بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح للأمة وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها فجزاه الله خير ما جزى نبيًا ورسولا عن أمته. صلوات الله وسلامه عليه.

أ. د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) انظر فقه السنة للشيخ سيد سابق جـ١ ص٥٢٧.

(٢) انظر سيرة ابن هشام جـ٤ ص٢٠٠.

(٣) ذو الحليفة هو الميقات المكانى لحج أهل المدينة، وهو على بعد نحو ستة أميال منها إلى الجنوب ويسمى الآن ابار على، وبينما أحرم الرسول ﷺ مقرنا بحج وعمرة معا، أحرم بعض المسلمين بعمرة وبعضهم بحج.

(٤) انظر سيرة ابن هشام مصدر سابق جـ٤، ص٢٧٢.

(٥) المصدر السابق جـ٤ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦.

(٦) مختصر تفسير ابن كثير. تحقيق واختصار محمد على الصابونى، نشر دار القرآن بمكة المكرمة جـ١ ص ٤٨٢.

(٧) المصدر السابق جـ ٣ ص ٦٨٧.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ سيرة ابن هشام.

٢ـ خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة.

٣ـ السيرة النبوية فى ضوء الكتاب والسنة للشيخ محمد أبو شهبة.

٤ـ مختصر تفسير ابن كثير.

٥ـ حياة محمد / للدكتور محمد حسين هيكل.

٦ـ تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة للدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

الحُدَيْبية

الحديبية: بضم الحاء وفتح الدال وياء ساكنة وباء موحدة.

سميت باسم بئر هناك، عند مسجد الشجرة، التى بايع رسول الله ﷺ أصحابه تحتها، ولقد أخذت الحديبية شهرتها من ذلك الحدث العظيم الذى وقع عندها، وهو صلح الحديبية الذى سماه القرآن الكريم فتحًا مبينًا. وتُسَمَّى الحديبية الآن الشميسى، وبها مسجد الرضوان الذى بناه السلطان العثمانى محمود فى مكان الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان، والتى أمر الخليفة الثانى عمر ابن الخطاب ﷺ بقطعها لما خاف أن يفتتن الناس بها [١].

ولا تفهم قصة صلح الحديبية العظيم الذى أعطى المكانَ تلك الشهرةَ العظيمة إلا إذا وضع فى السياق التاريخى للدعوة الإسلامية، لأن صلح الحديبية كان فى شهر ذى القعدة سنة ٦هـ / مارس ٦٢٨م. أى بعد مرور تسعة عشر عامًا على بداية الدعوة الإسلامية، والمعروف أن الرسول ﷺ خلال المرحلة المكية تعرض لأشكال قاسية من المقاومة والتحدى وصلت إلى حد التآمر على قتله، كما شهدت المرحلة المدنية- قبل صلح الحديبية عدة مواجهات بينه وبين مشركى مكة، ابتداء ببدر ومرورًا بأحد(انظر هاتين المادتين)، وبلغت هذه المواجهات ذروتها فى غزوة الخندق أو الأحزاب (انظر هذه المادة)، وهى الغزوة التى أسفرت عن فشل ذريع لمخططات مشركى مكة وحلفائهم. وقد قال الرسول ﷺ لأصحابه فى أعقاب هذه الغزوة:" لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا ولكنكم تغزونهم".

تروى مصادرنا أن الرسول ﷺ رأى بعد هذه الغزوة رؤيا مفادها: أنه هو وأصحابه سيزورون البيت الحرام لأداء العمرة، وطبعًا زيارة سلمية، ولعل قريشًا تكون قد راجعت موقفها وأدركت أنه من الخير لها أن تكون فى سلام معه. ولما أبلغ أصحابه بهذه الرؤيا فرحوا فرحًا عظيمًا، وبصفة خاصة المهاجرون الذين طردوا من بلدهم مكة المكرمة، منذ ست سنين ومنعوا من دخولها، وبدأ التأهب لهذه الرحلة، وأعلن الرسول ﷺ أنه ذاهب هو وأصحابه لأداء العمرة فمن يريد حتى من مشركى العرب الذهاب معه فليأت!

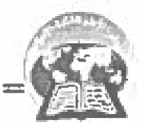
ولعله ﷺ تعمد من ذلك أن يكون هؤلاء العرب المشركون شهداء على قريش إذا منعته من دخول مكة، ويكون بذلك قد كسب الرأى العام إلى جانبه [٣]. وقد حدث ما توقعه ﷺ؛ إذ ما إن علمت قريش أنه ذاهب إلى مكة حتى جن جنونها وصممت على منعه من الدخول، وأخرجت قوة فرسان بقيادة خالد بن الوليد لصده عن الدخول ريثما تستكمل هى استعداداتها، فلما علمﷺ بذلك قال: **« يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا، وإن ظهرت عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة».** ثم قال: **« مَنْ رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها»** [٣]. فدله رجل من أسلم على وادى الحديبية الذى ستدور فيه واحدة من أهم وأعظم وأخطر أحداث السيرة النبوية، وهى معاهدة الحديبية.

الرسول ﷺ خرج من مكة المكرمة فى شهر ذى القعدة سنة ٦ هـ عازمًا على أداء العمرة يسوق الهَدْىَ أمامه ويطلب السلام مع قريش مستبعدا الحرب معها تماما من ذهنه؛ ولذلك لما علم بقوة الفرسان التى يقودها خالد بن الوليد وأنها خرجت لمنعه من دخول مكة لم يشأ أن يواجهها وإنما تحاشى تلك المواجهة لأن عواقبها لو حدثت ربما تكون خطيرة، وهذا ليس من شأن من يريد الحرب.

نزل رسول الله ﷺ فى وادى الحديبية. وقال: " لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها " [٤].

كان أول من جاء إلى رسول الله ﷺ فى الحديبية وفد من خزاعة بزعامة بديل ابن ورقاء الخزاعى، وهم نصحاؤه، فكلموه وسألوه عن سبب مجيئه فأخبرهم أنه لم يأت يريد حربًا، وإنما جاء زائرًا للبيت ومعظمًا لحرمته، فرجعوا إلى قريش فقالوا لهم: " يا معشر قريش، إنكم تعجلون على محمد، وإن محمدًا لم يأت لقتال، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت، فاتهموهم وجبَّهوهم وقالوا: وإن كان جاء لا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا، ولا تحدث بذلك عنا العرب" [٥].

كان الغرور والصلف واضحا فى موقف قريش وسيستمر هذا الموقف إلى النهاية. توالت السفارات القرشية إلى النبى ﷺ وكل سفارة تعود ويخبرهم أنه ما جاء محاربًا وإنما جاء معتمرًا ولكنهم



ظلوا على موقفهم المتعنت حتى أنهم فقدوا تأييد حلفائهم، حيث كان من أوائل سفرائهم حليفهم الحليس بن علقمة زعيم الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «إن هذا من قوم يتألهون - أى يتعبدون - فابعثوا الهَدْىَ فى وجهه حتى يراه»[٦].

فلما رأى الهدى رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى، وأخبر قريشًا بذلك، فقالوا له: اجلس يا حليس فإنما أنت أعرابى لا علم لك، ولكن الرجل غضب ورد عليهم قائلا: « يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم أَيُصَدُّ عن بيت الله من جاء معظمًا له، والذى نفس الجليس بيده لتخلين بين محمد وبين ما جاء له، أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد، فقالوا له: مَهْ! كف عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به»[٧].

هنا تتجلى عظمة سياسة الرسول ﷺ فقد بدأ يكسب الجولة سياسيًا فها هو حليف قريش الأول والأكبر والأهم لا يرضى عن سلوكهم؛ لأنه رآه ظلما فكيف يمنع ابن عبد المطلب سيد مكة من زيارة البيت الذى هو مثابة وأمن للناس جميعًا.

على كل حالٍ لما رأى الرسول ﷺ أن قريشًا لم تقتنع بنتائج سفاراتها إليه قرر أن يبعث هو مبعوثا من عنده ليسمع من قريش مباشرة وجهة نظرهم؛ فدعا فى البداية عمر بن الخطاب ﷺ ليبعثه إلى مكة ليبلغ عنه زعماءها ما جاء له، ولكن عمر ﷺ اعتذر عن عدم القيام بالمهمة وقال للنبى ﷺ فى وضوح: « يا رسول الله، إنى أخاف قريشًا على نفسى، وليس بمكة من بنى عدى بن كعب أحد يمنعنى، وقد عرفت قريش عداوتى إياها وغلظتى عليها، ولكن أدلك على رجل أعز بها منى؛ عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وإنما جاء زائرًا لهذا البيت ومعظمًا لحرمته»[٨].

سفارة عثمان وبيعة الرضوان:

ذهب عثمان رضى الله عنه إلى مكة، وعرضوا عليه أن يطوف طواف القدوم حول الكعبة، ولكنه أبى أن يطوف ورسول الله ﷺ محصور وممنوع، وجرت مفاوضات شاقة وصعبة استمرت عدة أيام، وتبلور موقف قريش فى الإصرار على عودة الرسول ﷺ وأصحابه هذه

السنة بدون عمرة، حتى لا يقول العرب إنه دخل عليهم مكة عنوة، وفى العام القادم يمكنه أن يأتى ويعتمر وتخلى له قريش مكة ثلاثة أيام إلى شروط أخرى سنذكرها قريبًا.

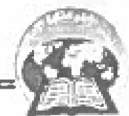
وأثناء وجود عثمان ﷺ فى مكة أشيع أنهم قتلوه ، وهنا تغير موقف الرسول ﷺ، فعلى الرغم من التزامه خطة سلام لكن إذا كان الطيش قد بلغ بقريش أن تقتل مبعوثه فهذا موقف آخر وله حسابات أخرى، ولذلك يروى ابن إسحاق قائلاً: "حدثنى عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ حين بلغه أن عثمان قد قتل قال: لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا رسول الله الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة " [٩].

وهى البيعة التى سجلها الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز فى سورة الفتح فى قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨).

كان عدد الذين بايعوا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على الموت فى سبيل الله ألفًا وأربعمائة . ولما تمت بينهم ضرب النبى ﷺ بإحدى يديه على الأخرى، وقال: «هذه بيعة عثمان».

معاهدة أو صلح الحديبية:

بعد أن تمت بيعة الرضوان جاء عثمان ﷺ من مكة سالمًا، وتبين أن خبر قتله كان مجرد شائعة كاذبة، جاء عثمان حاملاً شروط قريش التى عدها المسلمون قاسية ومهينة ولكنها عند الله ورسوله كانت فتحًا مبينًا، وهاك نص كتاب الصلح كما جاء فى سيرة ابن إسحاق: قال: "ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال: اكتب باسم الله الرحمن الرحيم، فقال سهيل ابن عمرو- الذى يتفاوض باسم قريش-: لا أعرف هذا، ولكن أكتب باسمك اللهم، فقال رسول الله ﷺ : اكتب باسمك اللهم ، فكتبها، ثم قال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو: فقال سهيل: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك، فقال رسول الله ﷺ : اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس، ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى



محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشا ممن مع محمد، لم يردوه عليه ، وإن بيننا عيبة مكفولة"[١٠]. وإنه لا إسلال ولا إغلال [١١]. وإنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا : نحن فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر وقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم، وإنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة، وإنه إذا كان عام قابل خرجنا عنك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثًا معك سلاح الراكب؛ السيوف فى القرب، لا تدخلها بغيرها" [١٢].

موقف الصحابة من شروط الصلح:

هذه هى شروط صلح الحديبية، التى أزعجت الغالبية العظمى من الصحابة الكرام رضى الله عنهم، لأنهم رأوها مجحفة وظالمة بل ومضنية لهم، وكان الصوت المعبر عن هذا الموقف هو صوت عمر بن الخطاب ﷺ، الذى ذهب إلى أبى بكر ﷺ حتى قبل توقيع الصلح معترضًا عليه. يقول ابن إسحاق: " فلما التأم الأمر ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب فأتى أبا بكر، فقال: يا أبا بكر أليس برسول الله ؟ قال: بلى، قال: أو لسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطى الدنية فى ديننا، قال أبو بكر: يا عمر ، الزم غرزه- أى لا تحد عن طريقه- فإنى أشهد أنه رسول الله، قال عمر، وأنا أشهد أنه رسول الله، ثم أتى عمر رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أو لست برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال : بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، فعلام نعطى الدنية فى ديننا، قال ﷺ: **«أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ولن يضيعنى»**[١٣].

هذا الموقف من عمر ﷺ هو موقف رجل غيور على دينه، رأى أن شروط هذا الصلح فيها ظلم، وإهانة لهم، ويريد أن يعرف لماذا أقدم الرسول ﷺ على هذا الأمر، ولم يكن هو وحده الذى أدهشه، فكثير من المسلمين كانوا على هذا الرأى، ولكن شرح الله صدورهم لما كان شرح له صدر رسوله ﷺ، بدليل أن عمر ﷺ كان من الشهود على عقد الصلح كما يذكر ابن إسحاق[١٤].

والدليل على أن موقف عمر ﷺ كان موقف الغالبية العظمى من الصحابة

ما حدث فيهم عندما أمرهم الرسول ﷺ بالتحلل من الإحرام فلم يلبوا الأمر فى البداية.

دور أم سلمة – رضى الله عنها- فى تفريج الغمة:

ربما كانت تلك المرة الأولى التى يقعد الصحابة رضوان عليهم عن تنفيذ أمر صريح لرسول الله ﷺ ، لما أكربهم وأزعجهم من شروط الصلح القاسية. يقول الإمام الطبرى فى روايته لتلك الواقعة عن جمع من الرواة: "فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضيته - أمر الصلح - قال لأصحابه : «قوموا فانحروا، ثم احلقوا" قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلما لم يقم أحد منهم قام فدخل على أم سلمة - رضى الله عنها- فذكر لها ما لقى من الناس، فقالت له: يا نبى الله أتحب ذلك، اخرج ثم لا تكلم أحدا منهم كلمة حتى تنحر بدنتك ، وتدعو حالقك فيحلقك ، فقام فخرج فلم يكلم أحدا منهم كلمة حتى فعل ذلك. فلما رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا" (١٥).

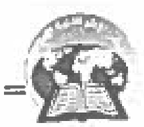
وهكذا فرّجت أم سلمة - رضى الله عنها- عن الرسول وأصحابه هما كبيرًا كان يثقل كواهلهم، يقول عنها الإمام ابن حجر: " وكانت أم سلمة موصوفة بالجمال البارع، والعقل البالغ ، والرأى الصائب، وإشارتها على النبى يوم الحديبية تدل على وفور عقلها، وصواب رأيها" (١٦).

وهذا الموقف نهديه للمزايدين على الإسلام والمسلمين والذين يدَّعون أن الإسلام ظلم المرأة ولم يُعِرْها اهتمامًا، فها هى المرأة تقول ويسمع قولها رسول الله ﷺ فى واحدة من أهم المعضلات التى واجهت المسلمين فى عصر النبوة.

قصة أبى جندل بن سهيل بن عمرو وأبى بصير:

هذه قصة فيها عبر ودروس كثيرة.

فقد كان من أقسى شروط صلح الحديبية على الصحابة رضوان الله عليهم ذلك الشرط الذى يلزم الرسول ﷺ برد من يأتيه من مكة مسلمًا، بينما لا تلتزم قريش برد من يأتيها من المدينة مرتدًا، وشاءت إرادة الله أن تمتحن النوايا ولما تكتمل كتابة الصلح، يقول ابن إسحاق:" فبينما رسول الله ﷺ يكتب الكتاب هو وسهيل بن عمرو إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو، يرسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله ﷺ.. فلما رأى سهيل أبا جندل قام إليه فضرب



وجهه وأخذ بتلابيبه، ثم قال: يا محمد قد لجت القضية - أى انعقد أمر الصلح - بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا، قال ﷺ: «صدقت» فجعل ينتره بتلبيبه [١٧]. ويجره ليرده إلى قريش، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته: " يا معشر المسلمين أأُرَدُّ إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟! فزاد ذلك الناس إلى ما بهم- أى من الغم- لرفض الصلح من أساسه – فقال رسول الله ﷺ : **« يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم»** . يا لروعة الوفاء بالعهود والمواثيق! إن الدنيا يجب أن تنحنى إجلالاً لهذه العظمة المحمدية وهذا المثال النادر فى احترام الكلمة والالتزام بالعهد، لأن هذا هو الإسلام الذى يفرض على المسلمين جميعًا الوفاء بكل العقود التى يبرمونها بينهم وبين غيرهم، يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ (المائدة : ١)، وهناك آيات كثيرة فى كتاب الله وأحاديث مستفيضة من أحاديث رسول الله ﷺ تجعل الوفاء بالعهود من الفروض الدينية الواجبة التنفيذ.

ولا يخفى على أحد أن معظم شرور الدنيا والحروب التى تنشب بين الدول تأتى من الغدر وعدم الالتزام بالعهود والمواثيق وعدم احترام الكلمة، لكن النبى ﷺ وهو فى هذا الموقف الخطير لم يلجأ إلى المناورات والحيل والألاعيب السياسية التى يلجأ إليها السياسيون فى مثل هذا الظروف. فلو كان سياسى آخر مكان الرسول ﷺ لكان من الممكن أن يقول إن كتاب الصلح لم يتم بعد، ولكنه لم يلجأ لهذا بل قال لسهيل بن عمرو: "صدقت" .

بعد قصة أبى جندل جاءت قصة أبى بصير، فرده الرسول إلى قريش لكنه استطاع الإفلات منهم وجند نحو سبعين من المسلمين المضطهدين والمعذبين فى سجون مكة، واتخذوا لهم مقامًا على ساحل البحر الأحمر. وصدوا تجارة قريش،حتى انتهى الأمر إلى أن تطلب قريش من الرسول ﷺ تنازلها عن ذلك الشرط . يقول ابن إسحاق :"الذين حبسوا بمكة خرجوا إلى أبى بصير بالعيص فاجتمع إليه منهم قريب من سبعين رجلا ، وكانوا قد ضيقوا على قريش، لا يظفرون بأحد منهم إلا قتلوه، ولا تمر بهم عير إلا اقتطعوها، حتى كتبت قريش إلى رسول الله ﷺ تسأله بأرحامها إلا آواهم،

فلا حاجة لهم بهم، فآواهم رسول الله ﷺ فقدموا عليه المدينة»[١٨].

وهكذا بدأت الشروط التى ظنها بعض صحابة النبى قاسية ومهينة، وظنتها قريش نفسها أنها فى صالحها، وملأت الجزيرة العربية تفاخرا بها وأنها فرضت شروطها على محمد وأصحابه - بدأت هذه الشروط تظهر عظمة الرسول ﷺ وأنه كان على يقين أن هذا الصلح هو بداية الفتوحات الكبرى له.

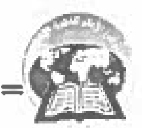
الفتح المبين:

بعد أن أتم الرسول ﷺ أمر الصلح مع سهيل بن عمرو – على الصورة السابقة- عاد إلى المدينة المنورة وكان الجو العام لما حدث لا يزال مسيطرًا على موقف بعض الصحابة، وإذا بسورة الفتح تنزل بتمامها على رسول الله ﷺ بردًا وسلامًا وطمأنينة وسكينة. يقول الإمام القرطبى نقلاً عن جمع من الرواه: " نزلت سورة الفتح بين مكة والمدينة فى شأن الحديبية من أولها إلى آخرها"[١٩].

افتتحت السورة الكريمة بهذا التأكيد القاطع من الله سبحانه وتعالى بأن هذا الذى ظنه بعض أصحابك مهينًا لهم وظنته قريش نصرًا هو فى واقع الحال والمستقبل نصر مبين: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (الفتح:١- ٤).

استعرضت السورة الكريمة الحدث بكل جوانبه، ونوهت بمواقف الصحابة خاصة فى بيعة الرضوان، وبرهنت على استعدادهم للتضحية فى سبيل الله بأرواحهم وأموالهم، كما أظهرت مواقف المتخاذلين المتخلفين عن رسول الله ﷺ ووبختهم على أعذارهم الكاذبة، ثم زفت إلى المسلمين بشرى الغنائم ونعم الله التى ستتوالى عليهم بعد هذا الفتح المبين، كما وضحت السورة أن الله كان حكيمًا ورحيمًا بالمسلمين إذ كف أيديهم عن المشركين وأيدى المشركين عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفرهم عليهم.

ثم ختمت السورة بتأكيد وعد الله لرسوله ﷺ بزيارة البيت ودخول المسجد الحرام: ﴿ لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا



بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ (الفتح٢٧- ٢٩).

إن صلح الحديبية صفحة من أجل وأعظم صفحات جوانب العظمة فى شخصية الرسول ﷺ بالنظر إلى أثره فى مستقبل الدعوة الإسلامية، يقول أحد الباحثين عن سورة الفتح: "هذا هو الجو الذى نزلت فيه السورة؛ الجو الذى اطمأنت فيه نفس الرسول ﷺ إلى إلهام ربه، فتجرد من كل إرادة إلا ما يوحيه إليه هذا الإلهام العلوى الصادق، ومضى يستلهم هذا الإيحاء فى كل خطوة وفى كل حركة، لا يستفزه عنه مستفز، سواء من المشركين أو من أصحابه الذين لم تطمئن نفوسهم فى أول الأمر بقبول استفزاز المشركين وحميتهم الجاهلية، ثم أنزل الله السكينة فى قلوبهم، ففاؤوا إلى الرضى واليقين والقبول الخالص العميق كإخوانهم الذين كانوا على هذه الحال منذ أول الأمر شأن الصديق أبى بكر رضي الله عنه الذى لم تفقد روحه لحظة واحدة صلتها الداخلية المباشرة بروح رسول الله ﷺ، ومن ثم بقيت على اطمئنانها دائمًا ولم تفارقها الطمأنينة أبدًا"[٢٠].

بعد عودة الرسول ﷺ توالت الفتوحات فكان أول فتح هو فتح خيبر، تلك القرية اليهودية التى كانت عقبة فى سبيل الدعوة الإسلامية والتى حيكت فيها مؤامرة غزوة الأحزاب، والتى تحولت إلى وكر للكيد للرسول والإسلام والمسلمين وكان ذلك فى المحرم سنة ٧هـ[٢١].

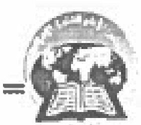
وبعد عودته من خيبر ﷺ بدأ يرسل رسائله مع سفرائه من الصحابة إلى كبار

ملوك وأباطرة العالم، ثم جاء عام عمرة القضاء فأداها ووفت قريش بتعهدها فأخلت له مكة واعتمر هو وأصحابه وبعد عودته من عمرة القضاء ألقت إليه مكة بفلذات أكبادها – كما قال هو عليه الصلاة والسلام - فقد جاء أهم اثنين من أبنائها مسلمين طائعين مبايعين وهما: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص اللذين سيكون لهما فى مستقبل الإسلام شأن وأى شأن.

إن المكاسب التى كسبها الإسلام والمسلمون من صلح الحديبية لا حصر لها، وفى الواقع لم يخسروا شيئًا على الإطلاق، ففى سبيل حقن الدماء وتحقيق السلام مع أكبر قوة تناهض الإسلام فى جزيرة العرب فى ذلك الوقت - وهى قريش - رأى رسول الله ﷺ أن يستجيب لكل طلباتها وشروطها لأنه يعرف ماذا تريد، تريد قريش أن يسمع العرب كل العرب أن قريشًا لا زالت صاحبة الكلمة وتستطيع أن تفرض شروطها ، ولم تكن تدرى أن الرسول نفسه ﷺ كان من صالحه أن تظل قريش كبيرة وذات شأن ومحتفظة بشموخها وكبريائها عند العرب وعند غير العرب فحقق لها ذلك؛ لأنه على يقين أنها آتية آتية إلى الإسلام فى نهاية المطاف، وسيكون كل ما لها من قوة وسمعة وهيبة عند العرب فى خدمة الإسلام ، وهذا هو ما حدث بعد فتح مكة المكرمة.

والذى يتابع الخط البيانى لزيادة عدد المسلمين بعد الحديبية ، يدرك كيف كان الرسول ﷺ موفقا كل التوفيق حين تفاهم مع قريش وأزاحها من طريق الدعوة لتتفتح الطريق أمام العرب إلى الدخول فى الإسلام، فالذين كانوا مع الرسول ﷺ فى الحديبية ألف وأربعمائة وفى عمرة القضاء بعد عام واحد وصل العدد إلى ألفين وفى فتح مكة بعد عام آخر أصبحوا عشرة آلاف ، وفى غزوة تبوك بعد عام كانوا ثلاثين ألفًا ، وفى حجة الوداع فى العام العاشر وصل العدد إلى أكثر من مائة ألف .

يا له من نصر عظيم حققه رسول الله ﷺ من صلح . وهنا أحب أن أطرح تساؤلاً فى نهاية هذا البحث الموجز، وهو ماذا كان يمكن أن يحدث لو استجاب الرسول ﷺ لبعض الصحابة واقتحم مكة بالقوة واصطدم بأهلها- وهم أهله، أيضًا - وهناك نحو ألفى رجل ماذا كان يمكن أن تكون النتائج، وهؤلاء الرجال الذين كانوا فى مكة والذين



أخذهم العناد والحمية الجاهلية بعيدا، كان الرسول ﷺ على يقين أنهم قادمون وسيعزهم الله بالإسلام ويعز الإسلام بهم، وسنرى منهم بطولات عظيمة في قمع الردة وفي مواجهة قوة البغي والعدوان: الفرس والروم، ومن نفس بطولات خالد ابن الوليد وعمرو بن العاص وأبي سفيان وأبنائه يزيد ومعاوية وسهيل بن عمرو نفسه، وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل. إن أهل مكة أو مسلمة الفتح أو الطلقاء الذين عفا عنهم رسول الله ﷺ عند الفتح أبلوا أعظم البلاء في الفتوحات وأدركوا ما فاتهم من الجهاد مع رسول الله ﷺ، فاجتهدوا وبذلوا أقصى طاقاتهم في الفتوحات، وسجلوا أعظم وانصع وأشرف الصفحات. وهذا موضوع يستحق دراسته مستقبلاً.

ولكن قبل أن نختم هذه الدراسة عن صلح الحديبية نشير إلى ما رواه برهان الدين البقاعي عنه في كتابه "أخبار الجلاد في فتوح البلاد"[٢٢]؛ لدلالته على موقف مُسْلِمَةِ الفتح، حيث يروى أن أبا بكر جمع كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار ليستشيرهم في أمر الفتوحات، وأراد أن يدخل معهم بعض أشراف مكة من مسلمة الفتح، فاعترض عمر بن الخطاب على ذلك متأثرًا بمواقفهم السابقة في عدائهم للرسول ﷺ، فلما علموا بذلك شق عليهم، فأتى الحارث بن هشام بن المغيرة، وسهيل بن عمرو، وعكرمة بن أبي جهل، في رجال من أشراف قريش أبا بكر، فقال الحارث: يا عمر إنك قد كنت في شدتك قبل الإسلام - يعني قبل إسلامهم - مصيبًا، فأما الآن وقد هدانا الله لدينه فما نراك إلا قاطعًا شدتك، ثم جثا سهيل على ركبتيه وقال: إياك يا عمر نخاطب، فأما خليفة رسول الله ﷺ فبريء عندنا من الضغن والحقد والقطيعة، ألسنا إخوانكم في الإسلام، وبني أبيكم في النسب، أفإنكم إن كان الله قدم لكم في هذا الأمر قدمًا صالحًا لم نؤت مثله، لقاطعون لقرابتنا ومستهينون بحقنا؟!. وقال عكرمة: أما إنكم وإن كنتم تجدون في عداوتنا قبل اليوم مقالا، فلستم اليوم بأشد على من ترك هذا الدين ولا أعدى منا، فقال عمر: والله ما قلت الذي بلغكم إلا نصيحة لمن سبقكم بالإسلام، وتحريا للعدل فيما بينكم وبين من هو أفضل منكم، قال سهيل: فإن كنتم إنما فضلتمونا بالجهاد فوالله لنستكثرن منه، أُشهدكم أني حبيس

فى سبيل الله، والله لانفقن مكان كل نفقة أنفقتها على حرب رسول الله ﷺ نفقتين فى سبيل الله، ولأقفن مكان كل موقف وقفته على رسول الله ﷺ موقفين على أعداء الله، وقال عكرمة كذلك. فقال أبو بكر: اللهم ابلغ بهم أفضل ما يأملون واجزهم بأحسن ما يعملون، فقد أصبتم فيما صنعتم، فأرشدكم الله، فلما خرجوا أقبل سهيل على أصحابه، وكان شريفاً عاقلاً، فقال لهم: لا تجزعوا مما ترون، فإنهم دُعوا ودُعينا، فأجابوا وأبطأنا، ولو ترون فضائل من سبقكم إلى الإسلام عند الله عليكم ما نفعكم شيء، وما من عمل من أعمال الله أفضل من الجهاد فى سبيل الله فانطلقوا حتى تكونوا بين المسلمين وبين عدوهم، فتجاهدوهم دونهم حتى تموتوا، فلعلنا أن نبلغ بذلك فضل المجاهدين، فخرجوا حينئذ إلى جهاد الروم".

هؤلاء هم أهل مكة الذين حقن الرسول ﷺ دماءهم فى عام الحديبية ولم يشأ أن يقتحمها عليهم؛ لأنه يعرف أنهم قادمون، ثم عفا عنهم عند الفتح ، لأنه يعرف ماذا سيفعلون، وقد حققوا ما توقعه منهم وقرت به عينه ﷺ بعد أن فارق الدنيا. هذا درس من أعظم دروس دبلوماسية محمد ﷺ.

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) انظر: أحمد عطية الله: القاموس الإسلامى ، مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة، ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م، ج ٢، ص ٥٢-٥٣.

(٢) انظر وقائع غزوتى بدر وأحد فى سيرة ابن هشام : جـ ٣، ص٣ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق جـ ٣، ص ٣٥٦.

(٤) المصدر السابق جـ ٣.

(٥) المصدر السابق جـ ٣ .

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق جـ ٣، ص ٣٦١- ٣٦٢.

(٨) المصدر السابق، ج ٣، ٣٦٣.

(٩) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٤ .

(١٠) المراد أن تكف عنا ونكف عنك.

(١١) الإسلال : السرقة الخفية، والإغلال : الخيانة.

(١٢) المصدر السابق ج٣، ص ٣٦٦، ٣٦٧ .

(١٣) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٦٥، ٣٦٦.

(١٤) المصدر السابق، ج ٣، ٣٦٨.

(١٥) تاريخ الطبرى ج ٢، ص ٦٣٧، وانظر ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٢، ص ٢٠٥.

(١٦) الإصابة فى تمييز الصحابة ج١٣، ص ٢٢٤.

(١٧) أى جعل سهيل بن عمرو يجذب ابنه أبا جندل جذبًا شديدًا عنيفًا.

(١٨) سيرة ابن هشام مصدر سابق ج٣، ص ٣٧٣.

(١٩) انظر الجامع لأحكام القرآن ج٨، ص ١٨٧. طبع دار الفكر . بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.

(٢٠) انظر سيد قطب فى ظلال القرآن. ج ٦ ، ص ٣٣١٢- ٣٣١٣ ، طبع دار الشروق لسنة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

(٢١) انظر سيرة ابن هشام. مصدر سابق: ج ٣، ص ٣٧٨.

(٢٢) رسالة ماجستير مخطوطة فى كلية دار العلوم إعداد الحسن شجيع على السيد ، ص٣١٤، ٣١٥.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- سيرة ابن هشام . تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، مطبوعات إدارة البحوث السعودية بالرياض.

٢- خاتم النبيين، تأليف الشيخ محمد أبو زهرة، نشر دار الفكر العربى بالقاهرة١٩٩٣م.

٣- السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة . تأليف الشيخ محمد أبو شهبة . دار القلم . دمشق .

٤- تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة . تأليف د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف. مطبعة الجريسى، القاهرة ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

الحـــــرَّة (موقعة)

١- أصل الحرة لغة واصطلاحًا

لغة: حرارة فى الحلق، من الحر وهو ضد البرد، والحرة: أرض ذات حجارة سود نخرة كأنما أحرقت بالنار. وقيل الحرة أرض فيها حجارة أمثال الإبل البُرُوك كأنما شيطت بالنار، وما تحتها أرض غليظة من قاع ليس بأسود، وإنما سوَّدها كثرة حجارتها وتدانيها، وقيل هى التى أعلاها سود وأسفلها بيض، وتكون الحرة مستديرة، فإذا كان منها شىء مستطيل ليس بواسع فذلك الكراع.

وتُجمع الحرَّة على: الحرَّات والحِرار، والإحرُّون، والحَرُّون [١]، وتنتشر الحرات فى بلاد العرب [٢]، وأكثرها حوالى المدينة إلى الشام، وأشهرها حرة واقم شرقى المدينة المنورة وهى أرض بظاهر المدينة النبوية بها حجارة سود كبيرة، كانت بها وقعة الحرة سنة٦٣هـ، وهى المعنية هنا.

٢ـ ثورة أهل المدينة على الخليفة يزيد ابن معاوية وموقعة الحرة سنة٦٣هـ/٦٨٢م:

كان سبب واقعة الحرة هو ثورة أهل المدينة على يزيد بن معاوية، ففى سنة ٦٣هـ/٦٨٢م ثار أهل المدينة على يزيد بن معاوية وخلعوا طاعته، وقد اختلف المؤرخون المحدثون فى سبب هذه الثورة، فظن بعضهم انها كانت رد فعل لاستشهاد الحسين بن على وغضبًا له [٣]؛ ولكن هذا ليس بسبب صحيح ودليل ذلك أن زعماء بنى هاشم وآل البيت مثل عبد الله بن عباس ومحمد بن الحنفية وعلى زين العابدين بن الحسين لم يشتركوا فيها، ولم يكونوا راضين عنها، كما رفضها كبار الصحابة الموجودين يومئذ مثل: عبد الله بن عمر بن الخطاب (كما سنبين ذلك).

وبدأت هذه الثورة [٤] حين عزل يزيد ابن معاوية ابن عمه الوليد بن عتبة بن ابى سفيان عن ولاية المدينة بناء على رغبة نجدة بن عامر الحنفى الخارجى [٥]، وقيل إن عبد الله بن الزبير [٦]، هو الذى أرسل إلى يزيد يطلب إليه ذلك واتهم الوليد بالخرق وعدم الرشد وطلب من يزيد أن يبعث واليًا آخر مكانه سهل الخلق رجاء صلاح الأحوال وجمع الكلمة؛ وحرصًا من يزيد على ذلك عزل الوليد وولى عثمان بن محمد بن أبى سفيان الذى استهل عهده بالإحسان إلى أهل المدينة،



ثم بعث منهم وفدًا إلى يزيد فى دمشق فيهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى (غسيل الملائكة) وأبناؤه الثمانية، والمنذر بن الزبير بن العوام، وكثيرون غيرهم من أشراف المدينة، فأكرم يزيد وفادتهم وعظم جوائزهم[7]، فما أن عادوا إلى المدينة حتى أعلنوا الثورة على يزيد وخلعوا طاعته[8]، فلما سألهم الناس عن سبب ثورتهم وقد أكرمهم يزيد وأعطاهم الأموال الكثيرة، قالوا إنه يشرب الخمر وتعزف عنده القيان، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب[9]، وهذه التهم نفاها عن يزيد رجل عدل لا يتهم بمحاباة يزيد وهو محمد بن الحنفية (ابن على بن أبى طالب) حيث قال لهم عندما ذهبوا إليه لينضم إلى ثورتهم[10] : "ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته واقمت عنده فرأيته مواظبًا على الصلاة متحريًا للخير، يسأل عن الفقه، ملازمًا للسُنَّة، قالوا: فإن ذلك كان فيه تصنعًا لك فقال: ما الذى خاف منى أو رجا حتى يظهر إلىَّ الخشوع؟ أَفَأَطْلَعَكُم على ما تذكرون من شرب الخمر، فلئن كان أطلعكم على ذلك إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحلُّ لكم أن تشهدوا بما لا تعلمون. قالوا: إنه عندنا لحق وإن لم يكن رأيناه، فقال لهم: أبى الله ذلك على أهل الشهادة، فقال: ﴿ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزخرف: ٨٦)، ولست من أمركم فى شىء. قالوا: فلعلك تكره أن يتولى الأمر غيرك، فنحن نوليك أمرنا. قال ما أستحل القتال على ما تريدوننى عليه تابعًا ولا متبوعًا، قالوا: فقد قاتلت مع أبيك، قال جيئونى بمثل أبى أقاتل على مثل ما قاتل عليه، فقالوا: فَمُر ابنيك أبا القاسم والقاسم بالقتال معنا، قال: لو أمرتهما قاتلت، قالوا: فقم معنا مقامًا تحض الناس فيه على القتال، قال سبحان الله! آمر الناس بما لا أفعله بتقوى الله، ولا يرضون المخلوق بمعصية الخالق، وخرج إلى مكة".

لقد أوردت هذا الحوار الذى دار بين محمد بن على بن أبى طالب وبين زعماء المدينة لأنه يوضح إصرارهم على الثورة من أجل الثورة فقط، حتى بعد أن بين لهم أن ذلك لا يحق لهم، ثم مضوا فى مخططهم، ويعجب الدكتور/ عبد الشافى عبد اللطيف[11] أن الثوار أمَّروا عليهم أميرين، ويستدل من ذلك على أن هدفهم لم يكن واضحًا، وكلمتهم لم تكن واحدة، فقد أمَّروا على الأنصار

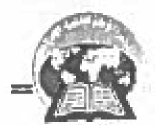
عبد الله بن حنظلة الغسيل، وعلى قريش عبد الله بن مطيع العدوى[١٢]. ولما وضحت نيتهم فى الثورة وتفريق أمر الأمة انزعج كبار الصحابة فى المدينة من نتائج ذلك خاصة وأن الأمة قد عانت من الفتن ولم تندمل جراحها بعد من مذبحة الحسين فى كربلاء، فذهب عبد الله بن عمر بن الخطاب إلى ابن مطيع العدوى، فلما دخل عليه قال: مرحبًا بأبى عبد الرحمن. ضعوا له وسادة، فقال ابن عمر:" إنى لم آتك لأجلس، جئتك لأحدثك حديثًا سمعت رسول الله ﷺ يقوله: «**من خلع يدًا من طاعة لقى الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس فى عنقه بيعة مات ميتة جاهلية**»[١٣]. ولم يكتف ابن عمر بتحذير زعماء الثورة من الخروج على الخليفة الشرعى، ومن تفريق كلمة الأمة، وإنما جاهد فى منعها، وحث الناس على عدم الاشتراك فيها، كما منع أهله وولده من ذلك، حيث روى البخارى مرفوعًا إلى نافع قال:" **لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية، جمع ابن عمر حشمه وولده، وقال لهم: إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة»، وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله، وإنى لا أعلم عذرًا أعظم من أن يبايع رجل بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال، وإنى لا أعلم أحدًا منكم خلعه، ولا بايع فى هذا الأمر إلا كانت الفيصل بينى وبينه**"[١٤].

هذا هو موقف عبد الله بن عمر من ثورة أهل المدينة، فهو يرى أن يزيد خليفة شرعى له فى أعناقهم بيعة، وهو موقف يشاركه فيه رجالات بنى هاشم حيث إن عليا زين العابدين بن الحسين قد كاتب الخليفة يزيد يتبرأ مما دخل فيه القوم، ولذلك أمر يزيد مسلم بن عقبة المرى بالكف عنه وأوصاه به خيرًا[١٥].

وكانت الحكمة تقضى أن يعيد الثائرون النظر فى موقفهم على ضوء معارضة سادات قريش، وعدم رضاهم عن ثورتهم، ولكنهم لم يفعلوا، بل صمّموا على المضى فيما عزموا عليه. ووصلت هذه الأخبار إلى مسامع يزيد فى دمشق، فتمثّل قائلاً:

لقد بدّلوا الحلم الذى فى سجيتى
فبدلت قومى غلظة بليان

ورأى الخليفة أن يعالج الموقف بالحكمة، فأرسل النعمان بن بشير الأنصارى إلى أهل المدينة يدعوهم إلى الطاعة ولزوم الجماعة، وعدم تفريق كلمة الأمة، فجاءهم النعمان وفعل



ما أرسله من أجله الخليفة يزيد، وخوَّفهم الفتنة، ولكنهم لم يستجيبوا له[١٦]. بل عمدوا إلى والى المدينة عثمان بن محمد بن أبى سفيان، وسائر بنى أمية المحاصرين فى المدينة (فى دار مروان بن الحكم) وطردوهم منها، وأصبح الموقف خطيرًا فلم يكن فى وسع يزيد إلا أن يواجه هذه الثورة بما تستحقه من ردع، فأرسل إلى المدينة جيشًا كبيرًا(عشرة آلاف مقاتل) بقيادة مسلم بن عقبة المرى، وقال له: "ادع القوم ثلاثًا فإن هم أجابوك وإلا فقاتلهم، فإذا أظهرت عليهم فأبحها ثلاثًا"[١٧].

كان أهل المدينة على يقين من أن الخليفة لن يسكت عليهم، وأنه سيرسل إليهم جيشًا ليقاتلهم، لذلك قاموا بخطوة خطيرة، فعمدوا إلى المياه التى بين المدينة والشام، فغوروها وصبوا فيها القطران لتفسد، ولا ينتفع بها جيش يزيد ويموتوا عطشًا، " فأرسل الله على جيش الشام السماء مدرارًا من مطر فلم يستقوا بدلو حتى وردوا المدينة"[١٨]. ثم حفر أهل المدينة خندقًا حولها يمنع الجيش من اقتحامها، ووصل مسلم بن عقبة بجيشه ونزل الحرة شرقى المدينة - بناء على نصيحة عبد الملك ابن مروان - لتكون الشمس فى أقفية جيشه وفى أعين أهل المدينة، وأنذرهم ثلاثًا كما أمره يزيد ولكنهم لم يستجيبوا، فقاتلهم فى اليوم الرابع وحلت الهزيمة بأهل المدينة فى المعركة التى سميت" معركة الحرة"، وذلك لليلتين أو ثلاث- بقيتا من ذى الحجة سنة ٦٣هـ/أغسطس ٦٨٣م[١٩]. وقتل زعيمهم عبد الله بن حنظلة الغسيل، كما قُتِل كثيرون غيره من أشرافها، وأباح مسلم المدينة ثلاثة أيام لجيشه يقتل وينهب ويغتصب، وتلك غلطته الكبرى، بل غلطة يزيد إن كان أمره بذلك، فالتصدى للثورة وقمعها أمر مشروع للخليفة المبايع شرعًا، ولا يستطيع أحد أن ينكر عليه ذلك وخاصة بعد أن أنذرهم أكثر من مرة.

أما إباحة مدينة الرسولﷺ وهتك حُرمتها فأمر لا يقبله مسلم، ولم يكن له مبرر بعد أن أُخمدت الثورة. والمسلمون فى حروبهم كلها لم يفعلوا ذلك أبدًا بأى مدينة -حتى من مدن الأعداء، ولا ريب فى أن مسلم بن عقبة، ذلك الرجل الغشوم - الذى أسموه مسرفًا- قد أساء إساءة بالغة بإقدامه على ذلك، وجعل ذكرى إباحة المدينة لجند الشام تقف على قدم المساواة مع مذبحة الحسين، وحصار الكعبة وضربها بالمجانيق كنقاط

سوداء فى تاريخ يزيد، بل فى تاريخ بنى أمية كله، فلو لم يبح المدينة لما لامه أحد على قتال الثائرين على الدولة.

وبعد، ،فعلى من تقع المسئولية فيما حدث؟ الحق أن المسئولية تقع على أهل المدينة، وعلى قائدهم عبد الله بن حنظلة وعبد الله بن مطيع بصفة خاصة، حيث يقول الشيخ الخضرى[٢٠] معلقًا على هذه الثورة: و"إن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب، والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه، ولا يدرى: ما الذى كانوا يريدونه من خلع يزيد؟، أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار بتوليهم خليفة منهم يلى أمرهم؟. أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم ؟

وكيف يتم هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار، ولم يكن معهم فى أمرهم أحد من الجنود الإسلامية، إنهم خرقوا خرقًا، وارتكبوا جرما، ومن ثم يقع عليهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة".

وفى رأى الباحث أن يزيد أجرم جُرمًا فاحشًا لأمره قائده بإباحة المدينة ثلاثًا، وحتى إن لم يأمر بذلك فإن سكوته عن هذه الحادثة الشنعاء ورضاه بها، حيث لم يعاقب قائد جيشه على ذلك يُحمِّله الجزء الأكبر من المسئولية بوصفه خليفة المسلمين الذى يجب أن يصلحهم ويعفو عن مسيئهم، ويحوطهم برعايته.

أ . د / عبد الله إبراهيم راجح

الهوامش:

(١) انظر ابن منظور: بلسان العرب مادة "حرر" ج٢، ص٨٢٩ طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٦م، دائرة المعارف الإسلامية الطبعة العربية ج٧، ص ٢٦٣ طبعة الشعب ثانية ١٩٦٩م.

(٢) للعرب حرار كثيرة منها حرة أوطاس فى ديار هوازن، وحرة تبوك وهى الموضع الذى غزاه النبىﷺ بين وادى القرى والشام وحرة التقدة(الكزيرة) أو النقدة (الكراوية) موضع فى جزيرة العرب، وحرة حقل جنوب أيلة بستة عشر ميلا، وحرة راجل بين السر ومشارف حوران، لبنى فزارة، وحرة الرجلاء فى ديار بنى القين بن حسر بين المدينة والشام، وحرة رماح بالدهناء، وحرة سليم وتسمى حرة النار، وحرة شوران وأم صبار فى عالية نجد، وحرة شرج ببنى عبس بنجد وحرة شوران ببطن العقيق عن يسار الداخل إلى مكة، وحرة دارج قرب الكوفة، وحرة خزغد فى جبال طئ، وحرة عباد دون المدينة، وحرة عذرة، وحرة غلاس، وحرة قباء جنوب المدينة، وحرة القوس من أو دية الحجاز، وحة لبن، وحرة لفلف بين تيماء وطئ، وحرة ليلى فى غطفان وحرة ميطان، وحرة النار بين وادى القرى وتيماء، وحرة الوبرة قرب المدينة، وحرة بنى هلال بالبريك فى طريق اليمن، وحرة واقم شرقى المدينة نسبة إلى رجل من العماليق وهى المقصودة هنا(انظر: معجم البلدان لياقوت طبعة بيروت سنة ١٩٩٣م، ج١، ص٢٨١، ج٢، ص٢٧٨، ٢٤٦، ١٤) سنة ١٩٧٩م. ج٤٥٠، ٤١٣، ٣٣٤٣، ج٥، ص٢٠).

(٣) انظر عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية ج٢، ص ٨٢ طبعة الانجلو المصرية سنة ١٩٧٩م،

(٤) انظر تفاصيل أخبار ثورة أهل المدينة وموقعة الحرة فى الطبرى تاريخ الرسل والملوك ج٥، ص ٤٧٩- ٤٩٥ طبعة دار المعارف(رابعة سنة ١٩٧٩م، وتاريخ خليفة بن الخياط ص ٢٣٦، وما بعدها طبعة بيروت ١٩٧٩م، وابن الاثير الكامل ج٣ ص ٤٤٩، ٤٥٥- ٤٦٢ طبعة بيروت ١٩٨٧م، وابن كثير البداية والنهاية، ج٨، ص ٢٢٠- ٢٢٧ طبعة بيروت ثالثة ١٩٨٧م.

(٥) ابن كثير مرجع سبق ج٨، ص ٢١٨.

(٦) ابن الاثير مرجع سابق ج ٣، ص ٤٤٩، والطبرى: مرجع سبق، ج٥، ص ٤٧٩.

(٧) حيث أعطى عبد الله بن حنظلة مائة ألف درهم، وأعطى أبناءهم كل واحد عشرة آلاف، وأعطى المنذر بن الزبير مائة ألف(ابن الأثير: المصدر السابق، ج٣، ص ٤٤٩، ٤٥٠).

(٨) تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٣٧.

(٩) ابن كثير: المصدر السابق، ج٨، ص ٢١٨.

(١٠) ابن كثير: البداية ج٨، ٢٣٦.

(١١) انظر عبد الشافى محمد عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى. ص ٤٩١- طبعة القاهرة سنة ١٩٨٤م.

(١٢) انظر تاريخ خليفة بن خياط ص ٢٣٧.

(١٣) صحيح مسلم بشرح النووى، ج١٢، ص ٢٤٠، طبعة المطبعة المصرية ومكتبتها، القاهرة د. ت.

(١٤) البخارى: الجامع الصحيح، ج٤، ص ٢٣٠، طبعة الحلبى، القاهرة د. ت.

(١٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك: ج٥، ص ٤٨٤، ٤٨٥، ابن الأثير: الكامل، ج٣، ص ٤٥٦.

(١٦) ابن كثير: البداية والنهاية: ج٨، ص٢١٨- ٢١٩.

(١٧) الطبرى: تاريخه: ج٥، ص ٤٨٤.

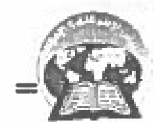
(١٨) ابن كثير: مرجع سبق، ج٨، ص ٣٣٥.

(١٩) الطبرى: تاريخه، ج٥، ص ٤٨٧، ٤٩٤.

(٢٠) انظر: تاريخ الأمم الإسلامية، ج٢، ص ١٣٢، طبعة القاهرة ١٩٧٠م.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ج ٥ ، طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٧٩م.
- ابن كثير : البداية والنهاية ج٨ .، طبعة بيروت، ١٩٨٧م.
- عبد الشافى عبد اللطيف: العالم الإسلامى فى العصر الأموى، طبعة القاهرة، ١٩٨٤م.
- عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسى للدولة العربية ج ٢، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٩م.



حركة الردة

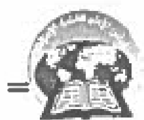
الردة: الرجوع إلى الكفر بعد الإسلام[١].
وحركة الردة مصطلح أطلق على حركة ارتداد بعض القبائل العربية عن الإسلام[٢]؛ قبيل وبعيد وفاة الرسول ﷺ، لقد بدأت قصة الردة قبيل وفاة الرسول ﷺ. حين ادعى أكثر من رجل فى أكثر من منطقة من بلاد العرب النبوة، مثل مسيلمة بن حبيب - الكذاب- فى بنى حنيفة فى منطقة اليمامة وطليحة بن خويلد الأسدى فى بُزَاخة، والأسود العنسى فى اليمن، ولقيط بن مالك فى عُمَان، حتى المرأة أدلت بدلوها فى ميدان النبوات الكاذبة، فادعت سجاح بنت الحارث اليربوعية التميمية النبوة، والعجب أنها لم تكن حين ادعائها النبوة فى جزيرة العرب بل كانت فى العراق، عند أخوالها من بنى تغلب[٣].

والذى حدا بهؤلاء الرجال إلى ادعاء النبوة حب الزعامة حتى وإن بنيت على باطل، فإذا كان محمد ﷺ قد أصبح زعيم كل العرب بالنبوة وقريش أيضًا بالتبعية سادت العرب بسبب النبوة، فالطريق إلى الزعامة هو ادعاء النبوة، والعجيب أن من تابعوا هؤلاء الأنبياء الكذابين كانوا يعرفون أنهم كذابون، ولكنهم تابعوهم عصبية لهم، فقد قال أحد أتباع مسيلمة:

والله إنى لأعلم أنك كذاب، ولكن كذاب ربيعة - قبيلة مسيلمة- خير من صادق مضر- قبيلة محمد ﷺ. وكذلك عُيينة بن حصن الفزارى لحليفة طليحة ابن خويلد الأسدى: إنك كذاب ولكنْ نبىٌّ من الحليفين خير من نبى من قريش. هذه هى إذن العصبية التى ذمها النبى ﷺ ذمًا شديدًا، وأمر بإماتتها فى أحاديث كثيرة[٤]. وإذا كانت بوادر الردة قد ظهرت قبيل وفاة الرسول ﷺ، فإن الرسول وجه جهده لما هو أشد منها خطرا وهو تهديد الروم، حيث أرسل فى أواخر حياته بعث أسامه إلى حدود الروم، ليلفت نظر الصحابة - رضوان الله عليهم- إلى أن الخطر الأكبر على دعوتهم ودولتهم هم الروم والفرس، أما أمر الردة فسيكون- رغم فداحته - القضاء عليه ممكنا. ولقد بدأت الحركة بعد وفاة الرسول ﷺ من القبائل العربية القريبة من المدينة مثل عبس

وذبيان وغطفان... الخ فهؤلاء عندما سمعوا بوفاة الرسول ﷺ وأن الصحابة قد اختاروا أبا بكر رضى الله عنه ليخلف الرسول ﷺ، أرسلوا وفدًا إلى المدينة لتقديم واجب العزاء فى وفاة الرسول ﷺ ثم - وهو الأهم عندهم - أنهم يرفضون دفع الزكاة إلى الخليفة الأول، لأنهم يعدونها إتاوة، ودفعها ينقص من كرامتهم، ولم يدركوا مغزاها الاجتماعى العظيم، حيث تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، ثم إنها ركن من أركان الإسلام. فلما عرضوا مطلبهم رفضه الصديق بشكل قاطع، ولم يستجب لمن كان يرى من الصحابة مسايرتهم وقبول مطلبهم، لا سيما وأن المدينة مكشوفة عسكريًا، حيث كان جيش أسامة بن زيد قد توجه إلى الشام طبقًا للخطة التى وضعها رسول الله ﷺ. والذى عبر عن هذا الرأى هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه، غير أن الصديق رد على عمر رد حازمًا؛ بل قاسيًا؛ حيث قال له: "ثكلتك أمك يا ابن الخطاب! أجبار فى الجاهلية خوار فى الإسلام؟... والله لو منعونى عقالاً - الحبل الذى يُجَرُّبِهِ البعير أو يربط - لجاهدتهم عليه" [5] لقد افتتح أبو بكر عهده بقوله: "إنما أنا متبع وليست بمبتدع"؛ يعنى أعلن أنه سيسير على خطى رسول الله ﷺ وكأنى به هنا يتمثل موقف رسول الله ﷺ مع وفد ثقيف عندما جاءوه يعلنون إسلامهم، وطلبوا منه أن يعفيهم من الصلاة، فرفض ذلك فى حسم، وقال ﷺ: **«لا خير فى دين لا صلاة فيه»**[6]. ولعل الصديق نفسه - رضى الله عنه - قد قصد ذلك المعنى بقوله: **«والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة»**.

فأركان الإسلام ليست للمساومة، ولا للتفريط مهما كانت الأحوال. ولقد برهن الصديق - رضى الله عنه - على جدارته بحمل المسئولية التى نيطت به وعلى نفاذ بصيرته، فما أن انصرف وفد القبائل التى امتنعت عن دفع الزكاة حتى جمع الصحابة وأخبرهم أنه رأى الغدر فى عيون هؤلاء الأعراب، وأنه يتوقع أن يهاجموا المدينة، وإليك ما يُروَى عن موقف الصديق العظيم فى هذا الوقت الحرج، قال أبو بكر للصحابة: "إن الأرض كافرة وقد رأى وفدهم منكم قلة، وإنكم لاتدرون أليلا يأتون أم نهارًا، وأدناهم منكم على بريد - البريد مسافة قدرها نحو عشرين كيلو مترًا - وقد كان القوم يأملون أن



نقبل منهم- يعنى عدم الزكاة- وأن نوادعهم، وقد أبينا عليهم، ونبذنا إليهم عهدهم فأعدوا واستعدوا"(٧). وعلى الفور اتخذ من مسجد رسول الله ﷺ غرفة عمليات عسكرية، وشكل أربع فرق لحراسة مداخل المدينة: على بن أبى طالب رضى الله عنه على فرقه، وطلحة بن عبيد الله رضى الله عنه على فرقة، والزبير بن العوام رضى الله عنه على فرقه وعبد الله بن مسعود رضى الله عنه على فرقة.

هزيمة مانعى الزكاة:

حدث ما توقعه الصديق- رضى الله عنه- فبعد ثلاثة أيام فقط هاجم مانعو الزكاة المدينة، فوجدوا الصحابة، ويقودهم إمامهم وخليفتهم، فى انتظارهم فهزموهم وردوهم على أعقابهم إلى ذى القصة- مكان شرقى المدينة المنورة- وغنم المسلمون منهم غنائم كثيرة، وكان هذا الانتصار- الأول الذى حققه الصديق بحزمه وعزمه- وعون الله تعالى قبل كل شىء- بالغ الأهمية وكان دليلا عمليًا على تصميم الخليفة الأول ورجاله على التصدى لكل من يريد النيل من هذا الصرح العظيم الذى بذل الرسول ﷺ عهده فى بنائه.

اتخذ الصديق من ذى القصة مركزا لإدارة المعركة ضد حركة الردة بأكملها والتى سيستفحل أمرها(٨).

فى هذه الأثناء كان الجيش الذى قاده أسامة بن زيد قد عاد بعد أن حقق أهدافه التى من أجلها جهزه الرسول ﷺ.

فهرع الخليفة العظيم بنفسه لاستقبال قائده الشاب وإعطائه حقه من التكريم والتهنئة على العودة سالمًا، من براثن الأسد – دولة الروم- وبعد أن احتفى الصديق بأسامة وجيشه أنابه عنه فى حكم المدينة وعاد هو إلى ذى القصة ليقود معركته ضد المرتدين بعزيمة لاتلين.

أسباب حركة الردة:

قبل الحديث عن مواجهة حكومة المدينة حركة الردة مواجهة حاسمة والقضاء عليها يجب أن نعرف أسبابها، ونتساءل: لماذا ارتد أغلب العرب بهذه السرعة بعد أن كانت وفودهم قد تقاطرت وتزاحمت على رسول الله ﷺ لتعلن إسلامها من بعد فتح مكة وحتى وفاته ؟.

الحق أن أسباب حركة الردة كثيرة، ولكن أهمها أربعة أسباب:

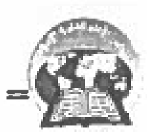
١- السبب الأول: أن العرب الذين ارتدوا عقب وفاة الرسول ﷺ كان

إيمانهم ضعيفًا؛ أو قل هم لم يكونوا قد آمنوا بل أسلموا وأذعنوا للقوة الإسلامية الصاعدة، وهذا هو ما تفيده الآية الكريمة ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ (الحجرات:١٤).

٢- السبب الثانى: قوة العصبية القبلية عندهم، فمعظم الذين ارتدوا والتفوا حول أنبيائهم الكذابين كانوا يعلمون صدق النبى ﷺ ، ولكن كل قبيلة كانت تريد أن يكون لها نبى من أبنائها حتى لو كان كذابًا ! ولقد عبروا عن ذلك بوضوح؛ فأحد زعماء بنى حنيفة قال لمسيلمة بن حبيب : أشهد أنك كذاب ولكن كذاب ربيعة- وهى القبيلة التى ينتمى إليها- خير من صادق مضر- وهى القبيلة التى ينتمى إليها رسول الله ﷺ . وكذلك قال عيينة بن حصن الفزارى عن حليفه طليحة ابن خويلد الأسدى : نبى من الحليفين خير من نبى من قريش، ومحمد مات وطليحة حى[٩].

٣- السبب الثالث: وهو فى غاية الأهمية أن زعماء القبائل وشيوخها كانوا مستفيدين من الوضع القبلى والحياة البدوية القديمة استفادة مباشرة، فحياة معظم القبائل كما سجلتها وقائع أيام العرب فى الجاهلية، كانت تقوم على الإغارة على القبائل الأخرى وعلى السلب والنهب، وشيوخ القبائل كانوا يحصلون على ربع ما تحصل عليه القبيلة فى إغاراتها وهى ما كان يسمى المرباع، كذلك قام شيوخ القبائل بدور كبير فى إذكاء حركة الردّة وحَرَّضوا أبناءها على ذلك لتستمر سيطرتهم وفوائدهم المادية الكبيرة.

٤- السبب الرابع : تحريض الدول الكبرى المجاورة لبلاد العرب - فارس والروم- على الردة للقضاء على الإسلام فى مهده، فهذه الدول كانت تعى تمامًا معنى قيام دولة عربية إسلامية مستقلة فى بلاد العرب وأن هذا سيقضى على نفوذها واحتلالها لبلاد العرب، فالفرس كانوا يحكمون العراق واليمن حكمًا مباشرًا ونفوذهم فى كل منطقة الخليج لا يقاوم،وهم يسمونه الخليج الفارسى تعبيرًا عن السيطرة والهيمنة ولا يعترفون للعرب بأى دور فى شئونه، كذلك كان الروم يحكمون الشام ومصر وما والاها غربا حكمًا مباشرًا ، وكانت السياسة القديمة التى اتبعتها هاتان الدولتان الكبيرتان هى ردع العرب بالعرب، فالفرس أقاموا على أرض العراق الجنوبى



إمارة عربية هى إمارة المناذرة الذين كانوا يحكمون الحيرة لتدرأ عنهم إغارات العرب على بلادهم، وأمام الروم أيضًا إمارة عربية فى جنوب الشام لتدفع عنهم إغارات القبائل العربية على بلادهم، واستراحت الدولتان لهذا الأسلوب وظنته ناجحًا دائما. وحاولت تطبيقه فى الحالة الإسلامية، فقد اعتمد الروم على الغساسنة وفشلوا، وكذلك كان حال الفرس. فقد حرض الفرس عرب الخليج على الردة، ثم أمدوا سجاح بنت الحارث اليربوعية التميمية والتى ادعت النبوة بأربعين ألف رجل جاءت بهم من شمال العراق لتحارب حكومة المدينة ولتقضى على الإسلام؛ وهذا مثل صارخ على تدخل الفرس فى حروب الردة، لأن سجاح ادعت النبوة الكاذبة وهى عند أخوالها فى بنى تغلب فى شمال العراق، فلماذا لم تبق هناك وتبلغ رسالتها الكاذبة لأهلها ولماذا أتت إلى جزيرة العرب التى كانت تعج بالأنبياء الكذابين؟ افقد كان هناك مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة فى منطقة اليمامة، وكان هناك طليحة بن خويلد الأسدى فى بُزاخة، وهناك الأسود العنسى فى اليمن، وهناك لقيط بن مالك فى عمان، ألم يكن هذا العدد من الأنبياء الكذابين كافيًا لجزيرة العرب حتى تأتى سجاح من العراق؟ لكن الفرس سلحوها وحرضوها لتسهم فى القضاء على الإسلام(١٠).

والروم فعلوا الشىء نفسه، فقد تكررت اعتداءاتهم على المسلمين بدءًا من غزوة مؤتة سنة ٨ هـ وفى حروب الردة اعتدوا على أحد جيوش المسلمين الذى كان يقوده خالد بن سعيد بن العاص فى منطقة تيماء فى شمال الحجاز وهزموه وقضوا على معظم جنوده .

هذا هو مسلك الدول الاستعمارية فى كل زمان ومكان، ولما فشلت محاولاتهم ونجح أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى القضاء على حركة الردة – كما سنشرح قريباً- تدخلوا – الفرس والروم- تدخلا مباشر للقضاء على الإسلام فكان المسلمون على وعى بكل ما يدبر لهم، وسيبدأ الصراع بين المسلمين وبين كل من الفرس والروم، ولن يتوقف إلا بعد القضاء على دولة الفرس قضاء مبرما وإقصاء الروم عن الشام ومصر وشمال إفريقيا إلى الأبد.

هذه هى أهم أسباب حركة الردة، فكيف واجه الخليفة الأول لرسول الله ﷺ هذا الموقف العصيب ؟.

المواجهة السِّلميّة:

دلت وقائع حروب الردة؛ بل وقائع خلافة الصديق – رضى الله عنه- من أولها إلى آخرها أنه كان واعيًا للموقف كله وعيًا عميقًا، ومدركًا كل أبعاده فهو أقرب الصحابة قاطبة إلى رسول الله ﷺ وأكثرهم فهمًا لمقاصد الرسالة الإسلامية وأهدافها والأخطار المحيطة بها فتصرف طبقًا لفهمه لهذا كله، وفعل ما كان يمكن أن يفعله رسول الله ﷺ لو واجه قبل وفاته هذا الموقف؛ فقد رأى أن حركة الردة قد استفحلت واتسع نطاقها فقرر مواجهتها بكل حزم وعزم دون هوادة، لأنه يعرف طبيعة العرب والتراجع أمامهم ولو خطوة واحدة صغيرة، قد يجر تراجعات لا تنتهى.

بدأ أبو بكر - رضى الله عنه- مواجهة الموقف مواجهه سلمية، وكان بارعًا ورائعًا فى ذلك، فقد كتب إلى العرب المرتدين يبصرهم بخطورة ما أَقْدموا عليه، وذكرهم بما أكرمهم الله به من الإسلام وبما أعزهم به بعد ذلة، فخير لهم أن يعودوا إلى رشدهم وإلى دين ربهم وإلى وحدتهم السياسية التى حققها لهم رسول الله ﷺ وليكونوا أمة محترمة لها رسالة فى الحياة ودور تؤديه فى التاريخ، وهذا لم يتحقق لهم فى كل تاريخهم السابق.

وفى الوقت نفسه إذا لم يعودوا إلى صوابهم ويقلعوا عن ردتهم فإنه لن يتوانى فى قمع الحركة والقضاء عليها.

وأرسل لهم خطابًا بنص موحد يقرأ على كل القبائل، ونص الخطاب طويل وسنكتفى منه بالجزء الأخير الذى قال فيه : وإنى بعثت إليكم جيشًا من المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان: " وأمرته ألاّ يقاتل أحدًا ولا يقتله حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقر وكفَّ وعمل عملاً صالحًا قبل منه وأعانه عليه، ومن أبى أمرته أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه، ولا يقبل من أحد إلا الإسلام، فمن اتبعه فهو خير له، ومن تركه فلن يُعْجِزَ الله، وقد أمرت رسولى أن يقرأ كتابى فى كل مجمع لكم، والداعية الأذان، فإذا أذن المسلمون فأذنوا كفُّوا عنهم، وإن لم يؤذنوا عاجلوهم"[11].

المواجهة العسكرية:

كان أبو بكر على يقين أن اللجاجة والعناد قد أخذت العرب المرتدين كل مأخذ ومع ذلك قرر أن يعذر إليهم وفى الوقت نفسه بدأ استعداداته العسكرية

لمواجهة الموقف مواجهة أذهلت ولازالت تذهل وتبهر المؤرخين[١٢]. كيف ومن أين واتت الشجاعة ذلك الرجل الوديع الرقيق ليواجه حركة عمت جزيرة العرب التى تقرب مساحتها من ثلاثة ملايين كيلو متر، بهذه القوة وهذا الإقدام وهذه الجسارة، وأين كانت تختبىء تلك العبقرية الفذة فى مواجهة وإدارة هذا الصراع الخطير، إن العبقرية البكرية كانت موجودة، ولكنها كانت مدخرة لعمل ذلك اليوم، كانت عبقرية الصديق تتوارى خجلا من عظمة الرسول ﷺ فلما لحق الرسول بربه جاءت اللحظة التى تجلت فيها عظمة الصديق وهى بدورها ثمرة من ثمار تربية محمد ﷺ لرجاله ليؤدوا دورهم العظيم فى التاريخ وليقيموا صرح الإسلام وليحققوا للناس كل الناس العدل والحرية والكرامة. ذكرنا فيما سبق أن أبا بكر رضى الله عنه اتخذ من ذى القصة ميدانا عسكريا لمواجهة حركة الردة، بل كتب هذا الكتاب السلمى من الميدان، ولما كان احتمال الحرب أقوى وأقرب من أن يستجيب العرب المرتدون لدعوته السلمية فقد جهز بعبقرية عسكرية فذة أحد عشر جيشًا فى وقت واحد لتغطية كل جزيرة العرب بالجيوش وليشغل كل تجمع قبلى بالدفاع عن نفسه ولم يترك لهم فرصة للتجمع والتكتل ضده، وتوزيع تلك الجيوش التى اختار لها أشجع وامهر قواده يدعو إلى الإعجاب والإكبار. كان توزيع الجيوش كالآتى[١٣].

١- أول وأعظم جيوش أبى بكر رضى الله عنه أسند قيادته إلى سيف الله خالد بن الوليد وأمره بقتال المرتدين من بنى أسد وحلفائهم من غطفان الملتفين حول نبيهم الكذاب طليحة بن خويلد الأسدى فى بزاخة، فإذا انتهى منهم توجه إلى قتال المرتدين من بنى تميم فى البطاح إلى الشرق من آبار بنى أسد.

٢- ثانى الجيوش أسند أبو بكر قيادته إلى عكرمة بن أبى جهل وأمره بالتوجه إلى اليمامة حيث مسيلمة الكذاب فى بنى حنيفة وأمره ألاَّ يقاتله بل يشغله فقط لأن أبا بكر كان يعرف قوة جيوش مسليمة وأنها فوق طاقة عكرمة.

٣- ثالث الجيوش قاده شرحبيل بن حسنه وكان مددًا لجيش عكرمة .

٤- الجيش الرابع قاده العلاء بن الحضرمى للقضاء على الردة فى البحرين وما والاها.

٥- الجيش الخامس أسند أبو بكر رضى الله عنه قيادته إلى حذيفة بن محصن وامره يقتال المرتدين فى ديار جنوب شرق شبه جزيرة العرب.

٦- الجيش السادس قاده عرفجة بن هرثمة وامره يقتال المرتدين فى مهرة، فى جنوب جزيرة العرب.

٧- الجيش السابع أسند أبو بكر رضى الله عنه قيادته إلى المهاجر بن أبى أمية المخزومى وأمره يقتال المرتدين فى اليمن.

٨- الجيش الثامن قاده سويد بن مقرن وكانت وجهته قتال المرتدين فى تهامة اليمن على ساحل البحر الأحمر.

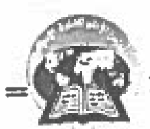
٩- الجيش التاسع قاد عمرو بن العاص وأمره أبو بكر رضى الله عنه بالتوجه إلى قتال قبائل قضاعة فى شمال جزيرة العرب.

١٠- الجيش العاشر قاده معن بن حاجز وكانت مهمته القضاء على الردة فى قبائل هوازن وبنى سليم.

١١- الجيش الحادى عشر بقيادة خالد بن سعيد بن العاص وأمره أبو بكر أن يعسكر فى منطقة تيماء ليراقب تحركات الروم وأمره بعدم القتال، لكن الروم استدرجوه إلى داخل الشام وهزموه وقضوا على معظم جنوده – كما سبقت الإشارة- مما يعكس نيتهم فى القضاء على الإسلام والمسلمين قضاء تامًا.

أشهر معارك حركة الردة

لم يستجب المرتدون العرب لدعوة أبى بكر رضى الله عنه السلمية، وركبوا رؤوسهم ولعله هو كان يتوقع منهم ذلك، ولذلك قرن خطابه السلمى النصوح لهم بالاستعداد العسكرى الكبير، والذى ظهرت فيه عبقريته الفذه فى ذلك التوزيع الجغرافى للقوات، وهنا تجدر الإشارة إلى أن الجيوش الأحد عشر التى حضرها ثمانية منها ذهب إلى جنوب وشرق جزيرة العرب، وثلاثة فقط إلى الشمال، والسبب فى ذلك الرعب الذى احدثه جيش أسامة ابن زيد- رضى الله عنهما- الذى كان الرسول ﷺ قد أمر بإنفاذه قبيل وفاته للذهاب إلى الحدود الشمالية لتثبيت هيبة المسلمين فى عيون الروم والقبائل الموالية لهم والذى لم يتيسر ذهابه لوفاة الرسول ﷺ فكان أول قرار اتخذه الخليفة الأول أبو بكر إنفاذ ذلك الجيش، فلما مر بالقبائل فى شمال شبة جزيرة العرب خافوا وقالوا : " لو لم يكن بالمسلمين قوة لما أرسلوا ذلك الجيش فى ذلك الوقت إلى ذلك الوجه البعيد "[١٤].



رفض المرتدون دعوة الصديق السلمية فكان على الجيوش أن تتحرك وكان أول الجيوش حركة هو جيش خالد بن الوليد - رضى الله عنه - وكانت وجهته الأولى القضاء على ردة بنى أسد وحلفائهم من غطفان وغيرهم، والذين يقودهم نبيّهم الكذاب طليحة بن خويلد الأسدى، وكانت تعليمات أبى بكر لسيف الله ابن الوليد أن ينكل بهم، ليكونوا عبرة لغيرهم[١٥].

وقد استطاع خالد وجنوده الأبطال أن يهزموا هذا التجمع القبلى الخطير هزيمة منكرة، وفر نبيهم الكذاب[١٦]، وتركهم لمصيرهم البائس. وبعد أن قضى خالد بن الوليد على قوات بنى أسد وحلفائهم اتجه طبقًا لتعليمات أبى بكر إلى بنى تميم فى منطقة البطاح، وقضى أيضًا على ردتهم، وهنا دعت الضرورة ليذهب إلى اليمامة لمواجهة أخطر المرتدين على الإطلاق مسيلمة بن حبيب - الكذاب.

معركة اليمامة

اليمامة تعبير جغرافى يطلق على الهضبة الوسطى من شبه جزيرة العرب، وهى إقليم نجد الذى توجد فى وسطة الآن الرياض عاصمة المملكة العربية السعودية. ويقال سميت تلك المنطقة باليمامة على اسم امرأة اسمها اليمامة بنت سهم بن طسم، ويقول أهل السير: كانت منازل طسم وجديس باليمامة[١٧].

كانت تلك هى المنطقة التى توفرت فيها قوات مسيلمة الكذاب، وقد سبقت الإشارة أن أبا بكر رضى الله عنه أرسل جيشين لشغل مسيلمة وهما جيش عكرمة بن أبى جهل ثم أردفه بجيش شرحبيل بن حسنة ولكن كانت أوامره صريحة بعدم الاشتباك معه، ولكنهما خالفا أوامره واشتبكا معه ولم يستطيعا الصمود أمامه فانهزما، وهنا أحس الصديق بأنه ليس لهذا الرجل العنيد وجيشه الجرار إلا سيف الله خالد بن الوليد، ومن حسن الحظ أن خالدًا كان قد أنجز مهماته فى بزاخة والبطاح وأصبحت انتصاراته على كل لسان، ودوى اسمه فى جزيرة العرب فجاءته الأوامر من الصديق بالتوجه إلى اليمامة لكسر شوكة مسيلمة ومن معه.

امتثل القائد البطل لأوامر الخليفة العظيم وتوجه بقواته إلى اليمامة عبر صحراء قاحلة لمسافة تقترب من ألف كيلو متر، ويقال كان عدد قواته ثلاثة عشر ألفا، فيما كانت قوات مسيلمة تفوق الأربعين ألفًا، ودارت معارك شرسة

كادت الهزيمة تحل بالمسلمين فيها ، وهنا زأر خالد زئير الأسد ونادى بأعلى صوته بشعار المسلمين يومئذ " وامحمداه " فأشعل جذوة الإيمان فى قلوب الجيش فأقبل على القتال دون تفكير فى الحياة ، وحملوا على المرتدين حملة صادقة فضربوهم فى معركة عقرباء التى تعد أهم وأخطر معارك الردة ، وقتل زعيمهم وكذابهم مسيلمة وقتل معه نحو عشرين ألفا ، ومن بقى منهم على قيد الحياة ، استسلم للقائد البطل خالد بن الوليد[١٨].

أما شهداء المسلمين فكانوا ألفا ومائتين ، كان منهم عدد من القراء (حفظة القرآن الكريم).

ليس فى وسعنا فى هذا الحيِّز أن نتحدث عن بقية حروب الردة بالتفصيل ، ويكفى أن نقول إن جميع القادة الذين وردت أسماؤهم فيما سبق قد أنجزوا مهامهم بنجاح كبير وأبلوا أحسن البلاء. وقبل مضى عام من بدء الحرب على المرتدين تم القضاء على حركتهم قضاء تامًا ، وعادت شبه جزيرة العرب إلى الوحدة الدينية والسياسية تحت لواء أبى بكر كما كانت فى آخر حياة الرسول ﷺ. وانتصرت مبادىء الإسلام على العصبية القبلية ودعاوى الجاهلية ، وانتشر سلطان الإسلام فى جزيرة العرب ، وبدأوا يخرجون إلى العالم ليؤدوا الدور العظيم الذى أدوه فى تاريخ البشرية لأنه ما كاد أبو بكر ينتهى من قمع حركة الردة حتى وجد نفسه مضطرا لمواجهة الفرس والروم ، الذين لما رأوا مشروعهم فى القضاء على الإسلام بالعرب المرتدين قد فشل بدأوا التدخل المباشر ضد المسلمين فى العراق والشام فى وقت واحد. وكما واجه أبو بكر رضى الله عنه حركة الردة بكل حزم وجرأة واجه الفرس والروم معًا بنفس الحزم والجرأة والشجاعة ودارت فى أواخر عهده معارك كبيرة مع هاتين القوتين الكبيرتين واستمرت فى عهد خلفه ولم تتوقف إلا بعد أن أجهز المسلمون على دولة الفرس ثم أجلوا الروم عن الشام ومصر إلى الأبد.

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) المعجم الوسيط. طبع مجمع اللغة العربية بالقاهرة ـ الطبعة الرابعة ص ٣٢٨.

(٢) القاموس الإسلامى. تأليف أحمد عطيه الله ـ مكتبة النهضة العربية ـ القاهرة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م جـ٢ ص ٥١٢.

(٣) انظر تاريخ الطبرى. طبع دار المعارف جـ٣ ص ٢٢٧ ، وما بعدها.

(٤) انظر صحيح مسلم . شرح النووى جـ ١٢ .

(٥) تاريخ الطبرى. مصدر سابق جـ٣ ص٢٤٤.

(٦) سيرة ابن هشام جـ٤ ص ١٩٧.

(٧) تاريخ الطبرى مصدر سابق جـ٣ ص ٢٤٥.

(٨) انظر تفاصيل حروب الردة فى المصدر السابق جـ٣ص ٢٤٥ وما بعدها.

(٩) انظر أخبار طليحة وتنبُّئه وحروبه فى المصدر السابق جـ٣ ص٢٥٢ وما بعدها.

(١٠) انظر تاريخ الطبرى. مصدر سابق جـ٣ ص ٢٦٧ وما بعدها.

(١١) راجع نص الخطاب كاملا فى المصدر السابق جـ٣ ص ٢٤٩ وما بعدها.

(١٢) انظر الصديق أبو بكر. تأليف الدكتور محمد حسين هيكل. طبع دار المعارف ـ القاهرة. الطبع الثامنة ١٩٧٩ ص١١ وما بعدها.

(١٣) تفاصيل ذلك كله فى تاريخ الطبرى. مصدر سابق جـ ٣ ص ٢٤٩ ومابعدها.

(١٤) أخبار جيش أسامة فى تاريخ الطبرى مصدر سابق جـ٣ ص ٢٢٣ ، ومابعدها.

(١٥) المصدر السابق جـ٣ ص ٢٥٢ وما بعدها.

(١٦) لقد أسلم طليحة بعد ذلك فى عهد الصديق نفسه، وقام بدور عظيم فى الفتوحات الإسلامية فى عهد عمر بت الخطاب رضى الله عنه.

(١٧) انظر معجم البلدان لياقوت الحموى جـ٥ ص٤٤٢ ـ طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ.

(١٨) تُراجع تفاصيل حروب خالد بن الوليد مع مسيلمة فى تاريخ الطبرى جـ٣ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ تاريخ الطبرى .

٢ـ سيرة ابن هشام.

٣ـ تاريخ الخلفاء للسيوطى.

٤ـ الصديق أبو بكر : الدكتور محمد حسين هيكل .

٥ـ تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة. الدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

الحروب الصليبية

ارتبط مصطلح "الحروب الصليبية" فى الأذهان بالحملات الصليبية التى أرسلها الغرب الأوروبى إلى الشرق الإسلامى على مدى نحو قرنين من الزمان تقريباً، منذ نهاية القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى إلى قرب نهاية القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى[1]، وعددها سبع حملات صليبية فضلاً عن حملة ثامنة إلى إفريقية (تونس الحالية).

وهذه الحملات كان يراد بها محاربة المسلمين فى الشرق والاستيلاء على بيت المقدس وربطها بالغرب الأوروبى والبابوية أو كما ردد الأوروبيون حينئذ استرداد بيت المقدس من أيدى المسلمين وإخضاعها لسلطة البابوية والغرب الأوروبى، والانتقام لمسيحيىّ الشرق وتحريرهم من الخضوع للمسلمين ورفع الغبن عنهم كما ادعت البابوية والغرب حينئذ[2]، على الرغم من أن الحروب الصليبية لم تكن مقصورة على تلك الحملات المرسلة إلى الشرق الأدنى الإسلامى، وإنما شملت أيضاً الحملات الصليبية التى أرسلت لمحاربة المسلمين فى أسبانيا أو الأندلس لمحاولة استرداد الأندلس من أيدى المسلمين وإعادتها إلى حظيرة المسيحية من جديد كما أعلنت القوى الغربية والبابوية فى ذلك الوقت[3].

وعلى الرغم من شيوع مصطلح الحروب الصليبية واستخدامه ووروده فى كتب المؤرخين المتأخرين عن تلك الفترة، فإن هذا المصطلح لم يكن معروفاً خلال فترة الحملات المذكورة التى أرسلت إلى الشرق الإسلامى، ولم يطلق على تلك الحملات إلا بعد فترة ربما تصل إلى أكثر من قرن من الزمان بعد بدايتها، فقد ورد ذكرها فى كثير من المصادر الإسلامية[4] باسم حملات الفرنج أو حركة الفرنج، وسمى جندها وقادتها بالفرنج، أى أن بعض المؤرخين المعاصرين لهذه الحركة عرفوا هذه الحملات بحملات الفرنج أو حركات الفرنج، كما وردت فى بعض المصادر اللاتينية المعاصرة واللاحقة باسم الحرب المقدسة أو الحروب المقدسة أو الحملات إلى الأرض المقدسة أو مشروع يسوع المسيح أو رحلات الحج وعرف المشاركون فيها والقائمون عليها بالحجاج[5]. أما الحروب

الصليبية أو الحملات الصليبية The Crusades فقد ظهرت بعد فترة طويلة وفى وقت متأخر عن بداية هذه الحملات الصليبية.

والأمر الذى لا خلاف عليه أن مصطلح الحروب الصليبية ومغزى الحروب الصليبية ارتبط فى أذهان المسلمين بالحملات الحربية الانتقامية القاسية التى أرسلتها البابوية والغرب الأوروبى لمحاربة المسلمين فى الشرق الإسلامى فهاجمت الشعوب الآمنة وقتلت الناس وأفنت الأحياء ودمرت الأخضر واليابس. وأفسدت كل شىء، وأحرقت المدن والقرى وروعت الآمنين وضربت الحضارة، على الرغم من أن هذه الحملات أو الحروب قد جعلها الغرب الأوروبى حملات لحروب مقدسة واتخذت معنى آخر وعرفت كمصطلح مغاير تماماً لما عرفه المسلمون، فمنحها الغرب الأوروبى صفات أخرى وألبسها ثوباً مغايراً، وأضفى عليها نبل المقصد والرغبة فى تحقيق العدل وعمل الخير ومساعدة المنكوبين ورفع الظلم عن المغبونين. ومن كثرة ترديد هذه الصفات والمعانى تغنت بها الموروثات الشعبية وأغنيات الحروب الصليبية مرددة هذه المعانى حاملة صوراً براقة لترسخ فى أذهان الناس عوضاً عن الحقائق التاريخية[٦].

أما عن النطاق الزمانى والمكانى لهذه الحروب، فالمعروف أن الدعوة للحملة الصليبية الأولى التى دعا إليها البابا أوربان الثانى، وهى الدعوة التى جرت فى مجمع كليرمونت سنة ٤٨٩ هـ /١٠٩٥م قد حددت بداية الحملات الصليبية فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى)[٧]، أى كانت هذه الدعوة المحرك للغرب الأوروبى من الحكام والملوك والأباطرة فضلاً عن السادة الإقطاعيين والفرسان للإسهام فى هذه الحرب المقدسة – كما أطلقوا عليها – وأسفرت هذه الجهود عن خروج الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٧م/ ٤٩١هـ ومسيرها إلى الشرق الإسلامى[٨].

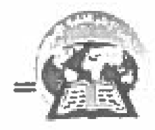
وتتابعت الحملات الصليبية بعد ذلك كما أشرنا على مدى عقود كثيرة بلغت سبع حملات فازت بأرقامها فى التاريخ على الرغم من ورود حملات أخرى كثيرة وفى سنوات متقاربة تخللت تلك الحملات المرقمة دون أن تفوز بأرقام فى التاريخ فاقتصرت الأرقام على الحملات المعروفة التى سطر المؤرخون أحداثها بالتفصيل فى مؤلفاتهم المعاصرة واللاحقة فضلاً

عن الحملة الثامنه على شمال إفريقيا كما أشرنا من قبل[٩].

وفيما يتعلق بالمدى الزمنى للحركة الصليبية والمرحلة التى استغرقتها الحروب الصليبية زمنياً، فعلى الرغم مما درج عليه بعض المؤرخين من تحديد المدى الزمنى لتلك الحركة بين سنة٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م التى حدثت فيها الدعوة للحملة الصليبية الأولى وسنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م السنة التى تم فيها طرد الصليبيين نهائياً من بلاد الشام[١٠]، فإن الواقع يؤكد أن لتلك الحركة جذوراً سبقت سنة ٤٨٩هـ/ ١٠٩٥م زمنياً وأن ثمة تيارًا صليبيًا استمر بعد سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م أى طوال القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى وشطر كبير من القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى؛ إذ لم تحدث الحروب الصليبية بطريقة فجائية وإنما سبقتها إرهاصات ومقدمات، ولم تنته أيضاً فى أواخر القرن الثامن الهجرى/ الثالث عشر الميلادى فجأة وإنما لحقتها توابع وملحقات استمرت إلى جزء من القرن التاسع الهجرى/الخامس عشر الميلادى[١١].

ما يعنينا أن الحملات الصليبية التى أرسلت إلى الشرق الأدنى الإسلامى التى فازت بأرقام فى التاريخ بلغت سبع حملات قصد أربع منها بلاد الشام وفلسطين[١٢] واثنتان توجهتا مصر[١٣]، وانحرفت واحدة عن مسارها وقصدت القسطنطينية[١٤] واستولت عليها لتنهى فى رأى كثير من المؤرخين فترة الحكم البيزنطى، فضلاً عن الحملة الثامنة التى قصدت شمال إفريقيا.

ولقد نجحت الحملة الصليبية الأولى التى خرجت من الغرب الأوروبى فى أواخر القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى فى تحقيق أهدافها واستولى الصليبيون على بيت المقدس سنة ٤٩٣هـ/ ١٠٩٩م وأسسوا المملكة الصليبية بعد أن أسس فرع آخر من هذه الحملة الإمارة اللاتينية الأولى فى أقصى شمال العراق والجزيرة وهى إمارة الرها سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م[١٥]، وفى نفس السنة نجح الصليبيون فى تأسيس الإمارة اللاتينية الثانية فى أنطاكية على الساحل الشامى[١٦] فغدا لهم فى أطراف العراق وبلاد الشام وفلسطين ثلاثة كيانات صليبية، ثم تتابعت الحملات الفرعية وتدفق المحاربون الفرنج على بلاد الشام وفلسطين للإسهام فى تلك الإنجازات بعد أن ذاعت أخبار انتصارات



الصليبيين ووصلت إلى أسماع الناس فى الغرب الأوروبى وذاعت أخبار نجاح الفرنج فى تأسيس المملكة الصليبية وكيانات صليبية أخرى فى الرها وأنطاكية فأحدث ذلك ارتياحًا عظيماً فى الغرب فتوالى تدفق المحاربين والإمدادات التى مكنتهم من تأسيس الكيان الصليبى الرابع ممثلاً فى إمارة طرابلس على الساحل الشامى(١٧) بعد نحو عشر سنوات من استقرارهم فى بيت المقدس.

تتابعت إنجازات الصليبيين فى الشرق منذ قدوم الحملة الصليبية الأولى مستغلين الأحوال المتردية فى العالم الإسلامى والشقاق بين القوى الإسلامية بسبب الخلافات المذهبية والعرقية بين السنة والشيعة وبين العرب والترك واحتدام التنافس بين الخلافتين العباسية والفاطمية، فضلاً عن بروز روح الاستقلال والانفصال عن هاتين الخلافتين وظهور إمارات إسلامية مستقلة لتزيد من ضعف الكيان الإسلامى(١٨) على حساب الوحدة والتماسك فى مواجهة الأخطار المحدقة التى ما لبثت أن هددت المسلمين جميعاً لتقتطع مساحات شاسعة من الأراضى الإسلامية فى بلاد الشام وأطراف العراق وفلسطين.

أما عن أسباب ودوافع الحروب الصليبية فقد ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن الحروب الصليبية لم تكن سوى استمرار لحركة الحج الجماعى إلى بيت المقدس مع حدوث تطور فى الأسلوب وهو أن الحج الجماعى صار حربياً بعد أن كان سلمياً قبل ذلك(١٩)، أى أن الحروب الصليبية فى رأى هذا الفريق من المؤرخين لم تكن سوى حج مسلح استهدف بها الأوربيون فتح الطريق إلى بلاد الشام وفلسطين بالقوة المسلحة ومحاولة إخضاع الأراضى المقدسة المسيحية للغرب الأوروبى وربط بيت المقدس بالبابوية والغرب الأوروبى(٢٠)، بعد أن راجت كثير من القصص المزعومة عن صعوبة وصول الحجاج الغربيين إلى فلسطين من ناحية – وسوء معاملتهم على أيدى المسلمين من ناحية أخرى، فضلاً عما ذاع فى الغرب الأوروبى كذباً من أن العرب المسلمين يسيئون معاملة المسيحيين فى الشرق ويسومونهم ألوان العذاب بل على حد قول البابا أوربان الثانى نفسه : "يذبحونهم ذبح الشياه"(٢١).

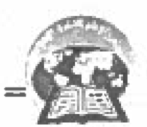
على أن بعض المؤرخين درجوا على ربط الحركة الصليبية بالعامل الدينى

مثل الكونت بول رايان الذى ذكر "أنها حروب دينية خالصة وأن دوافعها وأهدافها دينية بحته وأن مقصدها الأول والأخير هو استرداد قبر المسيح واستخلاص بيت المقدس من قبضة المسلمين[٢٢]، وذلك مجاراة لبعض المؤرخين المعاصرين الذين جعلوا السبب الدينى هو الذى أسهم فى قيام الحروب الصليبية خاصة قول روبرت الراهب وهو مؤرخ عاصر بداية الحروب الصليبية ووصفها بأنها "من عمل الله وليست من عمل الإنسان" [٢٣].

وانساق هذا الفريق من المؤرخين وراء مبالغات وأقوال عن سوء أحوال المسيحيون فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى، وما قيل من تعرضهم للاضطهاد وتخريب كنائسهم وأديرتهم وعما لاقاه حجاج بيت المقدس المسيحيون من عقبات ومن معاملة سيئة[٢٤]، على الرغم من أن هذه الأقوال بعيدة عن الحقيقة تماماً وليست سوى مزاعم وافتراءات لا أساس لها من الصحة، فالمعروف أن المسلمين اتصفوا طوال تاريخهم بالتسامح الجم فى تعاملهم مع الأقليات وتجاه أهل الذمة بصفة خاصة، وعاملوا هؤلاء معاملة كريمة وشملوهم بالرعاية ولم يحدث قط أن تعرض المسيحيون للاضطهاد بل عاشوا فى كنف الإسلام والمسلمين عيشة هادئة وتمتعوا فى ظل الإسلام بالحرية الدينية ومارسوا شعائرهم وحياتهم فى حرية تامة، بل وصل الأمر أحياناً ببعض الخلفاء أن تكفلوا بنفقات ترميم وتعمير كنائس المسيحيين وبيَعهم من أموالهم الخاصة[٢٥].

حقيقة قام الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله بهدم بعض الكنائس والاستيلاء على محتوياتها ومن بينها كنيسة القيامة ببيت المقدس، ولكن هذا الخليفة رجع عن ذلك وأجاز بعد فترة للنصارى إعادة بناء أماكن عبادتهم وذلك قبل وفاته سنة ٤١٢هـ /١٠٢١م ، ولم تكن أعماله تلك تمثل سياسة الإسلام فى تعامله مع المسيحيين، فضلاً عن أن هذا الخليفة كان معروفاً باضطرابه، وشاب أعماله كثيرٌ من التضارب ولا يصح اتخاذ سياسته فى سنوات قليلة دليلاً على تعصب المسلمين أو تعرض المسيحيين للاضطهاد فى البلاد الإسلامية[٢٦].

وأقرب إلى القول أن الجهاز الكنسى البابوى استغل العامل الدينى لإثارة الحماسة الدينية لدى أهل الغرب الأوروبى



تحقيقاً لأغراضه العديدة ومنها تطلع البابوية لمد سلطانها إلى كافة الأنحاء فى الغرب وفى الشرق على حد سواء، ومنها أيضاً القضاء على النفوذ الإسلامى فى الأراضى المقدسة، وكذلك التخلص من كبار رجال الإقطاع فى الغرب الذين ضايقوا البابوية وزاحموها فى فرض سلطانها على الغرب الأوروبى كله(٢٧).

وعلى الرغم مما ذاع من أن السبب الدينى هو السبب الرئيسى لتلك الحروب، أى أنها لم تكن إلا حروباً دينية سيطر الدين على مجرياتها، ولعب الدور الأول فيها، فإن هناك أسباباً أخرى لهذه الحروب كانت أهم بكثير من السبب الدينى الذى سرعان ما تلاشى وسط الأسباب الأخرى، وتعرى الصليبيون سريعاً عن هذا الرداء الزائف، وظهرت وجوههم الحقيقية منذ البداية ممثلة فى أسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية كانت أهم بكثير من السبب الدينى، وطغت هذه الأسباب على السبب الدينى الذى تعلل به فريق من المؤرخين القدامى والمحدثين(٢٨).

وفيما يتعلق بالأسباب الاقتصادية للحروب الصليبية فلا شك أن الأوضاع الاقتصادية فى الغرب الأوروبى تضررت كثيراً بسبب النظم الإقطاعية التى عاشتها البلدان هناك فى الغرب بعد أن اندلعت الحروب المحلية بين الأمراء الإقطاعيين، وأدى ذلك إلى تأثر التجارة وطرقها والزراعة وحقولها تأثراً شديداً؛ الأمر الذى ترتب عليه حدوث أضرار بالغة للاقتصاد الأوروبى ، فكانت الدعوة للحروب الصليبية فرصة للخروج من هذه الأوضاع السيئة وظروف الحياة الشاقة فى كثير من أنحاء الغرب الأوروبى ، فضلاً عن أن الزيادة السكانية التى شهدتها أوروبا إبان القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كانت من الأسباب التى حفزت أبناء الطبقة الإقطاعية للبحث عن أراض جديدة فى الخارج(٢٩)، والهروب من الحياة الشاقة وجعلت المغامرة فى الشرق أمراً جذاباً لأبناء الأسر الإقطاعية، وكذلك ضمت الجيوش الذاهبة إلى الشرق كثيراً من المعدمين والخارجين على القانون الذين اعتقدوا أنهم باشتراكهم فى تلك الحروب لن يخسروا شيئاً بذهابهم إلى الشرق إذ لم يكن ينتظرهم فى الغرب سوى الموت جوعاً أو قهراً تحت سيطرة السادة الإقطاعيين من جهة وسوء الأحوال الاقتصادية من جهة أخرى، بل ربما

تحسنت ظروفهم المعيشية فى الشرق[٣٠].

كما أسهمت المدن الإيطالية الكبيرة - جنوا وبيزا والبندقية وأمالفى - فى الحركة الصليبية بنقل الجيوش الصليبية إلى الشرق وكذلك نقل المؤن والزاد والعتاد إليها ومساعدة الصليبيين فى الاستيلاء على الموانى البحرية ببلاد الشام وتقديم العون للدفاع عما استولى عليه الصليبيون من مدن وموانىء أمام هجمات المسلمين، فلم تكن تلك المساهمة لوجه الدين ونصرة العقيدة وإنما جرياً وراء المصالح الاقتصادية الخالصة للفوز بأحياء تجارية فى بعض المدن واحتكار التجارة والإعفاء من الضرائب والمكوس وتحقيق مصالح اقتصادية وتجارية حتى لو تضاربت مع مصالح الكنيسة والصليبيين والبابوية[٣١].

أما عن الأسباب الاجتماعية للحروب الصليبية فيمكن فهمها فى ظل الظروف الاجتماعية التى عاشتها بلدان الغرب الأوروبى ، فقد عاش العبيد والأقنان عيشة قاسية فى ظل نظم الضيعة وحرموا من أبسط حقوقهم الإنسانية ولم تكن لهم ملكية خاصة لأن كل ما يجمعه القن يعتبر ملكاً للسيد الإقطاعى[٣٢] وعاش هؤلاء الأقنان فى أكواخ قذرة شيدوها من فروع الأشجار وغطوها بطبقة من الطين وليس بها أى أثاث[٣٣]. أما ملابسهم فكانت من جلود الحيوانات أو من صوف الأغنام ومصنوعة بطريقة بدائية رثة ، وكان عدد كبير منهم يموتون بسبب الأوبئة والمجاعات[٣٤]، وإذا أضفنا إلى ذلك التزامهم بكثير من أعمال السخرة والخدمة والخضوع لكثير من الضرائب والمقررات والاحتكارات أدركنا أن ذلك كله أسهم فى زيادة الذل والفقر والمهانة لتلك الطبقة المغلوبة على أمرها وهى الطبقة التى تمثل الغالبية من السكان[٣٥]. وحين بدأت الحروب الصليبية وجد هؤلاء البؤساء فيها فرصة للخلاص من الهوان الذى عاشوه فى ظل الإقطاع، وذلك يفسر لنا الاستجابة الشعبية الهائلة للاشتراك فى الحروب الصليبية فى ضوء الظروف الاجتماعية التى سادت الغرب الأوروبى كله فى ذلك الوقت[٣٦].

ويؤكد كثير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التى سادت فى بلدان الغرب الأوروبى كان لها الأثر الأكبر فى تحريك جموع الصليبيين إلى بلاد الشام وفلسطين، فضلاً عن الجهل الذى كان



لا يزال يبسط رداءه على المجتمع الريفى فى غرب أوروبا فى ذلك الوقت[٣٧]. وهكذا داعبت آمال عريضة وأطماع واسعة فى الثراء والجاه فريقاً من الصليبيين، بينما حركت الفريق الأعظم منهم الرغبة فى حياة أفضل وظروف اجتماعية أكرم أو الهروب من مشكلات اجتماعية أسوأ.

أما عن الأسباب السياسية للحروب الصليبية فقد شهدت الفترة الأخيرة من القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى حلقة من حلقات النزاع بين البابوية والإمبراطورية بسبب فكرة السمو والتفوق، وجَدَّت البابوية فى إثبات سموها وعلو مكانتها على الحكام العلمانيين، وأن البابا هو رأس العالم المسيحى يدين له كل الأمراء والحكام بالطاعة، وسعت البابوية للخروج منتصرة فى هذا الصراع مع الإمبراطورية وملوك الغرب الأوروبى[٣٨]، فبدأ كثير من حكام وملوك غرب أوروبا يعملون ألف حساب للبابوية وأسلحتها التى شهرتها فى وجه كل من يحاول الوقوف فى وجهها[٣٩].

ولهذا شارك معظم الحكام والملوك فى الحروب الصليبية إرضاء للبابوية وتجنباً للصدام معها وخوفاً على عروشهم وأملاكهم فى الغرب الأوروبى من أن تزلزل بفعل البابوية وأسلحتها لا سيما القطع الفردى من رحمة الكنيسة والقطع الجماعى لشعوب بأسرها[٤٠]. أما بالنسبة للأمراء فقد حركتهم الأطماع والمكاسب السياسية التى لم تتحقق فى ظل الظروف السياسية فى الغرب الأوروبى، ولهذا خرجوا لتحقيقها فى الشرق حيث الأراضى والضياع الواسعة التى يمكن أن تحقق تلك الأطماع السياسية لإقامة إمارات بل ممالك ثابتة بين ظهرانى المسلمين[٤١]، والدليل على ذلك أن بعض أمراء الحركة الصليبية الأولى نجحوا فى إقامة إمارات لهم فى أطراف العراق على الساحل الشامى قبل الوصول إلى بيت المقدس فتقاعسوا عن نصرة إخوانهم الصليبيين الذاهبين إلى بيت المقدس ورفضوا السير معهم لتحقيق الغرض الذى خرجت من أجله الجيوش الصليبية إلى الشرق وهو الاستيلاء على الأراضى المسيحية المقدسة فى فلسطين وربطها بالغرب الأوروبى[٤٢]، وهذا دليل واضح على أن الأطماع السياسية كانت هى المحرك الأساسى لدى فريق كبير من أمراء الحملة الأولى وفرسانها وكثيراً ما ربط التحالف بين أمراء صليبيين

وحكام وقوى إسلامية ضد فريق آخر من الصليبيين، وتكرر ذلك كثيراً خلال عصر الحروب الصليبية لأن الأمراء حرصوا على مصالحهم الذاتية ولم يعد يهمهم شيء آخر غير ذلك[٤٣].

وهكذا تناولنا فى هذا الموضوع مصطلح الحروب الصليبية والتعريف بها وكذلك النطاق الزمانى والمكانى للحروب الصليبية وأسباب تلك الحروب، أما عن كيفية استرداد المسلمين لأراضيهم من أيدى الصليبيين وطردهم نهائياً من الشرق قرب أواخر القرن السادس الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، فبعد نجاح الصليبيين فى إقامة مملكتهم فى الأراضى المقدسة المسيحية وكياناتهم الأخرى فى أقصى شمال العراق والجزيرة وسواحل بلاد الشام، وبعد أن مضت سنوات كثيرة تعرض خلالها المسلمون لمحن على أيدى هؤلاء الغزاة ، بدأ المسلمون فى الإفاقة بعد سقوط كثير من أراضيهم فى أيدى الصليبيين، فبدأت مرحلة جديدة لطرد الصليبيين واسترداد الأراضى الإسلامية منهم، وبدأت مرحلة الجهاد الدينى المقدس ضد الصليبيين وجرى وضع دعائم الجبهة الإسلامية المتحدة على أثر هذه الإفاقة من الصدمة الأولى وتنبه المسلمون إلى نتائج انقسامهم وأدركوا مغبة التناحر بينهم لذلك تكللت جهودهم وجهادهم بالنجاحات، فبدأ المسلمون باسترداد إمارة الرها من الصليبيين سنة ٥٣٩هـ= ١١٤٤م على يد عماد الدين زنكى من بعد نحو نصف قرن من بداية الحركة الصليبية[٤٤]. فكان استرداد أولى الإمارات التى اغتصبها الصليبيون بداية الإفاقة الإسلامية ونتيجة من نتائج بروز الجبهة الإسلامية والوحدة الإسلامية التى جمعت حينئذ شمال العراق والشام والتى جد المسلمون فى إكمالها وتدعيم كيانها زمن السلطان صلاح الدين الأيوبى لتخط هذه الجبهة صفحة جديدة فى الجهاد الإسلامى ضد الصليبيين ويسترد المسلمون مدينة بيت المقدس من أيدى الصليبيين سنة٥٨٣هـ /١١٨٧م بعد معركة حطين التى أنزل فيها المسلمون هزيمة قاسية بالصليبيين استردوا على أثرها جانباً كبيراً من الأراضى المقدسة[٤٥] لتنهار بعد ذلك المملكة الصليبية بعد نحو قرن من بداية الحروب الصليبية ومن الحملة الصليبية الأولى[٤٦].

ثم استمر المد الإسلامى حتى بعد انتهاء الدولة الأيوبية وظهور دولة المماليك

البحرية في مصر والشام، إذْ نجح السلطان الظاهر بيبرس في استرداد مدينة أنطاكية من أيدي الصليبيين سنة ٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م وهي ثاني إمارة صليبية أقامها الفرنج في الشرق سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٨م، فجاء استرداد المسلمين لهذه الإمارة دليلاً على انهيار البناء الذي شيده الصليبيون في الشرق منذ أواخر القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أي أن استرداد المسلمين لأنطاكية سنة٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م كان خطوة هامة في القضاء على بقايا الوجود الصليبي في الشرق(٤٧)، ومثَّل ثالثَ ضَرْبةٍ قاصمة لذلك الكيان الذي بدأ يترنح ويتهاوى ليسقط نهائياً بعد فترة قصيرة، كما أكد هذا الحدث نجاح الوحدة الإسلامية واستمرار روح الجهاد الإسلامي والرغبة الإسلامية في تطهير الشرق من بقايا الصليبيين وتتابع إنجازات الجبهة الإسلامية المتحدة ضد ذلك العدو المغتصب وذلك باسترداد الرها ثم بيت المقدس ثم أنطاكية، ولم يبق بعد ذلك سوى إمارة طرابلس ومدينة عكا التي كانت من بقايا المملكة الصليبية التي هدمها صلاح الدين الأيوبي(٤٨).

ثم ما لبث السلطان المنصور قلاوون أن استرد مدينة طرابلس من الصليبيين في إبريل سنة١٢٨٩م /ربيع الثاني ٦٨٨هـ بعد أن حشد جيشًا كبيرًا بلغ قوامه على حد قول الروايات نحو أربعين ألف فارس ومائة ألف من المشاة، وألقى الحصار على المدينة في فبراير من ذلك العام، فلم يفد الصليبيين ما قاموا به من استعدادات وما أبدوه من مقاومة، إذ ما لبثت المدينة أن سقطت في أيدي المسلمين في أواخر إبريل من ذلك العام(٤٩)، بل قام السلطان قلاوون بتخريب طرابلس القديمة ودمر أسوارها وأقام طرابلس الجديدة بجوار النهر الحصين إلى الداخل قليلاً حماية لها من أية إغارات(٥٠).

ثم تهاوت بعد ذلك مراكز ومدن إمارة طرابلس، فاستولى المماليك على بيروت وجبلة ولم يبق للصليبيين بعد ذلك سوى مدينة عكا وبعض المدن القليلة، ولذلك نهض السلطان الأشرف خليل بن قلاوون وحشد قواته بعد وفاة السلطان قلاوون سنة٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م وألقى الحصار على عكا في ربيع الثاني ٦٨٩هـ/ إبريل سنة ١٢٩١ ثم اقتحمها في جمادى الأولى في مايو من نفس العام(٥١)، فمثَّل سقوط هذه المدينة انتهاء الوجود الصليبي الفعلي في بلاد الشام بعد نحو قرنين من الزمان

اغتصب فيها الصليبيون أراضى ليست لهم وأقاموا فى بلاد ليست بلادهم[٥٢].

بقيت نقطة أخيرة قبل أن نطوى الحديث عن الحروب الصليبية وهى أنه لا صحة لما جرى عليه العرف من تحديد الحملات الصليبية التى خرجت من الغرب إلى الشرق فى تلك الفترة بثمانى حملات إذ لم يمر عام واحد بعد وصول الحملة الصليبية الأولى إلى الشام سنة ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م دون مجئ جموع صليبية جديدة، وبعض هذه الجموع فاقت فى كثرتها أحيانا وفى أهمية ما حققته من نجاح الحملات الصليبية التى فازت بأرقام فى التاريخ. أما تلك الحملات التى فازت بأرقام فى التاريخ فقد اتجهت – كما سبق أن أشرنا – أربع منها نحو بلاد الشام وهى: الأولى والثانية والثالثة والسادسة، واثنتان ضد مصر هما: الخامسة والسابعة وواحدة ضد القسطنطينية هى الرابعة، والأخيرة نزلت بشمال إفريقيا وهى الثامنة[٥٣]. وعلى كل حال مثلت هذه الحملات كما مثل عصر الحروب الصليبية كله حلقة ناشطة فى العلاقات بين الشرق والغرب وكان له دور عظيم فيما حدث من مؤثرات هنا وهناك، فقد أسفر هذا العصر عن امتزاج واتصال بين حضارة الشرق وتراث الغرب، وكان الفضل الأعظم للحضارة الإسلامية فى التأثير فى الغرب الأوروبى حضارياً وسياسياً وثقافياً واجتماعياً، إذ أن الحروب الصليبية قد أسهمت فى نقل كثير من المؤثرات العربية الإسلامية إلى الغرب الأوروبى فى العصور الوسطى[٥٤].

أ.د/محمد محمد مرسى الشيخ

الهوامش:

(١) Holt: The Age of the Crusades, p. ix, p. 104 .

(٢) Riley – Smith (ed): The Crusades, pp. 49 – 53.

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٤.

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ (بيروت ١٩٦٧) ج ٨ ص ١٨٥ ، أسامة بن منقذ: الاعتبار ص ٢٦ (تحقيق السامرائى)، ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق (القاهرة) ص ١٣٤ ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٤١ (تحقيق الشيال). أبو شامة: كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين (تحقيق محمد حلمى أحمد ١٩٥٦) ج ١ ص ٦٥ .

(٥) فوشيه دى شارتر: تاريخ الحملة إلى القدس ص ٤٠ (ترجمة زياد العسلى).

وليم الصورى: الحروب الصليبية ج ١ ص ١٦٩ (ترجمة سهيل زكار).

(٦) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٣.

(٧) Riley- Smith (ed): op. cit. pp. 49 – 53.

قاسم عبده قاسم: الخلفية الأيديولوجية للحروب الصليبية، ص ١١٠.

(٨) Michaud: Histoire des Croisades, I, pp. 92 – 4.

(٩) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦. وانظر أيضًا:

Stevenson: The Crusades in the East, p. 3.

(١٠) Holt: op. cit. p. ix, p. 104.

(١١) Jorga: Breve Histoire des Croisades, pp. 1-3 (Paris 1924).

محمد الشيخ: عصر الحروب الصليبية فى الشرق ص ٣٦ – ٣٧.

(١٢) الحملات: الأولى والثانية والثالثة والسادسة.

(١٣) الحملة الخامسة والحملة السابعة.

(١٤) هى الحملة الرابعة.

(١٥) Riley- Smith (ed): op. cit. p. 12.

(١٦) Gronsset: Histoire des Croisades, I, p. 96.

محمد الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين ص ١٢٦.

(١٧) وليم الصورى: الحروب الصليبية ج ٢ ص ٢٨٠ (ترجمة د. حسن حبشى).

فوشيه الشارترى: تاريخ الحملة ص ١٤٥ (ترجمة زياد العسلى).

(١٨) ابن خلدون: العبر ج ٤ ص ٣٥٥.

ابن الأثير: الكامل ج ٥، ص ٢٣٤، Camb. Med. Hist. vol.5, p. 245

Canard: Histoire de la Dynastie des Hamdanides, pp. 599 – 600.

(١٩) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٣ – ٢٤.

Setton: A Hist. of the Crusades, vol. I, p. 76.

(٢٠) Michaud: Historie des Croisades, I, pp. 92 – 4.

(٢١) Chalandon: Histoire de la premiere Croisade, pp. 37 – 41.

(٢٢) Raint: Inventaire des Lettres Historiques des croisades, (archives de L'orient Latin), I, p. 22.

(٢٣) Guibert of Nogent: Historia, pp. 123 – 5.

Arnold: The Crusades, p. 54.

جوزيف نسيم يوسف: الإسلام والمسيحية وصراع القوى بينهما فى العصور الوسطى ص ١٨٨.

(٢٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٨.

(٢٥) أبو صالح الأرمنى: تاريخه ص ٣٥ – ٣٦.

تريتون: أهل الذمة فى الإسلام ص ٥٦ (ترجمة وتعليق د. حسن حبشى ١٩٦٧).

(٢٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ أحداث سنة ٣٩٨هـ.

أبو صالح الأرمنى: تاريخه ص ١٤٢ – ١٤٧.
ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٣١٣ (ط بيروت).
المقريزى: الخطط ج ٢ ص ٤٨٧ – ٤٩٤.
(٢٧) جوزيف نسيم: المرجع السابق ص ١٨٩ – ١٩٠.
(٢٨) أنتونى بروج: تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠ (ترجمة أحمد غسان ونبيل الجيرودى).
باركر: الحروب الصليبية ص ٢٢.
(٢٩) قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية ص ١٠٠ – ١٠٢.
(٣٠) Cantor: Medieval History, p. 322.
(٣١) Heyd: Histoire de Commerce, pp. 131 – 3.
(٣٢) كولتون: عالم العصور الوسطى ص ٧٨ (ترجمة د. جوزيف نسيم).
(٣٣) Rowling: Everyday life in Medieval times, p. 23.
(٣٤) Mayer: The Cursades, p. 22.
(٣٥) Painter: Western Europe on the Eve of the Crusades, p.8
هلستر: أوربا فى العصور الوسطى ص ١٤٧ (ترجمة محمد فتحى الشاعر).
(٣٦) Camb. Med. Hist. vol. 2, p. 722.
(٣٧) باركر: الحروب الصليبية ص ٢٢.
(٣٨) La Monte: The World of the Middle Ages, pp. 258 – 60.
(٣٩) Brooke: A History of Europe 911 – 1198, p. 185.
(٤٠) Camb. Med. Hist. vol. 6, p. 146.
(٤١) Reley, Smith (ed): The Crusades, pp. 42 – 5.
(٤٢) Ibid. p. 12.
(٤٣) Grousset: Histoire des Croisades, 111, p. 45.
Stevenson: op. cit. p. 323.
(٤٤) محمد الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها ص ٣٦٥ وما بعدها.
(٤٥) ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ١٩٣.
Grousset: Histoire des Croisades, II, p. 799.
(٤٦) أبو شامة: الروضتين ج ٢ ص ٧٨ – ٧٩.
(٤٧) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 264.
(٤٨) Runciman: op. cit. iii, p. 407 – 8.
(٤٩) Grousset: op. cit. III, p. 749.
Stevenson: op., cit. p. 350.
المقريزى: السلوك ج ١ ص ٧٤٧، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٢١.
(٥٠) King: The Knights Hospitallers in the Holy Land, p. 289.
(٥١) المقريزى: السلوك ج ١ ص ٧٦٤ – ٧٦٥.
(٥٢) محمد الشيخ: عصر الحروب الصليبية فى الشرق ص ٥٣٥.
(٥٣) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ج ١ ص ٢٦.
(٥٤) Longnon: Les Francais d'Outremer au Moyen Ages, p. 103 (Paris 1929)
وانظر أيضاً عبد المنعم ماجد: العلاقات بين الشرق والغرب ص ٢١٩.

مصادر ومراجع للاستزادة

- د. سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية.
- د. قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية.
- د. محمد مرسى الشيخ: عصر الحروب الصليبية فى الشرق
- عز الدين بن الأثير: الكامل فى التاريخ.
- أبو المحاسن بن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.

حصن بابليون

تعريف (بَابلِيُون) عند ياقوت[1] :

ضبط ياقوت هذه اللفظة بالحروف قائلا: « الباء الثانية مكسورة ، واللام ساكنة، وياء مضمومة، وواو ساكنة، ونون»[2].

ثم عرّفها بقوله : « اسم عامّ لديار مصر بلغة القدماء، وقيل : هو اسم لموضع الفسطاط خاصة".

حول تاريخ إنشاء الحصن:

قال المؤرخ ابن عبد الحكم، نقلا عن الليث بن سعد: أسست الفرس بناء حصن بابليون بفسطاط مصر . أى : بالناحية التى أقيمت بها مدينة الفسطاط - فلما انكشفت جيوش الفرس عن الروم، وأجلتهم الروم عن الشام ومصر قام الروم بإتمام بناء ذلك الحصن، وظلت مصر خاضعة لهم حتى الفتح الإسلامى[3].

يرى المستشرق " بتلر " أن الإمبراطور الرومانى (تراجان) أتى بنفسه إلى مصر سنة ١٠٠م، وبنى بها هذا الحصن، وجعل فيه قلعة منيعة قوية مزودة بمياه كثيرة ؛ حفاظًا عليه من ثورات الثائرين المعادين لحكمه[4].

أهميتـه :

يذكر المقريزى أن بقايا الحصن تعرف بـ (قصر الشمع) ، وبـ (الكنيسة المعلقة) ، وبه كان ينزل حاكم مصر من قبل ملوك الروم، إلى أن يعود لمقره الرئيسى فى العاصمة (الإسكندرية).

وقد كان مطلاً على نهر النيل، وتصل السفن فى النيل إلى الباب الغربى منه (باب الحديد) الذى منه ركب المقوقس سفينة ، توجه بها إلى جزيرة الروضة المواجهة للحصن، وذلك بعد تغلب المسلمين على الحصن ، الذى كان يجاوره مقياس النيل[5].

بناؤه ومحتواه :

استعمل فى بناء ذلك الحصن أحجار جلبت من معابد فرعونية ، وأتموا بناءه بالطوب الأحمر(مقاس١٥، ٢٠، ٣٠سم)، وتبلغ مساحة ذلك الحصن الرومانى حوالى نصف كيلو متر مربع، ولم يبق من مبانيه سوى الباب القبلى، يحيط به برجان كبيران، حيث بنى فوق أحد البرجين- بالجزء القبلى منه - الكنيسة المعلقة ، وبنى فوق البرج الآخر – عند مدخل المتحف القبلى – كنيسة منها: المعلقة، وأبو سرجة، ومار جرجس، والعذراء[6].



حول مصطلح (قصر الشمع) :

تناول ياقوت ، والمقريزى (نقلاً عن القضاعى) هذا المصطلح ، وأوضح ياقوت أنه كان فى موضع الفسطاط من مصر قبل تأسيس المسلمين لها [٧]. وقد بدأ الفرس بناءه بعد تغلبهم على الروم ، وتملكهم مصر والشام، وجعلت الفرس فى هذا القصر هيكلاً لبيت النار، ثم إنهم لم يتموا بناء الحصن – كما بينت من قبل – وأتمته الروم . وهيكل النار هو القبة المعروفة فيه بقبة الدخان[٨]. ويفسر المقريزى تسميته بـ (قصر الشمع) – نقلاً عن الواقدى - بأن هذا القصر كان يوقد عليه الشمع فى رأس كل شهر عندما تحل الشمس فى برج من الأبراج، فيعلم الناس أن الشمس انتقلت من البرج الذى كانت فيه إلى برج آخر غيره [٩].

ولبتلر رأى آخر فى تعليل تلك التسمية ، لعله الأقرب إلى المنطق ، وهو أن الصروح العالية كانت تتخذ فى وقت الحروب مراقب ترسل منها الإشارات عن طريق منارات توقد فيها النيران[١٠].

وينقل المقريزى عن القضاعى: أن القصر المعروف بـ (باب ليون) يقع فى ظاهر الفسطاط، ويعنى : باب (قصر) ؛ لأن ليون معناها مصر بلغة السودان والروم. وقد بقيت من بنائه بقية مبنية بالحجارة على طرف الجبل بـ (الشَّرف)[١١].

ومعنى ذلك – كما يفهم المقريزى – أن قصر باب إليون غير قصر الشمع؛ فالأخير داخل الفسطاط، والأول خارجها [١٢].

ويميل بتلر إلى الرأى السابق ، حيث يرى أن اسم الحصن (قصر الشمع) ، ويضيف جديدًا. وهو أن اسم (بابليون) يطلق على دير صغير على مسافة قليلة من الحصن نحو الجنوب، وهو (دير بابليون) [١٣]. وعلى كل، فقد شاع اسم (حصن بابليون) فى مصادرنا ومراجعنا التاريخية.

فتح حصن بابليون :

بعد نجاح المسلمين بقيادة عمرو بن العاص ﷺ فى فتح (أم دنين)، و(عين شمس) اتجه جيش المسلمين صوب (حصن بابليون) ، الذى يمثل الاستيلاء عليه إنجازًا بالغ الأهمية؛ إذ يفتح الطريق نحو العاصمة (الإسكندرية) بعد الإيقاع بعدد من الحصون الموصلة إليها.

نظرًا لما تقدم عزز البيزنطيون قواتهم بقيادة " تيودور"، وتحت إشراف المقوقس حاكم مصر الدينى والمدنى من قبل هرقل. وكان الحصن محاطًا بأسوار يبلغ سمكها ثمانية عشر قدما، ومحيطها على شكل مربع غير منتظم، ومقدار

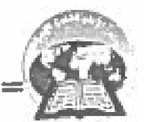
ارتفاعها نحو ستين قدما، إضافةً إلى جريان مياه النيل تحت أسوار الحصن، والسفن ترسو هنالك[١٤]، ومما زاد الحصن مناعة وجود جزيرة الروضة الحصينة وسط النهر تملك زمامه، وتحصن بها الروم مدة، ولما طال حصارها هربوا منها، وخرب عمرو بعض أسوارها وأبراجها، وكانت الأسوار محيطة بها، وظلت خرابًا حتى أعاد أحمد بن طولون بناء أسوارها سنة ٢٦٣هـ/٨٦٧م، وقام بتحصينها وأحرز بها حريمه وأمواله[١٥].

حشد الروم قادتهم وجنودهم وأسلحتهم ومؤنهم داخل الحصن للدفاع عنه، ومقاومة حصار المسلمين، ونثروا قطع الحديد المدببة الشائكة فى طريق المهاجمين، وحفروا خندقًا حول الحصن، وجعلوا له أبوابًا [١٦]، وقد أغرق الخندق بالمياه وقت الفيضان، فانتظر المسلمون حتى انحسرت مياه الفيضان. وقد ساعد تأخر وصول المدد إلى الروم، المسلمين، وشرعوا فى محاصرة الحصن بدءًا من رمضان سنة ١٩هـ / سبتمبر ٦٤٠م[١٧].

وبعد شهر من الحصار فر المقوقس وكبار رجاله إلى جزيرة الروضة تحت حماية من الجند، وقطعوا الجسر الموصل إليها؛ حتى لا يلحق بهم أحد، وبعدها لحق به قائد الحصن (الأعيرج)، وبعض الأشراف.

أرسل المقوقس إلى عمرو رسالة تهديد ووعيد، وطالبه بإرسال رجل يفاوضه قبل مجىء جموع الروم، ويبدو أن المفاوضات لم تنجح فتم الاتفاق على مجىء وفد من قبل المقوقس إلى المسلمين، فأجل عمرو لقاءهم مدة ؛ حتى يقفوا بأنفسهم على أخلاق المسلمين وقوتهم، ثم عرض عليهم اختيار إحدى ثلاث خصال: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب.

لما رفض المقوقس مطالب المسلمين، تجددت المفاوضات ثانية، فأرسل عمرو وفدًا بقيادة (عبادة بن الصامت) ﷺ فحاور المقوقس طويلاً، مظهرًا نقاء وأصالة وسمو المسلمين، ورقى أهدافهم، وحرصهم على الشهادة، وزهدهم فى دنيا الناس[١٨]. وقد أثر هذا فى معنويات المقوقس، وحاول إقناع القادة بالصلح ودفع الجزية، لكنهم لم يقبلوا مدة شهر من الحصار، ثم عقد صلح رفضه هرقل؛ فظل المسلمون يحاصرون الحصن، ثم قاموا بالهجوم عليه، حيث نجح الزبير بن العوام، ومحمد بن مسلمة، ومالك بن أبى سلسلة السلامى فى صعود سور الحصن عن طريق سلم متحرك، وقابلهم من



الجهة الأخرى شرحبيل بن حُجيَّة المرادى عن طريق سلم آخر من ناحية زقاق الزمامرة، وتم التعامل مع الحراس، والنزول داخل الحصن وفتح أبوابه، وتتابع جنود المسلمين داخل أرجائه، وذلك بعد حصار دام سبعة أشهر[١٩].

معاهدة بابليون :

هذا، وقد نصت معاهدة بابليون بين عمرو بن العاص والمقوقس على البنود الآتية[٢٠]:

١- فرض الجزية على القبط : بجميع نواحى مصر (أعلاها وأسفلها)؛ شريفهم ووضيعهم على كل رجل منهم دَفْعُ دينارين كل عام ، على أن يعفى من الجزية الشيخ الكبير، والصغير دون الحلم، والنساء، والرهبان الذين يتفرغون للعبادة.

٢- قيام القبط بواجب الضيافة نحو المسلمين النازلين عليهم مدة ثلاثة أيام .

٣- للقبط أرضهم وأموالهم، لا يعرض لهم فى شىء منها.

ملاحظة :

وتجدر الإشارة إلى أن هذه المعاهدة عقدت - على الراجح - بعد شهر من الحصار (أى : فى حوالى شهر شوال سنة ١٩هـ/ أكتوبر سنة ٦٤٠م)، وأوضح المقوقس أنها خاصة بالقبط، ووعد بعرض نصوصها على الروم، فمن وافق منهم لزمته، ومن أراد الخروج عن مصر خرج، وأعلن أنه مرسل وثيقة المعاهدة إلى هرقل، فإن وافق سرت أحكامها على الروم وإلا فلا. وكانت النتيجة أن هرقل رفض بنودها، ووبخ المقوقس وعنفه، واتهمه بالتخاذل؛ إذ لم يقو – بمن معه من الروم – على إلحاق الهزيمة بالمسلمين[٢١]، وتذكر بعض المراجع [٢٢]، أنه استدعاه ونفاه ؛ جزاء ما قدمت يداه. ولم يمهل القدر المقوقس طويلاً؛ إذ مات فى صفر سنة ٢٠هـ / الحادى عشر من فبراير سنة ٦٤١م،[٢٣]، فأضعف ذلك الروم، وفت فى عضدهم، وانقسموا على أنفسهم، وانهارت معنوياتهم، واستسلموا بعد طول الحصار ودخول المسلمين الحصن، ونفذت المعاهدة المعقودة من قبل، وتم تسليم الحصن فى ربيع الآخر سنة ٢٠هـ / التاسع من إبريل سنة ٦٤١م[٢٤]، وهو المعروف بـ (تاريخ فتح مدينة مصر) .

فى أعقاب معاهدة بابليون:

١- بعد الاتفاق النهائى على المعاهدة، تم إخلاء الحصن من الجند خلال ثلاثة أيام. مع تأمينهم على أرواحهم ، ونزول الجند لحمل ما يلزمهم من قوت لبضعة أيام، وبخصوص الذخائر وآلات الحرب، فقد استولى عليها المسلمون، وتم فرض

الجزية على أهل المدينة[٢٥].

٢- حلف عرفاء الناس بالأيمان المؤكدة على الالتزام بما اتفقوا عليه، وتم إحصاء من فى مصر من القبط ممن تجب عليهم الجزية، فبلغوا ستة ملايين حُصِّل منهم اثنا عشر مليونًا[٢٦].

خاتمـــــة :

بعد أن استعرضنا – باختصار وتركيز – ما يتصل بتعريف (بابليون) ، وتاريخ إنشائه، وأهميته، وبنائه ومحتوياته، وتحرير مصطلح (قصر الشمع)، ووقائع فتح المسلمين له، ونصوص معاهدته ، وما ترتب عليها نختتم بقولنا : يقع حصن بابليون - الآن - فى منطقة الفسطاط (مصر القديمة) فى القاهرة بالمنطقة التى تضم عددًا من الآثار القبطية، قريبًا من جامع (عمرو بن العاص) عند محطة مترو الأنفاق المعروفة بـ (مار جرجس) .

أ. د/عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح

الهوامش :

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان ، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندى، طبعة دار الكتب العلمية –بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج ١، ص ٣٧٠ (رقم ١٢٦٩) .

(٢) رسمها محمد رمزى بطريقة مختلفة هكذا (باب أليون) ، وجعلها مساوية لـ (بابليون)، وذكر أنها قرية بمصر، وقعت بها وقعة فى أيام الفتوح. (محمد رمزى. القاموس الجغرافى للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥م، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، القسم الأول ص ١٣٨) .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق : تورى ، ليدن ١٩٢٠م ، ص ٣٤- ٣٥.

(٤) بتلر : فتح العرب لمصر ، تعريب: محمد فريد أبى حديد، سلسلة تاريخ المصرين (رقم ٢٧)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩م، ج١، ص ٢١٤.

(٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، د . ت ، ج ١، ص ٢٨٦ .

(٦) الشبكة القومية للمعلومات (الإنترنت) على موقع (جوجل) ، موسوعة لوكوبيديا.

(٧) ياقوت : معجم البلدان، ج٤، ص ٤٠٦ (رقم ٩٦٨٣) .

(٨) المصدر السابق : ج ٤، ص ٤٠٦ - ٤٠٧ (رقم ٩٦٨٣)، والمقريزى، الخطط، ج ١، ص ٢٨٧.

(٩) المصدر السابق: ج ١، ص ٢٨٧.

(١٠) بتار : فتح العرب لمصر، ج ١ ، ص ٢١٦.

(١١) الشرف : قرية بمصر ، ينسب إليها على بن إبراهيم الشافعى الفقيه المتوفى سنة ٤٠٨هـ، (السمعانى) : الأنساب ، تحقيق : عبد الله البارودى. دار الجنان - بيروت ١٩٨٨م، ج ٣، ص ٤١٧. ولم يحدد ياقوت – أيضًا – المكان بدقة، واكتفى بقوله : موضع بمصر. (معجم البلدان ، ج ٣، ص ٣٨١، رقم ٧٠٦٧).

(١٢) المقريزى : الخطط، ج ١، ص ٢٨٧- ٢٨٨.

(١٣) فتح العرب لمصر، ج ١، ص ٢١٥.

(١٤) المرجع السابق: ج١، ص . ٢١- ٢١١ .

(١٥) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت ، د . ت ، القسم الأول ص ١٠٩، وفتح العرب لمصر، ج ١ ص ٢١٣.

(١٦) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تحقيق : محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية – بيروت ، ج١، ص ١٣ .

(١٧) بتلر: فتح العرب لمصر، ج ٢، ص ٤٨٦ .

(١٨) ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها، ص ٦٥- ٦٩ .

(١٩) المصدر السابق: ص ٦٣- ٦٤ .

(٢٠) السابق نفسه : ص ٧٠ .

(٢١) السابق نفسه : ص ٧٠- ٧١ .

(٢٢) بتلر : فتح العرب لمصر: ج ١ ، ص ٢٣٥ .

(٢٣) هارولد إدرس بل: الهلينية فى مصر، ترجمة: زكى على : دار المعارف، د . ت، ص ١٧٦ .

(٢٤) بتلر : فتح العرب لمصر، ج ٢، ص ٤٨٦ .

(٢٥) يوحنا النقيوسى: تاريخ مصر، ترجمه من الحبشية: د . عمر صابر عبد الجليل، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية ، ص ٢٠٤، بتلر : فتح العرب لمصر، ج ١ ، ص ٢٣٧- ٢٣٨ .

(٢٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر ص ٧٠. وراجع ما ورد عن وثيقة صلح بابليون لدى الطبرى فى : تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق : محمد أبى الفضل إبراهيم، ط ٥، دار المعارف بالقاهرة ١٩٨٧م، ج ٤، ص ١٠٩، وتعليق د. سيدة كاشف فى (مصر فى فجر الإسلام من الفتح الإسلامى إلى قيام الدولة الطولونية). طبعة دار الفكر العربى ١٩٤٧، ص ١٨- ١٩، وكتابى: المسلمون فى مصر من الفتح الإسلامى حتى نهاية العصر الفاطمى، طبعة دار الهانى ٢٠٠٩م، ص ٦٣، وقد رجحت أن المبلغ المذكور (اثنا عشر مليون قيراط لا دينار) .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. سير الآباء البطاركة، لساويرس بن المقفع.

٢. حسن المحاضر فى تاريخ مصر والقاهرة، للسيوطى.

٣. الكنائس القبطية القديمة فى مصر، لبتلر.

٤. فتح العرب لمصر، لبتلر، تعريب محمد فريد أبى حديد.

حطين موقعة

(٥٨٣ هـ-١١٨٧م)

تعتبر واقعة حطين من أهم وأعظم المعارك التى وقعت بين المسلمين والصليبيين حتى أن ابن واصل ليقول عنها: (مفتاح الفتوح الإسلامية). [١] ولا غرو؛ فقد كانت سببًا وطريقًا إلى فتح بيت المقدس وإنهاء الوجود الصليبى؛ إذ ((غدت فلسطين عقب حطين فى متناول صلاح الدين، فشرع يفتح البلاد والمدن واحدة بعد أخرى حتى توج ذلك بتحرير بيت المقدس)) [٢].

أسباب المعركة:

ترجع هذه المعركة لأسباب عديدة بعضها مباشر والآخر غير مباشر، فمن النوع الثانى عربدة القوى الصليبية فى المنطقة؛ فبعد أن استولت على البلاد الساحلية فى الشام عملت على الوصول إلى الحجاز والعبث بقبر النبى ﷺ على نحو ما كان يأمل (أرناط) الذى بنى السفن (ورتب المراكب وشحنها بالرجال والآلات للقتال... ثم توجهوا إلى أرض الحجاز... فعظم البلاء وأعضل الداء وأشرف أصل المدينة النبوية منهم على خطر) [٣]، لولا أنْ نَصرَ اللهُ المسلمين عندما أرسل الملك العادل بمصر من يحول بين هذه السفن وما أرادت فكان نصرا مؤزرًا فى عام ٥٧٨هـ/١١٨٢م. أيضًا كان من الأسباب غير المباشرة شعور الصليبيين بأن الأرض أصبحت تهتز من تحت أقدامهم بعد أن نجح صلاح الدين فى توحيد الجبهة المصرية السورية، فَطُوِّقُوا من الشمال والجنوب وهو ما عبر عنه ابن واصل بقوله: ((إن الفرنج... لما تحققوا باجتماع كلمة المسلمين وجاءهم ما لا يعهد لهم مثله، اجتمعوا واتفقوا... وحشدوا وجمعوا جموعهم)) [٤].

السبب المباشر:

يرجع السبب المباشر لهذه الموقعة إلى غدر (أرناط) ونقضه للهدنة القائمة بين الفريقين والتى كانت مدتها أربع سنوات بدءًا من عام ٥٨١هـ/ ١١٨٥م فقام فى عام ٥٨٣هـ ١١٨٧م بالانقضاض على قافلة للمسلمين أثناء سيرها من مصر إلى الشام، ثم تمادى فى غيه ورفض إطلاق سراحها. وقد وصف العماد الأصفهانى فعلة أرناط هذه وطبيعته الغادرة بقوله: ((كان أغدر الفرنجة وأخبثها وأنقضها

للمواثيق المحكمة وأنكثها.. وقطع الطريق وأخاف السبيل، ووقع على قافلة فاجتاحها واستباحها)) [٥].

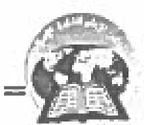
فلم يكن أمام صلاح الدين بد من قتله وقتال المتحالفين معه، فعمل على تجهيز جيوشه وتعبئتهم، والتى جاءته من مصر وحلب والجزيرة وديار بكر، ثم خرج بهم لقتال الصليبيين عند حصن الكرك والشوبك، واصطدم بهم عند بلدة صفورية، وكان عدد الصليبيين خمسين ألفًا على ما يذكره ابن واصل[٦]. وقد انتصر المسلمون انتصارًا ساحقًا حتى ((عد باكورة البركات)) [٧].

وقد حاول الصليبيون بعد ذلك توحيد صفوفهم، وهنا ظهرت براعة السلطان صلاح الدين، فقرر ألا يتقدم نحو الصليبيين لمقاتلتهم، واختار أن يستدرجهم؛ ليسيروا نحوه، فيصلوا إليه منهكين من طول الطريق وحرارة الجو، وقلة الماء، واكتفى صلاح الدين بمهاجمة طبرية؛ الأمر الذى استثارهم وقالوا: ((لا قعود لنا بعد اليوم، وإذا أخذت طبرية ذهبت منا البلاد)) [٨].

فخرجوا لمنع طبرية من السقوط فى أيدى المسلمين، وعندئذ رحل السلطان صلاح الدين عن طبرية ((وترك عليها من يحفظ قلعتها)) [٩]. ليعسكر عند قرية حطين؛ وهى منطقة غنية المركب وفيرة الماء، فضلاً عن كونها على شكل تل يرتفع عن سطح البحر أكثر من ٣٠٠ متر، ولها قمتان أشبه بالقرنين مما جعل العرب يطلقون عليها قرون حطين [١٠].

وكان من يُمْن الطالع أن حاز المسلمون موارد المياه، وحالوا بينها وبين الصليبيين الذين اشتد بهم العطش، ثم أمر صلاح الدين بإشعال النار والأعشاب والأشواك التى تكسو الهضبة، كما كانت الريح أيضًا فى صف المسلمين فحملت حر النار والدخان على الصليبيين، ((فاجتمع عليهم العطش، وحر الزمان، وحر النار، وحر الدخان وحر القتال)) على قول ابن الأثير[١١]، فأحاط بهم المسلمون إحاطة الدائرة بقطرها[١٢]. ووقع الصليبيون بين القتل والأسر، ولم ينج منهم سوى (ريموند) الذى أدرك بثاقب بصره أن النصر كائن لا محالة للمسلمين، ففر إلى طرابلس تاركًا حلفاءه يتساقطون تساقط الثمر، ويوجز المؤرخون نتيجة المعركة بقولهم: ((فمن شاهد القتلى قال ما هناك أسير، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل))[١٣].

ومن الطرائف التى تروى فى هذا



الصدد والتى تبين ما آل إليه الصليبيون فى هذه المعركة من المذلة والهوان ما ينقله ابن واصل عن القاضى بهاء الدين بن شداد: ((لقد حكى لى من أثق به أن لقى بحوران شخصا واحدًا ومعه طنب خيمة، وفيه نيف وثلاثون أسيرًا يجرهم وحده لخذلان وقع عليهم))[١٤]. كما كانوا يستسلمون للأسر خوفًا من القتل))[١٥]. ومن أشهر هؤلاء الأسرى الملك (كى) أو (جفرى) فضلاً عن أرناط، أما الملك فقد أمَّنه السلطان ((وحادثه وأمر له بجلاب – ماء الورد – مثلوج فشربه، وكان قد بلغ به العطش مبلغًا عظيمًا))[١٦]. وعندما انزعج الملك لمقتل (أرناط) طمأنه صلاح الدين وقال له: "إن الملوك لا تقتل الملوك"[١٧].

أما الأسير الآخر الذى عومل على النقيض من معاملة جليسه الملك (كى) فهو أرناط. فعندما قدَّم الملك الماء إلى أرناط عاتبه صلاح الدين قائلا: "أنا لم آذن لك فى سقيه الماء حتى لا يوجب ذلك أمانًا له"[١٨].. ثم قتله بيده وفاء لنذره.

أما السبب الذى دعا السلطان صلاح الدين إلى قتل أرناط وعدم العفو عنه كما صنع مع الملك (كى) فيرجع إلى غدر هذا الأمير وصفاقته التى بلغت حدًّا فاحشًا على ما سبق ذكره، ومن صورها أنه عندما غدر بقافلة من قوافل المسلمين قال لهم مستهزئًا: ((قولوا لمحمد يخلصكم)) وأنه كان يأمل فى غزو المدينة ويعبث بقبر النبى ﷺ؛ لذا فقد نذر صلاح الدين إنْ أظفره الله به أن يقتله بيده، وقد كان، بل إن هذه الصفاقة لازمته حتى نهاية أمره فعندما ((قرَّعه السلطان وأذكره ذنبه وقال له: لِمَ تحلف وتنكث؟!)) كان رده: ((قد جرت بذلك عاده الملوك)) فقال له السلطان: ((ها أنا أنتصر لمحمد)).

وهنا بدأ انحسار المد الصليبى الذى جثم على صدر الأمة الإسلامية قرابة مائة عام بفضل توحيد الجبهة الإسلامية والوقوف صفًا واحدًا أمام أعدائها، وهو ما تثبته الأيام على مر العصور واختلاف الدهور: الفرقة تمكِّن للمستعمر الغاصب، والوحدة هى الجدار الفولاذى أمام الأعداء.

الهوامش:

(١) مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ١ ص١٨٨ ط الأميرية مصر ١٩٥٧.

(٢) الموسوعة الفلسطينية جـ٢ ص٢٥٠.

(٣) انظر الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة ص١ ١٣٤ ط الرسالة ، بيروت..

(٤) مفرج الكروب ص ١٨٩..

(٥) البرق الشامى ص٢٨٦ ط الخانجى عام ١٩٧٩..

(٦) مفرج الكروب ص١٨٩..

(٧) الموسوعة الفلسطينية ج٢ ص ٢٤٩.

(٨) مفرج الكروب ص١٨٩.

(٩) نفس المصدر.

(١٠) الموسوعة الفلسطينية ص٢٥

(١١) الكامل جـ١٠ ص١٤٧ ط دار الكتب العلمية ونص عبارته: ((وكان بعض المتطوعة قد ألقى فى الأرض نارًا، وكان الحشيش كثيرًا فاحترق)).

(١٢) المصدر السابق وانظر ايضًا معجم البلدان ص٢، ٣١٦.

(١٣) مفرج الكروب ص١٩٣ ، وانظر أيضًا البرق الشامى، مصدر سابق، وكذا الروضتين فى أخبار الدولتين، ص٢٦٦.

(١٤) مفرج الكروب ص ١٩٢.

(١٥) نفس المصدر ص١٩٥.

(١٦) نفس المصدر.

(١٧) نفس المصدر.

(١٨) مفرج الكروب مصدر سابق ص ١٩٥ ، وانظر الروضتين ص٢٦٧ ، مصدر سابق.

مصادر ومراجع للاستزادة:

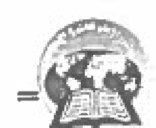
١. مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ط، الخانجى، مصر.

٢. الروضتين فى اخبار الدولتين لابى شامة المقدسى، الرسالة بيروت.

٣. الكامل لابن الأثير، ط المكتبة العلمية بيروت.

٤. البرق الشامى لابن العماد ، ط مكتبة الخانجى.

٥. الموسوعة الفلسطينية، ط بيروت.



الحمدانيون

الحمدانيون أسرة عربية أسست دولة لها فى الموصل وحلب، واستقلت عن الدولة العباسية فى عصور ضعفها. وينتسب الحمدانيون إلى "حمدان بن حمدون" وهو من قبيلة تغلب العربية الأصل التى قامت بضواحى مدينة الموصل[1]. بدايةً ثار الحمدانيون على الدولة العباسية،ولكنها عفت عنهم عندما انتصر الحسين بن حمدان على هارون الشارى الخارجى وأسره، وجاء به إلى الخليفة المعتضد (٢٧٩- ٢٨٩هـ- ٨٩٢- ٩٠٢م). وقد كان الحمدانيون يمثلون القوة التى تلجأ إليها الخلافة إذا ضاقت بها الأحوال فى بغداد؛ فقد لجأ إليهم الخليفة المتقى (٣٢٩- ٣٣٣هـ- ٩٤١- ٩٤٤م) فارًّا من قوات البريدى التى زحفت على العراق، وعجز أمير الأمراء ابن رائق عن الصمود لها، فناصر الحمدانيون الخلافة، وقتلوا ابن رائق وطردوا البريديين، وأعادوا الخليفة إلى عاصمته؛ مما جعل الخليفة المتقى يلقّب الحسن بن حمدان بلقب ناصرَ الدولة، ولقّب أخاه عليًّا بلقب سيف الدولة، وذلك فى شهر شعبان سنة (٣٣٠هـ/٩٤٢م)، وقد تولى إمرة الأمراء فى بغداد ناصر الدولة أمير الموصل.

لم يستقر الحمدانيون كثيرًا ببغداد لاضطراب أمورها بسبب الحروب الأهلية، وحنق الخليفة على ناصر الدولة لزيادته الضرائب؛ مما دفع الخليفة إلى انتهاز فرصة خروج ناصر الدولة إلى الموصل، فاستنجد بتوزون القائد التركى، ومهَّد له السبيل لدخول بغداد سنة (٣٣١هـ/٩٤٣م). ولم يستطع زعماء الحمدانيين من العرب البقاء فى بغداد أكثر من سنة، واضطروا للعودة للموصل. ومع ذلك ظلت علاقة الحمدانيين حسنة بالخلافة على الرغم من محاولة البويهيين إزالتهم عن إمارتهم.

وفى حلب امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين، وكان جهاد الحمدانيين ضد الروم من أبرز الأعمال التى خلدت ذكرى هذه الدولة. وكان ممن خلدوا ذكر الحمدانيين أيضًا: أبو الطيب المتنبى، وأبو فراس الحمدانى.

وعندما أراد سيف الدولة أن يوسّع ملكه بالشام ليتمكّن من تقوية جبهته

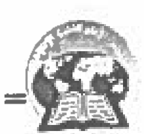
أمام الروم، امتد بنفوذه إلى دمشق، الأمر الذى أدى إلى حربٍ مع الإخشيد، انتصر فيها الإخشيد (٣٢٣- ٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٦م)، وتوصلا أخيرًا إلى صلح يدفع بموجبه الإخشيد جزية سنوية للحمدانيين مقابل احتفاظه بدمشق.

بدأت الدولة الحمدانية فى التفكك بعد سيف الدولة، ووقعت فى صراعات داخلية أُسرية أدت إلى أن يستعين بعضهم على بعض بالروم والعُبيديين (الفاطميين). ثم سقطت أخيرًا تحت الضغط العبيدى المتعاظم فى مصر، والنفوذ البويهى من جهة العراق، فورثها العبيديون فى النهاية.

• النسب والنشأة:

ينتسب الحمدانيون لقبيلة تغلب بن وائل التى ينتهى نسبها إلى ربيعة بن نزار ابن معد بن عدنان وقد كانت "تغلب" تعتنق النصرانية قبل الإسلام وكانت مواطنهم فى الجزيرة وديار ربيعة ثم ارتحلوا مع هرقل إلى بلاد الروم، ثم رجعوا إلى بلادهم، وفرض عليهم عمر بن الخطاب الجزية، فقالوا: يا أمير المؤمنين، لا تذلنا بين العرب باسم الجزية، واجعلها صدقة مضاعفة ففعل . غير أنَّا نجدهم فى أواخر القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى مسلمين، وقد كانت الحالة المادية سيئة، فاضطُرَّ قسم كبير منهم إلى الهجرة، فهاجروا إلى البحرين، وبقى جزء منهم فى الجزيرة وبلاد العراق، هذا القسم هو الذى قاد لواء اليقظة الفكرية والسياسية فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجريين/التاسع والعاشر الميلاديين، والذى تَزَعَّم هذه اليقظة هم بنو حمدان من تغلب[٢].

كان حمدان بن حمدون جد الأمراء الحمدانيين عاملاً على الموصل للمعتضد بالله العباسى، ثم استقل الحمدانيون عن الدولة العباسية بقيادة ناصر الدولة الحسن فى سوريا، وبقى ولاة الحمدانيين فى الموصل موالين للخليفة فى بغداد، وكان أشهر قادتهم سيف الدولة الحمدانى، الذى ضم حلب وحمص إلى سلطانه عام (٣٣٣هـ/٩٤٥م)، وأمضى معظم فترة حكمه فى غزوات ضد البيزنطيين الصليبيين فى الشمال. وقد ازدهرت حلب وشمال الشام فى عهد سيف الدولة ؛ ففى بلاطه كتب المتنبى أشهر قصائده، وكذلك أبو فراس الحمدانى ابن عم سيف الدولة، الذى أسره الروم خلال إحدى المعارك. وقد اشتدت الحرب مع البيزنطيين فى عهد



سعد الدولة (٣٥٧- ٣٨١هـ/ ٩٦٧-٩٩١م)، وبدأت النزاعات مع الفاطميين فى الجنوب فى عام ٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م، وبدأ الحمدانيون يفقدون سيطرتهم على السلطة التى انتقلت فيما بعدُ إلى الفاطميين(٣).

• ولاة الدولة الحمدانية فى الموصل:

١- ناصر الدولة أبو محمد الحسن (٣١٧هـ/ ٩٢٩م).

٢- عدة الدولة أبو تغلب الغضنفر (٣٥٨- ٣٦٩هـ/ ٩٦٨- ٩٧٩م).

٣- أبو طاهر إبراهيم (٣٧١هـ/ ٩٨١م).

٤- أبو عبد الله الحسين . (٣٨٠هـ/ ٩٩١م).

• ولاة الدولة الحمدانية فى حلب:

١- سيف الدولة أبو المحاسن على (٣٣٣هـ/ ٩٤٤م).

٢- سعد الدولة أبو المعالى شريف (٣٥٦هـ/ ٩٦٧م).

٣- سعيد الدولة أبو الفضائل سعد (٣٨١هـ/ ٩٩١م).

٤- أبو الحسن على(٣٩٢هـ/ ١٠٠١م).

٥- أبو المعالى شريف (٣٩٤هـ/١٠٠٣م)(٤).

قام حمدون بدور مهم فى الحوادث السياسية منذ سنة ٢٦٠هـ/٨٧٣م؛ فقد تحالف مع هارون الشارى الخارجى فى سنة ٢٧٢هـ/٨٨٥م، واستولى على قلعة ماردين بعد ذلك بقليل؛ لذا حاربه الخليفة المعتضد فى سنة (٢٨١هـ/٨٩٤م)، فهرب حمدان تاركًا ابنه الحسين عليها، واستولى الخليفة على ماردين، وطارد حمدان وظفر به بعد قليل، فسجنه فى بغداد، واستمر فى سجنه حتى هزم ابنه الحسين هارون الخارجى حليف أبيه؛ فعفا الخليفة عن حمدون، ووزع الأعمال عليه وعلى أولاده(٥).

• الحمدانيون فى الموصل:

قلَّد الخليفة المقتدر أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان إمارة الموصل وما يليها فى سنة (٢٩٢هـ/٩٠٤م)، وولَّى أخاه إبراهيم ديار ربيعة فى سنة (٣٠٧هـ/٩١٩م)، فظلَّ بها إلى أن خلفه عليها أخوه داود سنة (٣٠٩هـ/٩٢١م). كما ولَّى أخاه سعيدًا نهاوند فى سنة (٣١٢هـ/٩٢٤م)، وقلَّد غيرهم من بنى حمدان بعض مناصب الدولة، وأناب عبد الله بن حمدان ابنه ناصر الدولة الحسن عنه فى الموصل (٣٠٨هـ/٩٢٠م)، واستطاع أن يحتفظ بنفوذه فيها إلى أن مات فى سنة (٣٥٨هـ/٩٦٨م)، إلا فترة قصيرة لا تزيد

على سنتين (٣١٧- ٣١٩هـ/٩٢٩- ٩٣١م). كما استطاع أن يمد نفوذه على جميع أرجاء ديار بكر وديار ربيعة، ولقَّبه الخليفة المتقى فى شهر شعبان سنة (٣٣٠هـ/٩٤١م) ناصرَ الدولة، ولقَّب أخاه سيف الدولة[٦].

ناصر الدولة الحمدانى (٣١٧-٣٥٨هـ) (٩٢٩- ٩٦٨م):

اشتعلت الحرب الأهلية بين الحمدانيين والبريديين[٧] من ناحية، وبين البويهيين من ناحية أخرى، وانتهز الخليفة العباسى فرصة خروج ناصر الدولة إلى الموصل، فاستنجد بتوزون[٨]، ومهَّد له السبيل لدخول بغداد سنة (٣٣١هـ/٩٤٣م)، فاضطروا ناصر الدولة إلى العودة إلى الموصل.

وسرعان ما قام العداء بين توزون والخليفة العباسى الذى لجأ إلى ناصر الدولة ابن حمدان، وقامت الحرب بين الفريقين فى عُكْبرا (تبعد عن بغداد نحو عشرة فراسخ)، وانهزم ابن حمدان والخليفة، وكان الخليفة المتقى يستعين على توزون بناصر الدولة بن حمدان تارةً، وببنى بويه تارة أخرى، ولكن ذلك لم يغنِه شيئًا، فقد حبسه توزون وولَّى المستكفى الخلافة (صفر سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م)، ثم مات توزون فى (المحرم سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م)[٩].

ولقد تعرَّض ناصر الدولة الحمدانى فى آخر حياته إلى عِدَّة حوادث أثَّرت فى حالته النفسية؛ منها توغُّل البويهيين فى البلاد، وموت أخيه سيف الدولة الذى كان شديد المحبة له سنة (٣٥٦هـ/٩٦٦م)، كل ذلك حزَّ فى نفسه، حتى تغيرت أحواله، وساءت أخلاقه، وضعُف عقله، ولم يبقَ له حرمة عند أولاده الذين اختلفوا على أنفسهم؛ فقبض عليه ابنه أبو تغلب بمدينة الموصل وحبسه، وظل فى حبسه إلى أن تُوُفِّى فى شهر ربيع الأول سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م[١٠].

أبو تغلب بن ناصر الدولة (٣٥٨-٣٦٩هـ/٩٦٩- ٩٨٠م):

بعد وفاة ناصر الدولة قام نزاع بين أولاده وانقسموا إلى فريقين: فريق يناصر حمدان بن ناصر الدولة، وفريق آخر يناصر أخاه أبا تغلب، وأصبح الحمدانيون جماعتين: جماعة بزعامة حمدان وإبراهيم يساعدهم بُخْتِيَار، وجماعة بزعامة أبى تغلب وأخيه الحسين.

استطاع أبو تغلب الانتصار على حمدان، واستولى على حرَّان، ولكنه عجز عن الوقوف فى وجه الروم الذين

أغاروا على الرُّها، ووصلوا إلى نصيبين وديار بكر.

واستطاع الحمدانيون استعادة الموصل وما يليها فى سنة ٣٧٩هـ/٩٨٩م على يد أبى طاهر إبراهيم بن ناصر الدولة، وأخيه عبد الله الحسين، ولكنهم لم يبقوا فيها أكثر من سنة؛ لأن الأكراد طمعوا فى إزالة دولتهم، وانتصر أبو على ابن مروان الكردى على أبى عبد الله الحسين أخى أبى تغلب بن ناصر الدولة الحمدانى، وبعث به إلى مصر بشفاعة الخليفة العبيدى العزيز بالله، كما قتل أبو الزواد محمدُ بن المسيب أمير بنى عقيل أبا طاهر بن ناصر الدولة الحمدانى، واستولى على مدينتى نصيبين وبلد ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م، وضم إليهما الموصل فى السنة التالية، ولكنه طُرِدَ منها على أيدى بنى بويه، ثم استردها أخوه المقلد بن المسيب العقيلى الذى أقرَّه بهاء الدولة البويهى على هذه البلاد وما يليها فى سنة٣٨٦هـ/ ٩٩٦م(١١).

- **الحمدانيون فى حلب: سيف الدولة الحمداني (٣٣٣- ٣٥٦هـ/٩٤٤- ٩٦٦م):**

وُلِد الأمير سيف الدولة على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان التغلبى فى (٣٠٣هـ/ ٩١٥م) فى مدينة مَيَّافارِقِين - أشهر مدن ديار بكر- على إثر تولى أبيه إمارة الموصل.

وقد عُنِى أبوه بتعليمه وتنشئته على الفروسية منذ نعومة أظافره، وأظهر سيف الدولة استعدادًا كبيرًا ومهارة فائقة فى القنص والرمى وركوب الخيل منذ صغره؛ فلم يكد يبلغ العشرين من عمره حتى صار فارسًا لا يُشَقُّ له غبار، وخاض العديد من المعارك الطاحنة ضد أعداء الدولة والمتمردين عليها؛ سواء فى الداخل أو فى الخارج.

واستطاع الأمير الشاب أن يحقّق انتصارًا عظيمًا على البريديين الذين اقتحموا بغداد عام (٣٣٠هـ/ ٩٤٢م)، ودفعوا الخليفة العباسى المتقى لله إلى الخروج منها، واللجوء إلى الموصل للاستنجاد بالحمدانيين، فلما حقّق الأمير الشاب على بن أبى الهيجاء النصر على البريديين بعد أن تعقبهم إلى المدائن، أنعم عليه الخليفة بلقب (سيف الدولة)، وأمر أن تُضرَب باسمه الدنانير والدراهم.

- **حروبه مع البيزنطيين:**

امتاز عهد سيف الدولة بكثرة حروبه مع البيزنطيين حتى قيل: إنه غزا بلادهم المجاورة لبلاده أربعين غزوة، انتصر فى بعضها وحلَّت به الهزيمة فى

بعض آخر. وكان كثير من البلاد الإسلامية مسرحًا للحروب التى دارت بين الحمدانيين والروم فى ذلك العصر؛ فقد أغار سيف الدولة على زبطرة وعرقة وملطية ونواحيها، فقتل وأحرق وسبى، وانثنى قافلاً إلى درب موزار، فوجد عليه قسطنطين الدمستق فأوقع به، وقتل صناديد رجاله، ثم عبر إلى الفرات وأوغل فى بلاد الروم والتقى بجيش الروم بمرعش وهزمه، وقتل رءوس البطارقة، وأسر قسطنطين بن الدمستق الذى أصابته ضربة فى وجهه، وأكثر الشعراء فى هذه الموقعة، فقال أبو فراس الحمداني:

وآبّ بقسطنطين وهو مُكبَّلٌ

تحفُّ بطاريق به وزَرَازِر

وولّى على الرسم الدمستق هاربًا

وفى وجهه عُذرٌ من السيف عاذر[١٢].

ثم سار سيف الدولة لبناء الحدث -وهى قلعة عظيمة الشأن- فاشتد ذلك على ملك الروم الذى أرسل جيشًا جرَّارًا يضم عظماء مملكته وعلى رأسهم الدمستق، وأحاطوا بعسكر سيف الدولة الذى حمل على العدو، واخترق الصفوف طلبًا للدمستق فولى هاربًا، وأسر صهره وحفيده، وقتل خلقًا كثيرًا من الروم، وأكثر الشعراء فى هذه الموقعة، فقال أبو الطيب المتنبى:

بناها فأعلى والقَنَا تقرعُ القنا

وموج المنايا حولها متلاطم

وكان بها مثل الجنون فأصبحت

ومن جثث القتلى عليها تمائم[١٣].

وقد وصف الثعالبى سيف الدولة وما بلغته الدولة الحمدانية فى عهده فى هذه العبارة؛ قال: "وكان بنو حمدان ملوكًا وأمراء، أوجههم للصباحة، وألسنتهم للفصاحة، وأيديهم للسماحة، وعقولهم للرجاحة، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم، وواسطة قلادتهم، وكانت وقائعه فى عصاة العرب تكُفُّ بأسها وتنزع لباسها، وتفل أنيابها وتذل صعابها، وتكفى الرعية سوء آدابها، وغزواته تدرك من طاغية الروم الثار، وتحسم شرهم المثار، وتحسن فى الإسلام الآثار، وحضرته مقصد الوفود، ومطلع الجود، وقبلة الآمال، ومحط الرحال، وموسم الأدباء وحلبة الشعراء، ويقال: إنه لم يجتمع قَطُّ بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما ينفق لديها، وكان أديبًا شاعرًا محبًّا لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح

به... وكان كلٌّ من أبى محمد بن عبد الله بن محمد القاضى الكاتب، وأبى الحسن على بن محمد الشمشاطى، قد اختار من مدائح الشعراء لسيف الدولة عشرة آلاف بيت، كقول أبى الطيب المتنبي:

خليلىَّ إنى لا أرى غير شاعر
فَلِمْ منهم الدعوى ومنها القصائد؟
فلا تعجبا إن السيوف كثيرة
ولكن سيف الدولة اليوم واحد[١٤].

• الصراع مع الإخشيديين:

وقد أثارت انتصارات سيف الدولة على الروم البيزنطيين حفيظة الإخشيديين؛ الذين وجدوا عليه تلك البطولات والأمجاد، وخشوا من تعاظم نفوذه وقوة شوكته؛ فتحرَّكوا لقتاله.

بلغ الخبر سيف الدولة، فسار إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م، وهرب إلى مصر يانس الخصى، وكان واليَها من قِبَل الإخشيد، فأرسل الإخشيد جيشًا لمحاربة سيف الدولة بقيادة كافور ومعه يانس؛ فتقابلا مع الحمدانيين عند الرَّسْتَن - الواقعة على نهر العاصى الذى يمر بالقرب من حماة - فحلَّت الهزيمة بالمصريين، وأُسِرَ منهم أربعة آلاف، عدا القتلى والغرقى.

ثم تقدم سيف الدولة يريد دمشق، فسار إليه الإخشيد الذى حلَّت به الهزيمة فى قنسرين، ولكنه انتهز فرصة انشغال الحمدانيين بجمع الغنائم واقتسامها، فأطلق عشرة آلاف من جنده، بددوا شمل العدو، ودخل حلب حاضرة الحمدانيين، واستردّ دمشق إلا أنه - على الرغم من انتصاره- تصالح مع الحمدانيين على أن يترك لهم حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً، كما تعهَّد بأن يدفع لهم جزية سنوية مقابل احتفاظه بدمشق[١٥].

كان الإخشيد فى حالة قوة وانتصار، ولكنه كان يرمى من وراء إبرام الصلح على هذه الصورة، أن يُبقِى الدولة الحمدانية حصنًا منيعًا يكفيه مئونة محاربة البيزنطيين، الذين لا يفتُرُون عن مهاجمة الولايات الإسلامية المتاخمة لبلادهم، والذين أغاروا سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م على أرزن وميافارقين ونصيبين، فقتلوا وسَبَوا كثيرًا من المسلمين، ثم دخلوا فى السنة التالية ٣٣٢هـ/٩٤٣م رأس العين فى ثمانين ألفًا؛ فقتلوا وسبوا خلقًا عظيمًا من المسلمين.

ولكن هذا الصلح لم يَدُمْ طويلاً؛ فقد تُوُفِّى الإخشيد فى سنة ٣٣٤هـ، وتولَّى كافور الوصاية على ابنه أبى الحسن على.

انتهز سيف الدولة الفرصة؛ فنقض العهد واستولى على دمشق، ثم سار إلى الرملة لغزو مصر، فحاربه كافور بصحبة الحسن بن عبيد الله بن طغج وانتصر عليه فى اللَّجُّون (تبعد عن طبرية بنحو عشرين ميلاً، وعن الرملة بنحو أربعين ميلاً) فى بلاد الأردن، ثم انتصر عليه انتصارًا حاسمًا بالقرب من مرج عَذْراء بجوار دمشق، ودخل الجيش مدينة حلب، وعقدت بين الطرفين معاهدة الصلح بنفس الشروط التى عُقِدت بها أواخر أيام الإخشيد، ما عدا الجزية التى توقف دفعها(١٦).

- **إنجازات الدولة الحمدانية فى مجال العمارة:**

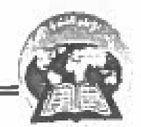
بالرغم من الطابع العسكرى والحربى لدولة الحمدانيين بصفة عامة، وإمارة سيف الدولة على نحو خاص؛ فإن ذلك لم يصرف الأمير سيف الدولة عن الاهتمام بالجوانب الحضارية والعمرانية.

فقد شيَّد سيف الدولة قصره الشهير بـ(قصر الحلبة) على سفح جبل الجوشن، والذى تميز بروعة بنائه وفخامته وجمال نقوشه وزخارفه، وكان آية من آيات الفن المعمارى البديع، كما شيَّد العديد من المساجد، واهتم ببناء الحصون المنيعة والقلاع القوية.

فى الحياة الاقتصادية:

شهدت الحياة الاقتصادية ازدهارًا ملحوظًا فى العديد من المجالات؛ فمن ناحية الزراعة كَثُرَت المزروعات، وتنوَّعت المحاصيل من الحبوب والفاكهة والثمار والأزهار، فظهر البُرُّ والشعير والذرة والأرز والبسلة وغيرها، كما ظهرت أنواع عديدة من الفاكهة كالتين والعنب والرمان والبرقوق والمشمش والخوخ والتوت والتفاح والجوز والبندق والحِمضيات، ومن الرياحين والأزهار كالورد والآس والنرجس والبنفسج والياسمين، كما جادت زراعة الأقطان والزيتون والنخيل، وقامت صناعات عديدة على تلك المزروعات مثل زيت الزيتون، والزبيب. كما ظهرت صناعات أخرى كالحديد والرخام والصابون والكبريت والزجاج والسيوف والميناء.

وقد نشطت التجارة، وظهر العديد من المراكز التجارية المهمَّة فى حلب والموصل والرَّقَّة وحرَّان وغيرها.



فى الحياة الفكرية:

شهدت الحياة الفكرية والثقافية نهضة كبيرة ونشاطًا ملحوظًا فى ظلِّ الحمدانيين؛ فظهر الكثير من العلماء والأطباء والفقهاء والفلاسفة والأدباء والشعراء.

وقد أرسى سيف الدولة الحمدانى دعائم دولته فى حلب؛ فاستقطب بلاطه مشاهير العلماء والأدباء والشعراء أمثال المتنبى وأبى الفتح عثمان النحوى الشهير "بابن جنىِّ"، وقد أجزل سيف الدولة العطاء للشعراء بسبب محبته للشعر وإجادته نظمه، وبادله الشعراء شعرًا حسنًا، وفنًّا جيدًا.

كما اشتُهِر جماعة من أهل بيته فى نظم الشعر كابن عمِّه أبى فراس الحمدانى، وهو حينما وقع فى أسر الروم فى إحدى غزواته، كتب أحسن شعره طالبًا من سيف الدولة بحلب أن يفديه؛ لأنه نشأ فى رعايته، ومن شعره فى الأَسْر:

ولا تقعدن عنِّى وقد سيم فديتى
فلست عن الفعل الكريم بمُقْعَد

فكم لك عندى من أيادٍ وأنعمٍ
رفعت بها قدرى وأكثرتَ حُسَّدي[١٧].

هذا؛ وقد اجتمع فى بلاط سيف الدولة أشهر اللغويين والنحويين فى زمانه مثل أبى على الفارسى، وابن خالويه، وابن جني، فضلاً عن الفيلسوف الكبير الفارابى الذى كتب فى الطب والمنطق والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى.

أمَّا الطبيب عيسى بن الرقى، فقد قال عنه ابن أبى أصيبعة فى كتابه (طبقات الأطباء): "إن سيف الدولة كان يعطى عطاء لكل عمل، وكان عيسى الرَّقِّى يأخذ أربعة أرزاق: رزقًا بسبب الطب، ورزقًا بسبب ترجمة الكتب من السريانى إلى العربى، ورزقين بسبب علمين آخرين"[١٨].

ولم يلبث سيف الدولة أن عاجله المرض، ثم تُوفِّى فى شهر صفر ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م.

سعد الدولة وعلاقته بالروم والفاطميين:

أمَّا سعد الدولة فبعد أن استولى على الحكم، كان له قائد اسمه قرغويه، أخذ له البيعة فى حلب، وقد استقرَّ قرغويه فى حلب ولمع فيها، وأراد أن يكون صاحب الأمر، وما كان يستطيع أن يقف فى وجه سعد الدولة بمفرده؛ فأرسل إلى الروم وطلب عونهم، وصالحهم على جزية سنوية يؤدِّيها لهم؛ لذا لمَّا هجم سعد الدولة على حلب

لاستخلاصها من بين يديه؛ أتاه الروم، ودفعوه عن حلب، ثم أعاد سعد الدولة الكَرَّة واستولى على حلب، فسار إليه الروم، ولكنه وجد أنه لا قِبَل له بهم، فصالحهم على الجزية نفسها التى كان يؤديها قرغويه(١٩).

ظهر فى هذه الأثناء الفاطميون (العُبَيْدِيُّون) فى مصر، وامتدت يدهم إلى سوريا، فوقعت الواقعة بينهم وبين الحمدانيين، ووجد الروم مصلحتهم إلى جانب الحمدانيين؛ ذلك أنه كان أسهل عليهم أن تقوم دويلات صغيرة متفرقة كالدولة الحمدانية من أن تأتى دولة كبرى كدولة العبيديين فتقف إلى جوارهم، ثم يضطرون إلى محاربتهم. وهكذا ساعد الروم الحمدانيين فى حلب ضد العبيديين، وعقدوا معهم صلحًا، حتى إذا سار العبيديون إلى حلب، استنجد الحمدانيون بالروم، فسار إليهم باسيل الثانى بجيش قدره سبعة عشر ألف رجل، فأجلى العبيديين عن حلب، ولم يدخلها، وكان بإمكانه أن يستولى عليها، وكان ذلك بحسابٍ مقدَّر، فلو أنَّه قضى على دولة الحمدانيين، لواجه الفاطميين وجهًا لوجه، والروم كانوا مشغولين بحروب واضطرابات فى بلادهم(٢٠).

سعيد الدولة ونهاية الدولة الحمدانية:

وأتى بعد سعد الدولة ابنه سعيد الدولة، وكان إلى جانبه قائد اسمه لؤلؤ، وهو والد زوجته، مدَّ لؤلؤ يده إلى الحُكم وسجن سعيد الدولة، فدانت له حلب، ثم تقدَّم نحو العبيديين فطلب حمايتهم، وبذلك انتهى حكم الحمدانيين فى سوريا، ودخل العبيديون حلب.

حكم الحمدانيون حلب والموصل كدولة عربية اعتمدت على قوة ساعدها، وبنت أمرها على الحرب والجهاد، واعتمدت بصفة خاصة على تشجيع العلم والثقافة وعلى العناية بالعمران، وقد أخطأت فى آخر عهدها؛ فتحالفت مع الروم لتنقذ نفسها من الهلاك، لكن وَحْدة مصر والشام كانت أقوى من أن توقفها المنافع المحلية، فدالت دولتها(٢١).

أ / إسماعيل رجب

الهوامش :

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن: ١٢٢/٣.

(٢) تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش ص١٩٩ ، ٢٠٠.

(٣) بالنسبة للحمدانيين، المتأمل فى أمر التشيع عندهم يجد أنهم يغلب عليهم التشيع السياسى، بسبب تملك الدول الباطنية فى تلك الفترة لمعظم البلاد الإسلامية. فهم استخدموا هذا التشيع السياسى فى تثبيت الملك .

(٤) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن: ١٢٠/٣، ١٢١.

(٥) المرجع السابق ١٢٢/٣.

(٦) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام ١٢٢/٣.

(٧) هم جماعة من المتمردين احتلُّوا بغداد سنة٣٣٠هـ/٩٤١م؛ مما أدَّى إلى فرار الخليفة المتقى منهم إلى الموصل مستنجدًا بالحسن الحمدانى، الذى قاد جيشه وانطلق نحو بغداد برفقة أخيه الأمير على، وما كاد الركب يصل بغداد حتى نجا البريديون بأنفسهم، وفرُّوا أمام الجيش الحمدانى، وعاد الخليفة إلى قصره آمنًا مطمئنًا؛ فأنعم على الحسن بن حمدان بلقب ناصر الدولة، وعلى أخيه على بلقب سيف الدولة.

(٨) أحد القواد الأتراك، وقد سعى للإيقاع بسيف الدولة الحمداني فى محاولات عديدة، وحاول سيف الدولة عدم الاحتكاك به؛ خشيةً من ثورة الجنود الأتراك عليه.

(٩) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ١٢٣/٣.

(١٠) المصدر السابق ١٢٣/٣، ١٢٤.

(١١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ٣/ ١٢٦.

(١٢) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ١٢٨/٣، ١٢٩.

(١٣) المرجع السابق ١٢٩/٣.

(١٤) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ١٢٩/٣، ١٣٠.

(١٥) السابق نفسه ١٢٧/٣.

(١٦) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن ١٢٨/٣.

(١٧) التاريخ العباسى السياسى والحضارى، إبراهيم أيوب، ص١٧٥.

(١٨) المرجع السابق ص١٧٥.

(١٩) تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش ص٢٠٤.

(٢٠) تاريخ عصر الخلافة العباسية، يوسف العش، ص٢٠٤، ٢٠٥.

(٢١) السابق نفسه ص٢٠٥.

مصادر ومراجع للاستزادة :

- البداية والنهاية : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير.
- تاريخ بغداد : أبو بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى.
- زبدة الحلب من تاريخ حلب: ابن العديم كمال الدين عمر بن أحمد .
- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلى.
- صُبح الأعشى فى صناعة الإنشا : القلقشندى.
- فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين: د. مصطفى الشكعة.
- القائد سيف الدولة الحمدانى: د. حمدان عبد المجيد الكبيسى.

الحُمَيْمَة

الحُمَيْمة قرية من أعمال عَمَّان بالأردن، وهى تقع فى أرض الشَّراة. والشراة- كما يقول ياقوت- «صُقعٌ بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ؛ ومن بعض نواحيه القرية المعروفة بالحميمة التى كان يسكنها ولد علىّ بن عبد الله ابن عباس بن عبد المطلب فى أيام بنى مروان»[1]. وقبل أن نتناول الأهمية التاريخية للحميمة نتحدث عن تفسيرها اللغوى؛ فهى تصغير حَمَّة[2]، بفتح الحاء والميم المشددة؛ والحَمَّة- كما يذكر صاحب لسان العرب- عين ماء فيها ماءٌ حار يُستشفَى بالغُسْل منه[3].

وترجع الأهمية التاريخية للحميمة- كما أشار ياقوت- إلى أنها كانت مسكن علىّ بن عبد الله بن عباس وأولاده فى العصر الأموى. وقد ولد «علىّ» هذا فى السابع عشر من رمضان سنة (٤٠هـ/٦٦١م)، وهو نفس اليوم الذى تعرض فيه علىّ بن أبى طالب كرّم الله وجهه لعدوان الخوارج الذى أدى إلى استشهاده. وكان علىّ بن عبد الله مشهورًا بالزهد والورع وكثرة الصلاة، ومن هنا كان يُدْعَى «السَّجَّاد»[4]، وكان عظيم المحل عند أهل الحجاز، فكان إذا قدم مكة حاجًا أو معتمرًا لزمت قريش مجلسه «إعظامًا وإجلالاً وتبجيلاً له»[5].

وقد ارتبط علىّ بن عبد الله وأسرته من العباسيين بالحميمة منذ سنة ٩٥هـ (٧١٣م)، أى فى أواخر عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ/٧٠٥- ٧١٥م)، الذى طلب من علىّ وأسرته أن ينتقلوا إلى الحميمة ليتخذوها مسكنًا لهم[6]. ولعله أراد بذلك أن يكون هؤلاء تحت رقابة الأمويين الصارمة بالشام. على أن ما ينبغى أن نقرره هنا أن عليًا بصفة خاصة كان عزوفًا عن السياسة راغبًا عن الانغماس فى مشاكلها، وظل كذلك حتى وفاته بالحميمة فى سنة ١١٨هـ (٧٣٦م) على أشهر الأقوال[7].

لكن عليًا كان له بين أبنائه العديدين ولد يختلف عنه فى توجهاته، هو محمد بن على؛ فقد كان محمد هذا على قدر كبير من الدهاء وسعة الحيلة والطموح السياسى. وكان مولده فى حدود سنة (٦٠هـ/٦٨٠م). وعندما سنحت له الفرصة لتحقيق تطلعاته السياسية لم

يضيعها. وقد تمثلت هذه الفرصة فيما يرويه المؤرخون من أن محمد بن الحنفية، الذى كان يؤمن بإمامته كثير من الشيعة بعد استشهاد أخيه الحسين، انتقلت إمامته عند وفاته إلى ابنه أبى هاشم عبد الله. فلما أحس أبو هاشم بدنُوّ أجله بعد زيارة قام بها إلى الخليفة الأموى سليمان ابن عبد الملك اتجه إلى الحُمَيمة فأوصى بالإمامة من بعده إلى علىّ بن عبد الله بن عباس. ثم توفى أبو هاشم فى سنة ٩٨هـ (٧١٦م). والواقع أن الذى استثمر هذه الوصية بكل أبعادها هو محمد بن علىّ ابن عبد الله بن عباس؛ فهو الذى رسم خطوط الدعوة الهاشمية بكل دقة، وأدارها تحت شعار **«الرضا من آل محمد»**. وقد بدأ محمد بن علىّ دعوته من الحميمة فى حدود سنة ١٠٠هـ (٧١٨م). وعندما توفى فى سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) كانت دعوته قد أوشكت على تحقيق أهدافها النهائية؛ فلم تكد تمضى على وفاته سبع سنين حتى قامت الخلافة العباسية[٨].

ولسنا هنا بصدد الدخول فى تفاصيل دعوة محمد بن علىّ التى بدأت هاشمية ثم انتهت عباسية؛ ولكن الذى يعنينا فى المقام الأول هو دور الحميمة فى هذه الدعوة.

لقد كانت القضية الأكثر إلحاحًا أمام محمد بن علىّ هى اختيار المراكز الصالحة لانطلاق دعوته. وقد انتهى إلى اختيار ثلاثة مراكز تتكامل فيما بينها لتقوم بهذه المهمة، وهى الحميمة وخراسان والكوفة.

فالحميمة هى موطن الأئمة ومنبع الدعوة، وهى العقل المدبِّر؛ فهى بمثابة الرأس من الجسد. وقد مثلت الحميمة بموقعها مكانًا مناسبًا لإدارة الدعوة؛ فهى إلى الجنوب من البحر الميت، وكانت تبدو من حيث الظاهر قرية منعزلة ضئيلة الأهمية؛ ولكنها كانت، فى واقع الأمر، قريبة من طريق القوافل ومسالك الحجيج، فكانت المكان الملائم لأذكى وأقدم حركة من حركات الدعوة فى تاريخ الإسلام السياسى[٩]. ولم يرد محمد بن علىّ أن تتحول الحميمة إلى مركز عملى للدعوة نظرًا لقربها من عاصمة الأمويين، ولأن أى نشاط سياسى مريب فى الشام ضد الحكم القائم سيتم إجهاضه فى مهده؛ فالشام هى حصن الأمويين الأكبر، وفى ظل سيوف أهل الشام قامت الخلافة الأموية وترامت أطرافها.



أما المركز الذى وقع عليه اختيار محمد بن علىّ ليكون ميدانًا عمليًا للدعوة فهو خراسان؛ فهى أرض بكر كانت موطنًا للموالى أصحاب الصدور السليمة والقلوب الفارغة التى «**لم تتقسمها الأهواء ولم تتوزعها النِّحَل**»[١٠]، ثم إن الموالى لم يضمروا الود للأمويين الذين كانوا يمارسون التمييز ضدهم.

أما الكوفة فقد كانت حلقة الوصل بين الحميمة (**موطن الأئمة**) وبين خراسان (**ميدان الدعوة العملى**). ولم يسمح محمد ابن علىّ لأحد من دعاة خراسان بالاتصال بالحميمة إلا عن طريق المشرف على الدعوة. «**ولم ينكشف أمر الحميمة إلا فى آخر مراحل الحركة وقبيل انتقال أقطاب البيت العباسى إلى العراق سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م)**»[١١].

وعندما توفى محمد بن علىّ فى الحميمة سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) تولّى مسئولية الدعوة ابنه إبراهيم الذى اشتهر بلقب الإمام. وفى عهد إبراهيم الإمام لمع نجم داعية العباسيين الأكبر أبو مسلم الخراسانى فى خراسان. وقد خطت الدعوة العباسية على يديه خطوات شاسعة. ولكن جواسيس الأمويين تمكنوا من القبض على رجل كانت مهمته نقل رسالتين متبادلتين بين أبى مسلم فى خراسان وإبراهيم الإمام فى الحميمة، وذلك فى عهد مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين. وعندما وصلت رُسُل مروان بن محمد للقبض على إبراهيم سنة ١٣١هـ (٧٤٨م) أيقن بالهلاك، فنعى نفسه إلى أهله، وأوصى بالإمامة من بعده لأخيه أبى العباس (**الذى لُقِّب بالسفاح بعد توليه الخلافة**)، وأمر أعضاء أسرته بالانتقال دون إبطاء من الحميمة إلى الكوفة فرارًا من بطش الأمويين. وقد وصلت الأسرة العباسية الكوفة فى صفر سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م). وكان العباسيون قد نجحوا فى السيطرة على الكوفة قبل ذلك الوقت تحت قيادة القائد العباسى المشهور الحسن بن قحطبة. أما إبراهيم الإمام فقد حُمِل إلى الخليفة مروان بن محمد الذى كان مقيمًا حينذاك فى حران (**ببلاد الجزيرة**) وظل فى سجنه حتى مات ميتة غامضة فى نفس العام[١٢].

وبذلك انتهى دور الحميمة فى تاريخ الدعوة العباسية. وبعد شهر تقريبًا من وصول العباسيين إلى الكوفة تم إعلان قيام الخلافة العباسية فى ربيع الأول سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م).

أ. د / عبد الرحمن سالم

الهوامش

(١) ياقوت الحموى: معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، جـ٣، ص٢٧٦.

(٢) نفس المصدر، جـ٢، ص٢٥٣.

(٣) ابن منظور: لسان العرب. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م. مادة «حَمَم»، جـ٢، ص١٠٠٨.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت ١٩٧٧م، جـ٣، ص٢٧٤.

(٥) نفس المصدر والجزء، ص٢٧٧.

(٦) نفس المصدر والجزء، ص٢٧٨.

(٧) تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧م، جـ٧، ص١١١.

(٨) انظر حول ذلك: ابن خلكان، مصدر سابق، جـ٤، ص١٨٧؛ والطبرى، مصدر سابق، جـ٧، ص٢٢٧. وانظر أيضًا: د. محمد حلمى محمد أحمد: الخلافة والدولة فى العصر العباسى، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٣م، ص٢٣،٢٥.

(٩) Philip Hitti, History of the Arabs, London 1970, P. 283.

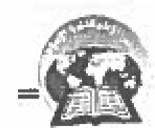
(١٠) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم. ليون ١٩٠٦م، ص٢٩٤.

(١١) د. محمد حلمى محمد أحمد: مرجع سابق، ص٢٤.

(١٢) لمزيد من التفاصيل راجع: الطبرى، مصدر سابق، جـ٧، ص٤٢١- ٤٢٣.

مصادر ومراجع للاستزادة :

- ابن خلكان : وفيات الأعيان . دار صادر، بيروت ١٩٧٧ (الجزآن الثالث والرابع) .
- الطبرى : تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبرى)، دار المعارف ١٩٧٧، ج ٧.
- د . محمد حلمى أحمد : الخلافة والدولة فى العصر العباسى، مكتبة الشباب، القاهرة ١٩٧٣.
- المسعودى : مروج الذهب ، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية ، القاهرة ١٩٤٨، ج ٣.



خزاعـــة

أصلهم ومستقرهم:

خُزاعة من أمهات القبائل العربية. وإنما سُميت بهذا الاسم لأنهم لما ساروا مع قومهم من مأرب، فانتهوا إلى مكة تخزعوا عنهم - أى تخلفوا- فأقاموا بها، وسار الآخرون إلى الشام، وهى مأخوذة من الفعل خزع عن أصحابه وتخزع: تخلف عنهم فى مسيرهم. وقيل: خزاعة من الأزد؛ سموا بذلك لأن الأزد لما خرجت من مكة لتتفرق فى البلاد تخلفت عنهم خزاعة وأقامت بها.

قال حسان بن ثابت.

فلما هبطنا بطن مر تخزعت

خزاعة عنا فى خيول كراكر [1]

ويفهم من هذا البيت أن خزاعة تخلفت عن قومها من الأزد، فأقامت ببطن مرّ ولم تلحق ببقية ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من مأرب يريدون الشام، كما يفهم منه أيضًا أن خزاعة قبيلة أزدية قحطانية.

وللنسابين والإخباريين رأى فى نسب خزاعة، فبعضهم يرى أنها من معد، أى من العدنانية وأنها من نسل خزاعة بن لُحَىّ بن قَمَعة من خِنْدف(زوجة إلياس) بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وهذا رأى ابن إسحاق ومصعب الزبيرى وابن خلدون [2]، بينما يرى أبو عبيدة معمر بن المثنى، وابن الكلبى وأبو الفدا [3] أن خزاعة من القحطانيين وتنسب إلى كعب بن عمرو بن ربيعة، وهو لُحَىّ بن حارثة بن عمرو مزيقياء بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة ابن مازن بن الأزد.

قال ابن هشام : إن خزاعة تأبى أن تكون عدنانية وتقول: نحن بنو عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن ابن الأزد بن الغوث، وخِنْدف أُمُّنا [4].

وأيامًا كان الأمر- عدنانية أو قحطانية- فإن خزاعة بعد اعتزالها الأزد الذاهبين إلى الشام اختارت الإقامة بمكة وما حولها.

ويذكر الإخباريون عن عمرو بن لُحَىّ (والد خزاعة) أنه أول من بحر البَحِيرة وسيَّب السائبة ووصل الوصيلة، وحمى الحامى [5] وكانوا يعظمون"مناة" وهو صنم لهذيل وخزاعة بين مكة والمدينة، وكانوا يحيطون بعلم العرب العاربة،

والفراعين، وأخبار أهل الكتاب[٦].

خزاعة وولايتهم على البيت الحرام:

كانت مكة آنذاك تحت حكم الجراهمة [٧]- الذين بغوا وطغوا فتمالأت عليهم خزاعة وبنو بكر وأَجْلَوْهُم عن البيت، فعمد عمرو بن الحارث بن مضاض الجرهمي إلى غَزالَى الكعبة (وهما من الذهب)، والحجر الأسود وإلى سيوف محلاة، وأشياء أخرى، فرماها فى زمزم، وارتحل عمرو بقومه فرجعوا إلى اليمن ، وتولى البيت الحرام عمرو بن الحارث الغبشانى الخزاعى، وظل الأمر فيهم حتى كان آخرهم حُليل بن حبشية ابن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعى، الذى لم يخلف وريثًا ذكرًا، وزوج ابنته "حُبَّى" لقصى بن كلاب القرشى فأنجب منها أولاده الأربعة: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى وعبدًا، وعظم شرفه من كثرة ماله وولده، ولما هلك صهره حليل، رأى قصى بن كلاب أنه أولى بالكعبة وبأمر مكة من خزاعة وبنى بكر ، فحاربهم وأخرجهم منها بمعونة كنانة وأخيه لأمه" رزاح بن ربيعة" وقيل إن حليل بن حبشية هو الذى أوصى له بذلك [٨]من بعده.

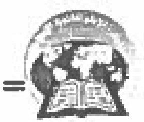
وأيامًا كان الأمر فقد ولى قصى البيت وأمر مكة، وجمع قومه المتفرقين إليها فأطاعوه، وأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة التى أصبحوا عليها، وكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء وبقيت فى أولاده إلى أن جاء الإسلام [٩].

خزاعة تفقد السيادة على مكة وتُبقى حلفها مع كنانة وبنى قصى:

لكن انتقال السلطة فى مكة من خزاعة إلى قريش لا يعنى أن خزاعة أصيبت بما أصيبت به جرهم من ضعف واندثار، فقد بقيت خزاعة معروفة ومشهورة ذات بطون عديدة، من جملتهم بنو المصطلق بن سعد بن عمرو بن لُحَىّ، وغيرها، ويقيم معظمهم فى وادى فاطمة (مَرّ الظهران) ويسمون خزاعة الوادى، أما الذين نزلوا مكة من جهة الجنوب فيسمون خزاعة البر، ويقيم معظمهم فى قلب جزيرة العرب [١٠].

خزاعة وهواها مع النبى محمدﷺ والمسلمين وبنى هاشم:

وكان بين بنى كنانة وخزاعة حلف على التناصر والتعاضد على سائر الناس، لكن الشداخ (يعمر بن عوف) منع كنانة من نصرتهم على بنى أسد لقرابة بنى أسد لكنانة[١١]. وكانت جدة



النبى ﷺ من خزاعة وهى حُبَّى بنت حُليل بن حبشية أم عبد مناف، كما أن زوجة النبى جويرية بنت الحارث الخزاعى التى تزوجها بعد غزوة بنى المصطلق من خزاعة[١٢]، وقد استمرت علاقة المودة بين خزاعة والنبى ﷺ حتى قبل إسلامهم[١٣] وازدادت توثقًا حين اختاروا محالفته فى عقد الحديبية سنة ٦ هجرية/ ٦٢٨ميلادية، حيث ذكر ابن هشام[١٤] شروط هدنة الحديبية ومنها: "وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه، فتواثبت خزاعة فقالوا: نحن فى عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر فقالوا: نحن فى عقد قريش وعهدهم... ثم إن بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة عدت على خزاعة وهم على ماء لهم بأسفل مكة يقال له" الوتير" فأصابوا منهم رجلا واقتتلوا، ورفدت قريش بنى بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش مَنْ قاتل بالليل متخفيًا حتى حازوا خزاعة إلى الحرم فلجأت إلى دار بديل بن ورقاء الخزاعى، ومولى لهم يقال له: "رافع"، ومن ثم نقضت قريش ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من العهد، فخرج عمرو بن سالم الخزاعى حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فوقف عليه وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فأنشده أبياتا منها:

يا رب إنى ناشد محمدًا
حلف أبينا وأبيه الأتلدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا
وادع عباد الله يأتوا مددا
فى فليق كالبحر يجرى مُزبدا
إن قريشًا أخلفوك الموعدا
ونقضوا ميثاقك المؤكدا
وجعلوا لى فى كداء رصدا

فقال رسول الله ﷺ: نصرت يا عمرو ابن سالم، ثم جاء بديل بن ورقاء الخزاعى إلى رسول الله ﷺ فى جماعة فقال مثلما قال عمرو بن سالم فكان ذلك سبب فتح مكة[١٥].

ولنزول خزاعة فى الحرم ومجاورتهم لقريش، قال ابن عباس: نزل القرآن بلغة الكعبين، كعب بن لؤى وكعب بن عمرو بن لحى، وأعطاهم الرسول ﷺ منزلة لم يعطها أحدا من الناس حين جعلهم مهاجرين بأرضهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، وظلت خزاعة على وفائها لآل البيت، ففى عصر الراشدين كانوا فى حزب الإمام على بن أبى طالب فى صراعه مع معاوية بن أبى سفيان وحاربوا

معه سنة ٣٧ هجرية/٦٥٧م[١٦].

بل إن شعراءهم كانوا ينافحون عن أهل البيت ويهجون خصومهم، كما كان يفعل دعبل بن على الخزاعى، وحينما تفرقوا فى الأمصار سار بعضهم إلى الخليل والشام واليمن، وبعضهم إلى العراق وسكنوا الديوانية بعد الكوفة، وسكن بعضهم غزة هاشم، ومازالت بلدة خزاعة المشهورة فى غزة تحمل اسمهم إلى اليوم، ويترفعون عن مصاهرة غير الخزاعى أو العلوى الهاشمى، كما تكاثروا فى وادى الفرات بعد أن عينت الحكومة العثمانية جدهم" حسن باشا" واليا على بغداد فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، ويقارب عددهم فى بلاد العرب اليوم نحو المليون، وقد عُرِفوا بالشجاعة والبسالة[١٧].

أ . د/ عبد الله إبراهيم راجح

الهوامش:

(١) انظر: ابن منظور : لسان العرب مادة " خزع" ج٢ ص ١١٥٠ طبعة دار المعارف القاهرة ١٩٨٦م، وقد نسب ياقوت الحموى وابن هشام هذا البيت مع أبيات أخرى إلى عون بن أيوب الانصارى الخزرجى (ابن هشام ج ١ ص ١٠٦، وياقوت: معجم البلدان ج ٢ ص ٢١).

(٢) ابن خلدون: العبر ج٢ ص ٢٥٣ طبعة القاهرة ١٢٧٤هـ، جواد على: المفصل ج٢ ص ٤٤٠.

(٣) أبو الفدا : المختصر : ج١ ص ١٠٧، عمر رضا كحالة، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ج١ ص ٣٢٨ -مطبعة الرسالة بيروت طبعة ثالثة ١٩٨٢م.

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج١ ص ١٠٦.

(٥) البحيرة: هى التى شقت أذنها وهى بنت السائبة، والسائبة: الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهم ذكر، تسيب فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف ويفعل بالبحيرة مثل ذلك، والوصيلة: الشاة إذا ولدت اثنين فى بطن واحدة خمس مرات وكانوا إناثًا ليس بينهم ذكر، والحامى: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهم ذكر، فإنه يحمى ظهره فلا يركب ، وهذا من عادات الجاهلية، فلما جاء الإسلام نهى عن كل ذلك(ابن هشام: السيرة النبوية ج١ ص١٠٢- ١٠٤) والزبيدى: تاج العروس: ج ٥ ص ٣١٧، جواد على : المفصل(ج٢ ص ٤٣٨).

(٦) انظر: عمر كحالة: معجم قبائل العرب ج ١ ص ٣٣٩.

(٧) لما توفى إسماعيل ولى البيت بعده ابنه ثابت (وهو ابن أخت الجرهميين) مدة ثم ولى البيت بعده خاله مضاض بن عمرو الجرهمى ومعه بنو ثابت لا ينازعونه فى ذلك، فلما ضاقت مكة على ولد إسماعيل انتشروا فى بلاد الجزيرة، ثم إن جرهمًا بغوا بمكة وأكلوا مال الكعبة فرأى بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة، وغبشان من خزاعة حرب جرهم، فحاربوهم وأخرجوهم من مكة، واستقر الأمر فى ولاية خزاعة للبيت، وتوارثو ذلك كابرًا عن كابر حتى كان آخرهم حليل بن حبشية الخزاعى(ابن هشام: السيرة ج١ ص ١٢٧- ١٣٤، ابن كثير البداية والنهاية ج٢ ص ١٧١- ١٧٤ طبعة بيروت ١٩٨٨م).

(٨) انظر التفاصيل فى: ابن هشام: السيرة ج١ ص ١٢٤- ١٢٥، وابن كثير: البداية. ج٢ ص ١٩٠، ١٧٢- ١٩٢، وكانت مدة ولاية خزاعة على مكة نحوا من خمسمائة عام (من القرن الأول الميلادى حتى النصف الاول من القرن السادس الميلادى) حيث آلت إلى قصى بن كلاب(جواد على: المفصل ج ٢ص٤٤٠) وكانوا قوم سوء فى ولايتهم، وذلك لأن عبادة الأوثان بالحجاز جاءت فى زمنهم بسبب رئيسهم عمرو بن لحى، فإنه أول من دعاهم إلى ذلك، حين خرج من مكة إلى الشام فنزل أرض البلقاء- وبها يومئذ العماليق من نسل لاوذ بن سام بن نوح -رآهم يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، فأخبروه أنهم يستنصرون ويستمطرون بها، فطلب منهم أن يعطوه صنمًا ليعبده قومه فى بلاد العرب، فأعطوه" هُبل" فقدم به مكة ونصبه حول الكعبة، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، فاستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل عبادة الأوثان والأصنام (ابن هشام: السيرة ج١ ص ٨٩- ٩٠، ابن كثير: البداية ج٢ ص ١٧٤).

(٩) انظر ابن كثير : البداية ج١ ص ١٧٤، وابن هشام: السيرة ج١ ص ١٤٠- ١٤١. وحجابة البيت: هى أن تكون مفاتيحه عند قصى، والسقاية: هى سقاية الحجيج والعمار من ماء زمزم الممزوج بالعسل أو اللبن أو الخمر، والرفادة: إطعام أهل الموسم من الحجيج، والندوة: الاجتماع للمشورة والحرب، واللواء: قيادة الجيش فى الحرب، انظر ابن هشام (السيرة: نفس المصدر والصفحة).

(١٠) انظر : عمر كحالة: معجم قبائل العرب ج ١ ص٣٣٩.

(١١) نفس المرجع والصفحة .

(١٢) ابن هشام : السيرة ج٣ ص ١١٨- ١١٩ وفيه أن بنى المصطلق أسلموا وحسن إسلامهم ودفعوا الزكاة إلى النبى ﷺ على خلاف ما ذكره الوليد بن عقبة بن أبى معيط للنبى ﷺ من أنهم امتنعوا عن الزكاة وهموا بقتله.

(١٣) كانت خزاعة -مسلمهم ومشركهم- موضع سر رسول الله ﷺ بتهامة، هواهم معه، لا يخفون عنه شيئًا كان بمكة، وقد بدا ذلك واضحًا فى موقف معبد الخزاعى- الذى كان ما يزال مشركًا- عندما صرف أبا سفيان عن الكرة على المدينة لاستئصال المسلمين بعد هزيمتهم فى أحد. وعندما قررت قريش غزو المدينة سنة ٥ هجرية (الأحزاب) قدم إلى المدينة رجال من فرسان خزاعة فاخبروا النبى بنوايا قريش وكذلك موقف بديل بن ورقاء من قريش حينما جاء النبى إلى الحديبية، حيث ذهب إلى قريش وذكر لهم أن محمدًا جاء زائرًا للبيت (ابن هشام: السيرة ج ٣ ص ٨٨٣- ٨٨٤، ١١٣٧).

(١٤) السيرة النبوية ج ٣ ص ١١٤٤.

(١٥) انظر ابن هشام: السيرة ج٣ ص ١٢٢٩، ١٢٣٥، ١٢٣٦، وابن كثير: البداية ج ٤ ص ٢٧٧- ٢٧٩.

(١٦) انظر : عمر كحالة: معجم القبائل ج ١ ص ٣٣٩.

(١٧) انظر: عمر كحالة: معجم القبائل ج ٢ ص ٣٤٠.

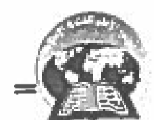
مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن حزم: جمهرة أنساب العرب. بيروت ١٩٨٣م.

٢. ابن الأثير: اللباب فى تهذيب الأنساب، جـ١. بيروت ١٩٨٠م.

٣. المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، جـ٢، القاهرة ١٩٤٨م.

٤. عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، جـ١، بيروت ١٩٨٣م..



الخزرج

قبيلة عربية من عرب اليمن القحطانية، هاجرت من موطنها الأصلى إلى يثرب. وكان قدومهم - مع الأوس- إلى يثرب بعد سقوط سد مأرب، بعد حادث سيل العرم، فقرر عمرو بن عامر ابن حارثه بن ثعلبة، الخروج من اليمن، فباع ماله بمأرب وتفرق ولده، فنزلت الخزرج (مع الأوس) يثرب، وارتحلت غسان إلى الشام، وذهبت الأزد إلى عمان، وخزاعة إلى تهامة.

أقام الخزرج بالمدينة واستقروا- أول الأمر- على تخوم المدينة، وسرعان ما وطدوا سلطانهم وتحكموا فى بعض الآطام، وتكاثر عددهم بسرعة. والخزرج إخوة الأوس عند النسابين. الخزرج هو شقيق الأوس، وهو الخزرج بن حارثه بن ثعلبة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن عبد الله بن الأزد، وقد سكنوا يثرب وإلى الشمال منها حتى خيبر وتيماء.

ومن الخزرج أبو أيوب خالد بن زيد، وأسعد الخير بن زرارة بن عدس، شهد العقبة وكان نقيبًا، وثابت بن قيس بن شماس، خطيب رسول الله ﷺ، وسعد بن عبادة بن دليم، وابنه قيس بن سعد بن عبادة. ومنهم رافع بن مالك بن العجلان وهو أول من أسلم من الأنصار، والبراء بن معرور وكان نقيبًا، وهو أول من أوصى بثلث ماله وأول من استقبل القبلة، وأول من دفن فيها.

والخزرج بطون، أشهرها بنو النجار، والحارث، وجشم، وعوف، وكعب، ومن بين الخزرج شعراء النبى ﷺ: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة.

ونظرًا لمساعدة أهل يثرب الرسول ﷺ ومناصرتهم له وللمهاجرين، عرف الخزرج مع الأوس بـ" الأنصار"، وكانوا يفتخرون بهذه التسمية حتى غلبت عليهم وصارت فى منزلة النسب. ومن الجدير بالذكر أن لغة الخزرج قد أثرت أيضًا فى اللهجة العربية فى مصر لنشوئهم فى جنوبى بلاد العرب، وقد كانوا ينطقون الجيم معطشة على خلاف أهل المشرق.

وبدأ الصراع بين العرب وبين اليهود فى يثرب، وأدرك اليهود أن خير وسيلة يتغلبون بها على العرب هى القضاء على ذلك الاتحاد الوثيق الذى لمسوه بين قبيلتى

الأوس والخزرج، فعمدوا إلى سياسة الدس والوقيعة بين القبيلتين، ونجحوا فى سعيهم هذا، فبدأ العداء بين القبيلتين، ودارت الحرب بينهما فكانت حرب فجار يثرب، أو فجار الأوس والخزرج، وانتهت بانتصار الأوس، ثم اتفق الفريقان على الصلح وإقامة حكومة مشتركة تنظم العلاقات فى يثرب واختاروا زعيم الخزرج عبد الله بن أبى بن سلول رئيسًا لهذه الحكومة. وبينما كان الخزرجيون ينظمون له التاج ليتوجوه ملكًا عليهم، هاجر الرسول ﷺ إلى (يثرب)، فدخل فى مرحلة جديدة وتحول اسمها إلى (المدينة المنورة)، فقد استنارت بأنوار الإسلام وأنوار الرسول ﷺ وسماها الرسول (طيبة).

أ.د / نادية حسنى صقر

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- جواد على: تاريخ العرب قبل الإسلام.
٢- السمهودى: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى.
٣- ياقوت الحموى: معجم البلدان.
٤- د. أحمد إبراهيم الشريف: مكة والمدينة فى الجاهلية.
٥- ولفنسون إسرائيل: تاريخ اليهود فى بلاد العرب -القاهرة ١٩٢٧م.
٦- د. السيد عبد العزيز سالم: دراسات فى تاريخ العرب.
٧- جرجى زيدان: العرب قبل الإسلام.
٨- الهمدانى، الحسن بن أحمد بن يعقوب: صفة جزيرة العرب - تحقيق محمد بن على الأكوع.
٩- الأصفهانى الحسن بن عبد الله : بلاد العرب - تحقيق حمد الجاسر، د. صالح العلى.

الخلافة

الخلافة هى النظام السياسى الذى اختارته الأمة الإسلامية فى المدينة لتحكم وفقه بعد انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

والخلافة مصطلح يرادف الإمامة، والإمام هو الذى تختاره الأمة ليكون على رأس نظامها السياسى.

والخلافة مؤسسة إسلامية نشأت إسلامية وتطورت خلال العصور الإسلامية المختلفة. وهى خلافة النبوة؛ فالخليفة خليفة للنبى ﷺ. يقول الماوردى: " الخلافة موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا"(١).

ولما كانت الخلافة تأتى على رأس النظام السياسى فى الدولة الإسلامية فالحكومة الإسلامية فى كنفها حكومة رشيدة تقوم على أساس من الكتاب والسنة.

وتختلف الخلافة كنظام سياسى عن الأنظمة السياسية السابقة عليها من حيث الأسس والقواعد التى قامت عليها، فهى تختلف عن النظم الفارسية كما تغاير النظم البيزنطية وما سبقها وما لحقها من نظم.

والحكومة الإسلامية ليست حكومة دينية Theocracy وليست حكومة مطلقة Autocracy كما أنها ليست حكومة فلاسفة Utopia لكنها حكومة قامت على اجتهاد الأمة التى طبقت ما جاء فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، فقد نص القرآن الكريم على الشورى والالتزام برأى الجماعة، وعلى ذلك فالشورى قاعدة أساسية تقوم عليها الخلافة.

أما الأصل الثالث الذى تقوم عليه الخلافة فهو العقد، فالخلافة عقد بين الحاكم والمحكوم أساسه واستمراريته قائمة على التزام الحاكم بتطبيق كتاب الله وسنة رسوله. وبهذا يكون النظام السياسى الإسلامى قد سبق النظم الديموقراطية الحديثة فى ضرورة موافقة الجماعة - الأمة- على اختيار من يقوم بولاية أمورها، كما يؤكد النظام السياسى الإسلامى أن نظرية العقد فكرة وضع الإسلام أساسها، وجعله ملزمًا للطرفين، مؤكدًا أن الخلافة عقد بين الحاكم والمحكوم، والطاعة واجبة على المحكومين ما دام يعدل فيهم



ويحكم بينهم بما أنزل الله.

يقول ابن حزم. " اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة ومعظم الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ورسوله ويسوسهم بأحكام الشريعة التى أتى بها رسول الله ﷺ "[٣]. اتخذ الصدر الأول الشورى لتكون القاعدة الأساسية التى نص عليها دستور المسلمين فى أكثر من موضع فقال تعالى:﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (الشورى: ٣٨) وقال تعالى:﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وتأكيا على هذا المبدأ لم يترك رسول الله ﷺ نصًا مكتوبًا ولم يعين أحدًا لتولى إمامة المسلمين من بعده. وإن كان من بين علماء المسلمين من يرى أن نزاعًا نشأ بين المسلمين حول هذه القضية (قضية الإمامة)؛ وهنا يقول الشهرستانى: وأما الخلافات الواقعة فى حال مرض الرسول ﷺ وبعد وفاته بين الصحابة رضوان الله عليهم فهى خلافات اجتهادية كما قيل، كان غرضهم منها إقامة الشرع وإدارة مناهج الدين[٣].

الثابت إذن أن رسول الله ﷺ لم يستخلف أحدًا، وإنما ترك الأمر شورى بين المسلمين؛ فقد قال الإمام البخارى: إن عمر وعليا وعثمان قالوا: لم يستخلف النبى ﷺ، وقد أراده المسلمون أن يستخلف عليهم قال: إنى إن استخلفت عليكم فتعصون خليفتى ينزل عليكم العذاب[٤].

ظهرت الخلافة إذن منذ ذلك الوقت واهتم بشرحها الفقهاء العلماء والمتكلمون، وحفلت كتب الفكر السياسى بما ثار حولها من بحث وجدل وخلاف وكلام.

عرَّف الفقهاء الخلافة بأنها خلافة النبوة . يقول الماوردى: " أن الله جلت قدرته ندب للأمة زعيمًا خلف به النبوة وأحاط به الملةوفوض إليه ليصدر التدبير عن دين مشروع وتجتمع الكلمة على رأى متبوع، فكانت الإمامة أصلا استقرت عليه الملة وانتظمت به مصالح العامة حتى استتبت به الأمور العامة وصدرت عنه الولايات الخاصة[٥]".

يؤكد الماوردى وغيره من الأئمة الفقهاء أن الخلافة فى الإسلام هى خلافة النبوة، وأنها وضعت بإجماع الأمة حماية للدين وتوحيدًا للصف والكلمة

ورعاية للمصالح وانتظامًا للأمور.

قنّن الفقهاء قواعد هذا النظام فتحدثوا عن أصول الإمامة وعقدها وكيفية انعقاده وعدد من يصح بهم العقد، قالوا: إن قام عليها واحد من أهلها، أى من أهل الإمامة سقط فرضها عن الكافة وإلا خرج من الناس فريقان.

الأول هو أهل الاختيار:

والثانى هو أهل الإمامة

أما أهل الاختيار فهم أهل الحل والعقد وعليهم تقع مسئولية اختيار او ترشيح من يصلح لتولى منصب الإمامة أو الخلافة، وهذا يلزمهم بضرورة تحرى العدالة فيمن يرتضون لهذا المنصب الخطير بما يحقق صالح الأمة وصالح الإسلام.

ذكر الفقهاء أنه لابد أن يتوفر عدد من الشروط فى هذا الفريق، ومن ذلك العدالة الجامعة لشروطها، والعلم الذى يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة على الشروط المعتبرة فيها، والرأى والحكمة المؤديان إلى اختيار من هو للإمامة أصلح وبتدبير المصالح أقوم وأعرف.

أما أهل الإمامة فيجب أن تتوفر فيهم الشروط الآتية:

١- العدالة.

٢- العلم المؤدى إلى الاجتهاد فى النوازل والأحكام والعلم بأمور السياسة وتفصيلاتها.

٣- سلامة الحواس من السمع والبصر واللسان، وسلامة الأعضاء.

٤- الشجاعة والنجدة المؤدية إلى حماية البيضة وجهاد العدو.

٥- النسب القرشى وهذا موضع خلاف.

طريقة انعقاد الإمامة:

فصل فقهاء المسلمين طريقه انعقاد الإمامة فقالوا: إنها تنعقد من وجهين. الأول: أن يختار أهل الاختيار إمامًا للمسلمين، والثانى: أن يعهد الخليفة الإمام لواحد من عدول الأمة.

وهذه الخطوة تعد بمثابة التحضير لمن يتولى إمامة الأمة تمهيدًا لاتخاذ الإجراءات التى تصح بها الخلافة وهى البيعة العامة أو البيعة الكبرى.

واستدل من قال بأنه من الممكن أن يعهد الإمام لمن سيأتى بعده، بما قام به الصديق رضى الله عنه وقد ترك كتابًا يرشح فيه الفاروق عمر رضى الله عنه إمامًا للمسلمين تمهيدًا لمبايعة الأمة له بيعتها الكبرى. وكذلك ما قام به الفاروق عمر من تكليف مجلس الشورى الذى اختار أعضاءه ليتولوا مسئولية



اختيار الإمام.

وهم فى كل الأحوال يقولون إن عقد الإمامة يصح مبدئيًا باثنين أو ثلاثة، كما يصح بخمسة أو ستة؛ بينما يذهب البعض بأن عقد الخلافة يشبه عقد النكاح يتم بولى وشاهدين.

وعندما يرشح أهل الإمامة الإمام فلابد من تحقق الأصول التى تقوم عليها الخلافة وهى: الشورى كشرط أساسى لموافقة الأمة، والبيعة العامة أو البيعة الكبرى التى لا تصح الخلافة إلا بها.

البيعة العامة:

وهى موافقة الأمة على الإمام أو الخليفة الذى لا تصح إمامته إلا بها، والدليل على ذلك بيعة الصديق رضى الله عنه بيعة كبرى بعد أن بويع بيعة صغرى فى سقيفة بنى ساعدة.

وقد خطب الصديق الناس بعد بيعته العامة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: " أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فاعينونى، وإن أسأت فقومونى، الصدق أمانه والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوى عندى حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم عندى ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله؛ ولا يدع قوم الجهاد إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة فى قوم إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم"(٦).

ورغم قصر المدة التى حكم فيها الصديق رضى الله عنه فالثابت أنه كان يتخذ مجلسًا للشورى، وأن عصره قد شهد إنجازات مهمه فى الداخل والخارج: فقد قضى على المرتدين، وبدأ الخطوات العملية تجاه تأكيد عالمية الإسلام بالفتوحات الإسلامية، لكن أهم إنجازاته هو عهده للفاروق عمر رضى الله عنه يرشحه لخلافته ونصه: "بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة آخر عهده فى الدنيا نازحا عنها؛ وأول عهده بالآخرة داخلا فيها: إنى استخلفت عليكم عمر بن الخطاب فإن تروه عَدَل فيكم، فذلك ظنى به ورجائى فيه، وإن بدَّل وغيَّر فالخير أردتُ ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون"(٧).

وتجب الإشارة إلى أن هذا الترشيح أو هذا العهد غير ملزم ولا تصح الإمامة به بل لابد من البيعة العامة.

ويتولى الفاروق الخلافة للمؤمنين ليعدل فى الأمة ويرعى مصالحها وينظم

أمورها ويستكمل المسيرة ويجتهد فى إضافة وتطوير النظم الإسلامية الإدارية والاقتصادية والاجتماعية وبصفة خاصة السياسية.

مجلس الشورى:

يمثل هذا المجلس اجتهاد الفاروق عمر فى تطوير النظام لسياسى الإسلامى، فحين طعن، دخل عليه الناس يطلبون منه أن يستخلف، فقال: ما أرى أحدًا أحق بهذا الأمر من النفر الذين توفى النبى ﷺ وهو عنهم راض، فسمى الستة وقال : يشهد عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء، فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإنى لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

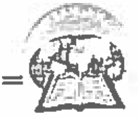
فعمر رضى الله عنه جعلها شورى فى عثمان وعلى وطلحه والزبير وعبد الرحمن ابن عوف وسعد وخاطبهم قائلاً: إنى نظرت فيكم فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم وقد قبض رسول الله وهو عنكم راض، إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم، ولكنى أخاف عليكم اختلافكم فيختلف الناس فانهضوا إلى حجرة عائشة بإذن منها فتشاوروا.

وتوفى عمر، وحين فرغوا منه عاد مجلس الشورى للإجتماع، وبعد مناقشات ومداولات تم اختيار عثمان بن عفان رضى الله عنه، وبايعته الأمة إمامًا وخليفة للمسلمين.

وحكم عثمان رضى الله عنه المسلمين وامتدت خلافته اثنى عشر عامًا. شهد النصف الثانى منها أحداثًا جسامًا، وتعرضت المدينة المنورة للفتنة الكبرى التى أودت بحياة الخليفة.

وعلى الرغم من إنجازات خليفة المسلمين الثالث وأهمها جَمْعُهُ للقرآن الكريم حيث أخرج للأمة المصحف الإمام موحدًا إياها على مصحف واحد، وأرسل نسخة منه لكل مصر من الأمصار إلا أن كثيرًا من التهم والشبهات ألصقت به رضى الله عنه ظلمًا وبهتانًا وقيَّضَ الله له من فند تلك الشبهات ودافع عنه ومن أهم الكتب فى هذا كتاب العواصم من القواصم لأبى بكر بن العربى وغيره مثل منهاج السنة النبوية لابن تيمية.

لقد سار ذو النورين على منهج من سبقه متبعًاسنة النبى ﷺ ومطبقًا لكتاب الله، وربما عاقت الظروف التى شهدتها الدولة الإسلامية فى النصف الثانى من حكمه تطور نظام الخلافة، فالأحزاب المعارضة وثورات الأقاليم والفتنة وانتهاك



حرمة المدينة عاصمة الدولة الإسلامية، تلك العوامل تكاتفت كلها لإنهاء عصر عثمان بن عفان على النحو الدامى الحزين الذى تصوره المصادر الإسلامية.

وبعد مقتل عثمان رضى الله عنه كان لابد للأمة من إمام، وقد كانت بيعة الإمام على رضى الله عنه فى المسجد حيث بايعه الناس، وبايعه الأنصار وعدد قليل ممن كانوا عثمانيىِّ الهوى.

لكن تلك البيعة لم تضع حدًا للخلاف والفتنة التى بدأت فى عصر عثمان رضى الله عنه، ودب الشقاق فى صفوف الأمة وهو ما أدى فى النهاية إلى أن انقسم جيش المسلمين ليحارب بعضه بعضًا.

لقد هزت تلك الفتنة الدولة الإسلامية والأمة جميعًا بل إنها عجلت بإنهاء الخلافة الراشدة على النحو الذى انتهت إليه بمقتل على كرم الله وجهه.

قام المطالبون بالثأر من قتله عثمان رضى الله عنه: فريق اتجه إلى العراق ومنهم أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها، وفريق ذهب إلى الشام ومنهم السيدة نائلة زوجة عثمان رضى الله عنه.

وخرج الإمام على رضى الله عنه من مدينة رسول الله ﷺ متتبعاً الثوار الذين ذهبوا إلى العراق وكانت موقعة الجمل حيث اقتتل المسلمون لأول مرة ووقف جيشان إسلاميان يختصمان.

ومن جهة أخرى كان عليه أن يواجه معاوية بن أبى سفيان رغم ميله فى البداية إلى التفاوض حقنًا لدماء المسلمين، لكن المواجهة العسكرية كانت حتمية ثم كانت موقعة صفين التى انتهت باللجوء إلى التحكيم حيث أُنيط. بمحكمة التحكيم حسم هذا الأمر وفق قواعد الإسلام، لكن محكمة التحكيم وفيها عمرو بن العاص وأبو موسى الاشعرى لم تحسم ذلك الخلاف لصالح من هو أحق بالخلافة وهو على بل أدت إلى تعقيد الأمور بدرجة أدت إلى فصل على كرم الله وجهه وقيام معاوية بن أبى سفيان خليفة للمسلمين، وكان على الأمة بعد ذلك أن تواجه أعقد مشكلاتها السياسية التى ترتب عليها انقسام الأمة إلى فرق وأشياع وليترتب على ذلك أيضًا أعظم وأعقد خلاف فى الإسلام.

ثم كان عام الجماعة، الذى وضع نهاية للخلافات ولو بوجه صورى، وانتهت المرحلة المثالية فى حكم المسلمين وهى المرحلة التى حكم فيها الخلفاء الراشدون ليبدأ عصر جديد فى مسيرة الخلافة الإسلامية.

ويعرف المؤرخون هذه الفترة من الحكم الإسلامى بالعصر الأموى . الخلافة الأموية . الملك العربى . وقد اتسمت هذه المرحلة من حياة الخلافة الإسلامية بسمات اختلفت عما كانت عليه فى عصر الخلفاء الراشدين.

لقد انتقلت عاصمة الدولة الإسلامية إلى دمشق حيث الاستقرار والفخامة والترف، والقرب من التقاليد البيزنطية.

وظهرت تغيرات واضحة على الأمة الإسلامية غير تلك التى عرفها مجتمع المدينة المنورة مثل إدخال الأمويين لتغيير جوهرى فى الأسس التى تقوم عليها الخلافة وهو مبدأ الشورى والبيعة فأحلوا محل ذلك مبدأ ولاية العهد إذ أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد ولم يترك الأمر مثلما كان فى عهد الخلفاء الراشدين.

كانت خلافة **معاوية بن أبى سفيان** عام ٤١هـ/ ٦٦٠م وذلك بعد أن صالحه الحسن بن على رضى الله عنهما معتزلا بذلك السياسة تاركًا الساحة للأمويين.

تقع إذن مسئولية تحويل الخلافة الإسلامية إلى حكم وراثى على عاتق معاوية بن أبى سفيان ويعد هذا أول تغيير جوهرى تشهده الخلافة.

تولى بعده ابنه يزيد بن معاوية وكانت فترة حكمه قصيره شهدت بعض الأحداث الخطيرة مثل مقتل الحسين بن على ولكنها لم تَخْلُ من إيجابيات ففى عهده فتح عقبة بن نافع كثيرًا من بلاد شمال إفريقيا.

وتدخل الخلافة الإسلامية فى صراعات حول الحكم والسياسة فيشهد المسلمون بيعتين: الأولى لمعاوية بن يزيد فى الشام والثانية لعبد الله بن الزبير فى الحجاز مما يعصف بمبدأ هام فى حكم المسلمين وهو أن الأساس فى الخلافة الوحدة.

كانت خلافته - أى معاوية الثانى- ثلاثة أشهر وقيل أربعين يومًا: ولم يستخلف معاوية بن يزيد أحدًا، ولما كانت آخر أيام حكمه، صعد المنبر ونودى: الصلاة جامعة، فاجتمع الناس: فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أما بعد؛ فإنى قد نظرت فى أمركم فضعفت عنه، فابتغيت لكم رجلا مثل عمر بن الخطاب - رحمة الله عليه- حين فزع إليه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت لكم ستة فى الشورى مثل عمر فلم أجدها، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم"[٨]. ثم دخل بيته وتغيب حتى مات وساد الاضطراب الدولة



الإسلامية وكان لابد من حسم الأمر فكان مؤتمر الجابية ٦٤هـ/ ٦٨٣م الذى أسفر عن بيعة مروان بن الحكم بالخلافة على أن يكون ولى عهده خالد بن يزيد ثم عمرو بن سعيد.

وحاول مروان ضبط الأمور فى الشام مما أدى إلى استقرار نسبى كما أنه أخذ البيعه لابنيه عبد الملك وعبد العزيز حتى لا يتكرر ما حدث من قبل بعد موت معاوية ابن يزيد.

استمرت مشكلة ولاية العهد تشغل بال الأمويين إلى أن تولى عمر بن العزيز خلافة الأمويين وكان ذلك عودًا بالخلافة إلى سالف عهدها فى عهد الخلفاء الراشدين.

وفى عام ١٠١هـ/ ٧١٩م توفى عمر بن عبد العزيز وتولى بعده يزيد بن عبد الملك بن مروان ليبدأ عصر من الفتن والاضطرابات لتكون بداية النهاية للعصر الأموى.

وفى عام ١٠٥هـ/ ٧٢٣م يتولى هشام بن عبد الملك وتشتد الأزمات والخلافات بين اليمانية والمضرية كما عاصر ذلك بداية الدعوة العباسية التى بدأت تقوى وتظهر فى المشرق، وتوفى هشام عام ١٢٥هـ/ ٧٤٣م ليترك الخلافة للوليد بن يزيد الذى قتل فى العام ذاته. وتفاقم الخلاف فى خراسان بين اليمانية والنزارية وظهرت الفتن والثورات على الوالى الأموى فيها وهو نصر بن سيار.

فى عام ١٢٧هـ/٧٤٥م يتولى مروان بن محمد ليكون آخر خلفاء بنى أمية، وليشهد القضاء على الأمويين فى موقعة الزاب الأكبر.

وتُنْهِى الثورة العباسية حكم الأمويين وتعلن قيام حكم جديد تمثل فى خلافة بنى العباس ١٣٢هـ / ٧٥٠م.

وتسير الخلافة العباسية على نفس المنهج الذى سار عليه الأمويون من حيث الحكم الوراثى الذى أدى إلى إضعاف الخلافة العباسية مثلما أدى إلى إضعاف الأمويين من قبل.

ويقوم على رأس الدولة العباسية أبو العباس عبد الله السفاح ثم يليه أبو جعفر المنصور الذى أسس بغداد وأرسى دعائم الدولة العباسية. استند العباسيون فى خلافتهم على عناصر غير عربية مثل الفرس والترك وغيرهم وإن كان هناك من يرى أن الثورة العباسية ثورة عربية قامت احتجاجًا على سياسة الأمويين ورفضًا لتعسفهم فى جمع الأموال والضرائب.

لكن العباسيين رغم إنجازاتهم العسكرية والاقتصادية والاجتماعية

والعلمية تعرضوا لكثير من الأزمات التى أثرت فى الخلافة كنظام سياسى: ومنها قضية ولاية العهد، فقد عهد أبو جعفر المنصور للمهدى الذى عهد لا بنيه الهادى وهارون الرشيد.

كان للفرس تأثيرهم الواضح فى السياسة العباسية وزاد نفوذهم إلى أن قضى عيهم هارون الرشيد فيما يُعْرَف بنكبة البرامكة.

وأوصى هارون الرشيد بالعهد إلى ابنيه الأمين والمأمون وهو الفارسىّ هوىً، نظرًا لتأثره بأمه الفارسية.

وقد كان الصراع بين الأخوين على أشده وانتهى بمقتل الأمين وتولى المأمون الخلافة .

على أيه حال لقد كانت إنجازات الفترة السابقة مهمه على المستوى الداخلى والخارجى كما شهدت انتصارات للمسلمين على البيزنطيين وعلاقات سياسية ودية مع الفرنجة وخاصة علاقات هارون الرشيد مع شارلمان.

ومن ناحية أخرى تشهد الدولة الإسلامية هزة شديدة وهى ظهور الدويلات المستقلة شرقا وغربا حيث ظهر الطاهريون والسامانيون فى الشرق، وظهر الأغالبة فى الغرب.

وتحاول الخلافة العباسية ربط أجزائها المتفرقة واستعادة الوحدة ويقنن الفقهاء لهم ما يسر لهم تدبير أمور ذلك الانقسام فتظهر إمارات الاستيلاء لتبقى على العلاقة بين الحكومة المركزية فى بغداد وتلك الدويلات.

وينقلب ميزان القوة فى الدولة العباسية، حيث تشهد الخلافة الاعتماد على الترك لا على الفرس، فيرى المعتصم أن ينقل العاصمة إلى سامرا، ويسيطر الترك على مسيرة الأمور فى تلك الفترة.

وتنقلب الموازين مرة أخرى حين تضعف الخلافة ويسيطر عليها البويهيون الشيعة، وتظهر أيضًا دويلات جديدة فى المشرق والمغرب تؤرق الخلافة لكنها تمد إليها يد العون فنرى ظهور الغزنويين والسلاجقة وتتصارع تلك القوى من أجل السيطرة على مقاليد الأمور وتتأرجح الخلافة الإسلامية بين القوة والضعف ويظهر الوزراء الأقوياء الذين يسيطرون على مقاليد الأمور بحيث لم يعد للخلفاء سلطان أو قوة. ورضى كثير منهم بالدعاء لهم على المنابر، وضرب أسمائهم على العملة.

وتجب الإشارة هنا إلى أن تلك

الدويلات المستقلة التى نشأت فى كنف الخلافة الإسلامية أدت إلى نهضة كبيرة فى تلك الأقاليم، وساندت الخلافة فى كثير من الأحيان.

شهدت الخلافة الإسلامية أيضًا ظهور خلافة شيعية فى القاهرة وخلافة أموية سنية فى الأندلس، وهذا فى الواقع انعكس على وحدة الأمة، وأدى إلى مزيد من التفكك والضعف، وأنهك قوة المسلمين العسكرية مما أدى إلى زيادة نفوذ الأسر الحاكمة ومن ذلك توغل السلاجقة فى أرض الخلافة فى المشرق ثم فى بغداد ذاتها ثم فى بلاد الأناضول وأخيرًا فى بلاد الشام.

وعلى الرغم من امتداد سلطان الخلافة العباسية على مدى خمسة قرون أو يزيد ١٣٢ : ٦٥٦هـ / ٧٥٠ : ١٢٥٨م إلا أنها تعرضت إلى مواجهات عسكرية لم تستطع الصمود فيها فكان الغزو الصليبى لأراضيها حيث تمكن الصليبيون من اقتطاع ممتلكات هامة من أراضيها أقاموا عليها الإمارات الصليبية فى الرها وأنطاكية والقدس وطرابلس. ولم تقو الجيوش الإسلامية العباسية والفاطمية على صد هذا العدوان الذى استمر جاثما على أرض الإسلام فاحتلت القدس لمدة ثمانية وثمانين عامًا إلى أن استطاع صلاح الدين الأيوبى استنقاذها وتحريرها من الأسر الصليبى البغيض، وشهدت الأمة الإسلامية فى ظل الخلافة العباسية وبعد سقوط الخلافة الفاطمية مواجهات عسكرية استمرت بين المسلمين والصليبيين، حيث توالت الحملات الصليبية على بلاد الشام ومصر ثم شمال إفريقيا؛ إلى أن تمكن الأيوبيون ومن بعدهم المماليك فى مصر من القضاء على ذلك الاحتلال البغيض لأرض الإسلام.

ثم ما كادت الخلافة العباسية أن تفيق إلا لتواجه ضربة أخرى شديدة قادمة من الشرق هذه المرة حيث قضى المغول عليها وأسقطت بغداد وامتدت سيطرتهم إلى بلاد الشام لولا تصدى جيوش مصر لهم بزعامة قطز وبيبرس وهزيمة الجيوش المغولية فى عين جالوت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م.

وتنتقل الخلافة العباسية إلى مصر تحت حماية المماليك، وتتقلص الخلافة إلى مجرد رمز دينى يسبغ الشرعية على الحكام المماليك فى مصر، وتظل الخلافة على هذا النحو من المحدودية والضعف إلى دخول سليم الأول مصر

والقضاء على المماليك وذلك فى٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، وبهذا تنتقل الخلافة إلى الآستانة وهناك تشهد الخلافة فى ظل العثمانيين فترات من القوة وأخرى من الضعف حتى تنتهى نهائيًا كواحدة من أهم النظم السياسية الإسلامية وذلك على يد مصطفى كمال اتاتورك عام ١٣٤٣هـ ١٩٢٤م، ليستقبل العالم الإسلامى بعدها موجات مختلفة من التغريب والاستعمار والتفكك والصراع المذهبى الذى ما زال يعانى من ويلاته إلى اليوم.

أ.د / فتحية النبراوى

الهوامش:

(١) للأحكام السلطانية ص ٥.

(٢) الفصل فى الملل والأهواء والنحل جـ٤ ص ٨٧.

(٣) الملل والنحل جـ ١ ص ٢١.

(٤) الأحكام ص ٣ والدلائل جـ٧ ، ص١٨١.

(٥) الأحكام، ص ٣.

(٦) ابن الأثير: الكامل جـ٤ ص ٥١٣ . ٥١٤.

(٧) ابن قتيبة الدينوى : الإمامة والسياسة : تحقيق طه محمد الزينى ، مؤسسة الحلبى ، القاهرة ١٩٦٧م، ج!، ص ٢٤.

(٨) الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، طبعة دار المعارف ، القاهرة١٩٧٩م، ج٥، ص ٥٣٠- ٥٣١.

مصادر ومراجع للاستزادة:

. الباقلانى (أبو بكر محمد بن الطيب) : التمهيد. دار الفكر العربى. القاهرة ١٩٤٧.

. الشهرستانى (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم): الملل والنحل، مكتبة مصطفى البابى الحلبى. القاهرة- ١٩٦٧م.

. عبد الرزاق السنهورى: فقه الخلافة وتطورها . الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٩٣م.

. الماوردى (أبو الحسن على بن محمد): الأحكام السلطانية. مكتبة مصطفى البابى الحلبى –القاهرة.

. محمد رشيد رضا: الخلافة. الزهراء للإعلام العربى. القاهرة ١٩٩٤م.

. محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية. دار المعارف . القاهرة ١٩٦٩م.

. محمد يوسف موسى: نظام الحكم فى الإسلام. دار الفكر العربى. القاهرة (دون تاريخ) .

الخلجيون

طائفة الخلج من نسل قالج خان، أو قليج خان صهر جنكيز خان، وعندما توفى جنكيز خان، فكر قالج فى تحصين جبال الغور، واستقر فيها مع أهله وقبيلته التى كانت قرابة ثلاثين ألفًا، وكان سلاطين الغور يعملون على غزو ممالك الهند، وقد دخلوها بالتدريج. وصاروا أصحاب منزلة رفيعة.

ويقال إن قالج خان صار خالج، ولكثرة استعماله، أصبح خلج.

قامت دولتهم فى أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن الهجريين /الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وقد أسسها اختيار الدين محمد بختيار خلجى، أحد قادة قطب الدين أيبك فى بهار، ثم ضم البنغال ثم قام بالاستيلاء على دلهى، وأسقط آل بلبن، وأصبح جلال الدين فيروز شاه فى ٢ جمادى الآخر ٦٨٩هـ (١٢٩٠م). أول سلطان خلجى فى دلهى.

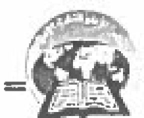
سلاطين الخلجيين :

اختيار محمد بختيار خلجى :

من كبار رجالات بلاد الغور وكرمسير، امتاز بالسخاء والشجاعة والرأى الصائب، جاء إلى غزنين فى عهد السلطان معز الدين سام الغورى، وتوجه إلى الهندوستان [1]، والتحق بخدمة الملك المعظم حسام الدين[2]، الذى كان حاكما على بعض مقاطعات الهندوستان والذى منحه مقاطعتى "كنيلة وبتيالى" لشجاعته، وكان يغزو"بهار" من حين لآخر، وعندما بلغت شجاعته السلطان قطب الدين أيبك أرسل إليه لواء السلطنة، فقام بفتح قلعة" بهار" التى اشتهرت بأنها موطن العلم بمساعدة السلطان قطب الدين، واستولى على أموال وغنائم كثيرة من البراهمة الذين كانوا فى القلعة.

التحق اختيار الدين بخدمة السلطان قطب الدين الذى طلب منه مبارزة فيل قوى سمى بلغة الهند" مستى" وهو أقوى أنواع الأفيال ويقوم على خدمته خمسة أفراد، واستطاع اختيار الدين التغلب على الفيل بطعنه طعنة مباشرة فى خرطومه ففوضه السلطان على حكومة " لكهنوتى".

وتجمَّع البراهمة فى مدينة "نوديا"[3]، عند " لكهمينه بن راى لكهمن" لمواجهة



اختيار الدين،وكانوا قد عرفوا من كتبهم القديمة أن الأتراك [٤] سيستولون على هذه الديار، وأن علامة ذلك أن المستولى عليها يقف على قدميه مستقيما ويداه مفرودتان، ولما تيقنوا من أن اختيار الدين هو من تنطبق عليه العلامات تجمعوا فى"نوديا"، وعندما توجه اختيار الدين لفتح هذه البلاد، فر حاكمها، ووقعت خزائنه فى يد الفاتحين، وقام اختيار الدين ببناء مدينة جديدة قرب" لكهنوتى" لتكون دار المملكة، وبنى المساجد والمدارس والخوانق[٥]، وقُرِئ اسمه فى الخطبة وسكت العملة باسمه، وأرسل غنائم كثيرة إلى السلطان قطب الدين أيبك.

ثم أراد اختيار الدين فتح بلاد" التبت"، فعبر نهر" بيكمتى" وهو نهر عميق وواسع، ولكنه وجد مقاومة شديدة، فعاد، وفقد كثيرًا من جيشه، ورجع إلى " ديوكوت" ومرض وقيل إنه قتل سنة ٦٠٢هـ. (١٢٠٥م).

قام أمراء الخلج باختيار على مردان خلجى أميرًا عليهم، وقام السلطان قطب الدين أيبك بإقرار كل أمير من أمراء الخلج فى المكان المناسب له، فكان " قيماز رومى" فى لكهنوتى"، و"حسام الدين عوض خلجى" فى " كلوانى"، و" محمد شروان " على" ديوكوت"، إلا أن أمراء الخلج قامت الحرب بينهم.

على مردان خلجى

قيل: إنه هو الذى قتل محمد بختيار، فسجن فى قلعة" ديوكوت" ولكن "كوتوال"، القلعة أى حاكمها [٦] أطلق سراحه، فالتحق بخدمة السلطان قطب الدين أيبك، فمنحه ولاية "لكهنوتى" ، وبعد وفاة قطب الدين استقل، ورفع رايته جتر[٧]، وضربت العملة وقُرِئت الخُطبة باسمه ولقب نفسه بالسلطان علاء الدين، إلا أن امراء الخلج اتفقوا على قتله لما رأوا من تكبره وتجبره وقتلوه بعد أن حكم سنتين.

ملك حسام الدين عوض خلجى

خلجى من أمراء خلج" كرمسير"، وقد توجه إلى " الهندوستان" والتحق بخدمة ملك محمد بختيار خلجى وظل فى خدمته حتى قتل الأخير، وكان يحكم مقاطعة " كلوتى" عندما قتل على" مردان" فاختاره أمراء الخلج سلطانًا فسمى نفسه السلطان غياث الدين، وحكم ولايات "البنغال وترهت وكامرود وجاجنكر"، واستولى على" بهار"، ووقعت بينه وبين السلطان شمس الدين التمش عدة حروب فى سنة ٦٢٢هـ - ٦٢٤هـ ١٢٢٥- ١٢٢٧م

ولكنه قتل بعد أن حكم اثنتى عشرة سنة.

السلطان جلال الدين خلجى

توجه السلطان جلال الدين إلى " كيلو كهرى" وحكم نيابة عن السلطان شمس الدين التمش، وفى سنة ٦٨٨هـ - ١٢٨٩م . جلس على عرش السلطنة صراحة.

كان جلال الدين من أمراء السلطان شمس الدين التمش، وعندما قتل السلطان "معز الدين كيقباد" الذى تولى السلطنة بعد " التمش"، بسبب فساد أمره وسوء سلوكه، جلس جلال الدين على عرش السلطنة، وبايعه الأمراء، وخلال وقت قصير أنشأ المنازل والقلعة والمساجد والسوق وسمى مدينته الجديدة" شهرنو" وشاع عنه تدينه وحلمه وحياؤه وعدله وإحسانه حتى نال ثقة الجميع،ودخل "دهلى" ونزل فى " دولت خانة"[٨]، أى مقر الحكم، وقال بعد أن صلى ركعتين وجلس على عرش السابقين : " لقد سجدت سنوات أمام هذا العرش واليوم أطؤه بقدمى فكيف أستطيع تقديم شكرى ! " ولكنه عاد إلى" كيلو كهرى" واتخذها عاصمة له.

خرج عليه حاكم "كره" وحاكم " أوده" وبعض أمراء ملوك بلبنى [٩]، أى المنسوبين إلى السطان غياث الدين بلبن ، وبعض الراجوات[١٠]، أى الملوك الهنود ولكنه هزمهم وأسر عددًا منهم ثم عفا عنهم.

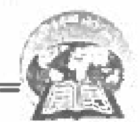
وهكذا لم يكن سَفَّاكًا للدماء، فقد عفا عن الأسرى، بل وقُطَّاع الطرق لأنهم أحضروا له ألف قاطع طريق، فلم يقتل واحدًا منهم، ووضعهم فى مركب، وأرسلهم إلى "لكهنوتى"، ولم يقع خلال حكمه مصادرة أو تعذيب أو تشديد أو طمع فى مال الناس.

وقد طلب من الخطباء أن يذكروه فى الخطبة بلقب " المجاهد فى سبيل الله".

وفى سنة ٦٨٩هـ - ١٢٩٠م قاد " السلطان جلال الدين " جيشه إلى "رنتهنبور" ، واستولى على "جهاين" وغنم غنائم كثيرة وحاصر قلعتها ، ولكنه عاد دون أن يفتحها.

وفى سنة ٦٩١هـ - ١٢٩٢م هاجم المغول "الهندوستان" ، وقام السلطان بصدهم ، وعقد الصلح معهم، كما استولى على " مندور وبهيله وجنديرى" ومد نفوذه إلى "الدكن"[١١] ، أى جنوب الهند.

وقد تآمر علاء الدين خلجى على قتل



السلطان جلال الدين ، وتم قتله سنة ٦٩٥هـ - ١٢٩٦م، وكانت مدة حكمه سبع سنوات وعدة أشهر.

السلطان علاء الدين خلجى

اعتلى عرش " دهلى" ٦٩٥هـ - ١٢٩٦م فمنح الألقاب لعدد من رفاقه، ورفع بعضهم إلى درجة الإمارة، وزاد فى درجات ومقاطعات الأمراء ، وعمل على زيادة الجيوش.

ولما كان قد قتل السلطان جلال الدين، فقد أراد أن يمحو هذه السيئة من قلوب الرعية فأنعم وزاد فى الإنعام، ورفع ذوى الشأن، ومنح جميع الحشم مرتب ستة أشهر.

وقد قضى على تمرد أولاد جلال الدين فى" الملتان" وسجن بعضهم وسمل أعين بعضهم [١٢]، واستولى على أموالهم وحشمهم.

وفى السنة الثانية لجلوسه عَينَّ " نصرت خان"، على الوزارة و"كوتوالا " لقلعة "دهلى" فشرع نصرت خان فى استرداد ما قدمه السلطان علاء الدين فى أول سلطنته لأمراء جلال الدين خلجى .

وقد عبر جيش المغول نهر السند فى سنة ٦٩٦هـ - ١٢٩٧م، ودخل ولايات الهند ، فأرسل السلطان علاء الدين جيشًا بقيادة" ظفر خان" ، والتقى الفريقان فى "جار مخور" ووقعت الهزيمة على المغول، وقتل وأسر منهم الكثير.

وفى السنة الثالثة لجلوسه، هاجم " الكجرات" ونهب " نهرواله" وجميع بلاد الكجرات ووقعت أموال وأسرة" راى كرن"[١٣] أى حاكم "نهرواله" فى الأسر، وكان مما حملوه صنم كان البراهمة قد اتخذوه معبودًا لهم بدلاً من الصنم "سومنات" [١٤]، الذى حمله محمود الغزنوى ودمره من قبل.

وفى هذه السنة جاء جيش المغول واستولى على" سيوستان"، فأرسل السلطان" علاء الدين" جيشًا، قاتل المغول وأسر قائدهم وجمعًا من جيشه، ومع ذلك أرسل المغول جيشًا آخر، عبر نهر السند، واستولى على قصبات وقرى عديدة حتى وصل إلى ظاهر " دهلى" وحاصرها، واضطر أهلها إلى التحصن فيها، وكان علاء الدين خلجى فى "سرى"، فأعد جيشًا بقيادة " قتلغ خواجه" " وظفر خان" فقاما بالهجوم، ففر جيش المغول، إلا أن خلافًا احتدم بين قائدى علاء الدين خلجى، فعاد المغول، وقتلوا "ظفر خان".

وفى السنة الثالثة أيضًا وبسبب عدم إنجابه تسلل إلى خاطره بعض الهواجس

والأفكار الغريبة منها أنه ظن نفسه مثل الإسكندر الأكبر، فطلب أن يدعى له فى الخطبة باسم الإسكندر الثانى، وضربوا السكة بذلك؛ ولكن الملك " علاء الدين كوتوال" أى حاكم" دلهى"، أخلص القول للسلطان علاء الدين خلجى، ودعاه إلى ترك هذه الأمور والتخلص منها، والعمل على فتح باقى بلاد الهند ، فاستمع إلى نصحه. وقام بفتح" رنتهبور"، وعند عودته دعا إلى الصيد بأسلوب " قمرغه"[١٥]، أى بالأسلوب المغولى، فى صحراء هذه البلاد، ولكن أحد الأمراء ضربه بسهم، وظن أنه قتل ، فاجتمع حوله نفر إلا أن السلطان علاء الدين، عاد وقضى على فتنته، وخلال رحلته لفتح " رنتهبور"، خرج " حاجى مولا" عليه، ولكنه قضى على تمرده أيضًا.

ولما زاد التمرد فى تلك الأيام سأل عن السبب ، فقالوا له إن السبب لا يمكن أن يخرج عن أربعة أشياء ، **أولها:** جهل السلطان بخير وشر أحوال الناس.

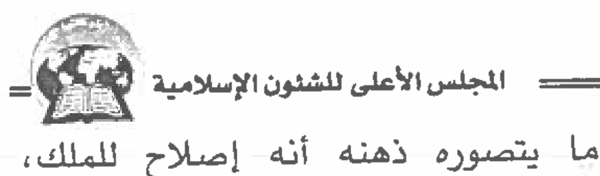
وثانيها: تناول الشراب لأن الناس عندما يشربون، تتحرك فيهم الطباع السيئة، وتتولد الفتنة.

وثالثها: صداقة وقرابة واتفاق الأمراء بعضهم مع بعض.

ورابعها: الذهب لأنه عندما يقع فى يد الأراذل والمتهورين يسلك التفكير الفاسد والخيال الباطل إلى عقولهم، فاستصوب علاء الدين خلجى القول وضم كل قرية كانت بمثابة وقف أو إنعام أو ملك شخص إلى الخالصة، أى أملاك السلطان[١٦]، واستولى على ذهب الأشخاص لأوهى سبب وأدخله الخزانة، وعين العيون[١٧] فى كل مكان وحطم أدوات المجلس السلطانى الخاصة التى كانوا يشربون فيها، ليعلم الناس أنه منع الشراب، إلا أن جماعة استمروا فى الشرب فأمر بحفر نفق تحت ممر الناس قرب بوابة بداون[١٨] عند مدخل دهلى سجن فيه هؤلاء، وبذلك قضى على عادة شرب الخمر واستقام الأمر .

وأمر السلطان علاء الدين بألا يضيف الأمراء وسائر الأعيان بعضهم البعض فى منازلهم، وألا يعقدوا العقود بدون إذن السلطان، وبالغ فى ذلك حتى قضى على الاختلاط بين الناس .

وبعد استقرار القواعد السابقة، أراد أن يقر عدة قواعد أيضًا فى البلاد، لكى يسوى ما بين القوى والضعيف، ويقلل من تسلط المقدم[١٩]، والجودهرى،



أى رئيس القرية ومساعده[20]، على الرعية، وأمر أن يسترد نصف المحصول بلا تأخير طبقًا للمساحة، وألا يلقى حمل الأقوياء على الضعفاء، وأن يدخل فى الخزانة كل ما سبق تحصيله، ووزع المراعى أيضًا بحساب البقرة والجاموس والخراف، وتشدد فى أمر العمال وأهل القلم بكل ما استطاع ، لدرجة أنه لم يتيسر لأحدهم الاستيلاء على" جيتل"[21]، أى أقل القليل خيانة، وإذا استولى شخص على شىء من الدخل تخرج ورقة من "بتوارى"[22]، أى المحاسب باسمه وما فعله، فيسترد منه فى ساعته بالشدة والإهانة، وكان الأهالى يعتبرون أن ترك أمر العمل والكتابة عيب، وكان عمل" المقدمين والجودهريين" يستلزم أن يدوروا دائمًا راكبين، ومرتدين للأسلحة والملابس النفيسة، ووصل الأمر لدرجة أن نساءهم عملوا فى منازل الأهالى، وكانوا يصرفون وينفقون ما يأخذونه من أجر على قوتهم ، وكان السلطان علاء الدين يقول أحيانًا إن أحكام وضوابط السلطنة تتعلق بالملوك، ولا دخل لها فى الشريعة. وفض الخصومات، وفصل القضايا وطرق العبادات أمر يخص القضاء والعلماء، ولهذا كان يفعل كل ما يتصوره ذهنه أنه إصلاح للملك، ولا ينظر عما إذا كان مشروعًا أو غير مشروع ، وأبعد العلماء عن مائدته مثل القاضى ضياء الدين بيانه ومولانا ظهير لنك ومولانا مشيد كهرانى من الأمراء، ولم يبق إلا على القاضى مغيث الدين بيانه، الذى اتخذ مكانة فى مجلس السلطان الخاص.

وكان السلطان علاء الدين يقول: أنا مسلم لكن هذه الشدة والعنف اللذين يظهران منى من أجل صلاح الملك ولا أعلم ماذا سيحدث لى غدًا يوم القيامة .

وبعد ذلك اتخذ علاء الدين خلجى "سرى" أى دارًا للملك، وبنى عمارة عالية، وعمر قلعة" دهلى" وجدد القلاع التى يدخل فيها المغول، وأراد أن يرعى الجيش بالقدر الكافى وبقدر ما يستطيع حكم ممالك" الهندوستان" وما فى عُهْدة المغول.

وقد كان حريصًا على ضبط الأسعار ومراقبة أحوال السوق، وعين جواسيس (أو عيونًا) للقيام بهذه المهمة، وإذا ظهر أن القائمين بمراقبة السوق قد عرضوا شيئًا مختلفًا على السلطان، فإنهم كانوا يعاقبون، وكان كل شىء يحتاجه السوق للمعاملات يُحضره السلطان ويفحصه، ويحدد سعره ، وكان لا يعاين

الأشياء التافهة مثل الإبرة والمشط والحذاء والقلة ووعاء الشرب، وكان يحدد بنفسه أسعار النفائس والأشياء البسيطة، ويكتب تذكرتها، ويعطيها للقائمين بمراقبة السوق، وكان اهتمام ورعاية السلطان فى مراقبة التجار وفحص أسعار الأشياء يصل إلى درجة أنه فى بعض الأحيان كان يعطى الأطفال الذين لا دخل لهم فى البيع والشراء ، نقودًا، ويرسلهم إلى السوق ليشتروا الأشياء التى يرغبها الأطفال، ويحضروها عند السلطان، وبعد ذلك إذا ظهر أن هناك تفاوتًا فى السعر أو الوزن، يعاقب البائع ، وأقل عقاب كان قطع الأذن والأنف.

بعد ذلك انخفضت أسعار المواد الحياتية وأدوات الجيش، وظهر ارتياح فى الحَشَم كما أنه سد أبواب المغول، وتطاولهم.

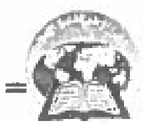
وقد كان تحقيق المطالب ووقوع أى أمور غريبة جاءت بسعى السلطان علاء الدين يسميها كرامة، ونسبوا لآرائه وأقواله الكشف والإلهام، والبعض أسماها استدراجًا[٢٣]، واعتبروها من المكر الإلهى.

وفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م أرسل السلطان علاء الدين "ملك نائب" إلى"دهور" سمندر ومعبر" ، فاستولى على ستة وثلاثين فيلا وخزائن كثيرة، وأرسل رسالة فتح إلى "دهلى"، ومن هناك توجهوا إلى "معبر" وفتحوها أيضًا وخربوا معابد أصنامها، وحطموا الأصنام الذهبية، وأدخلوا ذهبها الخزانة، وأخذوا من حاكم معبر الهدايا الكثيرة.

وفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م عادوا بثلاثمائة واثنى عشر فيلا وعشرين ألف جواد وتسع وستين ألف قطعة من الذهب وصناديق جواهر ولؤلؤ وغنائم أخرى تجل عن الحساب والحصر ووصلوا إلى السلطان، وقد سُرَّ من الفتوحات والغنائم الكثيرة جدًا، وأنعم بالإنعامات الوفيرة على أكثر الأمراء..

ومن غرائب الأمور التى وقعت فى آخر العهد العلائى أن جماعة من المسلمين الجدد[٢٤]، أى من المغول الذين أسلموا ، قد اتفقوا فيما بينهم على أن يقتلوا السلطان وقت الصيد وهو وحيد، وعندما وصل السلطان هذا الخبر، وبسبب مزاجه الحاد وطبيعته الخشنة أمر أن يقتل كل شخص من المسلمين الجدد وفى يوم قتل عدة آلاف برآء، لم يكن لديهم دراية بهذا الأمر، وانتهبت أموالهم وقضى على نسلهم .

وفى نفس هذه الأيام ظهر جماعة من



الباختيين[٢٥]، فأمر السلطان بالقبض عليهم جميعًا، ونشر رؤوسهم، وقتلهم كلهم. ولما كان السلطان علاء الدين قاسيًا، صعب الطباع فإنه لم يكن يرافق أحدًا قط، ولهذا لم يكن يقبل شفاعة فى حق أحد، ولم يكن يعفو عن أحد اساء منه طوال عمره، ولم يكن واضحًا فى سلوكه، وعلى الرغم من أنه كان يستشير رجاله فى الأمور الملكية، ويدعهم يتدخلون فى تنفيذ الأمور، فقد كان ينفذ كل ما يخطر على باله ويوافق رأيه، ولم يكن يستشير أى شخص فى تنفيذ أمر الملك، ويقال إن هذا القدر من الفتوح التى تحققت للسلطان علاء الدين لم تتيسر لأى سلطان من سلاطين الهند، ويقول مؤلف فيروز شاهى[٢٦]، إن هذا القدر من العمارة التى أقيمت فى عصره من المساجد والمنارات والأحواض والقلاع وأمثال ذلك لم تقع فى أى عصر قط، ولم يذكر فى أى عهد قط جماعة من المبرزين المهرة فى كل فن مثل ما شاهده عصره، ولم يظهر فى زمان قط، إنصاف وعدل بين العوام والخواص وإطاعة الهنود، والاستقرار مثل أيامه ، وكان اجتماع كبار رجال الدين والسالكين فى طريق اليقين فى دار الملك " دهلى"، ومن جملتهم شيخ الإسلام الشيخ نظام الدين أولياء، الذى انشغل بهداية الناس، ومن الخامس من المحرم وحتى العاشر؛ كانت أيام مولد شيخ الإسلام فريد الدين "أجود هنى" وكان الناس يجتمعون فى خانقاه الشيخ نظام الدين، وتتجه الخلائق فى هذه الأيام من الأطراف إلى"دهلى"، ويحضرون المجالس لمشاهدة الوجد، وحال أهل الله، وكانوا يصيحون على الباب والجدران، والشيخ علاء الدين حفيد الشيخ فريد الدين الذى كان متمكنًا من سجادة الإرشاد فى " أجودهن"، وكان مشتغلا بالطاعة الظاهرية والباطنية لدرجة أنهم كانوا يعدُّونه من جنس الملائكة، والشيخ قطب الأولياء الشيخ ركن الدين ابن الشيخ صدر الدين ابن الشيخ بهاء الدين زكريا الملتانى: الذى وصل إلى قمة الطريق، والشيخ سيد تاج الدين سيد قطب الدين الذى كان فى سخائه وعلمه وحلمه وأفضاله الإنسانية وحيد زمانه، عمل فترة فى قضاء"أوده"، وبعد ذلك صار قاضيًا "لبداون"، والشيخ سيد ركن الدين أخو سيد تاج الدين المذكور قاضى كره وكان يتصف بالصفات الحميدة، والشيخ سيد مغيث وأخوه سيد مستجيب

الدين من سادات "كيتهل"، والأخوان اتصفا بالعلم والزهد والتقوى وسائر الفضائل، وكانوا يسمونهما "سادات نوهه" [٢٧]، أى المنتسبون لآل البيت، والسادات الآخرون يطول تفصيلهم، من جملتهم القاضى صدر الدين عارف الذى عمل بقضاء الممالك ونال لقب " صدر جيهانى" [٢٨]،وبعده القاضى جلال الدين دلواطى الذى صار قاضيًا للمالك، ومولانا ضياء الدين بيانه صدر" جهانى" وفى آخر أيام السلطان علاء الدين نال قضاء الممالك، وكذلك ملك التجار حيدر الدين الملتانى.

وكان من علماء الظاهر جامعى أنواع العلوم الذين عملوا بالدرس والإفادة، ست وأربعون؛ منهم القاضى قمر الدين نافله والقاضى شرف الدين سرمانى وغيرهم ..

وفى آخر عهد السلطان علاء الدين وصل مولانا علم الدين حفيد الشيخ بهاء الدين زكريا ، وكان من أفاضل أساتذة علم القراءات الممتازين مولانا شاطئ ومولانا علاء الدين مقرئ وخواجه زكى ابن أخت حسن البصرى ، ومن أهل الوعظ مولانا عماد وحسام درويش وأخوه مولانا جلال وغيرهم..

ومن أبرز شعراء عصر السلطان علاء الدين الذين تزينت دار الملك "دهلى" ، بل وجميع بلاد "الهندوستان" بوجودهم، وملأ صيت أدبهم العالم، أمير خسرو الذى كان له يد بيضاء فى فنون الكلام والمعنى، وآثار فضله ومناقبه واضحة وظاهرة فى مصنفاته فى النظم والنثر، وكان مع هذا صوفى الوجد والحال، وكان يقضى أكثر أوقاته فى الصوم والصلاة، وله نشوة تامة من العشق والمحبة ، ولما كان نادرة زمانه فقد أعطاه السلطان علاء الدين ألف تنكه، وشاعر آخر هو الأمير حسن سنجرى وكان مشهورًا بسلامة الكلام ولطافة الحديث، ومن كثرة ما نظمه من غزليات سلسة، وكَتَبَهُ من كلام جميل، كانوا يسمونه" سعدى هندوستان"، وكان فريد عصره فى تهذيب الأخلاق والقناعة، والترك، والتجرد، خلف الشيخ نظام الدين أوليا قُدّس سره، وجمع كلام الشيخ وما كان قد سمعه أيام كان مُريدًا، فى مؤلف أسماه "فوائد الفوائد" ولديه فى النظم والنثر تصنيفات كثيرة. وكان من شعراء عصر السلطان علاء الدين"صدر الدين على" وفخر الدين قواس وحميد الدين راجه ومولانا عارف، وعبيد

حكيم، وشهاب صدر نشين، وكانوا ينالون الإنعام لكونهم شعراء، وكان لكل واحد أسلوب خاص فى طريقة شعره، ودواوينهم وشعرهم يشهد لهم بالكمال والفضل والأدب، وكان من المؤرخين أيضًا عدة أشخاص لا نظير لهم، ومن الأطباء المهرة، أستاذ الأطباء مولانا بدر الدين دمشقى الذى كان إذا وضعوا فى زجاجة بول عدة حيوانات. وأحضروها عنده، كان يحكم عليها بالنظر وعلى البديهة بأنها جميعًا بول الحيوان الفلانى والفلانى فى هذه الزجاجة. ومن ناحية التصوف كان صاحب سر وكشف ومشاهدة . ومن المنجمين عدة أشخاص ، ومن المقرئين والغزليين وسائر أرباب الطرب وأقسام الفنون المختلفة الكثيرون ممن لا يمكن حصرهم.

بعد ذلك امتدت سلطنة السلطان علاء الدين، وانتهت بالتوفيق والظفر ولكن لكل كمال زوالا ، ولكل بداية نهاية، وقد ظهرت منه الأمور التى يمكن أن تكون سبب زوال الملك ومنافية لبقاء الدولة.

وبعد مدة مرض السلطان بالاستسقاء وازداد عليه المرض يومًا بعد يوم وفى تلك الأثناء طلب حضور ملك نائب من ديوكير وألب خان من الكجرات، وقد جاءا إلى البلاط وبسبب العداوة بين ملك نائب وألب خان، فقد حرض ملك نائب السلطان بحديث باطل لكى يقتل ألب خان، وتوفى أيضًا بعده .

ويقول البعض إن ملك نائب قد دس له السم، والله أعلم، وكانت مدة سلطنته عشرين سنة وعدة أشهر.

السلطان شهاب الدين خلجى:

هو ابن السلطان علاء الدين، وكان صغيرًا أجلسه ملك نائب على العرش وكان يتولى عنه أمور الدولة ولكن حراس القلعة قتلوا ملك نائب وأجلسوا مبارك خان على العرش ولم تدم سلطنته سوى ثلاثة أشهر وبضعة أيام.

السلطان قطب الدين مباركشاه:

هو ابن السلطان علاء الدين خلجى، جلس على العرش فى سنة ٧١٧هـ (١٣١٧م)، وبعد أن استقرت الأمور له حرر السجناء واستدعى المنفيين من الأطراف وأنعم على الحشم بمرتب ستة أشهر وزاد من دخول ورواتب الأمراء والملوك والعلماء والصالحين وأرباب الحاجة وأعاد ما أخذه علاء الدين وضمه للخالصة، أى إلى أصحابه، ورفع المظالم فارتاح الناس وعاشوا فى رفه ونعيم.

انشغل السلطان قطب الدين بفتنة "ألب خان" فى " الكجرات" وأعاد الهدوء إليها بعد أن أدخل فى طاعته" زميندارات"[٢٩]، أى الإقطاع، وجعل ملك دينار حاكمًا على" الكجرات"، وقام أيضًا بإعادة " ديوكير" إلى طاعته بعد تمردها عقب موت السلطان علاء الدين واستولى على " مرهت" وقسمها على الأمراء وعاد إلى " دهلى" ولما رأى الأمر استقر له فى العديد من الإمارات لم يهتم بالحكم وركبه الغرور ولم يعد يستمع إلى أحد وتبدلت أخلاقه الكريمة وصارت إلى الأوصاف الذميمة فسلك طرق القهر والقتل.

اهتم بالمظاهر من الأمور وارتكب ما يوجب زوال الملك والسلطان فاهتم بالملبس والزينة وكان يسىء إلى العلماء والأمراء وحدثت فتن كثيرة فى الولايات كانت أشدها فتنة "خسروخان" الذى جمع أهله وقبيلته وكان مقربًا من السلطان قطب الدين – وقتل السلطان على يد جماعة براوان الهنادكة.

جلس" خسرو خان" على العرش بعد أن قتل كل أولاد قطب الدين وقضى على ما تبقى من نسل السلطان علاء الدين خلجى ولكـــنه واجه غازى ملك، من أمراء السلطان علاء الدين وقطب الدين وانتهت المواجهة بالقضاء على فتنة" خسرو خان".

ولما لم يبق أحد من نسل سلاطين آل خلج فقد جمع غازى ملك ، الأمراء وأركان الدولة والعلماء فى "هزارستون"[٣٠] ، أى مقر الحكم، وقال لهم : " إننى ربيب نعمة السلطان علاء الدين وقطب الدين ومن أجل شكر نعمتهما قاتلت أعداءهما ليس طمعًا فى الملك والجاه وأنتم حاضرون وإذا كان هناك شخص من أولادهما، لا يزال موجودًا فأحضروه لأجلسه على العرش ونقدم له الطاعة" . ولما تيقن بعدم وجود أحد، وشهد له الحاضرون بشجاعته فى مواجهة المغول ومواجهة أعداء أولياء نعمته أقروا له بالسلطنة وانتهت بذلك دولة الخلجيين فى الهند وبدأت دولة آل تغلق سنة ٧٢٠هـ - ١٣٢٠م .

أ. د / أحمد عبد القادر الشاذلى

الهوامش

(١) شندوستان: تعنى بلاد الهند وتطلق على شمال الهند فقط أما الجنوب فتسمى دكهن.

(٢) ملك : تعنى أمير.

(٣) نوديا : عاصمة لكهنوتى.

(٤) الأتراك: تعنى المسلمين لأن الفاتحين كانوا غالبيتهم من الأتراك.

(٥) الخوانق مفرده خانقاه وهى أماكن تواجد المتصوفة.

(٦) كوتوال: حاكم ورئيس خاصة القلاع.

(٧) جتر: مظلة ترفع فوق رأس الأمير أو السلطان.

(٨) دولت خانة: مقر الحكم.

(٩) بلبنى: نسبة إلى السلطان غياث الدين بلبن.

(١٠) الراجوات: مفردة راجا أى ملك بالهندية.

(١١) الدكن: تطلق على جنوب الهند وبالهندية دكهن أى الجنوب.

(١٢) سمل العين : تعنى القضاء على بؤبؤ العين حتى لا يصلح للحكم.

(١٣) راى : أمير بالهندية .

(١٤) سومنات: أكبر صنم هندوسى فى الكجرات دمره محمود الغزنوى.

(١٥) قمرغه: طريقة الصيد عند المغول حيث يلتف الجيش فى حلقة واسعة حول منطقة الصيد ثم تضيق الحلقة بالتدريج وخلالها يصطاد الملك والأمراء والجنود ويتدربون على الحرب والضرب أثناء الصيد ..

(١٦) الخالصة : مفردة خالصات وهى أملاك السلطان .

(١٧) العيون : الجواسيس.

(١٨) بداون: مدينة على مدخل دهلى.

(١٩) المقدم : رئيس القرية وهو عادة هندوسى.

(٢٠)جودهرى : مساعد رئيس القرية وهو عادة هندوسى.

(٢١)جيتل : نوع من العملة.

(٢٢) بتوارى : المحاسب.

(٢٣)إشارة إلى قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾ (الأعراف:١٨٢).

(٢٤) المسلمون الجدد هم المغول الذين أسلموا فى الهند .

(٢٥) فرقة هندية.

(٢٦) ضياء برنى .

(٢٧) السادات هم من يحملون لقب سيد وينتسبون إلى آل البيت النبوى.

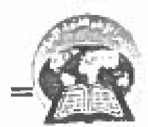
(٢٨) رئيس العالم.

(٢٩) زميندارات: كلمة فارسية تعنى الإقطاع.

(٣٠) هزار ستون: اسم القصر مقر الحكم ويعنى قصر الألف عمود.

مصادر مراجع للاستزادة :

- المسلمون فى الهند من الفتح العربى إلى الاستعمار البريطانى: الترجمة الكاملة لكتاب طبقات أكبرى لنظام الدين أحمد بخشى الهروى ترجمة د. أحمد عبد القادر الشاذلى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب فى ثلاثة مجلدات القاهرة ١٩٩٥.
- طبقات أكبرى لنظام الدين احمد بخشى هروى جاب بمبى ، بالفارسية .
- طبقات ناصرى، أبو عمرو منهاج الدين عثمان بن محمد سراج الدين الجوزجانى بالفارسية.
- منتخب التواريخ، عبد القادر بدايونى سه جلد.
- أكبر نامه أبو الفضل بن المبارك ناكورى دو جلد.
- آنين أكبرى، أبو الفضل بن المبارك ناكورى دو جلد.
- تاريخ الإسلام فى الهند د. عبد المنعم النمر بيروت ١٩٨١م.
- تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندوباكستانية وحضارتهم د . أحمد محمود الساداتى ، القاهرة ١٩٧٣م.
- الإسلام والحضارة الإسلامية فى آسيا الوسطى، حسن أحمد محمود ، القاهرة ١٩٦٨م.
- تاريخ الإسلام فى جنوب غرب آسيا. عصام الدين عبد الرؤوف . القاهرة ١٩٧٥م.
- تاريخ فرشته: محمد قاسم فرشته بالفارسية.
- تاريخ البيهقى : البيهقى ترجمة يحيى الخشاب، بيروت ١٩٨٢م .
- تاريخ الدولة الإسلامية- استانلى لين بول، ترجمة محمد فرزات دمشق١٩٧٤.
- تاريخ الشعوب الإسلامية : كارل بروكلمان ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى بيروت ١٩٨٤م.
- تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ـ أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى.
- The History of India as told by its own Historians :sir H. Elliot .
- The Islamic State S. I. poole .



الخوارزمية (دولة)

اتفق المؤرخون والجغرافيون المسلمون على تحديد إقليم خوارزم وذكروا أنه يحده غربيًا بلاد الترك الغزية، وجنوبيًا خراسان، وشرقًا بلاد ما وراء النهر، وشمالاً بلاد الترك أيضًا، وعاصمته جرجانية[1]، وتقع خوارزم حاليًا ضمن جمهوريتى أوزبكستان وتركمانستان.

تعاقب على حكم إقليم خوارزم عدة أسر أهمها جميعًا أسرة أنوشتكين أتباع السلاجقة، الذين بسطو سلطانهم على خوارزم منذ عهد طغرلبك، فظل الإقليم تابعًا لورثته من بعده.

كان أنوشتكين المؤسس عبدًا اشتراه أحد أمراء السلاجقة، وعمل عنده فى وظيفة "الطشت دار" أو الساقى، وهى من وظائف البلاط المعروفة، كما أسندت إليه وظيفة "شحنة خوارزم" باعتبار هذه الوظيفة تابعة للطشت دار، إلى أن قام السلطان "بركياروق" بتنصيبه حاكمًا على خوارزم، وتلقب بلقب خوارزمشاه سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٦م. مكافأة له على خدماته للبيت السلجوقى.

توفى أنوشتكين سنة ٤٩٠هـ وخلفه ابنه قطب الدين محمد، الذى بذل جهدًا كبيرًا وسعيًا متواصلاً فى إدارة شئون الإقليم، وحظى بمنزلة كبيرة عند سلاطين السلاجقة، خاصة السلطان سنجر الذى آل إليه حكم خراسان من قبل أخيه السلطان بركياروق.

ظل محمد بن أنوشتكين تابعًا مخلصًا للسلطنة السلجوقية حتى وفاته سنة ٥٢١هـ/١١٢٦م فى الوقت الذى كان ابنه آتسز يعمل فى البلاط السلطانى.

بداية الاستقلال عن السلاجقة:

تولى آتسز بعد وفاة والده سنة ٥٢٢هـ/١١٢٧م؛ "فمد ظلال الأمن، وأفاض العدل"[٢]، وكانت قواعد الألفة والمحبة مستحكمة بينه وبين السلطان سنجر، حتى "أن السلطان قربه إليه واعتضد به واستصحبه معه فى أسفاره وحروبه، وزاده تقدمًا وعلوًا عنده"[٣].

ظل الوفاق مدة ثمانى سنوات، وعندما اطمأن آتسز إلى قوته سعى إلى الاستقلال عن السلاجقة، متخذًا من التمرد والعصيان وسيلة للوصول إلى هدفه، فثار على السلطان سنجر سنة ٥٢٩هـ/١١٣٤م، وشرع فى مهاجمة ممتلكاته الواقعة أسفل نهر جيحون، وضمها إلى نفوذه، فكان ذلك أول صدام

بين السلاجقة والخوارزميين.

كانت أول معركة قادها السلاجقة ضد آتسز عند مدينة هزار سب- وهى من قلاع خوارزم -سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م. وقد انتهت بانتصار سنجر، وهروب آتسز الذى عزله السلطان عن منصبه فى خوارزم وعين مكانه ابن أخيه غياث الدين سليمان بن محمد السلجوقى، لكن آتسز نجح فى العودة إلى خوارزم وتمكن بمساعدة الأهالى من طرد الحاكم السلجوقى.

تأزمت العلاقة بين السلاجقة والخوارزميين حتى أن آتسز بدأ فى مهاجمة أملاكهم وبعدها اتصل بالأتراك الخطا الوثنيين "وهم بما وراء النهر يطمعهم فى البلاد، ويروج لهم أمرهم، ويحثهم على قصد مملكة السلطان سنجر"(٤)، لذلك هاجموا البلاد، مما أدى إلى هزيمة السلطان السلجوقى فى موقعة قطوان بالقرب من سمرقند سنة ٥٣٦هـ/١١٤١م.

انتهز آتسز فرصة هزيمة سنجر، وأغار على خراسان، وقطع الخطبة للسلطان فى عام خمسمائة وسبعة وثلاثين، ثم أعيدت مرة أخرى، وعمل آتسز على تأليب الأقطار الإسلامية عليه، فتوعده سنجر فلم يرتدع، لذلك قرر الانتقام منه، فجمع جنوده وقصد خوارزم سنة ٥٣٨هـ/١١٤٢م فى الوقت الذى تحصن فيه آتسز ببلاده، ودارت بين الفريقين مناوشات من وراء الأسوار مدة عشرين يومًا، ولما طال الحصار على آتسز بعث إلى السلطان يعلن تراجعه عن موقفه، فعفا عنه بشرط أن يرد إلى السلطان الأراضى الخراسانية التى استولى عليها.

ومع ذلك شعر الخوارزميون بقوتهم وقرر آتسز الانفصال عن السلاجقة نهائيًا، وأعلن قيام الدولة الخوارزمية المستقلة سنة ٥٣٨هـ/١١٤٣م، وبعث إلى الخليفة العباسى المتقى لأمر الله (٥٣٢-٥٥٥هـ/١١٣٧- ١١٦٠م) يشرح له مواقف السلاجقة السيئة، وعدد مواقف سنجر، وهجماته العسكرية على الخوارزميين، ومما جاء فى هذه الرسالة طلبه من الخليفة "أن يصدر باسمه منشورًا برسمه على ولاية خوارزم شرقيها وغربيها، ومما ينضاف إليها وينعطف من بلادها وديارها"(٥). وقد بعث إليه الخليفة العباسى بالخلع والتشريفات، مما يدل على قيام هذه الإمارة المستقلة عن السلاجقة الذين فشلوا تمامًا فى جميع الحملات التى وجهوها ضد الخوارزميين، مما جعل السلطان سنجر يعترف بآتسز

حاكمًا مستقلاً عن السلاجقة.

بدأ نجم السلاجقة فى الأفول نتيجة لعوامل كثيرة منها النزاع والصراع بين أبنائهم بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥هـ/١٠٩٢م إلى جانب هجمات قبائل الأتراك الخطا، وكذلك الإسماعيلية الباطنية فى فارس، وما كان بين الأتابكة والوزراء من صراع، هذا إلى جانب هزيمة السلطان سنجر على يد الأتراك الغز سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م وأسره ثلاث سنوات ثم موته سنة ٥٥٢هـ/١١٥٧م، وبوفاته لم يجد الخوارزمية منافسًا يقف أمامهم فتوسعوا على حساب الأراضى السلجوقية.

آيل أرسلان بن آتسز (٥٥١-٥٦٧هـ/١١٥٦- ١١٧٢م):

توفى آتسز سنة ٥٥١هـ/١١٥٦م، وتولى بعده ابنه آيل أرسلان الذى عاصر السلطان سنجر لمدة عام واحد فقط، ويذكر كل من المؤرخ Skrin والمؤرخ Ross "أن آيل أرسلان يعتبر أول سلاطين الخوارزمية المستقلين"(٦).

ومن معالم سياسته أنه لجأ إلى تسخير كل ممالك أبيه، وإخضاع حكامها لسلطانه، ودفع ثمن الخطأ الذى وقع فيه أبوه آتسز الذى استعان بالأتراك الخطا الوثنيين ضد السلطان سنجر، وفى نظير مساعدتهم له كان يدفع لهم الأموال، لكن آيل أرسلان امتنع عن الدفع مما دفع الترك إلى مهاجمة الأراضى الخوارزمية غربى نهر جيحون، كما دخل أرسلان فى صراع مع سلاجقة خراسان خلفاء سنجر وأتابكتهم واستغل ضعفهم وبدأ يسقط تدريجيًا أملاكهم ويستولى عليها تباعًا- فى الوقت الذى كان يدافع عن أملاك سلاجقة خراسان آنذاك حاكم يدعى المؤيد أى أبه، لذلك احتدم الصراع بين الخوارزمية وبينه على نيسابور، واستعان المؤيد بحاكم أذربيجان الدكز لإنقاذ المدينة، ومع ذلك رجحت كفة الحاكم الخوارزمى حتى أن المؤيد سعى لمصالحته، وتقديم الولاء له.

أما عن موقف آيل أرسلان من سلاجقة العراق العجمى، فقد استغل الصراع الدائر هناك بعد وفاة السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه سنة ٥٥٤هـ/١١٥٩م. وانقسامهم حول ثلاثة من المرشحين، فحاول السلطان الخوارزمى مساعدة فريق على الآخر، وذلك لتحقيق مصلحته فى أن يضم العراق العجمى إلى أملاكه ويقضى على نفوذ الأتابكة هناك،

لكنه فشل فى ذلك.

ولكى يكسب وضعه شرعية أرسل إلى الخلافة العباسية يعلن ولاءه وخضوعه لها، وحاول فى نفس الوقت تصحيح مساره بتوجيه جهوده نحو محاربة الأتراك الوثنيين والامتناع عن دفع الجزية لهم، فخرج إليهم عام ٥٦٧هـ/١١٧٢، ولكنه هزم، وما لبث أن مرض وتوفى فى نفس العام.

علاء الدين تكش بن آيل أرسلان (٥٦٧- ٥٩٦هـ/١١٧٢- ١١٩٩م):

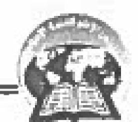
بعد وفاة آيل أرسلان تولى ابنه الأصغر سلطان شاه محمود بعهد من أبيه، وعندما علم الابن الأكبر علاء الدين تكش بذلك وهو خارج البلاد، ثارت ثائرته، واتصل بخان الأتراك الخطا ليساعدوه ضد أخيه، فى الوقت الذى استعان سلطان شاه بحاكم خراسان المؤيد أى أبه، والنتيجة هزيمة الأخير، وهروبه، ودخول تكش خوارزم والجلوس على عرش السلطنة.

تبدلت العلاقة السلمية بين الأتراك الخطا وتكش بعد انتصاره على أخيه لرفضه الخضوع لسيطرتهم عليه، وامتناعه عن دفع الجزية، فكانت هذه فرصة لسلطان شاه للتحالف معهم ضد أخيه تكش، وإعداد حملة عسكرية ضد خوارزم، انتهت بهزيمة الخطا وحليفهم سلطان شاه الذى لم يتوقف عن أعمال الشغب والمحاولات العديدة للوصول إلى العرش الخوارزمى.

علاء الدين تكش والسلاجقة:

نجح تكش فى الاستيلاء على نيسابور، وضمها إلى الأملاك الخوارزمية، فخابت آمال سلطان شاه الذى كان على رأس الجيش هناك، لذلك لجأ إلى محالفة دولة الغور فى غزنة، لكن الحلف فشل، وانتهى الأمر بهزيمة الثائر الخوارزمى على يد الغوريين أنفسهم لعدم تلبيته لمطالبهم، وعندما علم بذلك تكش حاول القبض على أخيه لكنه فشل، كما حاول كسب صداقة السلطان الغورى، لكنه لم ينجح، ولم تستقر أموره إلا بوفاة أخيه سلطان شاه ٥٨٩هـ/١١٩٣، لذلك تمكن من ضم "جميع البلاد التى كانت تحت يد أخيه، وقبض وحده على زمام الأمور"[(٧)].

أما عن علاقة تكش بالسلطان طغرل ابن أرسلان السلجوقى ٥٨٢- ٥٩٠هـ/١١٨٧- ١١٩٤م. فإنه لم يتخذ موقفًا أمام ما يجرى من أحداث بين الخوارزميين والأتابكة التابعين له، ولم يحرك ساكنًا على ضياع أملاك سلاجقة



خراسان التى استولى عليها السلطان تكش، بل تعدى ذلك إلى "التودد إلى الخوارزمى فراسله، وصادقه، وصافاه"[٨]. لكن هذه العلاقة الودية لم تستمر طويلاً لاختلافهما على امتلاك مدينة الرى وتدخل الخليفة العباسى الناصر لدين الله وأرسل منشورًا إلى تكش "يُقْطِعه بلاد السلاجقة"[٩]. لذلك اندلعت الحرب بين تكش وطغرل سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م. وانتهت بهزيمة الجيش السلجوقى وقتل السلطان طغرل، وكان ذلك إيذانا باستيلاء الخوارزميين على العراق العجمى، ودخولهم همذان وتربع تكش على العرش السلجوقى.

علاء الدين تكش والخلافة العباسية:

كانت العلاقة بين القوتين طيبة منذ بداية دولتهم، وكانوا حريصين على الحصول على الخلع والتشريفات التى تصل إليهم من دار الخلافة، ليكسبوا حكمهم صبغة شرعية، وعندما أسقط الخوارزميون السلطنة السلجوقية تنفست الخلافة العباسية الصعداء، وبعث الخليفة الناصر لدين الله خلع الولاية إلى تكش مع مؤيد الدين بن القصاب، الذى لم يتوجه مباشرة إلى تكش فى همذان، وإنما بقى على حدودها، وطلب منه القدوم إليه ليلبسه الخلعة، فرفض تكش، مما أدى إلى توتر العلاقات بينهما، خاصة وأن الخوارزميين أصبحوا على مقربة من بغداد، فتوجس الخليفة منهم خيفة؛ لذلك بدأ الصدام الحربى منذ سنة ٥٩١هـ/١١٩٥م، حيث تحالفت قوات الخلافة العباسية مع قوات الأتابكة الذين تمكنوا وبزعامة ابن القصاب من بسط نفوذ الخلافة على ما كان بيد الخوارزميين فى العراق العجمى، لذلك بعث تكش إلى ابن القصاب منكرًا عليه أخذ البلاد "وطلب منه إعادتها وتقرير قواعد الصلح"[١٠].

رفض قائد الخلافة هذا الطلب، واستأنف الحرب، وشاء حسن حظ تكش أن توفى ابن القصاب، فتمكن من استعادة الأراضى فى همذان والرى وأصفهان، لكن أهل هذه البلاد كرهوا الخوارزمية، وتمنوا العودة إلى طاعة الخلافة العباسية لأن الخوارزمية "حملوا كل ما وجدوه من متاع، ولم يتركوا شيئًا قط، فصارت تلك البلاد خاوية على عروشها، وتجاوز ظلمهم كل حد، وأسلموا الناس للهم والغم"[١١]، وقد استجار أهل البلاد بالخليفة الناصر فلبى نداءهم بجيش أجبر الخوارزميين على

ترك أصفهان، وبعدها همذان.

استعان الخليفة بسلطان الغور غياث الدين، وأمره بمهاجمة أراضى تكش حتى يبعد عن مهاجمة العراق العجمى، فاضطر تكش إلى الاستعانة بالأتراك الخطا الذين تمكنوا من غزو بلاد الغور "فقتلوا وأسروا ونهبوا وسبوا"[(١٢)]، لكن غياث الدين ردهم وكبدهم خسائر كبيرة وقتلى قُدِّروا باثنى عشر ألفًا.

لذلك بعث خان الترك إلى تكش يعنفه ويحمله مسئولية هؤلاء القتلى وطلب عن كل قتيل "عشرة آلاف دينار"[(١٣)]، واستمروا فى غاراتهم مما دفع تكش إلى التصدى لهم ومهاجمة بخارى أهم مدنهم سنة ٥٩٤هـ/١١٩٧م.

وفى نفس الوقت تحسنت العلاقة بين الخوارزميين والغوريين الذين تدخلوا فى الصلح بين تكش والخليفة الناصر، حتى أن تكش بعث إلى الخليفة ابنَ أخيه عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م "ليظهر الطاعة والعبودية والاعتذار للخليفة.."،"وخلع عليه الخليفة وأكرم مثواه"[(١٤)]. وأرسل معه إلى تكش الخلع والهدايا ومنشورًا جديدًا، اعترافًا من الخلافة بحقه فى ضم إقليم الجبل إلى الأراضى الخوارزمية.

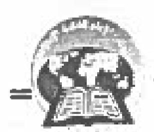
وقد انشغل تكش بعد ذلك بمحاربة الشيعة الباطنية الإسماعيلية فى قلاعهم بفارس، وتوفى بعدها فى العشرين من رمضان ٥٩٦هـ/١٢٠٠م.

علاء الدين محمد خوارزمشاه (٥٩٦- ٦١٧هـ/١٢٠٠- ١٢٢٠م):

تولى بعد وفاة والده، وقد واجه مشاكل كثيرة من القوى الداخلية والخارجية أهمها خروج ابن أخيه هندوخان عليه ولجوؤه إلى الدولة الغورية طالبًا للحماية، وكذلك ما خاضه من معارك حربية ضد الغور، والخطا، والخلافة العباسية، ثم بعد ذلك مواجهته للخطر الأعظم وهو الهجوم المغولى على بلاده.

علاء الدين محمد والدولة الغورية:

عندما لجأ هندوخان إلى الغوريين، قاموا بالهجوم على الأراضى الخوارزمية فى خراسان وقاموا بتولية الأمير الهارب أميرًا عليها، وعملوا على تصفية الأملاك الخوارزمية فى فارس، لكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها لنجاح علاء الدين محمد فى استردادها منهم بعد وفاة سلطانهم غياث الدين الغورى، ثم هزيمة خوارزمشاه للسلطان شهاب الدين الغورى بمساعدة الأتراك الخطا سنة ٦٠١هـ/١٢٠٤م الذين خافوا بأس الغوريين الذين يمثلون خطرًا على بلادهم.



ولحسن حظ الخوارزميين والأتراك فإن شهاب الدين الغورى قتل على يد إحدى القبائل الهندية، مما أدى إلى انقلاب ميزان القوى فى الجبهة الشرقية حيث اندلع النزاع بين أبناء البيت الغورى مما سهل لعلاء الدين محمد تصفية ممتلكاتهم والاستيلاء عليها، ودخلت بلادهم غزنة وفيروزكوه داخل نطاق الدولة الخوارزمية.

علاء الدين محمد والأتراك الخطا:

رفض علاء الدين دفع الأموال للترك الوثنيين لعجزه عن السداد، كما رغب فى تلبية نداء أهل سمرقند وبخارى الذين استجاروا به من ظلم كورخان حاكم الترك.

تعرض علاء الدين فى لقائه الأول إلى هزيمة كبيرة أدت إلى وقوعه ومعظم جنوده أسرى فى أيدى الأتراك؛ لكنه ما لبث أن هرب عن طريق خدعة ماكرة، وعاد إلى بلاده.

كرر علاء الدين المحاولة ضد الخطا الذين تصدوا له بقوات على رأسها قائد محنك يدعى بطانيكو، لكن خوارزمشاه هزمه هزيمة ساحقة حتى انساح الخوارزميون فى بلادهم "فملكوها مدينة مدينة وناحية ناحية"[(١٥)]. وتحرر سلطان سمرقند المسلم من الوثنيين، وصاهر علاء الدين محمد، لكن السلطان المسلم ما لبث أن انقلب على علاء الدين محمد واتصل بخان الخطا المهزوم كورخان، وتزوج ابنته، وأهان ابنة خوارزمشاه، وقطع علاقته به، فتجددت الحرب بين علاء الدين محمد وحاكم سمرقند انتهت بانتصار الخوارزميين ودخول علاء الدين محمد سمرقند التى اتخذها عاصمة له حتى سقوط الدولة.

علاء الدين محمد والخلافة العباسية:

كانت العلاقة بينهما فى بداية حكمه طيبة، وتبادلا الرسل والهدايا، لكن ما لبثت أن تدهورت عندما طمع خوارزمشاه فى إقامة الخطبة له فى بغداد مع الخليفة الذى رفض مطلبه، لذلك أظهر علاء الدين التمرد والعصيان، واتخذ من بعض الموضوعات أساسًا للتصدى للخليفة الناصر لدين الله منها عزل الخليفة لابنه الظاهر من ولاية العهد، وكذلك قيام الخليفة بالتآمر على قتل شريف مكة على يد أحد الباطنية، كما ادعى أنه بعد سقوط الدولة الغورية وجد فى خزائنهم وثائق تحوى أوامر من الخليفة تحرض على القضاء على الخوارزميين، وادعى أيضًا أنه وجد وثائق مماثلة فى خزائن الأتراك الخطا تحض

على نفس الموضوع، لذلك قام بتأييد حركات التمرد ضد الخلافة، ثم بدأ يروج على أن العباسيين اغتصبوا الخلافة من العلويين، فأصدر أمره بعزل الخليفة وإسقاط اسمه من السكة والخطبة، وحصل على فتوى شرعية على العزل، ثم خرج بحملة عسكرية سنة ٦١٤هـ/١٢١٧م، لكنه توقف فى العراق العجمى، لمقتل نائبه بها على يد الباطنية، واستأنف الهجوم فى العالم التالى، لكنه منى بهزيمة اضطرته إلى العودة إلى بلاده حيث ندم على فعلته فى حق خليفة المسلمين، وبعث بالشيخ السهروردي إلى دار الخلافة "مستشفعًا بالله منذرًا وعن البغى محذرًا"[١٦]. وقد اتفق رأى المؤرخ النسوى مع ابن الأثير فى أن من يتجرأ على حرمة الخلافة يخسر الدنيا والآخرة "لأن بيت الخلافة يؤيده الله بملائكة سمائه، وله سر فى إدامته وبقائه"[١٧]وقد توقفت جميع مشاريع خوارزمشاه ضد الخلافة للظروف التى واجهها فيما بعد.

الخوارزميون والمغول:

عاصر علاء الدين محمد حركة الاجتياح الكبرى للمغول، وقد حاول بعض المؤرخين القدامى والمحدثين صب اللوم على الخليفة العباسى الناصر لدين الله على أنه هو الذى حرض المغول على غزو الأراضى الخوارزمية ، منهم ابن الأثير وابن الفرات المتوفى سنة ٨٠٧هـ/١٤٠٤م، وميرخوند الفارسى الذى عاش بعد ابن الفرات بقرن من الزمان والذى نسج على هذا الاتهام، ورتب طريقة اتصال الخليفة بالمغول، كما أيد هذه الرواية أبو الفدا والمقريزى وكثير من المؤرخين المحدثين من المسلمين والأجانب، وهناك من يرفض ويبعد عن الخليفة شبهة كهذه.

بدأ الصدام المغولى الخوارزمى مبكرًا عندما التقى علاء الدين محمد بمحض الصدفة وأثناء عودته من صحراء القرغيز مع جوجى بن جنكيز خان القائد المغولى، فقامت قوات خوارزمشاه بملاحقة الجيش المغولى، لكن القائد جوجى لم يشتبك معهم لأن الخاقان الأعظم أمر ألا يدخل فى حرب مع المسلمين، وكتب إلى خوارزمشاه رسالة بهذا المعنى، لكن السلطان المسلم رد عليه قائلاً: "إن كان جنكيز خان قد أمرك ألا تقاتلنى، فالله تعالى أمرنى أن أقاتلك، ووعد لى على قتالك الحسنى.."[١٨]. لذلك احتدمت الحرب بين الطرفين وانتهت بانسحاب المغول وعودتهم إلى بلادهم.

ومع ذلك فقد اعتبر كل واحد من

الفريقين أن هذا القتال نتيجة خطأ يؤسف له، حتى أن جنكيز خان نفسه عندما جاور الدولة الخوارزمية لم يشأ أن يجاهر سلطانها العداء، بل حرص على أن يسالمه، كما أن خوارزمشاه كان يتتبع أخبار جنكيز خان وهو بالصين، وكانت قوافل التجار تروح وتجىء بين ممالك جنكيز خان وخوارزمشاه وهى تحمل الأمتعة والبضائع ليتبادلها الطرفان فى حرية وأمان[١٩].

وحدث أن استقبل علاء الدين محمد بعد عودته من حملته على العراق سنة ٦١٥- ٦١٨هـ /١٢١٨- ١٢٢١م ثلاثة من التجار وهم رسل جنكيز خان "مصحوبين بمجلوبات الترك من نقر المعادن، ونصب الحنو، ونوافج المسك، وأحجار الشب، والثياب التى تسمى طرقوا"[٢٠]، وكانوا يحملون رسالة من جنكيز خان فهم منها خوارزمشاه أنها تحمل طابع التهديد والوعيد، حيث اعتبره جنكيز خان مثل أعز أولاده، ومعناها التبعية للخاقان المغولى.

وليس بخاف أن جنكيز خان أراد أن يخبر السلطان الخوارزمى أنه فتح الصين، وأخضع كافة الطوائف التركية، واعتبرهم رعاياه، وبما أن علاء الدين محمد تركى الأصل، فإن هذا القول يحمل معنى التهديد والوعيد، ومع ذلك كظم السلطان غيظه، ثم صرف الرسل بعد أن رد عليهم ردًا حسنًا، ووقع على معاهدة تجارية مع المغول.

بعد ذلك، قام جنكيز خان بإخضاع القبائل التركية وغيرها المنتشرة فى آسيا الوسطى بحجة تأمين الطرق التجارية، فاعتبر خوارزمشاه ذلك عملا عدوانيًا.

كما حدثت حادثة أخرى أثرت على العلاقات بين القوتين، فقد خرج ثلاثة من التجار الخوارزميين إلى أقصى الشرق حيث معسكرات المغول، وبلاط جنكيز خان، يحملون معهم البضائع من الثياب المذهبة، وقد خفرهم حراس الطرق "المستحفظون" وقادوهم إلى بلاط جنكيز خان الذى أعجب بما معهم، فطلب الأول ثمن البضاعة فقبض عليه، لذلك فطن الآخران للموقف فأبلغا جنكيز خان أن ما معهما هدايا له، لذلك عاملهم معاملة طيبة، وعندما قررا العودة اختار جنكيز خان مجموعة من رجاله لتكوين قافلة تحمل الأمتعة، وصل عدد أفرادها أربعمائة وخمسين رجلاً، وعندما وصلوا إلى مدينة "أوترار" على نهر سيحون، التى كان يحكمها ابن خال خوارزمشاه المدعو ينال خان

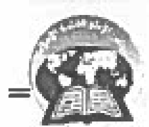
تعدى هذا صلاحياته، ولم يستمع لرأى خوارزمشاه فى التحفظ على رجال القافلة، بل قام بقتل رجالها، رغم أن المؤرخين مثل ابن الأثير والجوزجانى الفارسى وكثير من المؤرخين الأجانب ذكروا أن السلطان الخوارزمى أمر نائبه الحاكم على "أوترار" أن يقتلهم جميعًا، وأن يحوز على سلعهم لأن السلطان شك فى أمرهم وأنهم لم يكونوا تجارًا إنما جواسيس للمغول أرادوا أن يعرفوا المسالك والطرق، ومداخل البلاد ومخارجها.

استاء جنكيز خان تمامًا من هذا التصرف، وبعث إلى السلطان الخوارزمى يطلب منه تسليم ينال خان إليه "وتوعده إن لم ينفذ طلبه بحرب ترخص فيها غوالى الأرواح، وتتعضد معها عوامل الرماح"(٢١).

رفض السلطان تسليم ينال خان، بل قرر قتل جميع الرسل الذين قدموا إليه. ويذكر النسوى: "فيا لها من قتلة هددت دماء الإسلام، وجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام"(٢٢). فكانت مذبحة أوترار هى الشرارة التى فجرت رغبة جنكيز خان، وجعلته يسرع للتنفيس عن غريزته الطبيعية فى الذبح والحرق والتدمير، فزحف بجيوشه الجرارة، يساعده فى قيادتها أبناؤه الأربعة.

يذكر المؤرخ بارتولد: أن مسألة اتجاه جنكيز خان لمحاربة السلطان لا ترجع إلى مذبحة "أوترار"، بل إنها ترتبط بخطة جنكيز خان فى الفتح والغزو(٢٣)، لذلك استعد السلطان الخوارزمى بالجيوش والتحصينات، واستنفر الناس للدفاع عن الإسلام، وجمع التبرعات والمعونات لإيقاف المغول ومنعهم من عبور نهر سيحون، لكن بعضًا من أمراء الجيش لم يستحسنوا الفكرة، ورأوا "أنه من الأفضل ترك المغول يعبرون النهر "ثم اصطيادهم بعد ذلك فى بلاد ما وراء النهر التى لا يعرف مسالكها، بل وقطع المدد عنهم وإهلاكهم"(٢٤). وقام خوارزمشاه بتفريق عساكره بمدن ما وراء النهر وبلاد الترك، أما جنكيز خان فقد وزع قيادة جيشه بين أبنائه الأربعة، ووجه كل واحد منهم ناحية، وذلك للحيلولة دون اتصال السلطان محمد ببقية جنوده الذين يدافعون عن البلاد المحاصرة.

بدأ الهجوم المغولى على أوترار مفتاح ما وراء النهر، فقاوم حاكمها ينال خان مقاومة باسلة، لكن المغول تمكنوا من السيطرة على المدينة، وأسروا حاكمها، وتوزعت جيوش المغول على مدن ما وراء النهر، وأمر جوجى بن جنكيز خان جنوده بالعبور إلى خوارزم، وبذلك سيطر



المغول على القسم الغربى من بلاد ما وراء النهر، وقطعوا اتصال الخوارزميين به، ثم توجهوا للسيطرة على بخارى وسمرقند، التى أفاض المؤرخون فى وصف ما أصابها من قتل وسلب ونهب وتدمير، وقع على مسامع السلطان وقع الصاعقة.

استعد السلطان للقاء المرتقب، فى الوقت الذى تعرض فيه لخيانة بدر الدين العميد نائب وزيره على أوترار، فقد كان كارهًا للسلطان حتى دبر خطة الغرض منها التفريق بين خوارزمشاه وجنوده، وبينه وبين أمه تركان خاتون، وفعلا نجحت الخطة، وهربت أمه من البلاد حاملة متاعها ومجوهراتها وحاشيتها متوجهة إلى العراق العجمى، لكن المغول كانوا أسرع منها فقبضوا عليها وأسروها وقادوها وحاشيتها وأبناء السلطان إلى معسكر جنكيز خان، فظلت أسيرة لديهم حتى وفاتها.

أما عن السلطان علاء الدين محمد فقد لاحقته قوات جنكيز خان تحت قيادة القائدين تشيبى وسبوتاى، اللذين كانا يستوليان على كل مدينة يبحثون فيها عن السلطان الهارب الذى هام على وجهه لا يلوى على شىء، يخرج من مدينة إلى أخرى، والقوات المغولية تلاحقه، ففكر فى التوجه إلى بغداد، لكنه تخوف من ملاحقة المغول له هناك .

وأخيرًا لم يكن أمامه سوى الهروب إلى مدينة مازندران فوصل إليها، واستقر فى قرية على بحر الخزر "قزوين" قريبة من استراباد، ومع ذلك دلهم على مكانه بعض أقاربه الناقمين عليه، فعندما علم خوارزمشاه بنبأ وصول المغول إلى مكانه، ركب سفينة وأسرع بها، بينما سهام الأعداء تنهال عليه من كل جانب، فوصل إلى الجزائر الصغيرة المنعزلة فى بحر قزوين "فأقام بها طريدًا فريدًا، لا يملك طارقًا ولا تليدًا"[٢٥]، وكان أهل المنطقة يعطفون عليه ويقدمون له الطعام، لكن المرض اشتد عليه عندما علم بأخبار القبض على أمه وزوجاته وأبنائه وبناته، وغلب عليه الحزن الذى أدى إلى وفاته فى نفس الجزيرة التى نزل بها "ولم يجدوا ما يكفنونه به، فكفن بقميص الشخص الذى غسله"[٢٦] ودفن بالجزيرة سنة ٦١٧هـ/١٢٢٠م، وآلت السلطنة بعده إلى ابنه جلال الدين منكبرتى.

جلال الدين منكبرتى (٦١٧-٦٢٨هـ/١٢٢٠- ١٢٣١م):

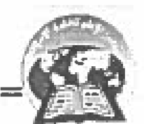
ورث جلال الدين تركة مثقلة بالهموم،

ومملكة متداعية، وعدواً لا يرحم استولى على معظم أرجائها، فقد ولاه أبوه بعد أن غيَّر العهد من أخيه "أوزلاغ شاه" إليه، وذلك قبيل وفاته، فقد ذكر الأب: "أن عرى السلطنة قد انفصمت والدولة قد وهت قواعدها وتهدمت، وهذا العدو قد تأكدت أسبابه، وتشبثت بالملك أظفاره، وتعلقت أنيابه، وليس يأخذ ثأرى منه إلا ولدى منكبرتى"[٢٧].

بعد هروب الأسرة الخوارزمية حكم بلادهم حاكم يدعى "كوه دورغان" الذى أساء معاملة الأهالى، لذلك عمل منكبرتى وأخوه على إنقاذهم، فعندما وصلا استقبلهما من بقى من أهلها استقبالاً طيبًا، لكن القبائل التركية المختلفة تآمرت ضدهما مما دفع منكبرتى للهروب وحده إلى مدينة "نسا" بخراسان، تاركًا أخاه أوزلاغ شاه وأخًا آخر بالبلاد التى وصلت إليها القوات المغولية راغبة فى القبض على الأخوين، لكنهما تمكنا من الهرب، فلحق بهما المغول وتمكنوا من القبض عليهما وقتلهما، وبذلك أصبح منكبرتى وحيدًا.

تعقب المغول منكبرتى من مدينة إلى أخرى، وفى كل واحدة تستعر المعارك الحربية، وكان أهمها فى نيسابور وزوزن وبست وقندهار، وقد تمكن منكبرتى من الانتصار على الجيوش المغولية التى ظلت تلاحقه حتى وصل إلى غزنة "فدخلها ظاهرًا، ظافرًا، ولله على تيسير النجح شاكرًا"[٢٨]، حيث استطاع أن يجمع بها جيشًا كبيرًا ليتصدى به للمغول الذين دخلوا آنذاك خوارزم وأسقطوها وتلاها خراسان التى هاجمها المغول من قبل أثناء ملاحقة أبناء البيت الخوارزمى، فسقطت ترمذ وبلخ ثم الطالقان، وكانت مهمة بقية المدن الخراسانية تقع على عاتق تولودى بن جنكيز خان، الذى أسقط نسا ثم مرو ونيسابور. ويذكر الجوينى عطا ملك: "أنهم قطعوا رؤوس القتلى وبنوا منها أهرامات عالية أحدها للرجال والآخر للنساء والثالث للأطفال"[٢٩]، وتلا ذلك مدينة هراة تمهيدًا للوصول إلى جلال الدين فى غزنة.

كان جيش منكبرتى الذى أعده لمهاجمة المغول مختلف الأجناس والأعراق، حقق به نصرًا عام ٦١٨هـ/١٢٢١م. عند "بيروان" فى شمال شرقى غزنة، فارتفعت معنوياته، وجهز للقاء آخر، لكن الفرقة دبت بين جيشه للصراع الذى احتدم بين الترك والخلج الأفغان؛ لأن السلطان كان يميل إلى الترك أبناء جنسه، لذلك انسحب الخلج



تاركين منكبرتى وحده مع عصبته التى لا تقوى على التصدى وحدها للمغول، الذين هاجموه هجومًا لم يستطع مواجهته، لذلك هرب إلى نهر السند، ولحقت به قوات المغول حيث دار القتال على ضفة النهر فى الثامن من شوال سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م، تعرض فيه منكبرتى لهزيمة ساحقة وتم أسر ابنه، وقد رأى والدته وزوجته يصحن بأعلى أصواتهن ليخلصهن من الأسر، "فأمر بإغراقهن فى ماء السند حتى لا يمتن على يد المغول"[٣٠].

لم يصبح أمام منكبرتى مفرٌّ سوى الهروب إلى بلاد الهند، لذلك عبر نهر السند، وحطت به الأمواج فى منطقة بعيدة، ومعه ثلاثة من رجاله، وما لبث أن لحق بهم غيرهم، لكنهم للأسف أساءوا إلى أهل البلاد فظلوا يقتلون وينهبون حتى يحصلوا على السلاح والمال، كما حدثت مشاكل بينهم وبين الولاة الهنود، وقاموا بمحاربتهم، وقضى منكبرتى فترة كلها صراع وقتال، حتى كرهه أهل الهند، فاضطر إلى تركها وما بها من مشاكل والتوجه صوب العراق العجمى، أى إلى أملاكه السابقة والانتقام من كل من تصور أن له يدًا فى استدعاء المغول خاصة الخليفة العباسى، منتهزًا فرصة انحسار المد المغولى.

تنقل جلال الدين من كرمان إلى شيراز، ووجه نظره ناحية العراق العربى، وأكثر رجاله من السلب والنهب وقطع الطريق، حتى وصلوا إلى "يعقوبا" بالقرب من بغداد، حتى أن أهلها "تجهزوا للحصار، وأسلحوا السلاح من الجروخ والقسىّ والنشاب"[٣١].

ورغم هذه الاستعدادات، إلا أن منكبرتى ترك الاتجاه ناحية بغداد وتوجه إلى البصرة، ثم تركها إلى خوزستان، وأخذت فرقة من جيشه طريقها ناحية تكريت حتى وصلت إلى الموصل.

معنى ذلك أن الفترة التى هدأ فيها الغزو المغولى، استغلها جلال الدين فى الانتقام من الخلافة العباسية وكثير من البلدان التى ليس لها ناقة ولا جمل فى هذه الظروف والحروب الدائرة.

وصل منكبرتى إلى أذربيجان وحاصر عاصمتها تبريز، فسلمتها له زوجة أتابكها أزبك البهلوان سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، وبعدها هاجم مملكة الكرج المسيحية وعاصمتها تفليس فى بلاد الأبخاز والذين اعتادوا على مهاجمة المسلمين، ثم استغلوا فترة الغزو المغولى فركزوا هجماتهم، حتى أنهم بدأوا بالعدوان، فهاجم منكبرتى عاصمتهم

التى كانت محصنة تحصينًا كبيرًا، وتمكن من الانتقام من الكرج، حتى هربت ملكتهم "روسودان" إلى "كوتاهية".

منكبرتى والباطنية:

كان لهجمات الباطنية الإسماعيلية المستمرة على القيادات السنية، أن حاول منكبرتى استئصال شأفتهم، لأنهم اعتدوا على الأراضى الخوارزمية، وأرسلوا مجموعات من فدائييهم ليندسوا بين صفوفهم، فعندما اكتشف منكبرتى خمسة منهم أمر بإحراقهم، لذلك بعث إليه زعيمهم "شيخ الجبل" يطلب دفع دية عن كل فدائى، تقدر بحوالى عشرة آلاف دينار، فاضطر منكبرتى إلى الموافقة.

كثرت المواقف التى أدت إلى اشتعال الموقف بين الخوارزميين والباطنية مما جعلهم يحاولون التقرب من الخوارزميين، لكن إلى حين، أى أثناء فترة قوة منكبرتى، لكن عندما حلت به الهزائم على يد الأيوبيين والسلاجقة تحالفوا ضده مع المغول.

منكبرتى والقوى الإسلامية: الأيوبيون – السلاجقة:

اكتمل نمو الدولة الخوارزمية على عهد علاء الدين محمد الذى عاصر السلطان الملك العادل الأيوبى، الذى حاول كسب ود السلطان الخوارزمى.

بعد وفاة العادل حدث انقسام بين أبنائه، مما دفع المعظم عيسى حاكم دمشق إلى مراسلة الخوارزمية طالبًا مساعدتهم ضد أخيه الكامل محمد سلطان مصر، كما تنازع أخوه الأشرف موسى مع أخيه شهاب الدين غازى على مدينة خلاط المجاورة لأملاك منكبرتى، ونجح الأشرف موسى فى انتزاعها منه.

قام منكبرتى بمهاجمة خلاط وانتزعها من الأشرف موسى ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، فى الوقت الذى لم يحرك أبناء البيت الأيوبى ساكنًا لدفع الخوارزميين الذين قاموا بأعمال وحشية فى خلاط، لكن سلاجقة الروم فى آسيا الصغرى توجسوا خيفة من منكبرتى واعتقدوا أنه سيهاجم بلادهم، فاتصلوا بالأيوبيين وكونوا معهم حلفًا ضد منكبرتى برئاسة الأشرف موسى الأيوبى وعلاء الدين كيقباذ السلجوقى، ومع ذلك قرر منكبرتى مبادرتهم قبل أن يجتمعوا، لكنه هزم هزيمة كبيرة أدت إلى عودة كل واحد منهم إلى بلاده.

حاول منكبرتى فى نهاية أيامه جمع الشمل الإسلامى لمواجهة المغول الذين تحركوا مرة أخرى بعد توقفهم لمدة عامين بسبب وفاة جنكيز خان سنة

٦٢٤هـ/١٢٢٧م، حتى تم تعيين ابنه أوكتاى خانًا على المغول سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م. ولم يكد منكبرتى يحط الرحال فى خلاط حتى وردت الأنباء أن جيش المغول وصل إلى آران، وأنه قادم من ناحية تبريز، الأمر الذى سبب قلقًا كبيرًا لمنكبرتى، وجعله يغير من سياسته الهجومية الوحشية ضد الحكام المسلمين، فعمد إلى طلب المساعدة منهم، للوقوف أمام الغزو المغولى، إلا أنهم لم يستجيبوا له، بل تركوه وحيدًا أمام عدو جبار حتى لقى مصرعه على يد أحد الأكراد فى ميافارقين، سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م.

وهكذا سقطت الدولة الخوارزمية التى لعبت دورًا مهمًا كدولة من دويلات المشرق الثغرية، وسقط آخر سلاطينها، الذى اختلفت حوله الآراء؛ فنرى المؤرخين الفرس والترك يضفون عليه هالة من القداسة، فى حين أن المؤرخين العرب تحاملوا عليه، ووصفه معظمهم بأحط صفات الغدر وسوء الأخلاق.

البقايا الخوارزمية فى العالم الإسلامى:

تشتت القوات الخوارزمية بعد مقتل منكبرتى، واستيلاء المغول على معظم أراضى الجزيرة، وأرمينية وخلاط، وأصبحوا جنودًا مرتزقة لمن يدفع أكثر، فشاركوا علاء الدين كيقباذ سلطان سلاجقة الروم فى حروبه ضد الأيوبيين والأراتقة، كما قدموا خدماتهم للخلافة العباسية، حيث استخدمهم الخليفة المستنصر بالله ٦٣١هـ/١٢٣٤م، ثم قدموا خدماتهم للأيوبيين فى خلافاتهم الأسرية خاصة الصالح نجم الدين أيوب وأخاه العادل الثانى، فناصروا نجم الدين حتى استقرت له السلطنة فى دمشق وأصبحوا هم خاصته، لكنهم كانوا يعيثون فسادًا فى البلاد التى دخلوها، فقد "وضعوا السيف فى أهلها، وقتلوا منهم ما لا يحصى عدده، وارتكبوا الفواحش بالنساء"(٣٢)، فى وقت كان لا بد من اتحاد القوى الإسلامية المتناحرة للتصدى للخطر الزاحف، كما كان لا بد أيضًا أن يعتبر الخوارزمية مما أصابهم، لكنهم استمروا على سياستهم.

ولعل العمل الإيجابى الذى قاموا به آنذاك هو نجاح هذه الفرق الخوارزمية فى استعادة بيت المقدس من الصليبيين سنة ٦٤٢هـ/١٢٤٤م بعد أن سلمها لهم الصالح إسماعيل الأيوبى، كما أنهم قاموا بتعقب الفرنج الفارين من المدينة إلى غزة.

وبعد أن أنهى الخوارزميون خدماتهم للصالح أيوب ضاق بهم ومن أطماعهم، فتخلص منهم حتى تشتتت قواتهم فى البلدان

الإسلامية ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك.

حضارة الدولة الخوارزمية:

غلبت على الدولة الخوارزمية السمات الحضارية التى كانت سائدة آنذاك فى بلاد المشرق الإسلامى، خاصة مظاهر الحضارة السلجوقية.

فإذا تكلمنا عن السلطنة الخوارزمية نجد أن حكامهم تلقبوا منذ عهد محمد ابن أنوشتكين بلقب "خوارزم شاه" أى ملك خوارزم. ولما اتسع نطاق حكمهم منذ عهد علاء الدين تكش تلقبوا بلقب "سلطان" وفى عهد علاء الدين محمد أطلق على نفسه لقب إسكندر"[٣٣].

كانت سلطة السلطان الخوارزمى غير محدودة فى العزل والتولية لجميع موظفى الدولة، وله سلطان إعلان الحرب وقيادة الجيوش، وإقطاع الأراضى وفرض الضرائب.

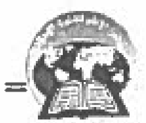
كما كان نظام الحكم وراثيًا، حيث جرت العادة أن يعين السلطان ولى عهده فى حياته، ولا بد أن يكون الابن الأكبر، كما كان يعين نوابًا عنه فى المدن بالأقاليم التابعة له، ولم تكن السلطة الممنوحة لهم كاملة، بل كان السلطان يتدخل فى شئونهم[٣٤].

ومن أهم الوظائف: وظيفة الوزير التى ظهرت منذ عهد آتسز، وكان تعيينه من صلاحية السلطان، لذلك كانت سلطة الوزير محدودة، وكان عدد الوزراء يتباين حسب السلاطين، حيث إن علاء الدين محمد اتخذ أكثر من وزير، كما كان الوزراء يعيشون فى الإقطاعات الممنوحة لهم، ومن أبرز الوزراء: محمد بن أحمد النسوى، مؤلف سيرة السلطان جلال الدين.

أما عن دواوين الدولة فأبرزها ديوان الجيش الذى كان يسمى أحيانًا "ديوان العرض"[٣٥]، كما كان هناك ديوان الإنشاء وهو من الدواوين المُهمة، واعتبرت وظيفة كاتب الإنشاء من الوظائف الرئيسية لدى الخوارزميين، ومن أبرز من تولوا هذه الوظيفة: رشيد الدين محمد العمرى المعروف "برشيد الوطواط" على عهد آتسز[٣٦].

وهناك وظيفة الحاجب، حيث ثبت أن أغلب سلاطين الخوارزميين اتخذوا عددًا من الحجاب، كما كانت هناك وظيفة مشابهة للحجابة وهى الوكيلدارية[٣٧]، ويبدو أن صاحبها كان يلازم السلطان ويحادثه فى أوقات فراغه.

ومن وظائف الدولة: وظيفة "الطغراء" والمقصود به رئيس الديوان السلطانى، ويلقب بالطغرائى، ومنزلته دون منزلة كاتب الإنشاء، أى عكس ما كان عليه الحال عند السلاجقة[٣٨]، كما



وجدت وظيفة الاستيفاء وصاحبها من كتاب الأموال بالدواوين، وهو أشبه بوزير المالية، وإلى جانبه الخازن الذى يقوم بالإشراف على بيت المال فيما يتعلق بالوارد والمنصرف من الأموال، وهناك أستاذ الدار الذى يشرف على المطابخ والشراب خاناه، والحاشية والغلمان.

أما أبرز وظائف الدولة فهى وظيفة القاضى الذى عليه أن يتناول الفصل فى القضايا العامة والخاصة، ويقوم بتدريس العلوم الدينية فى المدارس والمساجد، ومن أبرز هؤلاء القضاة العلماء: القاضى عز الدين القزوينى الذى درس بمدارس تبريز وعدة مدارس أخرى(٣٩).

وكان هناك قضاة العسكر الذين يفصلون فى الخصومات بين الجند، وقضاة المظالم، والمحتسبين، إلى جانب وظائف خدمات السلطان.

كان الإقطاع أسلوبًا من أساليب الإدارة الخوارزمية، وكان هدفهم من توزيع الإقطاعات مشابهًا لأهداف السلاجقة، وذلك لأن الخوارزميين قضوا حياتهم كلها فى حالة حرب مما استدعى استخدام نظام الإقطاع الحربى. كما كانت حياتهم العسكرية هذه وحروبهم الطويلة سببًا لاهتمامهم بالنظام العسكرى وبتسليح الجيش، وحسن تدريبه.

فقد كان معظم جيشهم يتكون من مجموعة قبائل تركية تأصلت فى نفوسهم صفات الحرب والخشونة، وبعدها دخلت قبائل أخرى فارسية وهندية وخطائية وخلجية، ولم يكونوا جميعهم جنودًا نظاميين، لذلك كان عدد الجيش يختلف باختلاف السلاطين والظروف المحيطة بالدولة.

وكانت هناك وظائف عسكرية مثل: صاحب الديوان أى "ديوان الجيش"، وناظر الجيش الذى يقوم بالإشراف على ديوان الجيش، والسرهنك(٤٠)، ويبدو أنها تقابل وظيفة القائد الذى يقوم بإدارة شئون الجيش المختلفة، وربما يطلق على القائد اسم المقدم ، كما أوردت المصادر الجاويش ومقدم الجاويشية(٤١). وهو جندى بسيط يكلفه سيده بإعداد الرسائل وتبليغها، وكذلك المستحفظ الذى يعينه السلطان على الولايات التابعة لهم ويمنحه سلطة عسكرية، إلى جانب وظيفة الشحنة، ويقوم صاحبها بواجباته معتمدًا على الشرطة فى استتباب الأمن وحفظ النظام.

هذه بعض الملامح العامة عن المؤسسات الإدارية والعسكرية فى الدولة الخوارزمية.

الهوامش:

(١) الإصطخرى، المسالك والممالك، ليدن، ١٩٢٧م، ص٢٩٩، ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، ١٩٧٩م، ص٤٧٧ .
(٢) ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، بيروت، دار الكتاب العربى، ج٨، ص١٨٤ .
(٣) المصدر السابق .
(٤) أبو الفدا، المختصر فى أخبار البشر، ج٢، بيروت، دار المعرفة، د.ت، ص١٥- ١٦.
(٥) الوطواط "رشيد الدين، مجموعة رسائل رشيد الدين الوطواط، ج١، مطبعة المعارف، مصر، سنة ١٣١٥ –ص٩.
(٦) Skrin, and Ross, Hhe Heart of Asia, London, 1899,P.140.
(٧) خواندامير، تاريخ حبيب السير فى أخبارى، نشر وتحقيق، م.د. سياقى، طهران، سنة ١٣٣٣هـ، ج٢، ص٦٣٤.
(٨) الحسينى، صدر الدين على، زبدة التواريخ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق محمد نور الدين، بيروت، ١٩٨٥م، ص٢٨٥ .
(٩) الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج٤، الكويت، سنة ١٩٦٣م، ص٢٨٥ .
(١٠) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٣٢ .
(١١) الراوندى، راحة الصدور وآية السرور: ترجمة عبد النعيم حسانين وآخرين، القاهرة، ١٩٦٠م، ص٢٨٢ .
(١٢) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٤١ .
(١٣) المصدر السابق.
(١٤) ابن الساعى، تاج الدين، الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير، نشر مصطفى جواد، ج٩، بغداد سنة ١٩٣٤م، ص١٩.
(١٥) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٢٩٤، ص٢٩٥ .
(١٦) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، تحقيق حافظ أحمد حمدى، القاهرة، سنة ١٩٥٣م، ص٦٤ .
(١٧) المصدر السابق، ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣١٣ .
(١٨) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص٤٧ .
(١٩) الجوزجانى، طبقات ناصرى .
(٢٠) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص٨٣ .
(٢١) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص٨٧ .
(٢٢) المصدر السابق، ص٨٨ .
(٢٣) بارتولد، تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٤٩ .
(٢٤) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٣١.
(٢٥) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص١٠٧ .
(٢٦) المصدر السابق، ص١٠٨، الذهبى، العبر فى خبر من غبر، ج٥، ص٧٠ .
(٢٧) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص١٢٠ .
(٢٨) النسوى، المصدر السابق، ص١٣٤ .
(٢٩) Juwaini, Ala-Al-din Ata Malik, Tarikh Jahan- Gushay, P. 408.
(٣٠) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص١٥٩ .
(٣١) ابن الأثير، الكامل، ج٩، ص٣٥٦ .
(٣٢) ابن العديم، كمال الدين، زبدة الحلب فى تاريخ حلب، ج٣، تحقيق سامى الدهان، دمشق، سنة ١٩٦٨م، ص٢٥٢ .
(٣٣) خواندامير، حبيب السير، ج٢، ص٦٤٦.
(٣٤) عن مظاهر التدخل وكيفيته انظر: الراوندى، راحة الصدور، ص٥٥١- ٥٥٢ .
(٣٥) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص٤٩ .

(٣٦) انظر: رشيد الدين الوطواط، حدائق السحر فى دقائق الشعر، نقله عن الفارسية، إبراهيم الشواربى، القاهرة، ١٩٤٥م، انظر مقدمة المترجم .

(٣٧) النسوى، المصدر السابق، ص٨٢ .

(٣٨) النسوى، المصدر السابق، ص٥٧- ٥٨ .

(٣٩) النسوى، المصدر السابق، ص٢٠٨ .

(٤٠) النسوى، سيرة السلطان جلال الدين، ص١٠٧- ٢٤١ .

(٤١) النسوى، المصدر السابق، ص١٠٨ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- ابن الأثير: على بن أحمد بن أبى الكرم المعروف بابن الأثير الجزرى، ت٦٣٠هـ/١٢٢٨م.

- الكامل فى التاريخ: ٩ أجزاء، بيروت سنة ١٩٧٩م.
- التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية، نشر عبد القادر طليمات، القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٢- ابن الجوزى "أبو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن على ": ت ٥٩٧هـ/١٢٠٠م.

- "المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم" حيدر آباد، سنة ١٣٥١م.

٣- أبو الفدا "عماد الدين إسماعيل بن محمود" : ت٧٣٢هـ/١٢٣١م.

- المختصر فى أخبار البشر: ٤ أجزاء، القاهرة، سنة ١٣٢٥هـ.

٤- الأصفهانى "عماد الدين الكاتب": ت ٤٦٧هـ/١٢٠٠م.

- تاريخ دولة آل سلجوق القاهرة، سنة ١٣١٨هـ.
- الفتح القسى فى الفتح القدسى، تحقيق وشرح محمد محمود صبح، القاهرة، سنة ١٩٦٥م.

٥- إقبال "محمد": "تاريخ إيران"، ليدن، سنة ١٩٢١م.

٦- البندارى "الفتح بن على بن محمد": ت أواخر القرن السابع الهجرى.

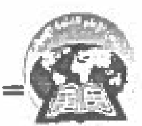
- مختصر تاريخ آل سلجوق، بيروت، سنة ١٩٧٨م.

خيبر (غزوة)

خيبر: ناحية بالحجاز على ثمانية برد[1] من المدينة لمن يريد الشام، ويطلق هذا الاسم على المكان الذى يشتمل على سبعة حصون[2] ومزراع ونخل كثير.

ولفظ خيبر (بلغة اليهود) يعنى الحصن، ولكون هذه البقعة تشتمل على هذه الحصون سميت "خباير"، وقيل سميت خيبر نسبة إلى خيبر بن قانية بن مهلائيل ابن إرم بن عبيل، وهو أخو عاد بن عوض ابن إرم بن سام بن نوح، وإذا كانت خيبر موصوفة بكثرة النخل والتمر، فهى أيضًا موصوفة بكثرة الحمى فيها.

وبناء على هذه التسمية - الأخيرة - فإن سكان خيبر الأوائل كانوا من العماليق من العرب البائدة، وظلت كذلك حتى استولى عليها الملك البابلى "نابو نيد"وأخرج العرب منها وبقيت تابعة لملكه - ومعها - تيماء - . وديدان - خلال الفترة من ٥٥٥ - ٥٣٩ق.م، حيث ورد اسمها فى كتابات الأشوريين" خبرًا". وبعد أن احتل الرومان بلاد الشام أخرجوا اليهود منها، فتفرق معظمهم إلى بلاد الحجاز، خاصة وادى القرى وخيبر، وظل اليهود فى بلاد العرب[3] (ومنها خيبر) يتوعدون العرب بقرب ظهور نبى منهم ينتصرون به على الأميين العرب ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ (البقرة : ٨٩) بل أخذوا يدبرون المكائد للنبى ﷺ وللمسلمين فى المدينة، خاصة بعد أن عاقب النبى بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة على نقض العهود وغدرهم بالمسلمين، وأراد يهود خيبر الثأر من المسلمين لإخوانهم فآووا من ذهب إليهم من يهود بنى النضير وتحزبوا مع المشركين وحالفوا القبائل العربية شمالى المدينة - وخاصة غطفان - الذين فشلوا فى هجومهم على المدينة يوم الخندق، وأخذت الرسل تتردد بين يهود خيبر وبين غطفان لتكوين جبهة مناوئة للإسلام والإعداد للهجوم على المدينة عندما تلوح الفرصة؛ وهكذا أصبحت خيبر وكرا للمؤامرات ضد المسلمين، وإذا كان صلح الحديبية سنة ٦هـ قد تمخض عنه أمن المسلمين من ناحية الجنوب (مكة وحلفائها)، فكان عليهم أن يتحركوا بسرعة لضرب هذا المخطط المعادى لهم فى الشمال قبل أن يكتمل إعداده، فكانت الخطوة الإسلامية التالية بعد الحديبية هى القضاء على يهود



خيبر والتفرغ لمواجهة القبائل العربية الشماليةالموالية للروم[٤].

لما فرغ الرسول ﷺ من أمر الحديبية عاد إلى المدينة فلم يستقر بها إلا شهر ذى الحجة سنة ٦هـ وبعض المحرم سنة ٧هـ ثم خرج فى بقيته إلى خيبر، مظهرًا أنه متوجه إلى غطفان لكى يخلو عن مناصرة يهود خيبر الذين خفُّوا لمساعدتهم ضد المسلمين وأعلن النبى ﷺ ألا يخرج معه إلا راغب فى الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب الحديبية وهم ألف وأربعمائة رجل، ومعهم مائتا فارس، وكان عبد الله بن أبى - رأس المنافقين - أرسل إلى يهود خيبر يحذرهم ويعلمهم بخروج المسلمين إليهم، فلما علموا بذلك أرسلوا إلى غطفان - حلفائهم - يستمدنهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن هم غلبوا على المسلمين، وسلك النبى فى اتجاهه نحو خيبر الطريق الموصل إلى وادى الرجيع[٥]، وكان بينهم وبين غطفان مسيرة يوم وليلة، فتهيأت غطفان وتوجهوا إلى خيبر لمعاضدة اليهود، فلما كانوا ببعض الطريق سمعوا من خلفهم حسًا ولغطًا، فظنوا أن المسلمين أغاروا على أهاليهم وأموالهم فرجعوا، وخلوا بين رسول الله وبين خيبر، وفشل كيد اليهود وأعوانهم، وانطلق جند الله نحو خيبر فوصلوها مساء وباتوا أمام حصونها، فقال النبى لأصحابه: قفوا، ثم قال: " اللهم رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله"[٦].

وكان رسول الله إذا غزا قوما لم يُغِرْ عليهم حتى يصبح، ويدعوهم إلى الإسلام،فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار، فبات رسول الله ليلته، ولما أصبح وركب المسلمون، خرج أهل خيبر بمساحيهم ومكاتلهم وفؤوسهم يقصدون مزارعهم، فلما رأوا الجيش صاحوا: محمد والخميس (الجيش)، ثم ولوا هاربين ، فقال النبى ﷺ " الله أكبر خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين"[٧].

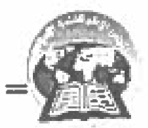
انتظم جيش المسلمين ووقف أمام الحصون بكامل معداته ينتظر أمر قائده، فوعظهم النبي وفرق بينهم الرايات. أما اليهود فقد أشار عليهم سلام بن مشكم بجمع أموالهم وعيالهم فى حصون الكتيبة (القموص والوطيح

والسلالم)، وحشد المقاتلة فى حصون نطاة، ودخل معهم يحرضهم على القتال والصبر، وقد أمر النبى بقطع النخيل والأشجار المحيطة بالنطاة كى لا تحول دون تحركات الجيش الإسلامى، وخرج اليهود للقائهم واستماتوا فى الدفاع عن حصن ناعم من النطاة، وانتهى اليوم الأول دون تحقيق النصر واستؤنف القتال فى الغداة واستمر ثلاثة أيام واليهود يحاربون أمام حصونهم فزعين من الحرب فى الميدان، فإذا انهزموا عادوا إلى الحصون وأغلقوها دونهم، وفى اليوم السادس قال النبى ﷺ: **« لأعطين الراية غدًا لرجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله».**

وأخذ كل واحد من الصحابة يتمنى أن تكون الراية من نصيبه، وفى الغد بعث إلى ابن أبى طالب ، فجاءه يشتكى عينيه، فبصق النبى فيها ودعا فبرأت من رمدها، فأعطاه الراية وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام فإن أبوا قاتلهم، وتقدم علىٌّ فلما قرب من حصن ناعم أمطروه بالنبال، ودارت معركة هائلة قتل فيها قائد الحصن الحارث بن أبى زينب فتولى بعده أخوه "مرحب" وخرج يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر أنى مرحب
شاكى السلاح بطل مجرب
أطعن أحياناً وحينا أضرب
إذا الليوث أقبلت تحـــرَّبُ
إن حماى للحمى لا يُقْرَبُ
يُحْجِم عن صَوْلتىَ المجرَّبُ

فتقدم له علىّ لمبارزته وكاد مرحب أن يقتله ولكن عليا فى النهاية سدد إليه ضربة فلق هامته فوقع قتيلاً[٨]، ثم خرج أخوه " ياسر" فبارزه الزبير بن العوام فقتله، ثم ركز على رايته تحت الحصن وأخذ يقاتل بمن معه فضربه رجل من يهود فطرح ترسه من يده، فتناول علىّ بابًا كان عند الحصن فترَّس به عن نفسه، ولم يزل يقاتل حتى فتح الله عليهم الحصن وفعل الحباب بن المنذر بحصن الصعب بن معاذ مثلما فعل " علىٌّ " حتى فتح بعد ثلاثة أيام، وبعدها سقطت حصون اليهود الواحد تلو الآخر، ولما انتهوا من الشق والنطاة، تحول المسلمون إلى حصون الكتيبة ففتحوا حصن القموص بالقتال، أما حصن الوطيح والسلالم فقد سلَّما دونما قتال بعد حصار دام أربعة عشر يومًا أيقن اليهود خلالها بالهلكة ففاوضوا النبىَّ على الصلح وحقن الدماء، وأن يخرجوا من خيبر وأرضها بذراريهم وَيُخلُّوا بين رسول الله وبين ما كان لهم من مال وأرض،



وعلى الصفراء والبيضاء (الذهب والفضة) والكراع والحلقة إلا ثوبًا على ظهر إنسان، فقال رسول الله ((وبرئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتونى شيئًا)) ، فصالحوه على ذلك، وسلمت بقية الحصون إلى المسلمين. وبذلك تم فتح خيبر بعد أن قتل من اليهود ثلاثة وتسعون واستشهد من المسلمين ستة عشر رجلاً، وعلى الرغم من هذا الصلح فإن ابن أبى الحقيق قد غدر حينما أخفى كنز بنى النضير وحيى بن أخطب، واعترف عليه رجل من يهود فقال له النبى: إن وجدناه عندك أأقتلك؟ قال: نعم، فوجدوه فى خرابة وأخرجوه منها فدفع النبى كنانه إلى الزبير فعذبه ثم سلمه لمحمد بن مسلمة فقتله، وكان النبى لما أخذ المسلمون حصن القموص عنوة وسبوا منه النساء والذرارى قد اصطفى صفية بنت حُيَىٍّ لنفسه فتزوجها وجعل صداقها عتقها، وأراد النبى إجلاء اليهود عن خيبر وتقسيمها على الفاتحين، فقال يهود: يا محمد دعنا نكون فى هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، فأعطاهم خيبر يزرعونها على أن لهم الشطر من كل ثمر وزرع ما بدا لرسول الله أن يقرهم، على أن له أن يخرجهم منها متى شاء، فبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب عنها إلى الشام(٩).

ولما فتحت خيبر وقع الرعب فى قلوب أهل فدك(قرية يهودية قريبة من خيبر) فعرضوا على النبى أن يدفعوا نصف حاصلاتهم من غير قتال فوافق، وفعل يهود وادى القرى وتيماء مثلما فعل أهل فدك بعد محاصرتهم(١٠) وهكذا خلت الجزيرة العربية كلها من اليهود وشرورهم وأصبحت خيبر منذ ذلك التاريخ حاضره إسلامية خالصة حتى اليوم، وهى تتبع إمارة المدينة المنورة الآن ضمن المملكة العربية السعودية .

أ.د / عبد الله إبراهيم راجح

الهوامش:

(١) البريد مسافة نحو عشرين كيلو مترا .

(٢) وهى حصن ناعم، وحصن القموص، وحصن الشق، وحصن النطاة، وحصن السلالم، وحصن الوطيح، وحصن الكتيبة(الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ٣ ص٩ ـ١٠ طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٧٩م، ياقوت: معجم البلدان جـ٢ ص٤٠٩ (طبعة دار صادر بيروت سنة ١٩٧٧م) وقسم صفى الرحمن المباركفورى خيبر إلى شطرين: الشطر الأول: النطاة والشق، وفيه خمسة حصون: ناعم والصعب والزبير وأبى وحصن النزار، والشطر الثانى" الكتيبة" وفيه ثلاثة حصون: القموص (كان حصن بنى أبى الحقيق) وحصن الوضيح وحصن السلالم فتكون الحصون ثمانية . (الرحيق المختوم) ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ ـ طبعة مكة المكرمة سنة ١٤٢٠هـ .

انظر: ياقوت: معجم البلدان جـ ٢ ص ٤٠٩ ـ ٤١٠، وابن منظور لسان العرب جـ٢ ص ١٠٩٢ طبعة دار المعارف ـ القاهرة سنة ١٩٨٦، وانظر أيضًا: د. محمد الطيب النجار: دراسات فى السيرة النبوية ص ٢٤٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠.

(٣) دخلت بعض القبائل العربية فى اليهودية ـ كما دخل بعضها فى المسيحية ومنها القبائل اليمنية التى هاجرت إلى الشمال وسكنت فى يثرب ووداى القرى(فدك وخيبر وتيماء) فهى قبائل يهودية عربية الأصل والمنشأ، ومن ثم فإن يهود خيبر ليسوا كلهم من بنى إسرائيل، بل هم عرب تهودوا، وابن هشام يروى أن مرحب فارس خيبر المشهور ينتمى إلى قبيلة عربية حميرية، ويروى اليعقوبى أن بنى النضير وبنى قريظة ينتميان إلى قبيلة جذام اليمنية، انظر ابن هشام: السيرة جـ٣ ص ١١٦٠.

(٤) انظر ابن هشام: السيرة جـ٣ ص ١١٥٧. طبعة دار الفكر ـ القاهرة د.ت، وابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٢ ص ٩٩ طبعة دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٩٨٧، د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف: تاريخ الإسلام ص ١١٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م.

(٥) هذا الوادى يقع شمال شرق خيبر، والرسول قادم من الجنوب، فكان من المنطقى أن يدخل خيبر من جنوبها، لكنه بدأ هجومه عليها من شمالها الشرقى، لأن موقع وادى الرجيع استراتيجى بين خيبر وغطفان، ونزول الرسول فيه يمنع أية إمدادات يمكن أن تصل إلى يهود خيبر من غطفان، كما أنه من هذا المكان يمكن أن يراقب تحركات بقية اليهود فى الشمال(وادى القرى وفدك وتيماء)، فضلا عن الدولة الرومانية والعرب الموالين لها. (د/ عبد الشافى عبد اللطيف ـ مرجع سابق ـ ص ٣١٣ ـ ٣١٤).

(٦) ابن هشام: السيرة جـ٣ ص ١١٥٦، وابن القيم: زاد المعاد جـ ٢ ص ١٩٤ طبعة دار عمر بن الخطاب ـ الإسكندرية د.ت .

(٧) البخارى: الصحيح (باب غزوة خيبر) جـ٢ ص٦٠٢ـ٦٠٤ طبعة الهند سنة ١٣٨٤هـ، وابن هشام: نفس المصدر والصفحة.

(٨) فى ابن هشام: السيرة جـ٣ ص ١١٦١ أن الذى قتل مرحبًا هو محمد بن مسلمة انتقامًا لقتل أخيه محمود بن مسلمة فى خيبر والصواب ما ذكر بالمتن (انظر: ابن القيم: زاد المعاد جـ٢ ص١٩٤).

(٩) وسبب إجلائهم ما قاموا به من الغدر والإفساد، حينما فدغوا يدى عبد الله بن عمر ورجليه، وأيضًا لما ثبت عن عمر من قول النبى (ص) لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان "فارسل إليهم ؛ من لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء(ابن هشام: السيرة جـ٣ ص١١٨٥ محمد بن أبى شهبة : السيرة النبوية جـ٢ ص ٣٤٥ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢م.

(١٠) انظر التفاصل فى: ابن هشام: السيرة جـ٣ ص ١١٥٤/ ١١٨٢ وابن القيم: زاد المعاد جـ٢ ص ١٩٣ ـ ٢١١، ابن الأثير: الكامل جـ٢ ص ٩٩ـ ١٠٦، الطبرى: تاريخ الرسل والملوك جـ ٣ ص٩ـ١٦ محمد بن سعد كاتب الواقدى: الطبقات الكبرى جـ ٢ص ٧٧ـ ٨٣ طبعة دار التحرير القاهرة سنة ١٩٦٨م، وابن كثير: البداية والنهاية جـ٤ ص ١٨٣ ـ٢٠٥ طبعة بيروت سنة ١٩٨٥م، وانظر أيضًا المباركفورى: الرحيق المختوم ص ٣٧٩ـ ٣٩٣، د. محمد سعيد رمضان البوطى: فقة السيرة ص ٢٥٦ـ ٢٥٨ طبعة دمشق سنة ١٩٧٧م، د. محمد الطيب النجار: دراسات فى السيرة النبوية ص ٢٤٠ـ ٢٤٣، د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف، د. محمد أبو سعدة: دراسات فى السيرة النبوية ص ١٦١ـ ١٦٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٨٥م.

مصادر ومراجع للأستزادة :

١- سيرة ابن هشام.
٢- الرحيق المختوم لصفى الرحمن المباركفورى.
٣- تاريخ الإسلام فى عصر النبوة للدكتور/ عبد الشافى محمد عبد اللطيف.
٤- دراسات فى السيرة النبوية للدكتور محمد الطيب النجار.

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية

سلسلة الموسوعات الإسلامية المتخصصة

موسوعة

التاريخ الإسلامي

الجزء الثاني

القاهرة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م

دار الأرقم

هى إحدى الدور الشهيرة فى مكة، وتقع فى زقاق على يسار الصاعد إلى جبل الصفا، ويفتح بابها إلى الشرق، ولها فسحة (رحبة) سماوية مكشوفة، وكان فى إحدى غرفها حجران من الصوان عليهما كتابة مستحدثة إسلامية تفيد أن هذا المكان كان مخبأ للنبى ﷺ وقت أن كان يدعو إلى الله - عز وجل - فى المرحلة السرية فى مكة[١].

وتعود نسبة هذه الدار إلى صاحبها الأرقم، حيث ورد أن أبا الأرقم قد تصدق بها على ولده[٢]. على أن هذه الدار قد ازدادت شهرتها فى مرحلة دعوة النبى ﷺ السرية عقب مبعثه، حيث كانت هذه الدار بعيدة عن أعين الطغاة من المشركين، إذ كان النبى - عليه الصلاة والسلام - يخشى على أصحابه من بطش أهل مكة، لذا جاء اختياره لها لتكون مركزًا للدعوة إلى الإسلام فى مهدها، فكان ﷺ يجتمع فيها مع المسلمين فيتلو عليهم آيات الله ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، وليؤدى المسلمون عبادتهم وأعمالهم، ويتلقوا ما أنزل الله على رسوله، وهم فى أمان تام من الأذى، وليدخل من يشاء فى الإسلام دون أن يعلم به أحد من أصحاب السطوة والنفوذ من مشركى مكة. ولعل السبب فى اجتماع النبى - عليه الصلاة والسلام - بالمسلمين خفية فى دار الأرقم خوفه من محاولة المشركين أن يستخدموا كل ما عندهم من القسوة والنفوذ كى يحولوا بينه وبين ما يريد من تزكية نفوسهم ومن تعليمهم الكتاب والحكمة. وربما أدى ذلك إلى حدوث صدام بين المسلمين والمشركين لا تحمد عقباه بالنسبة للرسول - عليه الصلاة والسلام - وصحبه من المسلمين فى هذه المرحلة المبكرة من ظهور الإسلام.

يقول ابن اسحاق فى ذلك: إن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يجتمعون فى الشعاب، فيصلُّون فيها سرا فرآهم نفر من كفار قريش فسبوهم وقاتلوهم، فضرب سعد بن أبى وقاص رجلاً فسال دمه، فكان أول دم أهريق فى الإسلام[٣].

وقد لعبت دار الأرقم دورًا هامًا فى إسلام الكثير من الرعيل الأول من الصحابة - رضى الله عنهم - كان أبرزهم عمر بن الخطاب ﷺ. وتعود قصة إسلامه إلى دعاء النبى ﷺ بأن يعز الله الإسلام بأحد العمرين: عمر بن الخطاب، أو عمرو بن هشام. فعن ابن

عمر - رضى الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: " اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: إما عمر بن الخطاب، أو أبو جهل ابن هشام، فكان أحبهما إلى الله: عمر - رضى الله عنه"[٤].

وقد روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قال لعمر بن الخطاب رضى الله عنه: " لم سميت الفاروق؟ فقال: أسلم حمزة قبلى بثلاثة أيام، ثم شرح الله صدرى للإسلام، وأول شىء سمعته من القرآن ووقع فى صدرى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾[٥] فما فى الأرض نسمة أحب إلى من نسمة رسول الله ﷺ فسألت عنه فقيل لى: هو فى دار الأرقم. فأتيت الدار، وحمزة فى أصحابه جلوسًا فى الدار، ورسول الله ﷺ فى البيت، فضربت الباب، فاستجمع القوم فقال لهم حمزة: ما لكم؟ فقالوا عمر: فخرج رسول الله ﷺ فأخذ بمجامع ثيابى ثم نترنى نترة لم أتمالك أن وقعت على ركبتى، فقال: ما أنت بمنته يا عمر؟ فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل المسجد. فقلت: يا رسول الله، ألسنا على الحق، إن متنا أو حيينا ؟ قال: بلى: فقلت: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن، فخرجنا فى صفين: حمزة فى صف، وأنا فى صف، له كديد ككديد الطحن، حتى دخلنا المسجد، فلما نظرت إلينا قريش أصابتهم كآبة لم يصبهم مثلها قط. فسمانى رسول الله ﷺ الفاروق"[٦].

وقد ظلت دار الأرقم بن أبى الأرقم تلعب دورها الهام فى الدعوة إلى الإسلام حتى أظهر الله رسوله ﷺ للناس كافة، كما أنها ظلت فى عقب الأرقم صدقة قائمة فيها يسكنونها ويؤجرونها حتى كان زمن الخليفة العباسى أبى جعفر المنصور (١٣٦ - ١٥٨هـ/٧٥٤- ٧٧٥م) فباعها أحفاد الأرقم له، ثم صيرها الخليفة المهدى(١٥٨- ١٦٩هـ) (٧٧٥-٧٨٥م) للخيزران أم الخليفتين موسى وهارون، فبنتها وعرفت بها ثم صارت بعد ذلك لجعفر بن موسى، وأخيرًا اشترى عامتها أو أكثرها غسان بن عباد من ولد موسى بن جعفر،ثم صارت بعد ذلك دارًا لتدريس الحديث النبوى، وقد دخلت حديثًا فى مشروع توسعة الحرم الشريف[٧].

أ . د . فوزى عارف إبراهيم

الهوامش:

(١) ابن سعد: (محمد بن سعد بن منيع، أبو عبد الله البصرى الزهرى ت٢٣٠هـ) : الطبقات الكبرى، تحقيق: على محمد عمر، مكتبة الخانجى، القاهرة، الطبعة الأولى. ٢٠٠١م جـ٣، ص٢٢٣، وعواطف أديب سلامة: قريش قبل الإسلام: دورها السياسى والاقتصادى والدينى، دار المريخ، الرياض، المملكة العربية السعودية. ١٩٩٤م. ص ٨٦.

(٢) ابن سعد: المصدر السابق، جـ٣، ص٢٤٣.

(٣) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٢٤، والصالحى (محمد بن يوسف الصالحى الشامى ت ٩٤٢هـ): سُبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله فى المبدأ والمعاد، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٧م، جـ٢، ص٤٢٨.

(٤) أحمد بن حنبل (أحمد بن محمد ت٢٤١هـ): المسند، مؤسسة قرطبة، القاهرة(د.ت). جـ٢، ص٩٥، حديث رقم ٥٦٩٦.

(٥) سورة طه: آية ٨.

(٦) ابن إسحاق. (محمد بن إسحاق بن يسار المطلبى المدنى ت ١٥١هـ) : السيرة النبوية، تحقيق: محمد على بيضون. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى. ٢٠٠٤م، جـ١، ص ٢٢١، وابن حجر: (أحمد بن على بن حجر. أبو الفضل العسقلانى الشافعى ت ٨٥٢ هـ): الإصابة فى تمييز الصحابة، تحقيق: على محمد البجاوى، دار الجيل، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، جـ٤، ص٥٨٩. ٥٩٠.

(٧) ابن سعد: الطبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٢٤، وعواطف أديب، قريش قبل الإسلام، ص ٨٦.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. القرى لقاصد أم القرى: للحافظ محب الدين الطبرى المكى ت ٦٩٤هـ.

٢. الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية: ابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى.

٣. رحلة ابن جبير.

٤. الطبقات الكبرى لابن سعد.

٥. السيرة النبوية لابن إسحاق.

٦. قريش قبل الإسلام. دورها السياسى والاقتصادى والدينى: د/ عواطف أديب سلامة.

دار الإسلام

يقسم الفقهاء المسلمون العالم - الأرض- قسمين، الأول: هو دار الإسلام، والثانى: هو دار الحرب، ويضيف فريق منهم ثالثًا إلى النوعين السابقين هو: دار العهد.

وهذا التقسيم يندرج فى نطاق العلاقات الدولية بالمفهوم المعاصر، فقد جاء الإسلام ليقرر مبادئ وقيما عالمية تبنى عليها العلاقات بين البشر، أفرادًا وجماعات ودولاً، ومن أهم تلك القيم: الحرية، والعدالة، والمعاملة بالمثل، والتسامح والوفاء بالعهود.

ودار الإسلام هى البلاد التى تظهر فيها أحكام الإسلام وتسود. ويرى الشافعية: أنها كل أرض تظهر فيها أحكام الإسلام، ولا يجوز لغير المسلمين دخولها إلا بإذن الإمام أو من ينوب عنه.

ودار الإسلام هى دار العدل، وفيها يحكم الأئمة بالعدل بين رعايا هذه الدار باعتبارها تضم كل الرعايا الذين يعيشون فى كنفها من مسلمين وذميين ومستأمنين.

ودار الإسلام تعنى الدولة الإسلامية أى البلاد التى تمتد إليها سلطة الخليفة مباشرة أو عن طريق التفْويض، ويرى بعض الفقهاء: أن دار الإسلام هى البلاد التى ظهر فيها الإسلام، أى جزيرة العرب، وما فتحه المسلمون. ولو أن هذا التعريف قد أصبح غير ذى موضوع الآن.

تجدر الإشارة إلى أن هذا التقسيم: دار الإسلام، ودار الحرب لم يرد فى القرآن الكريم ولا فى سنة النبى ﷺ، وإنما هو اجتهاد بعض الأئمة والفقهاء بُنِىَ على الظواهر السياسية التى عاشوا عصورها. ومن ثَمَّ فإن هذا التقسيم قابل للتعديل والإضافة أو حتى التغيير باعتبار المستجدات والمتغيرات العالمية، وباعتباره كان - فى الأصل - ضرورة لحماية أمن الأمة من أخطار الاعتداء عليها.

لقد جعل الإسلام السلام أساسًا للعلاقات بين الدول، وأكد على ذلك باعتبار أن السلام هو الركيزة الأساسية التى يجب أن تحكم العلاقات بين الدول وبصفة خاصة بين الدولة الإسلامية وغيرها من الدول مصداقًا لقوله تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ

ٱلشَّيۡطَٰنِ ﴾ (البقرة: ٢٠٨)، وقوله تعالى: ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ (النساء: ٩٠).

وفى هذا السياق يقول أبو يوسف: لم يقاتل رسول الله ﷺ قط فيما بلغنا حتى يدعو الناس إلى الله ورسوله.

ويقول الماوردى: ومن لم تبلغهم دعوة الإسلام يحرم علينا الإقدام على قتالهم غِرّةً، ويحرم أن نبدأهم بالقتال قبل إظهار دعوة الإسلام لهم.

وهذا يتفق مع القانون الدولى حيث يقرر أن الدولة التى تضطر إلى الحرب وإعلانها على دولة أخرى، يجب عليها قبل البدء أن تعلن الدولة الأخرى بميعاد الحرب، وتعلن رعاياها وتخطر الدول الأخرى لتلتزم حيادها.

والدفاع عن دار الإسلام فرض كفاية، وهو أيضًا فرض عين؛ فإذا قام الجيش الإسلامى به سقط عن الكافة، أما كونه فرض عين؛ فذلك يكون عندما يستولى العدو على بعض من دار الإسلام فيصير الجهاد فرض عين على جميع أفراد الأرض التى استولى عليها العدو، رجالاً ونساء، صغارًا وكبارًا أصحاء ومرضى.

وأول من قال بهذا الرأى محمد بن الحسن الشيبانى والإمام الشافعى وبعض الحنابلة. ودار الإسلام عندهم هى: الحجاز: مكة، والمدينة، واليمامة ومخاليفها كلها. وفى هذا يقول الشافعى: بلغنى أن رسول الله ﷺ قال: **«لا ينبغى لمسلم أن يؤدى الخراج (الجزية)، ولا لمشرك أن يدخل الحرم»**[1]، ويضيف: سمعت عددًا من أهل العلم بالمغازى يروون أنه كان فى رسالة النبى ﷺ: **«لا يجتمع مسلم ومشرك فى الحرم بعد عامهم هذا»**[2]، وأن على الإمام ألا يدع مشركًا يطأ الحرم بحال من الحالات، طبيبًا كان أو صانعًا بنيانا أو غيره لتحريم الله - عز وجل- دخول المشركين المسجد الحرام وبعده تحريم رسول الله ﷺ ذلك[3].

وقال رسول الله ﷺ: **«أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم»**[4].

ويرى الشافعى: ألا يدخل الحجاز مشرك بحال، لما وصفتُ من أمر النبى ﷺ، ولا يبين لى أن يحرم أن يمر ذمى بالحجاز مارا لا يقيم أكثر من ثلاث ليال، وهذا مقام المسافر: لأنه قد يحتمل أمر النبى ﷺ.

ويضيف الشافعى: أما مكة فلا يدخل الحرم أحد منهم بحال أبدًا، كان لهم بها مال أو لم يكن. أما سائر البلدان ما خلا الحجاز فلا بأس أن يصالحوا على المقام فيها؛ لأن الله - عز وجل- نهى عن أن يقرب مشركٌ البيتَ الحرام[٥].

تضم دار الإسلام نوعين من السكان: أولاً: المسلمون، وثانيًا: الذميون، وهؤلاء ممن يقيمون فى دار الإسلام إقامة دائمة ويلتزمون بأحكامه.

والذميون هم: اليهود والمسيحيون والمجوس والصابئة، أما المشركون من العرب فلا يجوز لهم أن يعيشوا فى دار الإسلام.

ولأهل الذمة لدى المسلمين عقد شرعى مؤكد بالكتاب والسنة والإجماع. قال تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩).

وأوصى رسول الله ﷺ أحد قواده: «إذا لقيت العدو من المشركين فادعهم إلى إحدى ثلاث خصال: ادعهم إلى الإسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن أبوا فسلهم الجزية»[٦]. وقد أخذ النبى ﷺ الجزية من مجوس البحرين، أما الثالثة فهى القتال.

أما الإجماع، فيتضح من ممارسات رجال الصدر الأول خلال الفتوحات الإسلامية، ففى عهد الصديق ﷺ عقد خالد بن الوليد عقد ذمة لأهل الحيرة، وفعل ذلك أبو عبيدة بن الجراح ﷺ مع أهل الشام.

بيّن الفقهاء أن عقد الذمة يتولاه الإمام أو عامله أو نائبه، وهذا العقد يكون ملزمًا، ولا يجوز نقضه من قبل المسلمين بحال.

أما من جهة أهل الذمة فيجوز نقضه، فإذا أسلم أهل الذمة أصبح العقد لا مبرر له، وإذا تمرد أهل الذمة أو ثاروا على المسلمين أو إذا انضموا إلى دار الحرب معادين للإسلام ففى هذه الحالة لا يكون هناك محلٌّ للعقد وينفصم من تلقاء نفسه.

حقوق أهل الذمة فى دار الإسلام:

ترتب على عقد الذمة بين المسلمين وبين أهل الذمة حقوق وواجبات يلتزم بها الطرفان، وقد أكدت شريعة الإسلام أن لهم ما للمسلمين، وعليهم ما عليهم، فيما

يتعلق بالحقوق العامة والحريات، ويتمتعون بالأمن: فيدافع المسلمون عنهم ويرفعون الظلم عنهم باعتبارهم من رعايا الدولة الإسلامية ويعيشون فى كنفها.

أكد الرسول ﷺ هذا فى حديثين، إذ قال: «من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[٧].

وعن أبى بكرة ﷺ قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**من قتل نفسًا معاهدة بغير حقها لم ير ريح الجنة وإن ريح الجنة ليوجد من مسيرة مائة عام**»[٨].

وعن أبى هريرة ﷺ قال: إن النبى ﷺ قال: «**من قتل نفسًا معاهدة لها ذمة الله، وذمة رسوله، فقد أخفر بذمة الله، فلا يرى ريح الجنة، وإن ريحها ليؤخذ من مسيرة سبعين خريفًا**»[٩].

والذميون فى دار الإسلام تُعصم دماؤهم وأموالهم بحق الأمان.

والأمان هو: رفع استباحة دم الحربى وماله، وهو فى هذه الحالة يكون مستأمنًا دخل دار الإسلام بإذن الإمام، أو بإذن خاص، وهو فى هذه الحالة أيضًا يكون معصوم الدم والمال والعرض طوال فترة إقامته فى دار الإسلام.

والأمان عند الفقهاء نوعان: إما أمان مؤقت، وإما أمان مؤبد، والمؤقت نوعان: خاص، وعام.

أما الأمان المؤقت الخاص، فهو ما يبذله المسلم من المقاتلة لواحد أو جمع محصورين. ولكل مسلم من المقاتلة حق التأمين الخاص: لأن الضرورة قد تقتضى ذلك، ويكون فيه المصلحة للمسلمين: ويمكن لكل مقاتل أن يقدر هذه المصلحة الجزئية دون الرجوع إلى الإمام أو نائبه، فإذا قال واحد من المقاتلة المسلمين لواحد أو لجمع معين من المحاربين (الأعداء): آمنتكم وأنتم آمنون، كان ذلك بمثابة أمان، وكانت ذمة فى عنق المسلمين جميعهم.

والأصل فى ذلك يعود إلى قول رسول الله ﷺ: «**المسلمون تتكافأ دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد على من سواهم**»[١٠].

أما الأمان المؤقت العام، فهو لا يحق إلا للإمام أو نائبه: لأن المصلحة العامة من شئونه هو، والنظر فيها يرجع إلى تقديره هو، ويندرج تحت هذا الأمان المؤقت العام: المهادنة، وهى: المعاهدة بين المسلمين وغير المسلمين، وتكون عن الكف عن القتال مدة معينة حسبما

يقررها العقد، ويجوز الأمان المؤقت العام إذا حدَّد مصلحة للمسلمين وحتمت الضرورة استمراره.

أما إذا نقضه الإمام: فيجب الالتزام بهذا النقض مع عدم أخذهم على غرة، استنادًا إلى قول رسول ﷺ: «من كان بينه وبين قوم عهد، فلا يشد عقدة ولا يحلها حتى ينقضى أمدها أو ينبذ إليهم على سواء»[١١]. ولا بد من اعتبار مدة يبلغ فيها خبر نبذ العقد على الجميع. وأما إذا نُقِض العهد من قبل المشركين أو أهل دار الحرب وآذنوا بالحرب، فمن حق المسلمين القتال دون التعرض للرهائن إن وجدت فى أيديهم.

الأمان المؤبد: هذا الأمان ليس له أجل ينتهى إليه، ويتولى عقده الإمام أو من ينوب عنه، ويصح مع أهل الكتاب ومشركى غير العرب. وهو فى هذه الحالة لأهل الذمة المقيمين فى دار الإسلام إقامة دائمة، وأهله ملتزمون بأحكام المسلمين دونما تعارض مع حرياتهم الدينية.

وهو عقد لازم فى حق المسلمين، لا يملكون نقضه بحال، وأما فى حق أهل الذمة فيمكن نقضه بأحد أمور ثلاثة:

١. الإسلام، أى أن يدخل أحدهم فى الإسلام.

٢. اللجوء إلى دار الحرب.

٣. الثورة على المسلمين أو تغلُّب الذمى على بعض أراضيهم أو امتناعه عن إعطاء الجزية.

وقد أكد القرآن الكريم على عهد الأمان، قال تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾(التوبة: ٦).

وقال ابن كثير فى تفسير هذه الآية: يقول الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: (وإن أحد من المشركين) الذين أمرتك بقتالهم، وأحللت لك استباحة نفوسهم وأموالهم، (استجارك)، فأجبه إلى طلبه، (حتى يسمع كلام الله) أى: القرآن تقرؤه عليه، وتذكر له شيئًا من أمر الدين، تقيم به عليه حجة الله، (ثم أبلغه مأمنه)، أى: وهو آمن مستمر الأمان حتى يرجع إلى بلاده ودار مأمنه، (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)، أى: إنما شرعنا الأمان لمثل هؤلاء ليعلموا دين الله وتنتشر دعوته فى عباده، ولهذا كان رسول الله ﷺ يعطى الأمان لمن جاء مسترشدًا»[١٢]..

وأكد فقهاء الأمة ومفسروها أن من

قدم دار الإسلام من دار الحرب فى آداء رسالة أو تجارة أو طلب صلح، أو نحو ذلك من الأسباب، وطلب الأمان من الإمام أو نائبه، أعطى أمانًا ما دام مترددًا على دار الإسلام حتى يرجع إلى مأمنه وموطنه. وهذا يوازى فى عصرنا الحديث تأشيرة الدخول قصيرة الأجل، والتأشيرة الممتدة التى تتيح لحاملها من غير أهل البلاد التردد والإقامة المدة المتاحة له فى ذلك.

ومن هنا نستطيع أن نقرر أن الأحكام التى يقرها الإسلام فى معاملة غير المسلمين الذين لم يقاتلوا الإسلام ولم يعتدوا على أهله سواء كانوا مقيمين فى دار الإسلام، أو فى دارهم، تضمن لهم الأمان وكفالة حرياتهم، مما يؤكد أن الإسلام أقام علاقة المسلمين بغيرهم على أساس من العدل واحترام حقوق الأفراد وكفالة الحرية وحسن الجوار والتعاون فى مجالات عديدة.

كما أن الإسلام لم يفرق بين المسلم والذمى فى حالات معينة فيما يتعلق بالعطاء، فقد كان من الممكن أن يفرض لبعض أهل الذمة من بيت مال المسلمين ما يعول به نفسه وعياله، وفى بعض الأحيان كانت تطرح عنه الجزية. كما جاء فى عهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة. كما لم يفرق الإسلام بين رعايا الدولة الإسلامية فى العقوبات وأحكام الديات والتعازير إذْ يجرى على الذميين ما يجرى على المسلمين.

وفى الأحوال الشخصية، أباح الإسلام لهم ما يتفق مع معتقداتهم الدينية، ولا يتعرض المسلمون لهم فى شىء من ذلك سواء فى الزواج أو الطلاق أو الميراث إلا إذا ترافعوا للمسلمين وطلبوا إجراء أحكام الإسلام بينهم.

كما أتاح لهم الإسلام الحرية الكاملة فى إقامة شعائرهم الدينية فى كنائسهم وبيعهم، ولهم الحق فى إعادة بناء ما تهدم منها، أو إقامة كنائس جديدة، ولهم أن يفعلوا كل ما لا يثير العداء للمسلمين ولا يتعارض مع الإسلام.

وفى ظل هذه الأحكام الدقيقة العادلة عاش غير المسلمين فى دار الإسلام متمتعين بكافة حقوقهم وبالحرية والعدالة والأمان.

أ. د / فتحية النبراوى



الهوامش:

(١) رواه البيهقى فى السنن الكبرى، ١٣٩/٩.

(٢) رواه البيهقى فى السنن الكبرى، ٢٠٧/٩ .

(٣) الأم: ج٤، ص١٨٧- ١٨٨ .

(٤) البخارى: ج٤، ص٨٥ .

(٥) الأم: ج٤، ص١٨٨.

(٦) رواه أبو داود، حديث رقم ٢٦١٤ .

(٧) رواه أبو داود، عن عدة من أبناء صحابة رسول الله ﷺ وهم مجهولون، حديث رقم ٣٠٥٤.

(٨) رواه النسائى، حديث رقم ٤٧٤٨ .

(٩) رواه الترمذى، حديث رقم ١٤٠٢، وقال: حديث حسن.

(١٠) رواه أبو داود، حديث رقم ٢٧٥٣ .

(١١) رواه أبو داود، حديث رقم ٢٧٦١ .

(١٢) تفسير ابن كثير، ٤١١/٢ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

القرآن الكريم

١. ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار الفكر، ١٩٩٤م.

٢. أبو الحسن الماوردى، الأحكام السلطانية، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.

٣. أبو زهرة، محمد: العلاقات الدولية فى الإسلام. دار الفكر العربى، القاهرة، سنة ١٩٩٥م.

٤. الشافعى، أبو عبد الله محمد: الأم، دار الفكر، سنة ١٩٨٠م، المجلد الثانى.

دار الحرب

اصطلح الفقهاء على تعريف دار الحرب بأنها كل بقعة تكون فيها أحكام الشرك ظاهرة، أو هى تلك البلاد التى لا تظهر أو تسود فيها أحكام الإسلام. قال بذلك البخارى فى كتاب الجهاد، والسرخسى فى المبسوط. وقد رأى أبو حنيفة وغيره أنه لا بد من تحقق شروط ثلاثة تجعل الدار دار حرب:

١. ألا تكون المنعة والسلطان للمسلمين أو لحاكم مسلم، ومن ثم لا يمكن تطبيق أحكام الإسلام.

٢. أن تكون الدار متاخمة للدولة الإسلامية مما يشكل تهديدًا متوقعًا على دار الإسلام، وحين لا يأمن المسلمون جانبها، ومن ثم تكون الحرب متوقعة فى أى وقت.

٣. ألا يأمن المسلمون على أنفسهم وأموالهم فى تلك الديار.

يقول الشيخ أبو زهرة: «ولا شك أن هذا الرأى هو الذى يعتبر أن الأصل فى العلاقة هو السلم، لأنه لم يعتبر الدار دار حرب إلا إذا كان الاعتداء بالفعل بزوال أمان المسلمين، أو يتوقع الاعتداء بالمتاخمة، إذ المتاخمة من غير عهد ملزم أو من غير ميثاق عدم اعتداء تجعل الحرب متوقعة فى كل وقت»[١].

وهذه الآراء أصبحت الآن غير ذات موضوع، إذ المتاخمة لا تعنى بالضرورة الاعتداء؛ لأن الواقع المعاش لا يرى منطقًا فى أن نطبق هذه الآراء على عالم اليوم، إذ من الممكن أن يأتى العدوان من أراضٍ متاخمة أو غير متاخمة، كما لم يعد القتال مرتبطًا بالجوار أو المتاخمة ذلك أن ما توصلت إليه الدول من أدوات وآلات وتقنيات للحرب واستخدام وسائل الاتصال المتقدم والتجسس والاستخبارات لا تمنع الوصول إلى أى منطقة فى العالم.

ويرى فقهاء القانون الدستورى المعاصرون أن هذا الشرط أصبح منسوخًا ولا يراه المسلمون ولا يقره العقل ولا المنطق السليم..

ودار الحرب لا وجود لها الآن بالمعنى الذى ورد آنفًا، فقد ألْغَتْ الاتفاقات الدولية والمنظمات الدولية وحتى العلاقات الثنائية بين الدول هذا المنطق، فقد تغير واقع العالم، وتغيرت أحوال البلاد والشعوب، إذ يعيش العالم الآن ظروفًا مختلفة تمامًا لا تتيح هذا التصور فى تقسيم بلاده.

كما أن مرونة الفقه الإسلامى واتساع مجالاته واستثارة فقهاء المسلمين تقدم مساحة لإعادة النظر فى بعض هذه المفاهيم؛ مما يجعلنا نقرر أن القضايا العامة التى لا تتعلق بثوابت الإسلام قابلة للتعديل والتغيير والتصحيح بل والإلغاء.

أ.د / فتحية النبراوى

الهوامش:

(١) العلاقات الدولية، ص٥٧ .

مصادر و مراجع للاستزادة :

١. الشافعى: أبو عبد الله محمد بن إدريس. الأم، ٨ أجزاء، القاهرة: ١٩٨٠م.
٢. عبد الكريم عثمان (دكتور): معالم الثقافة الإسلامية، بيروت ١٩٦٦م.
٣. محمد أبو زهرة (الشيخ)، العلاقات الدولية فى الإسلام، دار الفكر. القاهرة، ١٩٩٥م.

دار الحكمة

أطلقت المصادر العربية على دور الكتب العديد من الأسماء التى استخدمت عبر التاريخ بدءًا من: بيت الحكمة، وخزانة الحكمة، ودار الحكمة ودار العلم، حتى نصل إلى دار الكتب وخزانة الكتب.

وقد استخدمت كلمة " دار" لأكثر من ثلاثة قرون للدلالة على المكتبات المهمة حتى ولو كانت دون بناء مخصص لها، ثم استعيض عنها بعد إنشاء " المدارس" فى أواخر القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى بكلمة " خزانة " التى أصبحت تدل على مكان حفظ الكتب فى المدرسة.

وأول بيت من بيوت الحكمة وصل إلينا خبره كان لمعاوية أول الخلفاء الأمويين، كما بَيَّن عثمان بن سعيد الدارمى فى إحدى مناظراته، أنه سمع أبا الصلت يذكر أنه كان لمعاوية بن أبى سفيان بيت يسمى بيت الحكمة. وقد انتقلت كتب بيت الحكمة إلى خالد بن يزيد بن معاوية الذى روى عنه قوله: « ما أنا من العلماء ولا من الجهال، لم أصنع سوى أن جمعت الكتب».

أما أول مؤسسة شبه عامة جمعت الكتب فهى دون شك " بيت الحكمة " الذى أنشأه هارون الرشيد وازدهر فى عهد ابنه المأمون. فقد جلب الرشيد إليه " مما وجده بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين غزاها المسلمون"، وحدث هذا على الأرجح سنة ١٩٠هـ/٨٠٥م. وقلد الرشيد يحيى بن ماسويه مهمة ترجمة هذه الكتب القديمة، وجعله أمينًا على الترجمة، ورتب له كُتَّابًا حذاقًا يكتبون بين يديه.

واستخدم محمد بن إسحاق النديم، المتوفى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م، اسم " خزانة الحكمة" مرادفًا لـ " بيت الحكمة "، يقول فى ترجمة أبى سهل الفضل بن نوبخت: " فارسى الأصل.. وكان فى "خزانة الحكمة" لهارون الرشيد، ولهذا الرجل نَقْلٌ من الفارسى إلى العربى ومعوله فى علمه على كتب الفرس". وعندما ذكر عَلاَّن الشعوبى قال: إن أصله من الفرس، وكان ينسخ فى " بيت الحكمة" للرشيد والمأمون وللبرامكة.

وبلغ " بيت الحكمة" أوج ازدهاره فى عهد المأمون الذى أظهر نشاطًا ملحوظًا



فى طلب الكتب اليونانية القديمة والبحث عنها، فراسل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة، فبعثوا إليه مماحضرهم من كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وأبقراط وإقليدس وجالينوس وبطليموس القلوذى وغيرهم. ولم يكتف المأمون بذلك بل أرسل بعثة إلى بلاد الروم لانتقاء ما يجدونه من كتب العلوم القديمة كان من بين أعضائها: الحجاج بن مطر وابن البطريق وسَلْم صاحب بيت الحكمة ويوحنا بن ماسويه "فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا، فلما حملوه إليه أمرهم بنقله فنُقل".

وفى الوقت نفسه اعتنى بنو شاكر المُنَجم (محمد وأحمد والحسن) بإخراج الكتب من بلد الروم وبذلوا الرغائب، وأنفذوا حنين بن إسحاق وقسطا بن لوقا البعلبكى وغيرهما، فجاؤوهم بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والأرثاطيقى والطب فنقلوها إلى العربية.

وإلى جانب الترجمة والنقل اهتم المأمون كذلك بالدراسات الأدبية والتاريخية فاستخرجت له من مجموع كتب التاريخ التى اشتملت عليها خزانته "حكاية ملوك الفرس" وصنف له أبو سعيد عبد الملك بن قريب الأصمعى "تاريخ ملوك بنى هود وغيرهم"، كما كتب سهل بن هارون- أحد خُزَّان بيت الحكمة- للمأمون كتابًا سماه" ثعْلَة وعَفْرة" يعارض به كتاب "كليلة ودمنة".

نستنتج مما سبق أن "بيت الحكمة" كان مركزًا للترجمة وللتأليف، وأن مكتبة هذه المؤسسة تكونت من مجموعة كتب قديمة: يونانية وفارسية، وبعض الكتب السريانية إضافة إلى الكتب المنقولة إلى العربية، والكتب التى ألفت بناء على تكليف من الخليفة، وأخيرًا ما نسخه النساخ مثلما فعل علان الشعوبى.

ومع بداية القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ظهرت فى أماكن متفرقة من العالم الإسلامى مكتبات عامة من أهمها خزانة كتب الخليفة الأموى الحكم المستنصر بقرطبة، والتى بلغ عدد فهارسها التى تشتمل على أسماء الكتب المحفوظة فيها أربعًا وأربعين فهرسًا، وفى كل فهرسة خمسون ورقة.

وأطلق على خزائن الكتب التى نشأت فى هذه الحقبة فى الشرق اسم جديد هو "دار العلم"، وارتبطت نشأة هذه الخزائن

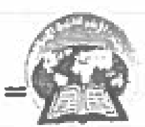
الجديدة ببدء تقنين " وقف الكتب" الذى أقره الفقهاء بعد إقرارهم لوقف المصاحف، حيث كان المعتاد أن يقتصر الوقف على العقار ولا يسرى على المنقول.

وكانت أهم دور الحكمة (العلم) التى ظهرت حينئذ هى دار الحكمة (دار العلم) الفاطمية بالقاهرة، التى أراد مُنْشِئُها أن تكون شبيهة ببيت الحكمة الذى كان ببغداد. ويتألف تاريخ دار الحكمة (العلم) الفاطمية- على امتداد ١٧٢ عامًا مليئة بالتقلبات- من ثلاث مراحل مختلفة: فقد كان عليها منذ نشأتها فى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م أن تثبت حماس الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله لأهل السنة، إلا أنها سرعان ما غيرت من طبيعتها بعد سنة ٤١٠هـ/ ١٠٢٠م لتصبح مركز الدعوة الإسماعيلية فى العالم المعاصر آنذاك، غير أنها أغلقت سنة ٥١٣هـ/ ١١١٩م لإسهامها فى الأنشطة المناهضة لمذهب الدولة، ثم أعيد افتتاحها سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م ولكن بعد أن تغير موضعها لتحيا فيها مرة أخرى الدعوة الإسماعيلية حياة هادئة انتهت بانقلاب صلاح الدين الذى قضى نهائيًا على الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م.

دار الحكمة (دار العلم):

فى بداية الفصل الذى خصصه المقريزى فى " الخطط" لذكر مدارس مصر، أورد فقرة هامة أبان فيها عن نشأة المدارس وتطورها فيما يلى نصها:

« والمدارس مما حدث فى الإسلام، ولم تكن تعرف فى زمن الصحابة والتابعين، وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة فى الإسلام أهل نيسابور، فبنيت بها المدرسة البيهقية، وبنى بها أيضًا الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أيضًا المدرسة السعدية، وبنى بها أيضًا مدرسة رابعة، وأشهر ما بُنى فى القديم المدرسة النظامية ببغداد؛ لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم، وهى منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبى على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الطوسى؛ وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال ابن سلجوق فى مدينة بغداد، وشرع فى بنائها فى سنة سبع وخمسين وأربعمائة وفرغت فى ذى القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة، ودرس فيها الشيخ أبو إسحاق



الشيرازى الفيروزآبادى صاحب كتاب «التنبيه فى الفقه» على مذهب الإمام الشافعى ﷺ ورحمه، فاقتدى الناس به من حينئذ فى بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفى بلاد الجزيرة وديار بكر.

وأما فى مصر فإنها كانت حينئذ بيد الخلفاء الفاطميين ومذهبهم مخالف لهذه الطريقة، وإنما هم شيعة إسماعيلية... ».

بناءً على ما تقدم فإنه لم يكن من الطبيعى أن يتخذ الفاطميون مؤسسات تشبه المدارس. يقول ابن عبد الظاهر عند ذكره لدار العلم: « بناها المصريون (يقصد الخلفاء الفاطميين) لأنهم لم يكونوا يعرفون المدارس». فقد كانوا يتزعمون حركة دينية فلسفية اجتماعية عظمى كان هدفها لا يقل عن تحويل وتجديد كل الإسلام، ويمثلون التحدى الأكبر للإسلام السنى الذى أنشأ المدارس لمحاربة مذهبهم.

وكانت بداية التدريس فى جامع القاهرة (الأزهر) فى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م بعد ثلاث سنوات من وصول الخليفة المعز لدين الله إلى مصر، ففى صفر من هذا العام جلس القاضى على بن النعمان فى الجامع وأملى مختصر أبيه فى الفقه المعروف بـ " الاقتصار" فى جمع حافل من العلماء والكبراء وأثبت أسماء الحاضرين. فكانت هذه أول حلقة للدرس بالجامع الأزهر.

ولما تولى يعقوب بن كِلِّس الوزارة للعزيز بالله سنة ٣٦٨هـ/ ٩٧٩م، رتب فى العام التالى فى داره " مجالس" للعلماء والشعراء والفقهاء والمتكلمين، وأجرى لجميعهم الأرزاق، وكان يقرأ على الناس " الرسالة الوزيرية"، وهى كتاب ألفه فى فقه الإسماعيلية يتضمن ما سمعه من المعز لدين الله وابنه العزيز بالله.

وشهدت سنة ٣٧٨هـ/٩٨٨م أول محاولة لترتيب درس منظم فى جامع القاهرة الذى عرف فيها بعد باسم الجامع الأزهر. فقد استأذن الوزير يعقوب بن كلس الخليفة العزيز بالله فى تعيين جماعة من الفقهاء بجامع القاهرة (الأزهر)، كان عددهم سبعة وثلاثين فقيهًا يرأسهم الفقيه أبو يعقوب قاضى الخندق، كانوا يتحلقون كل يوم جمعة بجامع القاهرة بعد الصلاة، ويتكلمون فى الفقه حتى وقت العصر. ورتب لهم العزيز بالله أرزاقًا وجرايات شهرية، وأقام لهم دارًا للسكنى بجوار الجامع الأزهر، وخلع عليهم فى يوم عيد الفطر وحملهم على بغلات تشريفًا لهم وتكريمًا، كما أجرى عليهم

الوزير ابن كلس أيضًا أرزاقًا من ماله الخاص. يقول المقريزى: « وهى أول مرة يقام فيها درس فى مصر بمعلوم جار من قبل السلطان». ويضيف المسبِّحى أنه ما إن اختط جامع الخطبة (الحاكم) فى سنة ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م حتى تحلق فيه الفقهاء الذين كانوا يتحلقون فى جامع القاهرة – يعنى الجامع الأزهر.

ولا شك أن الجهد الواضح للفاطميين فى مجالى الثقافة والتعليم تركز فى دار الحكمة (العلم) التى أنشأها الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م والتى عدها الباحثون استمرارًا لتقاليد هللينستية. يقول المسبحى:

« وفى يوم السبت هذا، يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلاثمائة، فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة، وجلس فيها الفقهاء، وحملت الكتب إليها من خزائن القصور المعمورة، ودخل الناس إليها ونسخ كل من التمس نسخ شىء مما فيها ما التمسه، وكذلك من رأى قراءة شىء مما فيها. وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت وعلقت على جميع أبوابها وممراتها الستور، وأقيم قُوَّام وخدام وفراشون وغيرهم رسموا بخدمتها، وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعًا لأحد قط من الملوك، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها، فكان ذلك من المحاسن المأثورة أيضًا التى لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السَّنِىّ لمن رُسِمَ له بالجلوس فيها والخدمة بها من فقيه وغيره، وحضرها الناس على طبقاتهم: فمنهم من يحضر لقراءة الكتب، ومنهم من يحضر للنسخ، ومنهم من يحضر للتعلم... وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر، وهى الدار المعروفة بمختار الصقلبى » .

ففى السنوات الأولى لإنشائها حاول الحاكم أن يكسب حماس أهل السنة، فولى أمرها جماعة من شيوخ السنة كان على رأسهم الحافظ عبد الغنى بن سعيد وأبو أسامة جنادة بن محمد اللغوى، وأبو الحسن على بن سليمان المقرئ الأنطاكى. وربما قصد الحاكم من وراء ذلك أن يسحب من جامع عمرو دوره

المميز فى صنع الفكر الدينى فى مصر. ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، ففى نهاية عام ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م قتل الشيخان أبو أسامة اللغوى وأبو الحسن الأنطاكى، واضطر الشيخ عبد الغنى بن سعيد إلى التستر.

وفى سنة ٤٠٠هـ/ ١٠١٠م وقف الحاكم أوقافًا على عدد من المنشآت الدينية هى: جامع القاهرة (الأزهر)، وجامع المقس، وجامع راشدة، بالإضافة إلى دار الحكمة. وأورد ابن عبد الظاهر والمقريزى نص هذه الوقفية، أغلب الظن نقلاً عن المسبحى، وعين فيها الرباع والمواضع التى وقفت فيها على دار الحكمة؛ والتى حددت بـ ٢٥٧ دينارًا من الذهب المعزى تفصيلها: ١٢ دينارًا لثمن الماء، ١٥ دينارًا للفراش، ١٢ دينارًا للورق والحبر والأقلام، دينار واحد لمرمة الستارة، ١٢ دينارًا لمن يرم ما ينقطع من الكتب وما عساه أن يسقط من ورقها، خمسة دنانير لثمن لبود الفرش فى الشتاء، أربعة دنانير لثمن طنافس فى الشتاء، وما بقى يصرف على سائر ما يحتاج إليه.

ويبدو أن دار الحكمة استمرت فى أداء دورها كمكتبة عامة فترة طويلة، غير أن ما نملكه من معلومات عن نشاط هذه الدار لا يتعدى بحال عصر الحاكم بأمر الله (٤١١هـ/١٠٢٠م)، ومنذ هذه الفترة وحتى عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م لا تشير المصادر إطلاقًا إلى دار الحكمة (العلم)، ولكن يغلب على الظن أنها كانت فيما بين هذين التاريخين مركزًا لنشاط جدير بالاهتمام هو الدعوة الإسماعيلية، وإن كنا لم نستطع أن نحدد الفترة التى دخل فيها هذا النشاط فى حياة هذه المؤسسة. ولكننا نعرف- عن طريق ابن عبد الظاهر- أن واحدًا من كبار الدعاة الإسماعيليين هو المؤيد فى الدين هبة الله الشيرازى دفن فى دار العلم عند وفاته سنة ٤٧٠هـ/ ١٠٧٧م، الأمر الذى يؤكد أهمية المؤسسة للدعوة الإسماعيلية.

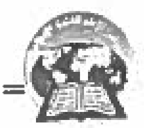
وفى الفترة التى تولى فيها المؤيد فى الدين أمر الدعوة الإسماعيلية فى مصر نزل عليه وهو فى دار العلم قاضى قضاة اليمن وهادى دعاتها لمك بن مالك الحمادى- الذى وصل إلى بلاط الإمام المستنصر برسالة من داعى اليمن على بن محمد الصليحى يطلب له الإذن « فى الحج إلى مكة والمسير بعد ذلك للهجرة إلى شريف الحضرة». ويذكر الداعى

حاتم بن إبراهيم الحامدى أن المؤيد علّم (لمك) العلوم الدينية، وجعله خبيرًا بخفايا الدعوة. وأمضى لمك بالقاهرة خمس سنوات (٤٥٤ - ٤٥٩هـ) لم يفارق فيها مجلس المؤيد فى الدين « يسأله ويأخذ عنه ويكتب ما استفاده منه، إلى أن استوعب ما عنده». وفى النهاية تقدم إليه بسبع وعشرين مسألة يطلب جوابها منه، فأجابه المؤيد بأن جوابها عند الإمام وأنه بعد هذا الإعداد والتلقى على يدى المؤيد فى الدين لا يوجد بينهما الآن حائل. فتقدم لمك بأسئلته إلى الإمام فأجابه عليها بسبعة وعشرين جوابًا، وكساه بعد كل جواب قميصًا من ملابسه إشارة من الإمام إلى رفعه له وإعلائه.

هذه الرواية التى وردت فى المصادر اليمنية تعرفنا بكيفية إعداد دعاة الجُزُر(ج. جزيرة) الفاطمية المختلفة، والوقت المناسب الذى يمكن أن يلتقوا فيه بالإمام، وهو أحد أهم وظائف دار العلم وداعى الدعاة. ويبدو لى أنه بعد وفاة المؤيد فى الدين الشيرازى وتعيين أحد رجال السيف وهو أمير الجيوش بدر الجمالى فى رئاسة الدعوة، فإن دار الحكمة لم تفقد فقط أهميتها؛ بل أصبحت مرتعًا لنمو مذاهب معادية للإسماعيلية، مما دفع السلطات الفاطمية إلى وضع نهاية لنشاط هذه الدار.

ولا تحدثنا المصادر عن أى نشاط لهذه الدار حتى عام ٥١٣هـ/ ١١١٩م عندما حدثت الأحداث الآتية التى وصلت إلينا تفاصيلها عن طريق روايتين: الأولى أوردها ابن المأمون وابن ميسر تفيدنا أنه فى هذه السنة قام شخص يدعى حميد ابن مكى الأطفيحى القصار وزميل له يدعى بركات بالاجتماع فى دار العلم- التى بالتبَّانين مجاورة القصر الصغير- مع جماعة يعرفون بالبديعية كانوا على المذاهب السنية الثلاثة المشهورة، تقول الرواية: إن بركات استفسد عقول جماعة من جملتهم وأخرجهم عن الصواب، فأمر الأفضل بغلق دار العلم والقبض على بركات، ولكنه تمكن من الهرب وأخفاه أستاذان من القصر- من جملة من اعتقدوا فيه- داخل القصر إلى أن توفى من مرض ناله وانكشف أمرهما وقتلا.

وبعد وفاة الوزير الأفضل سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م أمر الخليفة الآمر وزيره المأمون البطائحى بإعادة فتح دار العلم على الأوضاع الشرعية، إلا أن حميد القصار عاد وأخذ يتردد على دار العلم وادعى فى



هذه المرة (الربوبية)، فحذر الداعى ابن عبد الحقيق الوزير المأمون من عواقب ذلك، وعرفه أن حميد القصار يتحدث كذلك بشىء من علم الكلام على مذهب الأشعرى، ثم انسلخ عن الإسلام وسلك طريق الحلاج واستهوى بعض ضعاف العقول وقليلى البصيرة، فاعتقله المأمون ولكنه لم يلبث أن توفى فى الحبس، كما قتل أتباعه فى سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م وأغلقت دار العلم للمرة الثانية.

أما الرواية الثانية فأوردها ابن عبد الظاهر وتفيدنا بأن هذا الإبطال كان بسبب اجتماع الناس بها، والخوض فى المذاهب، والخوف من الاجتماع على المذهب النِّزارى.

وواضح أن واقعة بركات وحميد القصار لم تكن السبب الرئيسى وراء إبطال دار العلم، وأغلب الظن أن ذلك كان بسبب اجتماع الناس بها وإخفاقها فى أداء دورها الأساسى؛ وهو الدعوة إلى المذهب الإسماعيلى مذهب الدولة الحاكمة.ونتيجة لوساطة خُدام القصر؛ وافق الآمر بأحكام الله على إعادة دار العلم بشرط أن يتولاها رجل دين، وأن يكون داعى الدعاة هو الناظر فيها، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن. فقام الوزير المأمون البطائحى بإعادة فتحها، ولكنه امتنع عن إعادتها فى موضعها الأول بالتبانين شمال القصر الغربى الصغير، وأقامها فى موضع آخر جنوب القصر الشرقى الكبير بجوار باب تربة الزعفران فى ظهر خزانة الدرق؛ فى ربيع الأول سنة ٥١٧هـ/ ١١٢٣م، وجعل على رأسها الداعى أبا محمد الحسن بن آدم.

واعتبارًا من هذا التاريخ أصبحت دار العلم- وهو اسمها الذى يقابلنا فى مصادر هذه الفترة- المقر الرسمى للدعوة الإسماعيلية.

أ.د / أيمن فؤاد سيد

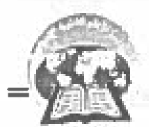
مصادر و مراجع للاستزادة:

- ابن عبد الظاهر: الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، تحقيق أيمن فؤاد سيد- القاهرة ١٩٩٦م.
- المقريزى: المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد، لندن- مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ٢٠٠٢- ٢٠٠٥م.

Eche, Y., Les bibliotheques arabes publiques et semi- publiques en Misopotamie, en Syrie et en Egypte au Moyen Age, Damas, IFEAD 1967 .

Halm, H.," Al- Hakim,s House of Knowledge and Scientific Institutions under the Fatimids" ,in The Fatimids and their Traditions of Learning, pp. 71- 93

Pedersen, J. & Makdisi , G., EI art. Madrasa V,p 1123.



دار السكة

ينبغى قبل أن نتحدث عن دار السكة (دار الضرب) فى الحضارة العربية الإسلامية أن نحدد أولا مدلول بعض المصطلحات المتعلقة بالسكة الإسلامية وأنواعها وفئاتها ثم نشير إلى تعريب السكة أو الإصلاح النقدى فى خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/٦٨٤-٧٠٥م).

١- السكة:

يعبر لفظ السكة عن معانٍ متعددة تدور كلها حول النقود المتعامل بها بين الناس؛ فها هو الماوردى يقول: «والسكة هى الحديدة التى يطبع عليها الدراهم ولذلك سميت الدراهم المضروبة سكة..» [١].

أما ابن خلدون فيزودنا بتفاصيل أكثر فيقول إن السكة "هى الختم على الدنانير والدراهم المتعامل بها بين الناس بطابع حديد ينقش فيه صور أو كلمات مقلوبة ويضرب بها على الدينار أو الدرهم فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، بعد أن يعتبر عيار النقد من ذلك الجنس فى خلوصه بالسبك مرة بعد أخرى، وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصطلح عليه فيكون التعامل بها عددًا وإن لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزنًا"[٢].

ويضيف ابن خلدون فيذكر أن لفظ السكة «كان اسمًا للطابع وهى الحديدة المتخذة لذلك ثم نقل إلى أثرها وهى النقوش الماثلة على الدنانير والدراهم ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر فى استيفاء حاجاته وشروطه وهى الوظيفة فصار علمًا عليها فى عرف الدول، وهى وظيفة ضرورية للملك إذ بها يتميز الخالص من المغشوش بين الناس فى النقود عند المعاملات ويثقون فى سلامتها من الغش بختم السلطان عليها بتلك النقوش المعروفة....» [٣].

مما تقدم يتضح أن لفظ السكة يقصد به تلك النقوش التى تزدان بها النقود على اختلاف أنواعها، ويعنى أيضًا قوالب السك التى يختم بها على النقود المتداولة كما يطلق أيضًا على الوظيفة التى تقوم على سك العملة تحت إشراف الدولة؛ غير أن المعنى الشائع هو إطلاق كلمة السكة على النقود التى تضرب فى دور الضرب أو السبك والتى أصبحت

وسيلة التعامل الرئيسية فى العصور الوسطى بين مختلف شعوب العالم، تشهد بذلك تلك المجموعات الضخمة من النقود الإسلامية التى عثر عليها فى روسيا وبولندا وفنلندة وألمانيا. وقد عاش لفظ السكة فى أوروبا غريبا عن وطنه وأمعن فى الاغتراب حتى تبنته الفرنسية باسم sequin واشتقت منه الإيطالية لفظ zecchino.[٤]

الدينار:

هو العملة الذهبية الإسلامية فى العصور الوسطى ولفظة دينار مشتقة من اسم عملة ذهبية بيزنطية كانت تعرف باسم Denarius وكان يقال لها أيضًا Aureus وأحيانًا أخرى Denarius Aureus. واستخدم العرب قبل الإسلام الديناريوس وعربت اللفظة إلى دينار وورد ذكره فى القرآن الكريم: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ (آل عمران: ٧٥).

وعيار الدينار -أى الوزن الشرعى له- منذ تعريبه على يد الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان ٢٥ر٤جرامًا (أى ٦٦ حبة).

وبالإضافة إلى الدينار استخدمت مضاعفاته وأجزاؤه ومنها الثلث ووزنه ٤٠ر١جرام (٢٢ حبة) والنصف.

الدرهم:

عملة فضية عرفها العرب من الساسانيين وكانت تسمى بالفارسية درم، وتعرف عند اليونانيين باسم دراخما، وورد ذكر الدرهم فى القرآن الكريم: ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴾ [يوسف: ٢٠].

وكان الوزن الشرعى للدرهم ٩٧ر٢ جرام على اعتبار أن الدرهم يمثل ١٠/٧ من الدينار وكان للدرهم أيضًا مضاعفات كما كانت له أجزاء لتسهيل العمليات التجارية.

الفلس (والجمع فلوس):

عملة نحاسية واللفظة مستمدة من كلمة يونانية وهذه مأخوذة بدورها من الكلمة اللاتينية Follis، وفوليس هو اسم العملة النحاسية البيزنطية التى تعادل ٤٠ نوميًا Nummia ومن ثم كانت عملة الفوليس البيزنطية تحمل على ظهرها العلامة التى تدل على قيمتها، وهى حرف M وترمز إلى ٤٠ نوميًا وكان وزن الفوليس فى الأصل أوقية (حوالى ٣٠ جرامًا)، وكانت النسبة الشرعية

بين الفوليس والدرهم $\frac{١}{٤٨}$ لو أن النسبة بين العملتين كانت مجال اختلاف مستمر.

ومن المعروف أن الأصل فى ضرب هذا النوع من النقود النحاسية أن تكون عملة تساعد على إجراء العمليات التجارية البسيطة، ولكن رغم ذلك كان هناك اهتمام بنقوشها وأوزانها وصنعت لضبط أوزانها وتحديدها صنجٌ زجاجية خاصة مقدرة بالقراريط والخراريب (مفردها الخروبة) (٥).

صنج السكة:

الصنجة بالصاد أو السنجة بالسين كلاهما بالفتح من الفارسية سنكة وتعنى الحجر والوزن ويراد بها العيار Poids وتحمل جميع الصنج الزجاجية الخاصة بالسكة الإسلامية ما يعبر عن العيار أو الوزن بلفظ مثقال أو ميزان، ولا شك أن المقصود بلفظ ميزان هنا هو مقدار ثقل الصنجة التى تُعَيَّر عليها قطعة العملة، ويشير ورود لفظ المثقال على الصنج إلى ما يوزن به وهو من الثقل وذلك اسم لكل سنج، وقد صنعت صنجٌ زجاجية لا تستحيل إلى زيادة أو نقصان لتقدير أوزان السكة على وجه التحديد(٦).

هذا؛ وتعد دراسة السكة الإسلامية على جانب كبير من الأهمية فى الدراسات التاريخية والحضارية والآثارية على السواء حيث إنها تعتبر وثائق رسمية صحيحة لا يسهل الطعن فى قيمتها أو التشكك فى أصالتها ومن ثم يمكن الاعتماد عليها فى تصحيح الكثير من الأخطاء التاريخية من جهة وإضافة حقائق تاريخية جديدة مستمدة منها ولم ترد فى المصادر التاريخية المعاصرة من جهة أخرى.

ونستطيع أن نجمل أهمية دراسة السكة فى النقاط التالية:

- يمكن من خلال دراسة النقود الإسلامية ملاحظة التطور فى تكون الدولة الإسلامية وتوسعها.
- إذا صنفنا النقود نحصل على قوائم الأسرات الحاكمة فى العالم الإسلامى وضبط تواريخ حكمها بكثير من الدقة.
- أكثر النقود تحمل مكان الضرب، كما أن أسماء المدن التى ضربت بها النقود تحدد امتداد نفوذ كل دولة وكل حاكم، وهى تمدنا بمعلومات جغرافية واسعة، ومن حسن الحظ أن كتب البلدانيين والجغرافيين والرحالة يمكن أن تعطينا وصفًا لكل مدينة

وتحدد موقعها وتبين أهميتها الاقتصادية والسياسية، ولكن الكثير من هذه المدن قد اندثر الآن. ومن ثم فإن النقود تحفظ لنا ذكراها.

- جميع النقود تحمل بالإضافة إلى التاريخ الهجرى اسم الخليفة أو الملك أو السلطان أو الأمير أو الوالى وأحيانًا اسم المشرف على الضرب والوزير، ويفيدنا ظهور أسماء بعض الثوار والمغتصبين للحكم فى استنباط الكثير من الحقائق التاريخية.

- نستطيع من خلال فحص هذه النقود أن نتعرف على نقاء المعدن الذى سُكَّتْ منه النقود أو على الخلائط المعدنية كما نتعرف على طريقة السك ودقة صنعه.

- تعد النقود مجالا مهمًا للغاية فى تتبع تطور الخط العربى ومراحل تطوره عبر العصور المتلاحقة.

- تفيدنا أيضًا فى دراسة أنواع الزخارف النباتية والهندسية والكائنات الحية[٧].

٢ـ تعريب السكة (الإصلاح النقدى):

أ ـ قبل التعريب:

من الثابت أن العرب قبل الإسلام قد عرفوا الدراهم الساسانية والدنانير البيزنطية، وقد ورد ذكرها فى أخبارهم وأشعارهم، وقيل إنهم كانوا يتبايعون بالدنانير على أنها تبر ويطلقون عليها العين. كما يطلقون على الدراهم الفضية "الوَرِق"[٨].

فلما جاء الإسلام أقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) النقود على ما كانت عليه، وتعامل الرسول نفسه بهذه النقود وزوج عليا (رضى الله عنه) ابنته فاطمة على ٤٨٠ درهمًا وزن ستة دوانيق[٩].

وكذلك فرض الرسول (صلى الله عليه وسلم) زكاة الأموال بهذه النقود السائدة فجعل فى كل خمس أوقيات من الفضة خمسة دراهم كما جعل فى كل عشرين دينارًا نصف دينار.

ولما أقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) هذه النقود عمل خليفته أبو بكر (١١-١٣هـ/٦٣٢- ٦٣٤م) (رضى الله عنه) بسنته فى تبنى النقود الجارية بين المسلمين ولم يغير منها شيئًا.

ولما استخلف عمر بن الخطاب (١٣-٢٣هـ/ ٦٣٤- ٦٤٤م) (رضى الله عنه) وفتح الله على المسلمين بلاد الفرس أمر بضرب النقود الساسانية فى إيران والعراق كما هى بلغتها وحروفها البهلوية، وكذلك بشاراتها وشعائرها

غير الإسلامية، كما حافظ على أسماء دور السك وتاريخ الضرب باللغة البهلوية كذلك.

ويذكر المقريزى أن عمر بن الخطاب فى عام ١٨هـ/٦٣٩م، ضرب الدراهم على نقش الكسروية وشكلها وأعيانها (صورها) ولكنه زاد عليها عبارة (الحمد لله) وفى بعضها (محمد رسول الله)، وفى البعض الأخر (لا إله إلا الله وحده).

ولما استخلف عثمان (٢٤-٣٥هـ/٦٤٤- ٦٥٦م) (رضى الله عنه) ضرب دراهم فى خلافته ونقش عليها عبارة التكبير (الله أكبر)[١٠].

ومن العبارات التى نقشت على الدراهم التى ضربت فى عهد عثمان (رضى الله عنه) كلمة (جيد) وكلمة (بركة) وهو ما يستدل عليه من الدراهم الآثارية الباقية المؤرخة سنة ٢٠ يزد جرى/ أى ٣١هـ/٦٥١م ٣٢هـ/٦٥٢م.

واستمرت الدراهم فى خلافة على بن أبى طالب (رضى الله عنه) ٣٥-٤٠هـ/٦٥٦- ٦٦١م، وكان ينقش عليها عبارة (بسم الله) وعبارة (بسم الله ربى) كما نقش اسم (محمد) بالخط الكوفى على بعض الدراهم المؤرخة بعام ٣٩هـ/٦٥٩م[١١].

واستمرت النقود تضرب فى عصر الدولة الأموية حتى خلافة عبد الملك بن مروان ٦٥- ٨٦هـ/٦٨٤- ٧٠٥م دونما إحداث تغييرات جوهرية كما كان عليه الحال فى عصر الخلفاء الراشدين، فالدراهم ظلت تضرب على الطراز الساسانى مع إضافة الكتابات العربية عليها، وكان التاريخ يسجل أسماء عليها أحيانًا وفقًا للتقويم الفارسى (اليزدجردى) أو التقويم الهجرى، كما سجلت أسماء بعض الخلفاء الأمويين وألقابهم باللغة البهلوية ومن ذلك (معاوية أمير ورشينكان أى معاوية أمير المؤمنين) على دراهم مؤرخة بـ٤١هـ و ٤٣هـ.

كما سجل أمراء الأقاليم الشرقية اسماءهم على الدراهم المضروبة على الطراز الساسانى باللغة البهلوية، ويستثنى من هؤلاء الحجاج بن يوسف الثقفى الذى كان أول من سجل اسمه على هذه الدراهم بالحروف العربية (فى ضوء الدراهم الآثارية الباقية والمعروفة حتى الآن)، كما يعد الحجاج أيضًا هو أول من أضاف إلى الدراهم شهادة التوحيد والرسالة المحمدية.

وهناك نوع من الدراهم اصطلح على تسميتها بالدراهم العربية الساسانية

المغفلة أى التى تخلو من أسماء الخلفاء وأمراء الأقاليم وقد استمر ضربها حتى عام ٦٤هـ/٦٨٤م (فى ضوء ما هو معروف منها حتى الآن) [١٢].

ب - تعريب السكة فى عهد عبد الملك بن مروان[١٣].(٦٥- ٨٦هـ/٦٨٤- ٧٠٥م):

مر الإصلاح النقدى فى عهد عبد الملك ابن مروان ببضعة مراحل حتى تم التعريب الكامل للنقود ويمكن فى ضوء الأدلة الآثارية المعروفة والمتوفرة حتى الآن أن نقسم هذه المراحل إلى ثلاث:

- المرحلة الأولى: مرحلة الصور الإمبراطورية (٧٢- ٧٤هـ/ ٦٩٢- ٦٩٤م.
- المرحلة الثانية: مرحلة الصور العربية (٧٤- ٧٧هـ/٦٩٤- ٦٩٧م).

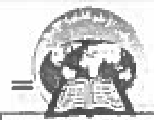
المرحلة الثالثة: مرحلة التعريب النهائى وظهور الطراز الإسلامى الخالص.

أما عن المرحلة الأولى فتتميز بنقش صورة الأباطرة البيزنطيين على النقود الذهبية والنحاسية أو صورة كسرى الفرس على الدراهم الفضية فضلا عن بعض المظاهر الأخرى ومنها العمود القائم على مدرجات على الدنانير وحرف M الكبير و m الصغير على الفلوس أو رسم معبد النار الزرادشتى على الدراهم الساسانية، وكذلك ظهور بعض الكائنات والحروف اللاتينية على الدنانير والفلوس والكتابات البهلوية على الدراهم.

أما المرحلة الثانية فتتميز بظهور صورة بمركز وجه الدينار تمثل الخليفة عبد الملك واقفًا بملابسه العربية تعلو رأسه كوفية ويضع يده اليمنى على مقبض سيفه يهم باستلاله، وفى الهامش نقش بالخط الكوفى البسيط نصه (بسم الله لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله). أما الظهر فيوجد به عمود قائم على مدرجات أربعة ينتهى فى أعلاه بكرة، بينما نقش بالهامش بالخط الكوفى البسيط نصٌ يتعلق بتاريخ الضرب بصيغة «بسم الله ضرب هذا الدينر سنة... ٧٤ أو ٧٥ أو ٧٦ أو ٧٧هـ» . = ٦٩٣، ٦٩٤، ٦٩٥م، ٦٩٦م.

أما الدراهم التى تنتمى إلى هذه المرحلة فتتميز بأن صورة كسرى قد اختلفت فى بعض تفاصيلها، كما حذفت الكتابة البهلوية وحلت محلها الكتابة العربية، كذلك حذف معبد النار ونقشت بدلا منه صورة الخليفة عبد الملك مماثلة لما هو منقوش بالدنانير، وعلى جانبى صورة الخليفة نقشت ألقابه بصيغة (خليفة الله- أمير المؤمنين).

وهناك إصدارات أخرى من الدراهم



لا مجال للحديث عنها فى هذه العجالة.

كذلك فإن النقود النحاسية والبرونزية فى هذه المرحلة تتميز بأنها تحمل صورة الخليفةعبد الملك تحيط بها أحيانًا نفس العبارات (بسم الله لا إله إلا الله وحده محمد رسول الله) أو بدون عبارة (بسم الله) أو تنقش عليها عبارة (لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين) أو (خليفة الله أمير المؤمنين)، أما الظهر فيوجد فيه العمود القائم على مدرجات يعلوه كرة وتنقش مدينة الضرب يمينه ويساره، وأحيانًا تنقش كلمة (واف)، وأحيانًا يضاف هامش كتابى يشتمل على شهادة التوحيد والرسالة المحمدية.

أما المرحلة الثالثة والأخيرة فتخلو تمامًا من كافة التأثيرات الفارسية والبيزنطية التى سبق أن شاهدناها فى المرحلتين السابقتين، ومن ثم فهى تتميز بظهور الطراز الإسلامى الخالص حيث حلت الكتابات الإسلامية محل الصور وذلك على النحو التالى:

- الدنانير الذهبية:

الوجه:	الظهر
مركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له	مركز: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد
هامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله	هامش: بسم الله ضرب هذا الدينر فى سنة سبع وسبعين

هـ- الدراهم الفضية:

وأقدم المعروف منها حتى الآن مؤرخ بـ ٧٨هـ.

الوجه:	الظهر
مركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له	مركز: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد
هامش: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون	هامش: ضرب هذا الدرهم + مدينة الضرب وتاريخه.

وهناك إصدار آخر نقوشه:

الوجه:	الظهر:
مركز: لا إله إلا الله وحده لا شريك له	مركز: الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد
هامش: بسم الله ضرب هذا الدرهم	هامش: محمد رسول الله أرسله

+ مدينة الضرب وتاريخه.	بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون

- الفلوس:

الوجه:	الظهر:
مركز: لا إله إلا الله وحده .	مركز: محمد رسول الله.
هامش: أمر به عبد الله الوليد أمير المؤمنين.	هامش: بسم الله ضرب هذا بدمشق سنة سبع وثمنين.

وهناك فلوس أخرى عديدة تحمل أسماء الخلفاء والولاة وتحمل اسم مدينة الضرب وتاريخ الضرب.

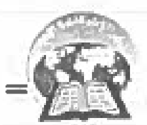
هذا وقد كانت وراء تعريب السكة عدة دوافع دينية وسياسية واقتصادية وقومية [١٤].

أما عن دار السكة (أو دار الضرب) فيمكن القول إنها كانت المؤسسة الصناعية الرسمية التى تقوم بإنتاج وإصدار النقود بمختلف أنواعها وفئاتها المشار إليها سابقًا، أما ما كان يسك من نقود خارج تلك الدار فيُعد من النقود المزيفة وغير القانونية؛ ذلك لأن السكة إحدى شارات الملك الثلاث وحق خاص للخليفة أو السلطان أو من ينوب عنهما.

وهو ما ذكره الماوردى بقوله: «فإن كان من ضرب سلطان الوقت أجيب إليه لأن فى العدول عن ضربه مباينة له فى الطاعة»[١٥]، وأكده أبو يعلى بقوله: «فقد منع من الضرب بغير إذن السلطان لما فيه من الافتيات عليه»[١٦]. وهذا يدل على أن التعامل بأية نقود أخرى لا تحمل اسم الخليفة (أو السلطان) أو علامته يعتبر خروجًا عن الطاعة» وتتدرج تحت ما يسمى بنقود الثوار أو الخارجين»[١٧].

وكانت مهام دار السكة (أو دار الضرب) تتمثل فى استقبال المواد الخام التى ترد إليها وتجهيزها؛ ومن ثم سكها نقودًا تفى باحتياجات الدولة أولا والمجتمع ثانيًا، وذلك وفق موازنة معدة حسب مصروفات الدولة وحاجة السوق من تلك العملات، كما أنها تقوم بدور كبير فى عملية استبدال النقود القديمة أو تلك التى ألغيت أو سحبت من واستُبدلتْ بها نقود جديدة وهو ما يُعرف اليوم فى البنوك المركزية بعملية السحب والطرح.

ويضاف إلى ما تقدم أن دار السكة كانت تقدِّم خدمات أخرى لا تقل شأنًا عن سابقتها فهى مفتوحة للجميع؛ فقد كان من حق كل فرد أن يُحضر إلى



الدار الذهب أو الفضة التى يرغب بسكها نقودًا وبعد مطابقتها للعيار (ومن الألفاظ المرادفة له الإمام) تقوم الدار بتحقيق رغبته وسكها مقابل أجر معلوم، وهذا ما يُعرف حديثًا بضريبة الإصدار[١٨]، ونتيجة لاتساع الرقعة الجغرافية لدار الإسلام وامتدادها من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب على شكل شريط يكاد يحزم الأرض من وسطها، ويقع هذا الحزام الجغرافى الإسلامى بصفة عامة بين خطى عرض ٢٠ و ٤٠ شمال خط الاستواء[١٩]، وقد انتشرت دور السك فى جميع الأرجاء والنواحى بالإضافة إلى ما كان معروفًا منها فى عصر ما قبل الإسلام، فقامت الدول الإسلامية المتعاقبة بإنشاء العديد من دور السكة الرئيسية منها وغير الرئيسية أو الفرعية.

ولحسن الحظ فقد أمدّتنا نماذج السكة الإسلامية المحفوظة فى العديد من المتاحف ودور الكتب والمجموعات الخاصة بالعديد من أسماء مدن السك، وقد أحصى العلماء والباحثون حتى الآن ما يقرب من ١٥٠٠ اسم لمدينة وإقليم وولاية وكورة وقرية ونهر ومعسكر وقصر على امتداد رقعة دار الإسلام؛ مما يجعل من هذه الأسماء المسجلة على السكة الإسلامية ثروة هائلة للجغرافيين والباحثين فى جغرافية أرض الإسلام؛ خاصة وأن كثيرًا من هذه المدن والأقاليم والنواحى قد اندثرت وأصبحت أثرًا بعد عين ولم يبق لنا سوى اسمها المسجل على تلك النقود[٢٠]، وحتى تستطيع دار السكة أن تؤدى مهمتها على خير وجه وأكمل حال كان لابد من توافر جهاز إدارى وفنى على أعلى مستوى؛ وذلك للإشراف المباشر والدقيق على كل أعمالها إداريًا وفنيًا. ولحسن الحظ فقد زودتنا بعض المصادر المتخصصة- رغم قلتها- بالكثير من التفاصيل عن دور السكة ونظام العمل بها فضلا عن أماكن وجود المعادن وكيفية الاستدلال عليها وطرق استخراجها وتصفيتها واستخلاصها من الشوائب، ومن هذه المصادر:

- الهمدانى، الحسن بن أحمد بن يعقوب، ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م، كتاب الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، أعده للنشر حمد الجاسر، الرياض، دار اليمامة، ١٩٨٧م.
- البيرونى، أبو الريحان محمد بن أحمد، ت ٤٤٠هـ/١٠٤٨م، الجماهر فى

معرفة الجواهر، بيروت، ط٣، ١٩٨٤م.

- ابن بعرة، منصور بن بعرة الذهبى الكاملى، ت النصف الأول من القرن ٧هـ/١٣م، كتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، تحقيق عبد الرحمن فهمى، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

- ابن يوسف الحكيم، أبو الحسن على، النصف الثانى من القرن ٨هـ/١٤م، الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

هذا بالإضافة إلى ما ورد فى ثنايا المصادر التاريخية من معلومات متناثرة تفيد فى دراسة هذا الجانب كالقلقشندى على سبيل المثال، فضلا عن المراجع والدراسات الحديثة[٢١].

وكانت هناك بعض الشروط والصفات المهمة التى ينبغى أن يتحلى بها من يعمل فى دار السكة ومنها:

أ- شروط أخلاقية: ينبغى أن يكون عفيفًا ذا ثقة ورعًا متدينًا صحيح اليقين.

ب - شروط علمية: ينبغى أن يكون فقيهًا عارفًا بما يحرم ويحل ولا يلتبس على علمه شىء.

ج - شروط فنية: ينبغى أن يكون ذا تجربة ودراية بالعمل كفؤا له.[٢٢].

أما دار السكة فكانت تخضع للإشراف المباشر للخليفة منذ تم التعريب الكامل للنقود فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/٦٨٤- ٧٠٥م) وذلك عام (٧٧هـ/٦٩٦م) وحتى العصر العباسى الأول وتحديدًا فى خلافة هارون الرشيد (١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦- ٨٠٨م)، حين تنازل عن هذا الحق لوزيره جعفر البرمكى ثم صرفه بالسندى بن شاهك الذى أعاد ضبط أمور دار السكة وجودة عيار النقود حتى صارت نقوده تُضرب الأمثال بها فى الجودة[٢٣].

ورغم ذلك فقد كان للخلفاء تعليمات يصدرونها إلى من يعهدون إليه بالإشراف على أعمال دار السكة ومنها:

١- التشديد فى النظر فى جودة النقد.

٢- أن تضرب العملة وفقًا للعيار المتفق عليه والصادر من دار الخلافة.

٣- إثبات اسم الخليفة على السكة.

٤- التحذير من تلاعب التجار بسبائك الذهب والفضة.

٥- التشديد فى مراقبة دار السكة وحراستها[٢٤].

كذلك فقد تمتع الولاة والوزراء وأمراء



الأمراء بحق الإشراف على دار السكة. وحسبنا أن نشير من بين هؤلاء وأولئك إلى كل من الحجاج بن يوسف الثقفى وعمر ابن هبيرة وخالد القسرى من العصر الأموى وعلى بن سليمان بن على العباسى وعلى بن عيسى بن ماهان وجعفر البرمكى والفضل بن الربيع والأمير بجكم والأمير ناصر الدولة من العصر العباسى.

وتمتع بهذا الحق أيضًا الأمراء الذين نجحوا فى الاستقلال الاسمى عن دار الخلافة كالأمير أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية (٢٥٤-٢٩٣هـ/٨٦٨- ٩٠٥م) حيث كان يشرف بنفسه على دار السكة، كما كان يحضر ما يعلق من الذهب ويختم بنفسه، كذلك كانت دار السكة تخضع لإشراف دقيق من محمد بن طغج الإخشيد مؤسس الدولة الإخشيدية (٣٢٣- ٣٥٨هـ/ ٩٣٤- ٩٦٩م).

كذلك كان يعهد بالإشراف على دار السكة للقضاة ونواب القضاة وذلك من باب الحرص على جودة النقود ومنع الغش فيها، وكان على القاضى أن يجتهد فى خلاص الذهب وتحرير عياره، وكان هذا بمثابة ضمان شرعية الإصدارات، كما كان المحتسب يقوم بالإشراف على دار السكة ومراقبة أعمالها ومنع الغش وغير ذلك من المهام.

أما أهم موظف إدارى بدار السكة فهو ناظر دار الضرب أو متولى دار الضرب وله السلطة المباشرة والإشراف الكامل على كل العاملين والموظفين بدار السكة إداريين وفنيين وكان دائم الوجود فى الدار فيحضر فتحها والختم عليها عقب الانتهاء من الأعمال.

وبالمصادر التاريخية قائمة بأسماء العديد من النظّار أو متولى دار السكة بدءًا من العصر الأموى حتى نهاية المملوكى.

ومن الموظفين الإداريين أيضًا المشارف والشاهد؛ والأول ويختص بحفظ جميع الحواصل من فضة وذهب وسكك وعدد وغيرها وآلات وصنج العيار وختم الأقداح وختم الألوان وتحرير وزن عيارى الذهب والفضة والمقابلة بالحساب وخطه بذلك. والشاهدُ عليه "أن يشهد على جميع من حَوَت الدار بما عاينه من أعمالهم ومباشرته إياهم ومقابلته على الحساب وخطه بذلك عليه". ومن الموظفين الإداريين أيضًا شاد دار الضرب ومن يقوم بعمليتى النسخ والتحرير[٢٥].

وفى العصر العثمانى بمصر وصل عدد المشتغلين بدار الضرب العثمانية إلى أكثر من ٢٨٠ عاملا (نصفهم من الأقباط) ومنهم صاحب العيار والوزّان وأمين المخزن والمُعَيِّر والرقاق والقطاع والرصاع والجلاء والحفار والحدادون والسكاؤون والبوابون والحراس وعامل ميكانيكى يسمى الساعاتى لدقة عمله وكاتب قبطى وإمام واعظ إسلامى[٣٦].

أما عن الجهاز الفنى لدار السكة فكان يختص بصناعة النقود وكل ما يرتبط بها من صهر الذهب والفضة والنحاس وتحديد عيارها وصناعة قوالب السك ونقشها والختم على النقود وعمل الصنج الخاصة بوزن النقود. ويتكون هذا الجهاز الفنى من:

- **المقدم:** ومهمته الحفاظ على عيار الذهب والفضة والختم على الآتون بعد معرفة ما به من سبائك حتى يمنع أبواب الفساد كما عليه أيضًا معرفة المزيفين وأساليبهم.

السباك: ويختص بإذابة المعادن وتجهيزها على شكل صفائح تصلح لعملية السك.

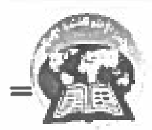
النقاش: ويعرف أيضًا بالطبَّاع والفتَّاح، ومهمته نقش الكتابات التى تسجل على النقود.

- **الضراب:** وهو الذى يقوم بضرب النقود أو سكِّها وكان يشد عليه فى ضرب النقود بقالب السك حتى لا ينحرف القالب فيتسبب ذلك فى عدم استواء الدائرة والكتابات على النقد. ويكون هناك ما يعرف بالشايط والذى يتيح الفرصة لقرض الدنانير والدراهم.

- **الناقد:** وهو الذى ينقد الدنانير والدراهم أى يميز الجيد منها من الردىء والصحيح من المغشوش وذلك قبل طرحها للتداول والتأكد من عيارها وحسن ضربها ودقة وزنها ومطابقتها للمواصفات المطلوبة.

أما عن كيفية صناعة النقود بدار السكة (أو دار الضرب) فكانت تتم من خلال اتباع عدد من الخطوات؛ وذلك على النحو التالى:

أ- **الخطوة الأولى:** وتتمثل فى تحضير السبيكة وصناعة الأقراص أى تحضير المعدن الذى ستصنع منه النقود سواء كانت ذهبًا أو فضة أو نحاسًا؛ وبسبب لين هذه المعادن لم تكن تستخدم بصورة كاملة النقاء إذ كان من الضرورى إذابة المعدن وتنقيته ثم خلطه مع معدن آخر أو أكثر لصنع السبيكة اللازمة



والتأكد من عيارها ثم تصنع منها الأقراص أو القطع لختمها نقودًا، والسبائك قد تكون مطروقة أو مصبوبة.

ب ـ الخطوة الثانية: وتتمثل فى صناعة القوالب ونقشها وهى من الخطوات المهمة لضرب النقود وختمها بشعار السلطة التى قامت بإصدارها ليجرى التداول بها، وكانت هذه القوالب تصنع من معدن أشد صلابة من معدن القطع (الأقراص) التى ستُضرب بتلك القوالب لتصنع منها المسكوكات وكان نقش وحفر الطراز على القوالب يتم على سطح القالب مباشرة أو يصنع القالب بطريقة النسخ عن القالب الأم بواسطة الطرق باستعمال أزاميل تحمل رؤوسها جزءا من الطراز على شكل حرف أو أكثر أو يحفر الطراز على سطح القالب أو كلمات أو زخارف[٢٧].

ويحسن بنا ونحن نتحدث عن صناعة النقود الإسلامية بدار السكة أن نشير إلى وجود أخطاء وهفوات نتجت أثناء عملية التصنيع، وقد حصرها العلماء فى أربعة أنواع رئيسية هى:

١- عيب أو خطأ فى نقش الطراز الذى على القالب.

٢- سوء تصنيع فى القطع (الأقراص) المراد الضرب عليها.

٣- أخطاء فى الفئة أو القيمة.

٤- عيب أو خطأ أثناء عملية الضرب.

ونضيف إلى ذلك أن هناك ما يُعرف بالمسكوكات الهجينية ويُقصد بها تلك النقود التى جرى ضربها بقالبين غير متزاوجين أى لا يمت أحدهما للآخر بصلة[٢٨] [٢٩].

وختامًا تجدر الإشارة إلى أن دراسة التخطيط المعمارى لدور السكة (أو دور الضرب) الإسلامية وما يرتبط بهذا التخطيط من وحدات وعناصر ومفردات وملاحق ومنافع ومرافق يكاد يكون متعذرًا وذلك لاندثارها جميعًا بل لا يكاد يعرف مواقعها بالتحديد.

ورغم ذلك فإن مصر ما تزال تحتفظ بنموذج فريد على مستوى العالم وهو دار الضرب بقلعة صلاح الدين المعروفة بقلعة الجبل بالقاهرة.

وقد عكف على دراستها أستاذنا الدكتور/محمد مصطفى نجيب دراسة علمية تحليلية دقيقة وموثقة وهى دراسة لم يسبق إليها، حيث أثبت بما لا يدعُ مجالا للشك أن دار الضرب الحالية بالقلعة هى نتاج ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهى مرحلة العصر

المملوكى الجركسى (٧٨٩- ٩٣٠هـ/ ١٣٨٧- ١٥٢٤م) وتقع فى أقصى الركن الجنوبى لسور القلعة الذى يحدها من جهتها الجنوبية والشرقية خلف سراى العدل (ديوان الكتخدا) محجوبة بها عن حوش الباشا (الحوش السلطانى).

المرحلة الثانية: وهى مرحلة العصر العثمانى (١١٢١- بعد ١٢٢٧هـ/١٧٠٩- بعد ١٨١٢م) وهى الدار العثمانية الثانية التى أمر بإنشائها داماد حسن باشا إلى الشمال من الدار الجركسية محل معمل البارود الذى نقل إلى محل بجوارها وأتمها من بعده إبراهيم باشا القبطان، وقد جددها محمد على عام ١٢٢٧هـ/١٨١٢م قبل أن يُلحقها بداره وأثبت هذا التجديد فى لوح رخامى ما زال موجودًا على بابها.

المرحلة الثالثة: وهى مرحلة عهد محمد على وأسرته (قبل ١٢٤٣- ١٣٠٥هـ/ قبل ١٨٢٧- ١٨٨٨م) وقد استوعبت هذه المرحلة الدار العثمانية الثانية التى ما زالت أجزاء كبيرة منها قائمة للآن مع إضافة مبانٍ إليها من الشمال والغرب مشرفة على حوش الباشا (الحوش السلطانى) أمام سراى العدل (ديوان الكتخدا).

ومهما يكن من أمر فإن التخطيط المعمارى بعناصره ومفرداته وملحقاته يشتمل بصفة عامة على الصحن المكشوف وعدد من القاعات والحجرات الأمامية والخلفية فضلا عن مصلى وضريح ومساحة خربة وبناء بيضاوى يشبه الجواسق أو الأكشاك التى تتوسط الحدائق العثمانية.

ومن المفردات والعناصر الباقية المهمة مصاطب وأفران سبك المعادن وأحواض التبريد والجلوة وجرن القص الذى لم يبق منه سوى غطائه فضلا عن سندان الطرق[٣٠].

أ.د / محمد حمزة الحداد

الهوامش:

(١) الماوردى، الأحكام السلطانية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص١٣٥ .

(٢) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، المجلد الأول، ص٢٧٦؛ الكرملى، أنستاس، النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، القاهرة، ط٢، القاهرة، ١٩٨٧م، ص١١٣ .

(٣) ابن خلدون، مقدمة، مج١، ص٢٧٧؛ الكرملى، النقود، ص١١٢- ١١٤ .

(٤) فهمى، النقود العربية، ص٧٠٦ .

(٥) فهمى، النقود العربية، ص٧- ١٠؛ الباشا، حسن، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، المجلد الثانى، بيروت، ١٩٩٩م، ص٢٤١، ٢٤٢؛ النقشبندى، ناصر السيد محمد، الدرهم الإسلامى، جـ١ الدرهم الإسلامى المضروب على الطراز الساسانى، بغداد، ١٩٩٩م، ص٨، ١؛ النقشبندى، ناصر ، والبكرى، مهاب درويش، الدرهم الأموى المعرب، بغداد، ١٩٧٤م، ص١٥، ٩، ١٦.

(٦) فهمى، صنج السكة فى فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٧٥م، ص١- ٢؛ النبراوى، رأفت (وآخرون)، الصنج الزجاجية للسكة الفاطمية المحفوظة بمتحف الفن الإسلامى بالقاهرة، القاهرة، ١٩٩٧م..

(٧) العش، محمد أبو الفرج، النقود العربية الإسلامية المحفوظة فى متحف قطر الوطنى، جـ١، الدوحة، ١٩٨٤م، ص١٠- ١٣؛ فهمى، النقود، ص٤- ٦؛ النبراوى، النقود الإسلامية منذ بداية القرن السادس وحتى نهاية القرن التاسع الهجرى، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص٥- ٣١؛ رمضان، عاطف منصور، موسوعة النقود فى العالم الإسلامى، جـ١، ص١٧- ٢١؛ الشرعان، نايف، نقود الدولة العيونية فى بلاد البحرين، الرياض، ٢٠٠٢م، ص٧- ١٢، محمد حمزة، المجمل فى الآثار والحضارة الإسلامية، ص٦٦٩- ٦٧٠.

(٨) فهمى، النقود العربية، ص٢١ .

(٩) ابن سلام، الأموال، ص٦٣١ .

(١٠) المقريزى، شذور العقود، ص١٠٣، ١٠٥ .

(١١) رمضان، موسوعة النقود، جـ١، ص٥٧- ٥٨ .

(١٢) رمضان، موسوعة، ج١، ص٦٣- ٧٩؛ القيسى، موسوعة، ص٢٨- ٢٩؛ النقود فى العراق، ص٤١- ٤٨؛ النقود العربية الإسلامية،ج١، ص٢٤- ٢٨؛ النقشبندى، الدرهم الإسلامى، ج١، الدرهم الإسلامى المضروب على الطراز الساسانى، بغداد (١٩٦٩م)؛ النقشبندى، والبكرى، الدرهم الأموى المعرب، ص٩- ١٠.

(١٣) رمضان، موسوعة، ج١، ص٨٠- ١٠٦؛ العش، النقود العربية الإسلامية، ج١، ص١٦- ٢٣؛ القيسى، موسوعة، ص٢٩- ٣٢، النقود فى العراق، ص٤٩- ٥٦؛ النقشبندى والبكرى، الدرهم الأموى المعرب، ص١٠، ص٢٢- ٢٦؛ فهمى، النقود العربية، ص٢٩- ٣٨ .

(١٤) عن الآراء المختلفة التى ذكرت فى المصادر التاريخية فضلا عن دراسات العلماء والباحثين انظر، البيهقى، المحاسن والمساؤى، ص٤٦٧- ٤٧٠؛ الدميرى، حياة الحيوان الكبرى، ج١، ص٦٢- ٦٤، المناوى، النقود والموازين والمكاييل، ص٦٢- ٦٣؛ المقريزى، شذور العقود، ص١٠٧، ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون، مج٢، ص٢٨٨؛ فهمى، النقود العربية، ص٢٩- ٣٩؛ تعريب النقود ومدلوله الحضارى، المنهل، العدد ٤٥٤ السنة ٥٣، المجلد ٤٨، جدة، ١٩٧٨م، ص٣٨٢- ٣٩٣؛ الرمضانى، عبد الواحد، البعد القومى لتعريب النقود، مجلة أداب الرافدين، العدد (١٤)، ١٩٦١م، ص٤٧- ٨٧؛ اليوزبكى، توفيق، التعريب فى العصرين الأموى والعباسى، مجلة آداب الرافدين، العدد ٧، ١٩٧٦م، ص٤٥- ٦٩؛ رمضان، موسوعة، ج١، ص١٠٩- ١٢٦؛ الكبيسى حمدان، أصول النظام النقدى فى الدولة العربية الإسلامية، بغداد، ١٩٨٨م، ص٢٢- ٢٧ .

(١٥) الماوردى، الأحكام السلطانية، ص١٢٥ .

(١٦) أبو يعلى، الأحكام السلطانية، ص١٨٨ .

(١٧) عاطف منصور، النقود الإسلامية، ص٣٥١، ولمزيد من التفاصيل عن نقود الثوار انظر فرج الله يوسف، نقود الخارجين على الخلافة العباسية فى شرق العالم الإسلامى، القاهرة، ٢٠٠٣م .

(١٨) نايف الشرعان، التعدين وسك النقود فى الحجاز ونجد وتهامة فى العصرين الأموى والعباسى، الرياض، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص١٢٦، ١٢٧ .

(١٩) محمد حمزة الحداد، المجمل فى الآثار والحضارة الإسلامية، ص٣٠ .

(٢٠) محمد باقر الحسينى، مدن الضرب على النقود الإسلامية، مجلة المسكوكات، العدد ٥، بغداد، ١٩٧٤م، عاطف منصور، النقود الإسلامية، ص٥٥١- ٦١٤ .

- أهتم عدد من العلماء والباحثين بدراسة مدن الضرب وأهميتها التاريخية والجغرافية ومن بين هؤلاء حسبنا أن نشير إلى دراسات كل من زامبا وروميليه ومتشنر وكودرنجتونو ومن الباحثين العرب.

(٢١) ضيف الله الزهرانى، دار السكة نشأتها أعمالها إدارتها، مجلة الدارة، العدد٢، السنة ٢٠، المحرم -صفر- ربيع الأول ١٤١٥هـ، ص ٥- ٦٤، نايف القسوس، نميات نحاسية أموية جديدة من مجموعة خاصة، مساهمة فى إعادة نظر فى نميات بلاد الشام، عمان، البنك الأهلى، الأردن، ٢٠٠٤م، ص١٥٣- ١٨٠ .

- إبراهيم القاسم رحاحلة، النقود ودور الضرب فى الإسلام، ١٣٢- ٣٦٥هـ/ ٧٤٩- ٩٧٥م، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٦٥- ٨٥.

(٢٢) ضيف الله الزهرانى، دار السكة، ص٢٨ .

(٢٣) عاطف منصور، النقود الإسلامية، ص٣٥٢، ضيف الله الزهرانى، دار السكة، ص٢٩- ٣٠ .

(٢٤) ضيف الله الزهرانى، دار السكة، ص٣٠ .

(٢٥) إبراهيم رحاحلة، النقود ودور الضرب، ص٦٥- ٧٣، ٨١- ٨٢، ضيف الله الزهرانى، دار السكة، ص٢٩- ٣٩، عاطف منصور، النقود الإسلامية، ص٣٥٢- ٣٥٤، عبد الرحمن فهمى، مقدمة تحقيقه لكتاب كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية، ص٣٢ .

(٢٦) محمد مصطفى نجيب، دور الضرب بالقلعة، ص١٦٤- ١٦٩ .

(٢٧) إبراهيم رحاحلة، النقود ودور الضرب، ص٨٢- ٨٤، عاطف منصور، النقود الإسلامية، ص ٣٥٥- ٣٦١.

(٢٨) ضيف الله الزهرانى، دار السكة، ص٤٠- ٤٤؛ القسوس، نميات نحاسية، ص١٥٨- ١٧٤، عبد الرحمن فهمى، مقدمة تحقيقه لكتاب كشف الأسرار العلمية، ص١٠- ٢٨، ص٢٣- ٣٧، محمد مصطفى نجيب، دور الضرب بالقلعة، ص١٦٥- ١٦٦. .

(٢٩) القسوس، نميات نحاسية، ص١٨١- ١٩٣؛ عاطف منصور ،النقود، ص٦٤٨- ٦٥٨، ناهض عبد الرازق دفتر، المسكوكات الهجينية، مجلة المسكوكات، العدد٨- ٩، ١٩٧٧م- ١٩٧٨م، ص١٨- ٢٥.

(٣٠) محمد مصطفى نجيب، دور الضرب بالقلعة، دراسة أثرية معمارية، المجلة العلمية لكلية الآداب- جامعة المنيا، سلسلة الإصدارات الخاصة، ج٢، رمضان١٤١٧هـ/ يناير ١٩٩٧م، ص١٥١- ٢٢٥، لوحات ١- ٤٠ ، وأشكال ١- ٨.

أولا: مصادر للاستزادة

١- ابن بعرة، منصور الذهبى الكاملى، ت فى النصف الأول من ق ٧هـ/١٣م، كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية تحقيق عبد الرحمن فهمى، القاهرة، ١٣٨٥هـ/١٩٦٦م.

٢- أبوالحسن على بن يوسف الحكيم: ق٨هـ/١٤م، الدوحة المشتبكة فى ضوابط دار السكة، تحقيق حسين مؤنس، دار الشرق، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

٣- عبد الرؤوف المناوى، ت ١٠٣١هـ/١٦٢١م، النقود والمكاييل والموازين، تحقيق رجائى محمد السامرائى، بغداد، ١٩٨١م.

٤- الماوردى، على بن محمد بن حبيب البصرى، ت، ٤٥٠هـ/١٠٥٨م، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط١، دار الفكر، القاهرة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م.

٥- المقريزى، شذور العقود فى ذكر النقود، دراسة وتحقيق محمد عبد الستار عثمان، القاهرة، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

٦- الهمدانى، لسان الدين الحسين بن أحمد، ت ٣٤٥هـ/٩٥٦م تقريبًا، الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء، تحقيق حمد الجاسر، الرياض ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م.

ثانيًا: مراجع للاستزادة

١- إبراهيم القاسم رحاحلة، النقود ودور الضرب فى القرنين الأولين ١٣٢- ٣٦٥هـ/٧٤٩- ٩٧٥م/ مكتبة مدبولى ١٩٩٩م.

٢- الأب أنستاس الكرملى، النقود العربية والإسلامية وعلم النميات، مكتبة الثقافة الدينية، ط٢، ١٩٨٧م.

٣- سعيد محمد مصيلحى، السكة ودور الضرب فى اليمن من فجر الإسلام حتى نهاية القرن الرابع الهجرى، مجلة كلية الآداب- جامعة صنعاء، العدد١٠، ١٩٨٩م، ص١١٢- ١٣٧.

٤- ضيف الله بن يحيى الزهرانى، زيف النقود الإسلامية، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م. دار السكة نشأتها أعمالها، إدارتها، الدائرة، العدد٢، السنة ٢٠، المحرم، صفر، ربيع الأول ١٤١٥هـ.

٥- عاطف منصور محمد رمضان، النقود الإسلامية وأهميتها فى دراسة التاريخ والآثار والحضارة الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٨م.

٦- عبد الرحمن فهمى محمد، موسوعة النقود العربية وعلم النميات ١. فجر السكة العربية، القاهرة، ١٩٦٥م.
- النقود العربية ماضيها وحاضرها.

٧- فرج الله أحمد يوسف، الآيات القرآنية على المسكوكات الإسلامية، دراسة مقارنة، الرياض ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

٨- محمد أبو الفرج العش، النقود من الناحية الفنية والتقنية فى الحضارة العربية الإسلامية، مجلة كلية الآداب والتربية، جامعة الكويت، العدد ١٥، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

٩- محمد باقر الحسينى، الأخطاء النحوية والإملائية على النقود العربية والإسلامية، مجلة الرابطة، العدد٥، ١٩٧٥م، ص١١١- ١١٨.

١٠- محمد حمزة إسماعيل الحداد، المجمل فى الآثار والحضارة الإسلامية القاهرة، ٢٠٠٦م.

١١- محمد مصطفى نجيب، الضرب بالقلعة، المجلة العلمية لكلية الآداب- جامعة المنيا، رمضان ١٤١٧هـ/يناير ١٩٩٧.

١٢- نايف جورج القسوس، نميات نحاسية أموية جديدة من مجموعة خاصة مساهمة فى إعادة نظر فى نميات بلاد الشام، منشورات البنك الأهلى الأردنى ٢٠٠٤م.

١٣- نايف بن عبد الله الشرعان، التعدين وسك النقود فى الحجاز ونجدو تهامه فى العصرين الأموى والعباسى، الرياض، ١٤٢٨/ ٢٠٠٧م.

١٤- ناهض عبد الرازق، دفتر القيسى، النقود فى العراق، بغداد ٢٠٠٢م، المسكوكات الهجينية ظاهرة غريبة فى المسكوكات العباسية المضروبة بمدينة السلام، مجلة المسكوكات العدد، ٨- +٩، ١٩٧٧م- ١٩٧٨م.

دار العلوم

من الكلمات الأثيرة لدى أبناء دار العلوم تلك الكلمة الخالدة التى حفظوها عن الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، والتى قالها سنة ١٣٢٢هـ - ١٩٠٤م:

" إن باحثًا مدققًا إذا أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا وجدها تموت فى كل مكان، ووجدها تحيا فى دار العلوم".

هذه الشهادة الشهيرة صادرة من عالم جليل، وقف حياته على خدمة الإسلام، وعرف عنه صدق القول، وجودة الرأى، وشجاعة القلب، وسلامة التقدير، ولهذا كان لشهادته الأثر الأكبر فى نفوس الراغبين فى العلم.

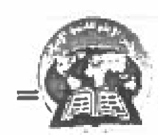
أولاً: بداية دار العلوم:

مع بداية القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادى بدأت مصر الحديثة خطاها على طريق التقدم، وأدركت منذ البداية أن من أهم وسائلها إليه إصلاح التعليم، والارتقاء باللغة، وتمثل ذلك فى إنشاء مطبعة بولاق أولاً، لتيسير الكتاب المطبوع، وبعث التراث المخطوط، وتلا إنشاء هذه المطبعة إنشاء مؤسستين مهمتين ولدتا معًا، هما: دار الكتب التى تقدم الكتاب، ودار العلوم التى تكتب الكتاب، وتحققه، وتدرسه، مما أكد العلاقة الوثقى بين المعرفة والكتاب.

وبدأت (دار العلوم) فى صورة دروس فى " سراى الجماميز" فى اليوم الخامس عشر من شهر صفر سنة ١٢٨٨هـ، الموافق ٦ مايو سنة ١٨٧١م، وقد تنوعت هذه المحاضرات ما بين التفسير، والحديث.وفقه أبى حنيفة النعمان، وتاريخ الأدب العربى.

ويبدو أن مؤسس دار العلوم " على مبارك باشا" لم يقنع بهذا النوع من الثقافة العالية المترفة، فطلب من الشيخ العباسى (شيخ الأزهر) تعيين بعض العلماء الأعلام، وانتخاب عشرة من طلاب الأزهر الأكفاء؛ لكى يحضروا بعض دروس "دار العلوم" العربية والشرعية، ويكون لهم الحق فى حضور الدروس الأخرى كالفلك والطبيعة والرياضيات.

ثم سعى على مبارك باشا، أبو التعليم فى مصر، إلى أن تصبح دار العلوم مدرسة مستقلة، تُعدّ طبقة ممتازة من مدرسى اللغة العربية، فصدر مرسوم



إنشائها فى رجب ١٢٨٩هـ / سبتمبر ١٨٧٢م، على أن تشمل مواد الدراسة بها تفسير القرآن الكريم، والفقه، والعلوم الأدبية، والنحو، والصرف، والعروض، والبلاغة، والإنشاء، والإملاء، والتاريخ العام، والجغرافيا، والحساب، والهندسة، والكيمياء؛ ولذا سميت هذه المنشأة " دار العلوم" .

وفى سنة ١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م رأى المرحوم على مبارك باشا أن دار العلوم قد أتت بخير الثمرات نحو ترقية التعليم، فقرر ألا تقتصر دار العلوم على أن تقوم بتخريج معلميها للمدارس الابتدائية، بل لتخريج طلبة يصلحون لوظائف القضاء، والإفتاء، والنيابة بالمحاكم الشرعية.

وتم صدور أول لائحة رسمية لدار العلوم عام ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م، ومن بنودها ألا يزيد سن المتقدم عن خمسة وعشرين، عامًا ويتم تحديد السن بتقديم شهادة الميلاد، أو مستند رسمى معادل لها، كما جاء فى المادة الرابعة عشرة من اللائحة ذاتها، ثم أضافت اللائحة شرطًا آخر، وهو: يجب على الأب، أو من ينوب عنه فى القاهرة، التعهد بملاحظة الطالب خارج المدرسة وأن يخطرها فى حال غيابه، موضحًا لها الأسباب، وتاريخ عودته إليها.

كما نصت اللائحة على اختبارات الدخول لدار العلوم التى تبدأ بتقديم طلب الالتحاق، مصحوبًا بالمستندات الدالة على سنه وشهادة تفيد حسن السير والسلوك، وبعدها اختبار الطالب شفويًا وتحريريًا أمام لجنة من المتحنين من أساتذة الدار برياسة ناظرها، وكان الامتحان يتم على النحو التالى:

١ـ حفظ القرآن الكريم تلاوة وتجويدًا.

٢ـ حفظ ألفية ابن مالك، مع تحليل نص منها، وبيان ما يتضمنه من قواعد.

٣ـ اختبار فى علوم الشريعة.

٤ـ قراءة فى نص أدبى وتحليله لغويًا.

ثانيًا: دار العلوم فى القرن العشرين:

تطورت دار العلوم فى بداية القرن العشرين، حتى أصبحت إحدى المدارس العالية، واستقرت فى حى المنيرة منذ سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م بعد رحلة استمرت ثلاثين عامًا، بين حى " الجماميز" و "الناصرية " موضع المدرسة السنية الثانوية الآن.

وكانت " دار العلوم" طيلة هذه المرحلة أشبه بالجامعة الحرة التى تفتح أبوابها لكل طارق، ولم يكن فى قانون

الكلية ما يحجب أحدًا من أبناء الأمة عن شهود تلك المحاضرات، أو الإفادة مما يلقيه الأساتذة فى شتى فروع المعرفة. وقد يأخذك العجب إذا عرفت أن مؤسس الدار كان من شهود تلك المحاضرات، ولم يمنعه المنصب والجاه والثراء من جلوسه جنبًا إلى جنب مع طلبة العلم آنذاك.

وفى أواخر عام ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠م خطت وزارة المعارف العمومية عدة خطوات أسهمت فى تغيير القبول لطلاب دار العلوم:

الأولى: أن تقبل دار العلوم الطلبة الذين أتموا الدراسة فى القسم الأدبى فى مدرسة القضاء الشرعى ضمن طلاب السنة الأولى فى دار العلوم.

الثانية: أن تنشىء دار العلوم مدرسة إعدادية خاصة بها حملت اسم " تجهيزية دار العلوم " لها متطلبات قبول خاصة بها، يدرس الطلاب فيها إجمالا مناهج فى مستوى السنة الأولى والثانية فى القسم الأدبى بالمدارس الثانوية، ولكن هذه التجهيزية ألغيت فى عام ١٣٤٨هـ / ١٩٢٩م بعد شكوى طلاب الأزهر بعد أن صار لزامًا عليهم أن يلتحقوا بدراسات خاصة تمكنهم من اجتياز امتحان القبول فى دار العلوم.

وبعد أن تأسست الجامعة المصرية الأولى سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٨م درَّس فيها خيرة الأساتذة المتخرجين فى مدرسة دار العلوم، وأغلبهم درَّس العلوم العربية وآدابها فى كلية الآداب، وأساتذة الشريعة الإسلامية بدار العلوم درَّسوا فى كلية الحقوق، ومن هؤلاء الأساتذة محمد الخضرى، وأحمد ضيف، وعلى العنانى، وأحمد الإسكندرى، وأحمد أبو الفتوح، ومصطفى السقا، وعلى عبد الواحد وافى، وأبو العلا عفيفى، وآخرون شاركوا فى إرساء دعائم الحياة الجامعية فى مصر محاضرة وتأليفًا، وتدريبًا.

وكان من حظ دار العلوم أن أبناءها لم تقتصر خدماتهم التعليمية على جامعات مصر وحدها، وإنما تجاوزتها إلى جامعات أوروبا، وفى مقدمة هؤلاء الأساتذة حسن توفيق العدل، الذى كان أستاذًا بالمدرسة الشرقية فى برلين، ثم أستاذًا فى جامعة كمبردج، وتبعه محمد أحمد جاد المولى الذى كان أستاذًا بمدرسة اللغات الشرقية بلندن، ومن المعاصرين الأستاذ الدكتور محمد مهدى علام الذى كان أستاذًا بجامعة مانشستر.



ثالثًا: علاقة دار العلوم بالأزهر:

يذكر التاريخ أن مدرسة دار العلوم شهدت منذ نشأتها علاقة وطيدة بينها وبين الأزهر فيما يتم تقديمه من مناهج، فقد كانت دار العلوم بعد افتتاحها مدرسة مستقلة، يتلقى فيها طلاب الأزهر العلوم الكونية التى لا تتيسر لهم دراستها بالأزهر الشريف، حتى لا تكون غريبة عليهم، ويزول اعتقادهم بكفر العالمين بها ويزدادوا بها نورًا على نور.

وفى عام ١٣٣٩هـ / ١٩٢٠ أقدمت دار العلوم على كسر علاقتها السابقة بالأزهر، فأنشأت تجهيزية دار العلوم، كمعهد خاص بها يغذيها بالطلاب وكان ذلك إيذانًا بأن دار العلوم فكت ارتباطها بالأزهر.

وجاء رد فعل الأزهر قويًا، فواجه التحدى الذى أصبحت تمثله له دار العلوم، فاهتم بتطوير مناهجه حتى تناسب الطلبه الذين يرغبون فى دار العلوم وبذلك تلافى الأزهر الهوة السحيقة، والبون الشاسع بينه وبين دار العلوم.

ومن باب الإنصاف أن نقول: إن المنافسة بين الأزهر ودار العلوم خدمت الطرفين، فدار العلوم ميزت نفسها بمناهجها عن المدارس العليا الأخرى لإعداد المعلمين، وطورت نفسها فى إعداد مدرس اللغة العربية والمواد الأخرى، واستمرت فى علاقتها المباشرة المتجددة بالأزهر فى قبول حملة الشهادة الثانوية الأزهرية.

والأزهر أفاد من هذه المنافسة مع دار العلوم حين أعاد التأكيد على مكانته كمؤسسة دينية، تعّد أبناءها للوظائف الدينية، ولزم ذلك إعادة هيكلة التعليم الدينى الأزهرى فى مصر، ليقترب من تعليم المدارس الحكومية العامة آنذاك.

ولنتأمل ما قاله الشيخ " طنطاوى جوهرى" بعد أن درس فى الأزهر والتحق بدار العلوم: " اتصلت بدار العلوم فدرست فيها الفلك الحديث بعد ما درست القديم فى الفلسفة، هنالك دهشت أعظم الدهش، وقلت فى نفسى: هذه فرصة سانحة، فهاهم أولاء علماء قديمًا وحديثًا نظروا فيما كنت حائرًا فيه فى حقلنا".

وهكذا كان مجتمع دار العلوم العريض منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادى فى أفضل عطاءاته العلمية فى خدمة اللغة العربية والنهوض بها، مما جعل الشيخ الأزهرى " محمد عبده" يشهد لدار العلوم بشهادته الشهيرة.

رابعًا: حياة دار العلوم الجامعية:

نجحت دار العلوم فيما كان ينبغى أن

تنجح فيه من تجديد علوم اللغة العربية وإصلاحها، والمواءمة بينها وبين العلوم الحديثة، وكان لأبناء دار العلوم حظ موفور فى مجال الإبداع الأدبى، أذكر منهم محمد عبد المطلب، وعلى الجارم، ومحمود غنيم، وعلى الجندى، ومحمود حسن إسماعيل، والعوضى الوكيل، وطاهر أبو فاشا، وآخرين كثيرين نضرب بهم المثل، ولا نريد بهم الإحصاء أو العد.

كما شهدت دار العلوم فى منتصف القرن العشرين نهضة علمية كبرى، حين زادت نسبة خريجى الجامعات الأوروبية بين أساتذتها بعد أن صارت كلية جامعية تتبع جامعة القاهرة، تتخصص فى الدراسات العربية والإسلامية، واحتفظت بكيانها وطابعها الإسلامى الخاص، وباسمها التاريخى " دار العلوم" .

ومن المعلوم أن دار العلوم التى صارت كلية جامعية منحت درجة الليسانس لمن أتم الدراسة بالسنة الرابعة فى عام ١٣٦٥- ١٣٦٦هـ / ١٩٤٥- ١٩٤٦م بعد أن صدر القرار الوزارى بضمها إلى الجامعة فى ٢٤ إبريل سنة ١٩٤٦م.

وفى عام ١٣٧٠هـ / ١٩٥٠م صدر المرسوم الملكى بوضع لائحة جديدة خاصة بالدرجات العلمية التى تمنحها الكلية على النحو التالى:

١- درجة الليسانس فى اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية.

٢- درجة الليسانس الممتازة فى اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية.

٣- درجة الماجستير فى اللغة وآدابها والدراسات الإسلامية.

٤- درجة الدكتوراه فى اللغة العربية وآدابها والدراسات الإسلامية.

وتم التعديل فى مناهج الكلية الجامعية، إذ تمّ الاستغناء عن مواد الرياضة والعلوم والرسم، وأنشىء بها ثلاث شعب على النحو التالى:

الأولى: شعبة الشريعة الإسلامية:

وتركز على دراسة التفسير، والحديث، والتوحيد، وأصول الفقه وتاريخ التشريع والأحكام الشرعية، وخاصة ما يتصل اتصالا وثيقًا بالحياة، كالوصية، والوقف، والميراث.

الثانية: شعبة الفلسفة الإسلامية:

لم تكن الفلسفة جديدة فى دار العلوم، وإنما الذى جدّ فيها هو دراسة تاريخ الفلسفة الإسلامية، وأشهر الباحثين فيها، ودراسة طرق البحث والمناظرة، ومناهج البحث فى العلوم.



الثالثة: شعبة التاريخ الإسلامى:

يدرس بها تاريخ العرب القديم، وتاريخ الإسلام، وتاريخ مصر فى العصور الوسطى، وتاريخ الشرق العربى فى العصر الحديث، وطرق البحث التاريخى.

وقد ثبت أن هذه الشعب الثلاث حققت أغراضها، وقام الطلبة الدراعمة بالبحوث المختلفة فى النواحى التاريخية، والفلسفية، والدينية، والفوا جمعيات للبحث والتأليف، كما نظموا مناظرات من وقت لآخر فى أحد موضوعات هذه الشعب.

وأصبحت دار العلوم تمثل فتحًا مبينًا فى دراسة اللغة العربية والدراسات الإسلامية، بحيث ظهر كبار العلماء الدراعمة الذين تخصصوا فى تجديد علوم اللغة العربية وآدابها، من خلال التركيز على النصوص والتدريب العملى فى مجال المطالعة والتذوق الأدبى.

كما خطت الكلية خطوات واسعة فى الدراسات الإسلامية فلم تغفل جهود المستشرقين، وإنما أخذت نصيبًا منها؛ لتلائم بين جهود علماء مصر الذين كان لهم الفضل والريادة فى البلاد العربية وبين جهود الأمم الأوروبية.

ولقد ظهرت عبقرية الدار فى أروع صورها فى عدم تبنى أحد المذاهب الدينية، أو العمل على نشره، وإقصاء ما سواه من المذاهب، ولم نجد من علماء الدار من احتمى بأصحاب الجاه والسلطان وتبنى مذهبًا معينًا لهم، يُذكى نار الفتن فى صفوف الأمة الإسلامية.

هذه عجالة لا تفى ببيان تاريخ دار العلوم، وإظهار فضائل أبنائها، وهى عديدة ومتنوعة، وحسبى أن أقول: إن المتابعين للأحاديث الثقافية بالإذاعة المصرية فى الستينيات سعدوا بأحاديث أساتذة دار العلوم أمثال: محمد غنيمى هلال، ومحمد مهدى علام، وإبراهيم سلامة، ومحمد خلف الله أحمد، وعبد الله شحاته، وأحمد شلبى، وغيرهم كثير، تمتعنا بسماع أصواتهم فى الإذاعة وقرأنا لهم أو عنهم فى الصحف العربية.

والتقينا فى السبعينيات فى مدرجات التدريس بدار العلوم (المنيرة) بصفوة من الأساتذة فى مختلف مجالات المعرفة، نذكر منهم محمود قاسم، ومحمد كمال جعفر، فى الفلسفة والمنطق، ومحمد ضياء الدين الريس، وأحمد شلبى، ومحمد حلمى أحمد فى التاريخ

الإسلامى، قدموا لنا مفهومًا جديدًا للتاريخ غير الذى ألفناه من قبل، درسوا لنا النظم السياسية والاقتصادية، والتقاء الحضارة الإسلامية مع الحضارات الأخرى.

ولا يتسع المقام للحديث عن علماء الشريعة الذين قدموا لنا طرائق متطورة فى دراسة الفقه، والتفسير، والحديث، وأصول الفقه، نذكر منهم الأساتذة الدراعمة على حسب الله، ومحمد الزفزاف، ومحمد بلتاجى حسن، وغيرهم كثيرون .

أما علماء اللغة العربية فحدث عنهم ولا حرج، تتلمذنا على يد أساتذة مثل عباس حسن ، وإبراهيم أنيس، وعبد الرحمن أيوب، وتمام حسان، وبدوى طبانة، وأحمد هيكل، ومحمد عيد وغيرهم ممن يواصلون عطاءهم العلمى الغزير. ومعظم هؤلاء ابتعثوا إلى أوروبا، وعادوا إلى مصر يحملون راية الدراسات اللغوية فى مصر والعالم العربى.

ولا يقتصر دور دار العلوم على إثراء الحياة الثقافية فى مصر، وإنما كان لها دورها البارز على امتداد العالم العربى والإسلامى كله، فهى كعبة الوافدين من البلاد الإسلامية، يأتون إليها فى بعثات رسمية، أو على نفقتهم الخاصة، وكثير من هؤلاء بلغوا فى بلادهم مكانة عالية؛ تولوا وزارات التربية والتعليم أو الثقافة، وقاموا بنشاط ملحوظ فى تثبيت معالم الثقافة العربية والإسلامية فى أوطانهم، وحملوا اسم دار العلوم معهم، فصار يطلق الآن على أكثر من مؤسسة تعليمية فى الهند وباكستان وإيران واليمن والمملكة العربية السعودية.

واعترفا بسلامة مناهج دار العلوم العريقة فى تكوين طلابها عربيًا وإسلاميًا وجدت لها فروع فى المنيا والفيوم، تحمل الاسم وتسير فى خططها ومقرراتها وفق ما درسه أعضاء هيئة التدريس فى دار العلوم الأم التى مقرها فى جامعة القاهرة بجوار كلية الإعلام وكلية الآثار منذ ١٩٨٠. ومن الطرافة أن هذه المؤسسة التعليمية التى يذكر فيها اسم الله، وكتاب الله فى كل محاضراتها شاع اسمها على ألسنة طلاب الجامعة كافة، فأصبح من فى الجامعة يقول: دخلت من مدخل دار العلوم ، باب (مترو دار العلوم)، بوابة دار العلوم. ولم يكن القائمون على نقلها فى هذا المكان يدركون أنها ستستمر تحتفظ بكيانها وطابعها الإسلامى وباسمها التاريخى



الذى يعرفه العامة والخاصة، بعد أن جاء مكانها الجديد فى أطراف الجامعة كآخر الكليات التى يمكن أن يصل إليها مَنْ دخل من الباب الرئيسى للجامعة.

هذه دار العلوم العظيمة التى حرصت على تأكيد الهوية الإسلامية والعربية، وتأصيل التراث الإسلامى، ومحاولة الإبقاء والمحافظة عليه، وربطه بالتكوين الثقافى المعاصر. وحسب أبناء هذه الدار أنهم عرفوا الثقافة القديمة بحواشيها، والثقافة الحديثة ومزجوا بين الثقافتين مزجًا فريدًا، فوصلوا الماضى بالحاضر، والشرق بالغرب فى نظام محكم وأسلوب عربى متين، حتى أصبحت إحدى مفاخر جامعة القاهرة، وواسطة العقد بين كلياتها المتعددة، وهى تؤدى رسالتها الخالدة فى خدمة لغة القرآن وشريعة الإسلام.

أ.د / محمد صالح توفيق

مصادر ومراجع للاستزادة :

١ـ مقال : الأصالة والحداثة فى الدراسات العربية والإسلامية : دار العلوم نموذجًا . د. محمد صالح توفيق، مجلة كلية دار العلوم، العدد ٥٨، سنة ٢٠١١م.
٢ـ مقال : الثقافة واللغة والتعليم فى مصر الحديثة (١٨٧٢هـ ـ ١٩٢٣م) ودور دار العلوم فى تحديثها. د لوير أروين، ترجمة الدكتور الطاهر أحمد مكى . صحيفة دار العلوم، العدد ٣٩، سنة ٢٠١١م.
٣. تقويم دار العلوم ، الجزء الأول. أ . محمد عبد الجواد ١٩٤٩م.
٤. دراسة أدب اللغة العربية بمصر فى النصف الأول من القرن العشرين. د. أحمد الشايب، ط . ثانية ١٩٦٦م.
٥. الشيخ طنطاوى جوهرى: دراسة ونصوص. د. عبد العزيز جادو. دار المعارف، القاهرة ١٩٨٠م
٦. الكتاب التذكارى للاحتفال بالعيد المئوى لكلية دار العلوم. نشر سنة ١٩٩٥م.

دار العهد

العهد لغة : هو الأمان، وفى الاصطلاح: الالتزام بما يتم الاتفاق عليه بين المسلمين وغير المسلمين من شروط توجب الوفاء بها.

ودار العهد هى دار المعاهدة ودار الصلح ودار الموادعة. وهى كل بلد صالح الإمام عليها أو صالح عليها من ينوب عنه على أن يترك أهلها القتال، مقابل أن يؤدوا الخراج عن أراضيهم وتدفع الجزية عن رءوسهم.

ويمكن أن تلحق دار العهد بدار الإسلام، لأن أهلها تحولوا بعد عقد الصلح إلى أهل ذمة، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، إعمالاً لنص القرآن الكريم : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة: ٤).

كما يرى بعض الفقهاء دخول دار العهد فى عموم دار الإسلام، استنادًا إلى أن المسلمين حين عقدوا تلك العهود كانوا أهل قوة ومنعة [١].

ويعزز هذا الرأى كل من الإمام الشافعى فى (كتاب الأم) ومحمد بن الحسن الشيبانى فى (كتاب السير الكبير) . أمَّا الشافعى فيقول : " إذا غزا الإمام قومًا فلم يظهر عليهم حتى عرضوا عليه الصلح على شىء من أرضهم أو شىء يقررونه عن أرضهم منه ما هو أكثر من الجزية ، أو مثل الجزية، فإن كانوا ممن تؤخذ منهم الجزية، وأعطوه ذلك على أن يجرى عليهم الحكم فعليه أن يقبله منهم وإذا قبله كتب بينه وبينهم كتابًا واضحًا يعمل به من جاء من بعده ، وهذه الأرض مملوكة لأهلها الذين صالحوا عليها" [٢].

أما الشيبانى فيقول : المعتبر فى حكم الدار (دار العهد) السلطان والمنعة، فإن كان الحكم حكم الموادعين فبظهورهم على الأخرى كانت الدار دار موادعة[٣].

وتتمتع دار العهد التى لم يظهر عليها المسلمون بالحرية فى السيادة على أراضيها ، وممارسة السلطة فيها بشكل كامل دون المساس بمصالح المسلمين .

ويرى بعض الفقهاء أن دار العهد هى

بلاد لا تخضع للمسلمين، ولا تطبق أحكام الإسلام، ولا تعارض الدعوة الإسلامية، لها سيادتها على أراضيها وإن لم تكن تامة فى بعض الأحيان.

ويتفق الطرفان على العهد (الصلح) وَفْقَ شروط معينة، تتفاوت قوةً وضعفًا، كما ترتبط بمَدَى حاجة دار العهد إلى مؤازرة الدولة الإسلامية.

وقد يشترط دفع مقدار معين من المال. وفى هذا يرى الإمام البخارى أن دار العهد هى بلاد عقد أهلها صلحا مع المسلمين على شىء يؤدونه عن أرضهم ويسمى خراجًا، دون أن تؤخذ منهم الجزية، وتلك الدار لم يستول عليها المسلمون [٤].

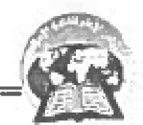
إن علاقة الدولة الإسلامية (الدول الإسلامية) أو دار الإسلام بدار العهد يحكمها ابتداء عقد يحترمه الطرفان، وقد يكون العقد عند بدء القتال بين الدارين ، وفى هذه الحالة يخير المسلمون أهل دار العهد بين الإسلام أو العهد أو القتال .

ويرى بعض المعاصرين أن دار العهد هى حقيقة اقتضاها الواقع العملى وفرضتها الأحوال المعاشة وحتمتها العلاقات بين الأمم، ولها عقد محترم يلتزم الطرفان بتنفيذه.

وهناك تطبيقات كثيرة شهدتها الدولة الإسلامية منذ بدايتها لعهود قامت بينها وبين غيرها من البلاد؛ فقد شهد عصر النبوة، وعصر الخلفاء الراشدين أنواعًا مختلفة من تلك العهود منها صلح الحديبية ومنها ما صالح عليه الصحابى الجليل أبو عبيدة بن الجراح أهل حمص مقابل مال يدفعونه مقابل حمايتهم من البيزنطيين، ولكن حين عجز جيش المسلمين عن أداء ما اتفق عليه الطرفان رد عليهم مالهم، وتلك قاعدة إسلامية أَرساها الإسلام مؤكدًا على ضرورة احترام العقود والمواثيق والالتزام بالوفاء بها .

وبموجب العهد يقدم إمام المسلمين لأهل العهد الأمن والحماية إذا انتقلوا إلى دار الإسلام، كما يحفظ لهم أموالهم وتجارتهم ومواريثهم وأسراهم وسباياهم، كما يتمتعون بموجب هذا العهد بالدفاع عنهم إذا تعرضوا لغارة العدو.

وفى هذا السياق يجب أن نؤكد أن واقعنا المعاصر يتطلب النظر فى تلك القيم والمبادئ الإسلامية التى أسس لها المسلمون وفق ما مر بهم من أحداث وملابسات ومواقف أدى بهم اجتهادهم إلى الوصول إليها معتمدين فى ذلك على



الكتاب والسنة.

إن الواقع المعاش يحتم على دول العالم الإسلامى ضرورة التعاون سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا وعسكريًا فى إطار تفعيل تلك الأحكام واحترام العهود والمواثيق كما طبقها المسلمون مع غير المسلمين ممثلاً فى دار العهد.

لقد سبقت المبادئ الإسلامية التى تنظم العلاقات الدولية التى تقوم على الاحترام المتبادل بين الدول وتؤكد الالتزام بالعهود والمواثيق- سبقت ما نراه الآن بقرون عدة.

وتأسيسًا على ذلك فإن أحكام دار العهد أو دار الصلح أو دار الموادعة كما طبقها المسلمون الأوائل تقدم للعالم نموذجًا جديرًا بالدراسة، كما تُقدِّم رؤية للساسة وصناع القرار والقائمين على المنظمات الدولية كى يفهموا أبعادها من أجل عالم يعمه الأمن والسلام.

أ.د/فتحية النبراوى

الهوامش:

(١) أبو زهرة، العلاقات الدولية، ص ٥٩.
(٢) الأم ج ٤، ص ١٩٣.
(٣) أبو زهرة العلاقات: ص ٦٠.
(٤) كتاب الجزية والموادعة ج ٤، ص ١١٧.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- الشافعى: الأم ج ٤.
٢- البخارى: صحيح البخارى ج ٣.
٣- الماوردى: الأحكام السلطانية.
٤- محمد أبو زهرة: العلاقات الدولية.

دَارُ الكُتُب المصرية

زَخَرتْ مصر منذ العَهْد الفاطمى بخزائن كُتُب مهمة كان من أهمها "خِزانة كُتُب القَصْر الفاطمى" التى كانت تحتوى على أكثر من ستمائة ألف مجلد، ووَصَفها المؤرّخ الشيعى يحيى بن أبى طى، المتوفّى نحو سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م، بأنَّها "من عَجائِب الدُّنْيا ويُقال: إنَّه لم يكن فى جميع بلاد الإسْلام دارُ كُتُبٍ أعْظَمُ من التى كانت فى القاهرة فى القصر". وتَفَرَّقَت مُقْتنيات هذه الخِزانَة الكبيرة بسُقُوط الفاطميين واسْتيلاء صلاح الدِّين يُوسُف بن أيُّوب على مقاليد السُّلْطَة فى مصر سنة ٥٦٧هـ/١٠٧٢م، فأمر ببيعها وخَصَّصَ لذلك يومين فى الأسبوع، واستمرَّ ذلك لمدَّة عشر سنوات. وقام القاضى الفاضِل، كاتب صلاح الدِّين، بانتقاء مائة ألف كتابٍ منها قبل عملية البَيْع، جعلها فى مدرسته التى أنْشأها فى دَرْبِ مُلُوخْيا من القاهرة (الجمالية الآن).

ومع الانْقلاب السُّنِّى الذى قادَهُ صلاحُ الدِّين استمرارًا لما بَدأه قبل ذلك بقرنٍ السَّلاجِقةُ فى بغداد ثم النُّوريون فى دِمَشْق، زَخَرتْ مصر فى العَصر الأيُّوبى ثم على طُول العَصْر المملوكى بخَزَائِن كُتُبٍ مهمَّة اشتملَت عليها "المدارِسُ"، وهى المؤسَّسَة السُّنِّيَّة التعليمية الجديدة التى بدأها فى بغداد نِظامُ المُلْك وَزير السَّلاجِقَة الشَّهير.

وحَرَصَ واقِفو خزائن كتب المدارس على أنْ يضعوا لها من الشُّرُوط والأحْكام ما يصونُ ذخائرها من الضَّياع، وضَمَّنُوا وقفياتهم شُرُوطًا دقيقةً كان من أهمّها حَظْر إخْراج الكُتُب منها.

ولم تَقف عنايتُهم عند هذه الشُّرُوط بل وَضَعُوا للمُنْتفعين بها والمتردِّدين عليها حُدودًا وآدابًا يلتزمونها فى اسْتِعارَة الكتب والاطِّلاع عليها والاسْتِنْساخ منها وإعارتها، وغير ذلك من الأمُور التى تُعَدُّ أنْموذَجًا رَفيعًا لما يُعْرَف الآن بـ"الخِدْمَة المكتبية".

ومع تَبَدُّل وَضْع مصر بعد الفَتْح العُثْمانى لمصر والشَّام، سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م، أخْرَجَ العثمانيون من مصر والشَّام وسائِر البلاد العربية التى فتحوها مجموعات ضخمة من المصاحِف النَّادرَة والمخطوطات المهمَّة كانت نَواة مجموعات المخطوطات العربية الضَّخْمَة

التى تحتفظُ بها الآن خَزائِنُ الكتب الوَقْفِية فى استانبول والأناضول والتى تزيد على ثلاثمائة ألْف مخطوط.

وخَرَجَت من مصر كذلك طوال العَصْر العثمانى - نتيجة لتقهقُر مكانتها من دَوْلَة مستقلة إلى ولاية فى الدَّوْلَة العثمانية وبسبب تَرَدُّد العديد من الرَّحَّالة والمغامرين وعن طريق قناصل الدُّول الغربية- الكثيرُ من الممتلكات الثَّقافية (مخطوطات ـ قطع أثرية ـ تُحَف ...) بطُرُقٍ غير شَرْعية أقربَ إلى السَّرِقَة والنَّهْب استَقَرَّت فى مكتبات ومتاحِف أوروبا . ومع قُدُوم الحملة الفرنسية إلى مصر عند مُنْقَلَب القرن الثانى عشر الهجرى /الثَّامن عشر للميلاد استولَت كذلك على العديد من المخطوطات النَّادِرَة التى عَرَفَت طريقها إلى المكتبة الوطنية الفرنسية فى باريس.

كان من نتيجة كلّ ذلك وبسبب الجَهْل بقيمة ما تحتفظُ به مصر من مُمْتَلكات ثقافية مع عَدَم وُجُود قوانين وتَشْريعات تحمى هذه الممتلكات وتَمنع من الاتّجار فيها أو نَقْلها، أنْ تَسَرَّبَ جزءٌ كبيرٌ منها وعَرَف طريقه إلى دور الكتب الأوروبية والأمريكية.

تَنَبَّه إلى خُطُورَة ذلك واحدٌ من أبناء مصر المُستَنِيرين هو (على باشا مُبارَك) ناظِر المعارف وناظر الأشْغال فى عهد الخديوى المستنير إسْماعيل باشا، فقد أقام فى فرنسا فترةً غير قصيرة ـ ابتداءً من عام ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م ـ ضمن بَعْثَة الأنْجال التى أوفِدَت لدراسة العلوم العسكرية وزامَلَ فيها إسْماعيل باشا (الخديوى فيما بعد)، وشاهَدَ عن كَثَب المكتبة الوطنية الفرنسية وأعْجِبَ بها إعجابًا كبيرًا. وبعد عودته إلى القاهرة واعْتلاء إسماعيل باشا سُدّة الحكم ومَنْحِه لَقَب "خِديوى" اقترح عليه على مُبارَك ـ الذى أصبح ناظرًا للمعارف وللأشْغال ـ إنْشَاءَ دار كتب على نمط دور الكتب الوطنية فى أوروبا واسْتَصْدَرَ منه فَرَمانًا فى ٢٠ ذى الحجة سنة ١٢٨٦هـ/٢٣ مارس سنة ١٨٧٠م أسْنَدَ إليه فيه الخديوى "جَمْعَ المخطوطات النَّفيسَة التى لم تصل إليها يَدُ التَّبْديد ممَّا حَبَسَه السَّلاطينُ والأمَراءُ والعلماءُ والمؤلِّفون على المساجد والأضْرِحَة ومَعاهد العِلْم ليكون من مجموع هذا الشَّتات نَواةٌ لمكتبةٍ عامَّة" ، ضَمَّت فى أوّل عَهْدها نحو عشرين ألْفًا من المجلَّدات والمراجع ومجاميع الخرائط ، هى كلّ ما أمكن إنْقاذُه فى هذا الوَقْت من الكتب

المخطوطة المحفوظة فى خزائن المدارس والمساجد والزَّوايا والتَّكايا وأوائل المطبوعات المحفوظة فى "المكتبة الأهلية القديمة" ومكتبتى وزارتى الأشغال والمعارف العمومية، إضافةً إلى ما قد يرد إليها من الكتب من أى نوع وبأيَّة لُغَة ومن أيَّة جهة.

يقول على مُبارَك فى "الخِطَط التَّوْفيقية": "ثم ظهر لى أنْ أجعل كتبخانةً خديوية داخل الدِّيار المصرية أضاهى بها كتبخانة مدينة باريز، فاستأذنت الخديوى إسماعيل باشا فى ذلك، فأذن لى. فشَرَعْتُ فى بناء الكتبخانة الخديوية هناك أيضًا (أى فى سراى مصطفى فاضل باشا بدَرْب الجماميز). وبعد فراغها جَمَعْتُ فيها ما تَشَتَّت من الكتب التى كانت بجهات الأوْقاف زيادةً على ما كانت مُشتراةً من الكتب العربية والإفرنجية وغيرها، وجَعَلْتُ لها ناظرًا، ورَتَّبْتُ لها خَدَمةً ومعاونين، وعملت لها قانونًا لضَبْطها وعَدَم ضياع كتبها. فجاءت بعَوْن الله من أنْفَع التَّجْديدات التى حَدَثَت فى عهد الخديوى إسماعيل باشا وجُعِلَ بها النَّفْعُ العام؛ وللخاص والعام"[1].

كان مقر الكتبخانة الأوّل فى الطابق الأرضى بسراى الأمير مصطفى فاضل باشا شقيق الخديوى إسماعيل بدَرب الجماميز بجوار "ديوان المدارس" وأتيح الانْتفاعُ بها لجمهور القُرّاء فى غُرَّة رَجَب سنة ١٢٨٧هـ/٢٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠م. فتعدّ بذلك أوّل وأقدم مكتبة وطنية تنشأ فى الشَّرْق الأوْسط.

ونَظَرًا لعناية الخديوى إسماعيل بأمر الكتبخانة رأى أنْ يشترى لها من ماله الخاصّ بمبلغ ١٣ ألْف ليرة عثمانية مكتبة أخيه مصطفى فاضل باشا بعد وفاته فى استانبول سنة ١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م. ويبلغ حَجْم هذه المكتبة النَّادرة ٣٤٥٨ مجلَّدًا كلّها من نوادر المخطوطات ونفائس الكتب، بينها ٢٤٧٣ مجلَّدًا عربيًا، ١٥٠ مجلَّدًا تركيًا، ٣٣٠ مجلَّدًا فارسيًا. ويُرْمَزُ لرصيد هذه المكتبة فى فهارس دار الكتب العامة بالرمز (م)، من أهمّها نُسْخَةُ "كتاب الرِّسالَةَ" للإمام الشَّافِعى [٤١ أصول فقه م]. ونُسْخَة "بُسْتان سَعْدى" التى كتبها سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٨م الخَطَّاطُ الهروى الشهير سُلْطان على الكاتب، وتتضمّن سِتّ لوحات تحمل توقيع الرَّسَّام الشهير كمال الدِّين بَهْزاد، المتوفَّى سنة ٩٤٣هـ/١٥٣٦م، ومؤرَّخَة بسنتى ٨٩٣، ٨٩٤هـ/١٤٨٨-١٤٨٩م.



أمَّا مجموعةُ الكتبخانة من الكتب الأجنبية فتكوَّنت نَواتُها الأولى من كُتُب الجمعية المصرية The Egyptian Society التى ألَّفها سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م بعضُ الأجانب الذين توفروا على خِدْمَة العلم فى مصر. وقد أضيفَت هذه المجموعة إلى رصيد الكتبخانة سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م، ولها فهرسٌ طُبِعَ فى لندن سنة١٢٧٥هـ/ ١٨٥٨م باسم "فهرس كتبخانة مَدْرَسَة الصَّنائِع" : Catalogue of Workmen's Library, London-Cheffins 1858؛ يشتمل على ١٢٧٢ عُنْوانًا.

واعْتُبِرَت محتوياتُ الكتبخانة مِلْكًا لديوان الأوْقاف. ولأجْل المنفعة العامَّة جُعِل حَقّ ديوان الأوْقاف شاملاً لكل ما يُضاف فيما بعد من المؤلَّفات والأشْياء بقَطْع النَّظَر عن اللُّغَة أو المادَّة أو الجهَة الواردة منها. وأنْعَمَ الخديوى إسماعيل على ديوان الأوقاف ـ الذى كانت تتبعه الدار فى هذا الوقت ـ بعَشْرَة آلاف فَدَّان للإنفاق من ريعها على الكتبخانة[٢].

وعندما ضاقَ بَدْروم سراى مصطفى فاضل بمجموعات الكتبخانة التى أخَذَت فى النُّمُوّ، وخُشى كذلك من تَسَرُّب الرُّطوبة فى الدور الأرضى إلى مُقْتنياتها من الكتب فتفسدها، نُقِلَت المخطوطات سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م إلى السَّلاملك بالسَّراى نفسها فى المكان الذى كان يشغله ديوان المدارس.

وأخَذَت إدارةُ الكتبخانة، ابتداءً من سنة١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م، فى العَمَل فى إيداع جميع الكتب التى تُطْبَع فى مصر، وخاصَّةً فى مطبعة بولاق، بكيفية منتظمة، كما فَتَحَت قَنَوات للتَّبادُل وإقامة علاقات دائمة مع الجمعيات والمكتبات الأوروبية.

وأضِيفَ إلى رَصِيد الكتبخانة، فى مطلع سنة ١٨٩٥م، المخطوطاتُ الموجودةُ فى كتبخانة مطبعة بولاق التى رُبَّما كان بَعْضُها هو الأصول التى قوبِلَت عليها أمَّهاتُ الكتب التى أخرجتها مطبعةُ بولاق ابتداءً من سنة ١٨٤٤م.

ومع تزايدُ رصيد الكتبخانة ونمو مقتنياتها أصدر الخديوى محمد توفيق باشا، سنة١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م، أمرًا بدراسة مشروع لبناء مكانٍ مُتَّسِع يليق بحِفْظِ ما فيها من الذَّخائر الأدبية والعلمية، ولكن هذا المشروع لم يوضع موضع التَّنفيذ حتى طالب الدكتور برنارد موريتز Bernard Moritz، المدير الثَّالث للكتبخانة (١٣١٤-

١٣٣٠هـ/١٨٩٦ـ١٩١١م) فى تقريره الذى رَفَعَه إلى وزارة المعارف فى ٢٤ يولية سنة ١٨٩٧م بضرورة الإسْراع فى بناء مَحَلٍّ جديد للدَّار . خاصَّةً وأنَّ المحلَّ الموجود فيه الكتبخانة لا يمكن وقايته بأيَّة طريقة من الحريق ، كما أنَّه ـ على سعته ـ غير مناسِب لوَضْع الكتبخانة لأنَّه لم يُبْنَ لغَرَض إيجاد كتبخانةٍ فيه ، كما أنَّ دَوْرَه الأوَّل رَطِبٌ جداً ممَّا يُسبِّبُ ضَرَرًا بالِغًا للكتب والمخطوطات[٢].

وفى عام ١٣١٧هـ/١٨٩٩م وَضَعَ الخديوى عَبَّاس حلمى الثَّانى (١٣١٠-١٣٣٣هـ/١٨٩٢ـ١٩١٤م) حَجَر أساس الكتبخانة الخديوية ودار الآثار العربية فى ميدان باب الخَلْق، وخُصِّصَ طابقه الأرضى لـ"دار الآثار العربية" وطابقه الأوَّل وما فوقه لل"كتبخانة الخديوية"، وانْتَقَلَت إليه الدَّارُ فى سنة ١٣٢١هـ/ ١٩٠٣م، وفَتَحَ أبوابَه للمتردِّدين عليها فى أوَّل العام التَّالى . وقد تأثَّرَ تشييدُ المبنى ـ الذى جاء على الطِّراز المملوكى الجديد Neomamelouk الذى كان سائدًا فى هذا العَصْر ـ بنظام المتحف البريطانى الذى كان حتى عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م يحوى كذلك المكتبة الوطنية البريطانية.

كان رَصِيدُ دار الكتب من المخطوطات حتى أوائل أبريل سنة ١٩١٦م تسعة عشر ألف مَخْطوط، بينها ٣٤٥ مخطوطًا موقوفة من محمد محمود الشِّنْقيطى أضيفَت إلى رَصِيد الدَّار بعد وفاته سنة ١٣٢٢هـ/١٩٠٤م ويرمز لها فى فهارس الدَّار بالرَّمْز (ش)، و ٣٤٥٨ مَخْطوطًا تُمَثِّل مجموعة مصطفى فاضل باشا إضافَةً إلى ١٨٩ مُصْحَفًا (منها ٢٨ بالقلم الكوفى) ومخطوطات على باشا مبارَك التى أضيفَت إلى رصيد الدَّار سنة ١٣١٣هـ/ ١٨٩٥م بعد سنتين من وفاته.

وابتداءً من عام ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م أضِيفَ إلى رَصِيد الدَّار مكتباتٌ غنية أثْرَت رَصَيدها من المخطوطات والمطبوعات، هى :

مكتبة قَوَلَة التى أنْشأها محمد على باشا فى مدينة قَوَلَة مَسْقَط رأسه وأضِيفَت إلى الدَّار فى هذا العام وعَدَدُ مجلَّداتها ٣٤٤٠ مجلَّدًا من المخطوطات .

مكتبة الأمير إبراهيم حليم، وعَدَدُ مخطوطاتها ٦٤١ مجلَّدًا .

مكتبة خليل أغا، وعدد مخطوطاتها ٦٨٦ مجلَّدًا .

مكتبة الشيخ الإمام محمد عبده، وعَدَدُ مخطوطاتها ١٠٨ مجلَّدًا.

مكتبة أحمد طلعت بك، (المتوفَّى



سنة ١٣٤٦هـ/١٩٢٧م)، وعَدَدُ مخطوطاتها ٩٥٤٩ مجلَّدًا.

المكتبة التيمورية (التى جَمَعها أحمد تيمور باشا وضُمَّت إلى الدَّار بعد وفاته سنة ١٣٤٨هـ/١٩٣٠م)، وعَدَدُ مخطوطاتها ٨٦٧٣ مجلَّدًا .

المكتبة الزَّكيَّة (التى جَمَعَها شيخ العروبة أحمد زكى باشا ووَقَفَها فى حياته على قُبَّة السُّلْطان الغورى بالغورية، ثم نُقِلَت إلى الدَّار سنة (١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م)، وعَدَدُ مخطوطاتها ١٤٨٢ مجلَّدًا.

مكتبة السَّيِّد أحمد الحُسَيْنى، وعدد مَخْطُوطاتها ٢٤٥ مجلَّدًا.

وتُوجَدُ مكتباتٌ أخرى أقلّ شأنًا ضُمَّت إلى الدَّار وأدْمِجت مُقْتنياتُها فى الرَّصيد العام الذى بَلَغَ عددُ مخطوطاته فى نهاية سنة ١٩٥٤م ٣٨٥٨٣ مُجَلَّدًا، كمكتبات السَّيِّد وَجيه العُمَرى والسَّيِّد عُمَر مكرم والشيخ أحمد أبى خُطْوَة والسَّيِّد على جلال الحُسَيْنى.

وتَمْتَلِكُ الدَّارُ كذلك مجموعةً مهمَّةً من "أوْراق البَرْدى العربية" تَبْلُغ أكثر من ثلاثة آلاف قطعة تشتمل على عُقُود زواج وعقود بيع أو إيجار أو اسْتِبْدال، أو كشُوف وسجلات وحسابات خاصَّة بدفع الضَّرائب؛ وعلى الأخَصّ ضريبة الأرْض (الخراج) . وقد اهتم بدراسة هذه المجموعة المستشرق النمساوى أدولف جروهمان Adolf Grohman نَشَرَ منها فقط فى ستة مجلَّدات٤٤٤ وَرَقَة بين سنتى١٣٥٣- ١٣٩٤هـ/١٩٣٤م، ١٩٧٤م . وكذلك مجموعة من "النُّقُود الإسلامية" تزيد على ٦٥٠٠ قِطْعَة ، صَدَرَ لها فهرس وَصْفِىّ لـ ٢٦٦٠ قطعة وَضَعَه ستانلى لين بول سنة ١٨٩٧م، ثم فهرسُ آخر اشتمل على بقية المجموعة صَدَرَ سنة ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م .

وإضافةً إلى ذلك ضُمَّت إلى الدار بعد سنة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٢م العديدُ من المكتبات التى صُودِرَت من القصور الملكية . وهى تُمَثِّلُ ثَرْوةً ضخمةً من المخطوطات والمطبوعات والدَّوْريات العربية والأجنبية، والكُتُب ذات الحجم الضَّخْم الخاصَّة بأدَب الرحلات والجغرافيا التى طُبِعَت فى أوروبا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر الهجريين/ الثَّامِن عشر والتَّاسع عشر الميلاديين، إضافةً إلى مجموعةٍ نادِرَةٍ من الخَرائِط واللَّوْحات وألْبُومات الصُّوَر والصُّوَر الزَّيْتية .

أ . د / أيمن فؤاد سيد

الهوامش:

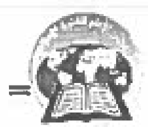
(١) على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة ٣/١٠٠ .

(٢) انظر: كتاب وَقْف العَشْرَة آلاف فَدَّان الموقوفة من قبل المغفور له الخديوى الأسْبَق ، مطبعة ديوان عموم الأوقاف المصرية ١٣١٧هـ (دار الكتب برقم ٥٢١٢ تاريخ)، وكذلك البند ١٤ من أول لائحة للدار .

(٣) موريتز: ترجمة تقرير مرفوع لنظارة المعارف العمومية من جناب ناظر الكتبخانة الخديوية عن حالة الكتبخانة فى سنتى ١٨٩٦م، ١٨٩٧م، القاهرة - المطبعة الأميرية ببولاق ١٨٩٧م ، ١١ .

مراجع للاستزادة:

أيمن فؤاد سيد: دار الكتب المصرية تاريخها و تطورها، القاهرة ١٩٩٦ ، ٢٠٠٧م.



دار النــــدوة

أصل تسمية الندوة: سميت «دار الندوة» من لفظ النَّدىّ والنادى، والمنتدى؛ فالنَّدىُّ مجلس القوم ماداموا مجتمعين فيه، فإذا انفضوا عن مجلسهم فليس بنَدِىّ، وفى الحديث الشريف قول النبى ﷺ: «اللهم اجعلنى فى النَّدىّ الأول، أى مع الملأ الأعلى، وهم الملائكة» والنادى كالنَّدىّ، وهو المجلس يندو إليه أهله، ولا يسمى ناديًا إلا إذا كان أهله فيه، فإن لم يكونوا فليس ناديًا، قال تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ (العنكبوت: ٢٩)، ودار الندوة من ذلك المجلس الذى يندون حوله، أى يذهبون قريبًا ثم يعودون، والنادية فى الإبل هى التى تصرف عن الورد إلى المرعى قريبًا ثم يعاد بها إلى الشرب وهو المندى[١].

تأسيس دار الندوة:

يعود تأسيس دار الندوة إلى قُصَىٍّ بن كلاب الجد الأعلى للنبى ﷺ وبه سميت، فكان يقال لها دار قُصَىّ، وهى أول دار بنيت فى مكة، عقب أن حاز قصى ابن كلاب شرف الولاية على مكة عقب وفاة والد زوجه حُليل بن جزاعة زعيم قبيلة خُزاعة، حيث حاز قصى بعده شرف النظر على مكة كلها، فقطع مكة رباعًا بين قومه، فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكة، ثم بنى دار الندوة للفصل بين الخصومات التى كانت تنشأ بينهم[٢].

دور دار الندوة قبل ظهور الإسلام:

قامت دار الندوة بدور بارز فى حياة قريش قبل ظهور النبى ﷺ: إذْ كانت قريش تعقد أمورها فيها، ولا تفعل فعلاً إلا بها، ولا تُنْكَح امرأة ولا رجل من قريش إلا فى دار الندوة، وما يتشاورون فى أمر إلا فيها، ولا يعقدون لواء الحرب على قوم إلا من خلالها، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا فى هذه الدار، يشق عليها فيها درعها ثم تدرعه، ثم ينطلق بها إلى أهلها، ومن ثم علا شأن قصى بين قومه بسبب أثر داره فى حياتهم.

على أن ثمة ضوابط قد وضعت تنظم أمور دار الندوة؛ فلم يكن يدخلها كل قاصد لها، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصى إلا من بلغ سن الأربعين

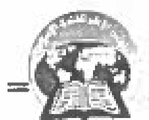
من عمره للمشورة، فدخلها أبو جهل، وهو ابن ثلاثين لجودة رأيه، ودخلها غيره للسبب نفسه، فيظهر من ذلك أن المراد من دخول الدار، هو حضورها للإسهام فى إبداء الرأى، إلا إذا وجدوا فى رجل أصغر سنًا جودة فى الرأى وحِدَّةً فى الذكاء، عندئذ يسمح له بالاشتراك وإبداء الرأى بصورة خاصة فى القضايا والخلافات التى تناقش فى دار الندوة.

وقيل -أيضًا- إنه لم يكن يدخلها أحد من قريش لمشورة حتى يبلغ الأربعين سنة إلا حكيم بن حزام، فإنه دخلها وهو ابن خمس عشرة سنة، وقد كان ولد فى الكعبة، وذلك أن أمة دخلت الكعبة مع نسوة من قريش وهى حامل به، فضربها المخاض فى الكعبة، وأعجلها عن الخروج فوضعته، ومن ثم كان له هذا الإيثار بدخول دار الندوة قبل السن المسموح بها[٢].

دار الندوة عقب وفاة قصى بن كلاب:

كان لقصى بن كلاب من الأولاد الذكور أربعة: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد، وقيل: نوفل، وكان عبد الدار بكْرَه، بينما إخوته قد نالوا من الشرف فى حياة أبيهم ما يكفيهم، ومن هنا عهد لعبد الدار وحده بالإشراف على دار الندوة حتى يتساوى مع إخوته، فقال له: "أما والله يا بنى لألحقنك بالقوم، وإن كانوا قد شرفوا عليك: لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا بيدك أنت ولا يشرب أحد بمكة إلا من سقايتك ولا يأكل أحد من أهل الموسم طعامًا إلا من طعامك، ولا تقطع قريش أمرًا من أمورها إلا فى دارك. فأعطاه داره؛ دار الندوة التى لا تقضى قريش أمرًا من أمورها إلا فيها، كما أعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة، فأصبح عبد الدار بذلك سيدًا على مكة حتى وفاة أبيه قصى.

بيد أنه عقب وفاة قصى اختلف بنوه فى إرثه، واستكثروا ما عهد به إلى أخيهم عبد الدار، غير أنهم لم ينازعوه فيه، وعقب وفاة أولاد قصى بن كلاب، أجمع بنو عبد مناف وبنو أعمامهم أن يأخذوا ما بأيدى بنى عبد الدار بن قصى مما عهد إليهم من الإشراف على الأمور فى مكة ومنها دار الندوة، فتفرقت عند ذلك قريش، وأصبحوا فريقين. فريق يؤيد بنى عبد الدار ويطالب ببقاء إشرافهم



على مكة مما فى أيديهم ومنها دار الندوة، والفريق الآخر يطالب بضرورة مشاركة بنى عبد مناف فى الأمر، وبينما الناس على ذلك تداعوا إلى الصلح بعد أن أوشكت الحرب تدور فيما بينهم. فاتفق القوم على أن يعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة، وتبقى الحجابة واللواء ودار الندوة لبنى عبد الدار كما كانت ففعلوا ورضى كل فريق بما آل إليه، وظل الأمر كذلك حتى أشرقت شمس الإسلام على مختلف بقاع الأرض[٤].

دور دار الندوة عقب ظهور الإسلام:

على أن الدور الأظهر الذى اضطلعت به دار الندوة كان عقب ظهور الإسلام، إذ شهدت اجتماع المشركين من قريش للتشاور فى أمر النبى ﷺ فانتهى بهم الأمر على أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابًا جلدًا؛ ثم يُعطى كل منهم سيفًا صارمًا، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه، كى لا يقدر بنو عبد مناف على حربهم جميعًا والأخذ بالثأر، وضربوا لذلك ميعاد يوم معلوم، ولكن الله تعالى رد كيدهم، وأرسل جبريل ﷺ يخبر نبيه بما دار بين المشركين فى دار الندوة، ويأمره بالهجرة، وينهاه أن ينام فى مضجعه تلك الليلة المعلومة، فنجى الله نبيه وهاجر دون أن يلحقه أذى[٥].

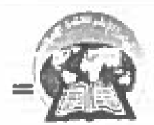
ما آلت إليه دار الندوة عقب ظهور الإسلام:

ظل بنو عبد الدار يتوارثون دار الندوة، حتى باعها عكرمة بن عامر بن هاشم ابن عبد مناف بن عبد الدار من معاوية بن أبى سفيان، فجعلها الأخير دارًا للإمارة بمكة. وفى رواية أخرى، أن حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصى القرشى الأسلمى: وهو ابن أخى خديجة بنت خويلد- هو الذى باعها من معاوية وكانت بيده، باعها بمائة ألف درهم، وكان قد اشتراها من منصور بن عامر بن هاشم بن عبد مناف، وتذكر الروايات: أن معاوية قال لحكيم موجهًا لومه له على ذلك: ((يا حكيم، لقد بعت مكرمة آبائك))، فقال: ذهبت المكارم إلا التقوى، لقد اشتريتها فى الجاهلية بزق خمر، وبعتها بمائة ألف درهم، وإنى أشهدكم الآن أن ثمنها فى سبيل الله، فأيُّنَا المغبون؟.

وكانت دار الندوة لاصقة بالمسجد الحرام، وكان معاوية ينزل فيها إذا حج أو اعتمر، وكذلك نزل فيها خلفاؤه من بعده، وقد دخل بعض هذه الدار فى خلافة عبد الملك بن مروان وابنه الوليد

فى المسجد الحرام، ومن بعد ذلك فى عهد سليمان بن عبد الملك، بينما دخل البعض الآخر فيها فى عهد أبى جعفر المنصور فى المسجد الحرام، وأخيرًا دخلت بتمامها فى زيادة المسجد الحرام على عهد الخليفة العباسى المقتفى[٦].

أ. د/فوزى عارف إبراهيم



الهوامش:

(١) ياقوت الحموى (شهاب الدين أبو عبد الله الرومى، ت ٦٢٦هـ): الخزل والدال بين الدور والدارات والديرة، تحقيق: يحيى زكريا عبادة ومحمد أديب حمران، وزارة الثقافة، دمشق، سوريا، ١٩٩٨م، ط. ص١١٩- ١٢٠، ومعجم البلدان، دار صادر، بيروت، لبنان، ١٩٩٧م، ج٢، ص٤٢٣، والزبيدى (السيد محمد مرتضى الحسينى، ت ١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس: تحقيق: على هلالى، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب ـ الكويت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م، ج٤، ص٦٤.

(٢) ابن هشام (عبد الملك بن هشام الحميرى المعافرى، ت ١٨٣هـ): السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى (بدون بيانات الطبع) القسم الأول، ج١، ص١٢٤، والأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله ابن أحمد، ت٢٥٠هـ) أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تعليق: رشدى الصالح، المطبعة الماجدية مكة المكرمة، السعودية: ١٣٥٢هـ، ج١، ص٦٠- ٦١.

(٣) ابن هشام السيرة النبوية، القسم الأول، ج١، ص١٢٤، وابن كثير عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشى الدمشقى، ت٧٧٤هـ): البداية والنهاية تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركى، مطبعة هجر، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٧م، ج٢، ص٢٣٧، وجواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق، الطبعة الثانية: ١٩٩٣م، ج٤، ص٤٦- ٤٧.

(٤) ابن هشام: المصدر السابق، القسم الأول، ج١، ص١٢٩، وابن كثير البداية والنهاية. ج١، ص١٣٠- ١٣٢، والأزرقى، أخبار مكة، ج١، ص٦٢.

(٥) محمد سعيد رمضان البوطى: فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، دار السلام، القاهرة، الطبعة التاسعة عشرة، ٢٠٠٨م، ص١٣٢.

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ج١، ص١٢٥، وياقوت الحموى: الخزل والدال، ج١، ص١٢٢- ١٢٣، وتقى الدين الفاسى (محمد بن أحمد المكى، ت ٨٣٢هـ): الزهور المقطفة من تاريخ مكة المشرفة، تحقيق د/على عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠١م، ص١٣١.

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادى، ت٧٣٩هـ: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع.

(٢) ياقوت الحموى، ت٦٢٦هـ: الخزل والدال بين الدور والدارات والديرة.

(٣) الأزرقى ، أخبار مكة وآثارها.

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية.

(٥) ابن كثير :البداية والنهاية.

(٦) جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام.

دنشواى

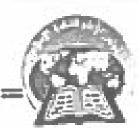
هى من حوادث مصر التاريخية التى لا تنسى، لما كان لها من بالغ الأثر فى تطور الحركة الوطنية، وتُمثِّل نهاية عهد كان الاحتلال البريطانى يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الكفاح عمّ فيها الشعور الوطنى بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راضٍ عن الاحتلال[1].

إن حادثة دنشواى، دون غيرها، هى التى أماطت اللثام أمام العالم عن وجه الاحتلال البريطانى القبيح، وكشفت فى ذات الوقت عن معدن الفلاح المصرى الأصيل، الذى يصبر إلى حين على الظلم ولكنه لا يخضع ولا يستكين لحاكم ظالم أو محتل غاصب لبلاده.

كان الريف المصرى ينقسم إلى مُلاَّك أغنياء أفادوا من سياسة الاحتلال الزراعية وزادت ثرواتهم فرضوا عن ذلك الاحتلال؛ وفلاحين وصغار ملاك فقراء لم يفيدوا كثيرا من تلك السياسة لعدم اتخاذ إجراءات خاصة لتحسين أحوالهم، لذلك حقدوا على كبار الملاك وسخطوا على الأوضاع القائمة. ولم تكن الحال فى المدن لتفضل كثيرا الحال فى الريف، حيث ارتفعت تكاليف المعيشة، وتأثر بذلك الفقراء وذوو الدخل المحدود، وعبر حافظ إبراهيم عن حالة الاستياء العام بقوله

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا
ونحن نمشى على أرض من الذهب[2].

فى الثالث عشر من شهر يونيو ١٩٠٦م، وقعت حادثة دنشواى التى كان مقدرا لها أن تهز مصر كما لم يهزها حادث من قبل، والتى هدمت كل ما حاول القنصل البريطانى اللورد كرومر Lord Cromer أن يبنيه من جسور طوال ثلاث وعشرين سنة بينه وبين الشعب المصرى بعامة والفلاحين بخاصة، وقد صدر البلاغ الأول عن هذه الحادثة بما لا يكاد يشير إلى أهميته، وكان يتلخص فى إشارة تليفونية أرسلتها نقطة بوليس الشهداء إلى مركز منوف، وخلاصتها" أن ضابطًا من البريطانيين الذين قصدوا دنشواى للصيد، فقد حياته بعد أن أصابت نار بنادق البريطانيين بعض الأهالى، وأشعلت النار فى جرن قمح فضربهم الأهالى. ويتلخص تفصيل ما أوجزته الإشارة التليفونية؛ فى أن خمسةً من ضباط الجيش البريطانى أبلغوا مأمور مركز منوف أنهم يرغبون



فى الصيد فى بلدة دنشواى، وهى قرية تابعة لنقطة بوليس الشهداء، فأجرى المأمور لهم الترتيبات اللازمة وأرسلهم بصحبة أونباشى وترجمان مصرى، وذهب الأول لإعلام عمدة القرية بنبأ هذه الزيارة، ولكن الضباط لم ينتظروا عودة الأونباشى وشرعوا فى عملية الصيد، فجاس بعضهم خلال أجران القمح، وأطلقوا رصاصهم على بعض الحمام، فأصابوا امرأة سقطت جريحة تتخبط فى دمائها، كما اشتعلت النيران بالجرن، فهاج صاحبه وزوج المرأة وبقية الأهالى، فهاجموا الضباط، فأسرع الضابط المعتدى وزميل له بالفرار خوفا من نقمة الأهالى، وظلا يعدوان تحت وهج الشمس وبعد حين سقط أحدهما صريعا بضربة شمس(٣).

ولم يكد نبأ هذه الحادثة يصل إلى أسماع سلطات الاحتلال حتى فقدت اتزانها، وخف مستشار الداخلية البريطانى إلى مكان الحادث، وألقى القبض على مئات من الأهالى، وساد قرية دنشواى وما حولها جو من الإرهاب، وفى العشرين من يونيو١٩٠٦م، صدر الأمر بتشكيل المحكمة المخصوصة، وحدد لانعقادها يوم ٢٤ من ذات الشهر فى شبين الكوم. وكان أغلبية أعضائها من البريطانيين ولم يكن بها من المصريين إلا بطرس غالى وزير الحقانية الذى كان يرأس المحكمة بنص القانون، وأحمد باشا فتحى زغلول رئيس محكمة مصر الابتدائية، وكان عدد المتهمين الذى قدموا للمحاكمة اثنين وخمسين متهما قدموا جميعا مقبوضا عليهم(٤). وقد قام بالدفاع عن المتهمين أحمد لطفى السيد، بينما اختار البريطانيون للقيام بدور الادعاء، محاميا مصريا هو إبراهيم الهلباوي، الذى استخدم براعته الخطابية فى طلب التشديد على المتهمين واستعمال منتهى الشدة والبطش بهم(٥)، وتركزت مرافعته على الفوائد التى عادت على مصر من نتيجة الاحتلال، ثم تطرق إلى رواية ما حدث فى دنشواى على أساس الرواية الإنجليزية وهى" أن الأهالى كانوا يعرفون بوصول الضباط البريطانيين وأن الرصاص الذى أصاب الأهالى كان كله من طلقة واحدة خرجت من بندقية أحد هؤلاء الضباط بعد أن انتزعها منه الأهالى" (٦).

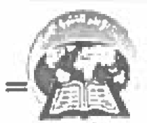
وفى السابع والعشرين من شهر يونيو ١٩٠٦م، صدر الحكم الذى انتهى إلى أنه فى مقابل وفاة إنجليزى واحد، حكم

بالإعدام على أربعة، وعلى أربعة عشر متهما آخر بأحكام متفرقة، وهو حكم اعتبره البريطانيون قبل المصريين قمة فى الظلم والقسوة(٧).

نفذ الحكم فى المتهمين فى اليوم التالي، فكان ذلك يومًا أسود من أيام الاحتلال، لم يَعْتَدِ فيه الإنجليز على كرامة وحقوق المصريين فحسب، بل لقد داس الإنجليز بأقدامهم العدالة وحقوق الإنسانية، ولم يستطع المصريون صبرًا على هذه الهمجية، وحملوا حملة شعواء على سياسة إنجلترا، ونددت الحركة الوطنية التى تزعمها مصطفى كامل بالمهمة الحضارية التى كان الإنجليز دائما يتشدقون بها(٨).

على أنه أيا كانت قسوة الحكم أو ظلمه، فقد كان يمكن أن تُطْوَى صفحته كما تطوى صفحات أمثاله من الأحكام الظالمة، ولكن سلطات الاحتلال سرعان ما حولت الحكم من دائرة الظلم والقسوة إلى دائرة الوحشية والبربرية، حيث اختار البريطانيون أن يكون التنفيذ فى اليوم التالى لصدور الحكم؛ حتى لا يفسحوا مجالا لمراجعة الحكم أو تخفيفه، ثم نصبوا المشانق فى القرية التعسة وأجروا تنفيذ الحكم فى المتهمين المنكوبين على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأبنائهم(٩)، فكانوا يسوقون المحكوم عليه بالإعدام وينفذون الحكم فيه ثم يتركونه معلقا بالمشنقة، وجسده يترنح ريثما ينفذون حكم الجلد فى أحد المحكوم عليهم، وهكذا تحول الأمر إلى مجزرة بشرية(١٠).

أثارت حادثة دنشواى إحساسا بالإثم بين البريطانيين المعادين للاستعمار، فسرعان ما أمسكوا بالحادث وكأنه عصا أخذوا يهوون بها فوق رأس كرومر. فها هو ذا ويلفريد بلنت Wilfred Blunt، الذى سبق أن ناصر عرابي، يكتب نشرة عنيفة بعنوان "بشاعات العدالة فى ظل الحكم البريطانى لمصر"، ثم يكتتب مع بعض أصدقائه بأكثر من مائتى جنيه لإصدار كتاب عن دنشواى، ووجدت آراؤه تأييدا لدى كتاب مبرزين من أمثال جورج برنارد شو؛ الذى وصف حادث دنشواى فى مقدمة مسرحيته "جزيرة جون بول الأخرى" كما تعرض وزير الخارجية إدوارد جراى Edward Gray لاستجوابات عديدة حول الحكم البريطانى لمصر؛ وكون جماعة من الأحرار برئاسة عضو البرلمان البريطانى جون روبرتسون



Robertson" اللجنة المصرية لاستطلاع الأحوال فى تلك البلاد"[١١].

ووجد الخديوى عباس حلمى الثاني، معونة غير متوقعة من المستر موزلى .Mr Mosley. وكان هذا المواطن البريطانى قاضيًا فى المحاكم المصرية؛ ولكن سرعان ما قدم استقالته وهو يفكر، وله الحق فى ذلك، فى أن ضمير القاضى ليست له أية علاقة بجنسيته، وخاصة عندما يشرفونه باستدعائه للجلوس فى محكمة أجنبية، وكان موزلى قد تتبع عن قرب السياسة البريطانية فى مصر، ولم يوافق عليها، ودفعه شعور نبيل؛ لكى يقف موقف الدفاع عن الضعفاء. وفضل هذا القاضى العدل على العدالة البريطانية. وحينما أصبح حرًا، وهب نفسه للدفاع عن القضية المصرية بكل قوة، وكل ما يملكه رجل شريف من ضمير"[١٢].

لقد ألهبت حادثة دنشواى الحركة الوطنية، وزادت السخط على بريطانيا، والتذمر من سياستها، وأظهرت الاستعمار على حقيقته الظالمة المستبدة، ولم يكن مصطفى كامل ينتظر إلا هذه القارعة لكى ينطلق كالإعصار متحديا البريطانيين فى عقر دارهم، وملطخا صفحة حكمهم فى مصر بالخزى والعار، وكان يقيم فى باريس عندما وصلته أنباء مجزرة دنشواى، وفى ١١ يوليو ١٩٠٦م، بدأ حملته بتوجيه رسالة مفتوحة على صفحات جريدة الفيجارو الفرنسية بعنوان: " إلى الأمة البريطانية والعالم المتمدين"، بسط فيها مجريات الحادثة، وهاجم المحكمة المخصوصة وما أصدرته من أحكام. كما استنكر الطريقة البربرية التى نفذت بها الأحكام، ثم هاجم سياسة كرومر فى مصر، وما فرضه من حكم استبدادى مطلق، وذكر مطالب المصريين؛ وهى التوسع فى التعليم والحصول على الدستور والاستقلال. وحين صرح إدوارد جراى، فى البرلمان البريطانى، بوجود تعصب فى مصر وطالب بعدم نقد السياسة المتبعة فيها؛ حتى لا يضعف ذلك من سيطرة الحكومة المصرية، نفى مصطفى كامل ذلك؛ وأكد أن الأوروبيين يعيشون فى صفاء مع المصريين، وطالب بإجراء تحقيق فى السياسة البريطانية المتبعة فى مصر، وراح يندد بفظاعة الحكم وظلم الاحتلال وهاجم البريطانيين فى المحافل الدولية والبرلمانية وفى العاصمة البريطانية ووجد

آذانا صاغية من رجال الساسة البريطانيين[١٣].

لقد ألقت حادثة دنشواى على شخصية اللورد كرومر عبئًا كبيرًا من التبعات الجسام، لا من الوجهة السياسية فحسب، بل من الوجهة الإنسانية، فرأت الحكومة البريطانية إقصاءه عن منصبه إنقاذًا لسمعتها، وتخفيفًا لهياج الشعور الوطنى فى مصر، وقد استقر رأيها على هذه النية عقب استفاضة الأنباء عن فظائع التنفيذ، ولكنها أرجأت تنفيذ نيتها حتى يعود كرومر إلى مصر استبقاء لكرامة رجالها، وعاد كرومر إلى مصر مزودًا بتعليمات جديدة تبعًا لتغيير سياسة الاحتلال، تمثلت فى توجيه تحذير للموظفين البريطانيين، قال فى ختامه:

«فليتذكر كل موظف إنجليزي، أن كل ازدراء أو استخفاف يقع منه فى المعاشرات الاجتماعية يؤدى بكل تأكيد إلى إخفاق المسعى، وأن كل كلمة تقال بلا تَرَوٍّ، وكل فعل يفعل بلا تأن واعتبار، يمكن أن يجرح العواطف حيث لا يقصد جرحها، ويفضى إلى عواقب لا يعلم إلا الله مؤداها". وليس هذا التحذير بدوره إلا ثمرة من ثمار المناخ الذى أنشأته حادثة دنشواى والتى جعلت البريطانيين يفكرون مرتين قبل أن يستهينوا بعواطف هذا الشعب[١٤].

وإزاء التيار الوطنى المتدفق؛ لم تجد الحكومة البريطانية بدا من التراجع قليلا بمواراة كرومر عن مصر، وفضلت أن تضحى بشخص اللورد على أن تضحى بمصالحها العامة؛ وإن كان كرومر وحكومته صرحا بأن استقالته لأسباب صحية، وتناولت الصحف تلك المسألة بالتحليل، ولكنها لم تشر إلى أن تلك الحكومة أيقنت بوجوب التساهل مع المصريين فيما كانوا يتشددون فيه من قبل[١٥].

ولم ينجح كرومر فى سياسته إزاء القومية المصرية وبلغ الاستياء من سياسة الاحتلال غايته، سواء فى ذلك الخديوى والشعب المصرى؛ وعرف البريطانيون أن نفوذهم الذى عمل كرومر على تقويته وتدعيمه، منذ تعيينه ممثلا لإنجلترا سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م، بدأ يتضاءل ويضعف على يد كرومر نفسه بسبب أخطائه الأخيرة، ولا سيما فيما يختص بحادثة دنشواى التى صدعت من هيبتهم فى نظر أوروبا كلها، ولما أحدثته هذه السياسة الغاشمة من رد الفعل وتقوية النزعة الوطنية، ووضعت بريطانيا سياسة جديدة



تقوم على اجتذاب الخديوى إلى جانب إنجلترا، واستمالة الأحزاب الوطنية التى كانت تتمخض عن الظهور[١٦].

يتضح من هذا أن حادثة دنشواى ساعدت على بلورة الوضع فى مصر، بما أدى إلى أن ظهرت بشكل رسمى الأحزاب المصرية الرئيسية الثلاثة المعروفة حينئذ، وهى الحزب الوطنى، وحزب الأمة، وحزب الإصلاح الدستورى. الأول برئاسة مصطفى كامل وهو يعادى الاحتلال، والثانى برئاسة محمود باشا سليمان وهو متعاون مع الاحتلال، والثالث بزعامة الشيخ على يوسف وتقوم سياسته على التعايش مع الاحتلال، كما أنه كان حزب الخديوى[١٧].

أ.د / محمد على حلة

الهوامش:

(١) عبد الرحمن الرافعي، مصطفى كامل باعث الحركة الوطنية، القاهرة مكتبة النهضة المصرية ط٤/١٩٦٢، ص١٩٩.

(٢) محمد جمال الدين المسدى، دنشواي، القاهرة الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤، ص ٥٥- ٦٤.

(٣) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، القاهرة دار الشعب ١٩٧٩، ص١٢٥٢.

(٤) الأهرام ٢٥ يونيو١٩٠٦.

(٥) محمد حسين هيكل، مذكرات فى السياسة المصرية، القاهرة ج١، ص٤٩.

(٦) عصام الدين إبراهيم (تحقيق)، مذكرات إبراهيم الهلباوى بك"١٨٥٨- ١٩٤٠م، القاهرة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ١٩٩٥، ص١٤.

(٧) الجريدة فى ٢٩ يونيو١٩٠٦، اللواء فى ٣٠ يونيو١٩٠٦.

(٨) مصطفى صفوت مصر المعاصرة وقيام الجمهورية العربية المتحدة، القاهرة دار القلم١٩٥٩ م، ص٨٥- ٨٦.

(٩) الأهرام، ٢٩ يونيو ١٩٠٦.

(١٠) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، ص ١٢٥٥.

(١١) آرثر ادوارد جولد شميت (الابن) الحزب الوطنى المصرى ترجمة فؤاد دوارة، القاهرة هيئة الكتاب، ١٩٨٣ ص١٢٠.

(١٢) عهدي" مذكرات خديوى مصر الأخير ١٨٩٢- ١٩١٤" ترجمة جلال يحيى، القاهرة دار الشروق١٩٩٣، ص٩٤- ٩٥.

(١٣) أحمد سويلم العمري، مصطفى كامل كمدرسة وطنية وسياسية، القاهرة، ١٩٧٥، ص٢٧.

(١٤) أحمد حسين، موسوعة تاريخ مصر، ص١٢٦٣.

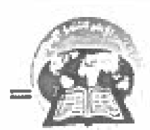
(١٥) أحمد لطفى السيد، صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر، القاهرة، ١٩٤٦، ص٧٧.

(١٦) أحمد شفيق باشا، مذكراتى فى نصف قرن، الجزء الثالث، هيئة الكتاب، القاهرة، ١٩٩٨ م ص١١٧.

(١٧) محمد جمال الدين المسدى، دنشواى، ص ١٠٥- ١٠٦.

مراجع للاستزادة

- بيتر مانسفيلد، تاريخ مصر الحديثة والشرق الأوسط، ترجمة عبد الحميد الجمال، القاهرة ١٩٩٦م.
- محمد جمال الدين المسدى، دنشواى، القاهرة الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤م..



دهلـــى (دولة)

"دهلى" هى عاصمة بلاد الهند، ويقال لها أيضًا "دلَى"، وهى مدينة عظيمة تقع على الضفة الغربية لنهر "جمنا"، عند دائرة عرض ثمان وعشرين درجة وثمان وثلاثين دقيقة شمالاً، وخط طول سبع وسبعين درجة وثلاث عشرة دقيقة شرقًا(١).

سميت "دهلى" لأن أرضها كانت لينة غير متماسكة، وجاءت من كلمة "دهول"، ومعناها فى اللغة الهندية التراب غير المتماسك، وقد حرف الإنجليز اسمها إلى "دلهى" فصارت تنطق بهذا الشكل(٢).

ويلاحظ أن موقع المدينة تغير على مر الزمان، فموقعها الأصلى حول المكان الذى يشغله "منار قطب"، ثم أخذت تزحف نحو الشمال حتى صارت تقع على شاطىء نهر جمنا، وأقفر مكانها الأصلى(٣).

أما عن مؤسس "دهلى" فقد ورد فى الأساطير أنه "يودهيشتيرا" أكبر الإخوة الذين ذكروا فى المهابهارتا، وأخذت اسم "إندرابراسترا"، وشهدت ازدهارًا كبيرًا فى عهدهم حتى عدت واحدة من أحسن المدن فى الهند آنذاك، ووصفت بأنها الجنة الثانية على الأرض(٤). ولكن التاريخ الحقيقى ذكر أن الذى قام ببنائها هو الملك الهندى "رايا سينا" من عشيرة "توما را" الشهير بـ "أننكبال" وذلك سنة ٣٧٢م، وانتهى حكم أسرة "توما را" لها سنة ٧٩١م بعد أن خسر آخر حكامها "بريثيراج" المعركة أمام "ميلديفا شوهان" وانتقل حكم "دهلى" للأخير(٥).

وفى إطار الفتوحات الغورية فى الهند قام القائد "قطب الدين أيبك" –مملوك ومقدم جيوش السلطان "شهاب الدين محمد بن سام الغورى" الذى وكل إليه استكمال الفتوحات الإسلامية فى الهند –بفتح "دهلى" سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، وجعلها عاصمته فى الهند(٦). ومنذ ذلك الحين أصبحت "دهلى" قاعدة الحكم الإسلامى فى الهند من الفتح الإسلامى حتى الاحتلال البريطانى لها"(٧).

وبعد "قطب الدين أيبك" مؤسس دولة المماليك فى الهند (٦٠٢هـ/١٢٠٥م-٦٨٩هـ/١٢٩٠م) وهى أول دولة إسلامية مستقلة بها، وجاء بعدها الدولة الخلجية (٦٨٩هـ/١٢٩٠م-٧٢٠هـ/١٣٢٠م)، وتلتها دولة بنى تغلق (٧٢٠هـ/١٣٢٠م- ٨١٧هـ/١٤١٤م)،

وحكم السادات "دهلى" بعد ذلك (٨١٧هـ/١٤١٤م - ٨٥٥هـ/١٤٥١م)، ومن بعدهم اللوديون (٨٥٥هـ/١٤٥١م-٩٣٢هـ/١٥٢٥م)، وانتهى حكمهم بفتح السلطان المغولى "بابر بادشاه" الهند سنة ٩٣٢هـ/١٥٢٥م، وتأسيسه دولة المغول فى الهند، وخلفه ابنه "همايون شاه" (٩٣٧هـ أواخر سنة ١٥٣٠م)، ولكن لم يقدر له أن ينعم بملك مستقر لتربص "شيرشاه الأفغانى" به، وقد نجح "شيرشاه" فى هزيمته وطرده من الهند، ولكن "همايون" استعاد عرشه سنة ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، إلا إنه لم يعش طويلاً بعد ذلك فقد توفى سنة ٩٦٣هـ/١٥٥٦م.

وخلف "همايون شاه" عدد من سلاطين المغول العظام هم ابنه السلطان "أكبر شاه" (٩٦٣هـ/١٥٥٥م-١٠١٤هـ/١٦٠٥م)، "وجهانكير بن أكبرشاه" (١٠١٤هـ/١٦٠٥م-١٠٣٧هـ/١٦٢٧م)، "وشاهجهان بن جهانكير" (١٠٣٧هـ/١٦٢٧م-١٠٦٨هـ/١٦٥٧م)، و "أورنكزيب بن شاهجهان" (١٠٦٨هـ/١٦٥٧م-١١١٩هـ/١٧٠٧م)[٨]. الذى كان آخر سلاطين المغول العظام، فقد تلاه سلاطين ضعاف، وقد مكن ذلك الإنجليز من السيطرة على الهند بسياستهم الماكرة تحت ستار شركة الهند الشرقية، وانتهى الحال بدخولهم "دلهى" فى أوائل القرن الثالث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى، وكان آخر سلاطين المغول فى الهند السلطان "بهادر شاه الثانى" الذى اعتلى العرش سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م، ولم يكن له من الحكم شىء، وبلغ الأمر أنهم أرسلوا إليه إنذارًا أنه آخر سلطان يسكن القلعة التى ستتحول إلى ثكنة عسكرية، وكان ذلك الأمر أحد أسباب اشتعال الثورة فى الثامن والعشرين من محرم سنة ١٢٧٤هـ / التاسع عشر من سبتمبر سنة ١٨٥٧م ضد الاحتلال الأنجليزى بقيادة "بهادر شاه"، إلا أن الثورة انتهت بالفشل، وأسر الإنجليز "بهادر شاه" وأسرته، وتم نفيُهم فى التاسع من ربيع الأول سنة ١٢٧٥هـ/ السابع عشر من أكتوبر سنة ١٨٥٨م إلى مدينة "زانكون" عاصمة "بورما" تحت حراسة مشددة، وبذلك سقطت دولة المغول فى الهند، وطويت آخر صفحات الحكم الإسلامى بها، وظل "بهادر شاه" فى محبسه حتى وفاته سنة ١٢٧٩هـ/ السابع من نوفمبر ١٨٦٢م[٩]. وتعرضت "دهلى" للتدمير مرتين: الأولى بسبب غزو



"تيمورلنك" لها سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م، والثانية بسبب غزو "نادر شاه" لها سنة ١١٥١هـ/١٧٣٨م[١٠].

ترك الحكم الإسلامى "لدهلى" الذى دام ثمانية قرون ونصف قرنٍ متصلة بصماته الحضارية فى مختلف المجالات بها، وتتبين هذه المجالات من دراسة المعالم الأثرية "لدهلى". فقد شهدت ازدهارًا كبيرًا فى العصر الإسلامى، وزخرت بالآثار الإسلامية من القصور الفخمة والأضرحة المرصعة بالجواهر، وقد وصفها "ابن بطوطة" الذى زارها فى منتصف القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى بأنها بلغت من الحسن والحصانة والعظمة ما لم تبلغه مدينة أخرى فى المشرق فى ذلك الوقت، هذا بالإضافة إلى كبر مساحتها وكثرة عماراتها[١١]. وتبلغ المعالم الأثرية فى "دهلى" الآن أكثر من ألف وثلاثمائة معلم[١٢].

وعمل سلاطين "دهلى" على تعمير عاصمتهم وتوسيعها، فأنشأوا عددًا من المدن المتصلة بها، ويمكننا تتبع التطور العمرانى لمدينة "دهلى" على مر الحكم الإسلامى لها على النحو التالى: "مدينة دهلى" القديمة التى فتحها "قطب الدين أيبك" ومن أهم معالمها قلعة راجا "بيثورا" التى كانت مقر حكم السلطان "قطب الدين" وخليفته السلطان "شمس الدين أيلتمش" (٦٠٧هـ/١٢١٠م-٦٣٣هـ/١٢٣٦م)، وبنى السلطان "بلبن" (٦٦٤هـ/١٢٦٥م- ٦٨٦هـ/١٢٧٨م) قلعة جديدة ودارًا للمظالم.

وبنى السلطان "معز الدين كيقباد" (٦٨٦هـ/١٢٨٧م- ٦٨٩هـ/١٢٩٠م) مدينة أخرى على ضفة نهر "جمنا" سميت "كيلوكهرى"، وبنى فيها قصرًا عاليًا وحديقة كبيرة[١٣]، وقد أشاد الشاعر "أمير خسرو" بها وبقصورها، ونالت إعجاب السلطان "همايون شاه" وجعلها مقره، وقام بتعميرها بالمبانى الجديدة.

وبنى السلطان "علاء الدين خلجى" (٦٩٥هـ/١٢٩٦م- ٧١٦هـ/١٣١٦م) مدينة "سرى" خارج "دهلى" القديمة، وبنى قلعة بها[١٤]، وهى تبعد أربعة أميال جنوب غرب "دهلى" القديمة، وتسمى الآن "شاهبور"[١٥]. وبنى بها قصرًا له سماه "كوشك سبز" أى القصر الأخضر[١٦]، وكانت "سرى" قاعدة السلطان "علاء الدين" وابنه السلطان "قطب الدين"، وتسمى "سرى" أيضًا "دار الخلافة"، وقد أعطاها السلطان "محمد تغلق شاه"

(٧٢٥هـ/١٣٢٥م- ٧٥٢هـ/١٣٥١م) إلى "غياث الدين" حفيد الخليفة العباسى "المستنصر بالله"، وظلت "سرى" عامرة حتى دمرها "شير شاه" (٩٤١هـ/١٥٤٠م- ٩٥٢هـ/١٥٤٥م)[١٧]، وبنى مدينة منفصلة عنها هى مدينة "بورانا"[١٨].

ومدينة "تغلق آباد" سميت باسم بانيها السلطان "غياث الدين تغلق شاه" (٧٢٠هـ/١٣٢٠م- ٧٢٥هـ/١٣٢٥م)[١٩]، وهى تبعد أربعة أميال جنوب شرق "سرى"، ونحو خمسة أميال جنوب شرق "دهلى" القديمة[٢٠]. وهى مدينة ذات أسوار وقلعة حصينة، بناها "غياث الدين تغلق شاه" سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، وبنى بها قصورًا حسنة كلها خاوية على عروشها الآن للأسف، وصار مكانها قرية صغيرة[٢١].

ومدينة "جهان بناه" بناها السلطان "محمد شاه تغلق" وجعلها قاعدة ملكه، [٢٢]كما أقام السلطان "فيروز شاه" (٧٥٢هـ/١٣٥١م- ٧٩٠هـ/١٣٨٨م) مدينة كبيرة ملحقة "بدهلى" سماها باسمه "فيروز آباد" على ضفتى نهر "جمنا" الذى يقطعها. هذا وقد شيد السلطان "فيروز شاه" الكثير من المساجد التى لاقت إعجاب الرحالة الأجانب الذين زاروا المدينة فى أواخر القرن العاشر الهجرى / السادس عشر الميلادى وبنى قصر "جهان نومه" على قمة تل، ويبعد القصر عن "دهلى" بثلاثة أميال، وقد بناه على أعمدة رخامية ضخمة يصل ارتفاعها ثلاثين قدمًا، وسمك العمود الواحد خمسة أقدام[٢٣]. كما بنى قصرًا آخر "بدهلى" هو قصر "بلابندسيرى"[٢٤].

أما مدينة المغول الجديدة فى "دهلى" فهى "شاهجهان آباد" نسبة إلى السلطان "شاه جهان" الذى شيدها سنة ١٠٦١هـ/١٦٥٠م، وهى تقع بين "سرى" و "دهلى" القديمة، وأول منشآته بها القصر الملكى الذى أنشأه فى الفترة من سنة ١٠٤٨هـ/١٦٣٨م إلى سنة ١٠٥٨هـ/١٦٤٨م، وأنشأ بعد ذلك حائط المدينة الذى ربطها ببقية مدن "دهلى" شمالا وجنوبًا، كما أنشأ المسجد الجامع، هذا بالإضافة إلى منشآت امرأته وحاشيته، فلم يمض أكثر من ست سنوات حتى اكتملت المدينة[٢٥].

وأهم المعالم الأثرية الإسلامية فى مدينة "دهلى":

مسجد "قوة الإسلام" الذى يعد من أهم مبانى المدينة فى العصر الإسلامى، بناه السلطان "قطب الدين" بعد فتحه

"لـدهلى"، وقـد بنـاه مـن الحجـارة، وهـو كبير المساحة له ثلاث عشرة قبة وأربعة صحون، وعند الباب الشرقى للمسجد صنمان كبيران من النحاس يطأ عليهما المصلون عند دخول المسجد، وفى الصحن الشمالى من المسجد الصومعة التى يذكر "ابـن بطوطـة" أنـه لم يـر مثلـها، بناهـا السلطان "معز الدين كيقباد"، وقد بنيت من الحجر الأحمر المنقوش، وتتميز بعظم ارتفاعها وسعة ممرها حتى أنها تسع ثلاثة أفيـال متجـاورة(٢٦). وفـى سـاحة المسجد العمـود الحديـدى الـذى أنـشأه حـاكم "دهلـى" راجارهافـا"، ويرجـع بنـاؤه إلى القرن السادس الميلادى، وهو يزن سبعة عشر طنًا، وقد أنمحت آثار المسجد ولم يتبق منه إلا العقود القائمة على الأعمدة الجرانيتية المغطاة بالزخارف(٢٧).

وبـالقرب مـن المـسجد يقـع ضـريح السلطان "شمس الدين ألتمش"، أنشاه سنة ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م، وهو يعد من أهم المبانى الإسلامية فى "دهلى"، وقد نقشت على جدرانه آيات قرآنية بحروف بارزة بالخطين الثلث والكوفى، وقد امتزج فيه الطرازان المعماريان الهندى والإسلامى(٢٨).

وتعـد منـارة قطـب مـن أهـم الآثـار الإسـلامية فـى "دهلـى"، بناهـا السلطان "قطب الدين أيبك" بمناسبة فتح "دهلى"، وهـى تعـد مـن أهـم الآثـار الإسـلامية العظيمة التى ترجع لهذه الفترة والتى تعتبر مـن أعلـى أبـراج العـالم، والمنـارة فـى مجموعها ليس لها نظير فى دهلى كلها، حيث يصل ارتفاعها إلى ٢٣٨ قدمًا وهى مصنوعة من الحجر الأحمر والرخام.

وقد بدأ السلطان "قطب الدين أيبك" بناءهـا عـام ٥٨٧هـ/١١٩١م، وأكملـها الـسلطان ألـتمش حـوالى عـام ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، وبنـى الطـابقين الثـانى والثالـث منهـا، ثـم زاد "فـيروز شـاه" الطـابقين الرابـع والخـامس سـنة ٧٥٢هـ/١٣٥١م(٢٩).

ومـن أهـم معـالم دهلـى ضـريح "همـايون"، وهـو ضـريح كـبير بنـاه ابنـه "أكبر شاه" بين أكثر الحدائق جمالاً فى "دهلى"، وقد بنت أكثر زوجاته محبة له - وهى والدة "ميرزاشيم" ملك كابل- منزلاً بجوار الضريح لتظل تنظر إليه حتى آخر حياتها(٣٠). ويقع ضريح "همايون" الآن جنوب مركز المدينة، ومن المعالم الأثرية القائمـة فـى حديقتـه ضـريح "صـفدار خانج"، وأضرحة حديقة لودى، والمدرسة فى "هوز خاز"(٣١).

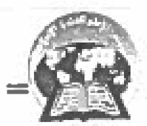
يعـد الـسلطان "شـاهجهان" مـن أهـم

سلاطين المغول الذين اهتموا بعمارة "دهلى"، ومن منشآته بها القلعة الحمراء أو "لال قلعة"، وهى بناء ضخم شديد الفخامة بناه "شاهجهان" لسكناه، وقد أصبحت مقر سلاطين المغول فى "دهلى"، حتى احتلها الإنجليز وأخرجوا منها السلطان "بهادر شاه" آخر سلطان مغولى وظلوا بالقلعة حتى خرجوا من الهند بعد أن خربوها ونهبوا كل ما بها من أشياء وأحجار ثمينة، وقد وصفها "جوستاف لوبون" بأنها من أجمل مبانى الدنيا.

ويعد المسجد الجامع فى "دهلى" أو "جامع مسجد" كما يسمى فى الهند من أفخم المساجد التى بنيت فى الهند، وقد أمر "شاهجهان" ببنائه سنة ١٠٦٠هـ/١٦٥٠م، وكان للمسجد دور ريادى فى مقاومة الاحتلال البريطانى، فكان مقرًّا للثائرين ضد الإنجليز فى ثورة ١٢٧٤هـ/١٨٥٧م، لذلك احتله الإنجليز ومنعوا الصلاة فيه حتى سنة ١٢٧٩هـ/١٨٦٢م[٣٢].

ويكمن سحر "دهلى" فى مبانيها العامة الضخمة، فتزخر المدينة بالأبنية الحجرية المطلية بالجير. والمبانى كلها كبيرة وشامخة ومزدانة بالزخارف، وعمل سلاطين المغول على تعميرها، ويحدثنا الرحالة الإنجليزى "فاذر" الذى زارها سنة ٩٨٩هـ/١٥٨١م عن اهتمام "همايون شاه" بتعمير وبناء "دهلى"، وتمهيد طرقها التى تميزت بالاتساع، وزرعت فى وسط الطرق الأشجار الرائعة التنسيق لتظلل الطرق وتجملها، وهى تتناغم مع الضواحى العديدة المليئة بالحدائق على كلا جانبى نهر جمنا والتى تحف بالمدينة من الشرق. وتكثر بضواحى "دهلى" زراعة أنواع كثيرة من العنب والفاكهة، فهى منطقة شديدة الخصوبة والغنى[٣٣]. وتضمنت "دهلى" فى العصر المغولى ثمانمائة حمام، ويقيم الأمراء فى قصورهم الفخمة، ويتجمع أرباب الحرف فى شوارع خاصة بهم، وكل أصحاب تجارة لهم سوق خاصة بهم، وخصصت مساكن للتجار الأجانب بها مخازن كبيرة لسلعهم وإصطبلات لدوابهم[٣٤]، ومن أهم مراصد "دهلى" المرصد الذى أنشأه "راجا جيبور" "محمد شاه" سنة ١١٣٣هـ/١٧٢٠م، ويعرف باسم "جنتر منتر" باللغة الهندية أى آلة الرصد[٣٥].

أما عن وسائل المدينة الدفاعية فأهمها سور مدينة "دهلى" الذى يتميز بالعظمة والحصانة، وقد وصفه "ابن بطوطة" بأنه



ليس له نظير فى ذلك الوقت، وقد أراد السلطان "محمد شاه تغلق" ضم المدن الأربعة "دهلى القديمة" "وسرى" و"تغلق آباد" و"جهان" تحت سور واحد، ولكنه لم يستطع إكماله لعظم تكاليف بنائه، ويصل عرض حائطه إلى أحد عشر ذراعًا، بنى به مساكن للجنود المختصّين بحراسته، كما بنى به مخازن لحفظ الغلال والأسلحة وأدوات الحصار، ويعلوه العديد من الأبراج المبنية بالآجر، و"لدهلى" ثمانية وعشرون بابًا [٣٦]، من أهمها الباب المزين بالنقوش للسلطان "علاء الدين خلجى" [٣٧]. ويعد السور الضخم "لتغلق آباد" فى الجنوب الشرقى للمدينة من أهم المزارات الأثرية بها الآن [٣٨]. وقد أكمل السور لاحقًا، فيقول الرحالة الإنجليزى "فاذر" الذى زار "دهلى" سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م: " اكتمل سور مدينة "دهلى" حتى أصبح يحيط بالمدينة كلها" [٣٩].

وقلعة "فيروز شاه تغلق" أنشأها فى بداية عهده سنة ٧٥٥هـ/١٣٥٤م على حافة نهر جمنا بجوار مدينته "فيروز آباد" فى موضع يسمى "قادن"، وقد سماها "كوشاك فيروز شاه" أو "كوتيلا فيروز شاه"، وقد بنى فى هذه القلعة ثلاثة معابر سرية، وهذه المعابر كانت عريضة لتسمح بعبور نساء السلطان بسلاسة، ويتصل المعبر الأول بالنهر، والثانى بمبنى "كوشاكى شيكار" وطوله قوسان، والثالث يتصل بجهة "دهلى القديمة" وقلعة "راى بيثورا"، وطوله خمسة أقواس [٤٠].

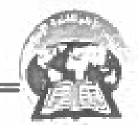
وأقام "شاهجهان" القلعة الحمراء على شاطىء نهر "جمنا"، وهى تماثل القلعة الحمراء التى بناها "أكبر شاه" فى "أكرا" فى شكلها الخارجى، وبنى سورها من الحجارة الحمراء، وهى تشتمل على أماكن متعددة للملك ونسائه وحاشيته وجنوده ومجلسه الخاص والعام، وعلى مسجد اللؤلؤة الذى يعد تحفة فى عالم البناء على الرغم من صغر حجمه، وقد بناه من الرخام الخالص، وللمسجد ثلاث قباب بصليَّة الشكل مرمرية، وكتبت أعمدته بالمرمر المزخرف بالزهور والمطعم بالذهب والأحجار الكريمة [٤١].

أما عن وسائل إمداد المدينة بالمياه فأهمها الآبار القريبة من المدينة، وهى عميقة تصل إلى سبعة أذرع، وعليها سَوَاقٍ لرفع المياه، أما شرب أهلها فمن ماء المطر يخزنونه فى أحواض كبيرة [٤٢]، ومن هذه الأحواض الحوض الكبير الذى بناه السلطان "شمس الدين إيلتمش"

ويشرب منه أهل المدينة وفيه يتم تجميع مياه الأمطار، ويبلغ طوله نحو ميلين وعرضه نحو ميل، وفى الجهة الغربية منه بنى مصلى، كما بنيت مبانٍ حجرية لها شكل الدكاكين بعضها أعلى من بعض، وفى كل دكان سلم ينزل إلى الماء، وبجانب كل دكان قبة حجرية فيها مجالس للمتنزهين، وفى وسط الحوض قبة حجرية منقوشة تتكون من طابقين، وعند امتلاء الحوض بالمياه لا يمكن الوصول إليه إلا بالقوارب، وبداخلها مسجد يقيم به الزهاد والصوفية المنقطعون للعبادة، وتستغل جوانب الحوض فى الزراعة عند انخفاض منسوب المياه، وبالإضافة إلى الحوض الكبير بُنِى حوض الخاص بين مدينتى "دهلى" ودار الخلافة، وهو أكبر من الحوض الكبير، وعلى جوانبه بنى أربعون قبة، ويسكن حوله أهل الطرب، ويسمى ذلك الموضع "طرب آباد"، وهى ضاحية ضخمة بها سوق عظيم ومساجد كثيرة(٤٣). ولحل مشكلة قلة إمدادات المياه للمدينة قام السلطان "شيرشاه السورى" بنقل مدينة "دهلى" على شاطئ نهر جمنا، وجعل عمارتها على النهر مباشرة(٤٤).

وتعد "دهلى" من أهم مراكز الإشعاع الثقافى الإسلامى فى شبه القارة الهندية، فقد اهتم سلاطينها ببناء المدارس والكتاتيب وغيرها من المعاهد العلمية التى كانت مركزًا لنشر الثقافة الإسلامية ليس فى "دهلى" فقط وإنما فى شبه القارة الهندية كلها، ويذكر "ابن فضل الله العمرى" عدد المدارس فى "دهلى" الذى بلغ الألف فى عهده، كلها للحنفية باستثناء واحدة للشافعية، ونحو سبعين مارستان أو " دور الشفا" كما تسمى فى الهند، هذا غير الخوانق " والأربطة التى كانت مراكز لتجمع الصوفية(٤٥).

وينسب إلى "دهلى" كثير من العلماء والصوفية والشعراء والأدباء والفنانين، هذا بالإضافة إلى فيض العلماء الذين انجذبوا إليها من مختلف البلدان بسبب تشجيع سلاطين "دهلى" للعلم، وإجزالهم العطاء للعلماء والأدباء. ومن أهم صوفية "دهلى" الصوفى الكبير "قطب الدين بختيار الكعكى" والواعظ "علاء الدين البزوانى" والزاهد "صدر الدين الكهرانى"(٤٦)، والصوفى الكبير "نظام الدين أولياء" و"نصير الدين محمود" والشاعر الصوفى الكبير "أمير خسرو" وغيرهم كثير(٤٧). ومن أعظم شعراء



الأردية فى "دهلى" "نصير الدين الدهلوى" و"محمد إبراهيم ذوق" و"مرزا أسد الله خان غالب"، والسلطان "بهادر شاه ظفر الثانى"[٤٨]. ومن أهم علماء الفلك والرياضيات بها "ميرزا خير الله" منشىء مرصد "دهلى"[٤٩].

د / وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش:

(١) Fanshawe: Delhi (Past and Present), New Delhi, 1998, p1 .

(٢) Delhi (The Capital of India) , New Delhi, 1997, p9 .

(٣) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص١٩١ .

(٤) Delhi (The Capital of India),New Delhi, 1997, p9 .

(٥) Abu-L-Fazl Allami: Aini Akbari, Translated by Jarrett, H.S. ,Calcutta, 1891, vol II,p 300.

(٦) ابن الأثير: الكامل، ط٣، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م، مج٩، ص٣٨٢، فخر الدين مباركشاه مرور وذى: تاريخ فخر الدين مباركشاه، لندن، ١٩٢٧م، ص٢٤ .

(٧) منهاج سراج: طبقات ناصرى، ج١، ط٢، كابل، انجمن تاريخ أفغانستان، ١٩٦٣م، ص٤٠٠.

(٨) زامبور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ١٩٥٢م، ص ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٤٢، ٤٤٣.

(٩) John Keay: India: A History, Grove Press, 2001, P 439. Muhammad Umar: Muslim Society In the Northern India During the Eighteenth Century, 1998, p717. Syed Sami Ahmad: the End of Muslim Rule in India, 1997, p.211.

(١٠) Mohamed Qasim Hindoshah: the History of Hindostan, Translated by Alexander Dow, London, vol. II, p91, 336.

(١١) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ط١، القاهرة، مطبعة وادى النيل الجديدة، ١٢٨٧هـ، ص١٦ .

(١٢) Patrick Hirton, Richard Plunkett, Hugh Finlay: Delhi, Australia, 2002, p85.

(١٣) الهروى: طبقات أكبرى، ج١، ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٥، ص١٠.
Mohamed Qasim Hindoshah: The History of Hindostan. Translated by Alexander Dow, vol. 1, London,1809, p 239

(١٤) الهروى: المصدر نفسه، ج١، ص١٣٧.
Abu-L-Fazl Allami: Ain i Akbari, vol .II, p 279

(١٥) Fanshawe: Delhi (past and present), New Delhi, 1998, p1.

(١٦) معين الدين الندوى: معجم الأمكنة التى لها ذكر فى نزهة الخواطر، حيدر آباد الدكن، ١٣٥٣هـ، ص٣٤.

(١٧) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٧ .

(١٨) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى، دار الفكر العربى، ٢٠٠٢م، ص٤٩٦ .

(١٩) ابن بطوطة: المصدر نفسه، ج٢، ص١٧.

(٢٠) Fanshawe: op .cit. ,p.2.

(٢١) معين الدين الندوى: معجم الأمكنة، ص٣٤ .

(٢٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٧.

(٢٣) Father A. Monserrate' s Description of Delhi (1581),p174, 178 .

(٢٤) معين الدين الندوى: المرجع نفسه، ص٩ .

(٢٥) Fanshawe: Delhi, p.34.

(٢٦) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٧، ١٨ .

(٢٧) Delhi, p.9.

(٢٨) غوستاف لوبون: حضارة الهند، نقله إلى العربية عادل زعيتر، دار العالم العربى، ٢٠٠٩م، ص٢٢١- ٥٢٦ .

(٢٩) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ص١٠٧ .

(٣٠) Father A., Monserrate' s Description of Delhi (1581), p173.

(٣١) . Patrick Horton, Richard Plunkett, Hugh Finlay, Delhi, p85 .

(٣٢) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ص٢٤٨- ٢٥١ .

(٣٣) . Father A: Monserrate' s Description of Delhi (1581), p175 .

(٣٤) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى، ص٤٩٤- ٤٩٥ .

(٣٥) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ص٢٧٧ .

George Kaye: A Guide to the Old Observatories at Delhi, p39 .

(٣٦) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٧ .

(٣٧) غوستاف لوبون: حضارة الهند، ص٢٢١ .

(٣٨) .Patrick Horton, Richard Plunkett, Hugh Finlay, Australia, 2002, p85 .

(٣٩) . Father A.: op.cit, p174

(٤٠) Carr Stephen: The Archeology and Monumental Remains of Delhi, Simla, 1876, PP.125- 126. Saiyid Ahmad Khan: Description des Monuments de Delhi en 1852, d . après le Texte Hindoustani, Par M. Garcin de Tassy, Paris, 1861, pt. 1,p26 .

(٤١) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ص٢٤٨- ٢٥١.

(٤٢) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، تحقيق محمد سالم بن شديد العوفى، مطبعة المدنى، ١٩٩٠م، ص١٢٦ .

(٤٣) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٩ .

(٤٤) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ص١٩١ .

(٤٥) ابن فضل الله العمرى: مسالك الأبصار، ص١٢٥ .

(٤٦) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص١٩، ٢٠.

(٤٧) . Abu-L-Fazl Allami,, Ain I Akbari, Vol.ll,P279.

(٤٨) . Kanda: Bahader Shah Zafar and his Contemporaries, New Dawn Press, 2007, p432.

(٤٩) عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى، ص٤٨٦.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٩٩.

٢. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.

٣. د. عصام الدين عبد الرءوف الفقى: بلاد الهند فى العصر الإسلامى.

٤. ابن بطوطة: رحلة بن بطوطة.

٥. غوستاف لوبون: حضارة الهند ترجمة عادل زعيتر.

دور الصناعة

دور الصناعة أو دور الصنعة، تعنى المراكز التى تصنع فيها السفن والمراكب البحرية، والكلمة عربية الأصل انتقلت إلى اللغات الأوربية مع بعض التغيير لتصبح " أرسنال" ARSENAL ثم اقتبسها الأتراك فقالوا: ترسانة أو ترسخانة.

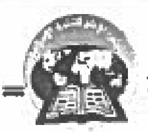
وأقدم دور الصناعة تلك التى أنشأها فى تونس سنة ٧٦هـ = ٦٩٥م حسان بن النعمان والى الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان على إفريقية.

ومع ذلك فقد اعتمد الأمويون على سفن البلاد المفتوحة أو السفن التى تركها الرومان، وهذا يعنى أن الأساطيل الأولى لم تكن إسلامية إلا من حيث المقاتلة الذين استخدموها فى الحروب والفتوحات، وكان المسلمون يحاربون فى البحر بنفس أسلوب البر بالسهام والحراب والحجارة أحيانًا، وكانت مهمة الأسطول نقل الجنود، وكانت خطتهم السيطرة على الشواطئ والموانى، ولهذا حاولوا الاستيلاء على القسطنطينية.

وكانت هناك خمسة أماكن تتم فيها صناعة السفن فى مصر وهى:

صناعة الروضة، وصناعة مصر، وصناعة المقس، وصناعة الإسكندرية، وصناعة دمياط. أما صناعة الروضة فهى أول دار لصناعة السفن فى مصر، وكان يطلق عليها "صناعة الجزيرة"، وقد عنى بها أحمد بن طولون واهتم بتوسيعها وأنشأ بها المراكب الحربية، ولما جاء محمد بن طغج الإخشيد حولها إلى بستان أسماه "بستان المختار" ونقل دار الصناعة إلى الفسطاط، وكان والى مصر يطلب من صاحب " كورة أشقوه" أن يرسل إليه عمالاً وصناعًا وفلاحين للعمل فى دور الصناعة، وكان ينفق عليهم مقدمًا، وكان يفرض على الكور قدرًا من الآلات والأدوات المختلفة لصناعة السفن، كما كان يرسل بعض الملاحين للعمل فى أسطول المغرب أو أسطول المشرق والإسهام فى المشروعات العامة للبحرية، واستمر الحال على هذا المنوال فى عصور الأمويين والعباسيين والفاطميين والأيوبيين.

أما دار صناعة مصر التى أنشأها محمد بن طغج فى الفسطاط سنة ٣٢٣هـ



/٩٣٥م فكانت فى " دار خديجة بنت الفتح بن خاقان" زوجة أحمد بن طولون، وقد استمر تصنيع مراكب الأسطول المصرى أيام الخليفة الفاطمى الآمر بالله الذى أصدر أوامره لوزيره المأمون البطائحى بإنشاء الشوانى والمراكب النيلية بدار صناعة مصر التى ظلت عامرة حتى نحو سنة ٧٠٠هـ =١٣٠٠م حيث تحولت إلى بستان عرف ببستان ابن كيسان.

ولما تولى المأمون البطائحى وزارة الآمر كانت جميع مراكب الأساطيل لا تنشأ إلا بالصناعة بالجزيرة، فأنكر ذلك وأمر بأن يكون إنشاء الشواطئ والمراكب النيلية بصناعة مصر، وأضاف إليها دار الزبيب، وأنشأ بها قنطرة لركوب الخليفة... وكان بدار الصناعة مقر ديوان الجهاد، وظلت هذه الصناعة قائمة إلى نحو سنة ٧٠٠هـ= ١٣٠٠م.

أما صناعة المقس أو المقسم، فقد أنشأها المعز لدين الله الفاطمى فى مكان ضيعة كانت تسمى " أم دنين" على ساحل النيل عند مسجد الفتح الآن فى ميدان رمسيس بالقاهرة، وقد صنعت ستمائة مركب لم ير مثلها فى البحر منذ زمن المعز لدين الله، وبها أصبحت الدولة الفاطمية تضارع أقوى الدول البحرية فى حوض البحر الأبيض المتوسط، وكان بالمقس قنطرة خريت وحل محلها قلعة زمن الأيوبيين.

دار صناعة الإسكندرية، ولم يكن بهذه المدينة إلا دار واحدة، لعلها التى أنشأها عبد الله بن سعد بن أبى السرح، وكانت قائمة – فيما يبدو- بجوار باب البحر، لكن يستدل من كلام بعض المؤرخين أنه كانت هناك فيما بعد داران لصناعة السفن إحداهما بالميناء الشرقى والأخرى بالميناء الغربى، وكانتا تنتجان أنواعًا مختلفة من السفن مثل القراقر والزوارق والطرايد والغربان والشوانى والشياطى والسلالير والعشاريات والبطش والحراريق[١] ، وكان بدار الإسكندرية موظفون مهمتهم إعداد وتجهيز الحاجات اللازمة لصناعة السفن.

دار صناعة دمياط، كان يتولى إدارتها خبراء فى مجال صناعة السفن[٢].

وجاء فى العديد من المراجع أنه كانت هناك دار بقوص تعمل على بناء السفن لأسطول صلاح الدين، وكانت السفن تنقل منها إلى ثغور " الإسكندرية ودمياط وتنِّيس"[٣].

أما أهم قواعد الصناعة فى الشام

فكانت فى عكا وصور وبيروت واللاذقية وطرابلس، ووصفت عكا بأنها ثانى دار صناعة بعد الإسكندرية، وبقيت صناعة"صور" حتى زمن " ياقوت الحموى" (ت٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م)، كما كانت " بيروت " مركزًا لصناعة السفن حتى سنة ٧٦٧هـ = ١٣٦٥م.

وأما البحار الجنوبية، فكانت " عيذاب" على شاطئ البحر الأحمر، و" البصرة وهرمز" فى الخليج الفارسى، و" سيراف وعمان"، وكانت كلها بها دور صناعة لإنشاء السفن(٤).

وهناك عدد من الموانئ الصغيرة كانت مهمتها إمداد السفن بما تحتاج إليه وصيانتها وعمل ما تحتاج إليه من إصلاح، وأهم تلك الموانئ: جبلة وجبيل وقيسارية ويافا وعسقلان وغزة وسوسه وطرابلس الإفريقية وبرقة وغيرها.

وهنا لابد أن نشير إلى أن المسلمين تفننوا فى بناء السفن ووضعوا لها الأسماء بحسب أشكالها وتباين أحجامها، فكان بعضها على أشكال بعض الطيور كالعقاب، أو على شكل بعض الأسماك والحيتان وبعض الحيوانات كالفيل والأسد والفرس والدلفين.... وغير ذلك.

أ. د/عبد الله محمد جمال الدين

الهوامش:

(١) .انظر : ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية، الترجمة العربية، ص ٣٠٤ وما بعدها. وكذلك جميل خانكى، تاريخ البحرية المصرية، ص ١٦١.

(٢) المرجع السابق ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٣) أنظر كنوز الفاطميين بمصر ، ص ١١٥.

(٤) انظر: محمد ياسين الحموى، تاريخ الأسطول العربى ص ٢٢- ٢٤، دمشق سنة ١٩٤٥م.

- الطرائد والطرايد والطراءات جمع مفرده طريدة وطراد وطراده وتطريده. والطريدة سفينة صغيرة سريعة السير والجرى. وهى مفتوحة المواخير أى المؤخرة بأبواب تفتح وتغلق، معدة لحمل الخيل بسبب الحرب، ويركب الفارس فرسه فى جوفها ويتدرج ويخرج. وتستعمل فى البحر الأبيض المتوسط وتحمل الواحدة نحو أربعين فارسًا بخيولهم.
- شينى أو شانى أو شينيه أو شونه والجمع شوانى، وهى السفينة الحربية الكبيرة، وكانت من أهم القطع الكبيرة التى يتكون منها الأسطول فى الدول الإسلامية، وهى الأصل الذى تتفرع منه أسماء السفن الحربية الأخرى ولواحقها فمنها الغراب و الطريدة والجفنة والحراقة... وتستعمل فى البحر الأبيض المتوسط وفى النيل ... وكانت تقام فيها الأبراج وقلاع الدفاع، كما كانت تنزلق على الماء بمساعدة ١٤٠ مجدافًا.
- البركوس والباكوس مركب يستعمل لركوب الجند والناس عامة، وكانت حمولته نحو ٢٥ رجلاً وهى ضرب من السفن بين البريق والفرقاطه، معرب عن الإيطالية أو الفرنسية أو الانجليزية.
- حراقه وتجمع على حراقات وحراريق. وقد يقال حراق والجمع حرارق وهى نوع من السفن الحربية كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية كالنار الإغريقية، وكان بها مرام تلقى منها النيران على العدو، وتوصف بأنها من السفن الخفيفة التى تحمل الرماة، وهى مصغر الشينى فهذه الأخيرة لها ١٤٠ مجدافًا والحراقة لها مائة، وقد استخدمت بكثرة فى مياه البحر الأبيض المتوسط وفى مياه النيل أثناء الحروب الصليبية، وهى من المراكب التى لا تسير بدون حماية لها.

النخيلى : درويش: السفن الإسلامية على حروف المعجم ، الإسكندرية ١٩٧٤م وكذلك

- Dozy: R.PA
Supplement aux Dictionnatires Arabes. Leyden 1881.

مصادر ومراجع للاستزادة :

- إبراهيم أحمد العدوى (الأستاذ الدكتور) : الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط.
- أنيس صايغ: الأسطول العربى الأموى فى البحر الأبيض المتوسط.
- ابن خلدون: المقدمة، فصل صناعة النجارة.
- عن أنواع السفن راجع: درويش النخيلى : السفن الإسلامية مرتبة على حروف المعجم. الإسكندرية ١٩٧٤م، وكذلك عبد الفتاح عبادة: سفن الأسطول الإسلامى.
- Ali : M Fahmi: Muslim Naval Organisation in the Eastern Mediterranean . Cairo 1960.

دومة الجندل

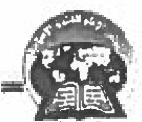
دُومة الجَنْدَل: واحة تقع على الحدود بين الشام والحجاز، وسميت دومة الجندل؛ لأن حصنها مبنى بالجندل(الحجارة الضخمة) [١].

وهى الآن بلدة من أعمال المدينة. وهى تقع جنوب غرب مدينة "سكاكا الجوف" بنحو أربعين كيلو مترًا، ويقول ياقوت الحموى[٢]: إنها سميت بذلك نسبة إلى حصن بناه "دوماء بن إسماعيل" فى منطقة مليئة بالحجارة، ويعود تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد، وتضم العديد من الأماكن التاريخية، مثل: حصن مارد الشهير، وبقايا سورها، وموقع التحكيم بين الإمام على ومعاوية، وقد غزاها المسلمون عدة مرات حتى استقرت من حصون الإسلام فى بلاد العرب.

أما عن سبب غزو النبى ﷺ لدُومة، فإن الأخبار جاءت إليه بأن قبائل المشركين حول دُومة الجندل تقطع الطريق هناك وتنهب ما يمر بها من متاجر، وأنها قد حشدت جمعًا كبيرًا لتهاجم المدينة النبوية[٣]، فاستعمل رسول الله ﷺ على المدينة سباع بن عُرْفُطَة الغِفَارى، وخرج فى ألف من المسلمين لخمس ليالٍ بقين من ربيع الأول سنة٥هـ(٦٢٦م)، يسير الليل ويكمن النهار حتى يفاجئ الأعداء وهم غارُّون، وأخذ رجلاً من بنى عُذْرة دليلاً للطريق يقال له: "مذكور"، فلما دنا من دومة الجندل أخبره دليله بسوائم (ماشية وإبل) لبنى تميم، فسار حتى هجم على ماشيتهم ورُعاتهم، فأصاب من أصاب وهرب من هرب،وجاء الخبر أنَّ أهل دومة الجندل فروا فى كل وجه، فلما نزل المسلمون بساحتهم لم يجدوا أحدًا وأقام رسول الله ﷺ أيامًا، وبث السرايا وفرق الجيوش، فلم يصب منهم أحدًا، ثم رجع إلى المدينة، بعد أن بسط الأمن فى تلك النواحى، واستكان البدو والأعراب[٤].

وفى شعبان سنة ٦هـ (٦٢٨م) أرسل النبى ﷺ سرية إلى دومة الجندل يقودها عبد الرحمن بن عوف وقال له: « **إن هم أطاعوك إلى الإسلام فتزوج بنت ملكهم**». فلما دعاهم إلى الإسلام أسلم القوم، وتزوج عبد الرحمن بنت ملكهم "تماضر" بنت الأَصْبَغ الكلبية ، وهى أم ابنه "أبى سلمة" بن عبد الرحمن وعاد إلى المدينة[٥].

ولما أراد النبى ﷺ أن يثأر من الروم



وحلفائهم من نصارى العرب لما أصاب المسلمين فى غزوة مؤتة، جهز جيشًا قوامه ٣٠ ألفًا وخرج به فى (رجب سنة ٩هـ/ أكتوبر – نوفمبر ٦٣٠م) لغزو تبوك، فهرب الأعداء منها إلى الشام، فأقام هناك بضع عشرة ليلة لم يقدم عليه الروم، والعرب حلفاؤهم، لكن جاءه يوحنا بن رؤبة صاحب أيلة فصالحه على الجزية، وكتب له كتابًا، كما صالح أهل أذرح[٦]، وأهل جرباء على الجزية أيضًا[٧]، ولم يبق فى حاجة إلى القتال بعد انسحاب الروم ومعاهدة هذه البلاد الواقعة على الحدود بين الشام والجزيرة العربية؛ لكنه خشى من أن أمير دومة الجندل "أكيدر بن عبد الملك" الكندى النصرانى قد يتعاون مع جيوش الروم إذا جاءت من ناحيته، لذا بعث النبى ﷺ وهو فى تبوك، خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس وأخبره بأنه سيجده يصطاد البقر الوحشى، فذهب إليه خالد، فإذا أكيدر وأخوه حسان فى نفر من أهل بيته يطاردون بقر الوحش ليلاً، فتلقتهم خيل الإسلام فلم يجدوا مقاومة تذكر، فقتلوا حسانًا وأسروا أكيدر وهددوه بالقتل إن لم تَفْتَحْ دُومةُ أبوابها، ففتح أبواب المدينة فاستاق خالد منها ألفى بعير وثمانمائة شاة وأربعمائة وسق من بُرٍّ وأربعمائة درع، وكان على أكيدر قباء من ديباج محوص بالذهب فاستلبه خالد وبعث به إلى النبى ﷺ قبل قدومه عليه، فصار الصحابة يلمسونه بأيدهم ويتعجبون منه، فقال الرسول ﷺ لهم: «أتعجبون من هذا؟ فوالذى نفسى بيده لمناديل سعد بن معاذ فى الجنة أحسن من هذا»، ثم قدم خالد بأكيدر على رسول الله ﷺ فى المدينة فحقن دمه وأمَّنه وصالحه على الجزية، وخلى سبيله، فرجع إلى دومة الجندل[٨].

وقد اختلف كتاب السيرة فى إسلامه؛ فذكر د/ محمد حسين هيكل[٩] أنه أسلم. والراجح أنه لم يسلم، وقيل إنه أسلم ثم ارتد[١٠].

واستمر أكيدر على دومة الجندل، يشاركه فى رئاستها الجودى بن ربيعة، حتى كانت خلافة أبى بكر الصديق ﷺ الذى حارب المرتدين وهزمهم، فسير خالد بن الوليد ﷺ إلى العراق سنة ١٢هـ/ ٦٣٣م ففتح الحيرة والأنبار وعين التمر، وكان خالد قد أرسل " عياض بن غَنْم " إلى أهل دومة الجندل لحربهم لما رتدوا عن الإسلام، فلما فرغ خالد من فتح عين التمر جاءه كتاب عياض يستمده على أهل دومة، ومن تحزبوا معهم من بهراء

وتنوخ وكلب وغسان والضجاعم، ولم يكد أهل دومة الجندل يسمعون بمسير خالد إليهم حتى دب الرعب فى قلوبهم، فقال لهم أكيدر: أنا أعلم الناس بخالد، لا أحد أيمن طائرًا منه، أطيعونى وصالحوا القوم. لكن أهل دومة بقيادة الجودى بن ربيعة أبوا عليه رأيه، فقال: لن أمالئكم على حرب خالد، وخرج عنهم، وعلم خالد بمسيره فأرسل إلى طريقه رصدًا فأخذه أسيرًا ثم قتله وأخذ ما كان معه، وسار خالد حتى نزل على أهل دومة الجندل من الشمال، وكان عياض فى جنوبها فجعلها بينه وبين عياض، وانقض الجيشان على دومة الجندل، فهزموا حاميتها وأسروا رئيسهم الجودى، وانهزم أهلها إلى الحصن، فلما امتلأ أغلقوا الباب دون أصحابهم المنهزمين، فقتلهم خالد وسد باب الحصن بهم، ثم قتل الجودى إلا الكلبيين، فإن بنى تميم قد شفعوا فيهم، وفتح حصنها عنوة، فقتل المسلمون من فيه من المقاتلة وسبوا الذرارى وباعوهم فى مزاد[١١].

ومن يومها دخلت دومة الجندل ضمن الدولة الإسلامية، ثم اشْتُهِرَ ذكرها فى التاريخ لأنها شهدت قضية التحكيم بين الإمام على ومعاوية بن أبى سفيان سنة سبع وثلاثين للهجرة (٦٥٨م)[١٢].

أ. د / عبد الله إبراهيم راجح

الهوامش :

(١) انظر: ابن منظور: لسان العرب ج١، ص٩٩٩، ج٢، ص ١٤٦٠(طبعة دار المعارف سنة ١٩٨٦م).

(٢) ياقوت الحموى: معجم البلدان، ج١، ص ٤٨٧، (طبعة دار صادر. بيروت لبنان سنة ١٩٧٧م)،

(٣) كانت القبائل العربية- وخاصة غطفان- قد استخفت بشأن المسلمين بعد هزيمة المشركين لهم فى أحد، وطمعت فى الإغارة على المدينة بغية النهب والسلب، فكانت غزوات: ذات الرقاع، وبدر الآخرة سنة ٤هـ / ٦٢٥م، ودومة الجندل وبنى المصطلق سنة ٥هـ / ٦٢٦م بهدف ردع هذه القبائل البدوية وإرهابها كى لا تفكر فى مهاجمة المدينة أو القوافل التجارية للمسلمين (انظر د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف. تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة، ص ٢٨٠- ٢٨٢، طبعة القاهرة سنة ١٩٩٦م).

(٤) انظر التفاصيل فى ابن هشام: السيرة النبوية، ج٣، ص ١٠٢٣، طبعة دار الفكر ـ القاهرة .

(٥) انظر ابن الاثير: الكامل ج٢، ص ٩٣، وابن كثير: البداية ج٤، ص ١٨١.

(٦) أيلة: مدينة على ساحل بحر القلزم (خليج العقبة) مما يلى الشام، أذرح بلد فى أطراف الشام من نواحى البلقاء وعمان مجاورة لأرض الحجاز، الجرباء، موضع من أعمال عمان بالبلقاء من أرض الشام . ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص ١٢٩، ص ٢٩٢، ج٢، ص ١١٨.

(٧) انظر : ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص ١٥١- ١٥٢.

(٨) انظر التفاصيل فى ابن هشام: السيرة، ج٤، ص ٣٧٨- ٣٧٩.

(٩) انظر: د. محمد حسين هيكل، حياة محمد ، ص ٤٦٢، طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة ١٩٧٥م..

(١٠) .حيث سكتت المصادر الأصلية (سالفة الذكر) عن قصة إسلامه، بينما نفى كل من ابن القيم وابن حجر إسلامه. انظر: زاد المعاد ، ج٣، ص ٩٠، الإصابة فى تاريخ الصحابة، طبعة السعادة مصر د. ت . ج١، ص ١٣٥، وانظر د/ محمد أبو شهبة: السيرة النبوية، ج٢، ص ٤٠٨- ٤٠٩، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٣م.

(١١) انظر: الطبرى، مرجع سابق، ج٣، ص ٣٧٨- ٣٧٩..

(١٢) انظر : ابن كثير، مرجع سابق، ج ٧، ص ٢٩٣.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- سيرة ابن هشام.

٢- تاريخ الطبرى.

٣- الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

٤- حياة محمد ، للدكتور، محمد حسين هيكل.

ديار بكر

تنتسب هذه الديار إلى بكر بن وائل بن قاسط[١] الذى ينتمى إلى ربيعة[٢].

١ـ موطنهم الأصلى:

موطن بكر كسائر مواطن القبائل العربية هو شبه الجزيرة العربية.

وقد عُرِف عن العرب الرحلة وراء العشب والمرعى، وتَتَبُّع مساقط الأمطار، فلا غرو أن تتبدل مواضعهم حسب الأحوال المناخية، وبجانب هذا السبب المناخى فإن هناك أسبابًا أخرى تكمن فى الحروب الدائرة بينهم، التى لا تكاد تنتهى، فدفعتهم كذلك إلى الانتقال، طلبًا للسلامة من القبائل التى تناهضهم على نحو ما حدث بين بكر وتغلب فى حرب البسوس[٣].

وفى هذا يذكر الطبرى: "أنه لما كثر أولاد (معد بن عدنان) ومن كان معهم من قبائل العرب، وملأوا بلادهم من تهامة وما يليها فرقتهم حروب وقعت بينهم، وأحداث حدثت فيهم فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم"[٤].

وهو ما يؤكده الوزير أبو الحسين المغربى بقوله: "إنهم- العرب- تفسحوا وحازوا كثيرًا من الأرض خارجًا من هذه الجزيرة"[٥]. وفوق هذا وذاك فقد يأتى الخروج نتيجة قوى خارجية تُلْجِئ القبائل إلى هجرة موطنها إلى مواضع أخرى، على نحو ما حدث من بختنصر فى حروبه مع العرب[٦] وعلى نحو ما فعله كسرى عندما أسكن بعض بطون بكر بن وائل فى كرمان بإيران[٧]

وقد ترك البكريون موطنهم الأصلى فى اليمامة واتجهوا نحو الجزيرة الفراتية فى شرق الجزيرة العربية[٨].

٢ـ موطنهم فى الجزيرة الفراتية:

اشتملت الجزيرة[٩] على كل من ديار بكر، وربيعة ومضر. وقد كثر فيها السكان العرب قبل الإسلام، حتى غدت الجزيرة بالنسبة لهم ديارًا عُرِفت بأسماء قبائلهم التى استقرت فيها، بالإضافة إلى الشعوب الأخرى مثل الكرد والأرمن، وغير ذلك من سلالات[١٠].

أما عن نشأة المنطقة فهى موغلة فى القدم (وإن كان من الثابت أن مسيرة الإعمار قد بدأت من نحو ثلاثة آلاف سنة)، حيث تعاقب على المنطقة العديد من الدول خاصة من الروم والفرس، وكان الصراع بينهما فى هذه المنطقة

سجالاً حتى دخلت فى الفتح الإسلامى عام ١٩هـ/٦٤٠م[١١] - وتناوبتها دول الخلافة الإسلامية المختلفة بدءًا من دولة الراشدين والدولة الأموية وانتهاء بالخلافة العثمانية، لتستقر اليوم داخل حدود جمهورية تركيا.

وقد تميزت هذه المنطقة بزخم حضارى كبير مازال إلى اليوم يمثل معلمًا سياحيًا للزائرين[١٢] وهو ما يظهر لنا فى قيام بعض أبناء هذه المنطقة بالتأليف فى تاريخ مدنها ورجالاتها على نحو ما فعل ابن الأزرق فى كتابه (تاريخ ميافارقين و آمد)[١٣].

٣- أشهر بطون بكر:

تُعَدُّ بكر واحدة من عمائر ربيعة، من هنا فقد تعددت بطونها وكثرت، ومن أشهر هذه البطون التى لعبت دورًا مهمًا فى حياة القبيلة بنو حنيفة و بنو ثعلبة و بنو ذهل و بنو شيبان و بنو صعب و بنو قيس وبنو لجيم و بنو يشكر[١٤].

٤- بكر فى الإسلام:

كان لكثير من رجالات بكر المواقف المشهودة خاصة فى صدر الإسلام، حيث أسلم بعضهم وحظى بشرف صحبة الرسولﷺ، ولعل أشهرهم ثمامة بن أثال الذى أسره بعض المسلمين، وعندما كان النبى ﷺ يسائله ويخاطبه فى أَسْرِه: " ما عندك ياثمامة" ؟ كان جوابه الذى كان ملتزمًا به طوال أيام أسره:" عندى خير يا محمد، إن تقتلنى تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت". وعندما منَّ عليه النبى ﷺ وأطلق سراحه إذا به يعود حرًا مختارًا ويعلن إسلامه، ثم يخرج معتمرًا ويلقاه أهل مكة ملبيًا، فيقولون له: لقد اجترأت علينا، وهموا بقتله، ثم خلَّوه؛ لمكان حاجتهم إليه وإلى بلده، ثم نراه يتوعدهم قائلاً: " والله لا تأتيكم من اليمامة من حبة حنطة حتى يأذن النبى ﷺ"[١٥].

وفى عام الوفود جاء عدد من بطون بكر إلى المدينة المنورة وأعلنوا إسلامهم. فيذكر ابن سعد أنه قدم وفد من " بكر ابن وائل على الرسول ﷺ فيه بشير ابن الخصاصيَّة وعبد الله بن مرثد وحسان بن حوط، فأسلموا وعادوا إلى ديارهم"[١٦]. كما جاء وفد آخر من بنى شيبان كان على رأسه حريث بن حسان الشيبانى فأسلم هو كذلك[١٧]. وقد كتب النبى ﷺ كتابًا إلى بكر بن وائل جاء به إليهم ظبيان بن مرثد الدوسى[١٨].

أيضًا من رجالات بكر الذين حاولوا إخماد ردة بنى حنيفة عمير بن صالى

اليشكرى، فتوجه إليهم من قبل خالد بن الوليد ناصحًا لهم محذرًا إياهم من حرب المسلمين: " إنى رأيت أقوامًا إن غلبتموهم بالصبر غلبوكم بالنصر، وإن غلبتموهم على الحياة غلبوكم بالمدد، لستم والقوم سواء، الإسلام مقبل والشرك مدبر، وصاحبهم نبى وصاحبكم كذاب، ومعهم السرور ومعكم الغرور"[19].

٥ـ دور البكريين فى الثقافة الإسلامية:

قامت بطون بنى بكر بإثراء الثقافة الإسلامية فى مختلف علومها وفنونها من شرعية ولغوية وتاريخية وجغرافية إلى آخر ما هنالك من شتى أوجه الثقافة الإسلامية وتركوا لنا العديد من أمهات كتب التراث التى مازالت حية خالدة يؤمها الناس إلى يومنا هذا.

ومن أشهر هذه المصنفات:

١ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيبانى الذى جمع فيه قرابة الأربعين ألف حديث، مرتبة على مسانيد الصحابة ﷺ.

كما نجد لابن الأثير (مجد الدين) كتابًا جامعًا فى الحديث جمع فيه أمهات كتب الصحاح الستة بصورة موضوعية مبوبة بالإضافة إلى كتبه الأخرى مثل: النهاية فى غريب الحديث وهما مطبوعان، كذا الإنصاف فى تفسير القرآن.

وفى الفقه: نجد مصنفات الإمام محمد ابن الحسن الشيبانى خاصة كتابه الفذ: السير الكبير الذى صار بمقتضاه لدى الغربيين أبا القانون الدولى، وألفت الجمعيات القانونية باسمه[20].

بل إن الإمام أبا حنيفة محسوب على بنى بكر بالولاء[21].

فإذا ما اتجهنا صوب الدراسات اللغوية والأدبية وجدنا لضياء الدين بن الأثير العديد من المصنفات مثل: المثل السائر فى أدب الكاتب والشاعر، والوشى المرقوم فى حل المنظوم، والمعانى المخترعة فى صناعة الإنشاء.

وفى الدراسات الجغرافية: نجد المسالك والممالك لأبى عبيد البكرى، وكذا كتابه معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، فضلاً عن سمط اللالئ والمغرب فى ذكر بلاد أفريقيا وفصل المقال فى شرح كتاب الأمثال[22].

وفى التاريخ: نجد عز الدين بن الأثير صاحب كتاب الكامل فى التاريخ، والتاريخ الباهر فى دولة الأتابك، واللباب فى تهذيب الأنساب، وقد هذّب كتاب الأنساب للسمعانى، بالإضافة إلى أسد

الغابــة فــى معرفــة الــصحابة[٢٣] .. وهكذا الأمر فى سائر العلوم والفنون.

ومن هذا يتبين لنا دور قبيلة بكــر سواء فى الجاهلية حيث القوة والمنعة، أو فى الإسلام حيث العلم والثقافة والمعرفة بشتى أنواعها.

أ / رجب عبد المنصف

الهوامش:

(١) ينتهى نسبه إلى ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان. انظر: جمهرة الأنساب لابن حزم، ص(٢٧٥ و ٢٨٥)، ط دار المعارف. وانظر أيضًا: أدب الخواص: الحسين بن على الوزير المغربى، ص(٩٨- ٩٩)، ط دار اليمامة، الرياض، تحقيق حمد الجاسر .

(٢) يقسم مؤرخو الأنساب القبائل العربية إلى شعب، فقبيلة، فعمارة، ثم بطون وأفخاذ وعشائر، وهى بدورها تتنزل إلى فصائل وأسر، وإن كان بعضهم لا يلتزم هذا الترتيب فيطلقون اسم القبيلة والبطون إذا ما كانت كبيرة. (انظر فى ذلك : تاريخ العرب قبل الإسلام جواد على،(١)، ص (٤٧٦)، ط بغداد) .

(٣) فقد نزحت من أرض اليمامة بعد أن مزقتها حرب البسوس؛ لتستقر فى البحرين والعراق. (انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية، د. عبد العزيز صالح، ص(١٨٤) ط الأنجلو المصرية عام ١٩٨٤م.

(٤) تاريخ الطبرى (٥٦/٢).

(٥) أدب الخواص، ص(٦٨).

(٦) وعن هذه الحروب يقول أبو عبيد البكرى: " كانت أرض الجزيرة خاوية، ليس فى تهامتها ونجدها، وحجازها وعروضها كبير أحد لإخراب بختنصر إياها، وإجلائها عن أهلها، إلا من اعتصم برءوس الجبال وشعابها" انظر: جزيرة العرب من المسالك والممالك، ص (١٨)، ط دار السلاسل، الكويت عام ١٩٧٧.

(٧) يذكر أن سابور الثانى الملقب بذى الأكتاف أخرج بعض القبائل العربية ومنها بكر إلى الأهواز وكرمان، عقابًا لها على ما قامت به من الإغارة على تخوم فارس. انظر: كرمان فى العهد البويهى، د. إبراهيم البلوشى، ص(٤٦)، ط المجمع الثقافى أبو ظبى .

(٨) انظر: تاريخ شبه الجزيرة العربية، د. عبد العزيز صالح، ص(١٨٤)، ط الأنجلو المصرية عام ١٩٨٦م.

(٩) الجزيرة تعنى هنا المنطقة الشمالية الخصبة بين نهرى دجلة والفرات، وتمتد إلى منطقة الدروب عند سلاسل جبال طوروس، كما تمتد إلى الجبال الفارسية..

(١٠) انظر فى هذا الصدد: (الحدود الإسلامية البزنطية د. محمد فتحى عثمان، ط دار الكاتب العربى، القاهرة ج١ ص ١٤٢ وما بعدها، وانظر أيضًا: (بلدان الخلافة الشرقية) كى ليسترنج ص ١٥ ط بيروت، وكذا مجلة (الوعد) الصادرة عن دار الوعد، بيروت ص ٤٠٥- ٤٠٩.

(١١) انظر فتوح البلدان، للبلاذرى ص ١٧٢ ط دار الكتب العلمية، بيروت، وانظر أيضًا الأعلاق الخطيرة فى أمراء الشام والجزيرة، لابن شداد فى مواضع متفرقة من القسم الثانى للجزء الثالث، ط وزارة الثقافة السورية..

(١٢) انظر مجلة الوعد، مصدر سابق.

(١٣) وقد طبع الكتاب حديثًا بتحقيق د. بدوى عبد اللطيف، ط دار الكتاب اللبنانى.

(١٤) انظر : جمهرة الأنساب لابن حزم، ص (٢٩٠- ٣٠٩).

(١٥) انظر: الخميس فى أشرف خميس للديار بكرى، ج(٢) ص (٣)، ط دار صادر، بيروت.

(١٦) طبقات ابن سعد (٣١٥/١). ط دار الشعب.

(١٧) نفس المصدر (١/ ٣١٨).

(١٨) نفس المصدر (١/ ٨١).

(١٩)نفس المصدر ص (٣١٠).

(٢٠) انظر ترجمته فى : الطبقات السنية للتميمى، ج (١) .

وانظر أيضًا: قواعد فى علوم الفقه للشيخ حبيب الكيرانوى، ص (٢٩٧- ٣٢٧) ، ط دار الفكر العربى ، بيروت.

(٢١) انظر: خواص العرب للوزير المغربى – مصدر سابق، ص (٩٦).

(٢٢) لمزيد من التفصيل انظر: دراسة الدكتور عبد الله الغنيم عن منهج البكرى ومصادره.

(٢٣) انظر: ابن الأثير المؤرخ، د. عبد القادر أحمد طليمات، أعلام العرب.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير (عز الدين بن أبى الحسن) . اللباب فى تهذيب الأنساب: دار صادر . ١٩٨٠م.

٢. الكامل فى التاريخ: دار صادر، بيروت ١٩٧٩- ١٩٨٢.

٣. ابن حزم (على بن أحمد): جمهرة أنساب العرب: دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٨٣م.

٤. الطبرى (محمد بن جرير) : تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم – دار المعارف . القاهرة ١٩٧٧م

. لى سترانج . بلدان الخلافة الشرقية.

ديار ربيعة

تنتسب هذه الديار إلى ربيعة بن نزار ابن معد [1] بن عدنان، وهو المعروف بربيعة الفَرَس، وذلك لقول أبيه له: هذا الفَرَسُ الأدهم والخباء الأسود، وما أشبههما فلك [2]، كما يقال له ولأخيه مضر: الصريحان [3].

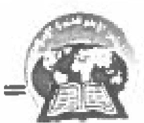
وقد تفرع عن ربيعة العديد من القبائل والعمائر والبطون، وكل من هذه الأصول تتفرع بدورها وتنقسم إلى قبائل أخرى وفروع ومن هنا قيل فى ربيعة إنه " شعب عظيم، فيه قبائل وبطون وأفخاذ، يستغنى المنتسب بها إلى ربيعة" [4]، بمعنى أن القبائل المتفرعة من ربيعة كبنى أسد، وجديلة وغيرهم سرعان ما كوَّنوا قبائل أخرى فلا يقال لهم: ربعى، وإنما ينسبون إلى أصولهم القريبة فيقال: أسدى وعنزى وهكذا، وكذلك القبائل الأخرى التى تفرعت من هذه القبائل مثل النمر بن قاسط وبكر وتغلب ابْنَىْ وائل ينسبون إلى أصولهم القريبة أيضًا فيقال لهم: نمرى وبكرى وتغلبى [5]، إلى آخر ما هنالك من نسبة إلى قبائل.

الموطن الأصلى لربيعة:

تعد تهامة هى الموطن الأول لربيعة، وهو ما يظهر من قول البكرى: " لم يبق بتهامة وغورها من ولد عدنان، إلا ربيعة ومضر، ومن كان معهم، أو داخلا فيهم، أو مجاورا لهم" [6]. غير أنهم سرعان ما تنقلت بهم الطرق ونأت بهم الديار، ودخلت قبائل ربيعة ظواهر نجد والحجاز وأطراف تهامة وما والاها [7]. بل إن بعض هذه القبائل انتقلت إلى اليمن ومن أشهرها عنزة وإن كانت قد حافظت على أنسابها [8]، أما تنقلهم وافتراقهم فيرجع أولا : إلى البحث عن المعاش والمرعى [9]؛ ويرجع ثانيًا إلى الرغبة فى النجاة من وقع الأسنة وما يتبعها من مذلة وهوان؛ نلحظ ذلك فى قول الطبرى: " لما كثر أولاد معد ابن عدنان، ومن كان معهم من قبائل العرب، وملأوا بلادهم ومن تهامة وما يليها، فرقتهم حروب، ووقعت بينهم أحداث فخرجوا يطلبون المتسع والريف فيما يليهم" [10]، وهو ما يؤكد البيهقى بقوله: " إن القحط توالى على مكة".

موقع ديار ربيعة:

بعد أن هاجرت ربيعة من الجزيرة العربية استقرت فى الجزيرة الفراتية [11] وهى المنطقة الشمالية



الخصبة بين دجلة والفرات. ويلاحظ أن هذه الديار تتقاسمها اليوم كل من تركيا وسوريا والعراق، وبالتحديد فى الأراضى الواقعة فى شرق نهر الخابور الكبير[١٢] المنحدر من رأس العين، وكذا الأراضى الواقعة فى شرق الهرماس، وهو النهر المنساب فى وادى الثرثار[١٣]، نحو الشرق من دجلة، فضلا عن الأراضى الواقعة على ضفتى دجلة والتى تمتد بانحدار النهر من تل قافان[١٤]، إلى تكريت [١٥]، أى كل الأراضى الواقعة شرق دجلة حتى نصيبين[١٦]، ومع هذا فإن هذه الديار توصف فى جملتها بأنها برارى؛ وهو ما يظهر فى كثرة الأماكن التى دارت فيها أيام العرب سواء فيما بين قبائل ربيعة ذاتها أو مع آخرين .

وتشمل ديار ربيعة العديد من المدن الهامة وعلى رأسها مدينة الموصل التى تعد قاعدة الديار وحاضرتها، الأمر الذى دفع كثيرًا من المؤرخين القدامى والمعاصرين إلى إفرادها بالتصنيف، ومن أشهر هذه المدونات تاريخ الموصل لأبى زكريا الأزدى، وقد حقق د. على حبيبة قسما منه ونشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إيضًا من المدن الهامة التى لعبت دورًا فكريًا فى المسيحية مدينة نصيبين حيث حضر أحد أساقفتها مؤتمر نيقيه عام ٣٢٥م ووقع على قراراته[١٧]، على أن أهم هذه المدن التى لعبت دورًا تاريخيًا هامًا بجوار الموصل هى:

١- جزيرة ابن عمر:

وتقع اليوم فى العراق وتعد من المدن الهامة فى ديار ربيعة [١٨]، سواء من حيث مكانها الاستراتيجى او من حيث ازدهارها الاقتصادى ، او من خلال تحكمها فى طرق التجارة وهو ما استتبع وجود العديد من الصناعات بها مثل الصناعات الخشبية المتمثلة فى الأبواب والنوافذ والأفاريز التى تثير إعجاب الناظر وتبرهن على مهارة صُنَّاعها، بالإضافة إلى تحكمها فى طرق المواصلات وتملكها ناصية التجارة فكان بها على حد تعبير ابن حوقل " تجارة دائمة"[١٩]،كل ذلك مع طيب المناخ وجمال الطبيعة حتى تغنى بها الشعراء وأقيمت بها القصور ومرابع الاصطياف كما ازدهرت بها الحياة العلمية فأنشئت المدارس وتعددت حلقات التدريس وكثر العلماء الذين لقبوا الجذرى إشارة إلى جزيرة ابن عمر، وعلى سبيل المثال ابن الأثير الجزرى فإنه يلقب به ثلاثة" أولهم نبغ فى

الحديث. والثانى عرف بالتاريخ، أما الثالث فهو الأديب ذائع الصيت[٢٠].

٢- رأس العين:

وتقع اليوم فى الجمهورية السورية وبالتحديد فى محافظة الحسكة فى الجزء الشمالى من سوريا، ويحدها من الشمال تركيا ومن الشرق العراق[٢١].

وسُمِّيتْ بـ (رأس العين) لوقوعها على أكبر عيون منابع نهر الخابور[٢٢]، وقد تجاوز عدد هذه العيون ثلاثمائة عين، كلها - كما يقول الإصطخرى -صافية تحكى ما تحتها على قامات فتجتمع مياهها حتى يصير نهر الخابور"[٢٣].

ومن أشهر هذه العيون عين الصرار وهى التى نثر فيها الخليفة المتوكل عشرة آلاف درهم، ونزل أهل المدينة فأخذوها لصفاء الماء ولم يفقد منها شىء[٢٤].

وقد أسبغ هذا على المدينة أهمية زراعية كبيرة حتى إن ابن حوقل يقول: " إنها مدينة ذات سور من الحجارة، وكان داخل السور بساتين وطواحين، وكان لأهل المدينة نحو عشرين فرسخًا قرى ومزارع مما يلى دورها"[٢٥].

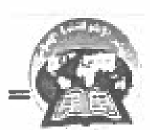
وهى اليوم مدينة هامة بها الكثير من العيون الكبريتية، كما أنشئت فيها السدود، الأمر الذى أضفى عليها أهمية كبيرة، خاصة عندما أنشئت فيها عدة مشاريع لتخزين مياه الخابور للرى وتوليد الطاقة[٢٦]، وغير ذلك من مشروعات حديثة.

كما شهدت المدينة عدة معارك فى عصورها المختلفة، منها ما وقع بين الأمويين وأتباع الإمام على رضى الله عنه، كما كانت مسرحًا للمعارك أثناء الحروب الصليبية.

أما عن أهم القبائل التى سكنتها من ربيعة فهى قبيلة النمر بن قاسط، ومن أشهر أعلامهم فى الإسلام الصحابى الجليل صهيب الرومى بن سنان بن مالك، كما كان لبنى النمر شأن هام فى إخماد حروب الردة[٢٧]، وأبلوا فى ذلك بلاء حسنا.

٣- سنجار:

وهى إحدى مدن ديار ربيعة على ما أكده الجغرافيون[٢٨]، وتقع اليوم فى الجمهورية العراقية. وقد تميزت بالعديد من المظاهر الطبيعية بدءًا من الجبال الشاهقة مرورًا بالصحراء الواسعة التى احتوت على أول مرصد فلكى أقيم فى عهد المأمون لتحديد محيط الكرة الأرضية[٢٩]، وانتهاء بوديانها، خاصة وادى الحيال -الحيالى- الذى امتاز



بالثروة الزراعية الضخمة على ما يقرره ابن حوقل.

ومن هنا صارت سنجار واحدة من أهم مدن ديار ربيعة؛ وقد شبهت فى أهميتها بدمشق، وهو ما يوضحه قول ابن بطوطة: " هى مدينة كبيرة، كثيرة الفواكه والأشجار، والعيون المطردة والأنهار، تُشَبَّه بدمشق فى كثرة أنهارها وبساتينها[٣٠]" . وهو الأمر الذى تجلى كذلك فى ازدهارها الاقتصادى المتمثل فى خراجها الضخم الذى بلغ فى القرن الرابع ثمانمائة ألف وستة وخمسين ألف درهم[٣١]، وهو مبلغ ضخم بحساب تلك الأيام، وهو ما ظهر كذلك فى كثرة نفائسها فى العصر الأيوبى، فعندما استولى عليها السلطان العادل بعد أن كانت قد تعرضت للنهب من قبل القائمين عليها، كان ما بقى منها يقدر بحمل ستمائة جمل.. وستة وتسعين بغلا محملة بالذهب[٣٢].

وبالجملة فهى كما يقول القزوينى: "عمارتها حسنة، كأنها مختصر دمشق"[٣٣]؛ الأمر الذى يدل على ما كانت عليه من رفاهية وتقدم فى عصورها الزاهية، وإن اختلف الوضع اليوم بعد ظهور نحلة اليزيدية فطمست معالمها ودرست آثارها وأقفرت ربوعها وصارت اليوم فى تخلف شديد[٣٤].

تغلب واستيطانهم ديار ربيعة:

تفرع من ربيعة العديد من القبائل والبطون والأفخاذ[٣٥]، وقد استوطنوا منازل وديارًا عرفت بأسمائهم كديار بنى أسد، وتيم الله، وبكر بن وائل إلى آخر ما هنالك من بطون وأفخاذ، إلا أن أهم هذه القبائل التى سكنت هذه الديار هى قبيلة تغلب التى تنتسب إلى تغلب بن وائل ابن قاسط بن هنب بن أفصى بن دعمى بن جديلة بن أسد بن ربيعة[٣٦]، وهى التى سميت ديارها بديار ربيعة إشارة إلى مكانتها وغلبتها على هذه البقعة وإن كان قد أقام معها فى هذه الديار بعض من القبائل الأخرى من ربيعة ذاتها مثل النمر بن قاسط حيث استوطنوا رأس العين[٣٧].

ومن أشهر عمائر النمر بن قاسط تيم الله، وأوس مناة، وعبدمناة. ومن أشهر رجالات بنى النمر صهيب بن سنان الصحابى الجليل المعروف بصهيب الرومى، وكان كسرى قد استعمل أباه سنان بن مالك على الأُبُلَّة، وأصاب صهيبًا الأسرُ فاشتراه عبد الله بن جدعان وأعتقه، وهو من السابقين إلى الإسلام،

توفى عام ٣٨هـ فى المدينة المنورة.

وبالإضافة إلى قبيلة ربيعة كان فى هذه الديار أيضًا قبائل أخرى من غير ربيعة كمضر، بل ومن قحطان، بالإضافة إلى أجناس أخرى من غير العرب كالأكراد والسريان[٣٨]، وغيرهم من الأجناس والأعراق.

وقد كانت لتغلب المكانة العالية التى ترددت فى المأثور العربى نظمًا ونثرًا حتى قيل: " لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس"[٣٩].

وعندما ظهر الإسلام الحنيف أبت تغلب الدخول فيه بوجه عام، واستمرت على النصرانية، وعندما تم الفتح الإسلامي للجزيرة الفراتية على يد عياض بن غَنْم فى العام التاسع عشر للهجرة[٤٠]، أَنِفَتْ تغلب من دفع الجزية ورأت فى ذلك مهانة وذلا، فعرضت على الخليفة أن يأخذ منها ما يأخذه من العرب المسلمين؛ تعنى بذلك الزكاة، وزيادة على ذلك قبلت أن تضاعف عليها الزكاة وقد استشار عمر رضى الله عنه الصحابة فى ذلك فأشاروا عليه بالقبول منهم معللين ذلك برغبتهم فى تأليفهم وحتى لا يلحقوا بالروم على نحو ما فعلت" إياد"، خاصة وأنهم مقاتلون ذوو مراس شديد " لهم نكاية فى العدو، فلا تُعِنْ عَدُوَّك بهم"[٤١].

وبالفعل سرعان ما دخل أغلبهم فى الإسلام بعد ذلك وكانوا قوة شديدة للمسلمين فى حروبهم لأعدائهم. وقد أورد ابن الحنبلى العديد من الآثار الدالة على مكانة ربيعة وعلى رأسها تغلب وإن كان فى سندها مقال، إلا أنها ترينا المكانة العالية التى تبوأتها ربيعة خاصة فى أيام الدولة الحمدانية حيث ظهرت هذه الآثار فى المجالس التى كان يعقدها ابن خالوية (ت ٣٧٠هـ) فى تعليقاته على شعر أبى فراس الحمدانى، حيث كان كثير الفخر بقبيلته.

ويلاحظ أن الكثير من أمراء ورجالات الخليج اليوم هم من أبناء ربيعة .

أ / رجب عبد المنصف

الهوامش:

(١) يصف ابن خلدون معدًا بأنه " البطن العظيم، ومنه تناسل عقب عدنان كلهم" ، تاريخ ابن خلدون، القاهرة، ط الذخائر، ج٢، ص٣٠٠ .

(٢) انظر تقسيم نزار لتركته بين أولاده وذهابهم للأفعى الجرهمى حكيم نجران (مروج الذهب ومعادن الجوهر) على ابن الحسين المسعودى، القاهرة، ط دار الشعب، ج١، ص ٢٧٠ ـ ٢٧٣.

(٣) تاريخ اليعقوبى ، دار صادر، بيروت جـ١ ، س ٢٢٣.

(٤) اللباب فى تهذيب الأنساب، ابن الأثير، بيروت، ط دار الكتب العلمية، ج٢، ص ١٦.

(٥) انظر هذه القبائل وتسميتها فى مظانها، مثل الاشتقاق لابن دريد ، القاهرة، ط الخانجى، الأنساب للسمعانى بيروت، ط دار الكتب العلمية، اللباب، مصدر سابق، وإن كان هناك من نسب إلى ربعى مثل محمد بن إبراهيم بن يوسف الربعى صاحب كتاب (الآثار الرفيعة فى مآثر بنى ربيعة) الشهير بابن الحنبلى (ت ٩٧١هـ) ط معهد المخطوطات العربية، القاهرة.

(٦) معجم ما استعجم، البكرى، القاهرة، ط الخانجى، ج١، ص ٧٩١ .

(٧) المصدر السابق، ص ٨٢ ٨٣ .

(٨) نفس المصدر .

(٩) انظر فى ذلك على سبيل المثال الكامل لابن الأثير ج١ ، ص ٢١٣.

(١٠) تاريخ الطبرى ٣/ ٥٩.

(١١) نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب، ط الأقصى، ١٩٨٣، ج١، ص ٢١٨ عمان.

(١٢) ويقع بين رأس العين والفرات (انظر معجم البلدان، ياقوت، ج٣، ص١٤ .

(١٣) يقع الثرثار فيما بين تكريت وسنجار، وهما يقعان اليوم بجمهورية العراق .

(١٤) ويقع اليوم فى الجمهورية التركية .

(١٥) انظر فى تحديد الموقع بلدان الخلافة الشرقية، كى ليسترنج، بيروت، ط مؤسسة الرسالة، ص ١١٥ .

(١٦) وتقع أيضًا فى الجمهورية التركية .

(١٧) انظر فى ذلك: مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب، أوليرى ترجمة د. تمام حسان القاهرة، ط الأنجلو المصرية، ص ٦٩ـ ٧٤، انظر أيضًا: الأدب السريانى، حمدى البكرى وآخرون، مواضع متفرقة، وكذا تاريخ الفكر الدينى الجاهلى، د. محمد إبراهيم الفيومى. .

(١٨) صورة الأرض لابن حوقل، بيروت، ط نوابغ الفكر، ص ١٩٨ .

(١٩) صورة الأرض، مصدر سابق، ص ٢١٦ .

(٢٠) انظر الموسوعة التاريخية، مسعود الخوندج، ط مكتبة لبنان .

(٢١) انظر القاموس الإسلامي، القاهرة، ط النهضة المصرية ، ج٢، ص ١٩٢ .

(٢٢) معجم ما استعجم، البكرى، القاهرة، ط الخانجى، ج١، ص ٧٩١.

(٢٣) المسالك والممالك، الإصطخرى، القاهرة، ط الذخائر، ص ٥٣ .

(٢٤) انظر معجم البلدان، ياقوت، ج٢، ص ٣٣٤ .

(٢٥) صورة الأرض، ابن حوقل، مصدر سابق، ص ٢١٣ .

(٢٦) انظر الموسوعة التاريخية، مصدر سابق، وانظر أيضًا القاموس الإسلامى .

(٢٧) انظر تاريخ ابن خلدون، القاهرة، ط الذخائر، ج٢، ص٣٠١.

(٢٨) انظر فى ذلك الاعلاق الخطيرة لابن شداد، مصدر سابق، أحسن التقاسيم ص ١٣٧، المسالك والممالك للإصطخرى، بلدان الخلافة الشرقية، كى ليسترنج، ومن الدراسات التفصيلية (مدينة سنجار) د. حسن شمسانى، بيروت، ط دار الآفاق. .

(٢٩) انظر وفيات الأعيان، ابن خلكان ج٥، ص ١٦٢ .

(٣٠) رحلة ابن بطوطة .

(٣١) مدينة سنجار، مصدر سابق .

(٣٢) الباهر فى دولة الأتابك، ابن الأثير، القاهرة، ط دار الكتب الحديثة، ص ٩٨ .

(٣٣) آثار البلاد وأخبار العباد نقلا عن مدينة سنجار، مصدر سابق، ص ٢٣٣ .

(٣٤) انظر مدينة سنجار، مصدر سابق .

(٣٥) انظر فى ذلك جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، القاهرة ط دار المعارف ٢٧٥ـ ٢٩٠ ، وانظر أيضًا نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب، القلقشندى، بيروت، ط دار الكتب العلمية فى العديد من المواضع ومنها عبد القيس ص ٣٠٧ والنمر بن قاسط ص ٨١، وانظر كذلك اللباب فى تهذيب الأنساب، ابن الأثير، بيروت ط دار صادر فى العديد من المواضع وعلى سبيل المثال أسد بن ربيعة ج١ ص ٥٢ـ ٥٣ وتيم بن ضبيعة ص ٣٠٣.

(٣٦) اللباب ج١ ، ص٢١٨ .

(٣٧) انظر نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب للقلقشندى ص ٨٠.

(٣٨) انظر أحوال سكان ديار ربيعة من حيث العرق: مدينة سنجار د. حسن شميسانى، بيروت، ط دار الآفاق الجديدة، ص ٢٤٥ ـ ٢٤٩ ، وانظر أيضًا جزيرة ابن عمر، د. محمد يوسف غندور، بيروت، دار الفكر اللبنانى، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٥ ، وانظر أيضًا تاريخ الموصل، الأزدى، القاهرة، ط المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى مواضع متفرقة.

(٣٩) شرح القصائد السبع الطوال لابن الأنبارى نقلا عن شعراء تغلب فى الجاهلية ، أيمن محمد ، القاهرة، ط معهد المخطوطات العربية، ص ١٥ .

(٤٠) انظر مدخل ديار مضر.

(٤١) انظر الخراج لأبى يوسف وانظر كذلك الأموال لأبى عبيد فى مواضع عديده، وانظر أيضًا المجتمعات الإسلامية، شكرى فيصل، بيروت، ط دار العلم للملايين، ص ٨٦.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب. دار المعارف ، القاهرة.

٢ـ البكرى: معجم ما استعجم ط الخانجى ، القاهرة .

٣ـ ياقوت الحموى: معجم البلدان . دار الكتب العلمية ، بيروت.

٤ـ كى ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية . ط مؤسسة الرسالة ، بيروت.

٥ـ محمد يوسف غندور: جزيرة ابن عمر. دار الفكر . بيروت.



ديار مضر

تنسب هذه الديار لمضر بن نزار بن معد ابن عدنان ...[1] ابن اسماعيل – عليه السلام - الذى يمثل مع أخيه ربيعة رأس القبائل العدنانية، وإن كانت الغلبة فى السيادة والسؤدد لمضر[2]. من هنا فقد وصف بأنه " سيد ولد أبيه "[3]. ثم استصحبت مضر هذه الرفعة وتلك المكانة باصطفاء الله تعالى لنبيه – ﷺ– منهم، وهو ما عبر عنه ابن سعيد الأندلسى بقوله : " وإليها انتهى الشرف والعدد أولا وآخرا ، وخصها الله بالنبوة والخلافة ، وبها عز الإسلام وعظمت فتوحاته لما دخلت فيه أفواجا "[4]. ومن أقوال مضر الدالة على شرفه وعلو همته : " من يزرع شرًا يحصد ندامة ، وخير الخير أعجله ، فاحملوا أنفسكم على مكروهها فيما أصلحكم ، واصرفوها عن هواها فيما أفسدكم، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر ووقاية"[5] .

وقد انقسمت مضر إلى أصلين أو حيين عظيمين هما خندف وقيس[6] .

فالأصل الأول يضم القبائل المتفرعة عن إلياس بن مضر وكثيرا ما ينسبون إلى خندف .

. والمقصود بـ (خندف) هنا ليلى بنت حلوان ... بن قضاعة[7] زوج إلياس بن مضر وأم أولاده. وقد تفرع عنه العديد من القبائل مثل: كنانة والهون وأسد و خزيمة و هذيل و تميم و جفنة و دارم و غِفَار[8]، ومن هذه القبائل تفرع غيرها وهكذا الأمر. فإذا ما انتقلنا إلى كنانة على سبيل المثال وجدنا بطون بنى عبد مناف وبنى أسد وبنى زهرة وبنى تيم وبنى عدى وبنى عبد الدار وبنى مخزوم وبنى جمح وبنى سهم وبنى الحارث، وزاد بعض النسابين غيرهم[9]، وهؤلاء هم قريش، وهم ولد فهر بن مالك . وفى هذا الصدد يقول ابن حزم : " هؤلاء ولد فهر بن مالك ... وهم قريش لا قريش غيرهم، ولا يكون قرشى إلا منهم" .

أما الأصل الثانى لمضر فيتمثل فى قيس عيلان. وقد تفرع عن أبنائه قبائل هى:[10]غطفان وعبس وذبيان وفزارة وسليم ومحارب وعدوان وفهم وهوازن وثقيف.

وهذا الفرع هو الذى تنسب إليه ديار مضر، حيث كانوا فى الغالب (بادية رحالة)[11] وهو ما يؤكده ابن خلدون

بقوله : " ومواطن معد بنجد وكلها بادية" [١٢]. وإن كان ابن حوقل يفصل الأمر خاصة فى مهجرهم الجديد وأعنى به ديار الجزيرة: " وبالجزيرة برارى ومفاوز ... كان يسكنها قبائل من ربيعة ومضر أهل خيل وغنم وإبل قليلة ، وأكثرهم يتصلون بالقرى وأهلها؛ فهم بادية حاضرة "[١٣]. وينسبون إلى قيس ابن عيلان بن مضر بفروعها أو بطونها المختلفة مثل غطفان و بنى عقيل و بنى نمير وغيرهم. على أن تخصيص الديار بقبيلة ما لا يعنى استئثارها بهذه الديار وعدم مشاركة غيرها من القبائل الأخرى لها فى ذات الديار؛ فكثيرًا ما تتجاور القبائل ذات الأصل الواحد بل قد تتجاور الأجناس والعناصر المتباينة كالكرد مع العرب أو القحطانية بجوار العدنانية، وقد تتمكن بعض القبائل من بسط سيطرتها على الديار وتقيم دولة تطول فترتها أو تقصر بحسب الأحوال السياسية السائدة فى المنطقة، ومن الأمثلة على ذلك قيام دولة أو إمارة بنى حمدان وهم من قبيلة تغلب بن ربيعة، أو دولة بنى عقيل وهى مضرية أقامت دولتها فى الموصل من ديار ربيعة .

موقع ديار مضر

حرصت القبائل المضرية على الإقامة فى موطنها الأصلى فى تهامة من جزيرة العرب حتى كانت آخر القبائل العربية خروجًا من هذا الموطن، وذلك على نحو قول البكرى: " لم تزل مضر بن نزار بعد خروج ربيعة من تهامة مقيمة فى منازلها من تهامة وما والاها، حتى تباينت قبائلهم وكثر عددهم وفصائلهم، وضاقت بلادهم عنهم، فطلبوا المتسع والمعاش، وتتبعوا الكلأ والماء، وتنافسوا فى المحال والمنازل ، وبغى بعضهم على بعض ، فاقتتلوا فظهرت خندف على قيس ... فظعنت طابخة من تهامة وخرجوا إلى ظواهر نجد والحجاز" [١٤].

وهكذا ارتحلت مختلف القبائل إلى منازل وديار شتى عرفت بأسماء من نزلها، وكانت ديار مضر منزلاً لقيس التى " مثلت تواجدًا كبيرًا فى حران وقرقيسياء وقنسرين " [١٥] وغير ذلك من مواطن ومواضع فى هذه الديار التى شغلت " الأراضى المحاذية للفرات من سميساط حيث يغادر سلاسل الجبال منحدرًا إلى عانة مع السهول التى يسقيها نهر البليخ رافد الفرات الآتى من حران"[١٦]. وقد شملت عددًا من المدن



الهامة مثل: حران والرقة .

١ - حران :

هى من المدن الموغلة فى القدم حتى إنه ليقال إنها بنيت بعد الطوفان ، ومن هنا قيل عنها (قديمة عتيقة) "[١٧]، كما عرفت كذلك بأنها موطن إبراهيم الخليل - عليه السلام - حيث ناظر فيها الصابئة الذين نسبوا إليها فقيل صابئة حران. وقد صارت منذ القرن الثانى الميلادى مسرحًا للصدام بين العديد من الإمبراطوريات الأشورية والفارسية والرومانية ولم تستقر إلا بعد الفتح الإسلامى لها .

وقد كثر سكانها وتعددت أَعْراقُهم عربًا وعجمًا حتى وصفت بأن " فيها من أهل كل بلد ومن أهل كل قبيلة " [١٨] .

وقد أثنى على أهلها الرحالة المغربى ابن جبير فذكر أنهم " أهل الخير، هينون، معتدلون، مجيبون للغرباء مُؤثِرون للفقراء "[١٩]. كما تميزت المدينة بالعديد من مظاهر الرقى والعمران بدءًا بالمدارس والمساجد وانتهاء بالأسواق التى وصفت بأنها " حصيلة الانتظام، عجيبة الترتيب ، مسقفة كلها بالخشب ... و البلد كثير الخَلْق، واسع الرزق، ظاهر البركة، كثير المساجد جم المرافق على أحفل ما يكون من المدن" [٢٠] .

فضلاً عمن نبغ فيها من علماء، وما ازدهر فيها من علوم، ويكفى فى هذا الصدد أن نتذكر أسماء مثل: ثابت بن قُرَّة و أبى هلال الصابى و البتانى الفلكى و ابن تيمية، الأمر الذى دعا أحد علمائها إلى تصنيف كتاب سماه (تاريخ الجزريين) ونعنى به أبا عروبة الحسين بن أبى معشر الحرانى، وذلك للتعريف بعلماء هذه المدينة وغيرها من مدن الجزيرة

وقد قام السلطان نور الدين بجهود كبيرة فى عمران المدينة من خلال ما شيده ورممه من مساجد ومدارس وخانقاوات[٢١] .

٢ - الرقة :

وتقع اليوم ضمن الحدود السورية وبالتحديد فى محافظة الحسكة، وهى من أكبر وأجل مدن ديار مضر مثلها فى ذلك مثل حران . أما موقعها الجغرافى: فيقع فى المثلث الأرضى الممتد من جبال طوروس شمالاً و المحصور بنهر الفرات من الغرب والبليخ من الشرق[٢٢] وقد تميزت بالرخاء الاقتصادى وهو ما يظهر فى أقوال الجغرافيين والرحالة الذين زاروها على مدار التاريخ كما فى قول ابن حوقل : " خصبة رخيصة الأسعار

حسنة الأسواق "[٢٣] وهو ما أكده ابن شداد: "وكان لهما – الرقة والرافقة – عمارة وأعمال وأشجار "[٢٤]. ويرجع هذا الرخاء إلى ما تتمتع به من مناخ طيب؛ فهيَ "عذبة الماء ، باردة الهواء ... قليلة الأدواء" [٢٥]، وهو ما دعا الخلفاء العباسيين إلى بناء مدينة الرافقة بجوارها وشيدوا فيها القصور بدءًا من المنصور فالمهدى وانتهاء بالرشيد .

كما عرفت الرقة أيضًا بوجود عدد كبير من الصناع المهرة الذين تأنقوا فى الحفر المائل المشطوف فى المنحوتات الحجرية والجصية والخشبية ، فضلاً عن الزخرفة والتزيين، وهى أعمال ما زالت تحظى بالاهتمام فى التنقيب عنها حتى حصلت فى الآونة الأخيرة على جائزة منظمة المدن العربية كأفضل مدينة تقوم بترميم وحماية آثارها [٢٦].

هذا بالاضافة إلى النشاط العلمى الذى عرفت به، وذلك من خلال عدد كبير من العلماء والشعراء عرفت بهم المدينة، وهو ما يظهر من (تاريخ الرقيين) الذى صنفه محمد بن سعيد بن مرزوق القشيرى الرقى.

أ / رجب عبد المنصف

الهوامش:

١ - اتفق المؤرخون قاطبة على نسبة عدنان إلى إسماعيل - عليه السلام - وإن اختلفوا فيما كان بينهم من آباء أوصلهم بعضهم إلى أربعين ، ومنهم من أوصلهم إلى النصف من ذلك إلى غير ذلك من آراء ، وكان النبى - صلى الله عليه وسلم - إذا انتسب لم يتجاوز عدنان ويقول : "كذب النسابون" .

ولمزيد من التفصيل فى هذا الأمر انظر الطبقات الكبرى لابن سعد ، القاهرة ، ط دار التحرير ، ج(١) ق(١) ص(٢١) .

وانظر كذلك : أنساب الأشراف ، للبلاذرى ، القاهرة ، ط دار المعارف ، ج(١) ص(٣٢) .

وانظر أيضًا : تاريخ اليعقوبى ، بيروت ، ط دار صادر ، ج (١) ص(٢٢١) .

٢ - انظر أنساب الأشراف ، مصدر سابق ، ص (٣٠) .

٣ - تاريخ اليعقوبى ، مصدر سابق، وانظر أيضًا : المنمق فى أخبار قريش لمحمد بن حبيب البغدادى، بيروت ،ط عالم الكتب ، حيث نقل عن ابن الكلبى سبب تفضيل الله لمضر وأنه قائم على كونهم "أعلم الناس بسنة إبراهيم - عليه السلام - وألزمهم بمناسكه" ص (٢١) .

٤ - نشوة الطرب فى تاريخ جاهلية العرب ، ابن سعيد الأندلسى ، عمان ط الأقصى عام ١٩٨٣ ، ج(١) ص(٣٢١) .

٥ - تاريخ اليعقوبى ، مصدر سابق ، ص(٢٢٦) .

٦ - انظر جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، القاهرة ، ط دار المعارف .

٧ - أدب الخواص فى المختار من بلاغات قبائل العرب وأنسابها وأيامها ، الوزير المغربى ، الرياض ، ط دار اليمامة ، ص(١٠٥) ، أما عن سبب تسميتها بـ (خندف) فانظر أنساب الأشراف ، ص(٣٢) .

٨ - انظر فى ذلك : جمهرة أنساب العرب ، ابن حزم ، القاهرة ، ط دار المعارف ، ص(١١) وانظر أيضا : تذكرة الألباب بأصول الأنساب ، أحمد البنى الأندلسى ، بيروت ، مجلة الذخائر ، العدد الأول شتاء ٢٠٠٠ ص(١١٤) وانظر أيضًا : تاريخ اليعقوبى ، مصدر سابق ، ص(٢٢٧) .

٩ - جمهرة أنساب العرب ، مصدر سابق وانظر أيضًا : المنمق فى أخبار قريش ، محمد بن حبيب البغدادى ، بيروت ، ط عالم الكتب ، ص(٢٠) وما بعدها .

١٠ - انظر : تذكرة الألباب ، مصدر سابق، ص (١٤٠) .

١١ - نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، القلقشندى ، بيروت ، ط دار الكتب العلمية ، ص(٣٢٠) .

١٢ - تاريخ ابن خلدون ، القاهرة ، ط الذخائر ، ج(٢) ص(٢٩٩) .

١٣ - صورة الأرض ، ابن حوقل ، بيروت ، ص(٢٢٠) ..

١٤ - معجم ما استعجم ، البكرى ، القاهرة ، ط الخانجى ، ج(١) ص(٨٧) .

١٥ - انظر : الحدود الإسلامية البيزنطية ، د. محمد فتحى عثمان ، القاهرة ، ط دار الكاتب العربى ، ج(٢) ص(٥٧ ، ١١٥) ، وانظر: ج(٣) ص(٣٥٧) .

١٦ - بلدان الخلافة الشرقية ، ج. كى لسترنج ، بيروت ، ط مؤسسة الرسالة ، ص(١١٥) .

١٧ - انظر فى هذا الصدد : الروض المعطار ، الحميرى ، ط لبنان ، ص(١٩٢) .

١٨ - الأعلاق الخطيرة ، ابن شداد ، سوريا ، ط وزارة الثقافة السورية ، ق(١) ج(١) ص(٤٢) .

١٩ - انظر : رحلة ابن جبير ، لبنان ، ط دار صادر ، ص(١٧٤) .

٢٠ - ابن جبير ، مصدر سابق .

٢١ - انظر فى ذلك ، الأعلاق الخطيرة ، مصدر سابق ، ص(٤٢) .

٢٢ - الموسوعة الجغرافية التاريخية ، مسعود الخوند ، بيروت ، ج(٥) ص(٣٠٥) .

٢٣ - صورة الأرض ، ص(٢١٧) .

٢٤ - الأعلاق الخطيرة ، مصدر سابق ، ج(٣) ق(١) ص(٩٤) .

٢٥ - الروض المعطار ، مصدر سابق ، ص(٢٧١) .

٢٦ - انظر فى ذلك الموسوعة الجغرافية التاريخية ، مصدر سابق .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- ياقوت الحموى : معجم البلدان . دار الكتب العلمية. بيروت ١٩٩١م.
٢- أبو عبد الله محمد المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . ليدن ١٩٠٦م.
٣- ابن خرداذبه: المسالك والممالك . ليدن ١٩٨٩م.
٤- ج.كى ليسترنج: بلدان الخلافة الشرقية . مؤسسة الرسالة . بيروت.



دير ياسين

تقع قرية دير ياسين على ارتفاع ألفى قدم فوق سطح البحر ، وهى حلقة هامة فى سلسلة المواقع العربية التى تحيط بالقدس من الغرب على بعد اثنين أو ثلاثة كيلو مترات، وهى أول قرية عربية تقع فى قبضة اليهود [١].

ويرجع أصل تسمية كلمة دير التى كانت معتادة فى بلاد الشام إلى راهب كان قد سكن القرية فى القرن الثانى عشر من الميلاد ، وسميت دير النصر ، ثم لحق بها اسم إمام مسجد القرية فسميت دير ياسين ، وتُعد من القرى الأثرية لوجود بعض الجدران والعقود من العصور الوسطى بها، وبلغ عدد سكانها سنة ١٣٦٨هـ/١٩٤٨م ما يقرب من ٧٠٨ مواطناً[٢].

وقد كان نتيجة لما قام به الإنجليز من تسليح لليهود، وبغض النظر عن جرائمهم تجاه العرب فى الوقت الذى كانوا فيه يضيقون الخناق على الفلسطينيين فى التسليح وفى نجدتهم ، أَنْ أتيحت الفرصة لليهود أن يبدءوا مجازرهم من قرية دير ياسين عندما بدأت عملية أطلق عليها اليهود عملية «نحشون» لفتح الطريق إلى القدس الجديدة والحى اليهودى بالقدس القديمة حيث كان اليهود محاصرين هناك وعددهم يزيد عن المائة ألف [٣].

وخلالها هاجمت وحدتان من منظمتين عسكريتين قرية دير ياسين؛ والوحدتان هما : أرجون (المنظمة العسكرية الوطنية) التى كان يقودها مناحم بيجن، وليحى (المقاتلون من أجل حرية إسرائيل) التى يسميها الغرب : " مجموعة شتيرن " ، وكان إسحاق شامير هو الرجل الثانى فيها ، والزعيمان كانا ممن وليا رئاسة الوزراء فى الكيان الصهيونى بعد إعلان دولته .

وقد ارتكبت المنظمتان جريمة بشعة فى حق الفلسطينيين العُزْل فقتلوا ٢٥٤ من أهالى دير ياسين رجالاً ونساءً وأطفالاً يوم ١٩ إبريل سنة ١٩٤٨م، وألقوا بجثثهم فى بئر القرية ، ويذكر اليهودى «مائير باعير» الذى كان شاهداً على الجريمة وهو ضابط ارتباط تابع للهاغانا (القوة المسلحة النظامية الرسمية التابعة للقيادة الصهيونية العمالية) أن المهاجمين قد قاموا بتمشيط القرية ، وأطلقوا النار على كل من يرونه بمن فيهم النساء والأطفال ولم يحاول القادة إيقاف المجزرة .

ليس هذا فحسب بل حملوا خمسة وعشرين فلسطينيا على متن شاحنة طافوا بهم فى شوارع الأحياء اليهودية بالقدس ، ثم عادوا بهم إلى ميدان فى مدخل دير ياسين وأطلقوا عليهم النيران. هذا على الرغم من اعتراف الشاهد : باعيل (وهو أستاذ التاريخ العسكرى بجامعة تل أبيب) فى ٤ أبريل سنة ١٩٧٢ لصحيفة «بديعوت أحرونوت» بأن القرية كانت مسالمة وليست لها أهمية استراتيجية .

ويقرر باعيل : بأن : " الهجوم على دير ياسين هو لطخة سوداء فى تاريخ الشعب اليهودى، وقد ألحقت بنا العملية أفدح الأضرار من الناحية السياسية كما ندد بالهجوم قادة الطائفة اليهودية فى فلسطين : دافيد بن غوردون ودافيد شالتيل وقادة الوكالة اليهودية ... " .

وتمثلت مشاركة الهاغانا بالجريمة فى أمرين : **الأول** : إعطاء الضوء الأخضر للعصابتين، **والثانى** : أنه بعد انتهاء القتل دخل أفراد الهاغانا إلى القرية وقاموا بسرقتها حيث شوهدت السيارات تحمل ماكينات القلع (قلع الحجارة) التى كانت تخص أهالى البلدة ، وشوهدت السيارات كذلك محملة بالمواد الغذائية من القرية المنكوبة متجهة إلى المناطق اليهودية [٤] .

وقد اعترف مناحم بيجن فى كتابه «التمرد» بأن هذه المذبحة البشعة قد ساعدت إسرائيل على نشر الذعر بين العرب، فتلاها سقوط العديد من القرى فى يد اليهود خوفا من تكرار مصير دير ياسين على الرغم من أنها كانت فى السابق تستعصى عليهم [٥] .

أ.د / سعد بدير الحلوانى

الهوامش:

١ – مناحم بيجن – التمرد قصة الأرجون – الهيئة العامة للكتاب – ١٩٧٨ – ص ٢٣١ ، ٢٣٢.

٢ – www.palestineremembered.com

٣ – حسن البدرى – الحرب فى أرض السلام – الجولة العربية الإسرائيلية الأولى – دار الوطن العربى – القاهرة – بيروت ١٩٧٦ – ص ٢٠١ .

٤ – إيلان هاليفى – إسرائيل من الإرهاب إلى مجازر الدولة – دار المنابر – ترجمة فارس غريب – ط ١ – ١٩٨٥م – ص ٧٠ وما بعدها .

والكاتب هو صحفى يهودى مُعادٍ للصهيونية كشف فى كتابه عن وثائق إسرائيلية تؤكد أن الإرهاب هو الأداة المميزة للسياسة الرسمية الإسرائيلية .

٥ – مناحم بيجن – التمرد – ص ٢٣٣ .

مراجع للاستزادة:

١. مناحم بيجن: التمرد: قصة الأرجون، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٨م.

٢. إيلان هاليفى: إسرائيل من الإرهاب إلى مجازر الدولة. دار المنابر، ترجمة فارس غريب ١٩٨٥م.

الدَّيْلَمُ

جغرافية بلاد الديلم:

الديلم شعب من الشعوب الإيرانية التى عاشت منذ أقدم العصور فى المنطقة المحيطة ببحر قزوين شمالى إيران، وقد سمى هذا الإقليم باسمهم فقيل: بلاد الديلم" أو " الديلمان".

وبحر قزوين يسمى أيضًا " بحر الخزر" و " بحر طَبَرستان" ، وهو عبارة عن بحيرة كبيرة منخفضة عن سطح البحر بحوالى ٨٥ قدمًا، يضم أكبر كمية مياه محبوسة فى العالم، وهو ينكمش تدريجيًا على مدى القرون، وضحل نسبيًا، ودرجة ملوحته أقل بكثير من مياه المحيطات، ويحتوى على ثروة سمكية كبيرة، ولا تصلح شواطئه للمرافئ والسفن، وتصب فيه بعض الأنهار العذبة، مثل نهر أورال، ونهر الفولجا فى الشمال، ونهرى أترك وجرجان فى الجنوب الشرقى[1].

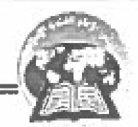
ويشمل إقليم الديلم خمس كور هى من ناحية الشرق إلى الغرب: جُرْجَان وطبرستان والديلمان والخزر وقُومِس، وتقع كلها على بحر قزوين مباشرة من ناحية الجنوب ما عدا قومس التى تبتعد عنه جنوبًا، وتفصلها عن البحر كورة طبرستان[2]، والخزر تقع خلف البحر فى الشمال.

ويتميز الإقليم بطبيعته الجبلية القاسية، وأمطاره الغزيرة التى تسقط على ساحل بحر قزوين طوال العام، ويتراوح متوسط سقوطها بين ٤٠ و ٦٠ بوصة، وتتراكم الثلوج فوق قمم الجبال العالية، فتظل تعلوها حتى أواخر الصيف[3].

وتجمع جُرْجَان بين الطبيعة السهلية والطبيعية الجبلية، وهى غزيرة الأنهار، كثيرة البساتين، وأشهر مدنها: أستراباذ وآبسكون، وأما طبرستان فهى سهلية بحرية، وفيها جبال أيضًا، لكن جوها أقل نقاء من جرجان، وأشهر مدنها سالوس وميلة ومامطير وسارية[4].

وإلى الجنوب من طبرستان بعيدًا عن بحر الخزر تقع " قومس" وهى كورة رحبة نزهة حسنة الفواكه، كثيرة الأنعام، قليلة السكان وقصبتها "الدامغان" ومن مدنها " بسطام"[5].

وتقع كورة الديلم أو الديلمان فى



منطقة الجبال إلى الغرب من طبرستان، وتعرف أيضًا ببلاد جيلان أو كَيلان، وإذا أردت النسب إلى البلاد قلت: "جيلانى"، وإذا أردت النسب إلى شخص منهم قلت: "جيلى"[٦]، وليس فى هذه الكورة مدن كبيرة، وإنما هى مدن صغيرة وقرى، وقصبتها "بروان" ومن مدنها "شكيز" وتارم" و "لامر"[٧].

وكورة "الخزر" تقع خلف بحر قزوين من الشمال، وهى بلاد واسعة المساحة، قليلة المدن والسكان، ولها نهران يصبان فى بحر قزوين توجد عليهما معظم مدنها، ويصبان فى بحر قزوين، وتكثر فيها الأغنام والعسل، وقصبتها "أثل" ومدنها "بلغار" و "سمندر".

سكان الإقليم:

هم شعب فارسى عرف باسم الديلم، وهم عنصران "الجيل" و "الديلم" وأكثر الناس لا يكادون يفرقون بينهما، ويغلب عليهم التخلف والعزلة والتأخر الحضارى وبخاصة سكان كورة الديلمان نظرًا لنأى بلادهم ووعورتها وقسوة مناخها، ويقول عنهم المقدسى: "لا تُرى لهم لباقة ولا علم ولا ديانة"[٨].

وكانت للديلم عادات غريبة؛ إذ لا يُسْمَح بخروج امرأة نهارًا، وإنما تخرج النساء ليلاً فى أكسية سود، ولا يجوز أن تتزوج امرأة مات عنها زوجها، وإلا شهروا بها، وضربوا على أبوابها بالخزف.

وسكان الإقليم بعامة حسان الوجوه واللحى، وأحسنهم أهل طبرستان، وأكثرهم نحافة أهل جرجان، وأهم الحرف فى الإقليم الرعى، وصيد السمك فى المناطق الساحلية وزراعة الكتان والأشجار المثمرة كالزيتون[٩].

ويرى بعض المستشرقين[١٠] أن الديلم فى الأصل ليسوا من الشعوب الإيرانية لاختلاف لهجتهم عن لهجة سائر الفرس، لكنهم بمرور الزمن أصبحوا من الإيرانيين، والبعض يزعم أن لهم نسبًا عربيًا[١١] وهذا الرأى ليس له سند أو دليل.

وكان الديلم - لقرب عهدهم بالبداوة - يتصفون بالجلد وتحمل المشاق، والصبر على الجوع ويستبسلون فى الحرب والقتال.

وقد عرفت جرجان وطبرستان نوعًا من التحضر السياسى، فكان لهم ملوك وحكام، وكان حاكم طبرستان يلقب بالإصبهبذ، كما يقول ابن الفقيه واليعقوبى.

وبدأ الإسلام يغزو هذه البلاد فى وقت

مبكر، زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ سنة ٢٩هـ/٦٤٩م ولكن طبيعة البلاد الوعرة حالت دون تقدُّم المسلمين فى داخلها، وبسط سيادتهم عليها، وتكررت المحاولات فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، لكن الجيش الإسلامى مُنِى بهزيمة ساحقة فى مضايق طبرستان، وهلك قائده: مَصْقلة بن هُبَيْرة، حتى صار مضرب المثل للشىء المستحيل فقيل: "حتى يرجع مصقلة من طبرستان"[١٢].

واستمرت محاولات المسلمين فى العصر الأموى لفتح طبرستان، وأهلها يراوغون، فيؤدون الجزية مرة، ويمتنعون عنها مرة أخرى، ثم اتصلت الغزوات فى العصر العباسى فى عهود السفاح والمنصور، والرشيد، ولم يتم إخضاع طبرستان إلا فى سنة ٢٥٥هـ/٨٦٨م أثناء ولاية الطاهريين على خراسان[١٣].

وقد تمكن الإسلام من غزو طبرستان وحدها، أما باقى الإقليم، فقد ظل على جاهليته الأولى، حتى دخله أفراد من الزيديين والعلويين فنشروا مذهبهم بين أهله.

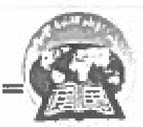
ارتباط الديلم بالزيدية:

يرتبط ظهور الديلم، وبروز دورهم فى الإسلام بوصول بعض دعاة الزيدية إلى بلادهم. والزيدية إحدى فرق الشيعة التى تقول بأن الإمامة حق لزيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالبس (ت ١٢٢هـ/٧٤٠م)، ثم لولد فاطمة ـ رضى الله عنها ـ من بعده، كائنًا من كان.

وقد انتشر المذهب الزيدى فى طبرستان وبلاد الديلم، وفى اليمن[١٤] ولا يزال له أتباع كثيرون إلى اليوم[١٥].

وكانت بلاد الديلم بموقعها النائى، وطبيعتها القاسية تمثل ملجأ آمنًا للعلويين الفارين من وجه الخلافة العباسية، وقد فرَّ إليها يحيى بن عبد الله بن الحسن فى عهد الخليفة هارون الرشيد سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م[١٦]، ثم احتال عليه الرشيد حتى اطمأن إلى عهده، فألقى به فى السجن حتى مات.

وكان الطبريون يشكون من عمالهم الطاهريين ويتهمونهم بسوء السيرة فيهم، والاعتداء على إخوانهم الديالمة، فتمردوا عليهم وطردوهم، وتوقعوا الانتقام منهم من جانب الطاهريين والخلافة العباسية، فأعدوا العدة للقاء، وعقدوا حلفًا مع إخوانهم الديلم، وبحثوا عن زعيم قوى يرتضى أهل الإقليم طاعته لشرفه ونسبه، وكان من الطبيعى أن يتجهوا إلى الشيعة الزيدية الذين نشروا مذهبهم



بينهم، فدلهم العلويون المقيمون فى طبرستان على الحسن بن زيد الذى كان مقيمًا بالرىّ، فأرسلوا إليه وفدًا، فتمكنوا من إقناعه، واتجه معهم إلى طبرستان فى أواخر رمضان سنة ٢٤٠هـ/٨٥٥م، وتمت بيعته يوم عيد الفطر، وخطب باسمه فى كلار والرويان وسائر مدن طبرستان والديلم[١٧].

وهكذا قامت للديلم دولة إسلامية مستقلة، بدأت فى إقليم طبرستان وكان قيامها نتيجة التقاء النزعة القومية الاستقلالية عند الديلم بروح التمرد والثورة عند زعماء الشيعة الزيدية، ورغبتهم فى تحدى الخلافة العباسية السنية.

وقد عانت الدولة الزيدية فى بلاد الديلم من المد والجزر، والسقوط والنهوض، ويمكننا أن نقسم تاريخها إلى ثلاث مراحل هى:

الإسلام بين الديلم على نطاق واسع على المذهب الزيدى، وبنى لهم المساجد وأدخلهم فى نطاق الحضارة الإسلامية بأن أشرك زعماء الديلم فى الزعامة والحكم وقيادة الجيوش.

وقد سقطت هذه الدولة بسبب تمرد زعماء الديلم على حكامهم الزيدية وتحالف بعضهم مع السامانيين.

- الدولة الثالثة من سنة ٣٥٣هـ-٣٥٩هـ (٩٦٤- ٩٦٩م)، وهى دولة أبى عبد الله محمد بن الحسن بن القاسم، الملقب بابن الداعى، وكان الديلم يكاتبونه فى بغداد فنفاه عز الدولة البويهى إلى فارس، وظل حبيسًا فى إحدى قلاعها، حتى أفلت من الأسر، ولحق ببلاد الديلم فبايعوه فى "هويم"، وبسط سلطانه على الإقليم لكنه اعتل ومات سنة ٣٥٩هـ/٩٦٩م.

- الدولة الأولى التى أقامها الحسن بن زيد من سنة ٢٥٠إلى سنة ٢٨٧هـ/ ٨٦٤-٩٠٠م. وقد سقطت على أيدى السامانيين.

- الدولة الثانية دولة الحسن بن على الملقب بالأطروش لثقل فى سمعه، والملقب أيضًا بناصر الدولة من سنة ٣٠١ إلى ٣١٦هـ (٩١٣- ٩٢٨م)، وهو الذى نشر

الدول الديلمية المستقلة:

كان العنصر الديلمى، الذى كان قبل دخوله فى الإسلام منزويًا عند بحر قزوين، من أسبق العناصر الإيرانية فى التعبير عن نزعته القومية ورغبته فى الاستقلال فى ظل الإسلام، وكان من أوفر العناصر الإيرانية حظًا؛ إذ حالفته

الظروف، وساعدته الأوضاع السياسية فى إيران على إقامة دول ديلمية مستقلة، والتقدم صوب حاضرة الخلافة بغداد؛ ليسيطر عليها، ويصبح هو القوة الأولى فى العالم الإسلامى لمدة تزيد على قرن من الزمان. وقد مَرَّ ظهور الديلم بثلاثة أطوار:

- فى **الطور الأول** كان تابعًا للزيدية، وعبَّر عن تطلعاته من خلالها، وبرز منهم قادة عسكريون مثل ليلى بن النعمان، وسرخاب بن وهوازان، وما كان بن كالى.

- وفى **الطور الثانى**، بدأ العنصر الديلمى يخرج عن التبعية للزيديين، ويعمل لحساب نفسه، واجتمع الديلم حول أمير منهم هو ماكان بن كالى الديلمى سنة ٣١٠هـ/٩٢٢م، واعتقلوا زعماء الزيدية وتخلوا عن نصرة الداعى الصغير حتى قتل فى حربه مع أسفار الديلمى، وحوّل بعضهم ولاءه إلى السامانيين.

- وفى **الطور الثالث** بدأ الديلم حركة هجرة واسعة نحو الجنوب مستغلين الفراغ السياسى الناجم عن ضعف الخلافة التى تسلط عليها الأتراك فى الشرق، والضعف الذى انتاب السامانيين فى الغرب، فاتجهوا من بحر قزوين شمالاً حتى إقليم فارس وكرمان جنوبًا، وبدأت هذه الهجرة سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م التى يسميها المؤرخون "سنة ظهور الديلم"[١٨].

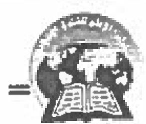
وفى هذا الطور ظهرت العصبية بين عنصرى الجيل والديلم برغم تمازجهما واعتبار المؤرخين لهما عنصرًا واحدًا، والتف الجيل حول ماكان بن كالى، واجتمع الديلم حول أسفار بن شيرويه، الذى كانت له الغلبة، عندما شد أزره بإعلان الولاء للسامانيين، واستدعى من بلاد الديلم نصيرًا قويًا من بنى جنسه هو مرداويج بن زيار، وتمكن من الانتصار على خصومه، وبسط سلطانه على طبرستان ثم جرجان وقزوين، فلما تم له الأمر، ورسخت أقدامه أعلن استقلاله عن السامانيين وتوقف عن إقامة الخطبة لهم، وكان ذلك سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م .

ولم يهنأ أسفار طويلاً بانتصاراته؛ إذ انقلب عليه حليفه مرداويج، وتحالف مع أعدائه ضده، وقتله فى نفس السنة[١٩].

وبوصول مرداويج إلى السلطة قامت الدول الديليمية المعروفة فى التاريخ، وهى:

- الدولة الزيارية من سنة ٣١٦هـ إلى سنة ٤٧٠هـ/٩٢٨- ١٠٧٧م.

- الدولة البويهية الأولى فى فارس



وكرمان من سنة ٣٢٢هـ إلى سنة ٤٤٧هـ/٩٣٣- ١٠٥٥م.

- الدولة البويهية الثانية فى الرَّى والجبال من سنة ٣٣٥هـ إلى سنة ٤٢٠هـ/(٩٤٦- ١٠٢٩م).

- الدولة البويهية الثالثة فى بغداد والعراق من سنة ٣٣٤هـ إلى سنة ٤٤٧هـ/ ٩٤٥- ١٠٥٥م.

ويمكننا أن نجمل عوامل ظهور الديلم وخروجهم من قوقعتهم عند بحر قزوين فى هذه السطور، ويأتى فى مقدمتها اعتناقهم للإسلام الذى أتاح لكثير من الأجناس غير العربية فرصة الزعامة والسيادة والمشاركة الحضارية كالترك والبربر، ثم احتضانهم للدعوة الزيدية، وسعيهم إليها عندما نجحوا فى استقدام دعاتها من الرَّى، والعامل الاقتصادى الذى دفع سكان طبرستان إلى التمرد على عمال الطاهريين الذين استولوا على كثير من الأراضى التى كان الديلم ينتفعون بها فى الرعى والاحتطاب، وحولوها إلى إقطاعات لهم ولرجالهم.

والدافع الاقتصادى أيضًا هو الذى أغرى جموع الديلم بالخروج من بلادهم الفقيرة ذات الطبيعة الوعرة القاسية إلى الهجرة جنوبيًا نحو خراسان وفارس، وأخيرًا العراق.

وتضافرت هذه العوامل مع الطموح الشخصى، وبريق الزعامة الذى دفع قادة الديلم إلى التمرد على سادتهم الزيديين، وإلى الصراع فيما بينهم حول السلطة.

وكان الشعور القومى، والنعرة العصبية محركًا قويًا لنشاط الديلم، فكان مردوايج بن زياد يتشبه بملوك الفرس، ويلبس مثل تيجانهم، ويقول: " أنا أردُّ دولة العجم، وأبطل دولة العرب" (٢٠) وعندما استتب الأمر للبويهيين اتخذوا ألقاب ملوك الفرس مثل لقب شاهنشاه"(٢١) .

أ.د /محمد عبد الحميد الرفاعى

الهوامش:

(١) دونالد ولبر : إيران: ماضيها وحاضرها ص ١٤، ١٥- القاهرة سنة ١٩٥٨م ودولت أحمد صادق: جغرافية العالم -جـ١ آسيا وأوروبا- مكتبة الأنجلو بالقاهرة سنة ١٩٧٠ ص ٣٩.

(٢) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم -طبعة ليدن سنة ١٩٠٩م- ص ٣٥٣.

(٣) ولبر: إيران ماضيها وحاضرها (مرجع سبق ذكره) ص ١٨.

(٤) ابن حوقل: صورة الأرض- الطبعة الثانية- ليدن ١٩٦٧م ص ٣٨١.

(٥) المقدسى: ص ٣٥٣- ٣٥٥.

(٦) ياقوت: معجم البلدان ٢/ ٢٠١.

(٧) المقدسى ص ٣٥٣.

(٨) المصدر السابق ٣٥٥.

(٩) المصدر السابق ٣٦٥.

(١٠) Minorsky : La damination des Daulamites.

(١١) الإصطخرى : المسالك والممالك ص ٧٢.

(١٢) البلاذرى: فتوح البلدان . دار صادر بيروت سنة ١٩٥٧- ص ٤٦٧، ٤٦٨.

(١٣) اليعقوبى- طبعة النجف بالعراق سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م- ص ١٤٢.

(١٤) البغدادى: الفرق بين الفرق- دار المعارف بمصر سنة ١٩١٠م - ص ١٦، ٢٢- ٢٤.

(١٥) أحمد شلبى: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية- الطبعة الرابعة بالقاهرة سنة ١٩٧٤م - ص١٧٠.

(١٦) شتروتمان: دائرة المعارف الإسلامية: مادة الزيدية- ترجمة د. أبى ريدة جـ١١ ص ١٧.

(١٧) ابن الأثير: الكامل- طبعة بيروت سنة ١٩٨٣م- جـ٧ ص ١٣٠، وابن الفقيه: " مختصر كتاب البلدان" - ليدن ١٩٦٧م- ص٣١٢، حمزة الأصفهانى: تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء- برلين سنة ١٣٤٠هـ- ص ١٥٢.

(١٨) المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر- مراجعة وتعليق محيى الدين عبد الحميد- دار الرجاء بمصر- جـ٤ ص ٢٩٥، ابن الأثير: الكامل ٨/ ١٩٠- ١٩٣.

(١٩) المسعودى: مروج الذهب ٤/ ٢٩٩. ابن الأثير: الكامل . أخبار سنة ٣١٦هـ. حمزة الأصفهانى: تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء. محمد الرفاعى: الحركات الاستقلالية فى إيران فى القرنين الثالث والرابع الهجريين- رسالة دكتوراه بكلية دار العلوم سنة ٧٩.

(٢٠) الصولى(أبو بكر) : أخبار الراضى والمتقى بالله (من كتاب الأوراق) - مصر سنة ١٩٣٥- ص١٤٠.

(٢١) ابن الجوزى: المنتظم ٦/ ٢٠٧، ٢٠٨، ابن مسكويه: تجارب الأمم د/ ٣١٥.
شتروتمان: دائرة المعارف الإسلامية - مادة الزيدية.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. Minorsky : La damination des Daulamites
٢. المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم.
٣. ياقوت الحموى: معجم البلدان.
٤. محمد الرفاعى: الحركات الاستقلالية فى إيران فى القرنين الثالث والرابع الهجريين -رسالة دكتواره- كلية دار العلوم جامعة القاهرة ١٩٧٩م.

الديوان

أحد النظم الإدارية الإسلامية التى أسسها الفاروق عمر ﷺ، ولقد فرضت ضرورة التطور الذى شهدته الدولة الإسلامية فى عهده، نشأة هذا الديوان، فقد اتسعت رقعتها وفتح المسلمون البلدان، ودخلت عناصر جديدة فى الإسلام، وانفتح المسلمون على ألوان وأنماط من الثقافات والحضارة الجديدة عليهم، كل ذلك استدعى نشأة الديوان.

والديوان مصطلح فارسى يعنى السجل أو الدفتر، وقد اقتبسه المسلمون وأدخلوه فى مفردات مصطلحاتهم الإدارية ثم طوروه وفق ما اقتضت ظروفهم.

يقول الطبرى: "فى العام الخامس عشر للهجرة دوَّنَ عمر الدواوين، وفرض العطايا على السابقة"[1].

ويتفق مع هذا الماوردى الذى يقول: "إن أول من وضع الديوان فى الإسلام هو عمر ابن الخطاب ﷺ".

واختلف الناس فى سبب وضع الديوان؛ فيذهب البعض إلى القول بأن سبب وضعه هو أن أبا هريرة ﷺ قدم على الفاروق ﷺ بمال كثير من البحرين، فصعد الفاروق المنبر وخطب الناس قائلاً: أيها الناس: جاءنا مال كثير، فإن شئتم كلناه لكم كيلا، وإن شئتم عددناه لكم عدًا. وكان الفاروق يريد أن يسمع رأى الناس، فقال على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وعبد الرحمن بن عوف ﷺ: ابدأ بنفسك، فقال الفاروق: لا ؛ بل أبدأ بعم رسول الله ﷺ.

وقيل إن خالد بن الوليد قال لعمر ﷺ: يا أمير المؤمنين: قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديوانًا وجندوا جندًا. فأخذ برأيه.

ولما زادت الأموال فى المدينة نتيجة فتح العراق والشام جمع الفاروق الناس من صحابة النبى ﷺ فقال: إنى رأيت أن أفرض العطاء لأهله الذين افتتحوه، فقالوا: نِعْمَ الرأىُ رأيتَ يا أمير المؤمنين، ثم قال: بمن نبدأ؟ قالوا: ومن أحق بها منك؟، ومن آمن بها منك؟ قال: لا؛ ولكنى أبدأ بآل رسول الله ﷺ.

كلف الفاروق عمر ﷺ شبابًا من قريش هم: عقيل بن أبى طالب، ومخرمة ابن نوفل، وجبير بن مطعم، بأن يكتبوا الناس على منازلهم، فبدأوا ببنى هاشم، فكتبوهم، ثم كتبوا أبا بكر وقومه، ثم عمر وقومه، وكتبوا القبائل، ورفَعوا ذلك إلى الفاروق ﷺ، فنظر فيه، فقال: ما وددت أن يكون هكذا، ولكن ابدأوا بقرابة رسول ﷺ، الأقرب فالأقرب، حتى تضعوا عمر حيث وضعه الله.

وروى عامر أن عمر ﷺ حين أراد وضع الديوان قال: بمن نبْدأ؟ فقال عبد الرحمن ابن عوف ﷺ: ابدأ بنفسك، فقال الفاروق: حضرت مع رسول الله ﷺ وهو يبدأ ببنى هاشم، وبنى عبد المطلب ثم من يليهم من قبائل قريش بطْنًا بعد بطن حتى استوفى جميع قريش ثم انتهى إلى الأنصار.

ولما استقر ترتيب الناس فى الدواوين على قدر النسب المتصل برسول الله ﷺ، رأى الفاروق ﷺ أن يفاضل بينهم فى العطاء على قدر السابقة فى الإسلام، والقربى من رسول الله ﷺ، ووافقه على ذلك عثمان ﷺ، وبه أخذ أبو حنيفة وفقهاء العراق.

بينما رأى على بن أبى طالب كرم الله وجهه أن يسوى بين الناس فى العطاء، وبذلك أخذ الشافعى ومالك. لكن عمر ﷺ كان لا يرى أن يسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف، كما كان يرى ألا يساوى بين من قاتل رسول الله ﷺ ومن قاتل معه.

واستقر الرأى حين وضع الديوان أن يفرض للناس على أساس السابقة فى الإسلام ففرض لمن شهد بدرًا من المهاجرين الأولين خمسة آلاف درهم فى السنة، وفيهم على بن أبى طالب وعثمان بن عفان وطلحة والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف رضى الله عنهم، وفرض الفاروق لنفسه معهم خمسة آلاف، وألحق به العباس بن عبد المطلب والحسن والحسين، وقيل: إنه فَضَّل العباس وفرض له سبعة آلاف درهم وقيل: خمسة وعشرين ألفا.

وفرض الفاروق ﷺ لمن شهد بدرًا من الأنصار أربعة آلاف درهم ولم يفضّل على أهل بدر إلا أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن لكل واحدة منهن عشرة آلاف إلا عائشة رضى الله عنها ففرض لها اثنى



عشر آلف درهم؛ وألحق بهن جويرية بنت الحارث وصفية بنت حيى بن أخطب، قيل: إنه فرض لهما ستة آلاف درهم لكل واحدة.

وكان نصيب من هاجر قبل الفتح ثلاثة آلاف درهم، ولمن هاجر بعد الفتح ألفى درهم، كما فرض لغلمان من أبناء المهاجرين والأنصار مثلما فرض لمسلمى الفتح.

ورأى الفاروق ﷺ أن يفرض لعمر بن أبى سلمة المخزومى أربعة آلاف درهم. وقد احتج على ذلك محمد بن عبد الله ابن جحش قائلاً: لم تُفَضِّل عمر علينا وقد هاجر آباؤنا وشهدوا بدرًا ؟ وجاء رد الفاروق على ذلك: أفضّله لمكانه مع رسول الله ﷺ، وليأت الذى يستعتب بأم مثل أم سلمة ﷺ أُعْتِبْه.

كما فرض لأسامة بن زيد بن حارثة أربعة آلاف درهم، ومرة أخرى يعاتبه عبد الله بن عمر يقول: فرضت لى فى ثلاثة آلاف وفضَّلت أسامة علىّ؛ وقد شهدت ما لم يشهد أسامة ؟ وكان رد الفاروق أيضًا: زدته لأنه كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ منك، وكان أبوه أحب إلى رسول الله ﷺ من أبيك .

ونرى أن الفاروق فرض للناس على منازلهم وقراءتهم للقرآن الكريم وجهادهم، وهى معايير وأسس رأى الفاروق فيها سببًا فى التفضيل فى العطاء.

وفرض لأهل اليمن والشام والعراق لكل رجل منهم ألفين إلى ألف إلى خمسمائة إلى ثلاثمائة. ولم ينقص أحدًا منها، وقال: لئن كثر المال لأفرضن لكل رجل أربعة آلاف درهم، ألفًا لفرسه، وألفًا لسلاحه وألفًا لسفره، وألفًا يخلفها فى أهله.

وفرض للمولود مائة درهم، فإذا ترعرع بلغ به مائتى درهم.

ولم يكن الفاروق ﷺ يفرض لمولود شيئًا حتى يبلغ الفطام، إلى أن سمع امرأة ذات ليلة تُكْرِه وليدها على الفطام وهو يبكى، فسألها عنه فقالت: إن عمر لا يفرض. للمولود حتى يفطم، فأنا أُكْرِهه على الفطام حتى يفرض له. فقال الفاروق ﷺ: يا ويل عمر ! كم احتقب (تحمل) من وزر وهو لا يعلم ! ثم أعلن: لا تعجلوا أولادكم بالفطام فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام.

يقول الماوردى: "كان يجرى القوت على أهل العوالى حيث قرر جريبا من الطعام، وكان هذا يكفى لثلاثين شخصًا غداء وعشاء، فاستنتج من ذلك أنَّ ما يكفى الرجل جريبان فى الشهر، وكان يرزق الرجل والمرأة المملوكة جريبين فى كل شهر" [٢].

يقول صاحب الأحكام: "الذى يشتمل عليه ديوان السلطنة أربعة أقسام: **الأول:** ما يختص بالجيش من إثبات وعطاء، **والثانى:** ما يختص بالأعمال (الولايات) من رسوم وحقوق، **والثالث:** فيُعْنَى بالعمال (الولاة) من تقليد وعزل، بينما يختص الرابع بأمور بيت المال من دخل وخراج.

وهذا التقسيم يذكره الماوردى عندما اتسعت رقعة الدولة الإسلامية وامتد سلطان الخلافة شرقًا وغربًا.

وإذا كان الديوان فى عصر الفاروق قد اشتمل على العطاء والجند والاستيفاء وجباية الأموال، فقد أضاف الأمويون دواوين أخرى اقتضتها ظروف الدولة ومقتضيات التطور، فكان ديوان الخاتم وديوان البريد وديوان الطراز. فلما انتقل الحكم إلى العباسيين احتاجت الإدارة إلى عدد أكبر من الدواوين، فظهر ديوان المشرق، وديوان المغرب، وديوان السواد، وديوان الرسائل والإنشاء.

وكانت لغة الدواوين فى عصر الفاروق هى اللغة العربية فى العاصمة، أما لغة الدواوين فى الأقاليم فقد ظلت تعمل بلغاتها الفارسية والرومية والقبطية، حتى قام عبد الملك بن مروان بتعريب الدواوين فأصبحت العربية هى اللغة المستخدمة فى كل مرافق الدولة.

ويناط بالديوان إحصاء الدخل وتحديد النفقات فى الدولة الإسلامية فيما يعود بالنفع على الأمة.

وللديوان كاتب وهو صاحب زمامه، ويجب أن يتوفر فيه شرطان: الكفاية، والعدالة. **وتكون واجباته فيما يلى:**

١- حفظ القوانين على الرسوم العادلة، وعليه أن يثبت كل ما يطرأ على تلك القوانين من تعديل، والتأكد مما يقدم له من وثائق وشهادات حتى يضمن العدالة ويحافظ على أموال بيت المال.

٢- استيفاء الحقوق سواء من العاملين أو من القابضين لها من العمال، وهذا يتعلق بالخراج أو غيره من الأموال المستحقة لبيت المال.

٣. إثبات الرفوع، وهى إما رفوع مساحة وعمل أو رفوع قبض واستيفاء، أو رفوع خراج ونفقه.

٤. محاسبة العمال.

٥. إخراج الأحوال: وهذا يعنى تنظيم وتدقيق الأموال الخارجة من بيت المال.

٦. تصفح الظلامات وهى المقدمة إليه من العمال أو الرعية؛ وعليه أن يرد الظُلم عن الرعية خاصة إذا وقع من العمال، وذلك لأنه مندوب لحفظ القوانين واستيفاء الحقوق، وأما إذا كان المتظلم من العمال فإن أمره يرفع إلى ولى الأمر.

أ.د / فتحية النبراوى

الهوامش:

(١) تاريخ الرسل والملوك، ج٣، ص٦١٢ .

(٢) الأحكام السلطانية، ص٢٠٢- ٢٠٣.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. أبو الحسن الماوردى: الأحكام السلطانية. القاهرة، ١٩٦٦م.

٢. صبحى الصالح (دكتور): النظم الإسلامية. نشأتها وتطورها، دار العلم للملايين. بيروت: ط٤، ١٩٧٨م.

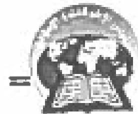
٣. طعيمة الجرف (دكتور): نظرية الدولة والمبادئ العامة للأنظمة السياسية ونظم الحكم. دراسة مقارنة. القاهرة، ١٩٧٨م.

٤. عبد الوهاب خلاف: السياسة الشرعية أو النظم الإسلامية فى الشئون الدستورية والخارجية، دار الأنصار. القاهرة، ١٩٧٧م.

ذات الرقاع (غزوة)

قام بنو مُحارب وبنو ثعلبة من غطفان بأعمال سلب ونهب وتجهيز لقتال المسلمين، فخرج المسلمون لقتالهم، فبعد غزوة بنى النضير أقام الرسول ﷺ[١] بالمدينة ربيع الآخر وبعض جمادى سنة ٤هـ/٦٢٥م، ثم غزا نجدا يريد بنى محارب وبنى ثعلبة واستعمل على المدينة أبا ذر الغفارى، ويقال: عثمان بن عفان. سار النبى بالمسلمين حتى وصل نخلاً[٢]. وقد نُقبتْ أقدام بعضهم وسقطت أظفارهم فكانوا يلقون على أرجلهم الخرق[٣]، فسميت "غزوة ذات الرقاع". وهناك اختلاف حول التسمية هذه.

تقارب الناس ولم يقتتلوا ولم يكن بينهم حرب، وقد خاف الناس بعضهم بعضًا حتى صلى الرسول بهم صلاة الخوف[٤]، وكانت هذه هى المرة الأولى التى يؤدى فيها هذه الصلاة، وقد سجلها القرآن بقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ﴾ (النساء:١٠٢). ولما قفل الرسول ﷺ ومعه الناس راجعين أدركتهم القائلة فى وادٍ كثير العضاة، فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس فى العضاة، يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت شجرة وعلق بها سيفه، قال جابر: فنمنا نومة فجاء رجل من المشركين وسيف النبى ﷺ معلق وهو نائم فاخترطه وقال للنبى: ألا تخافنى؟ قال النبى ﷺ: لا، قال الرجل: فمن يمنعك منى؟ قال: الله يمنعنى منك، فهدده أصحاب النبى ﷺ وأقيمت الصلاة[٥] وكانت غيبة النبى عن المدينة خمس عشرة ليلة. رغم أنه لم يكن قتال إلا أن الغزوة قد حققت أهدافها؛ فبعد أن استهان كثير من القبائل العربية بالمسلمين وقتلوا سبعين من دعاتهم، أدركت قبائل العرب أن المسلمين قادرون على مهاجمة من يعتدى عليهم لتأديبه.



ولم تكرر غطفان ما فعلته بعد ذلك.

وقد اختلف فى هذه الغزوة متى كانت، ذكر ابن إسحاق [٦] أنها كانت سنه ٤ هـ/٦٢٥م بعد بنى النضير وقبل الخندق؛ بينما رجَّح البخارى أنها كانت بعد خيبر ومع ذلك فقد ذكرها البخارى قبل خيبر [٧]

أ.د / ناديه حسنى صقر

الهوامش:

(١) ابن هشام: سيرة النبى ﷺ جـ٣ ص ٢١٤. الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ٥٥٥ وما بعدها.

(٢) " نخلاً": قال ياقوت: منزل من منازل بنى ثعلبة ، على مرحلتين من المدينة ، وقيل: موضع بنجد من أرض غطفان.

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى المجلد ٧ باب غزوة ذات الرقاع ٤١٣٨/٧.

(٤) ابن هشام : السيرة جـ٣ ص ٢١٤ ، المسعودى: التنبيه والإشراف ص ٢٣٠.

(٥) البخارى فى كتاب المغازى، باب غزوة ذات الرقاع.

(٦) ابن هشام، السيرة ، البخارى المجلد ٧ باب غزوة ذات الرقاع ص ٤١٦- ٤٢٨.

(٧) راجع البخارى المجلد ٧ باب غزوة ذات الرقاع ص ٤١٦- ٤٢٨.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن هشام : سيرة النبى ﷺ ، الجزء الثالث.
- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك الجزء الثانى.
- ابن حجر : فتح البارى شرح صحيح البخارى الجزء السابع.
- البخارى : الجامع الصحيح، كتاب المغازى.
- ياقوت : معجم البلدان.

ذات السلاسل

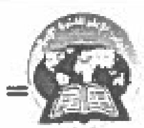
جمع سلسلة، قال البكرى:[1] إن "السلاسل" ماء لجُذَام، وبه سميت تلك الغزوه. وقال ابن إسحاق عن يزيد بن عروة ابن الزبير: "ذات السلاسل" فى بلاد عُذْرة وبلىّ وبنى القَيْن. أما القبائل التى ورد ذكرها فهى بطون من قضاعة، وهى وراء وادى القرىبينها وبين المدينة عشرة أيام[2].

ذكر ابن سعد أن جمعًا من قضاعة تجمعوا وأرادوا أن يدنوا من أطراف المدينة، فدعا النبى ﷺ عمرو بن العاص وعقد له لواء أبيض وبعثه فى ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وقال له: "يا عمرو، **إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلّمك**"، فرد عليه قائلاً: إنى لم أسلم رغبة فى المال. فقال له: "**نعم المال الصالح للرجل الصالح**"[3]. وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنه ٨ هـ (٦٢٩م)، وقيل: ٧هـ (٦٢٨م). كما جاء فى (فتح البارى).

بعثه رسول الله ﷺ ليستنفر العرب والناس، وذلك أن أم العاص بن وائل السَّهْمى كانت امرأة من بَلِىّ[4] فبعثه يستألفهم بذلك. سار عمرو بالجيش حتى إذا كان بأرض جُذَام عند ماء يقال له سلسل وبه سميت الغزوة؛ لقيه جموع الروم ومتنصرة العرب، فخاف فبعث إلى الرسول ﷺ يستمده فبعث إليه أبا عبيدة ابن الجراح فى مائتين من المهاجرين الأولين فيهم أبو بكر وعمر، وقال لأبى عبيدة حين وجهه: "**لا تختلفا**". فخرج أبو عبيدة حتى إذا قدم أراد أن يؤم بالجيش الصلاة، فقال له عمرو: أنا الأمير؛ إنما جئت مددًا لى. قال أبو عبيدة: يا عمرو إن رسول الله قال لى: "**لا تختلفا**"، وإنك إن عصيتنى أطعتك، وصلّى عمرو بالناس.

قال عمرو: حدثت نفسى أنه لم يبعثنى على قوم فيهم عمر وأبو بكر إلا لمنزلة لى عنده، فأتيته حتى جلست بين يديه وقلت: يا رسول الله من أحب الناس إليك؟ قال: "**عائشة**". قلت: من الرجال؟ قال: "**أبوها**". قلت: ثم من؟ قال "**عمر**"، فعد رجالاً. فسكتُّ مخافة أن يجعلنى فى آخرهم[5]. وفى الحديث جواز تأمير المفضول على الفاضل إذا امتاز المفضول بصفة تتعلق بتلك الولاية.

وصل عمرو بلاد بلىّ واجتاح بلاد عُذْرة وبلقين فحمل على الجموع التى لقيها ففروا متفرقين فى البلاد، وتوغل عمرو فى بلاد قضاعة فبسط هيبة المسلمين،



ومهّد للإسلام ودخول بعض القبائل فى حلف المسلمين، ولما انتهى من مهامه أرسل عوف بن مالك الأشجعى ليبشر الرسول بنجاح السرية وعودة المسلمين سالمين.

ولقد كان لعمرو بن العاص فى هذه السرية أفعال أنكروها عليه؛ منها صلاته بالناس جُنُبًا فلم يغتسل وتيمم، ومنها منعه الجيش إيقاد النار مع حاجة الناس إليها لشدة البرد وكثرة الجراح وغير ذلك، وبلغ النبى ﷺ تلك الأفعال فأجازه لما ذكر ووضح من المصلحة للجيش ونجاحه فى تحقيق هدفه من تلك السرية[٦] .

أ.د / نادية حسنى صقر

الهوامش:

(١) معجم ما استعجم جـ٢ ص ٧٤٤، السين واللام.

(٢) ابن حجر: فتح البارى شرح صحيح البخارى. المجلد ٨، ٦٣ باب " غزوة ذات السلاسل" .

(٣) أخرجه ابن حبان كما فى الموارد: ٢٢٧٧، وأحمد فى المسند:١٠٢، ١٩٧/٤. والبخارى فى الأدب المفرد، رقم ٢٩٩، والحاكم فى المستدرك: ٢/٢ ، ٢٣٦.

راجع: إبراهيم العلى: صحيح السيرة النبوية ص ٣٩٨. نشر دار النفائس.

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٣ ص ٣٢.

(٥) أخرجه الترمذى فى المناقب، باب فضل عائشة، رقم: ٣٨٨٦، وابن حبان كما فى الإحسان: ٣٦/٧، رقم:٤٥٢٣ وأخرجه مختصرًا البخارى فى فضائل الصحابة باب قول النبى: " لو كنت متخذًا خليلاً" رقم ٣٦٦٢، والمغازى رقم ٤٣٥٨. ومسلم فى فضائل الصحابة، باب فضل أبى بكر الصديق رقم ٢٣٨٤. والترمذى رقم ٣٨٨٥. والبيهقى: ٢٣٣/١٠، وأحمد فى فضائل الصحابة رقم ١٦٣٧.

(٦) .ابن حجر : فتح البارى مجلد ٨ ص ٧٤ وما بعدها. إبراهيم العلى. صحيح السيرة النبوية ص ٣٩٨ وما بعدها.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- ابن حجر: فتح البارى شرح صحيح البخارى . المجلد الثامن.

٢- البخارى: الجامع الصحيح . والأدب المفرد.

٣- الترمذى: سنن الترمذى

٤- البكرى: معجم ما استعجم.

٥- إبراهيم العلى: صحيح السيرة النبوية.

ذات الصوارى

تعد معركة ذات الصوارى البحرية التى وقعت بين المسلمين والبيزنطيين فى نهاية الثلث الأول من القرن الهجرى الوليد / السابع الميلادى من أهم المعارك البحرية التى وقعت بين الطرفين حتى أن (ارشيبالد لويس) ليعتبر نصر المسلمين فيها أول نصر عربى فى معركة بحرية[١] قضت على أسطورة تملك الروم وسيطرتهم على البحر المتوسط، الذى كان يطلق عليه بحر الروم.

١ـ وقت المعركة:

اختلفت المصادر العربية فى تحديد تاريخ هذه المعركة، وإن اتفقوا على أنها كانت فى الفترة من (٣١- ٣٥هـ/٦٥١- ٦٥٥م)؛ فنرى الطبرى وابن الأثير يذكران أنها كانت عام (٣١هـ- ٦٥١م)[٢] ويرويان فى رواية أخرى أنها كانت سنة أربع وثلاثين هجريًا/ ٦٥٤م[٣]، فى حين يرى ابن عبد الحكم أنها كانت فى العام الخامس والثلاثين من الهجرة/ ٦٥٥م[٤] وهو ما ترجحه المصادر الغربية[٥]؛ فيذكر (أرشيبالد لويس) أنه فى عام ٦٥٥م أعد قسطنطين الثانى خليفة هرقل، أسطولاً كبيرا تراوح عدده من ٧٠٠ إلى ٨٠٠ سفينة شراعيه، والتقى هذا الأسطول فى السنة ذاتها بأسطول صغير مشترك من العرب والمصريين مكوَّنٍ من ٢٠٠ سفينة[٦].

٢ـ مكان المعركة:

وكما اختلفت المصادر التاريخية فى تاريخ وقوعها اختلفت كذلك فى تحديد مكانها، فذهبت المصادر المصرية كابن عبد الحكم وابن تغرى بردى إلى وقوعها بالغرب من الإسكندرية، فنرى ابن عبد الحكم يذكر كيف أن عبد الله بن سعد ذكَّر جنوده هجوم الروم: "بُلِّغتُ أن هرقل قد أقبل إليكم فى ألف مركب"[٧] وهو ما أكده صراحة ابن تغرى بردى بقوله: "غزوة ذات الصوارى البحرية فى ناحية الإسكندرية"[٨]. وعلى هذا جرت معظم المراجع الحديثة والمعاصرة، ومن أشهر أعلام هذا الاتجاه الدكتور حسن إبراهيم [٩] والدكتورة سعاد ماهر التى حددت مكان المعركة وأنه بناحية مرسى مطروح[١٠]. وفى المقابل ذهبت بعض الآراء الغربية إلى أن هذه المعركة وقعت فى آسيا الصغرى؛ فيقول (أرشيبالد لويس) عن السفن العربية إنها

"أقلعت من شواطئ سوريا قرب موضع يقال له فونك"[11]، ويقول فى موضع آخر: " ومما يلفت النظر أن المكان الذى دارت فيه هذه المعركة، وهو ساحل الأناضول يزدحم بغابات السرو الكثيفة، وهو الشجر المستخدم فى صوارى السفن"[12] وهو الرأى الذى يذهب إليه (يوليوس فلهوزن) حيث ذكر أنها كانت قرب شواطئ لوقية[13]، وقد مال إلى هذا الرأى كل من الدكتور محمد فتحى عثمان، والدكتور عبد الهادى شعيرة، فالمعركة دارت فى آسيا الصغرى بوجه عام، وإن كان محمد فتحى عثمان يرى أنها كانت بالتحديد عند جزيرة رودس فى حين يرى د/ شعيرة أنها كانت عند جزيرة أرواد[14]. والذى نراه أنها كانت ناحية الإسكندرية وذلك للأسباب التالية:

(أ) قول ابن عبد الحكم وكذا ابن تغرى بردى وهما من أهل مصر؛ فيكونان بحسب الظاهر أعرف بما جرى فى بلادهما.

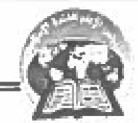
(ب) أن البحرية الإسلامية كانت فى أول عهدها، رغم أنها قامت ببعض المهام الناجحة تجاه جزيرتى قبرص وكريت؛ بينما كانت البحرية البيزنطية عريقة، فليس من الميسور أن تخرج البحرية المصرية فى أول عهدها للهجوم على السفن البيزنطية فى عقر دارها.

(ج) قلة عدد السفن الإسلامية مقارنة بالسفن البيزنطية؛ الأمر الذى يعنى أنها كانت فى موقف الدفاع لا الهجوم.

(د) أن خطة عبد الله بن سعد فى تقسيمه الجيش إلى نصفين أنزل أحدهما إلى البر تحسبًا لنزول الروم إلى البر يؤكد أن المعركة كانت بالقرب من الإسكندرية وأنه كان من المتوقع أن يجعلها البيزنطيون معركة برية[15].

٣- أحداث المعركة:

بدأت المعركة بالتعبئة الروحية لكلا الطرفين من خلال صلاة المسلمين وقراءتهم القرآن الكريم فى اليوم السابق على المعركة، وقام البيزنطيون بدق النواقيس[16]، وتحاوروا فى تحديد أسلوب القتال: هل يكون برًّا أو بحرًا؛ فاختار الروم البحر، على نحو ما يرويه أحد شهود العيان من "أنهم نخروا نخرة شديدة وقالوا: الماء الماء"[17]، ثم بدأ القتال: "تراشقٌ بالنبل والنشاب، فلما نفدت السهام تقاتل الناس بالحجارة فى المخالى، وأخيرًا تم التحام المراكب التى ربطت بعضها ببعض بالحبال والسلاسل، وتقاتل الجيشان بالسيوف وجهًا لوجه



حتى تم للمسلمين النصر"[18]. ويعلل (أرشيبالد لويس) هذا النصر المظفر بقوله: "ويبدو أن انتصارهم جاء نتيجة لخطط غير عادية؛ إذ ربطوا سفنهم بعضها إلى بعض بسلاسل ثقيلة، فاستحال على أعدائهم اختراق صفوفهم. واستخدموا فى تلك المعركة خطاطيف طويلة يصيبون بها صوارى سفن الأعداء، الأمر الذى انتهى بكارثة بالنسبة للبيزنطيين"[19]. وفى ذلك دلالة على شدة عنفوان المعركة، علاوة على كثر عدد السفن حيث بلغت ١٢٠٠ سفينة، فضلاً عن أن خروج الروم "كان فى جمع لم يجتمع للروم مثله قط" [20]. يقول أحد أبطال المعركة واصفًا مجرى القتال: " فربطنا السفن بعضها إلى بعض، حتى كنا يضرب بعضنا بعضًا على سفننا وسفنهم فقاتلنا أشد القتال. ووثبت الرجال على الرجال، يضطربون بالسيوف على السفن ويتواجأون بالخناجر، حتى رجعت الدماء إلى الساحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرجال ركامًا ... وصبرنا يومئذ صبرًا لم نصبره فى موطن قط، ثم أنزل الله نصره على أهل الإسلام" [21].

وكانت حصيلة القتلى من الجانبين كبيرة جدا حتى قيل: " قتل من المسلمين بشر كثير، وقتل من الروم ما لا يحصى" [22]. ومما يؤكد أن قتلى الروم كانوا أكثر من قتلى المسلمين قول الطبرى: " إن الله نصر المؤمنين فقتلوا منهم مقتلة عظيمة لم ينج من الروم إلا الشريد" [23].

٤ـ سبب المعركة:

١ـ تعددت آراء المؤرخين فى سياق الأسباب التى دعت الروم إلى تجييش هذه الجيوش الضخمة لمحاربة المسلمين، فيذهب البعض إلى أن مرد ذلك هو الوقوف أمام التوسع الإسلامى فى البحر، فيكون السبب هو: منع المسلمين من الحصول على الخشب اللازم لصناعة السفن هناك ووقوعه فى قبضة العرب" [24].

٢ـ الثأر من انتصارات المسلمين المتوالية. فقد ذهب بعض المؤرخين إلى أن سبب هذا الهجوم يرجع إلى ما حققه عبد الله بن سعد من انتصار على الروم[25]. فى حين يرى غيرهم أن الهدف كان يكمن فى صرف أنظار المسلمين عن السعى لحصار القسطنطينية وأن الإمبراطور قنسطانز – قسطنطين – أبحر على رأس عمارة بحرية لعرقلة

الاستعدادات البحرية التى كان المسلمون يعدونها فى موانى الشام لشن غارة على القسطنطينية[٢٦] وقد تكون هذه الأسباب كلها كامنة فى ذلك الهجوم.

وإن كان السبب المباشر والأرجح هو الرغبة فى استعادة الإسكندرية على نحو ما حدث قبل ذلك بعشر سنوات عام ٢٥هـ ٦٤٥م واستطاع عمرو بن العاص طرد الروم إلى الأبد منها.

٥. نتائج المعركة:

أسفر انتصار المسلمين على الروم فى هذه الموقعة عن عدد من النتائج والآثار يمكن إجمالها فيما يلى:

١. تنامى القوه البحرية للمسلمين.

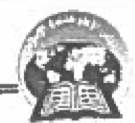
يعد من أهم النتائج التى أسفرت عنها معركة ذات الصوارى هو امتلاك المسلمين للسيادة البحرية ومنافستهم للروم فى البحر المتوسط الذى كان وقفًا عليهم. وقد شبه المؤرخون هذه المعركة البحرية بمعركة اليرموك البرية فقالوا على نحو ما قال (ثيوفانس): كانت يرموكا ثانيًا[٢٧] بل إن بعض المؤرخين يعتبرونها أعظم موقعة حربية شهدها البحر المتوسط منذ موقعة (أكتيوم البحرية) سنة ٣١ قبل الميلاد[٢٨]، كما أنها جعلت العرب يدركون أنهم قد أصبحوا قوة بحرية لها خطرها.

٢. أن هذه المعركة كانت حدًا فاصلاً فى سياسة الروم تجاه المسلمين "فلم يحاول البيزنطيون مصادرة نشاطهم البحرى"[٢٩] لفترة طويلة بعد ذلك.

٣ـ زيادة الأسطول المصرى من جراء هذه المعركة؛ فقد اغتنى المسلمون واستولوا على الكثير من سفن الروم، وكانت هذه السفن نواة للأسطول المصرى الكبير الذى اعترف بفضله فى المعارك التى تمت فى العهد الأموى وفى حصار البيزنطيين[٣٠].

٤. تثبيت الفتح الإسلامى لمصر والشام: فقد غلب على الروم ولفترة طويلة الانكفاء إلى حدودهم التاريخية.

٥- إيجاد نوع من الفوضى الداخلية فى بلاد الروم بسبب قتل (قسطنطين بن هرقل) لفشله فى قيادة الحملة وعدم تمكنه من إحراز النصر، فقد تعددت الروايات البيزنطية فى وقت قتله، وبأيدى من؟ فتذهب بعض الروايات إلى أن الرياح أجبرت سفينته على الحط على صقلية وأن أهلها سألوه عن أمره فأخبرهم بما حدث فما كان منهم إلا أن قالوا له: " أفنيت من بقى من عسكر الروم وجئت إلينا، فلو دخلت العرب إلى بلادنا لم



يجدوا من يردهم. وأنهم أدخلوه الحمام وقتلوه وتركوا من كان معه فى المركب" [٣١]. على أن بعض المصادر تذكر أنه قتل بعد ثلاث سنوات فى بلاطه بواسطة أمير حجابه [٣٢].

٦ـ أن هذا الانتصار الكبير شجع المسلمين على التوجه لفتح القسطنطينية ذاتها عدة مرات حتى تم لهم النصر بعد ذلك من خلال السلطان محمد الفاتح.

أ.د / عبد المقصود عبد الحميد باشا

الهوامش :

1. القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ، ج ١، ص ٩١ - ٩٢ ،مكتبة النهضة المصرية.
2. انظر تاريخ الطبرى ص٤ ص ٢٨٨ ط دار المعارف، مصر، والكامل لابن الأثير ص٣ ،١٧٧ط دار الفكر، سوريا.
3. انظر المصدرين السابقين، وأنظر أيضًا الولاة والقضاة للكندى.
4. فتوح مصر ص ١٢٩ط دار التعاون، مصر.
5. أنظر القوى البحرية ، مصدر سابق، ص٩١.
6. المصدر السابق.
7. فتوح مصر ، مصدر سابق
8. النجوم الزاهرة ط الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.
9. تاريخ مصر فى العصور الوسطى ص ٢٤٨ ط النهضة المصرية.
10. البحرية فى مصر الإسلامية ص ٨٣
11. القوى البحرية ، مصدر سابق ص ٩١.
12. نفس المصدر ص ٩٢.
13. تاريخ الدولة العربية ص ٤٦، ط لجنة التأليف والترجمة ، القاهرة ١٩٥٨م.
14. انظر تحصيل ذلك فى الحدود الإسلامية البيزنطية ص٢ - ٣٠ط، دار الكاتب العربى.
15. انظر هذا الإنزال فى فتوح مصر ، مصدر سابق ص١٣٠.
16. انظر المصدر السابق.
17. نفس المصدر وانظر تاريخ الطبرى، مصدر سابق ٢٩٠
18. فتوح مصر، مصدر سابق.
19. القوى البحرية ، مصدر سابق ص ٩٢.
20. تاريخ الطبرى، مصدر سابق.
21. تاريخ الطبرى مصدر سابق، ٢٩٠ - ٢٩١.
22. الكامل لابن الاثير ص ٣ ١١٨.
23. تاريخ الطبرى، مصدر سابق.
24. القوى البحرية ، مصدر سابق ص ٩٢.
25. انظر تاريخ الطبرى.
26. انظر الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية د/ إبراهيم العدوى ص٥٢ ، ط لجنة البيان العربى، القاهرة.
27. العرب والبحار ، سيدة إسماعيل الكاشف س٨٣.
28. مصر العصور الوسطى، عبد الرحمن الرافعى نقلاً عن عليه الجنزورى: هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، تاريخ المصرين.
29. القوى البحرية مصدر سابق ، ص٩٢.
30. انظر: مصر فى العصور الوسطى - د/ على إبراهيم حسن ، ص٢٤٨، ط دار النهضة المصرية.
31. انظر الكامل لابن الأثير، مصدر سابق ص١٩٩ وانظر أيضًا فتوح مصر، ص١٣٠.
32. انظر هجمات الروم البحرية ، مصدر سابق ص٥٥

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. فتوح مصر لابن عبد الحكم، ط دار التعاون، مصر.
٢. تاريخ الطبرى، دار المعارف مصر.
٣. الكامل لابن الأثير، دار الفكر، سوريا.
٤. النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى، ط الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة.
٥. القوى البحرية والتجارية، ارشبيالد لويس، ط النهضة المصرية.
٦. الحدود الإسلامية البيزنطية، د/ محمد فتحى عثمان، ط الكاتب العربى.
٧. الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية، د/ إبراهيم العدوى، ط لجنة البيان العربى.
٨. هجمات الروم البحرية على شواطئ مصر الإسلامية، د/ عليه الجنزوري، ط الهيئة العامة للكتاب.
٩. البحرية فى مصر الإسلامية، د/ سعاد ماهر.

رأس الرجاء الصالح

Cape of Good Hope

يعد رأس الرجاء الصالح أحد الرؤوس الصخرية على ساحل المحيط الأطلسى فى شبه جزيرة الكيب فى جنوب القارة الأفريقية ، ويشبه رأس الرجاء الصالح الرأس المحدب وهو رأس من اليابسة بالقرب من مدينة الكيب .

وفى الحقيقة إن أقصى نقطة جنوبية فى رأس أجولاس تبعد حوالى مائة وخمسين كيلو مترا إلى الشرق والجنوب الشرقى فى النقطة التى تسمى رأس أجولاس حيث يلتقى المحيطان الأطلسى والهندى فى نقطة يلتقى فيها تيار أجولاس الدافئ مع التيار البارد تيار نبجويلا، ويدور حول نفسه فى نقطة تتأرجح بين رأس أجولاس ونقطة الكيب ، وهى تبعد حوالى كيلو متر شرق رأس الرجاء الصالح .

كان أول دوران حول رأس الرجاء الصالح عام٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م عندما وصل الرحالة البرتغالى بارثليميودياز إلى هذا المكان، وهى نقطة جوهرية محورية فى محاولات البرتغال لإقامة علاقات تجارية مباشرة مع الشرق الأقصى ، وقد أطلق دياز على الرأس اسم رأس العواصف ، ولكن بعد عشر سنوات أى فى ألغى عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م، أطلق عليه الرحالة البرتغالى فاسكودا جاما رأس الرجاء الصالح.

ورغم أن فاسكودا جاما نجح فى إيجاد طريق للسفر بين أوربا والهند بديلاً عن طريق الحرير الذى كان تحت سيطرة المسلمين فى الشرق الأوسط وآسيا فإنه لم ينجح فى حمل أى بضائع ذات أهمية لسكان آسيا الصغرى والهند ، لأن الطريق كان محفوفًا بالمخاطر ، ولم ينج سوى أربعة وخمسين من البحارة البالغ عددهم مائة وسبعة وسفينتين من السفن الأربع التى أبحرت معًا للعودة إلى البرتغال فى عام ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م، وأدت رحلات داجاما إلى سيطرة الأوربيين على القوة والتجارة البحرية لمئات السنين، وأدت إلى استعمار الهند الذى دام لمدة أربعة قرون ونصف.

يستخدم اصطلاح رأس الرجاء الصالح ليدل على محمية طبيعية. وقبل تأسيس اتحاد جنوب أفريقيا كان المصطلح يشير



إلى كل المنطقة التى كانت فى عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م تحمل اسم مديرية رأس الرجاء الصالح .

يستخدم مصطلح رأس الرجاء الصالح أيضًا بمفهوم أوسع، ليدل على المنطقة التى تشغل المستعمرة الأوربية التى ترتكز حول مدينة الكيب ، وقد انقمست مديرية جنوب أفريقيا فى عام ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م إلى ثلاث مديريات هى غربى الكيب، وشرقى الكيب، فضلاً عن أجزاء من المديرية التى انضمت إلى شمال الغرب .

ويقع رأس الرجاء الصالح عند خط ٢١ر٣٤ درجة جنوبًا و ٤٧ر١٨ درجة شرقًا .

التطور التاريخى لرأس الكيب :

كان المستكشف البرتغالى بارثاليميوديـاز أول من وصل إلى رأس الكيب عام ٨٩٣ هـ/ ١٤٨٨م، وعندما حاول الاتجاه شرقًا كانت العواصف قوية فأسماه رأس العواصف (Cape of Storms) وعاد إلى البرتغال حيث تم إعداد معدات أقوى وسفن أضخم وذلك لمعاودة الكرة والوصول إلى هذا الرأس ، وتمت العملية فى عهد الملك البرتغالى جون الثانى (John II) وأطلق عليه رأس الرجاء الصالح (Cape of Good Hope) بسبب التفاؤل العظيم الناجم عن افتتاح الطريق البحرى إلى الهند والشرق .

وكانت الأراضى المجاورة لرأس الرجاء الصالح موطنًا لشعب الخيخويو (الكيكويو) عندما استقر الهولنديون هناك فى عام١٠٦٢هـ/ ١٦٥٢م، وكان هذا الشعب قد وصل إلى هذه المنطقة حوالى القرن العاشر الهجرى /السادس عشر الميلادى قبل أن يحملوا لقب الهونتوت الذى أطلقه الهولنديون عليهم .

أسس الحاكم الهولندى جان فان ريبيك معسكرًا لشركة الهند الشرقية فى منطقة تبعد حوالى خمسين كيلو مترا شمالى الرأس فى خليج تيبل (Table Bay) وذلك فى السادس من شهر إبريل ١٦٥٢، وتطور هذا المعسكر، ليصبح فى النهاية مدينة الكيب ، وكان الحصول على الماء العذب أمرًا شاقًا أثناء الرحلة حول القارة الأفريقية .

وفى ٣١ ديسمبر ١٦٨٧ وصلت جماعة من الهيجونوت إلى الكيب من هولندا ، وكانت قد هربت إلى هولندا بسبب الاضطهاد الذى وجدوه فى فرنسا ، وكان من بينهم بيرجوبورت الذى جاء من لاموت دى إيجيوس لعدة أسباب دينية، وكانت شركة الهند الهولندية فى حاجة

إلى فلاحين مهرة فى رأس الرجاء الصالح، ووجدت الحكومة الهولندية فرصا لجماعات الهيجونوت فى الكيب الذين تم إرسالهم إلى هناك حيث نمت المستعمرة طوال المائة والخمسين عاما التالية حيث امتدت لمئات الكيلو مترات إلى الشمال والشمال الشرقى .

وفى عام ١٢١٠ هـ/ ١٧٩٥م غزت المملكة المتحدة مستعمرة الكيب وبسطت السيطرة على المنطقة فى عام١٢١٨هـ/ ١٨٠٣ م، وفى عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م عادت القوات البريطانية وأعادت احتلالها فى التاسع عشر من يناير فى نفس العام ، وقد تم تسليم المنطقة إلى بريطانيا حسب المعاهدة الهولندية البريطانية ، وفى عام١٢٣٠هـ/ ١٨١٤م تنازلت حكومة هولندا إلى بريطانيا عن مستعمرة الرأس، وكان اكتشاف الماس عام ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م قد شجع على الهجرة واندفاع رأس المال الأجنبى ، وتطورت السكك الحديدية وازداد عدد السكان بسرعة .

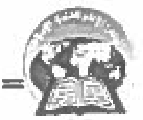
وفى عام ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م صارت المديرية جزءًا من اتحاد جنوب أفريقيا ، وابتداءً من عام ١٣٨١هـ/١٩٦١م صارت جزءًا من جمهورية جنوب أفريقيا .

وفى أواخر القرن العشرين كان ثلث السكان من السود وحوالى الربع من البيض ، وكان معظم الباقين من الملونين (آسيويين وهنود)، ورغم أن اقتصاد منطقة الكيب متنوع فإن الزراعة تمثل العمود الفقرى للإقليم حيث يعمل بها حوالى ثلاثة أخماس السكان السود ، وفى أواخر القرن العشرين كان معظم الصوف والقمح والشعير والفاكهة يأتى من جنوب أفريقيا ، وكان ريش النعام من أهم منتجات الكيب .

تقع جماعات البيض فى مدينة الكيب وجراهامزتون وبورت اليزابث ، وتضم المدينة عددًا من المكتبات والمتاحف .

أثر تحول التجارة إلى رأس الرجاء الصالح:

بعد أن تمكن البرتغاليون من الوصول إلى الهند عبر هذا الطريق عام ٩٠٤هـ/ ١٤٩٨م أخذت التجارة الشرقية التى كانت تصل من المحيط الهندى الذى كان أشبه بوعاء العسل لما فيه من خيرات- أخذت تتحول إلى رأس الرجاء الصالح فلم تعد الإسكندرية المركز الرئيسى الذى تتجمع فيه السلع الشرقية ، وانخفضت الأسعار إلى نصف قيمتها ، وانكمشت الإسكندرية



وغيرها من ثغور البحر المتوسط ، وثغور الدولة المملوكية التى سرعان ما انهارت أمام التوسع البرتغالى بعد هزيمة المماليك فى موقعة ديو البحرية عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م، لتحل محلها الدولة العثمانية التى واصلت الدفاع عن الديار الإسلامية أمام التوسع البرتغالى .

وقد ترتبت على كشف طريق رأس الرجاء الصالح نتائج خطيرة يمكن أن نجملها على النحو التالى :

أولاً : نتائج سياسية :

ترتب على هذا الكشف انفتاح المجال لشرق القارة الأفريقية وبلاد الشرق، وحقق للبرتغال السيادة على الطريق البحرى ، كما أدى هذا الكشف إلى تحالف المماليك والبنادقة لمواجهة الخطر البرتغالى وانتهى بمعركة ديو البحرية عام ٩١٥هـ/١٥٠٩م لتنتهى الدولة المملوكية.

كما ترتب على هذا الكشف محاولة البرتغال الاتصال بملك الحبشة بريسترجون فى محاولة لتطويق المسلمين والتحالف ضدهم فى محاولة لهدم الكعبة المشرفة .

وأيضا ترتب على هذا الكشف دخول بعثات الجزويت البرتغالية لمناطق غير مأهولة، وتركت هذه البعثات آثارها على الحضارة الإثيوبية .

ثانيًا : النتائج الاقتصادية :

ترتب على كشف رأس الرجاء الصالح فقدان مصر موردًا هامًا من موارد البلاد ، وساءت الأحوال الاقتصادية فى مصر، وأهملت موانيها. وكان وجود البرتغاليين على طول الطريق قد ساهم فى انتشار تجارة الرقيق التى افتتحها البرتغال ونقلت آلاف العبيد من القارة الأفريقية إلى العالم الجديد؛ ليبدأ المثلث التجارى الذى استمر لأكثر من ثلاثة قرون، وشاركت فيه دول أوربا مثل هولندا وأسبانيا وفرنسا وإنجلترا ، وكان طريق رأس الرجاء الصالح قد فتح المجال إلى تجارة الرقيق غير المشروعة .

ثالثًا : الناحية الدينية :

لقد كان الدافع الدينى هو أهم الدوافع البرتغالية لضرب المسلمين واحتكار تجارتهم ، وكان هدفهم من الدوران حول القارة الوصول إلى ملك الحبشة ونشر المسيحية ، ثم القضاء على الإسلام والمسلمين .

والحقيقة أن الصراع بين البرتغاليين والمسلمين امتد طويلاً بعد طرد المسلمين من الأندلس، ثم تعقب المسلمين فى القارة الأفريقية ومحاولات الوصول إلى رأس

الرجاء الصالح؛ لضرب التجارة الإسلامية وتحويل طريق التجارة القديم عبر مصر والبحر المتوسط إلى الطريق الجديد .

وكانت البعثات التنصيرية تسير خلف التجار والبحارة وجيوش الاستعمار، وتنافست هذه البعثات على العمل فى أفريقيا ، واشتهر منهم فريق الدومنيكان؛ بالإضافة إلى نشاط جماعات البروتستانت.

رابعًا : الناحية الثقافية :

ترتب على كشف طريق رأس الرجاء الصالح وتحول التجارة بعيدًا عن العالم الإسلامى أن تأخر المجال التعليمى فى هذه البلاد ولم يعد التعليم قائمًا إلا من خلال رجال الإرساليات التى تولت هذه الأعمال .

وباختصار فإن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح كان سابقة خطيرة فى تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب، ولا تزال القارة الأفريقية والعالم الإسلامى يعانى من الآثار الخطيرة التى خلفها كشف طريق رأس الرجاء الصالح.

أ. د/عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مصادر ومراجع للاستزادة:

- Atelson, Eric: South African Explorers, London 1960.
- Bovill, E. W. : The Golden Trade of the Moors : New York 1958.
- Coupland, R.: East Africa and its Invaders, London 1938.
- Duffy, James : Portuguese Africa, London 1959.
- Jackson, Mabel, V.: European Powers and South East Africa, London 1942.
- Moreira, Edwards: Portuguese East Africa, London 1936.
- شوقى عطا الله الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها – القاهرة ١٩٨٠ .
- شوقى الجمل وعبد الله عبد الرازق : تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر – القاهرة ٢٠٠٩.
- راشد البراوى : الرق الحديث فى أفريقيا البرتغالية ١٩٦٢ .
- عبد الملك عودة : السياسة والحكم فى أفريقيا – القاهرة ١٩٥٩ .

الرُّستَمِيون

يُمثِّل قيام " الدولة الرستمية" فى بلاد المغرب ظاهرة لها أهميتها الحيوية فى تاريخ تلك المنطقة من العالم الإسلامى. فهذه الدولة قامت نتيجة للجهود المضنية التى قام بها الخوارج الإباضية، بعد أن انتقلت إليهم مقاليد الصراع من فرقة أخرى من الخوارج وهى فرقة الصفرية.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول بأن جهود "الخوارج الإباضية" هى المقدمات الحقيقية للبناء السياسى للمغرب الإسلامى، لأن الإباضية فى سنة (١٦٠هـ/٧٧٦م)، تمكنوا من الانتقال بمذهبهم من مرحلة الدعوة إلى مرحلة التطبيق العملى لمبادئهم، حيث أسس عبد الرحمن بن رستم - زعيم الإباضية- "الدولة الرستمية" فى المغرب الأوسط، وأصبح هذا الزعيم الإباضى ممثلاً لنظام حكم مثالى، عملى لا نظرى، ملتزم بقواعد الدين الإسلامى.

والحديث عن الدولة الرستمية يشدنا إلى الحديث عن مؤسسها عبد الرحمن بن رستم الذى أجمعت المصادر على أنه فارسى الأصل[1] وإن اختلفت هذه المصادر فيما بينها فى تحديد طبيعة هذا الأصل الفارسى.

أسفرت حركة الفتح الإسلامى فى بلاد فارس، عن انتقال أعداد من الفرس إلى أنحاء الجزيرة العربية، ليعيشوا ضمن المجتمع الإسلامى تحت اسم الموالى؛ وكان بهرام جد عبد الرحمن بن رستم من هؤلاء الموالى، إذ كان مولى لعثمان ابن عفان[2]. وطبيعى أن تتدخل علاقة عثمان ببهرام على هذا النحو فى تحديد المدينة مكانًا طبيعيًا لإقامة بهرام، حيث يكون قريبًا من مولاه عثمان بن عفان، وبالتالى فإن رستم ولد بهرام أقام فى المدينة، وتعتبر إقامة البيت الرستمى على هذا النحو فى المدينة، دعمًا لأركانه الإسلامية حيث يحتمل أنه درج فى بيت الخلافة، فنهل من فيضها الإسلامى الرفيع، وغدا ذلك مُهَيِّئًا عظيمًا لشخصية عبد الرحمن بن رستم.

لقد سلك البيت الرستمى طريقه إلى المغرب ممثلاً فى شخص عبد الرحمن بن رستم الذى لم يكن شب عن الطوق عندما دخل القيروان، التى أصبحت

موطنًا جديدًا له، حيث تفتحت مواهبه فى رحابها على يد فقهائها وعلمائها؛ فقد كانت القيروان من الأمصار الإسلامية الهامة، وقد مال عبد الرحمن بن رستم إلى تعاليم الخوارج كما يقول ابن خلدون: "وأخذ (عبد الرحمن بن رستم) بدين الخارجية والإباضية منهم[٣]، وكان ذلك بتأثير من سلمة بن سعيد داعية الإباضية الذى كان يجتهد آنذاك فى نشر المذهب الإباضى فى ربوع المغرب"[٤].

وانضم عبد الرحمن بن رستم إلى حَمَلَة العلم الذين أرسلهم داعية الإباضية سلمة ابن سعيد إلى أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة[٥] بالبصرة وهم عاصم السدراتى وإسماعيل بن درار الغدامسى وأبو داود النفزى. وراعَى سلمة بن سعيد فى هذا الاختيار أن يكونوا من أماكن متفرقة حتى يتيح للدعوة فرصة الانتشار فى أكبر مساحة ممكنة[٦]، وانضم لهم فى البصرة أبو الخطاب عبد الأعلى بن أبى السمح المعافرى من أهل اليمن[٧].

وقد نجح عبد الرحمن بن رستم عقب عودته من المشرق ومشاركته الإباضية فى صراعهم مع الولاة فى المغرب فى توحيد صفوفه واستقطاب أعداد من الخوارج الصفرية والواصلية إليه عن طريق دعاياته التى تقوم على تحقيق المساواة والتسامح الدينى بين سكان المغرب الأوسط حتى بايعوه عام (١٦٠هـ/٧٧٦م) إمامًا للظهور، وقد شرع بعد مبايعته فى تأسيس مدينة تاهرت لتكون عاصمة دولته الإباضية[٨].

ولا يرجع نجاح الإباضية فى تكوين دولتهم إلى مهارة عبد الرحمن بن رستم وكفايته الشخصية فحسب، بل يرجع كذلك إلى التنظيم والتنسيق الذى اعتمد عليه الإباضية فى حركتهم بين المشرق والمغرب ولاستفادتهم من أخطائهم، فلقد استوعبوا أسباب هزيمة طالب الحق فى حضرموت والتى ترجع إلى تسرعه فى إعلان ثورته دون التأكد من تدعيم مذهبهم فى اليمن، كما كانت إمكانياتهم البشرية والاقتصادية محدودة، علاوة على ذلك فقد تقدمت جميع قياداتهم للقتال فلم يجدوا كوادر جديدة قادرة على تولى مهمة الدعوة بعد فشل ثورتهم[٩]. وهذا ما أدركه تمامًا إباضية المغرب فلم يبادروا بإعلان ثورتهم؛ حتى تأكدوا من تغلغل مذهبهم بين قبائل طرابلس والمغرب الأوسط، كذلك تمكنوا من تأمين مواردهم البشرية والاقتصادية؛ وهو ما أكده عبد الوهاب ابن عبد الرحمن بن رستم حينما قال:

"إنما قام هذا الدين بسيوف نفوسة وأموال مزاتة"[10]، وتفادوا خروج جميع قياداتهم إلى القتال دفعة واحدة، فبينما كان أبو الخطاب فى المواجهة كان عبد الرحمن ابن رستم فى القيروان مما مكّنه من الفرار فى الوقت المناسب ليتحمل مسئولية الدعوة فى المغرب الأوسط، ويكوّن دولته تلك التى تقف فى طليعة الحركات الاستقلالية عن الخلافة العباسية فى بلاد المغرب، وكان قيامها فى بلاد المغرب الأوسط سنة (١٦٠هـ/٧٧٦م)، نذيرًا بتغيير موازين القوى فى المنطقة[11]. حيث إنّ قيامها أجبر الرشيد العباسى على إعطاء أسرة الأغالبة الحق فى إقامة دولة تحمل اسمهم، يتوارثها أبناء هذه الأسرة خالفًا عن سالف[12]. كما أصبح المغرب الأقصى بعد قيام دولة الرستميين فى المغرب الأوسط، منطقة منعزلة بعيدة عن بطش العباسيين وسطوتهم، فأقام فيه الأدارسة الهاشميون دولتهم سنة (١٧٢هـ/٧٨٩م)[13]. وفوق هذا كله أصبحت بلاد الأندلس أكثر أمانًا وعزلة عن العباسيين، مهيأة لأن يقيم فيها عبد الرحمن الداخل الدولة الأموية الثانية.

وإذا كانت هذه هى النتائج الحاسمة لقيام دولة الرستميين، فإن تعدد هذه القوى الجديدة فى بلاد المغرب، واختلاف اتجاهاتها ومشاربها الفكرية والسياسية، قد خلق نوعًا من التوازن والاستقرار السياسى والحضارى، فلم تحاول أيٌّ من هذه القوى إقلاق القوى الأخرى، وإنما كان وجودها طليعة للتنافس فى جميع مجالات الإنتاج الثقافى، وفى كل أسباب الحضارة ومظاهرها، ولندع القوى الأخرى جانبًا؛ لنتحدث عن أهم مظاهر الحضارة فى دولة الرستميين بالمغرب.

نظام الحكم والإدارة:

اتسم نظام الحكم فى مطلع الدولة الرستمية بالبساطة الشديدة، فاتخذ حاكم الدولة لنفسه لقب "إمام"[14]. وبمقتضى ذلك أصبح رئيس الدولة مصدرًا لجميع السلطات دينية كانت أم سياسية، ويظهر ذلك من خلال حوار البيعة، الذى دار بين رؤساء الإباضية وشيوخهم، وبين عبد الرحمن بن رستم حيث قالوا له: "ونحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا، فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا إمام نلجأ إليه فى أمورنا، ونحكم عنده فيما ينوب من أسبابنا. فقال لهم: إن أعطيتمونى عهد الله وميثاقه؛ لتستطيبوا إلى، ولتطيعونى فيما

وافق الحق وطابقه، قبلت ذلك منكم، فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك"[15].

وقد راعى رؤساء الإباضية وشيوخهم - عندما اختاروا عبد الرحمن بن رستم إمامًا للدولة - كل القواعد التى قننت فى المذهب الإباضى حول اختيار رئيس الدولة، وطبقوا شروط البيعة تطبيقًا يكاد يكون حرفيًا. فيروى الشماخى أن رؤساء الإباضية اتفق رأيهم على "عبد الرحمن لفضله، وكونه من حَمَلَة العلم، ولكونه عامل أبى الخطاب على إفريقية وما والاها، ولأنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل"[16]. ويبدو أن فقهاء الإباضية أرادوا أن يضعوا شروطًا مثالية لاختيار إمام دولتهم، فالفضل الذى تحدث عنه الإباضية فى هذا النص، يوازى العدالة، التى تعنى الكمال الأخلاقى بسلامة الاعتقاد والجوارح، والنزاهة فى التصرفات الشخصية[17]. وأما كونه من حملة العلم، فالعلم شرط أساسى يجب توافره فى الشخص المرشح للإمامة، وأيضًا فى طبقة أهل الاختيار، أصحاب الحق فى انتخاب الإمام أو الخليفة فى البيعة الخاصة[18]، أما الشرط الثالث، وهو "كونه عامل أبى الخطاب على إفريقية" فهو شرط يمثل فكرة التعيين أو الوصية، التى تحولت إلى مبدأ الوراثة بعد ذلك فى تسلسل منصب الإمامة فى أبناء عبد الرحمن بن رستم إلى نهاية الدولة[19]. أما المبدأ الرابع، وهو "أنه لا قبيلة له تمنعه إذا تغير عن طريق العدل"، فهو شرط سياسى، يهدف إلى حماية الجماعة الإباضية من الاستبداد، كما يطمح إلى تحقيق الإمامة المثالية، التى يكون العدل عصبيتها[20]. وقد ذكر شيوخ المذهب الإباضى ذلك صراحة حين قالوا: "فإن عدل (عبد الرحمن بن رستم) فذلك الذى أردتم، وإن سار فيكم بغير العدل عزلتموه ولم تكن له قبيلة تمنعه ولا عشيرة تدفع عنه"[21].

وتعنى هذه القواعد السابقة تطورًا واضحًا فى بناء الفكر السياسى للخوارج فى بلاد المغرب، فقد تطرق إلى مبدأ الانتخاب العام- الذى اشتهرت به جماعات الخوارج- بعض المؤثرات، كتسلل فكرة التعيين أو الوصية - التى ازدهرت فى المشرق الإسلامى لدى الشيعة- إلى نظام الحكم فى الدولة الرستمية، فبدأت هذه المؤثرات بسيطة فى ذهن الإباضية. متمثلة فى أن عبد الرحمن بن رستم كان عاملاً لأبى الخطاب على القيروان فى إفريقية،

وتطورت هذه الفكرة إلى أن أصبحت فى الدولة الرستمية فكرة توريث مطلق، وهذا ما يلفت النظر؛ إذ أن الإمامة انحصرت إلى نهاية الدولة الرستمية، فى خلف عبد الرحمن بن رستم، وذلك بالطبع يؤكد تغلب فكرة التوريث والتعيين على مبدأ الانتخاب العام، ويعنى هذا من ناحية أخرى التغلب على الطابع الدينى فى نظم الحكم الرستمية، وتحول الإمامة الرستمية إلى سلطة مركزية أشبه ما تكون بالملكية المطلقة.

وأخذت الدولة الرستمية منذ قيامها بالأساليب المعروفة لإدارة الدول، وإن غلب على هذه الأساليب طابع البساطة، الذى يتناسب وأوضاعَ القبائل التى حكمت الدولة، والتى غلب على معظمها الطابع البدوى؛ فقد وضع عبد الرحمن بن رستم نظامًا بسيطًا للقضاء، والشرطة، وجباية الأموال، والصدقات، وكان الناتج من أموال الجباية والصدقات، يوزع بصفة خاصة على الفقراء والمساكين، وقد يقوم الإمام بشراء الأكسية والجباب الصوفية، والفراء والزيت لهؤلاء الفقراء، أما رواتب الإمام ورجال الإدارة فى الدولة والعمال، فكانت تدفع من مال الجزية وخراج الأرض كما يقول ابن الصغير[٢٣].

وقد قسم الرستميون دولتهم إل
عمالات، حصر البارونى بعضها وخاص
ما كان منها فى شرق الدولة فى المغر
الأدنى، وذكر أهم الولاة والعمال الذي
تولوا هذه العمالات، ومن هذه العمالا
قفصة، وسرت، ونفزاوة، وقنطرار
وجبل نفوسة، وقابس، وجبل دمر[٢
وكان الأئمة الرستميون يتابعون العم
والرعية، عن طريق رسائل يكتبونه
يشرحون فيها مبادئ المجتمع الإباض
وكلها تركز على الأمر بالمعروف والنه
عن المنكر وطاعة الأئمة[٢٤].

وسار الرستميون على سنن المشارق
فى كافة النظم الإدارية الأخرى، الت
تكفل ضبط الأمور فى دولتهم، فأنشأو
جهازًا للشرطة يقوم بأعمال الحراس
والمحافظة على الأمن[٢٥]. وأسس الإمام أبو
اليقظان فرقة كاملة، للقيام بأعمال
الحسبة[٢٦]، وكان أفراد هذه الفرقة من
قبيلة نفوسة الإباضية، وحدد البرادي
وظائفهم التى قاموا بها "بأنهم كانو
يمشون فى الأسواق، يأمرون بالمعروف
وينهون عن المنكر، فإن رأوا قصَّابًا نفخ
فى شاة عاقبوه، وإن رأوا حمَّالا حمل على
دابة فوق طاقتها أنزلوا حملها، وأمروا
صاحبها بالتخفيف عليها، وإذا رأوا قذر

فى الطريق أمروا من حوله بكنسه"[٢٧].

وأقام الرستميون نظامًا تمتع القضاة فى ظله بالنزاهة التامة، وحظوا بالاحترام الكامل من قبل الأئمة، حيث لم يسمح هؤلاء القضاة لأحد بأن يتدخل فى شئونهم[٢٨]. وكان القاضى يرى أن الأئمة وأبناءهم فوق كل الشبهات، وينبغى أن يكون الجميع قدوة طيبة للرعية. لذا نجد القاضى محمد بن عبد الله بن أبى الشيخ يستقيل من منصب القضاء؛ لأن أبناء الإمام أبى اليقظان استغلوا كونهم أبناء الإمام، وارتكبوا بعض الأخطاء فأصبح هذا القاضى بالغداة، كما يقول البرادى، "إلى أبى اليقظان فرمى إليه بخاتمه وقمطره، وقال له: ولِّ على قضائك من تريد، فقال له: ما بك وما عراك؟ فقال: ما نقمت عليك شيئًا، ولكن نقمت على بنيك، قال: تركتهم عالة على الناس، فلما انصرف قال لمن حوله (أبو اليقظان): اذهبوا إليه، واسألوه عن بَنِىَّ فمن ضمر منه مكروه زجرنا، وذهبوا إليه وسألوه فقال: دعونى من موالاته، ما توليت له قضاء أبدًا"[٢٩].

الحياة الاقتصادية:

شهدت بلاد المغرب الأوسط ومناطق كثيرة من المغرب الأدنى فى عهد الدولة الرستمية، ازدهارًا تجاريًا كبيرًا ونموًا عظيمًا فى حركة الاقتصاد، حيث ساعد استقرار هذه المناطق تحت حكم الرستميين على ازدهارها، بعد أن عانت زمنًا طويلاً من عدم الاستقرار الاقتصادى بسبب الاضطرابات التى سادت بلاد المغرب فى عصر الولاة، تلك الاضطرابات التى دمرت عناصر الاقتصاد المغربى فى هذه الفترة، وما تمخض عن الثورات التى قامت خلالها من تخريب للمزارع، وإحراق للأشجار، علاوة على ما أزهق فيها من الأرواح، وما تحدثه حالة الحرب من تهديد مباشر لطرق التجارة، مما كان له أثره السىء فى تفاقم أحوال البلاد الاقتصادية[٣٠].

وباستقرار الأوضاع السياسية بقيام الدولة الرستمية، سارت عناصر الحياة الاقتصادية: الزراعة والصناعة والتجارة، فى طريقها نحو التحسن والازدهار. فكان الرستميون يمتلكون مجالات ضخمة من الأراضى الزراعية وفَّرتْها الوديان ومجارى المياه الكثيرة التى تحيط بعاصمتهم تاهرت، وكانت هذه الوديان – وفيرة المياه- بها كميات ضخمة من الأمطار الغزيرة[٣١]، كان لها أثر كبير فى تكوين السهول الخصبة فى المغرب

الأوسط، وهى السهول المعروفة باسم سهول السرسو فى جنوب تاهرت.

وقد اعتنى الرستميون كثيرا بكميات المياه الوفيرة المتدفقة إلى عاصمتهم فشقوا القنوات التى توصلها إلى بساتينهم ومزارعهم ومنازلهم(٣٢). وكانت أهم المزروعات التى جادت فى المنطقة، الكتان والسمسم، والحبوب(٣٣)، عدا بساتين الفاكهة التى كان السفرجل من أحسن أنواعها الذى يقال إنه يتفوق على سفرجل سائر الآفاق(٣٤). حتى لقد اشتهرت تاهرت بهذا الإقليم الزراعى الخصيب الذى يحيط بها فأطلق عليها عراق المغرب(٣٥).

وازدهرت الصناعة أيضًا فى المجتمع الرستمى، لتلبى حاجات أفراده، وكان لتوفر المواد الخام اللازمة لمختلف الصناعات أثره فى وفرتها، فاشتهرت تاهرت بصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها الصوفية والكتانية والحريرية، لتوفر خامات الصوف والكتان من المراعى والمزارع، واشتهرت مدينة قابس بصناعة دبغ الجلود بالقرظ، وصدرته إلى أكثر بلاد المغرب(٣٦).

كما قام الرستميون بدور بارز متفوق فى مجال التجارة، حيث لم تَعُقْ الخلافات السياسية والمذهبية بين الرستميين وجيرانهم حركة التجارة، ومما أعطى الرستميين دفعة قوية فى هذا المجال، وقوع عاصمتهم تاهرت على طريقين من أشهر الطرق التجارية فى ذلك الوقت: طريق الشرق والغرب، وطريق الجنوب والشمال؛ إذ هيأ لها ذلك أن تكون مركزًا للتبادل التجارى بين بلاد السودان، والمغرب والمشرق، وسواحل البحر المتوسط(٣٧)، فيروى ابن الصغير أنه فى عهد الرستميين: "استعملت السبل إلى بلد السودان وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة"(٣٨). علاوة على ذلك كانت تاهرت مركزًا تجاريًا داخليًا، تلتقى فيه القبائل البدوية لتبيع ماشيتها، وتشترى ما تحتاجه من أسواق تاهرت من الحبوب والتمور والبضائع المستوردة من المشرق والأندلس وبلاد السودان(٣٩).

الحياة الفكرية:

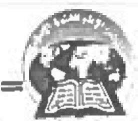
ارتبطت الحياة الفكرية فى عصر بنى رستم ارتباطًا كبيرًا بالمذهب الإباضى، وإذا كان داعية الإباضية الأول سلمة بن سعيد قد تمكن من اختيار أربعة من معتنقى أفكاره الإباضية، وأطلق عليهم اسم حملة العلم، وأوفد هذه الجماعة إلى البصرة لتلقى العلم على يد داعية الإباضية الأكبر أبى

عبيدة مسلم بن أبى كريمة، فإن هذه الجماعات حين عادت إلى بلاد المغرب بدأت فى نشر ثقافة المذهب الإباضى، وذلك فى حلقاتهم التى انتشرت فى جهات إفريقية، وفى تلك الحلقات لقن حملة العلم أتباعهم علم الأصول والفروع والسير والتوحيد والشريعة وآراء الفرق وعلوم اللغة والفلك والرياضيات[٤٠]. وكانت هذه الحلقات بمثابة المدارس التى تلقن طلبتها العلوم النقلية والعقلية فى وقت واحد، كما كانت مركزًا لتعريب البربر، وتحضيرهم[٤١].

وقد أدى نشاط الحركة الفكرية على هذا النحو، إلى أن يتجه الرستميون إلى توثيق علاقاتهم الثقافية بمختلف البيئات العلمية والاحتكاك بمراكز الثقافة سواء فى المغرب والأندلس - فى القيروان وفاس وقرطبة - أو فى المشرق - فى بغداد والبصرة ومصر - وكان الأئمة الرستميون فى طليعة الباحثين عن هذه العلاقات، فتروى بعض المصادر أن الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم "أرسل ألف دينار إلى المشرق إلى إخوانه بالبصرة أن يشتروا له بها الكتب، فلما وصلهم الألف اشتروا بها رقًا فنسخوا له فيها وقر أربعين جملاً كتبًا، فلما بلغته تشمر وجد لقراءتها"[٤٢]. وقد قال عبد الوهاب نفسه عن هذه الكتب إنه قرأها فوجد ما فيها محفوظًا فى ذهنه عدا مسألتين لو سئل فيهما لأجاب عنهما قياسا لما فى هذه الكتب.

كما حرص بنو رستم على تأسيس مكتبة ضخمة، أطلق عليها اسم (المعصومة)، حوت ثلاثمائة ألف مجلد فى مختلف أنواع العلوم والفنون والآداب، وقد قام الشيعة بحرقها، لتدمير كل أثر للفكر الإباضى المعادى لهم، وذلك حين استيلائهم على تاهرت، ولم يتركوا من هذه الكتب إلا ما تعلق منها بالرياضيات والفلك والهندسة والطب[٤٣]. كما وجدت مكتبة أخرى فى جبل نفوسة، اشتهرت (بخزانة نفوسة)، وكانت هى الأخرى تحوى آلافا من مجلدات العلوم[٤٤].

كما كرس الأئمة الرستميون حياتهم لنشر العلم فى المجتمع الإباضى، وحرصوا على القيام بذلك بأنفسهم؛ لأنهم كانوا فى طليعة العلماء، حيث كان العلم شرطًا أساسيًا لتولى الإمامة، فكان بعضهم يقوم بالتدريس فى جامع تاهرت، ومسجد جبل نفوسة[٤٥]. ولم يقف الأمر بهم عند حد التعليم وإنما اشتركوا أيضًا فى حركة التأليف، فيروى أن عبد الرحمن بن رستم كان له ديوان



خُطب نفيس ذكر الورجلانى أنه رآه، وله رسائل متعددة، وجوابات كثيرة فى فنون العلم بعضها موجود وبعضها مفقود[٤٦].
وصنف عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم كتابًا سماه مسائل نفوسة[٤٧]. وله فتاوى مشهورة فى كتب الفقه الإباضى[٤٨]. وكان أفلح بن عبد الوهاب عالمًا بالحساب والفلك والتنجيم، كما كان أديبًا شاعرًا، ذكر البارونى أن له عدة مؤلفات ورسائل وأجوبة جامعة لنصائح ومواعظ وحكم[٤٩].

كما نبغ فى العصر الرستمى عدد كبير من العلماء، كان شيوخ المذهب منهم بصفة خاصة يمثلون فئة اجتماعية ذات شأن كبير فى تاهرت[٥٠]. وكان بينهم علماء سنيون مالكيون كإبراهيم ابن عبد الرحمن التنسى المالكى، وقاسم بن عبد الرحمن، وزكريا بن بكر، وابن الصغير المالكى[٥١]، بل لقد سمح الرستميون للعلماء من غير المسلمين، بمزاولة العلم والتبحر فيه حتى نبغ من بينهم اليهودى يهوذا بن قريش، كتابًا فى فقه اللغة المقارن، بين اللغة العربية والعبرية، والبربرية، وحاول يهوذا فى هذا الكتاب أن يثبت أن اللغات الثلاث أصلها واحد[٥٢]. ومن العلماء من ألف كتبا باللغة البربرية كابن سهل الفارسى[٥٣].

وشاركت المرأة الرستمية فى الحركة الفكرية، فكانت أخت الإمام أفلح بن عبد الوهاب عالمة بالحساب والفلك والتنجيم[٥٤]. كما كانت العالمة مارن إحدى العالمات بدقائق المذهب الإباضى فى جبل نفوسة[٥٥].

ومن المراكز العلمية الهامة فى الدولة الرستمية غير تاهرت، مدينة شروس، بجبل نفوسة، ومدينة جادو، وقرية أجناون، وجزيرة جربه، وورجلان، ومن أشهر العلماء الذين اشتهروا بجبل نفوسة الشيخ مهدى النفوسى، ومحمد بن يانس، وأبو الحسن الأبدلانى، وعمروس بن فتح، وأبو عبيدة عبد الحميد الجناونى، ومعبد الجناونى وغيرهم[٥٦]. وقد أتاح تعايش العلماء على اختلاف مذاهبهم وأفكارهم فى تاهرت عاصمة الرستميين الفرصة لتكوين مدرسة لها معالمها الخاصة وسماتها الواضحة المتميزة فى تاريخ الفكر الإسلامى فى بلاد المغرب.

أ.د / محمد عيسى الحريرى

الهوامش:

(١) اليعقوبى: كتاب البلدان، ص٣٥٣؛ ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٨٧؛ المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ت يوسف أسعد داغر، دار الأندلس، بيروت، ط١٩٦٥، ص١٨٦؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ص٢٢٥، ٢٤٦ (يقول السمعانى فى ضبط الاسم رُسْتَم الذى ينسب إليه الدولة الرستمية (الرُّسْتَمى): بضم الراء وسكون السين وفتح التاء المنقوطة باثنتين من فوقها وفى آخرها الميم، هذه النسبة إلى رُسْتَم، وهو اسم لبعض أجداد المنتسب إليه، والمشهور بهذا الانتساب جماعة من أهل أصبهان قديمًا وحديثًا، وقد ذكر الطبرى الاسم رُسْتَم فتح التاء، ويؤيد الطبرى والسمعانى فى ضبط النسب الرستمى على هذا النحو ابن خرداذبه حيث يقول: " وفى يدى" الرُسْتَمى "وهو ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم وهو من الفرس"، السمعانى: الأنساب، مخطوط، نسخة مصورة نشر المستشرق د.س. مرجليوث، ليدن سنة ١٩١٢، ورقة ٢٥٢؛ الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٤، ص٢٩٤؛ ابن خرداذبه: المسالك والممالك، ص٨٧).

(٢) البكرى: المغرب فى ذكر إفريقية والمغرب، مكتبة المثنى ببغداد، ص٦٧.

(٣) ابن خلدون: العبر، ط دار الكتاب اللبنانى، ج٦، ص٤٦.

(٤) الشامخى: السير، طبع حجر بالجزائر، ص١٢٣.

(٥) هو أبو عبيده مسلم بن أبى كريمة التميمى كان مولى لهم واشتهر بعمل القفاف ويعد من أشهر علماء الإباضية فى مرحلة الكتمان، توفى فى عهد أبى جعفر المنصور، انظر: الشماخى: المصدر السابق، ج١، ص٧٨- ٨٠؛ البارونى: مختصر الإباضية، ص٣٠؛ د. عوض خلفيات: المرجع السابق، ص١٠٢- ١١٥.

(٦) د. الحريرى: الدولة الرستمية، دار القلم، القاهرة ١٩٨٧، ص٨١.

(٧) السيابى: إزالة الوعثاء، ص٣٨.

(٨) د. الحريرى: الدولة الرستمية، ص٩٢؛ وعن قيام الدولة الرستمية وتطورها انظر نفس المرجع، ص٩٠- ١٠٧.

(٩) د. الحريرى: الاتجاهات المذهبية فى اليمن، عالم الكتب، بيروت، ص٢٩.

(١٠) أبو زكرياء: السيرة، ص٥٠.

(١١) اشتملت الدولة الرستمية على المغرب الأوسط- بلاد الجزائر الحالية- والأجزاء الجنوبية من إفريقية – المعروفة الآن بتونس- المتصلة بإقليم جبل نفوسة وطرابلس فى غرب المغرب الأدنى، وهما فى ليبيا الآن.

(١٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ط دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥، ج٦، ص١٥٦- ١٥٧؛ ابن خلدون: العبر، ط بيروت، ج٤، ص٤١٩.

(١٣) ابن عذارى: البيان المغرب، تحقيق ج. س. كولان، أ. ليفى بروفنسال، ط بيروت، ج١، ص٨٢- ٨٣.

(١٤) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين، ص٩.

(١٥) نفس المصدر، ص٩- ١٠.

(١٦) الشماخي: السير، ص١٤٠.

(١٧) سعد زغلول عبد الحميد: تاريخ المغرب العربى، ص٣٨٤.

(١٨) نفس المرجع والصفحة.

(١٩) نفس المرجع، ص٣٨٥.

(٢٠) ابن الصغير: سيرة الأئمة، ص٩.



(٢١) محمود إسماعيل: الخوارج فى المغرب، ص١٩٨.

(٢٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت، ص١٥، ١٦.

(٢٣) البارونى: الأزهار الرياضية، ج٢، ص١٦٥.

(٢٤) المصدر السابق، ص٢١٣- ٢١٧.

(٢٥) المصدر السابق، ١٨٨.

(٢٦) البرادى: الجواهر المنتقاة، مخطوط، ورقة ٩٠؛ أحمد توفيق المدنى: كتاب الجزائر، ط ١٣٥٠هـ، ص٢١؛ الجيلالى: تاريخ الجزائر العام، ج١، ط٢، ص٢٢١.

(٢٧) المصدر السابق، ورقة ٩٠؛ أحمد توفيق المدنى: كتاب الجزائر، ص٢١.

(٢٨) المصدر السابق، ورقة ٩٠.

(٢٩) البرادى: الجواهر المنتقاة، مخطوط، ورقة ٩٠، ٩١.

(٣٠) البلاذرى: فتوح البلدان، ت: د. صلاح الدين المنجد، القسم الأول، ص٢٧٥؛ ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص٧٢- ٧٥؛ د. محمود إسماعيل: الخوارج فى المغرب الإسلامى، ص٢٠٣.

(٣١) ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص١٩٨.

(٣٢) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت، ص١٠.

(٣٣) البارونى: الأزهار الرياضية، ج٢، ص١٧.

(٣٤) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص٦٧.

(٣٥) البارونى: الأزهار الرياضية، ج٢، ص١٦.

(٣٦) ابن حوقل: صورة الأرض، ص٧٢.

(٣٧) د. الحبيب الجنحاني: المغرب الإسلامى، ص١٣٢.

(٣٨) ابن الصغير: سيرة الأئمة الرستميين فى تاهرت، ص١٣، وبلد السودان فى النص هى السودان الغربى، وكانت فى ذلك الوقت تشتمل على الأقاليم الخمسة التى كونت مملكة مالى الكبرى، وهى من الشرق بلاد تكرور، ثم كوكو، فمالى، فصوصو، فغانة، وكل مملكة من هذه الممالك كانت مستقلة بذاتها عن الأخرى، (د. صلاح الدين المنجد: مملكة مالى عند الجغرافيين المسلمين، دار الكتاب الجديد، بيروت ١٩٦٣، ص١٠٣- ١١٠).

(٣٩) د. الحبيب الجنحانى : المغرب الإسلامى، ص١٣٤.

(٤٠) البرادى: الجواهر المنتقاة، مخطوط، ورقة ١٠٦؛ د. محمود إسماعيل: الخوارج فى المغرب، ص٢١٩.

Masqueray, E: Chronique h'Abouzakaria Alger, 1878, p. ixi.

(٤١) المصدر السابق، ص٢١٩.

(٤٢) الشماخى: السير، ص١٥٥.

(٤٣) الشماخى: السير، ص١٥٥.

(٤٤) البارونى: الأزهار الرياضية، ج٢، ص٢٠٩؛ د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص٥٧٦؛ دبوز: تاريخ المغرب الكبير، ج٣، ص٧٨.

(٤٥) المصدر السابق، ص٢٠٩.

(٤٦) الشماخى: السير، ص١٥٩؛ د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، ص٥٧٤.

(٤٧) البارونى: الأزهار الرياضية، ج٢، ص٩٨.

(٤٨) د. أحمد مختار العبادى: دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس، ط أولى ١٩٦٨، ص٤٧.

(٤٩) المرجع السابق، ص١٦٤.

(٥٠) المرجع السابق، ص١٨٧؛ الشماخى: السير، ص١٩٢؛ الزركلى: الأعلام، ط ثانية ١٩٥٤، ج١، ص٣٤٢.

(٥١) د. الحبيب الجنحانى: المغرب الإسلامى، ص١٣٧.

(٥٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥٣) أحمد توفيق المدنى: كتاب الجزائر، ص٧٩، ٨٠.

(٥٤) البارونى: الأزهار الرياضية، ج٢، ص٦٨.

(٥٥) المصدر السابق، ص١٩٤.

(٥٦) على يحيى معمر: الإباضية فى موكب التاريخ، ط ١٩٦٤، ج٢، ق١، ص٨٩- ٩٢.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير: أبو الحسن على بن أحمد بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم عبد الواحد الشيبانى (٦٣٠هـ): الكامل فى التاريخ، الجزء الثالث والرابع والخامس والسادس والسابع، طبعة دار صادر، بيروت، ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م.

٢. إسماعيل بن موسى الجيالطى النفوسى (٧٥٠هـ): كتاب قناطر الخيرات، القسم الأول، تحقيق: عمرو خليفة النامى، مكتبة وهبة، ١٩٦٥.

٣. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ): العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، الجزء الرابع والسادس، طبعة دار الكتاب اللبنانى، بيروت ١٩٥٨م، وطبعة مؤسسة الأعلمى ببيروت.

٤. ابن أبى دينار: أبو عبد الله محمد بن أبى القاسم الرعينى القيروانى: المونس فى أخبار إفريقية وتونس، تحقيق: محمد شمام، نشر المكتبة العتيقة بتونس، ط الثالثة، ١٣٨٧هـ.

٥. إبراهيم أحمد العدوى (دكتور): بلاد الجزائر تكوينها الإسلامى والعربى، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٠م.

٦. محمد عيسى الحريرى: الدولة الرستمية فى المغرب الإسلامى حضارتها وعلاقاتها الخارجية بالمغرب والأندلس، دار القلم، الكويت، ١٩٨٧م.

الرسوليــون
(الدولة الرسولية فى اليمن)

يعتبر عصر الدولة الرسولية من أعظم العصور التى بزغ شمسها فى سماء اليمن إبان العصور الوسطى، وامتد ظله على أرض اليمن أكثر من مائتى عام، وشهدت خلاله مجموعة من المتغيرات كالاستقرار السياسى والنهضة الاقتصادية والعمرانية والتنوع الفكرى والمذهبى مما جعلها فى مصاف الدول التى حكمت اليمن منذ قيام دولة الإسلام، ومن هذا المنطلق سيدور الحديث عن عصر الدولة الرسولية من خلال عدة جوانب:

الجانب السياسى للدولة الرسولية:

قامت الدولة الرسولية على أنقاض الدولة الأيوبية فى اليمن الممتد حكمها بين عامى ٦٠١- ٦٢٦هـ/١٢٠٤- ١٢٢٩م. ويعود مجئ بنى رسول إلى اليمن إلى الفترة الأيوبية فى عهد السلطان الأيوبى طغتكين سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م[1]، حيث ارتقوا السلم الإدارى والاجتماعى فى مدة قصيرة جداً، وعلا شأنهم بعد قدوم الملك المسعود الأيوبى سنة ٦١٢هـ /١٢١٥م، فاتخذ منهم العديد من القادة وولاهم الإقطاعيات والبلدان والحصون اليمانية، كما عين نور الدين عمر بن على بن رسول نائباً عنه فى اليمن ومكة[2] وهو الذى يعد المؤسس الفعلى للدولة الرسولية، وتمكن من إسباغ الصفة الشرعية على حكمه لبلاد اليمن - بعد استقلاله عن الأيوبيين- عن طريق أخذ الموافقة من الخليفة العباسى ببغداد، واتخذ من مدينة تعز حاضرة لدولته، ولكنه لم يستمر طويلا فى الحكم حيث قتله مماليكه فى ٦٤٧هـ/١٢٥٠م[3].

تولى بعده السلطان المظفر يوسف بن عمر الذى استطاع أن يرسى قواعد الحكم فى الدولة الرسولية وواصل توسعاته على حساب دولة الأئمة الزيدية وتصدى لها، كما تمكن من القضاء على المنافسة الشرسة من قبل أبناء البيت الحاكم، وكان المظفر حسن السياسة والتدبير، وتوفى فى عام ٦٩٤هـ/١٢٩٥م[4]، وخلفه فى الحكم ابنه الملك الأشرف عمر الذى استطاع أن يقبض الحصون والمدن، كما استطاع أن ينهى على صراعه مع أخيه

المؤيد على الحكم عن طريق هزيمته وأسره فى السجن إلى أن توفى فى ٦٩٦هـ/١٢٩٦م[٥].

تم تعيين السلطان المؤيد داود بن يوسف بن رسول (٦٩٦- ٧٢١هـ/ ١٢٩٦- ١٣٢١م) خلفاً لأخيه الأشرف، حصل على التأييد من كافة الحصون ونواحى الدولة، واستقامت له الأمور فى البلاد، إلا أن ذلك لم يدم طويلا؛ فقد خرج عليه العديد من الخصوم، فجهز المؤيد لهم الحملات التى قضت عليهم[٦]، ثم تولى المجاهد على بن داود بن رسول، الذى امتدت فترة حكمه من ٧٢١- ٧٦٤هـ/١٣٢١- ١٣٦٢م، وازدادت فى عصره الصراعات، وكانت فترة حكمه من أشد الفترات ضراوة وتأثيراً على الأوضاع السياسية فى اليمن[٧].

وخلف السلطان الأفضل العباس بن المجاهد على داود بن رسول أباه على العرش، وامتدت فترة حكمه من ٧٦٤- ٧٧٨هـ/ ١٣٦٣- ١٣٧٧م، وقد تميزت بكثرة الاضطرابات والثورات وكثرة الخارجين عليه، وقام ببعض المعارك للحد من أطماعهم التوسعية، وكانت الحرب سجالاً بين الطرفين لم تحسم لأحدهما حتى وفاته فى مدينة زبيد عام ٧٧٨هـ/١٣٧٧م[٨].

وتولى السلطة من بعده ابنه السلطان الأشرف إسماعيل بن العباس بن رسول الذى امتد حكمه (من ٧٧٨- ٨٠٣هـ/ ١٣٧٦- ١٤٠٠م)، وبايعه كبار رجال الدولة وعلماؤها، وأعلنوا له الولاء والطاعة، ونعمت البلاد بحالة من الاستقرار السياسى والهدوء النسبى، لكن سرعان ما تبددت تلك الحالة بسبب قيام القبائل بالثورات، كما قامت القوى الزيدية ببعض الغارات تجاه الدولة، لكنها باءت بالفشل بسبب صمود الحاميات الرسولية على الحدود تجاهها، واتبع الأشرف سياسة العنف فى قمع تلك الاضطرابات[٩].

وبعد وفاة السلطان الأشرف الثانى إسماعيل سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، تولى ابنه السلطان أحمد فى الفترة الممتدة بين عامى ٨٠٣- ٨٢٧هـ/ ١٤٠٠- ١٤٢٣م، التى دخلت الدولة فيها فى طور الانهيار بسبب الصدام والتكالب بين أبناء البيت الرسولى، وثورات القبائل والأئمة الزيدية والمماليك[١٠]، وخلفه ابنه المنصور عبد الله ابن أحمد فى السلطة فى عام ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م وقد كان يوصف بالعدل والصلاح والكرم والشجاعة، لكن

وافته المنية بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم عام٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م[١١] ، ثم تولى من بعده أخوه الأشرف الثالث إسماعيل ٨٣٠- ٨٣١هـ/ ١٤٢٦- ١٤٢٧م، وكان صِغَرُ سنه وضعفه السبب الرئيس فى ظهور الفتنة بين رجال دولته الذين ثاروا عليه وسجنوه[١٢]، وولوا بدلا منه عمه السلطان الظاهر يحيى بن إسماعيل من ٨٣١هـ / ١٤٢٧م الذى ساءت سيرته منذ بداية عهده وعجز عن إخضاع البلاد لحكمه وتوفى عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م[١٣]، ثم تولى ابنه الأشرف الرابع إسماعيل بن الظاهر وسار على سياسة أبيه، فضلاً عن سفكه للدماء لاسيما مع القبائل التهامية فلقب بالمجنون نتيجة أعماله وأساليبه القتالية التى اتسمت بالدموية والعنف[١٤]، ثم تولى بعده ابن عمه السلطان المظفر يوسف الثانى بن عمر بن إسماعيل فى الفترة من ٨٤٥- ٨٥٤هـ/ ١٤٤١- ١٤٥٠م والتى اتسمت بالضعف ونقص الخبرة السياسية، واتخاذ البطانة الفاسدة، وقيام ثورات القبائل والأئمة الزيدية والمماليك[١٥].

تحكم المماليك فى الأمور وأصبح السلاطين ألعوبة فى أيديهم فولوا من شاءوا وعزلوا من أرادوا، حيث ولى المفضل أسد الدين محمد بن إسماعيل بن الأفضل عباس عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م والذى زاد فى ضعف الدولة الرسولية وتجرأ العديد من الخصوم عليها، لكنه قتل فى ذات العام، فتصب المماليك الناصر أحمد بن الظاهر يحيى بن يوسف بن عبد الله بن المجاهد عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م ولقب بالخاسر لسوء سياسته التى كانت سببا فى تعرض البلاد لأشد حالات النهب والتخريب[١٦]، ولم يمر على حكمه عام واحد حتى لزمه المماليك، ثم بحثوا عن البديل ووجدوا ضالتهم فى المسعود صلاح الدين أبى القاسم الذى امتد حكمه ٨٤٧- ٨٥٨هـ/١٤٤٣- ١٤٥٤م، وولوه سلطاناً وهو لا يتجاوز الثلاث عشرة من عمره، وأصبح من أقوى المنافسين للسلطان الرسولى المظفر يوسف الثانى الذى كان يسانده مشايخ بنى طاهر ضد المسعود وغيره[١٧].

حاول المسعود السيطرة على كل أشلاء الدولة المتمزقة لكنه فشل فى ذلك، كما ولى المماليك سلطانا جديدا إلى جانب الاثنين - المظفر والمسعود - وهو المؤيد حسين بن الظاهر يحيى ٨٥٥- ٨٥٨هـ/ ١٤٥١- ١٤٥٤م لخوفهم من قوة السلطان المسعود التى بدأت

تزايد . وبعد فشل المسعود تراجع إلى عدن وأعلن تخليه عن الحكم عام٨٥٨هـ/١٤٥٤م[١٨]، ليبقى المؤيد الذى حاول أن يجد لنفسه الفرصة فى السيطرة على مقاليد الأمور، لكن مشايخ بنى طاهر لم يمنحوه الفرصة وتولوا هم شئون الحكم لتقوم دولة أخرى سميت بالدولة الطاهرية ٨٥٨- ٩٤٥هـ/١٤٥٤-١٥٣٨م[١٩].

واتسمت الدولة الرسولية بالعلاقات الخارجية الطيبة مع جيرانها من بلدان العالم الإسلامى وغيرها، فأقامت علاقات مع مصر[٢٠]، ومكة والحجاز وجازان[٢١]، وبلدان الشرق الأفريقى (السودان- الصومال- الحبشة وغيرها)[٢٢]، كما كانت على علاقات طيبة مع الهند والصين وقاليوط[٢٣]، وعمان والبحرين وفارس وغيرها من البلدان[٢٤]، وقد اتخذت تلك العلاقات مناحى شتى، ومن أهمها المجال التجارى حيث يتم تبادل السفارات والهدايا المتنوعة بغرض تسهيل التجارة عبر ميناء عدن، واختلفت قوة تلك العلاقات واستمراريتها حسب قوة الدولة وضعفها[٢٥].

الجانب الاقتصادى للدولة الرسولية:

شهدت اليمن إبان العصر الرسولى نهضة فائقة فى كافة المناحى الاقتصادية من زراعة وصناعة وتجارة، فالزراعة من الدعامات الرئيسة للاقتصاد اليمنى؛ لأنها تمثل العمل الأساسى لكثير من أبناء اليمن، كما تمثل المورد الرئيسى لمعاش السكان وحياتهم اليومية[٢٦]، وشكلت أحد الموارد الوقفية[٢٧]، واشتركت عدة عوامل فى النهضة الزراعية ومنها وفرة الموارد الطبيعية[٢٨]، والمقومات البشرية[٢٩]، إلى جانب العناية من قبل السلاطين بالنهضة الزراعية والإعفاءات من خراج الأرض، والإمداد بالبذور، وجلب كثير من المحاصيل الزراعية، وإقامة المشاتل وحقول التجارب، وإنشاء العديد من السدود والجسور والقنوات، وتأليف كثير من المصنفات والتقاويم الزراعية ليفيد منها الفلاحون فى التطبيق العلمى التجريبى[٣٠].

وتنوعت المحاصيل الزراعية فى اليمن؛ ومنها الفواكه والنخيل والبُر"القمح"، والمحاصيل الحمضية كالليمون والنارنج وغيره[٣١]، والخضراوات والبقوليات بكافة أنواعها، ومحصول القهوة واللبان، والزراعات العطرية كالورد والنرجس، كما نالت الثروة الحيوانية الرعاية الفائقة من خلال

تخصيص العديد من المراعى والحظائر واصطبلات الخيل المتنوعة حسب الجودة والأصالة والمراحل العمرية والأغراض، ومن أهم الحيوانات المواشى والدواب والأغنام والخيول وغيرها[٣٢].

وحظيت الصناعة اليمنية بنصيب وافر فى النشاط الاقتصادى، ومن أهم العوامل التى ساهمت فى ازدهارها العناية والرعاية من قبل الحكام وعامة الناس، واستقدام أرباب الصناعات المختلفة من البلدان الإسلامية[٣٣]، وتشييد الورش، وتأليف المصنفات فى ميدان الصناعة[٣٤]، كما وُجد فى اليمن آنذاك نظام الطوائف الحرفية، فأسهم ذلك فى دفع عجلة الإنتاج الصناعى[٣٥]، ومن أشهر الصناعات المعروفة فى اليمن الصناعات المعدنية، وصناعة المنسوجات وإنتاج الأقمشة والثياب الحريرية[٣٦]،والصناعات الجلدية[٣٧]،والصناعات الزجاجية[٣٨]، وصناعة الفخار والخزف ذى الألوان الزاهية المختلفة التى أبدع فيها الصانع اليمنى[٣٩]، والصناعات الخشبية[٤٠]، وصناعة العطور والصابون والسكر وبعض مركبات الفاكهة والكعك والحلويات وصناعة الشموع وغيرها من الصناعات[٤١].

كما اشتهرت التجارة، و... اليمن محطة عبور، وقبلة للوا... ومجمعاً للتجارات القادمة من الـ... الهندى والبحر المتوسط، فأسهم ذلـ... ازدهار التجارة بشقيها البرى والبحر... وكانت اليمن تموج بحركة تجـ... داخلية نشطة نتيجة تعدد الأسواق... ساحات المدن والقرى اليمنية؛ كالأ... اليومية مثل سوق البز (الأقمشـ... زبيد[٤٣]، والأسواق الأسبوعية التى... تسمى بيوم انعقادها مثل سوق الـ... بقرية أثافت[٤٤]، والأسواق الكـ... الدائمة مثل سوق الحلقة بصنعاء، و... اليمن الأسواق الموسمية مثل سوق الـ... (موسم حصاد النخيل)[٤٥].

كما كانت التجارة الخارجية ... ملتقى للسفارات الوافدة من الـ... والجنوب الشرقى الآسيوى والـ... الأفريقى، ومن أهم صادراتها للـ... المجاورة الأحجار الكريمة والمنسـ... والبرود اليمنية والسيوف والعطور و... الخيول والأبقار الجيلانية والـ... المجفف، وغيرها من السلع والمنتجا... أما السلع المجلوبة إليها من الـ... المجاورة، فكانت بعض الجلود من... وفارس، والتوابل من الهند، وخـ...

الصندل وأنياب الفيلة والحديد والمسك والسروج من الصين، ومن مصر تم استيراد الحنطة والدقيق والسكر والأرز والصابون، وغيرها من السلع التى تستهلك فى السوق المحلية باليمن(٤٧).

أما عن العملات النقدية المستخدمة آنذاك؛ فقد تعددت دور الضرب فى المدن اليمنية وخاصة صعدة وصنعاء وعدن وزبيد وغيرها، وظهرت الدراهم الفضية والدنانير الذهبية والفلوس النحاسية، على الرغم من أن الدراهم الفضية كانت أكثر استخداماً نظراً لمواكبة العملات المستخدمة آنذاك فى المحيط العربى الإسلامى(٤٨).

كما كان للدولة الرسولية أسطولٌ بحرىٌ يسعى إلى تحقيق الأمن والأمان للسفن والتجارات المارة فى حيزها التجارى(٤٩)، ويحميها من قبل المجورين "القراصنة" المنتشرين فى المحيط الهندى والبحر الأحمر(٥٠)، وقد تمتع ميناء عدن - الملتقى العام للسفارات التجارية الوافدة والصادرة- بهيئة جمركية مكتملة النظام(٥١).

الجانب الاجتماعى للدولة الرسولية:

تكوَّنَ المجتمع اليمنى خلال العصر الرسولى من مجموعة من الأجناس البشرية التى شكلت النسيج العام للمجتمع، وتعددت تلك الأجناس ما بين القبائل العربية والمماليك والأكراد والفرس والأحباش والمقدشيين والزيالعيين والبربر والصوماليين والشوام والهنود والصينيين وغيرهم(٥٢).

وانقسم المجتمع اليمنى إلى العديد من الفئات الاجتماعية التى تباينت حسب الثروة الاقتصادية والوجاهة الاجتماعية والمكانة العلمية والدينية إلى أقسام عدة، يأتى فى مقدمتها السلاطين وأمراؤهم وشيوخ القبائل وكبار الشخصيات والأشراف، ثم يليهم العلماء والفقهاء والتجار، ثم العامة الذين يمثلون القاعدة العريضة للهرم الاجتماعى وتتمثل فى العديد من الأجناس؛ مثل صغار الشخصيات الدينية والعلمية والتجارية وصغار موظفى الدولة، والعمال والحرفيين والعبيد وغيرهم(٥٣).

كما اتسم المجتمع اليمنى خلال تلك الفترة بالعديد من المظاهر الاجتماعية كالاحتفال بعيدى الفطر والأضحى، واستقبال شهر رمضان بالعديد من المظاهر كتزيين البيوت والحوانيت والشوارع، وعادة المسحراتى، وعقد المجالس العلمية والمناقشات الأدبية داخل

ساحات القصور السلطانية[٥٤]، والاحتفال "بالرجبية" وهى أول جمعة من شهر رجب[٥٥]، وعادة "الكثيب" المتعلقة بشهر رجب وتمثل ليلة السابع والعشرين من رجب التى يخرج فيها الناس والسلاطين لإحيائها[٥٦]، وإحياء ليلة النصف من شعبان، والاحتفال بعودة الحاج وعادة "السبوت" "موسم حصاد النخيل" وغيرها[٥٧].

الجانب العلمى والفكرى للدولة الرسولية:

تميزت اليمن فى عصر بنى رسول بالتألق العلمى والإنتاج الثقافى الوافر، حيث خلفت تراثاً فكرياً تنويرياً فى ذلك العصر، الذى يعد أزهى عصور النهضة اليمنية فى شتى الجوانب، فأثمر ذلك ازدهار المعارف المتنوعة والفنون المتقدمة[٥٨]، ويعود ذلك إلى أسس التعليم المتبعة من تعليم الصغار فى المعلامات " الكتاتيب"[٥٩] والتدريس فى المساجد والمدارس على يد نخبة من علماء العصر، وإنشاء العديد من معاقل التعليم والوقف عليها من أجل الاستمرارية فى أداء مهمتها العلمية والتنويرية[٦٠]، كذلك فاعلية الدور القيادى الذى قام به الحكام والسلاطين فى مجال النهضة الثقافية والتراث الفكرى التنويرى، الذى تعددت أدواره فى مناح شتى؛ ومنه تشجيع العلماء بالمكافآت المادي والجوائز السنية والاحتفال بمؤلفاتهم ف مواكب ضخمة، كما برز شغ سلاطين اليمن بطلب العلم على أيدي العلماء من خلال حلقات ومجالس الدر مما جعلهم أبرز العلماء بحثاً وتدقيق وتأليفاً، ويدل على ذلك المصنفات الفري التى سبرت أغوار المعارف والعلوم الت كانوا سباقين إليها خاصة العلو التطبيقية مثل الطب والفلك والبيطر والفلاحة وغيرها[٦١].

ومن أشهر المساجد العلمية التى أد دوراً ريادياً فى التثقيف والتنوير مسجد الأشاعر بزبيد والجامع الكبير بزبيد ومسجد صنعاء، ومسجد ثعبات بعاصم الدولة الرسولية "تعز"، كما شهد المدارس العديدَ من الصور والفعاليات المعرفية التى تشير إلى مكانتهم الفائقة فى درب الحياة العلمية، ومنها المدرس المنصورية والمظفرية والأشرفية والمؤيدي والمجاهدية، وشارك فى إنشاء المدارس العديدَ من الفئات الاجتماعي (السلاطين- الأمراء والأميرات- الأعيان - العلماء - القاعدة الشعبية)[٦٢].

الجانب المذهبى للدولة الرسولية:

شهدت اليمن تنوعاً مذهبياً ليس له نظير؛ فكانت بوتقة انصهرت فيها معظم المذاهب الفقهية (المالكية- الحنفية- الشافعية- الزيدية - الإسماعيلية)، ولكن أغلب أهل اليمن كانوا على المذهب السنى خاصة فى الوسط والجنوب والغرب، فى حين تمركز أتباع المذهب الشيعى فى المناطق الشمالية وبعض المرتفعات.

كما بدأ التصوف يعرف طريقه إلى اليمن كطريقة وسلوك له نظم ومدارس واتجاهات فكرية فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى [٦٣]، وازداد انتشارًا نتيجة لانفتاح الفكرى، ودعم السلاطين له، واتخاذ رجال التصوف وسيلة للتقرب لقلوب الرعية، والإغداق عليهم [٦٤].

بعد مضى أكثر من قرنين من الزمان استشرى الضعف فى بنيان الدولة الرسولية، نتيجة عدة عوامل منها، ضعف السلاطين ونقص الخبرة السياسية، واتخاذ البطانة الفاسدة، والصدام والتكالب بين أبناء البيت الرسولى على السلطة، وسطو المماليك والعبيد على السلطة والتحكم فى مقاليد الأمور [٦٥]، والصراع الدائر بين القبائل بعضها وبعض والزيدية من جانب والقوة السياسية من جانب آخر [٦٦]، كذلك الخلل الذى أصاب قطاعات الاقتصاد جراء عمليات الصراع وسوء السياسية المتبعة، مما أفقد الأمان والاستقرار الذى أثر بالطبع على الواقع الاجتماعى، كذلك الصراع المذهبى الذى اتسم به اليمن على مداره التاريخى [٦٧]، مما أفضى فى نهاية الأمر إلى خلو الساحة لظهور قوة أخرى وليدة على المسرح السياسى ألا وهى قوة بنى طاهر.

د/أحمد محمد عبد الحميد

الهوامش:

(١) ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال، دار العلم، القاهرة، د.ت، ج٢، ص
أما عن نسب الرسوليين وسبب التسمية بهذا الاسم، فتعود إلى جدهم محمد بن هارون بن رستم، الذى كان يقوم بم
دبلوماسية بين الأمراء الأيوبيين وبين حكام البلاد الأخرى، وقد عرف عنه الأمانة، لذلك أطلق عليه لقب"رسول"، و
ناقش هذا الأمر العديد من الباحثين خلال دراسات علمية وبحثية وذهبوا فيها مذاهب متنوعة، منهم: محمد عبد العا
بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما (٦٢٦- ٩٢٣هـ/١٢١٣- ١٥١٧م)، الهيئة المصرية العا
للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ص ٦٣- ٦٥.

(٢) الجندى: السلوك فى طبقات العلماء والملوك، تحقيق محمد بن على الأكوع، وزارة الإعلام والثقافة، صنع
١٩٨٩م، ج٢، ص٥٤١؛ الخزرجى: العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن على الأكوع، مرك
الدراسات والبحوث اليمنى، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٣م، ج١، ص ص ٤١، ٤٦، ٥٢.

(٣) ابن حاتم: السمط الغالى الثمن فى أخبار الغز فى اليمن، تحقيق ركس سميث، طبع ضمن مجموعة ج
التذكارية، لندن، ١٩٧٤م.، ص ٢٣٤؛ عبد الله بن عبد الكريم الجرافى: المقتطف من تاريخ اليمن، مؤسسة دار الك
الحديث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص١٣٣.

(٤) ابن عبد المجيد: تاريخ اليمن المسمى بهجة الزمن فى تاريخ اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشى ومحمد أح
السنبانى، دار الحكمة ، صنعاء، الطبعة الأولى، ص ص ١٧١- ١٧٥.

(٥) الجندى: المصدر السابق، ج٢، ص٥٥٣.

(٦) محمد الفيفى: الأحوال السياسية فى الدولة الرسولية فى عهد السلطان الناصر أحمد(٨٠٣- ٨٢٧/١٤٠٠-
١٤٢٤م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٩م، ص٢٦.

(٧) ابن شاهين: نيل الأمل فى ذيل الدول، تحقيق عمر عبد السلام التدمرى، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج
ص٢١٣؛ فرج السبيعى: الدولة الرسولية فى اليمن فى عصر السلطان المجاهد الرسولى على بن داود ٧٢١
٧٦٤/١٣٢١- ١٣٦٢م _ دراسة تاريخية حضارية، رسالة ماجستير، قسم الدراسات العليا، جامعة أم القرى، مك
المكرمة، ٢٠٠٨م، ص٦٥.

(٨) الخزرجى: المصدر السابق، ج٢، ص ص ١٥٣- ١٥٥، ١٦٨- ١٧١، ٢٠٦- ٢١١.

(٩) ابن الديبع: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار بساط، بيروت، الطبعة الثاني
١٩٨٨م، ص ٣٨٦- ٣٨٧؛ محمد عبد العال: المرجع السابق، ص٢١٨.

(١٠) محمد الفيفى: الدولة الرسولية في اليمن_ دراسة فى أوضاعها السياسية والحضارية (٨٠٣- ٨٢٧هـ/ ١٤٠٠-
١٤٢٤م)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥م، ، ص ص ١١١- ١٣٧.

(١١) طه حسين عوض هديل: الحياة الاجتماعية فى اليمن فى عصر الدولة الرسولية(٦٢٦- ٨٥٨هـ/١٢٢٩- ١٤٥٤)،
رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة صنعاء، ٢٠٠٧م، ص ٢٤.

(١٢) ابن الديبع: المصدر السابق، ص ص ٣٨٧- ٣٩٤.

(١٣) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية فى اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، دار الكاتب العربى، دمش
طبعة١٩٨٤م، ص ص ٢٠٩- ٢١٦،٢٦٠- ٢٦٧.

(١٤) ابن الديبع: المصدر السابق، ص ص٤٠٠- ٤٠١.

(١٥) يحيى بن الحسين: أئمة اليمن غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب، القاهرة، د.ت، ص ٥٧٩؛ طه هديل: المرجع السابق، ص ص ٢٤- ٢٥.

(١٦) ابن الديبع: المصدر السابق، ص ٤٠٣؛ الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١١٦؛ يحيى بن الحسين: المصدر السابق ،ص ٥٨٠.

(١٧) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ١١٧؛ يحيى بن الحسين: أئمة اليمن ،ص ٥٨١.

(١٨) ابن الديبع: قرة العيون، ص ٤٠٤ .

(١٩) المقرئ: عنوان الشرف فى علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافى، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصارى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٧٣؛ بافقيه: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٩م، ص١٢٤ .

(٢٠) خالد القيسى: علاقة سلاطين بنى رسول بمصر (٦٢٦- ٨٥٨هـ/ ١٢٢٩- ١٤٥٤م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم التاريخ، جامعة الإمام سعود، الرياض، ص ص٣٢- ٢٠٨ .

(٢١) الفاسى: شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام، بيروت، د.ت، ج٢، ص ٢٥٠.

(٢٢) مجهول: المصدر السابق، ص ص٨٠، ٩١، ١٦٦، ٢٠٧؛ محمد عبد العال: المرجع السابق، ص ص ٤٣٨- ٤٤٣.

(٢٣) قاليوط: ميناء ومركز تجارى يقع على الشاطئ الغربى لبلاد الهند يشتهر بتجارة التوابل والأحجار الكريمة وغيرها، يقصده العديد من المصريين والأتراك واليمنيين والصينيين وغيرهم. انظر: ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار المسماه برحلة بن بطوطة، تحقيق على المنتصر الكتانى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٨٥م، ج٢، ص ١١٥- ١١٦.

(٢٤) أسامة حماد: مظاهر الحضارة الإسلامية فى اليمن فى العصر الإسلامى ـ عصر دولتى بنى أيوب وبنى رسول، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، ٢٠٠٤م، ص ٢٩٣.

(٢٥) ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٣٠؛ أسامه حماد: المرجع السابق، ص ص٢٩٤- ٢٩٢.

(٢٦) محمود الألوسى: بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، اعتنى بشرحه وتصحيحه محمد بهجة الأثرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، ج٣، ص٤١٧.

(٢٧) وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة الأفضلية العلمية بتعز، ضمن الوقفية الغسانية المحفوظة بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد، تعز، ص ص٩٨- ١٠٢؛ وثيقة الوقف الخاصة بالمدرسة المعتبية العلمية بتعز، ضمن الوقفية الغسانية المحفوظة بمكتب وزارة الأوقاف والإرشاد، تعز، ص ص٤٧- ٥٥؛ أحمد محمد عبد الحميد: الحياة الاجتماعية لعلماء اليمن خلال القرنين ٧- ٨هـ/١٣- ١٤م، مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٤٨، المجلد الأول، ج٢٠١١،٢م، ص ص١٠٨- ١٠٩.

(٢٨) ابن الفقيه الهمدانى: مختصر كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٨٨م، ص٣٧ .

(٢٩) الملك الأشرف: ملح الملاحة فى معرفة التفاحة، تحقيق عبد الله محمد على المجاهد، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٧م، ص ص١٩- ٤٧؛ محمد أمين: تاريخ اليمن الإسلامى فى القرون الهجرية (عصر الولاة)، مطبعة الكيلانى، القاهرة، ١٩٨٥م، ص ٢٠٤.

(٣٠) أسامة حماد: مظاهر الحضارة، ص٢٤٣؛ عصام الدين الفقى: اليمن فى ظل الإسلام منذ فجره حتى قيام الدولة الرسولية، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٨٢م، ص١٨١.

(٣١) ابن المجاور: صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسمى بتاريخ المستبصر، اعتنى به وصححه ووضع هوامشه أوسكر لو ففرين، دار التنوير، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص٢٦٥.

(٣٢) عبد الله الحبشى: اليمن فى لسان العرب، مطابع المفصل للأوفست، تعز، ١٩٩٠م.ص ص٥٢- ٥٣.

(٣٣) طه الأهدل: الحياة الاجتماعية، ص٣١.

(٣٤) الملك المُظفر: المخترع فى فنون الصنع، دراسة وتحقيق محمد عيسى صالحية، مكتبة الشراع العربى، الكويت، ١٩٨٩م، ص ص٦٧- ٧٩، ٩٣، ١٢٠، ١٠٣، ١٢٣؛ البريهى: طبقات صلحاء اليمن المعروف بتاريخ البريهى، تحقيق عبد الله الحبشى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ص ص٦٤، ١٥٥، ١٩٠.

(٣٥) أسامة حماد: المرجع السابق، ص٢٩٠.

(٣٦) ربيع خليفة: مناسج الطراز الخاصة بمدينة صنعاء "دراسة حول المنسوجات اليمنية فى العصر الإسلامى"، (مجلة الإكليل، العدد ٢، ١٩٨٨م)، ص٤٤.

(٣٧) محمد الشميرى: عدن دراسة فى أحوالها السياسية والاقتصادية (٤٧٦- ٦٢٧هـ/ ١٠٨٣- ١٢٣٠م)، دار جامعة عدن، عدن، الطبعة الثانية، ٢٠٠٤م، ص٧٨.

(٣٨) نور المعارف فى نظم وقوانين وأعراف اليمن فى العهد المظفرى الوارف(كتاب ديوانى فى عهد المظفر)، تحقيق محمد عبد الرحيم جازم، المعهد الفرنسى للآثار الشرقية، صنعاء، ٢٠٠٣م، ج١، ص ص ٣٠١، ٣٠٩.

(٣٩) الهمدانى: الإكليل فى أنساب العرب، تحقيق محمد بن على الأكوع، مكتبة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٦٧م، ج١، ص٢٧٤، عبد الله الحداد: مدينة حيس اليمنية_ تاريخها وأثارها الدينية، دار الأفاق العربية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ص٤٩- ٥٢.

(٤٠) ربيع خليفة: الفنون الزخرفية اليمنية فى العصر الإسلامى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ص٩٨- ١٠٣، ١٤٥- ١٤٧.

(٤١) المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٩م، ص٨٦؛ العمرى: مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار _ القسم الخاص بمملكة اليمن، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار الاعتصام، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٥٥.

(٤٢) حسين الويسى: اليمن الكبرى (كتاب جغرافى جيولوجى تاريخى)، مكتبة الإرشاد، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩١م، ج١، ص٢٤ .

(٤٣) ابن المجاور: المصدر السابق، ص ص٨٨، ١٩٢؛ أسامة حماد: المرجع السابق، ص ص٤٠١- ٤٠٢.

(٤٤) أثافت: إحدى القرى اليمنية القريبة من صنعاء عرفت بكثرة الكروم ومعاصر الخمر قديماً. انظر: إسماعيل الأكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص ص١٧- ١٨.

(٤٥) السبوت: ظاهرة اجتماعية زراعية الهدف منها الترفيه عن النفس فى موسم النخيل، حيث يخرج أهالى اليمن إلى زبيد أثناء تلك الفترة التى تمتد لشهرين أو ثلاثة إلى البساتين ، ويطلق عليه: موسم حصاد النخيل . انظر: ابن المجاور، المصدر السابق ص١٧٩ .

(٤٦) الإصطخرى: المسالك والممالك، القاهرة، ١٩٦٢م، ص ص٢٦- ٢٧؛ ابن حوقل: صورة الأرض، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٧٣م، ص ص٤٢- ٤٤؛ أسامة حماد: المرجع السابق، ص ص٣٥٢- ٣٥٣.

(٤٧) ابن خرداذبه: المسالك والممالك، دار صادر، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩م، ص٧١ .

(٤٨) فيصل الطهيمى: مسكوكات بنى رسول الفضية، رسالة ماجستير، قسم الآثار والمتاحف، كلية الآداب،

السعودية، ١٩٩٨م، ص ص ٦٠- ٦٥؛ محمد عيسى الحريري: دار ضرب زيدية فى اليمن فى عهد الإمام عبد الله بن حمزة(٥٣٨- ٦١٤هـ/١١٨٧- ١٢١٧م)، (بحث مقدم لندوة التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، المجلد السادس، ١٩٧٨م)، ص١١٥.

(٤٩) مجهول: تاريخ الدولة الرسولية، ص ص ٢٨٠، ٢١٨، ٢١٦، ٢١٤.

(٥٠) مجهول : ارتفاع الدولة المؤيدية - جباية بلاد اليمن فى عهد السلطان المؤيد داود بن يوسف المتوفى سنة ٧٢١هـ/١٢٣١م، تحقيق محمد عبد الرحيم جازم، المعهد الفرنسى للآثار والعلوم الاجتماعية، صنعاء، ص١٠٦.

(٥١) عبد الحكيم محمد ثابت العرشى: جمارك عدن فى عصر الدولة الرسولية- رؤية تحليلية، بحث ضمن كتاب ندوة عدن بوابة اليمن الحضارية، جامعة عدن، عدن، ٢٠٠١م، ص ص ٤١٩- ٤٣١.

(٥٢) ابن المجاور: المصدر السابق، ص١٣٥؛ أسامة حماد: المرجع السابق، ص ٤٥٢.

(٥٣) الخزرجى: المصدر السابق، ج٢، ص١٢٣؛ طه الأهدل: المرجع السابق، ص ص٩٥- ٢٠٤.

(٥٤) محمد السرورى: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى اليمن فى الدويلات المستقلة من سنه(٤٢٩- ٦٢٦هـ/١٠٣٧- ١٢٢٩م)، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٣٦٥ .

(٥٥) الجندى: المصدر السابق، ج٢، ص٦٥.

(٥٦) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، تحقيق أوسكر لوففرين، منشورات المدينة، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ج٢، ص١٤٦.

(٥٧) الخزرجى: المصدر السابق، ج١، ص ١٤٩؛ ج٢، ص ص١٩٤- ١٩٧.

(٥٨) أحمد محمد عبد الحميد: الحياة العلمية فى اليمن فى القرنين السابع والثامن الهجريين(٦٠١- ٨٠٠هـ/١٢٠٤- ١٣٩٧م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب ، جامعة المنصورة، ٢٠١١م، صفحات متفرقة.

(٥٩) إسماعيل الأكوع: المدارس الإسلامية فى اليمن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٨١م، ص٩٤.

(٦٠) الجندى: المصدر السابق، ج١، ص ص١٧٥، ٤٨١؛ ج٢، ص ص ٢٦١- ٢٦٢.

(٦١) الخزرجى: المصدر السابق، ج١، ص٢٣٤؛ ابن الديبع: قرة العيون، ص٣٣٧؛ عمر كحالة: معجم المؤلفين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٣م، ج٨، ص٦ .

(٦٢) إسماعيل الأكوع: المدارس الإسلامية فى اليمن ؛ الحبشى : حياة الأدب اليمنى، ص٧١- ٨٣ .

(٦٣) محمد الشامى: تاريخ اليمن الفكرى فى العصر العباسى، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧م، ج٣، ص٣١٣؛ عبد الكريم القدسى: التصوف عند أحمد بن علوان_ قضايا وإشكاليات، رسالة ماجستير، قسم الفلسفة، جامعة عين شمس، ١٩٩٥م، ص٤٢.

(٦٤) عبد الكريم القدسى: المرجع السابق، ص٥٠.

(٦٥) حسين بن عبد الله العمرى: الأمراء العبيد والمماليك فى اليمن، دار الفكر المعاصر، بيروت، د.ت، ص ٤٣- ٤٦.

(٦٦) الجندى: المصدر السابق، ج١، ص ٢٤٢؛ محمد الفيفى: المرجع السابق، ص ص ١١١- ١٣٧.

(٦٧) الخزرجى: المصدر السابق، ج١، ص ص ١٧- ٣٧؛ محمد عيسى الحريرى: الاتجاهات المذهبية فى اليمن حتى القرن الثالث الهجرى، عالم الكتب للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٧م، ص٦٤.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. الخزرجي : موفق الدين أبو الحسن على بن الحسن (ت ٨١٢هـ/١٤٠٩م) .

العقود اللؤلؤية فى تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بن على الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمنى – صنعاء، الطبعة الثانية ١٩٨٣م .

٢. مجهول (ت ٨٤٠هـ/١٤٦٣م) : تاريخ الدولة الرسولية فى اليمن، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، دار الكاتب العربى، دمشق ١٩٨٤م .

٣. عبد الله محمد الحبشى: حياة الأدب اليمنى فى عصر بنى رسول، صنعاء ١٩٨٠م .

٤. محمد عبد العال أحمد: بنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية فى عهدهما. الهيئة المصرية العامة للكتاب. الإسكندرية ١٩٨٠م.

الرفـــادة

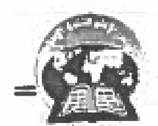
أصل تسمية الرفادة: الرفادة عبارة عن طعام كانت تجمعه قريش كل عام لأهل الموسم من حجاج بيت الله الحرام، ويقولون فى ذلك: هم أضياف الله تعالى[١].

ويعود أصل الرفادة إلى قصى بن كلاب، فهو أول من وضع ضوابط لها فى مكة بعد أن آلت إليه الأمور فيها عقب وفاة والد زوجته حُليل بن حبشية زعيم خزاعة[٢]. ومن ثم فرضها على قريش وقال لهم: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم، وإن الحاجَّ ضيف الله وزوار بيته، وهم أحق بالضيافة، فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج، حتى يصدروا عنها، ففعلت قريش ذلك، فكانوا يُخرِجون فى كل عام من أموالهم خرجًا، فيدفعونه إلى قصى كى يضعه طعامًا للناس أيام منى وبمكة»[٣].

ولما كبر قصى ورق عظمه وكان قد رزق بأربعة أولاد ذكور هم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد، وقيل: نوفل، عَهِدَ بأمر الوظائف -ومنها الرفادة- إلى ابنه البكر عبد الدار، لكون بقية إخوته حازوا من العز والثراء فى حياة قصى، وظل عبد الدار يباشر أمر الرفادة طيلة حياة أبيه، ولكن عقب وفاة أبيه ووفاته هو اختلف بنوه وبنو عمومتهم فى أمر هذه الوظائف، فنازع بنو عبد مناف بنى عبد الدار فى مباشرة وظائف مكة، واختصموا فى ذلك وكاد الأمر يتحول إلى قتال لولا تدخل زعماء مكة الذين نجحوا فى الفصل بينهم، وقاموا بتقسيم أمر هذه الوظائف على بنى عبد الدار وبنى عبد مناف على السواء، فآلت الرفادة إلى بنى عبد مناف الذين ظلوا يباشرونها ويقدمون الطعام للحجاج الذين يقصدون مكة[٤].

الرفادة على عهد هاشم بن عبد مناف:

ولى هاشم بن عبد مناف الرفادة، فكان يُطعم الناس فى كل موسم بما يجتمع عنده من ترافد قريش، وكان يشترى بما يجتمع عنده دقيقًا ويأخذ من كل ذبيحة من بَدَنَةٍ أو بقرة أو شاة فَخِذَها فيجمع ذلك كله ثم يحزر به الدقيق ويطعمه الحاج فلم يزل على ذلك من أمره حتى أصاب الناس فى سنة جدب شديد فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام فاشترى بما اجتمع عنده من ماله



دقيقًا وكعكًا فقدم به مكة فى الموسم فهشم ذلك الكعك ونحر الجَزُرَ وطبخه وحوله ثريدًا وأطعم الناس وكانوا فى مجاعة شديدة حتى أشبعهم فسُمِّى لذلك هاشمًا وكان اسمه عَمْرًا قبل ذلك(٥).

الرفادة على عهد المطلب بن عبد مناف:

عقب وفاة هاشم بن عبد مناف فى أرض الشام، ولى أمر الرفادة من بعده أخوه المطلب بن عبد مناف، وكان أصغر من عبد شمس وهاشم، وكان ذا شرف فى قومه، وكانت قريش إنما تسميه الفيض لسماحته وفضله، وظل المطلب يباشر أمر الرفادة وإطعام الحجاج حتى توفى(٦).

الرفادة على عهد عبد المطلب جد النبى ﷺ:

ولى أمر الرفادة عبد المطلب جد النبى ﷺ عقب وفاة عمه المطلب، فباشرها كأسلافه، وأقامها للناس، مثل ما كان يفعل آباؤه، ومن ثم حظى فى قومه بشرف لم يبلغه أحد من آبائه، فأحبه قومه حبًا شديدًا(٧).

الرفادة فى الإسلام:

عقب وفاة عبد المطلب جد النبى ﷺ ولى أمر الرفادة وإطعام الحجاج من بعده ابنه أبو طالب حتى ظهر الإسلام وهو يباشر أمرها، وعقب ظهور النبى عليه الصلاة والسلام، كان يرسل بمال يعمل به الطعام مع أبى بكر الصديق ﷺ حين حج أبو بكر بالناس فى السنة التاسعة للهجرة/٦٣٠م، ثم قام بذلك النبى ﷺ فى حجة الوداع، ثم قام بذلك أبو بكر الصديق ﷺ طيلة خلافته، ثم من بعده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ فى خلافته، ثم الخلفاء من بعده، وهكذا، واستمر الأمر كذلك حتى يومنا هذا - وإلى يوم القيامة إن شاء الله - ، وهو الطعام الذى يقدم للحجاج فى كل موسم عندما يفدون إلى مكة لزيارة البيت الحرام، ولتأدية فريضة الحج بمكة وبمنى حتى تنقضى أيام الحج كل موسم(٨).

الهوامش:

(١) ابن هشام (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى المعافرى، ت١٨٣هـ) السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وزميليه، (بدون بيانات الطبع). القسم الأول، ج١ ،ص١٢٥، والأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله ، ت٢٥٠هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق: رشدى الصالح، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة، السعودية ١٣٥٢هـ، ج١، ص٦٢، وابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقى ، ت ٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله ابن عبد المحسن التركى، مطبعة هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م، ج٣، ص٢٣٧ .

(٢) ابن هشام: المصدر السابق، القسم الأول، ج١، ص١٢٤ .

(٣) المصدر السابق، القسم الأول، ج١، ص١٣٠، وابن كثير، المصدر السابق، ج٣، ص٢٣٩، وجواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ج٤، ص٥٥ .

(٤) ابن كثير: السابق، ج٣، ص٢٤٣، والأزرقى: المصدر السابق، ج١، ص٦١- ٦٢ .

(٥) الأزرقى: أخبار مكة، ج١، ص٦٣ .

(٦) ابن هشام: السيرة النبوية، القسم الأول، ج١، ص١٣٧ والأزرقى : المصدر السابق، ج١، ص٦٣ .

(٧) ابن هشام: المصدر السابق: القسم الأول، ج١، ص١٢٥ .

(٨) الأزرقى: أخبار مكة، ج١، ص٦٤، جواد على: المفصل، ج٤، ص٥٦ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) الأزرقى: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار .

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى .

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية .

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك .

الـــروم

نشأت الإمبراطورية الرومانية القديمة من تجمع صغير لاتينى على نهر التيبر فى منطقة «لاتيوم» بوسط إيطاليا، ثم تطورت إلى إمبراطورية كبرى استحوذت على كل عالم حوض البحر المتوسط، ولقد طوَّر الرومان حضارتهم التى شكلت أساس الحضارة الغربية الحديثة. ولقد تكوَّن تاريخ روما من ثلاث حقب رئيسية: الحقبة الملكية التى تأسست فيها مدينة روما حتى سنة ٥٠٩ ق.م، وحقبة الجمهورية من سنة ٥٠٩ ق.م حتى ٣١ ق.م. وعهد الإمبراطورية الذى استمر حتى سقوط روما فى النهاية تحت سيادة القبائل الجرمانية فى سنة ٤٧٦ ميلادية. ووفقًا للروايات القديمة فإن روما قد تأسست يوم ٢١ إبريل سنة ٧٥٣ ق.م، ولقد احتفل الرومان القدامى بهذا التاريخ ولايزال هذا التاريخ عيدًا قوميًا فى إيطاليا.

ومنذ عام ٣٩٥ ميلادية انقسمت الإمبراطورية الرومانية إلى قسمين: القسم اللاتينى الغربى والقسم اليونانى الشرقى، الذى عُرف بالإمبراطورية البيزنطية، وعاصمتها القسطنطينية. ولقد عاشت الإمبراطورية البيزنطية حتى عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م حين نجح المسلمون الأتراك فى إسقاط القسطنطينية فى أيديهم. أما الإمبراطورية الرومانية الغربية فقد أخذت أمورها فى التدهور حتى وقعت تحت سيطرة عدة قبائل جرمانية مختلفة. ففى عام ٤١٠ ميلادية هاجم القوط روما، وفى عام ٤٥٥م هاجمها الوندال، وأخيرًا فى سنة ٤٧٦م نجح أدواكر الجرمانى Odoacer فى إزاحة الطفل (رومولوس أوجستولوس Romulus Augustulus) عن الحكم، وبذلك انتهى تاريخ إمبراطورية روما القديمة.

وكانت الإمبراطورية الرومانية فى مطلع القرن الثالث الميلادى، وهى فى حالة ضعفها، قد شهدت ظهور شخص «دقلديانوس» (٢٨٤ - ٣٠٥م) الذى استطاع بشخصيته القوية أن يكتسب ولاء الجند وأن يعلن نفسه إمبراطورًا واستطاع أن يعيد الحياة للإمبراطورية الرومانية وأن يمنحها عشرين عامًا من السلام النسبى، وهى فترة حكمه، إذ استطاع خلالها أن يقيم بناءً إداريًا محكمًا منح الإمبراطورية فرصة جديدة للحياة، وقد ظهرت جهود دقلديانوس الإصلاحية فى ثلاثة مجالات هى: الإدارة

والجيش والمال.

وفى مايو ٣٠٥م. أعلن دقلديانوس تنحيه عن عرش الامبراطورية، بعد أن أدى واجبه فى إنقاذها وتدعيمها فقد بلغ الستين من العمر واستبد به المرض.

وباعتزال دقلديانوس قامت فى بلاد الامبراطورية حرب أهلية استمرت سبعة عشر عامًا، ونشب صراع طويل حول العرش، برزت من خلاله شخصية قسطنطين. وكان قسطنطين أحد المشاركين فى الصراع والحرب الأهلية التى نشبت بعد وفاة دقلديانوس، واستطاع أن يتغلب على منافسيه حتى انفرد بحكم الامبراطورية.

وسار قسطنطين على نهج دقلديانوس فى إصلاحاته الإدارية. وشهد عهد قسطنطين (٣٠٦- ٣٣٧م) حدثين هامين هما: اعتراف قسطنطين بالمسيحية كديانة رسمية فى الامبراطورية وذلك سنة ٣١٣م. كذلك نقل عاصمة الإمبراطورية الرومانية من روما على ضفاف نهر التيبر إلى روما الجديدة، التى أسماها القسطنطينية، على اسمه، على ضفاف البسفور. وقد ساهم هذان الحدثان المهمان فى ظهور ما عُرف فى التاريخ باسم الامبراطورية البيزنطية أو دولة الروم.

ولقد استقر رأى قسطنطين على إقامة عاصمته الجديدة على أنقاض بلدة «بيزنطة» القديمة التى أسسها «بيزاس» فى القرن السابع قبل الميلاد، وبعد أن انتهت عملية البناء قام الإمبراطور قسطنطين بافتتاحها وسط حفل كبير يوم ١١ مايو ٣٣٠م، وقد استمرت الاحتفالات مدة أربعين يومًا.

وهكذا أصبحت القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وهى التى أطلق عليها الغربيون اسم الإمبراطورية البيزنطية، ولم يعترفوا بأنها رومانية، كذلك أطلق العرب المسلمون عليها اسم «دولة الروم» نسبةً لتسميتهم مَنْ سكنها من الرومان باسم الروم فقط لا الرومان.

أصل التسمية:

عرف العرب دولة الرومان باسم بلاد الروم، وأشاروا إليها فى مصادرهم الأدبية والتاريخية بهذا الاسم، ذلك لأن الجزيرة العربية لم تكن بمعزل عن العالم القديم، فقد كانت بسبب وقوعها فى مفترق طرق ذلك العالم، مقصدًا للتجار وقبلتهم، وتعرضت هذه الجزيرة أيضًا لبعض الغزوات الخارجية برغم وعورة صحراواتها. فقد قام الملك السلوقى اليونانى «انتيوخوس الثالث»



بغزو البحرين، وفى عامى ٢٤ و٢٥ ق.م قام «ايليوس جاليوس» الحاكم الرومانى على مصر بغزو اليمن بأمر من الامبراطور الرومانى «أغسطس». وفى المقابل خرج كثير من العرب من شبه الجزيرة واتصلوا بالعالم الخارجى واتجروا معه قبل الإسلام. فسافر العرب إلى بلاد اليونان وإلى مستعمرات الروم فى مصر والشام واستقر هناك بعض منهم كما عرف العرب الحضارتين الآرامية واليونانية.

كذلك كان العرب على علم بأحوال القوتين الكبيرتين اللتين كانتا تحكمان العالم آنذاك وهما دولتا الفرس والروم، ويعرفون التنافس القائم بينهما على السيادة الاقتصادية فى العالم ورغبة كلٌ من الدولتين فى فرض سيطرته على طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب للاستفادة من عائد تلك التجارة الغنية. كذلك أدركوا سعى الإمبراطورية الرومانية من أجل فرض سيطرتها على بلاد الرافدين ومنطقة أرمينية، كذلك أدركوا سعى إمبراطورية الفرس فى استعادة سوريا ومصر من يد الرومان أيام حكم مليكهم (داريوس)، ولذلك وقعت الحرب بين الدولتين مع بداية القرن السادس الميلادى.

وكان الملك الفارسى «خسرو» قد قام بشن الحرب عام ٥٠٢م على الروم فى منطقة القوقاز، وعُقد صلح بينه وبين الإمبراطور الرومانى «جستنيان» عام ٥٣٢م استمر ثمانى سنوات ثم اندلعت بعدها الحرب بينهما، ونجح الملك خسرو فى الاستيلاء على أنطاكية، ثم عقد الصلح بين الدولتين عام ٥٦٢م على أن يظل سارى المفعول مدة خمسين عامًا، لكنه لم يستمر لأكثر من عشر سنوات، فاندلعت الحرب بينهما ثانية عام ٥٧٢م.

ولقد قام كل من الفرس والروم باصطناع العرب الذين سكنوا على حدود امبراطوريتيهم فى الشام وفى العراق، وكونوا من هذه الولايات العربية – ما عُرف باسم «الإمارات الحاجزة» Buffer States لتقف فى وجه القبائل العربية التى كانت تغير على بلادهم وتهدد الأمن فى القرى الزراعية والمراكز التجارية المجاورة لتلك القبائل كلما أصابهم الجدب.

وقد سبق الفرسُ الرومَ فى ذلك إذ قاموا بالاعتراف ببنى لَخْم، وهم من قبيلة «تنوخ» ملوكًا على دولة عُرفت بدولة «المناذرة»، وحذا الروم حذوهم بأن اعترفوا ببنى غسان، الذين كانوا على حدود الشام مع العراق ملوكًا على دولة عُرفت بدولة «الغساسنة». وقد حاول المناذرة والغساسنة أن يقلدوا حضارة

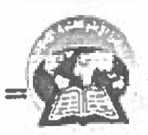
الفرس والروم، فأحاط ملك الحيرة اللخمى نفسه بجميع مظاهر البلاط الفارسى، وكذلك أحاط الملك الغسانى نفسه بجميع مظاهر بلاط القيصر الرومانى. وتوالت وفود العرب على بلاط كسرى ملك الفرس وقيصر امبراطور الروم. كذلك توالت الحروب بين الدولتين العربيتين لصالح الامبراطوريتين الكبيرتين المتنافستين.

ولقد اعتنق الغساسنة المسيحية على المذهب المونوفيزيتى (مذهب الطبيعة الواحدة للمسيح)، وهو المذهب الذى ساد فى مصر وسوريا، وكان مخالفا للمذهب الامبراطورى الملكانى الذى ينادى بالطبيعتين للمسيح: الإلهية والبشرية.

وعندما اعتلى «هرقل» عرش الروم، كان الخطر الفارسى يهدد كل ممتلكات الامبراطورية الرومانية، فقد وسع الفرس فتوحاتهم على حساب الروم واستولوا على كل من سوريا وأرمينية ومدوا أطماعهم إلى البحر المتوسط وطرقت قواتهم أبواب القسطنطينية. وقد ساعد الفرس على نجاح هذا التحرك العسكرى انتشار الاضطرابات التى سادت ولايات الروم الشرقية بسبب الخلافات الدينية بين أهاليها واضطهاد الدولة للعناصر المونوفيزيتية المعارضة لمذهب الدولة الملكانى. ولقد ساعد أهالى هذه البلاد الفرس فى الاستيلاء على بلادهم، وفتحوا أبواب مدنهم لهم ودلوهم على نقاط الضعف فى التسليح الرومى بسبب هذا الاضطهاد، وبسبب سياسة التسامح الدينى التى انتهجها الفرس فى البلاد الرومية المفتوحة، وكان الفرس قد نهجوا سياسة التسامح مع المسيحيين «النساطرة» الذين اعتنقوا هذا المذهب فى بلادهم.

ولقد نجح الفرس فى الاستيلاء على بيت المقدس سنة ٦١٤م وأباحوا هذه المدينة المقدسة لجنودهم ثلاثة أيام، وقتلوا عددًا كبيرًا من أهلها، وأسروا عددًا أكبر منهم، وكان من بينهم الأب «زكريا» بطريرك المدينة. كذلك استولوا على «صليب الصلبوت»، أهم آثار المسيحية الدينية، وهو الصليب الذى يعتقد المسيحيون أن المسيح قد صُلب عليه، ونقلوه إلى عاصمتهم المدائن. ودمرت حرائق الفرس كنيسة «القيامة»، التى كان قد شيدها قسطنطين الكبير، وهى من أقدس الكنائس المسيحية هناك.

وبعد أن غزا الفرس سوريا واستولوا عليها جميعها، قاموا بغزو مصر وفتحها، فسقطت الإسكندرية العاصمة فى يدهم



سنة ٦١٩م، ثم استولوا بعد ذلك فى سهولة على بقية بلاد مصر فى الدلتا والصعيد.

وكان لزامًا على الروم، بعد أن تخلصوا من مشاكلهم الداخلية، أن يتصدوا لغزو الفرس لبلادهم، فتقدمت قواتهم لرد الضربة لهم، وبذلك دخلت الامبراطوريتان الكبيرتان فى حرب ضروس دامت لسنوات طويلة بينهما ولم تنته بنصر لأى منهما، بل أدت هذه الحروب فى النهاية إلى ضعفهما معًا وتضاعُفِ مشاكلهما.

ولقد واجه الامبراطور «هرقل» الخطر الفارسى ووضع حدًا لهجمات الفرس على بلاده ونجح فى قلب هزائم الروم أمام الفرس إلى انتصارات عليهم حتى أنه استرد معظم الأراضى التى كانوا قد استولوا عليها، وزاد على ذلك بأن قام بالهجوم عليهم فى عقر دارهم. ففى سنة ٦هـ/ ٦٢٧م تقدم بجيشه ووصل إلى مدينة «نينوى»، القريبة من الموصل، وهناك دخل مع الجيش الفارسى فى معركة كبيرة نجح هرقل فى إيقاع هزيمة كبرى فيها بالفرس. وبعد هذه المعركة عُزل كسرى عن ملكه وحل مكانه على العرش ابنه «شيرويه» الذى قام بقتله، والذى لم يجد بدًا من عقد الصلح مع هرقل سنة ٧هـ/ ٦٢٨م بعد أن تأكد من عدم قدرة قواته على مجابهة قوات الروم. وبمقتضى هذا الصلح المُذل استرد الروم كل ما كان قد استولى عليه الفرس من بلاد الروم ومستعمراتها بما فى ذلك مصر وسوريا، واستعاد الروم من الفرس «صليب الصلبوت».

ولقد أشار القرآن الكريم إلى نصر الروم هذا فى سورة الروم فى قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم: ١- ٦).

وقد جاءت إشارة القرآن الكريم إلى الرومان الشرقيين (البيزنطيين) باسم «الروم» صراحةً، وهذا دليل على أنَّ العرب آنذاك كانوا يعرفون البيزنطيين باسم الروم، وأنَّ إطلاق اسم الروم عليهم بين العرب آنذاك كان شائعًا ومعروفًا.

رسالة النبى ﷺ إلى هرقل ملك الروم وإلى المقوقس:

واكب ظهور الإسلام السنوات الأولى لحكم امبراطور الروم هرقل، وفى الوقت الذى شرع فيه هرقل فى قتال

الفرس، هاجر الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة فى عام ٦٢٢م حيث وضع أسس وقواعد دولة الإسلام الجديدة. وما أن فرغ من ذلك حتى شرع فى توسيع نطاق الدعوة الإسلامية فولى وجهه شطر بلاد العرب وخارجها، لأن الله تعالى بعثه رسولاً للعالم كافة.

وبعث رسول الله ﷺ، بعد صلح الحديبية، فى العام السادس للهجرة / (٦٢٧م) رُسلاً من أصحابه بكتب إلى ملوك وأمراء البلاد المجاورة يدعوهم فيها إلى الإسلام والإيمان بدعوته ورسالته، وقد قيل لرسول الله ﷺ إن الملوك والحكام لا يقبلون كتابًا غير مختوم، فأمر الرسول ﷺ بصياغة خاتم له، فصيغ له خاتم من فضة ونقشت عليه عبارة «محمد رسول الله»(*).

وكان من بين هؤلاء الملوك والأمراء: هرقل ملك الروم، وقيرس (المقوقس) حاكم مصر مِنْ قِبلِه، والحارث بن أبى شمر الغسانى عامل هرقل على الشام.

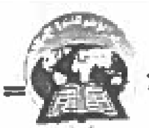
وكان سفير الرسول ﷺ إلى هرقل هو: «دحية بن خليفة الكلبى»، وكتب له الرسول ﷺ كتابًا، وأمره بأن يسلمه إلى حاكم بصرى ومنه إلى هرقل، وقد تلقى حاكم بصرى الكتاب من دحية وقام بتسليمه بدوره لهرقل الذى قرأه، وقد جاء نصه كالتالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنى أدعوك بدعاية الإسلام؛ أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٦٤)

وتروى المصادر العربية بأن هرقل تلقى كتاب الرسول الكريم بقبول حسن وأنه استقبل سفيره بأدب وحفاوة، وأنه حاول استطلاع أمر هذا الدين الجديد. وتحكى بعض الروايات العربية أيضًا بأن هرقل كاد أن يسلم، ولكنه ما لبث أن تراجع عن ذلك خشية أن يقتله رعاياه أو أن يفقد عرشه. بل يعلن «اليعقوبى» صراحة إسلام هرقل.

وبعث الرسول ﷺ سفارة أخرى إلى «قيرس Cyrus» المعروف بالمقوقس، بطريرك الروم ونائب هرقل على مصر، وكان على رأس هذه السفارة «حاطب بن أبى بلتعة»، فى نفس الوقت الذى سار فيه دحية الكلبى إلى هرقل، والتقى حاطب بالمقوقس فى الإسكندرية، وأحسن المقوقس استقباله وأكرمه، وأخذ منه كتاب الرسول ﷺ، الذى ورد فيه



ما نصه:

... بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد بن عبدالله ورسوله إلى المقوقس عظيم القبط، سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم القبط ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

ويقال إنَّ المقوقس بعد أن قرأ الكتاب جعله فى حق من عاج وختم عليه، ثم دعا كاتبًا له يكتب بالعربية، فكتب لرسول الله أرق الردود التى وردت على رسول الله ﷺ وقد جاء كالتالى:

«باسمك اللهم...

من المقوقس إلى محمد... أما بعد،

فقد بُلِّغتُ كتابك وقرأته وفهمت ما فيه، أنت تقول إنَّ الله تعالى أرسلك رسولاً وفضلك تفضيلاً وأنزل عليك قرآنًا مبينًا، فكشفنا يا محمد فى علمنا عن خبرك فوجدناك أقرب داع إلى الله وأصدق من تكلم بالصدق، ولولا أنى ملكت ملكًا عظيمًا لكنت أول من سار إليك لعلمى أنك خاتم الأنبياء وسيد المرسلين والمتقين... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته إلى يوم الدين».

بداية الحرب مع الروم فى عهد الرسول ﷺ وأبى بكر وعمر:

كان المسلمون قد اشتبكوا مع الروم عندما وقفوا ضدهم مع حلفائهم من الغساسنة ونصارى العرب فى معركة «مؤتة» فى جمادى الأولى من سنة ثمان للهجرة (٦٢٩م)، ثم تلتها سرية «أسامة بن زيد» التى توفى رسول الله ﷺ وهى متأهبة للخروج فأكمل الخليفة أبو بكر الصديق سيرها. وكانت تتألف من سبعمائة مقاتل كان الرسول ﷺ قد ندبهم للمسير إلى تخوم البلقاء (شرق الأردن) حيث حققت هذه السرية انتصارًا على العرب المتنصرة المقيمين على أطراف الشام.

وبعد أن فرغ الصديق أبو بكر من حروب الردة، أرسل قواته إلى بلاد الشام لحرب الروم فى ذات الوقت الذى أرسل فيه قواته لحرب الفرس فى بلاد العراق. ولقد تيسر لأبى بكر فى أواخر سنة ١٢ هـ/ ٦٣٣م أن يجهز عدة جيوش لحرب الروم فى الشام، وقد أسند كل جيش منها إلى قائد شجاع، فجعل يزيد بن أبى سفيان (أخا معاوية) على رأس جيش دمشق وجعل القائد اليمنى «شرحبيل بن حسنة الكندى» على جيش وِجْهَتُه الأردن، و«عمرو بن العاص» على جيش

وجهته فلسطين، و«أبا عبيدة بن الجراح» على جيش وجهته حمص، وانتصرت هذه الجيوش جميعها. كذلك كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد، وهو فى جيش العراق، أن يلحق بنصف قواته إلى الشام ليشارك زملاءه فى حرب الروم، وامتثل خالد للأمر وشارك فى معركة «أجنادين» ضد جيش رومى كان بقيادة «تيودور» أخى هرقل. وواصل جيش الشام حروبه بعد أن توفى الصديق أبو بكر سنة ١٣هـ/٦٣٤م، وخلفه فى الخلافة عمر بن الخطاب، وصارت قيادة الجيوش فى الشام فى خلافة عمر لأبى عبيدة بن الجراح بعد عزل خالد بن الوليد عن القيادة، وشارك خالد كجندى عادى مع أقرانه فى إحراز النصر على الروم فى معركة «اليرموك» الشهيرة سنة ١٥ هـ/٦٣٦م. وكان هرقل ملك الروم مقيمًا آنذاك بأنطاكية فلما بلغه خبر هزيمة جنده قرر الانسحاب من الشام إلى عاصمته القسطنطينية، وقال عبارته التى سجل بها التاريخ تلك الهزيمة الساحقة التى حلت بالروم: «عليك السلام يا سوريا ونِعم البلد هذا للعدو».

وواصلت القوات الإسلامية فتح بقية بلاد الشام، ففتحت اللاذقية وحلب وأنطاكية وبيت المقدس التى تسلمها الخليفة عمر بنفسه سنة ١٥ هـ/ ٦٣٦م وأعطى لأهلها عهدًا أمنهم فيه على عقيدتهم وأماكن عبادتهم وأموالهم.

كذلك استخلص المسلمون فى خلافة عمر بن الخطاب مصر من يد الروم، بعد أن أُرسل إليها «عمرو بن العاص»، ثم تلا ذلك فتح بلاد المغرب التى كانت تحت سيطرة الأسطول الرومى فى البحر الأبيض المتوسط.

الحروب مع الروم أيام الأمويين

استمرت الحرب بين العرب والروم منذ ظهور الإسلام، وقد حاول العرب الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة دولة الروم ثلاث مرات: فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، وفى عهد الخليفة معاوية بن أبى سفيان، وفى عهد الخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك. وكان الأمويون قد استطاعوا، منذ أن اتخذوا الشام قاعدة لهم ودمشق حاضرة لدولتهم، أن يستفيدوا من الموقع البحرى لبلاد الشام ومن خبرة أهلها وخبرة الأقباط المصريين فى إنشاء البحرية الإسلامية، التى نجحت فى تحويل البحر المتوسط من كونه «بحيرة رومية» إلى «بحيرة عربية إسلامية»، وذلك باستيلاء المسلمين على قواعد وجزر هذا البحر وسيطرة الأسطول الإسلامى عليها. وقد أدى فشل المحاولات البرية فى فتح

عاصمة الروم من جانب المسلمين إلى التفكير في فتحها بحريًا الأمر الذى دفعهم إلى الاهتمام ببحريتهم وأسطولهم.

محاولة إسقاط عاصمة الروم:

قامت قوات المسلمين بغزو بلاد الروم فى عهد «الوليد بن عبد الملك» بقيادة أخيه القائد الكبير «مسلمة بن عبد الملك»، الذى قام بعدة حملات سنوية على التوالى على بلاد الروم فى الفترة ما بين سنوات ٨٦ و٩٠ هجرية/٧٠٥- ٧٠٩م، فتح خلالها بعض حصون الروم وبخاصة حصن طوانة أعظم حصون قبادوقيا وحصن غزالة وحصن الأخرم، ومدن عمورية وهرقلة وسمسطية وأنطاكية. وقد شرع «سليمان بن عبدالملك» فى فتح القسطنطينية فوجه أخاه مسلمة لفتحها على رأس جيش كبير، وبعد أن بدأ حصار جيش مسلمة لعاصمة الروم جاءه خبر وفاة سليمان «بدابق» من أرض قنسرين يوم الجمعة ٢٠ صفر سنة(٩٩هـ/٧١٧م). وكانت هذه الروم حتى تم فتحها على يد الأتراك عام (٨٥٧هـ/١٤٥٣م).

الصوائف والشواتى:

صار النزاع بين العرب والروم فى العصر العباسى ينحصر فى إغارات حدودية الغرض منها الهدم والتدمير، أى انحصرت فى تلك الغارات التى كانت تقع عبر المنطقة الحدودية الفاصلة بينهما والتى عُرفت عند المسلمين باسم «الثغور». وكانت الغارات الحدودية تحدث فى أغلب الأحيان فى فصل الصيف نظرًا للطبيعة الجبلية لهذه المنطقة التى يصعب التحرك فيها شتاءً لتغطية الثلوج لجبالها، ولذلك عُرفت هذه الغارات باسم «الصوائف» كما كانت هناك غارات تتم فى الشتاء لكنها قليلة عُرفت «بالشواتى»، وكان خروج الصوائف يتم ما بين منتصف شهر مايو ولمدة شهر والشواتى فى منتصف شهر مارس ولا تزيد عن عشرين يومًا.

أ. د / عطية القوصى

الهوامش:

(*) ظل هذا الخاتم يُختم به الكتب حتى وفاته ﷺ، وختم به من بعده الخلفاء الراشدون، إلا أنه سقط فى خلافة عثمان فى بئر أريس فَصُنِع لعثمان خاتم غيره.

مصادر ومراجع للاستزادة :

- ابن إسحق: المغازى.
- ابن سعد : الطبقات الكبرى.
- ابن كثير: السيرة النبوية.
- ابن هشام: السيرة النبوية.
- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك.
- ياقوت الحموى: معجم البلدان.

الــزاب (معركــة)

تُعد موقعة الـزاب المرحلـة قبل الأخيرة فى سقوط الدولـة الأموية والقضاء على آخـر خلفائهـا، وهـو مـروان بـن محمـد المعروف بالجعدى أو الحمار حيث كانت المرحلة الأخيرة فى كنيسة بقرية بوصير فى صعيد مصر.

وللحقيقــة فقــد تعــددت الظــروف والــدوافع التــى تــسببت فــى قيــام هــذه المعركة.

فقـد توسـع العباسـيون فـى مطـاردة الأمـويين والقـضاء عليهم مـستغلين تلـك الظروف السيئة التى أحاطت بـآخر خلفاء بنى أمية، سـواء تمثلت فى ثورات داخلية لأهـل المدن الرافـضة للحـكم الأمـوى أو حركـــات ثوريـــة، شـــيعية كانـــت أو خارجية، بالإضـافة إلى ذلك التمزق الـذى أصـاب الأسـرة الأمويـة مـن داخلـها فـى الفترة الأخيرة من تاريخها[١].

وقـد حـاول الأمويـون بقيـادة مـروان بـن محمـد إيقـاف هـذا المد بكافـة الـسبل والوســائل؛ فعنــدما تمكــن عبــد الملــك ابن يزيد الأزدى من قتل عثمان بن سفيان وأصبحت الموصل علـى وشـك الـسقوط كلـها بـين يديـه، تحـرك لـه مـروان بـن محمـد حتـى وصـل الـزاب، وحفـر خنـدقًا حمايــة لنفــسه مــن العباســيين وقــوات العباسـيين وأعـد العـدة لملاقـاة العباسـيين وإيقاف هذا الزحف.

وحقيقــة فقــد تباينــت الروايــات حــول تطورات المعركة وبداياتها. فإذا كان ما سبق مـن حـديث يوضح موقف مـروان بـن محمد وتحركه عند ابن الأثير[٢]، فقد ذهــب الطــبرى[٣]، للقــول بــأن مــروان ابن محمد سار حتى نزل على دجلة وحفر الخندق له أبو عون ونزل الزاب.

وبقى الأمر كذلك حتى تجمعت قوات العباسيين، خاصة بعد ظهور أبى العباس السفاح وإعلان الدولة وندبه لعبد الله بن على (عمه) لقتال مروان.

وهنـــا أجمعـــت المـــصادر علـــى أن العباسـيين لم يحـاولوا عقـد جـسر علـى الـزاب لملاقـاة الأمـويين ولكـنهم اختـاروا أرض مخاضـة فـى طريق النهـر للعبـور إلى مروان وجيشه وقتاله.

وأريد أن أتوقف هنـا للتعليق علـى هـذا الموقـف لأن المفـروض أن القـوات العباسـية هـى القـوات المهاجمـة والزاحفـة، فكـان من الطبيعـى أن تعقـد الجسر علـى الـزاب

وتتقدم للأمويين؛ فهل تخوفت القوات العباسية من القيام بهذا العمل، أم كانت إمكاناتها العسكرية أضعف من عقد هذا الجسر والهجوم على الأمويين، أم أراد العباسيون أن يقوم الأمويون بهذا الجسر فيستهلك بعضًا من جهدهم وقدراتهم.

على أية حال فقد أجمعت المصادر[٤] على عبور العباسيين إلى الأمويين على طريق هذه المخاضة وقضائهم اليوم الأول من المعركة وهو اليوم الثانى من جمادى الآخرة عام١٣٢هـ (٧٥٠م)، فى قتال دون أن تكون الغلبة لأحد الطرفين حتى أتى المساء فأوقدوا النيران وتحاجزوا ولكن حدث فى اليوم الثانى تطور غريب ألا وهو قيام الأمويين بعقد الجسر وإصرار مروان ابن محمد على عبوره لقتال العباسيين بالرغم من تحذيرات قواده.

وبالفعل عبر مروان وأمر ابنه بحفر خندق أسفل عسكر عبد الله بن على، وهنا حرك عبد الله بن على بعض جنده بقيادة المخارق بن غفار فى أربعة آلاف.

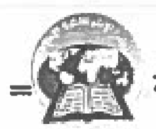
فلم يبتعدوا أكثر من خمسة أميال عن عسكر عبد الله بن على، فبعث عبد الله بن مروان للمخارق الوليدَ بن معاوية فلقى المخارق فانهزم المخارق وجنده، وقتل من قُتل وأُسر من أُسر[٥].

والنص بصورته هذه لا يتضح منه عبور قوات عبد الله بن على للجسر الذى عقده الأمويون ولكن يبدو منه أن جند عبد الله بن على لم يتمكنوا من مغادرة معسكر عبد الله بن على سواء لعبور الجسر أو حتى عبور المخاضة . فقد لاحقتهم قوات الأمويين وأوقعت بهم الهزيمة بالفعل.

كما يبدو من النص مدى معرفة الأمويين بطبيعة أرض المعركة ومدى تمكنهم من استغلالها الاستغلال العسكرى الذى يمكنهم من النجاح سواء بعقد الجسر على الزاب أو حفر الخندق على معسكر العباسيين مع وجود المخاضة ... إلخ.

لقد حقق الأمويون فى بدايات هذه المعركة نصرًا كبيرًا على العباسيين كان كفيلاً بتحول سير الأحداث لصالح بنى أمية.

فقد وصل الأمر بعبد الله بن على أن رصد جنده فى طريق عودة جنود مخارق الهاربين من المعركة حتى لا يدخلوا المعسكر وتشيع روح الهزيمة فعمل على منعهم وإيقافهم خارج عسكره، ويبدو من سير هذه المعركة أن عبد الله بن على



لم يحرك كل قواته فيها[6].

وهنا يرد السؤال حول السبب الذى منع عبد الله بن على من تحريك كل قواته فى اتجاه الأمويين؟

فهل كان عبد الله بن على يعرف أن هذه المعركة لن تكون هى نهاية المطاف عند الزاب؟

أم أن خطته قامت على حيلة تقديم بعض القوات للاصطدام والاحتفاظ بالباقى لشن هجوم مضاد حاسم وجازم ينهى المعركة بغض النظر عن نتائج اصطدام قواته الأولى بقوات الأمويين؟

على أية حال فقد فشلت المصادر بعد هزيمة جنود مخارق فى إعطائنا صورة حقيقية لتطورات الأحداث بعد هذه الهزيمة[7].

فنص ابن الأثير يفيد أن الهزيمة تمت مساء، وتحرُّكُ عبد الله بن على تم فى الليلة نفسها قبل أن يدخل الجند المنهزمون لعسكره ليلاً ، وورد لفظ (ليلاً) فى نص ابن الأثير[8].

بينما خلا نص الطبرى من ذلك اللفظ وهذا المعنى. ولكنى أجد نص ابن الأثير هو الأقرب لفهم الأحداث وتطورها ، لأنه ينص على فكرة المباغتة والتحرك السريع نحو جند الشام بحيث أمر عبد الله بن على قواته بسرعة التحرك فورًا ، فلبس الجند ملابسهم واستخلف هو على العسكر محمد بن صول وجعل على ميمنته أبا عون ، وكل هذا تم مساء وفى قلب الليل؛ بحيث تصير المعركة الجديدة على أكثر تقدير مع فجر اليوم الجديد.

على أية حال التقى الطرفان وتحقق النصر أولاً للأمويين، ولكن العباسيين استخدموا حيلة جديدة؛ فقد انكبوا على ركبهم أرضًا واستعملوا الرماح، فكانت الهزيمة على الأمويين وولوا مدبرين لا يلوون على شىء.

بعض التعليقات على موقعة الزاب:

لم تكن هزيمة بنى أمية فى موقعة الزاب وليدة هذا اليوم ولكنى أراها تطورا طبيعيا لأحداث سابقة، إذ إن من يقرأ وصف الحالة العامة لبنى أمية فى نهايات ذلك العصر يعرف أن المعارك الأخيرة لم تكن أكثر من تحصيل حاصل[9]، حتى لو قدر الله لمراون بن محمد النصر فى معركة الزاب، فإن المستقبل لن يمكنه من الاستمرار.

كذلك من الأمور التى تلفت النظر انفراد المسعودى[10] برواية أن المعركة كانت على الزاب الأسفل مُخالفًا بذلك كل مصادر تلك الفترة التى أجمعت على

أن المعركة كانت على الزاب الأعلى، علمًا بأن الطبرى لم يحدد الزاب الأعلى أو الأسفل.

وأرانى أميل إلى رأى المسعودى؛ ذلك لأن الزاب الأسفل أقرب إلى تلك المواقع التى دارت بين الأمويين والعباسيين مثل شهر زور وغيرها.

أما الزاب الأعلى فيسمى المجنون لشدة جريه، فكيف تكون فيه مناطق ضحلة الماء وتسمى(المخاضة).

هذا بالإضافة إلى عقد الجسر عليه.

يضاف إلى ما سبق تلك المجموعات التى انحازت لكل طرف من أطراف الصراع فى هذه المعركة التى تنبئ عن شكل ومستقبل الصراع بين هاتين القوتين [١١].

كذلك مما يلفت النظر تلك الطاعة العمياء التى تحلى بها جنود العباسيين فى تنفيذ أوامر القادة، بينما كان جند بنى أمية يحتالون على كل أمر من مروان ويناقشونه بل ويرفضونه.

وعلى أية حال فقد مهدت هذه المعركة لاستقرار الأوضاع تمامًا للعباسيين خاصة بعد مقتل مروان بن محمد، وإن كان إعلان الدولة فى الكوفة قبل قتل مروان ابن محمد ينبئ عن استعداد العباسيين للقبول بخلافتين وخليفتين فى وقت واحد، وهذا إن لم يكن قد تم على يد مروان بن محمد الأموى، فإنه سيتم على يد الأمويين فى الأندلس.

أ . د / أنس هارون نصر

الهوامش:

(١) الخضرى بك د . الشيخ محمد: تاريخ الأمم الإسلامية، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ط ٨/١ ، ١٣٨٢هـ مصر.

(٢) ابن الأثير : أبو الحسن عز الدين على بن أبى الكرم محمد الشيبانى ت: ٦٣٠هـ، الكامل فى التاريخ ج ٤، ص ٣٢٧.

(٣) محمد بن جرير ت/ ٣١٠هـ تاريخ الرسل والملوك ج٦، ص ٨٨ بيروت بدون.

(٤) الطبرى: المصدر السابق نفس الجزء والصفحة، ابن الأثير: الكامل . ج٤، ص ٣٢٧.

(٥) الطبرى: المصدر السابق ج٦، ص ٨٩، ابن الأثير : مرجع سبق ج٦، ص ٣٢٨.

(٦) الطبرى: المصدر السابق ، ج ٦، ص ٨٩.

(٧) الكامل : ج٤، ص ٣٢٧.

(٨) نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٩) الشيخ الخضرى: مرجع سبق ص ٢٠٥

(١٠) أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦هـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢، ص ١٦٣، ٣٨٧هـ/١٩٦٧م، دار التحرير.

(١١) الطبرى: مصدر سبق ج٦، ص ٨٩.

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) ابن الأثير أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى، ت ٦٣٠هـ، الكامل فى التاريخ. بيروت ، بدون.

(٢) الخضرى بك: الشيخ محمد ، تاريخ الأمم الإسلامية. العصر العباسى. ١٩٧٠م.

(٣) السيوطى : الإمام الحافظ، جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر، ت ٩١١هـ. تاريخ الخلفاء، ط ٤، ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م.

(٤) الطبرى: محمد بن جرير: ت ٣١٠هـ، تاريخ الرسل والملوك، بيروت .

(٥) ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل: ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ط١، ١٣٥١هـ، ١٩٣٣م، مصر.

(٦) المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين، ت: ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ، دار التحرير ، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

(٧) ابن الوردى زين الدين عمر بن مظفر: ت ٧٤٩هـ، تاريخ ابن الوردى، بيروت ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

(٨) ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، بيروت .

زبطرة (معركة) *

إن من يراجع مصادرنا الإسلامية[1]. باحثًا عن الأسباب التى يمكن أن تكون قد أدت إلى موقعة زبطرة سوف يجد أنها أشارت إلى سبب رئيسى ومباشر، ألا وهو تلك الرسالة التى بعث بها بابك الخرَّمى، إلى تيوفيل إمبراطور الدولة البيزنطية يحثه فيها على اجتياح أراضى الخلافة العباسية، حيث لن يجد فيها من يوقفه، وذلك بعد أن وجه الخليفة كل قدرات وإمكانات الخلافة لحرب بابك والقضاء عليه، واعتبرت الرسالة محاولة من بابك لرفع الضغط العسكرى عليه، وذلك عن طريق إغراء ملك الروم بدخول ثغور المسلمين والغنيمة منها حيث لن يجد من يصده.

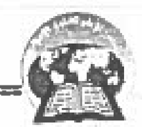
ويدلنا تاريخ مدينة زبطرة على أنها كانت حصنًا من حصون الروم القديمة من قبل الإسلام، وقد توجهت له أنظار المسلمين لافتتاحه منذ العصور الأولى، وكان شرف فتح هذا الحصن لحبيب بن مسلمة الفهرى، ولكن استطاع الروم أن يخربوه انتقاما لضياعه من بين أيديهم، فبناه المسلمون بناءً آخر فخربه الروم مرة أخرى (كل ذلك فى العصر الأموى) ولم ينته عصر بنى أمية ومروان بن محمد آخر خلفائهم ١٣٢ هـ (٧٥٠م) إلا والحصن قد خرب وليس له تلك المكانة العسكرية التى عرفت عنه نظرًا لخرابه.

ولكن فى العصر العباسى وإبان عصر الرشيد استطاع أن يبنيه مرة أخرى وأن يحصنه، ليس هذا فحسب بل إنه عمل على شحنه بالرجال المتطوعة أملاً فى أن يوقف زحف الروم عليه وهدمه.

ولكن حدث فى عصر المأمون أن تمكن الروم من طرقه مرة أخرى وهدمه، فأمر المأمون بإعادة بنائه وتحصينه وشحنه بالرجال المتطوعة مرة أخرى[2]. وعلى ذلك فإن استعراض هذه الأحداث التاريخية يؤكد على فكرة ديمومة الصراع وتبادل المواقع حول زبطرة من الطرفين المسلمين والروم ، ولكن الفارق هو عملية انتهاز الفرص السانحة التى تمكن من تحقيق الهدف.

وبالطبع لن تكون هناك ضرورة أفضل من ظروف حروب بابك التى استنفدت كل قوى الخلافة، ومن ثم تكون رسالة بابك إلى تيوفيل صحيحة تاريخيا فى هذا الإطار.

يؤكد على هذا المعنى ذلك الطرف الثالث الذى شارك فى هذه الأحداث



الذى أشارت إليه بعض مصادرنا الإسلامية وأقصد بذلك الطرف هؤلاء المحمِّرة الذين جاءوا مع تيوفيل فى هذه المعركة.

فمن الواضح أن هؤلاء المحمرة كان لهم دور مهم فى تلك المعركة. فمن هم هؤلاء المحمرة؟

وللحقيقة فأنا أود بداية أن أفصل بين هؤلاء المحمرة والمحمرة الذين بدأ ظهورهم فى بدايات العصر العباسى؟

حيث كان الخروج على الدولة فى العصر العباسى يعنى تبنى ألوانٍ مخالفة للون السواد الذى هو اللون الرسمى للدولة العباسية [٣] ؛ فقد لبس الخارجون عليها الحمرة والصفرة والخضرة إلى غير ذلك من ألوان تمثل لونا من ألوان الخروج والتمذهب [٤] .

ففى هذه المرحلة - وأعنى بها بدايات العصر العباسى- كانت الحمرة شعار الخارجين من الأمويين على العباسيين. أما هؤلاء المحمرة الذين ظهروا فى عصر المأمون فقد كانوا يمثلون الخروج الفارسى.

وقد كانت لهم مواقف سابقة مع الدولة، وهم من الخُرَّمية، وقد بعثت لهم الدولة إسحاق بن إبراهيم فحاربهم وقضى على مجموعة منهم وعاد بالباقى إلى المعتصم.

ولكن حدث أن هربت مجموعة منهم إلى بلاد الروم عن طريق الجبال، وقد فرض لهم ملك الروم وزوجهم وصيَّرهم مقاتلة يستعين بهم فى أهم أدواره.[٥].

ومن ثم فإن هذه المجموعة التى هى أعرف الناس ببلاد المسلمين وظروفهم ومناطقهم ومسالك بلادهم كان عليهم العبء الأول فى حروب تيوفيل على المسلمين، ولا ننسى فى هذا الإطار أنهم من أتباع بابك الخرمى. والطبرى ذكر أنهم من الخرمية فهم الطابور الخفى للحركة الخرمية فى بلاد الروم.

وعلى ذلك فإن مقتل بابك وسقوط معقله" البذ " وما ارتبط بذلك من أحداث رأت الخُرَّمية أنها أصابتها فى مقتل كان لابد أن تحرك فيهم عوامل الانتقام؛ فما المانع من إغراء تيوفيل بالتحرك لاقتحام ثغور المسلمين والانتقام لما حدث لهم ولزعيمهم، بغض النظر عما إذا كان بابك شخصيًا هو الذى بعث الرسالة أو قام بذلك غيره ؟

وحقيقة فإن الحديث عن هؤلاء الخُرَّمية واحتضان الدولة البيزنطية لهم واستعمالهم فى مهام الأمور، خاصة ما

يتعلق بحرب المسلمين، يحتاج إلى النظر إلى تاريخ الدولة البيزنطية والأسرة العمورية وخاصة ذلك الإمبراطور.

فقد كان ذلك الإمبراطور أحد أباطرة الأسرة العمورية التى حكمت الدولة البيزنطية من ٢٠٥- ٢٥٣هـ/ ٢٠ ٨م حتى ٨٦٧ م، وقد كانت عمورية مسقط رأس هذه الأسرة. وما يعنينا أن هذه المرحلة عُرِفَت بوصفها مقدمه للمرحلة الجديدة للإمبراطورية التى تبوأت فيها مكانة مرموقة ودخلت معها عصرها الذهبى.

فقد حاول الأباطرة فى تلك المرحلة النهوض بالإمبراطورية والتخلص من تلك المراحل التى ظهرت فيها الإمبراطورية ضعيفة مترهلة خاصة أمام أعدائها التقليديين من المسلمين. والملاحظ أن الأباطرة العموريين اعتبروا تاريخيا المدخل الحقيقى للعصر الذهبى لتلك الإمبراطورية لما قاموا به من أعمال.

وقد أراد هؤلاء الأباطرة أن يضعوا حدًا للتفوق العسكرى لجيوش الخلافة العباسية فى منطقة الثغور منذ عصر المهدى والرشيد والمأمون؛ فتحركت قوات الإمبراطورية، فى حوالى مائة ألف مقاتل منهم حوالى ٢٥,٠٠٠ من المحمرة الذين سبق الحديث عنهم إلى بعض الثغور الإسلامية حوالى عام ٢٢٣ هـ (٨٣٨م) تحت قيادة الإمبراطور تيوفيل.

وقد بدأت هذه القوات هجومها بالتحرك نحو زبطرة من ثغور الجزيرة فاجتاحتها فقتلت من فيها من الرجال وسبت النساء والأطفال وأحرقت المدينة ثم تحركت هذه القوات نحو مَلَطْيَة. فأغارت عليها وعاثت فيها فسادًا.

وعلى العموم فقد أخذت هذه القوات ما يقرب من ألف من النساء سبايا، كما مثلت بهؤلاء الأسرى فسملت أعينهم، وقطعت آذانهم وأنوفهم، وبمجرد أن وصلت هذه الأنباء إلى المعتصم أعلن النفير العام، وكان يريد أن يقوم بالتحرك السريع نحو زبطرة، ولكن كان لابد من تعبئة، حيث لا يمكن أن تتحرك الجيوش دون إعداد مسبق ومحكم[٦].

وقد كان رد الفعل الإسلامى على هذه الاعتداءات قويًا؛ حيث تحركت جموع الناس والجماهير[٧].

وقد كان للتحرك الشعبى هذا أثره فى أن تلبى الخلافة النداء، وإلا كانت منعزله عن جماهير الناس؛ ومن ثم فقد كان الاتجاه الثانى تحرك المعتصم والقواد لإنقاذ زبطرة وباقى الثغور والانتقام.

ولكـن - وكمـا قـدمت سـابقًا - يصعب تحرك الجيوش دون إعداد التعبئة اللازمة، فحرك المعتصم مقدمة جيشه التي ذهبت إلى زبطرة لكنها وجدت قوات الإمبراطور قد رحلت، ومن ثم فقد بقيت مقدمة جيش الخلافة حتى يطمئن الناس ويعودوا إلى قراهم وأعمالهم.

وعلى أية حال فقد كان رد المعتصم قويًـا ومـؤثرًا؛ إذ مـا لبثـت قواتـه أن تحركـت إلى أرض الـروم وعلى الأخـص عمورية، مـسقط رأس الإمبراطـور، فانتقمـت ممـا حـدث وحققـت انتـصارًا هـائلاً تغنـت بـه الـشعراء وسـجلته المصادر بكل الفخر والاعتزاز.

أ. د / أنس هارون نصر

الهوامش:

(*) زبطرة : بكسر الزاى، وفتح ثانيه مدينة إسلامية على الحدود بين دولة الخلافة والإمبراطورية البيزنطية، وهى من ثغور الجزيرة" وقال أبو تمام يمدح المعتصم : "لبيت صوتًا زبطريا ...". ياقوت الحموى، شهاب الدين أبو عبد الله. معجم البلدان جـ ٣ ، ص١٣٠، بيروت .

(١) الطبري، محمد بن جرير ، ت ٣١٠/هـ ج ٧ ص ٢٦٣ ، بيروت. ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء ، اسماعيل بن كثير ت/٧٧٤هـ البداية والنهاية ، ج ١٠ ، ص ٢٨٥ ، ص٢٨٦. ط ١ ١٣٥١ هـ / ١٩٩٣م. مصر ، المسعودى. أبو الحسن على بن الحسين ت ٣٤٦ هـ ، جـ ٢، ٣٧٠ ، ١٣٨٧ هـ ١٩٦٧م دار التحرير، أبن الأثير أبو الحسن على بن أبى الكرم ، ت / ٦٣٠ الكامل فى التاريخ ص ٤، ص ٤٦١. بيروت .

(٢) ابن الأثير : مرجع سبق ص ٤، ٢٦١.

(٣) فاروق عمر: دكتور. بحوث فى التاريخ العباسى ص ٢٤٢، ط١، بيروت . ١٩٩٧م.

(٤) الطبرى: مصدر سبق ج ٧ ص٤ ،٢ ص٢٢٩، الشيخ محمد الخضرى، تاريخ الأمم الإسلامية : العصر العباسى؛ ص ٢٤٤.

(٥) مرجع سبق ، ج ٤، ص٢٦٤.

(٦) المسعودى: مرجع سبق ج ٢ ، ص ٢٧٠، ابن كثير: مرجع سبق ، جـ ١٠، ص٢٨٤.

(٧) مرجع سبق ، ج ٤، ص٢٦٤.

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) ابن الأثير أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى، ت ٦٣٠هـ، الكامل فى التاريخ. بيروت .

(٢) احمد شلبى : د. موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية، ط١، مصر، ١٩٨٠م.

(٣) الخضرى بك: الشيخ محمد، تاريخ الرسل الإسلامية، العصر العباسى،مصر ، ١٩٧٠م.

(٤) السيوطى: الإمام الحافظ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر، ت٩١١هـ، تاريخ الخلفاء، ط ٤ ،مصر، ١٣٨٩، ٤هـ، ١٩٦٩م.

(٥) الطبرى: محمد بن جرير: ت ٣١٠هـ، تاريخ الرسل والملوك، بيروت .

(٦) ابن كثير: عماد الدين أبو الفدا إسماعيل: ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، ط١، مصر، ١٣٥١هـ، ١٩٣٣م.

(٧) المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين، ت: ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر، مصر، دار التحرير، ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م.

(٨) ابن الوردى زين الدين عمر بن مظفر: ت ٧٤٩هـ، تاريخ ابن الوردى، بيروت، ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

(٩) ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله، معجم البلدان، بيروت .

زمـــــزم

فـى المعجـم الوسـيط (مـادة زمـزم)[1] :

(زَمْـزَمَ): صَـوَّتَ مـن بعيـدٍ تـصويتًا لـه دوى غير واضح. و(زَمْزَمَ) صوّت صوتًا متتابعًا ، يقال: (زَمْزَمَ) الحصان، طرب فـى صوته. و(زمزم) المغنّى، تـرنم ودندن... و(تَزَمْـزَمَ) الجمــل: هــدر... (والزُّمــازم) مــن الميــاه: الكثير. و(الزَّمْـزام) مـن المياه: مـا كـان بـين الملح والعـذب. ويقـال: سـحاب زمـزام: غير واضح الصوت. و (زمـزم) بئـر مشهور بمكة بجوار الكعبة يُتبرك بها ، ويشرب ماؤهــا وينقــل إلى الجهــات، وهــى غــير منصرفة للعلمية والتأنيث.

إسـكان إبـراهيم عليـه الـسلام ابنـه إسماعيل وأمه هاجر عند البيت الحرام:

كان إبـراهيم عليـه الـسلام نبيًا رسـولاً لقومه، وهو أمة وحده. عاش إبراهيم عليـه السلام بعد زواجه، مدة من الزمان دون أن ينجب من زوجتـه (سارة) وهـى ابنة عمـه، وقد وهبتـه جاريتهـا (هـاجر) التـى كـانـت أميرة من أميرات منف[2] ، وقعت فـى أسـر فرعـون مـصر بعـد أن قتـل خطيبهـا أمـير منف الذى خرج عليه، فأهداها إلى سارة، فلما تغشاها إبراهيم حملت منه، وأنجبت ابنــه إسماعيــل، وكـــان إبـــراهيم فـــى السادسة والثمانين من عمره، وكان ذلك قبل مولد إسحاق ابنه من سـارة – بثلاث عـشرة سـنة- فاشـتدت غـيره سـارة، وطلبت منـه أن يأخذهـا وابنهـا إلى مكـان بعيد عنها حتى لا تراهمـا. فأمره الله جلّ وعــلا أن يرحــل بهمــا إلى شــبه جزيــرة العـرب، حتـى وصـلوا إلى المكـان الـذى أراد الله تعـالى أن تنبـع منـه (زمـزم) تلـك العـين التـى أراد الله تعـالى أن تُـدرّ خـيرًا على مدى العصور والأجيال[3] .

ويقـول ابـن الوليـد الأزرقـى فـى كتابـه (أخبـار مكـة)[4]: فـى روايـة عـن مجاهـد أن الله تعــالى لمــا بــوأ لإبــراهيم مكــان البيت، خـرج إليـه مـن الشام، وخـرج معـه ابنــه إسماعيــل وأمــه هــاجر، وإسماعيــل طفـل يرضـع وحُملوا فيهـا فيمـا يحـدثنى على البراق .

وفى رواية أخرى لابن كثير فى البداية[5] عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس - رضى الله عنهما- قال: "... ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء،

فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابًا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس به إنس ولا شىء؟ فقالت ذلك مرارًا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له: الله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

ثم عادت تحمل ابنها ثم جلست تحت الدوحة ووضعت ابنها بجانبها وعلقت شنتها تشرب منها وتدر على ابنها حتى فنى ماء شنتها،فانقطع درّها فجاع ابنها فاشتد جوعه حتى نظرت إليه أمه يتشحّط، فحسبت أنه يموت فأحزَنها ذلك، فقالت: لو تغيبتُ عنه حتى لا أرى موته! فاتجهت إلى الصفا حين رأته مشرفًا تستوضح ذلك- أى ترى أحدًا بالوادى- ثم رأت المروة، فقالت: لو مشيت بين هذين الجبلين، تعللت، حتى يموت الصبى ولا أراه، فمشت بينهما ثلاث أو أربع مرات، ثم ذهبت إلى ابنها فوجدته ينشع[٦] كما تركته فأحزنها ذلك، ثم عادت إلى الصفا حتى لا تراه يموت، حتى أتمّت سبعة أشواط بين الجبلين (وهو السعى الذى يقوم به المسلمون بين الصفا والمروة). ثم ذهبت تطالع ابنها فوجدته كما تركته ينشع[٧]، ثم سمعت صوتًا قد آب فخرج لها جبريل عليه السلام، فاتبعته حتى ضرب برجله مكان البئر - يعنى زمزم- فظهر ماء فوق الأرض حيث فحص جبريل".

يقول ابن عباس: قال أبو القاسم ﷺ: « فخاضته أم إسماعيل بتراب خشية أن يفوتها قبل أن تأتى بشنتها فاستقت وشربت ودرّت على ابنها » .

وفى رواية أخرى لسعيد بن جبير أيضًا عن ابن عباس - رضى الله عنهما- أن الملك الذى أخرج لها جر زمزم قال لها: سيأتى أبو هذا الغلام فيبنى بيتًا هذا مكانه. وأشار إلى موضع البيت، ثم انطلق الملك[٨] .

وفى راوية للطبرى قال: فجعلت تفحص الأرض بيدها عن الماء وكلما اجتمع ماء

أخذته بقدحها، فأفرغته فى سقائها، قال: فقال النبى ﷺ: « يرحمها الله لو تركتها لكانت عينًا سائمة إلى يوم القيامة». وفى حديث آخر قال: « ... لكانت زمزم معينًا، حيث كانت تقوم بجمع الماء بيدها وتقول: زمى زمى؛ حتى لا يضيع الماء»[٩].

فضل زمزم: لزمزم فضل عظيم على هاجر، والمكان كله، والمسلمين جميعًا، وفيها الخير والسقيا والشفاء إلى يوم القيامة بأمر الله تعالى، فحينما انبثقت بأمر الله جل وعلا وحاولت هاجر أن تجمع الماء فى شنتها (أى: القربة) قال لها الملك: لا تخافى من الظمأ على أهل هذا البلد، فإنها عين يشرب ضيفان الله منها. قال: وإن أبا هذا الغلام سيجيىء فيبنيان بيتًا هذا موضعه.

وفى حديث رسول الله ﷺ كثير عنها منها قوله ﷺ: « زمزم طعام طعم وشفاء سقم» رواه أبو ذر عن النبى ﷺ[١٠].

وفى رواية عن أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها- عن النبى ﷺ: « زمزم حفنة من جناح جبريل»[١١] كما قال ﷺ: « ماء زمزم لما شرب له» رواه جابر ابن عبد الله عن رسول الله ﷺ، صدق رسول الله ﷺ[١٢].

ويقول ابن قيم الجوزية فى (زاد المعاد)[١٣]: ماء زمزم سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرًا، وأحبها إلى النفوس وأغلاها ثمنًا، وأنفسها عند الناس، وهو هزمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل.

نزول جرهم مع أم إسماعيل عليهما السلام:

بعد أن أخرج الله تعالى ماء زمزم لأم إسماعيل مر ركب من جرهم قافلين من الشام فى الطريق السفلى فرأوا الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادى من ماء ولا أنيس، فأرسلوا رجلين لهم حتى أتيا أم إسماعيل، فكلماها ثم رجعا إلى ركبهما، فأخبراهم بمكانها، فذهب الركب كلهم إليها وحيوها وطلبوا منها الإذن فى النزول معها على أن يكون الماء لها، فأذنت لهم طلبًا للأنس بهم، فكانت معهم هى وابنها[١٤].

ابتلاء إبراهيم بذبح ابنه إسماعيل:

ثم رأى إبراهيم - عليه السلام- رؤيا أمره الله تعالى فيها بذبح ابنه إسماعيل، يقول تعالى فى هذا الصدد: ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا

بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ (الصافات: ٩٩- ١٠٧).

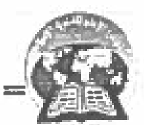
وقد ذكرت المصادر المختلفة قصة هذا الذبح ومحاولة الشيطان إغواء إبراهيم وإسماعيل وهاجر وفشله فى ذلك[(١٥)].

رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد من البيت :

ذكر الأزرقى عن سعيد بن جبير[(١٦)] قال: حدثنا عبد الله بن عباس قال: لبث إبراهيم ما شاء الله أن يلبث، وكانت أم إسماعيل هاجر قد توفيت وهو فى العشرين من عمره . ثم جاء فى الثالثة فوجد إسماعيل - عليه السلام- قاعدًا تحت الدوحة التى بناحية البئر - يقصد بئر زمزم - يبرى نبلاً أو نبالاً له فسلّم عليه ونزل إليه فقعد معه، فقال إبراهيم : يا إسماعيل إن الله تعالى قد أمرنى بأمر .

فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك، فقال إبراهيم: يا إسماعيل، أمرنى ربى أن أبنى له بيتًا. قال إسماعيل: وأين؟ يقول ابن عباس: فأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها .... يأتيها السيل من نواحيها ولا يركبها. ويقول المسعودى: وكان عمر إسماعيل ثلاثين سنة[(١٧)].

وهكذا قام إبراهيم وإسماعيل - عليهما السلام- بحفر القواعد، ويحمل إسماعيل الحجارة على رقبته، ويقوم إبراهيم بالبناء، فلما ارتفع البناء، وشق على الشيخ تناوله قرب له إسماعيل الحجر - يعنى المقام - فكان يقوم عليه ويبنى حتى انتهى إلى وجه البيت، ولذا سمى (مقام إبراهيم) لقيامه عليه، وقد ذكر الله تعالى دعاء إبراهيم وإسماعيل؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ



ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

(البقرة:١٢٧- ١٢٩).

زواج إسماعيل من جرهم وحكم أولاده لمكة المكرمة:

هذا، وتزوج إسماعيل من جرهم إحدى بناتها، ثم طلقها بأمر أبيه إبراهيم، ثم تزوج أخرى وهى: السيدة بنت مضاض بن عمرو الجرهمى، وأوصاه أبوه بأن يبقى عليها، وقد أنجبت له أولاده كلهم، وهم: اثنا عشر رجلاً أكبرهم قيدار، ونابت. وقد ظل إسماعيل يتولى أمر الدعوة لدين الله تعالى بين قومه بعد وفاة أبيه وقد امتد عمره إلى الثلاثين بعد المائة،فلما توفى دفن مع أمه فى الحجر، ومن قيدار ونابت كثر الله تعالى العرب(١٨).

فلما توفى إسماعيل تولى ابنه نابت ما شاء الله أن يلى البيت، فلما توفى نابت، تولى البيت مضاض بن عمرو الجرهمى، وهو جد نابت لأمه، فصار بنو إسماعيل مع جدهم مع أخوالهم من جرهم(١٩).

زمزم خلال حكم الجراهمة لمكة المكرمة:

تولى الجراهمة حكم مكة المكرمة بعد أن حكم بنو إسماعيل فترة تمتعوا فيها بالسلطان والمجد، إلا أن الجراهمة نكلوا بأبناء إسماعيل حتى هربوا إلى اليمن فرارًا من ظلمهم، كما ظلموا من دخل مكة من الحجاج غيرهم،واستحلوا حرمة البيت الحرام،وأكلوا أموال الكعبة، وفسقوا حتى زنى رجل بامرأة داخل البيت الحرام فكان ذلك السبب المباشر فى ضياعهم، فأخرجهم الخزاعيون من مكة، وكان الخزاعيون قد هاجروا من اليمن، واستقروا فى مكة إلى جوار الجراهمة، فحشد مضاض بن عمرو الجرهمى رجاله ولكنهم انهزموا. فقام مضاض بحفر زمزم حتى عَمَّقَ الحفر وأودع فيها غزالتين ذهبيتين ثم طمسهما حتى إذا عاد استخرجهما، كما كان هدفه من ذلك أن يعجزهم عن سقاية الحجيج لحين عودته إلى مكة ولكنه رحل بلا عودة وآل حكم مكة إلى خزاعة .

حكم خزاعة لمكة وأمر زمزم :

استولت خزاعة على مكة والنفوذ فيها أوائل القرن الثالث الميلادى وظلوا سادة مكة زهاء مائة سنة حتى استطاع قرشى من بنى إسماعيل أن يحاربهم وينتصر عليهم ويعيد نفوذ أجداده القديم

على مكة المكرمة، وهو قصى بن كلاب الجد الرابع لرسول الله ﷺ[٢٠].

وقد ظلت زمزم طوال حكم خزاعة مطمورة فخفيت آثارها. وقد استقى الحجيج وكذلك أهل مكة من آبار أخرى حتى يستطيعوا الحياة فى تلك البقاع الصحراوية.

حكم قريش لمكة المكرمة:

مكنّ قصى قريشًا (وهم أبناء إسماعيل عليه السلام)من دخول مكة المكرمة بعد جهد جهيد حتى صار أمر مكة كله إلى بنى إسماعيل (أى إلى قريش) فعاد إليهم النفوذ بعد فترة ركود تشبه الموت. وقصى هو: زيد بن كلاب بن مرة، تزوج أبوه من فاطمة بنت سعد بن سهيل من أزد شنوءة حلفاء فى بنى الديل، فأنجبت له زهرة وزيدًا، ثم توفى كلاب. فتقدم ربيعة بن حرام من بنى عذرة من قضاعة على أطراف الشام، فتزوج من فاطمة وحملها معه إلى قضاعة، فاحتملت معها زيدًا لصغر سنه، وتركت زهرة لأعمامه فى مكة، فلما بلغ زيد مبلغ الرجال وعرف أهلَه وأنَّهم أشراف مكة عاد إليها، وتزوج حبى ابنة حُليل بن حبشية الخزاعى زعيم مكه. وأنجبت حبى لقصى أربعة ذكور هم: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبد. فلما كثر ماله وكثر ولده وعظم شرفه، توفى حليل بن حبشية وأعطى مفتاح الكعبة لابنته لأنه لم ينجب ذكورًا ولكن حدثت منازعات بين قصى وخزاعه استنجد خلالها بأخيه زهرة، وأخيه لأمه رزاح بن ربيعة، وانتصر على خزاعة، وآل أمر مكة والبيت الحرام إليه[٢١].

وقد استطاع قصى القيام بأعمال عظيمة منها أنه جمع قريشًا كلها فى وادى مكة وظاهرها (قريش البطاح، وقريش الظواهر)، كما أقام دارًا للندوة تولى رئاستها للبت فى الشئون السياسية والاجتماعية والحربية. كما نظم الرفادة والسقاية التى اعتمدت على تدبير المياه وحملها من الآبار المجاورة لمكة، ووضعه فى أحواض لسقاية الحجيج، فكان من أهم أعماله بعد طمر بئر زمزم. ونظم الحجابة والسدانة واللواء والجيش، فجمع كل الوظائف الرئيسة بيده[٢٢].

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى(شيبة الحمد) وحفر زمزم:

ولأبيه هاشم الأيادى البيضاء على قريش (وهو: عمرو العلى بن عبد مناف) وقد سمى هاشما لأنه أنقذ قومه بمكة



من مجاعة حيث أحضر من فلسطين دقيقًا وصنع خبزًا هشمه وجعله ثريدًا باللحم وأطعم قومه . كما سَنَّ رحلتى الشتاء والصيف، ووثق العرى بالملوك المجاورين لتأمين قوافل قريش التجارية.

وعبد المطلب هو الجد الأول لرسول الله ﷺ، وأمه: سلمى بنت عمرو النجارية من أهل المدينة المنورة (يثرب). تزوجها أبوه، وأنجبت له شيبة الحمد(عبد المطلب) وقد سمى بذلك لأنه ولد وفى رأسه شيب. ثم توفى أبوه هاشم، فظل بالمدينة مع أمه حتى أحضره عمه المطلب فعاد معه إلى مكة، وورث عنه وظائف مكة كلها منها السقاية الرفادة، وأجمعت المصادر على كرمه الشديد على قومه، ووصف بالسماحة وعفة النفس، وكراهة الزنا وشرب الخمر، ومخالطة القتلة، وعبادة الأصنام. وأهم أعماله حفر زمزم وإظهارها إلى الوجود بعد أن طمست فى عهد الجراهمة، ولقبه قومه بإبراهيم الثانى لخلقه الرفيع[٢٣] .

حفر زمزم :

ذكر البلاذرى فى (أنساب الأشراف):[٢٤] أن عبد المطلب حينما همّ بحفر زمزم كان يبلغ من العمر أربعين سنة. وقد ذكرت المصادر أن ذلك العمل يعود لرؤيا رآها فى نومه أمر فيها بحفر البئر من قبل هاتف هتف قائلاً: احفر طيبة. قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عنى. فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى فقال: احفر بره. قال: فقلت: وما بره؟ قال: ثم ذهب عنى. فلما كان من الغد رجعت إلى مضجعى فنمت فيه فجاءنى قال: احفر زمزم. قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدًا ولا تزم، تسقى الحجيج الأعظم بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم عند قرية النمل[٢٥]. وبعد تكرار هذه الرؤيا بدأ عبد المطلب فى الحفر هو وابنه الوحيد (الحارث) فى المكان، لكن قريشًا أنكرت عليه ذلك، ولكنه أقنعهم بمواصلة الحفر، لكنهم عايروه بقلة نسله، فأقسم إن رزقه الله بعشرة من الولد أن ينحر أحدهم عند الكعبة . فلما واصل الحفر وظهرت بشائر المياه فى البئر والغزالتان الذهبيتان، والسيوف والدروع التى وجدها فيها، نازعته قريش فى ملكيتها للبئر، ولكنه أبى فاتجهوا إلى عرافة لتحكم بينهم ومعه نحو أربعين رجلاً كما يذكر ابن سعد[٢٦]. وبينما هم يسيرون فى الصحراء نفذ الماء وكادوا يهلكون جميعًا، ولكن انفجرت المياه

تحت راحلة عبد المطلب. فقالوا له: قد قضى لك علينا، الذى سقاك هذا الماء بهذه الفلاة هو الذى سقاك زمزم، والله لا نخاصمك فيها أبدًا، فرجع ورجعوا معه وخلوا بينه وبين زمزم.

وقد تكون هذه إرهاصه وكرامة ومعجزة ببشرى مقدم رسول الله محمد ﷺ ونبوته[٢٧].

ثم عاد عبد المطلب إلى مكة حيث قام بكساء أبواب الكعبة بصفائح الذهب الذى وجده فى زمزم. وقد أكرمه الله تعالى بعشرة من الولد بينهم عبد الله بن عبد المطلب والد الهادى البشير محمد ﷺ[٢٨].

قصة الذبيحين:

المعروف أن الذبيح الأول هو إسماعيل ابن إبراهيم - عليهما السلام. أما الذبيح الثانى فهو عبد الله بن عبد المطلب والد رسول الله ﷺ، وكان محبوبًا من أهل مكة لما يمتاز به من حسن الخَلْقِ والخُلُق جميعًا. وأراد أبوه أن يوفى بنذره، فضرب القداح على أبنائه العشرة، فخرجت على عبد الله، فَهَمّ بذبحه إلا أن أهل مكة منعوه لحبهم له، ثم اتفقوا على سؤال عرافة مشهورة أشارت عليهم بضرب القداح على عبد الله وعشرة من الإبل فإن خرجت على الإبل ذبحوها، وإن خرجت على عبد الله، أعادوا ضرب القداح، حتى وصلت إلى مائة من الإبل، فأعادوها ثلاث مرات حتى خرجت على الإبل. فذبحوها واحتفلت مكة بنجاة عبد الله، ثم زوّجه أبوه من زينة بنات بنى زهرة، وهى آمنة بنت وهب لتحمل منه النطفة الشريفة نطفة محمد ﷺ خاتم النبيين وإمامهم، ثم توفى عبد الله فى ريعان شبابه ليقوم الله تعالى بتربية محمد اليتيم ويؤدبه ويعلمه وليكون قدوة لجميع البشر من مضى منهم ومن بقى إلى يوم القيامة[٢٩].

زمزم بعد الإسلام:

ظل العباس عم النبى ﷺ هو المسئول عن السقاية حتى جاء الإسلام فأقر النبى ﷺ الحجابة والسقاية، وأبطل كل المناصب الأخرى التى كانت لقريش قبل الإسلام. وظلت زمزم بعد الإسلام تسقى الحجيج وستظل إلى يوم الساعة، وهى ضمن مناسك الحج والعمرة تشريفًا لها وتعظيمًا، فماؤها شفاء من كل داء، وماء زمزم لما شرب له، صدق رسول الله ﷺ.

زمزم فى العهد السعودى:

هناك دائم اهتمام خاص من ملوك المملكة العربية السعودية بخدمة الحرمين الشريفين وتوسعتهما، خاصة

فى عهد الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود خادم الحرمين الشريفين- رحمه الله- ، ومن بعده الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود،حيث كان الاهتمام بتوسعة الحرمين الشريفين إلى أقصى درجة ممكنة، وقاموا أخيرًا بتمويل مجرى زمزم ليكون فى متناول أكبر عدد من المسلمين فمدّوا مواسير المياه لتكون خارج الطواف، وله أماكن خاصة داخل الحرم المكى وخارجه لسقيا زمزم لينهل الناس من هذا الشراب الربانى العذب، الذى هو شفاء من كل داء كما ذكر حبيبنا ونبينا محمد رسول الله ﷺ.

د / سامية منيسى

الهوامش:

(١) المعجم الوسيط: الإدارة العامة للمعجمات وإحياء التراث بالقاهرة، طبعة استانبول، المكتبة الإسلامية، ١٩٧٢م، ج١ ، ص ٤٠٠.

(٢) منف يذكر أنها كانت من (الفرما) أو (الطينة) بمدينة بمصر من شرق تبعد عن ساحل بحر الروم- البحر المتوسط حاليًا -بقدر ميلين، كان لها ميناء عامر. انظر: ابن هشام: أبو محمد عبد الله بن هشام ابن أيوب الحميرى (ت٢١٣هـ- ٢١٨هـ) : السيرة النبوية (هامش السيرة) ج١ ص٦، بيروت، دار المعرفة، تحقيق مصطفى السقا وآخرين (تراث الإسلام).

(٣) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقى(٧٧٤هـ) : البداية والنهاية ج١، ص١٥٣، بيروت، مكتبة المعارف الأزرقى (د.ت).

(٤) أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد: أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدى الصالح ج١ ، ص٥٤. ط٤، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

(٥) ج١ ،ص ١٥٤.

(٦) مادة (نشغ): نشغًا: شهق حتى كاد يقضى عليه. انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، مكتبة استانبول ج٢.

(٧) مادة(نشغ) : شهق حتى كاد يغشى عليه: المعجم الوسيط ج٢، ص ٩٢٣.

(٨) أخبار مكة ج١ ، ص٥٥- ٥٦.

(٩) الطبرى: أبو جعفر بن جرير الطبرى (٢٢٤ - ٣١٤هـ) : تاريخ الطبرى ، تحقيق أبى الفضل إبراهيم. بيروت، (روائع التراث العربى) ج١، ص ٢٥٦- ٢٥٨. ابن كثير: البداية ج١، ص ١٥٥ .

(١٠) أخرجه مسلم، وأحمد، وابن حبان، والبيهقى، وأخرجه أبو شيبة، والبزار عن أبى ذر، والسيوطى فى (الجامع الصغير) رقم (٤٥٦١) .

(١١) أخرجه الديلمى فى الفردوس، والسيوطى فى الجامع الصغير ، رقم (٤٥٦٢) .

(١٢) أخرجه ابن ماجه رقم (٣٠٦٢)، وأحمد ٣/٢٥٧ - ٢٧٢، وابن عدى ٤/١٣٦، والخطيب ٣/١٧٩ . وذكره ابن قيم الجوزية فى (زاد المعاد) ص ٨٩٤ عنه ﷺ .

(١٣) ابن قيم الجوزية: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى (٦٩١هـ - ٧٥١هـ): زاد المعاد فى هدى خير العباد، تحقيق الشيخ عبد الرازق المهدى، ٧ ج١ ص ٨٩٤. بيروت، دار الكتاب العربى ، ١٤٢٥هـ / ٢٠٠٥م.

(١٤) أخبار مكة للأزرقى ج١ ص٥٧- ٥٨، تاريخ الطبرى ج١ ص ٢٥٨، البداية لابن كثيرج١ ص ١٥٥.

(١٥) الطبرى ج١ ص٢٧٥- ٢٧٦، البداية لابن كثير ج١ ص ١٥٧- ص١٦٠.

(١٦) أخبار مكة ج١ ص٥٨- ٦٠، وتاريخ الطبرى ج١ ص٢٥٩- ٢٦٠.

(١٧) المسعودى مروج الذهب ومعادن الجوهر: أبو الحسن على بن الحسين (ت٣٤٦هـ) ج١ ص٤٨- ٤٩، البداية والنهاية لابن كثيرج١ ص ١٥٦.

(١٨) أخبار مكة ج١ ص ٥٧- ٥٨، السيرة العطرة للهادى البشير محمد ﷺ : سامية منيسى ج١ ص ٧٢- ٧٣.

(١٩) أخبار مكة للأزرقى ج١ ص٨٠- ٨٢، المسعودى: مروج الذهب ج١ص٤٨ ويذكر المسعودى أن إسماعيل توفى وعمره مائة وتسع وثلاثون سنة.

(٢٠) السيرة لابن هشام ج١ ص ١١- ١١٨. الفاسى: العقد الثمين فى تاريخ البلد الأمين ج١ ص١٤٣، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، بيروت، دار المعرفة. السيرة العطرة لسامية منيسى ج١ ص٩٢- ٩٣.

(٢١) طبقات ابن سعد ج١ ص٦٧- ٦٨، والطبرى ج١ ص ٢٥٦، والسيرة لابن هشام ج١ ص ١٢٤، والعقد الثمين للفاسى ج١ ص١٤٦، السيرة العطرة لسامية منيسى ج١ ص٩٣- ٩٤.

(٢٢) تاريخ الطبرى ج١ ص٢٦٣- ٢٦٤، السيرة لابن هشام ج١ ص ١٢٥، ١٣٣، طبقات ابن سعد ج١ ص ١٩، أخبار مكة للأزرقى ج١ ص١٠٩، السيرة العطرة لسامية منيسى ج١ ص ٩٦- ٩٨.

(٢٣) السيرة لابن هشام ج١ ص ١٣٦- ١٣٨، أنساب الأشراف للبلاذري: أحمد بن يحيى بن جابر (ت ٢١٩هـ/ ٨٩٢م) ج١ تحقيق محمد حميد الله، معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية.، دار المعارف – القاهرة، عام ١٩٥٩م، ص ٧٨.

(٢٤) ج١ ص٧٨.

(٢٥) السيرة لابن هشام ج١ ص ١٤٢- ١٤٧، أخبار مكة للأزرقي ج٢ ص ٤٢- ٤٣، البداية لابن كثير ج٢ ص٢٤٤- ٢٤٦.

(٢٦) الطبقات ج١ ص ٨٤.

(٢٧) السيرة العطرة ج١ ص ١٠٧.

(٢٨) المصدر السابق لابن سعد، ابن كثير: البداية ج٢ ص ٢٤٦.

(٢٩) البداية لابن كثير ج٢ ص٢٤٨- ٢٤٩، السيرة العطرة ج١ ص ١٠٨.

مصادر ومراجع للاستزادة:

أولاً: القرآن الكريم :

١. ابن سعد: محمد بن منيع (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م).

الطبقات الكبرى. القاهرة، دار التحرير للطبع والنشر، ١٩٦٨م/ ١٩٧٠م. ج١)

وطبعة أخرى: دار الكتب العلمية. بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، وطبعة دار صادر، بيروت، ١٤٠٥هـ.

٢. الطبري: أبو جعفر بن جرير الطبري ٠ ٢٢٤هـ/ ٣١٤هـ) .

تاريخ الرسل والملوك(تاريخ الطبري)، تحقيق محمد أبى الفضل إبراهيم. بيروت (روائع التراث العربي)، وطبعة القاهرة ت١٩٩٧م.

٣. ابن كثير : أبو الفداء الحافظ الدمشقي (ت ٧٧٤).

البداية والنهاية ج١، ج٢. بيروت، مكتبة المعارف، (د. ت).

٤. ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري(ت ٢١٣هـ/ ٢١٨هـ) :السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين. بيروت، دار المعرفة (تراث الإسلام).

٥. أبو الوليد الأزرقي: محمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٢٤٧هـ).

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي الصالح ، بيروت، دار الأندلس، ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

٦. سامية منيسي (دكتورة) .

السيرة العطرة للهادي البشير محمد ﷺ .. القاهرة، دار الفكر العربي . ط١. ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٨م .

الزنج (ثورة)

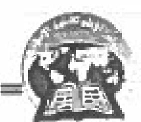
المقدمات والدوافع:

أحدث الزنج Ethiopians - وهم طائفة من عبيد أفريقيا - القلاقل والاضطرابات فى حاضرة الخلافة العباسية ، وكان مسرح هذه الثورات الجامحة العنيفة التى دامت أكثر من أربع عشرة سنة ، تلك المستنقعات الممتدة بين البصرة وواسط ، حيث انضمت إليهم جماعات من العبيد الهاربين من القرى والمدن المجاورة تخلصًا من حالتهم الاقتصادية التى كانوا عليها[١] ؛ إذ كانوا لا يتقاضون من الأجر شيئًا بل يقتاتون بقليل من الدقيق والتمر والسويق[٢]، مما جعلهم إزاء هذه الحالة الاقتصادية والاجتماعية السيئة على أتم الاستعداد للخروج على ولاة الأمر فيهم .

ومن الملاحظ أن هؤلاء الزنوج كانوا يستخرجون السباخ ، ويستغلونها فى الزراعة فتعطيهم الثمرات فى مقابل أجور ضئيلة يتقاضاها هؤلاء ليأكلوا منها السويق والتمر وذلك بأسعار رخيصة[٣]. وكان من نتيجة هذا أن كثر عدد الزنوج فصاروا جماعات يقومون بهذه الأعمال تتراوح جماعتهم ما بين خمسمائة شخص إلى آلاف الأشخاص[٤] يتشاورون فيما بينهم للنظر فى حالهم وما وصل إليه أمرهم دون أن يسمع بهم أحد .

ومما يدل على قوة هؤلاء وعملهم فى السر هو قيامهم بالعمل فى الأراضى المستنقعة، والأجواء الموبوءة، واستطاعتهم تحمل قساوة العيش فى هذا الظرف العصيب[٥]، أما لماذا كان اجتماعهم فمن المحتمل أنه كان للتمهيد فيما بينهم على الاتفاق والتفاهم فيما يخصهم من الأمر بشأن الحالة التى كانوا عليها ، وعندما جهلوا الثقافة احتاجوا فيما بينهم إلى قائد يقودهم يأتمرون بأمره ويوجههم للعمل الثورى.

واتضح لنا أن الظروف والأحوال كانت مهيأة لهم لنشر دعوتهم الثورية ، حيث طبيعة الأجواء التى كانوا يعملون فيها والتى تساعدهم على الاختفاء والظهور، إضافة إلى صعوبة الاستيلاء عليها حتى لو كان الجيش مدربًا ، لذلك نجحت فكرة المقاومة لديهم سعيًا وتمهيدًا إلى طريق الحصول على المال الذى يعتبرونه حقًا لهم[٦]. يضاف إلى ذلك دور صاحب الزنج ، الذى جعل من



الأهداف التى بثها لنجاح حركته ، تحرير الزنوج ، ورفع مستواهم ، وتمكينهم من الحصول على الأموال والأرقاء والعبيد ، إضافة إلى ذلك وصولهم إلى المجد والسلطان ، ومن خلال هذه الأهداف يتبين لنا بأن صاحب الزنج اكتفى بالوعود لهذا الشعب المظلوم، خاصة العبيد، بتحسين أحوالهم وضمان الحرية والثروة لهم، بل تجده جاهر بعقيدة الخوارج التى ترفض كل تمييز قومى ، والتى بدت من غير شك سائغة عند أتباعه على وجه الخصوص.

وهكذا اتضح لنا أنه ليس فى دعوة صاحب الزنج أية فكرة تنتمى إلى الشيوعية أو الاشتراكية ، فتحرير العبيد فى حد ذاته ليس فكرة شيوعية محضة بمعناها الشمولى بل هى فكرة عامة ، فالأموال لم تكن توزع بين هؤلاء على طريقة الاشتراكية والمساواة ، فلكل ماله ، ومع ذلك فإن الرق موجود فى هذه الدعوة ومشروع ، وما أكثر الأرقاء الذين وقعوا فى قبضة الزنج ، ومهما يكن من شىء فإن صاحب الزنج لم يلبث أن كشف عن ميوله الحقيقية ، حتى أن أعداءه سموه " الدعى" كما سموه " الخبيث". ومعهم كل الحق، إذ كيف يتأتى له امتلاكه للعلويات [٧] وادعاؤه النسب إلى زيد بن على ﷺ، وقد ذهب فكره به إلى ما هو أبعد من ذلك حيث أدعى النبوة ومعرفة الغيب ، وأن لديه القدرة على ما ليس لغيره من الناس [٨].

وسائل وتطورات هذه الثورة:

وقد ذكر الطبرى [٩] أن صاحب الزنج بدأ أمره سنة ٢٥٤هـ (٨٦٨م) بخطبة فى بنى جنسه ذكر فيها ما كانوا عليه من سوء الحال، وأن الله قد استنقذهم به من ذلك، وأنه يريد أن يرفع أقدارهم، ويملكهم العبيد والأموال والمنازل ويبلغ بهم أعلى الأمور؛ ونتيجة لهذا وصلت دعوته إلى العناصر المتذمرة فضمت إليه أجناسا أخرى من الفلاحين وسكان القرى وبعض الأعراب إضافة إلى جماعات الزنج الذين جاءوا جماعات تتكون من الخمسين إلى الخمسمائة شخص حتى قيل إن أثر هذه الدعوة وصل بالفعل إلى السود من الجنود الذين يعملون فى جيش الخلافة ، الأمر الذى أوجد نوعًا من الانتماء للون والبشرة – أو ما نسميه بالنزعة العرقية إن صح التعبير – وهذا أدى إلى استحواذ صاحب الزنج على جيش كثير لم يُرَ مثله فى جيش الخلافة.

ولقد كان من وسائل صاحب الزنج فى تنفيذ مهامه وخططه الحربية أنه لا يستطيع أن يقاوم خصومه وجهًا لوجه ، فأتباعه ليسوا أهلاً للسلاح والفروسية على عكس جيش الخلافة ، فبدأ بعنصر المفاجأة والإغارة على القرى والدساكر[10]، وهذا ينتج عنه إلقاء الرعب بين الأهالى. ثم تقدم خطوة أخرى بغزو المدن الكبيرة لساعات محددة ويتم فيها أخذ ما يشاءون من الأولاد والنساء وسفك الدماء، مع عدم البقاء فى تلك المدن إذا كانت قريبة من جيش الخلافة، وكان قصده من ذلك ألا يتم الالتحام بين جيش الخلاقة وجيش الزنج فى مكان معين غير محصن.

ومن وسائله توزيع الجيش فى الطرقات وفى الأماكن المأهولة وغير المأهولة وبين الأشجار والمستنقعات توزيعا يستطيع به الجيش أن يتصدى لجيش الخليفة ويمنعه من الاتصال بالعاصمة وقطع الإمدادات، إضافة إلى تعيين أكمنة لجيش الزنج تكون محصنة ومحاطة بالمستنقعات والأشجار والأدغال بحيث يتعذر على جيش الخلافة الوصول إليها[11].

ومن أهم الحصون التى بناها لهذا الغرض حصن المختارة، حيث أقيم على الضفة الغربية لنهر أبى الخصيب وفيه قصر صاحب الزنج ومنه تكون قيادة الأمور.

وكان من نتيجة هذه المخططات التى أحدثها صاحب الزنج أنه استطاع من خلالها أن يقطع الطرقات ويستولى على كثير من المدن، كما قام بما يشبه حرب العصابات فى أيامنا هذه . وسرعان ما قدم صاحب الزنج البصرة ، فأسرع إليه بعض غلمانها رغبة فى التخلص من الرق، وتقول المصادر إن الأسياد بذلوا له على كل عبد خمسة دنانير ليسلمه[12]، كما أمر كل من عنده من العبيد ، فضربوا مواليهم أو وكيلهم كل سيد خمسمائة سوط ثم أطلقهم، وما زال الزنج يلتفون حول صاحبهم حتى كان يوم الفطر ٢٥٥هـ (٨٦٩م) فخطبهم وصلى بهم، وأعاد على أذهانهم ما كانوا يلقونه من ظلم وعنت ، ووعدهم الأمانى الطيبة من إطلاق حرياتهم واستمتاعهم بالأموال التى يغنمونها فى حروبهم ، واتخذ فى مدينته التى بناها وسماها – كما ذكرنا آنفًا – المختارة منبرًا كان يصعد عليه ويسب عثمان وعليًا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة وذلك على الرغم من ادعائه النسب إلى على



رضى الله عنه . وكان من وسائله أيضا استعمال النساء فى الحروب [١٣]، لجمع أتباعه وممارسة العمل الحربى .

هذا بالإضافة إلى استخدام فكر الخرافة والأسطورة التى وجدت آذانًا صاغية [١٤] فكان يسبى النساء والأطفال ويحرق القرى مما أوجد الرهبة فى قلب كل من يحاربه [١٥]. وقد كان لقيامه بنصب رؤوس أعدائه الذين قتلوا دور فى إرهاب الأعداء. ويضاف إلى ما سبق استعماله أراضى المستنقعات والأراضى السبخة ، التى تعجز الجيوش النظامية عن القتال فيها ، كما كان له اطلاع على العلوم واستعمال الأسطرلاب فى تحركاته. [١٦] وعلى أية حال فقد بدأ صاحب الزنج بمحاربة عامل البصرة محمد بن رجاء الحضارى سنة ٢٥٥هـ (٨٦٩م) والانتصار عليه حيث استولى على ألف وتسعمائة سفينة كانت تحمل بعض الحجاج إلى مكة ، وألقى الرعب والفزع فى قلوب الأهلين حتى عجزوا عن مقاومته وشكوا إلى الخليفة المهتدى(٢٥٥-٢٥٦هـ٨٦٩ - ٨٧٠م) ما حلّ بهم من البلاء فأنفذ إليهم أحد قواده الأتراك وهو جعلان ، الذى فوجئ بالمستنقعات والأكمنة أمامه ، لذلك لم يستطع الصمود أمام صاحب الزنج الذى اتجه بعد انتصاره إلى شرقى المختارة – الحصن الذى اتخذه مقرًا لأوامره – إلى الأهواز فاستولى عليها ، وفيها طمأن أصحابه بأن إمدادات الخلافة لا تصل إليها إلا بعد جهد جهيد ، وهكذا أصبح نفوذه فى البصرة وواسط وطرقات بغداد. وبعد الانتصارات التى حققها صاحب الزنج، سواء فى البصرة أو الأهواز، نجده قد أقام بالقرب من البصرة بسبخة أبى قرة ثم تحول منها إلى الجانب الغربى من نهر أبى الخصيب وفيه غنم مغانم كثيرة من المراكب الراسية فى دجلة[١٧]. ولما تولى المعتمد الخلافة (٢٥٦ – ٢٧٩ هـ/٨٧٠- ٨٩٢م) أرسل جعلان لمحاربتهم للمرة الثانية لثلاث عشرة ليلة من رمضان سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م)، لكنه لم يفلح وهزم أمامهم حيث دخل الزنج البصرة وقتل القائد التركى جعلان، واستولى صاحب الزنج على مدينة الأُبُلَّة سنة ٢٥٦هـ (٨٧٠م) [١٨] فأحرقها واستسلم له أهل عبادان فأخذ ما بها من العبيد وفرق فيهم السلاح وأسر إبراهيم بن المدبر عامل الخراج على الأهواز فزاد ذلك أهل البصرة رعبًا مما اضطرهم إلى مغادرة البلاد والانتقال إلى المدن البعيدة عن

مطامع الزنج[19]. ولقد أحدث الزنج الكثير من القلاقل والاضطرابات فى البصرة بعد استيلائهم عليها لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ٢٥٧ هـ (٨٧١م) فقد ذبحوا كثيرًا من أهلها وضربوا مسجدها العظيم وأشعلوا النار فى المدينة ، حتى قيل : إنهم قتلوا أكثر من ثلاثمائة ألف إنسان فى البصرة وحدها ، كما أسروا أعدادًا كبيرة من النساء والأطفال ، فالرجل منهم كان يستحوذ على عشرة من النساء الرقيقات ، وكان الاستيلاء على البصرة تمهيدًا لوقوع حاضرة الخلافة فى أيديهم .

أما موقف الخلافة من سقوط البصرة فلم تفعل شيئًا إلا عندما دخلت جموع صاحب الزنج واسط وما حولها[20]، حيث سير إليهم الخليفة المعتمد كثيرًا من قواده من أمثال موسى بن بغا الذى قتل عددًا كبيرًا منهم ، غير أنه لم يفل شوكتهم ، بل ظل خطرهم يتزايد وانتصاراتهم على الجيوش العراقية تتوالى .

الدولة وأساليب المقاومة

وأمام عجز الخلافة وسياستها فى مواجهة صاحب الزنج وسقوط أقاليمها ، الواحد بعد الآخر، لم يجد الخليفة المعتمد حلاً سوى الاستعانة بأخيه الموفق، فبعث فى طلبه - حيث كان الخليفة المهتدى قد نفاه إلى الحجاز - وعهد إليه بقتال الزنج . وعلى الرغم من نجاحه فى بعض المواقع ومعه موسى بن بغا إلا أنهما لم يوقفا زحف الزنج. ولما استفحل أمر هذا الدعى وعظم شره، خيف على الدولة منه؛ عندئذ رأى الموفق أبو أحمد طلحة بعد أن اطمأن من ناحية أعدائه الآخرين أن يحشد إليه الجموع ، ويتولى هو قيادتها بنفسه ليكتسب الجيش العباسى من ذلك قوة وروحا ، فبدأ الموفق بإعداد العدة اللازمة لتموين الجيش وذلك باتخاذ السفن وتزويدها بالمواد اللازمة لهذا الغرض ، والحرب- كما يقولون - خدعة، ففعل كما فعل الزنج من إنشاء الحصون فى واسط وبعض جهات البصرة ، (الحصون الموفقية) وذلك على غرار ما فعله الزنج من " المختارة " حيث كان جيش الخلافة يعسكر فى هذه المدينة وينطلق منها لمحاربة الزنوج .

ويُضاف إلى تخطيط الموفق أيضًا : أن يكون الانطلاق على فترات ، وأن تُسَوَّى الأرض التى يستولى عليها وتمهد ويقوم الجيش بالاستيلاء على مراكز فى تلك الأرض يجعل منها منطقة نفوذ حتى لا يباغت مرة أخرى[21] . ولقد توج الموفق

كل هذه الأمور والخطط بأسلوب كان له أثره فى إنهاء الحرب، ألا وهو أن يؤمن الأعداء على حياتهم ، وأن يمنيهم الوعود الكثيرة ، كما يؤمن العريان والسود من الخارجين عليه، وأن يؤمن الزنج أنفسهم، أما عن كيفية تأمينه للزنج فكان إذا وقع فى يده أسير منهم أحسن معاملته ، وأكرمه أمام أصحابه ، فكان يعلن أمانه لكل من يغادر جيش الزنج ويكف عن القتال ، كما أخذ يكاتب أصحاب صاحب الزنج فيدخلون فى طاعته ويجمعهم حوله حتى كثروا ، وأظهر لهؤلاء سيطرة الخليفة وهيبته فعلم هؤلاء أنهم لا قبل لهم بمحاربة الخليفة؛ لذلك أتوه أفواجًا يلتمسون أمانه [٢٢].

النجاح ونهاية الزنج

بهذه الأساليب استطاع الموفق أن يتغلب على صاحب الزنج ، واستولى على أول حصن له ، وتقدم منه حتى مدينة المختارة مقر قيادتهم حيث ضربت بالمنجنيق والعرادات التى أحدثت فيها إصابات بالغة، وعلى الرغم من هذا الانتصار من جانب الموفق إلا أننا نجد أنّ أحمد بن طولون قد أغرى الخليفة المعتمد بنقل الخلافة ومقر الحكم إلى مصر، فعاد الموفق أدراجه إلى بغداد خوفًا من عمل ابن طولون ، وعندما اطمأن لموقف ابن طولون مع الخليفة عاد مرة أخرى إلى المختارة فى الوقت الذى بدأ فيه صاحب الزنج بتحصين هذه المدينة ومن ثم عادت الحرب أشد ضراوة مما كانت عليه، غير أن الظروف لم تكن فى صالح صاحب الزنج وذلك أن لؤلؤًا (وهو من أصحاب أحمد بن طولون) خرج عليه وتقرب إلى الموفق كما التحق بجيشه فاستطاع الموفق أن يكون جيشًا كبيرًا يهاجم به المختارة.

أما كيف دخل الموفق المختارة فيذكر ابن الأثير أنه فعل ذلك بعد أخذه الأمان للخارجين على صاحب الزنج حيث دلوه على مواقع المدينة وكنوزها التى أصبحت من نصيبه ، ومن ثم كانت سبيلاً لتحقيق انتصارات أكبر حتى أجلى الزنج عن الأهواز بعد محاصرة مدينتهم المختارة والشروع فى بناء مدينة أخرى سميت بـ " الموفقية " نسبة إليه، كما قطع ابن الموفق (العباس) الميرة عن صاحب الزنج وكان فى ذلك فرصة كى يستولى الموفق على الجزء الباقى من مدينة المختارة .

وهكذا أسقطت قلعة صاحب الزنج ، وعاد الناس بعد أن تخلصوا من الأسر

والرق، وقتل الخبيث يوم السبت لليلتين خلتا من صفر سنة ٢٧٠هـ (٨٨٣م)، وذلك بعد أن أقض مضجع الخلافة العباسية وكلفها كثيرًا من الجهود والأموال والأرواح ، وكان أتباعه قد استمروا يعيثون فى البلاد الإسلامية أربع عشرة سنة وستة أيام ، وعلق رأسه على رمح وزينت بغداد بأبهى معالم الزينة ، وطيف برأسه بين مظاهر الفرح ، كما استطاع الناس العودة إلى بلادهم التى استولى عليها الزنج ، وأشاد الشعراء بهذا الانتصار [٢٣]. وبعد أن تخلص الموفق من صاحب الزنج أمر كاتبة أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالنداء فى أهل البصرة والأُبُلّة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها مما دخله الزنج بقتل الدَّعِىّ ، وأن يسرعوا بالعودة إلى أوطانهم، ففعل كاتبه ذلك، عندئذ سارع الناس إلى ما أمروا به وعمرت مدينة " الموفقية " [٢٤].

أ . د / أنس هارون نصر

الهوامش:

(١) الكردى : ابراهيم سليمان . طبقات مجتمع بغداد فى العصر الأول ، ص٩٥ ، مسرحة ١٩٨٩م .

(٢) الطبرى :محمد بن جرير . ت / ٣١٠ . تاريخ الأمم والملوك ، ج٧ ، ص ٥٤٥ وما بعدها – بيروت .

(٣) الطبرى : مصدر سبق ص٧ ، ص ٥٤٦

(٤) الطبرى: نفس المصدر والجزء ص٥٤٦ .

(٥) الطبرى : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤٦ وما بعدها.

(٦) الطبرى : مصدر سبق ، ج٧ ، ص٥٥٨ .

(٧) السيوطى : جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ت /٩١١ هـ . تاريخ الخلفاء ص ٣٦٤ ، ط / ٤ ١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩م .

(٨) الطبرى . مصدر سبق ج٧ ، ص ٥٤٤ .

(٩) الطبرى : نفس المصدر والجزء ص٥٤٦ .

(١٠) الطبري، مصدر سابق، ج ٧ ، ص ٥٥٠، ص٥٥٤.

(١١) المصدر نفسه والجزء، ص٥٦٦.

(١٢) الطبرى : مصدر سبق ج ٧، ص ٥٥٠.

(١٣) الطبرى : مصدر سبق ، ج ٧ ، ص٥٦٥ .

(١٤) الطبرى : نفس المصدر و الجزء، ص٥٥١.

(١٥) الطبرى : نفس المصدر والجزء ٥٤٤ ، الخضرى ، مرجع سبق ص٣٤١ .

(١٦) الطبرى : نفس المصدر والجزء.

(١٧) الطبرى ، مصدر سبق ، ج٧ ص٥٤٤ ، الخضرى، مرجع سبق ص٣٤١ ، السيوطى ، مصدر سبق ص٣٦٤ .

(١٨) الأبلة : بلدة على شاطئ دجلة فى زاوية الخليج الذى يدخل إلى مدينة البصرة ، وهى أقدم من البصرة ، لأن البصرة خططت فى أيام عمر بن الخطاب ، وقد مدحها خالد بن صفوان . ياقوت الحموى: شهاب الدين أبو عبد الله. معجم البلدان ط١ ص ٨٩.

(١٩) الطبرى: مصدر سبق ، ج٧ ، ص٥٦٢

(٢٠) ابن الأثير : أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى ت ٦٣٠ الكامل فى التاريخ ط٦ ص٢٣ بيروت.

(٢١) ابن الأثير : نفس المصدر ص٦ ص٤١ .

(٢٢) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٢٣) ابن الأثير : المصدر سبق ، ج٦ ص٥١ الخضرى : مرجع سبق ص٣٤٢

(٢٤) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص٥٣ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى ، ت ٦٣٠ هـ ، الكامل فى التاريخ. بيروت .

(٢) أحمد شلبي: د. موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ط ١ ، مصر، ١٩٨٠ م.

(٣) الخضرى بك: الشيخ محمد ، تاريخ الأمم الإسلامية . العصر العباسى . ١٩٧٠م.

(٤) السيوطى : الإمام الحافظ ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر، ت ٩١١ هـ. تاريخ الخلفاء ، ط ٤ ، ١٣٨٩ هـ ، ١٩٦٩م.

(٥) الطبرى : محمد بن جرير . ت ٣١٠ هـ ، تاريخ الأمم والملوك ، بيروت .

(٦) ابن كثير : عماد الدين أبو الفدا إسماعيل : ت ٧٧٤ هـ ، البداية والنهاية ، ط١، ١٣٥١ هـ ، ١٩٣٣ م ، مصر .

(٧) المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين ، ت : ٣٤٦ هـ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، مصر ، دار التحرير ، ١٣٨٧ هـ ، ١٩٦٧ م.

(٨) ابن الوردى زين الدين عمر بن مظفر : ت ٧٤٩ هـ ، تاريخ ابن الوردى ، بيروت ، ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦ م.

(٩) ياقوت الحموى : شهاب الدين أبو عبد الله ، معجم البلدان ، بيروت .



الزهراء (مدينة بالأندلس)

مدينة الزهراء: مدينة أندلسية، أنشأها الخليفة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحَكَم بن هشام بن عبد الرحمن (الداخل)، الأموى، الأندلسى، الملقّب بالناصر لدين الله (٣٠٠- ٣٥٠هـ/٩١٢- ٩٦١م). بدأ العمل فى بنيانها أول المحرم (سنة ٣٢٥هـ/ نوفمبر ٩٣٦م)، واستمر البناء أربعين عامًا (خمسة وعشرين سنة إلى وفاة الناصر، ثم طيلة عهد ابنه الحكم المستنصر، أى إلى سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٦م حتى أستكملتْ مرافقها الفخمة وقصورها العظيمة. وتضمُّ- إلى جانب قصر الخلافة- بيوتًا لرجال الحكومة والبلاط، ومساكن للحرس والجند، ومسجدًا للصلاة والتعليم .

وتقع «الزهراء» على بُعْد خمسة أميال، أو سبعة، إلى الشمال الغربى من مدينة «قرطبة» عاصمة الخلافة، شمالى نهر الوادى الكبير، على بعد ميلين منه، عند سفح جبل يُقال له «العروس»، فى منطقة كانت تعرف بالقنبانية؛ وقد بُدئ فى رصف الطريق الذى يصل «الزهراء» بقرطبة فى منتصف شهر رجب من (سنة ٣٢٩هـ/ أبريل ٩٤١م)، وانتهى العمل فيه بعد سنة واحدة.

ويروى المؤرخون فى أسباب بنائها وتشييدها ما يشبه الأسطورة، فيذكرون- كما فى (نفح الطيب) للمقرى- أن الناصر ماتت له جارية، وتركت مالا كثيرًا، وأنه ورث هذا المال، فأمر أن يُخصص لافتداء الأسرى المسلمين، فلم يجدوا من الأسرى من يُفتدى، فأوحتْ إليه جاريته «الزهراء» - وكان مغرمًا بها- أن يُنشئ بهذا المال مدينة تسمى باسمها، فشرع فى بناء المدينة.

والواقع أن عبد الرحمن الناصر كان معروفًا بشغفة بالبناء والعمارة، وتم فى عهده أروع ما عرفت الأندلس من قصور ومساجد، ويصفه لسان الدين بن الخطيب بقوله: كانت همته فى البناء طامحة فوق همم الملوك. ثم إن الناصر أراد أن يُخلد اسمه فى التاريخ، ونُسبت إليه فى ذلك أبيات من الشعر، يقول فيها:

همِمُ الملوك إذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألْسُنِ البنيان

إن البناء إذا تعاظم قدرُه
أضحى يدلُّ على عظيم الشان

يضاف إلى ذلك بواعث الملك والسياسة، حيث نقل الناصر نظام الحكم من الإمارة إلى الخلافة، وأراد أن يقيم مدينة جديدة بهذا الاسم، خاصة وأن قصر الإمارة بقرطبة كان قد قدم عليه العهد، ولم تعد أعمال التجديد والتعمير فيه تسمح بإشباع نزعة الناصر إلى مظاهر الفخامة- كما أن مدينة قرطبة كانت مكتظة بمعاهدها ودُورها وطرقها الزاخرة وسكانها الخمسمائة ألف، واصبحت تضيق بما يتطلبه ملك عظيم كملك الناصر لدين الله، من استكمال الفخامة الملوكية، والقصور والميادين والرياض الشاسعة، ومن هنا- وبعد أن بلغ الناصر ما أراد من توطيد ملكه، والقضاء على أعدائه فى الداخل والخارج - ثاب له رأى أن يقيم فى جوار قرطبة ضاحية ملوكية عظيمة، فكانت هى الزهراء.

وقد عهد الناصر إلى ولده وولى عهده الحكم (المستنصر) بالإشراف على تنفيذ هذا المشروع الكبير فحشد له أمهر المهندسين والصناع والحرفيين من سائر الأنحاء، لا سيما من بغداد والقسطنطينية. وكان المهندس المقيم -أو العرّيف- هو مسلمة بن جعفر الإسكندرانى. وعثر فى أطلال دار الملك فى مدينة الزهراء- وهو قصر الخليفة الناصر- على نقوش كتابية حُفِرَتْ عليها أسماء بعض العمال. وكان يشتغل فى حقل البناء ثلاثمائة من حذاق البُناة، ومائتان من النجارين، ومن العمال والفَعلة خمسمائة، بالإضافة إلى عشرة آلاف رجل من الخدام والفعلة كان منهم فى كل يوم من له درهم ونصف، ومن له الدرهمان والثلاثة. وكانت تستخدم فيها فى كل يوم ألف وخمسمائة دابة. وقيل إن مبلغ ما أُنفق فى بناء الزهراء مائة مُدْى من الدراهم القاسمية بكيل قرطبة، وأن الناصر كان يخص المدينة بثلث إيرادات الدولة السنوية، أو ما يعادل مليونًا وثمانمائة ألف دينار سنويًا. وكان يُصرف فى بنائها كل يوم ستة آلاف صخرة من الصخر المنحوت، سوى الأجُرّ والصخر غير المعدّل، وأربعمائة حِمْل من الجير والجَصّ. وجُلب إليها الرخام من قرطاجنة إفريقية وتونس. وكان الناصر يدفع عشرة دنانير ثمنًا عن كل رخامة صغيرة وكبيرة، سوى ما كان يلزم على قطعها وصَقْلها ومؤنة حملها. وكان عدد سوارى



الزهراء- وهى الأعمدة- أربعة آلاف وثلاثمائة وأربعًا وعشرين سارية منها ألف سارية وثلاث عشرة سارية مجلوبة من إفريقية، وتسع عشرة سارية من بلاد الفرنج، ومائة وأربعون سارية هدية من إمبراطور بيزنطة وسائرها من مقاطع الأندلس، طرَّكُونة وغيرها. وكان عدد أبواب المدينة خمسة عشر بابًا، وعدد الحمامات ثلاثمائة، وعدد الدُّور أربعمائة. وقد ملأت الأبنية الطرق بعد ازدهار المدينة، وكان الناس يتسارعون إلى بناء الديار، لأن الناصر كان يمنح إعانة قدرها أربعمائة درهم لكل من يبنى دارًا بجواره.

وتحتل مدينة الزهراء مساحة كبيرة؛ فكانت تشغل مسطحًا قدره- كما سجَّل ابن حيان مؤرخ الأندلس- تسعمائة وتسعون ألف ذراع. ونقل الدكتور/ أحمد فكرى فى كتابه (قرطبة فى العصر الإسلامى) أن مساحتها تبلغ مليونًا وثلاثين ألفًا من الأمتار المربعة (١,٣٠٠٠٠م٢)، أى ما يقرب من مائتين وخمسين فدانًا. وتمتد حدودها على هيئة شبه مستطيل، طوله من الشرق إلى الغرب (٢٧٠٠) ذراعًا، أو (١٥١٨) مترًا، وكانت الحدود الشرقية والجنوبية والغربية ترسم خطوطًا مستقيمة، أما الحدود الشمالية فكانت تنحنى انحناءات فرضتها مرتفعات جبال العروس، ولهذا السبب اختلف عرض المدينة من الشمال إلى الجنوب، فكان أقصاه (١٥٠٠) ذراعًا أو (٧٤٥) مترًا عند كل من الطرفين الشرقى والغربى، وكان أقله (٩٩٠) ذراعًا أو (٦٠٠) مترًا فيما بين وسطى حدودها الشمالية والجنوبية.

ويطول المقام بذكر التفاصيل عن تخطيط المدينة ومبانيها. ونكتفى هنا بالقول: إن مدينة الزهراء كان يحيط بها سوران متوازيان، بينهما ممر، فيما عدا القسم الأوسط من السور الشمالى، فكان السور فيه منفردًا. وتحفُّ بالأسوار أبراج فى بعض أجزاء منها. وكانت المدينة العظيمة تشمل ثلاثة أقسام، أو ثلاثة مدرجات، مدينة فوق مدينة، سطح الثلث الأعلى يوازى الجزء الأوسط، وسطح الثلث الأوسط يوازى الثلث الأسفل، وكل ثلث منها له سور. وكان القسم الأعلى يشمل القصور، ويقصر الوصف عن صفاتها، وكانت البساتين والروضات تمتد فى القسم الأوسط، أما القسم الأدنى فكانت تتجمع فيه الديار.

وينقل المقّرى عن ابن الفرضى أن مسجد الزهراء بُنى واستتم بنيانه وإتقانه فى مدة ثمانية وأربعين يومًا، ويقع شرقى المدينة الوسطى من الزهراء، وكان يعمل فيه كل يوم ألف من حذاق العمال والصنّاع، منهم ثلاثمائة بنّاء، ومائتا نجار، وخمسمائة من الأجراء وسائر الصناع. وكان طول المسجد من القبلة إلى الجوف - سوى المحراب- سبع وسبعون ذراعًا، وعرضه من الشرق إلى الغرب تسع وخمسون ذراعًا. وكان مزودًا بعُمُد وقباب فخمة ومنبر بديع فى غاية الحسن والإتقان. وكان فناؤه مفروشًا بالرخام، وفى وسطه فوّارة تندفع منها المياه، وكان له صومعة، عرضها عشرة أذرع فى مثلها، وطولها فى الهواء أربعون ذراعًا، أما عن بناء الزهراء فكان فى غاية الإتقان والحسن، وكانت من عجائب أبنية الدنيا. وأول ما يُلاحظ من مشاهدة أطلالها - كما يقول الأثريون فى وصفها - تلك العناية الفائقة التى بُذلت فى انتقاء مواد البناء وصقلها ورصّها وتنظيمها وهندمتها، لا بالنسبة لحسن مظهرها فحسب، بل إحكامًا لتماسكها وضمانًا لطول عمرانها. ولم تكن «الزهراء» منظرًا عابرًا لفترة من الزمن، أو لجيل من الأجيال، بل كانت بناءً أريد له البقاء، وليس أدلّ على ذلك من أن جدرانها بُنيت بنيان القلاع، إذْ بلغ سمكها مترًا أو يزيد، بالرغم من قلة ارتفاعها. وتبدو العناية الفائقة فى انتقاء مواد البناء مما عُثر عليه من قطع الحجارة التى أسماها المؤرخون الصخر المنحوت.

وقد استُعمل الرخامُ بكثرة فى البناء، وفى كل مكان؛ فى القصور، والمجالس، والمناظر، والأسطح، والأرصفة، والممرات. ومنه قطع صغيرة، ومعظمه قطع كبيرة مربعة، ضلع الواحدة متر. ومنه أرضية فرشت، أو كسوة ألصقت بالجدران، ومنه عتبات أبواب، وإطارات، وأفاريز، ولوحات منحوتة بشتى الزخارف.

وكذلك استخدم الآجُرّ فى مناطق، واعتُنى بصُنْعه وحرقه وتنظيمه، واتخذ عنصرًا فى بناء العقود مما يزيدها بهاءً وجمالا وروعة.

واعتُنى بانتقاء أخشاب الأسقف عناية لا تقل عن العناية بانتقاء بقية المواد، وكانت معظمها من خشب الصنوبر، وجميعها محلاة بالزخارف المنحوتة الملونة. وكانت معظم السُّقُف خشبية، فيما عدا



بعض الممرات. أما الأعمدة - وهى التى يسميها الرواة «السَّوارى» - فقد استخدمت بكثرة فى البناء، وكانت جميعها من الرخام المجزع، انسيابية، كأنما أفرغت فى القوالب، وبعضها - كما ذكر الرواة - مجلوب من إفريقية، وبعضها من بلاد الإفرنج، ومن بيزنطة.

وتستمد مدينة الزهراء بهاءها من تناسق كل مجموعة من مجموعات مبانيها وتناسُب أجزائها تناسبًا يجتذب الأنظار ويبهرها، وتكتسب فخامتها من كثرة الزخارف وتنوعها، واحتشادها فى كل مكان، ما بين مرمر مسنون، وذهب مصون، ونقوش كالرياض مستوحاة من الأزهار والأوراق والأغصان.

ومن أفخم أبنية الزهراء: القصر المنيف الذى أنشأه عبد الرحمن الناصر وتم بناؤه فيما بين سنتى (٣٤٢هـ/٩٥٣م) و(٣٤٥/٩٥٦م) كما هو مسجل على النقوشى التى عُثر عليها فى موقع هذا القصر. ولم يدَّخر الناصرُ وسعًا فى تنسيقه وتنميقه وزخرفته، حتى غدا تحفة رائعة الفخامة والجلال، وأنشأ فيه مجلسًا ملوكيًا جليلا عرف بقصر الخلافة، أو «دار الملك»، صُنعت جدرانه من الرخام المزّين بالذهب، وفى كل جانب من جوانبه ثمانية أبواب، قد انعقدت على حنايا (عُقود) من العاج والأبنوس المرصَّع بالذهب والجوهر، وزُينت جوانبه بالصور البديعة، وفى وسطه صهريج عظيمٌ مملوءٌ بالزئبق، وكانت الشمس إذا أشرقت على ذلك المجلس انعكست أشعتها على مرآة الزئبق، فتحدث بريقًا يخطف الأبصار، ويأخذ بمجامع القلوب. وقد زوَّد الخليفة الناصر مقامه فى قصر الزهراء- وهو الجناح الشرقى المعروف بالمؤنس- بأنفس التحف والذخائر، ونصب فيه الحوض الذى أُهدى إليه من قيصر «القسطنطينية»، وهو منقوش بالذهب، جلبه من هنالك إليها ربيع الأسقف وكان عبرة لمتأمّله كما يقول لسان الدين بن الخطيب ... إلى غير ذلك من الأوصاف العجيبة التى دونها المؤرخون العرب فى وصف روائع تلك القصور، وما احتوته من مظاهر الترف والثراء، وقد أثبتت الحفائر الأثرية لمدينة الزهراء، صِدْقَ هذا الوصف، فكشفت عن قطع من أجمل ما أبدعه فن النّحت فى الرخام والجصّ فى الأندلس.

جدير بالذكر أن عبد الرحمن الناصر

قد انتقل إلى مدينته الملوكية الجديدة (سنة ٣٢٩هـ/٩٤٠م) ولمّا يكتمل بناؤها. وفى سنة (٣٣٦هـ/ ٩٤٧م) نقل إليها «دار السكّة»، « ودار الصناعة » . وفى سنة (٣٤٠هـ/٩٥١م) نقل إليها الدواوين والخزائن والمُطْبِق (السجن). وكان الناصر قد أقام فى الزهراء (سنة ٣٣٣هـ/٩٤٤م)حفلا عظيمًا لختان أولاد ابنه. واستقبل فى السنة نفسها وفد الأدارسة (ودولتهم فى المغرب الأقصى) برئاسة محمد بن أبى العيش، وقعد له أفخم قعود فى قصر الزهراء. واستقبل فى السنة التالية، أو فى سنة (٣٣٦هـ/٩٤٧م) سفارة امبراطور بيزنطة. واستقبل بها مرة ثانية فى السنة التالية وفد الأدارسة. وتوالت السفارات فى السنوات التالية، وكان آخرها فى سنة (٣٤٧هـ/٩٥٨م) سفارة على رأسها ملكة «البشكُنس» (طوطة) وابنها (شانجة). ويقع إقليم البشكنس فى الشمال الشرقى من أسبانيا، على مقربة من جبال البرتات (البرانس).

وقد ظلّت «الزهراء» فى عهد الحكَم المستنصر (٣٥٠- ٣٦٦هـ/٩٦١- ٩٧٦م) مسرحًا للأعياد والحفلات والاستقبالات، ومن ذلك الاحتفال ببيعته نفسه يوم وفاة أبيه. وحفلات استقبال الملك «أردون الرابع»، واستقبال السفارات الوافدة من ملوك البَشْكُنس، وبَرْشلونة، وجلِّيقية، وقشتالة، ومن أمراء المغرب. وكان الناصر -كما كان الحكم المستنصر بالله - يتخذان من «الزهراء» مقامًا لهما، ومقرًا لدولتهما، ولا يتوجهان إلى قرطبة إلا لاستطلاع أعمالهما فى المسجد الجامع. وقد زاد الحكم المستنصر فى عمارة «الزهراء». وأغلب الظن - كما يقول الدكتور أحمد فكرى - أنه شيد قصرين فى المدينة العليا، أحدهما فى أقصى الشرق، والآخر فى أقصى الغرب.

ولا ريب فى أن فخامة مدينة الزهراء كانت تبهر السفراء الذين قدموا إليها، وكانت الدهشة تأخذ هؤلاء السفراء من مشاهدة المرافق الصحية والحمامات العامة بالمدينة، لأنهم لم يشاهدوا نظيرًا لهذه المدينة فى بلادهم، إذْ لم تكن قصور أوروبا جميعًا ولامدُنُها تعرف حينذاك مثل هذا النظام المحكم لتلك المرافق. وقد سجَّل العلامة الأثرى الأسبانى «توريس بلباس» فى كتابه (مسجد قرطبة والزهراء) قوله: ليس فى عواصم العالم الأوروبى بناءٌ يُقارن -حتى من بَعْدُ - بفخامة بناء مدينة الزهراء،

تلك المدينة التى خُلقت كأنها أُعجوبة.

كما أنه سجل ما سجله ابن بَشْكُوال من قبل ذلك بثمانمائة سنة – ونقله عنه المقّرى فى كتابه (نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) – من أنَّ الرحَّالة من مختلف الأقطار قد أكدوا – هم والأمراء والسفراء والتجار والحُجاج والكهنة والشعراء- أنهم لم يروا قطُ أثناء رحلاتهم مدينة مثل مدينة الزهراء التى يتعدى وصفها حدود الخيال.

ولم تعمر «الزهراء» طويلا كقاعدة ملوكية؛ فقد لبثت قاعدة الملك والخلافة زهاء أربعين سنة فقط منذ أن نزلها الناصر (٣٢٩هـ/٩٤٠م) حتى نهاية عصر الحكم المستنصر (٣٦٦هـ/ ٩٧٦م)، والسبب يعود إلى أن الوزير محمد بن أبى عامر (الملقب بالحاجب المنصور) استطاع أن يتغلب على الدولة، وأن يحجر على الخليفة الأموى هشام المؤيَّد (ابن الحكم المستنصر)، ثم رأى أن ينقل قاعدة الحكم إلى ضاحية ملوكية جديدة، أنشأها لنفسه شرقى قرطبة (سنة ٣٦٨هـ/٩٧٨م) على نهر الوادى الكبير، وسمَّاها «الزهراء»، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة ودور الحكومة. ومن ذلك الحين فقدت «الزهراء» مكانتها السياسية وهيبتها الملوكية، وبدأ شأنها فى الاضمحلال والأُفول.

ومع بداية الفتنة الكبرى والمحن العظمى (سنة ٤٠٠هـ/١٠١٠م) التى انتهت بسقوط الخلافة الأموية والدولة العامرية معًا (سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م) وتمزَّقت بعدها وحدة الأندلس الإسلامية إلى إمارات وطوائف عديدة - زحفت حشود البربر- بعيالهم وذراريهم - بقيادة سليمان المستعين بالله (الأموى) إلى قرطبة العاصمة لانتزاعها من الخليفة هشام المؤيَّد والفتى واضح المتغلب عليه، ونزلوا مدينة الزهراء ليتخذوها قاعدة للإغارة على قرطبة. فلما خرج المستعين من قرطبة منهزمًا (فى شوال من السنة نفسها ٤٠٠هـ/مايو ١٠١٠م) هجم عامة قرطبة على الزهراء، فنهبوا ما وجدوا فيها من آلات البربر، وقتلوا من وجدوا بها ودخلوا الجامع، ونهبوا حُصُرَة وقناديله ومَصَاحفه، وسلاسل قناديله، وصفائح أبوابه (كما يقول ابن عذارى فى البيان المغرب). ولا شك فى أنهم نهبوا كذلك كثيرًا مما كانت تحويه قصورها.

وفى ربيع الأول من السنة التالية (٤٠١هـ/نوفمبر ١٠١٠م) عاد البربر فاحتلوا الزهراء، وبقوا بها سبعة أشهر

وقتلوا حاميتهـا ، وعنـد رحيلـهم عنهـا - كمـا يقـول ابـن عـذارى فـى (البيـان المغرب) - جعلوا يُغيرون على أدنى البلد واقصاه، ينهبـون ويُخرِّبـون ويقتلـون، وعـاثوا فسـادًا فـى قـصورها ودورهـا، وأضرموا فيها النيران.

وبعـد ذلـك بسنتين - أى فـى سنة (٤٠٣هـ/١٠١٢م) - عاد سليمان المستعين إلى الزهراء بجنده البربر، واحتلوا المدينة. ومنذ ذلك التاريخ ظلت مهملة حتى كانت أيام الخليفـة المستكفى بـالله. وفـى سنة (٤١٥هـ/١٠٢٤م)- كمـا يـؤرخ ابـن عذارى- "استُؤصلت قصور جدّه الناصر بالخراب، وطمست أعلام قصر الزهراء، فطوى بخرابها بساطُ الدنيا وبتغيُّرها تغير حسنها"، ثم تولى بيع موادّها من رفيع المرمر، ونضار الخشب، وخالص النحاس، وصافى الحديد: رجل اسمه «ابن باشه»، كان قد جلبه ابن السقاء مدبّر قرطبة، فى أوائل دولة بنى جهور، حوالى سنة (٤٢٣هـ/١٠٣٣م). وابن باشه هذا هو من يسميه ابن بسام هدَّام القصور ومُبوِّرُ المعمور.

وهكـذا صـارت الزهـراء أطـلالا دارسة، وفيها يقول الشاعر السميسر:

وقفتُ بالزهراء مستعبرًا

معتبرًا أندب أشتاتا

فقلت: يا زهرا ألا فارجعى

قالت: وهل يرجع من ماتا؟!

فلم أزل أبكى وأبكى بها

هيهات يغنى الدمع هيهاتا

وقـد جـاء ذكـر الزهـراء فـى وصـف ليلـة مـن الليـالى قـضاها فيهـا المعتمـد بـن عبَّاد- أحد ملوك الطوائف - ومعه نفر مـن أصـحابه ووزرائـه (حـوالى سـنة ٤٦٧هـ/١٠٦٥م) إذ قيـل: إنهـا كانـت -كما ينقل الفتح بن خاقان فى (قلائد العقيان)- قد مَحَتْ الحوادث ضياءها، وقلصت ظلالها وأفياءهـا... فأضحت ولها تَلَفُّع واعتجار، ولم يبق مـن آثارهـا إلا نُؤَىً وأحجار... وقد وَهَتْ قبابها، وهرم شبابها.

ولعـل آخـر مـن زار أطلالهـا مـن أمـراء الأنـدلس يعقـوب المنـصور أمـير دولـة الموحّـدين، وذلـك فـى سـنة (٥٨٦هـ/١١٩٠م)- كما يؤرخ ابن عذارى فـى البيـان المغـرب- إذْ أمـر هـذا الخليفـة بإنزال التمثال الذى كان ما زال مقامًا على بـاب الـصورة مـن أبـواب الزهـراء. ثـم إن جماعة من الرهبـان - كمـا يـذكر توريس بلبـاس فـى كتابـه (قرطبـة والزهـراء)- اقتلعوا حجارة أطلالها فى منتصف القرن الخامس عشر للميلاد، واستعانوا بها فى بناء دير لهم، هو دير بلباريسو.

وقد اندثرت أطلال الزهراء وكَسَتْها الرمالُ والنباتات، واختفت معالمها تمامًا، حتى نشط العلماء الأسبان منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر للميلاد - للكشف عن معالمها وآثارها، لما يُلقيه هذا الكشف من أضواء هامة على أحوال الخلافة الأندلسية ونظمها الإدارية والاجتماعية، وعلى تطور الفن المعمارى الأندلسى فى أزهى عصوره. ففى سنة ١٢٦١هـ- ١٨٤٥م أكتُشف موقع المدينة، وأجريت بها بعض الحفريات السطحية. ثم إنه فى سنة ١٣٣٠هـ - ١٩١٢م أكتشف العالم الأثرى "ريكاردو بلاسكيث بوسكو" بعض أطلالها، وظل يعمل حتى موته سنة ١٣٤٣هـ- ١٩٢٤م. وكان قد نشر نتائج أبحاثه فى مجلدين سنة ١٣٤٢هـ- ١٩٢٣م. واستمر التنقيب فى موقعها بعد ذلك على فترات متقطعة إلى سنة ١٣٦٣هـ- ١٩٤٤م بإشراف الدكتور "كاستيخون" والمهندس العالم الأثرى "فيليث إرنانديث"، ثم استؤنفت أعمال الحفر والتنقيب بصورة أكثر اتصالا منذ تلك السنة، وأخذت معالم المدينة- أى أسس أبنيتها- سنةً بعد أخرى تدريجيًا. وكان ما أكتشف فيها هو المسجد الجامع ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤م، والسابا... الرخام سنة ١٣٨٥هـ- ١٩٦٥م، وا... فى تلك الفترة كذلك بإعادة بناء ... الجدران والأسوار الضخمة، والدعا... التى تسند سطح القبلة، وقد حاول ... الآثار بإشراف الأستاذ "فيليث إرنانديث" إعادة بناء مجلس عبد الرحمن النا... أو "دار الملك"، وإعادة زخارفه العتي... بالاستعانة بالأنقاض التى كانت متراكمة فى موقعه.

وبالرغم من أن جهود اللجان الأثر... المتعاقبة التى اضطلعت بهذا العمل ... تكن متواصلة أو ذات نطاق واسع ... استطاع الأثريون الأسبان أن يكشفوا ... كثير من معالم الزهراء ومواقع صرو... وأبهائها الملوكية. ولعل الحفائر المستق... تكشف لنا عن معالم كثيرة أخرى ... ضروب الفخامة والجلال التى كانت تتسم بها تلك المدينة.

د/طه عبد المقصود عبد الحميد

مصادر ومراجع للاستزادة

لمزيد من التفاصيل عن مدينة الزهراء والاكتشافات الأثرية لمعالمها انظر:

* محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام فى الأندلس (ج٢: الخلافة الأموية والدولة العامرية –ص٤٣٥- ٤٤٥)- (ج٢: الآثار الأندلسية الباقية فى أسبانيا والبرتغال، ص٣٥- ٤٤) _ ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة الأعمال الفكرية، مكتبة الأسرة، ٢٠٠١م.
* د. أحمد فكرى: قرطبة فى العصر الإسلامى تاريخ وحضارة، ص٢٠١- ٢٣٨، ط: مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية (د.ت).
* د. السيد عبد العزيز سالم: فى تاريخ وحضارة الإسلام فى الأندلس –ص٤٤- ٥٠، ط: مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٨٥م.
* د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس (من الفتح العربى حتى سقوط الخلافة بقرطبة) – ص٤٠٧- ٤١١، - ط: مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ١٩٦١م.
* د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٧٤- ٣٧٧، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة ٢٠٠٤م.

ومن المصادر:

* ابن عذارى المراكشى، ابو عبد الله محمد: البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، حققه بروفنسال وآخرون- ط: بيروت دار الثقافة ١٩٨٣م.
* المقرى: أحمد بن محمد بن أحمد المقرى التلمسانى (ت ١٠٤١هـ): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – تحقيق إحسان عباس، ط: دار صادر، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.
* لسان الدين بن الخطيب السلمانى الغرناطى (ت ٧٧٦هـ):-أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام -تحقيق وتعليق ليفى بروفنسال، ط: دار الكشوف، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٦م.
* ومن أوفى البحوث التى كتبها الأسبان عن مدينة الزهراء: الفصل الذى خصصه توريس بلباس فى القسم الخاص بالفن الإسلامى من الجزء الخامس من كتاب (تاريخ أسبانيا – صفحات ٤٢٣- ٤٦٣).

الزياديون (الدولة الزيادية)

أسس الزياديون دولتهم فى اليمن سنة (٢٠٤ هـ / ٨١٩م) ، واختطوا مدينة زبيد فى الرابع من شعبان من نفس السنة ، واتخذوها عاصمة لهم ، ومنها سيطروا على معظم بلاد اليمن . وقد عاون الخليفة العباسى المأمون واليه على اليمن محمد ابن زياد - مؤسس هذه الدولة - بقوات من الجند الخراسانية ، مكنته من بسط نفوذه على جبال اليمن، وامتد نفوذ بنى زياد - ممثلى الخلافة العباسية - إلى حضرموت ، وديار كندة والشحر ومرياط وأبين ولحج وعدن والتهائم وحلى والجند وأعمالها ، ومخلاف جعفر ، وصنعاء وصعدة ونجران وبيجان .

وبضعف الخلافة العباسية وازدياد سيطرة الأتراك عليها ، تحولت التبعية الزيادية للعباسيين إلى تبعية اسمية ، تتمثل فى حكم بلاد اليمن باسم الخليفة العباسى وإظهار الولاء له من أجل إضفاء الشرعية على حكم الزياديين لليمن ، وتجلى ذلك فى ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ونقش اسمه على السكة . وقد ظهر هذا التطور واضحاً فى علاقة الزياديين بالعباسيين خلال عهد إسحاق بن إبراهيم بن محمد بن زياد الذى تو[لى] أمر الزياديين بعد أخيه زياد بن إبراه[يم] وتلقب بأبى الجيش، وقد طالت مد[ة] حكمه لليمن حتى بلغت ثمانين عاما[،] تمكن خلالها من توطيد نفوذ الزيادي[ين] على اليمن وحضرموت وجزر البحر وتشب[ه] بملوك اليمن فركب المظلة وظهر بمظه[ر] الحاكم المستقل .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن العباسيي[ن] فى توجيه سياستهم فى بلاد اليمن عمدوا منذ النصف الثانى من القر[ن] الثالث الهجرى/التاسع الميلادى إلى تأيي[د] أية قوة سياسية سنية جديدة ناشئة ف[ى] بلاد اليمن ومنحها الشرعية بصورة لا تتعارض مع الشرعية السياسية التى منحوها قبل ذلك لحلفائهم الزياديي[ن] وذلك لمواجهة الاتجاهات المذهبية الجديد[ة] التى شرعت فى الظهور بحدة فى بلا[د] اليمن نتيجة لضعف الخلافة العباسية وهذه الاتجاهات الجديدة هى الاتجا[ه] الزيدى الشيعى ، والاتجاه الإسماعيل[ى] الفاطمى ، وكانت هذه القوة السن[ية] الجديدة التى ظهرت فى الأفق السياس[ى] لبلاد اليمن هى قوة بنى يعفر الحوالي[ين]

فى صنعاء ، وكان على رأسهم الأمير محمد بن جعفر بن عبدالرحيم ، الذى أخذ البيعة فى منطقة نفوذه التى اشتملت على صنعاء ومخاليفها والجند وحضرموت للخليفة العباسى المعتمد على الله أبى العباس أحمد بن جعفر المتوكل ، فلما وصل خبره فى سنة ٢٥٧ هـ / ٨٧٠م إلى المعتمد كما يقول الخزرجى : " كتب إليه بنيابته على صنعاء ومخالفيها " .

وبذلك أصبح فى اليمن قوتان تدافعان عن الاتجاه السنى. والذى يبدو من روايات الخزرجى أن القوتين نظمتا العلاقة بينهما فى ضوء تبعية كل منهما للعباسيين؛ وقد يكون ذلك بتوجيه من المعتمد العباسى نفسه ، أو لشعور بنى يعفر بقوة الزياديين ؛ فيذكر الخزرجى أن الأمير محمد بن جعفر كان ، " يوالى ابن زياد " صاحب زبيد ويحمل إليه الخراج . كما يروى يحيى بن الحسين أيضا أن بنى جعفر فى أيام أبى الجيش الزيادى " كانوا يخطبون له ويضربون السكة باسمه" .

وقد تولى بنو يعفر (الحواليون) مقاومة على بن الفضل الذى اتجه إلى توحيد اليمن تحت قيادته بعد أن رفض كل مظاهر التبعية للمذهب الإسماعيلى ، بينما تولى بنو زياد ، مقاومة سائر القوى السياسية والمذهبية الأخرى المناهضة للنفوذ العباسى وللمذهب السنى، مذهب جمهور المسلمين فى العالم الإسلامى ، وفى اليمن أيضا فى ذلك الوقت .

أدى هذا بطبيعة الحال إلى صراع حاد ، أضعف الدولة الزيادية لأن العباسيين الذين كانوا يعانون من سيطرة الأتراك – كما قلنا قبل ذلك – عجزوا عن معاونة الزياديين فى مواجهة هذه المتغيرات الجديدة التى ظهرت فى بلاد اليمن ولذلك وقف الزياديون وحدهم يواجهون تطورات سياسة بالغة الخطورة مزقت وحدة اليمن تحت سيادتهم وآذنت بظهور قوى سياسية ومذهبية عديدة أثرت تأثيراً قوياً فى البناء السياسى والمذهبى لليمن الإسلامى مازالت أصداؤه تتردد فيه حتى الآن .. ففى صعدة – كما ذكرنا – قامت دولة الأئمة الزيدية . بينما انتشر دعاة الإسماعيلية فى مواقع كثيرة من اليمن وسيطر ابن حوشب وعلى بن الفضل على كثير من بلدانه وتمكن بنو يعفر (الحواليون) من إقامة دولة لهم فى صنعاء .

وعلاوة على ذلك ، أصبح مقر الدولة الزيادية نفسه فى تهامة عرضة لهجمات قاسية عنيفة من قبل هذه القوى المختلفة

حتى وصلت الدولة الزيادية إلى أقصى درجات الضعف والهزال ولم يبق لها من نفوذ إلا منطقة تمتد فيما بين شرجة حرض وعدن طولاً وما بين غلافقة إلى أعمال صنعاء عرضا. وقد حدد بعض المؤرخين حجم دولة بنى زياد المتداعية فى ذلك الوقت ، فذكر أنه لم يتجاوز عشرين مرحلة طولاً من الشرجة إلى عدن، وخمس مراحل عرضاً من غلافقة إلى أعمال صنعاء.

وبوفاة الأمير أبى الجيش إسحاق سنة (٣٧١ هـ / ٩٨١م) . قفز موالى بنى زياد من الأحباش إلى قمة السلطة فى الدولة الضعيفة المتهالكة وقلدوا الحكم لطفل صغير يسمى زياداً أو عبد الله أو إبراهيم. وواضح من روايات معظم المؤرخين أن الطفل الذى نصب على عرش الزياديين كان ابنا للأمير أبى الجيش إسحاق لأنهم يقولون إن أخته هند التى تولت الوصاية عليه بترتيب من موالى بنى زياد الأحباش كانت بنتا لأبى الجيش إسحاق. وينفرد ابن الديبع من بين المؤرخين برواية يذكر فيها أن الوصية كانت عمة للطفل وهى فى نفس الوقت أخت لأبى الجيش إسحاق، وهذا يعنى أن الطفل ابن لأبى الجيش وفقاً لجميع الروايات .

ومنذ تلك اللحظة أصبح الطفل وأخ... هند فى كفالة عبد من عبيد بنى ز... اسمه رشيد تولى منصب الوزارة ، وكا... أستاذاً حبشياً من بين الأستاذين العامل... فى الخدمة فى بلاط بنى زياد ولكنه ل... يلبث مدة طويلة فى الوزارة فتوفى بعد فترة قصيرة من توليه .

تولى الوزارة وإدارة شئون الدولة بعد... الحسين بن سلامة الذى كان وصيف... نوبياً لرشيد تمتع بسمعة طيبة وأثبت... براعة فائقة فى إدارة الدولة الزيادية التى انتعشت كثيراً فى أيامه واسترد... معظم ما فقدته من أراضيها ونشطت فيه... حركة بناء المدن وتعمير المساجد وإنشا... الطرق وحفر الآبار . ولذلك ظل الحسين ابن سلامة يتقلد منصب الوزارة ثلاثين عاماً كان خلالها " عادلاً على الرعية كثير الصدقات والصلات فى الله تعالى مقتدياً بسيرة عمر بن عبد العزيز فى أكثر أحواله ".

بوفاة الحسين بن سلامة اقتربت الدولة الزيادية من نهايتها المحتومة ، حيث لم يكن لبنى زياد سوى طفل صغير ، يظن عمارة أنه كان يسمى عبد الله كفلته عمته وتقلد الوزارة لهما أستاذ حبشى من عبيد الحسين بن سلامة اسمه مرجان

ويذكر نفس الرواية لعمارة أنه كان لمرجان عبدان أحدهما (نفيس) والآخر : يدعى (نجاح)، تولى نفيس منصب الوزارة، وأقام فى العاصمة الزيادية فى زبيد. متمتعاً بسلطات واسعة ونفوذ مطلق. أما نجاح فكان يتولى الأعمال الشمالية فى مدن الكدراء والمهجم ، ومور والواديين .

ويروى المؤرخون أن نفيسا كان عسوفاً مرهوباً ويبدو أن ذلك أثار طفل بنى زياد وعمته، فجرت بينهما وبين نجاح – الذى كان رؤوفاً عادلاً محبوباً من الرعية – بعض الاتصالات التى توجس منها نفيس خيفة فسارع إلى إبلاغ سيده مرجان ، فما كان من مرجان إلا أن أمر بالقبض على الطفل وعمته ، وأمر نفيسا أن يقتلهما بطريقة مثيرة لا شفقة فيها ولا رحمة . "فبنى عليهما (نفيس) جداراً وهما قائمان يناشدانه الله عز وجل ، حتى ختمه عليهما" . ويذكر ابن الديبع، أن ذلك كان فى دار الملك سنة (٤٠٧ هـ /١٠١٦م) وهذا التاريخ اتفق عليه معظم المؤرخين كالخزرجى وابن الديبع ، وهذا يعنى أن دولة بنى زياد استمرت ٢٠٣ سنة . وعلى هذا ينبغى أن نتردد كثيراً أمام رواية عمارة التى تؤرخ لهذا الحادث بسنة (٤٠٩هـ / ١٠١٨م) وتجعل عمر دولة بنى زياد يمتد فى التاريخ إلى ٢٠٥ سنة .

ونجح الزياديون أيضاً طيلة قرنين من الزمان فى المحافظة على النفوذ العباسى، وعلى المذهب السنى فى اليمن . وجاء من بعدهم النجاحيون فاستمروا فى نفس السياسة . وأظهرت الدراسة أنهم نجحوا فى تكوين دولة حاجزة بين قوى المعارضة التى كانت مزدهرة فى اليمن فى ذلك الوقت – والمتمثلة فى المذهب الزيدى والمذهب الإسماعيلى – وبين امتداد نشاط هذه القوى إلى بلاد الحجاز بصورة تهدد بقاء الأراضى المقدسة ضمن مناطق النفوذ العباسى .

أ.د / محمد عيسى الحريرى

مصادر للاستزادة:

- الخزرجى : أبو الحسن على بن الحسن الخزرجى (ت : ٨١٢هـ) : العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك، مصورة عن المخطوط الأصلى للمرة الثانية ، طبعة وزارة الإعلام والثقافة اليمنية (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ، دار الفكر، دمشق .
- ابن خلدون : عبد الرحمن (ت : ٨٠٨هـ) ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨م، المجلد الأول ، المجلد الرابع .
- ابن الديبع : أبو الضيا عبد الرحمن بن على الديبع الشيبانى الزبيدى (ت : ٩٤٣هـ) ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق : محمد بن على الأكوع الحوالى ، المكتبة السلفية ، القاهرة ، ١٩٧١م .
- بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق : عبد الله الحبشى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩م.
- عمارة : نجم الدين بن أبى الحسن على الحكمى اليمنى ، (ت : ٥٦٩هـ) ، تاريخ اليمن ، تحقيق : د.حسن سليمان محمود ، نشر مكتبة مصر ، القاهرة ، ١٩٥٧م .
- ابن المجاور : جمال الدين أبو الفتوح يوسف بن يعقوب ، صفة بلاد اليمن ، تحقيق : أوسكر لوفغرين ، طبعة ليدن ١٩٥١م .
- أبومخرمة : أبو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن أحمد ، تاريخ ثغر عدن ، طبعة ليدن ، ١٩٣٦م .
- الوصابى : وجيه الدين الحبيشى ، (ت: ٧٨٢هـ) ، الاعتبار فى التواريخ والآثار ، تحقيق : عبد الله محمد الحبشى، مركز الدراسات والبحوث اليمنية ، صنعاء ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٩م .

الزياريون (دولة)

كانت البداية الأولى للدولة الزيارية عندما حاول الطاهريون أن يبسطوا أيديهم على بعض المواقع بطبرستان[1] فقاومهم أهل طبرستان واستعانوا بالحسن ابن زيد العلوى فى قتال الطاهريين. وقد أقام الحسن دولة للعلويين بطبرستان سميت بالزيدية أو العلوية (٢٥٠- ٣١٦هـ).

كان للحسن بن زيد العلوى قائد شهير عُرف باسم ليلى بن النعمان، قتل فى الصراع مع الطاهريين وتولى مكانه قائد آخر اسمه (ماكان بن كالى)، ولكن خرج عليه أحد قواده واسمه أسفار، وكان يعاونه قائد آخر اسمه (مرداويج بن زيار) الذى كان من تدبيره قتل أسفار بن شيرويه وتمكن من بسط يده على كل هذا الميراث وأسَّس الأسرة الزيارية[2].

ولنبدأ بعرض أهم التطورات الخاصة بمؤسس الأسرة.

مرداويج بن زيار ٣١٦ / ٣٢٣هـ:[3]

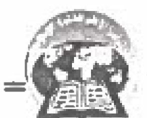
بعد أن ملك مرداويج بلاد طبرستان استولى على كل بلاد الجبل، ثم استولى بعد كل ذلك على أصفهان والأهواز.

وقد أحبّه الجنود لحسن سيرته، وصُنِع له سرير من ذهب يجلس عليه وآخر من فضة لقواده، ونظرًا لعطائه أقبل عليه الديلميون وانضموا إليه واتسعت مملكته كما سبق أن ذكرت[4].

ومن عجائب الأقدار أن تتوسع الدولة الزيارية فى الوقت الذى بدأ فيه نجم الدولة البويهية فى الظهور.

فقد عين مرداويج ثلاثة من أولاد بويه فى بعض الولايات الهامة فى دولته وهم على والحسن وأحمد، ولكنه ندم على فعلته هذه بعد أن ذهبوا لولاياتهم فأوقفهم، ولكن على بن بويه كان قد تحرك لولايته فى الكرج فأحسن وأجاد، فشكر الناس لمرداويج ذلك، وتلك كانت اللبنة الأولى لبناء الدولة البويهية وهدم الدولة الزيارية[5].

وعلى الجملة فقد أسس مرداويج هذه الدولة بجهده وعرقه الذى بذله فى سبيل التمكين لها والحفاظ عليها. وفى ٢٣٢هـ/٨٤٦م كانت نهاية مرداويج بقتله على يد بعض جنده وأتباعه. وقد ترددت المصادر فى سببه، حيث ذهب الكامل [6] للقول بأنه أساء إلى الأتراك من الغلمان، بل والقواد منهم ومن ثم تآمروا جميعًا على قتله وقد تمكنوا من ذلك بإغراء بعض خواص خدمه الذين



تمكنوا من قتله وهو فى الحمام.

وفى ترجمة السيوطى [٧] للراضى الخليفة العباسى ، عرض لموت مرداويج وأشار إلى فكرة خطيرة تستحق الوقوف عندها ألا وهى أنه مسالم لصاحب المجوس ، وكان يقول: " أنا أقيم دولة العجم وأمحق دولة العرب". وأنا أرى أن هذه الرواية قد تكون السبب الحقيقى لمقتله.

وذهب البعض إلى القول بأن سبب مقتله تقسيمه لأتباعه فجعل منهم جزءًا من الجبل والديلم، وجزءا آخر من الأتراك[٨] ولكنه أثار الأتراك ببعض تصرفاته فعملوا على قتله.[٩]

وشمكير بن زيار ٣٢٣- ٣٥٧ هـ/ ٩٣٥- ٩٦٨م:

كان يعمل بالفلاحة وزراعة الأرز يوم أن أرسل مرداويج فى استدعائه، حيث رفض أولا واعتبر أنَّ لبس أخيه للسواد وخدمة العباسيين سبة فى جبينه، ولكن الرسول أخذ يحتال على وشمكير حتى أقنعه، ودخل فى طاعة أخيه مرداويج فأعطته السعادةُ ما كان له فى الغيب فصار من أعرف الملوك بتدبير الممالك وسياسة الرعية.[١٠]

والقارئ لتاريخ مرداويج يشعر بأن استدعاءه لأخيه كان منبعه حرصه على مصلحته ومصلحة هذه الدولة الوليدة؛ فقد وجهه إلى أعقد المسائل وأكبر المواجهات التى كانت الدولة الزيارية ستخوضها.

ومن ذلك إرساله للقضاء على (على بن بويه) بعد أن استفحل أمره واستولى على أصبهان وبدا نجمه يعلو، وكان مرداويج يحاول استمالته بشتى الطرق وهو مُعْرِض حتى راسله يطلب منه أن تكون الخطبة له، وذلك فى سبيل أن يمده أى مرداويج بالرجال والعتاد، وفى الوقت الذى أرسل فيه مرداويج هذه الرسالة جهز جيشًا كبيرًا بقيادة أخيه وشمكير للقضاء على "على بن بويه"، إلا أن عليًا علم بالأمر فرحل من أصبهان ، ووصل الأمر به إلى أن استولى على كثير من المناطق وأرسل للخليفة فى بغداد الراضى بالله يعلن أنه على الطاعة ويطلب إقراره على ما فى يده من البلاد وذلك نظير ألف ألف درهم، فتم له ما أراد. وهنا يظهر مرة أخرى دور وشمكير، فقد سار مرداويج إلى وشمكير فى أصبهان وأعد خطة يتم بها قطع الطريق على "على بن بويه" فلا يستطيع الوصول إلى الخليفة[١١].

وتشاء الأقدار أن يتم قتل مرداويج بعد

الصلح بينه وبين على بن بويه، فتتفرق قواته، حيث ذهبت قوات الديلم إلى أخيه وشمكير بالرى وبقيت معه وأطاعوه، وكانوا سببًا فى استمرار الدولة الزيارية.

على أن وشمكير والدولة الزيارية كانوا فى معاناة؛ سواء من تهديدات السامانيين أو البويهيين. والمتتبع لحوادث التاريخ سيتبين له مدى الجهد الذى بذله البويهيون .لطرد وشمكير من الرى، وقد حدث فعلا هذا الأمر ولكنه هرب إلى طبرستان والتحق بالسامانيين واستقبلوه فى خراسان[١٢]. والتزم طاعة الأمير نصر الدين بن أحمد السامانى واستطاع أن يعود إلى الرى مرة أخرى ولكنه ما لبث أن هزم أمام البويهيين فانسحب من الرى إلى طبرستان ولكنه هزم فيها أيضًا فذهب إلى السامانيين فى خراسان[١٣] واستنجد بهم، ولكن حدث فى عام ٣٤١هـ/٩٥٢م أن تمكن وشمكير من إعادة أملاكه فى طبرستان وجرجان[١٤].

وبعد الكثير من الشد والجذب لقى وشمكير حتفه لسقوطه من على فرسه فنزف الدم من رأسه ولقى حتفه فى الحال وهكذا كانت نهايته[١٥].

ظهير الدين بيستون بن وشمكير ٣٥٧ - ٣٦٦هـ/ ٩٦٨- ٩٧٦م:

ليس له ذكر كثير فى المصادر وإن كان بعضها قد وضَّح أنه حكم الدولة الزيارية منذ عام ٣٥٧هـ حتى عام ٣٦٦هـ[١٦].

وقد ورد ذكره فى حوادث عام ٣٤٨هـ/ ٩٥٩م، حيث وقعت حرب شديدة بين على بن كامه وهو بن أخت ركن الدولة وبين ظهير الدين بيستون بن وشمكير، ولكن انهزم بيستون بن وشمكير وكانت الغلبة لعلى بن كامه[١٧]، وإن كان قد غير وجهته بعد ذلك نحو البويهيين ، وورد ذكر وشمكير فى حروبه ضد الداعى العلوى وهو أبو عبد الله محمد بن الحسين (من أولاد الحسن بن علي) حيث ترك أهله ببغداد وذهب إلى الرى فانضم له أهل الرى وهزم وشمكير وقواده، وكذلك ورد ذكر بيستون بن وشمكير فى حروبه ضد هذا الداعى العلوى بعد أن لبس الصوف وأظهر النسك والزهد فالتقيا فهزم بيستون بين وشمكير واتجه الداعى إلى طبرستان لأخذها.

والملاحظ أن بيستون هذا حول ناظريه إلى البويهيين بعد أن كان والده يحاربهم

ويقاتلهم؛ فبعد موت وشمكير راسل بيستون البويهيين فأمدوه بالمال والعتاد والرجال[١٨]، واصبحت الخطبة لهم. وفي عام ٣٦٦هـ/ ٩٧٦م توفي بيستون بن وشمكير، وكان ذلك في جرجان، وتمكن أخوه قابوس بن وشمكير من الاستيلاء على جرجان وطبرستان.

قابوس بن وشمكير[١٩](شمس المعالي) ٣٦٦- ٤٠٣هـ/٩٧٦-١٠١٢م:

يُعد رابع ملوك الزياريين وأذيعهم صيتًا، كان شديد المراس، كثير الغضب، كثيرًا ما قتل على الظنّة. حقد عليه جنده وكرهوه لتصرفاته هذه وقتل قوادهم فعزلوه وولوا مكانه ابنه: منوجهر الذى كان غائبًا بطبرستان فعاد مسرعًا لتولى الأمر من بعد أبيه ، ألف له البيرونى كتاب "الآثار الباقية". عُرف بحب الشعر والعلم ، وجمع حوله العلماء والشعراء من الفرس والعرب على السواء.

وقد كان من شعره الذى تناقله الرواة قوله:

قُلْ الذى بصروف الدهر عيَّرنا
هل عاند الدهر إلا من له خطر؟
أما ترى البحر يطفو فوقه جيف
ويستقر بأقصى قعره الدرر
فإن تكن نشبت أيدى الخطوب بنا
ومسنا من توالى صرفها ضرر
ففى السماء نجوم غير ذى عدد
وليس يكسف إلا الشمس والقمر

ومن قوله المستجاد:

لا عضو لى إلا وفيه صبابة
وكأن أعضائى خُلقن قلوبًا[٢٠]

هذا وقد استقبل قابوس بن وشمكير فخر الدولة[٢١] بعد أن اجتاح أرضه أخوه عضد الدولة، فأكرمه. ويبدو أن قابوس ابن وشمكير كان مقصد العلماء بالفعل، وليس أدل على ذلك من قصد الشيخ الرئيس ابن سينا له دون غيره من الملوك والأمراء الذين كانوا يعاصرون قابوس ابن شمكير[٢٢]ولكنه تراجع عن موقفه هذا بعد مقتله.

اشتهر قابوس بجمال الخط فكان الصاحب بن عباد يقول إذا رأى خطه: " هذا خط قابوس أم جناح طاووس".

وقال عنه الثعالبى فى جـ٣ من يتيمة الدهر: إن الله جمع له إلى عزة الملك بسطة فى العلم، وقال عنه ابن الأثير: كان قابوس غزير الأدب وافر العلم له رسائل وشعر حسن وكان عالمًا بالنجوم[٢٣].

منوجهر فلك المعالى [٢٤] ٤٠٣-٤٢٠هـ/١٠١٢-١٠٢٩م

عندما خلع الجند قابوس بن وشمكير قَبِل ابنُه تولّيَ الأمرِ بعد أبيه على مضض، وأخذ من أبيه الخاتم ولكن الجند أصروا على قتل أبيه حتى يكونوا جميعًا فى أمان فسكت الابن. وبالفعل تم التخلص من قابوس بن وشمكير.

جلس ابنه للعزاء وقد تقلد الإمارة وأطلق عليه: منوجهر فلك المعالى، واستطاع أن يتزوج من ابنة يمين الدولة، ودخل فى طاعته فقوى أمره، وشرع فى تدبير أمر إمارته وبدأ بقتل من قتلوا والده فانتقم منهم جميعًا فوطد أركان حكمه.

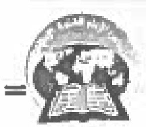
وفى عصره (أى منوجهر)، سار محمود ابن سبكتكين إلى الرى وذلك سنة عشرين وأربعمائة / ١٠٢٩م فهرب منوجهر ابن قابوس وبعث إليه بأربعمائة ألف دينار ليصالحه وتحصن منه بجبال وعرة ودخل فى الغياض الملتفة وأجابه محمود بالموافقه فبعث إليه منوجهر بالمال ونكب عنه فى رجوعه إلى نيسابور.

عرف عن منوجهر أنه شاعر الطبيعة: حيث كان له شعر رائق [٢٥]، ثم توفى منوجهر إثر ذلك فى سنة ٤٢٠ هـ/ ١٠٢٩م وولى بعده ابنه أنوشران.

شرف المعالى أنوشروان بن منوجهر ٤٢٠- ٤٤١هـ/ ١٠٢٩- ١٠٤٩م:

ملك أنوشروان البلاد وأقره محمود بن سبكتكتين، وقرر عليه خمسائة ألف دينار فخطب لمحمود فى بلاد الجبل إلى أرمينية. ثم استولى مسعود بن محمود بن سبكتكين على جرجان، وطبرستان وأزال دولة بنى قابوس بن زيار كأن لم تكن.

وهذا ما ذهب إليه ابن خلدون والشيخ الخضرى وغيرهم من المؤرخين القدامى والمحدثين. على أن هذا يخالف رأى مجموعة أخرى من المؤرخين القدامى والمحدثين. أمثال ابن الأثير وأحمد شلبى فى موسوعة التاريخ الإسلامى؛ فقد ذكر ابن الأثير [٢٦] فى أحداث عام ٤٣٣هـ تحرك طغرل بك نحو أنوشروان بن منوجهر ابن قابوس بن وشمكير فى جرجان فاصطلحا على أن يدفع الأهالى له مائة ألف دينار، كما قرر على أنوشران خمسين ألف دينار من كل الأعمال وعاد طغرل بك إلى نيسابور، فى الوقت الذى أقيمت فيه الخطبة له فى البلاد (لطغرل بك) وأصبح المتصرف فى أمر أنوشروان نائب لطغرل بك وهو



مرداويج بن بسو وأصبح أنو شران لا يقضى أمرًا بدونه .

وفى أحداث أربع وثلاثين وأربعمائة/١٠٤٢م [٢٧] وفى خروج مسعود ابن محمود إلى خوارزم من غزنة صادفه الشتاء فقرر التوجه إلى بلاد أنو شروان (جرجان) انتقامًا منه على ما كان منه عند انشغال مسعود بالقتال فى بلاد الهند. على أن نهاية أنو شروان بن منوجهر كانت عام ٤٤١هـ/ ١٠٤٩م .

كيكاوس بن سكندر بن قابوس وابنه كيلانشاه بن كاوس (٤٤١-٤٦٢هـ ثم ٤٦٢- ٤٧٠هـ/ ١٠٤٩-١٠٦٩م ثم ١٠٦٩- ١٠٧٧م):

من أهم ما خلفه الأمير كيكاوس، بل من أهم ما خلفته هذه الأسرة، ذلك الكتاب الذى ألفه كيكاوس ويطلق عليه (كتاب النصيحة) أو (قابوسنامه) وقد ترجم إلى العربية ونال به د/ أمين عبد المجيد بدوى رسالة الدكتوراه من طهران١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م ، هذا وقد ألف هذا الأمير ذلك الكتاب لابنه كيلانشاه، آخر ملوك بنى زيار، وقد وضع فيه خلاصة تلك العلوم والتجارب والثقافات التى كانت فى عصره.

وإن من يقرأ الأبواب ٣١ و ٣٣ و ٣٤ و ٣٥ و ٣٦ و ٣٩ يرى فيها صورة واضحة للحياة العلمية التى عاشتها الدولة والتى وصلت بها العلوم فى عصرها إلى ذروتها وهى أكبر من أن نعرض لها فى هذه العجالة. وكذلك فعل مع الحياة الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية . إلخ.

أما كيلانشاه آخر ملوك الأسرة الذى أُلِّفَ هذا الكتاب له فكان حكمه من٤٦٢هـ حتى٤٧٢هـ/ ١٠٦٩ حتى ١٠٧٩م. ولم يكن يحكم فى عصره سوى كيلان فقط، وقد خلفه ملكشاه السلجوقى. وبوفاته عام ٤٧٢هـ أو عام ٤٧٠هـ ، على خلاف بين المؤرخين انتهى عصر دولة بنى زيار[٢٨].

ولا يخفى أن هذه الدراسة الموجزة لن تفى بحق هذه الدولة ، فهى تحتاج لدراسات متوسعة تكشف اللثام عن حقيقتها وتبين دورها سواء الإيجابى أو السلبى ، ومكانتها العلمية والحضارية، وأثرها فى الصراع الشيعى الفارسي.

أ.د / أنس هارون نصر

الهوامش:

(١) طبرستان: بلاد واسعة يحدها شمالًا جبال البرز، وجنوبًا بحر الخزر ومن الشرق كركان، ومن الغرب كيلان، تعرف اليـوم مانـدران؛ وآمل أشهر مدنهاوكلمة طبر بمعنى الفأس، ياقوت الحموي: شهاب الدين أبو عبد الله ت ٦٢٦هـ / معجم البلدان. ولابن اسـفنديار كتـاب كامل عن طبرستان . يرجع إليه

(٢) الخضرى بك: الشيخ محمد : تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية ص ٣٧٤ ، مصر ١٩٧٠م.

(٣) تنسب الأسرة إلى ورد شاه من أسياد الجبل فى أصلها الأول .

(٤) ابن الأثير أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى ت/٦٣٠هـ، الكامل فى التاريخ جـ ٦ ص ١٩٨ ، ط ٣ ، ١٤٠٠هـ ، ١٩٨٠م.

(٥) ابن الأثير: المرجع السابق جـ ٦ ص ص ٢٣٢ .

(٦) ابن الأثير: نفس المرجع السابق والجزء ص ٢٤٥

(٧) السيوطى:الإمام الحافظ جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر . ت ٩١١هـ: تاريخ الخلفاء ص ٣٩٠ ، مصر.

(٨) الخضرى بك: مرجع سابق ص٣٧٧

(٩) الصولى : الأوراق نقلًا عن ابن الأثير جـ٦ ، صـ ٢٤٥

(١٠) ابن الأثير : مرجع سبق جـ٦، ص٢٢٢

(١١) الخضرى بك: مرجع سبق، جـ٦ ، ص ٣٧٧.

(١٢) ابن الأثير: مرجع سبق، ص ٢٧٨ .

(١٣) ابن الأثير: مرجع سبق ، ص ٢٨٧، ٢٨٨.

(١٤) ابن الأثير : مرجع سبق، جـ٦، ص ٣٤٢.

(١٥) ابن الأثير : نفس المرجع والجزء، ص ٣٤٤.

(١٦) أحمد شلبى : مرجع سبق جـ ٨، ص ٦٢.

(١٧) ابن الأثير: مرجع سبق جـ٦، ص ٣٥٦.

(١٨) ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١١ ، http://keswe.net

(١٩) الموسوعة العربية الميسرة. ١٩٦٥ http://ency.reefent.gov.sy/?page=entry&old=206645

(٢٠) البداية والنهاية، جـ١٥، ص٥٤٣ .

(٢١) ابن الوردي: زين الدين عمر بن مظفر، تاريخ ابن الوردى ، ج١ ، ص ٢٩١ ، بيروت ، ١٤١٧ هـ ، ١٩٩٦م.

(٢٢) ابن الوردى : نفس المصدر والجزء، ص ٣٣٣.

(٢٣)كيكاوس بن اسكندر بن قابوس: كتاب النصيحة (قابوسنامه) المقدمة ، دكتوراه لأمين عبد المجيد بدوى ، ١٩٦٥م ، طهـران ، ألفـه الأمير لابنه وهو سابع أمراء بنى زيار وهو مقسم إلى ٤٤ فصلا.

(٢٤) http://islamport.com/w/tkh/web/331/1654.htm.htm

(٢٥) كيكاوس بن اسكندر بن قابوس: سنامه قابو المقدمة (مرجع سبق) wwww.al-eman.com

(٢٦) الكامل: مرجع سبق ، جـ ٨، ص ٣٠

(٢٧) ابن الأثير : نفس المرجع والجزء السابق ص ٣٣.

(٢٨) كيكاوس بن سكندر : قابوسنامه. المقدمة.

مراجع للاستزادة

١- ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى. ت ٦٣٠هـ، الكامل فى التاريخ . بيروت .

٢- الخضرى بك : الشيخ محمد ، تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية ، مصر ١٩٧٠م.

٣- السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر ، ٩١١هـ، تاريخ الخلفاء ، ط٤، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م.

٤- الطبرى : محمد بن جرير . ت٣١٠، تاريخ الأمم والملوك. بيروت .

٥- ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، ت ٧٧٤هـ، البداية والنهاية، بيروت.

٦- المسعودي: أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي، ت ٣٤٦هـ، مروج الذهب ومعادن الجوهر. جـ٢ ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م، دار التحرير للطبع والنشر، مصر.

٧- كيكاوس بن سكندر بن قابوس : كتاب النصيحة المعروف بقابوسنامه، رسالة دكتوراه لأمين عبد الحميد بدوى، ١٩٥٦م ، طهران.

٨- ابن الوردى : زيد الدين عمر بن مظفر، ت ٧٤٩هـ ، تاريخ ابن الوردى ، بيروت ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

السادات (دولة بالهند)

تعد " السادات" ضمن الطبقة العليا فى المجتمع الإسلامى فترة العصور الوسطى، ومن أهم أسباب ذلك انحدارهم من نسل السيدة فاطمة بنت الرسول ﷺ وزوجها على بن أبى طالب ﷺ هذا جعلهم يتمتعون باحترام كبير فى المجتمع المسلم، هذه المكانة جعلت السادات دعاة متحمسين لنشر الثقافة الإسلامية، ولذلك اهتموا بالتعليم، وخرج منهم عدد كبير من العلماء والصوفية، وتمتع السادات فى الهند بمكانة متميزة وخاصة فى العصر المغولى، وكان لهم مشاركة واضحة فى السياسة والجيش والحياة الثقافية، ولتمسك السادات بالحفاظ على نسبهم كان لديهم حساسية شديدة تجاه الزواج من خارج طائفتهم، وعارضوا بصفة خاصة تزويج بناتهم من خارج مجتمعهم[١].

استطاع " السادات" حكم "دهلى" سبعة وثلاثين عامًا، ومؤسس دولتهم فى الهند هو "خضر خان" ووالده هو " ملك سليمان" الابن بالتبنى" لملك مردان دولت" حاكم الملتان من قبل السلطان " فيروز شاه تغلق" (٧٥٢هـ/ ١٣٥١م: ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م)، وبعد موته حكم ابنه " ملك" شيخ الملتان، وبعد موته آل الإقليم إلى حكم " ملك سليمان"، وخلفه ابنه " خضر خان" ، ولكن ما لبث أن هزم على يد " سارونج خان" وطرد من الإقليم، فخرج إلى " تيمورلنك" بعد فتحه " دهلى" ليشتكى إليه[٢].

هذا وقد أحدث الغزو التيمورى سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م للهند اضطرابات كبيرة فى الحياة السياسية، وكان السلطان "محمود شاه التغلقى" قد فر من " دهلى" عندما علم باجتياح " تيمورلنك" للهند، واستولى " تيمورلنك" على " دهلى" وأمن أهلها، ولكن حدث أن اعترض بعض الأهالى على ظلم محصلى مال الأمان وقتلوا عددًا منهم، فأثار هذا ثائرة " تيمورلنك" وحكم بإبادة المدينة، فقتل وأسر عددًا كبيرًا، وقدم " خضر خان وعدد من الأمراء لتقديم فروض الطاعة لتيمورلنك، وليرفع إليه شكواه مما حدث له ، فحبسهم جميعًا ما عدا " خضر خان" لأنه من السادات، وعند عودة" تيمورلنك" سلم حكم " الملتان" و"ديبالبور" إلى " خضر خان"[٣].

أما عن نسب " خضر خان" إلى



السادات فقد أكده المؤرخون وخاصة " فخر الدين مباركشاه"، وذلك استنادًا على دليلين هامين: الأول شهادة الولى الشهير" سيد جلال البخارى"، والسبب الثانى أن أخلاق " خضر خان" العالية وفضائله وشجاعته وكرمه ومحبته للناس وعطفه عليهم جعلته فى مثل أخلاق الرسول ﷺ نفسه[٤].

وبخروج " تيمورلنك" من الهند عاد السلطان" محمود" إلى عرشه سنة ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، وإن كانت سلطته اسمية فقد خرجت أقاليم الهند عن سيطرته وقامت بها دول مستقلة، فقد استقل " ظفر خان" بالكجرات، وحكم" خضر خان" الملتان وديبالور من نواحى السند، وسيطر "خواجه جهان" سلطان الشرق على قنوج وأوده وبهار وجونبور، وحكم مالوه" دولار خان" و" سامانه" : غالب خان" و"بيانه" " شمس خان أوحدى"، هذا بالإضافة إلى تسلط وزيره" إقبال خان" على الحكم.

عمل "إقبال خان" على إخضاع الدول المستقلة عن "دهلى"، ومنها" الملتان" التى كانت تحت سيطرة" خضر خان"، ولكن "خضر خان" استطاع هزيمة جيشه وقتل "إقبال خان" سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، وبذلك خلت الساحة " لخضر خان" للاستيلاء على "دهلى" التى حاصرها سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، وعاد بعد ذلك إلى "فتحبور" فى الوقت الذى انشغل فيه السلطان "محمود" بالصيد واللهو، وما لبث أن توفى فى نفس السنة، وبايع الأمراء السلطان "محمود شاه" دولت خان لودى" سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، وفى سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م توجه " خضر خان" إلى " دهلى"، وبعد حصاره " لدولت خان" أربعة أشهر طلب الأخير الأمان من "خضر خان". وتمكن "خضر خان" من الاستيلاء على "دهلى"، وقبض على "دولت خان" وسجنه بعد أن حكم سنة وثلاثة شهور، واستولى خضر خان على العرش فى ربيع الأول سنة ٨١٧هـ/ ١٤١٤م [٥].

أسس " خضر خان" أسرة السادات التى سيطرت على عرش " دهلى" نحو سبعة وثلاثين عامًا، كانت كلها مليئة بالفتن والثورات، وتقلص فيها نفوذ " دهلى" إلى حد كبير، وقامت دول إسلامية مستقلة فى الإقليم، وبذلك لم يعد لسلاطين" دهلى" سلطان حتى على "دهلى" بعد أن فقدوا هيبتهم، وضاعت منهم كل ممتلكاتهم[٦]. وعلى الرغم من سيطرة "خضر خان" على "دهلى" وتوفر أسباب السلطنة لديه ومحبة الأمراء له

إلا أنه لم يطلق اسم السلطنة على نفسه، وكان ملقبًا "برايات أعلى"، وجعل السكة والخطبة فى بداية عهده باسم "أمير تيمور" ثم باسم "ميرزاشاهرخ بن تيمورلنك"، وكانوا يُذيِّلون الخطبة باسم "خضر خان"، هذا بالإضافة إلى إرساله لإتاوة إلى "سمرقند" فى بعض الأحيان(٧).

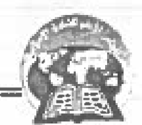
ويرجع سبب ادعاء" خضر خان" - حين جلس على العرش - أنه نائب "لتيمورلنك" إلى أنه أراد مصانعته خوفًا من هجمات المغول على الهند، أو اعترافًا بجميله لأنه أثناء تدمير جنوده "لدهلى" لم يتعرض للسادات بل ترك حامية صغيرة لحراستهم(٨).

عمل" خضر خان" فور إعتلائه السلطنة على استعادة سلطنة"دهلى" على ممتلكاتها السابقة، فأرسل وزيره" تاج الملك" بجيش جرار إلى "بداون" و "كهيتر" فى نفس سنة اعتلائه العرش ٨١٧هـ/ ١٤١٤م حيث جبى الإتاوات منها واعترفوا بسلطان " خضر خان"، كما فرض سلطانه على "كوليرا" و"جليسر" و"جندوار" و" كنبله" و"بيتالى"، وأخذ منهم الإتاوات المفروضة عليهم. وفى سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م تمكن "خضر خان" من إخضاع " مبوات" وهزيمة المتمردين بها(٩).

واستمر حكم"خضر خان" سبع سنوات وشهرين، وتوفى ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، واشتهر خلالها بحسن الأخلاق والصدق والطيبة واكتسب محبة الناس له(١٠).

وتولى بعده ابنه وولى عهده "مباركشاه" (٨٢٤هـ/١٤٢١م: ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م) بموافقة الأمراء، وتلقب " بمعز الدين أبو الفتوح"، وقد حاول التصدى للمتمردين وإقرار الأمن فى دولته، وكان من أهم إنجازاته قضاؤه على فتنة "جوسروت" أخى " شيخا جوكير" الذى استطاع هزيمة وأسر سلطان كشمير " على شاه" سنة ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، واجتاح السند وتقدم للاستيلاء على " دهلى" سنة ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، وقد عمل على استقطاب أمراء "مباركشاه" إليه، وتحرك" مباركشاه" على الفور للتصدى له، والتقى الجيشان عند "لودهانا" وانتصر جيش " مباركشاه" ولكن " جوسروت استطاع الفرار وظل يعاود الثورة من حين لآخر.

وقام السلطان" مباركشاه" بالاستيلاء على كهتر وبدوان وولاية رته ومهوبه فى سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م، وقام بثلاث حملات على "ميوات"فى ثلاث سنوات حتى تمكن من إخضاعها، كما تصدى



لمحاولة سلطان مالوه السلطان" هوشنك" ـ الاستيلاء على " كوالير" سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م، وفى سنة ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م تصدى لمحاولة السلطان" إبراهيم شرقى" انتزاع السلطة منه، كما نجح فى القضاء على الفتنة التى أثارها "شيخ على " فى السند.

ومن أهم إنجازات "مباركشاه" العمرانية قيامه بتعمير" لاهور" التى خربت فى فتنة" جوسروت"، وحصن قلعتها سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، كما قام بتعمير " الملتان"، وفى سنة ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م وضع أساس مدينة " مباركشاه أباد" على نهر جومنا واهتم بعمارتها، ولكنه قتل قبل إتمام بنائها، فقد قتلته جماعة فدائية بتوكيل من " سرور الملك" الذى استاء لتنحيته من الوزارة وكان حكم " مباركشاه" ثلاث عشرة سنة[11].

وتولى" محمد شاه بن مباركشاه" (٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م:٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م) الحكم بعد مقتل والده بموافقة أمراء الدولة، ولقب " سرور الملك" بلقب "خانجهان"، وعلى الرغم من مبايعة" سرور الملك" له إلا أنه استولى على كل أسباب السلطنة من الخزانة والأسلحة والأفيال، وعمل على القضاء على المناهضين له، وسعى لاستئصال أهل بيت" مباركشاه"، وأعد مكيدة للقضاء على السلطان "محمد شاه" سنة ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م، ولكن السلطان" محمد شاه" كان على حذر منه مستعدًا بجيش كبير من أتباعه، فقتل "سرور الملك" وأتباعه، وجدد الأمراء البيعة للسلطان" محمد شاه" وأجلسوه على العرش بموافقة عامة الناس.

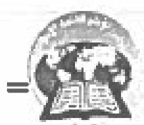
ولكن "محمد شاه" كان مهزوزًا، فطمع فيه السلطان " إبراهيم شرقى" واستولى على بعض الولايات منه سنة ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م، وامتنع كثير من الأمراء عن دفع المال للسلطان، وطمع السلطان " محمود خلجى" سلطان مالوه فى عرش " دهلى"، ووصل إليها سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م،وأعد السلطان" محمد شاه" العدة لمواجهته وعين " ملك بهلول لودى" فى المقدمة، لكن السلطان"محمود" اضطر للانسحاب عندما علم بتوجه سلطان الكجرات السلطان " أحمد شاه" إلى "مندو" فقبل الصلح وعاد إلى بلده، وكان هذا الصلح علامة على زيادة ضعف السلطان "محمد شاه"، وعندما رجع السلطان" محمود" تعقبه "ملك بهلول لودى" وغنم جزءًا من الأمتعة القيمة التى كان يحملها جيشه، وسر السلطان " محمد شاه" من ذلك وكافأ " ملك

بهلول" بالهدايا، وجعله ابنًا بالتبنى، وقد أطمع ذلك" ملك بهلول" للوصول إلى عرش "دهلى"، فجمع عددًا كبيرًا من الأفغان حوله، واستولى على كثير من الولايات، وحاصر" دهلى" ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها، وهان أمر السلطان "محمد شاه" حتى خرج عن طاعته أكثر أمرائه، وفى آخر الأمر ودع السلطان "محمد شاه" الحياة سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م، وكانت مدة حكمه عشر سنوات وعدة أشهر[١٢].

وبوفاة السلطان" محمد شاه" أجلس الأمراء ابنه الملقب بالسلطان" علاء الدين" (٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م: ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م) على عرش "دهلى"، وبايعه" ملك بهلول" وسائر الأمراء، ولكن السلطان" علاء الدين" كان أضعف من والده فقوى أمر " ملك بهلول"، وانشغل السلطان " علاء الدين" باللهو وقنع بأقل ولاية له وترك "دهلى" لأخويه لأمه" شحنة شهر" و "ميركوئى"، ونقل بلاطه إلى " بداون"، وبعد فترة وقع خلاف بين أخويه وقتل أحدهما الآخر، واقتص أهل" دهلى" من الأخ الثانى، فقدم السلطان إلى " دهلى" واستدعى" ملك بهلول" للسلطنة فقدم واستولى عليها سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م، وعرض على السلطان "علاء الدين" أن يكون مملوكًا وتابعًا، فرد عليه السلطان" علاء الدين" أنه "طالما تبناك أبى ولست شاكًا فى بنوتك فإننى أترك لك السلطنة قانعًا بولاية "بداون"، وظل السلطان "علاء الدين" مقيمًا فى "بداون" حتى وفاته سنة ٨٨٣هـ/ ١٤٧٨م. وبذلك انتقلت السلطة من السادات وأسرة "خضر خان" إلى الأفغان اللوديين، وأسقط اسم السلطان" علاء الدين" من الخطبة، وكانت فترة حكم السلطان" علاء الدين" سبع سنوات وعدة أشهر، وفترة إقامته فى بداون ثمانية وعشرين عامًا تقريبًا[١٣].

كان السلطان "علاء الدين" مشهورًا بلقب "شاه عالم"، ولم يمتد نفوذه إلى أكثر من أطراف"دهلى" حتى تندر الناس والمؤرخون بهذه العبارة التى تدل على ضعف سلطته:" ملك شاه عالم من دهلى إلى بالم"، وبالم مكان فى أطراف" نيودهلى" موضع المطار الآن[١٤].

ويذكر" فخر الدين مباركشاه" أن " علاء الدين" تنحى" لبهلول" لضغط الأخير عليه. وبسبب إهمال" بهلول" لـ " علاء الدين" اضطر للتوجه إلى "بداون" سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م[١٥]. ويمكننا أن نرجح هذا الرأى ليس فقط لأن" فخر



الدين مباركشاه" هو المؤرخ المعتمد لدولة السادات، ولكن لأنه ليس من المنطقى أن يتنازل سلطان عن دولته بهذه البساطة والرضى وطيب الخاطر، وإنما وافق على التنازل بسبب ضعف موقفه فى مقابل قوة " بهلول اللودى".

ويذكر المستشرق" ويلسى هيج" فى تعليقه على تاريخ دولة السادات بأن "خضر خان" كان يعد اكثر حكامها قوة، ولكن هذه القوة سرعان ما تفسد لعدم حدوث تغيير للأوضاع السيئة التى كانت تمر بها سلطنة"دهلى" فى ذلك الوقت، حتى فى عهد" خضر خان" كانت القوة العسكرية هى الوسيلة الطبيعية لجمع الخراج من الولايات، ولم يعاقب المتمردون كثائرين، والعقاب الذى كان يوقع عليهم هو انتزاع الضرائب منهم، وأخذ وَعْدٍ بعدم تكرار التمرد، ذلك الوعد الذى كانوا يحنثون به عند أى فرصة مناسبة للتمرد[١٦].

ولذلك لم تستطع دولة السادات استعادة أمجاد سلطنة" دهلى" كما أنها لم تستطع الحفاظ على وجودها نفسه الذى لم يدم أكثر من سبعة وثلاثين سنة، كان سلاطينها خلالها يكافحون للحفاظ على وجودهم وبالتالى لم يقدموا إنجازات سواء سياسية أو حضارية أو ثقافية تذكر لدولتهم، ويرجع ذلك إلى ضعف خلفاء "خضر خان" وسوء الأوضاع السياسية التى كانت تمر بها السلطنة فى ذلك الوقت من تدهور أعقب الغزو التيمورى للهند وما أحدثه من تخريب واستيلاء على ثروات البلد، هذا بالإضافة إلى انفصال غالبية ولاياتها عنها، وكثرة الفتن والثورات التى قام بها الأمراء الطامعون فى السلطة.

د / وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش:

(١) .Misra. Satish C,.: Muslim Community in Gujarat, Asia Publishing House,. London,. .1963,118,133,137

(٢) Ferishta: History of the Rise of Mohommedan Power in India, Traslated by Briggs, P .505

(٣) الهروى: طبقات أكبرى، جـ١، ترجمه أحمد عبد القادر الشاذلى، الهيئة العامة للكتاب/ ١٩٩٥م، ص ٢٠٧، ٢٠٨
Fershta: History of the Rise of Mohommedan Power in India, VO 1 P 450

(٤) . .Ferishte: op cit., vol .1 p503, 504

(٥) الهروى: المصدر نفسه، ج١، ص ٢٠٩: ٢١٤ . Fershta: op. cit, Vol. 1,p503, 504.

(٦) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ط٢، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠م، ص١٤٧.

(٧) Fershta: History of the Rise of Mohommedan Power in India, 506.

(٨) عبد المنعم النمر: المرجع نفسه، ص ١٤٧.

(٩) الهروى: طبقات أكبرى، جـ١، ص٢١٥- ٢١٨ وانظر أيضًا: Ferishta, op- cit.,p.205.

(١٠) الهروى: المصدر نفسه، جـ١، ص ٢١٨.

(١١) الهروى: طبقات أكبرى، جـ١، ص ٢١٨: ٢٣٠
Ferishta: History of the Rise of Mohommedan power in India, 515- 531

(١٢) الهروى : طبقات أكبرى ، جـ١، ص٢٣٠: ٢٣٣وانظر أيضًا:
Ferishta: History of the Rise of Mohommedan power in India ,pp.532-539.

(١٣) الهروى: طبقات أكبر، جـ١ ص ٢٣٤، ٢٣٥.
Ferishta: History of the Rise of Mommedan power in India, p540 – 542.

(١٤) عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند، ص ١٤٨ .

(١٥) John: The History of India as Told by its own Historians ,The Muhammadan Period,vol .v.london 1867, p.7o-71.

(١٦) Wolseley Haig: The Cambridge History of India, Vol III,Turks and Afghans,New .Delhi, 1965, p 206.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ الهروى: طبقات أكبرى ترجمة أحمد عبد القادر الشاذلى عن الفارسية فى ثلاثة مجلدات، الهيئة العامة للكتاب- القاهرة ١٩٥٥م.

٢ـ عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند ـ الهيئة العامة للكتاب بالقاهرة ١٩٩٠م.

٣ـ Fershta: History of the Rise of Mohommedan Power in India



الســامــانيــون

ينتسب السامانيون إلى قرية سامان، وهى من القرى القريبة من مدينة سمرقند وقد ورثوا إمارتها، وكانوا من الأمراء الإيرانيين المحليين، ولذا دعى كل منهم (بسامان خداه)، أى كبير وصاحب قرية سامان[1]. وكانت هذه الأسرة السامانية تدين بالديانة المجوسية (الزرادشتية)[2]، أول أمرها، إلى أن اعتنق جدهم سامان خداه، الذى ينتسب إلى بهرام جور أحد ملوك الفرس الساسانيين، الإسلام فى عهد الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، أثناء ولاية أسد بن عبد الله القسرى على خراسان (١١٦- ١٢٠هـ/ ٧٣٤- ٧٣٨م).

ولقد أنجب سامان ابناً سماه (أسدًا)، تيمناً بأسد بن عبد الله القسرى، الذى أسلم على يديه. وأنجب أسد أربعة أبناء، هم: نوح وأحمد ويحيى وإلياس. وقد تجلت شجاعة هؤلاء الأبناء فى خلافة بنى العباس وعلا شأنهم أيام حكم الرشيد وابنه المأمون لهذه الدولة. وقد عرف الخليفة المأمون إخلاصهم فولاهم على مدن هامة من مدن بلاد ما وراء النهر؛ فأسند إلى نوح ولاية سمرقند سنة ٢٠٤هـ/٨١٩م وأسند لأحمد ولاية فرغانه وجعل يحيى على الشاش وأشروسنه وإلياس على هراة[3]، ولما توفى نوح ضمت ولاية سمرقند لأخيه أحمد أمير فرغانه، الذى خلفه عليها من بعده ابنه نصر بن أحمد سنة ٢٥١/ ٨٦٥م.

ولقد كان لهؤلاء الإخوة الأربعة دور كبير فى القضاء على ثورة رافع بن الليث ابن سيار فى سمرقند؛ فأعانه الخليفة الرشيد فى القضاء على هذه الثورة؛ الأمر الذى أراح الرشيد وأذهب قلقه وخوفه من أن يستولى رافع على خراسان[4].

ولقد قامت هذه الدولة السامانية فى بلاد خراسان وبلاد ما وراء النهر ثم امتدت إلى المنطقة الإيرانية، بعد زوال سلطان الدولة الصفارية منها، فبسطت سلطانها على بلاد فارس كما ضمت إليها طبرستان والرى والجبل وسجستان.

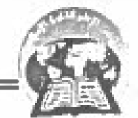
ولقد استجابت لنفس تيار الحركة الاستقلالية والقومية الفارسية. وربما كان تعبيرها عن الحركة القومية الفارسية أكثر ظهوراً ووضوحاً مما رأيناه فى الدول الأخرى. ومظهر ذلك أن الساسانيين عملوا على إحياء اللغة

الفارسية القديمة فى لغة فارسية حديثة تجمع بين المؤثرات الفارسية والمؤثرات العربية. وبدأت هذه اللغة الجديدة فى عهدهم لغة للفكر والثقافة وترجمت إليها بعض كتب التراث العربى الإسلامى. كما ظهر فيها شعراء من الفرس المتعصبين لقوميتهم، وكان ظهورهم مقدمة لظهور الشاعر الفارسى العظيم(الفردوسى)، صاحب "الشاهنامه" الذى يعبر تعبيراً صحيحاً عن القومية الفارسية وعن الثقافة الفارسية الجديدة[٥].

وفى عام ٢٥١هـ/ ٨٦٥م أرسل الخليفة المعتمد على الله العباسى رسولاً بمنشور ولاية ما وراء النهر إلى نصر بن أحمد السامانى الذى اتخذ من مدينه سمرقند عاصمةً له وجعل أخاه إسماعيل نائباً له على مدينة بخارى[٦]. ولكن العلاقات بين الأمير نصر والأمير إسماعيل لم تستمر على ما كانت عليه من الود والصفاء بين الأخوين؛ ذلك أن نصراً فرض على أخيه إسماعيل أن يرسل له فى كل عام خمسمائة ألف درهم من أموال بخارى، ولكن إسماعيل لم يستطع إرسال هذا المبلغ بسبب زيادة نفقاته فى الحروب الكثيرة التى خاضها ضد أعدائه[٧]. فاستاء نصر من أخيه إسماعيل واعتقد أنه يسعى إلى الاستقلال ببخارى عن دولته فعوّل على إخضاعه، فسار نصر على رأس جيش كبير لمحاربة أخيه، واشتبك الأخوان فى معركة قرب بخارى سنة ٢٧٢هـ - ٨٨٥م[٨] انتهت بالصلح بينهما وتعهد إسماعيل لأخيه بأن يرسل له الأموال المقررة عليه. لكن بعد خمسة عشر شهراً رفض إسماعيل إرسال الأموال المقررة عليه فتجددت الحرب بين الأخوين وانتهت بانتصار إسماعيل سنة ٢٧٥هـ - ٨٨٨م ووقوع نصر أسيراً فى يد أخيه الذى أحسن إليه وصفح عنه حين سأله الصفح[٩].

وظلت العلاقة طيبة بين الأخوين حتى وفاة نصر سنة ٢٧٩هـ - ٨٩٢م[١٠]، فلما توفى نصر استولى إسماعيل على ممتلكاته وأقره الخليفة على حكم بلاد ما وراء النهر فى نفس العام[١١].

ويعد إسماعيل بن أحمد أول سلاطين السامانيين الفاعلين لأنه المؤسس الحقيقى للدولة السامانية التى اتسعت فى عهده حتى غدت مدينة بخارى عاصمته حاضرة كل ولايات آسيا الوسطى بدلاً من سمرقند[١٢] التى كانت عاصمة الدولة السامانية.



غير أن الخلافة العباسية لم تكن ترتاح لتوسع نفوذ إسماعيل السامانى وكانت تنظر بعين الشك والريبة إلى تلك الدولة الفتية الناشئة التى أخذت تزداد قوة ونفوذاً فى القسم الشرقى من الدولة الإسلامية. وقد اتخذت الدولة العباسية لذلك سياسة ذات وجهين؛ فبينما فوض الخليفة المعتضد(٢٧٩- ٢٨٩هـ / ٨٩٢- ٩٠٢م) الأمير السامانى حكم بلاد ما وراء النهر تآمر عليه سراً وأرسل إلى عمرو بن الليث الصفار يحرضه على التخلص منه، وكان الخليفة يرمى من وراء ذلك إلى ضرب خصمين قويين بعضهما ببعض بقصد إضعافهما أو شغلهما عن الزحف على دولته. ولقد استمرت الحرب بين الأمير الصفارى والسامانى سنين عديدة انتهت بانتصار إسماعيل السامانى ومطاردة جنود الأمير الصفارى حتى اقتربوا من بلخ فرأوا عمر ابن الليث الصفارى مع خادمين فقبضوا عليه سنة ٢٨٨هـ /٩٠١م وسيق إلى غريمه إسماعيل فأرسله إلى بغداد وظل بها حبيساً حتى وفاته [١٣].

وارتفعت مكانة إسماعيل بعد هزيمته للصفاريين وضمه خراسان إلى دولته وتفويض الخليفة له حكم هذه البلاد [١٤].

وقام إسماعيل بعد ذلك بضم طبرستان إلى دولته بعد أن هزم أميرها محمد بن زيد العلوى [١٥]. كذلك ضم إلى دولته مدينتى الرى وقزوين. واتخذ إسماعيل من بخارى حاضرةً لدولته وازدهرت هذه المدينة فى عهد هذا الأمير حتى غدت قاعدة كل ولايات آسيا الوسطى، وأقام فيها المنشآت الضخمة والقصور الفخمة والمدارس، ووفد إليها العلماء من كل مكان، وقام الأمير السامانى بالترحيب بهم وتقريبهم إليه.

ولأول مرة فى التاريخ تتوحد بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر جميعها تحت حكم رجل واحد هو الأمير إسماعيل السامانى. وقد حكم إسماعيل أكثر من ثلاثين عامًا أظهر خلالها العدل والإحسان بين رعايا دولته، وكان لا يتهاون مع عماله إذا ما ظلموا الرعية [١٦]. ونتيجةً لهذه السيرة الطيبة لقبه معاصروه بالأمير العادل [١٧].

ولما توفى الأمير إسماعيل سنة ٢٩٥هـ /٩٠٧م أخذت الدولة السامانية فى الضعف والانحلال، فقد انقسم البيت السامانى على نفسه طمعاً فى رغبة أفراده الحصول على الحكم. كما أن بعض كبار رجال الدولة عملوا على

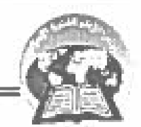
تحقيق أطماعهم فى الوصول إلى السلطة فضعف شأن أمراء الدولة حتى صاروا ألعوبة فى يد كبار الدولة. وقد أدى ضعف هذه الدولة إلى ازدياد نفوذ الترك فارتفع شأنهم فيها بعد أن كانوا مجرد خدم وأتباع(١٨).

وقد ولى بعد إسماعيل ابنه أحمد بن إسماعيل سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م بعد وفاة أبيه، وأرسل الخليفة العباسى المكتفى منشور إمارته على ما وراء النهر وخراسان(١٩). وقد هاجم أحمد فى أول أمره مدينة سمرقند واستخلصها من يد عمه إسحق بن أحمد الذى أنابه عليها أبوه إسماعيل من قبل واستاق إسحق أسيراً إلى بخارى. والواقعة الهامة فى إمارة أحمد غزوة طبرستان وقيام ثورة الناصر العلوى سنة ٣٠١هـ /٩١٣م ثم فتح سجستان(٢٠).

وقد سار أحمد سيرة أبيه فى العدل والإحسان إلى الرعية لكنه لم يكن فى مثل مقدرة أبيه فى الحنكة الإدارية والمقدرة الحربية ولم يستطع القضاء على الثورة التى نشبت فى إقليم طبرستان على يد الأمير العلوى الحسن بن على الزيدى الملقب بالأطروش الذى تغلب على هذا الإقليم والتف أهله حوله بعد أن حول الكثيرين منهم من الوثنية والمجوسية إلى الإسلام وقيامه بطرد والى السامانيين عن هذه البلاد(٢١).

ولم يستمر أحمد بن إسماعيل فى الحكم سوى ست سنوات، فقد راح ضحية مؤامرة أودت بحياته على يد غلمانه سنة ٣٠١هـ / ٩١٤م. فخلفه فى الحكم ابنه نصر بن أحمد(٢٢)، وكان فى الثامنة من عمره؛ فاستصغر الناس سنه واستضعفوه وتنافس أمراء البيت السامانى على الوصول إلى الحكم. فثار على نصر عمه إسحق بن أحمد واستقل بإقليم سمرقند. كما ثار عليه ابن عمه منصور ابن إسحق واستولى على بعض مدن خراسان. لكن هذين الأميرين لم ينعما باستقلالهما طويلا عن الدولة السامانية لقضاء نصر على تمردهما واسترداد الأراضى التى اغتصبوها(٢٣). وقد تم القضاء على هذه الثورات على يد وزيرى نصر أبى عبد الله جعفر بن محمد الرودكى ومحمد البلعمى، ويعتبر الرودكى أول الشعراء الفرس المجيدين، بل يعتبره براون من أكبر شعراء الفرس فى الفترة السابقة لقيام الدولة الغزنوية(٢٤).

ولقد جعلت الوقائع الهامة التى حدثت فى مدة إمارة نصر بن أحمد التى دامت



ثلاثين عاماً ومعاصرته الوزراء والرجال والقادة المشهورين الأكفاء والشعراء من أمثال الرودكى والشاعر والفيلسوف البلخى - جعلت من نصر أشهر الأمراء السامانيين، وكان هو نفسه رجلاً كريماً حليماً عاقلاً ذا مقدرة وعفو. وقد ابتلى نصر فى آخر عمره بمرض السل ومكث مريضاً نحو ثلاثة عشر شهراً إلى إن مات به ولقب بعد موته بالأمير السعيد(٢٥).

ولما توفى نصر سنة ٣٣١هـ/٩٤٢م خلفه فى حكم الدولة ابنه الأمير نوح بن نصر(٣٣١- ٣٤٣هـ/ ٩٤٢- ٩٥٤م). وقد قام نوح بالقضاء على المناوئين لحكمه ووطد نفوذه فى بخارى. ولما توفى نوح خلفه من بعده الأمير عبد الملك بن نوح(٣٤٣ - ٣٥٠هـ/ ٩٥٤- ٩٦١م)، وكان صبياً فى العاشرة من عمره وتوفى سنة ٣٥٠هـ بعد أن وقع من فوق جواده وهو يلعب بالصولجان(٢٦). فخلفه أخوه منصور بن نوح (٣٥٠ – ٣٦٦هـ/٩٦١- ٩٧٦م) ثم ابنه نوح (الثانى) (٣٦٦- ٣٨٧هـ/٩٧٦- ٩٩٧م) ثم منصور بن نوح (٣٨٧- ٣٨٩هـ/ ٩٩٧- ٩٩٩م).

وخلال تلك الأحداث تعرضت الدولة السامانية لهجوم عناصر كثيرة طمعت فى احتلال أراضيها وأدت فى النهاية إلى انهيارها. فلقد ازداد نفوذ البويهيين فى بلاد فارس وقد تملكوا نصف أراضيها كما استقل ببلاد طبرستان بنو زيار الديالمة. وفى سنة ٣٨٢هـ / ٩٩٢م تعرضت مدينة سمرقند لهجوم من الأتراك الخانيين(٢٧).

ولقد حاول الأمير منصور بن نوح(٣٨٧ – ٣٨٩هـ)، آخر حكام السامانيين(٢٨) إنقاذ الدولة السامانية فى آخر فرصة لها؛ حيث تحرك بجيشه صوب مدينه بخارى لطرد الأمير جعفر تكين، أخى أيلك خان، من بخارى، فلما انهزم جعفر التجأ بفلول جيشه إلى أخيه تكين خان حاكم سمرقند ولحقهم الأمير منصور بن نوح وتمكن من هزيمتهم قرب نهر زرافشان(٢٩)، وبسبب تلك الهزيمه توجه الأمير أيلك خان حاكم الخانيين بقواته صوب جيش السامانيين قرب مدينة سمرقند سنة ٣٨٩هـ /٩٩٩م. ولقد تمكن الأمير الساماني من الاستيلاء على الكثير من أمواله وغنائمه(٣٠).

وبسبب تلك الهزيمة التى وقعت للخانيين نجد الأمير أيلك خان يتحالف مع الأمير محمود الغزنوى سلطان الدولة الغزنوية(٣١). وتمكن الاثنان من هزيمة الأمير منصور

السامانى وأَسْرِه وسمل عينيه ثم قتله وقتل ابنه عبد الملك والقضاء نهائياً على الدولة السامانية التى ظلت تحكم آسيا الوسطى قرابة القرن ونصف القرن.

وبعد زوال الدولة السامانية سنة ٣٨٩هـ /٩٨٩م تم تقسيم أراضيها بين الخانيين والغزنويين، فكان من نصيب الخانيين مدينة سمرقند وإقليم ما وراء النهر وكانت خراسان من نصيب الغزنويين [٣٢].

والجدير بالذكر أن الحضارة الإسلامية ازدهرت فى عهد السامانيين حتى كانت مدن بخارى وسمرقند وبلخ تحت حكمهم منارات للعلوم، وكان بلاطهم فى بخارى كعبة العلماء والأدباء، وكانت مكتبة نوح بن نصر السامانى من أعظم مكتبات العالم [٣٣]. وقد ظهر فى ظل هذه الدولة الرئيس ابن سينا الفيلسوف الطبيب صاحب كتاب القانون فى الطب الشهير [٣٤]، والشاعر عمر الخيام صاحب الرباعيات الشهيرة، والفلكى الرياضى الكبير، والمقدسى المؤرخ الشهير صاحب كتاب أحسن التقاسيم فى معرفه الأقاليم [٣٥]، وغيرهم من كبار أعلام الحضارة الإسلامية.

ولقد كانت بلاد ما وراء النهر بحق مركز إشعاع كبير للحضارة الإسلامية فى عصر حكم السامانيين.

أما دور السامانيين من الناحية السياسية فقد حفظوا الثغر الإسلامى الشرقى ومدوا النفوذ الإسلامى إلى بلاد الترك البعيده وجعلوا من بلاد ما وراء النهر بيئة صقل وتهذيب للعنصر التركى الذى أسلم على يد السامانيين، وبدأ يتحول من عنصر مخرب إلى عنصر مفيد للعالم الإسلامى. ولقد انبثق عن التأثير السامانى ذلك الدور الذى تهيأ للترك الغز فى خدمة الإسلام فى العصر السلجوقى. كما أنه انبثقت عن النفوذ السامانى الدولة الغزنوية وهى دولة تركية مسلمة اتخذت من الثغر الهندى مركزاً لها وعملت باسم السامانيين ثم حلت محلهم وقامت بدور إسلامى حضارى كبير.

أ.د / عطية القوصى

الهوامش:

(١)عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام،ترجمة محمد علاء الدين منصور، القاهرة ١٩٩٠، ص ١٣٣.

(٢)الزرادشتيه نسبة إلى مؤسسها زرادشت، ويدين أصحابها لإلهين اثنين: إله النور(أهرامازدا) وإله الظلمة (أهرامن)، وهم يوقدون النار فى معابدهم لتعين إله النور فى حربه ضد إله الظلمة، (انظر الشهرستانى : الملل والنحل).

(٣) بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، بيروت ١٩٦٨، ص ١١٣.

(٤)عصام الدين عبد الرؤوف: الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٧، ص ٢٣٣.

(٥)حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٧٧، ص ٤٦٦.

(٦) النرشخى: تاريخ بخارى، تعريب أمين بدوى، القاهرة ١٩٦٨، ص ١١٢.

(٧)عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ص ١٣٦.

(٨) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت ١٩٧١، ج٤، ص ٣٣٤.

(٩)عبد العزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، بغداد ١٩٤٥، ص ١٢٠ و ١٢١.

(١٠) عطية القوصى: تاريخ الدول المستقلة فى المشرق عن الخلافة العباسية، القاهرة ١٩٩٣، ص ٥٦ و٥٧.

(١١) عصام الدين عبد الرؤوف: الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٧، ص ٢٣٤ و٢٣٥.

(١٢) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٣٦.

(١٣) ابن بطوطه: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، بيروت ١٩٨٥، ص ٤٢٠. (وقد أشار الرحالة ابن بطوطة إلى أن سمرقند مدينه جميلة مبنية على شاطئ وادٍ يعرف بوادى القصارين عليه النواعير تسقى البساتين، وأن أهل سمرقند لهم مكارم أخلاق ومحبة فى الغريب وهم خيرٌ من أهل بخارى .

(١٤) عطية القوصى: تاريخ الدول المستقلة فى المشرق، ص ٥٥ و٥٦.

(١٥) عصام الدين عبد الرؤوف: الدولة العباسية، ص ٢٣٦.

(١٦) عصام الدين عبد الرؤوف: الدولة العباسية،نفس المرجع السابق ونفس الصفحة.

(١٧) عباس إقبال: إيران بعد الإسلام، ص ١٣٨.

(١٨) عطية القوصى: تاريخ الدول المستقلة، ص ٥٨ و٥٩.

(١٩) عباس إقبال: نفس المصدر، ص ١٣٩.

(٢٠) عباس إقبال: نفس المصدر، ص ١٤٠.

(٢١) عطية القوصى: تاريخ الدول المستقلة، ص ٥٩.

(٢٢) عباس إقبال: نفس المصدر، ص ١٤١.

(٢٣) عطية القوصى: تاريخ الدول المستقلة، ص ٦٠.

(٢٤) براون: تاريخ الأدب فى إيران،ص ٢٤ و٢٥.

(٢٥) عباس إقبال: نفس المصدر، ص ١٤٦ و١٤٧.

(٢٦) عباس إقبال: نفس المصدر، ص ١٥١.

(٢٧) ينتسب الخانيون إلى الدولة القراخانية، خانات التركستان، وهى أولى الدويلات التركية التى ظهرت فى بلد التركستان بعدما نشر السامانيون الإسلام بها. وتنتمى هذه القبيلة إلى قبيلة القرلق التركية وكانوا أول الأتراك الشرقيين أعتناقاً للإسلام، وكان أول ملوكها ساتون بغراخان الذى اتخذ من مدينه كاشغر بالصين مقراً لحكمه.

وفرض الخانيون سيطرتهم على بلاد ما وراء النهر زهاء ٢٣٠ عام حتى سقطت سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٣م. (السمرقندى: جهار مقاله، ترجمه يحيى الخشاب، القاهرة ١٩٤٩، ص ١٤١).

(٢٨) بوزورث: الأسرات الحاكمه فى التاريخ الإسلامى، ترجمه حسن اللبودى، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٦٣.

(٢٩) عصام الدين عبد الرؤوف: الدول المستقلة، ص ٤٥.

(٣٠) ابن خلدون: العبر، ج ٤، ص ٣٥٩، خواندمير: تاريخ حبيب السيرفى أخبار أفراد البشر، طهران ١٩٥٥، ص ١١٦.

(٣١) حكمت الدولة الغزنوية بلاد فارس وإقليم التركستان قرابة ٢٣٠ عاما.

(٣٥١- ٥٨٢هـ / ٩٦٢- ١١٨٦م)، وتستمد هذه الدولة اسمها من عاصمتها غزنة(العتبى: تاريخ اليمينى، ج ١، ص ٣٢٤، عبد الفتاح الغنيمى: الإسلام والمسلمون فى جمهوريات آسيا الوسطى، القاهرة ١٩٩٦، ص ٨٣، أحمد محمود الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وباكستان، القاهرة ٢٠٠١، ص ٥٥ و ٦٦).

(٣٢) عصام الدين عبد الرؤوف: الدولة العباسية، ص ٢٣٧.

(٣٣) الراوندى: راحة الصدور، تعريب إبراهيم الشوارى، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٢٠.

(٣٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٩، بيروت ١٩٧٩، ص ١٩٦.

(٣٥) كان المقدسى قد ارتحل من بلاد الشام إلى إقليم خراسان وبلاد ما وراء النهر فى العهد السامانى وامتدح أهل خراسان ووصفهم بحبهم للخير وتمسكهم بالحق كما شكر للسامانيين حسن سيرتهم فى الحكم وعدلهم فى الرعية وتكريمهم لأهل العلم (المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن ١٩٠٦، ص ٢٩٤- ٢٩٦).

مصادر ومراجع للاستزادة:

- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٧٩.
- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، القاهرة ١٩٧٩، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية، القاهرة ٢٠٠١.
- ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، بيروت ١٩٧١.
- آدم متز: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.
- الإصطخرى: المسالك والممالك، القاهرة ١٩٦١.
- بارثولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى، ترجمة أحمد سعيد سليمان، القاهرة ١٩٩٦. تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى، ترجمة صلاح الدين عثمان، الكويت ١٩٨١.
- حافظ أحمد حمدى: الشرق الإسلامى قبيل الغزو المغولى، القاهرة ٢٠٠٠.
- حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى، القاهرة ١٩٦٨.
- رشيد الدين الهمدانى: جامع التواريخ، بيروت ١٩٨٣.
- عبد العزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، بغداد ١٩٤٥.
- عصام الدين عبد الرؤوف: الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٧. الدول المستقلة: القاهرة ١٩٩٩.
- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، القاهرة ١٩٦٦.

المراجع الأجنبية:

- Bosworth,C: The Medieval History of Iran, Afghanistan and Central Asia, London 1977.
- Defremery: Histoire des Samanides, Paris 1950.

السرايا

السرية هى ما لم يخرج فيها رسول الله ﷺ، أما التى خرج وحارب فيها فهى الغزوة. واختلف المؤرخون فى عدد سرايا النبى ﷺ وبعوثه. وذكر ابن هشام أن جملة سرايا النبى ﷺ وبعوثه ثمانية وثلاثون سرية، وذكر ابن سعد فى (الطبقات) أنها سبع وأربعون سرية، وقيل غير ذلك. كما اختلفوا بعض الشىء فى تواريخ بعض تلك السرايا ومنها الآتى:

سرية حمزة بن عبد المطلب : رمضان سنة ١ هـ/٦٢٢م:

فى أول رمضان أمضاه ﷺ بالمدينة كانت أولى المناوشات بين المسلمين وبين كفار قريش. فقد عقد فيها لحمزة بن عبد المطلب لواء أبيض، فخرج على رأس ثلاثين فارسًا من المهاجرين إلى منطقة سيف البحر (أى ساحله) عند شاطئ البحر الأحمر من ناحية العيص، وهى من أرض جهينة، ليعترض قافلة لقريش يقودها أبو جهل بن هشام تضم ثلاثمائة فارس من أهل مكة، وانصرف القوم دون قتال إذ حجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى وكان موادعًا للفريقين. كانت تلك أول راية عقدها النبى ﷺ لواحد من المسلمين.

سرية عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب : شوال سنة ١ هـ/٦٢٢م:

أرسل النبى ﷺ عبيدة بن الحارث ومعه من ستين إلى ثمانين فارسًا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد، أرسله إلى " رابغ"، وقد عقد له لواء أبيض حمله مسطح بن أثاثة بن عبَّاد بن المطلب بن عبد مناف، التقت هذه السرية بقافلة لقريش قرب ماء أحياء أسفل ثنية المرة على عشرة أميال من الجحفة، فتراشق الفريقان بالسهام دون التحام. وقيل إن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم كان أول سهم رُمى به فى الإسلام، وفرّ من المشركين إلى المسلمين المقداد بن عمرو البهرانى، حليف بنى زهرة، وعتبة بن غزوان بن جابر المازنى، حليف بنى نوفل ابن عبد مناف، وكانا قد أسلما. كان قائد قافلة قريش يومئذ عكرمة ابن أبى جهل .

سرية سعد بن أبى وقاص إلى الخرار فى ذى القعدة سنة ١ هـ/٦٢٢م:

عقد له النبى ﷺ لواء أبيض حمله المقداد بن عمرو البَهْراوى. وخرجت السرية تضم ثمانية من المهاجرين، ساروا

حتى بلغوا الخرار من أرض الحجاز، ثم رجع ولم يلق كيدًا، وكان ذلك فى ذى القعدة من العام الأول من الهجرة. وقال ابن هشام: إن بعث سعد هذا كان بعد بعث حمزة.

سرية عبد الله بن جحش: رجب سنة ٢هـ/٦٢٣م:

بعث النبى ﷺ عبد الله بن جحش فى رجب من العام الثانى للهجرة على رأس نفر قليل من المهاجرين، ودفع إليه كتابًا أمره ألا يفضه إلا بعد يومين من رحيله. فخرج، ولما فتح الكتاب حسب أمر النبى ﷺ وجد فى هذا الكتاب: " إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة فترصَّدْ بها قريشًا وتَعَلَّمْ لنا من أخبارهم". وتخلف عن الركب سعد بن أبى وقاص، وعتبة بن غزوان، حيث كانا يبحثان عن بعير لهما كانا يتبادلان ركوبه، فأسرتهما قريش، ومضى عبد الله بن جحش فى طريقه حتى وصل نخلة، ومرت بهم عير لقريش عليها عمرو بن الحضرمىّ، كان ذلك آخر يوم فى رجب، وتشاور المسلمون فيما يفعلونه، فقال أحدهم: " والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعن منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتُلُنَّهُم فى الشهر الحرام". وكما روى ابن هشام والطبرى تردد القوم وهابوا الإقدام عليهم، ثم تشجعوا وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم، وانتهى الأمر بمصرع عمرو بن الحضرمىّ، وأسر رجلين من قريش. عَزَل ابنُ جحش خُمْسَ الغنائم للرسول ﷺ وذلك قبل أن يفرضه الله تعالى، وقسم باقى الغنائم بين أصحابه، وعاد المسلمون بالأسيرين وغنائمهم إلى المدينة. فقال الرسول ﷺ لهم: " ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام". وأبى ﷺ أن يأخذ من الغنائم شيئًا، وكما يقول الطبرى: " سُقِط فى أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا"، وعَنَّفَهُم المسلمون لصنيعهم. وقالت قريش: إن محمدًا وأصحابه استحلوا الشهر الحرام فسفكوا الدماء وأسروا الرجال وأخذوا الأموال. دافع المسلمون بمكة عن إخوانهم المهاجرين فقالوا: إنما أصابوا ما أصابوه فى أول شعبان وليس آخر رجب. واستغل اليهود الفرصة للإساءة إلى المسلمين، وحسم الموقف نزول الآيات الكريمة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

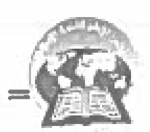
﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ (البقرة: ٢١٧). وكان الأسيران عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان.

كانت سرية عبد الله بن جحش فى مفترق طرق رغم ضآلة عدد المشاركين فيها، فقد صارت نقطة تحول فى سياسة الدولة الإسلامية، إذ شُرع أن يقاتلوا الذين يفتنونهم عن دينهم. وذلك التشريع كان أول أمر بالجهاد فى سبيل الله. أطلق الرسول ﷺ الأسيرين، مقابل إطلاق قريش سراح سعد وعتبة. وقد أسلم أحد الأسيرين وهو الحكم بن كيسان، وأقام فى المدينة. وعاد الآخر إلى مكة وهو عثمان ابن عبد الله. ويذكر ابن هشام أن الله عز وجل قسم الفئ حين أحله فجعل أربعة أخماس لمن أفاءه الله عليهم، وخمسا إلى الله ورسوله، وهو ما كان عبد الله بن جحش قد صنع فى تلك العير، والتى كانت أول غنيمة غنمها المسلمون. وكان عمرو بن الحضرمىّ أول من قتله المسلمون.

تولى المهاجرون هذه السرايا وحدهم دون الأنصار لأن معاهدة العقبة كانت دفاعية.

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدَة: جمادى الآخرة سنة ٣ هـ/٦٣٤م.

كانت أول سرية كلف بها الرسول ﷺ زيد بن حارثة أميرًا عليها. والقردة من أرض نجد بين الربذة والغمرة. وسببها أن قريشًا بعد ما حدث فى واقعة بدر خافت طريق التجارة إلى الشام فسلكوا طريق العراق، فقد خرجت قافلة من التجار فيهم صفوان بن أمية، وحُوَيْطب بن عبد العُزَّى، وقيل أبو سفيان بن حرب، بفضة كثيرة، وكان دليلهم فرات بن حيان، استأجروه وهو من بنى بكر بن وائل. خرجت القافلة القرشية إلى ذات عرق على طريق العراق، وبلغ النبى ﷺ ذلك فأرسل زيد بن حارثه فى نحو مائة فارس لاعتراضهم وقد تمكنوا من العير ورجعوا بها إلى المدينة بعد أن أسروا دليل القافلة " فرات بن حيَّان" بعد أن فر أغلب رجال القافلة، وقد اعتنق فرات بن حَيَّان الإسلام وحسن إسلامه. وقد خَمَّس الرسول ﷺ تلك الغنائم وبلغ الخُمُس عشرين ألف درهم، وبذلك تمكن المسلمون فى المدينة من السيطرة على كل طرق التجارة مما سيكون له أثره الكبير على كسر شوكة قريش وتصديها للدولة الإسلامية النامية فى المدينة.



سرية أبى سلمة بن عبد الأسد المخزومى إلى قَطَن: المحرم سنة ٤ هـ/٦٢٥م:

علم النبى ﷺ أن طليحة، وسلمة ابنى خويلد قد صارا فى قومهما ومن أطاعهما من بنى أسد يدعون لغزو المدينة، لذلك كلف أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومى بالسير إليهم ومعه نحو مائة وخمسين من المهاجرين والأنصار معًا، وبعثه إلى "قَطَن" وهو جبل فيه ماء لبنى خزيمة . وصلها أبو سلمة فأغار على سرح لبنى أسد واستولى عليه، وأسر ثلاثة من رعاته، وأفلت الباقون فحذَّروا قومهم ففروا هاربين، قسم أبو سلمة أصحابه ثلاث فرق فلم يجدوا مقاومة تذكر فجمعوا كثيرًا من الإبل والشاء ورجعوا سالمين إلى المدينة بالغنائم.

سرية عكاشة بن محصن الأسدى إلى الغُمْر: ربيع الأول سنة ٦ هـ/٦٢٦م:

أرسله النبى ﷺ فى أربعين رجلاً إلى الغمر (غمر مرزوق) وهو ماء لبنى أسد على ثمانين كم من خيبر، وهى قلعة على طريق مكة، فلما وصلها كانت له طلائع فيهم ثابت بن أقرم، وشجاع بن وهب . نظر عكاشة بن محصن فلم يجد من القوم أحدًا، لكن شجاع بن وهب أخبره أنه وجد آثار إبل فانطلقوا ووجدوا رجلاً من القوم قائمًا فاستجوبوه وعرفوا منه أن القوم فروا هربًا، ودلَّهم على مكان فيه بعض منهم، فأغاروا عليهم فهربوا أيضًا فاستاقوا مائتى بعير وعادوا سالمين إلى المدينة.

سرية محمد بن مسلمة إلى ذى القَصَّة (بفتح القاف): ربيع الأول سنة ٦ هـ/٦٢٦م:

أرسله النبى ﷺ فى عشرة فرسان فى ربيع الأول سنة ٦هـ إلى بنى ثعلبة بن سعد فوصلها ليلاً. بينها وبين المدينة أربعة وعشرون ميلا على طريق الربذة. كمن لهم القوم، وصلوا متعبين ليلاً فناموا لأنهم لم يجدوا أحدًا فالقوم نصبوا لهم كمينا، فلما نام محمد بن مسلمة وأصحابه، ظهروا من مكمنهم فجأة وهجموا عليهم فاستشهدوا ونجا محمد ابن مسلمة وحده جريحًا بعد معركة ليلية شرسة، وجرد الأعراب القتلى من الثياب وانطلقوا. مر عليهم رجل فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون . فتحرك محمد لما سمعه وعرف أنه مسلم، فعرض الرجل على محمد الطعام والشراب وحمله حتى جاء به إلى المدينة، وقد حزن النبى ﷺ لما صار إليه أمر هذه السرية وما حدث لرجالها.

سـرية أبـى عبيـدة بـن الجـراح إلى ذى القَصَّة: ربيع الآخر سنة ٦ هـ/٦٢٦م:

أرسـله النبـى ﷺ فـى أربعـين رجـلاً علـى طريـق الربـذة إلى مـصارع رجـال سـرية محمـد بـن مـسلمة، فلـم يجـدوا مـن بنـى ثعلبـة وبنـى عـوال أحـدًا، ورأوا إبـلا وشـاء فساقوها وعادوا إلى المدينة.

سـرية زيـد بـن حارثـة إلى سـليم بالجموم : ربيع الآخر سنة ٦ هـ/٦٢٦م:

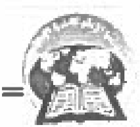
فـى ربيـع الثـانى سـنة ٦ هــ أرسـله النبى ﷺ فـى كتيبـة من المسلمين إلى بنـى سليم فحض حتى بلغ الجموم، فلم ير فيها أحدًا، فرأى امرأة من مزينة تسمى حليمة فـدلتهم علـى محلّـة مـن محـال بنـى سـليم فوجد فيها نعمًا وغنمًا وأسرى فساق ذلك كلــه إلى المدينـــة ، وكـــان فـــيهم زوج حليمـــة، وقـــد كافأهـــا رســـول الله ﷺ فوهبها نفسها وزوجها فعادا إلى مضارب قومهما.

سـرية زيد بن حارثة إلى العيص: جمادى الأولى سنة ٦ هـ/٦٢٧م:

وتبعد عن المدينـة مسيرة أربـع ليـال. فـى جمـادى الأولى سـنة ٦ هــ علـم النبـى ﷺ أن عيرا لقريش أقبلت من الشام فأرسل زيـد ابن حارثـة فـى مائـة وسـبعين من المسلمين وأمرهم أن يأتوا العيص ويعترضوا القافلة . فاستولى عليها فعلاً وقد أسـر رجـالاً مـن حراسها كان فيهم أبو العاص بن الربيع زوج زينـــب بنـــت النبـــى ﷺ، فلمـــا انتهـــى المـسلمون مــن صــلاة الفجــر فــى مــسجد المدينـة أعلنـت زينـب رضـى الله عنهـا أنهـا أجـارت أبـا العــاص بــن الربيــع، وسمــع النبـى ﷺ كلامهـا فـأعلن أنـه لا يعـرف شيئا عن ذلك، وأنه قد أجار من أجارت زينـب. وأعـاد إلى أبـى العـاص مـا أخـذوه منــه، وذكــر المؤرخــون أنــه - أى أبــو العــاص - عــاد إلى مكــة وأدى إلى كــل ذى حـق حقـه، ثـم أعلـن إسـلامه وأخـذ طريقـه راجعًـا إلى المدينـة حيـث أعـاد لـه النبـــى ﷺ زوجتـــه الـــسيدة زينـــب بنـــت النبى ﷺ.

سرية زيد بن حارثة إلى الطَّرَف: جمادى الآخرة سنة ٦ هـ/٦٢٧م:

وهو ماء قريب من المراض، يبعد ستة وثلاثــين مــيلاً مــن المدينــة. فــى جمــادى الآخـرة سنة ٦ هــ، بعـث النبـى ﷺ زيـد بن حارثة فـى خمسة عشر رجـلاً إلى الطـرف إلى بنـــى ثعلبـــة، فخـــافوا مـــن المـــسلمين وهربوا تاركين إبلهم وأغنامهم فاستولى عليها، وعاد سالمًا بجنوده إلى المدينـة بعد أربعة ليال .



سرية زيد بن حارثة إلى حسمى: جمادى الآخرة سنة ٦ هـ/٦٢٧م :

فى جمادى الآخرة سنة ٦ هـ قدم رفاعة ابن زيد الجذامى، ثم الضُّبَى على النبى ﷺ فى هدنة الحديبية وأهدى إليه غلامًا وأسلم فحسن إسلامه، وكتب له النبى ﷺ كتابًا إلى قومه يدعوهم فيه إلى الإسلام فأسلمو ثم ساروا إلى حرة الرجلاء. ثم إن دحية بن خليفة الكلبى رجع إلى الشام من عند قيصر الذى أجازة بمال وكساء وهدايا، حتى إذا كان بأرض جذام أغار عليه الهُنَيْد بن عارض وابنه عارض بن الهُنَيْد وهما من جذام فأخذا كل ما معه، وبلغ ذلك نفرا من بنى الضبيب قوم رفاعة ممن كان أسلم فنفروا إلى الهُنَيْد وابنه فاقتتلوا واستنقذوا كل شىء سلبه من دحية، وردوه إليه، فقدم دحية على النبى ﷺ فأخبره الخبر، فأرسل لهم ﷺ زيد بن حارثة فى جيش فأغاروا وقتلوا الهنيد وابنه وأخذوا ما وجدوه من مال، فلما سمع بذلك بنو الضُّبَيْب رهط رفاعة بن زيد سار بعضهم إلى زيد بن حارثة فقالوا له: " إنا قوم مسلمون"، فقال زيد: فاقرأوا أم الكتاب، وقرأها حسان بن ملَّة، ورأى زيد من رفاعة ما نزل بقومه، فرحل إلى النبى ﷺ فى نفر من أصحابه ودفع إليه الكتاب الذى كان قد كتبه إليهم حين أسلم، وقال: "يا رسول الله، لا تُحَرِّمْ علينا حلالاً ولا تحِلّ لنا حراما". فبعث النبى ﷺ معهم عليًا فردّ عليهم ما أُخذ من أموالهم ونسائهم وأطفالهم . وردّ إلى القوم كل ما كان أخذ منهم.

سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل: شعبان سنة ٦ هـ/٦٢٧م:

فى شعبان سنة ٦ هـ خرجت هذه السرية، فقد دعا النبى ﷺ عبد الرحمن ابن عوف وأجلسه بين يديه وعممه وقال له :"اغز بسم الله وفى سبيل الله وقاتل من كفر بالله، لا تغلل ولا تقتل وليدًا"، وبعثه إلى كلب، وكانت تسكن دومة الجندل، وقال له:" إن استجابوا لك فتزوج ابنة ملكهم". فخرج عبد الرحمن بن عوف وراح يدعو كلبًا إلى الإسلام ثلاثة أيام فأسلم منهم بشر كثير على رأسهم سيدهم الأصبغ بن عمرو الكلبى وكان نصرانيًا، وأقام من بقى من المشركين على دينه، على دفع الجزية، وتزوج عبد الرحمن بن عوف من تماضر ابنة الأصبغ وقدم بها إلى المدينة وهى أم أبى سلمة بن عبد الرحمن .

سرية على بن أبى طالب إلى فدك: شعبان سنة ٦ هـ/٦٢٧م :

أرسل النبى ﷺ على بن أبى طالب فى مائة رجل إلى بنى سعد بن بكر فى فدك، وهى قرية على طريق المدينة من جهة خيبر على مسافة ست ليال . وسببها أنه قد بلغ النبى ﷺ أن بنى سعد بن بكر يتجمعون لمعاونة يهود خيبر على حرب المسلمين بالمدينة نظير تمر خيبر أو جزء منه. لذلك رأى الرسول ﷺ أن يتصدى لهم، فأرسل عليا بمن معه، فسار إليهم وكان يسير الليل ويكمن النهار، وفى الطريق التقوا برجل من المشركين من أهل فدك أرسلوه للاتفاق مع يهود خيبر، فأعطوه الأمان وسألوه عن قومه فدلَّهم ووعدوه بتمر خيبر إن انضم إلى المسلمين وناصرهم، فأفسدوا بذلك اتفاق بنى كلب مع يهود خيبر من ناحية، وعرفوا منه مواضع العدو ففاجأوهم، فهرب الرعاة وحذَّروا قومهم، فاستاق المسلمون النَّعَم ورجعوا إلى المدينة ومعهم خمسمائه بعير عدا الشاء.

سرية زيد بن حارثة إلى أُمّ قِرْفة بوادى القرى: رمضان سنة ٦ هـ/٦٢٧م:

كان زيد بن حارثة قد رجع من الشام فى تجارة وأثناء عودته فى رجب طلع عليه رجال من بنى فزارة من بنى بدر فضربوه وأخذوا ما معه، وعاد صفر اليدين إلى المدينة. لذا أرسل النبى ﷺ مولاه زيد ابن حارثة فى كتيبة من المسلمين إلى ناحية وادى القُرى وذلك فى رمضان، وقد استطاعت هذه السرية أن تثأر من العدو بقتل عدد من رجالهم من بنى بدر، وتأسر أم قرفة وهى فاطمة بنت ربيعة بن بدر، عجوز كبيرة، وكان مصيرها القتل لتحريضها رجالهم على زيد وأصحابه، وقد كانت معها ابنتها وهى جارية بنت مالك بن حذيفة بن بدر، أسروها فكانت من نصيب سلمة بن عمرو بن الأكوع فوهبها للنبى ﷺ، فأرسلها إلى حَزن بن أبى وهب فولدت له عبد الله ابن حَزن .

سرية كُرْز بن جابر الفِهْرى إلى العُرَنِيين شوال سنة ٦ هـ/٦٢٧م:

" العُرَنِيُّون" هم الذين قتلوا راعى النبى ﷺ. بعث النبى ﷺ كرز بن جابر فى سرية معه عشرون فارسًا هو أمير عليهم إلى العُرَنيين. كان هؤلاء قدجاءوا إلى النبى وأعلنوا إسلامهم وزعموا أن هواء المدينة لا يصلح لهم، فسمح لهم النبى ﷺ أن يقيموا فى مراعى لقاحه، فأقاموا حتى برأوا، ثم استاقوا اللقاح وولوا شطر بلادهم،



ولما اعترضهم يسار مولى النبى ﷺ ومعه نفر، أخذوه وقطعوا يده ورجله وغرزوا الشوك فى عينيه حتى مات، وبلغ رسول الله ﷺ ذلك فبعث فى إثرهم كرز بن جابر فى هذه السرية، فأدركوهم وأحاطوا بهم وأسروهم وقدموا بهم إلى المدينة، فأمر بهم ﷺ فقطعت أيديهم وأرجلهم وسُمِلتْ أعينهم وصلبوا هناك.

وقد نزل فى هؤلاء قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (المائدة: ٣٣). فلم يسمل ﷺ بعد ذلك عينًا، وكان اللقاح خمس عشرة لقحة فردوها إلى المدينة وفقدت لقحة فقيل نحروها .

سرية عمرو بن أمية الضمرى سنة ٦ هـ/٦٢٧م:

كان أبو سفيان بن حرب قد حرض أهل مكة على قتل النبى ﷺ ، وكان فى المجلس أعرابى اتفق مع أبى سفيان فأعطاه بعيرًا ونفقة، فانطلق الأعرابى إلى المدينة وسأل عن النبى ﷺ فدلوه عليه، فلما رآه النبى ﷺ قال: " إن هذا الرجل فيه غدر". فلما دنا من النبى ﷺ ليرتكب جرمه جذبه أسيد بن حضير فاضطرب الرجل وسقط خنجره من بين طيات ملابسه، فسُقِط فى يده وقال: دمى، فقبض ابن حضير على رقبته فاستمهله النبى ﷺ وطلب من الرجل أن يخبره خبره، فاشترط الأمان فأجيب إليه، فلما تبين له ﷺ ما كان من أبى سفيان أطلق الرجل، وكان قد أسلم، لذلك أرسل النبى ﷺ عمرو بن أمية، وسلمة بن أسلم إلى أبى سفيان وقال لهما: " إن أصبتما منه غرة فاقتلاه". فوصلا مكة، وعرف معاوية بن أبى سفيان عمرو بن أمية، وكان فاتكًا فى الجاهلية، فأدرك أنه لم يأت لخير، فلما تكشف أمره هرب هو وسلمة ولكنه قتل فى طريقه عمرو بن عبيد الله بن مالك التميمى وآخرين، وأسر رجلا عاد به إلى المدينة. ويبدو أنهم كانوا تعرضوا له.

سرية عمر بن الخطاب إلى تُرَبَة:

شعبان سنة ٧ هـ/٦٢٨م :

ذلك أن جمعًا من هوازن بتربة (وادٍ على مسافة يومين من مكة) كانوا

يعادون المسلمين وبلغ النبى ﷺ فأرسل عمر بن الخطاب ومعه ثلاثون مقاتلاً إلى عَجُز هوازن بترية يقصد بها بنى جُشم بن معاوية بن بكر، وبنى نصر بن معاوية بن بكر، وسعد بن بكر وثقيف بن منبه بن بكر، وكان معهم دليل، من بنى هلال. فلما أتى الخبر هوازن هابتهم فهربوا، فلما وصل عمر بن الخطاب ورجاله إلى أرضهم لم يلق منهم أحدًا فانصرف راجعًا إلى المدينة دون قتال.

سريه أبى بكر الصديق إلى بنى كلاب بنجد: شعبان سنة ٧ هـ/٦٢٨م:

بعث رسول الله ﷺ أبا بكر إلى فزارة فلما اقتربوا من الماء عرس أبو بكر وبعد صلاة الصبح شنوا الغارة، وكان معه جماعة من المسلمين، وكان شعارهم: أَمِتْ أَمِتْ. فقتلوا أناسًا كثيرين وساقوا الغنائم والسبى. وجاء سلمة بن الأكوع ببعض السبى إلى أبى بكر وكان فيهم امرأة من فزارة عليها قشع من أدم، معها ابنتها من أحسن العرب، فَنَفَّله أبو بكر ابنتها. فلما رجعوا إلى المدينة التقى رسول الله ﷺ بسلمة بن الأكوع فقال له: يا سلمة هب لى المرأة! فقال له: يا نبى الله والله لقد أعجبتنى وما كشفت لها ثوبًا، فسكت حتى إذا كان فى الغد لقيه النبى ﷺ فى السوق فقال له: هب لى المرأة لله أبوك! فقال له: هى لك يا رسول الله. فبعث بها رسول الله ﷺ إلى أهل مكة ففدى بها أسرى من المسلمين كانوا فى أيدى المشركين.

سرية بشير بن سعد الأنصارى إلى فدك: شعبان سنة ٧ هـ/٦٢٨م:

بعثه النبى ﷺ فى ثلاثين رجلا إلى بنى مرة بفدك فلما وصلها لم يجد غير رِعاء الشاءِ فاستاق النَّعَم والشاء ورجع إلى المدينة فخرج الصريخ فأخبرهم فتجمعوا وأدركوه عند الليل واشتبكوا بالنبل وحملوا عليهم فأصابوا أصحاب بشير الذى ضُرِب حتى قيل إنه مات، ثم رجعوا بنعمهم وشائهم ورجع معهم بشير بن سعد.

سريه غالب بن عبد الله الليثى إلى المدينة: رمضان سنة ٧ هـ/٦٢٨م:

بعثه النبى ﷺ إلى بنى عُوال وبنى عبد ابن ثعلبة وهم بالمدينة، وراء بطن نخلة بناحية نجد على مسافة ثمانية بُرُدٍ من المدينة. بعثه النبى ﷺ ومعه مائة وثلاثون رجلاً. دليلهم يسار مولى رسول الله ﷺ. فوصلوا أرضهم وهجموا عليهم فقتلوا من قتلوا واستاقوا نعمًا وشاء ورجعوا إلى المدينة دون أسرى. وفى هذه السرية قَتَل أسامةُ بن زيد الرجلَ الذى قال لا إله

إلا الله، قال له النبى ﷺ: «هلا شققت قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب؟». فقال أسامة: لا أقاتل بعدها من يشهد أن لا إله إلا الله.

سريه الخَبَط أميرها أبو عبيدة بن الجراح: رجب سنة ٨ هـ/٦٢٩م:

بعث رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح فى ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، فيهم عمر بن الخطاب، إلى حى من جهينة بالقبلية مما يلى ساحل البحر على مسافة خمس ليال من المدينة، فأصابهم فى الطريق جوع شديد بعد أن نفذ زادهم وكان جراب تمر. كانوا يتصيدون " الخَبَط " أى ورق الشجر فيسحقونه ويسفونه ويشربون عليه الماء، فكان نعم الأمير والقائد الذى يصبر على المصاعب فى سبيل تحقيق الهدف. وكان قيس بن سعد قد ابتاع جزورًا ونحرها لهم، وألقى لهم البحر حوتًا عظيمًا فأكلوا منه وبعد ذلك كله أكلوا الخَبَط. ولم تكن غاية هذه السرية سوى إثبات الوجود فى المنطقة، ولم يلق المسلمون بها عدوا ولم يلقوا كيدًا.

سريه عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل جمادى الآخرة سنة ٨ هـ/٦٢٩م :

وقد سبق ذكرها تفصيلاً [1].

سرية أبى قتادة ربعىّ الأنصارى إلى خَضِرَة: شعبان سنة ٨ هـ/٦٢٩م :

بعث رسول الله ﷺ أبا قتادة الحارث بن رِبْعى ومعه خمسة عشر رجلاً إلى غطفان فى أرض محارب بنجد، وأمره أن يشن عليهم الغارة، فسار بالليل وكمن بالنهار فلما قدم إليهم هجم على جمع منهم عظيم فأحاط بهم، فصاح رجل منهم: يا خَضِرة! فكان بينهم قتال؛ قُتِل منهم كثير واستاقوا من الإبل مائتى بعير ومن الغنم ألفى شاة وسبوا سبيًا كثيرًا، وجمعوا الغنائم فأخرجوا الخمس فعزلوه، وقسموا ما بقى على أهل السرية فأصاب كلَّ رجل منهم اثنا عشر بعيرًا، وجعلوا البعير بعشر من الغنم غير السبى، وعادوا إلى المدينة بعد خمس عشرة ليلة.

سريه خالد بن الوليد لهدم العُزَّى لخمس بقين من رمضان سنة ٨هـ/٦٣٠م:

العُزَّى من أصنام الجاهلية، وكانوا يسمون بها " عبد العزى" بن كعب بن سعد بن زيد مناه بن تميم. من أقدم ما سمت به العرب، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها ويهدون لها ويتقربون عندها بالذبح. وكانت قريش فى طوافها قبل الإسلام يقولون: " واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى" وكانوا يقولون: إنهن بنات الله، عز وجل

ورد ذكرها فى القرآن الكريم.

وبعد فتح مكة بعث رسول الله ﷺ ...د بن الوليد فقال له: " انطلق إلى ...جرة ببطن مكة فاعضدها". فخرج ...د فى ثلاثين فارسًا من أصحابه حتى ...وا إليها فهدمها ثم رجع إلى رسول ... ﷺ فأخبره فسأله الرسول ﷺ: « هل ...ت شيئًا؟» قال: لا . قال:« فإنك لم ...دمها فارجع إليها واهدمها»، فرجع ...الد، فجرد سيفه فخرجت إليه امرأة ...شية سوداء نافشة شعرها، فضربها ...لق رأسها ثم عضد الشجرة ،ثم أتى ...بى ﷺ فأخبره فقال:« تلك العزى وقد ...ست أن تعبد ببلادكم أبدًا». كان ذلك ...اخر رمضان سنة ٨ هـ .

...رية عمرو بن العاص إلى سُواع

...دمه: رمضان سنة ٨ هـ/٦٣٠م:

سُواع من أقدم أصنام العرب. وقد ...كان أول من غيّر دين إسماعيل عليه السلام فنصب الأوثان عمرو بن ربيعة، وهو لُحَىّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزدى وهو أبو خزاعة. وهو الذى قاتل جرهم حتى أخرجهم عن حرم مكة واستولى على مكة بعد أن أجلاهم وتولى حجابة البيت بعدهم. وكان قد مرض مرضًا شديدًا فقيل له: إن من البلقاء من أرض الشام حمّة إن أتيتها برأت، فأتاها فاستحم بها فبرأ. ووجد أهلها يعبدون الأصنام، فسألهم عنها فقالوا: نستسقى بها المطر ونستنصر بها على العدو، فسألهم أن يعطوه منها ففعلوا فقدم بها مكة ونصبها حول الكعبة.

وكان أول من اتخذ تلك الأصنام من ولد إسماعيل هُذيْل بن مدركة؛ اتخذ سواعًا. وكان سدنته بنى لحيان. وقد بعث النبى ﷺ حين فتح مكة عمرو بن العاص إلى سُواع صنم هُذيل ليهدمه. فذهب إليه ووجد عنده السادن فقال لعمرو: ماذا تريد؟ فرد عليه: أمرنى رسول الله ﷺ أن أهدمه. قال: لا تقدر على ذلك. فقال له عمرو: ولم؟ قال السادن: سوف تمنع! فقال له عمرو: ويحك! وهل يسمع أو يبصر؟! ثم أقبل عليه فكسره وأمر أصحابه أن يهدموا بيت خزانته فلم يجدوا فيه شيئًا، ثم قال عمرو بن العاص للسادن: كيف رأيت قال: أسلمت لله.

سرية خالد بن الوليد إلى بنى جَذيمة من كنانة: شوال سنة ٨ هـ/٦٣٠م:

كان بنو جَذيمة بأسفل مكة . قيل: لما رجع خالد بن الوليد من هدم العزى ورسول الله ﷺ مقيم بمكة بعد الفتح. بعثه النبى ﷺ إلى بنى جَذيمة داعيًا إلى الإسلام ولم

يبعثه مقاتلاً. فخرج فى ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وبنى سُليم فأتاهم فدعاهم إلى الإسلام، ذكر ابن إسحاق ذلك عن أبى جعفر محمد بن على قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى الغُمَيْصَاء، ماء من مياه جذيمة بن عامر بن عبد منساة، داعيًا إلى الإسلام. فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يوم، أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيرى، ولا يقتل رجل من أصحابى أسيره، حتى قدمنا على النبى ﷺ فذكرناه، فرفع النبى ﷺ يديه وقال: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد» مرتين[٢].

مسير علىّ ليتلافى خطأ خالد بن الوليد:

ذكر ابن هشام أنه انفلت رجل من القوم فأتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال رسول الله ﷺ: " هل أنكر عليه أحد؟ " فقال: نعم، قد أنكر عليه رجل أبيض ورَبْعة فنهمه[٣]. خالد فسكت عنه، وأنكر عليه رجل آخر طويل مضطرب فراجعه، فاشتدت مراجعتهما، فقال عمر ابن الخطاب: أما الأول يا رسول الله فهو ابنى عبد الله، وا[...] الآخر فهو سالم مولى حذيفة.

قال ابن إسحاق: فحدثنى حكيم [...] حكيم عن أبى جعفر محمد بن على قا[ل] ثم دعا رسول الله ﷺ على بن أبى طا[لب] فقال: " يا على اخرج إلى هؤلاء القو[م] فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلي[ة] تحت قدميك". فخرج على حتى جاء[هم] ومعه مال قد بعث به ﷺ، فودى لهم الدم[اء] وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليَدِ[ى] ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وَدَاه بقيت معه من المال بقية، فقال لهم على رضي الله عنه حين فرغ منهم: هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يُود لكم؟ قالوا: لا، قال: فإنى أعطيك[م] هذه البقية من هذا المال احتياطًا لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون، ففعل، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال: " أصبت وأحسنت". ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائمًا شاهرًا يديه حتى إنه ليُرى ما تحت منكبيه، يقول: " اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد" ثلاث مرات.

وقد قال خالد: ما قاتلت حتى أمرنى بذلك عبد الله بن حذافة السهمىّ، قال: إن رسول الله ﷺ قد أمرك أن تقاتله[م]

...تاعهم من الإسلام. وقد قالوا: صبأنا

...بأنا. وكانوا يعنون: دخلنا فى دين

...مد، وكانوا يسمون النبى ﷺ

...صابئ، لأنه خرج من دينهم، يقال:

...أ الرجل، إذا خرج من دين إلى دين

...:

...رية على بن أبى طالب إلى الفُلْس (صنم طىء) ليهدمه: ربيع أول سنة ...هـ/٦٣٠م:

...بعث رسول الله ﷺ على بن أبى طالب فى ...مسين ومائة فارس من الأنصار فى مهمة ...م "الفُلْس" صنم طىء. وكان معهم مائة ...ير وخمسون فرسا ولواء أبيض. فساروا إليه ...صلوا مع الفجر فهدموا الصنم وأحرقوه، ...قد ثار أهل منطقة طىء وحاربوا عليا ومن ...معه فهزمهم وساق علىّ الغنائم والكثير من ...السبى، وكان من الغنائم ثلاثة أسياف ...كانت فى خزانة الفُلْس: رَسوب والمِخْذَم ...الثالث يقال له اليمانى، وكذلك ثلاثة ...دروع. وكان عدىّ بن حاتم الطائى قد هرب ...إلى الشام فوقعت أخته فى السبى وهى سفانة ...بنت حاتم الطائى، ورجع علىّ إلى المدينة، ...وقد طلبت سفانة من النبى ﷺ أن يَمُنَّ عليها ...فاستجاب لمطلبها لكرم أبيها وفضائله، وقد ...أسلمت وحسن إسلامها.

سريه عكاشة بن محصن الأسدى إلى الجناب: ربيع الآخر سنة ٩هـ/٦٣٠م:

عكاشة بدرىّ شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ كما قاد سرية القمر أرسله النبى ﷺ إلى الجناب وهى أرض قبيلتى عُذْرة وبَلِىّ، جاء ذلك فى طبقات ابن سعد دون ذكر التفاصيل، كان ذلك بعد فتح مكة . ولا شك أن فى ذلك إِحْكامًا لسيطرة المسلمين على أطراف ونواحى شبه الجزيرة العربية وتدعيمًا للدعوة الإسلامية.

سرية جرير بن عبد الله البجلى لهدم ذى الخلصة باليمن:

من حديث جرير بن عبد الله ﷺ قال: قال لى رسول الله ﷺ:« ألا تريحنى من ذى الخلصة؟ » قلت بلى، فانطلقت فى خمسين ومائة فارس من أحمس كانوا أصحاب خيل، وكنت لا أثبت على الخيل، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فضرب يده على صدرى وقال: " اللهم ثبته واجعله هاديًا مهديًا" ، قال: فما وقعت عن فرس بعدها. قال: وكان ذو الخلصة بيتًا باليمن لخثعم وبجيلة فيه نُصب يقال له: الكعبة، قال: فأتاها فحرقها بالنار وكسرها ثم بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول جرير: والذى بعثك بالحق ما جئتك حتى تركتها كأنها جمل أجرب . قال: فبارك فى خيل

أحمس ورجالها خمس مرات(٤).

والخلصة نبات له حب أحمر كخرز العقيق، وذو الخلصة: اسم البيت الذى كان فيه الصنم، وقيل: اسم البيت الخلصة، واسم الصنم ذو الخلصة، وكان يطلق على البيت الكعبة اليمانية.

أهمية تلك السرايا:

تولى المهاجرون وحدهم السرايا الأولى دون الأنصار، لأن معاهدة العقبة كانت دفاعية من جانبهم فلم يكلفهم الرسول ﷺ بالاشتراك فى الهجوم على القوافل التجارية لقريش ولم يدْعُهُم إلى ذلك، بل إنه حين أغارت قريش على سرح المدينة، خرج الرسول ﷺ بالمهاجرين وحدهم. والقصد من هذه السرايا إفهام قريش أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع المسلمين المهاجرين من مكة إلى المدينة مما يمكّن لهم من حرية الدعوة إلى دينهم. كما كانت هذه السرايا توقع الرعب فى قلوب يهود المدينة وغيرهم من الذين يضربون حولها، والذين أبدوا عداءً شديدًا للإسلام والرسول ﷺ. كما كانت هذه السرايا ترفع الروح المعنوية للمسلمين وتشعرهم بقوتهم، وهكذا أدركت قريش ما وصل إليه المسلمون من قوة.

أ.د / نادية حسنى صقر

الهوامش:

(١) انظر مادة: ذات السلاسل.

(٢) أخرجه البخارى فى المغازى باب بعث النبى ﷺ خالد إلى بنى جذيمة حديث رقم ٤٣٣٩، ٧١٨٩، النسائى فى القضاء باب إذا قضى الحاكم بغير حق: ٨/٢٣٦، أحمد فى المسند: ٢/ ١٥١. وابن سعد فى الطبقات: ٢/١٤٧، ١٤٨. وإن اختلفت رواية ابن سعد شيئًا ما عن البخارى وأحمد غيرهم.

(٣) نهمه: زجره.

(٤) أخرجه البخارى فى المغازى باب غزوة ذى الخلصة الأحاديث رقم ٤٣٥٥، ٤٣٥٦، ٤٣٥٧، وانظر أرقام ٣٠٢٠، ٣٠٣٦، ٣٨٢٣، ٦٠٨٩، ٦٣٣٣. وعند مسلم فى باب فضائل الصحابة باب فضائل جرير بن عبد الله، حديث ٢٤٧٦، أحمد فى المسند: ٤/ ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٥..

مراجع للاستزادة:

١- ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن أيوب الحميرى ت ٢١٣- ٢١٨هـ: - سيرة النبى ﷺ تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد.

٢- ابن سعد: محمد ت ٢٣٠هـ:. الطبقات الكبرى -طبعة دار صادر لبنان.

٣- خليفة بن خياط: أبو عمر الليثى العصفرى ت ٢٤٠- ٢٤٦هـ: - التاريخ - تحقيق " أكرم ضياء العمرى - بغداد.

٤- ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل ت ٢٤١هـ: - المسند - طبعة مكتبة التراث الإسلامى. القاهرة.

٥- الطبرى ت ٣١٠هـ، أبى جعفر محمد بن جرير: - تاريخ الرسل والملوك- الطبعة الثانية، دار المعارف -القاهرة.

٦- البخارى: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخارى: صحيح البخارى.

٧- ابن حجر العسقلانى: - فتح البارى شرح صحيح البخارى - طبعة دار الفكر العربى -القاهرة.

٨- المسعودى ت ٣٤٦هـ، أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى: التنبيه والإشراف.

٩- ابن الأثير ت ٦٣٠هـ: أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الأثير: - الكامل فى التاريخ - الطبعة الثالثة.

١٠- ابن كثير ت ٧٧٣هـ، الحافظ أبو الفداء بن كثير الدمشقى:- البداية والنهاية: الطبعة الأولى المعارف - بيروت ١٩٦٦.

١١- إبراهيم العلى: صحيح السيرة النبوية. نشر دار النفائس. بيروت.

سرنديب

سرنديب هو الاسم القديم لجزيرة سيلان، وتعنى جزيرة الياقوت فى اللغة السنهالية لغة سرنديب، فكلمة "سر" تعنى الياقوت، و"ديب" تعنى جزيرة، وسميت بذلك لشهرتها بالجواهر وخاصة الياقوت.[١]

وقد وصفها المسعودي، فذكر أنها جزيرة كبيرة بها مدن وقرى كثيرة، وهى كثيرة الخيرات، ويجلب منها الصندل والسنبل والقرفة والقرنفل والبقم، واشتهرت بالأعشاب الطبية والعقاقير التى لا توجد فى غيرها.[٢]

وقد خضعت سرنديب منذ القرن السادس الميلادى لإمبراطورية سرى فيجايا التى تأسست فى جنوب سومطرة ونشرت نفوذها على الجزر الأندونيسية والفلبينية وشبه جزيرة الملايو وسرنديب، وظلت سرنديب خاضعة لها حتى انتشار الإسلام بها.[٣]

وقد وصل الإسلام مبكرًا إلى جزيرة سرنديب عن طريق التجار العرب الذين كانوا يشحنون بضائعهم إلى الخليج الفارسى وسواحل الهند وسيلان والصين، وكانوا يبشرون فى طريقهم بالدعوة الإسلامية فى كل بلد ينزلونه، وصل الإسلام إلى سرنديب فى القرن الأول للهجرة / السابع الميلادى

ويذكر بزرك بن شهريار فى كتاب "عجائب الهند" أن أهالى سرنديب سمعوا عن الرسول (صلى الله عليه وسلم) أوفدوا رجلاً منهم للاستطلاع عن الدعوة المحمدية، ولكن العقبات ووصل فى خلافة عمر بن الخطاب (١٣- ٢٣هـ/٦٣٤- ٦٤٤م) فتشرف بمقابلته، وتعرف منه على الإسلام الرسول ﷺ، ثم عاد إلى سرنديب ولكن فاجأه الموت فى الطريق بمكران، وكان معه خادم هندى إلى سرنديب وبين لأهلها كل ما عن الإسلام والرسول ﷺ، وما جرى الخليفة عمر بن الخطاب الذى قال "إن عمر بن الخطاب رجل تقى يلبس الثوب المرقع، وينام فى المسجد".

ويذكر البلاذرى عن أسباب السند اعتراض قراصنة الميد لسفينة أهداها ملك جزيرة سيلان إلى الحجاج تحمل نسوة مسلمات ولدن فى بلده توفى عنهن آباؤهن الذين كانوا

التجار العرب.[٦] مما يدل على وصول التجار العرب لجزيرة سيلان فى وقت مبكر، وقد قاموا بالتالى بنشر الدعوة الإسلامية كحالهم فى أى بلد يحطون رحالهم به.

ومن الدلائل على وصول الإسلام إلى سرنديب منذ عصوره الأولى وجود ضريح لمسلم فى القسم الجنوبى الشرقى من الجزيرة يعود تاريخه إلى القرن الأول الهجري/ السابع الميلادى، كما وجد أيضًا مسجد قديم متهدم يقال إنه بنى على الموضع الذى دفن فيه أول شخص مسلم قضى نحبه فى سرنديب، وهو الشخص الذى بقى من البعثة التى أرسلها أهل سرنديب إلى الرسول ﷺ.[٧]

أما عن أوضاع المسلمين فى سرنديب فيلقى الإدريسى عليها الضوء، فيذكر أن بها فى عصره - منتصف القرن السادس الهجرى / الثانى عشر الميلادى- ملكا عادلا وسياسيًا ماهرًا دائم الاطلاع على أحوال رعيته، وله ستة عشر وزيرا أربعة منهم من أهل ملته وأربعة نصارى وأربعة يهود وأربعة مسلمون، وقد رتب لهم موضعا يجتمع فيه أهل الأديان المختلفة ويتناظرون فى أديانهم، ويقيم كل واحد منهم حجته على دينه، ويُدَوِّنُ الملك مناظراتهم، ويجتمع لعلماء كل ملة كثير من الناس والطوائف فيكتبون عنهم سير أنبيائهم وقصص حكامهم ويعلمونهم شرائعهم ويفهمونهم ما لا يعلمونه[٨]. ونخلص من ذلك إلى أن ملك جزيرة سرنديب كان يسمح بالتبشير فى جزيرته لمختلف الأديان ومنها الدين الإسلامى، مما أدى لانتشار الدين الإسلامى بالجزيرة.

ولم ينتشر الإسلام فى جزيرة سرنديب انتشارًا واسعًا قبل العصر الحديث، فقد ذكر القزوينى أن أكثر أهلها مازالوا على ملتهم، على الرغم من وجود المسلمين بها.[٩] ويؤكد ذلك ما ذكره الرحالة ابن بطوطة، فيتضح من حديثه قلة انتشار الإسلام بين أهالى الجزيرة، وإن كانوا يعظمون المسلمين ولا يؤذونهم، وذلك بفضل كرامات الصوفى الشهير أبى عبد الله بن خفيف، وهو أول من فتح ذلك الطريق الذى سار منه ابن بطوطة لزيارة قدم آدم عليه السلام بجزيرة سرنديب، وكان الهندوس من الأهالى يمنعون المسلمين من ذلك ويؤذونهم ولا يتعاملون معهم فى الأكل والبيع. ومنذ قدوم الشيخ أبى عبد الله إلى الجزيرة أصبح الهندوس

يعظمون المسلمين ويطمئنون إليهم ويدخلونهم بيوتهم ويطعمونهم، وكان للشيخ أبى عبد الله دور كبير فى نشر الإسلام بسرنديب.

ويذكر ابن بطوطة مشاهدته لمسجد الشيخ عثمان الشيرازى المعروف بشاوش خارج مدينة "كُنَكَار" وهى حضرة السلطان الكبير بالجزيرة، والسلطان وأهل المدينة يعظمون الشيخ عثمان الشيرازى ويزورونه، وقد كان الدليل إلى قدم آدم حتى قطعت يده ورجله بسبب ذبحه لبقرة، وفى حكم الهندوس أن من ذبح بقرة إما أن يذبح أو يخاط فى جلدها ويحرق، ولكن لمنزلة الشيخ العظيمة اكتفوا بقطع يديه ورجليه وأعطوه جباية بعض الأسواق، وصار أولاده وغلمانه يدلون على القدم. كما شاهد ابن بطوطة مغارات حفرت فى الجبال لبعض مشايخ الصوفية والأولياء والصالحين من المسلمين الذين جاءوا للتعبد عند قدم آدم، ومنها مغارة أسطا محمود اللورى ومغارة بابا طاهر ومغارة الأصفهانى.[١٠] ويدل ذلك على الدور الكبير الذى لعبه الصوفية فى نشر الإسلام بسرنديب.

عاش المسلمون فى سرنديب فى المنطقة الشرقية، خاصة فى مناطق تشيلا وبتلام على الساحل الجنوبى الشرقى[١١]، إلا بعضهم يعيشون فى الحصن القر... "كالى" ويعملون بالتجارة، وهم من أ... عربى أو من التجار الذين وفدت سفن... إلى "كالى" منذ ألف عام قادمة من بلا... العرب ومصر وفارس وجاوة للتجارة، وقد يكون بعضهم من أصل آخر لأنهم طو... القامة وحادو الوجوه، ويتميزون بعمامانه... وأرديتهم الطويلة، وهؤلاء يعرفون محلي... بالأفغانية الذين نزحوا من الهند.[١٢]

وقد ذكر أحد المصادر الأوربية أن لولا التدخل البرتغالى لكانت جزير... سرنديب قد تحولت تمامًا إلى الإسلا... وذلك بفضل جهود الدعاة والصوفي... والتجار المسلمين، فضلاً عن اللاجئين المسلمين إلى الجزيرة، فقد وصل فى القرن الثانى الهجري/ الثامن الميلادى لاجئون مسلمون استقروا بالجزيرة، وعرف أحفادهم بمورسيلان، تمييزًا لهم عن المسلمين الآخرين الذين وفدوا من الهند أو أهل الجزيرة الذين تحولوا للإسلام. ويذكر المسلمون المتمركزون فى بتلام أنهم ينحدرون من سلالة اثنين من دعاة الإسلام جاءا من بغداد متعاقبين أولهما فى القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادي، وثانيهما فى القرن

لث عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادي. وكان بالجزيرة عدد كبير من مسلمى الملايو الذين جاء بهم الهولنديون من جاوة لأغراض حربية. وقدر عدد المسلمين فى سيلان فى أوائل القرن العشرين الميلادى بنحو ٢٦٦,٦٢٥ نسمة[١٣].

وقد حل الهولنديون محل البرتغاليين واستولوا على جزيرة سرنديب سنة ١٠٦٩هـ / ١٦٥٨م. وقد تنازلت هولندا عن سرنديب إلى إنجلترا عقب توقيع معاهدة بينهما، واستغلت إنجلترا وجود قلاقل بها عام ١٣٠٥هـ / ١٨٨٧م فتدخلوا بالأمر وفرضوا على سلطانها معاهدة تعترف بموجبها بالسيادة البريطانية. وعلى الرغم من دخول سرنديب ضمن الإطار الهندى جغرافيًا إلا أنها منفصلة عن الهند سياسياً، وكانت جزر الملاديف تتبع سرنديب ولم تستقل عنها إلا بعد تقسيم الهند، وقد حصلت سرنديب على استقلالها سنة ١٣٦٦هـ / ١٩٤٧م[١٤].

ومن الجدير بالذكر أن أحمد عرابى نفى إلى جزيرة سرنديب عقب فشل الثورة العرابية والاحتلال البريطانى لمصر، وكان فى صحبته خمسة منهم ابنه محمد وخادمه وزوجته.[١٥] وخلال التسع عشرة سنة التى قضاها أحمد عرابى فى سرنديب استطاع أن يجمع قلوب أهل الجزيرة حوله وأن يكسب حبهم واحترامهم فضلاً عن التأثير فيهم ثقافيًا واجتماعيًا؛ من ذلك نقله الزى المصرى وخاصة الطربوش إليهم، وقد عاد إلى القاهرة سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م[١٦].

د / وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش :

(١) محمد بن ناصر العبودي: رحلة إلى سيلان وحديث فى أحوال المسلمين، الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م، ص٥.

(٢) المسعودي: مروج الذهب، ١٨٣٨م، ص٦١.

(٣) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج١٩: القارة الهندية ، ، المكتب الإسلامي، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٣٦٥

(٤) محيى الدين الألوائى: "مابلا"، ثقافة الهند ،سبتمبر ١٩٥٥ ، مج٦، ع٣، ص٤٢.

(٥) بزرك بن شهريار: عجائب الهند ، بيروت، دار صادر، (د. ت)، ص١٥٦ - ١٥٧.

(٦) البلاذرى: فتوح البلدان، ، تحقيق طه عبد الرءوف سعد وعمرو أحمد عطوة، الإسكندرية ، دار ابن خلدون، (د. ت) ص٤٥٢.

(٧) رجب عبد الحليم: العمانيون والملاحة والتجارة ونشر الإسلام منذ ظهوره إلى قدوم البرتغاليين، مكتبة العلوم، مسقط ،١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص٩٠.

(٨) الإدريسى، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس: نزهة المشتاق، مج١ ، مكتبة الثقافة الدينية، (د. ت) ص٧٣- ٧٤.

(٩) القزوينى، زكريا بن محمد بن محمود: آثار البلاد وأخبار العباد ، بيروت، دار صادر، (د. ت)، ص٤٣.

(١٠) ابن بطوطة، ، محمد بن عبد الله بن محمد اللواتى الطنجى: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج٢ ، تحقيق عبد الغنى شاكر، مطبعة وادى النيل، القاهرة،١٢٨٧هـ، ص١٣٢- ١٣٣.

(١١) محمد مهر علي: انتشار الإسلام فى الدكن وجنوب الهند ، الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامي، المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م، ص٢٤٨.

(١٢) جمال الدين الرمادى: الإسلام فى المشارق والمغارب، مطابع الشعب، ١٩٦٠، ص٥٩.

(١٣) محمد مهر علي: المرجع نفسه، ص٢٤٨.

(١٤) محمود شاكر: المرجع نفسه، ص٦، ٧٤، ٢٦٧: ٢٦٩.

(١٥) أحمد عرابي: مذكرات الزعيم أحمد عرابي: كشف الستار عن سر الأسرار فى النهضة المصرية المعروفة بالثورة العرابية، دراسة وتحقيق عبد المنعم إبراهيم دسوقى جميعي، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠٠٥م، ص٦٦.

(١٦) أكتوبر، مج٥، مؤسسة أكتوبر الصحفية، ١٩٨١.

مصادر ومراجع للاستزادة:

- محمد بن ناصر العبودى: رحلة إلى سيلان وحديث فى أحوال المسلمين. الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.
- محمود شاكر: التاريخ الإسلامى، جـ١٩: القارة الهندية. المكتب الإسلامى ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.
- بزرك بن شهريار: عجائب الهند. بيروت، دار صادر (د. ت).
- ابن بطوطة: تحفة النظار، جـ٢ ، مطبعة وادى النيل. القاهرة ١٢٨٧هـ.
- محمد على مهر: انتشار الإسلام فى الدكن وجنوب الهند. الموسوعة الجغرافية للعالم الإسلامى. المملكة العربية السعودية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

السعديون

فى بلاد المغرب (دولة)

ـيام الدولة السعدية:

يعـود نـسب الـسعديين لآل البيـت ـبوى، فهم من الأشـراف ، ونسبهم يمتد ـى محمد النفس الزكية ، وهم بذلك أبناء ـومة مع العلويين؛ هـذا مـا أكـده مـؤرخ ـسرة العلوية أبو القاسم الزيانى على لسان ـسلطان العلوى محمد بن عبد الله الـذى ـكد للزيانى أن السعديين أبناء عمومتهم ، ـهم يجتمعون فـى جد واحد هو محمد بن ـاسم بن محمد ، وأن أصلهم من قرية بنى ـراهيم إحدى قرى ينبع .

أما عن مجيئهم لبلاد المغرب فكان ـل القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر ـيلادى، أى أثناء حكم بنى مرين لبلاد ـغرب ، ويُروَى أن مجيئهم كان بطلب ـن أهالى بلدة درعة المغربية ، أثناء أدائهم ـاسك الحـج ، وذلـك تيمنًـا بهـؤلاء ـأشـراف فـى استـصلاح زروعهـم ـمارهم ، فقد كان لا يصلح لهم زرع ، ـعترى العاهات ثمارهم ، فقيل لهم: لو ـيتم بشريف إلى بلادكم كما أتى به ـل سجلماسة لـصلحت حـالكم ـمارکم كما صلحت ثمارهم ، فكان ذلك سبب قُدومهم إلى بلاد المغرب . واستقروا فى بلدة تاكمدارت ، ولذلك تُعرف دولتهم بالدولة السعدية التاكمدارتية . ولأن نسب السعديين يعود لآل البيت اكتسبوا فى نفوس سكان بلاد المغرب مكانة وحظوة بسبب شرفهم؛ فقد ساعدهم ذلك كثيرًا فى إقامة دولتهم. ومنذ قدوم السعديين إلى بلاد المغرب ، لم يمارسوا فى عهد الدولة المرينية أو الوطاسية أية سلطة رسمية ، لكنهم كانوا مع ذلك يتمتعون بمكانة وحظوة فى نفوس السكان.

أما عن قيام دولتهم فكان مرتبطًا بشكل مباشر بأحوال بلاد المغرب فى تلك الفترة؛ ففى مطلع القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، كانت بلاد المغرب قد تأثرت بشكل كبير بالحروب والفتن الداخلية ، التى عملت على تقلص السلطة المركزية فى كثير من نواحيه ، وتوطدت فى المقابل السلطات الإقليمية ، علاوة على ذلك فقد مزق الغزاة أوصال البلاد وبخاصة الغزو البرتغالى والأسبانى .

وتزامنت تلك الأحوال مع فشل الدولة الوطاسية فى ضم بلاد المغرب فى وحدة سياسية واحدة بل عمدوا مع ذلك لمهادنة العدو المحتل ففقدوا بذلك هيبتهم بين المغاربة ، وبدأوا يبحثون عن زعامة قادرة على توحيد قوتهم وقيادتهم للجهاد ضد المحتل .

وكانت بداية توحيد الجهود من الجنوب المغربى ، وخاصة وادى درعة ، الذى كان بمثابة بارقة الأمل لدى المغاربة فى جمع شملهم ومقاومة البرتغاليين ، فكان أن بحث المغاربة عن قيادة يقبلها الجميع بعد أن فشل الوطاسيون فى توحيد بلاد السوس واكتفوا بأن تكون تبعيتها للدولة اسمًا فقط .

كانت هذه هى الأسباب التى دفعت سكان بلاد السوس للتوجه لأحد زعماء الصوفية الشيخ أبى عبد الله محمد بن مبارك ، وعرضوا عليه ما آلت إليه البلاد ، وطلبوا منه أن يجمع كلمتهم بقيادته ، على أن يعقدوا البيعة له بذلك ، فأشار عليهم بالتوجه لمبايعة رجل من الأشراف فى وادى درعة يسمى أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن ال. وأرسل فقهاء مصمودة وزعماء القبائل والصلحاء مندوبين عنهم لمبايعته ، وذلك فى عام ٩١٥هـ/١٥١٠م وتمت مبايعته فى تيدسى قرب قرية تارودانت ، وتلقب بالقائم بالله .

وتولى محمد القائم حركة الجهاد ضد البرتغاليين ، فزاد ذلك من شعبيته والتفاف المغاربة حوله . فعقد البيعة لابنه أبى العباس الأعرج وليًا للعهد فى عام ٩١٨هـ/ ١٥١٣م بقرية تيدسى التى تمت فيها بيعته من قبل . وكان أن أرسلت بلاد الشياظمة وحاحة للقدوم إليها لقيادتهم للجهاد ضد البرتغال ، فخرج للجهاد بتلك النواحى ، وترك ولده محمد المهدى يدير أمور بلدة سوس .

استمر جهاد محمد القائم بالله حتى كانت وفاته فى عام ٩٢٢هـ/١٥١٧م فخلفه ابنه أبو العباس أحمد الأعرج (٩٢٣- ٩٤٦هـ/١٥١٧- ١٥٥٠م) ، الذى واصل حركة الجهاد ضد البرتغاليين وكان التخلص من يحيى بن تعففت زعيم قبيلة عبدة المغربية ، الذى تنصر وحالف البرتغاليين ، وعمد إلى إبعاد السعديين إلى الجنوب وأوقف تقدمهم ، فلجأ أبو العباس الأعرج إلى الحيلة للتخلص منه فهادن البرتغاليين ، ثم دس له لدى قيادة البرتغال ، ثم قام بالهجوم على مدينة آسفى وتمكن من قتل قائدها البرتغالى

بيز باريجا Lopez Barriga وقتل يفهم يحيى بن تعففت .

وفى الفترة بين عامى ٩٢٨- ٩٣٠/ ١٥٢- ١٥٢٥م تمكن أبو العباس من الاستيلاء على مراكش وسمى نفسه الأمير أبو العباس ، ونقل رفات والده من وغال، التى كان قد دفن بها بعد فاته، إلى مراكش ، واعترف بالسلطة الاسمية للوطاسيين ، حتى يتمكن من تقوية أنصاره .

موقف الوطاسيين من السعديين :

لم تنزعج السلطة الوطاسية من تحركات السعديين فى بداية الأمر منذ مبايعة القائم بأمر الله وحتى دخول أبى العباس الأعرج مراكش ، وذلك لعدة أسباب من بينها خروج الجنوب المغربى واقعيًا عن السلطة الوطاسية ، وأن التبعية كانت اسمية فقط ، كذلك فشلت السلطة الوطاسية فى التعامل بجدية مع الجنوب المغربى لمرات عديدة ، كما أن تحركات السعديين كانت موجهة بشكل كبير للجهاد ضد البرتغاليين ولم تكن تسعى فى البداية لمواجهة الوطاسيين .

لكن يعتبر دخول السعديين مراكش نقطة التحول الكبرى فى العلاقة الوطاسية السعدية ، مما جعل السلطان الوطاسى يسارع بالتحرك لحصار مراكش ، ولكن سرعان ما رفع الحصار عنها بسبب مناعتها وقيام الثورة ضده فى فاس عاصمة دولته ، وكان يتزعمها أبناء عمومته.

واستمرت المواجهات بين السعديين والوطاسيين حتى تم عقد اتفاق بين الجانبين عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م وكان يقضى باعتراف الوطاسيين بسيادة السعديين على المناطق الواقعة بين تادلا والسوس وسيادة الوطاسيين على المناطق الواقعة بين تادلا والمغرب الأوسط ، غير أن ذلك لم يمنع اندلاع الحرب بين الوطاسيين والسعديين مرات عديدة.

وكان أن دب الخلاف بين الأخوين أبى العباس الأعرج وأخيه محمد الشيخ المعروف بالمهدى الذى كان يباشر أعمال السوس ، وتحول النزاع إلى حرب بين الأخوين انتهت بانتصار محمد المهدى وخلع أبى العباس الأعرج وذلك فى عام ٩٤٦هـ/١٥٣٩م .

وفى عام ٩٤٨هـ/١٥٤١م نجح السعديون فى استرداد قاعدة أغادير المغربية المهمة التى كان قد سيطر عليها البرتغاليون من قبل ، وكان ذلك توطيدًا

لسلطة محمد المهدى فى تلك الجهات .

القضاء على الدولة الوطاسية :

عمد محمد المهدى زعيم السعديين إلى التوسع فى حدود دولته وتوطيد أركانها فعمل على ضم إقليم تادلا كاملاً ، وتمكن فى عام ٩٥١ هـ/١٥٤٥م من الاستيلاء على قلعة فشتالة مفتاح الإقليم الواقعة على طريق مراكش فاس ، وإزاء تحركات الوطاسيين لوقف تقدم السعديين نحو هذه الجهات ، قامت معركة قوية بين الجانبين فى وادى درنة انتهت بهزيمة الوطاسيين، ووقوع السلطان أحمد الوطاسى فى الأسر . ولمعاجة الموقف ومحاولة لم شمل الوطاسيين قام أبو حسون عم السلطان أحمد والذى كان يحكم باديس ، بأن نادى بابن السلطان أحمد حاكمًا مؤقتًا للدولة الوطاسية ، واكتفى هو بدور الوصى ، وفى نفس الوقت عمل على الاستعانة بالعثمانيين، فأعلن ولاءه للسلطان العثمانى سليمان، الذى سارع بإرسال مبعوث عثمانى إلى بلاط مراكش، ليكون سفيرًا للعثمانيين لدى السعديين، على غرار ما قام به الوطاسيون من الاعتراف بالتبعية للدولة العثمانية ، إلا أن محمد المهدى رفض ذلك .

وفى عام ٩٥٣هـ/١٥٤٧م تم عق اتفاقٍ بين السلطان أحمد الوطاسى الأس لدى محمد المهدى يقضى بإطلاق سرا مقابل التنازل للسعديين عن بعض المنا مثل الهبط والغرب ومكناس والاعتراف له بحمل لقب سلطان ، ك منحه الحق فى صك العملة باس السعديين .

وعقب هذا الاتفاق سعى محمد المه للاستيلاء على فاس والقضاء عل الوطاسيين نهائيًا ، وبعد محاولتين فاشلت للاستيلاء عليها ، قام فى عا ٩٥٦هـ/١٥٤٩م بفرض الحصار الشد عليها ، وتمكن من دخولها بالطرق السلمي ، حسبما كان يرغب ، واستسلمت المدين ، وتم عقد اتفاقية مع السلطان أحمد الوطاسى تقضى بدخول السعديين المدينة م التعهد من جانبهم بضمان حياة السلطا الوطاسى وأسرته وأهل فاس . وأُخذ السلطان الوطاسى أحمد وأسرته إل مراكش عاصمة السعديين ، ودس له الس بعد فترة وجيزة هو وأسرته ، بينما نجح عمه أبو حسون فى الفرار من فاس غداة دخول السعديين المدينة ورحل عنها إل باديس ،ثم لجأ إلى الأسبان فى مليلة .

وفى عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م حاول السلطان السعدى محمد المهدى ضم المغرب الأوسط للدولة السعدية فعمد إلى مهاجمة تلمسان، وكان يحكمها بنو زيان الذين كانوا يتقلبون فى ولائهم تارة للأسبان وتارة للأتراك ، وأرسل محمد المهدى ابنه الحران بجيش كبيرإلى تلمسان، وتمكن من فرض الحصار عليها لمدة تسعة أشهر، وتمكن من دخولها ،وفر بنو زيان من المدينة ولجأوا إلى الأسبان ، لكن سرعان ما وصلت إمدادات الأتراك إلى تلمسان ،ونجحوا فى استردادها من أيدى السعديين، وتمكنوا من قتل حران بن محمد المهدى قائد جيش السعدى ، واضطرت قوات السعديين للانسحاب أمام قوة الأتراك،وعندها أدرك محمد المهدى صعوبة ضم المغرب الأوسط لدولته .

إلا أن أبا حسون عم السلطان الوطاسى أحمد الذى كان قد نجح فى الفرار من فاس، سعى لاستعادة ملك الدولة الوطاسية ، فاتصل بالحكومة الأسبانية مباشرة فى أسبانيا ، وطلب منها المساعدة ، لكنه لم ينجح فى الحصول على مساعدتهم، فاتجه إلى إمبراطور ألمانيا «شارلكان» ، لكن مساعيه لم تفلح أيضًا هذه المرة ، فاتجه إلى البرتغال، وبالفعل أمده الملك البرتغالى بكمية من المال ،وست سفن وستمائة جندى .

وأثناء عبوره إلى المغرب وقع أبو حسون وحملته فى قبضة الأتراك ، لكنه نجح فى إقناعهم بضرورة العمل على طرد السعديين من فاس ، فاقتنعوا بذلك، وأمدوه بجيش من الجزائريين والأتراك ، تمكن من طرد السعديين من فاس، واستعادة سيطرة الوطاسيين عليها وذلك فى عام ٩٦١هـ/١٥٥٤م ، إلا أن الأتراك لم يحسنوا معاملة أهل فاس، واستباحوا النساء والأموال ، وقبضوا على السلطان أبى حسون ،فثارت ثائرة أهل فاس، وحملوا السلاح وحاصروا الأتراك فى فاس الجديدة ، فاضطروا لإطلاق سراح أبى حسون الذى عقد اتفاقًا مع الأتراك يقضى بجلائهم عن فاس مقابل مبلغ من المال.

وفى أواخر عام ٩٦١هـ/١٥٥٤م تمكن السلطان السعدى محمد المهدى من استعادة فاس وهزيمة الوطاسيين وقتل أبى حسون وبقايا الأسرة الوطاسية فى فاس وأمعن فى القبض على المدينة هذه المرة . وبعد دخول السعديين فاس للمرة

الثانية فضل محمد المهدى مغادرتها للإقامة فى العاصمة مراكش ، عاصمة الجنوب.

وعمل محمد المهدى على رسم السياسة العامة الداخلية والخارجية لدولته بعد استكمال تأسيسها ، بضم فاس . فاتجه فى سياسته الخارجية لمعاداة الأتراك ، ودفعه ذلك إلى التحالف مع الأسبان . وكان السلطان العثمانى قد أرسل رسالة إلى السلطان السعدى محمد المهدى عقب دخوله فاس للمرة الثانية ،تقضى باعتراف السعديين بالتبعية للعثمانيين، والدعاء للسلطان العثمانى على منابر بلاد المغرب ، فرد محمد المهدى على رسالة السلطان العثمانى: "لأجيبنَّه حينما أكون بمصر إن شاء الله" (يقصد محمد المهدى أنه سوف يعمل على ضم البلاد حتى مصر للدولة السعدية).

وإزاء هذا الرد من جانب السلطان السعدى، قرر السلطان العثمانى التخطيط للتخلص من محمد المهدى، فأعد خطة لذلك يديرها حاكم الجزائر حسن باشا بن خير الدين ، وبعث بأحد ضباطه الأتراك ويدعى صالح بن الكاهية إلى المغرب ، متظاهرًا بفراره من الجيش العثمانى ، واتصل بمحمد المهدى ، فألحقه بحاشيته ، وقربه منه ، ثم أبلغ صالح بن الكاهية السلطان السعدى بعد فترة أن مجموعة من الضباط الأتراك فروا من الجزائر ويرغبون فى الالتحاق بحاشيته ، فقربهم منه حتى كانت هجمتهم عليه واغتياله فى بلدة أكلكال ، بالقرب من تارودانت وذلك عام ٩٦٤هـ/١٥٥٧م ، وحملوا رأسه إلى السلطان العثمانى، وظلت معلقة بباب القلعة بالعاصمة العثمانية حتى أرسل ابناه: أحمد المنصور وعبد الملك إلى السلطان العثمانى فى تسليمها إليهما فسلمهم إياها.

أبو عبد الله محمد الغالب بالله (٩٦٤- ٩٨١هـ/١٥٥٧- ١٥٧٤م) :

كان عبد الله بن محمد المهدى حاكمًا على فاس فى حياة والده، وبعد وصول خبر مقتل والده محمد المهدى تمت مبايعته من أهل فاس وسائر البلاد السعدية وسمى بالغالب بالله ، وعقب مبايعته انتقل من فاس إلى العاصمة السعدية مراكش ، لكثرة مؤيدى الأتراك فى فاس وخوفه منهم ، كما أنه عهد إلى ولده محمد بولاية العهد بعد أن قتل بعض أفراد أسرته ، وفر ثلاثة من

إخوته، هم عبد الملك وأحمد وعبد المؤمن، إلى الجزائر .

لم يمض عام على تنصيب السلطان السعدى عبد الله حتى شن الأتراك هجومًا على بلاد المغرب ، وكانت القوة التركية بقيادة حاكم الجزائر حسن باشا، ودارت معركة قوية بين الجانبين عند منطقة وادى اللبن ، انهزم فيها الأتراك، وانسحبوا إلى المغرب الأوسط.

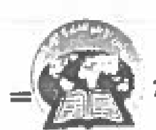
وفى عام ٩٦٧هـ/١٥٦٠م شن الغالب بالله هجومًا على تلمسان مستغلاً النزاع بين الأتراك وزعماء القبائل فى تلك الفترة، وفى نفس الوقت كان الأسطول الأسبانى حلفاء السعديين قد وصل إلى المياه الجزائرية حسب الاتفاق الذى كان قد عقده معهم الغالب بالله لمهاجمة الأتراك بها، ولكن عقب هزيمة الأسطول الأسبانى فى مياه الجزائر أمام القوات التركية والجزائرية اضطر السعديون للانسحاب من تلمسان .

وفى رمضان عام ٩٨١هـ/١٥٧٤م توفى الغالب بالله. وكان أهم ما يميز فترة حكمه هو النشاط والحركة التجارية فى بلاد المغرب مع كل من انجلترا وفرنسا ، وكان ذلك سببًا فى تسلح قوات السعديين فى عهده بأحدث الأسلحة الانجليزية والفرنسية ، وكذلك أحدث أنواع الذخيرة، مما مكنه من كسر الاحتكار البرتغالى لتجارة بلاد المغرب .

أبو عبد الله محمد المتوكل (٩٨١هـ/١٥٧٣م) :

كان أبو عبد الله محمد ولى العهد فى عهد والده الغالب بالله ، وعقب وفاة والده بويع بفاس ثم بمراكش ،ولقب بالمتوكل ، لكنه لم يهنأ بالملك طويلاً ، فقد عمل عماه أحمد وعبد الملك اللذان فرا إلى الجزائر من قبل خوفًا من بطش والده على خلع المتوكل وتولى عبد الملك عمه بدلاً منه ، ولتنفيذ ذلك اتصلا بالسلطان العثمانى لإمدادهما بالعون ، وفى المقابل يساعدانه فى تخليص تونس من يد الأسبان . وكان أن عملا على مساعدة الأتراك فى تخليص تونس، فأمر السلطان العثمانى والى الجزائر بتولى تقديم المساعدة لهما مقابل تحملهما نفقات وتكلفة الحملة .

وبالفعل تم إمدادهما بحملة مكونة من خمسة آلاف مقاتل ، ودارت بين هذا الجيش وجيش المتوكل عدة معارك ، تمكن عبد الملك فيها من هزيمة المتوكل ودخول فاس فى أواخر عام



٩٨٣هـ/١٥٧٥م وفر المتوكل للجوء للبرتغاليين فى طنجة .

أبو مروان عبد الملك المعتصم (٩٨٣- ٩٨٦هـ/١٥٧٥- ١٥٧٨م):

بعد فرار المتوكل من فاس ودخول القوات التركية و قوات عبد الملك بن محمد المهدى إليها تمت مبايعة أبى مروان عبد الملك ، وذلك فى أواخر ذى الحجة عام ٩٨٣هـ/١٥٧٦م ،

وعمد أبو مروان عبد الملك فى سياسته الخارجية إلى التفاهم مع الأسبان، ليمنع مساعدة الأسبان لابن أخيه المتوكل الذى كان قد لجأ إليهم فى بادىء الأمر، ثم اتجه للجوء إلى البرتغال فى طنجة بعد ذلك .

وفى سياسته مع الأتراك عمل على تجنب الصدام وإثارتهم ضده ،لذلك قام بدفع مبالغ كبيرة من المال ثمنًا لمساعدتهم له ،وسمح بالدعاء للسلطان العثمانى على منابر بلاد المغرب ، كما اتصل بكل من فرنسا وانجلترا للتفاوض معهما لإمكانية عقد تحالف ، وإن لم يتحقق ذلك إلا أنه سمح بوجود قنصل فرنسى فى بلاد المغرب ، وتقرب من ملكة إنجلترا «إليزابيث» وحقق التجار الإنجليز فى عهده مكاسب طائلة.

معركة وادى المخازن ٩٨٦هـ/١٥٧٨م:

كان أبو عبد الله محمد المتوكل قد لجأ إلى ملك البرتغال جون سبستيان ٩٦٤- ٩٨٦هـ/ ١٥٥٧- ١٥٧٨م) الذى كان يحلم بمشاريع توسعية برتغالية فى بلاد المغرب. وسنحت له الفرصة بلجوء المتوكل إليه ،وتم عقد اتفاقية بين المتوكل وملك البرتغال ، وقدم له المتوكل عدة تنازلات فى حالة استرداد ملكه ، فتنازل عن كل الساحل المغربى المطل على الأطلسى على أن يحكم الداخل ، ويعترف كذلك بالتبعية لملك البرتغال .

وفور علم أبى مروان عبد الملك بقدوم هذه الحملة عمل على وقفها بشتى الطرق الدبلوماسية لكنه لم يتمكن من ذلك ، وعبرت القوات البرتغالية إلى طنجة . وإن كانت هذه الحملة فى ظاهرها حملة برتغالية بهدف التوسع ، إلا أنها كانت حملة صليبية جديدة على البلاد الإسلامية، فقد شاركت فيها قوات أسبانية وإيطالية وحظيت بمباركة البابوية ، ومساعدتها المادية والعسكرية والمعنوية .

ووصلت القوات إلى ميناء طنجة ،ومنها توجهت نحو الداخل إلى أصيلا وعسكرت بها وقدم محمد المتوكل السعدى نصيحة للقوات

البرتغالية بمهاجمة تطوان والعرائش قبل التوغل نحو الداخل ، ولكنهم لم يستجيبوا لذلك ، وفضلوا الاتجاه للداخل لملاقاة عبد الملك مباشرة ،

ولوعورة الطرق وكثرة العربات المرافقة للجيش البرتغالى كان تحركه بطيئًا ، وكان ذلك بمثابة مهلة للسعديين للاستعداد الكامل لملاقاة القوى المهاجمة، وبالفعل نجح عبد الملك فى استدراجهم إلى الداخل ،بعد أن نجح فى حشد العديد من القوات ضمن جيشه ، من البربر والعرب والأتراك، كما انضم إليه العديد من العلماء والفقهاء حبًا فى الجهاد ، كما حضر أخوه احمد المنصور إلا أن عبد الملك المعتصم كان مريضًا فى تلك الفترة، وقيل إن السبب فى ذلك هو دس السم له بتدبير من المتوكل أو من الأتراك، وعلى الرغم من ذلك حُمل إلى المعركة لتحفيز الجنود على القتال ، ولما توفى أثناء المعركة تم إخفاء الخبر عن الجميع، إلا عن أخيه المنصور فكان ذلك أحد أسباب النصر.

وبتقدم القوات البرتغالية إلى الداخل كانوا قد ابتعدوا بذلك عن حماية الأسطول المرابط بالبحر المتوسط ، واستمروا فى التقدم ، حتى وصلوا إلى قنطرة وادى المخازن فعبروها ، وهى منطقة مستنقعات مما يحول دون تراجعهم فى حالة الهزيمة .ومع ذلك عمد السعديون إلى دك القنطرة حتى لا تتمكن القوات المهاجمة من الانسحاب.

وعندما التقى الجيشان المغربى بزعامة السعديين والأوربى بزعامة البرتغاليين، أمعن المغاربة القتل فى صفوفهم ، وعندما حاولوا الفرار والتراجع إلى الخلف وجدوا القنطرة قد دكت فغرق الكثير من الجند فى الماء، وتم أسر الكثير منهم ، وكان الملك «جون سبستيان» من بين الغرقى ، ومعه محمد المتوكل.

وتعد معركة وادى المخازن من أهم المعارك فى تاريخ بلاد المغرب ، لما لها من أهمية فى تاريخهم ، فقد عملت على تخليد اسم أحمد المنصور السعدى الذى بويع عقب المعركة سلطانًا للسعديين ، وأوقفت التقدم المسيحى فى بلاد المغرب ، كما بدأ الأوربيون ينظرون إلى بلاد المغرب كقوة كبرى فى المنطقة .

أحمد المنصور (٩٨٦- ١٠١٢هـ /١٥٧٨- ١٦٠٣م):

يعد عصر أحمد المنصور أزهى وأقوى عصور الدولة السعدية فى بلاد المغرب ،



وذلك لارتباط اسمه بانتصار المغاربة في معركة وادى المخازن ، وتمت مبايعته عقب المعركة ولقب بالمنصور، وحقق بهذا النصر العديد من المكاسب الداخلية والخارجية ، وشهدت بلاد المغرب في عهده الاستقرار أكثر من أسلافه .

وكانت نقطة البداية فى سياسته الداخلية أنه عمل على تقريب الفقهاء والعلماء المغاربة منه ، حتى وُصف بأنه: "خليفة العلماء وعالم الخلفاء"؛ فقد كان واسع الثقافة ملمًا بالعديد من العلوم ، وكان المنصور من أنجح الإداريين، فقد اهتم بكافة النواحى الإدارية ، واهتم كذلك بالعمران والجيش والأسطول وأوكل قيادة الأسطول إلى رجل من أبرز رجالات البحر وهو إبراهيم النشط .

وعلى الصعيد الخارجى اهتم المنصور بسياسته الخارجية التى كانت معركة وادى المخازن قد رسمت الكثير من معالمها ، وكانت أوربا فى تلك الفترة تعيش فى حالة صراع بين أسبانيا من جهة وانجلترا وفرنسا من جهة أخرى ، مما عمل على الحد من تحركات أسبانيا فى بلاد المغرب . كما انشغل الأتراك بالصراع فى أوربا والصراع مع إيران وكذلك التغيرات والاضطرابات فى البلاد العربية . وعليه فقد مضت العلاقة بين الأتراك والمنصور فى طريق المهادنة ، حيث تُبودلت السفارات والهدايا بين الجانبين . وفى عام ٩٨٧هـ/١٥٧٩م أرسل السلطان العثمانى مراد رسالتين للسلطان المنصور السعدى يقترح فيهما التحالف بين الدولتين ، على أن يقوما بمهاجمة أسبانيا فى عقر دارها ، على أن تقدم الدولة العثمانية ثلاثمائة سفينة حربية ، علاوة على القوات العثمانية، لمساعدة المنصور فى إتمام هذه المهمة ، وكان السبب فى رغبة العثمانيين فى الهجوم على أسبانيا ،هو رغبة أسبانيا المتكررة فى الاستيلاء على ميناء العرائش ، بعد نجاحها فى ضم البرتغال إليها فى عام٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م، وكان هذا الإلحاح السبب فى تقارب وجهة النظر التركية السعدية فى تلك الفترة .

فتوحات المنصور الخارجية :

أرسل المنصور جيشًا إلى المناطق الصحراوية التى كانت قد ضَعُفَتْ سلطةُ الدولة السعدية عليها فى عهد أسلافه ، ونجح فى استعادة سيطرة الدولة عليها فى عام ٩٨٩هـ/١٥٨١م .

وفى عام ٩٩٩هـ/١٥٩١م عمد المنصور إلى فتح بلاد السودان بقصد التوسع فى حدود دولته ، وفتح البلاد الجنوبية ، والعمل على سد حاجات الدولة لكثرة نفقاتها ، لأن معادن الذهب متوفرة فى الجنوب .

وكان أن أرسل ملك برنو فى عام ٩٩٠هـ/١٥٨٢م رسالة إلى المنصور يطلب منه إمداده بقوات تمكنه من السيطرة على بعض القبائل السودانية وإخضاعها له ، فأرسل المنصور إليه وفدًا يطلب منه الاعتراف بطاعة المنصور أولاً قبل تقديم العون له . وبالفعل وافق بعدها على الدخول فى طاعة المنصور ، وأرسل ما يفيد بذلك .

وبعد ذلك أرسل المنصور عدة مراسلات إلى «آل سكية» فى بلاد السودان ، وكانت مملكتهم تجاور نهر النيجر ، ولكنهم لم يستجيبوا إلى رسائله، فقرر غزوها فى عام ٩٩٩هـ/١٥٩١م بعد أن استمر تجهيز الحملة ثلاث سنوات نظرًا لطول الطريق ووعورته .

وبعد أربعة أشهر ونصف وصلت الحملة السعدية إلى كاغو عاصمة مملكة آل سكية ، وكان ملكهم قد عمل على التجهيز لصد قوات السعديين ، وعلى مقربة من العاصمة التقى الجيشان فى جمادى الأول ٩٩٩هـ/مارس ١٥٩١م، وكان الجيش السعدى يتسلح بأحدث الأسلحة ، أهمها المدافع، فقتلت من السودانيين العدد الكبير، وهزم جيشهم، واستباح مغانم المدينة ، ودارت عدة معارك أخرى بين الجانبين انتصر فيها الجيش السعدى ، وبذلك خضع السودان لسيطرة السعديين .

وفى عام ١٠١٢هـ/١٦٠٣م توفى أحمد المنصور سلطان السعديين بعد إصابته فى الوباء الذى حل ببلاد المغرب فى الفترة من ١٠٠٧هـ/١٥٩٩م واستمر حتى عام ١٠١٦هـ/١٦٠٧م وتسبب فى هلاك الكثيرين من سكان المغرب كان من بينهم السلطان السعدى أحمد المنصور، ودفن بفاس ، ونَقَل رفاتِه ابنُه زيدان الذى خلفه، إلى مراكش حيث دفن بمقبرة الأشراف.

ضعف الدولة السعدية ونهايتها (١٠١٢- ١٠٦٩هـ/١٦٠٣- ١٦٥٨م):

بعد وفاة أحمد المنصور أشهر وأقوى خلفاء السعديين بدأت الدولة مرحلة من الضعف استمرت حتى نهايتها .بدأت هذه الفترة بتولى زيدان بن المنصور



الحكم(١٠١٢- ١٠٣٧هـ/١٦٠٣-١٦٢٧م) ، وشهد عصره العديد من الثورات التى عملت على إضعاف الدولة السعدية .

بدأت هذه الثورات بثورة أخيه أبى فارس عبد الله الذى بايعه أهل مراكش لأنهم لم يوافقوا على تولى زيدان الحكم، فكان ذلك سببًا فى قيام الحرب بين الجانبين ، وكان أن أطلق أبو فارس سراح أخيه وولى عهد أبيه محمد المأمون الملقب بالشيخ - الذى كان قد سجنه زيدان فى مراكش- وجعله على رأس الجيش الذى أرسله لمحاربة جيش أخيه زيدان ، وتمكن من هزيمته ، لكن تمكن زيدان من الفرار إلى فاس ، لكنها تخلت عنه وبايعت أخاه محمد المأمون الملقب بالشيخ ، ومنذ ذلك التاريخ انقسمت المملكة السعدية إلى مملكتين: واحدة بفاس والأخرى بمراكش، وبخروج فاس ومراكش من قبضة زيدان سارع بالفرار إلى تلمسان .

أعلن محمد الشيخ الحرب ضد أخيه أبى فارس ، وأرسل لمحاربته جيشًا كبيرًا بقيادة ابنه عبد الله فاستولى على مراكش ، ولكنه نكل بأهلها وأساء بها السيرة ، فأرسل أهل مراكش إلى زيدان بن المنصور الذى كان قد فر إلى تلمسان وبايعوه ، ثم خلصها منه جيش عبد الله بن المأمون مرة أخرى ، بعد هزيمته لجيش زيدان ، فاستباح أموالها ونساءها ، مما جعلهم مرة أخرى يبايعون زيدان فى عام ١٠١٦هـ/١٦٠٨م ،وبعدها زحف بجيشه إلى فاس، وتمكن زيدان من دخولها ،وفر محمد الشيخ إلى الأسبان ،يطلب منهم نصرته . وفى عام ١٠١٩هـ/ ١٦١١م تمكن عبد الله بن محمد الشيخ من هزيمة جيش زيدان ودخول فاس ،فتركها زيدان وشأنها وعمد إلى الإقامة فى مراكش والمناطق التابعة لها . وبعد دخول ابنه عبد الله فاس عاد محمد الشيخ إليها بعد غياب عامين . وفى مطلع عام ١٠٣٧هـ/ ١٦٢٧م توفى زيدان بن المنصور ودفن بمقبرة الأشراف بمراكش بجانب والده .

بعد وفاة زيدان تولى ابنه أبو مروان عبد الملك بن زيدان وبويع بمراكش وتمكن عبد الملك من إعادة فاس إلى مملكته ، لكنه لم يهنأ بالملك كثيرًا فقد ثار عليه أخواه أحمد والوليد واستعان الوليد بقادة الجيش وعمد إلى الاستيلاء على الملك بالقوة من أخيه ، ولما لم يتمكن من ذلك لجأ إلى اغتيال أخيه

عبد الملك بمساعدة قادة الجيش وذلك فى عام ١٠٤٠هـ/١٦٣٠م .

وتولى الوليد المملكة وكان أول ما قام به هو البطش بعدد كبير من أفراد أسرته واعتقل أخاه الأصغر محمدًا خوفًا من ثورته عليه ، كما أنه كان سيىء السمعة وكان سكيرًا ، ونجح العلوج الملحقون بجيشه فى اغتياله لرفضه دفع رواتبهم وذلك فى عام ١٠٤٥هـ/ ١٦٣٥م .

عقب وفاة الوليد تم إطلاق سراح أخيه الأصغر محمد الملقب بالشيخ والذى سبق أن اعتقله الوليد وتمت مبايعته بمراكش . وعلى الرغم من استمراره فى الحكم من عام ١٠٤٥هـ/١٦٣٥م وحتى عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م إلا أن أماكن كثيرة فى المملكة كانت قد خرجت من قبضة الدولة السعدية ، ولم يعمل على استعادتها لسلطان الدولة مرة أخرى ، مما أضعف الدولة ، بل استولى الدلائيون على فاس فى عام ١٠٤٨هـ/ ١٦٣٨م. ولم يبق تحت قبضة السعديين سوى المناطق الممتدة بين المحيط الأطلسى وآسفى وأزمور ومراكش.

توفى محمد الشيخ بمراكش عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م ، وبعد وفاته تولى آخر ملك للسعديين وهو العباس بن محمد الشيخ الأصغر ، الذى بويع عقب وفاة والده فى عام ١٠٦٤هـ/١٦٥٣م ،واستمر حكمه خمس سنوات ، حيث تمكن أخواله الشبنات من اغتياله عام ١٠٦٩هـ/١٦٥٨م .وتحويل الملك إليهم فاستولى عبد الكريم الشبانى على الملك من ذلك الوقت حتى تم اغتياله عام ١٠٧٩هـ/ ١٦٦٩م فخلفه ابنه أبو بكر الذى قامت على أنقاض دولته الدولة العلوية .

أ.د/ حسام محمود المحلاوى

مصادر ومراجع للاستزادة :

- إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ- الجزء الثاني، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ٢٠٠٣م .
- الزيانى : أبو القاسم أحمد بن على بن إبراهيم الزيانى ت ١٢٤٩هـ/١٨٨٣م
- الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برًا وبحرًا – تحقيق عبد الكريم الفيلالى ، دار نشر المعرفة ، الرباط، ١٩٩١م .
- السخاوى: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن(ت ٩٠٢هـ/١٤٩٧م): الضوء اللامع لأعيان القرن التاسع – القاهرة، ١٣٥٠ هـ.
- السلاوى: أحمد بن خالد الناصرى (ت ١٣١٥ هـ/ ١٨٩٧م):- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى – الدار البيضاء، ١٩٥٥م
- عامر على محمود : تاريخ العرب الحديث والمعاصر- القاهرة ، ١٩٩٦م .
- عزيز سامح التر: الأتراك العثمانيون فى إفريقيا الشمالية – ترجمة عبد السلام أدهم ، بيروت ، ١٩٦٩م.
- ابن القاضى: أحمد بن محمد بن أحمد (ت ١٠٢٥ هـ/ ١٦١٦م): جذوة الاقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس – فاس ١٣٠٩هـ
- درة الحجال فى غرة أسماء الرجال – تحقيق محمد علوش، الرباط، ١٩٣٤م
- الونشريسى: أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد التلمسانى (ت ٩١٤ هـ/ ١٥٠٨م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقية والأندلس والمغرب – تحقيق د/ محمد حجى، بيروت، ١٩٨١م.

السقاية

أصل تسمية السقاية: السقاية هى سقى الحجيج بالماء، وقيل: يعنى سقاية زمزم وكانوا يصنعون شرابًا فى الموسم للحاج الذى يوافى بمكة ويمزجونه تارة بعسل، وتارة بلبن، وتارة ثالثة بالنبيذ [1].

ويعود أصل السقاية إلى قصى بن كلاب الجد الأعلى للنبى ﷺ إذْ حاز شرف مكة كلها عقب وفاة والد زوجته حُليل زعيم خزاعة، فتولى قُصى الإشراف على الأمور فى مكة ومنها السقاية، ولما كبر قصى بن كلاب ورق عظمه، عهد بأمر الإشراف على الوظائف فى مكة ومنها السقاية لابنه البكر عبد الدار، وكان له بجانب عبد الدار من الأولاد الذكور عبد مناف وعبد العزى وولد رابع اسمه عبد وقيل: نوفل، فاختص ولده عبد الدار بهذه الوظائف بحجة أن بقية أولاده قد نالوا من الشرف والثراء الكثير فى حياته، ومن ثم استمر إشراف عبد الدار على أمر سقاية الحجيج وبقية الوظائف فى مكة طيلة حياته، غير أنه بعد وفاته اختلف بنو إخوته مع أبنائه على أمر الإشراف على هذه الوظائف فى مكة، وكاد الأمر يصل إلى القتال فيما بينهم لولا تدخل الزعماء فى مكة فتصالحوا وقسموا الأمر بين بنى عبد الدار وبنى عبد مناف، وانتهى الأمر إلى إشراف بنى عبد مناف على سقاية الحجيج الذين يفدون إلى البيت الحرام [2].

السقاية على عهد هاشم بن عبد مناف:

تولى هاشم بن عبد مناف أمر الإشراف على السقاية. ولقلة الماء فى مكة وشحه، اضطر إلى جلب الماء من أماكن متفرقة وبعيدة عن مكة، فما كان من أمر هاشم إلا أن فعل ما فعله جده قصى من حفر بئر يعمل على توفير الماء للسقاية، فقام هاشم بحفر بئر عُرفت بـ(بذَّر) وهى البئر التى فى حق (المقوم بن عبد المطلب) وتقع فى ظهر دار الطلوب مولاة زبيدة بالبطحاء فى أصل المستنذر، كما حفر بئرًا أخرى تسمى بئر (جبير بن مطعم)، ودخلت فى دار القوارير، ومن ثم توفر الماء لمكة كلها كما توفره للحجيج [3].

وكان هاشم بن عبد مناف قد أخذ عهدًا على نفسه بأن يسقى الحجيج ويكفيهم بالماء تقربًا إلى رب البيت



ما دام على قيد الحياة، فكان إذا حضر الحج، يأمر بحياض من أدم، فتجعل فى موضع (زمزم) ثم تملأ بالماء من الآبار التى حفرها بمكة، فيشرب منها الحاج، كما كان يطعمهم قبل التروية بيوم فى مكة، وبمنى وعرفة، وكان يثرد لهم الخبز واللحم، والخبز والسمن والسويق والتمر، ويحمل لهم الماء فيستقون بمنى، والماء يومئذ قليل فى حياض الأدم إلى أن يصدروا من منى ثم تنقطع الضيافة ويتفرق الحجاج عائدين إلى بلادهم[٤].

السقاية على عهد عبد المطلب جد النبى ﷺ:

آل أمر السقاية وبقية أمور مكة إلى عبد المطلب جد رسول الله ﷺ . وعلى عهده قام بأهم الأعمال الخالدة، وهو حفره لبئر زمزم فى المسجد الحرام، على مقربة من البيت وهى بئر جده الأعلى سيدنا إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام- وكانت قبيلة جرهم قد قامت بطمسها ، فلما حفرها عبد المطلب أقبل عليها حجاج البيت وتركوا بقية الآبار فى مكة[٥].

وبحفر بئر زمزم طغى الماء فى مكة كلها، وفضلها أهل مكة على بقية الآبار الأخرى لعدة أسباب منها أنه ماء مقدس يقع ويخرج من أرض مقدسة، كما أنه يقع فى المسجد الحرام، ثم هو أغزر وأكثر كمية من مياه الآبار الأخرى، وهو لا ينضب مهما استقى أصحاب الدلاء منه، أو شرب منه قاصدو مكة، كما أنه ألطف مذاقًا من المياه الأخرى، وقد استفاد من بئر زمزم أهل مكة عامة، وعبد المطلب - بصفة خاصة- ، حيث استفاد منها ماديًا وأدبيًا، وصارت ملكًا خالصًا له، على الرغم من محاولات زعماء مكة والمنافسين له مساهمتهم له فى حق هذه البئر، لأنها فى أرض الحرم، والحرم حرم الله، وهو مشاع بين كل أهل مكة، وصار يسقى الحجاج من هذه البئر وترك السقى من حياض الأدم التى كانت بمكة عند موضع بئر زمزم، وصار يحمل الماء من زمزم إلى عرفة فيسقى به الحجاج[٦].

كما كانت لعبد المطلب إبل كثيرة فإذا كان الموسم جمعها ثم يسقى لبنها بالعسل فى حوض من أدم عند زمزم ويشترى الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج بهدف كسر غلظ ماء زمزم، وكانت إذ ذاك غليظة جدًا- وكان الناس إذ ذاك لهم فى بيوتهم أسقية يسقون فيها الماء العذب من هذه البيار ثم ينبذون فيها القبضات من الزبيب والتمر،

فلبث عبد المطلب يسقى الناس حتى توفى، فقام بأمر السقاية بعده العباس بن عبد المطلب فلم تزل فى يده، وقد كان للعباس كَرْم بالطائف وكان يحمل زبيبه إليها وكان يداين أهل الطائف ويقتضى منهم الزبيب فينبذ ذلك كله ويسقيه الحاج أيام الموسم حتى ينقضى فى الجاهلية وصدر الإسلام حتى دخل رسول الله ﷺ مكة يوم الفتح سنة ثمان للهجرة / ٦٣٠م فقبض السقاية من العباس بن عبد المطلب، والحجابة من عثمان بن طلحة، فقام العباس بن عبد المطلب فبسط يده وقال: يا رسول الله، بأبى أنت وأمى! اجمعْ لنا الحجابة والسقاية، فقال النبى ﷺ : « **أعطيكم ما ترزءون فيه ولا ترزءون منه، فقام بين عضادى باب الكعبة فقال: ألا إن كل دم أو مال أو مأثرة كانت فى الجاهلية فهى تحت قدمى هاتين إلا السقاية وسدانة الكعبة فإنى قد أمضيتها لأهلها على ما كانتا عليه فى الجاهلية»**[٧].. فقبضها العباس فكانت فى يده حتى توفى، فوليها بعده عبد الله بن العباس رضى الله عنهما فكان يفعل فيها كفعله دون بنى عبد المطلب. وكان محمد بن الحنفية قد كلم فيها ابن عباس فقال له ابن عباس: مالك ولها؟! نحن أولى بها منك فى الجاهلية والإسلام. واستمر الأمر كذلك حتى توفى فكانت بيد ابنه على، وقد باشرها مثل أبيه وجده يأتيه الزبيب من ماله بالطائف، وينبذه حتى توفى وكانت بيد ولده من بعده[٨].

أ . د/فوزى عارف إبراهيم

الهوامش:

(١) ابن هشام: (عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميرى بن المعافرى، ت١٨٣هـ) السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا، وزميليه. القسم الأول، ج١، ص١٢٥، وابن كثير (عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر، ت٧٧٤هـ): البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركى، مطبعة هجر: القاهرة، الطبعة الأولى: ١٩٩٧م، ج٣، ص٢٣٧، محيى الدين الطبرى (أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر المكى: ت ٦٩٤هـ): القرى لقاصد أم القرى، تحقيق: مصطفى السقا، المكتبة العلمية، بيروت، لبنان.(د- ت)، ص٤٩٣ .

(٢) ابن كثير: المصدر السابق: ج٣، ص٢٤٣ .

(٣) ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع، أبو عبد الله البصرى الزهرى، ت٢٣٠هـ) الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، لبنان، (د- ت)، ج١، ص٨٥، والأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله، ت٢٥٠هـ): أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار، : تحقيق: رشدى الصالح ملحس، المطبعة الماجدية، مكة المكرمة، السعودية: ١٣٥٢هـ، ج١، ص٦٣، وجواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام، جامعة بغداد، العراق، الطبعة الثانية، ١٩٩٣م، ج٤، ص٦٥ .

(٤) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج١، ص٨٥ والأزرقى أخبار مكة، ج١، ص٦٢، وجواد على: المفصل، ج٤، ص٦٦.

(٥) جواد على: المرجع السابق: ص٧٦ .

(٦) الأزرقى: المصدر السابق: ج١، ص٦٥، ومحب الدين الطبرى: القرى لقاصد أم القرى، ص٤٩٣، وجواد على: السابق، ص٧٧.

(٧) السخاوى: (شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت ٩٠٢هـ): فتح المغيث شرح ألفية الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٠٣هـ، والعراقى: (زين الدين عبد الرحيم: ت٨٠٦هـ): التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، السعودية، الطبعة الأولى: ١٩٦٩م، ص٣٣٤ .

(٨) الأزرقى: أخبار مكة: ص٦٥- ٦٦، ومحب الدين الطبرى: القرى لقاصد أم القرى، ص٤٩٣، ج٢، ص١٦٥.

مصادر ومراجع للاستزادة:

(١) الأزرقى: أخبار مكة.

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى.

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية.

(٦) محب الدين الطبرى: القرى لقاصد أم القرى.

(٧)جواد على: المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام.

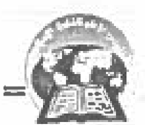
سقيفة بنى ساعدة

(اجتماع السقيفة)

لما قبض رسول الله ﷺ انحاز الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة[1]، وانحاز على بن أبى طالب والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله فى بيت فاطمة رضى الله عنها، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر وانضم إليهم أسيد بن حضير، وكان أبو بكر قد أقبل من السنح (إحدى ضواحى المدينة) على فرس له، لمَّا بلغه خبر وفاة الرسول ﷺ، ودخل على رسول الله ﷺ وهو مسجى فى البيت ببرد حبرة (نوع من ثياب اليمن) فكشف عن وجهه ثم أقبل عليه يقبِّله ويقول: ما أطيبك حيًا وميتًا!، ثم خرج ﷺ فهدأ الناس الذين هزتهم المصيبة.

وأتى آتٍ إلى أبى بكر وعمر فقال: إن هذا الحى من الأنصار مع سعد بن عبادة قد انحازوا إليه، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة، فأدركوا قبل أن يتفاقم أمرهم، ورسول الله ﷺ فى بيته لم يُفْرغ من أمر تجهيزه بعد أن أغلق أهله الباب دونه، قال عمر: قلت لأبى بكر: انطلق بنا إلى إخواننا من الأنصار حتى ننظر ما هم عليه، فانطلقنا نؤمهم. وانضم إليهما فى الطريق أبو عبيدة بن الجراح، فلقينا رجلان صالحان من الأنصار فذكروا ما تمالأ عليه القوم[2]، وقالا: أين تريدان يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، قالا: "فلا عليكم ألا تأتوهم يا معشر المهاجرين وأبرموا أمركم، قال: قلت: والله لنأتينهم. فانطلقنا حتى آتيناهم فى سقيفة بنى ساعده، فإذا بين ظهرانيهم رجل مزمل، فقلت: من هذا؟، قالوا: سعد ابن عبادة، فقلت: ما له؟ فقالوا: وجع.

فلما جلسنا نسمع خطيبهم فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال: "أما بعد فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منا، وقد دفت دافة من قومكم -أى أتت جماعة- قال: وإذا هم يريدون أن يجتازونا من أصلنا ويغصبونا الأمر، قال عمر: فلما سكت أردت أن أتكلم وقد زوَّرت (أى أعددت) فى نفسى مقالة قد أعجبتنى أريد أن أقدمها بين يدى أبى بكر، فقال أبو بكر: على رسلك. قال عمر: وكنت أعرف عنه الجد فكرهت أن أغضبه، ولما فى عمر من حدة ربما لا تكون مفيدة



فى هذا الموقف، قال عمر: فتكلم- أى أبو بكر- وهو كان أعلم منى وأوقر، والله ما ترك كلمة أعجبتنى من تزويرى إلا قالها فى بديهته أو مثلها أو أفضل. قال: أما ذكرتم من خير فأنتم له أهل، ولن يعرف العرب هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، هم أوسط العرب نسبًا ودارًا، نحن المهاجرين أول الناس إسلامًا وأوسطهم دارًا وأحسنهم وجوهًا، وأكثرهم ولادة فى العرب، وأَمَسُّهم رحمًا برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقُدِّمْنا فى القرآن عليكم فقال تبارك وتعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ﴾[٣].

فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار، إخواننا فى الدين وشركاؤنا فى الفىء وأنصارنا على العدو، أما ما ذكر فيكم من خير فأنتم له أهل وأفضل منه، أما العرب فلن تعرف هذا الأمر إلا لهذا الحى من قريش، فمنا الأمراء ومنكم الوزراء، لا تُفْتَاتون فى مشورة ولا تقضى دونكم الأمور، وقال: وقد رضيتُ لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيهما شئتم، وأخذ بيدى ويد أبى عبيدة بن الجراح وكان بيننا، قال عمر: ولم أكره شيئًا مما قاله غيرها، كان والله أن أُقَدَّم فتضرب عنقى، ولا يقربنى ذلك إلى إثم أحبَّ إلىَّ من أن أتأمَّر على قوم فيهم أبو بكر.

بعد ذلك قال قائل الأنصار، وهو الحباب بن المنذر: أنا جُذَيْلُها المُحَكَّك وعُذَيْقُها المرجَّب[٤] منا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش. قال: فكثر اللغط وارتفعت الأصوات حتى تخوفت الاختلاف، فقلت - وكان جهورى الصوت- : ابسط يدك يا أبا بكر، ألم يأمر النبى أن تصلى أنت بالمسلمين، وارتضاك بذلك لديننا أفلا نرتضيك لدنيانا، امدد يدك نبايعك فنبايع خير من أَحَبَّ رسولُ الله ﷺ منا جميعًا، فبسط يده فبايعته ثم بايعه المهاجرون ثم بايعه الأنصار، وكان عمر قد قال: يا معشر الأنصار، ألستم تعلمون أن رسول الله ﷺ قد أمر أبا بكر أن يؤم بالناس، فأيكم تطيب نفسه أن يتقدم أبا بكر؟، فقال الأنصار: نعوذ بالله أن نتقدم أبا بكر، ثم قام المهاجرون فبايعوا ثم بايع الأنصار، قال عمر: ثم نَزَوْنا على سعد بن عبادة فقال قائل منهم: قتلتم سعد بن عبادة، قال: قلت: قتل الله سعد بن عبادة.

وجاء فى بعض الروايات أن أبا بكر قال لسعد بن عبادة: قد علمت يا سعد أن

رسول الله ﷺ قال وأنت قاعد: قريش ولاة هذا الأمر فَبَرُّ الناس تبع لبرهم وفاجرهم تبع لفاجرهم، فقال له سعد: صدقت؛ نحن الوزراء وأنتم الأمراء، وهكذا وقى الله المسلمين الفتنة وجمعهم على خيرهم .

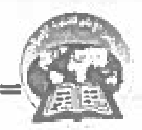
وتلك البيعة التى حدثت فى السقيفة هى البيعة الخاصة، وهى بمثابة ترشيح سوف يتأكد عندما يطرح الأمر على المسلمين فى المسجد النبوى فى اليوم التالى، وكل هذا حدث والرسول ﷺ مسجى فى بيته لم يتم تجهيزه بعد، وهذا يعنى إدراك المسلمين منذ هذا الزمن المبكر لمبدأ قانونى يفاخر به رجال القانون فى العصر الحديث، وهو مبدأ استمرارية الدولة، لقد كره المسلمون أن يبيتوا من غير أن يكون لهم أمير أو يتولى عليهم رئيس.

والمناقشات التى دارت فى سقيفة بنى ساعدة تذكرنا بأعظم المؤتمرات التى تعقد فى العصر الحديث، فقد عبر كل من المهاجرين والأنصار عن وجهة نظرهم وتناقشوا وأوضح كُلٌّ ما يعتقده بمنتهى الحرية والأريحية وظهرت من خلال المناقشات فى الاجتماع أربع نظريات فيما يتعلق بالإمامة أو رئاسة الدولة وهى:

فريق يرى أحقية الأنصار بهذا الأمر، وفريق يرى أحقية المهاجرين بهذا الأمر وفريق يرى حصر الأمر فى القرشيين من بين المهاجرين وفريق يرى من هنا أمير ومن هناك أمير، وقد عبر عن هذه النظرية الأخيرة الحُبَاب بن المنذر، وانتصرت نظرية أن يكون الأمير من قريش آخر الأمر؛ نظرًا لأن الرسول ﷺ قال: قريش ولاة هذا الأمر.

ومهما يكن من أمر ففى اليوم التالى أى فى يوم الثلاثاء، (فقد توفى النبى ﷺ يوم الاثنين)، اجتمع المسلمون فى المسجد النبوى، وقدم عمر ﷺ أبا بكر بكلمة قال فيها: كنت أرجو أن يعيش رسول الله ﷺ حتى يدبرنا- يكون آخرنا- فإن يك محمد قد مات، فإن الله عز وجل جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به فاعتصموا به تهتدوا، وإن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ وثانى اثنين إذ هما فى الغار، فإنه أولى الناس بأموركم، فقوموا إليه فبايعوه، فقام الناس كلهم فبايعوه البيعة العامة(٥)، بعد ذلك ألقى الصديق ﷺ خطبته الشهيرة التى أوضح فيها أصول الحكم فى الإسلام والتى مطلعها: إنى وليت عليكم ولست بخيركم...إلخ.

وقد دُعى الزبير بن العوام فبايع الصديق، كذلك دعى على بن أبى طالب



فبايعه -وكانا غائبين- أى أنهما بايعا البيعة العامة مع الناس فى اليوم الثانى.

أما ما يقال من أن عليًا بايع بعد ستة أشهر فإنما كان تجديدًا للبيعة وتوثيقًا لها، فعلىّ ﷺ لم يفارق الصديق فى وقت من الأوقات ولم ينقطع فى صلاة من الصلوات خلفه، وخرج معه إلى ذى القَصَّة لما خرج الصديق شاهرًا سيفه يريد قتال أهل الردة(٦).

وعند الطبرى رواية تقول: إن عليا - كرّم الله وجهه - كان فى بيته يوم السقيفة إذْ أتى آتٍ فقيل له: قد جلس أبو بكر للبيعة، فخرج فى قميص ما عليه إزار ولا رداء عَجِلا كراهة أن يبطىء عنها حتى بايعه، ثم جلس إليه وبعث إلى ثوبه، فأتاه فتجلله ولزم مجلسه(٧)، وهذا يؤكد أن

بيعته -كرم الله وجهه- بعد ستة أشهر كانت تأكيدًا وتوثيقًا لبيعته يوم السقيفة.

وكانت البيعة العامة- كما أشرنا- قبل تجهيز الرسول ﷺ وبهذا ظهر إجماع الصحابة من مهاجرين وأنصار على تقديم أبى بكر وظهر برهان قوله عليه الصلاة والسلام: يـأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر، وظهر أن الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم ينص على الخلافة، عينًا لأحد من الناس، لا لأبى بكر كما قد زعمه طائفة من أهل السنة، ولا لعلى كما يقوله طائفة الرافضة، ولكنه أشار إشارةً قوية يفهمها كل ذى لب وعقل إلى الصديق ﷺ(٨). وتَركُ الأمر دون تحديد وتعيين مقصود من المشرِّع، إذْ النص على من يكون خليفة سيكون ملزمًا للمسلمين فى كل العصور، وفى ذلك حرج وتضييق على الناس، وأوْلى أن يتشاور المسلمون- والشورى قاعدة كبرى من قواعد نظام الحكم فى الإسلام- ويختاروا من بينهم خليفة تتفق عليه كلمتهم، وليس هناك أسلوب محدد للتشاور وإنما على كل مجتمع أن يختار من أساليب التشاور ما يتفق مع عصره وزمنه وبيئته.

أ.د/عبد الله محمد جمال الدين

الهوامش:

(١) السقيفة مكان عليه ظلة، وهى دار اجتماع الأنصار لتبادل الرأى والتشاور مثل دار الندوة بالنسبة لقريش فى مكة وكانت قرب دار سعد بن عبادة زعيم الأنصار .

(٢) الرجلان هما عويم بن ساعدة ومعن بن عدى، والأول ممن قال الله فيهم "﴿ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾ ، والثانى هو القائل يوم وفاة النبى: "والله ما أحب أنى مت قبله حتى أصدقه ميتا كما صدقته حيًا" .

(٣) ٠التوبة: ١٠٠ .

(٤) جذيلها المحكك، مثل لمن يستشفى برأيه وتوجد عنده الراحة، عذيقها المرجب مثل للرجل الشريف المعظم فى قومه والذى يكثر خيره كأنه يقول أنا داهيتها .

(٥) صحيح البخارى، كتاب الأحكام باب الاستخلاف .

(٦) البداية والنهاية لابن كثير، ج٥، ص٧٣، والذهبى نقلا عنه فى تاريخ الإسلام، ص٨ .

(٧) تاريخ الطبرى، ج٣، ص٢٠٧ من طبعة محمد أبى الفضل إبراهيم .

(٨) السابق، وما ذكره ابن كثير من مصادر وأسانيد، ج٥، ص٦٩ وما بعدها .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ السيرة النبوية لابن إسحاق أبى عبد الله محمد بن إسحاق بن يسار، المجلد الثانى، بتحقيق طه عبد الرؤوف سعد وبدوى طه بدوى، القاهرة ١٩٩٩م.

٢ـ تاريخ الأمم والملوك المعروف بتاريخ الطبرى، الطبرى أبو جعفر محمد بن جرير، حوادث سنة ١١هـ.

٣ـ البداية والنهاية لابن كثير: أبو الفدا عماد الدين إسماعيل بن كثير، تحقيق سيد إبراهيم الحويطى، المنصورة، جمهورية مصر، ٢٠٠٧م.

٤ـ "الخلفاء الراشدون" من تاريخ الإسلام للحافظ المؤرخ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، سنة ١٩٨٨م.

٥ـ السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، الشيخ محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم، دمشق- سوريا سنة ٢٠٠٣م.

٦ـ تاريخ الإسلام فى عهد النبوة والخلافة الراشدة، أ.د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف، القاهرة، سنة ١٩٦٦م.

٧ـ الخلافة والدولة فى العصر الأموى، أ.د. محمد حلمى محمد أحمد، القاهرة، ١٩٦٦م.

٨- النظريات السياسية الإسلامية، أ.د. محمد ضياء الدين الريس، القاهرة، ١٩٧٩م.

السنغال

تقع دولة السنغال إلى الجنوب من نهر السنغال فى غرب القارة الأفريقية، واكتسبت اسمها من النهر الذى يحدها من الشرق والشمال، كما يحدها غربًا المحيط الأطلسى، وموريتانيا شمالاً ومالى شرقًا وغينيا بيساو جنوبًا. ومساحتها ١٩٧٫٠٠٠ كيلو مترًا مربعًا، ويقدر عدد سكانها بحوالى ١٣٫٧ مليون نسمة، ومناخها مدارى مع موسمين: موسم الجفاف، وموسم الأمطار.

وعاصمة السنغال هى مدينة داكار التى تقع على الطرف الغربى من البلاد على شبه جزيرة الرأس الأخضر، وقد أصبحت عاصمة البلاد منذ استقلال السنغال عام ١٩٦٠م.

يدين ٩٢٪ من السكان بالإسلام و ٦٪ يدينون بديانات أخرى تقليدية ويعتنق المسيحية ٢٪ من السكان، واللغة الفرنسية هى اللغة الرسمية، وتتحدث القبائل لغات الولوف والسرر والفولانى.

والعملة هى فرنك المجموعة الغربية الفرنسية، وتعتبر الزراعة هى الحرفة الرئيسية للسكان، وأهم المحاصيل الفول السودانى، فضلاً عن الذرة والأرز، كما يعد صيد الأسماك من الحرف الهامة.

دخل الإسلام إلى مملكة التكرور دون قتال فى حوالى عام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠ ميلادية وهى سنة هامة وحاسمة عندما أسلم ملك التكرور وأسلمت معه الطبقة الأرستقراطية ورجال الدولة والعلماء ثم انتشر الإسلام بعد ذلك فى كافة أنحاء المملكة.

أشتهرت السنغال بالعديد من حركات الإصلاح الدينى لنشر الإسلام الصحيح فى هذه المناطق، وظهر الحاج عمر الفوتى التكرورى الذى أدى فريضة الحج، وأثناء عودته مر على دولة سوكوتو الإسلامية التى أسسها الشيخ عثمان بن فودى زعيم الإصلاح والتجديد فى غرب القارة، وأكمل الحاج عمر الفوتى نفس مشواره فى الجهاد، وقد كان عليه أن يجاهد لنشر الإسلام؛ فقد كانت فرنسا تتوسع فى القارة الأفريقية من جهة الغرب، وكان لابد من الاحتكاك بإمبراطورية الحاج عمر الذى حاول مهادنة الفرنسيين لبناء دولته؛ لكن فرنسا أصرت على القضاء على هذه الدولة التى واصلت مسيرة الكفاح والمقاومة ضد فرنسا، ورغم استشهاده عام ١٢٨١هـ/ ١٨٦٤م واحتلال فرنسا السنغال بعد حروب

عديدة فى عام ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م إلا أن المقاومة استمرت حتى حققت البلاد استقلالها عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، وصارت السنغال إحدى دول غرب القارة دولة ديمقراطية متعددة الأحزاب ويُنْتَخَب رئيس الجمهورية لمدة خمس سنوات؛ وهو الذى يختار رئيس الوزراء ، ويحمل البرلمان السنغالى اسم المجلس الوطنى، ويضم مائة وعشرين عضوًا ينتخبون لخمس سنوات .

لقد تم انتخاب الشاعر ليوبولد سيدار سنجور (١٣٢٤- ١٤٢٢هـ/ ١٩٠٦ - ٢٠٠١م) أول رئيس للسنغال منذ عام ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م حتى عام ١٤٠١هـ/١٩٨٠م .

وفى يناير ١٩٥٩م اتحد السنغال مع ما كان يسمى السودان الفرنسى تحت اسم اتحاد مالى الذى استقل عن فرنسا فى صَفَر ١٣٨٠هـ/ ٢٠ يونيه ١٩٦٠م؛ لكن بعد مشاكل سياسية انفصلت الدولتان فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٠م السنغال ومالى ، وأعلن اتحاد رسمى بين السنغال وغامبيا تحت اسم سنغامبيا عام ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م، ولم يتم الاتحاد بشكل عملى ، وانفصلت الدولتان فى عام ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م .

تضم السنغال عرقيات كثيرة منها الولوف والفولانيون الذين يشكلون ٤٠٪ من مجموع السكان فى السنغال ، وهناك أيضًا قبائل السرر والديولا والسونكى فى الشرق والماندنجو والليبو فضلاً عن أقليات أخرى ، وتضم السنغال أربع عشرة منطقة إدارية .

نظام الحكم فى السنغال :

يتم انتخاب الرئيس لمدة خمس سنوات ، وقد تم انتخاب سنجور الذى أسس الاتحاد النقدى، وانضم إليه عام ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م حزب التجمع الأفريقى السنغالى، وحصل ثلاثة من أعضائه على مناصب وزارية .

ولم يستطع حزب الاتحاد التقدمى حل المشكلات الداخلية ، وفى عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م قام الطلاب باضطراب أجبر الجيش على احتلال جامعة داكار، وقد أدت أحداث ١٩٦٨م إلى تعديلات دستورية، وفى عام ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م أعيد منصب رئيس الوزراء، وكان المرشح الجديد هو عبده ضيوف .

كانت انتخابات عام ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م قد أعادت انتخاب سنجور ومعه الحزب التقدمى السنغالى بأغلبية ساحقة، وفى عام ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م أطلق أعوانه مامادبو ويوو سراحه، وفى نفس الوقت وافق سنجور على تعدد الأحزاب والسماح بالانضمام إلى الحزب

الديمقراطى السنغالى .

وفى عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٨م أعيد تنظيم الحزب الحاكم والحكومة، وكان واضحًا أن سنجور يعتزم الاعتزال مع إعطاء سلطات أكثر إلى الرئيس ضيوف الذى أظهر كفاءة فى معالجة الأزمة المالية .

كانت الأوضاع الاقتصادية المتدهورة والضغوط الحادة من أجل الإصلاحات السياسية وراء إعلان الرئيس سنجور للصحافة الفرنسية بأنه سوف يستقيل فى ١٤٠١هـ / نهاية ديسمبر ١٩٨٠م، وتولى عبده ضيوف الرئاسة فى ربيع الأول ١٤٠١هـ/ يناير ١٩٨١م ، واستمر ضيوف فى تولى منصب الرئيس حتى عام ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م عندما أجريت انتخابات رئاسية جديدة وحصل ضيوف على أغلبية كبيرة فى الانتخابات حيث حصل على ٤ر٨٥٪ من أصوات الناخبين .

أ. د/عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مصادر ومراجع للاستزادة:

- شوقى الجمل وعبد الله عبد الرازق : تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر – القاهرة ٢٠٠٨.
- محمود شاكر : السنغال: سلسلة مواطن الشعوب الإسلامية فى أفريقيه – بيروت ١٩٦٠م.
- محمد عبد الفتاح إبراهيم : أفريقية من السنغال إلى جوبا (د.ت).
- Ajayi and Crowder : History of West Africa – London 1974.
- Crowder, M.: West Africa under Colonial Rule, London 1968.
- Davidson, B.: Africa in History – London 1968.

السودان

السودان إحدى دول شمال شرق أفريقيا، وتحدها جمهورية مصر العربية شمالاً وكل من كينيا وأوغندا والكونغو الديمقراطية جنوبا، والبحر الأحمر وأريتريا وإثيوبيا شرقًا، وتشاد وجمهورية أفريقيا وليبيا غربًا، وطول جبهتها الساحلية على البحر الأحمر ٨٥٣ كيلو مترا، ويبلغ عدد السكان حسب إحصاء ٢٠٠٨ تسعة وثلاثين مليون نسمة .

والسودان دولة عضو فى جامعة الدول العربية وفى منظمة المؤتمر الإسلامى، والاتحاد الأفريقى، وهى أكبر الدول الأفريقية من حيث المساحة؛ إذ تقدر المساحة ٢٫٥٠٥٨٨١٣ كيلو مترا مربعًا.

ونهر النيل هو السمه الرئيسية للسودان حيث يقسم السودان إلى شطرين: شرقى وغربى، والخرطوم هى العاصمة المثلثة؛ لأنها تتكون من ثلاث مدن كبيرة؛ وهى: الخرطوم، وأم درمان، والخرطوم البحرى. وتعتبر اللغة العربية اللغة الرسمية بالولايات عدا الجنوب فضلاً عن اللغة الإنجليزية ولغة الهوسا ولغات الشلك والبارى والسيرى والبولو والسقولو .

يشكل المسلمون ٧٠٪ من السكان معظمهم فى الشمال ووسط السودان والغرب والخرطوم، والمسيحيون ١٧٪ معظمهم فى جنوب السودان والخرطوم، ويتركز الإسلام فى شمال السودان؛ لأن الفتوحات الإسلامية وصلت إليه عن طريق مصر وعبر البحر الأحمر من الشرق، وكان تَرَكُّزُ المسيحيين فى الجنوب بسبب السياسة البريطانية والبعثات التنصيرية التى واصلت عملها فى الجنوب بعد سحب الجيش المصرى من السودان عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م .

وتعد السكك الحديدية السودانية من أقدم سكك الحديد فى العالم حيث أنشئت عام ١٢٩٢هـ/ ١٨٧٥م من وادى حلفا إلى الخرطوم .

تاريخ السودان قديمًا وحديثًا :

ظهرت فى منطقة ما بين النيلين الأزرق والأبيض حضارة الكوش التى صارت جزءًا من التوسع المصرى (١٥٣٠–٧٥٠ق. م) وقد قويت شوكتهم، واحتلوا مصر، وأقاموا بها الأسرة الخامسة والعشرين ،

وجاء الأشوريون بعد ذلك فى عام ٦٦٦ ق.م واحتلوا مصر، ثم جاء الكلدانيون واليونانيون، واستمرت مملكة كوش نحو ألف سنة وتوسعت جنوبًا، ونقلت عاصمتها إلى مروى التى استمرت حتى ٣٥٠ ميلادية .

قامت بعد ذلك ممالك النوبة التى وصلت إليها المسيحية فى أوائل القرن السادس الميلادى. وقد عقد العرب فى مصر معاهدة البقط مع ملك النوبة، وازدادت هجرات العرب فى أيام الدولة المملوكية (٦٤٨هـ/١٢٥٠م)، وفى عام ٩١٠هـ/١٥٠٤م سقطت مملكة علوة ، وانفتح الطريق أمام القبائل العربية التى ساهمت بشكل كبير فى القضاء على المسيحية ، وقيام دولة الفونج الإسلامية التى اتخذت من سنار عاصمة لها .

استمرت الصراعات بين الممالك الإسلامية فى كردفان ودارفور حتى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى/التاسع عشر الميلادى عندما تولى محمد على حكم مصر ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م حتى ١٢٦٦هـ/١٨٤٩م، وتوالت حملاته إلى السودان لكشف منابع النيل ولإقامة وحدة شمال الوادى وجنوبه .

توسعت مصر فى عهد خلفاء محمد على ، ووصلت إلى ذروتها فى عهد إسماعيل الذى وصل إلى خط الاستواء، وتم كشف منابع النيل وتوسعت الإمبراطورية حتى أوغندا ، وفى عام ١٢٩٤هـ/١٨٧٧م عقدت إنجلترا معاهدة مع مصر للحد من التوسع المصرى فى شرق أفريقيا وأعالى النيل مثلما قلصت نفوذ مصر فى الصومال .

بعد عزل الخديو إسماعيل ١٢٩٧هـ/ ١٨٧٩م تَوَلَّى توفيق الذى شهد عهده ازدياد النفوذ الأجنبى والتدخل فى شئون السودان ، وصار الحكام هناك من الأجانب وكان هذا دافعًا لقيام محمد أحمد المهدى بإعلان المهدية والمطالبة بالجهاد ضد الأتراك والمصريين .

بعد وفاة المهدى عام ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٥م تولى عبد الله التعايشى (١٣٠٣- ١٣١٦هـ/١٨٨٥ - ١٨٩٨م) الذى أسس دولة إسلامية لكن بريطانيا قررت إلغاء هذه الدولة بعد انسحاب مارشان الفرنسى من أعالى النيل، وقامت بريطانيا برفع العلم البريطانى إلى جانب العلم المصرى إيذانًا بنظام الحكم الثنائى.

وفى عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م قامت الثورة فى السودان وانتهز البريطانيون فرصة مصرع السير لى ستاك سردار الجيش

المصرى ، فتمَّ سحب الجيش المصرى من السودان عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م واستقال سعد زغلول زعيم الأمة ، وفى عام ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م وقعت مصر اتفاقية الصداقة وعاد الجيش المصرى إلى السودان بعد أن كانت بريطانيا قد فرضت نفوذها فى الجنوب بفضل البعثات التنصيرية التى كان لها الأثر فى عزلة الجنوب عن الشمال .

كان قيام الثورة المصرية عام ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م سببًا فى إنهاء الاحتلال البريطانى حيث وقعت مصر اتفاقية عام ١٣٧٣هـ/١٩٥٣م التى أعطت للسودان فترة انتقال لمدة ثلاث سنوات ، وأجرى الاستفتاء وأقر شعب السودان الاستقلال حيث حصل على استقلاله فى ١٣٧٦هـ/ الأول من يناير ١٩٥٦م .

الاقتصاد السودانى :

يعتبر السودان من الأقطار الأفريقية الغنية بالموارد الطبيعية والثروة الحيوانية والمعدنية والغابات والثروة السمكية ، ويعتمد السودان اعتمادًا رئيسيًا على الزراعة التى تمثل ٨٠٪ من نشاط السكان، وسميت السودان بسلة غذاء العالم؛ نظرا لأن معظم الصادرات السودانية من المنتجات الزراعية كالقطن والصمغ العربى والحبوب الزيتية واللحوم والخضراوات والفاكهة ، وتمثل الثروة الحيوانية المرتبة الثانية فى الاقتصاد السودانى حيث يمتلك السودان أكثر من مائة وثلاثين مليونًا من الثروة الحيوانية .

تتركز الصناعة على الصناعات التحويلية التى تعتمد على المنتجات الزراعية كصناعة النسيج والسكر والصناعات الغذائية .

أما عن الثروة البترولية فقد بدأ الإنتاج الفعلى الذى وصل فى يوليه ١٩٩٨م إلى ثلاثة ملايين برميل ، ومن المتوقع أن يزداد احتياطى النفط السودانى إلى ٦٠٠ ألف برميل يوميًا .

فى السنوات الأخيرة يعتبر السودان من الدول المصدرة للبترول حيث يوجد به العديد من آبار البترول التى يوجد معظمها فى جنوب كردفان ومنطقة إيبى وغرب النوير .

منذ أن تحقق استقلال السودان فى عام ١٣٧٦هـ/ الأول من يناير ١٩٥٦م شهد سبعة أنظمة من الحكم كما شهد حربًا أهلية استمرت سبعة عشر عامًا :

حكومة برلمانية مدنية استمرت من عام ١٩٥٦م حتى نوفمبر ١٩٥٨م .



نظام عسكرى فى ظل الجنرال إبراهيم عبود واستمر حتى انقلاب ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م .

وفى يونيه ١٩٦٥م حصل حزب الأمة على ستة وسبعين مقعدًا، وتشكلت حكومة من تحالف لحزبى الأمة والحزب الاتحادى القومى وصار محمد أحمد محجوب رئيسًا للوزراء .

وفى عام ١٩٦٨م أجريت الانتخابات وتشكلت وزارة محجوب الثالثة .

وفى ٢٥ مايو ١٩٦٩م قاد الكولونيل جعفر نميرى انقلابًا ، وصارت حكومته أطول حكومة فى تاريخ السودان من ١٩٦٩ – ١٩٨٥م .

نظام عسكرى انتقالى لمدة اثنى عشر عامًا بدأ بانقلاب إبريل ١٩٨٥م الذى أطاح بالرئيس جعفر نميرى. ثم تشكلت حكومة انتقالية مدنية برئاسة عبد الرحمن سوار الذهب ثم تشكلت وزارة الصادق المهدى وعين حسن الترابى نائبًا لرئيس الوزراء . وفى ذى القعدة ١٤٠٨هـ/ يونيه ١٩٨٩م تولى عمر حسن أحمد البشير الحكم بعد حكومة الصادق المهدى، واستمر فى الحكم حتى وقتنا الحاضر .

تم توقيع دستور انتقالى جديد فى عام ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٥م إثر توقيع اتفاقية السلام بين حكومة عمر البشير ورئيس حركة تحرير السودان د. جون جارنج ، وتم وضعُ حدٍّ للحرب الأهلية ومُنِح إقليم جنوب السودان حكمًا ذاتيًا ويعْقُبُه استفتاء حول الوحدة أو الاستقلال .

واجه السودان فى ظل الحكومات المختلفة العديد من المشكلات والحروب الأهلية ، وقامت الحكومة السودانية بعدة جولات من التفاوض مع حركة تحرير جنوب السودان بزعامة جون جارنج وانتهت بتوقيع اتفاق ماشاكوس ، وتم الاتفاق على إجراء استفتاء بعد ست سنوات للجنوبيين لإبداء رغبتهم فى الوحدة أو الانفصال عن الشمال فى يناير ٢٠١١م .

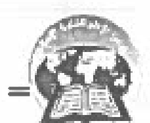
مع حلول التاسع من يناير ٢٠١١ أجرى الاستفتاء بين الجنوبيين الذين قرروا الانفصال وتكوين دولة مستقلة .

ولا يزال السودان يواجه مشاكل كثيرة خاصة مشكلة دارفور التى تتفجر من حين لآخر دون الوصول إلى حل .

أ. د/عبد الله عبد الرازق إبراهيم

مراجع للاستزادة:

- الشاطر بوصيلى : معالم تاريخ سودان وادى النيل - القاهرة ١٩٥٥ .
- شوقى عطا الله الجمل : تاريخ سودان وادى النيل - القاهرة ٢٠٠٨ .
- محمد صبرى : الإمبراطورية السودانية فى القرن التاسع عشر - القاهرة ١٩٤٨.
- نعوم شقير : تاريخ السودان القديم والحديث - ٣ أجزاء - القاهرة ١٩٠٣ .



سيشيل

هى دولة إفريقية مكونة من عدة جزر تقع فى المحيط الهندى، عاصمتها مدينة "فكتوريا" [1] الواقعة فى جزيرة "ما هى" أكبر الجزر، وهى أصغر عاصمة فى العالم من حيث المساحة، كما أنها المدينة والميناء الوحيد بالبلاد، وما دونها من المدن عبارة عن مجموعة قرى صغيرة متفرقة، ولكونها المدينة الوحيدة فى البلاد فقد حظيت باهتمام كبير مما أكسبها شكلاً مميزاً من حيث الجمال والتخطيط.

تبلغ مساحتها ثلاثمائة كيلو متر مربع، أكبر جزرها "ماهي" التى يبلغ طولها تسعة وعشرين كيلو مترًا، ومتوسط عرضها عشرة كيلومترات، ويضاف إليها اثنتان وتسعون جزيرة، أشهرها جزيرة "الطير" التى تبعد مائة كيلو مترات عن فيكتوريا، وتبعد نحو ألف ومائتى كيلو متر من ساحل إفريقيا الشرقى فى الاتجاه الشمالى الشرقى لمدغشقر على المحيط الهندى. [2] وتتوسط جزرها الرئيسية بقية الجزر وأهمها "ماهي"و"براسلين"و" لاديغو " وهى عبارة عن جزر صخرية. أما بقية الجزر فهى مرجانية يغوص معظمها تحت سطح الماء مكونة بعض القمم المنخفضة، وهى ليست بركانية. وأقرب الدول إليها الصومال إلى الشمال الغربى منها.

وقد زعمت فرنسا بحقها فى ضم سيشيل سنة (١١٧٠هـ/١٧٥٦م) ، وذلك بعد أن أرسل حاكم موريشياس الفرنسى "ماهى دو لا بوردوناس"سفينة لاستطلاع الجزر فنزل قائد السفينة فى أكبر الجزر ليطلق عليها اسم هذا الحاكم الفرنسى ويظل الاسم إلى الآن. ووصلت أول شحنة من الفرنسيين وبعض مواطنى مستعمراتهم إلى تلك الجزر سنة(١١٨٤هـ/ ١٧٧٠م)، وذلك لزراعة قصب السكر والبن والشاى وبعض النباتات المدارية الأخرى.وتنازلت فرنسا سنة (١٢٣٠هـ/١٨١٤م) عن الجزيرة لصالح بريطانيا بعد الحرب التى وقعت بين البلدين عصر "نابليون بونابرت". ومنذ سنة (١٢٣٠هـ /١٨١٥م : ١٣٢١هـ/١٩٠٣م) أصبحت سيشيل مستعمرة قائمة بذاتها إلى أن نالت استقلالها فى يونيو من سنة (١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م) [3].

ويتألف الشعب السيشيلى من عدة أجناس وأعراق مختلفة، وسكانها من زنوج البانتو والحاميين، ويعرفون بالكاريول التى تعنى المختلط. وأول سفينة محملة بالعمال الأفارقة وصلت إلى الجزيرة سنة (١١٨٤هـ/١٧٧٠م)، وقد حملت مجموعة من الفرنسيين برفقة مجموعات من شعوب مستعمراتهم من الأفارقة لإعانتهم، وبعد تأكدهم من صلاحية الأرض للزراعة استجلبوا المزيد من العمال للعمل فى حقول قصب السكر والبن وغير ذلك، استقر هؤلاء السكان الجدد فى قرى صغيرة ومتفرقة، وبعد أن انتقلت المنطقة إلى السيادة الإنجليزية فضل بعض الفرنسيين البقاء فيها. وفى محاولة من الإنجليز لزيادة الإنتاج الزراعى فى تلك الجزر، لجأوا إلى استجلاب المزيد من العمالة، وكان ذلك من أكبر مستعمرات بريطانيا فى آسيا وهما الهند والصين لتضاف إلى شعوب الجزيرة أجناس أخرى رفعت من نسبة التباين العرقى.

وقد دخلت أول جماعة مسلمة لسيشيل فى القرن الثالث عشر الهجرى / التاسع عشر الميلادي، وكانوا من الملايو، وقد توفى بعضهم ورجع الآخرون لبلادهم، وخلفوا مقبرة قائمة حتى الآن يدفن المسلمون موتاهم فيها. وقدم بعدهم جماعة من الكجرات بالهند واستقرت بها.

وعدد المسلمين بالمنطقة قليل إذ لا يزيدون فيها عن عدة مئات تشكل نسبة تواجدهم حوالى ١٪ من عدد السكان أكثرهم ممن جاءوا مسلمين وعاشوا فيها، فانتشار الإسلام بها ضعيف.وقد أنشأوا سنة(١٣٩٨هـ/١٩٧٧م) مركزاً إسلامياً بالعاصمة ، ويصدر عنه مجلة "اقرأ" بالإنجليزية، وملحق به مدرسة لتعليم الإسلام واللغة العربية. (٤)

وأغلب سكان المنطقة من الهنود والصينيين ،ومن دول شرق آسيا وبقايا من المستعمرين القدامى، وهم الإنجليز ثم الفرنسيون فيما بعد وبعض الأوربيين، وأما الأفارقة فى هذه الجزر الإفريقية فهم أقلية(٥)، لذا نستطيع القول إن سيشيل تنتسب إلى إفريقيا جغرافيا، ولكنها تنتمى إلى آسيا بسكانها.

وكان للحكم الفرنسى الذى دام ما يقرب من قرنين تأثيره على سكان الجزيرة، فقد فرضوا لغتهم التى دخلتها بعض لهجات السكان الأصليين حتى عرفت بالكرويل، كما دخلتها بعض

الكلمات الإنجليزية، وهم يسمون الآن لغتهم سيشليانو نسبة إلى جزيرتهم. [٦]

تعتمد جزر سيشيل فى تجارتها ودخلها القومى على السياحة، فليس لها من موارد أخرى، وتسهم السياحة فى ٨٠٪ من الدخل القومى بها. وتشهد سيشيل حاليا ازدهارا واضحا من ناحية بناء وتشييد الفنادق والمنتجعات الكبيرة وتعتبر نقطة جذب للسياح بما منحها الله من جمال الطبيعة، وشواطئ تعتبر الأفضل والأجمل فى العالم على الإطلاق. أما باقى الدخل القومى فيكون من عائدات مصائد السمك وخدمات السفن. [٧]

ومن الجدير بالذكر أن سعد زغلول ومصطفى النحاس ومكرم عبيد وفتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا قد نفتهم إنجلترا إلى سيشيل، وكان ذلك الأمر قد زاد ثورة ١٩١٩م اشتعالا، ونقلت انجلترا بعد ذلك سعد زغلول وحده إلى جبل طارق حتى عودته إلى مصر. [٨]

د / وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش :

(١) خليل أحمد خليل: ملحق موسوعة السياسة، مج ٨، AIRP، ٢٠٠٤م، ص٤٥٢.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢٢ التاريخ المعاصر الأقليات الإسلامية، ط٢، المكتب الإسلامي، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص٣٦٣.

(٣) خليل أحمد خليل: المرجع نفسه ، ص٤٥٢.

(٤) محمود شاكر: المرجع نفسه ، ص٣٦٣.

(٥) كمال الطيب يس: جولات إفريقية من موبوتو إلى بنجول، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣م، ص٢٧.

(٦) محمود شاكر: المرجع نفسه، ص٣٦٤.

(٧) كمال الطيب يس: المرجع نفسه، ص٢٦.

(٨) محمد كامل سليم: أزمة الوفد الكبري: سعد وعدلي، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٧٦م ، ص٢٠٠.

مراجع للاستزادة :

(١) خليل أحمد خليل: ملحق موسوعة السياسة، مج ٨، AIRP، ٢٠٠٤م، ص٤٥٢.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢٢ التاريخ المعاصر الأقليات الإسلامية، ط٢، المكتب الإسلامي، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص٣٦٣.

(٣) كمال الطيب يس: جولات إفريقية من موبوتو إلى بنجول، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٣م، ص٢٧.

(٤) محمد كامل سليم: أزمة الوفد الكبري: سعد وعدلي، مؤسسة أخبار اليوم، ١٩٧٦م ، ص٢٠٠.

الشـــام

تقع بلاد الشام فى قلب الشرق الأوسط وسط العالم القديم على أبواب آسيا الغربية وشواطئ البحر المتوسط. والشام عبارة عن سهل ساحلى يمتد من خليج اسكندرونة شمالاً إلى طور سيناء جنوبًا، ومن البحر المتوسط غربًا إلى بادية الشام شرقًا، وهو يشمل بذلك سوريا الحالية ولبنان وفلسطين وشرقى الأردن، وتجرى فيه أنهار صغيرة أهمها: العاصى الممتد إلى الشمال فى سوريا، والليطانى المتجه إلى الجنوب، وبردى المتجه إلى الشرق مكونًا بساتين دمشق المسماة بالغوطة، ونهر الأردن الذى يصب فى البحر الميت، الأمر الذى جعل تلك البلاد تفيض عسلاً ولبنًا مما دفع العرب للهجرة إليها فى موجات كبيرة لعل أقدمها هجرة الآموريين فى منتصف الألف الثالثة ق.م، وصحبتها أو بعدها هجرة الكنعانيين والفينقيين.

وفى حوالى ١٤٤٠ق.م أستولى تحوتمس فرعون مصر على جزء كبير من الشام فظل الآموريون والفينيقيون خاضعين لمصر إلى عهد أخناتون الذى انشغل عنهم بثورته الدينية، كما وفدت كذلك هجرات الآراميين للشام الأوسط، والعبرانيين إلى فلسطين فى القرن العاشر ق.م تقريبًا فأقام العبرانيون مملكة قضى عليها الأشوريون فى القرن الثامن ق.م، ودمر بختنصر مدينتهم أورشليم فى القرن السادس ق.م، وأجلاهم عنها إلى بابل. وبسقوط بابل ٥٣٥ ق.م سمح كورش لهم بالعودة إلى أورشليم، ومنذ ذلك التاريخ بات الشام تحت حكم الدولة الفارسية إلى أن استولى عليه الإسكندر المقدونى ٣٣٤ ق.م، وبعده اليونان، ثم الرومان فى القرن الأول ق.م.

الشام فى العصور الوسطى:

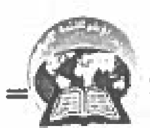
وقد تبع الشام بيزنطة بعد ذلك حتى استخلصه العرب على يد صحابة رسول الله ﷺ فى عهدى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما بعد معركتى أجنادين بفلسطين، واليرموك[1]. (أحد روافد نهر الأردن). وبعدهما لم تقم قائمة للروم حيث استولى المسلمون منهم على بلاد الشام فى نحو عامين[2].

وفى العصر الأموى ظهر بالشام فرع سفيانى على رأسه معاوية وابنه يزيد، ثم فرع مروانى نسبة إلى مروان بن الحكم ومَنْ خَلَفَه من أبنائه . ومن دمشق بدأ

معاوية يسوس الأمة، فاستعان بصفوة الرجال من الصحابة ومن أهل الشام فى الحكم حتى إنه اتخذ من نصارى الشام مستشاره المالى سرجيوس، وعم الرخاء فى البلاد حينئذ، كما وجه معاوية حملات متعددة إلى بيزنطة، وحاصر القسطنطينية مرتين، ووجَّه حملة أخرى إلى قبرص. وفى العهد المروانى كانت أزهى العهود فى الشام أيام الوليد بن عبد الملك بن مروان نظرًا لفتوحاته العظيمة فى الشرق والغرب حيث استطاع محمد ابن القاسم فتح بلاد السند، وتمكن قتيبة بن مسلم من الوصول بفتوحاته إلى بلاد ما وراء النهر- آسيا الوسطى حاليًا- ، ووصل طارق بن زياد وموسى بن نصير إلى شبه الجزيرة الأيبيرية حيث سيطروا على دولة القوط هناك، واهتم الوليد بالعمران، فأنشأ الجامع الأموى بالرخام المطعم والفسيفساء وغير ذلك من أوجه العمران.

أما فى العصر العباسى فقد فقد الشام بريقه السابق بعد انتقال مركز القيادة إلى العراق وتوترت أحواله بسبب الثورات التى أرهقت أهله حتى استقرت الأمور بعد أن بدأ الخلفاء العباسيون يتجهون لزيارة بيت المقدس أو المرور منه فى طريقهم للحج، الأمر الذى عاد على الشام بالرخاء وانتعاش التجارة، وزادت عنايتهم فى عهد المتوكل الذى زار الشام سنة ٢٤٣هـ/٨٥٧م، ودخل دمشق فأعجب بها ثم بنى قصرًا بالغوطة وعزم على المقام بها ونَقْلِ دواوين الخلافة إليها إلا أن قواده عارضوه فاضطر للعودة سريعًا إلى سامراء (عاصمته بالعراق). ولكن الشام عانى بعد ذلك من وطأة القرامطة الذين عاثوا فيه الفساد، فاستولوا على دمشق أكثر من مرة حتى ٢٩٣هـ/٩٠٥م، وبعدها تمكن جند الخلافة من القضاء عليهم ببلاد الشام جزئيًا[٣].

وعندما استولى الفاطميون على مصر سنة ٣٥٨هـ/٩٦٩م تمكنوا من الاستيلاء على الشام وأعلن مؤذنوهم هناك شارة الأذان الشيعى (حى على خير العمل) فى فترات اشتعلت فيها الفتن والصدامات وتمكن المعز لدين الله من خديعة القرامطة وهزيمتهم على الأراضى المصرية ثم أرسل الجيوش على أثرهم إلى الشام، وهناك اكتملت هزيمتهم فتسلم الفاطميون منهم دمشق وباقى بلاد الشام حيث أثخنوا فيهم القتل والتنكيل ومع ذلك استمرت الصراعات مع القرامطة وأهل الشام عقودًا طويلة لا سيما بعد



موت المعز لدين الله، ولم يهنأ أهل الشام طوال قرن كامل سيطر فيه الفاطميون بسبب كثرة الولاة الذين كان همهم الأول الإثراء السريع على حساب أهله بما يفرضونه من ضرائب عليهم، وبلغ عددهم ما يقرب من أربعين واليًا"(٤).

اختتم الفاطميون عصرهم بضعف ألمّ بهم بعد عهد الحاكم الذى ادعى الألوهية وحاول نشر أفكاره بالشام مما ترك الفرصة لبدو الجزيرة العربية، وبنى مرداس، والسلاجقة لدخول حلبة الصراع مع الفاطميين على حكم الشام، والاستيلاء على أجزاء منه.

ليس هذا فحسب، بل فتح الباب على مصراعيه لدخول الصليبيين بدءًا من سنة ٤٩١هـ/١٠٩٧م حيث استولوا على أنطاكية التى أسسوا بها إمارة ثم الرها فى العام نفسه فبيت المقدس ٤٩٢هـ/١٠٩٩م، فطرابلس ٥٠٢هـ/١١٠٩م، فصور ٥١٨هـ/١١٢٤م، دون أن تمتد أيديهم إلى بلدان الشام الداخلية مثل بعلبك ودمشق وحمص وحماة وحلب حتى قيض الله لبلاد الشام رجالاً سطروا بفضل الله فى التاريخ سطورًا من نور بجهادهم (ضد أطراف التمزق من جهة وضد المعتدين الصليبيين فى الوقت نفسه من جهة أخرى) . على رأس هؤلاء القائد السلجوقى الأتابك/ زنكى عماد الدين التركمانى أمير حلب، ثم ابنه نور الدين محمود حتى كانت موقعة حطين التى دقّ فيها صلاح الدين الأيوبية أعناق الصليبيين ليؤسس الدولة الأيوبية التى أعادت للمسلمين الشام على أسنة الرماح وحفظ مصر من الخطر الأوروبى الصليبى(٥).

وفى العصر المملوكى الذى بدأ بمصر منذ سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، تقاسم المماليك والأيوبيون حكم الشام حتى وصل التتار إلى العاصمة العباسية بغداد فأجروا الدماء فيها أنهارًا وخربوها فى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، لينطلقوا بعد ذلك إلى بلاد الشام التى أعملوا فيها النهب والسلب، وتقدموا فيها حتى عين جالوت سنة ٦٥٨هـ/١٢٦٠م، التى شهدت على موتهم وتشريدهم على يد الرجلين العظيمين قطز سلطان مصر، وبيبرس أعظم قواده؛ فبات الشام بأكمله تحت حكم المماليك.

حينئذ قسّم المماليك الشام إلى ست نيابات كبرى هى: دمشق وحلب وحماة (فى سوريا)، وطرابلس (فى لبنان) وصفد(فى فلسطين)، والكرك (فى

شرقى الأردن)، وأهم تلك النيابات نيابة دمشق؛ فحاكمها كان يُعد نائبًا فى الشام للسلطان المملوكى بمصر[٦].

الشام فى العصور الحديثة:

وبسبب النزاع المستمر بين أمراء المماليك فى مصر والشام، بالإضافة إلى أسباب أخرى أضعفت دولتهم،تأسست على أنقاضها دولة العثمانيين فى الشرق العربى الإسلامى.

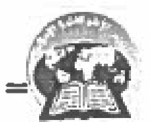
فما أن وضعت الحرب أوزارها فى موقعة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦هـ، بين سليم الأول العثمانى وقانصوه الغورى المملوكى حتى فتحت بلاد الشام أبوابها لسليم فدخل حلب بعد أربعة أيام، واستولى على دمشق، وقصده أمراء لبنان (بنو معن الدروز) معلنين الولاء فأقر لهم بالإمارة، ثم اتجه نحو مصر ففتحها سنة ٩٢٣هـ/١٥١٧م[٧].

وعاد سليم إلى دمشق حيث عنى بتوزيع المناصب وتقسيم الشام بشكل مختلف عن الولايات العثمانية الأخرى، كما نظم عملية جباية الأموال والنظام المالى ثم قفل راجعًا إلى عاصمة بلاده (إسلامبول)[٨].

فقد رأى سليم أن لا تخضع بلاد الشام لحكومة مركزية واحدة - كما هو الحال فى مصر - بل تمَّ تقسيمها إلى عدد من الوحدات الإدارية أطلق عليها الباشويات أو الإيالات وهى: باشوية حلب، وباشوية دمشق التى كانت تسمى أحيانًا باشوية الشام وباشوية سوريا أحيانًا أخرى، وباشوية طرابلس. وكانت تحدث تعديلات فى بعض الفترات على الأقسام الإدارية تبعًا للأحداث السياسية التى واجهتها الدولة العثمانية بالشام.

واختلفت كذلك بلاد الشام عن غيرها من الولايات العثمانية فى استمرارية اتصالها (طوال الحكم العثمانى) بدول أوروبا فى المجال التجارى، وكذلك فى الجانب الفكرى والدينى نظرًا لهذا التنوع البشرى واللغوى والدينى الذى تفردت به الشام عن غيرها من الولايات العثمانية[٩].

وقد تجرأ محمد على باشا والى مصر فى سنة ١٢٤٧هـ/١٨٣١م، على اقتحام الشام عندما أرسل ابنه إبراهيم باشا بجيش برى، وآخر بحرى حيث تمكن من فتح عكا وغزة ويافا وبيت المقدس ونابلس، وتمكن إبراهيم من هزيمة الجيش العثمانى فى حمص[١٠]. ثم تلتها موقعة شرسة أخرى أعدّ لها العثمانيون ستين ألفًا من الجنود انتصر عليهم فيها إبراهيم باشا أيضًا سنة ١٢٤٨هـ/١٨٣٢م،



وموقعة ثالثة حقق فيها النتائج نفسها، الأمر الذى تمخض عنه وصول جيش إبراهيم باشا إلى مدينة كوتاهية فاقترب حينئذ بجيشه من العاصمة العثمانية (على بعد خمسين فرسخًا منها) إلا أن المعركة الحاسمة قد وقعت عند (نصيبين) فى ١٢٥٥هـ/ ٢٤ من يونيه ١٨٣٩م، وقد تم فيها تدمير الجيش العثمانى المؤلف من ثمانين ألفًا من الجنود، وتسليم قائد الأسطول العثمانى/ أحمد فوزى، سفنه جميعها لإبراهيم باشا وسحبها إلى الإسكندرية، ففقد العثمانيون بذلك جيشهم وأسطولهم[١١].

وقد ملئت الدولة الأوروبية على اختلافها ذعرًا وقلقًا من تنامى قوة محمد على باشا وعقدت اتفاقية لندن فى جمادى الأولى ١٢٥٦هـ/١٥ يوليو سنة ١٨٤٠م، كبحت من خلالها جماح محمد على، واضطرته فى النهاية إلى ترك الشام وشبه الجزيرة العربية مع بقائه فقط على مصر والسودان[١٢].

وقد عادت الشام مرة ثانية إلى الحكم التركى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى حيث قامت الثورة العربية التى أعلنها الملك حسين ملك الحجاز سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦م، وتمكن فيصل بجيش عربى وقيادة انجليزية من الاستيلاء على بعض مدن الشام وحينئذ قسمت البلاد الشامية إلى أقسام ثلاثة هى:

١. شرق الأردن، دمشق، حمص، حماة، حلب، تحت زعامة فيصل بن الحسين.

٢. لبنان، ولاية بيروت (صور- صيدا- طرابلس- اللاذقية) تحت الإدارة الفرنسية.

٣. فلسطين، وقد سيطر عليها الإنجليز.

وسرعان ما تقدمت القوات الفرنسية إلى المدن الخاضعة لفيصل فاستولت عليها بعد معركة ميسون ١٤ يوليو ١٩٢٠م، وقبول الانتداب الفرنسى الذى قسّم سوريا إلى دولتين: سوريا ولبنان، الأمر الذى استقر فى النهاية على وحدات أربع هى: سوريا- لبنان- فلسطين- الأردن.

الهوامش:

(١) د/شوقى ضيف –عصر الدول والإمارات مصر- الشام- دار المعارف- القاهرة ١٩٨٤م –ص٤٩٣، وما بعدها .

(٢) بادر الصديق أبو بكر رضى الله عنه فأنفذ فى صفر ١٣هـ، جيشين لحرب الروم البيزنطيين فى الشام: الأول بقيادة يزيد بن أبى سفيان إلى البلقاء فى شرقى الأردن، والثانى بقيادة عمرو بن العاص إلى الجنوب الشرقى من فلسطين، وكتب إلى خالد بن الوليد ليلحق بهما فى العراق فتولى الأخير قيادة الجميع، ونجح فى سحق الروم والقضاء على وجودهم بالشام. وخرج عمر فى سنة ١٦هـ/٦٣٧م إلى الجابية قرب دمشق فاجتمع بقادة الشام لتنظيم أموره، وفتحت له القدس أبوابها وأمن النصارى بها حيث التمسوا أن يُخلى القدس من اليهود فأجابهم ولم يبُق بها يهوديًا. التفاصيل انظر: الواقدى–فتوح الشام، ج١، ج٢–مكتبة المشهد الحسينى. وانظر: البلاذرى (أحمد بن يحيى)–فتوح البلدان –مؤسسة المعارف– بيروت، ١٩٨٧م، ص١٤٩، وما بعدها.

(٣) د. شوقى ضيف –مرجع سابق- ، ص٤٩٦، ما بعدها .

(٤) ابن كثير (أبو الفدا)، البداية والنهاية، ج١١، مكتبة المعارف، ط٢، بيروت، ١٩٩٠م، ص٢٧٦، وما بعدها .

(٥) انظر التفاصيل عند: فولشراف شارتر –تاريخ الحملة الصليبية- ترجمة د. أميرة مصطفى يوسف- ١٤٢٤هـ. وهذا الكاتب القس هو أحد شهود الأحداث وكان الساعد الأيمن لبلدوين الذى تولى عرش مملكة بيت المقدس وكان مستشارًا له. انظر: ستيفن رانسيمان – الحملات الصليبية من كلير مونت إلى أورشليم – ترجمة نور الدين خليل، ج١- الهيئة المصرية العامة للكتاب.، وانظر: ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج٦- المؤسسة المصرية للتأليف والنشر.

(٦) د. شوقى ضيف، مرجع سابق، ص٥١٦، وما بعدها .

(٧) انظر: ابن زنبل (أحمد الرمال)، واقعة السلطان الغورى مع سليم العثمانى، تحقيق/ عبد المنعم عامر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧م .

(٨) لمزيد من التفاصيل: انظر: على بن محمد اللمى الإشبيلى، الدر المصان فى سيرة المظفر سليم خان، تحقيق د/هانس ارنست، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٦٢م .

(٩) د/ سعد بدير الحلوانى – تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر مشرق ومغرب –ط٢- القاهرة، سنة ٢٠٠٠م، ص٢٢ .

(١٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة، وثيقة ٢٣٤- الترجمة التركية رقم ٧٩ محفظة ٢٣٤، من إبراهيم باشا إلى محمد على باشا، ١٨ من ذى الحجة ١٢٤٧هـ/ ١٩ مايو ١٨٣٢م .

(١١) انظر: دار الوثائق القومية بالقاهرة، وثيقة ١٣- محفظة ٢٦٦ عابدين- محرم أغا محافظة المدينة المنورة إلى باشمعاون الخديوى - ١٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٥٥هـ، وانظر: الوثيقة ٢١- محفظة ٢٦٦ عابدين –من الميرميران سليم بالجديدة إلى صاحب الدولة - ١٥ من جمادى الأولى ١٢٥٥هـ، ود/ سعد الحلوانى- تاريخ كل العرب – ص٢٩، ٣٠ .

(١٢) محمد فريد بك- تاريخ الدولة العليَّة – مكتبة الآداب، ط٢، مصر، ١٩٩٦م، ص٢٣٧

Stephen Iongringg: Syria and Lebanon under French Mandate Oxford 1955. PP. 91-92.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. تاريخ الدولة العلية محمد بك فريد.

٢. عصر الدول والإمارات ، مصر والشام، للدكتور شوقى ضيف.

٣. تاريخ كل العرب الحديث والمعاصر، للدكتور سعد الحلوانى.

الشرطة

فسر اللغويون الشرطة قالوا: هم أول كتيبة تشهد الحرب وتتهيأ للموت. وقيل: إنهم طائفة من أعوان الوالى يعلمون أنفسهم بعلامات (أشرطة) يعرفون بها.

وتتعدد الآراء حول نشأة هذه المؤسسة الإسلامية الهامة؛ فطبقًا لرواية الإمام البخارى عن أنس بن مالك - قال : " إن قيس بن سعد بن عبادة كان يكون بين يدى النبى ﷺ بمنزلة صاحب الشرطة من الأمير. وبهذا يكون نظام الشرطة فى الإسلام قد بدأ منذ عهد النبى ﷺ . ويذهب البعض إلى القول إنها انبعثت عن نظام العسس الذى بدأ فى عصر النبوة، وأول من عَسَّ بالليل عبد الله بن مسعود ﷺ، وكان الصديق ﷺ قد أمره أن يعس المدينة. والعسس لا يعنى التجسس بحال، فقد خرَّج أبو داود عن الأعمش عن زيد قال : أتى عبد الله بن مسعود فقيل له: هذا فلان نقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله بن مسعود ﷺ : إنا قد نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شىء نأخذه به .

بينما يرى البعض الآخر أن العسس توطدت أركانه فى عصر الفاروق عمر ابن الخطاب ﷺ، إذ كان يتولى ذلك بنفسه ومعه مولاه أسلم وقيل : ربما كان يصطحب معه عبد الرحمن بن عوف[1].

ويرى السيوطى أن عثمان بن عفان ﷺ كان أول من اتخذ صاحب شرطة، وبذلك تكون أول نشأتها فى عصر الخلفاء الراشدين [2] فى مدينة رسول الله ﷺ.

ويذهب آخرون إلى القول بأن عمرو بن العاص ﷺ هو أول من شرط شرطة فى الإسلام حين تولى إمارة مصر، وبذلك تكون أول شرطة قد نشأت فى الفسطاط ثم انتشرت بعد ذلك فى الأقاليم. وقيل إن معاوية بن أبى سفيان كان أول من استعمل الشرطة.

ويحدثنا الطبرى يقول: إن الشرطة فى العراق وفى البصرة قد وقفت مدافعة فى مواجهة الثوار الذين جاءوا إلى العراق بعد مقتل عثمان بن عفان ﷺ للمطالبة بالثأر من قتلته، ومواجهة على بن أبى طالب كرم الله وجهه، وكان لها دور هام فى حماية بيتى مال البصرة من عبث الثوار[3].

ومن ذلك نستطيع أن نقرر أن الشرطة نشأت فى عصر عثمان بن عفان ﷺ،

وكان لها مكان فى السوق وإنها قد مارست وظائفها فى حفظ الأمن والنظام، وإن علىَّ بن أبى طالب كرم الله وجهه قد نظم أمورها، وسمى رئيسها بصاحب الشرطة.

وشأن الشرطة فى نشأتها كشأن بقية النظم الإسلامية نشأت بسيطة ثم أخذت تنمو وتتطور وتزداد سلطات صاحبها ويعلو شأنها.

تحددت معالم الشرطة وقننت وظائفها فى العصر الأموى، لكنها كانت إدارة تنفيذ فقط ولا يقوم صاحبها بعمل إلا بأمر الخليفة فى العاصمة أو بأمر الوالى فى الأقاليم.

وفى عهد هشام بن عبد الملك ١٠٥-١٢٥هـ/ ٧٢٣- ٧٤٢م. استقلت الشرطة عن القضاء. ثم اتسعت سلطات الشرطة فى العصر العباسى وتأكد استقلالها، فقد رأى الخلفاء العباسيون ضرورة فصلها عن القضاء لتكون إدارة فاعلة فى حفظ النظام، وصون الأمن فى الداخل وبصفة خاصة وقت الحرب.

ويصف ابن خلدون الشرطة فيقول: "لم تكن سلطات الشرطة عامة التنفيذ فى طبقات الناس، لكن حكمها يكون على الدهماء وأهل الريب ويشمل الضرب على أيدى الرعاع والفجرة"[٤].

ويرى أن نشأتها كانت فى العصر العباسى كما يخبرنا أنه فى بلاد الأندلس قد اهتم بها بنو أمية، ومنحوا صاحبها اختصاصات هامة.

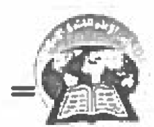
ويقسم الشرطة إلى: شرطة كبرى، وشرطة صغرى، وتختص الكبرى بالحكم فى الخاصة، وجُعِل لصاحبها الحكمُ على المراتب السلطانية، والضرب على أيديهم فى الظُّلامات، وعلى أقاربهم ومن إليهم من أهل الجاه.

أما الشرطة الصغرى فكان من مهامها مواجهة الدهماء والعامة والضرب على أيديهم فى الجرائم والمخالفات.

وكان ينصب لصاحب الشرطة كرسى بباب السلطان وحوله رجال يتبوأون المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنه إلا بتصرفه.

ويضيف أن وظيفة الشرطة كانت ترشِّح أصحابها للوزارء والحجابة.

وفى مصر كانت الشرطة تقع بجانب دار الإمارة، وهى الدار التى يسكنها أمراء مصر، فحين بنى الفضل بن صالح الوالى العباسى على مصر مسجد العسكر، بناه ملاصقًا لشرطة العسكر التى كان يقال لها الشرطة العليا.



ويجب أن تتوفر فى صاحب الشرطة الذى يسمى أيضًا: صاحب الليل وصاحب العسس شروط منها:

١- أن يكون حكيمًا مهيبًا.

٢- أن يكون دائم الصمت، طويل الفكر، بعيد الغور.

٣- أن يكون غليظًا مع أهل الريب.

٤- أن يكون نظره شَزْرًا، قليل التبسم، غير ملتفت إلى الشفاعات.

ولما كانت الشرطة تقوم على حفظ النظام والأمن داخل البلاد، وتتولى تنفيذ أوامر السلطان، وتنفيذ أحكام القضاء عند الحاجة إلى ذلك، ومساعدة عمال الخراج ومساعدة المحتسب إذا طلب ذلك بالإضافة إلى الإشراف على السجون وإدارتها، فقد تحددت اختصاصات صاحب الشرطة، ومن أهم تلك الاختصاصات: مراقبة المدينة والبلاد ومعرفة الداخلين إليها، وعليه أن يكلف أصحابه بمراقبة أبواب المدينة، وملازمة المحابيس، وتفتيش الأطعمة وما يدخل إلى السجون، وكانوا يُجْرُون الطعام والكسوة على المساجين صيفاً وشتاء.

وأول من فعل ذلك كان على بن أبى طالب كرم الله وجهه فى العراق، وفعل ذلك معاوية بن أبى سفيان بالشام، ثم من جاء بعده من الخلفاء.

وأوصى عمر بن عبد العزيز ﷺ باستخدام الرفق مع المساجين فقال: "لا تَدَعُنَّ فى سجونكم أحدًا من المسلمين فى وثاق لا يستطيع أن يصلى قائمًا، ولا يبيتَنَّ فى قيد إلا رجلا مطلوبًا فى دم، وأجروا عليهم من الصدقة ما يصلحهم وأدمهم".

وطوَّر فى وظائف الشرطة، فوضع على السجن قومةً اشترط أن يكونوا من أهل الخير والصلاح، وطالب بأن تثبت أسماء المساجين ومن تجرى عليهم الصدقة، يجرى ذلك على الرجال والنساء. وأكد ﷺ على ضرورة تطبيق الحدود عليهم دون زيادة فيها عما قرره الشرع.

وأوصى ﷺ بأن من يموت فى السجن ولم يكن له وَلِىَّ غُسِّل وكُفِّن من بيت مال المسلمين.

ومن واجبات صاحب الشرطة أيضًا، مراقبة المقاهى وأماكن اللعب، وتعمير سور المدينة إذا تهدم وهو يتعاون مع المحتسب، فإن كان فى بيت المال مال أخذ منه للإنفاق على تعمير ما تهدم من السور، وإن لم يكن هناك مال متوفر فى بيت المال لجأوا إلى أصحاب المُكْنة واليسار فأخذوا المال منهم طوعًا

لاستخدامه فى ذلك.

وقد ظلت الشرطة واحدة من النظم الإسلامية الهامة التى أنيط برجالها - صاحبها وأعوانه- حفظ النظام والأمن وحماية العدالة داخل أراضى الدولة الإسلامية، وحماية حدودها فى وقت السلم والحرب سواء بسواء.

أ. د / فتحيه النبراوى

الهوامش:

(١) انظر: الحسبة لابن الإخوة ص ٣١٦..، ونظام الحكومة النبوية (المسمى التراتيب الإدارية) تأليف الشيخ عبد الحى الكتانى- دار الكتاب العربى- بيروت. بدون تاريخ.

(٢) انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٦٥.

(٣) انظر تاريخ الطبرى جـ٤ ص ٦٦٤.

(٤) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٦٢٥.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ الماوردى : الأحكام السلطانية.

٢ـ ابن الأخوة . معالم القربة فى إحكام الحسبة.

٣ـ صبحى الصالح . (دكتور) النظم الإسلامية.

٤ـ فتحية النبراوى (دكتور) تاريخ النظم والحضارة الإسلامية.

الشعوبية

بين العروبة والشعوبية:

فى اعتقادى أننا لن يمكننا أن نحصل على مفهوم حقيقى للشعوبية دون أن نتعرف على المفهوم المقابل لها الذى أدى دوره فى مجابهتها ومساجلتها وأقصد به مفهوم العروبة.

ذلك المفهوم الذى كان يرقى إلى تأكيد الذات العربية بكل مقوماتها، ويمتد فى جذوره إلى ما قبل ظهور الإسلام[1].

ومن ثم فهو لم يكن أبدًا وليد تلك المرحلة التى واجهت فيها العروبةُ الشعوبيةَ.

فمن أى منطلق يمكننا أن نفسر موقف الحارث الكندى الذى رفض أوامر الملك الساسانى قباذ الذى طلب منه هدم مكة "البيت الحرام"؟[2].

ومن أى منطلق يمكننا أن نفسر تجمع القبائل العربية قبل الإسلام وانتصارها على الساسانيين فى معركة ذى قار ٦٠٩م وقد اعتبر هذا اليوم يوم انتصار وفخار للعرب أجمعين؟[3].

يضاف إلى ما سبق ما كان من عرب الجزيرة العربية وفرحتهم العارمة عندما انتصر "معد يكرب" على الأحباش وطردهم من اليمن، فقد تحرك وفد قريش من الحجاز وقطع الفيافى والقفار لتهنئة ملك اليمن؛ بل وألقى عبد المطلب زعيم قريش خطبة بين يدى الملك أكد فيها على معنى خطير ألا وهو أن مصيبة اليمن كانت مصيبة للعرب كلهم، كما أن نصر اليمن كان نصرًا للعرب كلهم[4].

وإذا كان الإسلام قد جاء بعد ذلك برسالة عالمية؛ فإن أحدًا لن يستطيع أن ينكر الأبعاد العربية فى هذا الدين، فقد صار الإسلام والعروبة وجهين لعملة واحدة، وقد قال الرسول ﷺ[5]: «ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم، وإنما العربية اللسان، فمن تكلم بالعربية فهو عربى».

وبعد هذا العرض يمكننا أن نعرض لمفهوم الشعوبية التى تعد حركة فكرية قامت بها جماعات غير عربية بهدف ضرب التراث والكيان العربى بكل مقوماته اللغوية والثقافية والحضارية... إلخ. بما فى ذلك ضرب الإسلام نفسه - فهما صنوان مترابطان- فهاجمت ذلك الدين وشككت فى عقائده وقيمه

ناشرة فكر الزندقة بجناحيها العسكرى، ممثلاً في فرق الخروج الفارسية العسكرية؛ والفكرى مُمَثَّلاً فى الحركات الإباحية سواء أكانت أدبية أم عقائدية.

علمًا بأن هذه الحركة لم تتخذ صورة المذهب ولم يكن لها طابع منتظم مثل حركات التشيع والخوارج، وإنما كانت آراء فكرية أدبية وعقائدية؛ وحركات ثورية متفرقة ومتناثرة يجمعها ذلك التوجه الشعورى العام الذى سبقت الإشارة إليه.

وبناءً على كل ما سبق يمكننا أن نجمع تلك المحاور التى دارت فيها صورة النزاع أو الصراع الشعوبى مع الرؤية العربية والإسلامية فى الآتى :

أ – المحور الاجتماعى:

بدا واضحًا فى محاولات الفرس لصبغ المجتمع العربى بالصبغة الفارسية فيما يخص مظاهر الحياة الاجتماعية.

وللحقيقة فإننا لن نستطيع أن ننكر ما كان يحمله الفرس من مظاهر حضارية اجتماعية متنوعة، وهنا سنرى الإسلام والحضارة الإسلامية قد تقبلت المعطيات الفارسية فى النواحى الاجتماعية؛ ما دامت لا تتعارض مع مُثُل وقيم ديننا الإسلامى الحنيف، وذلك مثل الطعام والشراب والملابس، وبعض نظم الحكم والإدارة، والتأنق فى فنون الحياة .. إلخ.

أما ما كان متعارضًا مع قيم ومبادئ هذا الدين فإن المجتمع الإسلامى رفضه وأصبح مظهرًا من مظاهر الصراع.

من ذلك على سبيل المثال "النسب" وأهمية النسب، حيث حرص الإسلام على الأنساب ومعرفتها حتى كان الصِّدِّيق ممن يشار لهم بالبنان فى هذا الأمر ولم ينكر عليه النبى ﷺ هذا الأمر.

بل إن العرب اهتمت بمعرفة أنساب خيولها مما يؤكد على أهمية النسب فى الحياة الاجتماعية العربية.

فى الوقت الذى لا تعرف الفرس فيه موضوع الأنساب، وإنما كانت تنسب الناس إلى أقاليمها فيقال: الكرمانى، والخراسانى .. إلخ (٦).

أما بالنسبة للعائلة فقد كان للعائلة عند الإسلام مكانة مرموقة مميزة إن لم تكن مقدسة بخلاف ما كان معروفا عند الفرس. حيث كان الزواج بالمحارم من الأمور الطبيعية فى دياناتهم وكذلك شيوعية أو إباحية النساء التى كانت أصلاً من أصول الخُرَّمية. هذا بخلاف حركات أخرى فارسية لم تشجع أصلاً على الزواج والارتباط، وفضلت الرهبنة



وهى مرفوضة فى ديننا الإسلامى الحنيف.

بقى أن نشير فيما يخص المحور الاجتماعى إلى ذلك الخلاف الذى حدث على موضوع الشعب والقبائل فى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾ (الحجرات:١٣).

فقد ذهب الطبرى المفسر الشهير للقول بأن الشعب أكبر من القبيلة من حيث العدد. وعلى ذلك تكون اليمانية والقيسية... إلخ وهى الشعب الرئيسية التى انحدر منها العرب بمثابة الشعوب.

أما تميم وبكر وشيبان فهى قبائل تنقسم بدورها إلى أفخاذ وبطون [٧].

وهذا يخالف توجه الفرس الذين اعتبروا الشعوب هم الذين لا يرجعون بأصولهم إلى جد أعلى [٨].

ولا أريد أن أترك هذه النقطة دون أن أشير إلى مخالفة وجهة النظر السابقة المتعلقة بالمحور الاجتماعى لما ذهبت إليه د/ زاهية قدورة [٩]، التى أنكرت أى دور للشعوبية فيما يخص الحياة الاجتماعية.

ب – المحور السياسى

لا أريد أن أبدأ الحديث فى هذا المحور مناقشًا فكرة الثورة العباسية وهل كان قوامها من العرب أم من الفرس، لأن مجمل البحوث التى دارت حول هذا الموضوع ناقشت هذه القضية ووصلت إلى حقيقة أن هذه ثورة عربية من آل البيت نفسه خرجت على ظلم الأمويين ولكن كان للفرس نصيب فيها حقدًا على الأمويين ولتعصبهم للعرب ونكايةً فيهم لموقفهم من غير العرب عامة والفرس خاصة.

وعلى أية حال فإن خلفاء بنى العباس عرب من نسل عم الرسول ﷺ، ومن ثم فإن الفرس وإن كانوا قد حاولوا أن يصبغوا فترة ونظم الحكم وإدارته فى العصر العباسى بصبغة فارسية، فإن عيونهم لم تكن تتطلع أبدًا إلى منصب الخلافة، ولكنها تطلعت لمنصب الوزارة، وقد حاولت هذه القوى أن تحقق من خلال هذا المنصب ما تعجز الخلافة نفسها عن تحقيقه، نلاحظ ذلك منذ فترة أبى مسلم الخراسانى ومرورًا بالبرامكة حتى بنى سهل [١٠]؛ ولكن سلطة الدولة العباسية العربية ضربت بيد من حديد على كل هذه التطلعات .

ولا أريد أن أدع المحور السياسى دون أن أشير إلى الشاهنامة [١١].وإشادتها بأبى لؤلؤة المجوسى مما يؤكد على قدم التوجه الشعوبى ومؤامراته ضد الإسلام

والمسلمين منذ العصور الأولى.

جـ - المحور الثقافى :

ويدور هذا المحور فى عدة اتجاهات منها : الاتجاه الأدبى. وهو المتمثل فى ذلك التراث الأدبى العظيم من شعر ونثر وحكم وأمثال ، فقد شككوا فيه ورفضوه، وكذلك عملوا على اختلاق وانتحال تراث أدبى ركيك وحاولوا نسبته إلى العرب [١٢].

كذلك حاول هؤلاء القدح فى اللغة العربية نفسها والتقليل من قيمتها وقدراتها.

وقد حاول المفكرون العرب مع الإشادة باللغة العربية وقدراتها المتنوعة أن يضفوا على هذه اللغة قدرًا من التوجه الدينى حيث اعتبروا تعلم هذه اللغة من الدين [١٣].

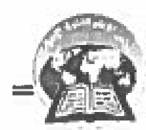
كذلك وجه الشعوبيون سهام صراعهم إلى التاريخ العربى، فادعوا أن ليس للعرب تاريخ قبل الإسلام، وأعتقد أن من يقرأ كتابات د/ عبد العزيز الدورى [١٤]. حول هذا الموضوع وهذه القضية سوف يتضح له الحق من الباطل ومن خلال كتابات العرب أنفسهم قبل الإسلام ؛ سواء عرب شمال الجزيرة أو جنوبها.

د ـ المحور الدينى:

أما محاولات الشعوبية فى المحور الدينى فنستطيع أن نُجْمِلها فى اتجاهين اثنين: ثورى وعقائدى، وكلاهما يقع تحت فكر الزندقة وتوجهها . وعلى ذلك تكون هناك زندقة ثورية، وزندقة عقائدية . أما الزندقة الثورية فهى لا تخفى على أى قارئ للتاريخ؛ فمنها على سبيل المثال حركة (بهافريد) التى تعد من أوائل الحركات الدينية السياسية الفارسية؛ حيث ظهر فى نيسابور وزعم أنه خليفة زرادشت ، وادعى أن الله أوصى إليه بكتاب مقدس باللغة الفارسية معارضًا القرآن العربى . ومن تلك الحركات"حركة سنباذ" التى ظهرت فى نيسابور، وادعى سنباذ فيها أن أبا مسلم لم يمت وأنه حى يرزق وسيعود ليعيد مجد المجوس، وبشر بالقضاء على الإسلام وإسقاط الكعبة . إلخ [١٥].

كما كان من تلك الحركات حركة " المقنَّع الخراسانى" [١٦]."وحركة "بابك الخُرَّمى" [١٧]. الذى دعا لدين الخُرَّمية.

والآن يمكننا أن نتحدث من خلال المحور الدينى للشعوبية عن الزندقة العقائدية. وبداية أود أن أشير إلى أن الزندقة العقائدية حقيقة واقعية؛ بحيث



كان لهؤلاء الزنادقة دين له عقائده وأركانه ومذاهبه وصلواته؛ بل وتلاوته، وأنا أريد أن أوضح هذه النقطة لأفصل بينها وبين مظاهر الخلاعة والمجون ، وإن كنت أرجع مظاهر الخلاعة والمجون للشعوبيّين وأثرهم، ولكن هذا يختلف تمامًا عن الزندقة العقائدية التى أشرت إليها سابقًا ، على أن قيادات الدولة فى العصر العباسى استطاعت بعد فترة أن تتعرف على كلا الصنفين وتتعامل معهما ، كل على قدر جرمه.

يؤكد على هذا المعنى موقف الدولة من أبى نواس ، حيث كانت معانى الزندقة غير واضحة عنده فكانت تعامله معاملة زنادقة العقيدة، وليس زنادقة الظرف والمجون فأودعوه سجن الزنادقة، وكان أبو نواس نفسه يخلط بين الأمرين، ولكنه تعرف فى سجنه على قراءات وصلوات الزنادقة فتأكد لديه هذا الفهم؛ وهو الفرق بين زندقة المجون والخلاعة التى يمكن أن يتهم بها أبو نواس؛ وزندقة العقيدة، تلك الزندقة التى حاربها المهدى وَجَدَّ فى حربها حتى قضى على أغلبها حتى عين للزنادقة وظيفة صاحب الزنادقة وهى تمثل دور جهاز أمن الدولة فى عصرنا الحالى [١٨].

ومما يؤكد على زندقة العقيدة ما حدث فى عصر المهدى؛ حيث وشى الوشاة بوزيره أبى عبيد الله، ومنهم الفضل بن الربيع، والذين وجدوا ضالتهم فى ابنه الذى تزندق، فوشوا به عند المهدى الذى استدعاه وسأله عن بعض آيات من القرآن فقرأ: "تباركت وعالموك بعظم الخلق"، فقال المهدى للوزير: "قم فتقرب إلى الله بذبح ابنك" [١٩].

وذكر فى هذا الصدد تلك الحرب المقدسة التى شنها المهدى على الزنادقة والتى كان يشتد فيها على العرب معتبرًا أن الزندقة إن صحت من أى جنس فلا تصح من العرب ، فمن هم - أى العرب- بدون الإسلام؟!

أ. د / أنس هارون نصر

الهوامش :

(١) انظر: د. أنس هارون: الإسلام والجنس العربى، " المقدمة ، مصر ١٩٩٦م.

(٢) كيستر: الحيرة وعلاقتها مع الجزيرة العربية ، مجلة بين النهرين، عدد ٧. بغداد ١٩٧٤م.

(٣) الطبرى : محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ. تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص ٦٠٠. بيروت، (د.ت).

(٤) المسعودى : أبو الحسن على بن الحسين، ت ٣٤٦هـ. مروج الذهب ومعادن الجوهر ج١ ، ص٢٤٧. تحقيق محيى الدين عبد الحميد ١٣٨٦هـ- ١٩٦٦م. مصر.

(٥) رواه الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهرى.

(٦) فاروق عمر: دكتور: الفكر العربى فى مواجهة الشعوبية، ص ٣١. سلسلة الموسوعة التاريخية الميسرة، بغداد ط ١، ١٩٨٨م.

(٧) فاروق عمر: نفس المرجع، ص ٣٢.

(٨) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة.

(٩) الشعوبية وأثرها الاجتماعى والسياسى فى الحياة الإسلامية فى العصر العباسى الأول. المقدمة ط١، ١٩٧٢م.

(١٠) الطبرى : مصدر سابق ، ج٦، ص ١٢٧- ٤٨٤ إلى غير ذلك.

(١١) ملحمة شعرية تقع فى أكثر من ستين ألف بيت، ترجمها نثرًا الفتح بن على البندارى إلى العربية ونشرها عبد الوهاب عزام بالقاهرة ١٩٣٢م.

(١٢) فاروق عمر: الفكر العربى فى مواجهة الشعوبية، ص ١٨.

(١٣) المرجع السابق ، نفس الجزء والصفحة .

(١٤) علم التاريخ عند العرب، ص ١٣- ١٤ . مصر ، بدون.

(١٥) الطبرى: مصدر سابق ج٦، ص ١٤٠.

(١٦) المصدر السابق ج ٦، ص ٣٦٧ .

(١٧) المصدر السابق ، ج ٧، ص ٢٦٣ والكثير من الصفحات .

(١٨) الرصد والطلب : بحث مرجعى للباحث تقدم به لنيل درجة الأستاذية من جامعة الأزهر،٢٠٠٢م.

(١٩) الطبرى مصدر سابق، ج٦، ص ٣٧١، ونص ما قرأ ابن أبى عبيد الله الوزير عن الجهشيارى: محمد بن عبدوس: الوزراء والكتاب . مصر (د.ت) .

مصادر ومراجع للاستزادة :

(١) ابن الأثير: أبو الحسن على بن أبى الكرم الشيبانى (ت ٦٣٠هـ) : الكامل فى التاريخ، بيروت . (د.ت).

(٢) الخضرى بك: الشيخ محمد ، تاريخ الأمم الإسلامية، الدولة العباسية، مصر، ١٩٧٠م.

(٣) السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر، (ت٩١١هـ)، تاريخ الخلفاء، ط٤، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

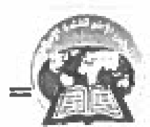
(٤) الطبرى: محمد بن جرير ، (ت ٣١٠)، تاريخ الأمم والملوك. بيروت . (د.ت) .

(٥) ابن كثير: عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمرن (ت ٧٧٤هـ)، البداية والنهاية، بيروت، (د.ت).

(٦) المسعودى: أبو الحسن على بن الحسين بن على المسعودى، (ت ٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر، جـ ٢. تحقيق/ محمد محيى الدين عبد الحميد، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، دار التحرير للطبع والنشر، مصر.

(٧) ابن الوردى: زيد الدين عمر بن مظفر(ت ٧٤٩هـ)، تاريخ ابن الوردى، بيروت ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م.

(٨) زاهية قدورة: الشعوبية وآثارها الاجتماعية والسياسية فى العصر العباسى الأول. مصر.



صحيفة المدينة

بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة كان من بين الخطوات الأولى الأساسية التى اتخذها لدعم كيان الدولة الإسلامية الناشئة أنه كتب كتابًا نظم فيه العلاقات بين مجتمع المدينة بكل عناصره السكانية. وقد تشكل مجتمع المدينة حينئذ من المهاجرين، والأنصار (وهم الأوس والخزرج)، واليهود الذين تكونوا من القبائل الأساسية الثلاث: بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة. وكان هناك - بالإضافة إلى هؤلاء -عدد قليل من الوثنيين الذين لم يكونوا قد اعتنقوا الإسلام بعد. وقد عُرف هذا الكتاب فى مصادر التاريخ الإسلامى باسم " صحيفة المدينة"، وهو الاسم الذى أطلقه الرسول ﷺ على هذا الكتاب فى غير موضع منه؛ فمن ذلك مثلا قوله: " وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فسادهُ فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله" . ويطلق الكثير من الباحثين المُحْدَثين على هذه الصحيفة مصطلح دستور المدينة The Constitution of Madinah أو: ميثاق المدينة The Charter of Madinah[1].

وسر هذه التسمية يكمن فى الأهمية البالغة التى تنطوى عليها هذه الوثيقة؛ فقد أصبحت المدينة بعد هجرة الرسول ﷺ إليها دولة متكاملة الأركان، تحققت فيها عناصر قيام الدولة من أرض وشعب وقيادة، وكان لابد لهذه الدولة من مبادئ دستورية تسترشد بها فى إدارة شئونها وفى تنظيم العلاقات بين عناصرها السكانية، فحققت صحيفة المدينة هذا الغرض على الوجه الأمثل. ولعل هذا هو السبب وراء التعجيل بإصدارها فى العام الأول للهجرة.

وتتألف هذه الصحيفة من سبعة وأربعين بندا كما قدّمها الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى فى كتابه المهم: "مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة"، وذلك بعد التحقق من صحة نصها من خلال الرجوع إلى العديد من المصادر التى روت هذه الصحيفة أو أطرافًا منها[2].

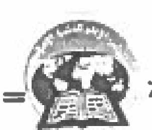
إن أول بند تبدأ به الوثيقة هو قوله ﷺ: " هذا كتاب من محمد النبى رسول الله، بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد

معهم" . وتستوقفنا فى هذا البند هذه العبارة: " ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم؛ " فهذه العبارة- كما يقول الدكتور توفيق الشاوى بحق- تفيد أن الرسول ﷺ " لم يقصر المواطنة على المؤمنين والمسلمين من المهاجرين والأنصار، وإنما أضاف إليها من تبعهم ولحق بهم. فاللحاق بالأمة هو كل عمل أو وضع يعنى الانضمام إلى مواطنيها ومشاركتهم فى مسئوليات المواطنة والتزاماتها. وإذا كان الانضمام باعتناق الدين الإسلامى فإن المواطن يكون من الأغلبية المسلمة بمقتضى إعلان الشهادة، أما إن كان من طائفة أخرى فإن انضمامه يكون بمقتضى عقد الذمة، وهو عقد دستورى"[٣] .

ثم يأتى البند الثانى ليؤكد أن المسلمين " أمة واحدة من دون الناس". وهذا يعنى أن العرب -بعد أن كان انتماؤهم قبل الإسلام قبليًا عِرْقيًا- أصبح انتماؤهم دينيًا، وهو الانتماء الذى اتسع ليشمل العرب وغيرهم من المنتمين لهذا الدين؛ فقد حلت رابطة العقيدة - إذن- محل رابطة القبيلة لتصهر المسلمين جميعًا فى بوتقة واحدة وتجعلهم أمة تجتمع تحت لواء واحد مهما اختلفت أعراقهم وألوانهم.

وتؤكد البنود التسعة التالية على حقيقة قد تلتبس لدى البعض وهى أن الإسلام لم يجئ ليهدم كل ما كان سائدًا لدى العرب قبل النبوة من عادات وتقاليد وأعراف اجتماعية، بل إنه يحتفظ من هذه العادات والتقاليد بما هو متفق مع قيمه ومبادئه، ويشجع أتباعه على التمسك بها[٤] . ففى البند الثالث جاء ما نصه: " المهاجرون من قريش على رِبْعَتِهم[٥] . ويتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين"؛ وهذا يعنى أن المهاجرين من قريش يسيرون على ما كانوا عليه قبل الإسلام فيما يتعلق بالتعامل فى الديات، أى يتعاونون فيما بينهم فى تحملها، ويقومون بفداء العانى منهم، أى الأسير. ثم يتكرر هذا المعنى فى البنود التالية، حتى نهاية البند الحادى عشر، مع بطون الخزرج والأوس.

ومن أهم ما يلفت النظر فى هذه الصحيفة تحديد وضع اليهود فى المدينة وأسلوب التعامل معهم. فقد جاء فى البند السادس عشر: " أنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم". هكذا ضمنت



الصحيفة لليهود فى المدينة- بمقتضى هذا البند -حقين أساسيين: أولهما حق النصرة؛ أى على المسلمين أن يعينوهم ويقفوا بجانبهم إن تعرضوا لأى أذى أو عدوانٍ من أى مصدر. والثانى حق الأسوة أى المساواة؛ فهم متساوون فى الحقوق والواجبات والحريات مع المسلمين بوصفهم مواطنين كاملى المواطنة.

وقد جاءت البنود من الرابع والعشرين إلى نهاية السادس والثلاثين لتلقى مزيدا من الضوء على وضع اليهود فى المدينة. فقد جاء فى البند الرابع والعشرين: " أن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ". وقد تكررت هذه العبارة فى البند الثامن والثلاثين لمزيد من التأكيد فاليهود إذن- بناء على هذا البند- يشتركون فى تحمل أعباء القتال مع المسلمين. وهذا البند عميق الدلالة لأنه يؤكد مبدأ المواطنة الكاملة لليهود، وهو ما سبقت الإشارة إليه؛ ومن هنا فإنهم مطالبون بتحمل تبعات الحروب التى يخوضها المسلمون ضد أعداء الدولة الإسلامية الناشئة. وبناء على ذلك لم تطالب الصحيفة اليهود بدفع الجزية لأنهم يشتركون جنبًا إلى جنب مع المسلمين فى الدفاع عن المدينة.

وجاء فى البند الخامس والعشرين:" أن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم، إلا من ظلم وأَثِم فإنه لا يُوتِغُ إلا نفسه وأهل بيته ". وتكرر هذا البند مع اليهود المتحالفين مع بني النجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وغيرهم من بطون الأوس والخزرج.

إن هذا البند المكرر يقرر عددًا من الأمور المهمة:، أولها أن اليهود جزء من مجتمع المدينة؛ فهم " أمة مع المؤمنين". وثانيها أن اليهود يتمتعون بحرية العقيدة؛ فبالرغم من أنهم جزء من مجتمع المدينة الذى يدين معظمه بالإسلام فإن لهم دينهم الذى لن يُكْرِهَهم أحد على التخلى عنه. أما الأمر الثالث فهو أن على اليهود أن يلتزموا بالقوانين المدنية لدولة المدينة. ولهذا جاء فيها: " إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ [أى لا يهلك] إلا نفسه وأهل بيته. فالذى يظلم ويأثم ولا يحترم القوانين المدنية للدولة يحق عليه العقاب الذى تقرره تلك القوانين .

ويقدم البند السابع والثلاثون مزيدًا من التأكيد والتفصيل فيما يتعلق بالعلاقة بين المسلمين ويهود المدينة ؛ حيث ذكر أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين

نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبرَّ دون الإثم". فبجانب التأكيد على النفقة المشتركة من الجانبين يؤكد هذا البند أيضًا أن اليهود والمسلمين يناصر بعضهم بعضًا إذا تعرضت المدينة للهجوم.

وينبغى أن نتوقف هنا عند هذه العبارة المهمة وهى: " أهل هذه الصحيفة"؛ فهى تعنى سكان المدينة جميعًا، سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، فكلهم شركاء فى المواطنة، وكلهم بمقتضى ذلك ملزمون بالدفاع عن الوطن المشترك.

وتحسم هذه الصحيفة قضية مهمة وهى الرئاسة المدنية للدولة الجديدة. فقد جاء فى البند الثالث والعشرين ما نصه: "وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله وإلى محمد". ويزيد البند الثانى والأربعون هذا الأمر تفصيلاً حيث يذكر" أنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة مِنْ حَدَثٍ او اشتجار يُخَافُ فساده فإن مردَّه إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ، وأن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأَبَرِّه". هكذا أصبح الرسول ﷺ - بمقتضى ذلك- هو الرئيس الأعلى للمدينة بكل عناصرها السكانية؛ فمن حقه أن يصدر حكمه الحاسم فى أى نزاع " يُخَافُ فساده"؛ أى يُخْشَى من العواقب السيئة لتطوراته. وهو النزاع الذى قد يحدث بين " أهل هذه الصحيفة"، أى أهل المدينة. فالرسول- بوصفه الحاكم المدنى للمدينة- يملك وحده حقَّ حسم هذا النزاع.

وتحدد الصحيفة طبيعة علاقة أهل المدينة بأعداء الدولة الناشئة وخاصة مشركى مكة؛ فهى تذكر فى بندها العشرين: " أنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفسًا...." وفى البند الثالث والأربعين والرابع والأربعين: " أنه لا تُجَارُ قريش ولا مَنْ نَصَرَها؛ وأن بينهم النصر على من دهم يثرب". فقد كان هناك قلة من الوثنيين فى المدينة عند الهجرة. وقد ألزمتهم هذه الصحيفة مع غيرهم من سكان المدينة ألا يقدموا الحماية أو الجوار لأحد من قريش أو لأحد من حلفاء قريش وأنصارها، وأن الجميع يتكاتفون للدفاع عن المدينة إذا هاجمها العدو.

فهذه هى أهم القضايا التى تناولتها هذه الوثيقة الفريدة. ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنها- بكل ما تناولته- ينبغى أن تحتل مكانها البارز فى صدارة الوثائق الخالدة فى التاريخ.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) انظر على سبيل المثال لا الحصر: د. توفيق الشاوى: فقه الشورى والاستشارة. دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثانية ١٩٩٢م، ص ٣٢٠؛ د. محمد سليم العوا: فى النظام السياسى للدولة الإسلامية دار الشروق، القاهرة ١٩٨٩، ص ٥٠ . وانظر أيضًا:

W.M. Watt: Muhammad, Prophet and Statesman. Oxford 1961, p.94. S. Ameer .Ali: A Short History of the Saracens, London 1961, P. 12.

(٢) انظر النص الكامل لهذا الصحيفة فى كتاب الدكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى: مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة. طبعة هيئة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤١، ص ١ـ ٧.

(٣) د. توفيق الشاوى : مرجع سابق، ص ٣٢١.

(٤) انظر: د. محمد سليم العوا، مرجع سابق، ص ٦٠ ـ ٦١.

(٥) على رِبْعتهم (بكسر الراء): أى على الحال التى جاء الإسلام وهم عليها.

مراجع للاستزادة:

١. د. توفيق الشاوى: فقه الشورى والاستشارة . دار الوفاء. المنصورة ١٩٩٢م

٢. د. محمد سليم العوا: فى النظام السياسى للدولة الإسلامية، دار الشروق ١٤١٠هـ/١٩٨٩م .

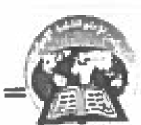
٣. W.M.Watt: Mahammad at Medina. Oxford 1956

الصَّفَّاريون

ينتسب الصفاريون ودولتهم التى عرفت بالدولة الصفارية (٢٥٤- ٢٩٠هـ/ ٨٦٨- ٩٠٢م) إلى مؤسسها وزعيمهم يعقوب بن الليث الصفار[١]، وهو رجل مغامر كان أحد زعماء المطوعة سنة ٢٣٧هـ /٨٥١م[٢]، انتهز فرصة ضعف الخلافة العباسية فى عصرها الثانى[٣]،واضطراب الأحوال السياسية فيها وتغلُّب عنصر الترك على خلفائها، فغلب على أقاليم فارس الجنوبية سجستان(سيستان)، وقد كان المسلمون قد فتحوا سيستان فى خلافة عثمان بن عفان ﷺ عامى (٣٠ و٣٣هـ/٦٥٠- ٦٥٣م) وكانت ملجأً للخوارج، ثم غلب على كل فارس بعد أن ضم إليه خراسان بعد فتح نيسابور سنة ٢٥٩هـ/٨٧٢م وأسقط الدولة الطاهرية[٤] التى كانت تحكم بلاد فارس قبلهم، وبسط سلطانه على وادى كابل والسند ومكران وكرمان[٥].

ولم يكن يعقوب فى بادئ الأمر يريد الاستقلال عن الدولة العباسية وإنما كان يرغب فى أن يكون أميراً مستقلاً تابعاً لدولة الخلافة وبذلك يتم له الاستيلاء على البلاد التى كانت خاضعةً لنفوذ الطاهريين. ولما وقف على ضعف الطاهريين تقدم إلى فتح خراسان واستولى على عاصمتهم نيسابور، كما استولى على الأهواز واستطاع أن يحمل الخليفة العباسى المعتمد على الاعتراف بسلطته على البلاد التى ضمها إلى حوزته سنه(٢٦١هـ/٨٧٤/٨٧٥م) . ولم يكتف يعقوب بما استولى عليه من بلاد بل امتد بنظره إلى فتح بغداد ووضع دولة الخلافة تحت نفوذه. لكن دولة الخلافة كانت قد انتعشت واستردت عافيتها فى عهد الخليفه المعتمد على الله وأخيه الموفق طلحه، ثم فى عهد الخليفة المعتضد بالله، ابن الموفق طلحه[٦]، ومن هنا تصدت لتطلعاته التسلطيه وأوقفت نزعته الاستبداديه، وكان ذلك من أكبر الأسباب فى قصر عمر هذه الدولة وسرعة سقوطها ونهايتها[٧].

ولقد كانت علاقة الصفار بدولة الخلافة علاقة سيئة من بادئ الأمر، ولم تَصْفُ نفوس خلفاء العباسيين له بسبب طموحه الزائد وأطماعه فى السيطرة على العراق وعاصمتها بغداد. ولذلك أصدر الخليفة المعتمد منشوراً بعزل الصفار عن



حكم خراسان ولعنه من فوق المنابر، وأرسل الخليفة بذلك ثلاثين نسخة من هذا المنشور إلى سائر الأنحاء.

ولما لم يتمكن الخليفة المعتمد من وقف زحف الصفار على العاصمة بغداد وتخوَّف من نجاحه فى ذلك، تنازل عن سلطاته لأخيه الموفق طلحه؛ الذى نجح فى إيقاع الهزيمة بجيش الصفار الزاحف على العاصمة بغداد فى رجب سنة ٢٦٢هـ/٨٧٦م ، وقد جرت هذه المعركة عند (دير العاقول) شرقىَّ دجله بين بغداد والمدائن، وكان النصر فى بداية الأمر للصفار إلا أن المعركة انتهت لصالح جيش الخليفة. وقد أصيب الصفار بثلاثة جروح فى عنقه ويديه[٨].ورغم انشغال الموفق طلحه آنذاك بمحاربة جماعه الزنج والقضاء على ثورتهم[٩]، إلا أن الصفار انسحب بجيشه من أمام بغداد إلى نيسابور[١٠].

ولم يلبث الصفار أن توفى يوم الإثنين العشرين من شهر شوال سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م، فى مدينه جنديسابور، ودُفِن بها[١١].

وقد بلغت مدة إمارته نحو سبع عشرة سنةً وعشرة شهور[١٢]. ولما لم يكن يعقوب قد تزوج قط وليس له أولاد فقد جعل أخاه عمرو بن الليث ولياً لعهده قبل وفاته وحاكماً للبلاد بعده.

وقد كانت مدينه زرنج من بلاد سيستان القديمة عاصمة ليعقوب وكان فى حوزته بلاد خراسان وسيستان وكرمان وفارس وكابل. وكان يعقوب يقرر أمور دولته بنفسه وظل فى حياته الخاصة جندياً يرتدى الملابس القطنية ووجه كل اهتمامه إلى تكوين جيش مطيعٍ له،وقد خُطِب ليعقوب من فوق منابر مكة والمدينة بأمر من الخليفة لسبع سنوات وبلغت شهرته فى أيامه فى البلاد المحيطة به أقصاها،وكان يطلق عليه ملك الدنيا.

ويقول المؤرخ الجغرافى المسعودى[١٣] عنه: "كانت سياسة يعقوب بن الليث لمن معه من الجيوش سياسة لم يسمع بمثلها فيمن سلف من الملوك من الأمم الغابرة من الفرس وغيرهم ممن سلف وخلف، وحسن انقيادهم لأمره واستقامتهم على طاعته لما كان يشملهم به من إحسانه ولما غمرهم من بره وملأ قلوبهم من هيبته.... وكان من سنته أن للقواد والرؤساء والعظماء عنده مراتب فى الدخول بباب مضربه بحيث تقع عينه عليهم ويرى مداخلهم فيمرون مع أطناب الشقاق إلى خيمة مضروبة بحيث لا يرى

هو موضعها لكنه يرى مداخلهم إليها ومخرجهم منها، فمن احتاج إليه منهم واحتاج إلى كلامه أو أمره أو نهيه دعاه فأمره".

ولما توفى يعقوب بن الليث الصفار سنة ٢٦٥هـ /٨٧٨م، بايع الجند أخاه عمرو بن الليث الصفار.

وقد رأى عمرو عند تسلمه أمر الحكم تفرق الجيش وتشتت الجند بعد الهزيمة التى وقعت لهم من قوات الخليفة وتعبهم وبعدهم عن وطنهم فى سجستان وتذمرهم بسبب ذلك ورأى أن من مصلحته أن يصالح الخليفة المعتمد، فبعث إليه برسالة أظهر له فيها طاعته. فمنحه الخليفة منشوراً[١٤] يحكم بمقتضاه كرمان وأصفهان وسجستان وطبرستان وشرطة بغداد مكافأة له شريطة أن يرسل له فى كل عام خراجاً قدره عشرون ألف درهم وأن يذكر اسم الخليفة فى الخطبة إلى جانب اسمه، فوافق عمرو على ذلك[١٥]. وعاد عمرو من جنديسابور إلى سجستان.

ولقد كان من أسباب موافقة الخليفة المعتمد على تولى عمرو أمر البلاد التى هو عليها ما كان واقعاً فى دولة الخلافة من خلاف بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق طلحة وانشغال الموفق طلحة بالقضاء على ثورة الزنج. ولما قضى الموفق على هذه الثورة التى أقلقت الدولة العباسية مدة أربعة عشر عاماً سنه ٢٧٠هـ/٨٨٣م، تفرغ للصفاريين وصمم على القضاء على قوتهم. ولما لم ينه الموفق طلحه هذا الأمر تركه من بعده لابنه أحمد الذى تولى الخلافة بعده سنة ٢٧٩هـ /٨٩٢م باسم الخليفة المعتضد بالله. ولقد أظهر عمرو ولاءه للخليفة المعتضد[١٦]، وأرسل أموالاً وهدايا له وطلب منه أن يسمح له بضم جميع بلاد ما وراء النهر لدولته.

ولما كانت هذه البلاد قد سقطت فى يد السامانيين فى عهد أميرهم إسماعيل ابن أحمد السامانى[١٧]؛ انتهز المعتضد هذه الفرصة ليضرب عدواً بعدو له، أى يضرب الصفاريين بالسامانيين. وبالفعل وقعت الحرب بين الفريقين عند بلدة بلخ وانتهت بهزيمة عمرو الصفار وأسره آخر ربيع الآخر سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠م، وإرساله إلى بغداد ليسجن هناك حتى وفاته سنة ٢٨٨هـ /٩٠١م[١٨] مقتولاً فى السجن على يد وزير الخليفة المكتفى بن المعتضد[١٩].

وخلال الأعوام العشرة المتبقية من حكم الصفاريين بعد وفاة عمرو الصفار، أى حتى سنة ٢٩٩هـ /٩١١م، وهو العام الذى انتهى فيه أمر هذه الدولة نهائيًا، نجد أن أحوال الدولة الصفارية



بعد عمرو تتدهور، ونجد دولة الخلافة تتحالف مع السامانيين بهدف القضاء عليه، حتى تم ذلك بالفعل وزالت دولتهم نهائياً سنة ٢٩٩هـ /٩١١م.

ولقد جاء اسم طاهر بن محمد بن عمرو فى الخطبة على بلخ فى المحرم ٢٩٦هـ / سبتمبر ٩٠٨م كحاكم لسجستان، وقد كان شاباً ميالاً للهو واللعب بالحمام وقضاء وقته فى الشراب. و لم يمض وقت طويل حتى جاء إلى سجستان الليث بن على بن الليث الصفار وهو ابن أخى يعقوب وعمرو الصفاريين واستولى على بلاد سجستان مما اضطر طاهرًا للفرار سنة ٢٩٨هـ =٩٠٨م . وورد أنه تولى بعده حكومة سجستان ابنه محمد بن على بن الليث فى شهر المحرم سنه ٢٩٨هـ/سبتمبر٩١٠م حتى ذى الحجة من نفس العام. ثم حكم من بعده معدل بن على بن الليث بعض الوقت، إلى أن قام أحمد بن إسماعيل السامانى بأسر جميع من تبقى من آل الصفار وجعل حكومة سجستان لابن عمه أبى صالح منصور بن إسحق سنة ٢٩٩هـ /٩١١م. وبقيت حكومة سجستان فى أيديهم إلى أن نجح خلف بن أحمد، وهو حفيد إحدى بنات عمرو بن الليث الصفار، فى الاستيلاء على سجستان. إلا أن خلفاً هذا لم يستمر فى الحكم بسبب وقوعه أسيراً فى يد الغزنويين[٢٠]، حين استولى السلطان محمود الغزنوى على سجستان، وقد قام محمود بسجنه فى بلدة جرجان، إلى أن توفى أثناء نقله من سجن لآخر فى شهر رجب سنة ٢٩٩هـ / فبراير ٩١٢م[٢١].

ومنذ ذلك العام لم يذكر المؤرخون اسماً من أسماء بيت الصفار فى بلاد فارس وبلاد سجستان.

ولقد كان الصفاريون يعتنقون المذهب السنى[٢٢]، مذهب الخلافة العباسية، ويدعون للخليفة العباسى من فوق منابر مساجدهم لاكتساب رضاء جماهير دولتهم. ومع ذلك فقد حاولوا تحديد سلطة الخليفة العباسى رغم كونها سلطة اسمية؛ فأمر يعقوب بن الليث بذكر اسمه فى الخطبة مع اسم الخليفة، كما نقش أخوه عمرو اسمه على الدنانير إلى جانب اسم الخليفة. ولم يقم الصفاريون بأداء جزية منتظمة ولا خراج منتظم لحكومة بغداد. ولتأييد الطبقات الفقيرة فى سجستان لهم قاموا بتطبيق مبادئ العدل والمساواة بينهم؛ الأمر الذى أدى إلى حب هذه الطبقات لهم وتمنيهم دوام دولتهم[٢٣].

الهوامش:

(١) بدأ يعقوب الصفار حياته بالتكسب من صناعة الصفر(النحاس الأصفر والأحمر) فى قريه تدعى قرنين من إقليم سجستان، وكان أبوه كذلك، ثم انتقل إلى جماعة العيارين وقطاع الطرق الخوارج المعارضين لحكم الدولة العباسية (عطية القوصى، تاريخ الدول المستقلة عن الخلافة العباسية، القاهرة ١٩٩٣، ص ٤٩).

(٢) حسن إبراهيم حسن: "تاريخ الإسلام السياسى" ، ج ٣، القاهرة ١٩٦٤، ص ١٤٢.

(٣) يقسم المؤرخون حكم الدولة العباسية للعالم الاسلامى إلى عصرين : العصر العباسى الأول، وهو عصر قوة الدولة فى الفترة مابين سنوات ١٣٢ و ٢٣٢ هـ =٧٤٩- ٨٤٧م، والعصر الثانى وهو عصر نفوذ القواد الأتراك فى الفترة من ٢٣٢هـ=٨٤٦م حتى نهاية دولة الخلافة سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م

(٤) الدولة الطاهرية هى دولة فارسية تنتسب إلى القائد طاهر بن الحسين (٢٠٥- ٢٥٩هـ / ٨٢٠- ٨٧٢م). وهى أول دولة تظفر بشبه استقلال عن حكومة بغداد فى الشرق. وكان طاهر بن الحسين من قواد الخليفة المأمون وكان موضع ثقته فمنحه ولاية البلاد الواقعة إلى الشرق من بغداد. وقد اتخذ الطاهريون من نيسابور قاعدة لهم.

وقد كان الطاهريون يدفعون جزيه سنوية لدار الخلافة، وظلوا أنصاراً مخلصين للعباسيين(محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، القاهرة ١٩٥٦، ص ٧٩)

(٥) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج١١، ١٩٦٠، ١٦١.

(٦) حكم المعتمد على الله الدولة العباسية من سنة ٢٥٦ إلى ٢٧٩هـ وحكم المعتضد بالله، ابن الموفق طلحه من سنة ٢٧٩ حتى ٢٨٩هـ =٨٩٢- ٩٠١م. (القوصى: تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٥، ص ١٤٥و١٤٦)

(٧) كان محمد بن طاهر آخر حكام الدولة الطاهرية (٢٤٨- ٢٥٩هـ=٨٧٢م) أميراً ماجناً مال إلى اللهو والعبث فضعف أمره كحاكم وعجز عن إخضاع الثورات التى قامت ضده. ولما ازدادت الاضطرابات فى الدولة الطاهرية استنجد أهل خراسان بالأمير يعقوب بن الليث الصفار لإعادة الأمر إليهم، فوجد الأمير الصفارى الفرصة مواتية له لتوسيع رقعة دولته على حساب الدولة الطاهرية المتداعية فزحف بجيشه إلى نيسابور سنه ٢٥٩هـ=٨٧٢م وقبض على محمد بن طاهر وعلى أهل بيته، وبذلك زالت الدولة الطاهرية (عصام الدين عبد الرؤوف: الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٧، ص ٢٢٩ و٢٣٠)

(٨) بعد هزيمة الصفار على يد جيش الخليفة أرغم الصفار على العودة إلى خوزستان دون أن يفتر عزمه ليجمع جيشاً آخر للانتقام لهزيمته التى كانت أول هزيمة له فى فتوحاته(عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة محمد علاء الدين منصور، القاهرة ١٩٩٠، ص١١٠و ١١١)

(٩) قام بثوره الزنج الزنوج الأفارقة الذين جلبوا إلى بلاد العراق من إفريقيا بواسطة تجار الرقيق وكانوا يعملون سخرة فى إصلاح الأرض المالحة حول مدينة البصرة ويكسحون طبقات الملح المتراكمة فوق هذه الأراضى بفعل مد الخليج. ولقد كان مسرح هذه الثورة المنطقة الممتدة مابين مدينتى البصرة وواسط. ولقد كانت أوضاع هؤلاء الزنوج غاية فى السوء والامتهان؛ الأمر الذى دفعهم بالثورة على دولة الخلافة بقياده رجل يدعى على بن محمد ادعى أنه ينتسب إلى آل البيت(القوصى: نفس المرجع، ص ١٥٥).

(١٠) عبد العزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، بغداد ١٩٤٥، ص ١١٦.

(١١) كان يعقوب بن الليث بن الصفار قد ذهب إلى هذه المدينة ليعالج فى مارستانها الشهير من مرض القولنج (القولون العصبى)، واستمر يعالج هناك مدة ١٦ يوماً توفى بعدها ولم يفلح معه العلاج (القوصى: تاريخ الدول المستقلة عن الخلافة العباسية، القاهرة ١٩٩٣، ص ٥٠ و٥١).

(١٢) عباس إقبال، نفس المرجع السابق، ص ١١٣.

(١٣) مروج الذهب ومعادن الجوهر، القاهره ١٩٢٨، ج ٤، ص ١٤١.

(١٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ٣، ص ١٤٨.

(١٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، القاهرة ١٣١٠هـ ، ج ٢، ص ٣١٦.

(١٦) كان صاحب الزنج قد راسل عمرو الصفار وطلب منه أن يساعده فى حرب دولة الخلافة، فرفض طلبه فى ازدراء (ابن الأثير: الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٧٩، ج ٧، ص ١٠٣).

(١٧) هو أشهر حكام الدولة السامانية التى حكمت بلاد فارس وما وراء النهر فى الفترة مابين سنة ٢٦١ حتى ٣٨٩هـ=٨٧٤- ٩٩٨م . ولقد حكم إسماعيل السامانى أكثر من ثلاثين عاماً، وتوفى سنة ٢٩٥هـ / ٩٠٧م. ولقد توحدت بلاد فارس وبلاد ما وراء النهر جميعها تحت حكم هذا الحاكم السامانى الكبير (الكرديزى: زين الأخبار، القاهره ١٩٨٢، ص ٢٣٦).

(١٨) القوصى: نفس المرجع السابق، ص ٥١و٥٢.

(١٩) عباس إقبال: نفس المصدر السابق، ص ١٢٥.

(٢٠) عباس إقبال: نفس المصدر، ص ١٣١.

(٢١) القوصى: تاريخ الدول المستقله ص ٥٢.

(٢٢) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٨١.

(٢٣) عبد العزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، ص ١١٨و١١٩.

مصادر ومراجع للاستزادة :

- أبن الأثير: الكامل فى التاريخ، ج ٧ و٨، بيروت ١٩٧٩.
- أحمد محمود الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضارتها، القاهرة ١٩٧٩.
- بوزورث: الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى، ترجمة حسين اللبودى، القاهرة ١٩٩٥.
- حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ٣، القاهره ١٩٤٦.
- حسن احمد محمود وأحمد إبراهيم الشريف: العالم الأسلامى فى العصر العباسى، القاهرة ١٩٧٧،
- عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجرية (٢٠٥- ١٣٤٣هـ / ٨٢٠- ١٩٢٥م)، نقله عن الفارسية وقدم له وعلق عليه د. محمد علاء الدين منصور، القاهرة ١٩٩٠.
- عبد العزيز الدورى: دراسات فى العصور العباسية المتأخرة، بغداد ١٩٤٥.
- عبد الناصر إبراهيم عبد الحكم: تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ٢٠٠٢.
- عصام الدين عبد الرؤوف الفقى: الدول المستقلة فى الشرق، القاهرة ١٩٨٧.
- عصام الدين عبد الرؤوف الفقى:الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٥.
- عطية القوصى: تاريخ الدول المستقلة عن الخلافة العباسية، القاهرة ١٩٩٣.
- عطية القوصى: تاريخ الدولة العباسية، القاهرة ١٩٨٤.
- عطية القوصى:الحضارة الإسلامية، القاهرة ١٩٨٥.
- الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك، ج ١١، القاهرة ١٩٦٠.
- محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق، القاهرة ١٩٦٥.
- المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج ٤، القاهرة ١٩٣٨.
- ميرخوند : روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء،ترجمة أحمد الشاذلى، القاهرة ١٩٨٨.
- النرشخى: تاريخ بخارى، ترجمة أمين بدوى(د.ت).

المراجع الأجنبيه:

- Barthold, V: Studies in the History of Central Asia, Leiden 1962
- Bosworth, C: The Medieval History of Iran, Afghanistan and Central Asia, London 1977.
- Browne: A Literary History of Persia, London 1970.

الصفويون (دولة)

بدايتها:

تنسب هذه الدولة إلى صفى الدين الأردبيلى (٦٥٠- ٧٣٥هـ/ ١٢٥٢-١٣٣٤م) الذى كان شيخًا لطريقة صوفية[١]، وهو الجد الأعلى للشاه إسماعيل الأول الذى كان له النصيب الأوفر فى تأسيس هذه الدولة عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠٢م[٢].

وكانت مدينة أردبيل عقر دار طريقة الشيخ صفى التصوفية[٣].

وقد حظيت طريقة الشيخ صفى بجمع كبير من المريدين ازدادوا عددًا ليس فى إيران فحسب بل فى الولايات التركية والشام والعراق بتأثير دعاياتهم القوية خاصة بعد زواجه من فاطمة ابنة الشيخ زاهد الجيلانى[٤]. الذى أوصى بتولى الشيخ صفى مقام الإرشاد للطريقة، وسارت أخلاقه على هذا النهج[٥].

ويصف حسين بير زاهدى [صاحب سلسلة النسب صفوية] الشيخ صفى بما يلى: "كان مربوع القد، لحيم الخد، عريض اللحية، كثير المحاسن، كحيل العينين، غليظ الحاجبين".

كان التصوف قد بدأ يشق طريقه إلى المجتمع الإيرانى فى هذا الوقت، وأخ فرق الدراويش تنتشر ويقوى ساعد كنتاج طبيعى لحالة الفساد الذى انت فى العالم الإسلامى عامة أثناء حك المغول والتيموريين من بعدهم من جه وكرد فعل لما تركه هذا الحكم آثار نفسية مدمرة فى نفوس الناس م جهة أخرى[٦].

وبذلك تحولت فرقة الدراويش الت كان يتزعمها الشيخ صفى إلى مرك مذهبى لبث الدعوة الشيعية، ووجدت ذلك المساندة من بعض العناصر الإيراني وبدأ رؤساء الطريقة من أولاد الشي صفى المتأخرين كجنيد وحيدر وسلط على يطالبون بالتاج والعرش إثباتا لحقهم وتبدلت الدعايات المذهبية إلى مطال سياسية[٧].

ولا ينبغى التسليم مباشرة بتشيع الشي صفى لأسباب عدة منها: أن حمد الله المستوفى القزوينى قال فى شأن سكا أردبيل[٨]: وأكثرهم على مذهب الإما الشافعى، وهم من مريدى الشيخ صفى الدين الأردبيلى.

كما أن عبيد الله خان قائد الأوزبك

كتب فى عام ٩٣٦هـ/ ١٥٣٠م إلى الشاه طهماسب ثانى ملوك هذه الدولة مشيرًا إلى تسنن الشيخ صفى بقوله: "لقد كان رجلاً عزيزًا ومن أهل السنة والجماعة"[٩].

غير أنه يبدو أن الشيخ صفى كان سنى المظهر على مذهب الإمام الشافعى شيعى المخبر على المذهب الجعفرى، يقول ابن البزاز- أول من أرخوا للصفويين فى كتاب صفوة الصفا[١٠]- إن الشيخ صفى كان يكتم المذهب الجعفرى. وقد تبين ذلك من إحدى رباعياته التى يقول فيها ما ترجمته:[١١].

- صاحب الكرم الذى يصفح عن أخطاء كثيرة؛ اسعد يا صفى فإنه يغفر ذنبنا.

- ومهما يخطئ ذلك الذى فى قلبه حب لعلى؛ فإن الله يصفح.

وقد يكون هذا صوابًا إلى حد كبير؛ فسرعان ما جاهر خواجه على سياهبوش حفيد الشيخ صفى بالدعوة الشيعية، وكان عنوان ذلك اللباس الأسود إلى أن جاء السلطان حيدر أبو إسماعيل، وأكد صلة نسب أجداده بالإمام موسى الكاظم. ومنذ ذلك الحين أصبحت الأسرة الصفوية تعتبر نفسها من آل البيت[١٢].

والجدير بالذكر أن الهدف من اعتناق أخلاف الشيخ صفى للمذهب الشيعى هو اكتساب مقدرة سياسية أكبر فى إيران. وقد استفادوا فى ذلك من تجربة السربداريين[١٣] التى سبقتهم، وكانت تعتمد على التعاليم الشيعية.

وبدون الدخول فى تفاصيل فقد ساعدت بعض العوامل شيوخ الصفويين على الانتقال من رجال تصوف إلى مؤسسى دولة ذات أهداف سياسية ومذهبية غيرت وجه التاريخ الإيرانى بعد الإسلام[١٤].

جيشها:

تهيأ المناخ للابن السادس إسماعيل فأعلن قيام الدولة مستفيدًا من مركزه الروحى والمعنوى، ومستخدمًا أفراد قبائل القزلباش الذين لا يهدفون إلى شىء سوى التضحية فى سبيل نصرة شيخهم ومرشدهم[١٥]. فمن هم القزلباش؟.

لا يمكن أن يُغْفل دارسو العصر الصفوى النظر إلى محاولة أولاد الشيخ المرشد (بير مرشد) لتجميع قبائل القزلباش على أنها كانت عملية ذكية وموفقة من جانبهم من أجل إرساء الكيان الصفوى.

وتتشعب مجموعات القزلباش

التركمانية إلى تسع قبائل هى: روملو، وشاملو، واستاجلو، وتكهلو، وذو القدر، وأفشار، ورساق، وصوفية، وقراباغ. وما ينبغي أن يقال هنا إن مجموعة من رؤساء هذه القبائل كانت قد اعتنقت المذهب الشيعى منذ زمن طويل، وانخرطوا فى زمرة (صوفيان صافى) أو مريدى شيوخ الصفوية الشجعان، إلى أن جاء جنيد وحيدر وشرعا يغزوان من أجل الوصول إلى السلطة اعتمادًا على فدائية هؤلاء القوم وإخلاصهم، وأضافا لقب السلطان على لقبيهما الروحى الموروث (الشيخ) .

والشىء الذى كان يجمع أفراد هذه الطوائف ويوحد بينهم هو حب الشاه والتضحية فى سبيل تحقيق مقاصد المرشد الكامل المقدسة التى تنحصر فى دعم الكيان الصفوى، وإقرار المذهب الشيعى الإثنى عشرى.

وقد كان رجال القزلباش يعدون الشاه إسماعيل- ولم يكن له من العمر أكثر من ثلاث عشرة سنة - مثل أبيه وأجداده مرشدًا كاملاً، التبعيةُ له لازمة وتنفيذ أوامره واجب.

إذن، فعندما ظهر إسماعيل كانت دعايات جده ووالده القائمة على أساس مذهبى فى مظهرها ورغبة فى كبـ سلطوى فى جوهرها قد حققت الغا المنشودة. بل إنها استوجبت ظهور رد فـ قوى ضد الأسر الحاكمة فى إيران التى تدين بالمذهب السنى.

وقد بدا أثر هذه الدعايات واضحًا بين المقيمين فى المدن الغربية من إيران، ذلك أنهم كانوا على استعداد منذ زمن غير بعيد لقبول مذهب جديد معارض للمذهب السنى.

ملوكها:

وقد تعاقب على حكم الصفويين عبر قرنين ونصف من الزمان ملوك كان لكل منهم دوره فى بناء هذه الدولة وترسخه إيجابًا وسلبًا فى العلاقات مع العثمانيين من جهة وإقرار المذهب الشيعى الإثنى عشرى من جهة أخرى. فها نحن نرى إسماعيل الأول مؤسسًا ومقررًا للمذهب ومحاربًا للعثمانيين وحلفائهم الأوزبك فيما وراء النهر [١٦] ببذله الجهود المضنية؛ فعلى سبيل المثال اختار الشيخ شمس الدين اللاهيجى - الذى سبق أن تولى تربيته وتعليمه فى لاهيجان - حاملاً للأختام الملكية، كما نقب عن كتاب يتخذه الناس أساسًا للفقه الشيعى فلم يجد إلا كتاب قواعد الإسلام للفقيه

ابن المطهر الحلى[١٧].

أما الملك الثانى فهو طهماسب الذى زاد حكمه على خمسين عامًا، هاجم فيها الدولة العثمانية، وانتهز الهدنة معهم فى تدعيم مقاصد الصفويين، وتقليم أظافر القزلباش الذين انصرفوا فى زمانه للأغراض الدنيوية دون المقاصد المذهبية والمعنوية.

وقد ساعدته فترة حكمه الطويلة على أن يعقد اتفاقية هدنة مع العثمانيين حول قلعة "قارص"، منطقة نزع سلاح بين الدولتين مستفيدًا فى ذلك من نظيره العثمانى الذى كان يهتم بالمعرفة ويتميز بالجانب، هذا من جهة، ومن جهة أخرى يتفرغ للقضاء على ما مارسه القزلباش من فساد فى بناء الدولة المدنى والإدارى.

ولا بد أن نصادف فترة انتقال فى مسار الدولة. تلك هى فترة الوسط تقريبًا؛ القسم الأول منها هو فترة حكم إسماعيل الثانى التى لم تطل كثيرًا، وإن أحدث حدثًا جللا هو محاولة العودة ثانية إلى المذهب السنى وإن لم تكتمل؛ إذ منع العداء المذهبى بين السنة والشيعة، ورفع العبارات وإزالة الأشعار التى تحمل قدحًا فى الخلفاء الراشدين أو مدحًا لآل البيت. وإن كان هذا يمثل قليلاً من كثير إلا أنه قد أثار حنق رؤساء القزلباش فقتلوه عام ٩٨٥هـ/ ١٥٧٩م.[١٨].

وشهد حكم النساء تقريبًا القسم الثانى من هذه الفترة الذى ترأسه الشاه محمد خدابنده كفيف البصر، فتحكمت زوجته "مهد عليا" فى إدارة الأمور، وساعدها فى ذلك بعض رجال القزلباش. وأول ما فكرت فيه هو التخلص من منافستها "بريخان خانم" ابنة الشاه طهماسب الذكية والمدللة. بل إنها - فيما يقولون - ذهبت إلى أبعد من ذلك عندما اتهموها بعشق "عادل كراى" الذى حكم شبه جزيرة "كريمة"؛ فانتهى الأمر بقتلها عام ٩٨٧هـ/ ١٥٧٩م بعد فترة مِلْؤُها الفساد والاضطراب اختلت فيها الأمور وسادها الأمراء الذين تولى بعضهم ولاية العهد، فوقع ما وقع من خلل أصاب الدولة الصفوية فى مختلف أركانها، واستعدى عليها الأعداء التقليديين فى الداخل والخارج[١٩].

انبلج من هذا الوضع المختل فى مختلف جوانبه عصر اعتبره المؤرخون العصر الذهبى للدولة الصفوية وهو عصر الشاه عباس الكبير. فقد كان شخصية قوية

سيطرت على الأوضاع؛ إذ نجح أولاً فى إخماد الثورات الداخلية، ثم دعم علاقاته مع دول أوروبا سياسيًا واقتصاديًا للوقوف فى وجه الدولة العثمانية، وأوجد نقلة فى تكتيك الحرب بأن جعلها هجومية بعد أن كانت دفاعية[٢٠].

ولكن عباسا أخطأ عندما أوقف أمور الحكم على فكره، فلم يدرب خليفة له لكى يتولى إدارة الأمور بعد وفاته عام ١٠٣٨هـ/ ١٧٣٦م فمالت الدولة نحو الضعف، وآلت إلى السقوط. وقد تمثلت علائم هذا السقوط خلال سنوات ما بين عامى ١٠٣٨- ١١٤٩هـ/ ١٦٢٩- ١٧٣٦م.

لم يكن على المسرح السياسى بعد موت عباس الأول سوى الشاه صفى الذى طالت فترة حكمه أربع عشرة سنة. ورغم ذلك بدأت إرهاصات الضعف. فقد أدت حداثة الشاه صفى وعدم درايته بشئون القبائل إلى طمع الأعداء التقليديين[٢١]. وقد توفى وهو عائد من "مشهد" فى الثانى عشر من صفر عام ١٠٥٢هـ/ ١٦٤١م.

وقد نصبوا ابنه عباس ميرزا ملكًا على إيران بعد وفاة أبيه بثلاثة أيام، ولم يكن له من العمر عندئذ أكثر من تسع سنوات[٢٢] ومن ثم كان فاقدًا لكل شىء؛ فالسلطة بيد الأمراء الذين اختاروا الوصى عليه مما أدى إلى قتله فى النهاية[٢٣].

وقد عرف عن هذا السلطان ... بتقدمه فى السن- الجنوح إلى الع... والاهتمام بالرعية والميل إلى الشـ... والاكتراث بالتعمير على عكس أبـ... فبنى عمائر ما زالت أصفهان العاصـ... تحفل بها حتى اليوم، منها المسـ... الجامع. كما عاصره جمع من العلمـ... مثل محمد تقى مجلسى وغيره[٢٤].

مات الشاه سليمان تاركًا سبعة أولا... أكبرهم سلطان حسين ميرزا الذ... اختاره الأمراء لحاجة فى أنفسهم وهى ضعفه وحلمه. وقد شهد عصره صراعًا مع الروس التزاريين من ناحية ومع الأفغا... الغلجائيين والأبداليين من ناحية أخرى[٢٥].

وراحت الخرافات والعقائد الفاسد... تنتشر فى عصره، وتعتبر مدرسة جها... باغ التى أقامتها والدته من روائع الآثا... الإسلامية فى العصر الصفوى[٢٦].

وآخر هؤلاء الملوك هو طهماسب الثانى ١١٣٥- ١١٤٥هـ/ ١٧٢٢- ١٧٣٢م. وهذا التاريخ الأخير يمثل نهاية الدولة الصفوية إذ انقضى عصرها على يد "نادر شا... أفشار" قائد الجيش الصفوى فى عصر هذا الملك بعد انتصارات عسكرية حققها ضد العثمانيين والأفغان والروس، ول...

يكن من بد إلا أن يختار الحضور فى اجتماع اليوم الثانى من شهر شوال ١١٤٨هـ/ ١٧٣٥م برئاسته - يختاروا نادراً الجلوس على العرش. وبذلك انتهت الدولة الصفوية، وتأسست الدولة الأفشارية[٢٧].

وفى النهاية؛ تنقلت عاصمة الدولة الصفوية من قزوين إلى تبريز فى أول عهدها ثم استقرت فى أصفهان[٢٨] التى اكتسبت من الشهرة العالية فى زمان عباس الكبير ما جعلها تعرف بـ " تيم جهان" أى نصف الدنيا[٢٩]، وتصبح قبلة الرحالة والتجار الذين يفدون إليها من أوربا لعقد الصفقات التجارية:

هكذا تحولت تلك الفرقة التى ترأسها الشيخ صفى إلى دولة راسخة الكيان لقرنين ونصف من الزمان.

أ.د / أحمد الخولى

الهوامش:

(١) أحمد الخولى: الدولة الصفوية تاريخها السياسى والاجتماعى- علاقتها بالعثمانيين، ص ٣٦ القاهرة ١٩٨٢م.

(٢) نظام الدين شيبانى: تشكيل شاهنشاهى صفوية، احياى وحدت ملى، ص ٨٨، تهران ١٣٤١هـ.ش.

(٣) ساعد الوضع الجغرافى لهذه المدينة على تزكية هذه الطريقة فيما بعد، إذ اكتسبت ولاية أذربيجان التى تقع مكانة كبيرة بعد سقوط بغداد، واتخاذ المغول من عاصمتها تبريز مقرا لهم. واردبيل تقع على بعد عدة أميال شرق تبريز، ويستقر جبل سبلان بارتفاع (٤٨١١م) بينها وبين العاصمة، وتبعد ٣٠ ميلا عن بحر الخزر من خلال سهل ساحلى ضيق لمنطقة لطائش بجيلان والذى يستقر فيه باب الأبواب (دربند) وقد كتب الرحالة عنها الكثير من حيث العمران والتخريب الذى أصابها فى إثر غارات الأعداء ثم إعادة ترميمها بفعل سكانها الأشداء. من أمثلة هؤلاء الرحالة: ياقوت الحموى..

(٤)حظى الشيخ زاهد بمكانة طيبة فى العصر الصفوى باعتبار شجرة نسبه التى تنتهى إلى على بن أبى طالب من ناحية وبالنظر إلى أنه المرشد الروحى للشيخ صفى من ناحية أخرى.

(٥) أحمد الخولى : المرجع السابق، ص ٢٩.

(٦) وجد التصوف فى إيران بيئة صالحة، وبخاصة فى الجنوب الشرقى منها ابتداء من القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى. وقد كانت جميع الظروف السياسية والنفسية والاجتماعية تمثل ركائز قوية له، وقد اتخذ بها عدد من الشعراء الإيرانيين – اعتبارًا من هذه الفترة- منهجًا لهم مثل جلال الدين الرومى وقاسم أنوار. وبذلك لم يعد التصوف نوعًا من النظريات، وبدأ يأخذ شكلين عمليين: الأول فرقة الدراويش التى شرعت فى الظهور إبان انشقاق السلاجقة وأكدت وجودها فى إقامة دويلات كالسربدارية مثلاً، وتمتعت بحب الناس والتفافهم حولها، ومنها أيضًا تلك التى ترأسها الشيخ صفى، أما الثانى فهو الجانب العرفانى من التصوف وهو أعلى درجاته فقد وجد صداه فى نفوس الخاصة من أفراد المجتمع الإيرانى، وفتح آفاقًا جديدة للأدب الفارسى، وهذا النوع من التصوف يبدو واضحًا فى أشعار جلال الدين الرومى وعبد الرحمن الجامى.

(٧) أحمد الخولى: المرجع السابق، ص ٣٥.

(٨) حمد الله المستوفى القزوينى: نزهة القلوب. المقالة الثالثة فى صفة البلدان والولايات والبقاع، بسعى واهتمام كى ليسترانج، ص ٨١.

(٩) نصر الله فلسفى: زندكانى شاه عباس أول، تهران ١٣٢٤هـ. ش ص ١٦٥ ، حاشية ٣.

(١٠) ابن البزاز: صفوة الصفا، باب هشتم، ص ٢٨٤.

(١١) نص هذه الرباعية: صاحب كرمى كه صد خطا مى بخشد خوش باش صفى كه جرم ما مى بخشد
آنراكه جوى مهر على در دل أوست هرجند كنه كند خدا مى بخشد.

(١٢) لعل فى هذا البيت للشاعر محتشم الكاشانى رائد الشعر المذهبى فى العصر الصفوى الدليل على ذلك وترجمته: الشيخ حيدر: من كمال الاعتقاد، أعطى يد البيعة لآل على.

(١٣) أول حكام هذه الدولة خواجة عبد الرزاق وآخرهم على المؤيد الذى توفى عام ٧٨٧هـ، وقد تضافرت فيها جهود الزعماء المذهبيين مع الزعماء السياسيين. وحكمت فى شرق وشمال إيران. انظر ميشيل مزاوى بيدايش دولت صفوى، ترجمة يعقوب آزند، ص ١٠، تهران ١٣٦٣هـ . ش.

(١٤) أحمد الخولى: المرجع السابق ، ص٣٨.

(١٥) كان الشيخ صفى وابنه صدر الدين وحفيده خواجه " على " يُعْرفون فى حياتهم وبعد مماتهم بلقب " الشيخ". وقد ظل هذا اللقب قائمًا فى محيط الفرقة حتى زمان الشاه إسماعيل الذى كان يدعى بـ (شيخ أوغلى) وهذا ينفى عنه لقب (السيد أى الشريف) الذى ادعاه لنفسه باعتبار اتصاله فى النسب بعلى بن أبى طالب وبحسن بيك تركمان آق قويونلو من ناحية أبيه وأمه. ومع أن ادعاء السيادة كان فى البداية ضعيفًا إلا أنه قوى بمرور الأيام وبتقدم إسماعيل فى الفتوحات وفرضه المذهب الشيعى. وقد أطلق الشاه إسماعيل على نفسه (إسماعيل بن حيدر الحسينى). =

كما أنه أشار إلى نفسه على أنه من أولاد على بن أبى طالب فى الرسالة التى بعث بها عام ٩١٥هـ إلى شيبانى خان قائد الأوزبك (فريدون بيك منشآت فريدون بك، برنجى جلد، ص ٣٨٥). ويؤيد ذلك ما أثبته هو نفسه وبخط يده، ويوجد فى مكتبة استنبول. ولكن يرى بعض المحققين أنه لم يرد فى أى مصدر ما يدل على سيادة الصفويين. ولو أن الأمر كذلك لذكروا فى المصادر التاريخية على أنهم سادة أو أمراء مثل الأمير نعمت الله الكرمانى والأمير قوام الدين المرعشى. وهذا ما يؤكده المؤرخ المعروف رشيد الدين فضل الله فى رسالته إلى ابنه مير أحمد حاكم أردبيل فيما يتعلق بالشيخ صفى عندما قال : إنه جناب قطب فلك الحقيقة، وسيَّاح بحار الشريعة، ومسَّاح مضمار الطريقة، وشيخ الإسلام والمسلمين، وبرهان المواصلين، وقدوة صفة الصفا، وشجرة دوحة الوفا. الشيخ صفى الملة والدين أدام الله بركات أنفاسه الشريفة".

إذن لم يشر رشيد الدين إلى سيادة الشيخ صفى. ولو أنه كان سيدًا حقًا لما تأخر عن الإشارة إلى ذلك نظرًا لما كان يتمتع به السادة فى العصر المغولى من احترام وإكبار (تاريخ زندكانى شاه عباس أول، ص ط، حاشية ١) ونحن على هذا الرأى. وإن كان ابن البزاز قد أشار إلى سيادة الشيخ صفى، فمن الثابت أن هذا الكتاب قد أعيد تنقيحه فى عصر طهماسب بواسطة أبى الفتح الحسينى الذى تصرف فيه كثيرًا بحيث يلاحظ فرق كبير بين نسخه القديمة التى ظهرت فى عصر طهماسب.

(١٢) بينما هزم من سليم العثمانى فى موقعه "جالدران" الفاصلة فإنه انتصر على الأوزبك بقيادة المقتدر شيبانى خان" فى كمين نصبه له عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م . أحمد الخولى، المرجع السابق، ص ٥٨ وما بعدها.

(١٣) ميشيل مزاوى: المرجع السابق، ص ٨١.

(١٤) يقول البدليسى فى شرف نامه ص ٨١. تحقيق محمد عونى القاهرة ١٩٨١م: وقد أراد (يقصد الشاه إسماعيل) أن يمنع سب الشيخين وعثمان وبقية العشرة المبشرين بالجنة على خلاف عقيدة أجداده وآبائه، وأن يتصرف كل حسب سنيته أو شيعيته دون تعرض للآخر فى العقيدة، ولكن رجال القزلباش قتلوا هذا " الشيطان" العادل المسلم من قبيل التعصب.

(١٥) أحمد الخولى: المرجع السابق، ص ١٥٨ وما بعدها.

(١) بديع جمعة: الشاه عباس الكبير، بيروت ١٩٨٠م، ونصر الله فلسفى، المرجع السابق.

(٢) حسين بيرنيا وعباس إقبال: تاريخ إيران، أز انتشاؤرات كتابخانه خيام، ص ٦٩٣، تهران، ١٣٥٤.

(٣) ميرزا محمد معصوم: تاريخ سلاطين صفويه، بسعى سيد أمين حسن عابدى، ص ٢٨، انتشارات بنياد فرهنك إيران.

(٤) مجموعة من المستشرقين الروس: تاريخ إيران، أز دوران باستان تاپايان سده هيجدهم ميلادى، نزبيام تهران، ١٣٤٥هـ ش، الترجمة الفارسية لكريم كشاورز، ص٥٥٨.

(٥) حسين بيرنيا وعباس إقبال، المرجع السابق ، ص ٢٢١.

(٦) مجموعة من المستشرقين الروس، المرجع السابق، ص ٥٧٩ وما بعدها؛ وحسين بيرنيا وعباس إقبال، المرجع السابق ، ص٦٢١.

(٧) ابو القاسم رفيعى مهر آبادى: آثار ملى أصفهان، ص ٤٤٥، تهران ١٣٥٢.

(٨) لمزيد من التفصيلات راجع ميرزا مهديخان آبادى فى كتابه دره نادره (تاريخ عصر نادرشاه) باهتمام سيد جعفر شهيدى، ص ٣٦٨ وما بعدها تحت عنوان (دربيان جلوس نادر) أنجمن آثار ملى.

(٩) لفظة أصبهان مشتقة من أسبهان ومعناها الجند. انظر محمد معين؛ فرهنك، فارسى، جزء١، ص ٢٣٠، طبع تهران.

(١٠) حسين نور صادقى: أصفهان؛ ص ٢٤، تهران ١٣١٦هـ ش.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن البزاز: صفوة الصفا، باب هشتم .

٢. أبو القاسم رفيعى: مهر آبادى آثار ملى أخصائى، تهران ١٣٥٢هـ . ش.

٣. أحمد الخولى: الدولة الصفوية تاريخها السياسى والاجتماعى وعلاقتها بالعثمانيين، القاهرة ١٩٨١م.

٤. بديع جمعة: الشاه عباس الكبير، بيروت ١٩٨٠م.

٥. بديعة عبد العال: البكتاشية، العدد ٢٧، مجلة الدراسات الشرقية سنة ٢٠٠١م.

٦. حسين بيرنيا وعباس إقبال: درة تاريخ إيران، أز آغازا تا انقراض قاجارية انتشارات كتابخانه خيام، تهران.

٧. حمد الله المستوفى القزوينى: نزهة القلوب، المقالة الثالثة فى صفة البلدان والولايات والبقاع، بسعى واهتمام جاى ليسترانج.

٨. مجموعة من المستشرقين الروس: الترجمة الفارسية لكريم كشاور، تهران ١٣٥٤ هـ. ش.

٩. محمد معصوم: تاريخ سلاطين صفويه، بسعى سيد أمين حسن عابدى، انتشارات نبياد فرهنك إيران.

١٠. ميرزا مهديخان نصر آبادى: درهء نادره، باهتمام سيد جعفر شهيدى، أنجمن آثار ملى.

١١. ميشيل مزاوى: بيدايش دولت صفوى، ترجمه يعقوب آزند، تهران ١٣٦٣ هـ. ش.

١٢. نصر الله فلسفى: زندكانى شاه عباس أول ١٣٢٤هـ . ش.

١٣. نظام الدين شيبانى : تشكيل شاهنشا هى صفويه إحياى وحدت ملى، تهران ١٣٤١ هـ. ش .

صِفِّين[1] (موقعة)

بعد انتصار علىّ ﷺ فى موقعة الجمل ٣٦هـ/ ٦٥٦م انحصر النزاع بينه وبين معاوية بن أبى سفيان[2] ﷺ والى الشام، الذى كان يدين له أهلها بالسمع والطاعة لحسن سياسته، ولِمَا كان يفيضه عليهم من الأعطيات والأرزاق. ولهذا أعلنوا الخروج معه لمواجهة علىّ الذى اتهموه بأنه آوى بعض قتلة عثمان ﷺ فى جيشه ولم يقم بأى عمل فى سبيل القصاص منهم. وآلوا على أنفسهم ألا يمسوا الماء إلا للغسل، ولا يناموا على الفرش حتى يقتلوا قتلة عثمان[3].

ولما علم علىّ باستعداد معاوية وأهل الشام لمواجهته أخذ هو أيضًا فى إعداد أهل الكوفة والتحرك نحو الشام. وبلغ ذلك معاوية فاستشار عمرو بن العاص[4] فيما يفعل، فأشار عليه بأن يخرج بنفسه للقاء علىّ وقال له:" أما إذا بلغك أن يسير فسر بنفسك، ولا تغب عنه برأيك ومكيدتك". وطلب منه معاوية أن يجهز الناس، فأخذ عمرو يحرض أهل الشام على الاستعداد والخروج للقاء علىّ ومن معه من أهل العراق، وقال لهم: " إن أهل العراق قد فرقوا جمعهم، وأوهنوا شوكتهم، وفلوا حدهم. ثم إن أهل البصرة مخالفون لعلىّ، قد وترهم وقتلهم، وقد تفانت صناديدهم وصناديد أهل الكوفة يوم الجمل، وإنما سار فى شرذمة قليلة، ومنهم من قتل خليفتكم، فالله الله فى حقكم أن تضيعوه وفى دمكم أن تُطِلّوه"[5].

وتجمع من أهل الشام نحو من خمسة وثمانين ألف مقاتل اتجه بهم معاوية نحو العراق، وخرج علىّ من الكوفة إلى الشام فى تسعين ألف مقاتل، ونزل الفريقان فى سهل صفين فى شهر ذى الحجة ٣٦هـ/٦٥٧م[6]. وبات علىّ وجيشه فى البر عطاشًا؛ لأنه حيل بينهم وبين الماء، ولكنهم تمكنوا من الاستيلاء عليه بقيادة الأشتر النخعى[7]، وأذنوا فيه لمعاوية وجيشه[8]. ووجدت بعض المحاولات من الفريقين للصلح ولكنها باءت بالفشل.

المعركة:

كان واضحًا أن الصدام بين الفريقين بات وشيكا، فعلىٌّ ﷺ كان يطلب بيعة معاوية وأهل الشام ويصر على هذا. ومعاوية يطلب أولاً تسليم قتلة عثمان ﷺ

ليقتص منهم ، ثم يكون الأمر شورى بين المسلمين[٩]. وعليه فعند نهاية المحرم أمر علىّ مرثد بن الحارث الجُشَمى أن ينادى فى أهل الشام: " ألا إن أمير المؤمنين يقول لكم: إنى قد استدمتكم لتراجعوا الحق وتنيبوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله عز وجل فدعوتكم إليه، فلمْ تَنَاهَوْا عن طغيان ولم تجيبوا إلى حق، وإنى قد نبذت إليكم على سواء، إن الله لا يحب الخائنين"[١٠]. وبذلك آذن علّى أهل الشام - صراحة- بالقتال.

فبدأ معاوية وعمرو بن العاص يُكتِّبان الكتائب ويُعـدّان النـاس ، وأوقـدوا النيران، وأخذا يذكّران بآيات القتال. وكذلك فعل علىّ الذى بات ليلته كلها يعبئ الناس ويحرضهم على قتال أهل الشام، ويُكتِّب الكتائب. ومر كعب بن جعيل التغلبى على الفريقين وهما يتجهزان للقتال- فقال:

أصبحت الأمة فى أمر عجب

والأمر مجموع غدًا لمن غلب

فقلت قولاً صادقًا غير كذب

إن غدًا تهلك أعلام العرب[١١].

ووقع القتال بين الفريقين- يوم الأربعاء، أول صفر(٣٧هـ /يوليو ٦٥٧م) - لمدة سبعة أيام متتالية دون أن يحرز أحدهما النصر على الآخر[١٢]. وفى اليوم الثامن اشتدت ضراوة القتال وانكشفت ميمنة علّى انكشافاً كاد يبلغ الهزيمة لولا ثبات علىّ وشجاعة الأشتر النخعى الذى حرّض جند العراق قائلاً لهم: شدوا شدة قوم موتورين ثأرًا بآبائهم وإخوانهم، خناقًا على عدوهم. فأقبلوا إليه طائفة بعد الأخرى وكروا معه حتى بدت ملامح الظفر لعلىّ وجنده[١٣]، الذين اشتدت حماستهم بعد مقتل الصحابى عمار بن ياسر[١٤] الذى أخبره النبى ﷺ بأنه ستقتله الفئة الباغية[١٥]، وظهر الضعف واضحًا فى جيش معاوية حتى أنه هم أن يفر من ميدان المعركة لولا تَذكُّرُهُ قول ابن الإطنابة:

أبت لى همتى وأبى بلائى

وأخذى الحمد بالثمن الربيح

وإعطائى على المكروه مالى

وضربى هامة البطل المشيح

وقولى كلما جشأت وجاشت

مكانك تحمدى أو تستريحى[١٦].

فرده هذا القول إلى الثبات فى ميدان المعركة، وصاح فى المتمنعين عن القتال من جنده - بعد مقتل عمار بن ياسر- قائلاً لهم: أو نحن قتلنا عمارًا ! إنما قتل عمارًا مَنْ جاء به[١٧]. وذكر ابن قتيبة: أن

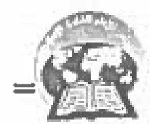
معاوية قال لأهل الشام: إنما نحن الفئة الباغية، التى تبغى دم عثمان[١٨].

ولجأ معاوية إلى عمرو بن العاص لإعمال الحيلة لوقف القتال قائلاً له: هلم مخبآتك يا ابن العاص فقد هلكنا[١٩]، فقال له عمرو: والله لأدعونهم إن شئت إلى أمر أفرق به جمعهم، ويزداد جمعك إليك اجتماعًا[٢٠]. وأشار عليه برفع المصاحف على أسنة الرماح، وأن ينادى فى الناس بتحكيم كتاب الله قائلين: هذا حكم كتاب الله بيننا وبينكم، مَنْ لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق؟ ومن لجهاد الروم؟ ورفعوا فى ذلك خمسمائة مصحف[٢١].

وأدرك علّى ﷺ أن رفع المصاحف والدعوة إلى تحكيم كتاب الله تعالى ما هى إلا حيلة من معاوية وجيشه للإفلات من الهزيمة التى كادت تحل بهم، وعزم على مواصلة القتال قائلاً لجنده الذين استجابوا لفكرة التحكيم: " ما رفعوها لكم إلا خديعة ودهناً - نفاقًا - ومكيدة"[٢٢]. ولكن كثيرًا من القراء - وغيرهم من الجنود - طالبوه بقبول التحكيم وقالوا له: ما يسعنا أن ندعى إلى كتاب الله عز وجل فنأبى أن نقبله. وتجرأوا حتى أنهم هددوه بتسليمه إلى معاوية أو قتله كما قتل عثمان من قبله، وقالوا له صراحة: وإلا ندفعك برمتك إلى القوم، أو نفعل كما فعلنا بابن عفان[٢٣]!.

واضْطُرَّ علّى إلى قبول التحكيم مخافة الفتنة، خاصة وقد رأى الانقسام قد وقع فى جيشه، وأرسل الأشعث بن قيس[٢٤]. إلى معاوية يستطلع منه: ماذا يريد برفع المصاحف؟ فقال له معاوية: لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى كتابه؛ تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يحكما بما فى كتاب الله ولا يَعْدُوَانه، ثم نتبع ما اتفقا عليه. ورجع الأشعث وأخبر عليًا برأى معاوية فرضى كثير من أصحاب علىّ بذلك وقالوا: قد رضينا وقبلنا، فنزل علىّ على رأيهم[٢٥].

واختار أهل الشام عمرو بن العاص حكمًا لهم، واختار أهل العراق أبا موسى الأشعرى[٢٦]. فبين لهم عَلَىّ تخوفه من أبى موسى وقال لهم: « قد عصيتمونى أول الأمر فلا تعصونى الآن»، فأبوا إلا إياه، فوافق على كره منه. واجتمع الحكمان وكتبا عقد التحكيم وفيه: أن يحكما بما فى كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، وأنهما آمنان على أنفسهما وأهلهما، ويعينهم المسلمون على تنفيذ ما يتفقان



عليه، وأنهما ينصحان للأمة ولا يردانها إلى حرب ولا فرقة، وأن يكون التحكيم فى موعد غايته شهر رمضان (٣٧هـ /٦٥٨م) ويكون بدومة الجندل - أذرعات - ، ولهما الحق فى اختيار من أرادا من الشهود. وشهد على هذا الكتاب جملة من الصحابة وكبار الناس[٢٧]. ولم يذكر فى الكتاب موضوع النزاع الأصلى، أى الموقف بالنسبة لقتلة عثمان؟!

وقدرت الخسائر فى صفين بسبعين ألفًا: خمسة وأربعون ألفًا من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفًا من أهل العراق[٢٨]. منهم عدد كبير من القراء والصحابة - رضى الله عنهم - فكانت خسارة كبيرة للإسلام والمسلمين، يقول الشيخ الخضرى:" وهو عدد لم يذهب مثله ولا قريب منه فى جميع الوقائع الإسلامية من لدن رسول الله ﷺ إلى تاريخها. ومما يزيد الأسف أن هذه الحرب لم يكن المراد منها الوصول إلى تقرير مبدأ دينى، أو رفع حَيْفٍ حل بالأمة، وإنما كانت لنصرة شخص على شخص. فشيعة علىّ تنصره؛ لأنه ابن عم رسول الله ﷺ وأحق الناس بولاية الأمر، وشيعة معاوية تنصره لأنه ولىّ عثمان وأحق الناس بدمه المسفوك ظلمًا، ولا يرون أنه ينبغى لهم مبايعة من آوى قتلته"[٢٩].

وعاد معاوية وجيشه إلى الشام انتظارًا لموعد التحكيم وهم غاية فى الوحدة والألفة، وأكثر التفافًا حول معاوية ويسمعون له ويطيعون. وعلى النقيض عاد علىّ وجيشه إلى الكوفة وهم مختلفون متخاصمون: فريق يؤيد التحكيم والآخر يرفضه. ويصور المسعودى هذه الحال بقوله: « ولما وقع التحكيم تباغض القوم - جيش علىّ - جميعًا، وأقبل بعضهم يتبرأ من بعض، ويتبرأ الأخ من أخيه، والابن من أبيه... وتقارع القوم بالمقارع ونعال السيوف، وتسابوا ولام كل فريق منهم الآخر فى رأيه»[٣٠]. ويذكر الطبرى عن عمارة بن ربيعة قال: « خرجوا - أهل العراق - مع علىّ إلى صفين وهم متوادون أحباء، فرجعوا متباغضين أعداء... ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط، يقول الخوارج: يا أعداء الله، ادهنتم فى أمر الله وحكمتم، وقال الآخرون: فارقتم إمامنا وفرقتم جماعتنا»[٣١].

وبهذا كان التحكيم فى صالح معاوية، فقد أفلت من هزيمة كادت تحل به، وارتفع من مجرد وال ثائر على

الخليفة إلى أن وضع معه فى ميزان واحد؛ لأن التحكيم يعنى شك كل من الفريقين المتحاربين فى أيهما على الحق وأيهما على الباطل[٣٢]. كما أنه زاد معاوية وجيشه تماسكا وثقة، وأحدث انقساما خطيرًا فى جيش علىّ، وفتح عليه جبهة جديدة تمثلت فى خروج بعض أتباعه عليه.

ظهور الخوارج[٣٣]:

عند عودة علىّ إلى الكوفة رفض اثنا عشر ألفًا من القراء والجند أن يدخلوا معه الكوفة ونزلوا بحروراء[٣٤]، وتشاوروا فيما بينهم وأعلنوا خطأ القبول بفكرة التحكيم وقالوا: لا حكم إلا لله. وولوا عليهم شبث بن ربعى[٣٥]. فخرج إليهم علىّ ابن أبى طالب وسألهم: ما الذى أخرجكم علينا؟ قالوا: حكومتكم يوم صفين، فذكرهم بطلبه منهم الاستمرار فى القتال وأنهم هم الذين اضطروه إلى قبول التحكيم، وأنه قبله وهو كاره له، ودعاهم إلى الدخول فى طاعته، فدخلوا معه الكوفة[٣٦].

ولكنهم لم يخلصوا لعلىّ ﷺ وكانوا يقاطعونه وهو يخطب فى مسجد الكوفة ويقولون له: لا حكم إلا لله- فلا يجوز تحكيم البشر فى كتاب الله. وكان علىّ يصبر عليهم ويتألفهم، ويناقشهم مؤكدًا أن هذه المقولة كلمة حق يراد بها باطل، فلم يسمعوا له وجمعوا أتباعهم وخرجوا من الكوفة ونزلوا النهروان[٣٧]، ولحق بهم خوارج البصرة[٣٨]. واتهموا عليًا ﷺ بالكفر، لقبوله التحكيم، لأنه إمام وله بيعة فالحق فى جانبه، واشترطوا للعودة إلى طاعته أن يقر على نفسه بالكفر ويعلن أنه تاب من ذلك، ويقود الجيوش إلى الشام لمحاربة الفئة الباغية[٣٩].

وبذلك انفتق جرح جديد فى الدولة الإسلامية جر عليها الويلات وأزهقت فيه الأرواح، ومنهم الخليفة علىّ نفسه.

التحكيم:

ولما حان موعد التحكيم- فى رمضان (٣٧هـ/٦٥٨م) - جتمع الحكمان أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص ومع كل منهما أربعمائة رجل من أنصاره – بمثابة الشهود- فى دومة الجندل[٤٠]. وصارا يعقدان الجلسات ويتذكران ما حل بالإسلام والخلاف الواقع بين أهله، وتعاهدا على الاتفاق على أمر يجمع الله به الأمة ويلم الشعث ويصلح ذات البين[٤١]. واستقر رأيهما على خلع علىّ ومعاوية، وترك الأمر شورى للمسلمين يختارون من يرضون به،



وكتبا ذلك فى صحيفة(٤٢).

أما رواية أنهما خطبا الناس وقدَّم عمرو أبا موسى الذى أعلن خلع علىّ ومعاوية، ثم قام عمرو وأعلن أنه خلع عليًا كما خلعه أبو موسى وثبَّت معاوية، وأن عَمْرًا خدع أبا موسى واختلفا وتضاربا وتشاتما(٤٣). فهذه الرواية - على الرغم من ذكرها فى معظم المصادر- لا تتفق وسيرة صحابيين لهما تاريخ حافل فى عهد النبوة وعهد الخلفاء، وربما دُسَّتْ لأغراض سياسية أو مذهبية.

والراجح- والله أعلم- ما ذكره المسعودى: أنه لم يكن بين الحكمين غير ما كتب فى الصحيفة، وما كان من إقرار أبى موسى بأن عثمان ﷺ قتل مظلومًا وغير ذلك، وأنهما لم يخطبا(٤٤). يقول الشيخ الخضرى: «وهذا القول أقرب فى نظرنا إلى المعقول، وإن لهج كثير من المؤرخين بذكر الأول- ما ذكر من خلع أبى موسى لعلىّ ومعاوية، وتثبيت عمرو لمعاوية وخلع علىّ - لأن هذه الخطبة على فرض حصولها وأن الخديعة تمت على أبى موسى لم تكن لتفيد معاوية شيئًا؛ لأن الذى ثبته إنما حكمه، والذى يلزم الأمة بمقتضى الصحيفة إنما هو ما اجتمعا عليه لا ما رضى به أحد الحكمين، ولم ينقل أحد أن أبا موسى رضى فى خطابه ببيعة معاوية»(٤٥).

وكان التحكيم فى صالح معاوية، فقد عزل عليًا عن الخلافة التى اعترف له بها أهل الحجاز واليمن والعراق ومصر وخراسان، ولم يعزل معاوية عن شىء(٤٦). وزاد من التفاف أهل الشام حول معاوية والعمل على نصرته، بل وسلموا عليه- بعد التحكيم- بالخلافة(٤٧). وازداد أصحاب علىّ انقسامًا على أنفسهم.

فبعد أن قضى علىّ على خطر الخوارج فى معركة النهروان دعا أتباعه إلى المسير إلى الشام لمحاربة أهلها، فقالوا له: يا أمير المؤمنين، نفدت نبالنا وكلَّت سيوفنا ونصلت أسنتنا، فانصرف بنا إلى مصرنا- الكوفة- حتى نستعد بأحسن عدتنا. وبعد دخولهم الكوفة تثاقلوا عن الخروج للقتال(٤٨). مما رجح كفة معاوية وأهل الشام تمامًا.

ونلاحظ ما يلى:

- أن النزاع بين الفريقين بدأ بمطالبة معاوية بدم عثمان ﷺ والقصاص من قاتليه، أو على الأقل تسليمهم له. ثم مع تطور الأحداث نسى الجميع هذا المطلب- حتى أنه لم يكتب فى صحيفة التحكيم- وتحول الأمر إلى صراع بين

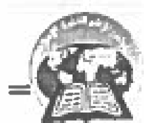
علىّ - ومعه أهل العراق - ومعاوية- ومعه أهل الشام- على الخلافة.

- أن أهل العراق لم يكونوا على مستوى أهل الشام، فقد كانوا يُكْثِرون من سؤال علىّ عن كل صغيرة وكبيرة، ويُفْشُون أسراره ويكشفون تحركاته، بل وأجبروه على وقف القتال وقبول التحكيم، وكانوا يعارضونه حتى خرجوا عليه. على العكس من أهل الشام الذين كانوا غاية فى السمع والطاعة لأميرهم معاوية والالتفاف حوله، بل وكانوا على استعداد تام لتقديم أرواحهم فى سبيل تحقيق أهدافه. وهذا ما رجح كفة معاوية على علىّ.

- أن الصراع الداخلى بين المسلمين إذا لم يقض عليه فى المهد، ويحتكم الفريقان المتنازعان إلى الصلح الذى أمر به الله عز وجل فى كتابه، قد يكلف المسلمين غاليا! وهذا ما حدث فى صِفِّين، فقد باءت كل مفاوضات الصلح بين الفريقين بالفشل- سواء التى أرسلها علىّ أو معاوية- فكانت الخسارة كبيرة قدرت بسبعين ألف قتيل من الفريقين!

ولأن خسائر المسلمين فى هذه الموقعة بهذا الحجم، وكانت بين علىّ - صهر رسول ﷺ وابن عمه.. - ومعاوية - كاتب وحى السماء والمؤتمن عليه - وحتى لا تذهب العقول بعيدًا ويخوض الخائضون، نختم الحديث عن صفين بما ذكره ابن كثير تعقيبًا على حديث رسول الله ﷺ « لا تمرق مارقة عند فرقة المسلمين، يقتلها أَوْلى الطائفتين بالحق»[٤٩] « فهذا الحديث من دلائل النبوة؛ إذ قد وقع الأمر طبق ما أخبر به عليه الصلاة والسلام. وفيه الحكم بإسلام الطائفتين: أهل الشام وأهل العراق، لا كما يزعمه فرقة الرافضة....، من تكفيرهم أهل الشام. وفيه أن أصحاب علىّ أدنى الطائفتين إلى الحق، وهذا هو مذهب أهل السُّنة والجماعة أن عليا هو المصيب، وأن معاوية كان مجتهدًا، وهو مأجور- إن شاء الله- ، ولكن عليا هو الإمام فله أجران»[٥٠].

أ.د/سيد عبد الفتاح بلاط



الهوامش:

(١) صفيّن: موضع بقرب الرقة على شاطئ الفرات من الجانب الغربي . ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٩٨.

(٢) معاوية بن أبي سفيان بن صخر بن حرب بن أمية، مؤسس الدولة الأموية، أسلم عام الفتح، وكان من كُتَّاب رسول الله ﷺ، وولي الشام لعمر وعثمان رضي الله عنهما . بويع بالخلافة (٤١هـ/٦٦١م) . بعد تنازل الحسن بن عليّ له، وعهد بها إلى ابنه يزيد من بعده. وهو من رواة الأحاديث، ومن الفاتحين العظام. ابن عبد البر: الاستيعاب ١/٤٤٤ ـ ٤٤٨.

(٣) الطبري: تاريخ الأمم ٥/٥٦٢.

(٤) عمرو بن العاص بن وائل السهمي القرشي، فاتح مصر، وأحد دهاة العرب. ولاه الرسول ﷺ إمرة جيش ذات السلاسل، وله فتوحات كبيرة في الشام ومصر، وولاه معاوية مصر(٣٨هـ ٦٥٨م) وتوفي بها (٤٣هـ/٦٦٣م). ابن عبد البر: الاستيعاب ٥/٢٥١- ٢٦٢.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم ٤/٥٦٣.

(٦) المسعودي: مروج الذهب ٢/٣٨٤.

(٧) مالك بن الحارث بن عبد يغوث النخعي، أمير من الشجعان. شهد اليرموك وذهبت عينه فيها، وكان ممن ألب على عثمان ﷺ، وشهد الجمل وصفين مع عليّ، توفي (٣٧ أو ٣٨هـ) ، وهو ذاهب لولاية مصر من قبل عليّ. الذهبي: تاريخ الإسلام ٢/٢٣٤.

(٨) ابن كثير: البداية ٧/٢٣٤.

(٩) الخضري: محاضرات في تاريخ الأمم ٢/٦٨.

(١٠) الطبري: تاريخ الأمم ٥/١٠.

(١١) ابن كثير: البداية ٧/٢٤٢.

(١٢) الطبري: تاريخ الأمم ٥/١٠- ١٣.

(١٣) الطبري: تاريخ الأمم ٥/٢٠- ٢٣ .

(١٤) عمار بن ياسر بن عامر الكناني، صحابي ، من الشجعان ذوي الرأي. وهو من السابقين إلى الإسلام، وهاجر إلى المدينة، وشهد الكثير من الغزوات. ولاه عمر الكوفة، وشهد الجمل وصفين مع عليّ. قتل في صفين (٣٧هـ/ ٦٥٧م)، عُمِّر ثلاثا وتسعين سنة . ابن عبد البر : الاستيعاب ٥/١١٠- ١٢٥.

(١٥) أخرج مسلم عن أم مسلمة- رضي الله عنها- أن رسول الله ﷺ قال لعمار: (تقتلك الفئة الباغية). (الصحيح ١٤/١٣٠). وكان عمار يقاتل في هذا اليوم ويقول: اليوم ألقى الأحبة محمداً وصحبه. ابن كثير: البداية ٧/٢٥٠.

(١٦) المصدر السابق٧/٢٤٦.

(١٧) الطبري: تاريخ الأمم ٥/٤١.

(١٨) الإمامة والسياسة ١/١١٠.

(١٩) المسعودي: مروج ٢/ ٤٠٠.

(٢٠) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ١/١٠١.

(٢١) المسعودي: مروج ٢/٤٠٠.

(٢٢) الطبري: تاريخ الأمم ٥/٤٩.

(٢٣) نفس المصدر السابق.

(٢٤) الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، أمير كندة في الجاهلية والإسلام. وفد على النبي ﷺ في قومه وأسلم، وشهد اليرموك، وامتنع عن دفع الزكاة في عهد أبي بكر ﷺ ثم ثاب إلى رشده وشهد الوقائع وأبلى فيها البلاء الحسن شهد مع عليّ صفين والنهروان . وتوفي بالكوفة (٤٠هـ) الذهبي: تاريخ الإسلام ٢/٢٣٩.

(٢٥) الطبري: تاريخ الأمم ٥/٤٩.

(٢٦) عبد الله بن قيس بن سليم، من بني الأشعر، صحابي من الشجعان الولاة الفاتحين، استعمله الرسول ﷺ على زبيد وعدن.

وولاه عمر ﷺ البصرة سنة ١٧هـ ، وأقره عثمان ﷺ عليها ، ثم عزله وولاه الكوفة ، وأقره عليّ عليها. وكان أحسن الصحابة صوتًا فى تلاوة القرآن الكريم. توفى (٤٤هـ) وهو ابن نيف وستين. ابن حجر : الإصابة ٤/ ٢٧٨- ٢٨١.

(٢٧) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ١١٥/١ ، الطبرى: تاريخ الأمم ٥٣/٥- ٥٤.

(٢٨) المسعودى: مروج ٤٠٥/٢ ، ابن كثير: البداية ٣٥٨/٧.

(٢٩) محاضرات فى تاريخ الأمم ٦٧/٢.

(٣٠) مروج ٤٠٥/٢.

(٣١) تاريخ الأمم ٦٣/٥.

(٣٢) المصدر نفسه

(٣٣) الخوارج: اسم مشتق من (خرج) وهى جمع (خارج) وهو المنشق، ثم تحولت إلى اصطلاح أطلق على الفئة التى خرجت على عليّ فى صفين، وقالوا: لا حكم إلا لله، فسموا بالمحكمة، ثم سكنوا حروراء فسموا بالحرورية، وقاتلهم عليّ ﷺ فى النهروان (٣٧هـ/٦٥٧م) ويرون أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين، وليس شرطًا أن يكون الخليفة قرشيًا، ولهم تاريخ حافل مع الأمويين والعباسيين. وانقسموا إلى عدة طوائف كالأزارقة، والنجدات، والصفرية، وغيرها. د/ عارف عامر: معجم الفرق الإسلامية ص ١٠- ٢٢.

(٣٤) حَرَوْراء: قرية بظاهر الكوفة، على بعد ميلين . ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ٣٩٤/١.

(٣٥) شبث بن ربْعى التميمى اليربوعى، شيخ مضر وأهل الكوفة فى أيامه. أسلم ثم ارتد ولحق بسجاح المتنبئة، ثم عاد إلى الإسلام. وكان ممن ثار على عثمان، وقاتل الحسين بن عليّ، وخرج مع المختار الثقفى ثم انقلب عليه، توفى بالكوفة(٧٠هـ) ابن حجر: الإصابة ٥١٠/٢- ٥١١.

(٣٦) المسعودى: مروج ٤٠٥/٢ ، الطبرى: تاريخ الأمم ٦٥/٥- ٦٦ ، ابن كثير: البداية ٣٦٤/٧.

(٣٧) النهروان: كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى. ياقوت الحموى: معجم البلدان ٢٦٠/٤.

(٣٨) الطبرى: تاريخ الأمم ٧٦/٥- ٧٧.

(٣٩) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة١ /١٢٧.

(٤٠) دُومة الجندل: حصن على سبعة مراحل من دمشق. ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ٥٤٢/٢.

(٤١) المسعودى: مروج ٤٠٧/٢.

(٤٢) ابن كثير: البداية ٣٧٠/٧.

(٤٣) الطبرى: تاريخ الأمم ٧٠/٥- ٧١، ابن الأثير: الكامل ٢٠٨/٣ ، ابن كثير : البداية ٣٧٠/٧.

(٤٤) مروج ٤١١/٢.

(٤٥) محاضرات فى تاريخ الأمم ٧٢/٢.

(٤٦) د/ أحمد صالح : محاضرات فى عصر الراشدين ص ٢١٤.

(٤٧) الطبرى: تاريخ الأمم ٧١/٥.

(٤٨) ابن كثير: البداية ٤٠١/٧.

(٤٩) مسلم: الصحيح ٣٠١/٥.

(٥٠) ابن كثير: البداية ٣٦٤/٧- ٣٦٥.

مصادر ومراجع للاستزادة:

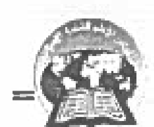
١. الطبرى: تاريخ الطبرى.

٢. المسعودى: مروج الذهب.

٣. ابن كثير: البداية والنهاية.

٤. ابن قتيبة: الأمامة والسياسة.

٥. الشيخ الخضرى: محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية.



الصقالبة

كلمة صقلب فى الأصل فرنسية قديمة تعنى العبد والرقيق، فالصقالية عبيد أو رقيق من سبى الشعوب السلافية الذين بيعوا إلى عرب الأندلس، ثم توسع الأندلسيون فى استعمال الكلمة وأطلقوها على مواليهم الذين جلبوا من مختلف البلاد الأوروبية بما فى ذلك الشمال الأسبانى .

وقد اتخذ اليهود فى فرنسا من تلك التجارة حرفة يربحون منها وشاركهم المسلمون تلك الحرفة، خاصة فى مناطق الثغور المتصلة بفرنسا، وذهب اليهود بتلك التجارة إلى الهند عن طريق مصر والبحر الأحمر، وبعض هؤلاء التجار توجهوا من جنوب أسبانيا إلى سبتة ومنها إلى مصر ثم إلى الشام والعراق والخليج الفارسى.

وجاء أغلب الصقالبة أطفالاً من الجنسين وتربوا تربية إسلامية واستخدموا فى القصر وتطور الأمر بهم إلى أن تولوا شئون الحرس والحاشية والجيش، وازدادت أعدادهم بسرعة حتى وصل عددهم فى عهد الخليفة الثالث عبد الرحمن الناصر ١٣٧٥٠ من الرجال و ٦٣٥٠ من النساء واحتلوا مكانة عالية فى المجتمع القرطبى، وشغلوا مناصب رئيسية؛ فكان منهم الرئيس الأعلى للشرطة وصاحب الخيل وصاحب المطبخ، وكان منهم حاكم طليطلة ٣٣٦هـ/ ٩٤٧م ومدير الطراز ٣١٣هـ / ٩٢٥م، ورئيسا الحرس الخاص المسئولان أمام الخليفة عن النظام العام فى القصر، وكان منهم المشرف على مكتبة الحكم المستنصر الشهيرة، وكان الهدف من استخدام الصقالبة فى الإدارة والجيش إضعاف سيطرة العرب والبربر.

وقد قلد عبد الرحمن الناصر مملوكه " نجدة الصقلبى" قيادة الحملة الموجهة ضد راميرو الثانى ملك ليون وحلفائه ملوك " نافارا" "Navara" والتى انتهت بهزيمة المسلمين فى موقعة شمنقه Semancas والخندق، بسبب تغير نفوس العرب لتولية الصقالبة عليهم.

وقد اشتمل قصر الحكم الثانى على ما يزيد على ألف شخص، وكانت قيادة الجيش فى يد اثنين من الصقالبة هما فائق وجؤذر الحكمى.

لكن المنصور بن أبى عامر استبعد هؤلاء وولى صقالبة غيرهم سموا بالفتيان

أو المماليك العامرية، وكثير منهم أخذ من الأدب والشعر واللغة بحظ وافر.

ومع احتضار الخلافة الأموية فى الأندلس، فإن هؤلاء شاركوا فى المؤامرات التى قامت فى قرطبة وغيرها يتزعمهم الخصىّ "خيران العامرى" زعيم حزب الصقالبة فى العاصمة، ومن هذا الحزب تكونت الأسر الصغيرة فى شرق الأندلس فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) فى طرطوشه والمرية ومرسية ودانية وبلنسية وتكوَّنَ تحالف بينها حمل اسم الدولة العامرية الصقلبية، لأن أصحابها من المماليك العامريين الذين امتد سلطانهم من نهر " ابرو" جنوبًا حتى ثغر المرية والجزائر الشرقية.

وقد استقل : "خيران الصقلبى" بالمرية ٤٠٣هـ= ١٠١٢م، وكان يدعى بالخليفة وبالفتى الكبير، وفى عهده ازدهرت العمارة والصناعة ونظام الرى، ولما توفى خلفه أخوه زهير العامرى ٤١٩ - ٤٢٩هـ/ ١٠٢٨- ١٠٣٨م، وهو الذى بنى مسجد المرية الجامع وعرف بالتشاور مع الفقهاء وامتدت سيطرته إلى قرطبة ونواحيها وإلى شاطبة وحتى أول طليطله وتلقب بلقب عميد الدولة.

وفى مدينة طرطوشة تكونت إمارة صقلبية(٤٢٧- ٤٣٥هـ/ ١٠٣٥- ١٠٤٣م) التى حكمها على التوالى نبيل أولبيب ثم مقاتل ثم يعلى ثم انتهى الأمر بهذه الإمارة إلى ضمها إلى بنى هود فى سرقسطة أيام عماد الدولة أحمد بن المستعين بالله ٤٥٣هـ/١٠٦١م.

أما مدينة بلنسية فقد استقل بها مبارك ومظفر العامريان ٤٠٧هـ/١٠١٦م، وقد نزلا معًا فى قصر واحد تجمعهما صداقة متينة، وقد شيَّدا القصور وأقاما الأبنية وحصنا بلنسية بالأبواب المتينة؛ ولذا لجأ إليها أهل قرطبة المضطرية وبنوا بها القصور واتخذوا البساتين وأجروا المياه المتدفقة، وقد أحاط بمبارك ومظفر طائفة من العلماء والشعراء والأدباء، ومع ذلك فقد شكا أكثر الرعية من كثرة الضرائب، وانتهى أمر بلنسية باحتلال عبد العزيز بن أبى عامر لها ٤١٢هـ=١٠٢١م.

أما مدينة دانية فقد استقل بها أبو الجيش الموفق مجاهد العامرى الصقلبى، وهو ممن تميزوا بإرادة قوية وأُفُقٍ علمى واسع وتطلع إلى المجد والسلطان، لقد أراد القضاء على النفوذ المسيحى - بعد احتلاله للجزر الشرقية أو جزر البليار

- ميورقه ومنورقة ويابسه- وأراد أن يجعل من البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية؛ ولهذا كوّن أسطولاً من ١٢٠ مركبًا عليها ألف فارس اتجه به إلى جزيرة سردانيه مصطحبًا زوجته المسيحية وابنه الأكبر علياً، وأمكنه احتلال جزء كبير من تلك الجزيرة وقتل القائد المسيحى وأخذ عددًا كبيرًا من الأسرى، وكان ذلك فى ٤٠٦هـ/١٠١٥م، لكن مراكبه تعرضت لعاصفة شديدة ألقت بها إلى الساحل، فأسر الأعداء من أسروا وقتلوا من قتلوا. وقد توفى " مجاهد" ٤٣٦هـ /١٠٤٥م وخلفه ابنه " على إقبال الدولة"، وكان قد تم فك أسره بعد فترة أسر طويلة قضاها فى ألمانيا.

و"علىّ" هذا هو الذى وجّه إلى مصر مركبًا مملوءًا بالطعام عام المجاعة زمن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م.

وبعد وفاة " على بن مجاهد " ٤٦٩هـ=١٠٧٦م ضمت " دانية" إلى ملك بنى هود فى "سرقسطه"، وبقيت جزر البليار فى أسرة مجاهد إلى أن استولى عليها المرابطون ٥٠٨هـ/ ١١١٤م.

وهكذا لعبت الولايات الصقلبية دورًا سياسيًا وثقافيًا مهما فى حياة أسبانيا، فقد لجأ إلى هذه الدويلات كثير من موالى المسلمين من الصقلب والإفرنجه والبشكنس وغيرهم وزهدوا فى استقبال الأحرار وأبنائهم، ومنها انبعثت تصريحات شعوبية قوية كان لها أثر فى الأدب الأندلسى حتى القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى).

أ.د/ عبد الله محمد جمال الدين

مصادر ومراجع للاستزادة

١- كتاب أخبار مجموعة نشره لافونت القنطرة .

٢- الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة لابن بسام: القسم الأول والثالث والرابع.

٣- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام، نشرة ليفى بروفنسال.

٤- الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز، ترجمة الدكتور أبو ريدة القاهرة ١٩٤٠م.

٥- الصقالية فى أسبانيا، لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية د. أحمد مختار العبادى، مدريد ١٩٥٣م.

صقليّة
فى العصر الإسلامى

تقع جزيرة صقلية فى الحوض الغربى من البحر المتوسط ويفصلها عن إيطاليا مضيق مسينا الضيق ، فتعد بذلك امتدادًا لشبه الجزيرة الإيطالية. ومن الجانب الآخر تقع الجزيرة على مسافة يسهل عبورها بحرًا من الشمال الإفريقى حيث توطّدَ الإسلام دينًا ودولة منذ أواسط القرن السابع الميلادى/ الأول الهجرى.

وتنقسم جزيرة صقلية إلى ثلاثة أقاليم جغرافية ، هي: إقليم مازِر (val di Mazara) وإقليم نوطس (val di Noto) وإقليم منش (val di demone)، وفى أثناء الوجود العربى الإسلامى فى صقلية، كان الإسلام الديانة الرئيسة فى إقليم مازر، بينما قلَّ عدد المسلمين فى إقليم نوطس، وظل معظم سكان إقليم دمنش من النصارى .

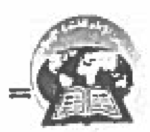
ومع تمركز العرب المسلمين فى الشمال الإفريقى اتخذ البيزنطيون صقلية قاعدة لشن الهجوم على العرب المسلمين فى برقة .

وتعددت غزوات العرب المسلمين نتيجة لذلك على صقلية فى العهد الأموى إلا أن النجاح لم يكن دائمًا حليفها ، وتعددت هذه المحاولات بعد فتح العرب للأندلس ، وفى العهد العباسي لم تجر محاولات جادة لفتح صقلية مما مكّن الروم البيزنطيين من تحصين جنوب إيطاليا ، وانطلقت منها حملات ضد الشمال الإفريقى مما دفع بالقائد هرثمة ابن أعين والى إفريقية للعباسيين لبناء سور مدينة طرابلس سنة ١٥٢هـ/ ٧٦٩ م وبإنشاء رباط " المُنستير" فى العام نفسه.

لم يمنع ذلك من استمرار الحركة التجارية بين العرب المسلمين والروم البيزنطيين ، من خلال صقلية. ومع قيام دولة الأغالبة فى إفريقية أنشأ الأغالبة أسطولا قويًا ، وتمكن القائد أسد ابن الفُرات من إتمام فتح جزيرة صقلية سنة ٢١٢ هـ / ٨٢٧م، واستقرَّ فى إقليم مازِر .

وتقدم منها لمحاصرة مدينة "بالرم" التى استسلم قائدها البيزنطى بعد حصار دام نحو العام فى سنة ٢١٦هـ /٨٣١م.

هكذا تم فتح العرب المسلمين لجزيرة صقلية بطريقة تدريجية، وكان سكان



الجزيرة فى عهد الأغالبة مزيجًا من الشعوب والأجناس والأديان : الصقليين النصارى والمسلمين، واليونان، واللمبارد ، واليهود ، والعرب، والبربر، وشكل العرب النخبة الحاكمة، وتلاهم فى الأهمية البربر الذين قاموا بدور مهم فى افتتاح الجزيرة. وتركز هذا الوجود على الأخص فى إقليم مازر. اما النصارى فقد شكلوا أكثرية سكان الجزيرة الذين يمكن تقسيمهم إلى أربع فئات: فئة ظلت مستقلة إلى حد كبير، وفئة دفعت الجزية ، وفئة الإقطاعيين ، وفئة الرقيق .

وحمل الوالى العربى لصقلية فى عهد الأغالبة لقب : أمير، ووال ، أو صاحب، وتمتع بحرية كبيرة، فكان يعلن الحرب ويعقد الصلح بقرار منه. وحملت السكة المضروبة فى صقلية فى المرحلة الأولى اسمى والى صقلية والأمير الأغلبي حاكم إفريقية، أما العملات التى ضربت فى المرحلة التالية فانفردت بحمل أسماء الأمراء الأغالبة فقط؛ ودلالة ذلك أنه بينما كان الولاة الأوائل يضربون العملة فى صقلية فإن العملات بعد ذلك كانت تضرب فى إفريقية ثم تجلب إلى الجزيرة كما كان يذكر اسم الأمير الأغلبى مع اسم الخليفة العباسى فى خطبة الجمعة.

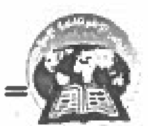
وبعد سقوط الأغالبة وقيام الدولة الفاطمية فى إفريقية حلَّ الفاطميون محلهم فى السيادة على صقلية. ولكن مع تفاقم حركة أبى يزيد مَخْلد بن كَيداد التي كادت تطيح بحكم الفاطميين فى إفريقية، حاولت بعض العناصر الموالية للفاطميين اللجوء إلى صقلية كما رفضت عدة مدن دفع الجزية والخراج إلى بيت المال الفاطمى. وبعد انقضاء حركة أبي يزيد وهزيمته استعمل الخليفة المنصور بالله الفاطمي على حكم صقلية أسرة عربية هى أسرة بني كلب وكان أول من قام منهم الأمير الحسن بن على الكلبي لإحكام السيطرة على الجزيرة ، وبولايته بدأ فصل جديد فى تاريخ الجزيزة.

لم يحدث تغيير كبير على الخريطة السكانية فى العصر الفاطمي لصقلية سوى أن الوافدين الجدد على الجزيرة كان أكثرهم من الصناع والجند النازحين وظل تركزهم الأساسى فى إقليم مازر. ومع نجاح الفاطميين فى فتح مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٩م وانتقال الخليفة الرابع المعز لدين الله إليها فى سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م، الذى كان انتقالا بمعنى الكلمة لا توسعا بغرض كسب

أراضٍ جديدة، عَهِدَ المعز لدين الله إلى أسرة بنى كلب بحكم جزيرة صقلية نيابة عنه مثلما عَهِد إلى أسرة بنى زيرى بحكم إفريقية نيابة عنه كذلك.

وتقارب الفترة التى حكم فيها العرب المسلمون صقلية قرنين ونصف القرن: من أوائل القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى، إلى أواخر القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى. ولما استولى النورمان على صقلية وحكموها قرنًا من الزمن (٤٧١- ٥٨٧هـ /١٠٧٨م- ١١٩١م) ظلَّ للمسلمين تأثيرٌ كبير على نظم البلاط النورمانى والإدارة، و الحياة العامة، كما يشهد بذلك الرحالة ابن جُبَير الذى زار صقلية فى أواخر أيام حكم النورمان لها. ثم لما خلفت أسرة "هوهنستاوفن" الألمانية الملوك النورمان فى حكم الجزيرة كان ضمن الأهداف الرئيسة لملوك هذه الأسرة، وعلى الأخص الملك فريدريك الثانى، إيجاد تعايش سلمى مع رعاياهم من العرب فى الجزيرة. وعلى ذلك فقد استمر تأثير المسلمين مدة طويلة تقرب من قرنين من الزمن بعد نهاية سيادتهم عليها، ومن صقلية وعن طريق إيطاليا انتقل تراث الفكر العربى إلى أوروبا وعلى الأخص فى ميادين الطب والفلسفة والعمارة.ورغم أنها كانت فى طرف ناءٍ من العالم الإسلامى، فقد ازدهرت فيها العلوم والآداب، وكانت خلال الفترة التى سادها فيها المسلمون مأوى لجأ إليه العلماء المضطهدون فى شمال إفريقيا وبالمقابل فقد رحل عنها علماؤها أثناء فترات الاضطراب إلى شمال إفريقيا أو مصر أو حتى المشرق الإسلامى فى طلب العلم، وكان المذهب الفقهي السائد فى صقلية هو المذهب المالكى، وفى مجال علم الكلام اتبع علماء صقلية إجمالا المذهب الأشعرى.

ولم يصل إلينا للأسف سوى شذرات من أعمال الشعراء العرب فى صقلية جمعها ابن القطّاع الصقلى، أبو القاسم على بن جعفر بن على، المتوفى بالقاهرة سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م فى كتابه: "الدُّرة الخطيرة فى شعراء الجزيرة"، وديوان ابن حَمْديس الصقلى، وأبى محمد عبد الجبار بن أبى بكر، المتوفى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م. وتوجد صلة وثيقة بين التقاليد الشعرية فى كل من الأندلس وصقلية، فقصائد أعلام شعراء الأندلس كابن زيدون، وابن اللبانة، وابن الزقّاق لها الخصائص نفسها التى نجدها فى



المقطوعات الباقية من الشعر الصقلى، بحيث يمكن القول إن صقلية كادت أن تكون "ولاية أدبية" أندلسية خلال القرنين الرابع والخامس للهجرة / العاشر والحادي عشر للميلاد.

ومعظم ما وصل إلينا من الشعر العربى الصقلى نظمه فى الفترة النورمانية شعراء هاجروا من الجزيرة ، وذهب عدد كبير منهم إلى الأندلس التى كانت آنذاك تحت حكم ملوك الطوائف وحظى هؤلاء الشعراء الذين لمعت أسماء بعضهم فى ميدان الأدب برعاية ملوك الطوائف كالمعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، والمعتصم بن صُمادح صاحب المريَّة . ومن بين هؤلاء الشعراء النازحين مصعب بن محمد القرشى المعروف بأبي العرب الصقلى الذى التحق ببلاط المعتمد بن عباد ، وأبو سعيد عثمان بن عتيق الذى التحق ببلاط المعتصم صاحب الدولة المريَّة.

أما أشهر شعراء صقلية العرب الذين اختاروا الرحيل عن الجزيرة فابن حمْديس الصقلى أبو محمد عبد الجبَّار بن أبى بكر الأزدى، الذى غادر صقلية بعد الغزو النورمانى سنة ٤٧١هـ والتحق ببلاط المعتمد فى إشبيلية، ولكنه فقد موضعه بعد أن خلع السلطان المرابطى ملوك الطوائف فاضطر إلى الرحيل عن الأندلس إلى شمال إفريقيا.

وتعتز جزيرة صقلية بأنها كانت موطن أول جغرافى متخصص فى هذا الفن فى التاريخ والذى لا يوجد بين الجغرافيين العرب من طارت شهرته مثله وهو الشريف الإدريسى صاحب كتاب "نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق" والذى لم يظفر أحد من الجغرافيين العرب بما ظفر به من دراسات هو وكتابه الشهير.

وألَّف الإدريسى كتابه عن جغرافية العالم بأمر من الملك النورمانى روجر الثانى وتحت رعايته، لذلك فالكتاب يعرف أيضًا بالكتاب الروجرى وهو شرح لخريطة أعدها المؤلف نفسه للعالم فى وقته وتعرف بخريطة الإدريسى وفرغ من تصنيفه فى شوال سنة ٥٤٨هـ / يناير سنة ١١٥٤م واستغرق فى تأليفه للكتاب خمس عشرة سنة.

قرر الشريف الإدريسى - خلافا للمثقفين المسلمين الصقليين الذى تركوا صقلية فى العصر النورمانى وهاجروا إلى الأندلس وشمال إفريقيا- أن يستقر فى البلاط النصرانى فى صقلية.

وما تزال الكثير من التأثيرات

الإسلامية باقية فى صقلية أهمها زخارف صور الفريسكو بالكابلابلاتينا أو كنيسة القصر فى بَلِرْم والتى أمر بعملها الملك النورمانى روجر الثانى؛ فمجموعة الصور الجدارية بألوانها الزاهية التى تزين هذه الكنيسة تختلف تمامًا عن الفسيفساء البيزنطية الموجودة فى الكنيسة نفسها ، فأسلوب صور هذه الأيقونات والكلمات العربية داخل الصور، وكذلك صيغ التبرك العربية المطولة المستخدمة كأُطُر لتزويق الصور، تُظْهِر بوضوح أن الذى نفذ هذه الأعمال فنانون مسلمون مارسوا الفن الشائع فى العصر الفاطمى فى مصر وشمال إفريقيا وظل هذا الفن مستمرًا معهم منذ أن كانت صقلية خاضعة للمسلمين. وتشتمل هذه الرسوم على كثير من الصور المدنية مثل صور الراقصات والموسيقيات ومجالس الشراب والطرب وصور الحيوان والطير فى أوضاع متماثلة أو فى حالة انقضاض بعضها على بعض، فضلا عن زخارف نباتية من النخل والأزهار وأوراق الشجر والفاكهة . وتتفق بعض صور الكابلابلاتينا فى كثير من مميزاتها مع بعض الصور التى اكتشفت فى مصر الفاطمية وعلى الأخص فى الحمام الفاطمى الذى اكتشف بمنطقة أبى السعود بمصر القديمة.

أ.د / أيمن فؤاد سيد

مراجع للاستزادة :

- ميشيل أمارى: المكتبة الصقلية العربية
- عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ترجمة أمين توفيق الطيبي، تونس، الدار العربية للكتاب ، ١٩٨٠م.
- أيمن فؤاد سيد : الأدب العربى فى صقلية والأندلس ، فى كتاب العالم العربى والعالم اللاتينى _ دروب التواصل ، تونس- الأليكسو ٢٠٠٦م، ٢٥٩ - ٢٦٩ .
- Renato Traini, EI art. Sikilliyya VIII ,pp.11-604

الصليحيون (دولة)

تنتمى الدولة الصليحية إلى مؤسسها: على بن محمد الصليحى ، وهو ابن القاضى محمد الصليحى ، كان شافعى المذهب ، يدين له بالولاء والطاعة أربعون ألفا من أهل حراز . وقد قويت العلاقة بين الداعى الإسماعيلى سليمان بن عبد الله الزاوحى ، والقاضى محمد بن علىّ ، على الرغم من الاختلاف المذهبى بين الرجلين . وكان الزاوحى يحرص على صداقة القاضى محمد بن على لعلمه وورعه وتقواه ومكانته بين قومه ، وقد لمس الزاوحى فى على بن محمد الصليحى علامات النجابة والذكاء منذ نعومة أظفار الزاوحى وعلاقته بعلى بن محمد الصليحى، حتى أنه أيقن أنه خير من يخلفه فى رئاسة الدعوة الإسماعيلية فى بلاد اليمن ، فاستأذن الخليفة المستنصر الفاطمى فى (٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م)أن يجعله خليفة له ، ولما شعر بدنو أجله لقّنه أسرار الدعوة الإسماعيلية وعلومها ، وأوصى له بكتبه وأعطاه مالاً كثيراً كان قد جمعه من أهل مذهبه . وأثبتت الأيام فطنة الشيخ الزاوحى فيما ذهب إليه ، إذ عكف الصليحى على دراسة المذهب الإسماعيلى وأصوله وعلومه وبصفة خاصة علم التأويل والظاهر والباطن . وكانت مقاليد الدعوة قد انتقلت إليه بعد وفاة سليمان بن عبدالله الزاوحى.

وقد أثرت الوصية كثيراً فى نفس على الصليحى إذ وجد نفسه على الرغم من صغر سنه مسئولاً عن الدعوة والمذهب، حيث يروى أبو مخرمة : أنه بعد وفاة سليمان " رسخ فى ذهن الصليحى من كلامه ما رسخ فعكف على درس الكتب ، وكان ذكياً فلم يبلغ الحلم حتى تضلع فى معارفه التى بلغ بها وبالجَدِّ السعيد غاية الأمل البعيد فكان فقيهاً فى مذهب الإمامية مستبصراً فى علم التأويل " .

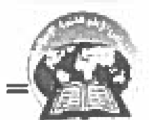
ظلت حركة إحياء المذهب الإسماعيلى تتقدم فى سرية كاملة على يد على بن محمد الصليحى مدة خمس عشرة سنة ، حتى إذا كانت سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧- ١٠٣٨م) ، ثار فى رأس جبل مسار ، وهو أعلى قمة فى قمم جبال حراز . وبعض المؤرخين ذكر أنه ثار فى سنة (٤٣٩هـ/١٠٤٨م) . ويكاد التاريخ الأول يكون هو الأقرب إلى الصحة لأنه

يتفق مع ما رواه المقريزى – الذى أفرد موسوعة ضخمة لتاريخ الفاطميين – حيث ذكر أن عليَّ بن محمد الصليحى ثار فى اليمن ، وروى ذلك فى أحداث سنة (٤٢٩هـ/١٠٣٧ – ١٠٣٨م) . وأيد المقريزى فى هذا أبوالفدا . ومن ناحية أخرى فإن هذا التاريخ يتفق أيضا مع التاريخ الذى ذكر فى المخطوطة الأصلية لكتاب تاريخ اليمن لعمارة وكتابه الأخير: المفيد فى أخبار صنعاء وزبيد ؛ حيث نص المحققان فى هوامش التحقيق على أن التاريخ فى الأصل هو (٤٢٩هـ/١٠٣٧ – ١٠٣٨م) . ويبدو أن هناك التباساً حدث فى النقل بين الرقمين (٤٢٩هـ) و(٤٣٩هـ) وهذا شئ ممكن لتشابه الرقمين .

وقد كان ظهور على بن محمد الصليحى فى رأس مسار المنيعة ، مدعاة إلى استفحال أمره وتجمع الشيعة حوله من أنحاء اليمن ، الذين سارعوا إليه يُمِدُّونه بالمال والرجال . يروى ابن الديبع ويشاركه فى ذلك عدد من المؤرخين أن علياً الصليحى " لم يزل شأنه يظهر شيئاً فشيئاً حتى استفحل أمره ووصله الشيعة من أنحاء اليمن وجمعوا له الأموال الجزيلة " .

ومن الطبيعى أن يثار هنا سؤال عن موقف النجاحيين من حركة إحياء المذهب الإسماعيلى التى قام بها على بن محمد الصليحى ؟ والحقيقة أن المصادر تواجه هذا التساؤل بالصمت !! ولكن من بين سطورها نستشف بعض الحقائق التى تظهر معالم موقف بنى نجاح من على ابن محمد الصليحى . فبنو نجاح لم تكن لهم سيطرة فعلية على مناطق الجبال ومن بينها المنطقة التى ثار فيها الصليحى. وكما رأينا قبل ذلك أيضاً ، كان نجاحٌ يكتفى من أصحاب النفوذ والسلطة فى مناطق الحصون والجبال بإظهار الولاء الاسمى له ، لخلق جو من التعايش السلمى بينه وبينهم باعتباره الممثل الشرعى للخلافة العباسية فى اليمن . فضلاً عن ذلك فإن عليا الصليحى التزم السرية الكاملة لحركته الإسماعيلية كما يروى المؤرخون ولم يعلن عن حقيقتها ، لأنه كان يخشى عليها أن تتعرض لأية مخاطر وهى لا تزال فى مهدها ، والتقية أمر مقرر فى صلب المذهب الإسماعيلى .

ويضيف المؤرخون فى هذا السبيل ما يدعم وجهة النظر هذه حيث كانت العلاقة بين نجاح وعلى بن محمد الصليحى حتى آخر لحظة فى حياة نجاح تسير وفق هوى الصليحى ، فكان



"علىٍّ" على أتم ما يكون من المودة مع نجاح ، وفى هذا الشأن يروى عمارة أن عليا الصليحى بقى وهو "كاتم لما يضمر من الدعوة ، وكان يخاف نجاحا صاحب تهامة وكان يكافئه ويلاطفه ويستكين لأمره" .

وهذا النص وغيره مما ذكره المؤرخون ، يعنى أن أمر استيلاء الصليحى على رأس مسار فى جبال حراز فى نظر (نجاح) كان لا يحتاج منه إلى موقف مُعَادٍ لعلى بن محمد الصليحى ، لأن عليا كان يظهر الولاء لنجاح ويبطن غيره ، ولأنه ربما نظر نجاح إلى تصرفات على بن محمد الصليحى الجديدة فى جبال حراز على أنها تسير فى اليمن ولأنها لا تمثل اعتداء صارخاً على الحدود المعروفة لدولة بنى نجاح .

وقد استغل الصليحى ذلك استغلالاً سياسياً بارعاً ، فعن طريق هذه المودة نفذ إلى صميم بلاط نجاح ، وهو بمدينة الكدراء، عن طريق جارية جميلة أهداها إليه سنة (٤٥٢هـ/١٠٦٠م) ، استطاعت هذه الجارية بما لها من جمال ودلال على سيدها الجديد نجاح أن تطعمه طعاماً مسموماً ، توفى على إثر تناوله . وتخلص على بن محمد الصليحى بهذه الحيلة من أعتى الخصوم الذين يقفون حجر عثرة فى سبيل حركة إحياء المذهب الإسماعيلى من جديد فى بلاد اليمن .

فضلاً عن ذلك كله ، فالدعوة الإسماعيلية ظلت تسير فى نطاق السرية الكاملة ، حتى أرسل على بن محمد الصليحى كتبه فى سنة (٤٥٢هـ/١٠٦٠م) إلى الخليفة المستنصر الفاطمى يستأذنه فى إظهار الدعوة فى بلاد اليمن . ورافقت هذه الكتب هدية جليلة منها سبعون سيفاً قوائمها من عقيق ، فقبل المستنصر الهدية "وأمر له برايات ، وكتب له الألقاب وعقد له الولاية وأذن له فى نشر الدعوة" .

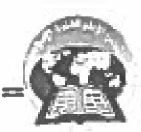
وقد خلف الملك المُكرم والده على الصليحى – وعانى من بعض الفتن والثورات الداخلية التى اندلعت تحركها الرغبة فى التحلل من الارتباط بالإسماعيلية وباتت الدولة مهددة بالتفكك والتصدع حيث ثارت بعض قبائل حراز واتجهت إلى الاستيلاء على حصن مسار ، كذلك ثار أهل منطقة الهان ، وتمكن المكرم من مباغتة هذه القبائل ، وإحباط الفتن التى تعمدت إثارتها ، واستعان على ذلك بفلول الجند والقادة الذين وصلوا إلى صنعاء بسبب

حادث المهجم .

وكانت أهم المشكلات التى واجهته مشكلة أسر والدته ، السيدة الحرة أسماء بنت شهاب ، وما زاد الأمر سوءاً وألهب الموقف اشتعالاً فى صنعاء – عاصمة الصليحيين- وصول رسالة إلى المكرم من والدته تقول له فيها : إنى صرت حبلى من العبد الأحول، فإن أدركتنى قبل أن أضع وإلا فهو العار الذى لا يزال، وكانت أسماء قد تعمدت أن تذكر هذا الأمر – الذى لم يحدث – كى تثير فى ابنها ومن معه من سائر العرب عوامل الغيرة والنخوة والإباء .

فقرأ المكرم رسالتها على الناس وهو على المنبر ، واستثار حفائظهم وضجوا بالبكاء ، وخرج المكرم من صنعاء فى ثلاثة آلاف فارس غير الراجل منهم ، بعد أن حالفهم وخطب فيهم وحرضهم على القتال واستنصرهم . وعند قرية التُربية فى شرقى زبيد ، توقف المكرم حتى استكمل توافد الجند والقوات عليه . وهناك وضع خطة للهجوم على زبيد التى وصلت إليها الأنباء بقدوم المكرم، فقسم المكرم جيشه إلى قلب وميمنة وميسرة ، أما سعيد الأحول فخرج إلى المكرم من زبيد فى عشرين ألفا من العبيد ، ودارت بينهما معركة طاحنة عند باب الشبارق – من أبواب مدينة زبيد – فتمكن جيش المكرم، الذى كان يبدو أكثر كفاءة فى فنون الحرب والقتال ، من هزيمة قوات سعيد الأحول من العبيد الذين لا يعرفون سوى حمل الحراب وكانوا حديثى العهد بالحرب مع العرب، حيث لم يمض على تواجدهم فى زبيد أكثر من عام وكان لذلك أثره فى إلحاق هزيمة فادحة بهم ؛ حيث " وقف المكرم فى القلب فقاتلت الحبشة قتالاً شديداً ساعة من نهار ، ثم انطوى عليها الجناحان فانكسرت الحبشة وطحنتهم الخيل طحن الرحى ، وأتى القتل على أكثرهم " .

ومما يؤيد هذا الرأى ، موقف الملك المكرم الصليحى من هؤلاء المجلوبين الجدد من الأحباش ، حديثى العهد والخبرة بالمواطن الجديدة التى نزلوا إليها فى زبيد ، وغيرها من الأعمال التابعة لبنى نجاح ، فبعد انتهاء المعركة قال المكرم لجنده وقادة جيشه : " اعلموا أن عرب هذه الناحية يستولدون الجوارى السود ، فالجلدة السوداء تعم العبد والحر، ولكن إذا سمعتم من يسمى العظم عزماً ، فهو حبشى فاقتلوه ، ومن



سماه عظما فهو عربى ، فاتركوه" .

أما سعيد الأحول ومن معه من بنى نجاح ، فتذكر روايات المؤرخين أنه كان قد أعد خيلاً جيدة مضمرة على الباب الغربى من زبيد – باب النخل- فركبها فيمن سلم من أصحابه وخواصه وأهل بيته وسار عليها إلى البحر ، حيث أعدت هناك سفن حملتهم جميعاً إلى جزيرة دهلك .

بهذه الأحداث تقلص حكم بنى نجاح مرة ثانية ، وعادوا إلى منفاهم التقليدى فى دهلك ، أما ممتلكاتهم فعادت ثانية إلى الصليحيين، وأقام المكرم فى زبيد أياماً ينظم شئونها ، ثم انتقل بوالدته أسماء إلى صنعاء ، بعد أن ترك زبيد والأعمال التهامية فى ولاية خاله أسعد بن شهاب مرة ثانية .

انتعش المكرم بعد هذا الانتصار الساحق على بنى نجاح، فأمر بضرب الدينار الملكى ، وكتب عليه : الملك السيد المكرم ، عظيم العرب ، سلطان أمير المؤمنين . ولكن يبدو أن تطورات جديدة حدثت بعد عودة المكرم إلى صنعاء ببضع سنين ، حيث تتحدث المصادر بأن المكرم بعد انتصاره فى زبيد ، وعودته إلى صنعاء فوض أمور إدارة الدولة إلى زوجته السيدة الحرة أروى بنت أحمد بن جعفر الصليحى ، وذلك على إثر إصابته بالفالج .

وأوصى المكرم قبل وفاته بأن يتولى أمر الدولة والدعوة الإسماعيلية فى اليمن أبوحمير سبأ بن أحمد بن المظفر بن على الصليحى ، ولما توفى المكرم كتمت الملكة أروى نبأ وفاة زوجها ، وولت ابنها عليا ؛ وأرسلت تطلب من الخليفة المستنصر تقليداً لابنها بحكم مملكة أبيه ، فوافق المستنصر ، وأصدر مرسوماً بتقليد على بن المكرم ملك اليمن ، ولقب عبدالمستنصر . وبذلك لم تنفذ الملكة وصية زوجها ، وضمنت استمرار الحكم فى يدها ، بتولية ابنها الطفل .

على أن عبدالمستنصر لم يلبث أن توفى ؛ وتزوج أبوحمير سبأ الملكة أروى بأمر من الخليفة المستنصر ، وقد بذل كل جهد فى تقوية أمر الدعوة الإسماعيلية ؛ والقضاء على الحركات المناهضة للدولة الصليحية حتى وفاته سنة(٤٩٢هـ / ١٠٩٨).

أخذت الدولة الصليحية فى الضعف بعد وفاة أبى حمير سبأ ، وانفصلت الولايات عن الدولة ؛ واستولى السلطان

حاتم بن الغشم المغلسى الهمدانى على صنعاء وأعمالها ، فضبط أمورها وأطاعته قبائل همدان . كما استقل بنو زريع بعدن .

أ . د / محمد عيسى الحريرى

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- ابن الأثير : أبوالحسن على بن أحمد بن أبى الكرم محمد بن عبدالكريم عبدالواحد الشيبانى (٦٣٠هـ) .

- الكامل فى التاريخ ، طبعة بيروت ، ١٩٦٥ ، الجزء الخامس ، والجزء التاسع .

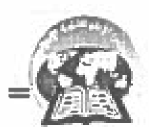
٢- الخزرجى : أبوالحسن على بن الحسن الخزرجى (ت : ٨١٢هـ) . العسجد المسبوك فيمن ولى اليمن من الملوك ، نسخة مصورة عن المخطوط الأصلى للمرة الثانية ، طبعة وزارة الإعلام والثقافة اليمنية (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) ، دار الفكر ، دمشق .

٣- ابن خلدون : عبدالرحمن (ت : ٨٠٨ هـ) . العبر وديوان المبتدأ والخبر ، طبعة دار الكتاب اللبنانى ، ١٩٦٨ ، المجلد الأول ، المجلد الرابع .

٤- ابن الديبع : أبوالضيا عبدالرحمن بن على الديبع الشيبانى الزبيدى (ت : ٩٤٣هـ) ، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ، تحقيق : محمد بن على الأكوع الحوالى .

٥- بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد ، تحقيق : عبدالله الحبشى ، مركز الدراسات اليمنية ، صنعاء ، ١٩٧٩.

٦- عصام الدين عبدالرءوف : اليمن فى ظل الإسلام ، دار الفكر العربى ، القاهرة، ١٩٨٢ .



صنغى

ينتسب شعب الصنغى إلى قبيلة زنجية عرفت باسم هذا الشعب ، وكان لهذه القبيلة دور بارز واضح المعالم فى تاريخ بلاد السودان الغربى التى يطلق عليها الآن غرب أفريقيا. وقد قامت إمارة صنغى الأولى فى إقليم دندى الذى يقع على نهر النيجر. ويعد هذا الإقليم موطن هذا الشعب، وقد استقبلت مواطن الصنغى هجرات بربرية صنهاجية؛ إذ هاجر إليها بربر لمطة والطوارق الذين انصهروا مع السكان الأصليين[١]. ويذكر السعيدى هجرة يمنية قدمت إلى هذه المنطقة وأسست أسرة الأزواء الحاكمة، وكان أول حكامها زا الأيمن[٢]، والنسبة إلى العرب أمر مألوف ومشهور عند عدد كثير من الممالك السودانية فقد ادعاها ملك غانة، كما ادعاها ملوك برنو الذين أقاموا مملكتهم قرب بحيرة تشاد[٣]، وملوك إمارات الهوسا فى شمال نيجيريا الحالية[٤]. لقد استقبلت منطقة الصنغى هجرات بربرية بالإضافة إلى هجرات من قبائل زنجية من الماندنجو والفولانى.

ويرى البعض أن أول مملكة منظمة ظهرت فى منطقة الصنغى ترجع إلى القرن السابع الميلادى، وقد اتخذت من مدينة كوكيا Koukya الواقعة على نهر النيجر على بعد مائة كيلو متر إلى الجنوب من مدينة جاو Gao[٥] عاصمة لها وقد حكم هذه المملكة من أسرة زا الأيمن واحد وثلاثون ملكًا منهم أربعة عشر ماتوا على الوثنية، والباقون كانوا على الإسلام، وأول من أسلم منهم زاكسُى Zakossoi وذلك فى سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. ويطلق عليه فى لغة صنغى مسلم دام، وهذا معناه فى لغتهم: أسلم طوعًا بلا إكراه[٦].

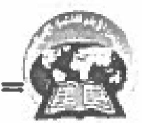
ويرجع انتشار الإسلام فى صنغى إلى العديد من العوامل، منها الصلات التجارية التى ربطت بين بلاد المغرب وبلاد السودان الغربى؛ تلك الصلات، التى ترجع إلى ما قبل الفتح الإسلامى لبلاد المغرب، يؤكدها العديد من النقوش الصخرية، وتبين هذه النقوش طريقًا يبدأ من وادى درعة بالمغرب الأقصى وينتهى عند الدلتا الداخلية لنهر النيجر[٧]. وبانتهاء الفتح الإسلامى لبلاد المغرب بدأت القوافل التجارية المغربية تتجه إلى السودان الغربى فى أواخر القرن الأول وبدايات القرن الثانى للهجرة /السابع والثامن للميلاد، وواجه التجار صعوبات

منها قلة الماء، وهذا ما دفع والى المغرب عبد الرحمن بن حبيب (١٣٠ – ١٣٨هـ) إلى القيام بحفر ثلاثة آبار على طريق القوافل الذى يربط بين مدينة تامدلت جنوب المغرب الأقصى ومدينة أودغست الواقعة الآن جنوب شرق موريتانيا[٨].

وقد شارك تجار الإباضية الذين استقروا على أطراف الصحراء فى واحات فزان وجبل نفوسة وورجلان منذ القرن الثانى الهجرى/ الثامن الميلادى، فى التجارة عبر الصحراء، واتسع نشاطهم عبر الصحراء بقيام الدولة الرستمية فى تاهرت عام١٦٠هـ/٧٧٦م. وقد أشرفت هذه الدولة على التجارة الصحراوية واهتمت بها، وحفرت الآبار للقوافل، وأرسلت الجنود صحبة التجار لتأمينهم[٩]، وكان أكثر المسافرين للتجارة من السودان الغربى فى عهد الدولة الرستمية يتجهون إلى مدينة جاو[١٠]، وقد أسهمت جهود هؤلاء التجار الإباضية فى نشر الإسلام فى صنغى وتعريف الأهالى به.

كما ارتبطت الدولة الرستمية بعلاقات دبلوماسية مع إمارة صنغى خلال القرن الثانى الهجرى الثامن الميلادى، فالمصادر الإباضية تذكر أن الحاكم الثانى للدولة الرستمية عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن رستم (١٧١- ٢٠٨هـ) قد منع ابنه أفلح من السفر إلى مدينة كوكو Kaw Kaw (جاو Gao) عاصمة الصنغى[١١] وهذا يعنى ان الصلات الدبلوماسية كانت متزامنة مع الصلات التجارية وترجع إلى القرن الثانى الهجرى. فطلب أفلح بالسفر يعنى أن هناك وفودًا رسمية اتجهت إلى صنغى، وأراد أفلح ابن الحاكم أن يرأس أحد هذه الوفود. وحين آل الأمر فى الدولة الرستمية إلى أفلح بن عبد الوهاب (٢٠٨- ٢٥٨هـ) سعى إلى دعم العلاقة مع مملكة صنغى، فأرسل سفارة رسمية إلى تلك البلاد على رأسها محمد بن عرفة الذى تولى مناصب رفيعة فى الدولة الرستمية، وقد سر ملك الصنغى من هذا الوفد وهيئته وهديته[١٢].

لقد أثمرت هذه المعاملات التجارية والدبلوماسية بين المغاربة والصنغى والتى ترجع إلى القرن الثانى الهجرى/الثامن الميلادى فى انتشار الإسلام فى تلك البلاد، فظاهرة اقتران الإسلام بالتجارة ظاهرة معروفة فى أفريقيا جنوب الصحراء؛ فقد ذكر توماس أرنولد فى كتابه "الدعوة إلى الإسلام" أن التجارة والإسلام متلازمان فى القارة الأفريقية. فقد اعتنق تجار مملكة صنغى الإسلام



بالإضافة إلى بعض سكانها قبل الحكام ورجال الحاشية نتيجة اتصالهم بأقرانهم من بلاد المغرب. وكان التجار يرون فى انتشار الإسلام جنبًا إلى جنب مع نشاطهم التجارى تدعيمًا لهذا النشاط(١٣).

واستمر الانتشار التدريجى للإسلام بين رعايا صنغى. وحين أصبح المسلمون يشكلون جماعة كبيرة داخل مجتمع صنغى تحول الملك زاكسُى إلى الإسلام فى بداية القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى كما ذكرنا من قبل. وبإسلام هذا الملك أصبح الإسلام دينًا رسميًا فى صنغى منذ عام ٤٠٠هـ/١٠٠٩م. ثم تأتى شهادة البكرى التى دوَّنها فى كتابه عام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م لتؤكد تعمق الإسلام بين الحكام والمحكومين حتى أصبح مرجعًا أساسيًا لنظام الحكم ؛ إذ يقول : إن ملكهم مسلم ولا يملكون غير المسلم(١٤). ويعنى هذا أن كل أفراد الحكومة الصنغية وحكام الأقاليم والمدن كانوا من المسلمين. وادعى هذا الحاكم ارتباطه بالخلافة العباسية؛ إذ ادعى أن خليفة بغداد أرسل إليه سيفًا ودرعًا ومصحفًا شارة لتوليه الحكم.

وتؤكد شواهد القبور التى اكتشفت فى منطقة ساناى Saney والتى تقع على بعد أربعة أميال من مدينة جاو، على قدم الإسلام فى صنغى وانفعال سكانها المسلمين بمظاهر هذا الدين وشعائره. وأقدم نقش عثر عليه فى هذه المنطقة يعود إلى عام ٤٨١هـ/١٠٨٨م لسيدة مسلمة لا تنتمى إلى الأسرة الحاكمة تدعى مكية بنت حسن الحاج(١٥). فاسم صاحبة الشاهد يبين مدى الانفعال بالإسلام وشعائره. فهذا الاسم جاء تيمنًا بمدينة مكة التى تضم بيت الله الحرام قبلة المسلمين، ويتضح من اسم أبيها أنه ظفر بحج بيت الله الحرام بمكة المكرمة، والراجح أنه أنجب ابنته بعد أداء فريضة الحج وأطلق عليها هذا الاسم تبركًا بمكة. وعلى هذا يكون الأب قد أدى فريضة الحج فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/الحادى عشر الميلادى تقريبًا وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من قدم الإسلام فى صنغى(١٦).

باعتناق زاكسُى الإسلام أصبحت صنغى دولة إسلامية، وقد قام هذا الحاكم بتأسيس أول عاصمة لمملكته فى مدينة جاو ، والتى اشتهرت بعدة إطلاقات فى الاسم مثل جاو، وكوكو، وغاو وكاغ، وتقع هذه المدينة عند بداية الثنية الثانية لنهر النيجر، وهو يبعد عنها

بأكثر من ستة كيلو مترات[١٧].

ويحيط الغموض بتاريخ صنغى منذ اعتناق زاكسُى للإسلام أوائل القرن الخامس الهجرى وحتى الربع الثالث من القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى ، فقد خضعت صنغى فى هذا القرن لدولة مالى الإسلامية.

علاقة صنغى بدولة مالى :

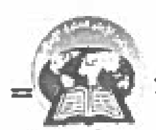
مرت علاقة صنغى بدولة مالى بمراحل مختلفة تمثلت فى الخضوع ثم التمرد والخروج عن طاعة مالى تم العودة إلى الخضوع وأخيرًا الاستقلال. وقد خضعت صنغى لمالى فى فترة حكم منسا على (٦٧٠ـ٦٨٥هـ / ١٢٥٥- ١٢٧٩م) لدولة مالى[١٨]. وقد عرف منسا على بالتقوى والصلاح، وقد زار مصر فى طريقه للحج عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م زمن الظاهر بيبرس (٦٥٨ – ٦٧٨هـ/ ١٢٦٠- ١٢٧٩م)، ومن أبرز حوادث هذا المنسا بسط نفوذ مالى على دولة صنغى الناشئة، غير أن العاصمة جاو قد امتنعت على مالى . ولضمان خضوع صنغى لمالى أخذ "منسا على" رهائن هما على كولن وأخوه سلمان نار أبناء ملك صنغى زاياسبى[١٩].

بعد وفاة "منسا على" مرت دولة مالى بفترة من الاضطراب السياسى دامت زهاء عقدين وانتهت باستيلاء ساكورة Zakoura على الحكم وهو من موالى الأسرة الحاكمة. ويعد من أعظم سلاطين مالى حيث تمكن فى فترة حكمه (٦٨٤ – ٧٠٠هـ/ ١٢٨٥- ١٣٠٠م) من استرجاع هيبه الدولة، فقام بإخضاع صنغى التى خرجت عن الطاعة فى فترة الاضطرابات، واستولى على العاصمة جاو ؛ وهى التى امتنعت على أسلافه[٢٠].

ثم خرجت صنغى مرة أخرى عن طاعة دولة مالى بعد أن خضعت من قبل مرتين فى عهد منسا على وساكورة، وهذا ما جعل منسا موسى (٧١٢- ٧٣٨هـ/ ١٣١٢- ١٣٣٧م) يقوم بإخضاعها من جديد وكان ذلك عقب عودته من رحلة حجه عام ٧٢٥هـ/١٣٢٥م ونجح فى الاستيلاء على عاصمة صنغى : مدينة جاو واستعاد الرهائن ، وأحكم الرقابة عليهما[٢١].

"سنى على" وتأسيس دولة صنغى :

لكن تمكن الرهينة الصنغية " على كولن " الذى كان يقيم فى عاصمة دولة مالى فى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م من الهرب والتخلص من التبعية، واتخذ لقبًا جديدًا



هو سنى. وقد استمر خلفاؤه فى الحكم والتوسع على حساب ممتلكات مالى التى دب فيها الضعف والانحلال. وتوسَّعَ السنى "سليمان دام" على حساب ممتلكات مالى، بل دخل عاصمتها وقام بتخريبها. وتعد أسرة سنى هى الأسرة الثانية التى حكمت صنغى بعد أسرة زا الأيمن(٢٢).

حكم بعد سليمان دام، المؤسِّسُ الحقيقىُّ لإمبراطورية صنغى وهو "سنى على " (٨٦٩- ٨٩٨هـ/١٤٦٤- ١٤٩٢م) وهو من أشهر ملوك صنغى، وهو الملك التاسع عشر فى ترتيب ملوك أسرة سنى. سعى "سنى على" منذ أن تولى مقاليد السلطة إلى إرساء وبناء الدولة، وقام بإنشاء جيش قوى ومدرب ومجهز بالعدد والعدة بالإضافة إلى تجهيز أسطول بحرى، وبهذا الجيش والأسطول انتصر فى كافة المعارك التى خاضها(٢٣). وتعد غزوات "سنى على" للأقاليم والمقاطعات التى كانت تحت سيادة مملكة مالى من أهم غزواته التوسعية حيث استطاع ضم معظم ممتلكات مالى(٢٤). وبهذه التوسعات أصبح سلطانه نافذًا على إمبراطورية كبيرة محورها نهر النيجر(٢٥).

كان الإسلام خلال النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى/ الخامس عشر الميلادى؛ أى فى فترة حكم "سنى على"، قد أصبح دينًا متغلغلاً فى إمبراطورية صنغى ، خاصة أن اعتناق أول حكام صنغى للإسلام قد مر عليه أربعة قرون ونصف القرن ؛ لذلك حدث صدام قوى بين علماء مدينة تنبكت "وسنى على" الذى كان مخلصًا للديانة التقليدية الوثنية لصنغى، ولذلك سعى إلى عمل توازن بين الإسلام والوثنية؛ فقد كان مسلمًا لكنه لم يحسن إسلامه ، ولم يهجر يومًا التقاليد الوثنية؛ لصنغى. لهذا الأمر وصفه السعيدى "بالظالم الأكبر" ويقول أيضاً :"إنه كان فاسقًا متعديًا متسلطًا، تسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال"(٢٦)، لهذه التصرفات والسلوكيات اعتبره العلماء فى عداد الوثنيين(٢٧).

وفى ظروف غامضة توفى " سنى على"؛ وبوفاته قام الأمراء وقادة الجيش بتولية ابنه أبى بكر الملقب "بسنى بار " على عرش المملكة عام ٨٩٨هـ/١٤٩٢م. ولم يَرُقْ هذا الاختيار أحد القادة البارزين وهو القائد محمد بن أبى بكر الذى كان يرغب فى ولاية عرش صنغى؛ لذلك خرج هذا القائد على"سنى بار" بعد شهور قليلة من ولايته لعرش صنغى، متذرعًا بضعف

إسلام هذا الملك، ودعاه إلى تصحيح عقيدته[٢٨].

نهاية حكم أسرة سنى على لصنغى وحكم أسرة الأساكى:

وأمام رفض "سنى بار": لدعوة القائد محمد بن أبى بكر، اندلعت الحرب بينهم، وانهزم جيش حاكم صنغى فى موقعة غرب مدينة جاو[٢٩]، وبهذا الانتصار استولى محمد بن أبى بكر على الحكم فى صنغى، وانتهت حقبة من تاريخ هذه المملكة ، وبدأت حقبة جديدة للمملكة عرفت بحقبة الأساكى حيث حمل محمد بن أبى بكر هو وخلفاؤه لقب" أسكيا " وظلت أسرة الأساكى تحكم صنغى لمدة قرن (٨٩٨- ١٠٠٠هـ/ ١٤٩٢- ١٥٩١م) حتى مجيء الغزو السعدى الذى أنهى حكم هذه الأسرة، وقضى على مملكة صنغى نهائيًا.

أمضى " أسكيا محمد الكبير" السنوات الأولى من حكمه فى توطيد سلطانه، فقام بتنظيم المملكة، واهتم بالنظام الإدارى، وأنشا مقاطعات ومدنًا جديدة وعين عليها حكامًا. وأنشأ جيشًا وأسطولاً دائمين، واهتم بالقضاء ونصب قضاة فى المدن الكبرى والمراكز، واهتم برعاية العلم والعلماء. وشجع على ازدهار اقتصاد مملكته باهتمامه بالتجارة ونظم الأسواق وخفض الضرائب[٣٠].

وبعد أن نظم شئون المملكة ودعم استقرارها خرج لأداء فريضة الحج عام ٩٠٢هـ/١٤٩٦م، واصطحب معه مجموعة من أعيان كل قبيلة، بالإضافة إلى كبار العلماء والقضاة فى دولته. والتقى فى أثناء حجه بعلماء مصر خاصة العالم جلال الدين السيوطى الذى نصحه بما يجب أن يكون عليه الحكم. وفى مكة المكرمة اشترى بساتين أوقفها على الحجاج القادمين من بلاده[٣١]. وبهذه الفريضة عاد إلى مملكته بالسودان الغربى مزودًا بالشرعية الإسلامية، خاصة بعد أن حصل من شريف مكة على لقب خليفة السودان[٣٢].

خلفاء الأسكيا محمد الكبير (٩٣٥ – ١٠٠٠هـ/ ١٥٢٩- ١٥٩١م)

اعتلى عرش صنغى تسعة أساكى من أبناء وأحفاد أسكيا محمد باستثناء الأسكيا "محمد مر بنكن " ابن أخيه. وقد آل الحكم فى صنغى إلى الأسكيا موسى (٩٣٥- ٩٣٧هـ/ ١٥٢٩- ١٥٣١م) بعد أن عزل أباه أسكيا الحاج محمد. وشهدت فترة حكمه فتنا واضطرابات من المعارضين له ، ولم تشهد فترة

حكمه أية إنجازات على صعيد المملكة، وانتهى حكمه على أيدى إخوته الذين تخلصوا منه بالقتل(٣٣).

وتولى عرش المملكة عقب مقتل "أسكيا موسى" ابن عمه "الأسكيا محمد مر بنكن بن عمر كمزاع" (٩٣٧- ٩٤٣هـ/١٥٣١- ١٥٣٧م).

وقد شهدت صنغى فى عهده تطورًا ونهضة فى عدة مجالات وخاصة الجيش، فقد كون جيشًا كبيرًا فى العَدَد والعدة(٣٤). وانتهى حكم هذا الأسكيا بالعزل؛ عزله "أسكيا إسماعيل بن الحاج محمد الكبير"(٩٤٣-٩٤٦هـ/١٥٣٧-١٥٣٩م) ولا توجد أية أحداث تذكر فى فترة حكمه التى دامت أقل من ثلاث سنوات(٣٥).

وتولى حكم صنغى بعد ذلك "أسكيا إسحاق" (٩٤٦- ٩٥٦هـ/١٥٣٩- ١٥٤٩م) أخو الأسكيا السابق والذى عُدّ أكثر الأساكى قوة وشجاعة، وقد واجه مطامع الدولة السعدية فى المغرب بحزم وقوة(٣٦). وخلفه فى الحكم أخوه "الأسكيا داود" (٩٥٦- ٩٩٠هـ/١٥٤٩-١٥٨٢م) الذى يُعد أكثر الأساكى ثقافة وعلمًا ، فقد كان يتحدث العربية كما كان عارفًا وحافظاً لكثير من سور القرآن الكريم،وتذكر المصادر الكثير عن كرمه وصلاحه(٣٧).

برحيل الأسكيا داود تولى ابنه " الاسكيا محمد الثالث " الحكم (٩٩٠- ٩٩٥هـ/١٥٨٢- ١٥٨٦م)، وبداية من فترة حكم هذا الأسكيا بدأت صنغى تعانى من الضعف والانحلال وعدم الاستقرار، ولم تكن لهذا الاسكيا أية أعمال ؛ لذلك عُزل، وآلت مقاليد الحكم إلى أخيه "الأسكيا محمد بان " الذى وافته المنية عام ٩٩٦هـ/١٥٨٨م. ثم تولى الحكم أخوه "إسحاق الثانى" (٩٩٦- ٩٩٩هـ/١٥٨٨- ١٥٩١م) وشهدت فترة حكمه صراعا على الحكم مع أخيه "بلمع محمد الصادق"، وقد كلف هذا الصراع مملكة صنغى الكثير من الرجال والعتاد(٣٨).

وفى ظل هذه الأوضاع الداخلية السيئة واجهت صنغى الغزو السعدى عام ٩٩٩هـ/١٥٩١م بقيادة القائد " جودر " الذى هزم جيش الأسكيا ، وبعد الهزيمة عزل الأسكيا إسحاق الثانى ، وتولى مقاليد الحكم الأسكيا "محمد كاع" الذى اعتقل من قبل الجيش السعدى فى عام ١٠٠٠هـ/١٥٩١م(٣٩). وبهذا انتهت مملكة صنغى الإسلامية.

أ.د/حسين سيد مراد

الهوامش :

(١) فاى منصور على: أسكيا الحاج محمد وإحياء دولة السنغاى الإسلامية ٨٨٩ – ٩٣٥هـ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى، ص ١٣، ١٤.

(٢) السعيدى: ملوك السودان أهل سنغى وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها زمن ملكنا من الملوك، طبعة هوداس، مطبعة بردين، مدينة انجى، ١٨٩٨، ص ٣، ٤.

(٣) إبراهيم طرخان: إمبراطورية غانة الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧٠، ص٤٩.

(٤) حسين مراد: دولة كانو الإسلامية تطورها السياسى والحضارى ،نشرة دورية محكمة يصدرها معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، العدد ٤٧ القاهرة ١٩٩٧م.

(٥) جون هونويك: الإسلام فى أفريقيا الاستوائية، ترجمة عبد الرحمن الشيخ، المركز القومى للترجمة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠١٠، ص٣٧٠.

(٦) السعيدى: مصدر سابق، ص٣.

(٧) حسين مراد: الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربى خلال القرن ٢ – ٦هـ، مؤتمر الإسلام فى أفريقيا، جامعة أفريقيا العالمية، نوفمبر ٢٠٠٦، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

(٨) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دار الكتاب الإسلامى، القاهرة، بدون تاريخ، ص١٥٦، ١٥٧.

(٩) محمد ناصر: دور الإباضية فى نشر الإسلام بغرب أفريقيا، مكتبة الضامرى، سلطنة عمان، بدون تاريخ، ص٨.

(١٠) المرجع السابق والصفحة.

(١١) الوسيانى: سير أبى الربيع الوسيانى، مخطوطة بدار الكتب المصرية، رقم ٩١١٣ح، ميكروفيلم ٨٤٥٢، ص٤٩.

(١٢) ابن الصغير: أخبار الأئمة الرستميين، تحقيق محمد ناصر، دار الغرب الإسلامى، بيروت ١٩٨٦، ص٧١.

Devidson, B: Old Africo, rediscovered, London 1959, p.97. (13)

(١٤) البكرى: مصدر سابق، ص ١٨٣.

(١٥م) المصدر السابق والصفحة .

Fernando, Paolo: Histore contre Memoire Eplgraphic Chroniques, Publications de L(15)institut des etudes Africannes, Rabat, 1993, P.18.

(١٦) حسين مراد: الصلات، ص٣٩٦.

(١٧) الحميرى: الروض المعطار فى خبر الأقطار، مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت ط٢، ١٩٨٠، ص ٥٠٢، ٥٠٣، محمود كعت: تاريخ الفتاش، باريس ١٩١٣، ص٤٥.

(١٨) عن مارى جاطة. انظر إبراهيم طرخان: دولة مالى الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣، ص ٣٩- ٤٤.

(١٩) السعيدى: مصدر سابق، ص ٦- ٧.

(٢٠) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٥٦- ١٩٦١، ج٦، ص٤١٤.

(٢١) السعيدى: مصدر سابق، ص ٥، ٦.

(٢٢) سينيكى مودى سيسكو: الصنغى من القرن الثانى إلى القرن السادس الهجرى، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو باريس ١٩٩٧، ج٤، ص٢٠٢.

(٢٣) محمود كعت: مصدر سابق، ص ٥.

(٢٤) المصدر السابق، ص٤٥.

(٢٥) سينيكى مودى سيسكو: مرجع سابق، ص ٢٠٤.

(٢٦) السعيدى: مصدر سابق، ص ٦٤.

(٢٧) محمود كعت: الفتاش، ص٤٤.

(٢٨) محمود كعت: مصدر سابق، ص٥٥.

(٢٩) محمود كعت: مصدر سابق، ص٥٣، السعيدى: مصدر سابق، ص٧١.

(٣٠) محمود كعت: مصدر سابق، ص٥٩.

(٣١) السعيدي: مصدر سابق، ص ٧٢، ٧٣.

(٣٢) المصدر السابق، ص٧٣.

(٣٣) المصدر السابق ،ص ٨٦،إبراهيم طرخان : إمبراطورية الصنغى ،مجلة كلية الآداب جامعة الرياض ،مجلد٨ ، الرياض ١٩٨١، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٣٤) السعيدى : مصدر سابق ، ص ٨٦ ، إبراهيم طرخان : إمبراطورية الصنغى ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٣٥) السعيدى : مصدر سابق ، ص ٩١ .

(٣٦) المصدر السابق ، ص ١٠٠.

(٣٧) السعيدي : مصدر سابق ،ص ١١٥ ،الأرواني : السعادة الأبدية بالتعريف بعلماء تنبكت البهية ، تحقيق الهادى الدالى ، جمعية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ٢٠٠١ ، ص ٦٦.

(٣٨) السعيدى : مصدر سابق ،ص ١٢٣، ١٢٥.

(٣٩) السعيدى : مصدر سابق ، ص ١٥٢ ، أبيتول : نهاية إمبراطورية الصنغى ،تاريخ أفريقيا العام ،البنسكو ١٩٩٧ ، ج ٤،ص ٣٤٥، ٣٤٦.

مصادر ومراجع للاستزادة :

- منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، الطبعة الأولى.
- ملوك السودان أهل سنغى وقصصهم وأخبارهم وسيرهم وغزواتهم وذكر تنبكت ونشأتها زمن ملكنا من الملوك، طبعة هوداس، مطبعة بردين، مدينة انجى، ١٨٩٨، ص ٣، ٤.
- دولة كانو الإسلامية تطورها السياسى والحضارى ،نشرة دورية محكمة يصدرها معهد البحوث والدراسات الأفريقية ، العدد ٤٧ القاهرة ١٩٩٧م.
- الصلات بين بلاد المغرب والسودان الغربى خلال القرن ٢ – ٦هـ، مؤتمر الإسلام فى أفريقيا، جامعة أفريقيا العالمية، نوفمبر ٢٠٠٦، ص ٣٧٤، ٣٧٥.
- دور الإباضية فى نشر الإسلام بغرب أفريقيا، مكتبة الضامرى، سلطنة عمان، بدون تاريخ.
- Devidson, B: Old Africo, rediscovered, London 1959,
- أنظر إبراهيم طرخان: دولة مالى الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٣.
- ابن خلدون :العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٥٦- ١٩٦١.
- الصنغى من القرن الثانى إلى القرن السادس الهجرى، تاريخ أفريقيا العام، اليونسكو باريس ١٩٩٧.

الصوائف والشواتى

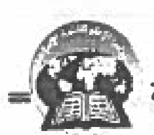
الصوائف جمع صائفة، والمقصود بها الغارة التى يقوم بها المسلمون صيفًا ضد العدو.

والشواتى جمع شاتية وهى الغارة التى تكون شتاءً.

وبالرغم من أن الغارات الإسلامية كان يقوم بها المسلمون ضد أعداء الدولة الإسلامية بصفة عامة فقد ارتبط مصطلح الصوائف والشواتى فى التاريخ الإسلامى بالغارات التى يشنها المسلمون صيفًا وشتاء ضد الروم بصفة خاصة. والسبب فى ذلك أن الروم كانوا العدو الأخطر للمسلمين منذ قيام الدولة الإسلامية فى عصر الرسول ﷺ حتى سقوط القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية (دولة الروم) فى سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م).

ولابد هنا من الإشارة إلى أن الصوائف والشواتى لم تكن تمثل فى العادة حروبًا واسعة المدى كالحروب التى حدثت بين المسلمين والروم فى عصر الخلافة الراشدة؛ ولكنها كانت تمثل غارات محدودة تتم بشكل دورى شبه منتظم، ولها أهداف أساسية من بينها الحفاظ على الكفاءة القتالية للمسلمين فى منطقة الثغور (راجع هذه المادة)؛ ومن بينها أيضًا إرهاب العدو وإشعاره بأن المسلمين مستعدون دائمًا للتصدى لأى هجوم محتمل. ومن بين الأهداف أيضًا الاستطلاع ومعرفة مدى قدرات العدو واستعداداته، ثم إنها قد تكون أحيانًا ردًا على استفزازات العدو وهجومه على مناطق الثغور لتحطيم التحصينات الإسلامية والحصول على الغنائم.

ولا نكاد نجد فى مصادرنا ذكرًا للصوائف والشواتى فى عصر الخلفاء الراشدين. وكانت الفتنة الكبرى التى أعقبت استشهاد عثمان سببًا فى انقطاع المواجهات بين المسلمين والروم. فلما جاء العصر الأموى بدأ الصراع الإسلامى ضد الروم يدخل مرحلة جديدة، وظهرت عبارة "مَشْتَى المسلمين ببلاد الروم" فى أوائل هذا العصر. ففى أحداث سنة ٤٣هـ (٦٦٣م) يتحدث الطبرى عن "غزوة بُسْر ابن أبى أرطاة الروم ومَشْتَاه بأرضهم"[١]. وفى أحداث سنة ٤٤هـ (٦٤٤م) يتحدث عن "دخول المسلمين مع عبد الرحمن بن خالد بن الوليد بلاد الروم ومشتاهم بها"[٢]. وفى أحداث سنة ٤٧هـ (٦٦٧م)



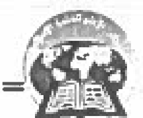
يتحدث عن " مَشْتى مالك بن هبيرة بأرض الروم"[٣]. وتتكرر مثل هذه العبارة فى مواطن أخرى عديدة فى تاريخ الطبرى وغيره خلال العصر الآموى.

وتبرز كلمة " الصائفة" فى تاريخ الطبرى ابتداء من سنة ٤٨هـ (٦٦٨م)؛ ففى تناوله لأحداث ذلك العام يتحدث عن " صائفة عبد الله بن قيس الفزارى"[٤]، وفى أحداث سنة ٤٩هـ (٦٦٩م) يتحدث عن " صائفة عبد الله بن كُرْز البجلى"[٥]. وتكاد " الصائفة" بعد ذلك تتكرر كل عام طوال حكم معاوية حتى وفاته سنة ٦٠ هـ (٦٨٠م).

والواضح أن الفتن والحروب الداخلية التى انتشرت فى دولة الخلافة الأموية منذ عهد يزيد بن معاوية (٦٠- ٦٤هـ/ ٦٨٠- ٦٨٣م) حتى القضاء على ثورة عبد الله بن الزبير فى سنة ٧٣هـ (٦٩٢م) فى خلافة عبد الملك بن مروان ؛ كانت السبب وراء التوقف المؤقت لنشاط الصوائف والشواتى فى العصر الأموى. وما أن انتهت هذه الاضطرابات الداخلية حتى بدأت تلك الغارات الحدودية تستعيد نشاطها؛ ففى نفس العام الذى انتهت فيه ثورة ابن الزبير " غزا محمد بن مروان الصائفة فهزم الروم"[٦]. وفى عام ٧٥هـ (٦٩٤م) غزا محمد بن مروان الصائفة أيضًا. ولكننا نلاحظ أن الغارات ضد الروم فى عهد عبد الملك وابنيه: الوليد وسليمان، أخذت تدريجيًا تتجاوز النطاق المحدود للصوائف والشواتى لتصبح حروبًا غايتها التوسُّع الإقليمى للدولة الإسلامية على حساب دولة الروم؛ وذلك تحقيقًا لهدف كان يسعى وراءه الأمويون بكل طاقاتهم وهو فتح القسطنطينية واستئصال شأفة ذلك العدو الألد الرابض على حدودهم الشمالية. ففى سنة ٨١هـ (٧٠٠م) -على سبيل المثال - أرسل عبد الملك بن مروان ابنه عبيد الله ففتح قاليقلا[٧]. وفى سنة ٨٤هـ (٧٠٣م) أرسل ابنه عبد الله ففتح المصيصة[٨]. وعقب وفاة عبد الملك استمر ابنه وخليفته الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ/٧٠٥- ٧١٥م) فى هذه السياسة التوسعية؛ ففى سنة ٨٧هـ (٧٠٦م) أرسل أخاه مسلمة فى غزوة ضد الروم ففتح عدة حصون . وفى العام التالى فتح مسلمة حصنًا مهما من حصون الروم يُدْعى طوانة ، وفتح حصونًا غير ذلك[٩]. وظل الأمر كذلك فى السنين المتبقية من خلافة الوليد. وعندما تولى سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ/ ٧١٥- ٧١٧م) كان المسرح مُعدًا لغزو

القسطنطينية، فأعدَّ سليمان حملة برية وبحرية غير مسبوقة فى عددها وعُدَّتها وجعل قائدها الأعلى أخاه مسلمة وأرسله إلى القسطنطينية، " وأمره أن يقيم عليها حتى يفتحها .... فشتا بها وصاف"[١٠]. ولكن هذه الحملة التى حاصرت القسطنطينية أكثر من عام لم يُقَدَّر لها النجاح، وتعرض المسلمون خلال الحصار لخسائر ضخمة فى الأرواح والعتاد، ومات سليمان ابن عبد الملك أثناء الحصار وخلفه عمر بن عبد العزيز (٩٩- ١٠١هـ/ ٧١٧- ٧٢٠م)، فأمر مسلمة أن يرفع الحصار فورًا وأن يعود بجيشه إلى دار الإسلام حقنا لدماء المسلمين. ولكن فشل هذا الحصار لم يُجْهض تمامًا آمال الأمويين فى القضاء على الإمبراطورية البيزنطية. ولم تتوقف الصوائف بل استمرت؛ ففى عام ١٠٠هـ(٧١٨م) " أغزى عمر بن عبد العزيز الوليد بن هشام المُعَيْطى وعمرو بن قيس الكندى من أهل حمص الصائفة"[١١]. وفى خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١- ١٠٥هـ/ ٧٢٠- ٧٢٤م) "غزا بالناس.... سنة ١٠٢ الوليد بن هشام أرض الروم، فنزل على المخاضة عند أنطاكية"[١٢]، وفى سنة ١٠٣هـ (٧٢١م) "غزا العباس بن الوليد". وقد ظهر مصطلح الصائفة اليمنى (التى تخرج من ثغور الجزيرة) والصائفة اليسرى (التى تخرج من ثغور الشام) فى تلك الفترة لأول مرة. فيذكر اليعقوبى أن عبد الرحمن بن سليمان الكلبى غزا على الصائفة اليمنى فى سنة ١٠٤هـ (٧٢٢م)، وغزا عثمان بن حيان المرى على الصائفة اليسرى[١٣].

وقد حاول هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ/٧٢٠- ٧٤٣م) أن يعيد نشاط الصوائف بصورة قوية، وخاصة على يد ابنيه : معاوية وسليمان، وأراد أن يحيى مشروعات الأمويين التوسعية فى قلب دولة الروم. وقد كانت الصوائف تحدث فى خلافته كل عام تقريبًا، واتخذ بعضها شكلاً توسعيًا ملحوظًا حيث نجحت فى فتح حصون داخل دولة الروم. وتكرر فى عهده غير مرة حدوث الصائفة اليمنى والصائفة اليسرى فى عام واحد[١٤]. وبعد وفاة هشام سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م) تعرض البيت الأموى لهزات عنيفة من داخله ومن خارجه؛ فالصراع الداخلى كان على أشده بين المتنافسين على السلطة داخل البيت الأموى، وكانت الدعوة العباسية تحقق نجاحًا تلو نجاح حتى تمكنت من إسقاط الخلافة الأموية سنة ١٣٢هـ(٧٤٩م). وقد كان العباسيون



بعد قيام دولتهم فى حاجة إلى عدة سنوات حتى يستطيعوا القضاء على الأخطار التى كانت تحيط بدولتهم الناشئة. ومن هنا توقف نشاط الصوائف والشواتى بصورة تامة تقريبًا منذ وفاة هشام حتى خلافة أبى جعفر المنصور (١٣٦- ١٥٨هـ/ ٧٥٤- ٧٧٥م). ويختلف المؤرخون فى أول صائفة غُزِيَتْ فى خلافة بنى العباس، فيذكر البعض أنها حدثت فى سنة ١٣٨هـ، ويذكر آخرون سنة ١٣٩هـ (٧٥٦م)[١٥].

ولا مجال هنا للدخول فى تفاصيل الصوائف والشواتى فى عصر العباسيين. ولكن ما ينبغى أن نبرزه فى هذا السياق أن سياسة العباسيين تجاه الروم اختلفت اختلافًا بينًا عن سياسة الأمويين؛ فقد كان الأمويون يهدفون إلى السيطرة الكاملة على دولة الروم وإخضاعها لسلطانهم، أما العباسيون فقد كانوا يهدفون إلى حفظ التوازن العسكرى بينهم وبين دولة الروم وكانوا يبذلون قصارى جهدهم لتأمين ثغورهم وحمايتها من أى تهديد بيزنطى. ومن هنا كانت الصوائف والشواتى عندهم- فى الأغلب الأعم- تهدف إلى تأكيد هيبتهم أمام عدوهم الأخطر وإلى إبقاء المقاتلين المسلمين على أُهْبَة الاستعداد لصد أى هجوم محتمل. صحيح أن عهد الخليفة محمد المهدى(١٥٨- ١٦٩هـ/ ٧٧٥- ٧٨٥م) وابنه هارون الرشيد(١٧٠- ١٩٣هـ/٧٨٦- ٨٠٩م) شهد حملات ضخمة ناجحةضد الروم[١٦]، ولكنها لم تكن بهدف التوسع، بل كانت حملات تأديبية ردًا على استفزازات الروم المتكررة. والاستثناء الوحيد هو الخليفة المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٣- ٨٣٣م)؛ فقد حشد كل طاقاته فى السنوات الثلاث الأخيرة من خلافته لغزو الروم وترك مقر خلافته وربض فى إقليم الثغور، وتوغل فى أرض الروم ورفض كل محاولات الصلح من الإمبراطور البيزنطى ثيوفيل، وكان يهدف- على الأرجح- إلى غزو القسطنطينية. ولكن وفاته المفاجئة وضعت حدًا لمشروعه[١٧]. وقد كان لخليفته المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ/٨٣٣- ٨٤٢م) حملة ضخمة ناجحة ضد الروم هى حملة عمورية، ولكنها كانت ردًا على اعتداء الروم على منطقة الثغور، ولم تهدف إلى التوسع[١٨]. وبعد انتهاء العصر العباسى الأول بدأت الخلافة العباسية تضعف تدريجيًا، وبدأت الدويلات المستقلة

أو حكام منطقة الثغور يحملون عبء التصدى للجهاد ضد الروم وحماية ثغور الدولة الإسلامية. وكان لسيف الدولة الحمدانى أمير حلب دور بارز فى هذا الجهاد. ثم ظهرت بعد ذلك قوة الأتراك السلاجقة التى حملت راية الصراع الإسلامى ضد الروم. وتلتها قوة الأتراك العثمانيين التى نجحت فى الاستيلاء على القسطنطينية عاصمة دولة الروم فى سنة ٨٥٧هـ (١٤٥٣م) وإسدال الستار على آخر فصول ذلك الصراع الطويل الذى بدأ منذ ظهور الإسلام.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) تاريخ الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف، القاهرة ١٩٧٧، جـ٥، ص ١٨١.

(٢) نفس المصدر والجزء، ص ٢١٢.

(٣) نفس المصدر والجزء، ص ٢٢٨.

(٤) نفس المصدر والجزء، ص٢٣.

(٥) نفس المصدر والجزء، ٢٣٢.

(٦) تاريخ الطبرى جـ٦، ص ١٩٤.

(٧) نفس المصدر والجزء، ص ٢٣١.

(٨) البلاذرى، فتوح البلدان، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩١، ص ١٦٩. وانظر أيضًا: الطبرى، جـ٦، ص ٣٨٥.

(٩) انظر: تاريخ الطبرى، جـ٦، ص ٤٢٩، ٤٣٤، ٤٣٦.

(١٠) تاريخ الطبرى، جـ٦، ص ٥٣٠.

(١١) نفس المصدر والجزء، ص٥٥٦.

(١٢) تاريخ اليعقوبى، دار صادر ، بيروت، ١٩٩٢، جـ٢، ص ٣١٤.

(١٣) نفس المصدر، ص ٣١٥.

(١٤) لمزيد من التفاصيل راجع: د. فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر، القاهرة (دون تاريخ) جـ٢، ص ١٠ وما بعدها..

(١٥) نفس المرجع، جـ٢، ص ١٤٧- ١٤٩.

(١٦) انظر التفاصيل فى تاريخ الطبرى، جـ٨، ص ١٤٤، ١٥٢، ٣٠٧- ٣١٠، ٣٢٠- ٣٢٢.

(١٧) نفس المصدر: جـ ٨، ص ٦٢٣ وما بعدها.

(١٨) نفس المصدر، جـ ٩، ص ٥٧ وما بعدها.

مصادر ومراجع للاستزادة:

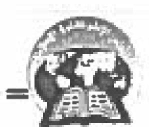
- البلاذرى (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان. طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩١.
- الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الطبرى، دار المعارف، ١٩٧٧.
- د. فتحى عثمان: الحدود الإسلامية البيزنطية، جـ٢. دار الكاتب العربى للطباعة والنشر. القاهرة (د.ت) .
- اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب): تاريخ اليعقوبى. دار صادر، بيروت ١٩٩٢.

طاجكستان

تقع جمهورية "طاجكستان" أعالى نهر أموداريا (جيحون) الذى يفصلها عن أفغانستان، ويحدها من الشرق إقليم "سينغيانغ" (تركستان الشرقية)، ومن الشمال قيرغيزستان وأوزبكستان، وتحدها أوزبكستان من الغرب، ويدخل نصفها الشمالى فى وادى فرغانة الخصيب الشهير وحوض سرداريا (سيحون)، ويشغل نصفها الشرقى الجزء الأكبر من هضبة وجبال بامير التى تسمى سقف العالم حيث يبلغ ارتفاعها ٧٤٩٥ متر، ودعاها السوفيت "قمة الشيوعية" و"قمة ستالين". ويتبعها إقليم "غورنو" (بادخشان) المتمتع بالحكم الذاتى، ويشتمل على كتلة البامير، ويشترك فى حدوده مع الصين وأفغانستان، ومساحته ٦٣٧٠٠ كيلو متر مربع. وجمهورية طاجكستان أصغر الجمهوريات الإسلامية فى آسيا الوسطي، مساحتها ١٤٣١٠٠ كيلو متر مربع. وعاصمة الجمهورية "دوشانب" (دوشانى)، وهى مدينة حديثة.[١]

وطاجكستان منطقة جبلية شاهقة الارتفاع، باستثناء المنطقة الجنوبية التى تقع جنوب العاصمة "دوشانب" حيث تكثر السهول الناتجة عن الأنهار الكثيرة التى تتجه نحو الجنوب لترفد بنهر جيحون. كما تتجه أنهار نحو الشمال لترفد بنهر سيحون حيث تشكلت بعض السهول، وتضم طاجكستان أجزاء من هذا النهر. والمناطق الجبلية بطاجكستان تكون مراعى جيدة للأغنام والماعز[٢]. ومن أهم الأنشطة الاقتصادية فى طاجكستان الزراعة والرعى والصناعة، وأهم المعادن المتوفرة بها البترول والغاز الطبيعى والذهب والفضة[٣].

وقد دخلها الإسلام فى القرن الأول للهجرة / السابع الميلادى، وانتشر فى العصر العباسى وخاصة عصر المأمون والمعتصم، وقد حكمتها عدد من الدول الإسلامية المستقلة أهمها الدولة السامانية التى ازدهرت البلاد فى ظلها وانتشرت الدعوة الإسلامية بها، كما خضعت لحكم الدولة الغزنوية ثم السلجوقية ثم القراخانية، وبعد اجتياح المغول لها أعطيت ضمن بلاد ما وراء النهر "لجغتاى"



الابن الثانى "لجنكيز خان"، وقد قام بتأسيس دولته بها. وكانت بلاد ما وراء النهر نواة إمبراطورية "تيمورلنك" الضخمة[٤]. وقد عاشت البلاد فترة اضطراب فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، وذلك بسبب غزوات قبائل الأوزبك وصراعات أمرائها على العرش، وظل هذا الضعف قائمًا حتى منتصف القرن الثانى عشر الهجرى/ الثامن عشر الميلادى حيث خضعت إمارة بخارى لحكم دولتى الجانيون والأشتراخانيون، فى الوقت الذى خضعت فيه فرغانة لحكم دولة كوكند.[٥]

وبسبب ما شهدته البلاد من ضعف وانقسام طمع الروس فيها، ودخلوا تركستان الغربية واستولوا عليها، وقسموها لعدة جمهوريات منها طاجكستان التى استولوا عليها سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م. وتكونت الجمهورية سنة ١٣٤٣هـ/١٩٢٤م، وأضيف إليها إقليم غورنو المتمع بالحكم الذاتي، وأصبحت جمهورية اتحادية سنة ١٣٤٨هـ/١٩٢٩م. وكانت تتبع الإدارة الدينية لمسلمى وسط آسيا، وكانت نسبة المسلمين بها ٩٨٪ سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، نقصت إلى ٨٢٪ سنة ١٣٩١هـ/١٩٧١ بسبب سياسة روسيا الشيوعية، ووصل عددهم إلى أربعة ملايين نسمة سنة ١٤٠١هـ/١٩٨٠م[٦].

وأهم عناصر السكان بها الطاجيك والأوزبك والتتار والقيرغيز والتركمان. ويرجع الطاجيك إلى أصل فارسى، ويتحدثون اللغة الطاجكية التى تعود إلى أصل فارسى، وكانت تكتب بالخط العربى حتى سنة ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م ثم أُلْزِمُوا بكتابتها بخط الكيريلى الروسى. أما بقية العناصر فتعود لأصل تركى وكذلك لغتهم. ويشكل أهل السنة نصف الطاجيك، ويشكل الشيعة النصف الآخر، وينتمى مائة وعشرون ألفًا إلى الإسماعيلية، ويتبعون الأغاخان، ويسكنون إقليم غورنو بادخشان. وبالإضافة إلى السكان الأصليين يستوطن البلاد أعدادٌ من الروس، وهم من النصارى الأرثوذكس، كما وجدت أعداد من اليهود يشكلون ٠,٠٤٪ من السكان[٧].

وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى وتفككه تعانى طاجكستان صراعًا بين أهل السنة وبين الشيوعيين مع وجود قوات روسية تبلغ خمسين ألفًا تؤيد الشيوعيين، وقد نجح الشيوعيون فى

الاستيلاء على السلطة فى دوشانب سنة ١٩٩٣م.[٨] ومن الجدير بالذكر أن القوات الأمريكية دخلت طاجكستان وذلك لتدعيم حربها فى أفغانستان، وتعانى البلاد حاليًا مشاكل حادة فى نظام الحكم الداخلى[٩].

د/ وفاء محمود عبد الحليم

الهوامش :

(١) جميل عبد الله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، ط٣، دار أم القري، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م، ص٥٢٢.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢١: المسلمون فى الإمبراطورية الروسية، المكتب الإسلامى، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م، ص٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٩.

(٣) جميل عبد الله محمد المصرى: المرجع نفسه، ص٥٢٣.

(٤) ولبر، دونلد: إيران فى ماضيها وحاضرها، ترجمه إلى العربية عبد النعيم محمد حسنين، ط٢، دار الكتاب المصرى، مصر، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٥م، ص٥٨، ٦٦، ٧٦.

(٥) فيتالى نومكين وأندريه نيد فيتسكي: بخاري، ترجمة صلاح صلاح، ط١، منشورات المجمع الثقافى، أبو ظبى، ١٩٩٥م، ص٩، ١٠.

(٦) جميل عبد الله محمد المصري: المرجع نفسه، ص٥٢٣.

(٧) محمود شاكر: المرجع نفسه، ص٢٤٢.

(٨) جميل عبد الله محمد المصرى: المرجع نفسه، ص٥٢٣.

(٩) فرانسيس فوكوياما: بناء الدولة ـ النظام العالمى ومشكلة الحكم والإدارة فى القرن الحادى والعشرين، نقله إلى العربية مجاب الإمام، العبيكان، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م، ص١٦٩.

مراجع للاستزادة:

(١) جميل عبد الله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامى وقضاياه المعاصرة، ط٣، دار أم القري، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م.

(٢) محمود شاكر: التاريخ الإسلامي، ج٢١: المسلمون فى الإمبراطورية الروسية، المكتب الإسلامى، ط٢، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.

(٣) ولبر، دونلد: إيران فى ماضيها وحاضرها، ترجمه إلى العربية عبد النعيم محمد حسنين، ط٢، دار الكتاب المصرى، مصر، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، ١٩٨٥م.

(٤) فيتالى نومكين وأندريه نيد فيتسكي : بخاري، ترجمة صلاح صلاح، ط١، منشورات المجمع الثقافى، أبو ظبى، ١٩٩٥م.



الطاهريون (فى اليمـــن)

٨٥٨- ٩٤٥هـ / ١٤٥٤-١٥٣٩م

تعرضت اليمن خلال العصر الطاهرى لفترة من أعصب الفترات التى مرت بها عبر التاريخ، حيث شهدت ظروف سياسية عصيبة وأوضاع اقتصادية تأرجحت مابين الازدهار والنكوص، وأحوال مجتمعية متباينة، وواقع علمى غير مستقر، وأزمات طاحنة داخلية وخارجية أدت فى نهاية المطاف إلى سقوط الطاهريين ودخول اليمن إلى مرحلة العصور الحديثة عبر الحكم العثمانى.

الجانب السياسى للدولة الطاهرية:

اختلفت المصادر التاريخية حول نسب الأسرة الطاهرية؛ فمنهم من نسبهم إلى الفرع الإموى[١]، ومنهم من نسبهم إلى القبائل القرشية اليمنية[٢]، لكن الأصح هو نسبتهم إلى قبائل الذراحن الحميرية من جبن (مديريةجبن محافظة الضالع حاليا)[٣].

وظهر الطاهريون على مسرح التاريخ اليمنى فى أوائل القرن التاسع الهجرى/ القرن الخامس عشر الميلادى[٤] فى عهد السلطان الناصر أحمد (٨٠٣-٨٢٧هـ/١٤٠٠- ١٤٢٣م) عندما برزوا كأمناء لبنى رسول فى عدن ونواب لهم فى مخلاف رادع[٥] وغيره من المناطق التى عرفت ببلاد بنى طاهر، وكانت تعد بمثابة خط الدفاع الأمامى للدولة الرسولية تجاه الخطر الزيدى المتربص فى الشمال[٦]، وازدادت العلاقة بين الرسولين والطاهريين عن طريق الترابط الأسرى بزواج السلطان الظاهر يحيى (٨٣١-٨٤٢هـ/١٤٢٧- ١٤٣٨م) من ابنة الشيخ طاهر بن معوضة[٧]، ثم أخذ بنو طاهر فى تثبيت وضعهم مستغلين ضعف الدولة الرسولية[٨].

كان الصراع قائما بين السلطان المسعود صلاح الدين أبى القاسم الذى امتد حكمه ٨٤٧- ٨٥٨هـ/١٤٤٣-١٤٥٤م والذى ولاه المماليك سلطاناً، والسلطان المظفر يوسف الثانى بن عمر بن إسماعيل ٨٤٥- ٨٥٤هـ/ ١٤٤١-١٤٥٠م الذى كان يسانده مشائخ بنى طاهر ضد المسعود[٩].

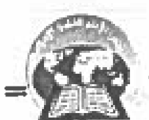
وحاول المسعود السيطرة على كل أشلاء الدولة المتمزقة لكنه فشل فى ذلك، كما ولى المماليك سلطاناً جديداً إلى جانب الاثنان - المظفر والمسعود - وهو المؤيد حسين بن الظاهر يحيى

٨٥٥- ٨٥٨هـ/ ١٤٥١- ١٤٥٤م لخوفهم من قوة السلطان المسعود التى بدأت تتزايد، وبعد فشل المسعود تراجع إلى عدن وأعلن تخليه عن الحُكم عام ٨٥٨هـ/١٤٥٤م[١٠]، ليبقى المؤيد الذى حاول أن يجد لنفسه الفرصة فى السيطرة على مقاليد الأمور، لكن مشايخ بنو طاهر لم يمنحوه الفرصة وتولوا هم شئون الحكم لتقوم دولة أخرى سميت بالدولة الطاهرية ٨٥٨- ٩٤٥هـ/١٤٥٤- ١٥٣٩م[١١].

وقامت الدولة الطاهرية على سواعد كل من السلطان المجاهد على بن طاهر بن معوضة وأخيه السلطان عامر بن طاهر بن معوضة اللذين استطاعا أن يقيما دولة بنى طاهر على معظم الرقعة اليمنية، وظلوا طوال حياتهما فى استمرارية بناء الدولة، والصراع من أجل البقاء مع بقايا مماليك الدولة الرسولية، والزيدية فى الشمال، والقبائل التى أعلنت عصيانها فى معظم أرجاء اليمن[١٢] حتى وفاة السلطان الظافر عامر عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٦م[١٣]، واستمر السلطان المجاهد فى الحكم حتى وافته المنية عام٨٨٣هـ/١٤٧٨م[١٤].

وتولى السلطنة من بعده السلطان تاج الدين عبد الوهاب بن داود الملقب بالمنصور بعد أن عهد بالأمر إليه وأخذ البيعة له من كافة الجنود وكبار الشخصيات ورجال القبائل[١٥]، واستمر فى الحكم من عام ٨٨٣هـ/١٤٧٨م حتى عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م، واتسمت فترة حكمه بالصراع الدائر بين أفراد البيت الطاهرى على السلطة[١٦]، والتمرد القبلى على السلطان الطاهرى فى مناطق اليمن قاطبة وخاصة تهامة، والخطر الزيدى المتربص فى الشمال[١٧].

بعد وفاة المنصور عبد الوهاب عام ٨٩٤هـ/١٤٨٩م[١٨]، تولى مقاليد الأمور من بعده ابنه السلطان عامر بن عبد الوهاب الملقب بالظافر الثانى ٨٩٤-٩٢٣هـ/١٤٨٩- ١٥١٧م واتسمت تلك الفترة بأنها فترة إزدهار الدولة الطاهرية، حيث شهدت أقصى اتساع للدولة الطاهرية على الرقعة اليمنية، كما شهدت استقرار ملموس بعد أن قضى الظافر فترة فى القضاء على ما واجه من تحديات داخلية تمثلت فى منافسة أبناء أعمامه له على السلطة، والتمرد القبلى المستمر[١٩] وثوارت الأئمة الزيدية فى الشمال[٢٠]، والتحديات الخارجية؛ والمتمثلة فى احتلال المماليك لليمن والغزو البرتغالى على العالم الإسلامى، وكانت اليمن إحدى الدول الإسلامية التى



تعرضت لضربات وإغارات البرتغاليين[٢١]، حتى سقوط السلطان الظافر عامر الثانى الطاهرى صريعا على أيدى المماليك فى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م[٢٢].

استمرت الدول الطاهرية فى مناطق بسيطة فى اليمن؛ كعدن ولحج والمقرانة ورداع تحت إمرة مجموعة من الشخصيات الطاهرية التى اتسمت بالضعف والوهن وعدم التوحد والتنافس فيما بينهم على العرش، وعلى الرغم من ظهور شخصية السلطان عامر بن دواد الطاهرى التى كانت قوية وقادرة على لم الشمل وتوحيد الصف، إلا أن الصراعات الداخلية والتحديات الخارجية (المماليك - البرتغاليين- العثمانيين) كانت أقوى منه مما أسهم فى نهاية المطاف فى مقتلة على يد الوالى العثمانى - قائد الحملة العثمانية - فى عدن عام٩٤٥هـ/١٥٣٩م[٢٣].

واتسمت الدولة الطاهرية بالعلاقات الخارجية الطيبة فى معظم الأحيان؛ فكانت على علاقة طيبة ببلاد الحجاز والحبشة ومصر[٢٤]، إلا أن العلاقات مع مصر لم تستمر على وتيرة واحدة فما لبثت أن تبددت بدخول المماليك اليمن ووقوع الحرب مع الطاهريين ومقتل السلطان عامر الطاهرى عام ٩٢٣هـ/١٥١٧م واحتلال اليمن[٢٥].

الجانب الاقتصادى للدولة الطاهرية:

شهدت اليمن خلال الفترة الطاهرية حالة اقتصادية غير مستقرة، فتارة تتسم بالازدهار حينما تستقر الأوضاع وتنشط الزراعة والصناعة والتجارة وينهض السلاطين والولاة بأمور الاقتصاد، وتارة تتسم بالنكوص والانهيار نتيجة الصراعات الداخلية التى تأكل اليابس والأخضر والتحديات الخارجية التى أدخلت اليمن فى متاهات، مما جعلها فى حالة شديدة من الفقر، فالزراعة قامت على عدة أمور منها توفر العوامل الطبيعية من أراضى ومياه الأودية والسيول ومناخ صالح، وعوامل بشرية تتمثل فى الايدى العاملة[٢٦]، وأنتجت اليمن العديد من المحاصيل الزراعية كالقمح والشعير والذرة والبن والفوة وغيرها من الزراعات[٢٧]، والصناعة كانت هى الأخرى قائمة على المواد الخام المحلية التى استغلها اليمنيون فى إقامة صناعات تكفيهم ذاتياً، فقامت صناعة المنسوجات ودبغ الجلود وصناعة الحلويات والصناعات المعدنية وغيرها مما يحتاجه اليمنيون[٢٨]، أما التجارة فكانت مزدهرة

فى ظل حالات الاستقرار السياسى الداخلى والعلاقات الطيبة الخارجية[٢٩]، وفى ظل الصراعات الداخلية والتحديات الخارجية كالغزو المملوكى والبرتغالى والعثمانى كانت الحركة التجارية تمتاز بالجمود[٣٠].

الجانب الاجتماعى للدولة الطاهرية:

المجتمع اليمنى مجتمع قبلى فى المقام الأول، فهو على الرغم من انصياعه أحيانا إلى الحكم المركزى إلا أنه فى حقيقة الأمر يمتاز بالعصبية القبلية والاستقلال الذاتى، ومن أشد قبائل اليمن قبائل تهامة كالمعازبة والقرشية والحفصيين وغيرهم[٣١].

وامتازت اليمن بتشكيلة سكانية خلال العصر الطاهرى اتسمت بالتفاوت حسب المكانة الاجتماعية ، ويأتى على قمة الهرم الاجتماعى طبقة الأشراف والأئمة والسلاطين والوزراء والأمراء والمشايخ والفقهاء والقضاة، ثم يليهم طبقة العوام وأرباب الحرف، وتنقسم كل طبقة داخليا حسب المعيار الاقتصادى[٣٢].

كما وجد باليمن العديد من الأقليات الدينية كاليهود والمسحيين وتفرقوا فى طول البلاد وعرضها، وعملوا بالعديد من المهن والحرف وخاصة التجارة[٣٣]، كما وجد العديد من الأجناس الأخرى فى المدن الكبرى كعدن وتعز وزبيد كالمصريين والحجازيين والهنود والصوماليين والأحباش وغيرهم[٣٤].

ومن أهم المظاهر الاجتماعية الاحتفال بعيدى الفطر والأضحى، واستقبال شهر رمضان بالعديد من المظاهر كتزيين البيوت والحوانيت والشوارع، وعادة المسحراتى، وعقد المجالس العلمية والمناقشات الأدبية داخل ساحات القصور السلطانية[٣٥]، واستقبال الوفود بالأبهة المملوكية والآلات السلطانية[٣٦].

الجانب العلمى للدولة الطاهرية:

شهدت اليمن خلال الفترة الطاهرية أوضاع علمية غير مستقرة؛ فحينما تستقر الأمور وتسكن الصراعات يستقر العلماء وينشط التدريس والارتحال فى طلب العلم داخليا وخارجيا، إلى جانب الاهتمام من جانب سلاطين الدولة الطاهرية من خلال إنشاء العديد من معاقل العلم كالمدارس والمساجد وخاصة المدرسة المنصورية والظافرية[٣٧]، والمسجد الكبير الذى أنشأه المجاهد على، واستقدام العلماء والاحتفاء بهم، وقبول شفاعتهم، والحث على طلب العلم وشراء الكتب، والإغداق على العلماء[٣٨]، كل هذا أسهم فى أن

تكون هناك حياة علمية مزدهرة فى أوقات السلم، لكن أوقات الحروب وعدم الاستقرار ساهمت فى إرتحال العلماء من مكان إلى أخر وتدمير أربطة العلم وأدواته وغيرها من السبل التى تمهد للازدهار الفكرى[٣٩].

الجانب الدينى للدولة الطاهرية:

امتازت اليمن بأنها بوتقة انصهرت فيها معظم المذاهب الفقهية (المالكية- الحنفية- الشافعية- الزيدية- الإسماعيلية)، ولكن أغلب أهل اليمن كانوا على المذهب السنى خاصة فى الوسط والجنوب والغرب، فى حين تمركز أتباع المذهب الشيعى فى المناطق الشمالية وبعض المرتفعات.

كما بدأ التصوف يعرف طريقه إلى اليمن كطريقة وسلوك له نظم ومدارس واتجاهات فكرية، وازداد انتشارًا نتيجة الانفتاح الفكرى، ودعم السلاطين له، واتخاذ رجال التصوف وسيلة للتقرب لقلوب الرعية، والإغداق عليهم[٤٠]، وانتشرت ظاهرة الاستجارة بالصوفية وبيوتهم.

خلاصة القول أن من أهم سمات العصر الطاهرى، هو خروج اليمن من مربع تاريخ العصور الوسطى إلى تخوم التاريخ الحديث، واستيقظ اليمن على عالم كان يمور بالأحداث الجسام والأمور العظام . فقد كان اليمن أسير قيود العصور الوسطى فإذا برياح الغرب تهب عليها بالقوة المتمثلة بالغزو البرتغالي من ناحية ، وأطماع وأطماح المماليك من ناحية ثانية والفتح العثماني من ناحية ثالثة.

د / أحمد محمد عبد الحميد

الهوامش:

(١) با مخرمة: قلادة النحر فى وفيات أعيان الدهر، تحقيق محمد يسلم عبد النور، ج٣، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص ص ١١٢١، ١١٢٧؛ يحيى بن الحسين: غاية الأمانى فى أخبار القطر اليمانى، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتاب، القاهرة، د.ت، ص ٥٨٦؛ العرشى: بلوغ المرام فى شرح مسك الختام، اعتنى بنشره الأب اسنتاس ومارى الكرملى، القاهرة، طبعة١٩٣٩م، ص ٤٦.

(٢) ابن تغرى بردى: حوادث الدهور، ص ص ٣٧٦، ٣٧٣.

(٣) ابن الديبع: قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار بساط، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م،، ص ص ٤٩٣- ٤٩٤.

(٤) بامخرمة: تاريخ ثغر عدن، تحقيق أوسكر لوفغرين، منشورات المدينة، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٦م، ص ١٢؛ قلادة النحر،ج٣، ص ١١٥٨؛ الجرافى: المقتطف من تاريخ اليمن، مؤسسة دار الكتب الحديث، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م، ص٨٢؛ الواسعى: تاريخ اليمن المسمى" فرجة الهموم والحزن فى حوادث وتاريخ اليمن"، دار اليمن الكبرى، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٩١م، ص١٨٨.

(٥) رداع: مدينة عامرة فى شرقى ذمار على بعد ٥٠كيلو متر. انظر: إسماعيل الاكوع: البلدان اليمانية عند ياقوت الحموى، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م، ص ١٢٧.

(٦) يحيى بن الحسين: غاية الامانى، ص ص ٥٥٨- ٥٥٩،٥٦٣؛ الكبسى: اللطائف السنية فى أخبار الممالك اليمنية، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٨٤م، ص ٢٥٩.

(٧) ابن الديبع: بغية المستفيد فى تاريخ مدينة زبيد، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٦م، ص ١٠٥.

(٨) من أسباب ضعف وانهيار الدولة الرسولية؛ ضعف السلاطين، ونقصان الخبرة السياسية، واتخاذ البطانة الفاسدة، والصدام والتكالب بين أبناء البيت الرسولى على السلطة، وثورات القبائل والأئمة الزيدية والمماليك، كل ذلك أسهم فى أن تعمل معاول الهدم فى كيان الدولة حتى سقطت سنة ٨٥٨هـ/١٤٥٤م.انظر: المقرئ: عنوان الشرف فى علم الفقه والعروض والتاريخ والنحو والقوافى، تحقيق عبد الله بن إبراهيم الأنصارى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٧٣؛ بافقيه: تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٩م، ص١٢٤؛ محمد الفيفى: الدولة الرسولية في اليمن_ دراسة فى أوضاعها السياسية والحضارية (٨٠٣-٨٢٧هـ/ ١٤٠٠- ١٤٢٤م)، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ص ١١١- ١٣٧.

(٩)ابن الديبع: الفضل المزيد على بغية المستفيد فى أخبار مدينة زبيد، تحقيق يوسف شلحد، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣م، ص ١١٧؛ يحيى بن الحسين: غاية الامانى ،ص ٥٨١.

(١٠) ابن الديبع: قرة العيون، ص ٤٠٤؛ عبد الغنى الأهجرى: الحياة العلمية فى اليمن فى القرنيين التاسع والعاشر الهجريين_ الخامس والسادس عشر الميلاديين(٨٠١- ١٣٩٨/٩٢٣- ١٥١٧م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ٢٠٠٨م، ص ٩٦.

(١١) المقرئ: عنوان الشرف، ص١٧٣؛ بافقيه: تاريخ الشحر، ص١٢٤؛ بامخرمة: قلادة النحر، ج٣، ص ص ٣٥٨٨-٣٥٨٩.

(١٢) ابن الديبع: قرة العيون، ص ص ٤٠٧- ٤١٩؛ بغية المستفيد، ص ص ١٢٦- ١٢٩،١٣١- ١٣٥،١٤٥-١٤٧؛الشاطرى: أدوار التاريخ الحضرمى، ج٢، دار المهاجر للنشر، المدينة المنورة، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م، ص ٢٣٩؛ باوزير: صفحات من التاريخ الحضرمى، مكتبة الثقافة، عدن، د.ت، ص ١١٥.

(١٣) ابن الديبع: بغية المستفيد، ص ١٠٧؛ بامخرمة: قلادة النحر، ج٣، ص ١١٢٩.

(١٤) ابن الديبع: قرة العيون، ص ٤١٨، ٤٢٢؛ بغية المستفيد،ص ١٢٤؛ بامخرمة: قلادة النحر،ج٣، ص ١١٤١.

(١٥) ابن الديبع: قرة العيون، ص ص ٤١٨؛ بغية المستفيد، ص ١٤٧.

(١٦) ابن الديبع: قرة العيون، ص ص ٤٢٣- ٤٢٥، ٤٢٨؛ بغية المستفيد، ص ص ١٦٠- ١٦٤؛ محمد ربيع المدخلي: الأحوال السياسية والمظاهر الحضارية في عهد السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري(٨٩٤- ٩٢٣هـ/ ١٤٨٨- ١٥١٧م)، رسالة ماجستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٩٨٥م، ص ص ٦٤- ٦٥.

(١٧) ابن الديبع: قرة العيون، ص ص ٤٢٥- ٤٢٩؛ بغية المستفيد، ص ص ١٦٣- ١٦٧؛١٧٠- ١٧٨؛١٨٠- ١٨٢.

(١٨) ابن الديبع: بغية المستفيد، ص ١٤٩؛ بامخرمة: قلادة النحر،ج٣، ص ص ١١٦٨، ١١٣٧؛السيد محمد الشلي: السنا الباهر بتكميل النور السافر في أخبار القرن العاشر، تحقيق ابراهيم أحمد المقحفي، مكتبة الارشاد، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٢٠٠.

(١٩) ابن الديبع: قرة العيون، ص ص ٤٣١- ٤٤٥، ٤٣٦- ٤٤٧؛ بغية المستفيد، ص ص ١٨٥- ١٨٧؛١٩٣، ١٩٨، الفضل المزيد، ص ٢٤١، ٢٥٤- ٢٥٧.

(٢٠) ابن الديبع: قرة العيون، ص ص ٤٣٥، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٩؛ الفضل المزيد، ص ص ٢٣٤، ٢٤٦- ٢٤٧، ٢٦٨، ٢٧١- ٢٧٣؛ زبارة: أئمة اليمن،ج١، ص ص ٣٦٠- ٣٦١؛ يحيى بن الحسين: غاية الاماني، ص ص ٦١٨، ٦٢٤- ٦٢٥، ٦٢٨- ٦٢٩؛ الكبسي: اللطائف السنية، ص ص ١٢٦- ١٢٧؛ محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر وعلاقات اليمن الخارجية في عهدهما (٦٢٦- ٩٢٣هـ/١٢١٣- ١٥١٧م)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، ١٩٨٠م، ص ص ٣٢٣- ٣٢٤.

(٢١) بافقية: تاريخ الشحر، ص ص ١٠٢، ٨٢؛ حسن شهاب: أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار الفارابي، بيروت، ١٩٧٧، ص١٤٤؛ سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول لليمن، ص ص ٦٥- ٦٦، ٧٨- ٧٩؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة،ج٤، القاهرة، ١٩٦١م، ص ص ٥- ٨، محمد السلمان: الغزو البرتغالي للجنوب العربي والخليج في الفترة من ١٥٠٧- ١٥٢٥م، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، ٢٠٠٤م، ص ص٤٢- ٤٤، ٤٧- ٥٠؛ عبد الرحيم عبد الرحمن: النشاط التجاري في البحر الأحمر في العصر العثماني، ضمن أبحاث ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسية الدولية، جامعة عين شمس، القاهرة، ١٩٨٠أص ٢٤٤؛ أحمد شيبان: الوجود المملوكي في اليمن ٩٢١- ٩٤٥هـ/١٥١٥- ١٥٣٨م، دار الثقافة العربية، الشارقة، الطبعة الأولى، د.ت، ص ١٦٥؛ فاروق أباظة: عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٤٩؛ الحكم العثماني في اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ص ٢٠- ٢١.

(٢٢) ابن الديبع: قرة العيون، ص ص ٤٦٩- ٤٧٠؛ الفضل المزيد، ص ٣٧٠؛ يحيى بن الحسين، ص ٦١٥؛ أحمد حسين شرف الدين: اليمن عبر التاريخ،مطابع الفرزدق، الرياض، الطبعة الخامسة، ١٩٩٠م، ص ٢٣٥.

(٢٣) بافقية: تاريخ الشحر، ص ٢٥٣؛ حسن شهاب: عدن - فرضة اليمن، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م، ص ص ٢٢٢، ٢٢٤؛ محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر، ص ص ٢٨٢- ٢٨٦.

(٢٤) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ص ١٤٤، ١٥٦؛ محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر، ص ص ٤٦١- ٤٧٢، ٥١٠.

(٢٥) محمد عبد العال: نفس المرجع، ص ص ٥٤٠- ٥٤٢؛ عبد الغني الأهجري: الحياة العلمية، ص ص ١٤٩- ١٥٢؛ جهاد محي الدين: الحياة السياسة والمظاهر الحضارية في عهد الدولة الطاهرية ٨٥٨- ٩٣٣هـ/١٤٥٤- ١٥٢٦م، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠٠٤م، ص ص ١٣١- ١٣٤.

(٢٦) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ص ٧٩، ٨٣، ١٢٥، ١٤٥؛ يحيى بن الحسين: غاية الاماني، ص ص ٦١٥، ٦١٧.

(٢٧) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ١٨٩، ٢٢٨، ٢٣٤؛محمد ربيع المدخلي: الأحوال السياسة والمظاهر الحضارية، ص ص ٤٢٣- ٤٢٤؛ جهاد محي الدين: الحياة السياسة والمظاهر الحضارية، ص ص٢١٣- ٢١٥.

(٢٨) عبد الواسع اليمني: تاريخ اليمن، ص٢٩٤، ٢٣٤؛ جهاد محي الدين: الحياة السياسة والمظاهر الحضارية، ص ص ٢٢٠- ٢٣١.

(٢٩) ابن الديبع بغية المستفيد، ص ١٩٥؛ الفضل المزيد، ص ١٥٤، ٢٣٨، ٢٤٠- ٢٤١؛ بافقيه: تاريخ الشحر، ص١٧؛ سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني لليمن، ص ٤٢؛ جهاد محي الدين: الحياة السياسة والمظاهر الحضارية، ص ص

٢٥١ -٢٥٦.

(٣٠) محمد عبد العال: بنو رسول وبنو طاهر، ص ٥٠٠؛ جهاد محى الدين: الحياة السياسة والمظاهر الحضارية، ص ٢٦١ -٢٦٦.

(٣١) سيد مصطفى سالم: تكوين اليمن الحديث، ص ٢١.

(٣٢) نفس المرجع، ص ٢٤.

(٣٣) عبد الله الثور: هذه هى اليمن، ص٩٠.

(٣٤)حسن محمود أيوب: اليمن، ص ٢٨.

(٣٥)محمد السرورى: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى اليمن فى الدويلات المستقلة من سنه(٤٢٩-٦٢٦هـ/١٠٣٧- ١٢٢٩م)، وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص٣٦٥.

(٣٦)ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ص ٧٣، ١٣٨، ١٦٤.

(٣٧) ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ص ٨٣، ١٥٠، ١٧٢، ١٩٥.

(٣٨) ابن عبد المجيد: تاريخ اليمن، ص ١١٩؛ ابن الديبع: الفضل المزيد، ص ص ٧٧، ٨٧، ١٦٧؛ يحيى بن الحسين: غاية الامانى، ص ٦٢٢.

(٣٩) جهاد محى الدين: الحياة السياسة والمظاهر الحضارية، ص ٢٣١.

(٤٠) محمد الشامى: تاريخ اليمن الفكرى فى العصر العباسى، دار النفائس، بيروت، ١٩٨٧م، ج٣، ص٢١٣.

بعض المصادر والمراجع للاستزادة

أولا :المصادر العربية:_

١ـ ابن تغرى: أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن الأمير سيف الدين تغري بردي(ت ٨٧٤هـ/١٤٧٠م):
حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٦١م.
بافقيه: محمد بن عمر الطيب (ت١٠٤٠هـ/١٦٣٠م):
٢_ تاريخ الشحر وأخبار القرن العاشر، تحقيق عبد الله محمد الحبشى، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٩م.
ـ ابن الديبع: وجيه الدين أبو الضياء عبد الرحمن بن على الشيبانى (ت٩٤٤هـ/١٥٣٧م):
٣_قرة العيون بأخبار اليمن الميمون، تحقيق محمد بن على الأكوع، دار بساط، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
السيد محمد الشلى:
٤ـ الوجود المملوكى فى اليمن٩٢١- ٩٤٥هـ/١٥١٥- ١٥٣٨م، دار الثقافة العربية، الشارقة، الطبعة الأولى، د.ت.
حسن صالح شهاب:
٥ـ فاروق أباظة: عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ٤٩؛
الحكم العثمانى فى اليمن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٦م.
جهاد محى الدين:
٦- الحياة السياسة والمظاهر الحضارية فى عهد الدولة الطاهرية ٨٥٨- ٩٢٣هـ/١٤٥٤- ١٥٢٦م، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، ٢٠٠٤م.
ـ عبد الغنى على غانض الأهجرى:
٧_ الحياة العلمية فى اليمن فى القرنين التاسع والعاشر الهجريين_ الخامس والسادس عشر الميلاديين(٨٠١-٩٢٣/١٣٩٨- ١٥١٧م)، رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة المنصورة، ٢٠٠٨م.

الطاهريون (فى خراسان)

تنسب هذه الدولة إلى القائد العسكرى الفارسى طاهر بن الحسين[١]، وهو الذى قاد جيش المأمون فى حربه ضد أخيه الخليفة العباسى الأمين الذى تولى أمور الخلافة العباسية بعد وفاة هارون الرشيد (١٩٣هـ/٨٠٨م)، وكان المأمون بحكم التقسيم الإدارى واليًا على خراسان [٢] فى الشرق الإسلامى، وتذكر المصادر [٣].. أن الأحوال ظلت هادئة بين الأخوين لفترة من الوقت.

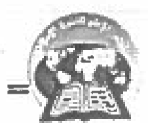
غير أن الوشاة ورفقاء السوء فى جبهة الأمين تمكنوا من الوقيعة بين الأخوين خوفًا على مصالحهم الخاصة، مما دفع الخليفة الأمين إلى خلع أخيه المأمون عن خراسان [٤].

غير أن رفقاء المأمون وعلى رأسهم الفضل بن سهل الذى لم تقل أطماعه عن الفضل بن الربيع فى جبهة الأمين عمل على دفع الأمور إلى الوقيعة بل والحرب بين الأخوين الأمين والمأمون [٥].

وعند ذلك ظهر نجم طاهر بن الحسين ابن مصعب الذى ينتمى إلى إحدى قرى بوشنج [٦]. فى مدينة هراة الكبرى بخراسان . وكان آباؤه من قبل بعض دعاة العباسيين فى فترة الدعوة العباسية [٧].

وظلت هذه الأسرة على ولائها للعباسيين حتى عهد المأمون، الذى وجد فى طاهر خير من يقود الجيش المأمونى عندما زحف جيش الأمين بقيادة على بن عيسى بن ماهان للحرب، وعلى الرغم مما كان جيش ابن ماهان يتفوق به على جيش طاهر من عدد وعتاد وعدة؛ فإن خبرة طاهر الحربية وخططه العسكرية مكنت جيشه من إلحاق الهزيمة بجيش الأمين، بل وقتل ابن ماهان نفسه فى أول معركة بين الطرفين [٨]. مما قوى من جبهة المأمون، الذى سارع بإرسال الإمدادات إلى طاهر ومنحه الألقاب الفخرية التى رفعت من شأنه مثل" ذو اليمينين" تعبيرًا عن الكفاءة والشجاعة، وأطلق عليه كذلك لقب " صاحب خيل الدين" [٩].

واستمرت مسيرة طاهر بجيشه ناحية الغرب إلى العراق دون اهتمام بتهديدات الأمين له أو الجيوش التى أرسلها الأمين للتصدى له. غير أن خطة طاهر الحربية



التى اعتمدت على الخدعة واختيار مكان الحرب مكنته من هزيمة جيش الأمين، بالإضافة إلى استخدام "طاهر" العامل النفسى فى الإيقاع بين جنود الأمين، مما أدى إلى تخليهم فى الحرب عن قادتهم وإلحاق عدة هزائم بجبهة الأمين وارتفاع شأن المأمون [١٠].

واستطاع طاهر أخيرًا فرض الحصار على بغداد بل واقتحامها بجيوشه وقادته، فاستسلمت أغلب المدن التى كانت تابعة للأمين ، ثم تخلى أغلب جند الأمين عن مناصرته، وأخيرًا تمكن طاهر من القبض على الأمين، والإقدام على قتله، بعد أن صدرت له أوامر المأمون بذلك [١١].

وقد رفعت هذه الانتصارات المتتالية من قدر طاهر وأسرته، وخاصة بعد أن صدرت لطاهر أوامر المأمون بالاستمرار فى قيادة الجيش العباسى للقضاء على حركة نصر بن شبث فى الرقة وولاية طاهر للجزيرة والشام نيابة عن المأمون، وانصياع طاهر لأوامر المأمون، فزادت الثقة بينهما [١٢].

ولكن الظروف تغيرت فى بغداد وبين أبناء البيت العباسى أنفسهم الذين رفضوا بإصرار استمرار المأمون فى خراسان، والتخلى عن عاصمة الآباء بغداد، وكان ذلك هو نفس الرأى الذى اهتدى إليه طاهر بن الحسين، مما دفع المأمون إلى سرعة تصفية مشاكله فى خراسان وسرعة العودة إلى بغداد التى رحبت بقدومه، وتم إعلان خلافته منفردًا دون منازع فى ٢٠٤هـ/٨١٩م [١٣].

وكان طاهر بن الحسين من أول المستقبلين للمأمون، والذى اصطحبه فى دخوله بغداد، حيث ولاه المأمون شرطة بغداد [١٤]. وهو منصب له قدره آنذاك.

ولكن قدوم المأمون إلى بغداد، واستقراره بها ترك من خلفه ما يشبه الفراغ السياسى فى خراسان والمشرق، وكان مظهر هذا الفراغ ظهور بعض الحركات العصيانية ضد الخلافة العباسية فى عهد المأمون. مثل حركة غسان بن عباد الذى ولاه المأمون خراسان قبل عودته إلى بغداد [١٥] وغيرها من الحركات الفارسية المزدكية المتعصبة ومثل حركة بابك الخرمى الخطيرة [١٦]. وغيرها، فاضطربت أحوال المشرق فكان على المأمون أمام هذه الأخطار أن يتخذ خطوة من جانبه يضمن بها هدوء المشرق وسلامته، وحيث إنه كان يثق فى قيادة طاهر العسكرية وخبرته بأمور المشرق وخراسان خاصة وأنه ينتمى إليها،

فقد أصدر المأمون قراره أن يؤول حكم خراسان إلى طاهر وأسرته حكمًا وراثيًا لضمان الأمان، والاستقرار ، وهى الخطوة التى أطلق عليها " قيام الدولة الطاهرية" سنة ٢٠٥هـ/٨٢٠م [١٧].

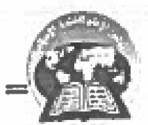
وعندما ننظر لقيام هذه الدولة حيث تعتبر أولى الدول الفارسية المستقلة فى المشرق ، كما يتصور بعض الباحثين، نجد أن هناك تفاوتًا كبيرًا بين ما وصفت به من " دولة مستقلة" وما كانت عليه بالفعل أو تأسس بنيانها عليه. فقد ارتبط هذا الكيان الطاهرى ارتباطًا وثيقًا بالخلافة سواء من الناحية الإدارية أو الاقتصادية، وبالتالى فمصطلح الاستقلال لا ينطبق عليها، حيث حرص المأمون على أن يلتزم أمراء هذه الدولة وعلى رأسهم طاهر المؤسس بدفع ضرائب سنوية للخلافة تعبيرًا عن التبعية الاقتصادية [١٨].

كما ارتبطت إمارة الطاهريين فى المشرق بالالتزام العسكرى والتعاون مع الخلافة كلما طلبت الخلافة هذه المعونة، فتجلى مظهر آخر عسكرى من مظاهر التبعية، كذلك ليس من حق الأمير الطاهرى إسناد وراثة حكمه لأخيه أو ابن من أبناء البيت الطاهرى إلا بعد الحصول على موافقة الخلافة، ولضمان تنفيذ هذا الاتفاق قسمت الخلافة البيت الطاهرى إلى قسمين: قسم يحكم فى خراسان، وقسم آخر فى بغداد يتولى الشرطة [١٩] ليكون الطاهرى فى بغداد رهينة للطاهرى فى خراسان.

ومن هنا يمكن أن نصف وضع الدولة الطاهرية أنها دولة تابعة للخلافة شبه مستقلة ، وذلك لكونها أولى التجارب التى سمحت بها الخلافة فى المشرق الإسلامى.

وقد عبر بعض المستشرقين عن ذلك الوضع الإدارى للدولة الطاهرية بدقة عندما وصفه Simi Independent أى: شبه استقلال. وبمقتضى ما ورد فى كتب النظم الإسلامية [٢٠]. عن إمارتى الاستكفاء والاستيلاء، فلعل إمارة الطاهريين جمعت فى وضعها الإدارى بين مظاهر كل منهما.

وقد اتخذت الدولة الطاهرية عند تأسيسها مدينة مرو الكبرى [٢١] عاصمة للدولة فى خراسان فى عهد طاهر، ثم انتقلت العاصمة بعد ذلك إلى مدينة نيسابور [٢٢] التى استمرت عاصمة للدولة حتى سقوط الدولة الطاهرية.



وتحدثنا المصادر [٢٣] عن التزام الدولة الطاهرية فى فترة حكم أمراء الدولة الأُوَل أمثال طاهر وطلحة وعبد الله عن مدى انضباط النظم الإدارية والاقتصادية والعسكرية، ومدى التزام الدولة باتفاقية التعاون المشترك بين الخلافة وبين الطاهريين الذى عبر عن نفسه بمشاركة الطاهريين الفعالة فى القضاء على حركات العصيان الفارسية مثل حركة بابك الخرمى فى أذربيجان أو حركة المازيار بن قارن فى طبرستان أو حركات العلويين المضادة للخلافة العباسية السنية، فأثبت الطاهريون بذلك مدى تعاونهم وارتباطهم بالخلافة العباسية.

ومن القضايا الشائكة على الجانب السياسى، التى تخص الطاهريين محاولة بعض المؤرخين [٢٤] اتهام طاهر بن الحسين مؤسس الدولة فى أيام حكمه الأخيرة، بخلع طاعة الخليفة المأمون، وهو اتهام أغلب الظن لا يقف على قدميه فقد ظلت العلاقة بين الجانبين –الخلافة والطاهريين- وطيدة، يدل على ذلك إسناد الخليفة المأمون إمارة الطاهريين إلى أبناء طاهر بعد تعزيتهم فى وفاة أبيهم [٢٥]. ثم قيام الأسرة الطاهرية سواء فى بغداد أو على مستوى العالم الإسلامى ككل بدور فعال فى خدمة الخلافة، مما يدل على استمرار التوافق بين الجانبين [٢٦].

ومن الجدير بالذكر أن ننوه بالدور الإيجابى والفعال الذى قام به الطاهريون فى حراسة الثغور الشرقية فى فترة قوتهم مثل بلاد ما وراء النهر، أو الهند نيابة عن الخلافة حيث أسند الطاهريون لبنى "سامان" كولاةٍ من قبلهم، واستمرت هذه العلاقة قائمة طوال فترة قوة الحكم الطاهرى، فحافظ السامانيون على بلاد ما وراء النهر [٢٧].

ومن ناحية أخرى اتسمت سياسة الطاهريين بالهند بالهدوء الذى عبرت عنه سياسة الخلافة العباسية فى فترة الحكم الطاهرى بالمشرق، فلدينا رسائل متبادلة بين بعض خلفاء العباسيين كالمأمون وبعض ملوك الهند تحمل فى طياتها المودة [٢٨]. وعلى هذا فمن المرجح أن تكون العلاقة بين الدولة الطاهرية والهند هادئة فى بعض الأوقات.

إلا أن الدولة الطاهرية كانت تقوم بمسئوليتها فى حراسة ما افتتح من ثغور ومدن فى السند، ذلك لأن الأمراء الهنادكة كانوا يغتنمون كل فرصة لاقتطاع أراضٍ من أملاك المسلمين السندية وضمها إلى إماراتهم [٢٩]. وظلت

السند تابعة للخلافة العباسية طوال الفترة التى كانت الدولة الطاهرية فى المشرق تزاول فيها نشاطها الحربى. واستمر الحال على ذلك إلى أن تم منح السند إلى الصفاريين فى عهد الخليفة المعتمد[٣٠] (٢٥٦- ٢٧٩هـ / ٨٧٠- ٨٩٢م).

ربما يكون ما قدمناه أهم الجوانب السياسية فى عصر الطاهريين ولكن العناصر الحضارية بشكل عام، والثقافية بشكل خاص تعطى لهذا العصر أهميته، حيث ينطبق عليه من ناحية عنصر السكان، التعددية وبشكل خاص الثنائية ، ونقصد بها : العربية والفارسية، فكل من هذين العنصرين لعب دوره الفعال فى خدمة الدولة الطاهرية، ووصلت المشاركة الازدواجية إلى أمراء الطاهريين أنفسهم، فلم تمنعهم فارسيتهم عن عروبة الولاء وهو ما لحظناه فى لقب طاهر " الخزاعى" نسبة إلى خزاعة، العربية[٣١]. بالإضافة إلى انتشار الطاهريين كفرس على مستوى ونطاق العالم الإسلامى مشرقه ومغربه .

ومن قبيل الطرائف أنه فى فترة حكم عبد الله بن طاهر لمصر(٢١١هـ/٨٢٦م) عمل على إدخال زراعات جديدة بها مثل القطن والبطيخ الذى نسب إليه وعرف بالعبدلى، وهو مازال معروفًا باسمه حتى ذلك الوقت[٣٢]. بالإضافة إلى أعمال عمرانية متعددة، وعلى رأسها تحسينات عمرانية فى بناء الجامع العتيق "جامع عمرو بن العاص"[٣٣].

أما عن الجانب الثقافى زمن الطاهريين فقد أثرت الظروف التى عاصرت قيام الدولة (٢٠٥ - ٢٥٩هـ/ ٨٢٠- ٨٧٣م). على طبيعة ونمط الحالة الثقافية، حيث أدت سيادة اللغة العربية فى العالم الإسلامى، بالإضافة إلى الروابط القوية التى ربطت الطاهريين بالخلافة إلى جعل الطاهريين اللغة العربية والأدب العربى لغة وأدب ثقافتهم[٣٤].

كما أن الطاهريين تفاعلوا بحكم إنسانية وعالمية الثقافة الإسلامية حيث أدت حركة الترجمة التى سادت آنذاك إلى ازدهار الحركة الثقافية أدبًا وعلمًا[٣٥].

غير أن لكل دولة دورة وهو ما ينطبق على الطاهريين؛ ذلك أن ضعف الخلافة العباسية فى بغداد وهى الخلافة الأم التى كانت تعتمد عليها الدولة الطاهرية، كذلك الصراع الذى احتدم بين أبناء البيت الطاهرى على إمارة الدولة فى نيسابور أضعف من



قوتهم. أما آخر العوامل وأخطرها فهو ظهور قوى خارجية مجاورة مثل الصفاريين فى سجستان أو الزيديين فى طبرستان، فأدى ذلك إلى سقوط الدولة فى(٢٥٩هـ/٨٧٣م)، زمن محمد بن طاهر آخر أمرائهم فى خراسان.

أ.د / فتحى أبو سيف

الهوامش:

(١) هو طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق، ومما يذكر لأجداد طاهر أنهم شاركوا فى الدعوة العباسية، وبعد نجاح الثورة أسند أبو مسلم لبعض أجداد طاهر ولاية " هراة وبوشنج" فزاد ذلك من شأن الأسرة الطاهرية. انظر : ابن قتيبة، المعارف، ص٤١٩، والجهشيارى، الوزراء والكتاب، ص ٢٩١؛ كذلك Mongl Kabi,les onigines Tahirdes,P145.

(٢) الطبرى، ج٦، ص ٤٧٠.

(٣) الطبرى، تاريخ الأمم، ج٧، ص ٥٥١، وما بعدها. وابن الجوزى، شذور العقود، ص ٦٨.

(٤) الجهشيارى، نفس المصدر، ص٢٨٩. وخواندمير، دستور الوزراء، صـ ٥٧ كذلك: Muir, The Caliphate,P. 490 .

(٥) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص ١٧.

(٦) بوشنج: وهى إحدى مدن هراة الهامة التى تشتهر بزراعتها المعتمدة على نهر هراة. وتقوم الصناعة فيها على الأخشاب، مما جعلها مزدهرة اقتصاديًا. انظر الاصطخرى، المسالك، ص ١٥١. وياقوت، معجم، مجلد٢.

(٧) حمزة الأصفهانى، تاريخ سنى ملوك العالم، صفحات ١٦٤، وما بعدها.

(٨) الدينورى، الأخبار الطوال، ص ٣٩٧. والمسعودى، مروج، ج٢، ص ٢٢٩.

(٩) البلخى، البدء والتاريخ، ج٦، ص ١٠٨. كذلك: Eric Schroeder, Muhammad's Peopls.P 346.

(١٠) الخطيب، تاريخ بغداد، ج١، ص ٨٩.

(١١) الطبرى، تاريخ الأمم، ج٧، ص ٨٤، عبد الله الرازى، تاريخ إيران، صفحات ٢٠٥- ٢٠٦.

(١٢) الذهبى، تاريخ الإسلام، ج٩، ص ٢٢٩.

(١٣) الأصفهانى، مقاتل الطالبيين، ص ٥٢١.

(١٤) الطبرى، تاريخ الأمم، ج٧، ص ١٥٥.

(١٥) ابن خلدون، العبر، ج٣، ص٥٢١.

(١٦) نظام الملك، سياست نامة، ص ٢٣٧، فتحى أبو سيف، الشرق الإسلامى ص ١٣٢. وسمعدانى زاده، مرئ التواريخ، ص ١٣٨.

(١٧) الكرديزى، زين الأخبار، ص ١.

(١٨) عبد العزيز الدورى، الجذور التاريخية للشعوبيه، ص ٥٢، لين بول، طبقات سلاطين الإسلام، ص ١٢٠، فتحى أبو سيف، الشرق الإسلامى، ص ١٣٤.

(١٩) المنجى الكعبى، الدولة الطاهرية، ص ١٢١.

(٢٠) الماوردى، الأحكام السلطانية، ص ٣٠، وما بعدها. الصابئ، رسوم دار الخلافة، ص ١٣٣.

(٢١) مرو الكبرى أو الشاهكان أى مركز السلطان وهى من أهم مدن خراسان، حيث ظلت عاصمة للإقليم إلى بداية الحكم الطاهرى. عنها انظر : المقدسى، أحسن التقاسيم، ص ٢٩٤. وياقوت معجم، ج٨، ص ٣٥.

(٢٢) نيسابور: من مدن خراسان الهامة، يقول عنها ياقوت : لم ير مدينة مثلها فى المشرق بهاءً وحُسنًا، وكانت عاصمة للطاهريين، ياقوت، معجم، مجلد٨، ص ٣٥٦.

(٢٣) الطبرى، تاريخ الأمم، ج ٧، ص ١٨٨، ابن فندق، تاريخ بيهق، ص ٦٦. وابن إسفنديار، تاريخ طبرستان، جلد دوم، ص ١٩٧.

(٢٤) الكرديزى، زين الأخبار، ص ١.

(٢٥) ابن عبد ربه، العقد، ج٤، ص ٢١٥. وابن طيفور، كتاب بغداد، ص ٧٤.

(٢٦) ابن طيفور، كتاب بغداد، ص ٣٦، وما بعدها.

(٢٧) النرشخى، تاريخ بخارى، ص ١٠٦. حمد الله مستوفى، تاريخ كزيده، ص ٣٠٦. كذلك: Barthold, Four Studies on the History of Central Asia, Vol.I ,PP. 15/16.

(٢٨) ابن النديم، الفهرست، ص ٣٤٥؛ عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند ، صفحات ١٣٠وما بعدها . كذلك :
. Lane Poole, Medieval India,PP.7-8

(٢٩) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ص ٣٦؛ الساداتى، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، صفحات ٧٢و٧٤.

(٣٠) ابن دقماق، نفس المصدر، ص ٣٦؛ فتحى أبو سيف، المشرق، ص ١٨٢.

(٣١) البلاذرى، أنساب الأشراف، ص ٨، وابن الأثير ، الكامل، ج٣، ص ٢٧ ، وما بعدها.

(٣٢) الكندى، الولاة والقضاة، ص ١٨٥.

(٣٣) الخطيب البغدادى، تاريخ بغداد، ج ٩، ص ٤٧٤، وابن تغرى بردى، النجوم، ج ٢، ص ١٩٢.

(٣٤) ابـن النـديم، الفهرست، ص ٢٤٤. الأزدى، الـدول المنقطعـة، ص ١١٦؛ كـذلك انـدرى ميكـال، الأدب العربـى، ص ٢٠٧.

(٣٥) ابـن النـديم، الفهرسـت، ص ٢٤٤. الأزدى، الـدول المنقطعـة، ص ١١٦؛ كـذلك انـدرى ميكـال، الأدب العربـى، ص ٢٠٧.

مصادر ومراجع للاستزادة:

(المخطوطات) :

- الأزدى (على بن ظافر ت ٦٢٣/١٢٢٦م٩)، الدولة المنقطعة أو أخبار الزمان، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية، رقم ٨٩٠ تاريخ.
- ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن ت ٥٩٧/١٢٠٠م)، شذور العقود فى تاريخ العهود، مخطوطة مصورة بدار الكتب المصرية رقم ٩٩٤ تاريخ.
- ابن دقماق (صارم الدين إبراهيم ٧٥٠/١٣٤٩م)، الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٢٢ تاريخ.
- الذهبى (شمس الدين محمد ت ٧٤٨/١٢٤٨م) تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام، رقم ٣٩٦.

(المطبوعات) :

- ابن الأثير (محمد بن محمد بن عبد الكريم ت ٦٣٠/١٢٢٢م) ، الكامل فى التاريخ (عدة أجزاء) مصر ١٨٨٩م.
- أحمد محمود الساداتى، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية (الألف كتاب) القاهرة ١٩٥٧م.
- الاصطخرى (ابن إسحاق إبراهيم) ، المسالك والممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال، راجعه شفيق غربال، القاهرة ١٩٦١م.
- الاصفهانى (أبو الفرج ت ٣٥٦) ، مقاتل الطالبيين، شرح وتحقيق أحمد صقر القاهرة ١٩٤٩م.
- البلاذرى (أحمد بن يحيى ت ٢٧٩هـ/٨٩٢م) انساب الأشراف، تحقيق محمد حميد الله ، مصر ١٩٥٩م.
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن ق ١٠/١٦م)، النجوم الزاهرة، القاهرة ١٩٣٩م.
- الجهشيارى (أبو عبيد الله محمد ت ٣٣١/ ٩٤٢م)، الوزراء والكتاب حققه مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى، وعبد الحفيظ شلبى، القاهرة ١٩٣٨م.
- الحموى (ياقوت شهاب الدين ت ٦٢٦/ ١٢٢٨م) ، معجم البلدان . عدة أجزاء ط ١، ١٩٠٦م.
- الخطيب البغدادى (الحافظ أبو بكر ت ٤٦٣/١٠٧٠م)، تاريخ بغداد القاهرة ١٩٣١م.
- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد ت٨٠٨/١٤٠٦م) ، العبر ، وديوان المبتدأ والخبر. بدون تاريخ.
- الدينورى (ابو حنيفة أحمد بن داود ت ٢٨٢/ ٨٩٥م) ، الأخبار الطوال، تحقيق عبد المنعم عامر، مراجعة الشيال، القاهرة ١٩٦٠م.
- الشابشتى (أبو الحسن على ت ٣٨٨/٩٨٨م) ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد، بغداد ١٩٥١م.
- الصابئ (أبو الحسين هلال ت ٤٤٨/١٠٥٦م) ، رسوم دار الخلافة، تحقيق ونشر ميخائيل عواد، بغداد ١٩٦٤م.
- ابن طيفور (أبو الفضل أحمد بن طاهر ت ٢٨٠/٨٩٣م) كتاب بغداد، عنى بنشره وراجعه عزت العطار الحسينى القاهرة ١٩٤٩م.
- ابن عبد ربه (أبو عمر أحمد ت ٣٢٧/ ٩٣٩م) ، العقد الفريد . عدة أجزاء، شرح وضبط أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الإبيارى، القاهرة ١٩٤٠م.
- عبد العزيز الدورى، الجذور التاريخية للشعوبية، بيروت ١٩٦٢م.
- عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند، القاهرة، ١٩٥٩م.
- فامبرى (أرمنيوس) تاريخ بخارى، ترجمة أحمد محمود الساداتى، مراجعة يحيى الخشاب ، بست ١٨٧٢.
- ابن قتيبة، (أبو محمد عبد الله بن مسلم ت ٢٧٠/٨٨٣م) ، المعارف ، حققه وقدم له ثروت عكاشة، القاهرة ١٩٦٠م.

- ابن كثير (الإمام الحافظ عماد الدين ٧٧٤/١٣٨٢م) ، البداية والنهاية . عدة أجزاء . مصر ١٩٣٢م.
- الكندى (أبو عمر محمد بن يوسف)، الولاه والقضاة ،تصحيح رفن كست ، بيروت ١٩٠٨.
- لين بول (استانلى) ، طبقات سلاطين الإسلام، ترجمه للفارسية عباس اقبال وعنها مكى طاهر، البصرة ١٩٦٨م.
- الماوردى (أبو الحسن على بن حبيب ت ٤٥٠/١٠٥٨م) ، الأحكام السلطانية، مصر ١٩٦٠م.
- المسعودى (أبو الحسن على ت ٣٥٤/٩٥٦م) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر . عدة اجزاء . تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٣٨م.
- المقدسى (أبو عبد الله محمد بن أحمد ت ٣٧٨/٩٧٨م)، أحسن التقاسيم، طبع ليدن ١٩٠٦م.
- النرشخى (أبو بكر محمد بن جعفر ت ٣٤٨/٩٥٩م) ، تاريخ بخارى، عربه عن الفارسية وحققه أمين عبد المجيد ، ونصر الله الطرازى، طبع دار المعارف بمصر.

مصادر ومراجع فارسية:-

- ابن اسفنديار (بهاء الدين محمد حسن ق ٧/١٣م) ، تاريخ طبرستان ، بتصحيح عباس إقبال، طهران ١٣٢٠ شمس.
- حمد الله مستوفى (ت ٧٥٠/١٣٤٩م) ، تاريخ كزيده، باهتمام إدوارد براون، لندن ١٩١٠م.
- خواندمير (غياث الدين ق ١٠/١٦م).

أ - دستور الوزراء، بتصحيح سعيد نفيسى، طهران ١٣١٧.

ب - حبيب السير، أز انتشارات كتابخانه خيام ، طهران ١٣٣٣ شمس.

- شمعدانى زاده فندقليلى، مرئ التواريخ، استانبول ١٣٣٨هـ.
- ابن فندق (ت٥٦٣/١١٦٧م) ، تاريخ بيهق ، طهران.
- كرديزى (أبو سعيد عبد الحى ق ٥/١١م)، تاريخ كرديزى يا زين الأخبار، با مقدمه آقاى ميرزا محمد خان ، طهران ١٣٢٧.

مراجع أوروبية :

1-Arberry (A.T) , The Legacy Of Persia, Oxford 1968.
2-Amic (Schroeder),Mudammad's People . C`ambridge 1955.
3-Muir (W.) The Caliphate.its Rise Decline and fall, Beirut 1963
4-Mongl Kabi, les originEs . Tahirides. Dans dawa Abbesisdes, Arabica 1979.

طبرستان

طَبَرِسْتان بلاد جبلية تمتاز بالحصانة والمنعة على ما هو مشهور من أمرها. والعجم يقولون: " مازندران"، وهى بين الرى وتومس وبحر الخزر [١].

وقد أثرت البيئة الطبيعية القاسية فى هذه المنطقة على سلوك شعوبها، فعاشت فى ظلأمراء محليين ينتمون إلى سلالات متباينة، وكان التناحُر على السلطة من أبرز صفاتهم [٢].

وينتمى سكان هذه المنطقة إلى الجيل الذين كانوا منتشرين على ساحل بحر الخزر [٣]؛ والديلم الذين كانوا يسكنون الجبال، وقد ظلوا يتوارثون المناطق الجبلية فى طبرستان منذ أيام الأكاسرة [٤]. وهم شعوب متميزة انخرطوا فى السلك العسكرى بسبب قلة مواردهم الزراعية، أو موارد صيد البحر التى يتمتع بها سكان السهول الساحلية [٥].

وقد وصف الجغرافيون طبرستان بأنها بلد كثير المياه الثمار والأشجار الجبلية والسهلية، والغالب عليها الغياض، وأكثر أبنيتها من الخشب والقصب، وهى كثيرة الأمطار شتاء وصيفا. وأهم مدن هذا الإقليم: آمل: وهى القصبة السهلية لطبرستان، وتقع على بحر الخزر؛ وسارية، وهى قصبة طبرستان القديمة؛ والرويان، هى القصبة الجبلية لطبرستان.

ولما كانت طبرستان تشتهر بالمنعة والحصانة نظرًا لطبيعتها الجبلية فقد ظلت منعزلة مما جعل ملوك الفرس يولونها رجلا يحكمها يسمونه الإصبهبذ (ومعناه ملك الملوك)، وكان منصبه وراثيًا، فإن لم يكن له وارث وجهوا شخصًا آخر ليتلى منصب الإِصْبَهْبَذ. ولم يزالوا على ذلك حتى جاء الإسلام وفتحت المدن المتصلة بطبرستان [٦]. وكان الدين السائد فيها هو الدين الزرادشتى. ولم ينتشر الإسلام فيها سريعًا لبعدها عن عاصمة الخلافة فبقى الدين المجوسى القديم منتشرًا بين أهلها، حتى ولّى الخليفة الراشد "عثمان بن عفان " رضى الله عنه سعيد بن العاص الكوفة سنة ٢٩هـ/٦٤٩م فغزا طبرستان، وكان مصطحبًا معه فى هذه الغزوة (فيما يقال) الحسن والحسين رضى الله عنهما [٧]. وكان صاحب طبرستان (الإِصْبَهْبَذ)

عندما تشتد عليه وطأة المسلمين يصالح على الشىء اليسير، فيقبل منه لصعوبة المسلك.

ولما تولى معاوية بن أبى سفيان الخلافة أوْلى طبرستان عناية خاصة، فولى عليها مِصْقَلة بن هبيرة فسار إليها فى عشرين ألف رجل، فأوغل فى البلد يسبى ويقتل ولكن الديلم أحاطوا بجيشه عندما اجتاز بين الجبال وألقوا عليهم لحجارة والصخور، فهلك مصقلة وأكثر جيشه، فكان المسلمون بعد ذلك إذا غَزَوْا هذه البلاد يحتاطون لأنفسهم ولا يغامرون بالتوغل فيها(٨).

وقد أوكل الخليفة الأموى "سليمان بن عبد الملك" (٩٦- ٩٩- هـ/٧١٥- ٧١٧م) إلى "يزيد بن المهلب "أمر خراسان وبلاد المشرق، فسار إلى طبرستان لإخضاعها، فاستنجد الإِصْبَهْبَذ بالديلم فأنجدوه بقوات عظيمة، ولما رأى يزيد شدة بأسهم صالحهم على أربعة آلاف ألف درهم، وسبعمائة ألف مثقال فى كل عام، وأربعمائة وقر زعفران(٩).

وعندما تولى عرش الخلافة المأمون العباسى (١٩٨- ٢١٨هـ/٨١٣- ٨٣٣م) أهمه أمر طبّرستان وما هى عليه من الفوضى، فعمل على إعادة فتحها وولى "مازيار بن قارن" أعمالها وسماه محمدًا، لأنه اسلم وجعل له رتبة الإصبهبذ، وظل واليًا عليها حتى وفاة المأمون(١٠).

ولما تولى المعتصم الخلافة العباسية أقر الإصبهبذ على عمله، إلا أنه تمرد عليه وخلع طاعته، فأمر الخليفة عامله على خراسان "عبد الله بن طاهر بن الحسين" أن يتوجه لمحاربة الإصبهبذ، فلما التقى به حاول أن يعطيه الأمان، إلا أنه أظهر العصيان فحاربوه، وأسروه ثم أرسلوا به إلى الخليفة فأمر بضربه بالسياط حتى الموت. وهكذا عادت طبرستان مرة أخرى للسيادة العباسية، وأصبح عبد الله بن طاهر واليًا عليها من قبل العباسيين حيث ظلت فى أيديهم حوالى مائة وست وستين سنة.

والواقع أن العباسيين لم يستطيعوا السيطرة الكاملة على طبرستان فاستمرت فيها الديانات القديمة حتى منتصف القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى).

ولما عجزوا عن مقاومة الضغط الإسلامى، آثروا أن يستقبلوا دعاة الشيعة المناوئين للعباسين، بعد أن ارتضت

الغالبية العظمى من السكان أن تبنى مستقبلها السياسى فى إطار تلك الدولة الجديدة.

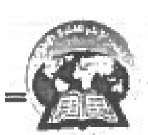
وقد أدرك هؤلاء الدعاة من جهتهم الفائدة التى تعود عليهم فى تلك البيئة التى لا تزال بكرًا، وبالفعل تغلغلت دعوتهم بين أهالى الديلم، سكان الجبال، فاستقبلت "الحسن بن زيد العلوى[١١]"، الذى لم يتردد فى الاستيلاء عليها سنة (٢٥٠هـ/٨٦٤م) بمعاونة الديلم الموتورين الذين أدركوا خطورة مكانتهم السياسية والعسكرية، بعد أن أضحوا عماد كثير من جيوش تلك المنطقة[١٢].

لما علم "المستعين بالله "بأنباء تلك الهزائم المتكررة، أرسل الجيوش العباسية لإلحاق الهزيمة بالحسن، وإعادة طبرستان إلى الدولة العباسية ولكن محاولاته باءت بالفشل[١٣].

ولم تيأس الدلة العباسية من محاولة استرداد طبرستان فحشدت جيوشها مرة أخرى للقضاء على الزيديين نهائيًا، بعد أن أصبحوا يهددون أمن المشرق الإسلامى كله، فتوجه "موسى بن بغا" إلى طبرستان، والتحم الجيشان بالقرب من قزوين، وأسفر ذلك عن هزيمة الزيديين وانتصار الجيوش العباسية، وفرّ الحسن منهزمًا إلى بلاد الديلم[١٤].

ولكن الظروف ما لبثت أن ساعدت الحسن بن زيد على العودة إلى طبرستان مرة أخرى، إذ ثار الأتراك ببغداد على الخليفة المعتز (٢٥٢- ٢٥٥هـ/٨٦٦-٨٦٩م)فاستدعت أم المعتز القوات العباسية المرابطة فى المشرق للقضاء على تلك الثورة، فاستغل الحسن الفرصة واستعاد الرى وطبرستان من العباسيين[١٥].

وبعد أن تغلب "يعقوب بن الليث الصفار" (أمير الصفاريين) [١٦] على الطاهريين فى خراسان، توجس خيفة من زيادة نفوذ الزيديين فى إقليم طبرستان ومنطقة الجبل (بلاد الديلم)، وكانوا قد بدأوا يهددون نفوذ الصفاريين فى منطقة خراسان، فأراد أن يوسع رقعة بلاده على حسابهم، فاستغل فرصة فرار أحد قواده لاجئًا إلى الحسن بن زيد، فطالبه بتسليمه إليه وهدده إن لم يفعل. ولما امتنع الحسن عن تسليمه إياه واتته الفرصة للهجوم على أملاكه فى طبرستان، ولم يستطع الحسن الوقوف فى وجه قوات يعقوب الفتية، وحلت به الهزيمة، وفر هاربًا إلى بلاد الديلم[١٧].



وَجَدَّ يعقوب فى طلب الحسن حتى وصل إلى جبال الديلم، وهناك داهمته الأمطار الغزيرة، وكاد يتعرض هو وجنوده للهلاك، فقفل راجعًا بعد ن فقد معظم قواته من جراء هذه الحملة، وهلك أكثر ما كان معه من الخيل والدواب، ثم راسل الخليفة ليبشره بالنصر. لكن الحسن عاد ثانية إلى طبرستان واستعادها من الصفاريين، وظلت تحت سيطرته حتى توفى سنة (٢٧٠هـ/٨٨٣م) فكانت ولايته عشرين سنة[١٨].

وقام بالأمر من بعده أخوه "محمد بن زيد" الذى كان أقل دهاءً من أخيه فى عالم الحرب والسياسة، إذ توالت الهزائم عليه من العباسيين، حتى إنه اضطر للجوء إلى بلاد الديلم للاحتماء بها أكثر من مرة. وعندماهُزِم "عمرو بن الليث الصفار" على يد إسماعيل بن أحمد السامانى" ووقع فى الأسر تجاوز محمد بن زيد صاحب طبرستان والديلم حدود خراسان، يريد أن يضم "جرجان" لدولته ظنا منه أن إسماعيل السامانى لن ينازعه عليها. فكتب إليه إسماعيل يهدده بقوله: "الزم عملك ولا تقصد خراسان". ولكن محمدًا لم يكترث بكلامه وطغت عليه مطامعه الشخصية. وتوجه لحرب إسماعيل، فالتقى الجمعان سنة (٢٨٧هـ/٩٠٠م) فى معركة شديدة الوطيس بالقرب من جرجان، انتهت بمقتل محمد فى المعركة بعد أن أصيب بإصابات خطيرة وتفرق معظم جيشه، ومُزِّق كل مُمَزَّق، ودفن على باب مدينة جرجان بعد أن حكم طبرستان ما يزيد عن سبع عشرة سنة قضى معظمها فى معرك وحروب[١٩]. ومنذ ذلك التاريخ دخلت طبرستان فى حوزة الدولة السامانية وأصبحت ضمن أملاكها[٢٠]. ولا ريب أن فترة السامانيين تمثل العصر الذهبى فى تاريخ آسيا الوسطى الإسلامية، بل وفى جميع تاريخها عبر العصور. فهو العهد الذى تألقت فيه الآداب الفارسية حتى بلغت ذروتها مع الفردوسى "هوميروس العجم، و "ابن سينا" الذى طبقت شهرته الآفاق و"البيرونى"، ولا يتسع المجال هنا بتفصيل ذلك.

على كل حال بعد موت إسماعيل بن نصر السامانى تولى مقاليد الأمور ابنه أحمد سنة (٢٩٥هـ/٩٠٧م) .

وقد أولى طبرستان عناية خاصة فاستعمل عليها" محمد بن نوح" فأحسن السيرة فى أهلها وعدل بينهم، وأكرم من

بها من العلويين، وبالغ فى الإحسان إليهم. وحتى يضمن حياد الديالمة عمل على استمالتهم وقام بمراسلة زعمائهم وصالحهم وقربهم إليه، وبذلك حرم علويىّ الإقليم من الوقود الذى كان يمدهم بالقوة، فلم يستطيعوا القيام بأى عمل عدائى ضد السامانيين طوال فترة حكمه[٢١].

ولما كان دوام الحال من المحال فقد عزل محمد بن نوح من ولاية طبرستان، وجاء بدلا منه" محمد بن إبراهيم السامانى" الذى كان على العكس من سلفه، فلم يحسن لرؤساء الديلم، بل عمل على استفزازهم، مما أثار زعماءهم عليه، الأمر الذى استغله داعٍ آخر يُدْعَى "الحسن بن على الأطروش"[٢٢] ودعا رؤساء الديلم إلى الثورة على السامانيين فأطاعوه. ولما علم أحمد بما حدث فى طبرستان أرسل قائده "محمد بن صعلوك" ليداهمهم، ولكن الديلم بقيادة الأطروش أوقعوا بهم الهزيمة عند شالوس، فأعمل فيهم قائده وزوج ابنته "الحسن بن القاسم" القتل لأنه لم يكن أمنهم ولا عاهدهم"[٢٣].

واستطاع الأطروش أن يوطد سلطانه من شالوس، إلى سارية دون أن يحرك السامانيون ساكنًا، لأنهم كانوا مشغولين بالصراع فيما بينهم على السلطة، الأمر الذى مَكن الأطروش من أن يعقد تحالفًا مع ألد أعداء العلويين بطبرستان آنذاك وهوالإصبهبذ "رستم بن دباوند" مستغلاً انشغال السامانيين بمشاكلهم الداخلية[٢٤]. وكان ضمن من دخل فى خدمته "بويه" وابنه الأكبر على "اللذين لعبا دورًا مهمًا فى سير الأحداث الساسية فى تلك المنطقة"[٢٥].

وظهر فى أيامه خارج من الديلم يدعى "أسفار بن شيرويه" فامتلك طبرستان بمساعدة مواطن ديلمى آخر هو "مرداويج ابن زياد" الذى استطاع قتل "الحسن بن القاسم (المعروف بالداعى الصغير الذى تولى الإمارة بعد وفاة الأطروش) سنة ٣١٦هـ/٩٢٨م بالقرب من سارية"[٢٦].

ولكن سرعان ما قتل أسفار فى نفس السنة فآلت سلطاته إلى مرداويج بن زيار الذى استطاع أن يخضع رؤساء الديلم لسلطانه، وأن يؤسس دولة عرفت فى تاريخ المشرق الإسلامى (إيران) باسم "الدولة الزيارية"[٢٧].

واستطاع مرداويج أن يبعد عن أرضه أحد رؤساء الديلم الأقوياء وهو "ما كان ابن كالى" الذى ضعف أمره، ولجأ إلى

السامانيين. فلما ضعف أمر "ما كان" تفرق عنه كثير من جنده ولجأوا إلى مرداويج، وكان من هؤلاء جماعة يرأسهم" على بن بويه" مؤسس الدلة البويهية[٢٨]. (راجع مادة "بنوبويه").

ولما خرج فرسان الديلم - الزياريون والبويهيون- وبعض قوادهم لامتلاك البلاد لم يخرجوا ناحية بحر قزوين موطنهم الأصلى، بل تغلغلوا فى إيران (فارس) وكان فى مقدمة من خرجوا على بن بويه وأخويه الحسن وأحمد، وعملوا أولا مع القائد الديلمى" ما كان بن كالى" حتى إذا هزمه مرداويج بن زيار "حاكم طبرستان" و"جرجان"[٢٩]. تركوه إلى خصمه قائلين له -كما روى ابن مسكويه[٣٠]- : "الأصلح لك مفارقتنا إياك لتخفّ مؤننا، ويقع كلنا (عبئنا) على غيرك، فإذا تمكنت عاودناك".

ووقع على "بن بويه" من "مرداويج موقعًا حسنًا فولاه "الكرج" إلى الجنوب الشرقى من همذان سنة (٣٢٠هـ/٩٣٢م) [٣١] ولم يلبث أن استولى فى السنة التالية على أرجاء من بلاد فارس[٣٢]. ولما قتل مرداويج سنة (٣٢٣هـ/٩٣٤م) انتهز على وأخوه الفرصة وتمكنا من الاستيلاء على أصفهان والرى اللتين كانتا بيده، واستولى أخوهما أحمد على كرمان، وظل يتقدم تدريجيًا حتى استولى على الأهواز ذات الموقع الاستراتيجى المتميز سنة (٣٢٦هـ/٩٣٧م) وظل يتقدم حتى استولى على واسط[٣٣].

وفى هذه الأثناء كانت المجاعة تهدد بغداد، وكان الجند الترك ثائرين على الخليفة وقواده لعجزه عن دفع رواتبهم، فوجد أحمد بن بويه الأبواب جميعها مفتحة أمامه إلى بغداد فدخلها سنة (٣٣٤هـ/٩٤٥م) دون مقاومة تذكر، ورحب به الخليفة المستكفى منقذًا ومخلصًا[٣٤]. وخلع المستكفى عليه ولقبه "معز الدولة" ولقب أخاه عليا صاحب فارس "عماد الدولة" ولقب أخاهما الحسن صاحب همذان وبلدان الجبل والرى "ركن الدولة"[٣٥]. بلغ الإخوة الثلاثة من السلطان مبلغًا عظيمًا حتى كانت السكة (النقود) تضرب بأسمائهم، وكانت أسماؤهم تذكر مع الخليفة فى خطبة الجمعة.

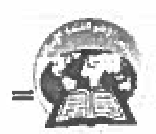
وقد واجهت الإمارة الزيارية بعد مصرع "مرداويج" خطر البويهيين الذين حاولوا

أكثر من مرة الاستيلاء على أملاكهم فى جرجان وطبرستان، وتقدمت جيوشهم بالفعل لتحقيق هذا الغرض، واستمرت الحروب بينهما تدور بين النصر والهزيمة لهذا الطرف أوذاك، وكانت غالبًا تنتهى بعقد معاهدات الصلح والهدنة، حتى بدأ الضعف يدب فى أوصال الدولة البويهية فانشغلت بمشاكلها الداخلية، ولا سيما بعد ظهور قوة فتية جديدة، هى دولة الغزنويين[٣٦].

وما لبث الزياريون أن واجهوا ضغطًا من قبل الغزنويين الطامعين فى أملاكهم، ولا سيما بعد أن استولى السلطان "محمود الغزنوى" على بلاد "الرى وقزوين" وأصبحت أملاكهم تتاخم أملاك الزياريين، وأصبح الصدام بينهما حتميًا، وهكذا تعرَّض منوجهر بن قابوس بن وشمكير بن زيار لهجوم السلطان الغزنوى، فتحصن منوجهر بجبال طبرستان المنيعة، إلا أن السلطان الغزنوى تمكن من الوصول إليه، فلم يجد الأمير الزيارى بداً من طلب الصلح، فصالحه على أن يدفع له مبلغ خمسمائة ألف دينار[٣٧].

ولم يعمر منوجهر طويلاً بعد هذه الحادثة، إذ توفى سنة (٤٢٠هـ/١٠٢٩م) فخلفه ابنه "أنوشروان" فأقره السلطان محمود على ولايته على أن يحمل له خمسمائة ألف دينار أخرى . ولم تمض غير فترة قصيرة حتى كان السلطان محمود الغزنوى قد توفى فخلفه ولده "مسعود" فى الحكم فأقر أنوشروان على حكم طبرستان، لتبدأ مرحلة جديدة من العلاقات الطيبة بين الزياريين والغزنويين، خاصة بعد أن تزوج السلطان مسعود من ابنة قائد الجيش الزيارى[٣٨].

وفى مطلع القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) شهدت المنطقة الإسلامية ظهور قوة فتية على مسرح الأحداث السياسية ألا وهى قوة الأتراك السلاجقة، الذين ما لبثوا أن أصبحوا القوة المسيطرة على المشرق الإسلامى (بلاد فارس)، وامتد نفوذهم أيضًا ليشمل العراق، وآسيا الصغرى وبلاد الشام. وكانت معركة "دندانقان" من المعارك الحاسمة فى التاريخ السلجوقى، حيث أتاح لهم انتصارهم على الغزنويين فى تلك المعركة فرصة مدِّ نفوذهم على معظم بلاد فارس، وبلاد ما وراء النهر، ثم حصل السلاجقة على اعتراف الخلافة العباسية لهم بشرعية نفوذهم ليصبح طغرل بك أول سلطان على السلاجقة.



ولما كان من أهداف السلاجقة (عند قيام دولتهم) بناء دولة قوية شرع طغرل بك فى إخضاع بلاد فارس، فتطلع نحو "جرجان" و"طبرستان" للقضاء على حكم "أنوشروان" الزيارى آخر حكام الأسرة الزيارية، وسار نحوهما سنة ٤٣٣ هـ/١٠٤١م، ولما علم الأخير بأنــــه لا طاقة له بمواجهة السلاجقة الأقوياء، أعلن خضوعه للسلطان طغرل بك مقابل ضريبة سنوية، إلا أن السلطان السلجوقى لم يرتض بذلك وعين على جرجان وطبرستان حاكمًا من قبله، ليعلن بذلك عن سقوط الدولة الزيارية[٣٩].

أ.د / صلاح عاشور

الهوامش:

(١) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، سنة ١٩٨٤م، ص٤٠٢.

(٢) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية منذ ظهور الإسلام حتى بداية الإمبراطورية العثمانية، ص٢٠٢. نقله إلى العربية: د/بدر الدين القاسم، دار الحقيقة، ط٣، بيروت سنة ١٩٨٣م.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص٢٨٣، ١٨٤، تحقيق: د/محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٨٧م.

(٤) الديلم: تقع بلاد الديلم فى المنطقة الواقعة بين طبرستان والجبال وجيلان وبحر الخزر، وهم قبائل فارسية تتكلم اللغة الفارسية بلهجة محلية، وقد اشتهروا بالشجاعة والكرم، ووصفوا بالطيش، والعجلة، وقلة المبالاة، كما غلب عليهم الجهل والحماقة وكثرة التنازع فيما بينهم، ثم اتصفوا أيضًا بالقسوة وغلظة الطبع والتأبى على الانقياد، كما اشتهروا بالجمال حتى قال عنهم المقدسى: "والديلم حسان اللحى والوجوه ولهم طلل". المقدسى: أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ص٢٨٣.

(٥) كلود كاهن: تاريخ العرب والشعوب الإسلامية، ص ٢٠٢.

(٦) ابن الفقيه الهمذانى: البلدان، ص٥٧٠.

(٧) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٣٠، عُنِى بمراجعته والتعليق عليه. رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت عام ١٩٨٣م- ابن كثير: البداية والنهاية، ج٧، ص١٥١، مكتبة الإيمان، المنصورة (د.ت).

(٨) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٣٠، ٣٣١. ابن الفقيه الهمذانى: البلدان، ص٥٧٠.

(٩) المصدر السابق: ص٣٣٣، ٣٣٤.

(١٠) ابن الفقيه الهمذانى: البلدان، ص٥٧٠.

(١١) كان ظلم ولاة بنى العباس فى طبرستان وقساوة عمالهم وتعسفهم مع الأهالى دافعًا قويًا لنقمة الديالمة الطبرية على الحكم العباسى هناك، وكان طبيعيًا أن يبحث هؤلاء الطبريون عن منقذ لهم يكون معاديًا للعباسيين. وقد تطلع الطبريون لأحد العلويين الفارين من وجه العباسيين، إذ كانوا يدركون العداء الشديد بينهما، وكان الحسن بن زيد العلوى قد خرج على الخليفة المستعين بالله العباسى، وأعلن الثورة عليه فى الكوفة، ولما ضيق عليه العباسيون، فر متوجهًا إلى الرى من بلاد المشرق الإسلامى لاجئًا إليها، وظل هناك فترة حتى شاءت الظروف أن ينتقل إلى طبرستان، ويؤسس الدولة الزيدية فيها، مستغلاً بعدها عن مركز الخلافة، وعدم استقرار الأوضاع السياسية فيها. فكان الحسن بن زيد خير سند لهم يستندون عليه فى مواجهة العباسيين. إبراهيم الكردى: البويهيون والخلافة العباسية، دار العروبة للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، سن ١٩٨٢م. ص٦٣.

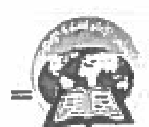
(١٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ج٤، ص١٥٢، ١٥٣.

(١٣) المصدر السابق: ج٤، ص١٥٥.

(١٤) إبراهيم الكردى: البويهيون والخلافة، ص٧١.

(١٥) كان العلويون (أتباع المذهب الزيدى) فى إقليم طبرستان والمناطق المجاورة لها يعيشون متخفّين من القوات العباسية، وكانوا يظهرون عندما تتقدم الجيوش الزيدية، ويهددون الجبهة الداخلية، وبذلك يمهدون السبيل أمام قوات الحسن لاستعادة الإقليم. إبراهيم الكردى: البويهيون، ص٧٠، ٧١.

(١٦) الصفاريون: تنسب هذه الإمارة إلى "يعقوب بن الليث الصفار" الذى كان يعمل فى صناعة الصفر (النحاس) وقد ظهرت هذه الإمارة فى إقليم سجستان، وكانت فى بداية أمرها تتكون من المتطوعة الذين أرادوا معاونة الخلافة



العباسية ضد أعدائها من الخوارج واللصوص وقطاع الطرق، ثم سيطر على حركة المتطوعة "يعقوب بن الليث الصفار" الذى قويت شوكته، واستطاع أن يستولى على إقليم سجستان، ثم أخذ يتحرش بالإمارة الطاهرية، حتى تمكن من إسقاطها سنة (٢٥٩هـ/٨٧٢م). خليل السامرائى: تاريخ الدولة العربية الإسلامية فى العصر العباسى (١٣٢- ٦٥٦هـ/٧٤٩- ١٢٥٨م)، طبع جامعة الموصل ١٩٨٨م، ص١١٩ .

(١٧) خواندمير: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا، ترجمة د/أحمد عبد القادر الشاذلى، الدار المصرية للكتاب، ط١، القاهرة، عام ١٩٨٨م، ص٥٧- ٦٠ .

(١٨) المصدر السابق: ص٦١ .

(١٩) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، ص٢٦٠، ٢٦١. خواندمير: روضة الصفا، ص٦٢ .

(٢٠) من المسلم به أن هناك عددًا كبيرًا من المؤلفات التاريخية الفارسية قد فقد، بالتالى صعب علينا أن نطلع اطلاعًا حسنًا على تاريخ "الطاهريين" و"الصفاريين" و"السامانيين" ولا سيما انه كان مكتوبًا باللغة الفارسية، وحتى مؤرخونا العرب لم يحدثونا عن تاريخ هذه الدول ما لم يكن له صلة بعاصمة الخلافة، ولكننا نستخلص من أحاديثهم بعض النتف التاريخية التى تعيننا على تتبع تاريخهم. كلود كاهن: مرجع سابق، ص١٩٧ .

(٢١) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ص٤٣٦، ٤٣٧ .

(٢٢) هو الحسن بن على بن الحسن بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، ولد بالمدينة سنة (٢٣٠هـ/٨٤٤م) من جارية خراسانية، كان يلقبه الزيدية وأهل الدين بـ"الإمام الناصر الكبير". وفد على طبرستان فى عهد الداعى الكبير "الحسن بن زيد: وقد سعى إلى إقامة دولة شيعية فى المشرق مستعينًا فى أول الأمر بعامل نيسابور "محمد بن عبد الله الخجستانى" الذى استولى على جرجان من القائم السامانى، ولكن ما لبث أن انقلب عليه الخجستانى (بعد أن أوقع بينهما أصحاب الوشايات) فسجنه ونكل به حتى آذى سمعه فلقب بـ"الأطروش". ولم يلبث أن فر الأطروش إلى بلاد الديلم مستغلا حالة الفوضى فى الدولة السامانية عقب وفاة القائم، وأقام بين قبائل الديلم ثلاثة أعوام يدعوهم إلى الإسلام، ويبنى لهم المساجد، فأسلم منهم عدد كبير، ودانوا له بالطاعة والولاء، بعد أن لقنهم مبادئ المذهب الزيدى. توفى سنة (٣٠٤هـ/٩١٧م) ابن الأثير: الكامل، ج٦، ٤٩٥.

(٢٣) ابن اسفنديار: تاريخ طبرستان، ص٢٣٢- ٢٣٩ .

(٢٤) المصدر السابق: ص٢٤٠- ٢٤٦ .

(٢٥) كان بويه بن فناخسرو (والد الإخوة الثلاثة، على والحسن وأحمد) الملقب بأبى شجاع يعمل فى بداية أمره فى خدمة الدولة العلوية فى طبرستان، إذ كان من أبرز الرجال الذين اعتمد عليهم "الأطروش" فى مواجهة السامانيين، لما امتاز به من شجاعة نادرة، وكياسة فى مكائد الحرب والسياسة . ابن مسكويه: التجارب، ج٥، ص١٥٧- ١٦٠، إبراهيم الكردى: البويهيون، ص٨٤ .

(٢٦) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٤٧ .

(٢٧) قامت الإمارة الزيارية فى أعقاب سقوط الإمارة العلوية فى جرجان وطبرستان، وتنسب إلى مؤسسها "مرداويج بن زيار الديلمى". وكان مرداويج من بين قادة الجيش العلوى الذين استمالهم السامانيون للقضاء على الإمارة العلوية، فتعاون مع أسفار بن شيرويه، وتمكن من هزيمة العلويين وقتل آخر أمرائهم "الحسن بن القاسم"، ودخل أسفار مدينة آمل تحت شعار بنى العباس، ثم استولى على طبرستان وجرجان، خطب للأمير السامانى، إلا أنه لم يلبث أن خلع طاعته، وأخذ يمكن لنفسه، بل إنه صنع تاجًا من ذهب، وأخذ يناوئ الخليفة العباسى.انظر: رشيد عبد الله الجميلى: الزياريون فى جرجان وطبرستان، ص١٤٩، ١٥٠- مجلة كلية الآداب، الجامعة المستنصرية، العدد التاسع، بغداد ١٩٨٤م .

(٢٨) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج١، ص٥٢ .

(٢٩) جرجان: مدينة كبيرة تقع فى جنوب شرق بحر الخزر ويحدها جنوبًا إقليم خراسان وشرقًا إقليم خوارزم، وغربًا بحر الخزر وإقليم طبرستان، وهى بلاد كثيرة الأنهار. المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٢٨٠- ٢٨٥ .

(٣٠) تجارب الأمم، ج٥، ص١٥٨ .

(٣١) ابن مسكويه فى التجارب، ح٥، ص١٥٨- ١٥٩.

(٣١) ابن الأثير فى الكامل، ج٧، ص٩٠، ٩١. .

(٣٣) المسعودى فى مروج الذهب، ج٤، ص٣٦٤.

(٣٤) ابن مسكويه فى التجارب، ج٥، ص١٩. ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٢٠٦ .

(٣٥) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٥، ص٢٨٦ .

(٣٦) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص١٧٠، ١٧١ .

(٣٧) إبراهيم الكردى: البويهيون، ص٧٩ .

(٣٨) رشيد الجميلى: الزياريون، ص١٦٤، ١٦٥ .

(٣٩) ابن الأثير: الكامل، ج٨، ص٢٥٠- ٢٥٨ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. إبراهيم سلمان الكردى (دكتور): البويهيون والخلافة العباسية. دار العروبة للنشر والتوزيع، ط١، بيروت، ١٩٨٢م.

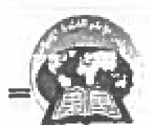
٢. ابن الأثير (ت ٦٣٠هـ) على بن أبى الكرم: الكامل فى التاريخ. دار الكتب العلمية ن بيروت، عام ١٩٨٨م.

٣. ابن اسفنديار (٧٥٠هـ) بهاء الدين محمد: تاريخ طبرستان، ترجمة أحمد محمد نادى، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، القاهرة، عام ٢٠٠٢م.

٤. البلاذرى (٢٧٩هـ) أحمد بن يحيى: فتوح البلدان، عنى بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان- دار الكتب العلمية، بيروت، عام ١٩٨٣م.

٥. عصام عبد الرؤوف الفقى (دكتور): الدول الإسلامية المستقلة فى الشرق، دار الفكر العربى، القاهرة، عام ١٩٨٧م.

٦. القروينى (٦٨١هـ) زكريا بن محمد بن محمود- آثار البلاد وأخبار العباد، دار بيروت للطباعة النشر، بيروت عام ١٩٨٤م.



طرابيـزون

تقع طرابيـزون علـى الـساحل الجنـوبى للبحر الأسود فى الجـزء الـشمالى الـشرقى مـن شـبه جزيـرة الأنـاضـول وفـى منطقـة بنطس Pontus التى تكثر فيها التلال، والتـى يفـصل سـاحلها عــن بـاقى آسـيا الـصغرى وأرمينيـا سلـسلة جبـال بـنطس التى أسهمت فى حماية طرابيزون على مر تاريخها، وعلى طول الساحل توجد سهول خصبة ممتدة، وعُدَّتْ طرابيزون أهم مدن إقليم بنطس[١].

وتكثر الأمطار على سهول طرابيـزون الـساحلية، وتتـدرج الـسلاسل الجبليـة بانحدار نحوها لتشكل مساحات صالحة للزراعـة تـضاف إلى الـسهول الخـصبة مع اعتدال مناخ تلك المساحة من المنحدرات، لذلك غطتها الغابات الكثيفة التى غدت مـصدراً لا يـنـضب للأخـشاب منـذ آلاف السنين[٢].

وأعطـى ميناء طرابيـزون لهـذه المدينـة أهمية كبيرة، لأنه يقع على رأس الطرق مـن البحـر الأسـود حتـى بـلاد فـارس، فاحتلـت طرابيــزون مكانــة مميــزة باعتبارهـا مـن أهـم المـوانى فـى تلـك المنطقة[٣].

وتشير الدراسات الأثرية والتاريخية إلى أن طرابيزون شيدت فى القرن الثامن قبل الميلاد حين وفدت إليها جالية يونانية من سينوب أقامت فيها وجعلتها عاصمة لها، ثم أصبحت تابعة لملوك بنطس، ثم قامت بها مملكـة مهمـة فـى أوائـل القـرن الأول قبل الميلاد ضمت مساحات شاسعة شرقى البحــر الأســود وحولــه حتــى شــواطئه الشمالية، بالإضافة إلى ما كان لها من سـيطرة علـى المنطقــة مـن ســينوب إلى مـا يعـرف الآن ببـاطوم (Batoum)فـى بلاد ما وراء القوقاز السوفيتية على البحـر الأسود[٤].

وأحاط بمدينة طرابيزون سور حصين، وكانت منازلها تبنى بالحجر والجير من طـابق واحـد، وتخلـل هـذه المبـانى حـدائق غنـاء وخـضرة وأشـجار، خاصـة أشـجار الكروم والزيتـون[٥]، وبلـغ عـدد حـصونها اثنى عشر حصناً وقلعة.

وخضعت طرابيـزون لحكـم الرومـان، واهـتم بهـا كـثيرمـن الأبـاطرة الرومـان، خاصـة الإمبراطـور تراجـان (٩٨ – ١١٧م) الـذى جعلها عاصـمة لمملكـة بـنطس[٦]. ويبــدو أن اهتمـام الرومــان بهــذه المدينــة

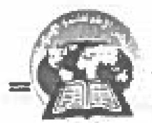
استند إلى أنها إحدى الموانى المهمة التى تسيطر على السواحل الجنوبية للبحر الأسود فى الجزء الشمالى الشرقى من شبه جزيرة آسيا الصغرى القريب من أطراف الدولة الفارسية وحدود الفرس، الذين دأبوا على الهجوم على أملاك الإمبراطورية الرومانية فى ذلك العصر(٧).

وتواصل الاهتمام بطرابيزون على عهد الإمبراطورية البيزنطية التى تفاقم النزاع خلال عهدها مع الفرس، ولهذا نالت اهتمام الإمبراطور البيزنطى جستنيان (٥٢٧ – ٥٦٥م)، الذى أمر بتوسيع مينائها، فأسهم ذلك فى انتعاش طرابيزون اقتصادياً وتجارياً، وبذل جهوداً كبيرة لتحصينها وجعلها قاعدة حربية ضد الفرس(٨).

وتصاعدت أهمية مدينة طرابيزون بعد عهد جستنيان لتحتل مكانة مهمة بين مدن بيزنطة فى تلك المنطقة، خاصة بعد ظهور الإسلام واستيلاء العرب على أطراف الدولة البيزنطية إثر الفتوحات الإسلامية فى أطراف العراق وآسيا الصغرى وبلاد الشام وفلسطين، ولهذا أصبحت طرابيزون أهم مدن ذلك الإقليم، ووضعت تحت إدارة عسكرية(٩).

ومن الناحية الاقتصادية ازدادت أهمية طرابيزون فى تلك الفترة لتعدد وسهولة طرق الاتصال بها برياً وبحرياً، فجرى الاتصال بينها وبين المناطق التجارية ذات الأهمية الكبرى فى أرمينيا وفارس ثم بغداد بعد ذلك وكذلك القسطنطينية، فلعبت دوراً كبيراً فى نقل السلع والمتاجر بين الشرق والغرب إلى أوربا(١٠)، وأسهم موقع طرابيزون الجغرافى فى منحها مزايا كثيرة كميناء مهم، فقد جنبها هذا الموقع الجغرافى التعرض للرياح الغربية والشمالية الغربية مما ساعد على عبور السفن فى أمان(١١).

وحين هدد الأتراك السلاجقة أملاك بيزنطة فى آسيا الصغرى فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى(١٢)، وضعوا أعينهم على طرابيزون بوصفها ميناء مهمًا يمنحهم السيطرة على سواحل البحر الأسود والجزء الشمالى الشرقى من آسيا الصغرى، ونجحوا فعلاً فى السيطرة على طرابيزون سنة ٤٦٧هـ/ ١٠٧٤م. إلا أن هذه السيطرة لم تدم أكثر من عام واحد، إذ خضعت بعد ذلك لقائد يونانى يدعى ثيودور جابراديس Theodore Gabrades الذى حكمها نحو ربع قرن حتى عام ١٠٩٨م باسم أسرة كومنين فى



القسطنطينية، أى أنه حكمها ممثلاً للامبراطور البيزنطى من أسرة كومنين[١٣].

ومنذ ذلك الحين ظلت طرابيزون تابعة لأباطرة القسطنطينية خلال عهد الأسرة الكومنينية حتى سنة ١١٨٥م ثم بعدها لأسرة أنجليوس (١١٨٥ – ١٢٠٤م) يلى أمرها حاكم يعينه الإمبراطور البيزنطى ويلقب بدوق طرابيزون حتى استيلاء اللاتين على القسطنطينية سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م فى الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة، التى انحرفت عن مسارها واستولت على عاصمة بيزنطة فى تلك السنة[١٤].

وهكذا قضى الصليبيون من خلال هذه الحملة على الدولة البيزنطية سنة ٦٠٠هـ/ ١٢٠٤م، واقتطعوا أملاكها وأقاليمها، وسيطر الأمراء الصليبيون على أقاليم تلك الإمبراطورية فيما عدا مناطق قليلة ظلت بأيدى بعض الأمراء البيزنطيين فى نيقية وطرابيزون؛ أى صارت تلك الأجزاء تمثل بقايا الحكومة البيزنطية فى المنفى، وهى الأقاليم التى أنيط بها إعادة الدولة الزائلة واستعادة نفوذها من جديد وبعثها إلى الحياة وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه[١٥].

وعلى أثر سقوط القسطنطينية تشبثت ثلاثة مراكز يونانية بالبقاء لتمثل ثلاث نقط ارتكاز، أَمَلُ كلٌ منها نيلُ شرفِ استرداد القسطنطينية من اللاتين وإعادة الكيان البيزنطى اليونانى إلى الوجود بعد طرد اللاتين وبعث الامبراطورية البيزنطية إلى الوجود من جديد، وهذه القوى الثلاث هى: إبيروس Epiros ونيقية Nicaea وطرابيزون[١٦].

ويشير المؤرخ نيقتاس خونياتس[١٧] إلى أن بروز إمبراطورية طرابيزون وتأسيسها لم يكن رداً على الاحتلال اللاتينى للقسطنطينية عام ١٢٠٤م، وإنما كان امتداداً لحكم أسرة آل كومنين التى تواصل حكمها لبيزنطة على مدى نحو قرن من الزمان (٤٧٤- ٥٨١هـ/ ١٠٨١ – ١١٨٥م)[١٨] قبل أن ينتهى عهدها على يد إسحق أنجيلوس الذى أسس أسرة جديدة سنة ١١٨٥م استمرت تحكم بيزنطة نحو عشرين سنة إلى مجئ الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤م وقضائها على بيزنطة ووضع السلطة فى يد الأمراء اللاتين[١٩].

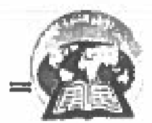
وأسهمت مملكة جورجيا الواقعة إلى الشرق من طرابيزون، وملكتها حينئذ ثامارا Thamara (١١٨٤ – ١٢١٢م)، فى تأسيس كيان مستقل داخل الأراضى

البيزنطية يمكن أن يعتليه أحد ورثة الأسرة الكومنينية الذى هو ألكسيوس كومنين Alexius Comnenos، حتى يتمكن من استعادة عرش بيزنطة مرة أخرى لتواصل تاريخها[٢٠]. فأرسلت هذه الملكة خيرة جنودها لمساعدة ألكسيوس كومنين للاستيلاء على طرابيزون التى كانت ضمن أملاك القسطنطينية[٢١].

وفى تعليل انحياز ثامارا هذه ابنة الملك جورج الثالث إلى ألكسيوس كومنين ومساعدته فى حكم طرابيزون توطئةً لاستعادة القسطنطينية، ذهب بعض المؤرخين إلى القول إن هذه الملكة كانت ذات قرابة بالأسرة الكومنينية، ولهذا تعاطفت مع سليل هذه الأسرة لاستعادة عرش القسطنطينية[٢٢]، إلا أن البعض الآخر من المؤرخين نفى ذلك وعلل هذا الانحياز لعلاقة ربطت مملكة جورجيا بالأسرة الكومنينية قبل هذه الأحداث حين لجأ أندرونيقوس الأول كومنين سنة ١١٧٠م إلى جورجيا مبتعداً عن القسطنطينية فاستقبل هناك بترحاب كبير ومنحه الملك جورج والدثامارا بعض المدن والقلاع، وشارك المملكة فى بعض حملاتها ومشروعاتها الحربية، بل إن علاقات هذه المملكة بآل كومنين ترجع إلى فترة قبل ذلك، ربما إلى سنة ١١٢٥م، حين عُقِدت المصاهرات والزيجات المتبادلة، لذلك أظهرت ثامارا حماسةً كبيرة لمساعدة آل كومنين فى الاستيلاء على طرابيزون[٢٣]. توطئةً لاستعادة القسطنطينية تحت حكم الأسرة الكومنينية.

ويضيف أحد المؤرخين المحْدَثين سبباً آخر لتعاطف ثامارا مع آل كومنين ومساعدة سليل هذه الأسرة فى الاستيلاء على طرابيزون؛ ويتمثل هذا السبب فيما جرى من عداء بين هذه الملكة وآل أنجيلوس الذين خلفوا آل كومنين فى حكم القسطنطينية واستولوا على الهبات والصدقات التى كانت ترسلها ثامارا إلى الكنائس والأديرة فى بيزنطة فى الوقت الذى تخوف فيه آل أنجيلوس من طموحات ثامارا ومملكة جورجيا ومحاولاتها التوسع على حساب نفوذ هذه الأسرة[٢٤].

ومن تفليس Tiflis عاصمة جورجيا خرجت حملة فى إبريل سنة ١٢٠٤م تضم الجنود الجورجيين تحت قيادة ألكسيوس كومنين عبر الطريق المؤدى إلى طرابيزون، وعند وصولها إلى طرابيزون خرج سكان طرابيزون لاستقبالها بسبب



حبهم لآل كومنين وكراهيتهم لحكم آل أنجيلوس، فآلت طرابيزون إلى ألكسيوس وأخيه داود كومنين. ولم يكتف آل كومنين بطرابيزون وإنما ضموا إليها عدداً من المدن والمقاطعات بمساعدة القوات الجورجية[٢٥] أبرزها مقاطعة بنطس وبفلاجونيا، واقتسم الأخَوانِ: ألكسيوس وداود هذه الممتلكات، وكانت طرابيزون وضواحيها وسينوب من نصيب ألكسيوس[٢٦]. فتكونت بذلك إمبراطورية طرابيزون فى غضون سنوات قليلة. وهى التى أملت فى استعادة العاصمة البيزنطية المسلوبة من أيدى اللاتين، فكان لآل كومنين السبق فى التطلع إلى إعادة القسطنطينية للحكم البيزنطى قبل أن تبدى هذا الاستعداد الكيانات البيزنطية الأخرى إبيروس ونيقية[٢٧].

بل إن إمبراطورية نيقية أظهرت عداء لإمبراطورية طرابيزون وآل كومنين ونازعتها السيادة على بعض أملاكها فى سامسون Samsun وشاطئ بفلاجونيا حتى سينوب سنتى ١٢١٣م و١٢١٤م فى محاولة لتحجيم دور هذه الإمبراطورية الناشئة تحت حكم آل كومنين[٢٨]، فاضطرت إمبراطورية طرابيزون إلى طلب المعونة من اللاتين فى القسطنطينية للتصدى لخطر نيقية وحماية ممتلكاتها فى آسيا الصغرى، بل حاولت عقد مصاهرات مع أمراء اللاتين فى القسطنطينية[٢٩].

ولم يكن التنافس بين إمبراطورية طرابيزون ونيقية هو الخطر الوحيد الذى هدد كيان طرابيزون فى ذلك الوقت، بل إنها تعرضت لخطر أعظم من ذلك حين تقدم الأتراك السلاجقة شرقاً لوضع أيديهم على منفذ بحرى على البحر الأسود، وفشلت محاولات نيقية فى التصدى لهم ووقف توسعاتهم فى آسيا الصغرى، فما لبث السلاجقة أن استولوا على سينوب وقتلوا حاكمها داود كومنين، وأجبروا ألكسيوس كومنين على التبعية لهم سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م[٣٠]، وظلت العلاقات بين طرابيزون والسلاجقة يشوبها العداء أحياناً والهدوء أحياناً أخرى حتى سنة٦٤١هـ/ ١٢٤٣م عندما بدأ يلوح فى الأفق الخطر الأعظم وهو خطر المغول، على الرغم من أنه ترتب على ظهورهم فى آسيا الصغرى إنقاذ ممتلكات طرابيزون من ضغط الأتراك السلاجقة، لأن المغول اكتفوا بخضوع

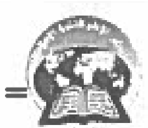
طرابيزون اسميًا لهم ودفع جزية سنوية وترك إمبراطورية طرابيزون فى سلام[٣١].

وعلى الرغم من تبعية طرابيزون للمغول تبعية اسمية ابتداء من سنة ٦٤١هـ/ ١٢٤٣م فقد تحسنت أحوالها وحققت مكاسب اقتصادية كبيرة بسبب اعتمادها على التجارة، وتحكمها فى بعض طرق التجارة بين الشرق والغرب، وخاصة بعد أن دمر المغول بغداد سنة ١٢٥٨م، فتحولت كثير من البضائع إلى بنطس ثم إلى شواطئ البحر الأسود عند طرابيزون فراجت أحوال طرابيزون التجارية والاقتصادية[٣٢]. وابتداء من سنة٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م بدأت تتلاشى سيادة المغول على طرابيزون مواكبة لعودة الإمبراطورية البيزنطية فى القسطنطينية سنة ١٢٦١م مرة أخرى على أيدى آل باليولوجس، على الرغم من أن طرابيزون ظلت تحتفظ باستقلالها تحت سيادة اسمية للقسطنطينية والامبراطورية العائدة حتى سنة ١٣٠٠م[٣٣].

وتجدر الإشارة إلى أنه على الرغم من أنّ آل كومنين قد أرسوا دعائم إمبراطوريتهم فى طرابيزون فإنهم لم يجرؤا على اتخاذ لقب الامبراطور لأنفسهم بل ساد لقب الدوق لحاكم طرابيزون حتى عهد حنا الثانى كومنين John Comnenos (١٢٨٠ - ١٢٨٥م) الذى أضفى على نفسه لقب "إمبراطور" غير مكترث بسياسية القسطنطينية التى لم تكن تعترف إلا بإمبراطور واحد فقط يعتلى عرش القسطنطينية[٣٤].

وعلى الرغم مما واجهته طرابيزون من مصاعب تمثلت فى صراعها مع نيقية وتصديها للأتراك السلاجقة وأطماع الجورجيين ثم بعد ذلك المغول، إلا أنها واصلت تألقها فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى بل تمتعت برخاء وازدهار اقتصادى على أثر فتح البحر الأسود للأساطيل التجارية وخاصة أساطيل المدن التجارية الإيطالية: جنوا وبيزا وأمالفى والبندقية، وما ترتب على استعادة المسلمين للإمارات الصليبية فى أنطاكية وطرابلس وعكا قرب أواخر ذلك القرن من نتائج، الأمر الذى زاد فى أهمية البحر الأسود وطرابيزون[٣٥].

كل ذلك فى الوقت الذى نشب فيه الصراع بين أفراد الأسرة الحاكمة فى طرابيزون؛ إذ اغتصبت ثيودورا شقيقة حنا الثانى كومنين العرش من أخيها فى الفترة بين سنتى ١٢٨٥، ١٢٩٧م، ثم نجح



ألكسيوس الثانى كومنين فى استعادة عرش والده سنة ١٢٩٧م وظل يستحوذ على السلطة حتى سنة ١٣٣٠م. ونظراً لصغر سنه حين اعتلى العرش فى طرابيزون، باركت القسطنطينية هذه الخطوة، لأن طرابيزون أصبحت تحت التبعية الفعلية للإمبراطورية البيزنطية[٣٦]، ولم تستمر هذه التبعية طويلاً فسرعان ما تخلص منها هذا الإمبراطور بعد سنوات قليلة، وبدأ يتصدى لكثير من الصعاب التى واجهته بمفرده، من ذلك تخلصه من نفوذ الأتراك فى السنة الأولى من القرن الرابع عشر، حيث أنزل بهم هزيمة سنة٧٠١هـ/ ١٣٠١م واستعاد منهم بعض المناطق وأعادها إلى السيادة الطرابيزونية[٣٧].

هذا فضلاً عن محاولته التصدى لعداء دولة الصرب، ونجح فى ذلك خاصة، وقد انشغل الصرب بحروبهم مع الأتراك، كما واجه مشاكل فى علاقاته بالمدن الإيطالية التجارية خاصة جنوة والبندقية[٣٨]، انتهت بعقد اتفاقات ومعاهدات مع كل منهما ضمنت لكل منهما إنشاء مستوطنات ومستعمرات تجارية فى طرابيزون [٣٩].

وتوفى الإمبراطور ألكسيوس الثانى كومنين إمبراطور طرابيزون سنة ١٣٣٠م واحتدم النزاع بين أبنائه للفوز بالعرش، وسادت الفوضى فى طرابيزون فيما بين سنتى ١٣٣٠، ١٣٤٩م، وهى الفترة التى عرفت بعصر الفوضى والحروب الأهلية، وعادت الأخطار تهدد كيان طرابيزون وتفاقمت المشاكل فيها، وجدد الأتراك غزوهم لطرابيزون منتهزين فرصة النزاعات التى عمت أرجاءها ومنتهزين أيضاً فرصة اضمحلال نفوذ المغول فى العقد الثانى من القرن الثامن الهجرى/ الرابع عشر الميلادى[٤٠]. وعدد المؤرخون الأباطرةَ الذين تولوا عرش طرابيزون فى تلك الفترة وبعضهم من النساء، ولم تدم عهود بعضهم سوى شهور قليلة أو سنة واحدة على الأكثر، بل إن إحدى الأميرات منهن لم تبق على عرشها سوى أسابيع، وتفاقمت المشكلات من جديد مع الأتراك والجنوية والبنادقة، وعمت الفوضى خلال تلك الفترة. وبولاية الإمبراطور الكسيوس الثالث كومنين عرش طرابيزون سنة ١٣٥٠م بدأت فترة جديدة فى تاريخ هذه الإمبراطورية، وبدأ عهد من أزهى عهودها[٤١].

امتد عصر الإمبراطور الكسيوس الثالث كومنين من سنة ١٣٥٠م إلى سنة

١٣٩٠م، أى شغل نحو أربعين عاماً فى النصف الثانى من القرن الرابع عشر الميلادى، وتصدى الإمبراطور خلال هذه المدة لكثير من المشكلات؛ من بينها: اندلاع الحروب الأهلية فى طرابيزون فى بداية عهده[٤٢]، وظهور الأحقاد والغيرة بين الطبقات الأرستقراطية والتنافس على الفوز بامتيازات إمبراطورية لبعض كبار رجال الدولة، الأمر الذى فجر كثيراً من الثورات فى الإمبراطورية،[٤٣] وكان بعضها يهدف إلى الاستقلال عن طرابيزون، إلا أن ألكسيوس الثالث كومنين نجح فى القضاء عليها وأظهر أنه سياسى متمرس ورجل دولة قدير، الأمر الذى منح طرابيزون فترة هدوء فيما بين سنتى ١٣٦٤، ١٣٩٠م[٤٤]، وفى نفس الوقت أظهر هذا الإمبراطور اهتماماً كبيراً بالشئون الدينية لكسب محبة الشعب ورضائه، فأفاء على رجال الدين بالعديد من الهبات والمنح وجدد الكنائس وأصلح الأديرة والملاجئ ورممها، وأظهر ورعا وتقوى أكسبته المزيد من محبة شعبه[٤٥].

وفى نفس الوقت جدد العلاقات مع المدن التجارية الإيطالية لا سيما البندقية، وأرسل السفارات للتفاوض معها وعقد الاتفاقات لتحقيق التوازن الاقتصادى والسياسى، وكذلك مع جنوة التى ساءت علاقاته بها فترة، ثم عقد معاهدة سلام معها لتعود الأمور إلى نصابها وتنشط حركة التجارة لمصلحة الجانبين[٤٦].

وقد عانى هذا الإمبراطور كثيراً من إغارات التركمان على بعض أملاكه واندلعت معهم حروب نجح خلالها فى وقف تقدمهم داخل بلاده على مدى نحو ثمانية وعشرين عاماً[٤٧]، بالحرب أحياناً وعقد المصاهرات أحياناً أخرى، وأظهر حماسة كبيرة فى حماية إمبراطوريته حتى امتدت من أونايون حتى باطوم Batoum بحذاء ساحل البحر الأسود، واحتفظت بعدة موانئ بحرية[٤٨].

وفى نفس الوقت حافظت طرابيزون على علاقاتها بأباطرة القسطنطينية، وإن توترت تلك العلاقات أحياناً حتى وصلت إلى حد الحرب، ولكنها كانت تعود إلى الوئام من جديد، خاصة وأن هذا الإمبراطور شغلته أحوال إمبراطوريته وما اعتراها أحياناً من سوء الأحوال بسبب التشدد فى فرض الضرائب، وما ترتب على ذلك من اضطرابات، فكان يحاول دائماً تهدئة الأمور لمواصلة حكمه،



وأخيراً توفى هذا الإمبراطور فى سنة ١٣٩٠م تاركاً خلفاء ضعافًا تعرضت إمبراطورية طرابيزون خلال حكمهم لأخطار كثيرة[٤٩].

فقد خلف ألكسيوس الثالث كومنين اثنان من أبنائه فى الفترة من سنة ١٣٩٠م حتى سنة ١٤٢٩م واجهت خلالها طرابيزون أخطاراً كثيرة هددت أمنها وسلامها فى عهد مانويل الثالث كومنين (١٣٩٠ – ١٤١٦م) ثم فى عهد أخيه ألكسيوس الرابع كومنين (١٤١٦ – ١٤٢٩م) من قبل الأتراك العثمانيين والمغول الذين ظهروا مرة أخرى تحت قيادة تيمورلنك[٥٠]، واضطر الإمبراطور مانويل الثالث كومنين إلى الاعتراف بتبعيته لإمبراطورية المغول ودفع الجزية السنوية لهم[٥١]، حتى وفاة تيمورلنك، وعندئذ تشجع أمبراطور طرابيزون وتخلص من دفع هذه الجزية مستغلاً الصراع الذى نشب بين أبناء تيمورلنك من أجل العرش[٥٢]، وكان المغول قد جنبوه أخطار الأتراك العثمانيين عندما هزموهم فى أنقرة سنة٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م وإن لم تنج طرابيزون من هجمات التركمان من القطيع الأسود مراراً، ثم توفى مانويل الثالث كومنين سنة ١٤١٦م وخلفه ألكسيوس الرابع كومنين الذى اشتهر بالضعف وعجز عن التصدى للمشكلات التى واجهت طرابيزون فأعلن مراراً الخضوع لزعيم التركمان من القطيع الأسود، ودفع الجزية لهم مقابل الحصول على السلام، خاصة عند عودة خطر الأتراك العثمانيين فى الفترة ما بين سنتى ٨٢٤- ٨٢٧هـ/ ١٤٢١، ١٤٢٣م[٥٣].

وفى نفس الوقت سادت علاقات المودة خلال حكم هذا الإمبراطور مع البنادقة، ولكن علاقاته بالجنوية شابها العداء الذى ميز النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى، على الرغم من ميل هذا الإمبراطور إلى تهدئة الأوضاع مع الجنوية[٥٤]، ثم تعرض الإمبراطور الكسيوس الرابع كومنين لثورة فجرها ابنه حنا سنة ١٤٢٧م فقد حياته بسببها وانتهى عهد هذا الإمبراطور سنة٨٦٦هـ/ ١٤٢٩م وانتهت هذه الفترة القاتمة فى تاريخ طرابيزون.

وتمثل الفترة ما بين سنتى ١٤٢٩م، ١٤٦١م حين سقطت طرابيزون فى أيدى الأتراك العثمانيين سنة ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م آخر السنوات فى عمر هذه الإمبراطورية، استشرى النزاع خلالها حول العرش بين آل

كومنين حتى اعتلى حنا الرابع كومنين العرش فيما بين سنتى ١٤٢٩، ١٤٥٩م، ثم احتدم الصراع بين طرابيزون والمدن التجارية الإيطالية: البندقية وجنوة، وعانت امبراطورية طرابيزون خلال ذلك معاناة شديدة باعتبار النشاط التجارى لطرابيزون عصب حياتها، فى الوقت الذى عانت فيه طرابيزون أيضاً من ضغوط العثمانيين عليها وعلى القسطنطينية، ولهذا بدأت طرابيزون والقسطنطينية مراسلة البابوية سنة ١٤٣١م يطلبان مساعدة الغرب الأوربى للتصدى لخطر العثمانيين[٥٥]، وعرض وحدة الكنيستين الشرقية والغربية فى مجمع كنسى يعقد بالقسطنطينية، وإن واجه ذلك مصاعب بسبب الظروف التى كان يمر بها الغرب الأوربى حينئذ من ناحية، وصعوبة تحقيق هذه الوحدة من ناحية أخرى.

وبعد محاولات عدة عقد مجمع كنسى فى فلورنسا سنة ١٤٣٨م – ١٤٣٩م وانتهى باتحاد الكنيستين الشرقية والغربية وجعل زعامة العالم المسيحى للكنيسة الغربية باعتبارها المفوضة فى الشئون الدينية والسياسية معاً، وأصبح الاتحاد سارياً من الناحية الرسمية فقط، ولكن من الناحية الفعلية واجه معارضة شديدة من شعوب الشرق وبعض رجال الدين الذين رفضوا ما انتهى إليه هذا المجمع[٥٦].

وتعرضت طرابيزون لخطر الأتراك العثمانيين والسلطان مراد الثانى سنة٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م، وأرسلت السفن التركية لتخريب طرابيزون، وان انتهت تلك المحاولة بالفشل، وأعقب ذلك قيام تحالف بين بعض دول البلقان وبيزنطة وأوربا والبابوية لمحاربة الأتراك العثمانيين وتخليص طرابيزون والقسطنطينية من ضغوطهم وذلك سنة٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م، وإن لم يسفر هذا الحلف عن شئ بل تعرضت حملة الحلفاء للهزيمة[٥٧].

وفى سنة٨٥٧هـ/ ١٤٥٢م بدأ السلطان العثمانى محمد الثانى حصار القسطنطينية واستمر الحصار ثلاثة وخمسين يوماً انتهت باستيلائهم عليها والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية نهائيا سنة ١٤٥٣م[٥٨]، وفى سنة٨٦١هـ/ ١٤٥٦م بدأت مهاجمة طرابيزون ونجح الأسطول التركى فى تخريب شواطئها، واضطر الإمبراطور حنا الرابع كومنين إلى دفع الجزية، ثم أعقب ذلك وفاة

الامبراطـور حنـا الرابـع كـومنين سـنة ١٤٥٨م فخلفـه شـقيقه داود الـذى ورث تركة مثقلة بالهموم ما بين نزاعات أسرية وجزية تدفع للعثمانيين ورغبة من هؤلاء فى الاستيلاء على طرابيزون.

وفعـلاً قـام السلطان محمـد الثـانى سـنة٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م بتوجيـه جيوشـه إلى طرابيـزون، ولم تفلـح محـاولات داود فـى وقـف تقـدم العثمـانيين فـتم الاتفـاق علـى خـضوع داود للـسلطان العثمـانى، ودخـل العثمـانيون طرابيـزون وسـلم داود مفـاتيح المدينـة لهـم . فـى ذى القعـدة ٨٦٥هـ/ أغـسطس ١٤٦١م وجـرى ترحيـل داود وأسـرته إلى القـسطنطينية، وانتهـى بـذلك أمر طرابيزون بخضوعها للعثمانيين[٥٩].

أ.د/محمد مرسى الشيخ

الهوامش:

(1) Ramsay, W.: The Historical Geography of Asia Minor, (Amsterdam 1967) pp. 317 – 327. Cuient, V.: Turquie d'Asie, Tom. I, P. 410 (Paris 1842)
بطرس البستاني: دائرة المعارف ج ٥ ص ٢٣٧ (دار المعرفة – بيروت).أومان: الإمبراطورية البيزنطية ص ٢٣٦ – ٢٣٧ (ترجمة مصطفى طه بدر – القاهرة ١٩٥٣م).

(2) Leaf, W.: The Commerce of Sinope. Cf.Jourmal of Hellemic studies,(J.H.S). Vol. VIXXXV, p. 2 (London 1916).

(3) Oxford Dictionary of Byzantium, III, p. 2112.

(٤) ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ص ٢١٢ (دار الكتب المصرية القاهرة)، إبراهيم أنيس وآخرون: الموسوعة العربية الميسرة ج ٢ ص ١١٥٦ (دار نهضة لبنان – بيروت ١٩٨٧). Texier, Ch: Asie Mineure, p. 19

(5) Cambridge. Medieval. History, vol. IV, P. 487 (London 1923).

(6) Hammer, D.: Histoire de l'Empire Ottoman T. II, p. 77 (Paris 1835).

(7) Ostrogorsky: History of the Byzantine State, p.47, Camb. Med. Hist. V. I, P. 85.

(8) Vasiliev, A.: Zur geschichte von Trapezunte under Justinian, Gossen. B.Z. pp. 384 – 5 (1929 – 1930).Bury: The Later Roman Empire, II, pp. 79 – 123.Oman: The Dark Ages 476 – 918, p. 69.

(٩) ابراهيم خورشيد: دائرة المعارف ج ٣ ص ٥١٩ – ٥٢٠.

(10) Bryer, A.: Greeks and Turkmen, Dumbartom Oaks Papers (D. O. P), 118, N. 29. (Columbia 1975).
نعيم زكى فهمى: طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ص ١٦٠، ١٨٢، ١٨٣ (الهيئة العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٣).

(11) Cuient: op. cit. Tom. I. p. 410.

(١٢) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق ص ٩٩، البندارى: تواريخ آل سلجوق ص ١٠.وانظر ايضًا:
Grousset: Histoire de L'Armenie, P. 627 (Paris 1947).

(13) Brehier, L.: Europe in the Middle Ages. Selected Studies, Vol. V, p. 373 (New York, 1977).

(١٤) فلهاردوين: فتح القسطنطينية ص ٢٣ – ٢٤، ص ٤٨ – ٥١ (ترجمة د. حسن حبشى سنة ١٩٦٤).محمد الشيخ: تاريخ الإمبراطورية البيزنطية ص ٣٨٩ (الطبعة الثالثة).

(15) Ostrogorsky: op. cit. P. 372,. P. 378.

(16) Bailly, A.: Byzance, P. 313 (Paris 1939).
Hammer: Op. cit. P. 842.

(17) Historia, in Corpus scriporum Historiae Byzantinae, P. 842.

(18) Hussey, T.M: The Byzantine World, PP. 63 – 64 (London 1967).

(١٩) روبرت كلارى: فتح القسطنطينية ص ٢٣ – ٢٤، ص ٤٨ – ٥١ (ترجمة د. حسن حبشى سنة ١٩٦٤).

(20) Nikitas Choniates: Historia, P. 842 (in Cor. Scr. Hist. Byzantinae).

(21) Vasiliev: The foundation of the Empire of Trebizond, P. 409. on the relationship between the founder of the Empire of Trebizond, Grergian Queen Thumara, PP. 299 – 310, Vol. XV.

(22) Brehier, L.: Op. cit. Vol. V. P. 261 (New York 1977).

(23) Ostrogorsky, G. : Op. cit. P. 373 (Oxford 1956).Vasiliev: Op. cit. P. 409.

(٢٤) جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية ص ٢٦٦؛ محمد الشيخ: المرجع السابق ص ٣٨١.

(25) Texier: Op. cit. P. 19.
رانسمان: الحروب الصليبية ج ٣ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ (ترجمة د. السيد الباز العرينى – بيروت سنة ١٩٨٠م).

(26) Nicitas Choniates: Op. Cit. P. 842.

(27) Vasiliev: Histoire de L'Empire Byzantin, T. II, PP. 214 – 16.

(28) Nicitas Choniates: Op. cit. PP. 828 – 44.
Joinvill, J.: Histoire de Saint Louis, P. 24 (Paris 1882).

(29) Bailly: Op. cit. P. 376.

(٣٠) ابن كثير: البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٥٦ (بيروت سنة ١٩٧٧).ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج ١٢ ص ١٦ (القاهرة ١٨٤٤).

(٣١) رشيد الدين الهمذانى: جامع التواريخ ج ٢ ص ٦، ص ٥٢ (القاهرة ١٩٦٠م).

(32) Finlay, G.: A History of Greece, Vol. III, P. 340 (Oxford 1877).

(33) Vasiliev: OP. Cit .T.11 .190

جوزيف نسيم يوسف: تاريخ الدولة البيزنطية (٢٧٢_٢٧٣)

Ostrogorsky: Op . Cit .PP. 378-9.

(34) Franzius, E: A History of Byzantine Empire Mother of Nations, P. 417 (New York, 1967).

(٣٥) ارشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط ص ٤٠ (ترجمة محمد عيسى ـ القاهرة).

(36) Miller : Trebizond the last Greek Empire, P. 32.

(37) Vryonis, S.: Byzantine Legacy and Ottoman Forms, PP. 301 – 2 (Colombia 1969).

فايز نجيب اسكندر : دراسة لاتفاقية تجارية بين امبراطورية طرابيزون عام ١٣٦٤م ص٢ (الإسكندرية سنة ١٩٨٣م).

(38) Miller : Op> Cit. P. 33.

(39) Zachaiadou : Trabizond, P . 341.

(40) Finlqy : Opcit. Vol . IV P.317.

(41) Miller : Trebizond, P .55.

(٤٢) فايز نجيب اسكندر : المرجع السابق ص ١٤ .

(43) Lebeau : Histoire du Bas Empire, T. XX , PP. 490-2.

(44) Finaly : Op. cit. Vol. IV. PP 374 – 375.

(45) Rice : Notice on Some Religious Buildings in the City and Vilayet of Trebizond, P.6.

(46) Franzius: History of Byzantine Empire, P. 417 .

(47) Miller : Op. cit . PP . 59 – 60, Bryer : Turkmens, P . 135.

(48) Finaly Op. cit . Vol . IV , PP 376 – 8 .

(49) Miller: Op . cit . P . 69.

(50) Ostrgorsky : History of Byzance State, P . 451 . Vasiliev : Histoirem , Empire Byzantine , T . II , PP . 290 - 9 .

إبراهيم خورشيد: المرجع السباق ج٣ ص ٥٢٠.

(51) Lebeau : Op> cit . T > XX, P 499.

(52) Hertzbergs: Storia Bizantin, P 780.

(٥٣) أومان: الإمبراطورية البيزنطية ص ٢٥٧ .

Diehl : Histoier de L, Empire Byzantin, Vol. III . P . (Paris 1927).

(54) Miller : Op Cit> P 79.

(55) Gill : Chreeks and Latins in a common council, the Council of Floence, 1438 – 1439,P . 272 (Rome 1959) .

(56) Brehier: Op. Cit . P 497.

Gill: Ghurch Union, PP 235 -250 .

(57) Diehl : Op . cit P . 206 .

(58) Finlay : Op . Vol. III , P 522 .

(59) Miller : Op . cit . PP . 104 – 105 .

مراجع للاستزادة"

ـ فايز نجيب اسكندر : دراسة لاتفاقية تجارية بين امبراطورية طرابيزون والبندقية عام ١٣٦٤م. الإسكندرية ١٩٨٣.

ـ نعيم زكى فهمى : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى. الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة ١٩٧٣م.

- Ramsay , W, The Historical Georaphy of Asia Minor Amsterdam 1967.

الطواشِّى

ورد فى بعض معاجم اللغة:

طوّش فلان تطويشًا: مَطَلَ غريمه[1]، وذكر ابن الأعرابى أن الطّوش خفّةُ العقل[2]. وطوش فلانًا: خَصاه، الطواشى: الخَصِىّ، وهم طواشيَّة[3].

الطواشى فى التاريخ:

عنى السلطان الصالح أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧هـ/١٢٣٩- ١٢٤٩م) باجتلاب المماليك وتربيتهم، وحسن تنشئتهم، وكذلك عامة سلاطين المماليك. ومن مظاهر ذلك: أنه إذا قدم بالمملوك تاجرُه، عرضه على السلطان، فإذا قبله أنزله فى طبقة جنسه، وسلمه للطواشى، الذى يبدأ فى تعليمه القراءة والكتابة[4].

وورد فى تعريف (الأساتذة المحنكين) أنهم الذين يعرفون فى عصر المماليك بالخدام وبالطواشية، وكانت لهم مكانة جليلة فى عصر الفاطميين، ومنهم من كان من أرباب الوظائف الخاصة بالخليفة. وتحنك الرجل: إذا أدار العمامة من تحت حنكه[5].

ومعنى ما تقدم أن مصطلح (الطواشى) يطلق على المماليك، وظهر فى العصر الفاطمى، وبلغ بعض من الطواشية منزلة سامية فى ذلك العصر، وكانوا مقربين من الخليفة الفاطمى، واستمر المصطلح موجودًا فى العصر المملوكى، وكان لبعض الطواشية دور فى تنشئة وتعليم المماليك الجدد.

نماذج ممن لقبوا بهذا اللقب:

(١) الطواشى (الخَصِىّ)[6] مؤتمن الخلافة:

اسمه جوهر، وهو أحد الأستاذين المحنكين بالقصر الفاطمى. كان يريد القضاء على صلاح الدين يوسف بن أيوب وزير الخليفة العاضد الفاطمى، لأنه ضيق على أهل القصر، وشدّد عليهم، وسيطر على شئون الدولة، وقبض على أكابر الدولة، وأضعف سلطان الخليفة. واتفق مع بعض الأمراء والجند على استدعاء الفرنج من ساحل الشام إلى القاهرة، فإذا خرج صلاح الدين لقتالهم، ثاروا به وساندوا الفرنج وأخرجوه من مصر.

أرسل المتآمرون كتبهم مع رجل، فجعلها فى نعليه، مخافة أن يفطن إليها. فلما اقترب من بلبيس، ارتاب رجال

صلاح الدين به، وشقوا النعلين فوجدوا الكتب بهما، وبالتحقيق فى الأمر توصل صلاح الدين إلى خيوط المؤامرة وأطرافها.

خشى مؤتمن الخلافة على نفسه، فلزم القصر، فأعرض عنه صلاح الدين مدة من الزمن حتى ظن الرجل أن أمره أهمل، فخرج ذات يوم إلى بستان له، فأمر صلاح الدين بعض الجند بقتله، فقتلوه يوم الأربعاء لخمس بقين من ذى القعدة سنة ٥٦٤هـ، واحتزوا رأسه، وأتوا بها صلاح الدين.

ثار جنود الفاطميين لما علموا الخبر ومعهم عدد من الأمراء والعامة فى ما يزيد على خمسين ألفاً متوجهين إلى دار الوزارة للإيقاع بصلاح الدين، فجابههم بجنده وأقاربه ومنهم أخوه شمس الدولة تورانشاه، وثارت حرب ضروس بين القصرين، وكاد صلاح الدين يهزم أمام هؤلاء السودان، حتى قتل أحد قادتهم فتراجعوا أمام زحف قوات صلاح الدين، ولا سيما بعد تراجع الخليفة عن تأييدهم والوقوف إلى جانبهم بعد تعرضه لخطر وإشعال جند صلاح الدين النار فى منظرة القصر التى يتابع من خلالها المعركة(٧).

أرسل صلاح الدين بعض جنوده إلى حارة الجند السودانية (المنصورة) خارج باب زويلة، فقاموا بإحراقها وبها أموالهم وديارهم ونساؤهم وأطفالهم، فهرب من استطاع منهم الهرب إلى الجيزة، وتعقبهم تورانشاه أخو صلاح الدين فلم يبق إلا اليسير، وأمر صلاح الدين ولاته فى مصر بقتل من يجدونه منهم، فقتلوا عن آخرهم(٨).

وهكذا قضى صلاح الدين على مُعْظم مشاة الجيش الفاطمى من السودان، الذين كانوا يسكنون فى حارة خاصة بهم خارج باب زويلة يمين الخارج منه تجاه بِرْكة الفيل، وتعرف بـ (المنصورية)، وتتبع فلولهم، فأصبح أمرهم كأن لم يكن(٩).

(٢) الطواشى صبيح:

ورد ذكره فى أحداث الحملة الصليبية السابعة بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا، تلك التى قدمت إلى مصر آخر أيام السلطان الأيوبى الصالح نجم الدين أيوب، وفيها أسر الملك المذكور، واحتجز فى المنصورة بدار ابن لقمان تحت حراسة الطواشى صبيح الذى أكرمه غاية الإكرام. وقد ورد ذكره فى نهاية أبيات أُثِرَت عن جمال الدين يحيى بن مطروح وذلك فى قوله:

دار ابن لقمان على حالها

والقيد باقٍ والطواشى صَبيح[١٠]

(٣) الطواشى شجاع الدين عنبر السحرتى:

فى عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٢ هـ/١٣٣١م، نزل بعض المماليك من القلعة إلى القاهرة، فأنكر السلطان ذلك، وضرب كثيرًا من طواشية الطباق، وطرد جماعة منهم، وغضب على مقدمهم شجاع الدين لتهاونه حتى وقع ما وقع،

وولى مكانه الأمير آقبغا، فضبط طباق المماليك بالقلعة، وضرب عددًا منهم ضربًا مبرحًا، وبالغ فى إهانة الخدام أيضًا، ولم يجرؤ أحد من المماليك أن يتجاوز طبقته[١١].

(٤) الطواشى جوهر السحرتى:

من خدام الملك الناصر محمد بن قلاوون. بنى جامع الطواشى خارج القاهرة فيما بين باب الشعرية وباب البحر، ثم صار أميرًا فى التاسع والعشرين من شهر رجب سنة ٧٤٥ هـ/ ١٣٤٤م[١٢].

أ.د / عبد الفتاح فتحى عبد الفتاح

الهوامش:

(١) ابن منظور: لسان العرب، طبعة دار المعارف بالقاهرة، د.ت، مادة: (ط. و. ش)، جـ٤ ص ٢٧١٩، والفيروزآبادى: القاموس المحيط، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م، باب (الشين)، فصل (الطاء)، جـ٢، ص ٢٧٥، والمعجم الوسيط ٢/٥٩١..

(٢) ابن منظور: لسان العرب، جـ٤ ص٢٧١٩، والفيروزآبادى: القاموس المحيط، جـ٢ ص ٢٧٥.

(٣) المعجم الوسيط، جـ٢ ص ٥٩١. وهو لفظ دخيل ، ودخيل تعنى: كل لفظ أجنبى دخل العربية دون تغيير، مثل: التليفون، والأوكسجين. (راجع مقدمة الطبعة الأولى من المعجم الوسيط ١٩٦٠م، جـ١ ص ١٦).

(٤) المقريزى: الخطط، نشر: مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، د. ت، جـ٢ ص ٢١٣.

(٥) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا، مركز تحقيق التراث ١٩٨٥، جـ٣ ص ٤٧٧، ومحمد قنديل البقلى: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٣، ص ٢٩.

(٦) ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، تحقيق: د. جمال الدين الشيال (دون ذكر الناشر)، ١٩٥٣، جـ١ ص ١٧٤.

(٧) المقريزى: الخطط، جـ٢ ص ٢- ٣.

(٨) النويرى: نهاية الأرب فى فنون الأدب، مركز تحقيق التراث ١٩٩٢م، تحقيق: د. محمد محمد أمين ، ود. محمد حلمى محمد أحمد، جـ ٢٨، ص ٣٦١.

(٩) د. أيمن فؤاد سيد: الدولة الفاطمية فى مصر (تفسير جديد)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧م، ص ٦٩٣.

(١٠) ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، تعليق: محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٢، جـ٦ ص٣٢٤، ٣٢٨.

(١١) المقريزى: السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، بدون ناشر، ١٩٧٢م، جـ٢ ق٢ ص ٣٤٢.

(١٢) المقريزى: الخطط، جـ٢ ص ٣٢٥.

مصادر للاستزادة:

١. الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

٢. البداية والنهاية لابن كثير.

٣. اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا للمقريزى.

٤. كتاب المقفى الكبير للمقريزى.

الطولونيون (دولة)

أتم المسلمون فتح مصر على يد القائد عمرو بن العاص، وبذلك صارت ولاية تابعة للحكومة المركزية فى المدينة، ثم توالى عليها الولاة فى عهد الدولة الأموية ثم الدولة العباسية التى قامت سنة ١٣٢هـ/٧٤٩م، وكان خلفاء بنى العباس يرسلون الولاة إلى مصر لإدارة شئونها؛ وبعد انقضاء القرن الأول الهجرى من حكم العباسيين، وهو الذى يعدّ العصر الذهبى للخلافة العباسية حيث تولى مجموعة من الخلفاء العظام من أمثال أبى جعفر المنصور والمهدى والرشيد والمأمون وهؤلاء كانوا يحكمون قبضتهم على الولايات المختلفة التابعة للخلافة العباسية - بعد انقضاء هذا العصر أسهمت ظروفُ كثيرة عاشتها الخلافة العباسية فى إضعافها؛ وفى مقدمتها ضعف الخلفاء العباسيين، مع سيطرة عناصر جديدة على مركز الخلافة فى بغداد، وأعنى بهم الأتراك الذين استعان بهم العباسيون فى مواجهة العناصر الأخرى، من فرس وعرب، وجلبوهم من مواطنهم الأصلية فى بلاد ما وراء النهر، حيث اشتهروا بالطاعة وحب النظام والشجاعة، ولم يلبث هؤلاء الأتراك أن تسللوا إلى قلب الخلافة العباسية، وتقلدوا المناصب الكبرى والإدارة فى الدولة فصار منهم الوزراء والولاة؛ وإلى العنصر التركى هذا ينتمى أحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية فى مصر.

ولم يكن أحمد بن طولون أول من تولى ولاية مصر من الأتراك، بل سبقه إلى هذا المنصب مجموعة من الأتراك منهم أشناس التركى (٢١٩هـ-٢٣٠هـ/٨٣٤-٨٤٤م)، وإيتاخ التركى (٢٣٠-٢٣٥هـ/٨٤٤-٨٤٩م)، والفتح بن خاقان بن أرتق (٢٤٢هـ-٢٤٧هـ/٨٥٦-٨٦١م) ومزاحم بن خاقان (٢٥٤هـ/٨٦٨م). ويشير أحد المؤرخين إلى مدى الانحلال الذى عاشته الخلافة العباسية، متمثلاً ذلك فى نظام إدارتها للولايات ومنها مصر، فيذكر "أن كثيرًا من الولاة الذى يعينهم الخليفة العباسى فى الأمصار المختلفة كانوا يفضلون البقاء فى العاصمة قرب الخليفة، وينيبون عنهم بدورهم نوابًا



يحكمون البلاد باسمهم ويدعون لهم بعد الخليفة على المنابر، وينقشون اسمهم على السكة، وعلى هذا الأساس فإن بعض هؤلاء الأتراك السابق ذكرهم لم يروا مطلقًا مصر حتى وفاتهم وإنما ظلوا متربعين فى بيوتهم على مقربة من الخلافة، واكتفوا بأن أرسلوا إلى مصر من ناب عنهم لإدارة شئونها، ومن هؤلاء الولاة باكباك التركى الذى ولى مصر سنة ٢٥٤هـ- ٨٦٨م، وهذا بدوره اختار أن يرسل إليها أحمد بن طولون لينوب عنه فى حكمها، وكان باكباك زوج أم أحمد بن طولون[١].

وتشير المصادر إلى أن طولون والد أحمد كان مولى لنوح بن أسد بن سامان عامل بخارى وخراسان؛ أهداه نوح إلى المأمون الخليفة العباسى؛ ثم ترقى طولون وصار من جملة الأمراء، وولد له ابنه أحمد ٢٢٠هـ/٨٣٥م ببغداد، وقد نشأ أحمد فى كنف أبيه ورعايته وتلقى منه كل اهتمام؛ وكان منذ صغره قويم الخلق متصفًا بالرزانة والذكاء، مكثرًا من الدرس والحفظ، فحفظ القرآن والحديث وطلب العلم وتعلم الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة؛ ولم يغفل والده فى تربيته الجانب العسكرى؛ فقد كان قريبًا من منصب الخلافة بحكم منصبه، ويعلم أن الخلافة لديها مجموعة من الأتراك تعتمد عليهم فى الإدارة والشئون العسكرية، وأن هؤلاء سيطروا على الخلافة وحولوها إلى منصب شكلى.

ولما مات طولون سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م تولى ابنه أحمد ما كان يتولاه أبوه من قبل، وأثبت كفاءة ممتازة ونال إعجاب الجميع[٢]. ويشير أبو المحاسن إلى صفات أحمد ابن طولون بقوله : "نشأ على مذهب جميل، وحَفِظَ القرآن وأتقنه، وكان من أطيب الناس صوتًا به مع كثرة الدرس وطلب العلم وكانت جميع خصال ابن طولون محمودة إلا أنه كان حاد الخلق والمزاج"[٣].

ومن الأمور التى أدت إلى إكبار العباسيين لابن طولون تلك الحادثة التى أشار إليها المؤرخون؛ إذ تصادف وقوع نزاع بين الأتراك حول من يتولى الخلافة فرشحت جماعة من الأتراك المستعين بينما رشحت طائفة أخرى المعتز، ثم تقرر تعيين المعتز ونفى المستعين إلى واسط، وعين ابن طولون حارسًا عليه؛ وفى محاولة من أنصار المعتز القضاء على المستعين نهائيًا طلبوا من ابن طولون أن

يقتله فرفض قائلاً: "لا أقتل خليفة له فى عنقى بيعة." ومع ذلك انتهزوا فرصة غفل فيها ابن طولون وقتلوا المستعين، وهذه الحادثة تدل على أن ابن طولون كان يتمتع بثقافة حربية وأخرى دينية، كما نشأ على احترام الخلافة ولم يشترك مع غيره من الأتراك فى المؤامرات التى كانت تحاك ضدها[٤].

تولى الخليفة المعتز منصب الخلافة فى بغداد ، وكالعادة استخلف القادة الأتراك على أقاليم الدولة العباسية ومنها مصر الذى عيّن عليها القائد التركى؛ الذى آثر كالعادة البقاء فى العاصمة بغداد قريبًا من مركز السلطة، وخوفًا من العزل والتشريد، وطمعًا فى ثروات العاصمة. ثم وجدناه يختار أحمد بن طولون؛ لما عُرف عنه من حسن سيرته ولقرابته فهو زوج أمه ليكون نائبًا عنه فى مصر.

الأوضاع السياسية فى مصر فى ظل الطولونيين:

سار ابن طولون على رأس جيش إلى مصر ليتولى إدارتها فدخلها فى ٢٣ رمضان سنة ٢٥٤هـ الموافق ١٥ سبتمبر ٨٦٨م، وتحددت وظيفته بالولاية على الفسطاط. وكانت السياسة السائدة آنذاك ألا يتولى مصر شخص واحد، وإنما كانت السلطة فى مصر موزعة بين عدة مناصب ليكون كل منصب عينًا على المناصب الأخرى، وتتمثل هذه القوى المختلفة آنذاك فى عامل الخراج ابن المدبر، وعامل البريد شقير الخادم الذى يراقب تصرفات رجال الإدارة، ويخبر الخلافة فى بغداد بكل كبيرة وصغيرة، وعلى القضاء بكار بن قتيبة ، وعلى الإسكندرية إسحاق بن دينار، وعلى برقة أحمد بن عيسى.

وحين استقر ابن طولون فى منصبه فى مصر أدرك خطورة هؤلاء الموظفين، خاصة أن كل واحد منهم يستند فى منصبه فى مصر إلى سند له فى بلاط الخلافة يساعده ويحميه؛ لذا وجدنا ابن طولون يعمد إلى محاربة خصومه فى بلاط الخليفة العباسى عن طريق جواسيسه تارة، وعن طريق عملائه فى بلاط الخليفة الذين غمرهم بهداياه تارة أخرى[٥].

ومن المشكلات الخطيرة التى واجهت ابن طولون مشكلة ابن المدبر؛ وكان واليًا على خراج مصر منذ سنة ٢٤٧هـ /٨٦١م، وتصفه المصادر بأنه كان قاسيًا ظالمًا فى جمع الضرائب، كما فرض ضرائب جديدة مما أثقل كاهل



المصريين؛ وحين تولى ابن طولون ولاية مصر حاول ابن المدبر التقرب إليه؛ وذلك بإرسال هدية كبيرة إليه فى محاولة منه لاستمالته، لكن ابن طولون أدرك ظلم ابن المدبر وكراهية المصريين له فردها عليه ولم يقبلها منه، وبدلاً من ذلك طلب ابن طولون من عامل الخراج العدول عن سياسة الشدة التى يتبعها فى جمع الأموال واستنزاف أموال المصريين.

لم يقبل ابن المدبر هذا الطلب وأخذ فى الدس والوقيعة ضد ابن طولون فى مركز الخلافة مدعيًا أن ابن طولون عزم على الاستقلال بمصر؛ وقد علم ابن طولون بهذا الأمر عن طريق عيونه وجواسيسه ومن ثم بادر بإرسال الهدايا والأموال لمعالجة الموقف؛ وفى نفس الوقت طالب الخلافة بإسناد وظيفة الخراج إليه وعزل ابن المدبر، وقد استجابت الخلافة لذلك وبذلك تخلص ابن طولون منه.

وكذلك شكل ابن شقير عامل البريد مشكلة أخرى لابن طولون بكثرة دسائسه ودعايته السيئة فى بلاط الخلافة ضد ابن طولون، مما دفع ابن طولون إلى مخاطبة الخلافة فى عزله وقد تم له ذلك.

ومن المشاكل التى واجهها ابن طولون ثورات بعض الشيعة المقيمين فى مصر، وكانت إحدى هذه الثورات فى مكان يسمى الكنائس بين الإسكندرية وبرقة واندلعت سنة ٢٥٥هـ /٨٦٩م، إلا أن ابن طولون نجح فى إخمادها؛ والثورة الأخرى للشيعة قامت فى منطقة إسنا بصعيد مصر، وتزعمها شخص يدعى إبراهيم بن محمد المعروف بالصوفى، وتسببت هذه الثورة فى كثير من الاضطرابات والنهب والقتل، وقد أرسل إليها ابن طولون عدة حملات حتى قضت عليها . والثورة الاخيرة قامت فى أسوان بزعامة شخص يدعى العمرى، إلا أنها انتهت بفشلها ومقتل زعيمها.

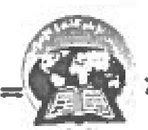
وكانت أخطر هذه الثورات ثورة العباس بن أحمد بن طولون، وذلك بسبب أن القائم بها ابنه العباس ولأنها استمرت ثلاث سنوات(٢٦٥هـ- ٢٦٨هـ/٨٧٨-٨٨١م) ، كما أن هذه الثورة نشبت فى وقت حرج لانشغال ابن طولون بثورات فى الشام حيث خرج للقضاء عليها، وتشير المصادر إلى أن سببها تولية العباس إمرة مصر فى غياب والده ابن طولون فى الشام، ووقوع خلاف بينه وبين الواسطى الذى يساعده فى إدارة مصر، واستغل أتباع العباس وبطانته هذا الخلاف وحرضوه على التضييق على الواسطى

الذى قام بدوره فأخبر ابن طولون فى الشام بما حدث له، وهنا لعبت الدسائس دورها فى تزيين الثورة والوقيعة بين العباس وأبيه والعصيان له والخروج عليه، فحمل العباس أموالاً كثيرة وخرج متوجهًا إلى برقة طامعًا فى تكوين امبراطورية فى شمال إفريقيا، لكنه لم يوفق إذ اصطدم بقوة الأغالبة والبربر.

وقد حاول ابن طولون استمالة ابنه بالرسائل وغيرها؛ إلا أن العباس استمر فى عناده وعصيانه، مما دفع ابن طولون إلى إرسال جيش استطاع هزيمة العباس الذى هرب، ثم قبض عليه وعلى بعض أتباعه وحملوا إلى مصر حيث سجن العباس ومات فى سجنه فى عهد أخيه خمارويه.

ومن المشاكل التى واجهها ابن طولون علاقته بالحكومة المركزية فى بغداد التى كانت تعانى من الضعف والتفكك، وقد انقسمت السلطة فى بغداد بين الخليفة المعتمد وأخيه الموفق؛ حيث قسمت الدولة من الناحية الإدارية إلى قسمين : قسم شرقى يخضع لرئاسة الموفق أخى الخليفة نيابة عنه، وآخر غربى وينوب عن الخليفة فيه ابنه المفوض جعفر ابن المعتمد. وكانت مصر والشام خاضعتين للمفوض جعفر ضعيف الشخصية كأبيه بعكس الموفق الذى تميز بقوة الشخصية.

ونظرًا لمواجهة الموفق ثورات الزنج كان فى حاجة إلى أموال كثيرة، وقد طلبها الموفق من خزانة مصر فأرسل إليه ابن طولون مبلغًا كبيرًا، لكنه طمع فى المزيد من الأموال مما أدى إلى وقوع شقاق بين الموفق من جهة وابن طولون من جهة أخرى، وتصاعد الخلاف بين الطرفين حتى أعد الموفق جيشًا لغزو مصر فبادر ابن طولون وأعد بدوره جيشًا كبيرًا لمواجهة الموفق وهذا الخطر القادم إليه من مركز الخلافة؛ لكن الظروف ساعدت ابن طولون إذ دبت الفرقة فى صفوف جيش الموفق نظرًا لتأخر رواتب الجند مما أفشل خطة الموفق فى الهجوم على مصر، ولكن الموفق ظل يضغط على الخليفة المعتمد لعزل ابن طولون عن مصر؛ لكن هذه المحاولات فشلت، وقد حاول ابن طولون من جانبه استقطاب الخليفة المعتمد إلى جانبه، وخاصة بعد شكوى الخليفة من استبداد أخيه الموفق، وزين له المجىء إلى مصر إلا أن هذه المحاولة باءت بالفشل، وهكذا مضى الصراع بين ابن طولون والموفق،



وفى كل حلقة من حلقاته تزداد قَدَمُ ابن طولون رسوخًا وثباتًا مما يدعم استقلاله بمصر. وأخيرًا تم الصلح بينهما وتم لابن طولون الاستقلال بمصر(٦).

مما سبق يتضح تمتع ابن طولون بذكاء وشجاعة فى مواجهة العديد من المشاكل، سواء أكانت فى الداخل أم فى الخارج، وأنه بنى سياسته على عدة قواعد أهمها حرصه على تأليف القلوب بالأموال والصدقات، فكان يرسل الصدقات إلى دمشق والعراق والجزيرة، فضلاً عن إنفاقه الأموال على طبقات المحتاجين فى مصر، كذلك من قواعد سياسته اعتماده على الجواسيس سواء داخل مصر أو خارجها فى بلاط الخلافة العباسية الذين كانوا يمدونه بالأخبار والمعلومات.

وما أن حلت سنة ٢٦٩هـ/٨٨٢م حتى خرج ابن طولون على رأس جيشه لمواجهة بعض الاضطرابات فى الشام، ولكنه لم يمكث طويلاً فى منطقة الثغور، وعاد إلى مصر بسبب مرضه حيث توفى فى عام ٢٧٠هـ /٨٨٣م وتولى خلفًا له ابنه خمارويه.

خمارويه (٢٧٠- ٢٨٢هـ/ ٨٨٣- ٨٩٥م)

أدرك خمارويه أن نجاحه فى حكم مصر فى الميدانين الداخلى والخارجى يتوقف على تماسك البيت الطولونى والحيلولة دون حدوث أى انشقاق داخل الأسرة فضلاً عن الاعتماد على عصبية قوية وجيش كبير يحمى المكاسب والانتصارات التى حققها والده أحمد بن طولون مؤسس الدولة، وفى سبيل تحقيق هذا الهدف نراه يلجأ إلى قتل أخيه العباس الذى امتنع عن مبايعته تنفيذًا لوصية والده.

لقد واجه خمارويه عدة مشاكل لكن أبرزها علاقته بالخلافة العباسية، تلك العلاقة التى اتسمت بالعداء حتى وصلت إلى مرحلة القتال فى عهد والده ابن طولون؛ ومن ثم وجدنا خمارويه يبدأ هذه العلاقة بالمسالمة تجاه الخلافة العباسية ويخاطب الخلافة مطالبًا إياها بإصدار قرار بتوليته إمرة مصر؛ لكن الخليفة العباسى انتهز الفرصة ورفض ذلك، بل أمر الخليفة بتولية أمير الموصل إمارة مصر، وهذا بدوره خرج على رأس جيش للاستيلاء على الشام ومصر وخلعها من سيطرة الطولونيين، وشارك فى ذلك الموفق أخو الخليفة وهو الذى لعب دورًا كبيرًا فى معاداة ابن طولون من قبل.

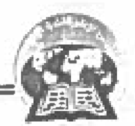
إزاء هذه الأخطار أرسل خمارويه

جيشين للتصدى لجند الخلافة، ولكنهما فشلا فى تحقيق النصر مما اضطر معه خمارويه إلى الخروج بنفسه وملاقاة جند الخلافة حيث انتصر عليهم؛ وكانت نتيجة هذه الانتصارات أن ارتفع قدر خمارويه فى أعين قادة الخلافة العباسية أو كما يقول أحد الباحثين: " وتمكن من البلاد والعباد، وملك الديار المصرية والبلاد الشامية، ومد يده لبلاد الجزيرة، وتأثل سلطانه المتوارث"(٧).

وهنا استجاب الخليفة العباسى إلى طلب الصلح الذى سبق أن طلبه خمارويه وكتب له بولايته على مصر والشام والثغور ثلاثين سنة؛ وحرصًا من خمارويه على توطيد علاقته السلمية بالخلافة العباسية عرض على الخليفة تزويج ابنته قطر الندى لابن الخليفة ، فلما علم بذلك قال: أنا أتزوجها لنفسى؛ وتزوجها فى سنة ٢٨١هـ/٨٩٤م بعد أن دفع لها صداقًا مقداره مليون درهم، ومن جانب خمارويه فقد أنفق على جهاز ابنته وإعدادها للسفر إلى بغداد الأموال الطائلة، تلك الأموال التى خربت خزانة مصر وأفقرتها.

خرج خمارويه إلى دمشق سنة ٢٨٢هـ/٨٩٦م) وهناك بلغه أن بعض جواريه قد اتخذت كل واحدة منهن خليلاً من الخدم، ولما همّ خمارويه فى التحقيق فى ذلك تآمر عليه الخدم وقتلوه سنة ٢٨٢هـ، بعد أن حكم مصر والشام اثنتى عشرة سنة ثم حمل جثمانه إلى مصر حيث دفن بجوار أبيه.

حكم مصر بعد مقتل خمارويه ثلاثة من آل طولون، ولم يزد حكمهم على عشر سنوات سقطت بعدها الأسرة الطولونية، وشهدت هذه السنوات العشر الأخيرة من تاريخ الدولة الطولونية انحلالاً واسعًا وتدهورًا كبيرًا بعد أن بلغت الدولة أوج مجدها وعظمتها على عهد خمارويه. ويمكننا الإشارة فى إيجاز إلى العوامل التى أدت إلى انهيار صرح الدولة الطولونية وسقوطها، منها سبب مادى يتجلى فى البذخ والإنفاق على مظاهر الرفاهية فى عصر خمارويه، وخاصة بعد إنفاق الأموال الضخمة على جهاز قطر الندى ابنة خمارويه، ومنها تعّود الجيش على مرتبات كبيرة فلما قتل خمارويه كانت الخزانة خاوية فلم تستطع الدولة الوفاء بالتزاماتها تجاه الجند الذين قاموا بالثورة. ومنها سوء الإدارة، فقد عزل خمارويه قادة أبيه وولى جماعة من الشباب قليلى الخبرة، ومنها تنافس أفراد البيت الطولونى على مقعد الحكم



وترتب على ذلك ضعف الجيش وتراخى قبضة الحكومة، وغير ذلك من العوامل التى ساهمت بشكل كبير فى سقوط الدولة الطولونية ٢٩٢هـ/٩٠٥م.

بعض المظاهر الحضارية فى الدولة الطولونية:

لقد شهدت مصر عصرًا مزدهرًا فى ظل الحكم الطولونى الذى امتد من سنة ٢٥٤هـ إلى ٢٩٢هـ، وهناك عدة عوامل ساهمت فى هذا التطور والتقدم؛ منها هذا الاستقلال الذى تحقق لمصر فى ظل الطولونيين، وسيطرة الطولونيين على بلدان كثيرة ابتداءً من برقة والشام وتخوم العراق، فضلاً عن مصر، والجمع بين هذه البلاد فى نظام سياسى موحد، والثراء الذى حققه هذا الاستقلال والتوسع؛ ومنها إنفاق تلك الأموال التى كانت تجيئ من هذه المناطق داخل مصر. وعلى شعب مصر بدلاً من إرسالها إلى مقر الخلافة فى بغداد؛ كذلك حرص ابن طولون ومن جاء بعده على الأخذ بأسباب النهضة، وأن تصبح القطائع عاصمة الطولونيين منافسة لسامراء أو بغداد، وأن يبدو البلاط الطولونى فى مستوى لا يقل عن مستوى البلاط الخلافى.

ففى الجانب الإدارى: صارت مصر بعد قيام الدولة الطولونية - ولأول مرة فى تاريخها منذ الفتح الإسلامى - وحدة مستقلة مكتملة الكيان، وأخذ الطولونيون يشكلون النظم الجديدة مستفيدين من النظم السابقة. ويشير أحد الباحثين إلى أن أحمد بن طولون أول من أخذ فى ترتيب الملك، وإقامة شعائر السلطنة بالديار المصرية فأنشأ ديوان الإنشاء لما يحتاج إليه فى المكاتبات والولايات كما اتخذ الحُجَّاب والكُتَّاب والمواكب؛ ولم ينس ابن طولون أن يضع اسمه فى الخطبة بعد الخليفة العباسى مباشرة كما وضع اسمه على السكة[٨].

كذلك اهتم الطولونيون بوظيفة القضاء ورجاله، و أجزلوا لهم المرتبات والهبات .

وفى المجال الاقتصادى: أشار المؤرخون إلى الازدهار والانتعاش الاقتصادى الذى عاشه المجتمع المصرى، وبخاصة الطبقة الخاصة بإدارة البلاد والتى تتمثل فى الأمراء وقادة الجيش ورجال الإدارة، وهؤلاء جمعوا الكثير من الثروات واقتنوا الدور والقصور، وعاشوا حياة مرفهة.

وقد أدرك ابن طولون أهمية إصلاح الجهاز الإدارى المسئول عن جباية الخراج والضرائب فشغل الإدارة المالية بموظفين

يدينون له بالولاء ، وفرض عليهم رقابة صارمة بحيث لا يستطيعون أن يفرضوا ما شاءوا من الضرائب كما كانوا يفعلون من قبل؛ كما اهتم ابن طولون بالزراعة والري ووسائله وشق الترع وإقامة الجسور، وكانت الدولة تمد الفلاح بحاجته من البذور والآلات الزراعية، وبعد انتهاء المحصول وجمعه كانت تتقاضى أثمان هذه الخدمات، كما أولى الطولونيون اهتمامًا بغرس البساتين وبخاصة في عهد خمارويه؛ كل هذا أدى إلى وفرة المحاصيل وزيادة أموال الخراج.

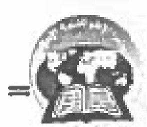
وفي مجال الصناعة: ازدهرت الصناعات القديمة واستحدثت بعض الصناعات التي احتاجها المجتمع المصري في العصر الطولوني، ومن هذه الصناعات صناعة النسيج حيث اشتهرت البلاد بصناعة الكتان والقطن والحرير، وأيضًا راجت بعض الصناعات الأخرى كصناعة السكر وصناعة الذهب والنحاس وغيرها من المعادن، وصناعة الأسلحة وصناعة الأخشاب وصناعة الورق، كما استحدثت أسواق كثيرة بعد خضوع بلاد الشام وبرقة، بالإضافة إلى مصر، تحت سيطرة الحكم الطولوني، وترتب على ذلك ازدهار هذه الأسواق وكثرة الأموال.

وفي مجال التجارة: كان من الطبيعي تبعًا لتطور الزراعة وتقدم الصناعة أن تنشط التجارة وتزدهر وذلك عن طريقين:

الأول: دعم مركز مصر الاقتصادي ومركزها التجاري، ومكانتها في الأسواق العالمية بعد سك الدينار الذي ينسب إلى أحمد بن طولون، والذي كان من أحسن الدنانير الإسلامية وأثقلها وزنًا.

والثاني: إصلاحات أحمد بن طولون الإدارية وقضاؤه على الفتن والثورات وجهوده في استتباب الأمن مما وفّر للتجارة بشقيها الداخلية والخارجية أسباب الحماية، ويشير المؤرخون إلى ازدحام أسواق مدينة القطائع عاصمة الطولونيين، ومنها سوق العطارين وسوق الحبوب وسوق الجزارين والبقالين وغير ذلك من الأسواق.

وفي مجال البناء والتعمير: أنشأ أحمد ابن طولون مدينة القطائع، ويشير أحد الباحثين إلى أن مدينة العسكر ضاقت ببلاط أحمد بن طولون وحاشيته فاختار مكانًا من مدينة الفسطاط والمقطم إلى الشرق من مدينة العسكر، وإلى الشمال الشرقي من الفسطاط حيث ميدان صلاح الدين، ومن الجنوب أطلال مدينة العسكر، وبنى أحمد بن طولون لنفسه



قصرًا فخمًا واتخذ له ميدانًا كبيرًا، وكان هذا القصر والعمائر التى أقامها ابن طولون فى حاضرته الجديدة عراقية الأسلوب والطابع.

وأنشأ ابن طولون بجوار هذا القصر مسجده الذى لا يزال باسمه، كما أقام دُور الحكومة إلى الجنوب من هذا المسجد وكان يفصلها عنه ميدان فسيح؛ وأخذ رجال الدولة يبنون دورهم جوار المسجد ودار الإمارة. كذلك قسمت القطائع إلى أحياء يسمى كل منها قطيعة، وأُفْرِدَ كلٌّ منها لعنصر من عناصر الجيش الطولونى مثل: قطيعة السودان، وقطيعة الروم ... وهكذا؛ وقد بدأ البناء فى العاصمة الجديدة سنة ٢٥٦هـ/٨٧٠م، وجاء تخطيطها تقليدا لتخطيط مدينة سامراء التى أنشأها المعتصم الخليفة العباسى شمالى بغداد.

وأبرز منشآت القطائع: المسجد الكبير وكانت بداية بنائه فى سنة ٢٦٢هـ /٨٧٥م والفراغ منه سنة ٢٦٥هـ/٨٧٨م، وأهم ما يمتاز به هذا الجامع هو مئذنته التى تقع فى الرواق الخارجى الغربى؛ وبجانب الصلاة فى هذا الجامع فقد كان مدرسة للعلوم الدينية، كما كانت تعقد فيه جلسات القضاء.

ومن المنشآت الهامة التى بناها أحمد بن طولون: المارستان –المستشفى- وذلك نظرًا لاهتمام ابن طولون بطبقات الشعب وبخاصة المرضى منهم ، وكان أحمد بن طولون يتفقده كل يوم جمعة لمواساة المرضى وتفقد الخدمات به، وقد أشار المؤرخون إلى أن ابن طولون أنفق على مسجده ومارستانه ما بلغت قيمته مليونًا من الدنانير.

الحياة الفكرية: واصل علماء مصر فى العهد الطولونى مسيرتهم الفكرية والثقافية، تلك المسيرة التى بدأت فى عصر الولاة، وهذه النهضة الفكرية شملت مجالات الأدب والتاريخ والعلوم الدينية وغيرها، وكانت هذه النهضة فى حقيقة أمرها جزءًا من النهضة الثقافية التى شملت العالم الإسلامى فى القرن الثالث الهجرى/التاسع الميلادى، ومن أبرز مظاهرها حركة الترجمة إلى العربية التى قطعت أشواطًا فى طريق التقدم.

ومما ساعد على نهضة الحركة الفكرية فى الدولة الطولونية تشجيع أمراء الدولة ومساهمتهم فى تنشيطها، وعلى رأسهم أحمد بن طولون.وقد اهتم أحمد بن طولون بحُفَّاظ القرآن، وكان

هو نفسه من أئمة الحفاظ، كما خصص المسجد الطولونى بعد إنشائه مباشرة لرواية الحديث ودراسته، وكان الربيع بن سليمان تلميذ الشافعى يجلس فيه لرواية الحديث، وكان الأمراء الطولونيون يحضرون مجالسه للاستفادة من علمه؛ وكما شجع ابن طولون المذهب الشافعى وأتباعه شجع كذلك المذهب الحنفى، ويذكر ابن تغرى بردى أن أحمد بن طولون كان يحضر مجالس فقهاء المذهب الحنفى.

ومن مظاهر تشجيع الحركة الفكرية الترحيب بالعلماء الوافدين على مصر وإغداق الأموال عليهم، وممن وفد على مصر فى هذه الفترة الربيع بن سليمان المرادى (١٧٤- ٢٧٠هـ/٧٩٠- ٨٣٣م) وإليه يرجع الفضل فى حفظ المذهب الشافعى، وأما المذهب الحنفى فى تلك الحقبة فكان أبو جعفر الطحاوى (٢٢٩ - ٣٢١هـ/٨٤٦- ٩٣٣م) الذى ألف فى معانى القرآن كما ألف فى التاريخ والفقه. ويضاف إلى ما سبق ارتفاع شأن المذهب المالكى، وظهور علماء بارزين فى الفقه المالكى، ومنهم محمد بن عبد الله ابن عبد الحكم الذى انتهت إليه رئاسة المالكية فى هذا العصر، ويشير السيوطى إلى أن الناس قصدوه من كافة البلاد، وحضر إليه الطلاب من المغرب والأندلس للاستزادة من فقه الإمام مالك، ولم يقتصر اهتمام الطولونيين على الدراسات الدينية بل امتد اهتمامهم إلى ميدان الأدب، وخاصة بعد إنشاء ديوان الإنشاء الذى ساهم فى ارتقاء الكتابة . وكانت اتجاهات الكتابة فى هذا العصر تميل إلى الناحية الفنية التى يتكلفها الكاتب مع تعمده تجميلها وزخرفتها، وكذلك شجع ابن طولون وابنه خمارويه الشعراء ، وقد أغدق خمارويه عليهم الأموال، وبرز فى هذا العصر مجموعة من الأدباء منهم ابن عيد كان، والحسن بن رافع، ويعقوب ابن إسحاق وغيرهم.

وفى مجال الدراسات اللغوية برز الوليد بن محمد التميمى المعروف بولاد ، الذى ألف كتاب " المنمق فى النحو" (ت ٢٩٨هـ) ، وكذلك أحمد بن جعفر الدينورى صاحب كتاب (المهذب فى النحو)، وكذلك أبو جعفر النحاس صاحب كتاب (معانى القرآن ومنسوخه). وفى مجال الكتابة التاريخية برز يوسف ابن إبراهيم المعروف بابن الداية، الذى كتب سيرة أحمد بن طولون وابنه أبى الجيش خمارويه.

أ.د / حسن على حسن

الهوامش :

(١) أ. عبد الرحمن الرافعى و د. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى، ص ٨٧.

(٢) د . حسن على حسن: تاريخ مصر الإسلامية ، ص ١٢٣.

(٣) النجوم الزاهرة ، ج٣ ص ٣.

(٤) تاريخ مصر الإسلامية ، ص ١٢٤.

(٥) سيرة ابن طولون، ص ٥٦.

(٦) مصر فى العصور الوسطى، ص ٩٣.

(٧) تاريخ مصر الإسلامية، ص ١٣٦.

(٨) المرجع السابق، ص ١٤٣.

مراجع للاستزادة:

(١) البلوى: سيرة أحمد بن طولون.

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك.

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية.

(٤) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.

(٥) المقريزى : المواعظ والاعتبار.

(٦) أ. عبد الرحمن الرافعى ود. سعيد عاشور : مصر فى العصور الوسطى.

(٧) د. حسن على حسن : تاريخ مصر الإسلامية .

عام الحزن

الحُزْنُ والحَزَن كما يقول ابن منظور فيقولن الفرح وهو خلاف السرور.[1]

والحزن انقباض فى النفس يحس به الإنسان عندما يصاب بمكروه، وهو أمر طبيعى فى بنى الإنسان، فقد حزن الأنبياء وغيرهم من الصالحين، وهو أمر مقبول طالما لم يخرج عن حد الاعتدال ويصل إلى حد الجزع. فقد قال النبى ﷺ، عند موت ابنه إبراهيم: كما تروى كتب السنة والسيرة: **«تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضى الله تعالى، والله إنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون»**[2].

وقد حزن يعقوب عليه السلام بسبب ما جرى لابنيه يوسف وبنيامين، حيث قال كما قص القرآن الكريم: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾(يوسف: ١٣).

لما احتجز يوسف عليه السلام بنيامين فى مصر﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (٨٤) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (٨٥) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٨٣- ٨٦).

وحزن أصحاب رسول الله ﷺ الذين أرادو الخروج معه فى غزوة تبوك وذهبوا إليه ليجهزهم للغزو فلم يجد ما يحملهم عليه ولم يكن لهم مال يجهزون به أنفسهم، ووصف القرآن الكريم حالهم فى قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (التوبة: ٩٢).

فهؤلاء المؤمنون صادقون أصابهم الحزن والغم لما فاتهم من شرف الجهاد مع الرسول ﷺ.



عام الحزن:

وعام الحزن فى التاريخ الإسلامى وصف للعام الذى فقد فيه رسول الله ﷺ أهم نصيرين له فى دعوته، وهما زوجته خديجة بنت خويلد رضى الله عنها، وهى التى وقفت معه بكل ما تملك وواسته بمالها ونفسها وصدقته حين كذبه الناس، وآمنت به حين كفر به الناس، فأحس بالحزن الشديد لفقدها، ومما زاد من حزنه أنه فقد فى نفس العام وهو العام العاشر من البعثة عمه أبا طالب، وكان هو أيضًا سندًا وعونًا له، يقول ابن إسحاق: "ثم إن خديجة بنت خويلد وأبا طالب هلكا فى عام واحد، فتتابعت على رسول الله ﷺ المصائب، بهلك خديجة وكانت له وزير صدق على الإســـلام، يشكو إليها. وبهلاك عمه أبى طالب، وكان له عضدًا وحرزًا فى أمره، ومعينا وناصرا على قومه، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنوات، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع فيه فى حياة أبى طالب"[٣].

وتسمية ذلك العام بعام الحزن يعكس إحساس الرسول ﷺ بفداحة الخسارة التى أصابته بموتهما، ولكن ذلك لم يَفُتَّ فى عضده، بل، رغم ما أصابه،مضى فى دعوته بكل عزم وقوة معتمدًا على الله تعالى حتى بلغ رسالته وأدى أمانته ونصح لأمته وتركها على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله وسلامه عليه وجزاه الله عن أمته خير ما جزى نبيا ورسولا عن أمته.

أ.د / عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) لسان العرب، ج١٦، ص٢٦٦ .

(٢) انظر سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للإمام محمد بن يوسف الصالحى، طبع المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١١، ص٤٥٢ .

(٣) سيرة ابن هشام، ج٢، ص٢٦ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. سيرة ابن هشام.

٢. سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد للصالحى.

٣. زاد المعاد فى هدى خير العباد لابن القيم.

٤. حياة محمد ، للدكتور محمد حسين هيكل.

٥. تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ، للدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

عام الوفود

أصل تسمية عام الوفود: عام الوفود هو العام التاسع الهجرى؛ قال ابن إسحاق: "لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، قال ابن هشام: حدثنى أبو عبيدة، أن ذلك كان فى سنة تسع وأنها كانت تسمى سنة الوفود" [1]. لكن لماذا تأخرت وفود العرب وأحجمت عن المجيىء إلى رسول الله ﷺ إلى العام التاسع الهجرى أى أكثر من عشرين عامًا من بدء الرسالة الإسلامية؟ التعليل عند ابن إسحاق أيضًا، فهو يقول: " وإنما كانت العرب تَرَبَّصُ بالإسلام أمر هذا الحى من قريش. وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديتهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش ورَوَّضها الإسلام – أى أخضعها- عرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله - كما قال عز وجل- أفواجًا يضربون إليه من كل وجه، يقول الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ (النصر: ١- ٣) أى فاحمد الله على ما أظهر دينك واستغفره إنه كان توابا) [2].

هذا هو التعليل الصحيح لتأخر العرب عن الدخول فى الإسلام، لأنه طالما عرض الرسول ﷺ نفسه على القبائل العربية ليلتمس عندها النصرة والوقوف معه فلم يجد آذانا صاغية من أحد [3] سوى أهل يثرب الذين قبلوا التضحية فى سبيل الله، وبايعوا الرسول ﷺ بيعتى العقبة الأولى والثانية واستقبلوه فى بلادهم، وهذا له حديث آخر، وله مكان آخر، ولذلك سُمّوا أنصار الله ورسوله. أما الآن فنحن نتحدث عن عام الوفود وهو العام التاسع الهجرى، ولماذا تأخر العرب إلى ذلك الوقت! ظن العرب أن الأمر لا يعدو أن يكون خلافًا بين قريش وأحد أبنائها وهو محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ فليبقوا هم على الحياد، فى انتظار ما ينجلى عنه

الموقف، ولعلهم ظنوا أيضًا أن قريشًا قادرة على القضاء على رسول الله ﷺ وإراحتهم منه دون تدخل منهم، فلما رأوا قريشًا قد أذعنت وروضها الإسلام - على حد تعبير ابن إسحاق- وفُتحت مكة. ثم بعد أن فرَّ الجيش البيزنطى من أمام الرسول ﷺ فى تبوك فى سنة ٩هـ/٦٣٠م. أدرك العرب بشكل قاطع أن رسول الله ﷺ قد غلب، فليس أمامهم خيار إلا أن يذهبوا إليه مسلمين طائعين، أو ينتظروا جيوشه تقرع أبوابهم ولم يكن لديهم شك فى ذلك. فآثروا السلامة وجاءوا، ولكن لم يكن مجيىء جميعهم خالصًا لوجه الله وإنما جاء بعضهم مذعنًا للقوة الإسلامية. ولعل خير ما يمثل حالهم قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ يقول الإمام الطبرى فى تأويل هذه الآية الكريمة: " واختلف أهل التأويل فى السبب الذى من أجله قيل للنبى ﷺ قل لهؤلاء الأعراب قولوا أسلمنا، ولا تقولوا آمنا، فقال بعضهم: إنما أمر النبى ﷺ بذلك، لأن القوم كانوا صدقوا بألسنتهم، ولم يصدقوا قولهم بفعلهم، فقيل لهم قولوا أسلمنا، لأن الإسلام قول، والإيمان عمل"[٤].

والدليل العملى على أن إسلام بعضهم لم يكن خالصًا ردتهم الفورية عند سماعهم خبر وفاة الرسول ﷺ حيث ارتد بعضهم واتبعوا مدعى النبوة الكذاب مسيلمة وغيره... إلخ[٥]. وسيواجه الخليفة الأول هذا الموقف فى حينه.

الإذعان إذن للقوة هو الذى حدا بوفود العرب للتوافد على المدينة وإظهار الإسلام ومبايعة رسول الله ﷺ لأنهم كانوا على يقين أنهم إن لم يأتوا فستأتى جيوش الإسلام لفتح بلادهم. لأن مشركى العرب لا تُقبل منهم جزية فليس أمامهم إلا الإسلام أو السيف ، وهذه حقيقة واضحة لا لبس فيها، وهم فهموا ذلك بعد إعلانهم فى موسم الحج سنة ٩هـ، بوضعهم الجديد، ذلك الوضع الذى وضحته سورة براءة التى نزلت على رسول الله ﷺ وهو عائد من تبوك، وهى من آخر ما أنزل من القرآن الكريم، وقد وضحت أوضاع مشركى العرب وأوضاع غيرهم من أهل الكتاب سواء داخل جزيرة العرب أو خارجها. فمشركو العرب ليس أمامهم إلا الإسلام أو السيف، قال تعالى:

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ١- ٦)[٦].

هذا هو حكم مشركى العرب، أما حكم أهل الكتاب إذا حملوا السلاح وقاوموا المسلمين فقد وضحته الآية ٢٩ من نفس السورة وهى قوله تعالى: ﴿ قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩).

أما أهل الكتاب الذين لم يحملوا السلاح ضد المسلمين فلهم كل الحرية فى البقاء على عقيدتهم، بل على المسلمين حماية عقائدهم وأرواحهم وأموالهم كما فعل الرسول ﷺ مع نصارى نجران وغيرهم. بل إن رسول الله ﷺ سمح لنصارى نجران أن يصلوا فى مسجده، فهل هناك تكريم لأهل الكتاب أعظم من هذا؟. والدليل الواضح على وجود

تفرقة فى المعاملة بين أهل الكتاب ومشركى العرب، معاملة عرب نجران المشركين أنفسهم، يقول ابن إسحاق: " ثم بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فى شهر رجب أو جمادى الأولى سنة عشر إلى بنى الحارث بن كعب بنجران، وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثًا، فإن هم استجابوا فاقبل منهم، وإن لم يقبلوا –أى إن لم يسلموا- فقاتِلْهم"[7].

هنا الأمر واضح؛ فلم يقل له صلى الله عليه وسلم: إن لم يقبلوا الإسلام فخذ منهم الجزية، كما فعل الرسول ﷺ مع نصارى نجران، وإنما أمره أن يقاتلهم إن لم يقبلوا الإسلام، وهذا معناه أن الرسول ﷺ مصمم على محو الشرك والوثنية من شبه جزيرة العرب بشكل قاطع، وفى هذا الإطار يفهم الحديث الصحيح الذى يقول فيه الرسول ﷺ: **«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله»**[8].

فالمقصود بالناس هنا هم مشركو العرب، وليس كل الناس فى كل زمان ومكان، وهذه هى الحالة الاستثنائية من القاعدة العامة فى الإسلام وهى حرية العقيدة وعدم إكراه أحد خارج جزيرة العرب على الدخول فى الإسلام بالقوة، وهذه القاعدة العامة تقررها آيات كثيرة من كتاب الله تعالى مثل قوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

ومثل قوله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ (الكهف: ٢٩).

وذهب خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى نجران وعرض الإسلام على بنى الحارث بن كعب فاسلموا وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ ليعلمه، فكتب إليه أن يقبل ويُقبِل معه وفدُهم[9]. ولا يتطلب الأمر هنا أكثر من ذلك؛ فقد وضحت هذه النقطة، لذا نكون على بيِّنةٍ من أمرنا ونحن نتكلم عن عام الوفود.

نزلت سورة براءة بهذه الأحكام الجديدة على رسول الله ﷺ وهو عائد من تبوك، وكان قد أمَّر أبا بكر الصديق على الحج عام ٩هـ لأن العرب حجوا فى ذلك العام على هيئتهم الجاهلية وكانت هذه آخر مرة يحجون فيها على هذه الهيئة

لأن رسول الله ﷺ سيحج فى العام العاشر حجة الوداع ويجب أن يتطهر البيت الحرام من كل أوزار الجاهلية وأوضاعها. لذلك لما نزلت سورة براءة أرسل رسول الله ﷺ علىَّ بن أبى طالب ﷺ يبلغ الناس جميعًا بهذه الأحكام الجديدة حتى يكونوا على بينة من أمرهم. يروى ابن الأثير هذا فيقول: "فسار أبو بكر أميرًا على الموسم فأقام الناس الحج، وحجت العرب الكفار على عادتهم فى الجاهلية، وعلىٌّ يؤذن ببراءة، فنادى يوم عيد الأضحى أن لا يحجَّن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عُريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله إلى مدته، ورجع المشركون، فلام بعضهم بعضًا، وقالوا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش فأسلموا)"[١٠].

تقاطرت وفود العرب على رسول الله ﷺ من كل حدب وصوب وتزاحموا فى المدينة وحولها، وكانت بعض الوفود تأتى بخيلائها وفخرها وبأمجادها وأمجاد آبائها وأجدادها مثل وفد بنى تميم الذين جاءوا يفاخرون رسول الله ﷺ، ومعهم خطيبهم عُطارِد بن حاجب، وشاعرهم الزِّبْرِقان بن بدر ، فأخذ الخطيب والشاعر يُعَدِّدان مآثر قومهما فطلب رسول الله ﷺ من خطيبه ثابت بن قيس وشاعره حسان بن ثابت أن يُردَّا عليهما، فتهاوت مآثرهم وأمجادهم الجاهلية أمام ما بينه خطيب الرسول وشاعره من عظمة الإسلام ورسوله ورسالته، فلما فرغا قال الأقرع بن حابس – أحد زعماء بنى تميم- : ((وأبى إن هذا الرجل لَمُؤَتَّى له - أى موفق - لَخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، فلما فرغ القوم أسلموا، وجوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم))[١١]. وكانت هذه عادة رسول الله ﷺ مع الوفود، ما من وفد يأتى –وكانت أعدادهم كبيرة – إلا ويرجع مُحملاً بالهدايا من رسول الله ﷺ، حتى لم ينس الذين كانوا يحرسون أمتعة القوم، كما حدث مع وفد بنى حنيفة، فعندما جاءوا إلى رسول الله ﷺ وأعلنوا إسلامهم وأعطاهم جوائزهم سألهم إن كان هناك أحد معهم فقالوا: " يا رسول الله إنا قد خلفنا صاحبًا لنا فى رحالنا وفى ركابنا يحفظها لنا، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للقوم وقال: أما إنه ليس بشَرِّكُمْ مكانا"[١٢].

الذى قصده رسول الله ﷺ من قوله إنه ليس بشَرِّكُمْ مكانًا، أنه كان يحفظ

لهم أمتعتهم، وكان هذا الرجل هو مسيلمة بن حبيب الذى ادعى النبوة وسماه الرسول ﷺ مسيلمة الكذاب؛ لأنه قال لقومه: ألم يقل لكم حين ذكرتمونى له: " أما إنه ليس بشركم مكانًا"؟ ما هذا إلا لما كان يعلم أنى قد أشركت معه فى الأمر [١٢]. وحديث مسيلمة مذكور فى حركة الردة.(انظر هذه المادة).

خلاصة الأمر أن وفود العرب توالت على رسول الله ﷺ فى العام التاسع والعاشر أيضًا ٦٣٠- ٦٣١م، وأحسن الرسول ﷺ استقبالهم وقدر ظروفهم وأجزل عطاءهم وهو يعلم أن إسلام بعضهم كان على دخن، ولكنه كان يعلم كذلك أن هذه مرحلة ستمّر وستستقر أوضاعهم تباعًا، وهذا هو ما يفهم من معنى الآية التى ذكرناها سابقًا من سورة الحجرات وهى قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ (الحجرات:١٤).

فإذا كانت هذه المرحلة بالظروف التى تحيط بها تجعلهم أو بعضهم فى حيرة وقلق فسرعان ما يستقر الإيمان فى قلوبهم وسيحسن إسلامهم، خصوصًا بعد أن تتسع حركة الردة التى واجهها الخليفة الأول بكل حزم وعزم وتصميم وستصفو جزيرة العرب لدين الله الحق ولن يبقى فيها دينان وسينطلق منها الإسلام إلى أرجاء العالم الفسيح.

لا يتسع المقام هنا لذكر كل الوفود التى جاءت من أنحاء شبه جزيرة العرب إلى رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة؛ ومن يريد المزيد من المعرفة عليه الاطلاع على بعض المصادر التى فى نهاية هذا المقال، وهنا ينبغى التأكيد على الرمز والمغزى والجهاد الكبير الذى جاهده رسول الله ﷺ هو وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، حيث ظهر والعرب مشركون وثنيون، متفرقون متشرذمون ثم تركهم موحّدين موحَّدين، ورباهم وعلمهم ليؤدوا عنه رسالة الله إلى العالمين وقد فعلوا.

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) سيرة ابن هشام، ج٤ ، ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٢٢ .

(٣) المصدر السابق، ج٢، ص٣١ وما بعدها .

(٤) جامع البيان عن تأويل القرآن، ج٩، ص٧٥٤٩ .، الطبعة الأولى –طبع دار السلام- . القاهرة: ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م.

(٥) انظر سيرة ابن هشام. المصدر السابق، ج٤، ص٢٧٢ .

(٦) انظر سيرة ابن هشام مصدر سبق، ج١، ص٢٠٤، وما بعدها.

(٧) سيرة ابن هشام، مصدر سبق، ج٤، ص٢٦٢.

(٨) صحيح البخارى، ج١، ص١٣، باب الإيمان، طبع دار إحياء الكتب العربية. عيسى البابى الحلبى وشركاه بدون تاريخ.

(٩) ابن هشام ، المصدر السابق، ج٤، ٢٦٣ .

(١٠) الكامل فى التاريخ. طبعة دار صادر بيروت، ج٢، ص٢٩١.

(١١) سيرة ابن هشام، ج٤، ص٢٣٢- والمقصود بالجوائز العطايا والهدايا .

(١٢) المصدر السابق، ج٤، ص٢٤٤.

(١٣) المصدر نفسه .

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. سيرة ابن هشام.

٢. تاريخ الطبرى.

٣. الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

٤. حياة محمد للدكتور محمد حسين هيكل.

٥. خاتم النبيين للشيخ محمد أبو زهرة.

٦. تاريخ الإسلام فى عصر النبوة للدكتور /عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

العباسيون [1]

ينتمى العباسيون إلى العباس بن عبد المطلب بن هاشم، عم رسول الله ﷺ. وقد أسلم بعد موقعة بدر، ثم هاجر إلى النبى ﷺ، وشهد معه فتح مكة، وشهد غزوة حنين، وثبت مع رسول الله لما انهزم الناس بحنين.

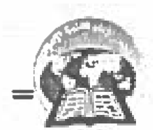
وقد كان العباس أسَنَّ من الرسول بسنتين. وكان له من الولد عشرة ذكور سوى الإناث وهم: الفضل وبه كان يكنى، وعبد الله، وعبيد الله، وقُثَم، وعبد الرحمن، ومَعْبَد، والحارث، وكثير، وعون، وتمام، وكان أصغر أولاد العباس.

وقد توفى العباس بالمدينة فى رجب سنة ٣٢هـ(٦٥٣م) وهو ابن ثمانٍ وثمانين سنة. وعبد الله بن العباس هو بلا جدال أبرز أولاد العباس، وهو الذى قامت عليه شهرة العباسيين فى التاريخ. وقد ولد قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بثلاث سنين، وتوفى سنة ثمان وستين من الهجرة، واشتهر بغزارة علمه. فكان يسمىَّ " البحر" و" حَبْر الأمة". وقد تولى البصرة لعلى بن أبى طالب رابع الخلفاء الراشدين وشهد معه معركة صِفينّ وكان أحد الأمراء فيها.

ومن بين أولاد عبد الله بن العباس " على بن عبد الله"، وهو أصغر أولاد أبيه، وكان من أكثر الناس صلاة؛ ولهذا اشتهر بلقب السجاد. وقد آثر الابتعاد عن معترك السياسة، وانتقل هو وأسرته من الحجاز إلى قرية صغيرة من قرى الشام تسمى " الحميمة"(انظر هذه المادة)، أقطعها له الخليفة الأموى الوليدبن عبد الملك سنة (٩٥هـ / ٧١٤م)، فأقام بها حتى وفاته فى حدود سنه (١١٨هـ / ٧٣٦م)، وظل أولاده يقيمون بها من بعده حتى قيام الخلافة العباسية.

خلف علىُّ بن عبد الله بن العباس نيفا وعشرين ولدا ذكرًا[2]، برز من بينهم بصفة خاصة ابنه "محمد"، وهو الذى يرجع إليه الفضل الأول فى وضع الخطة المحكمة للدعوة التى أسفرت عن سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية.

ولد محمد بن على بن عبد الله بن العباس فى حدود سنة ٦٠هـ (٦٧٩م)، ولم يكن كوالده يُؤْثِر البعد عن معترك السياسة بل كان يتمتع بطموح سياسى بعيد المدى ودهاء واسع، ولم يكن يرضى



بأقل من تأسيس "خلافة" تحمل اسم آبائه العباسيين.

وقد سنحت الفرصة لمحمد بن على لكى يبدأ وضع اللبنات الأولى فى تأسيس مشروعه الطموح وذلك حين اتصل أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية (زعيم الشيعة الكيسانية) بعلى ابن عبد الله بن العباس فى الحُمَيْمَة . وكان قد انتقل إليها من الحجاز مع أسرته - كما أشرنا - وأوصى له بتسليم أمانة الدعوة لإمام من آل البيت من بعده. وذلك أن أبا هاشم كان قد أحس بدنو أجله بعد زيارة قام بها للخليفة الأموى سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ/ ٧١٥- ٧١٧م)، فرأى أن يسلم أمانة تلك الدعوة لأحد أبناء عمومته القريبين منه وهو على ابن عبد الله بن العباس . والجدير بالذكر هنا أن محمد بن على بن أبى طالب المشهور باسم محمد بن الحنفية - وهو أول أئمة الكيسانية - انتهت إليه مسئولية الدعوة لإمام من آل البيت بعد استشهاد أخيه الحسين بن على فى كربلاء سنة ٦١هـ(٦٨٠م).

على أن الذى استغل وصية أبى هاشم هذه أحسن استغلال لم يكن هو علىّ بن عبد الله بن العباس بل كان ابنه محمدًا الذى وجدها فرصة حقيقية لتحقيق مطامحه السياسية . وهكذا تهيأت أمامه الظروف لكى يبدأ خطواته الجادة فى هذا السبيل - وقد تمثل ذلك فيما عرف باسم :

الدعوة الهاشمية : والملاحظ أن هذه الدعوة بدأت فى أواخر القرن الأول الهجرى إبان حكم الخليفة العادل عمر ابن عبد العزيز (٩٩ – ١٠١هـ/ ٧١٧- ٧٢٠م) ؛ هذا الخليفة الذى أشاع جوًا من الطمأنينة والأمن بين رعاياه وأمر بالتوقف عن ملاحقة آل البيت واضطهادهم، وقد كان ذلك من بين العوامل المهمة التى أغْرَت محمد بن على بأن يبدأ دعوته فى هذا التوقيت بالتحديد. ولم يكن يدير دعوته فى البداية علنًا بل كان يديرها سرًا ، ولم يشأ أن يدعو إلى نفسه أو إلى إمام عباسى بل اكتفى بأن يدعو إلى " الرضا من آل محمد" ؛ أى إلى من يرضاه المسلمون إمامًا من آل البيت، وقد ضَمِن بهذا الشعار أن يضم إلى صفوف دعوته أنصار العلويين وهم كثيرون.

اعتمد"محمد بن على" فى إدارة دعوته على مراكز أساسية ثلاث هى : الحُمَيْمة التى مثّلت الرأس المدَبرِّ للدعوة بوصفها موطن الأئمة العباسيين؛ ثم خراسان،

معقل الموالى المتعاطفين مع آل البيت والمعادين للأمويين لسوء معاملتهم لهم؛ ثم الكوفة التى كانت همزة الوصل بين خراسان والحُمَيْمَة، حيث ينقل كبير الدعاة فى الكوفة توجيهات إمام الحُمَيْمة إلى دعاته فى خراسان.

وقد استمر "محمد بن على" فى إدارته السرية الناجحة للدعوة حتى وفاته سنة ١٢٥هـ (٧٤٣م)، وخلفه فى هذه المهمة ابنه إبراهيم الذى اشْتُهِر بالإمام. وفى عهده برزت شخصية خطيرة على المسرح العملى للدعوة وهى شخصية أبى مسلم الخراسانى الذى قلده إبراهيم إمارة الدعوة فى خراسان سنة ١٢٨هـ (٧٤٦م)، وفى سنة ١٢٩هـ أمره بإظهارها بعد أن كانت تُدَار سرًا. ولم يحدث هذا التطور إلا بعد أن كانت الدعوة قد مكّنت لنفسها فى خراسان ولم يعد يخشى عليها من مقاومة الأمويين.

وخلال هذه المرحلة استطاع أبو مسلم أن يستولى على مدينة "مرو" عاصمة خراسان فى سنة ١٣٠هـ (٧٤٨م) بعد معركة حاسمة خاضها ضد نصر بن سيار الوالى الأموى على خراسان. وبهذا أصبح الطريق ممهدًا أمامه للزحف إلى العراق بعد أن دانت له خراسان.

وقد أعدَّ أبو مسلم جيشًا قويا لإنجاز هذه المهمة وأسند قيادته إلى أحد كبار قواده وهو قَحْطَبة بن شبيب الطائى الذى عبر نهر الفرات فى سنة ١٣١هـ (٧٤٨م)، وفى طريقه إلى مدينة الكوفة عاصمة العراق فى ذلك الوقت التقى بالجيش الذى أعده يزيد بن عمر بن هبيرة الوالى الأموى على العراق وأنزل به هزيمة ساحقة. وقد قُتِل قحطبةُ أثناء المعركة فخلفه على قيادة الجيش العباسى ابنه الحسن الذى واصل الزحف نحو الكوفة وتمكّن من دخولها دون مقاومة تذكر، وذلك فى الحادى عشر من المحرم سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م).

ولكن الدعوة الهاشمية التى كانت تسير من نصر إلى نصر تعرضت قبل ذلك بقليل لنكسة كادت تقضى عليها؛ فقد استطاعت عيون الأمويين أن تقبض على إبراهيم الإمام فى سنة ١٣١هـ حيث أرسلوه إلى الخليفة الأموى مروان بن محمد الذى كان يقيم حينذاك فى حران من أرض الجزيرة بشمال العراق. وقد أمر مروان بحبس إبراهيم الإمام فظل فى محبسه حتى مات فى نفس العام، ويقال إن مَرْوان دبرَّ قتله فى محبسه.

تولى قيادة الدعوة بعد القبض على إبراهيم الإمام أخوه أبو العباس عبد الله بن

محمد بن على بن العباس (الذى اشتهر فيما بعد بلقب السفاح) . وتجدر الإشارة إلى أن إبراهيم الإمام عندما أيقن بمصيره أوصى أسرته العباسية التى كانت تقيم بالحُمَيْمة، وفيهم أخوه أبو العباس، بأن تنتقل فورًا إلى الكوفة؛ فهى مكان أكثر أمنًا لأنها بمنأى عن معقل الأمويين بالشام. وقد استجابت الأسرة لتوجيهات إبراهيم الإمام وشدّت رحالها إلى الكوفة فدخلوها فى أوائل سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م)، وبويع أبو العباس السفاح بالخلافة من كبار القادة وأنصار الدعوة فى ١٢ من ربيع الأول سنة ١٣٢هـ (نوفمبر ٧٤٩م) بعد القضاء على محاولة فاشلة قام بها أحد كبار الدعاة - وهو أبو سَلَمة الخلّال - لتحويل الخلافة من الفرع العباسى من بنى هاشم إلى الفرع العلوى.

وهكذا كشفت الدعوة الهاشمية عن وجهها الصريح، فتبين أنها دعوة عباسية خالصة تَدَثَّرتْ منذ بدايتها بشعار الرضا من آل محمد أى من بنى هاشم لتجذب إلى صفوفها كل المتعاطفين مع آل البيت[٣].

عصور الخلافة العباسية منذ قيامها سنة ١٣٢هـ (٧٤٩م) حتى سقوطها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) :

يقسم الباحثون فى العادة التاريخ الطويل للخلافة العباسية إلى عصور خمسة متميزة هى : عصر نفوذ الخلفاء، وعصر نفوذ الأتراك، وعصر البويهيين وعصر السلاجقة، وعصر ما بعد السلاجقة وهو العصر الأخير.

أولاً : عصر نفوذ الخلفاء (١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٤٩- ٨٤٧م) :

هذا هو العصر الذى شهد مجد الخلافة العباسية وهيبتها ؛ فقد تمتع فيه الخلفاء بالقوة والسيطرة على مقاليد الأمور فى الداخل كما جعلوا من الخلافة قوة مرهوبة الجانب فى الخارج.

وقد تقلد منصب الخلافة خلال هذا العصر تسعة خلفاء هم: أبو العباس عبد الله السفاح، وأبو جعفر عبد الله المنصور، ومحمد المهدى بن المنصور، وموسى الهادى بن المهدى، وهارون الرشيد بن المهدى، ومحمد الأمين بن هارون الرشيد، وعبد الله المأمون، وأبو إسحاق المعتصم ابنا هارون الرشيد، وأخيرًا هارون الواثق بن المعتصم.

وقد بدأ أبو العباس السفاح خلافته فى الكوفة التى أصبحت أول عاصمة للدولة العباسية، وكان شغله الشاغل خلال فترة حكمه (١٣٢- ١٣٦هـ/ ٧٤٩- ٧٥٤م) هو ملاحقة فلول الأمويين وأنصارهم، فنجح الجيش العباسى فى

هزيمة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى معركة دارت رحاها على الزاب الأعلى (بين الموصل واربل)، وفر مروان هاربًا إلى الشام ثم مصر، والعباسيون فى أثره، حتى قتلوه فى قرية أبو صير (من أعمال بنى سويف حاليًا) فى أواخر ذى الحجة سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م). كما تخلص السفاح أيضًا من يزيد بن عمر بن هبيرة الذى كان والى العراق من قبل الأمويين . ولم يكتف الخليفة بذلك بل تتبع الأمويين حيث وُجدوا وأعمل فيهم السيف دون هوادة [٤] .

ثم جاء الدور على أبى سَلَمَة الخَلاَّل (حفص بن سليمان) الذى كان من كبار الدعاة العباسيين كما أشرنا ، وقد استوزره السفاح فى مطلع خلافته؛ فهو أول وزير فى الإسلام، ولكنه لم ينس له ما قام به من محاولة تحويل الخلافة إلى الفرع العلوى من آل البيت. فدبَّرَ مقتله فى رجب سنة (١٣٢هـ / ٧٥٠م) واستوزر بعده - على أرجح الآراء - خالد بن برمك [٥] .

لم يستقر السفاح طويلاً فى مدينة الكوفة، فقد انتقل منها بحكومته إلى مدينة بناها بجوارها وسماها الهاشمية ، ثم انتقل من الهاشمية إلى الحيرة بالقرب من الكوفة ، وانتقل من الحيرة إلى الأنبار فى عام (١٣٤هـ/ ٧٥١م)، وبها توفى .

وقد تولى الخلافة بعد السفاح أخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد الشهير بالمنصور، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقى للخلافة العباسية. وقد أتاح له حكمة الطويل الذى امتد من سنة ١٣٦هـ إلى سنة ١٥٨هـ(٧٥٤-٧٧٥م) أن يحقق إنجازات هائلة فى الداخل والخارج وأن يسلِّم ابنه وخليفته محمد المهدى دولة ذات مكانة متميزة على المستوى العسكرى والاقتصادى والثقافى.

كان على الخليفة المنصور فى بداية حكمه أن يقضى على التهديدات الداخلية التى مثَّلتْ خطرًا حقيقيًا على خلافته؛ وتأتى فى مقدمتها ثورة عمه عبد الله بن على ابن عبد الله بن العباس الذى ادعَّى أنه أحق بالخلافة من ابن أخيه المنصور؛ فأرسل له المنصور جيشًا بقيادة أبى مسلم

الخراسانى تمكّن من هزيمته فى معركة دارت رحاها فى نصيبين من أرض الجزيرة فى شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٧هـ (٧٥٥م) . وقد أمر المنصور بحبس عبد الله وظل فى محبسه حتى مات سنة ١٤٧هـ [٦] . وتمثّلَ التهديد الداخلى الثانى فى أبى مسلم الخراسانى نفسه رغم مكانته المتميزة فى الدعوة والدولة. ذلك أن سلطة أبى مسلم تنامت إلى الحد الذى جعل أبا جعفر المنصور يحسُّ أنه بدأ يكوّن فى خراسان دولة داخل الدولة. ومن هنا وضع الخليفة خطة محكمة لاستدراجه إلى مقر حكمه حيث كان يقيم حينذاك فى مكان يقال له " رومية المدائن " ، وهناك تخلص منه فى شعبان سنة ١٣٧هـ (٧٥٥م) [٧] . أما التهديد الداخلى الثالث والأخطر فقد تَمَثَّلَ فى الثورة العلوية التى قادها محمد ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن على بن أبى طالب (الذى يقال له النفس الزكية) وأخوه إبراهيم. وقد اندلعت ثورة النفس الزكية فى المدينة بالحجاز فى ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) ، واندلعت ثورة أخيه إبراهيم فى البصرة بالعراق فى الأول من رمضان سنة(١٤٥هـ/ ٧٦٢م) . ومَكْمَنُ خطورة هذه الثورة لم يكن فى جانبها العسكرى فحسب، بل كان قبل ذلك فى الأساس الشرعى الذى حاول الأخوان محمد وإبراهيم أن يقيماها عليه. فهما من أبناء على وفاطمة معًا. ومكانةُ علىّ وسبقُه إلى الإسلام وجهاده فى سبيله مما لا يحتاج إلى بيان، وهو زوج فاطمة بنت رسول الله ﷺ . فمحمد النفس الزكية وأخوه إبراهيم من أحفاد علىّ ومن أحفاد رسول الله ، وهما أحق بشعار الرضا من آل محمد من العباسيين. ومن هنا نجحت هذه الثورة فى أن تضم إلى صفوفها أنصارا كثيرين من أعيان المسلمين فى الحجاز والعراق. ولكن المنصور لم يَصْمُتْ إزاء هذه المحاولة التى كانت تهدف إلى إسقاط شرعية الخلافة العباسية؛ فذكر أن العباس بن عبد المطلب هو عم النبى ﷺ فهو أولى بميراث ابن أخيه من علىّ بن أبى طالب وهو ابن

عمه، كما أن أولاد البنت وهى فاطمة، أقل استحقاقًا للإرث من العم، ثم قارن بين العباس الذى أسلم وبين أبى طالب الذى لم يُسْلِم. وبعد أن انتهت تلك المعركة النظرية فى ميدان الجدل السياسى جاء دور المعركة العسكرية فى ميدان القتال. وقد حُسِمَتْ لصالح المنصور تماما فى مواجهتين: المواجهة الأولى فى المدينة مع جيش محمد النفس الزكية الذى هُزِم وقتل فى الميدان فى رمضان سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) ؛ والمواجهة الثانية فى مكان يقال له " باَخمْرى" فى العراق مع جيش إبراهيم حيث لقى نفس مصير أخيه، وذلك فى ذى القعدة سنة ١٤٥هـ (٧٦٣م). وكان قائد الجيش العباسى فى المواجهتين عيسى بن موسى ابن محمد بن على (ابن أخى الخليفة المنصور) [٨].

بعد أن قضى المنصور على أهم المشاكل الداخلية التى هددت استقرار حكمه، بدأ يوجه مزيدًا من الاهتمام لدعم اقتصاد الدولة وتنظيم إدارتها وتأكيد هيبتها الخارجية. ولابد من الاشارة هنا إلى تأسيسه لعاصمة دائمة للدولة العباسية ؛ وهى بغداد (١٤٦هـ/٧٦٣م)، بعد أن ظل العباسيون أربعة عشر عامًا، ينتقلون من مكان إلى مكان بحثًا عن مركز دائم لخلافتهم؛ فقد بدأ السفاح حكمه فى الكوفة كما رأينا، ثم انتقل منها إلى إحدى ضواحيها وهى الهاشمية، ثم انتقل إلى الحيرة، ثم الأنبار، وبها توفى. وعندما تولى المنصور رجع إلى هاشمية الكوفة، ثم انتقل منها إلى رومية المدائن، ثم عاد إلى هاشمية الكوفة، ومنها انتقل إلى بغداد.

إن هذا يعنى أن العباسيين لم يعرفوا الاستقرار الحقيقى من الناحية السياسية والاقتصادية والاجتماعية قبل أن ينقلوا إدارتهم إلى بغداد. وقد حقق موقع بغداد كل ما كان الخليفة المنصور ينشده فى عاصمة دولته؛ فهى تقع من دجلة على نقطة هى أقرب ما تكون إلى نهر الفرات. وقد أحاطت بها - بالإضافة إلى دجلة والفرات - مجموعة من القنوات والأنهار الفرعية

التى تجعل وصول العدو إليها أمرًا شاقًا. ويضاف إلى ذلك أن المنصور وطَّنَ بها من العناصر السكانية من يضمن ولاءهم السياسى، سواء أكانوا من العباسيين أم من رجال دولتهم.

شهدت الدولة العباسية ازدهارًا كبيرًا على يد المنصور بعد تأسيس بغداد. وقد أحسن المنصور استغلال الموارد الهائلة للدولة، فلم ينفق المال إلا فى موضعه وبالقدر المطلوب تمامًا، وبالرغم من أنه اشتهر بالبخل فإن الحقيقة أنه " كان رجلا حازما يعطى فى موضع العطاء ويمنع فى موضع المنع"(٩). وقد أنفق الكثير من المال لتحصين مدن الثغور التى تقع على حدود الدولة البيزنطية التى كانت تمثل أكبر تهديد للدولة الإسلامية. ولم يدخر وسعا فى سبيل شحن هذه المدن بالعتاد والرجال، فاستطاع أن يضع حدا لأطماع الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الخامس الذى استغل فترة الضعف التى شهدتها الدولة الإسلامية فى أواخر العصر الأموى، الأمر الذى شجعه على محاولة انتهاك حدودها.

ولكن المنصور نجح فى أن يعيد للدولة الإسلامية هيبتها أمام أعتى أعدائها.

ثم إن المنصور لم يغفل رعاية الجانب الثقافى فى الدولة، فكان أول من اهتم اهتمامًا حقيقيًّا بحركة الترجمة من التراث العالمى إلى اللغة العربية كما سنشير إلى ذلك فى موضعه، وازدهرت فى عهده حركة التصنيف فى العلوم المختلفة. ويضاف إلى ذلك اهتمامه الملحوظ بالجوانب الإدارية؛ فقد كان يحسن اختيار قضاته ووزرائه، فقد استوزر فى البداية خالدبن برمك رأس أسرة البرامكة، ثم استوزر أبا أيوب المورياني، واستوزر بعده الربيع بن يونس صاحب الخبرة الإدارية الواسعة، كما استخدم أصحاب البريد استخداما فعالا؛ فكان يتابع عن طريقهم تصرفات الولاة وأحكام القضاة، بل إنه كان يتابع أيضًا أسعار السلع. وكان أصحاب البريد يوافونه بكل جديد فى أنحاء دولته

المترامية الأطراف مرتين كل يوم: مرة فى أول النهار ومرة فى آخره . ومن هنا تمكّن من الإحاطة التامة بكل ما كان يحدث فى الدولة، وورث خلفاؤه عنه هذا النظام الإدارى الدقيق[١٠].

وبالرغم من كل مظاهر القوة التى اتسمت بها خلافة المنصور فقد شهدتْ بدايةَ ظاهرةٍ سلبيةٍ خطيرة وهى انسلاخ بعض الولايات من جسم الدولة. فقد استقلت الأندلس فى عصر المنصور عن دولة الخلافة ، وذلك على يد الفتى الأموى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (عبد الرحمن الداخل) الذى فرَّ من مطاردة العباسيين لفلول الأمويين وعبر البحر إلى الأندلس، وهناك أسس إمارة أموية فى سنة ١٣٨هـ(٧٥٥م)، سوف يُحَوِّلها أحد أحفاده فيما بعد، وهو عبد الرحمن الناصر(٣٠٠- ٣٥٠هـ/٩١٢-٩٦١م) إلى خلافة. وسوف يتنامى هذا الاتجاه الانفصالى فى العصور العباسية اللاحقة.

ومع أن الخليفة أبا العباس السفاح كان قد أوصى بالخلافة إلى أخيه أبى جعفر المنصور ثم إلى ابن أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن على، القائد الكفء، فإن المنصور أعمل الحيلة والدهاء، ونجح فى تحويل الخلافة إلى ابنه محمد الذى لُقِّب بالمهدى على أن يكون عيسى بن موسى وليًّا لعهد المهدى .

وهكذا تولى المهدى الخلافة عقب وفاة أبيه فى سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م) ، وقد استمر فى الحكم حتى وفاته فى المحرم سنة ١٦٩هـ/ (أغسطس ٧٨٥م). وقد جنى المهدى ثمار سياسة أبيه فى دعم اقتصاد الدولة وتوطيد أمنها فى الداخل وتأكيد هيبتها فى الخارج، فكان عصره عصر استقرار سياسى وازدهار اقتصادى . ولعل من أهم ما شغل به نفسه فى الداخل ملاحقته للزنادقة فى محاولة منه لاستئصال شأفتهم، كما حدثت فى عهده بعض الثورات المحدودة التى نجح نجاحًا تامًا فى القضاء عليها؛ وأهمها ثورة المُقَنَّع الخراسانى فى خراسان، التى قد يُنْظَر إليها على أنها كانت محاولة للثأر لأبى مسلم



الخراسانى، ولكن الواضح أنها كانت حركة قومية تهدف إلى إحياء الملك الفارسى الداثر بكل عقائده وتقاليده. وقد تمكن المهدى من القضاء عليها فى سنة ١٦٣هـ(٧٧٩م) [١١].

وبجانب ذلك تمكن المهدى من تأكيد السيادة الإسلامية فى وجه البيزنطيين الذين هاجموا بعض مدن الثغور الإسلامية، فوجّه ضدهم ثلاث حملات ناجحة كانت الأولى منها فى سنة ١٦٢هـ(٧٧٩م) بقيادة الحسن بن قحطبة، وكانت الثانية والثالثة فى سنة ١٦٣هـ(٧٨٠م) وسنة ١٦٥هـ (٧٨٢م) على التوالى، وكلتاهما بقيادة هارون بن المهدى وهو فتى دون العشرين من عمره. واستطاع المهدى خلال هذه الحملات أن يضع حدّا لجموح البيزنطيين وأن يجعل من دولة الخلافة قوة مرهوبة الجانب فى العالم كله [١٢].

ولم يُغْفِل المهدى الجانب الاجتماعى والعمرانى فى دولته؛ فقد أنفق من بيت المال على المسجونين والمجذومين وذوى الحاجات، كما اهتم بإنشاء الطرق وحفر الآبار والترع، وظفرت العاصمة بغداد منه بعناية خاصة؛ فاتسعت نتيجة لذلك اتساعًا عظيمًا، وخصوصًا ضاحية الرصافة أو بغداد الشرقية التى ازدانت بالمبانى الفخمة والحدائق الغنّاء وأصبحت منافسًا لبغداد الأصلية أو مدينة المنصور فى العظمة والبهاء.

والملاحظ أن المهدى حذا حذو أبيه المنصور فى قضية ولاية العهد؛ فقد حمل عيسى بن موسى على خلع نفسه، وعيّن بدلا منه ابنيه: موسى الهادى ثم هارون الرشيد على الترتيب.

وعندما توفى محمد المهدى فى المحرم سنة ١٦٩هـ(٧٨٥م) كانت الخلافة العباسية فى سبيلها إلى أن تبلغ ذروة قوتها سياسيًا واقتصاديا وعسكريا. وهكذا تسلم ابنه وخليفته موسى الهادى دولة مزدهرة مهيبة الجانب. وقد كان فى حدود الخامسة والعشرين من عمره عندما تسلم زمام السلطة، ولكن خلافته لم تزد عن العام إلا قليلاً، فقد توفى فى ربيع الأول سنة ١٧٠هـ(٧٨٦م)، ولهذا لم يترك بصمات واضحة على مجرى

الأحداث. وقد حذا حذو أبيه فى مطاردة الزنادقة ومحاولة القضاء عليهم. على أن أهم ما واجهه من أحداث ثورة الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب فى المدينة فى ذى القعدة سنة ١٦٩هـ(٧٨٩م). ولم يجد الهادى صعوبة فى القضاء على هذا الثائر العلوى؛ فقد وجه إليه جيشًا عباسيا بقيادة محمد بن سليمان بن على، حيث التقى به فى مكان يقال له " فخ" بين مكة والمدينة وتمكن من هزيمته وقتله[١٢].

وقد أراد الهادى أن يجعل ولاية العهد لابنه جعفر بدلا من أخيه هارون الرشيد، ولكنه لقى معارضة شديدة من أمه الخيزران ويحيى بن خالد البرمكى، الذى كان الخليفة المهدى قد عينه كاتبا وناصحًا لابنه هارون الرشيد، ولكن وفاة الهادى المفاجئة والغامضة فى ريعان شبابه حالت دون تحقيق ما أراد.

هكذا تولى الرشيد الخلافة خلفًا لأخيه موسى الهادى، وكان فى الثالثة والعشرين من عمره حينذاك وطالت مدة حكمه حتى بلغت ثلاثة وعشرين عامًا(١٧٠- ١٩٣هـ/ ٧٨٦- ٨٠٩م). والحقيقة أن عصر الرشيد حظى بشهرة واسعة فى التاريخ العباسى بل فى التاريخ الإسلامى كله لما تحقق فيه من إنجازات وما حفل به من أحداث جسام.

ويمكن تقسيم هذا العصر إلى مرحلتين غير متكافئتين زمنيًا: المرحلة الأولى مرحلة نفوذ البرامكة؛ والمرحلة الثانية مرحلة نفوذ الفضل ابن الربيع.

١- مرحلة نفوذ البرامكة (١٧٠- ١٨٧هـ/ ٧٨٦- ٨٠٣م):

اصطبغت هذه المرحلة بالنفوذ الطاغى للبرامكة؛ وهم أسرة فارسية ظهر نفوذها فى البلاط العباسى منذ عهد الخليفة الأول أبى العباس السفاح الذى استوزر خالد بن برمك كما أشرنا ، كما استوزره المنصور أيضًا . أما الخليفة المهدى فقد وضع ثقته فى يحيى بن خالد بن برمك وعينه ناصحًا وكاتبًا لابنه هارون الذى كان يضعه فى منزلة

أبيه. وعندما تولى هارون الخلافة فوَّض إليه إدارة شئون دولته، وقرّب أولاده وبخاصة جعفر والفضل وولاّهم الأعمال الجليلة.

وبجانب الدور السياسى الكبير فى هذه المرحلة من حكم الرشيد كان لهم دور اجتماعى وثقافى بارز؛ فقد اشتهروا بالإحسان إلى كل من يقصدهم، كما شجعوا العلماء والشعراء بالعطايا السابغة. وهكذا ارتفعت مكانتهم الاجتماعية والفكرية فى المجتمع العباسى فضلاً عن مكانتهم السياسية. ولكن الذى حيّر المؤرخين حقا هو تلك النكبة التى أنزلها بهم الرشيد وهم فى عنفوان مجدهم وأوج نفوذهم؛ ففى صفر سنة ١٨٧هـ(٨٠٣م) أمر بقتل جعفر بن يحيى بن خالد وحبس يحيى بن خالد وبقية أولاده، واستصفى أموالهم واستولى على ضياعهم. وبالرغم من تعدد الآراء التى طُرِحت لتفسير هذه النكبة فإن ابن خلدون يقدم رأياً قد يكون أدنى إلى القبول وهو أن سبب نكبة البرامكة " ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجانهم أموال الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه، فغلبوه على أمره وشاركوه فى سلطانه "(١٤).

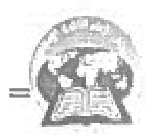
ومن أهم الأحداث التى شهدتها تلك المرحلة قيام دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى؛ وهى تنتسب إلى إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب، الذى فر إلى المغرب بعد هزيمة الحسين ابن على بن الحسن فى موقعة " فخ" أثناء حكم الهادى. وبالرغم من أن الرشيد أرسل إليه من تخلص منه فقد تُوُفِّى عن أَمَةٍ وضعت بعد وفاته غلاما سماه البربر إدريس على اسم والده، ثم بايعوه بالإمامة مكان أبيه، فكان ذلك إيذانا بقيام دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى. وهكذا استقل ذلك الإقليم استقلالا تاما عن دولة الخلافة العباسية(١٥).

كما شهدت تلك المرحلة أيضًا قيام دولة الأغالبة بتونس (إفريقية) على يد إبراهيم بن الأغلب الذى استقل عن الخلافة العباسية استقلالا فعليًا ولكنه كان يدين بالولاء الاسمى للخلافة. وهكذا تزايد عدد الدويلات المستقلة فى عصر الرشيد، وسوف يتنامى هذا الاتجاه الاستقلالى بعد عصره[١٦].

ومن المشكلات المهمة التى واجهت الرشيد فى تلك الفترة ثورة الخوارج فى نصيبين من بلاد الجزيرة بقيادة الوليد بن طريف الشارى (الشيبانى) فى سنة ١٧٨هـ(٧٩٤م). وقد تمكن الرشيد بعد جهود مضنية من القضاء على هذه الثورة فى سنة ١٧٩هـ(٧٩٥م) على يد القائد العباسى المشهور يزيد بن مزيد الشيبانى[١٧].

على أن أعظم إنجاز حققه الرشيد خلال تلك الفترة تَمَثَّلَ فى نجاحه فى كبح جماح البيزنطيين وتأكيد سيادة الدولة الإسلامية أمام أعدائها. وقد كان من عوامل تحقيق هذا الإنجاز إعادة بناء وتحصين مدينة طرسوس التى تسيطر على المدخل الجنوبى للممر الجبلى المعروف عند الجغرافيين العرب باسم "ممر طرسوس" أو ما يسمى فى المراجع الأجنبية باسم "بوابات قيليقية": Cilician Gates، وهذا الممر يربط بين شمال الشام وآسيا الصغرى. ولهذا كان موقع طرسوس يمثل نقطة دفاع وهجوم على جانب كبير من الأهمية فى الصراع الإسلامى البيزنطى. وقد أضاف الرشيد إلى ذلك إنشاءه لمنطقة "العواصم" التى أريد منها أن تكون حماية وعاصمًا لمنطقة الثغور التى تقع فى نحر العدو[١٨]. (انظر مادة: الثغور والعواصم)

واللافت للنظر أن الرشيد خلال هذه المرحلة قاد بنفسه أول حملة ضد بيزنطة ١٨١هـ (٧٩٧م) واستطاع أن يقتحم ويدمر قلعة حصينة فى آسيا الصغرى اسمها "الصفصاف"[١٩]. وسوف تتصاعد حملات الرشيد ضد الروم (البيزنطيين) فى المرحلة التالية من حكمه.



وقبل أن نختم حديثنا عن هذه المرحلة الأولى من حكم الرشيد ينبغى أن نشير إلى موقفه من قضية خطيرة كانت لها آثارها البعيدة المدى بعد ذلك؛ وهى قضية ولاية العهد. فقد قرر الرشيد أن يعهد لابنه محمد الأمين بالخلافة من بعده، على أن يكون ابنه الآخر عبد الله المأمون وليًّا لعهد الأمين وأن تكون للمأمون ولاية خراسان أثناء خلافة الأمين. ومع أن المأمون كان أسنَّ من الأمين بستة أشهر وكان أرجح منه عقلاً _ وهو ما تبينه الرشيد بوضوح بعد ذلك _ فإن أمه كانت فارسية الأصل (وهى مراجل)، أما أم الأمين فهى زبيدة بنت جعفر بن أبى جعفر المنصور؛ فهى بنت عم الرشيد، وهذا ما جعل الرشيد يقدمه على المأمون، فمهد بذلك لحرب أهلية سوف تدفع الخلافة ثمنها غاليًا[20].

٢ـ أما مرحلة نفوذ الفضل بن الربيع فقد بدأت بعد سقوط البرامكة سنة ١٨٧هـ(٨٠٣م) واستمرت إلى وفاة الرشيد سنة ١٩٣هـ(٨٠٩م). وقد تربى الفضل فى بلاط العباسيين؛ فقد كان والده الربيع بن يونس وزيرًا للمنصور، كما كان من كبار رجال الحاشية فى عهد المهدى. ولهذا حذق ابنه الفضل أساليب البلاط وكان مقربا إلى الخلفاء. وقد تولى الوزارة فى خلافة هارون الرشيد بعد سقوط البرامكة وأصبح هو الرجل الأول فى بلاطه، ولكن الرشيد لم يسمح لأحد أن يكون صاحب نفوذ مطلق فى دولته بعد سقوط البرامكة.

وقد توزع اهتمام الرشيد فى تلك المرحلة الثانية من خلافته بين أمرين أساسيين: أولهما: صراعه ضد البيزنطيين؛ وثانيهما: محاولة القضاء على الاضطرابات فى خراسان والمشرق.

أما صراعه على الجبهة البيزنطية فقد وصل الذروة فى تلك الفترة؛ حيث قاد بنفسه أضخم حملتين عباسيتين ضد الروم حتى ذلك

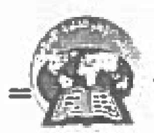
الوقت، وقد حدثتا فى عامى ١٨٧هـ (٨٠٣م) و١٩٠هـ(٨٠٦م) على التوالى، وحققت كلتا الحملتين نجاحًا باهرًا، ولم يجد إمبراطور الروم «نقفور» فى الحملة الثانية بُدًّا من أن يطلب الصلح، فوافق الرشيد على طلبه بعد أن تعهد الإمبراطور أن يدفع إتاوة مقدارها ثلاثمائة ألف دينار وأن يدفع الجزية عن نفسه وولده وبطارقته وأهل بلده [٢١].

أما الاضطرابات فى خراسان والمشرق فقد كانت وليدة السياسات الغاشمة التى انتهجها على بن عيسى ابن ماهان، الوالى هناك من قبل الرشيد. وقد تزعم الثورة فى تلك البقاع رافع بن الليث بن نصر بن سيار، وقد بلغت هذه الثورة حدا جعل الرشيد يقرر أن يذهب بنفسه لإخمادها، وعند وصوله إلى طوس أحَسَّ بالمرض فحطَّ رحاله، وهناك وافاه أجله فى الثالث من جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٩م

وفى نهاية حديثنا عن هارون الرشيد ينبغى أن نشير إلى أن عصره شهد ازدهارًا حضاريًا غير مسبوق، فاستحق أن يعرف بالعصر الذهبى للخلافة العباسية ؛ فقد ازدهرت حركة الترجمة وحركة التصنيف فى العلوم ونشطت حركة الفن والأدب واتسع العمران وازدادت قوة الدولة الاقتصادية إلى غير ذلك مما سوف نتناولة عند استعراضنا لأهم الجوانب الحضارية فى العصر العباسى.

تولى محمد الأمين الخلافة فى سنة ١٩٣هـ (٨٠٩م) عقب وفاة أبيه. وقد شغلت الحرب الأهلية التى اندلعت بينه وبين أخيه عبد الله المأمون مدة حكمه الذى انتهى فى صفر سنة ١٩٨هـ(٨١٣م).

وسبب هذه الحرب محاولة الأمين تعيين ابنه الطفل موسى وليا لعهده ليحل محل المأمون. وقد شجعه على ذلك كبار رجال حاشيته وعلى رأسهم الفضل بن الربيع وعلى بن عيسى بن ماهان. ولم يكن من المستغرب أن يرفض المأمون هذا



التصرف الذى يُعَدّ نقضًا صريحًا لعهد الرشيد؛ ومن هنا اتخذ من ولاية خراسان التى كانت تحت إدارته مركزا للمقاومة. وكان من أكبر أنصاره فى هذه المواجهة وزيره الفضل بن سهل والقائد المشهور طاهر بن الحسين بن مصعب، وكلاهما من أعيان الفرس.

وقد انتهت هذه الفتنة التى استمرت بضع سنوات بدخول طاهر ابن الحسين (قائد جيش المأمون) بغداد فى المحرم سنة ١٩٨هـ (٨١٣م) بعد أن حل بها الدمار، ثم قام جنود طاهر بقتل الأمين فى صفر من نفس العام؛ وبذلك انتهت هذه المحنة التى كادت أن تقضى على البيت العباسى.

وهكذا تقلد المأمون زمام الخلافة العباسية وهو فى (مرو) عاصمة خراسان، وعين الحسن بن سهل (وهو أخو وزيره الفضل بن سهل) واليًا على العراق والحجاز واليمن وعلى كل ما كان طاهر بن الحسين قد تغلب عليه أثناء الحرب ضد الأمين.

استمر المأمون يدير شئون الخلافة من خراسان حتى سنة ٢٠٤هـ (٨١٩م) ، وواجه بعض المشاكل الداخلية التى استطاع التغلب على معظمها. ولكن أخطر تَصَرُّفٍ قام به خلال تلك الفترة هو محاولته تحويل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى. ففى رمضان ٢٠١هـ (٨١٧م) أعلن أنه عيّن على بن موسى ابن جعفر (من نسل الحسين بن على) وليًا لعهده ولقبه " الرضا من آل محمد " . وقد ترتب على هذه المحاولة ردود فعل غاضبة فى البيت العباسى عبرّت عن نفسها فى بيعه العباسيين فى بغداد لإبراهيم بن المهدى (عم المأمون) بالخلافة فى أول المحرم سنة(٢٠٢هـ/ يوليو ٨١٧م). ومن هنا قرر المأمون أن ينتقل إلى بغداد ومعه كبار قواده وحاشيته. وقد توفى على ابن موسى الرضا فجأة فى الطريق وهو فى صحبة المأمون فى ظروف

غامضة[٢٢]. وعندما وصل المأمون بغداد فى ربيع الأول سنة ٢٠٤هـ اختفى إبراهيم بن المهدى وظل مختفيًا حتى سنة ٢١٠هـ حيث قُبض عليه فعفا عنه المأمون[٢٣].

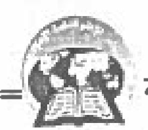
واجه المأمون بعد استقراره فى بغداد عددا من المشاكل لعل أهمها ثورة بابك الخُرَّمى، وهى الثورة التى كانت قد نشبت فى آذربيجان سنة ٢٠١هـ(٨١٦م) ثم امتدت إلى أرمينيا، وكانت تهدف إلى هدم كيان الدولة الإسلامية وإحياء المجد الفارسى الغابر. وقد اتسعت هذه الثورة بعد انتقال المأمون من خراسان إلى العراق، ولم يتمكن المأمون من القضاء عليها رغم محاولاته المتكررة، وعهد بهذه المهمة من بعده إلى أخيه وخليفته المعتصم.

وهناك مشاكل داخلية أخرى واجهها المأمون خلال تلك الفترة ومن بينها اضطراب الأحوال فى مصر، وقد وصل هذا الاضطراب مدى جعل المأمون يقرر أن يذهب بنفسه إلى مصر ليعيد الأمور إلى نصابها.

على أن المشكلة التى صنعها المأمون لنفسه وكان فى غنى عنها ، هى مشكلة خلق القرآن التى جعل منها مشكلة سياسية خطيرة . وأمر بامتحان العلماء فيها ، فمن لم يقر بخلق القرآن تعرض لأقسى عقوبة. وقد استمرت هذه المشكلة فى عهد خليفتيه: المعتصم والواثق وكانت لها آثار اجتماعية وسياسية خطيرة [٢٤].

وقد حشد المأمون ـ خلال السنوات الثلاث الأخيرة من خلافته (٢١٥- ٢١٨هـ/ ٨٣٠ـ ٨٣٣م) - كل جهده لحرب البيزنطيين؛ فانتقل إلى منطقة الثغور واتخذها مقرا له، وقاد بنفسه أربع حملات ضخمة ضد الامبراطور البيزنطى «ثيوفيل» الذى حاول الهجوم على مدن الثغور الإسلامية، وقد حقق المأمون خلال حملاته تلك انتصارات مدوية ضد البيزنطيين، وكان ينوى الاستمرار فى تلك الحملات حتى يُخْضِع امبراطورية الروم، ولكن الأجل لم يمهله فتُوفِّى فى «طرسوس» وهو فى طريقه لغزو الروم فى رجب سنة ٢١٨هـ (أغسطس ٨٣٣م) ودفن هناك[٢٥]، وأوصى بالخلافة من بعده لأخيه أبى إسحاق المعتصم.

ولعل أعظم إنجازات المأمون تتمثل فى الجانب الحضارى، حيث شهدت الخلافة فى عهده ازدهارًا حضاريًا واسع المدى، وهو ما سنشير إليه فى موضعه.



وبالرغم من قصر خلافة المعتصم (٢١٨- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣- ٨٤٢م) فقد تحققت خلالها إنجازات عسكرية كبرى، يأتى على رأسها دون شك تمكُّن الخليفة من القضاء على ثورة بابك الخرَّمى سنة ٢٢٢هـ (٨٣٧م) بعد أن تعاظم خطرها واستمرت أكثر من عقدين من الزمان.

ويرجع الفضل فى القضاء النهائى على هذه الثورة إلى خبرة القائد التركى «الأفشين» الذى عينه المعتصم قائدًا عامًّا للعمليات ضد «بابك» فى سنة ٢٢٠هـ، فاستطاع الأفشين بعد سلسلة معارك مظفرة استمرت حوالى عامين أن يهزمه ويأسره ويسلمه إلى الخليفة ليقضى عليه ويخلص الدولة الإسلامية من شروره[٢٦].

ومن بين الإنجازات العسكرية الكبرى للمعتصم أيضًا انتصاره الحاسم فى معركة " عمورية" ضد الامبراطور البيزنطى «ثيوفيل» الذى انتهز فرصة انشغال الخلافة بحرب بابك الخرمى فهاجم منطقة الثغور الإسلامية وعاث فسادا فى مدينة زبطرة ومدينة ملطية وقتل النساء والأطفال وانتهك الحرمات، فأعد المعتصم جيشًا هائلاً قاده بنفسه واقتحم به آسيا الصغرى وتوجّه نحو مدينة عمورية، وهى مسقط رأس الإمبراطور البيزنطى، فحاصرها ثم أسقطها ودمرها فى رمضان سنة ٢٢٣هـ (أغسطس ٨٣٨هـ)، وانسحب منها بعد أن لقن الامبراطور والبيزنطيين درسًا قاسيًا[٢٧].

وقد شهدت خلافة المعتصم تطورًا مهمًا وهو ظهور النفوذ التركى بقوة فى البلاط العباسى. وكان الخليفة المأمون أول من استعان بالعنصر التركى فى جيشه، ولكن المعتصم استكثر من الجنود الأتراك وأخذ يستغنى بهم عن العنصرين العربى والفارسى. وقد أدى تكاثر الجنود الأتراك فى بغداد إلى ضيق السكان بهم نتيجة ما كانوا يحدثونه من أذى وهم يتراكضون بخيولهم. وقد رفعوا شكايتهم هذه إلى المعتصم فقرر أن ينتقل بجهازه الإدارى وجنوده إلى مدينة سامرا التى تبعد عن بغداد نحو ستين ميلا إلى الشمال، وكان ذلك فى سنة ٢٢١هـ (٨٣٦)[٢٨]، وهكذا أصبحت سامرا عاصمة الخلافة العباسية وظلت كذلك مدة تقرب من ستين عاما (حتى عصر الخليفة المعتضد بالله).

بقى أن نشير إلى أن المعتصم حذا حذو

أخيه المأمون فى محنة خلق القرآن، فأخذ يمتحن الفقهاء والقضاة والمحدِّثين، فمن لم يقر بخلق القرآن تعرض للعقاب. وكان أبرز من تعرضوا لذلك فى خلافة المعتصم الفقيه والمحدث المشهور أحمد بن حنبل الذى جُلد وسجن لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وهى القضية التى وقفت وراءها فرقة المعتزلة بالتشجيع والتحريض منذ خلافة المأمون.

توفى المعتصم فى ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ (يناير ٨٤٢م) عن حوالى سبعة وأربعين عامًا، فخلفه على كرسى الخلافة ابنه هارون الواثق (٢٢٧-٢٣٢هـ/ ٨٤٢- ٨٤٧م).

وقد استمر النفوذ التركى فى التزايد فى عهد الواثق، كما اتبع الواثق أسلوب أبيه المعتصم وعمه المأمون فى امتحان العلماء فى خلق القرآن بتشجيع من المعتزلة الذين مارسوا دورًا سياسيًا خطيرًا فى عهد هؤلاء الخلفاء الثلاثة. ولكن الواثق قرر فى العام الأخير من خلافته أن يوقف كل الإجراءات التى ارتبطت بمحنة خلق القرآن حين اقتنع بعدم جدواها، ولكنه ظل فى الوقت نفسه مؤمنًا بعقائد المعتزلة وأفكارهم.

وقد كانت وفاة الواثق فى ذى الحجة سنة ٢٣٢هـ (٨٤٧م) إيذانًا بنهاية عصر نفوذ الخلفاء وبداية عصر النفوذ التركى فى دولة الخلافة العباسية، وهو العصر الثانى بين العصور الخمسة التى أشرنا إليها فى صدر هذا المدخل.

ثانيًا: عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢-٣٣٤هـ/ ٨٤٧- ٩٤٥):

يفتتح هذا العصر فترة طويلة من التدهور الذى حلَّ بالخلافة العباسية حتى بلغت نهايتها المحتومة. وليست بنا حاجة إلى الدخول فى تفاصيل الأحداث التاريخية التى شهدتها العصور الأربعة التى تلت العصر العباسى الأول، لأن تاريخ هذه العصور فى الحقيقة يمثل تاريخًا للقوى التى بسطت نفوذها على الخلافة العباسية وليس تاريخًا للخلافة العباسية بالمعنى الدقيق؛ ومن هنا نكتفى بالحديث الموجز عن علاقة هذه القوى بالخلافة.

يبدأ عصر نفوذ الأتراك سنة ٢٣٢هـ (٨٤٧م) وينتهى سنة ٣٣٤هـ (٩٤٥م) بظهور النفوذ البويهى. وقد تقلَّد منصب الخلافة خلال هذا العصر ثلاثة عشر خليفة هم على الترتيب:

(١) المتوكل (جعفر بن المعتصم): ٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٧- ٨٦١م).



(٢) محمد المنتصر بن المتوكل: ٢٤٧- ٢٤٨هـ/٨٦١- ٨٦٢م.

(٣) المستعين (أحمد بن المعتصم): ٢٤٨- ٢٥٢هـ/٨٦٢- ٨٦٦م.

(٤) المعتز بالله (محمد بن المتوكل): ٢٥٢- ٢٥٥هـ/٨٦٦- ٨٦٩م).

(٥) المهتدى بالله (محمد بن الواثق): ٢٥٥- ٢٥٦هـ/٨٦٩- ٨٧٠م.

(٦) المعتمد على الله (أحمد بن المتوكل): ٢٥٦- ٢٧٩هـ/٨٧٠- ٨٩٢م.

(٧) المعتضد بالله (أحمد بن الموفق): ٢٧٩- ٢٨٩هـ/٨٩٢- ٩٠٢م.

(٨) المكتفى بالله (على بن المعتضد): ٢٨٩- ٢٩٥هـ/٩٠٢- ٩٠٧م.

(٩) المقتدر بالله (جعفر بن المعتضد: ٢٩٥- ٣٢٠هـ/٩٠٧- ٩٣٢م.

(١٠) القاهر بالله (محمد بن المعتضد): ٣٢٠- ٣٢٢هـ/٩٣٢- ٩٣٤م.

(١١) الراضى بالله (محمد بن المقتدر): ٣٢٢- ٣٢٩هـ/٩٣٤- ٩٤٠م.

(١٢) المتقى بالله (إبراهيم بن المقتدر): ٣٢٩- ٣٣٣هـ/٩٤٠- ٩٤٤م.

(١٣) المستكفى بالله (عبد الله بن المكتفى): ٣٣٣- ٣٣٤هـ/٩٤٤- ٩٤٥م.

والملاحظ أن الخلافة فى عصر نفوذ الأتراك فقدت هيبتها، ولم يعد للخلفاء سلطان حقيقى حيث تركزت السلطة فى يد الأتراك. فكانوا يعينون الخلفاء ويعزلونهم وفق مشيئتهم. ولكن الخلافة استطاعت أن تسترد نفوذها خلال حكم الخليفة المعتمد والخليفة المعتضد، فكان ذلك "صحوة مؤقتة" فى تاريخها فى ذلك العصر. وبوفاة المعتضد عاد الاستبداد التركى يمارس هيمنته على الخلافة من جديد.

وقد استمر الاتجاه الانفصالى فى دولة الخلافة دون توقف فى عصر نفوذ الأتراك؛ فقد أسس الفاطميون دولتهم فى بلاد المغرب سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩م) تحت زعامة أول أئمتهم وهو عبيد الله المهدى. كما أسس الحمدانيون دولتهم فى الموصل أولا بزعامة أبى الهيجاء عبد الله ابن حمدان، ثم فى حلب بعد ذلك بزعامة سيف الدولة الحمدانى. كما ظهرت الدولة الصَّفَّارِيَّة فى بلاد فارس وخراسان على يد يعقوب بن الليث الصفّار، كما ظهرت الدولة السامانية فى سمرقند وبلاد ما وراء النهر، والدولة الطولونية ثم الإخشيدية فى مصر.

ومن التطورات المهمة التى حدثت خلال تلك الفترة ظهور حركة القرامطة فى الكوفة سنة ٢٧٨هـ (٨٩١م) بزعامة رجل

اسمه "حمدان" ويشتهر بلقب "قرمط". وهى حركة هدامة تظاهرت بالتشيع وعاثت فسادًا فى بلاد المسلمين، واستمر خطرها فترة طويلة بعد ذلك العصر.

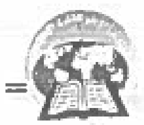
وهناك تطور سياسى مهم حدث فى ذلك العصر أيضًا وهو ظهور منصب "أمير الأمراء" فى سنة ٣٢٤هـ (٩٣٦م) فى عهد الخليفة الراضى بالله. وكان أول من تقلد هذا المنصب محمد بن رائق حاكم البصرة. ويعكس ظهور هذا المنصب مدى التدهور الذى وصلت إليه سلطة الخلفاء فى ذلك العصر؛ فقد أصبح "أمير الأمراء" هو الحاكم الفعلى لدولة الخلافة، وتنافس فى سبيل الفوز بهذا المنصب كبار رجال الدولة وفى مقدمتهم الأتراك[٢٩].

وكانت هذه الأحوال المضطربة فى دولة الخلافة فى تلك الفترة عاملا أساسيًا وراء ظهور قوة جديدة على مسرح الأحداث هى قوة البويهيين.

ثالثًا: عصر نفوذ البويهيين (٣٣٤-٤٤٧هـ/٩٤٥- ١٠٥٥م):

البويهيون، أو بنوبويه، أسرة فارسية تنتمى إلى رأس الأسرة أبى شجاع بُوَيْه الذى نشأ فى بلاد الديلم، وهى البلاد الواقعة فى الجنوب الغربى لبحر قزوين أو بحر الخزر بين منطقة طبرستان والجبال. وقد نشأ بويه هذا فقيرًا، وكان له ثلاثة أولاد، هم: أحمد وعلى والحسن الذين لُقبوا فيما بعد بمعز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة على الترتيب. وقد كانت بلاد الديلم معقلا لنفوذ العلويين فانتشر فيها التشيع، وتشرب أبو شجاع وأولاده روح التشيع هذه.

وقد التحق الإخوة الثلاثة، أحمد وعلى والحسن، بجيش "ما كان بن كالى" أحد قادة العلويين ببلاد الديلم؛ فقد كانت الجندية فى ذلك الوقت موردًا للرزق. ولم يلبث هؤلاء الإخوة أن أظهروا فى خدمتهم فى جيش "ما كان" مهارة عسكرية عالية فارتفع شأنهم ولكن "ما كان" دخل بعد ذلك فى صراع مع منافس فارسى آخر فى تلك المناطق اسمه "مرداويج بن زيار"، وأحسَّ البويهيون الثلاثة أن انضمامهم لجيش مرداويج سيكون أكثر تأمينًا لمستقبلهم لأن مرداويج كان قد قوى أمره فى حين ضعف أمر "ما كان". وهكذا انضموا لمرداويج الذى رحب بهم، بل إنه ولىَّ أحدهم، وهو على بن بويه، إقليم "الكَرَج"، فكان ذلك نقطة انطلاق للبويهيين نحو المجد؛ فقد نجح "على" بعد



ذلك فى السيطرة على معظم بلاد فارس، كما استطاع أخوه أحمد بن بويه – بتشجيع منه- أن يتقدم صوب العراق وأن يستولى على الأهواز وواسط.

وكانت الخلافة فى تلك الفترة- كما أشرنا- تعانى من الفوضى والتنافس حول منصب أمير الأمراء. ومن هنا شجعت انتصارات أحمد بن بويه عددًا من قواد بغداد أن يكاتبوه ويطلبوا منه القدوم إلى عاصمة الخلافة لوضع حد للفوضى بها. ووجدت تلك المبادرة ترحيبًا كاملا من الخليفة المستكفى الذى أحسن استقبال أحمد بن بويه وعينه أميرًا للأمراء وخلع عليه لقب "معز الدولة"، كما لقب أخاه عليا "عماد الدولة" وأخاه الحسن "ركن الدولة" . وكان على حاكمًا لإقليم فارس، وكان الحسن حاكمًا لعدة أقاليم أهمها الرى والجبل وأصفهان.

كان دخول أحمد بن بويه بغداد فى الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ٣٣٤هـ (ديسمبر ٩٤٥م) إيذانًا ببداية عصر جديد متميز الملامح فى تاريخ الخلافة العباسية وهو : عصر نفوذ البويهيين.

تولى منصب الخلافة فى ذلك العصر أربعة خلفاءهم:

(١) المطيع لله (أبو القاسم الفضل بن المقتدر) من سنة ٣٣٤ إلى سنة ٣٦٣هـ/ ٩٤٥- ٩٧٤م.

(٢) الطائع لله (أبو الفضل عبد الكريم بن المطيع) من سنة ٣٦٣ إلى سنة ٣٨١هـ/ ٩٧٤- ٩٩١م.

(٣) القادر بالله (أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر) من سنة ٣٨١ إلى سنة ٤٢٢هـ/ ٩٩١- ١٠٣١م.

(٤) القائم بأمر الله (أبو جعفر عبد الله بن القادر) من سنة ٤٢٢ إلى سنة ٤٤٧هـ/١٠٣١- ١٠٥٥م. (وقد استمر القائم فى منصبه بعد ظهور السلاجقة حتى سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م).

والجدير بالملاحظة أن الخليفة المستكفى بالله الذى كان آخر خلفاء عصر نفوذ الأتراك استمر فى منصب الخلافة مدة تقل عن شهرين بعد ظهور النفوذ البويهى؛ فقد خلعه معز الدولة فى أول جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م، وبايع بعده الفضل بن المقتدر ولقّبه المطيع لله .

وهناك عدة ملاحظات أساسية حول وضع الخلافة فى فترة النفوذ البويهى:

الملاحظة الأولى: أن أمر الخلافة ازداد إدبارًا كما يقول ابن الأثير، ولم يبق

للخلفاء من الأمر شىء ألبتة، "وقد كانوا يُراجَعُون ويؤخذ أمرُهم فيما يُفْعَل، والحرمة قائمة بعض الشىء، فلما كان أيام معز الدولة زال ذلك جميعه".

الملاحظة الثانية: أن الخليفة لم يعد له وزير فى تلك الفترة، كما كان الحال قبل ذلك، بل كان له كاتب يدبر شئونه، وصارت الوزارة فى يد السلطان البويهى يستوزر لنفسه من يريد .

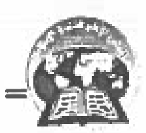
الملاحظة الثالثة: أن الخلافة فقدت سلطانها الروحى الذى كان قائمًا قبل ذلك حتى فى عصر نفوذ الأتراك؛ ذلك أن البويهيين كانوا شيعة فلم يكونوا يعترفون بالمكانة الروحية للخليفة السنى. ومن هنا أصبحوا ينظرون إلى الخليفة على أنه مجرد موظف فى مملكتهم.

هذا؛ وقد كان من أهم التطورات التى شهدها عصر النفوذ البويهى سيطرة الفاطميين على مصر وقيام الدولة الغزنوية .

أما الفاطميون فقد سبق أن ذكرنا أنهم أسسوا دولتهم فى بلاد المغرب فى سنة ٢٩٦هـ (٩٠٩م) فى عصر نفوذ الأتراك. أما فى هذا العصر فقد نجحوا فى دخول مصر والسيطرة عليها فى سنة ٣٥٨هـ (٩٦٩م) فى عصر الخليفة الفاطمى المعز لدين الله، وأسسوا القاهرة واتخذوها عاصمة لهم، وأنشأوا الجامع الأزهر. ومن مصر امتد نفوذهم إلى أماكن أخرى داخل المنطقة العربية.

أما الدولة الغزنوية فقد أخذت اسمها من مدينة "غزنة" بأفغانستان الحالية. ومؤسس هذه الدولة هو "سُبُكْتُكين"؛ وهو تركى الأصل عمل فى خدمة الدولة السامانية فى بلاد ما وراء النهر، واتسع نفوذه وتقلد إمارة "غَزْنَة" وأسس بها نواة الدولة الغزنوية، وقد استطاع ابنه محمود المشهور باسم "السلطان محمود الغزنوى" أن يوسع حدود الدولة الغزنوية، وخاصة فى شبه القارة الهندية وفى خراسان. وتوفى فى غزنة سنة ٤٢١هـ (١٠٣٠م). واستمرت الدولة الغزنوية بعد وفاته حتى أواخر القرن السادس الهجرى/الثانى عشر الميلادى. وقد اعترفت هذه الدولة بالسلطة الروحية للخلافة العباسية ودانت لها بالولاء[٢٠].

وقد أخذ النفوذ البويهى يتدهور بالتدريج فى دولة الخلافة العباسية حتى برزت قوة أخرى فتية استطاعت أن تزيحه من الميدان وهى قوة الأتراك السلاجقة.



رابعًا: عصر نفوذ السلاجقة (٤٤٧-٥٩٠هـ/١٠٥٥- ١١٩٤م):

السلاجقة أسرة كبيرة تركية الأصل تنتمى إلى زعيمها سلجوق بن تقاق، وقد نشأت فى بلاد ما وراء النهر، ثم هاجرت فى الربع الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى إلى خراسان التى كانت تحت نفوذ الغزنويين، ولكن السلاجقة بقيادة زعيمهم طُغْرُل بك استطاعوا بسط نفوذهم على خراسان والقضاء على نفوذ الغزنويين بها وعلى نفوذهم فى بلاد ما وراء النهر بصفة عامة.

وقد كان السلاجقة يعتنقون المذهب السنى. وقد أتيحت لهم الفرصة لأن ينالوا حظوة عالية لدى الخلافة العباسية السُّنِّية إبان الفتنة المعروفة بفتنة البساسيرى. والبساسيرى – وهو أبو الحارث أرسلان المظفر بن عبد الله- كان من أكابر العسكريين الأتراك فى بغداد فى أواخر عصر النفوذ البويهى، وكان بمثابة الحاكم العسكرى لمدينة بغداد. وقد استغل البساسيرى الظروف المضطربة التى كان يمر بها العراق فى تلك الفترة فأعلن ولاءه للخليفة الفاطمى المُسْتَنْصِر بالله (الذى حكم فى مصر من سنة ٤٢٧ إلى سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٣٦- ١٠٩٤م) وحاول أن يجعل بغداد خاضعة للفاطميين فى القاهرة. ولم يجد الخليفة العباسى القائم بأمر الله مَنْ يستنجد به إلا طغرل بك الذى خَفَّ لنجدته مسرورًا بهذا التشريف من الخليفة السنِّى. وقد تقدم طغرل بك بجيوشه صوب بغداد فدخلها فى سنة ٤٤٧هـ (١٠٥٥)، فاستقبله الخليفة القائم بحفاوة بالغة ولقَّبه "ملك المشرق والمغرب"، فكان ذلك إيذانا ببداية العصر السلجوقى فى تاريخ الخلافة العباسية ونهاية عصر النفوذ البويهى[٣١].

أما البساسيرى فقد هرب من بغداد، ولكنه لم يستسلم بسهولة، فقد كاتب الخليفة الفاطمى المستنصر فى مصر يستعين به، بل إنه شجع "إبراهيم ينَّال" – وهو أخو طغرل بك لأمه- على الثورة على أخيه، وبذلك ضمن انشغال طغرل بك عنه. واستطاع البساسيرى- بعد أن قوى نفوذه- أن يدخل بغداد سنة ٤٥٠هـ (١٠٥٩م) وأن يقيم بها الخطبة للخليفة الفاطمى. فاضطر الخليفة العباسى القائم بأمر الله إلى الهرب من بغداد.

ولكن طغرل بك تمكن فى النهاية من القضاء على فتنة أخيه لأمه، فاستطاع أن يحشد جهوده ضد البساسيرى،

وتُوِّجَتْ جهوده بالنجاح، حيث أنزل به هزيمة ساحقة انتهت بقتله فى ذى الحجة سنة ٤٥١هـ (١٠٦٠م). وبالقضاء على فتنة البساسيرى عاد الخليفة العباسى القائم إلى بغداد فى ظل الحماية السلجوقية [٣٢]، وبدأت بذلك حقبة النفوذ العملى للسلاجقة فى دولة الخلافة العباسية .

هكذا كان الخليفة القائم بأمر الله (٤٢٢- ٤٦٧هـ/١٠٣١- ١٠٧٥م) هو أول الخلفاء العباسيين فى العصر السلجوقى، وقد شهد نهاية النفوذ البويهى فى سنة ٤٤٧هـ. وكان آخرهم هو الناصر لدين الله (٥٧٥- ٦٢٢هـ/١١٨٠- ١٢٢٥م)، وهو الذى استطاع أن يستقل عن السلاجقة سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) كما سيأتى.

أما الخلفاء العباسيون الذين ينتمون تمامًا إلى العصر السلجوقى فهم سبعة:

(١) المقتدى بأمر الله (٤٦٧- ٤٨٧هـ / ١٠٧٥- ١٠٩٤م).

(٢) المستظهر بالله (٤٨٧- ٥١٢هـ / ١٠٩٤- ١١١٨م).

(٣) المسترشد بالله (٥١٢- ٥٢٩هـ / ١١١٨- ١١٣٥م).

(٤) الراشد بالله (٥٢٩- ٥٣٠هـ / ١١٣٥- ١١٣٦م).

(٥) المقتفى لأمر الله (٥٣٠- ٥٥٥هـ/ ١١٣٦- ١١٦٠م).

(٦) المستنجد بالله (٥٥٥- ٥٦٦هـ/ ١١٦٠- ١١٧٠م).

(٧) المستضئ بأمر الله (٥٦٦- ٥٧٥هـ/ ١١٧٠- ١١٨٠م).

والجدير بالملاحظة أن سلاطين السلاجقة- رغم إحكام سيطرتهم على الخلافة العباسية فى ذلك العصر- كانوا حريصين على أن يحتفظوا للخلفاء العباسيين بمكانتهم الروحية وأن يحيطوهم بما يستحقونه من توقير وإجلال. ومن هنا لم يتعرض الخلفاء على أيديهم للقتل أو الخلع أو التعذيب كما كان الحال فى عصر النفوذ البويهى أو العصر الذى سبقه. ومما يعكس هذه المكانة أن السلاجقة سمحوا للخلفاء باتخاذ الوزراء. فأصبح للسلطان السلجوقى وزيره، وللخليفة وزيره؛ وإن كان وزير السلطان بالطبع أوسع نفوذًا من وزير الخليفة.

وقد شهدت فترة النفوذ السلجوقى فى الخلافة العباسية عددًا من الأحداث المهمة، يأتى على رأسها قيام الحروب الصليبية ٤٨٩هـ (١٠٩٦م) نتيجة تهديد السلاجقة للإمبراطورية البيزنطية وخاصة

فى آسيا الصغرى، وهى تلك الحروب التى استمرت زهاء قرنين من الزمان. ومن الأحداث المهمة أيضًا خلال تلك الفترة قيام دولة بنى زنكى فى بلاد الجزيرة والشام فى النصف الأول من القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى). وهى الدولة التى قامت بدور رائع فى الجهاد وضد الصليبيين. وهناك حدث آخر بالغ الدلالة فى هذا السياق وهو سقوط الدولة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية على يد صلاح الدين الأيوبى فى سنة ٥٦٧هـ (١١٧١م)، وهى الدولة التى قامت بالدور الأعظم فى الجهاد ضد الصليبيين، وذلك من خلال توحيد الجبهتين المصرية والسورية وحشد جهودهما ضد هذا العدو الأكبر.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أيضًا ظهور الحركة الباطنية فى تلك الفترة على يد مؤسسها الحسن بن الصباح المتوفى سنة ٥١٨هـ (١١٢٤م) [٣٣] وهى حركة شيعية غامضة تنتمى إلى فرقة الإسماعيلية وتجعل الباطن لا الظاهر أساسًا لفهم أمور الدين وتلجأ إلى تأويل النصوص. ويطلق عليها أحيانًا اسم "الحشاشين". وقد عاث "الباطنية" فسادًا فى العالم الإسلامى مدة قرنين من الزمان تقريبًا، واتخذوا من قلعة "أَلَمُوت" ببلاد فارس مركزًا لعملياتهم الإجرامية.

وقد ضعف السلاجقة فى أواخر فترة نفوذهم وتبعثرت قواهم وتراخت قبضتهم على العراق، الأمر الذى أتاح للخليفة الناصر لدين الله (أحمد بن المستضئ بأمر الله) أن يستقلَّ ببغداد وما حولها سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) ليبدأ العصر الخامس والأخير من عصور الخلافة العباسية.

خامسًا: عصر ما بعد السلاجقة (٥٩٠- ٦٥٦هـ/ ١١٩٤- ١٢٥٨م):

رغم أن خلفاء تلك الفترة تمتعوا بالسيادة والاستقلال فإن الرقعة التى مارسوا عليها استقلالهم لم تكن تتجاوز بغداد وما حولها. فقد خرجت سائر بلدان الخلافة العباسية- بما فى ذلك معظم أنحاء العراق- عن سيطرة الخلافة، وأصبح الخليفة أقل نفوذًا بكثير من حاكم إحدى الولايات حين كانت دولة الخلافة متماسكة الأطراف.

ولهذا أصبح لقب "خليفة" فى هذه المرحلة الأخيرة شكلا بلا مضمون، وفقد هذا المنصب هيبته ومكانته. وقد استمر الخليفة الناصر لدين الله فى منصبه حتى وفاته فى سنة ٦٢٢هـ (١٢٢٥م). وقد تولى

الحكم بعده ثلاثة خلفاء ينتمون تمامًا لهذا العصر الأخير؛ وهم:

(١) الظاهر بأمر الله (محمد بن الناصر لدين الله)، من سنة ٦٢٢ إلى ٦٢٣ (١٢٢٥- ١٢٢٦م).

(٢) المستنصر بالله (منصور بن الظاهر)، من سنة ٦٢٣إلى ٦٤٠هـ (١٢٢٦- ١٢٤٢م).

(٣) المستعصم بالله (عبد الله بن المستنصر)، من سنة ٦٤٠ إلى ٦٥٦هـ (١٢٤٢- ١٢٥٨م).

كان العالم الإسلامى فى هذا العصر الأخير من تاريخ الخلافة العباسية قد وصل إلى حالة يُرثى لها من الضعف والتفكك؛ فالبيت الأيوبى فى مصر والشام كان منقسمًا على نفسه، ولم يكن البيت السلجوقى فى المشرق بأحسن حالاً، وكان الصليبيون مازالوا يجثمون على صدر الأمة الإسلامية. وقد أضيف إلى الخطر الصليبى فى هذا العصر الأخير خطر آخر أشد فتكا وأوسع مدى وهو خطر المغول أو التتار.

فقد استطاع جنكيز خان فى أواخر القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) أن يوحد قبائل المغول، وأصبحت منغوليا كلها تحت سلطانه فى أوائل القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى). وزحف إلى مشرق العالم الإسلامى فاستولى على بخارى وسمرقند وخوارزم. وعندما تولى هولاكو (حفيد جنكيز خان) قيادة المغول تقدم نحو العراق واقتحم بغداد عاصمة الخلافة فى العاشر من المحرم سنة ٦٥٦هـ (١٧ من يناير سنة ١٢٥٨م) ودمّرها وقتل أهلها بلا رحمة؛ ومن بين القتلى الخليفة المستعصم بالله. وبهذه النهاية المأساوية زالت دولة العباسيين من المشرق بعد أن استمرت أكثر من خمسة قرون تولى الحكْمَ خلالها سبع وثلاثون خليفة .

والملاحظ أن الدولة المملوكية فى مصر والشام نقلت مقر الخلافة العباسية إلى مصر، ولكن هذا كان محاولة من المماليك لإضفاء الشرعية على حكمهم، ولم يكن امتدادًا حقيقيًا للخلافة فى بغداد.

أهم المظاهر الحضارية فى دولة العباسيين:

وصلت الحضارة الإسلامية - بجانبيها النظرى والتجريبى- خلال العصر العباسى إلى مستوىً أهَّلَها لأن تتبوأ مركز الصدارة فى العالم كله.

فقد شهد هذا العصر منذ بدايته



ازدهار حركة التدوين فى العلوم المختلفة. ونكتفى هنا برصد بعض الأمثلة؛ فقد صنف الإمام مالك بن أنس كتاب "الموطأ" فى الحديث بتوجيه من الخليفة أبى جعفر المنصور. كما صنف ابن المقفع فى عهد المنصور أيضًا كتاب "الأدب الصغير" وكتاب "الأدب الكبير" وكتاب "الدرة اليتيمة فى طاعة الملوك"، ونقل كتاب "كليلة ودمنة" إلى العربية فى أسلوب أدبى رفيع. كما ظهرت المدارس الفقهية الأربعة فى هذا العصر: مدرسة الإمام أبى حنيفة والإمام مالك بن أنس والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل، وصُنفت الكتب الفقهية فى هذه المذاهب إما على يد مؤسسيها أنفسهم أو على يد تلاميذهم. كما صُنفت كتب الصحاح الستة المشهورة فى الحديث وهى: صحيح البخارى وصحيح مسلم وسنن أبى داود وابن ماجه والترمذى والنسائى، وظهرت كتب المسانيد وعلى رأسها مسند الإمام أحمد بن حنبل.

وظهر فى مجال التفسير العديد من المؤلفات المهمة ويأتى على رأسها كتاب "جامع البيان فى تفسير القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ (٩٢٣م) فى ثلاثين مجلدًا. ويضم هذا الكتاب بين دفتيه خلاصة الفكر والتراث الإسلامى فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة.

وازدهر التصنيف فى مجال العلوم اللغوية، وظهر علماء من أمثال سيبويه صاحب أشمل وأشهر كتاب فى النحو واللغة وهو المعروف باسم "الكتاب"؛ وقد توفى سيبويه فى حدود سنة ١٧٧هـ (٧٩٣م) فى خلافة هارون الرشيد، وكان تلميذًا للخليل بن أحمد الفراهيدى المتوفى فى حدود سنة ١٧٥هـ (٧٩١م) وهو مؤلف أول معجم فى اللغة العربية وهو "كتاب العين" الذى رتبه طبقًا لمخارج الحروف من العين إلى الياء. ويرجع إليه الفضل أيضًا فى ابتكار علم العروض. وتوالت بعد الخليل وسيبويه المؤلفات الجليلة فى النحو واللغة على يد علماء مثل أبى زكريا الفرّاء وابن السِّكيت والمبرِّد وابن الأنبارى وأبى سعيد السيرافى وأبى على الفارسى وابن جنى، وغيرهم كثير.

وظهرت فى هذا العصر أيضًا الموسوعات الأدبية الضخمة مثل موسوعة "البيان والتبيين" و"الحيوان" للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ (٨٦٩م)، وموسوعة "عيون الأخبار" لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ (٨٨٩م)، وموسوعة "الأغانى" لأبى

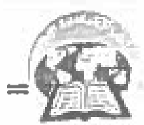
الفرج الأصفهانى المتوفى سنة ٣٥٦هـ (٩٦٧م)وموسوعة "يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر "لأبى منصور الثعالبى المتوفى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) . وذلك على سبيل المثال لا الحصر.

وحظيت الكتابة التاريخية بنصيب وافر من الازدهار فى هذا العصر. وقد بدأ المسلمون يُدوِّنون أولا سيرة الرسول ﷺ، ومن أسبق المصنفات فى هذا المجال كتاب السيرة النبوية لمحمد بن إسحاق المتوفى حوالى سنة ١٥١هـ (٧٦٨م)، وقد ألفه لمحمد (المهدى) ابن الخليفة أبى جعفر المنصور بناء على طلب الخليفة، وهذا الكتاب هو الذى اختصره عبد الملك بن هشام المتوفى حوالى سنة ٢١٨هـ (٨٣٣م) فى الكتاب الذى اشتهر باسم "سيرة ابن هشام". ومن أبرز المؤلفات فى هذا المجال أيضًا كتاب "المغازى" للواقدى (محمد بن عمر) المتوفى سنة ٢٠٧هـ (٨٢٣م)، وكتاب "الطبقات الكبرى" لتلميذه وكاتبه محمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠هـ (٨٤٥م). ثم اتسعت دائرة التأليف فى التاريخ لتغطى كل مجالاته.

ومن أشهر المصنفات فى التاريخ العام كتاب "تاريخ الرسل والملوك" لمحمد بن جرير الطبرى، وكتاب "مروج الذهب ومعادن الجوهر" للمسعودى (على بن الحسين) المتوفى سنة ٣٤٦هـ (٩٥٧م). ومن أشهر المصنفات فى تواريخ المدن وتراجم أعلامها كتاب "تاريخ بغداد" للخطيب البغدادى المتوفى سنة ٤٦٣هـ (١٠٧١م)، وكتاب "تاريخ مدينة دمشق" لابن عساكر.

وقد أبدع المسلمون فى هذا العصر أيضًا فى مجال البحوث الجغرافية، ومن أمثلتها كتاب "مسالك الممالك" للإصطخرى، وهو من علماء القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى، وكتاب "أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم" للمقدسى ، وهو كذلك من علماء القرن الرابع الهجرى، وكتاب "معجم البلدان" لياقوت الحموى وهو من علماء القرنين السادس والسابع الهجريين/ الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين.

كما كان للمؤلفات الفلسفية نصيبها الواضح من الاهتمام فى العصر العباسى. ومن بين الفلاسفة المرموقين فى هذا العصر أبو نصر الفارابى (ت ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م)، وهو صاحب "إحصاء العلوم" وكتاب "آراء أهل المدينة الفاضلة". ولعل أبرز فلاسفة هذا العصر دون منازع الشيخ الرئيس أبو على بن سينا (ت ٤٢٨هـ/



١٠٣٦م). ومن أهم كتبه الفلسفية كتاب "الإشارات" وكتاب "الشفاء" وكتاب "النجاة". ولم تَقِلَّ مكانة ابن سينا الطبية عن مكانته الفلسفية. وكتابه "القانون" كان من أهم الموسوعات الطبية فى العصر الوسيط.

وحديثنا عن ابن سينا ومكانته الطبية فى هذا العصر يدفعنا إلى إشارة موجزة عن إسهامات المسلمين فى تلك الفترة فى مجال الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء وغيرها من العلوم "المدنيَّة". وتبرز هنا أسماء عديدة كالبيرونى (المتوفى ٤٤٠هـ/١٠٤٨م)، فقد برع فى الفلك والرياضيات والطب. ومن الأسماء البارزة أيضًا الخوارزمى (المتوفى ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م). وكان مقربا من الخليفة المأمون. وهو صاحب كتاب "الجبر والمقابلة"[٣٤]، وله بحوث مبتكرة فى علم الفلك. وممن برعوا فى الرياضيات والفلك أولاد موسى ابن شاكر الثلاثة وهم محمد وأحمد والحسن، وكانوا محل رعاية المأمون. ومن العلماء الذين تجدر الإشارة إليهم أيضًا أبو بكر الرازى (المتوفى فى حدود سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م)، وقد اشتهر بالطب والكيمياء، "وظل حجة الطب فى أوروبا حتى القرن الحادى عشر الهجرى/القرن السابع عشر الميلادى"[٣٥].

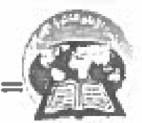
هذه مجرد لمحاتٍ خاطفة عن إسهامات المسلمين فى العصر العباسى فى مجال العلوم الرياضية والتجريبية. وقد كان لحركة الترجمة من التراث العالمى إلى اللغة العربية أثر واضح فى اتجاه المسلمين إلى دراسة هذه العلوم والإبداع فيها. وقد بدأت حركة الترجمة على يد الخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور، وازدهرت ازدهارًا كبيرًا فى عصر هارون الرشيد وابنه المأمون[٣٦]. وكان لوضع نواة بيت الحكمة فى عصر الرشيد واكتماله فى عصر المأمون أثر كبير فى رعاية هذه الحركة. وكان بيت الحكمة يتمتع بمكتبة ضخمة وأكاديمية بحثيه وقسم للترجمة (انظر مادة بيت الحكمة).

إن الازدهار الحضارى الذى شهده العصر العباسى اتسع ليشمل الجوانب العمرانية والإدارية والاقتصادية. فقد ازدهرت الحركة العمرانية فى تلك الفترة ازدهارًا كبيرًا، وقدَّمت بغداد أعظم مثال لهذا الازدهار؛ فلم يمر على إنشائها سنة ١٤٥هـ (٧٦٢م) فى عصر المنصور وقتٌ طويل حتى أصبحت من أهم مدن العالم فى عمارتها وقصورها ومؤسساتها. وأصبحت تنافس القسطنطينية عاصمة

الدولة البيزنطية فى عظمتها وبهائها. وقد تمكنتْ بعد دمارها فى فتنة الأمين والمأمون من أن تنهض سريعًا من كبوتها وأن تستعيد رونقها القديم وتضيف إليه. فقد شهدت العصور المتوالية للخلافة العباسية مزيدًا من الازدهار العمرانى فى بغداد؛ ففى عصر النفوذ البويهى تمتعت بغداد بنهضة عمرانية واسعة، فجُدِّدتْ عمارة مبانيها وأعيد حفر أنهارها وعُمِّرت مساجدها وأسواقها وأنشىء بها المستشفى الكبير الذى ينسب إلى عضد الدولة وهو البيمارستان العضدى الذى يشبه المستشفيات التعليمية الجامعية فى عصرنا. وحظيت بغداد كذلك بمثل هذه النهضة العمرانية فى العصر السلجوقى وخاصة فى زمن وزارة الوزير المشهور نظام الملك الذى تولى الوزارة للسلطان ألب أرسلان ثم لابنه ملكشاه وظل فى منصبه ثلاثين عامًا تقريبًا؛ فقد أنشأ سلسلة المدارس النظامية فى أهم بلدان الخلافة العباسية وعلى رأسها بغداد، وذلك بهدف نشر المذهب السنى المعتدل ومقاومة البدع والأهواء. وقد كان إنشاء المدارس النظامية بداية للتوسع الكبير فى إنشاء المدارس والمؤسسات الثقافية المختلفة فى أنحاء دولة الخلافة فى الأزمنة اللاحقة.

أما الجانب الإدارى فقد شهد تطورًا ملحوظًا فى العصر العباسى. وكان للخليفة العباسى الثانى أبى جعفر المنصور الفضل الأكبر فى إرساء القواعد الإدارية للدولة العباسية كما سبقت الإشارة. ويُؤْثَرُ عنه قوله فى هذا الصدد: "ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر... هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم... أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه فى الله لومة لائم؛ والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى؛ والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية؛ والرابع... صاحب بريد يكتب إلىَّ بخبر هؤلاء على الصحة"[٣٧]. والملاحظ أن نظام البريد فى العصر العباسى اتسع بشكل غير مسبوق، فقد كانت مهمة البريد فى بداية نشأته توصيل رسائل الخليفة إلى ولاته وعماله ونقل رسائلهم إليه، وكذلك نقل أخبارهم. ولكن مهمة البريد فى العصر العباسى اتسعت، فأصبح على صاحب البريد أن يقدم تقارير دورية وافية إلى الخليفة أو السلطان عن كل ما يحدث فى مكان عمله، فأصبحت مهمة البريد شبيهة بقلم المخابرات فى عصرنا.

كما تطور منصب الكتابة فى العصر العباسى واتسعت سلطة الكاتب وأصبح



يرأس ديوان الرسائل الذى كان يُعَدّ من أخطر دواوين الدولة العباسية. ومن هنا كان الخلفاء يسندون أمر هذا الديوان فى كثير من الأحيان إلى وزرائهم، ولم يكن الوزير هو الذى يتولى الكتابة الفعلية للرسائل بل كان يقرؤها ويجيزها بتوقيعه. وأشهر من اشْتُهِرَ بذلك يحيى البرمكى وابنه جعفر. وفى المراحل الأخيرة للدولة العباسية استقلت الكتابة وأسندت إلى غير الوزراء وأصبح ديوان الرسائل يعرف بديوان الإنشاء(٣٨).

وقد برز دور الشرطة بروزًا كبيرًا فى العصر العباسى، وارتقى هذا الجهاز إلى مرتبة الديوان المستقل، فلم تعد الشرطة تابعة للقضاء كما كانت فى العصر الأموى. كما ظهر فى العصر العباسى ديوان النظر فى المظالم وديوان الحسبة، فكان الديوان الأول يختص بالنظر فيما عجزت الإجراءات القضائية العادية عن تنفيذه، وحسم القضايا المعقدة التى يحتاج حسمها- مع الفقه بالقضاء- إلى سطوة السلطة، ولهذا كان الخلفاء فى العادة يتولون بأنفسهم النظر فى المظالم. أما الديوان الثانى- وهو ديوان الحسبة - فمهمته الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فيُعَيِّن الخليفة لذلك من يراه أهلا له ويتخذ الأعوان على ذلك، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدينة(٣٩).

ومن الدواوين الأخرى التى ظهرت فى العصر العباسى الديوان العزيز وديوان النفقات وديوان السر. فالديوان العزيز هو الذى يمثل السلطة العليا فى حكومة الخلافة، ولهذا يرأسه الوزير فى العادة، وهو الذى يمثل الساعد الأيمن للخليفة. ويضمّ هذا الديوان رؤساء الإدارات الحكومية المختلفة. والديوان العزيز هو ما أطلق عليه فى الدولة العثمانية "الباب العالى".

ويختص ديوان النفقات بكل ما يخص الإنفاق على دار الخلافة من رواتب الموظفين والمؤن اللازمة للقصر والإشراف على المبانى التابعة لدار الخلافة.. إلى غير ذلك مما يتصل بنفقات دار الخلافة.. أما ديوان السر فيختص بوسائل المحافظة على الأسرار العليا للدولة والحرص على ألا يتسرب من هذه الأسرار ما يعود على الحكومة أو الرعية بالأذى.

نأتى أخيرًا إلى الجانب الاقتصادى فى دولة الخلافة العباسية. ويرجع إلى الخليفة الثانى أبى جعفر المنصور الفضل الأكبر فى إرساء الأسس الاقتصادية لدولة الخلافة؛ فقد أحسن استغلال الموارد

الهائلة للدولة كما سبقت الإشارة. ويؤثر عنه أنه قال لابنه محمد المهدى قبيل وفاته: "قد جمعت لك من الأموال ما إن كُسِرَ عليك الخراجُ عشر سنين كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور، فاحتفظ بها، فإنك لا تزال عزيزًا ما دام بيت مالك عامرًا"[٤٠] وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادى على خلفائه فى العصر العباسى الأول، وخاصة فى خلافة المهدى والرشيد والمأمون. أما فى العصور العباسية التى تلت العصر الأول فقد توافرت مصادر القوة الاقتصادية لدى العديد من الدول التى كانت تخضع اسميًا للخلافة خلال تلك العصور، ومن أبرز أمثلتها الدولة الصَّفَّارية والسامانية والطولونية والغزنوية والأيوبية. فقد ترك يعقوب بن الليث الصفار- مؤسس الدولة الصفارية- فى بيت المال عند وفاته ثمانين مليون دينار وخمسين مليون درهم. وكانت الدولة السامانية التى قامت فى بلاد ما وراء النهر تتمتع بإمكانات اقتصادية هائلة، وكذلك الدولة الغزنوية التى اتسعت فتوحاتها اتساعا هائلا فى بلاد الهند. وقد ازدهرت الزراعة فى تلك الدول وظهرت فيها صناعات تعتمد على الإنتاج الزراعى كمصانع النسيج ومعامل تكرير السكر، كما ازدهرت فى مصر والشام وسمرقند صناعة الورق وازدهرت صناعة الحديد فى بلاد فارس.

ولا شك أن الازدهار الزراعى والصناعى ترتب عليه ازدهار تجارى، وكان هذا الازدهار داخليًا وخارجيًا؛ فقد تبادلت دول الخلافة منتجاتها، وظهر الاهتمام- من أجل هذا- بتوفير الطرق التجارية المناسبة والعناية بالموانى والأساطيل التجارية. كما ازدهرت تجارة المسلمين فى ذلك العصر مع الهند والصين والبلاد الأوروبية[٤١]. والجدير بالملاحظة هنا أن الإسلام بدأ ينتشر فى العديد من بقاع العالم عن طريق التجار المسلمين الذين كانوا يحملون – بجانب تجارتهم فى تلك البقاع- عقيدتهم أيضًا ويعملون على نشرها بالأساليب الإسلامية الصحيحة القائمة على الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) راجع ترجمة العباس بن عبد المطلب فى : أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، ط. دار الشعب بالقاهرة ١٩٧٠م،ج٣،ص١٦٣ وما بعدها. وراجع ترجمة عبد الله بن العباس فى : نفس المصدر، ج٣، ص ٢٩، وما بعدها.

(٢) انظر : ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب " دار الكتب العلمية " بيروت (د. ت) ج١، ص ١٤٩.

(٣) حول قيام الخلافة العباسية ودور محمد بن على وإبراهيم الإمام راجع: د . محمد حلمى أحمد: الخلافة والدولة فى العصر العباسى، مكتبة الشباب ١٩٧٢م، ص ٣١، ٣٨.

(٤) انظر : تاريخ الطبرى ، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف بالقاهرة، ج٧، ص ٤٥٠ وما بعدها، والكامل فى التاريخ لابن الأثير، دار صادر ، بيروت، ج ٥، ٤٢٩ وما بعدها.

(٥) حول مؤامرة أبى سلمة وقتله انظر: ابن خلكان، وفيات الأعيان ، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر ، بيروت ، ١٩٧٧، ج٢، ص ١٩٦ .

(٦) ابن الأثير، الكامل ، ج٥، ص ٥٨١- ٥٨٢ .

(٧) تاريخ الطبرى، ج٧، ص ٤٨٣ ، وما بعدها .

(٨) نفس المصدر، ص ٥٧٧، وما بعدها، وص ٦٤٧- ٦٤٨ .

(٩) ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية، شركة طبع الكتب العربية بمصر ١٣١٧هـ، ص ١٤٢ .

(١٠) د. حسن إبراهيم حسن ود. على إبراهيم حسن . النظم الإسلامية ، مكتبة النهضة المصرية. بالقاهرة ١٩٧٠.

(١١) تاريخ الطبرى ، ج ٨، ص ١٤٤.

(١٢) نفس المصدر، ج ٨، ص ١٤٢.

(١٣) راجع تفاصيل هذه الثورة فى تاريخ الطبرى، ج٨، ص ١٩٢- ٢٠٣.

(١٤) ابن خلدون : المقدمة، طبعة المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د. ت) ، ص ١٦ .

(١٥) انظر: مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى، تحقيق السيد أحمد صقر، الهيئة العامة لقصور الثقافة . القاهرة . ٢٠٠٣م، ج ٢، ص ٤٨٧- ٤٩١.

(١٦) حول دولة الأغالبة راجع: د. حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٩٦، ج ٢، ص ١٧٢- ١٨٠.

(١٧) ابن خلكان ، مصدر سابق، ج ٢، ص ٣١- ٣٤ .

(18) Philip Hitti, History of the Arabs,London 197, p. 200.

(١٩) تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ٢٦٨ .

(٢٠) انظر حول ذلك: تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت ٢، ١٩٩،ج ٢، ٤٠٨. وما بعدها ؛ وتاريخ الطبرى، ج ٨، ص ٢٦٩ وما بعدها .

(٢١) انظر : تاريخ الطبرى، ج ٨، ص ٣٠٧- ٣٠٨، ٣٢٠ - ٣٢٢.

(٢٢) حول محاولة تحويل الخلافة لعلى بن موسى الرضا راجع : الطبرى ، ج ٨، ص ٥٥٤ ، وما بعدها

(٢٣) للتفاصيل انظر: ابن الأثير، الكامل ، ج ٦، ص ١٩٥ وما بعدها

(٢٤) لمزيد من التفاصيل حول هذا المحنة راجع : عبد الرحمن سالم: التاريخ السياسى للمعتزلة . دار رؤية . القاهرة ، ص ٣٠١- ٣٢٠ .

(٢٥) لمزيد من التفاصيل راجع: الطبرى، ج ٨، ص ٦٢٥ وما بعدها .

(٢٦) نفس المصدر، جـ٩، صـ١١ وما بعدها.

(٢٧) نفس المصدر ، ج ٩ ص ٥٧ وما بعدها.

(٢٨) ياقوت الحموى: معجم البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، مادة "سامرا"، جـ٣، صـ١٩٦

(٢٩) حول عصر نفوذ الأتراك وأهم ما حدث فيه من تطورات راجع: د. محمد حلمى محمد أحمد، مرجع سابق، صـ٨٣ وما بعدها

(٣٠) لمزيد من التفاصيل حول العصر البويهى انظر: المرجع السابق، صـ١٦٥، وما بعدها

(٣١) انظر: ابن الأثير: الكامل، جـ٩، صـ٦٠٩- ٦١٠ و صـ٦٣٤ .

(٣٢) نفس المصدر، جـ٩، صـ٦٤٥ وما بعدها .

(٣٣) راجع مادة: "الحسن بن الصباح" فى دائرة المعارف الإسلامية. الطبعة العربية. دار الشعب، القاهرة، جـ١٤، صـ٣٤٩- ٣٥١ .

(٣٤) انظر: د. عبد الحليم منتصر: تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدُّمه، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠١م، صـ١٠٧ .

(٣٥) نفس المرجع، صـ١١١. وانظر أيضًا: W.Montgomry Watt, Islamic Philosophy and Theology, Edinburgh, 1962, pp. 47- 48.

(36) See, Philip Hitti, op.cit., 311- 316 , M.Watt, op.cit., pp. 41- 48

(٣٧) د. حسن إبراهيم حسن وعلى إبراهيم حسن: النظم الإسلامية، صـ٢١٠، وما بعدها .

(38) For more details see: Philip Hitti, op.cit. pp. 317- 331.

(٣٩) مقدمة ابن خلدون، صـ٢٢٥ .

(٤٠) تاريخ الطبرى، جـ٨، ص١٠٣ .

(41) Philip Hitti, op-cit., pp. 343- 352

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير (عز الدين على بن محمد): الكامل فى التاريخ. دار صادر، بيروت، الأجزاء: ٥- ٩.

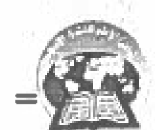
٢. الطبرى (محمد بن جرير): تاريخ الرسل والملوك. بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بالقاهرة الجزآن السابع والثامن.

٣. المسعودى (على بن الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر بتحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد. المكتبة الإسلامية بيروت (د.ت) الجزء الرابع.

٤. د. محمد حلمى محمد أحمد: الخلافة والدولة فى العصر العباسى. مكتبة الشباب، القاهرة، ١٩٧٢م

٥. Philip Hitti, History of the Arabs, London, 1970

٦. W.Montgomery Watt, Islamic Philosophy and Theology, Edinburgh, 1962 .



العثمانيون

نشأة الدولة العثمانية :

تجمع المصادر على أن العثمانيين ينتمون إلى قبيلة من قبائل الغزّ هى قبيلة "قايى"، التى كانت – هى وغيرها من القبائل التركية – تنزح على أزمنة متباعدة من مناطق شرق آسيا ووسطها؛ بحثاً عن المراعى الجيدة إلى غرب آسيا ، نحو بلاد الأناضول . وقد اشتركت هذه القبيلة الوثنية بزعامة قائدها أرطغرل إلى جانب السلطان علاء الدين سلطان قونيه فى العديد من الحروب وخاصة حربه ضد الخوارزميين · ونتيجة لذلك كافأه السلطان السلجوقى بأن أعطى له بعض الأراضى الخصبة قرب مدينة أنقرة · وقد علت مكانة أرطغرل عند السلطان السلجوقى بعد أن أثبت إخلاصه للسلاجقة وأظهرت عشيرته كفاءة قتالية عالية فى كل معركة اشتركت فيها ، حتى إن السلطان السلجوقى لقبة بلقب " أوج بكى" أى محافظ الحدود · ثم قام أرطغرل باسم السلطان السلجوقى بمهاجمة ممتلكات البيزنطيين فى الأناضول واستطاع ان يوسع أراضيه خلال مدة نصف قرن قضاها أميراً على مقاطعة حدودية ، وتوفى عام ٦٩٩هـ/ ١٢٩٩م عن عمر يناهز ثلاثة وتسعين عاما . وخلفة ابنه عثمان الذى تنسب إليه الدولة العثمانية. ولم تستطع دولة سلاجقة الروم أن تصمد طويلا أمام هجمات المغول فسقطت عام ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م واستقل كل أمير بما تحت يده، وأصبح عثمان بن أرطغرل منذ ذلك الحين أميرًا لدولة مستقلة فتحول العثمانيون فى وقت قصير من قبيلة متنقلة إلى دولة مستقرة ، واستطاعوا أن يهيئوا لأنفسهم مكاناً وسط الإمبراطوريات القديمة ، والإمبراطورية البيزنطية المتداعية ، والإمبراطورية السلجوقية المتهالكة ، وإمبراطورية المغول الواسعة، ودولة المماليك الفتية فى أوج مجدها. واستطاعت الدولة العثمانية بجهود أبنائها وقادتها أن ترث ما بقى من دولتى السلاجقة والبيزنطيين ، ثم نجحت فى فترة تالية فى القضاء على دولة المماليك ، وضم ممتلكاتهم·ويمكن إرجاع تفوق الإمارة العثمانية على باقى الإمارات السلجوقية إلى عدد من العوامل التى تهيأت لهذه الإمارة، فسهلت للعثمانيين

تشكيل دولتهم وتأسيسها والاستقلال بها. وقد بدأ العثمانيون الاستفادة من هذه الظروف المتاحة لهم فى عهد أرطغرل وابنه عثمان، ومن أبرز هذه العوامل والظروف ما يلى :

الوجود التركى القديم فى الأناضول:

هذا الوجود الذى مضى عليه إبان قيام الدولة العثمانية خمسة قرون ، سواء أكان هذا الوجود اجتماعيا فقط ، أم مدعوماً بقوى سياسية ؛ إذ البداية فى الوجود التركى رحيل أسر تركية إلى الأناضول بفعل عوامل متعددة ، من أبرزها : البحث عن المراعى الجيدة فى غرب آسيا ، ثم توج هذا الوجود الاجتماعى ببروز القوى السياسية فى الأناضول ، الذى أدى إلى قيام دولة سلاجقة الروم ٤٦٦هـ/ ١٠٧٤م. وهذا الوجود التركى القديم المتزايد أوجد للعثمانيين تجانسا معه ، ثم تحققت فوائده للعثمانيين على حساب السلاجقة والبيزنطيين ، ثم على حساب الإمارات التى خلفت الدولة السلجوقية ، وبخاصة تلك التى تزامن إتيانها مع قيام الدولة العثمانية، وقد كانت عناصر شديدة البأس، عريقة فى البداوة ، محاربة بطبعها، والقبيلة منظمة كأنها جيش مستعد لأى أمر يطلبه منها شيخ القبيلة، وأسلوب الحياة البدوية يدفع إلى الروح القتالية،والطاعة المطلقة، والاستعداد للحرب . وهذا ما نلمسه بوضوح فى قيام الدولة العثمانية، حيث نظر الأتراك إلى الدولة بوصفها قبيلة كبيرة ، وبخاصة فى عهد أرطغرل وابنه عثمان. ودعم ذلك فى عهود السلاطين الآخرين ما قام به هؤلاء السلاطين من توسع فى البلاد باسم الإسلام ، وصراع مع القوى النصرانية باسم الإسلام، كذلك بروز الطابع الدينى المتقد حماسة لدى العثمانيين منذ عهد الأمير عثمان ؛ إذ على الرغم من أن الأتراك قد بدأوا الدخول فى الإسلام فى وقت مبكر، إلا أنه فى عهد هذا الأمير زاد انتشار الإسلام فيهم. ويبدو أنهم قبل ذلك كانوا يعيشون حالة من الانتقال من الوثنية إلى الإسلام . وقد كان لتمسك العثمانيين بالإسلام أثر كبير فى مستقبلهم الدينى والعسكرى والسياسى، لا يقل عما تركة هذا الدين فى عرب شبه الجزيرة ؛ فقد هيأ الإسلام للعثمانيين وحدة فى العقيدة ، وحماسة ظاهرة فى الدفاع عنها ، واجتمع هذا مع طبيعة عسكرية صارمة ، مرتبطة بنزعة قبلية قوية ، وبخاصة إبان قيامها،ثم عمل

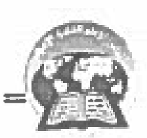
السلاطين العثمانيون على زيادتها واستمرارها حتى غدت سمة بارزة فى التاريخ العثمانى، وبشكل خاص فى علاقة العثمانيين بأوربا النصرانية ·وقد سعى الأمير عثمان لوضع نظم إدارية لإمارته ،تضمن لقبيلته الاستقرار والتوطن ، والانتقال من نظام القبيلة المتحولة إلى نظام الإدارة المستقر، وبذلك انتقلت هذه القبيلة من البداوة إلى التحضُّر، مما ساعد على توطيد مركزها، وتطورها تطوراً سريعاً إلى دولة كبرى ، هذا مع احتفاظ هذه القبيلة - حتى بعد أن أصبحت دولة - بمظهر من مظاهر الطابع البدوى فى الطاعة المطلقة لشيخ القبيلة الذى أصبح سلطانا ، مع الرغبة فى الحرب والاستعداد للقتال كما مر فى العامل الثانى ،كما أن أهم دولتين فى آسيا الصغرى وهما الدولة البيزنطية، ممثلةً فى إماراتها فى آسيا ، ودولة سلاجقة الروم، كانتا قد وصلتا إلى حالة شديدة من الضعف والانهيار؛ نتيجة الصراع الطويل بين هاتين الدولتين، ونتيجة تعرض البيزنطيين الأرثوذكس للغزو الكاثوليكى ، وتعرض دولة السلاجقة لغزو المغول ؛ مما جعل منطقة الأناضول تعيش فراغا سياسيا ، ساعد الدولة العثمانية فى بداية تكوينها على ملئه على أنقاض هاتين الدولتين المتداعيتين ·

التوسعات العثمانية

لقد اتبع العثمانيون منذ عهد أرطغرل سياسة حربية نشطة أساسها أن يتم توسيع إمارتهم فى الممتلكات البيزنطية فى آسيا ،بحيث تكون غزواتهم ضد النصارى فى غرب الأناضول،وليس ضد المسلمين فى الشرق والجنوب؛ كل ذلك تحقيقا للعوامل التى ساعدت على قيام دولتهم ،وكانت سياستهم الحربية هذه غاية فى الذكاء؛ فقد كسبوا دعم السلاجقة وأمرائهم من بعدهم؛ لأنهم يحاربون البيزنطيين ، زيادة على أن توسعهم الأول كان لحساب السلطان السلجوقى ·وعندما أعلن السلطان عثمان الغازى استقلاله أتاه كثير مِنَ علماء وأعيان وأمراء الدولة السلجوقية المنقرضة ودخلوا تحت حمايته واستمر يجاهد بعد الاستقلال نحو سبع سنوات واستولى من دولة الروم على كثير من الجهات، ولما رأى من نفسه عدم القدرة على حمل مشاق الأسفار لتقدمه فى السن نصب ابنه أورخان بك قائداً للجنود·.

ثم إن السلطان عثمان وجَّه اهتمامه لتوسيع دائرة أملاكه فحاصر قلعة إزْنيق الشهيرة وأنشأ فى جانب قلعتها على الجبل من جهة يكيشهر القلعة المسماة سردار طارطغان،وفى أثناء ذلك اتفق عامل بروسه مع حكام أدريانوس وكستل وكته على مهاجمة مدينة يكيشهر مقام العثمانيين فقابلهم السلطان عثمان على رأس جيشه وهزمهم، ولما عزم السلطان عثمان الغازى على فتح بروسه أنشأ لذلك قلعتين حولها وعين لهذه المهمة الغازى أورخان سنة ٧٢٦هـ (١٣٢٦م) وبعد خروجه من مدينة يكيشهر مر" بأطره نوس" ولما تقابل مع حاكمها أراد القبض علية ففر من وجهه إلى أن وقع من صخرة فمات، وأرسل الغازى أورخان خبر ذلك إلى السلطان وبذلك أمكن الاستيلاء على مدينة بروسه بلا كبير مشقة. وفى أثناء تلك الفتوحات المتعاقبة بلغ الغازى أورخان مرض والده فسافر إليه مسرعًا ولما صار بين يديه نصحه بنصائح عظيمة منها حسن المحافظة على الرعية وسياستهم بالعدل والإنصاف.

ثم توالت الفتوحات العثمانية بعد ذلك بأن استطاع أورخان بن عثمان الاستيلاء على بروسه ثم إزميد ثم مدينة إزنيق سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م. ولقد ارتبطت الفتوحات العثمانية فى البداية بالاتجاه نحو أوربا وذلك عندما عبر سليمان بن أورخان مضيق الدردنيل سنة ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م ونزل جزيرة جاليبولى مؤسسا بذلك أول موطنٌ للعثمانيين بأوربا ، وظل هذا الاتجاه ثابتا نحو ما يزيد على قرنين من الزمان على الرغم من الخطر الذى داهم العثمانيين من قبل تيمور لنك والذى نتج عنة غزو الدولة العثمانية وهزيمة السلطان بايزيد الأول ودمار العاصمة بروسه فى موقعة أنقرة سنة ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م مما نتج عنه تشتيت الدولة العثمانية إلى حين. وعندما تولى السلطان محمد جلبى الحكم استطاع جمع الدولة العثمانية مرة أخرى. وعلى الرغم من توجه العثمانيين نحو غزو أوروبا إلا أنّ الدول الأوربية الكبرى فى ذلك الوقت ممثلة فى فرنسا وانجلترا لم تستطع وقف الغزو العثمانى لأوروبا عام ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م وذلك بسبب تصارع القوى الأوربية آنذاك فيما بينها ؛ ففرنسا أكبر هذه القوى كانت منهكة فى حربها مع إنجلترا فى حرب المائة عام (١٣٤٠- ١٤٣٣م).



السلطان محمد الفاتح وفتح القسطنطينية(٨٥٥- ٨٨٦هـ/١٤٥١- ١٤٨١م) :

يحتل السلطان محمد الفاتح (محمد الثانى) عند أغلب المسلمين الشهرة الأولى فى الدولة العثمانية، وذلك لعكوف مؤرخى أوربا على تشويه تاريخ الدولة العثمانية. وللأسف الشديد تأثر كثير من المسلمين بهم حتى باتوا لا يعرفون عن إيجابياتها شيئاً غير فتح القسطنطينية ولا يعرفون من حكامها إلا محمد الفاتح

ومن الجدير بالذكر أنه برغم الإيجابيات الكبيرة "لمحمد الفاتح" فهناك حكام آخرون بلغت فى عهدهم الدولة العثمانية أوجًا أكثر بكثير مما بلغته فى عهد محمد الفاتح، ولكن لا ينكر أحد أن عهد محمد الفاتح - الذى تولى الحكم وعمره ٢٢ عامًا - من ألمع صفحات تاريخ العثمانيين بالكامل ويكفيه قول رسول الله ﷺ:

"لَتَفْتَحُنَّ القسطنطينية، ولنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش"٠ وقد حاول المسلمون فتح القسطنطينية قبل العهد العثمانى عدة مرات يحدوهم فى ذلك حديث الرسول ﷺ.

وقد بدأت المحاولات الجادة فى عهد معاوية بن أبى سفيان وبلغ من إصراره على فتح القسطنطينية أن بعث بحملتين: الأولى سنة ٤٩هـ = ٦٦٩م، والأخرى كانت طلائعها سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م، وظلت سبع سنوات وهى تقوم بعمليات حربية ضد أساطيل الروم فى مياه القسطنطينية، لكنها لم تتمكن من فتح المدينة٠

ثم نهض "سليمان بن عبد الملك"بحملة جديدة سنة (٩٩هـ/٧١٧م)، ولكنه فشل فى فتحها وصمدت المدينة من خلف أسوارها العالية رغم قوة جيش سليمان. ثم تجددت محاولة فتح القسطنطينية فى مطلع عهود العثمانيين وسيطر على سلاطينهم حلم الفتح ؛ فحاصر المدينة كل من السلطان بايزيد الأول ومراد الثانى ولكن لم تكلل جهودهما بالنجاح، وشاء الله أن يكون محمد الثانى بن مراد الثانى هو صاحب الفتح والبشارة النبوية، لذلك أعد السلطان محمد الفاتح العدة لفتحها؛ فبدأ ببناء قلعة على البر الأوربى تشرف على مضيق البوسفور وتقابلها على البر الآسيوى القلعة التى بناها السلطان بايزيد الأول، وبذلك يتحكم فى مضيق البوسفور ويمنع وصول الإمدادات إلى القسطنطينية. وشعر

إمبراطور القسطنطينية بعزم السلطان على فتحها فعرض عليه دفع الجزية فرفض السلطان. وقبل أن نتعرض لأحداث الفتح نلقى نظرة على تحصين مدينة القسطنطينية الذى جعل منها مدينة صعبة المنال ؛ فقد كان هناك المانع المائى المتمثل فى بحر مرمرة، وحتى مدخل القرن الذهبى، وعليه سلسلة عظيمة لعدم السماح بدخول أى سفينة. كما كانت هناك أسوار تحيط بالمدينة من جميع الجهات حتى من جهة البحر، ومن جهة البر توجد الأسوار العظمى التى يصعب اختراقها. ويضاف إلى كل ذلك الحصن الموجود عند مدخل القرن الذهبى لمقاومة أى عدو. وعندما رفض السلطان محمد الثانى أن يدفع له إمبراطور بيزنطة الجزية فى مقابل عدم مهاجمة القسطنطينية، استنجد إمبراطور بيزنطة بنصارى أوربا. فأرسلت له جنوه (وهى إحدى الإمارات الأوربية فى ذلك الوقت) ٣٠ سفينة حربية وجاء ت فى الوقت الذى يحاصر فيه العثمانيون القسطنطينية من جميع الجهات فاصطدمت السفن بالأسطول العثمانى واستطاع الجنويون التسلل إلى القرن الذهبى ، وحينما حاول العثمانيون اللحاق أغلقت السلسلة فى وجوههم بعد أن دخل الجنويون القرن الذهبى، وكان عدد الجنود العثمانيين الذين يحاصرون المدينة من الجهة البرية قرابة ٢٥٠ر٠٠٠ جندى، أما من الناحية البحرية فكان هناك قرابة ١٨٠ سفينة بحرية . وكان السلطان محمد الثانى يفكر فى فتح القسطنطينية وفيما يمكن عمله من أجل تحقيق هذا الهدف، فجاءه مهندس يُدْعَى " أوربان" ، وعرض عليه أن يصنع له مدفعا ضخما يقذف قذائف هائلة تكفى لفتح أسوار القسطنطينية ؛ فرحب به السلطان وأمر بتزويده بكل ما يحتاجه من معدات، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تمكن "أوربان" من صنع المدفع العظيم ، فقد كان يزن ١٨ طنا ، ويرمى بقذائف زنة الواحدة منها ٧٠٠ كغ، ويحتاج جره إلى ١٠٠ ثور يساعدها مائة من الرجال، وعند تجربته سقطت قذيفته على بعد ميل، وسمع دويه على بعد ١٣ ميلا. وقد قطع هذا المدفع الذى سمى بالمدفع السلطانى الطريق من أدرنة إلى موضعه أمام أسوار القسطنطينية فى شهرين.

وجمع محمد الفاتح قواده وقال لهم: إذاتم لنا فتح القسطنطينية تحقق فينا حديث رسول الله ﷺ ومعجزة من معجزاته، وسيكون من حظنا ما أشار

إليه هذا الحديث من التقدير ، فأبلغوا أبناءنا العساكر فردًا فردًا أن الظفر العظيم الذى سنحرزه سيزيد الإسلام قدرًا وشرفاً ، ويجب على كل جندى أن يجعل تعاليم شريعتنا الغراء نصب عينيه، فلا يصدر عن أحد منهم ما يجافى هذه التعاليم ، فليجتنبوا الكنائس والمعابد ، ولا يمسوها بأذى ، ويدعوا القساوسة والضعفاء والعَجَزَة الذين لا يقاتلون .

بعد ما أحسن السلطان ترتيب وضع قواته أمام أسوار القسطنطينية بدأت المدافع العثمانية تطلق قذائفها الهائلة على السور بصورة لا تكاد تنقطع ، وكان كلما انهدم جزء من الأسوار بادر المدافعون عن المدينة إلى إصلاحه على الفور؛ واستمر الحال على هذا الوضع: هجوم عنيف من قبل العثمانيين،ودفاع مستميت يبديه المدافعون، وعلى رأسهم جون جستنيان، والإمبراطور البيزنطى.

وفى الوقت الذى كانت تشتد فيه هجمات العثمانيين من ناحية البر حاولت بعض السفن العثمانية تحطيم السلسلة على مدخل ميناء القرن الذهبى واقتحامه، ولكن السفن البيزنطية والإيطالية المكلفة بالحراسة والتى تقف خلف السلسلة نجحت فى رد هجمات السفن العثمانية ، وصبت عليها قذائفها وأجبرتها على الفرار. وكانت المدينة المحاصرة تتلقى بعض الإمدادات الخارجية من بلاد المورة وصقلية، وكان الأسطول العثمانى مرابطا فى مياه البوسفور الجنوبية فى سنة ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م، ووقفت قطعة على هيئة هلال لتحول دون وصول أى مدد . ولم يكد يمضى ٥ أيام على الحصار البحرى حتى ظهرت ٥ سفن غربية، أربع منها بعث بها البابا فى روما لمساعدة المدينة المحاصرة،وحاول الأسطول العثمانى أن يحول بينها وبين الوصول إلى الميناء واشتبك معها فى معركة هائلة ، لكن السفن الخمس تصدت للسفن العثمانية ونجحت فى اجتياز السلسلة إلى الداخل. واهتدى السلطان إلى خطة موفَّقة اقتضت أن ينقل جزءًا من أسطوله بطريق البر من منطقة (غلطة) إلى داخل الخليج؛ متفاديا السلسلة، ووضع المهندسون الخطة في الحال وبدأوا العمل تحت جنح الظلام، وحُشِدت جماعات غفيرة من العمال في تمهيد الطريق الوعر الذى تتخلله بعض المرتفعات، وغُطِّى بألواح من الخشب المطلى بالدهن والشحم، وفى ليلة واحدة تمكن العثمانيون من نقل سبعين سفينة

...ت أشرعتها، تجرها البغال والرجال. وأراد العثمانيون الدخول إلى القرن ...بى حيث توجد بعض الأسوار الواهية ...وا طريقة لم تخطر ببال أحد، وهى ...أعدوا ألوحا خشبية تصل بين البحر القرن الذهبى والبحر عند مدخل ...بين البوسفور، وألقوا على هذه الألواح ...شبية الدهون والشحوم، ، وأخذوا ...ون السفن الحربية على الألواح ...شبية من مضيق البوسفور إلى القرن ...بى، ثم أخذت المدافع العثمانية تدك ...ار القسطنطينية من جميع الجهات ، ...تستطع المدينة أن تصمد أمامهم . ...لوها دخول الأبطال المنتصرين فى ...ريوم ١٥ من جمادى الأولى عام ...هـ/ يناير ١٤٥٣م) حيث قُتِل ...طورها فى المعركة، وسيطر ...انيون على المدينة سيطرة كاملة . ...السلطان محمد الفاتح أن يؤذن فى ...سة آيا صوفيا إيذاناً بتحويلها إلى ...جد. ومما هو جدير بالذكر أن ...سة آيا صوفيا هذه كانت مقر ...وذكس العالمى، وكانت تضاهى ...كان مقر الكاثوليك العالمى . ...أمر السلطان بتغيير اسم المدينة إلى ...بول (إستانبول) أى مدينة الإسلام، واتخذت عاصمة للدولة العثمانية وظلت العاصمة حتى إلغاء الخلافة. وبذلك سقطت تماماً الدولة البيزنطية العدو الأول للمسلمين على مدى أكثر من ٨ قرون، وأَمَّن محمد الفاتح أهل المدينة النصارى على حرية دينهم وممارسة شعائرهم ، واشترى نصف كنائس المدينة وحولها إلى مساجد، وترك النصف الأخر من الكنائس للنصارى لممارسة شعائر هم . وأثناء حصار المسلمين للقسطنطينية عُثِر على قبر الصحابى الجليل أبى أيوب الأنصارى، الذى استشهد أثناء محاصرة القسطنطينية فى عهد يزيد بن معاوية . فبعد فتح القسطنطينية بُنِىَ مسجد فى هذا الموقع، وغدا تسلُّمُ السلاطين مقاليد الحكم فى هذا المسجد عرفاً متبّعا حيث يتسلم السلطان الجديد سيف عثمان أرطغرل مؤسس الدولة. اما عن امبراطورها قسطنطين فيشير المؤرخ ديورانت انه ظل يدافع عن المدينة بكل شجاعة، وعندما دخل العثمانيون قال جملته الأخيرة : "لقد سقطت القسطنطينية وأنا حى"، ثم نزع حلته الملكية وذهب ليقاتل كجندى عادى مع ما تبقى من جنده. ويقول المؤرخ "سفر

انس" بأن محمد الفاتح أمر بقطع رأسه وإرساله إلى البلقان لتأكيد انتصاره، بينما يرى آخرون أن الأتراك لم يتعرفوا على هويته حيث دفن فى مقبرة جماعية. ثم بدأ العثمانيون فى التوجه بأبصارهم منذ مطلع القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى صوب القوى الإسلامية فى الشرق ولاسيما المجاورة لهم ممثلة فى دولة الصفويين فى فارس والدولة المملوكية فى مصر. وكان سبب هذا التوجه ما راود العثمانيين من أحلام السيادة على العالم الإسلامى . فلما تولى السلطان سليم الأول مقاليد الحكم سنة ٩١٩هـ ١٥١٣م توجه أولا إلى حرب الصفويين الشيعة فى إيران وخاصة أنهم كانوا على مسرح الأحداث يظهرون كقوة مناوئة للعثمانيين السنة، فأعد السلطان سليم الأول جيشا سنة ٩٢٠هـ ١٥١٤م انتصر به على الصفويين وهزم الشاه إسماعيل الصفوى، واستطاع السلطان سليم الأول الاستيلاء على الجزيرة والموصل وديار بكر، وبذلك اقترب العثمانيون من أطراف دولة المماليك فى شمال الشام والعراق. وقد كانت العلاقات بين العثمانيين والمماليك حسنة فى البداية، ولاسيما أن الدولة العثمانية قد وجهت جهودها فى بداية توسعاتها نحو الغرب وأوروبا، الأمر الذى قوبل بالارتياح الكبير من جانب المماليك والقوى الإسلامية فى الشرق الأدنى، وخاصة أن السلطان بايزيد الثانى وقع سنة ٨٩٧ هـ/ ١٤٩١م معاهدة سلام مع السلطان قايتباى. وعلى الرغم من ذلك فإن سليم الأول سرعان ما شرع فى تنفيذ خطته التوسعية فى الشرق وخاصة بعد انتصاره على الصفويين حيث بدأ يعد جيشه للقضاء على المماليك فى مصر والشام. واستطاع السلطان سليم الأول الانتصار على الجيوش المملوكية فى معركة مرج دابق بالشام فى سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م وقتل السلطان الغورى واستولى سليم الأول على حلب وخضعت له الشام ثم بدأ فى الزحف على مصر، حيث استطاع أن يستولى على مصر سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م وشنق طومان باى على باب زويلة، وبذلك انتهت سلطنة المماليك نهائيًا بمصر والشام. وعين "خاير" واليا على مصر من قبل السلطان سليم الأول.

سمات الدولة العثمانية :

كانت الدولة العثمانية تتسم بطابع دينى . ومن مظاهر ذلك الطابع أن السلطان محمد الفاتح بعد أن استولى

على القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م
ير اسمها إلى إسلامبول(استانبول)
ومعناها دار الإسلام ، بجانب العناية
الفائقة التى أبداها السلاطين بشأن
تنظيم الحج إلى الحجاز ، كما حرصوا
على تطبيق مبادىء الشريعة الإسلامية
تطبيقا صارما · واهتم سلاطين الدولة
العثمانية بإبراز لقبين من ألقابهم العديدة
هما لقب "الخليفة"ولقب" خادم الحرمين
الشريفين" . ومن مظاهر الطابع الدينى
للدولة العثمانية حركة الجامعة
الإسلامية التى قامت فى القرن الثالث
عشر الهجرى/ التاسع عشر الميلادى،
ى التى دعا إليها جمال الدين
غانى، وقد كانت تدعو الى وقوف
ول الإسلامية وراء الدولة العثمانية فى
جهة الاستعمار ، كما برز الطابع
ينى أيضا عقب العدوان الإيطالى على
ابلس الغرب ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م إذ رفع
ضاء جماعة الاتحاد والترقى شعار
معة الإسلامية للحصول على تاييد
وب الإسلامية فى العالم، كما برز
طابع الدينى للدولة العثمانية عقب
ها الحرب العالمية الأولى حيث لم
د تمر ساعات على دخول تركيا
حرب حتى صدرت الفتاوى الإسلامية
التى أثارت المسلمين ضد كل من
بريطانيا وحليفاتها.

وقد اتَّسمت الدولة العثمانية أيضا
بطابع عالمى؛ بمعنى أنها كانت تحكم
شعوبا مختلفة الجنسيات والديانات
واللغات والثقافات والعادات والتقاليد
حيث تميزت الشعوب التى خضعت للدولة
العثمانية بتنوع بشرى تناول الجوانب
العنصرية واللغوية والدينية. فمن الناحية
العنصرية ضمت الدولة بجانب الأتراك
العثمانيين رعايا من العرب والأكراد
والتركمان والشراكسة والبربر
والسريان والأرمن والدروز واليونانيين
والبوشناق والرومانيين والصرب والمجر
والبلغار والكرواتيين والقبارصة. أما من
الناحية الدينية فقد كان من رعاياها
المسلمون السنيون وطوائف الشيعة
والطوائف المسيحية مثل الروم الكاثوليك
والروم الأرثوذكس والسريان اليعاقبة
والأقباط والأحباش والموارنة واللاتين
والكاثوليك والبروتستانت واليهود. ومن
الناحية اللغوية كان رعايا الدولة
يتكلمون مجموعة من اللغات الميتة
والحية ؛ فمن اللغات الميتة السريانية
والعبرية واللاتينية . ومن اللغات الحية
العربية والتركية والكردية واليونانية

والمجرية والصقلبية .

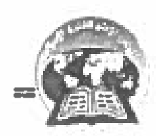
ومن سمات الدولة العثمانية أيضا أنها كانت ذات حكم مطلق ؛ فقد كانت السياسة العليا للدولة من وضع السلطان لأنه رأس الدولة وصاحب الاختصاص، كما أن الحكم المطلق كان سمة بارزة فى دول العالم فى تلك العصور حتى إن ملوك فرنسا كانوا يمارسون الحكم استنادا لمبدا الحق الإلهى الذى يجعلهم فوق مستوى النقد . وقد كانت سلطة السلاطين العثمانيين مقيدة من الناحية النظرية بأحكام الشريعة الإسلامية، ومطلقة من الناحية الفعلية لأن سلاطين الدولة العثمانية كانوا يجدون فى معظم الأحيان استجابة سريعة وفورية لرغباتهم من كبار علماء الدين.

الخدمات التى أدتها الدولة العثمانية للعالم الإسلامى:

كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية للإسلام، أنها وقفت فى وجه الزحف الصليبى الاستعمارى البرتغالى للبحر الأحمر، والأماكن المقدسة الإسلامية ، فى أوائل القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، فعلى الرغم من أن الدولة أخفقت فى طرد الاستعمار البرتغالى من مراكزه فى المحيط الهندى ومنطقة الخليج العربى إلا أنها نجحت فى منع تغلغله إلى الحجاز، حيث كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبى ، وهو دخول البحر الأحمر واجتياح إقليم الحجاز ثم الزحف على مكة المكرمة ، واقتحام المسجد الحرام ، وهدم الكعبة المشرفة ثم موالاة الزحف منها على المدينة المنورة لنبش قبر الرسول - ﷺ - ثم استئناف الزحف على تبوك، ومنها إلى بيت المقدس، والاستيلاء على المسجد الأقصى؛ وبذلك تقع هذه المساجد الثلاثة فى أيدى البرتغاليين . وكان الأسطول البرتغالى قد نجح فى دخول البحر الأحمر، وقام بمحاولتين لاحتلال ميناء جدة، كانت الأولى فى عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م)، والثانية فى عام ٩٢٦هـ/ ١٥٢٠م)؛ ولكنه فشل فى محاولتيه فأرسل البرتغاليون حملة كبرى إلى ميناء السويس باعتباره قاعدة الأسطول العثمانى فى البحر الأحمر، وأرادوا تدمير هذه القاعدة، ولما بلغوا الطور علموا أن الأسطول العثمانى يقف فى حالة تأهب، فارتدوا ولم يلتحموا به. وقررت الدولة العثمانية أن تتخذ من اليمن قاعدة حربية للدفاع عن البحر الأحمر، ومنع

السفن البرتغالية من دخوله، ثم عممت هذا المنع على جميع السفن المسيحية، حيث كان على هذه السفن أن تفرغ شحناتها فى ميناء ""المَخَا"" فى اليمن، وتعود أدراجها إلى المحيط الهندى، وكانت حجة الدولة العثمانية فى هذا المنع هى أن الأماكن الإسلامية المقدسة فى الحجاز تطل على مياه البحر الأحمر، وكانوا حريصين على ألا تُدَنَّس مياهُه بوجود سفن مسيحية تمخر عباب هذا البحر. وقد ظل هذا الحظر معمولاً به حتى القرن الثانى عشر الهجرى / الثامن عشر الميلادى. ومن أهم الخدمات التى قدمتها الدولة العثمانية للعالم الإسلامى الحفاظُ على عروبة شمال إفريقيا؛ فقد كان سكان تلك الأقاليم- وبخاصة الجزائر وطرابلس- يتعرضون للزحف الصليبى الاستعمارى، فاستنجدوا بالدولة العثمانية على أساس أنها أقوى دولة إسلامية اكتسحت دولاً أوروبية عديدة، وفتحت مصر والشرق العربى الآسيوى، فطالب سكان شمال إفريقيا بإنقاذهم من ذلك الزحف الذى كان خطره يتفاقم يوماً بعد يوم. ،واستجابت الدولة لاستغاثاتهم ، ولذلك لم يكن دخول العثمانيين إلى شمال إفريقيا نتيجة معارك حربية خاضتها القوات المسلحة العثمانية ضد أهالى البلاد، أو نتيجة تدخل مباشر من حكومة إستانبول، على غرار ما حدث فى الشام أو مصر أو العراق؛ ولكنهم فتحوها منقذين للسكان من أخطار القضاء على دينهم وطمس عروبتهم ، وتحويل بلادهم إلى جزء من العالم المسيحى. أما تونس فكان الوضع فيها يختلف ،حيث اشتد الصراع عليها بين الدولة العثمانية والإمبراطورية المقدسة ، وتبادلت الدولتان الهزيمة والانتصار أكثر من مرة ، حتى عادت تونس للحكم العثمانى عام(٩٨٢هـ/ ١٥٧٤م) واستقر الحكم العثمانى فيها ، وتأسست النيابة الثالثة والأخيرة فى شمال إفريقيا.

ثم إن الدولة العثمانية نجحت فى إيجاد وحدة طبيعية بين الولايات العربية ؛ فقد جمعتهم تحت لواء دولة إسلامية واحدة ، وجعلتهم يشتركون فى تبعيتهم لحاكم واحد ، هو السلطان العثمانى،ولم تلجأ الدولة العثمانية إلى إقامة حدود مغلقة بين الولايات العربية ، أو حواجز مصطنعة بين سكانها، فكانت حرية الانتقال والسفر أمامهم مكفولة ومحترمة فى جميع الأوقات، وكانت فرص العمل متاحة لهم



فى كل الأوقات، وكان فى مقدور العربى فى دمشق مثلاً أن ينتقل إلى بغداد، أو مكة المكرمة ،أو المدينة المنورة ، أو القاهرة أو القيروان أو غيرها من مدن الولايات العربية، ويعيش فيها ويمارس ألوانا من النشاط الاقتصادى أو الثقافى، دون أن يحصل على إذن بالخروج أو الإقامة، وكانت هذه هى أول وحدة تتحقق للعالم العربى إبان الحكم العثمانى، بعد تفتُّت وحدته بسقوط الدولة العباسية فى منتصف القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى عقب غزو المغول، وتخريب مدينة بغداد، وانسياحهم فى وادى الرافدين ، ثم شمالى بلاد الشام إلى جنوب فلسطين؛ ولذلك يرى عدد من المؤرخين والباحثين أن الوحدة التى تمت على أيدى العثمانيين تعتبر نقطة البداية فى تاريخ العرب الحديث. وكانت وشيجةُ الدين من أقوى الوشائج التى ربطت الجماهير العربية بالدولة العثمانية، فأخلصوا لها واشتركوا فى حروبها ضد التكتلات الصليبية التى واجهتها، وكان يزداد ولاؤهم لها، والتصاقهم بها إذا تعرضت الدولة لهزيمة عسكرية من دولة أوروبية، وكان الدين يعمل فى تلك العصور فى تقرير الأوضاع السياسية والحربية لشعوب الولايات العربية.

ومن بين خدمات الدولة العثمانية أيضا أنها منعت انتشار المذهب الشيعى فى الولايات العربية؛ ومن المعروف أن المذهب الرسمى للدولة العثمانية كان المذهب السنى، واعتبرت الدولة العثمانية نفسها حامية لهذا المذهب. وتأسيسا على هذه الحقيقة فإنها منعت انتشار المذهب الشيعى فى ولاياتها العربية فى آسيا وإفريقيا باستثناء العراق، الذى كانت الدولة الصفوية قد نشرت المذهب الشيعى فيه، بحيث أصبح أهل السنة والشيعة قوتين متوازيتين تقريبا من حيث تعدادهم. وقد أبقت الدولة العثمانية على هذا الوضع، وذهبت إلى أبعد من ذلك فاحترمت مشاعر الشيعة، واهتمت بتعمير مناطق العتبات المقدسة فى النجف وكربلاء فى العراق، ويسَّرت زيارتها أمام شيعة العراق وفارس والهند وأفغانستان. ولذلك فإن أهل السنة ينظرون إلى الدولة العثمانية على أنها قدمت خدمة جليلة بحصر المذهب الشيعى فى فارس، بحيث لم تسمح بتسريه إلى الأقاليم العربية التى دخلت تحت السيادة العثمانية. ولا تزال إيران هى المعقل الأول للشيعة فى العالم الإسلامى.

وفضلا عن ذلك كان للدولة العثمانية دور بارز فى الحد من هجرة اليهود إلى فلسطين؛ فقد تطلع اليهود على مر العصور التاريخية إلى فلسطين؛ كإقليم بجمع شتاتهم ، وينشئون فيه دولة ، متذرعين بادعاءات دينية وتاريخية؛ فقد أسس اليهود الحركة الصهيونية، ونجحوا فى استقطاب الدول الكبرى وتأييدها، وكان على الدولة العثمانية أن تخوض -دفاعاً عن فلسطين- صراعا سياسياً مريرا ضد القوى الصهيونية، والدول الأوروبية المناصرة، ونجح الصهاينة فى توقيت حركتهم، فاختاروا فترة عصيبة من فترات الاضمحلال التى كانت تمر بها الدولة العثمانية، ولكن الدولة العثمانية عملت فى حدود إمكانياتها على الحد من الهجرة إلى فلسطين، وقاومت بذلك الحركة الصهيونية. وقد رفض السلطان عبد الحميد الإغراءات الصهيونية التى عرضها عليه هرتزل، رغم الضائقة المالية التى كانت تمر بها الدولة العثمانية، وبذلك حافظ على عروبة وإسلامية فلسطين.

ومن بين خدمات الدولة العثمانية إسهامها فى نشر الدين الإسلامى فى أوروبا، وقد شغلت الدولة العثمانية حيزاً كبيراً للغاية فى التاريخ؛ حيث امتدت فتوحاتها إلى ثلاث قارات، هى آسيا وأوروبا وإفريقيا، وغدت دولة آسيوية أوروبية إفريقية؛ وبذلك فإن الدولة العثمانية كانت أول دولة إسلامية فى التاريخ الأوروبى تصل بقواتها الجرارة إلى هذه الأراضى الأوروبية، وكان الوجود الإسلامى العثمانى، العسكرى والسياسى، حقيقةً لا جدال فيها . وقامت الدولة بدور هام فى نشر الإسلام فى أصقاع شتى من الأقاليم الأوروبية، وكان العثمانيون ينظرون إلى أنفسهم على أنهم مسلمون قبل كل شىء؛ فكان ولاؤهم يتجه إلى الدين الإسلامى أولاً ، ثم السلطان ثانياً ، ثم إلى الدولة ثالثا، وكانت روح الجهاد الدينى غالبة فى إسلام العثمانيين، وازدادت قوة وصلابة عندما استقروا فى الأناضول على مقربة من الكيانات المسيحية المتناثرة وقتذاك فى هذا الإقليم واحتفظوا بهذه الروح فى مسيراتهم الحربية فى أوروبا ؛ فالإسلام عند العثمانيين دين محاربين، وازدادت هذه الروح الدينية الحربية تأجُجًا فى نفوس العثمانيين بعد ما واجهوا تكتلات صليبية متعاقبة واسعة النطاق، ضمت العديد من الدول الأوروبية، وكانت

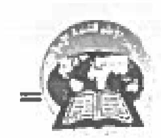
البابوية فى روما تدعم وتؤيد هذه التكتلات ؛ بل تنادى بالانضمام إليها ، وكأن الحركة الصليبية التى شهدها الشرق الإسلامى فى الماضى قد انتقلت ميادينها إلى أوروبا ، ولكن شتان ما بين الحركتين؛ فالصليبيون فى أوروبا واجهوا قوات إسلامية عثمانية مسلحة ، وقفت فى وجه الصليبية الأوروبية صفًا واحدًا؛ كأنه بنيان مرصوص، يشد بعضه بعضا ، ولم تجد الحركة الصليبية فى أوروبا ثغرة تنفذ منها لتفتيت وحدة الصف الإسلامى العثمانى، فكان النصر حليف القوات العثمانية فى معظم المعارك الضارية التى نشبت بين الفريقين .

ونجحت الدولة العثمانية فى فتح العديد من أقاليم شرق أوروبا ، وأسهم الجميع فى غرس بذور الإسلام فى الأقاليم المفتوحة؛ مما ساعد على نشر الإسلام فى أوروبا ، وبذلك اقترنت حركة الفتوح الإسلامية فى كل من الأناضول وأوروبا بنشر الإسلام ، وقد انتشر انتشاراً سريعاً فى بعض الأقاليم، وانتشر انتشاراً وئيدا فى أقاليم أوروبية أخرى ، وغدت العواصم التى اتخذتها الدولة العثمانية تباعا وهى قونية وبروسة وأدرنة ، وإستانبول، مدنا إسلامية عثمانية، ومراكز للدراسات الإسلامية والحياة الإسلامية.

أ . د / طلعت إسماعيل رمضان

مصادر ومراجع للاستزادة :

- عبد العزيز الشناوى، "الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها"، جـ٢، القاهرة، ١٩٨٠
- محمد بديع شريف وآخرون، "دراسات تاريخية فى النهضة العربية الحديثة"، القاهرة ١٩٦٣
- فاسيلى بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى؛ ترجمة د/ أحمد السعيد سليمان؛ مراجعة إبراهيم صبرى، مطبعة المعرفة ، نشر الأنجلو المصرية.
- محمد فؤاد كوبريلى ، "قيام الدولة العثمانية"؛ ترجمة د/ أحمد السعيد سليمان ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر ١٩٦٧م.
- محمود ثابت الشاذلى ، المسالة الشرقية: دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية : ١٢٩٩م – ١٩٢٣م. مكتبة وهبة، القاهرة ١٩٨٩م.
- تاريخ الدولة العلية العثمانية، تاليف الأستاذ محمد فريد المحامى، تحقيق: الدكتور إحسان حقى، دار النفائس، الطبعة العاشرة: ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.
- مصطفى طوران: أسرار الانقلاب العثمانى ،ترجمة كمال خوجة، مطابع المختار الإسلامى، القاهرة .
- سيد رضوان على ، محمد الفاتح بطل الفتح العثمانى فى أوربا الشرقية، الدار السعودية للنشر والتوزيع.
- بول كولز، العثمانيون فى أوربا، ترجمة عبد الرحمن عبد الله الشيخ. الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٣م.
- يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام عبد الوهاب. دار البصائر دمشق ١٩٨٥م.



غـــار حِـــرَاء

حِرَاء بالكسر والتخفيف، والمد: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال منها، ويعرف الآن بجبل النور، وهو فى آخر حىّ العزيزية على يسار الطريق إلى مِنى. والغارُ مغارة فى الجبل. وغار حراء هو المكان الذى لجأ إليه النبى ﷺ يتحنث[1] فيه، فقد كان صلى الله عليه وسلم قبل البعثة يتحنث جريًا على عادة الحنفاء العرب فى الجاهلية، كان ينشد المعرفة ويستلهم ما فى الكون من أسبابها. وفى ذلك يقول الطبرى[2]: كان رسول الله ﷺ يجاور فى حراء من كل سنة شهرًا يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى جواره فى شهره ذلك كانت الكعبة أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره قبل أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعًا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا جاء الشهر الذى أراد الله فيه عز وجل ما أراد من كرامته، من السنة التى بعثه الله تعالى فيها، وذلك فى شهر رمضان، خرج صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما يخرج لجواره يتحنث، حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته، جاءه جبريل عليه السلام بأمر من الله تعالى، قال رسول الله ﷺ: « فجاءنى جبريل وأنا نائم بنَمَطٍ من ديباج فيه كتاب، فقال: اقرأ، قلت: ما أقرأ؟، قال: فَغَتَّنى حتى ظننتُ أنه الموت، وكَرَّرَ ذلك ثلاثا. فقلت: ماذا أقرأ؟ فقال: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ (العلق: ١- ٥).

قال: فقرأتها، ثم انتهى فانصرف عنى وهببت من نومى، فكأنما كتبت فى قلبى كتابًا، فخرجت حتى إذا كنت فى وسط الجبل سمعت صوتًا من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل! قال: فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صافٍّ قدميه فى أفق السماء، يقول: يا محمد، أنت رسول الله وأنا جبريل. قال فوقفت ما أتقدم ولا أتأخر، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر إلا رأيته كذلك . بقيت كذلك ما شاء الله، ثم انصرف عنى، وانصرفت راجعًا إلى أهلى، حتى أتيت بيت خديجة". ولما

حدثها صلى الله عليه وسلم بالذى حدث قالت له: أبشر يا ابن عمّ واثبت.. إنى أرجو أن تكون نبى هذه الأمة، ثم قامت، فجمعت عليها ثيابها، وانطلقت إلى ورقة ابن نوفل بن أسد بن عبد العُزىّ، فأخبرته بما أخبرها به النبى ﷺ، فقال ورقة بن نوفل: قُدُّوس قُدُّوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صَدَقْتِنى يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى، وإنه لنبى هذه الأمة. فقولى له فليثبت، فرجعت خديجة إلى الرسول ﷺ فأخبرته بقول ورقة بن نوفل[٣] وكان سنه عند ذلك أربعين سنة[٤] كما ذكر البخارى. كان ذلك أول يوم من أيام النبوة وأول وحى من القرآن، كان ذلك ليلة السابع عشر من رمضان على أغلب الآراء مستشهدين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ﴾ (الأنفال:٤١). وذلك ملتقى الرسول والمشركين ببدر وأن التقاء النبى بالمشركين كان صبيحة السابع عشر من رمضان كما ذكر الطبرى. يقول تعالى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ (البقرة:١٨).

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ۝٥ ﴾ (القدر: ١- ٥).

أ.د / نادية حسنى صقر

الهوامش:

(١) " تحنث" : فسره ابن هشام على أنهم يريدون الحنيفية، فأبدلوا من الفاء ثاء، والتحنث هو الخروج من الحنث أى: الإثم. السيرة لابن هشام جـ١ ص ٢٥٣. وفى الجاهلية استعمل لفظ تَحَنَّفَ وتحنَّث بفتح النون وتشديدها بمعنى اعتزل عبادة الأصنام أو بمعنى تعبد، وأطلق لفظ " الحنفاء" على من كان كذلك. ويذكر المؤرخون أن محمدًا كان من الحنفاء فقد نبذ الوثنية، وكان مؤمنًا بالله وبالحياة الروحية. وأشهر الحنفاء هم: ورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو، وأمية بن أبى الصلت. وهذه الكلمة تدل على دين إبراهيم عليه السلام، وأصبح الدين الحنيف هو " دين التوحيد" الذى دعا إليه إبراهيم. وقد وردت كلمة " حنيف" فى القرآن الكريم فى كثير من الآيات الكريمة، وفى تلك المواضع كانت تدل على أو تذكر على أنها عكس " مشرك" وهذه بعض الآيات الكريمة:.

١- ﴿ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (آل عمران: ٩٥).

٢- ﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(آل عمران: ٦٧).

٣- ﴿ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(يونس: ١٠٥).

٤- ﴿ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ (الحج:٣١).

٥- ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام:٧٩).

٦- ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ﴾ (النساء:١٢٥) .

هذه الآيات توضح أسس تلك العقيدة كما كانت قبل الإسلام، وأن معتنقى الحنيفية كانوا ضد الوثنية والشرك بالله.

(٢) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك جـ٢ ص ٢٩٣ وما بعدها ص ٣٠٠، إبراهيم العلى: صحيح السيرة النبوية ص ٤٩ وما بعدها، ابن هشام : السيرة النبوية جـ١ ص ٢٥٣ وما بعدها. ابن الأثير: الكامل جـ ٢ ص ٣١ وما بعدها.

(٣) ابن هشام: سيرة النبى جـ١ ص ٢٥٢ وما بعدها.

(٤) ابن حجر: فتح البارى المجلد ٧ رواه فى مناقب الأنصار، باب هجرة النبى ص ٢٢٧.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١- الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ، الجزء الثانى.

٢- ابن هشام: السيرة النبوية ، الجزء الأول.

٣- ابن الأثير: الكامل، الجزء الثانى.

٤- إبراهيم العلى: صحيح السيرة النبوية .

الغزنويون

شهد النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى ظهور قوة إسلامية كبيرة فى شرق العالم الإسلامى، استطاعت خلال فترة قصيرة أن تسيطر على الشطر الإيرانى من أملاك السامانيين، وتفتح مناطق جديدة فى بلاد الهند، لم تبلغها من قبلُ للإسلام راية، وتُزاحم البويهيين على زعامة العالم الإسلامى، حتى كادت أن تزيلهم عن بغداد، واستمرت أكثر من قرنين، تلكم هى الدولة الغزنوية، التى نعرض لها فى هذه الدراسة الموجزة.

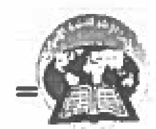
أصل الغزنويين:

ينتمى الغزنويون إلى العنصر التركى الطورانى الذى ظهر منذ أقدم العصور فى وسط آسيا، وسميت بلادهم "تُركستان" نسبة إليهم، ولم تكن هذه البلاد- فى نظر جغرافيى القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين تبدأ خلف نهر جيحون (أموداريا الآن) مباشرة، فقد كانت المناطق المجاورة للنهر من شماله وجنوبه تعرف باسم "بلاد ما وراء النهر" على سبيل التغليب وكانت آريَّة (إيرانية) الجنس والثقافة، أما البلاد التى تبعد عن النهر ممتدة إلى حدود الصين فقد كانت موطنًا للقبائل التركية (الطورانية).

وخضع إقليم ما وراء النهر للفاتحين المسلمين، وكان السامانيون -وهم من أصل فارسى- يحكمون هذا الإقليم، وتقع فيه عاصمتهم "بخارى" إلى جانب سيطرتهم على جزء كبير من خراسان. أما قبائل الترك فقد كانت شديدة المراس تتأبى على الفاتحين، وكانت الحروب سجالاً بينهم، وكان بعض هؤلاء الأتراك يُجلبون إلى الحواضر الإسلامية عن طريق الأسْر، أو الشراء ليعملوا حرسًا فى قصور الخلفاء، حتى صاروا يمثلون الغالبية الساحقة من الجند فى عهد المعتصم العباسى.

ولم يبرع هؤلاء الترك فى ثقافة أو علم أو صناعة، بل كانت فضيلتهم الوحيدة هى قوة الأجسام ومعاناة الحروب، واستخدام آلات القتال، والجلد والصبر على الإقتار [1].

وكانت أعدادهم تتزايد باستمرار، فيدفعهم فقر بلادهم نحو المناطق الحضارية الغنية المجاورة لهم فى إقليمى



ما وراء النهر وخراسان.

وقد عُرف حكام هذه الدولة بالغزنويين نسبة إلى حاضرتهم غَزْنَة، قصبة ولاية زابلستان التى تقع فى أقصى الشرق من خراسان، وتوجد الآن فى جبال سليمان فى أفغانستان، وهذا النسب سماعى وكان القياس يقتضى أن نقول "غزنى".

قيام الدولة الغزنوية:

يمكننا أن نُقَسّم حكام هذه الدولة إلى قسمين وهما:

- الطائفة الألبتكِينية.
- آل سُبُكْتكين.

أما الطائفة الأولى: فقد كانوا يعملون جندًا فى الجيش السامانى، وكان كبيرهم "ألبتكِين"[٢] وفى بداية أمره غلامًا لدى الأمير أحمد بن إسماعيل (٢٩٥هـ- ٣٠١م/٩٠٧- ٩١٣م) ثم أصبح أميرًا فى عهد الأمير نوح بن نصر بن أحمد الملقب بالحميد (ت ٣٤٣هـ/٩٥٤م) ــ وارتقى فى سلم الإدارة حتى تولى أكبر منصب فى الدولة وهو قيادة جيوش خراسان فى عهد الأمير التالى عبد الملك بن نوح (ت٣٥٠هـ/٩٦١م) وكان عمره خمسًا وثلاثين سنة هجرية، وعرف عنه النبل والوفاء، كما اشتهر بسداد الرأى وحسن التدبير[٣].

وقد وصل ألبتكِين إلى درجة عالية من النفوذ، فكان يتدخل فى اختيار الوزراء والأمراء، وكان وراء تولية الوزير أبى على البلعمى، وأرسل الأمراء وأصحاب الرأى فى بخارى يستأذنونه فى تولية الأمير السديد منصور بن نوح، بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٠هـ/ ٩٦١م، فرفضه لحداثة سنه وأرسل إليهم يرشح عمه، ولكن الأمر كان قد أُبرم وبويع الأمير منصور قبل وصول الرد، ومن هنا وقعت الجفوة بين الأمير وألبتكِين.

حاول ألبتكِين أن يصلح العلاقة بالأمير السامانى بالهدايا والتحف والرسائل لكنها لم تُجْدِ نفعًا، وبعد سنوات استدعاه الأمير إلى بخارى، فعلم أن استدعاءه لا يبشر بخير، فجمع خلصاءه وانحاز إلى غزنة فى ثلاثة آلاف من جنده، وفشل الأمير السامانى فى إزالته عنها، وكان ذلك سنة ٣٥١هـ/٩٦٢م التى يعتبرها المؤرخون بداية لتاريخ الدولة الغزنوية.

توفى ألبتكيِن سنة ٣٥٢هـ/٩٦٣م أو سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م على اختلاف الروايات، وخلفه ابنه أبو إسحاق، ولم يطلْ به الأجل، فوافته المنية سنة

٣٥٥هـ/٩٦٥م، وتولى بعده القائد "بُلكاتكين" باعتباره أكبر غلمان سيدهم الراحل ألبتكين، فضرب السكة باسمه، فلما توفى سنة ٣٦٢هـ/٩٧٢م تولى قائد آخر اسمه "بيرى" وصفته بعض المصادر بأنه كان ضعيف الرأى، ووصفه آخرون بأنه عظيم الفساد، وفى عهده تعرضت غزنة لهجوم من ابن حاكم غزنة السابق "أتوك" بالتحالف مع أمير كابل، وملك من ملوك الهند يدعى "جيبال"، وكان الهجوم مفاجئًا، فاضطرب أهل غزنة، وكادت المدينة أن تسقط فى أيديهم، لولا رباطة جأش القائد سبكتكين الذى صمد فى خمسمائة فقط من الجند الشجعان، وتصدى للمعتدين، وحقق النصر، فرأى الجميع أنه أولى بالحكم فعزلوا "بيرى" وولوه مكانه [٤].

آل سُبُكتِكِين [٥]:

هو سبكتكين بن جوقى الملقب "بُقرا بجكم" أى الزعيم الشجاع، جلبه سيده نصر حاجى تاجر الرقيق من تركستان، وباعه فى أسواق نيسابور فاشتراه ألبتكين، وأصبح مقدمًا لديه، فزوجه ابنته التى أنجب منها ولده الأكبر إسماعيل، وجعله حاجبًا لابنه أبى إسحاق [٦]. وكان ملازمًا له فى غزنة، وآل إليه الحكم بعد بيرى- كما أسلفنا- فى شعبان سنة ٣٦٦هـ/(إبريل سنة ٩٧٦م)، وحظى بتقدير أهل غزنة وإعجابهم، وتزوج من بنت رئيسها السابق، فأنجب منها ولده محمودًا الذى كان أنجب أولاده، وتولى الإمارة من بعده [٧].

وبوصول سبكتكَين إلى الحكم تبدأ مرحلة جديدة من تاريخ غزنة؛ فقد بدأت تتحول من مجرد ولاية صغيرة مقصورة على كورة زابلستان إلى دولة كبرى تحكم معظم بلاد المشرق الإسلامى. وأكثر المؤرخين يعتبر سبكتكين المؤسس الحقيقى لهذه الدولة، ويذكرونه بعد أبى إسحاق بن ألبتكين متجاهلين ذكر بلكاتكين وبيرى [٨].

وكان سبكتكين بعيد الطموح؛ فما كاد يتولى الإمارة فى غزنة حتى شرع فى مد رقعة ملكه وبسط سلطانه على الإمارات الصغيرة الموجودة حوله، فاستولى على بُسْت وقُصْدَار، وقام بغزوات ناجحة على أطراف السند رفعت من قدره، وأضفت عليه ثوب الفاتح المجاهد لنشر الإسلام، ثم تظاهر بالدفاع

عن السامانيين، ونصره الأمير الرِّضى نوح ابن منصور، فقضى على الطامعين والمنشقين عليه مثل أبى على بن سيمجور قائد جيوش خراسان، وفائق وبكتوزون القائدين الطامعين فى ملك بخارى [٩].

وفى نفس الوقت تمكن سبكتكين من التصدى لأطماع القراخانيين حكام تركستان الذين كانوا يتربصون لوراثة ملك السامانيين والامتداد حتى نهر جيحون، وكان ملكهم يدعى هارون بن سليمان ويلقب "بايلك خان" "وبغراخان"، فلما مات خلفه أبو نصر أحمد بن إيلك خان، الملقب بشمس الدولة [١٠].

وكان سبكتكين فى كل هذه المراحل يعتمد على ابنه محمود، الذى ولاه إمرة جيوش خراسان، وقد آل إليه الحكم بعد وفاة أبيه سنة ٣٨٧هـ/٩٩٧م، وتغلبه على أخيه الأكبر إسماعيل، فواصل سياسة أبيه بالتدخل فى شئون الدولة تحت شعار نصرة الأمراء السامانيين، ووطد أقدامه فى خراسان، وأناب عنه فى حكمها أخاه نصرًا، ولقب نفسه سلطانًا، وكاتب الخليفة القادر العباسى معلنًا طاعته فأقره الخليفة على ما فى يده، وأرسل إليه الألقاب والخلع سنة ٣٨٩هـ/٩٩٩م.

ورأى محمود أن نهر جيحون حد مناسب لدولته، وكان هناك اتفاق غير مكتوب بينه وبين القراخانيين، فلم ير بأسًا فى أن يترك لهم نصيبًا من ملك السامانيين وهو بلاد ما وراء النهر، واكتفى هو بحكم خراسان [١١].

فتوحات الغزنويين فى الهند:

عرف العرب الهند منذ أقدم العصور، وكانت العلاقات التجارية تربط بينهما، وفى أواخر عهد عمر بن الخطاب ﷺ وصل المسلمون إلى إقليم السند، ثم أصبحت حملات المسلمين إلى هذه البلاد برًا وبحرًا أكثر قوة فى العصر الأموى. وتولى قيادة المسلمين محمد بن القاسم الثقفى الذى فتح الديبل والملتان، واختط المسلمون المدن فيها كالمنصورة والمحفوظة، واستمرت موجات الفتح الإسلامى حتى عهد المعتصم العباسى.

وأخذ الوجود الإسلامى بالهند ينحسر ويتضاءل، وأصبح لطائفة الإسماعيلية دويلة صغيرة فى الملتان، وكانت هناك جاليات إسلامية محدودة محاطة بالهنود، وأصبح الوجود الإسلامى بالسند فى مفترق الطريق [١٢].

وجاء الفتح الغزنوى ليحفظ ما بقى من وجود إسلامى، متخذًا صورة منظمة، فى

شبه غزوات حولية فى فصل الشتاء، عابرة الحائط الجبلى العظيم المتمثل فى جبال هملايا وهندكوش من خلال الممرات الطبيعية التى تتخللها، وهى: خيبر وجوبال وبولان، وهى المدخل الطبيعى لبلاد الهند من الشمال الغربى.

وقد ساعدت ظروف الهند الداخلية على نجاح الفتوحات الغزنوية، فقد انقسمت الهند فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجرى/ العاشر الميلادى إلى إمارات صغيرة متناحرة، وتمكن الغزنويون فى وقت قصير من التوغل فى الهند أكثر من سابقيهم، وأقاموا فيها حكومة وإدارة، ونشروا الإسلام على نطاق واسع.

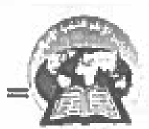
وبدأت غزوات الغزنويين فى عهد الطائفة الألبتكينية بغارات أو اشتباكات محدودة، ثم بدأ الفتح المنظم فى عهد سبكتكين الذى تابع غاراته على إقليم البنجاب (فى باكستان الحالية) بصحبة ولده محمود، وهزم جيبال، وألزمه بالجزية، واكتسب كثيرًا من الغنائم.

وكان محمود بن سبكتكين أكثر طموحًا، وكانت بلاد الهند بسهولها الخصبة وخيراتها الوفيرة أفضل الميادين لتحقيق هذا الطموح بعد أن خلص له حكم خراسان، ففى الشمال بلاد ما وراء النهر وتركستان حيث توجد القوة التركية التى يصعب قهرها، والفيافى والقفار التى لا يرجى منها خير كثير، وفى الغرب القوة البويهية التى كانت تحتفظ بكثير من قوتها، وأملاك الخلافة التى لا تقبل من أحد الانتقاص منها، أما فتوحات الهند فمن شأنها أن تجلب له الشهرة والمجد ورضا الخليفة فى بغداد.

وكانت أولى غزوات محمود فى شهر المحرم سنة ٣٩٢هـ/ نوفمبر سنة ١٠٠١م، قام فيها بغزو مملكة "جيبال" وتمكن من أسر ملكها ثم أعتقه مقابل الفدية [١٢].

ورأى محمود فى فصل الشتاء موسمًا مناسبًا لغزواته نظرًا لمناخ الهند الموسمى، الذى يمتاز بشتاء جاف، وصيف حار مطير.

وتتابعت شواتى السلطان محمود بن سبكتكين على الهند، فغزا "بهاطية" سنة ٣٩٥هـ/١٠٠٤م، والملتان سنة ٣٩٦هـ/١٠٠٥- ١٠٠٦م، ومملكة نواسه شاه سنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م، ومملكة أبرهن ابن أندبال سنة ٣٩٨هـ/١٠٠٧م، ونارain سنة ٤٠٠هـ/١٠٠٩م، ونادرين سنة



٤٠٤هـ/١٠١٣م، وثانيسر سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م، وقنوج سنة ٤٠٩هـ/١٠١٨م.

واستولى السلطان على بلاد تفوق فى اتساعها خراسان، وامتدت فتوحاته فى البلاد حتى كان جيشه يقطعها فى ثلاثة أشهر مع السير المتصل[١٤].

وفى سنة ٤١٦هـ/١٠٢٥م قام السلطان محمود بخاتمة غزواته إلى الهند فوصل إلى سومنات وفيها صنمهم الأعظم، وكان يقوم على عبادته المئات من البراهمة والرجال محلوقى الرءوس، ويزعمون أنه يعيد إنشاء الأرواح بعد مفارقتها للأجساد على مذهب التناسخ، فأصر محمود على تحطيمه ليثبت لهم كذب ادعاءاتهم، ورفض ما بذلوه من مال لفداء صنمهم.

وبعد وفاة السلطان محمود سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م توقفت غزوات الهند تقريبًا، برغم ما كان يأمله ابنه وخليفته السلطان مسعود الذى قال: "إن قلبى يميل إلى أبعد ثغور الهند إحياء لسنة أبينا، وشكرًا لله على ما أولانا.." [١٥].

وقام مسعود بغزوة واحدة إلى الهند سنة ٤٢٨هـ/١٠٣٦م استولى فيها على قلعة هانسى التى تعرف بالقلعة العذراء، بعد حصار وقتال عنيف[١٦]. وفى بداية عهد ابنه مودود، حاول بعض ملوك الهند التمرد، لكن مودودًا تمكن من قمعهم، وكانت آخر غزوات الغزنويين بالهند سنة ٤٧٢هـ/١٠٧٩م، فى عهد إبراهيم بن مسعود (٤٥١هـ- ٤٩٢هـ/ ١٠٥٩-١٠٩٨م) الذى تمكن خلالها من فتح عدد من قلاعهم البعيدة.

وكان الغزنويون يهتمون بنشر الإسلام، ويعلنون أن فتوحاتهم فى الهند تجرى باسم الخليفة العباسى، ويبنون فى كل مدينة يفتحونها مسجدًا، كما عمدوا إلى توطين الكثيرين من أهل خراسان فى هذه المدن، وكان هذا التهجير يتم اختياريًا أو إجباريًا مثل أسرى خوارزم، وكانوا بالآلاف، وقد سيَّرهم السلطان محمود فى أفواج إلى الهند، ومنحهم العفو وكلفهم بحماية الثغور. ويقول المؤرخون: إن قطار الأسرى كان ممتدًا من بَلْخ حتى لاهور والملتان، وبذلك أوجد للإسلام قاعدة بشرية فى هذه الديار[١٧].

واتخذ الغزنويون من الهند عمقًا استراتيجيًا يلجأون إليه إذا داهم حاضرتهم "غزنة" عدو قوى كالسلاجقة والغوريين، حيث يجمعون صفوفهم، ثم يعاودون الزحف على غزنة من جديد.

وأصبحت للهند أهمية كبرى فى أواخر العهد الغزنوى، عندما سقطت "غزنة" فى أيدى الغوريين، وفقدوا أملاكهم فى إيران، فأصبحت دولتهم مقصورة على ما فتحوه فى الهند ونقلوا حاضرتهم إلى "لاهور"، ونقلوا إليها إدارتهم ودواوينهم سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م حتى سقطت هى الأخرى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م[١٨].

إخضاع المناطق الإيرانية:

فى نفس الوقت الذى تواصلت فيه فتوحات محمود الغزنوى فى الهند استطاع أيضًا إخضاع المناطق الإيرانية، فبسط سلطانه على ولاية سجستان جنوبى غزنة، وأقيمت له الخطبة فيها سنة ٣٩٣هـ/١٠٠٢م، وأخضع قصدار، الواقعة إلى الجنوب الغربى من مملكته وكانت قبل ذلك خاضعة لأبيه سبكتكين، ثم أعلنت تمردها، ومنعت الجزية، فعاد حاكمها إلى الطاعة سنة ٤٠٢هـ/١٠١١م.

وفتح محمود بلاد غرشستان، ولم تحدد المصادر تاريخ فتحها، لكنها ذكرتها بعد فتح قصدار، وكان ملوكها يلقبون "بالشار"، وحضر ملكها وابنه إلى البلاط الغزنوى وأعلنا الطاعة والولاء للسلطان محمود[١٩].

وتمكن محمود من إخضاع بلاد الغور المنيعة، الواقعة فى جبال سليمان، وكانوا بعيدين عن الإسلام لعزلتهم، وتمتاز بلادهم بالخصب ووفرة المياه وكثرة المراعى[٢٠]، وكان حكامها يحملون اسم "سورى"[٢١] فحاصرها محمود وأسر ملكها ابن سورى، وأقام فيها شعارات الإسلام، وترك فيها دعاة يعلمون أهلها أمور الدين الحنيف، وذلك سنة ٤٠١هـ/١٠١٠م، وتابع غزواته على هذه البلاد فى السنوات التالية حتى أكمل فتحها، ثم زحف على جرجان وطبرستان الواقعتين جنوب بحر قزوين، مستفيدًا مما وقع منها من صراع داخلى على السلطة[٢٢].

وتواصل الفتح الغزنوى غربًا، فاستولى السلطان محمود على خوارزم سنة ٤٠٧هـ، وبلاد الأفغان الذين ورد ذكرهم لأول مرة فى التاريخ فى مؤلف العتبى[٢٣]. وكانوا مصدر إزعاج للسلطان لقطعهم طريق القوافل والجيوش المتجهة إلى إقليم السند، فقصدهم، وأوقع بهم سنة ٤٠٩هـ/ ١٠١٦م.

فتح مكران والتيز سنة ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م.

وزحف السلطان محمود على أملاك

البويهيين فى المناطق الإيرانية وهى الرى والجبال وكرمان، متهمًا مجد الدولة البويهى بإيواء أهل البدع من الباطنية والرافضة، واعتناقه لمذاهبهم، ونكل محمود بكثير من الغلاة سنة ٤٢١هـ، وترك ابنه مسعودًا واليًا على المناطق الغربية لدولته، وبذلك كسب محمود نصرًا سياسيًا إلى جانب انتصاراته العسكرية، إذ أثبت للخلافة والمتغلبين عليها من البويهيين أنه نصير الخلافة، وحامى المذهب السنى، والقوة الوحيدة التى تتزعم بلاد الشرق الإسلامى من أطراف العراق حتى بلاد الهند.

اتجاهات الغزنويين المذهبية:

استقر فى نفوس الغزنويين أن الممثل الوحيد للإسلام هو المذهب السنى، الذى يرأسه الخليفة العباسى فى بغداد، ولذا كانوا حريصين- برغم نأى حاضرتهم، وما أصاب الخلافة من وهن على أيدى المتغلبين- على الاعتراف بهم، وتفويضهم بحكم بلادهم من الخليفة العباسى، ولم تكن لهم كالفرس رغبة فى انتزاع السيادة من العرب، أو الاستعلاء على العنصر العربى(٢٤).

وكان قيام الدولة الغزنوية بمثابة دفعة قوية بعثت الدماء فى جسد الخلافة الواهى وأسهمت فى استمرارها حتى جاء السلاجقة فخلصوها من تسلط البويهيين الشيعة.

وكانت منابر خراسان وغزنة تخطب باسم الخليفة العباسى "القادر" بعد أن مُنِعَتْ من ذكره قبل ذلك فى عهد السامانيين الذين رفضوا الاعتراف بخلافته ثمانى سنوات لخلافهم مع البويهيين، وعدم رضاهم عن الطريقة التى تمت بها توليته(٢٥).

ونقش اسم الخليفة "القادر" وولى عهده إلى جانب اسم السلطان الغزنوى على السكة "فتقارن ذكرهما فى الخطب، وترافق اسماهما على صفحات الفضة والذهب" كما يقول العتبى(٢٦).

وقد أعلن السلطان محمود الغزنوى أن كل فتوحاته وانتصاراته تجرى باسم الخليفة وبأمره، وكان يكاتب الخليفة باستمرار، ويلقب نفسه "عبد مولانا أمير المؤمنين وصنيعته محمود بن سبكتكين"(٢٧).

واستجاب السلطان محمود لأوامر الخليفة بالتصدى لدعاة الفاطميين فى المشرق، فأهانهم ورفض استقبالهم، كما أمر علماء السنة بمناظرة دعاة الفاطميين ليثبت فساد عقيدتهم، وأمر

بقتل أحد زعمائهم ويسمى "التاهرتى"[٢٨].

وفرَّق السلطان الغزنوى بين المذهب والنسب، فكان العلويون -إلا من كانت له صلة بالفاطميين- موضع تكريم وتقدير، مثل الشاعر الملقب بالزينى العلوى الذى نال كثيرًا من العطايا والأموال، والفقيه الحسن بن طاهر بن مسلم[٢٩].

وكان الغزنويون يحاربون مذاهب الباطنية والقرامطة، ويعاقبون بكل قسوة من يثبت انتماؤه إليهم أو اعتناقه لأفكارهم، وكانوا يرفضون مذهب المعتزلة، ويحرقون ما يجدونه من كتب لأهل هذه المذاهب كما فعل السلطان بالرى سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م.

وهناك شبهة فى ميل الغزنويين إلى الكرَّامية أتباع محمد بن كرَّام (ت ٢٥٥هـ/٨٦٩م) وكان من أهل سجستان، وله كتاب باسم "عذاب القبر"، وهم جماعة من المجسمة والمشبهة، وكان لهم وجود فى بعض بلدان المشرق[٣٠].

كان الأمير سبكتكين أبو محمود يعتقد أن هؤلاء الكرامية من العُبَّاد الزهاد، ويغضب لهم[٣١]، ولم تكن لهم تطلعات سياسية، وكانت الخلافة العباسية تحسن إليهم مثل ابن الهيضم الذى ألقى خطبة فى مدح الخليفة "القادر"[٣٢].

وكان الكرامية يساعدون الحكام الغزنويين فى مواجهة القرامطة، ويلوذون بهم من ظلم الحكام الآخرين، مثل زعيمهم ابن محمشاد، فولاهم السلطان رئاسة المتصوفة[٣٣].

لكن الغزنويين، وبخاصة السلطان محمود الذى نعتته المصادر بحامى السنة ومحارب البدعة ويمين الخلافة ونصيرها، لا نعتقد أنهم اعتنقوا هذا المذهب أو مالوا إليه، وكان السلطان محمود يستمع إلى مناظرات أهل السنة مع زعماء الكرامية فى حياد، ويحمى علماء السنة إذا حاول أحد منهم أن يتطاول عليهم، وعندما ألجم أبو إسحاق الإسفراييني فى مناظرته علماء الكرامية، ولم يستطيعوا الرد عليه أظهر السلطان محمود غبطته وقال لوزيره أبى العباس الإسفراييني: "إن ابن بلدك هذا قد حطم معبود الكرَّاميين على رؤوسهم"[٣٤].

وقد قبل محمود الزهد والتعبد من المعتدلين، لكنه لم يقبل من غلاة الكرامية ما أظهروه من تجسيم وتشبيه، واستدعى زعيم الكرامية ابن محمشاد

فأعلن براءته منهم، وأمر بتعقبهم، فمن رَضَخ وتاب تركه وشأنه، ومن أصر على دعواه أمر بحبسه فى بيته(٣٥).

وكان المذهبان الفقهيان السائدان فى أنحاء الدولة الغزنوية هما المذهب الحنفى، والمذهب الشافعى.

ضعف الدولة الغزنوية وعوامل سقوطها:

كان العامل الأول فى ضعف الدولة الغزنوية هو ظهور السلاجقة على أطرافها من ناحية الشمال الشرقى فى بلاد تركستان وما وراء النهر، وهم قبيلة تنتمى إلى فرع من الترك يعرفون باسم "الغز"، وقد دفعهم فقر بلادهم وتزايد أعدادهم إلى الزحف نحو المناطق الإيرانية، وكان الغزنويون يستعينون بهم، ويستخدمونهم كمرتزقة فى مطاردة أعدائهم الفارّين إلى بلاد ما وراء النهر، وعبر بعضهم نهر "جيحون" واستأذنوا السلطان محمودًا أن يسمح لهم بالمقام على أطراف دولته، فاستشار أصحابه، فحذروه منهم، لكنه اضطر فى النهاية أن يأذن لهم أمام كثافة أعدادهم وتعاظم قوتهم، ليكونوا تحت عينيه، ولا يخرجون عن طاعته، فأنزلهم نواحى خراسان وألزمهم بالخراج(٣٦).

وكان هذا القرار بالغ الخطورة؛ حيث ترتبت عليه نتائج حاسمة فى تاريخ المشرق الإسلامى؛ فقد استدعوا إخوانهم، وتكاثرت أعدادهم ولجأوا إلى الإفساد والسلب. ومات السلطان محمود سنة ٤٢١هـ/١٠٣٠م، وهو كاره لأمرهم، نادم على إنزالهم بلاده(٣٧).

وقد وقع السلطان مسعود بن محمود فى نفس الخطأ الذى فعله أبوه واستعان بهم فى حروبه مع المتمردين عليه، ثم غدر بهم وقتل أكثر من خمسين من زعمائهم، فاستدعوا جماعات أخرى من بلاد ما وراء النهر على رأسهم طغرلبك محمد، وجغرى بك داود، فى عشرة آلاف فارس، وطالبوا السلطان مسعودًا أن يمنحهم مقاطعة داخل دولته، فأبى، وطاردهم طويلاً، وكانوا على درجة عالية من المراوغة والخداع، والقدرة على التراجع والتجمع مرة أخرى، فألحقوا بجيش السلطان مسعود هزيمة نكراء عند حصن "داندا نقان" القريب من نيسابور، وكانت هذه المعركة هى الفاصلة فى تاريخ خراسان فقد خلصت بعدها للسلاجقة، وانحسر عنها الوجود الغزنوى سنة ٤٣١هـ/١٠٣٩م(٣٨).

وتجرأ حكام الأطراف على الغزنويين بعد هذه الهزيمة، فى الهند والرى

وأصبهان وكرمان وغيرها حتى تمكن السلاجقة فى سنوات قلائل من اجتياح كل هذه المناطق وإخضاعها، وإسقاط البويهيين فى بغداد، والسيطرة على دار الخلافة العباسية.

وتحولت الدولة الغزنوية من سلطنة مترامية الأطراف إلى دولة محدودة السلطان لا تسيطر إلا على غزنة وبعض بلاد السند، وما لبثت غزنة هى الأخرى أن سقطت فى أيدى الغوريين الذين ظهروا فى بلاد الغور القريبة منهم، ودخل "سورى ابن الحسين الغورى" "غزنة" سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م لكن ملكها بهرام شاه تمكن من جمع أنصاره والعودة إلى غزنة، وقتل سورى ونكّل به ومثل بجثته، فغضب له أخوه علاء الدين الحسين بن الحسين ودخل غزنة، وأمر بإحراقها[٣٩]، ولذلك لقب "بجها نسوز" أى محرق العالم[٤٠].

وطارد الغوريون الغزنويين فى معقلهم الجديد "لاهور" بالهند، فدخلها شهاب الدين الغورى ٥٨٢هـ/١١٨٦م، وأرسل آخر ملوك الغزنويين ملكشاه إلى أخيه غياث الدين فأمر بإعدامه، سنة ٥٩٨هـ/١٢٠١م، كما قتل ابنه بهرام شاه الذى كان محبوسًا فى إحدى القلاع[٤١]، وكان هذا آخر العهد بآل سبكتكين الذين حكموا غزنة أكثر من قرنين.

أ.د/محمد عبد الحميد الرفاعى

الهوامش:

(١) ابن حول: رسالة فى تفضيل الأتراك على سائر الأجناد – مخطوط بدار الكتب المصرية- ص٦، ٧، ٨، القاضى صاعد الأندلسى: طبقات الأمم- المكتبة المحمودية، بمصر، ص٨.

(٢) كلمة تركية مركبة من مقطعين: "ألب" بمعنى البطل، وتكين بمعنى المُسَمَّى، وهو لاحقة توجد فى كثير من الأسماء التركية (محمد موسى هنداوى: المعجم فى اللغة الفارسية" و "قامبرى": تاريخ بخارى – ترجمة أحمد محمود السادتى- مراجعة يحيى الخشاب- القاهرة- هامش ص١١٧).

(٣) حمد الله المستوفى القزوينى: تاريخ كَزيدة- ملحق بتاريخ بخارى للنرشخى- الفصل الثانى من الباب الرابع، ص١٤٢، وبارتولد: دائرة المعارف الإسلامية- مادة "ألبتكين- المجلد الثانى، ص٥٠٤، وكارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٢٦٦.

(٤) القاضى منهاج الدين عثمان بن سراج الدين الجوزجانى: طبقات ناصرى- الطبعة الثانية- كابل أفغانستان سنة ١٣٤٢هـ- جـ١، ص٢٢٦.

(٥) سُبُكْتِكِين (بضم السين والباء، وسكون الكاف الأولى، وكسر التاء، والكاف الثانية).

(٦) نظام الملك: سياست نامه (فارسى)- طبعة باريس ١٨٩١م- ص١١٠- ١٢٥.

(٧) المولوى (أحمد دده): جامع الدول- مخطوط بجامعة الدول العربية، برقم ١٩٥، جـ١.

(٨) العتبى (أبو نصر محمد بن عبد الجبار): تاريخ اليمينى- القاهرة ١٩٥٩م، ج٥٧/١، ابن الأثير: الكامل ٦٨٣/٨.

(٩) ابن الأثير: ٣٦/٩، ٥٥.

(١٠) العتبى: ٢٣٢/١- ٢٣٧.

(١١) المصدر السابق: ٣٢٤/١- ٣٤٧، حمد الله القزوينى: تاريخ كَزيدة الملحق بتاريخ بخارى- ص١٤٩.

(١٢) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية فى آسيا الوسطى- القاهرة عام ١٩٦٨م- ص٢٠٤، الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية والباكستانية- القاهرة سنة ١٩٧٣م، ص٦٢.

(١٣) العتبى(كاتب السلطان محمود): تاريخ اليمينى، ٣٦١/١- ٣٦٧، ابن الأثير، ٦٣/٩- ٦٤.

(١٤) العتبى: ١٥٣/٢، ٢٦٥، ابن الأثير: ٩٦/٩.

(١٥) أبو الفضل البيهقى: تاريخ البيهقى، ص٤٢٦.

(١٦) المصدر السابق ص ٥٨٠.

(١٧) البيهقى: ٧٤٥، ابن الأثير: ٩٨/٩.

(١٨) منهاج سراج جوزجانى: طبقات ناصرى (فارسى)- كابول سنة ١٣٤٢هـ- جـ١، ص٢٤٤.

(١٩) العتبى: ١٤٦/٢.

(٢٠) الإصطخرى: المسالك والممالك- تحقيق د. محمد جابر الحينى- القاهرة- سلسلة "تراثنا"، سنة ١٩٦١م- ص١٥٣- ١٥٧.

(٢١) البيهقى (أبو الفضل): تاريخ البيهقى، ص١١٥- ١٢٥.

(٢٢) البيهقى: ١٨٦، ابن الأثير: الكامل: ١٣٩/٩.

(٢٣) العتبى: تاريخ اليمينى، ص٣٠٠، دائرة المعارف الإسلامية مادة "أفغانستان" بقلم المستشرق لونجويرث ديمز.

(٢٤) محمد عزة دروزه: العرب والعروبة فى فترة التغلب التركى، ص١١.

(٢٥) أبو شجاع: ذيل تجارب الأمم، ٣٣٢.

(٢٦) العتبى: ١١٢/٢.

(٢٧) سبط بن الجوزى: مرآة الزمان، جـ١١، ص٤٤١.

(٢٨) حمد الله المستوفى: تاريخ كَزيدة (ترجمة محمود قشطة)، ص٣٨.

(٢٩) العتبى: ٢٥٠/٢، السبكى: طبقات الشافعية، ٨١/٣.

(٣٠) المقدسى: أحسن التقاسيم، ص٣٢٣، الإسفراييني: التبصير فى الدين، مكتبة الخانجى بمصر سنة ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، ص٩٩.

(٣١) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٠، ص٢٧٢، جـ١١، ص١٠٦.

(٣٢) العتبى: ١٠٩/٢- ١١١، ٣١١.

(٣٣) العتبى: ٣١١/٢.

(٣٤) الإسفراييني: التبصير فى الدين، ص١٠٠.

(٣٥) العتبى: ٣١٤/٢.

(٣٦) الراوندى: راحة الصدور- ترجمة الشواربى، ود. عبد النعيم حسنين والصياد- القاهرة، سنة ١٩٦٠م، ص١٥٣، البنداري (الفتح بن على): تاريخ دولة آل سلجوق، مطبعة الموسوعات بمصر- القاهرة ١٣١٨هـ/١٩٠٠م.

(٣٧) الحسينى (صدر الدين أبو الحسن على): أخبار الدولة السلجوقية- لاهور، ١٩٣٣م، صـ٣، البندارى، ص٥.

(٣٨) البيهقى (أبو الفضل)، صـ٦٥٤، وما بعدها.

(٣٩) ذكر لين بول أن حرقها كان سنة ٥٥٣هـ، وذكر زامباور أنه كان سنة ٥٤٥هـ، وذكر ابن الأثير أنه كان فى سنة ٥٠٥هـ .

(٤٠) حمد الله المستوفى: تاريخ كَزيدة، ص٥٤.

(٤١) سراج منهاج الجوزجانى: طبقات ناصرى ٢٤٤/١.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. البيهقى (أبو الفضل): تاريخ البيهقى ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت عن الفارسية.

٢. الحسينى (صدر الدين أبو الحسن على): أخبار الدولة السلجوقية.

٣. أبو شجاع (الوزير محمد بن الحسن): ذيل تجارب الأمم.

٤. عبد المنعم النمر: تاريخ الإسلام فى الهند.

٥. عبد النعيم حسنين: سلاجقة إيران والعراق.

٦. العُتْبى (أبو نصر محمد بن عبد الجبار، ت ٤٣١هـ- كاتب السلطان محمود الغزنوى): "تاريخ اليمينى" على هامش " الفتح الوهبى" للشيخ أحمد بن على الدمشقى، ت ١١٧٢هـ.

٧. القاضى منهاج سراج الدين عثمان الجوزجانى: طبقات ناصرى (باللغة الفارسية).

٨. القزوينى (حمد الله بن أبى بكر بن أحمد): تاريخ كَزيدة- يوجد جزء منه ملحق بتاريخ بخارى للنرشخى تحقيق عبد المجيد بدوى ونصر الله مبشر وثمانية فصول ترجمها محمود محروس قشطة فى رسالة ماجستير بآداب عين شمس.

٩. لونجويرث ديمز: مادة "أفغانستان" فى دائرة المعارف الإسلامية الترجمة العربية.

١٠. محمد الرفاعى: الدولة الغزنوية- رسالة ماجستير بدار العلوم، سنة ١٩٧٥م.

١١ـ الوطواط (رشيد الدين محمد العمرى الكاتب البلخى ، ت ٥٧٣هـ): حدائق السحر فى دقائق الشعر- ترجمة إبراهيم أمين الشواربى.

الغنائم

الغنيمة لغة[1]:

الغنيمة والمغنم والغُنم -بضم الغين- الفيئ، وهى ما نيل من أهل الشرك عنوة والحرب قائمة.

والغُنْم: الفوز بالشىء من غير مشقة.

واشتقاق اللفظ من الغنم، وأصلها الربح والفضل، والمغنم مرادف للغنيمة.

الغنيمة اصطلاحًا:

هى اسم للمأخوذ من أهل الحرب على سبيل القهر والغلبة، والغلبة تتحقق بالمنعة أو بإذن الإمام[2].

وتطلق الغنيمة أيضًا على ما يتحصل لنا من الكفار قبل شهر السلاح أو وقوع القتال، كما تطلق على ما أخذ من دارهم إهداءً أو صلحًا والحرب قائمة[3].

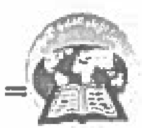
وعند الشافعية: أن الغنيمة هى كل ما أخذ من مال من أهل الحرب، ولا تشترط المنعة أصلاً فى أخذه، فكل ما أجلب عليه المسلمون، وساروا إليه وقاتلوهم عليه فهو غنيمة، سواء أخذ عنوة أم استنزلوا أهله بأمان[4].

والغنيمة بناء على ذلك: تختلف عن الفيئ الذى يتحصل للمسلمين من أموال الكفار ولم يُوجَفْ عليه بخيل ولا ركاب، كالمال الذى تركه المشركون وهربوا فزعًا من المسلمين. يقال: فاء الظل؛ إذا رجع نحو المشرق، ثم سمى به المال الآتى لرجوعه إلى المسلمين؛ لأن الله خلق الدنيا للمؤمنين للاستعانة على طاعته، والأصل فيه قوله تعالى: ﴿ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ ﴾ (الحشر: ٧)، وثمة فرق آخر بين الغنيمة والفيئ: أن الفيئ لا يُخمّس كما تخمس الغنيمة، وإنما فيه حق لكل المسلمين فقيرهم وغنيّهم[5].

غير أنه قد جاء فى إحدى الروايتين فى مذهب الشافعى أن الفيئ يخمّس كما تُخمّس الغنيمة؛ بجامع أن كليهما راجع إلينا من الكفار، واختلاف السبب بالقتال وعدمه غير مؤثر[6].

ووجه ذلك قوله تعالى: ﴿ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (الحشر: ٦).

كما تختلف الغنيمة عن النَّفَل فى أن



النفل زيادة على ما خصّه الإمام لبعض الغزاة تحريضًا لهم على القتال.

ويشترط فى هذا النَّفَل أن يكون قبل حصول الغنيمة فى يد الغانمين، فإذا حصل فى أيديهم فلا نَفَل؛ لأن جواز التنفيل للتحريض على القتال، وذلك لا يتحقق إلا قبل أخذ الغنيمة[٧].

مشروعية الغنيمة:

الغنيمة مشروعة بالكتاب والسنة:

فقد قال الله تعالى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا ﴾ (الفتح: ٢٠).

ولقد نزلت هذه الآية فى أهل الحديبية بالاتفاق، ولما انصرفوا من الحديبية فتحوا خيبر.

فالغنيمة لعموم المسلمين حتى يبين الرسول ﷺ من يستحق ذلك ممن لا يستحقه، وقد وقع بيان ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ (الأنفال: ٤١) [٨]

فأضاف الغنيمة إليهم، وجعل الخمس لغيرهم، ويدل ذلك على أن سائرها لهم[٩].

وقوله تعالى: ﴿ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَنفَالِۖ قُلِ ٱلۡأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ (الأنفال: ١).

وقد جاء فى سبب نزولها أن فرقا من المسلمين اختلفوا حول توزيع الغنائم، وادّعت كل فرقة أنها أحق بالغنائم، فاجتمعوا عند رسول الله ﷺ وارتفعت أصواتهم ورسول الله ﷺ ساكت... فنزلت الآية[١٠].

أما مشروعية الأنفال من السنة، فلقد روى عن النبى ﷺ أنه قال: «أُعطيت خمسًا لم يُعْطَهُنَّ نبى قبلى» فذكر فيها: «أحلت لى الغنائم»[١١].

وعن عروة البارقى رضي الله عنه عن النبى ﷺ قال: «الخيل معقود فى نواصيها الخير: الأجر والمغنم إلى يوم القيامة»[١٢].

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تَكَفَّلَ الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه إلا الجهاد فى سبيله وتصديق كلماته بأن يدخله الله الجنة، أو يرجعه إلى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة»[١٣].

أقسام الأموال المغنومة:

أ- وسائل الاستيلاء واختلاف أنواع المال:

ما أُخذ من مال الحربى قهرًا بقتال فهو غنيمة، وما يصيبه المسلم من أهل العسكر وهو فى دار الحرب فهو فىء؛ لأنه مال تمكن من أخذه فى دار الحرب بقوة الجيش، وكل مال يصل إلى أيدى

المجاهدين فى دار الحرب باعتبار قوتهم فهو غنيمة.

وقد خرج بذلك ما يؤخذ من أموال أهل الذمة من جزية وخراج ونحوه، كما خرج به ما جلوْا وتركوه فزعًا، وما يؤخذ منهم من العشر إذا اتجروا إلينا ونحوه[١٤]..

وخرج به كذلك نحو صيد فى دارهم الذى لم يستولوا عليه، فإنه مباح فيملكه آخذه كما فى أرضنا.

ب – المال المأخوذ باتفاق:

قد يوادع الإمام قومًا من أهل الحرب سنة على مال يدفعونه إليه، وهذا جائز، ولا يكون هذا المال فيئا ولا غنيمة حتى يخمّس، ولكنه بمنزلة الخراج يوضع فى بيت المال؛ لأن الغنيمة اسم لمال متحصل بإيجاف الخيل والركاب، فأما هذا فمال رجع إلينا بطريق المراضاة، فيكون بمنزلة الجزية والخراج يوضع فى بيت مال المسلمين، لأن الإمام إنما تمكن منه لمنعة جماعة المسلمين[١٥].

أما المال المتحصل من الأسارى لفكهم من الأسر فهو الغنيمة؛ لأن رسول الله ﷺ قد قسم فداء أسرى بدر على الغانمين؛ ولأن هذا المال مأخوذ بقوة الجيش، وبالإيجاف على المشركين بالخيل والركاب.

ويدخل المال المأخوذ إهداء من الكفار فى حكم الغنيمة للجيش؛ لأنهم ما أهدوْا هذا المال إلا خوفًا من هجمة الجيش، ويصير غنيمة للجيش ما كان فى دار الحرب، أما إذا قدّمت الهدية فى دار الإسلام فهى لمن أهديت إليه[١٦].

ج- الأرض المأخوذة من الكفار:

وتنقسم هذه الأرض إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: الأرض المفتوحة عنوة:

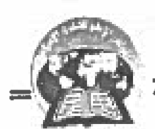
وهى ما أُجلى عنها أهلها بالسيف، والإمام مخير فيها تخيير مصلحة بين قسمتها على الغانمين، أو إقرارها فى أيدى أصحابها مع ضرب الخراج عليهم.

ولقد قسم رسول الله ﷺ نصف خيبر، ووقف نصفها للنوائب والحوائج التى تنزل بالمسلمين، ولم ينقل عنه ولا عن أحد من أصحابه: أنه قسم أرضًا عنوة غير خيبر[١٧].

أما عدم قسمتها فهو اتباع لفعل عمر ﷺ بسواد العراق بموافقة من الصحابة ولم يجد من يخالفه[١٨].

ثانيًا: ما تركها أهلها خوفًا:

وهذه تأخذ حكم الفىء الذى لا يُخمّس، ولا تأخذ حكم الغنيمة لأنها لم تؤخذ عنوة.



ثالثًا: ما تم الصلح عليه:

بأن يصالحهم الإمام أو نائبه على إقرارهم على الأرض وعلى أداء الخراج عليها، سواء أبقيت فى ملكهم، أم انتقلت ملكيتها إلى المسلمين[١٩].

استرداد الأموال التى اغتصبها الكفار:

ملك المسلم يزول عن ماله باستيلاء الكفار عليه، فإذا ظهر عليهم المسلمون فأخذوها وأحرزوها بدار الإسلام، وكان المالك القديم موجودًا أخذها -قبل قسمتها- بغير شىء، سواء أكانت هذه الأموال من ذوات القيم أم من ذوات الأنفال.. وذلك لقوله صلى الله عليه وسلم: **«إن وجدته- أى المال- قبل القسمة فهو لك بغير شىء، وإن وجدته بعد القسمة فهو لك بالقيمة»**[٢٠].

إلا أنه يجب أن تشهد له البيِّنة بذلك ويحلف اليمين الشرعية أنه ما باع ولا وهب ولا خرج عن ملكه بناقل شرعى، وأنه باق على ملكه إلى الآن.

ولا فرق فى ذلك بين المسلم والذمى للعصمة، وهذا كله إذا كان صاحبه حاضرًا فى الغنيمة[٢١].

وقد قُيِّد رد المال إلى صاحبه القديم بأنه "قبل القسمة"؛ لأن فى الأخذ بعد القسمة ضررًا بالمأخوذ منه بإزالة ملكه الخاص، فيأخذه بالغنيمة ليعتدل النظر من الجانبين.

أما الأخذ قبل القسمة وبعد الإحراز فإنه تأكيد للحق الثابت لمالكه، فكانت الإعادة إليه رعاية للملك الخاص وهو أولى[٢٢].

مكان القسمة وزمانها:

أ- قسمة الغنيمة فى دار الحرب:

الشأن فى الغنيمة أن تقسم فى الحرب تعجيلاً لمسرة الغانمين ونكاية فى العدو.

فإن الرسول ﷺ لم يرجع من غزوة فيها مغنم إلا خمّسه وقسّمه قبل أن يرجع.

فقد قسم غنائم خيبر بخيبر، وغنائم أوطاس بأوطاس، وبنى المصطلق فى ديارهم ، وغنائم بدر بالجعرانة[٢٣]. وهى واد من أودية بدر.

ويذهب الجمهور- على أية حال- إلى أن قسمة الغنيمة على الغانمين تعود إلى أَمْنِ المكان الذى تقسم فيه، فإن كان هذا المكان آمنًا من كرّ العدو قسمت الغنيمة فيه، وإلا تحوّل الإمام - أو نائبه- إلى مكان أكثر أمنًا، ثم قسم الغنيمة على الوجه المشروع[٢٤].

- التنفيل من الغنيمة:

ويقصد بالتنفيل أن يزيد الإمام- أو نائبه- فى العطاء على سهم الغنيمة لمن

يقوم بما فيه نكاية زائدة على العدو[٢٥].

وقد ذهب الفقهاء فى مشروعيته مذاهب تدور بين الإباحة والاستحباب والمنع[٢٦].

ولكن لم ينقل عن النبىﷺ أنه حرض المؤمنين على القتال بالتنفيل إلا بعد تحقق الحاجة إلى التحريض، وقد قال مالك بن أنس: " لم يبلغنا أن النبى ﷺ قال فى شىء من مغازيه: (من قتل قتيلاً فله سلبه) إلا يوم حنين، وذلك بعد ما انهزم المسلمون ووقعت الحاجة إلى تحريضهم ليكرّوا ».

فقال مثل ما قال بطريق التنفيل للتحريض لا بطريق نصب الشرع[٢٧]، وإلا فإن القياس يأبى جواز التنفيل؛ لأن تخصيص البعض به يخرج مخرج قطع الحق عن المستحق فينبغى ألا يجوز[٢٨].

وقد اتفق أهل العراق وأهل الحجاز على أن القاتل لا يستحق "السَّلَب" الذى أعلن عنه الرسول ﷺ يوم حنين بدون التنفيل.

وقال أبو حنيفة: لا نفل بعد إحراز الغنيمة.

والصحيح أن التنفيل للتحريض على القتال، وذلك قبل الإصابة لا بعدها[٢٩].

ج ـ كيفية قسمة الغنيمة:

تتضح هذه "الكيفية" فى قوله تعالى:

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾ (الأنفال: ٤١)، وإذن فإن تخميس الغنيمة يكون بعد استخراج الأسلاب ومئونة نقل الغنيمة على النحو التالى:

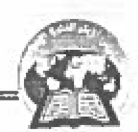
سهم الله:

وسهم الله من خُمْس الغنيمة مردود على عباد الله أهل الحاجة، وقد قال أبو العالية: "لا تجعلوا لله نصيبًا فإن لله الدنيا والآخرة"[٣٠].

كما أن الغنيمة لا تقسم إلى ستة أسهم لأن سهم الله ورسوله شىء واحد لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ إِن كَانُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ (التوبة: ٦٢).

وإضافة الخُمْس إلى الله يحتمل أن يكون لكونه مصروفًا فى وجوه القُرَب التى هى لله تعالى، ويحتمل أن يكون لخلوصه بخروجه عن تصرف الغانمين[٣١].

كما نُقل عن العلماء الحنفية أن سهم



رسول الله ﷺ قد سقط بعد وفاته، لأنه كان خصوصية له، ثم لم يكن لأحد خصوص من الخمس، ولهذا لم يكن للخلفاء الراشدين من بعده.

يحققه أنه لو بقى بعده لكان بطريق الإرث، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «**إنَّا معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه صدقة**»[٣٢].

ويرى الشافعى أنه يصرف إلى الخلفاء؛ لأنه صلى الله عليه وسلم إنما كان يأخذه كفاية له لاشتغاله بمصالح المسلمين؛ والخلفاءُ بعده مشغولون بذلك فيصرف سهمه إليهم كفاية لهم[٣٣].

ولنا ما روى عن رسول الله ﷺ: «**ليس لى من الفىء إلا الخمس وهو مردود عليكم**»[٣٤].

سهم ذوى القربى:

وهم آله صلى الله عليه وسلم، ويشترك فى هذا الغنى والفقير على السواء[٣٥].

وعند الحنفية أن هذا السهم كان لفقراء القرابة دون أغنيائهم، يُعطوْن لفقرهم لا لقرابتهم. وقد روى محمد بن الحسن أن أبا بكر وعثمان وعليا قسموا الغنائم على ثلاثة أسهم: سهم لليتامى، وسهم للمساكين، وسهم لأبناء السبيل بمحضر من الصحابة، ولم ينكر عليهم أحد، فيكون إجماعًا منهم على ذلك[٣٦].

وقد روى عن الحسن وقتادة فى سهم ذوى القربى أنها كانت طعمة لرسول الله ﷺ، فلما توفى حمله أبو بكر وعمر فى سهم الله.

كما قال مالك: الفىء والخمس واحد يُجعلان فى بيت المال[٣٧].

الخمس فيما لم يوجف عليه:

قال الشافعى: ما أَخَذَ الولاةُ من المشركين من جزيتهم والصلح عن أرضهم، وما أُخِذ من أموالهم إذا اختلفوا فى بلاد المسلمين، ومن أموالهم إن صالحوا بغير إيجاف خيل ولا ركاب، ومن أموالهم إن مات منهم ميت لا وارث له وما أشبه هذا مما أخذه الولاة من مال المشركين فالخمس فى جميعه ثابت فيه وهو على ما قسمه له من أهل الخمس الموجف عليه من الغنيمة[٣٨].

سهم كل من الفارس والراجل:

تعددت الآراء الفقهية فى ذلك، وأقربها إلى النظر ما روى عن أبى حنيفة من أن الفرس لا يقاتل بدون الفارس، وأن الفارس يقاتل بدون الفرس.

ومن هنا فإن الفارس يسهم له بسهمين: سهم له، وسهم لفرسه[٣٩].

وهذا الرأى يعاضده القياس ، فإن

الرجل أصل فى الجهاد، والفرس تابع له لأنه آلة .

الرضخ لكل منهما:

الرضخ عطية من الغنيمة ليس له قدر محدد، ويجتهد الإمام فى قدره(٤٠)، وهو يشبه التنفيل فى أن كلا منهما جزء غير مقدر من الغنيمة.

والسهم أكمل من الرضخ سواء أكان للفارس أم للراجل.

بيع الغنائم قبل قسمتها :

إذا تصرف المتولى على الغنائم فيها بأقل من قيمتها، سواء أكان ذلك فى دار الحرب أم فى دار الإسلام.. فإن كان النقصان بقدر ما يتغابن الناس فيه فالبيع جائز، وإن كان مما لا يتغابن الناس فيه فبيعه مردود.

ذلك لأن الغنيمة حق الغانمين، ونفوذ البيع فيه من غير رضاهم باعتبار النظر لهم فى ذلك لا يتحقق فيه معنى النظر.

وإذا تصرف هذا المتولى فاشترى شيئًا من الغنيمة لنفسه بأقل من قيمته، أو أكثر، فإن ذلك لا يجوز؛ لأنه لا يكون مشتريًا من نفسه ولا بائعًا منها، فإن الواحد لا يتولى العقد من الجانبين لما فيه من تضاد الأحكام(٤١).

أ.د/عبد اللطيف محمد عامر

الهوامش:

(١) مادة "غنم" فى : القاموس المحيط، لسان العرب، المعجم الوسيط.
(٢) بدائع الصنائع فى ترتيب الشرائع للكاسانى ١١٨/٧ ، البحر الرائق شرح كنز الدقائق ٨٢/٥.
(٣) الإقناع فى حل ألفاظ أبى شجاع، ج٢/٢٥٦ ، فصل فى قسم الغنيمة.
(٤) الأم، ج٤/٦٤، نهاية المحتاج، ج٦/١٣٣ ، المغنى لابن قدامة، ج٦/٤٠٢. باب قسمه الفيئ والغنيمة، حاشية الدسوقى، ج٢ /١٨٩.
(٥) بدائع الصنائع، ج٧/١١٦، البحر الرائق، ج٥/٨٢، شرح منح الجليل على مختصر خليل، ج١/٧٣٧، باب الجهاد/٧٣٧، المغنى، ج٦/٤٠٥، نهاية المحتاج، ج٦/١٣٣، كشاف القناع، ج٣/١٠٠.
(٦) الأم، ج٤/٦٥، ٧٩، نهاية المحتاج، ج٦/١٣٢.
(٧) بدائع الصنائع، ج٧/١١٥، شرح السير الكبير للشيبانى، ج٢/٥٩٣، شرح منح الجليل، ج١/٧٣٧، كشاف القناع، ج٣/٨٦.
(٨) وانظر: فتح البارى، ج١٢/١٩٨ باب قول النبى: "أحلت لكم الغنائم".
(٩) نهاية المحتاج، ج٦/١٣٣، المغنى، ج٦/٤٠٣ ، باب قسّمة الفيئ والغنيمة، كشاف القناع، ج٣ /٧٨.
(١٠) شرح السير الكبير، ج٣/٤٠٣ ، أبواب الأنفال.
(١١) فتح البارى بشرح صحيح البخارى. حديث ٣/٢٢، مسلم ١/٣٧٠..
(١٢)فتح البارى (السابق). حديث ٣١١٩.
(١٣) السابق. حديث ٣١٢٣.
(١٤) شرح السير الكبير، ج٤/١١٧٤، باب ما يأخذه الرجل من دار الحرب /١١٧٤ ، كشاف القناع، ج٣ /٧٧- ٨١..
(١٥) شرح الكبير، ج٢/٤٩٨.
(١٦) كشاف القناع، ج٣/٩٣.
(١٧) رواه أبو داود ، الكافى فى فقه ابن حنبل، ج٤/٢٢٠.
(١٨) البحر الرائق، ج٥/٨٢، الخرشى على مختصر خليل، ج٣/١٢٨، كشاف القناع، ج٤/٩٤- ٩٥.
(١٩) المراجع السابقة.
(٢٠) بدائع الصنائع، ج٧/١٢٩، كتاب السير، البحر الرائق، ج٥/٩٥.
(٢١) الخرشى على مختصر خليل، ج٣/١٣٦.
(٢٢) بدائع الصنائع، البحر الرائق (السابق).
(٢٣) فتح البارى، ج١٢. باب "من قسم الغنيمة فى غزوه وسفره"، شرح فتح الجليل على مختصر خليل، ج١ /٤٧٥، حاشية الدسوقى، ج٢ /١٩٤، الخرشى على مختصر خليل، ج٣/١٣٦..
(٢٤) الأم، ج٤/٦٦، شرح السير الكبير، ج٣/١٠١٠، فتح البارى، ج١٢/١٥٤..
(٢٥) لسان العرب مادة "نفل"، حاشية ابن عابدين، ٢٢٨/٣، المغنى، ٣٧٨/٨..
(٢٦) انظر: مغنى المحتاج: ١٠٢/٣، جواهر الإكليل، ٢٦١/١، ابن عابدين، ٢٣٨/٣..
(٢٧) شرح السير الكبير، ج٢/٥٩٣- ٥٩٦. أبواب الأنفال.
(٢٨) بدائع الصنائع، ج٧/١١٥، كتاب السير، كشاف القناع، ج٣ /٩٠، الخرشى على مختصر خليل، ج٣/١٣١.
(٢٩) البدائع (السابق)، الشرح الكبير للدردير على هامش حاشية الدسوقى، ج٢/١٩١.
(٣٠) بدائع الصنائع، ج٧/١٢٤، نهاية المحتاج، ج٦ /١٣٢- ١٤١، قسم الفيء والغنيمة ، المغنى، ج٦/٤٠٨.
(٣١) بدائع الصنائع ١٢٤/٧، نهاية المحتاج، ١٣٢/٦- ١٤١..
(٣٢) البخارى. كتاب المغازى، صحيح مسلم. كتاب الجهاد، أبو داود. كتاب الإمارة .
(٣٣) انظر الأم، ج٤/٧٢.

(٣٤) أبو داود: كتاب الجهاد ١٣١- ١٤٩، النسائي: كتاب الفيء، الموطأ: كتاب الجهاد.
(٣٥) الأم، ج٤/٧٢، الإقناع، ج٢/٢٦٠.
(٣٦) كتاب السير ٢/١٢٥، بدائع الصنائع ج٧/١٢٤، البحر الرائق: ج٥/٩٠- ٩١.
(٣٧) شرح منح الجليل: ج١/٧٤٣، حاشية الدسوقي: ج٢/١٩٢.
(٣٨) الأم: ج٤/٧٧.
(٣٩) شرح السير الكبير: ج٣/٨٨٥، أبواب سهمان الخيل والرجالة /٨٨٥.
(٤٠) نهاية المحتاج: ٦/١٥٠، القليوبي: ٣/١٩٥.
(٤١) السيرامكير، جـ٣/١٠٥٨.

مراجع للاستزادة:

١. أسرى الحرب: د. عبد الواحد الفار.
٢. قانون الحرب: عبد العزيز علي جميع، عبد الفتاح عبد العزيز.
٣. الحرب والسلام: عميد أ. ح محمد سعد الدين زكي.

الغوريون (دولة)

الموقع الجغرافى:

تنسب الدولة الغورية إلى المنطقة التى نشأت بها فى قلب أفغانستان الحالية، فكلمة (غر) بالضم تعنى فى لغة البشتو: جبل؛ لذلك كانت التسمية التى أطلقت على بلاد الغور تعنى المنطقة الجبلية. وهى تقع فى شرق ولاية غرجستان وجنوبها وتمتد من هراة إلى الباميان وتخوم كابل وغَزْنَة، وهى جنوب نهر هراة وينبع منها أنهار كبيرة يحدها من الشمال منطقة جبلية. ويقع فى منطقة الغور خمسة جبال معروفة هى:

١- جبل زارمرغ منديش: وكانت (منديش) منطقة غورية مشهورة، إلا أن هذا الاسم فقد مع الزمن وبقى الاسم (زارمرغ) حتى الآن.

٢- جبل سُرخ غر: ويعنى الجبل الأحمر نظرًا للون جبال المنطقة وهضابها، وتعرف الآن باسم (ساخر).

٣- جبل ورشك: وهو جبل موجود بالأصقاع الباردة الغورية وما زال معروفًا بهذا الاسم.

٤- جبل ورنى: وتقع فى شعابه مدينة (داور) المعروفة بهذا الاسم حتى الآن، ومدينة (قصر كجوران) المعروفة حاليًا بـ (كجران).

٥- جبل خيسار: ويقع على الحدود بين غزنة وهراة [١].

أما عاصمة الدولة الغورية فكانت (فيروزكوه) وكانت عامرة حتى اجتياح المغول لها فى عام ٦١٩هـ/١٢٢٢م، ويقال إن جنكيزخان قد أنزل بها الخراب والدمار حتى محاها من على وجه الأرض فلا يعرف لها موضع الآن. وجدير بالذكر أن العاصمة فيروزكوه وقلعتها تختلف عن القلعة التى ذكرها ياقوت الحموى [٢] بنفس الاسم فى بلاد طبرستان والتى تعرف الآن بمازندران.

تحدث الغوريون اللغة الفارسية بلهجة البشتو وهى تختلف عن اللهجة الفارسية فى خراسان والمعروفة بالدّرية. وقد ترك هذا أثرًا واضحًا على أسماء بعض المدن والجبال والمناطق فى غورستان.

ومن المدن التى سيطرت عليها الدولة الغورية أو جاورتها فلعبت دورًا هامًا فى تاريخها؛ المدن التالية:

١- هراة وهى تحد منطقة الغور من

الغرب ، ويقال إنها ازدهرت أيام حكم الغوريين بحيث كان بها آلاف الدكاكين والحمامات والمدارس.

٢- غزنة: وتكتب أحيانًا غزنين، كانت عاصمة الغزنويين حتى انتهت دولتهم واستولى عليها السلطان علاء الدين الغورى عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م وأمر بنهبها وحرقها، ثم جددت فيما بعد وهى عامرة الآن.

٣- الباميان : هى القسم الشرقى من الغور. أجمع الجغرافيون على أنها كانت مركزًا هامًا للديانة البوذية. وذكر القزوينى[٣] أن بها بيتًا مرتفعًا نقشت عليه نقوش من الطير؛ ويوجد به صنمان يطلق عليهما بوذا الأحمر وبوذا الأشهب.ظلت الباميان بلاد كفر فترة طويلة وحتى القرن السابع الهجرى/الثالث عشر الميلادى، ثم تحولت تدريجيًا إلى الإسلام خاصة فى عهد الغوريين.

٤- مدينة خوست: وهى قريبة من الباميان عند منابع نهر هرى رود ، وقد تكون هى مدينة (خشت) المعروفة الآن.

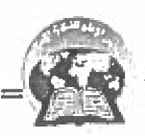
٥- مدينة داور: وهى مدينة على حد الغور.

٦- كابل: وتقع بلاد الغور إلى الغرب منها.

٧- لاهور: فتحها الملوك الغورى قطب الدين أيبك وجعلها دار الملك للغوريين فى الهند ومركز الإسلام وذلك فى نهاية عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م حيث نزل بالقرب منها بقرية يقال لها (داديموه) ثم دخل لاهور وأسس بذلك دولة الغوريين فى الهند والتى انتقلت عاصمتها إلى مدينة دهلى فيما بعد.

نسبهم وإسلامهم:

تجمع المصادر الفارسية على نسبة الأسرة الغورية إلى الضحاك أو بيوراسب كما ذكر المؤرخ المعاصر لهذه الأسرة مباركشاه المروروزى. والضحاك ينتسب إلى العرب طبقًا لرواية الشاهنامه. وقد استولى على الحكم فى إيران ثم ثار عليه حداد يُدْعى(كاوه) فهرب أبناء الضحاك إلى منطقة الغور فى وسط آسيا وهناك تناسلوا وخرجت منهم الأسرة الغورية . وتذكر مصادر التاريخ بلغة البشتو اسم الضحاك (سهاكا) أو (ارثادها)، والاسم الأخير يقترب من التسمية الفارسية للضحاك وهى (أزدها)، كما توجد مدينة (ضحاك) بالقرب من الباميان، كذلك فإن قبيلة (سهاكا) هى إحدى القبائل الآرية القديمة، ويطلق الاسم(سهاكزى) علما



للقبائل الأفغانية القديمة [٤].

وتنسب الأسرة الغورية أيضًا إلى (بسطام) أو(وستهم) بلغة البشتو، وهو من نسل الضحاك وحكم مناطق شغنان والباميان وطخارستان والغور. ويقال إنه فر إليها هربًا من جيوش أفريدون وسكن سفح (زارمرغ) لكثرة عيون الماء فيه. وهناك رواية آخرى عن نسب الأسرة الغورية تتحدث عن ابنين من أبناء الضحاك يُدْعَى الأكبرمنهما(سور) والأصغر ويدعى (سام) قد فر هربا من أفريدون إلى منطقة نهاوند وعيّن الأكبر أميرًا والأصغر قائدًا للجيش، فلما مات سام وكان ابنه شجاعًا مبارزًا سعى الواشون بالوشاية عند عمه الأمير سور فقرر منح ابنته المُلك من بعده، فلما علم ابن سام بالأمر جمع أتباعه وخيله وكثيرًا من المال وأخذ بنت عمه وهرب الجميع إلى منطقة الغور حيث استقامت الحياة لهما عند سفح جبل منديش.

من هنا اتخذت الأسرة الغورية نسبها إلى منطقة الغور الجبلية، كما اتخذت نسبها الثانى إلى الأمير سور وعرفت قبل الإسلام بـ (آل سورى).

أما بعد الإسلام فقد اتخذت الأسرة الغورية نسبًا جديدًا فأطلق عليها (الغور الشنسبانية) نسبة إلى الأمير شنسب بن خزنك أحد أمراء الغور وكان معاصرًا للخليفة على بن أبى طالب ويقال إنه أسلم على يديه ونال منه العهد واللواء، وهى قصة لا نجد فى تاريخ الفتوحات الإسلامية زمن الخليفة علىّ ما يؤكدها، لذلك يغلب على الظن أن الغور قد دخلت الإسلام عن طريق الدعاة أو التجار أو عن طريق الاتصال بالمناطق المجاورة لها التى كان الإسلام قد استقر بها.

وقفت الأسرة الغورية موقفًا معاديًا من بنى أمية ومناصرًا لعلى بن أبى طالب وأرسل الأمير بولاد الغورى(حكم عام ١٣٠هـ/ ٧٤٧م) مددًا من رجال الغور لمؤازرة أبى مسلم الخراسانى فى دعوته ضد بنى أمية وعمل على تقوية الدعوة لآل العباس. يؤكد هذا تفاخر الشاعر الغورى فخر الدين مباركشاه فى إحدى قصائده بأن الأسرة الغورية لم تقم مطلقًا بلعن على بن أبى طالب على المنابر كما كان هو الحال فى العصر الأموى[٥].

حكم بعد الأمير بولاد ابنه الأمير كرور (عام ١٣٩هـ/ ٧٥٦م) وسيطر على مناطق والشتان وخيسار وتمران وكوشك واشترك فى الثورة العباسية على بنى أمية وأيّد أبا مسلم الخراسانى. وهناك الكثير

من القصائد بلغة البشتو تمتدح هذا الأمير وآل سورى على بطولاتهم تلك. قُتِل الأمير كرور عام ١٥٤هـ/٧٧١م فى حرب بوشنج وهى مدينة تقع غربى هراة، وتولى الحكم بعده ابنه الأمير ناصر بن كرور.

استمرت العلاقات الحسنة بين الأسرة الغورية والخلافة العباسية حتى أن الأمير بنجى بن نهاران الشنسبى أحد كبار أمراء الغور قد ذهب إلى زيارة الخليفة العباسى هارون الرشيد حوالى عام ١٧٠هـ/ ٧٨٦م وحظى فى هذه الزيارة بلقب (قسيم أمير المؤمنين).

الغور إبان العهد الصفَّارى والسامانى:

حكم الغور الأمير سورى بن محمد إبان العهد الصفارى، وكانت بعض مناطق الغور- خاصة والشتان العليا والسفلى- لم تدخل الإسلام حتى هذا الوقت؛ لذلك وقعت مصادمات واختلافات بين القبائل الغورية المسلمة وغير المسلمة. وكانت هذه المنازعات الداخلية سببًا فى ضعف الأسرة الغورية مما سهل سقوط بعض المدن والمناطق الخاضعة لها فى يد الصفاريين. (من هذه المدن بلاد بُست وزاولستان وزمينداور وغونة) فخرجت بعض طوائف الغور إلى حدود السند وتحصنت هناك فسلمت من القوات الصفارية. وظلَّ النزاع بين القبائل الغورية مستمرًا طوال العهد السامانى أيضًا إلا أن منطقة غورستان ظلت خاضعة للغوريين ولم تسقط فى يد الصفاريين أو السامانيين نظرًا لوعورتها.

الغور إبان العهد الغزنوى:

أغفلت المصادر الفارسية والعربية فترات طويلة من حكم الأسرة الغورية (غورستان) ، خاصة فى فترات النزاع بين القبائل الغورية المسلمة وغير المسلمة، وأرسلت الحملات العسكرية من قبل الدولة الغزنوية على بلاد الغور لإخضاع أهلها أو لدفع القبائل غير المسلمة للدخول فى الإسلام. وكان الأمير محمد سورى الشنسبانى أميرًا على الغور أثناء حكم السلطان محمود الغزنوى، وتحدثت المصادر الأفغانية بلغة البشتو عن شجاعة الأمير محمد سورى وكيف كان يناوئ الدولة الغزنوية فيدخل فى طاعتها تارة ويتمرد عليها تارة أخرى حتى حوصر فى قلعة (آهنجران) فاستسلم مع ابنه الأكبر (شيش) ولكنه تجرع سما كان يخفيه بخاتمه بالقرب من غزنة حتى يتخلص من مذلة الأسر(٦).

تولى الحكم بعده ابنه الأمير أبو علىّ



ابن محمد سورى وأعلن طاعته للغزنويين وأهتم بالعمران فبنى المدارس والمساجد والقصور الفخمة وظل يحكم الغور حتى ثار عليه ابن أخيه عباس بن شيس وخلعه من حكم الغور وكان ذلك فى عهد السلطان مسعود الغزنوى. وقد اهتم عباس بن شيش الأكبر بعلم الفلك فبنى مرصدًا بقلعة (سنجه) بولاية منديش، إلا أنه كان ظالمًا فاستجار أهل الغور بالسلطان إبراهيم الغزنوى الذى أرسل جيشًا إلى الغور قبض على عباس بن شيش وأودعه السجن وأجلس مكانه ابنه الأمير محمد بن عباس .

وفى عام ٤٦٠هـ/١٠٦٧م حاول الأمير قطب الدين حسن بن محمد بن عباس حاكم الغور أن يوجه سياسته الداخلية نحو إخضاع القبائل الغورية المتمردة وجمعها تحت لواء واحد فقتل فى إحدى المعارك جنوبى غزنة. وواصل ابنه عز الدين حسين سياسة أبيه حتى توطد له حكم المنطقة الغورية وإخضاع قبائلها ، ثم قام بتعيين أولاده السبعة على المناطق الخاضعة له وكانت خراسان والغور وزابل والباميان وطخارستان.

وتُقَسِّم المصادر التاريخية الغوريين فى هذه المرحلة إلى طائفتين: الأولى طائفة ملوك الغور التى كانت تحكم فى فيروزكوه، والثانية: طائفة ملوك طخارستان وتقع شمالى الغور وكانت عاصمتهم (الباميان) ولذلك كان يطلق عليهم ملوك باميان وأحيانًا غورية الباميان، وكان أول ملوكهم فخر الدين مسعود بن حسين.

وحتى حكم عز الدين حسين الغورستان وتوطيد دعائم حكم الأسرة الغورية فى فيروزكوه، كان من الصعب أن نطلق على الغوريين مسمى الدولة؛ ذلك أن قوة الغور فى المنطقة كانت قوة قبلية وليدة عانت من الخلافات والنزاعات؛ وكانت الدولة الغزنوية هى القوة التى لها السيادة فى وسط آسيا بالفعل، وما كانت تفعله الأسرة الغورية هو منازعة الغزنويين على السيادة. وبداية من حكم السلطان عز الدين حسين الذى لقب بأبى الملوك وأبى السلاطين نستطيع أن نطلق على الغوريين مسمى الدولة الغورية.

الدولة الغورية:

حقق الأمير عز الدين حسين الاستقرار والأمان للغوريين بتولية أولاده السبعة على ولايات بلاد الغور، فلم تحدث نزاعات بين القبائل أو خلافات. كما حرص على العلاقات الطيبة والحسنة بجيرانه،

خاصة السلاجقة حيث كان يرسل إلى السلطان سنجر السلجوقى الخراج المقرر على الأسلحة والدروع الغورية. فلما توفى الأمير عز الدين حسين وتولى الملك بعده ابنه سيف الدين سورى جعل إخوته فى أماكنهم وتلقب بلقب السلطان، فكان أول سلاطين الغوريين وجعل من مدينة (استيه) دار ملكه ونزل بقلعتها، وجعل أخاه قطب الدين محمد أميرًا على فيروزكوه فاهتم بها وعمرها. إلا أن مناقشة حامية وقعت بين قطب الدين محمد وإخوته خرج على إثرها قطب الدين إلى غزنة وكان ذلك فى فترة حكم بهرامشاه الغزنوى. وفى البداية استقامت الحياة لقطب الدين فى غزنة إلى أن سعى الواشون عند السلطان الغزنوى فأوغروا صدره على قطب الدين محمد فأمر بوضع السم له فى شرابه وقتله ثم دفنه بغزنة عام ٥٤١هـ/١١٤٦م. وحينما عرف السلطان سيف الدين سورى بالأمر أعد جيشه وخرج إلى غزنة واستولى عليها وجعل أخاه بهاء الدين سام على غورستان واستقر هو بغزنة. إلا أن السلطان الغزنوى بهرامشاه استطاع استرجاع غزنة وأسر سيف الدين سورى وقتله، وتولى عرش الغور بعده أخوه بهاء الدين سام عام ٥٤٤هـ/١١٤٩م الذى أراد الإنتقام من الغزنويين لكن إرادة الله كانت أسبق إليه فمات فى الطريق إلى غزنة. إن أهم ما فى مرحلة حكم سلاطين الغوريين من أبناء عز الدين حسين اهتمامهم البالغ بتعمير بلاد الغور وبناء القلاع والحصون وإعداد الجيوش، كما كان الاهتمام بالشئون الداخلية للغور ورعاية الرعية والاهتمام بالعمران الداخلى هو العامل الرئيسى الذى مكن السلطان علاء الدين حسين من التوسع فى عهده وجعل قوة الغوريين قوة إسلامية هامة فى منطقة أسيا الوسطى حتى إن الخلافة العباسية استعانت بها ضد قوة الخوارزميين فى المنطقة[٧].

كان أول الأعمال التى بدأ بها السلطان علاء الدين حسين بن حسين هو الانتقام لمقتل أخويه فى غزنة فلم يبق لتلقى العزاء وخرج عازمًا التوجه إليها، ورغم تهديدات بهرامشاه الغزنوى إلا أنه دخل معه فى عدد من المعارك انتهت كلها لصالح الغوريين، ولم يكتف السلطان علاء الدين حسين الغورى بالنصر بل دخل غزنة وأضرم فيها النار سبعة أيام وأباحها لجنده ولم يعف النساء والأطفال من انتقامه فألقى القبض

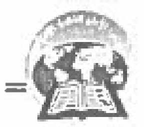
عليهم؛ أما الأموات فقد أمر بنبش قبور سلاطين الغزنويين ولم يترك غير قبور محمود ومسعود وإبراهيم الغزنوى. ويقال إنه قضى الليالى السبع فى لهو ومرح مع الندماء ينشد الشعر حتى كانت الليلة الثامنة والتى اطمأن فيها إلى خراب غزنة عندئذ أمر بالعفو عن أهل غزنة وأقام عزاء أخويه ثم نقل رفاتهما وعاد بهما إلى غورستان، ومنذ هذه الحادثة تلقب بلقب (جهانسوز) أى حارق العالم.

لعبت نشوة النصر والاستيلاء على غزنة برأس السلطان علاء الدين حسين جهانسوز وأراد الاستيلاء على بعض أملاك السلاجقة، شجعه على ذلك استمالته لصاحب هراة ولعدد من قبائل الغز، لكن خدعه السلطان سنجر السلجوقى باستمالته لقبائل الغز والاتراك والخلج والتقى الجيشان عند باب أوبة بهراة عام ٥٤٧هـ/١١٥٢م فانهزم الجيش الغورى ووقع السلطان علاء الدين جهانسوز فى الأسر. وعانت بلاد الغور من قلاقل المتمردين الذين التفوا حول السلطان ناصر الدين حسين مادينى الذى جلس على عرش الغور مكان عمه جهانسوز وازداد الأمر سوءًا حينما ثارت أطماع القبائل الغزية فى المنطقة فدخلت مع السلطان سنجر السلجوقى فى معارك انتهت بأسر السلطان السلجوقى، وفكر السلاجقة فى إيجاد حائط صد ضد القبائل الغزية ووجدوا الحل فى إطلاق سراح السلطان الغورى جهانسوز لإعادة استقرار الغوريين وبذلك يكونون القوة المضادة ضد قوة الغز الناشئة مما يدفع الخطر عن الدولة السلجوقية. وعاد علاء الدين جهانسور إلى فيروزكوه ، وكان أتباعه قد تخلصوا من ابن أخيه بالقتل فأعاد الاستقرار إلى البلاد الغورية ولم يتوقف عن التوسع فأعاد زمام الأمور فى الباميان إلى الغوريين، وضم إليه زميندار وتولك وساخر؛ كما فتح غرجستان صلحًا بل وصاهر ملك غرجستان، وبعد عودته من غرجستان وافته المنية عام ٥٥١هـ/١١٥٦م تاركًا البلاد الغورية فى يد ابنه سيف الدين محمد بن علاء الدين جهانسوز(٨).

توجه سيف الدين محمد إلى إصلاح الأحوال الداخلية فى الدولة الغورية وكانت أهم انجازاته رد المظالم ونشر العدل فى الدولة؛ كما أعلن سنيته وحربه ضد ملاحدة قلعة ألمُوت من دعاة الشيعة الإسماعيلية ودعاة القرامطة فكان يأمر بقتل كل من تصل إليه يده

من هؤلاء الدعاة. كما حاول إصلاح ما أفسده والده داخل الأسرة الغورية فأطلق سراح ابنى عمه غياث الدين ومعز الدين محمد بن سام وكانا قد أمر علاء الدين جهانسوز بحبسهما فى قلعة وجيرستان. ثم حاول سيف الدين الاهتمام بالأحوال الخارجية أيضًا خاصة وقد استفحَلَتْ قوة قبائل الغز التركية التى استطاعت الاستيلاء على بعض أملاك السلاجقة فى خراسان وحاول التصدى للغز فى غرجستان ومرو ولكن خيانة القائد الغورى أبى العباس شيش وقتله السلطان سيف الدين انتقامًا لمقتل أخيه، عجلت بهزيمة الغوريين أمام الغز.

تولى حكم الدولة الغورية بعد سيف الدين؛ غياثُ الدين محمد بن بهاء الدين سام بمبايعة من قادة الغور وجلس على العرش فى فيروزكوه عام ٥٥٨هـ/ ١١٦٣م. وعمل أولا على استقرار أحواله الداخلية فتخلص من أحد مراكز القوى داخل دولته وهو أبو العباس شيش وذلك بقتله، كما استطاع بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى استمالة عمه فخر الدين مسعود ملك الباميان وتحويل عداوته إلى محالفة. ثم التفت إلى الأحوال الخارجية لتحقيق طموحات الغوريين فى التوسع، خاصة وأن أحوال الدولة السلجوقية والغزنوية كانت بسبيلها إلى التدهور والأفول؛ واستعان من أجل ذلك بشقيقه معز الدين محمد- وكان فى البداية يلقب بشهاب الدين- الذى عاونه فى صد قبائل الغز واسترجاع البلاد التى استولوا عليها، ونجحا فى فتح جرمسير وزميندارو، بعد ذلك بعدة سنوات فتح قادش وكاليون وفيوار سيفورد، كما دخلت فى طاعة غياث الدين بلاد غرجستان والطالقان والجروم وتكتياباد وقد فوض الولاية الأخيرة إلى أخيه معز الدين محمد. ولما كانت غزنة فى يد الغز فقد استجمع غياث الدين قواته وعضَّدها بقوات أخرى من خراسان وأعطى القيادة لأخيه معز الدين محمد الذى نجح فى فتحها وطرد الغز منها عام ٥٦٩هـ/١١٧٣م وبذلك قضى على الدولة الغزنوية وحل الغوريون محلهم فى محاولات نشر الإسلام فى الهند، وقد جعل غياث الدين شقيقه معز الدين واليًا على غزنة وعاد هو إلى فيروزكوه. ونظرًا لقوة الغوريين الواضحة راسل أهالى هراة السلطان غياث الدين للتخلص من حاكمهم السلجوقى طغرل الذى فر إلى الخوارزميين حينما شعر بقدوم الجيش



الغورى. كما أعلن ملوك نيمروز وسجستان طاعتهم للغوريين وقرأوا الخطبة باسم سلاطين الغور. أما من بقى من قبائل الغز فى جرجان فقد أعلنوا دخولهم فى طاعة الغوريين وبذلك وصلت رقعة الدولة الغورية إلى أقصى اتساعها فى عهد السلطان غياث الدين محمد[9] حتى أصبحت إحدى أهم القوى الإسلامية فى آسيا الوسطى فى نهاية القرن السادس الهجرى وبداية السابع/ الثانى عشر والثالث عشر الميلادى بحيث استعانت بها الخلافة العباسية لصد الخوارزميين ونجحوا فى التصدى لهم.

من أهم الأدوار التى قامت بها الدولة الغورية استكمال نشر الإسلام فى الهند بعد أفول الدولة الغزنوية وحلول الغورية مكانها، وكان فتح غزنة هو بداية توجه السلطان غياث الدين إلى الهند فاتخذ منها قاعدة له ونجح فى حملته الأولى عام ٥٧١هـ/ ١١٧٥م فى فتح الملتان، وكان يعاونه مملوك له هو قطب الدين أيبك، ثم نجح فى فتح دهلى وجعل منها قاعدة لملكه فى الهند بدلا من غزنة. وجدير بالذكر أن عهد غياث الدين محمد بن سام الغورى قد شهد فتح الكثير من مدن الهند على يد الجيش الغورى بقيادة شقيقه معز الدين محمد بن سام الملقب بشهاب الدين وقد ذكر هذه الفتوحات شاهد عيان هو المؤرخ مباركشاه المروروزى المعاصر للغوريين وذلك فى كتابه عن الهند[10].وقد ذكر فيه هزيمة جيش كوله واسرراجا أجمير وفتح قلعة دهلى وقلعة رنتنبور عام ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. وذكر أسر راجا جيتتشند عام ٥٩٠/ ١١٩٣م، وفى عام ٥٩١هـ/١١٩٤م تم فتح أجمير. وفى عام ٥٩٢هـ/١١٩٥م فتحت تهنكبرى وفى العام الذى تلاه فتحت قلعة بوداون، وتم تخريب بيوت أصنام بنارسى عام ٥٩٤هـ/١١٩٧م، كما ذكر الاستيلاء على جنتروال وفتح قنوج وولاية سروه عام ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م، أما فتح مالوة ونواحيها فقد كان عام ٥٩٦هـ/١١٩٩م، وفتح كواليور عام ٥٩٧هـ/١٢٠٠م، وفى العام الأخير جاء إلى الهند خبر وفاة السلطان غياث الدين فاضطر معز الدين للعودة إلى فيروزكوه العاصمة وجعل مملوكه قطب الدين أيبك على الهند بدلا منه. وحاول معز الدين محمد بن سام بعد توليه العرش إعادة ترتيب الدولة الغورية بتوزيع أملاكها على أقربائه حتى يتفرغ لنشر الإسلام بالهند خاصة وأن القبائل الهندية قد تحالفت لصد الغوريين عام ٦٠٢هـ/

١٢٠٥م، فجمع السلطان معز الدين جيوشه وتوجه إلى الهند وكان بها مملوكه قطب الدين أيبك واستطاعا سويًا التصدى للتحالف الهندى وهزيمته. وفى طريق عودته إلى غزنة قتل السلطان معز الدين محمد، واختلف فيمن قتله: هل هو من ملاحدة ألَمُوت أم فدائىٌّ من جماعة غكارى الهندية[١١]. وبذلك توفى آخر سلاطين الدولة الغورية العظام وتفرقت أملاكها بين أفراد الأسرة الغورية وظهر بينهم النزاع والأطماع مما أنبأ بأفولها.

أما أملاك الغوريين بالهند فقد أعلن قطب الدين أيبك نفسه ملكًا عليها فى لاهور عام ٦٠٢هـ/١٢٠٥م، وتسلم الحكم بعده ابنه أرامشاه بن قطب الدين أيبك، وقد عرفوا تاريخيًا بالمماليك المعزية نسبة إلى السلطان معز الدين وذلك حتى استخلص هذه الأملاك أحد أصهار قطب الدين وكان مملوكًا له ويدعى (ألتتمش). وتعرض كتب التاريخ لهذا السلطان وأولاده تحت عنوان (دولة السلاطين الشمسية) نسبة إلى لقب ألتتمش وهو شمس الدين، وقد يعرض المؤرخون لهم تحت عنوان جامع وهو (دولة المماليك فى الهند). وهذا يوضح أن الدولة الغورية لم تنته فقط فى غورستان بل وأيضًا فى الهند ولكن آثارها الحميدة فى إقامة دولة إسلامية ومحاولاتها فى نشر الإسلام بقيت فى التاريخ.

مذهب الدولة الغورية:

اعتنق أهل الغور وسلاطينهم مذهب الكرامية. ويقال إن السلطان غياث الدين محمد قد تحول عن هذا المذهب إلى الشافعية بعد رؤيته لمنام رأى فيه الإمام الشافعى، ورغم خروجه من مذهب الكرَّامية إلا أنه أطلق حرية المذاهب وجعل منصب القضاء لقاضيين أحدهما شافعى المذهب والآخر كرَّامى عملا منه بحرية المذاهب. كما اهتم غياث الدين ببناء مدرسة للفقيه الشافعى الفخر الرازى بالقرب من جامع هراة ظلت هى الملتقى لأتباع المذهب الشافعى وأحباء الفليسوف الفخر الرازى.

ومذهب الكرَّامية هذا ينسب إلى محمد بن كرام الذى عاش فى نيسابور زمن الطاهريين لكنه طرد منها إلى غرجستان.

والكرامية ثلاث فرق لا يكفر بعضها بعضًا، وتدعو إلى تجسيم الإله المعبود، ولهم تأويل لبعض آى القرآن الكريم يميل إلى هذا التجسيم،

وزعموا أن الوحى أخطأ، ونزل على رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ولهم كثير من الأفكار تدخل فى باب الكفر، خاصة فيما يتصل بذات الله سبحانه وتعالى[١٢].

إن انتشار الأفكار الضالة عند مسلمى وسط آسيا والهند له جذور عميقة فى التاريخ، وساعد على نشرها تقاعس أهل العلم من حمَلَة كتاب الله وأهل اللغة العربية عن تصحيحها بنشر أفكار الإسلام السليمة والعمل على فهم القرآن الكريم فهما صحيحًا فجاء النخر والضعف فى جسد الأمة الإسلامية من داخلها قبل أن يأتى من أعدائها.

أ.د / ثريا محمد على

الهوامش:

(١) الجوزجانى؛ طبقات ناصرى؛ تحقيق عبد الحى حبيبى؛ جلد أول؛ جاب دوم؛ كابل؛ ١٢٤٢ش؛ ص ٣٣٩، ٣٣٦.
(٢) ياقوت الحموى، معجم البلدان، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٨٤، ص ٢٨٤ـ٢١٨، عتيق الله بجوالك؛ غوريان؛ انجمن تاريخ أفغانستان، ص٣ وما يليها.
(٣) القروينى، آثار .
(٤) مباركشاه، اندر أحوال هند، ص٥٥. عبد الحى جبيبى، تاريخ مختصر أفغانستان" بخش سوم، كابل ١٣٤٦، ص ١٥٣.
(٥) استفزارى، روضات الجنات فى تاريخ هرات، جلد دوم، ص ٢٥٦ـ ٢٥٧. ثريا محمد على : الغوريون، القاهرة ١٩٩٣، ص ٤٤ـ ٤٥.
(٦) غياث الدين بن همام الدين الحسينى، حبيب السير وأخبار البشر، جلد دوم، جاب دوم، ١٣٥٣، ص٦٠١، ابن الأثير، الكامل فى التاريخ جـ٧، ص ٢٥٣.
(٧) ثريا محمد على، الغوريون، ص٥٦- ٥٨.
(٨) خوائد مير، حبيب السير، جلد جهارم، ص٦٠٢- ٦٠٤. ملكة التركى، السلطان علاء حسين جهانسوز، ص ٦٨، ٦٩.
(٩) ملكة التركى، السلطان غياث الدين، ص ١٠- ١٤، ثريا محمد على، الغوريون، ص ٦١- ٦٤.
(١٠) فخر الدين مباركشاه، تاريخ مباركشاه فى أحوال الهند، ترجمة ثريا محمد على، القاهرة، ١٩٩١، ص ٥٧- ٥٨.
(١١) أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ج٢، ص٥٢٦. أحمد محمود الساداتى، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية، ص١٠٨.
(١٢) طبقات ناصرى، ص٣٦٢. ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٩، ص٢٤٧. البغدادى، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد عثمان الخشت، القاهرة، ص ١٨٩.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١ـ ياقوت الحموى، معجم البلدان، المجلد الرابع، بيروت، ١٩٨٤م.
٢ـ عتيق الله بجواك؛ غوريان؛ انجمن تاريخ أفغانستان.
٣ـ غياث الدين بن همام الدين الحسينى، حبيب السير وأخبار البشر، جلد دوم، جاب دوم، ١٣٥٣.
٤- ابن الأثير، الكامل فى التاريخ، ج٧، صـ ٩.
٥ـ ثريا محمد على، الغوريون. القاهرة ١٩٩٣م.
٦ـ فخر الدين مباركشاه، تاريخ مباركشاه فى أحوال الهند، ترجمة ثريا محمد على ، القاهرة، ١٩٩١.
٧ـ أحمد السعيد سليمان، تاريخ الدول الإسلامية، ج٢.
٨- أحمد محمود الساداتى، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية .
٩ـ البغدادى، الفرق بين الفرق، تحقيق محمد عثمان الخشت، القاهرة.

الفاطميون

ما كاد القرنُ الثالث الهجرى/التاسع الميلادى يُشْرف على نهايته إلا وكان الفاطميون الشيعة قد نجحوا فى تتويج نشاطهم السرى المكثَّف الذى قام به ((تَنْظيم الدُّعَاة)) والذى استمر أكثر من مائة وخمسين عامًا ، بإعلان قيام الخلافة الفاطمية فى إفريقية فى سنة ٢٩٧هـ/٩٠٨م . وهكذا ، فبعد إعلان قيام الخلافة الأموية فى الأندلس بعد ذلك بنحو عشرين عامًا فى سنة ٣١٧هـ/٩٢٩م، أصبح يتقاسم حكمَ العالم الإسلامى خلافات ثلاث ؛ خلافتان سُنِّيتان : الخلافة العبَّاسية فى بَغْداد والخلافة الأموية فى قُرْطُبَة ، وخلافة ثالثة شيعية هى الخلافة الفاطمية الإسماعيلية فى إفريقية . وعلى الجانب الآخر كانت الدولة البيزنطية المسيحية فى القسطنطينية تتربَّص بها وتتحيَّن الفُرَص لاستغلال هذا الانقسام الذى اعترى الإمبراطورية الإسلامية .

وقد بدأ الضَّعْفُ يَدبُّ فى أوصال الخلافة العبَّاسية السُّنِّية بعد أن أخذت فى التفكُّك إلى دُوَلٍ صغيرة ، وخاصة ابتداء من عصر الخليفة الرَّاضى (٣٢٢-٣٢٩/٩٣٤- ٩٤٠). فقد انفصلت الأقاليم الشرقية عن الخلافة ، بينما أخذت بقية الممتلكات العبَّاسية تستقل تدريجيًا عن سيطرة الخلافة المركزية .

وصحب ذلك مدٌّ شيعىٌّ كبيرٌ شهده القرن الرابع الهجرى/العاشر الميلادى أفْقَد الخلافة العبَّاسية السُّنِّيَّة الكثير من سيطرتها وسطوتها ، حتى نستطيع أن نُطْلِق عليه ((عَصْرُ انتصار الشّيعَة)) . فقد نجح الزَّيديون فى إقامة دولة حاكمة فى طَبَرِستان سنة ٢٥٠هـ/٨٦٤م وفى اليمن سنة٢٨٤هـ/٨٩٧م، واستولى القَرامِطَة على جنوب العراق والبحرين والأحْسَاء . ولم يمض نحو ثلاثين عامًا على انتصار الفاطميين إلا وقد ظهر جليًا انهيار سلطة الخلافة العبَّاسية ، عندما نجح البُوَيْهيُّون الشيعة فى فرض سيطرتهم على بغداد مركز الخلافة السنية ، فكثرت بها الفِتَن بين الشيعة والسنة ، وجُهِر بالأذان بـ((حَىّ على خَيْر العَمَل)) فى الكَرْخ ، كما أقيم مأتم عاشوراء لأول مرة فى بغداد .

أصبحت الخلافة العبَّاسية، بعد دخول البويهيين إلى مسرح الأحداث ، مؤسَّسة اسمية بحتة تُمَثِّل السُّلْطة العليا للإسلام

السُنّى، وتُضفى الشرعية على السلطات المُطْلَقَة التى تَمَتَّع بها العديدُ من الولاة ، الذين كانت لهم السيادة الحقيقية سواء فى الأقاليم أو فى العاصمة العبّاسية نفسها . وبالرغم من هذا الانتصار الشيعى الكبير ، الذى لم يتكرَّر أبدًا بعد ذلك ، فإن هذه الأنظمة الشيعية لم تجد مجالًا للتعاون فيما بينها ، مع أنها استطاعت أن تُسَيْطِر على القسم الأكبر من العالم الإسلامى بضعة عقود ، لأنها أخذت فى الواقع تتخاصم بينها دفاعًا عن مصالحها الإقليمية .

وفى وسط هذا التلاحق المُطَّرد للأحداث كان الفاطميون يمثّلون القوة الفتية الطموحَ الآخذة فى النماء والتى تريد مَدَّ نفوذها وسيطرتها ، بدلًا من الخلافة العبّاسية المنهكة المتداعية ، على كل الأراضى الإسلامية ، وأخذوا وهم فى إفريقية يتحيَّنون الفُرَص للعودة إلى الشرق لتحقيق حلمهم فى استرداد حكم العالم الإسلامى من منافسيهم السنيين

ومنذ وصول المَهْدى إلى إفريقية أدرك أنها لن تستطيع أن تُحَقّق أهداف الخلافة الفاطمية أولًا لقِلَّة مواردها ، وثانيًا لمقاطعة علماء المالكية ومقاومتهم لهم ، ثم بسبب الطبيعة الجغرافية الجبلية للشمال الإفريقى وصعوبة السيطرة عليها ، وأخيرًا لأن أنظار الفاطميين كانت متَّجهة دومًا إلى الشرق. فقد أدرك الفاطميون تمامًا أنهم إذا أرادوا أن يكونوا الحكّام الوحيدين للعالم الإسلامى فليس أمامهم حَلٌّ سوى التوجُّه إلى الشرق وإلى مصر بصفة خاصة . فقد كان العالم الإسلامى بحاجة ماسة إلى مركز متوسِّط يتولّى قيادته؛ وموقعُ مصر الاستراتيجى فى ملتقى قارات ثلاث وسيطرتها على طرق التجارة الدولية التى تربط أوربا بالهند غنىٌّ عن البيان، فلا غرو أن كان حلم الفاطميين فى إفريقية هو العودة إلى المشرق وإلى مصر بصفة خاصة .

فى السنوات الأولى لحكم الخليفة المَهْدي باءت محاولتان لفتح مصر بالفشل(٣٠١هـ/٩١٣م،٣٠٧هـ/٩١٩م) ، وتكرَّرت المحاولات فى زمن ابنه القائم بأمر الله (٣٢٣هـ/٩٣٤م) ولكنها لم تُحَقّق شيئًا على الإطلاق ، بل نَبَّهَت الخلافة العبّاسية إلى أن استمرار هذه المحاولات يتطلّب وجودًا عسكريًا قويًا فى مصر ، فقد اكتشف القائد مُؤْنِس



الخادم ، الذى تَصَدَّى لهجوم الفاطميين المتتالى ، أن للفاطميين عملاء كثيرين بمصر ، فأسند العبّاسيون إلى محمد بن طُغْج الإخشيد ولاية مصر بالإضافة إلى ولايته على الشام ، ولم يكن تعيينه فى الواقع سوى عودة إلى النظام الطولونى الذى سَقَطَ عام ٢٩٢هـ/٩٠٤م.

لا شك أن ثورات البربر المتتالية والحركات الخارجية التى وجدت تأييدًا مؤقتًا من أهل السنة والتى أمضى الخليفة الفاطمى الثالث المنصور بالله إسماعيل فترة خلافته فى احتوائها وإخمادها ، هى التى دفعت الخليفة الفاطمى الرابع المُعِزّ لدين الله إلى وضع هدف الفاطميين فى التَّحَوُّل إلى الشرق موضع التنفيذ بعد أن كادت المشاكل التى واجهها الفاطميون فى إفريقية أن تصرفهم عن تحقيق هدفهم ، من تدهور وفساد .

لم يكن الفَتْح الفاطمى لمصر يعنى قيام حكومة مكان أخرى ، بل كان بمثابة انقلاب دينى ثقافى اجتماعى بعيد المدى ، صَحِبَه تحوُّلٌ ظاهرٌ فى نظام الحكم خَلَق موقفًا جديدًا تمامًا . فلأول مرة فى التاريخ الإسلامى تُحْكَم مصر بدولة لا تدين حتى بالولاء الاسمى لبغداد.

فمع دخول الفاطميين إلى مصر تزايد دورُها فى العالم الإسلامى وتَحَوَّل بشكل أساسى . حقيقةً أن الطولونيين والإخشيديين بدأوا سياسةً جديدةً خاصةً بمصر ، ووضعوا أُسُسَ نواة حربية لها دورها فى المنطقة ؛ إلا أن طموحاتهم كانت محدودة فى بعض الأطماع الشخصية ، وكانوا يدورون فى فَلَك السياسة العبّاسية . أما الفاطميون ، الحُكّام الجُدُد ، فكانوا يتزعمون حركةً دينيةً فلسفيةً اجتماعيةً عظمى كان هدفُها لا يقلُّ عن تحويل وتجديد كل الإسلام ، وكانوا يرون فى أنفسهم الأئمة الأحِقّاء بحكم العالم الإسلامى بمقتضى الحق الإلهى فى الحكم ، فهم أبناء فاطمة بنت رسول الله ﷺ . ومهما قيل فى صِحَّة نسبهم أو عدمه ، وهل كانوا حقًا ينتسبون إلى السيدة فاطمة ، أو كانوا مجرد أدعياء مَهَرَة ، فالحقيقة الثابتة أن عددًا غير قليل من الأتباع قد آمنوا بقضيتهم ودافعوا عنها .

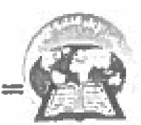
وكان تولّى الفاطميين الحكم بمصر وتأسيسهم خلافة مُسْتَقِلّة بها ، هو عودة إلى وضع جغرافى سياسى أنشأته الوقائع وثَبَّتَه أحداثُ التاريخ . فالعالم الإسلامى كان بحاجة دائمًا إلى مركز متوسط

كانت تشغله الإسكندرية فى العصر الرومانى البيزنطى ، ولاشك أن الفاطميين قد تنبهوا لذلك ، كما وجدوا مصر بسعة مواردها وكثرة أرزاقها ومكانها من القلب بالنسبة للعالم الإسلامى ، قادرةً على تحقيق أهدافهم الاستراتيجية فى يوم من الأيام . وإذا كان الفاطميون قد فَشِلوا فى كَسْب كل العالم الإسلامى لصَفِّهم لتمسُّكهم بتحدِّياتهم الأيديولوجية التى عَزَلوا أنفسهم بسببها عن إجْماع المسلمين ، فإن ((القاهرة)) التى أرادوا أن يحكموا منها العالم الإسلامى ، سَجَّلَ لها التاريخ دورها فى قيادة هذا العالم أمام كل التيارات الأجنبية بدءًا من المَدِّ الصَّليبى ومرورًا بالغَزْو المُغولى وحتى العصر الحديث ، وأثبتت بُعْدَ نظر الفاطميين عندما اختاروا مصر ليُحَقِّقوا من خلالها أهدافهم .

كان أوَّلُ عمل قام به القائد جَوْهَر بعد فَتْح مصر هو اختطاط مدينة جديدة ، بناء على توجيهات الخليفة المُعِزّ ، قُصِد بها أن تكون مدينة ملكية وعاصمة للإمبراطورية العالمية الشاملة التى تضم جميع الأراضى الإسلامية ، هى مدينة ((القاهرة)) فى الشمال الشرقى للفسطاط .

عندما أصبحت الظروف مهيَّأةً لاستقبال الخليفة المُعِزّ لدين الله فى ((القَاهَرة)) ، العاصمة الخليفية الجديدة ، التى أراد الفاطميون بإنشائها أن تكون عاصمةً لإمبراطورية واسعة ينشرون من خلالها مذهبهم الدينى فى كل الأراضى الإسلامية ، مُسَخِّرين لذلك كافة إمكانات مصر ومواردها لإضفاء العَظَمَة والأُبَّهة عليها لتكون جديرة بالإحلال محل بَغْدَاد فى حكم العالم الإسلامى ، كَتَبَ جَوْهَرُ إلى المُعِزّ يدعوه للحضور إلى مصر .

كان انتقالُ الفاطميين إلى مصر انتقالًا بمعنى الكلمة ، ولم يكن تَوَسُّعًا بغرض كَسْب أراضٍ جديدة للخلافة الفاطمية . فعندما كتب جَوْهَر إلى المُعِزّ يدعوه للحضور إلى القاهرة قَطَعَ الفاطميون كل صِلَةٍ لهم بإفريقية ، فقد نَقَلَ المُعِزُّ معه كل ذخائره وأمواله وحتى توابيت آبائه حملها معه وهو فى طريقه إليها . واسْتَخْلَفَ على إفريقية أسرةً بربريةً محليةً هى ((أسرة بنى زيرى)) كان على رأسها يوسف بن بُلُكين الصِّنْهاجى ، واسْتَخْلَفَ على حكم صِقِلِّيَّة أسرةً عربيةً تنتسب إلى قبيلة بنى كَلْب ، أما طَرابُلُس فقد عَهِد بها إلى



عبد الله بن يَخْلِف الكُتامى . وإذا كان المُعِزُّ قد أبْعَد يوسف بن بُلُكين عن صِقِلِّيَّة وَطرابُلُس فذلك لأنه لم يُرد أن تكون له قدمٌ فى أوربا ، أو يكون بمستطاعه التحكُّم فى الطريق إلى مصر. وبذلك فإن دوره تَرَكَّز فى ضَمانِ أمن الشمال الإفريقى ومحاولة مناوشة أمويى الأندلس ووَضْع يده على ما يستطيع الوصول إليه فى إفريقيا جنوب الصحراء.

ونبعت قُوةُ الدولة الفاطمية من قدرتها على الاستفادة من إمكانات كل الأفراد المنتمين إلى مختلف التكتلات العنصرية والاجتماعية التى كانت تُؤَلِّف مجموع الشعب المصرى ، استفادةً لم يسبق لها مثيل من قبل . فقد استعان الفاطميون بالعناصر الأجنبية ، لا سيما المغاربة والأتراك والدَّيالمة والسُّودان والأرْمَن ، وأفادوا بخبرة أهل الذِّمَّة ، ولاسيما بمعرفة الأقباط بالمسائل المالية ، وعَهدوا إليهم بالوظائف الرئيسية فى الدولة التى أُبْعِدَ عنها المسلمون السُّنِّيون .

وهكذا فقد ظَلَّ الفاطميون فى حكمهم مصر كحكومة أقلية منفصلة عن مجموع رعاياها بسبب آرائهم الدينية ، مما أفقدهم تأييد أهل البلاد الحقيقيين .

وقد أدْرَكَ الفاطميون أن الإسماعيلية لم تَتَجَذَّر فى شمال إفريقيا بعد عشرات السنين من الدعاية ، برغم مناسبة البيئة لذلك ، كما أن مصر بما فيها من ذِمِّيين ومسلمين على مذهب السُّنَّة لن تكون أرضًا خِصْبَة للتبشير. فلم يعمد المُعِزُّ إلى نَشْر الدَّعْوة فى مصر إلا فى أضْيَق الحدود ، فنادرًا ما جَرَت أيةُ محاولةٍ لحَثِّ الشعب المصرى على اعتناق المذهب الإسماعيلى ، واكتفى الفاطميون فقط بإسناد مناصب الدولة العُلْيا إلى أهل الذِّمَّة أو إلى من يعتنق مذهبهم . وعلى ذلك فإنه بعد أكثر من مائتى عام من الحكم الفاطمى فى مصر، لم يكن بها إسماعيلى واحد سوى من ارتبط بالسلطة الحاكمة . فقد كان الفاطميون يدورون فى حَلْقَة مفرغة ، فمن حيث إنهم فَشِلوا مبدئيًا فى كَسْب كل العالم الإسلامى لصَفِّهم ، نراهم فى نفس الوقت مضطرين للحفاظ على تحدِّياتهم الأيديولوجية ، الأمر الذى عَزَلَهم عن إجماع المسلمين ، وبهذا تَسَبَّبوا فى إلحاق الهزيمة بأنفسهم وفى اختفائهم من المسرح السياسى .

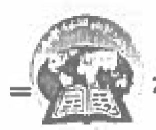
وقد استعاض الفاطميون عن تحويل مسلمى مصر إلى المذهب الإسماعيلى

بكسب ودّ أهل الذِّمَّة . فقد انتهج الفاطميون سياسةً اتسمت بـ ((التَّسَامُح الدِّينى)) مع أهل الذِّمَّة ، الذين يحق لهم - إذا استثنينا الاضطهاد الذى تعرَّضوا له فى زمن خلافة الحاكم بأمر الله - أن يعتبروا العصر الفاطمى عصرهم الذهبى الذى تمكَّنوا فيه من الاندماج الحقيقى فى الحياة السياسية العامة للدولة فى مصر . وهذا التَّسامُح لم يتمَتَّع به حتى المسلمون من أهل السُّنَّة . ولعل انتقال ابن كِلِّس - اليهودى الذى أسلم فى آخر عهد كافور - إلى إفريقية ودعوته المُعِزّ لفَتْح مصر ، ثم الدور الهام الذى لعبه بعد ذلك فى مصر كوزير وأهمية الطائفة اليهودية فى العصر الفاطمى ، تجعلنا نظن تمامًا أن الفاطميين حاولوا كَسْب وُدٍّ هذا العنصر النشيط من الشعب المصرى .

ولاشك أن مصر فى العصر الفاطمى قد أصبحت - بفضل سياسة الفاطميين الاقتصادية المتفتحة والمتسامحة - أكثر مفترقات الطرق التجارية نشاطًا فى العالم الإسلامى . وفى هذه الظروف سرعان ماوَجَد يهودُ مصر أنفسهم، كما توافد إلى مصر مهاجرون يهود جدد من المغرب ومناطق أخرى فى الشرق الأوسط ، فى أعقاب انتصار الفاطميين .

كان عَهْد المُعِزّ والعزيز هو فترة إرساء دعائم الدولة الفاطمية وتثبيت أركانها فى مصر؛ فقد منح هذان الخليفتان للدولة الفاطمية ، بفضل خبرة ومعاونة القائد جَوْهَر والوزير ابن كِلِّس ، قواعد ثابتة جعلتها تستمر بعد ذلك نحو قرنين من الزمان . ولم تكن سياستهما الخارجية نشطة إلاّ فى بلاد الشام ، فتركَّزت سياسةُ العزيز بالله الخارجية على تأكيد سيطرة الفاطميين على سوريا الوسطى والجنوبية وعلى إمارة حَلَب فيما بعد؛ فقد كان الفاطميون يرون فى سوريا الشمالية ((الطريق إلى العراق)) وأن امتلاكهم لها سيضمن لهم الوصول إلى ما وراءها من بلاد ، وخاصة ((بَغْداد)) المركز الروحى والسياسى للعالم الإسلامي السُّني .

وبدلًا من المواجهة المباشرة اعتنق الفاطميون نظريةً جديدة مُؤَدّاها أن صاحب السيادة الفعلية على العالم الإسلامى ، هو من تُقام له الخطبة فى الأراضى الإسلامية المقدسة (مكة والمدينة) . فكان الفاطميون يتَقَرَّبون لشُرَفاء مكة لهذا السبب . وهكذا



أقيمت الدَّعْوَةُ للمُعِزّ وهو مازال فى إفريقية ، كما أقيمت له فى سنة ٣٦٣هـ/٩٧٤م بعد انتقاله إلى مصر ، ثم أقيمت للخليفة العزيز سنة٣٦٥هـ/٩٧٦م. وظلَّ الفاطميون حريصين على ذلك إلى أن تَقَلَّصَت ممتلكاتُهم وشغلتهم مشاكلهم الداخلية عن تحقيق أهدافهم الاستراتيجية .

كانت فترةُ حكم العزيز بالله هى الفرصة المواتية للفاطميين لتحقيق حلمهم فى مواجهة العَبّاسيين . فبعد وفاة العزيز فى سنة٣٨٦هـ/٩٩٦م ، تولّى الخلافة تسعة من الفاطميين ، كان بينهم وقت اعتلاء العرش ثلاثة مراهقين وخمسة أطفال كان أوَّلهم الحاكم بأمر الله.

ووَصَلَت الدولة الفاطمية إلى أقصى اتِّساع لها فى العشرين عامًا الأولى من حُكْم المستنصر حيث شملت مصر وجنوب الشام وشمال إفريقية وصِقِلِّيَّة والشاطئ الإفريقى للبحر الأحمر والحجاز واليمن . كما كَسَبَت ولاءَ عدد لا يُحْصى من الأتباع فى أراضٍ كانت ما تزال خاضعةً لحكّام سُنَّة فى المَشْرق ؛ ثم هَوَت فى انحدار سريع وتَقَلَّصت عنها ممتلكاتها تدريجيًا ، وهى تُمَثِّل بذلك نهاية الفترة الكلاسيكية للدولة الفاطمية .

وتزامن ذلك مع بداية ظُهُور السَّلاجِقَة على مَسْرح الأحداث، بعد أن بدأت السُّلْطَة الفعلية والروحية للخلفاء العَبّاسيين فى بَغْداد فى الوصول إلى أدْنى درجاتها تحت الهَيْمَنَة السياسية للبُوَيْهيين الشيعة . جاء ذلك فى وقت كانت فيه العديد من الإمارات العربية الصغيرة فى بلاد الرافدين والجزيرة وسوريا الشمالية تَعْتَنِق المذهب الشيعى أيضًا ، ولكن التهديد الأكبر للعَبّاسيين جاء دون شك من جانب الخلافة الفاطمية المنافسة فى مصر وجنوب الشام . وجاء استقرار الأتراك السَّلاجِقَة (الغُزّ) فى فارس والعراق والجزيرة وسوريا الشمالية ليوقف هذا الزَّحْف للتَشَيُّع السياسى ، وأصبحت الخلافة الفاطمية مثل غيرها من الأسرات الحاكمة المعاصرة تواجه التهديد المتنامى للأتراك السَّلاجِقَة الذين أخذوا فى التَّقَدُّم السريع من الشرق ليُمَهِّدوا لإقامة إمبراطورية قوية جديدة .

وهكذا اجتمعت عِدَّة عوامل لتَضَع حدًا لأحلام الفاطميين وطموحاتهم ؛ ففى عهد الخليفة القادر بالله العَبّاسى وخَلَفِه

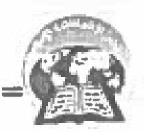
الخليفة القائم بأمر الله (٣٨١- ٤٦٧هـ / ٩٩١- ١٠٧٤م) طرأ تَغَيُّرٌ واضحٌ على سياسة العَبّاسيين تجاه الفاطميين وبدأ الصِّدامُ بين القُوّتين اللتين تجاذبتا السيادة على الشَّرْق الإسلامى . كان بداية التَّحَرُّش بينهما ((المَحْضَر)) الذى صدر فى بَغْداد سنة٤٠٢هـ/١٠١١م مُتَضَمِّنًا القَدْح فى نَسَب الفاطميين ، ووَقَّعَ عليه كبارُ العلماء والفقهاء والقضاة فى بَغْداد وعلى رأسهم نقيب الطالبيين الشريفُ المُرْتَضَى وأخوه الشريفُ الرَّضى. كان هذا المَحْضَر بداية حرب دعائية بينهما استمرت فترةً طويلةً ، ففى سنة ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢مكُتِبَ ببَغْداد ((مَحْضَرٌ)) آخر شبيه بالمَحْضَر السابق ، وبينما وَصَلَت إلينا صيغة المَحْضَر الأول فإنَّنا لا نعلم أىَّ شىء عن صيغة المَحْضَر الثانى.

وفى الوقت نفسه عمل العَبّاسيون على الاستعانة بالسَّلاجقة لفَرْض حصار على الفاطميين ، وتضييق الخِناق عليهم تمهيدًا للقضاء على خلافتهم . فحاولوا الاتصال بحاكم إفريقية الزِّيرى المُعِزّ بن باديس-الذى يدين بالولاء للفاطميين-وأرسلوا إليه فى سنة ٤٣٥هـ/١٠٤٣م خِلَعًا وتشاريف عن طريق القسطنطينية ، لإفساد أواصر الود التى بَدَت بين الفاطميين والبيزنطيين ، إلاَّ أن الإمبراطور البيزنطى قبض على الرسول وسَيَّره إلى القاهرة ((مراعاة لحق المستنصر ... ولأن بينهما عهودًا وهُدْنَة قد بقى منها سنتان ولا يمكن فسخها)) .

بدأ الفاطميون يُعِدّون العُدَّة لمواجهة الخلافة العَبّاسية لأول مرة مواجهةً مباشرةً مستخدمين فى ذلك أسلحة الدِّعاية والنشاط التخريبى ، علاوةً على الوسائل المألوفة الأخرى العسكرية والسياسية والاقتصادية .

من ناحية أخرى صَعَّد الدُّعاةُ المواجهة الحربية مع العَبّاسيين،وتَعَرَّضَت القاهرة، المدينة الملكية حيث قَصْرُ الخليفة، لصراعات دامية بين طوائف الجُنْد المختلفة ، وخاصة الأتراك والسودان . واجتاحت البلاد الأوبئة والأزمات الاقتصادية الواحدة تلو الأخرى فى السنوات٤٤٤هـ/١٠٥٢م و ٤٤٧هـ/١٠٥٥ و٤٥٧هـ/١٠٦٥م ، بالإضافة إلى أزمة إدارية حادة أضعفت قوة الدولة ونفوذها .

فبعد عَزْل الوزير اليازورى-آخر الوزراء الفاطميين أرباب الأقلام الأقوياء-فى سنة ٤٥٠هـ/١٠٥٨م ، بدأ العسكريون يزيدون من قُوَّتِهم باطِّرادٍ على حساب



المدنيين ، بل وعلى حساب الخليفة نفسه .

و لم تكتف الأقدار للمستنصر بهذه الأزمات الإدارية والفوضى السياسية ، فجاءَ النيل-وهو شريان الحياة فى مصر وعَصَبُها - ليضيف إلى مشاكل المستنصر مشكلةً جديدةً . فبعد أزمَة الحِنْطَة التى حَدَثَت فى سنة ٤١٥هـ/١٠٢٣م والتى انفرد بذكرها المُسَبِّحى، عاد منسوبُ النيل إلى التناقص فى السنوات٤٤٤هـ/١٠٥٢م و٤٤٧هـ/١٠٥٥م و ٤٥٧- ٤٦٤هـ /١٠٦٤/ - ١٠٧١م، فشهدت مصر أسوأ أزمة اقتصادية مَرَّت بها فى العصر الإسلامى حيث نَزَعَ السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتى تَعَطَّلت الأراضى عن الزراعة ، واستولى الجوع على الناس لعدم وجود الأقوات ((حتى أبيع رغيفُ خبز فى النداء بزُقاق القناديل من الفُسْطاط كبيع الطُّرَف بخمسة عشر دينارًا ، وبيع الأردب من القمح بثمانين دينارًا ، وأُكِلت الكلابُ والقطط حتى قلَّت الكلاب ، فبيع كلبٌ ليؤكل بخمسة دنانير ، وتزايد الحال حتى أكل الناس بعضهم بعضًا)) وفَقَدَت مصرُ فى هذه الأزمة أكثر من ثُلث سكانها . وبَلَغَ من شدة الأزمة أن المستنصر اضطر أن يبيع كل ما فى قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح ، وصار يجلس فى قصره على حصير وتعطَّلت دواوينُه وذهب وقاره ، بل قيل إن بنات المستنصر وأمه حاولْنَ الفرار من مصر إلى بَغْداد بسبب الجوع وضَغْط الأزمة الاقتصادية فيما اصْطَلَح المؤرخون على تسميته بـ ((الشِّدَّة العُظْمَى)) أو ((الشِّدَّة المستنصرية)) .

كان السببُ الرئيسى لهذه الأزمات التى بدأت فى العقد الخامس هو الحرب الأهلية وضعف قوة الوزراء .

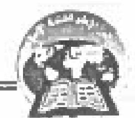
لم يكن إنقاذ البلاد من هذه الأزمات المتتالية ممكنًا دون الاستعانة بقوة عسكرية قادرة على فَرْض النظام واستتباب الأمْن وحماية الخلافة نفسها ، وإنهاء حالة الفوضى التى استشرت فيها ، حتى فَقَدَ الخليفةُ كل سيطرة له عليها وتَقَلَّص نفوذُه وانحصر داخل القصر .

عَقَدَ الخليفةُ المستنصر أمله فى تحقيق ذلك على قائد أرْمَنى ، كان يتولّى عَكّا فى ذلك الوقت ، يُعْرَفُ ببدر الجمالى فكاتبه سِرًّا عن طريق الوزير أبى الفرج محمد بن جعفر بن المغربى ، وهو يومئذ متولّى ديوان الإنشاء ، يطلب إليه القدوم عليه لإصلاح حال البلاد . بدأ بدرُ

الجمالى إصلاحاته فى مصر بتدبير مؤامرة شبيهة بمذبحة القلعة التى دبَّرَها محمد على بعد ذلك بنحو سبعمائة عام ليتخلَّص من المماليك ، قضى فيها بدر على رؤوس الفتنة فى مصر وقَتَلَ رجال الدولة وأقام له جندًا وعسكرًا من الأرْمَن، يقول المقريزى : ((فصار من حينئذ معظم الجيش الأرْمَن وذهبت كُتامَة وصاروا من جملة الرعية بعدما كانوا وجوه الدولة وأكابر أهلها)) . حينئذ قلَّدَه المستنصر الوزارة ومنحه لقب ((السيِّد الأجل أمير الجيوش)) ، وجاء فى سِجلّه ((وقد قلَّدك أمير المؤمنين جميع جوامع تدبيره وناط بك النظر فى كل ما وراء سريره ، فباشر ما قلَّدك أميرُ المؤمنين من ذلك مدبِّرًا للبلاد مُصلِحًا للفساد مدمِّرًا أهل العناد)) . وخَلَعَ عليه كذلك بالعِقْد المنظوم بالجوهر ، وزاد له الحَنَك مع الذُّؤابَة وجعل له أيضًا الطَّيْلَسان المُقَوَّر)) ، ليصبح بذلك أول وزراء التفويض فى العصر الفاطمى .

حَفِظَ الخليفةُ المستنصر بالله لبدر الجمالى فَضْلَه على الدّولة والخلافة ، فلم يخل سِجِلٌ من السِّجِلاَّت التى أرسلها المستنصر لدعاته فى اليمن والمكتوبة بعد سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م من التنويه والإشادة بفضله على الدولة . فنجده يصفه فيها بأنه ((الذى أعاد إلى الدولة العلوية ريق شبابها)) و ((الذى جَدَّدَ الله تعالى به وعلى يده معالم الدولة الفاطمية بعد دروسها ، وأقام بسيفه أعلامها بعد طموسها)) وبأنه ((الآية التى أطْلَعَ الله بها لأمير المؤمنين شمس الخلافة فشَرُقَت ، والموهبة التى وَهَبَها لدولته وللإسلام فظَهَرَت وأشْرَقَت ، والسيف الذى انتضاه على جموع الباطل فزَهَقَت وتمَزَّقَت ... حتى أصبحت المملكة بلُطْف الله وإيالته محفوظة النظام)) ، ((وبماضى عَزَماته وغرار سيفه مَشَيَّدة البناء قائمة العماد)) ((فلا جَرَمَ إنه لدى أمير المؤمنين بالمحل الخطير الذي لم يحلله من تَقَدَّم ، والمكان الجليل الذى يتظاهر دون عالى هِمَم ذوى الهِمَم)) ، و ((أنه حالٌ من أمير المؤمنين محل والده الظّاهر لإعزاز دين الله)) .

وبتولِّى بدر الجمالى وزارة التفويض وإمْرَة الجيوش بدأ عصرٌ جديدٌ فى تاريخ الدولة الفاطمية فى مصر ، عصرٌ تَحَكَّم فيه الوزراءُ أرباب السيوف وصار وزير السيف هو ((سلطان مصر وصاحب الحَلّ والعَقْد وإليه الحكم فى الكافة من الأمراء والأجناد والقضاة والكُتَّاب



وسائر الرعية ، وهو الذى يُوَلِّى أرباب المناصب الديوانية والدينية)) ، وفَقَدَت فيه ((الدَّعْوَة)) فى الوقت نفسه الكثير من قوتها وأصبح هَمُّ الوزراء أصحاب السيوف هو الحفاظ على بقاء الدولة واستمرارها فيما اصْطُلِحَ على تسميته بـ ((عصر نفوذ الوزراء)) . وطوال الخمسين عامًا التالية (٤٦٧- ٥١٥هـ/ ١٠٧٤- ١١٢١م) كان بدر الجمالى وولده الأفضل هما اللذين يقودان مصير الدولة الفاطمية .

هكذا حَفِظَ نظامُ بدر الجمالي وخلفائه المباشرين - الأفضَل والمأمون بن البَطائِحى - الدولة الفاطمية من السقوط، وأطال بقاءها نحو قرن ، بفضل إشرافهم التام على نظام الدولة الإداري والديني والعسكرى . ومثلما أصبح الخلفاء العَبّاسيون فى بَغْداد لا حَوْلَ لهم ولا قوة بيد قادتهم العسكريين المتسلِّطين ، أصبح الفاطميون كذلك ، منذ هذا التاريخ ، رؤساء رمزيين لسلسلة متوالية من الطُغاة العسكريين .

ولعل أهم إنجازات بدر الجمالى فى فترة حكمه فى مصر ، بالإضافة إلى بنائه سور القاهرة وإعادة تحصينه ، وكذلك بقية منشآته الدينية والمدنية سواء فى القاهرة أو فى الإسكندرية أو فى الصَّعيد ، هو الإصلاحات الإدارية العديدة التى أدخلها على نظام الحكم فى مصر . فقد عَيَّن عواصم الولايات التي تتحكَّم فى مصر العُلْيا والسُّفْلى لتأمين الطرق المؤدية إلى عاصمة البلاد ، إلى جانب إنشاء العديد من التحصينات المتقدِّمة التى تصد ما يمكن أن تتعرض له البلاد من أخطار .

فتقسيم مصر إلى أربع ولايات رئيسية : قُوص والشَّرْقية والغربية والإسكندرية بالإضافة إلى القاهرة والفُسْطاط يرجع إلى إعادة تنظيم الدولة الذى بدأه بدر نحو عام٤٧٠هـ/١٠٧٨م. وقد حَفِظَ هذا النِّظام الجديد لحكام هذه الولايات سلطة متزايدة . وكان والى قوص أقوى الولاة الأربعة ويحكم على جميع بلاد الصعيد ، وتلى رتبته رتبة الوزير فى الأهمية.

ويُفَسِّر ذلك إلى أى مدى كان اهتمامُ الفاطميين بطُرُق التجارة الشرقية ، ورغبتهم فى نَشْر دعوتهم على طول الطرق التجارية المؤدية إلى اليمن وعُمان والهند ، وحرصهم على تأمين ميناء عَيْذاب ،

القاعدة البحرية التي أخذت فى النمو منذ أن اتَّبَع الفاطميون استراتيجية شرقية تولّى والى قوص أمر الإشراف على الأسطول المعد بها لحماية ((مراكب الكارم)) من غارات القراصنة .

عند وفاة بدر الجمالى فى جمادى الأولى سنة٤٨٧هـ/١٠٩٤م أكْرِه الخليفة المستنصر، تحت ضغط الجيش ، على اتخاذ الأفضل وزيرًا له . وتَلَقّب الأَفْضَلُ بنفس ألقاب أبيه فعرف بـ((السَّيِّد الأجَلّ الأفْضَل أمير الجيوش ، سيف الإسلام ناصر الإمام ، كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين)) . ولم يلبث الخليفة المستنصر أن توفى بعد ذلك بشهور فى ١٨ ذى الحجة سنة٤٨٧هـ/٢٩ ديسمبر سنة ١٠٩٤م عن عمر يناهز سبعة وستين عامًا وبعد حكم دام أكثر من ستين عامًا .

لم تمض عملية خلافة المستنصر فى منصبه في هدوء بل قادت إلى انشقاق الدَّعْوَة الفاطمية وانقسامها على نفسها . وكان لهذه الحادثة وما تبعها آثارٌ جسيمة على الدَّعْوَة سواء فى مصر أو خارجها . فالعقيدة الإسماعيلية تعتمد انتقال الإمامة فى الأعقاب من الأب إلى الابن الأكبر ، وتبعًا لهذه القاعدة كان نِزار، الابن الأكبر للمستنصر ، هو صاحب الحق الشرعى فى خلافة أبيه فى منصب الإمامة ، رغم أنه لم يُجْر أي احتفال لتنصيبه وليًّا للعهد . ومع ذلك لم يعر الأَفْضَل هذا التقليد أى اعتبار وأبْعَد نِزارًا الذي كان له من العمر آنذاك خمسون عامًا (ولد عام ٤٣٧ هـ) ، عن العَرْش ، وأجلس عليه أخاه الأصغر أبا القاسم أحمد (ولد عام ٤٦٧ هـ) وحَكَمَ باسم ((المُسْتَعْلى بالله)) وذلك لأن المُسْتَعْلى كان فى نفس الوقت زوج أخت سِتّ المُلْك ابنة بدر الجمالي . وتبعًا لما ذكره ابن مُيَسَّر فإن المستنصر نَعَتَ ابنه أبا القاسم أحمد ، وقت عَقْد نكاحه على ابنة بدر الجمالى ، بـ ((وَلِىّ عهد المؤمنين)) .

وقاد الخلاف على صاحب الحق فى خلافة المستنصر إلى نتائج بعيدة المدى فى تاريخ الدَّعْوَة الإسماعيلية . وقد اعتبر برنارد لويس Bernard Lewis وصمويل شتيرن Samuel Stern إبعاد نزار وتولية المُسْتَعْلى انقلابًا سياسيًا واضح المعالم قام به الوزير الأفَضْل شاهنشاه محافظةً على السلطان القوى الذي كان يَتَمَتَّع به منفردًا منذ أواخر عهد المستنصر ، خاصةً وقد وَقَعَت بين الأفَضْلِ ونِزار خلافاتٌ فى أيّام

المستنصر، خشى منها الأَفْضَل إن تولَّى نِزار أن يُبْعِده عن الحكم ، وبذلك ظَلَّ الأَفْضَلُ طوال الخمسة والعشرين عامًا التالية هو المُدَبِّر الحقيقى لدولة الفاطميين.

الآمر بأحكام الله يتولّى الخلافة

عندما توفي الخليفة المستعلي سنة٤٩٥هـ/١١٠١م. أقام الوزير الأَفْضَل ابنه أبا على المنصور موضعه فى الخلافة ولَقَّبه بـ ((الآمر بأحكام الله)) وهو لم يتجاوز الخمس سنوات ، فحَجَرَ عليه واستقلَّ بتدبير أمور الدولة كما كان فى خلافة المستعلى .

وقد أظهر ابن مُيَسَّر فهمًا دقيقًا لخلافة الآمر (٤٩٥ ٥٢٤هـ/١١٠١-١١٣٠م) عندما قَسَّمَها إلى فترات ثلاث : فترة حَجَرَ عليه فيها الوزير الأَفْضَل (٤٩٥ ٥١٥هـ) ، وفترة شاركه فيها الوزير المأمون بن البَطائِحي (٥١٥ ٥١٩هـ) ، ثم الفترة التي استبدَّ فيها الآمر بالأمر ولم يستوزر فيها أحدًا وحتى وفاته فى سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م .

ففي العشرين عامًا التي أعقبت وفاة المستعلي كانت السُّلْطَة الفعلية فى مصر فى يد الوزير القوى الأَفْضَل بن بدر الجمالي ، فهو الوزير وقائد الجيش والمشرف على شئون القضاء والدَّعْوَة ، والخليفة طفلٌ لا حول له ولا قوة معه

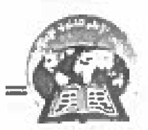
وكثر فى عهد الأَفْضَل استخدام الموظفين النَّصارى ، فعندما جَدَّدَ فى عام ٥٠١هـ/ ١١٠٨م ((ديوان التحقيق)) استخدم فيه الشيخ أبا البركات يُوحَنّا بن أبى اللَّيْث النَّصْرانى وبقى فيه حتى قتل سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م . كما كان الشيخ أبو الفضل المعروف بابن الأُسْقُف ((كاتب الأَفْضل والموقِّع عنه فى الأموال والرجال ومتولّى ديوان المَجْلِس والنَّظَر فى جميع دواوين الاستيفاء على جميع أعمال المملكة)) . كذلك فقد كان متولّى الديوان بأسْفَل الأرض نَصْرانيا يعرف بأبى اليُمْن وزير بن عبد المسيح . وأحاط الأَفْضَل نفسه كذلك بجنود من الأَرْمَن ، وشَجَّع على هجرتهم ، التى بدأت منذ مقدم والده فى أيام المستنصر ، لهذا الغرض .

كان قَتْلُ الوزير الأَفْضَل مصدر ارتياح للخليفة الآمر ، وكان من الطبيعى أن يخلف ابن فاتك الوزير الأَفْضَل فى منصبه. وقد امتنع ابن فاتك عن قبول هذه الرُّتْبَة فى أول الأمر حيث عُيِّن

واسِطَةً ، ثم تولّى الوزارة كاملة فى ثانى ذى الحجة ٥١٥هـ/١٢فبراير سنة ١١١٢م . وقد حَفِظَ الخليفة الآمر للقائد أبى عبد الله محمد بن فاتك حرصه على استدعائه له فى أعقاب مقتل الأَفْضَل ، لتَسلُّم تركته الضخمة التى استمر نقلها من دور الأَفْضَل إلى القصر نحو أربعين يومًا . وكان ذلك سبب تلقيب القائد أبى عبد الله بـ ((المأمون)) ، فبعد أن شكره الآمر على صنيعه قال له : ((والله إنك المأمون حقًّا ما لك فى هذا النعت شريك)) ، فلما قلَّده الوزارة نعته بـ ((الأجَلّ المأمون)) فعرف به . وفى سجل توليته الوزارة جاء نعته : ((الأجَلّ ، المأمون، تاج الخلافة، وجيه الملك ، فَخْر الصنائع، ذُخْر أمير المؤمنين)) ثم تجدَّد له بعد ذلك فى النعوت ((الأجَلّ ، المأمون ، تاج الخلافة ، عِزّ الإسلام ، فَخْر الأنام ، نِظام الدِّين والدُّعاة)) ، ثم نُعِت بما كان يُنْعَت به الأفضل وهو ((السيِّد ، الأجَلّ ، المأمون ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، ناصر الإمام كافِل قضاة المسلمين وهادى دُعاة المؤمنين)) .

وتُعَدّ فترة خلافة الآمر ووزارة المأمون البطائحى (٥١٥ - ٥١٩هـ/١١٢٢ - ١١٢٥م) من أزهى فترات التاريخ الفاطمى فى مصر ، فقد كان الآمر مفتونًا بعظَمة الاحتفالات وفخامتها ، ويرجع إليه الفضل ، كما يقول المقريزى، ((فى تجديد رسوم الدولة وإعادة بهجتها إليها)) ؛ فقد أخذت رسوم الفاطميين شكلها النهائى على يد هذا الخليفة الذى أعاد وطَوَّر الكثير من الاحتفالات الفاطمية التى انقطعت بسبب ما تعرَّضت له البلاد فى أعقاب الشِّدَّة ، وفى أعقاب تَسلُّط الوزير الأفْضَل على الدولة ، والواقع فإن أكثر ما نعرفه عن رسوم الدولة الفاطمية فى مصر وتفاصيل الاحتفالات الموكبية والأسْمِطَة وأنواع الخِلَع والكُسْوات التى كانت هذه الاحتفالات مناسبة لتفريقها على رجال الدولة، والذى أمدنا به مؤرِّخون من أمثال ابن المأمون وابن الطُوَيْر، ندين به إلى هذه الفترة .

وأراد الخليفة الآمر أن يعيد إلى العاصمة سابق ازدهارها ، فبعد الإصلاحات والتحصينات التى قام بها بدر الجمالى بين سنتى ٤٨٠هـ/١٠٨٧م و ٤٨٥هـ/١٠٩٢م ، أمر الآمر وزيره المأمون أن يدعو الناس إلى تعمير موضع الخراب الذى تخلَّف عن الشِّدَّة العُظْمى ، والممتد جنوبًا بين باب زُوَيْلَة والمَشْهَد



التَّفيسى ، ليعيد إلى القاهرة سابق رونقها وتألُّقها . وأنشأ داخل القاهرة مقابل ركن القصر الشمالى ، المعروف بالرُّكْن المُخَلَّق، ((الجامع الأقْمر)) الذى افتُتِح للصلاة فى سنة ٥١٩هـ/١١٢٥م ، وهو أوَّل جامع يبنى داخل القاهرة منذ بنى الخليفة الحاكم بأمر الله ((الجامع الأنْوَر)) ، قبل أكثر من مائة عام ، فى طرف المدينة الشمالى .

عندما استقل الآمر بالحكم ، بعد عَزْل الوزير المأمون بن البَطائِحى ، لم يتمكن من سياسة الدولة ؛ لأنه ظَلّ بعيدًا عن الحُكْم طوال الخمسة والعشرين عامًا السابقة . فاضطر إلى اتخاذ صاحبى ديوان ، لاستخراج ما يجب لله فى أموال الناس من زكاة وما هو مرتب من مكوس ، أحدهما مسلم هو أبو الفضل جعفر بن عبد المنعم بن أبى قيراط، والآخر سامري اسمه أبو يعقوب إبراهيم الكاتب، أقام معهما مُسْتَوْفٍ لهاتين المعاملتين وهو راهب يعرف بأبي نجاح بن قَنا ، كان قد اتَّصَل بالآمر بعد قتل المأمون البطائحى، وبَذَلَ له فى مصادرة قوم من النَّصارى مائة ألف دينار ، ثم تزايد فى أمر المصادرات حتى صادر رجالات مصر من المسلمين ، وفيهم القضاة والكُتَّاب والشهود . فزاد قربه من الآمر حتى لَقَّبه بـ ((الأب القديس الرُّوحانى النفيس ، أبى الآباء سَيِّد الرُّؤساء ، مُقَدّم دين النصرانية وسَيِّد البطريركية ، ثالث عشر الحواريين)) ، الأمر الذى زاد فى سطوته ، فكثرت إساءته للمسلمين ومصادرته للناس .

هكذا حاول الخليفة الآمر أن يعيد شباب الدولة الفاطمية عن طريق إحياء رُسُومها واحتفالاتها ، ولكنه أراد بذلك أيضًا أن يتقرَّب إلى مجموع الشعب المصرى بمتابعة هذه الاحتفالات والمشاركة فيها . فقد كان الانفصال كبيرًا بين النظام الحاكم وبقية أفراد الشعب ، ولم يكن القصد من هذا الإحياء تعبئة المشاعر فى سبيل تحقيق هدف الدولة الفاطمية فى السيطرة على العالم الإسلامي ، فالواقع أن هذا الهدف قد نُسى تمامًا منذ أن تَحَكّم الوزراء أرباب السيوف فى الدولة .

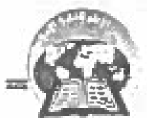
كانت السنواتُ التى أعقبت وفاة الخليفة الآمر وما صاحبها من أحداث تجاهلت أُسُس العقيدة الفاطمية ، هي مؤشِّر التعجيل بسقوط الدولة الفاطمية فى مصر الذي تأجَّل نحو القرن بفضل

الإصلاحات الإدارية والتنظيمية والدفاعية التي أدخلها نظام بدر الجمالي وخلفائه الأفْضَل والمأمون بن البطائحى .

وفور وفاة الخليفة الآمر مقتولًا فى ثانى ذى القِعدة سنة ٥٢٤هـ/٧ أكتوبر سنة ١١٣٠م ، نشأت لأول مرة فى تاريخ الدولة الفاطمية مشكلةُ البحث عن وريث للإمامة . فقد مات الخليفةُ دون وريث ، ولكنه أشار وقت وفاته - تبعًا لبعض المصادر - إلى أنه ترك إحدى جهاتِه حاملًا وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولدًا ذكرًا هو الخليفة من بعده ، وكان يجب الانتظار لمعرفة نتيجة هذا الحَمْل . وقد اختلفت المصادر فى تحديد نوع المولود ، فالنُّوَيْري وأبو المحاسن ذكرا أن الحامل وَضَعَت أنثى ، بينما يُقرِّر ابن خَلِّكان أنه لم يُعْرَف نوع المولود .

وانتظارًا لهذا المولود تولَّى منصب الإمامة لأول مرة فى تاريخ الدولة الفاطمية ((إمامٌ مُستَوْدَع)) وِفقًا للمصطلح الإسماعيلى ، فقد أحْضَرَ هَزَّار الملوك جَوامَرْد والعادل بَرْغَش - كبار غلمان الآمر - ابنَ عمه الأمير أبا الميمون عبد المجيد ، أكبر الأقارب سِنًّا ، وبايعوه بولاية العهد وتدبير المملكة ((كَفيلًا لَحْملٍ مُنْتَظر فى بطن أمه)) . فجَعَلَ عبد المجيد هَزَّارَ الملوك جَوامَرْد وزيرًا له ، فلم ترض به طوائف الجند وثاروا عليه فى نفس يوم توليته فكانت وزارته نصف يوم يدون تَصَرُّف ، وأخرجوا أبا على أحمد ابن الأَفْضَل شاهنشاه المُلَقَّب بكُتَيْفات وفرضوه وزيرًا على الأمير عبد المجيد فى ١٦ذى القعدة سنة ٢١/٥٢٤ أكتوبر سنة ١١٣٠م وقالوا له : ((هو الوزير ابن الوزير ابن الوزير)) .

وشهدت الدولة الفاطمية فى الفترة التى تولَّى فيها أبو على الأفْضَل الوزارة ، فيما بين شهر ذى القعدة سنة٥٢٤ والمحرم سنة ٥٢٦ ، وَضعًا فريدًا لم يَسْبق له مثيل فى تاريخها ، وإن دَلَّ على شىء فإنما يدلُّ على ضعف الخلافة وفُقْدان الحماسة لدعوتها . ففى البداية شارك وَلِىُّ العَهْد أبا على الأَفْضَل فى الحكم فترة قصيرة لم تتعد ، تبعًا لابن مُيَسَّر ، يومًا واحدًا . وحَفِظَت لنا مجموعة وثائق دير سانت كاترين سجِلا بالغ الأهمية من حيث تاريخ صدوره والأشخاص المذكورون فيه؛ فهو صادرٌ فى شهر ذى القعدة سنة ٥٢٤/ أكتوبر ١١٣٠ عن ((وَلِىّ عهد المسلمين .... ، وكافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبى على أحمد بن



السيِّد الأجلّ الأفضل أمير الجيوش)) ، وقد ضاع اسم وَلِىّ العهد مع فاتحة السِّجِلّ وهو دون شك الأمير أبو الميمون عبد المجيد ، ويكون التاريخ المحدّد لصدور هذا السِّجِلّ هو اليوم الذى اشترك فيه عبد المجيد وأبو على فى إدارة الدولة .

هذه هى الإشارة الوحيدة التى تدل على اشتراك وَلِىّ العهد والوزير فى تدبير أمور الدولة ، فسرعان ما قَبَضَ الوزير أبو على على الأمير عبد المجيد واستأثر تمامًا بالسلطة وأقام الدعوة للاثنى عشرية وضَرَب دراهم باسم الإمام المنتظر نَقَشَ عليها ((الله الصَّمَد - الإمام محمد)) .

فى يوم الثلاثاء ١٦ محرم سنة ٩/٥٢٦ ديسمبر سنة ١١٣١ انتهى هذا الوضع الشاذ ، عندما ثار غلمان الآمر، وعلى رأسهم ناصر الجيوش يانِس ، وتمكّنوا من قتل أبى على الأفْضَل وهو يلعب الكرة فى الميدان الكبير خارج باب الفتوح ، ثم أخرجوا الأمير عبد المجيد من الموضع المعتقل فيه بالقصر ، وبايعوه على أنه ((وَلِىّ عَهْد كفيل لِمَنْ يُذْكر اسمه))، فاتخذ عبد المجيد هذا اليوم عيدًا سمّاه ((عيد النَّصْر)) ظل يُحْتَفَل به حتى نهاية الدولة . ووَصَلَ إلينا دينارٌ فريدٌ ضُرِبَ فى الإسكندرية سنة ٥٢٦ ، لاشك فى الفترة بين خروج عبد المجيد من الاعتقال (١٦ محرم) ومبايعته بالإمامة (٣ ربيع الآخر) باسم : (أبو الميمون عبد المجيد وَلِىّ عَهْد المسلمين) .

فقد قرئ سجلٌ فى القاهرة فى ٣ ربيع الآخر سنة ٥٢٦ هـ/٢٣فبراير سنة ١١٣٢م بمبايعة الأمير عبد المجيد إمامًا وتلقيبه بـ ((الحافظ لدين الله)) .

والواقع أن الاعتراف بإمامة الحافظ يعد خروجًا على أُسُس نظام الإمامة عند الإسماعيلية ، الذى يشترط أن تكون الإمامة دائمًا فى الأعقاب ، ففى المرات القليلة التى خُرِجَ فيها عن هذه القاعدة كانت الإمامة تنتقل فقط من الابن الأكبر إلى أخيه الأصغر (عبد الله والعزيز نزار والمُسْتَعْلى بالله) ، ولكنها لم تخرج أبدًا من الأعقاب ، لذلك فقد عمد بعض الدُّعاة إلى تبرير صِحَّة إمامة الحافِظ فى أكثر من مناسبة ، فينقل المقريزى على لسان داعى الدُّعاة إسماعيل ابن سلامة الأنصارى قوله : ((لولا أن مولانا الآمر نصَّ على مولانا الحافِظ

وأودعه سِرّ الخلافة لما ثَبتت فيه ولا استجاب له الناس)) !

وبذلك انقسمت الدَّعْوَة الإسماعيلية فى مصر على نفسها مرة ثانية فى أقل من خمسين عامًا إلى : ((طَيِّبيّة)) نسبة إلى الإمام الطَّيِّب بن الآمر الذى اعترف بإمامته كل الطائفة الإسماعيلية فى اليمن والهند استمرارًا للدَّعْوَة المستعلية ، و ((حافِظية)) أو ((مجيدية)) نسبة إلى الحافظ عبد المجيد ، وقد تمتَّعت بتأييد مؤسَّسة الدعوة فى مصر وقَبِلَها أغلبُ الإسماعيلية المستعلية فى مصر والشام . وبقيت مع ذلك بعض جماعات من مستعلية مصر والشام تَبَنَّت حقوق الإمام الطَّيِّب وعُرِفوا ((بالآمرية)) .

وشهدت السنوات الأربعون الأخيرة فى عمر الدولة الفاطمية فى مصر تطوُّرات خطيرة متتالية قادت إلى تدهورها وعَجَّلَت بسقوطها . فقد انحصر نفوذُ الخلافة نهائيا داخل حدود مصر وانفصل عنها بقية أتباعها الذين لم يعترفوا بأحقية الحافِظ وخلفائه فى الإمامة . وبذلك حَكَمَ الخلفاءُ الأربعة الأواخر فى القاهرة كأسرة حاكمة مصرية محلية بلا سُلْطَة أو نفوذ أو أمل . ولم تجر أيَّة محاولة لمدِّ نفوذ الفاطميين خارج الحدود المصرية ، إذا استثنينا محاولة الخليفة الحافِظ نَشْر دعوته لدى الزُّرَيْعيين - حُكّام عَدَن - الذين أجابوه إليها ، وكان هدفُه من وراء ذلك ضمان السيطرة على طُرُق التجارة المؤدية إلى الهند .

كانت تولية بهرام الأرمنى الوزارة يوم الجمعة ١٦ جمادى الآخرة سنة ٥٢٩هـ/ مارس سنة ١١٣٥م ونعته بـ ((السَّيِّد الأجَلّ، أمير الجيوش سيف الإسلام ، تاج الخلافة (الدولة) ، ناصر الإمام ، غَيّاث الأنام ، أبى المُظَفَّر بَهْرام الحافظى)) وهو باق على دين النصرانية ، تطورا مهما فى تاريخ الدولة فأصبح بذلك أوَّل نَصْرانى يتولَّى وزارة تفويض للفاطميين . وقد أشار كبراء رجال دولة الحافظ عليه بألا يُوَلِّيه الوزارة لأنه نَصْرانى ، وأن من شَرْط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر فى الأعياد ، كما أن القضاة هم نُوّاب الوزراء من زمن أمير الجيوش ، فلم يأخذ بنصيحتهم وجَعَلَ القاضى ينوب عنه فى صعود المنبر ، ولم يَرُدّ إليه شيئًا من الأمور الشرعية ، فكان يقعد فى يوم الجمعة عن الصلاة ويعدل إلى مكان بمفرده إلى أن تنقضى الصلاة .



وبعد أن استقر بَهْرام فى السلطة لم يتردَّد فى تَبَنِّى سياسة شخصية أرمنية مسيحية أدَّت إلى سقوطه فى نهاية الأمر. فقد سأل الخليفة الحافظ فى السماح له بإحضار إخوته وأهله من تَلّ باشر (مسقط رأسه) وبلاد الأرْمَن، فأذن له فى ذلك، حتى صار منهم بالديار المصرية نحو ثلاثين ألف إنسان استطالوا على المسلمين وأصابهم منهم جَوْر عظيم. كذلك بُنى فى أيامه العديد من الكنائس والأديرة حتى صار كل رئيس من الأرْمَن يبنى له كنيسة ((وخاف أهل مصر منهم أن يُغَيِّروا مِلَّة الإسلام)).

وفى إطار هذه السياسة أصبح أغلب ولاة الدواوين من النَّصارى، كذلك وَلَّى بَهْرام أخاه المعروف بالباساك ولاية قُوص، وهى يومئذ أعظم ولايات مصر، فاستقوى بأخيه وتمادى فى ظُلْم المسلمين ومصادرة أموالهم.

لم يرض أهل مصر وأمراؤها بهذا الوضع الشاذ فكتبوا إلى رِضْوان بن وَلَخْشى، والى الغربية، يستنهضونه للقدوم عليهم وإنقاذهم من سيطرة النَّصارى. وفور أن وصلت إليه كتب الأمراء صَعدَ المنبر وخَطَبَ فى الناس خُطْبَةً بليغةً حَثَّهم فيها على ((الجهاد))، وأخذ فى حَشْد العُرْبان حتى اجتمع له نحو ثلاثين ألف فارس سار بهم تجاه القاهرة. وعندما خرج بَهْرام لملاقاته رَفَعَ جنودُ رِضْوان المصاحف على أسِنَّة الرِّماح فما هى إلَّا بُرْهَة حتى ترك المسلمون جيش بَهْرام والتجأوا بأجمعهم إلى جيش رِضْوان، بناءً على اتفاق بين الأمراء ورِضْوان. وعندما رأى بَهْرام ذلك بعث إلى الخليفة يُعَرِّفه بما جرى، فخاف من عاقبة هذه المواجهة وأشار عليه بالتوجُّه إلى قُوص والاحتماء بأخيه الباساك هناك.

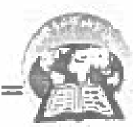
وبوفاة بَهْرام انتهت مرحلةٌ مهمة فى تاريخ الدولة الفاطمية؛ مرحلةٌ سَيْطَر فيها العنصر الأرْمَنى على مقاليد الأمور فى مصر، وهى المرحلة التى بدأت مع أمير الجيوش بدر الجمالى واستمرت مع خلفائه الأفْضَل شاهنشاه، وأبى على الأفْضَل كُتَيْفات، وأبى الفَتْح يانِس وانتهت بوفاة بَهْرام. وهى ليست حدثًا عابرًا فى التاريخ فحسب، بل بالأحرى الطور الأخير فى الحلف المستمر بين طوائف الأرْمَن والمسلمين.

وقد لعب الأرْمَن دورًا سياسيًا وعسكريًا وحضاريًا كبيرًا فى مصر،

فهم الذين حافظوا على استمرار الدولة. وتُمثِّل عمارة أبواب القاهرة وأسوارها التى أنْجِزَت فى عصر بدر الجمالى تأثير العمارة الأرْمنية على هذه المنشآت الدفاعية بوضوح . ونستطيع أن نميِّز بين نوعين من الأرْمَن الذين تولّوا السلطة : الأرْمَن الذين اعتنقوا الإسلام وتمثّلهم الأسرة الجمالية (بدر الجمالى والأَفْضَل شاهنشاه وأبو على كُتَيْفات) وطَلائِع بن رُزِّيك وولده رُزِّيك ؛ والأَرْمَن الذين استمروا على نصرانيتهم ويمثلهم بَهْرام الأرْمنى وأخوه الباساك .

و جاءت تولية رضوان بن ولخشي بداية التمهيد للتحول السنى فى مصر، وجاء فى سِجِلّ تقليده الوزارة - الذى أنشأه ابن الصَّيْرَفى - ((لأنك أذْهَبْت عن الدولة عارَها ، وأمَطْت من طرق الهداية أوعارها ، واستعدت ملابس سيادة كان قد دَنَّسَها من استعارها)) . وبدأ رِضْوان إصلاحاته باستخدام المسلمين فى المناصب التى كانت بأيدى النَّصارى وأمر بعدم استخدام النَّصارى فى الدواوين الكبار ولا نُظّارا ولا مشارفين وعمل على تقدُّم أرباب المعارف سَيْفًا وقلمًا ، فأحسن إليهم وزاد فى أرزاقهم وشدَّد على النَّصارى أصحاب بَهْرام وصادرهم وقتلهم بالسيف وأباد أكثرهم وأبعد صنيعة الخلافة أبا الكرم الأخْرَم النَّصْرانى عن ديوان النَّظَر ، وهو النَّصْرانى الوحيد الذى تولَّى هذا الديوان وتَوَصَّل إليه بالضَّمان ، واستخدم عِوَضًا عنه كاتبًا مسلمًا بلا ضَمان هو القاضى المُرْتَضى بن المُحَنَّك .

كان وصولُ رِضْوان إلى منصب الوزارة - كأوّل وزير سنى للفاطميين - بداية تَحَوُّل سُنّى بطىء قاد إلى انتصار السُّنَّة النهائى فى مصر بعد ذلك بنحو ثلاثين عامًا . ولما كانت الإسكندرية من أهم مراكز المقاومة السنية فى مصر وملجأ كل الخارجين على الدولة الفاطمية ، فقد بنى بها الوزير ابن وَلَخْشى أول مدرسة فى مصر لتدريس المذهب المالكى فى سنة ٥٣٢ هـ/١١٣٨ م . فقد كان المذهب الشائع بين أهل الإسكندرية هو المذهب المالكى بسبب علاقتها الواسعة مع شمال إفريقيا والأندلس . وكان الفقيه المالكى أبو بكر محمد بن الوليد الطُّرْطوشى ، الذى استقر فى الإسكندرية سنة ٤٩٠هـ/١٠٩٧م ، قد قام ، كما تذكر المصادر ، بتدريس المذهب المالكى فى مدرسة أنشأها فى بيته . لذلك كان من



الطبيعى أن يبنى ابن وَلَخْشى مدرسته فى الإسكندرية ؛ لأن القاهرة كانت فى هذا الوقت عاصمة الفاطميين ومركز النشاط الشيعى فى العالم الإسلامى ، والمدرسة ابتكار سُنِّى وظاهرة جديدة فى مصر . ولاشك أن إقامة مُؤَسَّسَة سنية هامة كالمدرسة فى العاصمة الشيعية كان من شأنه قلب التوازن بين الخليفة ووزيره . وبما أن الإسكندرية مدينةٌ كلُّ سكانها من أهل السنة ، كان طبيعيًّا أن يبنى رِضْوان مدرسته بها ليقاوم بها مذهب الدولة وليُعْلى كلمة الإسلام السنى فى مواجهة اتساع نفوذ أهل الذِّمَّة الذى تزايد فى العقود الأولى للقرن السادس .

وعندما تولَّى رِضْوان الوزارة للحافظ سنة ٥٣١هـ/١١٣٧م استجد ((ديوان الجهاد)) واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عَسْقَلان بالعُدَد والآلات ، وهيَّأ الناس للخروج إلى الشام وغَزْو الفرنج . ولكن الخليفة الحافظ منعه من ذلك إذ أرسل يستدعى بَهْرام (الوزير الذى حَلَّ محله رِضْوان) وأسكنه معه فى القصر يستشيره فى أموره ، كما حَثَّ الجند على التحرُّش برِضْوان حتى ثاروا عليه وضعفت قدرته على مواجهتهم واضطر إلى الفرار من مصر فى ١٥ شوال سنة ٥٣٣هـ/١٥يونية ١١٣٩م وقصد الاحتماء بأمين الدولة كَمُشْتَكين الأتابكى صاحب صَرْخَد الذى أحسن استقباله وأكرم ضيافته كما يذكر أسامة بن مُنْقِذ وابن القَلانِسى .

بنهاية عهد الخليفة الحافِظ لم يَبْق للخلفاء أىُّ سلطان على الدولة ، ودارت الصِّراعات مرة أخرى بين طوائف الجند وخاصة الطائفتين الرِّيْحانية والجُيُوشية وإن لم يؤدِّ ذلك إلى نشوب حرب أهلية جديدة . وتَطَلَّع وُلاةُ الأقاليم إلى منصب الوزارة وتنافسوا عليه ، يقول ابن الأثير : ((إن الوزارة فى مصر كانت لمن غلب ... والوزراء كالمتملِّكين ، وقَلَّ أن وليها أحدٌ بعد الأَفْضَل بن بدر الجمالى إلَّا بحرب وقَتْل وما شاكل ذلك)) .

أدَّى التنافس على الوزارة إلى إشاعة الفوضى فى البلاد ، كما أن الفساد بلغ القصر الفاطمى نفسه الذى حيكت فيه المؤامرات وكثرت المفاسد الأخلاقية بين سكانه . وتبعًا لابن ظافر وابن الأثير فقد لعب أمير شَيْزَر أسامة بن مُنْقِذ ، الذى قدم إلى مصر فى جمادى الآخرة سنة ٥٣٩ هـ/١١٤٤ م ، دورًا كبيرًا فى حَبْك

هذه المؤامرات وإذكاء هذه الفِتَن ، فقد اتصل أسامة بالوزير ابن السَّلار الذى أكرم مقدمه ، واختص بصحبة ابن زوجته الأمير عَبّاس الصِّنْهاجى .

وقد تأكّد لابن السَّلار أن الفِرنْج فى طريقهم إلى الاستيلاء على عَسْقَلان فى أعقاب محاولته مهاجمة مدن الشام الساحلية فى عام ٥٤٦ هـ/١١٥١م . وكانت العادة جارية كل ستة أشهر بتجريد عسكر من مصر لحِفْظ عَسْقَلان ، وجاء الدور فى هذه النوبة على عَبّاس الصِّنْهاجى ، فخرج ومعه نفرٌ من الأمراء فيهم مُلْهِم وضِرْغام وأسامة بن مُنْقِذ . نَزَلَ عَبّاس ومن معه فى بِلْبَيْس فى انتظار قدوم العساكر ، فما كان من أسامة إلا أن حرَّض عَبّاسا على العادل بن السَّلار بعد أن شكا له اختياره لهذه المهمة وإبعاده عن مصر ((بطيبها وحسنها ولَذَّة المقام بها)) . وقال له : إنه لو أراد لكان سلطان مصر ، وطلب إليه أن يستغل المودة القائمة بين ولده نصر والخليفة الظافر ، وينقل إليه رغبته فى أن يحلَّ محل ابن السَّلار ، وأن الظّافر سيجيبه إلى طلبه لكُرْهه لابن السَّلار ، ومتى أجابه إلى ذلك قتل عمه . وقد نجح نَصْر فى إتمام هذه المهمة بنجاح وقَتَلَ الوزير ابن السَّلار فى ٦ محرم سنة ٥٤٨هـ/ ٣ إبريل سنة١١٥٣م.

كان من الطبيعى أن يُقَلّد الظّافر الوزارة لعبّاس الصِّنْهاجى ولَقَّبَه بـ ((السيد الأجَلّ الأفْضَل أمير الجيوش .. أبو الفضل العباس الظّافرى)) . وقد ازداد عبّاس فى تقريب أسامة بن مُنْقِذ وإكرامه اعترافًا منه بفضله عليه . كذلك عمل على التقرُّب إلى الأمراء وإكرامهم ، وأحسن إلى الجنود ليُنْسيهم العادل بن السَّلار .

أما ولده نَصْر فقد استمر على مخالطة الخليفة الظّافر ، وكان الخليفة يخرج من قصره لزيارة نَصْر بداره التى بالسُّيوفيين قريبًا من القصر بحيث لا يعلم عَبّاس بأخبار هذه اللقاءات .

وقد استوحش الأمراء من أسامة بن مُنْقِذ والدور الذى قام به فى قتل ابن السَّلار وهمّوا بقتله . فلما بلغه ذلك أخذ فى إثارة عبّاس على ولده نَصْر متهمًا له بأن الخليفة يفعل به ما يفعل مع النساء . ففاتح عبّاس ابنه فى ذلك وانزعاجه مما يتناقله الناس . فما كان من نَصْر إلّا أن قتل الخليفة فى أحد زياراته له بتحريض من والده ومن أسامة بن مُنْقِذ ، فقتله فى داره بالسيوفيين فى آخر المحرم سنة



٥٤٩هـ/١٦ إبريل ١١٥٤ م .

ولم تسر الأمور على الوجه الذى أراده لها الوزير عبّاس ، فبعد أن أوْهَمَ أهل القصر فى مشهد درامى أن إخوة الخليفة هم الذين قتلوه وأنه قتلهم به . أحضر طفلًا صغيرًا للظافر يُدْعى عيسى وأقامه فى منصب الخلافة ولَقَّبه بـ (الفائز بنصر الله) وهو لم يبلغ الخمس السنوات ، فكاد الطفل يموت رَوْعًا من هَوْل ما شاهده من منظر الدماء والقتلى فى القصر ، وظلَّ طول خلافته القصيرة مصابًا بالصَّرَع .

أدّت هذه الأحداث إلى قلق واضطراب القصر وجماهير الشعب على السواء . فسارع نساءُ القصر وخاصة أخت الظّافِر سِتّ القصور ، بالكتابة إلى والى الأشْمونين والبَهْنَسا طَلائِع بن رُزِّيك ، وأرسلن إليه شعورهن فى طَىّ الكتب - وهو أقصى ما يمكن فى التَّوَسُّل عند المرأة المسلمة - يستنجدن به لإنقاذ الخلافة وليقوم بدور المنقذ الذى لا غنى عنه .

وفور انتهاء طلائع من السيطرة على الأمور ، خَلَعَ عليه الخليفة الفائزُ خِلَعَ الوزارة وأمر بإنشاء سِجِلٍّ نُعِتَ فيه بـ ((السَّيِّد الأَجَلّ الملك الصّالح ناصر الأئمة كاشف الغُمَّة ، أمير الجيوش ، سيف الإسلام ، غَيّاث الأنام ، كافِل قُضاة المسلمين ، وهادى دُعاة المؤمنين أبى الغارات طَلائِع الفائزى)) ليصبح بذلك أوَّل من تَلَقَّب بـ ((الملك)) من وزراء الفاطميين ، وذلك يوم الخميس ٤ ربيع الآخر سنة ٥٤٩ هـ/٩ يونية ١١٥٥م ، وهذا السِّجِلّ من إنشاء المُوَفَّق ابن الخَلال.

يُعَدُّ الصّالح طلائع بن رُزّيك خاتمة الوزراء الفاطميين الأقوياء ، وآخر دعامة فى الدولة المتداعية ، إلا أنه كان إمامى المذهب شديد التعصُّب له مبغضًا للنصارى . واعتبر عمارة اليمنى أن زوال دولة الفاطميين من مصر قد تم مع نهاية حكم طلائع بن رُزِّيك وولده .

ولا شك أن الصَّالح طَلائِع كان آخر وزراء الفاطميين الذين حاولوا التصدّى للفِرنْج فى الشام . فابتداء من عام ٥٥٠هـ/١١٥٥م أخذ فى إرسال الأسطول والجيش لمحاربة الفِرنْج فى صُور وتمكّن من إحراقها وأَسَر حُجّاجا من النصارى وظفر كذلك بغنائم كثيرة .

ويرجع إلى الصّالِح طلائع فضل بناء آخر المعالم العمرانية للفاطميين فى

القاهرة ، وهو الجامع الذى مازال قائمًا إلى الآن خارج باب زُوَيْلة والذى يعود تاريخ بنائه إلى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م .

كان الملك الصّالح يطمع فى أن يجعل أمر الخلافة الفاطمية فى عقبه ، فعندما توفى الخليفة الفائز فى ١٧ رجب سنة ٥٥٥ هـ/٢٣ يولية سنة ١١٦٠م دون وريث، أقام مكانه فى الخلافة الأمير عبد الله حفيد الحافظ ، وهو أصغر الأقارب، ونعته بـ ((العاضِد لدين الله)) وزَوَّجه من ابنته عسى أن تُرْزَق منه ولدًا ((فيجتمع لبنى رُزّيك الخلافة مع الملك)) .

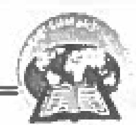
وقد استبدّ الصّالِح بجميع أمور الدولة ولم يكن للعاضِد معه أمرٌ ولا نهى ، حتى إنه نَقَلَ جميع أموال القصر إلى دار الوزارة .

ضاق الخليفة العاضد بتسلُّط طَلائِع عليه ، كما أن نساء القصر لم يقبلن بسهولة زواج ابنته من الخليفة ؛ فدبَّرت السيدة العمة ست القصور - أخت الظّافِر الصغرى - لقتله حيث تَرَبَّص له بعض الخُدّام فى دِهْليز القصر وأردوه قتيلا فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦ هـ/١١سبتمبر سنة ١١٦١ م .

وكانت السنوات الأخيرة فى عمر الدولة الفاطمية سلسلة من الصراعات والحروب بين ولاة الأقاليم المتنافسين على منصب الوزارة والقوى الخارجية التى استعانوا بها لتثبيت مكانتهم .

ففى سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م تغلَّب شاوَر ابن مجير السَّعْدى ، والى قوص ، على الملك العادل رُزّيك بن الصّالِح طَلائِع واعتقله ، ثم قتله طَىّ بن شاوَر فى ٢١ رمضان سنة ٥٥٨ هـ/٢٣ أغسطس سنة ١١٦٣م . وعَلَّق عمارة اليمنى على هذه الأحداث قائلا : ((إنما زالت دولة مصر بزوالهم)) .

كان شاور قد تولَّى الوزارة فى ٢٢ محرم سنة ٥٥٨ هـ/يناير سنة ١١٦٣م ، ولم تكد تمضى على تولِّيه الوزارة تسعة أشهر حتى نافسه عليها أبو الأشبال ضِرْغام بن عامر بن سوار المنذرى ، مُقَدَّم الأمراء البَرْقِيَّة وصاحب الباب (وهى رتبة تلى الوزارة مباشرة) ، الذى تمكَّن من الظهور عليه بعد قتال انتهى بمقتل الأمير طَىّ بن شاوَر يوم الجمعة ٢٨ رمضان سنة ٥٥٨ هـ/ ٢ سبتمبر سنة ١١٦٣م ، فخَلَعَ عليه العاضِد خِلَعَ الوزارة ولَقَّبه بـ ((الملك المنصور)) .



اضطر شاوَر إلى الفرار من مصر قاصداً الشام فى آخر رمضان سنة ٥٥٨هـ/ سبتمبر سنة ١١٦٣م مستنجدًا بالسلطان العادل نور الدين محمود ، صاحب دمشق ، فوَصَلَ إليها فى ٦ ربيع الأول سنة ٥٥٩ هـ/٥فبراير سنة ١١٦٤م وتَعَهَّد له إن هو ساعده فى إعادته إلى منصبه والقضاء على منافسه ضِرْغام أن يدفع له ثُلُث خراج مصر بعد إقْطاعات العساكر ، ويكون معه من أمراءَ الشام من يقيم معه فى مصر ، وأن يتصرَّف هو بأوامر نور الدين واختياره .

كانت محاولة شاوَر الاستعانة بأمراء الدول المجاورة هى مُؤَشِّر نهاية الدولة الفاطمية ، فقد دلَّت أمراءَ الشام ثم ملوكَ الفِرِنْج بعد ذلك على مواطن ضعف الدولة وأغرتهم بالطمع فيها والاستيلاء عليها .

أجاب نور الدين شاور إلى مطلبه بعد تردُّد خوفًا منه من الفِرِنْج ، فأرسل معه فى جمادى الأولى سنة ٥٥٩ هـ/إبريل سنة ١١٦٤م جيشًا على رأسه أسد الدين شيركوه ، الذى كان له دور أساسى فى اتخاذ نور الدين لقراره ، ليعيد شاوَر إلى منصبه .

وقد انتهى تدخُل الجيوش الشامية بقَتْل ضِرْغام فى رجب سنة ٥٥٩ هـ/ يونية ١١٦٤م، عند المشهد النفيسى جنوب القاهرة ، بعد أن تَفَرَّق عنه أنصاره وتخلَّى عنه الخليفة العاضد .

وفور القضاء على ضِرْغام أصدر الخليفة العاضد سجلا بتولية شاوَر الوزارة للمرة الثانية فى الرابع من رجب سنة ٥٥٩هـ/٢٦يونية سنة ١١٦٤م ، يقول أبو شامة : ((ولم يُغْلَب وزيرٌ لهم وعاد سوى شاوَر)) . وبالطبع لم يف شاوَر بتعهُّداته التى قَطَعَها لنور الدين ، بل طَلَبَ إلى شيركوه أن يغادر مصر ويعود على الفور مع قواته إلى الشام . ولكن شيركوه سارع بإرسال قواته فاستولت على بِلْبَيْس وحكم على البلاد الشرقية .

لم يجد شاوَر أمامه هذه المرة سوى اللجوء إلى الفِرِنْج يطلب نجدتهم ومساعدتهم على إخراج جيوش نور الدين ويُخَوِّفهم منه إن هو ملك مصر . وإذا كان لجوء شاوَر لطلب نجدة نور الدين يعد خيانةً لأنه قَصَدَ أميرًا سنيًا مواليا لبغداد ومخالفا لعقيدة الدولة التى يُمَثِّلَها ، فإن لجوءه فى هذه المرة إلى عمورى الأول ملك مملكة بيت المقدس، يُعَدُّ خيانةً كاملة الأركان ؛ إذ إنه لم يطلب

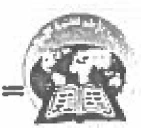
فى هذه المرة مساعدة حاكم مسلم بل لجأ إلى أعداء المسلمين يُطْلعهم على نقاط ضعف بلاده ويُطْمِعهم فيها .

وقد رَحَّب الفرِنْج - الذين وَعَدَهم شاوَر بدفع ألف دينار يوميًا - بهذا العرض على أمل أن يتمكَّنوا من الاستيلاء على مصر لحسابهم ، وبعد أن حاصروا قوات شيركوه فى بِلْبَيْس لمدة ثلاثة أشهر ، قَبِل شيركوه عرضًا بالعودة إلى الشام بعد أن اضطر الفرِنْج إلى فَضِّ حصارهم ومغادرة مصر بعد أن علموا بهزيمة قواتهم فى حارِم ، وبتقدُّم جيوش نور الدين صوب بانْياس .

كان قَتْلُ شاوَر خطوة مهمة فى سبيل تقوية وضع شيركوه فى مصر؛ فقد كان هو الشخص الوحيد الذى يستطيع منافسته . ففور التخلُّص منه خَلَعَ الخليفة العاضِد على شيركوه تبعًا للتقاليد المصرية خِلَعَ الوزارة وفَوَّضَ إليه الحُكْم والتقدمة على الجيوش ، ولَقَّبه بـ ((الملك المنصور سُلْطان أمير الجيوش)) ، فنزل فى دار الوزارة واستقرت له الأمور دون منازع. وأمر الخليفة بكتابة سِجِلٍّ بذلك من إنشاء القاضى الفاضل وَقَّع العاضِد على طُرَّته بخطه: ((هذا عَهْدٌ لا عَهْد لوزير بمثله وتقليدُ أمانة رآك الله تعالى وأمير المؤمنين أهلا لحمله ...)) .

وفور أن استقرت الأمور لشيركوه ((أقْطَعَ البلاد للعساكر التى قدمت معه)) وأبقى للمصريين ما بأيديهم ولم يُغَيِّر على أحدٍ شيئًا ، وأجرى أصحاب مصر على قواعدهم وأمورهم . غير أن شيركوه لم يلبث أن توفى فجأة بعد عدة أسابيع يوم السبت ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤ هـ/مارس سنة ١١٦٩م .

أيقظت خلافة شيركوه فى منصبه الكثير من الطموحات ، فقد طمع الكثيرون من القادة الذين كانوا على رأس جيش نور الدين فى منصب الوزارة . ولكن شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين وأحد هؤلاء القادة ، قام بدور هام فى تولية صلاح الدين الوزارة . فهو الذى أشار على العاضِد أن يولِّيها له ، ووافق العاضِد على ذلك ظنًّا منه أنه قادرٌ على السيطرة عليه وأنه لن يستطيع مخالفته ؛ لأنه لم يكن له عسكر ولا رجال . وستثبت الأحداث قصر نظر العاضد وأنه لم يُقَدِّر صلاح الدين حَقَّ قدره .



خَلَعَ العاضد على صلاح الدين خِلَعَ الوزارة وأمر القاضى الفاضل بإنشاء سِجِلٍ بتوليته الوزارة ولَقَّبه بـ ((الملك الناصر صلاح الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين جامع كلمة الإيمان قامع عَبَدَة الصلبان محيى دولة أمير المؤمنين)) فى يوم الاثنين ٢٥ جمادى الآخرة سنة ٥٦٤هـ/٢٦مارس سنة ١١٦٩م، وكتب على طُرَّته بخطه : ((هذا عَهْدُ أمير المؤمنين إليك وحُجَّتُه عند الله تعالى عليك ، فأَوْفِ بعهدك ويمينك...)) .

وبتولّى صلاح الدين منصب الوزارة ، كآخر وزير فى الدولة الفاطمية ، وَصَل المَدُّ السنىّ الذى بدأه السَّلاجِقَة قبل نحو مائة عام وأكمله ورثتهم الزنكيون والنوريون- إلى مصر .

وفى أواخر عام ٥٦٥هـ/ ١١٧٠م بدأ صلاحُ الدين فى اتخاذ خطوات حاسمة ضد المؤسَّسة الفاطمية لإضعاف المذهب الإسماعيلى وتقوية المذهب السنى فى مصر . ففى العاشر من ذى الحجة سنة ٥٦٥هـ/25 أغسطس سنة١١٧٠م أبْطَل من الأذان ((حىّ على خير العمل)) وأمر أن يُذْكَر فى خطبة الجمعة الخلفاء الراشدون ونَزَعَ المناطق الفضة التى كانت بمحاريب جوامع القاهرة والتى كانت تحمل أسماء الخلفاء الفاطميين .

وفى الأيام الأولى من شهر المحرم سنة ٥٦٦هـ/ سبتمبر سنة ١١٧٠م أمر صلاحُ الدين بهَدْم دار المعونة المجاورة للجامع العتيق بمصر وبنائها مدرسةً للشافعية . وفى منتصف هذا الشهر عَمَّر دار الغَزْل المجاورة لباب الجامع العتيق مدرسةً للمالكية عرفت بالمدرسة القَمْحِيَّة . وفى منتصف شعبان من هذه السنة اشترى تقىّ الدين عمر بن شاهِنْشاه - ابن أخى صلاح الدين - منازل العِزّ بالفُسْطاط وجعلها مدرسةً للشافعية عرفت بالمدرسة التَّقَوِيَّة ، كما حَوَّلَ صلاحُ الدين دار سعيد السُّعَداء الواقعة شمال القصر الفاطمى الشرقى خانقاه للصوفية ، وهى بذلك تُعَدُّ أوّل خانقاه للصوفية تنشأ بمصر . وفى العام نفسه أَبْطَلَ صلاحُ الدين ((مجالس الدَّعْوَة)) من القصر والجامع الأزهر ، وعَزَل جميع القضاة الإسماعيليين وفَوَّض قضاء مصر فى ٢٢ جمادى الآخرة ٥٦٦هـ/٢ مارس سنة ١١٧١م إلى القاضى صدر الدين أبى القاسم عبد الملك بن عيسى بن دِرْباس المارانى الشَّافِعى ، حيث اشتهر من حينئذ المذهب الشَّافِعى فى مصر . كذلك جَعَلَ صلاحُ الدين

القاضى الفاضل رئيسًا لديوان الإنشاء فضمن بذلك سيطرته على النواحى الدينية ومراسلات الدولة .

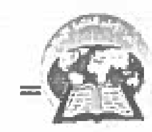
وكان من أهم مظاهر تَحَوُّل مصر إلى المذهب السنى نشر المذهب الأشْعَرى ، فقد كان صلاحُ الدين وجميع وَرَثَة السَّلاجِقَة يتعَصَّبُون لمذهب الأشْعَرى فى الأصول ، وهو المذهب الذى تولّاه السَّلاجِقَة من قبل فى مواجهة مذهب المعتزلة العقلى وأنشأوا له ((المدارس)) ليحاربوا من خلالها مذاهب الفاطميين . وفى الوقت نفسه وَقَّعَ صلاح الدين توقيعًا وَجَّهه إلى القاضى الفاضل بعدم استخدام النّصارى نُظّارًا على أموال الدولة ولا مُشارفين .

وهكذا ، ومع نهاية عام ٥٦٦هـ/١١٧١م أَتَمَّ صلاحُ الدين عددًا من الإجراءات الضرورية فى مواجهة المؤسَّسة الفاطمية عَجَّلَت بالخطوة الحاسمة وهى القضاء على الخلافة الفاطمية وإقامة الخُطْبَة للعَبّاسيين من على منابر مصر .

فى بداية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م جاءت الخطوة الحاسمة فى القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر، عندما أسْقَطَ صلاحُ الدين خُطْبَة الفاطميين وأمر الخطباء بالدعوة للخليفة العباسى المستضىء بأمر الله وذلك فى السابع من المحرم/ العاشر من سبتمبر وأعاد السَّواد شعار العَبّاسيين. وأصبح يُخْطَب باسم صلاح الدين على منابر مصر بعد الخليفة العَبّاسى والملك العادل نور الدين . وقد تَمَّ هذا التَحَوُّل الخطير فى هدوء تام ((فلم ينتطح فيه عنزان)) كما ذكر المؤرخون . ذلك الهدوء الذى أعلن به من قبل القائد جَوْهَر قيام الخلافة الفاطمية فى مصر قبل قرنين ، واستقبل المصريون هذا التحَوُّل بنفس السلبية واللامبالاة التى استقبلوا بها المذهب الإسماعيلى من قبل .

وفى الحقيقة فإن غالبية الشعب المصرى لم تعتنق إطلاقًا المذهب الإسماعيلى ، ولم يعتنقه سوى العناصر التى تعاونت مع الخلافة الفاطمية ممثَّلَةً فى الأقليات الأجنبية التى جاءت صحبة الفاطميين أو استعانوا بها طوال فترة حكمهم من أجل تحقيق سياستهم ، وهؤلاء فقط هم الذين نستطيع القول بأنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلى فى مصر .

كان السلطانُ نور الدين محمود يَطْمَع فى الاستيلاء على مصر، وكان صلاح



الدين فى ظنه ((نائبًا عنه فى مصر متى أراد سحبه بإذنه لا يمتنع عليه)) ولكن صلاح الدين كانت له طموحاتٌ أخرى ، وكان ذلك سبب تأخُّره فى الانصياع لطلب نور الدين فى قَطْع خطبة الفاطميين قبل ذلك ، لأنه خشى إن هو فَعَلَ ذلك ؛ أن يسير نور الدين إلى مصر وينزعها منه .

ولم تكد تمضى أيامٌ على قَطْع خُطْبَة الفاطميين إلا وقد توفى الخليفة العاضِد آخر خلفاء الفاطميين ليلة عاشوراء سنة ٥٦٧ هـ/١٢ سبتمبر ١١٧١م . فأمر صلاح الدين بإنشاء الكتب إلى البلاد بوفاة العاضد وإقامة الخطبة رسميًا للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى .

وبذلك وَضَعَ صلاحُ الدين نهايةً للدولة الفاطمية فى مصر لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخها عادت فيها إلى قلب العالم الإسلامى السُّنِّى، ولتؤدى تحت قيادة الأيوبيين ومُؤسِّس دولتهم صلاح الدين دَوْرًا هامًا فى توحيد الجبهة الإسلامية ومواجهة خطر الفِرنْج، الذى أدَّى ضعف وتخاذل السلطة الحاكمة فى مصر فى آخر عهد الفاطميين إلى زيادة نفوذهم وسطوتهم وتهديدهم لوحدة العالم الإسلامى .

الخلفاء الفاطميون

فى إفريقية وفى مصر

أ - فى إفريقية

١ - عبيد الله المَهْدى (٢٩٧ - ٣٢٢هـ/٩٠٩- ٩٣٤م) .

٢ - القائم بأمر الله أبو القاسم محمد (٣٢٢- ٣٣٤هـ/٩٣٤- ٩٤٦م) .

٣ - المَنْصُور بالله أبو الطاهر إسماعيل (٣٣٤- ٣٤١هـ/٩٤٦- ٩٥٣م) .

المُعِزّ لدين الله أبو تميم مَعَدّ (٣٤١ - ٣٦٢هـ/٩٥٣- ٩٧٢م) .

ب - فى مصر

٤ - المُعِزّ لدين الله أبو تميم مَعَدّ (٣٦٢- ٣٦٥هـ/٩٧٢- ٩٧٥م) .

٥ - العزيز بالله أبو منصور نِزار (٣٦٥- ٣٨٦هـ/٩٧٥- ٩٩٦م) .

٦ - الحاكِم بأمر الله أبو على المنصور (٣٨٦- ٤١١هـ/٩٩٦ - ١٠٢١م) .

٧ - الظّاهر لإعزاز دين الله أبو الحسن على (٤١١ - ٤٢٧هـ/١٠٢١- ١٠٣٦م) .

٨ - المُسْتَنْـصِر بـالله أبـو تمـيم مَعَـدّ (٤٢٧-٤٨٧هـ/١٠٣٦- ١٠٩٤م) .

٩ - المُسْتَعْلى بـالله أبـو القاسـم أحمـد (٤٨٧ ٤٩٥-هـ/١٠٩٤- ١١٠١م) .

١٠ - الآمِر بأحـكام الله أبو على منصور (٤٩٥- ٥٢٤هـ/١١٠١- ١١٣٠م) .

انقـلاب أبـى علـى الأفْضَل كُتَيْفات (١٦ ذى القعـدة ٥٢٤هـ/٢١ أكتـوبر ١١٣٠م ١٦ محـرم ٥٢٦هـ/٦ديـسمبر ١١٣١م) .

١١ - الحـافِظ لـدين الله أبـو الميمـون عبـد المجيد(٥٢٦- ٥٤٤هـ/١١٣٢- ١١٤٩م) .

١٢ - الظّـافِر بأعـداء الله أبـو منـصور إسماعيـل (٥٤٤- ٥٤٩هـ/١١٤٩ - ١١٥٤م) .

١٣ - الفـائز بنصر الله أبو القاسـم عيسى (٥٤٩- ٥٥٥هـ/١١٥٤- ١١٦٠م) .

١٤ - العاضِـد لـدين الله أبـو محمـد عبـد الله (٥٥٥- ٥٦٧هـ/١١٦٠- ١١٧١م) .

أ . د / أيمن فؤاد سيد

مصادر ومراجع للاستزادة :

- المسبحى: أخبار مصر، تحقيق ايمن فؤاد سيد – القاهرة١٩٧٧.
- ابن ميسر: أخبار مصر، تحقيق ايمن فؤاد سيد – القاهرة١٩٨١.
- ابن عبد الظاهر : الروضة البهية الزاهرة فى خطط المعزية القاهرة، تحقيق ايمن فؤاد سيد – القاهرة ١٩٩٦.
- المقريزى: المواعظ و الاعتبار فى ذكر الخطط والآثار، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، لندن – مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ٢٠٠٢ – ٢٠٠٥م.
- أيمن فؤاد سيد : الدولة الفاطمية فى مصر – تفسير جديد ، القاهرة ١٩٩٢، ٢٠٠٠.
- فرحات الدشراوى: الخلافة الفاطمية فى المغرب ، بيروت ١٩٩٦.

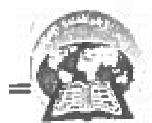
فتح مكة

استهل ابن كثير الحديث عن فتح مكة بقوله: "غزوة الفتح الأعظم"، وكانت فى رمضان سنة ثمان، وقد ذكرها الله تعالى فى القرآن فى غير موضع، فقال تعالى :﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ (الحديد : ١٠) .

وقال تعالى :﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ (النصر: ١- ٣)[١].

كما استهل ابن قيم الجوزيه الحديث عنها بقوله : " فصل فى الفتح الأعظم الذى أعز الله به دينه ورسوله وجنده وحزبه الأمين ، واستنقذ به بلده وبيته الذى جعله هدى للعالمين من أيدى الكفار والمشركين، وهو الفتح الذى استبشر به أهل السماء وضربت أطنان عزه على مناكب الجوزاء، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا، وأشرق به وجه الأرض ضياء وابتهاجًا، خرج له رسول الله ﷺ بكتائب الإسلام وجنود الرحمن سنة ثمان لعشر مضين من رمضان واستعمل على المدينة أبارُهْم كلثوم بن حصين الغفارى ، وقال ابن سعد: بل استعمل عبد الله بن أم مكتوم "[٢].

وسببها كما ذكره الرواة أنه لما أُبْرِم صلحُ الحديبية بين النبى ﷺ وبين مشركى مكة فى السنة السادسة من الهجرة كان من بين شروطه أن من أراد أن يدخل فى عهد النبى ﷺ فليفعل، ومن أراد الدخول فى عهد قريش فليدخل، فدخلت قبيلة خزاعة فى عهد الرسول ﷺ ودخل بنو بكر فى عهد قريش ، ولم يحدث من المسلمين ما يخل بهذا العهد على امتداد عامين. وفى السنة الثامنة خُيِّلَ لقريش وحلفائها أن المسلمين قد ضعفوا، وخصوصًا بعد ما تعرضوا له فى غزوة مؤتة، فتجرأت بنو بكر على النيل من خزاعة حلفاء الرسول ﷺ، وكان بينهما ثاراتٌ ودماء ترجع إلى زمن الجاهلية، فبيَّتَ بنو بكر خزاعة وهم على ماء يسمى " الوتير" وأصابوا وقتلوا فيهم نحو عشرين وأعانتهم قريش بالسلاح والمال سرًا: وقالت قريش: ما يعلم بنا محمد



وهذا الليل وما يرانا أحد ". وما زالوا يقاتلونهم حتى الجؤوهم إلى الحرم، فاحتموا بدار بديل بن ورقاء ومولى لهم اسمه أبو رافع [٣].

فركب عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبًا من قومه - إلى رسول الله بالمدينة وأخبره بغدر قريش وما فعله بنو بكر، وأنشده فى ذلك شعرًا، فقال رسول الله ﷺ: " نُصِرْتَ يا عمرو ابن سالم، لا نصرتُ إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر منه نفسى" ، كذلك توجه بديل بن ورقاء فى نفر من خزاعة إلى رسول الله ﷺ وأخبره بما جرى. ثم عادوا إلى مكة وفى طريق العودة لقيهم أبو سفيان بن حرب فقال لبديل : " لعلك ذهبت إلى محمد مستنصرًا " ، فأنكر بديل، لكن أبا سفيان تأكد من ذلك عندما رأى فى بعر مبرك ناقة بديل نوى يثرب .

سفارة أبى سفيان إلى المدينة

أدركت قريش مغبة نقضها للعهد مع رسول الله ﷺ فأرسلت إليه أبا سفيان يجدد العهد ويطلب مدَّ أمد الصلح ، وتشير بعض الروايات إلى أن الرسول ﷺ أرسل إلى قريش يخيرهم بين دفع دية قتلى خزاعة أو البراءة من حلف بنى بكر أو القتال ، فاختارت القتال ، ثم ندمت وأرسلت أبا سفيان، وهذا يؤكد عجز قريش وصدق عدم قدرتها على غزو المدينة بعد عام الأحزاب، كما قدر النبى ﷺ [٤].

وفور وصول أبى سفيان إلى المدينة توجه إلى ابنته أم حبيبة زوج النبى ﷺ، فرفضت أن يجلس على فراش المصطفى صلوات ربى وسلامه عليه وهو مشرك نجس فخرج من عندها مغضبًا ثم تكلم مع رسول الله ﷺ فى العهد وإطالة المدة، فلم يخرج منه بشىء فتوجه إلى أبى بكر ﷺ ثم إلى عمر ثم إلى على بن أبى طالب ﷺ وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ مع الإمام على والحسنُ بن علىّ غلام يدب بين يديه، وحاول أن ينال شفاعة هؤلاء عند رسول الله ﷺ فلم يظفر من ذلك بشىء، فقط نصحه على ﷺ أن يجير بين الناس ويرجع إلى أرضه، فقال: ترى ذلك مغنيًا عنى شيئًا؟ قال ما أظنه ولكن لا أجد لك سواه، فقام أبو سفيان فى المسجد فنادى بين الناس: ألا إنى قد أجرت بين الناس، ثم ذهب إلى مكة وأخبر قريشًا، فسألوه: هل أقر محمد ما فعلت ؟، فقال: لا، فقالوا: ما جئت بشىء؛ ما زاد ابن أبى طالب على أن لعب بك [٥].

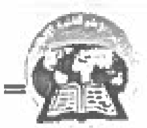
تجهز النبى للخروج

لم يلبث رسول الله ﷺ أن أخذ فى التجهز للخروج إلى مكة، وأعلن للناس رغبته فى ذلك دون أن يظهر مقصده إلا لبعض خاصته. وكان الغرض مباغتة قريش فى عقر دارها قبل أن تأخذ أهبتها حرصًا منه على عدم إراقة الدماء فى البلد الحرام. ولمّا تجهز الناس وتهيؤوا للمسير أخبرهم ﷺ قائلا : اللهم خذ العيون والأبصار من قريش حتى نبغتها فى بلادها ، اللهم خذ على أبصارهم فلا يرونى إلا بغته [٦]. وهذا مهم لأن المفاجأة فى الحرب من أهم عناصر تحقيق النصر .

كتاب حاطب إلى قريش

وكان هذا الرجل (حاطب بن أبى بلتعة) موضع ثقة النبى، وكان قد أرسله سفيرًا إلى المقوقس فى مصر يدعوه للإسلام، ومع ذلك فقد كتب خطابًا لقريش يخبرها فيه بالذى أجمع عليه رسول الله ﷺ، وأعطاه لمولاة عجوز تسمى "سارة " لتبلغه قريشًا مقابل مبلغ من المال، فجعلته فى عقاص شعرها؛ يعنى بين طيات شعرها، لكن الوحى أخبر رسول الله ﷺ بما صنع حاطب، فبعث رسول الله ﷺ عليا والزبير والمقداد ، فأمسكوا بالمرأة على بعد ١٢ ميلا من المدينة ، ففتشوا رحلها فلم يجدوا شيئًا ، فهددوها قائلين: ما كُذب على رسول الله ، ولم يُجْرِها إنكارُها شيئًا، فطلبت الابتعاد عنها ثم أخرجت الخطاب من بين طيات شعرها وحملوه إلى رسول الله ﷺ، وكان نصه كما جاء فى صحيح البخارى: " يا معشر قريش فإن رسول الله جاءكم بجيش كالليل يسير كالسيل، فوالله لو جاءكم وحده لنصره الله عليكم فإنه منجز وعده فانظروا لأنفسكم والسلام" [٧].

ولما استفسر منه الرسول ﷺ أوضح بأنه كان حليفًا فى قريش ولم يكن من أنفسها بخلاف المهاجرين الذين كانت لهم قرابات فى مكة يحمون بها أهليهم وأموالهم ، فأحببت أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتى، ولم أفعله ارتدادًا عن دينى ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال عمر رضى الله عنه : يا رسول الله دعنى أضرب عنقه فقد نافق، فقال الرسول ﷺ : " أما إنه قد صدقكم .. إنه قد شهد بدرًا، لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم".
وإلى هذا جاءت الإشارة فى قول الله عز



وجل فى مطلع سورة الممتحنة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [(٨)].

وهكذا يلتمس الرسول العظيم العذر لمن استزلّه الشيطان فى غفوة من صدق الإيمان ووازع الضمير، وبهذا شرع الله عداوة الكفار ومنع صداقتهم. وفى هذه الحادثة معجزة للرسول ﷺ، وفيها حكم الجاسوس وجواز هتك سره .

مسير الرسول ﷺ إلى مكة:

بدأ صلوات ربى وسلامه عليه الخروج فى العاشر من رمضان السنة الثامنة للهجرة، فصام وصام الناس معه حتى إذا كان " بالكديد " بين مكة والمدينة أفطر إلى أن قدم مكة ، وخرج معه المهاجرون والأنصار جميعًا لم يتخلف منهم أحد، كما انضم إليهم فى الطريق آلاف من القبائل العربية ، ولما وصل ممر الظهران " وهو واد قريب من مكة " ، أصبح تعداد الجيش عشرة آلاف أو اثنى عشر ألفا كلهم من صادقى الإيمان والعقيدة .

وقد استخلف ﷺ على المدينة أبارُهْم كلثوم بن حصين، وفى رواية استخلف عبد الله بن أم مكتوم [(٩)]. وقد وصل الجيش إلى ممر الظهران دون أن تعلم قريش بتحركه.

إسلام العباس بن عبد المطلب:

كان العباس بن عبد المطلب عمُّ النبى ﷺ قد خرج من مكة مهاجرًا إلى الله، فلقى النبى فأسلم قرب "رابغ" وسُرَّ النبى ﷺ أيما سرور بإسلامه، كما أسلم بعض أقرباء النبى ﷺ الذين رَقَّ لهم وقبل إسلامهم، منهم أبو سفيان بن الحارث، أخو النبى من الرضاعة، وكان شديد الأذى للرسول فى مكة، ولكن حَسُن إسلامه وثبت مع النبى ﷺ يوم حنين .

يروى ابن إسحاق قال: لقى النبى ﷺ أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وعبد الله بن أبى أمية بين مكة والمدينة والتمسا الدخول عليه فكلمته أم سلمة فيهما ، فقالت: يا رسول الله ابن عمك وابن عمتك وصهرك، قال: لا حاجة لى فيهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى، وأما ابن عمتى فهو الذى قال بمكة ما قال وكان قد قال: "والله لا آمنت بك حتى

تتخذ سلمًا إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتى بصك وأربعة من الملائكة يشهدون أن الله قد أرسلك".

فلما خرج الخبر إليهما بما قاله رسول الله ﷺ ، وكان مع أبى سفيان بُنَىّ له، فقال: ليأذن لى أو لآخذن بيدى بُنَىّ هذا لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشًا وجوعًا، فلما بلغ ذلك النبى ﷺ رق لهما ثم أذن لهما فدخلا عليه فأسلما، وأنشده أبو سفيان بن الحارث شعرًا يتحدث فيه عن إسلامه، ويعتذر مما كان مضى معه[١٠].

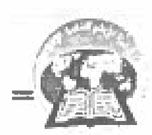
لعمرك إنى يوم أحمل راية
لتغلب خيلُ اللات خيل محمد
لكالمُدلج الحيران أظلم ليله
فهذا أوانى حين أهدى واهتدى

وقد أراد العباس بن عبد المطلب أن يُخرِج أهل مكة فيستأمنوا رسول الله ﷺ قبل أن يهلكوا.

وبينما قريش فى حيرة من أمرها لا تدرى ماذا تفعل، خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يستطلعون الأمر: الأوَّلان لقريش، والأخير للتعمية على قريش، وكان رسول الله ﷺ قد أمر أصحابه أن يوقدوا نارًا ففعلوا، فقال أبو سفيان: والله ما رأيت كالليلة نارًا ولا عسكرًا، ودخل فى حوار مع بديل الذى حاول إخفاء الأمر قائلا: إن هذه النيران نيران خزاعة، فقال أبو سفيان: خزاعة أقل وأذل من أن تكون لها هذه النيران. ودخل عليهما العباس فقال: ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله ﷺ فى الجيش، فقال أبو سفيان: فما الحيلة فداك أبى وأمى؟ فقال: العباس: اركبْ فى عجز هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، وركبا، ولقيهما عمر بن الخطاب وأراد قتل أبى سفيان قائلا: عدو الله قد أمكن الله منك بلا عقد ولا عهد، واستأذن الرسول ﷺ فى قتله، لكن العباس كان قد سبق قبله على بغلته وقال: أنا أجرته، وبعد نقاش بينهما قال رسول الله ﷺ للعباس: اذهبْ به يا عباس إلى رحلك، أى خيمتك، فإذا أصبحت فأتنى به، أما حكيم بن حزام وبديل بن ورقاء فقد أسلما.

ورأى أبو سفيان تسابق المسلمين فى الاقتداء برسول الله ﷺ، ورآهم يبتدرون وضوءه فقال: يا عباس ما رأيت كالليلة ولا ملك كسرى وقيصر.

وفى الصباح غدا العباس إلى رسول الله ﷺ ومعه أبو سفيان، فقال له النبى ﷺ: ويحك يا أبا سفيان! ألم يأن لك



أن تعلم أن لا إله إلا الله؟، فقال أبو سفيان: بأبى أنت وأمى! ما أحلمك وأكرمك وأوصلك! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله غيره، لقد أغنى عنى شيئًا بعد، قال الرسول ﷺ: ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله؟.

قال أبو سفيان: أما هذه ففى النفس منها حتى الآن شىء، فقال له العباس: ويحك! أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد شهادة الحق وأسلم، فقال العباس: إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئًا، فرأى رسول الله ﷺ أن يكون هذا الشىء مما يتعلق بحقن الدماء ونشر الأمان حتى يأمن عدد كبير من الناس، فقال ﷺ: "من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن، ومن دخل المسجد أى الكعبة فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن".

ورغم ورود هذه الرواية فى كل ما اطلعنا عليه من المصادر، فإن الدكتور عبد العزيز غنيم يرى فى هذه الرواية تزيُّدًا من الرواة لأمرين:

١ـ أن النبى ﷺ لم ير من أبى سفيان موقفًا واحدًا إلى جانب الإسلام بل إنه كان على العكس، فكيف يستحق هذا الشرف وهذه المكرمة.

٢ـ أن الفخر نقيصة فى الإسلام فكيف يقره الرسول ﷺ لرجل هو فى غنى عنه، وربما كان بعض أنصار بنى أمية هم من وضعوا ذلك الخبر تقربًا إليهم[١١].

ومهما يكن من أمر فقد رأى الرسول بحكمته أن يوقف أبا سفيان بمضيق الوادى عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها، فيكون ذلك نذيرًا لقريش حتى تجنح إلى السلام إبقاءً على نفسها، فقال العباس: هؤلاء الأنصار عليهم سعد ابن عبادة مع الراية، وقد قال سعد: اليوم يوم الملحمة، اليوم تُستَحَلُّ الكعبة، فاشتكى أبو سفيان للنبى ﷺ من قول سعد، فقال أبو سفيان وقد خشى على قريش من الاستئصال: حبذا يوم الذِّمَار؛ أى يوم الحرمة ورعاية العهد.

الكتيبة الخضراء:

ثم مر رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء على ناقته القصواء بين أبى بكر وأسيد بن حضير يحيط به المهاجرون لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد أى عدة الحروب، يحمل الراية الزبير بن العوام، قال أبو سفيان: سبحان الله يا عباس! من هؤلاء؟ قال: هذا رسول

الله فى المهاجرين، فقال أبو سفيان: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، والله يا أبا الفضل – كنية العباس- لقد أصبح ملك ابن أخيك من الغداة عظيمًا، فقال العباس: إنها النبوة، قال: نعم إذًا.

وبلغ رسول الله ﷺ مقالة سعد بن عبادة، فقال: كذب - أى أخطأ- سعد، ولكن هذا اليوم يعظم الله فيه الكعبة وتكسى فيه الكعبة حسبما جاء فى صحيح البخارى، فأمر رسول الله ﷺ أن تؤخذ الراية من سعد وتعطى لابنه "قيس" أى أنه لم يغضب سعدًا وأعطى الراية لابنه، ولم يبقها مع سعد لأنه لا يريد أن يغضب أبا سفيان وصحبه، ولأنه ربما طغى سيف سعد فأسرف فى القتل، وفى رواية موسى بن عقبة عن الزهرى أنه أعطاها للزبير بن العوام.

بعد ذلك رجع أبو سفيان حتى وصل إلى مكة فنادى بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم بما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن؛ فقالوا: وما تغنى دارك؟ فقال: ومن دخل المسجد فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن. ولما صرخ أبو سفيان فى قريش يحذرهم، قامت عليه هند بنت عتبة زوجته فأخذت بشاربه وقالت: اقتلوا الحمّيت الدسم الأحمس، قُبِّح من طليعة قوم[١٢]، فقال: أبو سفيان: "ويحكم! لا تغرنكم هذه من أنفسكم،فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن... فتفرق الناس هنا وهناك ولم يبق إلا من صمم على القتال".

دخول مكة:

سار الجيش الأنصارى حتى وصل "ذا طوى"، ورأى الرسول بحكمته أن يفرق قواته وأوصاهم أن يكفوا أيديهم وألا يقاتلوا إلا مَنْ قاتلهم، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل من أسفل مكة - من كدى- وأمر الزبير بن العوام أن يدخل من شمالها كما أمر قيس بن سعد أن يدخل من جانبها الغربى، ودخل رسول الله ﷺ من أعلاها من كداء؛ بين يديه أبو عبيدة بن الجراح فى إحدى فرق الجيش، دخلها وهو يطأطئ رأسه حتى إن شعر لحيته ليمس واسطة رحله تواضعًا لله وشكرًا ومعظمًا لله الذى أكرمه بهذا الفتح المبين[١٣]، وكان يركب وراء النبى ﷺ مردفًا له أسامة بن زيد، فلما أتى النبى ﷺ "الحجون" - وهو مكان فى أعلى مكة- أمر أن تركز رايته هناك، وأن تضرب له قبة حيث استراح بها ومعه



زوجتاه ميمونة وأم سلمة ولم يذهب ﷺ إلى بيته بمكة، وقد قال له أسامة بن زيد: أين تنزل غدًا يا رسول الله فقال: هلا ترك لنا عقيل من رباع أو دور، وفى رواية: منزلنا غدًا إن شاء الله بخيف بنى كنانة حيث تقاسموا على الكفر (إشارة إلى تحالف قريش ضد بنى هاشم حين حاصروهم فى الشعب وأقسموا ألا يناكحوهم ولا يؤووهم، واختار النبى ﷺ هذا المكان شكرًا لله عز وجل على ما أنعم من العفو ومبالغة فى العفو عمن أساءوا).

وقد دخلت الجيوش مكة، ولم تلق مقاومة تذكر إلا جيش خالد بن الوليد فقط، وكان فى أسفل مكة؛حيث أشد قريش عداوة للرسول ﷺ ومن اشتركوا مع بنى بكر فى نقض صلح الحديبية، هؤلاء أعدوا عدتهم للقتال، ولم يبالوا بما منحوا من أمان، فلما دخل جيش خالد أمطروه بنبالهم، ولكن خالدًا تمكن من تفريقهم ولم يقتل من رجاله إلا اثنان ضلا طريقهما، وقتل من القرشيين ثلاثة عشر رجلا، أو أربعة وعشرين وولى الباقون الأدبار هاربين[١٤].

ولما قيل للرسول ﷺ : "هذا خالد يقتل، قال ﷺ: **"قم يا فلان فأت خالدًا فقل له يرفع يديه عن القتل!**"[١٥].

وكان هذا الفتح المبين فى صبيحة العشرين من رمضان سنة ثمان أو صبيحة التاسع عشر كما جاء فى كتب المغازى وكما جاء فى شرح النووى على صحيح مسلم ١٧٦/٣.

ومما يذكر فى هذه المناسبة أن أم هانئ بنت أبى طالب أجارت رجلين من أحمائها أى من أقارب زوجها، كان على ابن أبى طالب قد أراد قتلهما لكفرهما، وقد قال لها النبى ﷺ: **"قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ"**، كما جاء عند البخارى ومسلم، وهذا يعنى أن أمان المرأة جائز.

إلى الكعبة:

ثم قصد رسول الله ﷺ الكعبة، فطاف بها سبعًا يستلم الركن بمحجن فى يده كراهة أن يتزاحم الناس وتعليمًا لأمته، وكان بالكعبة ٣٦٠ صنمًا مشدودة إليها برصاص، فصار النبى ﷺ يطعنها بعود فى يده وهو يقول: **"جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقًا"**، جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد"، فجعلت الأصنام تتهاوى إلى غير رجعة، وقد توجه ﷺ إلى المقام وهو لاصق بالكعبة فصلى خلفه ركعتين[١٦].

وهكذا عادت الكعبة كما كانت فى عهد إبراهيم رمزًا للتوحيد وعبادة الله الواحد القهار.

فى جوف الكعبة:

ثم دعا النبى ﷺ عثمان بن طلحة حاجب الكعبة، فجاءه بعد أن حاولت أمه منعه، وقد أخذ النبى ﷺ المفتاح ودخل الكعبة وكبّر فى جوانبها وصلى فيها ركعتين وعلى جدرانها صورة الملائكة وصورة إبراهيم وإسماعيل بيدهما الأزلام يستقسمان بها، فقال: "قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسموا بها قط"، وأمر بالصور فأزيلت.

وقد جاء فى بعض الروايات أن صورة مريم كانت داخل الكعبة، لكن الرسول ﷺ أمر بكل الصور فأزيلت وبالأصنام فأخرجت[١٧]، ولم يدخل إلا بعد أن محيت جميع الصور من الكعبة. وأمر النبى أصحابه فذهبوا لإزالة مراكز الوثنية التى جاء ذكرها فى قول الله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾[١٨].

أذان بلال على الكعبة:

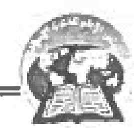
بعد تطهير الكعبة من الأصنام، أمر النبى ﷺ بلالاً فأذّن فوقها لصلاة الظهر مما أغاظ من لم يتخلّوا عن عنجهية الجاهلية، ومنذئذ وإلى يوم الدين يتردد الأذان خمس مرات يوميًا، داعيًا الناس إلى الصلاة وإلى الفلاح.

اليوم يوم بر ووفاء:

ولما خرج رسول الله ﷺ قام إليه على بن أبى طالب -كرم الله وجهه- وبيده مفتاح الكعبة، فقال: يا رسول الله ﷺ اجعل لنا الحجابة مع السقاية، فقال ﷺ: "**أين عثمان بن طلحة؟**" فجاء إليه فقال له: "هذا مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء، خذوها يا بنى شيبة خالدة تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم" -حسبما جاء فى فتح البارى شرح صحيح البخارى- وما يزال مفتاح الكعبة إلى اليوم فى نسل شيبة ابن عم عثمان بن طلحة. وإلى هذه الحادثة جاءت الإشارة فى قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ...﴾[١٩].

خطبة يوم الفتح:

وقف رسول الله ﷺ على باب الكعبة، وقد تكاثر الناس فى المسجد مشدودة إليه أبصارهم ﷺ، فقام خطيبًا، وكان مما قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، ألاَ إن كل مأثرة كانت فى



الجاهلية أو دم أو مال يُدَّعى، فهو موضوع تحت قدميَّ هاتين إلا ما كان من سدانة البيت وسقاية الحاج فإنهما أمضيتا لأهلهما على ما كانت . ألا وإن قتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا، ففيه الدية المغلظة مائة من الإبل: أربعون منها فى بطونها أولادها، يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب ثم تلا قول الله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ﴾(٢٠).

ثم قال: يا معشر قريش ما ترون أنى فاعل بكم؟ قالوا: خيرًا؛ أخ كريم وابن أخ كريم، قال: أقول لكم ما قال يوسف لإخوته: "لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين" اذهبوا فأنتم الطلقاء، وفى هذا الموقف جاءه رجل يخشاه ويرتعد، فابتسم ﷺ وقال: "إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد فى مكة" .

وموقفه من القرشيين يمثل قمة النبل، لقد عذبه هؤلاء هو وأصحابه وهموا بقتله وأخرجوه وأتباعه من ديارهم واستولوا على أموالهم وممتلكاتهم، واستمروا فى محاربته والكيد له حتى الهجرة، ومع ذلك أبى صلوات ربى وسلامه عليه إلا الصفح والعفو، وتلك سمة النفوس العظيمة التى تسمو على الانتقام، ولا غرابة فى ذلك؛ فالنبى ﷺ هو الرحمة نفسها، لقد ضرب النبى بعفوه عن أهل مكة للدنيا ولكل الأجيال، مثلا فى البر والوفاء وسمو النفس لم ولن تعرفه الدنيا كلها، وفى هذا نزلت الآية الكريمة ﴿ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴾(٢١)، فقال النبى ﷺ نصبر ولا نعاقب(٢٢)، وبقى ﷺ خمس عشرة ليلة يصلى ركعتين -يعنى يصلى قصرا- ثم خرج إلى حنين.

إسلام أبى قحافة:

بعد الفتح جاء أبو بكر الصديق بأبيه يقوده وقد كف بصره، فلما رآه الرسول ﷺ قال لأبى بكر: هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه؟ فقال الصديق ﷺ : "هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه، فأجلسه بين يديه ثم مسح صدره وقال: أسلم، فأسلم، وهنأ الرسول ﷺ أبا بكر بإسلام أبيه.

كذلك أسلم الحارث بن هشام وعتاب ابن أَسيد بعدما أعلمهما ﷺ بما كانا

يتناجيان به، وكما أسلم فضالة بن عمر الذى حدثته نفسه بقتل رسول الله ﷺ وهو يطوف بالكعبة، لكنه ﷺ وضع يده على صدره فسكن قلبه، وكان يقول: "والله ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شىء أحب إلىّ منه". أيضًا أسلم كعب بن زهير وأنشد النبى ﷺ قصيدته التى مطلعها: "با نت سعاد"، ومنها:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

ولما قال هذا البيت خلع النبى ﷺ بردته عليه، فسميت القصيدة قصيدة البردة، كذلك أسلمت هند زوج أبى سفيان.

إهدار النبى ﷺ بعض الدماء :

لقد رأينا كيف كان النبى ﷺ حريصًا على عدم إراقة الدماء، وأوصى أمراء الجيش ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم، وعفا عن أهل مكة بصورة شاملة، لم يستثن إلا بضعة عشر رجلا أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة، لأنهم عظمت جرائمهم فى حق الله ورسوله ودينه، وقد يخشى منهم إثارة الفتنة بعد الفتح، وقد ذكر الحافظ بن حجر فى فتح البارى شرح صحيح البخارى أنه جمع أسماءهم من متفرقات الأخبار، ومن هؤلاء من قتل ومنهم من جاء مسلمًا فعفا عنه الرسول صلوات ربى وسلامه عليه. من هؤلاء عبد الله بن سعد بن أبى سرح وعكرمة بن أبى جهل، وسارة التى حملت خطاب حاطب فى بعض الروايات.

خطبة النبى ﷺ غداة الفتح:

بلغ النبى ﷺ غداة الفتح أن حلفاءه من خزاعة قتلوا رجلا مشركًا من هذيل برجل قتل منهم فى الجاهلية، فغضب وخطب فى الناس قائلا: يا أيها الناس إن الله قد كرم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهى حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا ولا يعضد (أى يقطع) فيها شجرا، لم تحل لأحد كان قبل، ولا تحل لأحد يكون بعدى ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم قد رَجَعَتْ كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب. فمن قال لكم: إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله عز وجل قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم. يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً لأدينه، ومن قتل بعد مقامى هذا، فأهله بخير النظرين: إن شاءوا قدم قاتله وإن شاءوا فعقله أى ديته، ثم وَدَى ﷺ الرجل الذى قتلته خزاعة[٢٣].

رواه الإمام أحمد فى مسنده عن ابن إسحاق صاحب السيرة وعن غيره، وأصل الحديث فى الصحيحين كما ذكر ذلك ابن القيم الجوزيه فى زاد المعاد ج٤، ص٣٠.

وقد خشى الأنصار أن يعود محمد ﷺ لمكة بلده ولكنه طمأنهم قائلا: المحيا محياكم والممات مماتكم.

وكان من ثمار العفو الشامل الذى منحه الرسول ﷺ لأهل مكة، أن دخل أهل مكة فى دين الله أفواجا رجالا ونساءً وأحرارًا وموالى عن رضا واختيار، وبقى النبى ﷺ عند الصفا يأخذ بيعة الرجال وكلف عمر ﷺ أن يأخذ بيعة النساء وصدق الله العظيم القائل: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝ ﴾[٢٤]

فالفتح فى هذه السورة فتح مكة. ولما نزلت قال ﷺ: نُعيَتْ إلىّ نفسى أى أنه فهم منها قرب انتهاء أجله.

وقد علق ابن إسحاق على حادثة الفتح فكان مما قال: "وإنما كانت العرب تريص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديهم، وصريح ولد إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، فلما افتتحت مكة ودانت له قريش.. دخل الناس فى دين الله أفواجا يضربون إليه من كل وجه"[٢٥].

هل كان فتح مكة صلحًا أم عنوة؟

أخيرًا يواجهنا سؤال، هل كان فتح مكة عنوة، أى قهرًا، أم صلحًا؟

يرى جمهور العلماء أنها فتحت عنوة، بينما الشافعى ورواية عن أحمد أنها فتحت صلحا، ولكُلٍّ أدلتُه، ويرى الماوردى والإمام الحاكم فى الإكليل أن بعضها فتح عنوة بسبب ما وقع من قتال بين بعض القرشيين وبين خالد بن الوليد وجيشه انهزم فيه أعداء الإسلام، وبعضها فتح صلحًا.

والصواب أن فتحها كان عنوة وبقوة السلاح، ولو أمكن أعداء الإسلام مقاتلة الجيش الذى فيه رسول الله ﷺ لفعلوا، ولكن النبى صلوات الله وسلامه عليه تأليفًا لقلوبِ مَن لم يدخل منهم فى الإسلام يوم الفتح عاملهم معاملة من فتحت بلادهم صلحًا وبأمان[٢٦].

أ.د/عبد الله محمد جمال الدين

الهوامش:

(١) صفوة السيرة النبوية لابن كثير، ج٣، ص ٢٢٨ .

(٢) ابن قيم الجوزية جـ ٢ ، ص ٢٣٨ .

(٣) انظر : تاريخ الإسلام فى عهد النبوة والخلافة الراشدة أ . د عبد الشافى محمد عبد اللطيف، ص ٣٢٨، وقد روى ابن كثير عن بن إسحاق " ما كان صراع وقتال بين خزاعة وبنى بكر قبل الإسلام"، انظر : صفوة ابن كثير ، ص ٢٢٩.

(٤) نفس مرجع د. عبد الشافى السابق ونفس الصفحة .

(٥) انظر المطالب العالية لابن حجر ٢٤٣/٤ ، وفتح البارى ٦/٨ ، والبداية والنهاية لابن كثير، ٢٨١/٤ ، والمغازى للواقدى ٧٨٦/٢ .

(٦) انظر : البداية والنهاية لابن كثير ٢٨٣/٤ ، وطبقات ابن سعد ٢٩٧/٢ ، وابن إسحاق : السيرة ٣٩٩.

(٧) هذا النص ذكره السهيلى فى الروض الأنف.

(٨) الممتحنة : ١ .

(٩) ابن إسحاق عن طريق ابن هشام... والمطالب العالية لابن حجر ٢٤٨/٤ ، وصححه الحاكم فى المستدرك ٤٤/٣ ، كذلك صحيح البخارى من ص٣إلى ص٢٢ من طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وانظر كذلك السيرة النبوية الصحيحة أكرم ضياء العمرى، ج٢ ، ص٤٧٣- ٤٨٨ ، وزاد المعاد لابن القيم، ج٤، ص٢٢٨ .

(١٠) انظر صفوة ابن كثير جـ٣، ص٢٣٥ ، والروض الأنف للسهيلى، ٢٦٧/٢ .

(١١) انظر: محمد ﷺ بين الحرب والسلام، ج١، ص١٤٥- ١٤٦ .

(١٢) الحميت: الزق أو وعاء السمن، والدسم: السمين، والأحمس: كثير اللحم .

(١٣) فصّل الواقدى فى مغازيه الكلام عن توزيع الرايات وحملتها ، وذكر عدد المهاجرين الأنصار بما يخالف ما جاء فى الروايات الأخرى، ج٢، ص٧٩٩- ٨٠١ .

(١٤) السيرة النبوية رواية ابن إسحاق، عن طريق ابن هشام ٤٠٧/٢ .

(١٥) روى الطبرانى بسنده عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ قال: **"إن الله حرم هذا البلد يوم خلق السموات والأرض، وما صاغه يوم صاغ الشمس والقمر وما حياله من السماء حرام، وإنه لا يحل لأحد قبلى، وإنما حل لى ساعة من نهار ثم عاد كما كان**، قيل للنبى ﷺ: هذا خالد بن الوليد يقتل فقال: قم يا فلان فقل له فليرفع يديه من القتل، فأتاه الرجل فقال: إن النبى ﷺ يقول: اقتل من قدرت عليه فقتل سبعين إنسانًا ، فارسل النبى ﷺ إلى خالد فقال: ألم أنهك عن القتل؟ فقال: جاءنى فلان يقول: اقتل من قدرت عليه، فأرسل إليه: ألم آمرك؟ قال: أردت أمرًا ، وأراد الله أمرًا ، وأمر الله فوق أمرك، فما استطعت إلا الذى كان، فسكت النبى ﷺ فما رد عليه شيئًا. وانظر صفوة ابن كثير جـ٣، ص٢٤٦ .

(١٦) جاء فى السيرة النبوية لابن كثير أن قريشًا وبشت أوباشها وحصدت سفهاءها وأبت إلا الدخول فى القتال وأن النبى ﷺ غضب وطلب من الأنصار أن يحصدوهم حصدًا وأن يوافوه عند الصفا ، غير أن هذا الغضب لم يكن سوى سحابة صيف انقشعت وأن رغبته ﷺ فى السلام كانت الطابع الغالب والسارى فى أقواله وأفعاله ﷺ . انظر: أيضًا محمد ﷺ بين الحرب والسلام. د. عبد العزيز غنيم جـ١ ، ص١٤٧ .

(١٧) انظر : صحيح البخارى ٥٢٧٦٩/٤/١٨٨.

(١٨) النجم: ١٩- ٢٠ .

(١٩) النساء: ٥٨، جاء فى طبقات ابن سعد أن النبىﷺ، أعطى السقاية للعباس بن عبد المطلب.

(٢٠) الحجرات: ١٣ .

(٢١) النحل: ١٢٦.

(٢٢) مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى ٣٦١- ٣٦٢، وانظر أيضًا: تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج٢، ص٦١١.

(٢٣) انظر: سيرة ابن إسحاق عن طريق ابن هشام ٥٦٠/٢، وكان النبى ﷺ قد أباح لخزاعة أن تثأر من بنى بكر فى اليوم الأول من فتح مكة بسبب غدر بنى بكر قبل الفتح، فلما كان بعد العصر أوقف أى قتال بمكة وأوضح حرمتها، أنظر: مسند الإمام أحمد ج٦، الحديث رقم ٦٦٨١- ٦٩٣٣.

(٢٤) النصر: ١- ٣.

(٢٥) انظر: شرح النووى على صحيح مسلم، ج١٢، ص١٣٠- ١٣١، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر، ج٨، ص٩- ١٠.

(٢٦) انظر: السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة للشيخ محمد محمد أبى شهبة ج٢، ص٤٥٩- ٤٦٣.

مصادر ومراجع للاستزادة:

ليس هناك مصدر أو مرجع فى السنة النبوية المطهرة أو فى السيرة النبوية المباركة أو فى غير ذلك إلا وتناول "فتح مكة" بالحديث كل حسب طريقته ومنهجه، نظرًا لما يمثله هذا الحدث من أهمية قصوى فى سيرة النبى ﷺ وفى تاريخ الإسلام، ونكتفى هنا بذكر بعض هذه المصادر والمراجع:

١. السيرة النبوية لابن إسحاق، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد وبدوى طه بدوى، وقد نشرها قطاع الثقافة فى دار أخبار اليوم بالقاهرة، سنة ١٩٩٨م- ١٩٩٩م، فى مجلدين الأول برواية يونس بن بكير، مع تكملة النقص من سيرة ابن هشام من ذكر النسب الذكى إلى حفر بئر زمزم، أى نحو تسعين صفحة، وهى فى مجلدين الأول فيه ستة أقسام، أما المجلد الثانى فمن رواية ابن هشام من أول غزوة حمراء الأسد إلى رثاء حسان رسول الله ﷺ، وقد يكرر الروايتين: رواية يونس بن بكير وابن هشام.

وهناك سيرة ابن إسحاق المسماه بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازى لمحمد بن إسحاق بن يسار، تحقيق محمد حميد الله، نشر معهد الدراسات والأبحاث للتعريب فى باريس، بدون تاريخ.

٢. السيرة النبوية لأبى محمد عبد الملك بن هشام رواية ابن إسحاق وقد صدر فى القاهرة وغيرها فى عدة مجلدات، وقد رجعت إلى النسخة التى حققها الشيخ محمد بيومى –أجزاء- نشر مكتبة الإيمان بالأزهر، القاهرة ١٩٦٥م.

وقد قامت لجنة السيرة فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بعمل صفوة هذه السيرة تحت عنوان مختصر سيرة ابن هشام وصدرت بالقاهرة، ١٩٩٤م. وقد قام السهيلى فى كتابه "الروض الأنف" بشرح سيرة ابن هشام وشرح وبيان الغامض فيها، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م.

٣. السيرة النبوية لابن كثير الإمام أبى الفدا عماد الدين إسماعيل، صدرت فى القاهرة فى أربعة أجزاء بتحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد، وقد قامت لجنة السيرة فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة بعمل صفوة هذه السيرة تحت عنوان "صفوة السيرة النبوية لابن كثير"، صدرت فى أربعة أجزاء تحت عنوان "صفوة السيرة النبوية لابن كثير"، القاهرة ٢٠٠٠م.

٤. السيرة النبوية من الطبقات الكبرى لابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع، نشر الزهراء للإعلام العربى، مجلدان، القاهرة ١٩٨٩م.

٥. الدرر فى اختصار المغازى والسير –الحافظ يوسف بن عبد البر النمرى، تحقيق شوقى ضيف، نشر لجنة إحياء التراث فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٩٥م.

٦. عيون الأثر فى المغازى والشمائل والسير: ابن سيد الناس، تحقيق لجنة التراث العربى، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٠م.

٧. جوامع السيرة للحافظ أبى محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم، تحقيق إحسان عباس وآخرين، نشر إدارة إحياء السنة بباكستان، بدون تاريخ.

٨. زاد المعاد فى هدى خير العباد للإمام ابن قيم الجوزية، شمس الدين عبد الله محمد بن أبى بكر الزرعى الدمشقى، أجزاء بتحقيق محمد عبد القادر عطا، دار التقوى للتراث، القاهرة ٢٠٠٠م. وله مختصر زاد المعاد تحقيق الإمام محمد بن عبد الوهاب التميمى، وتصحيح عبد الله ابن عبد الرحمن بن جبرين، ومحمد بن عبد الله السمهرى، نشر دار السلام بالرياض ١٣٩٧هـ.

٩. سيرة الرسول ﷺ للعلامة ابن خلدون، وهى قسم من تاريخه طبع مستقلا بتحقيق سعيد هارون عاشور، القاهرة ١٩٩٤م.

١٠. صحيح البخارى الجزء السابع من طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة.

١١. فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر الحافظ أحمد بن على بن حجر العسقلانى، ج٧، ص٥٩٨- ٦٢٦، دار التقوى بالقاهرة ٢٠٠٠م.

١٢. صحيح مسلم بشرح النووى الإمام أبى زكريا يحيى بن شرف الدمشقى، تحقيق هانى الحاج وعماد زكى البارودى، ج١٢، ص١١١- ١١٨، نشر المكتبة التوفيقية بالقاهرة، بدون تاريخ.

١٣. السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، محمد بن محمد أبو شهبة، دار القلم فى دمشق بسوريا، الطبعة السابعة، ٢٠٠٠م.

١٤. السيرة النبوية الصحيحة، أكرم ضياء العمرى –مجلدان- مركز بحوث السنة والسيرة بدولة قطر، ١٩٩١م.

١٥. تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة، عبد الشافى محمد عبد اللطيف، القاهرة ١٩٦٦م.

١٦. محمد ﷺ بين الحرب والسلام، عبد العزيز عبد القادر غنيم، جزءان، لجنة السيرة فى المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٩٨٩م.

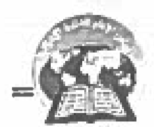
١٧. السراج المنير من سيرة سيد المرسلين، محمد محمد زيتون، القاهرة ١٩٩٤م.

١٨. الرسول ﷺ، حياته وتطور الدعوة الإسلامية فى عصره، عبد الرحمن أحمد سالم، القاهرة ١٩٩٩م.

١٩. نهاية الإيجاز فى سيرة ساكن الحجاز (سيرة الرسول ﷺ) رفاعة رافع الطهطاوى، طبعة خاصة أصدرتها هيئة قصور الثقافة بالقاهرة، بتحقيق عبد الرحمن حسن محمود وفاروق حامد محمد بدر، القاهرة ٢٠٠٦م.

٢٠. محمد رسول الله ﷺ، أحمد تيمور، القاهرة ١٩٦٥م.

٢١. محمد رسول الحرية، عبد الرحمن الشرقاوى، سلسلة كتاب الهلال، القاهرة عدد يناير ١٩٦٥م.



الفتــوة

الفتوة بين المعنى اللغوى والتطور العملى والتاريخى:

(الفتـى) الـشابّ، و(الفتـاة) الـشابة. وقـد(فَتِـىَ) بالـكسر (فتـاءً) بـالفتح والمـد فهـو (فتـىً) الـسنّ بيّنُ (الفتـاء) . وجمعوا فتى على فتيان، وفُتُوّ، وفِتْية والاسم من ذلك كله الفتوة.

وإذا كانـت المادة تـدور حـول الـشباب فـإن نفس هـذه اللفظـة (الفتـوة) تعنـى السخى الكريم كما حملت معنى الغلبة والانتصار[1]. والحقيقة أننا لا نستطيع أن نـدعى أن هـذه المعـانى تعـد تطـوراً فـى معنى اللفظة حدث مع تطور الزمن، وإنما هـى معـان لازمـة لهـذه الكلمـة يـصلح أن تستعمل فيها وهـذا مـا كـان[2]. فقد قال الشاعر:

إن الفتى حَمَّال كل ملمة ...... إلخ.

وقال آخر:

قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه ...

خلقٌ وجيب قميصه مرقوع

وعلى أية حال فإننا فى رحلتنا للبحث عن هوية هذه الفتوة وماهيتها فـى العـصر العباسـى وهـل تعـد فرقـة مـن الفـرق أو جماعة من الجماعات أو حتى معنى من المعانى، فإننا لا بد من أن نقلب صفحات التاريخ الماضية فى عجالة عسانا أن نجد ما يجيب عن هذه الأسئلة عندما نصل إلى العصر العباسى.

فالعـصر الجـاهلى لم يـشهد جماعـة بعينها يطلق عليها هـذا الاسـم، وإن كـان قـد اسـتعمل هـذا اللفـظ للدلالـة علـى الأخلاق الرفيعة ، أما فـى العـصر الأموى فإننـا سـنجد تلـك الروايـة التـى أوردهـا صـاحب الأغـانى عـن رجـل اسمـه "حـنين الحميري" يعمل بالغناء ، نزل حمص بحثًا عن سعة الـرزق فـإذا بـه يـسأل عـن الفتيان وأين يجتمعون فقيل له: فى الحمامات[3].

والرواية حقيقيـة تـدل علـى وجـود مثل هـذا التجمـع الـذى يتسم بـصفة الفتـوة وأطلق عليه جماعـة الفتيـان. والمتتبـع لهـذه القصة سوف يتبين لـه أنها ليست جماعة بـالمعنى المعـروف، لهـا فكـر تنظيمـى أو فلـسفة مذهبيـة، أو .. أو ... إلخ، ممـا عرف عن أمثال هذه الفرق أو الجماعات؛ فهـى مجموعـة مـن الفتيـان لاهيـة عابثـة تحـب الغنـاء وتقـيم فـى الحمامـات، فقـد غنـى لهـم حـنين هـذا، وإن كـانوا هـم أكرمـوه وضـيفوه ، وعلـى ذلـك تكـون

هذه هى الملامح الرئيسية لهؤلاء الفتيان فى العصر الأموى.

وعلى هذا فإن أمثال هذه الروايات تؤكد على وجود المعنى اللغوى لهذه الكلمة "الفتوة" وتلبى معناها.

ولكننا ما نلبث أن نجد فى بدايات العصر العباسى وقد اختلفت فيه معانى ودلالات كلمة الفتوة بواقع وأفكار وتنظيمات فرق أخرى مختلفة.

فبينما أكدت بعض الروايات على معانى الكرم والسخاء والعطاء[٤]، سنجد روايات أخرى يبدو فيها التداخل الشديد بين ألفاظ ومعانى الفتوة وألفاظ ومعانٍ أخرى ظهرت فى هذا العصر وأثرت فى أحداثه ومجرياته، وهى تحمل معانى الخروج والاصطدام إما بالدولة أو جماهير الناس مثل حركات العيارين[٥] والشطار[٦] والعراة وغيرهم الذين يتباهون بقوتهم ويهددون الناس فى معايشهم.

ولا أدل على هذا التداخل من تلك الأبيات التى رواها الطبرى أثناء الفتنة بين الأمين والمأمون والتى قال بعض شعراء بغداد وهو يصف بعض المقاتلين فيها [٧].

خرجت هذه الحروب رجالاً

لا لقحطانها ولا لنزار

واحد منهم يشد على ألفين

عريان ماله من إزار

وقال آخر:

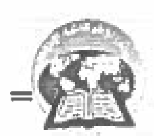
ويقول الفتى إذا طعن الطعنة

خذها من الفتى العيار

وبالرغم من الإشادة بهؤلاء المقاتلين فإن الصورة لم تتضح؛ فهل هم من جماعة العيارين أم من جماعة الفتيان.

والحقيقة أنّ أمثال هذه المعانى التى وردت فى الأبيات كثيرة فى هذا العصر، فمع وجود كلمة فتى وفتيان مع كلمات العيارين والشطار سنجد كلمات أخرى مثل غلام وغلمان. وإذا كانت الفتنة بين الأمين والمأمون من المراحل التاريخية التى ورد فيها ذكر الفتى والفتيان فنحن فى حاجة لأن نمر بمختلف المراحل التاريخية لنبين من خلالها حقيقة وجود مثل هذه الجماعة وتطور أوضاعها وتنظيماتها، فعندما نصل لحروب الدولة مع المازيار ستطالعنا جماعة الفتيان المقاتلة بتعبير صريح وواضح حتى أتباع المازيار تمكنوا من الإمساك بمجموعة من مائتين وستين فتى[٨].

كذلك كانت من المراحل الفاصلة مرحلة الفتنة الثانية ببغداد، والتى ترتب عليها دمار بغداد وسقوط حكم المستعين



وظهور ألفاظ [٩] العيارين والشطار. بجوار ألفاظ أخرى شبيهة بألفاظ الفتيان أمثال الغلمان[١٠]، والأبناء[١١]، ووردت معهم صفات الفتوة[١٢].

كما كانت تعبيرات الإخوان والفتيان من مصطلحات إخوان الصفا لكنها فى هذه الحالة تغوص فى أعماق العلم والتعلم وحمل رسالته وتبليغها وهى معان تبعد تمامًا عن المعانى المعهودة للفتوة والفتيان[١٣].

حتى وإن كانت جماعة إخوان الصفا مثلت جماعة سرية فإنها كانت أول جماعة سرية علمية مما أهلها لأن تكون تاريخيًا أول أكاديمية علمية قصرت عملها على العلم والبحث. وإذا سرنا فى التاريخ إلى الأمام قليلاً سيطالعنا ما كتبه التنوخى[١٤] فى كتابه من خلال مجموعة المواقف والأحداث التى دارت إبان القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى وسنجد أن تعبير فتى وفتيان من التعبيرات الواردة والمترددة فى قصصه وإن كانت كلها تدور حول إطار الشطارة واللصوصية، حتى إن الدولة حاربتهم وألقت بأحد زعمائهم فى السجن، ومن الغريب أنه يقضى المصالح وهو على هذه الحال فى سجنه، إذ يرسل الرسائل لفتيانه بقضاء المصالح والحاجات وهم يلبون بكل قناعة ورضى.

وفى المقابل سنجد أن هؤلاء الفتيان ومن خلال أحداث هذا القرن تجمعوا للتطوع والجهاد فى جماعات من السنة والعيارين والشيعة وغيرهم فى بغداد حتى اصطدم بعضهم ببعض ووقعت الفتنة بينهم.

على أن هذه النقطة وهذه الرواية تدعونا للبحث عن بدايات فكر التطوع والقتال والجهاد فى تاريخ الفتوة والفتيان؛ فقد لبى هؤلاء الفتيان نداء الخليفة بعد وفاة السلطان مسعود السلجوقى للقضاء على السلاجقة وطردهم حيث كان الخليفة المقتفى يعرف مدى تأثيرهم فى العامة ، فعمل على تجميعهم وتوحيد صفوفهم لأجل هذا الهدف[١٥] ألا وهو طرد السلاجقة وتقوية مركز الخليفة والخلافة .

وتتابع موقف جماعة الفتيان فى موضوع القتال والجهاد حتى وصل ذروته فى عصر الخليفة الناصر الذى عمل على إحياء وتنظيم فرق الفتوة للقتال والجهاد والغزو حتى صار زعيم أكبر حركة شعبية .

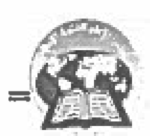
على أنه فى تصرفه هذا عمل على

القضاء على الأخطار الخارجية بكل صورها ومن أهمها خطر الصليبيين ، كذلك عمل على تثبيت نظم الحكم والخلافة [١٦] ، وتثبيت دعائم الوحدة بين الأمة ، وتجديد شباب الأمة ... إلخ . على أن هذه القضية تحتاج إلى عدة وقفات أهمها الرد على تلك الدعوى وأقصد بها دعوى الجهاد ضد القوى الخارجية وخاصة القوى الصليبية؛ فعندما طلب منه السلطان صلاح الدين المشاركة فى حرب الصليبيين ما كان منه إلا أنه رد عليه بكلمات جميلة ، وأعداد بسيطة من مقاتليه ، فأين الجهاد؟ على أن النقطة التى أراها تحتاج إلى وقفة ما ذهب إليه المؤرخون من قولهم إن الناصر هو الذى أقام شجرة الفتوة [١٧] ، وبه انتشر علمها بعد أن كان قد اندثر وميز أصحابها بعد أن كانوا فرقاً. وهذا الكلام نستطيع أن نفهم منه أن الفتوة كجماعة كانت موجودة قبل الناصر وعلى ما يبدو فقد كانت فرقًا مختلفة فقام الناصر بتوحيدها، كما استطاع الناصر أن يضم لهذه الجماعة ملوك الأطراف وخاصة من عرفوا بالغزو والجهاد [١٨] وفى إطار فكرة الجهاد والمرابطة لجماعة الفتوة فقد استمر هذا النسق بعد الناصر ؛ ففى عهد المستنصر نجد الزنكيين وهم من هم فى الجهاد والغزو قد انخرطوا فى الفتوة وانضموا تحت لوائها ولبسوا أزياءها [١٩]. وللحقيقة التاريخية فإن حديث المصادر القديمة عن مواضع الثغور لم أجد فيه تعبير الفتيان من تلك الجماعات التى نزلت مواضع الثغور أو غيرها ، وإنما كان الحديث عامًا عن المرابطين والمجاهدين والمتطوعة ...الخ تلك الألفاظ [٢٠].

زى الفتوة وعاداتها :

بعد هذه الرحلة مع الفتوة والفتيان يجدر أن نعرض لموضوع زى هذه الجماعة وعاداتها.

فمن الواضح أن البدايات الأولى فى العصر العباسى والتى كان الاختلاف فيها شديدًا بينهم وبين غيرهم من الفرق والطوائف الأخرى مثل حركة العيارين والشطار، كان الزى الغالب على هذه الجماعات هو الإزار أو تلك الخرقة التى تغطى أوساطهم وعوراتهم [٢١] ، ولكن مع مرور الأحداث صار لهذه الجماعة زى خاص بها وهو ما ذكره التنوخى [٢٢] فى معرض حديثه عن جماعة الفتيان ، حيث ذكر أن زيهم يخالف زى غيرهم من باقى الطوائف ، وإن كان لم يحدد شكلاً



معينًا لهذا الزى إلا أن هذا الزى سرعان ما تحددت ملامحه بعد ذلك ، يؤكد ذلك ما ذكرته المصادر من أن الناصر عندما قرر دخول سلك الفتوة أتى له بزعيم فتيان الرهاصية "عمر بن الرهاص" الذى ألبسه زى الفتوة وسراويلها [٢٣].

وهذا يؤكد على أن هذه الجماعة قد صار لها زى خاص بها قبل هذه الأحداث ، وبالطبع فإن هذا الزى لابد وأنه استقر بعد فترة من التقلبات قبل عصر الناصر بمراحل .

يضاف إلى ذلك ما سبق مما حدث من لبس كافة القادة والأتباع هذا الزى حتى لبسه الزنكيون (نور الدين بن عماد الدين زنكى) بالوكالة عن الخليفة المستنصر عام ٦٣٤هـ/١٢٣٦م [٢٤] .

أما عن هذه الملابس فقد كانت عبارة عن سراويل وحزام يشد به خصر الفتى ، وقد كانت هذه السراويل منقوشة مرسوما عليها شعار الفتوة؛ قيل إنه الكأس ، على أن تكون هذه الصورة بالنسبة إلى الفتى رمزًا لكونه من الفتيان.

ومما له علاقة بالزى تلك العادات التى أوجدها الفتيان عند دخول فتى جديد لهم والمتمثلة فى ذلك الاحتفال الذى يقام بهذه المناسبة والذى يشرب فيه الفتى الجديد شرابهم فى كأس (لا يشرب فيه الخمر) مملوء بالماء والملح، على أن يبدأ عملية الشراب (زعيم) وينتهى الشراب (بمقدم) وهى ألقاب لدرجات الزعماء[٢٥]، عندهم ويمر الداخل بالفتوة بمرحلتين : الأولى : يطلق عليها الشد ، وهو مبدأ العهد والثانية: يطلق عليها التكميل وهو تمام العهد[٢٦]. وعلى ذلك فإن الفتوة أصبحت إبان العصر العباسى لها زيها وعاداتها ومراتب تنظيمية لقياداتها... إلخ.

الفتوة والصوفية :

يتشابه التصوف مع الفتوة فى أن كلاً منهما ظهر ضعيفًا يبحث عن فرصة للوجود حتى التقيا فأدخل التصوف فى معجم كلماته ألفاظ الفتوة وصفاتها ، حتى صارت الفتوة جزءًا من مذهبهم ومقامًا من مقاماتهم ، فنقلت من المعنى الدنيوى إلى المعنى الدينى، فاشتركت الفتوة مع التصوف فى معانى الزهد والإيثار وضبط النفس وحملها على الحق وتحمل المكاره ... إلخ من تلك المعانى الدينية الجميلة التى حث عليها التصوف والتى تعد من الدلالات اللفظية لمعانى كلمة الفتوة وهى فى تطورها وانتشارها.

والفيصل فى ذلك ما أورده القشيرى فى رسالته وذلك فى باب الفتوة حيث قال: [٢٧]

"هــى- أى الفتــوة - أن يكــون العبــد ساعيًا أبداً فـى أمـر غيره . وقال المحاسبى: ألاّ تـرى لنفسك فـضلاً علـى غـيرك، وقيـل هـى الصفح عن عثرات الإخوان ...الخ .

والـشىء الـذى تجـدر الإشـارة إليـه، أن تـأثر التـصوف بـالفتوة كـان مـن بـاب المعانى الروحية وليس من بـاب الممارسات العمليـة القاسـية للفتـوة والتـى عرضـنا لأشـكال الخلـط الـذى حـدث فيهـا إبـان الحقــب الزمنيــة المختلفــة فــى العــصر العباسى.

أ. د / أنس هارون نصر

الهوامش:

(١) الرازى، محمد بن أبى بكر . مختار الصحاح. مادة فتى، الفيروزأبادي: محيى الدين محمد بن يعقوب. القاموس المحيط . مادة فتى.

(٢) الرد على د/ أحمد أمين فى كتابه الفتوة والصعلكة فى الإسلام ، سلسلة اقرأ عدد ١١ إبريل ١٩٥٢م

(٣) الأصفهانى : على بن الحسين بن محمد الأموى القرشى ، الأغانى ، ص ٣٥٨ وما بعدها ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٣٩٠هـ / ١٩٧٠م .

(٤) أحمد أمين : مرجع سابق ، ص ٥٥.

(٥) العيارون: مادة عير ، والعيار الذكى كثير الحركة والنشاط ، والعرب تمدح وتذم باللفظ .

(٦) الشطار: مادة شطر ، وهو الرجل الواسع الحيلة ، والعرب أيضًا تذم وتمدح باللفظ.

(٧)الطبرى : محمد بن جرير ، ت ٣١٠هـ ، تاريخ الأمم والملوك، جـ ٧، ص ٦١، بيروت . بدون

(٨) الطبرى : المرجع السابق، والجزء ، ص ٢٨٩.

(٩) الطبرى ، مرجع سبق : جـ ٧ ، ص ٤٤٣.

(١٠) الطبرى ، مرجع سبق : جـ ٧، ص ٤٣٩.

(١١) الطبرى ، مرجع سبق : جـ٧، ص٤٥٧، ص ٤٥٩.

(١٢) الطبرى ، مرجع سبق : جـ٧، ص ٤٥٧.

(١٣) رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا. ط/ بيروت . بدون تاريخ نشر.

(١٤) الفرج بعد الشدة: ص ٣٢ ، ص ٣٧، وغيرها ، من سلسلة أخبار اليوم . عدد ٣١٤. أكتوبر ١٤١١هـ، ١٩٩٠م

(١٥) ابن المعمار الحنبلى: أبو عبد الله محمد بن أبى المكارم. الفتوة ص١٥٧حققه ونشره مصطفى جواد وآخرو. ط/١٩٥٨م.

(١٦) ابن المعمار ، مرجع سبق ص١٦٥ .

(١٧) أحمد أمين: الصعلكة والفتوة ص٦٦ .

(١٨) ابن المعمار، مرجع سابق ص١٦١، المقريزى تقى الدين أحمد بن على ت/٨٤٥ هـ، السلوك لمعرفة دول الملوك، جـ ق ١، ص ١٧٢، ص ١٨٣ .

(١٩) ابن المعمار ، مرجع سابق ، ص ١٨٣

(٢٠) ياقوت الحموى : وشهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى: معجم البلدان . المصيصة ، أذنة ، طرسوس، غيرها.

(٢١) الطبرى مرجع سبق ، ص١٦١ وما بعدها .

(٢٢) الفرج بعد الشدة ، ص٣٢ .

(٢٣) ابن المعمار : الفتوة ص١٦١ .

(٢٤) ابن المعمار : نفس المصدر ١٨٣ .

(٢٥) ابن المعمار : نفس المصدر ص٢٢٨ .

(٢٦) ابن المعمار : نفس المصدر ص٢٠٧ .

(٢٧) الإمام القشيرى : الرسالة القشيرية ص١١٢ وما بعدها ط الحلبى ١٣٥٩هـ ، ١٩٤٠ م .

مصادر ومراجع للاستزادة

(١) الأصفهاني: على بن الحسين بن محمد بن أحمد الأموى أبو الفرج، ت ٣٥٦هـ/٩٧٦م، الأغانى. الهيئة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر، ١٣٩٠هـ ١٩٧٠م.

(٢) ابن المعمار الحنبلى: أبو عبد الله محمد بن أبى المكارم. الفتوة، تحقيق مصطفى جواد وآخرين. ط/١، ١٩٥٨م.

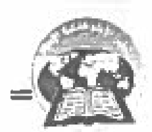
(٣) المقريزى: تقى الدين أحمد بن على، ت/٨٤٥هـ، السلوك بمعرفة دول الملوك، ط/١، تحقيق د. سعيد عاشور، ط دار الكتب ١٩٧٠م.

(٤) احمد أمين: الصعلكة والفتوة فى الإسلام، سلسلة اقرأ عدد ١١١، إبريل ١٩٥٢م.

(٥) الدسوقى: د. عمر، الفتوة عند العرب. مصر، (د. ت).

(٦) الخطيمى: أحمد محمد: الفتوة نشأتها وتطورها حتى سقوط الخلافة العباسية ط/١، ٢٠٠٨م/١٤٢٩هـ.

(٧) مجلة منبر الإسلام: عدد ١٢، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م. مقال عن الفتوة للكاتب محمود الهجرسى.



القادسية (موقعة)[1]

فتح الفرس باب العداء مبكرًا مع الإسلام، ففى مطلع العام السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى أرسل الرسول ﷺ رسالة إلى كسرى يدعوه فيها إلى الإسلام دعوة سلمية فمزق الرسالة علوًا واستكبارًا.

وتصاعدَ عداء الفرس للإسلام فحرَّضوا عرب الخليج على الردة، ثم سلّحوا سجاح التى ادعت النبوة لتحارب المسلمين فبدأ الصدام، وحقّق المسلمون انتصارات متوالية على الفرس فى خلافة أبى بكر الصديق ﷺ بقيادة خالد بن الوليد والمثنى ابن حارثة، وفتحوا المذار وأُليس والحيرة والأنبار وغيرها، مما دفع أهل القرى المجاورة إلى مصالحة المسلمين. وتابع المثنى الفتوح فى بلاد فارس فى خلافة عمر بن الخطاب ﷺ حتى قدوم أبى عبيد بن مسعود الثقفى وهزيمة المسلمين فى موقعة الجسر، واضطراب الأمر فى بلاد فارس على المثنى.

وحاول الفرس استغلال الفرصة؛ فأرسل المثنى بن حارثة إلى الخليفة عمر ﷺ يعلمه خبر الفرس، ونزل بذى قار انتظارًا لرد الخليفة عليه. فورد عليه كتاب عمر، وفيه: "أما بعد.. فاخرجوا من بين ظهرى العجم، وتفرقوا فى المياه التى تلى الأعاجم على حدود أرضكم وأرضهم". وكتب إلى عماله بإمداده بأهل السلاح والنجدة على عجل، وخرج حتى أتى حداد[2].

وعزم عمر ﷺ على الخروج بنفسه مددًا للمثنى، ولكن كبار الصحابة - رضى الله عنهم - أثنوه عن رأيه وقالوا له: إن يهزم جيشك ليس كهزيمتك، وأشاروا عليه بأن يرسل رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ من أهل الشهامة والخبرة، فوقع الاختيار على سعد بن أبى وقاص ﷺ، فأنفذه فى أربعة آلاف ثم أتبعه بأربعة آلاف أخرى، وكان مع المثنى- الذى توفى قبل قدوم سعد - ثمانية آلاف، وتوالت الإمدادات حتى بلغ جيش المسلمين ما يزيد على ثلاثين ألفًا، وكتب عمر إلى سعد يوصيه بتقوى الله والصبر وحُسن معاملة الجند، والحذر من العدو وأن يكاتبه أولاً بأول ليكون على علم بتحركات المسلمين.

ونزل سعد بشراف وأَمَّرَ الأمراء، وعَرَّف العرفاء، واختار رجالاً من أهل

السابقة لحمل الرايات. ثم تحول إلى القادسية ومكث بها شهرًا دون أن تهاجمه قوات الفرس.

وأرسل سعد إلى يزدجرد نفرا – فيهم النعمان بن مقرن، والمغيرة بن شعبة، وبُسْر بن أبى أرطأة- يدعونه إلى الإسلام كما أوصى عمر ﷺ فسألهم يزدجرد: ما الذى أقدمكم هذه البلاد؟ أظننتم أنا لما تشاغلنا بأنفسنا اجترأتم علينا؟. فرد عليه النعمان بن مقرن بأن الله بعث فينا النبى الخاتم ﷺ برسالة الإسلام، وأننا مكلفون بتبليغها للناس؛ فمن أجابنا كان له ما لنا وعليه ما علينا، ومن أبى سألناه الجزية، فمن أبى جاهدناه، وإنا ندعوك إلى مثل ذلك، فإن أبيت فالسيف بيننا.

فقال يزدجرد[٣]: "إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عَدَدًا ولا أسوأ ذات بين منكم.. فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم، وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم..".

فأجابه المغيرة بن شعبة بإجابة قريبة من إجابة النعمان السابقة. - الإسلام أو الجزية أو السيف- . فقال يزدجرد: أتستقبلنى بمثل هذا؟ لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، ولا شىء لكم عندى. ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنى مرسل إليكم رستم حتى يدفنكم ويدفنه فى القادسية[٤].

واستدعى يزدجرد رستم وأمره بالتقدم لملاقاة المسلمين فى جيش من مائة وعشرين ألفًا، تتقدمه الفيلة الضخمة - ثلاثون، أو ثلاثة وثلاثون فيلا- ، وجعل الجالينوس على مقدمته والهرمزان على الميمنة ومهران على الميسرة ونزل القادسية على نهر العتيق مقابل جند المسلمين. وترددت الرسل بين الفريقين شهرًا ولم تأت بأية نتيجة، وكان غرض الفرس منها المطاولة وكسب الوقت فقط.

أيام المعركة:

يوم أرماث[٥]:

وأرسل رستم إلى سعد: إما أن تعبروا إلينا، أو نعبر إليكم. فقال سعد: بل اعبروا إلينا. فعبر الفرس. وعبأ سعد جنده- وكان مريضًا- وحثهم على الجهاد والثبات والصبر، وتليت عليهم آيات الجهاد وسورة الأنفال، فأنزلت السكينة عليهم، وجعل سعد أمر الحرب إلى خالد بن عُرفطة.

وبدأت المعركة أول النهار والتحم الفريقان فى قتال عنيف، واقتحمت الفيلة صفوف المسلمين ففرقت كراديسهم[٦]، وفرت خيل بجيلة وثبت فى هذا اليوم طليحة الأسدى[٧] ومعه قومه صائحًا فيهم: إنما سميتم أسدًا لتفعلوا فعله؛ شُدُّوا ولا تصدوا، وكُرُّوا ولا تَفِرُّوا. وتمكن المسلمون بصعوبة بالغة من صد الفيلة وردها، واستشهد من المسلمين فى هذا اليوم خمسمائة، معظمهم من بنى أسد[٨]. فكان اليوم الأول نصرًا للفرس على المسلمين.

أغواث[٩]:

وفى صباح هذا اليوم نقل المسلمون الشهداء والجرحى من ميدان المعركة، فدفنوا الشهداء بالعذيب وأرسلوا الجرحى إلى النساء لمداواتهم. وكانت قد وصلت للمسلمين إمدادات من الشام- حوالى ستة آلاف- يتقدمهم القعقاع بن عمرو[١٠] الذى قاتل قتال الأبطال وتمكن من قتل بَهْمَن جاذويه وثلاثين من الفرس، وكان يرتجز قائلاً:

أزعجهم عمدًا بها إزعاجًا

أطعـــــــن طعنًا صائبًا شجاجًا

أرجو به من جنة أفواجًا.

وكذلك فعل أبو محجن الثقفى[١١] الذى حمل على ميمنة الفرس حملا شديدًا، وقتل فيهم قتلاً عظيمًا، مما رفع الروح المعنوية لدى المسلمين، فانقضوا على الفرس بإبلهم- مجللة مبرقعة، ففرت منها خيل الفرس – وأخذوا يُعْمِلون فيهم القتل من كل جانب، وساعدهم على هذا أن الفرس لم يشركوا معظم الفيلة فى هذا اليوم لتكسر توابيتها فى أرماث، واستمر القتال حتى منتصف الليل. واستشهد من المسلمين ألفان، وقتل من الفرس عشرة آلاف[١٢] فكان اليوم الثانى نصرًا للمسلمين على الفرس.

عماس[١٣]:

وفى هذا اليوم خرجت كتائب المسلمين –كل كتيبة مائة مقاتل- واحدة وراء الأخرى. وكلما وصلت كتيبة أرض المعركة كبر المسلمون مما فَتَّ فى عضد الفرس وظنوه مددًا جديدًا. وأشرك الفرس الفيلة فى هذا اليوم مع حمايتها بالرجالة والفرسان حتى لا يعود المسلمون لمهاجمتها وقطع بطنها، ولم تنفر منها خيل المسلمين كما فى اليوم الأول - أرماث - حيث تعودت على رؤيتها.

هجم القعقاع ومعه جماعة من الأبطال الشجعان على الفيلة الضخمة بسهامهم

ففقأوا أعينها، وكان القعقاع يقول:

فيولاً أراها كالبيوت مغيرةً

أُسَمِّل أعيانًا لها ومآقيا

فارتدت الفيلة منهزمة تخرق صفوف الفرس وتدوس عليهم - وكثير منهم مسلسلون- نالهم منها أكثر مما نال المسلمين فى اليوم الأول. واستمر القتال يومًا كاملاً ولم ترجح كفةُ فريق على الآخر، فقاتلوا معظم الليل ولم يُسْمَع إلا صليل السيوف وهرير الفرسان فسُمِّيتْ بليلة الهرير، وبات سعد ليلته مقبلاً على الله بالدعاء حتى وجه الصباح[١٤].

وفى صباح اليوم الرابع- ويسمى بيوم القادسية- حث القعقاع جند المسلمين على الصبر والثبات، قائلاً: "إن الدَّبْرة بعد ساعة لمن بدأ القوم، فاصبروا ساعة واحملوا، فإن النصر مع الصبر". وحمل المسلمون على الفُرْس وحمى وطيس القتال من الصباح حتى الظهيرة، وهبت ريح عاصفة -لعلها جند الله ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ (المدثر: ٣١) فقلعت خيمة رستم، وتقدم القعقاع فى نفر نحوه حتى تمكن هلال بن عُلَّفَة[١٥] من قتله.

وانهزمت مجنبتا الفرس وتشتت قلب جيشهم، فانسحبوا من ميدان المعركة يريدون عبور نهر العتيق فغرق الكثير منهم، وفر الهرمزان بمن بقى معه منهزمًا إلى يزدجرد بالمدائن. واستشهد من المسلمين ستة آلاف، وقتل من الفرس عشرة آلاف، وجمع المسلمون من الأسلاب والأموال ما لم يجمع قبله، وأذل الله الفرس[١٦].

وكتب سعد إلى الخليفة عمر ﷺ يبشره بفتح القادسية، قائلا: "فإن الله نصرنا على أهل فارس، ومنحهم سنن من كان قبلهم من أهل دينهم، بعد قتال شديد، وزلزال شديد، وقد لقوا المسلمين بعدة لم ير الراءون مثل زهائها فلم ينفعهم الله بذلك بل سَلَبَهُمُوهُ ونقله عنهم إلى المسلمين، واتبعهم المسلمون على الأنهار وعلى طفوف الآجام وفى الفجاج.."[١٧].. فكتب إليه عمر ﷺ: "أنْ قِفْ، ولا تطلبوا غير ذلك"[١٨].

نتائج المعركة:

كان للقادسية الكثير من النتائج، ومن أبرزها:

- أكدت التفوق العسكرى للمسلمين على الفرس- على الرغم من كثرتهم العددية، وخيلهم وفيلهم- . وهذا لأن المسلمين يطبقون منهج الله، ويأخذون بالأسباب، ويثقون بما أعده الله للمجاهدين فى سبيله. قال تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾(محمد: ٧). وقال تعالى: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٩).

- كما أفرزت عددًا من القادة الشجعان الأبطال أصحاب المهارات المتنوعة، كمهارة وحنكة المفاوضات وهذا واضح فى الوفود التى أرسلها سعد ابن أبى وقاص إلى يزدجرد ورستم قبل المعركة مثل: النعمان بن مقرن ، والمغيرة ابن شعبة، وربعى بن عامر. وأيضًا المهارة العسكرية الفائقة مثل: القعقاع بن عمرو، وأبى محجن الثقفى، وعمرو بن معد يكرب، وغيرهم.

- أن القادسية كانت بمثابة بداية النهاية للإمبراطورية الفارسية وانهيارها على أيدى المسلمين. وصدق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين وصفها بأنها "بوابة فارس". فبعدها فتحت جلولاء والمدائن ونهاوند، وأمن المسلمون جانب الفرس.

- كما أوضحت بجلاء تضحية المسلمين بأنْفَس ما يملكون -فلذات الأكباد- فى سبيل عقيدتهم والدفاع عنها، كما فى الخنساء التى قدمت أبناءها الأربعة فى ساحة القادسية، ولما علمت باستشهادهم قالت: "الحمد لله الذى شرَّفنى بقتلهم، وأرجو الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته"(١٩).

أ.د / سيد عبد الفتاح بلاط

الهوامش:

(١) القادسية : قرب الكوفة ، بينهما خمسة عشر فرسخًا. وفى العذيب القريبة منها قصر يسمى "قُديس" فسميت به القادسية ونسبت إليه. (ابن عبد الحق: مراصد الاطلاع ١٠٥٤/٣- ١٠٥٥). وذكرها الطبرى، وابن الأثير، وابن كثير، فى حوادث (سنة ١٤هـ). والراجح أنها بداية (سنة ١٥هـ) .

(٢) الطبرى: ٤٧٨/٣- ٤٧٩ .

(٣) هو يزدجرد الثالث آخر أباطرة فارس فى التاريخ .

(٤) الطبرى: تاريخ ٥٠١/٣- ٥٠٥، ابن الأثير: الكامل، ٣٠٠/٢، ابن كثير، البداية: ٥١/٤ .

(٥) يقال رمث: أى اختلط. (ابن منظور: لسان لعرب ٣٨٤/١). ولعله من اختلاط بعضهم ببعض، أو لاختلاط الأمر على المسلمين فى هذا اليوم .

(٦) الكراديس: كتائب الخيل العظيمة، تجعل كتيبة كتيبة. (لسان العرب: ٣٨٥٠/٥) .

(٧) طليحة بن خويلد الأسدى، متنبئ، ثم عاد إلى الإسلام فى خلافة عمر ﷺ، وكان يُعد بألف فارس. استشهد فى نهاوند (سنة٢١هـ). ابن حجر: الإصابة: ٦٩٠/٣) .

(٨) الطبرى: تاريخ ٥٣٦/٣- ٥٤٠، وابن الأثير: الكامل ٣١٩/٢- ٣٢٠، ابن كثير: البداية ٥٨/٤ .

(٩) الغوث: الإعانة والنصرة (المعجم الوسيط ٦٨٩/٢). فسمى بذلك لمجئ الغوث بالجند من الشام –ستة آلاف- .

(١٠) القعقاع بن عمرو التميمى أحد فرسان العرب فى الجاهلية والإسلام. شهد الكثير من المواقع فى الشام والعراق، وحضر صفين مع علىّ ﷺ قال فيه أبو بكر ﷺ- : صوت القعقاع فى الحروب خير من ألف رجل. توفى (سنة٤٠هـ).الذهبى: تاريخ الإسلام ٥٨/٢ .

(١١) أبو محجن مالك أو عبد الله بن حبيب، أسلم مع ثقيف، وسمع من النبى ﷺ وروى عنه. وهو من الشجعان الأبطال فى الجاهلية والإسلام . كان شاعرًا مجيدًا. (ابن عبد البر: الإستيعاب ٦٨٨/٦- ٧٠٠ .) .

(١٢) البلاذرى : فتوح، ص٢٥٨، الطبرى: تاريخ ٥٤٢/٣- ٥٤٨، ابن الأثير: الكامل، ٣٢٢/٢- ٣٢٣.

(١٣) يقال: حرب عماس، أى شديدة. (لسان العرب ٤٣١٠٦). وكان هذا اليوم شديدًا على المسلمين والفرس .

(١٤) الطبرى: تاريخ ٥٥٦/٣- ٥٦٢ .

(١٥) هلال بن عُلَّفَة- وقيل علقة- التميمى. كان شجاعًا من الأبطال. (الزركلى: الأعلام، ٩١/٨) .

(١٦) الطبرى: تاريخ ٥٦٣/٣- ٥٦٥، ابن الأثير: الكامل، ٣٢٩/٢- ٣٣٠ .

(١٧) ابن كثير: البداية، ٦٢/٤ .

(١٨) الطبرى: تاريخ، ٥٧٩/٣ .

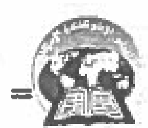
(١٩) ابن الأثير: أسد الغابة، ٣٤٢/٣ .

مصادر للاستزادة :

١. تاريخ الطبرى .

٢. الكامل فى التاريخ لابن الأثير .

٣. الاستيعاب فى الأصحاب لابن عبد البر.



قبة الصخرة (*)

تعد قبة الصخرة من أبدع وأروع العمائر الإسلامية عامة وفى بلاد الشام وفلسطين خاصة. وهى تقع فى منطقة الحرم القدسى الشريف وهى منطقة أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين ومسرى الرسول الكريم سيدنا محمد بن عبد الله ﷺ مصداقًا لقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ (الإسراء:١).

ويرجع الفضل فى عمارة هذه القبة للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٤- ٧٠٥م) وفرغ من عمارتها عام ٧٢هـ/ ٦٩١م.

وقد اختلفت الآراء حول الدوافع والأسباب التى حملت عبد الملك على عمارة هذه القبة؛ فها هو المؤرخ اليعقوبى يذكر أن عبد الملك أراد ببناء قبة الصخرة أن يحول الحج إليها بدلاً من مكة التى كان بها منافسه عبد الله بن الزبير وأنه (أى عبد الملك) قد رد على اعتراض الناس بالاستشهاد بالزهرى (ت ١٢٤هـ/ ٧٤١م) الذى روى حديث شد الرحال إلى المساجد الثلاثة: المسجد الحرام والمسجد النبوى والمسجد الأقصى[١].

وقد نقلت المصادر اللاحقة نفس الخبر كما هو الحال عند ابن البطريق وابن كثير وابن تغرى بردى ومجير الدين العليمى[٢]؛ أما المهلبى الجغرافى فهو وإن كان قد ردد نفس الخبر إلا أنه أخطأ ونسبه إلى الوليد بن عبد الملك[٣]. (أى الابن بدلاً من الأب).

هذا؛ وقد رفضت الدراسات الحديثة - أجنبية كانت أم عربية - هذه الرواية وفندتها كما هو الحال فى دراسة كل من جوايتاين وجرابار والدورى وأحمد فكرى وعثمان وغيرهم[٤]. أما المقدسى الجغرافى فقد أشار إلى أن الخليفة عبد الملك خشى أن تَعْظُمَ الكنائسُ المسيحية الفخمة بالقدس فى قلوب المسلمين وأن يبهرهم مظهرها ولذلك أمر بعمارة هذه القبة لمنافسة تلك الكنائس، ويضيف المقدسى فيذكر أن هذه القبة لم يُرَ فى الإسلام ولا سمع فى الشرق مثلها[٥].

هذا؛ وقد وصف الرحالة الفارسى

ناصر خسرو هذه القبة قرب منتصف القرن الخامس الهجرى /الحادى عشر الميلادى بقوله: " وقبة الصخرة بيت مثمن منظم، كل ضلع من أضلاعه الثمانية ثلاث وثلاثون ذراعًا وله أربعة أبواب على الجهات الأربع الأصلية ... وقد بنوا على جوانب الصخرة الأربعة أربع دعائم وبين كل دعامتين ثلاثة أعمدة . والقبة مرتكزة على هذه الدعامات والأعمدة الاثنى عشر المحيطة بالصخرة... وبين حائط هذا البناء والدعائم والأعمدة حول الصخرة ثمان دعائم أخرى فيما بين كل دعامتين يوجد عمودان..." [٦].

ومهما يكن من أمر فإن لهذه القبة أهمية دينية وتاريخية ومعمارية وفنية وهو ما سنشير إليه فى هذه العجالة.

الأهمية الدينية:

تتجلى الأهمية الدينية لقبة الصخرة فى ارتباطها بليلة الإسراء والمعراج، فإلى المسجد الأقصى أُسْرِىَ بالرسول (ﷺ) ومن فوق هذه الصخرة عرج به إلى السماوات العليا، وبذلك بلغ مبلغًا كبيرًا لم يصل إليه ملك مقرب ولا نبى كريم، وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ (النجم: ٨- ٩).

الأهمية التاريخية:

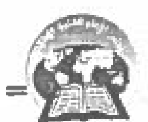
تعد هذه القبة أقدم مبنى أثرى إسلامى باق فى الحضارة الإسلامية؛ بالإضافة إلى ذلك يحتوى هذا المبنى على أقدم دليل لأول سرقة تاريخية وانتحال فى العصر الإسلامى، حيث قام النقاش فى عهد الخليفة العباسى المأمون (١٩٨- ٢١٨هـ/ ٨١٣- ٨٣٣م) بمحو اسم الخليفة الأموى عبد الملك بن مروان وإحلال اسم الخليفة المأمون محله، لكن فات على النقاش أن يغير التاريخ ليتناسب مع فترة حكم المأمون، وبالتالى فإن بقاء التاريخ الأصلى كما هو أضحى دليلاً ماديًا أو قرينة آثارية مهمة على هذه السرقة وذلك الانتحال[٧].

الأهمية المعمارية:

تتمثل هذه الأهمية فى روعة تخطيطها وحسن تصميمها وإبداع شكلها، بحيث اعتبرها كثير من المستشرقين والعلماء الأجانب أعظم بناء معمارى فى العصور الوسطى، فضلاً عن أنه نموذج لم يتكرر بعد ذلك ؛ مما جعل منه نموذجا فريدًا بل ونادرًا فى العمارة الإسلامية.

التصميم المعمارى:

يتكون التصميم العام لقبة الصخرة من مثمن خارجى مصمت؛ إذ لا يحوى



سوى أربعة أبواب محورية تواجه الجهات الأصلية الأربع، وتبلغ أبعاد الأبواب ٣,٤م ارتفاعًا و٢,٦م عرضًا، ولم تتغير مقاييس الأبواب منذ عهد عبد الملك. ويتقدم هذه الأبواب سقيفة محمولة على الأعمدة والدعامات بواقع ثمانية دعامات فيما بينها ستة عشر عمودًا، أى عمودان بين كل دعامتين. يلى ذلك دائرة وسطى مفرغة تتكون أيضًا من الدعامات والأعمدة، بواقع أربع دعامات فيما بينها أثنا عشر عمودًا، أى ثلاثة أعمدة بين كل دعامتين. وهذه الدائرة هى التى تحيط بالصخرة المقدسة، وهى التى أقيمت فوقها القبة. أما عن الصخرة نفسها فهى معلقة إذ إنها ترتفع عن أرض الهضبة من ثلاثة جوانب بواقع ١,٥م وهى مساحة غير منتظمة الشكل حيث تبلغ أبعادها ١٧,٥م / ١٣,٥م.

وقد ترتب على هذا التصميم. مثمن خارجى ثم آخرُ داخلى ثم دائرة وسطى. بالإضافة إلى ممرين داخليين أحدهما يحيط بمنطقة الصخرة والآخر مجاور له باتجاه الخارج، وكان المهندس بارعًا فى هذه التصميم حيث وضع الدعامات المحيطة بالصخرة بشكل ملفوف بعض الشيء حتى لا يحجب الرؤية عن الصخرة من أى اتجاه. وقد تم تغطية السقف بواسطة سطح مائل يستند أحد طرفيه على الدائرة الوسطى، وهو الطرف الأعلى، ويستند الطرف الآخر على المثمن الخارجى، وهو الطرف الأدنى، ومحمول فى الوسط على المثمن الداخلى.

القبة:

ذات قشرتين أو طبقتين، إحداهما داخلية والأخرى خارجية، وهى من الخشب المكسو بألواح الرصاص ومغطى برقائق الذهب. وتقوم هذه القبة على رقبة اسطوانية فتحت بها ست عشرة نافذة تستند بدورها على الدائرة الوسطى، ويبلغ قطر هذه القبة ٢٠,٤٤م(٨).

الأهمية الفنية:

تعد قبة الصخرة أقدم العمائر الإسلامية الباقية التى نقشت بالفسيفساء(٩) متنوعة المواد، لكن أشهرها الفسيفساء الزجاجية والذهبية والفضية.

هذا؛ ويوجد بالجزء العلوى من المثمن الداخلى شريط كتابى من الفسيفساء المذهبة على أرضية بيضاء طوله ٢٤٠م مكتوب بالخط الكوفى البسيط، ومضمون الكتابة آيات من القرآن الكريم تنتهى بنقش إنشاء/ بصيغة: « بنى هذه القبة عبد الله الإمام المأمون أمير المؤمنين فى سنة اثنتين وسبعين». وقد ناقشنا من قبل مسألة التغيير الذى

أدخل على النقش حيث اسم المأمون مكتوب بخط يختلف عن بقية النقش وكذلك سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م، لا تقع فى فترة حكم المأمون.

وبالنسبة لتصاوير قبة الصخرة فهى عبارة عن مناظر طبيعية بحتة على هيئة أشجار كاملة بأوراقها وثمارها كالنخيل والزيتون أو تشكيلات زخرفية نباتية متنوعة تمتزج بأوانى الزهور والقواقع وقرون الرخاء وأنواع الفواكه المختلفة كالعنب والرمان والبلح والتفاح والكمثرى ، فضلا عن تصاوير النجوم والأهلة والمجوهرات (كالأصداف والأحجار الكريمة) وأوراق الأكانتس (نبات شوكة اليهود) أو الأوراق الثلاثية الفصوص وغير ذلك، ويغلب على الألوان اللون الأخضر بدرجاته المختلفة والذهبى، وتوجد درجات من اللون الأبيض والأسود والبنفسجى والأحمر والفضى والرمادى الداكن [١٠].

وليس أدل على أهمية هذه الفسيفساء من الإشارة إلى ما ذكره العلامة اتنجهاوزن بقوله: « ليس هناك شك فى أن هذه الفسيفساء إنجاز فنى كبير وأن تأثيرها بالغ الأهمية أيضًا وكانت هذه النقوش أكثر من مجرد زخرفة، أما مهمة هذه الفسيفساء الأولى فكانت إشباع الرغبات الدينية والجمالية للخليفة، واستهواء العرب وغيرهم من المهتدين الجدد»؛ ثم يضيف فيقول: « ويبدو الغرض الأساسى من هذه الزخارف وكأنه ليس إبهار المشاهد فحسب بل هو أكثر من ذلك؛ إنه الإعلان عن انتصار آخر الأديان السماوية ومن المحتمل تبيان سيادته العالمية أيضًا»[١١].

وإذا كان البعض يرى فى زخارف قبة الصخرة أيضًا أنها ما هى إلا مجرد عناصر مجردة تمثل براءة الطبيعة ونقاء العقيدة وصفاء النفس وأنها لا تعكس بأية حالة إشارة أو رمزًا يدل على غير ذلك[١٢]، فإن هناك من يرى أن لهذه الزخارف صلة بالجنة وأنها تعكس دلالة رمزية وفق الجو العقائدى الذى كان سائدًا آنذاك وهو ما تؤكده العناصر الزخرفية المستخدمة؛ فأكثرها يمت بصله وثيقة إلى الفكر الإسلامى (كأشجار وثمار النخيل والزيتون والكرمة والرمان واللؤلؤ والجواهر) ولها معانيها الباطنة المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة[١٣].

أ. د / محمد حمزة الحداد

الهوامش:

(*) يصعب فى هذا المقام أن نقدم دراسة وصفية وتحليلية مفصلة ومطولة لقبة الصخرة فهذا يخرج عن إطار الخطة الموضوعة لهذا المصطلح، ولذلك حسبنا أن نركز على وصف موجز للقبة وبيان أهميتها الدينية والتاريخية والمعمارية والفنية، أما من أراد التوسع والزيادة فليرجع إلى العديد من الكتب والدراسات العربية وغير العربية ومن بينها: بدر، محمد عباس، **قبة الصخرة ضمن كتاب دراسات فى الآثار الإسلامية**، القاهرة ١٩٧٩م، ص ٨٢- ٨٥؛ بن نايف، وجدان على، **سلسلة التعريف بالفن الإسلامى (١) الأمويون والعباسيون والأندلسيون**، عمان (١٩٨٨م) ص ٢٧- ٣٢؛ الباشا، مدخل إلى الآثار الإسلامية، القاهرة، ط ٢ (١٩٩٠م)، ص١٠٧- ١٠٨؛ **التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى**، القاهرة، ص٢٤- ٣٠، ط ٢ (١٩٧٨م)؛ الريحاوى، عبد القادر، **العمارة فى الحضارة الإسلامية**، جدة (١٩٩٠م)، ص ٤٠- ٥٣؛ فان برشم، مارجريت، واورى، سولانج، **القدس الإسلامية فى أعمال ماكس فان برشم**، ترجمة عطا الله دهينة وآخرين، دمشق (١٩٩٤م)، ص٤١- ٦٩؛ يحيى، سوسن سليمان، **آثارنا الإسلامية**، **العمارة فى صدر الإسلام والعصر العباسى الأول**، القاهرة (١٩٩٧م)، ص٨٣ - ٨٥؛ كمال الدين، **العمارة فى صدر الإسلام**، القاهرة (٢٠٠٠م)، ص ١٧- ٢٦؛ كريزول، ك. أ. س. **الآثار الإسلامية الأولى**، ترجمة عبد الهادى عبلة، دمشق (١٩٨٤م)، ص ٣٣- ٦١؛ عبده، عبد الله كامل، الأمويون وآثارهم المعمارية، القاهرة (٢٠٠٢م)، ص ٥٤- ٥٩؛ حسنى محمد، **الآثار الإسلامية**، القاهرة، ط ٢ (٢٠٠٤م)، ص ٧٤- ٨٢؛ مرسى، إيناس يحيى أحمد، **فن العمارة العربية وأشهر معالمها**، الكويت (٢٠٠٠م)، ص ٩٣- ٩٨؛ فكرى، أحمد، قبة الصخرة، عالم الفكر، المجلد ١١، العدد ١، ابريل- يونيو (١٩٨٠م)، ص١٣- ٣٠؛ عثمان، **نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة**، **العصور**، المجلد ٣، جـ٢ (١٩٨٨م)، ص ٣٣٨- ٣٦٤؛ بركة، مفيدة محمد، **دراسة مقارنة فى تصميم وتخطيط قبة الصخرة**، ماجستير، هندسة القاهرة (٢٠٠٧م)، غير منشور، ص٣٦- ٨٠، ٢٠٣- ٢٣٩ (فضلا عن دراسات العلماء والرواد الأجانب ومن بينهم ماوس كريزول ومارجريت فان برشم، وريشموند وجرابار وريفويرا وهيلنبراند وكسلر وغيرهم).

(١) اليعقوبى، تاريخ جـ٢، ص ٣١١.

(٢) ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ٨، ص ٢٨٠؛ ابن كثير، البداية والنهاية، جـ١، ص ٢١٧؛ ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة، جـ١، ص ٢١٧؛ العليمى، مجير الدين، الأنس الحليل، جـ١، ص ٢٤٠- ٢٤١.

(٣) المهلبى، الحسن بن أحمد، المسالك والممالك، مجلة معهد المخطوطات العربية، السنة الرابعة، (١٩٨٥م) ص٥٤.

(٤) جوايتاين، دراسات فى تاريخ الإسلام والنظم الإسلامية الأولى، ضمن الأعمال الكاملة، العدد (١٠)،ص ١٥٧؛ أحمد فكرى، قبة الصخرة، ص ١٩- ٢١؛ محمد عبد الستار عثمان، دلالات سياسية ص ٦٤- ٧٤ .

Grabar,O, The Umayyad Dome of the Rock in Jerusalam, Ars Orientalis, Vol.3, (1959), -16. -PP.15

(٥) المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م، ص ١٥٩، ١٧٠.

(٦) ناصر خسرو علوى، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، ط٢، ١٩٩٣م ص ٧٨- ٨٠.

(٧) محمد حمزة الحداد، النقوش الآثارية، ص ١٠٨- ١٠٩.

(٨) انظر الدراسات الوصفية الكاملة عند كل من كريزول وكمال الدين سامح ومحمد عباس بدر وعبد القادر الريحاوى وأحمد فكرى ومحمد عبد الستار عثمان ومحمد حمزة الحداد وسوسن سليمان يحيى وغيرهم.

(٩) ويقصد بها الزخرفة عن طريق لصق عدد من القطع الصغيرة والفصوص ذات الألوان المختلفة بعضها إلى جانب بعض على طبقة من الجص أو الملاط بحيث تؤلف زخارف وصورًا، وقد تكون هذه القطع من الأحجار أو الرخام أو الصدف أو الزجاج أو الذهب أو الفضة، وقد تكون على هيئة مكعبات دقيقة وقد تكون غير منتظمة الشكل؛ الباشا، التصوير، ص ٢٧.

(١٠) الباشا، التصوير، ص ٢٤- ٣٠؛ فرغلى، التصوير، ص٤٧- ٤٩؛ عكاشة، التصوير الإسلامى الدينى والعربى، ص ٢٦٣- ٢٦٧، الجمعة، العناصر المعمارية والفنية لقبة الصخرة، ص ٢٤٤- ٢٥٧.

(١١) اتنجهاوزن، ريتشارد، فن التصوير عند العرب، ص ٢٠- ٢٢؛ بهنسى، الفن العربى الإسلامى فى بداية تكونه، بيروت، دمشق (١٩٨٣م)، ص٦٢.
(١٢) التل، صفوان، مبادئ الفن الإسلامى، ضمن أعمال الندوة الدولية المنعقدة باستانبول فى أبريل ١٩٨٣م، وموضوعها: « المبادئ والأشكال والمضامين المشتركة» دمشق (١٩٨٩م). ص ٦٥.
(١٣) ياسين، عبد الناصر، الرمزية الدينية فى الزخرفة الإسلامية، دراسة فى ميتافيزيقا الفن الإسلامى، مجلة كلية الآداب بسوهاج جامعة جنوب الوادى، العدد ٢٣، جـ٢، إصدار خاص: دراسات آثارية، أكتوبر (٢٠٠٠م)، ص ٣٠-٣٧.

مصادر ومراجع للاستزادة :

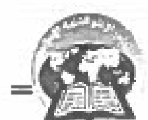
أولاً : المصادر :

١. ابن البطريق، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق.
٢. ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ١٦ جزء.
٣. العليمى، مجير الدين، الأنس الجليل فى تاريخ القدس والخليل.
٤. المقدسى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، ليدن، ١٩٠٦م.
٥. المهلبى، الحسن ابن أحمد، المسالك والممالك، مجلة معهد المخطوطات العربية السنة الرابعة، (١٩٥٨م).
٦. ناصر خسرو علوى، سفر نامة، ترجمة يحيى الخشاب، ط٢، القاهرة، ١٩٩٣م.

ثانيًا : المراجع :

١. أحمد فكرى، قبة الصخرة، عالم الفكر، المجلد ١١، العدد الأول، أبريل- مايو- يونيو ١٩٨٠م.
٢. جوايتاين. س. د. ، دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، ترجمة عطية القوصى، الكويت، ١٩٨٠م.
٣. خالد السلطانى، العمارة فى العصر الأموى، دمشق، ٢٠٠٦م.
٤. عارف العارف، المفصل فى تاريخ القدس، بيروت، ٢٠٠٥م.
٥. تاريخ القدس، ط٢، ١٩٩٤م، تاريخ قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى المبارك ولمحة عن تاريخ القدس، القدس ١٩٥٩م.
٦. عزت جرادات، محرر ومنسق، تاريخ القدس وحاضرها، بيروت، ٢٠٠٥م.
٧. كامل جميل العسلى، (محرر ومترجم)، القدس فى التاريخ ، عمان، الأردن، ١٩٩٢م.
٨- كريزول، ك. أ. س الآثار الإسلامية الأولى، ترجمة عبد الهادى عبلة، دمشق (١٩٨٤م).
٩. لى سترانج، فلسطين فى العهد الإسلامى، ترجمة محمود عمايرة، أربد، ١٩٧٠م.
١٠. مارجريت فان برشم وسولانج أورى؛ القدس الإسلامية فى أعمال ماكس فان برشم تعريب عطا الله دهينة وآخرون، مراجعة وتقديم شوقى شعث، دمشق ١٩٩٤م.
١١. محمد حمزة، المجمل فى الآثار والحضارة الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٦م.
١٢. العمارة والفنون فى الحضارة الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٩م.
١٣. محمد عبد الستار عثمان، نظرية جديدة لتفسير كيفية تخطيط قبة الصخرة، دار المريخ للنشر، المجلد ٣ جـ٢، يوليو ١٩٨٨م/ ذو القعدة ١٤٠٨م.
١٤. المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام، فلسطين، المجلد الأول للقدس، عمان، الأردن، ١٩٨٣م.
١٥. المؤتمر الدولى الرابع لتاريخ بلاد الشام، الندوة الثالثة، بلاد الشام فى العهد الأموى، تحرير محمد عدنان البخيت، عمان، ١٩٨٩م.

Grabar, O, The Umayyad Dome of the Rock in Jerusalam, Ars Orientalis, Vol.3, (1959).



القرامطة

القرامطة جماعة سياسية مذهبية من طوائف الإسماعيلية؛ الذين يعتقدون فى إمامة محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . ويعتبر الحسن بن بهرام المعروف بأبى سعيد الجنابى هو المؤسس الحقيقى لدولة القرامطة فى البحرين وما حولها، حيث قام مع أتباعه وأنصاره بالاستيلاء على عدّة قرى، ثم قصد مدينة هجر- عاصمة البحرين آنذاك- فحاصرها لمدة سنتين حتى استسلمت له، ثم سار إلى القطيف فأخضعها لسلطانه سنة ٢٧٦هـ/٨٨٩م، وظهرت منذ ذلك العام دولة القرامطة فى البحرين.

وقد استطاع أبو سعيد إقرار النظام فى دولته، وبنى عاصمة جديدة هى الأحساء، فأضحت دولة قوية، امتد نفوذها إلى مناطق واسعة من الجزيرة العربية الشرقية، حتى وصلت إلى الطائف وغيرها. وقامت بها حكومة وراثية بالاختيار فى بيت أبى سعيد، ولم يتمكن أتباع القرامطة فى غير هذه المنطقة من إقامة دولة، لا فى الشام ولا العراق ولا اليمن.

ولا شك أن التطورات التى أحدثها أبو سعيد قد أثارت الخلافة العباسية، وحاولت التصدى لدولة القرامطة؛ ولكن دون نتيجة، فقد تمكن القرامطة من هزيمة جيوش الخلافة، وأَسرِ القائد العباسى (العباس بن عمرو الغنوى). واضطرب أمر البصرة لعجز العباسيين عن التصدى للقرامطة، وقد ظل ذلك حتى مقتل أبى سعيد على يد خادمه الصُقلبى سنة ٣٠١هـ/٩١٣م.

أبو طاهر وجهوده:

تولى سعيد بن الحسن بن بهرام الحكم بعد أبيه، وهو ابنه الأكبر، " فعجز عن الأمر" - كما يقول ابن الأثير- " فغلبه أخوه الأصغر أبو طاهر سليمان، وكان شهمًا شجاعًا" . وقد قضى السنوات الأولى فى تنظيم شئون دولته، ثم أخذ يعدّ العدة لتوسيع نفوذه، فأيّد الفاطميين فى المغرب ضد العباسيين فى المشرق، وناوش العباسيين مرارًا ليشغلهم عن التوسع الفاطمى نحو مصر.

وقد هاجم البصرة أكثر من مرة، مما سبب لأهلها القلق والاضطراب، وفقدوا الكثير من أموالهم وممتلكاتهم. كما قام سنة ٣١٢هـ/٩٢٤م بقصد (الهبير) فى

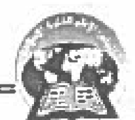
طريق مكة لاعتراض طريق الحجاج العراقيين فأزعجهم ونهبهم، وقد أثار ذلك الرأى العام فى بغداد، وتظاهروا ضد الوزير أبى الحسين بن الفرات، صاحب النفوذ.

وقد استغل أبو طاهر هذه الأحداث، وأرسل إلى الخليفة العباسى المقتدر بالله (٢٩٥- ٣١٩هـ/ ٩٠٧- ٩٣٢م)، يطلب منه تسليمه البصرة، ومساعدته فى حصول دولته على احتياجاتها، ولم يوافق الخليفة على ذلك. وأثار عرب بنى شيبان ضد القرامطة، وأرسل جيشًا للتصدى لأبى طاهر وقد هُزِم، ودخل أبو طاهر الكوفة ونهبها، وأحدث اضطرابًا فى أهل بغداد والعراق لمدة ثلاث سنوات، وعجزت الخلافة عن التصدى له، حتى لقد فكر أهل بغداد فى الهروب إلى حلوان وهمذان، فى الوقت الذى سيطر فيه القرامطة على الأنبار، وهددّوا بغداد نفسها، وزاد نشاط القرامطة فى جنوب العراق حيث فرضوا دينارًا على كل فرد، يُحْمَل إلى هجر، وأيدتهم بعض القبائل العربية فى العراق من بنى سليم وبنى عامر بن صعصعة.

وقد أظهرت الأحداث ضعف الخلافة العباسية عن التصدى لنفوذ القرامطة المتزايد، والذى زاد منه قصد أبى طاهر مكة أيام الحج من سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، حتى دخل مكة يوم التروية، وتم نهب أموال الحجاج، وقتل البعض فى المسجد الحرام، وتجرأ أبو طاهر فأمر بقلع الحجر الأسود، وأرسله إلى هجر، كما قلع باب البيت، وأخذ كسوة الكعبة فقسمها على أصحابه، ونهب دور أهل مكة، وأقام الخطبة لعبيد الله المهدى الفاطمى (٢٩٧- ٣٢٢هـ)، بدل المقتدر العباسى.

ومع شناعة هذه التصرفات التى عرضته للانتقاد اللاذع حتى من الخليفة الفاطمى الذى هدده، لم يُعِد الحجر الأسود إلى مكانه، رغم المطالب، وقد عرض الأمير بَجْكَم خمسين ألف دينار مقابل عودته، ودون فائدة، وظل ذلك عدة سنوات، واحتفظ به فى هجر، وامتنع عن اعتراض طريق الحجاج، كما كسيت الكعبة فى العام التالى، وهدأ الحال.

وهذا الهدوء شجع المسئولين فى الدولة العباسية على كسب ودّ أبى طاهر، فعرض عليه محمد بن رائق -أمير الأمراء- اعتراف الخلافة العباسية به، وأنه سيرسل إليه كل سنة طعامًا، ومالاً



قدره مائة وعشرون ألف دينار، فرفض أبو طاهر هذا العرض.

وبعد حكم دام ٣١ سنة، كانت من السنوات المهمة فى تاريخ دولة القرامطة، لظهور قوتها، واتساع نفوذها، وتهديد الخلافة العباسية، بعد هذا أصيب أبو طاهر بالجدرى الذى مات به سنة ٣٣٢هـ/٩٤٤م.

الحسن الأعصم وتغيّرات التوجه:

انشغل القرامطة بأمورهم الداخلية بعد موت أبى طاهر، حتى تغلب أحمد بن الحسن على مقاليد الأمور بمباركة فاطمية، وكانت سياسته أخف حدّة من سابقه، فقد أعاد الحجر الأسود سنة ٣٣٩هـ/٩٥١م، ولكنهم تعرضوا لقوافل الحجاج ربما لأزمتهم الاقتصادية، وظروف منطقتهم. وقد ظل أحمد حتى سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م، ثم تولى الحسن ابنه المعروف بالحسن الأعصم - أو الأغنم- الذى طالت مدته، وعظمت وقائعه، ووصلت الدولة فى أيامه إلى أقصى مداها، وتغيرت علاقاته من عداء العباسيين إلى عداء الفاطميين، حتى إنه هدد وجودهم فى مصر أكثر من مرة، ووضع الحسن يده على بلاد الشام مدة، وكانت الحرب بين القرامطة والفاطميين فى مصر والشام شمالاً، وقد تمكن القرامطة من هزيمة الجيوش الفاطمية أكثر من مرة، وفى إحدى مغامراتهم انبثت سراياهم فى الوجه البحرى حتى وصلوا المحلة، وفى الوجه القبلى حتى وصلوا قوص. ومع ذلك فقد تمّ الحسم لصالح الفاطميين بعد جهود كبيرة، فحموا مصر، واستردوا دمشق والشام، فاضطر الحسن الأعصم لترك دمشق للجيوش الفاطمية التى يقودها العزيز بالله (٣٦٥- ٣٨٦هـ)، وجوهر الصقلى، فقصد طبرية، رافضًا عشرين ألف دينار من الخليفة الفاطمى كل عام، وعاد إلى الأحساء حتى كانت نهايته ٣٦٦هـ/٩٧٦م. وإذا كان قد فشل فى البقاء ببلاد الشام ومصر، فقد كان له نفوذ فى عمان وجنوب العراق.

نهاية القرامطة:

كان الحسن الأعصم آخر شخصية قوية طموحة فى دولة القرامطة، فقد تولى الحكم ستة نفر شركة، سمّوا بالسادة، وكانوا متفقين فى الغالب، وهم وإن لم يكن لهم نفوذ وتأثير كبير فى الخارج؛ كما كان زمن الحسن الأعصم فإن غاراتهم لم تنقطع على الكوفة والبصرة للحصول على المؤنة.

وازدياد النشاط الفاطمى والعباسى ضدهم كان له أثره على الوضع الداخلى، حيث ثارت ضد القرامطة أكثر من قوة مثل: بنى الزجاج من عرب عبد القيس فى أوال، بقيادة أبى بهلول الزجاجى. وكذلك العيونيون من بطون ربيعة بن نزار، كما كان للأصغر من بنى المنتفق. واستطاع هؤلاء تقويض الكيان السياسى لدولة القرامطة، وإن بقوا كرعايا فى إمارات وحكومات أخرى.

سقطت دولة القرامطة التى ضمت فى يوم ما عُمَان والإمارات العربية وقطر والكويت والبحرين وجزءًا من شرق المملكة العربية السعودية وجنوب العراق.

جوانب حضارية لدولة القرامطة:

كان لدولة القرامطة بصمة حضارية؛ فقد كان لها نظام سياسى واجتماعى واقتصادى وعسكرى. فكان لها مجلس شورى يدرس أحوال الدولة بعامة، ويتخذ فيها القرارات المناسبة، ويسمى مجلس العقدانية. ويتكون من أبرز الشخصيات فى النواحى المختلفة يختارهم الشعب ويتميزون بالتنظيم وحسن الإدارة. مما أدى إلى قوة الدولة. وقد عرفوا نظام الطبقات لتقسيم الأعمال والمهام، والهدف خدمة الجميع؛ فالحكام لهم السيطرة والنفوذ السياسى والإدارى، وطبقة العرب تمثل العنصر العسكرى غالبًا، وطبقة العمال والفلاحين.

وكان للمرأة نفوذ وتأثير ومشاركة فى الدعوة والدولة، فلها رسالة ولها عمل، فلم تنفصل عن المجتمع أو تنعزل، فلها حقوق عائلية ومجتمعية، وقد تحدد الزواج بواحدة، وعمدت الدولة إلى بناء المساكن للخاطبين، وجعلت المهر رمزيًا، وجعلت للمرأة حرية الاختيار، وحرية الطلاق وغيره.

فى المجال الاقتصادى لم يلغوا الملكية الخاصة تمامًا، وإنما اهتموا بها، وساعدوا على العمل فى الزراعة، وقاموا بإصلاح الأراضى القابلة للزراعة، وما تخرجه الأرض فهو للجميع حسب الاحتياجات، فالناتج للدولة توزعه على الرعية. وفى كل قرية أو بلد أمينٌ تُجْمَعُ عنده غلات القرية ليقوم بتوزيعها تحت إشراف مجلس العقدانية، ولذلك لم يوجد فقير أو محتاج فى دولتهم، فالكل يعمل والناتج يوزّع على الجميع، وكان ذلك وسيلة لمحاربة الفقر ومنع التميّز بين الفئات.



واهتمت الدولة بالصناعات التى تحتاج إليها فى السلم والحرب. أما النظام العسكرى فقد نال عنايتهم، وأدى إلى ظهور جيش قوى، أحرز الكثير من الانتصارات، وذلك أنهم كانوا يختارون الأطفال الأشدَّاء، ويجمعونهم فى دور خاصة ويدربونهم على حسب سنهم فى النواحى العسكرية، فكان التدريب والإخلاص والولاء وحسن التدبير سمات فيهم، وتغدق الدولة على القادة والمتميزين، فكان الولاء التام للدولة والحاكم.

أ.د/عبد الرازق الطنطاوى القرموط

مصادر ومراجع للاستزادة:

- الكامل فى التاريخ. لابن الأثير الجزرى.
- البداية والنهاية: لابن كثير.
- العبر فى تاريخ العرب والعجم والبربر لابن خلدون.
- أخبار القرامطة. سهيل زكار.
- تاريخ العصر العباسى. أمنية بيكار.
- القرامطة بين المدّ والجزر. مصطفى غالب.
- من سواد الكوفة إلى البحرين. مىّ محمد الخليفة.

القسطنطينية (فتح)

مدخل:

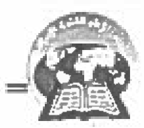
قبل الحديث عن الفتح العثمانى للقسطنطينية يجب أن ندرك أن التحرر الفكرى مرتبة لا يصل إليها الا من انعم الله علية بسعة الأفق ورجاحة العقل وصفاء الذهن ووهبهم المقدرة على تحليل الأمور بعيدا عن العواطف والرواسب والأهواء والخلفيات .. فإذا ما تبين لهم الخطأ من الصواب كانت لديهم الشجاعة الكافية للمجاهرة بما يرونه صوابا والدفاع عنه ولو خالف آراءهم السابقة ، فالثبات على المبدأ ليس دائما بفضيلة ، كما يعتقد بعض البسطاء ، وإلا لكان أبو جهل أفضل من أبى بكر، لان الأول ثبت على المبادئ التى ورثها عن أجداده ، بينما ترك الثانى تلك المبادئ ليعتنق الدين الجديد عندما تبين لة وجه الحق .

والتحرر الفكرى يتطلب منا دراسة تاريخنا كله دراسة موضوعية ، وتجريده من دسائس المغرضين وعواطف المتحمسين ثم تحليله تحليلا علميا . وبذلك نستطيع استنتاج عوامل النهضة وأسباب الانحطاط ، فنتمكن من بناء مستقبل أفضل بالاستفادة من أخطاء الماضى.

كانت هذة مقدمة منهجية لابد منها لكى ندرك إن التاريخ ليس هو الكيان الصلب الذى لا ينكسر ولكنة الكيان اللين القابل للتغيير بناء على ما يَجِدُّ من معطيات ، ولقد كان الفتح العثمانى للقسطنطينية من أكثر الموضوعات التى اهتم بها الباحثون المسلمون والغربيون على السواء لما كان لهذا الحدث من نتائج هزت الشرق والغرب على السواء . وسنحاول من خلال السطور القادمة إلقاء الضوء على الفتح العثمانى للقسطنطينية وذلك من خلال العديد من العناصر .

ظهور قوة العثمانيين

ينتمى العثمانيون الى العنصر التركى الذى كان يعيش فى وسط آسيا قبل أربعة آلاف سنة ، ويستدل عالم الدراسات التركية المجرى نيميث ١٩٤٠ من ادلة لغوية على ان الوطن الأم للأتراك هو فى الغرب شمال بحيرة ارال متراميا إلى الالطاى فى الشرق والى جبال الاورال فى الشمال والغرب .



وأول ما نسمعة عنهم هو أنهم أقاموا لأنفسهم فى القرن السادس الميلادى دولة امتدت من حدود الصين شرقا الى حدود الدولتين الفارسية والبيزنطية غربيا .

وفى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى ظهرت على مسرح الأحداث السياسية قوة الأتراك السلاجقة. وكانت الدولة البيزنطية هى الضحية الأولى التى وقعت فى طريقهم . على أن دولة السلاجقة سرعان ما أخذت تسير فى طريق التداعى والانهيار بعد وفاة السلطان ملكشاة سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م .

وكان أرطغرل (٦٢٩- ٦٨٠هـ) (١٢٣١- ١٢٨١م) أبو عثمان الذى نسبت إلية الدولة العثمانية يقود قوة صغيرة ساعدت علاء الدين سلطان سلاجقة الروم فى حروبه مما جعل الأخير يمنح العثمانيين هبة سخية من الأراضى فى آسيا الصغرى فى المنطقة الواقعة على الحدود البيزنطية.

ولما توفى أرطغرل انتقلت زعامة العثمانيين إلى أكبر أبنائه عثمان [1] الذى بدأ فى توسيع حدود دولته بالتدريج على حساب البيزنطيين مستغلا الفوضى التى سيطرت على الأراضى البيزنطية بالأناضول .

واخذ العثمانيون يتوسعون فى سرعة تسترعى الانتباه ، فاستولوا سنة٧٢٧هـ / ١٣٢٦م على بروسة واتخذوها عاصمة لدولتهم ، ودفن بها مؤسس الدولة التى نسبت إليه .

ثم تولى حكم العثمانيين العديد من السلاطين الذين نجحوا فى تحقيق العديد من الانتصارات المدوية التى نقلت العثمانيين من إمارة صغيرة إلى إمبراطورية مترامية الأطراف فى عهد السلطان محمد الفاتح .

الدولة العثمانية فى عهد محمد الفاتح

يعتبر السلطان محمد الفاتح (٤٣١هـ- ١٤٨١م) هو السلطان السابع فى سلسلة سلاطين آل عثمان ، حكم ما يقرب من ثلاثين عاما كانت خيرا وعزة للمسلمين .

وتولى الحكم وعمرة ٢٢ سنة وامتاز بشخصيته الفذة التى جمعت بين القوة والعدل، كما سار على نفس سياسة أجداده فى الفتوحات .

ولقد برز بعد توليه السلطة فى الدولة العثمانية بقيامة بإعادة تنظيم إدارات الدولة المختلفة ، واهتم كثيرا بالأمور المالية فعمل على تحديد موارد الدولة

وطرق الصرف منها بشكل يمنع الإسراف والبذخ أو الترف . وكذلك ركز على تطوير كتائب الجيش وأعاد تنظيمها ، ولم يكتف السلطان محمد الفاتح بذلك بل إنه عمل على ان يتوج انتصاراته بفتح القسطنطينية .

تحتل مدينة القسطنطينية [٢] موقعا فريدا بين مدن العالم ، وتتميز بأهمية جغرافية واستراتيجية . فمن الناحية الجغرافية تقع تلك المدينة عند التقاء القارتين الآسيوية والأوروبية ، إذ يحدُّها البسفور من جهة الشرق ، والقرن الذهبى من جهة الشمال ، وبحر مرمرة فى الجنوب ، ولا يمكن الوصول إليها برا إلا من جهة واحدة .

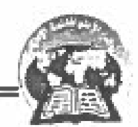
أما من الناحية الاستراتيجية فأرضها تشكل مثلثا تحمى المياه ضلعيه ، أما الضلع الثالث فقد حمتة الأسوار المنيعة التى أقامها الحكام . يضاف الى ذلك ان القسطنطينية صارت أهم مراكز التجارة العالمية؛ فقد سيطرت سيطرة تامة على كل تجارة البحر الأسود .

وقد أدرك الغزاة والفاتحون منذ وقت بعيد أهمية هذه المدينة وخطورة موقعها فحاولوا الاستيلاء عليها وحاصروها مرات كثيرة ، غير ان هذه المدينة استطاعت بمناعة موقعها وقوة حصونها وأسوارها ان تصد عن نفسها أعظم الغزاة والفاتحين .

وكان للمسلمين نصيب كبير من هذه المحاولات . وأولى محاولاتهم كانت فى خلافة معاوية بن ابى سفيان عندما وجه ابنه يزيد إلى القسطنطينية فى القرن الأول الهجرى/السابع الميلادى على رأس حملة ضخمة كان نصيبها الفشل والإخفاق وكان من شهدائها أبو أيوب الأنصارى [٣] .

ثم كان من أعظم المحاولات التى قام بها المسلمون لفتح القسطنطينية ما حدث فى عهد الخليفة الأموى سليمان ابن عبد الملك سنة ٩٨هـ/ ٧١٧م وكانت بقيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك ، وبالرغم من ضخامة هذة الحملة وقوة عدتها فى البر والبحر وما أظهره المسلمون من البسالة فى الحصار والقتال فقد ردتهم القسطنطينية بأسوارها المنيعة ونيرانها الإغريقية الفتاكة .

وفى تراث العثمانيين كانت القسطنطينية تدعى أحيانا كيزيل إلما " kizil Elma " اى التفاحة الحمراء؛ بمعنى أنها الحلم الذى يتوق المسلمون إلى الوصول إليه [٤] .



حاول العثمانيون مرارا الاستيلاء على المدينة للأسباب التالية :-

لأنهم كانوا يشعرون بأنها العاصمة الطبيعية لامبراطوريتهم ، إذ إن بقاءها فى أيدى غيرهم من شأنه أن يهدد المواصلات التى تربط أملاكها الأوروبية والآسيوية. كما أن الاستيلاء عليها كفيل بتشديد قبضتهم على الأراضى التى يحكمونها ويُزيل المهابة والعظمة اللتين كانتا لا تزالان تكمنان حول تلك الأسوار التى أحاطت بقاعدة الإمبراطورية الرومانية الشرقية [٥] حوالى أحد عشر قرنا .

كما كانت الظروف مهيَّأة تماما لفتح القسطنطينية ، فقد صارت حطاما وظلا واهيا ، وكما قال عنها المؤرخ ديل diehl: القسطنطينية جسم مريض وضعيف وبائس برأس ضخمة ، وتحيط بها دول إما مستقلة او عدائية ، حتى أطلق علي الإمبراطورية البيزنطية " رجل العصور الوسطى المريض " [٦]

كما أن فتح القسطنطينية يؤدى إلى اتصال أراضى الدولة العثمانية فلا يتخللها عدو مهاجم أو صديق منافق .

فتح القسطنطينية

بمجرد اعتلاء السلطان محمد الثانى للعرش العثمانى بدأ فى العمل لتحقيق الإنجاز الذى كان أبوه وأجداده على وشك تحقيقه أكثر من مرة وهو فتح القسطنطينية ، فاستهل عَهْدَهُ باتفاقية سلام مع الامبراطور قسطنطين الحادى عشر تعهد له فيها بعدم الاعتداء على المدينة ، كما عقد اتفاقيات بنفس المعنى مع سفراء بلغاريا والمجر والصرب والبندقية وراجوزة .

بعد ان استتب الأمر للسلطان محمد الثانى أخذ يتحين الفرصة لإعلان الحرب على بيزنطة وإحكام الحصار حول القسطنطينية . وانتهز وصول سفارة من قبل الإمبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر تلح على زيادة ما يقوم بدفعه من نفقات مقابل إعاشة الأمير أورخان بن سليمان ، فاستثار ذلك غضب السلطان العثمانى وتبعه بإعلان الحرب رسميا على الإمبراطورية البيزنطية .

بدأ محمد الفاتح استعداداته العسكرية بتشييد قلعة روملى على الضفة الغربية للبوسفور وعلى مسافة ستة أميال من القسطنطينية باتجاه البحر الأسود ، وهى القلعة التى ذكرت المصادر البيزنطية المعاصرة أنه يمكن تسميتها " بقاطعة الرقبة "، بسبب

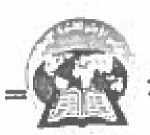
وجودها فى موضع مقابل للقلعة العثمانية الموجودة على الضفة الشرقية للبوسفور والمعروفة باسم " أناضولو حصار " الأمر الذى مكن محمد الفاتح من فرض سيطرته على البسفور وعلى كافة السفن المتجهة من وإلى البحر الأسود وفرض الضرائب عليها .

وأدرك الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر مرامى السلطان العثمانى فقام بشكل يومى بإرسال السفارات والهدايا لمحمد الفاتح من أجل إثنائه عن استكمال بناء هذه القلعة التى أدرك الإمبراطور مدى أهميتها الاستراتيجية لدى حصار محمد الفاتح للقسطنطينية ، لكن السلطان العثمانى رفض محاولات الإمبراطور البيزنطى ، بل إنه تمادى فى إعلان عدائه لبيزنطة بعد ما تم الانتهاء من تشييد قلعة الروملى حيث أمر باستبقاء سفيرين للإمبراطور البيزنطى ، وأمر بضرب عنقيهما إيذانا ببداية الحرب.

وهنا أرسل قسطنطين الحادى عشر إلى البابا نيقولا الخامس يطلب مساعدته وحث الدول الأوروبية المسيحية على إنقاذ العاصمة البيزنطية ،لكن البابوية كان لها رأى آخر إذ كانت تبحث عن مصالحها أولا ؛ فبدلا من أن يأمر البابا بإرسال مساعدة عسكرية عاجلة أرسل الكاردينال ايزيدور للقسطنطينية من أجل إتمام عملية الاتحاد الكنسى قبل التفكير فى إنقاذ المدينة . وبالفعل تم إعلان الاتحاد الكنسى فى ديسمبر عام ٨٥٧هـ/١٤٥٢م .

كما ناشد الإمبراطور البيزنطى أوروبا المسيحية لمساعدته فلم تصله سوى إمدادت بسيطة من مدينتى جنوا والبندقية. وكانت المساعدة الحقيقية التى تلقتها بيزنطة هى وصول جيوفانى جستيانى القائد العسكرى الجنوى الشهير إلى المدينة فى يناير٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م على متن سفينتين كبيرتين وبرفقته ٧٠٠ مقاتل وأصبح هو المسئول عن الدفاع عن القسطنطينية .

بذل السلطان محمد الثانى جهوده المتعددة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية وبذل لذلك جهودا كبيرة فى تقوية الجيش العثمانى بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد ، وهذا عدد كبير مقارنة بجيوش الدول فى تلك الفترة ، كما عنى عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة



التى تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعدادا معنويا وغرس روح الجهاد فيهم وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذى يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير. كما كان لانتشار العلماء بين الجنود أثر كبير فى تقوية عزائم الجنود وربطهم بالجهاد الحقيقى وفق أوامر الله.

ويضاف إلى هذا الاستعداد ما بذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثمانى حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلا للقيام بدوره فى الهجوم على المدينة التى لا يمكن حصارها دون وجود قوات بحرية تقوم بهذه المهمة. وقد ذُكِر أن السفن التى أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة.

الهجوم الكاسح على القسطنطينية:

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية من ثلاث جهات: مضيق البسفور، وبحر مرمرة ، والقرن الذهبى الذى كان محميا بسلسلة ضخمة جدا تتحكم فى دخول السفن إليه ، بالإضافة إلى ذلك فإن خطين من الأسوار كانا يحيطان بها من الناحية البرية من شاطىء بحر مرمرة إلى القرن الذهبى يتخللهما نهر ليكوس وكان بين السُّوَرَيْن فضاء يبلغ عرضة ٦٠ قدما ويرتفع السور الداخلى منها ٤٠ قدما وعليه أبراج يصل ارتفاعها الى ٦٠ قدما ، وأما السور الخارجى فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدما وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند ، وبالتالى فان المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصينا لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلى التحصينات الطبيعية .

وقد عمل السلطان محمد الفاتح على تمهيد الطريق بين أدرنه والقسطنطينية لكى تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خِلاَلَهُ إلى القسطنطينية ، كما وصل الجيش العثمانى إلى مشارف القسطنطينية فى يوم الخميس ٢٦ ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ أبريل ١٤٥٣م ، وفى اليوم التالى قام السلطان بتوزيع جيشه البرى أمام الأسوار الخارجية للمدينة مُشَكِّلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إِحكام الحصار البرى حول مختلف الجهات ، كما أقام الفاتح جيوشا احتياطية خلف الجيوش الرئيسية

وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار ومن أهمها المدفع السلطانى العملاق ، كما وضع فرقا للمراقبة فى مختلف المواقع المرتفعة والقريبة من المدينة ، وفى نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية فى المياه المحيطة بالمدينة إلا أنها لم تستطع الوصول إلى القرن الذهبى بسبب وجود السلسلة الضخمة التى منعت أى سفينة من دخوله بل وكانت تدمّر كل سفينة تحاول الدنو والاقتراب .

والحقيقة ان المدفعية العثمانية قد لعبت دورا ضخما فى دك أسوار مدينة القسطنطينية . وإذا كانت أساليب الحرب قد عرفت استخدام المدفعية قبل ذلك بعدة عقود من الزمان فإنه يمكن القول بأن العثمانيين قد أحدثوا نقلة نوعية فى حجم وأنواع المدافع المستخدمة فى الحرب ومدى قذائفها ، وكمية الدمار التى تسببت فيها .

وراحت مدافع العثمانيين تدك أسوار المدينة ، وترتب على قوة تأثير المدفعية العثمانية نتيجتان فى غاية الأهمية : الأولى ذات تأثير نفسى إذ تسبب صوت المدافع فى إحداث حالة من الرعب والهلع والذعر لدى السكان البيزنطيين اذ لم يسمعوا بمثل تلك الأصوات الهائلة من قبل؛

والثانية ذات تأثير واضح على الأسوار ، إذ دكت قذائف المدافع العثمانية الأسوار البرية للقسطنطينية بشكل مؤثر للغاية مما ترتب عليه تهدم مساحة كبيرة من السور الخارجى وسقوط بعض الأبراج الموجودة به .

بدأ جيوفانى جستينيانى والمدافعون عن المدينة فى إيجاد حل سريع لحالة تهدم جدران الأسوار الخارجية وذلك عن طريق سرعة ترميمها وسد الثغرات التى أحدثتها القذائف العثمانية بها وإقامة سياج من الأوتاد ووضع العديد من الأوانى الخشبية المليئة بالرمال فوقها من أجل صد القذائف الجديدة .

فضلا عن ذلك قام جستينيانى ورفاقه بجمع كافة الشجيرات القصيرة من داخل مدينة القسطنطينية ووضعها مكان الثغرات الموجودة فى الأسوار ، كما أقاموا خندقا ثانيا من اجل حمايتهم إذا ما تهدم السور الخارجى تحت وطأة القذائف العثمانية .

وعلى الرغم من الجهود العثمانية المستميتة فقد نجح المدافعون البيزنطيون فى الدفاع عن مدينتهم ورد العثمانيين على أعقابهم بعد أن قاموا بتكبيدهم خسائر فادحة . ودفع هذا النصر

البيزنطيين وحلفاءهم من الجنوية والبنادقة إلى الاهتمام بإصلاح الأسوار والى التوجه بالشكر والدعاء للرب فى كنيسة آيا صوفيا .

وهنا سعى محمد الفاتح الى اقتحام خليج القرن الذهبى وأصدر أوامره إلى قائد الأسطول العثمانى بلطة أوغلو باقتحام السلسلة الموجودة فى مدخل القرن الذهبى ومهاجمة السفن البيزنطية التى اتخذت أماكنها أمام السلسلة وخلفها حيث مدخل الخليج .

ودارت معركة بحرية عنيفة بين السفن العثمانية والسفن البيزنطية تمكنت الأخيرة خلالها من تحقيق النصر ومنع السفن العثمانية من اجتياز السلسلة .

كما تسببت البحرية العثمانية فى فشل جديد أثار حنق محمد الفاتح بعد أن فشلت بعد ذلك بعدة أيام فى منع أربع سفن أوروبية كبرى تحمل المؤن والإمدادات من دخول القرن الذهبى والوصول إلى القسطنطينية وهو الأمر الذى أدى بالفاتح إلى إقصاء وزير البحر العثمانى .

وهنا تفتق ذهن السلطان العثمانى محمد الفاتح عن فكرة عبقرية استطاع بها فى النهاية إنزال سفن الأسطول العثمانى إلى مياه القرن الذهبى ، وذلك بعد أن قام العثمانيون بنقل العشرات من سفنهم من مياه البسفور وعبر الطريق البرى والتلال إلى أن تم إنزالها فى نهاية خليج القرن الذهبى ليلة الثانى والعشرين من أبريل عام٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م .

وهكذا نجح العثمانيون فى إنزال نحو ٧٢ سفينة إلى مياه خليج القرن الذهبى بعد رحلة برية بلغ طولها ثلاثة أميال كاملة .

كان وقع هذا الإنجاز العسكرى العثمانى على البيزنطيين مُرَوِّعاً إذ استيقظوا ذات صباح ليجدوا السفن العثمانية فى نهاية خليج القرن الذهبى على حين كانت السفن البيزنطية والبندقية مازالت مرابطة أمام وخلف السلسلة ، وهو ما دعاهم إلى ضرورة نقل العديد من القوات المرابطة على الأسوار البرية للقسطنطينية من أجل الدفاع عن الأسوار البحرية، وهو ما عرض القوات المدافعة عن الأسوار البرية إلى ضغط شديد نتيجة للنقص الذى حدث فى إعدادها بالمقارنة مع طول الأسوار .

ويبدو ان الوضع العسكرى البيزنطى الحرج قد دفع الإمبراطور

قسطنطين الحادى عشر إلى إرسال سفارة للسلطان محمد الفاتح تطلب منة التراجع عن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية مقابل دفع جزية سنوية كبيرة، وكان رد السلطان الفاتح قاطعا وحاسما بأنه لن يرجع عن هدفه بفتح القسطنطينية وأنه يهب نفسه من أجل هذا الأمر .

وهنا قرر الإمبراطور القيام بهجوم مباغت فى نهاية شهر أبريل لإحراق السفن العثمانية، وبالفعل بدأت سفن البنادقة بالاقتراب منها لكن السفن العثمانية فاجأتها بإطلاق القذائف عليها فضلا عن مساعدة المدافع العثمانية لها مما أدى إلى فشل الهجوم وغرق العديد من السفن البيزنطية .

وهنا جاء الدور فى الهجوم على العثمانيين حيث قامت القوات البرية العثمانية بمحاولة اقتحام القسطنطينية بعد مرور أسبوع من شهر مايو لكن المدافعين البيزنطيين عن الأسوار تمكنوا من صد الهجوم التركى .

كما تمكن البيزنطيون من صد هجوم عثمانى برى جديد بعد ذلك بخمسة أيام ، ورغم ذلك فقد أدرك البيزنطيون حرج موقفهم وشعروا بدنو يوم سقوط مدينتهم فى قبضة الأتراك بعد تقاعس البابوية والغرب الأوروبى عن مد يد العون والمساعدة للمدينة البائسة، وكان ذلك بسبب محدودية عدد قواتهم بالمقارنة مع القوات العثمانية التى بدت مصممة أكثر من أى وقت مضى على اقتحام ودخول القسطنطينية .

وهنا قرر العثمانيون استخدام أساليب جديدة لاقتحام المدينة؛ من ذلك حفرهم للعديد من الأنفاق تحت أسوار المدينة من أجل التسلل خلسة ومفاجأة القوات البيزنطية ومن ثم اعتلاء الأسوار من الداخل .

وخوفا من انقلاب موازين القوى العسكرية بين الطرفين نتيجة ما سوف يقدمة الأسطول الأوروبى القادم لمساعدة القسطنطينية ، قرر السلطان العثمانى ضرورة الإسراع فى عملية اقتحام القسطنطينية، وعقد مجلسا حربيا شرح فيه لقادة جيشه حالة الضعف التى تمر بها الدفاعات البيزنطية وذكّرهم بالمجد الذى ينتظرهم عندما يفتحون القسطنطينية، ولم ينس أن يذكرهم بأنه سوف يكون فى مقدمة موجات الهجوم الكبير .

وقرر السلطان الفاتح أن يكون هجومه النهائى على القسطنطينية ليلة

التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م/ ٨٥٧هـ كما قرر أن يترك المدينة بعد فتحها تحت رحمة جنوده لمدة ثلاثة أيام .

وبالفعل أمطرت المدافع العثمانية أسوار المدينة وبواباتها بآلاف القذائف، وكذا فعلت السفن العثمانية التى هاجمت الأسوار البحرية على القرن الذهبى ، وهاجم المشاة العثمانيون المؤلفون من صفوة جنود الانكشارية والعريان أسوار القسطنطينية عبر استخدامهم لمئات السلالم التى صنعت من الحبال والأخشاب، وقد تمكنوا فى النهاية من الصعود إلى أعلى الأسوار ومهاجمة القوات البيزنطية المدافعة .

على أن الأمر الذى زاد أحوال المدافعين عن القسطنطينية سوءا ، إصابه القائد الجنوى جيوفانى جستيانى بجرح خطير تحت ذراعة وهو ما أدى إلى انسحاب المسئول العسكرى الأول عن الدفاع عن المدينة إلى سفينته بحثا عن العلاج . وجاء خبر انسحاب جستيانى ليوهن من عزيمة البيزنطيين لتضيق الدائرة عليهم ويدركوا أن سقوط القسطنطينية تحت سنابك خيل العثمانيين ليس إلا مسألة وقت .

وتصدى الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر لمحاولات العثمانيين اقتحام بوابة القديس رومانوس، لكن عنف هجمات العثمانيين دفع بالجنود البيزنطيين نحو الداخل حيث الإمبراطور الذى سقط صريعا تحت ضغط الجنود وتحت الضربات المتلاحقة لجنود الانكشارية العثمانيين . وهكذا نجح العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح فى فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأول ٨٥٧هـ / ٢٩ مايو ١٤٥٣م.

وهنا ركب السلطان محمد الفاتح صهوة جواده الأبيض وتوجه إلى كنيسة آيا صوفيا وطاف بأرجائها وأمر بتحويلها إلى مسجد ، وطلب من أحد العلماء أن يؤذن للصلاة ، ثم صلى السلطان لله الذى اختصه بتحقيق نبوءة الرسول القائلة إن القسطنطينية ستصبح يوما مدينة إسلامية .

وكان سقوط القسطنطينية حدثا جَلَلاً اهتزت لة أوروبا المسيحية من أقصاها إلى أقصاها ، أما فى الشرق الإسلامى فقد كان الفتح العظيم على عكس ذلك إذ عم الفرح والابتهاج بين المسلمين ، وما أن وصل رسل السلطان

محمد الفاتح إلى مصر والحجاز وفارس يحملون نبأ هذا الفتح حتى هلل المسلمون وكبروا وأذيعت البشائر من منابر المساجد وأقيمت صلوات الشكر .

والواقع أن الانتصار الذى حققه العثمانيون ضد الإمبراطورية البيزنطية يعتبر علامة بارزة فى نهاية إمبراطورية وبداية أخرى؛ فقد تَـوَّج محمد الفاتح إنجازات أسلافه ، وما أنجزه كما يقول المؤرخ وتيك wittick كان عملا إمبراطوريا تحدى به الفاتح كل الغرب الأوروبى وأثبت أنه صار سيدا على الأرض الممتدة من البحر الأسود حتى البحر المتوسط وهو الذى يحدد مصيرها .

أ . د/طلعت إسماعيل رمضان

الهوامش

١. السلطان عثمان بن أرطغرل أو (عثمان الأول) بن سليمان شاه مؤسس الدولة العثمانية وأول سلاطينها وإليه تنسب. شهدت سنة مولده غزو المغول بقيادة هولاكو لبغداد وسقوط الخلافة العباسية ، تولى الحكم عام ٦٨٧هـ/١٢٨٨م (بعد وفاة أبيه أرطغرل بتأييد من الأمير علاء الدين السلجوقي) . قام الأمير السلجوقي بمنحه أي أراض يقوم بفتحها وسمح له بضرب العملة .لما قتل الأمير علاء الدين من قبل المغول وقتلوا معه ابنه غياث الدين الذي تولى مكانه، أصبح عثمان بن أرطغرل أقوى رجال المنطقة فاتخذ مدينة اسكي شهر قاعدة له ولقب نفسه باديشاه آل عثمان واتخذ راية له وقام بدعوة حكام الروم فى آسيا الصغرى إلى الإسلام فإن أبوا فعليهم أن يدفعوا الجزية فإن أبوا فالحرب، فخافوا منه واستعانوا عليه بالمغول فأرسل إليهم جيشًا بقيادة ابنه أورخان فهزمهم وأكمل الجيش مسيرته ففتح بورصة . ثم توفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م بعد أن عهد لابنه بتولي الحكم السلطان أورخان غازي.

٢. تأسست عام٦٥٨ ق.م. وكانت من قبل قرية للصيادين. وتعرف باسم بيزنطة. وفى عام٣٣٥م جعلها الإمبراطور قسطنطين عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية على اسم الإمبراطور قسطنطين مؤسس الإمبراطورية وكان بها مقر بطريركية الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية كنيسة آيا صوفيا. خلال العصر الذهبي للإمبراطورية البيزنطية خاصةً تحت حكم الأسرة المقدونية حيث دعي عصرهم بعصر النهضة المقدونية، والكومنينيون ففي عهدهم شهدت الإمبراطورية البيزنطية نهضة ثقافية وعلمية وكانت القسطنطينية في عهدهم المدينة الرائدة فى العالم المسيحي من حيث الحجم والثراء والثقافة ، قد كان هناك نمو كبير في مجال التعليم والتعلم مثلته جامعة القسطنطينية ومكتبة القسطنطينية وجرى الحفاظ على النصوص القديمة وإعادة نسخها. كما ازدهر الفن البيزنطي وانتشرت الفسيفساء الرائعة في تزيين العديد من الكنائس الجديدة، وفى عصر الكومنينيين تجدد الاهتمام بالفلسفة الإغريقية الكلاسيكية، بالإضافة إلى تزايد الناتج الأدبي باليونانية العامية ، واحتل الأدب والفن البيزنطيان مكانة بارزة فى أوروبا، حيث كان التأثير الثقافى للفن البيزنطي على الغرب خلال هذه الفترة هائلا وذا أهمية طويلة الأمد تراجعت أحوالها إثر وفاة الإمبراطور جوستنيان العظيم. وفقدت الكثير من مناعتها جراء الحملة الصليبية الرابعة التي أنهكت دفاعاتها. فالمدينة لم تستطع فى مائتي عام أن تتعافى من سبي اللاتين أهلها وحرقهم بيوتها ومبانيها وساحاتها. وإذا كان الانشقاق الكبير ما بين الكنيستين قد حصل عام٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م نتيجة التنافس على الأولوية بين أباطرة الشرق والغرب وأحبارهم، فإن الانشقاق قد اتسع كثيراً في العام٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، أي عند دخول الجيوش الصليبية المدينة وحرقها مبانيها العامة والخاصة وانتهاكها حرمة كنائسها. وفى عهد السلطان محمد الثاني الملقب بالفاتح(٨٥٥- ٨٨٦هـ) (١٤٥١- ١٤٨١م) فتح العثمانيون مدينة القسطنطينية، فقوضوا الإمبراطورية الرومانية الشرقية، وفتحوا أراضيها فى منطقة البلقان أساساً وفى غيرها، وما زالت منطقة القسطنطينية، أي مدينة الآستانة كما أطلقوا عليها وما حولها، هى الجزء الأوروبي من السلطنة التي انحصرت في تركيا الحديثة حتى الآن .

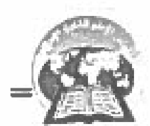
٣. و خالد بن زيد بن كليب بن ثعلبة بن عوف بن غنم بن مالك بن النجار بن ثعلبة بن عمرو الأنصاري الخزرجي، معروف باسمه وكنيته، وأمه هند بنت سعيد بن عمرو من بني الحارث بن الخزرج من السابقين. جاءت محاولة فتح القسطنطينية عام ٥٢ هـ/٦٧٢م، وكان أبو أيوب ممن خرج للقتال، فأصيب فى هذه المعركة، وجاء قائد الجيش يزيد بن معاوية يعوده فسأله: (ما حاجتك يا أبا أيوب؟) فيا له من مطلب نفذه يزيد بناء على هذه الوصية، فقد طلب أن يحمل جثمانه فوق فرسه، ويمضي به أطول مسافة ممكنة فى أرض العدو، وهنالك يدفنه، ثم يزحف بجيشه على طول هذا الطريق، حتى يسمع وقع حوافر خيل المسلمين فوق قبره، فيدرك آنئذ، أنهم قد أدركوا ما يبتغون من نصر وفوز . وفى قلب القسطنطينية فى إسطنبول ثوى جثمانه مع سور المدينة وبُنيَ عليه. فأصبح قبره لأهل قسطنطينية وقبل أن يصل لهم

الإسلام قبر قديس يتعاهدونه ويزورونه .

٤. Hearscy , City of Constantine,p.230

٥. الإمبراطورية البيزنطية (أو بيزنطة (كانت الإمبراطورية الرومانية الشرقية امتدادًا من العصور القديمة المتأخرة وحتى العصور الوسطى وتمركزت فى العاصمة القسطنطينية. عرفها سكانها وجيرانها باسم الإمبراطورية الرومانية وكانت استمرارًا مباشرًا للدولة الرومانية القديمة وحافظت على تقاليد الدولة الرومانية. يجري التمييز اليوم بين بيزنطة وروما القديمة من حيث توجه الأولى نحو الثقافة اليونانية وتميزها بالمسيحية بدلا من الوثنية الرومانية وكان سكانها فى الغالب يتحدثون اللغة اليونانية بدلا من اللاتينية. وليس من الممكن تحديد تاريخ للتمييزين الإمبراطورية الرومانية والإمبراطورية البيزنطية. ولكن النقطة المهمة كانت نقل الإمبراطور قسطنطين الأول العاصمة فى ٣٢٤ من نيقوميديا (فى الأناضول) إلى بيزنطة على البوسفور والتي أصبحت القسطنطينية أي "مدينة قسطنطين" (أو"روما الجديدة" أحيانًا)، قسمت الإمبراطورية الرومانية أخيرًا فى ٣٩٥ م بعد وفاة الإمبراطور ثيودوسيوس الأول (حكم ٢٧٩- ٣٩٥)، وبالتالي هذا التاريخ مهم جدًا حيث يعتبر بداية الإمبراطورية البيزنطية (أو الإمبراطورية الرومانية الشرقية) وفصلها تمامًا عن الغربية. يبدأ الانتقال إلى التاريخ البيزنطي الخاص أخيرًا فى عهد الإمبراطور هرقل حكم (٦٤١- ٦١٠)، حيث أسس هرقل على نحو فعال دولة جديدة بعد إصلاح الجيش والإدارة من خلال إنشاء الثيمات وبتغيير اللغة الرسمية للإمبراطورية من اللاتينية إلى اليونانية.

٦ــــ Lamerle (paul) , A Hist . of Byzantium. Trans by Antony mathew (New York, 1964) , pp . 119-120.



قلعة الجبل

(قلعة صلاح الدين)

أمر بإنشاء هذه القلعة السلطان صلاح الدين الأيوبى عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م لتكون حامية القاهرة التى تشرف عليها وكجزء من خطة تتمثل فى تحصين مصر والقاهرة بسور واحد.

وهذا يعنى أن بناء القلعة كان يعتبر جزءًا لا يتجزأ من المشروع الحربى الكبير الذى خطط له صلاح الدين منذ أن كان وزيرًا سنيًا لآخر خليفة فاطمى شيعى إسماعيلى وهو الخليفة العاضد لدين الله ؛ وهو أسوار القاهرة . ولم يكن بناء القلعة إذن عملا منفردًا قائمًا بذاته إذ يستكمل هذا المشروع الحربى ببناء القلعة وسائل التنسيق بين جميع وحداته وعناصرها المعمارية وذلك بما يكفل لها رسالتها الوظيفية فى تأمين العاصمة والدفاع عنها ضد ما قد يتكرر من هجوم عليها من جانب الحملات التى دأبت مملكة بيت المقدس المسيحية على شنها على مصر[١].

ويؤكد ذلك العلامة كازانوفا بقوله إن صلاح الدين: « أراد ببناء القلعة فى الوسط أن تكون بمثابة المفصل القوى الذى يشد هذه الأسوار بعضها ببعض أو بمثابة نقطة ارتكاز قوية فى التحصينات»[٢].

ويحدد المقريزى موقع القلعة بقوله:

« وهذه القلعة على قطعة من الجبل وهى تتصل بجبل المقطم وتشرف على القاهرة ومصر والنيل والقرافة فتصير القاهرة فى الجبهة البحرية منها ومدينة مصر والقرافة الكبرى وبركة الحبش فى الجهة القبلية الغربية والنيل الأعظم فى غربيها وجبل المقطم من ورائها فى الجهة الشرقية....» [٣].

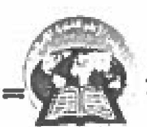
هذا؛ وقد جاء هذا الاختيار لموقع القلعة اختيارًا موفقًا بالنسبة لرسالة المشروع الحربى الكبير لأسوار القاهرة حيث غدت القلعة بمثابة المفصل القوى الذى يشد هذه الأسوار بعضها ببعض على حد قول كازنوافا ؛ ذلك أن جبل المقطم يأخذ فى الارتفاع فجأة عند موقع القلعة وهو ارتفاع يبلغ حوالى ٢٥٠ قدمًا ، مكونًا أكبر الكتل الصخرية التى تبرز منفردة من جبل المقطم؛ مما يتيح لها أن

تنعم بكل ما تنعم به الحصون مع الإشراف فى الوقت نفسه إشرافًا كاملاً على ما جاورها من جهات والتحكم فيها أيضًا[٤].

وكان بناء القلعة فى عهد صلاح الدين على يد الطواشى بهاء الدين قراقوش الأسدى حيث بدأت أعمال البناء عام ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م وفرغت هذه المرحلة عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م كما يستدل من نقش الإنشاء الذى ما زال باقيًا أعلى باب المدرج وهو الباب الرئيسى للقلعة المواجه للقاهرة. وقد حجب هذا الباب فيما بعد الباب الجديد الذى أضافه محمد على من جهة الحطّابة عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م.

ولحسن الحظ فقد وصف بناء القلعة فى مرحلتها الأولى هذه، الرحالةُ ابن جبير عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م بقوله: « وشاهدنا أيضًا بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة حصن المنصة يريد السلطان (أى صلاح الدين) أن يتخذه موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم المدينتين مصر والقاهرة. والمسخرون فى هذا البنيان والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنه العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور العظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور وهو خندق ينقر بالمعاول فى الصخر فيأتى عجبا من العجائب الباقية الآثار العلوج المسخرون فى هذا كله الأسارى من الروم (أى الصليبيين) وعددهم لا يحصى كثرة...» [٥].

أما المقريزى فقد أجمل وصف القلعة بقوله: « وصفة قلعة الجبل أنها بناء على نشز عال يدور بها سور من حجر بأبراج وبدنات حتى تنتهى إلى القصر الأبلق، ثم من هناك يتصل بالدور السلطانية على غير أبراج القلاع، ويدخل إلى القلعة من بابين: أحدهما بابها الأعظم المواجه للقاهرة ويقال له الباب المدرج، وبداخله يجلس والى القلعة ومن خارجه تدق الخليلية (نوع معين من الطبول تدق كل مساء عند حلول وقت النوبة) قبل المغرب؛ والباب الثانى باب القرافة. وبين البابين ساحة فسيحة فى جانبيها [قبلة بشرق وشمالا بغرب] بيوت وبجانبها القبلى سوق للمأكل، ويتوصل من هذه الساحة إلى دركاة جليلة كان يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول. وفى وسط الدراكاة باب القلة (وهو الباب الذى يفصل بين القلعة الحصن والقلعة السكنية قصر الحكم وقد جدده محمد على عام ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م ويقع حاليًا تجاه جامع الناصر محمد بن



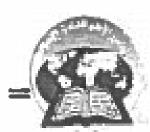
قلاوون) ويدخل منه فى دهليز فسيح إلى ديار وبيوت وإلى الجامع الذى تقام فيه الجمعة...»[(٦)].

ومهما يكن من أمر فإن القلعة عند إنشائها كانت تتكون من مساحة شبه مستطيلة يبلغ طولها من الشرق للغرب ٦٥٠م وعرضها من الشمال للجنوب ٣١٧م وكانت تمثل الحصن الحربى. وكانت محاطة بسور ضخم به العديد من الأبراج نصف الدائرية. ثم بعد وفاة صلاح الدين الأيوبى فى الشام عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م توالت على القلعة أعمال التجديدات والإضافات، فعندما خلفه أخوه العادل انتهز فرصة الهدوء النسبى لإعادة تحصين المواقع الحربية الهامة حيث ينسب إليه أبراج الصفة وكركيلان والعلوة والزيادة التى أضيفت لباب القرافة والجزء الخارجى لبرج الرملة وبرج الحداد والبرجان المربعان الكبيران فى الركن الشمالى الغربى. وقد استأنف الملك الكامل أعمال الإضافات بعد أن نقل مقر الحكم إلى القلعة عام ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م، ومن أعماله خزانة الكتب وأبراج الحمام والإسطبلات السلطانية. ثم مع بداية العصر المملوكى، ألحقت بالقلعة إضافة أخرى من الناحية الغربية لتضم القلعة السكنية وإن ظل اسم قلعة الجبل مرتبطًا بالجزء الحربى القديم. وفى عهد الملك الظاهر بيبرس أنشئت دار العدل عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٣م، وقد ظلت هذه الدار قائمة حتى جاء السلطان المنصور قلاوون فهدمها وأنشأ عددًا من الأبنية لسكن مماليكه بالقلعة. وفى عهد السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أنشئت القاعة الأشرفية بالقلعة التى ما تزال بقاياها قائمة أمام متحف الشرطة القومى. أما فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فقد عمرت القلعة، ومن أبرز أعماله بها مسجده الذى أنشاه عام ٧١٨هـ/ ١٣١٨م والقصر الأبلق والقصور الجوانية والقاعات السبع وباب القلعة وثكنات الجند ومجرى المياه فوق السور الشمالى لتوصيل مياه النيل للقلعة. وتوالت الإضافات بعد ذلك فى عهد المماليك الجراكسة فى القلعة السكنية حتى عهد العثمانيين. وحينئذ أهملت القلعة، وبدأ الخراب يحل عليها حيث نهبت النفائس والتحف والأعمدة والرخام والحليات . ثم قام الأمير خاير بك فأمر بإصلاح ما أفسده العثمانيون، ومن أهم الأعمال التى أنشئت بالقلعة من بعده المسجد الذى أنشأه الوالى سليمان باشا

عام ٩٣٥هـ/ ١٥٢٨م، والمعروف خطأ بمسجد سيدى سارية أو سارية الجبل والمسجد الذى بناه أحمد كتخدا العزب خلف باب العزب عام ١١٠٩هـ/ ١٦٩٨م. ثم جاء عهد محمد على فألحقت عدة إضافات بالقلعة الحربية والسكنية، حيث جددت دار الضرب عام ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م وشيد مسجد محمد على عام ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٨م وقصر الجوهرة فى القلعة السكنية وشيد قصر الحريم وجددت الأسوار والأبواب للقلعة بجزئيها، وذلك لتصلح لمرور العربات والمدافع ذات العجلات، وأنشئت أبواب جديدة مثل الباب الجديد والذى مهد طريقًا منحدرًا لتسهيل الصعود وأبطل استخدام باب المدرج وغير ذلك.

وقلعة صلاح الدين القائمة تشتمل على ثلاث مساحات رئيسية: الأولى تمثل القسم الشرقى - القلعة الحربية، وتضم قصر الحريم والمتحف الحربى الآن ومسجد سليمان باشا المعروف بسارية الجبل، والقسم الغربى يضم الثكنات التى أنشأها الأتراك لجنودهم وبقايا قصر الناصر ومسجد أحمد كتخدا، وفى الجنوب الغربى يوجد بئر يوسف ومسجد الناصر قلاوون ومسجد محمد على وبقايا قصر الجوهرة. ويتم الدخول للقلعة من ثلاثة مداخل هى: باب العزب فى الجهة الغربية، والباب الجديد فى الناحية الشمالية الذى يحوى بداخله باب المدرج والذى سمى كذلك نسبة لوجود درج صخرى يتقدمه، وباب الجبل فى الجهة الشرقية.

وقلعة الجبل محاطة بعدد من الأبراج، يمكن التمييز بين نوعين منها: الأول عبارة عن أبراج نصف دائرية بالجهة الشمالية الشرقية والجنوبية وتنسب لصلاح الدين الأيوبى وهى تتكون من طابقين متشابهين تقريبًا كل منهما عبارة عن قاعة مربعة مغطاة بأقبية متقاطعة ويوجد بكل منها ثلاثة مزاغل متصلة بأرض القاعة، مما يساعد على سهولة الحركة، وهذه المزاغل مسقفة بأعتاب حجرية. أما برجا المطار والإمام فتختلف عنها، فكل منها عبارة عن زوج من أنصاف الدوائر يجاور أحدهما الآخر، ويوجد فيما بينهما إما حائط سميك مثل برج المطار، أو مدخل معقود مثل برج الإمام. أما الأبراج الركنية فهى مشابهة للأبراج السابقة فيما عدا أن أذرع المزاغل قد وسعت فى نهايتها لتصبح ممرات تؤدى إلى أذرع أكبر وأكثر



اتساعًا، وهى مسقفة بأقبية وتنتهى بآخرها بفتحة مزغل. أما النوع الثانى من الأبراج فهو عبارة عن أبراج مستطيلة المسقط أو مربعة، تتكون من ثلاثة طوابق يتشابه كل من الطابقين السفلى والأوسط ويتكون كل منهما من قاعة رئيسية مربعة مغطاة بقبو متقاطع عليها أربعة أذرع - زودت بمزاغل عبارة عن فتحات ضيقة مدببة. ويحتوى كل طابق على بعض المرافق والمنافع الخاصة به. أما الطابق الثالث فيمثل سطح البرج وتحيط به دروة تحتوى على دخلات بنهايتها فتحات المزاغل. وقد وسعت فتحات المزاغل أثناء احتلال الفرنسيين للقلعة لتتناسب مع فوهات المدافع.

تعتبر قلعة الجبل بأسوارها وأبراجها من أبرز الأعمال الدفاعية الأيوبية، وإن تعددت أنماط وأشكال هذه الأبراج سواء فى المسقط أو الواجهات أو حجارة الإنشاء. فقد استخدمت فى إنشاء الأسوار، الأحجار التى يعتقد أنها جلبت من بعض الأهرام الصغيرة فى الجيزة. وقد استخدمت هذه الأحجار بأشكال مختلفة؛ فبعض منها استخدم مصقول الوجه، كما فى الأبراج التى أنشأها صلاح الدين الأيوبى، بينما استخدمت حجارة مسننة فى الأبراج التى أنشئت فى عهد أخيه العادل أو فى عهد محمد على. وربما يرجع ذلك التباين لاختلاف سنوات الإنشاء والأيدى العاملة.

وبصفة عامة كان لاستخدام مواد الإنشاء على طبيعتها مصقولة أو مسننة، أثرها فى التعبير عن القوة والعنف لتأكيد وظيفتها الدفاعية. ووجود قلعة الجبل مرتبط بالجهاد ومفهوم الدفاع فى الإسلام؛ فقد حفر من حولها خندقٌ لحمايتها والدفاع عنها فضلاً عن موقعها المتميز لارتفاعها على ربوة عالية تطل على القاهرة مما يحقق وظيفتين دفاعيتين الا وهما : حماية القاهرة من الغزو الخارجى من ناحية وإحكام الرقابة على الجبهة الداخلية ضد المنشقين عن طاعة السلطان من ناحية أخرى. ويؤكد هذا حرص الفرنسيين والإنجليز من بعدهم على احتلال القلعة عند وصولهم لتمكينهم من السيطرة على القاهرة باعتبارها مقر الحكم الرسمى آنذاك بما له من تأثير معنوى. ويعتبر نقل مقر الحكم للقلعة - أثناء حكم الملك الكامل- انعكاسًا للنظام السياسى آنذاك. وتعتبر الإضافات التى أجريت فيما بعد أثناء العصور المتتالية انعكاسًا لرغبة

الحكام والملوك والسلاطين فى ترك بصماتهم واضحة فى مقر الحكم الرسمى للدولة مثلما كان يفعل الحكام الفاطميون فى مساجدهم. حيث بنوا فيها القصور والمساجد التى ألحقت بها مدافن خاصة بهم كما فى مسجد محمد على مما يعكس أيضًا الفصل بين الحكام فى القلعة والشعب فى المدينة[7].

أ.د / محمد حمزة الحداد

الهوامش:

(١) سوسن سليمان يحيى، منشآت السيف والقلم فى الجهاد الإسلامى، العمارة الأيوبية، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٤١.

(٢) كازنوافا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، القاهرة، ١٩٩٧م .

(٣) المقريزى، الخطط، المجلد ٣، ص ٦٣٧ .

(٤) سوسن سليمان، منشآت السيف والقلم، ص٤٢.

(٥) ابن حبير، رحلة ابن جبير، تحقيق حسين نصار، القاهرة ١٩٩٢، ص ٤٧.

(٦) المقريزى، الخطط، المجلد ٣، ص ٦٥١- ٦٥٢.

(٧) الحداد وآخرون، أسس التصميم المعمارى والتخطيط الحضرى، ص٧٢- ٨٣؛ لمزيد من التفاصيل انظر، كازانوفا، تاريخ ووصف قلعة القاهرة، (٢٣٧ صفحة)؛ كريزول، وصف قلعة الجبل، (١٢٩ صفحة، ١٣ شكلا، ١٥ لوحة)؛ يحيى، سوسن سليمان، منشآت السيف والقلم فى الجهاد الإسلامى، العمارة الأيوبية، ص ٤١- ٧٣؛ نويصر، العمارة الإسلامية، ص٣- ٤٧؛ عزب، أسوار وقلعة صلاح الدين، ص٥٥=١٠٠؛ العمرى والطايش، العمارة فى مصر الإسلامية، ص ٤٤=٦٤.

مصادر ومراجع للاستزادة:

أولاً: المصادر :

١. ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد، الرحلة، تحقيق حسين نصار، القاهرة، جـ١، ١٩٩٢م.

٢. ابن عبد الظاهر، الروضة البهية فى خطط القاهرة المعزية، تحقيق أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٩٨م.

٣. القلقشندى، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ١٤ جـ. القاهرة .

٤. المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ٥ مجلدات تحقيق أيمن فؤاد سيد لندن ٢٠٠٢- ٢٠٠٥م.

ثانيًا: المراجع:

١. أسامة طلعت عبد النعيم، أسوار صلاح الدين وآثرها فى امتداد القاهرة حتى عصر سلاطين المماليك، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة لقاهرة. كلية الآثار ١٩٩٢م.

٢. أمال العمرى وعلى الطايش، العمارة فى مصر الإسلامية العصرين الفاطمى والأيوبى، القاهرة، ١٩٦٦م.

٣. بول كازنوافا، تاريخ ووصف قلعة الجبل، ترجمة أحمد دراج، مراجعة جمال محرز، القاهرة ١٩٧٤م.

٤. جومار، وصف مدينة القاهرة وقلعة الجبل، ترجمة أيمن فؤاد سيد، القاهرة ١٩٨٨م.

٥. حسنى نويصر، العمارة الإسلامية فى مصر عصر الأيوبيين والمماليك، القاهرة، ١٩٩٦م.

٦. خالد عزب، أسوار وقلعة صلاح الدين، القاهرة ٢٠٠٦م.

٧. سوسن سليمان يحيى، منشآت السيف والقلم فى الجهاد الإسلامى العمارة الأيوبية، القاهرة، ١٩٩٤م.

٨. عبد الرحمن زكى، قلعة مصر من السلطان صلاح الدين إلى الملك فاروق الأول، القاهرة ١٩٥٠م.

٩. كريزول، وصف قلعة الجبل، ترجمة جمال محرز، مراجعة عبد الرحمن زكى، القاهرة ١٩٧٤م.

١٠. محمد حمزة إسماعيل الحداد، العمارة والفنون فى الحضارة الإسلامية، القاهرة ٢٠٠٩م.

١١. ناصر الرباط، تاريخ قلعة الجبل، مؤسسة الاغاخان ١٩٨١م.

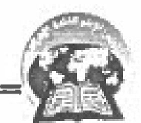
القيروان

بعد إتمام فتح مصر سنة ٢١هـ/٦٤٢م أدرك المسلمون أهمية مواصلة أعمال الفتح فى بلاد المغرب فى اتجاه برقة وطرابلس باعتبارهما امتدادًا طبيعيًا للمسرح الجغرافى للمنطقة وحتى يؤمن الفتح الإسلامى لمصر ضد أطماع البيزنطيين الذين فقدوا مصر، وفى نفس الوقت ما زالوا يحكمون الشمال الإفريقى؛ يضاف إلى ذلك أن استمرار النشاط العسكرى فى المغرب سيحقق الأهداف الأصيلة لعمليات الفتح وهى تخليص الشعوب من قبضة المستعمرين وإتاحة الفرصة لهذه الشعوب للتعرف على الإسلام و الإيمان به والدخول فيه.

وقد حمل لواء الإسلام فى بلاد المغرب مجموعة من القادة العظام منهم عقبة بن نافع الفهرى الذى تولى قيادة المسلمين سنة ٥٠هـ /٦٧٠م متجهًا صوب بلاد المغرب وحقق العديد من الانتصارات؛ ونتيجة لإقامة عُقْبة بالمنطقة ومعايشته للأحداث؛ وجد أن أسلم الطرق لتثبيت الفتح الإسلامى فى المنطقة هو بناء مدينة تتخذ كقاعدة عسكرية وفى نفس الوقت يسكنها الناس، وتكون المدينةُ الجديدةُ المنطلقَ لأعمال الفتح القادمة.

وقد عبر عقبة عن هذه الحقيقة بقوله: " إن إفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر؛ فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزًّا للإسلام إلى آخر الدهر"[1]. والواقع أن القائد معاوية بن حديج القائد السابق فى أعمال الفتح بالمغرب سبقه فى ذلك حين اختط مدينة عند القرن وحفر بها الآبار؛ إلا أن هذا المكان لم يستحسنه عقبة وذلك لقربه من البحر وغارات البيزنطيين المستمرة.

لقد بذل عقبة بن نافع ومن معه جهودًا كثيرة فى اختيار المكان المناسب لإنشاء مدينة القيروان، وكان التوفيق حليفهم؛ إذ كان المكان الجديد يتمتع بموقع استراتيجى هام كما يتمتع بموقع تجارى يربط الشرق بالغرب والشمال بالجنوب، فضلاً عن ذلك تتمتع بعدد من القرى المحيطة بها التى تمدها بما تحتاج إليه. ومما يدل على أهميتها طيلة عدة قرون لاحقة ما أشار إليه ابن حوقل من: أنها أعظم مدينة بالمغرب وأكثرها تجارة



وأحسنها منازل وأسواقًا، وظلت المدينة شامخة حتى أواسط القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى عندما غزا العرب الهلالية البلاد وقضوا عليها[2].

مما سبق نلمس حرص عقبة على أن المكان الجديد تتوفر فيه عدة خصائص منها البعد عن الساحل حتى لا تتعرض لأساطيل البيزنطيين ومنها القرب من الصحراء فتباشر نشر الإسلام بين البربر ومنها تأمين إمدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات[3].

كانت منطقة القيروان كثيفة الأشجار، ومن ثم شرع المسلمون فى قطع هذه الأشجار وتمهيد الأرض استعدادًا للبناء، حتى إذا انتهوا من ذلك بدأ عقبة فى تخطيط المدينة وتحديد موقع المسجد الجامع ثم دار الإمارة ثم المساكن لإقامة الجند وأسرهم.

وقد استخدم المسلمون المواد الخام الموجودة بالمنطقة؛ فكانت الدور فى أول أمرها على غاية البساطة واستعمل لتشييدها قراميد الآجر لوجود الطين المناسب فى نفس المكان ولخلو ضواحى العاصمة من الحجارة. أما المسجد فاشتمل على عدد من الأروقة جلب معظمها من أنقاض مدينة قرطاجنة؛ وكان المسجد على هيئة مسجد الرسول ﷺ له صحن، ثم زيدت عليه بعض الزيادات فى عهد حسان بن النعمان سنة ٨٤هـ/ ٧٠٣م ومنها القبلة ثم توالت الزيادات على مسجد عقبة.

أما شوارع القيروان الرئيسية فتمتاز بالاتساع إذا قورنت بالعواصم الإسلامية القديمة. أما أسواقها فإنها منظمة حسب أنواع الصناعات. وتأتى دار الإمارة بعد المسجد فى الأهمية باعتبارها مقر الوالى، وتم تخطيطها فى اتجاه الجنوب الشرقى للمسجد الجامع. ودار الإمارة عبارة عن بناء ضخم محصن ومعد لسكنى الوالى وأقاربه وحرسه؛ كما أنها مقر الإدارة المركزية للولاية؛ ويبدو أن هذا القصر الحكومى كان يشتمل على أكثر من طابق ومحاطا بفضاء واسع يطل عليه من أعلى، واشتمل القصر على عدة أبواب.

ويلحق بدار الإمارة عدة دواوين؛ تلك الدواوين التى أنشئت تباعًا مع نمو المدينة والولاية. والمعروف أن حسان بن النعمان والى المغرب هو أول من دون الدواوين ومنها ديوان الجند وديوان الخراج والرسائل والبريد وبيت المال وغيرها من المؤسسات.

بلغت مساحة المدينة أيام بنائها فى عهد عقبة بن نافع ثلاثة آلاف وستمائة ذراع. وفى سنة ١٤٤هـ/ ٧٦١م بنى الوالى محمد ابن الأشعث سور المدينة من لبن وطين ثم هدمه أبو حاتم الإباضى حين حرق أبواب القيروان سنة ١٥٤هـ/٧٧١م وذلك بعد أن انتصر على الوالى عمر بن حفص ودخل القيروان؛ ثم هدمه بعد ذلك زيادة الله بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب لما ثار عليه عمران بن مجالد وبعض الثوار.

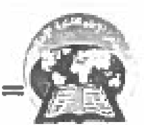
وقد واجه سكان القيروان قلة فى المياه مما اضطر معه الولاة والأمراء إلى معالجة هذه المشكلة؛ فقد أشار المؤرخون إلى وجود بئر ذات مياه عذبة بين المسجد ودار الإمارة ولا تبعد عنها أكثر من خمسة عشر مترًا من ناحية الشرق، يقول البكرى: "وبنى فى صحنه – أى صحن المسجد - ما جلاً – أى خزانًا للمياه- وهو المعروف بالماجل القديم بالقرب من البلاطات"[٤].

وتعددت المواجل فى المساجد التى بنيت داخل المدينة ويشير إليها الدباغ فى قوله: " مسجد الزيتونة وهو مسجد كبير جليل وسطه ماجل مستطيل؛ بنى هذا المسجد سنة ثلاث وسبعين "[٥]. كذلك كان الأهالى يستعملون جميع المياه الممكن الاستفادة منها مثل ماء وادى السراويل ويقع قبلى المدينة فيما يحتاجون إليه من الماء فى المنازل وليس للشرب لأنه كان مالحًا. وفى سنة ١٨٠هـ/٧٩٦م حفر الوالى العباسى على المغرب هرثمة بن أعين البئر المعروفة باسم (بروطة) أو بئر روطة قريبًا من سوق الأحد، وذلك نتيجة لامتداد العمران فى القيروان وهى بئر واسعة غزيرة الماء.

وقد بذل الوالى العباسى يزيد بن حاتم (ت سنة١٧١هـ/٧٨٧م) جهده المستطاع فى تنظيم أسواق التجارة وإقامة معامل حيث رتب أسواق القيروان وجعل كل صناعة فى مكانها؛ وبجانب هذا السوق الكبير كانت هناك أنواع أخرى من المتاجر والصناعات لها أسواق متخصصة كسوق الصرافة وسوق البركة الذى يعرض فيه الرقيق والجوارى، وسوق الأحد للمنسوجات الصوفية وسوق الغزل وغير ذلك من الأسواق.

القيروان ودورها السياسى:

تمتعت القيروان بمركز سياسى ممتاز؛ فهى عاصمة ولاية المغرب كله بأقاليمه المتعددة لعدة فترات ، وهى مركز الوالى خلال عصر ولاة بنى أمية وبنى العباس وتمتد من سنة ٥٥هـ/٦٧٤م



إلى سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م. ويلاحظ على هذه الفترة كثرة الولاة وعزل بعضهم عند وفاة الخليفة وتولية آخر جديد مما أدى إلى عدم الاستقرار؛ يضاف إلى ذلك كثرة الثورات التى قام بها الصفرية والإباضية أو الزعماء الثائرون من العرب، وقد نجح بعضهم أحيانًا فى فرض سلطانه على القيروان إلا أن سلطانهم هذا كان لا يدوم طويلا نظرًا ليقظة الخلافة وحرصها على تبعية القيروان لها ؛ ومن ثم كانت جيوش الخلافة تقضى على آمال هؤلاء الثائرين.

ومما يدل على اهتمام العباسيين ببقاء القيروان تحت نفوذهم وسلطانهم ضد الثوار الطامعين إرسالهم كبار رجال دولتهم ذوى الخبرة السياسية والقدرة العسكرية والحنكة الإدارية ليقوموا بحكم إمارة إفريقية من أمثال محمد بن الأشعث وعمر بن حفص ويزيد بن حاتم وغيرهم وذلك خشية أن تنفصل إمارة إفريقية عن التبعية للخلافة وفى نفس الوقت لم يعمد العباسيون إلى تولية أحد من أبناء المنطقة خشية أن يستقل بها[٦].

وحين قامت دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م؛ اتخذ مؤسسها فى أول الأمر القيروان عاصمة له ومقرًا لإدارته، وقد ترتب على ولاية إبراهيم بن الأغلب وأبنائه من بعده استقلال ذاتى للإقليم، وهذا يعنى تمتع القيروان بشبه استقلال أعطاها الحرية فى التصرف مما أدى إلى استقرار الأمن والطمأنينة فيها ومكنها بعد ذلك من استئناف نشاط الفتوح وتوسيع نطاق سلطة القيروان.

لم تستمر مدينة القيروان عاصمة للأغالبة؛ إذ أسس إبراهيم بن الأغلب (سنة ١٨٤هـ/٨٠٠م) فى ضاحية جنوب مدينة القيروان القصر الكبير وسماها العباسية نسبة لبنى العباس ونقل إليها دواوين الدولة بعد أن ترك دار الإمارة التى بناها عقبة بن نافع فى جنوب الجامع الكبير. وقد تطورت حركة العمران فى المدينة الجديدة تطورًا سريعًا وانتقل إليها أمراء بنى الأغلب وكبار رجال الدولة، وكان بناء الدور والمساكن بالآجر كما كانت توصف بعظمة البناء وذلك بالنسبة للقيروان؛ كما بنيت بها عدة صهاريج، كذلك شيد بها مسجد كبير، فضلاً عن عدد من الأبواب مما يدل على اتساعها، كما كانت بها رحبة كبيرة تعرف بالميدان[٧].

كذلك شهدت مدينة القيروان بناء عاصمة جديدة فى ضاحية من ضواحيها

وهى مدينة رقادة التى بناها إبراهيم بن أحمد بن الأغلب سنة ٢٦٣هـ /٨٧٦م، وظلت عاصمة للأغالبة إلى أن هرب منها آخر أمراء الأغالبة زيادة الله بن الأغلب أمام جيوش أبى عبد الله الشيعى وصارت بعد ذلك أول عاصمة سياسية للدولة الفاطمية حيث اتخذها عبيد الله المهدى ثلاث عشرة سنة عاصمة للفاطميين ثم فارقها بعد بناء المهدية . وقد وصف ياقوت الحموى رقادة بقوله: " رقادة بلدة بإفريقية بينها وبين القيروان أربعة أميال، وأكثرها بساتين ولم يكن بإفريقية أطيب هواء ولا أعدل نسيما وأرق تربة منها"[٨].

يضاف إلى ذلك أن مدينة رقادة كانت ذات نشاط تجارى ومتحررة من تقاليد القيروان التى حافظت على طابعها الدينى الأول. ووصل ترف سكان رقادة إلى درجة إباحة بيع النبيذ فيها بينما كان ممنوعًا بيعه فى القيروان؛ وأسواقها مزدحمة بالدكاكين، وهى قبلة تجار إفريقية، كما اشتهرت بكثرة بساتينها وثمارها.

ومما يلحق بضواحى القيروان مدينة صبرة أو المنصورية وهى المدينة الثالثة من ضواحيها، وقد أسسها إسماعيل بن القاسم بن عبيد الله المهدى الفاطمى سنة٣٣٧هـ/٩٤٨م ولم تزل منذ ذلك الحين عاصمة إفريقية السياسية والتجارية إلى أن انقرضت دولة الصنهاجيين وخربها الهلاليون هى والقيروان سنة ٤٥٢هـ/١٠٦٠م[٩].

وقد عاصرت القيروان قيام الدولة الفاطمية على أرض المغرب سنة٢٩٦هـ / ٩٠٩م ومنذ اللحظات الأولى فكر الخليفة الفاطمى عبيد الله المهدى فى بناء عاصمة جديدة والابتعاد عن القيروان التى كانت تمثل مركزًا للاضطرابات السياسية والمذهبية إذ أصبحت فى هذه الفترة كعبة كل داعية إلى مذهب ومأوى خليط من الناس من الصعب الاطمئنان إليهم؛ ومن ثم كان بناء المهدية العاصمة الجديدة للفاطميين فى بلاد المغرب.

شهدت القيروان العديد من الأحداث السياسية فى ظل الحكم الفاطمى. وقد أدرك الفاطميون بدورهم أهمية الاستيلاء على مصر ومن ثم أرسلوا عدة حملات عسكرية نجحت فى النهاية فى الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م. وقبل أن يغادر الفاطميون أرض المغرب تركوا وراءهم خلفاء مخلصين يحكمون البلاد باسمهم. ووقع اختيارهم على قبيلة



صنهاجة ذات العدد الوفير وفى نفس الوقت مكافأة لهم على خدماتهم للدولة الفاطمية فى بلاد المغرب؛ وحين توجه المعز لدين الله إلى مصر وقع اختياره على أبى الفتوح يوسف بن بلكين بن زيرى خلفا له على إفريقية سنة ٣٦٢هـ /٩٧٢م، وبذلك قامت الدولة الزيرية فى المنطقة وتولى أبناؤه حكم إفريقية بالوراثة، وفى نفس الوقت كانوا يدينون بالتبعية للخلفاء الفاطميين فى مصر.

لقد دخلت العلاقات الفاطمية الزيرية مرحلة خطيرة حين تولى المعز بن باديس الزيرى السلطة فى إفريقية خلفًا لوالده ٤٠٦هـ/١٠١٥م، وفى عهده تطورت العلاقات بينه وبين الفاطميين نتيجة لبعض الأحداث بين البلدين وهى التى أسفرت عن قطع المعز بن باديس العلاقات مع الدولة الفاطمية ولعنهم على منابر إفريقية مما دفع الفاطميين إلى اتخاذ خطوات أكثر حدة وخطورة حين شجعت الإدارة الفاطمية فى القاهرة القبائل الهلالية المقيمة بمصر على التوجه إلى القيروان وإطلاق العنان لها فى التدمير والتخريب وامتلاك كل ما يقع تحت سيطرتها.

وهذا التشجيع من قبل الفاطميين وجد قبولا حسنا من القبائل الهلالية التى انطلقت فى حشود ضخمة تدمر وتخرب المدن المغربية كبرقة وطرابلس وتستولى على ما بها من أموال وثروات فضلا عن قتل الرجال والأطفال.

وكان مصير مدينة القيروان غاية فى السوء، ويصور ابن عذارى لحظات اقتحام العرب الهلالية مدينة القيروان بقوله: " وذلك أن العرب دفعت إلى هذا الباب (أى أحد أبواب القيروان) فخرج إليهم العامة للدفاع عن مدينتهم فحملت عليهم فرسان العرب وتمكنت منهم بسيوفهم ورماحهم فتساقطوا على وجوههم وجنوبهم ولم يبق منهم إلا من حصنه أجله ولم يتركوا على حى ولا ميت خرقة تواريه، وخرج أهل القتلى عند انصراف العرب فرفعوا قتلاهم فقامت النوائح والنوادب بكل جهة ومكان من أزقة القيروان تتصدع لمنظرها وسماعها الجبال ورأى الناس ما أذهلهم فتفتت الأكباد وذابت القلوب والأجساد، فكان يوم مصائب وأنكاد ولم ير الناس مثله فى سائر الأمصار فيما مضى من الأعصار"(١٠). وظلت القيروان تعانى من الهجمات المتكررة حتى سقطت سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م ودخلها الأعراب يعمِّلون

فيها سيوفهم ورماحهم ويخربون بيوتها ويهدمونها ويستولون على كل ما يقع تحت أيديهم(١١).

وهكذا سقطت مدينة القيروان، تلك المدينة العريقة التى اختطها عقبة بن نافع سنة ٥٠هـ / ٦٧٠م لتكون القاعدة والمنطلق لنشر الإسلام، واستطاعت المدينة فى فترة وجيزة أن تلعب دورها الحضارى فى نشر الإسلام وإرساء قواعد الحضارة الإسلامية وقصدها العلماء من كل مكان وأضاءت بين جنباتها مشاعل العلم والمعرفة طيلة أربعة قرون .

بعض المظاهر الحضارية:

نالت مدينة القيروان عناية خاصة من ولاة الأمر ومن جاء بعدهم من الأمراء كالأغالبة والفاطميين والزيريين وذلك باعتبارها قاعدة البلاد وعاصمة للإقليم فى فترات كثيرة . وقد تعددت المظاهر الحضارية:

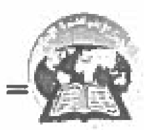
ففى مجال الزراعة:

أشار الباحثون إلى كثرة محصولات القيروان وتنوعها، وكانت زراعة الزيتون تدر دخلاً كبيرًا لأهل إفريقية؛ وفى عهد الولاة اهتم بنو المهلب بتوزيع موات الأرض على من يستحقها كما خففوا عن أهل البادية الخراج ولم يثقلوا كواهلهم بالضرائب.

وفى عهد الأغالبة اهتم إبراهيم بن الأغلب بتوفير الأمن والقضاء على قطاع الطرق والذين كانوا مصدر فوضى فى الريف، وانقسم نشاط الفلاحين إلى ثلاثة ميادين: ميدان زراعة الحبوب فى الحقول الكبيرة، وميدان البساتين وما يزرع فيها من خضر وفواكه، وميدان تربية الماشية.

وساعد نظام الرى على تطور الزراعة وغرس الخضر والأشجار وتعددت أنواع المحاصيل ومنها القطن وقصب السكر والعنب؛ يضاف إلى ذلك استيراد كميات أخرى من الحاصلات نظرًا لكثرة سكان القيروان، كالتمر والخضراوات والفواكه، كما اهتم سكان القيروان بتربية الماشية ولا سيما الأغنام(١٢).

أما الصناعة : فقد تنوعت المصنوعات فى مدينة القيروان ومنها صناعة السفن حيث اهتم ولاة القيروان بصناعتها وبخاصة فى عهد الأغالبة لاحتياجهم إلى أسطول حربى وتجارى. كذلك من الصناعات التى ازدهرت فى القيروان: المنسوجات الصوفية والقطنية والحريرية، يضاف إلى ذلك عدة صناعات أخرى كدبغ الجلود ومنها تصنع السروج والأحذية، كما اشتهرت القيروان



بالصناعات الخشبية وصناعة الزجاج والبللور الذى يستخدم فى صناعة الأوانى، ومما اشتهرت به القيروان صناعة المعدنيات من نحاس وفضة وذهب ومجوهرات، وهذه النهضة الصناعية دفعت الولاة إلى تخصيص مكان لكل صناعة فى المدينة[١٣].

وفى مجال التجارة:

ازدهرت التجارة ازدهارًا كبيرًا إذ اشتهرت أسواق القيروان فى عالم التجارة وصارت قبلة تجار الشرق والغرب؛ وساهم موقع القيروان الجغرافى والسياسى فى ربط المشرق بالأندلس وبجنوب أوروبا عن طريق موانئ إفريقية. وأول من بدأ تنظيم التجارة فى القيروان هو يزيد بن حاتم الذى رتب الأسواق وخصص لكل صناعة سوقًا خاصًا بها.

وقد بلغت التجارة فى القيروان أوج ازدهارها فى فتراتها السياسية المختلفة: العصر الأغلبى والفاطمى والصنهاجى[١٤]. ويؤكد ذلك ما قاله ابن حوقل: " وكانت القيروان أعظم مدينة فى المغرب وأكثرها تجارة وأموالاً"[١٥]. وكانت المنتجات الزراعية والصناعية حول القيروان تُحْمَل إليها فكانت بذلك سوقًا كبيرًا للمنتجات الزراعية والصناعية ومقرًا للتجارة الداخلية والخارجية يقصدها التجار من داخل الإقليم ومن خارجه. ويشير البكرى إلى أنه كان يصل من مدينة جلولاء –وهى تبعد أربعة وعشرين ميلا عن القيروان- من أحمال الفواكه والبقول ما لا يحصى كثرة[١٦].

ومن العوامل التى ساهمت فى رواج التجارة فى القيروان انتشار الأمن وتعبيد الطرق للتيسير على نقل البضائع والمنتجات.

الحياة الفكرية:

ارتبطت الحياة الفكرية فى المجتمع المغربى بالدراسات الدينية وبعبارة أخرى فإن ألوان الثقافة المختلفة نشأت فى ظل العلوم الدينية وخاصة فى عصر الولاة ثم تطورت هذه الدراسات فيما يليها من عصور.

وقد شهد عصر الولاة فى القيروان مولد الثقافات العربية المتنوعة ونواة الدراسات الإسلامية. على أن هذه الدراسات لم تنضج وتكتمل صورتها إلا فى العصور التالية.

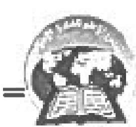
ومنذ تأسيس مدينة القيروان وهى تلعب دورًا سياسيًا وفكريًا هامًا باعتبارها العاصمة السياسية للمغرب كله ومقر الوالى، وهذا يعنى أنها صارت

مقصدًا للعرب القادمين من المشرق وما يترتب على ذلك من نقل للثقافات والعلوم المختلفة، وبمرور الوقت صارت القيروان تزخر بالعلماء والفقهاء وأصبحت مركزًا هامًا من مراكز الثقافة الإسلامية فى المنطقة وقلبًا نابضًا بالتيارات الفكرية تغذى غيرها من مناطق المغرب بالعلماء فضلا عن إقبال سكان البلاد من كل مكان لتلقى العلم فى معاهدها.

والواقع أن القيروان لعبت دورًا فكريًا هامًا فى بلاد المغرب، وتاريخها الثقافى هو بمثابة تاريخ الثقافة الإسلامية فى المغرب إذ ظلت لفترة طويلة توجه ثقافة البلاد[١٧]. وقد أقبل الصحابة والتابعون على بلاد المغرب وشرعوا فى تعليم سكان إفريقية مبادئ الدين الجديد، ولا شك أن جهدهم فى نشر الإسلام وتلقين مبادئه لأهل البلاد - وخاصة أنهم كانوا يعتنقون أديانًا مختلفة ومذاهب ونِحَلا متعددة - يُعَدُّ عملا عظيمًا، وقد وجدنا الخليفة الأموى عمر ابن عبد العزيز يرسل عشرة من مشاهير التابعين الذين عرفوا بالعلم وحسن السيرة إلى القيروان ليعلموا الناس الحلال والحرام ولم يتجاوز نشاطهم القرآن والسنة وربما مبادئ اللغة العربية، ومن هذه الحلقة تخرجت الفئة الأولى من علماء الدين فى القيروان من أمثال البهلول بن راشد ورباح بن يزيد وعبد الله ابن فروخ وغيرهم[١٨].

وخلال حكم الأغالبة لإفريقية تطورت العلوم الدينية والعقلية وانتشر التعليم وكثر عدد الطلبة الأفارقة فى القيروان، كما اتجه بعضهم إلى عواصم المشرق طلبًا للعلم والاستزادة منه، وخلال هذه الفترة برز المذهبان: المالكى والحنفى فى مجتمع القيروان؛ ونشر أسد ابن الفرات المذهب المالكى معتمدًا على (موطأ) الإمام مالك. وهو أول من وضع أسس المدرسة المالكية بكتابه (الأسدية) الذى أقبل عليه المغاربة؛ ثم وضع الإمام سحنون بن سعيد أحد زعماء المدرسة المالكية كتابه (المدونة) فساهم بذلك فى نشر المذهب المالكى وتثبيته فى البلاد.

وبعد استيلاء الفاطميين سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م على بلاد المغرب وحرصهم على نشر المذهب الشيعى ومحاولتهم القضاء على المذهب المالكى الذى يمثل قومية بالنسبة للمغاربة؛ اندلعت معارك كثيرة بين السلطة الحاكمة وعلماء المالكية الذين تمسكوا بمذهبهم ودافعوا عنه واستشهدوا فى سبيله، وثبت المذهب



السنى فى القيروان وبقى فى إفريقية بعد أن رحل الفاطميون إلى مصر، وفى نفس الوقت ازدهرت العلوم الأخرى كالتفسير والحديث وعلم القراءات وغيرها من العلوم الدينية؛ يضاف إلى ذلك كثرة المؤلفات فى العلوم الأخرى. وقد وصف الإدريسى مدينة القيروان بقوله: " أم أمصار وقاعدة أقطار وكانت أعظم مدن الغرب قطرًا وأكثرها بشرًا وأيسرها أموالاً وأوسعها أحوالا وأتقنها بناء ... والغالب على فضلائهم التمسك بالخير والوفاء بالعهد والتخلى عن الشبهات واجتناب المحارم والتفنن فى محاسن العلم"[١٩].

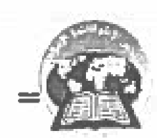
أ.د / حسن على حسن

الهوامش:

(١) ابن عذارى: البيان المغرب جـ١ ، ص١٩.
(٢) د. محمد محمد رضوان: مجتمع إفريقية ص ٥٠.
(٣) القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية ص ٧٥.
(٤) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٢٣.
(٥) الدباغ: معالم الإيمان جـ١ ص٢٧.
(٦) القيروان ودورها الحضارى ص١٢٠.
(٧) القيروان عبر عصور ازدهارها ص٦٠.
(٨) المرجع السابق ص٦٢.
(٩) المرجع السابق ص ٦٢.
(١٠) البيان المغرب، مصدر سابق، جـ١ ص ٢٩٢.
(١١) المصدر السابق جـ ١ص ٢٩٤.
(١٢) القيروان عبر عصور ازدهارها ص ١٣١.
(١٣) القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية، مرجع سابق، ص ١٦١.
(١٤) القيروان عبر عصور ازدهارها ص ١٣٤.
(١٥) صورة الأرض ص ٩٦.
(١٦) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ص ٣٢.
(١٧) الإسلام والثقافة فى إفريقية جـ١ ص ١٥٣.
(١٨) القيروان عبر عصور ازدهارها ص ١٥٥.
(١٩) صفة المغرب والأندلس ص ١١٠.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، بيروت ١٩٦٥.
٢. الإدريسى: صفة المغرب والأندلس، ليدن ١٨٦٦.
٣. الباجى: الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية، تونس ١٢٨٣هـ .
٤. البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، باريس ١٩١١.
٥. الحبيب الجنحانى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، تونس ١٩٦٨.
٦. د. محمد محمد زيتون : القيروان ودورها فى الحضارة الإسلامية، دار المنار ١٩٨٨.



الكعبة

الكعبة أول بيت بنى لله، جعلها الله سبحانه وتعالى منارًا للتوحيد ، ورمزًا للعبادة، فهى قبلة المسلمين فى صلواتهم- وكانت القبلة قبل ذلك إلى بيت المقدس - وإليها يطوفون فى حجهم، وتهوى إليها أفئدتهم من كل أرجاء العالم. ويعتبرها المسلمون أقدس مكان على وجه الأرض؛ لأن الذى بناها هو آدم عليه السلام، ورفع قواعدها إبراهيم عليه السلام بوحى من الله. قال تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (البقرة:١٢٧) . وقد جعل الله سبحانه وتعالى هذا البيت عزيزًا منذ عهد آدم عليه السلام.

وفى تسميتها بالكعبة قولان: أحدهما: لأنها مربعة. والثانى: لعلوها ونتوئها. وقد ذُكِرَت فى القرآن فى موضعين:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَـٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ ﴾ (الأنعام:٩٥) .

﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ (الأنعام:٩٧).

وللكعبة أسماء مشهورة منها:

البيت الحرام، قال الله عز وجل : ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ ﴾ . وسميت بذلك لأن الله حرم القتال بها.

والبيت المحرم: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ ﴾ (إبراهيم: ٣٧).

والبيت :﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ .

(البقرة: ١٢٥).

وأول بيت: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ * فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (آل عمران:٩٦- ٩٧).

والبيت العتيق. قال تعالى: ﴿ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟

تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ (الحج:٢٩).

وفى سبب تسميتها بالبيت العتيق أربعة أقوال: "أحدها: لأن الله تعالى أعتقه من الجبابرة، فعن عبد الله بن الزبير ﷺ عن النبى ﷺ أنه قال: «إنما سمى الله البيت العتيق، لأن الله عز وجل أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليهم جبار قط»[١]. والثاني: أن العتيق بمعنى القديم. والثالث: لأنه لم يملك قط. والرابع: لأنه أعتق من الغرق زمان الطوفان"[٢].

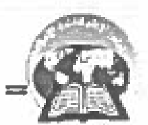
والمسجد الحرام : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾(المائدة:٢).

فضائل الكعبة :

يذكر ابن الفقيه فى كتابه البلدان أن من فضائل البيت الحرام أنه لم يره أحد ممن لم يكن رآه إلا ضحك أو بكى، ومن فضائله أنه لا يسقط على ظهر الكعبة من الحمام إلا العليل منها، فإذا وقع عليه برئ، وتقبل الفرقة من الطير والحمام وغير ذلك حتى إذا تحاذت الكعبة افترقت فرقتين، ومالت عن ظهرها، ولم يطر على ظهرها طير قط ومن عجائب البيت والمسجد: كثرة الحمام بها، ولم يروا على طول الدهر ذرقة حمام ولا طير فى المسجد ولا الكعبة[٣].

بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة:

ارتبط تاريخ بناء البيت الحرام بنبى الله إبراهيم وابنه إسماعيل – عليهما السلام – فقد قدم إبراهيم وابنه إسماعيل من بلاد الشام إلى مكة، فقد نشأ إبراهيم فى بلاد العراق، ثم رحل إلى مصر حيث كان يحكمها أحد ملوك الهكسوس، وأعلن إبراهيم عليه السلام أن سارة أخته حتى ينجو من القتل؛ حيث كان ملكها فى ذلك الوقت يأخذ الزوجات بعد قتل أزواجهن، ولكن الملك أخذ سارة من إبراهيم، وكان فضل الله عز وجل عظيمًا فرد سارة إلى إبراهيم، وأهداه الملك جارية تسمى هاجر، وقد أنجب إبراهيم منها ولدًا سماه إسماعيل، فخرج إبراهيم مهاجرًا وولده إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة، وترك لهم القليل من الطعام والماء، وفى ذلك يقول الطبرى:



"وأوحى الله إلى إبراهيم أن يأتي مكة، وليس يومئذ بمكة بيت، فذهب بها مع ابنها إلى مكة فوضعهما، وقالت له هاجر: إلى من تركتنا هاهنا؟ ثم ذكر خبرها، وخبر ابنها"[4].

وقد أمر الله إبراهيم ببناء البيت، وكان عمر إسماعيل آنذاك ثلاثين عامًا، وفي ذلك يقول ابن الجوزي: "فلما ولد للخليل إسماعيل، أمره الله تعالى ببناء البيت، فقال: يا رب! بين لي صفته، فأرسل الله سحابة على قدر الكعبة، فسارت معه حتى قدم مكة، فوقفت في موضع البيت ونودي: ابن على ظلها، لا تزد ولا تنقص. فكان يبني وإسماعيل يناوله الحجارة[5].

وقد روى مؤرخو السيرة والمفسرون كثيرًا من الروايات حول بناء إبراهيم للكعبة، من هذه الروايات ما رواه الطبري بسنده عن ابن عباس قال: جاء - يعني إبراهيم- فوجد إسماعيل يصلح نبلا من وراء زمزم. قال إبراهيم: يا إسماعيل، إن الله ربك قد أمرني أن أبني له بيتا. فقال له إسماعيل: فأطع ربك فيما أمرك. فقال له إبراهيم: قد أمرك أن تعينني عليه. قال: إذًا أفعل. قال: فقام معه، فجعل إبراهيم يبنيه، وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان:"ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم". فلما ارتفع البنيان، وضعف الشيخ عن رفع الحجارة، قام على حجر، فهو مقام إبراهيم، فجعل يناوله ويقولان:"ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم"[6].

ويروى الطبري في تاريخه أن الله عز وجل لما أمر إبراهيم بعمارة البيت والأذان بالحج في الناس خرج من الشام ومعه ابنه إسماعيل، وأم إسماعيل هاجر، حتى انتهوا إلى مكة، فوضع إبراهيم الأساس ورفع البيت هو وإسماعيل، حتى انتهيا إلى موضع الركن، قال إبراهيم لإسماعيل: يا بني، ابغ لي حجرًا أجعله علمًا للناس، فجاءه بحجر، فلم يرضه وقال: ابغني غير هذا، فذهب إسماعيل ليلتمس له حجرًا، فجاءه وقد أتى بالركن، فوضعه في موضعه، فقال: يا أبت، من جاءك بهذا الحجر؟ قال: من لم يكلني إليك يا بني"[7].

فلما فرغا منه، أوحى الله تعالى إليه: ﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ ﴾ (الحج: ٢٧)، فقال: يا رب! وما يبلغ صوتي؟ فقال: عليك الأذان وعلى البلاغ، فعلا ثبير، ونادى: يا عباد الله! إن لله بيتًا فحجوه. قال مجاهد: فلبى كل رطب ويابس، وأسمع من بين المشرق والمغرب، فأجابوه: لبيك

اللهم لبيك، فإنما يحج اليوم من أجاب يومئذ[٨].

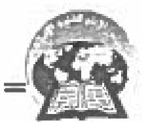
بناء العمالقة وجرهم وقصى:

استقرت بعض القبائل العربية فى مكة من العماليق وجرهم، بعد بناء إبراهيم، "فبنته العمالقة، ثم انهدم فبنته جرهم، ثم انهدم فبناه قصى بن كلاب أو هدمه هو، وبناه بناء لم يبن أحد ممن بناه مثله. فبناها وسقفها بخشب الروم الجيد وبجريد النخل وبناها على خمس وعشرين ذارعًا[٩].

بناء قريش:

ومرت الأعوام، حتى قامت قريش ببناء الكعبة ، وذلك قبل بعثة النبى ﷺ بخمس سنين، وكان بناء الكعبة آنذاك على هيئة حجارة موضوعة بعضها فوق بعض من غير طين ، مما جعل السيول التى تجتاح مكة بين الحين والآخر تؤثر على متانة الكعبة حتى كادت أن تنهار ، فقررت قريش إعادة بناء الكعبة بناءً متينًا يصمد أمام السيول، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من الروم فتحطمت، فأخذوا خشبها فأعدوه لسقفها، وكان بمكة رجل قبطى نجار، وذلك بعد الفجار بخمس عشرة سنة[١٠].

ويروى الأزرقى بسنده عن الزهرى: "لما بلغ رسول الله ﷺ الحلم، أجمرت امرأة من قريش الكعبة، فطارت شرارة من جمرتها فى ثياب الكعبة فاحترقت، فَوَهَى البيت للحريق الذى أصابه، فتشاغلت قريش فى هدم الكعبة، فهابوا هدمها، فقال لهم الوليد بن المغيرة: أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل نريد الإصلاح. قال: فإن الله لا يهلك المصلحين. قالوا: من الذى يعلوها فيهدمها؟ قال الوليد بن المغيرة: أنا أعلوها فأهدمها. فارتقى الوليد على جدار البيت ومعه الفأس، فقال: اللهم إنا لا نريد إلا الإصلاح. ثم هدم، فلما رأت قريش ما هدم منها، ولم يأتهم ما يخافون من العذاب، هدموا معه، حتى إذا بنوا فبلغوا موضع الركن، اختصمت قريش فى الركن: أى القبائل تلى رفعه؟ حتى كاد يشتجر بينهم، فقالوا: تعالوا نحكم أول من يطلع علينا من هذه السكة. فاصطلحوا على ذلك، فطلع رسول الله .... عليه وشاحا نمرة، فحكموه، فأمر بالركن فوضع فى ثوب، ثم أمر سيد كل قبيلة فأعطاه ناحية الثوب، ثم ارتقى وأمرهم أن يرفعوه إليه، فرفعوه إليه، وكان هو الذى وضعه"[١١]. وبمثل هذا الفعل الحكيم جمع النبى ﷺ قبائل



قريش على قلب رجل واحد، ونالت كل قبيلة شرف وضع الحَجَر، ونال صلى الله عليه وسلم الشرف كله بوضعه الحَجَر بيديه، وأخمد نار الحرب التى كادت تشتعل بينهم.

"ثم بنوا عليه، حتى انتهوا إلى موضع الخشب، فكان خمسة عشر جائزًا[١٢] سقفوا البيت عليه، وبنوه على ستة أعمدة، وأخرجوا الحِجْرَ من البيت. وحكى أن ارتفاع الكعبة كان من عهد إسماعيل تسعة أذرع، ولم يكن لها سقف، فلما بنتها قريش زادوا فيها تسعة أذرع، ورفعوا بابها عن الأرض، ليدخلوا من شاؤوا ويمنعوا من شاؤوا[١٣]".

وكانت قريش قد عزمت على بناء الكعبة من حلال أموالها، وجمعت لهذا الأمر ما استطاعت، إلا أن النفقة قد قصرت بهم عن إتمام بناء الكعبة بالمال الحلال الخالص، فأخرجوا الحِجْرَ من البناء، ووضعوا علامة تدل على أنه من الكعبة، ففى صحيح البخارى عن عائشة رضى الله عنها: أن النبى ﷺ قال لها: «يا عائشة، لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية لأمرت بالبيت، فهدم، فأدخلت فيه ما أخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: بابا شرقيا، وبابا غربيا، فبلغت به أساس إبراهيم»، فذلك الذى حمل ابن الزبير رضى الله عنهما على هدمه[١٤].

بناء ابن الزبير ﷺ:

لما احترقت الكعبة وتصدَّع بنيانها نتيجة رميها بالحجارة والمنجنيق من قبل جند الأمويين بقيادة الحصين فى قتاله لابن الزبير لما تحصن بالكعبة هو وأصحابه قرر ابن الزبير ﷺ أن يعيد بناء الكعبة على نحو ما أخبر رسول الله ﷺ فى حياته، فقام بهدمها، وأعاد بناءها، وزاد فيها ما قصرت عنه نفقة قريش.

ففى صحيح البخارى أن يزيد بن رومان قال: شهدت ابن الزبير حين هدمه وأدخل فيه من الحِجْر، ورأيت أساس إبراهيم حجارة كأسنمة الإبل[١٥]".

وفى رواية: أنَّ النبى ﷺ قال لعائشة - رضى الله عنها - «هلمى لأريك ما تركوا منه» فأراها قريبًا من سبعة أذرع[١٦]".

ويقال إن ابن الزبير أدخل عشرة من مشايخ الصحابة حتى سمعوا ذلك منها، ثم أمر بهدم الكعبة، فاجتمع إليه الناس وأبوا ذلك، فأبى إلا هدمها، فخرج الناس إلى فرسخ خوفًا من نزول عذاب وعَظُم ذلك عليهم ولم يكن إلا الخير، وبناها

على ما حكت عائشة وتراجع الناس"[١٧].

بناء الحجاج للكعبة:

عندما جاء الحجاج إلى مكة لقتال ابن الزبير سنة ٧٣هـ/٦٩٢م "تحرم ابن الزبير بالكعبة فأمر بوضع المنجنيق على أبى قبيس وقال: ارموا الزيادة التى ابتدعها هذا المكلف، فرموا موضع الحطيم، وأخرج ابن الزبير، وصلبه ورد الحائط، كما كان فى القديم، وأخذ بقية الأحجار، فسد منها الباب الغربى، ورصف بقيتها فى البيت كيلا تضيع"[١٨].

ويقول البكرى: "فكل شيء منها اليوم بناء ابن الزبير إلا الجدار الذى فى الحجر، فإنه بناه الحجاج، والمرتقى إلى الباب الشرقى الذى يدخل منه اليوم أربع أذرع وشبر، والدرجة التى فى جوف الكعبة اليوم والبابان اللذان عليها من عمل الحجاج أيضًا"[١٩].

محاولات هدم الكعبة:

وقع للبيت الحرام أحداث بينت منزلته ومكانته، وكيف أنه سبحانه وتعالى أعتقه من الجبابرة، فلم يظهر عليه جبار قط، ومن هذه المحاولات التى باءت جميعا بالفشل.

تبع الحميرى: سار تُبّع الأول إلى الكعبة كما يذكر الأزرقى، وأراد هدمها، وخزاعة يومئذ تلى البيت ومكة، فتصدت له وردته على أعقابه.

وعندما جاء تُبّع الثالث أراد هدم البيت، وكان ذلك فى أول زمان قريش، فتقدم إلى البيت ليهدمه ويقيم مكانه بيتًا فى بلاده ليصرف إليه حجاج العرب. وقد حثه على تنفيذ هذا المخطط قوم من هذيل، وإنما فعلوا ذلك حسدًا لقريش على ولايتهم البيت. وعندما تعرض تُبّع ومن معه فى مسيرهم إلى البيت لمصاعب جمة وظلمة شديدة وريح دعا أحبارًا كانوا معه من أهل الكتاب فسألهم فذكروا له أن هذا بيت الله الحرام، لم يرده أحد قط بسوء إلا هلك؛ وهنا أدرك تُبّع خديعة الهذليين فأمر بهم فصلبوا، ثم سار حتى قدم مكة فأقام بها أيامًا ينحر كل يوم مائة بدنة ويطعم الناس، ثم كسا البيت كسوة كاملة وجعل له بابا يغلق بضبه[٢٠].

أبرهة ومحاولته هدم الكعبة:

تعرضت الكعبة فى عام الفيل لمحاولة الهدم من قبل أبرهة عندما بنى كنيسة فى اليمن يقال لها القليس وقال: "لأضيفن إليها حج العرب، فسمع بذلك رجل من بنى كنانة، فدخلها ليلاً، فأحدث فيها، فبلغ ذلك أبرهة، فحلف ليسيرن إلى

الكعبة وليهدمنها، فسار بجنوده، واستصحب الفيل، فلما دنا من مكة، أمر أصحابه بالغارة على نَعَم الناس، فأصابوا إبلا لعبد المطلب، وبعث أبرهة بعض جنوده، فقال: سل عن شريف مكة وأخبره أنى لم آت لقتال، إنما جئت لأهدم هذا البيت. فانطلق، فلقى عبد المطلب، فقال: إن الملك أرسلنى إليك لأخبرك أنه لم يأت لقتال، إلا أن تقاتلوه، إنما جاء لهدم هذا البيت ثم ينصرف عنكم.

فقال عبد المطلب: ما له عندنا قتال، وما لنا به يد أن سنخلى بينه وبين ما جاء له، فإن هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام، فإن منعه، فهو بيته، وإن نخلى بينه وبين ذلك، فوالله ما لنا به قوة. قال: فانطلق معى إلى الملك، فانطلق، فلما دخل على أبرهة، أكرمه وأجله، وقال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟

فقال له الترجمان، فقال: حاجتى أن يرد علىَّ مئتى بعير أصابها. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ولقد زهدت الآن فيك، جئت إلى بيت هو دينك ودين آبائك لأهدمه، فلم تكلمنى فيه وكلمتنى فى إبل أصبتها.

فقال عبد المطلب: أنا رب هذه الإبل، ولهذا البيت رب سيمنعه، فأمر بإبله، فردت عليه، فخرج فأخبر قريشًا وأمرهم أن يتفرقوا فى الشعاب ورؤوس الجبال تخوفًا عليهم من مَعَرَّة الجيش إذا دخل، ففعلوا، وأتى عبد المطلب الكعبة، فأخذ بحلقة الباب وجعل يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا

يا رب فامنع منهمُ حماكا

إنَّ عدُّو البيت من عاداكا

امنَعْهمُ أن يُخْرِبوا قراكا[٢١].

وقد أهلك الله عز وجل أبرهة وجنوده ولم يصب البيت بسوء.

دخول القرامطة مكة بالسيف:

روى البكرى أن أبا الطاهر سليمان ابن الحسن القرمطى صاحب البحرين لما دخل مكة بالسيف، وهو فى تسعمائة رجل، وذلك يوم الإثنين السابع من ذى الحجة سنة سبع عشرة وثلاثمائة/ ٩٢٩م، قتل فى المسجد الحرام نحو ألف وسبعمائة من الرجال والنساء وهم متعلقون بأستار الكعبة، ورحم منهم زمزم وفرش المسجد وما يليه، وقلع الحجر الأسود وأخذ أستار الكعبة وهتك حرمتها... وحمل الحجر إلى بلاده. فرمى الله عز وجل القرمطى فى جسده وطال عذابه وتقطعت أوصاله وأراه الله عز وجل فى نفسه عبرة. وأعيد الحجر فى مكانه

يوم النحر، رده بيده حسن بن المزوق البناء، فكانت غيبته من يوم قلع إلى يوم رد اثنتين وعشرين سنة إلا أربعة أيام. وكان مكانه فارغا يدخل المسلمون أيديهم فيه إلى أن ألقى الله فى قلوب الكفرة رهبة[٢٢].

وصف الكعبة:

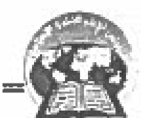
يصف البكرى فى كتابه المسالك والممالك الكعبة بقوله: "أما الكعبة فطولها فى السماء سبع وعشرون ذراعًا، وذرع طولها من وجهها من الركن الأسود إلى الشامى خمس وعشرون ذراعًا، ومن الركن الأسود إلى الركن اليمانى عشرون ذراعًا، وذرع دبرها من الركن اليمانى إلى الغربى خمس وعشرون ذراعًا، ومن الركن الشامى إلى الغربى إحدى وعشرون ذارعًا ، وغِلَظُ جدرانها ذراعان"[٢٣].

ويصف معين الدين ناصر خسرو الحكيم الكعبة بقوله: "وتقع الكعبة فى وسط ساحة المسجد الحرام وهى مستطيل، وبابها شرقى بحيث يكون الركن العراقى على يمين الداخل، وركن الحجر الأسود على يساره، ويسمى ركنها الجنوبى الغربى بالركن اليمانى، وركنها الشمالى الغربى بالركن الشامي. والحجر الأسود مركب على زاوية الحائط فى حجر كبير بحيث إذا وقف رجل طويل القامة يكون مقابلا لصدره . وطول هذا الحجر شبر وأربعة أصابع وعرضه ثمانية أصابع وهو مستدير الشكل وبينه وبين باب الكعبة أربع أذرع ويسمى ما بينهما الملتزم.

ويرتفع باب الكعبة عن الأرض أربع أذرع بحيث إذا وقف رجل مديد القامة على الأرض يصل إلى عتبته، وقد صنع سلم من الخشب يضعونه وقت الحاجة أمام الباب فيصعد عليه الناس ويدخلون الكعبة ... وأرض الكعبة عالية بهذا المقدار.

وباب الكعبة باب مصنوع من خشب الساج له مصراعان، ارتفاعه ست أذرع ونصف ذراع وعرض كل من مصراعيه ذراع وثلاثة أرباع الذراع، فعرضهما معًا ثلاث أذرع ونصف، وعلى صدر الباب وأعلاه كتابة، كما أن عليه دوائر زخرفية من فضة وكتابات منقوشة بالذهب والفضة.

ويبلغ سمك حائط الكعبة ستة أشبار وأرضها مغطاة بالرخام الأبيض. وبالكعبة ثلاث خلوات صغيرة كأنها



دكاكين إحداها تقابل الباب والأخريان على الجانب الشمالى. والأعمدة التى بالكعبة والتى أقيم عليها السقف كلها من خشب الساج المربع إلا عمودًا واحدًا مدورًا، وفى الجانب الشمالى قطعة مستطيلة من الرخام الأحمر يقال: إن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يصلى عليها، ويجتهد كل من يعرف ذلك أن يصلى هناك، وقد غطيت حوائط الكعبة بألواح الرخام الملون، وعلى الجانب الغربى منها ستة محاريب من الفضة ألصقت بالحائط بمسامير ويبلغ ارتفاع كل منها قامة الرجل، وهى مزينة بنقوش كثيرة من الذهب والفضة، وهى مرتفعة عن الأرض، وحوائط الكعبة الأربعة حتى أربعة أذرع من الأرض خالية من النقوش، وأما بعد ذلك إلى السقف فمزينة بالرخام المنقوش والموشَّى أغلبه بالذهب وفوق كل من الخلوات الثلاث، فوق كل ركن منها، لوحان من الخشب مثبتان على الحائط بمسامير من فضة؛ وهى ألواح من خشب سفينة نوح عليه السلام طول كل منها خمس أذرع وعرضه ذراع واحد.

وقد أسدل على الخلوة التى خلف الحجر الأسود ستار من الديباج الأحمر، وحين يدخل السائر فى الكعبة يجد على اليد اليمنى زاوية مربعة بمقدار ثلاث أذرع فى مثلها، وهناك سلم يؤدى إلى سطح الكعبة عليه باب من الفضة له مصراع واحد يسمى باب الرحمة وعليه قفل من الفضة، فإذا صار فوق سطح الكعبة يجد بابًا آخر مثل الباب السابق منقوشًا بالفضة على وجهيه، وقد غطى سقف الكعبة بالخشب المغطى بالحرير الذى يحجبه عن الأنظار، وعلى حائط الكعبة الأمامى فوق العمد الخشبية كتابة ذهبية فيها اسم العزيز بالله سلطان مصر الذى استولى على مكة من الخلفاء العباسيين، وعلى الحائط أربعة ألواح أخرى كبيرة من الفضة متقابلة ومثبتة بمسامير من فضة، وعلى كل لوح منها اسم السلطان الذى أرسله من سلاطين مصر، وكان كل منهم يرسل لوحا فى عهده، وبين الأعمدة ثلاثة قناديل فضية معلقة، وبلاط سطح الكعبة من الرخام اليمنى الذى يلمع كأنه البلور، وفى أركانها أربع روازن على كل منها لوح من الزجاج؛ لينفذ منه النور ولمنع تسرب المطر، والميزاب فى وسط الحائط الشمالى وطوله ثلاث أذرع وكله مطلى بالذهب"[٢٤].

ويصف البكرى الحِجْر فيقول:

"الحَجْر كنصف دائرة مفروش الصحن بالرخام، وهو من الركن الشامى إلى الركن الغربى، وله باب مما يلى الركن الشامى وباب مما يلى الركن الغربى، وعرضه من جدار الكعبة الذى تحت الميزاب إلى جدار الحجر سبع عشرة ذارعًا وثمانية أصابع، وذرع ما بين بابيه عشرون ذارعًا ، وعرضه اثنتان وعشرون ذراعًا ، وتدويره من داخله ثمان وثلاثون ذارعًا ومن خارجه أربعون ذراعًا ، وارتفاع جداره ذراع واحد وعرضه ذراعان إلا إصبعين "[٢٥].

كما يصف مقام إبراهيم عليه السلام فيقول: "المقام مربع مستطيل له ثمانية وجوه، فذرع رأسه أربعة عشر إصبعًا فى مثلها وعرض طوله أحد وعشرون إصبعًا ، وهو مطوق بالذهب، وأثر القدم فى أحد وجوهه الطوال"[٢٦].

سدانة الكعبة:

لما دخل النبى ﷺ مكة يوم الفتح طلب المفتاح، فجيء بالمفتاح وأخذ المفتاح من عثمان بن طلحة- وكان سادن الكعبة - فدخل رسول الله البيت وصلى فيه ركعتين. يذكر ابن سيد الناس فى كتابه عيون الأثر: "ولما نزل رسول الله ﷺ واطمأن الناس، خرج حتى جاء البيت، فطاف به سبعًا على راحلته، يستلم الركن بمحجن فى يده، فلما قضى طوافه دعا عثمان بن طلحة ، فأخذ منه مفتاح الكعبة ففتحت له، فدخلها فوجد بها حمامةً من عيدان، فكسرها بيده ثم طرحها ، ثم وقف على باب الكعبة فقال: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده... ثم جلس فى المسجد ، فقام إليه "على" ومفتاح الكعبة فى يده، فقال: يا رسول الله، اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمان ابن طلحة؟ فَدُعِىَ له، فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء» .

وروينا عن عثمان بن طلحة من طريق ابن سعد قال: كنا نفتح الكعبة فى الجاهلية يوم الاثنين والخميس، فأقبل (يعنى النبى ﷺ) يومًا يريد أن يدخل الكعبة مع الناس فغلظت عليه ونلت منه وحلم عنى ثم قال: «يا عثمان لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت». فقلت: لقد هلكت قريش يومئذ وذلت، فقال: بل عمرت وعزت يومئذ» ودخل الكعبة ، فوقعت كلمته منى موقعًا ظننت يومئذ أن الأمر سيصير إلى ما قال. وفيه أنه عليه السلام قال له يوم الفتح: يا

عثمان، أن أتني بالمفتاح، فأتيته به، فأخذه مني ثم دفعه إليَّ وقال: «خذوها تالدةً خالدةً، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يا عثمان إن الله استأمنكم على بيته، فكلوا ما يصل إليكم من هذا البيت بالمعروف» . قال عثمان: فلما وليت ناداني فرجعت إليه فقال: «ألم يكن الذى قلت لك» ؟ قال: فذكرت قوله لى بمكة قبل الهجرة: «لعلك سترى هذا المفتاح يومًا بيدى أضعه حيث شئت» فقلت: بلى، أشهد أنك رسول الله ﷺ[٢٧].

كسوة الكعبة:

كان أول من كسا الكعبة أسعد الحميرى وهو تبع. وقد كساها الأنطاع وهى أكسية من الجلد. ثم كساها أبو زمعة بن المغيرة - زمنَ قريش- بالحِبَرة الجيدة؛ وهى كسوة يمانية، وظل يكسوها إلى أن مات.

وأول عربية كست الكعبة الحرير والديباج: بتيلة بنت حباب أم العباس بن عبد المطلب.

وعن أبى حنيفة قال: كُسِيَ البيت فى الجاهلية الأنطاعَ، ثم كساه النبى ﷺ الثياب اليمانى، ثم كساه عمر وعثمان - رضى الله عنهما - القباطى، ثم كساه الحجاج الديباج.

ويقال: أول من كساه الديباج يزيد بن معاوية، ويقال: ابن الزبير، ويقال: عبد الملك بن مروان.

وكانت الكعبة تُكْسَىَ فى كل سنة كسوتين: كسوة ديباج، وكسوة قباطى، فأما الديباج، فتكساه يوم التروية، فيعلق القميص ويدلى ولا يخاط، فإذا صدر الناس من منى، خيط القميص وترك الإزار حتى يذهب الحاج لئلا يخرقوه، فإذا كان العاشور، علق الإزار فوصل بالقميص، فلا تزال هذه الكسوة كسوة الديباج عليها إلى يوم سبع وعشرين من رمضان، فتكسى القباطى للفطر.

فلما كانت خلافة المأمون، رفُعَ إليه أن الديباج يبلى ويتحرق قبل أن يبلغ عيد الفطر، ويرقع حتى يسمج، فسأل مبارك الطبرى مولاه، وهو يومئذ على بريد مكة وصوافها: فى أى الكسوة الكعبة أحسن؟ فقال له: فى البياض، فأمر بكسوة من ديباج أبيض، فعملت سنة ست ومائتين / ٨٢١م، وأرسل بها إلى الكعبة، فصارت الكعبة تكسى ثلاث كُسًا: الديباج الأحمر يوم التروية، والقباطى يوم هلال رجب، وجعلت كسوة الديباج التى أحدثها المأمون يوم

سبع وعشرين من رمضان للفطر. ثم رفع إلى المأمون أن إزار الديباج الأبيض يتخرق فى أيام الحج من مس الحاج قبل أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر الذى يخاط فى العاشور، فبعث بفضل إزار ديباج أبيض تكساه يوم التروية أو يوم سابع، فيستر به ما تخرق من الإزار الذى كسته للفطر إلى أن يخاط عليها إزار الديباج الأحمر،

ثم رفع إلى المتوكل أن إزار الديباج الأحمر يبلى قبل هلال رجب من مس الناس، فزادها إزارين مع الإزار الأول، وذلك فى سنة أربعين ومائتين/٨٥٤م، ثم كتب الحَجَبَةُ أن إزارا واحدا مع ما أزيل من قميصها يجزئها، فصار يبعث بإزار واحد[٢٨].

أ/ أبو مسلّم عبد العزيز أبو العطا

الهوامش :

(١) المستدرك على الصحيحين للحاكم ٤٢١/٢ وقال: صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه.

(٢) مثير العزم ٣٤٦/١.

(٣) البلدان لابن الفقيه ص٧٦.

(٤) تاريخ الطبرى ٢٥٤/١.

(٥) مثير العزم ٣٥٤/١. وانظر سيرة ابن إسحاق ص٩٤.

(٦) تفسير الطبرى المسمى جامع البيان ٦٨/٣.

(٧) تاريخ الرسل والملوك ٢٣٥/١.

(٨) مثير العزم ٣٥٤/١. وانظر سيرة ابن إسحاق ص٩٤.

(٩) المسالك والممالك للبكرى ٣٨٨/١.

(١٠) خلاصة سيرة سيد البشر ص٤٠ بتصرف.

(١١) أخبار مكة للأزرقى ١٥٨/١- ١٥٩.

(١٢) الجائز: الخشبة المعترضة بين الحائطين. انظر القاموس المحيط، مادة (جوز).

(١٣) المختصر الكبير فى سيرة الرسول ص٣٢. وانظر مثير العزم ٣٥٤/١- ٣٥٥ بتصرف، وخلاصة سيد البشر ص٤٠، وسيرة ابن إسحاق ص١٠٨.

(١٤) صحيح البخارى ١٤٧/٢ كتاب الحج باب فضل مكة وبنيانها حديث رقم ١٥٨٦.

(١٥) سبق تخريجه.

(١٦) صحيح الإمام مسلم ٩٧١/٢ كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها.

(١٧) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ص٧٤.

(١٨) أحسن التقاسيم ص٧٤- ٧٥

(١٩) المسالك والممالك للبكرى ٣٩٠/١.

(٢٠) أخبار مكة للأزرقى: ١٣٢/١- ١٣٤ بتصرف .

(٢١) مثير العزم ٣٨٢/١- ٣٨٣ بتصرف.

(٢٢) المسالك والممالك للبكرى ٤٠٤/١- ٤٠٥.

(٢٣) المسالك والممالك ٣٩١/١.

(٢٤) سفر نامه ص١٢٦- ١٣١ بتصرف.

(٢٥) المسالك والممالك للبكرى ٣٩٢/١.

(٢٦) المصدر نفسه ٣٩٢/١.

(٢٧) عيون الأثر ٢٢٦/٢- ٢٢٧.

(٢٨) مثير العزم ٣٦٠/١- ٣٦٣.

مصادر للاستزادة:

١ـ الأزرقى (أبو الوليد محمد بن عبد الله المكى. ت: ٢٥٠هـ/) : أخبار مكة وما جاء فيها من الاثار . تحقيق رشدى الصالح ملحس. دار الأندلس للنشر. بيروت.

٢ـ ابن الفقيه الهمدانى (أبو عبد الله أحمد بن محمد بن إسحاق. ت: ٣٦٥هـ) : البلدان. تحقيق يوسف الهادى. عالم الكتب. بيروت١٩٩٦م.

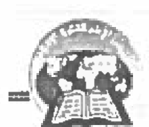
٣ـ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير . ت ٣١٠هـ) : تاريخ الرسل والملوك. دار التراث. بيروت ١٣٨٧هـ .

٤ـ البكرى (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد الأندلسى. ت٤٨٧هـ) : المسالك والممالك. دار الغرب الإسلامى ١٩٩٢م .

٥ـ البخارى (محمد بن إسماعيل . ت ٢٥٦هـ): صحيح البخارى. تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر . دار طوق النجاة ١٤٢٢هـ.

٦ـ ابن الجوزى (أبو الفرج عبد الرحمن . ت : ٥٩٧هـ): مثير العزم الساكن إلى أشرف الأماكن. تحقيق مرزوق على إبراهيم . دار الراية ١٩٩٥م.

٧ـ أبو معين الدين ناصر خسرو المروزى. ت: ٤٨١هـ) : سفر نامه. تحقيق الدكتور يحيى الخشاب دار الكتاب الجديد. بيروت ١٩٨٣م .



المؤاخـــاة

الأخ من النسب معروف، وهو: ما ولد من الأب والأم أو من أحدهما، وقد يطلق على الصديق والصاحب تجاوزًا. والجمع إخوان وإخوة، وآخى الرجل مؤاخاة وإخاء، ووخاء، والاسم الأخوة.

وفى الأثر أن النبى ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، أى ألّف بينهم بأخوة الإسلام والإيمان.والإخاء والمؤاخاة والتآخى هو : اتخاذ الإخوان.

وفى صفة أبى بكر: "لو كنت متخذًا خليلا لاتخذتُ أبا بكر خليلا، ولكن أخوة الإسلام". كما قال النبى ﷺ. وتآخى الرجل: اتخذه أخًا [1].

والمقصود بالمؤاخاة هنا أُخُوَّةُ الإسلام، أى إحلال الإسلام محل النسب فى الإخاء بين المهاجرين والأنصار، وهو ما فعله النبى ﷺ فى يثرب بعد الهجرة.

الإخاء الإسلامى:

هو الأصل الأصيل فى بناء دولة الإسلام وقيام الأمة الإسلامية.

ومؤمنو مكة –على اختلاف قبائلهم – ما عرفنا لهم اسمًا فى التاريخ، إلا المهاجرين .

ومؤمنو المدينة، على- اختلاف قبائلهم- ما عرفنا لهم اسمًا فى التاريخ إلا الأنصار. وكانوا قبلها فرقاء متشاكسين، فإذا بالفرقاء المتشاكسين أمة ودولة [2].

والإسلام لم يكتف بإطلاق اسم المهاجرين على المؤمنين من أهل مكة المهاجرين إلى المدينة. ولم يكتف أيضًا بإطلاق اسم الأنصار على قبيلتى الأوس والخزرج "أبناء قيلة" الذين دخلوا فى الإسلام. مع أن إطلاق الأنصار والمهاجرين كافٍ لإزالة كل ما يؤدى إلى التعصب. لكن نعتوا جميعًا بالصادقين والمفلحين.

ولهذا بدأ رسول الله ﷺ فى البناء الأخوى الكامل ليقيم دولة الإسلام على أساس سليم.

قال ابن إسحاق: وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه، من المهاجرين والأنصار. فقال فيما بلغنا: **"تآخوا فى الله أخوين أخوين"** [3].

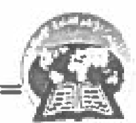
قال ابن القيم: آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار على المواساة، والتوارث بعد الموت دون ذوى الأرحام، فلما أنزل الله - بعد بدر- ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ (الأنفال: ٧٥) نسخ التوارث دون عقد الأخوة[٤].

ومعنى هذا الإخاء أن تذوب العصبيات الجاهلية، فلا حمية إلا الإسلام، وأن تسقط فوارق النسب واللون والوطن، فلا يتقدم أحد أو يتأخر إلا بمروءته وتقواه، وقد جعل النبى ﷺ هذه الأخوة عقدًا نافذًا، لا لفظًا فارغًا، وعملاً يرتبط بالدماء والأموال، لا تحية تثرثر بها الألسنة ولا يقوم لها أثر، وكانت عواطف الإيثار والمواساة والمؤانسة تمتزج فى هذه الأخوة وتملأ المجتمع الجديد بأروع الأمثال[٥].

فقد روى البخارى أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لعبد الرحمن: إنى أكثر الأنصار مالاً، أقسم مالى نصفين، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لى، أُطلّقها، فإذا انقضت عدتها تتزوجها، فقال له عبد الرحمن: بارك الله لك فى أهلك ومالك، أين سوقكم؟ فدلوه على السوق، فما انقلب إلا ومعه فضل من أقط وسمن، ثم تابع الغد، ثم جاء يومًا وبه أثر صفرة، فقال النبى ﷺ: «فيم يا عبد الرحمن؟» قال: يا رسول الله تزوجت امرأة من الأنصار. قال: كم سقت إليها؟ قال: وزن نواة من ذهب، فقال النبى ﷺ: «أو لِمْ ولو بشاة»[٦].

قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩).

لقد بلغ المسلمون الأوائل فى الإيثار -بكل ما تحمله كلمة إيثار من معنى ومفهوم- بلغوا درجة عليا، بما وقر فى قلوبهم من إيمان، وبما أشرق فى نفوسهم من يقين؛ أن قوة الإيمان، والتصديق برسوله ﷺ تجعل النفس الإنسانية تشرق بالكثير من صفات الخير، وتتخلق بالآداب والفضائل العظيمة، ولقد صنع ذلك الإيمان، وهذا التصديق، جماعة اصطبغ سلوكهم بالشمائل الجليلة. فكانوا يؤثرون إخوانهم بأموالهم وديارهم على أنفسهم ويتنازلون عن



قسمهم فى الغنائم من أجلهم، ويقدمون حاجة إخوانهم على حاجتهم، حبًا لهم، ورغبة فى أخوّتهم"[٧].

والذين سكنوا المدينة، وأُشْرِبَتْ قلوبهم حُبَّ الإيمان، من قبل هجرة أولئك المهاجرين. لهم صفات كريمة، وشيم جليلة، تدل على كرم النفس، ونبل الطباع[٨].

ولذا كانوا يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدأون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك، وهؤلاء تصدَّقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وهؤلاء آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجاتهم إلى ما أنفقوه[٩].

وجاء فى الأثر أن رسول الله ﷺ قسم أموال بنى النضير على المهاجرين، ولم يعط الأنصار إلا ثلاثة نفر: أبا دُجانة (سماك بن خَرَشَة) وسهل بن حنيف، والحارث بن الصمَّة.

وقال لهم: **«إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم فى هذه الغنيمة. وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يُقسم لكم شىء من الغنيمة»**.

فقالت الأنصار: "بل نقسم لهم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة دوننا ولا نشاركهم فيها"[١٠].

وقال رسول الله ﷺ للأنصار: **«إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم»**. فقالوا: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: **«أو غير ذلك»**؟. قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: **«هم قوم لا يعرفون العمل فتكفونهم إياه وتقاسمونهم الثمر»**. فقالوا: نعم يا رسول الله، نكفيهم العمل ونقاسمهم الثمر[١١].

وعن أبى هريرة ﷺ قال: "قالت الأنصار للرسول ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل. فقال الرسول: لا. قال المهاجرون: أتكفوننا المؤونة ونشارككم فى الثمرة؟ قالوا: سمعنا وأطعنا"[١٢].

نعم. إن الإيمان الصادق، إذا صادف قلوبًا هُيِّئت له، تمكن فيها ونما وترعرع، وأشرقت آثاره على من حولها. وسعى أصحاب هذه القلوب المؤمنة فى بذل كل ما يُرْضِى من حولهم من المسلمين، وكان أصحاب رسول الله ﷺ من خيرة من تمسك بفضيلة الإيثار. حرصًا على أخوة الإسلام، وتوددًا فى ظلال الإيمان.

قال تعالى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾

(الفتح: ٢٩)

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ ﴾ (الأنفال: ٧٥).

وقد أجرى الرسول ﷺ عقد المؤاخاة هذا فى دار أنس بن مالك، وقد اشتملت هذه المؤاخاة تسعين رجلاً: خمسة وأربعين من المهاجرين، وخمسة وأربعين من الأنصار[١٣]؛ لأن المهاجرين جاءوا إلى المدينة لا مال لديهم ولا مسكن لهم، فكان من الضرورة الملحَّة أن يبحث لهم النبى ﷺ عمن يُؤويهم فى بيوتهم ويشركهم فى معايشهم، حتى تستقر أوضاعهم، وتأنس قلوبهم، بعد الوحشة الشديدة التى فرضها عليهم مشركو مكة، ولم يبخل الأنصار على إخوانهم المهاجرين بشىء، بل آثروهم على أنفسهم رغم خصاصتهم وحاجتهم - كما أسلفنا- وهذا يدل على ما كان عليه الأنصار من الحفاوة بإخوانهم المهاجرين، كما يدل على ما كان عليه المهاجرون من تقدير لهذا الكرم حق قدره، فلم يستغلوه ولم ينالوا منه إلا بقدر ما يقيم أودهم، وحقًّا كانت هذه المؤاخاة حكمة فذة، وسياسة حكيمة، وحلاً رائعًا لكثير من المشاكل التى كان يواجهها المسلمون فى المدينة[١٤].

ولتأكيد هذه المؤاخاة كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار عُرِف بميثاق التحالف الإسلامى؛ وهذه بنوده ملخصة:

١- هذا كتاب من محمد النبى ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب، ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

٢- إنهم أمة واحدة من دون الناس.

٣- والمهاجرون من قريش على رِبْعتهم يتعاقلون بينهم، وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وبنو عوف (الأنصار) على ربعتهم، يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤- وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحًا[١٥] بينهم أن يعطوه بالمعروف من فداء أو عقل، وألا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

٥- وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم، أو ابتغى دسيعة (عطية) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين، وإن أيديهم عليه جميعًا، ولو كان ولد أحدهم.

٦- ولا يقتل مؤمن مؤمنًا فى كافر، ولا ينصر كافرًا على مؤمن.

٧ـ وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس.

٨ـ وإنَّ من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

٩ـ وإن سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم، وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضًا.

١٠ـ وإن المؤمنين يُبئ بعضهم عن بعض (أى دم بعضهم كفؤ لدم البعض) بما نال دماءهم فى سبيل الله.

١١ـ وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسًا، ولا يحول دونه على مؤمن.

١٢ـ وإنه من اعتبط مؤمنًا قتلا (قتله بلا جناية توجب قتله) عن بيِّنة، فإنه قود به إلا أن يرضى ولى المقتول بالعقل، وإن المؤمنين عليه كافة، ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٣ـ وأنه لا يحل لمؤمن أقرًّ بما فى هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثًا أو يؤويه، وإن من نصره أو آواه، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

١٤ـ وإنه مهما اختلفتم فيه من شىء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ[١٦].

وقد كتبت هذه الوثيقة بعد غزوة بدر الكبرى، أما وثيقة اليهود فقد كتبت قبلها (بعد وصول النبى ﷺ إلى المدينة بخمسة شهور فقط)، ومع ذلك فقد ذكرهما ابن هشام فى وثيقة واحدة، وجرى على ذلك أكثر المؤرخين على الرغم من أنهما وثيقتان كتبتا فى زمانين مختلفين[١٧].

أ.د/ عبد الله إبراهيم راجح

الهوامش:

(١) انظر ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٤٠- ٤٢. طبعة دار المعارف – القاهرة سنة ١٩٨٦م.

(٢) مجلة البحوث الإسلامية العدد الأول، ص١٦ الرياض .

(٣) سيرة النبى لابن هشام: ج١، ص٤٥٥. طبعة القاهرة. د.ت .

(٤) ابن القيم: زاد المعاد، ج٢، ص٥٦. طبعة بيروت، وانظر: د. محمد لقمان السلفى: الصادق الأمين، ص٢٩٥. طبعة الرياض، ١٤٢٧هـ .

(٥) انظر: محمد الغزالى: فقه السيرة، ص١٤٠- ١٤١. طبعة القاهرة، سنة ١٩٨٦م.

(٦) أبو عبد الله البخارى صحيح البخارى: ج١، ص٥٥٣، طبعة الهند ١٣٨٧هـ، والمباركفورى: الرحيق المختوم، ص١٩١، طبعة مكة المكرمة، ١٤٢٢هـ، د. محمد السلفى: مرجع سابق، ص٢٩٤.

(٧) الدين والحياة. ع ١١٩، ص٦. وزارة الأوقاف المصرية، وأحمد عبد الرحيم السايح: الهجرة، ص٩٨- ١٠٠، طبعة القاهرة، سنة ١٩٧٨م.

(٨) المراغى: تفسير القرآن، ج٢٨، ص٣٤، طبعة القاهرة، سنة ١٩٣٧م .

(٩) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ج٤، ص٣٣٨. بتصرف طبعة دار الحديث. القاهرة ، سنة ١٩٩٤م.

(١٠) الزمخشرى: الكشاف، ج٤، ص٨٤، طبع القاهرة، سنة ١٩٥٣م .

(١١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، ج٣٣٨،٤. والحديث رواه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (البخارى: الصحيح، ج١، ص٥٥٣) .

(١٢) تفسير القرآن العظيم. لابن كثير، ج٤، ص٣٣٧. والحديث رواه البخارى فى: الصحيح: ج١، ص٣١٢ .

(١٣) لم يحصل بعض المهاجرين الفقراء بعد مجيئهم إلى المدينة على عمل يدِرّ عليهم لقمة العيش، كما لم يجدوا لهم مأوى، خاصةً من تدفق منهم- بعد عقد المؤاخاة- على يثرب- وكثير منهم لم يكن لديه خبرة بالزراعة (حرفة أهل المدينة) ولم يكن لديه مال ليتاجر به. ولم ينس النبى ﷺ هؤلاء، فلما تحولت القبلة إلى الكعبة، وبقى حائطها فى مؤخرة المسجد النبوى، أمر النبى ﷺ بتظليله وتسقيفه وأسماه الصُّفّة، وأنزل فيها الفقراء وغرباء المسلمين، وكل من طلب حياة الزهد، وأجرى عليهم النبى ﷺ والمسلمون الأرزاق، فعاشوا وتفرغوا للعبادة وتحصيل العلم من النبى ﷺ، فلما جاء وقت الجهاد أسهموا فيه. انظر د. محمد السلفى: الصادق الأمين، ص١٩٥- ١٩٦.

(١٤) انظر: المباركفورى: الرحيق المختوم، ص١٩١.

(١٥) المُفْرَح هو المثقل من الدين والعيال. انظر سيرة ابن هشام .

(١٦) انظر نص الوثيقة فى: ابن هشام السيرة، ج١، ص٤٥٢- ٤٥٣، ود. محمد السلفى: الصادق الأمين، ص٢٩٩- ٣٠١.

(١٧) انظر: أكرم ضياء العمرى: المجتمع مع المدنى فى عهد النبوة، ص١٠٧، وما بعدها. (طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة) سنة ١٤٢٢هـ.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. سيرة ابن هشام.

٢. فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى، طبع القاهرة، سنة ١٩٨٦م.

٣. المجتمع المدنى فى عهد النبوة للدكتور أكرم ضياء العمرى، طبع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة ١٤٢٢هـ.

المرابطون

شهد المغرب الأقصى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى حركة دينية هى حركة المرابطين التى انبثقت فى الصحراء جنوبى المغرب الأقصى وغيّرت من وجه الحياة فى شتى صورها، سياسية كانت أم إدارية أم اقتصادية أم اجتماعية وامتد تأثير حركة المرابطين إلى الأندلس حيث خضعت لسلطة المرابطين.

وقد نمت وازدهرت دعوة المرابطين فى ديار الملثمين أبناء صنهاجة بفضل الفقيه المالكى عبد الله بن ياسين الذى وفد على المنطقة فاصطحبه زعيم قبيلة جدالة يحيى بن إبراهيم الجدالى عقب عودته من الحج ومروره بالقيروان وشاهد يحيى الجدالى الحركة العلمية ومجالس العلم فى القيروان، وقارن بين هذه النهضة العلمية وحياة الجهل والظلام التى تفشت بين عشيرته ومواطنيه من جدالة؛ ومن ثم أحس يحيى بحاجة مواطنيه إلى فقيه يعلمهم أحكام الإسلام الصحيح، وبعد عدة محاولات نجح يحيى الجدالى فى اصطحاب الفقيه عبد الله بن ياسين الخردلى إلى مضارب جدالة. وعبد الله بن ياسين أصلا من أبناء الصحراء من قبيلة جزولة إحدى بطون جدالة، ومسقط رأسه قرية تسمى" تماما تاوت " فى طريق صحراء غانة من غرب إفريقيا[1].

فرحت قبيلة جدالة بمجىء الفقيه ابن ياسين، إلا أن فترة الترحيب لم تستمر طويلاً وذلك حين بدأ ابن ياسين تغيير العادات التى ألفوها من الانهماك فى الملذات وجهلهم بأحكام الدين وذلك حين فرض عليهم تعاليم الإسلام التى تخالف ما درجوا عليه؛ ومن هنا نشأت الجفوة والإعراض عن ابن ياسين وخاصة فى صفوف الزعماء والنبلاء الذين هاجموا ابن ياسين وهدموا داره فاضطر ابن ياسين إلى الرحيل عن مضارب جدالة إلى جزيرة منعزلة بحوض السنغال وصحبه بعض مريديه وعلى رأسهم يحيى الجدالى.

وفى هذه الجزيرة المنعزلة التى اتخذها رباطًا له ولأتباعه كان الدور الإيجابى فى تأسيس الدعوة ونشرها وإعداد مريديه إعدادًا دينيًا صارمًا، وأقبل عليه أبناء الصحراء للانخراط فى رباطه حتى إذا كثر أتباعه وصاروا منفذين لأوامره

أطلق عليهم لقب "مرابطين". واختلف المؤرخون فى سبب هذه التسمية؛ فابن أبى دينار يعلل ذلك بسبب ملازمتهم للرباط الذى بناه[٢]، ومنهم من أرجع هذه التسمية إلى شدة صبرهم وحسن بلائهم فى المعارك[٣].

ثم انتقل ابن ياسين بأتباعه من الدور النظرى لدعوته إلى دور التطبيق والتنفيذ حين أعلن عن ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك فى النداء الذى وجهه إلى رؤسائهم: "يا معشر المرابطين إنكم جمع كثير وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراط مستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده". وقد بيّن لهم ابن ياسين ووضح كيفية تبليغ الدعوة: "اخرجوا على بركة الله وأنذروا قومكم وخوفوهم عقاب الله وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم؛ وإن أبوا من ذلك وتمادوا فى غيّهم ولجّوا فى طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين".

انطلقت جموع المرابطين نحو قبائل الصحراء تنشر المبادئ الإسلامية الصحيحة بين صفوف البربر، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر. وتَرَكّزَ نشاط المرابطين فى البداية بين شعب صنهاجة الذى ضم عدة قبائل، وكانت أعدادهم كثيرة مما دفع ابن خلدون إلى القول: "لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أول البربر"[٤].

ويهمنا هنا الإشارة إلى التعريف بالقبائل المؤسسة لدولة المرابطين، ويأتى فى مقدمتها: قبيلة لمتونة وهى إحدى قبائل صنهاجة والتى كانت تتمتع بمكانة مرموقة بين القبائل الأخرى إذْ كانت لها الزعامة والسيطرة على غيرها من القبائل. وأما مواطنهم فتمتد من وادى نون على المحيط الأطلسى حتى رأس بوجادور الحالية، وإلى الشرق من وادى نون تقع مدينة «أزكى» وهى حصن لمتونة ومعقلها، ويبدو أن هذه القبيلة توغلت فى الصحراء شرقًا حتى تدرك الطريق المُوَصِّل بين غانة وسجلماسة. وكان أبناء القبيلة يشتغلون بالرعى ورأس مالهم الأغنام ويعيشون على لحوم



وألبان الأغنام التى يرعونها[٥].

وقد دخلت قبيلة لمتونة فى طاعة المرابطين، ومن ثم عمد ابن ياسين إلى نقل زعامة الدعوة من قبيلة جدالة إلى لمتونة حتى تتمكن الدعوة الناشئة من تثبيت أقدامها، وظلت هذه الزعامة موجودة فى لمتونة متمثلة فى أسرة يوسف ابن تاشفين وأبنائه حتى انتهت دولة المرابطين؛ واحتل أبناء لمتونة أرفع المناصب إذ حرص أمراء المسلمين من بنى تاشفين على أن يولوا مناصب الدولة من أبناء القبائل المؤسسة وعلى رأسها قبيلة لمتونة، وشاركوا فى الحياة الاجتماعية بالبلاد وصاروا يزاولون أنواعًا مختلفة من النشاط سواء أكان زراعيًا أم صناعيًا وتجاريًا، يضاف إلى ذلك انخراطهم فى الحياة العسكرية وقيامهم بعبء كبير فى النشاط العسكرى الذى قام به المرابطون سواء أكان بالمغرب أم الأندلس.

والقبيلة **الثانية** المؤسسة لدولة المرابطين هى قبيلة جدالة إحدى قبائل صنهاجة، وأبناؤها ينتجعون المراعى ويقيمون بالصحراء؛ وكانت مضاربهم تمتد حتى مصب نهر السنغال متخذة مدينة «أوليل» مركزًا لها؛ وقد تحملت قبيلة جدالة عبء الدعوة المرابطية فى مراحلها الأولى بعد مجىء ابن ياسين بصحبة زعيم جدالة يحيى بن إبراهيم الجدالى. وكانت جدالة تتمتع بمركز ممتاز بين القبائل المؤسسة لدولة المرابطين واحتل أبناؤها مراكز هامة فى الدولة فضلا عن اشتراكهم فى الكفاح المسلح للمرابطين.

والقبيلة **الثالثة** المؤسسة لدولة المرابطين هى قبيلة مسوفة وكانت مضاربها تمتد فى منطقة قاحلة مجدبة تقع بين سجلماسة فى الشمال وأودغشت فى الجنوب. وهم يشتغلون بالرعى واعتمادهم فى معيشتهم على لحوم الأغنام وألبانها، فضلا عن سيطرتها على التجارة المارة بين أودغشت فى الجنوب وسجلماسه فى الشمال، وقد شغل بعض أبنائها بعض المراكز الهامة فى الدولة.

والقبيلة **الرابعة** المؤسسة لدولة المرابطين هى قبيلة لمطة، وهى إحدى القبائل الصنهاجية وتعيش فى المنطقة الممتدة من جبال درنة حتى وادى نول القريب من المحيط الأطلسى.

وهذه القبائل الأربع كانت عماد قوة المرابطين فى زحفهم من جنوب الصحراء وانطلاقهم إلى الشمال فى المغرب الأقصى حيث استطاع ولاة الأمر من المرابطين صهر القبائل الوافدة مع غيرها

من القبائل المقيمة بالمغرب الأقصى فى ظل مجتمع المرابطين.

النشاط السياسى والعسكرى:

بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالى فى سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م؛ نقل ابن ياسين السلطة العسكرية من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمتونة وذلك حين اختار يحيى بن عمر اللمتونى قائدًا لجند المرابطين نظرًا لتمتع قبيلة لمتونة بمكانة مرموقة فى مجتمع الملثمين وسيطرتها على طرق التجارة الداخلية مما أكسبها ثروة وغنى؛ وقد تتابع أبناء لمتونة فى السلطة حتى نهاية حكم المرابطين.

وتلبية لاستغاثة فقهاء درعة وسجلماسة بابن ياسين وقواته لإنقاذ البلاد من الفساد والظلم المنتشر بينهم، استجاب المرابطون لهذا النداء سنة ٤٤٧هـ/١٠٥٥م، وذلك تمشيًا مع مبادئهم وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر؛ وكانت البداية لانطلاق المرابطين نحو المناطق الشمالية واستيلائهم على العديد من المدن فى المغرب الأقصى. ثم تولى قيادة المرابطين سنة ٤٤٨هـ/١٠٥٦م، أبو بكر بن عمر بعد استشهاد أخيه الأمير يحيى بن عمر فى الشمال وقد اتجه إلى استكمال غزو بقية القبائل وفيها قبائل برغواطة.

وخلال المعارك أصيب الداعية عبد الله ابن ياسين بجراح خطيرة أدت إلى وفاته سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م، وواصل الأمير اللمتونى نشاطه العسكرى فى المناطق الشمالية بعد أن اتخذ مدينة أغمات عاصمة له، إلا أن ثورة نشبت فى الجنوب اضطرته إلى ترك ابن عمه يوسف ابن تاشفين فى قيادة جند الشمال وعاد إلى الصحراء ببعض الجنود.

وهنا يظهر على مسرح الأحداث الأمير يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين، وقد أشار إلى نسبه ابن أبى زرع بقوله: "هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تركوت بن وارنقطين بن منصور بن مصالة بن أمية ابن واتملى بن تليت الحميرى الصنهاجى اللمتونى من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير، وأمه حرة لمتونية بنت عم أبيه اسمها فاطمة"[٦]. وقد تجمعت فى هذا القائد المرابطى صفات الزعامة والقيادة من نجدة وشجاعة وحزم ومهابة مما جعل قلوب المرابطين تلتفُّ حوله؛ وما إن حلت سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٤م حتى كان يوسف بن تاشفين قد أحكم قبضته على المغرب الأقصى ومكّن لسلطانه السياسى فى البلاد.

ومن الأعمال البارزة للأمير يوسف بن تاشفين انطلاقه إلى الأندلس لإنقاذها من هجمات الفرنج المتواصلة، واستغاثة أهل الأندلس وأمرائها بالمرابطين لإنقاذهم؛ وقد لبى الأمير المرابطى نداء الاستغاثة وانطلق بقواته فى حركة جهاد كبيرة لإغاثة المسلمين فى الأندلس وإنقاذهم وكانت معركة الزلاقة الكبيرة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م ضد الأذفونش وجنوده من الفرنج - كانت معركة رهيبة انتصر فيها المرابطون، وترتب على هذا النصر عدة نتائج أبرزها: تعرّف الأمير يوسف بن تاشفين على حالة التفكك والضعف الذى يعيشه أمراء الطوائف بالأندلس، فضلاً عن هجمات الفرنج المتكررة على مدن الأندلس وما تحدثه من خراب ودمار، ومن ثم اضطر الأمير يوسف بن تاشفين إلى العودة إلى الأندلس فى عدة حملات حتى تم الاستيلاء عليها، وبذلك صارت تابعة لسلطة المرابطين.

وفى سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م، توفى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بعد أن عهد إلى ابنه وولى عهده على بن يوسف بالحكم ووصاه بعدة وصايا منها الحرص على العلاقات الطيبة بينه وبين قبائل المصامدة والمحافظة على المعاهدة المعقودة بين المرابطين وبين بنى هود فى الأندلس، والمعاملة الطيبة لسكان قرطبة.

اقتفى الأمير على بن يوسف سياسة أبيه، وأشارت المصادر إلى تمتعه بكثير من الخصال الطيبة؛ فقد كان حسن السيرة نزيه النفس بعيدًا عن الظلم(٧). وبجانب ذلك استعان بالفقهاء والعلماء فى تسيير دفة الحكم فى البلاد.

شرع الأمير على بن يوسف فى استكمال الجهود الحربية التى بدأها والده فى ميدان الأندلس وذلك لصد هجمات الفرنج المتكررة؛ لذلك نراه يعبر بنفسه قائدا لجيوش المرابطين إلى الأندلس أربع مرات، وهذا الجهاد أكسبه حبّ رعيته فضلاً عن رضا الخلافة العباسية فى المشرق ومباركتها لنشاطه العسكرى.

غير أن الدولة المرابطية لم تنعم بالاستقرار طويلاً حيث ظهر على مسرح الأحداث فى المغرب داعية دينى هو محمد ابن تومرت الذى استطاع بما أوتى من علم وذكاء أن يغيّر أوضاع البلاد ويدخل فى صراع جدلى وحربى مع المرابطين، ذلك الصراع الذى انتهى بسقوط دولة المرابطين سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م على يد عبد المؤمن بن على خليفة المهدى بن

تومرت.

توفى الأمير على بن يوسف بن تاشفين، سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، وتولى ابنه تاشفين ابن على الحكم من بعده حيث دخل الصراع بين المرابطين والموحدين مرحلته الأخيرة وانتهى المطاف بالأمير تاشفين فى وهران حيث قتل سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م؛ وكان آخر أمراء المرابطين إسحاق بن على بن تاشفين الذى عجز بما لديه من قوات عن الدفاع عن عاصمة المرابطين مراكش التى سقطت فى يد الموحدين سنة٥٤١هـ/ ١١٤٦م.

وفى إشارة سريعة لعوامل سقوط هذا الصرح الكبير وهو دولة المرابطين يأتى فى مقدمة هذه العوامل ضعف القيادة العليا للبلاد منذ تولى على بن يوسف الحكم؛ فقد انصرف إلى العبادة وترك شئون البلاد فى يد أمراء المرابطين؛ كذلك تخاذل جند المرابطين وتخلّيهم عن روح التقشف والجهاد التى تربوا فى مهادها؛ فضلاً عن كثرة المعارك فى الأندلس مما أضعف البنية العسكرية للمرابطين، وأخيرًا ظهور ابن تومرت ونجاحه فى استقطاب كثير من القبائل لدعوته وجهود عبد المؤمن العسكرية كل ذلك أدى إلى سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين على أنقاضها.

بعض المظاهر الحضارية:

شهد المغرب الأقصى تقسيمًا إداريًا لأقاليمه منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين؛ وتولى إدارة هذه الأقاليم ولاة من قبل السلطة الحاكمة فى العاصمة مراكش؛ وقد شملت ولايات المغرب الأقصى ست ولايات عدا العاصمة مراكش وما يتبعها من قرى . وقد تمتع ولاة الأقاليم بسلطات واسعة إذ كان من حقهم التصرف فى عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين والقيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم.

كما اتخذ يوسف بن تاشفين الدواوين سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م، ومن هذه الدواوين ديوان الرسائل أو الإنشاء ويرأسه موظف كبير يعرف بالكاتب؛ وبجانب ديوان الرسائل عدة دواوين مالية منها ديوان الغنائم ونفقات الجند وديوان الضرائب وديوان الجباية وديوان مراقبة الدخل والخرج، والهدف من هذه الدواوين هو مساعدة السلطة الحاكمة فى ضبط أمور البلاد.

وفى الجانب الاقتصادى وضع المرابطون نظامًا ماليًا، ذلك النظام الذى تَضَمَّن إدارة مالية وسياسة مالية خاصة



بالمصادر التى تجبى منها الأموال وموازنة ذلك بالنفقات التى كانت تشمل أوجه الإنفاق المختلفة مع إصدار عملات نقدية تنتظم بها المعاملات بين السكان؛ كل ذلك كان له أثر كبير فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد.

ففى مجال الزراعة: تقدمت البلاد فى عهد المرابطين وزاد الإنتاج الزراعى؛ وشهدت البلاد وفرة فى المحصولات، ومما ساعد على ذلك النواحى الطبيعية التى تمتعت بها المنطقة، يضاف إلى ذلك القوى البشرية والتى اتخذت فلاحة الأرض مهنة لها، وأخيرًا اهتمام المرابطين بقيام زراعة ناجحة فى البلاد؛ وقد تنوعت المحاصيل من قمح وشعير وذرة وقطن وقصب السكر والزيتون وغير ذلك من الحاصلات.

وفى مجال الصناعة: ازدهرت كثير من الصناعات فى ظل دولة المرابطين نتيجة استقرار الأوضاع فى البلاد، ووفرة المواد الخام والأيدى العاملة، ومن هذه الصناعات صناعة السفن والزجاج والنسيج وأدوات النحاس وغير ذلك.

وفى مجال التجارة: شاركت التجارة الداخلية والخارجية فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد إذ شهدت الأسواق التجارية المنتشرة فى مختلف المدن المغربية حركة تجارية ونشاطًا فى البيع والشراء مع اهتمام ولاة الأمر بتشجيع التجارة وتوفير سبل الإقامة والانتقال بين المدن المغربية المختلفة، وظهرت عدة مراكز تجارية منها مراكش العاصمة ومدينة فاس ومدينة داى وغيرها من المدن المغربية.

وقد تنوعت صادرات المغرب الأقصى ومنها القطن والقمح والزيتون والزيت وغير ذلك، وفى نفس الوقت كانت تستورد الذهب والزئبق وبعض أنواع النسيج وغير ذلك.

وفى مجال البناء والتعمير: شهدت البلاد فى عهد المرابطين حركة كبيرة فى البناء وفى مقدمة ذلك بناء المدن والمنشآت العسكرية من حصون وقلاع وأسوار ثم المنشآت العامة التى انتشرت فى أنحاء البلاد كالمساجد والمدارس والمستشفيات والحمامات ، والفنادق ، والقناطر وغير ذلك.

ومن أبرز المدن التى أنشئت مدينة مراكش التى أنشأها الأمير يوسف بن تاشفين نظرًا لازدحام العاصمة الأولى مدينة أغمات بقبائل المرابطين وحاجتهم إلى عاصمة جديدة. وكان تاريخ البناء

سنة ٤٥٤هـ/١٠٦٢م . وأما اسمها مراكش فهو اسم لعبد أسود كان يقيم فى المنطقة ويقطع الطريق على المارة واشتهر اسمه هناك .

ومما يتصل بحياة المرابطين الاجتماعية اتخاذهم اللثام على وجوههم حتى صاروا يعرفون بقبائل الملثَّمين، أما طريقتهم فى اتخاذ اللثام فقد وصفها البكرى بقوله: "وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه ولا يفارقون ذلك فى حالة من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا تنقّب، وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعة لم يعلم من هو حتى يعاد القناع وصار لهم ألزم من جلودهم"[٨].

واختلف المؤرخون فى تعليل اتخاذهم اللثام؛ فبعضهم ينسب ذلك إلى ظروف الطقس من تطرف فى الحر والبرد، وبعضهم يعلل ذلك بحادثة وقعت لنساء المرابطين أثناء هجوم العدو على مضاربهم فى غيبة رجالهم فتلثموا وقاتلوا وانتصروا، وقد استحسن الرجال اللثام ليخدعوا به العدو ومن ثم أصبح اللثام لهم عادة. وقال آخرون: إن قبائل صنهاجة تعتقد أن الفم عورة تستحق الستر ومن هنا اتخذوا اللثام. والرأى الراجح هو الأول الذى يرجع اتخاذ اللثام بسبب ظروف الطقس من تطرف فى الحر والبرد.

الحياة الفكرية:

عاشت دولة المرابطين فى ظل نهضة فكرية كبيرة إذ ساهمت مجموعة من العوامل فى ازدهارها،منها استقرار الأوضاع فى البلاد وخضوع القبائل لحكومة مركزية واحدة سيطرت على أنحاء البلاد سواء فى المغرب أو الأندلس مع تشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء، إذ خضع ولاة الأمر لسلطة الفقهاء، يضاف إلى ذلك خضوع الأندلس للمرابطين وانتقال كثير من علماء الأندلس إلى مراكش حاضرة المرابطين مما كان له الأثر الكبير فى تطور الحياة الفكرية وازدهارها.

وقد شهدت البلاد دعوة إصلاحية وهى الدعوة المرابطية التى استمدت تعاليمها وأحكامها من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ونادى بها عبد الله بن ياسين بين قبائل الملثمين حين وفد مع زعيم قبيلة جدالة يحيى بن إبراهيم الجدالى إلى قبائل الصحراء فى جنوب المغرب الأقصى، وذلك ليخرجهم من ظلمات



الجهل إلى نور الإيمان والمعرفة؛ وكانت الدعوة قائمة على كتاب الله وسنة رسوله متخذة مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر غايةً والجهاد المسلح وسيلةً، مستمدةً أحكامها- فى الفروع- من مذهب الإمام مالك؛ وكان انطلاق المرابطين من جنوب الصحراء إلى المغرب الأقصى تحقيقًا لهذهِ الغاية وهى القضاء على المنكر الذى انتشر فى المدن المغربية. وتمتع العلماء بمنزلة طيبة فى ظل المرابطين نظرًا لتشجيع ولاة الأمر لهم والاحتفاء بهم حتى أن المراكشى يقول عن الأمير على بن يوسف بن تاشفين: "واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين"(٩)، وظهر بشكل واضح تأثير فقهاء المالكية على الأوضاع السياسية وغيرها فى البلاد، وصارت الفتيا والأحكام مستمدة من مذهب الإمام مالك حتى نهاية الدولة، ولا يلتفت إلى غيرها من الأحكام.

كذلك وجه المرابطون اهتمامهم إلى نشر الإسلام الصحيح ونجحوا فى القضاء على إمارة برغواطة التى كانت تعيش فى سهول تامسنا بالمغرب الأقصى ويعتنق أبناؤها المبادئ الفاسدة المخالفة للإسلام وأحكامه حيث ادعى إمامهم صالح بن طريف النبوة وشرع لهم تعاليم جديدة بل وألّف لهم قرآنًا؛ لذا أخذ المرابطون على عاتقهم القضاء على هذه الانحرافات والضلالات ونشر الإسلام الصحيح.

ومن ناحية أخرى، فقد كان للروح الدينية التى سادت المنطقة منذ قيام دولة المرابطين مع اهتمام ولاة الأمر بالدين ورجاله الأثر الكبير فى ازدهار العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات إذ وفد على العاصمة مراكش وغيرها من مدن المغرب الأقصى علماء الدين الأندلسيون حيث أسهموا فى دفع حركة التأليف فى البلاد وشاركهم فى ذلك أبناء المغرب مما نتج عنه الكثير من المؤلفات الدينية .

أ.د / حسن على حسن

الهوامش :

(١) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص١٦٥.

(٢) المؤنس، ص١٠٢.

(٣) الحلل الموشية، ص١٠ .

(٤) العبر، ج٦، ص١٥٢ .

(٥) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص١٦٤ .

(٦) ابن أبى زرع : الأنيس، ج٢، ص٣٥.

(٧) المعجب: ص١٧٦.

(٨) المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص٧٠.

(٩) المعجب: ص١٧١ .

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. ابن الأثير: أبو الحسن على (ت. ٦٣٠هـ): الكامل فى التاريخ، مطبعة الاستقامة.

٢. الإدريسى: محمد بن عبد العزيز (ت.٦٤٩هـ): وصف المغرب والأندلس، دى غويه ليدن سنة ١٨٦٦م.

٣. الباجى: محمد الباجى المسعودى: الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية ، تونس١٢٨٣هـ.

٤. البكرى: أبو عبد الله بن عبد العزيز: المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، دى سلاسى باريس١٩١١م.

٥. د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين ، النهضة. سنة ١٩٥٧م.

٦. د. حسن على حسن : الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، الخانجى، سنة ١٩٨٠م.

٧. ابن أبى زرع أبو الحسين (ت.٧٦٦هـ): الأنيس المغرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، تحقيق محمد الهاشمى الرباط ١٩٣٦م.

المغـول

يعتبر تاريخ المغول جزءًا مهما مؤثرًا لا ينفصل عن تاريخ الشرق الإسلامى فى العصور الوسطى، وزاد من أهمية ذلك التاريخ وخطورته أن ظهور المغول كقوة عسكرية وسياسية مؤثرة قد واكب وتزامن مع الفترات العصيبة التى كابدها المسلمون فى مواجهة الخطر الصليبى القادم من الغرب.

وما لبث الصليبيون فى الشام بعد أن لمسوا تنامى حركة المقاومة الإسلامية واشتدادها أن التمسوا العون من المغول الذين كانوا آنذاك فى عنفوان قوتهم العسكرية حتى أنهم تمكنوا من إخضاع كل القوى المناوئة لهم من الصينيين والخوارزميين والإيرانيين فى عهد جنكيز خان (ت/٦٢٤هـ/١٢٢٧م) وتوغلت جيوشهم فى أوروبا الشرقية حتى حدود بولندا، وهددت الخلافة العباسية وأرض الجزيرة وبلاد الروم فى عهد أوكتاى بن جنكيز خان (ت/ ٦٣٩هـ /١٢٤١م)[١].

ثم انهارت تحت ضرباتهم قلاع الإسماعيلية فى إيران [٢] وزالت على أيديهم الخلافة العباسية من بغداد فى عهد منكو بن تولوى بن جنكيز خان (ت/٦٥٧هـ /١٢٥٩م)وأخيه هولاكو (ت/٦٦٣هـ/١٢٦٥م)[٣].

وقد سارعت كثير من القوى إلى إجراء التحالف معهم وإعلان الخضوع لهم؛ وعلى رأس هؤلاء دولة أرمينية الصغرى فى جنوبى الأناضول[٤]، وحكام كرمان من القراخطاى[٥] وحكام يزد وحكام فارس حتى إن هؤلاء الآخرين – وكانوا من المسلمين- أسهموا بقوات عسكرية شاركت فى الهجوم على بعض المدن الإسلامية فى إيران والعراق[٦].

وشرعت سفارات الصليبيين فى الشام ودول غرب أوروبا والبابا فى روما تترى إلى عواصم المغول فى قراقورم (الرمال السوداء) فى منغوليا وبكين فى شمال الصين وسراى الواقعة على نهر الفولجا فى جنوب روسيا وتبريز فى أقصى الشمال الغربى لإيران، حيث أُبْرِمت الاتفاقيات وتبودلت الوعود على التحالف سويا ضد المسلمين فى الشرق الإسلامى عامة والشام خاصة[٧].

وفى الجانب الدينى احتدم الصراع بين البوذية والمسيحية والإسلام على اجتذاب المغول، وسعت كل ديانة من خلال

دعاتها وتعاليمها إلى تحقيق السبق على غيرها فى الوصول إلى قلوب الحكام المغول ومعاونيهم ونسائهم . ويشهد توماس أرنولد المستشرق البريطانى فى كتابه المعروف (الدعوة إلى الإسلام) على أن الإسلام قد نجح فى التفوق على البوذية والمسيحية فى هذا المضمار فى تركستان وبلاد ما وراء النهر وجنوب روسيا وإيران والعراق، فأقبلوا عليه دون ضغط أو إلزام[٨].

ويعكس المستشرق المجرى أرمنيوس فامبرى فى كتابه (تاريخ بخارى) أثر الإسلام فى هذه المناطق على المغول حتى إنه ليذهب إلى القول بأنهم قد تغيروا إلى النقيض عما جبلوا عليه فى بيئتهم الأولى منغوليا[٩].

وقد عاش المغول فى موطنهم الأصلى فى هضبة منغوليا التى أعطتهم اسمها ، وهى هضبة فسيحة تمتد ما بين شمال الصين وجنوب روسيا ، ويتصف مناخها بالقاريّة ، فالمناخ فيها شديد القسوة يندر وجود نظير له فى منطقة أخرى، فهو يبلغ النهايات العظمى فى الحرارة أو البرودة ، وفى جفافه الشديد وكذلك فى قوة الرياح العاصفة[١٠].

وقد انعكس أثر البيئة القاسية على حياة المغول وتكوينهم الجسمى والنفسى، فالمغولى يتصف بتكوين جسمانى خاص يميزه عن غيره من الأجناس الأخرى، فهو يتصف بالقامة القصيرة أو المتوسطة والرأس العريض والجبهة المرتفعة والبشرة الصفراء السميكة والأنف الأفطس الغائر والعين المنحرفة ذات الجفن الثقيل والذقن الجرداء والشعر المسترسل والجسم الممتلىء[١١]، مع وجود الاستثناءات أحيانًا من هذا النمط العام.

والمغولى بهذه الصفات يمثل أصل السلالة الصفراء التى تنتشر فى جنوب شرق آسيا بعامة وتشمل الآن دولاً كثيرة منها منغوليا والصين وكوريا وفيتنام ولاوس واليابان والفلبين وتايلاند... الخ[١٢].

وفى الجانب النفسى كان المغول -من جراء الطبيعة القاسية التى نشأوا فيها -مقاتلين أشداء يجيدون فنون الحرب ويمارسونها فى جلد وصلابة وقوة عزم لا تلين، وقد صار هذا كله جزءًا من الطبيعة العسكرية التى جُبلوا عليها وامتازوا بها[١٣].

ونتيجة للتجاور المكانى بين المغول فى منغوليا والأتراك فى تركستان المجاورة

فقد وجدت ألوان من التقارب بين الشعبين تمثلت فى مظاهر عدة منها: التقاليد البدوية المشتركة والتماثل فى بعض المفردات اللغوية والتوافق فى كثير من المعتقدات الدينية، غير أن ذلك كله لا يثبت وحدة الأصل المشترك بين الطرفين[١٤]، وكذلك يعتقد بعض الباحثين أن التتار جزء من المغول انبثق عنه، ودخل فى عداء معه[١٥]، فهما بالقياس إلى العرب كعرب الشمال وعرب الجنوب، ينتميان إلى أصل واحد ويفترقان فى المكان وفى الأهداف.

ويرجع ذيوع شهرة التتار منذ زمن بعيد إلى وقوع منازلهم على مقربة من سور الصين العظيم الذى أقيم خصيصًا لصد إغاراتهم على الأراضى الصينية، كما يرجع إلى مرور طريق التجارة الرئيسى بين الصين وبلاد المسلمين على مقربة من مواضع تنقلهم، الأمر الذى أكسبهم شهرة أكثر من المغول، وجعل المؤرخين المسلمين يطلقون اسم التتار- حتى بعد زوال قوتهم- على المغول فى عهد جنكيز خان وخلفائه من بعده.

وأغلب الظن أن جنكيز خان حين عمد إلى القضاء على قبائل التتار كان مدفوعًا بعامل عسكرى أكبر من مجرد الانتقام لما فعلوه بآبائه أجداده، وهو تأمين مؤخرة جيوشه إذا ما قرر الاتجاه شرقًا لغزو بلاد الصين أو غربًا لمهاجمة بلاد القراخطاى فى تركستان والخوارزميين فى بلاد ماوراء النهر وإيران.

وقد اشتمل التقسيم الإدارى للإمبراطورية المغولية فى أقصى اتساعها على النظام التالى:

١ـ **الخاقانية**: وهى مركز الحكم، وفيها عاصمة المغول الكبرى (قراقورم) ثم (بكين)[١٦] حيث كان الخان الأعظم يعتلى عرش المغول بعد تنصيبه فى المؤتمر المغولى العام (القوريلتاى) الذى يحضره غالبية الأمراء والقواد من المغول ومن يدعونه إليه، وكانت منطقة الخاقانية تمتد لتشمل كل منغوليا وما يليها شرقًا حتى كوريا ثم تمتد من الصين الشمالية إلى بلاد التبت فى الجنوب. ومنطقة الخاقانية بهذا الامتداد كانت تشكل شرقى الإمبراطورية المغولية، وسكانها فى الغالب يشكلون أصل السلالة المغولية الصفراء.

٢- **الولايات التابعة**: وكانت مقسمة على النحو التالى:

أ- **إيلخانية تركستان وبلاد ما وراء النهر**، وقد منحها جنكيز خان لثانى

أبنائه جغتاى ليحكمها هو وأبناؤه من بعده فاتخذ من مدينة المآليق فى تركستان عاصمة له[١٧].

ب- إيلخانية القبجاق: وكانت تمتد من منغوليا فى اتجاه الغرب وتشتمل على مساحات واسعة من الأراضى تشمل معظم جنوبى روسيا[١٨] وبخاصة القوقاز، وقد منحها جنكيز خان إلى جوجى أكبر أولاده، فصارت إليه ثم لأولاده بعد وفاته فى حياة أبيه جنكيز خان.

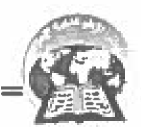
ج- إيلخانية إيران وتوابعها: وكانت تمتد من نهر جيحون شرقًا إلى نهر الفرات غربًا، وقد عُهِدَ بها إلى هولاكو بن تولوى ابن جنكيز خان ليحكمها هو وأولاده من بعده، وقد كانت هذه الإيلخانية أقرب مكانًا وأشد اتصالا بالمسلمين فى بلاد العراق والشام والحجاز، فكان أن أثرت فيهم عسكريًا وسياسيًا، وتأثرت بهم دينيًا حتى انتهت الأحوال بحكامها وأتباعهم من المغول الإيلخانيين إلى اعتناق الإسلام والدفاع عنه[١٩].

أديان المغول

لم يكن المغول، وهم شعب بدوى مغرق فى البداوة، ليعرفوا — فى بادىء الأمر- دينا معينًا واضح المعالم، وأغلب الظن أن مرجع ذلك يعود إلى حياة العزلة التى عاشوها فى منغوليا القارية التى لم يفكر كثير من الدعاة فى اقتحام صحاريها لما يحتويه ذلك من مخاطر جسيمة لا تؤمن عواقبها، ومن ثم فإنه يمكن قبول الرأى القائل بأن المغول كانوا - آنذاك - لا يؤمنون بدين ولا شريعة ولا يعرفون حلالا ولا حرامًا[٢٠].

ويبدو أن حياتهم كانت تسير وفقًا للأعراف البدوية التى كانوا قد درجوا عليها جيلاً بعد جيل، وتوارثوها عن الآباء والأجداد، حتى أصبحت تمثل القانون الذى يحكمون من خلاله على سلوكياتهم هم وسلوك الآخرين حيالهم.

وأمام جبروت الطبيعة القاسية وفقر البيئة المجدبة التمس المغول قوة أكبر اعتقدوا أنها تحميهم من الأخطار المحدقة بهم، أو تعود عليهم بالنفع فى أجسامهم وعقولهم، أو قد ترعى أبناءهم وحيواناتهم[٢١]، وعلى هذا فقد كان منهم من يسجدون للشمس عند طلوعها[٢٢]، ومنهم من يعظمون النجوم ويعبدونها[٢٣]، ومنهم من يعبدون النار[٢٤]، كما كان منهم من يعبدون أرواح أجدادهم لاعتقادهم أن لها سلطانًا عظيمًا على حياتهم وعلى حياة أعقابهم أيضًا[٢٥].



وبدهى أن هذا الاتجاه عند المغول كان مرده الخوف من الأذى وعدم القدرة على الاهتداء إلى الله بصورة كاملة، وبالطبع استغل الكهان والمشعوذون والسحرة من " الشامان" هذه الفرصة ونشروا خرافاتهم وأساطيرهم بين المغول[٢٦]، وأمعنوا فى ذلك كثيرًا حتى أصبحت لهم مكانة خطيرة فى نفوس العامة والحكام من المغول على السواء.

وكذلك أدى اتصال المغول بالصينيين وجيرانهم الأتراك الأويغور إلى انتشار البوذية بينهم[٢٧]، فقد نشط الدعاة البوذيون لترويج مذهبهم مستغلين ضعف الشامانية كديانة من جهة، وخلو الساحة من دين سماوى من جهة أخرى. وهكذا بدأ المغول ينتقلون من عبادة قوى الطبيعة إلى عبادة الأصنام البوذية التى صنعت فى الأصل كتذكار لبوذا، ثم عبدها البوذيون زلفى، ثم نقلوا فكرهم هذا إلى غيرهم من الأمم المجاورة؛ ومن أولئك المغول[٢٨].

وعن طريق قوافل التجارة التى انتشرت عبر الطرق التجارية من إيران إلى تركستان ثم إلى منغوليا انتقلت إلى المغول أديان جديدة تختلف عن وثنية الشامانية والبوذية، فقد استطاع دعاة كل من المسيحية والإسلام أن ينفذوا إلى المغول على حين ظلت اليهودية على عزلتها، فلم يلق إليها المغول بالا لأنها لا تناسب بيئتهم أو تكوينهم النفسى. ونجد لدى المؤرخ القلقشندى (ت/٨٢٧هـ/١٤٢٤م) نصًا يشير فيه إلى أن بعض المغول قد اعتنقوا اليهودية[٢٩]، وهذا النص ليس بدقيق إذ لا دليل عليه ولا تأييد له من قبل مؤرخين آخرين.

وفى الحقيقة كان خروج المغول فى أثناء حملات الغزو المتتابعة ضد جيرانهم قد عمق اتصالهم بالأديان الثلاثة: البوذية والمسيحية والإسلام حيث كانت الشعوب التى اختلطوا بها تضم أهل الديانات الثلاث[٣٠].

وبالطبع فإن هذه الأديان السماوية التى لم تكن تستند إلى قوة عسكرية تحميها فى وجه هؤلاء الغزاة العتاة، نهضت كى تكشف عن جوهرها وتعبر عن نفسها وعن منهجها فى الدعوة معتمدة على وسائل مختلفة، ومن هنا نشب الصراع المحموم فيما بينها، وهذا ما عبر عنه أحد المستشرقين حين قال: "وليس هناك فى تاريخ العالم نظير لذلك المشهد الغريب، وتلك المعركة الحامية التى قامت بين البوذية والمسيحية

والإسلام؛ فقد كانت كل ديانة تنافس الأخرى لتكسب قلوب أولئك الفاتحين القساة الذين داسوا بأقدامهم رقاب أهل تلك الديانات العظيمة ذات الدعاة والمبشرين فى جميع الأقطار والأقاليم"[٣١].

الياسا المغولية والدين:

اختلفت الآراء حول الدين الذى كان يعتنقه جنكيز خان؛ فبعضهم يرى أنه كان لا يؤمن بأى دين،[٣٢] والبعض الآخر يرى أنه كان يدين بالشامانية[٣٣] . والرأى الثانى أرجح؛ لأن المغول قبل زمن جنكيز خان وبعده بقليل كانوا يدينون فى غالبيتهم بالشامانية[٣٤]، كما أن جنكيز خان الذى اتصف بالحنكة وسعة الأفق لم يكن ليعزف عن الشامانية دين آبائه وأجداده فى وقت كان فى أمس الحاجة فيه إلى مناصرة أتباعه الأول له ضد أعدائه الكثيرين من المغول والأتراك فى منغوليا.

ويؤكد ذلك ماشتهر عن جنكيز خان من أنه كان قبيل اشتراكه فى معركة حاسمة يصعد فوق تل عال ويكشف عن رأسه متضرعًا إلى ربه ليؤازره فى معركته القادمة ويظل على هذا الحال ثلاث ليال متصلة وهو صائم، على حين يمنع حراسه أى شخص من الاقتراب منه[٣٥]؛ احترامًا لهذا الطقس الغريب.

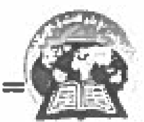
أما الياسا المغولية التى ألزم جنكيزخان المغول باتباعها فقد تضمنت بعض القضايا الدينية المهمة ومنها:

أ- الاعتقاد بإله واحد قاهر يهب الملك لمن يشاء ويسلبه ممن يشاء، وهو قوى جبار حسب معتقدهم الوثنى[٣٦].

ب -تعظيم جميع الملل والأديان من غير تعصب لملة أو أخرى[٣٧].

ج- احترام رجال الدين على اختلاف دياناتهم بإعفائهم من أداء الواجبات الحكومية التى تفرض على غيرهم[٣٨] ومن الضرائب المختلفة[٣٩] وقبول وساطتهم فى أثناء عمليات الحصار أو الغزو[٤٠].

وتؤكد المواقف التاريخية على أن جنكيز خان كان يفرق تماما بين نصوص الياسا والواقع الذى تفرضه أحيانًا مقتضيات الحرب أو السياسة بمعنى أنه إذا تعارض نص فى الياسا مع ظروف طارئة أو مُلِحَّة فإن جنكيز خان كان لا يتردد كثيرًا فى تجاوز هذا النص . وتاريخ المغول - على امتداده - حافل بكثير من المواقف التى تم فيها تجاوز الياسا المغولية دون حرج سواء من جنكيز خان نفسه أو من خلفائه ؛ وعلى سبيل المثال تنص الياسا على أن يلى العرش المغولى أكبر الأمراء الأحياء سنًّا،



لكن جنكيز خان قدم ابنه الثالث أوكتاى على أخويه جوجى وجغتاى، وتم ارتقاؤه العرش فعلاً بعد وفاة أبيه جنكيز خان فسجل بذلك مخالفة خطيرة ترتب عليها الكثير من الفتن فيما بعد.

وقد نبع هذا التناقض أصلا من عوامل عدة أبرزها حدة المزاج التى اتصف بها المغول والتى جعلت تصرفاتهم تميل إلى هذا الاتجاه ثم يعرض عنه فجأة إلى اتجاه مغاير له، فهم- على الرغم من اعترافهم بإله عظيم قادر - كانوا لا يؤدون له الصلوات وإنما يعبدون طائفة من الآلهة المنحطة وبخاصة تلك الآلهة الشريرة التى كانوا يتقدمون إليها بالقرابين والضحايا لما كانوا يعتقدون فيها من السلطان والقدرة على إيذائهم[٤١].

وبالإضافة إلى ذلك فإن تعظيم المغول لجميع الملل والأديان من غير تعصب لملة أو أخرى قد دل بوضوح على مدى براعة جنكيزخان وحنكته السياسية، ذلك أنه كان يدرك تمامًا أثر القوة الروحية الكامنة فى الدين، ولهذا ترك للمغول حرية التدين ؛ فقد كان يخشى أن يؤدى التعصب الدينى - إذا انتشر بين المغول - إلى نشوب حروب طاحنة بين القبائل المغولية تضعف من كيانها وتعود بها إلى حالة التفكك والاضطراب التى كانت تتيح للقوى الأجنبية - فيما سبق- السيطرة وفرض الضرائب على المغول.

وقد عمد جنكيزخان بكل وسيلة ممكنة إلى إثبات قوة إيمانه بالحرية الدينية، ومن ذلك أنه بعد استيلاء كوجلك خان ملك قبائل النايمان على مملكة القراخطاى فى تركستان[٤٢] وبالتالى خضوع الكثير من المدن الإسلامية مثل بالاساغون وكاشغر وختن[٤٣] لسلطانه، أمر الأهالى هناك بترك الدين الإسلامى، وخيَّرهم بين أمرين: فإما أن يدينوا بالنصرانية أو البوذية وإما أن يتزيوا بزى البوذيين فحسب[٤٤]، ولما رفضوا التخلى عن دينهم الإسلامى فإنهم قد اتفقوا ووافقوا على ارتداء زى البوذيين لكن انقطع الأذان وأوقفت الصلوات وأغلقت المدارس ودمرت، فلما جاء المغول وهزموا كوجلك أجازوا الأذان والتكبير وأداء الصلوات ونادوا بأن لكل فرد أن يدين بالدين الذى يعتقده[٤٥].

وكان أوكتاى بن جنكيزخان (٦٢٦- ٦٣٩هـ/١٢٢٨- ١٢٤١م) على شاكلة أبيه فى هذا الشأن؛ فقد قدم شخص وثنى -بإيعاز من أخيه جغتاى

الذى كان يكره المسلمين - إلى بلاط أوكتاى وقال له : " لقد رأيت جنكيز خان فى المنام فقال لى: أبلغ ابنى أن يكثر القتل فى المسلمين لأنهم أناس فى غاية السوء ". وأدرك أوكتاى الحيلة بذكاء فكشف كذب القائل علنا وأشار بقتله[٤٦].

وكذلك كان منكو حفيد جنكيز خان (٦٤٨- ٦٥٧هـ)/(١٢٥٠- ١٢٥٩م)؛ فقد أجرى بنفسه محاكمة لملك الأويغور فلما اعترف بأنه كان ينوى قتل المسلمين فى بلاده فى أثناء سجودهم لأداء صلاة الجمعة أمر منكو أن يعاد هذا الحاكم إلى مدينته " بيش باليغ" وأن تقطع عنقه وأعناق أصحابه فى يوم الجمعة الذى كانوا قد حددوه لقتل المسلمين، ودعا الناس جميعًا إلى ظاهر المدينة ليشاهدوا التنفيذ[٤٧]، وبالطبع لم يخل الأمر فى هذا من نزعة سياسية وعنصرية ضد الأويغور.

أما جعتاى ثانى أبناء جنكيز خان - وكان شامانيا كأبيه ومسئولا عن تطبيق أحكام الياسا المغولية الصارمة التى تخالف فى الكثير من موادها الشريعة الإسلامية، كما كان موتورا من المسلمين لمقتل ابنه موتكن فى أثناء حصار المغول لمدينة (باميان)[٤٨] بإقليم خراسان سنة ٦١٨هـ/١٢٢١م[٤٩] - فإنه كان قد اتخذ من المسلمين وزراء ومستشارين وبنيت فى عهده جملة من المدارس والمساجد ببلاد ما وراء النهر وغيرها[٥٠] بعد أن تولى الحكم فى منطقة تركستان وبلاد ما وراء النهر عقب وفاة أبيه فى رمضان سنة ٦٢٤هـ/أغسطس ١٢٢٧[٥١].

وفى الحقيقة لم يكن الحكام المغول جميعًا على شاكلة واحدة؛ فقد كان منهم من يصرح بكراهيته لدين معين أو يتعصب لدين بعينه، وعلى سبيل المثال كان قوبيلاى وهولاكو وأرغون يكرهون الإسلام بشدة على حين كان بركة خان وتكودار وغازان من أشد مناصريه.

وعلى وجه العموم فإن ظاهرة احترام الأديان المختلفة لدى المغول قد أسفر عنها التزام غالبية هؤلاء المغول بمفهوم الحرية الدينية لديهم ولدى الرعايا الخاضعين لهم وإن لم يخل هذا الأمر أحيانًا من أهداف سياسية أو عسكرية أو اقتصادية، كما سبق القول.

ومن هذا المنطلق شغل رجال الدين مكانة عالية لدى المغول؛ فقد كان للكاهن الشامانى الذى يقوم بوظيفة الطبيب المقام الأول لأنه وحده- حسب اعتقاد المغول- يستطيع أن يغير الخير

أو الشر[٥٢] . وكان هذا الكاهن يتقدم على كافة أصحاب المقامات فى حاشية الإمبراطور وكان عادة ما يظهر فى ثياب بيضاء فضفاضة[٥٣].

أما رجال الدين البوذيون فقد كانوا أكثر كفاءة وخبرة وتحضُرا من نظرائهم الشامانيين، ومن خلال المناظرات التى جرت بين الطرفين فى حضرة جنكيز خان أثبتوا تفوقهم وعجز خصومهم، فكان أن عهد جنكيز خان إلى كثير منهم بإدارة أعمال ديوانه[٥٤].

وحين تمكن البوذيون من التأثير على جنكيز خان بدرجة أكبر، عَهِدَ إلى بعضهم بمهمة تعليم أولاد المغول وبخاصة أبناؤه أبجدية الخط الأويغورى [٥٥]. ومن هنا نقلوا تعاليم البوذية إلى قوبيلاى وهولاكو وغيرهما، وليس أدل على براعة رجال الدين البوذيين من نجاحهم فى تحويل الكثير من الحكام المغول عن الشامانية ديانة المغول الأولى إلى البوذية على حين عجز غيرهم عن ذلك.

أما رجال الدين المسيحى سواء أكانوا من النساطرة أم من الكاثوليك الذين أوفدهم البابا فى روما أو بعض ملوك غرب أوروبا إلى عاصمة المغول فإنهم أمام نجاح البوذيين عمدوا إلى استقطاب نساء المغول وبخاصة زوجات الحكام إلى حظيرة المسيحية، ولعل هذا يفسر سر تعاطف حكام المغول مع المسيحية رغم عدم اعتناقهم لها.

وفى الحقيقة كانت فرصة رجال الدين المسيحى كبيرة؛ فقد كانوا مؤيَّدين من قبل زوجات الحكام المغول وأمهاتهم وكان بعضهم مكلفًا بتربية أبناء هؤلاء الحكام وشغل البعض الآخر منهم وظيفة مهمة فى الوزارة أو الديوان[٥٦] ، إلا أن غالبية هؤلاء - وخصوصًا النساطرة - كما يرى بعض المؤرخين- كانوا على درجة عالية من الجمود والجهل حتى بكتب صلواتهم المدونة بالسريانية، كما اتُّهِم عدد منهم بالاتجار بالمناصب الدينية والحرص على جمع الثروات من وراء تعليم الطقوس المسيحية، واتهم عدد آخر منهم بالإغراق فى المباذل[٥٧].

أما رجال الدين المسلمون فكان موقفهم غاية فى الصعوبة –قبل سقوط الدولة الخوارزمية وبعده مباشرة- إذ كان عليهم أن يأخذوا موقف الدفاع عن معتقداتهم مستندين إلى جوهر دينهم وثقافتهم وقدرتهم على مقارعة الحجة بالحجة فى مواجهة تحدى رجالات الديانات الأخرى.

وعلى وجه العموم فإن المغول قد التزموا بمعاملة رجال الدين على اختلاف عقائدهم معاملة كريمة. حقًا كانت هناك بعض المواقف التى خرج فيها المغول عن هذه القاعدة إلا أنها كانت مواقف استثنائية ارتبطت فى الغالب بظروف سياسية أو اقتصادية مؤقتة؛ ومنها على سبيل المثال:

ـ أن جنكيز خان- عقب سقوط مدينة بخارى فى يده سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م- أمر العلماء والفقهاء والسادات والمشايخ أن يدخلوا اصطبلات الخيل وأن يقفوا موقف السواس للمحافظة على الخيول، وأما رجاله: فنهضوا إلى رفس أوراق المصاحف بأقدامهم، وتحويلها إلى مواضع القاذورات، وكان من بين الحاضرين الإمام جلال الدين على بن الحسن الرندى قدوة السادات فى بلاد ما وراء النهر والإمام العالم ركن الدين إمام زاده[٥٨]، ولم يكن بوسعهما فعل أى شىء حيال ذلك.

ـ حرمان حاخامات اليهود فى جميع آسيا الوسطى والغربية من ميزة الإعفاء الضريبى الذى كفلته الياسا[٥٩]، وهو دليل على عدم مساواتهم برجالات الأديان الأخرى.

ـ تدمير العديد من الكنائس الروسية بمن فيها من رجال الدين المسيحى أو من استجار بهم[٦٠].

وأيا كانت الحال فمن المؤكد أن عصر جنكيز خان وخلفائه كان يتضمن التأكيد على كثير من مظاهر التسامح الدينى[٦١] مع الشعوب التى خضعت لنفوذهم ، وهو أمر يحسب للمغول ويقلل- بعض الشىء- من الفظائع الدموية التى ارتكبوها فى حق البشرية والحضارة الإنسانية آنذاك.

على أنه ينبغى التمييز بوضوح بين مرحلتين فى حياة المغول واتصالاتهم بالشعوب الأخرى: **الأولى**: مرحلة التخريب والدمار التى فرضتها الحروب الطاحنة التى خاضها المغول ضد أعدائهم من الصليبيين والروس والأتراك والإيرانيين والعرب، **الثانية**: وهى مرحلة الاستقرار بين هذه الشعوب والتأثر بما لديها من مقومات حضارية، حيث نجحت الشعوب المتحضرة فى ترويض جماحهم واستيعابهم فتحولوا تدريجيًا إلى الاندماج فى هذه الشعوب، فصاروا جزءًا منها ومن ثقافتها.

أ.د / صبرى عبد اللطيف سليم

الهوامش:

(١) خواندمير: حبيب السير فى أخبار البشر م٣ جـ١ ص ٥٠، وانظر أيضًا:

Dohsson: Histoire Des Mongols, tom.ll.p.p114: 122 . Skrine;The Heart of Asia, p.162

(٢) الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص ٣٥٨، برتولد شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى ص٤٦.

(٣) ابن الفوطى: الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة ص ٣٢٠. ٣٢١، د/ السيد العرينى: المغول ص ٢٢٣، وانظر أيضًا:

Howorth: History of the Mongols, vol. l. p.200

(٤) د/ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ٢٦٣، د/ السيد العرينى: المغول ص ٢٦٣، د/ حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام ص ٢٤١.

(٥) الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ٢ ص١١٥.

(٦) د/ مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ١١٨، د/سعد الغامدى: سقوط الدولة العباسية ص ٣٥٤،وانظر أيضا:

Boyle: History of Iran, vol.5.p.481.

(٧) ستبفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٨٢، د/سعيد عبد الفتاح عاشور: تاريخ الحروب الصليبية جـ٢ ص١٠١، د/جوزيف نسيم: العدوان الصليبى على مصر والشام ص ٢٧٢.

(٨) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٩٠.

(٩) أرمينوس فامبرى : تاريخ بخارى ص ١٨٤. ١٨٥.

(١٠) د/ يوسف فايد: جغرافية المناخ والنبات ص ٢٢٧، د/ مصطفى طه بدر : محنة الإسلام الكبرى ص ٤٩.

(١١) د/ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص٧، د/ محمد السيد غلاب: تطور الجنس البشرى ص ٢٩٧.

(١٢) د/ محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى ص٦٥، د/ يوسف فايد: الأسس العامة للجغرافيا ص١٣٣.

(١٣) براون: تاريخ الأدب فى إيران ص ٥٥٣،د/مصطفى طه بدر: محنة الإسلام ص ٦١.

(١٤) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٥٣، فامبرى: تاريخ بخارى ص ١٦١.

(١٥) ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص ٤١٠، د/ عبد السلام فهمى : تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص ١٦.

(١٦) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم جـ٣ ص ٣٢٨، ول ديورانت: قصة الحضارة جـ ٤ س ٢٢٦.

(١٧) ابن بطوطة: تحفة النظار فى غرائب الأمصار ص ٣٧٨، د/ السيد العرينى: المغول ص ١٦٢.

(١٨) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٩٩، عباس إقبال تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٧٧.

(١٩) رشيد الدين : جامع التواريخ م٢ جـ١ ص٢٢٦ البناكتى: روضة أولى الألباب ص ٤١٣، خواندمير : حبيب السير فى أخبار أفراد البشر م٣ جـ١ ص ٩٤.

(٢٠) د/ فؤاد الصياد: المغول فى تاريخ ص ٣٣.

(٢١) د/ مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى، زوال الخلافة العباسية فى بغداد على أيدى المغول ص ٥٦.

(٢٢) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٢ ص١٣٨، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب فى أخبار من ذهب جـ٥ ص ٦٥.

(٢٣) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ص ٢٨٣.

(٢٤) الديار بكرى: تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس جـ٢ ص ٣٦٨، الكاتب الصينى ف . يان : جنكيز خان سفاح الشعوب ص ٨٦.

(٢٥) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٩١، د/ إبراهيم العدوى: العرب والتتار ص ٢٧.

(٢٦) رالف لنتون: شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٧٨، إدوارد بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٨١.

(٢٧) عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٣٨٩، الأويغور: شعب تركى انتقل من البداوة إلى الاستقرار، وكانوا يسكنون المنطقة الواقعة فى شمال شرقى تركستان (غربى الصين) انظر: أرنولد توينبى: تاريخ البشرية جـ٢ ص ١٨٠، بدر الدين حى الصينى: العلاقات بين العرب والصين ص ٤٣، ص ٤٤.

(٢٨) القرمانى: أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ص ٢٨٣، د/ محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولى جـ٥ ص ٦٥.

(٢٩) القلقشندى: صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ٤ ص ٢، وهو يذكر أنه نقل ذلك الرأى عن عطا ملك الجوينى فى كتابه تاريخ جهانكشاى، وبالرجوع إلى هذا المصدر الأخير لم أعثر فيه على شىء من هذا القول، وإن ورد فيه أن بعض المغول قد اعتنقوا أديانًا أخرى منها النصرانية. انظر: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص ٦٣، ويبدو أن اليهودية . وهى ديانة انعزالية . لم تجد اهتمامًا لدى المغول ؛ لأنها لا تناسب بيئتهم وتكوينهم النفسى.

(٣٠) أنور الجندى: الموسوعة الإسلامية جـ٥ ص ٢٢٣.

(٣١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص١٩٠. ص١٩١.

(٣٢) الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص٦٣، عباس إقبال: تاريخ إيران بعد الإسلام ص ٢٨٢، د/ جعفر حسين خصباك: العراق فى عهد المغول الإيلخانيين ص ١٨٧.

(٣٣) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص ٥٦٠، ستيفان رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية جـ٣ ص٤٢٤، وانظر أيضًا:

Bolye: History of Iran, vol . 5 . p . 567.

(٣٤) الشامانية: ديانة وثنية تقوم على أن العالم مؤلف من طبقات متعاقبة، والمنطقة السماوية: وهى مملكة النور ومقر النفوس الفاضلة، والعالم السفلى: وهو مقر الظلمات والأشرار، وتقوم بين الاثنين مساحة " الرض " حيث بنو الإنسان، وتخضع السماء والأرض لكائن أعظم يقيم فى الطبقة العليا أو السماء المؤلهة، على حين يقيم عفاريت لا يحصى لهم عدد فى الأرض والمياه والجبال والينابيع، وهى أماكن مقدسة أحيطت بالإكرام عند المغول منذ القدم، وتحتوى الشامانية على فكرة البعث والحساب، وأن الناس سيسألون عما يعملون ولكن بطريقة مختلفة، فالقاتل لا يخاف فى أثناء عقاب القيامة بل يعتقد أن منزلته فى ذلك اليوم سوف تزداد بازدياد عدد من قتلهم. انظر، بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٨٦ إدوارد بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٨٠.

(٣٥) الكاتب الصينى ف. يان: جنكيز خان سفاح الشعوب ص ١١٦، الصدفى: تاريخ دول الإسلام جـ٢ ص ٣٦٩، إدوارد بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٨٠ .

(٣٦) د/ جعفر حسين خصباك: العراق فى عهد المغول الإيلخانيين ص ١٧٨، د/ عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص ٣٤.

(٣٧) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٣١١، المقريزى: الخطط جـ٢ ص ٢٢٠.

(٣٨) د/ محمد موسى هنداوى: سعدى الشيرازى ص ٩٤، د/ عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص ٤٤.

(٣٩) براون: تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى ص ٥٦١، بارتولد: تركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٣٣.

(٤٠) الجوينى : تاريخ جهانكشاى جـ١ ص ١٢٨.

(٤١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ١٩١.

(٤٢) رشيد الدين: تاريخ جنكيز خان (مخطوط) ص ١٨٣ (ب)، وكان كوجلك قد فر منهزمًا من وجه جنكيز خان، واستغل ضعف دولة القراخطاى فى تركستان فاستولى عليها..انظر، د/ مصطفى طه بدر: محنة الإسلام الكبرى ص ٧٧، د/ السيد العرينى: المغول ص ٨٦، د/ عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص ٤٤.

(43) Dohsson: History des Mongols, tom . l. p. 169.

(٤٤) بارتولد: تاريخ الترك فى آسيا الوسطى ص ١٥٨، د/ السيد العرينى : المغول ص ٨٦.

(٤٥) الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص ٨٨- ٩٠، ميرخواند: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفا جـ٥ ص٧٥، خواندمير: حبيب السير فى أخبار أفراد البشر م٣ جـ١ ص ٢٦، وانظر أيضًا.
Skrine: The Heart of Asia. P. 168.

(٤٦) رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيزخان) ص ٧٦، ابن كثير: البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٢٥،د/ فؤاد الصياد: المغول فى التاريخ ص ١٩٣.

(٤٧)الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص ٧٦. ص٨٠، جـ٢، رشيد الدين: جامع التواريخ (تاريخ خلفاء جنكيز خان) ص ٢١٣.

(٤٨) باميان: مدينة كبيرة فى الطرف الشرقى لبلاد الغور (أفغانستان الحالية) وتقع فى منتصف الطريق تقريبا بين مدينتى بلخ وغزنة فى منطقة جبلية، انظر: القزوينى: آثار البلاد وأخبار العباد ص ١٥٤، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية ص ٤٦١..

(٤٩) بارتولد: تركستان من الفتح العربى حتى الغزو المغولى ص ٦٢٣، د/ السيد العرينى: المغول ص ١٣٥، عبد المحمد آيتى: تحرير تاريخ وصاف ص ٣١٩.

(٥٠) د/ أحمد الساداتى: تاريخ الدول الإسلامية بآسيا وحضاراتها ص ٧٠، د/ حسن إبراهيم حسن: انتشار الإسلام بين المغول والتتار ص ٤٩.

(٥١) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٤٢٦، خواندمير: حبيب السير م٣ جـ ١ ص١٧ وانظر أيضًا:
Dohsson: Histoire des Mongols, tom,I. p. 28.

(٥٢) والف لنتون: شجرة الحضارة جـ٢ ص ١٧٨.

(٥٣) إدوارد بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص١٧٨.

(٥٤) فامبرى: تاريخ بخارى ص ١٦٣، ص ١٨٢، د/ عبد السلام فهمى: تاريخ الدولة المغولية فى إيران ص ١٩.

(٥٥) .الجوينى: تاريخ جهانكشاى جـ١ ص٦٢، هارولد لامب: جنكيز خان وجحافل المغول ص ٩٣.

(٥٦) وليام لانجر: موسوعة تاريخ العالم جـ٣ ص ١٢٧، إدوارد بروى: تاريخ الحضارات العام جـ٣ ص ٣٨٤.

(٥٧) د/ محمد موسى هنداوى: سعدى الشيرازى ص ٦٢، د/ السيد العرينى: المغول ص ١٩٩.

(٥٨) الجوينى: جهانكشاى جـ١ ص ١١٦، رشيد الدين: تاريخ جنكيز خان (مخطوط) ص ١٩٤.

(٥٩) م.م. الرمزى: تلفيق الخبار وتلقيح الآثار جـ١ ص ٢٧٥.

(٦٠) بارتولد: تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى ص ٦٨٦، برتولد شبولر: العالم الإسلامى فى العصر المغولى ص ٦٦.

(٦١) هـ. ج. ويلز: معالم تاريخ الإنسانية جـ٢ ص ٩٢٩.

مصادر ومراجع للاستزادة:

أولا: مصادر عربية:

بيبرس المنصورى: ركن الدين بن عبد الله [ت/ ٧٢٥هـ]

١. زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة، الجزء التاسع، تحقيق الدكتورة/ زبيدة عطا، الطبعة الأولى، المدينة المنورة بالسعودية [بدون تاريخ].

ابن تغرى بردى: جمال الدين أبو المحاسن [ت/ ٨٧٤ هـ]

٢. النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، نشر دار الكتب المصرية بالقاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م.

ابن خلدون: ولى الدين عبد الرحمن بن محمد

٣. العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر، نشر مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى [بدون تاريخ].

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائى [ت/٨٠٩هـ]

٤. الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين، نشر دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الديار بكرى: حسين بن محمد [ت/٩٩٠هـ]

٥. تاريخ الخميس فى أحوال أنفس نفيس، المطبعة الوهابية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م.

ابن العبرى: غريغوريوس أبو الفرج بن أهرون [ت/ ٦٨٥هـ]

٦. تاريخ مختصر الدول، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٠٨هـ/ ١٨٩٠م.

ابن العماد الحنبلى: أبو الفلاح عبد الحى [ت/ ١٠٨٩هـ]

٧. شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت [بدون تاريخ].

العينى: بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى [ت/ ٨٥٥هـ]

٨. عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن نو الدين [ت/ ٧٣٢هـ]

٩. المختصر فى أخبار البشر، نشر المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

المقريزى: تقى الدين أبو العباس أحمد بن على [ت/ ٨٤٥هـ]

١٠. السلوك لمعرفة دول الملوك، الجزء الثالث، القسم الثالث ـ القسم الثالث، حققه وقدم له ووضع حواشيه د/ سعيد عبد الفتاح عاشور، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٧١م.

١١. المقفى الكبير، نشر دار الغرب الإسلامى، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

النويرى: شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب [ت/ ٧٢٦هـ]

١٢. نهاية الأرب فى فنون الأدب، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

اليونينى: قطب الدين موسى بن محمد بن أحمد [ت/ ٧٢٦هـ]

١٣. ذيل مرآة الزمان، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، الطبعة الأولى، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٤م.

ثانيا: مراجع عربية:

خصباك: جعفر حسين [دكتور]

العراق فى عهد المغول الإيلخانيين، مطبعة العانى، بغداد، الطبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

الصياد: فؤاد عبد المعطى [دكتور]

١٤. الشرق الإسلامى فى عهد الإيلخانيين [أسرة هولاكو]، منشورات مركز الوثائق والدراسات الإسلامية، قطر،

الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
١٥- المغول فى التاريخ، نشر شركة الشريف وسعيد رأفت للطباعة والنشر، القاهرة، الطبعةالأولى، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
العرينى: السيد الباز [دكتور]
١٦- المغول، نشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.
فهمى: عبد السلام عبد العزيز [دكتور]
١٧- تاريخ الدولة المغولية فى إيران، نشر دار المعارف، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨١م.
القزاز: محمد صالح داوود [دكتور]
١٨- الحياة السياسية فى العراق فى عهد السيطرة المغولية، مطبعة القضاء فى النجف الأشرف، العراق، الطبعة الأولى، ١٢٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

ثالثا: مراجع فارسية:

آبرو: حافظ [ت/٨٣٣هـ]
١٩- ذيل جامع التواريخ رشيدى، شامل وقايع [٧٠٣- ٧٨١هجرى قمرى]، باهتمام دكتر، خانبا قيابيا تاتى، تهران، ١٣٥٠ هـ . ش .
إقبال: عباس:
٢٠- تاريخ إيران بعد الإسلام، من بداية الدولة الطاهرية حتى نهاية الدولة القاجارية، ٢٠٥: ٨٢٠هـ، نقله إلى العربية وقدم له وعلق عليه الدكتور / محمد علاء الدين منصور، نشر دار الثقافة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.
٢١- تاريخ مفصل إيران، از استيلاى مغول تا مشر وطيت، جلد أول. از جملة جنكيز تاتشكيل دولت تيمورى، تهران، ١٣١٢هـ . ش .
الجوينى: علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين محمد [ت/ ٦٨١هـ]
٢٢- تاريخ جهانكشاى [قاهر العالم جنكيز خان]، نقله إلى العربية الدكتور/ محمد التنوجى، نشر دار الملاح للطباعة والنشر، حلب، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
خواندمير : غياث الدين محمد بن همام
حبيب السير فى أخبار أفراد البشر [ألفه ٩٣٠هـ/ ١٤٢٣م]، الطبعة الأولى، جلد سوم، از انتشارات كتابخاند خيام ١٣٣٣هـ . ش .
الهمذانى: رشيد الدين فضل الله بن عماد الدولة [ت/ ٧١٨هـ]
٢٣- جامع التواريخ [تاريخ خلفاء جنكيز من أوكتاى قآن إلى تيمور قآن]، نقله إلى العربية الدكتور/ فؤاد عبد المعطى الصياد، نشر دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.
٢٤- جامع التواريخ [تاريخ المغول]، المجلد الثانى، الجزءان الأول والثانى، نقله إلى العربية الأستاذ/ محمد صادق نشأت، الدكتور/ فؤاد عبد المعطى الصياد، الدكتور/ محمد موسى هنداوى، نشر دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م.

رابعًا: مراجع أوربية مترجمة وغير مترجمة:

بارتولد: فاسيلى فلاديمير وفتش [دكتور]

٢٥ـ تاريخ الترك فى آسيا الوسطى: نقله عن التركية الدكتور / أحمد السعيد سليمان، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٨م.

٢٦ـ تركستان من الفتح العربى إلى الغزو المغولى: نقله عن الروسية الأستاذ/ صلاح الدين عثمان هاشم، نشر المجلس الوطنى للثقافة والفنون الآداب، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

بروكلمان: كارل

٢٧ـ تاريخ الشعوب الإسلامية: نقله عن الألمانية الأستاذان/ نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكى، نشر دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

شبولر: برتولد

٢٨ـ العالم الإسلامى فى العصر المغولى: نقله إلى العربية الأستاذ/ خالد أسعد عيسى، راجعه وقدم له: الدكتور/ سهيل زكار، نشر: دار حسان للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

لامب : هارولد

٢٩ـ جنكيز خان إمبراطور الناس كلهم: نقله عن الإنجليزية الأستاذ / بهاء الدين فوزى، نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٦م.

D'ohsson: M Le Baron

30- Histoire des Mongols of depuis tchinguiz khan jusque a Timour Bey ou temerian paris 1824.

Howarth: Sir Henry

31- History of the Mongols, 1876.

Schnieder: Bret, E

32- Mediaeval Researches, From Eastern Asiatic Sources St> Petersburg-London 1887.

Skrine: Francis Henry & Rose: Edward Denison

33-The Heart of Asia, London, 1899.



مكة المكرمة

بلاد الحجاز جزء من شبه جزيرة العرب، وهو جزء هام لأنه كان منزل الوحى، وفيه وُلد رسول الله ﷺ، وعلى أرضه قامت، أول ما قامت، دولة الإسلام. وجغرافيًا يقع الحجاز شمالى اليمن وشرقى تهامة وغربى نجد، وقد سُمى حجازًا لأنه يحجز بين نجد وتهامة. ويبلغ طوله من الشمال إلى الجنوب نحو سبعمائة ميل، وعرضه مائة وسبعون ميلًا، وتبلغ مساحته ٩٦ ألف ميل مربع. وهو يتكون من عدة أودية تتخللها سلسلة جبال السراة، وأشهر مدنه: مكة والمدينة والطائف؛ وأشهر موانيه: جدة وينبع على البحر الأحمر.

وإنَّ أبرز ما يلحظه الزائر لمكة البلد الحرام، الطبيعة القاسية التى تحيط بها، من جبال سود جرداء إلى أودية قاحلة لا زرع فيها ولا ماء، إلى مناخها القاسى الشديد القيظ، وعلى الخصوص، فى فصل الصيف؛ مما يجعل المرء يتساءل: سبحان ربى عن حكمته تعالى فى أن تتفجر من باطن هذه البيئة القاسية ينابيع الرحمة والحنان، وتشع منها أنوار الهداية والإيمان للبشرية فى كل مكان.

فى هذه المدينة ، التى تحتضنها الجبال الصماء وتخاصم العيش فيها معظم الكائنات من الأحياء والنباتات؛ وُلد الهدى محمد رسول الله ﷺ، وعاش أيام طفولته وصباه ورجولته، وتلقى الوحى فيها من فوق سبع سماوات، وارتقى بها برسالته لتكون أقدس أرض الله.

ولقد اختار الله تعالى موضع مكة المقدس، فى قلب العالم، حين أمر نبيه إبراهيم الخليل، أن يرتحل من العراق إلى مصر إليها ، وأن يترك أسرته بها ، فيناجى ربه ويسأله أن يرأف بهم، وأن يرزق أهل هذا الموطن الجديد من ثمرات رزقه بقوله تعالى على لسانه: ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] وقوله تعالى: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ﴾ [البقرة : ١٢٦] .

ولقد قال الباحثون بأنَّ اسم مكة اسمٌ قديم، وأنه ورد فى الكتابات اليونانية القديمة بأنه يرجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد، وأنه تحريف لاسم (مكربة) واختصار له، وأنها كانت مدينة مقدسة يقصدها الناس من مواضع عديدة بين حضر وبادية. وقد ورد ضمن الكتابات الثمودية القديمة نسبةٌ لرجال عُرف الواحد منهم بأنه (مكى)، وربما كان هؤلاء الرجال يُنسبون إلى مكة.

وقد سمَّى القرآن الكريم مكة أيضًا باسم (بكة)، وربما عُنى بها موضع البيت الحرام، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] . كذلك عُرفت مكة بأسماء أخري عديدة منها: صلاح، أم رحم، الباسة، الناسة، والحاطمة، وذكرت فى القرآن الكريم أيضًا باسم (أُم القرى)، وذلك فى قوله تعالى: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾ [الأنعام : ٩٢] . وللبيت الحرام الكائن فى مكة فضل كبير على أهلها منذ نشأتها، وبسببه يقصدها الناس من كل فج عميق حتى اليوم للحج إليه. وقد عُرف البيت بالكعبة لأنه مكعب الشكل، ويقال له أيضًا: (البيت العتيق). وقد رفع إبراهيم الخليل وابنه إسماعيل، صلوات الله عليهما، أركان البيت بأمر الله حين شرعا فى إعادة بناء البيت، بعد تعرضه لسيول قديمة تسببت فى هدمه.

وبمكة جبل يطل عليها يُقال له (ابو قبيس)، وأمامه جبل آخر، وبين الجبلين وادٍ نبتت فيه مكة ونمت فصارت محصورة بين هذين الجبلين اللذين عُرفا باسم (الأخشبين). وقد سكنت قبيلة (جرهم) جبل أبى قبيس، قبل أن تسكن بطحاء مكة، تجنبًا لخطر السيول التى كانت تنزل فى بعض الفترات على الوادى فتغرقه وتدمر الحياة فيه. ولمَّا أسكن (قصى بن كلاب)، جد القرشيين، أهله فى الوادى فى بيوت ثابتة مبنية فى بطحاء مكة، بقى منهم مَنْ فضَّل السكن فى ظواهر مكة، أى على الجبال، فعُرفوا (بقريش الظواهر).

وكان (العماليق) أول من سكن مكة، على أثر هجرتهم إليها من بلاد العراق، ثم خلفتهم عليها قبيلة جرهم الثانية اليمانية بعد أن هاجرت من اليمن وتغلبت على العماليق. وفى عهد سيادة جرهم على جبال مكة، كانت هجرة

نبى الله (إبراهيم الخليل) من العراق، وكان نزوله مع زوجته المصرية (هاجر) وطفله الرضيع (إسماعيل) بطحاء مكة. وقد استجاب إبراهيم الخليل لأمر ربه بترك زوجته وابنه فى هذا المكان الصحراوى الموحش، وتركهما بعد أن دعا ربه لهما؛ فاستجاب الله لدعائه وأنبع الماء من تحت قدمى الطفل الرضيع، وكانت (بئر زمزم).

وجاءت قبيلة (جرهم) على أثر الماء لتسكن مع هاجر وطفلها، وقد هوت أفئدة الناس إليهم ورزقهم الله من طيب ثماره، وقامت الحياة وازدهرت فى تلك البقعة القاحلة من صحراء الحجاز.

وحين وصل إسماعيل إلى سن الشباب، تزوج من جرهم، بعد أن أحرز السيادة عليهم، تزوج من (رعلة بنت الحارث بن مضاض بن عمرو بن جرهم) وعاش نسله فى جرهم، والأمر على البيت لجرهم، لأنَّ أبناء إسماعيل لم ينازعوا أخوالهم على الرئاسة. وقد ظلت الرئاسة فى جرهم، حوالى قرنين من الزمان إلى عهد آخر رؤسائهم وهو (مضاض بن عمرو بن الحارث).

وفى عهد رئاسة مضاض حدث أن نضبت مياه زمزم، وتغلب على جرهم (بنو خزاعة)، وهم بنو حارثة بن ثعلبة بن عمرو ابن عامر، وكانوا قد هاجروا من اليمن إليها بعد وقوع (سيل العَرِم) وانهيار سد مأرب. فاستولوا على مكة بقيادة زعيمهم (حارثة) الملقب (بخزاعة).

وكان مُضاض الجرهمى قد حذر قومه عاقبة الفساد والترف الذى انغمسوا فيه نتيجة الثروة التى حلت عليهم بسبب التجارة؛ ولكنهم لم يستمعوا له. فلمَّا أيقن مضاض زوال أمر دولته فى مكة عمد إلى بئر زمزم فأعمق حفرها ودفن بها ما كان مدخرًا للكعبة مما أُهدى إليها من مال وذهب وأهال عليها الرمال على أمل عودة جرهم للسيادة على مكة ثانيةً يومًا من الأيام فيعيد الكشف عنها وتستفيد جرهم وتتقوى بها. وخرج بنو إسماعيل مع مضاض من مكة، ووُليت خزاعة أمر مكة والبيت، وكان رئيسهم يومئذ (عمرو بن لُحَىّ الخزاعى)، الذى يُنسب إليه إدخال عبادة الأصنام إلى بلاد العرب بعد أن استوردها من الشام.

وعمرو بن لُحى هو أول رجل يصل إلينا خبره من الرجال الذين كان لهم أثر فى تكوين مكة وفى توسيع توجه القبائل إليها للاتجار معها وللتعبد للكعبة وللأصنام التى وضعها حولها وفى

جوفها. وعلى رأس هذه الأصنام استورد ابن لحى صنمًا أطلق عليه اسم (هُبل) وضعه فى جوف الكعبة، وقد صُنع من العقيق، وحين كُسرت إحدى يديه استبدلت بها يدُ صنعت من الذهب الخالص. وعُدَّ هُبل كبير آلهة العرب وكبير أصنامهم، فصاروا يَقْدمون إليه ويقدّمون له القرابين ولبقية الأصنام.

واستمرت خزاعة على رياسة مكة حوالى ثلاثة قرون حتى تغلبت عليها قبيلة (قريش)، وانتزعت الرئاسة منها، وكان ذلك، على وجه التحديد سنة ٤٤٠ ميلادية بقيادة (قُصى بن كلاب)، الجد الرابع لرسول الله ﷺ. وقد قام قصى بإجلاء خزاعة عن مكة إلى وادى فاطمة بالحجاز، وقد أقطع قصى مكة رباعًا بين قومه. فأنزل كل قوم من قريش منازلهم بمكة التى أصبحوا عليها، وقد سكنوا بطحاء مكة، وعرفوا (بقريش البطاح)، وهم دون (قريش الظواهر) الذين سكنوا جبال مكة، ودون (الأحابيش) وهم حلفاء قريش وهم: بنو المصطلق والحياء ابن سعد وبنو الهون بن خزيمة، وهم من اجتمعوا بجبل أسفل مكة يُقال له: حُبْشِىّ.

وقُصى من قريش، وقريش كلها من نسل رجل اسمه (فهر بن مالك بن النضر ابن كنانة بن خُزَيْمة بن مدركة بن إلياس بن مُضر بن نزار بن معد بن عدنان)، وهى من القبائل العدنانية، من مجموعة العرب المستعربة. فقريش هم: فهر وأبناؤه من سكان بطحاء مكة وظواهرها. وقد سُمى قصى (مُجَمِّعًا) لأنه جمَّع قومه من الشِعاب والأودية والجبال إلى مكة.

وقد اشتهرت قريش بالتجارة، وبها عُرفت وذاع صيتها بين القبائل وتمكن رجالها، بفضل ذكائهم ومهارتهم فى أسلوب التعامل، من الاتصال بالدول الكبرى فى ذلك العهد وبسادات القبائل وتكوين علاقات طيبة معها. كما نجحوا فى عقد أحلاف مع سادات القبائل ضمنت الأمان لتجارتهم طوال أيام السنة ولرحلتى الشتاء والصيف اللتين كانوا يقومون بهما إلى اليمن شتاءً وإلى الشام صيفًا، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم فى قوله تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ ﴾ (قريش: ٢،١) .

وقد علّمت الأسفار سادة قريش أمورًا كثيرة من الحضارة والثقافة وأطلعتهم على بلاد متقدمة متحضرة فى الشام



والعراق؛ فتعلموا من أهل الحيرة أصول كتابتهم وهذبوا لسانهم ودونوا به أخبارهم. كما علمتهم الطبيعة أن كسب المال وتأمين الرزق يحتاج إلى الأمن والسلام؛ لذلك اتصفوا بالمسالمة والحلم والنجدة. وقد جاء لهم ذلك بأحسن النتائج فقصدهم التجار من كل مكان وهم مطمئنون على حياتهم وأموالهم وبضائعهم.

ولم تكن فى مكة حكومة مركزية بالمعنى المعروف للحكومة الآن، وكل أمرها أنها قريه تتألف من شعاب، كل شِعب لعشيرة، وأمر كل شعب لرؤسائه، وهم وحدهم أصحاب الحل والعقد والنهى والتأديب فيه، وليس فى استطاعة متمرد مخالفة أحكامهم. هؤلاء الرؤساء هم الحكام وعقلاء الشعب، وهم الزعماء وقد عرفوا باسم (الملأ). وملأ مكة محافظون لا يقبلون تجديدًا ويتعلقون بتراث الآباء والأجداد.

ودار الندوة هى دار مشورتهم فى أمور السلم والحرب، وفى هذه الدار يجتمع الملأ للتشاور فى أمورهم الهامة، وفيها أيضًا تجرى عقود الزواج وتعقد المعاملات. وقد ذكر بعض أهل الأخبار أنَّ دار الندوة لم يكن يدخلها إلا مَنْ بلغ أربعين سنة أو ما زاد. ولم تكن قرارات دار الندوة ملزمة، ولا يحصل الإجماع فيها إلا باتفاق. ولم تكن الخصومات الداخلية للأسر تُعرض فى دار الندوة ولكنها كانت تُفض داخل الأسر، فقد كان العرب لا يقبلون تدخل غريب عن الأسرة فى شأن من شئونها. لذلك كان رجال الملأ لا ينظرون إلا فى الأمور التى هى فوق مستوى الأُسر والشعاب والتى تخص المدينة بأكملها. فالحكم فى مكة إذن حكم لا مركزى، حكم رؤساء وأصحاب جاه ونفوذ ومنزلة تُطاع فيها الأحكام وتنفذ الأوامر . وهذه الأحكام لذوى السن والشرف والرئاسة، وهى أحكامُ نابعة من العرف والعادات والتقاليد.

ودار الندوة هى أول دار بُنيت بمكة، على حد قول الرواة، بناها قصى بن كلاب، وكانت أشهر دار بمكة. وقد توارث بنو عبد الدار الندوة حتى اشتراها (معاوية بن أبى سفيان) من (عكرمة بن عامر بن عبد الدار) فجعلها دار الإمارة بمكة، ثم أُدخلت فى الحرم.

وذكر أهل الأخبار أن من جملة ما أحدث قصى : الرفادة، وهى إطعام الحجاج فى أيام موسم الحج حتى يعودوا

إلى بلادهم، وقد فرضها على قريش إذ قال لهم: «يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل مكة وأهل الحرم وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته وهم أحق بالضيافة فاجعلوا لهم طعامًا وشرابًا أيام الحج حتى يصدروا عنكم». ففعلت قريش ذلك، فكانوا يُخرجون فى كل عام من أموالهم خرْجًا فيدفعونه إلى قصى لكى يصنعه طعامًا للناس أيام مِنىً ومكة، وقد بقيت هذه السُنة فى الإسلام.

وكانت إلى قصى أيضًا: الحجابة والسقاية واللواء. والحجابة هى سدانة الكعبة، أى تولى مفاتيحها وخدمتها والإشراف عليها والتكفل بحمايتها وحراستها. أما السقاية فكانت تعنى توفير الماء ونبيذ التمر لحجاج بيت الله فى موسم الحج. أما اللواء فقد عقد قصى لهم راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجهوا لقتال العدو. وقد ترك قُصى أثرًا كبيرًا فى أهل مكة، وعدوه المؤسس الحقيقى لكيان قريش، وكانوا يذكرون اسمه، على الدوام، بكل إكبار.

وكان لقصى أربعة أولاد هم: عبد مناف (المغيرة)، وعبد الله (عبد الدار) وعبد العُزى، وعبد قُصى، وكانت له ابنة واحدة اسمها هند. ولمّا مات قُصى دفن بالحَجون، وهو جبل بأعلى مكة كانوا يدفنون موتاهم فيه، وقد كان القرشيون يزورون قبر قصى ويعظمونه.

وكان (عبد الدار) أكبر أبناء قصى وأحبهم إلى قلبه وأقربهم إليه، وكان عبد مناف أشرفهم. ولمّا طعن قصى فى السن وضعف بدنه ولم يعد قادرًا على تولى أمور مكة أوصى لابنه عبد الدار بما كان له من وظائف وأن يحل مكانه فيها . ولمّا توفى قصى (٤٨٠ م) قام عبد الدار بعده بأمر مكة ولم ينازعه أخوه عبد مناف فى ذلك احترامًا لرغبة أبيه.

واستمر الحال على ذلك حتى تُوفى عبد الدار وعبد مناف. فتنازع أبناء الأخوين على الرئاسة فى مكة، وانقسموا فى ذلك إلى فريقين، وتفرق بذلك أمر قريش. وصمم بنو عبد مناف وهم: هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل أن يأخذوا الرئاسة من أبناء عمهم. فأبى بنو عبد الدار ترك ما فى أيديهم وأصروا على الاحتفاظ به. وانقسمت قريش إلى قسمين: فريق مع بنى عبد الدار وفريق مع بنى عبد مناف. فأخرجت (البيضاء) أم حكيم، توأمة عبد الله والد رسول الله ﷺ، جفنة فيها طيب فوضعتها فى

الحجر فى الكعبة، فقالت: «من كان منا فليُدخل يده فى هذا الطيب» فأدخلت عبد مناف أيديها فى الجفنة وأدخل بنو أسد بن عبد العُزى وبنو زهرة، وبنو تيم، وبنو الحارث بن فهر أيديهم فى الجفنة، فسُموا (بالمطيبين). وعمدت بنو سهم بن عمرو فنحرت جزورًا، وقالوا: «من كان منا فليدخل يده فى هذه الجزور». فأدخلت عبد الدار وسهم وجُمح، ومخزوم، وعدى أيديها، فسميت بالأحلاف. وقام الأسود بن نضلة فأدخل يده فى الدم ثم لعقها، فلعقت بنو عدى كلها أيديها الملطخة بالدم، فسُموا (لعقة الدم).

وكاد القتال أن ينشب بين الطرفين، لولا أن تداعى الناس إلى الصلح، فاصطلحوا على أن تُقسم الاختصاصات بينهما؛ على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة، وأن يبقى اللواء والندوة والحجابة لبنى عبد الدار كما كانت، ورضى الفريقان بهذا وتحاجز الناس عن الحرب.. وظل الأمر كذلك حتى مجئ الإسلام. وحين فتح رسول الله ﷺ مكة، طلب العباس بن عبدالمطلب، عم رسول الله، الحجابةَ لنفسه فأراد النبى أن يسلمه مفتاح الكعبة، لكنه رده إلى عثمان بن طلحة من بنى عبد الدار حين نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨]، وظلت الحجابة باقية فى بنى عبد الدار إلى اليوم، كما أراد الله تعالى.

وكان هاشم بن عبد مناف كبير بنى عبد مناف فتولى أمرهم، ولزم السقاية والرفادة حتى وفاته . وقد سنَّ هاشم لقريش رحلتى الشتاء والصيف. وقد توفى هاشم بالشام فى رحلة من هذه الرحلات فخلفه أخوه المطلب فى مناصبه. ثم خَلَفَ المطلبَ، عبدُ المطلب ابن أخيه هاشم. وقد وقع حب عبد المطلب فى قلوب قومه وعظم خطره عندهم، وخاصةً حين تصدى لحملة (أبرهة الحبشى) على مكة فى محاولته الفاشلة لهدم الكعبة فى عام الفيل (٥٧٠ م)، وهو العام الذى وُلد فيه رسول الله ﷺ.

وكانت أيام الفجار من الحوادث المؤثرة فى تاريخ مكة، وسُميت كذلك لوقوعها فى الأشهر الحُرم. وكان (يوم نخلة) هو أعظم أيام الفجار. ولقد تفاوت الوضع الاجتماعى فى مكة بين الغنى والفقر، وكان هناك كبار الأثرياء وأغلبية من الفقراء المعدمين. وقد جاءت

ثروة غالبية الأثرياء من التجارة الداخلية والتجارة العالمية الخارجية. وكان من رجال مكة الأثرياء: الأسود بن المطلب، المعروف بأبى زمعة، وهشام بن المغيرة المخزومى، والد عمرو بن هشام المعروف بأبى جهل، وعمرو بن عبدالله بن صفوان ابن أمية، والوليد بن المغيرة المخزومى، وسعيد بن العاص بن أمية، وقيس بن عدى السهمى، وأبو سفيان صخر بن حرب، وعبدالعزى بن عبدالمطلب (أبو لهب) عم الرسول، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيدالله والزبير بن العوام.

وقد كانت بمكة جالية كبيرة من أصل إفريقى عُرفت (بالأحابيش)، وهم من الرقيق الأسود، اشتراهم أثرياء مكة لخدمتهم والعمل لهم فى مختلف الأعمال، وهم بخلاف القبائل التى حالفت قريشا وكانت تسكن أسفل جبل ذنب حبشى خارج مكة ونُسبت إلى هذا الجبل.

كذلك كان فى مكة رقيق أبيض كان يُشترى من أسواق النخاسة العالمية من مدينة سمرقند ببلاد ما وراء النهر، وكان أغلب هذا الرقيق على الوثنية وكانوا لا يتقنون الحديث بالعربية. وفى كتب السير أسماء جوارٍ تركيات ويونانيات جُلبن من بلاد ما وراء النهر وبلاد فارس والعراق وقد تزوجن فى مكة وكانت لهن فيها ذرية قبل الإسلام، كذلك كانت هنالك جَوارٍ عملن بالخدمة ومنهن من عملن بالغناء.

وكان الفساد قد ساد مكة قبل الإسلام، فكان معظم أثريائها قساة القلوب لا يعينون المحتاج، وقد فشا بينهم التعامل بالربا الفاحش، وكانوا يستعبدون الفقراء ويسترقونهم مقابل ما عليهم من ديْن ويسخرونهم فى أشق الأعمال غير عابئين بآدميتهم. وكان بعضهم لا يتورع عن أكل مال اليتيم، وعن إكراه فتياتهم على البغاء ليستولوا على ما تأتين به من مال.

ولقد أدى هذا التردى الاجتماعى فى مكة قبل الإسلام إلى الخلل فى المجتمع وإلى شيوع الرذيلة والظلم والفساد؛ وكان الأمر فى حاجة إلى إصلاح، وكانت مكة، قبل إشراق شمس الإسلام، تعيش على بركان. ولقد جاء الإسلام وجاءت رسالة محمد ﷺ لتصحح المسار ولتنقذ المجتمع المكى من متناقضاته وتخلصه من أدرانه وتسمو بقريش وتضعها على رأس قبائل الجزيرة العربية.

والحقيقة أن الإسلام هو الذى أعطى

المكانة لقريش وجعل لها السيادة على العرب جميعًا والقيادة على القبائل وجعل الخلافة فيها. فلولا الإسلام، ولولا كوْن رسول الله ﷺ منها لكانت مكة قرية عادية كبقية القرى،ولكانت قريش قبيلة كسائر القبائل . وكانت العزة لقريش ولمكة بالإسلام وبانتسابهما إلى محمد ﷺ رسول الله وخير الأنام.

أ.د / عطية القوصى

مصادر ومراجع للاستزادة :

✥ البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر)

- فتوح البلدان . دار الكتب العلمية . بيروت ١٩٩١م .

✥ ابن سعد (محمد بن سعد بن منيع) :

- الطبقات الكبرى . دار صادر . بيروت (دون تاريخ) .

✥ الطبرى (محمد بن جرير) :

- تاريخ الرسل والملوك . تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . القاهرة ١٩٧٩م.

✥ جواد على :

- المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام . دار العلم للملايين . بيروت ١٩٨٠م .

✥ ابن هشام أبو محمد بن عبد الملك) .

- سيرة النبى صلى الله عليه وسلم. تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . دار الهداية . القاهرة (دون تاريخ) .

✥ د. عطية القوصى :

- تاريخ الدولة العربية الإسلامية . دار الثقافة العربية . القاهرة ١٩٩٤م.

ملوك الطوائف

بلغت الأوضاع فى الأندلس منتهى السوء، فسقطت الخلافة الأموية سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م حين أعلن أبو الحزم بن جهور انتهاء رسوم الخلافة لعدم وجود من يستحقها، وتم عزل آخر خليفة أموى وهو الملقب بالمعتمد بالله، وصار الأمر شورى بأيدى الوزراء وصفوة الأمراء فى قرطبة بزعامة ابن جهور وهو ما عرف فى كتب التاريخ بحكم الجماعة – فى نظام أشبه بالحكم الجمهورى الآن .

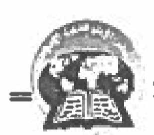
لقد تحولت البلاد كلها إلى دويلات متنازعة، فاستقل كل أمير بناحيته وأعلن نفسه ملكًا عليها، ودخلت الأندلس عصرًا جديدًا هو ما سمى بعصر ملوك الطوائف أو عصر الفرق. وكانت هناك ألوية ثلاثة يعمل كل منها على بسط نفوذه على شبه الجزيرة الأيبيرية:

لواء يمثله أهل الأندلس المستقرون فيها منذ زمن قديم والذين انصهروا فى البوتقة الأسبانية بصرف النظر عن أصولهم الجنسية، وعرف هؤلاء بأهل الجماعة، ومن هؤلاء بنو جهور فى قرطبة وبنو عباد اللخميون فى إشبيلية، وبنو هود الجذاميون فى سرقسطة وبنو صمادح أو تجيب فى ألمرية وبنو برزال فى قرمونة وبنو خزرون فى أركش وبنو نوح فى مورور وبنو عامر فى بلنسية.

والمجموعة الثانية يمثلها المغاربة أو البربر الحديثو عهد بالأندلس أيام المنصور بن أبى عامر، ومنهم بنو زيرى فى غرناطة وبنو حمود الأدراسة العلويون فى مالقه والجزيرة.

والحزب الثالث يمثله كبار الصقالبة الذين استقلوا بشرق الأندلس، وهؤلاء من الموالى الذين ينتمون إلى الشعوب السلافية وهم من مختلف البلدان الأوروبية بما فى ذلك الشمال الأسبانى المسيحى.

وكان لهؤلاء دور أثناء تدهور الخلافة الأموية فى الأندلس؛ وبعد سقوطها كَوَّنوا دويلات صغيرة قامت فى شرق الأندلس، جمعها تحالف أطلق عليه اسم "الدولة العامرية الصقلبية"، فقد كان هؤلاء من مماليك المنصور بن أبى عامر وأبنائه، وأبرز هؤلاء " خيران رئيس الصقالبة فى قرطبة"، ومجاهد العامرى الذى استقل بدانية ثم سيطر على جزر البليار الشرقية وغزا جزيرة سرادنية وسواحل إيطاليا بأساطيله التى سيطر بها على غربى البحر الأبيض المتوسط.



وكل فريق من فرق الطوائف حاول أن يتخذ لنفسه صفة شرعية فيبايع خليفة يستمد منه سلطانه الروحى.

فبنو عباد جاءوا برجل يشبه هشام المؤيد وأقاموه على أنه خليفة، والحزب المغربى تزعمته خلافة بنى حمود اعتمادًا على أصلهم العلوى الشريف، وقد انقسم هؤلاء على أنفسهم وصار كل فريق منهم يَدَّعى الخلافة لنفسه ويتلقب بالمهدى والعالى والمستعلى والسامى والمتأيد .

وقد انتهى نفوذ هؤلاء باستيلاء بنى زيرى ملوك غرناطة على مالقه، واستيلاء بنى عباد على الجزيرة الخضراء، وعاد الحمدانيون إلى مقرهم الأصلى فى العدوة المغربية.

أما الفريق الصقلبى فقد أتى " مجاهد " صاحب دانية والجزر الشرقية برجل قرشى أموى قرطبى هو الفقيه أبو عبد الله بن الوليد المعيطى وجعله خليفة ولقب بالمنتصر بالله، وباسمه صكت العملة والأعلام ولكنه لم يلبث أن طرده " مجاهد " لعلمه بتآمره عليه أثناء انشغاله بغزو سرادنية.

وهكذا تعددت الخلافة بتعدد ملوك الطوائف واصطدمت مصالحها لقرب المسافات بينها وانتشرت الفتن والفوضى، وفى ذلك يقول " أبو محمد بن حزم" - وهو شاهد عيان:

"اجتمع عندنا فى الأندلس فى صقيع واحد خلفاء أربعة، كل واحد منهم يُخْطَب له بالخلافة فى موضعه، وتلك فضيحة لم ير مثلها، أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام كلهم يتسمى بالخلافة وإمرة المؤمنين، وهم خلف الحصرى فى إشبيلية على أنه هشام من بعد اثنتين وعشرين سنة من موت هشام، وشهد له خصيان ونسوان، فخُطِب له على منابر الأندلس وسُفِكت الدماء من أجله، ومحمد بن القاسم خليفة بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس خليفة بمالقة، وإدريس بن يحيى بن على ببشتر»[1].

ومعظم هؤلاء قلدوا خلفاء بنى العباس والفاطميين فى حياتهم وألقابهم، يقول أبو الحسن بن رشيق القيروانى:

مما يزهدنى فى أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهرّ يحكى انتفاخًا صورة الأسد[2].

ويرى الدكتور حسين مؤنس أن الطامة الكبرى التى ترتب عليها كل ذلك هو إلغاءُ الخلافة، لأن ذلك يمثل إلغاءً لوحدة الأمة، وقد وَجَد عمال الأطراف أنفسهم بدون خلافة فاضطر كل منهم

أن يتولى أمره بنفسه وتحول إلى أمير في ناحيته، فالعمل الذى قام به القرطبيون بزعامة أبى الحزم بن جهور كان قضاء على رمز الوحدة فى البلاد، وهذا أمر لم يحدث قط فى التاريخ، فهؤلاء لم يكونوا ملوكًا ولا طوائف وإنما هم عمال استبدوا بالأمر، ولم يتخذوا ألقابًا ملكية أو سلطانية وإنما اتخذوا تسميات مثل المعتضد والمعتمد والمستعين .. الخ، ولم يكونوا زعماء لطوائف عربية أندلسية أو طائفة بربرية ولا طائفة صقلبية وإنما زعماء نواحٍ استبد كل منهم بناحيته وجرت بينهم حروب وطمع فيهم النصارى وفرضوا عليهم إتاوات، ولم يكن لديهم جيش يُمْكِنُهُم به دفعُ أصحاب الممالك النصرانية، بل استعان زعماء الطوائف بهم فى نزاع بعضهم ضد البعض الآخر.

ويقسم د. حسين مؤنس عصر الطوائف إلى ثلاث فترات تاريخية:

(١) الفترة الأولى فترة الانتظار والترقب بين سقوط العامريين وإلغاء الخلافة القرطبية ٤٢٢هـ/ ١٠٣١م.

(٢) الفترة الثانية تمتد من ٤٢٢هـ إلى ٤٧٨هـ= ١٠٨٥م وهى السنة التى سقطت فيها طليطلة فى يد ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون وهى فترة حروب طويلة بين الطوائف بعضهم ضد البعض الآخر مع الاستعانة بقوات من النصارى ودفع إتاوات لهم. واشتهر فى هذه الفترة بنو عباد أصحاب إشبيلية وبنو ذى النون أصحاب طليطلة والصقالية فى بلنسية والتجيبيون ثم بنو هود فى سرقسطة وبنو زيرى فى غرناطة وبنو صمادح فى المريه وبنو الأفطس فى بطليوس... وكل هؤلاء تسلطوا على رعاياهم وظلموهم وأفقروا البلاد، مما كان سببًا فى عبور المرابطين إلى الأندلس.

(٣) بعد ذلك تأتى فترة حكم وجهاد المرابطين ثم الموحدين فى الأندلس[٣]، كل هذا يمثل الضعف السياسى والاجتماعى على الجانب الإسلامى خلال فترة الطوائف، بينما الجانب الآخر، جانب أسبانيا المسيحية فى الشمال، يعمل على توحيد قواه بمساندة فرنسا والبابوية. فقد كان ألفونسو السادس - ملك قشتالة وليون- يعمل جاهدًا على تحقيق أطماعه وتوسيع ملكه. ولكن مشيئة الله هى الغالبة، فقد كان يتولى على المغرب فى هذه الظروف العصيبة قوة فتية هى قوة المرابطين الملثمين التى استطاعت إنقاذ الأندلس من سقوط محقق على يد الأسبان.

ونأخذ الآن في بيان كل مملكة، وذكر عاصمتها وبدايتها ونهايتها:

بنو جهور في قرطبة:

من ٤٢٢ إلى ٤٦٣هـ/١٠٣١- ١٠٧٠م.

ثم ضمت إلى حكم بني عباد في إشبيلية.

بنو عباد في إشبيلية:

من ٤١٤ إلى ٤٨٤هـ/١٠٢٣- ١٠٩١م.

بنو زيري في غرناطة:

من ٤٠٣ إلى ٤٨٣هـ/١٠١٢- ١٠٩٠م.

بنو برزال في قرمونة:

من ٤٠٤ إلى ٤٥٩هـ/ ١٠١٣- ١٠٦٧م.

دولة بني يفرن (ابن أبي قره) في رندة:

من ٤٠٦ إلى ٤٥٧هـ/ ١٠١٥- ١٠٦٥م.

ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية.

بنو نوح (بنو دمر) في مورور:

من ٤٠٣ إلى ٤٥٨هـ/ ١٠١٢- ١٠٦٦م.

ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية:

بنو خرزون في أركش:

من ٤٠٢ إلى ٤٦١هـ/١٠١١- ١٠٦٨م.

دولة بني البكري (بنو أيوب)، في ولبة وجزيرة شلطيش:

من ٤٠٣- ٤٤٣هـ/١٠١٢- ١٠٥١م.

ثم ضمت لمملكة إشبيلية.

بنو يحيى في لبله:

من ٤١١ إلى ٤٤٥هـ/١٠٢٠- ١٠٥٣م.

بنو مرين في باجة وشلب:

من ٤٢٣ إلى ٤٥٥هـ/١٠٣٢- ١٠٦٣م.

بنو هارون في شنتمرية الغرب:

من ٤١٧ إلى ٤٤٣هـ/١٠٢٦- ١٠٥١م.

ثم ضمت إلى إشبيلية.

بنو الأفطس في بطليوس:

من ٤١٣ إلى ٤٨٨هـ/١٠٢٢- ١٠٩٥م.

ثم سقطت بطليوس في أيدي المرابطين.

بنو ذي النون في طليطلة:

من ٤٢٧ إلى ٤٧٨هـ/١٠٣٦- ١٠٨٥م.

ثم سقطت طليطلة على يدي ألفونسو السادس.

بنو هود (بنو يحيى) في سرقسطه:

من ٤٠٨ إلى ٥٠٣هـ/١٠١٧- ١١٠٩م.

ثم استولى عليها المرابطون.

بنو رزين في السهلة (شنتمرية الشرق):

من ٤٠٣إلى ٤٩٧هـ/١٠١٢- ١١٠٣م.

بنو القاسم في البونت:

من ٤٠٠ إلى ٤٩٥هـ/١٠٠٩- ١١٠١م.

ثم استولى عليها المرابطون.

الصقالبة في بلنسية:

من ٤٠٠ إلى ٤٥٧هـ/١٠٠٩- ١٠٦٥م.

وكذلك بنو المنصور في بلنسية:

من ٤١١- ٤٥٧هـ/١٠٢٠- ١٠٦٥م:

ثم ضمت بلنسية لمملكة طليطلة.

المأمون بن ذى النون فى بلنسية:

من ٤٥٧ إلى ٤٨٥هـ/١٠٦٥- ١٠٩٢م. ثم صارت بلنسية جمهورية يرأسها ابن جحاف:

من ٤٨٥ إلى ٤٨٧هـ/١٠٩٢- ١٠٩٤م.

السيد القمبيطور والقشتاليون فى بلنسية:

من ٤٨٧ إلى ٤٩٥هـ/١٠٩٤- ١١٠٢م.

ثم استولى المرابطون عليها.

مجاهد فى دانية والجزائر:

من ٤٠٠ إلى ٤٦٨هـ/١٠٠٩- ١٠٧٥م.

ثم انضمت دانية إلى سرقسطة.

المقتدر بن هود فى سرقسطة:

من ٤٦٨ إلى ٤٨٣هـ/١٠٧٥- ١٠٩٠م.

خيران وزهير فى مرسية:

من ٤٠٣ إلى ٤٧١هـ/١٠١٢- ١٠٧٨م.

الطاهريون فى مرسية:

من ٤٢٩- ٤٧١هـ/١٠٣٨- ١٠٧٨م.

ابن عمار وابن رشيق فى مرسية:

من ٤٧١ إلى ٤٨٤هـ/١٠٧٨- ١٠٩١م.

خيران وزهير فى المرية:

من ٤٠٥ إلى ٤٢٩هـ/١٠١٤- ١٠٣٨م.

بنو صمادح فى المرية:

من ٤٣٣ إلى ٤٨٤هـ/١٠٤١- ١٠٩١م.

بنو حمود فى مالقة:

من ٤٢٧ إلى ٤٤٩هـ/١٠٣٦- ١٠٥٧م.

ثم ضمت مالقة إلى غرناطة.

بنو حمود فى الجزيرة:

من ٤٢٧ إلى ٤٥٠هـ/١٠٣٦- ١٠٥٨م.

بنو طيفور فى مرتلة:

٤٣٦هـ/١٠٤٤م.

ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية(٤).

وهذه القوائم تؤكد أن عصر الطوائف الذى امتد نحو ثمانين سنة، كان عصر تفكك وانحلال سياسى واجتماعى شامل، ولم يستنكف هؤلاء الملوك من الارتماء فى أحضان ملوك النصارى، وأن يستعينوا بهم فى حروبهم المتبادلة لاقتطاع حصن من مملكة مجاورة أو التنكيل بأمير مجاور، ودفعوا فى سبيل ذلك الجزية والإتاوات لهؤلاء النصارى، ويكفى أن نستعيد وقوفهم فى ذلة لدى ملك قشتالة وقت تنازلهم عن "طليطلة" قبيل سقوطها، بل إنه حتى فرسان النصارى من أمثال السيد القمبيطور، أمكنهم التسلط على بعض بلاد الإسلام وأذلوها وأهانوا أهلها، ورأى سكانها منهم الويلات. أضف لهذا قسوة هؤلاء الطوائف مع رعيتهم وإثقال كواهلهم بالضرائب والمغارم بهدف ملء خزائنهم، لا يحول دون ذلك خلق ولا دين. والمؤلم أن فقهاء العصر كانوا أكبر معاضد لهؤلاء فى تبرير ظلمهم وطغيانهم، أضف لهذا

اقتناء الجوارى والعبيد والانهماك فى الترف والانحلال لأقصى مدى.

ومهما يكن من أمر فإنه من الممكن أن نميز عددًا من هؤلاء الممالك هم الأكثر أهمية من بينهم وهى :

مملكة سرقسطة فى الثغر الأعلى وكان الحكم فيها لبنى هود.

وإمارة قرطبة فى وسط الأندلس ويحكمها بنو جهور.

وإمارة طليطلة فى الثغر الأدنى ويحكمها بنو ذى النون.

ومملكة إشبيلية غربى الأندلس ويحكمها بنو عباد.

ومملكة بلنسية شرقى الأندلس، وقد تداولها عدد من الحكام.

ومملكة غرناطة جنوبى الأندلس ، ويحكها بنوزيرى .

وكذلك **إمارة بنى الأفطس** حكام بطليوس فى الثغر الأدنى.

وربما كان من المفيد أيضًا أن نختار ثلاثًا من هذه الممالك نتحدث عنها بإيجاز شديد؛ لتكون نموذجًا لغيرها ، هذه الثلاث هى: مملكة سرقسطة ومملكة بلنسية ومملكة إشبيلية.

مملكة سرقسطة

أعظم ملوك الطوائف من حيث سعتها وموقعها بين الدول النصرانية فى الشمال وهى عاصمة ولاية الثغر الأعلى.

وقد حكم هذه المملكة بنو تجيب ثم أسرة بنى هود وأولهم المستعين بالله (٤٣١- ٤٣٨هـ/١٠٣٩- ١٠٤٦م)، ثم المقتدر بالله الذى قسم المملكة بين ولديه فجرت بينهما حروب، واستعان كل منهما بملوك النصرانية نظير تقديم أموال وحصون وامتيازات.

وقد حاول ألفونسو السادس، الاستيلاء على سرقسطة، وحاصرها بعد نجاحه فى الاستيلاء على طليطلة، ولكن المرابطين نجحوا فى إنقاذها.

وفى عهد أبى مروان عبد الملك عماد الدولة، تركها هذا الأمير ليلتحق بحصن روطة أو روطة اليهود - أحد معاقل سرقسطة- لكن الأخيرة سقطت فى يد رودمير " ملك " أراغون " ٥١٢هـ/ ١١١٨م، ثم قام آخر حكام بنى هود بتسليم "روطة اليهود" إلى ملك قشتاله وتخلى عنها للطاغية أذفونس بن رمند المعروف بالسليطين.

وقد جرت أحداث مأساة " بريشتر" فى زمن بنى هود ٤٥٦هـ/١٠٦٤م وتم استردادها ٤٥٧هـ/١٠٦٥م.

مملكة بلنسية

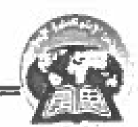
تقع شرقى الأندلس وتجاور سرقسطة

حكمها الصقالبة أولا ثم بنو ذى النون، وكان ألفونسو السادس قد وعد حاكم طليطلة أن يعاونه فى الاستيلاء على بلنسية، بعد أن يتسلم منه طليطلة، وبالفعل سارت قوات القادر بالله -حاكم طليطلة- يعاونها جيش ألفونسو الذى تم له الاستيلاء على طليطلة، وتسلم القادر بالله " بلنسية . وقد ساءت أحوال تلك الولاية فى زمنه، وأرهق أهلها بالضرائب لارضاء مطالب ورغبات القشتاليين وألفونسو معا، ثم شاءت إرادة الله أن يأتى المرابطون وأن يحققوا نصرًا مبينًا فى موقعة الزلاقة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م، وتم إنقاذ بلنسية، ولكنها نكبت مرة أخرى على يد المغامر النصرانى المعاصر السيد القمبيطور، وقد نجح فى الإيقاع بين بعض المسلمين والبعض الآخر، وتآمر وغدر حتى استسلمت له " بلنسية " ولقيت ويلات من التعذيب والإيذاء والحصار الشديد مع تقض العهود و كثير من الإهانات، بل إنه حول مسجد المدينة إلى كنيسة، وأحرق قاضيها وقائدها "أبن جحاف" وأحرق معه غيره، وكل ذلك ابتداء من ٤٨٧هـ/١٠٩٤م.

وشاء الله أن يسترد المسلمون بلنسية، بعد أن هال المرابطين وآلمهم ما جرى لها، فكان عبورهم الثالث من عدوة المغرب إلى عدوة الأندلس يقودهم محمد بن عائشة بن يوسف بن تاشفين، الذى استرجع المدينة فى ٤٩٥هـ/ ١١٠٢م.

مملكة إشبيلية

تتميز هذه المملكة بسعتها وتفوقها السياسى، وقد حكمها بنو عباد عقب سقوط الخلافة الأموية بالأندلس، وظلوا يحكمونها حتى عبور المرابطين كما أشرنا فيما مضى. وأول من وليها منهم القاضى أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عباد اللخمى، ثم المعتمد أبو القاسم محمد بن إسماعيل ثم المعتضد ثم ابنه الملقب بالمعتمد، والأخير هو الذى ضم قرطبة إلى مملكة إشبيلية، وفى عهده كانت خطوب على رأسها سقوط طليطلة فى أيدى ألفونسو السادس، فتبلورت فكرة استدعاء المرابطين إلى الأندلس، وكان المعتمد بن عباد على رأس المطالبين بذلك قائلاً : " رعى الجمال أحب الينا من رعى الخنازير". وبالفعل عبر المرابطون واستقبلهم ملوك الطوائف ومنهم المعتمد بن عباد الذى عانق زعيم المرابطين يوسف بن تاشفين، و توجه الجميع من إشبيلية إلى بطليوس، حيث جرت أحداث واقعة " الزلاقه" وانتصار



المسلمين على جموع النصارى وجيوشهم وفرسانهم المتطوعين من إيطاليا ومن جنوب فرنسا، وكان ذلك النصر المبين فى ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م.

الحركة الفكرية والأدبية فى ظل ملوك الطوائف:

رغم الانقسام والتمزق السياسى والاجتماعى الذى شهدته فترة الطوائف، إلا أن هذا لم يمنع أن تكون قصورهم منتديات للعلوم والآداب ومجامع للفنون .

وكان من بينهم بعض قادة الفكر الأندلسى، ومنهم الأدباء والشعراء المتميزون، وبرغم استهتارهم وانحلالهم فإنهم تسابقوا فى جذب رجال الفكر والأدب وفى الإغداق عليهم من عطاياهم.

وبرز من بين هؤلاء ثلاثة عرفوا بتميز النهضة الشعرية والأدبية على أيديهم، هم بلاط بنى عباد فى إشبيلية وبنى الأفطس فى بطليوس وبنى صمادح فى المرية، ومن الأدباء من تولى الوزارة، ومن الشعراء من كان من ندماء الأمير ومستشاريه. ومن شعراء هذه الفترة أبو الطيب صالح بن شريف الرندى، وكان بارعًا فى النظم والنثر معًا، وله مقامات بديعة.

ومن بين ملوك الطوائف عدد من المؤلفين منهم المظفر بن الأفطس صاحب كتاب المظفرى فى التاريخ والآداب، كذلك كان للنبوغ الفكرى حظه خلال هذه الفترة، فقد ظهر فيها العلامة الفيلسوف أبو محمد على بن حزم، وأبو الوليد الباجى، واللغوى الأعمى أبو الحسن على بن سيده واللغوى الجغرافى أبو عبيد البكرى، ومن الأعلام فى اللغة وعلوم القرآن مجاهد العامرى صاحب دانية وأبو عبد الرحمن محمد بن أحمد بن طاهر صاحب مرسية، ومن أكابر الرياضيين والفلكيين أبو اسحاق بن إبراهيم بن يحيى الزرقالى القرطبى صاحب الجداول الفلكية المشهورة.

وكان للتاريخ نصيبه من عناية مفكرى هذه الفترة، ويأتى على رأس هؤلاء أمير مؤرخى الأندلس ابن حيان، وتلميذه أبو عبد الله الحميدى، وابن بسام صاحب المعجم الأدبى التاريخى بالغ الشهرة " الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة". ومن هؤلاء ابن الأبار صاحب كتاب الحلة السيراء، وهو من الكتب القيمة التى تناولت ملوك الطوائف وعصره، ولنفس المؤلف كتاب تكملة الصلة لابن بشكوال، وقد ترجم فيه لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها.

وهناك غير هؤلاء ابن سعيد المغربى، ومن أقطاب اللغة الذين ظهروا فى هذه الفترة على بن محمد بن خروف الإشبيلى، وعمر ابن محمد الأزدى الإشبيلى .

أما عن الفن زمن ملوك الطوائف فقد تمثل بوضوح فى قصور وحدائق بنى عباد فى إشبيلية، وبنى ذى النون فى طليطلة وفى قصر السرور الذى أنشأه المقتدر بالله بن هود فى سرقسطة. وهذه وغيرها آيات من البذخ والترف والبهاء.

أما عن الشعر فحدث ولا حرج، وحسبنا أن نذكر الشاعر المعتمد بن عباد وغيره من الشعراء الملوك، لقد كان الجو أدبيًا شعريًا ، وتكفى الإشارة إلى عبارة وردت عند صاحب معجم البلدان ياقوت الحموى عند حديثه عن إحدى المدن الأندلسية؛ يقول:

" سمعت ممن لا يحصى أنه قال: قَلَّ أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر ولا يعانى الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه - محراثه- وسألته عن الشعر لقرض لك من ساعته ما اقترحت عليه وأى معنى طلبته".

وكل هذا لا يروق للدكتور حسين مؤنس الذى يرى أن اهتمام الطوائف بالعلوم والشعر لا يغفر لهم ما ارتكبوه؛ يقول:

" وما الذى يستفيده الإسلام من عناية رجل مثل المعتمد بن عباد بالشعر، ورعايته لشعراء أمجاد مثل: ابن عمار وابن عبدون وابن خفاجة إذا كانت النتيجة أن بلاد الإسلام والعروبة نفسها ستضيع وليس فيها من يقرأ الشعر".

الحركة العلمية فى عهد ملوك الطوائف:

العلم فى هذا العهد يعتبر امتدادًا لعهود سابقة، فيه علت الحركة العلمية وكثر الإنتاج، وقد اهتم ملوك الطوائف بالأدب وشجعوا العلماء وقربوهم وكان من رجالهم ومستشاريهم ووزرائهم عدد كبير من العلماء والأدباء، بل كان بينهم أنفسهم مؤلفون، فبنو عباد فى إشبيلية عرفوا بعلمهم وأدبهم، وكان منهم قضاة كمؤسس الأسرة إسماعيل وابنه، ومنهم الشعراء والأدباء كعباد المعتضد وابنه محمد المعتمد، وضم بلاطهم كثيرًا من رجالات العصر وكتابه مثل ابن زيدون وابن عمار... الخ . وبنو الأفطس كانوا حماة للأدب، ووضع المظفر أحد أمرائهم كتابًا أسماه " المظفرى" وبنو صمادح فى ألمرية" ضم بلاطهم الوشاح بن القزاز، ومن الأدباء المعتصم وولداه رفيع الدولة ورشيد الدولة وابنته أم الكرام، والجغرافى أبو عبيد البكرى



٤٠٥/٤٨٧هـ عاش فى المرية، وفى طليطلة اشتهر علماء الفلك والزراعة، ومنهم الزرقالى" صاحب الجداول الفلكية، وصاعد الأندلس الطيطلى صاحب كتاب طبقات الأمم، وكانت طليطلة مركزًا لترجمة ونقل الكثير من الإنتاج الأندلسى إلى الغرب، وفى إمارة " سرقسطة " عاش ابن دراج القسطلى الذى كان من كتاب المنصور بن أبى عامر، والمقتدر بن هود وابنه المعتمد وعدد من علماء الفلسفة والفلك والرياضيات .

وقد امتلأت مدن الأندلس بالمكتبات العامة والخاصة، واهتم الأمراء بالمكتبات أهتمامًا كبيرًا، وشهد العصر موسوعيين من أمثال ابن حزم وابن بسام والبكرى ... الخ.

وهكذا وجد بون شاسع بين الحياة السياسية والاجتماعية وما شهدته البلاد من تمزق وفرقة وبين الحياة العلمية والأدبية.

أ.د/عبد الله محمد جمال الدين

الهوامش

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٤٢، ١٤٣.

(٢) المقرى: نفح الطيب جـ١ ص ١٦٨.

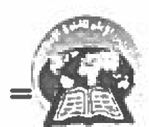
(٣) د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٤١٥ وما بعدها، القاهرة ٢٠٠٤، ضمن مشروع مكتبة الأسرة، الأعمال الفكرية.

(٤) لمزيد من التفاصيل راجع جداول ملوك الطوائف الموجودة عند كل من :
دوزى : ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام ترجمة كامل كيلانى ص ٣١٥ وما بعدها طبع عيسى البابى الحلبى - القاهرة - بدون تاريخ. محمد عبد الله عنان: تاريخ الإسلام فى الأندلس، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى ص ٤٦٠ وما بعدها طبعة مكتبة الأسرة بالقاهرة سنة ٢٠٠١م .

مصادر ومراجع للاستزادة :

- المقرى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب. تحقيق إحسان عباس بيروت ١٩٦٨م.
- ابن بسام: الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة، ٨ مجلدات. تحقيق إحسان عباس، بيروت، لبنان ١٩٧٩م.
- ابن الخطيب : أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام ، " تاريخ المغرب العربى فى العصر الوسيط" تحقيق أحمد مختار العبادى وآخر، المغرب ١٩٦٤.
- دوزى: ملوك الطوائف ونظرات فى تاريخ الإسلام ، ترجمة كامل كيلانى. القاهرة، عيسى البابى الحلبى، بدون تاريخ.
- محمد عبد الله عنان: تاريخ الإسلام فى الأندلس، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى. وهو الجزء الثالث من موسوعته عن دولة الإسلام فى الأندلس، القاهرة ٢٠٠١م.

د. حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ٢٠٠٤م.



المماليك (حضارة)

أولاً: نظام الحكم والإدارة:

كانت الدولة المملوكية نموذجًا مثاليًّا للدولة العسكرية؛ إذ لم يكن المماليك مجرد جند محترفين يمثلون عصب الجيش وقاعدته، بل كانوا كذلك أصحاب الحكم والمحتكرين للوظائف السياسية العليا فى البلاد، ومن ثم فقد جرى النظر إليهم والتعامل معهم بوصفهم طبقة عسكرية مغلقة لا يستطيع السكان المحليون الالتحاق بها أو مشاركة أربابها ما كانوا يتمتعون به من السلطة والنفوذ. ويسعنا أن نجمل عناصر الحكم المملوكى فى النقاط الآتية:

(أ) السلطان: كان السلطان المملوكى يجلس على قمة النظام الحاكم، ولم يكن وصوله إلى ذلك المنصب الرفيع نتيجة بيعة حرة من الشعب أو بسبب حق شرعى موروث، بل كان قائمًا على التغلب والقوة؛ بحيث يتولى السلطنة أقوى الأمراء وأكثرهم خبرة ودهاءً، وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين؛ ومن هنا فإن المماليك لم يؤمنوا بمبدأ توريث الحكم، وإن اضطروا فى ظروف معينة إلى تطبيقه، ليس لإيمانهم به، ولكن انتظارًا لما يسفر عنه الصراع بين كبار الأمراء، فكانوا يبايعون بالسلطنة ابن السلطان المتوفى أو المقتول، حتى إذا رجحت كفة أحد الأمراء المتصارعين بادر إلى عزل السلطان وتنصيب نفسه مكانه[1].

وكان السلطان - بوصفه رأس النظام الحاكم - يتمتع بنفوذ مطلق ولا سيما فيما يتعلق بشئون الحرب والسياسة، وإصدار مراسيم التعيين فى الوظائف الكبرى، وتوزيع الإقطاعات على الأمراء. وربما لجأ السلطان فى بعض المسائل الخطيرة إلى استشارة طائفة من كبار رجال الدولة كانوا يؤلفون ما يعرف بمجلس المشورة، وهم الخليفة العباسى والقضاة الأربعة والوزير وأتابك العسكر والأمراء مقدمو الألوف. ولم يكن استدعاء ذلك المجلس أو الأخذ برأيه أمرًا ملزمًا للسلطان[2].

(ب) نواب السلطنة: كان للسلطان عدة نواب يساعدونه فى مباشرة مهام الحكم وتصريف شئون الدولة، وكان أهمهم على الإطلاق نائب القاهرة الذى كان يشترك مع السلطان فى توزيع

الإقطاعات ومنح رتب الإمارة. وكذلك فقد كان هناك نواب فى بلاد الشام؛ هم: نائب دمشق (ويسمى - نظرًا لكونه أهم نواب الشام وأعلاهم رتبة- : نائب الشام)، ونائب حلب، ونائب طرابلس، ونائب حماة، ونائب صفد، ونائب الكرك. وكان هؤلاء النواب جميعًا يخضعون لسلطة الدولة المركزية بالقاهرة[٣].

(ج) **أتابك العسكر**: وكان بمثابة القائد العام للجيش المملوكى، وكان يتمتع - بحكم وظيفته - بنفوذ واسع فى الدولة؛ قال القلقشندى: " والمراد به أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين بعد النائب الكافل (أى: نائب السلطنة)، وليست له وظيفة ترجع إلى حكم وأمر ونهى، وغايته رفعة المحل وعلو المقام"[٤].

(د) **الوزير**: من المعلوم أن الوزارة وفقًا لاختصاصات صاحبها ومقدار السلطة التى يتمتع بها نوعان:

وزارة تنفيذ: تكون فيها سلطة الوزير مقيدة؛ إذ يقتصر دوره على تنفيذ ما يأمر به الخليفة أو السلطان، ووزارة **تفويض**: يتمتع الوزير فى ظلها بسلطة مطلقة، حيث يفوضه الحاكم فى ممارسة اختصاصاته واتخاذ ما يراه مناسبًا من إجراءات وتدابير دون الرجوع إليه[٥].

أما فيما يتعلق بدولة المماليك فقد كان الوزراء بها من النوع الأول، أى وزراء تنفيذ، ولم تشهد الحقبة المملوكية وزيرًا مفوضًا ألبتة. وكان منصب الوزير يلى من حيث الأهمية والمكانة منصب السلطان، إلا إذا وُجِدت وظيفة " نائب السلطنة"، ففى هذه الحالة يكون الوزير تاليًا لهذا الأخير، ويكون عمله مقصورًا على الشئون المالية. وقد يلغى منصب الوزارة نهائيًّا ويُكْتَفى بكبار الكتاب، كما حدث فى عهد الناصر محمد بن قلاوون الذى أراد فرض سيطرته على الدولة والاستئثار بالسلطة كلها؛ فألغى منصبى الوزير ونائب السلطنة كليهما[٦].

وقد جرت العادة بأن يُختار الوزير من بين أرباب الأقلام المسلمين دون أرباب السيوف، وكان يسمى بالصاحب أو الوزير الصاحب، بمعنى أنه صاحب رأى السلطان ومشاركه فى تدبير أمره[٧]. وكان يقام له غداة تعيينه حفل كبير يقرأ فيه تقليده بالمنصب، وتصرف له خلعة الوزير، ويجرى عليه راتب يتراوح بين خمسين دينارًا ومائتى دينار شهريًّا[٨]. وكان ثمة دار بقلعة الجبل خُصِّصَتْ للوزير ليباشر فيها مهام منصبه، وقد



عرفت بدار الوزارة أو قاعة الصاحب[٩].

وتجدر الإشارة إلى أن الوزارة المملوكية لم تكن منصبًا مستقرًا؛ إذ كان الوزراء يغيرون بسرعة مذهلة، لا سيما فى دولة المماليك الجراكسة (أو البرجية)، فإذا كان بعضهم قد مكث فى الوزارة سنوات، فإن أغلبهم لم تطل ولايته لأكثر من بضعة أشهر، بل إن منهم من عزل من الوزارة بعد أيام قليلة من ولايتها[١٠].

(هـ) الإدارة المحلية: تولى الإشراف على شئون الإدارة المحلية بالمدن والأقاليم المختلفة طائفة من الولاة جرت العادة على اختيارهم من بين الأمراء؛ فكان للقاهرة -على سبيل المثال- والٍ يشرف على شئونها ويضبط أمورها ويتعقب المجرمين وأرباب الفساد فيها... إلى غير ذلك من مهام كانت تشبه إلى حد كبير مهام المحافظ فى العصر الحديث. وكذلك فقد كان بأقاليم الوجهين البحرى والقبلى عدد من الولاة، فكان بالوجه البحرى عشرة ولاة، وبالوجه القبلى ثمانية ولاة[١١].

أما مرافق الدولة ومؤسساتها فكانت إدراتها منوطة بجملة من الدواوين التى كان بها عدد هائل من الكتاب والموظفين. وقد عرفت تلك الدواوين بـ " الدواوين السلطانية"، وكانت موجودة بالقلعة[١٢].

وفيما يلى تعريف موجز بأبرز تلك الدواوين:

- ديوان النظر: ويسمى صاحبه "ناظر الدواوين" أو ناظر الدولة، وكانت أعماله ومهامه تنقسم إلى قسمين: أولهما: الإشراف على الشئون المالية ومراجعة إيرادات الدولة ومصروفاتها، وما يتصل بذلك من صرف رواتب الموظفين. وثانيهما: الإشراف المحلى على الأحوال المالية فى مختلف الأعمال المصرية[١٣].

ويشير المقريزى إلى أن ناظر هذا الديوان كان يلى الوزير من حيث رتبته، " فإذا غاب الوزير أو تعطلت الوزارة من وزير، قام ناظر الدولة بتدبير الدولة... واقتصر الناصر محمد بن قلاوون على ناظر الدولة مدة أعوام من غير تولية وزير"[١٤]. ويقول المقريزى أيضًا مُنَوِّهًا بأهمية ديوان النظر: " وهذا الديوان هو من أرفع دواوين المال، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، وكل ديوان من دواوين المال إنما هو فرع هذا الديوان، وإليه يرفع حسابه وتتناهى أسبابه"[١٥].

- ديوان الجيش (أو ديوان الجيوش): وكان مسئولاً عن الإشراف على شئون الجيش المملوكى وكان صاحبه الذى سُمى " ناظر الجيش" يُختار عادة من بين العلماء، ويعاونه عدد من الكتاب يُسَمَّوْنَ: كتاب الجيش. ويتلخص عمل هذا الديوان فى تسجيل أسماء الجنود وأعدادهم ونفقاتهم، وكان تسجيلهم عادة تحت أسماء أمرائهم، بحيث لا يستطيع أى جندى أن ينتقل من أمير إلى آخر إلا إذا حصل على إذن بذلك[١٦].

- ديوان الإنشاء: وكان يعد من أهم الدواوين السلطانية، ومقره القلعة حيث كان بها قاعة خاصة مثل الوزارة تعرف باسم " قاعة الإنشاء"، ويقال لمن يلى رئاسة هذا الديوان: " كاتب السر"، أو " صاحب ديوان الإنشاء[١٧]"، ومهمته: قراءة الكتب والرسائل التى ترد على السلطان من مختلف الدول والحكام، وكتابة الردود عليها، فضلاً عن إنشاء الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى الملوك والأمراء[١٨]. وبمرور الوقت اتسعت دائرة الأعمال التى يقوم بها صاحب ديوان الإنشاء لتشمل موافاة السلطان بما يرد إليه من أخبار تتعلق بالأحوال الداخلية للبلاد، وحضور اليمين التى كان يؤديها الولاة والحكام والأمراء عند تعيينهم فى مناصبهم، وكتابة المراسيم الخاصة بتوليهم تلك المناصب[١٩].

وقد انبثقت الأهمية الكبيرة التى يتمتع بها ديوان الإنشاء من ازدهار النشاط الدبلوماسى فى دولة المماليك التى كانت تُدير دفة السياسة الإسلامية، وتشعبت اتصالاتها بدول المشرق والمغرب،وأضحت القاهرة " قبلة الأصدقاء والأعداء جميعًا، فالأصدقاء يطلبون تأييدها وينشدون مساعدتها، والأعداء يبغون ملاطفتها ومسالمتها أو مهادنتها؛ اتقاء لبطشها"[٢٠].

وكان من الشروط اللازم توافرها فيمن يلى وظيفة " كاتب السر" إجادة اللغتين التركية والفارسية، وتأويل ذلك من وجهين : **الأول:** أن التركية كانت هى لغة الخطاب بين النخبة المملوكية الحاكمة، ومعرفة كاتب السر لها مما يعينه على فهم مقاصدهم وأغراضهم، **والثانى:** أن غالب ما يرد على ديوان الإنشاء من مكاتب حكام المشرق لا يكون إلا بالتركية أو الفارسية[٢١]. أو المغولية[٢٢]، ومن هنا فإن معرفة كاتب السر بتلك اللغات تعينه على الاطلاع " على مقاصدهم ويأمن من انحراف

كلامهم أو تدليسه أو تلبيسه، وأكتم لسر سلطانه من حيث إنه لا يطلع على سره غيره"[٢٣].

وكان يعاون كاتب السر عدد من الكتاب والموظفين، وكانوا على قسمين: **نواب كاتب السر**: وكانوا ينوبون عنه في الرد على المكاتبات الواردة إلى الدولة حال تغيبه، **وكتاب الدَّسْت الشريف**: وهم كتاب ديوان الإنشاء ممن اصطلح على تسميتهم " الموقعين"؛ لجلوسهم مع كاتب السر بمجلس السلطان بدار العدل وقيامهم بالتوقيع على الشكاوى والمظالم المرفوعة إليه[٢٤].

- **ديوان الأحباس (الأوقاف)**: كانت شئون الأوقاف في العصر الأيوبي مما يدخل في اختصاصات القاضي ومهامه، فلما قامت دولة المماليك أفردت الأوقاف بديوان خاص عرف صاحبه بناظر الأحباس أو الأوقاف، وكانت مهمته الإشراف على الأوقاف الخاصة بالمؤسسات الدينية والخيرية؛ كالجوامع والمدارس والخانقاوات والزوايا ... إلخ[٢٥].

ثانيًا: القضاء:

كان المذهب السني عقيدة وفقهًا وقضاء هو المذهب الرسمي لدولة المماليك، امتدادًا لما كان عليه الأمر زمن الأيوبيين. وكان القضاء بمصر مقصورًا على المذهب الشافعي إلى أن قام الظاهر بيبرس بإعادة تشكيل السلطة القضائية وفقًا للمذاهب الأربعة المعروفة. وقد مهَّد لذلك بأن أمر في ذي الحجة سنة ٦٦٠هـ/ ١٢٦١م قاضي الشافعية تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز – وكان بيده قضاء مصر كلها – بأن يستنيب عنه نوابًا من الحنفية والمالكية والحنابلة من فقهاء المدرسة الصالحية بالقاهرة[٢٦]. وفي ذي الحجة سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٥م مضى الظاهر بيبرس خطوة أبعد في سبيل تحرير القضاء من هيمنة الشافعية، حيث قام بتولية ثلاثة قضاة: حنفي ومالكي وحنبلي، بوصفهم قضاة مستقلين لا مجرد نواب عن قاضي الشافعية، وسمح لهم باتخاذ نواب في سائر الأعمال المصرية، واحتفظ ابن بنت الأعز بمنصبه قاضيًا لقضاة الشافعية، وظل له على وجه الحصر النظر في أموال الأيتام والإشراف على بيت المال والفصل في الخصومات المتعلقة به[٢٧]، " فصار بديار مصر قضاة القضاة من حينئذ أربعة، يحكم كل منهم بمذهبه"[٢٨]، كما جرى تعديل القضاء بنيابات الشام على هذا النحو[٢٩]. وهؤلاء الأربعة متفاوتون

رتبة ومكانة، فأجلُّهم قاضى قضاة الشافعية، يليه القاضى الحنفى ثم المالكى فالحنبلى[٣٠].

قضاء العسكر:

وفضلاً عن قضاة الشرع الأربعة، فقد عرفت دولة المماليك نوعًا آخر من القضاة هم قضاة العسكر. وكانت سلطتهم القضائية مقصورة على المنازعات التى تنشب بين المماليك، بالإضافة إلى الفصل فى الخصومات بينهم وبين الأهالى من عامة المصريين [٣١]. وتجدر الإشارة إلى أن قضاء العسكر وظيفة قديمة استحدثها السلطان صلاح الدين الأيوبى واستمرت فى مصر إلى زمن المماليك، وكان لها أهمية كبيرة فى الدولتين نظرًا لغلبة الطابع العسكرى عليهما[٣٢]. وقد اقتصر قضاء العسكر على المذاهب الثلاثة: الشافعى والحنفى والمالكى، ولم يكن للحنابلة فيه نصيب[٣٣]. وكان قضاة العسكر يحضرون مع قضاة الشرع فى دار العدل، ولكنهم يجلسون دونهم؛ لأن وظيفة قضاء العسكر أقل من وظيفة قضاء القضاة. وجرت العادة كذلك أن يصحب قضاة العسكر السلطان فى أسفاره[٣٤].

الحسبة:

تتصل الحسبة اتصالاً وثيقًا بالسلطة القضائية، وهى وظيفة دينية يُعَرِّفها الفقهاء بأنها: " عبارة شاملة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر"[٣٥]، ويناط بصاحبها إجمالاً مهمتان رئيستان: الأولى: مراقبة الأسواق؛ بالنظر فى أمر المكاييل والموازين وسائر المقادير، والتحذير من الغش والكذب والتدليس فى المعاملات بين آحاد الرعية، واستعلام أخبار الأسواق. الثانية: حفظ الآداب العامة والذود عن عقائد الناس وحماية أخلاقهم، والأخذ على يد المنحرفين والسفْلة، وردُّ الخارجين عن شريعة الإسلام إلى الجادة[٣٦].

ويجب أن تتوافر فيمن يلى وظيفة الحسبة جملة من الشروط والآداب، أما الشروط فهى: الإيمان، والتكليف من ولى الأمر، والقدرة، والعدالة، والعلم، ويندرج تحت شرط العلم: الخبرة العميقة بشئون المجتمع وأحواله، فليزم المحتسب أن يكون عارفًا بأصناف المعايش والمهن والحرف بأنواعها المختلفة، خبيرًا بأمر الموازين والمكاييل؛ حتى يقف على حيل الباعة فى الغش والتدليس[٣٧]. وأما آداب المحتسب فجماعها: العفة عن أموال

الناس والامتناع من قبول الهدية، والرفق ولين القول وحسن الخلق، والصبر على الناس واحتمال أذاهم، وبذلك تلين قلوب الناس إليه ويذعنون له [٣٨].

ويختلف عمل القاضي عن عمل المحتسب اختلافًا ظاهرًا"؛ فإذا كان عمل القاضي يتصف بشيء من البطء؛ لأنه يقوم على الروية والأناة والتثبت من صحة الوقائع، فإن عمل المحتسب يقوم على أساس سرعة البتّ في المخالفات التي تتعلق بالآداب العامة ونظام الأسواق ومراعاة الأمانة في المعاملات التجارية وآداب الطريق ونحوها" [٣٩].

ثالثًا: الجيش والأسطول:

(١) الجيش:

أدى السياق التاريخي الذي أحاط بقيام الدولة المملوكية والوضع القانوني للمماليك أنفسهم باعتبارهم " رقيقًا" آل إليهم الملك عن طريق الغلبة والقهر- أدَّى إلى تحديد أبعاد النظرية السياسية التي هيمنت على الدولة وحكمت مسارها؛ فكانت تتكىء على قوة ذات جناحين: **الأول:** يتمثل في القوة العسكرية باعتبارها المبرر الأول لاستمرار المماليك في حكم البلاد، **والثاني:** يتمثل في الواجهة الدينية التي حافظوا عليها دائمًا؛ لإسباغ الشرعية على حكم قد يُتَّهَمُون باغتصابه [٤٠].

وفيما يتعلق بـ" القوة العسكرية" فقد أولى المماليك للجيش عناية خاصة، وكانوا حراصًا على أن يضمنوا له التفوق سواء من حيث العدد أم من حيث التنظيم والكفاءة القتالية. وكان الجيش المملوكي يتألف من ثلاثة أقسام أساسية تختلف بنيةً ومكانةً وتأثيرًا، وهي: (أ) المماليك السلطانية (ب) مماليك الأمراء (ج) أجناد الحلقة [٤١].

(أ) المماليك السلطانية: ويقصد بهم: المماليك المنسوبون إلى السلطان القائم بالحكم وإن لم يكونوا جميعًا من مشترواته. وكانوا نظرًا لانتسابهم إلى السلطان " أعظم الأجناد شأنًا وأرفعهم قدرًا، وأشدهم إلى السلطان قربًا، وأوفرهم إقطاعًا، ومنهم تؤمَّر الأمراء رتبة بعد رتبة" [٤٢]. وكانوا يمثلون العمود الفقري للجيش المملوكي والقوة الأساسية في جُلِّ الحملات العسكرية التي قامت بها السلطنة؛ نظرًا للتربية الممتازة والتدريب الراقي الذي كانوا يتلقونه منذ صغرهم [٤٣].

والمماليك السلطانية فئتان متمايزتان:

(أ) مماليك السلطان القائم بالحكم

(وهم المشتروات أو الأجلاب أو الجُلبان)[٤٤].

(ب) المماليك الذين انتقلوا إلى خدمة السلطان الحاكم من خدمة أساتذتهم (وهم المستخدمون). وهذه الفئة الأخيرة تنقسم إلى شريحتين: ـ مماليك السلاطين السابقين (وهم القرانيص، ويسميهم ابن شاهين: السلطانية) ـ ومماليك الأمراء الذين انتقلوا لخدمة السلطان؛ لموت أمرائهم أو قتلهم أو عزلهم من الإمارة لسبب من الأسباب (وهم السيفية)[٤٥].

(ب) مماليك الأمراء (أجناد الأمراء):

كان النظام المملوكى يتيح للأمراء شراء المماليك واقتناءهم، " وهم الذين يخدمون الأمراء، ويعتد بطائفة من إقطاع الأمير للعدة المقررة له منهم"[٤٦]. والمحدد الأساسى لعدد من يقتنيهم الأمير من المماليك هو الرتبة التى يتمتع بها؛ وذلك على النحو الآتى[٤٧].

رتبة الأمير	عدد المماليك
امير مائة	يكون فى خدمته مائة مملوك، ويخضع لإمرته عند الحرب الف جندى من أجناد الحلقه
امير طبلخاناه	يكون فى خدمته أربعون مملوكًا عادة، وقد يزيد عددهم إلى خمسين أو سبعين او ثمانين
أمير عشرين	يكون فى خدمته عشرون مملوكًا
أمير عشرة	يكون فى خدمته عشرة مماليك
أمير خمسة	يكون فى خدمته خمسة مماليك

وكان الأمير حين يموت أو يقتل أو يعزل من الإمارة لسبب من الأسباب ينتقل مماليكه تلقائيًّا إلى خدمة السلطان أو الأمراء الآخرين، وقد يلتحقون فى بعض الأحيان بالحلقة. وكذلك فإن الأمير إذا نقل من ولاية إلى أخرى كان لا يستطيع أن يستصحب مماليكه معه .

(ج) أجناد الحلقة: ظهر مصطلح الحلقة لأول مرة فى العصر الأيوبى[٤٨]؛ حيث يروى أبو شامة أن الملك الناصر صلاح الدين جَهَّز أخاه تورانشاه فى حملته إلى اليمن بجيش قوامه ألف فارس " خارجًا عمن سيَّره من حلقته"[٤٩]. ويرى كاترمير(Ouatremere) أن الحلقة كانت عبارة عن فرقة من الحرس الشخصى للسلطان، وإنما سميت بذلك لأنها كانت تحيط به على هيئة الحلقة، وأنها كانت تمثل النخبة العسكرية الخاصة بصلاح الدين[٥٠].

أما فيما يتعلق بالعصر المملوكى، فقد ظهرت الحلقة بشكلها التقليدى فى السنوات الأولى من حكم الظاهر

بيبرس، وجاء وضعها فى الجيش المملوكى ذى التنظيم الهرمى تاليًا للمماليك السلطانية[٥١]. وكانت تتألف فى البداية من جند السلطان المختارين، على نحو مشابه للمماليك السلطانية[٥٢]، ثم تطورت قليلاً فأمست تدل على الجيش الذى ينشئه السلطان دون فئات مماليك الأمراء، وزادت أعدادها زيادة كبيرة حتى أصبحت أوفر وحدات الجيش المملوكى عددًا؛لانضمام بقايا المماليك الصالحية وعدد من الوافدية إليها[٥٣]. وظلت الحلقة محتفظة بقوتها وتماسكها ومكانتها المتميزة -التى كانت لها زمن الأيوبيين -حتى سلطنة الناصر محمد بن قلاوون[٥٤]. وبمرور الوقت أصبحت الحلقة تضم طائفة من السكان المحليين وآخرين من أبناء المماليك، فضلاً عن بعض المماليك السلطانية[٥٥]، وطائفة من أجناد الأمراء الذين حرموا من إقطاعاتهم[٥٦]. وكذلك فقد مست الحاجة أيام الحروب إلى إلحاق كثير ممن " الجند البطالين" - الذين تركوا الجندية وأصبحوا من أهل الصنائع - بالحلقة[٥٧].

وقد جعلت أعداد الحلقة بعد وفاة الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م تتناقص بصورة كبيرة مع تراجع كفاءتها القتالية حتى صارت " لا تنفع ولا تدفع"[٥٨]. وأهملت قواعد تنظيم الحلقة وترتيب أوضاعها عند القتال، أكثر فترات العصر الجركسى، وأصبحت أضعف فئات الجيش المملوكى وأصبح أعضاؤها هم الأكثر فقرًا[٥٩].

(ب) الأسطول والنشاط البحرى:

كان المماليك.يدركون أهمية الأسطول فى حماية شواطىء دولتهم وتأمين السفن الإسلامية التى دأب القراصنة الأوربيون على مهاجمتها فى البحر المتوسط؛ ومن هنا فقد اتجهت عنايتهم إلى بناء أسطول قوى خصصوا له جزءًا من ميزانية الدولة، لبناء مراكب جديدة، وتوفير ما يلزمها من أدوات الحرب والقتال. بيد أن المماليك لم يفردوا لرعاية شئون الأسطول ديوانًا خاصًا يناظر ديوان الجيش كما كان الحال أيام الفاطميين والأيوبيين الذين خصصوا للأسطول ديوانًا مستقلاً عرف بـ" ديوان الجهاد"[٦٠].

ومما يدل على عناية المماليك بالأسطول أن الظاهر بيبرس لم يكد يتولى السلطنة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م حتى " نظر فى أمر الشوانى[٦١] الحربية، واستدعى رجال الأسطول، وندبهم

للسفر، وأمر بمدِّ الشوانى وقَطْع الأخشاب لعمارتها، وإقامتها على ما كانت عليه أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب، ومنع الناس من التصرف فى الأخشاب، وتقدم بعمارة الشوانى فى ثغرى الإسكندرية ودمياط، وصار ينزل بنفسه إلى دار الصناعة بمصر، ويرتب ما يجب ترتيبه فى عمل الشوانى ومصالحها..." [٦٢]. ويورد المقريزى كذلك ما يدل على عناية الأشراف خليل بن قلاوون (٦٨٩- ٦٩٣هـ) وأخيه الناصر محمد (٦٩٣- ٦٩٤هـ، ٦٩٨- ٧٠٨هـ ٧٠٩- ٧٤١هـ) بأمر الأسطول، ببناء مزيد من المراكب، وشحنها بالعدد وآلات الحرب والمقاتلين [٦٣].

وكان بمصر عدة دور لصناعة قطع الأسطول المختلفة؛ من أشهرها: دار صناعة الجزيرة الوسطى(أو جزيرة أروى -جزيرة الزمالك حاليًا)، ودار مصر الواقعة على ساحل الفسطاط، ودار الإسكندرية، ودار دمياط [٦٤]. أما الأخشاب اللازمة لصناعة السفن والمراكب، فكانت تجلب من بلاد الشام وآسيا الصغرى، أو من غرب أوروبا عن طريق تجار المدن الإيطالية. وفى بعض الأحيان استخدمت الأخشاب المحلية مثل خشب السنط الذى تتوافر أشجاره بكثرة فى البهنسا والأشمونين وأسيوط وأخميم وقوص [٦٥].

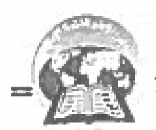
وكان الأسطول المملوكى يضمُّ عددًا من الوحدات الرئيسية المعروفة منذ عصرى الفاطميين والأيوبيين؛ مثل:

(أ) **الشوانى**: ومفردها: شينى أو شينية، وهى نوع من السفن الحربية الكبيرة، كانت تجدف بـ(١٤٠) مجدافًا، وتزود بأبراج وقلاع للدفاع والهجوم، كما تحتوى مخازن للقمح وصهاريج لحفظ الماء العذب، وقد ضم الأسطول المملوكى ٦٠ شينيًا.

(ب) **الأغربة**: ومفردها غراب، وهى نوع من المراكب الحربية كانت تجدف بمائة مجداف أو أقل، وسميت بذلك لأن مقدمتها كانت تشبه رأس الغراب وقد ضم الأسطول المملوكى ١٠٠ غراب.

(ج) **الحراريق**: ومفردها حَرَّاقة، وكانت تستخدم فى حرق سفن العدو؛ ولذلك فقد كانت تزود بالنفط الذى كان يرمى بالسهام أو القوارير أو المنجنيقات، وربما وضعت عليها المدافع.

(د) **الطرائد**: ومفردها طريدة، وهى نوع من المراكب كانت تستخدم فى نقل الفرسان والخيول.



(هـ) البطس: ومفردها بطسة: وهى نوع من السفن الحربية العملاقة كانت تستخدم لنقل الجنود، وربما اتسعت لعدد كبير من الجند يصل إلى ٧٠٠ جندى (و) القراقير: ومفردها قرقورة، وهى نوع من السفن الكبيرة كانت تستخدم لنقل المؤن.

وبعد، فقد كان للأسطول المملوكى دور ملموس فى مساندة الجيش الذى نهض بعبء تصفية بقايا الوجود الصليبى فى بلاد الشام، ولا سيما أن الصليبيين فى ذلك الدور من تاريخهم كانوا يتمركزون فى عدد من الموانى والمدن الساحلية؛ مثل أنطاكية وطرابلس وعكا(٦٦). وكذلك فقد كان للأسطول دور مؤثر فى التصدى لأعمال القرصنة الأوروبية فى البحر المتوسط فى القرن الثامن والتاسع الهجريين/ الرابع عشر والخامس عشر الميلاديين، وهو الدور الذى بلغ ذروته فى مهاجمة قبرص- القاعدة الأولى للقرصنة الأوروبية- وإخضاعها سنة ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م، ومهاجمة رودس الأعوام ٨٤٤هـ/١٤٤٠ م، ٨٤٧هـ/١٤٤٣م، ٨٤٨هـ/١٤٤٤م)(٦٧).

رابعًا: الحياة الاقتصادية:

إن استمرار دولة المماليك طوال ثلاثة قرون وصمودها فى مواجهة التحديات العنيفة التى واجهتها يرجع فى بعض أسبابه إلى القوة الاقتصادية الكبيرة التى كانت تتمتع بها فى مراحل كثيرة من تاريخها(٦٨). وقد اتسم الاقتصاد المملوكى بتنوع ملحوظ؛ فكان يشمل الزراعة والصناعة والتجارة، وذلك على النحو الآتى:

(أ) الزراعة: عُنى المماليك بالزراعة عناية فائقة بوصفها المورد الاقتصادى الأول والحرفة الرئيسية لمعظم سكان البلاد. وفى إطار هذه العناية قام المماليك بالعديد من المشروعات التى تهدف إلى النهوض بمرافق الزراعة ووسائلها؛ فشقوا الترع وأقاموا الجسور؛ لرى مزيد من الأراضى. وقد عرفت البلاد نوعين من الجسور: الجسور العامة التى تبنى كل سنة فى الوجهين القبلى والبحرى، ويتولى نفقتها الديوان السلطانى، والجسور البلدية، أى: الخاصة ببلد دون آخر، ويتولى بناءها الأمراء والأجناد ممن تدخل هذه البلاد فى إقطاعاتهم(٦٩).

وكان الناصر محمد بن قلاوون من أعظم سلاطين المماليك عناية بإقامة مشروعات الرى؛ لتنمية النشاط الزراعى بالبلاد؛ فمن ذلك مثلاً: أنه حفر خليج

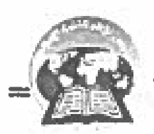
الإسكندرية سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م وأقام عليه عدة سَوَاقٍ وبساتين، فأصبحت الأراضى التى كانت سباخًا مزارع قصب سكر وسمسم وغيره[٧٠]. وكانت للناصر محمد عناية خاصة بالجيزة، حتى إنه أنشأ على كل بلد من بلادها جسرًا وقنطرة، وكانت قبل ذلك أكثر بلادها تَشْرق لارتفاعها، فزادت الرقعة الزراعية بالجيزة[٧١]. واستحدث الناصر محمد عدة أراض بالشرقية ونواحى فوة بالغربية، وكانت قبل ذلك خرابًا لا ينتفع بها، كما أنشأ سدَّ شبين القصر فزاد بسببه خراج الشرقية زيادة كبيرة، كما أنشأ جسرًا خارج القاهرة لحجز ماء النيل عن منية السيرج وغيرها فعمل بذلك عدة بساتين بجزيرة الفيل (شبرا وروض الفرج الآن). وكان الناصر محمد يتفقد أحوال البلاد بنفسه، وينظر فى جسورها وترعها وقناطرها،كما امتدت عنايته بالأراضى الزراعية إلى بلاد الشام بمختلف نياباتها[٧٢].

وقد أدت العناية بمرافق الزراعة ووسائل الرى إلى زيادة الإنتاج الزراعى زيادة كبيرة، ومن أشهر الحاصلات الزراعية فى دولة المماليك: القمح والكتان وقصب السكر والفواكه والخضراوات بمختلف أنواعها، فضلا عن الزهور والرياحين[٧٣].

وتجدر الإشارة إلى أن هذه العناية بالنشاط الزراعى والعمل على النهوض به، لم تثمر انتعاشًا فى حياة الفلاح أو تحسنًا فى مستوى معيشته، فظل كما كان فى العصور السابقة قنًا مربوطا إلى الأرض التى يزرعها ويفنى حياته فى خدمتها، دون أن يصيب من خيراتها إلا القليل[٧٤].

(ب) الصناعة: أحرزت الصناعة فى ظلال الدولة المملوكية درجة طيبة من الرقى والإتقان، يشهد لها تلك المصنوعات المتناثرة فى متاحف العالم والتى يرجع تاريخها إلى عصر المماليك. فقد ازدهرت الصناعات الحربية - نظرًا للطابع العسكرى الذى اتسمت به الدولة المملوكية – وشغلت موقعًا بارزًا فى منظومة النشاط الصناعى آنذاك، وكان من بين أسواق القاهرة سوق عرف بـ " سوق السلاح "، كان يوفر للأمراء والجنود مختلف أنواع الأسلحة وأدوات القتال[٧٥].

وكذلك فقد ازدهرت صناعة المنسوجات والأقمشة من الحرير والصوف والكتان والقطن، وامتازت بجمال



زخارفها وروعة نقوشها. وأنشأ السلاطين دور الطراز التى كانت تصنع فيها الخلع التى ينعم بها السلاطين على الأمراء وكبار رجال الدولة. وانتعشت أيضًا الصناعات المعدنية، وانتشرت صناعة تكفيت (أى تطعيم) البرونز والنحاس بشرائح الذهب والفضة [٧٦]، وقد بلغ من انتشار تلك الصناعة أنه لم تكن دار بالقاهرة ومصر تخلو من عدة قطع نحاس مكفت[٧٧]. وكذلك فقد ازدهرت صناعة الزجاج والخزف، وازدانت قصور السلاطين والأمراء بالأوانى الزجاجية والخزفية التى تزينها الرسوم النباتية الجميلة. وتقدمت الصناعات الخشبية التى تمثلت مصنوعاتها فى الأبواب والدكك والمشربيات، وكانت تمتاز بدقة الصناعة وتنوع الأساليب الفنية[٧٨].

(ج) التجارة: كانت التجارة تمثل عصب النشاط الاقتصادى فى دولة المماليك ومصدرًا أساسيًّا من مصادر الثروة الهائلة التى كانت تتمتع بها. ومن المعلوم أن الخطر المغولى أدى إلى اضمحلال معظم طرق التجارة العالمية التى كانت تصل بين الشرق والغرب[٧٩]. وفى المقابل فقد ازدهر الطريق التجارى (البحر الأحمر ـ مصر) الذى تشرف عليه دولة المماليك، ولم يلبث أن أصبح حلقة الوصل الأساسية بين الشرق والغرب، باعتباره أقصر الطرق المؤدية إلى الهند المصدر الأول للسلع المشرقية الضرورية التى تتهافت أوروبا على طلبها. وتمتعت الموانى المملوكية على البحرين الأحمر والمتوسط بأهمية كبيرة[٨٠].

وقد بذلت دولة المماليك جهودًا طيبة فى سبيل توفير المقومات اللازمة لتنشيط التجارة عبر هذا الطريق[٨١] الذى سيطرت عليه وأشرفت على موانيه المهمة، فقامت أولاً : بتأمين الطرق التجارية الداخلية، وحراسة القوافل المارة بها، وتطهيرها من اللصوص وقطاع الطريق خاصة العربان[٨٢]، وأقامت الجسور عليها، وزودتها بالخانات ووفرت لها المأوى والعلف والماء، وناطت بصاحب البريد مهمة حراسة التجار ومسئولية سلامتهم، ثم عملت ثانيًا : على تشجيع تجار المشرق على جلب بضائعهم إلى دولة المماليك، وحث التجار الأوروبيين على التردد على الموانى المملوكية وشراء ما يلزمهم من بضائع المشرق ومنتجاته[٨٣]. وكذلك فقد أضفى المماليك حماية عسكرية فعالة على التجار بغية حمايتهم من القراصنة الأوربيين وبذلوا جهودًا دبلوماسية ضخمة

لتشجيع الدول الأوربية على المشاركة فى التجارة الشرقية وشن الحرب على قواعد القراصنة[٨٤].

وعقد سلاطين المماليك بعض المعاهدات التجارية مع الدول المجاورة؛ بغية تنشيط التجارة، فعقد المنصور قلاوون صلحًا مع مملكة أرمينية الصغرى سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م[٨٥]، ومعاهدة مع الإمبراطور البيزنطى سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م تتضمن تأمين التجار وعدم العدوان عليهم أو التضييق على أنشطتهم التجارية، وأن يتحركوا فى حرية كاملة بين أراضى الدولتين[٨٦].

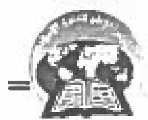
وكذلك فقد أولى المماليك لحركة التجارة الداخلية اهتمامًا كبيرًا، فنشطت قوافل التجار بين مصر من ناحية ودمشق وحلب والقدس وغزة من ناحية أخرى، وشهدت الأسواق المحلية نشاطًا صاخبًا، وقد اختص كل سوق منها بنوع معين من البضائع؛ كسوق الشمّاعين (ويختص ببيع الشموع)، وسوق الدّجّاجين (ويختص ببيع الدجاج وغيره من الطيور)، وسوق السلاح (ويختص ببيع الأسلحة)، وسوق الجُوخيين (ويختص ببيع الجوخ المجلوب من بلاد الفرنجة لعمل المقاعد والستائر؛ وثياب السرج)، وسوق الحلاويين (ويختص ببيع الحلوى) ... إلخ[٨٧].

وكذلك فقد انتشرت الوكالات والقياسر، وهى ضرب من المؤسسات التجارية الكبرى التى دأب على إنشائها بعض الأثرياء لتأجير ما بها من محال ودكاكين للتجار. وفى بعض الأحيان كان أصحاب القياسر يقفون ريعها للإنفاق على مؤسسة دينية أو اجتماعية[٨٨]. ومن أشهر الوكالات التجارية فى عصر المماليك وكالة الأمير قوصون (ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) التى كان "ينزلها التجار ببضائع بلاد الشام من الزيت والصابون والدِّبْس والفستق والجوز واللوز ونحو ذلك[٨٩].

على أن سياسة الاحتكار التى اتبعها متأخرو سلاطين المماليك وخاصة الأشرف برسباى (٨٢٥- ٨٤١هـ) ومن تلاه، ألحقت أضرارًا فادحة بحركة التجارة الخارجية والداخلية، وهو الأمر الذى أثر على مجمل الاقتصاد المملوكى، فقلت موارد الدولة وارتبكت ميزانيتها، على نحو أدى ضمن أسباب أخرى إلى سقوطها فى النهاية.

خامسًا: بناء المجتمع المملوكى:

كان المجتمع المملوكى مجتمعًا طبقيًا معقد البناء[٩٠]، حيث تألف من جملة



طبقات متباينة فى خصائصها ومظاهر حياتها الاجتماعية، وفى مقدار ما تمتعت به كل طبقة من حقوق وامتيازات تقابلها مسئوليات وأعباء يلزمها القيام بها[٩١].

وفى هذا الإطار يرى ابن خلدون أن ملك مصر قد تميز فى العصر المملوكى إلى سلطان ورعية[٩٢]، أى أن المجتمع كان يتألف فى هذا الدور من طبقة عسكرية حاكمة يمثلها السلطان والأمراء والجند المماليك، وأخرى مدنية يمثلها سائر فئات الشعب من المحكومين، ولعلنا نلاحظ أن هذا التقسيم تقسيم عام لا يبرر خصوصية المجتمع المملوكى؛ ذلك أنه أجمل الشرائح الاجتماعية المختلفة التى تُكوّنُ فى مجموعها طبقة المحكومين، فعدها طبقة واحدة رغم ما بينها من فروق معتبرة فى كل تقسيم اجتماعى، تتعلق بالمنزلة والمكانة ودرجة الثراء ومقدار الثقافة.

أما المقريزى فقد قدَّم تقسيمًا لفئات المجتمع المملوكى أكثر تفصيلاً، حيث قسم أهل مصر إلى سبع طبقات مرتبة ترتيبًا تنازليًا على النحو الآتى:

(١) أهل الدولة.

(٢) أهل اليسار من التجار " كبار التجار".

(٣) الباعة وهم متوسطو الحال من التجار.

(٤) الفلاحون أصحاب الزراعة والحرث.

(٥) الفقراء وهم جلُّ الفقهاء والكثير من أجناد الحلقة وغيرهم.

(٦) أرباب الصنائع والأجراء أصحاب المهنة.

(٧) ذوو الحاجة والمسكنة[٩٣].

ومن الملاحظ أن المقريزى أهمل ذكر طبقتين مهمتين فى المجتمع المملوكى، هما طبقة المعممين من أصحاب الوظائف الدينية والديوانية، وطبقة الأعراب[٩٤]، ومن المحتمل أنه ألحق المعممين بأهل الدولة وأدرج الأعراب فى أهل الزراعة.

وفى ضوء ما تقدم يمكن صياغة البناء الطبقى للمجتمع المملوكى على النحو الآتى:

(أ) طبقة الخاصة، أو النخبة الحاكمة، وتشمل: السلطان وحاشيته، وأمراء المماليك سواء أكانوا من أرباب الوظائف العسكرية أم لا، وأرباب الوظائف الدينية والديوانية من العلماء أو المعممين، وكبار التجار.

(ب) طبقة العامة، وتشمل: الباعة (أو متوسطى الحال من التجار) ، وأرباب الحرف والصنائع والفقهاء ممن لم يشغلوا

وظيفة في الدولة، والفلاحين، وذوي الحاجة والمسكنة، والزُّعْر[٩٥]. والحرافيش والشطار.

سادسًا: الحياة العلمية والفكرية:

شهدت مصر - والشام بالتبعية - في عصر المماليك حركة فكرية ناشطة وازدهارًا علميًّا رائعًا. ويشير ابن خلدون إلى أن القاهرة كانت أبرز مركز للعلم والثقافة في العالم الإسلامي آنذاك قائلاً: " ونحن لهذا العهد - عهد المماليك - نرى أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر؛ لما أن عمرانها مستبحر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف السنين، فاستحكمت فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليم العلم "[٩٦]. ولا شك أن سقوط معظم المراكز الثقافية الإسلامية على أيدي المغول أو الصليبيين هو الذي أورث مصر والشام هذه المكانة العلمية الممتازة، وجعل لهما مركز القيادة الثقافية والأدبية زهاء قرون ثلاثة هي عمر دولة المماليك.

ويمكن إجمال الأسباب الموضوعية لتلك النهضة الفكرية في النقاط الآتية:

(١) إحياء الخلافة العباسية:

أصبحت مصر منذ مطلع تاريخ دولة المماليك عاصمة الخلافة العباسية، وكانت القاهرة مقرًّا للخلفاء العباسيين حتى الغزو العثماني الذي أدى إلى انتقال لواء الخلافة من بني العباس إلى سلاطين آل عثمان. وكان لوجود الخلافة العباسية بمصر أثر محمود في إنعاش الحياة الفكرية بها شرحه السيوطي قائلاً: "واعلم أن مصر من حين صارت دار الخلافة عظم أمرها وكثرت شعائر الإسلام فيها، وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة، وصارت محلَّ سكن العلماء ومحط رحال الفضلاء، وهذا سر من أسرار الله أودعه في الخلافة النبوية حيثما كانت يكون معها الإيمان والكتاب"[٩٧].

(٢) هجرة العلماء إلى مصر نتيجة الزحف المغولي في الشرق والمد الصليبي في الغرب:

كان للتطورات الكبرى التي شهدها العالم الإسلامي نتيجة الزحف المغولي في الشرق والمد الصليبي في الغرب (حركة الاسترداد في الأندلس) أبلغ الأثر في تغيير خريطته الفكرية؛ حيث اضطر العلماء والمفكرون - خاصة بعد المذبحة الوحشية التي ارتكبها المغول في بغداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م- إلى الهجرة إلى أقطار أخرى أوفر أمنًا وأكثر استقرارًا



وأبعد عن مناطق المواجهة المباشرة مع المغول أو الصليبيين.

وكانت مصر أكثر الأقطار الإسلامية استقبالاً لهذه العقول المهاجرة واحتضانًا لها؛ حيث" قصدتها أفواج العلماء من أقصى بلاد المشرق والمغرب والأندلس على السواء، ووجد العلماء الوافدون فى مصر الملاذ والأمن والاستقرار؛ وأغدق عليهم سلاطين المماليك ألوان الرعاية والتشجيع، وأقبل عليهم الطلاب والعلماء المصريون فتفتحت مواهب هؤلاء وهؤلاء، وانقدحت قرائحهم العلمية عن طريق الأخذ والعطاء، وتبادل الثقافات والأفكار المختلفة، وأنتج هذا الاحتكاك والتلاحم الفكرى أقوى حركة فكرية شهدتها مصر فى عهودها المختلفة، وأصبحت مصر مجمعًا علميًا كبيرًا يضم بين جنباته أبرز العلماء والمفكرين من كل مكان"[(٩٨)].

(٣) رعاية المماليك للحركة الفكرية وتشجيعهم للعلم والعلماء:

لم تكن تلك النهضة الفكرية التى شهدتها مصر والشام إبان عصر المماليك لتتحقق لولا تلك الرعاية التى أسبغها حكام المماليك على العلم والتعليم، وذلك التشجيع الذى أحاطوا به العلماء والمفكرين. لقد بذل أولئك الحكام جهدًا هائلاً فى سبيل خلق بيئة علمية مزدهرة، فتوسعوا فى إنشاء المعاهد العلمية وعهدوا بالتدريس فيها إلى طبقة ممتازة من العلماء، ورصدوا لتلك المعاهد الأوقاف الضخمة للإنفاق عليها إنفاقًا دائمًا متصلاً، وزودوها بما تحتاج إليه من مكتبات حفلت بنفائس الكتب فى العلوم المختلفة، فهيأوا بذلك لطلابها ومدرسيها مناخًا علميًا صالحًا أتاح لهم التفرغ للبحث والدراسة.

وجدير بالذكر أن بعض السلاطين والأمراء عرفوا بتشجيع العلماء من الأقطار المختلفة على الهجرة إلى مصر؛ كالظاهر برقوق الذى عمد إلى استقدام العلماء المبرزين إلى القاهرة كالإمام العلامة زادة الخرزبانى (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) " علامة زمانه فى العلوم العقلية والأدبية، فقدم إلى القاهرة وتصدى للإقراء والتدريس سنين عديدة، وانتفع به عامة الطلبة من كل مذهب"[(٩٩)]، والإمام سيف الدين السيرامى (٨١٠هـ/ ١٤٠٧م) الذى ولاه برقوق مشيخة المدرسة/ الخانقاه التى أنشأها بين القصرين سنة ٧٩٠هـ، فظل يدرس ويفتى إلى أن توفى بها سنة ٨١٠هـ/ ١٤٠٧م[(١٠٠)].

وحرص بعض سلاطين المماليك على عقد المجالس العلمية والدينية بالقلعة بشكل دورى منتظم، فعرف السلطان الغورى بعقد تلك المجالس التى بحثت فيها مختلف المسائل والمشاكل العلمية والدينية ،وكان يؤمها كبار العلماء والفقهاء(١٠١).

المؤسسات والمعاهد العلمية:

وقد تنوعت المعاهد العلمية التى حملت عبء النشاط الفكرى فى دولة المماليك تنوعًا ملحوظًا، وتمثلت فيما أنشىء من مساجد ومدارس وما شيد من خانقاوات وربط وزوايا. ولعل ما أورده ابن دقماق فى كتابه " الانتصار لواسطة عقد الأمصار"، والمقريزى فى كتابه " المواعظ والاعتبار"، والنعيمى فى كتابه " الدارس فى تاريخ المدارس"- عن هذه المعاهد العلمية المتنوعة جدير بأن يعطينا صورة واضحة عن النشاط الفكرى الزاخر الذى كانت تموج به البلاد آنذاك.

لقد اتسعت رسالة هذه المؤسسات والمعاهد لتشمل بالإضافة إلى إقامة الشعائر الدينية النهوض بالحركة العلمية والفكرية فى البلاد، وكان التعليم أحد الأغراض الرئيسية من بنائها. ويسعنا أن نقول: إن المدارس - ويقاس عليها سائر معاهد التعليم - كانت فى عهد دولة المماليك تضارع أعظم المعاهد الأوروبية الحديثة، من حيث نظمها وطرقها التعليمية وهيئة التدريس بها وإمدادها بالكتب العلمية اللازمة، وتوفير مصادر الإنفاق عليها، ورعاية الطلبة والمتعلمين بها، وتهيئة الجو العلمى الذى يكفل لها أداء رسالتها على أكمل وجه(١٠٢).

وينبغى أن نؤكد فى هذا السياق على أن المساجد والجوامع والخانقاوات - ومثلها الربط والزوايا - قد أدت الدور العلمى الذى كانت تضطلع به المدارس، " فلم تختلف عنها إلا فى الاسم وفى بعض السمات الخاصة التى كانت تبرز فى إحداها دون الأخرى، فالجامع مثلاً كانت تقام فيه الجمعة والجماعات، والخانقاه كان يغلب عليها الاهتمام بالتصوف والمتصوفة، وفيما عدا ذلك فلم يكن هناك من فرق بينهما وبين المدرسة فى أوجه النشاط العلمى الذى كان يمارس فى كل منها"(١٠٣).

الهوامش:

(١) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، القاهرة، مطبوعات الهيئة العامة لقصور الثقافة، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م ص ١٦٣ .

(٢) خليل بن شاهين الظاهرى، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشرة: بولس راويس، باريس ١٨٩٢م، ص١٠٦.

(٣) القلقشندى، صبح الأعشى، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر، ٢٠٠٤م ٤/ ١٦، ١٧، ١٨٠، شمس الدين السخاوى، الثغر الباسم فى صناعة الكاتب والكاتم، (المعروف باسم: المقصد الرفيع المنشأ الهادى لديوان الإنشا المنسوب للخالدى)، تحقيق: أشرف محمد أنس، القاهرة، دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ٢٨٨/١، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر، القاهرة مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية ١٩٧٩م، ١/ ٨٨.

(٤) صبح الأعشى ١٨/٤.

(٥) الماوردى، الأحكام السلطانية، الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٧٣م، ص ٢٢- ٢٦، صبح الأعشى ٤٤٨/٥، ٤٤٩.

(٦) المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، الطبعة الأولى، لندن، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م، ٣/ ٧٢٢، ٧٢٤، ٧٣٤، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ٤٢/١، ٤٣، محمد عبد الغنى الأشقر، الوزارة والوزراء فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، الطبعة الأولى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة تاريخ المصريين، ٢٠١١م، ص ٥٠.

(٧) صبح الأعشى ١٨٨/٤، ١٨٩، المواعظ والاعتبار ٧٢٢/٣، ٧٢٣، وراجع أيضًا: محمد عبد الغنى الأشقر، الوزارة والوزراء فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ص ٤٩.

(٨) المواعظ والاعتبار ٧٢٥/٣، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ٤٤/١، ٤٦.

(٩) المواعظ والاعتبار ٣/ ٧٢٢ حاشية رقم (٢)، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة، سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة، دار الكتب، بدون تاريخ، ٢٦/٢، ٤٦، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ٤٦/١.

(١٠) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ٤٧/١.

(١١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام، القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٩٨م، ص ٣٣٠.

(١٢) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ٥٠/١، محمد قنديل البقلى، مصطلحات صبح الأعشى ١٣٩.

(١٣) صبح الأعشى ٤٦٥/٥، المواعظ والاعتبار ٧٢٥/٣، ٧٢٦، محمد قنديل البقلى، مصطلحات صبح الأعشى ١٥٠.

(١٤) المواعظ والاعتبار ٧٢٥/٣.

(١٥) السابق نفسه.

(١٦) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ١٣٨، ١٣٩.

(١٧) المواعظ والاعتبار ٧٣٠/٣، ٧٣١.

(١٨) السابق ٣/ ٧٣١.

(١٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام ٣٦٨.

(٢٠) السابق، ص ٢٢٨.

(٢١) الثغر الباسم فى صناعة الكاتب والكاتم ٩١/١.

(٢٢) السلوك ٩١٥/٣/١، العينى، عقد الجمان، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م ٢٠١/٢.

(٢٣) الثغر الباسم فى صناعة الكاتب والكاتم ٩١/١.

(٢٤) صبح الأعشى ١٣٧/١، ١٣٨، سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى ٣٦٨، ٣٦٩.

(٢٥) المواعظ والاعتبار ١٧٥/٤- ١٧٨، محمد قنديل البقلى، مصطلحات صبح الأعشى ١٤١.

(٢٦)الروض الزاهر لابن عبد الظاهر ١٨٢، السلوك ٤٧٢/٢/١.

(٢٧)السلوك ٥٣٩/٢/١.

(٢٨)السابق ٥٤٠/٢/١. وراجع أيضًا: المواعظ والاعتبار ٢٠١/١/٤.

(٢٩)صبح الأعشى ١٩٢/٤، ٢٢١.

(٣٠)زبدة كشف الممالك ٩٢، صبح الأعشى ٣٦/٤، ١٩٢، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ٤/١، ٩٥.

(٣١)صبح الأعشى ٣٦/٤، العمرى، التعريف بالمصطلح الشريف، القاهرة، ١٣١٢م، ص ١٢٣، ١٢٤.

(٣٢)صبح الأعشى ٣٦/٤.

(٣٣) السابق ٣٦/٤. الراجح أن عدم وجود قاض للعسكر على المذهب الحنبلى يرجع إلى قلة الحنابلة بمصر عمومًا وفى الجيش المملوكى خاصة. بيد أن القلقشندى نص فى موضع آخر من كتابه على أن " قضاة العسكر أربعة: من كل مذهب قاض" صبح الأعشى ٢٠٤/١١ . ويبدو -توفيقًا بين هذين الرأيين- أن المذهب الحنبلى قد اتسعت رقعته واستقطب عددًا من المصريين والجند المماليك بعد مرور فترة من نشأة الدولة، فأصبح من الضرورى أن يكون لهؤلاء الجنود قاض من مذهبهم بمثلهم ويفصل بينهم .

(٣٤) صبح الأعشى ٣٦/٤، التعريف بالمصطلح الشريف، ص ١٢٤.

(٣٥)الأحكام السلطانية، ٢٤، أبو حامد الغزالى، إحياء علوم الدين، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية، بدون تاريخ ٣٣٩/٢.

(٣٦)راجع فى مهام المحتسب وواجباته: الأحكام السلطانية ٢٤١ ـ ٢٤٨، ابن الإخوة، معالم القربة فى أحكام الحسبة، تحقيق : محمد محمود شعبان، وصديق أحمد عيسى، القاهرة ١٩٧٦م، ٨ وما بعدها، تاج الدين السبكى، معيد النعم ومبيد النقم، الطبعة الثالثة، القاهرة، مكتبة الخانجى، ١٩٩٦م، ص ص ٦٥، ٦٦.

(٣٧) إحياء علوم الدين ٣٣٩/٢، سهام مصطفى أبو زيد، الحسبة فى مصر الإسلامية من الفتح العربى نهاية العصر المملوكى، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م، ص ١٠٦، ١٠٧.

(٣٨) صبح الأعشى ٦٨/١١- ٧١، ٩٦/١١، ٩٧.

(٣٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام ٣٧٥.

(٤٠) قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك، ٢٧، ١٦٣.

(٤١)المواعظ والاعتبار ٢٥٥/١، السلوك ٤٦٢/١/٤، صبح الأعشى ١٤/٤ـ١٦، أ.ن. بولياك، الإقطاعية فى مصر وسوريا وفلسطين ولبنان، ترجمة: عاطف كرم، الطبعة الثانية، بيروت، دار المكشوف، ١٩٤٨م، ص ١٧.

(٤٢)صبح الأعشى ١٥/٤.

(٤٣)David Ayalon, Studies of The Mamluk Army I, B. S.A. S,Vol. (15), No, 2 (1953), P, 204

(٤٤)لم يكن مصطلح " المشتروات" مستخدمًا فى بداية عصر المماليك، ولكن جرى استخدامه فى مرحلة متأخرة نسبيًا. وإبان الحقبة الجركسية ظهر مصطلح " الجلبان" وأضحى أكثر استخدامًا وتداولاً فى مصادر التاريخ المملوكى.
David Ayalon, Studies of The Mamluk Army I, P. 207.

(٤٥)زبدة كشف الممالك ١١٥، ١١٦. وراجع أيضًا:
David Ayalon, Studies of The Mamluk Army I, P. 204. David Nicolle, The Mamluks, P 16.

(٤٦)السلوك ٤٦٢/١/٤.

(٤٧)المواعظ والاعتبار ٧٠٠/٣، صبح الأعشى ١٤/٤، الثغر الباسم ٣٨٤/١، ٣٨٥، زبدة كشف الممالك ١١٣.

(٤٨) H.A.R. Gibb, " The Armies of Saladies on the civilization of Islm, London, 1962, P 740

(٤٩) الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، بيروت، دار الكتب العلمية ١٨٠/٢.

(٥٠) David Ayalon, Studies on the Structure of the Mamluk Army II, B.S.O.A.S, University of London, Vol, 15, No. 3 (1953), P. 448.

(٥١) R. Stephen Humphreys, The Emergence of the Mamluk Army, S. I No 46 (1977), PP. 162-165.

(٥٢) النجوم الزاهرة ١٦٠/٧، ١٦١.

(٥٣)السيد الباز العرينى ، المماليك، بيروت، دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص ١٦١، أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية: التاريخ السياسى والاقتصادى والعسكرى، الطبعة الأولى، بيروت، دار الحداثة، ١٩٨٠، ص ٥٦.

(٥٤) David Ayalon, Studies on the Structure of Mamluk Army II, P 449,450.

(٥٥) قام الناصر محمد قلاوون سنة ٧١٢هـ/ ١٣١٢م بإعادة النظر فى أوضاع المماليك السلطانية، فأدرج بعضهم بالحلقة: David Ayalon, Studies on the Structure of the Mamluk Army II, P 449.

(٥٦) السلوك ٢٠/١/٢.

(٥٧) السيد الباز العرينى، المماليك ١٦١، ١٦٠.

(٥٨) المواعظ والاعتبار ٢٥٥/١.

(٥٩) David Ayalon, Studies on the Structure of Mamluk Army II, P, 450.

(٦٠)عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ١٨٨/١، ١٨٩.

(٦١)سيرد التعريف بالشوانى عند الحديث عن الوحدات الرئيسية للأسطول.

(٦٢)المواعظ والاعتبار ٦١٥/٣، ٦١٦.

(٦٣)السابق ٦١٧/٣.

(٦٤)المواعظ والاعتبار ٦٢٢/٣، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ١٨٩، ١٩٠.

(٦٥)سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى ٢٩٠، عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ١٨٩، ١٩٠.

(٦٦)سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك ٣٢٩.

(٦٧)راجع ما تقدم عند الحديث عن دولة المماليك الجراكسة.

(٦٨)كلود كاهن، الإسلام منذ نشوئه حتى ظهور السلطنة العثمانية، ترجمة: حسين قبيسى، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط الأولى، ٢٠١٠م، ٤٥٤.

(٦٩)صبح الأعشى ٤٤٨/٣، ٤٤٩.

(٧٠)النجوم الزاهرة ١٧٨/٩، ١٧٩.

(٧١)النجوم الزاهرة ١٩٠/٩، ١٩١.

(٧٢)ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٧م ١٩٠/٩-١٩٣.

(٧٣) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى ٢٨٥، ٢٨٦.

(٧٤) السابق ص ٢٨٧.

(٧٥) المواعظ والاعتبار ٣٢١/٣.

(٧٦) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك ٣١٢، ٣١٣، محمود الحويرى، مصر فى العصور الوسطى، ص ٢٩٢.

(٧٧) المواعظ والاعتبار ٣٤٧/٣.

(٧٨) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك ٢١٢، ٣١٣.

(٧٩) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام ٢٩٣- ٢٩٥، أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية، ١٨٠ .

(٨٠). أنطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية، ١٨٠، ١٨١.

(٨١) كان النشاط التجارى إبان العصر الوسطى يعتمد بشكل أساسى على السياسات التى تتبناها الدولة : انظر :
Ira M. lapidus, Muslim Cities in The Later Middle Ages, 2 nd ed, Cambridge University Press, 1984, P . 124.

(٨٢) Ira M. Lapidus, Muslim cities in the later Middle Ages, P. 124

(٨٣). سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى، ٢٩٥، ٢٩٦، انطوان خليل ضومط، الدولة المملوكية، ١٨٨.

(٨٤) Ira M. Lapidus, Muslim cities in the later Middle Ages, P. 124

(٨٥) ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور بسيرة الملك المنصور ٩٩، ١٠٠.

(٨٦) تشريف الأيام والعصور بسيرة المنصور ٢٠٤ ـ ٢٠٩.

(٨٧) لمزيد من التفاصيل عن أسواق القاهرة فى عصر المماليك راجع: المواعظ والاعتبار ٣/٣١٣ ـ ٣٥٤ .

(٨٨) لمزيد من التفاصيل راجع : المواعظ والاعتبار ٣/ ٢٨٦ وما بعدها.

(٨٩) المواعظ والاعتبار ٣/ ٣٠٩.

(٩٠) توشك النزعة الطبقية أن تكون سمة عامة امتازت بها الحياة الاجتماعية للمسلمين عبر تاريخهم الطويل، رغم مصادمتها لدعوة الإسلام إلى المساواة بين المسلمين كافة، وطرح المقاييس المادية فى المفاضلة بينهم.

(٩١) سعيد عبد الفتاح عاشور، العصر المماليكى فى مصر والشام، القاهرة، ص ٢١٨، قاسم عبده قاسم، عصر سلاطين المماليك ص ١٦٤، ١٦٥.

(٩٢) مقدمة ابن خلدون، تحقيق: على عبد الواحد وافى، الطبعة الثالثة، القاهرة، دار نهضة مصر، بدون تاريخ ٢/٥٣٨.

(٩٣) المقريزى، إغاثة الأمة بكشف الغمة، القاهرة، دار ابن الوليد، بدون تاريخ، ص ٧٣.

(٩٤) سعيد عبد الفتاح عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة، دار النهضة العربية، بدون تاريخ، ص ١٠.

(٩٥) جمع زاعر، وهو اللص والمحتال والحرفوش والمتشرد. محمد قنديل البقلى، مصطلحات صبح الأعشى، ص ١٧٠.

(٩٦) مقدمة ابن خلدون ٣/ ١٠٢٥.

(٩٧) السيوطى، حسن المحاضرة، الطبعة الأولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م، ٢/ ١٠٢.

(٩٨) د. محمد محمد محمود عامر، المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م ص ١٢٤.

(٩٩) ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ١٣/ ١٦٤، ١٦٥.

(١٠٠) ابن تغرى بردى، المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى، تحقيق: محمد محمد أمين، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٦/١٨٩، ١٩٠.

(١٠١) عبد الوهاب عزام، مجالس الغورى: صفحات من تاريخ مصر فى القرن العاشر الهجرى، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١م، ص٤٩.

(١٠٢) وليم موير، تاريخ دولة المماليك فى مصر، الطبعة الأولى، القاهرة، مكتبة مدبولى ١٩٩٥م، ص ٢٠٥.

(١٠٣) د. محمد محمد محمود عامر، المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر، ص ١٣٤. رسالة دكتوراه قدمت لقسم التاريخ والحضارة فى كلية دار العلوم بالقاهرة السابق الإشارة إليها آنفاً.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- المقريزى : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، تحقيق أيمن فؤاد سيد ، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى لندن ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٢- المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، دار الكتب، القاهرة (د.ت) .

٣- القلقشندى : صبح الأعشى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ، سلسلة الذخائر ٢٠٠٤م.

٤- خليل بن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، نشرة بولس روايس، باريس ١٨٩٢م.

٥- عبد المنعم ماجد: نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم فى مصر. مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٩م.

٦- محمد عبد الغنى الأشقر: الوزارة والوزراء فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١١م.

٧- السيد الباز العرينى: المماليك، دار النهضة العربية، بيروت (د . ت) .

٨- سعيد عبد الفتاح عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، دار النهضة العربية، القاهرة (د . ت) .

الموالى

الموالى جمع مولى، والمولى مصطلح أُطلق على منْ أُعتق من العبيد المُستَرقّين، فأخذ حريته. ويُنسب العبد المُعتق لمن قام بإعتاقه سواء أكان شخصًا فردًا أم قبيلة. فقيل لبلال بن رباح مؤذن الرسول الذى أعتقه الصديق أبو بكر ﷺ: بلال مولى أبى بكر، كذلك أُطلق على الموالى الذين أعتقتهم القبائل مثل قبيلة قريش أو غيرها موالى قريش، وهكذا.

وقد مضى الإسلام يعتد بحرية الإنسان وكرامته، فدعا إلى تحرير العبيد، وانبرى كثير من الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر الصديق، يفكون رقاب الرقيق.

وقد حَرَّم الإسلامُ بيعَ الأمَة إذا استولدها مولاها، حتى إذا ما مات رُدت إليها حريتها، وكانوا فى الجاهلية يسترِقُّون أبناءهم من الإماء، فأزال ذلك الإسلام وجعلهم أحرارًا كآبائهم.

وسبب وقوع الرق فى الإسلام ووجود طبقة الموالى يرجع إلى وقوع الكافر أسيرًا فى يد المسلمين عند الحرب. فإذا حارب المسلمون الكافرين فمن أُسر من محاربيهم جاز للإمام أن يسترقه، كما يجوز له أن يسترق أهل البلد الذين فُتحت بلدتهم عنوة وقاتلوا المسلمين دون أن يُسلموا، رجالاً كانوا أم نساءً. ولا يشترط لأجل بقاء الرق بقاء سببه، فلو وقع كافر فى الأسر فاسْتُرِقَّ ثم أسلم لا يزال عنه الرق. ويُعد هذا الرقيق جزءًا من الغنيمة كالآلات الحربية والنقود والخيل والطعام.

وكانت الحروب فى صدر الإسلام كثيرة والأمم المغلوبة كثيرة، من أجل ذلك ازدادت أعداد الرقيق الموالى فى الدولة الإسلامية وازداد تنوعهم مع الأمم التى غلب المسلمون جيوشها وفتحوا بلادها. وكانت للرقيق أسواق يُباع فيها ويُشترى.

وهذا الرقيق من رجال ونساء لا يسترد حريته إلا بأن يعتقه مالكه. وإذا ما ولدت الأمة من سيدها سميت «أم ولد»، ولقد رفعها الفقهاء فوق منزلة الجارية التى لم تلد ومنحوها حقوقًا لم تنلها غيرها، أهمها أنه لا يصح لمالكها أن يبيعها، أو أن يهبها لغيره، وعلى ذلك جرى جمهور الفقهاء، ولكنها تبقى حِلاً لمالكها حتى يموت، فإذا مات صارت حرة تجرى عليها أحكام الحرائر. أما الأبناء الذين ولدتهم

فيجيئون أحرارًا إناثًا كانوا أم ذكورًا.

ولقد قال رسول الله ﷺ فى ذلك الشأن: «أيما أمَة ولدت من سيدها فإنها حرة إذا مات إلا أمة يعتقها قبل موته». ونحن لا نجد بين خلفاء العباسيين جميعًا مَنْ وُلد من أبويْن عربييْن سوى ثلاثة: أبو عبد الله السفاح، ومحمد المهدى، ومحمد الأمين. وأمهات باقى الخلفاء كلهن من الجوارى. فأم أبى جعفر المنصور هى سلاّمة البربرية، وأم الرشيد الخيزران التركية، وأم المأمون مراجل الفارسية، وأم المعتصم ماردة التركية، وأم المستعين صقلبية، وأم المستضئ أرمنية. هذا وقد ألّف ابن بطلان الطبيب كتابًا فى تجارة الرقيق، جعل عنوانه: «رسالة جامعة لفنون نافعة فى شراء الرقيق وتقليب العبيد».

ولقد انتشرت تجارة الرقيق فى الدولة الإسلامية كما انتشرت فى العالم ذلك الوقت، وكان فى بغداد شارع يُسمى «دار الرقيق»، وقد سُمى تاجر الرقيق نخّاسًا، وكان هذا اللقب يطلق فى الأصل على بائع الدواب، واشتُهر فى العصر العباسى الأول فى بغداد كثير من النخاسين، وسبب شهرتهم ما كان لهم من جوارٍ حسان يأوى إليهن الشعراء والأدباء بالكرخ.

وقد امتلأت قصور الخلفاء والأمراء والوزراء بأعداد كبيرة من رقيق الموالى من مختلف الأجناس والألوان.

ولقد اتجه النخاسون فى العصر العباسى إلى تعليم الرقيق وتهذيبهم لرفع أثمانهم عند البيع، وكانت أكثر عنايتهم بتعليم الجوارى الغناء، فقد انتشر الغناء فى العصرين الأموى والعباسى انتشارًا كبيرًا فى الدولة الإسلامية، وكان حاجة من حاجات الناس الضرورية آنذاك. فنرى المغنين والمغنيات فى المحال العامة، وفى الشوارع وفى قصور الخلفاء، وفى بيوت الأغنياء ورجال الطبقة الوسطى.

ولقد دعا تعليمُ الناس الغناء للجوارى من الموالى، تعليمهم الأدب وضرورة إتقانهم اللغة العربية بحكم أنَّ غالبيتهن كن أعجميات، كذلك لأن الغناء آنذاك كان كله بالشعر العربى الفصيح مثل شعر عمر بن أبى ربيعة، وشعر بشار بن برد، وأبى العتاهية. والمغنيةُ الأعجميةَ وحتى العربية لا يمكن لها أن تغنى من شعر هؤلاء الشعراء الكبار إلا إذا حفظت الكثير من الشعر القديم، وأتقنت مخارج الحروف واطلعت على

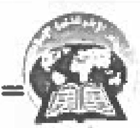
الكثير من كتب الأدب . ولقد سمعنا عن مغنيات أعجميات كن يغنين بما يحفظنه من شعر بلادهن، وبما يَقْرِضْنَ من شعر ويضَعْنَ من ألحان.

وإلى جوار الجوارى الخاصة من المغنيات من الموالى، كان هناك نوع آخر من المغنيات للعامة عُرفن «بالقيان». وكانت القيان فى ملك بعض النخاسين، الذين يقومون بعرضهن للغناء فى قاعات ومحال يأوى إليها الفتيان لسماعهن والإنفاق عليهن. ومن نماذج ذلك ما حكاه لنا صاحب الأغانى عن نخاس يدعى «ابن رامين» كان له نُزُل بالكوفة، وله جوار مغنيات، كانت أشهرهن تُسمى «سلامة الزرقاء»، وكان الفتيان يجتمعون فى بيت ابن رامين للسماع والشراب، وممن كانوا يختلفون إلى نُزل ابن رامين القائد معن بن زائدة والأدباء ابن المقفع ومحمد بن الأشعث وغيرهم، يسمعون الغناء وينفقون هنالك عن سعة.

ولقد أثر هذا النوع من جوارى الموالى تأثيرًا سيئًا على المجتمع العباسى فى العصر العباسى الأول فى نشر الخلاعة والمجون وشرب الخمور، وقد انعكس كل ذلك فى أشعار أبى نواس، وقد كان للأديب الكبير أبى عثمان الجاحظ رسالة فى القيان أبان فيها هذا الأمر.

هذا ولقد قام الموالى على اختلاف ألوانهم بأعمال كثيرة فى الدولة الإسلامية وشاركوا فى الحياة السياسية والاجتماعية، فمنهم من كانوا جنودًا وقوادًا تستعين بهم الدولة فى حروبها، وقد وصل هؤلاء الموالى المعتقون إلى مراكز سامية فى الدولة الإسلامية، فمنهم من تولى قيادة الجيوش مثل مؤنس الخادم فى العراق، وجوهر الصقلى فى المغرب ومصر. ومنهم من حكم الولايات مثل كافور الإخشيدى فى مصر، وسبكتكين التركى فى بلاد الأفغان، ومنهم من قام بالمهام الصناعية والزراعية والتجارية لسادتهم.

ولقد تحدثت مصادر التاريخ الإسلامى عن الموالى كطبقة اجتماعية خاصة لها دورها الفعال عمومًا فى تاريخ الدولة الإسلامية فى العصرين الأموى والعباسى، وكانوا من رعايا الدولة الإسلامية فى البلاد المفتوحة من فرس وترك وبربر وقبط وروم وأرمن وغيرهم. وقد تغلغل هؤلاء الموالى الذين سماهم العرب «بالأعاجم» على أساس أنهم لا يتكلمون العربية - تغلغلوا فى الحياة الإسلامية وشاركوا فى جميع مجالاتها،



ولكنهم شاركوا كمحكومين لا حاكمين. ولو أنهم كانوا يشعرون بينهم وبين أنفسهم أنهم أرقى من العرب ثقافة وأعرق حضارة.

والمعروف أن هؤلاء الموالى شاركوا العرب فى نهضة الدولة وتقدمها، وتغلبوا عليهم فى أمور لم يكن العرب يحسنونها كأمور المال والزراعة والصناعة. وقد تدخل هؤلاء الموالى فى الحياة الخاصة الدقيقة للحكام، وامتلأ بهم البلاط الخلافى، ونهضوا بالواجبات العسكرية نهوض العرب بها. وقد حُرم هؤلاء الموالى فى العهد الأموى من تولى الحكم ومناصب الدولة العليا وقيادة الجيش والقيد فى ديوان الجند، الأمر الذى أدى إلى ثورتهم على الحكومة الإسلامية وطلبهم مساواتهم بالعرب. وإذا لاحظنا أنَّ العرب كانوا قلة فى داخل الدولة الواسعة التى كونوها بعد الفتوح الإسلامية، فإن مطالبة الموالى بالمساواة مع العرب ظلت تتزايد، الأمر الذى جعلهم ينضمون للعناصر المعادية للدولة مثل جماعة الشيعة وجماعة الخوارج.

وفى الحقيقة إذا ناقشنا مسألة التفرقة فى المساواة بين العرب والموالى مناقشة موضوعية نجد أن هذه المسألة اختلفت من إقليم لآخر. ولقد تمثلت هذه التفرقة بكامل صورها فى العراق فقط، وذلك لكثرة عدد القوات العربية، التى كانت ترابط هناك وبخاصةٍ فى البصرة والكوفة معاقل الثورات ضد الأمويين.

ولقد تجلت التفرقة داخل هذه القوات بين العرب اليمنية والعرب القيسية، وكانت أشد ضراوة ضد غير العرب، لكن هذا النوع من المعاملة اختلف تمامًا فى الشام عما كان عليه فى العراق، فالأمويون كانوا ينظرون لموالى الشام على أنهم أتباع لهم، ولذلك كان لهم شىء من الامتياز والاعتبار؛ وذلك لشدة اتصالهم بالخلفاء وكبار رجال الدولة. وكان كثير من موالى الشام يعملون فى الوظائف الهامة للدولة سياسية أو إدارية أو مالية أو عسكرية، وقد كانت ثقة حكام الأمويين بهم ثقة كبيرة وزائدة؛ من أجل ذلك تميز وضع الموالى فى الشام عنه فى العراق.

أما الموالى فى الحجاز فكان وضعهم أحسن من وضع أقرانهم فى الشام وذلك لاعتماد الطبقة العربية المترفه التى كانت تعيش هناك عليهم فى كل أمورهم، وكانوا يعملون لحسابهم فى الزراعة والصناعة والتجارة، وكان منهم المغنون

والندماء والخدم الذين كانوا يشرفون على أمور ترف هذه الطبقة العربية المترفة. وفى هذه البيئة الحجازية بالذات، كان الموالى فى الظاهر محكومين وفى الحقيقة سادة وحكامًا، وهم وإن كانوا قد اعتبروا فى الظاهر طبقة من الدرجة الثانية فإنهم من الناحية العملية كانوا طبقة من الدرجة الأولى ووصلوا إلى درجة التحكم فى سادتهم من العرب.

ولقد استمرت أعداد الموالى فى تزايد فى بلاد العالم الإسلامى مع استمرار الرق وتفشيه فى العالم القديم والوسيط، ووقوع أسرى فى يد المسلمين فى حربهم ضد الروم فى العصر العباسى، كذلك وقوع عدد من المسلمين أسرى فى يد الروم، وقد وقع الاتفاق من الجانبين الإسلامى والرومى على تبادل الأسرى. ولمَّا كان عدد أسرى المسلمين أكبر من عدد أسرى الروم فى بعض الأحيان كان الخليفة العباسى يقوم بشراء رقيق الروم من عند النخاسين وإطلاق سراح أسرى الروم فى قصوره وقصور أمرائه للحصول على العدد اللازم للتبادل مع الروم. وكان أول تبادل للأسرى مع الروم فى عهد الرشيد سنة ١٨٩ هـ/ ٨٠٤م. وبسبب استمرار الحروب بين القبائل التركية بعضها ضد بعض فى منطقة التركستان ووقوع أعداد كبيرة من الأسرى بينهم وتوريد هؤلاء الأسرى إلى بلاد العالم الإسلامى وقيام أسواق النخاسة باستيعابهم وبيعهم وشرائهم؛ كثُر عدد الرقيق فى الدولة الإسلامية وفى الولايات الأخرى. ولقد نجح العنصر التركى (من الرقيق الأبيض) فى السيطرة على دولة الخلافة فى العصر العباسى الثانى، وصاروا هم الحكام الفعليين فى الدولة وفى الولايات. ونجح القواد الأتراك من الموالى المعتقين فى الاستقلال ببعض ولاياتهم التى تولوا حكمها مثل أحمد بن طولون ومحمد بن طغج الإخشيد وكافور الإخشيدى فى مصر. كذلك نجح الموالى المعتقون فى مصر ممن حكموا مصر بعد حكم دولة الأيوبيين فى تكوين دولتين لهم فى مصر عُرفت إحداهما بدولة المماليك البحرية وعرفت الأخرى بدولة المماليك البرجية (الجراكسة). كذلك نجح المماليك الموالى فى إنشاء دولة لهم فى بلاد الهند، كانت من أهم الدول التى حكمت تلك البلاد وشهدت أزهى عصورها.

أ. د / عطية القوصى

مصادر ومراجع للاستزادة:

- الطبرى: تاريخ الرسل والملوك.
- ابن الأثير: الكامل فى التاريخ.
- البلاذرى: فتوح البلدان.
- المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
- ابن خلدون: المقدمة.
- السيوطى: تاريخ الخلفاء.
- شاكر مصطفى: تاريخ الدولة العباسية.
- محمد جمال الدين سرور: الدولة العربية الإسلامية.
- عطية القوصى: تاريخ الدولة العربية وحضارتها.
- دائرة المعارف الإسلامية: لفظ «موالى».

الموحدون

نجح داعية الموحدين المهدى محمد بن تومرت فى زلزلة الأرض تحت أقدام المرابطين فى المغرب الأقصى، وذلك بما أذاعه من أفكار ومبادئ تخالف الكثير من الأسس التى قامت عليها دولة المرابطين؛ وكان الكفاح المسلح الذى قاده عبد المؤمن بن على التلميذ المخلص لابن تومرت هو الوسيلة الفعالة فى القضاء على الحكم المرابطى وإقامة الدولة الجديدة: دولة الموحدين فى بلاد المغرب والأندلس سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م.

وكثير من المؤرخين يرجعون نسب ابن تومرت إلى البيت النبوى حيث يذكرون نسبه بقولهم: هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد، ويصلون بنسبه إلى الحسن بن على بن أبى طالب[1]. هذا النسب إلى بيت النبوة تشكك فيه بعض المؤرخين الأجانب من أمثال تراس وجوليان وليفى بروفنسال وغيرهم، إلا أن ابن خلدون دافع عن نسب ابن تومرت إلى بيت النبوة وفنَّد مزاعم من هاجم هذا النسب، وأرجع أسباب ذلك إلى حِقْد العلماء والفقهاء بالدولة المرابطية؛ هؤلاء الذين خشوا من ضياع نفوذهم وسلطانهم حين هاجمهم ابن تومرت الذى استغل نسبه إلى البيت النبوى فى تثبيت دعوته فى نفوس أتباعه معلنا أنه المهدى المنتظر.

ينتمى ابن تومرت إلى قبيلة هرغة إحدى قبائل المصامدة؛ وقد نشأ نشأة دينية محبًا للعلم حريصًا عليه؛ غير أن تلك الدراسات التى تلقاها فى موطنه لم تروِ ظمأه العلمى، ومن هنا قام سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٧م برحلة علمية إلى المراكز الثقافية المشهورة فى العالم الإسلامى مثل مكة وبغداد، وبعد خمسة عشر عامًا عاد إلى بلاد المغرب وقد تزود من هذه الرحلة بقدر كبير من المعرفة والثقافة ظهرت نتائجها فى كثير من آرائه الدينية التى نادى بها فيما بعد؛ كما أن هذه الرحلة فتحت عينيه على الحالة السياسية للمسلمين ببلاد المشرق ومدى الانقسام الذى تعيشه الدويلات الإسلامية وضعف الخلافة العباسية؛ لذا عزم على تحقيق الوحدة الإسلامية فى ظل خلافة موحدة وبدأ دوره كمصلح دينى خلال مروره على المدن المغربية فى رحلة عودته.

وتكتسب عودة ابن تومرت أهمية خاصة حين التقى بعبد المؤمن بن على الذى صار فيما بعد التلميذ المخلص لابن تومرت والمؤسس الفعلى لدولة الموحدين. وقد تابع ابن تومرت فى كل مكان يذهب إليه؛ يحفظ عنه مبادئه وتعاليمه ويرقب إقبال الناس عليه والتفافهم حوله.

وكان الصدام بين الداعية ابن تومرت والسلطة المرابطية فى مراكش فى منتصف ربيع الأول سنة ٥١٥ هـ = ١١٢١م حيث اجتمع جماعة من علماء المرابطين فى حضور أمير المرابطين على بن يوسف بابن تومرت لمناقشته فيما يدعو إليه؛ واستطاع ابن تومرت بما أوتى من علم وذكاء أن يتغلب على جدل فقهاء المرابطين وينتصر عليهم، وأسفرت المناظرة عن طرد ابن تومرت من مراكش خشيه التأثير فى العامة فضلاً عن إضعاف مركز الفقهاء.

وما إن فارق ابن تومرت مراكش حتى أعلن عن نواياه فى مواجهة السلطة الحاكمة، حيث أعلن عن خلع أمير المرابطين على بن يوسف، وبايعه مَنْ حوله إمامًا للدعوة الجديدة سنة٥١٥هـ/١١٢١م، وانتهى المطاف بابن تومرت فى مدينة تينملل؛ تلك المدينة التى أصبحت فيما بعد العاصمة السياسية و الروحية للموحدين فى عهد ابن تومرت ثم العاصمة الروحية لخلفاء الموحدين؛ وقد وجد ابن تومرت ضالته المنشودة فى مدينة تينملل إذ إنها مدينة منيعة وحصينة مما جعلها مركزًا صالحاً فى توجيه شئون الدعوة.

ما إن استقر ابن تومرت فى تينملل حتى شرع فى تحقيق مبادئه السياسية والدينية التى تتحصر فى إقامة خلافة إسلامية بالمغرب والقضاء على التَّزَمُّتِ الدينى الذى كان يحياه فقهاء المرابطين والحد من سيطرتهم؛ وفى سبيل تحقيق هذه المبادئ استخدم ابن تومرت كل ما يملك من أسباب القوة والوسائل الأخرى من دهاء وحزم وعلم حتى يحقق ما يريد، ومن وسائله: أنه ألف لهم عقيدة فى التوحيد بلغة البربر حتى يسهل حفظها، كما أرسل الرسائل والكتب إلى القبائل يدعوهم فيها إلى الانضمام إليه والخروج على الدولة؛ ويبدو أن ابن تومرت لم يدخر وسيلة إلا واستغلها مع ما أوتى من ذكاء ومهارة بالإضافة إلى اختياره للسذج ليكونوا أتباعًا له ومن ثم يسهل عليه السيطرة عليهم، وصارت له الكلمة العليا فى كل شئونهم.

وحين تحقق ابن تومرت من طاعة

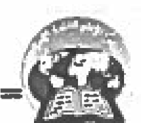
أتباعه وولائهم له؛ بدأ الكفاح المسلح الذى صار ضرورة حتمية لنجاح دعوته؛ وقد شارك ابن تومرت فى هذا الكفاح المسلح إذ تذكر المصادر أنه اشترك فى تسع غزوات ضد المرابطين؛ إلا أن معركة البحيرة سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م كانت بداية النهاية لحياة ابن تومرت إذ أصيب الموحدون بهزيمة شنعاء قتل فيها عدد كبير من الموحدين؛ وكانت صدمة كبيرة لابن تومرت، غير أن ما خفف من هذه الصدمة هو بقاء عبد المؤمن بن على على قيد الحياة، وأثرت الصدمة فى ابن تومرت الذى فارق الحياة فى سنة ٥٢٤ هـ/ ١١٢٩م بعد أن ترك حزبا على أرض المغرب الأقصى ضد المرابطين وأتباعًا يؤمنون بمبادئه .

تولى عبد المؤمن بن على أمور الموحدين، وتعرفه المصادر بقولها: هو عبد المؤمن بن على الكومى، أمه حرة من كومية من قوم يقال لهم بنو مجير ،مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا، ومن المؤرخين من ينسبه إلى العرب وبعضهم ينكر ذلك، وكان مولده ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م.

تولى عبد المؤمن بن على قيادة الموحدين وواصل كفاحه ضد المرابطين، ذلك الكفاح الذى استغرق عشر سنوات فى منطقة الأطلس جنوبى مراكش ووادى درعة وبلاد السوس وغيرها من المناطق؛ وقد كان النصر حليف الموحدين فى هذا الكفاح حتى سقطت مراكش عاصمة المرابطين سنة ٥٤١هـ/١١٤٦م وقتل كثير من أهلها فضلا عن إسحاق بن على آخر أمراء المرابطين، وبذلك قامت دولة الموحدين.

النشاط السياسى والعسكرى للموحدين:

بعد أن سيطر عبد المؤمن على مقاليد الأمور فى العاصمة مراكش وأحكم قبضته على أقاليم المغرب الأقصى، نراه يوجه اهتمامه إلى بقية أقاليم المغرب حيث خرجت الجيوش الموحدية فى حملات متتابعة ناحية الشرق حتى وصلت إلى طرابلس فى إفريقية محققة انتصارات عسكرية متوالية، وبذلك نجح الموحدون فى تحقيق أحد أهداف ابن تومرت وهو إقامة وحدة سياسية للمغرب الإسلامى، وفى نفس الوقت لم ينس الموحدون واجبهم الدينى فى حماية الأندلس وذلك حين شرع عبد المؤمن فى تجهيز حملة كبيرة لدفع الفرنج عن مدن الأندلس سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م إلا أن مرض



الخليفة عبد المؤمن حال دون إتمام هذه الحملة حيث أفضى مرضه إلى موته سنة ٥٥٨هـ /١١٦٣م.

وتولى خلفا له ابنه يوسف بن عبد المؤمن حيث بويع برباط الفتح سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م وذلك لما يتمتع به من صفات العدل والورع والعلم مما جعله أهلا لتولى منصب الخلافة فى المغرب؛ وقد واجه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ثورة فى جبال غمارة إلا أنه نجح فى القضاء عليها، ثم وجه الخليفة الموحدى معظم جهوده لدعم السلطة السياسية فى الأندلس، حيث نراه يرسل جنود الموحدين فى حملات متتابعة إلى الأندلس ثم خرج على رأس حملة كبيرة متوجهًا إلى الأندلس سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م إلا أن هذه الحملة لم يكتب لها النجاح حيث أصيب الخليفة بسهم عند أسوار مدينة شنترين الأندلسية مما دفع الجنود إلى العودة إلى بلاد المغرب ومعهم الخليفة المصاب حيث قضى نحبه فى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م بعد أن قضى فى مقعد الحكم اثنتين وعشرين سنة.

تولى مقاليد الأمور بعده ابنه يعقوب بن يوسف فى ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م وتلقب بالمنصور الموحدى وقد بلغت الدولة الموحدية فى عهده الذى استمر ما يقرب من خمسة عشر عامًا أوج ازدهارها وتقدمها وذلك بالرغم من مواجهته عدة ثورات نجح فى القضاء عليها؛ إلا أن جهوده العسكرية برزت واشتهرت بشكل كبير فى ميدان الأندلس حيث توج اهتمامه هناك بانتصاره العظيم فى معركة الأرك سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٤م وكانت بين جيوش المسلمين بقيادة بطل الأرك المنصور الموحدى وجنود الفرنج بقيادة الأذفونش وحقق جنود الموحدين فيها نصرًا كبيرًا، وترتب على هذا الانتصار عدة نتائج منها أنها وطدت من سلطة الموحدين بالأندلس كما أوقفت زحف الفرنج على مدن الأندلس، وزادت من هيبة الموحدين فى بلاد المغرب والأندلس حتى إذا حلت سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م مرض المنصور وتوفى بعد فترة كفاح وجهاد استمرت خمسة عشر عامًا.

تولى الخليفة أبو عبد الله محمد بن يعقوب الملقب بالناصر لدين الله سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م وقد حدثت فى عهده عدة تطورات سياسية وعسكرية انتقلت بالدولة الموحدية من مرحلة القوة والسيادة التى تمتعت بها من قبل إلى مرحلة التمهيد للانهيار العام ثم سقوط الدولة؛

غير أن نذر الضعف لم تظهر فى وائل عهد الناصر إذ حقق فى أول عهده عدة انتصارات عسكرية فى الجبهة الأفريقية، إلا أن جبهة الأندلس لعبت دورًا كبيرًا فى إضعاف الدولة الموحدية وذلك حين فُجِع الموحدون بهزيمة قاسية فى معركة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩هـ/١٢١٢م راح ضحيتها الكثير من جند الموحدين، وامتدت آثار هذه المعركة إلى الأندلس حيث دخلت منذ هذه المعركة فى دور الضعف الذى عجّل بسقوطها بعد ذلك فى أيدى الفرنج؛ كما انعكست آثار هذه المعركة على الأوضاع فى بلاد المغرب حيث أصيب الناصر بالمرض وتوفى سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م.

يسجل تاريخ وفاة الخليفة الناصر الموحدى بداية انهيار دولة الموحدين على الرغم من امتداد عمر الدولة حتى سنة ٦٦٨هـ، والواقع أن هناك عدة عوامل ساهمت فى القضاء على هذا الصرح الشامخ وهو دولة الموحدين ، ومن هذه العوامل فوضى الإدارة، وتفكك وحدة قبائل الموحدين، والضعف الحربى والسياسى الذى منيت به الدولة بعد هزيمتهم فى معركة العقاب بالأندلس، والعرب الهلالية وما أحدثوه من ثورات واضطرابات فى أنحاء الدولة، يضاف إلى ذلك توسع الفرنج ونجاحهم فى الاستيلاء على العديد من مدن الأندلس واستنفاد قوى الموحدين فى إيقاف مدّهم، وكذلك حركة بنى غانية فى إفريقية وثوراتهم المتكررة التى أدت إلى خروج الجيوش الموحدية لإخمادها، وأخيرًا ضعف خلفاء الموحدين الذين تولوا بعد الناصر الموحدى والصراع بين أمراء البيت الموحدى؛ كل هذه العوامل ساهمت بشكل كبير فى سقوط دولة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م.

بعض مظاهر الحضارة:

شهد المغرب فى عهد الموحدين تقسيمًا إداريًا إلى عدة أقاليم، وتولى إدارة هذه الأقاليم ولاة من قبل السلطة الموحدية، وقد تمتعت بعض الأقاليم بأهمية خاصة كإقليم فاس باعتبارها مركزًا دينيًا وثقافيًا وكذلك إقليم مراكش وبه عاصمة البلاد.

كذلك أنشأ الموحدون عدة دواوين لخدمة احتياجات البلاد وفى مقدمة هذه الدواوين ديوان الإنشاء الذى يختص بالمراسيم السلطانية والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة، وبجانب هذا الديوان كان هناك ديوان الجيش وكان يتفرع

إلى ديوانين لكل منهما اختصاصه: الأول ديوان العسكر، وهو الذى يختص بالجند النظاميين والحرب والعبيد. ووظيفته إحصاء الجند ومعرفة حاجاتهم المتجددة؛ والديوان الثانى هو ديوان التمييز، وكان التمييز عادةً جَرَى عليها الموحدون منذ عهد ابن تومرت، وهو نظام شبيه بنظام الامتحان يسمى التمييز، وكل من ميّز وثبت توحيده عُدّ موحدا وسُجِّل فى سجل خاص فى العاصمة. وكانت عادة التمييز تستخدم خاصة قبل القيام بمعركة من المعارك، يضاف إلى ما سبق من دواوين ديوان الأعمال المخزنية وهو المختص بالشئون المالية فى الدولة من تحصيل للأموال العامة وإنفاقها ورقابة العمال والمشرفين ومحاسبتهم.

كما اهتم الموحدون بنظام البريد وجعلوه بشكل متقن وسريع وفى الليل والنهار وفى البر والبحر، وكانت مهمته حمل الرسائل، وأسندوا هذه الوظيفة لرجال أقوياء ومدربين على الركض والعدو، وكان حامل البريد يسمى الرقاص وله أهمية خاصة إذ كان يقوم بحمل الأوامر والأخبار من العاصمة إلى ولاة الأقاليم، فهو همزة الوصل بين الحكام وولاتهم.

كذلك اهتم الموحدون بوظيفة الشرطة، وكان يطلق على صاحب الشرطة العريف، ووظيفته معاونة الحكام وأصحاب المظالم وإقامة الحدود والتعازير وإشخاص الناس لذلك، ومراقبة الأبواب وغير ذلك.

كذلك اهتم الموحدون بالنظام المالى؛ وكما كانت هناك دواوين للمال بالعاصمة؛ كان هناك ديوان مالى بكل إقليم يختص بماليته . ويبدو أن الموحدين قد أفردوا دارًا أطلق عليها دار الإشراف تختص بالإشراف على النواحى المالية؛ كما أن هناك وزيرًا مسئولاً عن الشئون المالية فى الدولة يطلق عليه صاحب الأشغال ويعاونه رؤساء الدواوين المالية وهم:

١ـ صاحب ديوان الأعمال المخزنية الذى يراقب إيرادات الدولة ويشرف على الدخل والمنصرف ويعاونه بعض المشرفين كخازن المال وخازن الطعام.

٢ـ متولى المجابى وهو المسئول عن تحصيل الضرائب.

٣ـ متولى المستخلص وهو المشرف على أموال الخليفة.

وفى مجال الزراعة:

اهتم خلفاء الموحدين بالزراعة،

وشجعوا المزارعين على استغلال الأرض، وحرصوا على توفير مياه الرى اللازمة للزراعة؛ وقد لجأ بعض ولاة الأمر إلى منح بعض الأراضى الزراعية للجنود لزراعتها واستثمارها، وذلك على شكل إقطاعات، وهؤلاء بدورهم عملوا على استغلالها مما ساعد على ازدهار الزراعة ونموها.

وقد شهدت البلاد مصدرًا خصبًا لكثير من المحاصيل الزراعية، ومن هذه المحاصيل القمح الذى زرع بمناطق متعددة كمدينة طنجة ومدينة البصرة وسبته وغير ذلك من المدن، وكذلك الشعير والذرة والقطن وقصب السكر وغير ذلك من المحاصيل؛ كما شهدت المنطقة وفرة فى زراعة الفاكهة بأنواعها المختلفة كالكروم والرمان والكمثرى وغير ذلك من الفواكه.

وفى مجال الصناعة:

ازدهرت الصناعات فى بلاد المغرب نتيجة استقرار أوضاع البلاد ووجود المواد الخام والأيدى الماهرة فى الصناعة؛ ومن الصناعات البارزة صناعة السفن والزجاج والنسيج وأدوات النحاس والحديد . وقد أشار أحد المؤرخين إلى كثرة المصانع فى عهد الناصر الموحدى حتى بلغ عدد مصانع الصابون فى العاصمة سبعة وأربعين مصنعًا، وسبك النحاس مائة واثنى عشر مصنعًا، ومصانع الغزل مائة وواحدًا وأربعين مصنعًا وغير ذلك من المصانع[٢].

وفى مجال التجارة:

ازدهرت التجارة الداخلية والخارجية وشهدت الأسواق التجارية المنبثة فى مختلف المدن المغربية حركة تجارية ونشاطًا فى البيع والشراء وذلك نتيجة للاستقرار السياسى الذى أظل البلاد مع امتداد سلطة الموحدين حتى طرابلس شرقًا وصحراء المرابطين جنوبًا والأندلس شمالا، هذا الاتساع المكانى أعطى امتدادًا للحركة التجارية بين مدن المغرب وغيرها من مناطق المغرب؛ وساهمت كثرة المحاصيل الزراعية فضلاً عن بعض المصنوعات المختلفة التى كانت تباع فى الأسواق؛ يضاف إلى ذلك ما كانت تستورده البلاد من بضائع مختلفة، فضلاً عن اهتمام الموحدين بالتجارة والعمل على تنشيطها بتشجيع التجَّار على المجىء إلى البلاد- كل ذلك ساهم فى انتعاش الأسواق الداخلية، وفى هذه الأسواق انفردت كل تجارة بناحية معينة كسوق النحاسين وسوق الفاكهة وسوق الزياتين وسوق الأسماك

وغير ذلك من الأسواق.

وترتب على هذا الانتعاش التجارى أن قامت البلاد فى عهد الموحدين بتصدير كثير من البضائع ، منها القطن والقمح والسكر والزيتون والزيت المستخرج منه وغير ذلك.

وفى مجال البناء والتعمير:

شهدت البلاد فى عهد الموحدين اهتمامًا بالغًا بالإنشاء والتعمير سواء فى المغرب أو الأندلس، وحظيت مراكش والرباط وغيرها من المدن المغربية بكثير من المنشآت الموحدية كالمساجد والقصور والحصون وغير ذلك من المنشآت.

ومن مظاهر اهتمام الموحدين بالبناء؛ بناؤهم مدينة رباط الفتح التى تقع قريبًا من مدينة سلا ، وقد سميت فى بادئ الأمر بالمهدية تيمنا باسم المهدى بن تومرت، واتخذها عبد المؤمن بن على قاعدة عسكرية لتجهيز جنوده، ثم شيدت بها بعض المنشآت وسكنها الناس سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م، فلما تولى الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن اهتم بتوسيعها والزيادة فيها ، وأكمل ابنه الخليفة المنصور الموحدى المبانى والمنشآت وأنشأ عدة منشآت وشهدت المدينة على يديه تقدمًا وازدهارًا.

كذلك اهتم الموحدون ببناء المنازل والقصور وخاصة فى العاصمة مراكش التى اهتم بها الخليفة المنصور الموحدى وبنى بها ضاحية امتدادًا لها وبها عدة قصور ومنشآت أخرى وذلك لتتناسب مع عظمة الدولة واتساعها؛ يضاف إلى ذلك اهتمام الموحدين ببناء المساجد ومنها جامع كبير وهو جامع الكتبيين فى ٥٥٣هـ/١١٥٨م، وامتد اهتمام الموحدين ببناء المساجد إلى كثير من المدن المغربية وفى مقدمتها مدينة فاس؛ كما وجه الموحدون اهتمامهم إلى المنشآت العامة كالمدارس والمستشفيات والحمامات وغير ذلك.

الحياة الفكرية:

شهدت بلاد المغرب نهضة فكرية فى عهد الموحدين، وقد تضافرت عدة عوامل على دفع الحركة الفكرية؛ منها استقرار الأوضاع فى البلاد حيث استطاعوا توحيد مناطقها المختلفة فى ظل حكومة مركزية واحدة، وفى مناخ الاستقرار نمت الحركة الفكرية وترعرعت فروعها حتى صارت وارفة الظلال تعطى أطيب الثمار. وساهم ولاة الأمر فى تشجيع العلم والعلماء ، وكان خلفاء الموحدين كعبد المؤمن بن على

والمنصور الموحدى وغيرهما يكرمون العلماء ويجزلون لهم الهدايا والأموال . يضاف إلى ذلك تلك العلاقة الوثيقة بين المدن المغربية والأندلس التابعة لدولة الموحدين حيث أقبل علماؤها على العاصمة الموحدية واتخذ منهم خلفاء الموحدين الوزراء والكتاب والقضاة وغير ذلك من مناصب الدولة المختلفة ، فضلاً عن إقبال الأدباء والشعراء وغيرهم على المغرب، وأخيرًا رغبة الكثير من أبناء المغرب وحرصهم على طلب العلم فى ظل تشجيع ولاة الأمر لهم وبنائهم المؤسسات التعليمية؛ كل ذلك ساهم فى ازدهار الحركة الفكرية بالبلاد.

وكما عاش المغرب فى ظل دعوة دينية فى ظل المرابطين، كذلك شهد المغرب هزة فكرية جديدة متمثلة فى الدعوة الدينية التى نادى بها ابن تومرت وبثها بين أتباعه ومريديه محاربًا بها الدعوة المرابطية، وهذه الدعوة خلاصة دراساته التى درسها فى رحلته المشرقية.

لقد استمدت هذه الدعوة مكوناتها من مذاهب متعددة ؛ فقد نادى بالإمامة وبعصمة الإمام على مذهب الشيعة، ويقول بالظاهرية، ويكره التأويل على رأى داود وابن حزم، ويتشدد فى العقيدة تشدد الحنابلة، ويفهم التوحيد فهم المعتزلة، ويذهب فى كثير من المسائل إلى مذهب الأشاعرة وأطلق على دعوته" دعوة التوحيد"، وسمى أتباعه الموحدين، وفى ذلك نفى للتجسيم وتعريض بالمرابطين الذين وصفهم بالمجسمين[٣].

وهكذا مزج ابن تومرت دعوته بكثير من الآراء والأفكار، واستطاع بما أوتى من ذكاء وحيلة أن ينشر أفكاره وآراءه وأن يجمع حوله الكثير من أبناء المغرب . ورغبة منه فى التأثير على كثير من السكان فقد ألف لهم عقيدة تسمى (المرشدة) بلغة البربر، بجانب اللغة العربية، وجعل فيها الأعشار والأحزاب والسور، وأمرهم بحفظها ،ومن لم يحفظها عُدّ كافرًا لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته[٤].

وقد مّرت الدعوة الموحدية بعد وفاة ابن تومرت بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: وهى مرحلة التقليد والدعم للدعوة، حيث تابع الخليفة عبد المؤمن بن على منهج ابن تومرت فى نشر الدعوة الموحدية وتنفيذ تعاليمها ومبادئها اقتداء بالإمام ابن تومرت وحفظًا للدعوة التى على أساسها قامت الدولة؛ ولما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تابعت الدعوة مسيرتها فى صفوف الموحدين.



والمرحلة الثانية: هى مرحلة الضيق والتبرم بدعوى العصمة والاستنكار الخفى لها وقد تمثل ذلك حين تولى المنصور الموحدى(٥٨٠هـ ـ ٥٩٥هـ) الذى أبدى عدم اقتناعه بتلك الآراء وتبرمه بها وإنكاره لها.

والمرحلة الثالثة: وهى مرحلة الهجوم على الدعوة وهدم آراء ابن تومرت فى عهد المأمون الموحدى(٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) الذى أعلنها صريحة من فوق المنابر مطالبًا بهدم هذه الدعوة وموجها أشنع الصفات لابن تومرت.

ومن ناحية أخرى ساد المغرب المذهبُ المالكىُّ الذى اعتنقه سكان البلاد وتمسكوا به ودافعوا عنه ضد المذاهب الأخرى؛ وصار المذهب المالكى المذهب الرسمى للبلاد فى عهد المرابطين؛ فلما قامت دولة الموحدين وجدنا الخليفة عبد المؤمن بن على يأمر بحرق كتب الفروع والاقتصار على الأحاديث النبوية، إلا أن علماء المالكية استمروا يمارسون نشاطهم فى عهد الخليفتين: عبد المؤمن وابنه الخليفة يوسف؛ فلما تولى المنصور الموحدى(سنة٥٨٠هـ= ١١٨٤م) حاول محو مذهب الإمام مالك من البلاد ومن ثم أمر بحرق كتب الفروع، وأن الفتاوى تعتمد على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولا يقلدون أحدًا من الأئمة المجتهدين، وصارت كتب المذهب المالكى تجمع وتطلق فيها النار، ومن هذه الكتب (مدونة سحنون)، وكتاب ابن يونس ونوادر أبى زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعى وغيرها.

وكان للروح الدينية التى سادت البلاد فى عهد الموحدين مع اهتمام ولاة الأمر بالدين ورجاله أثر كبير فى ازدهار العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وكلام؛ ففى مجال التفسير زاد الإقبال على دراسة القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول فى الدولة الموحدية، وظهرت مجموعة من علماء التفسير منهم أبو الحسن على بن محمد الغرناطى المفسر نزيل مراكش، وأبو بكر محمد على المعافرى وغيرهما؛ كذلك نال علم الحديث عناية فائقة باعتباره المصدر الثانى الذى اعتمد عليه الموحدون فى أحكامهم وبخاصة فى عهد المنصور الموحدى، وممن اشتهر فى علم الحديث أبو الخطاب بن دحيه السبتى وعبد الرحمن بن محمد، والقاضى عياض السبتى، وكان إمام وقته فى الحديث وعلوم الدين، وفى علم الفقه

ألف ابن تومرت كتابه (لموطأ) على غرار (موطأ) الإمام مالك بعد حذف أسانيده.

كذلك شاركت الحياة الأدبية والعلمية فى إثراء الحياة الفكرية وصاحب نمو الحركة الفكرية انتشار اللغة العربية إذ إنها لغة المكاتبات واللغة الرسمية للبلاد فى معاملاتها وشئونها، وزاد من انتشارها أفواج العلماء القادمين من خارج البلاد الذين أَثْرَوا الحياة الفكرية بدروسهم ومؤلفاتهم . وهنا تجدر الإشارة إلى ظاهرة استخدام لغة البربر فى بعض نواحى الحياة خلال الفترة الأولى لحكم الموحدين.

ومن ناحية أخرى فقد ازدهر الأدب بشقيه الشعر والنثر باعتبارهما من مظاهر النهضة الفكرية، إذ حظى الأدباء بالرعاية والعناية من ولاة الأمر حيث بلغ الشعر والنثر درجة كبيرة من الرقى وصارت المحافل المغربية تمتلئ بالشعراء والكتاب . وكان بعض خلفاء الموحدين يقرض الشعر ويناقش الشعراء كالخليفة عبد المؤمن والمنصور الموحدى، فضلا عن ظهور بعض الشعراء من أمثال أحمد بن عبد السلام الجرادى ويكنى أبا العباس، والشاعر أبى بكر ابن مجير وغيرهما من الشعراء.

يضاف إلى ما سبق علوم أخرى شاركت فى عملية التثقيف وأسهمت فى تكوين التفكير المغربى بما أمدته من معارف ؛ ومن هذه العلوم علم اللغة والنحو والتاريخ والسير والجغرافية والفلك والرياضيات وغير ذلك من العلوم.

أ . د / حسن على حسن

الهوامش:

(١) ابن القطان: نظم الجمان ص٣٤، ابن أبى زرع. الأنيس المطرب جـ٢ ص١٠١.

(٢) البستان أخبار الزمان مخطوط ورقة ٢٩.

(٣) ابن خلدون: العبر جـ٦ ص٢٦٦.

(٤) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب جـ٢، ص١١٥.

مصادر ومراجع للاستزادة :

١. ابن الأبار : التكملة لكتاب الصلة، تعليق ونشر ألفرد بل، الجزائر ١٩١٩.

٢. ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، مطبعة الاستقامة.

٣. الإدريسى : وصف المغرب والأندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق، تحقيق دوزى ١٨٦٦م.

٤. البكرى : المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب، تحقيق دبر سلايه باريس ١٩١١.

٥. د. حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين النهضة المصرية ١٩٥٧م.

٦. د. حسن على حسن: الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس عصر المرابطين الموحدين الخانجى ١٩٨٠م

الموريسكيون

جمع مفرده المورسكى، والكلمة تصغير لكلمة (المورو) El moro بمعنى المسلم، فالمورسكى كلمة يقصد بها المسلم الصغير أو الوضيع الذليل.

وقد انتهى حكم المسلمين للأندلس سنة ٨٩٧هـ/١٤٩٢م، وبقى شعب مسلم يعيش بهذه البلاد فى حماية المملكة النصرانية . ولم تُغْفِل معاهدةُ التسليم حقوق هذا الشعب ، بل كفلتها له وثيقتان: **الأولى:** محفوظة فى دار المحفوظات فى «سيمانقا» ، **والثانية:** موجودة فى بلدية غرناطة، وقد نشرها (ميجيل خرّيدو آتنشا) فى كتابه «وثائق تسليم غرناطة» المنشور سنة ١٩١٠م.

ويعنينا هنا أن نُبرز تَعَهُّد المِلكَيْنِ النصرانيين (فرناندو وإيزابيلا) بترك أبى عبد الله- آخر ملوك غرناطة- وكذا القادة والوزراء والعلماء والفقهاء والفرسان وسائر الشعب تحت حكم شريعتهم الإسلامية، وألا يؤمروا بترك شىء من مساجدهم وصوامعهم، وأن تترك لهذه المساجد مواردها، وأن يقضى بينهم وفق شريعتهم وعلى أيدى قضاتهم، وأن يحتفظوا بتقاليدهم وعوائدهم، وألا يؤخذ منهم خيلهم أو سلاحهم الآن أو فيما بعد.. ولا يُسْمَح لنصرانى بدخول أماكن عبادة المسلمين بدون ترخيص، ومن يفعل ذلك يتعرض للعقاب، ولا يرغم مسلم ولا مسلمة قط على اعتناق النصرانية، ويتمتع اليهود بكل هذه الامتيازات.

وقد أقسم الملكان بدينهما وشرفهما الملكى بأن يحافظا ويأمرا بالمحافظة على هذا التعهد بكل بنوده، ووقعا على ذلك ومعهما جمع كبير من الأحبار والأمراء والأشراف والعظماء.

والسؤال الآن: هل حافظ الملكان ورجالهما الدينيون والمدنيون على تلك البنود التى تعهدوا بالمحافظة عليها مقسمين على ذلك بدينهما وشرفهما الملكى؟ العكس هو الصحيح.

لقد سلبت الحقوق والضمانات وأغلقت المساجد، وحظر على المسلمين إقامة شعائرهم، وانتهكت عقيدتهم، وأصبح الواحد منهم يعرف بين الناس بلقب (المورسكى) الذى يشير إلى حقارتهم والتقليل من شأنهم.

لقد فرضت الضرائب القاسية عليهم، وكان يتم تحصيلها على الأحياء

والأموات والصغار والكبار والفقراء والأغنياء، وقد أرهقهم القضاة الظلمة ولم يفلت من ظلمهم أحد، فأُلقى بهم فى غياهب السجون فعُذِّبوا وحُمِلوا على التنصُّر، وهشم العدو أشلاءهم، ثم حملت هذه إلى الميدان لتحرق أمام الجمع الحاشد، وهكذا تفنن النصارى فى ضروب الاضطهاد.

وكل هذا دفع الشعب إلى طلب النجدة من الدول الإسلامية فى المشرق والمغرب، فهل كان لصراخهم صدى أو استجاب لهم أحد؟ هل هذا الذى كانوا يتعرضون له هو ما أقسم عليه الملك بدينه وشرفه الملكى هو ومن حوله؟

ولما تجاوزت الأمور حدها، قام الموركسيون بالثورة مطالبين بما لهم من حقوق فقوبلت حركتهم بأقسى ألوان الشدة وتم تحريقهم هم وكتبهم وتراثهم.

جاءت الطامة الكبرى بعد ذلك متمثلة فى حمل من سَلِم منهم على مغادرة مواطنهم ونفيهم قسرًا من بلادهم، وتم ذلك على مرحلتين:

مرحلة الطرد الأولى أو الطرد الداخلى عقب الثورة الغرناطية ٩٧٦- ٩٧٨هـ/ ١٥٦٨- ١٥٧٠م:

وقد بدأت الثورة بحركة عفوية فى رجب ٩٧٦هـ/ديسمبر سنة ١٥٦٨م. وكانت قاعدتها جبلية، ثم دخل فيها كل سكان المرتفعات، وانضمت إليها مجموعات من السهل والهضبة. ولم تشترك المدن وما يتصل بها من سهول، وتجمع الموركسيون من كل قرى مملكة غرناطة ولكنهم تعرضوا لهزيمة قاسية، وتم حشدهم فى سفينة ضخمة بهدف نفيهم إلى مناطق أخرى، وتم إبعاد الذين حملوا السلاح وأيضًا الذين أطلق عليهم لقب (موركسيو السلام) الذين لم يشتركوا فى الثورة، وتم عزل من رفضوا الهزيمة واختبأوا فى شعاب الجبال مواصلين القتال.

وقد تم تقسيم مملكة غرناطة إلى سبع مناطق، وأوكل لعدد من المسئولين تجميعهم من القرى فى عدة مراكز للتجمع فى (روندا ومالقه وغرناطة وقادش وبياسة وألمرية)، وكلف كل مسئول بجمع سكان عشرة من القرى، وقد استغرقت هذه المهمة أسبوعًا، وعارضها البعض وهرب البعض واختفى آخرون فى شعاب الجبال، وبرغم ذلك أمكن جمع أكثر من ٥٠ ألفًا تم حشدهم داخل المستشفيات والكنائس، من هؤلاء:

٥٠٠٠ من مالقة ورنده.

١٢٠٠ من غرناطة.

١٢٠٠ من قادش.

٦٠٠٠ من بياسه.

٨٥٠٠ من روندا.

٨٥٠٠ من ألمرية.

٤٣٥٠ من بسطه.

بين هؤلاء ٢٤٠٠ أعمارهم بين ١٤ و٦٠ سنة يرافقهم عدد كبير من النساء والشيوخ والأطفال. تلك هى المرحلة الأولى من مراحل إخراج الموريسكيين من غرناطة.

أما الخطوة التالية: فتتمثل فى السير بطريق طويل باتجاه الشمال أو الغرب، وفيها قسم الموريسكيون إلى مجموعات، كل مجموعة تتكون من ١٥٠٠ شخص يتبعهم ٢٠٠ من الجنود و ٢٠ من الفرسان، وكان على كل مجموعة أن تسير ٢٠ كيلو مترًا يوميًا تتبعها صفوف من العربات تحمل أمتعة هؤلاء الناس وممتلكاتهم، وكانت تصرف لهم يوميًا وجبتان فى الصباح وفى المساء.

وقد بُرّر إخراجهم من غرناطة بعدم توفر المحاصيل بها، وبأن الحياة فيها أصبحت مستحيلة بسبب الحروب المتواصلة، فمن المصلحة أن يُنْفَوْا إلى قشتالة وإلى المحافظات الأخرى حيث تتوفر المؤن والمحاصيل، وأُعْطُوا أملاً بأنه سيسمح مستقبلا للموريسكيين بالعودة إلى مواطنهم، وكان من المقرر أن يتجه هؤلاء إلى البسيط وإشبيليه، ولكن سوء الأحوال الجوية والعواصف والأمطار الغزيرة حال دون ذلك، وأيًا كان الأمر فقد وصل:

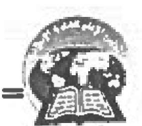
٥٥٠٠ إلى إشبيلية.

٢١٠٠٠ إلى البسيط.

١٢٠٠٠ إلى قرطبة.

٦٠٠٠ إلى طليطلة.

وكان الهدف توزيعهم بين القرى والمدن لتتم التفرقة بينهم إلى أقصى درجة، ولهذا فقد واصل سبعة آلاف ممن تجمعوا فى قرطبة طريقهم نحو (استرامادورا) وذهب آلاف من البسيط إلى وادى الحجارة وإلى طليطلة متجهين إلى ناحية (سيجوبيا) وبلد الوليد وبلنسيه وشلمنقه، والذين طردوا أثناء القتال استوطنوا قرى فى الممالك القديمة بإشبيلية وقرطبة وجيان، وتم تشتيت الجميع وفق خطة منظمة، والمهم ألا يسمح لأحد من هؤلاء بالاستقرار فى مملكة مرسية أو فى أماكن قريبة من مملكة (بلنسية) حيث يعيش



الموريسكيون منذ أمد بعيد.

وبرغم كل هذا فقد بقى بعض مسلمى غرناطة فى مواطنهم بحيلة أو بأخرى، وكان لهؤلاء اتصالات مع إخوانهم فى مملكتى بلنسيه وأراجون. وبهذا نستطيع القول بأن الموريسكيين الغرناطيين أخرجوا من ديارهم فى موجات ثلاث. كانت الثالثة منها والأخيرة كانت الثالثة منها والأخيرة – وهى التى بدأت سنة ٩٧٨هـ/١٥٧٠م - هى الأكثر تعقيدًا.

ومن المؤكد أن مجموعة كبيرة من هؤلاء تنتمى إلى أماكن إقطاع، وقد حاول رجال الإقطاع الإبقاء عليهم حرصًا على مصالحهم الخاصة، وهناك أصحاب إقطاع فى قشتالة ضموا إليهم موريسكيين ممن طردوا من غرناطة وأقاموهم معهم.

والذين شملهم الطرد فى هذه المرحلة وصلوا إلى نحو ثمانين ألفًا، وتلك هى النتيجة النهائية لتلك الثورة الغرناطية، وسيكون لها صدى واسع فى الحياة الأسبانية وفى الوجهة النهائية لمجموع تلك الأقلية الموريسكية.

وقد صدر فى جمادى الآخرة ٩٨٠هـ/ أكتوبر سنة ١٥٧٢م مرسوم ينظم هؤلاء المقيمين فى مواطنهم الجديدة، ويلزم هذا المرسوم قراهم الجديدة بإعداد سجل خاص بهم فيه إشارة إلى ملامحهم المميزة وحالات الميلاد والوفاة مع تنظيم دخولهم وخروجهم ، ومع منحهم تصاريح خاصة لممارسة التجارة والعقود . وفرضت عليهم الإقامة فى مناطق خاصة وسط النصارى القدامى، كما فرضت عليهم عقوبات قاسية إذا حاولوا العودة لبلدهم الأصلى أو حاولوا استخدام اللغة العربية أو الملابس أو التقاليد الإسلامية أو استخدام السلاح. ومنح الأطفال منهم والشباب عناية خاصة، وأكرهوا على العمل فى مصانع النصارى، وأعد لهم برنامج يهتم بتربيتهم وفقًا لأساليب الحياة النصرانية، وبيع الكثيرون منهم عبيدًا بلا مبرر.

تلك هى قصة النفى الأولى أو النفى الداخلى؛ لأنه تم فيه تشتيت الموريسكيين من بلادهم الأصلية إلى مناطق أخرى داخل الأراضى الأسبانية، والهدف تفريقهم وعدم إعطائهم فرصة لتكوين تجمعات خاصة بهم قد تكون خطرًا على الوضع الأمنى والسياسى فى البلاد، وهذا يختلف عن النفى الأخير الذى حملوا فيه على مغادرة البلاد وطُرِدوا قسرًا منها.

مرحلة الطرد الثانية:

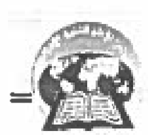
اعتبرت السلطات الأسبانية أن

المورسكيين يمثلون خطرًا يهدد أمن وسلامة البلاد واتهمتهم بأن لهم اتصالات بالدول الإسلامية فى القارة الإفريقية والدولة العثمانية وبأعداء أسبانيا من الفرنسيين والبروتستانت المخالفين لهم فى المذهب الدينى، كما أنهم وراء غارات القراصنة على السواحل الأسبانية، فهم يتعاونون مع الأجانب ويعرِّضون البلاد للخطر وللغزو الخارجى، ثم إنهم لا يزالون يحافظون على هويتهم الإسلامية ويحترمون مظاهر الحضارة الإسلامية إن لم يكن علنًا ففى السر، ولم تُفِدْ كل ألوان القسوة ولا وسائل التنصير فى جذبهم للعقيدة الكاثوليكية، ولهذا كله لابد من التفكير فى وسيلة تجتثهم من جذورهم.

وللوصول لهذا الهدف، عُرضت عدة اقتراحات؛ قد رأى البعض ضرورة القضاء عليهم وقتلهم دفعة واحدة أو قتل البالغين منهم واسترقاق الباقين وبيعهم عبيدًا، ورأى أحد المطارنة أن الأسلوب الأمثل هو ضرب الرق عليهم، وأن يؤخذ منهم فى كل عام عدة آلاف للعمل فى السفن ومناجم الهند إلى أن تجتث أصولهم، ومال آخرون إلى نفيهم خارج البلاد . وهنا تساءل آخرون: كيف يسمح لهذا العدد الكبير بالانتقال إلى إفريقية بعد انخراطهم فى العقيدة المقدسة وفى الطقوس النصرانية؟ من يملأ الفراغ ومن يعوض سادة الإقطاع؟

ووجد هؤلاء أنه يمكن إقامة ثلاثة حصون فى مملكة بلنسية على نفقة المُتَنصِّرين أنفسهم ويمنع أى اتصال بينهم وبين المغاربة، كما اقترح إقامة حصن لهم فى منطقة أراجون، ويمنع أى اتصال لهم بفرنسا والبروتستانت، ويحرم عليهم حمل السلاح، ويجبرون على تعلم اللغة القشتالية، ويعملون فى الزراعة فقط، ويحرم عليهم الزواج إلا من نصرانيات قديمات.

وقد ظهرت فكرة الطرد لأول مرة فى اجتماع عقده الملك فيليب الثانى مع مستشاريه فى مدينة لشبونة سنة ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م، ولكن التنفيذ تأجل، وفى سنة ١٠١٣هـ/ ١٦٠٤م، فرضت المسألة المورسكية نفسها على مناقشات الملك ورجال الدين والدولة، وشعر المورسكيون بأن شيئًا ما سيحدث، فبدأت هجرة اختيارية قام بها الأثرياء ممن يمكنهم الإنفاق على رحلة طويلة، واتجهوا ناحية فرنسا، ومكث بها البعض، وغادرها البعض إلى الشمال



الأفريقى وفى سنة ١٠١٧هـ/ يناير ١٦٠٩م وبعد بحث المسألة من كافة جوانبها تقرر طرد المورسكيين إلى المغرب، فهذا فيه رفق بهم، واستقر الأمر على ذلك فى ٢٢ سبتمبر من العام نفسه (١٦٠٩م). وطلب من المورسكيين الرحيل فى ظرف ثلاثة أيام من المدن والقرى إلى الثغور التى عينت لهم، ومن يتخلف يعاقب بالإعدام، وأعدت السفن فعلاً لنقلهم، ومنعوا من بيع الماشية والحبوب والزيوت والممتلكات الشخصية، وإذا حاول شخص إخفاء شئ من ذلك أضرمت النيران فى المنازل والمحاصيل وعوقب سكان الناحية جميعًا بالموت، ونص المرسوم على بقاء ٦٪ منهم مع تفضيل الأكبر سنًا ومن ولاؤه شديد للنصرانية، وذلك للانتفاع بهم فى صيانة المنازل والعمل بمصانع السكر ومحصول الأرز وتنظيم الرى وإرشاد السكان الجدد. والأطفال دون سن الرابعة يسمح لهم بالبقاء بموافقة أولياء أمورهم، ومن دون السادسة يسمح لهم بالبقاء شريطة أن يكونوا من أبناء النصارى القدماء، ويسمح لأمهم المورسكية أن تبقى معهم، أما إذا كان الأب مورسكيًا والأم نصرانية، فإنه ينفى الأب ويبقى الأولاد مع أمهم.

وقد اضطرب المسلمون المُتَنصَّرون بعد أن وصلهم الخبر، وحدثت مشاكل لكنها جوبهت بكل قسوة، ولم يجد القوم حيلة واضطروا للخضوع، واجتمع زعماؤهم وفقهاؤهم وقرروا الرحيل ولا يبقى منهم أحد حتى نسبة الـ٦٪ المسموح ببقائها.

وفى التنفيذ تقرر البدء بمورسكيّ بلنسية، وتجمع منهم أربعة آلاف فى نحو ٥٠ سفينة، وكلفت مدفعية قشتالة بمراقبة الحدود، وسفن الأسطول بمراقبة الشواطئ الأسبانية. ومن ثغر دانية وبعض الثغور القريبة خرجت السفن متجهة إلى (وهران) بالجزائر -وكانت تحت سيطرة الأسبان- ومن هناك يممت شطر (تلمسان) فى حماية فرقة من الجنود المرتزقة.

وقد تعرض بعض المنفيين لعنف بعض العصابات مما جعل قسمًا منهم يهرب إلى المناطق الجبلية ببلنسية، واجتمعوا بقمم جبال يزيد ارتفاعها عن ألف متر لكن القوات النصرانية حاصرت هؤلاء وعاملتهم أسوأ معاملة.

أما فى قشتالة، فقد صدر قرار النفى سنة ١٠١٨هـ/ ١٦٠٩م، ونفذ فى العام نفسه ومنح المورسكيون شهرًا لمغادرة

البلاد بنفس الشروط. وقد سمح لموروسكيى الأندلس ومرسية فقط ببيع بعض الممتلكات مع مصادرة الأصول لصالح الملك، ويمكن رحيل صغار السن ممن تقل أعمارهم عن سبع سنوات لكن إلى أراض نصرانية، ولهذا اتجه بعضهم ناحية فرنسا أو إيطاليا.

وهكذا تتالت قرارات النفى من كل البلاد الأسبانية، وكان آخرها الذى صدر سنة ١٠٢٣هـ/١٦١٤م خاصًا بمورسكيى (وادى ريكوتى) الذين غادروا إلى إيطاليا وفرنسا ومنها أبحروا إلى مصر والشام والقسطنطينية.

وهذا الذى تعرض له المورسكيون وصلت أخباره إلى مسامع السلطان أحمد العثمانى، الذى أرسل إلى مملكة فرنسا التى لجأ إليها بعضهم، يحتج على ما يتعرضون له ويطلب حماية هؤلاء المسلمين.

لكن ما عددُ من نالهم قرار الطرد؟ البعض يصل بهم إلى مليون نسمة، والبعض يهبط إلى مائة ألف، لكن الرواية العربية تقول إنهم كانوا نحو ٦٠٠ ألف نسمة، وهذا الرقم هو الأقرب للصواب.

وهنا يأتى سؤال: ما هى المبررات التى حملت السلطات الأسبانية على نفى المسلمين؟

مبررات نفى المسلمين من اسبانيا:

هذه المبررات غير واضحة تمامًا، والقرار اتخذ بعد عدة سنوات من التردد طرحت خلالها آراء عديدة:

هل الكنيسة وراء هذا القرار؟

لا ينبغى أن نهمل دور بعض كبار رجال الدين، وقد كانت قلوب بعضهم مشحونة بالغيظ تجاه هذه الفئة؛ لأن مهمتهم لتنصيرهم فشلت، وقد نصحتهم قيادات الكنيسة فى روما بالاستمرار فى محاولات التنصير، وتعليم المورسكيين أصول العقيدة الكاثوليكية. نعم، فكرة الطرد لم تنطلق من الكنيسة ولكن هذا لا يمنع مشاركة بعض رجال الدين فيها، بل إن بعض مفتشى التحقيق لم يميلوا إلى الفكرة؛ لأنهم وجدوا أن إيراداتهم ستنخفض بشدة عندما لا يجدون ضحاياهم الذين يمارسون معهم إرهابهم وقسوتهم ومصادرتهم.

هل كان وراء النفى وحدة أسبانيا الكاثوليكية؟ وهل كان لزامًا عليها أن تتخلص من البقية الباقية من الإسلام الذى ولى؟

هذه النظرية تتضمن جزءًا من الواقع،

لكنها غير صحيحة بنسبة ١٠٠٪.

هل كان الطرد وراءه الحرص على أمن البلاد والخوف من التدخل الخارجى؛ لأن الموركسيين يتعاونون مع أعداء البلاد من الإنجليز والفرنسيين والعثمانيين، خاصة فى منطقة بلنسية وأراجون؟

إن احتمال قيام الأتراك العثمانيين بعملية إنزال على الشواطئ الأسبانية كان احتمالا ضعيفًا آنئذ، ويقال: إن تهريب الأسلحة بحرًا إلى مناطق الموركسيين، واحتمال أن يأتيهم دعم من الخارج كان يكفى لجعلهم يمثلون خطرًا، وهناك شبه اتفاق على أن هذا كان واحدًا من الأسباب التى أدت إلى طردهم.

هل طردت أسبانيا الموركسيين لأن للموركسى حضارة ودينًا مختلفًا، ولأنه بقى بعد مرور السنوات محافظًا على إسلامه وعاداته، وما يميزه من اللباس واللغة والدين والمساكن المحكمة والحمامات الإسلامية؟ نعم لبس بعضهم فى المدن ملابس النصارى، لكن هذا لم يغير من عمق الأشياء شيئًا؛ لأن الموركسى كان يرنو ببصره نحو العالم الإسلامى البعيد، لهذا كله كان اختيار أسبانيا لأكثر الحلول راديكالية: النفى والاستئصال الكامل من التراب الأسبانى.

مهما يكن من أمر فقد حدث النفى، وكانت له آثاره ونتائجه، وهذا ما تعالجه السطور التالية:

آثار ونتائج نفى المسلمين المُتَنَصِّرين:

لا أحد ينكر جدّ وكدّ هؤلاء، يعبر عن ذلك (ثيرفنتس)- أديب أسبانيا الأكبر- فى فقرة من عمله الأدبى (حوار الكلاب) يقول فيها:

"كل فرد من الموركسيين هدفه الحصول على المال والمحافظة عليه، ومن أجل ذلك يعملون ولا يأكلون ويحرصون على أقل القليل... يكسبون الكثير ولا ينفقون قط... الكل يسعى إلى المال ويخفيه قل أو كثر... يسرقوننا بأقدام ثابتة، ويحصلون على ثمار مزارعنا ويبيعونها لنا من الغلال ويصبحون أغنياء".

ومن يقصدهم ذلك الأديب هم الغرناطيون المشتتون فى مناطق قشتالة، وكثير منهم كانوا يعملون بالتجارة، إنهم يمثلون نسبة قوية من السكان النشطين، فهم أيد عاملة فعالة ورخيصة، ولذلك تأثر الكل من جراء طردهم.

وهناك ما يشبه الإجماع على أن طرد الموريسكيين هو السبب الجوهرى فى التدهور الأسبانى ابتداء من القرن الحادى عشر الهجرى / السابع عشر الميلادى، وأثبتت دراسات الباحث الفرنسى (لا بيرى) أن الفاقد الإنسانى مثل نسبة ٤٪ من السكان، قد تبدو هذه النسبة ضئيلة، لكن لأن الموريسكيين عنصر فعال نشط وليس بينهم نبلاء ولا صعاليك ولا رهبان ولا جنود، فإن فاعليتهم كانت كبيرة.

لقد ترتب على نفيهم إخلاء ضيعات وقرى كثيرة، وانخفضت الضرائب وتضررت التجارة، وتدهورت زراعة الأراضى، بل إن (قشتالة) تدهورت تمامًا بعد عدة سنوات.

لقد كان الخراب عظيمًا والتعمير صعبًا بطيئًا، وتراكمت مشكلات أغرقت الاقتصاد فى مملكتى أراجون وبلنسية وغيرهما.

يقول واحد من كبار المؤرخين للمشكلة: "إنكار أن طرد الموريسكيين الأسبان كانت له نتائج مشئومة على النظام الاقتصادى يساوى فى مجموعه إنكارَ أمرٍ بديهى)).

ومؤرخ آخر معاصر يروى أن إقليم بلنسية الحزين –الذى كان من أكثر الأقاليم خصوبة- قد تحول إلى صحراء قاحلة، وعانت محاصيل قصب السكر والقمح والأرز من ضربة قاصمة بعد أن كانت من المحاصيل الرئيسية منذ الفتح الإسلامى، كما تأثرت صناعة الحرير.

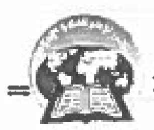
بل إن محاكم التفتيش فقدت إيراداتها من المصادرات والغرامات الشديدة، وعانى الجميع من الملك حتى آخر عبد، فالمشكلة كانت عميقة، وبسببها تحولت البلاد إلى صحراء مجدبة.

إن مشاكل الطرد من إقليم (أراجون) كانت أشد خطورة؛ لأن الموريسكيين كانوا يمثلون ثلث سكان هذا الإقليم.

كتب البطريرك (ريبيرا) إلى الملك يقول: "إن آثار الطرد ستكون خطيرة .. ومع ذلك فنحن نُؤْثِرُ الفقر على الهرطقة والإلحاد".

وفى (قطالونيا) أغلقت المصانع والورش وتضاءلت الزراعة والرى وانخفضت الأجور وفرضت ضرائب جديدة وأفلست البنوك، حدث نفس الشىء فى قشتالة . أما فى مرسية فقد كانت الآثار أكثر خطورة سواء فى العاصمة أو فى المناطق الريفية.

ومن الطبيعى أن تعانى مملكة



غرناطة أكثر من غيرها، لأن نسبة الموريسكيين لم تكن عالية فى أى مكان مثلما كانت فى هذا الإقليم.

وهكذا يمكن أن نقرر مطمئنين أن الاضطراب والخراب قد سيطر على كل إقليم أسبانيا، وكثرت الشكاوى من ندرة الأيدى العاملة وغلاء الأجور، ووصلت العمالة الأجنبية إلى أقصى مستوى لها.

ومن النتائج المهمة لخروج الموريسكيين إخفاء وتزييف العملة، بسبب الكميات التى خرجت من البلاد بطريقة قانونية أو غير قانونية، كما كُنز بعضها حتى لا يستفيد منها العدو الكافر، وربما على أمل العودة إلى البلاد يومًا.

كما انتشرت العملة الفضية الزائفة التى برع الموريسكيون فى صنعها وتركوا منها كميات هائلة، مما سبب اضطرابًا شديدًا فى المعاملات، الأمر الذى جعل الحكومة توقع عقوبات وصلت إلى حد الإعدام لمنع تلك الظاهرة التى استمرت أعوامًا، وعانى منها التجار والشعب كثيرًا.

وفى إيجاز فإن هناك نتائج حادة وقاسية فى بعض النواحى، ملموسة فى البعض الآخر، بسبب إجراء الطرد، وربما كان هذا الإجراء مفيدًا من جوانبه السياسية والدينية، لكنه مضرٌ تمامًا من الوجهة الاقتصادية والديموجرافية، وهو وراء فقر وخراب أسبانيا.

نأتى بعد ذلك إلى السؤال الأخير:

أين توجه الموريسكيون بعد طردهم من الأندلس؟

لقد كان الأسبان يحتلون طنجة وسبتة ومليله من بلاد المغرب، ومن هذه البلاد تسرب الموريسكيون إلى الداخل، وهؤلاء ينتمون إلى بلنسية والجنوب أى غرناطة ومرسية خاصة، وإلى منطقة قشتالة، وبعض العناصر من أراجون وقطالونيا، كذلك نُقِل الكثيرون إلى (وهران) فى الجزائر. وعندما ضاقت بهم هذه المدينة انتقل بعضهم إلى المغرب، وتجمع العديدون منهم فى تطوان والقصر الملكى والعرائش؛ ليكونوا على مقربة من أسبانيا، وبلغ عدد من استقر بالمغرب من ٤٠ إلى ٦٠ ألفًا، أما المهاجرون إلى الجزائر فقد وصل عددهم إلى ٢٥ ألف نسمة توجه بعضهم إلى تلمسان.

والمهاجرون من قرية (هورناتشوس) فى إقليم (استرمادورا) قصدوا طنجة وقصبة الرباط ومعهم نضالهم السياسى وخبرتهم الصناعية والتجارية ونشاطاتهم فى

الزراعة والنقل، وكانوا ما بين أربعة إلى خمسة آلاف نسمة.

وكان لهؤلاء قبل الطرد مراسلات مع السلطان العثمانى ومولاى زيدان حاكم المغرب ومع الفرنسيين، وقد سعى السلطان العثمانى أحمد الأول لدى فرنسا وبريطانيا والبندقية لتسهيل مهمة تحويل المورسكيين إلى أراضى الدولة العثمانية فلبت فرنسا الطلب واعتذرت بريطانيا.

وبعض الذين هاجروا إلى المغرب سكنوا أحياءً خاصة بهم، وكان إقبالهم أكثر على الجانب العلمى، فبرعوا فى ميادين الحساب والهندسة والفلك والطب وتميزوا بالحماس الدينى الشديد، ولكنهم ما لبثوا أن اندمجوا فى المجتمع المغربى من أواخر القرن الثانى عشر الهجرى/ السابع عشر الميلادى.

وهناك بيوت أندلسية فى الرباط ومثلها فى سلا ومكناس وفاس، ولهؤلاء مكانتهم وإسهاماتهم العلمية والأدبية والسياسية، كما توافد المورسكيون إلى مراكش وأصبحت اللغة الأسبانية تدانى اللغة العربية فى انتشارها، أما (تطوان) فكان المهاجرون بها من أصل غرناطى؛ نظرًا لقربها من الرباط حيث ميادين الحرب والقتال، لكن هذا لا ينفى تأثيرهم فى الحياة وفى مظاهر الرقى، وفى مدينة (شنشاون) جالية أندلسية ظهر تأثيرها الأندلسى فى أشكال البناء وفى صحون المساجد وفى العناية بالزهور، وفى مدينة (آسفى) جالية أندلسية وبها بعض البيوتات حتى اليوم [1].

وقد أكد الشهاب الحجرى[2]. أن جل المورسكيين انتقل إلى تونس حيث بلغ عددهم نحو ٨٠٠ ألف، وهذا ما يقول به المقرى، أما حسن حسنى عبد الوهاب فيرى أن تونس استقبلت أكبر عدد من المورسكيين يقدّرون بما ذكرناه، ومعظم هؤلاء من (أراجون) بالإضافة إلى بعض البلنسيين والقشتاليين، وهذه هى المجموعة المتعلمة التى كان لها دورها فى تطوير الحياة الثقافية والاجتماعية والفكرية والاقتصادية فى تونس، بينما من استقروا بالمغرب كانوا - كما أشرنا - من المجاهدين الذين رغبوا فى الانتقام من أسبانيا.

وقد استقبل من رحلوا إلى تونس استقبالاً حسنًا على المستويين العام والرسمى، ويشير ابن أبى دينار إلى حسن استقبال عثمان -حاكم تونس (١٥٩٣-١٦١٠م) لهم ومنحهم العديد من الامتيازات، ولذلك عمروا البلاد وصاروا



سكان أكثر من عشرين بلدًا بالإضافة إلى بعض المدن، وقد غلب عليهم الاهتمام بزراعة الكروم والزيتون والبساتين، كما أسهموا فى تمهيد الطرق وشكلوا جزءًا من نسيج سكان تونس، وبعضهم مارس جهاد البحر ضد من أخرجوهم من بلادهم، ولكن الشغل الشاغل لهذه المجموعة كان نقل الحضارة الأندلسية علمية وصناعية وزراعية، ولا تزال هذه الفئة محتفظة بكيانها ولها عاداتها وتقاليدها بل وفنونها ولم تذب فى المجتمع التونسى كما ذاب غيرها.

وقد اجتاز الحدود الأسبانية نحو ٥٠ ألفًا ممن ينتمون إلى أراجون وقشتالة وغرناطة، وتوجهوا إلى الموانى الفرنسية ومنها تحولوا إلى تونس والجزائر بعد أن لقوا بعض المعاناة والصعاب من قبل المواطنين الفرنسيين .

وقد استقبلت مصر وتركيا أعدادًا من هؤلاء المورسكيين، لكنهم ما لبثوا أن ذابوا فى السكان الأصليين.

أ.د/عبد الله محمد جمال الدين

الهوامش:

(١) راجع تفصيل ذلك عند: محمد رزوق: الأندلسيون وهجرتهم إلى المغرب خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ص٣٠٢، وما بعدها، الدار البيضاء بالمغرب سنة ١٩٩١م.

(٢) انظر: ناصر الدين على القوم الكافرين، ص٥٥، ونفح الطيب للمقرى، ص٥٢٨.

مصادر ومراجع للاستزادة:

أ- عربية:

- ابن أبى دينار (محمد): المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس، تونس ١٩٦٧م.
- جمال الدين (عبد الله محمد) المسلمون المُنَصَّرون أو الموريسكيون الأندلسيون، القاهرة ١٩٩١م.
- الشهاب الحجرى (أحمد بن قاسم): ناصر الدين على القوم الكافرين. الدار البيضاء بالمغرب ١٩٨٧م.
- عنان (محمد عبد الله) : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنصَّرين، القاهرة ١٩٨٧م.
- المقرى: شهاب الدين أحمد بن محمد التلمسانى: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، طبع بالقاهرة فى مجلدين، ثم أعيد نشره فى عشرة مجلدات بتحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨م.
- مجهول، أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر، نشر بعناية الأستاذ ميللر جوتنجن ١٨٦٣م، وهو نفسه (نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى نصر)، نشر بعناية معهد فرانكو سنة ١٩٤٠م.

ب- أوروبية:

-Boronaty Barrachia (Pascual):
Los Moriscos Expnolesy su Expulsion, 2 vols, Valencia 1901 .

-Braudel (Fernando):
El mediterranceoy el mundo mediterranea en la epoca de Felipe lll, 2 vols, mexico 1953 مترجم عن الفرنسية.

-Julio... Baroja:
Los moriscos del Reino de Granada. Madrid 1976

-Bominguez : (Antonio...Ortiz):
Historia de los Moriscos : Viday tragedia de una menoria,Madrid 1979 .

-Vincant (Bernard):
La expulsion des morisques du Royoure de Granada et Irur Repartition en castilla 1570-1571 , en mélanges de la casa de Velazquez, vl, paris 1970.

-lea (Henry charis):
historia de la redeliony castigo de los moriscos del renio de Granada, Madrid 1972

-Regla (Juan):
Estudios sbre los moriscos, Barcelona, 1974 .

نهاوند (موقعة)

نَهَاوَنْدْ: بفتح النون الأولى وقد تكسر، والواو مفتوحة ونون ساكنة ودال مهملة: هى مدينة عظيمة فى قبلة همذان، بينهما ثلاثة أيام(1)، ويقال إنها من بناء نوح عليه السلام، وعندها كانت الموقعة العظيمة بين المسلمين والفرس، والتى سماها المؤرخون المسلمون فتح الفتوح، ولا تعرف قيمة تلك الموقعة وأثرها فى التاريخ الإسلامى إلا إذا وضعت فى السياق التاريخى للعلاقات بين المسلمين والفرس قبل أن تفتح بلادهم وتصبح بلادا إسلامية(2).

فالفرس من الأمم القديمة والإمبراطوريات العظيمة التى عرفها التاريخ، وكانت تقتسم الزعامة على العالم مع الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

وكان العرب، سواء داخل جزيرتهم أو خارجها فى العراق والشام، تحت السيطرة الكاملة لهاتين الإمبراطوريتين. فلما ظهر الإسلام فوجئت الإمبراطوريتان بالظهور القوى للعرب تحت لواء الإسلام، وحاولت كل منهما بطريقتها الخاصة القضاء على العرب المسلمين بالعرب النصارى والمشركين، أى أنهما نظرا معًا إلى الإسلام منذ البداية نظرة عداء، وآية ذلك بالنسبة للفرس أن الرسول ﷺ قد أرسل فى مطلع العام السابع الهجرى/٦٢٧م رسائل إلى الملوك والأمراء يدعوهم فيها إلى الإسلام دعوة سلمية.

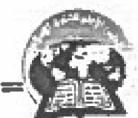
ومن تلك الرسائل رسالة إلى كِسْرَى أبرويز الثانى إمبراطور الفرس، فما كان منه إلا أن مزق رسالة الرسول ﷺ بطريقة مهينة وقال عنه كلامًا قاسيًا، بل طلب إرساله إليه لمحاكمته عنده. وعُدَّ هذا موقفًا عدائيًا سافرا من الفرس ضد الرسول ﷺ، والإسلام. وبعد وفاته عليه الصلاة والسلام استمر عداء الفرس متمثلا فى إثارة القبائل العربية المُنْضَوِية تحت لوائهم على الردة على حكومة أبى بكر الصديق، ثم كانت قمة عدائهم فى تشجيع وتسليح مدعية النبوة سجاح بنت الحارث اليربوعية التميمية لتنطلق من العراق تقود نحو أربعين ألفا لمحاربة المسلمين فى المدينة(3). ولما فشلت تلك المحاولة تدخل الفرس بشكل سافر ضد المسلمين فى شمال الخليج وجنوب العراق ودارت المعارك فى مراحلها الأولى وتمكن المسلمون من فتح العراق العربى

ودخول المدائن عاصمة الفرس بعد وقعة القادسية الشهيرة[٤]، وهنا أصبح الطريق مفتوحًا أمام المسلمين لفتح كل بلاد فارس لو كان ذلك هدفهم من البداية، لكن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه رفض أن يسمح لبطل القادسية وفاتح المدائن الصحابى سعد بن أبى وقاص أن يستمر فى الفتح فى بلاد فارس وقال له عبارته التى حفظتها كتب التاريخ: " لوددت أن بين السواد –أى أرض العراق العربى – وبين الجبل – أى العراق العجمى وهو من بلاد فارس –سدًا، لا يخلصون إلينا ولا نخلص إليهم، حَسْبُنا من الأرض السواد. إنى آثرت سلامة المسلمين على الأنفال"[٥].

كان رأى عمر رضى الله عنه بعد أن دارت الحروب على جبهتى الفرس والروم فى وقت واحد أن يمضى فى المعارك إلى نهاية حدود العراق والشام، وهذه الفكرة كما يرى بعض الباحثين لم تتحدد فى ذهنه إلا بعد أن بدأت المعارك، لأن سياسة الرسول ﷺ كانت قائمة على تأمين حدود شبه الجزيرة العربية ضد أى عدوان فارسى أو بيزنطى، واستمرت هذه السياسة بعد وفاة الرسول ﷺ، لكن الفرس والروم جميعًا لم يتركوا المسلمين وشأنهم ودارت المعارك وتم فتح العراق والشام، ولم يدُرْ بخَلَد أبى بكر الصديق ولا بخاطر عمر بن الخطاب أن يتخطيا حدود العراق والشام إلى ما وراءهما[٦]؛ فقد كانت قبائل العرب التى نزحت إلى العراق والشام قبل الإسلام وأقامت ممالك هناك- المناذرة فى العراق والغساسنة فى الشام –كانت ترزح تحت احتلال الفرس والروم، وهذا كان يجعل المسلمين، يشعرون بواجب تحريرهم، خصوصًا بعد تكرار عدوان الفرس والروم على المسلمين، " فأما ما وراء ذلك من أرض الفرس وأرض الروم فلم يكن للخليفتين الأولين مطمع فى غزوه أو فتحه".

تطور الموقف مع الفرس:

كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يأمل أو يتوقع أن يعيد الفرس حساباتهم بعد الهزائم المتلاحقة التى مُنُوا بها على أيدى المسلمين، وأن يكفوا عنهم ويدعوهم وشأنهم، ينظمون المناطق التى فتحوها طبقًا لمنهج الإسلام، ولإشعار السكان بفوائده لهم، باعتباره نظامًا يحمل لهم العدل والحرية والمساواة، غير أن الفرس لم يدركوا مغزى السياسة التى أزمع عمر رضى الله عنه اتباعها،



ولم تزايلهم عنجهيتهم واستكبارهم القديم على العرب، وظنوا أن امتناع المسلمين عن الاستمرار فى فتح بلادهم بعد القادسية والمدائن ناتج عن ضعف وليس عن عفة عن الفتح، وظنوا أن فى إمكانهم طرد المسلمين من العراق العربى وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الفتح، وتطورت الأمور وأدت إلى موقعة نهاوند.

فتح الفتوح:

تجمعت الأخبار عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه بكثره القلاقل التى يثيرها الفرس فى العراق العربى، وسأل عن الأسباب، و هل حاد القادة والأمراء المسلمون عن السياسة الإسلامية التى تقوم على إقامة العدل والإحسان بين السكان جميعًا على اختلاف أصنافهم وعقائدهم، فأكدوا له أن السياسة كما هى، ولكن حقيقة الأمر أن الفرس لا يزالون يفكرون فى طرد المسلمين من العراق العربى وأن أمراء المقاطعات الفارسية تجمعوا حول الإمبراطور الفارسى الأخير يزْدَجرْد الثالث وشجعوه على محاربة المسلمين وقالوا له: " إن محمدًا الذى جاء العرب بالدين لم يَغْرَض غَرَضَنا ثم ملكهم أبو بكر من بعده فلم يَغْرَضْ غَرَضَ فارس، إلا فى غارة تعرض لهم فيها، وإلا فيما يلى بلادهم من السواد، ثم ملك عمر من بعده، فطال ملكه وعَرُض، حتى تناولكم وانْتَقَصَكُم السواد- أرض العراق العربى- والأهواز، وأوطأها، ثم لم يرض حتى أتى أهل فارس والمملكة فى عقر دارهم، وهو آتيكم إن لم تأتوه، فقد أَخْربَ بيت مملكتكم، واقتحم بلاد ملككم، وليس بِمُنْتَهٍ حتى تُخرجوا مَن فى بلادكم من جنوده، وتقلعوا هذين المِصْرَيْنِ - البصرة والكوفة- ثم تشغلوه فى بلاده وقراره. وتعاهدوا وتعاقدوا، وكتبوا بينهم على ذلك كتابًا، وتمالئوا عليه "[٧].

تجمعت عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه كل الدلائل التى تؤكد أن هجومًا وشيكًا سيقع من الفرس فكان لا بد من الاستعداد، وعلى الفور أعد جيشا قويا أسند قيادته إلى الصحابى الجليل البطل النعمان بن مقرن[٨]. فالتقى بالجيش الفارسى فى نهاوند وسحقه سحقا بالرغم من التفوق العددى الملحوظ للفرس.

كان انتصار المسلمين فى نهاوند باهرًا وعظيمًا، عبر عنه المؤرخون فى

إيجاز شديد بأنه فتح الفتوح –أى الفتح الأعظم- وأن معركة نهاوند كانت معركة فاصلة، فقد قررت مصير الإمبراطورية الفارسية نهائيًا، وأنهت حكم آل ساسان إلى الأبد، يقول الإمام الطبرى وهو فارسى: " وافتتحت نهاوند فلم يكن للأعاجم بعد ذلك جماعة"[9].

لم يكد يمضى عامان بعد نهاوند حتى كانت جميع مقاطعات الإمبراطورية الفارسية قد افتتحت وبدون معارك تقريبًا، وأصبحت الشعوب الإيرانية كلها مسلمة ولازالت. كانت الإمبراطورية الفارسية وقتذاك تتكون من عدة ممالك أو مقاطعات منها أذربيجان وطبرستان وخراسان وسجستان وكرمان ومكران والأهواز وفارس، وكان على رأس كل مقاطعة ملك يدعى شاه، أما الإمبراطور فكان يدعى شاهنشاه، أى ملك الملوك، وملك الملوك الحقيقى، ومالك الكون كله هو الله تعالى القائل فى كتابه العزيز: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (آل عمران:٢٦).

يختلف المؤرخون فى تاريخ موقعة نهاوند، فهل كانت سنة ١٩ أو٢٠هـ/ ٦٤٠م، غير أن الإمام الطبرى - وتابعه فى ذلك ابن الأثير - يذكر أنها فى حوادث سنة ٢١هـ/٦٤١م . ويبدو أن هذا هو الأرجح[10].

أ.د/عبد الشافى محمد عبد اللطيف

الهوامش:

(١) يقول ياقوت الحموى فى معجم البلدان إن المسافة بين نهاوند وهمذان أربعة عشر فرسخا، بعنى مقدار اثنين وأربعين ميلا. جـ٥ ص ٣١٤.

(٢) انظر الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ٢، ص٢١٢ طبع دار صادر بيروت سنة ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

(٣) المصدر السابق جـ٢ ص ٣٥٤.

(٤) المصدر السابق جـ٢ ص ٤٥٠ وما بعدها وكانت القادسية سنة ١٤هـ.

(٥) تاريخ الطبرى جـ٤ ص٢٨.

(٦) انظر الفاروق عمر للدكتور محمد حسين هيكل جـ٢ ص ٥ طبع دار المعارف بالقاهرة سنة ١٩٧٧م.

(٧) تاريخ الطبرى مصدر سابق جـ٤ ص١٢٢.

(٨) عندما اختار عمر رضى الله عنه النعمان بن مقرن ليقود معركة نهاوند عين له أربعة قواد يخلفونه بالتتابع إذا استشهد وهم: حذيفة بن اليمان، وجرير بن عبد الله البجلى، والمغيرة بن شعبة، والأشعث بن قيس، وقد استشهد النعمان وكان الفتح على يدى حذيفة بن اليمان رضى الله عنه.

(٩) المصدر السابق جـ ٤ ص١١٦.

(١٠) انظر تاريخ الطبرى جـ٤ ص١١٤ وما بعدها، والكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ٣ ص٥ وما بعدها.

مصادر ومراجع للاستزادة:

١. تاريخ الطبرى.

٢. الكامل فى التاريخ لابن الأثير.

٣. الفاروق عمر للدكتور محمد حسين هيكل.

٤. العالم الإسلامى فى العصر الأموى للدكتور عبد الشافى محمد عبد اللطيف.

الهجــــرة

الهجْرة: تعنى الخروج من أرض إلى أرض، وأصل الهجرة والمهاجرة (عند العرب) خروج البدوى من باديته إلى المدن، يُقال هاجر الرجل إذا فعل ذلك، وكذلك كل مُخْلِ مسكنه، منتقل إلى قوم آخرين بسكناه فقد هجر قومه. وُسمِّىَ المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا ديارهم التى نُشّئوا فيها، ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ (النساء:١٠٠).

والهجرة هجرتان: هجرة إلى الحبشة وهجرة إلى المدينة، فإذا أطلق ذكر الهجرتين فإنما يراد بهما هجرة الحبشة وهجرة المدينة.

وقيل: الهجرة هجرتان: إحداهما التى وعد الله عليها الجنة فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ﴾ (التوبة:١١١). فكان الرجل يأتى النبىﷺ ويدع أهله وماله ولا يرجع فى شىء منه، وينقطع بنفسه إلى مُهَاجَره.

الهجرة الثانية : من هاجر من الأعراب وغزا مع المسلمين، ولم يفعل كما فعل أصحاب الهجرة الأولى، فهو مهاجر وليس بداخل فى فضل أصحاب الهجرة الأولى، وهو المراد بحديث النبى ﷺ : «**لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة**» .

أما قول النبى ﷺ : «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**». فالمراد به لا هجرة لها فضل وافر مثل الهجرة الأولى[1].

ومن أسباب الهجرة، الحفاظ على من اعتنق الإسلام من الاضطهاد والأذى من جهة [2]، ومن جهة اخرى- إضافة إلى ذلك- وجود بيئة أو أرض آمنة تضمن منطلقًا صالحًا وصحيحًا لنشر الإسلام فى العالم، وإقامة مجتمع ودولة للإسلام وأهله، تضمن تحقيق مبادئه فى حفظ عقيدته وإعمال شريعته، وحماية أهله [3].

أما عن السبب الأول: فلقد عانى النبى ﷺ والمسلمون فى مكة - منذ الجهر بالدعوة – صنوفًا من الإيذاء والاضطهاد والحصار الاقتصادى ابتغاء فتنة من أسلم والقضاء على الدعوة وصاحبها، وخرج النبى ﷺ إلى الطائف يلتمس فيها قلوبًا تفقه الدعوة، لكن موقف أهلها منه

كان أسوأ من موقف مشركى مكة، حيث رجموه بالحجارة،فعاد حزينًا لم يستطع دخول مكة إلاّ فى جوار المطعم بن عدى [٤].

أما عن السبب الثانى: وهو وجود بيئة أخرى يقبل أهلها الإسلام، ويمنعون النبى ﷺ والمسلمين من كفار مكة، مثلما يمنعون نساءهم وذراريهم من أى عدوان، فقد أخذ النبى ﷺ يتلمس هؤلاء القوم من خلال عرض الإسلام على وفود القبائل والأفراد الذين يأتون إلى مكة حاجين أو متاجرين، ففى ذى القعدة عام ١٠ من البعثة (٦١٩م) أتى النبى ﷺ قبائل العرب يعرض عليهم الإسلام ويدعوهم إليه وهم فى منازلهم، فدعا كندة، وكلبا وبنى حنيفة فأبوا ما عرض عليهم، ثم أتى بنى عامر بن صعصعة فعرض عليهم الإسلام، فطلبوا إليه أن يكون الأمر لهم من بعده إن تابعوه وأظهره الله على من خالفه، فقال لهم: الأمر لله يضعه حيث يشاء، فأبو عليه، وكان عمه أبو لهب يسير خلفه ويقول: لا تسمعوا له ولا تطيعوه فإن ابن أخى كذاب، وقابل بعض أهل يثرب مثل: سويد بن صامت وإياس بن معاذ، فعرض عليهم الإسلام فأسلموا [٥].

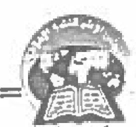
وفى موسم الحج عام ١١ من البعثة (٦٢٠م) خرج رسول الله ﷺ فعرض نفسه على قبائل العرب، فبينما هو عند العقبة لقى رهطًا (ستة نفر) من الخزرج أراد الله بهم خيرًا، فدعاهم إلى الإسلام وأعلمهم أنه رسول الله، وكانوا قد سمعوا من حُلفائهم يهود المدينة أن نبيًا من الأنبياء سَيُبعث فى هذا الزمان، وأنهم سيتبعونه ويقتلونهم معه قتل عاد وارم، فقال بعضهم لبعض : تعلمون والله أنه النبى الذى توعدكم به اليهود فلا يسبقنكم إليه، فأسرعوا إلى إجابة دعوته وأسلموا، ولما رجعوا إلى يثرب أعلموا أهليهم بذلك ففشا ذكر رسول الله فيهم [٦]. وجاء فى الموسم التالى عام ١٢ من البعثة (٦٢١م) اثنا عشر رجلاً واتصلوا بالنبى ﷺ عند العقبة بمنى، فبايعوه على أن: لا يشركوا بالله شيئًا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا أولادهم ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وارجلهم، ولا يعصوا النبى ﷺ فى معروف. (وهو ما اشتهر ببيعة النساء) وأرسل معهم النبى ﷺ مصعب بن عُمير ليعلم المسلمين فى يثرب شرائع الإسلام وينشره بين مشركيهم، ففعل بحيث دخل الإسلام كل بيت فى يثرب. وما أن استدار العام حتى جاء مصعب وفى صحبته ثلاثة

وسبعون رجلا وامرأتان وقابلوا النبى ﷺ سحرًا عند العقبة فى أوسط أيام التشريق، وكان معه عمه العباس الذى حضر ليستوثق له من القوم، وتكلم النبى ﷺ بعد عمه العباس بعد أن قالوا له: خذ لنفسك وربك ما أحببت، فقال: " أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم "، فبايعوه، وأعلموه أنهم سيقطعون عهودهم مع اليهود وطلبوا منه ألا يعود إلى قومه إن أظهره الله ويتركهم، فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: **« بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»**. وبعد أن تمت البيعة طلب منهم النبى ﷺ انتخاب اثنى عشر زعيمًا ليكونوا نقباء على قومهم، ثم عادوا إلى من معهم من المشركين ولم يعلم بهم أحد، ولكن فشا الخبر فى قريش فتعقبوهم بعد رحيلهم وحاولوا إيذاء بعضهم لكنهم خافوا من قطع طريق تجارتهم عبر يثرب(٧).

بعد أن تمت بيعة العقبة الثانية أصبح الطريق مُمهدًا لهجرة المسلمين والنبى ﷺ إلى يثرب حيث المنعة والحماية والنصرة، فأذن النبى ﷺ للمسلمين بالهجرة، فخرجوا سرًا زرافات ووحدانًا، إلا عمر ابن الخطاب فإنه خرج علانية مُتحديًا كُفار مكة، ولم تفلح قريش فى منع المهاجرين الذين ضحوا بالأموال والأهل.

وبقى النبى ﷺ ومعه أبو بكر ينتظر أمر الله له بالهجرة، وفهم أبو بكر أنه سيكون فى صحبة النبى ﷺ فأعد راحلتين بالزاد والدليل الذى سيسير بهما، ولما جاء الأمر للنبى ﷺ ذهب إلى أبى بكر فى داره وأعلمه بالميعاد والخروج إلى غار ثور، وعلمت قريش، فاجتمعوا فى دار الندوة وانتهوا إلى قرار - باقتراح من ابى جهل- بإحضار شاب من كل بطن من بطون قريش وتسليحه والإحاطة ببيت محمدﷺ وهو نائم، فإذا خرج قتلوه بأسيافهم، فيتوزع دمه فى القبائل فلا تقوى بنو هاشم على حرب الجميع فيرضون بالدية، وبينما هم يدبرون لقتل النبى ﷺ يدبر الله لنجاته: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ (الأنفال: ٣٠).

وفى هذه الساعة الحرجة يأمر النبى ﷺ على بن أبى طالب أن ينام على فراشه ويتغطى ببرده الأخضر، ثم يخرج مخترقًا صفوف المحاصرين بعد أن ذرَّ على



رؤوسهم التراب وهو يتلو قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ (يس: ٩)، ويذهب صحبة ابى بكر إلى الغار، وتتجلى معية الله مع النبى ﷺ وصاحبه - حينما قفا المشركون أثرهما، فلم يهتدوا إليهما، ولما ذهبوا إلى الغار أرسل الله الحمام فعشش وباض، وأمر العنكبوت فنسج بيوته على باب الغار وأنبت شجرة سدت هذا الباب، فظن المشركون أن الغار مهجور: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (التوبة:٤٠) .

وبعد أن هدأ الطلب على النبى ﷺ وصاحبه حضر الدليل بالراحلتين فخرج النبى ﷺ وصاحبه فى غرة ربيع الأول عام ١٤ من البعثة، وسلكا طريقاً غير معهودة، لكن قريشًا رصدت مائة ناقة كجائزة لمن يأتى بمحمد وصاحبه، وخرج سُراقة بن مالك ليلحق بهما طمعًا فى الجائزة، وتتجلى عناية الله بالمهاجرين حينما يلحق بهما وتسوخ قوائم فرسه فى الرمال فيطلب الأمان من النبى ﷺ ، فكتب له كتابًا بذلك، ويتعهد سراقة بأن يُعَمِّى الأمر عن قريش حينما بشره النبى ﷺ بأنه سيلبس سوارى كسرى، وقد مر الرسول ﷺ على خيمة أم معبد (عاتكة بنت خالد الخزاعية) فأذنت له أن يحلب شاتها التى خلفها الجهد فأدت لبنا شرب منه الجميع. واستأنف النبى ﷺ المسير حتى نزل بقباء يوم الاثنين ٨ ربيع الأول عام ١٤ من النبوة (السنة الأولى للهجرة/ ٦٢٢م)[٨]. ومكث بها ثلاثة أيام وأسس مسجد قباء وصلى فيه (وهو أول مسجد أسس على التقوى بعد النبوة)، ولحق على بن أبى طالب به فى قباء بعد أن أدى الأمانات التى كانت عند النبى ﷺ إلى أهل مكة، ثم ركب النبى ﷺ وأبو بكر ردفه، وأرسل إلى بنى النجار- أخواله- فجاءوا متقلدين سيوفهم، فسار نحو المدينة، وبعد أن صلى الجمعة فى مسجد بطن الوادى فى

بنى سالم بن عوف، دخل المدينة فى يوم مشهود ارتجت فيه بيوتها وطرقاتها بأصوات التحميد والتقديس، وبنات الانصار ينشدن فرحًا:

أشرف البدر علينا
من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا
ما دعــا لله داع
أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاع
جئت شرفت المدينة
مرحبًا يا خير داع

وكل واحد من أهل المدينة يُمسك بزمام ناقته ويقول : هلم إلى العدد والعدة والسلاح والمنعة يا رسول الله، فيقول لهم: خلوا سبيلها فإنها مأمورة، فلم تزل سائرة حتى بركت فى الموضع الذى بُنى فيه المسجد النبوى، وكان قبالة بيت أبى أيوب زيد بن خالد الأنصارى، فأخذ رحله وأدخله بيته، ونزل النبى ﷺ عنده حتى بنى المسجد وحجرات زوجاته[٩].

وقبل أن نتحدث عن نتائج الهجرة نود أن نؤكد أن اليهود كان لهم دور غير مقصود فى تحديد " يثرب" دارًا للهجرة، حينما أعلموا عرب المدينة بقرب مبعث نبى يتبعونه، وينتصرون به على العرب، فقرر عرب المدينة أن يسبقوهم باتباع هذا النبى، ومن ثم استقرت المدينة دارًا للهجرة ونواة لدولة الإسلام، هكذا أراد الله.

لم تكن الهجرة إذن فرارًا بالنفس أو الدين فقط، بل كانت حدثًا فارقًا بين الحق والباطل، وبين الضعف والقوة وبين الإسلام والكفر، بين عوائد المجتمع الجاهلى ونظامه وبين تأسيس دولة الإسلام وتحملها عبء نشر الدعوة فى العالمين، لم تكن الهجرة إلى يثرب للخلاص من الفتن التى لحقت بالمسلمين فى مكة من قبل مشركى قريش فحسب، بل كانت الهجرة - مع هذا - تهدف إلى التعاون على إقامة مجتمع جديد فى بلد آمن، قوامه التوحيد ونشر العدل فى المعمورة، مجتمع مؤسس على الأخوة والمحبة والوئام، يسهم فى بنائه جميع سكان المدينة تحت قيادة الرسول المعصوم بالسمع والطاعة والوقوف عند حدود الله، مجتمع المدينة الفاضلة التى كان يحلم بها أفلاطون، وسير توماس مور[١٠]. لكن النبى ﷺ نقلها من عالم الأحلام والخيال إلى عالم الحقيقة، وأسس دولة الإسلام على أسس وركائز متينة يساس فيها الناس بالعدل والمساواة،



والتكافل والمحبة وفق منهج الله، ولتحقيق هذا الهدف ابتدأ ببناء المسجد النبوى كدار للعبادة والقيادة والتوجيه والتعليم، وثنىَّ بالمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حتى سَمَتْ على أخوة النسب، ثم وضع أسس المواطنـــة ودستور العلاقات الدولية بين البشر، حينما عاهد غير المسلمين ممن يساكنونهم فى المدينة، وعاملهم بالبر والمودة حتى نقضوا عهودهم مع المسلمين. ولحماية الدين والدولة كان لابد من الإعداد والاستعداد لرد عدوان الحاقدين والمعتدين، فكان تشريع الجهاد فى سبيل الله لإكمال بنيان النظام الإسلامى، وليس لإكراه الناس على الدخول فى الإسلام، كما يدعى الحاقدون والمستشرقون..

أ.د / عبد الله إبراهيم راجح

الهوامش:

(١) ابن منظور : لسان العرب، ص ٤٦١٦- ٤٦١٧، طبعة دار المعارف - القاهرة عام ١٩٨٦م.

(٢) وينطبق هذا على الهجرة إلى الحبشة، حيث أمر النبى ﷺ أصحابه بالهجرة إليها لما أصابهم من البلاء وعدم قدرته على حمايتهم، قائلاً: لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكًا لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه، فخرج المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة فى الإسلام فى رجب عام ٥ من البعثة، ثم عاد المهاجرون إلى مكة لما أخبروا بأن قريشًا أسلمت فى شوال من نفس السنة، ولما اشتد عليهم وعلى المسلمين البلاء والعذاب من قريش أمرهم النبى ﷺ بالهجرة إلى الحبشة مرة أخرى، وبقى معظمهم بها إلى أن هاجر النبى ﷺ إلى المدينة، فجاء بعضهم، وجاء بقيتهم والرسول يحاصر خيبر. انظر: ابن الأثير: الكامل، ج١، ص ٥٩٦، وما بعدها - بيروت، ١٩٨٧م وصفى الرحمن المباركفورى: الرحيق المختوم، ص ٩٤- ٩٨، طبعة مكة المكرمة عام ١٤٢٢هـ.

(٣) وهذا ما ينطبق على الهجرة إلى يثرب عام ١٢ من البعثة.

(٤) انظر ابن هشام: السيرة النبوية، ج١، ص ٣٠٢، ٣٣٠- ٣٣٤، ج٢، ص ٢، ٤٤٤، طبعة القاهرة د. ت، والمباركفورى، مرجع سابق، ص ٨٥، ١١٦، د. محمد أبو شهبة: السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، ج١، ص ٣٥٦ - ٣٦٠، طبعة القاهرة ١٩٧١م.

(٥) قدم فتية من الأوس فيهم إياس بن معاذ يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول الله فأتاهم، وقال لهم: هل لكم فى خير مما جئتم له؟ فقالوا: وما ذاك؟ فذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن فأسلم إياس، وانصرفوا إلى المدينة، ثم كانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج عام ١١ من البعثة وانتصر فيها الأوس، بمعونة اليهود لتبقى العداوة بين الفريقين، لولا مبايعتهم النبى ﷺ وإسلامهم (ابن هشام: مصدر سابق، ج ٢، ص ٤٥٢).

(٦) ابن القيم: زاد المعاد، ج ٢، ص ٧٤، طبعة دار عمر بن الخطاب الإسكندرية، د. ت، الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ج ٢، ص ٣٥٤- ٣٥٥، طبعة دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦م.

(٧) ابن هشام السيرة، ج٢، ص ٤٥٤- ٤٧٦، وابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ١٤٦، ص ١٥٦، وما بعدها، محمد ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج ١، ص ١٤٧- ١٥٠، طبعة دار التحرير القاهرة ١٩٦٨م، د. عبد الشافى محمد عبد اللطيف: تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة الراشدة ص ١٥٨- ١٦٣، د. محمد سعيد رمضان البوطى: فقه السيرة ص ١٢٣- ١٣١ طبعة دمشق ١٩٧٧م، د. محمد الطيب النجار: دراسة فى السيرة النبوية، ص ١٠٠- ١٠٦، طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠م.

(٨) كان مسلمو المدينة لما علموا بخروج النبى ﷺ من مكة يغدون كل يوم إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة، وفى يوم طال انتظارهم حتى انقلبوا إلى بيوتهم فسمعوا صوت يهودى ينادى بأعلى صوته: يا معاشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرون، فخرج المسلمون بالسلاح، وسُمعت الرجة والتكبير فى بنى عمرو بن عوف، فتلقوا رسول الله وعدل بهم ذات اليمين حتى نزل فى بنى عمرو بن عوف أيامه الثلاثة (المباركفورى: الرحيق المحتوم، ص ١٧٥- ١٧٦).

(٩) انظر المزيد من التفاصيل عن الهجرة منذ الخروج من مكة إلى يثرب فى: ابن هشام: السيرة، ج ٢، ص ٥٠٣- ٥٢٤، ابن سعد: الطبقات، ج ١، ص ١٥٣- ١٦١، الطبرى: مصدر سابق، ج٢، ص ٢٧٩- ٢٨٣، ابن الأثير: مصدر سابق، ج ٢، ص ٥- ٨، ابن القيم: زاد المعاد، ج ٢، ص ٧٧- ٨٠.

(١٠) انظر فى هذا الموضوع: د. عبد الله إبراهيم راجح: الأسس التى أقام عليها النبى ﷺ مجتمع المدينة الفاضلة (بحث فى مجلة المؤرخ العربى - الصادرة عن اتحاد المؤرخين العرب العدد ١٦ مارس ٢٠٠٨م).

مصادر ومراجع للاستزادة:

١- سيرة ابن هشام طبعة القاهرة بدون تاريخ.

٢- زاد المعاد فى هدى خير العباد ، لابن القيم. طبع الإسكندرية بدون تاريخ.

٣- محمد أبو شهبة : السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة، طبع القاهرة ١٩٧١م.

٤- دراسة فى السيرة النبوية محمد الطيب النجار، القاهرة ١٩٧٠م.

٥- تاريخ الإسلام فى عصر النبوة والخلافة. د . عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، القاهرة.

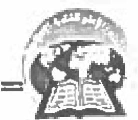
الوطاسيون فى المغرب

ينتمى الوطاسيون إلى بنى مرين فهم أبناء عمومة واحدة ، إلا أنهم ينتسبون إلى فرع آخر من الأسرة المرينية غير فرع بنى عبد الحق المرينى مؤسس دولة بنى مرين التى قامت فى المغرب الأقصى سنة (٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م) .

ودرج الوطاسيون فى حياتهم على نفس أسلوب الحياة الذى نشأ عليه المرينيون ، وهو أسلوب البداوة الذى هو صورة للمجتمع القبلى المتنقل . ولم تتهيأ للوطاسيين حياة الاستقرار إلا بعد أن اقتحم المرينيون بلاد المغرب الأقصى فى سنة (٦١٠هـ/١٢١٣م) . تاركين خلفهم مجالات فقرهم ، ومواطنهم الأولى، متطلعين إلى تأسيس دولتهم الجديدة . فالمؤرخون يتفقون على أن المرينيين بعد تأسيس دولتهم أقطعوا بنى وطاس بلاد الريف . وهى أول المناطق التى استقر فيها بنو مرين . فكانت ضواحيها كما يقول السلاوى : " لنزولهم وأمصارها ورعاياها لجبايتهم. " كان ذلك فى إطار تنظيم الدولة المرينية مالياً وإدارياً . أو لعله كان فى مقابل ما قام به الوطاسيون من جهد حربى وسياسى فى تمهيد بلاد المغرب الأقصى لتكون دار ملك لقبيلتهم الأم مرين .

ولم يكد يمضى وقت غير قليل حتى بدأت المشاكل السياسية الداخلية تظهر بين فرع بنى عبد الحق المالكين لأزمَّة الحكم ، وبين بطون بنى وطاس، وكان الصراع على السلطة هو أساس هذه المشاكل . إذ رأى بنو وطاس أنهم لا يقلون كفاءة ومكانة عن بنى عبدالحق . وقد أدرك سلاطين بنى مرين هذه الحقيقة الهامة فى موقف بنى وطاس منهم فاهتموا كثيراً ببلاد الريف ، وبصفة خاصة بحصن "تازوطا" ، فقد كان هذا الحصن من أمنع المعاقل بالمغرب الأقصى بكامله . وابن خلدون يحدثنا عن هذا الاهتمام الكبير الذى أولاه سلاطين بنى مرين لحصن "تازوطا" فيقول : " وكان الملوك من أولاد عبد الحق يعتنون بشأنه – حصن تازوطا – وينزلونه من أوليائهم من يقوم بغنائه وإطلاعه ليكون آخذاً بناصية هؤلاء الرهط – بنى وطاس – وشجا فى صدورهم عما يسمون إليه ".

وفى الحقيقة لم يترك الوطاسيون أية



فرصة كانت تلوح لهم للانقضاض على أمراء بنى مرين وسلاطينهم . وشهد حصن تازوطا بعضا من أحداث هذه العلاقات المتوترة بين الطرفين . ففى المراحل الأولى لتأسيس دولة بنى مرين حاول بنو وطاس الفتك بالأمير أبى يحيى ابن عبد الحق الذى لجأ إلى حصن تازوطا مستجيراً ببنى عمومته الوطاسيين حين تحرك السعيد الموحدى للقضاء على بنى مرين . ولكن الوطاسيين أرادوا قتله غيرة ومنافسة . وما أنقذ الرجل من براثنهم إلا نصيحة شيخ مهيب من شيوخ بنى وطاس .

ومن حصن تازوطا اندلعت أولى الثورات التى قام بها الوطاسيون ضد بنى مرين ، حيث انتهز الوطاسيون وفاة السلطان أبى يوسف يعقوب المرينى ، وظنوا أن سلطان بنى مرين الجديد لن يقدر على مقاومتهم . كانت هذه الثورة فى شعبان سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م) ، وقام بها عمر وأخوه عامر بن يحيى بن الوزير الوطاسى ، وكانا رئيسين على بنى وطاس فى ذلك الوقت . ولكن هذه الثورة منيت بالفشل بعد ان حاصر السلطان يوسف بن يعقوب القلعة الثائرة ، وأحكم عليها الحصار بقوات ضخمة . ولم يجد الثائر إلا أن يهرب ليلاً إلى تلمسان . وأعدم السلطان يوسف بن يعقوب القلعة الثائرة ، وأحكم عليها الحصار بقوات على الحصن إمعاناً فى إخضاعهم وإذلالهم .

ومضى الوطاسيون على هذا النحو فى علاقاتهم المتوترة مع سلاطين بنى مرين ، وانتهاز كل فرصة لتأليب الأوضاع عليهم. فشارك زيان بن عمر الوطاسى – الذى كان وزيراً للأمير عبد الرحمن بن أبى الحسن – فى تدبير انقلاب للاستيلاء على الحكم فى أثناء مرض السلطان أبى الحسن المرينى .

كما يبدو أن الوطاسيين عاونوا الأمير أبا عنان المرينى معاونة كبيرة فى أثناء ثورته على والده السلطان أبى الحسن المرينى ، تلك الثورة التى انتهت بإعلان أبى عنان ولياً للعهد فى دولة بنى مرين . بدليل أن أبا عنان المرينى أسند إلى بعض شيوخ بنى وطاس إدارة بعض أقاليم الدولة المرينية . فولى عمر بن على الوطاسى على بجاية بعد أن تنازل عنها أبو عبد الله محمود الحفصى سنة (٧٥٣هـ/١٣٥٢م) .

ولم يستطع الوطاسيون أن يحققوا لأنفسهم أية مكاسب سياسية طيلة عصر سلاطين بنى مرين الأقوياء الذى يمتد

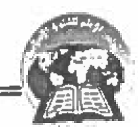
تقريباً منذ سنة (٦٦٨هـ / ١٢٦٩م) وحتى سنة (٧٥٩هـ/١٣٥٨م) . ولكنهم ما لبثوا أن استفادوا كثيراً من الأوضاع السياسية المتردية التى صاحبت سقوط الدولة المرينية ، فعملوا على مضاعفة نفوذهم فى الفترة الأخيرة من حكم المرينيين حتى أصبح وجودهم فى هذا البلاط أحد الأسباب الهامة التى أودت بالمرينيين ، وغيبتهم من أفق الحياة السياسية فى بلاد المغرب .

وأهم الشخصيات التى علا نجمها – فى أواخر العصر المرينى – شخصية الوزير أبى زكرياء يحيى بن زيان الوطاسى ، الذى كان واليا على مدينة سلا فى عهد السلطان عبدالله المرينى، ووزيراً من أكفأ وزراء الدولة المرينية فى عهد السلطان عبد الحق بن عثمان المرينى آخر سلاطين بنى مرين . ونجح هذا الوزير بعد مقتل السلطان عبد الله المرينى فى تولية السلطان عبد الحق المرينى ، الذى كان لا يزال طفلاً صغيراً ، وقام هو بمهام الوصاية عليه . ومن خلال هذا المنصب مارس السلطة الفعلية فى الدولة .

استفاد الوطاسيون كثيراً من الجهود التى قام بها زعماؤهم فى أثناء توليهم منصب الوزارة ، واستحواذهم على السلطة فى أواخر العصر المرينى ، فعاشت صورة هؤلاء الوزراء فى أذهان العامة والخاصة من أهل فاس ، حيث أثبتوا كفاءة عالية فى إدارة الدولة ومواجهة المحن والخطوب التى تعرضت لها، وبخاصة الغزو الخارجى الذى تعرضت له سواحل المغرب الأقصى ، بعد استفحال قوى الاسترداد النصرانية فى أسبانيا .

ولم يتمكن الشريف أبو عبد الله الحفيد – فيما يبدو – من تدبير شئون الدولة الجديدة ، التى خلع عليها لقب الخلافة، وخلع على نفسه لقب خليفة بها. والمصادر التى بين أيدينا لا تحوى معلومات كثيرة عن هذه الفترة فيما بين توليه سنة (٨٦٩هـ/١٤٦٥م) ، وخلعه سنة (٨٧٥هـ/١٤٧٠م) ، فهى لا تذكر سوى أن الثوار أقاموا الحفيد إماماً على أهل فاس " وبقى بها ، وولده وزيراً ، إلى سنة خمس وأربعين وثمانمائة ، فعزل عنها وخلع " .

وكان محمد الشيخ الوطاسى قد ساعده الحظ ونجا من المذبحة التى تعرض لها الوطاسيون فى أواخر عهد السلطان عبد الحق المرينى – آخر سلاطين بنى مرين – إذ خرج فى يوم



المذبحة للصيد ، فلما ترامت إليه أنباؤها ، بادر إلى الفرار هو ومحمد الحلو الوطاسى الذى كان قد اختفى هو الآخر فى ذلك اليوم .

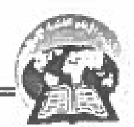
اتجه محمد الشيخ بعد فراره إلى الصحراء القريبة من البلاد الهبطية ، التى كانت قاعدتها إذ ذاك مدينة قصر كتامة . وأخذ يتردد بين الصحراء وهذه البلاد حتى تمكن من الاستيلاء على أصيلا ، وتثبيت أقدامه بها . واتخذها بعد ذلك مركزاً للانطلاق نحو فاس مطمع آبائه وأجداده من بنى وطاس . وعول محمد الشيخ كثيراً على موقف أبى عبد الله الحفيد المتردى فى فاس حيث كان الناس يعانون من افتراق الكلمة وتذبذب الأمور . ويبدو أن اتصالات كثيرة تمت بين محمد الشيخ ، وبين شيوخ فاس ورؤسائها ، فيروى السلاوى ، أن محمد الشيخ عندما ملك " أصيلا واستفحل أمره بها تشوف إليه الأعيان من أهل فاس ، والرؤساء من أهل دولة السلطان عبد الحق وصاروا يكاتبونه ويقدمون إليه الرسائل سراً وربما دعوه إلى القدوم على أن يبذلوا له من الطاعة والنصرة ما شاء " . وبدأ محمد الشيخ الزحف بقواته للاستيلاء على فاس. وإذا كان محمد الشيخ الوطاسى قد نجح فى تحقيق حلم آبائه وأجداده فى تأسيس دولة وطاسية ، يكون الحكم فيها لهذه الأسرة ، فإنه أعطى البرتغاليين فرصة عظيمة للاستقرار على ساحل المغرب الأقصى فى أصيلا التى هاجموها معززين بـ ٤٧٧ سفينة حربية وثلاثين ألف جندى ، واستقروا فيها بناء على هدنة بين محمد الشيخ وبينهم مدتها عشرون سنة ، واستغل البرتغاليون موقف محمد الشيخ الهزيل فى ذلك الوقت فاحتلوا طنجة ، التى سقطت هى الأخرى دون مقاومة كبيرة . وكان ذلك فى ربيع الأول ٨٧٦هـ/ أغسطس سنة ١٤٧١م بعد خمسة أيام من احتلال أصيلا .

ورغم أن السلطان محمد الشيخ الوطاسى مؤسس دولة بنى وطاس حكم هذه الدولة منذ سنة (٨٧٥هـ - ١٤٧٠م) إلى سنة (٩١٠هـ - ١٥٠٤م) . فإن المعلومات عن هذه الفترة قليلة جداً فهى لا تتعدى قِطَعاً هنا وهناك فى مؤلفات المؤرخين المغاربة وغيرهم . وبصفة عامة فإن الوطاسيين لم ينجحوا فى بسط نفوذهم على المغرب الأقصى على النحو الذى كان للمرينيين فى العصر المرينى . فنفوذ السلطان محمد الشيخ الفعلى لم

يتعد القبائل المنتشرة حول فاس، وبعض حواضر المغرب الأقصى. ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى وضع الوطاسيين القبلى فى المغرب الأقصى، فالوطاسيون فَخِذُ قوى من قبيلة بنى مرين ، ومن ثم لم تكن لهم تلك الكثرة العددية التى كانت للمرينيين أو الموحدين ، لذا فقد كانت قوتهم محدودة للغاية . هذا إلى أن دعم القبائل لموقف الوطاسيين السياسى فى بلاد المغرب الأقصى لم يكن دعماً كاملاً، حيث كانت تشوبه فى كثير من الأحيان بعض الشكوك لنفس السبب السابق وهو أن قوتهم كانت محدودة وأنهم فى بعض الأحيان كانوا يهادنون قوى النصرانية لتحقيق مصالحهم الذاتية.

كما شهد مطلع دولة بنى وطاس عنف وضراوة حركة الاسترداد المسيحى لبلاد الأندلس ، ولم يملك الوطاسيون أن يفعلوا شيئاً فى ذلك الوقت إلا أن يفتحوا المغرب الأقصى على مصراعيه لاستقبال المسلمين الفارين بدينهم من بلادهم وأرضهم بعد أن فقدوا آخر أمل لهم فى البقاء والمقاومة دفاعاً عن الوطن المغلوب. والحقيقة أن سقوط غرناطة فى سنة (٨٩٧هـ - ١٤٩٢م) ، بعد قيام دولة بنى وطاس بقليل أحدث آثاراً ضخمة ، وردود فعل عنيفة ، فى بلاد المغرب التى كانت ترتبط بالأندلس بأوثق الروابط والعلاقات، وتدخلت هذه المأساة المروعة تدخلاً مباشراً فى رسم صورة الحياة السياسية طيلة عهد الوطاسيين الذين حرصوا أشد الحرص على تهيئة المغرب الأقصى ليكون وطناً جديداً لمسلمى الأندلس وعلى رأسهم سلطان غرناطة أبو عبد الله محمد بن على بن الأحمر الذى عبر إلى المغرب الأقصى بأسرته وأمواله وحشمه ، مع عدد كبير من الوزراء والقادة بلغ عددهم ألفاً وثلاثين شخصاً . كما جاز إلى المغرب جمهرة كبيرة من أقطاب العلم والأدب هم البقية الباقية من مجتمع الأندلس الثقافى والفكرى ، وهؤلاء أصبحوا بعد ذلك علامة بارزة من علامات الثقافة والفكر المغربى لأمد بعيد .

وفى غمرة هذه الأحداث المؤلمة التى حاقت بالمسلمين فى الأندلس لم يَتَبَنَّ السلطان محمد الشيخ الوطاسى – الذى توفى سنة (٩١٠هـ - ١٥٠٤م) – سياسة حازمة تجاه أهداف البرتغاليين وأطماعهم حيث ركزوا جهودهم للاستيلاء على المزيد من هذه السواحل ، فاحتلوا فى سنة (٨٧٥ هـ - ١٤٧٠م) سواحل السوس



وقاموا ببناء حصن فونتى . وفى سنة (٩٠٧هـ - ١٥٠١م) ، احتلوا ساحل البريجة ، وبنوا فيه مدينة الجديدة . وكان ذلك لدعم مركزهم الاقتصادى على الشواطئ الغربية لإفريقيا، لأن لهذا الساحل أهمية اقتصادية كبيرة لهم؛ فمنه يشترون القمح اللازم لوطنهم الأم، ويبتاعون الجياد وملاحف الصوف التى يبادلونها فى أفريقيا السوداء بالذهب والعبيد .

ولم يسفر النضال العنيف الذى قام به الوطاسيون ضد البرتغاليين على سواحل المغرب الأقصى عن نتائج حاسمة . فلم تسفر حملاتهم التى وجهوها إلى القواعد الهامة التى استولى عليها البرتغاليون عن طردهم أو حتى وقف أطماعهم، الأمر الذى دعا أهالى المغرب الأقصى إلى الالتفاف حول بعض الزعامات المغربية، وحول رجال الدين وشيوخ التصوف الذين منحوهم دفعة قوية لمقاومة الغزاة والمحتلين.

واندفعت هذه الحركة الشعبية التى قادها الزعماء ورجال الدين والتصوف تطرق كل باب للمقاومة. حتى لقد " ألَّفَ الناس فى ذلك العصر التآليف فأكثروا، ونظم الشعراء والأدباء فيه ونثروا " . وهذه الظاهرة تعد حدثاً بارزاً فى عصر بنى وطاس؛ إذ هى تعبر عن يقظة الإسلام وقدرة أبنائه على مواجهة المخاطر التى أرادت النيل منه، والقضاء عليه . وكانت سياسة الوطاسيين فى ذلك الوقت تقوم على تدعيم ومساعدة هذه الحركة الشعبية ، وتقديم كافة المساعدات اللازمة لها . فأحد هؤلاء المجاهدين المتصوفة هو الشيخ أبو عبد الله محمد بن يحيى البهلولى ، الذى كان معاصراً للسلطان محمد بن محمد الشيخ البرتغالى، وكان هذا الشيخ إذا جاء إلى السلطان الوطاسى زائراً " حضَّه على الغزو فيساعده على ما أراد من ذلك" . إلا أن هذه الحركة الشعبية كانت تغير موقفها من الوطاسيين عندما يهادن الوطاسيون البرتغاليين، فترفض هذه الحركة الشعبية التعاون مع الوطاسيين . فنفس الشيخ محمد البهلولى يغير موقفه من الوطاسيين عندما يعقد السلطان أبو العباس أحمد الوطاسى صلحاً مع البرتغاليين ، ويرفض الشيخ كل المساعدات التى كانت تقدم إليه .

وإذا كان تركيز مقاومة الوطاسيين للبرتغاليين فى إقليم الهبط قد أتاح الفرصة لظهور الأشراف السعديين فى جنوب المغرب الأقصى ، فإن أهل السوس

الأقصى كانوا أكثر شعوراً بضعف بنى وطاس ، وعدم قدرتهم على حمايتهم من الخطر البرتغالى . يقول الوفرانى فى نزهة الحادى : إن الملك فى حواضر المغرب ، ولم يكن لهم من السلطنة بسوس إلا الاسم مع ما كان فيه بنو وطاس أيضا من معاناة قتال الكفار بثغر أصيلا والعرايش وطنجة وبادس وغيرها من الثغور والمراسى " .

ونتيجة لهذا اتجه أعيان البلاد وشيوخها إلى عبد الله بن المبارك كبير صوفيه السوس واعلنوا استعدادهم لمبايعته باسم القبائل ، ولكنه رفض هذا العرض وأشار عليهم بأحد الشرفاء السعديين الذين استقروا فى وادى درعة ، وهو أبو عبد الله السعدى. ولقى هذا الاقتراح ارتياحاً عاماً لدى الجميع ، وأرسلوا فى طلب هذا الشريف ، وبايعوه فى سنة (٩١٦هـ – ١٥١٠م) ، عند قرية يقال لها " تدسى " بالقرب من تارودانت ، وتلقب بالقائم بأمر الله .

وحرص الوطاسيون على توجيه سياستهم إلى الاستفادة من هذا الوضع الجديد سعياً إلى استرداد بعض البلاد فى جنوب المغرب الأقصى ، معتمدين على الصوفية والأشراف السعديين ، فزود الوطاسيون الصوفية والأشراف السعديين بالمال والسلاح لمقاومة البرتغاليين .

وتمكن أبوالعباس أحمد الأعرج السعدى ، الذى خلف والده القائم بأمر الله سنة (٩٢٣ هت – ١٥١٧م) . من تحقيق انتصارات كبيرة على البرتغاليين فى بلاد السوس . وأثارت هذه الانتصارات إعجاب أمراء هنتاته – أصحاب مراكش – فأعلنوا دخولهم فى طاعة احمد الأعرج السعدى ، الذى أسرع بالانتقال إلى مراكش سنة (٩٣٠ هـ - ١٥٢٣م) ، واتخذها عاصمة للسعديين .

أفزعت هذه المتغيرات الجديدة السلطان محمد بن محمد الشيخ الوطّاسى ، فجهز جيشاً بادر به إلى محاصرة مراكش تمهيداً لاقتحامها على السعديين، ولكنه اضطر لفك الحصار، والعودة إلى فاس بعد أن ترامت إليه الأنباء بقيام بنى عمه بثورة عليه فى فاس.

ودارت بعد ذلك عدة معارك بين الوطاسيين والسعديين فى سنة (٩٣٥هـ – ١٥٢٨م) ، عند تادلا ، وأنماى، أسفرت عن صلح لم يعمر بينهما طويلاً . ففى سنة (٩٤٢هـ – ١٥٣٥م) . دارت بينهما رحى معركة طاحنة عند أبى عقبة بوادى العبيد من تادلا أسفرت عن هزيمة

الوطاسيين ، وانسحاب سلطانهم أبى العباس أحمد الوطاسى إلى فاس ، بعد أن أجبر على توقيع معاهدة صلح يعترف فيها بامتداد نفوذ السعديين من تادلا إلى السوس ، أما الوطاسيون فلهم من تادلا حتى المغرب الأوسط .

والحقيقة أن الوطاسيين لم تقم لهم قائمة أمام السعديين بعد هذه المعركة ، فما أن خلع السلطان محمد الشيخ السعدى أخاه احمد الأعرج ، وتولى هو أمر الأشراف السعديين سنة (٩٤٦هـ - ١٥٣٩م) . حتى أخذ فى الاستيلاء على ممتلكات الوطاسيين شيئاً فشيئاً حتى انتهى الأمر بمحاصرته للعاصمة فاس ، واقتحامها فى أوائل سنة (٩٥٦هـ - ١٥٤٩م) . وترى بعض الروايات أن السلطان محمد الشيخ السعدى أطلق سراح السلطان أبى العباس أحمد الوطاسى؛ بينما ترى بعض الروايات أن أبا العباس نقل إلى مراكش حيث توفى هناك سنة (٩٦٠هـ / ١٥٥٢م)، وبعضها يرى أنه نقل إلى درعة بعد فتح فاس حيث ذبح هناك .

أ.د/محمد عيسى الحريرى

مصادر ومراجع للاستزادة :

- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، الجزء السابع ، ط بولاق ١٢٨٤هـ .
- الزركشى : أبوعبدالله محمد بن إبراهيم : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، ط٢ ، ١٩٦٦م .
- السخاوى : شمس الدين محمد بن عبدالرحيم : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، المطبعة الأميرية ، ١٨٩٦م .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، ط ١٣٥٤هـ ، الجزء السادس ، والعاشر .
- الفاسى : أبوالمحاسن يوسف : مرآة المحاسن فى أخبار الشيخ أبى المحاسن ، طبع حجر ١٢٠٦هـ .
- الكتانى : محمد بن جعفر بن إدريس الحسنى الإدريسى : سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس ، طبع حجر بفاس ، ١٣١٦هـ ، الجزء الثالث .
- محمد الفاسى : التعريف بالمغرب ، معهد الدراسات العربية العالية ، ط ١٩٦١م .
- الوفرانى : محمد الصغير بن الحاج بن عبدالله الوفرانى النجار المراكشى الوجاد : نزهة الحادى ، ط ١٨٨٨م



ولايـــة العـــهد

يُقْصد بمصطلح «ولاية العهد» فى التاريخ الإسلامى أن يعهد الخليفة القائم بالحكم فعلا إلى غيره بتولى مسئولية الحكم من بعده، وهو ما عُرف أيضًا بـ «الاستخلاف».

وقد حدث هذا أول ما حدث فى عهد الخلافة الراشدة عندما استخلف أبو بكر الصديق ﷺ عمر بن الخطاب، أى ولاه العهد من بعده. كما عهد عمر بن الخطاب إلى ستة من بعده، هم عثمان وعلىّ وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف، ليختاروا واحدًا منهم ليكون خليفة المسلمين؛ وقد وقع اختيارهم على عثمان بن عفان ﷺ.

وقد أثار علماء السياسة الشرعية (أو الفكر السياسى الإسلامى) بهذا الصدد سؤالا مهما يدور حول مدى إلزام هذا العهد للأمة، وقد برز اتجاهان فى الإجابة عن هذا السؤال:

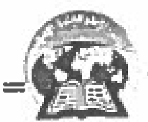
الاتجاه الأول: يرى أن هذا العهد (أى الاستخلاف) ملزم للأمة، أى ليس من حق الأمة أن تعترض عليه؛ وذلك فى ضوء التفويض الذى منحته للخليفة أو الحاكم حين اختارته لتولى أعباء الحكم. فهذا التفويض يعطيه الحق فى اختيار من يراه أَهْلا لتولى مسئولية الحكم من بعده. فلم يكن من حق الأمة - بناءً على ذلك - أن تعترض على اختيار أبى بكر لعمر أو اختيار عمر للستة ليختاروا واحدًا منهم للخلافة. ويذكر الإمام أبو الحسن الماوَرْدى فى دفاعه عن هذا الاتجاه أن رضا الأمة غير معتبر فى مسألة العهد بالإمامة «لأن بيعة عمر ﷺ لم تتوقف على رضا الصحابة، ولأن الإمام أحقُّ بها، فكان اختياره فيها أمضى، وقوله فيها أنفذ"[1]. ويتبنى ابن خلدون نفس الاتجاه، بل إنه يرى أن من حق الخليفة - فى ضوء التفويض الذى ذكرناه - أن يستخلف من يريد حتى لو كان ابنه أو أباه. ومن هنا يبرِّر استخلاف معاوية بن أبى سفيان لابنه يزيد ويرى أن الذى دعاه إلى ذلك «إنما هو مراعاة المصلحة فى اجتماع الناس واتفاق أهوائهم... إذ بنو أمية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابة قريش وأهل الملة أجمع، وأهل الغلب منهم، فآثره بذلك دون غيره ممن يُظَنُّ أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصًا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذى شأنه

أهم عند الشارع"[٢]. والواضح أن ابن خلدون ينطلق فى رأيه هذا من نظريته المشهورة فى العصبية، ويعنى بها القوة والشوكة؛ فطبيعة الملك التى نشأت بعد انتهاء الخلافة الراشدة كانت تحتاج إلى عصبية وقوة تسندها وتدافع عنها.

أما الاتجاه الثانى: فيرى أن عهد الخليفة أو الحاكم إلى غيره بالخلافة أو الحكم جائز ولكنه غير ملزم للأمة إلا بشرط أساسى وهو أن يحوز المعهود له رضا الأمة أو ممثليها من أهل الحل والعقد وهم أعيان الأمة وأولو الرأى والخبرة والمكانة فيها. ويعرض الإمام الماوردى هذا الاتجاه من غير أن يوافق عليه فيقول: «ذهب بعض علماء أهل البصرة إلى أن رضا أهل الاختيار (وهم أهل الحل والعقد) لبيعته شرط فى لزومها للأمة؛ لأنها حق متعلق بهم فلم تلزمهم إلا برضا أهل الاختيار منهم»[٣].

وهذا يعنى أن عهد الخليفة القائم بالحكم فعلاً إلى غيره بالخلافة أو الحكم ترشيح لا تعيين وهو لا يُصبح تعيينا إلا بعد موافقة الأمة أو ممثليها من أهل الحل والعقد على ما رآه الخليفة. ويفسِّر أصحاب هذا الاتجاه تصرُّف كلٍّ من أبى بكر وعمر فى ضوء ذلك. فهم يذكرون أن أبا بكر لم ينفرد بقراره حين اختار عمر ليكون خليفته من بعده، بل إنه استشار كبار أهل الحل والعقد من المهاجرين والأنصار فوافقوا على هذا الاختيار. وفى المصادر الموثقة ما يؤكد ذلك؛ فقد روى محمد بن جرير الطبرى أن أبا بكر قبل أن يعهد إلى عمر شاور فى هذا الأمر كبار الصحابة، ومنهم عبد الرحمن بن عوف الذى قال له أبو بكر: «أخبرنى عن عمر»، فقال: «هو والله أفضل من رأيت، لكن فيه غلظة»، فقال أبو بكر: «ذلك لأنه يرانى رقيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه». كما استشار عثمان فأجابه: «علمى به أن سريرته خير من علانيته وأن ليس فينا مثله»[٤]. وتروى المصادر أيضًا أن أبا بكر شاور سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأُسيد بن حُضَير ورجالا من الأنصار فظهر منهم الرضا[٥].

أما فيما يتعلق بعمر فإن الستة الذين عهد إليهم ليختاروا واحدًا منهم كانوا هم كبار أهل الحل والعقد فى الصدر الأول وبقية العشرة المبشرين بالجنة، ولم يكن فيهم أحد من أولاده؛ فلم يخرج تصرفه عن الإطار العريض لمبدأ الشورى فى الإسلام.



والملاحظ أن ولاية العهد (أى عهد الخليفة لمن يخلفه) تجاوزت نطاق الترشيح- بعد عصر الخلافة الراشدة- لتصبح تعيينا، فقد أخذت الخلافة تفقد بعض خصائصها الأساسية لتتحول تدريجيًا إلى مُلْك.

عهد الوالد لولده: أول من فعل ذلك فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان مؤسس الخلافة الأموية حين استخلف ابنه يزيد، أى عهد إليه بالخلافة من بعده.

وقد رأينا أن ابن خلدون يُدافِع عن ذلك فى ضوء نظريته فى العصبية التى أشرنا إليها منذ قليل.

ولكننا نجد بين علمائنا القدامى من يُبْدون تَحَفُّظًا واضحًا على مثل هذا الاستخلاف. فالإمام أبو بكر بن العربى، صاحب كتاب «العواصم من القواصم»- رغم أنه يجيز ذلك- يرى أنه يترتب عليه أمران غير مرغوب فيهما: الأمر الأول أنه يؤدى إلى ترك الأفضل، وهو جعل الخلافة شورى؛ والأمر الثانى: أنه يؤدى فى الغالب إلى عدول عن الفاضل إلى المفضول، كما كان الحال مع يزيد؛ حيث كان مفضولا بالحسين ابن على وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير وغيرهم(٦).

ويمضى إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى خطوة أبعد من ذلك حين يضع شرطًا أساسيًا لجواز هذا الاستخلاف وهو أن تتحقق فى المعهود له شرائط الإمامة كاملة، وهو يقول فى ذلك: «الظاهر عندى تصحيح تولية العهد من الوالد لولده إذا ثبت بقول غير المُولِّى (بكسر اللام المشددة) استجماع المُولَّى (بفتح اللام المشددة) للشرائط المرعية فيه»(٧). فهو يرى إذن ضرورة التحقق من استيفاء الابن المعهود له لكل الشروط المطلوبة فى الحاكم ولا يتم ذلك عن طريق الوالد الذى عهد لابنه بل عن طريق مصدر آخر محايد موثوق فيه، ويتمثل ذلك فى العادة فى أهل الحل والعقد. ثم يضيف الإمام الجوينى قائلا: «ولم أر التمسك بما جرى من العهود من الخلفاء إلى بنيهم، لأن الخلافة بعد مُنْقَرض الأربعة الراشدين شابتها شوائب الاستيلاء والاستعلاء... وصارت الإمامة ملكًا عضوضا»(٨).

وبناء على كلام الجوينى فإن ما حدث بعد عصر الخلافة الراشدة فى هذا الصدد- وهو العصر المثالى- لا ينبغى أن يكون نموذجًا يحتذى به.

أ.د / عبد الرحمن سالم

الهوامش:

(١) أبو الحسن الماوردى: الأحكام السلطانية، مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٧٣م، صـ١٠.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة (د.ت)، صـ٢١٠.

(٣) الماوردى، مصدر سابق، صـ١٠.

(٤) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٧٩م، جـ٣، صـ٤٢٨

(٥) القاضى عبد الجبار بن أحمد: المغنى فى أبواب التوحيد والعدل، الجزء العشرون، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور سليمان دنيا، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة (د.ت)، جـ٢٠، القسم الثانى، صـ٥- ٦. وانظر أيضًا: ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت ١٩٥٨م، جـ٣، صـ١٩٩.

(٦) أبو بكر بن العربى: العواصم من القواصم، تحقيق محب الدين الخطيب، دار الكتب السلفية، القاهرة ١٤٠٥هـ، صـ٢٢٨، ٢٢٩.

(٧) أبو المعالى الجوينى: غياث الأمم فى التياث الظُّلَم، تحقيق الدكتور عبد العظيم الديب، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ١٤٠١هـ، صـ١٣٨.

(٨) نفس المصدر، صـ١٣٩.

مصادر ومراجع للاستزادة:

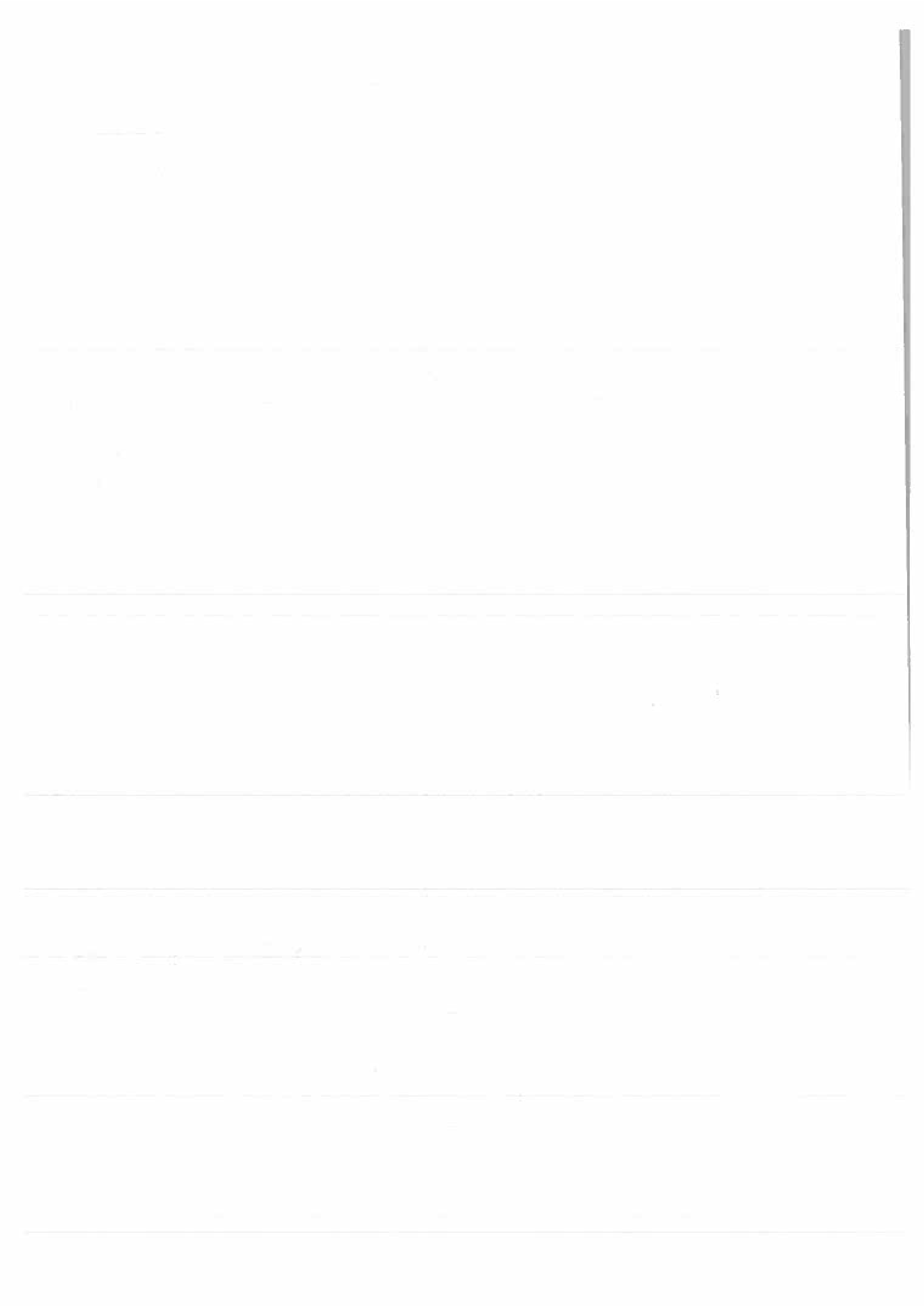
١. د. توفيق الشاوى: فقه الشورى والاستشارة. دار الوفاء، المنصورة ١٩٩٠م.

٢. د. عبد الرحمن سالم: الفكر السياسى الإسلامى- قراءة عصرية. دار الفكر العربى القاهرة ٢٠٠٩م.

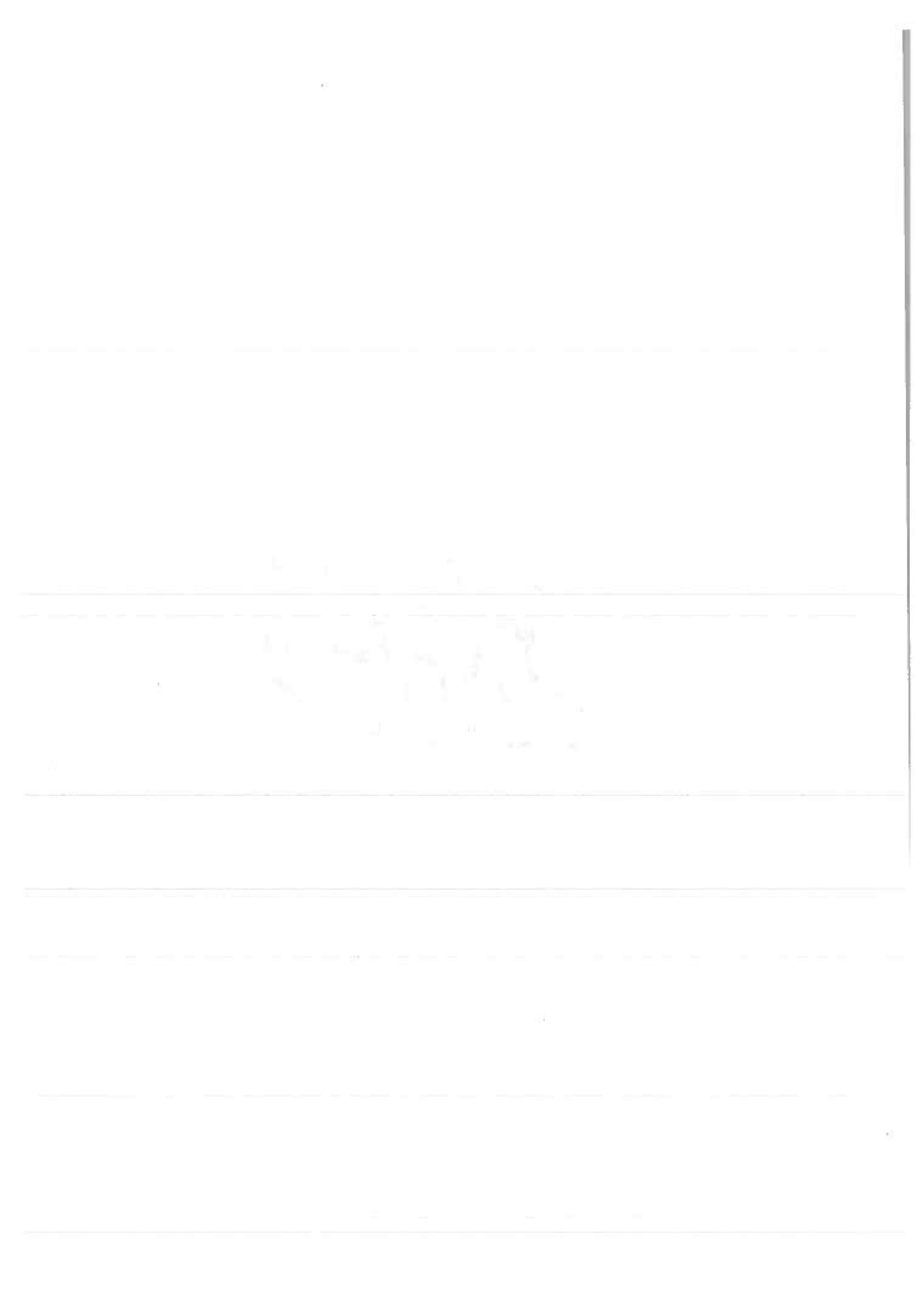
٣. الشيخ عبد الوهاب خلاف: السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية. دار الأنصار، القاهرة ١٩٧٧م.

٤. أبو الحسن الماوردى: الأحكام السلطانية. مكتبة مصطفى البابى الحلبى، القاهرة ١٩٧٣م

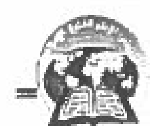
٥. د. محمد يوسف موسى: نظام الحكم فى الإسلام. دار الفكر العربى، القاهرة (د.ت).




الفهارس



المحتويات



رقم الإيداع
٢٢٤٥٠ / ٢٠١٤

مطابع الاهرام التجارية-قليوب-مصر